

التفسير الموضوعي

لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

تأليف

عبد الحميد محمود طه

المجلد السابع

وتميز على تفسير هذه السور

سبأ - قاطر - يس - الصافات - ص - الزمر - غافر
فصلت - الشورى - الزخرف - الدخان - الجاثية
الاحقاف - محمد - القشع - المجرات - ق



دار القلم

دمشق

التفسير الموضوعي

لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

تأليف

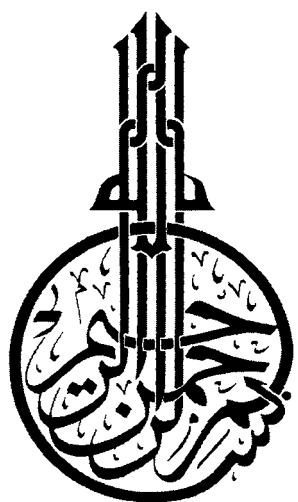
عبد الحميد محمود طه

المجلد الأول :

ويحتوي على تفسير هذه السور

الفاتحة - البقرة - آل عمران

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ



أسَّسَهَا:
مُحَمَّدٌ عِيسَى وَوَلَدُهُ
سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم بقلم الناسر



الحمد لله مُنْزِلُ القرآن الكريم، والصلاة والسلام على من أرسله الله مُبِيناً لهذا الذكر الحكيم، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد: فإن علم التفسير من العلوم الإسلامية الأساسية الرائدة، أقبل عليه العلماء منذ العهد الأول لهذا الدين الحنيف، فقد كانوا يرجعون من أجل فَهْم أحكام دينهم ومعرفة حلاله وحرامه أول ما يرجعون إلى كتاب الله ﷻ، ومن هنا نشأ علم التفسير، وعُرف بين علماء المسلمين جَمَاعَةٌ يُقال لهم: المفسرون.

وقد انصرف اهتمام المفسرين منذ البداية إلى فَهْم معاني آيات الكتاب الكريم، وتفننوا في ذلك، بل أبدعوا فيما كتبوه في هذا الأمر، وقَدَّموا لأمتهم وما يزالون كتباً قيَّمة في هذا المجال، أطلق عليها اسم «التفاسير».

وكان من هذه الكتب التي أفاد منها أهل العلم إفادة كبيرة التفاسيرُ الاثنا عشر الآتية أسماؤها، والتي كانت طيلة قرون المرجع الأول للمسلمين في تفسير آيات القرآن الكريم. وهذا تعداد لأسمائها، وذكرُ لسني وفاة مؤلفيها، عليهم رحمة الله جميعاً:

١ - تفسير الطبري: الذي سَمَّاه مؤلفه «جامع البيان في تفسير آي القرآن»، وكانت وفاة الطبري في بغداد سنة (٣١٠هـ).

٢ - تفسير البغوي: وقد سَمَّاه مؤلفه «معالم التنزيل»، وقد توفي هذا المفسّر سنة (٥١٠هـ).

- ٣ - تفسير ابن عطية: الذي سَمَّاه مؤلفه «المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، وكانت وفاة مؤلفه سنة (٥٤٦هـ).
- ٤ - تفسير الفخر الرازي: «مفاتيح الغيب»، توفي مؤلفه فخر الدين الرازي سنة (٦٠٦هـ).
- ٥ - تفسير القرطبي: «الجامع لأحكام القرآن»، توفي مؤلفه سنة (٦٧١هـ).
- ٦ - تفسير ابن كثير: وقد سَمَّاه مؤلفه «تفسير القرآن العظيم»، وتوفي مؤلفه سنة (٧٤٠هـ).
- ٧ - تفسير الخازن: «لُبَّاب التَّأْوِيل في معاني التفسير»، توفي مؤلفه سنة (٧٤١هـ).
- ٨ - تفسير «الدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور»، مؤلفه جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة (٩١٠هـ).
- ٩ - تفسير الخطيب الشربيني: واسمه «السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربِّنا الحكيم الخبير»، وقد توفي الخطيب الشربيني سنة (٩٧٧هـ).
- ١٠ - تفسير روح المعاني: واسمه الكامل كما سماه مؤلفه: «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» للآلوسي، توفي مؤلفه سنة (١٢٧٠هـ).
- ١١ - تفسير المَراغي: واسم مؤلفه أحمد مصطفى المَراغي، وقد توفي في سنة (١٣٧١هـ).
- ١٢ - في ظلال القرآن: وقد كتبه الداعية الكبير «سيد قطب»، الذي قَضَى شهيداً - إن شاء الله - في سنة (١٩٦٦م).

* * *

تأصَّل علم التفسير على مدى قرون عديدة، وألَّف العلماء فيه عشرات من كتب التفسير زيادة على الاثني عشر تفسيراً، التي أتيتُ على ذكر أسمائها. وكان دأب المفسرين طيلة هذه القرون الاشتغال في التعمق في فهم آيات الكتاب المبين، واصطياد معانٍ جديدة لهذه الآيات، لم يسبق للمفسرين السابقين أن أتوا عليها.

يَبْدُ أنه ظهر في العصر الحديث اتجاه جديد في التفسير أُطلق عليه اسم «التفسير الموضوعي»، حيث لم ينصرف المفسرون فيه إلى ذكر معاني جديدة للآيات لم يُسبقوا إليها، بل كان اهتمامهم منصرفاً إلى تفسير الآيات التي تتمحور حول بعض الموضوعات الاجتماعية التي تُعاني منها المجتمعات الإسلامية.

وأسوق الآن أمثلة لذلك: فماذا جاء في الآيات القرآنية عن (المرأة)؟ وماذا جاء أيضاً في تلك الآيات عن (اليتامى)، وعن (الزواج)، وعن الاشتغال بـ (التجارة) وبـ (الصناعة)؟.

إذن فقد كانت عناية التفسير الموضوعي بالقضايا الاجتماعية... إنه لم يُعَنَّ باستنباط المزيد من المعاني في الآيات التي سبق إلى تفسيرها.

وهذه جملة من الموضوعات والقضايا الإسلامية التي هي بحاجة ماسة لدراستها دراسة قرآنية، ولتناول أبعاد تلك الآيات القرآنية التي عالجتها:

١ - القرآن والمرأة.

٢ - القرآن والغنى والفقر.

٣ - القرآن والزراعة والصناعة.

٤ - القرآن والجرائم التي تفتك بالمجتمع.

٥ - القرآن والاختلاط بين الرجال والنساء.

٦ - القرآن ومكافحة الأمراض الجسدية.

٧ - القرآن وترغيبه بالزواج.

٨ - القرآن والعقوبات.

٩ - القرآن والأيتام.

١٠ - القرآن والمال.

* * *

هذا وقد كانت لفضيلة شيخ الأزهر الأسبق: محمود شلتوت رحمته الله - الذي

شغلَ مشيخة الأزهر من سنة (١٩٥٨م) إلى سنة (١٩٦٣م)، حيث استقال من منصبه، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى عن سبعين عاماً - كانت له مشاركة رائدة وقيمة في قضية التفسير الموضوعي.

وقد تحدّث عن هذا اللون من التفسير فقال: «هو أن يعمد المفسّر إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد، ثم يضعها أمامه كمواضيع يحلّلها، ويفقه معانيها، فيتجلّى له الحكم، ويتبين له المرمى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع».

وقد بيّن ﷺ أهمية هذا النوع من التفسير، وأنه الطريقة المثلى للتفسير، خاصة للدعاة إلى الله تعالى، إذ به تبرز هداية القرآن في مختلف مناحي الحياة. هذا وقد كتب الشيخ شلتوت في التفسير الموضوعي كتابين؛ هما: «القرآن والمرأة» و«القرآن والقتال»، وشجّع أهل العلم بتأليف هذين الكتابين على معالجة كثير من الموضوعات وإدراجها في منهج التفسير الموضوعي.

* * *

وبعد الشيخ شلتوت لفت العالم الجليل والشيخ الفاضل: عبد الحميد محمود طهماز^(١) نظر أهل التفسير إلى جانب آخر من جوانب التفسير الموضوعي، فقام بدراسة تفسيرية للقرآن الكريم، أثبت فيها أن كل سورة من سوره تعالج فكرة محدّدة، ترتبط فيها جميع آيات هذه السورة.

وقد أخرجت له دار القلم بدمشق منذ حوالي ربع قرن الطبعة الأولى من تفسيره هذا، وكان تحت عنوان: «من موضوعات سور القرآن».

(١) الشيخ عبد الحميد طهماز: عالم من بلاد الشام، ومن أهل حماة، ألف كثيراً من الكتب، ويأتي في مقدمتها: تفسيره الجليل المفيد لكتاب الله ﷻ، الذي أطلقنا عليه اسم «التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم»، توفي ﷺ في سنة (١٤٣١هـ) الموافقة لسنة (٢٠١٠م)، ودُفن في مدينة الرياض، ولسوف نُورد له ترجمة موجزة في نهاية هذا التفسير إن شاء الله تعالى.

وهذه عناوين ستة أجزاء من هذا التفسير:

- ١ - الإسلام لله تعالى في سورة البقرة.
- ٢ - التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران.
- ٣ - حقوق الإنسان في سورة النساء.
- ٤ - الحلال والحرام في سورة المائدة.
- ٥ - المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء.
- ٦ - العواصم من الفتن في سورة الكهف.

وقد لقي هذا التفسير قبولاً جيداً من طلاب العلم، وهذا ما دعاني إلى التفكير في إعادة طباعته في عدد محدّد من المجلدات، بدلاً من الأجزاء الصغيرة التي أخرج بها في طبعته الأولى والتي اقتربت من الثلاثين. وكتبت إلى المؤلف أعلمه برغبتني في إعادة طباعة تفسيره، ورغبتني إليه في أن يُعيد نظره فيه، وأن يضيف إلى طبعته الثانية زيادات وتنقيحات جديدة، كما أخبرته أنني سوف أضع له الاسم الجديد الآتي: التفسير الموضوعي لسُور القرآن العظيم.

ورأقت الفكرة للمؤلف، وأعجبت به التسمية الجديدة، فأعاد النظر في تفسيره، وطلب مني أن أبدأ في هذا الإخراج الجديد. فأقدمت على هذا العمل معتمداً على الله تعالى.

وأعان الله ﷻ على إخراج هذه الطبعة الثانية لهذا التفسير، فله الحمد والمئة ﷻ على كريم فضله، وعظيم عطائه.

وهنا أجد أنه يتوجّب عليّ أن أقدم للقارئ - ولو - شيئاً وجيزاً عن مزايا هذا التفسير كما أراها، وهذا ما سيجده القارئ في الصفحتين الآتيتين؛ بعون الله تعالى وتيسيره.



من مزايا هذا التفسير



١ - انصبَّ اهتمامُ المؤلف على تقديم معاني الآيات القرآنية، وعرضها على القارئ بعبارات واضحة وأسلوب سهل مُيسَّر، وأجد أنه يجب علي أن أعترف أنني حينما أحتاج لفهم معنى آية من كتاب الله ﷻ فإنني أراجع ما لا يقل عن عشرين تفسيراً تحتويها مكتبتي المتواضعة، لكنني أشهد أن معنى هذه الآية أو الآيات لا أتبينه ولا أصل إليه بالسهولة واليسر اللذين أجدهما في هذا التفسير الذي صاغه الشيخ عبد الحميد طهماز، جزاه الله خيراً.

٢ - لم يشغَل المؤلفُ القارئ بقضايا لغوية أو فقهية أو كلامية، بل كان محور اهتمامه أن يوصل إلى القارئ فهم معنى آيات الكتاب الكريم واستيعاب ما تحتويه بكلام موجز مفيد.

٣ - اعتنى المؤلفُ عند تفسيره لآية ما بأن يأتي في هذا التفسير بما يشبهها من الآيات الأخرى التي تُعنى بالفكرة نفسها، وبذلك جاء بتفسير موضوعي - حسب تعريف العلماء له - للمسألة التي تناولها هذه الآية ومثيلاتها.

٤ - تعرَّض المؤلف لعدد من القضايا العلمية الماثرة في هذا الكون العجيب، الذي أبدعته قدرة الله ﷻ، والتي كشف عنها العلم الحديث، وذلك حينما تناول تفسير بعض الآيات التي أشارت إلى هذه القضايا، واستطاع أن يوضحها ويقربها من القارئ بحيث لا يشعر أنه انتقل من تفسير للقرآن الكريم إلى القراءة في موضوع علمي بَحَث!.

وانظر في هذا المجال تفسيره لقوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ اللَّبَالِ يُونَا﴾ [النحل: ٦٨].

وانظر نقله الجيد من كتاب «بين ميزان الشرع ومنظار العلم» لأسباب تحريم

لحم الخنزير، وذلك في تفسيره للآية (١١٥) من سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنِزِيرِ﴾ .

٥ - انظر إirاده لقصة ذي القرنين ورحلاته والسد الذي أقامه، ومن هم يأجوج ومأجوج؟، وهي من القضايا التاريخية الغامضة، التي استطاع أن يعرضها ويقربها للقارئ بكل يسر وسهولة.

٦ - هذا التفسير يصلح لأن يكون مرجعاً جيداً للمسلم المعاصر مهما كانت درجته من العلم، ولسوف يجد فيه القارئ ضالته إن شاء الله.

وفي ختام هذا التقديم لهذا التفسير الجديد فإن دار القلم بدمشق يسعدنا أن تقدم للمسلمين عموماً تفسيراً موجزاً مبسّراً، خالياً من المعوقات والصوارف عن هدي القرآن الكريم، وترجو الله ﷻ أن ينفع به عامة المسلمين، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء.

الناشر

محمد علي دؤلة

١ محرم ١٤٣٥هـ

٢٠١٣/١١/٤م

مقدمة التفسير

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد النور المبين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ المدينة المنوّرة في الحقيقة هي بلدُ الروح والفتوح، فعندما أكرمني ربي ﷺ بسكنى المدينة المنوّرة، وشرفني فيها بجوار سيد المرسلين ﷺ، وذلك في العام الرابع بعد الأربعمئة والألف من هجرته عليه الصلاة والسلام، عزمْتُ على تأليف كتابٍ في بعض شمائل سيدنا رسول الله ﷺ وبعض خصائصه التي خصّه الله تعالى بها تكريماً وتشريفاً.

ووجدتُ بعدَ البحثِ والنظر الطويلين أنّه ما أحاط بشمائله ﷺ - على كثرة مَنْ كتبَ وألّفَ فيها على مدى العصور الإسلامية المتوالية حتى عصرنا الحاضر - إلا ربُّه ﷺ، الذي أدّبه فأحسن تأديبه، وجملّه بأعلى الصفات، وخصّه بأسمى الغايات، ورفعَه إلى أرفع الدرجات، وشرفّه بأعظم الأمانات، وحملّه أكرم الرسالات، وجعل سبحانه أخلاق نبيه ﷺ العالية وصفاته الكاملة دليلاً على صدق رسالته، وصحّة نبوته، حتى قال تعالى في معرض الإنكار على الكافرين المعرضين عن الإيمان به والإذعان لرسالته: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥].

وقال أيضاً يبيّن شدّة الحُجُبِ التي حجبتهُم عن الاستجابة لدعوته مع أنّهم أبصروه بأعينهم، وسمعوا كلامه بأذانهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِفُّ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ

كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٧﴾ [يونس: ١].

فيممّت وجهي إلى كتاب الله تعالى مستهدياً بنصيحة أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها وأرضاها عندما سألتها سعد بن هشام عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: ألسنت تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: «فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن» [انظر الحديث كاملاً في صحيح مسلم (٧٤٦)].

وزاد البيهقي في «دلائله»: «يرضى برضاه، ويسخط بسخطه».

ومن المعلوم أن الله تبارك وتعالى جمع في القرآن الكريم مكارم الأخلاق كلها، وقد اجتمعت كلها في رسول الله ﷺ، وذكر الله هذه الشهادة الربانية في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] في سياق القسم الإلهي بالقلم وما يسطرون، فدلّ على أن أعظم المقدرات التي كتبها القلم في لوح المقادير بأمر الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

فقد اجتمع فيه ﷺ ما جبله الله عليه من الخلق العظيم في أصل فطرته الكريمة، مع امتثاله لما في القرآن الكريم من الأخلاق الكريمة، والمثل الإنسانية الرفيعة، وهذا ما جعل السيدة عائشة رضي الله عنها - وهي أقرب الناس إليه - تقول: «إن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً» [رواه مسلم (٢٣١٠)].

وقد بعثه الله تعالى ليكمل للبشرية مكارم الأخلاق، قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) وأحمد (٣٨١/٢) والحاكم (٦١٣/٢) ومالك في «الموطأ» بلاغاً (أي: بلغني) (٨/٩٠٤/٢)].

قال القاضي عياض رحمه الله: وكان في ما ذكره المحققون مجبولاً عليها من

(١) أكرمني الله تعالى بتأليف كتاب: سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

أصل خَلَقْتَهُ وَأَوَّلَ فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي وخصوصية ربانية^(١).

افتتح الله تعالى عليّ بموضوع سورة الأحزاب، فوجدت آياتها تدور في فلك النبي ﷺ في أهم ميدانين من ميادين حياته الشريفة الزاخرة بجلال الأعمال:

أولهما: ميدان الجهاد ومواجهة المخاطر والصعاب.

وثانيهما: ميدان الأسرة ومعاملة الأزواج.

وما دار بخلدي حينئذ أن هذا الكتاب سيكون فاتحة لهذا التفسير المبارك لموضوعات سور القرآن العظيم، الذي تتابع بعد ذلك وتوالى لا على وفق ترتيب السور في المصحف الشريف، وإنما بحسب ما من الله علي من الفتوح، فبرز بعد ذلك كتاب «المعجزة والإعجاز في سورة النمل»، ثم كتاب «الحلال والحرام في سورة المائدة»، ثم كتاب «العواصم من الفتن في سورة الكهف»، وهكذا توالى عليّ النعم، وغمرتني المنن، حتى وافيت بحمد الله ومعونته وتأييده إلى آخر السور حسب ترتيبها في المصحف الشريف، فبلغت ستة وعشرين كتاباً، ثم بحمد الله تعالى نشرها على مدى خمسة عشر عاماً تقريباً.

ولما كان من سنّة ﷺ القولية والفعلية أنه «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» لرواه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (٢٠٣٧)، فإنني أتوجّه بالشكر إلى كل من ساهم في نشر هذا التفسير المبارك، وتعريف الناس به، وأخص بالذكر من صبر عليّ كلّ هذه الأعوام وحثني كثيراً على متابعة تأليف أجزاء هذا التفسير - وأريد به صاحب دار القلم بدمشق الأستاذ محمد علي دولة، الذي جمع الآن أجزاء الكتاب في مجلّدات، بإخراج جديد يتناسب مع شرف محتواها، وعلو موضوعها وعزّة، تحت اسم: «التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم». أسأل الله ﷻ له التوفيق والتسديد، وأن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

أولاً: التفسير والتأويل:

وينبغي التنبيه في هذه المقدمة إلى الفرق بين التفسير والتأويل:

فالتفسير: البيان والتوضيح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] أي: لا يأتونك بشيء يعترضون به على صحة نبوتك إلا نزل القرآن الكريم يرد اعتراضهم، ويبين الحق أوضح بيان وأفصح. قال الجرجاني في «التعريفات»: التفسير: في اللغة: هو الكشف والإظهار، وفي الشرع: توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة.

والتأويل: في اللغة: الترجيع، وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة، مثل قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥] إن أراد به إخراج الطير من البيضة؛ كان تفسيراً، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر؛ أو العالم من الجاهل؛ كان تأويلاً.

وقد يأتي التأويل بمعنى بيان ما يؤول إليه النص، وتحقق وقوع ما أخبر عنه، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ شَوْهَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

فالتأويل هنا بمعنى المآل والعاقبة، فهو مأخوذ من: آل يؤول. وقال الخطابي: أولت الشيء: رددته إلى أوله. فاللفظة مأخوذة من الأول، حكاة النقاش.

وقال القاضي أبو محمد رحمته: أولت معناه: طلبت أول الوجوه والمعاني^(١). فالتأويل أعم من التفسير، وهو مرادف له في اصطلاح بعض المفسرين، وبعضهم يرى أن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص فقط.

فالتأويل: بيان مدلول اللفظ بغير المتبادر منه .

والتفسير: بيان مدلول اللفظ مطلقاً .

وبعضهم يرى أن التفسير: هو القطع بأن مراد الله تعالى كذا ، والتأويل: ترجيح أحد الاحتمالات دون قطع نظر .

وفي الحديث الشريف: عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كثير أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن. [رواه البخاري (٤٩٦٨)]. أي: يفعل ما أمر به في القرآن.

وقصّدت ﷺ بذلك بيان ما يؤول إليه النص، وهو قوله تعالى في سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ .

ولعل هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩] .

ثانياً: المنهج الملتزم:

ويظهر المنهج الذي التزمته في جميع موضوعات السور من خلال النقاط التالية:

١ - تفسير القرآن الكريم بالقرآن نفسه:

القرآن يفسر بعضه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَنْفَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] .

وكما تكفل الله تعالى بإنزاله على النبي ﷺ تكفل أيضاً ببيانه: إما في القرآن نفسه، أو بما أوحاه إلى النبي ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْبَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأَهُ فَانْبِيعْ قُرْآنَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧] .

﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[النحل: ٦٤].

٢ - تفسير القرآن الكريم بالسُّنَّة الشريفة الصحيحة:

النبي ﷺ هو خيرٌ من بيَّن مرادَ الله تعالى في آياته، قال تعالى: ﴿وَأُنزِلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فلا يجوزُ لأحدٍ مهما أوتي من العلم أو الفهم أن يتجاوزَ ما صحَّ عن النبي ﷺ في تفسير أيِّ آيةٍ من القرآن الكريم، إذ هو أعلمُ خلقِ الله تعالى بمعاني ما أنزل الله عليه من الآيات.

٣ - الالتزام في تفسير الكلمات القرآنية بمعانيها في اللغة العربية:

لسانُ القرآن الكريم عربيٌّ، كما هو مصرَّحٌ به في آياتٍ كثيرة: منها: قوله تعالى: ﴿وَلَنُزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء].

ومنها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

ومنها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

٤ - مراعاة ما صحَّ من أسباب النزول في فهم الآية الكريمة مع ملاحظة أن

خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم:

إنَّ معرفة سببِ النزولِ - كما قال ابنُ تيمية رحمته الله - يعينُ على فهم الآية، ولنتأملُ كيف بيَّن سببُ النزولِ مرادَ الله تعالى في قوله الكريم: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

فقد أخرج [أبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٢) والنسائي في السنن الكبرى (٢٩٧٢) وغيرهم] من طريقِ أسلم بنِ عمران قال: كُنَّا بالقسطنطينية، فخرجَ صفٌّ عظيمٌ من الروم، فحملَ رجلٌ من المسلمين على صفِّ الروم، حتى دخلَ فيهم، ثم رجعَ مقبلاً، فصاحَ الناسُ: سبحان الله! ألقى بيده إلى التَّهْلُكَةِ. فقال أبو أيوب

الأنصاري رحمته الله: أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّكُمْ تُؤَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، قُلْنَا بَيْنَنَا سِرًّا: «إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، فَلَوْ أَنَّا أَقْمْنَا فِيهَا، وَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا.. فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ الَّتِي أَرَدْنَاهَا».

٥ - تفسير القرآن الكريم بالمأثور الصحيح من أقوال الصحابة والتابعين:

قال ابن كثير رحمته الله: «فإذا لم تجدِ التفسيرَ في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ، ولا وجدته عند الصحابة، فقد رجعَ كثيرٌ من الأئمة إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آيةً في التفسير، وسعيد بن جُبَيْرٍ، وعِكْرَمَةُ مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيَّب، وقتادة، والضَّحَّاك وغيرهم من التابعين ومن بعدهم»^(١).

٦ - مراعاة الاتساق بين الكلمات والجمل في الآية الواحدة، ومراعاة الاتساق والاحتباك أيضاً بين آيات السورة الواحدة من خلال موضوع السورة:

لا ينبغي أن تُفسَّر الآية دونَ النظر في سباقها وسياقها وموضوع السورة التي ذكرت فيها، وهذا في رأيي وجهٌ آخرٌ من وجوه الإعجازِ في القرآن الكريم، أحمَدُ الله تعالى أنْ وَفَّقَنِي لِإِبْرَازِهِ فِي هَذَا التفسيرِ المباركِ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مِنْ أَهَمِّ الْبَوَاعِثِ الَّتِي دَفَعَتْنِي إِلَى كِتَابَةِ مَا كَتَبْتُ.

٧ - إبراز ما أشارت إليه بعض الآيات الكريمة من الحقائق العلمية التي

توصل إليها الناس في العصر الحاضر:

في هذا تصديقٌ لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرِّبُكُمْ ءَالَيْنِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

(١) انظر: مقدمة التفسير، لابن كثير.

وقوله تعالى أيضاً: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

فلم أفرط في هذا الجانب كما فعل غيري من الكتاب المعاصرين، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتشريع، لا كتاب علوم وفنون فحسب، فالمراد من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [التحل: ٨٩] أي: نزلنا عليك الكتاب تبياناً كاملاً لكل شيء من أمور الدين والتشريع، فهو الطريق القاصد الذي تكفل الله ببيانه في صدر سورة النحل [٩] عندما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.

والمراد من الكتاب في قوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٧] لوح القدر، ففي الحديث: عن الوليد بن عباد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموت فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: يَا رَبِّ، وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنُ إِلَى الْأَبَدِ» [أخرجه أحمد (٣١٧/٥) والترمذي (٢١٥٥) وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه].

فلا ينبغي - كما قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله - أن ندخل الآيات الكريمة في هذه المضائق من الفهم، وهي بروحها تنبؤ عنها، فالقرآن الكريم له اتجاهه في الهدى والإرشاد، فلا ينبغي لنا أن ننزله على كل جديد، والحوادث تقبل وتدبر، وتحقق في نظر الناس تارة، وتبطل أخرى، والقرآن الكريم قائم صراطه ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: (١)].

٨ - اجتناب الإسرائيليات:

تجنبنا الاستشهاد بما حفلت به كتب التفسير من الإسرائيليات المنسوبة إلى

كعب الأخبار ووهب بن منبه وغيرهما؛ إذ لا حاجة إليها؛ فصحيحُ السُّنَّةِ والمأثور من أقوال الصحابة والتابعين يغني عنها.

وقد صحَّ عن ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنه التحذير من سؤال أهل الكتاب، والأخذ عنهم فقال: «كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يُشَبَّ، وقد حدَّثكم أَنَّ أهل الكتاب بدَّلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو مِنْ عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عَنْ مسألتهم؟! لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم» [رواه البخاري (٧٣٦٣)].

٩ - منهج تفسير الآيات المتشابهة:

التزمت في تفسير الآيات المتشابهة كآيات الصفات مذهب السلف، الذين آمنوا بكل ما وَصَفَ الله تعالى به نفسه في كتابه وسنَّةِ رسوله ﷺ، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، وانصرفوا عن تأويلها، وفوضوا معانيها إلى الله تعالى مِنْ دون تشبيه أو تعطيل.

فمذهب السلف اعتقادُ التنزيه، ونفي التشبيه والتعطيل، وتفويضُ التشابه، والوقوف عليه كما ورد، ما لم يحتج إلى تقييد، فيقيّد بما ينفي شبهته بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي الحديث الشريف: عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سَمَّى الله فاحذروهم» [رواه البخاري (٤٥٤٧)].

١٠ - ملاحظات وتصويبات لأشياء وقع فيها صاحب الظلال رحمته:

لا بد لي أخيراً أن ألفتَ نظرَ القارئِ إلى أن ما أبديته من بعض الملاحظات والأخطاء التي وجدتُها فيما كتبه سيد قطب رحمته في كتابه «في ظلال القرآن» - عندما كنت أرجعُ إليه أحياناً، لأطلع على رأيه رحمته في موضوعات بعض السور - جاء عفواً دون قصدٍ، فما تعمدتُ تتبّع ما في «الظلال» من أخطاء علمية، لعلمي أنه رحمته كتبه في ظروفٍ عصيبةٍ قاسيةٍ، عندما كان في السجن، وليته عرضها على بعض العلماء قبل نشرها، ولكن أبى الله العصمة لكتابٍ غير كتابه، ولأحدٍ غير أنبيائه عليهم الصلاة والسلام^(١).

أسأله رحمته أن يعلمني ما ينفعني، وينفعني بما علمني، وأن يجعلَ عملي خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله وسلّم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله أولاً وآخراً.

الفقير إلى الله تعالى
عبد الحميد محمود طهماز

مكة المكرمة في ١٥/٤/١٤٢١هـ
الموافق ١٧/٧/٢٠٠٠م

(١) ممّا يجدر ذكره هنا أن المؤلف وقد أبدى بعض الملاحظات على ما ذكره سيد قطب في تفسيره لبعض الآيات في كتابه الرائع: «في ظلال القرآن الكريم»؛ قد أشاد في مواضع كثيرة في تفسيره هذا: المسمّى «بالتفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم» بما كتبه سيد قطب حول بعض الآيات الأخرى في كتابه «الظلال»، واستشهد بكلامه وأبدى إعجابه به، فهو - أثابه الله - قد لاحظ وانتقد من ناحية، وأثنى واستحسن من ناحية أخرى، وبذلك أثار الصواب والعدل إن شاء الله.

ورحم الله سيّد قطب وعبد الحميد طهماز وغيرهما من العلماء والكتّاب والمفكرين، وجمّعنا بهم في دار كرامته، في جنّة الخلد المقيم. (الناشر: محمد علي دولة).



تفسير سورة الفاتحة الثناء والدُّعاء في سورة الفاتحة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مُقَدِّمَةٌ

في فضل سورة الفاتحة وموضوعها

الفاتحة أولُ سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف، وهي بحق مقدمة القرآن الكريم وفاتحته، جاءت بآياتها السبع الموجزة بمثابة عنوانٍ له، ترشدُ إلى أصوله الكبرى، وأُسسه العظمى؛ ولهذا قال تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

قال القرطبي رحمته الله: سُميت بذلك لتضمنها جميعَ علوم القرآن، وذلك لأنها تشتمل على الثناء على الله تعالى بأوصافِ كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيءٍ منها إلا بإعانتة تعالى، وعلى الابتغال في الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيان عاقبة الجاحدين، إلى جانب ما تضمنته من تقرير للمسؤولية والحساب في يوم الدين.

فهي أعظمُ سورة في القرآن الكريم، ففي الحديث الشريف: عن أبي سعيد بن

المعلّي ﷺ قال: كنتُ أصلي، فدعاني النبي ﷺ فلم أجبه، قلتُ: يا رسول الله إنني كنتُ أصلي، قال: «ألم يقل الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟» ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟» فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلتُ: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمتك أعظم سورة في القرآن، قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [رواه البخاري (٥٠٠٦)].

قال ابن حجر: «(أعظم سورة): المرادُ به عِظَمُ القدرِ بالثوابِ المرتَّبِ على قراءتها، وإن كان غيرها أطولَ منها، وذلك لما اشتملت عليه من المعاني المناسبة لذلك»^(١).

وقيل لها: المثاني من التثنية، لأنها تتكرر في الصلاة، أو من الثناء؛ لاشتمالها على ما هو ثناء على الله ﷻ.

وعَطَفَ (القرآن العظيم) على (السبع المثاني) مع أنَّ المراد بهما واحداً، لما عُلِمَ في اللغة العربية من أنَّ الشيء الواحد إذا ذُكِرَ بصفتين مختلفتين، جاز عطف إحداهما على الأخرى، تنزيلاً لتغاير الصفات منزلةً تغاير الذات^(٢).

وذهب فريق آخر من المفسرين إلى القول بأنَّ الله تعالى أعطى النبي ﷺ سورة الفاتحة، وأعطاه أيضاً القرآن العظيم، فيكون العطف من قبيل عطفِ العامِّ على الخاصِّ، وهذا لا يتعارض مع ما ذُكِرَ في الحديث النبوي السابق، إذ يمكن أن يقال: إنَّ تسمية الفاتحة بالمثاني وبالقرآن العظيم لا ينافي وصف القرآن كله بذلك أيضاً، وقد وصف الله تعالى القرآن بصفة المثاني في قوله الكريم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَدِّدًا مَّتَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

(١) فتح الباري: ٥٤/٩.

(٢) أضواء البيان: ١٩٥/٣.

رَبِّهِمْ ﴿[الزمر: ٢٣] فهو مثانٍ من وَجْهِه، ومتشابهٌ من وجهه، وهو القرآن العظيم أيضاً^(١).

* * *

وتسمّى أيضاً أُمُّ الْقُرْآن؛ لأنها مفتتحة ومبدؤه، فكأنها أصله ومنشؤه؛ ولذلك تُسمّى أساساً، أو لأنها تشتملُ على ما فيه من الشناء على الله تعالى، والتعبدُ بأمره ونهيهِ، وبيان وعده ووعيده^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بِأُمِّ الْقُرْآنِ فهي خَدَاجٌ» ثلاثاً، غيرُ تمام، فقليل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام؟ فقال: اقرأ بها في نفسك، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٣)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٤)، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٥)، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ^(٧)»، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ» [رواه مسلم (٣٩٥)]. والمرادُ بالصلاة في هذا الحديث: الفاتحة.

* * *

وهي شفاء ورُقِيّة، ففي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

(١) انظر: تفسير سورة الحجر (الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) تفسير البضاوي: ١٧/١.

قال: كنّا في مسيرٍ لنا، فنزلنا، فجاءت جاريةٌ فقالت: إنّ سيّدَ الحيّ سليمٍ (أي: لديغٍ)، وإنّ نفرنا غيّبٌ، فهل مِنْكُمْ راقٍ؟ فقام معها رجلٌ ما كنّا نأبئه برقية (أي: نتهمه بأنّه راقٍ) - فرقاه فبرأ، فأمر لنا بثلاثين شاةً، وسقانا لبناً، فلمّا رجع قلنا له: أكنّت تحسّن رُقِيَةً أو كنت ترقّي؟ قال: لا، ما رقيتُ إلّا بأُمّ الكتابِ، قلنا: لا تُحدّثوا شيئاً حتى نأتِي أو نسأل النبي ﷺ، فلمّا قدِمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يدريه أنّها رُقِيَةٌ؟! اقسموا واضربوا لي بِسَهْمٍ» [رواه البخاري: (٥٠٠٧)].

* * *

وإذا كان موضوع سورة البقرة هو الإسلام لله تعالى، والانقياد لأحكامه الشرعية والقدرية، فسورة الفاتحة إعلان لهذا الإسلام، وعنوانٌ لهذا الانقياد، ولا عجب أن الله تعالى أنزل ملكاً خاصاً على النبي ﷺ يبشّره بالفاتحة وخواتيم سورة البقرة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبي ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا بابٌ من السماءِ فُتِحَ اليومَ، لم يُفْتَحْ قطّ إلّا اليومَ، فنزلَ منه ملكٌ، فقال: هذا ملكٌ نَزَلَ إلى الأرضِ، لم ينزل قطّ إلّا اليومَ، فسَلَّمَ وقال: أبشِرْ بنورينِ أوتيتهما، لم يؤتِهما نبيٌّ قبلكَ، فاتحة الكتابِ وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلّا أُعْطِيَتْهُ» [رواه مسلم (٨٠٦)].



تفسير سورة الفاتحة الثناء والدعاء في سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾
 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ
 نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِثُ ٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
 غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾.

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ افتتح الله تعالى سورة الفاتحة بالبسملة، كما افتتح بها جميع سُور القرآن الكريم، عدا سورة التوبة، والمعنى: باسم الله أقرأ أو أتلو، وقُدِّرَ المحذوف «أقرأ» أو «أتلو» متأخراً تعظيماً لاسمه تعالى، فهو المقدم على القراءة، وكانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسمِ اللَّاتِ، وباسمِ الْعُزَّى، فوجب أن يقصد الموحّد معنى اختصاص اسم الله ﷻ بالابتداء، ويكون هذا بتقديمه، وتأخير الفعل، وقدم الفعل في: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] لأنها أول سورة نزلت، وكان الأمر بالقراءة أهم، فكان تقديم الفعل أوقع^(١).
 ﴿اللَّهُ﴾ هو اسمٌ خاصٌ بالله تعالى، تفرّد به الباري ﷻ، ليس بمشتق،

ولا يشركه فيه أحدٌ، وهو الصحيح المختارٌ، دليله قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] يعني: لا يقالُ لغيره: الله.

وقيل: هو مشتقٌّ من (أَلِه، يَأْلُه، إلهة) مثل: عَبْدَ الرجل، يَعْبُدُ، عبادةً، دليله: ﴿وَبَدَّرَكَ وَالْهَيْك﴾ [الأعراف: ١٢٧]^(١) أي: وعبادتكَ، ومعناه: المستحقُّ للعبادة دون غيره.

وقيل: مِنْ (الْوَلِه)، وهو الفَرْعُ؛ لأنَّ الخَلْقَ يولهُونَ إليه، أي: يَفْرَعُونَ إليه في حوائجهم.

وقيل: أصله (أَلِه)، يقال: ألَهْتُ إليه، أي: سَكَنْتُ إليه، فكأنَّ الخَلْقَ يسكنونَ إليه، ويطمئنون بذكره^(٢)، ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ اسمان من أسمائه الحسنَى، يدلّان على كثرة إحسانه، وسعة فضله وجوده ﷻ، معناه: ذو الرحمة.

والرحمة في اللغة: رَقَّة القلب، وانعطافٌ يقتضي التفضُّل والإحسان، ومنه الرَّحْمُ لانعطافها على ما فيها، وأسماءُ الله تعالى إنّما تؤخذ باعتبار الغايات، التي هي أفعال، دون المبادئ، التي تكون انفعالات^(٣)، لتتنزّه سبحانه عن الحدوث والتغيُّر.

واختصاصُ التسمية بهذه الأسماء يدلُّ على أَنَّ المستحقَّ لأن يُستعانَ به في جميع الأمور هو المعبودُ الحقيقيُّ، الذي هو مولَى النعمِ كلّها، عاجِلُها وآجِلُها، جليلُها وحَقِيرُها^(٤).

ثم أثنى الله على ذاته المقدَّسة بقوله ﷻ:

(١) وهي قراءة منسوبة لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، انظر: تفسير القرطبي.

(٢) تفسير الخازن: ٢٠/١.

(٣) تفسير البضاوي: ٢٤/١.

(٤) المرجع السابق: ٢٥/١.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدلُّ هذا الثناء على وجوب اتّصافه تعالى بجميع صفات الكمال والجلال والجمال، فهو المستحقُّ للحمد بذاته؛ لأنّه سبحانه وحده المتّصفُ بجميع صفات الكمال، وهو ثابتٌ له تعالى بطريق البرهان والاستدلال، كما سيظهر معنا، ولهذا فسّر بعضهم ﴿الْحَمْدُ﴾ بالإحاطة بأوصاف الكمال^(١).

ولمّا كانت كمالاته سبحانه غير متناهية، ولا يحيط بها أحدٌ من المخلوقات، حمد الله تعالى نفسه بنفسه، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقد ورد في بعض أدعية النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ، وَبِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [رواه مالك، وأبو داود (١٤٢٧) والترمذي (٣٥٦٦)].

ولمّا سئل عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه عن معنى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: الحمد لله، كلمةٌ رضيها لنفسه^(٢).

فما عرف الله حقَّ المعرفة أحدٌ، وما أحاط بكمالاته غيره تعالى، تقدّست ذاته، وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته.

واستحقاقه سبحانه للحمد ثابتٌ ودائم، قبل إيجاد الخلق وبعده، وسواء حمده العباد أم كفروه وجحدوا فضله، لأنّ صفات كماله وجماله وجلاله أزليّةٌ أبديةٌ غيرُ حادثةٍ، لا يطرأ عليها تغييرٌ أو تبديلٌ، فهو سبحانه خالقٌ قبل أن يخلق الخلق؛ لأنّه قادرٌ على الخلق أزلاً، ورازقٌ قبل أن يرزق الخلق؛ لأنّه قادرٌ عليه أزلاً.

والألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق جميع المحامد، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْخَلْقُ

(١) انظر: نظم الدرر: ٧/٢.

(٢) فتح القدير: ٢٠/١.

كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ» [رواه البيهقي في «سننه»].

وأمر الله تعالى عباده أن يثنوا عليه به في ضمن هذا الثناء الذي أثنى به على نفسه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لِيرِضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» [رواه مسلم (٢٧٣٤)].

قال ابن كثير رحمته الله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثناءً أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: الحمد لله. وهو ثناءً على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، وهو نقيض الذم، وأعم من الشكر، والشكر: الثناء على الْمُحْسِنِ بما أولاه من المعروف^(١).

ثم بين تعالى موجب استحقاقه للحمد بقوله:

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: مالك العالمين، يقال: ربُّ الدار، وربُّ الشيء، أي: مالكه.

ومنه: قول صفوان بن أمية، عندما سمع أخاه في غزوة حُنين يقول: ألا بطلَ السَّحَرُ اليومَ، فقال له صفوان: اسكُتْ فَضَّ اللَّهُ فَاكْ، فوالله لأن يَرْبِّيَ رجلٌ من قريشٍ، أحبُّ إليَّ من أن يَرْبِّيَ رجلٌ من هوازن^(٢).

والرَّبُّ في اللغة: مصدرٌ بمعنى الإصلاح والتربية، وهو تبليغُ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً، ووصفُ الحقِّ به للمبالغة، كما وُصِفَ بالعدل، فهو سبحانه مالك العالمين ومربيهم ومُصلِحهم.

ولا يُطْلَقُ الربُّ معرّفاً إلا على الله وحده، وإذا أُطْلِقَ على غيره قيّد بالإضافة: نحو ربُّ الشيء، ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٠/١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٦٥/٤.

﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمعُ عالمٍ، لا واحد له من لفظه، مشتقٌّ من العلم أو العلامة، وإنما سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه دالٌّ على وجود الخالق ﷻ^(١).

فالعالمون كلُّ ما سواه من الموجودات، فإنَّها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثِّر واجبٍ لذاته، تدلُّ على وجوده، وإنَّما جُمِعَ بالياء والنون - المختصَّ بصفات العقلاء - لما فيه من معنى الوصفية، وهي الدلالة على معنى العلم^(٢).

وقيل: اسمٌ وضعَ لذوي العلم من الملائكة والإنس والجنِّ، وتناولوه لغيرهم على سبيل الاستتباع.

وقيل: عني به الناس هاهنا، فإنَّ كلَّ واحد منهم عالمٌ؛ من حيث إنَّه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض، يُعَلِّمُ بها الصانع، كما يعلم بما أبدعه في العالم؛ ولذلك سَوَّى بين النظر فيهما فقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]^(٣).

وقال أيضاً: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

والى هذا المعنى ذهب القائل:

وَتَحَسَّبُ أَتَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وقد مرَّ ذكرُهما في التسمية، واستدلَّ بذلك القائلون بأنَّ التسمية ليست هنا من الفاتحة، إذ لو كانت من الفاتحة لما ذكرهما سبحانه مرَّةً ثانيةً.

وقد يكونُ التكريرُ لبيان كثرة رحمته، وتوالي إحسانه على خلقه، فمنه

(١) تفسير الخازن: ٢٦/١.

(٢) تفسير النسفي: ٢٦/١.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ٢٦/١.

الإيجاد والإمداد ﷻ، ورحمته وسعت كل شيء في الوجود، والكل مفتقر إليها، قائم بها.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

﴿مَلِكِ﴾ وهي قراءة عاصم والكسائي ويعقوب، وقرأ الآخرون: (مَلِك).
و(المالك): هو المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء، و(المَلِك): هو المتصرف بالأمر والنهي في المأمورين^(١).

فهو سبحانه الملك الذي لا يُسأل عما يفعل، وهو الذي يتصرف في ملكه كما يشاء، وهو سبحانه المَلِكُ الذي له الحُكْمُ والأمر، والتحليل والتحريم، فالحاكمة المطلقة له جلّ وعلا.

﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء والحساب، فالدينُ الجزاء والحساب؛ ولهذا قيل: «كما تدين تُدان».

ومنه: قوله تعالى: ﴿أَنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصفات: ٥٣].

وفي الحديث الشريف: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسُهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ»
[رواه أحمد (١٧٢٥٣) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠)].

فهو سبحانه مالك الأمر كله يوم الحساب والجزاء، وهو يوم القيامة، والتخصيص بيوم الدين لأن الأمر فيه يكون لله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿لَمِنَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فالملك في الحقيقة هو الله ﷻ، وأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز - كما قال ابن كثير ﷺ - وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «يَقْبِضُ اللَّهُ تَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟!» [رواه مسلم (٢٧٨٧)].

ودلت الآية على مسؤولية المكلفين جميعاً أمام الله تعالى يوم القيامة.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

انتقلت الآيات مباشرة من الغيبة إلى المواجهة؛ لأن صدرها ثناءً على الحق جل وعلا، وذيلها ضراعةٌ ودعاء، كما مرَّ في الحديث الشريف: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي نصفَيْنِ...» [رواه مسلم (٣٩٥)].

ولأنه لما أثنى على الله تعالى، فكأنه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى، فهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١).

ويشير إلى هذا المعنى قولُ النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «يا غلامُ إني أعلمُك كلماتٍ: احفظِ الله يحفظُك، احفظِ الله تجدهُ تُجاهُك، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦)].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبدُ سواك؛ لأنك وحدك المستحقُّ للعبادة، وهو إعلانُ الإسلامِ لله تعالى، والخضوعِ والانقيادِ لأحكامه.

والعبادةُ أقصى غايةِ الخضوعِ والتذللِ، فكأنَّ العبدَ يقول لمولاه: أنتَ الحقيقُ بالحمدِ والثناءِ، والتعظيمِ والتمجيدِ، ونحنُ حقيقون بالتذللِ والخضوعِ لك وحدك، وعزٌّ وشرفٌ لنا أن نعبدَكَ وحدك، فلا نعبدُ سواك.

فالعبوديةُ مقامٌ عظيمٌ، يشرفُ بها العبدُ، وهي أعظمُ مقامٍ يصلُهُ بالله جلَّ وعلا، وقد سمى ﷺ رسوله محمداً بعبده في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

وقال أيضاً: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن: ١٩].

وقال أيضاً: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِبْرَةِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

فسمّاه عبداً عند إنزال القرآن عليه، وعند قيامه للدعوة، وعند إسرائه به^(١). ولا شك أنّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أبلغ في التواضع من: إياك عبدنا، وفيها أدرج الفرد عبادته في تضاعيف عبادة العابدين الخاضعين لله تعالى، لعلها تُقبل ببركتهم أو ببركة واحدٍ منهم، كما ورد في الحديث الشريف في فضل مجالس الذكر: «... فيقولون: ربّ فيهم فلانٌ عبدٌ خطّاءٌ، إنّما مرّ فجلّس معهم، قال: فيقول: وله غفرتُ، هم القومُ لا يشقى بهم جليّسُهُم» [رواه مسلم (٢٦٨٩)].

﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نطلبُ المعونة منك وحدك، كما مرّ آنفاً في الحديث الشريف: «وإذا استعنت فاستعن بالله».

وطلبُ المعونة من الله إقرارٌ بالافتقار إليه، وقُدّمتِ العبادة على الاستعانة؛ لأنَّ العبادة إعلانُ الاستسلام الكامل لله تعالى، والخضوع له ﷻ، فتكونُ وسيلةً إلى الإقرار بالعجز والضعف والافتقار إلى معونته وإحسانه ورحمته.

وحتى العبادة فإنها لا تكونُ إلّا بمعونته تعالى وتوفيقه، فهي من الله تعالى وإلى الله تعالى، فالفضلُ له سبحانه أولاً وآخرأً، والحمدُ له تعالى بدءاً وختاماً، فهذا وجهٌ من وجوه استحقاقه سبحانه للحمد، فتأمل.

ثم يبيّن الآياتُ أهمَّ معونةٍ مطلوبةٍ يحتاجُ إليها الناسُ في حياتهم:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

أي: ثبّتنا على الطريق المستقيم، وأرشدنا إلى النهج القويم.

والهداية: دِلالةٌ بلطف، ولذلك تستعمل في الخير، وإذا ما استعملت في غيره يراؤ بها حينئذٍ التهكُّم، كما في قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣].

والمرادُ منها في القرآن الكريم:

- إمّا هدايةً البيان والإرشاد: وذلك بإرسال الرُّسل وإنزالِ الكتب، كما في

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا شَايِتَنَا يُؤَفَّتُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

- وإما هداية التوفيق من الله تعالى للتمسك بالحق والثبات عليه: كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقوله أيضاً: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَؤْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

وهذه الهداية أهم ما يحتاج إليه الإنسان في حياته، فلا صلاح لحياته إلا بها، ولا استقامة له إلا بالتمسك بحبلها؛ إذ طرق الضلال في الحياة كثيرة، وإليها أشار الله تعالى في قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولهذا علمنا سبحانه، وهو الرحمن الرحيم والبرّ الكريم، أن نسأله هذه الهداية في كل يوم مرّات كثيرة، كلّما وقفنا بين يديه مصليين خاشعين.

والصراط المستقيم هو طريق الإسلام، الإسلام لله تعالى وحده، والانقياد والإذعان لحكمه وشرعه، وهو دين جميع الأنبياء والمرسلين، دلّ على ذلك قوله تعالى في تعريفه:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مننت عليهم بنعمتك العظمى والكبرى، نعمة الهداية، وهم الأنبياء والمرسلون، ومن تبعهم، وسار على طريقهم، الذين ذكرهم سبحانه بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ
مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿النِّسَاء﴾.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غير صراط الذين غضب الله عليهم، بسبب
إعراضهم عن صراطه المستقيم، وعنادهم، وجحودهم، ومنهم اليهود.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: وغير صراط التائهين الشاردين عن الصراط المستقيم،
الذين غلبت عليهم أهواؤهم وشهواتهم، فحجبت بصائرهم عن دلائل الحق
وحججه، فتاهوا، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ومنهم النصارى.

فأصحاب الصراط المستقيم هم الذين سَلِمُوا بفضل الله تعالى من أسباب
غضبه سبحانه، ومن أسباب الضلال والشرود عن ساحته وفضله ورحمته.

وَمِنَ السُّنَّةِ أَنْ نَخْتُمَ الْفَاتِحَةَ بِأَنْ نَقُولَ: (آمِينَ)، لما ورد في الحديث
الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: ﴿غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ، فَمَنْ وافقَ قَوْلَهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ
لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» [رواه البخاري (٤٤٧٥)].

وآمِينَ: ليست من القرآن، ومعناها: استجب يا رب.





تفسير سورة البقرة الإسلام لله تعالى في سورة البقرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

في موضوع السورة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإن موضوع سورة البقرة الإسلام لله تعالى، بمعنى الاستسلام الكامل لأحكامه القدرية والشرعية، والانقياد والإذعان لها، هذا هو الموضوع الأساس لسورة البقرة، الذي دارت آياتها كلها في فلكه.

والإسلام بهذا المعنى هو دين الله الذي أنزله على الأنبياء والمرسلين جميعاً، فكلّهم دَعَوْا أُمَمَهُم إلى الإسلام لله تعالى، والانقياد لأحكامه جلّ وعلا.

وفي الآيات الأولى للسورة التي تبين أهم الصفات الأساسية الكبرى للمتقين، ذكرت أنّ أول صفة من صفاتهم أنهم يؤمنون بالغيب، والمراد به الغيب الذي أخبر الحق سبحانه عنه، وهذا يدلّ على استسلامهم الكامل له جلّ وعلا، علماً وعملاً، قلباً وقالباً.

وركزت الآيات حديثها بعد ذلك على الجاحدين المُعاندين؛ إبرازاً لحقيقة

الإسلام لله تعالى وكيفيته، فرسمت لهم هراً للجحود والعناد، وضعت على قمتة الكافرين جحوداً وعناداً، الذين لا يؤمنون، سواء أنذرته أم لم تنذرهم.

ثم وضعت في وسطه المنافقين، الذين يخادعون الله ورسوله ﷺ، والذين مهما رأوا من الأدلة والبراهين لا ينتفعون بها، فهم الصمُّ البكمُ العميُّ الذين لا يرجعون عما هم فيه من باطل وضلال.

ثم وضعت في قاعدته أهل الكتاب، وخاصةً بني إسرائيل، وأفاضت الآيات في ذكر مواقف جحودهم، وعنادهم، التي صدرت عنهم منذ زمن نبيهم موسى ﷺ، إلى زمن التنزيل للحكيم للقرآن الكريم في عهد نبيِّنا محمد ﷺ.

ثم تحوّلت الآياتُ فعرضت في مقابل مواقف الجاحدين والمعاندين، مواقف المسلمين المستسلمين لأحكام الله تعالى الشرعية والقدرية، فذكرت في مقدمتهم إمام الموحدين إبراهيم ﷺ، وأبرزت استسلامه الكامل لله تعالى عندما ابتلاه بما ابتلاه به من أنواع البلاء، وعندما ﴿قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

وعندما كان يرفع قواعد بيت الله الحرام مع ولده إسماعيل، وهما يرفعان إلى الله تعالى الدعوات المباركات، ليجعلهما من الأمة المسلمة.

ثم ذكرت الآيات وصية يعقوب ﷺ لأولاده وقد حضره الموت، وهو يقول لهم: ﴿يَبْنَئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ثم بيّنت الآيات فضل المستسلمين لأحكام الله تعالى القدرية، والصابرين على البلايا والمصائب والمحن، والصابرين على نقص الأموال والأنفس والثمرات، ومهدت بذلك السبيل للشروع في عرض أحكام الشريعة التكليفية، شريعة الإسلام خاتمة الشرائع الإلهية وأعظمها وأكملها وأتمها.

وسارت الآيات على طريق عرض الأحكام الشرعية في الشريعة الإسلامية، وهي تُبرز أسسها وخصائصها ومزاياها، فاستوفت كلّ الجوانب العملية التكليفية

فيها، إما تأصيلاً أو تفریعاً، فالسورة بحق كما قال رسول الله ﷺ: «سنام القرآن» [رواه أحمد (٢٥/٥) والترمذي (٢٨٧٨)]، وكادت أن تحصي القرآن كله.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً، وهم ذو عددٍ، فاستقرأهم، فقرأ كل رجلٍ منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجلٍ من أحدثهم سنّاً، فقال: «ما معك أنت يا فلان؟» فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم، قال: «أذهب فأنت أميرهم، فإنها إن كادت لتستحصي الدين كله» [رواه الترمذي (٢٨٧٦)].

وللسورة في أثناء عرضها لأحكام الشريعة بعض الوقفات والتعقيبات، شدّتنا فيها إلى موضوعها الأساس، وهو موضوع الإسلام لله تعالى والاستسلام لأحكامه، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

واستمرت الآيات على هذا النهج إلى أن توجت خاتمتها بإبراز استسلام الصحابة رضي الله عنهم لأحكام دين الله، وبيّنت ارتباط ذلك بيُسّر الشريعة وسماحتها، كما سيأتي معنا في تقرير أساس مبدأ التكليف العظيم فيها: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وذلك في مقابل ما سبق عرضه في آياتها من تعتت بني إسرائيل وجحودهم، وخاصة في قصة موسى عندما أمر قومه بذبح البقرة، التي سُميت السورة كلها باسمها، إشارة إلى تعتتهم وتقاعسهم عن الانقياد لأحكام الله تعالى.

ونظراً لما أبرزته السورة من مزايا الشريعة الإسلامية، وما فيها من أصول هذه الشريعة وكثير من فروعها، أوصى النبي ﷺ بالإكثار من قراءتها، وقرنها مع سورة آل عمران.

ففي الحديث الشريف: عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزّهراوين: البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجّان عن أصحابهما،

اقرؤوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة» [رواه مسلم (٨٠٤)].

وقوله: «كأنهما غمامتان، غيايتان» المراد ثوابهما، وهما كل شيء أظلم الإنسان فوق رأسه. «فرقان من طير»: قطيعان وجماعتان. «البطلة»: السحرة.

وقد جاء تفسير هذه السورة بفضل الله تعالى في تسعة فصول، متوالية حسب تسلسل آيات السورة، كما يلي:

الفصل الأول: القرآن والإنسان.

الفصل الثاني: التوراة وبنو إسرائيل.

الفصل الثالث: بنو إسرائيل من السلف إلى الخلف.

الفصل الرابع: التوحيد وإبراهيم عليه السلام والبيت الحرام.

الفصل الخامس: العقيدة والشرعة.

الفصل السادس: إسلام واستعلام: أسئلة الصحابة.

الفصل السابع: الأسرة وتشريع الطلاق.

الفصل الثامن: أخبار وقصص من التاريخ.

الفصل التاسع: مبادئ أساسية في الاقتصاد الإسلامي.

ولله تعالى الحمد بدءاً وختاماً، وأسأله جلّ وعلا أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه، وأن يهدينا صراطه المستقيم، ويثبتنا عليه. اللهم آمين.

وصلّ اللهم وسلّم على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

القرآن والإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَاْخِرَةُ هُمْ يُوَفُّونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَاْخِرُ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بَعْضِكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لَّا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْدِعُهم فِي ءَادَانِهِم مِّنَ الصَّوَغِ حَذَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن

قَبْلَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَتَقَضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَتُكِنُّ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَلَبَّابٌ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوْبَاتِ الرَّحِيمِ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاى

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾

• الحروف النورانية:

﴿آلَم﴾.

افتتح الله تعالى سورة البقرة بهذه الحروف الثلاثة: ألف، لام، ميم. وهي أكثر الحروف وروداً في فواتح السور، ويسمّيها العلماء الحروف المقطّعة، والحروف النورانيّة، والحروف الهجائية.

ومعانيها أسرارٌ تحيّرُ فيها الأفكارُ، فهي كما قال الإمام الشعبي: سرُّ هذا القرآن، وفي هذا المعنى قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ عليه السلام: إِنَّ لكلِّ كتابٍ صفوة، وصفوةُ هذا الكتابِ حروفُ التهجي. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: في كلِّ كتابٍ سرٌّ، وسره في القرآنِ أوائلُ السور^(١).

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فكلامُ العليم الحكيم لا تنتهي عجائبه، ولا تُحدُّ فرائده وفوائده، وهذا وجهٌ من وجوه إعجازه، ينفردُ به عن سائر الكلام، ولهذا قالوا: إِنَّ الحروفَ المقطّعة التي في أوائلِ بعضِ سوره تدلُّ على إعجازه، وعجزِ الخلقِ عن الإتيانِ بمثلِ سورة من سوره، وحروفه قريبةٌ منهم، وفي متناولِ أيديهم.

ولقد انتصرَ لهذا الرأي ابنُ كثيرٍ في تفسيره، فبعدَ أن ذكره، وذكر العلماء

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن، عن: الإتيان، للسيوطي، ص ٢٣٦.

الذين ذهبوا إليه، قال ﷻ: «ولهذا كُلُّ سورةٍ افْتُتِحَتْ بالحروفِ فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصارُ للقرآنِ، وبيانُ إعجازه وعظمته، وهذا معلومٌ بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل: ﴿الْم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة] وغير ذلك من الآيات الدالة على صِحَّة ما ذهب إليه هؤلاء لِمَن أَمعن النظر»^(١).

وقد اعترضَ بعضهم على استقراء ابن كثير بثلاثِ سورٍ، افْتُتِحَتْ بالحروفِ المقطَّعة، ولم يُذكر فيها الانتصارُ للقرآنِ، وهي: سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة القلم.

إلا أن هذا الاعتراضَ يسقط إذا تأملنا كلَّ آياتِ هذه السور، ففي بعضها ذكرٌ للقرآن الكريم، وتأكيدٌ على أنه كلام الله تعالى، كقوله في [مريم: ٩٧]: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾.

وقوله في [العنكبوت: ٥١]: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى في [القلم: ٥٢]: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

• الكتاب الكامل:

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: القرآن الكريم، هو الكتابُ الكاملُ الحائِزُ على كلِّ كمال، فهو وحده المستحقُّ أن يُوصَفَ بالكتاب بالنسبة لما عداه، كما يقال: هو الرجلُ الكاملُ في الرجولية، الجامع لما يكونُ في الرجال من الخصال الحسنة، وعليه قول من قال:

هم القوم كُلُّ القومِ يا أم خالد^(٢)

(١) انظر: تفسير ابن كثير، المقدمة.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٢٤/١.

وأشير إليه بـ ﴿ذَلِكَ﴾ للدلالة على علو شأنه، وكونه في الغاية القصوى من الفضل والشرف.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه مطلقاً، فـ(لا) نافية للجنس، دلّت على نفي أي ريب عن صحة وصدق القرآن الكريم، وأنه نزل من الله تعالى، كما قال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

فلا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه، وسيمر معنا أن الذين ارتابوا فيه لا صحة لريبهم، وما ارتيابهم إلا عنادٌ وجحود: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿هُدًى لِلْمُنْقِينَ﴾ أي: دلالة للمتقين، يدلهم على العقيدة والشرعية التي كلّفهم الله تعالى بها، فهو مَصْدَرٌ، من قولك: هديت فلاناً الطريق، إذا أرشدته إليه، ودلّته عليه، وبيّنته له، أهديه هدىً وهدايةً^(١).

وأصل التقوى: التوقّي ممّا يكره، والمتقي اسمٌ فاعل من الوقاية، وهي فرطُ الصيانة، فهو الذي يصون نفسه عمّا يضرّه.

وسأل عمرُ بن الخطاب أبيّ بن كعب رضي الله عنه عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوْكٍ؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرتُ واجتهدتُ، قال: فذلك التقوى.

وأخذ هذا المعنى ابنُ المعتز فقال:

وَكَبِيرَهَا ذَاكَ الثَّقَى	خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا
ضِ الشُّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى	وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَر
إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى	لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً

وتدورُ أقوالُ العلماء في التقوى حول هذا المعنى.

فعن عليّ رضي الله عنه قال: التقوى تركُ الإصرارِ على المعصية، وتركُ الاغترارِ بالطاعة.

وعن الواقدي: أَنْ تُرَيْنَ سِرَّكَ لِلْحَقِّ كَمَا زَيَّنْتَ ظَاهِرَكَ لِلْخَلْقِ.

وقال الإمام الطبري: «إِنَّهُمْ الَّذِينَ اتَّقُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي رُكُوبِ مَا نَهَاهُمْ عَنْ رُكُوبِهِ، فَتَجَنَّبُوا مَعَاصِيَهُ، وَاتَّقَوْهُ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ فَأَطَاعُوهُ بِأَدَائِهَا»^(١).

وتخصيصُ الهدى بالمتقين لأنَّهم المنتفعون بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولاحظ الإمام الرازي التناسق بين هذه الجمل الأربعة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقال: «نُبَّةٌ أَوَّلًا عَلَى أَنَّهُ الْكَلَامُ الْمُتَحَدَّى بِهِ، ثُمَّ أُشِيرَ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ الْكِتَابُ الْمَنْعُوتُ بِغَايَةِ الْكَمَالِ، فَكَانَ تَقْرِيراً لِهَجَّةِ التَّحَدِّيِّ، ثُمَّ نُفِيَ عَنْهُ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِ طَرَفٌ مِنَ الرِّيبِ، فَكَانَ شَهَادَةً بِكَمَالِهِ، ثُمَّ أُخْبِرَ عَنْهُ بِأَنَّهُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ، فَقَرَّرَ بِذَلِكَ كَوْنَهُ يَقِيناً، لَا يَحُومُ الشَّكُّ حَوْلَهُ»^(٢).

والجدير بالذكر أَنَّ التقوى هي التعبيرُ العملي عن حقيقة الإسلام لله تعالى والاستسلام لأحكامه، ولهذا سنجدُ الآياتِ الكريمة للسورة ترتبطُ بين الأحكام التشريعية وبين التقوى.

● الإيمان بالغيب:

ثم يبيِّن الآياتُ الصفاتِ الأساسَ الكبرى للمتقين، وهي:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يصدقون بكلِّ ما أخبر الله تعالى به مما غاب عنهم.

فالغيب لغةً: كلُّ ما غابَ عن الإنسان، إذ الإنسان مخلوقٌ محدودٌ عقله،

(١) جامع البيان: ٧٧/١.

(٢) تفسير الرازي: ٢٥/٢.

والحقيقة لا تُعَرَفُ كُلُّهَا من خلال عقله وفهمه، بل ثمة مصدر آخر أعظم وأجل من عقل الإنسان، وهو الخبر الصادق عن الخالق العظيم جلّ وعلا، الذي وسع كل شيء علماً، فهو سبحانه وحده عالم الغيب والشهادة، كما سيأتي معنا في قصة بدء خلق الإنسان عند قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

وعالم الغيب أعظم بكثير من العالم المُشَاهِد المنظور المحسوس، والإنسان لا يزال مجهل كثيراً من بنيته المادية والروحية، وسيبقى الجزء الهام في الإنسان غيباً عن الإنسان نفسه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فضلاً عن العوامل الخارجة عنه.

والإيمان بالغيب شرعاً: التصديق بكل ما أخبر الله عنه، ولا شك أنه تعالى أوثق مصدر لمعرفة الحقيقة، والمؤمنون بالغيب لا يبنون إيمانهم على مجرد التخمين والحُدس والأوهام والتخيلات، فهذه أمور لا تصلح أن تكون أساساً لإيمان وتصديق، ولهذا ندّد سبحانه بأولئك الذين يبنون عقائدهم على مجرد الظن والتخمين والتقليد: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]. وقال قبل ذلك في السورة نفسها: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

فالمراد من قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ الذي دلّ عليه الدليل حتى أصبح بمنزلة المشاهد المحسوس، فالغيب إما أن يكون ممّا دلّ عليه الدليل، أو ممّا ليس عليه دليل، والمراد من هذه الآية مدح المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب الذي دلّ عليه دليل، بأن يتفكروا ويستدلّوا فيؤمنوا به، وعلى هذا يدخل فيه العلم بالله تعالى وبصفاته، والعلم بالآخرة، والعلم بالنبوة^(١).

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان،

الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان، الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد، الذي تدركه الحواس، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس، وهي نقلة بعيدة الأثر في تصوّر الإنسان لحقيقة الوجود كلّ، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وفي إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدرة وتدبير، كما أنها بعيدة الأثر في حياته على الأرض، فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته.

ولقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة، ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان، كجماعة الماديين في كل زمان، يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقري إلى عالم البهيمة، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس، ويسمّون هذا تقدّمية، وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها، فجعل صفتهم المميّزة صفة الذين يؤمنون بالغيب^(١).

والمراد من قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون، فالتصديق هو المعنى اللغوي لكلمة الإيمان.

قال ابن كثير: «الإيمان في اللغة يطلق على التصديق المحض، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١].

وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦].

فأمّا إذا استعمل مطلقاً، فالإيمان المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً، هكذا ذهب أكثر الأئمة، وحكاها الشافعي وأحمد إجماعاً، أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص^(٢).

(١) في ظلال القرآن: ٣٩/١ - ٤٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٩/١.

وقال أبو السعود العمادي: «وهو في الشرع لا يتحقق من دون التصديق بما علم ضرورة أنه من دين نبينا عليه الصلاة والسلام، كالتوحيد، والنبوة، والبعث، والجزاء ونظائرها.

وهل هو كاف في ذلك، أو لا بد من انضمام الإقرار إليه للمتمكن منه؟
الأول: رأي الشيخ الأشعري ومَن شايعه، فإن الإقرار عنده منشئ لإجراء الأحكام.

والثاني: مذهب أبي حنيفة ومَن تابعه، وهو الحق، فإنه جعلهما جزأين له، خلا أن الإقرار ركنٌ محتمل للسقوط بعذر، كما عند الإكراه.

وهو عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج مجموع ثلاثة أمور: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بموجبه، فمَن أخلّ بالاعتقاد وحده فهو منافق، ومَن أخلّ بالإقرار فهو كافر، ومَن أخلّ بالعمل فهو فاسق اتفاقاً، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة^(١).

والإيمان بالغيب الذي أخبر الله تعالى في كتابه أنه صفة المتقين، يدلُّ على ثقتهم الكاملة بالله تعالى، وبكل ما يخبرهم عنه جلّ وعلا، كما يدلُّ على الإسلام والاستسلام، والانقياد لدينه وشرعه سبحانه؛ ولهذا ذكره سبحانه في أوّل صفات المتقين، إذ هو أساس التقوى ومصدرها.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدّون الصلاة بشكل مستقيم على الوجه المشروع الذي كُلفوا به.

والصلاة في الأصل: الدعاء، وأي صلاة يؤدّيها العبد لا تخلو عن الدعاء، وهي أعظم العبادات البدنية الدالة على كمال الإسلام لله تعالى والخضوع له، ولهذا خصّها الله تعالى بالذكر هنا، كما ذكرت في آيات كثيرة في سورة البقرة وغيرها من السور.

(١) تفسير أبي السعود: ٣٠/١؛ وانظر: تفسير البياضي: ٤٤/١.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ومما أعطيناهم من المال ينفقون في وجوه الإنفاق المشروعة.

وإنفاق المال في الوجوه المشروعة عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى، وهي العبادة المالية التي تدلّ على الإسلام لله تعالى والخضوع لدينه وشرعه. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة وإنفاق المال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه، وتمجيده والابتهاال إليه، ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدّي إليهم^(١).

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين.

وهي الصفة اللاتئة برسالة الإسلام، الخاتمة للرسالات الإلهية، وقيمة هذه الصفة تظهر في الشعور بوحدة البشرية، ووحدة دينها، ووحدة رسالات رسلها، التي هي رسالة الإسلام لله تعالى وحده، وهو موضوع السورة الأساس كما ذكرنا.

فالمسلمون يؤمنون بالأنبياء والمرسلين جميعاً، الذين أخبر الله تعالى عنهم في القرآن الكريم، لا يفرقون بينهم، كما أخبر سبحانه في آخر سورة البقرة [٢٨٥]: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

• الإيمان بيوم القيامة:

﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: ويصدقون تصديقاً كاملاً لا شك فيه بالحياة

الآخرة يوم القيامة، وبما يكون فيها من إحياء للأَمْوات، وبعثهم من قبورهم، وحشرهم وحسابهم، ودخولهم إمّا إلى الجنة، وإمّا إلى النار.

واليقين: العلم المسبوق بالشك، ولذلك لا يوصفُ به الله تعالى.

والإيمان بالآخرة مظهرٌ عملي للإيمان بالغيب؛ لأنَّ الله تعالى أخبرَ عنها، فالإيمان بها مبنيٌّ على الخبر الصادق، وهو من أعظم قضايا الإيمان؛ لاتصاله اتصالاً وثيقاً بالإيمان بالله تعالى ووحدانيته وكمالهِ جلّ وعلا، ولا يعرفُ الإنسانُ قيمةَ وجوده، وحكمةَ الله تعالى من خلقه إلّا إذا آمنَ بمسؤوليته أمام خالقه جلّ وعلا يوم القيامة، فهو مفرقُ الطريق بينَ مَنْ يعيش بين جدران الحسّ المغلقة، وبين مَنْ يعيشُ في الوجود المديد، ومَنْ يشعر بأنَّ حياته على الأرض ابتلاءٌ يمهدُ للجزاء، وأنَّ الحياة الحقيقية إنما هي هنالك وراء هذا الحيزِ الصغير المحدود^(١).

هذه هي الصفات الأساس الكبرى للمتقين، وهذه هي سماتُ عقيدتهم وعبادتهم وشريعتهم؛ ولهذا التفتت الآياتُ بأسلوبِ التقريرِ إلى الشناءِ على المتّصفين بها بقوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: أولئك المتّصفون بهذه الصفات، المتميزون بها عن غيرهم من الناس، على هُدًى من ربهم، لأنهم تمسكوا بتعاليم الكتاب المنزل عليهم من ربهم، الذي وصفه تعالى بقوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وأفاد معنى الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَى هُدًى﴾ تمكّنهم من الهدى، واستقرارهم عليه، وتمسكهم به، بحيث شبّهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه، ونحوه: هو على الحق أو على الباطل^(٢).

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤١/١.

(٢) تفسير النسفي: ٤٨/١.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الناجون الفائزون، نجوا من عذاب الله تعالى، وفازوا برضوانه وجنته.

وأفاد تكرار اسم الإشارة، وتوسيط ضمير الفصل، اختصاص المتقين بالهدى والفلاح، فهم وحدهم المهتدون الفائزون.

• هرم الجحود والفساد:

تبين لنا من خلال الصفات التي ذكرتها الآيات للمتقين، أنهم المستسلمون لله تعالى، والخاضعون لجلاله علماً وعملاً، عقيدةً وشريعةً.

وشرعت الآيات في مقابل المستسلمين له تعالى، تتحدث بأسلوب التقرير عن الذين لم يتصفوا بهذه الصفة، فقسّمتهم إلى ثلاث فئات:

الأولى: الكافرون جحوداً وعناداً.

والثانية: المنافقون، وهم نوعٌ مخصوص من الفئة الأولى.

والثالثة: أهل الكتاب، وهم أيضاً نوعٌ مخصوص من الفئة الأولى.

ويلاحظ المتدبر للآيات الكريمة أنها أوجزت الحديث عن الفئة الأولى، ثم فصلت بعض الشيء أحوال الفئة الثانية، ثم بعد ذلك فصلت وأفاضت في بيان أحوال ومواقف الفئة الثالثة، وكأن الآيات بهذا رسمت هراً، وضعت على قمته الكافرين، ثم جعلت وسطه للمنافقين، وخصّصت قاعدته العريضة لأهل الكتاب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا وأنكروا صحة الكتاب الذي لا ريب فيه، وهو القرآن الكريم، وأصل الكُفر في كلام العرب: الستر والتغطية، ومنه قول الشاعر:

في ليلة كفر النجوم غمأمها

أي: سترها، ومنه سُمِّيَ الليلُ كافرًا؛ لأنه يَغْطِي كلَّ شيءٍ بسواده، والكافِرُ: الزارعُ، والجمع كفَّار، قال تعالى: ﴿كَثَلْ غَيْثٍ آجِبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ﴾ [الفتح: ٢٩] يعني الزَّارِع، لأنهم يَغْطُونَ الحَبَّ بالتراب^(١).

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: متساوٍ لديهم.

﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ أي: خوَّفْتَهُمْ وحَذَرْتَهُمْ، والإنذارُ: إعلام مع تخويف^(٢).

﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بسبب عنادهم وجحودهم.

وهذا يدلُّ على كمال علم الله تعالى، فهو سبحانه عليم بأحوال الناس، ومدى استجابتهم لدعوة رُسُلِهِ قبل أن يرسلَ إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، ولكنَّه سبحانه لا يعاملُ الناسَ بحسب علمه بهم جلَّ وعلا، إنَّما يعاملهم بحسب أعمالهم، وما يكون من اختيارهم وكسبهم؛ ولهذا أرسلَ إليهم الرُّسل، وأنزل عليهم الكتب، وبيَّن لهم الشرائع، وجعل لهم مشيئةً واختياراً، وزوَّدهم بوسائل التمييز والتمكين: العقل والسمع والبصر، فلا حجةَ لهم بعد كل ذلك إنَّ أعرضوا عن الحق، وجحدوا أدلَّتْه وشواهدُه التي لا ريب فيها، ولم يوجَّهوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم إليها.

• خَتَمَ وَطَبَعَ:

ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أي: طبع عليها وغطَّاها، فلا تعي خيراً ولا تفهمه.

والختم: مصدر ختمتُ الشيءَ ختماً فهو مختومٌ، ومعناه: التغطية على الشيء والاستيثاق منه، حتَّى لا يدخله شيء، ومنه: ختم الكتاب والباب.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١/١٨٣.

(٢) تفسير الخازن: ١/٥٠.

﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غُشُوَةٌ﴾ أي: وجعل على أبصارهم غشاوة، وهي الغطاء.

والمراد بالختم والغشاوة هنا المعنويان لا الحسيَّان، أي: لما كانت قلوبهم غير واعية لما وصل إليها، والأسماع غير مؤدية لما يطرقتها من الآيات البيِّنات إلى العقل على وجه مفهوم، والأبصار غير مهدية للنظر في مخلوقاته وعجائب مصنوعاته، جُعِلَتْ بمنزلة الأشياء المختوم عليها ختماً حسيّاً^(١).

فسبب الختم والتغطية نابغ من داخل نفوسهم، من كسبهم واختيارهم، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال ابن جرير الطبري: «والحقُّ عندي في ذلك ما صحَّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً كَانَتْ نَكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]» [رواه الترمذي (٣٣٣١) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤١٨) وابن ماجه (٤٢٤٤) وقال الترمذي: حسن صحيح].

فأخبر ﷺ أَنَّ الذنوبَ إِذَا تَابَعَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقَتْهَا، وَإِذَا أَغْلَقَتْهَا أَتَاهَا حِينَئِذٍ الْخَتْمُ وَالطَّبْعُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِلَيْهَا مَسْلَكٌ، وَلَا لِلْكَفْرِ عَنْهَا مَخْلَصٌ، فَذَلِكَ هُوَ الْخَتْمُ وَالطَّبْعُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾^(٢).

فالقوم هم الذين عطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم عن شواهد الحق

(١) انظر: فتح القدير: ٣٩/١.

(٢) جامع البيان: ٨٧/١.

وأدلته، كما صرّحت الآية الكريمة بذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ هُم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].
 ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بسبب كفرهم وعنادهم وإعراضهم عن شواهد الحق وأدلته.

● المنافقون:

ونزلت الآيات من قمة هرم الجحود والعناد، إلى نوع مخصوص من أنواع الكفر جحوداً وعناداً، وهم المنافقون الذين يُبطنون الكفر ويظهرون الإيمان، ووقفت الآيات عندهم تفصل أحوالهم، وتبين بعض مواقفهم، وتضرب لهم بعض الأمثال الكاشفة لحقائقهم، قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيُوْا الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ ۝٨﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: وبعض الناس.

﴿مَن يَقُولُ﴾ بلسانه.

﴿ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتِيُوْا الْآخِرَ﴾ أي: آمنا بالله الواحد الأحد، وبالمسؤولية والحساب والجزاء أمام يوم القيامة، والإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر أعظم قضايا الإيمان وأهم أركانه، ولهذا خصّهما سبحانه بالذكر، وكان المنافقون يعلنون إيمانهم بالله واليوم الآخر أمام المؤمنين، لأنهما يدلّان على صحّة الإيمان وتمامه.

﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ﴾ في الحقيقة والواقع، وبهذا نفى سبحانه عنهم الإيمان نفياً قاطعاً، وكذب ادّعاءهم، كما قال في [المنافقون: ١]: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

فلا يصحّ الإيمان إلّا إذا وافق القلب اللسان، وكان انقياد الإنسان قلباً وقالباً، علماً وإذعاناً وسلوكاً.

﴿يُخٰدِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩)

﴿يُخٰدِعُونَ اللّٰهَ﴾ في زعمهم، لأنهم يظنون أن الله سبحانه ممن يصح خداعه، وقرئ: (يخدعون).

والخدعة: الحيلة والمكر، وأصله في اللغة: الإخفاء، والمخادع يُظهر ضد ما يُضمر^(١).

ومخادعة المنافقين ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ويخادعون الذين آمنوا لكي يعاملوهم معاملة المسلمين.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ﴾ وفي قراءة: (وما يخادعون) لأن ضرر المخادعة

يعود عليهم، فمن خدع من لا يُخدع فإنما يخدع نفسه، لأن الخداع يكون مع من لا يعلم البواطن، وأما من علم البواطن فمن دخل معه في الخداع فإنما يخدع نفسه، ودل هذا على أن المنافقين ما عرفوا الله تعالى، إذ لو عرفوه لعرفوا أنه لا يُخدع^(٢).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن حاصل خداعهم يرجع عليهم.

والشعور: علم الشيء علم حس، ومشاعر الإنسان حواسه، لأنها آلات

الشعور، فهم لتمادى غفلتهم كالذي لا حس له^(٣).

فما أشد غفلتهم، وما أقبح اغترارهم بأنفسهم!

• مرض وفساد:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠)

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: في قلوب المنافقين شك ونفاق، وحقد وحسد.

(١) انظر: تفسير الخازن: ٥٦/١.

(٢) تفسير القرطبي: ١٩٦/١.

(٣) تفسير النسفي: ٥٧/١.

والمرضُ: ضدّ الصّحّة، وهو اسمٌ لكل فساد وخلل، والمنافقون هم أصحاب القلوب المريضة، ولا شك أنّ النفاق والشك والحقد والحسد أمراض معنوية، هي أشدّ خطراً من الأمراض الحسيّة؛ لأنها تؤدّي إلى خلل واضطراب في دين الإنسان وسلوكه وخلقه.

﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أي: زادهم شكّاً وكفراً ونفاقاً وضلالاً... إلخ، والجزاء من جنس العمل، وهو كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ رَجَسًا إِلَى رَجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقد يكون المعنى المراد دعاء عليهم جزاء نفاقهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم القيامة، فهم أشدّ أهل النار عذاباً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ في قولهم: ﴿ءَاْمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

والنفاق من أخطر الآفات التي تصيب المجتمعات، فإذا ما انتشر في المجتمع أفسده، وأحدث فيه الخلل والاضطراب والفتن؛ لأنّ المنافقين يعملون على نشر الفساد، وإحداث الفتن بين الناس، وإفشاء أسرار المجتمع إلى أعدائه، وإذا ما نصّحهم ناصح بأن يتّقوا الله تعالى، ويكفّوا عن الفساد والإفساد، ادّعوا لأنفسهم صفة الإخلاص والصلاح، قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

أي: لا ينبغي مخاطبتنا بذلك؛ لأنّ شأننا ليس إلّا الإصلاح.

وردّ الله تعالى دعواهم هذه أبلغ ردّ، مما يدلّ على شدّة سخطه سبحانه عليهم، فقال:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

لا يشعرون أنهم مفسدون، فما هم عليه هو مصدر الفساد وبؤرة الشر، ولكن لفرط جهلهم و حماقتهم لا يعلمون أنّه شرٌّ وفسادٌ.

• سفة وجهل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أي: آمنوا إيماناً خالصاً لا شك فيه ولا نفاق، كما آمن أصحاب النبي ﷺ؛ أجابوا بتكبر وعناد: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾؟! أي: لا نؤمن كما آمن السفهاء، فالاستفهام في كلامهم للإنكار.

وأصل السفه في كلام العرب الخفة والرقّة، يقال: ثوبٌ سفيه، إذا كان رديء النسج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً، وتسفت الریح الشجر: مالت به، وتسفت الشيء: استحقرتُه، والسفه ضدّ الحلم^(١).

والسفهاء: الجهال الخرفاء المتصفون بقلّة العقل والخفة والاضطراب. ولا يخفى ما في كلامهم من تعريض المؤمنين، فلا بدّ أن يكون قد صدر عنهم سرّاً أو فيما بينهم، وقد ردّ سبحانه عليهم أبلغ ردّ فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم هم السفهاء، وبهذا وصفهم الله تعالى بصفتي السفه والجهل.

ومما يدلّ على أنهم كانوا يقولون ذلك سرّاً لا جهراً، أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان أمام المؤمنين:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٤).

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي: آمنا بما آمنتم به، أو آمنا إيماناً كإيمانكم.

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: إذا انفردوا مع رؤسائهم بالكفر والنفاق، كعبد الله بن أبي ابن سلول، أو مع أحبار اليهود ورؤسائهم الذين تعلموا النفاق منهم.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في العقيدة الفاسدة والكفر والشرك فاطمئنا، فنحن ثابتون على ما أنتم عليه، وما أظهرنا الإيمان إلا استهزاء وسخرية.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ أي: مستخفون بالمؤمنين.

والاستهزاء: السخرية والاستخفاف، ولا شك أن المستهزئ بالشيء منكر له.

وتدل الآية على أن الشياطين يكونون من الإنس كما يكونون من الجن، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وسموا بذلك لشدة تمردهم وكفرهم.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يجازيهم على استهزائهم، ويعاملهم سبحانه معاملة المستهزئ بهم، وينزل بهم الهوان والحقارة وينتقم منهم.

وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة، مشاكلة، وقد كانت العرب إذا وضعت لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء، ذكرته بمثل ذلك اللفظ، وإن كان مخالفاً له في معناه، وورد ذلك في القرآن كثيراً، ومنه: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٠] (١).

وسياي معنا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وبيّن تعالى كيف يستهزئ بهم فقال:

(١) انظر: فتح القدير: ٤٤/١.

﴿وَيَبْذُوثُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يمهلهم ويتركهم في ضلالهم يتحيرون ويترددون، فلا يعاجلهم سبحانه بالعقوبة كي يزدادوا ضلالاً وحيرة وقلقاً واضطراباً، كما قال في سورة مريم [٧٥]: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ بَيْعَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الضلالة على الهدى، واستبدلوها به، وفضلوها عليه، فأخذوا الضلالة، وأعرضوا عن الهدى.

﴿فَمَا رَبَحَتِ بَيْعَتُهُمْ﴾ بل خسروا خسارةً كبيرة لا تعوّض، شأنهم كشأن الذي قال تعالى فيه: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ في تجارتهم، فقد يخسر التاجر، ويكون على هدى في تجارته، غير مستحق للذم في تصرفه، فنفى الله تعالى عن المنافقين الأمرين، فما ربحوا، ولا أحسنوا التصرف، مبالغة في ذمهم^(١).

• قلق وحيرة:

واهتمام الآيات بالمنافقين وتفصيل أحوالهم، يدلُّ على خطورة النفاق، وعمق تأثيره بالمجتمع، وتأكيداً لهذا الخطر ضربت الآيات للمنافقين المثاليين التاليين؛ أما المثال الأول، ففي قوله تعالى:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أي: حالهم كحال الذي أوقد ناراً، ويبدو

أنه كان في ظلمة ووحشة وخوف، وأنه أوقد النار لكي يستضيء بها، ويأنس بنورها ويأمن.

﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ أي: فلما أنارت النار ما حول مُوقِدِهَا، وبددت الظلمة المحيطة به، وزالت عنه الوحشة، وشعر بشيء من الأمن والأنس.

﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أي: أخذ الله تعالى نورهم، وأمسكه، وعادوا إلى الظلمات كما كانوا قبل ذلك.

وانتقلت الآية من صيغة المفرد إلى صيغة الجمع لتبين أنّ المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد، حتى يلزم منه تشبيه الجماعة بالواحد، وإنما شبّهت قصّتهم بقصة المستوقد^(١).

﴿وَتَرَكُوهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ الشك والكفر والنفاق والحيرة، والظلمة الحادثة بعد الضوء أشدّ على الإنسان من ظلمة لم يسبقها ضياء.

﴿لَا يُصْرون﴾ ما حولهم ولا يهتدون إلى سبيل خير ورشاد. والتشبيه هاهنا في نهاية الصلّة؛ لأنّهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة، فإنّه لا حيرة أعظم من حيرة الدين^(٢).

وإلى جانب ما هم فيه من ظلمات الكفر والنفاق والحيرة، فهم متّصفون بتعطل جوارحهم عن الانتفاع بها، فهم:

﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿صُمُّ﴾ عن استماع الحق، جمع أصمّ، وهو الذي لا يسمع.

﴿بُكْمٌ﴾ عن التكلّم به، جمع أبكم، وهو الذي لا يتكلّم.

﴿عُمْى﴾ عن رؤية أدلة الهدى وشواهد الحق، جمع أعمى، وهو الذي لا يبصر.

(١) تفسير الرازي: ٨٢/٢.

(٢) المرجع السابق: ٨١/٢.

فهم كالمختوم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم كما مر معنا [انظر: سورة البقرة: ٧] في وصف حال الكافرين جحوداً وعناداً.

﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يعودون إلى الهدى ما داموا متّصفين بهذه الصفات. وقد يكون المعنى أنهم بمنزلة المتحيرين المتردّدين، يقفون في مكانهم لا يبرحون، ولا يدرون أيتقدّمون أم يتأخّرون^(١)!؟.

• الخائفون من النور:

وأما المثال الثاني ففي قوله تعالى:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَّرَعٌ وَيُرَقُّ يَجْعَلُونَ أَصْبعَهُمْ فِيْٓ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَءِ حَذَرٌ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: مثل المنافقين مع الكتاب الذي لا ريب فيه كمطرٍ من السحاب، فكلّ ما علاك فأظلك فهو سماء.

والصيّب: المطر الذي يصوّب، أي: ينزل ويقع، ويقال للسحاب: صيّب أيضاً، ودلّ تنكيره على أنه مطر شديد هائل^(٢).

﴿فِيهِ ظُلُمٌ﴾ أي: معه ظلمات، ظلمة تكاثفها، وظلمة سحابها، وظلمة الليل.

﴿وَرَعٌ﴾ وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب، لاصطكاك أجزائه.

﴿وَيُرَقُّ﴾ وهو الذي يلمع من السحاب، من: برق الشيء بريقاً إذا لمع.

هذا ما ذكره كثير من قدماء المفسّرين، كالفخر الرازي والبيضاوي والنسفي، وهو قريبٌ من النظرية العلمية المعاصرة في تفسير ظاهرة الصاعقة، وما يصاحبها من رعد وبرق، التي تقول: الصاعقة هي عملية تفريغ كهربائي، تحصل خلال طقسٍ عاصفٍ، بين غيومٍ مشحونة كهربائياً، بعضها موجبٌ،

(١) انظر: تفسير الرازي: ٨٤/٢.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٦٩/١.

وبعضها سالبٌ، فنتج عن عملية التفريغ هذه ظاهرة مرئية مضيئة تُعرَف بالبرق، وظاهرة أخرى صوتية تسببها موجات الضغط الناتجة عن عملية التفريغ، ويُعرَف هذا الصوت بالرعد.

والطقسُ العاصفُ هذا يسببه سوق المَلَكِ للسحاب وزجره؛ كما ورد في الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ» فقالوا: فما هو الصوت الذي نسمع؟ فقال: «رَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أَمَرَ» [رواه الترمذي (٣١١٧) وقال: حسن صحيح غريب^(١)].

لكن ظواهر الآيات القرآنية تدلُّ على أَنَّ السحاب تسوقه الرياح، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَيَسُطُّهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

وللتوفيق بين النصوص القرآنية وبين الحديث الشريف، نقول: إنَّ الرياح تحمل بتقدير الله تعالى السحاب من الآفاق البعيدة، إلى حيث يشاء الله تعالى نزول المطر، وأما اضطرابُ السحاب واحتكاكه المؤدي إلى ظاهرتي الرعد والبرق فيكون بفعل المَلَكِ المُوَكَّلِ بذلك، والكلُّ بتقديره جلّ وعلا وتديره.

أو نقول: إنَّ للرياح أيضاً ملائكة مُوَكَّلَةً بها، توجهها وتحركها كما يشاء الله تعالى العليم الحكيم، وما هذه النواميس والقوانين التي يفسر العلماء بها هذه الظواهر، إلا أسبابٌ أبدعها خالق الأسباب والمسببات جلّ وعلا.

ثم وصفت الآياتُ حال هؤلاء الناس عند نزول المطر عليهم، ومعه الرعد والبرق، بقوله تعالى:

(١) قرّة العينين على تفسير الجلالين، ص ٣٢٢.

﴿يَجْعَلُونَ أَصْنَعُهُمْ فِي إِذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ﴾ وهذا يدل على شدة خوفهم من الصواعق، جمع صاعقة، وهي جسم ناري مع قصفة رعد هائل، يهلك من يصاب بها، وتطلق أيضاً على صيحة العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٣].

وسياتي معنا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي: خوفاً من الموت والهلاك.

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فهم في قبضة قدرته سبحانه لا يفوتونه.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠).

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي: يذهب بأبصارهم ويسلبها بسرعة.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ أي: كلما لمع البرق مشوا في نوره.

﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي: وقفوا متحيرين.

وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين، كشدته على أصحاب الصيِّب، وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون، إذا صادفوا من البرق خفقة، مع خوف أن يخطف أبصارهم، انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة، فإذا خفي وفتر لمعانه بقوا واقفين مقيدتين عن الحركة^(١).

ثم بين الله تعالى كمال قدرته فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ أي: ولو شاء الله لزداد في قصف الرعد فأصمهم، وفي ضوء الرعد فأعماهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ولعلّ هذا المثال يبيّن شدة الصراع المحتدم في صدور المنافقين؛ بين أنوار الشواهد القرآنية الساطعة، وبين ظلمات الكفر والنفاق والعناد والجحود، التي تملأ قلوبهم ونفوسهم.

● قضيتان هامتان:

وبعد أن أنهت الآيات حديثها عن المنافقين، استطردت إلى بيان قضيتين هامتين، قبل أن تنزل إلى قاعدة هرم الجحود والعناد، وتشرع في الحديث عن مواقف أهل الكتاب:

الأولى: بيان عموم وشمول الرسالة الإسلامية: وعرض بعض مؤيدات صحتها وصدقها.

والثانية: بيان نظرة الإسلام إلى الإنسان: ووحدة الأصل الإنساني، وكيف شرفه الله تعالى باستخلافه في الأرض، وتكليفه وجعله مسؤولاً أمامه يوم القيامة.

واستهلت الآيات الحديث عن القضية الأولى، بهذا النداء الإلهي الموجه إلى جميع الناس، وهو أول نداء في القرآن الكريم بحسب ترتيب المصحف:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والمراد منهم كل الناس الموجودين في عصر التنزيل، ومن يأتي بعدهم.

فالخطاب متجدد دائماً إلى كل جيل من أجيال الناس؛ لأن الله تعالى أنزل القرآن الكريم لكل الأجيال، وتكفل بحفظه، وسبقي هذا الكتاب الذي لا ريب فيه محفوظاً، يخاطبُ الناس بأسلوب الأمر الصريح الملزم قائلاً:

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ أي: أطيعوا ربكم بتوحيده والتزام دينه وشريعته،

والاستسلام لأمره، فهو ربكم الذي خلقكم ويربيكم بما يمدكم به من أسباب العيش والحياة، لا ربّ لكم سواه جلّ وعلا.

قال القرطبي رحمته الله: «﴿اعْبُدُوا﴾ أمر بالعبادة، والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه، وأصل العبادة الخضوع والتذلل، يقال: طريق معبّدة، إذا كانت موطوءة بالأقدام، والعبادة شرعاً: الطاعة»^(١).

والربّ: المربّي بالإيجاد والإمداد، ولهذا قال تعالى:

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: الذي أوجدكم وأنشأكم، والذين من قبلكم، فالخالق واحد لا شريك له جلّ وعلا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتّقين.

فكلمة (لعلّ) للترجّي والإطماع، ولكنه إطماعٌ من كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه^(٢).

وتشير الآية إلى أن العابد ينبغي ألا يغترّ بعبادته، بل يكون ذا خوف ورجاء في وقت واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

ودلّت الآية على أن التقوى أعلى درجات العبادة، وقد مرّ معنا في أول السورة [٢] أنه تعالى أنزل القرآن الكريم هدىً للمتّقين، وذكرنا هناك أن التقوى هي التعبير العملي عن إسلام الإنسان لله تعالى.

● الإنسان والأرض والسماء:

ثمّ بيّنت الآيات بعض الأدلة الدالة على وجوده سبحانه، وعلى جوده وفضله وإحسانه، وكيف أنه أمدّ الإنسان بكل الأسباب التي يحتاج إليها في حياته ومعيشته على الأرض فقال تعالى:

(١) تفسير القرطبي: ١/٢٦٦.

(٢) تفسير النسفي: ١/٧٥.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي: الذي جعل لكم الأرض كالفرش، تتقلبون عليها، وتنامون عليها كما تتقلبون وتنامون على الفراش.

والمراد أنه: سبحانه جعلها ملائمة لحياتكم، ومستخرّة ومذلّة لمعيشتكم عليها، وقد ذكر سبحانه مثل هذا المعنى في آيات كثيرة، منها: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣].

ومنها: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩].

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي: وجعل السماء كالسقف للأرض، أو كالقبة المضروبة فوقها، ويقال لسقف البيت: بناء، وقد سمى سبحانه السماء سقفاً في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ويقال: بنى على أهله - والعامة تقول بنى بأهله، وهو خطأ - وكأن الأصل فيه أن الداخل بأهله كان يضربُ عليها قبة ليله دخوله بها، ف قيل لكل داخل بأهله: بان^(١).

فالبناء فيه معنى الرفع، كما في قوله: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرِ السَّمَاءَ بَنَاءً﴾ (٢٧) رَفَعَ سَعَهَا فُسُوفَهَا [النازعات].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: أنزل من السحاب الذي في جهة السماء ماء.

فالمطر ينزله الله تعالى من السحاب، بصريح قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣].

وإنزال المطر من الظواهر الكونية الدالة على وحدانيته جلّ وعلا، وعلى فضله وإحسانه، فالمطر ضروري لحياة الإنسان، منه شرابه وغذاؤه، كما قال

تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨) لِنُخْشِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُشْفِيَهُ وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ .

ولم يستطع الإنسان في كلِّ عصوره حتى عصرنا الحاضر أن يستغني عن ماء المطر، رغم ما أُوتي من وسائل التمكين والقوة، فلم تغنه السدود التي أنشأها، والمياه الجوفية التي استخرجها عن ماء السماء، فلا يزال المطر أعظم وأهم مصادر المياه العذبة بالنسبة للإنسان، ولا تزال الآيات الكريمة تفرع مسامع البشر بأسلوب التحدي: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] .

ويتوقف أيضاً طعام الإنسان على ماء المطر:

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ أي: بماء المطر.

﴿مِنَ الشَّجَرِ﴾ أي: من ألوان الثمار وأصناف النبات.

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾: فأنتم أيها الناس المنعم عليكم، والمطر أنزله الله تعالى من أجلكم، فعليكم أن تعبدوه وحده، وتستسلموا لأحكام دينه وشريعته:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: فلا تجعلوا لله تعالى أمثالاً وأكفأ ونظراء، فهو سبحانه وحده الخالق المنعم، المستحق للعبادة والطاعة.

والند: المثل، ولا يقال إلا للمخالف المماثل في الذات، من: ندّ ندوداً إذا نفر، وناددت الرجل: خالفته، قال حسان رضي الله عنه:

أَنْهَجَوْهُ وَلَسَتْ لَهُ بِنْدٌ فَشَرُّكُمَْا لِحَيْرُكُمَْا الْفِدَاءُ^(١)

﴿وَأَنْتُمْ تَقْلُمُونَ﴾ أنه سبحانه هو الخالق المنعم، فهو إذاً وحده المستحق

للعبادة والطاعة، يتنزه عن الند والصدّ والشريك والولد.

ودلت الآية أنّ على الإنسان أن ينظر ويفكر، ويبني إيمانه على الدليل والبرهان، لا على مجرد التقليد الأعمى الذي لا نظر معه ولا استدلال، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنى في آيات السورة.

● التحدي بالقرآن:

وكما أنزل الله سبحانه المطر حياة لأبدانكم وغذاء لأجسامكم، أنزل القرآن الكريم حياة لقلوبكم وغذاء لأرواحكم، فهو الكتاب الذي لا ينبغي لأحد أن يرتاب في صدقه وصحته؛ لأنه كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحمل في كل سورة من سوره مؤيدات صدقه، وأدلة صحته، قال تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٣)

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: وإن جعلكم العناد والجحود في ريب من القرآن الكريم الذي نزلناه على عبدنا محمد ﷺ، وهو الكتاب الذي لا ريب فيه.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: هاتوا مما يماثله مقدار سورة من سوره، وهو أمر تعجيز وتحدي.

والسورة: اسمٌ مجموعة من آيات القرآن الكريم مقرون بعضها ببعض بشكل تستقل به عن غيرها، ويربطها موضوع واحد تدور في فلكه.

ولفظُ السورة لغةً منقولٌ من سور المدينة، لأنها محيطةٌ بطائفة من القرآن، أو من السورة بمعنى الرتبة والمنزلة الرفيعة، فسور القرآن منازلٌ ومراتبٌ، يترقى فيها القارئ، أو سُميت بذلك لكمالها وتماها، فلكل سورة موضوعها الأساس، ولها أيضاً أسلوبها المميز، وجرسها الخاص بها. وفي القرآن الكريم مئة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر، وفي الألفاظ والمعاني، وفي الأساليب والنظم والجرس، أطولها سورة البقرة، وأقصرها سورة الكوثر.

ويدلُّ قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ على أنه جلّ وعلا تحدّاهم بمقدار سورة الكوثر، وهو أدنى درجات التحدي، إذ تحدّاهم سبحانه أولاً بأن

يأتوا بمثل القرآن الكريم، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ۖ إِنَّ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطُّور].

ثم تحداهم بمقدار عشر سور مثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هُود: ١٣].

ثم نزل بهم إلى مقدار سورة من قصار سوره، كما في قوله هنا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

قال ابن كثير رحمته الله: «قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ وقوله في [يونس: ٣٨]: ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يعنى كل سورة في القرآن، طويلة كانت أو قصيرة، لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم، كما هي في سياق النفي، عند المحققين من الأصوليين، كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً»^(١).

ولا يزال هذا التحدي قائماً يتردد صداه في جنبات الدنيا، يدل على أن القرآن كتاب لا ريب فيه، وأنه كلام الله تعالى، المنزل على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين.

ولو وصف النبي صلى الله عليه وسلم بصفة العبودية في هذا الموضع دلالات متنوعة متكاملة، فهو أولاً تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم، وتقريب بإضافة عبوديته لله تعالى؛ دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر، ويدعى به كذلك، وهو ثانياً تقرير لمعنى العبودية في مقام دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده، وإطراح الأنداد كلها من دونه، فهذا هو ذا النبي صلى الله عليه وسلم في مقام الوحي، وهو أعلى مقام، يدعى بالعبودية لله، ويشرف بهذه النسبة في هذا المقام^(٢).

وفي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة، تنبيه

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٣/١.

(٢) في ظلال القرآن: ٤٨/١.

على عظيم قدره، واختصاصه به، وانقياده لأوامره، وفي ذلك غاية التشريف والتنويه بقدره ﷻ.

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي^(١)
ولم يقتصر التحدي على المعارضين المعاندين وحدهم، وإنما امتد إلى كل من يؤيدهم، ويشهد معهم، فقال:

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ادعوا إلى المعارضة من حضركم، أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله ﷻ^(٢).

فالشهداء: جمعُ شهيدٍ، بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر أو الإمام، وكأنه سُمي به لأنه يحضر النوادي، وتبرم بمحضرة الأمور، ومنه قيل للمقتول في سبيل الله: شهيد؛ لأنه حضر ما كان يرجوه، أو الملائكة حضره^(٣).

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن القرآن الكريم من كلام البشر، وأن محمداً ﷺ نقوله من نفسه!.

• ترهيب وترغيب:

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٤).

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ وعجزتم عن معارضته بمثل سورة من سوره.

﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ مع شدة حرصكم على معارضته وإطفاء نوره.

﴿وَلَنْ﴾ لنفي المستقبل نفياً مؤكداً، وهو غيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

وما أكثر أعداء الإسلام، وما أشد حرصهم على إطفاء نور القرآن! ومن

(١) روح المعاني: ١٩٣/١.

(٢) انظر: تفسير البضاوي: ٨٠/١.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه.

المعلوم أنَّ الكافرين بالقرآن أكثر بكثير من المؤمنين به، ولو أنَّهم جاؤوا بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجَّةُ القرآن الكريم، ولكنَّهم عجزوا حتى الآن عن معارضته، ولن يتمكَّنوا من ذلك، وفي عجزهم هذا الذي استمرَّ حتى الآن أربعة عشر قرناً دليلاً واضحاً على أنَّه كلام الله تعالى علَّام الغيوب.

وقال سيّد قطب رحمته الله: «والتحدِّي هنا عجيبٌ، والجزمُ بعدم إمكانه أعجبٌ، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة، وما مِنْ شكٍّ أنَّ تقرير القرآن الكريم أنَّهم لن يفعلوا، وتحقِّق هذا كما قرَّره، هو بذاته معجزةٌ لا سبيلَ إلى المماراة فيها»^(١).

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أي: فآمنوا به - يعني القرآن - واتقوا العذاب المعدَّ لمن كذب به، وأعرض عنه.

﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: حطبُها الناسُ المكذبون برسالة القرآن الكريم، والأصنامُ المصنوعةُ من الحجارة، التي عبَّدت من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

ولا شكَّ أنَّ النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ نارٌ عظيمةٌ هائلةٌ.

﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: هيَّئت لهم، وهذا دليلٌ على أنَّ النارَ مخلوقةٌ ومهيأةٌ لاستقبال الجاحدين والمعاندين.

ومن أساليب القرآن الكريم التربوية أنَّه يقرن التهيب بالترغيب، فكُلَّمَا ذكر سبحانه آياتَ رهبةٍ أتبعها بآياتٍ رغبةٍ، لعلَّ الذي لا تربيه الرهبةُ أن تربِّيه الرغبةُ، ولهذا قال تعالى في سياق التهيب الذي مر معنا، وقد أتبعه بالترغيب:

(١) في ظلال القرآن: ٤٨/١.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٥).

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم الذين أسلموا أنفسهم لله تعالى، قلباً وقالباً، وعلماً وعملاً.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ في الجنة، التي هي دارُ النعيم والثواب.
والجنة: البستان ذو الظلال الكثيفة الممتدة.

﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار.

وهذا وصف للجنة بأقصى ما يتصوره الإنسان من الجمال، وإلا فنعيم الجنة لا يُقاس بشيء من جمال الدنيا وزينتها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ويكفي لنعلم أن أنهار الجنة ليست كأنهار الدنيا أن نقرأ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وتختلف أيضاً ثمار الجنة عن ثمار الدنيا؛ ولهذا قال تعالى:

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قال أهل الجنة: هذا مثل الذي رزقنا من قبل في الدنيا؛ لأنه سبحانه جعل ثمر الجنة يشبه ثمر الدنيا في الصورة لتميل النفس إليه أول ما تراه.

﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ أي: يشبه ثمر الجنة ثمر الدنيا بالاسم والصورة فقط.

ويمكن أن يكون المعنى: وأتوا بثمر الجنة يشبه بعضه بعضاً في الصورة، ولكنهم يفاجؤون عند تناوله باختلاف في طعمه ورائحته، فتكون اللذة المفاجئة أحلى وقعاً على قلوبهم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من أي عيب ونقص في خلقهن وخلقهن.

فساء الجنة كاملات في جمالهن وأخلاقهن. وفوق كل هذا النعيم:

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: باقون فيها أبداً، لا يخرجون منها، ولا يموتون، كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

• الأمثال في القرآن الكريم:

ويبدو أن المشركين بدل أن يستجيبوا لتحدي القرآن الكريم، أثاروا بعض الشبهات حول بعض أمثاله، وذكر المفسرون أن بعضهم اعترض على بعض الأمثال الواردة في القرآن الكريم، فأنزل الله تعالى ردّاً على اعتراضهم قوله الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ أي: إنه سبحانه لا يترك ضرب أي مثل إذا كان محكماً مفيداً، فالأمثال القرآنية تقرّب المعاني للناس، وتساعدهم على تعقلها وفهمها، فهي تدلّ على رحمته سبحانه بعباده، قال تعالى: ﴿لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد ضرب تعالى مثلين بالذباب والعنكبوت، فقال:

١ - ﴿يَتَذَكَّرُ النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

٢ - ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

ومع أن هذين المثلين في غاية الإحكام والبلاغة والفصاحة والاتقان، إلا أن بعض أهل الكتاب من اليهود بسبب جهلهم وعنادهم، اعترضوا عليهما وقالوا: ما هذا من الأمثال، ولهذا قال تعالى في معرض الردّ عليهم:

﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: بعوضة وما هو أعظم منها في الجُثَّة، أو بعوضة وما دونها وأصغر منها، وهذا القول أقرب إلى المعنى المراد من الآية، وهو أنه تعالى لا يمتنع عن التمثيل بالشيء الصغير الحقيق^(١).

والبعوضة: واحدة البعوض، وهو صغارُ البق أو الناموس، وهي حشرات صغيرة مضرّة، لا يمتنع منها الصغير والكبير، وكم امتاحت من أجسام الأحياء الدماء، وزرعت فيها مسببات الهلاك والفناء، وقد اكتشف الإنسان في العصور المتأخرة وجود عوالم كثيرة لمخلوقات صغيرة، لا تُرى إلا بواسطة المناظير المكبرة، تدلُّ على عظمة صانعها ومكوّنها جلّ وعلا، مما يجعلنا نميل إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما دونها في الصغر.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ ضرب مثلاً بجناح البعوضة للدنيا فقال: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» [رواه ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: حسن صحيح].

• عقول منفتحة وعقول منغلقة:

ثم بين تعالى ما يترتب على ضرب المثل من الحكّم والمواعظ فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: يعلمون أن المثل حق ثابت لا سبيل إلى إنكاره أو الاعتراض عليه؛ لأنه من الله تعالى، وأن له حكماً وفوائد

(١) انظر: تفسير الخازن: ٩٠/١.

يتفهمونها ويستفيدون منها، ولهذا قال تعالى بعد المثل الذي ضربه بالعنكبوت:

﴿وَلِئَلَّا تَكُونَ أَلَمَةً لِّلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ودلّت الآية على أنّ المؤمنين هم المستفيدون من ضرب الأمثال، فهم أصحاب الفهم والتعقل الذين يتدبرون آيات الله تعالى، ويتفهمون ما فيها من حِكم وأحكام ومواعظ، فهم أصحاب العقول المنفتحة، المتطلعة إلى اكتساب المعارف النافعة، والمتشوّفة لإدراك الحقائق المفيدة.

وسجّلت الآية على الكافرين عنادهم ومكابرتهم، وانغلاق عقولهم عن إدراك الحقائق بقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي: أي شيء أراد الله تعالى بهذا المثل؟! يقولون ذلك بأسلوب الإنكار والاعتراض على الله تعالى، مما يدلّ على جحودهم وعنادهم.

ولهذا عدل تعالى في الردّ عليهم عن قسيم قوله الأول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ولم يقل: وأمّا الذين كفروا فلا يعلمون، بل بيّن تعالى جهلهم الناشئ عن عنادهم ومكابرتهم فقال:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أي: أراد سبحانه بضرب المثل إضلال كثير من الناس، وهداية كثير من الناس.

وبيّنت الآية سبب إضلالهم، وأنّه نابع من كسبهم واختيارهم، بقوله تعالى:

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته تعالى، والمُعْرِضِينَ عن دينه وشرعه.

والفسق: أصله في كلام العرب الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها^(١).

ومنه: قوله تعالى في إبليس عندما خرج عن أمر ربه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الآية [الكهف: ٥٠].

• من صفات الفاسقين وقبائحهم:

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٢٧).

﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ﴾ أي: يخالفون ويتركون.

وأصل النقص: الفسخ وفك المربك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ الآية [النحل: ٩٢].

﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾ أي: أمر الله الذي ألزمهم به.

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: من بعد عقده وتوكيده وبيانه في كتابه المنزل.

وللعلماء أقوالٌ في العهد المراد:

أولها: العهد الذي أخذه سبحانه على أهل الكتاب باتباع محمد ﷺ إن أدركوا زمنه.

وثانيها: عهد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي معرفة الله تعالى وتوحيده، والذي ذكره تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وثالثها: العهد المأخوذ على الناس بالعقل، وهو حجته سبحانه على عباده الدالة على توحيده وصدق رسله.

ورابعها: دينه سبحانه وشرعه في كتابه الذي لا ريب فيه، المؤيد بالدلائل والبراهين.

ولعل آخرها هو المراد؛ إذ هو أعمها وأشملها، فأی خروج على دين الله وشريعته يعد نقضاً للعهد، ويؤكد هذا المعنى صيغة ﴿يَنْقُضُونَ﴾ الدالة على التجدد والاستمرار، ولا شك أن شأن الفاسقين وديدنهم مخالفة دين الله تعالى، والخروج على أحكام شريعته.

• تقطيع الروابط الإنسانية:

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي: يقطعون كلَّ ما أمر الله تعالى بصلته وفعله، كصلة الأرحام، والمحافظة على حقوق الجيران وأهل الإيمان.

فالمسلم لا يعيش لنفسه فقط، إنما يعيش في ظل عقيدة الله وشريعته، التي نظمت علاقة الناس مع بعضهم، وأقامت بينهم روابط ووشائج لا ينبغي قطعها أو إهمالها.

فمن صفات المؤمنين التي وصفهم الله تعالى بها: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

ومن صفات الكافرين التي وصفهم الله تعالى بها: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وعندما تتغلب الأنانية والأثرة على الناس ينتشر الفساد في الأرض، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ينشرون الفساد في الأرض بسبب خروجهم على دين الله وشريعته، وخضوعهم لأهوائهم ومصالحهم، ممَّا يؤدي إلى الاضطراب والفساد في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، وهو الواقع المُشاهد في المجتمعات البشرية المعاصرة، وصدق الله تعالى في قوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وسياتي مزيد بيان لهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخسارة الحقيقية التي لا تعوّض، أفسدوا دنياهم وخرّبوا آخرتهم.

• ميتينتان وحياتان:

وتساءلت الآيات بأسلوب التعجب والإنكار وهي تخاطب الكفار:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨).

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: كيف تجحدون وجوده سبحانه، وكل الأدلة والبراهين تدل عليه؟!.

أو: كيف تعبدون غيره وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة؟!.

﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ وكنتم عند بدء تكوينكم أجساداً لا حياة فيها، فخلق فيكم الحياة، وبث فيكم الأرواح.

﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ عندما تنتهي حياتكم وتحين آجالكم المقدرة لكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة، ويبعثكم من قبوركم.

فدللت الآيات على أن الإنسان يميتة الله مرتين، ويحييه مرتين أيضاً، وهو ما حكاه سبحانه عن الناس يوم القيامة بقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتُنِنِ وَأَحْيَا أُنْتُنِينَ فَأَعَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

ثم بينت الآيات فضل الله تعالى على الإنسان، وأنه تعالى خلق للإنسان كل ما يحتاج إليه في حياته على الأرض، قبل أن يوجده عليها، فقال:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢٩).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فكل ما في الأرض مخلوق من أجلكم، لمنافعكم ومصالحكم، فالأرض هي البيئة المناسبة لحياة الناس ومعيشتهم.

وقد أدرك الناس في العصر الحاضر هذه الحقيقة، وأخذوا يستشعرون الخطر الداهم الذي يهدد حياتهم ووجودهم على الأرض، بما يطرأ على

الأرض من تلوث وخلل، وذلك بسبب سوء استغلال الناس لموارد الأرض الطبيعية، وغلبة الطمع والجشع عليهم، وقيام الحروب المدمرة بينهم.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: قصد وعمد سبحانه إلى خلق السماء.

مما يدل على أنه تعالى خلق الأرض قبل خلق السماء، وهو ما أخبر عنه تعالى أيضاً في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي كُفِّرُ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَيَتَحَلَّوْنَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩﴾ وجعل فيها رويساً من فوقها وترك فيها وقدر فيها أفاضاً في أربعة أيام سواءً للساكنين ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت].

﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ أي: خلقهن سبع سماوات مستويات، لا خلل فيهن

ولا نقص.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فخلقه سبحانه خلق تامٌ مُحْكَمٌ؛ لأنه أتى على حسب

علمه الكامل جلّ وعلا.

بهذه الآيات الكريمة، التي بين سبحانه فيها عموم الرسالة الإسلامية، رسالة الكتاب الذي لا ريب فيه، والتي عرض فيها بعض أدلة وجوده ووحدانيته، وتمايم مشيئته وكمال علمه، مهد سبحانه للقضية الثانية، وهي وحدة الأصل الإنساني لعامة البشر، وكرامة الإنسان ومكانته في الشريعة الإسلامية، ومكانته التي أنزله فيها من مخلوقاته جلّ وعلا، وحكمة خلقه ووجوده على الأرض، وكيف جعل وجوده على الأرض اختباراً وابتلاءً، فشرّفه بالتكليف، وابتلاه بعداوة الشيطان، وجعل له حرية واختياراً في الطريق الذي يسلكه. ويظهر لنا من خلال كل هذا مدى التناسق والاحتباك بين آيات السورة، فكل آية تتصل بما قبلها، وتمهد لما يأتي بعدها.

• مكان الإنسان ومكانته:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أخبر سبحانه الملائكة بما

سبق به علمه، وتعلّقت به إرادته، أنه سيجعل في الأرض مخلوقاً جديداً، يستخلفه فيها، وبهذا بيّن تعالى مكان هذا المخلوق الجديد ومكانته.

فمكان هذا المخلوق الجديد في الأرض، وأشارت كلمة ﴿جَاعِلٌ﴾ إلى أن ابتداء خلقه وتكوينه لم يكن في الأرض، ولكن مآله بعد خلقه إلى الأرض.

ودلّ ظاهر الحديث الشريف الصحيح الآتي أن خلق الإنسان الأول تم في الجنة، فعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتِمَّاكَ» [رواه مسلم (٢٦١١)].

ويؤكد هذا المعنى أنه تعالى أسكنه بعد أن أتم خلقه في الجنة، ثم أهبطه منها إلى الأرض - كما سيأتي معنا - ولا شك أن بنية الإنسان الجسدية المادية، خلقها الله تعالى من تراب الأرض، كما صرّحت بذلك آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

وقوله أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ الآية [الحج: ٥].

فالبنية المادية للإنسان من تراب هذه الأرض، وهي موطن حياته ومعيشته الأولى.

ودلّت كلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ على مكانة الإنسان، فلإنسان مكانة الخلافة في الأرض، وقد تفضل الله تعالى عليه بهذه المكانة؛ تشريفاً له وتكريماً، لا لحاجته جلّ وعلا إلى من يخلفه في الأرض، وينوب عنه، وهو معنى الكلمة اللغوي، فاستخلافه سبحانه للإنسان محض تكريم له، تفضل به عليه، ألا ترى كيف نوه سبحانه بتكريم نبيه داود عليه السلام، في قوله له: ﴿بَدَاؤُدُّ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [ص: ٢٦].

ولكلمة ﴿خَلِيفَةً﴾ معنى آخر ذكره ابن كثير رحمته الله فقال: أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً، قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَافَةً الْأَرْضِ﴾ الآية [الأنعام: ١٥٦].

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ عَالَمَ الْمَلَائِكَةِ أَسْبَقَ فِي الْخَلْقِ وَالْوُجُودِ مِنْ عَالَمِ الْإِنْسَانِ.

• استفهام واستعلام:

﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة.

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ وقولهم هذا لمحض الاستفهام والاستعلام، لا للاعتراض على الله سبحانه، إذ الاعتراض على الحق تعالى سوء أدب، لا يصدر مثله عن الملائكة، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، كأنهم قالوا: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم مَنْ يُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؟^(١).

ويكون الإفساد في الأرض بعبادة غير الله تعالى، والخروج على طاعته وأحكام شريعته - كما مر معنا - وأما سفك الدماء فيكون نتيجة التنازع والاقتتال، والسفك: الصب والإراقة، ولا يستعمل إلا في الدم، أو فيه وفي الدمع^(٢).

وبعد أن وصفوا الإنسان بالإفساد في الأرض وسفك الدماء، قالوا على سبيل المقارنة:

﴿وَنَحْنُ سُيِّحٌ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: ونحن ننزهك عن كل ما لا يليق بك، مع إقرارنا بكمالك وإحسانك وإنعامك، ونقدّسك تقديساً يليق بجلالك وعلوّك وعزّتك.

فالتسبيح: نفي ما لا يليق به تعالى.

والتقديس: إثبات ما يليق به^(٣).

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٤٩/١.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢٢١/١.

(٣) انظر: تنوير الأذهان: ٤٨/١.

وقد يكون معنى ﴿وَقُدِّسَ لَكَ﴾ أي: ونطهر أنفسنا لك^(١)، بمعنى: أنا لا نعبد سواك، ولا نتوجه إلا إليك، وينسجم هذا المعنى مع الأصل اللغوي لكلمة (نقدّس)، فالتقديس معناه التطهير، ومنه قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١] أي: المطهرة.

وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَقْدُوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] أي: الطاهر^(٢).

ولا بدّ أن نتساءل كما تساءل علماء التفسير: كيف علّم الملائكة ما سيكون من أمر هذا المخلوق الجديد، وأنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟.

أجاب ابن كثير على هذا التساؤل بقوله: كأنهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم: ﴿إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّن صَلَاحٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، أو فهموا من الخليفة، أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم^(٣).

وذكر بعض المفسرين جواباً آخر، وهو أنّ الملائكة قاسوا المخلوق الجديد على الجنّ، الذين خلقهم سبحانه قبل خلق الإنس، وأسكنهم في الأرض، فأفسدوا فيها واقتتلوا، وسفك بعضهم دماء بعض، فبعث الله إليهم إبليس في جنّد من الملائكة، فقتلهم، وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال^(٤).

ولعلّ القول الثاني الذي ذكره ابن كثير أقواها؛ إذ يعضده ما مرّ معنا في الحديث الشريف السابق، فما دام إبليس قد عرف طبيعة هذا المخلوق ونقاط الضعف فيه، عندما أخذ يطيف فيه، ويتأمل بُنيته المادية، لا بدّ أن يكون الملائكة أيضاً عرفوا عن هذا المخلوق مثلما عرف إبليس عنه.

﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من الحكّم في خلق آدم وذريته ما

(١) انظر: تفسير النسفي: ٩٩/١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢٧٧/١.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٩/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢٧٤/١.

لا تعلمون، ففيهم الأنبياء والصديقون والعلماء والصالحون، والذين يجاهدون في سبيلي، ويبدلون أرواحهم وحياتهم لإعلاء كلمتي.

• قابلية الإنسان للتعلُّم:

ثم أظهر الله تعالى للملائكة فضل الإنسان وشرفه، بأسلوب واقعي عملي، وأخبر تعالى عن ذلك بقوله:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿١﴾

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: علّمه سبحانه أسماء الأشياء كلها؛ لأنّ الأسماء لا تطلق إلّا على المسمّيات.

قال ابن كثير رحمته الله: «والصحيح أنه علّمه أسماء الأشياء كلها، ذواتها وصفاتها وأفعالها، ولهذا قال البخاري [٤٤٧٦] في تفسير هذه الآية: عن أنس رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربّنا، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلّقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلّمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربّك، حتى يُريحنا من مكاننا هذا...»، فدلّ هذا على أنه علّمه أسماء جميع المخلوقات»^(١).

وقال العلامة البيضاوي رحمته الله: «ألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصّها وأسمائها، وأصول العلوم، وقوانين الصناعات، وكيفية آلاتها»^(٢).

ويفيد هذا الكلام أنّ آدم عليه السلام علّمه الله تعالى كلّ العلوم التي سيهتدي إليها أبناؤه وذريّته من بعده.

وقد يقول قائل: ما دام ربّنا سبحانه هو الذي علّمه كلّ هذه العلوم، فأيّ فضل وشرف لآدم في هذا؟.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥١/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٠٢/١.

فأقول: إِنَّ فضل آدم ﷺ يظهر في قابليته للتعلّم، وفي استيعابه لكلّ هذه العلوم، وهذا أعظم ما يميّز به الإنسان عن الحيوان، وهي خصوصية من أجلّ الخصائص التي أنعم الله بها على الإنسان؛ إذ جعله قابلاً للتعلّم، وهداه إلى الوسائل التي يستعين بها على اكتساب العلوم والمعارف، كما قال تعالى في أوّل آيات التنزيل الحكيم: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق].

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ أي: عرض المسميات التي علّم آدم أسماءها على الملائكة.

ولا ينبغي الخوض في تفصيل كيفية العرض، يكفي أن نقول: عرضها تعالى على الملائكة كما أخبرنا، وقد توصل الإنسان المعاصر إلى وسائل متعددة لعرض الأشياء، سواء كانت حاضرة بذواتها أم كانت غائبة بعرض صورها.

﴿فَقَالَ أَنِثُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أنني أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء، وفيه ردّ عليهم، وبيان أنّ فيمن يستخلفه من الفوائد العلمية، التي هي أصول الفوائد كلّها، ما يستأهلون لأجله أن يستخلفوا^(١).

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ أي: تتنزه عن أن يخفى عليك شيء، أو عن الاعتراض عليك في تدبيرك وتقديرك.

﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وهو اعتراف بعجزهم وقصورهم، وفضله سبحانه عليهم، ودلّ اعترافهم هذا على أنّ سؤالهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ الذي وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ، ما كان، وما هو كائنٌ، وما سيكون.

﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل ولا يأمر إلا بما فيه حكمة بالغة.

﴿قَالَ يَتْلُوا آيَاتِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [٣٣].

﴿قَالَ يَتْلُوا آيَاتِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي: أعلمهم بأسماء هذه الأشياء، التي عرضها سبحانه على الملائكة.

وفعل آدم عليه السلام ما أمر به، وأظهر الله بذلك ميزة هذا المخلوق، التي خصّه تعالى بها بالنسبة للمخلوقات الأرضية، وهي قابليته للتعلم واستيعاب العلوم.

﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه وحده المتّصف بالعلم الكامل، فلا غيب بالنسبة لعلمه، وإنما الغيب بالنسبة لعلم المخلوق المحدود، فإنه مهما تعلّم يبقى علمه محدوداً، ويبقى محتاجاً إلى مصدر علوي، يعلمه ما غاب عنه من العلوم.

ولهذا لا بدّ للإنسان أن يؤمن ويصدّق بكل ما أخبر عنه الحق سبحانه، في الكتاب الذي لا ريب فيه، وعلى لسان النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وهذا الإيمان هو الصفة الأساس الأولى للمتقين، التي ذكرتها الآيات في أول السورة، عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [٢] فارجع إليها لتعرف سرّ الاتساق والاحتباك بين الآيات.

﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: وأعلم ما تظهرون وما كنتم تسرون، فالخواطر والهواجس في القلوب، يعلمها الحق سبحانه علام الغيوب.

والآيات هنا تركّز في عرضها لقصة بدء خلق الإنسان على بيان كمال علم الله تعالى، وعلى محدودية علم المخلوق، ولو كان من الملائكة، لتبيّن حاجة الإنسان إلى الإيمان بالغيب، الذي غاب عنه، وقام الدليل على وجوده بالخبر

الصادق من عالم الغيب والشهادة جلّ وعلا، وهو مظهرٌ عملي لإسلام الإنسان المؤمن بالغيب لله تعالى، وانقياده لأمره وشرعه^(١).

• سجود التحية والتكريم:

ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم، بعد أن أظهر لهم كرامته وشرفه، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ اعترافاً بفضله وأداء لحقه.

والسجود في اللغة: التذلل والخضوع، مع التطامن.

وفي الشرع: وضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة.

والسجود الذي أمرت به الملائكة سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة^(٢)، كسجود إخوة يوسف في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ الآية [يوسف: ١٠٠]، وكان هذا جائزاً في شريعتهم، وقد حرّمه الإسلام؛ لقوله ﷺ: «لو كنتُ أمراً أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها» [رواه الترمذي (١١٥٩) وقال: حسن صحيح].

﴿فَسَجَدُوا﴾ أي: الملائكة، امتثالاً لأمر الله تعالى وخضوعاً له، كما قال:

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠].

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: امتنع عن السجود لآدم استكباراً؛ إذ كان يرى

(١) لقد عُرضَتْ قصةُ بدءِ خلق الإنسان في عدة مواضع من القرآن الكريم، وتبرز الآياتُ في كلِّ موضع الجانب الذي يتصل بسياقها وسباقها، وقد بيّنتُ هذا عندما تحدثت عن موضوع كلِّ من سورة الأعراف والحجر وطه، فارجع إليها لتبيّن لك حكمة تكرير بعض قصص القرآن الكريم بأسلوب واقعي واضح.

(٢) قلت: هو سجود عبادة لله إذ هو الأمر بالسجود، وسجود تكريم لآدم ﷺ (الناشر).

نَفْسَهُ أَفْضَلَ مِنْ آدَمَ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا سَجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وهذا دليلٌ على أنه لم يكن من الملائكة؛ إذ الملائكة خلقهم الله من نور، كما في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ، وَخُلِقَ الجانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» [رواه مسلم (٢٩٩٦)].

وشمله الأمر الإلهي بالسجود مع الملائكة؛ لأنه كان يعيش بينهم، بسبب كثرة عبادته لله تعالى.

﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: وصار من الكافرين؛ لأنه رفض الإذعانَ لأمر الله تعالى وتكبر.

ومن رحمته تعالى بالإنسان وعنايته به، أن قدّر له قبلَ هبوطه إلى الأرض واستقراره فيها، أن يمرّ بتجربةٍ يتزوّدُ فيها بذخيرةٍ من العبر والدروس والمواعظ، يمكن أن ينتفع بها في حياته الدنيوية الأرضية، ويظهر له من خلالها بشكل عملي شدة عداوة الشيطان له، وسعيه الحثيث لإضلاله، وإبعاده عن عبادة ربه وطاعته، كما تسبّب في إبعاده عن جنّته، فأسكنه تعالى أولاً الجنة مع زوجته.

• الإهباط إلى الأرض:

﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٥).

﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ أسكنهما الله فيها، وأباح لهما أن يتمتعا بكلِّ ما فيها من طعامٍ وشرابٍ.

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي: كُلَا منها أكلًا واسعاً من أيِّ مكانٍ فيها، دون جهدٍ وتعَبٍ. فالرغد: العيشُ الطيّبُ الهنيء، الذي لا عناء فيه.

وحذرهما سبحانه من الاقتراب من شجرة معينة، حظر عليهما أن يأكلا منها، فقال:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: لا تَدْنُوا من هذه الشجرة، نهاهما تعالى عن الاقتراب منها حتى لا يقعا في المحذور المحرّم عليهما، وهو الأكل منها.

ولهذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فَمَنْ اتَّقَى الشبهاتِ استبرأ لدينه وعرضه، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشبهاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كالرّاعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمًى اللَّهِ مُحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) واللفظ له].

﴿فَتَكُونَا مِنَ الْظَالِمِينَ﴾ لأنفسكما بمخالفة أمره سبحانه ومعصيته.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٣٦).

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: جعلهما الشيطان يقعان في الزلّة، بسبب الأكل من الشجرة.

والزلّة: الخطيئة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَتْهُمُ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وفي قراءة: (أزالهما) أي: صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية.

وتمكّن الخبيث من تزيين المعصية لهما، بوسوسته التي ألقاها إليهما من خارج الجنة، وأتاهما من أكبر نقاط الضعف عند الإنسان، وهي حب السيطرة والقوة والبقاء، وقد فصل الله تعالى ذلك في سورة الأعراف، فقال: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا

الشَّيْطَانُ يُبْدِي لَهُمَا مَا وَرَىٰ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءَ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ [الأعراف: ٢٠].

وبهذا تمكّن من التغيرير بهما وخداعهما، حتى وقعا في المحذور، كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا يَبُوءٌ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] ^(١).

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم والعيش الكريم في الجنة.
﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ أي: انزلوا إلى الأرض، والخطاب لآدم وحواء.
وخوطبا بصيغة الجمع لأنهما أصل العنصر البشري كله ^(٢)، ودلّ عليه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ الآية [طه: ١٢٣].
﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: متعادين، يبغى بعضكم على بعض في الأرض.
وهو إخبار من الله تعالى عما يقع بين البشر من عداوة واختلاف وصراع.
﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكم في الأرض موضع قرارٍ يلائمكم ويناسبكم،
كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].
﴿وَمَنْعٌ﴾ أي: ولكم فيها متاع، بما خلق تعالى لكم فيها من أرزاق.
﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى أن تحين آجالكم، التي تنتهي بها حياتكم.
هكذا بيّن الله تعالى للإنسان الأول، السمات الكبرى لحياته على الأرض،
عندما أهبّطه إليها، فالصراع فيما بينهم، وبينهم وبين الشيطان أبرز هذه السمات،
وهو من أهم أسباب الابتلاء والاختبار في حياة الإنسان على هذه الأرض.

• التوبة والتكليف والمسؤولية:

ومن رحمته تعالى بالإنسان أن فتح له باب التوبة والإنابة، وممكنه من

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف (أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/١٠٨.

الرجوع عن المعصية بتركها، والندم على فعلها، والاستغفار، وكانت توبة آدم ﷺ أول توبة بشرية رُفعت إلى الله تعالى؛ إذ فتح الله تعالى له باب التوبة، وعلمه كيف يتوب إليه ويستغفره، وأوحى إليه بالكلمات التي يعلن فيها توبته، ويرجو بها مغفرة ربه، فما أعظم رحمته سبحانه بالإنسان!

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٣٧).

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً﴾ استقبلها ﷺ بلهفة وشوق، بعد أن أحسَّ بشؤم المعصية وآثارها السيئة، وكان أول آثارها أن الله نزعَ عنهما لباسَ أهل الجنة، وكرامةَ أهلها، كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢].

وبادر ﷺ هو وزوجه إلى إعلان توبتهما وندمهما، والإقرار بخطئهما، بالكلمات التي أوحاها لهما: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَبَّ عَلَيْهِ﴾ أي: قَبِلَ سبحانه توبته.

﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إنه هو الذي يقبلُ التوبةَ عن عباده، كلِّما تابوا واستغفروا، مهما كانت ذنوبهم ومعاصيهم، الرحيمُ بهم، والمُحْسِنُ المتفضلُ عليهم، جلَّ وعلا.

وأصلُ التوبةِ الرجوعُ، فإذا وصف بها العبدُ كان رجوعاً عن المعصية، وإذا وصف بها البارئُ تعالى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة^(١).

ثم كرّر تعالى أمره بالهبوط إلى الأرض، ولكّنه جاء في المرة الثانية مقروناً بالتكليف فقال تعالى:

(١) تفسير البضاوي: ١١٠/١.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي: اهبطوا إلى الأرض مجتمعين .

ثم بيّن سبحانه لهم أن حياتهم على الأرض لن تكون عابثة فارغة عن المسؤولية والتكليف، بل سيكلفون بعقيدة وشرعة، ويكونون مسؤولين عنهما: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ أي: إن جاءكم مني هدى رسول أرسله إليكم، وكتاب أنزله عليكم .

وأفادَ الإخبارُ بصيغة الشك وعدم الجزم، أن إرسال الرُّسل وإنزال الكتب غير واجب على الله تعالى، وإنما هو بمحض رحمته وإحسانه وفضله على الناس .

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي: تمسك به واستسلم له بإذعان وانقياد .

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد الموت وفي يوم القيامة .

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا بعد مفارقتها .

وأما المعْرِضون عن دين الله تعالى وشريعته، والجاحدون المعاندون لها :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ .



الْفَصْلُ الثَّانِي

التوراة وبنو إسرائيل

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ
وَمَا أَمِنُوا بِمَا أُنْزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَابَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي
فَأَنْتَقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ
مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمْ الْبَحْرَ
فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ
الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ
آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ اطْلَمْسُوا
أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ حَيَّرَ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ
عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾
وَطَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ حَطَّيْنَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ

الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَبْنُوخَىٰ لَنْ نَّضِرَّ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدْ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُؤْمِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطُوا بِضُرٍّ فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَتَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَبَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَلْنَحْنَا هَؤُلَاءِ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنْ الْبَقَرُ شَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا قَادَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَىٰ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ .

• يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ:

عادت الآيات إلى قاعدة هرم الكفر والحجود، إلى كفّار أهل الكتاب، واستهلت حديثها عنهم بدعوتهم إلى الإسلام لله تعالى، والإذعان لرسالة الكتاب الذي لا ريب فيه، ولما كان اليهود أشدّ أهل الكتاب معارضةً لدعوة النبي ﷺ، توجّهت الآيات تخاطبهم بنداؤه الله تعالى لهم:

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ (٤٠).

﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ﴾ أي: يا أبناء يعقوب، وهو نبيّ الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﷺ، وإسرائيل لقبه، ومعناه في لغة اليهود: صفوة الله، أو عبدُ الله، فإسرا: هو العبدُ، وإيل: هو الله^(١).

خاطبهم الله تعالى بالخطاب الذي يحبّونه ويعتزون به، وهو انتسابهم العرقي إلى إسرائيل^(٢).

وفي هذا إشارة إلى أنّ على الداعية أن يدعو الناس إلى الإسلام بما يحبّون، كي يقرّبهم إلى الدعوة، ويحبّبهم بها، ولا ينفرّهم عنها. ثم ذكرهم تعالى بنعمه التي أنعم بها عليهم على وجه الإجمال فقال:

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اشكروا نعمتي، وعبر عن الشكر بالذكر، لأنّ مَنْ ذَكَرَ النعمة فقد شكرها، وَمَنْ جَحَدَهَا فقد كفرها^(٣).

ويستدعي شكر المنعم الوفاء بعهده:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي أخذته عليكم، بطاعتي، وامتنال أمري، فثمةً عهدٍ

(١) تفسير النسفي: ١١٢/١.

(٢) وهو نفسه الاسم الذي أطلقوه على دولتهم الغاصبة التي تمكنوا في عصرنا الحاضر من إقامتها في أرض فلسطين بدعم أعمى من الغرب الحاقد، وتخاذل العالم العربي المخزي.

(٣) تفسير الخازن: ١١٢/١.

مخصوصة بهم، أخذها الله تعالى عليهم، سيأتي تفصيلها، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الآية [البقرة: ٦٣].

وعند قوله أيضاً: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] وغيرها من الآيات.

﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الذي عاهدتكم عليه، وهو التوفيق والنصر في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

﴿وَإِنِّي فَأَرْحَبُوكُمْ﴾ أي: خافوني واحذروا غضبي وعذابي، فالرهبة: الخوف مع الحذر.

هكذا جمع الله تعالى في آية الخطاب الأول لبني إسرائيل بين الوعد والوعيد، وبين لهم وجوب الشكر والوفاء بالعهد، وألا يخافوا أحداً غيره سبحانه، وأن يكونوا على حذر من غضبه وانتقامه.

ثم دعاهم إلى الإيمان برسالة القرآن الكريم فقال:

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَقِيَ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنْقُوتُ﴾ (٤١).

﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: يصدق التوراة، ويشهد أنها منزلة على موسى عليه السلام، وأن كل ما أنزل الله فيها حقٌ وصدق.

فدعوة القرآن الكريم توافق دعوة التوراة، فكلاهما يدعو إلى توحيد الله تعالى وعبادته، والاستسلام لأمره وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ

بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨].

فبنو إسرائيل أولى بالمسارعة إلى الإسلام من غيرهم، فعندهم من الدلائل التي تدل على صدق النبي ﷺ، وصحة رسالته، ما لا يوجد عند غيرهم من الأمم، ولهذا قال تعالى لهم بأسلوب التعريض:

﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: بالقرآن الكريم، بل الواجب أن تكونوا أول من آمن به.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تستبدلوا آيات الله تعالى عوضاً يسيراً، وهو الدنيا وما فيها من شهوات، وهو- مهما كان- عوضٌ يسير وقليل بالنسبة لما عند الله تعالى في دار النعيم.

ولا يخفى ما في الآية من تعريض كبير بهم، وبيان سبب كفرهم برسالة القرآن الكريم الذي لا ريب فيه، ولعل الآية بدأت بالتعريض قبل التصريح، كأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، لكسب المدعوين وعدم تنفيرهم. ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ أي: اتقوا الله وحده بطاعته والاستسلام لحكمه وأمره.

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُّوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿وَلَا تَلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: لا تخلطوا الحق بالباطل.

وهذه الصفة من أبرز صفات بني إسرائيل قديماً وحديثاً، فشأنهم الخداع والتزوير والغش، يخلطون الحق بركام من الباطل، حتى يضيع ويدوب فيه.

﴿وَتَكُنُّوا الْحَقَّ﴾ بإخفائه، وطمس معالمه، والمراد ما يتعلق بصفات النبي ﷺ وأسمائه، التي صرح بها أنبياءهم، وذكرها تعالى في الكتب التي نزلت عليهم، والتي أخذ الله تعالى عليهم العهد ببيانها للناس، وإظهارها لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فكتمان الحق جريمةٌ كبرى، سيأتي معنا شدة الوعيد عليها عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأنتم عالمون بفضاعة وقبح ما تفعلون.

إنها مواجهة كبيرة وصريحة، واجههم الله تعالى بها مواجهة القاضي للمجرم بجريمته، التي ضُبط متلبساً بها، بحيث لا يستطيع إنكارها، ولا يمكنه أن يتملص من مسؤوليتها.

• الأمر بالمعروف وفعله:

وبعد أن دعاهم إلى الإيمان، وحذّره من الكفر وكتمان الحق، دعاهم أيضاً إلى الانقياد لأحكام الإسلام وشرعه، وأداء أركانه الأساسية الكبرى التي سبق ذكرها في الصفات الأساسية للمتقين في أول آيات السورة [١ - ٦]، فقال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

أي: صلّوا مع المصلّين من أمة محمد ﷺ، فالإسلام دين المساواة، والناس أمام شرع الله سواء، لا امتياز لأحدٍ على أحد، كما يزعم اليهود لأنفسهم.

وأريد بالأمر بالركوع الصلاة كلها، إذ يطلق الجزء ويراد به الكل، وقيل: إنما خصّ الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع^(١).

والركوع: هو الانحناء حتى تصل اليدين إلى الركبتين، وهو ركن من أركان الصلاة، لا تصحّ دونه.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١/ ٣٤٥.

ثم اتجه الخطابُ إلى توبيخ أحبارهم ورجال دينهم، الذين يخالف قولهم فعلهم، بأسلوب التقرير والتعجب من حالهم:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بفعل الخير والطاعة والعمل الصالح.
 ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركون أنفسكم، فلا تفعلون البرّ الذي تأمرون الناس به، فقد كانوا يأمرون الناس بالصدقة ولا يتصدقون.
 ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: وأنتم تتلون التوراة، فأنتم أولى بالمبادرة إلى فعل البرّ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح وشناعة ما تفعلون، وهو مخالفة أفعالكم لأقوالكم.
 فالآية تذكّرهم على ترك البرّ لا على الأمر به، فإنّ الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع مَنْ أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].
 فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصحّ قولي العلماء من الخلف والسلف^(١).

قال القرطبي رحمته الله: «اعلم وفقك الله تعالى أنّ التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البرّ، لا بسبب الأمر به، ولهذا ذمّ الله تعالى في كتابه قوماً كانوا يأمرون بأعمال البرّ، ولا يعملون بها، ووبّخهم به توبيخاً يُتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ الآية...»

وقال أبو عمرو بن مطر: حضرت مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد، فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥٩/١.

سكوته، فناداه رجل كان يُعرَف بأبي العباس: ترى أن تقول في سكوتك شيئاً؟
فأنشأ يقول:

وَعَبْرُ نَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى طَبِيبٌ يُدَاوِي وَالطَّبِيبُ مَرِيضٌ
قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج^(١).

• وسائل في التربية والتهديب:

ولما كانت نفوسهم قد أدمنت على الشهوات، وألفت اتباع الأهواء
والنزوات، بين لهم تعالى الوسائل الناجعة لتهديب نفوسهم، وتخليصها من
آثامها ومعاصيها، فقال تعالى:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ أي: استعينوا على تربية نفوسكم وتهديبها بالصبر، وهو
حبس النفس عن الشهوات المحرمة.

ومعنى الصبر في اللغة: الحبس، يقال: قُتِلَ فلاناً صبراً، أي: قُتِلَ وهو
محبوس مقيد، وصبرت نفسي على الشيء، أي: حبستها.

﴿وَالصَّلَاةِ﴾ أي: واستعينوا أيضاً بالصلاة، لأن الصلاة تمد الإنسان بقوة
روحية تساعد على القيام بالتكاليف والأعباء الشاقة، وقد تكرر مثل هذا في
هذه السورة عند قوله تعالى الذي سيأتي: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقد «كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى» [رواه أبو داود (١٣١٩)].

ومن بواكير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ﴾^(١)
﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) يَصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا^(٣) أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَقِلَ الْقُرْءَانُ تَرْتِيلًا^(٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ
قَوْلًا ثَقِيلًا^(٥) [المزمل].

وناديت الملائكة السيدة مريم، وهي في محراب عبادتها، تأمرها بمضاعفة صلاتها، استعداداً للمهمة الثقيلة التي اختيرت لها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢) يَمْرَيْمُ أَفْتَى لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿[آل عمران].

ومن رحمته تعالى بنا تكليفنا بالصلاة، فهي تساعدنا على طاعته، والتزام أحكام شريعته.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ أي: وإن الصلاة لثقيلة شاقة، إلا على الخاشعين، الذين يخافون الله تعالى، وتهتّر قلوبهم من خشيته، وهم يناجونه في صلاتهم.

والخشوع من أعمال القلب، يظهر أثره في سكون الجوارح والتواضع. ودلت الآية على أهمية الخشوع في الصلاة، فهو روح الصلاة، لأنه يروّض النفس ويهذبها، ويجعلها تتذوق لذة مناجاة الله تعالى وذكره، فتقبل على الصلاة بهمة ونشاط، وشوق إلى حلاوتها ولذتها.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «حُبِّبَ إِلَيَّ النَّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» [رواه النسائي (٣٩٤٠)].

فشأن الصلاة عظيم، وَمَنْ عَرَفَ مَا يَطْلُبُ هَانَ عَلَيْهِ مَا يَبْذُلُ.

● من صفات الخاشعين:

﴿الَّذِينَ يَطُئُونَ أَنفُسَهُمْ يُلَاقُوا رَبَّهُمْ وَآتَيْنَهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٤٦).

أي: الذين يستيقنون لقاء الله تعالى ويرجون ثوابه يوم القيامة، فيكون نشاطهم إلى الصلاة وخشوعهم فيها على حسب ذلك.

وأما الذين لا يؤمنون بالجزاء، ولا يرجون الثواب، فإنهم يستثقلون التكاليف الشرعية، ولا يقومون بها، وإذا قاموا إليها قاموا متثاقلين، كما قال

تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وعادت الآيات إلى تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم، مما يدل على كثرة هذه النعم كما سيأتي، وشدة جحودهم لها، فقال تعالى:

﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلُ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(فَضَّلْتُكُمْ): بالنعم التي أنعمت بها عليكم دون غيركم من الناس.

كما جاء في قول موسى ﷺ لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، وذلك في الزمن الذي أنعم الله تعالى عليهم بهذه النعم.

ولما قابلوا نعم الله تعالى عليهم بالجحود والعناد، نزع الله تعالى عنهم هذه النعم، وغضب عليهم، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

واختار سبحانه للنبوّة والرسالة أمة غيرهم، وهي الأمة المسلمة المستسلمة لأمر الله وحكمه.

﴿وَأَنقُوتُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

﴿وَأَنقُوتُوا يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة.

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ لأن المسؤولية فيه - يوم القيامة - مسؤولية شخصية، فلا تزر نفس وزر أخرى، ولا ينفعكم انتسابكم إلى الأنبياء، لأنّ الحساب والجزاء على حسب العمل، لا على النسب.

﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ ما دامت كافرةً بالله تعالى، جاحدةً لدينه وشريعته، كما قال تعالى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: فدية، لأنها عادة تكون معادلة للمفدى، وهذا إن قدرت على الفدية يوم القيامة، والحقيقة أنها لا تقدر على فدية.

والمراد تعظيم وتهويل شأن هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿وإن تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يمنعون من العذاب، فالخطب يوم القيامة شديد، إذ ليس فيه شفاعة ولا فدية ولا نصرة، إلا لمن أذن الله له بالشفاعة، وهي للمؤمنين، ولا ينتفع بها الكافرون.

• النجاة من الظالمين وإهلاكهم:

وجاء بعد التذكير الإجمالي بالنعم، التفصيل لها، مع بيان مواقف بني إسرائيل منها.

وقد فصل الله تعالى قصة نجاة بني إسرائيل من ظلم فرعون في عدد من السور الكريمة، واكتفت الآيات هنا بتذكير بني إسرائيل بهذه النعمة الكبيرة:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِن آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ﴾ (٤٩).

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِن آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اذكروا إذ نجيناكم من ظلم فرعون وقومه.

﴿يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: ينزلون بكم أشدّ العذاب وأسوأه.

ومن صور هذا العذاب:

﴿يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ﴾ الذكور صغاراً.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: يتركونهنّ أحياء لكي يخدمنّ في قصور فرعون وحاشيته.

وتذكر بعض الروايات أنّ فرعون أمر بذلك بسبب رؤيا رآها، عبّرها له الكهنة والمعبرون بأنّ هلاكه سيكون على يد غلامٍ يُولّد في بني إسرائيل.

﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: وفي نجاتكم من هذا الظلم نعمة عظيمة، ويختبركم الله تعالى بها، هل تشكرونه عليها أم تكفرون وتجددون فضله سبحانه عليكم؟.

ويمكن أن يكون المعنى: وفي ظلم آل فرعون لكم اختبار عظيم من الله تعالى، والبلاء يطلق على النعمة العظيمة، وعلى المحنة الشديدة، ليختبر الله العبد على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر^(١).

ولكن المعنى الأول أليق بسياق التذكير بالنعم، ومواقف بني إسرائيل منها، فهي تشبه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكُمْ لِمَن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِمَن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم].

ومن نعمة الله تعالى على بني إسرائيل أيضاً: أنّه أهلك عدوّهم فرعون وجنوده أمامهم، إذ أغرقهم الله تعالى في البحر، وهم ينظرون إليهم، وذلك أشقى لصدورهم وأذهب لغيظ قلوبهم، قال سبحانه في معرض الامتنان عليهم:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ أي: اذكروا عندما فلقنا البحر، وفصلنا بعضه عن بعض لأجلكم، لتسلكوا طريق النجاة بين أمواجه العاتية، التي أمسكتها قدرة الله تعالى.

وهي معجزة عظيمة جليلة، أجراها الله تعالى على يد موسى ﷺ، وشاهدها بنو إسرائيل بأَمِّ أعينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ۚ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۚ﴾ [طه].

وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ۚ﴾ (١١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۚ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۚ وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ۚ﴾ (١٢) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۚ﴾ [الشعراء].

﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أغرقنا فرعون وجنوده.

واقتصرت الآية على ذكر آل فرعون، لأنهم إذا أغرقوا، وهم رؤوس الضلال والعناد، فغيرهم أولى بذلك.

وقد صرح سبحانه بغرق فرعون وجنوده في سورة الإسراء، فقال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

وقال أيضاً في سورة القصص: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فأنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الظَّالِمِينَ ۚ﴾ (٤١) وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعَبُونَ إِلَى النَّكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ۚ﴾ (٤٢).

وهذا يدحض قول مَنْ يقولُ بنجاة فرعون، فهو قول باطل، يصادم صريح الآيات القرآنية الكريمة، ولا متمسك لهم بقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]؛ لأن المراد: ننجي بدنك بعد موتك وغرقك، ونلقيه على ساحل البحر، ليراك الناس هالكاً صريعاً^(١).

﴿وَأَنْتُمْ تُنظَرُونَ﴾ أي: تنظرون إلى فرعون وجنوده، وهم في لجة البحر يغرقون.

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

● عبادة العجل الذهبي:

ويلاحظ أنّ الآيات كلّما ذكّرتهم ببعض نِعَم الله عليهم، ذكّرتهم بعدها ببعض مواقف عنادهم وجحودهم، ولهذا قال تعالى في سياق ما تقدم:

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وفي قراءة: (وَعَدْنَا) أي: اذكروا إذ وعدنا موسى بعد تمام أربعين ليلة، ليأتي إلى موضع المناجاة عند جبل الطور، لإنزال التوراة عليه.

وقد وعده تعالى أولاً ثلاثين يوماً يهيئ نفسه في أثنائها لمناجاة الله تعالى، ثم أمره أن يزيدها عشرًا، قال تعالى: ﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف].

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: اتخذتم العجل الذهبي إلهاً عبدتموه من دون الله تعالى في غياب موسى.

وقد فصلت الآيات في غير هذا الموضع قصة عبادتهم العجل، بقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْوَنٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

وقوله أيضاً: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ لِمَ يَعْبُدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّآ حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُ مُوْعِدِي ﴿٨٧﴾﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقُورِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٨﴾﴾ فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٩﴾﴾ [طه].^(١)

(١) انظر تفصيل قصة العجل في: تفسير سورة طه (سبيل السعادة في سورة طه)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

وعبادة بني إسرائيل للعجل من أقبح وأشنع جرائمهم ومواقف عنادهم وجحودهم، ولهذا تكرر ذكر الآيات لها في عدة مواضع كما سيأتي.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لأنفسكم بعبادة غير الله تعالى.

فالشرك بالله تعالى أعظم أنواع الظلم، وأي ظلم أعظم من هذا الظلم؟! فبعد أن نجاهم الله تعالى من ظلم فرعون، وأراهم مصرعه بأُم أعينهم، أعرضوا عن عبادته تعالى وشكره، وعبدوا عجلاً مصنوعاً من ذهب، في غياب نبيهم موسى ﷺ، ومع ذلك فتح الله تعالى لهم باب التوبة والمغفرة، فقال:

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

والعفو: محو الذنب والتجاوز عنه، والمعنى: عفونا عن ذنوبكم، وتجاوزنا عنها بعد توبتكم، كما سيأتي.

• شريعة التوراة:

ومن نعمه سبحانه الجليلة عليهم: إنزال التوراة على موسى ﷺ، ليهتدي بها بنو إسرائيل، ويحتكموا إلى شريعتها:

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى مكتوبة في ألواح.

دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخِذٌ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْعِمُ بِيَ الْأَعْدَاءُ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ أي: آتيناه التوراة التي هي الفرقان، فهو وصف للتوراة، عطف على الكتاب عطف الصفة على الموصوف، ومعناه: الفارق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. وقد وصف القرآن أيضاً بهذه الصفة في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا بما فيها، وتتفَعَّوا بأحكامها ومواعظها. والجدير بالذكر أن شريعة التوراة لم تكن كالشريعة الإسلامية سهلةً سمحةً ميسرة، فقد شدد الله تعالى فيها على بني إسرائيل، لأنهم ما كانوا يبادرون إلى تنفيذ أوامره، ولهذا شدد الله تعالى عليهم، ولقد اهتمت آيات سورة البقرة بإبراز هذا الموضوع في كثير من آياتها كما سيأتي.

ومن أحكام التوراة التي شدد الله تعالى فيها على بني إسرائيل: أنه لا تقبل توبة المرتد منهم حتى تطبق عليه عقوبة الردة في الدنيا، وهي القتل، فإذا تاب المرتد منهم وسلم نفسه للقتل قبل الله توبته، بينما الحكم في الشريعة الإسلامية أيسر وأسهل، فالمرتد إن تاب ورجع إلى الإسلام، قبلت توبته ونجا من القتل. ولهذا قال تعالى بعد أن أخبر عن إنزال التوراة، يبين حكم المرتدين عبدة العجل الذهبي:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢٥).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى خالقكم الذي أحدثكم وأبدعكم وأخرجكم من العدم. وأصل برأ من تبرى الشيء من الشيء، وهو انفصاله منه، فالحلق قد فصلوا من العدم إلى الوجود^(١).

ومن معاني الباري أيضاً: الخالق الذي خلق الخلق محكماً، بريئاً من التفاوت والنقص، ومميزاً المخلوقات بعضها عن بعض بصور وهيئات مختلفة^(١).

﴿فَأَقْضُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بتسليم أنفسكم للقتل، والصبر عليه.

ويبدو أنّ الذين عبدوا العجل كانوا أكثر بكثير من الذين لم يعبدوه، بحيث لا يمكن تطبيق عقوبة القتل عليهم إلا إذا سلّموا أنفسهم للقتل. قال القرطبي رحمه الله: «وأجمعوا على أنّه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده»^(٢).

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ أي: الصبر على القتل خير لكم من الإصرار على الكفر، فلا توبة لكم إلا بذلك.

﴿فَنَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قبل سبحانه توبتكم بعد أن فعلتم ما أمرتم به، وأسلمتم أنفسكم لحكمه.

وهذه العقوبة الصارمة الشديدة التي أنزلها الله بهم، تدلّ على قسوة طباعهم، فلا بدّ منها حتى تلين نفوسهم الغليظة الجافية.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إنه سبحانه هو الذي يتفضل بقبول التوبة والعفو عن الذنوب، الرحيم بعباده جلّ وعلا.

● سؤال التعنّت والعناد:

وإلى موقف آخر من مواقف تعنّتهم وعنادهم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾^(٥٥).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ ولما شرع موسى بمناجاة ربّه، وتلقّى وحيه، قالوا له:

﴿يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نصدّقك بأنك تناجي ربّك.

(١) انظر: تفسير البضاوي، وتفسير النسفي: ١٢٦/١.

(٢) تفسير القرطبي: ٤٠١/١.

﴿حَتَّىٰ رَأَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً.

هكذا واجهوا نبيهم موسى ﷺ وقابلوا الخير الذي أجراه الله تعالى على يديه لهم، والذين قالوا هذا القول هم خيارهم، اختارهم موسى من صالح بني إسرائيل، الذين لم يعبدوا العجل، ليذهبوا معه إلى موضع المناجاة، ويتضرعوا إلى الله ويستغفروه ويسألوه أن يتوب على عبدة العجل من بني إسرائيل.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ﴾ أي: استولت عليكم، وأحاطت بكم، وهي الزلزلة الشديدة، فصعقوا بها وماتوا كما قال الله تعالى: ﴿وَأَخْذَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ [الأعراف: ١٥٥].

﴿وَأَنْتُمْ نَظَرُون﴾ أي: ينظر بعضكم إلى بعض، كيف يصعقون ويموتون.

وسؤالهم هذا سؤال تعنت وعناد، وليس سؤال استرشاد، إذ أجرى الله تعالى على يدي موسى كثيراً من المعجزات الدالة على صدقه، وإنزال الصاعقة عليهم ليس لمجرد الطلب، ولكن لما انضم إليه من التعنت وفرط العناد^(١).

ولهذا حذر الله تعالى أصحاب نبينا عليه الصلاة والسلام من مثل هذا السؤال المتعنت، كما سيأتي في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

ومثل هذه المواقف هي التي أدت إلى التشديد عليهم في شريعة التوراة.

وشعر موسى ﷺ بالحرَج بعد أن صعقوا وماتوا، كيف يرجع إلى بني إسرائيل من دونهم؟ وماذا يقول لهم؟ فتوجه إلى الله تعالى ضارعاً، فأحياهم الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: تشكرون الله تعالى على نعمه بعد كفرانها وجودها.

وتابعت الآيات تذكيرهم ببعض هذه النعم، وبمواقف العناد والجحود والكفران التي صدرت عنهم:

﴿وَلَلَّانَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامُ وَالْأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧).

﴿وَلَلَّانَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامُ﴾ أي: جعلنا الغمام يظلكم ليقبيكم حرّ الشمس.

وذلك عندما ضرب الله عليهم التيه في صحراء سيناء، بعد أن خذلوا نبيهم موسى، ورفضوا الجهاد معه لدخول الأرض المقدسة، وقالوا له كما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَمْرَ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة].

فحرمهم الله تعالى من دخول الأرض المقدسة أربعين سنة، وجعلهم يتيهون في الصحراء في أثناء هذه المدة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) [المائدة].

ومن نعمه تعالى عليهم أيضاً في فترة التيه هذه أنه يسّر لهم الحصول على الطعام، وأغناهم عن عناء طلبه، والبحث عنه في الصحراء، وأنزل عليهم المنّ والسلى:

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى﴾ والمنّ: طعام يشبه الكمأة، دلّ على ذلك الحديث الشريف: عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «الكمأة من المنّ، وماؤها شفاء للعين» [رواه مسلم (٢٠٤٩)].

وأما السلى: فطائر معروف.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: كلوا من هذا الطعام اللذيذ النافع، الذي يسره الله لكم، دون عناء وتعب.

وهو أمرٌ بإباحةٍ وامتنانٍ وإرشادٍ، ومع ذلك لم يشكروا الله تعالى على هذه النعم، بل قابلوها بالجحود والكفران، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي: لم يصل إلينا من معاصيهم وآثامهم نقص ولا ضرر، فالله تعالى غني عن طاعة عباده، ولا تضره معاصيهم.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن عاقبة ظلمهم تعود عليهم.

والجمع بين صيغتي الماضي ﴿كَانُوا﴾ والمستقبل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم عليه^(١).

• الزاحفون على مقاعدهم:

ومن صور ظلمهم وعنادهم، ما فعلوه عندما أمرهم سبحانه أن يدخلوا إحدى القرى التي مروا بها:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨).

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ أمرهم الله أن يدخلوها، وأباح لهم ما فيها من طعام:

﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي: كلوا منها كما تشاءون أكلاً موسعاً عليكم.

وأمرهم سبحانه عندما يدخلون باب القرية أن يدخلوه خاضعين خاشعين متواضعين، لا متكبرين متجبرين، كما يفعل المعتدون الغاصبون:

﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: خضعاً متواضعين.

أو: لعلهم أمروا بالسجود عند الانتهاء إلى الباب شكراً لله تعالى.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: حُطَّ عَنَّا ذُنُوبُنَا وَخَطَايَانَا، ويؤيده قراءة النَّصْبِ، ولهذا قال تعالى بعدها:

﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ أي: نسترها عليكم ونتجاوز عنها، بسبب طاعتكم لله تعالى، وانقيادكم لأمره .

﴿وَسَرَّيْذُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادتهم وطاعتهم، لأنهم يشعرون برقابة الله عليهم.

كما ورد في حديث سيدنا جبريل: قال: ما الإحسان؟ قال ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨)].

هكذا أطمعهم الله سبحانه بالمغفرة إن هم انقادوا لأمره، وخضعوا لحكمه، ووعد المحسنين منهم المزيد من فضله وثوابه، ولكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل في جحودهم وعنادهم وفجورهم:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قالوا قولاً غير الذي كُلفوا به .

وقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا، وَقُولُوا: حِطَّةٌ؛ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ، فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ (أي: مقَاعِدِهِمْ) وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ» [رواه البخاري ((٤٦٤١))].

ودلَّ الحديثُ على أنَّهم لم يعصوا الله تعالى بتبديل الكلمات فقط، بل أضافوا إليها تبديل الهيئات، فبدل أن يدخلوا خاضعين ساجدين لله تعالى، دخلوا يزحفون على مقاعدهم، ووجوههم وصدورهم إلى الأعلى، وبهذا استحقوا غضبَ الله عليهم وعذابه:

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: أنزلنا عليهم عذاباً من السماء، بسبب خروجهم على طاعة الله تعالى.

والرجز الذي أنزله الله تعالى عليهم هو وباء الطاعون، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ» [رواه مسلم (٢٢١٨)].

• عيون الماء في الصحراء:

الماء في الصحراء قليل نادر، والحصول عليه من أصعب الأمور، ومن نعم الله على بني إسرائيل، وهم في الصحراء، أن يسر لهم الحصول على الماء من غير تعب ولا عناء:

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ 

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ أي: دعا الله تعالى طالباً السقيا لقومه.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ أي: الحجر المعهود المعروف، ففعل ﷻ.

﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ أي: سال الماء بقوة من اثني عشر موضعاً في الحجر على عدد قبائلهم.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ أي: المكان المخصص لشربهم.

وهكذا يسر الله تعالى لهم ما يحتاجون من الماء في الصحراء.

كما يسر لهم الطعام، وقال لهم ممتناً عليهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾. وحذّره من العصيان والفساد، الذي يمكن أن

يحدث بسبب الترف والتوسع في المآكل والمشارب، وقال:

﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تنشروا الفساد في الأرض. والعني: أشد الفساد، والمعنى: لا تتمادوا في الفساد حال إفسادكم^(١).

وكانه تعالى قال لهم: يكفي ما أنتم عليه من الفساد، فلا تعملوا على نشره في الأرض، والعجيب أن المستقرئ لأسباب الفساد في الأرض كلها، يجدها تتصل بهم، وتنتهي إليهم.

وأضافت الآيات موقفاً آخر من مواقف جحودهم وعنادهم، يدل على وقاحتهم، وسوء أدبهم مع الله تعالى ومع نبيه موسى ﷺ:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَضِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَشْتَبِدُونَ آلَئِي هُوَ آذَنَ بِالَّذِي هُوَ حَيْرٌ أَهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ﴾ هكذا بكل وقاحة ينادون نبي الله موسى ﷺ باسمه، مجرداً عن أي كلمة تدل على احترامهم له، وتقديرهم لمكانته:

﴿لَنْ نَضِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ أي: لن نحبس أنفسنا على لون واحد من الطعام، لا يتغير ولا يتبدل.

﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ كأنه تعالى في نظرهم رب موسى وحده.

﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ وهو نبات معروف لا ساق له كالكراث والنعناع والبقدونس.

﴿وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا﴾ أي: وثومها.

﴿وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا﴾. ويبدو أنها الأطعمة التي ألفوها واعتادوا عليها عندما

كانوا في مصر، ولهذا تشوّفت نفوسهم إليها، دون أن يبذلوا أيّ جهد في مقاومة نفوسهم، وتعويدها على الحياة الجديدة في الصحراء، ولا خير في أمة تنقاد لشهواتها، وتضعف أمام نفوسها.

وردّ عليهم موسى ﷺ بأسلوب يدلّ على ضجره منهم:

﴿قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ أَمْ أَذْفَ﴾ أي: أدون: من الدنو أي قليل الثمن، وفي قراءة: (أدناً) من الدناءة والخسة.

﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: بمقابلة ما هو خير، فإن حرف الباء تصحب الذاهب الزائل، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ أَلْكُفْرَ بِالْإِيمَنِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: انزلوا أيّ قرية أو بلد لتجدوا فيها ما تريدون من هذه الأطعمة. وقد يكون مراد موسى ﷺ مصر، البلد الذي كانوا فيه، ونوّن لسكون وسطه^(١).

فما تطلبونه هين زهيد موفور في أيّ مِصر من الأمصار، أو عودوا إذن إلى مصر التي خرجتم منها، عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة، إلى حياتكم الخانعة الذليلة، حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء، ودعوا الأمور الكبار التي نُدبتم لها. ويكون هذا من موسى ﷺ تأنيباً لهم وتوبيخاً.

• الذلّة والمَسْكَنَة والغضب:

وابتلاههم الله تعالى بسبب مواقف العناد والجحود والتعنّت، بالشتات والذلّة والصغار، وجعلها ملازمة لهم، وملاصقة بهم، مهما امتد الزمان، وتقلبت الدهور والعصور، عدا فترات قليلة لا تعدّ شيئاً بالنسبة لأعمار الأمم والشعوب، وأخبر تعالى علام الغيوب عن ذلك فقال:

﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ﴾ أي: جعلت الذلّة محيطّة بهم، مشتملة عليهم، كما

(١) انظر: البيضاوي والنسفي والخازن: ١٣٣/١.

تكون القبة محيطة بمن تُضرب عليهم، أو ألصقت الذلة بهم كما يلصق الطين عندما يُضرب على الحائط.

﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الفقر والفاقة، وسُمي الفقير مسكيناً، لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة.

فترى اليهود وإن كانوا أغنياء ميسورين، كأنهم فقراء، لشدة حرصهم على المال، ولتفاقرهم وتظاهروهم بالفقر، حماية لأموالهم وخوفاً عليها، ولا يزالون يتظاهرون بالفقر، حتى بعد أن أصبحت لهم قوة ومنعة في عصرنا الحاضر، بتأييد الدول الكافرة لهم، ولا يزالون يطلبون المساعدات، ويستجدون المعونات من الدول والمؤسسات والأفراد، وقوتهم ليست نابعة منهم، بل هي مستمدة من الناس الذين يؤيدونهم، ويقفون وراءهم، كيداً بالمسلمين، ومكراً بهم، واستنزافاً لخيراتهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] (١).

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: صاروا مستحقين لغضب الله تعالى، من باء فلان بفلان، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له (٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي أنزلها في كتبه: التوراة والإنجيل والقرآن.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فما من أمة أقدمت على قتل أنبيائها كما فعلت اليهود بأنبيائهم، وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ تأكيد لضخامة جريمتهم وشناعتها، وإلا فقتل النبيين لا يكون بحق أبداً.

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١/ ١٣٤.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي: جرّهم العصيان والتمادي والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين، فإنَّ صِغارَ الذنوب سبَّب يؤدي إلى كبارها^(١)، ولهذا قال العلماء: الصغائر بريء الكفر، إذ الإدمان عليها يؤدي بصاحبها إلى الكبائر فالكفر.

وأبواب الرحمة لا زالت مفتوحة أمامهم، ودعوة الخير لا زالت تدعوهم وتناديهم، رغم كل ما تقدّم من مواقف العناد والكفران، وما أعقبها من ضرب الذلّة عليهم والهوان، فرسالة الإسلام رسالة الرحمة العامّة الشاملة لجميع الناس، فلا ينبغي اليأس والقنوط والاستسلام للذلّة والهوان، فهذه الصفات تُلازمهم ما داموا متمسكين بعنادهم وباطلهم، أما إذا فتحو قلوبهم لدعوة الحق، وأسلموا نفوسهم لله تعالى، فطريق الحق مفتوح أمامهم، يمكنهم السير فيه، كما سار غيرهم، وقد استجاب لدعوة الحق بعض أفراد منهم، أسلموا، وأصبحوا من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سعة رضي الله عنهما، وغيرهما، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: آمنوا بالله تعالى وحده قبل بعثة النبي ﷺ.

أو: المراد آمنوا بألسنتهم قولاً، وهم المنافقون.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: تهوّدوا ودخلوا في اليهودية.

﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ أي: الذين دخلوا في النصرانية، مفردها نصران، كندمان،

ولحقت به الياء للمبالغة.

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ أي: الخارجين على جميع الملل والعقائد، من صبا، إذا

خرج من الدين.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.
 ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: وصدق بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء.
 والإيمان بالله واليوم الآخر هما الركنان الأساسيان في عقيدة الإسلام.
 ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بالتزام شريعة الإسلام، وتطبيق أحكامها.
 ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فالرسالة الإسلامية عامة شاملة، والطريق مفتوح للجميع، وما على الذين يريدون النجاة إلا السلوك فيه.

• ميثاق الطور:

وهو ميثاق مشهور من المواثيق التي أخذها الله تعالى على بني إسرائيل، وطالبهم تعالى بالوفاء به في أوّل الآيات، عندما قال: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعَمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].
 وكأنّ الآيات تعود مرة ثانية - بعد أن بيّنت مواقف الجحود والعناد التاريخية - تجدد دعوة الأجيال المتعاقبة منهم، فالميثاق ليس للجيل الأول من اليهود، الذي شهدته، وإنّما هو ميثاق متجدّد لكل أجيالهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٢)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بالإسلام لله تعالى، والانقياد لدينه وأحكام شرعه.
 ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي: جبل الطور، رفعه الله تعالى بمشيئته وقدرته فوق رؤوسهم، حتى يذعنوا للميثاق، ويرضوا به.
 وهذا يدلّ على أنّهم في أول الأمر لم يذعنوا له، ولم يقبلوا به، فأكرهوا على ذلك، ورفّع الجبل فوقهم، حتى صار بمثابة المظلة فوقهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تمسكوا بالشرعية التي كلّفناكم بها بجدّ وعزيمة، لا بكسل واسترخاء، فالتكليف يحتاج إلى عزم وجدّ واجتهاد.

﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: تذكروا ما يترتب على هذه التكاليف من مسؤولية وحساب وعقاب وثواب.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعل هذا يجعلكم تتقون الله تعالى وتخشونه، أو تتقون عذابه وانتقامه.

ولا يزال اليهود - كما يقول العلماء - يسجدون على جانب من وجوههم، ونظرهم إلى الأعلى، منذ أخذ عليهم الميثاق، ورُفِعَ الجبل فوقهم، ومع ذلك أعرضوا عن طاعة الله تعالى، وهجروا أحكام التوراة، وبدّلوا فيها وغيروا - كما سيأتي - ولهذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٦٤).

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: أعرضتم عن الوفاء بهذا الميثاق.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بإمهالكم، وتأخير العقاب عنكم.

﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الهالكين.

ثم ذكّرتهم الآيات بحادثة تاريخية مشهورة من حوادث نقض الميثاق، وما ترتب عليه:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ﴾ (٦٥).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي: ولقد علمتم العذاب الذي أنزله الله تعالى بالخارجين على طاعته في يوم السبت، إذ أمرهم الله تعالى أن يتفرّغوا للعبادة في هذا اليوم، وحرّم عليهم الاشتغال بأيّ عمل دنيوي فيه، فخالف بعضهم أمره، وضعفوا أمام الكسب المادي الذي لاح لهم في هذا اليوم،

فكانت الأسماك بتقدير الله تعالى تأتي إلى شواطئ بلدهم أيلة (قرب العقبة)، في يوم السبت، وتغيب مبتعدةً في أعماق البحر في الأيام الأخرى.

وقد فصل الله تعالى خبرهم في موضع آخر فقال: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

ويدل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ وقوله: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] على أن حادثة أصحاب السبت مشهورة ومعروفة عند اليهود.

ولما طال بهم أمد المعصية، وأصرّوا عليها، ولم يتعظوا بمواعظ الصالحين فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] أنزل الله تعالى بهم عذابه الأليم، الذي ما أنزل مثله على غيرهم قبلهم:

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ وهو أمرٌ تحويل وتكوين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكانوا كما قال سبحانه، وتحولوا إلى قردة من غير امتناع ولا تأخير.

﴿خَسِيفَ﴾ أي: مبعدين، أو صاغرين ذليلين.

وظلوا على ذلك ثلاثة أيام ثم هلكوا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعيش مسخٌ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل، ولم يشرب ولم ينسل^(١).

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، القردة والخنازير هي ممّا مسخ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ قَوْمًا أَوْ يَعْذِّبُ قَوْمًا فَيَجْعَلُ لَهُمْ نَسْلًا، وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ» [رواه مسلم (٢٦٦٣)].

لقد مسخهم الله مسخاً حقيقياً لا معنوياً كما زعم بعضهم؛ ومنهم سيّد قطب

كَذَلِكَ حَيْثُ قَالَ: «وليس من الضروري أن يستحيلوا قردة بأجسامهم، فقد استحالوا إليها بأرواحهم وأفكارهم، وانطباعات الشعور والتفكير تعكس على الوجوه والملامح سمات تؤثر في السحنة، وتلقي ظلها العميق»^(١).

ولو كان المسحُ معنوياً كما زعموا ما كان فيه عبرة لمعتبر، وموعظة لمتعظ، ولما قال تعالى بعد ذلك:

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٦٦)

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أي: جعلنا هذه العقوبة عبرةً تنكّلُ المعتبر بها، أي: تمنعه، ومنه النكل للقيد^(٢).

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: لما حولها من المدن والقرى الذين شاهدوا وعايروا الممسوخين.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وجعلناها موعظةً يتعظ بها المتقون وينتفعون بها على مدى العصور.

• بنو إسرائيل والبقرة:

ثم ساقَت الآيات قصة بني إسرائيل مع البقرة، التي أمروا بذبحها، لتبين مدى تعنتهم وتقايسهم في تنفيذ أمر الله تعالى، الذي قال لهم عندما أخذ عليهم الميثاق: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

وكشفت القصة سبب التشديد في شريعة التوراة، فالله سبحانه عليم حكيم في كل ما يشرع، وما شدد تعالى عليهم إلا بسبب نابع من نفوسهم، فالقوم - كما سنرى في القصة - لم يبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى، وشددوا على أنفسهم، فشدد الله تعالى عليهم، بينما كان أصحاب النبي ﷺ على العكس من

(١) في ظلال القرآن: ٧٧/١.

(٢) تفسير الفيضاي: ١٣٨/١.

ذلك، كانوا يبادرون إلى تنفيذ أمر الله تعالى قائلين: سمعنا وأطعنا، فأكرمهم الله تعالى بالشريعة الإسلامية السَّمَّحَةَ الميسرة، كما سيأتي في آخر آية في السورة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢٧).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فالأمر من الله تعالى، وهو صريحٌ وواضحٌ، ومع ذلك لم يبادروا إلى تنفيذه، و:

﴿قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا﴾؟! أي: أتستهزئ بنا؟! وجاء قولهم بصيغة الاستفهام الإنكاري؛ فجمعوا به بين سوء الأدب مع نبي الله موسى ﷺ، وعدم الثقة به، كأنه ﷺ يقول على الله تعالى، وحاشا لنبي كريم أن يفعل هذا.

فقولهم دليل على سوء اعتقادهم بنبيهم، وتكذيبهم له، أو جرى على نحو ما هم عليه من غِلْظِ الطبع والجفاء والمعصية^(١).

وبادر ﷺ إلى تبرئة نفسه مما اتهموه به:

﴿قَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لأن الهزء في مثل ذلك جهل وسفه^(٢).

فهو رسول كريم، يؤدي رسالة الله تعالى، ويبلغهم أمره، فالموقف خطير جداً، فكيف يكون مستهزئاً به؟! ولهذا نفاه ﷺ بأسلوب الاستعاذة بالله تعالى من الاتِّصاف بصفة المستهزئ.

وكان عليهم بعد هذا البيان أن يشعروا بخطئهم، ويدركوا سوء أدبهم، ويعتذروا من موسى ﷺ، ويبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى تائبين مستغفرين، ولكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل - كما مر معنا - ظلُّوا متمسكين بعنادهم، مستمرين على سوء أدبهم، وطلبوا من موسى ﷺ أن يبين لهم حقيقة البقرة ووصفتها:

(١) انظر: روح المعاني: ٢٨٦/١.

(٢) انظر: تفسير البضاوي: ١٣١/١.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ^١
فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وهي وقاحة ثانية، وسوء أدبٍ آخر، سبقت الإشارة إليهما من قبل، كأنه تعالى ربّ موسى وحده.

﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما حالها وما صفتها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شددوا، وتعتتوا على موسى، فشدد الله عليهم^(١).

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ﴾ أي: لا كبيرة ولا صغيرة لم تلد.

﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: نصف، بين الكبيرة والصغيرة، وهي التي قد ولدت بطناً أو بطنين، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه^(٢).

وأضاف عليه السلام إلى البيان تكرير الأمر:

﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ﴾ وكأنه عليه السلام قال لهم: نفذوا الأمر، ولا تكثروا من السؤال.

ولكنهم عادوا مرة ثانية إلى السؤال:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا^٢ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْتُهَا
تَسُرُّ النَّظِيرَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا﴾.

واضطّر موسى عليه السلام مرة ثانية إلى دعاء ربه، وجاءهم الجواب يشدد عليهم، ويفرض قيوداً وشروطاً ما كانوا مكلفين بها:

(١) جامع البيان: ٢٦٨/١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٤٤٩/١.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ أي: شديدة الصفرة، أو صافية اللون.

﴿تُسَرُّ النَّظِيرِينَ﴾ أي: يعجبهم حسنها وصفاء لونها.

ولم يفتنوا إلى أنّ هذه التشديدات تسوءهم، وفي غير مصلحتهم، فما أغباهم!

وعادوا مرّة ثالثة يسألون:

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧٠).

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ كرروا السؤال الأول نفسه، وأضافوا هذه المرّة اعتذاراً عنه قائلين:

﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا﴾ أي: التبس واشتبه أمره علينا، لكثرة وجود هذه الصفات فيه.

﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى البقرة المطلوبة.

والاستقصاء في مثل هذه الأحوال شؤم، إذ هو تكلف وتنطع، حذر تعالى منه المؤمنين بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدِّلُ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١].

وأثاهم الجواب بشروط وقيود وأوصاف لا تجتمع إلا في بقرة واحدة:

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا آلَنْنَ حِجَّتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١).

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي: إنها بقرة غير مذلّلة ومدربة على العمل، فهي لا تثير الأرض، أي: لا تفلحها، ولا تسقي الزرع.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: خالية عن العيوب وآثار العمل.

﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي: لا يخالط لونها لونٌ آخر.

وأخيراً عرفوا البقرة المطلوبة، و:

﴿قَالُوا أَلَمْ نَجِئْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: الثابت الواضح الذي لا يُبس فيه ولا غموض.

وشرعوا يبحثون عنها، ولابد أنهم تعبوا كثيراً حتى وجدوها، واستغلَّ صاحبُها الفرصة، وهو شأن بني إسرائيل، يستغلُّون المواقف، وينتهزون الفُرص، فزاد في ثمنها زيادةً فاحشةً، حتى إنَّ الروايات تذكر أنه طلب ملء جلدِها ذهباً، واضطروا إلى الاستجابة إلى طلبه مُكرهين، ولهذا قال تعالى:

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة

والإيضاح، ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذمٌّ لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلماذا ما كادوا يذبحونها^(١).

● قلوب قاسية:

ثم كشفت الآيات سرَّ تكليفهم بذبح البقرة، وقد أخره سبحانه ليبيِّن أنَّ على العباد أن ينقادوا لأمره، ويستسلموا لشرعه، سواء عرفوا حكمته فيه أم لم يعرفوا، فلا يكون الانقياد والاستسلام كاملاً إلا بهذا، فالواجب أن تكون العبادة خالصةً لله تعالى، لا من أجل ما يترتب عليها من حُكْم وفوائد، وعلينا أن نبادر إلى تنفيذ أمر مولانا جلّ وعلا، عرفنا فائدة الأمر أم لم نعرف، حتى نحقق معنى العبودية الكاملة الخالصة له جلّ وعلا، وعلينا أيضاً أن نؤمن أنه تعالى يتَّصف بكل صفات الكمال، ومن صفات كماله تعالى: الحكمة، فهو حكيم في كل أفعاله وأوامره ونواهيه، لا يشرع إلا ما فيه حكمة وفائدة تعود على المكلفين، إذ هو ﷻ غنيٌّ عن عبادتنا وطاعاتنا، يظهر لنا سبحانه بفضلِهِ أحياناً حكمة التكليف، وتقصر عقولنا عن إدراكها أحياناً أخرى، فالقصور والنقص فينا، لا في شرع الله، وهذا ما جعلني أسيرٌ مع نسق الآيات، ولا أستبق

كشف الأحداث، كما فعل جمهور المفسرين، ففي ترتيب الآيات وتنسيقها حِكمٌ وأسرارٌ:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي: اذكروا عندما حدثت جريمة قتل في مجتمعكم .
وإما أن يكون القاتل واحداً أو جماعة منهم، وخوطف الجميع به لحدوثه بينهم .

﴿فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي: اختلفتم واختصمتم في شأنها، من الدَّرع، وهو الدفع، فكلٌ منهم يدفع التهمة عن نفسه، ويطرحها على غيره .

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من أمر القاتل، ويبدو أن كثيراً منهم كانوا يعلمون القاتل، ويتسترّون عليه، إما لوجهته وماله، أو خوفاً من شرّه .

﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضُهَا﴾ أي: اضربوا جسد القتيل بجزء من البقرة المذبوحة .
ففعّلوا، فأحيا الله تعالى القتيل، وأخبر بنفسه عن قاتله، فكان ذلك معجزةً باهرةً دلّت على كمال قدرته سبحانه .

﴿كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يوم القيامة .

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ الدّالة على كمال قدرته .

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يا بني إسرائيل ما في هذه الواقعة من دروس وعظات وعبر .

فالله سبحانه قادر على أن يحيي القتيل من دون ذبح البقرة، وضربه بجزء من أجزائها، ولكنه سبحانه أراد أن يبيّن لهم تعتّتهم وعنادهم، وتقاعسهم عن تنفيذ أمره، والاستسلام لشرعه، ويكشف لهم سرّ التشديد في شريعة التوراة التي كلّفهم بها، فالتشديد في الحقيقة نابغ من نفوسهم، ومن طبائعهم الغليظة

الجافية، فهو تعالى حكيم بكل ما شرع، عليم بدخائل النفوس ومكنونات القلوب.

تُرى هل عقلوا الدرس، وفهموا عظاته وعِبرَه؟ الجواب ظاهر في قوله تعالى بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ .

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: ازدادت قلوبكم قسوةً وغلظةً بعد كل ما حدث، والمفروض أن ترق وتلين وتخضع لجلال الله تعالى وعظمته، بعد أن رأت وشاهدت معجزة إحياء القتيل الباهرة.

وقسوة القلوب من أخطر أمراضها، سببها كثرة المعاصي والإدمان عليها، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقوله ﷺ: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نَكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا، كَالْكُوزِ مُجَحَّيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يَنْكُرُ مَنَكْرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه مسلم (١٤٤)].

ومعنى «مَجْحِيًّا»: مائلًا منكوسًا.

ودواء قسوة القلب التوبة عن المعاصي، والخشوع لله تعالى، واستغفاره، والإكثار من ذكره، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا

مُتَشَبِّهًا مِّثْلَانِ نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٧﴾ [الزمر].

وقسوة قلوب بني إسرائيل قسوة شديدة خاصة، لا لين معها، إذ وصفها سبحانه بقوله:

﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: من الحجارة، فقد يكون في الحجارة خير.

﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْآنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقُوقُ فِيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ كالحجر الذي ضربه موسى ﷺ في الصحراء، فانفجرت منه عيون الماء، كما مر معنا [انظر: سورة البقرة: ٦٠].

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: يخرّ ويهوي من الأعلى إلى الأسفل، من عظمة الله تعالى.

فالحجارة تتأثر وتنفعل وتنقاد لأمر الله تعالى، وتخضع لجلاله جلّ وعلا، كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

أما قلوب بني إسرائيل فلا تلين ولا تخضع، ولا تنقاد لأمر الله تعالى وشرعه.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من جرائم وخبائث وفتن وفجور. ولا شك أنه وعيد شديد لهم ولأمثالهم من ذوي القلوب القاسية الغليظة الجافية.



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

بنو إسرائيل من السلف إلى الخلف

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُواهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) قَوْلِ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتَ بِيَدِيهِمْ وَقَوْلِ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُوبُونَ﴾ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٠) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَاوُلَدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَفَرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافَةِ وَالْعَدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَعِدُّوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَجْرَكُمْ النَّاسِ عَلَى خَوْفٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَزَّحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعْلَمُونَ النَّاسِ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَدُوتٍ وَمُرُوتٍ وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقِّ يَقُولَا إِنَّمَا

نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ
 مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي
 الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
 ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَتُّوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
 تَقُولُوا رِيعًا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ
 بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ
 بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا
 رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾
 وَكَثِيرٌ مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ
 أَنْفُسِهِمْ مِنْ نَعْدٍ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ
 اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى
 تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ
 وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ
 النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ
 يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَاللَّهُ
 الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَوَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبِنُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا
 قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا

ءَايَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشْتَبِهْتُمْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ءَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ءَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

• تحريف الكتاب:

ولما انتهت الآيات من مواجهة بني إسرائيل، وتذكيرهم بمواقفهم التاريخية السابقة، من كتابهم المنزل عليهم، ونبئهم المرسل إليهم، وختمت حديثها عنهم ببيان شدة قسوة قلوبهم، وغلظة طباعهم ونفوسهم، التفتت إلى المسلمين من أصحاب النبي ﷺ تخاطبهم، وتبين لهم مواقف اليهود المعاصرين لهم من القرآن الكريم، ومن النبي ﷺ، وكأنه تعالى أراد أن يبين أن اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم، يسيرون على سنن آبائهم وأجدادهم، وتكون الآيات بهذا قد انتقلت من الحديث عن السلف إلى الحديث عن الخلف:

﴿أَنْظِمُوهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحَقُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿أَنْظِمُوهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: أبعد كل ما تقدم من مواقفهم وصفاتهم، تطمعون بإسلامهم واستجابتهم لدعوتكم؟! .

والاستفهام لاستبعاد إيمان اليهود، واستجابتهم للدعوة الإسلامية، ويتضمن أيضاً تحذيراً للمسلمين من كيدهم ومكرهم .

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ المنزل عليهم في التوراة .

﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ بتغييره وتبديله.

وذلك كما فعلوا في صفات نبينا محمد ﷺ، الموجودة في التوراة، فقد غيروها، واستبدلوا بها ما يخالفها، وكما فعلوا بآية رجم الزاني، أخفوها ووضعوا في مكانها التسخيم وتسويد الوجه، وكذلك افتروا على كثير من الأنبياء، ووصفوه بصفات لا تليق بمكانتهم التي أكرمهم الله تعالى بها.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: مِنْ بَعْدِ مَا ضَبَطُوهُ وفهموه، فلم يحرفوه بسبب التباسٍ واشتباهٍ، بل عن سابقِ علمٍ وقصدٍ وإصرارٍ، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مبطلون كاذبون.

ودلت الآية على أَنَّ العالمَ بالحقِّ المعانِدَ فيه بعيدٌ عن الرشد^(١).

فهم الذين ابتدعوا النفاق وعلموه غيرهم، فكان بعضهم يعلنُ الإسلامَ بلسانه أمام المسلمين:

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بأنكم على الحق، وأنَّ رسولكم هو الذي بشرت به التوراة.

ويبدو أنهم كانوا يفعلون ذلك ليفتنوا ضعافَ المسلمين عن دينهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ﴾ أي: إذا اجتمع اليهودُ وحدهم مع بعضهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الذين لم ينافقوا للذين نافقوا.

﴿أَتُخَذُ ثَوْنُهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كيف تخبرون المسلمين بما بين الله لكم في التوراة؟.

﴿لِيَحْجُوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي: ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم عليكم في التوراة، أو: ليجادلوكم به في الآخرة.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن ما تفعلونه حجة عليكم؟!.

ويلاحظ أنه تعالى قال في المنافقين في الآيات السابقة: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤] بينما قال في اليهود هنا: ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ فكان اليهود جميعاً شياطين، ولهذا لم يخص بعضهم بهذا الوصف.

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧).

فلا تخفى عليه سبحانه خافية، فإن أخفوا صفات النبي ﷺ التي هي في التوراة عن المسلمين، فلا بد أن يظهرها الله تعالى، وهو الذي يعلم ما يسرون وما يعلنون.

ومما سهّل على المحرّفين تحريف التوراة والإنجيل، أنهما كانا بلغة لا يفهمها عامة اليهود، وهي اللغة السريانية أو الآرامية القديمة، التي كانت لغة أكثر شعوب شرقي البحر الأبيض المتوسط، ولا يعلم هذه اللغة إلا كبار علمائهم وأخبارهم، وكان تداول التوراة قاصراً عليهم، وأما العامة فكانوا يكتفون بسماع تلاوتها منهم، قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا ءَامَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨).

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ أي: من اليهود أميون لا يعرفون القراءة والكتابة.

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة.

﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ أي: إلا ما يسمعون من قراءات الأحبار، دون فهم لمعاني ما يسمعون.

فالأماني: جمع أمنية، وهي التلاوة والقراءة، وهي في الأصل ما يقدره الإنسان في نفسه من مئى يتمناها، ولذلك تطلق على الكذب، وعلى ما يُتمنى، وما يُقرأ، وعلى هذا يمكن أن يكون المعنى: ولكن يعتقدون أكاذيب، أخذوها تقليداً من المحرّفين، أو مواعيد فارغة سمعوها منهم، من أن الجنة لا يدخلها إلا مَنْ كان هوداً [انظر: سورة البقرة: ١١١]، وأن النار لن تمسّهم إلا أياماً معدودة^(١)، كما سيأتي [انظر: سورة البقرة: ٨٠].

﴿وَأِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: وما هم إلا يظنون، قصارى أمرهم الحدس والتخمين، من غير أن يصلوا إلى العلم القائم على النظر والبرهان. ومرّ معنا أنه لا ينبغي بناء الإيمان على مجرد الظن.

واتجهت الآيات تهدّد وتوعد أولئك المحرّفين لكتاب الله تعالى، من الأحبار والرهبان، الذين استغلّوا مكانتهم الدينية، وجهل العامة بكتاب الله تعالى، فحرّفوه من أجل بعض المكاسب الدنيوية المادية:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: هلاك وعذاب للمحرّفين، الذين يكتبون الكتاب المحرّف بأيديهم، من تلقاء أنفسهم.

والويل: كلمة تقولها العرب لكلّ مَنْ وقع في هلكة، وأصلها في اللغة: الهلاك والعذاب، وساغ الابتداء به مع أنه نكرة لأنه دعاء^(٢).

(١) انظر: تفسير البضاوي: ١٤٩/١.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ١٤٩/١.

﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ثم يرتكبون ما هو أشنع وأفظع من التحريف، وهو نسبة المحرّف إلى الله تعالى.

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: ليحصلوا بهذا العمل الشنيع غرضاً من أغراض الدنيا الدنيئة، وهو مهما كان قليلاً بالنسبة لما استوجبوه من العذاب الدائم، وحُرموه من الثواب المقيم^(١).

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من حطام الدنيا، أو مما يكسبون من المعاصي والآثام، وكرّر الوعيد لتأكيده وتشديده.

وفي الآية تحذيرٌ من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع، فكلّ مَنْ بَدَّلَ وغير، أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد والعذاب الأليم^(٢).

• أماني خادعة:

وذكر تعالى بعض التحريفات التي أدخلوها على كتابهم، والأكاذيب التي نشروها بين العامة من أتباعهم، فقال:

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨).

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً﴾ أي: محدودة قليلة.

وهي فكرة رائجة عند اليهود، حكاها سبحانه عنهم في سورة آل عمران فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْيَامًا مَعْدُودَةً وَعَرَّضُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٤).

وجاء في الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، عندما فتح خيبر، سأل اليهود،

(١) انظر: روح المعاني: ٣٠٧/١.

(٢) تفسير القرطبي: ٩/٢.

قائلاً: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «أَخْسَوْا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا نَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَداً» [رواه البخاري (٣١٦٩)].

وردّ تعالى عليهم فقال:

﴿قُلْ أَتُخَذُّمُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: أعهد الله إليكم أنّه لا يعذبكم إلا هذه المدة؟! وهو استفهامٌ يفيد الإنكار والتوبيخ.

﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ إذ لا خلف في عهده ووعد سبحانه.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: بل تقولون على الله قولاً لا صِحّة له، ولا عِلْمَ لكم به؟!.

ثم نفى سبحانه قولهم، فقال:

﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما تقولون وتشتهون وتتمنّون، فهي أماني خادعة، وستعذبون في النار كما يعذب أمثالكم من الكفار والفتّار، حسب المبدأ الذي شرعه الله تعالى، وهو:

﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: فعل أمراً محظوراً باختياره وإرادته.

والسيئة: اسم يتناول جميع المعاصي الكبيرة والصغيرة، والمراد منها هنا الشرك في قول ابن عباس رضي الله عنهما (١).

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ﴾ أي: استولت عليه، وشملت جميع أحواله، كمن أذنب ذنباً ولم يقلع عنه، وأصرّ عليه، فإنّ ذلك يجرّه إلى معاودة مثله، والانهماك فيه، وارتكاب ما هو أكبر منه، حتى تستولي عليه الذنوب، وتأخذ بمجامع قلبه، فيصير بطبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسناً إياها، معتقداً أنّ

لا لَذَّةَ سِوَاهَا، مَبْغُضًا لِمَنْ يَمْنَعُهُ عَنْهَا، مَكْذِبًا مَنْ يَنْصَحُهُ فِيهَا^(١)، كَمَا مَرَّ مَعَنَا أَنَّ الْمَعَاصِيَ بَرِيدُ الْكُفْرِ.

فَالِإِصْرَارَ عَلَى الْخَطِيئَةِ يُؤَدِّي بِصَاحِبِهَا أَنْ يَصْبَحَ حَبِيسَ خَطِيئَتِهِ، يَعِيشُ فِي إِطَارِهَا - كَمَا قَالَ سَيِّدُ قُطْبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ -، وَيَتَنَفَّسُ فِي جَوْهَا، عِنْدئِذٍ عِنْدَمَا تَغْلُقُ مَنَافِذُ التَّوْبَةِ عَلَى النَّفْسِ فِي سَجْنِ الْخَطِيئَةِ، عِنْدئِذٍ يَحَقُّ ذَلِكَ الْجِزَاءُ الْعَادِلُ الْحَاسِمُ^(٢):

﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَحِذْلَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

وفي مقابل هؤلاء:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

● مبادئ من شريعة القرآن وشريعة التوراة:

ثم أبرزت الآيات مبادئ أساسية كبيرة في شريعة التوراة، كلّف الله تعالى بها بني إسرائيل، وأخذ عليهم الميثاقَ لِيَتَمَسَّكُوا بِهَا، وَتَلْتَقِيَ بِهَذِهِ الْمَبَادِئُ شَرِيعَةُ التَّوْرَةِ مَعَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ، فَهِيَ أَيْضًا مِنْ مَبَادِئِهَا الْأَسَاسِيَّةِ الْكُبْرَى، وَبِهَذَا أَكَّدَ تَعَالَى أَنَّ مَصْدَرَ الشَّرِيعَتَيْنِ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ تَعَالَى كَمَا أُنْزِلَ التَّوْرَةُ، وَشَرَعَ مَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامٍ، أُنْزِلَ أَيْضًا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَشَرَعَ مَا فِيهِ مِنْ أَحْكَامٍ، وَجَعَلَ شَرِيعَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَاسِخَةً لِكُلِّ الشَّرَائِعِ السَّابِقَةِ عَلَيْهَا، وَكَلَّفَ جَمِيعَ النَّاسِ بِالتَّزَامِهَا:

(١) تفسير البضاوي: ١/١٥١.

(٢) في ظلال القرآن: ١/٨٦.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٣).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وعبادة الله وحده أهم المبادئ،
وأساسها، فهو أصلها الأصيل، وكل الشرائع الإلهية تنفّرع عنه، وما من نبيّ إلا
دعا إليه، وهو معنى الكلمة التي نادى بها جميع الأنبياء والمرسلين: لا إله إلا الله:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].
هذا هو المبدأ الأساس الأول في الشريعتين، وأما المبدأ الثاني فيهما،
فهو الاهتمام بالآخرين، وتقوية الروابط الاجتماعية معهم، وهو ما سبق معنا
على وجه الإجمال، عند قوله تعالى في صفات الفاسقين: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧] فصله سبحانه هنا فقال:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا للوالدين، بالتواضع لهما، وطاعتهما في
غير معصية، ومعاشرتهما بالمعروف، وخاصة عندما يتقدّم بهما العمر،
ويدركهما ضعف الشيخوخة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرُهُمَا
وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فحقّ الوالدين من أهمّ الحقوق الواجبة على الإنسان في شريعة القرآن
وشريعة التوراة، ويكفي أنّه تعالى قرن شكرهما بشكره فقال: ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: وأحسنوا إلى ذي القربى.

فللقرب على قربه حقوق واجبة، قال تعالى: ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ
وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

وصلة الأرحام في الشريعة الإسلامية عبادة من أعظم العبادات، ولها الأثر الطيب على الإنسان في الدنيا والآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» [رواه البخاري (٥٩٨٦) ومسلم (٢٥٥٧)].

﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: وأحسنوا إلى اليتامى.

وهم الصغار الذين فقدوا آباءهم، أمر الله تعالى بالاهتمام بهم، وحفظ حقوقهم، وتربيتهم ورعايتهم، وشرع لهم سبحانه أحكاماً كثيرة في عدد من الآيات الكريمة، سيأتي بعضها، تدلّ على كثرة اهتمام الشريعة الإسلامية بالضعفاء في المجتمع، وقد توعد الله تعالى الذين يأكلون شيئاً من أموال اليتامى، أشدّ وعيد وأفضعه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠١].

وجعل النبي ﷺ كافلاً اليتيم في منزلة عالية يوم القيامة، قريبة من منزلته، فقال ﷺ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار مالك - من رواة الحديث - بالسبابة والوسطى. [رواه مسلم (٢٩٨٣)].

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ أي: وأحسنوا إلى المساكين.

وهم الفقراء المحتاجون الذين أسكنتهم الحاجة، فلا ينبغي أن يُهمَلوا ويُتركوا إلى الفاقة والحرمان، فقد أوجب الله تعالى الاهتمام بهم ومساعدتهم، ليعيشوا الحياة اللائقة بكرامة الإنسان، وفرض عدة فروض مالية من أجل ذلك، كالزكاة والكفارات والنفقات الواجبة.

﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: قولوا للناس قولاً حسناً طيباً، وكلّموهم بأحسن ما يحبّون.

فالكلمة الطيبة صدقة، خاصّة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وتحبيب الناس بدينه، قال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فما أرفعَ هذا التوجيه الذي أمر الله به بني إسرائيل في التوراة، وأخذ عليهم الميثاق به! وأين هذا من مواقف العناد والجحود وسوء الأدب التي كانوا عليها، كما مرّ معنا؟! بل أين هذه الأخلاق الكريمة من الأثرة، وحبّ الذات، والجشع، والتعصّب العنصري المقيت، التي اشتهر بها اليهود في جميع العصور، وخاصة في عصرنا الحاضر؟!.

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أخذ الله تعالى عليهم الميثاق، أن يؤدّوا الصلاة المفروضة بشكل صحيح مستقيم، وأن يعطوا زكاة أموالهم للمستحقين، فالصلاة والزكاة عبادتان فرضهما الله تعالى في كل الشرائع. وماذا كانت نتيجة هذا الميثاق؟ بينها تعالى بقوله:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم يا بني إسرائيل عن الميثاق، ورفضتم تنفيذ أحكامه ومبادئه.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ تمسك بالميثاق، والتزم أحكامه.

ولا شك أنّ منهم أولئك الذين أدركوا زمن النبي ﷺ، وآمنوا برسالته، التي بشرت بها التوراة، وأمرت باتّباعها.

ودلّ قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ على دقّة أخبار القرآن الكريم، وواقعيتها وموضوعيتها.

﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرِشُونَ﴾ أي: وأنتم عادتكم الإعراض، وعدم الوفاء بالعهود والمواثيق.

• تناقض في المواقف:

وواجهتهم الآيات بوقائع وأحداث قائمة بينهم عند نزولها، لتؤكد لهم بأسلوب واقعي نقضهم للمواثيق والعهود وإعراضهم عنها، ولو كانت خاصة بهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي: لا يسفك بعضكم دم بعض. فالقتل وسفك الدماء بغير حق حرام في جميع الشرائع السماوية، ومن قتل غيره فكأنما قتل نفسه بتعريضها للقتل قصاصاً. ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: ولا يخرج بعضكم بعضاً من بيوتهم وأوطانهم عدواناً وظلماً، وهو من أشد أنواع المظالم. ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق، وتعهدهم بتنفيذه. ويبدو أنه تفصيل لبعض أحكام ميثاق الطور الذي مر معنا في [الآية: ٦٣]. ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يا معشر يهود على صحة هذا الإقرار الذي صدر عن أجدادكم وأسلافكم.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥).

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء تخالفون الميثاق. و: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضكم بعضاً. ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: وتخرجون طائفة منكم من بيوتهم ومساكنهم. ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: متعاونين على قتلهم وإخراجهم من بيوتهم بالمعصية والعدوان.

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تُمْسِكُوهُمْ﴾ أي: تنقذوهم من الأسر بإعطاء الفدية.

﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي: إخراجهم من ديارهم محرم عليكم.

وهذا يدل على تناقض في مواقفهم، فكيف يستبيحون قتل بعضهم بعضاً، وإخراج فريق منهم من ديارهم، ثم إن وجدوهم أسرى دفعوا الفدية، وأنقذوهم من الأسر؟! ولهذا قال سبحانه موبخاً لهم:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ أي: أتصدقون ببعض أحكام التوراة، وهي فداء الأسرى؟.

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أي: وتجددون وتنكرون أحكاماً أخرى فيها، وهي تحريم القتل والإخراج من الديار؟.

قال ابن كثير رحمه الله: «كانت يهود المدينة ثلاث قبائل، بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها فكوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾»^(١).

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهو عذاب الذلة والمسكنة التي ضربت عليهم، كما مر.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ في جهنم.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (٨٦).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على نعيم الآخرة وثوابها.

﴿فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل هو في زيادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَوْقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي: ولا يمنعون منه.

• تكذيب الرسل وقتلهم:

وانتقلت الآيات من بيان مواقف بعضهم من بعض، إلى بيان مواقفهم من رسلهم وأنبيائهم عليهم الصلاة والسلام:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة.

﴿وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي: وأرسلنا على أثره الرسل إلى بني إسرائيل.

والتقفية: الإتيان والإرداف، مأخوذ من اتباع القفا، وهو مؤخر العنق، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ الآية [المؤمنون: ٤٤].

وكلُّ رسولٍ جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة، والأمر بلزومها، إلى عيسى عليه السلام (١).

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة التي تبين صدقه، وصحة رسالته، وهي المعجزات التي أجراها الله على يده، والمذكورة في قوله

سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿وَأَيَّدَنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قويناؤه وأعناؤه بجبريل عليه السلام، والروح من أسمائه، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٢﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ].

والقدس: الطاهر، كما مر، وهي صفةٌ تكريم لجبريل عليه السلام، تدل على طهارته من الآثام والذنوب، وفي الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لحسان بن ثابت: «أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» [رواه مسلم (٢٤٨٥)].

وفي حديثٍ آخر: أَنَّهُ ﷺ قال: «اهْجُهم - أو: هاجِهم - وجبريلُ مَعَكَ» [رواه مسلم (٢٤٨٦)].

وتتابع إرسال الرسل إلى بني إسرائيل - من زمن موسى إلى زمن عيسى عليه السلام - من نِعَمِ الله الكبرى عليهم، وبدل أن يشكروا الله تعالى على هذه النعم، ويعرفوا للرسل فضلهم ومكانتهم، جحدوا وكفروا وافتروا على الرسل أقبح الفرى والأكاذيب، وقتلوا بعضهم، ولهذا قال تعالى، يذكر بني إسرائيل بمواقفهم المخزية من الرسل، وجرائمهم في حقهم:

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ﴾ أي: بما لا تحب أنفسكم، ولا يتفق مع شهواتكم ومصالحكم.

فالقوم يريدون أن تكون رسالة الله تعالى تبعاً لأهوائهم وشهواتهم، ويريدون من الرسل أن يشاركوهم في معاصيهم وفجورهم، ولا ينكروا عليهم ما هم فيه من فسوق وطغيان، وكأنهم بهذا لا يرون أنفسهم محتاجين إلى الشرائع الإلهية، بل يكفيهم أن يحكموا أهواءهم وآراءهم، التي تؤدي إلى فوضى القوانين الوضعية وتضاربها وقصورها.

﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإسلام لله تعالى، والخضوع لأمره، كما فعل الشيطان عندما شمله الأمر الإلهي بالسجود لآدم ﷺ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ كما مرّ [انظر: سورة البقرة: ٣٤].

﴿فَفَرِقَآ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: كذبتهم رسالتهم، وجحدتم نبوتهم، كعيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَفَرِقَآ نَقُتُلُوكَ﴾ كزكريا ويحيى ﷺ.

ولعل الآية عدلت عن صيغة الماضي ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ إلى المضارع ﴿نَقُتُلُوكَ﴾ لتفيد استمرارهم وإصرارهم على قتل المسلمين، وقد أراد يهود المدينة وخيبر قتل النبي ﷺ، وحاولوا ذلك عدّة مرّات، ولكنه تعالى عصمه من كيدهم ومكرهم.

تلك هي مواقفهم من رسلهم الذين بُعثوا منهم، فكيف يكون موقفهم إذا كان الرسول من غيرهم، وبُعث بالرسالة العامّة الخاتمة للناسخة لجميع الرسائل السابقة؟! لا بدّ لمواقف الجحود والعناد والتكذيب والقتل أن تزداد شدّة وعمقاً، فثمّة شعور جديد ينبع من أعماق نفوسهم، وهو الحسد وما يتولّد عنه من حقد وبغي، وهذا ما تُظهره لنا الآيات الكريمة:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: يهود المدينة.

﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: مغلفة مغطاة، لا تفقه ما تسمع.

قالوا ذلك للنبي ﷺ عندما كان يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم آيات القرآن الكريم، وهذا يدل على شدّة كراحتهم للقرآن الكريم، فالقوم لا يحبّون سماعه، كالمشركين من عبّاد الأوثان، الذين قالوا للرسول ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ ءَاذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَافِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

ورّد الله تعالى عليهم فقال:

﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ فقلوبهم كسائر قلوب بني آدم، تسمع وتفهم، ولكّنه تعالى طردهم وأبعدهم؛ طردهم من رحمته، وأبعدهم عن منابع الخير والهدى بسبب كفرهم.

ونتيجة لهذا الطرد والإبعاد:

﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فالإيمان فيهم قليل، ولم يستجب لدعوة الرسول ﷺ إلا عدد قليل منهم.

• التعصّب والحسد:

والعجيب أنهم كانوا ينتظرون بعثة النبي ﷺ، وكانوا أيضاً يستنصرون به على أعدائهم، ويقولون: سُبِّعَتْ نَبِيٌّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم^(١)، فلما بُعِثَ رسول الله ﷺ من العرب كفروا به، وجحدوا رسالته ونبوته، وسجّل عليهم تعالى تغيّر موقفهم فقال:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو التوراة، كما مرّ معنا.

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يستنصرون.

والاستفتاح: الاستنصار. أي: كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي يجدون صفته عندهم في التوراة^(٢).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ من الحق، وهو النبي ﷺ، فقد عرفه أحبار اليهود

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٨٨/١.

(٢) فتح القدير: ١١٢/١.

معرفة تامة بثبوتها الموجودة في كتبهم، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ
ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
[البقرة: ١٤٦].

﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ أي: كفروا برسالته عليه الصلاة والسلام، وأعرضوا عن
دعوته.

﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ثم بين سبحانه سبب تغير موقفهم من النبي ﷺ، فقال:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (٩٠).

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بئس الشيء الذي باعوا من أجله أنفسهم
ومبادئهم.

(وبئس): في كلام العرب مستوفية للذم، كما أن (نعم) مستوفية للمدح^(١).
فكلمة (بئس) تفيد أقبح ذم وأشنع.

واشترى: تأتي بمعنى ابتاع وباع، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ
دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].

وأوصلتهم هذه الصفقة الخاسرة إلى الكفر:

﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة
والسلام.

﴿بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: حسداً لأجل إنزال الله
القرآن الكريم على غيرهم، فالأمر منوط بمشيئته تعالى لا بمشيئتهم، والله أعلم
حيث يجعل رسالته.

والبغي: الظلم بسبب الحسد، والحاسد يطلب لنفسه ما ليس له، وأظهر الله تعالى بهذا سبب حقد اليهود على النبي ﷺ، وكرهاتهم الشديدة للقرآن ورسالة الإسلام، وكيدهم المستمر بالمسلمين.

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي: استحقوا غضباً من الله تعالى متتابعاً مترادفاً، بسبب كفرهم السابق واللاحق.

فعندما وصف الله تعالى مواقفهم السابقة من أنبيائهم قال: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وبعد أن وصف موقفهم اللاحق من رسول الله ﷺ قال: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾، ومعه أيضاً الإهانة والذلة: ﴿وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

إنّ التعصّب الأعمى البغيض الذي ملأ قلوبهم حسداً وحقداً وضرغينة، هو الذي دفعهم إلى إنكار الحق الثابت في كتبهم، ومحاولة طمس معالمه، ولهذا تابعت الآيات تأكيد هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ﴾ على الرسول الخاتم محمد ﷺ.
 ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ كأن وحي الله حكراً عليهم، ولا ينزل على غيرهم.
 ﴿وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: بما أنزل على غيرهم.
 ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: مع أنّه حق ثابت، أنزله الله:
 ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: التوراة.

فلا منافاة بين القرآن الكريم وبين التوراة، كما مرّ معنا، والإيمان بالتوراة لا يمنع من الإيمان بالقرآن الكريم، بل على العكس، فقد أمرهم الله في التوراة أن يصدقوا بالقرآن الكريم إن أدركوا زمن نزوله.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: قل لهم يا محمد

- ﷻ -: ما دمتم تتعصبون لأنبيائكم كل هذا التعصب، وتؤمنون بهم وحدهم، فلم تقتلتموهم وسفكتم دماءهم؟! .

إنه إذا التعصب للتعصب فقط، لا للاتباع، إنه التعصب العنصري الأعمى المقيت، فأنبياؤكم بريئون منكم ومن عنادكم وجحودكم، وإليكم الدليل على ذلك :

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢) .

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات التي تبين صدقه، وتوجب عليكم طاعته واتباعه، كالعصا، واليد، وانفلاق البحر، وتفجير الماء من الحجر، وإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام... وبعد كل هذه المعجزات: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: عندما غاب عنكم وذهب لميقات ربه، كما تقدم [انظر: سورة البقرة: ٥١].

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ .

ثم لما أنزل الله عليكم التوراة، أخذ عليكم الميثاق، للاستسلام لأحكامها، والتمسك بها:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَا يَا مُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٣) .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ سماع الإسلام والاستسلام والطاعة.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك.

قلتم: سمعنا، بألسنتكم فقط، خوفاً من الجبل الذي رفعه الله فوقكم عند

أخذ الميثاق عليكم، وأعرضتم بعد ذلك، وقلتم بلسان حالكم وأفعالكم وسلوككم: عصينا.

ويمكن أن يكونوا قالوا أيضاً بلسانهم: عصينا، فالتبجح بالكفر والفجور غير غريب عنهم، وكلّ ذلك بسبب محبتهم للعجل الذهبي، وتعلق قلوبهم ونفوسهم بالذهب الذي صُنِعَ منه، فهم عبّاد الذهب، وهو الوثن الذي يطيعونه ويعبدونه، ومن أجله هجروا كل الشرائع التي أنزلها الله تعالى عليهم:

﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: طغى حبّ العجل على قلوبهم، حتى رسخ فيها وتشربته، وخالطته مخالطة تامّة، كما يتشرب الثوب الصبغ، ويتلون بلونه. ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم بالله تعالى.

فالإيمان والكفر لا يجتمعان في قلب واحد، ولو كانوا مؤمنين بالله تعالى حق الإيمان ما تشرب قلوبهم حبّ العجل الذهبي.

وذمهم الله تعالى أقبح ذمّ مرّة ثانية، بأسلوب التهكم والتوبيخ، فقال: ﴿قُلْ يَسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ الذي تدعونه، وهو التصديق بالتوراة المنزلة عليكم، كما مرّ معنا من قولهم: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وأتى لهم الإيمان، وقد أشربت قلوبهم حبّ العجل الذهبي، واحتلت محبته نفوسهم.

• حرصهم على الحياة:

واستمرت الآيات تنقض أقوال اليهود، وتردّ مزاعمهم، بأسلوب المواجهة والتحدّي:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤).

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ أي: سالمة لكم وحدكم، والمراد من الدار الآخرة: الجنة.

فاليهود يزعمون أن لهم مكانة خاصة عند الله، فهم أبناء الله وأحباءه، وأن الجنة أعدّها الله تعالى لهم وحدهم، ولن يدخلها غيرهم، فإن كان الأمر كذلك: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ أي: اطلبوا الموت واسألوه.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعون وتزعمون.

ويمكن أن يكون في الآية دعوة إلى المباهلة، أي: ادعوا بالموت على الفريق الكاذب، ومن المعلوم: أن النبي ﷺ دعا وفد نصارى نجران إلى المباهلة، بعد أن أصرّوا على اعتقادهم الباطل بعيسى عليه السلام، وأنزل سبحانه قوله الكريم: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: فامتنعت اليهود عن إجابة النبي ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها إن تمت الموت هلكت، فذهبت دنيهاها، وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى عليه السلام - إذ دُعوا إلى المباهلة - من المباهلة، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - ﷺ - لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً» [رواه أحمد (٢٢٢٥) بإسناد صحيح^(١)].

ثم أخبر تعالى عن شدة تعلقهم بالحياة الدنيا وحرصهم عليها، فقال:

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

أي: لن يتمنّوا الموت مهما عاشوا، بسبب ما صدر عنهم من كفر وجحود. وهذا خاص بالمعاصرين له ﷺ، لأن الآية تخاطب النبي ﷺ، وتأمّره أن يقول هذا الكلام لليهود، وقد أكد الله تعالى هذا المعنى في موضع آخر، فأمر

النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَخَاطَبَ الْيَهُودَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

واستمرت الآيات تبين شدة حرصهم على الدنيا، وتعلقهم بها، وهي تخاطب النبي ﷺ:

﴿وَلَنَجْذِبَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦).

﴿وَلَنَجْذِبَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾ مهما كانت، أي حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة، ولا حياة مميزة على الإطلاق، حياة فقط - كما قال سيد قطب رحمه الله - حياة، بهذا التنكير والتحقير، حياة ديدان أو حشرات، حياة والسلام، إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء، وما ترفع رأسها إلا حين تغيب المطرقة، فإذا وجدت المطرقة نكست الرؤوس، وعت الجباه جبناً وحرصاً على الحياة، أي حياة^(١).

ولا شك أنهم قاطعون بأنه لا يخلو يومٌ من هذه الحياة عن كدر، فإنهم يعلمون أنها - وإن كانت غاية الكدر - خير لهم مما بعد الموت^(٢).

﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي: وهم أحرص على الحياة من الذين أشركوا.

وأفردهم بالذكر مع أنهم من جملة الناس، للإيذان بامتيازهم من بينهم بشدة الحرص، للمبالغة في توبيخ اليهود، فإن حرصهم - وهم معترفون بالجزاء - لما كان أشد من حرص المشركين المنكرين له، دل ذلك على جزمهم بمصيرهم إلى النار^(٣).

(١) في ظلال القرآن: ٩٢/١.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٦٢/٢.

(٣) تفسير أبي السعود: ١٣٢/١.

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: يتمنى اليهودي لو يطول عمره ألف سنة، والمراد من الألف الكثرة.

ولن يخلصه طول العمر من العذاب يوم القيامة:

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَّجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ أي: ومهما طال عمره فلا نجاة له من العذاب، والزحزحة: تحريك الشيء الثقيل، مما يدل على شدة استحقاقهم للعذاب، وكثرة الأسباب التي تجذبهم إليه.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: والله عليم بحقيقة أعمالهم، ومُجازيهم عليها. والبصير: العالم بكنه الشيء، الخبير به.

• عداوتهم للملائكة:

وامتدَّ حقد اليهود وحسدهم إلى أمين الوحي جبريل عليه السلام، لأنه نزل بالرسالة على النبي ﷺ، قال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٧).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ أي: فإن جبريل نزل القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ.

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره سبحانه، فلم ينزل ﷺ على النبي ﷺ باختياره، وإنما نزل بأمر الله تعالى.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فعداوة اليهود لجبريل عليه السلام عداوة في الحقيقة لله تعالى ولجميع الملائكة، لأنهم لا يتحركون إلا بأمره سبحانه: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٩٨).

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وخصَّ الله تعالى جبريلَ وميكائيلَ بالذكر تشريفاً لهما، وتنوياً بمكانتهما بين الملائكة. فجبريلُ: أمينُ الوحي، ينزل به على الأنبياء والرسل. وينزل ميكائيلُ بالخصب والخير والمطر بأمره تعالى أيضاً، واليهود يحبُّونه. وعداوتهم لجبريلَ عداوةُ الله سبحانه ولجميع الملائكة، تمتد حتى لميكائيل الذي يحبُّونه، ويترتب عليها الكفر، ولهذا قال تعالى في ختام الآية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾.

وقد روى البخاري في «صحيحه» [٦٥٠٢]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ» ولهذا غضبَ الله لجبرائيلَ على مَنْ عاداه^(١).

وقد نزل جبريل على النبي ﷺ بالآيات الواضحات الدلالة، على صدقه وصحة رسالته، فلا عذر في الإعراض عنها وجحودها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ (٩٩).

أي: المتمردون المتمرسون بالفسق والفجور، الذين اعتادوا على نقض العهود.

﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٠٠).

﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ أيَّ عهدٍ، هكذا على الإطلاق.

﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: طرحه ونقضه فريقٌ منهم.

وأصل النبذ: طرح ما لا يعتد به، وما مِنْ شأنه أن ينسى، فأَيُّ عهدٍ مع

اليهود لابد أن يقوم بعضهم بنقضه والإعراض عنه، وهذا الفريق هو الفريق الأكبر فيهم، إذ قال تعالى بعد ذلك:

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ولهذا لما جاءهم خاتم الأنبياء ﷺ برسالة القرآن الكريم، الذي أخبرت عنه التوراة، نبذه وطرحه أكثرهم، كما فعلوا في الكتب السابقة:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ.

﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة.

﴿بَدَّ فَرِيقٌ﴾ وهم أكثر اليهود كما مر معنا.

﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: طرحوه وراء ظهورهم، وهذا تمثيل لشدة إعراضهم عن القرآن الكريم.

﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه كتاب الله تعالى، الذي أخبرت عنه التوراة، وأمروا بالتمسك به إن أدركوا زمن نزوله.

ودلّ قوله: ﴿كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على أنهم نبذوه وهم يعلمون أنه منزل من الله تعالى، وأنهم رفضوا الانقياد له واتباع شريعته عن علم ومعرفة، وما حملهم على ذلك إلا عداوتهم للنبي ﷺ وحسداهم وبغيهم.

• اتّباعهم للشياطين:

ولقد نبذ القوم التوراة، كما نبذوا القرآن الكريم، وأعرضوا عن جميع الشرائع التي أنزلها الله تعالى، واتبعوا ما تشعه لهم شياطين الإنس والجن، مما يوافق أهواءهم، ويمكنهم من نشر الفساد بين العباد، قال تعالى:

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوْا الشَّيَاطِيْنُ عَلٰى مُلْكٍ سُلَيْمٰنٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٰنُ وَلٰكِنْ الشَّيَاطِيْنُ
كَفَرُوْا يَعْلَمُوْنَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا اُنْزِلَ عَلٰى الْمَلٰٓئِكِيْنَ بِبَابِلَ هٰرُوتَ وَمَرْوْتَ وَمَا يَعْلَمٰنِ مِنْ
اَحَدٍ حَتّٰى يَقُوْلَا اِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُوْنَ مِنْهُمَا مَا يَفْرِقُوْنَ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَرَوْحِهٖ وَمَا هُمْ بِضٰكِرِيْنَ بِهٖ مِنْ اَحَدٍ اِلَّا بِاِذْنِ اللّٰهِ وَيَتَعَلَّمُوْنَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَلَقَدْ عَلِمُوْا لَمَنِ اشْتَرٰهُ مَا لَهُ فِي الْاٰخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلِيْسَ مَا شَرَوْا بِهٖ اَنْفُسَهُمْ لَوْ
كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ﴾ (١٠٢).

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوْا الشَّيَاطِيْنُ عَلٰى مُلْكٍ سُلَيْمٰنٍ﴾ أي: واتبعوا ما تقوله الشياطين وما
تنشره وتذيعه في مُلك سليمان.

قال الراغب الأصفهاني: «تتلو: بمعنى تكذب وتختلق، يقال: تلا عليه إذا
كذب، وتلا عنه إذا صدق، نحو: ﴿وَيَقُولُوْنَ عَلَى اللّٰهِ الْكَذِبَ﴾ [آل عمران:
٧٥]» (١).

وفي الآية توبيخ من الله تعالى لأخبار اليهود، الذين أدركوا رسول الله ﷺ،
وجحدوا نبوته ورسالته، وهم يعلمون أنه رسول الله، وتأنب منه لهم في رفضهم
تنزيله، وهجرهم العمل به، وهو في أيديهم يعلمونه ويعرفون أنه كتاب الله،
واتباعهم واتباع أوائلهم وأسلافهم ما تلته الشياطين في عهد سليمان (٢).

وقد كان سليمان عليه السلام نبياً من أنبياء بني إسرائيل، جمع الله تعالى له النبوة
والمُلْك، واستجاب دعوته التي قال فيها: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِيْ وَهَبْ لِيْ مُلْكًا لَا يَنْبَغِيْ لِأَحَدٍ مِّنْ
بَعْدِي اِنَّكَ اَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

فمكّن الله تعالى له في الأرض، وسخر له من القوى والطاقات فيها ما لم
يسخره لغيره من البشر، ومن جملة هذه القوى والطاقات المسخرة له مَرَدَةُ الْجِنِّ
والشياطين، سخرهم الله تعالى له، حتى كانوا يأتَمرون بأمره، ويعملون له

(١) انظر: هامش المحرّر الوجيز: ٤١٣/١.

(٢) جامع البيان: ٣٥٤/١.

ما يشاء من الأعمال الكبيرة، والمنشآت الضخمة الهائلة، معجزة له ﷺ، وبرهاناً على صحة نبوته، وصدق رسالته، قال تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص].

وقال أيضاً: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوهاً شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ آلَجِنْ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ يَنْزِلُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذْرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٧) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ] (١).

وبعد موته ﷺ أشاع الشياطين بين الناس أنه كان ساحراً، وأنه ما أخضعهم إلا بقوة سحره، وانتشرت هذه الشائعات بين اليهود على وجه الخصوص، بسبب شدة عداوتهم للأنبياء ﷺ - كما مر - وتناقلها الخلف منهم عن السلف، ولهذا أنزل الله تعالى هذه الآيات تبرئ سليمان من تهمة السحر، وترد ما أذاعته الشياطين عنه، وتبين في الوقت نفسه حقيقة السحر ومصدره:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ كما زعمت الشياطين، وما عمل بالسحر، فسليمان نبي كريم معصوم من ذلك.

﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ باستعمال السحر وتعليمه للناس.

﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ فالشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر، فهم مصادر الأساسية، ومصادر كل شر.

والسحر موجود قبل عهد سليمان، وشأن سحرة فرعون وقصتهم مع نبي الله موسى ﷺ مشهورة ومذكورة في آيات قرآنية كثيرة، واستدل بهذه الآية من يرى أن تعلّم السحر كفر.

(١) انظر: تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

وكما برأت الآية النبي الكريم سليمان عليه السلام من تهمة السحر، ونفته عنه، كذلك نفته الآية الكريمة عن الملائكة، وبرأت ساحتهم منه: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ أي: وما أنزل الله السحر على الملكين، كما زعم اليهود فيما يتناقلونه من أخبار.

وقد سرت بعض هذه الأخبار - مع الأسف الشديد - إلى بعض المفسرين، فأثبتوها في كتبهم، وقد أخبرنا سبحانه أنه ما أنزل الملائكة ليعلموا الناس شيئاً غير الوحي الذي أراد إنزاله إلى الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. وقال منكرراً على من طلب إنزال الملائكة: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

فالملائكة ما أنزلهم الله تعالى إلا على الأنبياء عليه السلام، ولعل مراد الآية تبرئة جبريل وميكائيل، اللذين سبق ذكرهما في الآية السابقة، لأن سحر اليهود - فيما ذكر -، كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود عليه السلام، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر، فأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين^(١).

﴿بَابِلَ﴾ أي: يعلم الشياطين الناس السحر ببابل، وهي بلدة في جنوب العراق، كان لها شهرة كبيرة في الحضارة القديمة التي عرفت بحضارة ما بين النهرين، وكانت حينئذ أكبر المدن وأشهرها.

وببدو أن اليهود تعلموا السحر في بابل، عندما سلط الله تعالى عليهم البابليين في عهد ملكهم بختنصر، في القرن السادس قبل الميلاد، فقد قتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذ عدداً كبيراً منهم أسرى إلى بابل، وفي أثناء أسرهم اختلطوا بأهل بابل، وتعرفوا على السحرة فيها، وتعلموا منهم فنون السحر.

﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ وهما اسمان أعجبيان.

يبدو - والله أعلم - أنهما كانا أشهر سَحَرَة بابل، الذين تعلّم بنو إسرائيل منهم السحر، وأنهما كانا معروفين مشهورين بين اليهود في زمن نزول القرآن الكريم، ولهذا خصّهما الله تعالى بالذكر، وما نقل عن أحد من يهود المدينة أنه أنكر ذلك، مع حرصهم الشديد على تكذيب النبي ﷺ، والاعتراض على التنزيل الحكيم، وأنهما كانا يتظاهران بالصلاح والتدين، لكي يخدعا السُّدَج والبسطاء من الناس، ولهذا كانا ينصحان كلَّ مَنْ يَعْلَمانه السحر ألا يكفر، قال تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وابتلاء.

﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ باستعمال السحر.

وحكى المهدوي^(١) أنه استهزاء، لأنهما إنما يقولانه لِمَنْ قد تحقّقا ضلاله^(٢)، ونقل ذلك عنه القرطبي في تفسيره مؤيداً له^(٣).

ويعضد هذا القول الذي حكاه المهدوي: أَنَّ النبي ﷺ حَذَرْنَا من أئمة الضلال، الذين يتظاهرون بالصلاح والتقوى، لكي ينشروا بين الناس الفساد والضلal، فعن أبي هريرة ؓ: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُخْرَجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رَجُلَانِ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالْدينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جِلْوَدَ الضَّالِّينَ مِنَ اللِّينِ، أَلَسْنَتْهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذَّنَابِ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: أَبِي يَغْتَرُونَ؟ أَمْ عَلِيٌّ يَجْتَرُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لِأُبْعَثَنَّ عَلَى أَوْلَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدْعُ الْحَلِيمَ حَيْرَانًا» [رواه الترمذي (٢٤٠٤) وقال: حديث حسن].

ولكنّ هذا المعنى لا يَتَّفِقُ مع ترتيب كلمات الآية، ولا بدّ - كما قال القرطبي ؒ - من تقديم وتأخير، والتقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل على

(١) هو أبو العباس أحمد بن عامر المهدوي، صاحب كتاب (التحصيل لفوائد التفصيل الجامع لعلوم التنزيل).

(٢) المحرر الوجيز: ٤٢٢/١.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٥٤/٢.

الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر بابل هاروت وماروت، فهاروت وماروت بدل من الشياطين، في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، هذا أولى ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى ما سواه^(١).

وبهذا المعنى تتفق الآية تماماً مع سياقها من الآيات.

وللتقديم والتأخير نظائر في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩] أي: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان عذابهم لازماً.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ أي: فيتعلم الناس من هاروت وماروت.

﴿مَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ أي: ما يكون سبب خصام وخلاف وإحداث الفرقة بين الزوجين، وهو من كبائر الذنوب، ومن أعمال شياطين الإنس والجن، تنزه الملائكة عن فعله وتعليمه للناس.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت» [رواه مسلم (٢٨١٣)].

وقد تبرأ النبي ﷺ ممن يفعل ذلك، فعن بريدة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من حلف بالأمانة، ومن خبب على امرئ زوجته أو مملوكه فليس منا» [رواه أحمد (٣٥٢/٥) بإسناد صحيح، ورواه أيضاً البزار (١٥٠٠) وابن حبان (١٣١٨). ومعنى (خبب) خدع وأفسد].

وتدل الآية على أن للسحر تأثيراً على النفوس والقلوب والعواطف، فلا

خير فيه أبداً، وهو سبب للشرّ والفساد والإفساد، ولهذا حرّمت الشريعة الإسلامية تعلّمه وتعليمه، وعدّه النبي ﷺ من كبائر الذنوب.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» [رواه مسلم (٨٩)].

﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: إلا بقضائه سبحانه وقدره، فالسحر لا يؤثر بنفسه، إلا إذا وافق قدر الله تعالى.

﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يُضُرُّهُمْ﴾ في الآخرة، لأنّ العمل بالسحر كفرٌ أو كبيرة من الكبائر.

﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فيها أيضاً، وإن نفعهم في الدنيا ببعض المكاسب، فهي كسب حرام، لا يبارك الله فيه، فالسحر شرٌ بحت، وضرر محض، غير نافع في الدارين، لا تعلق له بانتظام المعاش ولا المعاد، وفي الحكم عليه بأنّه ضارٌّ غير نافع تحذيرٌ بليغ من تعاطيه، وتحريض على التحرز عنه^(١).

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود الذين تعلّموا السحر، وأعرضوا عن الكتاب المنزل عليهم.

﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: اختاره وهجر من أجله كتاب ربّه.

﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: ما له يوم القيامة نصيب في رحمته تعالى وجنته.

وبعد أن قبّحت الآية عملهم ذمّتهم عليه:

﴿وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنْفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ شدّة العقوبة عليه والعذاب بسببه.

وتبدو شدة خسارتهم إذا قورنت بثواب الله تعالى وطاعته، ولهذا قال تعالى بأسلوب يغلب عليه التحسر على ما يفوتهم يوم القيامة من الثواب الجزيل:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بما أنزل الله تعالى .

﴿وَآتَقَوْا﴾ عذابه بطاعته والاستسلام لأحكام دينه وشرعه .

﴿لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ مما اختاروه لأنفسهم، وتنكير المَثُوبَةِ للتقليل، فأدنى ثواب يتفضل به الله تعالى على عباده، خيرٌ من الدنيا وما فيها .
﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أن ثوابه سبحانه خير .

• تأديب وتحذير:

هكذا أظهرت الآيات - بعرضها لمواقف العناد والجحود عند بني إسرائيل، واستقراءها لها - ضخامة قاعدة هرم الجحود والعناد، الذي وضعت في قمته الكافرين، وفي وسطه المنافقين، وفي قاعدته أهل الكتاب.

وأظهرت أيضاً بأسلوب التحدي والمواجهة صدق القرآن الكريم، وأنه حقاً الكتاب الذي لا ريب فيه، وصحة نبوة النبي الخاتم ﷺ، الذي بشرت به الكتب السابقة، وبهذا مهدت لإبراز ميزة الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع، وهي ميزة السماحة واليسر والمرونة في أحكامها، وبيّنت صلة ذلك برضا المكلفين بها، ومسارعتهم إلى تنفيذ أحكامها، إذ كان من حصيلة مواقف العناد والجحود، وعدم الانقياد والاستسلام، والتباطؤ في تنفيذ التكاليف والأحكام، التشديد في أحكام الشريعة، ومضاعفة التكاليف، كما سبق بيّانه في قصة بني إسرائيل مع موسى عندما كُلفوا بذبح البقرة.

ولهذا جاء تعقيب الآيات الكريمة على جميع ما سبق، في أول نداء لها في السورة توجهه إلى المؤمنين، يجمع بين التأديب والتحذير، تأديب لهم بالآداب

الطيبة الحسنة اللائقة بالمؤمنين، وتحذير لهم من مثل مواقف العناد والجحود التي سبق ذكرها:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٣﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ناداهم الله تعالى بأعظم ما يمتازون به على غيرهم، وبأحب الصفات إليهم، وهي صفة الإيمان به تعالى وحده، وبرسالة القرآن الكريم الذي لا ريب فيه، وبصدق نبوة النبي ﷺ.

﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي: لا تقولوا للنبي ﷺ هذه الكلمة ﴿رَاعِنَا﴾؛ لأنها تحتمل معنى سيئاً، وكان اليهود يقصدون هذا المعنى عندما يقولونها للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

فيمكن أن تحمل على معنى الرعونة، وهي الحق، فقولهم: ﴿رَاعِنَا﴾ أي: فعلت رعونة، أو صرت ذا رعونة، ويمكن أن تكون مفاعلة من الرعي بين اثنين، فكان هذا اللفظ موهماً للمساواة بين المخاطبين، كأنهم قالوا: أرعنا سمعك لترعيك أسمعنا، فنهاهم الله تعالى، وبيّن أنه لا بدّ من تعظيم الرسول ﷺ في المخاطبة^(١)، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

﴿وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ أي: انتظرنا وتأن علينا، أو انظر إلينا.

والمراد أنه ينبغي عليكم أيها المؤمنون أن تتأدبوا مع رسول الله ﷺ، وتختاروا عند مخاطبته ﷺ الكلمات اللائقة بمقامه العالي الرفيع، والتي

لا تحتمل أي معنى فيه إساءة أدب معه عليه الصلاة والسلام، وتدلل على التسليم والخضوع لأوامره وتوجيهاته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي: اسمعوا ما يأمركم به النبي ﷺ سماع قبول وانقياد وإجابة، لا سماع عناد وجحود، كما فعل اليهود مع نبيهم موسى ﷺ، عندما قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب عنادهم وعدم انقيادهم وإسلامهم. وكشفت الآيات للمؤمنين شدة بغض الكفار لهم، وما تحمله قلوبهم من ضغينة وحسد، بقوله تعالى:

﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٠٥).

﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: ما يحب الكفار، سواء كانوا من أهل الكتاب أم من المشركين، أن ينزل الله تعالى عليكم الخير، الذي أنزله عليكم في القرآن الكريم، وبعثة النبي الأمين ﷺ، فالقوم يحسدونكم على إسلامكم واتباعكم للنبي ﷺ، ويعلمون أن خيراً كثيراً من الله تعالى به عليكم، فاعرفوا قدر هذه النعمة العظيمة، التي أنعم الله بها عليكم، فخصكم بها، واصطفاكم لها.

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو سبحانه العليم الحكيم، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وحيث يجعل هدايته أيضاً.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فله سبحانه الفضل العظيم والمنّة على خلقه، وليس لأحد سابقة استحقاقٍ عليه جلّ وعلا، فالفضل له أولاً وآخرأ.

فإحسانه على بعض عباده من محض فضله، وحرمان بعضهم ليس لضيق فضله، بل لمشيئته وحكمته تعالى.

• التدرّج في التشريع والنسخ:

ومن فضله تعالى أنه جعل الشريعة الإسلامية شريعةً سمحةً ميسرةً، لا عُسر فيها ولا حرج، ومن رحمته تعالى بخلقه وحكمته أنه ما أنزل القرآن الكريم جملةً واحدةً، وما كلّفهم بأحكامه دفعةً واحدةً، بل أنزله سبحانه على نجوم فرّقها على زمن التنزيل، الذي امتدّ ثلاثاً وعشرين سنة، فما تمّ الدين، واكتمل البناء التشريعي إلّا في آخر حياة النبي ﷺ، عندما أنزل الله عليه قوله الكريم، عشية يوم عرفة، من العام العاشر من الهجرة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد استدعى التدرّج في الأحكام في أثناء فترة التنزيل هذه، تشريع بعض الأحكام لفترة معينة ثم نسخها، وهو مظهر يدلّ على سماحة الشريعة ويُسرّها، وأنها شريعة الرحمة حقّاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وحاول يهود المدينة المنورة الذين أنزلت عليهم التوراة جملةً واحدةً، وشدّد الله عليهم في أحكامها - كما مرّ معنا - أن يستغلّوا ميزة الشريعة الإسلامية هذه، ووقوع النسخ في بعض أحكامها، لكي يشكّكوا في صحة نبوته ﷺ، ويطعنوا في صدق رسالته ﷺ، فأنزل سبحانه ردّاً عليهم، وتحذيراً للمؤمنين من التأثير باعتراضاتهم ومطاعنهم، وتعزيزاً لثقتهم بكتابهم وشريعتهم، قوله الكريم:

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٧).

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: ما نرفع من آية ونزيلها.

والنسخ يمكن أن يكون لحكم الآية فقط مع بقاء تلاوتها، ويمكن أن يكون لحكمها وتلاوتها.

﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: نذهبها من القلوب، من النسيان، ويكون هذا عند نسخ التلاوة والحكم جميعاً.

وفي قراءة: (نفسأها) أي: نؤخرها، من النساء، وهو التأخير، والمعنى: نؤخر نزولها، كآيات تحريم الخمر، إذ أحر سبحانه تحريمها، مع أنهم سألوا رسول الله ﷺ عنها، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ [البقرة: ٢١٩].

﴿ثُمَّ نَبِّئِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ خَيْرَ الْعِبَادَةِ وَأَصْلَحَ لَهُمْ مِنَ الْآيَةِ الْمُنْسُوخَةِ، فَالْخَيْرِيَّةُ فِي نَفْعِهَا لِلْعِبَادَةِ، وَمُرَاعَاتِهَا لِمَصْلَحَتِهِمْ، لَا أَنَّ آيَةَ خَيْرٍ مِنْ آيَةٍ، فَكَلَامُهُ تَعَالَى كُلُّهُ فِي الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ سِوَاءٍ.﴾
﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ في الصلاح والثواب.

ثم اتجهت الآية بالخطاب إلى النبي ﷺ بأسلوب التقرير والتأكيد:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه قادر على النسخ، والإتيان بمثل المنسوخ، أو بما هو أكثر ملاءمةً وصلاً للعباد من الحكم المنسوخ، فالتشريع منوط بمحض مشيئته تعالى وحكمته، لا يشاركه فيه أحد، فهو وحده سبحانه الخالق والمالك والمدبر: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولهذا ينبغي أن يكون له وحده حق التشريع والحاكمية، لأنه وحده مالك السماوات والأرض، يُشرع في ملكه ما يشاء، وينسخ من الأحكام والشرائع ما يشاء سبحانه.

وجاء بعد تقرير هذه الحقائق التحذير، ولهذا التفت الخطاب إلى المؤمنين:

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فلا تتولّوا غيره، ولا تستنصروا بسواه، ولا تتأثروا بافتراءات المغرضين، واعتراضات المعاندين، واستسلموا لحكمه، وتمسكوا بشريعته.

وتابعت الآيات تحذير المؤمنين من مثل مواقف بني إسرائيل من نبيهم موسى عليه السلام:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝﴾.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ؟﴾ أي: أبعد أن علمتم أن الله مالِكُ الْمُلْكِ، وأنه صاحبُ الأمر والنهي، تريدون أن تسألوا رسولكم محمداً ﷺ.

﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ عندما قال له بنو إسرائيل: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. وعندما سأله عن أوصاف البقرة، ولم يبادروا إلى طاعته وتنفيذ أمره، كما مرَّ في [سورة البقرة: ٦٧ - ٧١].

فلاستفهام في الآية يفيد الإنكار، واستبعاد اتّصاف المؤمنين بمثل ما اتّصف به اليهود.

﴿وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ بسبب إغراضه عن طاعة نبيه ﷺ، أو اعتراضه عليه، وإساءة الأدب معه، وعدم المسارعة إلى تنفيذ أوامره.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: أخطأ الطريق المستقيم، وابتعد عن الشرع القويم.

• من أخلاق الإسلام:

ويتمنى الحاسد زوال النعمة عن المحسود، ولهذا تمنى أهل الكتاب زوال نعمة الإيمان عن المؤمنين، وانتكاسهم إلى حماة الكفر، وهو ما كشفت عنه الآيات الكريمة بقوله تعالى:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ۚ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ۚ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ

أَنْفُسِهِمْ ﴿١٠٩﴾ أي: حسداً نابعاً من أعماق أنفسهم؛ لم يجدوه في كتاب، ولا أمروا به. وودادتهم هذه ليست نابعة من حبّهم لدينهم، وتعصبهم له، وإنّما مصدرها الحسد الذي يملأ نفوسهم، فلا يهتمّهم أن تدخلوا في دينهم، بقدر ما يهتمّهم أن يُخرجوكم من دينكم، ويجعلوكم تنبذون كتابكم، وتعرضون عن شريعتكم، هذا الذي يتمنونه، ومن أجله يرسمون الخطط، ويعقدون المؤتمرات، ويرصدون له الأموال الكثيرة، وتستهدف جهود التنصير الموجهة إلى الشعوب المسلمة تكفير المسلمين، وإبعادهم عن دينهم أكثر من تنصيرهم.

﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ أي: من بعد علمهم أنّكم على الحق، فحرصهم على تكفيركم معاندة للحق وجحوداً له، لا جهلاً به.

وفي هذا إشارة إلى أنّ معرفة الحق لا تكفي للإيمان به، لابدّ أن يكون معها انقياد له ورضا به، ومعرفة الإيمان لا تمنع من الكفر أيضاً، وما أكثر الكفار جحوداً وعناداً.

وفي مقابل حسدهم للمؤمنين وبغيهم عليهم، أمر الله تعالى المؤمنين أن يقابلوهم بالعمو والصفح، ودفع السيئة بالحسنة، فقال:

﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ أي: تجاوزوا عن حسدهم وبغيهم، وارتفعوا إلى المستوى السامي الرفيع للأخلاق الإسلامية، ما دام حسدهم حيس صدورهم فقط.

أما إذا دفعهم الحسد إلى البغي والظلم والعدوان، فحينئذٍ شرع الله لكم قتالهم، وأمرهم بجهادهم، لدفع شرّهم وفسادهم، وهو ما دلّ عليه قوله سبحانه:

﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أي: حتى يشرع الله لكم حكمه، وهو الإذن بقتالهم، وضرب الجزية عليهم.

وقد شرع لهم تعالى قتالهم بعد ذلك بقوله الكريم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

ورأى أكثر المفسرين أنّ آية القتال هذه قد نسخت آية العفو والصفح^(١)، مع أنّ العفو والصفح في الآية مقيد بحالة معينة، ويمكن أن تتكرر هذه الحالة بتوالي العصور، وتغيّر الأحوال والظروف، والإسلام شرع الأحكام الملائمة لكل الحالات والظروف، فلا ينبغي المسارعة إلى القول بالنسخ كما فعل كثير من المفسرين، فالأمر بالقتال، ومسالمة الأمم والشعوب، أمران مشروعان في الإسلام، وقد قال العلامة البيضاوي: الأمر بالقتال غير مطلق^(٢)، فهو منوط بما يراه وليّ أمر المسلمين، فإذا رأى أن المصلحة تقتضي مسالمتهم سالمهم، وإذا رأى أن المصلحة تقتضي قتالهم قاتلهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فهو سبحانه قادر على الانتقام منهم، وينصركم عليهم عندما يأمركم بقتالهم، ففيه بُشرى للمؤمنين بنصره سبحانه لهم.

فلا ينبغي لحقد أهل الكتاب عليكم وحسدكم لكم أن يعوقكم عن طاعة ربكم وعبادته، دعوا قلوبهم تحترق بنار الحسد والغم والكمد:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ واستكثروا من فعل الخيرات والطاعات، فإنكم ستجدون ثوابها عند الله تعالى يوم القيامة.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فلا يضيع عنده تعالى عمل عامل، ولا ينقص منه شيئاً، بل يزيده سبحانه بفضله

(١) علماء السلف يطلقون النسخ ويريدون به تخصيص العام وتقيد المطلق، خلافاً لما عليه متأخرو الأصوليين.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/١٧٩.

وكرمه، كما قال: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

• تناكر وتجاهد:

ثم وسّعت الآيات دائرة تحذير المؤمنين، وتنبههم إلى مصادر الخطر، ببيان ما يدّعيه أهل الكتاب من يهود ونصارى، بأنهم وحدهم الفائزون الناجون يوم القيامة، وأنه لن يدخل الجنة أحد غيرهم:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١).

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ وهذا قول اليهود.

﴿أَوْ نَصْرَىٰ﴾ وهذا قول النصارى أيضاً.

فقد ادّعت كل طائفة أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، فأكذبهم الله تعالى، وردّ دعوى الفريقين، كما ردّ دعوى اليهود من قبل، أن النار لن تمسّهم إلا أياماً معدودة [انظر: سورة البقرة: ٨٠].

ثم بعد ذلك يدخلون الجنة، فقال:

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ التي تمنّوها على الله بغير حق، ومن غير دليل، ولهذا

أمر سبحانه النبي ﷺ أن يطالبهم بالدليل على هذه الدعوى:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فالفوز بالجنة لا يكون بمجرد الأمانى، بل بالاستسلام لله والخضوع

لأحكام شريعته:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٢).

﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما زعمتم وتمنّيتم، ولكن:

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: خضع واستسلم لله تعالى وحده.

فأصل الإسلام الاستسلام، وهو الخضوع، وخصّ الوجه بالذكر لآتته أشرف الأعضاء^(١)، ولهذا كان وضع الوجه على الأرض في السجود لله تعالى دليلًا على كمال الاستسلام والخضوع له جلّ وعلا.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في قوله وعمله وسلوكه.

والإحسان: إتقان العمل نتيجة الشعور بمراقبة الله تعالى، كما مرّ معنا في الحديث الشريف: عندما سُئِلَ ﷺ عن الإحسان فقال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [رواه مسلم (٨)].

﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ويلاحظ أنه تعالى في معرض الردّ على اليهود والنصارى، بيّن أن دخول الجنة لا يقتصر على نوع أو جنس معين من الناس، فلم يقل: الجنة للمسلمين فقط، بل بيّن سبحانه أن دخول الجنة مرتبط بمبدأ عام شامل لكل الناس، وكل من التزم بهذا المبدأ دخل الجنة بفضل الله تعالى، فأبواب الجنة مفتحة للجميع، وعلى طلابها أن يسلكوا الطريق المؤدّي إليها، فالإسلام حريص على نفي التعصّب عن الناس، ويربّي المسلمين على أن يكونوا مسلمين اعتقاداً وعملاً، بالتزامهم بمبادئه وأحكام شريعته، لا أن يكونوا مسلمين بمجرد الانتماء الفارغ المجرد عن أيّ تطبيق عملي وسلوكي، كما هو - مع الأسف - حال كثير من المنتسبين إلى الإسلام في العصر الحاضر.

وقد أدّى التعصّب الممقوت بالمنتسبين إلى الملل الإلهية ذات الأصل الواحد، إلى الاختلاف والافتتال، وإنكار كل فريق ما عند الفريق الآخر، ووجد نبوة ورسالة أنبياء الآخرين، وهو ما حكاه سبحانه عنهم بقوله:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ
الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: ليسوا على شيء يصح ويعتد به،
وبهذا جحدوا نبوة عيسى ﷺ، وكفروا برسالته.

﴿وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وبهذا كفروا بموسى ﷺ وبالتوراة التي
أنزلها الله عليه.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: وكلا الفريقين يقرؤون الكتاب المنزل عليهم،
يقرأ اليهود التوراة، ويقرأ النصارى الإنجيل، ولا خلاف بين الكتابين في أصول
الاعتقاد.

فالإنجيل يشهد بصحة وصدق التوراة، كما يشهد القرآن الكريم بصحة
وصدق التوراة والإنجيل، وعيسى ﷺ أرسل إلى بني إسرائيل، كما أرسل إليهم
موسى ﷺ، وعلمه الله تعالى التوراة كما علمه الإنجيل، وأقر ﷺ برسالة
موسى ﷺ وصدق بالتوراة، بين سبحانه كل ذلك في القرآن الكريم فقال:
﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّلِينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِيءُ
الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَمَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ
الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران].

فلِمَ هذا التناكر والتجاهد؟! إنه التعصب الممقوت، هو الذي دفعهم إليه،
وهو الذي دفع أيضاً المشركين وعبداء الأصنام إلى أن يجحدوا رسالة النبي ﷺ
ويُعرضوا عنها:

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين لا علم عندهم، ولا كتاب نزل
عليهم.

﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: مثل قول اليهود والنصارى.

فقد أنكروا رسالة القرآن الكريم، وجحدوا رسالة النبي ﷺ، وزعموا أن ما هم عليه من عبادة الأصنام والأوثان، في حرم الله تعالى، وبجوار بيته الحرام، هو الحق، ولهذا منعوا المسلمين الموحدين من عبادة الله تعالى فيه، وآذوهم، واضطهدوهم، حتى اضطروهم إلى الهجرة.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهو - ولا شك - وعيد

شديد.

ثم أتبعته الآيات بوعيد خاص بالمشركين، لمنعهم المسلمين من عبادة الله تعالى وحده في المسجد الحرام:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: لا أحد أظلم من هؤلاء الذين منعوا المؤمنين من عبادة الله تعالى وحده، وذكّره بالدعاء والاستغفار والتسبيح، في المساجد التي بُنيت لهذا الأمر، فمَنَعَ المؤمنين عن المسجد الحرام - وهو أفضل المساجد وأعظمها حرمةً - منع عن كل المساجد، وصد عنها.

﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ بتعطيلها عن عبادة الله تعالى فيها، فالخراب ذهاب العمارة، والعمارة إحياء المكان وإشغاله بما وُضِعَ له^(١).

فالعمارة الحقيقية للمساجد هي في عبادة الله وحده في رحابها، وفي إقامة الصلاة فيها، ولا قيمة لتشديد بنائها، ورفع جدرانها دون أن تُعْمَرَ بذكر الله وعبادته وحده فيها، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ [التوبة: ١٨].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: المانعون.

﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ أي: لا ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا خائفين من المؤمنين.

وقد حدث كما شرع سبحانه وأخبر، فعندما فتح النبي ﷺ مكة المكرمة بعد عدة سنوات من نزول هذه الآية، أرسل من ينادي بين المشركين قائلاً: «مَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ فَهُوَ آمِنٌ» فدخلوه خائفين، خوفاً من بطش المؤمنين وانتقامهم، بعد أن كانوا متسلطين عليه، متجبرين متكبرين فيه، يعبدون فيه الأصنام والأوثان^(١).

ودلت الآية على أن من عمل في مساجد الله بغير ما وُضِعَتْ له من ذكر الله، كان ساعياً في خرابها، وناله الخوف في محل الأمن^(٢).

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: ذلة ومهانة إن أصرّوا على كفرهم وشركهم حتى ماتوا عليه.

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

• تنزيه الحق سبحانه عن الولد:

ولا يخفى ما في الآيات من بشارة للمؤمنين بالنصر على المشركين، فقد أنزلت هذه الآيات في أوائل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، وفي أول معارك الإسلام مع الشرك، ولهذا التفتت الآيات إلى المؤمنين تواسيهم عن منع المشركين لهم عن المسجد الحرام، وعبادة الله تعالى فيه بقوله سبحانه:

(١) سيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٤٤٤.

(٢) نظم الدرر: ١٢١/٢.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: له جلّ وعلا ملك الأرض كلها، مشرقها ومغربها، وقد جعلها سبحانه كلها بفضلِهِ ورحمته مسجداً لكم، يمكنكم أن تصلوا في أيّ مكان منها.

﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: ففي أيّ مكان استقبلتم جهة الصلاة وصلّيتم، فإنّ صلاتكم مرضيةٌ وصحيحة عند الله تعالى، فقد جُعِلَتْ لكم الأرض كلها مسجداً، فصلّوا في أيّ بقعة شئتم من بقاعها.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أُعْطِيَتْ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيْبَةً طَهُوراً وَمَسْجِداً، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ بَيْنَ يَدَيَّ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) واللفظ له].

ويحتمل أن يكون المعنى: فأَيّ جهة تستقبلون في صلاتكم إذا تعذّر عليكم معرفة القبلة صَحّت صلاتكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الرحمة، يوسّع على عباده، ولا يضيق عليهم.

﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصلحهم ويوافقهم.

وتتفق الآية مع سياقها من الآيات، وتمهّد في الوقت نفسه لموضوع قبلة الصلاة، الآتي قريباً في سياقها [الآية: ١٤٤].

وكشفت الآيات ما استحدثه هؤلاء المتعصبون الجاحدون في أصل عقائدهم، من انحراف عن التوحيد، وشرك وكفر:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فاليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا:

المسيح ابنُ الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، تنزه الله تبارك وتعالى عن كل ذلك.

حكى الله سبحانه ذلك عنهم في قوله الكريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: يتنزه تعالى عن الولد، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد.

﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فكيف ينسبون الولد إليه وهو خالقه ومالكة؟!.

﴿كُلُّ لَهُ قَلْبُونَ﴾ أي: جميع هؤلاء الذين وصفتموهم بصفة النبوة لله تعالى، خاضعون له وحده، ومقرّون له بالعبودية، كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

وبهذا أبطلت الآية بأسلوبها البليغ المُعْجَز عقائدهم، وبيّنت فسادها من ثلاثة وجوه:

الأول: ببيان كماله تعالى وغناه، وتفرّده بالكمال المطلق، وتنزهه عن الاتّصاف بصفة الولادة والولد.

الثاني: ببيان تمام ملكه، وسلطانه سبحانه، فالكلُّ مملوكٌ له جلّ وعلا، والمملوكية تنافي الألوهية.

الثالث: ببيان أن المسيح وعُزَيْر والملائكة بريئون عن هذه الدعوى، مقرّون بوحدانيته تعالى، خاضعون لأمره، مستسلمون له وحده جلّ وعلا.

وأضافت الآيات بعدها وجهاً آخر يدل أيضاً على وحدانيته تعالى، وأنه مُنَزَّهٌ عن اتخاذ الولد:

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝﴾

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو خالق ومنشئ السماوات والأرض على غير مثال سبق، ومُحْدِثُهَا من العدم، وكلُّ الأشياء حادثةٌ بقدرته تعالى، مسبقةٌ بالعدم، فهو وحده المتفرّد بالقدَم والبقاء جلّ وعلا.

﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: إذا تعلّقت إرادته ومشيئته بوجود شيء.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ﴾ بأمره التكويني القدري.

﴿فَيَكُونُ﴾ كما قدّر وأراد جلّ وعلا، من غير امتناع ولا توقّف، ومن غير احتياجٍ إلى آلاتٍ وأسباب.

ودلّت الآية على كمال قدرته تعالى، كما أشارت إلى حدوث عيسى عليه السلام، وخلقهِ بالكلمة التكوينية، دون تقدّم أسباب، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝﴾ [آل عمران: ٤٧].

وكما بيّنت الآيات التشابه في الانحراف عن التوحيد بين عقائد أهل الكتاب، وبين عقائد المشركين من العرب، بيّنت أيضاً التشابه بينهم في مواقف الجحود والعناد، بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب.

﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي: هلاً يكلمنا الله مباشرة، ويخبرنا أنه أرسلك إلينا.

﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ أي: معجزةٌ كما نطلب ونشتهي.

فالقوم يريدون أن تأتي الآيات والمعجزات على حسب إرادتهم وشهواتهم، وهم يتغافلون عن آيات الكتاب الكريم، وما فيها من إعجاز وتحذ لهم.

﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: كذلك قال اليهود والنصارى لأنبيائهم مثل قول المشركين للنبي ﷺ.

﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الفساد والجحود.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ﴾ الدالة على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته، وهي آيات تكفي مريد الحق عن غيرها من الآيات والمعجزات.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾ أي: لقوم يريدون الحق الذي لا شبهة فيه، من غير عناد ولا جحود، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت].

• تثبيت ومواساة:

وقد عودنا الله تعالى أنه كلما بين موقفاً من مواقف الجحود والعناد، من دعوة الرسول ﷺ، وجه إليه الخطاب مواسياً ومثبتاً، ولهذا قال تعالى هنا:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشْغَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الواضح الثابت المؤيد بالبراهين القاطعة.

ودلت صيغة الجمع ﴿إِنَّا﴾ على عظمة المرسل والمرسل إليه.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: تبشّر المؤمنين بفضل الله تعالى ورحمته، وتنذر المعرضين الجاحدين لنعمته بسخطه وعذابه.

﴿وَلَا تُشْغَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أي: ولست مسؤولاً عن كفر وحجود الكافرين، بعد أن بلغتهم رسالة ربهم، وأنذرتهم عذابه وانتقامه.

وفي قراءة: (ولا تسأل) بالنهي والجزم، أي: لا تسأل عنهم سؤال المهمتهم. وقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على إيمانهم، يحزنه إعراضهم

وجحودهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِعُّ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَائِثِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقال أيضاً: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ثم حذر الله سبحانه رسوله ﷺ من كيد أهل الكتاب ومكرهم، وهو في الحقيقة تحذير لأمتة عليه الصلاة والسلام، إذ أخبره الله تعالى أنه عصمه من كيدهم ومكرهم:

﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٢٠).

﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي: لن ترضى عنك اليهود إلا بالتهود، ولا النصارى إلا بالنصر.

فلا تنخدع بمظاهر الرياء والخداع التي يتظاهرون بها أمامك، فالحق والتعصب يملأن صدورهم ونفوسهم، والتعامل مع أمثال هؤلاء لا يكون إلا بالتمسك بالحق، ومواجهتهم به:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وما عداه ليس هدى بل هوى.

﴿وَلَئِنَّ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ في الكتاب المنزل عليك، الذي لا ريب فيه.

﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: ما لك غير الله من ولي يتولاك.

﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصرك ويؤيدك.

وحاشاه ﷺ أن يتبع أهواءهم، أو يميل أدنى ميل إليهم، ولكنه تعالى أراد أن يُظهر عز ربوبيته، وتفرده بالغنى والوحدانية، أمام خيرته من عباده ومخلوقاته، كما أراد تعالى تحذير المؤمنين وتثبيتهم وتأديبهم، فكَأَنَّهُ تعالى يقول لهم: إذا كان هذا حال الرسول إن اتبع أهواء اليهود والنصارى، فكيف يكون حالكم؟!.

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبِنتْكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء].

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ، سلك في تأديب وتهذيب أصحابه مثل هذا المسلك، عندما قال في حادثة المرأة المخزومية التي سرقت: «والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» [رواه مسلم (١٦٨٨)].

ثم بعد هذا التحذير الصريح من الانخداع بأهل الكتاب، وجَّهت الآيات النبي ﷺ لكي ينصرف إلى أصحابه ويهتم بهم، بأسلوب رفيق رقيق غير مباشر:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن الكريم، فالكتاب إذا أُطْلِقَ ينصرف إلى الكتاب المعهود، الذي لا ريب فيه، كما تقدم في أول السورة [الآية: ٢].

﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ كما تلقَّوه من النبي ﷺ، لا يغيِّرون فيه، ولا يبدِّلون، يتدبرون معانيه، ويعملون بما فيه.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المتَّصفون بهذه الصفة.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: يؤمنون بالكتاب المنزل عليهم بالإيمان الحق، كما يتلونه التلاوة الحقة.

وهي شهادة ربانية رفيعة لأصحاب النبي ﷺ، حَمَلَةُ الْكِتَابِ وَأَمَنَتَهُ وَحَفَظَتَهُ بعده ﷺ، ولا يخفى ما في هذه الشهادة من تعريض بأحبار اليهود والنصارى، الذين حرَّفوا كتابهم، ولم يحافظوا عليه، ولم يتلوه حقَّ تلاوته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك يتوعددهم ويتهددهم:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: بالكتاب المنزل.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم اشتروا الكفر بالإيمان، والضلالة بالهدى.

وعادت الآيات مرة ثانية، في ختام حديثها عن أهل الكتاب، وفي سياق تحذير المؤمنين من التشبه بهم، إلى تكرار ندائها السابق الذي وجهته إلى بني إسرائيل، وكأنها بهذا التكرار تخاطب الخلف منهم كما خاطبت السلف، وفي هذه إشارة إلى استمرارهم على مواقف العناد والجحود، التي كان عليها أسلافهم:

﴿يَبْنَئِىْ اِسْرَءِيْلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّيْ فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِيْنَ ﴿٢٢٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِيْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

وبهذا ختمت الآيات حديثها عن هرم الجحود والفساد، وبيان مواقف الجاحدين المعاندين.

ثم توجهت الآيات بعد ذلك في سورة البقرة وجهةً جديدةً، إلى الحديث عن المسلمين لله تعالى، والمستسلمين لأحكامه وشريعته، وبيان مواقفهم من التكليفات التي كلفهم الله تعالى بها، ولهذا عرضت في أثناء ذلك عدداً من التشريعات، فصلت بعضها، وأجملت بعضاً آخر، تاركة تفصيل فروعها إلى السُّنة النبوية الشريفة، واجتهاد الأئمة المجتهدين من فقهاء الأمة.



الْفَصْلُ الرَّابِعُ

التوحيد، وإبراهيم عليه السلام، والبيت الحرام

﴿وَإِذْ أَنْتَبَهَ إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن ثَمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَىٰ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن لَّوَلُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكُنِيكُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا
 وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
 كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا
 كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ الشُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ
 مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا
 وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ
 لَكِبَرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّكَ بِاللَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ
 ﴿١٤٣﴾ قَدْ رَأَى نَفْلُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ
 وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَكَ مِنْ أَعْلَمٍ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا
 يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاَسْتَفِيقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ
 لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّتْ عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ
 رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ
 تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَامُوتٌ بَلْ

أَنِيَّةً وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ بَشَاءً مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ
وَالشَّمْرِ تٍ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٨﴾ إِنَّا لَنَظُنُّكَ فَالًا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ
اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ إِنَّا لَنَدْعُوهُمْ لَلْعَذَابِ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَئِكَ
أَنُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦١﴾ إِنَّا لَنَدْعُوهُمْ لَلْعَذَابِ ﴿١٦٢﴾ إِنَّا لَنَدْعُوهُمْ لَلْعَذَابِ ﴿١٦٣﴾
وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٤﴾ خَلِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٥﴾ .

• إبراهيم عليه السلام ومقام الإمامة:

لا بد بعد أن أظهرت الآيات ما أحدثه أهل الكتاب من شرك في عقائدهم، وما فعله مشركو العرب من صدُّ عن المسجد الحرام، ومنع المسلمين الموحدين من عبادة الله تعالى فيه، أن تلتفت الآيات الكريمة إلى الحديث عن البيت الحرام، وصلة المسلمين الموحدين به، وعن رافع قواعد إبراهيم عليه السلام، الذي ينتسب كلُّ من أهل الكتاب والمشركين إليه، ويدَّعي كلُّ فريق منهم أنه كان على ملته، فبيِّن حقيقة دعوته عليه السلام، وأنه كان يدعو إلى التوحيد، وأنه إمام الموحدين، وأنه هو الذي رفع قواعد بيت الله الحرام، لعبادة الله الواحد الأحد فيه، وليكون قبلة المسلمين الموحدين في صلاتهم، وموضع حجَّهم، وأداء مناسكهم.

وأبرزت الآيات في مستهل حديثها عن إبراهيم عليه السلام، استسلامه الكامل لأمر الله تعالى، ومبادرته إلى تنفيذ ما كُلِّفه به الحق تعالى مهما كان شاقاً عليه:

﴿وَإِذْ أَبَدَّكَ إِبرَاهِيمُ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ دُرِّيِّي قَالَ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ .

﴿وَإِذْ أَبَدَّكَ إِبرَاهِيمُ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ﴾ أي: اذكر يا محمد - ﷺ - لهؤلاء الجاحدين

المعاندين، إسلام إبراهيم لله تعالى، وانقياده لأمره، وخضوعه لحكمه، عندما كلفه ببعض التكليف.

فالابتلاء: الاختبار والامتحان. والكلمات: جمع كلمة، وهي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد، لكنها قد تطلق على المعاني التي تحتها^(١).

وتدل كلمة ﴿ابْتَلَى﴾ على أنه تعالى كلف إبراهيم ﷺ بتكاليف شاقة صعبة.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: قام بهنَّ حق القيام، وأداهنَّ أحسن أداء، من غير تفريط أو توانٍ، حتى شهد له الحق سبحانه بذلك في قوله هنا: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

كلفه الله بدعوة أبيه وقومه إلى عبادته سبحانه وحده، وترك عبادة الأصنام، فقام بذلك خير قيام، حتى إنّه كسر أصنام قومه، وعرض نفسه لانتقامهم، وإلقائهم إياه في النار، فصبر على ذلك، كما جاء في الآيات الكريمة في أكثر من موضع من التنزيل الحكيم، ثم كلفه تعالى بالهجرة عن وطنه وأرض قومه، فهاجر إلى بلاد الشام، وأمره تعالى أن يضع ولده وأمه هاجر - زوج إبراهيم - في وادي مكة من أرض الحجاز، وكان حينئذٍ وادياً مقفراً، فامثل لأمره تعالى، واستسلم لحكمه، وتركهما وحدهما ثمّة، وقفل عائداً إلى بلاد الشام، كما سيأتي، ثم كلفه تعالى بذبح ولده إسماعيل عندما بلغ سنّ السعي، فعزم على تنفيذ أمره تعالى، وأسلم أمره مع ولده لله جلّ وعلا، ففداه الحق سبحانه بذبح عظيم، وخلد تعالى ذلك في قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قَالَ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٧﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٢٨﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٢٩﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَتْلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٣١﴾ وَنَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٢﴾ [الصفات].

وغير ذلك من الابتلاءات والتكليفات التي كلفه الحق بها، فبادر ﷺ إلى

القيام بها، بخضوع واستسلام كاملين لله جلّ وعلا، ولهذا أكرمه الله تعالى بمقام الإمامة بين الناس:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: إماماً يأتّم به الناس.

فالإمام: اسم لمن يؤتّم به، وكلّ نبيّ إمام لأمتّه، وإمامته ﷺ عامة مؤبدة، إذ لم يُبعث بعده نبيّ إلا كان من ذريته، مأموراً باتباع ملته^(١).

فالإسلام لله تعالى ملّة إبراهيم ﷺ، ومعناه - كما مرّ معنا - الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْتَزَّكَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التحل: ١٢٣].

فلإبراهيم ﷺ مكانة عند جميع أتباع الشرائع السماوية، ويدّعي كل فريق منهم أنّه كان على ملّته، وأنّه أولى به من غيره، حتى قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

﴿قَالَ وَبِنُذْرَتِي﴾ أي: قال إبراهيم: واجعل من ذريتي أئمة يُقتدى بهم. وذرية الرجل: أولاده ونسله.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا ينال ما أعطيتك من الكرامة والإمامة، الظالمين من ذريتك، فالظالم لا يصلح أن يكون إماماً، وهو الذي يظلم نفسه بالكفر والفجور، أو يظلم غيره بالبغي والعدوان.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ليس ردّاً لدعوته ﷺ، بل إجابة

(١) تفسير أبي السعود: ١/١٥٦.

خفية لها، وعدة إجمالية منه تعالى بتشريف بعض ذريته ﷺ بنيل عهد الإمامة^(١).

• البيت الحرام:

ومن ذكر إبراهيم ﷺ، وإمامته الكبرى، انتقلت الآيات إلى ذكر بيت الله الحرام:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ١٢٥﴾.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي: الكعبة المشرفة، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهَرَ الْحَرَامَ وَأَلْهَدَىٰ وَأَلْقَيْنَا ذَلِكَ لِنَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

ويدخل فيه الحرم، فإن الله وصفه بكونه آمناً، وهذه صفة جميع الحرم^(٢).
﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: مرجعاً يرجع الناس إليه، فكلما تفرقوا عنه اشتاقوا إليه، وهوت إليه قلوبهم، ببركة دعوة إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أو مجمعاً للناس، يجتمعون فيه كل عام لأداء مناسك الحج، أو معاذاً وملجأ، إذ جعله تعالى موضع أمن أيضاً فقال:

﴿وَأَمْنًا﴾ أي: وجعلناه موضع أمن وسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بِكَاءَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ٩١﴾ فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ [آل عمران].

(١) تفسير أبي السعود: ١٥٦/١.

(٢) تفسير الخازن: ١٩٢/١.

ولهذا قال تعالى يذَّكِّرُ قَرِيشًا بِفَضْلِهِ عَلَيْهِم بِالسَّكْنَى فِي حَرَمِهِ، وَمَجَاوِرَةِ بَيْتِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا وَنُحْطِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لِبَطْلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فمكة - كما قال ابن حجر رحمته الله - بلد الأمن والسلام، وأرضها أرض حرام، حرَّمها الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض^(١).

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم افتتح مكة: «إِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [رواه البخاري (١٨٣٤)].

ولمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام هُوَ بَانِي الْبَيْتِ وَرَافِعُ قَوَاعِدِهِ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْحَجِّ إِلَيْهِ، أَكْرَمَهُ تَعَالَى فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى سَبِيلِ النَّدْبِ وَالِاسْتِحْبَابِ، أَنْ يَصَلُّوا عِنْدَ الْحَجَرِ الَّذِي بَقِيَ فِيهِ آثَارُ قَدَمَيْهِ، عِنْدَمَا قَامَ عليه السلام عَلَيْهِ وَهُوَ يَرْفَعُ بِنَاءَ الْبَيْتِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وَقَدْ صَلَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ الْمَقَامِ عِنْدَمَا حَجَّ حِجَّةَ الْوَدَاعِ، فِي حَدِيثِ جَابِر رضي الله عنه الَّذِي وَصَفَ حَجَّتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، فَرَمَلَ ثَلَاثًا، وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ...» [رواه مسلم (١٢١٨)].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رحمته الله: «هَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَقَامِ، إِنَّمَا هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام يَقُومُ عَلَيْهِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، لَمَّا ارْتَفَعَ الْجِدَارُ أَتَاهُ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام بِهِ لِيَقُومَ فَوْقَهُ، وَيَنَاقِلَهُ الْحِجَارَةَ، فَيَضَعُهَا بِيَدِهِ لِرَفْعِ الْجِدَارِ... وَكَانَتْ آثَارُ قَدَمَيْهِ وَمَا تَزَالُ ظَاهِرَةً فِيهِ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا مَعْرُوفًا، تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا، وَلِهَذَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَةِ الْمَعْرُوفَةِ:

وموطئ إبراهيم في الصَّخْرِ رطبةً على قدميه حافياً غَيْرَ نَاعِلٍ
وقد كان هذا المقام ملتصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى
جانب الباب، مما يلي الحجر، على يمين الداخل من الباب، وإنما أخره عن
جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين،
والخلفاء الراشدين، الذين أمرنا باتِّباعهم^(١).

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أمرنا إبراهيم وولده إسماعيل وأوجبنا
عليهما.

﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي﴾ أي: طهرا الكعبة المشرفة من الشرك والأوثان، وأضاف
سبحانه البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتفضيل.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ أي: للذين يعبدون الله تعالى وحده بالطواف حول البيت.

﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ أي: المقيمين عنده والمعتكفين.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع: راعٍ وساجد، أي: المصلين.

وقال ابن كثير: «أي طهراه من الشرك والريب، وإبنيه خالصاً لله، معقلاً
للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجُود، وتطهير المساجد مأخوذة من هذه الآية
الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَن تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [النور:
٣٦]. ومن السنة من أحاديث كثيرة، جاء فيها الأمر بتطهيرها وتطيبها^(٢).

ثم بين تعالى بعض الخصائص التي خص بها أرض الحرم، ببركة دعوات
إبراهيم عليه السلام، ويبدو أنها من الدعوات التي دعا بها عندما وضع فيه ولده
إسماعيل مع أمه، وتركهما، وانصرف كما سيأتي.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١١٨/١.

(٢) المرجع السابق: ١٢٠/١.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ المكان الذي وضع فيه ولده إسماعيل وزوجه هاجر، والذي كان حينئذٍ مقفراً.

﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ وقد أصبح بعد ذلك بلداً عامراً آمناً، هو مكة المكرمة، أم القرى.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعقي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذا لا يضيئنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ...﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما».

«فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه - تريد نفساً - ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من زمزم - لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: «فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتبه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله» [رواه البخاري (٣٣٦٤)].

﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّرَاتِ﴾ أي: من أنواع الثمار.

وقد فعل سبحانه ذلك، فالثمار تأتي إلى مكة من مختلف بقاع الأرض القريبة والبعيدة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصاص: ٥٧].

﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: أرزق المؤمنين منهم خاصة.

ولكنه تعالى قدر أن يكون الرزق في الدنيا لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، كما في قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنَا وَهُنَا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولهذا قال تعالى تعقيباً على دعوة إبراهيم:

﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ بما قدرت له من رزق في الدنيا، ومهما كان هذا الرزق فهو في الحقيقة شيء يسير وقليل، لأنه زائل وفانٍ.

﴿ثُمَّ أَصْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ أي: ثم بعد ذلك ألجئه وأدفعه إلى عذاب النار يوم القيامة بسبب كفره.

﴿وَبُئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وبئس المكان الذي يصير إليه في نار جهنم.

• الأمة المسلمة:

المسجد الحرام بُني لعبادة الله تعالى وحده، لا لعبادة الأصنام والأوثان، وعُماره المسلمون المستسلمون لله تعالى، المتمسكون بدينه وشرعه، لا المشركون الجاحدون المعاندون، رفعَ قواعدَ نبيّان كريمان، هما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكلّما ارتفع البنيان رفعا إلى الله دعوات خاشعات، تدلّ على مدى خضوعهما لله تعالى، واستسلامهما لأمره ومشيتته جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧).

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ أي: اذكر عندما كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يبنيان البيت الحرام على قواعده وأساسه.

فالقواعد: جمع قاعدة، وهي الأساس. ورفع القواعد: البناء عليها.

وليس في الآية تصريح بمن وضع القواعد، هل كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أم كانت موجودة قبلهما، الله سبحانه أعلم، لكن الحديث الشريف الآتي يشير إلى إبراهيم عليه السلام:

فعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تري أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله أفلا تردّها إلى قواعد إبراهيم؟ فقال رسول الله ﷺ: «لولا حدّثان قومك بالكفر لفعلت» [رواه مسلم (١٣٣٣)].

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ربنا تقبل منا عملنا لك، وطاعتنا وعبادتنا، إنك تسمع دعائنا، وتعلم أحوالنا.

وهذا يدل على أنهما كانا يعملان، وهما في حالة خشوع وخضوع لله ﷻ، ويستشعران أنهما يقومان بعبادة من أعظم العبادات، ويتقربان إليه تعالى بقربة من

أجل القربات، ومع ذلك فخشيته الله تعالى تملأ قلوبهما، حتى إنهما يسألانه أن يتفضل بقبول عبادتهما، فما أعظم خشوعهما وخضوعهما ﷺ! .
ومع كل هذا الخضوع والخشوع يسألانه سبحانه المزيد منه، فكمال الإنسان بكمال عبوديته لله تعالى، واستسلامه لأمره وحكمه:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨)

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ أي: اجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك^(١).

ولم ينسب ﷺ ذريتهما، فالصالحون يرغبون أن يكون أولادهم وأحفادهم صالحين أيضاً، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولهذا ضمّا في دعائهما بعض ذريتهما قائلين:

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي: واجعل من ذريتنا أمةً مستسلمة لأمرك، خاضعة لطاعتك وشرعك.

ولعلمهما اقتصر على البعض، ولم يعمّما أدباً مع الله تعالى، الذي سبق أن قال لإبراهيم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ولا شك أن العرب هم الأمة التي تفرّعت عن إبراهيم من جهة ولده إسماعيل، والسياق - كما قال ابن كثير - إنما هو في العرب، ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وهذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَايَأُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وغير ذلك من الأدلة القاطعة^(١).

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علّمنا عبادتنا التي نتقربُ بها إليك عند هذا البيت، فالعبادة لا تكون بالرأي والاجتهاد، والمرادُ بها أعمالُ الحجِّ والعمرة، كالإحرام والطواف والسعي.

﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا﴾ من التقصير في طاعتك وعبادتك.

وهذا من كمالهما ﷺ، يريان أن فضلَ الله عليهما أعظمُ بكثير من الطاعات التي يتقربان بها إليه، ولهذا يسألانه سبحانه أن يتوبَ عليهما من تقصيرهما في عبادته وشكره، وهو الحال الذي كان عليه نبيّنا ﷺ.

فقد جاء في الحديث الشريف: عن المغيرة ﷺ يقول: إن كان النبي ﷺ يقوم - أو يصلي - حتى ورمت قدماه - أو ساقاه - فيُقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [رواه مسلم (١١٣٠)].

﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تَقْبَلُ توبة التائبين وترحمهم.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ بإجماع المفسرين، لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما دعا لذريته وهو بمكة، ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد ﷺ^(٢).

وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله عليه وسلامه رسولاً في الأميين، إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٢٨.

(٢) تفسير الخازن: ١/ ٢٠٠.

والجن، كما روى الإمام أحمد [١٧١٥٠]: عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأيت، وكذلك أمهات النبيين يرين» وقال أبو أمامة: قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأيت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] (١).

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ أي: يقرأ عليهم، ويبلغهم ما يوحى إليه من آيات القرآن الكريم.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: يعلمهم أحكام القرآن الكريم، ويبين لهم شريعته.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمهم وضع الأشياء في مواضعها الصحيحة، والإصابة في الأقوال والأفعال، أو يعلمهم أحكام السنة المطهرة، المبيّنة والشارحة لما في الكتاب، وسيأتي أن في الحكمة خيراً كثيراً: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿وَيُزَكِّهِمْ﴾ أي: يطهرهم من دنس الشرك والرذائل والنقائص.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا مثل له.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع أقواله وأفعاله ﷻ.

● ملة التوحيد ووصية الأنبياء بها:

هكذا ارتفع البيت، وجلجلت في الأرض دعوة التوحيد وملته، وهي ملة

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/١٢٩.

إبراهيم عليه السلام، الذي جعله سبحانه إمامَ الموحدين، فما بُعثَ نبيٌّ بعده إلا من ذريته، داعياً إلى ملته - كما مرّ معنا - فلا ينبغي لأحدٍ أن يرغبَ عن هذه الملة:

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠).

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم، ويتركها معرضاً عنها إلى غيرها، إلا مَنْ استخف بنفسه وأذلّها.

فلاستفهام للاستبعاد والإنكار، وفيه توبيخٌ وتقريعٌ للذين انحرفوا عن ملة التوحيد، كاليهود والنصارى والمشرّكين، كما مرّ عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ [البقرة: ١١٦].

وفي ملة إبراهيم عليه السلام خير الدنيا والآخرة، دلّ على ذلك قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: اخترناه من بين سائر الناس في الدنيا، وأكرمناه بحمل رسالة التوحيد ودعوته وملّته.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مما يدلّ على أنه عليه السلام ظلّ متمسكاً بالحق، مستقيماً على طريقه، إلى آخر حياته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢) شاكراً لأنعمه أجتنبهه وهدّته إلّا صراطٍ مستقيم (١٣) وعائنه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصّالحين [النحل].

ولا شك أنه تعالى عليم حكيم، يعلم أين يجعل رسالته، ومن يصطفي لحمل أمانته، وقد بادر إبراهيم عليه السلام، عندما اختاره تعالى لحمل رسالته، إلى حملها دون تردد وتباطؤ، معلناً إسلامه الكامل لله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ .

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ﴾ أي: أسلم نفسك لله تعالى، وللقيام بأعباء رسالته التي كلفك بها.

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أسلمت نفسي وقلبي وجوارحي كلها لرب العالمين، الذي لا رب سواه جلّ وعلا.

وهكذا يكون الاستسلام والخضوع لله تعالى ولدينه وشرعه، فأين منه جحود الجاحدين وعناد المعاندين، الذين سبق الحديث عن مواقف عنادهم وجحودهم؟! .

وجرّص الأنبياء على ملة التوحيد جعلهم يوصون بها أبناءهم، فهي وصية الأنبياء وميراثهم لأبنائهم، ومن خصائص الأنبياء التي خصهم الله تعالى بها: أنه جعل رسالتهم ودعوتهم هي ميراثهم، فالأنبياء لا يورثون ديناراً ولا درهماً، إذ هم أعظم وأجلّ من ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة» [رواه البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨) واللفظ للبخاري].

﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ .

﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ أي: بملة التوحيد.

﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي: ووصى نبي الله يعقوب أولاده بمثل ما وصى به إبراهيم، فقال كلُّ منهما:

﴿يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ أي: اختار لكم دين الإسلام، ووفقكم للأخذ به.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: فاثبتوا عليه، وتمسكوا به، حتى الموت.

فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

ويبدو أن اليهود في زمن النبي ﷺ، كانوا يدعون أن يعقوب عليه السلام أوصى أولاده قبل موته بالتمسك باليهودية، فردّ تعالى عليهم، وبين وصية يعقوب لأولاده، فقال:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣).

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: أكنتم شهداء عندما دنا أجل يعقوب، وحضره الموت؟ والاستفهام للإنكار، أي: إنكم لم تكونوا حاضرين حينئذ، فلا تفتروا على يعقوب.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي: ما صفة المعبود الذي تعبدونه بعدي؟.. وكأنه عليه السلام أراد أن يطمئن على إسلام أولاده لله تعالى وطاعتهم له وحده.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ قدّموا إسماعيل على إسحاق، لأنه أكبر منه، وجعلوه من جملة آبائه وهو عمه، لأن العم بمنزلة الأب.

﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي: معبوداً واحداً لا يستحق غيره العبادة والطاعة.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ونحن مستسلمون خاضعون له وحده.

وهذا يدل أن على الوالد أن يتثبت من عقيدة أولاده وعبادتهم، وأن يوصيهم بالثبات على عقيدة التوحيد، والتمسك بدين الله وشريعته، وإخلاص العبادة له وحده، فهذه أفضل وصية يوصي بها والد أولاده قبل موته، وخير ميراث يتركه لهم.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «إن هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في

لحظة الموت والاحتضار، لمشهدٍ عظيم الدلالة، قوي الإيحاء، عميق التأثير، مَيِّتٌ يُحْتَضَرُ، فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هي التَّركَةُ التي يريدُ أن يخلفها لأبنائه، ويحرص على سلامة وصولها إليهم، فيسلمها لهم في محضر يسجِّل فيه كل التفاصيل؟ إنها العقيدة، هي التَّركَةُ، وهي الذُّخْرُ، وهي الشَّغْلُ الشَّاعِلُ الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصراعاته^(١).

إذا ثمة فرقٌ كبيرٌ بين عامَّة أهل الكتاب الذين غيَّروا وبدَّلوا وجحدوا وعاندوا، وبين ما كان عليه آبائهم من الاستسلام والانقياد لله تعالى وأحكامه، ولهذا قال سبحانه:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤).

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: فلكلٍّ أجره وجزاؤه على عمله، ولن ينفعكم انتسابكم إليهم إن لم تسيروا على طريقتهم، «فَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لا تؤاخذون بسيئاتهم، كما لا تثابون بحسناتهم.

• الإسلام ملَّة جميع الأنبياء:

فملَّة إبراهيم هي ملَّة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥).

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ أي: إذا ما دعا اليهود إلى يهوديتهم، والنصارى إلى نصرانيتهم.

﴿قُلْ بَلْ مَلَكٌ بَرَّهَتْ حَنِيفًا﴾ أي: قل لهم: بل نتمسك بملّة إبراهيم، المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق، وهو دين التوحيد.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وما كان إبراهيم عليه السلام أبداً من المشركين. وهذا تعريض باليهود والنصارى وغيرهم، من الذين يدعون اتباع إبراهيم، وهم مشركون.

ثم انتقلت الآيات من تخصيص الخطاب بالنبي عليه الصلاة والسلام إلى خطاب عامّة المؤمنين:

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: أعلنوا إيمانكم بالواحد الأحد، المنزه عن الشريك والولد.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ في القرآن الكريم.

﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ والأسباط: جمع سبط، والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، والمراد عامّة أنبياء بني إسرائيل، الذين اختارهم الله من أسباطهم.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ أي: وآمنّا بالتوراة التي أنزلت على موسى، وبالإنجيل الذي أنزل على عيسى.

﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: وآمنّا بما أنزله الله تعالى وأوحاه إلى النبيين جميعاً.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: لا نفرّق بين الأنبياء بالإيمان فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود!

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ونحن لله تعالى مستسلمون خاضعون مخلصون.

فالإسلام لا يفرّق بين نبي ونبي، لأنّه رسالة الأنبياء والمرسلين جميعاً عليهم الصلاة والسلام، والتفريق بين الأنبياء في الإيمان كفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء].

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ أي: فإن آمنوا إيماناً مثل إيمانكم، أساسه التصديق برسالة الإسلام، الذي هو دعوة جميع الأنبياء. ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ أي: فقد أصابوا الحق، وساروا في طريق الهداية والرشاد. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: وإن أعرضوا عن الإسلام لله تعالى، وكفروا ببعض الأنبياء.

﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: فإنما هم في عداوة ومحاربة. ولا بد أن يترتب على عداوتهم للإسلام كيدٌ ومكرٌ بنبيّه عليه الصلاة والسلام، ولهذا وعده تعالى أن يكفيه شرهم ومكرهم فقال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: فسيفيك الله عداوتهم وكيدهم. ولقد أنجز الله وعده لرسوله ﷺ، فعصمه منهم وردّ عنه كيدهم ومكرهم. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوالهم ويعلم أحوالهم. وملة الإسلام أيضاً هي صبغة الله تعالى، فالتزموا بها:

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾.

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: اتبعوا دين الله، فالصبغة: الفطرة أو الدين.

وأصل ذلك أن النصارى يصبغون أولادهم في ماء مخصوص، ويسمّون ذلك المعمودية، ويقولون: هذا تطهير لهم، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿صَبْغَةَ اللَّهِ﴾ أي: صبغة الله أحسن صبغة، وهي الإسلام، فسّمى الدين صبغة استعارةً ومجازاً، من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب^(١).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً﴾؟! أي: لا أحسن من صبغة الله تعالى.

﴿وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ أي: خاضعون مطيعون.

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقول لليهود والنصارى، الذين زعموا أن لهم مكانة خاصة عند الله تعالى، كما حكاها عنهم سبحانه في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ﴾ [المائدة: ١٨]:

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٣٩).

﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾ أي: أتجادلوننا في الله تعالى، وتدعون أن لكم مكانة خاصة عنده.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: ونحن وأنتم بالنسبة إليه تعالى سواء، تجمعننا جميعاً صفة العبودية والافتقار إليه ﷻ، فهو مالكننا وخالقنا ومالككم وخالقكم. ﴿وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ أي: ولنا أعمالنا التي سيسألنا الله عنها، ولكم أعمالكم التي سيسألكم الله عنها؛ فجميعنا مسؤولون أمامه تعالى يوم القيامة.

ونمتاز عليكم بالنسبة له جلّ وعلا بأننا مخلصون في عبادته وطاعته:

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أي: موحدون، لا نعبد سواه، أما أنتم فتشركون في عبادته، وتجددون وحدانيته.

﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤١).

﴿أَمْ نَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ أي: ليس الأمر كما تدعون، فهؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصارى، بل كانوا مسلمين موحدين، كما مر معنا، ورسالة الإسلام هي دعوتهم ووصيتهم التي أوصوا بها أبناءهم، والتي ذكرها سبحانه في الكتب المنزلة عليكم، فأخفيتموها، وكتمتم الشهادة التي ائتمنكم الله عليها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم من علماء أهل الكتاب، الذين كتموا هذه الشهادة، وهم عالمون بها.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهو وعيد شديد توعدهم الله تعالى به.

وبمناسبة زعمهم أنهم يتمسكون بما كان عليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء السابقون، قال سبحانه مرة ثانية لهم:

﴿بَلْ لَكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤١).

فلا تحتجوا بهم، فكل إنسان يُسأل عن كسبه وعمله، وانتسابكم إليهم لن ينفعكم ما دامت عقائدكم وأعمالكم مخالفة لعقائدهم وأعمالهم.

وبهذا جردت الآيات الكريمة أهل الكتاب من جميع الحجج التي يحتجون بها، وبيّنت أن صلتهم بالأنبياء السابقين مقطوعة، فلا صلة لهم بهم البتة، لا في العقيدة، ولا في العبادة، ولا في الشريعة، ولا سبيل إلى الاتصال بهم إلا بالقرآن الكريم، الكتاب الذي لا ريب فيه، فهو رسالة النبي الخاتم ﷺ، رسالة الإسلام، دعوة الأنبياء والمرسلين جميعاً عليهم الصلاة والسلام.

● الأمة الوسط والقبلة الوسط:

وليس البيت الحرام رمزَ عقيدة التوحيد عند المسلمين فقط، بل هو رمز وحدتهم، فهو قبلتهم في الصلاة، يتوجهون إليه عند كل صلاة من مشارق الأرض ومغاربها، وكان النبي ﷺ قبل الهجرة في مكة، يستقبل في صلاته البيت الحرام وبيت المقدس، فيقف بين الركنين الأسود واليماني، فتصبح القبلتان بين يديه، ولما هاجر إلى المدينة المنورة تعذر الجمع بينهما، فأمره تعالى أن يتوجه أولاً إلى بيت المقدس، واستمر على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان عليه الصلاة والسلام يرغب أن يوجه إلى بيت الله الحرام قبله إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى الكعبة المشرفة، وساء ذلك اليهود ومن والاهم من المنافقين، واعترضوا على النبي ﷺ.

وكانت الآيات قد نزلت قبل ذلك، تخبر النبي ﷺ باعتراضهم وأقوالهم التي سيردونها، وترد عليهم:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدْنَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٢﴾.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ وهم أخبار اليهود والمنافقون.

وفي الآية إخبار عن غيب مستقبل لم يقع بعد، ولهذا جاء بصيغة الاستقبال.

وقد وصفتهم الآية بالسفه، وهو الخفة والطيش والجهل، كما وصفت المعرضين عن ملة إبراهيم في الآيات التي مرت: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفِهَةٍ نَفْسَةٍ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿مَا وَلَدْنَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ﴾؟ أي: أي شيء صرفهم عن التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس؟

والقبلة: هي الجهة التي يستقبلها الإنسان، وإنما سُمِّيَتْ قِبْلَةً، لأنَّ المصلِّي يقابلها وتقابلها^(١).

وسؤالهم سؤال إنكار واعتراض على التحوّل إلى استقبال بيت الله الحرام، فأمر ﷺ أن يردّ عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فهو سبحانه المالك لجميع الجهات والأقطار، ولا يستحقُّ شيءٌ منها أن يكون لذاته قبلة، وإنما تصير قبلةً بأمره تعالى.

فالعبرة في الاستسلام لأمره تعالى وتنفيذ شرعه، وهو سبحانه:

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فالهداية والرشاد في اتباع أمره جلّ وعلا، وأمره وشرعه هو الطريق المستقيم الموصل إلى رحمته ورضوانه، وهو أوسط الطرق وأعدلها، ولهذا اختاره الله تعالى طريقاً للأمة المسلمة الموحدة، فقال:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: وكما وجهناكم إلى القبلة الوسط، وهي بيت الله الحرام، جعلناكم أمةً وسطاً بين الأمم.

والوسط في اللغة: المكان المتوسط الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحموده، لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن^(٢)، ووسط الوادي خير موضع فيه، وأكثره كلاً وماءً.

ولمّا كان الوسط مُجَانِباً للخلو والتقصير كان محموداً، أي: إنّ هذه الأمة لم تغلّ غلوّ النصراري في أنبيائهم، ولم تقصّر تقصير اليهود في أنبيائهم، فهي

(١) تفسير الخازن: ٢١٢/١.

(٢) تفسير البضاوي: ٢١٣/١.

أوسط الأمم، أي: أفضل الأمم وأعدلها، ولهذا يقال: فلان وسط في قومه، أي: من خيارهم وأهل الحسب منهم، وفي التنزيل: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم: ٢٨] أي: أعدلهم^(١).

والجدير بالذكر هنا أنّ مكة المكرمة - التي جعل الله فيها قبلة المسلمين - أفضلُ بقاع الأرض وأشرفها وأوسطها، فهي سرّة الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها تقع في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية، فقد ذكرت «مجلة البحوث العلمية الإسلامية» في عددها السادس، في مقال الدكتور حسين كمال الدين تحت عنوان: «الإسقاط المكي العام»: «وعندما تمّ توقيع حدود القارّات السبع على خريطة الإسقاط، وجدنا أنّ الحدود الخارجية لهذه القارّات يجمعها محيط دائرة واحدة، مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي إنّ مكة تعتبرُ مركزاً وسطاً للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية».

والعجيب أنّ بعض قدماء المفسّرين ذكروا هذه الحقيقة عند تفسير هذه الآية، فالقرطبي رحمه الله المتوفى سنة (٦٧١هـ)، قال: قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ المعنى: كما أنّ الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمةً وسطاً^(٢).

وكذلك قال البقاعي المتوفى سنة (٨٨٥هـ): «ومثل ما جعلنا قبلكم وسطاً، لأنّها إلى البيت العتيق، الذي هو وسط الأرض»^(٣).

ولما جعل الله الأمة المسلمة أمةً وسطاً، كلّفها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، فمن أعظم الميزات التي تمتاز بها الشريعة الإسلامية، ميزة الوسطية والاعتدال في أحكامها، فهي تلبي حاجات الإنسان كلها، سواء كان فرداً أم

(١) تفسير القرطبي: ٢ / ١٥٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٢ / ١٥٣.

(٣) نظم الدرر: ٢ / ٢٠٦.

جماعة، وتوفّق بين متطلبات عقله وجسده وروحه، فلا إفراط فيها ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير.

• أمة الشهادة والإسلام:

والآية تشهد بالخيرية والعدالة بشكل عامّ للأمة المسلمة، وتدلّ على إجماع علمائها حجّة، إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانتلمت به عدالتهم^(١). ولهذا أكرم تعالى هذه الأمة بمنزلة الشهادة على الناس يوم القيامة، فقال: ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع يعترفون لكم بالفضل^(٢).

﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلّغت؟ فيقول: نعم يا ربّ، فتُسأل أمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: مَنْ شهودك؟ فيقول: محمّد وأمته، فيُجاء بكم فتشهدون» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدلًا» ﴿لَنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [رواه البخاري (٧٣٤٩)].

والحديث أخرجه أحمد [١١٢٨٣ و ١١٥٥٨] والنسائي في الكبرى [١١٠٠٧] وابن ماجه [٤٢٨٤] والإسماعيلي، بزيادة: «فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: أخبرنا نبينا أن الرّسل قد بلّغوا، فصدّقناه»^(٣).

وشرط قبول الشهادة: العدالة، وقد ثبتت لهم هذه الصفة بقوله: ﴿وَسَطًا﴾، والوسط: - كما مرّ - العدل.

ثم بيّن تعالى الحكمة من استقبال بيت المقدس أولاً، والتحوّل بعدها إلى بيت الله الحرام، فقال:

(١) تفسير البضاوي: ٢١٣/١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٣٦/١.

(٣) انظر: فتح الباري: ١٧٢/٨.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وهي بيت المقدس .

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي : لنعلم الثابت على الإسلام ممن ينكص على عقبيه ، ويرتد عن الإسلام بسبب ضعف إيمانه .

فالموضوع إذاً موضوع اختبار وامتحان للمؤمنين ، لإظهار مدى انقيادهم واستسلامهم لأحكام الله وشرعه ، وشأن المؤمن المبادرة إلى تنفيذ شرع الله مباشرة دون تأخر وتردد ، سواء عرف حكمة التكليف أم خفيت عنه .

وقد نجح المسلمون نجاحاً كبيراً في هذا الامتحان ، وأظهروا استسلاماً عجيباً لأحكام دين الله تعالى ، حتى إنهم بادروا إلى تنفيذ أمره سبحانه وهم في الصلاة :

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة ، فأنزل الله : ﴿قَدْ زَرَىٰ ثَقَلُ بْنُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فتوجه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - : ﴿مَا وَلَهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] فصلى مع النبي ﷺ رجلٌ ، ثم خرج بعدما صلى ، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر ، نحو بيت المقدس ، فقال : هو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ ، وأنه توجه نحو الكعبة ، فتحرّف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة . [رواه البخاري (٣٩٩)] .

واختلفت الرواية في الصلاة التي تحولت القبلة عندها ، وكذا في المسجد ، وظاهر حديث البراء هذا أنها الظهر ، وذكر ابن سعد في «الطبقات» ، قال : يقال : إنه صلى ركعتين في الظهر في مسجده بالمسلمين ، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام ، فاستدار إليه ، ودار معه المسلمون ، ويقال : زار النبي ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة ، فصنعت لهم طعاماً ، وحانت الظهر ،

فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين، ثم أمر فاستدار إلى الكعبة، واستقبل الميزاب، فسمي مسجد القبلتين^(١).

وتكررت هذه الواقعة أيضاً في مسجد قباء، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «بينا الناس يقبأ في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة. [رواه البخاري (٤٠٣)].»

فدل كل ذلك على مدى استسلام الصحابة رضي الله عنهم لأحكام دين الله تعالى، ومبادرتهم إلى تنفيذ ما يشرع تعالى لهم.

ووقع بيان كيفية التحول في حديث ثويلة بنت أسلم، عند ابن أبي حاتم، قالت فيه: فتحوّل النساء مكان الرجال، والرجال مكان النساء، فصلّينا السجدين الباقيتين إلى البيت الحرام.

قال ابن حجر بعد أن ذكر هذا الحديث: «وهذا يستدعي عملاً كثيراً في الصلاة، فيحتمل أن يكون ذلك وقع قبل تحريم العمل الكثير، كما كان قبل تحريم الكلام، ويحتمل أن يكون اغتفر العمل المذكور من أجل المصلحة المذكورة، أو لم تتوال الخطي عند التحويل، بل وقعت مفرقة^(٢).

فأين هذا الاستسلام والانقياد عند الصحابة رضي الله عنهم، من مواقف العناد والجحود عند بني إسرائيل، التي سبق الحديث عنها؟!.

ولابد أن يكون القارئ قد لمس شدة الاحتباك والاتساق بين آيات السورة، فهذا الاستسلام الكامل لشرع الله تعالى، وهذه المبادرة إلى تنفيذ أمره، لا تتقبلهما النفوس عادةً بهذه السهولة واليسر كما تقبلتهما نفوس الصحابة رضي الله عنهم، فالنفوس البشرية تتمسك بما اعتادت عليه وألفتها، وقد صلى القوم إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وهي مدة كافية لجعلهم يعتادون على

(١) فتح الباري: ١/٥٠٣.

(٢) المرجع السابق: ١/٥٠٧.

هذه الصلاة ويألفونها، ومع ذلك بادروا إلى التحول عنها عندما أمروا بذلك، دون أدنى تردد واعتراض، ولم يؤخروا التنفيذ حتى ينتهوا من صلاتهم التي كانوا فيها، بل بادروا إلى تنفيذ ما أمروا به وهم في الصلاة مجتمعون بانتظام، دون حدوث خلل أو اضطراب، واستحقوا بذلك ثناء الله تعالى عليهم بقوله:

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أي: وإن كان التحول بهذا الاستسلام الكامل لأمرًا كبيراً وثقيلاً.

﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: إلا على الذين هداهم الله إلى الحق، فعرفوه وانقادوا له، وحفظ الله تعالى قلوبهم من الاعتراض والفساد، فهو كقوله تعالى المتقدم: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

فالذين ملأت هداية الله تعالى قلوبهم لا يثقل عليهم اتباع الرسول ﷺ، واستسلامهم الكامل لأحكام شريعته.

ولابد أن يثير تغيير القبلة التساؤل عند بعضهم عن حكم من مات قبل التحويل، فأنزل الله تعالى جواباً على هذا التساؤل قوله الكريم:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، سماها تعالى إيماناً، لأنها دليل عملي عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فهو تعالى لا يضيع أجورهم، ولا يشرع إلا ما فيه صلاحهم.

• استقبال البيت الحرام:

ثم بينت الآيات كيف كان النبي ﷺ يحب أن يحوله الله تعالى إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، وأنه كان كثير النظر إلى جهة السماء، ينتظر نزول الوحي عليه، يأمره بالتحويل إلى البيت الحرام، ولم يتحول ﷺ إلى استقبال بيت الله الحرام من عند نفسه، واستمر يصلي مستقبلاً بيت المقدس، مستسلماً لأمره تعالى بضعة عشر شهراً، حتى أنزل عليه قوله الكريم:

﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤).

﴿قَدْ زَرَى ثَقَلَبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثيراً ما نرى تردّد وجهك في السماء، متشوقاً لنزول الوحي.

وكان رسول الله ﷺ يتوقع من ربه أن يحوله إلى الكعبة، والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام لم يسأل ربه ذلك، بل كان ينتظر فقط، مما يدلّ على كمال أدبه عليه الصلاة والسلام مع ربه جلّ وعلا.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي: تحبّها وتميل إليها.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: نحوه إلى جهته.

ويدلّ ذكر المسجد الحرام دون الكعبة على أن الواجب مراعاة الجهة، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ أي: في أيّ مكان كنتم فعليكم أن تتوجهوا إلى جهة المسجد الحرام.

ولا خلاف بين العلماء على أنّ الكعبة قبلّة في كل أفق، وأجمعوا على أنّ من شاهدها وعابنها فرضٌ عليه استقبالها، وأجمعوا على أنّ كلّ من غاب عنها عليه أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاها، فإن خفيث عليه، فعليه أن يستدلّ على ذلك بكل ما يمكنه، من النجوم والرياح والجبال وغير ذلك^(١).

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى.

﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: أن التحول إلى استقبال بيت الله الحرام هو الحق الذي شرعه الله تعالى وأمر به، لأنّهم يعلمون صدق النبي ﷺ، وأنه لا يستقبل بيت الله الحرام إلّا بأمر من الله تعالى.

﴿وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وسيجازيهم على جحودهم للحق وإنكارهم له .
ومما يدل على شدة جحودهم وعنادهم قوله تعالى :

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الْفَالِطِينَ﴾ (١٤٥) .

﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ أي : بكلِّ معجزة تدلُّ على أنَّ التوجه إلى بيت الله الحرام هو الحق الذي يجب اتباعه .
﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ بسبب مكابرتهم وعنادهم .
﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ لأنَّكَ نبيُّ مرسل ، تتبع وحيَّ الله تعالى ، ولا تتبع أهواءهم .

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ فاليهودُ يستقبلون بيت المقدس ، والنصارى يستقبلون المشرق ، ويتمسك كلُّ فريق بقبلته .
فالزم قبلتك التي وجهك الله تعالى إليها ، ولا تتبع أهواءهم ، فالعبادة لله تعالى ، وبيانُ كیفيتها وتشريع أحكامها منه أيضاً جلَّ وعلا .
﴿وَلَيْنَ آتَبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأن القبلة هي الكعبة المشرفة .

﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الْفَالِطِينَ﴾ ، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ ، إنما المراد منه تثبيت المؤمنين في وجه الشغب الكبير الذي أثاره اليهود في المدينة ، عندما أمر الله تعالى بالتحول إلى استقبال البيت الحرام في الصلاة .

وموقفُ اليهود من شأن تحويل القبلة ، هو في الحقيقة فرع عن موقف أكثر عناداً وأعظم جحوداً ، وهو إنكارهم لنبوته عليه الصلاة والسلام ، وجحدهم لرسالته ، مع أنهم يعرفون صدقه أكمل المعرفة وأتمها :

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦).

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: النبي ﷺ.

﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: كمعرفة الوالد لولده، فهي معرفة تامة كاملة، فأبى والد يتعرف على ولده ويميزه من غيره من الأولاد المحيطين به مهما كان عددهم، وكذلك علماء أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ، بسبب كثرة نعوته وأوصافه وأسمائه الموجودة عندهم في التوراة والإنجيل.

ومع هذه المعرفة التامة:

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يكتُمون الحق حسداً وعناداً، وهم يعلمون أن كتم الحق جريمة كبيرة، سيسألهم الله تعالى عنها ويجازيهم عليها.

ويلاحظ أنه تعالى في صدر الآية عمم المعرفة، وفي ذيلها خصص الوعيد ببعضهم، مما يدل على دقة الأخبار القرآنية وموضوعيتها، إذ أسلم بعض أخبار اليهود عندما رأوا النبي ﷺ، كعبد الله بن سلام وزيد بن سعنة وغيرهما.

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٤٧).

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لا من غيره سبحانه، فما أمر به هو الحق الثابت.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكين.

وليس المراد نهى الرسول ﷺ عن ذلك، فالشك غير متوقع منه عليه الصلاة والسلام، بل المراد تأكيد وتحقيق أمر التوجه إلى البيت الحرام، وأنه وحي من الله تعالى لا شك فيه، ويفيد هذا التأكيد أيضاً تثبيت المؤمنين في وجه حملات التضليل والتشكيك التي أثارها يهود المدينة حينئذ، كما أن توجيه الخطاب للنبي ﷺ بهذا الحزم أفاد أنه عليه الصلاة والسلام لا يشرع شيئاً من عند نفسه، كما

أشاع اليهودُ عنه عندما حوَّله الله إلى البيت الحرام، وأنه ما تحوّل من تلقاء نفسه، وإنما تحوّل بأمر الله تعالى ووحيه.

• التنافس المحمود:

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيًّا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨).

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾ أي: لكل أهل ملّة أو جماعة من المسلمين واليهود والنصارى. أو: لكل قوم من المسلمين وجهة وجانب من الكعبة^(١).
﴿هُوَ مَوْلِيًّا﴾ أي: مستقبلها.

ويتفق المعنى الثاني للآية مع الخطاب الموجّه فيها للمسلمين، الذي يحضّهم على التنافس في فعل الخيرات:

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: تسابقوا في فعل الطاعات والعبادات، التي تقتربون بها إلى الله تعالى، ولا تشغلوا أنفسكم بمعارضة المخالفين وشغبهم عليكم، فلا ينبغي أن يعوقكم عن الاستكثار من الطاعات والقربات. وتدلّ الآية على أن التنافس في فعل الطاعات أمر محمود ومطلوب شرعاً، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

أما التنافس المذموم فهو التنافس على شهوات الدنيا، وما فيها من أنواع الزينة والمتاع.

وطاعته تعالى وعبادته ليست مقيدةً بأرض معينة، ولا جهة معينة، فيمكنك أن تطيع الله تعالى وتعبده في أيّ مكان:

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء والثواب.
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وعادت الآيات بعد أن دفعت شبهات المعترضين على تحويل القبلة، إلى

تأكيد حكم التحويل، وتعميمه، فوجهت أولاً الخطاب إلى النبي ﷺ:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٤٩).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ أي: من أي موضع خرجت إليه وكنت فيه، وأردت الصلاة:

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: اجعل وجهك إلى جهة المسجد الحرام.

﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: وإن هذا الحكم حق ثابت، أمرك به ربك، فهو تكليف إلهي كلف الله تعالى به النبي ﷺ، وكلف به أيضاً جميع المسلمين. ولهذا اتجهت الآية بالخطاب إلى المسلمين، فذكرتهم في أوله برقابة الله تعالى الدائمة عليهم:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم وجهت إليهم خطاب التكليف، مقروناً بتكليف النبي ﷺ مرة ثانية:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّمْ نَعَمَّيْ عَلَيْكُمْ وَلَئَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥٠).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فهذا الاستقبال لبیت الله الحرام تنقطع حجج المخالفين لكم:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ فأهل الكتاب الذين اعترضوا عليكم في أول الأمر، يعلمون من صفاتكم في كتبهم أن قبلتكم بيت الله الحرام؛ وانقطعت أيضاً حجة مشركي العرب، الذي كانوا يقولون: كيف يدّعي محمد أنه على ملّة إبراهيم، ويصلّي إلى غير قبلته؟!.

وتكرار التكليف باستقبال بيت الله الحرام جاء مقروناً بما قبله أو بعده من السياق:

فالأمر الأول: جاء تحقيقاً لرغبته عليه الصلاة والسلام في التوجه إلى بيت الله الحرام، ومُظهرًا مكانته عليه الصلاة والسلام عند الله تعالى.

والأمر الثاني: زاد معنى آخر، وهو أنَّ التحوّل وإن كان موافقاً لرغبة النبي ﷺ، إلاَّ أنَّه تكليف ربّاني أمر الله تعالى به.

والأمر الثالث: أظهر انقطاع حجج المخالفين من اليهود والمشرّكين.

• تمام النعمة:

ثم ربطت الآيات بشكل رائع مُعجِز بين موضوع تحويل القبلة، وبين موضوع الصراع الكبير المستمر، القائم بين المسلمين وأعداء الإسلام، الذي اتخذ بعد الهجرة شكل الصراع المسلّح والمواجهة في ميادين القتال، إذ نزلت بعد الهجرة آياتُ الجهاد، تأمر به، وتحضّر عليه، فالخلاف حول موضوع تحويل القبلة ليس سوى فرع من الخلاف الكبير الدائر بين الحق والباطل، ولهذا قال الله تعالى مباشرة في سياق ما ذكر حول موضوع تحويل القبلة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: لكن رغم انقطاع حجج المخالفين المعاندين في موضوع استقبال البيت الحرام، فإنّهم لن يتوقفوا عن معارضتكم ومعاندتكم.

وسيزدادُ الصراعُ بينكم وبينهم شدّةً، ويتحوّل من ميادين المجادلة والمناظرة باللسان، إلى ميادين المصاولة والمحاربة بالسنان، ولهذا اتجهت الآيات إلى تثبيت المؤمنين:

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ أي: لا تخافوهم وخافوني.

ويستدعي الخوف من الله تعالى الاستسلام لأمره، والانقياد لدينه وشرعه، مما يؤدّي إلى الفوز برضوانه وجنته يوم القيامة، وإلى تثبيت الله تعالى وتوفيقه على طريق الهداية في الدنيا، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَا تَمَيَّنْ عَلَى كُفْرٍ﴾ يوم القيامة بدخول الجنة والفوز بالرضوان.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الهداية والرشاد في الدنيا، بتوفيق الله ورعايته .

وأتى سبحانه بكلمة: (لعل) التي تدلّ على الترجي، لأن هدايته في الدنيا منوطة بتقواه، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال أيضاً كما سيأتي: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولا تتحقق التقوى إلّا بالتزام أحكام شريعة الله تعالى، وهو ما صرحت به أول الآيات في السورة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقدّمت الآية تمام النعمة في الآخرة على الهداية في الدنيا، لأنها جاءت في معرض تثبيت المؤمنين في مواجهة أعدائهم، وتشويقهم إلى الفوز برضوان الله وجنته .

وكما أنّ تمام النعمة في الآخرة بدخول الجنة والفوز بالرضوان، فإنه تعالى جعل تمامها في الدنيا ببعثة الرسول ﷺ برسالة الإسلام، ولهذا أنزل تعالى عندما اكتملت أحكام الشريعة في يوم عرفة، من السنة العاشرة للهجرة، على النبي ﷺ وهو في صعيد عرفات: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهذا المعنى ذكره سبحانه هنا في قوله الكريم:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي: كما قدّر الله تعالى تمام نعمته

عليكم يوم القيامة بدخول الجنة، والفوز برضوانه، أتمها عليكم في الدنيا ببعثه رسول الله ﷺ فيكم.

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَزَكَاةَ مَا يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ كما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام - التي مرّت معنا - وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا وَأَنْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وزادت الآيات هنا في صفات هذا النبي الكريم:

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمكم علوماً ما كنتم تعلمونها من قبل. فقد نقلهم الإسلام من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمدنية والحضارة، عرفوا من خلالها شتى أنواع العلوم والفنون، فبعثه النبي ﷺ من أعظم النعم عليهم، جاءتهم بخير الدنيا وخير الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ورحم الله ابن كثير عندما قال: «كانوا في الجاهلية الجهلاء يسفّهون بالقول القراء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويؤمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة»^(١).

• الذكر والشكر:

كلّف الله تعالى المسلمين في مقابل هذه النعمة العظيمة الجليلة، بأمرين أساسيين، هما: الذكر والشكر، فقال:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بأسمائي الحسنی، التي علّمتكم إياها في كتابي وسنة رسولي

ﷺ. فلا يجوز ذكره تعالى بغير أسمائه الحسنى التوقيفية^(١): ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ويستدعي ذكر الله تعالى طاعته والاستسلام لأحكام شريعته، والحذر من معصيته، فمن شأن الذاكر أن يخشى الله تعالى، ويهتز قلبه خوفاً منه ﷻ، مما يدفعه إلى التوبة والإقلاع عن المعاصي والآثام، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال أيضاً: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وما أمرنا سبحانه بالإكثار من شيء كما أمرنا بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ لأن في ذكره تعالى عصمة لنا من المعاصي والآثام وتسلب الشيطان، كما أنه يؤدي إلى استئزال معونته تعالى وفيوضات فضله على الذاكرين، فتمتلئ قلوبهم خشوعاً وسكينة، ويزول عنها ما يعترها من حيرة واضطراب، نتيجة الانغماس في حمأة المعاصي والآثام، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولقد شرع الله تعالى الصلاة، وكلفنا بها كل يوم خمس مرات، لنذكره فيها ونسبحه ونمجده ﷻ، فقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ وإذا ذكرتكم أكرمتكم برحمتي ومعونتي وإحساني: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وفي الحديث القدسي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسي، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ هم خير منه، وإن

تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [رواه مسلم (٢٦٧٥)].

﴿وَأَشْكُرُ إِلَى﴾ ما أنعمت به عليكم، بعبادتي واتباع رسولي ﷺ، والاستسلام لأحكام شريعتي.

ومن المعلوم أنَّ الشكر لا يكونُ إِلَّا بالاعتراف بفضل المُنعم، وبالثناء عليه، واستعمال النعمة في التقرب إليه.

﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ بجحد النعمة، وإنكار فضل المُنعم، كما فعل المعاندون الجاحدون من أهل الكتاب، الذين ذكَّروهم تعالى بفضله عليهم في أول نداء وجهته الآيات إليهم، كما مرَّ: ﴿يَنبِئُ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَبُكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

ثم بيَّنت الآيات أهم الوسائل التي يستعين بها المؤمن على ذكره تعالى وشكره، أي: على طاعته وعبادته وتنفيذ أحكام شريعته:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ أي: استعينوا على القيام بالتكاليف الشرعية، التي كلفكم الله تعالى بها بالصبر والصلاة.

- فبالصبر تحبسون أنفسكم على تحمّل مشقّة التكليف، وتهذّبون أنفسكم بحبسها عن الشهوات.

- وبالصلاة تستمدّون القوة الروحية المعنوية، التي تشدّ عزائمكم، وترفع هممكم في مواجهة الصّعاب، وتحمل الأعباء، وتذكرون بها أيضاً ربكم خاشعين ضارعين، فيذكركم سبحانه، كما ذكرتموه، فقد يضعف الإنسان حين يطول به الأمد، ويتضاعف الجهد إذا لم يكن هناك زاد ومَدَد، ومن ثمّ يقرن

الصلاة إلى الصبر، فهي المَعِين الذي لا ينضب، والزاد الذي لا ينفد، المَعِين الذي يجدد الطاقة، والزاد الذي يزود القلب، فيمتدّ جبل الصبر ولا ينقطع^(١).

وقد مرّ أنه تعالى وجّه مثل هذا الخطاب إلى بني إسرائيل، عندما ذكّرهم بنعمه عليهم، فقال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، إلّا أنه تعالى ختم الآية هناك بقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، بينما ختم الآية هنا بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم، مما يدلّ على فضل هذه الأمة، ومكانتها عنده تعالى، وفضل الصابرين على وجه الخصوص.

وَمَنْ صَبَرَ عَلَى التَّكْلِيفِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ يَسِّرَها اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، إِذَا قَرْنَ مَعَهَا الذِّكْرَ وَالشُّكْرَ، وَلِهَذَا قَالُوا: بِدَايَةِ الدِّينِ صَبْرٌ، وَخَاتِمَتُهُ يُسْرٌ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ اللهُ ﷻ مَعَهُ رَفَعَ عَنْهُ مَرَارَةَ الصَّبْرِ بِوَضْعِ حُلَاوَةِ الصَّحْبَةِ، الَّتِي تُشْعِرُ بِهَا كَلِمَةُ (مَعَ)^(٢).

• الاستسلام لحكم الله القدري:

وحياة الإنسان في الدنيا حياة اختبار وابتلاء وتكليف، أساسه المواجهة بين الحق والباطل، بين أتباع الأنبياء المستسلمين لله تعالى وأحكام شريعته من جهة، وبين أتباع الشيطان المخدوعين بوساوسه ونزغاته، كما مرّ فيما قصّه الله علينا من كيفية خلق آدم وتكريمه وعداوة الشيطان له [انظر: سورة البقرة: ٣٠ - ٣٨] من جهة ثانية، فلا بدّ من تعبئة المؤمنين تعبئة روحية عالية، لكي يتمكنوا من النهوض بأعباء الرسالة والتكاليف، ويثبتوا في ميادين المواجهة والجهاد.

ولابدّ أن أذكر القارئ هنا بأنّ هذه الآيات نزلت بعد الهجرة، عندما انتقلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة الجهاد والصراع المسلّح مع قوى الكفر والشرك، فلا بدّ إذن أن تحثّهم الآيات على الصبر، الصبر على الشدائد والمحن، والصبر على البلايا والمصائب، الذي يدلّ على الإسلام لله تعالى، والرضا بأحكامه

(١) في ظلال القرآن: ١/ ١٤١.

(٢) نظم الدرر: ٢/ ٢٤٨.

القدرية التكوينية، فكما أن طاعته تعالى وعبادته استسلام لأمره التشريعي، فالصبرُ عند الشدائد والمَحْن استسلام لحكمه القدري، فللايات ارتباط وثيق بموضوع السورة عموماً، وارتباط بسباقها وسياقها على وجه الخصوص.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤)

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ﴾ أي: هم أموات.

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ حياة برزخية خاصة، أكرمهم تعالى بها، بسبب بذلهم أنفسهم في سبيله.

﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ لأن حياتهم البرزخية لا تشبه حياتكم الدنيوية، فهي غيبٌ عنكم، ولا سبيل إلى العلم بها إلا بالخبر الصادق، إذ هي من الغيب الذي يجب علينا أن نؤمن به، لأن الله تعالى أخبرنا عنها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَوَحِينَ يَمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ وَفَّيْلٌ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران].

والأحاديث النبوية الصحيحة التي دلت على حياة الشهداء كثيرة، منها:

ما رواه مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية - التي تقدمت - قال: أما إنا قد سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «أرواحهم في جوف طيرٍ حُضِرٍ، لها قناديلٌ معلقةٌ بالعرش، تسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلَع إليهم ربُّهم اِطْلَاعَةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيءٍ نشتهي ونحن نسرحُ من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاثَ مرَّاتٍ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا ربَّ نريدُ أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتَّى نقتلَ في سبيلك مرَّةً أُخرى، فلما رأى أن ليسَ لهم حاجةٌ تُركوا» [رواه مسلم (١٨٨٧)].

ومرّ معنا في أول السورة [انظر: سورة البقرة: ٣] أن الإيمان بالغيب من الصفات الأساسية الكبرى للمؤمن.

ولا يقتصر الصبر على حبس النفس، والثبات على مشقّات القتال في الجهاد فقط، بل يتعدّى إلى سائر شؤون الحياة، وهذا ما أخبر سبحانه عنه المؤمنين في الآية التالية، لكي يوطنوا أنفسهم على الاستسلام الكامل لحكمه القدري في مختلف شؤون الحياة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: ولنختبرنكم.

﴿بَشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ أي: بقليل من مكروه تتعرضون له، كتسلط العدو عليكم، أو تسليط الظلمة والظغاة.

﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: وبشيء قليل من الجوع، لقحط أو جوائح تفسد مواسمكم وأطعمتكم.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بالهلاك أو الخسارة.

﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ أي: ونقص من الأنفس، بموت بعض الأحاب والأقارب والأصحاب.

﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أي: ونقص من الثمرات والمحاصيل الزراعية، بالجوائح والآفات، التي يسلطها الله تعالى عليها.

وكل ذلك من أنواع الابتلاءات التي يمكن أن يتعرض لها الإنسان المؤمن في حياته، ليظهر تعالى مدى استسلامه لما قُدّر عليه، ورضاه عن ربّه تعالى في جميع أحواله.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ على هذه المصائب والبلايا، الراضين بما قُدّر عليهم.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦).

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: إِنَّا عبيد لله تعالى، ومُلكٌ له ﷻ، يفعل بنا ما يشاء ويريد.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي: وإننا أيضاً راجعون إلى حكمه ومشيتته، فهو إقرار وإعلان بعبوديتهم الكاملة لله تعالى، واستسلام وتفويض كاملين لأمره ومشيتته سبحانه.

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (١٥٧).

﴿أُولَئِكَ﴾: أي المتصفون بصفة الصبر والتسليم لله تعالى. وأشار إليهم بأداة البعد ليدل على علو مقامهم.

﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: عليهم تزكية لنفوسهم ومغفرة لذنوبهم. والصلاة في الأصل: الدعاء، ومن الله تعالى التزكية والمغفرة، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها^(١).

وقد يكون المراد من الصلوات: أن يتولاهم سبحانه بالطفافه وهم في محنتهم، فيفرج عنهم كربتهم، ويخرجهم من محنتهم، ويُستأنس لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وأتى بـ ﴿عَلَى﴾ إشارة إلى أنهم منغمسون في ذلك، فصلوات الله تعالى تغمرهم وتحيط بهم.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: وعليهم أيضاً من الله تعالى رحمة، يتفضل بها عليهم بإنعامه وإحسانه.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق والصواب.

وعندما صبر القوم، وفوضوا أمرهم إلى الله تعالى، ورضوا بما قدره عليهم، هداهم سبحانه إلى الحق، وثبتهم عليه، ولهذا جاء في الحديث الشريف: «أَنَّ الصَّبْرَ ضِيَاءٌ» لأنَّ الله تعالى ينيرُ للصابرين الطريق ويهديهم إلى معالم الحق، فلا يضلُّون ولا يتيهون.

فعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الظُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حَبَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ، فَمَعَتِقُهَا، أَوْ مَوْبِقُهَا» [رواه مسلم (٢٢٣)]. موبقها: أي مهلكها.

• السعي بين الصفا والمروة:

السعي بين الصفا والمروة من الأعمال المشروعة في الحج والعمرة، شرعه الله تعالى، وفعله النبي ﷺ عندما حج واعتمر، وهو عملٌ تعبدي يدلُّ على استسلام العبد لله تعالى، ولعلَّ هذا سببُ إيراد الآيات له بعد آيات الصبر، إذ الصبر يدلُّ على الاستسلام والرضا القلبي الوجداني لله تعالى، بينما السعي بين الصفا والمروة يدلُّ على استسلام الساعي في ظاهره وجوارحه لله تعالى.

ولعلَّ اختيار السعي بين الصفا والمروة من أعمال الحج والعمرة على وجه الخصوص، للدلالة على هذا المعنى، لأنَّ بعض المسلمين في زمن التنزيل والتشريع كانوا يرونه عملاً من أعمال الجاهلية، لا يجوزُ فعله في الإسلام، ولما أنزل الله تعالى هذه الآية، الدالة على أنَّ السعي عبادة إسلامية، وشعيرة من شعائر الحج والعمرة، انقادوا لحكم الله وشرعه، واستسلموا لأمره سبحانه، فسعوا بين الصفا والمروة؛ فسبب نزول الآية يكشف عن سرِّ ارتباطها بما سبقها من آيات السورة.

ففي الحديث الصحيح: عن عاصم بن سليمان قال: سألتُ أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، فقال: «كُنَّا نرى أنَّهما من أمر الجاهلية، فلمَّا كان

الإسلامُ أَمَسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ [رواه البخاري (٤٤٩٦)].

وفي رواية ثانية بلفظ: قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه: أكنتم تكرهون السعي بين الصفا والمروة؟ قال: نعم، لأنها كانت من شعائر الجاهلية، حتى أنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ [رواه البخاري (١٦٤٨)].

ومرّ معنا في حديث بناء البيت ورفع قواعده [انظر: الآية: ١٢٦]: أَنَّ السَّيِّدَةَ هَاجَرَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَوَّلَ مَنْ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَخْلُدَ خُطَا هَذِهِ الْمَرْأَةِ، فَشَرَعَ السَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ لِلْحَجَّاجِ وَالْمُعْتَمِرِينَ كَمَا سَعَتْ، وَجَعَلَهُ مَنَسَكًا مِنْ مَنَاسِكَ الْحَجِّ، الَّتِي بَيْنَهَا لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، عِنْدَمَا سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ قَائِلِينَ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

ولَمَّا دَخَلَتِ الْوُثْنِيَّةُ عَلَى الْعَرَبِ، وَانْحَرَفُوا عَنْ مِلَّةِ التَّوْحِيدِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وَجَلَبُوا الْأَصْنَامَ، وَوَضَعُوا بَعْضَهَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ الْمَشْرِفَةِ، وَضَعُوا أَيْضًا صَنَمِينَ عَلَى الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَكَانُوا عِنْدَمَا يَسْعَوْنَ يَتَمَسَّحُونَ بِهِمَا.

وقد أورد ابن حجر رحمته الله بعض الأحاديث المؤيدة لهذا فقال: وروى النسائي بإسناد قوي: عن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاسٍ، يقال لهما: أساف ونائلة، كان المشركون إذا طافوا تمسّحوا بهما.

وروى الطبري [٧١٦/٢] وابن أبي حاتم في «التفسير» [١٤٣٥] بإسناد حسن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قالت الأنصار: إِنَّ السَّعْيَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾.

وذكر الواحدي في «أسبابه» [١٥٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا، وزاد

فيه: يزعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمُسخا حجّرين، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عبداً^(١).

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: من أعلام دينه، فالشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، وأصلها من الإشعار، وهو الإعلام، وكل ما كان معلماً لعبادة مشروعة كالصلاة والدعاء والذبح تقرباً إلى الله، فهو شعيرة من شعائر الله. ومشاعرُ الحجّ: معالمه الظاهرة، ويقال: شعائرُ الحجّ، كالمطاف، والموقف في عرفة ومزدلفة، والمنحر، ومواضع رمي الجمرات في منى، والصفا والمروة بجانب الكعبة المشرفة، ومطلوب في الإسلام تعظيمها واحترامها، لأنها أماكن عبادات كلّفنا الله تعالى بها، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا أَسْهُرَ الْحَرَامِ وَلَا أَلْهَدَى وَلَا أَلْقَلَيْدَ وَلَا ءَاثِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْغُونَ فَضْلًا مِمَّن رَزَقَهُمُ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: ٢].

وقال أيضاً: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣١].
﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ أي: فمن قصد بيت الله الحرام حاجاً أو معتمراً.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾ أي: فلا إثم عليه أن يسعى بينهما، إذ كان بعضهم يرى الطواف بينهما إثماً، كما تقدم.

وقد شرعه النبي ﷺ في الحج والعمرة؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ سَعَى بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]» [رواه البخاري (١٦٤٧)].

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، الذي وصف به حجة النبي ﷺ قال: «ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فرقى عليه، حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوَحَّدَ الله، وكَبَّرَهُ وقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له المُلْكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا إله إلا الله وحده، أنجزَ وعده، ونصرَ عبده، وهزمَ الأحزابَ وحده» ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاثَ مرَّاتٍ، ثم نزلَ إلى المروة، حتى إذا انصبَّت قدماه في بطنِ الوادي سعى، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا» [رواه مسلم (١٢١٨)].

ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى وجوب السعي بين الصفا والمروة في الحج والعمرة.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي: فعل عبادة من العبادات زيادة على ما فرض الله تعالى عليه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فإنه تعالى يشبهه على طاعته وعبادته مهما كانت، إذ هو سبحانه عليم بها، لا يعزبُ عن علمه شيءٌ جلَّ وعلا.

• كتمان العلم:

ومن واجب العلماء أن يبينوا للناس أحكام دينهم، لكي يلتزموا بها، فإن فروع الأحكام الشرعية لا تُعرفُ إلا بالتعلُّم والتعليم، ولهذا اتَّجه سياقُ الآياتِ بتوعّد العلماء الذين يكتُمون علمهم عن الناس، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: في جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى، وجميع ما أنزل الله من شرائع وأحكام. وعلى هذا يكون المرادُ من قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ العلماء كافةً، فالآية تنسحب

على علماء المسلمين، الذي لا يعلمون الناس أحكام دينهم وشريعتهم، وتنسحب أيضاً على علماء أهل الكتاب، الذين كتموا ما عندهم من صفات النبي ﷺ.

﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يبعدهم عن رحمته.

واللعن في اللغة: الطرد والإبعاد.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ من الناس والملائكة، كما سيأتي.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أُلْحِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ» [رواه أبو داود (٣٦٥٨) وابن ماجه (٢٦١) و(٢٦٦) والترمذي (٢٦٤٩) وحسنه].

ثم استثنى تعالى التائبين عن كتمان العلم، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا﴾ أي: رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم، وبيّنوا للناس ما كانوا يكتُمونه عنهم من العلم.

﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دليل على أنّ الداعية إلى كفر أو بدعة، إذا تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه^(١).

ومن توبته أن يعلن تراجعَه عن كفره وبدعته، حتى يعلم الناس الذين تأثروا بكفره وضلاله، توبته عما كان عليه.

وبعد أن بيّن تعالى حكم التائبين، توعد المُصْرِّين على كتمان العلم، وبيّن مصيرهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكتمان حقائق من الدين يؤدّي كتمانها إلى الكفر، كما فعل

أخبارُ اليهود الذين كتموا ما يعرفون من صفات النبي ﷺ ونعوته، التي ذكرها سبحانه في التوراة.

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: وماتوا وهم مُصرّون على الكفر.
 ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لأنهم بكتمانهم لهذه الحقائق سعوا في إضلال الناس، ونشر الكفر بينهم، كما سعوا في إشاعة الفساد في الأرض، لذلك يتعرّضون لللعنة الناس في الأرض.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: مُقيمين في اللعنة، تلازمهم آثارها، ومن آثارها:
 ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يُنظرُ إليهم نظرَ رحمة، أو لا يمهلون ولا يؤجلون.



الْفَصْلُ الْخَامِسُ

العقيدة والشرعة

﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ١٦٢﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
مَاءٍ فَأَخْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٣ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا
يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ
الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٤ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا
الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ١٦٥ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي أَنَّ كَرَّةً فَتَنْبَرَأُ مِنْهُمْ كَمَا
تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ١٦٦ يَأْتِيهَا
النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٧
إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٨ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ
١٦٩ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْفَعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ١٧٠ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ١٧١ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاعٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٧٢ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسَدُّونَ بِهِ مَسْنَدًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٣ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
الضَّلَالََةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفُورَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ١٧٤ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ

الْكُتِبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَيْسَ إِلَهٌ أَن تُولُوا
وُجُوهَكُمْ فِكْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ إِلَهَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ
فَأَبْرَأَ بِالْمَعْرُوفِ وَءَادَأَ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عَبْدِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأْوَلِي الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ
عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ
خَافَ مِنْ مُّوَسِّ جَنْفًا أَوْ إِيْمًا فَاصْلَحْ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾
أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّن
الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ
وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي
قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ
لَكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرِّفْتِ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ
كُنْتُمْ تُخْتَلَاؤْنَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَشِّرُوهُمْ وَاتَّقُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ
لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى
الْأَيْلِ وَلَا تَبْشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ

اللَّهُ عَائِيهِمُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى
 الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴿١٨٩﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ
 قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ
 اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩٠﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩١﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
 تَقْبَلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْبِلُونَهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى
 يَقْتُلُوهُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٢﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾
 وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ
 بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٦﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ
 حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِوَاءٍ أَدَّى مِنْ رَأْسِهِ فَعِذَّةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ سُلْكٍ
 فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا
 رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٧﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا
 جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ
 يَأْتِ أُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٩٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا
 أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ
 وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٩﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ
 وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ
 كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ الْنَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
 فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
 حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٢﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٣﴾

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لَمْ يَأْتِ أَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

• الإلهية والعُبودية:

ظهر لنا من خلال ما تقدم، أن الإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، قلباً وقالباً، اعتقاداً وسلوكاً، علماً وعملاً، وهو المحور الأساس لكل ما في السورة من مبادئ وأحكام وتشريعات.

وقد أبرزت الآيات هذه الحقيقة من خلال ما عرضت من مواقف العناد والجحود للكافرين من المشركين وأهل الكتاب، ومن خلال ما عرضت أيضاً من مواقف الإسلام لله تعالى والخضوع له وحده عند الأنبياء وأتباعهم، من لدن إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام، إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ.

وتتجه الآيات الآن، في سبيل إبراز هذه الحقيقة، وجهة جديدة، وهي بيان الارتباط الوثيق بين العقيدة والشرعة في الإسلام، وبهذا الاتجاه الجديد تُظهر الآيات أيضاً أن الإسلام هو الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، علماً وعملاً، قلباً وقالباً، اعتقاداً وسلوكاً.

ابتدأت الآيات توجُّهها الجديد بتقرير حقيقة التوحيد الكبرى، التي هي أساسُ التشريع، واتبعت أسلوبَ التقرير الملزم لجميع المخاطبين الذين يصحَّ خطابهم، بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: معبودكم معبودٌ واحد، لا نظيرَ له ولا شبهة في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ولم تصرِّح الآية باسمه سبحانه، وإنما اكتفت بصفته التي تبينُ علاقة

المخاطبين به ﷺ، فصفته تعالى أَنَّهُ المستحقُّ للعبادة والطاعة وحده، وأنتم أيها المخاطبون عبيدٌ له وحده ﷺ، فهو إذاً معبودكم وحده.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق أن يسمّى إلهاً معبوداً إلا هو ﷺ.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ أي: إنّ معبودكم الذي يستحق العبادة وحده هو الرحمن الرحيم، وهما اسمان من أسمائه تعالى الحسنى، يدلّان على فضله وإحسانه، وعلى أَنَّهُ وحده المستحق للعبادة، فإنه لما كان مولى النعم كلها، أصولها وفروعها، وما سواه إما نعمة أو منعم عليه، لم يستحق العبادة أحد غيره^(١).

وخلق الإنسان أثر من آثار رحمته تعالى، وإرسال الرّسل إليه، وإنزال الكتب عليه، من رحمته تعالى أيضاً، إذ بيّن فيما شرع له كيف يعمر الأرض التي استخلفه فيها، بعبادته وطاعته، وكيف يتقرّب إليه ليفوز بجنته ورضوانه يوم القيامة.

ولا شك أنّ التزام الإنسان بشريعة الله وحده، تحقيقٌ عملي لعبوديته له سبحانه، يدلّ على استسلامه وإسلامه له سبحانه وحده، كما مرّ عند قول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَمَلَّكُمُ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

• من أدلة التوحيد:

ثم عرضت الآيات بعض البراهين الدالة على وحدانية الله تعالى ورحمته وإحسانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٦٤).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: وفي تعاقب الليل والنهار حسب نظام دقيق لا يتغير.

﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي: والسفن التي تسير في البحر من أجل منافع الناس.

﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ أي: وفي ماء المطر الذي أنزله تعالى من جهة السماء.

﴿فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: بالنبات الذي أنبته تعالى من الأرض، بسبب المطر الذي أنزله عليها.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: ونشر في الأرض من كل أنواع الحيوانات التي تدب عليها.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ﴾ أي: وفي قلب الرياح وتحريكها مع السحاب من جهة إلى جهة.

﴿الْمَسْخَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: المسخر المذل في الفضاء بين السماء والأرض.

فمشيئته تعالى نافذة في كلِّ المكوّنات السماوية والأرضية، والبريّة والبحرية والفضائية، وكلها خاضعة لإرادة خالقها ومالكها، وهي في قبضة قدرته ﷻ، تدلّ على وجوده تعالى ورحمته وإحسانه، إذ هي مسخرة مذلّة لفائدة الإنسان وحياته ومعيشته، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقال أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم].

فكلّ هذه المكوّنات والمخلوقات شاهدة على وحدانيته تعالى ورحمته وإحسانه، وهي دلائل تدلّ على جوده ووجوده.

﴿لَا يَنْتَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لدلائل تدلهم على أن لهذا الكون إلهاً واحداً، كما قررت الآية السابقة: ﴿وَاللَّهُ كَذَّابٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٢).

ولو ألقى الإنسان عن عقله بلادة الألفة والغفلة، فاستقبل مشاهد الكون بحسٍّ متجدد، ونظرة مستطلعة، وقلبٍ نورهِ الإيمان، ولو سار في هذا الكون كالرائد الذي يهبط إليه أول مرة، تلفت عينه كلُّ ومضة، وتلفت سمعه كلُّ نامة، وتلفت حسّه كلُّ حركة، وتهزُّ كيانه تلك الأعاجيب التي لا تَنِي تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر^(١)، لأدرك إدراكاً كاملاً لا ريب فيه أن لهذا الكون إلهاً واحداً أحداً، رحماناً رحيماً.

• براءة وحسرة:

ومع كلِّ هذه الدلائل التي تدلُّ على أنه تعالى وحده المستحق للعبادة والطاعة، فإن كثيراً من الناس يعرضون عن عبادته وطاعته:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٦٥).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأمثالاً لله تعالى في استحقاق الطاعة.

﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ أي: يطيعونهم ويعظمونهم ويميلون إليهم.

﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي: كما يحبُّ المؤمنون ربهم، والتشبيه لا يدلُّ على التماثل من كل الوجوه، فحبُّ المؤمنين لله تعالى أعظم وأثبت، ولهذا قال:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأنَّ محبتهم لا تنقطع ولا تنتهي، إذ هم مستسلمون لله تعالى، راضون بأحكامه الشرعية والقدرية في جميع الأحوال، في السراء والضراء، والمنشط والمكره، والشدة والرخاء، بينما هؤلاء يطيعون

رؤساءهم ويعظّمونهم ما داموا يرجون منهم المنفعة في الدنيا، وأمّا في الآخرة فإنّ محبتهم تنقطع وتحوّل إلى بغض وحقد.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى.

﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾ يوم القيامة.

﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلا قوة حينئذٍ ولا سلطان ولا ملك لغيره ﷻ، الذي يقول: ﴿لَعَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: ورأوا أيضاً شدة عذاب الله تعالى، لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة.

فحذف الجواب، لأنّ (لو) إذا جاء فيما يشوّق إليه أو يخوّف منه، قلّما يوصل بجواب، ليذهب القلب فيه كل مذهب^(١).

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي: المتبوعون، وهم الرؤساء والزعماء قادة الكفر والضلال.

﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أي: من الأتباع الذين اتبعوهم في الدنيا، وساروا وراءهم في طرق الكفر والضلال.

﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ الذي لا مفرّ منه ولا نجاة.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: انقطعت صلات المودة والمحبة التي كانت بينهم في الدنيا.

والسبب في اللغة: الحبل الذي يُصعدُ به النخل، وسُمّي كلُّ ما يتوصل به إلى شيء من ذريعة أو قرابة أو مودة سبباً، تشبيهاً بالحبل الذي يُصعدُ به^(٢).

(١) تفسير النسفي: ٢٣٨/١.

(٢) تفسير الخازن: ٢٣٨/١.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَتَيْنَا لَوْ أَنَّا كَرِهَ فَنَتَّبِعَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١٦٧).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهَ﴾ أي: رجعة إلى الدنيا.

﴿فَنَتَّبِعَ مِنْهُمْ﴾ أي: من زعمائنا ورؤسائنا الذين كنّا نسير وراءهم في الدنيا.

﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ في هذا اليوم.

﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ التي عملوها باختيارهم وكسبهم.

﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ تملأ صدورهم، وتحرق قلوبهم. والحسرة: أشد الأسف

على الفائت.

﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ فهم يعذبون بنارين: نار الحسرة والندم التي

تتحرق قلوبهم، ونار جهنم التي تشوي أجسامهم وجلودهم.

• التحذير من اتباع الشيطان ومن التقليد الأعمى:

بهذه الصورة المرعبة هيأت الآيات النفوس البشرية للإسلام لله تعالى، والانقياد لدينه وشرعه، فوجهت إلى الناس نداءها الثاني في السورة، بعد نداءها الأول الذي سبق في أوائل السورة [الآيات: ٢٠ - ٢٤] في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ...﴾ أمرتهم به بعبادة الله تعالى وحده.

أما في هذا النداء فأظهرت الآية للناس فضله سبحانه عليهم، فيما خلق لهم في الأرض من المطاعم الطيبة النافعة المستلذة، وأمرتهم على سبيل الإباحة أن يأكلوا منها، وكأنه تعالى أراد بهذا النداء أن يقرن الترغيب بالترهيب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا﴾ أي: كلوا الطعام الحلال الطيب.

والحلال: المُباح الذي أحلّه الله تعالى. وأما الطيّب: فهو المستلذذ النافع. فليس كلّ ما في الأرض حلالاً طيباً، وعلى الإنسان أن يميّز بين الحلال الطيب، وبين الحرام الخبيث، وجاءت أحكام الشريعة الإسلامية تراعي مصلحة الإنسان، فما حرّمت عليه إلّا كل خبيث ضارّ بدينه وصحته، وما أحلت له إلّا كل طيب نافع.

ثم حذّرت الآية الناس من اتّباع الشيطان، عدوّ الإنسان الأول:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرقه التي يسير فيها، ويدعو إليها، فهي لا تؤدّي إلّا إلى الشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، لا يريد بكم إلّا التعاسة والشقاء، فهو لا يأمركم بخير أبداً.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ أي: لا يأمركم إلّا بما يجلب لكم السوء، وبما يجاوز الحدّ في القبح، كالكبائر من الذنوب.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ أي: ويأمركم أيضاً أن تخالفوا شريعة الله تعالى، وتتبعوا شرائع وضعية مخالفة لأحكام دين الله تعالى، فتحلّوا ما حرّم الله، وتحرموا ما أحلّ، مما يؤدي إلى تحريم الطيبات، واستحلال الخبائث.

كما هو مع الأسف حال كثير من المجتمعات الإسلامية اليوم، هجرت شريعة الإسلام، واتّبعت الشرائع الوضعية المستوردة من الأمم الكافرة، بسبب ما ابتلوا من تقليدهم تقليداً أعمى، فقد كان الناس في عصر التنزيل يتمسّكون بعبادات وتقاليد آبائهم وأجدادهم، ويرفضون من أجلها دعوة النبي ﷺ، والانقياد لشريعة الله تعالى، وأما في العصر الحاضر فقد فُتن كثير من المسلمين بحضارة الغرب المادية وزخارفها وبهارجها، وأقبلوا على تقليدهم في كل شؤون حياتهم، دون تمييز بين ما يضرّهم أو ينفعهم، أو ما يوافق دينهم أو يخالفه،

بهرهم بريقُ الحضارة المادية الخُلب، فسلبت بصائرهم، وأغشّت أبصارهم، وأصبحوا كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ما شرع الله تعالى في كتابه وسُنّة نبيّه عليه الصلاة والسلام.

﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: ما وجدنا عليه آباءنا.

فالتقليدُ الأعمى أكبر العقبات في وجه كل دعوة للإصلاح، ومقاومة الفساد والظلم، ولم يكن للمشرّكين من حجة يحتجّون بها سوى تقليد آبائهم وأجدادهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٧١﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿١٧٢﴾ قُلْ أُولَئِكَ جَحِشْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الزخرف].

ولا سبيل للتخلّص من أسرِ التقاليد البالية والعادات الموروثة، إلّا بالنظر والتفكير واستعمال العقل ووسائل التمييز بحرية وموضوعية، ولهذا قال تعالى يردّ على المقلّدين لأبائهم، والمتمسّكين بعادات أجدادهم:

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: لا ينبغي لكم أن تقلّدوهم تقليداً أعمى من غير تفكير ونظر، إذ يمكن أن يكونوا على ضلال، لا يعقلون شيئاً من الدين الحق، ولا يهتدون إلى الشريعة الصحيحة، التي يجب التمسّك بأحكامها، فكيف تعطلّون عقولكم وأفكاركم وتسيرون وراءهم من غير تفكير ونظر.

فالإسلام يدعو إلى تحرير العقل البشري من أغلال التقاليد البالية والعادات

القيحة، ومن المعلوم أن العقل هو أعظم ما يتميز به الإنسان من غيره، ولا تتحقق كرامته الإنسانية إلا إذا تحرر عقله من التقاليد البالية. ولهذا شبه ﷺ الذين يقلدون غيرهم تقليداً أعمى بهذه الصورة المزرية القبيحة، فقال:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٧١).

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بسبب تقليدهم الأعمى لآبائهم، وسيرهم وراءهم دون نظر واستبصار.

﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ أي: كمثل البهائم التي ينق بها راعيها، وهي لا تسمع منه إلا جرس النغمة ودوي الصوت، فتسير وراءه، وهي لا تعرف إلى أين تسير، ولا ما يراد بها، فقد يقودها هذا الصوت إلى حتفها وهلاكها وهي لا تدري. والتعيق في اللغة: زجر الغنم والصياح بها. ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى﴾ عن الحق ودلائله وشواهد.

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. وقد سبق معنا مثل هذا الوصف في المنافقين، عند قوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٨] فارجع إليه إن شئت. ودلت الآيات على أن للعقل منزلة كبيرة في نظر الإسلام، فإذا ما استعمله الإنسان بموضوعية وتجرد عن الهوى والتعصب والتقليد، أوصله إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده.

كما دلت أيضاً على ارتباط الشريعة بالعبادة في الإسلام، فالله تعالى هو وحده الخالق الرازق، وله وحده الحاكمية والتشريع والتحليل والتحريم، وعلى الإنسان المؤمن أن يستسلم لحكمه تعالى ويدعن لشريعته.

• العبادة والشكر:

وتأكيداً لحقيقة الارتباط بين العقيدة والشريعة، اتجهت الآيات إلى مطالبة

المؤمنين أن يلتزموا بأحكام دين الله تعالى وشريعته، في مطاعمهم ومشاربهم وسائر شؤون حياتهم، وتبين لهم في الوقت نفسه أن في الحلال ما يُغني عن الحرام، وأن ما أحله الله تعالى من الطيبات أكثر بكثير مما حرّم عليهم، وأن الشريعة الإسلامية تمتاز باليسر والمرونة في أحكامها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: تحرّوا عن الطعام الطيب النافع الذي أحله الله تعالى لكم، فكلوا منه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرَّجُلَ يَطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَتَى يُسْتَجَابُ لَذَلِكَ؟» [رواه مسلم (١٠١٥)].

﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ على ما رزقكم وأحلّ لكم.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم حقاً تقرّون بأنه هو إلهم ومعبودكم ولا معبود لكم سواه، ولا تتم عبادتكم له إلا بشكره والاعتراف بفضله.

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لِيرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» [رواه مسلم (٢٧٣٤)].

وبعد أن رخصت لهم الآيات أكل الحلال الطيب، بينت أن ما حرمت عليهم قليل بالنسبة لما أحلت لهم:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٣).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أي: الحيوان الذي مات من غير ذبح شرعي. والذبح الشرعي أحسن وسيلة لإخراج الدم من عروق الحيوان وفصله عن لحمه. والدم كما هو معلوم الناقل الرئيس لسموم البدن، ويتسارع الفساد إليه مباشرة بعد انفصاله عن موضعه من البدن، ولهذا حرّمه تعالى بقوله:

﴿وَالدَّمَ﴾ والمراد منه المسفوح الذي انفصل عن الجسم، لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ أي: وحرّم عليكم لحم الخنزير، فإنه - كما مرّ في آية الأنعام المذكورة آنفاً - رجس، أي: خبيث ونجس.

وقد أثبت العلم الحديث أن لحم الخنزير يحمل كثيراً من مسببات الأمراض^(١).

﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: وحرّم عليكم ما ذبح لغير الله تعالى.

وأصل الإهلال لغة: رفع الصوت، وذلك أنهم كانوا يرفعون أصواتهم بذكر ألّهتهم إذا ذبحوا لها، فجرى ذلك مجرى أمرهم وحالهم، حتى قيل لكل ذابح: مُهل، وإن لم يجهر بالتسمية^(٢).

فالإسلام يحارب الوثنية بكل أشكالها ومظاهرها، والذبح لغيره تعالى مظهر من مظاهر الشرك والوثنية، فيه تعظيم لغيره تعالى، وجحود وكفران لنعمه

(١) وقد بينّا بعضها في غير هذا الباب.

(٢) تفسير الخازن: ٢٤٢/١.

وفضله، فهو سبحانه وحده الخالق الرازق، وهو الذي أحلّ هذا الحيوان وسخره لنا، فلا يجوز أن نذبحه لغيره تعالى، أو نذكر عند ذبحه غير اسمه تعالى، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ أُولِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ثم بيّنت الآيات يُسر الشريعة الإسلامية ومرونة أحكامها، تأكيداً لما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، بقوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ أي: فمن ألجأته الضرورة إلى الأكل من هذه المحرّمات، فيباح له ذلك بشرط أن يأكل منها:

﴿غَيْرَ بَاعٍ﴾ أي: غير قاصدٍ التلذّذ بالأكل منها، بل يقصد دفع الضرورة وحفظ الحياة.

﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: وبشرط ألا يتعدّى في مقدار ما يأكل حدّ الضرورة، فالضرورات تقدّر بقدرها، وهذا إذا كانت حال الضرورة مرجوة الزوال، أما إذا كانت مستمرة جاز الشبع منه، لا يضطراره إلى الأكل مرة ثانية^(١).

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا ذنب عليه ولا مسؤولية فيما أكل.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب عباده ويرحمهم، ويرفع الحرج والمشقة عنهم، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

هكذا تتابع من الله تعالى على عباده المؤمنين، بتمسكهم بأحكام شريعته السمحة الميسرة، فبعد أن منّ عليهم بإباحة الطيبات المستلذّات، منّ عليهم بتحريم الخبائث المؤذيات، ثم منّ عليهم أيضاً بترخيص المحرّمات عند الضرورات.

(١) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

• أكلة النار:

وعادت الآيات مرة ثانية تتوعد كاتمي العلم، والمتاجرين بأحكام الدين، وتبين لهم حُرمة ما يأكلون من حطام الدنيا، بسبب كتمانهم لأحكام دين الله تعالى، ومتاجرتهم بها، وتضيف بهذا طعاماً محرماً آخر إلى الأطعمة المحرمة في الآية السابقة، فتحريم ما يكسبون من هذا الطريق أشد من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ كما فعل أحبار اليهود، الذين كتموا صفات النبي ﷺ، المنزلة في التوراة، لكي تبقى لهم زعاماتهم الدينية ومكاسبهم الدنيوية.

﴿وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: ويأخذون في مقابل الكتمان عوضاً حقيراً. وهذا العوض مهمما كان كبيراً فهو في حقيقته حقيرٌ وقليلٌ، وقد مرَّ أنه تعالى حذرهم من هذا في أوَّلِ نداء وجهه تعالى إلى بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِبَاقِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

وقد فصل تعالى حالهم في سورة التوبة فقال: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤٥﴾﴾.

وقد بين سبحانه هنا صورة من صور هذا العذاب الأليم، فقال:

﴿أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ إما في الدنيا، ولكثمتهم لا يشعرون بها لتعطل حواسهم، فكانوا في ذلك كالخدير الذي يجعل يده في الماء الحار، ولا يحس به^(١)، أو بالمآل يوم القيامة، إذ يؤدي فعلهم هذا إلى عذابهم في النار.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

ونظيرها في السُّنَّة: ما روته أم سلمة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَإِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» [رواه مسلم (٢٠٦٥)].

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كلام رحمة.

﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ من ذنوبهم وآثامهم، فلا يغفرها لهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وكل ذلك بسبب كسبهم واختيارهم، وتفضيلهم الضلال على الهدى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ (١٧٥).

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾، كما سبق في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي: ما أشدَّ صبرهم على النار!

وهو تعجيب للمؤمنين، وتحذير لهم من التشبه بهم، وإلا فأَيُّ صبر لهم، وأَتَى لهم الصبر؟ وهم لا يستطيعون الصبر على نار الدنيا، حتى يصبروا على نار جهنم.

وقد يكون المراد بيان شدة عنادهم وجحودهم، فهم يعلمون الحق ويجحدونه، ويعلمون أنهم معذبون بسبب جحوده وكتمانه.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد،

لأنه تعالى نَزَلَ القرآن الكريم على النبي ﷺ بالحقّ الثابت الواضح، وهؤلاء أَعْرَضُوا عنه، وكَفَرُوا به، مع علمهم بأنّه حق ثابت مَنْزَل من الله تعالى.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ أي: اختلفوا في الكتب المنزلة، فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، فالمرادُ جنس الكتاب، ويشمل كل كتاب أنزله الله تعالى.

﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: لفي خلاف بعيد عن الحق.

• آية البر:

البر: اسمٌ جامعٌ لكل الخيرات والأعمال المُرضية الصالحة، ولهذا ذكره سبحانه هنا، في سياق الآيات التي تبيّن الارتباط الوثيق والاحتباك القوي، بين العقيدة والشرعية في الإسلام.

وجاءت آية البر هذه مشتملةً على جُملي عظيمة، وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة^(١).

قال القرطبي رحمه الله: «هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام»^(٢).

ويبدو أنّ أهل الكتاب أكثروا الخوض في أمر القبلة - كما مرّ معنا - فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم قوله الكريم:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ
السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: ليس البرّ في التوجّه إلى

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/١٥٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٢/٢٤١.

جهة المشرق والمغرب، ولكن البرّ في الإسلام لله تعالى وحده، وفي الانقياد لأمره وشرعه، وفي التوجّه حيثما أمر سبحانه، كما قال في ذبائح الأضاحي والهدي: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٢٧].

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلِيمٌ ذَا بَلَدٍ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد. ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: وصدّق وأقرّ بيوم القيامة، وبما فيه من حساب وثواب وعقاب، كما أخبر سبحانه، فهو من الغيب الذي أثبتته الدليل الصحيح الصادق. ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: وصدّق وأقرّ بوجود الملائكة، كما أخبر سبحانه عنهم. فالإيمان بهم أيضاً إيماناً بالغيب، الذي أثبتته الدليل الصحيح الصادق، وهو من أسس الإيمان الكبرى، كما تقدّم في أول السورة [٣] ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

﴿وَالْكِتَابِ﴾ أي: وصدّق بالكتب الإلهية المنزلة، فالمراد من الكتاب جنسه، ويشمل جميع الكتب المنزلة التي جاء القرآن الكريم مصدّقاً لها.

﴿وَالنَّبِيِّنَ﴾ أي: وآمن بجميع الأنبياء من غير تفريق بينهم، وأنهم جميعاً دعوا إلى الإسلام لله تعالى وحده وعبادته، وأن خاتمهم سيّدنا محمد ﷺ، الذي بُعث برسالة الإسلام الشاملة العامّة، التي تعبّد الله بها الإنس والجنّ إلى يوم القيامة.

هذه أصول الإيمان وأركانها الكبرى التي لا يتمّ إلّا بها، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وفي حديث سؤال جبريل النبي ﷺ، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أَنْ تُوْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُوْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قال: صدقت. [رواه مسلم (٨)].

﴿وَعَاتَى أَلْمَالِ عَلَى جُحَيْهِ﴾ أي: وأعطى المال في سبيل الله، على الرغم من حبه

له، كما قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ رجلاً فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم؟ فقال: «أَنْ تَصَّدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، ألا وقد كان لفلان» [رواه مسلم (١٠٣٢)].

﴿ذَوَى الْقُرْبَى﴾ أي: الأقارب المحتاجين، فهم مقدّمون على غيرهم في استحقاق الصدقة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينُ وَالْأَسْفِلُ وَلَا يُبْذَرُ بُذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

ولقوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرّحم الكاشح» [رواه الطبراني في (الكبير) وابن خزيمة (٢٣٨٦) والحاكم (٣٠٦/١) وقال: صحيح على شرط مسلم] والكاشح: بالشين المعجمة؛ هو الذي يضر العداوة. ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمع يتيم، وهو الصغير الذي مات والده.

وتقدّم أنّ مساعدة اليتامى ورعايتهم من أعظم العبادات في الإسلام، وسيأتي لهذا مزيد تفصيل في آيات السورة.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو المحتاج الذي لا يسأل الناس، كما سيأتي.

﴿وَالْأَسْفِلِ﴾ هو المسافر المنقطع في الطريق، سُمّي بذلك لملازمته الطريق في السفر، أو لأنّ الطريق تُبرزه، فكأنها ولدته، وكأنّ إفراده لانفراده عن أحبائه ووطنه وأصحابه^(١).

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: المحتاجين الذين يسألون.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: أعطى المال في تخليص الرقاب من ذلّ العبودية أو

الأسر.

فالإسلام دين الحرية، حثّ على تحرير الأرقاء ومساعدتهم، وتخليص الأسرى، وعدّ ذلك عبادة لله تعالى.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: أداها كاملة مستقيمة، كما شرعها الله تعالى.

﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: أعطى الزكاة المفروضة عليه في ماله للمستحقين لها.

وأما قوله المتقدم في الآية: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ فالمراد منه إنفاق آخر غير الزكاة، وهو دليل على أنّ في المال حقاً سوى الزكاة، وورد في ذلك حديث: عن فاطمة بنت قيس: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْمَالِ حَقّاً سِوَى الزَّكَاةِ» ثم تلا هذه الآية. [رواه ابن ماجه (١٧٨٩) والترمذي (٦٥٩ و ٦٦٠) وقال: هذا حديث إسناده ليس بذلك].

ففي الإسلام نفقات واجبة في مال الإنسان غير الزكاة، كالنفقات الواجبة على الأقارب، والنفقات الواجبة وقت الأزمات، عندما لا تكفي أموال الزكاة لسدّها، قال القرطبي رحمه الله: «واتفق العلماء على أنّه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة، فإنه يجب صرف المال إليها، قال مالك رحمه الله: يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم، وهذا إجماع أيضاً»^(١).

﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ أي: عاهدوا الله تعالى، أو عاهدوا الناس.

فالإنسان في الإسلام مسؤول عن عهوده والتزاماته المشروعة، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال في معرض وصف المؤمنين والثناء عليهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿مَنْ أَمَنَ﴾، ولم يقل: وأوفى، كما قبله، إشارة إلى وجوب استقرار الوفاء^(٢).

(١) القرطبي: ٢/٢٤٢.

(٢) روح المعاني: ٢/٤٧.

وفيه أيضاً: تعريض بالناقضين لعهودهم، كما تقدّم عن بني إسرائيل، ونقضهم للمواثيق والعهود.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: في الشدة والفقر.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: وفي المرض والضعف والعجز.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: وقت قتال العدو وجهاده.

وقد جاء قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ منصوباً على الاختصاص والمدح، تنبيهاً على امتياز الصبر، إذ فيه دلالة على كمال الاستسلام لله تعالى، والرضا بقدره، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿أُولَئِكَ﴾ المتّصفون بهذه الصفات، وأشار إليهم بالبعيد تفخيماً لهم وتشريفاً.

﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إسلامهم لله تعالى وانقيادهم لأحكام دينه وشرعه.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم وحدهم المتحقّقون بحقيقة التقوى، والذين ذكرهم سبحانه في مطلع السورة، في قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

• القصاص والحياة:

ثم شرعت الآيات في عرض أحكام الشريعة، وبيان ارتباطها بالعقيدة، وكيف أنّ الالتزام بها يوصل إلى التقوى، وبدأت ببيان تشريع القصاص في القتل، فقررت بذلك حرمة الحياة الإنسانية، ولعلّ الابتداء به للإشارة إلى ضرورة الأمن في المجتمع وحماية حياة أبنائه، فلا بقاء لأيّ مجتمع من دون أمن، ولا قيام لأيّ نظام تشريعي من دون قوّة تحميه.

ولا شك أنّ فرض نظام القصاص على مجتمع كانت تسود فيه عادات الأخذ بالثأر، من أقوى المظاهر الدالّة على انقياد واستسلام أفراد هذا المجتمع لشرعية الله تعالى.

وقد وجَّهَت الآية خطابَ التكليف بتشريع القصاص للمؤمنين، بأسلوب
الفرض والإلزام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَلْيَبْزَعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٨)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي: فُرِضَ عليكم تشريع
القصاص في القتل، ومعناه: المماثلة والمساواة في القتل، ومعاقبة القاتل
المتعمد بمثل جنايته، أي: بقتله.

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ﴾ أي: القاتل الحرُّ يُقتلَ بالمقتول الحرِّ،
والقاتل العبد يُقتلَ بالمقتول العبد، والقاتلة الأنثى تُقتل بالمقتولة الأنثى.

ويبدو أنَّ الآية اقتضرت هنا على بيان حكم النوع إذا قتل نوعه، إبطالاً لما
كان عليه العرب في الجاهلية، فكان إذا حدث بين قبيلتين أو حيين قتال، تطاول
الأقوى منهما على الأضعف، ولم يرضَ حتى يُقتل الحرُّ بالعبد والرجل بالمرأة،
فأنزل الله هذه الآية يلزِمهم فيها بالتساوي في القصاص، ولهذا أخذ بعض
العلماء بعموم قوله تعالى في صدر الآية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ وبعموم
قوله تعالى أيضاً: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فلم يشترطوا
التساوي بين القاتل والمقتول لتطبيق القصاص. بينما اشترطه آخرون، لكنهم
أجمعوا على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، كما ذهب جمهورهم إلى قتل
الواحد بالجماعة والجماعة بالواحد.

ولا خلاف أنَّ القصاص في القتل لا يقيمه إلاَّ أولو الأمر، فهم الذين
فُرِضَ عليهم النهوضُ بالقصاص، وإقامة الحدود وغير ذلك، لأنَّ الله سبحانه
خاطب جميع المؤمنين بالقصاص^(١).

ثم بين تعالى ما امتازت به الشريعة الإسلامية من يُسْرٍ ومرونة في أحكامها، عندما شرع لأولياء المقتول أن يأخذوا الدية، ويعفوا عن القصاص من القاتل، فقال:

﴿فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: فمن ترك له وصفح عنه من القصاص، من جهة أخيه وليّ المقتول، فإذا عفا بعض أولياء المقتول عن القصاص، سقط وثبتت الدية.

وذكره تعالى بلفظ الأخوة في الدين والجنس ليعطف عليه، ويرقّ له، فيعفو عن القصاص ويرضى بالدية.

﴿فَأَيُّهَا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فليتبع وليّ الدم القاتل بالمعروف، فلا يأخذ منه أكثر من حقه، ولا يعتفه، فقد جعل الله تعالى لوليّ المقتول حقاً في القصاص، أو الدية في حال العفو عن القصاص، وليس له أكثر من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ أي: وعلى القاتل أداء الدية إلى أولياء المقتول من غير مماطلة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: تشريع الدية، وحثّ أولياء المقتول على العفو عن القصاص. ﴿تَخَفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ تميّزت بها الشريعة الإسلامية، فلم تكن الدية مشروعة في التوراة، بل كان القصاص حتماً لازماً فيها، فخفف الله تعالى هذا الحكم في الشريعة الإسلامية، لأنها تمتاز بالسماحة والرحمة.

ثم ختم الله تعالى الآية بوعيد شديد للذين لا يرضون بهذه الأحكام، ويصرّون على ما كان شائعاً بينهم من عادات جاهلية، كعادة الأخذ بالثأر، فقال:

﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: من تجاوز ما شرع الله تعالى له فقتل غير القاتل، أو قتل بعد أن أخذ الدية.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم بين تعالى فائدة الإسلام له، والانقياد لأحكام شريعته، وما يترتب على تطبيق أحكام القصاص من آثار طيبة، تؤدي إلى إشاعة الأمن والطمأنينة في ربوع المجتمع، فقال:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ آلَ لَبِئٍ لِّمَلَكِكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أي: ولكم في تطبيق أحكام القصاص حياة آمنة مطمئنة، خالية عن الخوف والقلق والاضطراب، والتهديد بالقتل، كما هو حال المجتمعات التي لا تلتزم بأحكام القصاص، والتي تسود فيها عادات الأخذ بالثأر.

وهو كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، من حيث جعل الشيء محلّ ضده، وعرف القصاص، ونكر الحياة، ليدلّ على أنّ في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين، ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم، فإذا اقتص من القاتل سلم الباقون، ويصير ذلك سبباً لحياتهم^(١).

﴿يَتَأُولَىٰ آلَ لَبِئٍ﴾ أي: يا أصحاب العقول، فالعاقل لا بدّ أن يرى محاسن القصاص في إشاعة الأمن وحفظ الحياة.

﴿لِّمَلَكِكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون الله تعالى في الاستسلام لأمره والتزام شرعه.

• تشريع الوصية:

ما كان العرب في الجاهلية يعرفون شيئاً عن نظام الإرث والوصية، الذي ينظم توزيع الأموال بعد موت أصحابها، وكان أقوى أقارب المتوفى يستولي

على كل ماله، ويحرم الآخرين منه، حتى جاءت الشريعة الإسلامية بنظامها الاقتصادي الكامل، ومن جملته نظام الإرث والوصية.

فشرع الله تعالى الوصية، التي تسمح للإنسان بالتصرف بجزء من ماله بعد موته، وهي تدلّ على أن الإسلام يكرّم الإنسان، ويحترم إرادته في التصرف بماله حتى بعد موته، ويحفظ في الوقت نفسه حقوق أقاربه في ماله.

وشرع سبحانه الوصية هنا مطلقة، ثم قيّدتها آيات الموارث والسنة النبوية ببعض القيود والشروط، قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠)

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: حضرت أسبابه وظهرت أماراته.
﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالا كثيرا، وحدّ الكثرة أن يستغني به الورثة، فلا يحتاجون إلى غيرهم.

وفي الحديث الشريف: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: جاء النبي ﷺ يعودني وأنا بمكة... قلت: يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: «لا» قلت: فالسَّطْرُ؟ قال: «لا» قلت: الثلث؟ قال: «فالثلث، والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك» [رواه البخاري (٢٧٤٢)].

﴿الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: أوجب الله عليكم أن توصوا للوالدين والأقربين ببعض أموالكم.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالعدل، فلا يوصي للغني ويدع الفقير، ولا يزيد على الثلث.

﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي: حقاً ثابتاً على المتقين، الذين يتقون الآثام

والمعاصي، ودلّ هذا على أنّ الإيضاء مندوب لا واجب، لأنه لو كان فرضاً لكان على جميع المسلمين^(١).

نعم يجب الإيضاء على مَنْ عليه ديونٌ وحقوقٌ، وعنده ودائع، لتؤدى عنه الديون والحقوق من ماله، وتُرَدَّ الودائعُ إلى أصحابها.

قال جمهور العلماء: كانت هذه الوصية في أول الإسلام واجبةً لوالدي الميت وأقاربه، على ما يراه من المساواة والتفضيل، ثم نسخ ذلك بآية الفرائض^(٢).

وبوّب الإمام البخاري في «صحيحه» باباً في كتاب الوصايا، قال فيه: باب: لا وصية لوارث، ثم رُوِيَ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال [٢٧٤٧]: كان المأل للوليد، وكانت الوصية للوالدين، فنسخ الله مِنْ ذلك ما أَحَبَّ، فجعل للذكرِ مثلَ حظِّ الأنثيين، وجعل للأبوين لكلٍّ واحدٍ منهما السُّدُسُ، وجعل للمرأةَ الثُّمَنَ والرُّبْعَ، وللزوجِ الشطرَ والرُّبْعَ.

وقال ابن حجر: قوله: «باب: لا وصية لوارث»، هذه الترجمة لفظ حديث مرفوع، كأنه لم يثبت على شرط البخاري، فترجم به كعاداته، واستغنى بما يعطي حكمه، وقد أخرجه [أبو داود (٣٥٦٥) والترمذي (٢١٢٠) وغيرهما] من حديث أبي أمامة: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في خطبته في حجّة الوداع: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ»^(٣).

فالآية منسوخة الحكم، ورأى بعضهم أنّها محكمة، ظاهرها العموم، ومعناها الخصوصُ في الوالدين اللذين لا يرثان، كالكافرين والعبدَيْن، وفي القرابة غير الورثة، قاله الضحّاك وطاوس والحسن، واختاره الطبري^(٤).

(١) تفسير القرطبي: ٢/٢٦٧.

(٢) فتح الباري: ٥/٣٧٣.

(٣) المصدر السابق: ٥/٣٧٢.

(٤) تفسير القرطبي: ٢/٢٦٢.

ثم توعد سبحانه الأوصياء والشهود الذين أوثمنوا على تنفيذ الوصية، كي لا يغيروا فيها ولا يبدلوا؛ ما دام الموصي قد راعى فيها الأحكام الشرعية، فقال:

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١).

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي: فمن غير في الوصية وبدل ما فيها.

﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ من الموصي وتحقق منه.

﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ لا على الموصي، ولا على الموصى له، إنما

الإثم يعود على الذين بدّلوا وغيروا في الوصية.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوالكم ويعلم أحوالكم وأعمالكم.

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٢).

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾ أي: جوراً وميلاً عن الحق بالخطأ.

﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي: ذنباً بسبب تعمد مخالفة أحكام الشريعة.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الورثة وبين الموصى لهم، بحسب شرع الله تعالى.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا ذنب عليه في هذا، لأنه إزالة للمنكر، ومنع للظلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهذا يدل على أن تحكيم شريعة الله تعالى أولى من تنفيذ رغبة الموصي المخالفة لأحكامها، فلا تُحترم إرادة الإنسان ولا تنفذ رغباته إلا إذا كانت موافقة لشريعة الله تعالى، فلاستسلام لله تعالى يقتضي أن تكون أحكام الشريعة هي الأولى في حياتنا، والمقدمة على رغباتنا وإرادتنا، وهذه نقطة الخلاف الرئيسة بين الشريعة الإسلامية، والشرائع الوضعية التي قدّمت رغبات الناس، حتى أصبح بعضهم يوصي بماله كله لكلب أو هرّ، ويحرم منه أولاده وأقاربه، ولعلّ هذا سرّ إيراد آيات الصيام بعد آيات الوصية مباشرة، لأنه من أعظم وسائل تربية النفس وتهذيبها وجعلها تستسلم وتنقاد لأحكام دين الله تعالى وشرعه.

• تشريع الصيام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٨٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فرضَ عليكم الصيام كما فرضَ على الذين من قبلكم، فالصيام عبادة قديمة، كلّف الله تعالى به جميع الأنبياء السابقين وأتباعهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعلكم تتصفون بصفة التقوى، فالصوم يرَبِّي النفس ويهذبها، ويقوِّي الإرادة على العبادة والاستسلام لله تعالى والخضوع لأحكامه.

والصوم إمساك عن المُفطّرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع نيّة العبادة.

ولهذا قال النبي ﷺ: «الصَّيَامُ جُنَّةٌ، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني صائم - مرتين - والذي نفسي بيده لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها» [رواه البخاري (١٨٩٤)].

وقال أيضاً: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشِرَابَهُ» [رواه البخاري (١٩٠٣)].

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١٨٤).

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي: كُتِبَ عليكم الصيام في أيام معدودات، والمراد بها أيام شهر رمضان، كما بيّنه في الآية التالية.

وقد رخص تعالى للمريض والمسافر في هذه الأيام المعدودات بالفطر، مما يدل على يسر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال:

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِإِخْبَارٍ طَبِيبٌ غَيْرُ ظَاهِرِ الْفُسْقِ .

فَلَا يُبَاحُ الْفِطْرُ لِأَيِّ مَرَضٍ ، فَقَدْ يَكُونُ الصِّيَامُ سَبَبًا لِلشِّفَاءِ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ ثَبَتَ عِلْمِيًّا أَنَّ الصِّيَامَ يَفِيدُ فِي شِفَاءِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ .

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: أو كنتم مسافرين .

وأفاد قوله: ﴿عَلَى﴾ التمكن من السفر والاستمرار فيه، والمراد السفر الذي تُقَصِّرُ فيه الصلاة، وكان ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما يقصران ويفطران في أربعة برد، وهي ستة عشر فرسخاً - ذكره البخاري تعليقاً ووصله ابن المنذر - وقدرها كثير من العلماء المعاصرين باثنين وثمانين كيلومتراً .

﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: فعليه إن أفطر صومَ عدّة أيام المرض والسفر، من أيام أُخَرَ غير رمضان .

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: وعلى المطيقين للصيام إن أفطروا بلا عذر .

﴿فِدْيَةٌ﴾ بدل الصوم، ومقدارها كل يوم:

﴿طَعَامٌ مِّسْكِينٍ﴾ أي: قدر ما يأكل الفقير المحتاج كل يوم من أوسط طعام الناس، كما في كفارة الحاث في يمينه، وقدرها العلماء بمقدار زكاة الفطر .

﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ فأطعم عن كل يوم أكثر من مسكين، أو جمع بين الصيام والإطعام .

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ لأنه تعالى يُثَبِّتُهُ عَلَى تَطَوُّعِهِ .

﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية .

﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما في الصوم في رمضان من الفضل الكبير والثواب العظيم^(١) .

(١) انظر: أحكام الصيام في الجزء الأول من كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد، ط: دار القلم بدمشق .

ودلت الآية على أنهم ما كانوا ملزمين بالصوم في أول الأمر، بل كانوا مخيرين بينه وبين الفدية، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها. [رواه البخاري (٤٥٠٧)].

وهذا يدل على أنه تعالى شرع الصيام بالتدرج، رحمة بالمسلمين في زمن التشريع، فخيرهم رضي الله عنه في أول الأمر بين الصيام والفدية، لئلا يشق عليهم، لأنهم لم يتعودوا الصوم، ثم نسخ التخيير، وتعين عليهم الصوم بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. هذا رأي أكثر العلماء.

وذهب جماعة، منهم ابن عباس رضي الله عنه، إلى أن الآية محكمة غير منسوخة، وأنها في الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً، فعن عطاء: أنه سمع ابن عباس رضي الله عنه يقرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال ابن عباس: ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة، لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً. [رواه البخاري (٤٥٠٥)].

• نزول القرآن في رمضان:

ثم بينت الآيات زمن الصيام المفروض على وجه التحديد، بقوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٨٥)

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أي: وقت الصيام شهر رمضان.

ورمضان: مأخوذ من رمض الصائم يرمض، إذا حرّ جوفه من شدة

العطش. يقال: إنَّهم لَمَّا نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة، سمَّوها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهرُ أيامَ رمض الحرِّ، فسُمِّيَ بذلك، وقيل: إنَّما سُمِّيَ بذلك لأنَّه يرمضُ الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة^(١).

والحكمة من تخصيص شهر رمضان بعبادة الصيام أنَّه تعالى أنزل فيه القرآن الكريم، وهو أعظم الأحداث التي مرَّت على الإنسانية، وكان له أعظم الآثار في تاريخها، فكأن الصيام في هذا الشهر، فيه شكر لله تعالى على النعمة الجليلة التي تفضَّل بها عليهم فيه، وهي نعمة إنزال القرآن الكريم.

قال ابن كثير رحمته الله: يمدح الله تعالى شهرَ الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهما لإنزال القرآن العظيم، فإنَّه الشهرُ الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، فقد روى الإمام أحمد [١٠٧/٤]: عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أُنزلتْ صحفُ إبراهيمَ في أوَّلِ ليلةٍ من رمضان، وأُنزلتِ التوراةُ لستَ مضينَ من رمضان، والإنجيلُ لثلاثِ عشرةَ خلتَ من رمضان، وأُنزلَ اللهُ القرآنَ لأربعٍ وعشرينَ خلتَ من رمضان»^(٢).

﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ في ليلة القدر المباركة.

كما قال تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ وَلِكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

ومن المعلوم أنَّ القرآن الكريم نزل على النبي ﷺ مفرقاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فُتُوحَهُ لِنُقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنُنَزِّلُ لَكَ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وردَّ الله على المشركين المعترضين على نزول القرآن الكريم مفرقاً بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

(١) تفسير القرطبي: ٢/٢٩١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١/١٦١.

ولما سُئِلَ ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك قال: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة، جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيباً في الشهور والأيام^(١). وذهب بعض العلماء إلى أنه ابتدئ نزوله في شهر رمضان.

ويمكن الجمع بين القولين بأنه أنزل إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ في ليلة القدر جملة واحدة، وابتدئ نزوله أيضاً على النبي ﷺ في شهر رمضان، وهذا ما أشار إليه ابن حجر رحمته الله في تعليقه على قول ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة. [رواه البخاري (٦)].

قال ابن حجر: «وفيه - أي الحديث - إشارة إلى أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان، لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان، كما ثبت من حديث ابن عباس، وكان جبريل يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين، كما ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه. [رواه البخاري (٤٩٩٨)، ورواه تعليقاً عن فاطمة رضي الله عنها]»^(٢).

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: أنزله سبحانه لأجل هداية الناس إلى أقوم دين وأفضل تشريع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

والمراد من الناس: المنتفعون به، وهم المتقون، كما مر في أول السورة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿وَبَيَّنَّتْ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْقُرْآنِ﴾ أي: وهو أيضاً دلائل واضحة تهدي إلى الحق، وتفرق بينه وبين الباطل.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/١٦١.

(٢) فتح الباري: ١/٣١.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: فَمَنْ عَلِمَ حلولَ شهر رمضان فليصمه.

وهو أمرٌ للوجوب، دلَّ على فرض الصيام في شهر رمضان على جميع المكلفين، إذا علموا بحلوله برؤية هلاله، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا إيجابٌ حتمٍ على مَنْ شهد استهلال الشهر»^(١).

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «صُومُوا لرؤيتِهِ، وأفطروا لرؤيتِهِ، فإنْ غُبِيَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» [رواه البخاري (١٩٠٩)].

وعادت الآيات تذكر مرة ثانية الترخيص بالفطر للمسافر وللمريض، لتأكيد الحكم، ولنفي التوهم بأن الترخيص لهما نسخ كما نسخ التخيير بين الصيام والفدية في الآية السابقة، وأضافت الآية هنا بيان سبب الترخيص:

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وهذا يدل على رأفته ورحمته تعالى بالمؤمنين، الذين أسلموا له، وانقادوا لأحكام شريعته.

وقرَّرَ العلماء بناءً على هذه الآية الكريمة، عدداً من قواعد الفقه الكلية الدالة على سماحة الشريعة الإسلامية وُسرَها، كقولهم: «المشقة تجلب التيسير»، «إذا ضاق الأمر اتسع»، «الضرورات تبيح المحظورات».

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: وأمركم بالقضاء، لتكملوا عدة شهر الصيام.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ أي: ولكي تعظموا الله تعالى، على هدايته لكم إلى الإسلام، وشريعته السمحة الميسرة.

من السنة التكبير عند انتهاء شهر رمضان، حتى تصلّى صلاة عيد الفطر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على ما أنعم عليكم، وبهذا تكونون قد

جمعتم بين الذكر والشكر، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

● الصيام والدعاء:

الصيام عبادة خالصة لله تعالى، لا يداخلها رياء، كما جاء في الحديث الشريف: «كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يَضَاعِفُ لَهُ، الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ» [رواه مسلم (١١٥١)].

ولهذا فَإِنَّ الصَّوْمَ يجعل الصائم مجاب الدعوة، فعليه أن يُقْبَلَ على الله تعالى بالدعاء والضراعة، ولعلّ هذا سبب مجيء آية الدعاء في سياق آيات الصيام، قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦).

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ أي: أخبرهم بأنّي قريب، أعلم أحوالهم، وأسمع كلامهم.

وفي الحديث الشريف: عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كنّا مع النبي ﷺ في سَفَرٍ، فجعلَ الناسُ يَجْهَرُونَ بالتكبيرِ، فقال النبي ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ» [رواه مسلم (٢٧٠٤)].

قوله: «أربعوا على أنفسكم» أي: ارفقوا بأنفسكم، وخفضوا أصواتكم.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي: أسمعُ دعاءه، وأستجيبُ له، متى أشاء وأريدُ، قال سبحانه: ﴿بَلْ إِنِّي نَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُتْرَكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١].

ودلّت الآية على أنّ الله تعالى تكفل بالإجابة في الوقت الذي يشاء، وكما يشاء سبحانه.

وفي الحديث الشريف: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مُسْلِمٌ يدعو الله بدعوةٍ إِلَّا آتاهُ الله إياها، أو صرفَ عنه من السوءِ مثلها، ما لم يدعُ بِإِثمٍ أو قطيعةٍ رَحِمَ» فقال رجل من القوم: إذاً نكثرُ، قال ﷺ: «اللهُ أَكْثَرُ» [رواه الترمذي (٣٥٧٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يزالُ يُستجابُ للعبدِ ما لم يدعُ بِإِثمٍ أو قطيعةٍ رَحِمَ، ما لم يَسْتَعْجِلْ» قيل: يا رسول الله، ما الاستعجالُ؟ قال: «يقولُ: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أَرِ يستجِبْ لي، فيستحسرُ (أي: ينقطعُ) عندَ ذلك، ويدعُ الدعاءَ» [رواه مسلم (٢٧٣٥)].

ودلت الآية على أنَّ الدعاءَ أمرٌ مطلوب، ويحرم تركه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦].

فالدعاءُ عبادةٌ وقُربة، يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى، وقد أكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: بعبادتي وطاعتي.

﴿وَلْيُؤْمَرُوا﴾ الإيمان الصحيح الواجب عليهم، وذلك بالثبات والدوام عليه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يصيبون الحق ويهتدون إليه.

إنها آية عجيبة، آية تسكبُ في قلب المؤمن الندوة الحلوة، والودّ المؤنس، والرضا المطمئن، والثقة واليقين، فلم يقل تعالى في الردّ عليهم: فقل لهم. إنما تولى تعالى بذاته الجواب على عباده بمجرّد السؤال، ولم يقل: أسمعُ الدعاء. إنما عجل بالإخبار عن إجابة الدعاء: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وفي ظلّ هذا الأنس الحبيب، يوجّه تعالى عباده إلى الاستجابة له، والإيمان به، لعلّ هذا أن يقودهم إلى الهداية والرشد والصلاح، فالثمرة الأخيرة من الاستجابة والإيمان هي لهم كذلك، والله غنيٌّ عن العالمين^(١).

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧٣/١.

• تخفيف وتيسير في أحكام الصيام:

وأضافت الآيات وجهاً آخر من وجوه التيسير والتخفيف في أحكام الصيام، تأكيداً لما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وإبرازاً لأحكام الشريعة الإسلامية وسماحتها، وامتيازها على غيرها من الشرائع، قال تعالى:

﴿أَحَلَّ لَكُم لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُمْ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ أي: أُحِلَّ لكم ليلة الصيام مجامعة نساءكم، وكانت مجامعة النساء محرمة على الصائمين في ليالي الصيام بعد النوم، كذلك الحكم في الأكل والشرب.

ويبدو أن الصيام الذي كلف الله به أهل الكتاب كان هكذا - كما سيأتي - وكان أيضاً هكذا في أول ما شرع الله الصيام على المسلمين، ثم خفف سبحانه على المسلمين بهذه الآية الكريمة.

والرفث في الفعل: الجماع، وفي القول: الكلام الفاحش، وعُدِّي بـ (إلى) للدلالة على أن المراد به الفعل والاتصال بالنساء. وأكدته قوله تعالى بعد ذلك:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ وهو كناية عن شدة الاقتراب والملابسة بين الزوجين، وقوة الاتصال بينهما.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وفي الآية إشارة إلى أن كل واحد من الزوجين يستر الآخر، ويمنعه من الفواحش والفجور.

وجاءت كالبيان لسبب الإحلال، وهو أنه: إذا كان بينكم وبينهنّ مثل هذه المخالطة والملابسة، قلّ صبركم عنهنّ، وصعبَ عليكم اجتنابهنّ، فلذا رخص لكم في مباشرتهنّ^(١).

ثم واجهتهم الآية بحقيقة ضعف الإنسان أمام شهوته: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تظلمونها بفعل المخالفة والمعصية، والاختيان أبلغ من الخيانة، كالاكتساب من الكسب.

وأصل الخيانة: أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي فيه الأمانة، والإنسان مؤتمن على ما كلفه الله تعالى به، ولهذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وفي الحديث الشريف: عن البراء رضي الله عنه: لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ، كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَاوْنَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾. [رواه البخاري (٤٥٠٨)].

وقوله: «لا يقربون النساء رمضان كله» أي: بعد النوم، كما ورد في عدد من الأخبار^(٢).

وفي رواية أخرى: عن البراء رضي الله عنه قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعديكِ طعاماً؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فلما رآته قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى

(١) تفسير السفي: ٢٦٧/١.

(٢) انظر: فتح الباري: ٨/١٨٢.

﴿فَسَايَكُمْ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾. [رواه البخاري (١٩١٥)].

قال ابن حجر رحمته الله: وبين السدي وغيره أن ذلك الحكم كان على وفق ما كُتِبَ على أهل الكتاب، كما أخرجه ابن جرير من طريق السدي، ولفظه: «كُتِبَ على النصارى الصيام، وكُتِبَ عليهم ألا يأكلوا، ولا يشربوا، ولا ينكحوا بعد النوم، وكُتِبَ على المسلمين أولاً مثل ذلك» ويؤيد هذا ما أخرجه مسلم [١٠٩٦]: من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه مرفوعاً: «فَصُلُّ ما بينَ صيامنا وصيامِ أهلِ الكتابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ»^(١).

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قَبِلَ توبتكم، أو خَفَّفَ عنكم بالرخصة والإباحة، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠] يعني: خَفَّفَ عنكم. ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ يحتمل العفو عن الذنب، ويحتمل التوسعة والتسهيل.

وقد ورد في بعض الروايات: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من الذين خانوا أنفسهم قبل العفو والترخيص، قال ابن العربي رحمته الله: قال علماء الزهد: هكذا فلتكن الغاية وشرفُ المنزلة، خان نفسه عمر رضي الله عنه فجعلها الله تعالى شريعة، وخَفَّفَ من أجله عن الأمة، فرضي الله تعالى عنه وأرضاه^(٢).

﴿فَالَّذِينَ بَشَرُوهُنَّ﴾ الآن أَجَلَ لَكُمْ ما كان محرماً عليكم، ويمكنكم الاتصال بهنَّ للجماع، وهذا من حُسْنِ التعبير القرآني، كُنِيَ عن الجماع بالمباشرة لالتصاقِ بشرة الزوجين فيه.

﴿وَأَتَّعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: اطلبوا ما قَدَّرَ الله تعالى لكم من الولد، فالاتصال الجنسي سببٌ، والخالق هو الله تعالى.

ومدّت الآية زمن إباحة تناول الطعام والشراب والجماع طول الليل حتى يطلع الفجر:

(١) فتح الباري: ١٣٠/٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٣١٧/٢.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: حتى يتميز بياض الفجر عن سواد الليل.

وفي الحديث الشريف: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدتُ إلى عقالي أسود، وإلى عقالي أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلتُ أنظرُ في الليل فلا يستبينُ لي، فغدوتُ على رسول الله ﷺ فذكرتُ له ذلك، فقال: «إنما ذلك سوادُ الليلِ وبياضُ النهارِ» [رواه البخاري (١٩١٦)].

والمراد بقوله: «لما نزلت» أي: لما تليت عليّ عند إسلامي، لأنَّ إسلام عدي كان في السنة التاسعة أو العاشرة بعد نزول الآية^(١).

والمراد من ﴿الْفَجْرِ﴾: الفجر الصادق المستطير في الأفق، أما الفجر الذي يظهر أولاً كشعاع مستطيل كذب الذئب، ثم يغيب، وتعقبه ظلمة، فهو فجرٌ كاذبٌ، لا يبدأ به وقت صلاة الصبح، ولا وقت الإمساك للصيام، إنما الفجر الصادق الذي يظهر بعده باثنتي عشرة دقيقة، ويستطير ضوءه، وينتشر في الأفق، هو الذي يبدأ به وقت الصلاة والإمساك.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن بلالاً كان يؤذّن بليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «كلُّوا واشربوا حتّى يؤذّن ابنُ أمّ مكتوم، فإنّه لا يؤذّن حتّى يطلعَ الفجرُ» [رواه البخاري (١٩١٨)].

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يَغْرَنَّ أحدكم نداءً بلالٍ من السُّحُورِ، ولا هذا البياضُ حتّى يستطير» [رواه مسلم (١٠٩٤)].

﴿ثُمَّ أَتَمُواْ صِيَامَهُ إِلَى أَيْلٍ﴾ أي: إلى أول الليل، فمتمهى الصيام أوّل الليل.

كما في الحديث الشريف: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ

قال: «إذا أقبلَ الليلُ مِنْ هاهنا، وأدبرَ النهارُ مِنْ هاهنا وغربتِ الشمسُ، فقد أفطرَ الصائمُ» [رواه البخاري (١٩٥٤)].

وأشارت الآيةُ إلى كراهية الوصال، وهو مواصلة الإمساك عن المفطرات في الليل، حتى يتصل صيامُ اليوم بالذي يليه، وقد ثبتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْهُ. فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: نهى رسولُ الله ﷺ عن الوصالِ رحمةً لهم، فقالوا: إنك تواصلُ. قال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي يطْعُمُنِي رَبِّي ويسقِين» [رواه البخاري (١٩٦٤)].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ فيه ما يقتضي النهي عن الوصال، إذ الليلُ غاية الصيام... وعلى كراهية الوصال جمهورُ العلماء، وقد حرّمه بعضهم لما فيه من مخالفة الظاهر، والتشبه بأهل الكتاب»^(١).

وقد مرّ معنا قول النبي ﷺ: «فصلُ ما بينَ صيامنا وصيامِ أهلِ الكتابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ» [رواه مسلم (١٠٩٦)].

وبعد أن أحلَّ الله تعالى لهم الجماع في الليل، بيّن لهم أنهم إذا كانوا معتكفين في المساجد، فلا يحلّ لهم الجماع في أثناء الاعتكاف ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَاتَّمِعْ عَلَيْكُمْ فِي الْمَسْجِدِ﴾ أي: وأنتم معتكفون في المسجد بقصد العبادة والقربة.

والاعتكاف سنة مؤكدة في العَشرِ الأواخر من رمضان، مستحبٌّ في غيره من الأزمنة، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْآخِرَ فِي رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ» [رواه البخاري (٢٠٢٦) ومسلم (١١٧٢) واللفظ للبخاري].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: تلك الأحكام التي ذكرت في الآيات حدود الله. وأصلُ الحد في اللغة: المنع، والحدود: الحواجز، وسُميت الأحكام حدود الله، لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو

منها^(١)، وسيأتي قوله تعالى في أحكام الطلاق: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَعْذْ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩] أما هنا فقال:

﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ بمخالفتها أو تغييرها. ويفيد النهي عن الاقتراب من الحدّ الحاجز بين الحق والباطل والابتعاد عن الباطل ومجانبته، كما مرّ في الحديث الشريف: «كالرّاعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكلّ ملكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه» [رواه البخاري (٥٢) و(٢٠٥١) ومسلم (١٥٩٩)].

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما بينّ تعالى أحكام الصيام.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أي: معالم دينه وأحكام شريعته.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لعلهم إذا تمسكوا بأحكام شريعته، يتحقّقون بصفة التقوى ويدخلون في زُمرّة المتّقين.

• تحريم أكل المال بالباطل:

ومن معالم دين الله تعالى وأحكام شريعته: حقّ التملّك الفردي للمال، وتقرير حرمة هذا المال، وتحريم أكله بالباطل من قبل الآخرين، ولهذا قال تعالى يقرّر هذا المبدأ الهام من مبادئ التعامل المالي بين الناس:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِآلَائِهِمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل، كالغصب والسرقة والغش والاحتيال والربا والقمار، إلى غير ذلك من وجوه الاكتساب غير المشروع في الإسلام.

وعبر عن أخذ المال بالأكّل، لأنّه المقصود الأعظم، وقد وقع التعارف بين الناس على هذا المراد، فيقولون: فلان يأكل أموال الناس. بمعنى: يأخذها بغير حلّها.

وأفاد قوله: ﴿أَمْوَالُكُمْ﴾ أن أكل مال أخيه بالباطل كآكل مال نفسه بالباطل. ويمكن أن يكون المعنى: لا تأكلوا أموالكم المملوكة لكم بالباطل، وذلك بإنفاقها في الوجوه المحرّمة، كثمن الخمر والخنزير، وفي القمار والرّبا. ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَىٰ الْهُكَّامِ﴾ أي: ولا تدلّوا بها إلى الحكّام. ﴿لِنَأْكُلُوا﴾ بالتحاكم إليهم. ﴿فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِإِلَافٍ﴾ أي: بما يستوجب الإثم والمعصية، كشهادة الزور واليمين الكاذبة والرشوة.

فمعنى الآية: لا تُصانِعُوا بأموالكم الحكّام وترشوهم، ليَقضُوا لكم على أكثر منها. قال ابن عطية: «وهذا القول يترجّح، لأنّ الحكّام مظنة الرشاء، إلّا من عُصم، وهو الأفل، وأيضاً فإن اللفظين متناسبان: تدلّوا، من إرسال الدلو. والرشوة من الرشاء (وهو حبل الدلو)، كأنه يمدّ بها ليقضي الحاجة»^(١). ويقوّي هذا قوله: ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا﴾ تدلّوا: في موضع جزم عطفاً على ﴿تَأْكُلُوا﴾^(٢). ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم مبطلون، وأنّ هذه الأموال محرّمة عليكم. فحكم الحاكم لا يُحلّ حراماً في الشريعة الإسلامية، والحرام ما حرّمه الله تعالى، والحلال ما أحلّه تعالى.

وفي «صحيح البخاري»: باب من قُضِيَ له بحق أخيه فلا يأخذه، فإنّ قضاء الحاكم لا يحلّ حراماً، ولا يحرم حلالاً. ثم روى بسنده [٧١٨١]: إلى أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وآله سمع خصومةً بباب حُجْرَتِهِ، فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشرٌ، وإنّه يأتيني الخصمُ، فلعلّ بعضكم أن يكون أبلغ من بعضٍ، فأجسبُ أنّه صادقٌ، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلمٍ فإنما هي قطعةٌ من النَّارِ، فليأخذها أو ليركها».

ولعلّ هذا سرُّ إيراد هذه الآية بعد آيات الصيام، وتقديم تقرير هذا المبدأ

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٣٣/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٣٤٠/٢.

في التعامل المالي على آيات المعاملات المالية المذكورة في أواخر السورة، فالصيام يربّي نفس المسلم، ويقوّي إحساسه بمسؤوليته، ورقابة الله تعالى عليه، ولا شك أن الأثر العملي لهذه التربية الوجدانية يظهر في تعامل الإنسان مع غيره، وفي امتناعه عن أكل أموال الناس بالباطل ولو حكم الحاكم له بها، فإنّ حكم الله تعالى فوق حكم جميع الحكام والقضاة.

• الأَهْلَةُ والمواقيت الشرعية:

لما كانت التوقيتات الشرعية مؤقتة بالشهور القمرية، ذكر تعالى آية الأَهْلَةُ في سياق آيات الصيام، وفي مقدّمة آيات الجهاد والحج، فبعض أحكام الجهاد لها صلة بالأشهر الحُرْم - كما سيأتي - وهي أشهر قمرية، وأشهر الحج أيضاً قمرية، وبهذا تكون الآية متصلة بما قبلها وممهّدة لما يأتي بعدها.

ونزلت الآية جواباً لسؤال وجّه إلى النبي ﷺ عن الأَهْلَةُ، ولا يوجد بين أيدينا رواية صحيحة تكشف لنا عن السائلين، سوى ما أخرجه ابن عساكر بسند ضعيف: أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم قالوا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم، ويستوي، ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت.

وفي رواية: أن معاذاً قال: يا رسول الله إنّ اليهود يُكثرون مسألتنا عن الأَهْلَةُ. فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ﴾ وهي جمع هلال، وجميع وهو واحد لتغير أحواله كل ليلة.

وهذا يدلّ على أنهم سألوا عن حكمة التغيّر والتحوّل في الهلال، حسب النظام الدقيق المقدّر له، قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي: قل هي أوقات يؤقّت الناس بها مصالحهم وعباداتهم، وخصوصاً الحج، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَمَا خَلَقَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

ويلاحظ أنه تعالى اقتصر في الآية على ذكر الجانب الشرعي المتّصل بمنازل الأهلّة، ولم يتعرّض سبحانه للجانب العلمي الفلكي، مما يدلّ على أنّ القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع.

ثم بيّنت الآية بطلان عادة جاهلية، كانوا يفعلونها عندما يُحرمون في أشهر الحج:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ قال البراء رضي الله عنه: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجّوا - وفي رواية أخرى بلفظ: إذا أحرّموا في الجاهلية - فجاءوا؛ لم يدخلوا من قِبَلِ أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قِبَلِ بابه، فكأنّه عَيَّرَ بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾. [رواه البخاري (١٨٠٣)].

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الله تعالى، باجتناب المحظورات وفعل الطاعات، كما تقدم في آية البرّ.

﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ في حال الإحرام وغيره، وباشروا الأمور من وجوها التي يجب أن تباشر عليها.

ولعلّ في ذلك تأديباً لهم، وإشارة إلى سؤالهم عن الأهلّة، فقد سألوا عن

أمر لا يعينهم، وتركوا السؤال عما يعينهم مما يتعلق بشؤون دينهم وعباداتهم^(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالتزام شرعه والوقوف عند حدوده.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بالوصول إلى البر والهدى والرشاد.

• تشريع الجهاد وتحريم العدوان:

الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى مشروع في الإسلام، وهو من أعظم العبادات وأفضل القربات.

وكلمة جهاد تدلّ بمعناها اللغوي على شدّته وصعوبته، فهو في الأصل المشقة، يقال: جهدت جهداً، بلغت المشقة، ومعناها الشرعي: بذل الجهد في قتال الكفار.

ومن رحمته تعالى بالمؤمنين أنّه ما كلّفهم بالجهاد في أول الأمر، فما شرعه تعالى إلا بعد الهجرة، لأنهم كانوا بمكة مستضعفين، لا شوكة لهم ولا قوة، ولما هاجروا إلى المدينة، وصارت لهم مأوى ومعقلاً، وقاعدة انطلاق ينطلقون منها إلى ميادين الجهاد، شرع تعالى الجهاد، وأنزل أول آياته: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. وأنزل أيضاً هذه الآية:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعَدِّينَ﴾ (١٩٠).

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أي: كما يقاتلونكم قاتلوهم.

ففي الآية تهيج وإغراء بالأعداء، الذين همّتهم قتال الإسلام وأهله^(٢)،

(١) تفسير البضاوي والنسفي: ٢٧٥/١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٦٩/١.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: اجعلوا قتالكم في سبيل الله ورفع كلمته، ولا تجعلوه للعدوان، فإنه سبحانه لا يحب المعتدين.

ويدخل في الاعتداء - كما قال ابن كثير - ارتكاب المناهي من المثلة والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة^(١). وهذا ما يسمّى في عصرنا الحاضر الأهداف المدنية، التي لا علاقة لها بالقتال.

وقد ثبت في السنة النبوية الشريفة النهي عن التعرض لهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «وَجِدْتُ امْرَأَةً مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ». [رواه البخاري (٣٠١٥)].

والمراد بالنساء: اللواتي لا يشاركن في القتال، أمّا المشاركات في القتال فيجوز قتلهن.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَرَ أميراً على جيش أو سريّة، أوصاه في خاصّته بتقوى الله وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً، ثم قال: «اغزوا بِسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً» [رواه مسلم (١٧٣١)].

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآخِزْهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩١).

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ﴾ أي: حيث وجدتموهم وظفرتهم بهم.

وأصل الثقف لغةً: الحذقُ في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً، فهو يتضمّن معنى الغلبة، ولذلك استعمل فيها^(١).

﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم، وألجؤوكم إلى الهجرة.

﴿وَالْفَنَاءُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: والمحنة التي أصابتكم منهم، حين آذوكم، وأخرجوكم من دياركم، لأجل أن يردّوكم عن دينكم، أعظم من القتل.

فالآية تذكر المسلمين بما أنزله المشركون فيهم من أنواع الظلم والاضطهاد عندما كانوا في مكة، لإثارة عواطفهم وإلهاب حماسهم في قتال المشركين.

ومن المعلوم أنّ معارك الإسلام الأولى عندما شرع الجهاد كانت بين المسلمين وبين مشركي مكة المكرمة، ثم أمرتهم الآيات بالمحافظة على حرمة البلد الحرام مكة المكرمة، فمنعتهم من إنشأ القتال فيه إلّا في حال الدفاع عن النفس، فجاء هذا المنع بمثابة التخصيص لعموم ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ﴾.

﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ﴾ فللحرم حرمة، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

وذكرنا ثمة قول النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَّهَارٍ...» [رواه البخاري (١٨٣٤)].

﴿فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ لأنهم الذين هتكوا حرمة بيت الله الحرام، ولهذا اضطر خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قتال من تصدّى له من المشركين، في أثناء فتح مكة المكرمة.

﴿كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قتال الكافرين وقتلهم جزاؤهم على ما فعلوا بالمؤمنين.

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٢).

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ أي: كفوا عن عدوانهم وظلمهم، أو تركوا كفرهم وشركهم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب التائبين ويرحمهم، فكفوا عن قتالهم.

فالتقاتل في الإسلام وسيلة لا غاية، ولا يشرع إلا عند الحاجة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ أَسْمِعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

• استمرار الجهاد:

ثم أمرت الآيات المسلمين بالاستمرار في جهاد الكافرين وقتالهم، ما دامت شوكة الكفر في الأرض قوية حادة، تمكن الكافرين من فتنة المؤمنين، وصدّهم عن دينهم، فالدنيا دار اختبار وابتلاء، والصراع القائم فيها بين الحق والباطل لا يتوقف، كما أشارت إلى ذلك الآية التي مرّت معنا: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَفِرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. ولهذا قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٩٣).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: قاتلوا الكفار حتى لا يبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، هذا هو المراد من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة^(١).

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ أي: ويكون الخضوع والاستسلام لدين الله تعالى وحده ولأحكام شريعته، إمّا بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكمه والعيش مع المسلمين في ظلّ سماحته وعدله، فالتقاتل لم يشرع لإكراه الناس على الإسلام، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويمكن أن يكون المعنى : حتى يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان^(١).

وإلى المعنى الأول ذهب عبد الله بن عمر رضي الله عنه، فإنه عندما حدث الخلاف بين الصحابة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، اعتزل عبد الله بن عمر، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحجَّ عاماً وتعتَمِرَ عاماً، وتترك الجهاد في سبيل الله ﷻ، وقد علمت ما رغبَ الله فيه؟ قال: يا ابن أخي، بُني الإسلام على خمسٍ: إيمانٍ بالله ورسوله، والصلوات الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قال: ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه وإما يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. [رواه البخاري (٤٥١٤)].

﴿فَإِنْ أَنْهَوْا﴾ عن الكفر أو عن معارضة دين الله والصدَّ عنه.

﴿فَلَا عُذْوَنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: فلا تعتدوا عليهم، فإن فعلتم صرتم ظالمين.

والجدير بالذكر أنه تعالى قال في سورة الأنفال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٩٤) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ الْمَوْلَى وَنَعَمْ النَّصِيرُ.

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ وَاعِلُونَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٥).

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: إن اعتدوا عليكم في الشهر الحرام فقاتلوهم فيه، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْلِتُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١].

﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ أي: ويجري القصاص في الحرمات.

والحرمات: جمع حرمة، وإنما جُمعت لأنه أراد حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام، ومعناها: ما منعت من انتهاكه^(١).

فَمَنْ هَتَكَ أَيَّ حُرْمَةٍ كَانَتْ اقْتَصَصَ مِنْهُ بِهَا، وَالظَّالِمُ هُوَ الْبَادِي بَانْتِهَاكِ الْحُرْمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ:

﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ أي: فقابلوا عداوته بمثلها. وَسُمِّيَ الْجَزَاءُ اعْتِدَاءً عَلَى سَبِيلِ الْمَقَابِلَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالوقوف عند حدوده، والتزام أحكام شريعته في أثناء القتال والجهاد.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يؤيدهم وينصرهم، فبالتقوى يستنزل المسلمون معونة الله ونصره وتأييده، فعليهم أن يتمسكوا بها في جميع أحوالهم وظروفهم. وكما يحتاج الجهاد إلى التضحية بالأرواح، يحتاج أيضاً إلى بذل الأموال وإنفاقها في إعداد العدد والمؤمن والتجهيزات، وقد شهد العصر الحاضر تطوراً كبيراً في الأسلحة والذخائر والمعدات، يحتاج تأمينها إلى نفقات باهظة وأموال طائلة، ولهذا قال تعالى يحضّ على الإنفاق:

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥).

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: من أجل إعزاز دين الله تعالى وتمكينه في الأرض. ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي: لا تعرضوا أنفسكم إلى الهلاك، بالبخل والامتناع عن الإنفاق، فإنه يؤدي إلى ضعفكم، وتسلب العدو عليكم، وهلاككم. أو: لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بالإسراف وتبذير المال في غير وجوهه المشروعة النافعة.

أو: لا تلقوا بأيديكم إلى الهلاك بترك الجهاد، وعدم الاستعداد. فالأمة

التي تتخلى عن الجهاد والاستعداد له، وتدريب أبنائها على فنون القتال، واحتمال مصاعبه وشدائده، أمة هالكة ذليلة، لا مكانة لها بين الأمم. ويؤيد هذا المعنى ما رُوِيَ في سبب نزول الآية:

فعن حذيفة رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ قال: نزلت في النفقة. [رواه البخاري (٤٥١٦)].

قال ابن حجر رحمته الله: «هذا الذي قاله حذيفة جاء مفسراً في حديث أبي أيوب رضي الله عنه الذي أخرجه [مسلم والنسائي في الكبرى (٢٩٧٢) وأبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٢) وابن جبان (٤٧١١) والحاكم (٨٤/٢) و (٨٥)]: من طريق أسلم بن عمران قال: كنّا بالقسطنطينية، فخرج صفّ عظيم من الروم، فحمل رجل من المسلمين على صفّ الروم حتى دخل فيهم، ثم رجع مقبلاً، فصاح الناس: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: أيها الناس إنكم تؤولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر نصره، قلنا بيننا سراً: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أننا أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله هذه الآية، فكانت التهلكة الإقامة التي أردناها. وصح عن ابن عباس وجماعة من التابعين نحو ذلك في تأويل الآية^(١).

﴿وَأَخِصُّوا﴾ بالقتال والإنفاق، وذلك بأن تجعلوهما خالصين لله تعالى، وإعلاء كلمته، والتزام أحكام شريعته.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

• الحج والجهاد:

الحج هو الركن الخامس من أركان الشريعة الإسلامية، وتدل مناسكه على الاستسلام الكامل لله تعالى لأنها أعمال تعبديّة محضة، سواء في ذلك الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار... وغيرها من المناسك.

(١) فتح الباري: ٨/ ١٨٥.

وفي كلمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما أراد تقبيل الحجر الأسود في أثناء الطواف حول البيت، ما يؤكد معنى الاستسلام والانقياد لله تعالى في مناسك الحج؛ فقد قال رضي الله عنه: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت النبي ﷺ يقبلُك ما قبلُك». [رواه البخاري (١٥٩٧)].

قال ابن حجر رحمته الله: «وفي قول عمر رضي الله عنه هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهي قاعدة عظيمة فيما يفعلها، ولو لم يعلم الحكمة فيه»^(١).

ويلاحظ أنه تعالى قرن بين آيات الحج وآيات الجهاد، هنا في سورة البقرة، كما قرن أيضاً بينهما في سورة الحج، وقد بين تعالى سرَّ اقتران الحج بالجهاد في سورة الحج، عندما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكِيفُ فِيهِ وَالْبَاءُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظْلَمِ نُذُقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

ثم في قوله أيضاً بعد ذلك: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَلَدَتْ صَوَامِعُ وَبَعِثَ صَلَواتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فالحج رمزٌ لوحدة المسلمين وتوحيدهم، والصد عنه صدٌّ عن الإسلام، ومحاربة للأمة المسلمة، وتهديد لمقدساتهم وأماكن عبادتهم، وفي الجهاد حماية للأمة المسلمة ومقدساتها.

وقد أشارت الآيات هنا في سورة البقرة أيضاً إلى الصلة بين الحج والجهاد، بتقديمها بيان حكم الإحصار في الحج والعمرة، ولا شك أن سببه الرئيس هو قطع الطريق على الحجاج والعمَّار، ومنعهم من الوصول إلى بيت الله الحرام، كما فعل المشركون من أهل مكة عندما صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه، في السنة السادسة من الهجرة، عن الوصول إلى بيت الله الحرام،

ودخول مكة، بعد أن خرجوا مُحْرَمِينَ لأداء مناسك العمرة. وكذلك كان الصليبيّون يفعلون في أثناء الحروب الصليبية، عندما تمكنوا من إقامة بعض المعقل والحصون في فلسطين على طريق قوافل الحجّاج. فللجهاد دور كبير في تأمين سلامة الحجّاج والعمّار، وحماية بيت الله الحرام من عدوان أعداء الإسلام، الذين يرون في الحجّ مظهراً من مظاهر وحدة الأمة المسلمة وقوّتها.

• الإحصار في الحجّ والعمرة:

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ۖ فَمَنِ تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ۖ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ .

﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: أدوهما بعد الشروع بهما تأمين بشرائطهما وفرائضهما وسُنَّهما لوجه الله تعالى .
﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: مُنْعَم من إتمام الحجّ والعمرة بمانعٍ حال بينكم وبين الوصول إلى بيت الله الحرام .

كما حدث في السنة السادسة من الهجرة عام الحديبية، عندما صدّ المشركون رسولَ الله ﷺ وأصحابه عن الوصول إلى بيت الله الحرام، وأنزل الله تعالى قوله الكريم: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبَكُمْ مِنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِّدُخْلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ ۚ مَنْ يَشَأْ لَو تَزَلَّوُا الْعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الفتح: ٢٥] .

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليكم ما تيسر من الهدي، فإن أُحْصِرَ الْمُحْرِم بحجّ أو عمرة، وأراد أن يتحلّل من إحرامه، فعليه قبل أن يتحلّل أن يذبح ما تيسر له من الهدي من بعير أو بقرة أو شاة .

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ للتحلل من الإحرام.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ أي: حتى يصل الهدْيُ المكانَ الذي يُذْبَح فيه، وهو أرض الحرم عند بعض العلماء، أو أي مكان يُذْبَح فيه عند آخرين.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفَّارُ قريشٍ دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بُذْنَه، وحلق رأسه. [رواه البخاري (١٨١٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن كان معه هديٌّ، وهو محصرٌ نحره، إن كان لا يستطيع أن يبعث به، وإن استطاع أن يبعث به، لم يحلَّ حتى يبلغ الهدْيُ محله. [ذكره البخاري تعليقاً في كتاب المُحَصِّر].

قال ابن حجر رحمته الله: «هذه مسألة اختلاف بين الصحابة ومن بعدهم، فقال الجمهور: يُذْبَحُ المُحَصِّرُ الهدْيَ حيث يحلّ، سواء كان في الحلّ أو في الحرم، وقال أبو حنيفة: لا يذبح إلا في الحرم، وفصل آخرون كما قاله ابن عباس هنا، وهو المعتمد، وسبب اختلافهم في ذلك: هل نحر النبي ﷺ الهدْيَ بالحديبية في الحلّ أو في الحرم؟ وكان عطاء يقول: لم ينحر يوم الحديبية إلا في الحرم، ووافقه ابن إسحاق، وقال غيره من أهل المغازي: إنّما نحر في الحلّ»^(١).

﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ أي: لا تحلقوا رؤوسكم في حال الإحرام، إلا إذا اضطررتم إلى حلقه بسبب مرض، أو أذى تعلّق بالشعر كالقمل.

﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي: فعلى المحرم الذي اضطر إلى حلق شعر رأسه فدية.

﴿مِّن صِيَاٍ﴾ مقداره ثلاثة أيام.

﴿أَوْ صَدَقَةٌ﴾ على ستّة مساكين، لكل مسكين نصف صاعٍ من بُرٍّ (قمح).

﴿أَوْ سُلْكٍ﴾ جمع نسيكة، أي: ذبيحة.

وفي الحديث الشريف: عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«لَعَلَّكَ آذَاكَ هَوَامُكَ؟» قال: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «احلِّقْ رَأْسَكَ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعَمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ شَاةً» [رواه البخاري (١٨١٤)].

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ حَلْقَ الشَّعْرِ مِنْ مَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ.

• التمتع بين العمرة والحج:

وتابعت الآيات بيان بعض الأحكام الأساسية في الحج والعمرة، بقوله تعالى:

﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ من الإحصار وأصبحتُم في حال سعة وأمن.

﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أي: تمتع بعد التحلل من العمرة باستباحة محظورات الإحرام، حتى يحرم بالحج.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليه أن يذبح ما يتيسر له من الهدى، شكراً لله تعالى أن وفقه لأداء العمرة والحج في أشهر الحج، وتمتع بينهما بالتحلل من إحرام العمرة.

وتدل كلمة ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ التي تكرر ذكرها في الآية، على يُسر أحكام الشريعة، ومن مظاهر التيسير في أحكام الحج: أنه سبحانه شرع الصيام بدل الهدى للذين لا يملكون ثمنه، فقال:

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدى. وأقله شاة يشترط لها ما يشترط لشاة الأضحية.

﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أي: في أشهر الحج بين الإحرامين.

﴿وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: إذا فرغتم من أعمال الحج، أو إذا رجعتُم إلى أهلكم.

﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ في قيامها مقام الهدى، لا بد من صيامها كاملة غير ناقصة.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: حكم التمتع.

﴿لَمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: لغير الساكنين في الحرم وحوله ضمن حدود المواقيت، فالتمتع مشروع للقادمين من وراء المواقيت. وكما عودنا الله تعالى في آيات الأحكام في السورة، ختم الآية بالأمر بالتقوى، فقال:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالتزام أحكام دينه وشرعه.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وهو تهديد لمن يخرج على أمره، ويخالف شرعه سبحانه.

ويلاحظ أنه تعالى أمر في آيات الجهاد بالتقوى بصيغة التثنية فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، لحاجة المقاتلين إلى التثبيت، وأما في آيات الحج، فقد قرن تعالى الأمر بالتقوى مع التحذير من مخالفة الأمر، وتوعد المخالفين: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، وذلك ليحرص الحاج والمُعتمر على أداء المناسك كما شُرعت، ويحافظ على حرمة الإحرام وحرمة الحرم.

• من محظورات الإحرام:

ولا ينبغي انتهاك حرمة الإحرام بفعل شيء من المحظورات فيه، وقد تقدّم ذكر بعضها، وتذكر الآية التالية بعضاً آخر منها:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ رَزَّ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُوا إِنَّمَا تَأْوِلُ الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ﴾ أي: معروفات، وهي: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

﴿فَمَنْ رَزَّ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أوجهه على نفسه بالإحرام فيهن.

﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي: لا جِماعَ، ولا فُحْشَ في الكلام، فهو محظورٌ على المحرم حتى يتحلل من إحرامه، ويطوف طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفة.

﴿وَلَا فُسُوكَ﴾ أي: ولا خروجَ عن حدودِ الله بارتكابِ المحرمات، فهي في أثناء الإحرام أغلظُ جرماً، وأعظمُ إثماً.

﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: ولا جدالَ أيضاً مع الناس في أيام الحج.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [رواه البخاري (١٥٥) ومسلم (١٣٥٠)] واللفظ للبخاري.

فعلى الحاج أن ينصرف إلى أداء المناسك، وأن يستكثر من فعل الطاعات، ويغتتم هذه الفرصة التي يسرها الله تعالى له، حتى وصل إلى هذه البقاع الشريفة، في أوقات شريفة لها حرمتها، ولهذا قال تعالى بعد ذلك يحث على الإكثار من الطاعات وفعل الخيرات:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ ويشيكم عليه يوم القيامة، فلا ينقصكم سبحانه شيئاً، كما قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

فاغتتموا هذه الفرصة الطيبة المتاحة لكم، لتزودوا لمعادكم:

﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ ب زاد السفر الذي تحتاجون إليه عندما ترحلون عن الدنيا بالموت، وتزودوا أيضاً ب زاد السفر الذي يحتاجُ إليه المسافرُ في طريق الحج، حتى لا تكونوا عالة على غيركم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان أهلُ اليمنِ يحجّونَ ولا يتزوّدون، ويقولون: نحنُ المتوكّلون. فإذا قدموا مكة سألوا الناسَ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْتَقْوَى﴾. [رواه البخاري (١٥٢٣)].

قال ابن حجر: «فيه أنَّ التوكّلَ لا يكونُ مع السؤال، وإنّما التوكّلُ المحمودُ ألا يستعينَ بأحد في شيء، وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة

الأسباب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «اعقلها وتوكل» [رواه الترمذي (٢٥١٧)].^(١)

﴿فَابْتَغِ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ أي: إنَّ أفضلَ زادٍ يتزوَّد الإنسان به إلى دار الآخرة، هو تقوى الله تعالى، بعبادته، والتزام أحكام شريعته، فهذا بيان لزاد الآخرة بعد أن أمر بالتزوّد بزاد الدنيا، ونظيره قوله تعالى يَبْنِي لِبَاسِ الْأَبْدَانِ، مع لباس التقوى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِدِشًا وَلِبَاسُ النَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وليس من التقوى أن يقصدَ بيتَ الله الحرام من غير نفقةٍ تكفيه وتصونه عن ذلِّ السؤال، والله تعالى لم يفرض الحجَّ إلّا على المستطيعين، لهذا قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿وَأَتَقُونِ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: خافوني واشتغلوا بعبادتي، والتزموا بشريعتي، يا أصحاب العقول، فإنَّ حُسْنَ استعمال العقل يستدعي تقوى الله تعالى، ومن لم يتقه فكأنه لا عقل له^(٢).

• التجارة والعمل في الحج:

وهذا لا يعني حَظْرَ الاكتساب الحلال في أثناء الحج، فالحجُّ موسمٌ للطاعة والعبادة، وموسمٌ أيضاً للكسب والتجارة، وقد كان العربُ في الجاهلية يقيمون الأسواق في مواسم الحج، ويبدو أنَّ بعضَ الصحابة تأثّموا من التجارة في مواسم الحج، فأنزل الله تعالى قوله الكريم:

(١) فتح الباري: ٢٨٤/٣.

(٢) تفسير السفى: ٢٩١/١.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ (١٩٨).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: ليس عليكم حرج
في أن تطلبوا رزقاً من الله تعالى بالعمل والتجارة.

ففي الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن
القصد إلى ذلك لا يكون شركاً، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص
المفترض عليه، لكن الحجّ دون تجارة أفضل، لعروها - أي العبادة - عن
شوائب الدنيا، وتعلق القلب بغيرها^(١).

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ أي: اندفعتُم بعد غروب شمس اليوم التاسع من ذي
الحجة.

﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ وهو المكان المسمّى بهذا الاسم، والواقع إلى الجنوب
الشرقي من مكة المكرمة، على بُعد أربع وعشرين كيلومتراً تقريباً من المسجد
الحرام.

والوقوف بعرفات الركن الأساس من أركان الحج، يفوت الحج بفواته،
ووقته من زوال شمس يوم التاسع من ذي الحجة، إلى فجر اليوم العاشر منه.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بالتلبية والتهليل، وصلاة المغرب والعشاء.

﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ أي: عند جبل فُزَح من مزدلفة، التي تقع بين
عرفات ومي، على بُعد أربعة عشر كيلو متراً تقريباً من المسجد الحرام، ويبعث
فيها الحجاج بعد الإفاضة من عرفات، ويصلّون فيها الفجر.

وقد جاء في حديث جابر رضي الله عنه: ... فلم يزل واقفاً - أي: في عرفات -
حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص، وأردف أسامة

خلفه، ودفع رسول الله ﷺ، وقد شئق للقصواء الرِّمَامَ، حتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيَصِيبُ
موركَ رحله، ويقولُ بيده: أيها الناسُ السَّكِينَةُ السَّكِينَةُ، كُلَّمَا أَتَى حَبْلاً مِنْ
الْحَبَالِ أَرخَى لَهَا قَلِيلاً، حتَّى تصعدَ، حتَّى أَتَى الْمَزْدَلِفَةَ، فصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ
وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يَسْتَحْ بَيْنَهُمَا شَيْئاً، ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ حتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، وصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ
الْقَصْوَاءَ حتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ، فاستقبل القبلة، فدعاهُ وكَبَّرَهُ وهَلَّلَهُ ووَحَّدَهُ،
فلم يزل واقفاً حتَّى أَسْفَرَ جَدًّا، فدفع قبل أن تطلعَ الشمسُ. [رواه مسلم
١٢١٨].

قوله: (شئق) أي: شد، و(القصواء) ناقة النبي ﷺ، و(مورك رحله) موضع
رجل الراكب على الناقة، و(يقول بيده) يشير بها، (حبلاً من الحبال) تلاً من
تلال الرمل^(١).

• الذكر والدعاء في الحج:

﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ﴾ أي: اذكروا الله تعالى ذكراً حسناً كما هداكم
هداية حسنة، أو اذكروه كما علّمكم كيف تذكرونه ولا تعدلوا عنه^(٢).

وذكرنا عند قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] أن ذكره تعالى ينبغي
أن يكون باسم من أسمائه الحسنی، المذكورة في القرآن الكريم والسُّنة النبوية
الصحيحة.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّاكِلِينَ﴾ فاعرفوا فضل الله تعالى عليكم بإنزال
القرآن الكريم، وبعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم وجّه الله تعالى الخطابَ لقريش، يأمرهم فيه أن يقفوا مع الناس في

(١) انظر أحكام الحج مفصلةً في الجزء الأول من كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد،
ط: دار القلم بدمشق.

(٢) تفسير النسفي: ١/٢٩٥.

عرفات، ويفيضوا معهم دون أن يكون لهم أي امتياز عليهم، كما كان الحال في الجاهلية، فالإسلام دين المساواة، وهم أمام شرعه تعالى سواءً:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٩٩).

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي: أفيضوا من عرفات حيث يقف الناس، لا من مزدلفة حيث كانت قريش تقف.

و﴿ثُمَّ﴾ ليست هنا للترتيب، وأتى بها إيداناً بالتفاوت بين الإفاضتين في الرتبة، فإن إحداهما صواب، وهي الإفاضة من عرفات، والأخرى خطأ، وهي الإفاضة من مزدلفة^(١).

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَّون الحُمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام، أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾. [رواه البخاري (٤٥٢٠)].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ مما كنتم عليه في الجاهلية.
﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم نبّهت الآيات أن على الإنسان ألا يقتصر على ذكر الله تعالى في أثناء العبادات المكلف بها فقط، بل عليه أن يداوم على ذكره سبحانه، وألا يغفل عنه في جميع شؤون حياته:

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ أي: إذا فرغتم من أعمال الحج.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ أي: كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فالهجو بذكر الله تعالى، واستمروا عليه.

أو: كما كنتم تذكرون آباءكم في المواسم بعد الحج، فقد كانوا يفتخرون بأبائهم وأنسابهم في المجامع بعد الحج.

﴿وَأَشَدُّ ذِكْرًا﴾ أي: بل أشد ذكرًا، أو: وأشد ذكرًا، لأنه هو المُنعم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً^(١). والمقصود: الحث على كثرة ذكر الله ﷻ.

ثم حذرتهم الآيات من أن يذكروا الله تعالى لكي يسألوه المنافع الدنيوية فقط، كما كانوا يفعلون في الجاهلية:

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ فكان أحدهم يقول: أبي كان عظيم الفئة، كبير الجفنة، كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته.

﴿وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ أي: من حظ ولا نصيب، لأنه قصر نظره على الدنيا، وعلق قلبه بها، وأعرض عن الآخرة وعملها.

ودلت الآية على أنه من أدب الدعاء ألا يقتصر الإنسان فيه على سؤال ما يتصل في الدنيا فقط، وأن عليه أن يضم إليه بعض ما يتعلق بالآخرة، كأن يسأل المغفرة والرحمة، وحسن الخاتمة، والنجاة من النار، ودخول الجنة، ولهذا مدح الله تعالى من يفعل ذلك فقال:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: ما يحسن به حالنا في الدنيا.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ يحسن بها حالنا في الآخرة.

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

وهذا دعاء جامع، جمع كل خير في الدنيا والآخرة، وصرف كل شر فيهما.

وجاء في الحديث الشريف: أنه ﷺ كان يكثر الدعاء به، ولما سُئِلَ أنس بن مالك ﷺ: أي دعوة كان يدعو بها النبي ﷺ أكثر؟ قال: كان أكثر دعوة يدعو بها يقول: «اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار». وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه. [رواه مسلم (٢٦٩٠)].

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين سألوا الحسنة في الدنيا والآخرة.
﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لهم حظ من جنس ما سألوا وطلبوا.
﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فاستكثروا من فعل الخيرات، والتوجه إلى الله تعالى بالدعاء وسؤاله خيري الدنيا والآخرة.

ثم ختمت الآيات حديثها عن مناسك الحج، بالحديث عن أيام التشريق، وهي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر العاشر من ذي الحجة، وسميت بذلك لأنهم كانوا يشرقون فيها شرائح اللحم، لتجفيفها بأشعة الشمس، أو للتكبير فيها، وتسمى أيضاً أيام منى، لأن الحجاج يمضونها في منى، حيث يرمون الجمرات.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي: اذكروا الله بتعظيمه وتكبيره في أدبار الصلوات، وعند ذبح الهدايا والأضاحي، ورمي الجمار، في أيام منى المعدودات.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فَمَنْ استعجلَ وخرجَ من منى بعد أن مكثَ فيها يومين فقط، الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا حَرَجَ عليه بسبب استعجاله.

﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ أي: مكثَ في منى إلى اليوم الثالث عشر يرمي فيه أيضاً.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وهذا التخيير والتيسير شرعه سبحانه:

﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: لِمَنْ يتقي الله تعالى، ويؤدّي المناسك على وجهها الصحيح المشروع، فالتحقّق من التقوى هو الغاية من جميع التكليفات الشرعية، التي كلّف الله تعالى بها المؤمنين.

ولهذا ختم الله تعالى آياتِ الحجّ بالأمر بالتقوى، وتذكير المؤمنين بمسؤوليتهم أمامه تعالى يوم القيامة:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لكي يسألکم عن أعمالکم ويُجازيکم عليها، فالشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى أعظم وسائل تربية النفس البشرية وتهذيبها وإصلاحها.

هكذا ربطت الآيات الكريمة أحكامَ الحجّ بتقوى الله تعالى، كما فعلت عند تشريع الجهاد والصيام والوصية والقصاص، وفي آية البرّ، انسجاماً مع ما أعلنته في أول آيات السورة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].



الْفَضْلُ السِّلَاسِي

إسلام واستعلام (أسئلة الصحابة)

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلَاسِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَ نَكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ وَتُصْغَى الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَم ءَاتَيْنَهُم مِّن ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ذُرِّيَّةٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْعَوْنَ فِي الْآلِيزِينَ ءَامِنُوا وَالَّذِينَ أَتَقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اٰخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِّنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَآءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ءَلَا إِن نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِّن خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِّنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ

الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ
وإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرْدُّوكُمْ عَنْ
دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا
أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ
تَخَاطَبْتُمْ فَإِنْخَوْنُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ
وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ
إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيِّنْ أَيْتَهُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا
طَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ يَسْأَلُكُمْ
حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

• توجيه رَفِيق وإرشاد لطيف:

دأبت الآيات الكريمة على إبراز سِمة السَّماحة واليُسْر في أحكام الشريعة الإسلامية، وهي سِمة بارزة في جانبين:

أولهما: في ذات الأحكام: بإبراز ما فيها من يُسْر التكاليف وسهولتها.

وثانيهما: في أسلوب التشريع المتدرج: فلم تُشرع الأحكام دفعة واحدة، بل شرعت - كما تقدم - تبعاً لنزول الآيات القرآنية الكريمة على نجوم وأقسام، استمر ثلاثة وعشرين عاماً.

وإن المتدبر لآيات القرآن الكريم يدرك أيضاً رحمة الله بعباده، بعد أن اكتمل نزوله بهذا الأسلوب التربوي الرفيع، الذي اتبعه القرآن الكريم في عرض الأحكام الشرعية التكليفية، فلم تُعرض أحكامه جملةً واحدةً في مكان واحد، بل فُرِّقَتْ ونُثِرَتْ بإحكام عجيب متقن، بين آيات قرآنية كثيرة.

وأقرب مثال إلى ذلك توزيع آيات الأحكام في سورة البقرة، فلم تُعرض دفعةً واحدةً وفي مكان واحد، بل نُثِرَتْ ووُزِّعَتْ بين آيات كثيرة في السورة الكريمة، وها هي الآيات بعد أن انتهت من عرض أحكام الحج والعمرة، تتوقف عن عرض الأحكام، لكي لا تثقل علينا بتتابع الأحكام، وتوالي عرضها، وفي وقفها هذه لم تبعد عن الموضوع الأساس للسورة، وهو الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكام دينه وشريعته، فعرضت في أثناء توقفها هذا، مقارنة بين نموذجين من الناس:

١- نموذج الإنسان الجاحد المعاند لدين الله وشرعه.

٢ - ونموذج الإنسان المسلم المستسلم لله تعالى.

وبهذا الأسلوب التربوي الرفيع المتميز، تُوجِّهنا الآيات توجيهاً رقيقاً لطيفاً إلى التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية، والإسلام الكامل لله تعالى.

● **الفاسدون المفسدون المعاندون:**

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٠٤).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: في شؤون الدنيا وزخارفها وبهارجها وأسباب العيش المادي فيها، فحبّه المُفْرِطُ للدنيا يظهرُ في حلاوة كلامه، وفصاحة لسانه، ومَن أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذكره، وتفتح أساريه، وتطيب نفسه عندما يتحدث عنه.

ولا شك أن مثل هذا الإنسان مُعْرِضٌ عن الآخرة، لا يرغبُ في ذكرها

ولا تذكّرها، ولا يُحسِنُ الحديثَ عنها، وإذا ما أراد ذلك اعترته حُبْسَةٌ في لسانه، وضعف في بيانه، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ويستعين بالآيمان الكاذبة حتى يقنعك بمراده، ويجعلك تتقبل كلامه:

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي: يحلف قائلًا: الله شاهدٌ على ما في قلبي من حبي لك، وحرصي على مصلحتك، وإني لك لناصح، ولا أريد لك إلا الخير.. وغير ذلك من الكلام المعسول المنمق، كما قال تعالى في صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].
﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي: وهو في حقيقته شديدُ العداوة، قويُّ الخصومة، ممتلئٌ بالحق والضعيفة.

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ» [رواه البخاري (٧١٨٨) ومسلم (٢٦٦٨) واللفظ لمسلم].
وروى الإمام الطبري في تفسير هذه الآية، محاورَةً بين عالمين من علماء التابعين، هما: سعيد المقبري، ومحمد بن كعب القُرَظي، قال سعيد: إنَّ في بعض الكُتُبِ: إنَّ لله عباداً أَلَسْتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ، لَبَسُوا لِلنَّاسِ مَسْوَكٌ (أي: جلود) الضَّائِنِ مِنَ اللَّيْنِ، يَجْتَرُّونَ الدُّنْيَا بِالْدِينِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَعْلَيَّ يَجْتَرُّونَ، وَبِي يَغْتَرُّونَ؟ وَعَزَّتِي لَأَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً تَرُكُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ. فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله جل ثناؤه. فقال: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(١).

وتقدّم ذكر حديث شريف بهذا المعنى عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنَ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. ويدلّ الحديث على أنّ هذا النوع من الناس يَكْثُرُونَ في آخر الزمان، وما أكثر ما نجد في مجتمعاتنا

المعاصرة من أمثال هؤلاء الناس، خاصةً في المجتمعات التي يحكمها الطغاة المستبدون.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْفُسَادَ﴾ (٢٠٥).

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أي: انصرف وابتعد عنك.

أو: تمكّن وأصبح ذا ولاية وسلطة وقوة. ويقوّي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي: بذل كل جهده لينشر الفساد في الأرض، بنشر العقائد الباطلة، والأخلاق الهابطة المنحلة.

﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ أي: ويتلف النبات والزرع، ويهدم الأسر، ويقطع أسباب التكاثر والتوالد التي فُطِرَ عليها الناس؛ وذلك بإشاعة الفوضى في العلاقة الجنسية بينهم، وإشعال وقود الحروب المدمّرة. تماماً كما هو مشاهد في كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة، فالأزمات الاقتصادية الخانقة، وانتشار المجاعات، وكثرة الحروب والفتن، وانحلال الأخلاق والقيم، كل ذلك نتيجة تسلّط حفنة من الفاسدين المفسدين على حكم الأمم والشعوب.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ولهذا أنزل سبحانه الكتب، وشرع الشرائع، وأرسل الأنبياء والرسل، لكي يدفّعوا عن الناس شرّ المفسدين، وينشروا الخير والصالح بين العباد وفي البلاد، ويعمّروا الأرض بطاعته سبحانه وعبادته.

ومن صفات هؤلاء الفاسدين المفسدين، أنهم يبغضون كل دعوة للإصلاح، لأنهم يرون فيها خطراً يهدّد سلطان طغيانهم وظلمهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَهَآهُ﴾ (٢٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: إذا ذكره أحد المصلحين بالله تعالى، وخوفه من عذابه وانتقامه.

﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أي: قهرته، وأحاطت به حمية المعاصي والآثام، فحجبته عن رؤية حقيقة ضعفه وعبوديته لله تعالى، فازداد تكبراً وطغياناً وفساداً، وأنكر أن يقال له هذا القول، واستكبر أن يوجه إلى التقوى، وتعاضم أن يؤخذ عليه خطأ، وأن يوجه إلى صواب، وأخذته العزة لا بالحق ولا بالعدل ولا بالخير، ولكن بالإثم، فاستعزَّ بالإجرام والذنوب والخطيئة، ورفع رأسه في وجه الحق، الذي يُذَكِّرُ به، وأمامَ الله بلا حياءٍ منه، وهو الذي كان يُشْهَدُ الله على ما في قلبه^(١).

ذُكِرَ أَنَّ يَهُودِيًّا كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ عِنْدَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، فَاخْتَلَفَ إِلَى بَابِهِ سَنَةً، فَلَمْ يَقْضِ حَاجَتَهُ، فَوَقَفَ يَوْمًا عَلَى الْبَابِ، فَلَمَّا خَرَجَ هَارُونَ سَعَى حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: أَتَقُّ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَنَزَلَ هَارُونَ عَنْ دَابَّتِهِ وَخَرَّ سَاجِدًا، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ أَمَرَ بِحَاجَتِهِ فَقُضِيَتْ، فَلَمَّا رَجَعَ قِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نَزَلَتْ عَنْ دَابَّتِكَ لِقَوْلِ يَهُودِيٍّ؟! قَالَ: لَا، وَلَكِنْ تَذَكَّرْتُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾^(٢).

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي: تكفيه جهنم، فهي كافيةٌ له ولأمثاله من الطغاة المستبدين.

﴿وَلَيْسَ الْمِهَادُ﴾ الذي أَعَدَّ له ولأمثاله.

والمهاد: الفراش، وجيء به للتهكُّم المبر، ففي مواجهة هذا الاعتزاز بالإثم، واللدد في الخصومة، والقسوة في الفساد، والفجور في الإفساد، يجبهه الله تعالى بهذه اللطمة اللائقة به^(٣).

فلا ينبغي لِمَنْ يُقَالُ لَهُ: (اتَّقِ اللَّهَ) أَنْ يَغْضَبَ، ولهذا قال العلماء: إذا قال الخصم للقاضي: اعدل، ونحوه. له أن يعزره، وإذا قال له: اتَّقِ اللَّهَ. لا يعزره.

(١) في ظلال القرآن: ٢٠٥/١.

(٢) تفسير القرطبي: ١٩/٣.

(٣) في ظلال القرآن: ٢٠٥/١.

وأخرج ابن المنذر: عن ابن مسعود رضي الله عنه: إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الذَّنْبِ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: اتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى، فيقول: عَلَيْكَ نَفْسُكَ، عَلَيْكَ نَفْسُكَ^(١).

• إسلام وسلام:

ثم عرضت الآيات في مقابل أنموذج الإنسان الجاحد المعاند والفساد المفسد، أنموذج الإنسان المسلم لله تعالى والمستسلم لحكمه وشرعه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠٧).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ أي: يبيع نفسه وكل ما يملك ويبدلها.

﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: طلباً للوصول إلى رضوان الله تعالى.

فهم الذين بذلوا أنفسهم وأرواحهم لرفع كلمة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

أو: هم الذين قاموا يأمرهم بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويعرضون أنفسهم لغضب الطغاة المستبدين، وهذا ما اختاره الإمام الطبري رحمته الله، فقد روي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سمع هذه الآية استرجع فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قام رجلٌ يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر فُقُتِلَ. ثم قال الطبري: والذي هو أولى بظاهر هذه الآية من التأويل ما روي عن عمر بن الخطاب وعن علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم من أن يكون عني بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢).

(١) روح المعاني: ٩٦/٢.

(٢) جامع البيان: ١٨٧/٢.

ويؤيد هذا القول: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا سُئِلَ: أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ» [رواه النسائي (٤٢٠٩) بإسناد صحيح].

وقوله ﷺ: «سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ حَمْرَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ وَنَهَاها فَقَتَلَهُ» [رواه الحاكم (١٩٥/٣) وقال: إسناده صحيح].

وأكثر الروايات: أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي صُهِيبِ الرُّومِيِّ ﷺ، فَقَدْ أَخْرَجَ جَمَاعَةً: أَنْ صُهِيبًا أَقْبَلَ مُهَاجِرًا نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ، فَاتَّبَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، وَنَثَرَ مَا فِي كِنَانَتِهِ، وَأَخَذَ قَوْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْمَاقِكُمْ رَجُلًا، وَابْتَغِ اللَّهُ، لَا تَصْلُحُوا إِلَيَّ حَتَّى أُرْمِيَ بِمَا فِي كِنَانَتِي، ثُمَّ أَضْرَبُ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ أَفْعَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَالُوا: دَلَّنَا عَلَى بَيْتِكَ وَمَالِكَ بِمَكَّةَ وَنُخَلِّي عَنْكَ. ففعل، فلما قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَبَا يَحْيَى! رِبْحَ الْبَيْعِ، رِبْحَ الْبَيْعِ» وتلا له الآية.

وعلى هذا يَكُونُ الشَّرَاءُ عَلَى ظَاهِرِهِ بِمَعْنَى الْاِشْتِرَاءِ^(١).

ولا مانعَ من حمل الآية على العموم، وإن كان سببُ نزولها خاصًّا، لأنَّ معناها يُمْكِنُ أَنْ يَنْسَحِبَ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مُسْتَسْلِمٍ لِلَّهِ تَعَالَى، مُذْعِنٍ لِأَحْكَامِ دِينِهِ وَشَرْعِهِ.

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وَمِنْ رَأْفَتِهِ سَبْحَانَهُ بَعَادَهُ أَنَّهُ أَرْشَدَهُمْ إِلَى دِينِهِ الْقَوِيمِ وَشَرْعِهِ الْمُسْتَقِيمِ.

وبعد هذه المقارنة دعت الآيات المؤمنين إلى الإسلام الكامل لله تعالى، والإذعان لأحكامه القدريّة والشرعية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾ أي: استسلموا لله تعالى، وأطيعوه جميعاً، كما فعل الذي شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله.

والسلم: قُرِئت بفتح السين وكسرهما، وهو الاستسلام والطاعة^(١). وهي تدلُّ على شعور المسلم بالأمن والطمأنينة، لأنّه يمضي مع قدر الله متوجّهاً إليه تعالى، يحقق حكمة وجوده على هذه الأرض دون قلقٍ أو حيرةٍ أو يأسٍ وقنوط. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وهو التحذير الثاني في السورة، جاء يشبه التحذير الأول في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وتكرار التحذير يدلّ على خطر اتباع الشيطان، وأنه يسعى جاهداً لمنع الإنسان المسلم من الإسلام لله تعالى والإذعان لأحكامه. ثم بعد الدعوة إلى الإسلام والتحذير من اتباع الشيطان، توعدّتهم الآيات من اتباعه، تحصيناً لهم من التأثير بنزغاته ووساوسه:

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٠٩).

﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ أي: وقعتم في الزلّة، وهي المعصية والخطأ، وتأثّرتُم بوساوس الشيطان ونزغاته.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: من بعد ما جاءتكم الأدلّة الدالّة على الحق، فلا عُذرَ لكم حينئذٍ بالجهل.

﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو سبحانه غالب قاهر، لا تؤثر عليه

معاصيكم وزلاّتكم، حكيم في كل أمر وشرع، ولا ينتقم ولا يعذب إلا بحق وعدل.

وحتى لا يقنط أصحاب الزلاّت والمعاصي من رحمة الله، دَعَتْهُمْ الآيات إلى التوبة والعودة إلى الإذعان والاستسلام الكامل لأحكام دين الله وشريعته، بأسلوب مبطن بالوعيد والتهديد:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٢١٠).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بالمعنى اللائق به جلّ شأنه، منزهاً عن مشابهة المخلوقات، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ أي: في قطع من السحاب.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: وتأتي الملائكة أيضاً بعد أن تتشقق السماوات وتُزال، وتنزل الملائكة منها إلى أرض المحشر، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال أيضاً: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَنِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وهو سؤال تعجيبٍ من هؤلاء المتقاعسين عن التوبة والرجوع إلى الله تعالى، ماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة ومعه الملائكة، لسؤالهم وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم؟ فعليهم أن يبادروا إلى التوبة والاستغفار قبل أن يحلّ بهم هذا اليوم.

﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: وجب العذاب، وفُرج من الحساب، لأنه تعالى سريع الحساب.

﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ أي: إلى حكمه وأمره ترجع أمورُ المخلوقاتِ كلها، فانقادوا لأمره، واستسلموا لأحكامِ شريعته.

• تذكير وتحذير:

وتابعت الآيات بأسلوبها التربوي الرفيع تهذبُ نفوس المؤمنين، وتردُّ الشاردين عن دين الله تعالى إلى صراطه المستقيم ومنهجه القويم، وسلكت هذه المرة أسلوبَ التذكير مع التحذير، فذكرتهم بمواقف الجحود والعناد التي وقفها بنو إسرائيل، والتي سبق الحديث عنها، وحذرتهم من التشبه بهم:

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: اسأل بني إسرائيل.

﴿كَمْ ءَاتَيْنَهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ما أكثر الآيات الواضحات الدالة على فضله سبحانه وقدرته، التي تفضل سبحانه بها عليهم.

وليس المراد حقيقة السؤال، فلا شك أن النبي ﷺ يعلم كثرة الدلائل والنعم والمعجزات التي أنزلها تعالى على بني إسرائيل، وإنما المراد تذكير المؤمنين وتربيتهم بأسلوب لطيف غير مباشر، يدل على رحمته تعالى بهذه الأمة، ولهذا جاء بعد هذا التذكير، التحذير بقوله تعالى:

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ أي: من يستعمل نعمة الله تعالى في معصيته، بدل أن يستعملها في شكره وطاعته.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فاحذروا أن تعرضوا أنفسكم لعقابه الشديد؛ اشكروه على نعمه، وتمسكوا بدينه وشريعته، وانقادوا لحكمه وأمره، ولا تغتروا بزينة الدنيا وزخارفها حتى لا تصبحوا مثلهم.

﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٣١١﴾ .

﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: زينها الشيطان لهم حتى اغتروا بها، واطمأنوا إليها، وأعرضوا عن الآخرة.

﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بسبب إعراضهم عن الدنيا وعدم انهماكهم بها.

﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بسبب دخولهم الجنة، وما يكرمهم الله فيها من أنواع النعيم. وقد جاء ذلك مفصلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ﴿٣١٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٢٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٢٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٢٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٢٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٢٦﴾ [المطففين].

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فنعيم الجنة لا يُحَدُّ ولا يُعَدُّ.

• الاختبار والصراع:

ثم بيّنت الآيات شدة حاجة الناس إلى إرسال الرسل بالشرائع الإلهية، وأن ذلك من نعم الله الكبرى عليهم:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٣٣﴾ .

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على ملّة التوحيد، وعلى طريق الهدى، لا يعبدون غير الله تعالى، ولا يطيعون سواه، فاختلّفوا بسبب نزغات الشيطان ووساوسه، وما بثّه بينهم من أسباب الاختلاف والنزاع.

وحُذفت كلمة: (اختلفوا) من الآية، لدلالة سياق الكلمات عليها، إذ تكرر ذكرها في الآية ثلاث مرات.

وقد كان الناسُ على أصل الفطرة التي خُلِقوا عليها، على التوحيد، كما صرّحت بذلك الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

والشرك الذي طرأ على الناس أدّى إلى اختلافهم وتنازعهم.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: الكتب المنزلة، فالمراد جنس الكتاب.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بيان الحق.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: في الحق الذي اختلفوا فيه.

فما أنزل الله تعالى الكتابَ لِيُزِيلَ الاختلاف بين الناس، فاختلفهم سيبقى قائماً بينهم ما داموا على الأرض، وسيستمرّ الصراع بينهم، كما ذكرنا سابقاً، وإنّما أنزل الله الكتابَ حَكَمًا بينهم، يبيّن المحقّ من المبطل.

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: إلّا الذين أنزل عليهم الكتاب، فأمن به بعضهم وكفر آخرون، وغيّروا وبدّلوا في كتبهم.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بسبب الحسد والظلم القائم بينهم.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أي: بتوفيقه وتيسيره.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ولهذا نرى المؤمنين يتوجهون دائماً إلى الله تعالى، يسألونه التوفيق إلى الصراط المستقيم: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

فالصراع والاختلاف بين الناس هو السّمة البارزة في حياتهم على هذه الأرض، كما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٨].

ولا يزال هذا الصراع القائم بين الناس أهمّ أسباب حركة تاريخ الوجود

البشري بتقدير الله تعالى، فحياة الإنسان على الأرض ليست حياة نعيم، كما كانت في الجنة، بل هي حياة ابتلاء واختبار، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البَلَد: ٤].

ولن يعودَ إلى الجنة يوم القيامة إلا مَنْ ينجح بهذا الاختبار، ويفوز في الامتحان، وهو ما قرّره تعالى في الآية التالية:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: لن تدخلوا الجنة حتى تُمتحنوا كما امتُحن المؤمنون الذين كانوا قبلكم.

فالاستفهام للتقرير، وقد قرّر تعالى هذا المعنى في عدة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ الرُّسُلُ أَمْ كَرِهْتَ الْأُولَٰئِكَ فَلَا يُغْنِي عَنْكَ كَرِهَتُكَ سَاءَ الَّذِي يَبْخُلُ﴾ (٢١٤) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

﴿مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أي: أصابتهم الشدائد في الأموال والأنفس، كما سبق الخبر عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ولقد امتُحِن أصحاب النبي ﷺ عندما كانوا في مكة المكرمة قبل الهجرة، وكان رسول الله ﷺ يثبتهم ويصبرهم ويبشّرهم.

ففي الحديث الشريف: عن خباب بن الارت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسّدُ بردة في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيَجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيَشُقُّ بَاثْنَيْنِ، وَمَا يَصْدهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصْدهُ عَنْ دِينِهِ.

وَاللَّهُ لَيَمَنَّ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذَّنْبَ عَلَى غَنِيهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» [رواه البخاري (٣٦١٢)].

﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي: أزعجوا، واضطربت قلوبهم من كثرة الشدائد وقوة المحن، كما حدث لهم في أثناء حصار غزوة الخندق، التي أنزل الله فيها قوله الكريم: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ (١٠) هُنَاكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿[الأحزاب].

﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: وصل بهم البلاء حتى اضطروا أن يقولوا:

﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ أي: متى يأتينا النصر من الله تعالى؟.

وهذا يدل على أنهم تعلقوا بالله تعالى وحده، وقطعوا أسبابهم عن غيره سبحانه، فهو ملاذهم ورجاؤهم.

قالوا ذلك طلباً وتمنياً واستطالةً لمدة الشدة، لا شكاً وارتياباً.

والمراد من (الرسول) الجنس لا واحد بعينه^(١).

وجاءهم الجواب من الله تعالى مباشرة، من دون توسط فعل القول، وبالجمله الاسمية المؤكدة:

﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فالنصر يأتي بعد الثبات والصبر والاستسلام الكامل لله تعالى. ويأتي أيضاً بعد أن تصل المحنة إلى ذروة شدتها، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

فطريق النصر محفوف بالمكاره والشدائد، ولا بدّ للأمة حتى تصل إليه أن تربي أبنائها على حياة العزم والحزم، وتنأى بهم عن حياة الدعة والكسل والميوعة والانحلال.

● أسئلة الصحابة:

استأنفت الآيات مسيرتها على طريق التشريع وبيان الأحكام، بعد توقفها القصير السابق، بأسلوبٍ جديد مغاير لأساليب البيان السابقة، ومن المعلوم أنَّ التفنن بأساليب الخطاب والعرض من مزايا القرآن الكريم المُعجزة، الدالة على أنه كلام الله تعالى.

عرضت الآيات مجموعةً من الأحكام التشريعية، من خلال عرضها لأسئلة وُجِئت إلى النبي ﷺ، وأسئلة الصحابة للنبي ﷺ تختلف عن أسئلة بني إسرائيل لنبيهم موسى ﷺ، فهي أسئلة استعلام واستفهام، لا أسئلة جحود وعناد، وهي أيضاً أسئلة محدودة قليلة، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيتُ قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، كلهنَّ في القرآن: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠]... ما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم^(١).

وتدلُّ قلة أسئلتهم على شدة أدبهم مع الله تعالى ومع رسوله ﷺ، واستسلامهم لأحكام دين الله وشرعه، واستفادتهم مما أدبهم الله تعالى به وأرشدهم إليه، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلَكُمْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

وكان لهذا الاستسلام والإذعان لأحكام دين الله تعالى، أثرٌ كبير في تيسير أحكام الشريعة الإسلامية، وتخفيف أحكامها، كما سيأتي في آخر السورة [انظر: سورة البقرة: ٢٨٤ - ٢٨٦].

وفي المقابل كان تعنتُ بني إسرائيل، وكثرة أسئلتهم وعنادهم، سبباً للتشديد عليهم في أحكام شريعة التوراة، كما سبق في قصة ذبح البقرة [انظر: سورة البقرة: ٦٧ - ٧١].

(١) تفسير القرطبي: ٤٠/٣.

وذكرت الآيات هنا أكثر أسئلة الصحابة متوالية، إلا أنها قدّمت - كما مرّ معنا - سؤالهم عن الأهلّة، لمناسبة موضوع السؤال للآيات الكريمة ثمة.

وقد ذكرت بعض الأسئلة في سور أخرى، حيث يكون اتفاقها وانسجامها مع موضوع السورة، كقوله تعالى في سورة المائدة [٤٦]: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، وقوله في سورة الأنفال [١]: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾.

وهذا يُبرز الانسجام والاحتباك بين الآيات الكريمة، في سياقها وسباقها وموقعها من السورة.

• التشريع لله تعالى وحده:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَنْ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: ماذا ينفقون في سبيل الله تعالى من أموالهم؟ ويبدو أنهم سألوا الرسول ﷺ هذا السؤال، قبل أن يبيّن لهم مقادير الزكاة ونصابها.

﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَنْ السَّبِيلِ﴾ أي: أنفقوا أموالكم في هذه الوجوه، وابدؤوا بالأقرب فالأقرب، حتى تشمل نفقاتكم جميع المحتاجين في المجتمع.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «ابدأ بنفسك فتصدّق عليها، فإن فضل شيءٍ فلاهلك، فإن فضل عن أهلك شيءٍ فلذي قرابتك، فإن فضل عن ذي قرابتك شيءٍ فهكذا وهكذا» [رواه مسلم (٩٩٧)].

ثم حثّهم الآية على الإنفاق في وجوه الخير دون قيد وحدّ:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ وهذا يدلّ على أنهم كانوا وقتئذٍ يمرّون

بمرحلة عصبية، يحتاجون فيها إلى البذل الكثير.

ويلاحظ أن الجواب أتى غير مطابق للسؤال، ولعلّ سبب ذلك أنّه تعالى

ترك بيان مقادير النفقات الواجبة في أموالهم للنبي ﷺ، فهي من التفاصيل التي اهتمت السنة ببيانها، والقرآن الكريم اقتصر على بيان أسس الشريعة الإسلامية الكبرى، ولم يفصل الفروع إلا في بعض القضايا المحدودة، كنظام الأسرة وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض.

وأفاد العدول عن جوابهم على سؤالهم بيان أمر هام أيضاً، وهو أن تشريع الأحكام منوط بمشيئة الله تعالى وحكمته، فهو سبحانه يعلم متى يشرع، وكيف يشرع، وما يشرع، لأنه يعلم ما يصلح لعباده أكثر مما يعلمون، فهو يحكم ما يريد، وهو يعلم وأنتم لا تعلمون.

فشأنه تعالى مع عباده فيما يشرع لهم - وله المثل الأعلى - كشأن الطبيب مع المريض، فالطبيب يصف الدواء المناسب للمريض في الوقت المناسب، دون أن ينظر إلى رأي المريض، وميله للدواء أو كراهته له، واستعجاله له أو استبطائه.

ثم أكد سبحانه هذا المعنى في قوله بعد ذلك:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ أي: فرض عليكم القتال، وهو مكروه لكم، بحسب الطبيعة البشرية التي جُبلتم عليها.

لكنه تعالى كلّفكم به، لعلمه أن فيه خيراً وصلاحاً لكم، فالتشريع منوط بعلمه تعالى وحكمته، لا برغباتكم وعواطفكم، وهذا ما يميز أحكام الشريعة الإسلامية عن الشرائع الوضعية، التي تتأثر بأهواء الناس ورغباتهم وعواطفهم ومصالحهم الآنية.

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ مما يدل على قصور الإنسان وضعفه، وعدم أهليته للتشريع، فمهما اكتسب من العلوم

والمعارف، يبقى قاصراً محدوداً ضعيفاً أمام عواطفه وأهوائه ونزواته، وهو ما قرره تعالى في ختام الآية بقوله:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فبادروا إلى التزام شرعه، والتسليم لأمره وحكمه سبحانه.

• السؤال عن القتال في الأشهر الحرم:

وأوردت الآيات بمناسبة ذكر القتال، سؤال بعضهم عن حكم القتال في الشهر الحرام، ويبدو أن سؤالهم هذا أتى قبل نزول آيات القتال التي مرت، والتي ذكر الله تعالى فيها حكم القتال في الشهر الحرام، في قوله الكريم: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِمَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ومما يؤكد أن هذه الآية نزلت قبل آيات القتال المتقدمة ما ذكر في سبب نزولها، إذ نزلت بمناسبة سرية عبد الله بن جحش، وفيها حدث أول قتال بين المسلمين والمشركين من قريش، قال ابن هشام: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً. فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب، فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم». فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد، حتى نزل بنخلة، فمرت به غير لقريش، فيها عمرو بن الحضرمي، وذلك في آخر يوم من رجب، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم، وأجمعوا على قتل من قَدَرُوا عليه منهم، فقتلوا عمرو بن الحضرمي، وأسرُوا عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وقَدِمُوا على رسول الله ﷺ المدينة، فقال لهم

عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» وأكثر الناس في ذلك، حتى أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ...﴾^(١).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: يسألونك عن القتال في الشهر الحرام. ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ وهو بدل اشتمال من الشهر، لأن سؤالهم اشتمل على الشهر، وعلى القتال، والمراد منه جنس الأشهر الحرم، وهي أربعة: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ أي: ذنب كبير.

وجمهور العلماء يجيزون القتال في الأشهر الحرم، ويرون أن هذا الحكم في الآية منسوخ، لكن بعض المفسرين لم ير في الآية دليلاً على تحريم القتال في الأشهر الحرم مطلقاً، قال البيضاوي: والأولى منع دلالة الآية على حرمة القتال فيه مطلقاً، فإن ﴿قِتَالٌ﴾ نكرة في حيز مثبت، فلا يعم^(٢). أي: فالنكرة لا تفيد العموم إلا إذا كانت منفية.

ثم ذكرت الآية المشركين بجرائمهم الكبيرة في حق الإسلام والمسلمين، وكان المشركون قد أنكروا على الصحابة ما فعلوه في الشهر الحرام:

﴿وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: منع الناس عن الدخول في دين الله تعالى.

(١) سيرة ابن هشام: ١٧٩/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣١٩/١.

﴿وَكُفِّرْ بِهِ﴾ أي: بالله تعالى.

﴿وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي: وصّد الناس عن عبادة الله وحده في المسجد الحرام.

﴿وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وهم النبي ﷺ والمسلمون، فما فعله المشركون بهم من الأذى والعدوان حتى اضطروهم إلى الهجرة، كل ذلك:

﴿أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ مما فعلته سرية عبد الله بن جحش من القتال في الشهر الحرام.

﴿وَأَلْفَنَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: وتعذيبُ المشركين للمسلمين ليفتنوهم عن دينهم، ويردوهم إلى الشرك، أعظمُ من قتل المسلمين لرجل من المشركين.

ويزيدُ في قبحِ وشناعةِ هذه الجرائم الكبيرة إصرارُ المشركين عليها، وتمسكهم بها، ولهذا قال تعالى يخاطب المسلمين محذراً لهم من كيد المشركين:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ أي: إن تمكّنوا من ذلك وقدروا عليه، فالآية تستبعدُ استطاعتهم، وتبشّر المؤمنين بثباتهم على الإيمان. ومع ذلك ختم الله تعالى الآية ببيان ما يترتبُ على الردّة من عقاب شديد في الدنيا والآخرة، تحذيراً للمؤمنين، فقال:

﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ أي: ومن يرتدّ عن دينه، ويصرّ على الكفر حتى يموت عليه.

﴿فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت أعمالهم الصالحة التي عملوها في الإسلام، فلا يُثابون عليها.

﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في الدنيا يقتل المرتدُّ المُصرّر على ردّته، وتبينُ منه زوجته بانفساخ عقد نكاحه، ولا يرثُ من أقاربه، ولا يورثُ عنه ماله الذي اكتسبه في حال الردّة. وأمّا في الآخرة:

﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وبيّنت الآيات في مقابل عقوبة المرتدّين، مكانة المؤمنين الثابتين على إيمانهم، الواثقين برّبهم، الراجين فضله ورحمته وثوابه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقد اجتمعت هذه الصفات الثلاث: الإيمان، والهجرة، والجهاد، في رجال السرية - كما تقدّم في سبب النزول - إذ كانوا جميعاً من المهاجرين .
وجاء ثناء الله عليهم بهذه الآية، ردّاً على حملات التعنيف واللوم التي تعرّضوا لها:

﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: يطمعون برحمته تعالى، فعملهم الصادر عنهم ما عملوه إلاّ تقرباً إلى الله تعالى، وطمعاً في ثوابه وفضله .
﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ذنوبهم ويرحمهم، فهنئاً لهم المغفرة والرحمة، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ .

• السؤال عن الخمر والميسر:

ثم ذكرت الآيات سؤالاً آخر من أسئلة الصحابة، يدلّ على حرصهم على سلامة دينهم، وحبّهم للتفقه فيه:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أي: عن حكم تعاطي الخمر والميسر .
والخمر: المُسكر الذي يخمّر العقل ويغطّيه، أو من التخمر، لأنها شراب

متخمر. والميسر: القمار. وهما من الآفات الاجتماعية الخطيرة، التي كانت ولا تزال منتشرة في المجتمعات الجاهلية، وقد حاربها الإسلام وحرّمها، وطهر المجتمعات الإسلامية من شرورها وغوائلها.

ودلّ سؤال الصحابة عن الخمر والميسر، على أنّ الدين الجديد قد أحدث في نفوسهم وعقولهم يقظةً وتفتحاً ووعياً، حتى أصبحوا يميّزون بين ما يضرّهم وما ينفعهم، فهم يعيشون في ظلال شريعة تُبيح لهم كلّ طيب نافع، وتحرم عليهم كل خبيث ضارّ.

ومن رحمته تعالى بهم أنّه ما أنزل تحريم الخمر دفعةً واحدةً، إذ كان تعلقهم بالخمر شديداً، وإدمانهم عليها قوياً، ولهذا كرّهم سبحانه بها أولاً، فقال:

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لأن تعاطيهما يؤدّي إلى الإثم.

وإثم الخمر: ما تحدثه في عقل الشارب وصحته من الأضرار، وما يصدر عنه من أقوال وأفعال شاذة تضرّ بدينه ومجتمعه.

وأما إثم الميسر: فما ينتج عنها من كراهية وخصام، وإتلاف للأموال، وتضييع للطاقات، وإهدار للأوقات.

﴿وَمَنْفَعُ النَّاسِ﴾ ومنافع الخمر: بسبب التجارة فيها، إذ كانت بضاعةً رائجةً بينهم.

وأما منافع الميسر: فكانت للمحتاجين والفقراء، فمن عاداتهم التي كانوا عليها في الجاهلية أن يتعقّف الرابع في الميسر عن أخذ الربح، ويتركه للمحتاجين.

﴿وإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي: ما فيهما من أضرار أكثر بكثير مما يترتب عليهما من منافع، ولا شك أنّ هذا تنفيرٌ عنهما، وحثٌّ للناس على اجتنابهما، وتمهيد لتحريمهما القطعي، الذي نزل بعد ذلك.

روى الإمام أحمد: عن أبي ميسرة، عن عمر رضي الله عنه: أنه قال: اللهم بين لنا

في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة، فدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عليه. فقال: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْحَمْرِ بَيَاناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء [٤٣]: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ فكان مُنادي رسول الله ﷺ إذا أقَامَ الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عليه، فقال: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَاناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة [٩٠]، فدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عليه، فلَمَّا بَلَغَ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا^(١).

بهذا الأسلوب المتدرج الذي يُظهر سماحة الشريعة الإسلامية ويُسرّها، نجح الإسلام نجاحاً كبيراً في قلع هذه الآفات الاجتماعية، التي كانت راسخة في قلب المجتمع العربي الجاهلي^(٢).

• السؤال عن الصدقة:

ويبدو أن السؤال عن مقدار النفقة قد تكرر من بعض الصحابة، وجاء الجواب في هذه المرة، يبيّن لهم ما ينفقون من أموالهم دون تحديد أيضاً: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ﴾ أي: أنفقوا العفو، وهو ما سهل وتيسر وفضل، ولم يشقّ على القلب إخراجه. والمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة^(٣).

ويؤيده الحديث النبوي الشريف: عن حكيم بن حزام رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصدقة - أو خير الصدقة - عن ظَهر غَنِيٍّ، واليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى، وأبدأ بِمَنْ تَعَوَّلَ» [رواه مسلم (١٠٣٤)].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٩٢/٢.

(٢) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٣) تفسير القرطبي: ٦١/٣.

وقوله: «عن ظهر غنى» أي: ما بقي صاحبها بعدها مستغنياً بما بقي معه عن الناس.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: تتفكرون في أمور الدنيا والآخرة، وتعملون لما يصلحكم فيهما، فالإسلام أتى بخير الدنيا والآخرة.

• السؤال عن مخالطة الأيتام:

ولما أنزل الله الآيات التي فيها وعيد شديد للذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، خاف الصحابة خوفاً شديداً، وشعروا بالحرَج في حفظ أموال اليتامى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، تحرَّج المسلمون من أموال اليتامى تحرُّجاً شديداً، حتى عزلوا أموالهم عن أموالهم، وتركوا مخالطتهم، وربما كان يُضنَّع لليتيم الطعام، فيفضلُ منه، فيتركونه ولا يأكلونه، فاشتدَّ ذلك عليهم، فسألوا رسول الله ﷺ، فأُنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى...﴾ (١).

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي: مخالطتهم بقصد الإصلاح لهم والحفظ، خير من اعتزالهم.

﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوهُمْ فَاخْوَنُكُمْ﴾ أي: وإن تخلطوا طعامكم بطعامهم، وتشاركوهم في النفقة والمسكن، فهم إخوة لكم، والإخوة يُعينُ بعضهم بعضاً على الخير والصلاح.

ففي الآية حثٌّ على مخالطة اليتامى وموائستهم، فقد يؤثر عزلهم واعتزالهم على عواطفهم، ويسببُ لهم الحُزنَ المتواصلَ والكآبة، ويورثهم بعضَ العقْدِ النفسية، بينما مخالطتهم وموائستهم تعوّضهم عن شيءٍ من العطف والحب الذي فقدوه بموت آبائهم.

وفي الوقت نفسه حذرت الآية أصحاب النفوس الضعيفة، الذين يقصدون بالمخالطة إلى أكل أموال اليتامى، بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ فيجازي المفسد على إفساده، ويثيب المصلح على إصلاحه.

وهذه الإباحة في مخالطة مال الأيتام تدل على يسر الشريعة الإسلامية وسماحتها، وأنه تعالى يريد التيسير على الأمة المسلمة، ولهذا قال تعالى ممتناً عليهم:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْتَكُمُ﴾ أي: لأوقعكم بالعنت، وهو المشقة، وذلك بتشديد التشريع عليكم، وتكليفكم بالتكاليف الشاقة.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو سبحانه غالب على أمره، يشرع ما يريد، حكيم في كل ما يشرع.

• تحريم النكاح بين المسلمين والمشركين:

وقد تؤدّي مخالطة الأيتام إلى تقوية الصلات الاجتماعية معهم، بتزويجهم أو الزواج منهم، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التالية:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۖ وَلَا مُمِئَةً مُّؤْمِنَةً خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ ۖ وَإِنَّهُ لَلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾ فلا يحلّ للمسلم أن يتزوج المرأة المشركة، ولو كانت يتيمة، وهو حكم عام ينسحب على الكافرات. وخرج من هذا العموم الكتابيات بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

وفي الآية إشارة إلى الأوصياء بأن عليهم أن يهتموا بتربية الأيتام، وتنشئتهم على العقيدة الإسلامية الصحيحة، وإبعادهم عن كل مظاهر الشرك والكفر، فمهمتهم لا تقتصر على المحافظة على أموال اليتامى، بل عليهم أيضاً أن يحافظوا على أخلاقهم وعقائدهم وصفاء فطرتهم.

﴿وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ﴾ مع ما فيها من ذل العبودية والرق.

﴿حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَدْتُمْ﴾ بسبب جمالها، وسائر ما فيها من صفات ترغّب بنكاحها، فالإيمان أعلى الصفات التي يشرف بها الإنسان.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تُنَكِّحُ المرأةَ لأربع: لمالِها، ولحسبِها، وجمالِها، ولدينِها، فاظفرْ بذاتِ الدينِ تَرَبِّتْ يدَاكِ» [صحيح البخاري (٥٠٩٠)].

وكما حرّم الإسلام الزواج من الكافرات، حرّم أيضاً تزويج المشركين، بقوله تعالى:

﴿وَلَا تُنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أي: لا تزوجوا الكفار من المؤمنات مطلقاً، سواء كان الكافر كتابياً أم غير كتابي. وقد أكد تعالى هذا الحكم في قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ الآية [المتحنة: ١٠].

وأكدّه هنا بقوله بعد ذلك:

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْبَدْتُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: المشركون والمشركات يدعون إلى الكفر المؤدي إلى النار يوم القيامة.

وهذا يدلّ على خطورة مخالطة الكفار والفساق، فالواجبُ اجتنابُ مخالطتهم بقدر الاستطاعة، فمن جالس جانِس، وما أعظم العبرة والعظة في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٧٧﴾ يَتَوَلَّى لَيَتَى لَرَأَيْتَنِي لَوْ كُنْتُ فَالَانَا خَلِيلًا﴾ ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان].

فالمحافظة على الدين وسلامة الاعتقاد أوجب واجبات المسلم، والحيطة والحذر من أسباب السلامة والوقاية.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ أي: يدعو إلى الإسلام، وهو الطريق المؤدي إلى فضل الله ورحمته وجنته، كما قال في سورة يونس: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥).

﴿وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: ويدعو إلى ستر الذنوب، والتجاوز عنها في حال التوبة والاستغفار.

﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بتيسيره سبحانه وتوفيقه، فلا غنى لأي إنسان مهما كان عن معونته تعالى وتيسيره وهدايته.

﴿وَبَيْنَ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلهم يتفعلون بها ويتعظون.

• السؤال عن المحيض:

ومن الأمور التي يَظْهَرُ فيها يُسْرُ الشريعة الإسلامية وسماحتها، بمقارنتها مع شريعة التوراة، كيفية معاملة الزوج لزوجته في أثناء المحيض، فعند اليهود إذا حاضت المرأة اعتزلوها اعتزالاً كاملاً، حتى إنهم لا يجتمعون معها على طعام، ولا تحت سقفٍ واحدٍ، بينما الأمر في الإسلام أيسرُ من ذلك بكثير، فهو يحرمُ على الزوج الاتصال الجنسي بزوجته فقط في أثناء الحيض، ولا يكلفه اعتزالها كما يفعل اليهود، بل شرع له الاستمتاع بها ومباشرتها.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً، أمرها رسول الله ﷺ فتأترز بإزارٍ، ثم يباشرها. [رواه مسلم (٢٩٣)].

وعن ميمونة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضطجعُ معي وأنا حائضٌ، وبينني وبينه ثوبٌ. [رواه مسلم (٢٩٥)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرني رسول الله ﷺ أَنْ أُنَاوِلَهُ الْخُمْرَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ (أي: وهو في المسجد) فقلتُ: إِنِّي حَائِضٌ، فقال: «تناوليها، فَإِنَّ الْحَيْضَةَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ» [رواه مسلم (٢٩٨)]. و(الخمرة): السجادة التي يصلي عليها.

وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يتكى في جعري وأنا حائض، فيقرأ القرآن. [رواه مسلم (٣٠١)].

فأين هذا التيسير والتسهيل من التشديد الذي كان عليه يهود؟! فعن أنس رضي الله عنه: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يواكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! [رواه مسلم (٣٠٢)].

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْرِضُوا لِلنِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢).

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أي: الحيض، وهو دم يسيل من رحم المرأة البالغة في أوقات معلومة، إذا كانت غير حامل، ولم تبلغ سن اليأس. ﴿قُلْ هُوَ أَذَى﴾ أي: هو مؤذٍ، وقد أثبت التحليل المخبري لدم الحيض أنه يحمل قطعاً من الغشاء المبطن للرحم، لأن الرحم يتخلص من بطائنه القديمة التي لم تعد تصلح لاستقبال حمل جديد، فيطرحها على شكل سائل دموي يميل إلى السواد، فدم الحيض لا يأتي مباشرة من العروق الدموية، بل هو نسيج محتقن متنخر^(١).

ولهذا فهو معرض بسهولة لعدوان البكتيريا الكاسح، ومن المعلوم طيباً أن الدم هو خير بيئة لتكاثر الميكروبات ونموها، والاتصال بالمرأة في هذه الفترة يساعد على إدخال الميكروبات إلى المهبل والرحم، حيث تكون البيئة مناسبة لنموها، مما يؤدي إلى التهابات قد تمتد إلى سائر أجهزة الحمل عند المرأة، وإلى مجاري البول والمثانة والحالبين، وينتقل الأذى إلى الرجل أيضاً، بانتقال

الميكروبات إليه، مما يؤدي إلى التهابات في مجرى البول والمثانة والبروستاتا^(١).

﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: اجتنبوا مجامعتهن في أثناء الحيض.

﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي: لا تقربوهن بالجماع حتى يطهرن من الحيض بانقطاع دمه.

وفي قراءة: (حتى يَطْهُرْنَ) أي: يتطهرن بالماء، ولهذا شرط بعض العلماء لحلِّ مجامعة الزوجة اغتسالها بعد انقطاع دم الحيض. وفصل بعضهم أنه إذا كان الانقطاع بعد انقضاء أكثر مدة الحيض حلًّا وطؤها ولو لم تغتسل، وإذا كان قبل ذلك لم يجز وطؤها حتى تغتسل.

﴿فَإِذَا طَهَّرْنَ فَأَذْنُهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: جامعوهن من المكان الذي أحله الله لكم، أي في القبل لا في الدبر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب، والتواب كثير التوبة؛ كلما أذنب جدد توبته.

﴿وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ من النجاسات والأقذار، المتنزهين عنها، فلا يجامعون الحائض، ولا يأتونها في الدبر، حيث الأذى والقذر والنجاسة.

فالشريعة الإسلامية شريعة رحمة، أنزلها الله تعالى لصالح الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، وما حرّمت على الناس إلا ما فيه ضرر وأذى، ولهذا حرّمت وطء الحائض ووطء الدبر، وعندما ينتفي الضرر والأذى لا تضيق الشريعة الإسلامية على الإنسان، بل تتركه على الإباحة الأصلية، طليقاً عن كل قيد وشرط، ويدلّ على ذلك قوله تعالى في موضوع الاتصال الجنسي بين الزوجين، بهذا التبيان الصريح المشرق:

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ١٠٤.

﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّمٌ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ﴾ أي: زوجاتكم بالنسبة لكم مواضع زرع، فالزوجة بالنسبة لزوجها، كالأرض التي تتقبل البذر وتحمله وتنميه، والزوج بالنسبة لها كالزراع الذي ينبغي له أن يضع البذر في موضعه المناسب له.

﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّمٌ﴾ أي: جامعوهن متى شئتم وكيف شئتم.

فلا حَظَر عليكم ما دام الجماع في موضع الحَرْث وتقبل البذر، وهو الفرج المتصل بالرحم، فالطريقة التي يجدها الزوج مناسبة لمجامعة زوجته في فرجها حلال له.

وقد أنزل الله هذه الآية ردًّا على تعنت اليهود وتشددهم:

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبْلِها، كان الولد أحوَل، فنزلت: ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّمٌ﴾. [رواه مسلم (١٤٣٥)].

﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ما تستطيعون من الأعمال الصالحة لآخرتكم.

فالدنيا في نظر الإسلام مزرعة الآخرة، وكلُّ أعمال الإنسان الدنيوية إذا ما التزم بها أحكام الشريعة الإسلامية وقصد بها رضوان الله تعالى تصبح عباداتٍ يُثاب عليها يوم القيامة، حتى الاتصال الجنسي بين الزوجين.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته،

ويكون له فيها أجر؟! قال: «أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَهَا في حرام، أَكانَ عليه فيها وَزْرٌ؟ فكَذلك إذا وَضَعَهَا في الحلالِ كانَ له أَجرٌ» [رواه مسلم (١٠٠٦)].

قوله: (الدثور) يعني الأموال.

وقوله: (بضع) يعني الجماع، ويطلق على الفرج نفسه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع شؤون حياتكم.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ﴾ يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بفضل الله ورحمته إذا ما اتقوا ربهم، وتمسكوا بأحكام

شريعتهم.



الْفُضْلُ السَّابِعُ

الأسرة وتشريع الطلاق

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٢٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ٢٢٩ لِّلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِن نِّسَابِهِمْ تَرْبُصٌ أَزْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٣٠ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٣١ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُعْلِنَنَّ أَحَدُهُنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٣٢ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٣٣ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٢٣٤ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّنَعْدَائِكُمْ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا ءَايَةَ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يُعْظِمُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٣٥ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢٣٦ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِّمَ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدَتِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا

عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَشَاوِرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَزِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣١﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٣٢﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَشْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ ﴿٣٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْصِنِينَ ﴿٣٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعُوا مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُوَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصُّلُوحَاتِ وَالصُّلُوحَةِ التَّوَسُّطِ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٣٣٨﴾ فَإِنْ حَفِظْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٣٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٤٢﴾

• حرص الإسلام على الأسرة:

وبعد أن نظمت الآيات الصَّلَاتِ الجنسية بين الزوجين، وبيّنت ما يتعلق بها من أحكام، انتقلت إلى الحديث عما يمكن أن يحدث بين الزوجين من تنافر وتخاصم وسوء تفاهم، قد يؤدي إلى انقطاع الصلة الزوجية بينهما وحدوث الطلاق.

وتحرصُ الشريعة الإسلامية على استمرار الحياة الزوجية وبقاء الأسرة، لأنها المكان الطبيعي لاستمرار الوجود البشري، ونشوء الإنسان وتربيته تربية

صحيحة سليمة، تنمي مشاعره الإنسانية، وتُعده ليكون إنساناً صالحاً، يحمل مسؤولية الأمانة التي كلفه الله تعالى بها، وخلقه من أجلها.

وما شرع الطلاق في الإسلام إلا كعلاجٍ أخيرٍ للمرض المستفحل بالأسرة والمستعصي على كلِّ دواءٍ، فهو كالعمل الجراحي الذي يضطر إليه الطبيب، لكي يستأصل موضع المرض من الجسم، بعد أن فشلت العقاقير في معالجته، فاستئصال موضع المرض من الجسم يحمي بقية الجسد، ويحول دون انتشار المرض فيه.

وكذلك الطلاق يستأصل الأسرة المريضة التي يمكن أن ينتشر منها المرض إلى سائر أبناء المجتمع، فهو أمرٌ خطير في نظر الإسلام، وسيأتي معنا أن الأصل فيه الحظر، ولهذا اهتمت آيات السورة به، فتناولته بتفصيل أحكامه، وبيان فروعه، ولم تكتفِ بعرض أصوله وقواعده العامة، كما فعلت في غيره من التشريعات.

• اليمين اللغو واليمين المنعقدة:

شرعت الآيات أولاً تتحدث عن الأيمان، لما لها من صلة قوية بموضوع الطلاق، قال تعالى:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤).

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: لا تجعلوا الحلف بالله تعالى سبباً مانعاً لكم من أعمال البر والتقوى والإصلاح بين الناس. فالعُرْضة: اسمٌ لما يُجعلُ عارضاً وحاجزاً ومانعاً.

وذكر المفسرون: أنها نزلت في عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: كان بينه وبين ختنه (زوج أخته) بشير بن النعمان شيء، بسبب أنه طلق زوجته، ثم أراد

الرجوع إليها، فحلف عبد الله يميناً لا يدخل عليه، ولا يكلمه، ولا يُصلح بينه وبين زوجته.

وجاء في معنى الآية قول النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِهَا، وَيُكْفَرْ عَنْ يَمِينِهِ» [رواه مسلم (١٦٥٠)].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا مظهر من مظاهر سماحة الشريعة الإسلامية ورحمتها.

ثم أَكَّدَهُ ﷺ بعد ذلك بقوله:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥).

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: لا يؤاخذكم الله بالأيمان اللاغية، وهي التي يسبقُ إليها اللسان من غير قصدٍ ونيةٍ، وهو ما ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها في قولها: أنزلت هذه الآية ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ...﴾ في قول الرجل: لا والله، وبلى والله. [رواه البخاري (٤٦١٣)].

أو هي الأيمان المبنية على غلبة ظنِّ الحالف، ثم يتبين له أنه أخطأ فيما حلف عليه. أو هي ما كان يصدرُ عنهم بعد أن أسلموا، وألستهم قد ألفت الحلف بالآلات والعزى، فكانوا يحلفون بها من غير قصدٍ، فأمرُوا أن يتلفظوا بعدها بكلمة الإخلاص لتكون هذه بهذه^(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ: وَاللَّاتِ وَالْعَزَى، فليقل: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمَنْ قَالَ لِسَاحِبِهِ: تَعَالَ أَقَامِرَكَ، فليصدق» [رواه البخاري (٤٨٦٠) ومسلم (١٦٤٧)].

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكن يؤاخذكم بما عزمتم عليه وقصدتم له. وكَسَبَ القلب: هو القصد والنية.

وقد شرع الله تعالى الكفارة في حال الحنث بهذه اليمين وعدم البرّ بها؛

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٩٩/١.

فَقَالَ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ حَلِيمٌ﴾ ولهذا لم يؤاخذكم بأيمان اللغو، ولم يعاجلكم بالعقوبة في حال الحنث وعدم البر بالأيمان المنعقدة، بل حضَّ سبحانه على التوبة وشرع الكفارة.

• الإيلاء:

وانتقلت الآيات إلى الحديث عن أيمان مخصوصة، تصدر عن بعض الأزواج بقصد الإضرار بزوجاتهم:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي: يحلفون على ألا يجامعوها.

﴿تَرِيصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: انتظار مدة أربعة أشهر.

وقد رفع الإسلام بهذا عن المرأة ظلماً كبيراً كانت تعاني منه في الجاهلية؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المساءة، فوقَّت لهم أربعة أشهر^(١).

﴿فَإِنْ فَآؤُوا﴾ أي: رجعوا في أثناء ذلك إلى الاتصال بزوجاتهم، ومعاشرتهن المعاشرة الزوجية الكريمة، وكفروا عن أيمانهم.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم إساءتهم إلى زوجاتهم، فالآية تحضُّ الأزواج على حُسن معاشررة الزوجات، وعلى رجوعهم عن قصد الإساءة إليهن والإضرار بهن.

(١) تفسير القرطبي: ١٠٣/٣.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ بترك العودة، والإصرار على هجر فراش الزوجية، حتى مضت أربعة أشهر، بانت منه زوجته بطلقة واحدة، أي: يعدُّ حكماً مطلقاً زوجته طلبةً واحدةً.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوالهم، ويعلم أحوالهم، وحقيقة مقاصدهم، فيجازي المسيء على إساءته، وإضراره بغيره.

فانقضاء الأشهر الأربعة يؤدي إلى وقوع الطلاق حكماً، ولو لم تطالب المرأة به، عند بعض العلماء، وذهب آخرون إلى أنه لا يقع الطلاق بمجرد مضي المدة، حتى تطالبه الزوجة بالرجوع عن يمينه أو طلاقها، وترفع أمره إلى الحاكم، فيأمره الحاكم إما بالرجوع أو بالطلاق.

ويلاحظ أن الآيات لم تحرّم على الزوج هجر فراش زوجته تحريماً قاطعاً، بل منعه من هجر فراشها بقصد الإضرار بها، والإساءة إليها، فقد يحتاج الرجل أحياناً إلى هجر زوجته تأديباً لها في حال نشوزها، وهو أمر مشروع شرعه تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِي تَخَاَفُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَصْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ [النساء: ٣٤].

وقد ثبت أن النبي ﷺ آلى من نسائه، واعتزلهن شهراً، تأديباً لهن، عندما سأله أن يوسّع عليهن في النفقة، وأنزل الله بعد ذلك قوله الكريم: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ لِرَؤُوسِكُ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتِعْكُمْ وَأُسْرِحْكُمْ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾ (٢٨) وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: (١)].

(١) انظر: تفسير سورة الأحزاب (النبي ﷺ) وأزواجه في سورة الأحزاب)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

• الأصل في الطلاق الحظر:

أبرزت آيات الإيلاء حرص الشريعة الإسلامية على سلامة العلاقة الزوجية وصفائها، وإبعادها عن كل ما يعكرها ويُسيء إليها، لأنها حريصة - كما مر - على سلامة الأسرة، واستمرارها في تادية وظائفها الاجتماعية الهامة الضرورية للإنسان.

وشرعت لهذا السبب - في حال وقوع الطلاق - العدة، لكي يتمكن الزوجان في أثنائها من العودة إلى الحياة الزوجية، واستدراك ما فاتهما بالطلاق، ولهذا بادرت الآيات الكريمة إلى بيان عدة الطلاق، قبل الحديث عن الطلاق نفسه، لإظهار حرص الشريعة على بقاء الأسرة وسلامتها، وأشارت في تأخيرها الحديث عن الطلاق، إلى كونه أمراً مكروهاً، ما شرع إلا عند الضرورة الملجئة إليه، قال عليه الصلاة والسلام: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» [رواه أبو داود (٢١٧٨)].

ولهذا قال الفقهاء: الأصل في الطلاق الحظر، بمعنى أنه محظورٌ إلا لعارضٍ يُبيحه^(١)، وسيأتي لهذا المعنى مزيد بيان.

• عدة المطلقات:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلِهِنَّ أَحَقُّ بِرِدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ أي: الزوجات اللواتي تم زواجهن بالدخول فيهن، ثم طلقهن أزواجهن.

﴿يَرْبِصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن بعد الطلاق فلا يتزوجن، مدة:

(١) انظر: رد المحتار: ٤٦٦/٢.

﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ جمع قرء، والقرء: اسمٌ يطلق على الحيض أو الطهر الواقع بين حيضتين، ولهذا اختلف العلماء في الأقراء، فبعضهم قال: المراد الحيض، وبعضهم قال: المراد الأطهار.

وفي ذكر الأنفس تهيجُ لهنَّ على التربص، لأنَّ أنفس النساء طوامحٌ إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهنَّ، ويجبرنها على التربص. والخبر بمعنى الأمر، وأصل الكلام: ولتربص المطلقات. وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيدٌ للأمر، وإشعارٌ بأنه مما يجب المسارعة إلى امتثاله^(١).

والحكمة من تشريع العدة صيانة الأنساب، والتأكد من عدم اختلاطها، ففي أثنائها يظهر إن كانت المطلقة حاملاً، أو غير ذات حمل، كما أنها تعطي فرصة للزوج لمراجعة زوجته بعد الطلقة الأولى والثانية، كما سيأتي بيانه.

ولمَّا كان أمر العدة منوطاً بحيض المرأة وطهرها، إذا كانت ممن تحيض، أو منوطاً بوضع حملها إذا كانت حاملاً، لقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وهي أمورٌ من خصوصيات المرأة، جعلها الله تعالى مؤتمنةً على تحديد مدة العدة، ومسؤولة عنها، فقال:

﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو الحيض، استعجالاً لانقضاء العدة، وإبطالاً لحق الزوج في المراجعة، كما أنَّ كتمان المرأة لما خلق الله في رحمها يؤدي إلى اختلاط الأنساب.

﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إن كنَّ حقاً يؤمنن بالله واليوم الآخر. فشأن المؤمنات بالله تعالى وبالمسؤولية والحساب يوم القيامة، أن يكنَّ صادقاتٍ حافظاتٍ للأمانة التي أوتمنَّ عليها، فلا يغيرنها ولا يبدلنها.

﴿وَيَعُولُهُنَّ أَحَقُّ بِرَوْحِنَ فِي ذَلِكَ﴾ أي: لأزواج المطلقات الحق بمراجعتهنَّ، وردهنَّ إلى حياة الزوجية في أثناء العدة.

ولهذا لا تحتجب المرأة المطلقة عن زوجها في أثناء العدة لكي يراجعها،

فإذا ما انقضى وقتُ العدة بطلَ حقُّه في المراجعة، وأصبحت المطلقة حرةً في أمرها، إن شاءت رجعت إلى زوجها السابق بعقد جديد، وإن شاءت امتنعت عن الرجوع، وهذا إذا كان الطلاق رجعيًّا يمكنُ مراجعةَ الزوجة المطلقة بعده في أثناء العدة.

﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: إذا أراد الأزواجُ بمراجعة زوجاتهم الإصلاحَ وحُسن العشرة.

ودلَّ هذا الشرط على حرص الشريعة الإسلامية على سلامة الأسرة، وعلى أن تكون العلاقة بين الزوجين قائمة على التفاهم والمودة، وحرصها أيضاً على عدم الإضرار بالمرأة، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، فقد كان بعض الأزواج يُراجعون زوجاتهم بقصد الإضرار بهنَّ، وذلك بالعودة إلى تطليقهنَّ، فتبقى المرأة حائرةً مترددةً، فحرَّم الإسلام هذا ومنعه، وجعل عددَ الطلقات التي يمكن للرجل أن يُراجع زوجته بعدها في أثناء العدة تطليقتين فقط، كما سيأتي في الآية التالية.

• المساواة بين الحقوق والواجبات:

ثم شرعت الآية مبدأً أساسياً للتعامل بين الزوجين، يتمتع كلُّ منهما بحقوق مساوية للواجبات التي عليه نحو الآخر، فإذا ما التزم الزوجان بهذا المبدأ عاشا حياة زوجية طيبة بعيدة عن كل أسباب الخلاف المؤدية إلى الطلاق:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: وللزوجات من الحقوق على أزواجهن من المهر والنفقة وحُسن المعاشرة، مثل ما عليهنَّ من طاعة الزوج ضمن الحدود المشروعة، وحُسن القيام على شؤون الأسرة.

فالواجبُ على الزوج أن يؤمِّنَ للزوجة جميع ما تحتاج إليه في شأن معيشتها من مأكلي وملبسٍ ومسكنٍ، كما يجبُ عليه أن يعاشرها معاشرةً إنسانيةً كريمةً.

والواجبُ على المرأة طاعةُ زوجها في غير معصية الله تعالى، ورعاية بيته في أثناء غيابه؛ قال ﷺ: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الْأَعْظَمُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ

بيته، وهو مسؤولٌ عن رعيته، والمرأة راعيةٌ على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولةٌ عنهم، وعبدُ الرجلِ راعٍ على مالِ سيده، وهو مسؤولٌ عنه، ألا فكلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته» [رواه البخاري (٧١٣٨)].

فالأسرة مؤسسة اجتماعية تحتاج إلى راعٍ يرعاها، ويكون مسؤولاً عنها، وقد جعل الله تعالى رعايتها بيد الرجل في حال حضوره، وبيد المرأة في حال غيابه، فقال:

﴿وَالرِّجَالُ عَلَىٰ نِصْفِهِمْ دَرَجَةٌ﴾ وهي درجة القوامَةِ والرعاية، المذكورة في قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِذَا فَضَّلْتُمْ إِلَىٰ الْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وليس المراد منها درجة الفضل عند الله تعالى، فالفضل عنده تعالى منوط بالتقوى، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الدرجة إشارةٌ إلى حصّ الرجال على حُسن العشرة والتوسّع للنساء في المال والخلق^(١).

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره.

﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله وأقواله، فلا يجوز لأحد أن يعترض على أحكامه وشرعه.

• الطلاق الرجعي مرتان:

ثم بيّنت الآيات عدد الطلاق الذي يمكن بعده مُراجعة الزوجة، فقال تعالى:

(١) تفسير القرطبي: ١٢٥/٣.

﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ .

﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ﴾ أي: الطلاق الرجعي مرتان فقط، ولا رجعة بعد الثالثة إلا بعد أن تنكح زوجاً آخر.

وقد رفعت الشريعة الإسلامية بهذا التحديد ظلماً كبيراً عن كثير من الزوجات؛ قال ابن كثير رحمته الله: «هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مئة مرة ما دامت في العدة، فلمّا كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله على ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة»^(١).

وعن عروة بن الزبير رحمته الله قال: كان الرجل إذا طلق زوجته، ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها، كان له ذلك، وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها، حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم قال: والله لا أويك ولا تحلين أبداً. فأنزل الله تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾. [رواه الترمذي (١١٩٢)]^(٢).

﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فالواجب عليكم بعد المراجعة معاشره الزوجة بما عُرف في الشرع من أداء لحقوق الزوجة، وحسن الصحبة معها.

﴿أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ أي: أو أن يتركها فلا يُراجعها، من غير ضرر بها، وأن يؤدّي لها جميع حقوقها المشروعة.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي: لا يحلّ لكم أيها الأزواج

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٠٤/١.

(٢) تفسير الخازن: ١٤٤/١.

أَنْ تَأْخُذُوا شَيْئًا مِنْ الْمَهْرِ، فَهُوَ حَقُّ الزَّوْجَةِ، وَلَا يَجُوزُ لِلزَّوْجِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ شَيْئًا إِذَا طَلَّقَهَا، إِلَّا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، بَيْنَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ:

﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أَي: إِلَّا إِذَا خَافَتِ الْمَرْأَةُ أَنْ تَعْصِيَ اللَّهَ تَعَالَى فِي مُعَامَلَتِهَا لِزَوْجِهَا، كَأَنْ تَكُونَ كَارِهَةً لَهُ، لَا تَسْتَطِيعُ الْحَيَاةَ مَعَهُ، وَإِلَّا أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ فِي مُقَابَلِ ذَلِكَ أَنْ يَظْلِمَهَا، فَنِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ يَجُوزُ لِزَوْجِهَا أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ لِكِي يَطْلُقَهَا، وَهُوَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أَي: فَإِنْ خِفْتُمْ أَيُّهَا الْحُكَّامُ أَلَّا يَسْتَطِيعَ الزَّوْجَانِ تَطْبِيقَ شَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حَيَاتِهِمَا الزَّوْجِيَّةِ.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أَي: فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِمَا إِذَا أَعْطَتِ الزَّوْجَةُ لِزَوْجِهَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ، فِي مُقَابَلِ فسخِ النِّكَاحِ بَيْنَهُمَا.

وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَتْ امْرَأَةٌ ثَابِتَ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتَبَ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَتُرِيدِينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ؟» (وَكَانَ قَدْ أَصْدَقَهَا حَدِيثَةً) قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «اقْبَلِ الْحَدِيثَةَ وَطَلِّقِيهَا تَطْلِيقَةً» [رواه البخاري (٥٢٧٣)].

وَقَوْلُهَا: (أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ) أَي: أَكْرَهُ أَنْ أَقِمْتُ عِنْدَهُ أَنْ أَقْعَ فِيمَا يَقْتَضِي الْكُفْرَ، وَكَأَنَّهَا أَشَارَتْ إِلَى أَنَّهَا قَدْ تَحْمِلُهَا شِدَّةُ كِرَاهَتِهَا لَهُ عَلَى إِظْهَارِ الْكُفْرِ، لِيَنْفَسَخَ نِكَاحُهَا مِنْهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَرِيدَ بِالْكَفْرِ كُفْرَانَ الْعَشِيرِ، وَتَقْصِيرَ الْمَرْأَةِ فِي حَقِّ الزَّوْجِ^(١).

وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ أَخْذَ الْفَدْيَةِ عَلَى الطَّلَاقِ جَائِزٌ، وَأَجْمَعُوا عَلَى تَحْرِيمِ أَخْذِ مَالِهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الشُّوْزُ وَفَسَادُ الْعِشْرَةِ مِنْ قَبْلِهَا^(٢).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أَي: أَحْكَامُ دِينِهِ الَّتِي شَرَعَهَا سُبْحَانَهُ.

(١) فتح الباري: ٤٠٠/٩.

(٢) تفسير القرطبي: ١٣٧/٣.

﴿فَلَا تَعْدُوهَا﴾ أي: لا تتجاوزوها بالمخالفة والإعراض عنها.

﴿وَمَنْ يَعْذُ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أولئك هم الظالمون لأنفسهم بالإعراض عن شريعة ربهم، فلا تصلح الحياة الزوجية إلا في ظل الشريعة الإسلامية، التي تحرص على سلامة الأسرة وسعادتها.

• الطلقة الثالثة:

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ، مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ، فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ للمرة الثالثة.

﴿فَلَا يَحِلُّ لَهُ، مِنْ بَعْدُ﴾ أي: من بعد ذلك الطلاق.

﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي: حتى تنتهي عدتها وتتزوج غير زوجها السابق.

وهذا أسلوب تربوي عملي في تأديب الزوجة، إذا كانت هي المتسببة في طلاقها. كما أن فيه تربية وتأديباً للزوج إذا كانت الإساءة من جهته، فلا بد أن تدركه الغيرة عندما يرى زوجته تتزوج بعد طلاقها غيره، ويندم على ما صدر منه في حقها.

ولا يحلّ لها أن تعود إلى زوجها السابق حتى يتمّ زواجها من الثاني، ويعاشرها معاشرة الأزواج.

دلّ على ذلك الحديث النبوي الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعَةَ إلى النبي ﷺ فقالت: كنتُ عند رفاعَةَ، فطلقني فَبَتَّ طلاقِي - أي: طلقني ثلاثاً - فتزوجتُ عبدَ الرحمن بنَ الزُّبير، وإنّما معه مثلُ هُدْبَةِ الثوبِ، فتبسّم رسولُ الله ﷺ فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رُفاعَةَ؟ لا، حتّى تذوقي عُسَيْلَتَهُ ويدُوقَ عُسَيْلَتَكَ» [رواه البخاري (٥٢٧٦) ومسلم (١٤٣٣) واللفظ له].

قولها: (مثل هدبة الثوب) تعني ضعفه جنسياً.

وقوله: «حتى تذوق عُسَيْلته ويدوق عُسَيْلتك» استعارة لطيفة شبه بها النبي ﷺ لذة الاتصال الجنسي بحلاوة العسل.

﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني، وانقضت عدتها منه.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: على المرأة المطلقة وزوجها الأول.

﴿أَنْ يَرْاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: أن يرجعا إلى حياتهما الزوجية السابقة بعقد جديد، إن ظننا أنهما يستطيعان أن يستأنفا حياتهما الزوجية في ظل شريعة الله تعالى.

وذكرتهم الآية مرة ثانية بأن هذه الأحكام هي الحدود التي شرعها الله تعالى، فيجب الوقوف عندها:

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ويعملون بها، فالعلم لا يكون نافعاً إلا إذا عمل به.

ولقد استعاذ النبي ﷺ من علم لا ينفع فقال: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها» [رواه مسلم (٢٧٢٢)].

• التحذير من الإضرار والعدوان:

ثم وجهت الآيات الخطاب إلى الأزواج الذين يريدون تطليق زوجاتهم، تحذّره من الإضرار بهنّ وظلمهنّ كما كان الحال في الجاهلية، بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن بعد إيقاع الطلاق من نهاية عدته.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وذلك بالمراجعة المشروعة كما مرّ في الآية [١٢٩].

﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ، ويملكن أمرهنّ.

وهو تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وهذا يدل على اهتمام الشريعة الإسلامية بدفع الظلم والضرر عن المطلقات، وقد أكدّه تعالى أيضاً بقوله بعد ذلك:

﴿وَلَا تُنكِهَنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُو﴾ أي: لا تراجعوهنّ بقصد الإضرار بهنّ، فتتجاوزوا حدود شرع الله تعالى، وتعتدوا عليهنّ، وتأخذوا أموالهنّ. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها لغضب الله وعذابه، فاحذروا ذلك، وقفوا عند الحدود المشروعة لكم.

﴿وَلَا تَنَخِذُوا بِآيَةِ اللَّهِ هُرُوءًا﴾ أي: تمسكوا بأحكام شريعته تعالى ببجد وقوة، وارعوها حق رعايتها، وإلا كنتم لاعبين هازئين بها، فإنه تعالى شرع هذه الأحكام لصالحكم وسعادتكم، وهي من نعمه الكبيرة عليكم.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فانقادوا لأحكامهما، وأذعنوا لما فيهما.

﴿يُعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي: يعظكم بما أنزل عليكم، ففي الكتاب والسنة من الزواجر والدروس النافعة والعبر البليغة المربية ما يكفي للتأطير والانزجار.

ودلت الآية على أنه لا يجوزُ التلاعبُ بالفاظ الطلاق، ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلاً يلزمه طلاقه.

فقد أخرج أبو داود [٢١٩٤]: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثٌ جِدْهِنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ»^(١).

﴿وَأَلْفُوا اللَّهَ﴾ بالتزام دينه، وتطبيق أحكام شريعته.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أمركم، فاحذروا مخالفة أمره، ومجاوزة شرعه.

• الرجوع إلى الحياة الزوجية:

وتستطيع المرأة المطلقة أن ترجع إلى حياتها الزوجية السابقة، ولو انتهت عدتها، بعد التطليقة الأولى والثانية، ولا يتم ذلك إلا بإرادتها ورضاها، وباتفاقها مع مطلقها على عقد جديد ومهر جديد أيضاً.

فالشريعة الإسلامية تحرص على إتاحة الفرصة للزوجين المنفصلين بالطلاق، لإعادة بناء الأسرة، وإصلاح ما تهدم منها، وعلى أولياء المرأة المطلقة أن ييسروا رجوع المرأة إلى حياتها الزوجية السابقة، ولا يجوز لهم منعها من ذلك، وهذا ما بينه الله تعالى في قوله:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَصَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدّة طلاقهنّ.

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تمنعهنّ أيها الأولياء.

﴿أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ أي: أن يرجعن إلى أزواجهنّ بعقد جديد.

وأصل العضل في اللغة: الحبس والتضييق، ومنه عضلت الدجاجة، إذا نشبت بيضتها ولم تخرج^(١).

وذكروا في سبب نزول هذه الآية: أَنَّ مَعْقِلَ بْنَ يَسَارٍ رضي الله عنه قال: نزلت فيه، قال: زوّجت أختاً لي من رجلٍ، فطلقها، حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوّجتك وأفرشتك وأكرمتك، فطلقتها، ثم جئت تخطبها! لا والله لا تعود إليك أبداً، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه،

فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ...﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوّجها إياه. [رواه البخاري (٥١٣٠)].

﴿إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: إذا تمّ الاتفاق بين الرجل الخاطب والمرأة المخطوبة، على وفق ما شرع الله تعالى من أحكام.

﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: هذه الأحكام التي ذكرها الله في الآية، يتعظ بها ويتنفع بها المؤمن دون غيره.

﴿ذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ وَأَطَّهَرُ﴾ أي: هذه الأحكام الشرعية تطهركم من أدناس المعاصي والآثام، وتطهّر قلوبكم من الأحقاد والأضغان، فتطبيقها ينفي عن المجتمع المعاصي والفواحش، وينفي عن النفوس والقلوب الضغائن والأحقاد. ولا شك أنّ في منع النساء من الزواج إشاعةً للفساد في المجتمع، وتشجيعاً على الفواحش والفسوق.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: والله يعلم ما فيه صلاحكم وسعادتكم، وأنتم لا تعلمون ذلك بسبب قصوركم وعجزكم، وتغلب الأهواء عليكم.

• حقّ الأولاد في الرضاعة والنفقة:

اهتمّت الشريعة الإسلامية بالأولاد، وخاصة الصغار منهم، فلمهم حقوق لا ينبغي إهمالها في أثناء الخلافات الزوجية بين الآباء، وها هي الآيات تتحدّث عن حقوق الأطفال في الرضاع، وما يتعلق بها من أحكام، في حال انفصال الزوجين ووقوع الطلاق:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِضِعُوا أَوْلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

فقرّرت أولاً المدة الكاملة للرضاع بقوله تعالى:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي: سنتين كاملتين.

والمراد من (الوالدات) العموم، مطلقات أو غير مطلقات.

ويندب للأم أن ترضعه من لبنها، لأنه أصلح له من لبن غيرها، ولكمال شفقتها عليه، ولا يتعين عليها إرضاع ولدها إلا إذا لم يوجد من يرضعه، أو لم يقبل غير لبنها، وإن رغبت الأم في إرضاع ولدها فهي أولى به من غيرها، لكمال شفقتها عليه.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ أي: هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة.

وهو يدل على أن أقصى مدة الإرضاع حولان، وأنه يجوز الفطام قبل تمام الحولين، والتحديد لقطع النزاع بين الزوجين، فلا يجب على الوالد إعطاء أجره الرضاع لأكثر من حولين. وأفادت الآية أن الرضاع المحرم للنكاح هو الرضاع في السنتين الأوليين من حياة الرضيع.

ثم قرّرت الآية مسؤولية الوالد في الإنفاق على الأسرة:

﴿وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ﴾ وهو الوالد، وإنما قيل: ﴿وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ﴾ دون: الوالد،

ليعلم أن الوالدات إنما يلدن لهم، إذ الأولاد للآباء، والنسب إليهم لا إليهن^(١).

﴿رِزْقَهُنَّ وَكِسْوَتَهُنَّ بِالْعُرْفِ﴾ أي: عليهم نفقة الوالدات من طعام وكسوة وسكنى

حسب ما هو متعارف عليه في المجتمع، من غير إسراف ولا تقتير.

وفي هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد، لضعفه وعجزه، وسمّاه

سبحانه للأم، لأنّ الغذاء يصل إليه بواسطتها في الرضاع^(٢)، قال تعالى:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارِوهُنَّ لِضَعْفِهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْزُقُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بِهِنَّ كَمَا بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

وفي الحديث النبوي الشريف: أن هند بنت عتبة قالت للنبي ﷺ: إن أبا

(١) تفسير النسفي: ٣٥٤/١.

(٢) تفسير القرطبي: ١٦٣/٣.

سفيان رَجُلٌ شحيحٌ، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذتُ منه وهو لا يعلمُ فقال: «خذي ما يكفيك وولَدِكِ بالمعروفِ» [رواه البخاري (٥٣٦٤)].
ثم بيّن تعالى أنّ تكليف الوالد بالنفقة منوط بوسعه وإمكاناته المادية المتوفرة له فقال:

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلّا ما تتّسع له مقدّرتها، كما قال في موضع آخر: ﴿لِنُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا ءَاتَنَهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

والضرر في الإسلام ممنوعٌ، وتجبُ إزالته، ولهذا نهى تعالى في حال حدوث نزاع بين الزوجين حول الولد، أن يسعى كلُّ منهما للإضرار بالآخر بسبب الولد، فقال:

﴿لَا تَضَارَّ وَلَدَهُ﴾ يُولَدُهَا ﴿قُرِئَ بِالْفَتْحِ، ويراد به النهي، وبالضم، ويراد به الإخبار، ومعناه النهي.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُهَا﴾ وإضافة الولد إليها تارةً وإليه أخرى استعطافٌ لهما عليه، وتنبية على أنه حقيق بأن يتفقا على استصلاحه والإشفاق عليه، فلا ينبغي أن يضرّا به، أو أن يتضارّا بسببه^(١).

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: وعلى وارث الولد عند انعدام الوالد أن ينفق على الولد المحتاج الذي لا مال له، إذ الغرم بالغنم في الشريعة الإسلامية.

فكما قررت له الشريعة حقّاً في ميراثه في حال وفاته، أوجبت عليه في مقابل ذلك أن ينفق عليه إذا كان محتاجاً، وهذه قاعدة مهمة في نظام التكافل الاجتماعي، قرّرتها الشريعة الإسلامية في النفقة بين الأقارب، ولو أحسن المسلمون تطبيقها لتمكنوا من معالجة ظاهرة الفقر في قطاع كبير من المجتمع، فمن النادر أن تجدَ فقيراً لا وارثَ له يستطيع كفّالته والإنفاق عليه.

ولا ينبغي أن يستبدَّ أحدُ الوالدين دون الآخر برعاية الولد، فمصلحة الولد

يجب أن تكونَ في معزل عن المنازعات القائمة بينهما، ولا شك أن الوالدين يتفقان على ما هو الأصلح لولدهما، ولا يتنازعان في ذلك، فعليهما أن يتشاورا في كل ما يتعلق بمصلحة ولدهما، وهو ما دلّ عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: إن أراد الوالدان فطام الولد قبل الحولين، واجتمع رأيهما على ذلك بعد التشاور.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: لا حرج عليهما في ذلك، لأن تشاورهما واتفاقهما لابد أن يكون في مصلحة ولدهما.

فالفصال والفصل: الفطام، وأصله التفريق، فهو تفريق بين الرضيع والثدي.

وكذلك إذا أرادت الأم المطلقة أن تتزوج، أو تعذر عليها إرضاع ولدها لانقطاع لبنها، فلا حرج على الآباء أن يطلبوا لأولادهم مريضات غير أمهاتهم: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا وَلَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً أُنْتِمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: إذا سلم الآباء إلى المراضع أجرة الرضاع بالوجه المتعارف المستحسن، ولا شك أن تعجيل الأجرة للمريض أحسن للطفل، إذ يجعلها أكثر عناية به واهتماماً بمصلحته.

﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ بالتزام أحكام شريعته.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يراكم ويحصى عليكم أعمالكم.

هكذا حفظت الشريعة الإسلامية حقوق جميع أفراد الأسرة، وخاصة الضعفاء فيها، وهم الأطفال الرضع، بأسلوب حكيم متوازن، لا ميل فيه لطرف على حساب طرف آخر، مما يدلّ على كمالها وإنسانيتها، وأنها حقاً شريعة الحكيم العليم والبرّ الرحيم.

• عِدَّةُ الْوَفَاةِ:

وكما شرعت الآيات عِدَّةً للمطلقات، شرعت أيضاً عِدَّةً للمتوفى عنهن أزواجهنّ، فالزواج نعمة كبيرة، وموت الزوج لا شك مصيبةٌ كبيرة بالنسبة

للزوجة، وليس من المناسب أن تتزوج مباشرة بعد وفاة زوجها، بل عليها أن تتربص مدة العدة، وتُظهر الأسف على فقد زوجها، وتترك التزيّن والتطيّب، وهو الحداد المشروع.

ففي الحديث النبوي الشريف: عن أم عطية: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحِدْ الْمَرْأَةُ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ؛ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا» [رواه مسلم (٩٣٨)].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٣٤).

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن بأنفسهن في العدة.

﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: أربعة أشهر وعشر ليالٍ من وفاة الزوج.

وهو خبرٌ في معنى الأمر، يدلّ على الوجوب، كما مرّ في عدّة الطلاق: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت مدة العدة.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ من الأمور التي كانت محرّمة عليهنّ في العدة، كالتزيّن والخروج من المنزل الذي كانت تعتدّ فيه، والخطبة والزواج.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالوجه المشروع، الذي لا ينكره الشرع.

أما إذا فعلن ما يخالف الشرع فعلى أولياء النساء أو أولياء الأمر أن يمنعهنّ من ذلك، ولهذا وجّهت الآية الخطاب لهم.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعلم حقيقة وكُنْه أعمالكم، لا يخفى عليه خافية، فاحذروا مخالفة أمره.

وكما لا يجوز للمرأة المعتدة أن تتزوج، لا يجوز أن تُخطب إلا بالتلويح والتعريض دون التصريح:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ أي: لا حرج عليكم في التلويح للنساء المعتدات برغبتكم في الخطبة من غير تصريح.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يقول: إني أريدُ التزويج، ولوددتُ أنه ييسر لي امرأة صالحة. وقال القاسم بن محمد: يقول: إنك عليّ كريمة، وإني فيك لراغب، وإن الله لسائق إليك خيراً، أو نحو هذا. [رواه البخاري (٥١٢٤)].

وهذا يدلّ على أنّ الخطبة التي هي مقدمة الزواج غير جائزة شرعاً في أثناء عدّة المتوفى عنها زوجها.

﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ولا جناح عليكم إذا أضمرتم في أنفسكم رغبتكم في الزواج.

﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرْنَهُنَّ﴾ أي: بقلوبكم، لأنّ شهوة النفس والتمني لا يخلو عنها أحد، ودفع مثل هذه الخواطر شاقٌّ على النفس، ولهذا أسقطه الله عنهم، إذ الشريعة الإسلامية شريعة رحمة وسماحة ويُسر.

﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ فيما يُستحيا من ذكره من الكلام المتعلق بالجماع، فقد يعتمد بعض الرجال إلى الحديث عن فحولتهم وقوتهم في الجماع في مثل هذه الأحوال، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: واعدوهنّ بقول معروف لا فُحش فيه ولا يُستحيا منه في المجاهرة.

ثم حذرتهم الآية من إبرام عقد النكاح قبل انتهاء العدة، فهو في هذه الحالة عقد باطل شرعاً:

﴿وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: لا تعقدوا عقد النكاح حتى تنتهي العدة المفروضة. وسُميت العدة كتاباً لأنها مفروضة، أو لأنها فُرِضَتْ بالكتاب، وهو القرآن الكريم.

أو: لا تقصدوا إلى إبرام العقد بجِدٍّ وعزيمة قبل انتهاء العدة، ففي هذا المعنى مبالغة في النهي عن عقد النكاح.

وهو يتفق مع قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ من العزم على فعل ما لا يجوز.

﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾ أي: فاحذروا مخالفته، ولا تعزموا على فعل الحرام.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفر للتائبين، ولا يعاجل المذنبين بالعقوبة، لكي يتوبوا ويرجعوا عما عزموا عليه.

• الطلاق قبل الدخول:

مرّ معنا أن الطلاق أمرٌ مكروه، ما شُرِعَ إلّا للضرورة، وأنّ الأصل فيه الحَظَرُ؛ لحرص الشريعة الإسلامية على سلامة الأسرة واستمرارها، لكن هذا الحَظَرُ يزول إذا لم يكتمل بناء الأسرة، وكانت لا تزال في أول مراحل نشوئها.

قال القرطبي رحمته الله: «لما نهى رسول الله ﷺ عن التزوُّج لمعنى التذوّق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوُّج لطلب العصمة، والتماس ثواب الله، وقصد دوام الصحبة، وقع في نفوس المؤمنين أنّ مَنْ طَلَّقَ قَبْلَ الْبِنَاءِ فَقَدْ وَقَعَ جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْمَكْرُوهِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ رَافِعَةً لِلْجَنَاحِ فِي ذَلِكَ، إِذَا كَانَ أَصْلُ النِّكَاحِ عَلَى الْمَقْصَدِ الْحَسَنِ»^(١):

(١) تفسير القرطبي: ١٩٧/٣.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ أي: لا مؤاخذه عليكم إذا طلقتم النساء قبل أن تمسوهن، أي: تدخلوا بهن، وتجامعهن.

فالطلاق بعد العقد وقبل الدخول جائز، فقد يبدو للرجل أمرٌ بعد العقد يحمله على التراجع عنه، والتراجع في مثل هذه الحالة أفضل، والضرر فيه يسير، يلحق المرأة أكثر من الرجل، فقد تُصاب المرأة بشيء من الإحباط وخيبة الأمل عندما تطلق بعد العقد عليها، ولهذا شرع الله تعالى لها أن تأخذ نصف المهر المسمى في العقد، كما سيأتي في الآية التالية [٢٣٧].

وفي هذه الآية بين تعالى حكم المطلقات قبل الدخول، ولم يسمَ لهن المهر، فقال:

﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: ولم تفرضوا لهن مهراً.

﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أي: فالواجب عليكم في مثل هذه الحال أن تعطوهن المتعة، كتعويض مادي عن الضرر المعنوي الذي يمكن أن يلحق بهن. وتقدر المتعة على حسب حال المطلق:

﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ﴾ أي: على الذي له سعة وغنى، مقداره الذي يناسبه.

﴿وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ أي: وعلى المقل الضيق الحال، المقدار الذي يناسبه.

﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: متعهن متاعاً بالوجه المستحسن المعروف بين الناس.

﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: واجباً لازماً على الذين يحسنون إلى النساء المطلقات.

وأما المطلقات قبل الدخول، اللواتي ذُكرت مهورهن، فلكل واحدة نصف مهرها المسمى:

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ .

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: سَمَّيْتُمْ لَهُنَّ مَهْرًا. سَمَاهُ (فريضة) لأنه من الحقوق المفروضة على الرجل لزوجته.

﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فلهن نصف المهر المسمى.

﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: المطلقات، فيتنازلن عن حقهن في نصف المهر.

﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي: أو يترك الزوج حقه في النصف الثاني من المهر، فيعطيه المهر كاملاً، وكانوا يعطون النساء المهر كاملاً عند العقد، فَمَنْ طَلَّقَ قَبْلَ الدَّخُولِ اسْتَحَقَّ أَنْ يَسْتَرَدَّ نِصْفَ مَا أُعْطِيَ لِلْمَرْأَةِ مِنَ الْمَهْرِ، فإذا لم يسترده فقد عفا عنه.

وبعد أن بيّنت الآية حق كل واحد على الآخر، حثتهم على العفو، رفعاً لهممهم إلى المستوى المثالي الرفيع:

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ ويبدو أنه خطاب للأزواج، حثاً لهم على التفضل على المرأة، فهو أقرب للتقوى.

﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: ليتفضل بعضكم على بعض.

وهو خطاب للطرفين: الرجال والنساء، لكي تبقى العلاقة في المجتمع قائمة على الإحسان ومكارم الأخلاق، فلا يبقى في القلوب نتيجة ما حدث من فرقة وطلاق أحقاد وضغائن.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازي المحسنين على إحسانهم، وأصحاب الفضل على فضلهم.

• الصلاة والطلاق:

ويلاحظ المتدبر لآيات الطلاق، أنها دأبت على تقوية الرقابة الوجدانية

الداخلية في نفوس المسلمين، فقد خُتِمَتْ أكثرُ الآيات بتذكير الإنسان برقابة الله تعالى عليه، وأنه تعالى مطلعٌ على دخيلة نفسه، وما يكنه في ضميره ووجدانه:

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَكْثَرُ لَكُمْ وَأَظْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

وكلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ الطلاق من الشؤون الخاصة، التي ينبغي أن تسوّى بين الرجل وزوجته على أضيّق نطاق، كما أنَّ شعورهما بمراقبة الله تعالى لهما، ووقوفهما عند أحكامه التي شرعها لهما، كفيلاً أن يحلَّ كلَّ ما يواجههما من عقبات وصعوبات، وقد يؤدّي التزامهما بتقوى الله تعالى إلى عودة التفاهم والمحبة إليهما، واستمرار حياتهما الزوجية على أحسن الوجوه.

والمحافظة على الصلوات المفروضة، لها دورٌ كبير في تربية الوجدان الديني عند الزوجين، فهي تذكّرهما بالله تعالى وبمراقبته، وتجعلهما يقفان عند حدوده المشروعة، وتساعدهما على التغلّب على المشقّات والصعوبات التي تواجههما، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:

[٤٥].

ولهذا لا نعجب، ونحن نرى الآيات الكريمة في السورة، قبل أن تفرّغ من الحديث عن أحكام الطلاق، تلتفت بالخطاب إلى عامّة المؤمنين، تأمرهم بالمحافظة على الصلوات المفروضة، وتأمرهم أن يؤدّوها على قدر استطاعتهم، مهما كانت الظروف والأحوال التي يمرّون بها:

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٣٨).

﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ المفروضة عموماً.

﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ بين الصلوات، أي: الفضلى، وخصت بالذكر لانفرادها بمزيد من الفضل، وهي صلاة العصر عند جمهور العلماء.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن عليٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً» ثم صلاها بين العشاءين، بين المغرب والعشاء. [رواه البخاري (٤١١١) ومسلم (٦٢٨) واللفظ له].

﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: طائعين كاملي الاستسلام لله تعالى، أو خاشعين، أو ذاكرين له تعالى، أو داعين، أو ساكتين.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: كنا نتكلم في الصلاة، يكلم أحدها أخاه في حاجته، حتى نزلت هذه الآية: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت. [رواه البخاري (٤٥٣٤)].

وهذه الأقوال متقاربة في المعنى، والمقصود أن يتحقق المصلي بالخضوع والخشوع لله تعالى، وهو من أعمال القلب، يظهر أثره في سكون الجوارح، حتى يمدّه الله تعالى في صلاته بمعونته ورحمته.

ففي الآية الكريمة وصفة ربّانية لعلاج المتاعب النفسية والعصبية، التي تواجه الإنسان في حياته، وخاصة في حياته الأسرية مع زوجته وأولاده، ولهذا أمر الله تعالى الرجل بأن يأمر أهله بالصلاة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

وحدث رسول الله ﷺ في عدد من الأحاديث، على أداء الشنن في البيوت، لعماريتها بذكر الله، واستنزال الرحمت الإلهية فيها، فهي تشيع في البيت جوّ الألفة والمودة، وتبعده عن الأجواء المشحونة بالتوتر والبغضاء والأحقاد.

وممّا يؤكد على أهمية الصلاة، أنها لا تسقط عن المكلف بها في أيّ حال من الأحوال، فمهما كانت الظروف قاسيةً على المسلم وشديدةً عليه، فالواجب عليه أن يؤدي الصلاة، إذ فيها ما يساعده على مواجهة الصعوبات، والتغلب على المشقات، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٣٩).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو غيره.

﴿فِرْجَلاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: فصلّوا راجلين على أرجلكم، أو راكبين على الدواب وغيرها من وسائل السفر.

﴿فَإِذَا أَمْنْتُمْ﴾ أي: زالت أسباب الخوف.

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أي: فصلّوا الصلاة كاملة.

﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾ أي: مثلما علّمكم وشرع لكم.

﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ وفيه إشارة إلى إنعام الله تعالى علينا بالعلم، ولولا هدايته وتعليمه إيانا لم نعلم شيئاً، ولم نصل إلى معرفة شيء، فله الحمد على ذلك^(١).

• تخفيف وتيسير:

وبعد هذه الالتفاتة السريعة إلى الصلاة وأهميتها، ووجوب المحافظة عليها، رجعت الآيات الكريمة إلى موضوع الطلاق، لتتوّج خاتمته بآيتين كريمتين؛ تُظهر الأولى منهما فضل الله تعالى بتيسير أحكام هذه الشريعة وتخفيفها، بنسخ حكم شرعي كانوا يعملون به في أول الأمر، بحكم أخفّ منه

وأيسر، وتظهر الآية الثانية حرص الإسلام على إزالة الأحقاد والضغائن من القلوب، ومسح ما يمكن أن يعلق بها من رواسب نتيجة الطلاق؛ قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٤٠)

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: ليوصوا وصية لأزواجهن.

﴿مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ أي: تُعطى للمرأة بها نفقة سنة، لطعامها وكسوتها وما تحتاج إليه.

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: وتبقى في بيتها سنة، تعتدّ عدة الوفاة.

وكان ذلك مشروعاً في أول الأمر، إذ كانت عدة الوفاة سنة كاملة، ثم خففها الله تعالى إلى أربعة أشهر وعشر، بقوله المتقدم: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤].

﴿فَإِنْ حَرَجْنَ﴾ أي: إن لم يلتزمن بالعدة، وخرجن من منزل الزوج المتوفى.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: في ترك العدة.

﴿مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: مما لا ينكره الشرع.

وهذا يدلّ على أنّ المرأة كانت مخيرة، بين التزام العدة والإحداذ على الزوج المتوفى وأخذ النفقة، وبين الخروج وتركها.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ويلاحظ أنّ الآية الناسخة قد ذكرت قبل هذه الآية المنسوخة، مما يدلّ على أن ترتيب المصحف يختلف عن ترتيب نزوله، وأن ترتيب المصحف توقيفي، وأنّ الصحابة رضي الله عنهم عندما كتبوا المصحف، ما غيروا شيئاً فيه أبداً. أكّد ذلك قول عبد الله بن الزبير لعثمان بن عفّان رضي الله عنهما: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ

وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴿٢٤١﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا بن أخي، لا أُغَيِّرُ شيئاً عن مكانه. [رواه البخاري (٤٥٣٠)].

وفي رواية أخرى: قلت لعثمان: هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال: نسختها الآية الأخرى، قلت: تكتبها أو تدعها؟ قال: يا بن أخي، لا أُغَيِّرُ منها شيئاً عن مكانه.

قال ابن حجر رحمته الله: «وهذا السياق أولى من الذي قبله: ﴿وَأَوْ﴾ للتخيير لا للشك، وفي جواب عثمان هذا دليل على أنَّ ترتيب الآي توقيفي... على أنَّ من السلف مَنْ ذهب إلى أنها ليست منسوخة، وإنما خُصَّ من الحول بعضه، وبقي البعض وصية لها، إن شاءت أقامت، كما في الباب عن مجاهد، لكن الجمهور على خلافه»^(١).

وجاءت الآية الأخيرة في آيات الطلاق، تؤكد على تقديم المتعة إلى المطلقات على وجه العموم، لإزالة ما يمكن أن يبقى في القلوب والنفوس من أحقاد وضغائن، قال تعالى:

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢٤١)

أي: حقاً ثابتاً للمطلقات على المتقين المتمسكين بدين الله وأحكام شريعته. وبهذا ربطت الآيات أحكام الطلاق بالتقوى، كما فعلت في جميع ما سبق من التشريعات.

ثم ختم الله تعالى الحديث عن أحكام الطلاق بقوله الكريم:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٤٢)

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ﴾ أي: وهكذا يبين الله لكم أيها المؤمنون، أحكام دينه وشرعه، المؤيدة بالدلائل والبراهين.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما فيها من حكم وأحكام، تجعلكم تتمسكون بها، مستسلمين مدعنين.

قال سيد قطب رحمه الله: «كذلك... كهذا البيان الذي سلف في هذه الأحكام، وهو بيان محكم دقيق موحٍ مؤثر، كذلك يبين الله لكم آياته عسى أن تقودكم إلى التعقل والتدبر فيها، وفي الحكمة الكامنة وراءها، وفي الرحمة المتمثلة في ثنائها، وفي النعمة التي تتجلى فيها، نعمة التيسير والسماحة مع الحسم والصرامة، ونعمة السلام الذي يفيض منها على الحياة، ولو تعقل الناس وتدبروا هذا المنهج الإلهي لكان له معهم شأن، هو شأن الطاعة والاستسلام والرضا والقبول، والسلام الفائض في الأرواح والعقول»^(١).



الْفَضْلُ الثَّامِنُ

أخبار وقصص من التاريخ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢٤٦) وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ ٢٤٧ ﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضاعفه لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿ ٢٤٨ ﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَمْلَأُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿ ٢٤٩ ﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿ ٢٥٠ ﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ٢٥١ ﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِنْ فَتْنَةٍ فَمَلَأَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿ ٢٥٢ ﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرًا وَكُنْتَ أَقْدَمًا وَأَضْرَرْنَا

عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَازِدُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَعَاتَكُهُ اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحِكْمَةُ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمَلِكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فخذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ

فَصَرُّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ حَبْلٍ مِنْهُنَّ جُرْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٦٦﴾

• تَمْهِيد:

توقفت الآيات مرة ثانية على طريق التشريع وبيان الأحكام، التزاماً بأسلوبها التربوي الرفيع، في عرض الأحكام التكليفية، الذي سبقت الإشارة إليه، وهو تفريق الأحكام ونشرها بين آيات السورة، بإحكام واتساق وإتقان، إبرازاً ليُسَرَّ الشريعة الإسلامية وسماحتها في ذات الأحكام، وفي أسلوب تشريعها وبيانها.

ولم تبتعد الآيات في أثناء توقفها عن محور السورة الأساس، وهو الإسلام لله تعالى، والاستسلام الكامل لأحكامه التشريعية والقدرية، وقد ركزت هذه المرة على الأخبار والقصص التاريخية، لتؤكد صدق النبي ﷺ، وصحة نبوته ورسالته.

• الْفَارُّونَ مِنَ الْمَوْتِ:

وكان أولُ خبر عَرَضَتْهُ إخبارها عن أمة من الأمم السالفة، نزل الموت بديارهم، فخرجوا منها فراراً من الموت، وهم يظنون أنهم بخروجهم وفرارهم يتمكنون من الإفلات من قدر الله تعالى، فهم أنموذج للناس الذين لا يستسلمون لأحكامه ﷻ القدرية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو سؤال تعريف وتعجيب.

﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ ويبدو أنهم كانوا أكثر من عشرة

آلاف، إذ لا يقال: عشرة ألوف، ولا يقال: تسعة ألوف، وأفاد قوله: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ بيان كثرة عددهم، وأن خروجهم من ديارهم كان خروجاً جماعياً.

ولم تبين الآية جنسهم ومكان ديارهم، فعدم معرفة جنسهم ومكانهم وتاريخهم لا يؤثر على مغزى الخبر وعظاته، يكفيننا ما ذكرته الآية لنا، فلا نسعى - كما فعل أكثر المفسرين - لمعرفة أمور لا فائدة من معرفتها.

﴿حَدَرَ الْمَوْتَ﴾ أي: خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت، ويبدو أن وباء مميتاً كالطاعون وقع بينهم، فخرجوا فراراً منه.

وقد يقول قائل: ألا ينبغي في مثل هذه الأحوال أن يأخذ الإنسان بأسباب السلامة والوقاية؟.

وأقول: نعم، الأخذ بأسباب السلامة والوقاية أمرٌ مشروع في الإسلام، وقد مرّ في هذه السورة الكريمة ما يدلّ عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] فهي تفيّد هذا الحكم نظراً لعموم لفظها. فإذا كان الإنسان خارج موطن الوباء والطاعون لا يقدم عليه، وأما إذا كان داخل موطنه وموضع انتشاره فلا يخرج منه، لأنه بخروجه يمكن أن يتسبب - بتقدير الله تعالى - في نقل أسبابه وحاملاته إلى أماكن أخرى، وهو ما نصّ عليه في الحديث النبوي الشريف: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» [رواه البخاري (٥٧٢٨)].

وأراد سبحانه أن يبين لهؤلاء الفارين، أنهم لا يستطيعون الفرار من قدره، وأنه لا بدّ لهم من الاستسلام والإذعان لقدره، كما يستسلمون لأحكام شريعته:

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا، لأن إرادته تعالى تامّة نافذة في ذرات الموجودات كلها، ولن يغني حذرٌ من قدر، وكان موتهم موتاً مؤقتاً للاعتبار والاتعاظ، فما حانت بعد آجالهم التي تنتهي بها حياتهم الدنيوية.

﴿ثُمَّ أَخِيَهُمْ﴾ أي: ثم أعادهم سبحانه بقدرته إلى الحياة.

وقد مرّ معنا في السورة حدوث مثل ذلك في بني إسرائيل على عهد موسى

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة].

فالذين آمنوا هم الذين أحياهم، ولا يجوز صرف الضمير إلى غيرهم، كما حاول سيد قطب في قوله: ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ كيف؟ هل بعثهم من موتٍ ورد عليهم الحياة؟ هل خلف في ذريتهم خلفٌ تتمثل فيه الحياة القوية، فلا يجزع ولا يهلع هلع الآباء؟ ذلك كذلك لم يرد عنه تفصيل، فلا ضرورة لأن نذهب وراءه في التأويل^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ لأنه خلقهم، ويمدّهم بأسباب الوجود، فمَنّته تعالى بالإيجاد والإمداد.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يكفرون ويجحدون، وهو الواقع المُشاهد من أحوال الناس في جميع عصورهم وأجيالهم، وقد أكده تعالى في عدد من الآيات؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

كما أكدته مواقف الجحود والعناد التي عرضها تعالى في جزء كبير من آيات سورة البقرة، كما تقدم.

• الحث على الثبات والاستبسال والبذل:

وتتميماً للدرس التاريخي، واستكمالاً لما فيه من عبر ومواعظ، توجهت الآيات بالخطاب إلى المسلمين، تحثهم على القتال والجهاد في سبيل الله، ولتذكّر أنهم كانوا عند نزول هذه الآيات في أوائل المرحلة المدنية، التي كُلِّفوا فيها بالجهاد والقتال:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: واثبتوا ولا تفرّوا من الموت، فالموت بيده

سبحانه، ولا فرار لأحد منه إذا حان أجله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

قال ابن كثير رحمته الله: «وروينا عن أمير الجيوش وسيف الله المسلول على أعدائه، خالد بن الوليد رضي الله عنه: أنه قال وهو في سياق الموت: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما مِنْ عضوٍ من أعضائي إِلَّا وفيه رميةٌ أو طعنةٌ أو ضربةٌ، وها أنا ذا أموتُ على فراشي كما يموتُ البعير، فلا نامتُ أعينُ الجبناء»^(١).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوالكم، ويعلم أحوالكم، في حال الثبات والاستبسال أو الفرار والهزيمة.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٤٥).

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو طلبٌ بأسلوب الاستفهام، حثهم سبحانه به على الإكثار من الطاعات والقربات، ومنها الجهاد في سبيله ببذل الأنفس والأموال، وأنزل سبحانه ذاته المقدسة منزلة المستقرض، وهو الغني عنهم، مالك المُلْك، خالقهم ورازقهم، تلطفاً بهم، وتشجيعاً لهم على الاستجابة لأمره تعالى والمبادرة إلى طاعته.

وهو أسلوب كريم يدلّ على رأفته جلّ وعلا بعباده، ولطفه بهم، وفضله العظيم وإحسانه الكبير عليهم، وهو كقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِي هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقد جاء مثل هذا الأسلوب في السُّنة النبوية الشريفة، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - ولا يقبلُ الله إِلَّا الطَّيِّبَ - فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَرْبِّيْهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يَرْبِّيْ أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ» [رواه البخاري (١٤١٠)].

فالواجبُ على الدّعاة أن يتفننوا بأساليب الدعوة، ولا يجمدوا على أسلوب واحد، وأن يتواضعوا للمدعوّين، ويتلطفوا بهم.

﴿فِيضْلَعُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ أي: يضاعف له جزاءه أضْعَافًا كثيرة، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْلَعُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي وَيَبْصُطُ﴾ أي: يضيق الرزق على مَنْ يشاء من عباده، ويوسعُه على مَنْ يشاء، حسبما اقتضت حكمته، وتعلّقت به إرادته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

ففي الآية حثٌّ على المبادرة إلى الطاعات في حال السعة والرخاء والقوة والصحة، قبل أن يبدّل الله حالهم إلى الضيق والضعف والعجز والقلّة. ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على ما قدّمتم من أعمال.

• قصة طالوت وداود وجالوت:

ثم أوردت الآيات قصّةً من تاريخ بني إسرائيل، غنيّةً بالعظات والعبر والدروس، المؤكدة للأفكار الأساس في السورة، ابتدأها الله تعالى كما ابتدأ الخبر التاريخي السابق، بأسلوب الاستفهام، المفيد للتعريف والتعجيب:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مَن بَنَى إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالَوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ﴾ أي: الأشراف والوجهاء الذين يملؤون العيون والنفوس بمظهرهم وشارتهم.

﴿مَنْ بَنَى إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ هكذا كشفت الآيات هنا عن أبطال القصة، وعيّنت زمانهم، فهم من بني إسرائيل الذين عاشوا بعد عهد موسى ﷺ.

﴿إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ﴾ ومن المعلوم أن النبوة لم تنقطع عن بني إسرائيل حتى زمن عيسى عليه السلام.

﴿أَبَعَثَ لَنَا مَلَكًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: عيّن لنا ملكاً ينظّم صفوفنا، ويقودنا إلى القتال والجهاد في سبيل الله.

ويدلّ كلامهم على أنهم كانوا في حال ضعف، وتشتّت، وتمزّق، وأنّ عدوّهم قد تغلب عليهم، وطردهم من ديارهم، وأسر أبناءهم، وذلك أنهم بعد فترة التيه الذي ضربه الله عليهم في صحراء سيناء، وموت موسى وهارون عليه السلام، تمكّنوا من الدخول إلى الأرض المقدسة في فلسطين، فأفسدوا بعد ذلك فيها، وانتشرت بينهم المعاصي، وهجروا شريعتهم، ويبدو أنها الإفساد الأولى التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُفْسِدُنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٠] (١).

فسلّط الله عليهم أعداءهم، فقاتلوهم، وهزموهم شرّ هزيمة، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وأسروا كثيراً من أبنائهم ونسائهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

ولما طال عليهم العهد في التشتّت والضعف، توجهوا إلى نبيٍّ من أنبيائهم بهذا الطلب، وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بأكثر من ألف سنة.

﴿قَالَ﴾ أي: نبيّهم.

﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي: لعلكم إن فُرض عليكم القتال مع ذلك المَلِكِ أن تتقاعسوا، وتجنبوا عن القتال.

وهذا يدلّ على أن نبيّهم كان يعلم حقيقتهم، فالجُبْنُ والتخاذُلُ يغلبُ عليهم

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

بسبب بعدهم عن طاعة ربهم، وهجرهم لشريعته، كما يدل على أن الجهاد لا يجب دون حاكم يتولّى أمر المسلمين، ويقودهم إلى الجهاد.

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ فالقتال لدفع الظلم وردّ العدوان قتالٌ في سبيل الله، شرعه تعالى، وأمر به، كما مرّ في قوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وصدق ظنّ نبيهم بهم:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ وأجيبوا إلى ما طلبوا، وعيّن لهم نبيهم بوحي من الله تعالى ملكاً عليهم، أمرهم بالقتال وقادهم إليه.

﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أعرضوا عن تنفيذ أمره تعالى، إلا طائفة قليلة منهم، كما سيأتي.

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْظَّالِمِينَ﴾ الذين يُعرضون عن تنفيذ أمره، ويظلمون أنفسهم بمعصيته.

ودلّت الآيات على كمال علمه تعالى، وأنه سبحانه يعلم ما يكون قبل أن يكون، علّم تعالى أن أكثرهم لن ينقاد لأمره، ولن يستسلم لشرعه، ومع ذلك استجاب تعالى لطلبهم، وكلفهم بالجهاد، وهباً لهم أسبابه، ابتلاءً لهم، وإظهاراً لفضل الفئة القليلة الصالحة المستسلمة لأمره الشرعي وحكمه القدري جلّ وعلا، كما سيأتي.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

فلم يرضوا بحكم الله تعالى، واعترضوا منكرين:

﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ فطالوت كان من سبط ما كانت ملوك بني إسرائيل منه، إذ كان الملوك بينهم بالتوارث، وكان أيضاً فقيراً مُقِلًّا، وللمال في المجتمع الإسرائيلي المكانة الكبرى، ولهذا أكدوا اعتراضهم بقولهم:

﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ﴾.

فاضطر نبيهم أن يذكرهم بأن اعتراضهم لا قيمة له عند الله تعالى، وأن الشروط الشرعية للملك متوفرة فيه، وهي قوة العلم بأحكامه الشرعية، وقوة الجسم التي يحتاج إليها لحمل أعباء الحكم:

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: اختاره عليكم، وخصه بالملك دونكم، فالحكم ما حكم سبحانه، والشرع ما شرع، لا ما تحكمون وتشرعون.

﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أي: ومن الله تعالى عليه بسعة العلم وقوة الجسم.

﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ فالأمر منوط بمشيئته تعالى وأمره.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل، عليم بأحوال خلقه، وما يصلح لهم.

• السكينة والبركة بآثار الأنبياء:

ويبدو أن القوم ظلوا على عنادهم، ولم يذعنوا لحكم الله وشرعه، فاضطر نبيهم أن يسأل الله تعالى أن يجري على يديه معجزة محسوسة، تجعلهم ينفادون لحكمه، ويستسلمون لشرعه، فاستجاب لهم تعالى، وحدثت المعجزة:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ أي: إن العلامة التي تدل على صحة

ملك طالوت .

﴿أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ وهو صندوق كانوا يضعون فيه قطعاً من ألواح التوراة التي أنزلها الله على موسى، وظلّوا يتوارثونها ويحافظون عليها حتى انتزعها أعداؤهم منهم عندما تغلبوا عليهم، وكانت قلوبهم تسكن وتطمئن، ويستبشرون بالنصر عندما يكون الصندوق معهم، ولهذا قال تعالى في وصفه: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ لِّرَبِّكُمْ وَيَقِينَةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَعَالُ هَارُونَ﴾ أي: وفيه أيضاً بعض الأشياء المتوارثة من آثار النبيين الكريمين موسى وهارون.

وقد ذكر كثير من المفسرين أنه كان يوجد في الصندوق عصا موسى وثيابه وعمامة هارون، ولا شك أن آثار الأنبياء التي باشروها بأنفسهم مباركة، وقد صحَّ أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتبركون بآثار النبي ﷺ، كوضوئه، وبصاقه، وشعره، وقدحه الذي كان يشرب فيه، والأحاديث النبوية الدالة على هذا كثيرة وصحيحة، وقد أخبرنا تعالى في قصة يوسف عن شأن قميصه، وكيف ردَّ تعالى بصر يعقوب عندما أُلقي القميص على وجهه: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفِّي بِأَفْئِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣] (١).

﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: تأتيكم به الملائكة حاملين له، وهي المعجزة الدالة على صحة ملك طالوت، وصدق نبيهم فيما أخبرهم به. ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وعندما رأوا المعجزة، وجاءهم التابوت، انقادوا لحكم الله، وأذعنوا لأمره، وأقروا بالملك لطالوت، وخرجوا للجهاد معه.

• الاختبار:

وبعد أن خرجوا للقتال أمر الله تعالى طالوت - بواسطة النبي الذي كان معه - أن يختبر جنوده ليعرف مدى طاعتهم له وتمسكهم بأوامره:

(١) انظر: تفسير سورة يوسف (العلم والوحي والنبوة في سورة يوسف)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ أي: خرج بالجنود، وتوجه إلى قتال عدوه، وكان خروجهم في وقت حرٍّ وعطش شديد.

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ أي: قال طالوت لهم: إن الله مُختبركم بنهر ستمرون عليه.

ويمكن أن يكون هذا النهرُ نهر الشريعة الذي يجري بين الأردن وفلسطين.

﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس من جنودي، ولن يقاتلَ معي، فالذي لا يصبر على العطش لا يصبرُ في أرض المعركة، ولا يثبت في وجه العدو.

﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: مَنْ لم يشرب منه فإنه من جنودي، وسيقاتل معي.

﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: إِلَّا مَنْ شَرِبَ مِنْهُ مقداراً قليلاً ملء كفه.

وذكروا أنه تعالى بارك للذين التزموا الأمر بهذا الماء القليل فكفاهم وأرواهم، فالقليل الطيبُ الحلالُ خيرٌ من الكثيرِ الحرامِ.

﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي: سقط أكثرهم في الاختبار، وشربوا من ماء النهر، وخالفوا الأمر، إِلَّا طائفة قليلة منهم، ذكرت روايات المفسرين أنَّ عددهم كان كعدد الصحابة في غزوة بدر، ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً.

وبهذه الطائفة القليلة عبر طالوتُ النهرَ إلى العدو الذي حشد قوته وعدده في الجهة الثانية من النهر.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: فلما اجتاز طالوت النهر هو

والفئة القليلة المؤمنة، الذين أطاعوه، ولم يخالفوا أمره، ورأوا قوة عدوهم، وكثرة جنوده، وقوة سلاحه وعتاده:

﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: لا قدرة ولا قوة لنا اليوم على مقاتلة جالوت وجنوده.

وظهر بهذا فضل أصحاب النبي ﷺ عندما رأوا جيوش الأحزاب قادمة عليهم، قالوا ما أخبره ﷺ عنهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾ أي: قال الصفوة الممتازة منهم، الذين كانوا يوقنون بالشهادة، وأنه تعالى سيكرمهم بلقائه إن قتلوا في سبيله:

﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بتأييد الله تعالى ونصره لها، فالتصغر لا يكون بكثرة العدد والعُدَد، وإنما النصر من الله تعالى.

وهذا لا يعني ترك الاستعداد وحشد القوى والطاقات لقتال العدو، فإن ذلك مطلوب من المسلمين شرعاً، بصريح قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالواجب على المسلمين أن يعدّوا أقصى ما يستطيعون من أسباب القوة المادية، قبل التصدي لقتال أعدائهم، وعليهم في الوقت نفسه أن يعتمدوا على الله تعالى ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر، ويصبروا عند مواجهة عدوهم: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم.

• المعركة:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِغًا وَكَيْتَ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥٠).

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ وتمّت المواجهة بين الفئتين، الفئة المؤمنة

القليلة بقيادة طالوت، والفئة الكثيرة الكافرة بقيادة جالوت، توجه المؤمنون إلى الله تعالى يستغيثون به ويستنصرونه:

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئَرًا﴾ أي: اصبب الصبر في قلوبنا، حتى لا يكون فينا جزع أو خوف.

﴿وَتَكُنَّ أَقْدَامُنَا﴾ في أرض المعركة، فلا يكون منا فرار وهزيمة.

﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

فاستجاب الله دعاءهم، فالدعاء عند مواجهة العدو في الميدان دعاء مستجاب:

﴿فَهَرَمُوهُمْ يَازِدُ اللَّهِ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١).

﴿فَهَرَمُوهُمْ يَازِدُ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وأمره تعالى.

﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ﴾ وكان داود حينئذ جندياً من جنود الفئة المؤمنة مع طالوت، فأكرمه الله تعالى بعد ذلك بكرامة النبوة والملك.

﴿وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الملك على بني إسرائيل والنبوة فيهم، وأعز الله بني إسرائيل في عهده وعهد ولده من بعده سليمان ﷺ، وعلوا علواً كبيراً.

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: علمه سبحانه من العلوم النافعة المفيدة، والتي أخبر عنها تعالى بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، فكان ﷺ يصنع الدروع، ويأكل من عمل يده، ويتعقّف عن أموال الأمة التي ملكه الله تعالى عليها.

ثم بين سبحانه الحكمة من تشريع الجهاد وتكليف المؤمنين بالقتال فقال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، ولهذا أمر سبحانه المؤمنين بقتال الكافرين.

﴿لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: لانتشر الفساد في الأرض، وغلب عليها المفسدون، كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتِ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فالله سبحانه يدفع المفسدين بالصالحين، والكافرين بالمؤمنين، فالجهاد ضروري لدرء الفساد وقمع المفسدين.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بتكليف المؤمنين بالجهاد وتأييدهم ونصرهم.

وإن انتصار المؤمنين يؤدي إلى تطبيق شريعة الله تعالى في الأرض، وينشر العدل والسلام في ربوعها، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وهذا يؤدي إلى نزول الرحمات، وكثرة الخيرات والبركات، والسعة والرخاء، وكل ذلك من فضله ﷺ على العالمين.

ولا يخفى الاتساق والاحتباك بين هذه القصة، وبين آيات الجهاد المذكورة في السورة في أكثر من موضع، وانسجامها أيضاً مع مرحلة ما بعد الهجرة، التي أنزلت فيها آيات السورة، إذ كان المؤمنون فئة قليلة مكلفة بمواجهة قوى الكفر والشرك، المسيطرة على جميع الأقطار في العالم، فضلاً عن إبراز آيات القصة لفضيلة الاستسلام لله تعالى، والرضا بحكمه وشرعه.

وفي القصة أيضاً دليل على أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، مُنزل على النبي ﷺ؛ فأنتى له ﷺ - وهو الأمي الذي عاش في أمة أمية - أن يعرف هذه

الأخبار السالفة، ويطلع على هذه الأحداث التاريخية القديمة، لولا إعلام الله تعالى له بها، وإخباره عنها.

ولهذا اتجهت الآيات تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: الثابت المطابق للواقع، الذي لا شك فيه.

فهذه الآيات لا يعلمها إلا نبيُّ مُرْسَلٌ، ولهذا قال تعالى بعدها مقررًا ومؤكِّدًا:

﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

• التفاضل بين الأنبياء والمرسلين:

لقد أكرمك الله بصفتي النبوة والرسالة، كما أكرم بهما سائر المرسلين، ولكنتك تمتاز عليهم بفضائل وخصائص خصك الحقُّ بها، فالمرسلون متفاضلون فيها بينهم، وهو ما تابعت الآيات تقريره وبيانه:

﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: بالخصائص والمناقب المتباينة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

ثم بيّن تعالى بعض أوجه التفاضل بينهم فقال:

﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أي: كلمه الله كموسى عليه السلام.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ أي: ومنهم من رفعه تعالى على سائر الأنبياء

بدرجات. ولا شك أنه سيّدنا محمد ﷺ، وأبهم لتفخيم شأنه، كأنّه العلم المتعين لهذا الوصف، المستغني عن التعيين^(١).

قال العلامة أبو السعود رحمه الله: «والظاهر أنّه رسول الله ﷺ، كما ينبى عنه الإخبار بكونه ﷺ منهم، فإن ذلك في قوة ﴿بَعْضُهُمْ﴾، فإنه قد خصّ بالدعوة العامة، والحجج الجمّة، والمعجزات المستمرة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدهور»^(٢).

قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ نبيٍّ من الأنبياء إِلَّا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» [رواه مسلم (١٥٢)].

وقال ﷺ أيضاً: «فُضِّلْتُ على الأنبياء بستّ: أُعطيَتْ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرّعب، وأُحِلَّتْ لي الغنائم، وجُعِلَتْ لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بي النّبؤ» [رواه مسلم (٥٢٣)].

﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ﴾ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وغيرهما، مما سبق ذكره.

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، كما مرّ عند قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

• سبب النزاع والاختلاف بين الناس:

فالأنبياء والمرسلون ﷺ متفاضلون بالخصائص والمناقب، ولكنهم متفقون بالدعوة الواحدة، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته وحده، والإسلام دينهم جميعاً، كما تقدّم عند قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

(١) تفسير البضاوي والنسفي والخازن: ٣٩٣/١.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢٤٦/١.

والاختلاف والافتتال الذي حدث بين الناس، منشؤه من الناس أنفسهم، لا من التفاضل بين الأنبياء ﷺ، وهذا ما بينه تعالى بقوله الكريم:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الرسل من الأمم المختلفة.

لأنه تعالى قادر على هداية جميع الناس، وهو سبحانه القائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ التي أيد الله بها المرسلين، والتي تدل الناس على الحق وتبينه لهم.

﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ أي: ولكن الناس اختلفوا، لأنه تعالى جعل لهم اختياراً وإرادةً وكسباً، فالاختلاف والتنازع نابع من الناس، من اختيارهم وكسبهم:

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ أي: صدق بدعوة المرسلين، وأسلم لله تعالى.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ فأعرض عن دعوة المرسلين وجحد وعاند.

وكل ذلك بمشيئته تعالى وإرادته، فهو الذي أعطى الإنسان المشيئة والإرادة والاختيار، ولهذا عادت الآية لتؤكد هذه الحقيقة، وهي تمام مشيئته سبحانه، وأنه لا يحدث شيء في ملكه إلا بإرادته جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وهو العليم الحكيم القادر القاهر، فالحوادث كلها بمشيئته سبحانه، خيراً كانت أو شراً، إيماناً أو كفراً، والنزاع والاختلاف بين الناس نابع من إرادتهم واختيارهم، كما سبق به علمه، وتعلقت به إرادته ﷻ.

فلا مسؤولية من دون تكليف، ولا تكليف من دون اختيار وإرادة، وأقرب مثال على ذلك فريضة الزكاة، فلا يُسأل عنها إلا من كُلف بها، ولا تكليف من دون مال، والمال في الحقيقة من الله تعالى، ولعلّ هذا هو سبب قوله تعالى بعد ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: أنفقوا ما أوجب عليكم إنفاقه مما أعطاكم .

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ﴾ هو يوم الحساب والمسئولية .

﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ أي: لا تقدرون فيه على الإنفاق وتدارك ما فاتكم، لأنه يوم الحساب والجزاء، لا يوم العمل والتكليف .

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي: ولا مودة فيه ولا صداقة، فالمسئولية شخصية، ولا يتحمل أحدٌ وزر غيره .

﴿وَلَا شَفْعَةٌ﴾ إِلَّا لِمَن أذن له الرحمن ورضي له قولاً .

فلا تتكلموا على غيركم، وأدوا ما كلفكم به ربكم، واحذروا أن تظلموا أنفسكم بمعصيته .

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ العريقون بالظلم، المستحقون لهذا الوصف، فلا تكونوا مثلهم، تجحدون فضله عليكم، وتستعملون نعمته في غير ما كلفكم به .

• آية الكرسي:

وجاءت بعد ذلك آية الكرسي، بما فيها من صفات جلاله تعالى وكماله، تؤكد هذه الحقيقة، وهي كمال مشيئته تعالى وتاممها، ونفاذها في كل المكوّنات، وقد وُصِفَتْ هذه الآية بأنها أعظم آية في القرآن الكريم، لما فيها من أسمائه تعالى الحسنی وصفاته العليا، تقدّست ذاته، وتباركت أسماؤه، وتسامت صفاته، ﷻ .

ففي الحديث النبوي الشريف: عن أبي بن كعب رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟»

قال: قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب على صدري وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر» [رواه مسلم (٨١٠)].

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ الله وحده المستحق للعبادة، ولا يستحقها غيره سبحانه.

﴿الْحَيُّ﴾ الذي لا يموت ولا يزول ولا يفنى، الباقي أزلاً وأبداً.

﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم على الدوام بتدبير خلقه، والقائم على كل نفس بما كسبت، والقائم بذاته، فلا يستمد قيامه من غيره سبحانه.

﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾ أي: نعاس، وهو ما يتقدم النوم من فتور.

﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ فهو سبحانه منزّه عن كل صفات النقص.

والنوم من صفات النقص، يدلُّ على العجز والضعف والتحوّل والتغيّر، يتنزّه الحق سبحانه عن كل ذلك.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ ويرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سَبْحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [رواه مسلم (١٧٩)].

قوله: «حجابه النور» المراد بالحجاب هنا المانع من رؤيته سبحانه.

وقوله: «من خلقه» أي: جميع المخلوقات، لأن بصره سبحانه محيط بهم.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وتديراً.

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده يوم القيامة إلا بإذنه، وهو بيان لكمال عزته وكبريائه ﷻ.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما قبلهم وما بعدهم، وما كان وما سيكون من أمور الدنيا والآخرة، وهو بيان لكمال علمه الذي وسع كل شيء.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ أي: لا يحيطون بشيء من معلوماته، فالعلم هنا بمعنى المعلوم، وهذا كقول الخضر لموسى ﷺ حين نقر العصفور في البحر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر. فهذا وما شاكله راجع إلى المعلومات، لأن علم الله ﷻ، الذي هو صفة ذاته، لا يتبعض^(١).

﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أن يطلعهم عليه، فكل العلوم التي تعلمها الأنبياء والرسل والملائكة والإنس والجن بمشيئته سبحانه وتيسيره: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: علمه، ومنه الكراسة، لتضمنها العلم^(٢)، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وقال ابن عباس ﷺ - من رواية جعفر بن أبي المغيرة -: كرسى: علمه. ورجحه الطبري^(٣).

أو هو جسم غير العرش، محيط بالسموات والأرض، دلّ عليه ما أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه: عن أبي ذر ﷺ: أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي فقال: «يا أبا ذر ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا

(١) تفسير القرطبي: ٢٧٦/٣.

(٢) تفسير النسفي: ٣٩٨/١.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٧٦/٣.

كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، وإنَّ فضلَ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ الفلاةِ على تلكَ الحلقةِ»^(١).

﴿وَلَا يُؤْدُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: ولا يثقله سبحانه حفظ السماوات والأرض.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ أي: المتعالي عن الأشباه والأنداد والأمثال، وعن صفات النقص والعجز أو علو يليق بذاته جَلَّالَهُ.

﴿الْعَظِيمُ﴾ في عزّه وجلاله، فهو أعلى من كل شيء، وأعظم من كل شيء، جَلَّالَهُ.

هذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية، فإنها دالة على أنه سُبْحَانَهُ موجود، واحد في الألوهية، متّصفٌ بالحياة، واجبُ الوجود لذاته، موجودٌ لغيره، إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره، منزّه عن التحيز والحلول، مبرّأ عن التغيّر والفتور، لا يناسبُ الأشباح، ولا يعتريه ما يعترى الأرواح، مالكُ الملك والملكوت، ومُبدعُ الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، الذي لا يشفعُ عنده إلا مَنْ أذنَ له، عالمُ الأشياء كلها، واسعُ الملك والقدرة، لا يشغله شأن، ولا يؤوده شاقٌّ، متعالٍ عما يدركه وهم، عظيم لا يحيط به فهم^(٢).

• لا إكراه في الدين:

وقرّرت الآياتُ بعدَ ذلك حرية الاختيار عند الإنسان في شأن الدين والعقيدة، بقوله تعالى:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢٥٦).

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي: لا تُكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام،

(١) روح المعاني: ٩/٣.

(٢) تفسير البضاوي: ٣٩٩/١.

فإنه بين واضح، جليةً دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه^(١). فالجملة على هذا المعنى خبرٌ، والمراد منه النهي.

وقد يكون المعنى: لا يتصور الإكراه في الدين، لأنه في الحقيقة إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً يحمله عليه، والدين خيرٌ كله، والجملة على هذا المعنى خبر باعتبار الحقيقة ونفس الأمر، فالدين ليس فيه إكراه من الله تعالى وقسر، بل مبنى الأمر على التمكين والاختيار، ولولا ذلك لما حصل الابتلاء، ولبطل الامتحان، فالآية نظير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ثم قال تعالى على سبيل التعليل لما تقرر:

﴿قَدْ بَيَّنَّ الرَّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أي: ظهر وتميز الحق من الباطل بالدلائل الكثيرة، والعاقل من يبادر إلى الإسلام دون حاجة إلى الإكراه، فالإسلام يكرم الإنسان، ويحترم إرادته، ويترك له حرية الاختيار، بعد أن يبين له الحق من الباطل، ويحمّله مسؤولية اختياره.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ أي: بالشيطان وأعوانه، من دعاة الكفر ورؤساء الضلال.

والطاغوت: من الطغيان، بناء مبالغة، كالجبروت والملكوت، وقد يؤنث ضميره، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧]، فهو يشمل كل ما يُطغي الإنسان، ويدفعه إلى مجاوزة حدود عبوديته لله تعالى.

﴿وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ مع الاستسلام الكامل لدينه وشرعه، فلا يعبد سواه، فلا بد للكافر أن يتوب أولاً عن كفره ويتبرأ منه، ويؤمن بعد ذلك بالله وحده، ويلتزم برسالته.

﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: بالغ بالتمسك والاعتصام بالحبل الوثيق المحكم.

﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا انقطاع لها.
﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فالتمسك بالإسلام هو سَلَمُ النجاة، وساجِلُ الأمان، إذ المخاطرُ المحيطةُ بالإنسان كبيرةٌ، ولا نجاة له منها إلا باللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام بحبل دينه، والتمسك بشريعته، كما قال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].
فهو سبحانه وليُّ المؤمنين، يتولاهم بهدأيته ورحمته، إذا اعتصموا بحبله، فلا يضلّون ولا يتيهون.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: متولّي أمورهم، وهذا من فضله تبارك وتعالى عليهم، وقد قرّره سبحانه في أكثر من موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: متولّي أمورهم، وهذا من فضله تبارك وتعالى عليهم، وقد قرّره سبحانه في أكثر من موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].
﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: يخرجهم بهدأيته وتوفيقه، من ظلمات الكفر والمعاصي والشبه والشكوك إلى نور الإيمان وبرد اليقين.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: من نور الإيمان الفطري الذي جُبلوا عليه، أو من نور البينات المتتابة، المنزلة عليهم بوساطة الأنبياء والمرسلين، وذلك بحرمانهم منها، وجعلهم يُعرضون عنها.
﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الانهماك بالشهوات، وظلمات الشكوك والأوهام والحيرة والقلق.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر واختيارهم له .

• مناظرة إبراهيم للطاغوت:

ثم أوردت الآيات مثلاً على انطماس البصيرة، وانطفاء نور الفطرة، بسبب الانهماك بالمعاصي والآثام، والتكبر والغرور والطغيان، فعرضت مناظرة بين نبي الله إبراهيم عليه السلام، وبين طاغية متجبر مغرور، حجبته ظلمات طغيانه وغروره عن رؤية الحقائق الواضحة الكبيرة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمَيِّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهو كما مرَّ سؤال تعليم وتعجيب .

﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أي: جادل إبراهيم عليه السلام في ربه، ويبدو أنه كان طاغية متألهاً متجبراً، كما كان فرعون في زمن موسى عليه السلام .

﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أي: لأن الله تعالى آتاه الملك والسلطان، أنكر ووجد فضله عليه، وبدل أن يشكره أنكر وجوده تعالى، وأخذ يخاصم ويجادل في ذلك .

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيِّتُ﴾ ويبدو أن إبراهيم عليه السلام قال هذا جواباً لسؤال وجهه إليه الطاغية، كما قال موسى عليه السلام، عندما سأله فرعون: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه] .

فموسى عليه السلام برهن على وجود الله تعالى بالخلق والهداية، وإبراهيم عليه السلام برهن على وجوده تعالى بالإحياء والإماتة، وكلها من الأدلة الظاهرة والحجج القاطعة، التي لا ينكرها إلا الذي غشيتة الظلمات الكثيفة، وحجبته الحُجب الغليظة .

فما كان من هذا المغرور المتكبر إلا أن ادّعى لنفسه القدرة على الإحياء والإماتة:

﴿قَالَ أَنَا أَخِي وَأُمِيتُ﴾ وذلك بالعفو عن المجرم الذي يستحق القتل، وقتل البريء.

هكذا بسبب ظلمة الغرور والكبر، التبس عليه الأمر، فلم يميز بين حقيقة الإحياء والإماتة، وبين إصدار الأوامر الظالمة، التي لا تزيد عن كونها أسباباً لإطالة الحياة أو إنهاؤها، إذا وافقت قدر الله تعالى ومشيئته.

فما كان من إبراهيم عليه السلام، أمام هذا الغرور والتكبر، إلا أن واجهه بناموس من النواميس الكونية، التي أبدعتها القدرة الإلهية، وتعلقت بها المشيئة الربانية القاهرة، والتي لا يستطيع أي إنسان مهما انطمست بصيرته أن يجحدها وينكرها:

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ فهني واقع ملموس مُشاهد لا يقبل الجدل، وهي حقيقة كونية تطالعُ الأنظار والمدارك كل يوم، ولا تتخلف مرةً ولا تتأخر، وهي شاهدٌ يخاطب الفطرة، حتى ولو كان صاحبها لا يعرف شيئاً^(١).

هكذا تمكّن إبراهيم عليه السلام بمنطق الإيمان وقوة حججه ووضوح براهينه، أن يحسم الأمر بحجة واحدة ملزمة قاطعة، وكانت النتيجة:

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: غلب الجاحدُ المغرورُ المتكبرُ، وصار مبهوراً منقطعاً متحيراً مغلوباً، بعد أن كان متنفساً مستكبراً مغروراً.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم ولا يُخرجهم من ظلمات كفرهم وظلمهم.

● الحياة بعد الموت:

حقيقة الموت والحياة بيد الله تعالى، لا يقدر عليهما غيره، تدلّان على

تمام مشيئته وكمال قدرته، فهو وحده المُحيي والمُميت، ولا تأثير للأسباب التي نراها في الإحياء والإماتة، فهي لا تقيّد طلاقه إرادته تعالى وقدرته، فهو سبحانه يُحيي ويُميت بأسباب ومن دون أسباب، يتحقّق مراده سبحانه في الإحياء والإماتة بصور كثيرة لا تُعدّ، ذكرت الآيات الكريمة التالية بعضها:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ۖ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ﴾

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ أي: أو رأيت مثل الذي مرّ على قرية؟! وهو سؤال تعجيب وتعليم، معطوف على ما سبق من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ويبدو أنه نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، الذين لم تنقطع النبوة فيهم حتى زمن عيسى عليه السلام، أنجاه الله تعالى مما أنزله ببني إسرائيل على يد البابليين في زمن بختنصر، سلّطهم الله على بني إسرائيل بسبب فسادهم وفجورهم، فخرّبوا بيت المقدس، وقتلوا كثيراً من أهلها، كما أسروا عدداً كبيراً منهم، مرّ هذا النبيّ على البلدة.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية من سكانها، متهدمة جدرانها، ساقطة سقوف بنينها، فوقف متحسراً محزوناً على ما أصابها:

﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: كيف يُحيي الله هذه البلدة بعد موتها؟! قال ذلك استعظاماً لقدرة الله تعالى على الإحياء، وذلك لما رأى من

شدة خرابها وهمودها، فلم يقله على سبيل الشك في القدرة، بل على سبيل الاستبعاد في العادة^(١).

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي: جعله الله تعالى يموت من دون تقدّم أسباب، واستمر موته بتقديره تعالى مئة عام، حفظ الله تعالى في أثناء ذلك جسده من التعفن والتآكل، كما حجب أيضاً عن أنظار الناس والطير والوحش.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُ﴾ أي: ثم أحياه، وردّه إلى الحياة.

﴿قَالَ﴾ أي: الله سبحانه له بواسطة الوحي:

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أي: كم مقدار الزمن الذي مكثت فيه ميتاً؟.

ويبدو أن الله تعالى أماته في أول النهار، وبعثه في آخر النهار، ولهذا:

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وقد ظن مثل ذلك أصحاب الكهف، كما حكى الحق عنهم في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٨]، فالموت كالنوم، لا يشعر الإنسان في أثناءه بمرور الوقت.

﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ﴾، وهي مدة كافية لتبدّل أحوال الناس، مات في أثناءها جيل، ونشأ جيل آخر، وسقطت حضارة، وقامت حضارة، وأعاد الله تعالى البلدة الميتة إلى حياتها، وتجدد عمرانها وشبابها، حفظه الله تعالى طول هذه المدة من البلى والتعفن والتفتت، وحفظ أيضاً طعامه وشرابه، فلم يتغيّر ولم يتعفن. وأمره تعالى أن ينظر إليه، ويراه كما هو، معجزة محسوسة مُشاهدة دالة على كمال قدرته جلّ وعلا:

﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير، فلم تغيّر السنون، ولم يتعفن ولم يتن.

﴿وَانْظُرْ إِلَى جِمَازِكَ﴾ وكان معه حمار، أماته الله تعالى أيضاً، ولكنه لم

يحفظه بعد الموت، ففترقت أعضاؤه، وبليت عظامه، وتفتتت، فأمره تعالى أن ينظر إليه وهو متفرق متفتت، كبرهان محسوس على طول المدة التي مرت عليه، فيعرف قدرة الله تعالى وفضله عليه، بحفظه من التفتت والتآكل، وحفظ طعامه وشرابه من التغير والتعفن، بينما فترقت عظام الحمار وبليت، في ظروف جوية وأرضية واحدة، وهذا يدل على طلاقة قدرته تعالى وإرادته، وأنه سبحانه لا يُقيد قدرته قوانين ولا نواميس، وهو سبحانه خالق القوانين ومقدّر النواميس.

﴿وَلَنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: فعلنا ذلك بك لنجعلك دليلاً مُعجزاً يدل على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المُحيي والمُميت، وأنه قادر على الإعادة بعد الموت والتفرق والتمزق.

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي: عظام الحمار التي بليت وتفرقت.

﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ أي: نحركها ونرفع أجزائها إلى بعضها ونركبها.

﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ كما كانت قبل الموت والبلية.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي: لما رأى إعادة الحياة وشاهدها عياناً.

﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قرئ: (أَعْلَمُ) على قطع الألف مع رفع الميم، على الخبر، أي: أخبر عن نفسه أنه يعلم كمال قدرة الله تعالى، وأنه سبحانه قادر على الإحياء والإماتة.

ودلت صيغة المضارع ﴿أَعْلَمُ﴾ على أن علمه بذلك مستمر، وأنه ما كان شاكاً بقدرته تعالى، وما حدث ضم إليه العلم القائم على المشاهدة والمعاناة، إلى ما كان عنده من علم قائم على الإيمان بالغيب، الثابت بالخبر الصادق. وقرئ: (اعْلَمُ) مجزوماً موصولاً على الأمر، يعني: قال الله له: (اعْلَمُ).

• من علم اليقين إلى عين اليقين:

وهو ما سأله إبراهيم عليه السلام، فيما أخبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰمُ ثُمَّ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ بعد أن تتمزق أجسادها وتفتتت .
و﴿كَيْفَ﴾ كما قال ابن عطية، إنما هو استفهام عن هيئة الإحياء،
والإحياء مقرر، فالسؤال لما وقع بـ (كيف) دلّ على حال شيء موجود مقرر عند
السائل والمسؤول، كما تقول: كيف علم فلان؟ فالسؤال في الآية عن هيئة
الإحياء لا عن نفس الإحياء^(١) .

﴿قَالَ أُولَٰمُ ثُمَّ تَوَمَّنْ﴾ بقدرتي على الإحياء بعد الموت، ولا شك أنه تعالى يعلم
إيمان إبراهيم ﷺ، ولكنه أراد أن يُظهر علمه للناس على لسان إبراهيم .
﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي﴾ أي: بلى آمنت، ولكن لينضمّ لي علمُ
المشاهدة إلى علم الاستدلال، فذلك أسكن للقلب، وأثبت للنفس .
قال ابن كثير رحمه الله: «أحبّ أن يترقى من علم اليقين بذلك، إلى عين اليقين،
وأن يرى ذلك مشاهدة»^(٢) .

وهو ما ذكره سبحانه في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥٦﴾ لَتَرَوُنَّ
الْجَحِيمَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٥٨﴾﴾ [التكاثر] .

وأما ما جاء في الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن
رسول الله ﷺ قال: «نحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي
الْمَوْتَىٰ﴾» [رواه البخاري (٣٣٧٢)]، فمراد النبي ﷺ نفْيُ الشكّ عن إبراهيم، فكأنه
قال: لو كان شك لكنا أحقّ به، ونحن لا نشك، فإبراهيم ﷺ أحرى ألا
يشك .

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٤١٩/١ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٣٦/١ .

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ من أنواع مختلفة.

﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أملهن إليك، وقربهن إليك، وتأمل بهن لتعرف أوصافهن، لثلاثا تلتبس عليك بعد الإحياء.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: فرق أجزاءهن بعد ذبحهن وتقطيعهن، واخلط الأجزاء ببعضها، على أربعة جبال.

﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ أي: قل لهن: تعالين ياذن الله تعالى.

﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ أي: يأتينك سرعات، بعد أن تنضم الأجزاء المتفرقة إلى بعضها، ويرجع كل جزء إلى موضعه من الجسد، بقدرته الله تعالى الكاملة، ومشيتته النافذة في ذرات الأجسام، وتعود إليهن الحياة الكاملة، كما كانوا قبل الذبح والتقطيع والتفريق.

﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ يفعل ما يريد، لأنه غالب على كل الأشياء.

﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أقواله وأفعاله ﷻ.

وهكذا رأى إبراهيم منظراً معجباً مدهشاً، رأى كيف تتطير الأجزاء إلى بعضها، وتتلاصق بتناسق وانسجام، ويرجع كل جزء إلى مكانه، وتعود قطرات الدماء المتناثرة إلى موضعها التي كانت فيها عند الذبح، لتستأنف جريانها في عروقها، بعد أن أعاد الله تعالى إليها الحياة من جديد.

وتركتنا الآيات محلّقين بخیالنا مع المنظر العجيب المدهش، مع الأعضاء والأجزاء المتناثرة، تطير في الجو إلى بعضها، لتتلاحم وتعود كما كانت، واستأنفت سيرها على طريق التشريع وبيان الأحكام، وسبق للآيات أن مهّدت للموضوع التشريعي الذي ستتناوله بالبيان في الآية الكريمة التي مرّت: ﴿يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فالموضوع موضوع الأموال، أو موضوع الاقتصاد كما يسمى في هذا العصر، وبيان أسسه التي تحدّد كيفية المبادلات المالية والاقتصادية بين الناس، وهو من أخطر الموضوعات،

وأكثرها تأثيراً على حياة الناس، وعلاقاتهم فيما بينهم، على مستوى الأفراد والجماعات، ولعلّ هذا سرّ تأخيره إلى خواتيم السورة.



الْفَصْلُ الْتَّاسِعُ

مبادئ أساسية في الاقتصاد الإسلامي

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢١٧﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٩﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أَنْتِفَاءً مَرْضَاتٍ اللَّهِ وَتُلْفِيَةً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَانَتْ أَكْثُلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٠﴾ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفُهُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبَتْهُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِعَاجِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٢٢﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٣﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٢٤﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٢٥﴾ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ

سَيَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٧٦﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن
يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ
خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ
بِسِمَّتِهِمْ لَا يُسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِثْلِ وَالْثَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا
كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَالْحَلَّ
اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ
عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا
يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٨١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٨٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن
ثُبُتَ عَلَيْكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِن كَانِ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ
إِلَى مِيسْرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُتُمْ بِدِينٍ
إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ
كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ
وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنْ
الشَّهَادَةِ أَن تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا
تَسْمَعُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى
إِلَّا تَرَابًا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا

وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٧﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٨﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٩﴾ ءَامِنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٩٠﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٩١﴾ .

• السَّنَابِلُ السَّبْعُ:

وفاجأتنا الآياتُ بعد أن شرعت تتحدَّثُ عن موضوع الأموال، بمنظيرٍ معجِبٍ مدهشٍ أيضاً، منظر حبةٍ في باطن الأرض، تتحول بقدرة الله تعالى ومشيتته إلى سبعة حبة متراكبة تركيباً عجيباً معجزاً في سبع سنابل . . في الآية السابقة اجتمعت الأجزاء المتفرقة، وعادت إلى تلاحمها وتناسقها كما كانت، وهنا الحبة الواحدة الضائعة في طيات الثرى تتحول بقدرة الله تعالى إلى سبعة حبة، في سبع سنابلٍ محمولةٍ على ساق نبتة واحدة! .

إنَّ أوَّلَ وأهمَّ أسس النظام الاقتصادي في الشريعة الإسلامية، أنَّه نظام تكافلي اجتماعي تعاوني، فالواجبُ المفروضُ على أصحاب الأموال أن يخصَّصوا جزءاً معلوماً من أموالهم للجانب الضعيف المحتاج في المجتمع، وهو أمر إلزامي في أعلى درجات الإلزام في الشريعة الإسلامية، فهو فرض لازم، وركنٌ أصيل من أركان الإسلام الكبرى.

ولمّا كانت الشريعة الإسلامية شريعة رحمة وسماحة، والله سبحانه يعلم شدة حب الإنسان للمال، وأنه شحيح به، يشقّ عليه أن ينفق جزءاً منه على غيره، تَلَطَّفَ سبحانه في تشريع الإنفاق لطفاً كبيراً، وحثّ عليه بأساليب رفيقة ورقيقة، تدلّ على رحمته تعالى بعباده ولطفه بهم، وقد مرّ معنا في هذه السورة بعض هذه الأساليب، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وها هي الآيات هنا تلتزم هذا الأسلوب اللطيف الرقيق، في تربية النفوس على البذل، وتخليصها من الشحّ الذي جُبِلَتْ عليه، بهذا المثل الرائع:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبْعِ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ينفقون أموالهم التي رزقهم الله إياها، لكي يتقربوا إليه تعالى، مستسلمين لأمره، ومنقادين لشريعته.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبْعِ سَنَابِلَ﴾ بقدرته تعالى ومشيتته.

﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ فتبلغ المضاعفة سبعمئة ضعف فضلاً منه تعالى، الذي لا حدّ لفضله وإحسانه.

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ على حسب علمه سبحانه بمدى إخلاص المُنْفِقِ.

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي: واسع الغنى والفضل.

﴿عَلِيمٌ﴾ أي: عليم بنيات المنفقين وأحوالهم.

• الشريعة الإنسانية:

وتمتاز الشريعة الإسلامية بإنسانيتها، وتقديرها لعواطف الناس ومشاعرهم، وخاصة المحتاجين، ولهذا توجّهت الآيات الكريمة إلى المنفقين من أصحاب الأموال، تحثّهم على احترام عواطف المحتاجين، وتحذّرهم من التعالي عليهم، والظهور أمامهم بمظهر المتفصّل الذي يمنّ عليهم بما يعطيهم:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٣٧).

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ بأن يعدّد عليه ما أعطاه، ويقول له: أعطيتك كذا وكذا، أو يعيره بفقره، ويكلّمه كلاماً قاسياً، فيه إهانة وإذلال، وكلّ ذلك محرّم في الشريعة الإسلامية، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿[الضحى].

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يوم القيامة.
﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: عند الموت على ما خلفوا وراءهم في الدنيا، لأنهم صاروا إلى ما هو خير لهم منها.

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (٣٣٧).

﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: كلام جميل طيّب حسن يُقال للفقير.
﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: وسترٌ لحال الفقير المحتاج، وترك التشهير به.
﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ كأن يمنّ عليه، ويفضّح حاجته وفقره.
﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ أي: غني عن طاعة المنان المؤذي.
﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجله بالعقوبة، لكي يتوب ويرجع عن ذنبه.
ثم بيّنت الآيات أنّ المنّ على الفقراء وتوجيه أيّ أذى لهم، يضيع ثواب الصدقة ويُبطله:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلَوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٣٨).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلَوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فتكونون عندئذ:

﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي: المنفق المُرَائِي، الذي ينفق ماله لأجل الرياء وحبّ السمعة والشهرة بين الناس.

﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ولا يريدُ بإنفاقه ثوابَ الله تعالى ورضوانه يوم القيامة، لأنه لا يؤمن بالإيمان الصادق الصحيح بالله واليوم الآخر.

ولكي تقرب الآيات هذا المعنى المجرد للنفوس والعقول، مثلت له بهذا المثال المادّي، فلأمثلة دورٌ تربويٌّ كبيرٌ، وتأثير قوي على القلوب والنفوس:

﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل المنفق المُرَائِي بنفقته.

﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الصلب.

﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ﴾ أي: تغطيه طبقة من التراب.

﴿فَأَصَابَهُ وَاِبِلٌ﴾ أي: أنزل الله عليه مطراً غزيراً قوياً، أزال التراب عنه وذهب به.

﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: فأصبح الصفوان بعد المطر مجرداً من التراب، لم يستفد من المطر، فلم ينبت عليه شيء من النبات، بل حدث العكس، أظهر المطر حقيقته، وبدت قسوته وصلابته، وأنه لا خير فيه.

وكذلك حال المُرَائِينَ بعبادتهم، المائنين على الفقراء بصدقاتهم والمؤذنين لهم:

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ أي: لا ينتفعون بشيءٍ من طاعاتهم وعبادتهم، فلا يجدون لها عند الله ثواباً.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئاً إِلَّا مَنَهُ، وَالْمَنْفِقُ سَلَعَتَهُ بِالْحَلِيفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ» [رواه مسلم (١٠٦)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرِكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ» [رواه مسلم (٢٩٨٥)].

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الجاحدين فضله عليهم والمُصرّين على الكفر.

ودلت الآية على أن الرياء والمن والأذى في الإنفاق من صفات الكفار، ولا بدّ للمؤمن أن يتجنّب عنها^(١).

وفي مقابل المثل السابق، ضربت الآيات مثلاً للمخلصين في صدقاتهم، بقوله تعالى:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَاءَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: أنفقوا أموالهم طلباً لرضوان الله تعالى.

﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تثبيتاً لأنفسهم على طريق الإيمان والاستسلام لله تعالى، فإن في نفس الإنسان ميلاً فطرياً إلى المال وتعلقاً به، فمن تغلب على نفسه، وقهر شحها، وأنفق المال تقرباً لله تعالى، ثبتها على طريق الإسلام، وأغلق على الشيطان ثغرة يمكن أن يستغلها لإغوائه وإضلاله، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ويمكن أن يكون ﴿مِّنْ﴾ للتبعيض، ويكون المعنى: أي مثبتين بعض أنفسهم على الإيمان، فمن بذل ماله لله تعالى فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه لله تعالى فقد ثبت كل نفسه.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أي: كمثال بستانٍ بمرتفعٍ من الأرض، حيث تكون الأشجار أحسن منظراً، وأزكى ثمرأً.

﴿أَصَابَهَا وَاِبِلٌ﴾ أي: مطر شديد.

﴿فَنَأْتَتْ أَكْثَلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: أعطت إنتاجاً مضاعفاً مرتين عما كانت تعطي في كل موسم.

﴿فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَاِبِلٌ فَقَلَّ﴾ وهو المطر الخفيف اللين.

والمراد بيان أن خير هذه الجنة الطيبة لا يتخلف في مختلف الأحوال، وكذلك حال هؤلاء المنفقين في سبيل الله، لا تضيع عند الله نفقاتهم، فلهم ثوابهم، وإن كان متفاوتاً بحسب درجات إخلاصهم لله تعالى، أو كان متفاوتاً بحسب مقدار نفقاتهم، وحرصهم على إيصالها إلى الأقرب والأحوج والأبقى.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فاجعلوا عملكم خالصاً لوجهه تعالى، وابتغوا به رضوانه.

• أسف وحسرة:

وأضافت الآيات مثلاً آخر للذين يَحْرِمُونَ أنفسهم ثواب أعمالهم، وهم أحوج ما يكونون إليه، وذلك بسبب مُراءاتهم أو إعجابهم بها، والمنُّ بها على الفقراء:

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أياً أحبُّ أحدكم أن يكون له بستان من نخيل وأعنان تجري الأنهار فيه؟!.

والاستفهام للإنكار، وتخصيص النخيل والأعنان بالذكر لأن ثمرهما من أفضل الفواكه وأكثرها نفعاً، فيهما الغذاء والتفكه.

﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: يجني صاحبها من هذه الجنة ثماراً كثيرة.

﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ أي: أصاب كبر الشيخوخة والهزم صاحب البستان، حتى أصبح لا يقدر على الكسب.

﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ أي: وله أولاد صغار ضعاف، لا يقدرّون على الكسب أيضاً، فهم يعتمدون في معاشهم على ثمرات جنتهم.

﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ أي: ريح قوية تستدير على نفسها، تسمى زوبعة. وسمي إعصاراً لأنه يلتفت كما يلتفت الثوب المعصور، أو لأنه يعصر الأجسام المار بها^(١).

﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أي: يحمل الإعصار ناراً.

﴿فَأَحْرَقَتْ﴾ أي: فاحترقت الجنة بنار الإعصار الذي أصابها.

وتركنا الآية عند هذه الجملة القصيرة، لنتصور مدى الحسرة والأسف الذي يعصف في نفس صاحب الجنة، وهو يراها تحترق، قبل أن يأتي تعقيب الحق تعالى على المثل بقوله:

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تتفكرون بما فيها من عظات وعبر، تنتفعون بها.

فَضَرَبُ الأمثال في القرآن الكريم أسلوب تربوي، يساعد المخاطبين على فهم المعاني المجردة، ويجعلهم يفعلون بها.

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلساءه من الصحابة يوماً فقال: فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿يُؤَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعم، أو لا نعم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين. قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لعمل؟ قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله ﷻ، ثم بعث الله له الشيطانُ فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله. [رواه البخاري (٤٥٣٨)].

• الأموال التي تجب فيها الزكاة:

هَيَاتِ الْآيَاتُ بهذه الأمثال الرائعة، نفوس المكلّفين لقبول التكليف والرضا به، فوجّهت إليهم بعدها خطاب التكليف بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَسِيدٌ ﴿٣٦٧﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: أنفقوا النفقة الواجبة عليكم، من خيار المال الذي اكتسبتموه بعملكم، الذي أحله الله لكم، كالتجارة والصناعة.

ففي الآية دليلٌ ظاهرٌ على وجوب الزكاة في كلِّ مالٍ اكتسبه الإنسان، سواء كان من النقود أم من عروض التجارة، إذا توفّرت فيه شروط الوجوب المذكورة في كتب الفقه، وأهمّها: أن يبلغَ المال نصاباً، وأن يحول عليه الحول، وأن يكون المال مملوكاً لصاحبه ملكاً تامّاً، وأن يكون حلالاً طيباً^(١).

﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض، من النبات والثمار والمعادن.

وهذا يدلُّ على وجوب الزكاة في المحاصيل الزراعية وفي المعادن، قال تعالى: ﴿وَأَتَوْا حَقَّهُ، يَوْمَ حَصَادِهِ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقال عليه الصلاة والسلام: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثرياً العشر، وما سُقي بالتَّضْحِ نصفُ العُشر» [رواه البخاري (١٤٨٣)].
قوله: «عثرياً» أي: يعثر على الماء بنفسه، ولا يتكلّف صاحبه سقيه.

(١) انظر: بحث الزكاة، في كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ١/ ٣٥٣ - ٣٧٧، ط: دار القلم بدمشق.

﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَيْثَ﴾ أي: لا تقصدوا المال الرديء.

﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي: منه تتصدقون، فتعطون الفقراء المال الرديء، وتحفظون لأنفسكم بالمال الجيد.

﴿وَلَسْتُمْ بِخَازِنِيهِ﴾ أي: والحال أنكم لا تأخذونه في حقوقكم.

﴿إِلَّا أَنْ تُقِضُوا فِيهِ﴾ أي: إلا أن تتساهلوا، وذلك لأنَّ الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عينه.

وكانَّ الآية تقول لهم: فكيف ترضون الله تعالى ما لا ترضون لأنفسكم؟!.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو مستحق للحمد على نِعَمه، فاشكروه، وتقربوا إليه بالطيب لا بالخبيث.

وفي هذه الآية أيضاً دليلٌ على إنسانية الشريعة الإسلامية، وحرصها على كرامة المحتاجين والفقراء، وتسويتها بينهم وبين الأغنياء في وجوه الانتفاع بأموال الزكاة كاللباس والطعام والشراب... إلخ.

• حزب الشيطان:

مرّ معنا قريباً أنَّ الإنسان مفطورٌ على حبِّ المال والشحِّ به، وهو نقطة ضعف بشرية يمكن أن يتسلَّل الشيطانُ منها إلى الإنسان، ليصدّه عن طاعة الله تعالى، وذلك بأنَّ يخوّفه من الفقر، ويجعله يَضُنُّ بماله، ويمنع زكاته عن مستحقّيها، وهذا ما حذّرنا تعالى منه بقوله:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي: يخوّفكم من الفقر إذا أنتم أنفقتُم ما أمركم الله تعالى به، ويمهّد بالتخويف من الفقر إلى تزيين البخل.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: ويأمركم بالبخل، ويحسنه لكم، مع أنّه خصلة ذميمة فاحشة، والفاحش عند العرب: البخيل.

وقد يكون المعنى: ومع نهيهِ إِيَّاكُمْ عن الإنفاقِ خشيّةَ الإملاقِ، يَأْمُرُكُمْ بالمعاصي والمآثم والمحارم^(١).

ففي الطاعات يَأْمُرُكُمْ بالبخل، وفي المعاصي يَأْمُرُكُمْ بالإنفاق والتبذير والإسراف، وهو حال مشاهدٌ عند كثير من أصحاب الأموال، ييخلون عن أداء حقوق الله تعالى، وهي يسيرةٌ قليلةٌ، وينفقون الأموال الكثيرة على المحرمات والفواحش، مما يدلّ على أن الشيطان استحوذ عليهم، فانقادوا له، وأصبحوا من أعوانه وأتباعه، كما قال تعالى: ﴿أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

ثم بيّنت الآية ما يترتب على الإنفاق من فوائد، تؤدّي بالإنسان إلى التغلب على شخّ نفسه وقهر شيطانه:

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أي: مغفرة لذنوبكم سترًا لها، فالحسنات تمحو السيئات، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وتُدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ» [رواه الترمذي (٦٦٤)].

﴿وَفَضْلًا﴾ أي: ويخلف عليكم أفضل مما أنفقتم، كما مرّ في آية السنابل السبع [انظر: سورة البقرة: ٢٦١].

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولا يقتصر إحسان الله وفضله على الشؤون المادية، وإنّما يمتدّ أيضاً إلى الأمور المعنوية الرفيعة والخصال الحميدة:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣٦٩).

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يؤتي الإصافة في الأقوال والأفعال مَنْ يَشَاءُ من عباده، ودلّ ورود الآية في سياق آيات الإنفاق، على أَنَّ للمنفقين في سبيل الله حظاً كبيراً من الحكمة، ويوفّقهم الله تعالى إلى السداد في الأقوال والأفعال، وهي من الخصال الكريمة التي تؤدّي إلى دفع الشرّ وجلب الخير.

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: وما ينتفع بهذه المواعظ إلا أصحاب العقول.

ويؤدّي الإنفاق في سبيله تعالى إلى معونته وتأييده:

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧٠).

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ أي: في طاعته تعالى.

﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ تتقربون به إليه سبحانه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فيجازيكم عليه بمعونته ونصره وتأييده.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي: وليس للذين ينفقون أموالهم في طاعة الشيطان، من أنصارٍ يمنعونهم من عذابه تعالى وانتقامه.

● إخفاء الصدقات:

وبعد أن حثّت الآيات على الصدقات، وأداء الواجبات المالية، وبيّنت آثارها الطيّبة في الدنيا والآخرة، شرعت ببيان كيفية الإنفاق وأحسن طرق الأداء:

﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٧١).

﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: إن تُظهروا دفعَ مالِ الزكاةِ وغيره إلى المستحقين، فنعمة ما تفعلون إذا قصدتم التقربَ إليه تعالى.

﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ أي: إن تعطوها خفية للفقراء في السرِّ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لأنَّ في الإخفاء حفظاً لكم من الرياء وحبِّ الظهور والسمعة.

قال ابن كثير رحمه الله: «الإسراءُ أفضل؛ لهذه الآية. ولما ثبت في «الصحيحين»: عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعةٌ يظلمهم الله في ظلِّه، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه... ورجلٌ تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شمائله ما تُنفقُ يمينه» [رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١)]^(١).

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ لأنَّ الحسنات تمحو السيئات.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يعلم سبحانه ما تخفون من الصدقات وما تُبدون.

ولا شك أن إعطاء الصدقات للفقراء سرّاً أكرم لهم، فالآية تُظهر إنسانية الشريعة الإسلامية، التي تحرص على كرامة الإنسان.

وجاءت الآية التالية بعدها تضيف إلى إنسانية الشريعة الإسلامية سماحتها، فالتكافل الاجتماعي الإسلامي لا يقتصر على المسلمين فقط، بل يشمل غيرهم من الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي، وقد أجازت الشريعة الإسلامية دفع جزء من صدقات المسلمين عدا الزكاة إلى غير المسلمين، وهذا ما قرره الآيات الكريمة، وهي تخاطبُ النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (١٧١).

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أي: لست مكلفاً بهدایتهم إلى الإسلام، وإنما عليك تبليغهم دعوة الإسلام، كما قال تعالى في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢).

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على هدايتهم، وقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَأْمُرُنَا أَلَّا نَتَصَدَّقَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ... أي: ليس عليك هدى مَنْ خالفَكَ حَتَّى تمنعهم الصدقة لأجل دخولهم في الإسلام^(١).

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فالهداية منوطة بمشيئته تعالى وعلمه، وهو سبحانه أعلمُ حيث يجعل هدايته، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

والجدير بالذكر هنا: أَنَّ الصدقات التي يجوز إعطاؤها لغير المسلمين، هي صدقات التطوع، أما الصدقات المفروضة فلا يجوز دفعها لغير المسلمين:

لقوله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ ستأتي قوماً أهلَ كتابٍ، فإذا جئتهم فادْعهم إلى أن يشهدوا أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّهِ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أَنَّ اللَّهَ قد فرضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم أَنَّ اللَّهَ قد فرضَ عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم، فتردُّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فإياك وكرائم أموالهم، واتقِ دعوة المظلومِ فإنه ليس بينه وبينَ اللَّهِ حجابٌ» [رواه البخاري (١٤٩٦)].

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ﴾ أي: يعود نفعه على أنفسكم، فلا تَمْتُوا به على الناس، ولا تؤذوهم بالتطاول عليهم.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أي: فأنفقوا عليهم، ولو كانوا غير مسلمين، ما دمت تبتغون بنفقتكم رضوان الله تعالى.

ومن هنا نطلع على بعض الآفاق السامية السَّامحة الوضيئة، التي يرفع الإسلام قلوب المسلمين إليها، ويروضهم عليها، إنَّ الإسلام لا يقرّر مبدأ الحرية الدينية وحده، ولا ينهى عن الإكراه على الدين فحسب، إنَّما يقرر ما هو أبعد من ذلك كلّه، يقرّر السماحة الإنسانية المستمدة من توجيه الله سبحانه، يقرّر حقَّ المحتاجين جميعاً في أن ينالوا العونَ والمساعدة، ما داموا في غير حالة حربٍ مع الجماعة المسلمة، دونَ نظرٍ إلى عقيدتهم^(١).

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يوفِّ إليكم مضاعفاً، كما مرَّ في آية السنايل السبع [انظر: سورة البقرة: ٢٦١].

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ أي: لا تُنْقِصُونَ شيئاً من ثواب صدقاتكم.

• أفضل مصارف الصدقات:

ثم بيّنت الآيات أفضل مصارف الصدقات وأكثرها ثواباً بقوله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣).

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: اجعلوا صدقاتكم للفقراء الذين حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فمنعهم ذلك من الاكتساب وطلب الرزق.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يستطيعون الانتقال والسفر في الأرض للكسب والتجارة لاشتغالهم بالجهاد.

وتنسحب الآية على الذين عجزوا عن الكسب بسبب الجراحات التي أصابتهم في أثناء الجهاد والقتال، وعلى الذين حبسوا أنفسهم على طلب علم نافع تحتاج إليه الأمة، فهؤلاء يعطون من أموال الزكاة مقدار ما يحتاجون إليه من النفقات، ما داموا محتاجين.

﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء، بسبب تعففهم عن المسألة، فهم يتظاهرون بالغنى، ويسترون فقرهم وحاجتهم.

وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمرّة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يُغنيه، ولا يُفطنُ به فيتصدّق عليه، ولا يقومُ فيسألُ الناس» [رواه البخاري (١٤٧٩)].

أما من يستطيع الضرب في الأرض والاكتساب، فهو واجدٌ لنوع من الغنى، لا يجوز له أن يدع العمل والاكتساب ويسأل الناس:

ففي الحديث النبوي الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال: «ما يزال الرجل يسألُ الناسَ حتى يأتي يومَ القيامةِ ليسَ في وجهه مِرْعَةٌ لَحْمٍ» [رواه البخاري (١٤٧٤)].

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: تعرف حقيقة حاجتهم بما ترى من أثر الجهد والحاجة البادي عليهم.

﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْكَافًا﴾ أي: إلحاحاً، والمعنى أنهم لا يسألون، وإن سألوا للضرورة لم يلحوا.

فهؤلاء أولى من غيرهم بالنفقة عليهم، وخاصةً إذا كانوا من أقارب المنفق وجيرانه، ولهذا حُتِمَتِ الآية وهي ترغب بالنفقة على أمثال هؤلاء:

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَاتَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ﴾.

ثم ختم الله تعالى آيات النفقة ببيان فضيلة المنفقين على وجه العموم، وما لهم عنده من الثواب الجزيل، قال جلّ وعلا:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِلِ وَالْإِثَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤).

• اقتصاد إسلامي لا ربوي:

تبين لنا من الآيات السابقة أنّ المجتمع الإسلامي مجتمعٌ متكافلٌ متعاون، ومن الطبيعي في مثل هذا المجتمع أن يكون نظامه المالي نظاماً لا ربوياً، لأنّ النظام الربوي يقوم على استغلال حاجات المحتاجين، وهذا ينافي التكافل والتعاون الذي ظهر لنا من خلال الآيات السابقة، ولهذا حرّم الإسلام الربا، وجعل أهم طرق الاكتساب المشروعة فيه تقوم على الجهد والضمان، فالزيادة المشروطة لرأس المال، التي لا يقابلها جهد ولا ضمان، زيادة غير مشروعة في الإسلام، ولهذا اتجهت الآيات في خواتيم سورة البقرة تقرّر تحريم الربا مطلقاً، بجميع أنواعه وأشكاله.

وكما استهلّت الآيات الكريمة حديثها عن الإنفاق في سبيل الله، بالمثل المعجب المدهش، مثال السنايل السبع ذات السبعمة حبة [انظر: سورة البقرة: ٢٦١]، استهلّت بالمقابل حديثها عن الربا بهذا الوصف المخيف المُرعب للمُرابين، وقد انتفخت بطونهم انتفاخاً كبيراً، حتى اختلّ توازنهم، واضطربت أجسامهم، فأصبحوا كالمصروعين المخبولين، والجزاء في الإسلام من جنس العمل.

فالربا هو الوجه الآخر المقابل للصدقة، الوجه الكالح الطالح، الصدقة عطاءٌ وسماحةٌ، وطهارةٌ وزكاةٌ، وتعاونٌ وتكافلٌ، والربا شحٌ وقذارةٌ، ودنسٌ

وَأَثَرُهُ وَفَرْدِيَّةٌ، الصَّدَقَةُ نَزُولٌ عَنِ الْمَالِ بِلَا عَوْضٍ وَلَا رَدٍّ، وَالرِّبَا اسْتِرْدَادٌ لِلَّذِينَ وَمَعَهُ زِيَادَةٌ حَرَامٌ مُقْتَطَعَةٌ مِنْ جَهْدِ الْمَدِينِ أَوْ مِنْ لَحْمِهِ^(١).

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧٥).

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أي: يأخذون الربا مباشرةً، أو يساهمون بما يؤدي إلى الربا.

كما جاء في الحديث النبوي الشريف: عن جابر رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه، وقال: «هُمُ سَوَاءٌ» [رواه مسلم (١٥٩٨)].

﴿لَا يَقُومُونَ﴾ أي: إذا بُعثوا من قبورهم يوم القيامة.

﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: يصصره الشيطان. وأصل الخبط لغة: الضربُ والوطءُ على غير استواءٍ.

﴿مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: من الجنون، يقال: مُسَّ الرجل فهو ممسوسٌ، إذا كان به جنونٌ.

ومعنى الآية: أن أكل الربا يُبعثُ يوم القيامة مثل المصروع الذي لا يستطيع الحركة الصحيحة، لأنَّ الرِّبَا رِبَا فِي بَطُونِهِمْ حَتَّى أَثْقَلَهُمْ^(٢).

فالآية تصف حال المُرابِّين يوم القيامة، عندما يُبعثون من قبورهم، وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين، وذهب إليه أيضاً ابن عطية في تفسيره، إلا أنه أضاف إليه معنى آخر فقال: يُبعث كالمجنون عقوبةً له وتمقيتاً عند جمع

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣١٨/١.

(٢) تفسير الخازن: ٤٣١/١.

المحشر، ويقوّي هذا التأويل المُجمّع عليه: أن في قراءة عبد الله بن مسعود: (لا يقومون يوم القيامة إلا كما يقوم المجنون)^(١).

وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون، لأنّ الطمع والرغبة تستفزّه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما نقول للمسرّع في مشيه، مخلّط من كثرة حركاته، إمّا لفزع أو غيره: قد جُنّ هذا^(٢).

وهذا المعنى الذي أضافه ابن عطية لأقوال المفسّرين، ذهب إلى مثله سيد قطب رحمته الله فقال: «ولقد مضت معظم التفاسير على أنّ المقصود بالقيام في هذه الصورة المُفزعَة، هو القيام يوم البعث، ولكنّ هذه الصورة فيما نرى واقعة بذاتها في حياة البشرية في هذه الأرض... إنهم لا يقومون في الحياة ولا يتحرّكون إلّا كحركة الممسوس المضطرب القلق المتخبّط، الذي لا ينال استقراراً ولا طمأنينة ولا راحة»^(٣).

ولا مانع من الجمع بين المعنيين ما دام لفظ الآية يحتملهما، كما رأى ابن عطية، فنقول: إنّ الآية تصفّ أحوالهم النفسية في الدنيا، وأحوال قيامهم من قبورهم يوم القيامة، ومن يشاهد أحوال المتعاملين بالربا في أسواق التعامل المالي في أيام الأزمات والتقلّبات، يرى أنّ معنى الآية ينسحب عليهم تماماً، لكثرة ما يرى من اضطرابهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي: هذا العقاب بسبب أنهم جعلوا البيع والربا متشابهين في الحلّ، فكما أن البيع يؤدّي إلى الربح وهو حلال، فكذلك الربا يؤدّي إلى الربح، وهو حلال في نظرهم أيضاً، مع أنّ الفرق واضح بين ربح لا يقابله جهد ولا ضمان خسارة، وهو ربح الربا، وبين ربح البيع الذي يقابله ضمان الخسارة المحتملة.

(١) هذه القراءة إن صحّت تُحمل على البيان والتوضيح (أي: هي قراءة تفسيرية).

(٢) المحرّر الوجيز: ٤٨١/٢.

(٣) في ظلال القرآن: ٣٢٥/١.

﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فالحاكمية والتشريع لله تعالى وحده، وهو الذي يحل ويحرم، والحلال ما أحله سبحانه، والحرام ما حرّمه، وعلينا جميعاً الانقياد والرضا لما شرعه لنا.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: مَنْ بلغه زجرٌ ونهيٌ من ربّه، كالنهي عن الربا.

﴿فَأَنْتَهُي﴾ أي: فاستسلم لحكم الله تعالى، وانتهى عمّا حرّمه عليه.

﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي: فله ما مضى قبل التحريم، والله سبحانه يغفر له،

ولا يؤاخذه.

﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: فيما يأمره وينهاه، ويحلّ له ويحرّم عليه، وليس له

من أمر نفسه شيء، فما عليه إلّا التسليم والانقياد لحكم الله وشرعه.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أي: عاد إلى الربا بعد التحريم، وأصرّ على التعامل بالربا

مستحلاً له بعد أن حرّمه الله تعالى.

﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنّهم لم يستسلموا لحكم الله

وشرعه، وأصروا على عنادهم وجحودهم واتباعهم لأهوائهم.

• من أضرار الربا:

وبعد أن بيّن الله تعالى عقاب أكّلة الربا يوم القيامة، بيّن ما يترتب عليه في

الدنيا، فقال:

﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾.

﴿يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي: ينقصه ويهلكه ويذهب بركته.

فالربا لا خير فيه، وعاقبة المال الذي ينمو بالربا إلى البوار، وأقرب شاهدٍ

على ذلك ما تعانيه المجتمعات الربوية من آفات التضخم المالي، فالأموال

الربوية كثيرة، ولكن قيمتها الشرائية تتضاءل يوماً بعد يوم، وقد جاء في الحديث

النبي الشريف: عن ابن مسعود رضي الله عنه، رفعه: «الربا وإن كثر فإن عاقبته إلى قل»

[رواه ابن ماجه (٢٢٧٩) الحاكم (٣٧/٢) واللفظ له وصححه].

وفي مقابل محق الربا:

﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يزيد سبحانه ويبارك في الأموال التي ينقاد أصحابها لحكمه تعالى فيؤدون زكاتها، ويدفعون منها الصدقات الواجبة عليهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ أي: شديد الكفر مُصِر على استحلال المحرمات.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الآثام والمعاصي، مُتَمَادٍ بها.

فأكل الربا كفّار أثيم، يمقته الله تعالى، ويحجبه عن ساحات فضله ورحمته، ولهذا ترى أكلة الربا في همٍّ دائم، وقلق مستمر، بينما ترى المؤمنين المنقادين لشرع الله تعالى يتمتعون بأمن نفسي، وسكينة وطمأنينة وجدانية، بسبب ما يفيض الله تعالى على قلوبهم ونفوسهم من آثار رحمته وعنايته.

وإبرازاً لهذا المعنى، التفتت الآيات تتحدث عنهم، منوّهة بفضل الله تعالى

عليهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

وذلك بسبب انقيادهم لأحكام دين الله تعالى، والتزامهم بشرعه.

• إعلان الحرب على المُرابين:

ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى المؤمنين، تحثهم على ترك الربا، إذ كان الربا سائداً في معاملات الناس قبل الإسلام، وقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بتنقية المجتمع الإسلامي من هذه الآفة الخطيرة، وقد نجح نجاحاً كبيراً في هذا المجال، كما نجح بتطهيره من سائر الآفات الجاهلية التي كانت منتشرة فيه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته والاستسلام لأحكام شريعته.

﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أي: اتركوا بقايا الربا التي شرطتموها على الناس، فلا تطالبوهم بها.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم حقاً مؤمنين فإنكم تبادرون إلى طاعته وامثال أمره.

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٩).

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أي: إن لم تنقادوا لحكمه وتستجيبوا لأمره.

﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: اعلموا واستيقنوا أنكم معرضون لحرب من الله ورسوله ﷺ.

وجاء لفظ (حرب) نكرة ليفيد تعظيم أمر هذه الحرب، فهي حرب عظيمة، لا تعلمون كيفيتها، ولا وقتها، ولا وسائلها، حرب من الله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٧]، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، حرب في أموالكم وفي أجسامكم، وفي قلوبكم، وعقولكم، ونفوسكم، وفي مجتمعاتكم، وفي تسليط عدوكم عليكم... حرب مستمرة لا هوادة فيها ولا رحمة، حتى تستسلموا لأحكام الله تعالى وشريعته، وتنبوا عن مجاوزة حدوده.

وخطاب الآية بصيغة الجمع يدل على المسؤولية الجماعية للمجتمعات التي ينتشر فيها التعامل بالربا، كما أن هذا المستوى المخيف في التهديد والوعيد، الذي لم تستعمله الآيات إلا مع أكلة الربا، يدل على خطورة الربا أولاً، وعلى شدة وقسوة وتحجّر نفوس المرابين ثانياً، فلا ينقادون ويستسلمون لأحكام دين الله تعالى إلا بعد إعلان الحرب عليهم من الله تعالى ومن رسوله ﷺ.

﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أي: وتركتم التعامل بالربا.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: فلکم الحق بمطالبة المدينين والمستقرضين

برؤوس أموالكم التي دفعتموها لهم، فالإسلام شريعة الله تعالى، لا يُحابي أحداً على حساب أحدٍ، ولا ينقص حقاً لأحد مهما كان.

﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ أي: لا تَظْلِمُونَ بأخذ أيّ زيادةٍ على رؤوس أموالكم.

فالربا حرام سواء كانت الزيادة كثيرة أم قليلة، وسواء كان الاستقراض للاستثمار أم للاستهلاك، فالآية تردُّ على الذين يستحلّون قليل الربا، ويستحلّون الربا الذي يكون في قرض للاستثمار، فكل صور الربا حرام، لأن الله تعالى شرع لأصحاب الأموال أن يستردّوا أموالهم فقط دون أيّ زيادة عليها.

وقد نادى النبي ﷺ بتحريمه على الإطلاق في خطبة حجة الوداع، عندما قال فيها: «ألا وإن كلّ رباً من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ» [رواه أبو داود (٣٣٣٤)].

﴿وَلَا تَظْلِمُونَ﴾ أي: ولا يجوز للمستقرض أو المدين أن يردّ أقل مما أخذ، وإن فعل ذلك فهو ظالم، فإذا كان المدين قادراً على الوفاء، ولم يؤدّ ما عليه يعدّ ظالماً، ويجبر على الوفاء شرعاً، وإن أصرّ على المماطلة عوقب بالسجن، وللقاضي أن يبيع أمواله لوفاء دينه.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «مُظْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وإن أُتْبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِعْ» [رواه مسلم (١٥٦٤)].

وبوّب الإمام البخاري في «صحيحه» في (٤٣) كتاب الاستقراض، فقال: (١٣) باب: لصاحب الحقّ مقالٌ، ويذكر عن النبي ﷺ: «لِي الْوَاجِدِ يُحْلُ عَقوبته وعرضه».

و(اللي) بالفتح: المطل. و(الواجد) من الوُجِد بالضم، يعني القدرة.

والحديث المذكور وصله أحمد [١٨١١٠] وإسحاق في «مسنديهما»،

وأبو داود [٣٦٢٨] والنسائي [٤٦٨٩ و ٤٦٩٠] وإسناده حسن، واستدل به على مشروعية حبس المدين إذا كان قادراً على الوفاء، تأديباً له وتشديداً عليه^(١).

وهذا يدل أيضاً على أن نظام الفائدة الربوية المرتبطة بالأجل لا تجوز في الإسلام، والمدين الغني إذا تأخر عن الوفاء يُحبس تشديداً عليه، ولا توضع عليه الفوائد الربوية بسبب تأخره، كما هو الحال في تعامل الناس مع المؤسسات الربوية في هذا العصر.

• الأخلاق الإسلامية في المعاملات المالية:

وأما إذا كان المدين معسراً، لا قدرة له على الوفاء، فإنه يُنظر ويُمهّل حتى يتيسر له الوفاء، وهو ما بيّنه الله تعالى في قوله بعد آيات الربا:

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: إن وُجدَ ذو عسرة فإمهال وتأخيرٌ إلى زمن اليسار، وهو ضدّ الإعسار.

ولا يجوز في هذه الحالة لأصحاب الأموال أن يطالبوا المدين بفوائد ربوية تقابل إمهاله وإنظاره، كما كان أهل الجاهلية يفعلون، يقولون للمعسر: إما أن تقضي وإما أن تُربي. وهكذا حتى تبلغ الفوائد الربوية أضعاف الدّين المستقرض، وهو ما تفعله الدول الغنية في العصر الحاضر مع الدول الفقيرة المستقرضة، إنهم باسم المساعدات الاقتصادية الربوية، التي يقدمونها للشعوب الفقيرة، يمتصّون خيرات وجهد هذه الشعوب الضعيفة، فيزداد الفقراء فقراً وضمناً، ويزداد الأغنياء جشعاً وشرهاً وسرفاً وترفاً، ولهذا أنزل سبحانه قوله الكريم، يخاطب المُرابين في الجاهلية، الذين كانوا يأكلون الربا أضعافاً

(١) انظر: فتح الباري: ٦٢/٥.

مضاعفة بسبب عجز وضعف المدنيين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ مَضَاعِفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠] .

فالأخلاق في الشريعة الإسلامية لا تنفصل عن الأحكام، ولو كانت في المعاملات المالية، وإنظار المُعْسِر خُلُقٌ كريم ألزم الله تعالى به أصحاب الأموال الدائنين، في هذه الآية الكريمة، وهو مظهر من مظاهر التعاون في المجتمع الإسلامي، القائم - كما مرّ - على التكافل والتعاون.

ثم ارتفعت الآيات بالإنسان المسلم إلى أفق خلقي كريم أسمى من الأول، بقوله تعالى:

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بإبراء المعسر عن بعض المال، أو عن كله.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: أكثر ثواباً من الإنظار والإمهال.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعلمون ما فيه من خير كبير في الدنيا، والعاقبة الطيبة الحسنة في الآخرة.

وتدلّ الآية على أنّ إبراء المدين أمرٌ مندوبٌ إليه، أمّا إنظار المعسر فواجب لازم، وقد حثّ النبي ﷺ في عدد من الأحاديث الشريفة على التجاوز عن المعسر:

منها: ما رواه أبو هريرة ؓ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِراً فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنْكَ، فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ» [رواه مسلم (١٥٦٢)].

وطلب أبو قتادة ؓ غريماً له، فتوارى عنه ثم وجده، فقال: إِنِّي مُعْسِرٌ، فقال: قال: قال: الله، قال: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّه أَنْ يَنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيَنْفُسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ» [رواه مسلم (١٥٦٣)].

وحتى تتمكن هذه الأخلاق الكريمة في نفوس المؤمنين، حرصت الآيات الكريمة في السورة - كما لاحظنا - على ربط الأحكام الشرعية العملية بالتقوى،

وها هي الآن - كما عودتنا - تتوجه إلى المؤمنين، بعد أن حرّمت عليهم التعامل بالربا، تعظمهم وتذكّرهم بمسؤوليتهم الكبرى أمام الله تعالى يوم القيامة:

﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وهو يوم المسؤولية والحساب والجزاء.

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: ما صدر عنها من خير أو شر.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يظلمون أبداً في ذلك اليوم، فلا تنقص حسناتهم ولا تُراد سيئاتهم.

والجدير بالذكر: أنّ هذه الآية هي آخر آيات القرآن الكريم نزولاً على النبي ﷺ، بها خُتم الوحي، وانقطعت النبوة، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالٍ، ثم توفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول^(١).

قال الإمام البخاري في «صحيحه»، في (٦٥) كتاب التفسير: (٥٣) باب ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ثم ساق بسنده [٤٥٤٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا.

قال ابن حجر رحمه الله: «وجاء عنه من وجه آخر: آخر آية نزلت على النبي ﷺ: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] أخرجه الطبري من طرق عنه، وطريق الجمع بين هذين القولين أنّ هذه الآية هي ختام الآيات المنزلّة في الربا، إذ هي معطوفة عليهن»^(٢).

• توثيق الحقوق في المعاملات المالية:

ثم بيّنت الآيات بمناسبة تحريم الربا وتشريع إنظار المدين أو إبرائه، أهم الوسائل المشروعة لتوثيق الحقوق وضمان وفائها لأصحابها، بقوله تعالى:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٥٢/١.

(٢) فتح الباري: ٢٠٥/٨.

﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ مُسَوِّءٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾

﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ﴾ أي: إذا تعاملتم بالدين.

وحقيقة الدين عبارة عن كل معاملة، كان أحد العوضين فيها نقداً، والآخر في الذمة نسيئة - مؤجلاً - فإنَّ العينَ عند العرب ما كان حاضراً، والدين ما كان غائباً^(١).

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى مدة معلومة محددة، وهذا يدلُّ على وجوب أن يكون أجل الدين معلوماً في العقد قطعاً للمنازعة.

﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أي: وثّقوا عقد التعامل بالدين بالكتابة، سواء كان بيعاً أم سلماً أم قرضاً عند القائلين بجواز تأجيل القرض، لأنَّ الكتابة تحفظ الحق، وتدفع النزاع، والشريعة الإسلامية تحرص على حفظ الحقوق، وإزالة أسباب الخلاف والنزاع بين المتعاملين.

والأمر بالكتابة في الآية للإرشاد والاستحباب، لا للإيجاب، كما سيأتي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما حرم الربا أباح السِّلَمَ. وقال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجلٍ مسمًى قد أحله الله في كتابه وأذن فيه ^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المدينة، وهم يسلفون بالتمر السنتين والثلاث، فقال: «مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ ففِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ» [رواه البخاري (٢٢٤٠)].

﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي: ليكتب العقد بين الدائن والمدين كاتبٌ بالحق من غير ميل إلى أحد الجانبين.

﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ أي: ولا يمتنع كاتب أن يكتب كتاب الدين.

﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أي: فكما أنعم الله عليه وعلمه الكتابة، فعليه أن يستخرها لفائدة الناس عند الحاجة إليها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أي: وليكن المُمْلِي مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ؛ لَأَنَّهُ بِالْإِمْلَاءِ يَقِرُّ عَلَى نَفْسِهِ بِالْحَقِّ، فالشريعة الإسلامية حريصة على حقوق الناس وتوثيقها، ولهذا أوصاه سبحانه بالتقوى.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: وعلى المُمْلِي أن يتق الله الذي هو خالقه ومالكة ومُربيه، فَإِنَّهُ مَسْئُولٌ أَمَامَهُ، فعليه ألا يمتنع عن الإقرار بما عليه من حق.

﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي: ولا ينقص من الحق الواجب عليه شيئاً.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ أي: كان مبدراً للمال مُفسِداً له.

وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الشريعة الإسلامية تمنعه من التصرف في ماله، وَتَحْجُرُ عَلَيْهِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾ أي: كان ضعيفاً بسبب صغر أو جنون.

﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾ أي: كان لا يستطيع الإفصاح والبيان بسبب خرس أو حُبسة في لسانه، كالفأفة والثأناة.

﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ، بِالْعَدْلِ﴾ أي: فليملل صاحب الحق لأنه أعلم بحقه.

أو: فليملل وليُّ الذي عليه الحق في حال عجزه عن الإملاء بنفسه.

ثم أضافت الآية إلى توثيق الحق بالكتابة، وسيلة ثانية للتوثيق، وهي الشهادة بقوله تعالى:

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أي: اطلبوا أن يشهد على الحق شاهدان

من المسلمين، فلا تُقبل شهادة الكافر على المسلم، وتُقبل شهادة الكافر على الكافر فقط.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فليشهد رجل وامرأتان.

﴿مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ﴾ وهم الذين تعرفون أمانتهم وعدالتهم.

ثم بينت الآية الحكمة من جعل شهادة المرأتين تعدل شهادة الرجل الواحد

في المعاملات المالية، بقوله تعالى:

﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: أن تنسى إحداهما، إذ تغلب على المرأة

عاطفتها.

﴿فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ أي: فتذكرها الأخرى.

وأفاد التصريح بـ ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ مرة ثانية، والعدول عن الضمير، عدم

اختصاص الضلال بواحدة بعينها، والتذكير بالأخرى^(١).

فلا يضيع شيء من الحق، لأنَّ الإسلام حريصٌ على إيصال الحقوق إلى

أصحابها كاملةً، ولهذا جعل شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد، حيطةً

للحقوق، وحرصاً عليها، ومما يؤكد ذلك: أنه تُقبل شرعاً في الإسلام شهادة

المرأة وحدها في الموضوعات الخاصة بالنساء، والتي يكون اهتمامهنّ بها

أكثر، ولا يطلع عليها عادةً غيرهنّ، كالولادة والبكارة والثيوبة.

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أي: ولا يمتنع الشهاداء عن تحمّل الشهادة وأدائها، فالآية جمعت أمرين على جهة الندب^(١).

ثم بيّنت الآية فوائد توثيق الدين بالكتابة، وهي توصي المتعاملين به، أن يستمروا على ذلك، بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ أي: لا تملّوا ولا تضجروا من كتابة الدين وبيان أجله، سواء كان قليلاً أم كثيراً.

﴿ذَلِكَمُ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل عند الله تعالى، لأنه سبحانه هو الذي شرعه لكم وحثكم عليه.

﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: وأثبت للشهادة، وأعون على إقامتها وأدائها بشكل صحيح.

﴿وَأَذِّنْ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ أي: وكتابة الدين تجعلكم أقرب إلى عدم الشك في مقدار الحق والأجل والشاهد.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أي: تتم فيما بينكم يداً بيد من غير تأجيل.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أي: فلا حرج عليكم في ترك كتابتها. وكما أوصت الآية بكتابة الدين والإشهاد عليه، أوصت أيضاً بالإشهاد على البيع:

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ لأنّ الشهادة على البيع أحفظ للحق، وتنفي أسباب الاختلاف والخداع والتنازع.

وكما حرصت الآية على توثيق الحقوق وضمن وصولها إلى أصحابها، حرصت أيضاً على حقوق الكاتب والشاهد، وعدم الإضرار بها، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أي: لا ينبغي الإضرار بالشاهد والكاتب، بأن

يمنع الكاتب من أجرة كتابته، أو يحرم الشاهد من مؤنة وكلفة حضوره، فذلك إضرار بهما.

ويمكن أيضاً حمل الآية على معنى آخر، وهو: لا يضار كاتب بالامتناع عن الكتابة أو تحريفها، ولا يضار الشاهد بكتمان الشهادة أو تغييرها.

﴿وَأَن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أي: إن تفعلوا ما نهيتهم عنه من الضرار، فإنه خروج عن الطاعة وإثم لا حق بكم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالتزام ما شرع لكم من أحكام، فإنه تعالى ما شرعها إلا لمصلحتكم.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

• توثيق الحقوق بالرهن:

ثم شرعت الآيات وسيلة ثالثة لتوثيق الحقوق، وهي الرهن، بقوله تعالى:

﴿وَأَن كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَهُ فَإِنْ أَتَيْنَ بِكُم بَعْضُ الْيَوْمِ الَّذِي أَوتِيتُمْ أَمْنتُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ عَلَيْهِ فَرِهْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ بِكُم بَعْضُ الْيَوْمِ الَّذِي أَوتِيتُمْ أَمْنتُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ عَلَيْهِ فَرِهْتُمْ فَإِنْ أَتَيْنَ بِكُم بَعْضُ الْيَوْمِ الَّذِي أَوتِيتُمْ أَمْنتُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ عَلَيْهِ فَرِهْتُمْ﴾

﴿وَأَن كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَهُ﴾ أي: إن كنتم مسافرين، وتعاملتم بالدين، ولم تجدوا كاتباً يكتبه لكم، فخذوا من المدين رهناً، حتى يؤدي ما عليه من حق.

ومن المعلوم أن أخذ الرهن لتوثيق الحق جائز في السفر والحضر، وعند وجود الكاتب والشاهد أو عند عدمهما، وخرج الكلام في الآية مخرج الغالب لا الشرط، إذ الغالب أن صاحب الحق يحتاج إلى قبض الرهن ممن عليه الحق في السفر، حيث لا يجد كاتباً ولا شاهداً، وقد ثبت في [صحيح البخاري (١٤٦١) و(٤٤٦٧)]: «أن النبي ﷺ توفي ودرعته مرهونة».

ثم بين تعالى أن وسائل التوثيق هذه، التي شرعها لنا في المعاملات المالية

الجارية بيننا، ليست لازمة واجبة، فعندما تشيع الثقة بين المتعاملين لا بأس أن يتبايعوا ويتعاملوا بالدين، من دون كتابة ولا إظهار ولا رهن، مما يدل على سماحة الشريعة الإسلامية، وأنها لا تضع القيود على المعاملات بين الناس، إلا حرصاً منها على حفظ حقوقهم، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: ولم يستوثق بالكتابة والشهادة والرهن.

﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ أي: ينبغي أن يكون المدين عند ظن الدائن الذي وثق به، وعليه أن يؤدي الحق الذي أؤتمن عليه.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فهو سبحانه يعلم السر وأخفى.

وقد أمرنا الله تعالى بترك الخيانة وأداء الأمانة، ومن الأمانة أداء الشهادة، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: إذا دُعيتُم إلى أدائها، فقد يؤدي كتمانها إلى ضياع الحق، فيقع كاتمها في الإثم:

﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ﴾ أي: فإنه يآثم قلبه، لأنه يكتُم الشهادة في قلبه.

وَإِثْمُ الْقَلْبِ أخطر أنواع الإثم، لأنَّ صلاح سلوك الإنسان وفساده متوقف على صلاح القلب وفساده، كما مرَّ في الحديث النبوي الشريف: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» [رواه مسلم (١٥٩٩)].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

● إسلام الصحابة لله:

وجاء في ختام السورة بيان مسؤولية الإنسان الكاملة عن أعمال جوارحه الظاهرة والخفية، بقوله تعالى:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلقاً وملكاً وتديراً.

﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: إن تُظهِروا ما في أنفسكم من سوء أو تخفوه، فإنه سبحانه يعلمه ويسألكم عنه.

﴿فَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده بفضلِهِ ورحمته.

﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعدله سبحانه.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمشيئته سبحانه نافذة، وقدرته كاملة.

قال ابن كثير رحمته: «يخبر الله تعالى أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه الآية بمزيد على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيقتها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم»^(١).

وما قصده ابن كثير رحمته جاء في الحديث النبوي الشريف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، وقالوا: أي رسول الله، كُلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها! .

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢٥٦/١.

قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ».

قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِمْ وَفَكَأَلُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: «نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: «نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: «نعم» ﴿وَاَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: «نعم» [رواه مسلم (١٢٥)].

وظهر لنا من هذا أن من أسباب يسر الشريعة الإسلامية وسماحتها، استسلام الصحابة لأمر الله تعالى وانقيادهم لأحكامه بينما كان التشديد في شريعة التوراة بسبب عناد بني إسرائيل وتعتتهم، وعدم انقيادهم لأحكام دين الله تعالى، وتقاعسهم عن تنفيذها، كما تقدّم في قصتهم مع البقرة التي أمروا بذبحها [انظر: سورة البقرة: ٦٧ - ٧١].

وظهر لنا بهذا أيضاً الاتفاق والاتساق بين آيات السورة الكريمة، وهي أطول سورة في القرآن الكريم، من أولها إلى آخرها، وأنها حقاً جاءت لبيان حقيقة الإسلام لله تعالى، وكيف يكون، وبيان أثره في سهولة التشريع وتيسيره، فرضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ؛ فإن في إسلامهم لله تعالى، وانقيادهم لأحكامه: أثراً كبيراً في يسر الشريعة الإسلامية وسماحتها، فهم حملتها والمؤمنون عليها بعد رسول الله ﷺ، والمجاهدون الأولون في سبيل نشرها بين الأمم والشعوب، وهم أيضاً المسارعون إلى تنفيذ أحكامها، والمستسلمون لله

تعالى، والراضون بما رضىه تعالى لهم، رضى الله عنهم وأرضاهم، ولهذا أثنى الله على إسلامهم واستسلامهم بقوله:

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾.

قال القرطبي رحمته الله: «مدحهم الله وأثنى عليهم في هذه الآية، ورفع المشقة في أمر الخواطر عنهم، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من ذمهم وتحميلهم المشقات، من الذلة والمسكنة والانجلاء، إذ قالوا: سمعنا وعصينا، وهذه ثمرة العصيان والتمرد على الله تعالى، أعاذنا الله من نقمه بمثله وكرمه»^(١).

وقوله تعالى:

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ شهادة ربانية رفيعة دلت على صحة إيمانهم عليهم السلام وصدق يقينهم، ذكر الله تعالى فيها إيمانهم معطوفاً على إيمان الرسول عليه السلام.

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ﴾ الذين أخبر الله سبحانه عنهم، فهم من الغيب الذي دلّ عليه الخبر الصادق، كما مرّ في أول السورة [٣]: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

﴿وَكُتُبِهِ﴾ أي: كتبه التي أنزلها على رسله، وذكرها سبحانه في القرآن الكريم، كالتوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم.

﴿وَرُسُلِهِ﴾ أي: الذين أرسلهم سبحانه إلى عباده، من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ أي: لا نفرّق بينهم بالإيمان، فنؤمن ببعضهم ونجحد رسالة بعض، كما فعل اليهود والنصارى، فقد حكم الله عليهم بالكفر، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا

تُؤْمِنُ بَعْضٌ وَنَكُفِّرُ بَعْضٌ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٥٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٣﴾ [النساء].

أما المسلمون الذين يؤمنون بأن الإسلام لله تعالى هو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، فقال سبحانه فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

ثم أخبرت الآية عنهم أنهم أضافوا إلى إيمانهم وتصديقهم، إعلانهم الانقياد والإذعان لدينه سبحانه وشريعته:

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: نسألك يا ربنا أن تغفر لنا، فنحن مفتقرون إلى رحمتك وإحسانك ومغفرتك، وإن مرجعنا يوم القيامة إلى حكمك.

ولا شك أن هذا إقرار منهم بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، وبهذا يكونون قد جمعوا أركان الإيمان الأساسية، التي ذكرها تعالى في قوله: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والتي تقدم ذكرها أيضاً في آية البر: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَقَدْ أَلْمَسَ الْبَرَّ وَالْمَرْغَبَ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾ [البقرة: ١٧٧].

• التكليف منوط بالوسع:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما تتسع له قدرتها، ولا تضيق

فالوسع: اسم لما يسع الإنسان ولا يضيق عليه^(١).

فالإنسان يستطيع أن يقوم بما كُلف به، وبما هو أكثر منه، وهو مبدأ أساس من مبادئ التكليف في الشريعة الإسلامية، تمتاز به على غيرها من الشرائع الإلهية، فهي شريعة رحمة وسماحة، التكليف فيها منوط بالوسع لا بالطاقة، وهي أعلى ما يستطيع الإنسان القيام به.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: لها ثواب ما كسبت من الطاعات والحسنات.

﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: وعليها مسؤولية ما اكتسبت من المعاصي والسيئات.

وجاءت العبارة في الحسنات بـ ﴿لَهَا﴾ من حيث هي مما يفرح المرء بكسبه ويسرُّ بها، فتضاف إلى ملكه، وجاءت السيئات بـ ﴿عَلَيْهَا﴾ من حيث هي أثقالٌ وأوزارٌ ومتحملات صعبة^(٢).

وأفاد قوله تعالى في الطاعات: ﴿كَسَبَتْ﴾ شمولها بفضلها تعالى لكسب القلب وقصده فعل الخيرات والطاعات، فإنَّ صاحبه يُثابُّ عليه ولو لم يفعله، وأمَّا في جانب المعاصي فلا مؤاخذه للإنسان على همِّه وعزمه، حتى يباشرها فعلاً، ولهذا قال تعالى فيها: ﴿اَكْتَسَبَتْ﴾.

وجاء في الحديث النبوي الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأُمِّي مَا حَدَّثْتُ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ» [رواه مسلم (١٢٧)].

وقال ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمَلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا» [رواه مسلم (١٢٨)].

ثم علّمنا سبحانه كيف نلجأ إليه داعين ضارعين، فما أعظم رحمته بنا جلّ

(١) تفسير الخازن: ٤٥١/١.

(٢) تفسير القرطبي: ٤٣١/٣.

وعلا! يعلمنا كيف نسأله، ويجعلنا نقفُ على أبواب فضله ورحمته، ليتفضل علينا بفيوضات إحسانه وكرمه:

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تؤاخذنا إن صدر منا بحكم ضعفنا وقصورنا في حال النسيان والخطأ شيء من المخالفة والعصيان.

وقد فعل سبحانه ذلك، كما مرّ في [حديث مسلم ١٢٧ و ١٢٨]، وقرّره ﷺ في عدد من الآيات الكريمة، كقوله سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي: الْخَطَأَ، وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» [رواه ابن ماجه (٢٠٤٥) وابن حبان (٧١٧٥)].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ أي: ثقلاً في التكليف والتشريع.

وقد فعل سبحانه ذلك، فجاءت أحكام الشريعة الإسلامية سهلة ميسرة، لا حرج فيها.

﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ كبنِي إسرائيل، الذين شدد الله تعالى عليهم، كما تقدّم.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من البلاء الشديد، والمِحن الكبيرة بسبب معاصينا.

وكأنهم سألوه تعالى أن يعاملهم بفضله ورحمته وعفوه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ولهذا سألوه بعد ذلك العفو والمغفرة والرحمة:

﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ بالتجاوز عن ذنوبنا فيما بيننا وبينك.

﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ بسترها، فلا تفضحنا فيما بيننا وبين عبادك.

﴿وَارْحَمْنَا﴾ بحفظنا من الذنوب والمعاصي، وتوفيقنا إلى طاعتك وعبادتك، فلا غنى لنا عن رحمتك.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: متولّي أمورنا وناصرنا، فلا حول لنا ولا قوة إلّا بك.

﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا نصر لنا عليهم إلا بتأييدك ومعونتك.
اللهم آمين.

وقد ورد في فضل هاتين الآيتين في خاتمة سورة البقرة، عددٌ من الأحاديث النبوية الشريفة:

مرّ معنا منها: حديث ابن عباس رضي الله عنهما: بينما جبريل قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا بابٌ من السماء فُتِحَ اليومَ، لم يفتح قطُّ إلا اليومَ. فنزلَ منه ملكٌ، فقال: هذا ملكٌ نزلَ إلى الأرضِ، لم ينزل قطُّ إلا اليومَ. فسلمَ وقال: أبشِرْ بنورينِ أُوتيتهُما، لم يؤتِهُما نبيٌّ قبلكَ، فاتحة الكتابِ وخواتيمِ سورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أعطيتُهُ. [رواه مسلم (٨٠٦)].

ومنها أيضاً: حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ بالآيتينِ مِنْ آخرِ سورة البقرة في ليلةٍ كَفَتاهُ» [رواه البخاري (٥٠٠٩)].

وقوله: «كَفَتاهُ» أي: أجزأتا عنه من قيام الليل بالقرآن، وقيل: معناه كَفَتاه كلَّ سوءٍ، وقيل: دفعتا عنه شرَّ الإنس والجنِّ، وقيل: من الآفاتِ، ويحتمل من الجميع^(١).

اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.





تفسير سورة آل عمران التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مُقَدِّمَةٌ

فِي سَبَبِ نَزُولِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

• وفد نجران:

أجمع علماء التفسير والسيرة النبوية الشريفة على أنَّ صدر سورة آل عمران نزل بسبب قدوم وفد نصارى نجران^(١) على النبي ﷺ في المدينة المنورة، وأنَّ قلب السورة نزل بمناسبة غزوة أحد.

وذكر ابن هشام في «السيرة» أمرَ قدومهم، ولكنّه لم يذكر تاريخه، فقد ذكره في سياق مواقف اليهود والنصارى والمنافقين من النبي ﷺ بعد الهجرة، التي ذكرها مجملّة قبل أن يشرع في سرد الأحداث التي جرت بعد الهجرة، فقال: قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران، ستون ركباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر منهم ثلاثة نفرٍ إليهم يؤول أمرهم، وهم:

(١) نجران: وادٍ يقع في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية على حدود اليمن، اشتهر بسبب موقعه وكثرة مياهه وخصبه، ومركزه مدينة نجران التاريخية القديمة.

- العاقب: أميرُ القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح.

- والسيد: لهم ثمالهم (مرجعهم)، وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم.

- وأبو حارثة بن علقمة: أحدُ بني بكر بن وائل، أسقفهم وحبرهم وإمامهم، وصاحب مدراسهم^(١).

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، حتى حسنَ علمه في دينهم، فكانت ملوكُ الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا له الكرامات، لِمَا يبلِّغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

قال ابن هشام: وبلغني أنَّ رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم، فكُلَّمَا مات رئيسٌ منهم فأفضت الرئاسة إلى غيره، خُتِمَ على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي كانت قبله ولم يكسرهما، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي، فعثر، فقال له ابنه: تعس الأبعد، يريد النبي ﷺ، فقال له أبوه: لا تفعل، فإنَّه نبيٌّ، واسمُه في الوضائع، يعني الكتب. فلمَّا مات لم تكن لابنه هِمَّةٌ إلا أن شدَّ فكسر الخواتم، فوجدَ فيها ذكر النبي ﷺ، فأسلمَ فحسن إسلامه، وحجَّ، وهو الذي يقول:

إِلَيْكَ تَعْدُو قَلْقاً وَضِيئُهَا^(٢)

مُعْتَرِضاً فِي بَطْنِهَا جَنِيئُهَا

مُخَالَفاً دِينَ النَّصَارَى دِينُهَا

وذكر ابنُ هشام روايةً أخرى تدل على أنَّ الحادثة حدثت مع أخيه كرز بن علقمة، وأنَّه قال لأخيه عندما سأله عن سبب عدم إسلامه: ما صنع بنا هؤلاء

(١) المدراس: مدرسة للعلوم الدينية.

(٢) الوضين: حزام الناقة.

القوم (الروم)؛ شَرَّفونا ومَوَّلونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلتُ نزعوا منا كلَّ ما ترى، فأسلمَ كِرْزُ بعد ذلك، وحدث عنه هذا الحديث.

ولمَّا قدموا على رسول الله ﷺ، فدخلوا عليه مسجده حين صَلَّى العصر، وعليهم ثياب الحبرات^(١)، وجُبب وأردية^(٢)، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، فقال بعض الصحابة: ما زأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلُّون، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» فصلوا إلى المشرق^(٣).

• تاريخ قدومهم:

وإغفال ابن هشام ذكرَ تاريخ قدومهم جعل بعض المُحدِّثين من المفسرين يرى احتمال قدوم الوفد في وقت مبكر جداً من العهد المدني، فقال:

«فرغم ما يبدو لأول وهلة من عدم احتمال ذلك، استناداً إلى ما هو معروف من ظروف السيرة النبوية، ومن كون النبي ﷺ إنما أرسل رسله وكتبه إلى أطراف الجزيرة وخارجها في السنة السادسة من الهجرة، إلا إذا كان خبرُ انتصار النبي ﷺ على قريش في بدر، قد أدهشَ الناس، وجعل رؤساء نصارى نجران يفدون على النبي ﷺ لاستطلاع النبأ، فإذا صحَّ هذا، وصحَّ معه أنَّ هذا الوفد قد قدم إلى المدينة قبل وقعة أحد، فيكون وضع السورة في الترتيب بسبب ذلك.

وإذا صحَّ خبر شهادة أبي سفيان على العهد الذي كتبه النبي ﷺ لنصارى نجران بعد نحو سنة من الفتح المكي، فيكون ذلك حادثاً ثانياً.

وقد ذكرت الروايات أنَّ السنة التاسعة للهجرة كانت سنة قدوم الوفود من

(١) الحبرات: من ثياب اليمن.

(٢) جبب وأردية: جمع جُبَّة ورداء.

(٣) عن سيرة ابن هشام، بتصرف واختصار.

كافة أطراف الجزيرة . . . ومن المحتمل أن يكون وَفَدَ عليه فِيمَنْ وفد جماعة من نصارى نجران، فكتب لهم النبي ﷺ العهد المروي^(١).

ولجأ إلى هذا التكلف صاحب «التفسير الحديث» لأنه بنى تفسيره على أسباب النزول، ولهذا يريد أن يكون قدوم وفد نجران قريباً من غزوة أحد التي أنزل الله فيها ما يقارب من ستين آية من آيات سورة آل عمران.

ولا حاجة بنا إلى كل هذا التكلف، فليس من الضروري أن يكون ترتيب الآيات في السورة تابعاً لترتيب نزولها أو لأسبابه، فكثيراً ما نرى آيات متقدمة في الذكر ومتأخرة في النزول، فترتيب الآيات في السور مستقل عن ترتيب نزولها، ولا مانع أن يكون صدر سورة آل عمران الذي نزل بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران في العام التاسع من الهجرة متأخراً في النزول عما بعدها من آيات نزلت في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة.

المهم وحدة موضوع آيات السورة، والاتساق والاحتباك فيما بينها، رغم اختلاف أوقات نزول الآيات، وتعدد أسبابه. وهذا في الحقيقة، وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وإن هذا التفسير ليستهدف إظهار هذا الوجه من وجوه الإعجاز القرآني بشكل عملي وموضوعي.

والجدير بالذكر أن ابن كثير رحمه الله قد أكد أن قدوم وفد نجران كان في سنة تسع، فقال: والفرض أن وفودهم كان في سنة تسع، لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ، وآية الجزية إنما نزلت بعد الفتح^(٢).



(١) انظر: التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة: ٧١/٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٨٩/١.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

القرآن والإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ
 التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
 وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي
 يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ
 الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا
 تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا
 بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ
 لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ
 الْوَعْدَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ
 هُمُ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتْغَابَاتٌ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ
 كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ
 مِثْلَهُمْ رَأًى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ
 ﴿١٣﴾ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ
 حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوْتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٦٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
وَالْقَنَاطِطِ وَالْمُغْفِرِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿٦٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ
وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَمَا
اختلفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلِمْتُمْ فَإِنْ أَسَلِمُوا فَقَدْ أَهْبَكُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٧٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَعْدَ حَقِّهِمْ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٧٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ
﴿٧٣﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٧٤﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعِ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ
وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٥﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي
الَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧٦﴾ لَا
يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا
أَنْ تَخْشَوْا مِنْهُمْ تُقْلَهُ وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٧٧﴾ قُلْ إِنْ تَخْشَوْا مَا فِي
صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٧٨﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ
أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٧٩﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي
يُحِبِّكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٠﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾

• مَوْضُوعُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ:

برزَ موضوع السورة في أول آياتها، في قوله تعالى: ﴿الَمْ ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى
 لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ .

﴿الَمْ ١﴾ .

قوله تعالى: ﴿الَمْ ١﴾ من الحروف المقطعة، ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في
 معانيها، وكثرة الأقوال تدل على حقيقة هامة، هي أَنَّ الإنسان مهما تدبر كلمات
 الله في القرآن الكريم، فلن يقف على معانيها كلها، ولن يحيط بأسرارها، ولهذا
 ذهب أكثر علماء التفسير إلى القول بأنَّ معاني هذه الحروف ممَّا استأثرت الله تعالى
 به، فهي من الآيات المتشابهة، التي سيأتي الحديث عنها.
 وأما الذين فسروها، فذهب أكثرهم إلى أنَّها ذُكرت بياناً لإعجاز القرآن،
 وعَجَز الخلق عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون
 بها.

ولقد انتصر ابن كثير رحمته الله في مقدمة تفسيره لهذا الرأي، فبعد أن ذكره وذكر
 القائلين به من العلماء، قال: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يُذكر
 فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع
 وعشرين سورة؛ مثل: ﴿الَمْ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿١﴾ [البقرة]... وغير ذلك
 من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر»^(١).

ولو أمعنا النظر في آيات سورة آل عمران لوجدنا ما يدل على صحة ما
 ذكره ابن كثير، فالقرآن الكريم أحد المحاور الرئيسة لموضوع السورة، كما
 سيأتي معنا.

(١) انظر: تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل)، في تفسيرنا الموضوعي
 هذا.

• الحي القيوم:

بدأت السورة بقوله تعالى على وجه الحزم والجزم:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

فهو سبحانه وحده المستحق للعبادة والطاعة لا غيره، ووقع الاسم الجليل ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، وجاء ما بعده خبراً له، و﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ خبر آخر، أي: هو الحي القيوم. ومعنى ﴿اللَّهُ﴾ المعبود و﴿الْحَيُّ﴾ ذو الحياة الحقيقية التي لا موت معها^(١).

فحياته سبحانه صفة قائمة في ذاته المقدسة، تدل على كماله ووجوده، وهي غير مكتسبة كحياة المخلوقات، وغير مسبقة بعدم، ولا يلحقها فناء وانتهاء، ولهذا ذهب بعضهم إلى أن معنى ﴿الْحَيُّ﴾ الباقي الذي لا سبيل للموت والفناء عليه^(٢).

فهو سبحانه الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، وهو لهذا منزلة عن أن يكون له ولد، لأن الولد يكون لمن يلحقه الزوال والفناء، فيكون الولد امتداداً لوجوده بعد موته وفنائه، والله سبحانه يتنزه عن ذلك، فهو ﴿الْحَيُّ﴾ أزلاً وأبداً. ومعنى ﴿الْقَيُّومُ﴾ القائم بذاته، فلا يحتاج - جلّ وعلا - إلى أحد، والمقيم لغيره، فكل ما سواه قائم به، يستمد وجوده وقيامه منه سبحانه، فجميع المخلوقات مفتقرة إلى الله ﷻ، وهو غني عنها، ولا قيام لها ولا وجود من دون أمره ومشيتته، فهو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية^(٣).

وهذا أيضاً ينفي أن يكون له ﷻ شريك، أو صاحبة، أو ولد، لأنه القيوم

(١) نظم الدرر: ٢٠٥/٤.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢/٢.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٣٠/١.

بنفسه والقائم على كل نفس سواه، تقدست ذاته، وتباركت أسمائه، وتسامت صفاته.

وقد وردت بعض الأحاديث الشريفة تدلُّ على أنَّ اسمَ الله الأعظم في قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾:

فعن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران]: «إنَّ فيهما اسمَ الله الأعظم» [رواه أحمد (٤٦٢/٦)].

• الخلق والأمر:

وقيامه سبحانه على الخلق ليس قاصراً على إيجادهم وإمدادهم، فهو سبحانه قائمٌ عليهم بالأمر أيضاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وبلَّغهم سبحانه أمره بوساطة رسله وكتبه، وهو ما أخبر عنه في قوله جل وعلا، في معرض بيان فضله على خلقه، مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ﴾ أي: نزل عليك القرآن على التدرج بالحق الثابت الذي لا يتغيَّر ولا يتبدل، وكل ما يخالفه باطل.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: يشهد بصدق ما أنزل الله تعالى قبله من الكتب.

فالقرآن الكريم هو المرجع الذي ينبغي الرجوع إليه لمعرفة صحة الكتب التي يدعى أنَّ الله تعالى أنزلها، لأنه خاتم الكتب، وقد تكفل الله تعالى بحفظه، فلا يلحقه تغيير ولا تبديل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ^(١).

وقد جعل الله تعالى القرآن الكريم شاهداً ومؤتمناً على الكتب التي أنزلها قبله، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، فإن اسم المهيمن يتضمن معنى الأمين، والشاهد، والحاكم على كل كتاب قبله، وهذا يدل على أن شريعة الإسلام ناسخة لكل الشرائع الإلهية التي أنزلها الله تعالى قبلها ^(٢).

وقد شهد القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل التوراة والإنجيل، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٢٠﴾ مِن قَبْلِ هَٰذَا لِلنَّاسِ﴾ أي: أنزلهما لهداية الناس الذين أنزلا إليهم.

فالمراد بالناس بنو إسرائيل، الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل.

• الفرقان:

وقال بعد ذلك:

﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: القرآن الكريم، الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، فهو الفرقان لقوله ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ودلّ ذكره مرة ثانية في الآية بهذه الصفة (الفرقان) على أنه المرجع لجميع الناس، لمعرفة الدين الصحيح، الذي تعبدهم الله تعالى به، ففيه كلمة الفصل بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، ولا يجوز بعد نزوله الرجوع إلى غيره من الكتب، فالفرقان في القرآن لا في غيره، بعد أن أنزله الله تعالى مصدقاً للكتب

(١) انظر: تفسير سورة الحجر (الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

السابقة ومهيماً عليها. ولا يقبلُ الله مِنْ أَحَدٍ دِيناً غير دين الإسلام الذي دعا إليه القرآن، وسيأتي معنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله أيضاً: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فالقرآن ناسخ لكل ما سبقه من الكتب والشرائع الإلهية، ولا يقبل الله إلا دين الإسلام، وشريعته شريعة القرآن، ذلك هو الموضوع الأساس الذي تدور سورة آل عمران في فلكه، كما سيظهر لنا من خلال آياتها الكريمة. ومن يُعرض عن رسالة القرآن ويكذبُ بآياته فهو كافرٌ، مهما كان الدين الذي يتمسك به:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ في القرآن الكريم وفي الكتب المنزلة من قبله.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بسبب كفرهم وإعراضهم عن القرآن.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿ذُو أَنْقَامٍ﴾ ذو سطوة وتسلط، يعاقب من يشاء بجنايته.

وأي جناية أعظم من تكذيب آياته تعالى، ووصفه جل وعلا بصفات لا تليقُ بكماله وجلاله، ووحدانيته، وقيوميته، وكمال علمه، وقدرته؟! .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ .

فله سبحانه كمال العلم المحيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية.

• التصوير في الأرحام:

وهو سبحانه قائم عليكم منذ بداية وجودكم:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: هو الذي يصوركم وأنتم في أرحام أمهاتكم، فيعطي كل واحد منكم صورته وملامحه المميزة له عن غيره،

كما قال ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ أَكْزَبُ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝﴾ [الأنعام: ٧].

فصورتك التي أنت عليها، وما تحمل من خصائص وميزات تميزك عن غيرك، وتبرز هويتك وحقيقتك المتميزة، هي من صنع الله تعالى وحده، الذي يتولى تصوير كل المخلوقات بمحض إرادته، ومطلق مشيئته، فالمصور من أسمائه الحسنی: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤] فلا يستحق العبادة غيره:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد مع الحكمة التامة.

وفي هذا رد لشبهات النصارى في عيسى عليه السلام، فالله هو الذي صور عيسى في رحم أمه مريم، كما صور سائر المخلوقات، فهو مخلوق من خلق الله تعالى، وعبد من عبده، وليس إلهاً أو ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

• المحكم والمتشابه:

ثم بيّنت الآيات بطلان الشبهة التي تمسك بها وفد نصارى نجران، وهي وصف القرآن الكريم لعيسى بأنه كلمة الله وروح منه، قال ﷻ:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ واضحة المعنى، ظاهرة الدلالة، محكمة العبارة، محفوظة من الاحتمال والاشتباه^(١).

﴿هُنَّ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ أي: هُنَّ الأصل والعمدة في القرآن، فغيرها يُردُّ إليها في فهم آياته، ويرجع إليها عند الاشتباه^(١).

﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٍ﴾ أي: وفي القرآن آياتٌ أخرى، تحتُمِلُ دلالتها موافقة الآيات المحكمة، وقد تحتُمِلُ شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد^(٢).

فمراد الله تعالى لا يتعارض ولا يختلف في كل آيات القرآن الكريم، إن ربي على صراط مستقيم.

ويدلُّ قوله تعالى في المحكمات: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ أنها تشتمل على كل ما يُحتَاجُ إليه في الدعوة من أصول الاعتقاد، والعبادة، والحلال والحرام، والأخلاق، والوعد، والوعيد، والأخبار، والقصص، والأمثال، وغير ذلك.

وأما المتشابهات: ففيها ما استأثر الله تعالى بعلمه، كوقت الساعة وأشراطها، والروح، والحروف المقطعة في أوائل بعض السور، وآيات صفات الذات الإلهية، التي يقصُرُ المخلوقون عن الإحاطة بكنهها وحقيقتها، فنؤمن بشوئها لله تعالى على المعنى اللائق به ﷻ، دون تعطيل لها، ولا تشبيه لله تعالى بخلقه.

• القلوب الزائفة:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميلٌ عن الحق، ومجانبةٌ له.
﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ﴾ أي: يتمسكون بالمتشابه من آيات القرآن وحده، ويتعلقون به، ولا يردونه إلى ما يطابقه من الآيات المحكمات، كي يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، ويُعرضون عن المحكم، لأنه دافعٌ لباطلهم وزيفهم، وحجة عليهم.

ولهذا بيَّن سبحانه أغراضهم الخبيثة الفاسدة في تمسكهم بالمتشابه، فقال:

(١) تفسير أبي السعود: ٣/٢؛ ومختصر تفسير ابن كثير: ١/٢٦٤.

(٢) انظر: المختصر: ١/٢٦٤.

﴿اَبْتَغَاءَ الْفَتْنَةِ﴾ أي: طلباً لفتنة الناس عن دينهم.

﴿وَابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ وطلباً لتأويله حسب ما يشتهون من التأويلات الزائفة الباطلة.

وهو ما فعله نصارى نجران، عندما احتجوا لضلالهم وزيفهم بأن القرآن ذكر بأن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وأعرضوا عن قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقوله أيضاً الذي سيأتي معنا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ [التيساء: ١٧٢].

وغيرها من الآيات المحكمات الصريحة الواضحات التي تدل على أن عيسى ﷺ عبد لله تعالى، ورسول من رسله، وخلق من خلقه.

فالواجب رد الآيات المتشابهة إلى المحكمة لفهم حقيقة معناها، والوقوف على مراد الله تعالى منها، لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى لا تعارض فيه، يفسر بعضه بعضاً، ويشبه بعضه بعضاً، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًى تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقوله سبحانه عن عيسى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ الآية [التيساء: ١٧١] يشبه قوله ﷺ في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

فإضافة الروح إلى ذاته المقدسة إضافة تشريف وتكريم، مثل: بيت الله، وناقة الله، أو إضافة اختصاص، لأنه سبحانه استأثر بعلم حقيقة الروح، فلا يعلم حقيقتها إلا هو ﷺ: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

والمراد من وصفه لعيسى بأنه كلمته: الكلمة التكوينية التي خلقه الله تعالى بها، دل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

• الراسخون في العلم:

فلا يستطيع أحد أن يقطع بالمعنى المراد للآيات المتشابهات بمعزل عن الآيات المحكمات، ما دامت الآيات المتشابهات تحتل عدّة معانٍ، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يعلم حقيقة المعنى المراد من المتشابهة استقلالاً وابتداءً إلا الله تعالى.

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي: الثابتون في العلم، المتمكنون منه، الذين جمعوا في قلوبهم قوة الإيمان ورسوخ العلم، يقولون: آمنا بالقرآن الكريم.

﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ أي: كل من المحكم والمتشابه حقّ وصدق من كلام ربنا جل وعلا، فكل واحد منهما يصدق الآخر، ويشهد له، وليس شيء من عند الله بمختلف أو متعارض: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فالراسخون في العلم يردون المتشابهة إلى المحكم، ولا يحاولون تأويل المتشابهة بمعزل عن المحكم، وإذا لم يجدوا في المحكم ما يبيّن المعنى المراد من المتشابهة توقفوا عن الخوض في معناه، وقالوا: الله أعلم بمراده وأسرار كتابه. ولهذا توقّف كثير من علماء التفسير عن الخوض في معاني الحروف المقطعة التي في أوائل بعض السور، وقالوا: إنّها من الآيات المتشابهة التي لا يعلم حقيقة معناها إلا الله تعالى، وكذلك فعل علماء السلف في بعض آيات الصفات، فقد صدّقوا بما أثبت الله تعالى فيها لنفسه من الصفات، من غير تشبيه

ولا تعطيل، وأمسكوا عن الخوض لمعرفة حقيقة معناها، واضعين نُصْبَ أعينهم قوله تعالى في الآيات المحكمات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله أيضاً: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] عَلَّامٌ غُيُوبٍ وتباركت أسماؤه وتعالى صفاته.

﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: ما يعرف هذه الحقائق ويستفيع بها إلا أصحاب العقول، الذين يستعملون عقولهم بموضوعية، متجردين عن الهوى والزيغ.

• دعاء وابتهاال:

ومن صفات الراسخين في العلم أنهم لا يغترون بعلمهم، وإنما يقبلون على الله تعالى بضراعة وخشوع، يسألونه الهداية والتشيت قائلين:

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تُملها عن الهدى، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ وإلحاد، وثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم القديم. ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ كثير الهبات عظيم العطايا.

فلا غنى للإنسان عن رحمة الله تعالى وهدايته مهما كان عالماً، وهذا رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يدعو الله قائلاً: «يا مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» [رواه الترمذي (٢١٤٠)].

يفعل ذلك ﷺ تعليماً لأمته، وإرشاداً لهم، حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «يا أباي أنت وأمي يا رسول الله، أتخاف وأنت رسول الله؟ فقال: «يا عائشة إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، فمن شاء أن يقبله من الضلالة إلى الهدى، أو من الهدى إلى الضلالة فعل» [رواه الطبراني، وله شاهد في صحيح مسلم (٢٦٥٤)، وسنن الترمذي من حديث أنس (٢١٤٠)].

وعنها أيضاً: أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل، قال: «لا إله إلا

أَنْتَ سَبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ لَذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحِمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»
[رواه أبو داود (٥٠٦١)].

ثم يؤكدون دعاءهم بإعلان إيمانهم وتصديقهم بيوم القيامة:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ۝﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه، وهو يوم القيامة.

﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾، ومن رحمته سبحانه، ولطفه بعباده الصالحين: تعليمهم هذه الدعوات، يستنزلون بها هدايته وتثبيته، ولو لم يكن العبد محتاجاً إلى تثبيت الله تعالى وهدايته ما علمنا سبحانه مثل هذه الدعوات الكريمة.

• أسباب الزيغ والضلال:

ومن أكبر أسباب الزيغ والضلال: الحرص على المصالح المادية والمراتب الدنيوية، وهو ما جعل كثيراً من أحرار ورهبان أهل الكتاب يأكلون أموال الناس بالباطل، ويُعرضون عن الحق، ويطمسون معالمه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝﴾ [التوبة: ٣٤].

ومرّ معنا في سبب النزول أن أسقف وفد نجران اعترف بصدق النبي ﷺ، ومنعه من الإيمان به حرصه على ما كان الروم يقدمونه له، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بسبب إيثارهم وحرصهم على الأموال والأولاد والمراتب الدنيوية.

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ولن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله يوم القيامة.

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أي: حطب النار، الذين تُسَعَّر بهم يوم القيامة.

وشأن هؤلاء في استحقاق العذاب كشأن فرعون وملئه:

﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

﴿كَذَابَ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة.

﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وهم يعلمون صدقها، وآثروا عليها شهواتهم ومنافعهم.

﴿فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكهم بسبب ذنوبهم.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن أعرض عن آياته وكذب بها.

ويفشو هذا الأمر كثيراً بين المتأخرين من هذه الأمة، قال رسول الله ﷺ:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا قَطَعَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمَ، يُضِيحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُضِيحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بَعْرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» [أخرجه مسلم (١١٨)].

• آية من الله تعالى:

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يذكر أهل الكتاب من يهود المدينة المنورة، بما حدث في غزوة بدر، عندما نصر الله تعالى الفئة المسلمة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة، فقال:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا.

﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة.

﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: وبئس المهاد جهنم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١٣).

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: دليل وبرهان على أن الله تعالى ناصرٌ رسوله ﷺ، ومعزٌ دينه، ومظهرٌ كلمته.

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ في بدر.

﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم البديرون من أصحاب الرسول ﷺ، وقد شهد الله تعالى لهم بإخلاص النية في قتالهم ﷺ.

﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش، الذين جاؤوا إلى بدر بطراً ورياء الناس.

﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ أي: يرى المشركون المسلمين مثلهم في العدد رؤية ظاهرة في أعينهم، مع أن الحقيقة مختلفة عما تراه أعينهم، فقد كان المشركون يقاربون الألف، بينما كان المسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

وكانت هذه الرؤية من أسباب النصر التي أيد الله تعالى بها المؤمنين في بدر، ولا تعارض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِيَ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيَ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]، فقد حدث هذا في أول اللقاء، ليكون سبباً دافعاً لكل فريق لقتال الآخر ﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، ثم بعد بدء القتال قلل الله المشركين في أعين المؤمنين، تشجيعاً لهم على قتالهم، ورفعاً لمعنوياتهم، وتأيداً لهم، وكثر المؤمنين في أعين المشركين.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾، ففي معركة بدر عبرة كبيرة، ودرس بليغ، لكل من له بصيرة وتعلل، والعاقل من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه.

● مقارنة:

ثم عقدت الآيات مقارنةً بين ما في الدنيا من المتاع واللذائذ والشهوات، وبين ما أعدَّ الله تعالى لعباده الصالحين من النعيم في الجنة، من أجل تشويق المؤمنين إلى نعيم الجنة، ورفع هممهم إليها، وترهيدهم بمتاع الدنيا الحقيقير القليل الزائل، ومن أجل بيان خساسة ودناءة أولئك المعرضين عن الحق، المكذبين لآيات الله تعالى، الذين آثروا المتاع الدنيوي الزائل على نعيم الجنة الخالد.

وهذه المقارنة أسلوبٌ من أساليب التربية القرآنية الرفيعة، يبين الله تعالى فيها شدة تأثير الشهوات المادية على الإنسان، وضعف كثير من الناس أمامها، فهي السبب الرئيس لانحرافهم عن الحق. ومع البيان تحذير من خطر الاستجابة العمياء لها.

وجاء التعبير القرآني محكمًا ودقيقًا:

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾﴾

﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ فهي شهوات محبة للناس، ومزينة لهم، وليست محرمة عليهم.

فالبنية المادية لجسم الإنسان مخلوقة من تراب الأرض، وهو سبب كون هذه الشهوات الأرضية مزينة للإنسان، ومحبة إليه، ففي أصل بنيتها الترابية ميلٌ إليها، وانجذابٌ نحوها.

فالآية الكريمة تقرر حقيقةً واقعيةً، ولا تمنع الإنسان من الاستجابة للواقع الذي جُبل عليه ضمن الحدود المشروعة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا

طَلَبَتْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ [المائدة: (١)].

وقال أيضاً: ﴿يَبْنَىءُ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾﴾ [الأعراف: (١)].

فهي شهوات مستحبة مستلذة، وليست مستفجرة ولا كريهة، والتعبير القرآني لا يدعو إلى استقذارها ولا كراهتها^(٢).

﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ فبدأ بالنساء، لأن الميل إليهن فطري، يتصل بتناسل الناس وتكاثرهم، وبقاء جنسهم، أو لأن الميل إليهن أشد:

فقد ثبت في «الصحيحين»: عن النبي ﷺ: أنه قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» [رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)].

وإذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهو أمر مطلوب ومرغوب فيه، ومندوب إليه^(٣).

فالزواج بالنساء سنة نبوية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]:

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» [أخرجه أحمد (١٢٨/٣) والنسائي (٣٩٣٩) والحاكم (١٦٠/٢)].

﴿وَالْبَنِينَ﴾ الأولاد الذكور، ولم تذكر الآية الإناث، لأن حبهن ليس

(١) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٣٧٤.

(٣) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٧٠.

مضطرباً عند جميع الناس، والآية تصف الواقع بقصد التزهيد بمتاع الدنيا، لا بقصد التشريع.

﴿وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ أي: الأموال الكثيرة.

والتعبير بالقناطر المقنطرة يدلُّ على شدة حب المال عند الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَرِئْتُهُ لِحَبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العَادِيَات: ٨].

وكما قال أيضاً: ﴿وَتُجْبَوْنَ أَلْمَالُ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفَجَر: ٢٠].

كما تدل على عدم قناعة الإنسان بالقليل من المال؛ قال رسول الله ﷺ: «لو كان لابنِ آدَمَ واديانِ من مالٍ لا يبتغي وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابنِ آدَمَ إلا الترابُ، ويتوبُ الله على مَنْ تاب» [رواه البخاري (٦٤٣٧) ومسلم (١٠٤٨)].

﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: المطهَّمة الحسان، أو المعلَّمة بعلامات مخصوصة، تميزها عن غيرها، وتظهر جمالها وأصالتها، كالغرة في وجوها، والتحجيل في أطرافها. وكان الأغنياء - ولا يزالون - يتنافسون في اقتناء الخيل، كمظهر من مظاهر الوجاهة والأبهة والثراء.

﴿وَالْأَنْعَمِ﴾: وهي الإبل، والبقرة، والغنم.

﴿وَالْحَرْثِ﴾ في المزارع، والبساتين، والحدائق.

﴿ذَلِكَ مَتَكُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما يتمتع به في الحياة الدنيا، وهي زائلة قصيرة، لا تصفو من كدر، ولا تخلو عن غير.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَنَاقِبِ﴾ أي: حسنُ المرجع، والعاقبة الحسنة، كما قال في آخر السورة [١٩٨]: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبَرَارِ﴾.

• رضوان الله تعالى:

وهكذا عرضت الآية الكريمة أهم شهوات الدنيا المادية، عرضتها لتبين قيمتها الحقيقية، بجانب ما أعد الله تعالى للمؤمنين من أنواع النعيم في الجنة، ليرفع همهم، ويشد عزائمهم، فيتنافسوا في طاعته سبحانه، ويتسابقوا إلى رحمته وفضله:

﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ﴾ المتاع الدنيوي.

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم بطاعته واجتناب محارمه.

وشعور التقوى شعور مهذب للروح والحس جميعاً، شعور ضابط للنفس أن تستغرقها الشهوات وأن تنساق فيها البهيمية^(١).

﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ من غير تعب ولا عناء،

ومن غير هم ولا حزن، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، لا يهرمون، ولا يموتون: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٦﴾ الَّذِي أَطْلَأَنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر].

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ عما يستقذر من نساء الدنيا خلقاً وخلقاً.

وفوق كل ذلك:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو أعظم من كل ما تقدم، فلا يتم نعيم الجنة إلا به،

ولا تكتمل سعادة أهل الجنة إلا إذا علموا أن الله جلّ وعلا راضٍ عنهم، فهو كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وجاء في الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلَّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [رواه البخاري (٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩) والترمذي (٢٥٥٥)].

(١) في ظلال القرآن: ٣٧٥/١.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ عليم بأحوال عباده، فيثيب المحسن بفضلته، ويعاقب المسيء بعدله.

• أساليب وفنون:

وللقرآن الكريم أساليب رفيعة، وفنون رائعة، في عرض مقاصده، وبيان أهدافه، فبعد أن عقد هذه المقارنة بين متاع الدنيا الزائل، وبين نعيم الجنة الخالد، فزهد النفوس بمتاع الدنيا، وشوقها إلى نعيم الجنة، وجعلها تتطلع إليه، وتسمو إليه بقلوبها وأرواحها إلى آفاقه المضيئة، شرع يبين مقاصده بأسلوب لطيف رهيف، تنشرح له الصدور، وتنجذب إليه النفوس.

وقبل أن يتساءل سامع هذه الآيات أو قارئها عن أصحاب هذا النعيم والرضوان، أتاه الجواب من العالم بهواجس النفوس، وخطرات القلوب؛ بقوله
﴿

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا﴾ هذا هو المقصد الأساس الأول، الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

فلا يصل إلى نعيم الجنة والرضوان إلا المؤمنون الصادقون في إيمانهم، الذين يتوجهون إلى الله تعالى بكل هذا الخشوع، والاستسلام لجلاله وكماله، ويسألونه المغفرة والسلامة، والوقاية من عذاب النار:

﴿فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ وهو إقرارٌ بذنوبهم، واعترافٌ لله تعالى بتقصيرهم وضعفهم، ومثل ذلك لا يقدر بالتقوى إذا هُدم الذنب بالتوبة والاستغفار^(١)، وسيأتي معنا ما يؤكد ذلك.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ١٧﴾ .

﴿الصَّابِرِينَ﴾ يستدعي الإيمان بالله تعالى الصبر على طاعته، والصبر عن محارمه، والصبر عند ابتلائه وامتحانه.

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ كما يستدعي أيضاً: الصدق والإخلاص في الأعمال والأقوال.

﴿وَالْقَنِيتِينَ﴾ ولا بدّ لهم أيضاً من المداومة على العبادات والطاعات، والثبات عليها، مع التعظيم لله تعالى وخشيته.

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ وإنفاق المال في طاعته.

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ ثم الإقبال على الاستغفار في أوقات تجلياته على عباده برحمته، وهي السدس الأخير من الليالي قبل طلوع الفجر، والدعاء في هذا الوقت أقرب للإجابة، والعبادة فيه أشقّ، والنفس أصفى، والقلب أنقى ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ١٨].

وقد ثبت في «الصحيحين»: أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حينَ يبقى ثلثُ الليلِ الأخير، فيقول: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأُغْفِرَ لَهُ؟» [رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨)].

هؤلاء المؤمنون، الصابرون، الصادقون، القانتون، المنفقون في طاعته، والمستغفرون بالأسحار، هم أصحاب الجنة والرضوان.

ولسيد قطب رحمه الله عند هذه الآيات كلمات لطيفة فيقول: «وهكذا يبدأ القرآن بالنفس البشرية من موضعها على الأرض... شيئاً فشيئاً يرفُّ بها في آفاق وأضواء حتى ينتهي بها إلى الملاء الأعلى في يسرٍ وهينة، وفي رفق ورحمة، وفي اعتبار لكامل فطرتها وكامل نوازعها، وفي مراعاةٍ لضعفها وعجزها، وفي

استجاشة لطاقتها وأشواقها، ودون ما كبت ولا إكراه، ودون ما وقف لجريان الحياة»^(١).

● شهادة التوحيد:

الدعوة إلى توحيد الله تعالى دعوة جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وكل الكتب التي أنزلها الله تعالى تنادي بها، وتدعو إليها، فهي دعوة التوراة والإنجيل والقرآن، وغيرها من الكتب المنزلة.

والمفروض أن يسارع أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى قبول هذه الدعوة، التي نادى بها خاتم الأنبياء والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، فيؤمنوا بها، ويشهدوا على صحتها، وصدقها، ولهذا قال تعالى لهم: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٤١].

ولكنهم بدل أن يقبلوا على دعوة التوحيد، ويؤمنوا بها، ويشهدوا على صحتها وصدقها، أعرضوا عنها، وكنتموا الشهادة التي أوتمنوا عليها، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠]، وغيروا وبدلوا الكتب التي أنزلها الله عليهم.

ولن تعدم دعوة التوحيد من يشهد لها، فإذا كنتم أهل الكتاب شهادتهم لها، فإن الله تعالى بجلاله وكماله يشهد لها، وأهل سماواته من الملائكة والمقربين، وأولي العلم في أرضه يشهدون لها أيضاً.

إنها الشهادة التي تغني عن كل شهادة، لأنها أكبر وأعظم من كل شهادة، إنها شهادة الله لنفسه على وحدانيته وكماله جلّ وعلا، وهي الشهادة التي قصد

إليها القاصدون، وسلك من أجلها السالكون، إليها انتهت الإشارة، وعندها وقفت العبارة، وهي أنهى المقامات، وأعظم الشهادات، فمن شهد بها فقد شهد شهادة ليس وراءها مرمى، ومن شهد بما دونها كانت شهادته مشهوداً عليها لا شهادة^(١)، فمهما غيّر الشهداء وبدلوا أو كتموا فإن شهادة الله تعالى تكشف زورهم، وتفضح تحريفهم وتبديلهم:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨)

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فمضمون الشهادة أنه سبحانه المستحق للعبادة والطاعة وحده، فلا شريك له ولا ولد.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يشهدون ويقرّون، فلا يعبدون غيره، ولا يطيعون سواه جل وعلا.

﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ الذين عرفوا وحدانيته تعالى بالدلائل القاطعة، والبراهين الساطعة، فهم العلماء على الحقيقة، والعلم الذي لا يدلك على الله تعالى، ولا يقربك إليه، لا يكون علماً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، الذين انتفعوا بعلومهم، فعبدوا الله وحده، ونزهوه تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: مقيماً للعدل في جميع أموره، وهو بيان لكماله تعالى في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته، ونُصِبَ على الحال، لأنه سبحانه في جميع أحواله كذلك^(٢).

ثم كرّر سبحانه الشهادة تأكيداً لها، وأضاف إليها اسمين من أسمائه الحسنى، يدلان على صفتين من صفات كماله:

(١) نظم الدرر: ٢٨٩/٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٧/٢.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، والملاحظ أنه سبحانه ختم بهذين الاسمين الكريمين عدداً من آيات سورة آل عمران - كما مر معنا - ولا يخفى الاتساق الباهر بين صدر الآية وذيلها.

فالعزيز: القوي القاهر الذي لا يُغلب، ولا يحتاج إلى شريك أو ولد، كما لا يحتاج إلى شهادة أحد يشهد على كماله ووحدانيته جل وعلا.

والحكيم: في كل أفعاله وأقواله، وفي قيامه بالقسط والعدل على جميع مخلوقاته.

ويجب على كل مسلم أن يشهد بهذه الشهادة بقلبه ولسانه ووحدانه، كما فعل رسول الله ﷺ فعن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ثم قال: «وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ» [رواه أحمد (١/١٦٦)].

• ودیعة عند الله:

تعال يا أخي القارئ نشهد بما شهد الله تعالى به والملائكة وأولو العلم، وبما شهد به سيدنا رسول الله ﷺ، ونستودع الله هذه الشهادة إلى يوم القيامة، كما كان السلف يفعلون.

روى ابن كثير عن غالب القطان^(١) قال: أتيت الكوفة في تجارة، فنزلت قريباً من الأعمش، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر^(٢)، قام فتهجد من الليل، فمرّ بهذه الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ...﴾ ثم قال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عنده ودیعة، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] قالها مراراً، قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فغدوت إليه فودعته، ثم قلت: يا أبا محمد إني سمعتك تردّد هذه الآية، قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا

(١) من رواية السنة.

(٢) أسافر إلى البصرة.

عندك منذ شهر لم تحدثني، قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة، فأقمت سنةً فكننت على بابي، فلما مضت السنة، قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة، قال: حدثني أبو وائل عن عبد الله - ابن مسعود - قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله ﷻ: عبدي عهد إليّ، وأنا أحقُّ من وفّي بالعهد، أدخلوا عبدي الجنة» [رواه الطبراني في «الكبير»] (١).

ويؤيده حديثُ البطاقة؛ وهو: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله يَسْتَخْلِصُ رجلاً من أمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، فينشرُ عليه تسعةً وتسعينَ سجلاً، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ البَصْرِ، ثم يقولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شيئاً؟ أَظْلَمَكَ كُتِبَتِي الحافظون؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ اللهُ تعالى: بلى إِنَّ لَكَ عندنا حسنةً، فَإِنَّهُ لَا ظِلْمَ عَلَيْكَ اليومَ، فَتُخْرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهدُ لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله، فيقولُ: احْضُرْ وزنَكَ، فيقولُ: يا ربِّ ما هذهِ البطاقةُ مع هذهِ السجَّلاتِ؟! فقال: فَإِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. فتوضَّعُ السجَّلاتُ في كفةٍ والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السجَّلاتُ، وثقلتِ البطاقةُ، فلا يثقلُ مع اسمِ اللهِ شيءٌ» [رواه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠) وابن حبان (٢٢٥) والبيهقي، والحاكم (٦/١) وصححه].

• الإسلام دين الله ﷻ:

وكما أنَّه سبحانه واحدٌ فدينه أيضاً واحدٌ، دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، إنَّه الإسلام القائم على الاستسلام الكامل لله تبارك وتعالى وحده، إنَّ الإسلام هو الدين الذي شرعه الله بالقرآن الكريم، وشرعه أيضاً بالتوراة والإنجيل قبل أن يطرأ عليهما التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وجاء في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر إرميا، الجملة التاسعة منه، ما يلي: «إِنَّ النَّبِيَّ الَّذِي تَدَوَّرُ نُبُوَّتُهُ حَوْلَ الْإِسْلَامِ (شالوم) عند ورود كلمة النبي، ذلك النبي هو المعروف أَنَّهُ الْمُرْسَلُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ بِالْحَقِّ».

نقل هذه الجملة البروفسور داود بنيامين القسيس في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في كتابه: «محمد في الكتاب المقدس» وعلّق عليها بقوله: «ومن الحقائق المسلّم بها أَنَّ كلمة (شالوم) و(سلام) السريانية و(إسلام) كلها من نفس الجذر السامي (شلام)، وتحمل نفس المعنى، وهذا أمرٌ يعترف به جميع علماء اللغات السامية، وفعل (شلام) يدل على الخضوع والاستسلام... ولا يوجد أي نظام ديني في العالم يحمل اسماً أو وصفاً أفضل وأشمل وأكثر هيبة وسمواً من الإسلام، فالدين الحق لله الحق، لا يمكن أن يسمى باسم أي من عباده، ولا أن يدعى باسم شعب معين أو اسم بلد معين»^(١).

ولقد قال الله تعالى بأسلوب التأكيد والعزم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا أَلْكِتَبَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ﴾ أي: الاستسلام والخضوع لله وحده جل وعلا، مع تنزيهه عن الشريك والولد، هو أساس دين الله، ولا دين عند الله سواه، ولا يقبل الله ديناً لا يقوم على هذا الأساس، وسيأتي معنا قوله جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد يقال: ما دام الدين عند الله الإسلام، وهو الذي دعا إليه جميع الأنبياء، ونزلت به كل الكتب الإلهية، فلماذا اختلف أهل الكتاب في الإسلام الذي نزل به القرآن على محمد ﷺ؟.

وجاء الجواب على هذا القول بعد ذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ في القرآن الكريم بأن دين الله هو الإسلام القائم على توحيد الله تعالى.

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسداً كائناً بينهم، طلباً للمراتب، وإيثاراً للشهوات.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالكذب بها، والإعراض عنها.

﴿فَأَبْأَتْ اللَّهُ سَبِيحَ الْحِسَابِ﴾.

• كلمة الفصل:

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يوجه إلى الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم الكلمة الفاصلة، المميّزة بين الإيمان والكفر، فقال:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ أي: جادلوك في الإسلام والتوحيد.

﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: أعلن لهم خضوعك لله تعالى، واستسلامك الكامل له، لتكون القدوة الحسنة في الإسلام، ولتظهر لهم عدم تأثرهم بكفرهم وإعراضهم، وكثيراً ما كان إبراهيم عليه السلام يفعل مثله، فإنه كان كلما جادل قومه، ورأى إعراضهم عن دعوته، ردّ عليهم بإعلان خضوعه واستسلامه لله تعالى، وقد حكى الله تعالى هذا عنه في مواضع متعددة، منها قوله ﷺ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ وكذلك أسلم وجهه لله تعالى كل من آمن بي واتبعني؛ فهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَسُبْحَنَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثم أمره الله تعالى بعد التخصيص بتعميم الخطاب لجميع الناس:

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾ من غير أهل الكتاب.

﴿ءَاسَلَمْتُمْ﴾ متبعين لي كما فعل المسلمون؟ أم أنتم على كفركم؟.

وجاء السؤال على سبيل القطع والجزم بسبب ما تقدمه من الأدلة الكافية.

﴿فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾ إلى الحق، ونجوا من الضلال.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام وأعرضوا.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي: ما عليك إلا البلاغ، وقد بلغتهم، ولن يضرَكَ

إعراضهم.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرُكُمْ بِالْعِبَادِ﴾ عالم بجميع أحوالهم.

ولا يخفى ما فيها من تهديد ووعد، وما فيها من تقرير للكسب والاختيار

عند الإنسان، وهي من أصرح الدلالات على عموم رسالة الإسلام، وعموم بعثته عليه الصلاة والسلام^(١).

• قتلة الأنبياء والمصلحين:

وعزز الله هذا الوعد، فكشف بعض جرائمهم الكبيرة بحق الأنبياء

والصالحين، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهم اليهود الذي

قتلوا كثيراً من الأنبياء ﷺ، وحاولوا أيضاً قتل إمام الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، فعصمه الله تعالى من كيدهم ومكرهم.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يبينُ شناعة وقبح جرائمهم، أي: أقدموا على قتل

النبيين، وهم يعلمون أنهم يقتلونهم بغير حق.

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١ / ٢٨٣.

﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وهم الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر.

وفي الآية دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع خوف القتل^(١)؛ قال تعالى مقررًا وصية لقمان لولده: ﴿يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

ولعل هذا هو سبب انعدام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجتمعات أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً، حتى فشت فيها المنكرات وشاعت، وضرب الله قلوب بعضهم ببعض، أو لعنهم على لسان أنبيائهم، كما قال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة].

والجدير بالذكر أن قتل اليهود للأنبياء والصالحين مذكور في كتبهم، وعلى لسان مؤرخيهم، ففي الإصحاح الثاني عشر من سفر الملوك الأول، من الطبعة البروتستانتية: أن (إيزابيل) زوجة أخاب قتلت أنبياء الرب. وذكر (يوسيفوس) المؤرخ اليهودي القديم من رجال القرن الأول الميلادي: أن (هيرودوس الثاني) ملك اليهود قتل كثيراً من علماء اليهود، وقتل (يوحنا بن زكريا) الحبر الأعظم^(٢).

وهذه الجرائم تدلُّ على غلظة اليهود وقسوتهم، وأنهم لا يتورعون عن أي جريمة من أجل مصالحهم وشهواتهم.

وجاءت خاتمة الآية تحمل لهم التأنيب والتوبيخ على هذه الجرائم بقول الحق جل وعلا:

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجع مهين.

(١) تفسير القرطبي: ٤٨/٤.

(٢) التفسير الحديث: ٨٧/٨.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المجرمون .

﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي : فسدت في الدنيا ، وسقطت في الآخرة .

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه ، فأعمالهم الدينية - التي يزعمون أنها تقربهم إلى الله تعالى - فاسدة باطلة ساقطة .

وكان الآية نزلت في عصرنا الحاضر في هؤلاء الذين يسمون أنفسهم المتدينين من اليهود ، أو حزب المتدينين ، وهم أخبث اليهود ، وأكثرهم شراً وإجراماً وظلماً .

• أكاذيب وأضاليل:

والعجيب أنهم لم يعرضوا عن القرآن الكريم فحسب ، بل أعرضوا أيضاً عن الكتاب الذي أنزل عليهم :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرْقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي : أعطوا التوراة ، وهي جزء من الكتب التي أنزلها الله تعالى ، أو أعطوا فهم جزء من العلوم والأحكام في الكتاب الذي أنزله الله عليهم ^(١) .

﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي : يُدْعَوْنَ إِلَى التوراة ليحكم بينهم في شأن اتباع النبي ﷺ ، والتصديق برسالة القرآن .

فقد ذكر الله تعالى صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ، وأخبر عن ذلك في القرآن ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَبْعُونَ الرُّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا

عندهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِذُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧]

وسياتي معنا شواهد من كتبهم تؤكد ذلك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ وهم أحبارهم ورهبانهم عن قبول دعوة النبي ﷺ.

﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عن الانقياد والإذعان لرسالة الإسلام.

وجرّاهم على مخالفة الحق والإعراض عنه ما يرددون من أضراليل وأكاذيب:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ فهم يزعمون لأنفسهم مكانة خاصة عند الله، وأنه سبحانه لن يعذبهم يوم القيامة في النار إلا مقدار الأيام التي عبدوا فيها العجل.

ومع أنه كذبٌ وافتراءٌ، رسخ بعد ذلك في اعتقادهم، وتطاول الزمان وهم على هذا الباطل، حتى أنسوا به، واطمأنوا إليه، فما كذب أحد بحق إلا عوقب بتصديق باطل، وما ترك قوم سنة إلا أحيوا بدعة^(١).

وقد أوقعهم هذا في غرور في دينهم، فاستهانوا بعذاب الله، واقتربوا المعاصي والجرائم ولا يزالون، واغتروا بأنفسهم، واستكبروا، وأعرضوا عن الحق، فهم يعتقدون أن النبوة لا تكون إلا فيهم، فأعرضوا عن دعوة النبي ﷺ، وأنكروا نبوته.

﴿وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أكاذيب وأضراليل.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في وقوعه، وهو يوم القيامة .

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من عملٍ دونَ نظرٍ إلى أصلها وجنسها .
﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عذاب أو نقص ثواب .

• مناجاة:

وتوجَّهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تعلَّمه كيف يناجي ربه جل وعلا بهذه الكلمات الخاشعة، وتحملُ له عليه الصلاة والسلام البشارة والسلوى؛ البشارة بالنصر والغلبة، والسلوى عما يلقاه من كيدِ أهل الكتاب وجحودهم، وتردُّ على أولئك الذين يرون أنَّ النبوة حكرٌ عليهم، لا تكون في غيرهم:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ أي: يا الله يا مالك الملك .

﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ أي: أنت وحدك المعطي والمانع، والمعز والمذل، فما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن، فأنت المتصرف في خلقك وملكك، الفعال لما تريد .

وكلمة (تنزع) تدل على الشدة والقوة والعنف، وما نزع الله الملك من أحدٍ إلا بالشدة والقوة، لأنه سبحانه يعلم شدة حرص الناس على الملك والسلطان .

قال ابن كثير رحمه الله: «وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأنَّ الله تعالى حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ﷺ، ونشر أمته في الآفاق،

في مشارق الأرض ومغاربها، وأظهر دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع»^(١).

﴿يَدِّكَ الْخَيْرُ﴾ والشر أيضاً خلقاً، ومناً تسبباً، وحذف لأنه موضع دعاء ورغبة ومناجاة.

فالآية تعلمنا أدب مناجاة الله تعالى ودعائه. وتُشيرُ إلى أَنَّ أفعاله تعالى كلها خيرٌ، وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة المستحق هو خيرٌ محضٌ.

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فله سبحانه كمال القدرة.

ومن المظاهر الدالة على كمال قدرته جلّ وعلا ما جاء في قوله:

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧).

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ وهي ظاهرة كونية بارزة لجميع المخلوقات، سواء في تداخل الليل والنهار بطول أحدهما ونقص الآخر، أو في تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وكل ذلك يتم بمقتضى ناموس كوني محكم، يدل على وجود خالق فاعل مختار، واحد لا شريك له ولا ولد.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهي ظاهرة ثانية مبثوثة في جميع الأحياء، تجري بانتظام وتدبير، حتى في داخل أجسامنا في كل لحظة، بانقسام الخلايا وموتها وتجدها، تدل على وجود اللطيف الخبير، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَخُجْرُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من غير تقتير ولا تضيق، أو من غير عدد ولا مطالبة.

فهو سبحانه المالك والمدبر لأمر مخلوقاته، فكان الآيتين تقرران مضمون

ما سبق في قوله تعالى أول السورة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ﴿٢٨﴾ فقيام المخلوقات كلها بمشيئته تعالى وقدرته، كما أن أسلوب الخطاب والمناجاة في الآيتين يبين لنا كيف يكون الإسلام والاستسلام لله ﷻ، وهو الاستسلام الذي أمر النبي ﷺ بإعلانه فيما مر معنا من قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] وأن يدعو إليه أهل الكتاب وغيرهم: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠] فلا يكون إسلام إلا بالتححرر الكامل، والانسلاخ التام عن كل حول وقوة، إلى حول الله وقوته وتدبيره، إذ هو وحده المعطي والمانع، والمحيي والمميت، والمعز والمذل، ﷻ.

وهي المرة الثانية التي تحملنا فيها آيات سورة آل عمران إلى أبواب فضله تعالى، وساحات جوده وكرمه، وكما جاءت في المرة الأولى منسجمة مع سباقها في موضوع الزيف والضلal: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤْخَذْ قُلُوبُنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] جاءت في هذه المرة أيضاً منسجمة مع إعراض أهل الكتاب ومكرهم وكيدهم، وهي ليست تأسية وتسلية للنبي ﷺ وحده في مواجهته لكيد اليهود ومكرهم، وتعنّت النصارى وعنادهم، بل هي لكل المكرويين والمهمومين والمحزونين من هذه الأمة المسلمة، وهي تواجه أيضاً كيدهم ومكرهم وعنادهم.

اللهم اجعل القرآن الكريم نوراً أبصارنا وبصائرنا، وربيح قلوبنا ونفوسنا، وجلاء همومنا وأحزاننا.

• التحذير من موالاة الكافرين:

ولما كانت موالاة الكافرين تنافي مع الاستسلام لله تعالى، ومع التجرد عن كل حول وقوة إلا حولَه تعالى وقوته، حذرت الآيات الكريمة المؤمنين من موالاة الكافرين، وبيّنت لهم عواقبها الوخيمة بقوله تعالى:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَقِفُوا مِنْهُمْ ثَقُلَةٌ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يتخذ المؤمنون

الكافرين أنصاراً وأصحاباً وأحباباً، فالمؤمنون أولى بهذه الموالاة، كما قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ثم توعد سبحانه من يواليهم بقوله:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فقد برئ من الله.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ أَتْرِبُونَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥١]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مِنْهُمْ قُتْلًا﴾ أي: إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم، فله أن يتيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما قال البخاري [باب (٨٢)]: عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «إِنَّا لَنَكْشُرُ فِي وَجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ».

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «لَيْسَ التَّقِيَّةُ بِالْعَمَلِ، إِنَّمَا التَّقِيَّةُ بِاللِّسَانِ»^(١).

ويؤيده كما قال ابن كثير قول الله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [التحل: ١٠٦].

وفي هذا دليل على جواز مداراة الكفار والفسقة والظلمة، وإلانة الكلام لهم، والتبسم في وجوههم لكفّ أذاهم، وقطع لسانهم، وصيانة العرض منهم، ولا يعد ذلك من باب الموالاة^(٢).

ثم قال سبحانه محذراً:

﴿وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: سطوته، وعذابه، وانتقامه.

﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ المرجع والمنقلب، فيجازي كل عامل بعمله.

وأصل الموالاة ومنبعها من القلب، والله سبحانه يعلم ما في القلوب وما تكنه الضمائر والصدور:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٧٦/١.

(٢) روح المعاني: ١٢٢/٣.

﴿قُلْ إِنْ تَخْفَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٩).

والآية مع تقريرها لكمال علم الله تعالى وقدرته، تحمل معنى التحذير والوعيد من موالاة الكافرين، مما يدل على خطورتها وعظم المسؤولية عنها يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠).

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ لديها في كتاب أعمالها.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ محضراً أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوزِلْنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُكُوعًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وحينئذ:

﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: تتمنى كل نفس لو أن بينها وبين هذا اليوم فاصلاً كبيراً، يفصلها عنه من الزمان أو المكان، لشدة أهوال هذا اليوم.

ثم كررت الآيات التحذير من غضب الله تعالى وعذابه، كي تستأصل كل موالاة للكافرين من قلوب المؤمنين، فلا يبقى في قلوبهم أدنى ميل إليهم، أو تعلق بهم:

﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ وتكرير التحذير والوعيد من رأفته سبحانه ورحمته بعباده المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فالتحذير من المعاصي، وابتعادهم عنها يقربهم من رحمته سبحانه وإحسانه.

• طريق الوصول:

وتستدعي موالاة الكافرين محبتهم والميل إليهم، بينما الإيمان بالله تعالى

يستدعي محبة الله تعالى وطاعته، فكيف تجتمع في قلب المؤمن محبة الله تعالى ومحبة أعدائه؟! هذان نقيضان لا يجتمعان، وضدان لا يتفقان، فلا تجتمع محبة الله تعالى إلا مع محبة أحبابه وأوليائه، وأعظم الخلق مكانةً ومحبةً عند الله تعالى سيدنا رسول الله ﷺ، ولهذا جعل الله تعالى محبة رسول الله ﷺ واتباعه والتمسك بسنته دليلاً على محبة الله تعالى، فقال ﷺ:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١) .

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، فليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحِبَّ، كما قال بعض العلماء^(١).

فالتمسك بسنته عليه الصلاة والسلام، والاقتداء به ومتابعته، توصل إلى مرتبة عالية رفيعة، وهي محبة الله تعالى إياه، فطريق الوصول في محبة الرسول ﷺ ومتابعته، وكل طريق سواه مسدود، وكل عمل يخالفه مردود.

ورحم الله ابن كثير عندما قال: «هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع الإسلامي، والدين الإلهي، في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» [رواه مسلم (١٧١٨)]^(٢).

وتوصل متابعة الرسول ﷺ، إلى مغفرة الذنوب أيضاً:

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ إذا تبتم واستغفرتكم، فلا بد لمن يطلب المغفرة من

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٧٧/١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

التوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَحَمَلَ صِلِحَاتِهِمْ أَهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وكان ﷺ يبحث على كثرة الاستغفار، ويكثر منه، ويقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» [رواه البخاري (٦٣٠٧)].
ويقول أيضاً: «يا أيها الناس! توبوا إلى الله واستغفروه فإنني أتوب في اليوم مئة مرة» [رواه مسلم (٢٧٠٢)].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ويرحم أحبابه المؤمنين المتبعين لسنة رسوله ﷺ.
وفي الآية رد على أهل الكتاب الذين يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ﴾ [المائدة: ١٨] فأحباب الله هم أتباع رسول الله ﷺ.
ولا بد للمتابعة من الطاعة الكاملة، فالإسلام استسلام وخضوع وإذعان، والمتابعة لا تكون إلا بالطاعة الكاملة:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ طاعة مطلقة عن أي قيد.
﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله تعالى والرسول ﷺ.
﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا يدل على أن الإعراض عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ يعرض صاحبه للكفر، كما يدل على أن ادعاء المحبة الخالية عن الطاعة غير نافع لصاحبه.





الفصل الثاني

الإنجيل والنصاري

﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَالٍ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكَ إِنِّي لِلَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَآذُكَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَمِعَ بِالْعَصَىٰ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكَ طَهْرَكَ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُكَ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمْ أَهْلُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُكَ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ

يَايَهُ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْآكِمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿٥٢﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَى مَطَهْرِكَ مِنْ الدِّينِ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذْبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٩﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦١﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْلُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَى اللَّهِ الْعَرْشُ الْحَكِيمُ ﴿٦٣﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٥﴾ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ هُنَا نَتْلُو هَؤُلَاءِ حَتَّى جَعَلْتُمْ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾

• تَمْهيد:

وبعد أن انتهت آياتُ السورة من هذه المقدمة، عن التوراة والإنجيل والقرآن، والحديث عن أسباب الزيغ والضلال، ودعوة الأنبياء والمرسلين إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والولد، وأنَّ دينَ الله هو الإسلام، وبعد الرد على الأكاذيب والأضاليل التي يتمسكُ بها أهل الكتاب، وبيان طريق الوصول إلى محبة الله تعالى باتباع ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ.

شرعت الآياتُ بعد كل هذا تبين حقيقة عيسى ﷺ، وكيفية خلق الله تعالى له، ورسالته التي يدعو إليها، والمعجزات التي أيده الله بها، وهذا الجانب من الأهداف الأساسية الكبرى لسورة آل عمران، التي أنزل الله صدرها بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران على النبي ﷺ ومجادلتهم له في طبيعة عيسى ﷺ كما مرَّ معنا في سبب النزول.

• الاصطفاء:

أخبر الله تعالى في بداية قصة عيسى ﷺ وأمه مريم أنه اختار آدم، ونوحاً، وآل إبراهيم، وآل عمران، لمقام النبوة، فقال ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ من بين أولاده الذين أخذوا يتناسلون ويتكاثرون ليكون نبياً لهم.

﴿وَنُوحًا﴾ ليكون نبياً يحمل رسالة الله تعالى إلى أهل زمانه.

﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين اصطفى منهم إبراهيم ﷺ والأنبياء من بعده، واصطفى أيضاً من آل إبراهيم خاتم الأنبياء سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ الهاشمي القرشي، الذي يتصل نسبه بإسماعيل بن إبراهيم ﷺ.

﴿وَالْعَمْرَانِ﴾ الذين اصطفى الله تعالى منهم مريم لتكون أمّاً لعيسى عليه السلام، كما اصطفى ولدها عيسى ليكون نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل. فعيسى عليه السلام هو عبدُ الله تعالى، اختاره الله للنبوة كما اختار غيره لها. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على عالمي زمانهم^(١).

فكلُّ واحدٍ منهم اصطفاه الله تعالى وفضَّله على العالمين في زمنه، إلا نبينا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، فقد اصطفاه الله تعالى وفضله على العالمين مطلقاً، إذ اختاره لأكمل رسالة وأعظم أمانة، وهي رسالة الإسلام، الدين الذي رضىه الله لعباده، فأتمه وأكمّله، وتعبدهم به، فلا يقبل الله من أحد سوى دين الإسلام إلى يوم القيامة.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ جعل الله تعالى هؤلاء المصطفين من الأنبياء والمرسلين ذريةً، ينتسب بعضهم إلى بعض، من لَدُنْ آدَمَ عليه السلام إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لأقوالهم، عليم بأحوالهم، فهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وما اصطفاهم إلا لعلمه بأحوالهم الطيبة، وأخلاقهم الرفيعة. فعيسى عليه السلام فرع من شجرة النبوة المفتحة بآدم عليه السلام، والمختمة بسيدنا محمد ﷺ.

• امرأة عمران:

بدأت الآيات قصة عيسى عليه السلام بالحديث عن أمّه مريم، وأمّها امرأة عمران، حيث بدأت القصة في بيت آل عمران من بيوت بني إسرائيل في فلسطين، وهو بيت علم وعبادة وصلاح، كما دلّت عليه الآية السابقة، وكانت

(١) تفسير القرطبي: ٦٣/٤.

فلسطين في ذلك الوقت تحت نير الاحتلال الروماني، وتعد جزءاً من الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور (أوكتافيوس)، الملقب بأوغسطس قيصر، الذي امتد حكمه من سنة (٢٧ ق.م) إلى سنة (١٤م)^(١):

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٥).

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ عندما أحسّت بأنها حامل، ويبدو أنّ حملها جاء متأخراً، ولهذا نذرته لخدمة المعبد في بيت المقدس عندما أحست به. ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ عن عمل الدنيا، ليتفرغ للعبادة وعمل الآخرة، فيعمل طول حياته في خدمة الكنيسة^(٢).

وكان مثل هذا النذر جائزاً في شريعتهم.

﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تسمع دعائي وتعلم حالي.

وكانت تأمل أن يكون الجنين ذكراً، فما كان من عاداتهم أن يندروا الإناث للتفرغ للعبادة وخدمة الهيكل.

• الوليدة المندورة:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٣٦).

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وما قصدت بذلك القول الإعلام، فعلمه سبحانه محيط بها، وبما في بطنها، ولكنها أظهرت التحسر وخيبة الأمل في عدم ولادة مولود ذكر.

(١) انظر كتاب: المسيح إنسان أم إله.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٣٤/٣.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ جاءت الجملة معترضةً في أثناء كلام امرأة عمران، لتعظيم المولودة التي وضعتها، وتفخيم شأنها، وما قدّر سبحانه أن يجري من الأمور العظيمة الخارقة على يد هذه المولودة.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ وهو اعتذارٌ منها لعدم تمكّنها من الوفاء بنذرهما على الوجه الكامل، فللذكر فضيلةٌ ومزيةٌ على الأنثى، لكونه أقدر على الخدمة في أماكن العبادة.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وكأنها تتقربُ إلى الله تعالى في تسميتها، فإن مريم في لغتهم بمعنى العابدة^(١).

وختمت الأم الصالحة دعاءها بتعويد الوليدة المنذورة، وتعويد ذريتها بالله
﴿مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أي: أجبرها بحفظك ورعايتك.

﴿وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ فَيَسْتَهْلُ صَارِخاً مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا» [رواه البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٢٣٦٦)].

والحديث يدلُّ على أنه لم يكن لمريم ذرية إلا عيسى عليه السلام.

ويبدو أنّ والدَ مريم قد توفّي قبيلَ ولادتها، فاستبدادُ الأم بالنذر والتسمية وإغفال الآية أيّ ذكرٍ له يدلُّ على ذلك.

• في كفالة زكريا:

وَقِيلَ لِلَّهِ تَعَالَى نَذَرَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَاسْتَجَابَ دَعَاءُهَا، وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ:

(١) تفسير أبي السعود: ٢٩/٣.

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّى لَهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: تقبلها من أمها منذورة، ولم تُقبل قبلها أنثى، وأحاطها سبحانه بعنايته ورعايته.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ بما يَسَّرَ لها من أسباب الرعاية والعناية.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعل كفالتها ورعايتها إلى نبي كريم، هو زكريا عليه السلام، وكان زوج خالتها، كما ورد [في صحيح البخاري (٣٨٨٧)] في حديث الإسراء والمعراج؛ عندما رأى النبي ﷺ يحيى وعيسى في السماء قال: «فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة»، ورأى بعضهم أن زكريا كان زوج خالة مريم، وبهذا الاعتبار يمكن أن يكون يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة.

وهكذا يسر الله تعالى لمريم كل أسباب الصلاح والطهر والعفاف، إذ نشأت في رعاية نبي كريم، خصص لها مكاناً في المعبد خاصاً بها لتعبد الله فيه، وما كان أحدٌ يدخل عليها غير كافلها وراعيها زكريا عليه السلام، دل على ذلك قوله تعالى:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابُ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ وهو مكان العبادة، ويطلق في اللغة على أكرم موضع في المجلس.

﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي: طعاماً.

مما يدل على أن الله تعالى كان يرزقها ما تحتاج إليه من الطعام، وهي في داخل محرابها، وما كانت تحتاج إلى الخروج ومخالطة الناس طلباً للرزق والطعام، فقد كفاها ربها ﷻ المؤونة بما يَسَّرَ لها من المعونة.

وكلمة (كُلَّمَا) تدل على التكرار والاستمرار، مما يدل على النشأة الكريمة العفيفة التي نشأت عليها مريم.

ويتعجبُ النبيُّ الكريمُ ممَّا يرى من طعام ورزق عندها، فيسألها سؤال المتعجب:

﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أي: من أين يجيء لك هذا الطعام، والأبواب مغلقة عليك؟!.

فتجيبه الفتاة الصالحة الطاهرة جوابَ الواثقة بربها المطمئنة إلى فضله ورحمته:

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فكأنها تقولُ لزكريا عليه وعليها السلام: لا تعجب ولا تستبعد، ثم أكدت مضمون كلامها بقولها:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير، أو بغير استحقاق فضلاً منه سبحانه.

أثارت هذه الفتاة الصالحة العابدة مشاعر الأبوة في قلب النبيِّ الكريم، والرجل الكبير زكريا عليه السلام، فتوجَّه إلى الله تعالى بضراعةٍ وخشوع، يسأله الذرية الصالحة الطيبة:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾ عند ذلك وفي محرابٍ مريم، الفتاة الطاهرة العابدة.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ. قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

ثم كرر الدعاء والضراعة في جوف الليل، ونادى ربه نداءً خفياً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ وإني خفتُ الْمَوْتَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿فَإِذَا بَرِئْتُ مِنْ إِثْمِي وَرَبْتُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم].

وهذا يدلُّ على شدة وعمق تأثر نبي الله زكريا عليه السلام بما رأى من صلاح مريم، وإكرام الله تعالى لها.

وقد استدللَّ العلماء على مشروعية خلق الله تعالى خوارق العادات على

أيدي الصالحين والصالحات برزق الله مريم من دون وسائط وأسباب، وسمّوها: الكرامات، بينما سمّوا الخوارق التي يجريها الله على أيدي الأنبياء: معجزات.

• البشارة بيحيى:

استجاب الله تعالى دعاء زكريا عليه السلام، وأرسل إليه الملائكة تحمل له البشارة:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ في مكان عبادته.

﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ أي: بولد سيولد لك، اسمه يحيى.

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعملي عليه السلام.

وسمي عيسى بذلك لأن الله خلقه بكلمة (كن) من دون توسط أسباب، وكان يحيى أول من آمن بعيسى، وصدق بنبوته ورسالته، أو صدق بكلمة الله التي ينزلها الله على عيسى، والمراد بها الإنجيل.

﴿وَسَيِّدًا﴾ بالعلم والتقوى والعبادة.

﴿وَحَصُورًا﴾ عفيفاً عن النساء، مبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة^(١).

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا من تنمة البشارة وكمالها، أي: ويكون أيضاً نبياً معدوداً في عدادهم.

غمرت الفرحة زكريا عليه السلام، وأقبل على ربه يسأله متعجباً من قدرته ومعظمها لها:

(١) روح المعاني: ١٤٨/٣.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (٤٠)

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ أي: كيف يكون لي غلام؟! .

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: أدركني الكبر، وهو سنُّ الشيخوخة والضعف .

﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ عقيمٌ لا تلد .

وجاءه الجواب من الله تعالى:

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، فهو سبحانه وحده الفاعل لما يريد، فلا

يعجزه شيء، ولا يتعاضمه أمر .

ثم سأل ربه أن يجعل له علامةً يستدل بها على بدء حمل زوجته:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَيَحِبُّ بِالْعَشَى وَالْإِنْبَكَرِ﴾ (٤١)

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أي:

علامتك التي سألتها: أن يُحْبَسَ لسانك عن الكلام، فلا تستطيعُ تكليمَ الناس ثلاثة أيام، إلا بوساطة الإشارة والإيماء .

ثم أمره ربه بكثرة ذكره وتسبيحه في هذه الحالة، شكرًا لله تعالى على ما

أنعم عليه وأعطاه:

﴿وَادَّكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَيَحِبُّ بِالْعَشَى﴾ آخر النهار .

﴿وَالْإِنْبَكَرِ﴾ وأوله .

• الاصطفاء الأول والثاني:

جاءت ولادة يحيى عليه السلام من أم عاقر، ووالد شيخ كبير، مقدمة وإرهاصاً

لمعجزة أكبر منها، وهي ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ولهذا قرن الله تعالى

بينهما بالذكر في موضعين من القرآن الكريم، أولهما هنا في سورة آل عمران،

وثانيهما في سورة مريم، فبعد الحديث عن البشارة ببيحيى عادت الآيات إلى مريم العابدة الصالحة الطاهرة تخاطبها بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٢).

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك بما خصك من أنواع الكرامة والفضل، مما سبق الحديث عنه.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ خَلَقًا وَخُلُقًا عن كل ما يعيب النساء ويُسْتَقْدَرُ منهن.

﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾، ويبدو أن الاصطفاء الثاني غير الأول، فالاصطفاء الثاني لتكون أمًا لعيسى من غير أب، وجعلها وولدها عيسى آيةً للعالمين، وبهذه الميزة تمتاز مريم على جميع نساء العالمين، والقول به أولى من القول بالتكرار للتأكيد^(١).

ثم كررت الملائكة نداء مريم، تأمرها أن تزيد من عبادتها وطاعتها لربها، توطئةً للمهمة الكبيرة التي اختارها الله تعالى لها:

﴿يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (٤٣).

﴿يَمْرَيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ أي: أديمي العبادة والطاعة لربك.

﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ففي الصلاة عونٌ من الله تعالى على القيام بالأعباء الثقيلة، والمهمات الجسيمة، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وأمر الله تعالى النبي ﷺ في أوائل نزول الوحي عليه أن يكثّر من صلاة الليل، بسبب المهمة الثقيلة التي كلف بها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ﴾ (١) ﴿فَرَأَيْتَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢) ﴿نَضَعُهَا أَوْ أَقْصَصُ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَزَقَ الْقُرْآنَ تَرْبِيًّا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿[المزمل].

تلك هي الصورة الكريمة الوضيئة لمريم الطاهرة العفيفة العذراء البتول^(١) في القرآن الكريم، حتّى ذهبَ بعض علماء التفسير إلى القول بنبوتها، وهو ما ذهب إليه الإمام القرطبي في تفسيره، إلا أنّ جمهور العلماء لا يقرونه على ذلك، ولا يرون نبوتها، لأنّ النبوة لا تكون في النساء، ولأن الله تعالى وصفها بصفة الصديقة، في قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَتَتْهُ صَدِيقَتُهُ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أُنْظِرْ كَيْفَ بُنِيتَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أُنْظِرْ أَنَّ يُوقَفُوكَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وصورتها أيضاً في السنّة الشريفة كريمة وضيئة:

فعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ نساءها مريمُ بنتُ عمران، وخيرُ نساءِها خديجةُ بنتُ خُوَيْلِدٍ»، وأشار الراوي إلى السماء والأرض. إرواه البخاري (٣٨١٥) ومسلم (٢٤٣٠).

وعن أنس رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريمُ بنتُ عمران، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنتُ محمد، وآسيةُ امرأةُ فرعون» إرواه الترمذي (٣٨٧٩) وأحمد (١٣٥/٣).

• مصادر قصة مريم وعيسى:

هذه الأخبارُ من المغيّبات، التي لا سبيلَ للنبي ﷺ أن يعرفها لولا وحي الله تعالى الذي أنزلَ عليه، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تخاطبه بقول الله تعالى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْهُمْ أَيْتُهُمْ بِكُفْلٍ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٤٤).

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، فهي تؤكد صدق النبي ﷺ، وأنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى أوحى به إلى النبي ﷺ.

فهذه الأخبار من المغيبات التي ما كان النبي ﷺ يعلمها، وما كان يعلمها أيضاً غيره، ولا حتى أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل، فالأنجيل التي في أيديهم اليوم لم تذكرها، ولم تتحدث عنها، فليس في الأنجيل التي يتداولها النصارى أي ذكر لدعاء امرأة عمران ونذرها، واقتراع الأخبار على كفالتها - الذي سيمر معنا في هذه الآية - وكذلك لم تذكر الأنجيل أيضاً كلام عيسى ﷺ وهو في المهد، مع أنه من المعجزات الكبرى، التي أجراها الله على يديه، وفيها تبرئة مريم من افتراءات اليهود عليها، واتهامهم إياها بالزنى، ولا بد أن تكون الأنجيل التي كانت في عصر نزول القرآن كذلك خالية عن هذه الأخبار، وإلا ما عدها الله تعالى من أخبار الغيب في قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

ولا أدري ما الذي حمل صاحب «التفسير الحديث» أن يقول: «ومنه ما لم يرد فيها - أي: الأنجيل - مثل دعاء أم مريم، ونذرها ما في بطنها لله، والاقتراع على كفالة مريم، وكفالة زكريا لها، وعناية الله بها، وكلام المسيح في المهد، ونعتقد أن هذا مما كان يتداوله النصارى في عصر النبي ﷺ وبيئته، استناداً إلى قراطيس كانت في أيديهم لم تصل إلينا»^(١).

وهو اعتقاد عجيب من مثل هذا الكاتب، ومستنكر، ولا يقوم على أي أساس علمي، فالتحريف دخل على الإنجيل قبل نزول القرآن الكريم بزمان طويل، فبعد رفع عيسى ﷺ بزمان قليل ظهر بولس، وأدخل التحريف على عقيدة التوحيد، التي كان عيسى ﷺ يدعو إليها، ولا شك أنه أدخل أيضاً التحريف على الإنجيل، ليتفق مع العقيدة الجديدة المحرفة التي دعا إليها.

ثم إن الإمبراطور الروماني قسطنطين اضطهد النصارى الموحدين، ودعا أكثر من ألف من رجال الكنيسة إلى نيقية، حيث عقد المؤتمر المشهور الذي قرر عقيدة التثليث، وكان ذلك نتيجة لضياح كثير من نصوص الإنجيل الحقيقي، أو

تحريفها، فلو كان الإنجيل الحقيقي موجوداً لما تمكنوا من إدخال هذه العقائد الباطلة على عقيدة التوحيد.

فليس ثمة مصدرٌ يُعتمد عليه ويوثق به في قصة مريم وولدها عيسى ﷺ سوى مصدر واحد، هو القرآن الكريم، فاليهود اتهموا السيدة مريم بالزنى، ورموها بأقبح الصفات، بينما شهد الله تعالى في القرآن الكريم بعففتها وطهرها، وأنها كانت من العابدات الصالحات الصديقات، فلا ثقة بمروياتهم وما يأتي عن طريقهم.

والأنجيل التي يتداولها النصارى متعارضة ومتناقضة، بل إنَّ في بعضها ما يؤكد افتراءات اليهود على السيدة مريم، فإنجيل (متى) وإنجيل (لوقا) عندما تحدثا عن نسب عيسى ﷺ ذكرا أنَّ عيسى هو ابن يوسف النجار، فهما وإن اختلفا في أسماء وأعداد أجداد المسيح، إلا أنَّهما متفقان على أنَّ يوسف النجار هو آخرهم في سلسلة النسب لعيسى ﷺ^(١)؛ فما معنى هذا؟! أليس فيه تأكيد لافتراءات اليهود على مريم، مع أنَّ القرآن الكريم لم يذكر لمريم علاقةً زواج بأي رجل، بينما الأنجيل ذكرت أنَّ يوسف النجار كان خطيباً لمريم قبل ميلاد عيسى ﷺ، وأنه بعد ذلك تزوجها، وولدت منه أولاداً آخرين كانوا بمثابة الإخوة لعيسى ﷺ.

وهذا التباين بين ما ذكره القرآن الكريم عن مريم ونشأتها، وطهرها وعفتها، وبين ما في الأنجيل، يردُّ على مزاعم كثير من المستشرقين بأنَّ قسماً كبيراً من أخبار القرآن الكريم مقتبس من كتب النصارى واليهود، كما يؤكد أنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو المصدر الوحيد الموثق لحقيقة مريم وعيسى ﷺ وحقيقة دين الإسلام الذي رضي الله تعالى لكل الناس، ونادى به جميع الأنبياء والمرسلين ﷺ.

(١) انظر: المسيح إنسان أم إله.

● إلقاء الأعلام:

ثم ذكرت الآية حادثة كمثالٍ على الغيب الذي أوحاه الله تعالى إلى النبي ﷺ، ما كان ﷺ يعلمها، ولا يوجد ذكْرُ لها في الأناجيل، وهي تبين المكانة الكبيرة لمريم وللبيت الذي ولدت فيه، فقال تعالى:

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمَهِمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: ما كنت مع الأبحار والرهبان عندما اختلفوا في كفالة مريم، كل واحد يريد أن يكفلها ويشرف بكفالتها ورعايتها، وذلك عندما جاءت إليهم امرأة عمران تقدّمها مندورة للعبادة والطاعة في الهيكل، وهذا يدل على أن مريم ولدت في بيت عُرف بينهم بالصالح والعلم والعبادة، حتى قالوا: إنَّ والدها عمران كان له مكانة دينية كبيرة عندهم.

واتفق الأبحارُ بعد الاختلاف على الاقتراع، ليظهر المستحق لشرف وبركة كفالتها ورعايتها، وألقوا أعلامهم في النهر، فحمل تيار الماء أعلامهم، وثبت بقدرة الله تعالى قلم زكريا ﷺ، فعرفوا أنَّ الله تعالى أراد أن يكون زكريا كافلاً لمريم وراعياً لها، وهو سر قوله تعالى - الذي مر معنا -: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] أي: جعل الله كفالتها لزكريا ﷺ، فأمر كفالتها تمّ بمشيئة الله تعالى وحده، فهو سبحانه الذي أحاطها بعنايته ورعايته في كل مراحل حياتها، وأظهر لزكريا هذا الأمر الخارق للعادة تكريماً له ولهذه البنت المندورة.

● البشارة بعيسى:

ثم جاءت البشارة بعيسى ﷺ:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (٤٥).

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أي: بوليد يكون وجوده بكلمة من الله، وهي الكلمة التي يكونه بها، فيقول جل وعلا: كن، فيكون.

﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والمسيح لقبه ﷺ، وهو من الألقاب المشرفة له، ومعناه: المبارك^(١).

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٤٦).

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له حال صغره معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه^(٢).

ولم تذكر الأناجيل معجزة كلامه في المهد، مع أنه من المعجزات الكبرى لعيسى ﷺ، وجاء كلامه في المهد دفاعاً عن أمه ضد افتراءات المفتريين عليها، ولعل سبب إغفال الأناجيل لهذه المعجزة أن فيها إقراراً من عيسى ﷺ بعبوديته لله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].
﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: ويكون من الصالحين في قوله وعمله.

• العذراء البتول:

ولما سمعت مريم البشارة بعيسى ﷺ، توجهت إلى ربها سبحانه تناجيه:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا فَضَضَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤٧).

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي: كيف يوجد هذا الولد مني، وأنا لست بذات زوج؟!.

ويدل سؤالها على أنها ما كانت مخطوبة لأحد، خلافاً لما ذكرته الأناجيل

(١) تفسير أبي السعود: ٣٧/٢. قلت: انظر كتاب: العلم الأعجمي في القرآن مفسراً بالقرآن، للأستاذ رؤوف أبو سعدة: ٢٦٦/٢، وهو كتاب جدير بالقراءة. (الناشر).

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢٨٣/١.

التي يتداولها النصارى، وأنها أيضاً ما كانت تفكر في الزواج، وإلا لو كان في نيتها الزواج، أو كان لها خطيبٌ اسمه يوسف النجار، ما سألت ربها سؤال المتعجب من قدرته تعالى:

قال ابن كثير رحمته: «نقول: كيف يوجَدُ هذا الولدُ مني، وأنا لستُ بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً، حاشا لله»^(١).

فهي العذراء البتول، التي أحصنت فرجها كما في قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينَ﴾ [التحریم: ١٢]، وبقيت كذلك طول حياتها، وستكون زوجة للنبي صلوات الله عليه يوم القيامة في الجنة:

ففي الحديث النبوي الشريف: أنه صلوات الله عليه قال لخديجة: «أما شعرت أن الله ﷻ قد زوجني في الجنة مريم بنت عمران» [رواه الطبراني].

ومر معنا أنها كانت تعيش في محراب عبادتها وحدها، ولا يدخل عليها أحد غير نبي الله زكريا، وأن الله تعالى قد كفاها مؤونة طلب الطعام والرزق، وأخبرنا سبحانه أيضاً أنه جعل لها بعد ولادة عيسى عليه السلام مأوى، فيه كل ما يحتاجان إليه من الطعام والماء، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وبهذا نجأها الله تعالى من سماع كلمات الطعن بها والافتراء عليها، ومن نظرات المرتابين بها.

وما ذكر في الأناجيل أنها كانت مخطوبةً ليوسف النجار من الناصرة، وأنه تزوجها بعد ذلك، وأولدها أولاداً، غير صحيح ولا أصل له، وهو من الأكاذيب التي أدخلوها على الإنجيل؛ فالحق في القرآن، وفيه الفرقان الفاصل بين الكفر والإيمان، وبين الحق والباطل.

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ فمشيئته سبحانه طليقة لا تتقيد بنواميس وأسباب، فهو خالق النواميس والأسباب.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقضى الله تعالى أن يخلق عيسى من أم بلا أب، فكان كما أراد الله تعالى وقضى.

• المعجزات:

وتابعت الآيات الكريمة تبين من خلال البشارة بعيسى ﷺ ما أكرمه الله تعالى به من أنواع التكريم والنعم:

﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾.

أي: يعلمه ربه الكتابة والقراءة، والحكمة في الأقوال والأفعال، كما يعلمه التوراة والإنجيل.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فرسالته ﷺ خاصة ببني إسرائيل، يقول لهم فيها:

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بمعجزة تدل على صحة نبوته وصدق رسالته.

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾ أي: أصنع لكم.

﴿مِّن الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره ومشيئته ﷻ.

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ الذي ولد وهو أعمى.

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ المصاب بمرض البرص، وهو تغير في لون الجلد.

﴿وَأُخْرِى الْمَوْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره ومشيئته أيضاً.

﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فكان ﷺ يخبرهم بما في بيوتهم من الطعام، وما أكلوا منه وما أخفوا وادخروا فيها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ففي هذه المعجزات ما يكفي مريد الحق لمعرفة الحق والإيمان بنبوة عيسى ﷺ ورسالته.

فكلُّ هذه المعجزات تَمَّتْ بقدرة الله تعالى ومشيبته، ولا استقلال لعيسى ﷺ بها، فهي تدل على نبوته ورسالته، ولا تدل على ألوهيته كما زعم النصارى، وقد أجرى الله تعالى مثل هذه المعجزات على يد غيره من الأنبياء ﷺ، ولم يقل أحد بألوهيتهم، فالعصا كانت تتحول إلى ثعبانٍ مبینٍ على يد موسى ﷺ، ومع ذلك لم يقل أحد من أهل الكتاب بألوهيته.

• الصراط المستقيم:

ومما تضمنته رسالته عيسى ﷺ التصديق بالتوراة، وأنَّ الله تعالى أنزلها على موسى ﷺ:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: لما أنزل الله قبلي من التوراة. ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في شريعة التوراة، فقد شَدَّدَ الله تعالى في شريعة التوراة بعض الأحكام على بني إسرائيل، بسبب عنادهم وعدم انقيادهم لأنبيائهم.

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ شاهدة على صحة رسالتي.

﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له ولا ولد.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: الإقرار بأن الله ربي وربكم، وإفراده وحده بالعبادة، هما الصراط المستقيم الذي يوصل إلى رحمته تعالى ورضوانه.

وانتقلت الآيات في سورة آل عمران مباشرة من الحديث عن البشارة بعيسى وعن نبوته ورسالته إلى بني إسرائيل، إلى آخر حلقات المواجهة بين عيسى ﷺ وبين بني إسرائيل، وتركت الآيات تفاصيل حمل مريم بعيسى، وولادتها له، ومواجهتها لقومها وهي تحمله، إلى سورة مريم؛ فهناك تتم قصة مريم وعيسى ﷺ.

والملاحظ أنَّ آيات سورة آل عمران ركزت على شخصية مريم، وعناية الله تعالى بها منذ أن كانت جنيناً في رحم أمها، كما بيّنت المعجزات التي أجراها الله على يد عيسى ﷺ، ومضمون الرسالة التي أرسل بها إلى بني إسرائيل.

وهذه الجوانب تتفق أولاً مع موضوع السورة الأساس، وهو بيان أنَّ القرآن الكريم هو الفرقان بين الحق والباطل، وهو المصدق للتوراة والإنجيل، فكل ما في التوراة والإنجيل مما يخالف القرآن الكريم لا صحّة له ولا أصل، بل هو نتيجة التحريف والتغيير اللذين حدثا فيهما.

وتتفق أيضاً مع سبب نزول هذه الآيات، وهو احتجاج وفد نصارى نجران على مزاعمهم الباطلة في عيسى ﷺ بالمعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه تبيناً لصحّة نبوته ورسالته.

• أنصار الله:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لما شعر عيسى ﷺ بإصرار بني إسرائيل على الكفر برسالته، والإعراض عن دعوته، وأنهم

يمكنرون به، ويريدون قتله، كما فعلوا بكثير من الأنبياء قبله، قال: من أنصاري في الدعوة إلى طاعة الله وعبادته وحده؟.

وحال عيسى عليه السلام في هذا كحال النبي ﷺ عندما كان يطوف على الناس في مواسم الحج قبل الهجرة، ويقول: «مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي، فَإِنَّ قَرِيشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي»، حتى وجد الأنصار، فأووه ونصروه، وهاجر إليهم، فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وهكذا عيسى ابن مريم انتدب له طائفة من بني إسرائيل، فآمنوا به وآزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه^(١). ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم:

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وَسُئِلُوا بِالْحَوَارِيِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَنْصَارَ عِيسَى عليه السلام وَالْمَخْلَصِينَ فِي مَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ.

وفي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب، انتدب الزبير رضي الله عنه، فقال ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ» [رواه البخاري (٢٩٩٧) ومسلم (٢٤١٥)].

إلا أن نصر الحواريين لعيسى عليه السلام يَخْتَلِفُ عن نصر الأنصار لرسول الله ﷺ، فالأنصار جاهدوا مع رسول الله ﷺ، وقاتلوا أعداءه، أما أنصار عيسى عليه السلام فما جاهدوا معه، لأنه لم يؤمر بقتال، وما عُرف عنه عليه السلام ذلك، واستنصاره بالحواريين كان على نشر دعوته والإيمان به.

وقد يقول قائل: ولكنّه سيقا تل الكفار ويجاهد هم عند نزوله إلى الأرض قبل قيام الساعة، كما جاء في الأحاديث النبوية الصحيحة المتواترة.

وأقول: نعم سيقا تلهم ويقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، في ظل شريعة الإسلام والقرآن، فلا نبوة بعد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، ولا دين غير دين الإسلام المستمد من القرآن والسنة المطهرة؛ وهو ما سبق في

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وسيأتي أيضاً تأكيده في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومعنى قول الحواريين: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مستسلمون لله تعالى وحده، منقادون لأمره وشرعه؛ وهو الإسلام الذي دعا إليه جميع الأنبياء ﷺ. ثم بعد أن أعلنوا استجابتهم لدعوة عيسى ﷺ، واستعدادهم للقيام بنصرته ومساعدته في تبليغ رسالته، توجهوا إلى الله تعالى بهذا الدعاء:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَرْسَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَرْسَلْتَ﴾ في الإنجيل.

﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ الذي أرسلت، وهو عيسى ﷺ.

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، الذين شهدوا لك بالوحدانية، وشهدوا بصدق الأنبياء والمرسلين.

أو اكتبنا من أمة النبي محمد خاتم الأنبياء ﷺ، الذي بشر به عيسى ﷺ، وأخذ على جميع الأنبياء الميثاق أن يؤمنوا به ويصدقوا برسالته إن أدركوا زمانه - كما سيأتي معنا - لأن أمته عليه الصلاة والسلام هي خير الأمم، ولها مقام الشهادة على الناس يوم القيامة.

قال تعالى يبين فضله على هذه الأمة المسلمة: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلْ أَتُحِبُّونَ إِسْرَافِيئِيلَ هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وكذب عامة اليهود عيسى ﷺ رغم كل المعجزات الحسية التي أيده الله

تعالى بها، ومكروا به، وحاولوا قتله، كما فعلوا بكثير من الأنبياء قبله، فأحبط الله مكبرهم، ونجّاه من كيدهم، وأخبر سبحانه عن هذا في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

ومكر اليهود بعيسى وأرادوا قتله، فأنجاه الله منهم لأنه سبحانه يحبط مكبرهم، ويبطل كيدهم.

• الرفع إلى السماء:

ثم بين سبحانه كيف نجّاه من كيدهم ومكبرهم برفعه إلى السماء:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ﴾ أي: إني متوفيك وفاة النوم ورافعك إلي.

فالوفاة في الآية تعني النوم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَلِيلٍ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقوله أيضاً: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَا ضَرَفَ إِلَيْهِ أَلَّتْ فِيهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُنْفُسَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

وأصل التوفي: أخذ الشيء وافياً، ولهذا فسر بعض علماء التفسير معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قابضك ورافعك.

قال القرطبي: «قيل: هذا يدل على أنّ الله ﷻ توقّاه قبل أن يرفعه، وليس

بشيءٍ، لأنّ الأخبار تظاهرت برفعه، وأنه في السماء حيٌّ، وأنه ينزل ويقتل الدجال، وإنما المعنى: فلما رفعتني إلى السماء»^(١).

وقال ابن كثير رحمته الله: «وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا النوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» [رواه مسلم (٢٧١١)]^(٢).

وجمهور العلماء على أنه صلى الله عليه وسلم لم يمت، وأنه حي في السماء، وأن اليهود لم يقتلوه ولم يصلبوه، قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ ١٥٦ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء].

ولو كان مراد الله من الوفاة الموت المُنهي للحياة ما رفعه إلى السماء، لأنه قدّر رجوع الأجساد إلى الأرض بالموت، وبعثهم يوم القيامة منها؛ فموت عيسى يكون في الأرض بعد نزوله من السماء.

هذا هو الحق الذي يجب اعتقاده في موضوع عيسى صلى الله عليه وسلم، والآية الأخيرة تشير إلى حياته، وأنه لم يمت بعد.

وقد صرحت الأحاديث الشريفة الكثيرة بأنه سينزل قبل قيام الساعة، ويقتل الدجال، ويكسر الصليب، ولا يبقى أحد من كفار أهل الكتاب إلا يؤمن به الإيمان الصحيح بأنه عبد الله ورسوله، وقد بلغت الأحاديث التي أخبرت عن نزوله مبلغ التواتر لكثرتها؛ حتى إنّ بعض العلماء أفردوا في التأليف^(٣).

(١) تفسير القرطبي: ٣٦٦/٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٨٦/١.

(٣) من أجل ما أُلّف فيها كتاب: التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للمحدث الهندي =

منها: [ما رواه البخاري (٢٢٢٢) ومسلم (١٥٥) والترمذي (٢٢٣٣)]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابنُ مريمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فيكسرَ الصليبَ، ويقتلَ الخنزيرَ، ويضعَ الجزيةَ، ويفيضَ المالَ حتى لا يقبله أحدٌ، حتى تكونَ السجدةُ الواحدةُ خيراً من الدنيا وما فيها»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَهُمْ أَلْفِيمَةٌ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

والقول بأنَّ أحاديثَ نزول عيسى ﷺ إلى الأرض أخبارٌ آحادٍ لا تفيدُ العلم القطعي قولٌ باطلٌ، يدل على جهلِ قائله بالسُّنة النبوية، وهو ما ذهب إليه بعض المتأخرين من المفسرين:

قال في «التفسير الحديث»: «لرشيد رضا - وهو صاحبُ «تفسير المنار» - في صدد ذلك كلامٌ طويلٌ يفيدُ أنَّ التوفي بمعنى الموت، والرفع بمعنى التكريم، وأنَّ الأحاديثَ النبويةَ هي أحاديثُ آحادٍ في أمورٍ غيبيةٍ لا يؤخذُ فيها إلا بالقطعيِّ المشهور، وأنَّ نفْيَ صلِّه وقتله وكونه شُبَّهَ عليهم لا ينفي موته موتةً عاديةً... ولا تخلو هذه الأقوال من وجاهة»^(١).

ولكنَّ هذه الأقوال أمامَ التحقيق العلمي لا وجاهةَ فيها، بل هي محضُ الخطأ والضلال، لأنَّ الأصلَ أن يُحمَلَ الكلامُ على حقيقته، والآية تصرِّحُ بالرفع لا بالتكريم، والأحاديثُ الشريفة تؤكد المعنى الحقيقي، فما الذي يجعلنا ننصرف عن المعنى الحقيقي، ونؤول الرفع بالتكريم، ونترك الأخذَ بالأحاديثِ الشريفة الصحيحة المتواترة؟! إن ذلك محضُ الضلال والخطأ.

ثمَّ أكَّد سبحانه رفع عيسى إلى السماء حياً بقوله:

= محمد أنور الكشميري رحمته الله، وقد زاد عدد الأحاديث التي ذكرها على خمسين حديثاً، وذكر معها سبعين أثراً عن الصحابة، وقد زاده فوائد ودرراً محققه العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمته الله.

(١) انظر: التفسير الحديث: ١٠٨/٥.

﴿وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: برفعي إياك إلى السماء^(١).

• أتباع عيسى عليه السلام:

وأخبره تعالى بتأييده لأتباعه حتى تكون لهم الغلبة والظهور على أعدائهم، فقال:

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ﴾ وهم المؤمنون بأن عيسى عليه السلام عبد الله تعالى ونبي من أنبيائه، وهم المسلمون الموحدون، الذين ينزهون الله تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

قدّر الله تعالى أن تكون لهم الغلبة على أعدائهم من الكفار كلما التقوا بهم في ميدان المناظرة بالحجة والبرهان، أو في ميدان القتال بالسيف والسنان، ما داموا مؤمنين بالله حق الإيمان، و متمسكين بدينه وملتزمين شريعته، كما قال سبحانه: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وشواهد التاريخ القريب والبعيد أكبر دليل على ذلك.

فلا دليل ولا برهان لمن يزحزح عيسى عن مقام عبوديته لله تعالى، ويصفه ببعض صفات الألوهية، أو يصف الله تعالى بأن له ولداً أو صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

لقد ناظر النبي ﷺ وفد نصارى نجران، وأقام عليهم الحجة، ثم دعاهم إلى المباهلة، كما سيأتي، فنكصوا على أعقابهم خائبين.

شهدت العصور المتأخرة مناظرات ومجادلات بين المسلمين الموحدين وبين الكافرين، فكان النصر والفوز للموحدين المسلمين أتباع عيسى عليه السلام.

ومن أشهر هذه المناظرات تلك المناظرة التي حدثت في الهند، في أثناء الاحتلال البريطاني، بين العالم المسلم (رحمة الله الكيرانوي) الهندي (١٢٣٣ - ١٣٠٨هـ) وبين القس البريطاني المشهور (فندر)، ومعه القس (وليم كلين)، حول خمس قضايا؛ هي:

١ - التحريف في الكتاب المقدس .

٢ - وقوع النسخ .

٣ - التثليث .

٤ - نبوة محمد ﷺ .

٥ - صدق القرآن الكريم .

وأسفرت عن اعتراف (فندر) بوقوع التحريف في ثمانية مواضع من الإنجيل، وانقطع عن متابعة المناظرة في اليوم الثالث^(١) .

قال ابن كثير رحمه الله: فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض... فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واجتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر، وسلبوها كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم ﷺ عن ربهم ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، فلهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً سلبوا النصراني بلاد الشام، وألجؤوهم إلى الروم... ولا يزال الإسلام فوقهم إلى يوم القيامة^(٢)، ما داموا متمسكين بدينهم، ومطبقين أحكام شريعته، وما أتي المسلمون إلا من إعراضهم عن شريعة ربهم، وتركهم سنة نبيهم ﷺ.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ وحينئذ يكون الحساب والجزاء .

(١) انظر: مقدمة كتاب: إظهار الحق، التي كتبها أبو الحسن الندوي رحمه الله.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢٨٦/١.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَبُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

وهو ما حدث لمن كفر بعيسى ﷺ من اليهود، أو غلا فيه من النصارى، وستكون الغلبة عليهم للمسلمين إن شاء الله في العصر الحاضر، إذا عاد المسلمون إلى دينهم، وطبقوا شريعة ربهم، وسنة نبيهم ﷺ، والمعركة مستمرة، ولم تنته بعد، والأيام دول، وهو سبحانه المعز والمذل، والمعطي والمانع، كما مر معنا في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وسياأتي معنا في آخر السورة قوله تعالى: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورُهُمْ ﴿٥٨﴾﴾ في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالثواب الجزيل والجنة. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾ .

● المباهلة:

بهذا أنهت الآيات الكريمة قصة مريم وولدها عيسى ﷺ، والتفتت بعد ذلك إلى النبي ﷺ تخاطبه بقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ .

فهو الفرقان المميز بين الحق والباطل، أنزله الله تعالى عليك، وأظهر فيه حقيقة عيسى ﷺ، وأزال ركाम الأباطيل والأكاذيب التي نُسجت حوله.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴿٥٩﴾﴾ في الخلق من دون تقدم أسباب.

﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكما خلق الله تعالى آدم، خلق عيسى عليه السلام، بل إنَّ خلق آدم من غير أب ولا أم أعجب من خلق عيسى من أم بلا أب.

وهكذا ظهر الحق فلا شك ولا افتراء:

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦١).

أي: الشاكين.

ولا يكون من النبي عليه السلام أدنى افتراء وشك، وجاء الخطاب له على سبيل الإلهاب والتهيج لزيادة التثبيت^(١)، وبيان خطورة الشك في هذه الحقائق الناصعة الواضحة، فلا يُعَذَّرُ من يعتريه شك في عبودية عيسى عليه السلام لربه وصدق نبوته.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٢).

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ﴾ أي: جادلَكَ في شأن عيسى عليه السلام.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الذي سبق بيانه في السورة، فهو حق واضح أفاد العلم القطعي بأنَّ عيسى عليه السلام عبدُ الله تعالى، ونبيُّ مرسل يدعو إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ أي: نُحْضِرْهُمْ.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نَبْأَهِلْ، ويدعو كلُّ فريق الله تعالى، ويسأله أن ينزل لعنته على الكاذبين.

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٤٦/٢.

﴿فَنَجْعَلَ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ في أمر عيسى عليه السلام .

وجّه النبي ﷺ دعوة المباهلة إلى وفد نصارى نجران، فأبوا الاستجابة لها، ورضوا بدفع الجزية، وظلّوا متمسّكين بعقائدهم الفاسدة.

ففي [صحيح البخاري (٤٣٨٠)]: عن حذيفة رضي الله عنه قال: جاء العاقبُ والسيدُ صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لو كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالاً: إنّنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: «لأبعثنّ معكم رجلاً أميناً حقّ أمين» فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح» فلما قام، قال رسول الله ﷺ: «هذا أمينٌ هذه الأمة».

ثمّ عقّب الله تعالى على قصة عيسى وأمه بقوله الكريم:

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد ﷺ، في شأن عيسى وأمه، هو الحق الثابت.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن هذا الحق.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا يدلُّ على أنّ الإعراض عن الحق يؤدي إلى الفساد في الاعتقاد والسلوك والأخلاق.

• كلمة العدل:

وأمر الله تعالى النبي ﷺ أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة حقّ وعدل وإنصاف:

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا۟ اِلٰى كَلِمَةٍ سَوّٰمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا اللّٰهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ فَاِنْ تَوَلَّوْا۟ فَقُوْلُوْا اَشْهَدُوْا بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ ۝۱۴﴾ .

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا۟ اِلٰى كَلِمَةٍ سَوّٰمٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ۝۱۴﴾ أي: كلمة عدل وإنصاف، نستوي نحن وأنتم فيها، وهي:

﴿اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا اللّٰهَ﴾ الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والولد.

﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا﴾ في العبادة والطاعة، أو في صفة من صفات كماله جل وعلا.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ﴾ أي: لا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله تعالى، فالحكم لله تعالى وحده، والتشريع له ﷺ، فلا حلال إلا ما أحله الله، ولا حرام إلا ما حرّمه، ولا دين إلا ما شرعه.

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿اَتَّخِذُوا۟ اٰخِبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا اُمُّرُوْا۟ اِلَّا لِيَعْبُدُوْا اِلٰهًا وَاحِدًا لَاۤ اِلٰهَ اِلَّا هُوَ سُبْحٰنُهُ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾ [التوبة: ٣١].

ولما كان عدي بن حاتم نصرانياً ودخل على النبي ﷺ وهو يتلو هذه الآية، فقال معترضاً: إنهم لم يعبدوهم، فقال النبي ﷺ: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» [رواه الترمذي (٣٠٩٥) وحسنه].

وقد عوّدتنا الآيات الكريمة أن يكون موقف المسلمين عند إغراض الكافرين عن دينهم أن يعلنوا إسلامهم لله تعالى، واستسلامهم لشرعه:

﴿فَاِنْ تَوَلَّوْا۟ فَقُوْلُوْا اَشْهَدُوْا بِاَنَّا مُسْلِمُوْنَ ۝۱۵﴾، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿فَاِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ اَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

والجدير بالذكر: أن النبي ﷺ ذكر هذه الآية في كتابه الذي أرسله إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام، وهو: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما

بعدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلَمْتُ تَسْلَمَ، وَأَسْلَمْتُ يَوْمَ تَكَّ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ^(١)، وَيَتَّاهَلُ الْكَتَّابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ... ﴿الآية﴾ [رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له].

• الإسلام دين إبراهيم عليه السلام:

وبعد أن بيَّنت الآيات حقيقة عيسى عليه السلام وأمه، رجعت إلى ما قبل عيسى عليه السلام بقرون طويلة، إلى والد الأنبياء إبراهيم عليه السلام لتبين حقيقة الدين الذي كان يدعو إليه، وأنه دين الإسلام لله تعالى وحده، لأن النصارى يدعون أن إبراهيم كان نصرانياً، واليهود يدعون أنه كان يهودياً، فأنزل الله قوله الكريم فرقاناً بين الحق والباطل:

﴿يَتَّاهَلُ الْكَتَّابُ لَمْ تُحَاجُّوْا فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥)

وقد يقول قائلٌ منهم: نحن نعلم أنَّ التوراة والإنجيل أنزلا بعد إبراهيم بزمان طويل، لكنَّ هذا لا يمنع أن يذكر الله تعالى فيهما الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام.

والجواب: أنَّ الله تعالى لم يذكر في التوراة والإنجيل دين إبراهيم عليه السلام، بينما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم في آيات كثيرة، وذكر أنه عليه السلام كان موحداً مسلماً لله تعالى، حنيفاً عن كل ملل الشرك والكفر، بل أمر النبي صلى الله عليه وآله باتباع ملته، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦٢) شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦٣) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٦٤) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[التحل].

ولهذا قال تعالى لهم على سبيل التبكيت والتقرع:

(١) عامة الناس من رعاياك. قلت: انظر: معنى الأريسيين في كتاب: السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، ص ٣٠٦ - ٣١٠؛ ط: دار القلم بدمشق. (الناشر).

﴿هَاتَيْنِمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦).

﴿هَاتَيْنِمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام ، فيما تدعونهم بشأنيهما .

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ كإبراهيم عليه السلام .
﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما أنزل في كتبه .
﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

فالإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام ، الدين القائم على الاستسلام الكامل لله وتنزيهه سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد :

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧).

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كل ملل الشرك والكفر .
﴿مُّسْلِمًا﴾ لله تعالى وحده .
﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

والمسلمون أحق الناس بإبراهيم عليه السلام ، وعلى رأسهم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿إِنَّ أَوَّلَى الْنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨).

﴿إِنَّ أَوَّلَى الْنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في الإعراض عن الشرك والكفر ، والاستسلام لله تعالى وحده .

﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم الداعي إلى التوحيد الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام .
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من هذه الأمة المسلمة الموحدة .

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله الواحد الأحد وبرسالة جميع الأنبياء والمرسلين .



الفصل الثالث

التوراة واليهود

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩)
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَوْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْلُصْ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِن
أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ يَقْتَارِ يُؤْذِيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ يَدِينَارٍ لَا يُؤْذِيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا
دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ
وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ
لِتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِشَرٍّ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ
وَالنَّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ
الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَن تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ
بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا ءَاتَيْنَكُمْ مِن كِتَابِ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَضْتُمْ وَآخَذْتُمْ
عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ

فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ تِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ ؕ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْهُ عَلَيْهِمْ ﴿٩٢﴾

﴿٩٣﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٥﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٦﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَّهِلُّ الْكَافِرُونَ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ يَتَّهِلُّ الْكَافِرُونَ بِمَا يَصْنَعُونَ وَعَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ يَتَّهِلُّ الْكَافِرُونَ بِمَا يَصْنَعُونَ وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَتَّهِلُّ الْكَافِرُونَ بِمَا يَصْنَعُونَ وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَلَا تُمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا

حُفِرَ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٨﴾ وَلَا تَكُونُوا
كَالَّذِينَ نَفَرُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ
وُجُوهٌُ وَسَوْدٌ وَوُجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿١١٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى
اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٣﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَآكَرَهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٤﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَئِنْ يَفْتَنُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا
يُنصُرُونَ ﴿١١٥﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبِأَمْرِ يَعْصِبُ
مِنَ اللَّهِ وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٦﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِمَّنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ
يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آتِلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٧﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا
يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ
عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢٠﴾ مَثَلُ مَا
يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً
مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٢٢﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ
وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا تَامِلٌ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ
مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢٣﴾ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ

يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ .

• تحذير:

عندما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كان فيها عدد كبير من اليهود، أعرض أكثرهم عن دعوة النبي ﷺ، ومكروا به، وألبوا المشركين عليه، وحاولوا قتله، مع أنهم يعلمون أنه النبي الذي بَشَّرَ به أنبياء بني إسرائيل، وذكرت نُعُوتُهُ وصفاته في التوراة.

وقبل أن توجّه الآيات الخطاب إليهم حذرت المسلمين من مكرمهم وكيدهم، قال تعالى:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود.

﴿لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أي: يبعدونكم عن الإسلام، قيل: إنها نزلت في اليهود حين دعوا حذيفة وعماراً ومعاذاً من الصحابة إلى اليهودية.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: وما يعودُ وبأل ذلك إلا على أنفسهم.

وهذا يدل على قوّة إيمان المخاطبين في الآية، وثباتهم على ما هم عليه من الدين القويم^(١).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بأن ضرر الإضلال يعود عليهم.

• أهل الكتاب:

ثمّ وجهت الآيات الخطاب إليهم مباشرة، بقوله تعالى:

(١) تفسير أبي السعود: ٤٩/٢.

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ﴾ ونداء القرآن الكريم لهم بهذه الصفة يدل على ميزة كبرى يمتازون بها على غيرهم، فهم يملكون بالكتاب الذي أنزل عليهم الدلائل والبراهين الدالة على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته أكثر من غيرهم، ولهذا أنكر الله عليهم كفرهم وإعراضهم عن الإيمان فقال:

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي أنزلها الله في التوراة والدالة على نبوته عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: وأنتم تشاهدون هذه الدلائل وتعرفونها.

وعلى الرغم من التغيير والتبديل في التوراة، وخاصة ما يتعلق بصفات النبي ﷺ، فلا يزال فيها بعض الإشارات إلى النبي ﷺ، حتى إن أحد قسس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية البروفسور (داود بنيامين الكلداني)، ألف كتاباً في هذا الموضوع، عنوانه: «محمد في الكتاب المقدس»، وقد أسلم بعد ذلك، وتسمى باسم عبد الأحد داود، وقد ذكر فيه استناداً إلى خبرته باللغات الآرامية والعبرانية والسريانية القديمة، كثيراً من النبوءات على لسان الأنبياء، لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ:

منها: ما في الإصحاح الثاني من سفر حجّي: «وسوف أزلزل كلّ الأمم، وسوف يأتي حمداً (Himade) لكلّ الأمم، وسوف أملاً هذا البيت بالمجد»^(١).

ومنها: ما في الإصحاح التاسع والأربعين في سفر التكوين: «لا يزول صولجان من يهوذا، أو مشرع من بين قدميه حتى يأتي (شيلوه) ويكون له خضوع الشعوب»^(٢).

ورأى المؤلف أنّ هذه النبوءة لا تنطبق على عيسى عليه السلام، لأنه لم يترك

(١) انظر: محمد في الكتاب المقدس.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

قانوناً مكتوباً، ولم يحلم أبداً بصولجان ملكي، بل إنه نصَحَ اليهودَ أن يكونوا مخلصين لقيصر، وأن يدفعوا له الجزية . . . وجاء محمد ﷺ بالقوة العسكرية، والقرآن يحلّ محلّ الصولجان اليهودي القديم البالي، والشرعة القديمة غير العملية^(١).

ثمَّ يؤكد المؤلفُ أنَّ معنى شَيْلُوهُ: شيلوا ح، وتكون عندئذٍ مرادفة تماماً لرسول ياه، وهو نفس اللقب المعطى لمحمد وحده (رسول الله)^(٢).

ثم ذكر للكلمة معنى ثانياً ذا أهمية لصالح محمد ﷺ وهو: هادئ، مسالم، أمين، وديع، وكان ﷺ يلقب بالأمين^(٣).

ويرى المؤلف أيضاً أنَّ كلمة (برناشا) الواردة في نبوءة النبي دانيال، ومعناها ابن الإنسان، الذي يحطّم الوحش الرابع، والمراد به الإمبراطورية الرومانية، لا ينطبق إلا على محمد ﷺ^(٤).

كل ذلك يبيّن لنا سرَّ نداء الله تعالى لهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فهم يعلمون مدلول هذه الكلمة، وما فيها من إلزام قاطع لهم بالإيمان بالنبي ﷺ، ولهذا تابعت الآيات الكريمة تناديهم بهذا النداء:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٦١).

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: تسترونه به، أو تخلطونه به.
 ﴿وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ﴾ وهو نبوة محمد ﷺ.
 ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه نبي الله حقاً.

(١) انظر: محمد في الكتاب المقدس.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: المرجع السابق نفسه.

(٤) المرجع السابق نفسه، فصل: محمد ابن الإنسان.

• من خداع اليهود ومكرهم:

ثم كشفت الآيات الكريمة بعض خداعهم ومكرهم:

﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢).

﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ﴾ فهي مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، فاتفقوا فيما بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين^(١)، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم.

وقد قطع النبي ﷺ على أمثالهم طريق الإيمان خداعاً ومكراً، عندما شرع ﷺ قتل المرتد عن الإسلام، فقال: «مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ» [رواه البخاري (٦٩٢٢) وأبو داود (٤٣٥١) والنسائي (٤٠٥٩) و٤٠٦٥) والترمذي (١٤٥٨)].

فصان عليه الصلاة والسلام بهذا حرمة الإسلام، ومنع من اتخاذ الدخول في الإسلام للاستهزاء والاحتيال. وكانوا يتواصون فيما بينهم قائلين:

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤَفَّقَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُجَازُوا عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ﴾ (٧٣).

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ وهذا يدل على شدة تعصبهم لباطلهم، وأنهم لا يثقون إلا ببعضهم، فاليهودي لا يطمئن إلا لليهودي مثله.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢٩١/١.

وردَّ سبحانه عليهم بقوله :

﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ فالهداية بيده سبحانه ، فلا تأثير لمكرهم وخداعهم ،

ثم عادت الآية تحكي تنمة كلامهم لبعضهم :

﴿أَنْ يُؤَفِّقَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي : لا تظهروا ما عندكم من

العلم للمسلمين ، حتى لا يتعلموه منكم ، ويتخذوه حجة عليكم في الدنيا والآخرة .

وعادت الآية تنقُصُ قولهم هذا مرةً ثانية بقوله تعالى :

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فهو المعطي والمانع ، يعطيه من يشاء ،

ويمنعه ممن يشاء ، وفضله سبحانه يسع جميع خلقه ، كما أنَّ علمه سبحانه وسع كل شيء .

﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ﴾ .

﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) .

وقد خصَّ الله تعالى هذه الأمة المسلمة برحمته العظمى ومنته الكبرى ، وهي بعثة خاتم الأنبياء ﷺ فيهم ، وقد شاء سبحانه أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب بعدما خاسوا بعهدهم مع الله ، ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم ﷺ ، وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل .

• استحلالهم لأموال الناس :

وتابعت الآيات الكريمة تكشف أكاذيبهم وتفضح قبائحهم :

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ وهذا تقرير للحقيقة والوقائع ،

فبعضهم أصحاب أمانةٍ وتقوى، يحفظون الأمانة، ويؤدونها لأصحابها، ولو كانت مالا كثيراً، وهؤلاء قليل فيهم.

وأما أكثرهم فيستحلّون أكلَ أموال الناس بأي وسيلة كما قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه، وهذا صنيعه في الدينار، فما فوقه أولى ألا يؤديه إلى صاحبه ومستحقه.

فللمال مكانةٌ كبيرةٌ في قلوبهم، وحبُّهم له حملهم على الكذب على الله تعالى فقالوا:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس علينا في ديننا حرج ومسؤولية في أكل أموال غير اليهود.

حيث إن اليهود يعدون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وأنه سبحانه سلطهم على أموال الأرض وخيراتهما. قال الرابي أبو: سلط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم.

وجاء في وصايا التوراة: «لا تسرق مالَ القريب».

وقال علماء (التلمود)^(١) مفسرين هذه الوصية: إنَّ الأميَّ ليس بقريب، وإنَّ موسى لم يكتب في الوصية: «لا تسرق مالَ الأمي» فسلبُ ماله لم يكن مخالفاً للوصايا^(٢).

وقال ممياند مفسراً لما جاء في الوصية المذكورة: «لا تسرق»: إن السرقة

(١) معناه: كتاب تعليم ديانة وآداب اليهود، وهو عبارة عن حواشٍ وشروح للتوراة وتكملة للشرعية على حسب ما يدعون. وهو عندهم أفضل من التوراة، لأنهم يعتقدون بعصمة الحاخامات عن الخطأ، وأن كل ما قالوه جزءٌ من شريعة موسى. انظر: الكنز المرصود في قواعد التلمود.

(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود.

غير جائزة من الإنسان أي من اليهود، أما الخارجون عن دين اليهود فسرقتهـم جائزة^(١).

وقريب اليهودي هو اليهودي فقط، وباقي الناس حيوانات في صورة إنسان، هم حمير وكلاب وخنازير، يلزم بغضهم سرّاً^(٢). . . تلك بعض أقوال حاخاماتهم في التلمود.

وقال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إِنَّهُمْ يَكْذِبُونَ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

ثمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَحْبَابَهُ هُم أَهْلُ الْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ وَالتَّقْوَى:

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦).

• أيمانهم الكاذبة:

ومن افتراءاتهم أَنَّ أحبارهم أحلّوا لهم الحَلْفَ زوراً وكذباً في تعاملهم مع غير اليهود. وقد جاء في (التلمود): لَا تُعَدُّ اليمينُ التي يقسمُ بها اليهوديُّ في معاملاتهِ مع باقي الشعوب يميناً، لأنّه كأنّه أقسمَ لحيوانٍ، والقسمُ لحيوانٍ لَا يُعَدُّ يميناً. . . ولا يخطئ اليهودي إذا حوّل اليمينَ لوجهة أخرى.

وقد حلف الرابي (يوحنان) يوماً لامرأةٍ على ألا يبوح بسرّها قائلاً لها: إني لَا أبوحُ بهذا السرِّ أمام الله، ففهمت المرأةُ أَنَّ الحاخامَ يحلفُ لها بالله على كتمان السرِّ مطلقاً، مع أنّه حوّلَه بالكيفية الآتية: أحلفُ أَن لَا أبوحَ بهذا السرِّ أمام الله، ولكّني سأفشيهِ لبني إسرائيل^(٣).

ولهذا قال تعالى في سياق الآيات التي تكشف مخازيهم وأكاذيبهم:

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الكنز المرصود في قواعد التلمود.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فهو قليل مهما كان كثيراً بسبب جراتهم على استحلال اسم الله تعالى .

﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي : لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها .

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ لأنهم محجوبون عنه سبحانه .

﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ نظر رحمة وإحسان .

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ من الذنوب والآثام، فلا يغفرها لهم .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

وفي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم» قلت: يا رسول الله من هم؟ خسروا وخابوا. قال: وأعادهم رسول الله ﷺ ثلاث مرّات: «المُسْبِلُ [إزاره]»، والمُنْفِقُ سَلْعَتُهُ بِالْحَلْفِ الكاذِبِ، والمَنَانُ [رواه مسلم ١٠٦] وأبو داود (٤٠٨٧) والنسائي (٢٠٨/٨) والترمذي (١٢١١) وابن ماجه (٢٢٠٨).

و(المسبل) معناه: المتكبر. و(المنان) أي: بالصدقة.

• تحريف الكتاب:

ثم دمغتهم الآيات بالجريمة الكبرى، جريمة تحريف كتاب الله تعالى، الذي أنزل على نبيهم موسى عليه السلام، وهو التوراة، بقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكَذِبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكَذِبِ﴾ وهذا الفريق هم الأحبار، الذين

كانوا مؤتمنين على حفظ التوراة، فكانوا يُمِيلُونَ أَلَسْتَهُمْ عَنِ الْمَنْزَلِ إِلَى الْمَحْرَفِ^(١).

﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المنزل.

﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المنزل، بل هو من افتراءهم وكذبهم.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يكذبون على الله تعالى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً.

يَبْنِي البروفسور (داود الكلداني) صورةً من صور تحريفهم للتوراة فقال: «لقد كان اليهود دائماً وأبداً على غيرة من إسماعيل عليه السلام، لأنهم يعرفون جيداً بأنه كان يجسّد ويمثّل «العهد»، وبِخْتَانِهِ أُبرِمَ وَخُتِمَ هذا العهد، وإنه بدافع من ذلك الحقد وتلك الضغينة قامَ النَّسَاحُ وفقهاء الشريعة عند اليهود بتحريف وإفساد الكثير من صفحات كتبهم المقدسة، فشطبوا اسمَ إسماعيل من العبارات: الثانية والسادسة والسابعة من الفصل الثاني والعشرين في كتاب سِفْر التكوين، ووضعوا اسم إسحاق بدلاً منه، وقاموا أيضاً بحذف الوصف الخاص بإسماعيل: ولذلك الوحيد، وذلك إنكاراً لوجود إسماعيل»^(٢).

وقد امتلأت التوراة - نتيجة التحريف - بالافتراءات والأكاذيب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فوصفوهم بأقبح الصفات، ونسبوا إليهم أفحش الأعمال، وهم منها برآء، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

فهم الأطهارُ الأخيارُ الذين اختارهم الله تعالى من صَفْوَةِ خَلْقِهِ لنبوته وحمل رسالته، انظر كيف نزه الله ساحتهم عن الكذب، وشهد بصدقهم وأمانتهم، بقوله تعالى:

(١) تفسير أبي السعود: ٥١/٢.

(٢) محمد في الكتاب المقدس.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (٧٩).

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: اعبدوني من دون الله تعالى، فالأنبياء ﷺ لا يقولون مثل هذا القول أبداً، ولكنهم يدعون الناس إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ﴾ أي: كونوا شديدي التمسك بعبادة ربكم وطاعته.
﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: بسبب كونكم عالمين بالكتاب ومعلمين له.

فائدة العلم بالعمل به، والعالم الذي لا يعمل بعلمه أقبح من الجاهل.
ولهذا كان ﷺ يستعيد من علم لا ينفع؛ فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها» [رواه مسلم (٢٧٢٢)].

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَزْوَاجًا بِأَيِّمَرِكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠).

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَزْوَاجًا﴾ فالرسول ﷺ لا يأمر بعبادة أحد غير الله تعالى؛ لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ومن دعا إلى عبادة غير الله تعالى، فهو داعية كفر وشرك، والرسول والأنبياء منزهون عن ذلك.

﴿بِأَيِّمَرِكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؟! وحاشا لنبي أن يفعل ذلك، والمراد من الاستفهام الإنكار والنفي.

فالآيات الكريمة تشهد ببراءة الأنبياء والمرسلين عن الافتراءات والأكاذيب التي نسبها أهل الكتاب إليهم، وخصوصاً ما نسب إلى عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

• ميثاق النبيين:

ومن الأمانات التي ائتمن الله تعالى عليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأخذ عليهم الميثاق من أجل حفظها وأدائها، ما أخبر عنه في قوله الكريم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ أي: مهما أعطى الله تعالى أحدكم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ.

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ قال علي وابن عباس عليهما السلام: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث الله محمداً ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولننصرنّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمتّه: لئن بعث محمد ﷺ، وهم أحياء ليؤمنن به ولننصرنّه^(١).

وهذا يدل على أن رسالة القرآن الكريم - وهي الإسلام، التي دعا إليها النبي ﷺ - هي أكمل الرسالات وأتمها، كما يدل على فضل النبي ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام، فهو إمامهم وخاتمهم.

قال العلامة الألوسي رحمته الله: «وأخذ الميثاق من النبيين له ﷺ، مع علمه سبحانه أنهم لا يدركون وقته، فيه من التعظيم له ﷺ والتفخيم ورفع الشان، والتنويه بالذكر، ما لا ينبغي إلا لذلك الجنب»^(٢).

وقال ابن كثير رحمته الله: «فهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر، لكان هو واجب الطاعة، المقدم على الأنبياء كلهم»^(٣).

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٩٦/١.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢١٠/٢.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٩٦/١.

﴿قَالَ أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: عهدي.

﴿قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على إقراركم، فهو ميثاق جليل وخطير، الله جلَّ شأده عليه.

﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ عن هذا الميثاق.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله تعالى، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي» [رواه أبو يعلى].

ويقول أيضاً: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ به؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» [رواه مسلم (١٥٣)].

• الاستسلام لله تعالى:

فمسؤولية أهل الكتاب عن النبي ﷺ جسيمة وخطيرة، وإعراضهم عن التصديق برسالة النبي ﷺ إعراضٌ عن دين الله تعالى، الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، ولهذا قال تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أي: يطلبون ديناً غير دين الله تعالى، وهو دين الإسلام الذي دعا إليه النبي ﷺ.

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: والله سبحانه استسلم وخضع مَنْ في السموات والأرض، لأنهم تحت التسخير والقهر، وفي قبضة قدرته ومشيتته سبحانه، فمَنْ لم يستسلم لأمره التكليفي، انقاد وخضع

لأمره التكويني القدري، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يُخالف ولا يُمانع^(١).

﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ و مرجعهم ومصيرهم بعد الموت إلى أمره وحكمه جلّ جلاله.

• الإيمان بجميع الأنبياء:

ولا بدّ مع الاستسلام لله تعالى وحده من التصديق بنبوة جميع الأنبياء ﷺ، ولهذا أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة في وجوه أهل الكتاب الذين يفرقون بين الأنبياء ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٤).

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد، المتّصف بكل صفات الجلال والكمال، والمنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ في القرآن الكريم.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد يعقوب.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ في التوراة والإنجيل.

﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعمّ جميع الأنبياء ﷺ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مستسلمون له سبحانه وحده.

فالمسلمون يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا

أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتِبَ لَهُ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥].

هذا هو الإسلام الذي دعا إليه خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، وأنزله الله تعالى في القرآن، ولا يقبل الله تعالى ديناً غيره:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ في الدنيا، وهو ردُّ عليه مهما كان المصدر الذي يدعيه لهذا الدين.

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بسبب إعراضه عن دين الإسلام.

• كتمان الحق:

ثم بيّنت الآيات شدة هذه الخسارة بالنسبة للمرتدين عن الإسلام، وتردُّ بهذا البيان على اليهود الذين كانوا يؤمنون أوّل النهار، ويكفرون آخره، كما مرَّ معنا، وتردُّ عليهم أيضاً لأنهم كانوا يؤمنون بالنبي ﷺ قبل أن يُبعث، فلما بُعث من غيرهم كفروا به:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ؟﴾ والمراد من الاستفهام النفي، أي: لا يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم، وهم أهل الكتاب الذين رأوا نعت النبي ﷺ في كتابهم، وأقروا وشهدوا بأنه حق، فلما بُعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك، فأنكروه، وكفروا بعد إقرارهم^(١).

﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ وهو محمد ﷺ.

﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الدلائل الواضحة على صدقه وصحة نبوته في كتبهم المنزلة عليهم، وفي القرآن الكريم المنزل عليه.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الجاحدين للحق والمعرضين عنه.

ثم بينت الآيات جزاء ظلمهم وجحودهم بقوله جل وعلا:

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

بسبب كتمانهم للحق وجحودهم له مع معرفتهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

فكتمان الحق جريمة كبرى، فما بالك إذا انضم إليه الجحود والإنكار؟!.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ توعد كاتم العلم عن المحتاج إليه بلجام من نار يوم القيامة، فقال: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أُلْحِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» [رواه أبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩)].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار، أو في اللعنة.

﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ فلا تخفيف للعذاب عنهم ولا تأخير.

ومن رحمته سبحانه أنه فتح باب التوبة للمذنبين مهما كانت ذنوبهم كبيرة، وهو من أساليب التربية القرآنية الرفيعة، فلا ينبغي لمذنب أن يصرَّ على ذنبه يأساً من رحمة الله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوا، فأظهروا الحق الذي كتموه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. تباركت ربِّي ما أعظم رحمتك وأوسع مغفرتك!.

• الإصرار على الكفر:

فعليلهم أن يسارعوا إلى التوبة قبل نزول الموت بهم، لأنها لا تُقبلُ عندئذ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ وهم اليهود الذين كفروا بعيسى ﷺ وبالإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم وكتبهم.

﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم.

﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا حضرهم الموت وعانوا العذاب.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الحق والنجاة، بسبب تأخير التوبة والإصرار على الكفر.

ولو أنهم بادروا إلى التوبة قبل نزول الموت بهم لقبل الله تعالى توبتهم، أكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ
أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: أصرّوا على الكفر، وتمسكوا به، حتى ماتوا عليه.

﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ فمن مات كافراً لا يقبلُ الله تعالى منه أي فداء، ولو كان ملء الأرض ذهباً، فهو كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وذكر الذهب في الآية تعريضاً بأولئك الذين كفروا بمحمد ﷺ وكنتموا

الحق من أجل الذهب - كما مر معنا - وذَهَبُ الأرضِ كله لا ينفعهم يوم القيامة إن ملكوه وأحضره معهم .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ : لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ ؟ » فيقول : نعم . فيقول : أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ : أَنْ لَا تَشْرِكَ بِي شَيْئاً ، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَشْرِكَ بِي » [رواه البخاري (٦٥٥٧) ومسلم (٢٨٠٥)] .

وهؤلاء أخذ الله عليهم العهد بواسطة أنبيائهم أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء محمد ﷺ ، إن أدركوا زمنه ، وبيّن لهم نعوته وصفاته ، فلمّا أدركوا زمنه ، وعرفوه بصفاته ونعوته ، كفروا به ، وجحدوا نبوته ورسالته ، من أجل مصالحهم المادية ، ومراكزهم الدينية .

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ينقذونهم من العذاب ويمنعونهم منه .

● بذل المحبوب :

الحقُّ أعلى من الذهب والرُّتَب ، ولا يجوزُ أن يعرضَ الإنسانُ عن الحق ويجحدَه من أجل الذهب والرُّتَب ، كما فعل أحبارُ اليهود ، عندما كتم أكثرهم الحق ، وجحدوا نبوة سيدنا محمد ﷺ ، من أجل مصالحهم الدنيوية ومراتبهم الدينية ، وكان عليهم أن يعلنوا الحق ، ويظهروه للناس ، وينقادوا له ، فيؤمنوا برسالة الإسلام ، ولو كلّفهم ذلك أن يفقدوا امتيازاتهم ورتبهم ، وما تدرّه عليهم من ربح ومكاسب . فالحقيقةُ غالية الثمن ، ولا بدّ أن يُضحّوا من أجلها بما يحبون ، وهو ما قرره سبحانه بقوله :

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٩٢)

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فلن يصل الإنسان إلى الخير والإحسان والسعادة والجنة حتى يبذل في سبيلها ما يحب .

وكلمة ﴿تُنْفِقُوا﴾ تدل على المال ، فهو المحبوب الذي يجب بذله من أجل

الوصول إلى رضوان الله تعالى والجنة، فالبرُّ غالي الثمن، عزيزُ المنال، لا بد أن تضحي من أجله بما تحبُّ لتصلَ إليه، فالمراد بالإنفاق مطلقُ البذل، وفيه من الإيذانِ بعزّةِ منال البرِّ ما لا يخفى^(١).

والآية الكريمة، وإن كانت خطاباً لأهل الكتاب، تقرر مبدأً عاماً لكل الناس، ولهذا بادر كثير من الصحابة رضي الله عنهم إلى إنفاق أحب أموالهم في سبيل الله تعالى، فأنفق أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه بيئراً: بستاناً له قربَ المسجد، وكانت أحبَّ أمواله.

وأنفق عمر بن الخطاب رضي الله عنه سهمه في خيبر، وقال: يا رسول الله لم أصبَ ما لا قطُّ هو أنفُسُ عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به، فقال: «احبس أصلها وسبِّل ثمرتها» [رواه البخاري (٢٧٦٤) ومسلم (١٦٣٣)].

وعمد زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى فرسٍ يقال له: سَبَل، وكان أحبَّ مالِه إليه، فجعله في سبيل الله.

وأعتق ابن عمر رضي الله عنهما نافعاً مولاه بعد أن أُعطيَ فيه ألف دينارٍ...^(٢).

هكذا كانوا رضي الله عنهم إذا أحبوا شيئاً جعلوه لله تعالى.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بحسبه.

على هذا الدرب سار الكثيرون منهم، يلَبّون توجيه ربهم الذي هداهم إلى البرِّ كلّ يوم هداهم إلى الإسلام، ويتحررون بهذه التلبية من استرقاق المال، ومن شح النفس، ومن حب الذات، ويصعدون في هذا المرتقى السامق الوضيء أحراراً خفافاً طلقاءً^(٣).

• التحدي بالتوراة:

حرّم إسرائيل - وهو يعقوبُ بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام - أحبَّ الطعام

(١) تفسير أبي السعود: ٥٧/٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٣٢/٤.

(٣) في ظلال القرآن: ٢٢٥/١.

والشراب إلى نفسه تقريباً إلى الله تعالى، وكان أحب طعامٍ وشرابٍ إلى نفسه لحوم الإبل وألبانها، وكانت قبله حلالاً.

ولما بحث يهود المدينة المنورة عن شيءٍ يعترضون به على النبي ﷺ وقعوا على موضوع لحوم الإبل وألبانها، فأتوا إلى النبي ﷺ وقالوا: إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها، لأنها محرمة عليه! فأنزل الله تعالى رداً عليهم:

﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ﴾ أي: حلالاً لهم.

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾، فلما نزلت التوراة على موسى حرم عليهم فيها ما حرم إسرائيل على نفسه، وحرم عليهم أيضاً فيها بعض الطيبات من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم، عقوبة لهم وتشديداً عليهم^(١).

ولما أنكروا ذلك أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يتحداهم بالتوراة:

﴿قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهذا من أعلام نبوته ﷺ أن يتحداهم بكتابتهم التوراة؛ وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب.

فبُهِتُوا، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة استجابة للتحدي، ونكصوا على أعقابهم خاسرين، فأنزل تعالى فيهم:

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فزعم أنه حرم ذلك قبل نزول التوراة.

(١) انظر: تفسير سورة المائدة (الحلال والحرام في سورة المائدة)، وهو جزء من هذا التفسير.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الذين لا ينقادون للحق ولا يعملون به.

وبهذا أظهر ﷺ أن القرآن الكريم هو كلامه، وأن فيه الفرقان بين الحق والباطل، كما أظهر صدق النبي ﷺ وصحة نبوته ورسالته، وأثبت سبحانه أيضاً بهذه الواقعة إمكان حدوث النسخ في الأحكام والشرائع الإلهية، ونقض بهذا مزاعم اليهود بعدم حدوث النسخ في الأحكام والشرائع الإلهية، كي يتوصلوا إلى القول بثبات العمل بشريعة التوراة، وعدم إمكان نسخها.

وإيراد الآية الكريمة: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [آل عمران: ٩٣] في سياق قوله تعالى: ﴿كُنْ تَأْكُلُوا اللَّيْلَ حَتَّى تُفِقُوا مِمَّا جَحْتُونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]؛ فيه تعريضٌ بأخبار يهود، الذين لم يفعلوا ما فعل إسرائيل ﷺ الذي ينتسبون إليه، فقد ترك أحب طعام وشراب إلى نفسه تقريباً إلى الله تعالى؛ فلو كانوا حقاً يقتدون به ويسيرون على خطته، لتخلّوا عن تعصبهم لأنفسهم ومراتبهم الدينية ومصالحهم المادية، وانقادوا للحق، وآمنوا برسالة القرآن الكريم، وأقرّوا بصدق النبي ﷺ، الذي أمر أن يقول لهم أيضاً:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وهي عقيدة التوحيد والاستسلام لله تعالى وحده، مع الإعراض عن كل ما سواه.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما كان إبراهيم عليه السلام من المشركين أبداً في أي وقتٍ من الأوقات، بل كان موحداً مائلاً عن كل دين باطل.

• البيت الأول:

ظهر لنا من خلال الآيات مدى التوافق والاتساق بين آيات السورة، فكلُّ آية تُتِمُّ سابقتها، وتمهّد لما يأتي بعدها، فقد قررت الآيات السابقة وقوع النسخ في الأحكام، ومهّدت بهذا الموضوع لنسخ استقبال بيت المقدس في الصلاة باستقبال بيت الله الحرام، وهو من القضايا التي احتجّ بها اليهود على النبي ﷺ،

إذ بقي عليه الصلاة والسلام ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً بعد الهجرة، يستقبل في صلاته بيت المقدس، ورغب عليه الصلاة والسلام أن يتحوّل إلى بيت الله الحرام قبله إبراهيم عليه السلام، فأنزل الله تعالى عليه قوله الكريم: ﴿قَدْ رَأَى تَغَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وأنزل الله تعالى في سورة آل عمران الآيات التالية، يبيّن فيها فضل المسجد الحرام، وصلته بإبراهيم عليه السلام، وبهذا تتضح قوة الوشائج التي تربط بين الإسلام وملة التوحيد التي كانت ملة إبراهيم والأنبياء بعده:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [٩٦].

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ليعبد فيه الناس ربهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعُكُفُ فِيهِ وَالْبَاءِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُلْطَمِ نُزْقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وقال أيضاً: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرُوبَةَ الْحَرَامَ قِبْلًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة:

٩٧].

وكلمة ﴿وُضِعَ﴾ تدل على قِدَم البيت الحرام، وأنه كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام^(١). وقد أعاد بناءه برفع قواعده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وبيّن سبحانه مكان البيت بقوله:

﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي: البيت الذي بمكة، وسميت مكة المكرمة ببكة، لأنها

تبكُّ أعناق الظلمة والجبابرة الذين يريدونها بسوء، ولأنَّ الناس يزدحمون فيها بسبب كثرة الوافدين عليها للعبادة.

﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير.

ومن بركاته: مضاعفة ثواب الطاعات فيه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» [رواه البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤)].

وفي رواية ثانية بزيادة: «وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِئَةِ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي هَذَا» [رواه أحمد (٥/٤) وابن حبان في صحيحه (١٦١٨)].

ومن بركته أيضاً: ما يحصل للحجاج والمعتمرين من الثواب وتكفير السيئات.

﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ يهتدون به إلى جهة صلاتهم، وفيه بُعِثَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ والمرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأنزل عليه القرآن الكريم لهداية العالمين.

• بلد السلام:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧).

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: علامات واضحة على حرمة ومزيد فضله، منها: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَقِفُ عَلَيْهِ عِنْدَمَا رَفَعَ قَوَاعِدَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وفيه آثار قدميه منطبعة داخل الصخر، ولا تزال باقية حتى الآن. ثم أخبر سبحانه عما أوجب من أمن وسلام لمن دخل أرض الحرم، فقال: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ فمكة المكرمة بلد الأمن والسلام، وأرضها أرض حرام، حرّمها الله تعالى؛ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقِطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا،

وَلَا يُخْتَلَىٰ خِلَاةً قَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْخَرُ، فَقَالَ ﷺ: «إِلَّا الْإِذْخَرُ» [رواه البخاري (١٥٨٧) ومسلم (١٣٥٣) وأبو داود (٢٠١٨) والنسائي (٢٠٣/٥)]. ومعنى «لا يعضد»: لا يقص. «لا يختلى خلاه»: لا يرمى الكلاً النابت فيه. «الإذخر»: نبات طيب الرائحة.

• الْحَجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ:

ثم بيّن الله تعالى ارتباط البيت الحرام بركن هاهم من أركان الإسلام، فقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

فالبَيْتُ رمزٌ لتوحيد المسلمين ووحدتهم، فهو قبلتهم في صلاتهم، ويؤدّون فيه مناسك حجّهم، وتأتيه وفودهم من شتى بقاع الأرض، منذ أعلن إبراهيم عليه السلام دعوته سبحانه الناس لأداء مناسك الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] ^(١).

فيجب على كل إنسان يستطيع الوصول إلى بيت الله الحرام أن يأتيه لأداء مناسك الحج، فهو لكل الناس - كما مرّ معنا - ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾، ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ [الحج: ٢٧].

واليهود والنصارى من الناس، فهم مكلفون بالحج إلى بيت الله الحرام لا إلى غيره، فإن جحدوا فضله وأعرضوا، فالله سبحانه غني عنهم وعن عبادتهم وحجهم:

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى: (ومن كفر) بدل (ومن لم يحج) يدل على أهمية الحج، وأن من تركه جاحداً له كفر، وقوله أيضاً: (غني عن العالمين) مكان (عنه) يدل على كمال غنى الله تعالى، كما يدل على شدة سخطة تعالى على المنكرين لفريضة الحج وفضل البيت الحرام ^(٢).

(١) انظر: تفسير سورة الحج (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج)، وهو جزء من هذا التفسير.

(٢) انظر: تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ٥٤٩/١.

ولمّا كان أهلُ الكتاب أكثرَ الناس إنكاراً وجحوداً لفضل المسجد الحرام والتوجه إليه في الصلاة، التفتت الآيات الدالة على صدق النبي ﷺ وفضل بيت الله الحرام تخاطبهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على صدق النبي ﷺ وفضل بيت الله الحرام.

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ من التحريف والجحود والكتمان.

• الصدُّ عن سبيل الله:

ثمّ أمرت الآيات بمواجهتهم بجريمة صدّ الناس عن الإسلام:

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ﴾ بالله الواحد الأحد، وصدّق برسله.

﴿تَبَغُّوهَا عِوَجًا﴾ أي: تطلبون الزيف والميل عن سبيل الله تعالى.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أنّ محمداً ﷺ هو رسولُ الله حقّاً وصدقاً.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من صدّ عن سبيله، ومحاولة إحداث الفتن بين المسلمين.

وقد نزلت هذه الآية في رجلٍ من اليهود اسمه (شأس بن قيس)، مرّ على نفر من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاحيات ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر فتى من اليهود أن يجلس معهم، ويذكّرهم بيوم بُعث، وما تقاولوا فيه من الأشعار، وهو يومٌ من أيام الجاهلية، اقتتلت فيه

الأوسُ والخزرجُ، ففعل، فتكلم القومُ عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواتب رجالانٍ منهم فتقاولا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعةً (أي: عدنا إلى ما كان بيننا من قتال)، فغضبَ الفريقانِ وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرةُ (أي: الحرّةُ) السلاحَ السلاحَ، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرجَ إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشرَ المسلمينَ الله الله، أبدوى الجاهليةَ وأنا بينَ أظهرِكُم بعدُ أن هدأكُم الله للإسلام، وأكرمكُم به، وقطعَ به عنكم أمرَ الجاهليةِ، واستتدكم به مِنَ الكُفْرِ، وألّفَ به بين قلوبِكُم؟!».

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله (شأس بن قيس)، وأنزل الله هذه الآية وما بعدها^(١):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

فأهل الكتاب عامةً، واليهودُ خاصةً، حريصون على إحداثِ الفتن بين المسلمين، وإبعادهم عن دينهم، بسبب الحقدِ والحسدِ اللذين يملأن قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩].

فهم يعلمون أن قوة المسلمين ووحدتهم في تمسكهم بدينهم، ولهذا يذلون جهودهم لفتنة المسلمين عن دينهم، حتى قال أحد كبار رجال التنصير^(٢): «ليس المهم أن ندخل المسلمين في المسيحية، إنما المهم أن نخرجهم من الإسلام».

(١) سيرة ابن هشام: ١٤٧/٢، بتصرف واختصار.

(٢) هو سيئ الذكر (زويمر).

ولا عصمة للمسلمين من كيدهم ومكرهم إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ (١٠١)

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾؟ وهو إنكارٌ وتعجبٌ لكفرهم في حال اجتمعت لهم الأسباب الداعية إلى الإيمان، الصارفة عن الكفر^(١).

والخطاب وإن كان خاصاً بالصحابة ﷺ من الأوس والخزرج، فهو عام لكل المسلمين في أي زمان ومكان، ويدل على عمومه أنه سبحانه قال: ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ فلم يسند تلاوة الآيات إلى رسول الله ﷺ.

• الاعتصام بالله تعالى:

والقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله تعالى له، ولا تزال آياته تتلى على المسلمين كأنها تنزل ساعة تلاوتها، وكذلك سنة الرسول ﷺ أيضاً حُفِظَتْ ومُحَصِّنَتْ، وهي تقوم مقامه عليه الصلاة والسلام بعد وفاته.

﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ بالتوكل عليه والتمسك بهدي كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ المؤدي إلى رضوانه تعالى والجنة.

فالكتاب والسنة هما الحصن الحصين للمسلمين من الضلال والاختلاف، وهما المصدران الأساسيان للإسلام وشريعته، وكان رسول الله ﷺ يحث على التمسك بهما، ويغضب إذا رأى أحد أصحابه ينصرف عنهما إلى غيرهما.

ولما جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله،

إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ قُرَيْظَةَ، فَكُتِبَ لِي جَوَامِعٌ مِنَ التَّوْرَةِ، أَلَا أَعْرَضُهَا عَلَيْكَ؟ تَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَابِتٍ: أَلَا تَرَى مَا يُوْجِهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا، فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ﷺ ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الْأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ» [رواه أحمد (٤٧١/٣)].

• حبل الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٦) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٧﴾ .

ويستدعي الاعتصام بالله تعالى أمرين اثنين:

أولهما: تقوى الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أي: كما يجب أن يُتَّقَى، على قدر طاقة الإنسان، لقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغَابُنُ: ١٦].

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: كونوا على الإسلام، واثبتوا عليه، حتى ينزل بكم الموت وأنتم على الإسلام.

فلا يدري الإنسان متى يحضره الموت، ولهذا عليه أن يكون مداوماً على التقوى، فهو الرباط الذي يربطه بالإسلام ويشده إليه.

وثانيهما: الاعتصام بحبل الله تعالى:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: تمسكوا بدين الإسلام مجتمعين عليه.

وكلمة (الحبل) تدلُّ على وجود الخطر، فَإِنَّ مَنْ خَشِيَ التَّرْدِيَّ وَالسَّقُوطَ

يتمسك بالحبل. وحبل الله: دينه وشريعته، فالإسلام كهف الأمان والسلام للمسلمين يحميهم من شرور أنفسهم، ومن كيد عدوهم، ولا نجاة لهم إلا به.

• المسؤولية جماعية:

وكلمة (جميعاً) تدل على أنَّ التمسك بحبل الله يجب أن يكون عاماً شاملاً جميع المسلمين، فالخطر يُحْدِثُ بالأمة المسلمة كلها، والتبعات جسام، والمسؤولية جماعية، وإنَّ استرخاء بعض السواعد عن التمسك بحبل الله يعرِّض الأمة كلها للخطر، فكلمة (جميعاً) تدل على المسؤولية الجماعية للأمة على التمسك بدين الله تعالى والتزام شريعته، وقد أكَّد هذه المسؤولية الجماعية قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥] ولهذا شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما سيأتي قريباً.

وعدم التمسك الجماعي بحبل الله تعالى يؤدِّي إلى التفرُّق والاختلاف، وهو ما نهى عنه سبحانه بقوله:

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فالفرقة خذلان وضعف، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. ثم ذكَّروهم سبحانه كيف كانوا متفرِّقين مختلفين في الجاهلية؛ ليعرفوا قدر نعمة الله عليهم بالإسلام:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضكم بعضاً.

﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بهدايتها إلى الإيمان، واجتماعها على القرآن.

﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ في الدين والعقيدة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه.

[رواه البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥)].

وبين النبي ﷺ الثمرات الطيبة لأخوة الإيمان في المجتمع الإسلامي،

فقال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى» [رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦)].

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي: كنتم على وشك الوقوع في نار جهنم، بالموت على الكفر.

﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بالإسلام، فقد أتاهاهم بخيري الدنيا والآخرة.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ التي تدلُّكم على الدين الحق.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

• الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ثم شرع الله سبحانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تأكيداً للمسؤولية الجماعية التي سبق الحديث عنها، وبهذا التشريع أصبح كلُّ مسلم مسؤولاً عن حماية دين الله تعالى، وحارساً لشريعته، فقال:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُقْلِحُونَ﴾ (١٤).

قال ابن كثير رحمه الله: والمقصود من هذه الآية، أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كلِّ فردٍ من الأمة بحسبه، كما ثبت في [صحيح مسلم (٤٩)]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»^(١).

فلأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أثرٌ كبيرٌ في وحدة الأمة، وسلامتها من الاختلاف والفرقة والهلاك، وما أجملَ المثلَ الذي ضربهُ النبي ﷺ لبيان أثر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سلامة المجتمع، ووقايته من أسباب الهلاك، بقوله: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيْبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَّوْا جَمِيعًا» [رواه البخاري (٢٤٩٣)].

ونظراً لخطورة الاختلاف والتفرُّق على المسلمين عادت الآيات تحذِّرهم منهما بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٥).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ كاليهود والنصارى، فإنهم اختلفوا حتى كَفَر بعضهم بعضاً، وسفك بعضهم دماء بعض.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: الآيات والحجج المبيِّنة للحق، والموجبة للاتفاق.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة بسبب اختلافهم وتفرقهم.

روى الإمام أحمد [في مسنده: ١٠٢/٤]، وأبو داود [في سننه (٤٥٩٧)]: عن أبي عامر عبد الله بن يحيى قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة، قام حين صَلَّى صلاة الظهر فقال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِينَ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثَنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَإِنَّهُ سَيُخْرِجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمُ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مِفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ، وَاللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ! لئن لم تقوموا بما جاء به نبيُّكُمْ ﷺ، لَغَيْرُكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ».

فاتباع الأهواء من أعظم أسباب الفرقة والاختلاف، ولهذا توعَّدتهم الآية

بالعذاب العظيم يومَ القيامةِ، عندما يميّزُ الله تعالى بين المؤمنين المتمسكين بالحق، وبين أصحاب الأهواء الضالّين المضلّين:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فلكلّ فريقٍ سِمَتُهُ المميّزةُ له، يُظهرُها سبحانه على وجوههم كما قال: ﴿وُجُوهٌ يُؤْمِزُ مُسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ ضَاكِمَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يُؤْمِزُ عَلَيْهَا غَرَةٌ ﴿٤٠﴾ رَعَفَهَا فُزْرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجْرُ﴾ [عبس].

ثمّ بيّن الله تعالى مصير كل فريق، فقال:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم:

﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ؟﴾ على جهة التوبيخ والتعجيب.

والمقصودُ أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله ﷺ قبل بعثته، فلمّا بُعث كفروا به كما مرّ معنا، وكذلك الذين أسلموا، ثمّ ارتدوا، وماتوا على الكفر.

ففي [البخاري (٦٥٧٦)]: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «أنا قرطكم (سابقكم) على الحوض، وليُرْفَعَنَّ رجالٌ منكم، ثم ليختلجنّ دوني، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك».

وقوله: «ليختلجنّ دوني»: ليبعدون عني.

ويقال لهم أيضاً:

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ويقابلهم الفريق الآخر:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أي: في الجنة.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وفيها إشارةٌ إلى أنّ المؤمن لا يدخل الجنة إلا برحمته

تعالى، ولو استغرق عمره في طاعته لله تعالى، فطاعة الله تعالى لا تكفي لشكر نعمة من نعمه سبحانه.

أكد ذلك قوله ﷺ: «لن ينجي أحداً منكم عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سدّدوا وقاربوا، واغدّوا ورؤّحوا، وشيئاً من الدّلجة، والقصدُ القصدُ تَبْلُغُوا» [رواه البخاري (٦٤٦٣)].

وأراد النبي ﷺ أن يبيّن لهم أيضاً التوسط في السلوك والمنهج بين العبادة والعمل، فلا يكون منهم غلو وتشديد على أنفسهم، فالإسلام دين اليسر. ثم اتجهت الآيات بعد ذلك بالخطاب إلى النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هذه الآيات نقرؤها عليك بواسطة الوحي بالصدق والعدل في جميع ما أخبرت به ودلت عليه.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ﴾ فلا يكون منه سبحانه ظلم أبداً، لأنه مالك الملك ذو الكمال والجلال.

ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

فيجازي المكلفين على قدر استحقاقهم، ولا يظلم أحداً منهم.

• المسلمون وأهل الكتاب:

وفي الآيات تثبيّت للنبي ﷺ في مواجهته لضلال النصارى وكيد اليهود، وقد استمرت هذه المواجهة بعده بين المسلمين وأهل الكتاب على مدى التاريخ الإسلامي، ولا زالت مستمرة حتى العصر الحاضر، وازدادت مع مرور الأيام

عُمقاً وشراسةً، وأخذت في كلِّ عصر أبعاداً جديدةً، وخاصة في عصرنا الحاضر.

إنَّ أكبر المعارك التي خاضها المسلمون في تاريخهم الطويل كانت في خلال المواجهة مع القوى الصليبية الحاقدة، واليهودية الماكرة، وإنَّ القوى الصليبية واليهودية تقف في خندق واحد في مواجهة الأمة المسلمة، وشواهد التاريخ البعيد والقريب أكبر دليل على ذلك.

ولن تنتهي المواجهة ويتوقف الصراع حتى ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض - كما مرَّ معنا - فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية.

وبلاد الشام كانت ولا تزال بؤرة الصراع، ومركز المواجهة، ففي إمسند الإمام أحمد (١٢٧/٤): عن أبي أمامة: قلتُ: يا رسولَ الله ما كانَ أولُ بدءِ أمرِك؟ قال: «دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشْرَى عيسى بي، ورأى أمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ».

قال ابنُ كثير: والمرادُ أنَّ أولَ من نَوَّه بذكره وشَهَرَهُ في الناس إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولم يزل ذكره في الناس مشهوراً سائراً، حتى أفصحَ باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابنُ مريم عليها السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦].

وتخصيصُ الشام بظهورِ نوره إشارةٌ إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشامُ في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم في دمشق على المنارة البيضاء الشرقية منها، ولهذا جاء في «الصحيحين»: «لا تزالُ من أُمَّتِي أُمَّةٌ قائِمةٌ بأمرِ الله، لا يضرُّهم مَنْ خَذَلَهُمْ، ولا مَنْ خَالَفَهُمْ، حتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ» [رواه البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧)]. وفي البخاري: «وهم بالشام»^(١).

• خير الأمم:

ودل على استمرار المواجهة مع أهل الكتاب أن الآيات الكريمة تحولت بعد توجيه الخطاب إلى النبي ﷺ إلى توجيه الخطاب للمسلمين، تثبتهم، وترفع معنوياتهم، وتبين مكانتهم بين الأمم، بقوله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ والخطاب ليس خاصاً بأصحاب الرسول ﷺ الذين شهدوا عصر التنزيل، كما ذهب بعض المفسرين، بل هو عام لكل المسلمين في كل زمان ومكان.

ويؤيد ذلك ما أخرجه الإمام أحمد [٩٨/١]: عن أبي الحسن علي بن أبي طالب، كرم الله تعالى وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمِّي خَيْرَ الْأُمَمِ»^(١).

فالمسلمون خير الأمم، وأنفع الناس للناس، لأنهم يحملون للناس أكرم رسالة، وأعظم أمانة، وهي رسالة الإسلام.

وصيغة الإخبار بالماضي ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ تدل على أن هذه الصفة ملازمة لهم منذ وجودهم، وهي أظهر ما تكون في الجيل الأول من أجيال الأمة المسلمة، وهو جيل الصحابة رضي الله عنهم، قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» [رواه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣)].

ومعنى قوله: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: أظهرت وأوجدت لخير الناس

ومصلحتهم بمشيئة الله وقدرته وحكمته وعلمه، فهذه الأمة رحمة من الله للناس، تحمِلُ لهم رسالة الإسلام، رسالة السعادة والسلام.

• شَرَطَ الله تعالى:

وَشَرَطَ سبحانه على المسلمين لينالوا هذه المكانة الرفيعة بين الأمم شَرَطاً، بيّنه بقوله:

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر إيماناً بالله تعالى، وإظهاراً لدينه^(١).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤديان إلى نشر الإسلام، وتطبيق أحكامه، فالمعروف كلُّ ما أمر الله به وشرَّعه، والمنكر كلُّ ما نهى الله عنه وحرَّمه، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل، فتدخلونهم في الإسلام. [رواه البخاري (٤٥٥٧)].

فما دام المسلمون يعملون على نشر الإسلام بين الناس، فهم خير الأمم، فبالإسلام شُرُفت أمتهم، وبدعوتهم إليه نالوا هذه المرتبة الرفيعة بين الأمم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ، فَلْيُؤَدِّ شَرَطَ اللَّهِ فِيهَا^(٢).

قال ابن كثير رحمته الله: «وإنما حازت هذه الأمة قصبَ السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله عليه، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم، لم يُعطه نبيُّ قبله، ولا رسولٌ من الرسل»^(٣).

وقال سيد قطب رحمته الله: «فهي خير أمة أخرجت للناس لا عن مجاملةٍ أو محاباةٍ، ولا عن مصادفةٍ أو جُزافٍ - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وليس توزيع اختصاصات، كما كان أهل الكتاب يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ﴾»

(١) انظر: تفسير البضاوي: ١/٥٦٦.

(٢) روح المعاني: ٢/٢٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ١/٣٠٨.

[المائدة: ١٨] كلا، إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية عن المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر^(١).

• دعوة أهل الكتاب:

ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لو آمنوا برسالة الإسلام، وصدقوا نبوة سيدنا محمد ﷺ، لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الإسلام خير الدنيا والآخرة.

وتخصيص أهل الكتاب بالذكر، مع أن دعوة الإسلام عامة لهم ولغيرهم، لأن آيات سورة آل عمران نزلت بسببهم، ومواجهة المسلمين معهم أكثر من المواجهة مع غيرهم - كما مر معنا -.

وقد استجاب بعضهم للنبي ﷺ، فأسلموا، وشهدوا شهادة الحق، ودخل في الإسلام كثير منهم بعد فتح بلاد الشام، ومصر، والأناضول، والأندلس، وبلاد البلقان.

ويشهد العصر الحاضر إقبالاً على الإسلام، واهتماماً به من بعض علماء النصارى ومثقفهم، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَكَثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى ودينه وشرعه.

ولو تمكّن المسلمون اليوم أن يحسنوا دعوتهم، فيبرزوا لهم حقائق الإسلام وجوهره، ومدى تقديره للإنسان وتكريمه له، واحترامه للعلم والعلماء، لدخلوا في الإسلام أفواجا.

فالقوم محجوبون عن حقائق الإسلام بركام الأكاذيب والافتراءات التي صدرت عن القسّس والرهبان والحاخامات، على المدى الطويل للمواجهة مع الإسلام والمسلمين، كما أنهم يعانون في العصر الحاضر من فراغ روحي كبير

(١) في ظلال القرآن: ١/٤٤٧.

لا يملؤه إلا الإسلام، ومن قلق نفسي عميق لا ينكشف عنهم إلا بسكينة الإيمان وبرد يقينه.

ولا شك أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ بعد الحديث عن مكانة الأمة المسلمة بسبب دعوتها إلى الإسلام وحملها لرسالته، يُبرز مسؤولية الأمة المسلمة في نشر الدعوة، وخاصة بين أمم وشعوب أهل الكتاب.

• أمة الرسالة:

وتابعت الآيات تشدُّ أزرَ المسلمين في مواجهتهم مع أهل الكتاب وترفعُ من معنوياتهم، بقوله تعالى:

﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًىٌ وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾.

﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًىٌ﴾ أي: لن يتمكنوا من إيقاع ضرر كبير بكم، رغم شدة مكرهم، وقوة كيدهم، ولكنهم يستطيعون إيصال الأذى إليكم.

فالمسلمون أمة الرسالة التي قدَّر الله تعالى بقاءها إلى قيام الساعة، ولن يتمكن أهل الكتاب من يهود ونصارى أن يتسلطوا على المسلمين تسلطاً كاملاً، مهما بذلوا من جهود، وحشدوا من طاقات وإمكانات. قد يكون لهم تسلط جزئي في بعض الأوقات والأماكن، بسبب ضعف المسلمين وبُعدهم عن دينهم، ولكن الغلبة في النهاية للمسلمين بعد أن يعودوا إلى دينهم، ويتمسكوا بشريعتهم.

﴿وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ﴾ وأنتم متمسكون بدينكم.

﴿يُولُوكُمْ الْأَدْبَارَ﴾ أي: ينهزموا أمامكم، وينصركم الله عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾ أي: لا يجدون ناصراً ينصرهم عليكم.

لقد استمرت الحروب الصليبية قرابة مئتي عام، ثم انتهت بنصر المسلمين، وهزيمة الصليبيين، بعد أن عاد المسلمون إلى دينهم ووحدتهم، وقد هُزمتنا أمام اليهود في فلسطين من أرض الشام هزيمة منكراً، لأننا قاتلناهم ونحن بعيدون

عن الإسلام، وتحت رايات غريبة عن الإسلام ومعادية له، وستكون لنا الغلبة عليهم بإذن الله عندما نعود حقاً إلى ديننا وشريعتنا.

هكذا قدر الله تعالى للأمة المسلمة، أن تكون قوتها وعزتها ونصرها بالإسلام، وضعفها وتخلفها وهزيمتها ببعدها عنه، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند أسوار بيت المقدس: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، وإن نبغ العزة بغيره يذلنا الله.

• حبل الناس:

وألقت الآيات الكريمة بعض الأضواء على تاريخ اليهود ومصيرهم، وما قدّر الله تعالى عليهم بسبب فسادهم وجرائمهم، بقوله تعالى:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ أي: ألزمهم الله تعالى الذلة والصغار أينما كانوا، فهم مكروهون محتقرون من قبل جميع الشعوب والأمم.

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: إلا بعهد من الله، وهو عقد الذمة وعهده، الذي عاشوا بمقتضاه آمنين مطمئنين في ظل الحكام المسلمين.

﴿وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: وعهد من الناس.

هكذا فهم علماء التفسير الآية الكريمة، وهو فهمٌ صحيحٌ على ضوء الحقائق التي كانت في زمنهم، وأظهر الواقع المعاصر معنى آخر للآية، يدل على الإعجاز في كلام الله تعالى، الذي لا تنتهي معانيه، ففي كل عصر تظهر معانٍ جديدة لكلمات الله تعالى، لا تتعارض مع المعاني السابقة.

فحبلُ الناس في العصر الحاضر، معناه: المعونات المادية والسياسية

والعسكرية، التي تُقدَّم لليهود من الدول النصرانية الكافرة في الشرق والغرب، ولولا هذه المعونات ما تمكن اليهود من إقامة كيان لهم في فلسطين.

وهذه المعونات لا تُقدَّم لهم محبةً بهم، وإنما تُقدَّم لهم كيداً للمسلمين ومكرًا بهم، فلا زالت المواجهة بين المسلمين وأهل الكتاب قائمةً لم تتوقف - كما سبق معنا - والحروب الصليبية لم تنتهِ بعدُ، والمعونات التي تقدمها الأمم والحكومات الصليبية لليهود في فلسطين مظهرٌ من مظاهر الحرب الصليبية المستمرة.

والجبل في اللغة: السببُ والصِّلَةُ، والمعونات: أسباب وصلات، والجبل أيضاً: العهد، والمعونات المقدمة لهم نتيجة العهود المبرمة بين اليهود من جهة، وبين الدول الكافرة التي تقدمها لهم.

• المغضوب عليهم:

﴿وَبَاءُ وَيَعْصِبُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: حَلُّوا بغضب الله، ومكثوا فيه^(١)، فهم المغضوب عليهم، بسبب جرأتهم على الله تعالى، وتحريفهم لكتابه، وقتلهم لأنبيائه.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي: الشعور بالفقر والمهانة، فاليهودي مهما كان غنياً يتظاهر بالفقر والضعف، ولهذا تراهم يلجؤون إلى أقذر الوسائل لجمع المعونات والمساعدات.

ولعلَّ ما نسَمُ ونقرأ عن الأساليب الخبيثة القدرة التي يستعملونها لجمع التبرعات والهبات في أمريكا وغيرها من الدول، أكبر شاهدٍ على الذلَّة والمسكنة التي ضربها الله تعالى عليهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة في التوراة والإنجيل والقرآن.

﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بل بسبب الكِبَرِ والبغي والفساد.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وكل ذلك بسبب عصيانهم وفجورهم، ومجاوزتهم للحدود التي شرعها سبحانه لهم.

• المؤمنون من أهل الكتاب:

استجاب بعض اليهود لدعوة النبي ﷺ، فأسلموا، وانقادوا لدعوة الحق، ومع أن عددهم كان قليلاً فقد أخبر الله تعالى عنهم في كتابه الكريم، وشهد لهم بالصدق والصلاح، وهذا يدل على أن الحق والعدل في كلام الله تعالى المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ.

روى ابن إسحاق: عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سَعْنَةَ، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود، فآمنوا وصدقوا، ورغبوا في الإسلام، ورسخوا فيه، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، وذهبوا إلى غيره، فأنزل الله ﷻ في ذلك قوله^(١):

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣).

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، متبعة نبيه ﷺ، فهي ﴿قَائِمَةٌ﴾ يعني مستقيمة على أمر الله^(٢).

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يكثرون تلاوة القرآن في صلاتهم في ساعات الليل.

ثم شهدت الآيات بصدق إيمانهم، وقيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي السمة التي يمتاز بها المسلمون على غيرهم:

(١) تفسير القرطبي: ١٧٠/٤.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٣١٢/١.

﴿يَوْمُنُوكَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٤).

وهكذا ألحقهم الآيات بالأمّة المسلمة التي هي خير الأمم، فأصبحوا جزءاً منها، فقد وصفتهم بصفات لا توجد في اليهود، الذين هم منحرفون عن الحق، غير متعبدين في الليل، مشركون بالله، ملحدون في صفاته، واصفون اليوم الآخر بخلاف صفته، مدهنون في الاحتساب، متباطئون عن الخيرات^(١). وسيأتي معنا في آخر السورة شهادة ثانية من الله تعالى في المؤمنين من أهل الكتاب.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (١١٥).

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لا يضيع عند الله جزاؤهم.
﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

• سعي ضائع:

وبالمقابل فإنّ سعي الكافرين سعي ضائع لا ينفعهم، ولا يُغني عنهم شيئاً في الدنيا والآخرة، وهو موجّه إلى شؤون الدنيا المادية من أموال وأولاد، ولهذا عادت الآيات الكريمة فذكرت ما سبق تقريره في أوائل السورة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦).

ثمّ ضربت الآيات مثلاً لسعيهم الضائع بقوله ﷻ:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على شهواتهم، للمكر والكيد بالمسلمين .

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي : برد شديد .

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ زرع قوم .

﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بكفرهم وفجورهم .

﴿فَأَهْلَكَتُهُ﴾ ولم تبق منه شيئاً ، وبهذا ضاع سعيهم وجهدهم .

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بسوء كسبهم واختيارهم للكفر

والفجور، وإعراضهم عن دعوة النبي ﷺ .

فما أعظم الفرق بين هؤلاء الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وبين المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥] ! .

● التحذير من بطانة السوء:

وختمت الآيات حديثها عن أهل الكتاب عموماً واليهود خصوصاً، بتحذير المسلمين من موالاتهم، واتخاذهم أصحاباً وأعواناً، وتقريبهم بحيث يطلعون على أسرار المسلمين :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ أي : من غيركم ، من أصحاب الملل والتحلل المخالفة لدينكم .

وبطانة الرجل : خاصته الذين يطلعون على أحواله وأسراره، سُموا بطانة لشدة قربهم منه وصلتهم به ، كقرب بطانة الثوب منه واتصالها به .

وجاء ذكر البطانة في قول الرسول ﷺ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ» [رواه البخاري (٧١٩٨) والنسائي (٤٢٠٢)].

ثُمَّ يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ عِلَّةَ النَّهْيِ فَقَالَ:

﴿لَا يَأْلُوَنَكُمُ خَبَالًا﴾ أَي: لَا يَقْصُرُونَ فِي فِسَادِكُمْ وَغَشْكُمْ وَإِلْحَاقِ الشَّرِّ وَالضَّرَرِّ بِكُمْ.

﴿وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ﴾ أَي: يَدُونُ عَنَتَكُمْ، وَهُوَ مَا يَشُقُّ عَلَيْكُمْ مِنَ الشَّرِّ وَالضَّرَرِّ، فَالْعِدَاوَةُ فِي الدِّينِ عِدَاوَةٌ عَمِيقَةٌ وَقَوِيَّةٌ، تَجْعَلُ قُلُوبَهُمْ مَمْتَلِئَةً بِبَغْضِكُمْ وَالْحَقْدِ عَلَيْكُمْ.

﴿قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَي: ظَهَرَتِ الْبَغْضَاءُ الَّتِي فِي قُلُوبِهِمْ عَلَيْكُمْ فِيمَا يَبْدُو مِنْ كَلِمَاتِهِمْ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، فَمَهْمَا صَانَعُوكُمْ وَدَاهَنُوكُمْ فَلَا بَدَّ فِي يَوْمٍ مَا أَنْ تَظْهَرَ سِرَائِرُ قُلُوبِهِمْ عَلَى فَلَاتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مِمَّا يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، وَفِي بَعْضِ تَصَرُّفَاتِهِمْ، فَالْحَقْدُ عَمِيقٌ فِي قُلُوبِهِمْ وَنَفُوسِهِمْ.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الَّتِي تَكْشِفُ لَكُمْ حَقِيقَتَهُمْ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَي: تَحْسِنُونَ فَهْمَهَا، وَتَعْمَلُونَ بِهَدْيِهَا.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ رَجُلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوَاصِلُونَ الْيَهُودَ، لَمَّا بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ، وَالصَّدَاقَةِ، وَالْجِلْفِ، وَالْجَوَارِ، وَالرِّضَاعِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَةَ، وَنَهَاكَ عَنْ مِبَاطَلَتِهِمْ خَوْفَ الْفِتْنَةِ عَلَيْهِمْ^(١).

وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَنْهَى عُمَّالَهُ وَوَلَاتَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا أَهْلَ الذِّمَّةِ، وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتَكْتَبَ ذَمِيًّا، كَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعْنِفُهُ، وَقَالَ لَهُ: لَا تُدْنِهِمْ وَقَدْ أَقْصَاهُمْ اللَّهُ، وَلَا تُكْرِمْهُمْ وَقَدْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ، وَلَا تَأْمَنْهُمْ وَقَدْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ.

وقيل لعمر عليه السلام: إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا مِنْ نَصَارَى الْحِيرَةِ، لَا أَحَدٌ أَكْتَبَ مِنْهُ، وَلَا أَخَطَّ بِقَلَمٍ، أَفَلَا يَكْتُبُ عَنْكَ؟ فقال: لَا أَخْذُ بَطَانَةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ^(١).
ثُمَّ عَقَدَتْ آيَاتُ مَقَارَنَةٍ بَيْنَ سَلَامَةِ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ وَطَهَارَتِهَا، وَبَيْنَ الْحَقْدِ وَالغَشِّ الَّذِي يَمْلَأُ صُدُورَ الْيَهُودِ، تَأْكِيداً لِمُضْمُونِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿هَآأَنَآءُ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَآبِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿هَآأَنَآءُ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ﴾ بسبب ما بينكم وبينهم من جوار وصدقة.

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ فلا يبادلونكم حبًّا بِحُبٍّ.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَآبِ كُلِّهِ﴾ أي: تؤمنون بكلِّ كتاب أنزله الله تعالى كالتوراة

والإنجيل، بينما هم يكفرون بالقرآن الكريم، ويظهرون لكم خلاف ما يبتنون.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: وإذا خلّوا

إلى بعضهم أظهروا حقدهم عليكم وغيظهم منكم.

فالأنامل: أطراف الأصابع، والعَضُّ عليها كناية عن شدة الحقد والغضب

والحسد.

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ بسبب حقدكم وحسدكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيفضح ما في صدوركم من حقدٍ وحسدٍ،

ويجازيكم عليه.

وما مِنْ شَيْءٍ أَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ الَّتِي رَسَمَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الرَّسْمُ الْعَجِيبُ

لأهل الكتاب، المجاورين للمسلمين في المدينة، يبصر المسلمين بحقيقة الأمر،

ويوعّيهم من كيد أعدائهم الذين لا يخلصون لهم أبداً، ولا تغسل أحقادهم مودة

المسلمين وصحبتهم وجوارهم في أرضٍ، ومشاركتهم في وطن، ولم يجئ هذا

التحذير ليكون مقصوراً على فترة تاريخية معينة - كما قال سيد قطب رحمته الله - فهو

حقيقة واقعة ملموسة، ويعيشها المسلمون في العصر الحاضر واقعاً مشاهداً في كل بلادهم^(١).

• شماتتهم بالمسلمين:

ومِمَّا يُؤْكَدُ شِدَّةَ عداوتهم لكم أنه:

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَهُ سَوَّاهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئُهُ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (١٢٠).

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَهُ سَوَّاهُمْ﴾ أي: إن أصابكم خيرٌ أو منفعةٌ أو نصرٌ على عدوكم، يُحزنهم ذلك ويحسدوكم، ويتمنّوا زوالها عنكم، فلا يريدوا لكم أي خير. لقد أدخل انتصارُ المسلمين في بدرٍ حُزناً شديداً على يهود المدينة، ذكر ابنُ هشام: «أنَّ كعبَ بن الأشرف، وكان من كبار اليهود وشعرائهم، قال عندما بلغه مصاب قريش في بدر: هؤلاء أشرافُ العرب وملوكُ الناس، والله لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم لبَطُنُ الأرضِ خيرٌ من ظهرها. فلما تيقّن عدوُ الله الخبر، خرج حتى قدم مكة، وجعل يحرضُ على رسولِ الله ﷺ وينشدُ الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا بدر»^(٢).

ولمّا جمع رسولُ الله ﷺ يهودَ بني قَيْنُقَاعَ بعدَ غزوة بدر، وقال لهم: «يَا مَعْشَرَ يَهُودٍ، احذروا مِنَ اللَّهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقَرِيشٍ مِنَ النَّقْمَةِ، وَأَسْلِمُوا، فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ وَعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ» قالوا: يا محمد؛ لا يغرنك أنّك لقيت قوماً لا عِلْمَ لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصةً، إنّنا والله لئن حاربناك لتعلمنّ أنّنا نحنُ الناسُ^(٣).

﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئُهُ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ أي: وإن تصيبكم مصيبةٌ في أموالكم

(١) في ظلال القرآن: ٤٥٢/١.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام: ٨/٣.

(٣) المرجع السابق: ٥/٣.

وأنفسكم، أو في تسلُّط العدو عليكم ونيله منكم - كما حدث في غزوة أحد - سرَّهم ذلك وفرحوا به، وأظهروا الشماتة بكم.

وقد فعل اليهود ذلك بعد غزوة أحد - كما سيأتي - ويفعل أهل الكتاب هذا كلّما حلَّت بالمسلمين مصيبةٌ، أو نزلت بهم نازلة في العصر الحاضر.

ومع ذلك لا يزال كثير من المسلمين يفتحون لهم قلوبهم، ويجاملونهم حتى في عقيدتهم ومنهج حياتهم، ورحم الله سيد قطب عندما قال: «وتبلغ بنا المجاملة، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية، أن نجاهلهم في عقيدتنا، فنتحاشى ذكرها، وفي منهج حياتنا، فلا نقيمه على أساس الإسلام، وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه، كي نتقي فيه ذكر أيِّ صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربِّصين، ومن هنا يحلُّ علينا جزاء المخالفين عن أمر الله، ومن هنا نذلُّ ونضعف ونستخزي، ومن هنا نلقى العنت الذي يؤدُّه أعداؤنا لنا، ونلقى الحبال الذي يدسُّونه في صفوفنا»^(١).

والسبيل إلى النجاة من كيدهم ومكرهم بيَّنه تعالى بقوله:

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: تلتزموا أنفسكم بالصبر على المكروه، وتتقوا الله تعالى بطاعته واجتناب معاصيه.

﴿لَا يَفْضُرْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ لأنكم في حفظ الله ورعايته، وهذا تعليم من الله تعالى، وإرشاد إلى أن يُستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى، وقال الحكماء: إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بجميع أعمالهم ومجازيهم عليها.



(١) في ظلال القرآن: ٤٥٣/١.

(٢) تفسير السفى: ٥٧٥/١.

الْفَصْلُ الرَّابِعُ غَزْوَةُ أَحَدٍ

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ إِذْ هَمَّتْ طَلِيفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَمَ أَذَلَّهُ فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٩﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٣٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُم بِاللَّهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٣١﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غُلَامًا يَتَّبِعُوا خَائِبِينَ ﴿١٣٢﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣٣﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٤﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٥﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٧﴾ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يُفْقَهُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٠﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِعَمَلِهِمْ فِيهَا قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٤١﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٦﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
الصَّابِرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٧﴾ وَمَا
مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ
يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٨﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ
تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبُوا مُوَجَّلًا ۚ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ
نُؤْتِهِ مِنْهَا ۖ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٠﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ
قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٥١﴾
فَقَالَتْ لَهُمْ أَلَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ۖ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِيدُوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٥٣﴾ بَلِ اللَّهُ
مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٤﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا
أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَيَسْأَلُهُمُ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٥﴾
وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ اللَّهُ وَعْدَهُ ۖ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي
الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ تَحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ
مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ لِبْتَلِيَّتَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ ذُو
فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنَهَا عَلَى أَحَدٍ ۖ وَالرُّسُلُ
يَدْعُوكُمْ فِيْ أَخْرَجْتُمْ فَأَتَيْتُكُمْ عَمَّا يَعْمُرُ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٧﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدٍ أَمَنَةً نُّعَاسًا
يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ
يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ
لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۚ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ
عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

يَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَا إِلَى اللَّهِ تَحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَیْظَ الْقَلْبِ لَا تُفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَثَّهَ جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَقِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ

الْوَكِيلُ ﴿٧٣﴾ فَأَنقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِن الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٩﴾ .

• تمهيد في الحديث عن غزوة أحد:

حدثت غزوة أحد في يوم السبت الموافق منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة، أي بعد غزوة بدر بما يزيد قليلاً على سنة، وانتصر فيها المسلمون في أول الأمر، مع أنهم كانوا أقل بكثير من المشركين، فقد كان عدد المسلمين سبعة، بينما كان المشركون ثلاثة آلاف.

وبعد ذلك تحوّل وجه المعركة لصالح المشركين، بسبب مخالفة أكثر الرماة الذين كانوا على الجبل (جبل عنين) لحماية ظهر المسلمين، فإنهم لما رأوا المشركين يتراجعون أمام المسلمين وينهزمون، ظنوا أن النصر قد تحقق، وأن المعركة قد انتهت، فتركوا مواقعهم، ونزلوا لجمع الغنائم من المنهزمين.

وانتهز فرسان المشركين فرصة انكشاف ظهر المسلمين، فكرّ خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل بفرسان المشركين على المسلمين من خلف جبل الرماة، وعاد المنهزمون، ووقع النبي ﷺ في حفرة أعدها أبو عامر الفاسق من قبل، وحدث اضطراب في صفوف المسلمين، وقُتل مصعب بن عمير حامي لوائهم، ونادى منادي المشركين: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قُتِلَ، فغلب الوهن على كثير من المسلمين، وتركوا أرض المعركة، حتّى وصل بعضهم إلى المدينة المنورة،

وَبَثَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَرْضِ الْمَعْرَكَةِ مَعَ قَلَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ثَبَتُوا مَعَهُ حَتَّى انْتَهَى الْقِتَالُ.

وكان مصابُ المسلمين في أُحُدٍ كبيراً، إذ استشهد سبعون رجلاً، منهم حمزة بن عبد المطلب عمُّ رسول الله ﷺ، وأصيب النبي ﷺ في وجهه الشريف، وكُسِرَت رِباعيته^(١)، ودخلت حلقتا المِعْفَرِ في وجنتيه، ومثَّلَ المشركون بجثثِ أصحابِهِ، وبَقَرُوا بطن حمزة رضي الله عنه، وأخرجوا كبده، بينما قُتِلَ من المشركين اثنان وعشرون رجلاً.

وتفصيل ما وقع في أحد ليس من شأننا هنا، فمحلُّ ذلك كتب التاريخ والسِّيَر^(٢)، وسيأتي مزيد من التفصيل من خلال الآيات الكريمة التي أنزلها الله تعالى بهذه المناسبة، والتي بلغت قرابة ستين آية، إنما الذي يعيننا هنا أن نبين صلة هذه الآيات بما قبلها وما بعدها من آيات السورة، وموقعها منها.

واتصال الآيات واضحٌ ظاهر بالآية السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوْهَمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ الآية [آل عمران: ١٢٠]، فكما استاء اليهود وحزنوا بسبب انتصار المسلمين في بدر، فقد فرحوا بمصاب النبي ﷺ والمسلمين في أحد، وأعلنوا شماتتهم بالنبي ﷺ، وأخذوا يشيعون الإشاعات الكاذبة عنه، ويقولون: الآن بطل سِحْرُ محمد. ثمَّ تجرؤوا عليه، فمكروا به، وحاولوا قتله، عندما جاء ﷺ إلى بني النضير، يستعين بهم في دية العامريين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري.

ولآيات غزوة أُحُدٍ صلةٌ أيضاً بما مرَّ معنا من قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وما قلناه ثَمَّةً من تقرير الإسلام للمسؤولية الجماعية على جميع أفراد المجتمع الإسلامي، فإنَّ أيَّ مخالفةٍ تصدر

(١) السن الرابع من مقدمة الفم.

(٢) انظر: سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، للمؤلف، ص ٣٥٣ - ٣٧٦، ط: دار القلم بدمشق.

عن بعض الأفراد تنعكس آثارها على جميع المسلمين، وقد ظهر هذا بشكل واقعي في غزوة أحد، فقد انعكس أثر المخالفة التي ارتكبها الرماة على أفراد جيش المسلمين جميعاً، ولم يسلم منها أحد، حتى النبي ﷺ أصيب بما أصيب به ﷺ بنفسه وبمن قُتل من أصحابه، وفيهم عمه حمزة رضي الله عنه.

كما ظهر في أحد بشكل عملي، ما يترتب على التفرق والاختلاف من ضعف وخذلان، وهو ما حذر منه سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٠٥]، والمسلمون في صراع دائم ومواجهة مستمرة مع الصليبية الحاقدة واليهودية الماكرة، كما تشير آيات السورة، وهم في أشد الحاجة إلى دروس أحد وعظاتها في مواجهتهم وصراعهم مع قوى الكفر.

وفضلاً عن ذلك، فما حدث في أحد يؤكد بشرية النبي ﷺ، وعبوديته لله تعالى، وأنه يجوز على الأنبياء أن يصابوا، كما يصاب عامة البشر، وبهذا استدل هرقل ملك الروم على صدق نبوته ﷺ، وكان من كبار رجال الدين عند النصراني؛ فعندما أتاه كتاب النبي ﷺ - الذي سبق ذكره - يدعوه فيه إلى الإسلام، دعا هرقل نفراً من قريش كانوا في تجارة لهم هناك، وكان فيهم أبو سفيان، وكان لا يزال على شركه، لم يسلم بعد، فسألهم هرقل عن النبي ﷺ أسئلة كثيرة، منها: «قال: فهل قاتلتموه؟ قلت - القائل أبو سفيان -: نعم، قال: كيف كان قتالكم إياه؟ قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً، يصيب منا ونصيب منه. وعلق هرقل بعد ذلك على هذا فقال: وسألتك: هل قاتلتموه؟ فرعمت أنكم قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم سجالاً، ينال منكم وتناول منه، وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لهم العاقبة» [رواه البخاري (٧)].

وهناك جوانب أخرى، تُظهر صلة آيات أحد بموضوع سورة آل عمران ستكشف لنا إن شاء الله من خلال الحديث عن الآيات.

• الطريق إلى أحد:

كانت تصرفات النبي ﷺ في أحد أفضل ما ينبغي أن تكون عليه تصرفات

القائد العسكري، ولهذا لم تتوجه الآيات بأيّ عتابٍ إلى النبي ﷺ عن المصاب في أحد، ولم تحمّله أيّ مسؤوليةٍ عمّا حصل، بل أبرزت مواقفه ﷺ في أحد في الوقت الذي وجّهت اللوم والعتاب لأصحابه.

وشرعت الآيات في مستهل حديثها عن غزوة أحد تبيّن ما فعله النبي ﷺ قبل بدء المعركة، فقد قام النبي ﷺ بتنظيم جنوده، وتوزيعهم في المواقع التي تناسب مع طبيعة ميدان المعركة، وطبيعة القتال والأسلحة في ذلك الوقت. قال تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي: اذكر إذ خرجت غداةً من أهلك بالمدينة المنورة - وكان النبي ﷺ في حجرة السيدة عائشة ﷺ - إلى أحد، تنزل المؤمنين في أماكن القتال، وتعيّن لكل منهم مكانه في الميدان. فجعل النبي ﷺ ظهر جيشه إلى جبل أحد، وتعباً ﷺ، ومشى على رجليه في أرض المعركة، وجعل يصفّ أصحابه، وأمر على الرماة - وهم على جبل عيّن ليحموا ميسرة الجيش - عبد الله بن جبير ﷺ، وقال: «انْصَحِ الْخَيْلَ عَنَّا، لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، إِنْ كَانَ عَلَيْنَا أَوْ لَنَا، فَاثْبُتْ مَكَانَكَ لَا نُؤْتِينَ مِنْ قَبْلِكَ»^(١).
﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بأحوالكم.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وهما بنو سَلَمَةَ من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي جيش المسلمين، ومعنى ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ أن تضعفا وترجعا إلى المدينة، وذلك أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى أحد في ألف رجل، فلمّا بلغوا الشوط - وهو مكان في الطريق - انخذل عبد الله بن أبيّ زعيم

المنافقين بثلث الجيش، ورجع إلى المدينة، وقال: علامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا وَأَوْلَادَنَا؟ واحتجَّ بأنَّ النبي ﷺ أطاعَ الْوِلْدَانَ وخالفه.

وكان عبد الله بن أبي من الذين أشاروا على النبي ﷺ بالبقاء في المدينة، والتحصن في بيوتها، إلا أنَّ شباب الصحابة، وخاصة الذين لم يحضروا غزوة بدر، أشاروا على النبي ﷺ بالخروج إلى لقاء المشركين في أحد. ولما انصرف ابنُ أبيِّ هَمَّت طائفتان من المؤمنين بالانصراف معه، فعصمهم الله وثبتوا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أَضْمَرُوا أَنْ يَرْجِعُوا، فعزَمَ اللهُ لَهُمْ على الرشد، فثبتوا، فذَكَرَهُم الله عظيم نعمته عليهم (١).

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ يدلُّ على صراع كبير كان قائماً في دخائلهم، بين الرجوع إلى المدينة وبين الثبات مع رسول الله ﷺ، وجعلتهم ولايةً الله تعالى لهم ينتصرون على أنفسهم، ويثبتون مع نبيهم عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال سبحانه يبين سبب ثباتهما:

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: متولي أمرهما بالتوفيق والتثبيت.

وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...﴾ الآية، نحن الطائفتان: بنو حارثة، وبنو سلمة، وما يسرني أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. [رواه البخاري (٤٠٥١)].

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فليتكفوا عليه سبحانه وحده، ولا يتكفوا على غيره.

• الإمداد بالملائكة:

ثم ذكرتهم الآيات بنعمته سبحانه عليهم في غزوة بدر:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: وأنتم قلة، فقد كانوا ثلاثمائة وبضعة

عشر رجلاً، بينما كان عدوهم من كفار قريش زهاء ألف رجل، ومعهم سلاح كثير، وعتاد وفير.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في هذا اليوم بالثبات مع رسول الله ﷺ وطاعته.
﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم نعمة ربكم عليكم، فَشُكْرُ اللَّهِ تعالى يكون بطاعته وتقواه.

ومن نعمه سبحانه عليهم أنه أمدهم بالملائكة، وبشرهم النبي ﷺ بهذا المدد الإلهي:

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِيَنَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ (١٢٤).

أي: بأمره تعالى ومشيبته.

﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (١٢٥).

﴿بَلَىٰ﴾ أي: بلى يكفيكم هذا الإمداد، ومع ذلك فإنكم إن صبرتم واتيقيتم الله تعالى بطاعته وطاعة نبيه ﷺ فإنه سبحانه يزيد في إمدادكم بالملائكة:
﴿إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾ أي: ويأت المشركون لقتالكم على الفور مسرعين.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: مرسلين، أو معلمين بسمه القتال وشاريته.

• الصبر والتقوى:

واختلف المفسرون في هذا الوعد بالإمداد بالملائكة، هل كان في بدر أم في أحد؟ وهو أمر غير مهم، المهم أنه سبحانه حثهم على أمرين اثنين هما أعظم أسباب استنزال معونته سبحانه وتأييده ونصره، وهما: الصبر، والتقوى.
وقد مر معنا من قريب قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبُكُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْعًا ﴿آلِ عِمْرَانَ: ١٢٠﴾ وبهذا تظهر لنا صلة جديدة أخرى لآيات غزوة أحد بسباقها من آيات السورة؛ فالصبر والتقوى كهف السلامة، وسلّم العافية لكل مبتلى وممتحن، أدرك هذه الحقيقة الأنبياء والصالحون من خلال تجاربهم، فهذا نبي الله يوسف عليه السلام يستخلص من قصته ومعاناته الطويلة في حياته هذه النتيجة، فيقول لإخوته عندما عرفهم بنفسه: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وهذا نبي الله موسى عليه السلام ينصح بني إسرائيل وهو في المحنة مثبّتاً، فيقول: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وكي تبقى قلوبهم معلقة بالله تعالى وحده، فلا يكون منها التفات إلى الأسباب، وتبقى متوجهة إلى مسبب الأسباب وحده، قال ﷺ:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ .

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي: ما جعل الله الإمداد بالملائكة إلا بشارة بالنصر، وتطمينا لقلوبكم.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا يكون نصر إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته، فهو سبحانه قادر على نصركم من دون إمدادكم بالملائكة.

﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾: ذو العزة والقهر والغلبة، وذو الحكمة في كل ما يقدر من أقدار ويشرع من أحكام.

ومن حكمته سبحانه في تشريع الجهاد وتكليف المؤمنين بالقتال، ما بيّنه بقوله:

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ .

﴿لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ليهلك فريقاً من الكافرين.

﴿أَوْ يَكْبِتُهُمْ﴾ أو يخزيهم ويغيظهم.

﴿وَيَنْقَلِبُوا خَآبِينَ﴾ فيرجعوا خاسرين غير ظافرين.

• ليس لك من الأمر شيء:

وتأكيداً لهذا المعنى التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تخاطبه بقوله ﷻ:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، فالأمر كله لله تعالى وحده، هو المالك والمدير ﷻ، وسيدنا محمد ﷺ صفوة خلقه سبحانه، وأقرب المقربين إليه، ليس له من الأمر شيء، فهو عبد لله تعالى، والنبوة والرسالة والزُلْفَى عند الله تعالى كل ذلك لم يزحزحه عن مقام عبوديته لله تعالى، فكيف رفع النصارى عيسى ﷺ بزعمهم عن مقام عبوديته لله تعالى؟! وكيف رفع اليهود أيضاً عَزِيراً بزعمهم عن مقام عبوديته لله ﷻ؟!.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ هو الفرقان الحق الذي يدلُّ على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته، والذي يدلُّ أيضاً على وحدانية الله تعالى وكماله وغناه؛ فالحَلْقُ كُلُّهُمْ ملكه، والأمر فيهم له وحده ﷻ، لا يشاركه فيه نبي مرسل، ولا مَلَكٌ مَقْرَبٌ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُسِرَتْ رِبَاعِيَّتُهُ (من أسنانه) وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ (يزيله) ويقول: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكُسِرُوا رِبَاعِيَّتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟!» فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. [رواه البخاري في المغازي باب (٢٢)، ومسلم (١٧٩١)].

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فالله سبحانه مالك أمرهم، إما أن يتوب عليهم إن أسلموا، أو يهلكهم بسبب ظلمهم.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ .

وكان نهاية الآية تُشعرُ بتغليب جانب المغفرة والرحمة، فلما رأى رسول الله ﷺ بعد المعركة جثت أصحابه من الشهداء متناثرة في الميدان، وقد مثلَ المشركون بها، فقطعوا الأذان، وجدعوا الأنوف، وبقروا البطون، وخاصةً جثة حمزة رضي الله عنه، إذ أخرجت زوجته أبي سفيان كبده فلاكتها ثم لفظتها، غضب رسول الله ﷺ، وقال: «لولا أن تحزنَ صفية (عمته عليه الصلاة والسلام) ويكون سنة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [النحل].

فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ، وليُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ» [رواه مسلم (١٩٥٥)].

• تحريم الربا:

الصبر والتقوى هما عُدَّةُ المسلم في شؤون حياته كلها، في المحنة والشدة، وفي الرخاء واليسر، فلا ينبغي للمسلم أن ينفكَّ عنهما في أحواله جميعاً، وخاصة في مجال معاملته مع الناس في الشؤون المالية.

فالإنسان بفطرته يحبُّ المال، وللمال سلطانٌ كبير على الإنسان، فلا بدَّ للمسلم أن يتحلَّى بالصبر والتقوى، ليكون ملتزماً في معاملاته المالية حدودَ شريعة الله تعالى، ولهذا التفتت الآياتُ الكريمة، وهي في خِصِّ حديثها عن

غزوة أحد، إلى المؤمنين، تذكّرهم بتقوى الله تعالى، وتنهاهم عن الأموال المحرمة المكتسبة بالوسائل غير المشروعة كالربا، بقوله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٣٠﴾.

فمعرفة الله تعالى بطاعته وتقواه في الرخاء تؤدي إلى نصره ومعاونته في الشدة، وكلّما كان المال المكتسب المحرّم كثيراً، كان الصبرُ عنه أكبر، ومجاهدة النفس للإعراض عنه أعظم وأكبر، ولهذا جاء وصفُ الربا بالأضعاف المضاعفة، لأنَّ الإعراض عنه في مثل هذه الحالة وتركه يحتاجُ إلى درجةٍ عاليةٍ من الصبر والتقوى.

وكان المرابون في الجاهلية يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، فكلّما عجزَ المدين عن الوفاء في أجله، أنظروه إلى أجلٍ آخر، وضاعفوا عليه الربا حتى يصبحَ أضعافاً مضاعفة، كما تفعل الدول الغنية في العصر الحاضر مع الدول الفقيرة المستقرضة، فكلّما عجزت عن تسديد ديونها في الأجل المسمى لها، أنظروها إلى أجلٍ آخر، وضاعفوا نسبة الفائدة، حتى أصبحت فوائد الربا أكثر بكثيرٍ من أصل الدين.

نشرت الصحف منذُ زمن تصريحاً لمدير البنك الإسلامي في جدة، ذكر فيه أنَّ فوائد ديون الدول الإسلامية تضاعفت (١٨٠٪) في خلال سبع سنوات.

فالربا المضاعف أضعافاً لا يزال سائداً بين المجتمعات البشرية كما كان في الجاهلية، ولا تزالُ حفنةٌ من البشر تستغلُّ حاجة الناس والمجتمعات أبشع استغلالٍ بواسطة الربا المضاعف! ويقولون: إنهم يقدمون هذه القروض الربوية على شكل مساعدات! فالآية الكريمة تصفُ الواقع الذي كان عليه أهلُ الجاهلية، ولا يزال سائداً في العصر الحاضر.

وليست الأضعافُ المضاعفةُ شرطاً يتعلّق به الحكمُ كما زعم بعضهم، والنصُّ الذي في سورة البقرة قاطعٌ في تحريم الربا على الإطلاق، قليلاً كان أو

كثيراً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ^(١).

فلا حُجَّةَ في قوله تعالى: ﴿أَضْعَفُ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ لِمِثْقَلِ الرِّبَا﴾ لمستحلي قليل الربا، الذين يريدون في هذا الزمان أن يتواروا خلف هذا النص، ويتداروا به، ليقولوا: إنَّ المحرَّم هو الأضعاف المضاعفة، أمَّا الأربعة في المئة، والخمسة، والسبعة، والتسعة في المئة، فليست أضعافاً مضاعفةً، وليست داخله في نطاق التحريم^(٢).

لقد قرر سبحانه تحريم الربا مطلقاً بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وأعلن الحرب على أكلة الربا إذا أصرُّوا عليه: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، وأمر المرابين إذا تابوا عن الربا أن يستردوا رؤوس أموالهم فقط دون أي زيادة: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

ونادى رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع بتحريم الربا، وإلغاء كل ربا كان في الجاهلية سواء كان قليلاً أم كثيراً، فقال: «ألا إنَّ كلَّ ربا في الجاهلية موضوعٌ، لكم رؤوس أموالكم لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ» [أخرجه أبو داود (٣٣٣٤)].

ولعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكلَّ من يساعده عليه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه» [رواه أبو داود (٣٣٣٣) والنسائي (٥١٠٤)، ورواه مسلم (١٥٩٧) من دون قوله: «وشاهديه وكاتبه»].

وفي إيراد آية تحريم الربا في سياق آيات غزوة أحد إشارةً إلى سبب هام من أسباب النصر، فالأمة التي ينتشر بين أبنائها التعامل بالربا، لا يؤيدها الله تعالى

(١) انظر: الربا في منظور التشريع الإسلامي، للدكتور محمد عبد الله دراز.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٤٧٣.

على عدوّها ولا ينصرها، فهي أمةٌ محاربةٌ لله تعالى، ولم تصبر عمّا حرّمه عليها، ولم تتقِ الله في معاملاتها.

• المسارعة إلى التوبة:

وتقوى الله تعالى في الحقيقة اتّقاءً لسخطه وغضبه وعذابه والنار:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

فالنار أُعِدَّتْ في الأصلِ وهِيئتُ للكافرين، ويمكن أن يعذَّبَ بها الفسّاقُ والفجّارُ من المؤمنين، وخاصة أكلة الربا، المُصِرِّين على معاصيهم.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ في جميع الأوقات، في السلم والحرب، وفي الرخاء والشدة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ويلاحظُ أنَّ الآياتِ الكريمة تتبع أساليب متنوعة في التربية والتأديب، فتجمعُ بين التهديد والترغيب، بين التهديد بالعذاب والنار، وبين الترغيب بالرحمة والجنة:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بادروا وسابقوا إلى مغفرة من ربكم، بالتوبة عن ذنوبكم.

فالمغفرةُ أمرٌ مطلوبٌ يستدعي المسارعة والمبادرة، إذ الإنسان لا يدري متى تنتهي حياته، ويحضره أجله، فكأنَّه في سباقٍ مع الموت، فعليه أن يبادِرَ

إلى التوبة قبل أن يقطعه الموت عنها، وقد سبق مثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: وإلى جنة واسعة كبيرة، عرضها عرض السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، فالمراد وصف الجنة بالسعة على طريقة التمثيل، فُسِّبَتْ بأوسع ما علمه الناس من خلقه^(١).

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: هيئت لهم، والآية تدلُّ على أنَّ التقوى يمكن للمذنبين أن يحصلوها بالتوبة والاستغفار.

ثم بيّنت الآيات بعض الخصال الطيبة الحسنة التي يتصف بها المتقون، على سبيل الحث على الاتصاف بها، بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٢).

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: ينفقون مالهم في حالتي الرخاء والشدة.

وهذه الصفة تدلُّ على صدق توبة آكل الربا، لأنَّه قبل توبته لا ينفق ماله لمساعدة الناس، بل يقدِّم ماله ليستغل حاجتهم وعسرهم، فيربو ماله على حساب عُسرهم وشقائهم.

• العفو عند المقدرة:

﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أي: الذين يكظمون غيظهم، فلا ينساقون وراء غيظ نفوسهم للتشفي والانتقام، بل يعفون عمَّن ظلمهم واعتدى عليهم.

(١) انظر: تفسير البياضاي وتفسير النسفي: ٥٧٨/١.

وهما خصلتان رفيفتان من خصال الخير، لا يتحلّى بهما إلا أقوياء الإرادة والعزيمة؛ قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩)].

و(الصرعة) الذي يصرع غيره بقوة جسده.

وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» [رواه أبو داود (٤٧٧٧) وابن ماجه (٤١٨٦) والترمذي (٢٠٢١) وحسنه].

ومر معنا منذ قريبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غضب مما فعله المشركون بجثث أصحابه من شهداء أحد، وكيف كظم عليه الصلاة والسلام غيظه، ونهى عن المُثَلَّة. وهذا يبيّن لنا الاتساق والاحتباك القائم بين الآيات الكريمة في السورة، فاختيار هذه الصفات لم يأتِ جُزْأً، إِنَّمَا جاء تكميلاً لمعانٍ سبق الحديث عنها في السورة.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون إلى الناس بمساعدتهم عندما يكونون محتاجين، وبالعفو عن المسيء منهم عند القدرة على الانتقام.

• عدم الإصرار على الذنوب:

ومن صفات المتقين أيضاً: عدم الإصرار على الذنب، والمبادرة إلى التوبة، ومهما كان الإنسان صالحاً تقيّاً فهو غير معصوم عن الذنوب، وشأن المؤمن التقي إذا ما ضعف أمام نفسه، واقترب ذنباً، أن يتنبّه إلى خطره، ويستشعر أثره السيئ في نفسه وقلبه، فيبادر إلى التوبة والاستغفار بعد أن يقلع عن ذنبه، ويندم على فعله، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٢٥).

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ أي: فعلة بالغة القبح كالزنى.
﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بأي ذنب.

﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ وأنه سبحانه قائم عليهم، مراقب لأعمالهم، وأنه سيحاسبهم على أعمالهم، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وهذا يدلُّ على أنَّ شعلة الإيمان لا تنطفئ بالذنوب، فهي لا تزال في قلوبهم حيَّة نديَّة.

وذكرُ الله تعالى يدفعهم إلى الاستغفار والتوبة :

﴿فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ : أي لأجل ذنوبهم .

﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فلا يغفرها أحدٌ سواه جلَّ وعلا .

فالتائب من الذنب هو عند الله سبحانه كمن لا ذنب له، بل إنَّه سبحانه يبذل السيئات حسناتٍ فضلاً منه ورحمةً، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠] .

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ أي : لم يقيموا على الذنوب، بل سارعوا إلى التوبة والاستغفار، وهذا حثٌّ على المسارعة إلى التوبة .

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً، فهم على رجاءٍ كبيرٍ برحمته تعالى ومغفرته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الرؤم: ٥٣] .

ثم بيَّن تعالى جزاء المتصفين بهذه الصفات الحسنة الرفيعة فقال :

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ .

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وقَدِّمَتِ الآياتُ ذكرَ المغفرة، لأنَّها التي تتطلع إليها قلوبُ التائبين، وهي مغفرةٌ من ربهم لا من غيره، فلا يستطيع أحدٌ المتاجرة بالمغفرة كما كان القُسس والرهبان يفعلون .

ولهم مع المغفرة :

﴿وَجَنَّتٌ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ في طاعته

تعالى، والمقبلين على فضله ورحمته .

• وأنتم الأعلون:

وعادت الآيات - بعد هذا التوجيه التربوي الرفيع إلى غزوة أحد - تواسي المؤمنين في مصابهم، وتمسح جراحهم، وتشد على عزائمهم، بقوله تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧).

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أي: قد جرى نحو هذا على الأمم السابقة من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على أعدائهم. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فآثارهم لا زالت باقية تدل على شدة قوتهم، ومع ذلك أهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم لأنبيائهم، وإعراضهم عن دعوة ربهم.

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٣٨).

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا القرآن بيان للناس، يبين لهم الحق من الباطل. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وفيه هداية وعبرة للمتقين، فالتقوى تجعل القلب يفتح للنور والهداية والموعظة.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩).

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن الجهاد، ولا تحزنوا على الشهداء.

﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فالإيمان يستوجب الثقة بالله تعالى، وبوعده بنصر أوليائه على أعدائه، ويمكن أن نقول أيضاً بقول سيد قطب رحمه الله: إن كنتم مؤمنين حقاً فأنتم الأعلون، إن كنتم مؤمنين حقاً فلا تهنوا ولا تحزنوا،

فإنما هي سُنَّةُ اللَّهِ أَنْ تصابوا وتصيبوا، على أن تكون بعد الجهاد والابتلاء والتمحيص^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ بشارة كبيرة لهم بالنصر والغلبة. أو: وأنتم الأعلون شأنًا، لأن قتالكم لله، وقتالهم للشيطان ولإعلاء كلمة الكفر، أو لأن قتالكم في الجنة، وقتالهم في النار^(٢).

ولعل في الآية ردًّا على قائد جيش المشركين آنذاك أبي سفيان عندما وقف بعد المعركة على جبل أحد، وصاح قائلاً: أُنْعِمْتَ فِعال، وإنَّ الحرب سِجال، يومٌ بيوم، اعلُ هُبَل. فقال رسول الله ﷺ: «قُمْ يَا عُمَرُ فَأَجِبْهُ فَقُل: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، لَا سِوَاءَ، قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتَلَكُمْ فِي النَّارِ»^(٣).

وأُضِيفَ أيضاً في معنى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ ما ذكره سيد قطب رحمه الله بقوله: عقيدتكم أعلى، فأنتم تسجدون لله وحده، وهم يسجدون لشيء من خلقه، ومنهجكم أعلى، فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، وهم يسيرون على منهج من صنع خلق الله، ودوركم أعلى، فأنتم الأوصياء على البشرية كلها، الهداة لهذه البشرية كلها، وهم شاردون عن النهج، ضالّون عن الطريق^(٤).

• مداولة الأيام:

وتابعت الآيات مواساة المؤمنين في مُصابهم، وهذا يدل على مكانتهم الرفيعة عند الله تعالى:

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أي: إن أصابتكم جراحٌ وقتلٌ

(١) تفسير النسفي: ٥٩٣/١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٩٨/٣.

(٣) في ظلال القرآن: ٤٨٠/١.

في أحد، فقد أصاب أعداءكم جراحٌ وقتلٌ في غزوة بدر، فيومٌ لكم ويومٌ عليكم.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ بعلمه سبحانه ومشيتته وحكمته. كما سبق في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولله سبحانه في ذلك حكمٌ كثيرة، فالحياة في الدنيا ابتلاء واختبار، ولهذا قال جل وعلا:

﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم متصفون بالصبر والإيمان في حقيقة الأمر والواقع، كما سبق بذلك علمه.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يكرمهم بالشهادة في سبيله، عندنا يبذلون أرواحهم في مرضاته.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فتسليطهم على المؤمنين في بعض الأوقات لا يعني أنه سبحانه يحبهم، ولكنه تعالى قدّر ذلك تمحيصاً للمؤمنين.

﴿وَلْيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَلْيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليطهرهم وينقيهم من ذنوبهم، ويرفع درجاتهم بصبرهم على مصابهم.

﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يهلكهم شيئاً فشيئاً، حتى يطهر الأرض من فسادهم وظلمهم.

● لا تتمنوا لقاء العدو:

وطريق الجنة محفوفٌ بالمكاره، ولا بد من الابتلاء والاختبار للوصول إلى رضوان الله والجنة، قال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد.

ولا شكَّ أنَّه سبحانه يعلم المجاهدين والصابرين قبل الابتلاء، ولكنه سبحانه أرادَ وقوعَ الجهادِ والصبر، فيكون التطابق بين العلم والمعلوم.

ونصبت ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بإضمار (أن) و(الواو) للجمع، وقُرئَ بالرفع، على أنَّ (الواو) للحال، كأنه قال: ولَمَّا تجاهدوا، وأنتم صابرون^(١).

وقد تكرر هذا المعنى في عدَّة آيات، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقوله أيضاً: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

وكان بعضُ الصحابة الذين لم يشهدوا بدرأً يتمنون لقاء العدو، لينالوا شرف جهادهم مع رسول الله ﷺ، فأشهدهم الله يوم أحد، فلم يثبتوا إلا مَنْ شاء الله، فأنزل الله:

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ (١).

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ أي: كنتم تمنون أسباب الموت، وهي القتال والجهاد من قبل أن تشهدوا يوم أحد.

﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: رأيتم ما كنتم تمنون.

﴿وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ أي: تشاهدون قتل من قُتل من إخوانكم^(٢).

فالآية تدلُّ على كراهة تمني لقاء العدو، فقد لا يثبت المتمني عند اللقاء، كما حدث في أحد، ولهذا نهى النبي ﷺ عن تمني البلاء بالشدائد ولقاء العدو، فقد يضعف الإنسان ولا يصبر، فقال: «لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَافِيَةَ،

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٥٩٦/١.

(٢) تفسير الخازن: ٥٩٧/١.

فإذا لقيتموه فاصبروا، واعلموا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» [رواه البخاري (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤٢)].

وعاد رسول الله ﷺ رجلاً قد جُهدَ حتى صار مثل الفرخ، فقال له: «أما كنت تدعو؟ أما كنت تسأل ربك العافية؟» قال: كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! إِنَّكَ لَا تُطِيقُهُ - أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ - أَفَلَا كُنْتَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [رواه مسلم (٢٦٨٨)].

● إشاعة كاذبة:

عندما خالف الرماة أمر النبي ﷺ، وترك أكثرهم مواقعهم، واستغل فرسانُ المشركين خُلُوَّ جبل الرماة (عينين)، وحملوا على المسلمين من خلفهم، ووقع الاضطراب في صفوف المسلمين، وأصيب النبي ﷺ، ووقع في الحفرة - كما مرَّ معنا - تمكن أحدُ المشركين، وهو عبد الله بن قميئة، من قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه حامل راية المسلمين، فسقطت على الأرض، وصاح: إِنِّي قَتَلْتُ مُحَمَّدًا، فنظر الصحابةُ إلى النبي ﷺ، فلم يروه، لوقوعه في الحفرة، فوقع الضعفُ والوهنُ في عزائمهم، وتراجع أكثرهم عن القتال، إلا قليلاً ثبتوا حول رسول الله ﷺ، حتى كشفوا معه عليه الصلاة والسلام جمعَ المشركين، وأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: مضت الرسل من قبله، فهو ﷺ ليس بدعاً بينهم، ويمكن أن يصاب بالقتل أو الموت مثلهم.

﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: رجعتم القهقري منهزمين أو

مرتدين.

فما كان ينبغي لهم أن ينهزموا ولو قتل رسول الله ﷺ، فالنبوة لا تدرأ الموت عن الأنبياء، والدِّين لا يزول بموتهم. وقد ثبت بعض الصحابة عندما سمع هذه الإشاعة الكاذبة، وقاتلوا حتى استشهدوا ﷺ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتدَّ غَضَبُ اللَّهِ على مَنْ قَتَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ في سبيل الله، اشتدَّ غَضَبُ اللَّهِ على قومٍ دَمَوْا وَجْهَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ» [رواه البخاري (٤٠٧٤)].

وفشا في الناس أنَّ محمداً ﷺ قد قُتِلَ، فقال بعض المسلمين: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان، وجلس بعض الصحابة وألقوا بأيديهم.

وقال أناسٌ من المنافقين: إن كان محمداً قد قُتِلَ فالحقوا بدينكم الأول.

وقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضي الله عنه: يا قوم! إن كان محمداً قُتِلَ فَإِنَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ لَمْ يُقْتَلْ، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟! فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه. ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم شدَّ بسيفه فقاتل حتى قُتِلَ. [رواه البخاري (٤٠٤٨)]^(١).

﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ بل يضر نفسه.

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ على نعمة الإسلام بالثبات عليه^(٢).

فالهداية إلى الإسلام من أعظم النعم، والشكر على هذه النعمة بالتمسك بها والثبات عليها.

• شجاعة الصديق وثباته:

كان نزول هذه الآية بسبب غزوة أحد رحمةً من الله تعالى بالصحابة رضي الله عنهم،

(١) انظر: تفسير الخازن: ٥٩٩/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٦٠٠/١.

وسبباً لتثبيتهم عندما نزل بهم هذا الحادث الجلل الذي زلزلهم زلزالاً شديداً، وهو موت رسول الله ﷺ، فما نزل بالإسلام حادث أعظم منه.

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشجعهم قلباً، وأثبتهم نفساً. قال القرطبي رحمه الله: «هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراته، فإن الشجاعة والجرأة حدُّها ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ، فظهرت عنده شجاعة أبي بكر وعلمه، قال الناس: لم يمُت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وسكت عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية» (١).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قبض رسول الله ﷺ، وأبو بكر عند امرأته ابنة خاتجة بالعوالي، فجعلوا يقولون: لم يمُت النبي ﷺ، إنما هو بعض ما كان يأخذه عند الوحي، فجاء أبو بكر، فكشف عن وجهه، وقبّل بين عينيه، وقال: أنت أكرم على الله أن يميتك مرتين، قد والله مات رسول الله ﷺ. وعمر في ناحية المسجد يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير، وأرجلهم، فقام أبو بكر فصعد المنبر، فقال: مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَمَنْ كَانَ يَعْْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤]، قال عمر: فلكنائي لم أقرأها إلا يومئذ. [رواه البخاري (١٢٤١) و(٤٤٥٤)].

• فهم خاطئ:

وقد أحسن سيد قطب رحمه الله عندما قال: «وكانما كان الله سبحانه يُعِدُّ الجماعة المسلمة لتلقي هذه الصدمة الكبرى - حين تقع - وهو سبحانه يعلم أن

وَقَعَهَا عَلَيْهِمْ يَكَادُ يَتَجَاوَزُ طاقَتهم، فشاء أن يدرّبهم عليها هذا التدريب، وأن يصلّهم به هو، وبدعوته الباقية، قبل أن يستبدّ بهم الدّهشُ والذهول»^(١).

ولكنّه ﷺ أخطأ الفهم، وابتعد عن الصواب بُعداً كبيراً عندما قال: «وكأنّما أراد الله سبحانه بهذه الحادثة، وبهذه الآية أن يطمّ المسلمين عن تعلّتهم الشديد بشخص النبي ﷺ، وهو حيّ بينهم، وأن يصلّهم بالنعيم، النبع الذي لم يفجّره محمد ﷺ، ولكن جاء فقط ليومئ إليه، ويدعو البشر إلى فيضه المتدفق، كما أوماً إليه من قبله من الرسل، ودعوا القافلة إلى الارتواء منه»^(٢).

وليته - غفر الله له - لم يستنتج مثل هذا الاستنتاج الباطل من الآية، كيف تجرّأ على الله تعالى، وزعم أنّه سبحانه يريد أن يطمّ المسلمين عن تعلّتهم الشديد بشخص النبي ﷺ؟! مع أنه سبحانه أمرنا في كثير من آياته القرآنية، وفي ما كلّفنا به من الأعمال والعبادات أن نتعلّق برسول الله ﷺ حبّاً له عليه الصلاة والسلام، وطاعة لأوامره، واقتداء بسنته، وإكثاراً لذكره بالصلاة والسلام عليه وعلى آله وأصحابه، ألم يأمرنا بالصلاة والسلام عليه، وقرن ذكره بذكره سبحانه في الشهادتين والأذان؟! وكلّفنا بالصلاة والسلام عليه ونحن بين يديه تعالى في الصلاة؟! ألم يقل الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ويقول: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١]؟!

إن محبة رسول الله ﷺ عبادة يُتقَرَّبُ بها إلى الله تعالى، وكلّما ازداد المسلم حبّاً له ﷺ ازداد قرباً من الله تعالى، بصريح قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

(١) في ظلال القرآن: ٤٨٦/١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

• الكتاب المؤجل:

جعل الله تعالى لموت كل مخلوق حيٍّ أجلاً معيناً، لا يتأخَّر ولا يتقدَّم
فقال ﷻ:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأً مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا
وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأً مُؤَجَّلًا﴾ أي: لا يموت أحدٌ إلا
بقدر قدره الله تعالى في سابق علمه وكتبه، وفي هذا تشجيعٌ للجناء، وترغيبٌ
لهم في القتال، فإنَّ الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه.
ولقد كان هذا المعنى ماثلاً في قلوب الصحابة في حروب الفتح، وله أثر
كبير في شجاعتهم وإقدامهم ﷺ، فعندما وصلوا بعد القادسية إلى شاطئ دجلة،
ترددوا في عبوره إلى الشاطئ المقابل لفتح المدائن، فقال رجل من المسلمين،
وهو حِجْرُ بْنُ عَدِيٍّ: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو إلا هذه النطفة،
- يعني دجلة - ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأً مُؤَجَّلًا﴾... ثم أقحم
فرسه دجلة، فلما أقحم، أقحم الناس، فلما رأهم العدو هربوا^(١).
﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: من أراد بجهاده وطاعته الدنيا نؤته
منها ما نشاء.

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: نجعل ثوابه فيها.

فالأمر منوطٌ بنية الإنسان، فإن كان يريد بعمله الدنيا، فليس له جزاء إلا
فيها، وإن أراد بعمله الآخرة، فجزاؤه أيضاً فيها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ
يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿[الإسراء].

وفي الآية تعريض بالرماة الذين تركوا مواقعهم من أجل الغنائم. ثم قال تعالى هنا في ختام الآية.

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ كما في خاتمة الآية التي قبلها، ودل ذلك على أنه لا بد للشكر من الثبات على الإسلام مع إخلاص النية لله تعالى وحده والتجرد عن الدنيا.

• الصبر والنصر:

ولابد لإحراز النصر من الصبر، ولهذا حثهم الله تعالى عليه، وذكر لهم كيف كان أسلافهم من أتباع الأنبياء يصبرون على شدائد القتال وآلامه، فقال:

﴿وَلَا يَنْفِي مِنَ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦).

﴿وَلَا يَنْفِي مِنَ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رَيْثُونَ كَثِيرٌ﴾ أي: كم من نبي قاتل معه جماعات كثيرة، أو قاتل معه أبرار أتقياء.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصبروا، وما عجزوا ولا جبنوا بسبب ما أصابهم في سبيل الله من القتل والجراح.

﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ وما فتروا عن القتال، ولا انقطعوا عن الجهاد.

وفي هذا تعريض بالذين ضعفوا عن القتال في أحد، وهو أسلوب رفيع، يؤدّب الله تعالى به أصحاب النبي ﷺ والمؤمنين.

﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: وما ذلّوا لعدوهم، وما خضعوا له.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ الذين يصبرون على شدائد القتال في سبيل الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧).

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ﴾ في مثل هذه المواطن.

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي: وتجاوزنا حدَّ العبودية بمعاصينا.

قَدَّمُوا في دعائهم الاستغفارَ من الذنوب والتذللَ لله تعالى، ثمَّ سألوهُ بعد ذلك الثباتَ والنصرَ فقالوا:

﴿وَتَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواجهة الأعداء.

﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

فاستجاب الله تعالى دعاءهم بسبب إخلاصهم وثباتهم وصبرهم:

﴿فَعَالَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨).

﴿فَعَالَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ وهو النصر والغنيمة.

﴿وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ وهو الجنة وما فيها من نعيم، ووصفه بالحسن، لأنه دائم لا زوال له ولا انتهاء، ولا تعثره المنغصات والمكدرات.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يكونون مثلهم في الصبر والثبات والإخلاص.

لقد كان لهذا التوجيه الرباني أكبر الأثر في جهاد الصحابة رضي الله عنهم، في حياته عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته، حتى تمكنوا رضي الله عنهم من النصر والظفر في حروب الفتح على أعظم الدول وأقوى الجيوش.

● الرعب من جنود الله تعالى:

حاول اليهود والمنافقون في المدينة المنورة استغلال مُصابِ المسلمين في أُحُد، لزعة صفَّ المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، فأنزل الله تعالى قوله الكريم يحذر المسلمين منهم:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩).

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ إلى الكفر.

﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ فترجعوا إلى الكفر وقد خسرتم خير الدنيا والآخرة.

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ (١٥٠).

﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ﴾ أي: متولي أموركم، وهو سبحانه سينصركم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فلا تنصرفوا إلى غيره تعالى، وتمسكوا بحبله واعتصموا بدينه.

ثم أخبرهم سبحانه أنه سخر لهم جندياً من جنوده، وهو الرعب الذي سلطه على قلوب أعدائهم:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١).

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي: الخوف والفرع. ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ بسبب إشراكهم بعبادته آلهة ما أنزل الله فيها حجة وبرهاناً يدل على استحقاتها للعبادة. ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ يوم القيامة.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ والمثوى: مكان الإقامة، أي: وبئس المكان الذي يقيمون فيه، وهو جهنم. أعادنا الله منها.

ولقد نصر الله تعالى بالرعب النبوي ﷺ وأصحابه في كثير من المشاهد والمعارك، فبعد غزوة أحد وارتحال المشركين إلى مكة، ندموا في أثناء

الطريق، وهموا بالرجوع إلى المدينة، وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يَبْقَ إلا الشريد تركناهم، ارجعوا نستأصلهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم حتى رجعوا عما هموا به^(١).

ونصرهم الله تعالى بالرعب على يهود بني قريظة عندما تحصنوا بحصونهم المنيعه بعد غزوة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

ولما جمع الروم جيوشهم في تبوك للهجوم على المسلمين في المدينة المنورة، ليقضوا على الإسلام والمسلمين، استنفر النبي ﷺ أصحابه، وخرج إليهم، ولما سمعوا بخروجه خافوا وتراجعوا، ونصر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بالرعب من مسيرة شهر؛ قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَظُهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً» [رواه البخاري (٤٣٨) ومسلم (٥٢١)].

• عتاب المنهزمين:

اكتفت الآيات السابقة التي مرّت معنا بتعريض غير مباشر بالصحابه ﷺ، وركّزت على مواساتهم في مُصابهم، وتثبيتهم، ورفع معنوياتهم، فلم تبادر إلى لومهم وعتابهم، بل بادرت إلى مواساتهم وتثبيتهم. وهذا يدلنا أولاً على المكانة الرفيعة لهم عند الله تعالى ﷻ. ويدلنا ثانياً على الأسلوب الذي ينبغي اتّباعه في مثل هذه الأحوال، فلا ينبغي المبادرة إلى لوم المنهزمين وتوبيخهم، فإنّ هذا يزيد من ضعفهم وتخاذلهم، ويعمّق آثار المصيبة، ويضاعف آلام الجراح، ويساعد العدو ويقويه، ويزيد من استفادته فيما أوقعه في المصابين.

وبعد التثبيت والمواساة وتضميد الجراح، شرعت الآيات الكريمة باللوم والعتاب والكشف عن أسباب الخسارة الكبيرة التي حلّت بهم، فهو أمر لا بدّ

منه للأمة التي تريد أن تنهَضَ من كبوتها، وتستفيدَ من عثرتها، لا بد من إظهار المسؤولين عمّا حدث، ومواجهتهم بأخطائهم مهما كانت مراتبهم ومكانتهم، فالسكوت على الخطأ دون التعريف به ليُحذَرَ خطأ أكبر.

وهو أمر واقع في كثير من المجتمعات الإسلامية، وهو من أهم أسباب تخلف المسلمين ومعاناتهم، لماذا لا يحاسبُ المسلمون أنفسهم، ويواجهون المخطئين بأخطائهم، كما يفعل كثيرٌ من الكفار في مجتمعاتهم؟! ولهذا تتكرر الأخطاء وتتراكم في المجتمعات الإسلامية، بينما تبقى المجتمعات الكافرة يقظة حذرة، تحاسب المخطئ، وتحمله نتيجة خطئه، فلا يتكرر الخطأ كما يتكرر في مجتمعاتنا.

فلننظر إلى الآيات القرآنية الكريمة كيف واجهت الصحابة هذه المواجهة الصريحة، وكيف حملتهم المسؤولية عمّا حدث في أحد، مع ما لهم ﷺ من مكانة رفيعة وسبق إلى الإسلام والجهاد.

• إلى قلب المعركة:

عادت الآيات إلى قلب المعركة تخاطبُ الصحابة ﷺ، وتصف الأحداث وتحللها، وتواجههم بمواقفهم فيها، وبدأت تذكّرهم بفضله سبحانه عليهم عندما نصرهم على أعدائهم في أول المعركة، قبل أن يخالف الرماة أمر الرسول ﷺ:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بالنصر والتأييد بشرط التقوى والصبر.

﴿إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ أي: تقتلونهم بمشيئته تعالى وقدرته.

فعن البراء رضي الله عنه قال: لَمَّا لقيناهم هربوا حتى رأيتُ النساءَ يشتدْنَ في الجبل، رفعنَ عن سوقهنَّ، قد بدت خلاخلهنَّ. [رواه البخاري (٤٠٤٣)].

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: والله لقد رأيتني أنظرُ إلى خَدَمِ هندٍ^(١) وصواحبِاتها مشتمرات هوارب، ما دون أخذهنَّ كثيرٌ ولا قليلٌ، ومالت الرماةُ إلى العسكرِ حين كشفنا القومَ عنه، يريدونَ النهب، وخلَّوْا ظهورنا للخيل، فأوتينا من أدبارنا، وصرخ صارخٌ: ألا إنَّ محمداً قد قُتِلَ، فانكفأنا، وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحابَ اللواءِ حتى ما يدنو منه أحدٌ من القوم^(٢).

﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: طرأ عليكم الفشل، وهو الجبن والضعف بسبب الاختلاف والعصيان.

﴿وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: اختلفتم في تنفيذ أمر النبي ﷺ، والمراد: الرماة الذين كانوا على الجبل.

﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أي: خالفتم أمر الرسول ﷺ.

﴿مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ﴾ من هزيمة عدوكم وانتصاركم عليهم.

والتأمل للآية لابد أن يلاحظ توجيه الخطاب لجميع الصحابة، وتحميلهم جميعاً المسؤولية، مع أنَّ الذين عَصَوْا وخالفوا هم الرماة فقط، فالمسؤولية إذاً جماعية، ولهذا شرع الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما مر معنا.

ثمَّ واجهتهم الآية بما كانوا يضمرونه في داخل أنفسهم، وكشفت حقيقة مقاصدهم، بقوله تعالى:

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ اللَّذَنِيكَ﴾ وهم الذين رغبوا في الغنيمة حين رأوا هزيمة المشركين في أول الأمر.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ في جهاده وقتاله.

(١) هي هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان. والخَدَمُ: الخلاخل.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٢٦/١.

﴿ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ إِبْرَيْكِيمَ﴾ أي: ثُمَّ كَفَّكُم عن المشركين بعد أن كنتم مسلّطين عليهم ليختبركم، وتحوّل وجهُ المعركة لصالح المشركين. وهذا يدلُّ على تمامِ مشيئته تعالى وقدرته ﷻ، ويدل أيضاً على ما للنوايا الطيبة الحسنة من أثرٍ في استئزال معونته تعالى ونصره، وما للنوايا السيئة من أثرٍ في الخذلان والهزيمة.

وبعد أن بيّنت لهم الآية سبب تحول المعركة لصالح المشركين، وواجهتهم بالحقيقة، وحملتهم مسؤولية ما حدث، أخبرتهم بعفوه ﷻ عنهم تكملةً لهم ﷻ، وإظهاراً لفضله سبحانه عليهم:

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أي: غفر لكم ما صنعتم من المخالفة والمعصية وترك القتال والفرار من وجه العدو. ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم وصفت الآيات أحوالهم بعد المخالفة والمعصية، بقوله تعالى:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتَيْبَكُمُ غَمًّا بَعِيدًا لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٥٣).

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أي: تمضون في الأرض منهزمين.

﴿وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: لا تعرجون وتقفون على أحد، ولا يلتفت بعضهم إلى بعض، وهذا يدلُّ على شدة الخوف والاضطراب الذي أصابهم.

• شجاعة النبي ﷺ وثباته:

﴿وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ﴾ أي: من ورائكم.

فقد بقي رسول الله ﷺ في موقفه من أرض المعركة ثابتاً لم يتزعزع ولم يتزحزح، وهو يدعو أصحابه ليرجعوا إلى القتال؛ قال ابن عباس ﷻ وغيره: كان من دعاء النبي ﷺ: «أَيُّ عِبَادِ اللَّهِ ارْجِعُوا».

وهذا يبين لنا مدى شجاعته ﷺ وثباته، فلقد فرّ عنه أكثر أصحابه، حتى لم يبق معه غير اثني عشر رجلاً كما قال القرطبي رحمه الله (١).

وذكرت بعض الروايات: أنه لم يبق بجانب النبي ﷺ في بعض الأحوال سوى اثنين من أصحابه، هما طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما، وأصيب طلحة وشلت يده، وهو يقي رسول الله ﷺ. [رواه البخاري (٤٠٦٣)].

وكان سعد يرمي دونه ﷺ، والنبي ﷺ يناوله السهام، ويقول: «ارم فداك أبي وأمي» [رواه البخاري (٤٠٥٩) ومسلم (١٧٤٨)] (٢).

فالنبي ﷺ لم يهزم في أحد، وظل ثابتاً في وجه المشركين، يقاتلهم بمن ثبت معه من أصحابه، حتى تركوا أرض المعركة، وانصرفوا عن القتال، والقول بأن رسول الله ﷺ هزم في أحد خطأ فادح بجانب للصواب، وفيه سوء أدب مع الرسول ﷺ الذي ما تراجع أمام عدو، ولا هزم في معركة.

وما أصابه ﷺ من جراح في المعركة، وما نزع من دماؤه، ومصابه فيمن استشهد من أصحابه، لم يؤثر على قوة قلبه، ورباطة جأشه، حتى إنه ﷺ لما وقف بعض المشركين في أعلى الجبل ندب أصحابه لإنزالهم قائلاً: «لا ينبغي لهؤلاء أن يعلوننا»، ولما صاح أبو سفيان مفتخراً متباهياً: اعل هبل، أمرهم ﷺ أن يردوا عليه قائلين: «الله أعلى وأجل»، ولما قال: العزى لنا ولا عزى لكم، أمرهم ﷺ أن يقولوا له: «الله مولانا ولا مولى لكم» [رواه البخاري (٤٠٤٣)].

وخرج رسول الله ﷺ في اليوم الثاني بأصحابه في أثر المشركين ليردّهم عن المدينة المنورة، إن حدثتهم أنفسهم بالهجوم عليها، حتى بلغ حمراء الأسد. وكل ذلك يؤكد لنا أن أحداث أحد ومصابه ﷺ فيها لم ينل من عزيمته، ولم يؤثر على معنوياته ﷺ.

وتابعت الآيات مواجهة الصحابة ﷺ بقوله تعالى:

(١) تفسير القرطبي: ٢٤٠/٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٢٧/١.

﴿فَأَثْبَكُمْ عَمَّا يَعْمُرُ﴾ أي: فجازاكم همًّا وحزنًا على ما فاتكم من نصرٍ وغنيمة، متصلًا بهم، وحزنٍ بسبب ما أصابكم من جراح وقتل.

﴿لَكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: لكي يكون ذلك لكم درسًا وعبرةً وتجربةً، فلا تحزنوا فيما بعدُ على فائتٍ من المنافع.

﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من المضار^(١).

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

• نعاس وأمن في الميدان:

ومن لطفه سبحانه بأصحاب النبي ﷺ، وفضله عليهم، بعد أن أصيبوا، ما أخبر عنه بقوله الكريم:

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُعَاسًا يَعْشَى طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنٌ نُعَاسًا﴾ حتى نام أكثرهم، وشعروا بهذا بالأمن، فسكنت قلوبهم، واطمأنت نفوسهم، فإنما ينعس من يأمن، والخائف لا ينام.

وقد حدث مثل هذا في بدر، إلا أنه كان قبل القتال، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنٌ مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ الآية [الأنفال: ١١].

(١) تفسير النسفي: ٦٠٨/١.

قال أبو طلحة الأنصاري: كنتُ فيمن تغشاهُ النعاس يومَ أُحُدٍ، حتَّى سقط سيفي من يدي مراراً. [رواه البخاري (٤٠٦٨)].

﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ وهم المؤمنون المخلصون.

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ لم يغشهم النعاسُ بسبب خوفهم على أنفسهم، فلا هم لهم إلا أنفسهم، وهم المنافقون، الذين كان لهم وجودٌ كبير في مجتمع المدينة المنورة، وقد أظهر كثيرٌ منهم نفاقهم بعد غزوة أُحُد.

﴿يَظُنُّوكَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: يسيئون الظن بالله تعالى، وهو أنه سبحانه لا ينصر نبيه ﷺ وأصحابه.

﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةُ﴾ أي: كظن أهل الجاهلية.

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ وهو استفهام إنكار ونفي، أي: ما لنا أمرٌ يُطاع، يعرضون بالنبي ﷺ عندما استشار أصحابه قبل الخروج من المدينة، فأشار عليه زعيمُ المنافقين ابن أبيّ بالبقاء فيها، والتحصن في بيوتها، لكنه ﷺ أخذ برأي شباب الصحابة، وخرج إلى أُحُد - كما مر معنا -.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أي: البقاء أو الخروج، والنصر أو الهزيمة، والحياة أو الموت، كلها بيده سبحانه، وبمشيئته وقدرته جلّ وعلا.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ فسريرتهم تخالفُ علانيتهم، يخفون الكره والحقد على النبي ﷺ خلاف ما يُظهرون من المودة والمحبة.

﴿يَقُولُونَ﴾ بعضهم لبعض.

﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أي: لو أنَّ محمداً ﷺ أطاعنا، ولم يخرج من المدينة، ما قتل من قتل منّا.

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ فَقَدَّرَ الله تعالى واقعَ لا محالة، والموتُ الذي قدَّره سبحانه لا بد منه، كما قال سبحانه: ﴿أَتَيْنَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ الآية [النساء: ٧٨].

فلو لم يخرج النبي ﷺ إلى أُحُدٍ لخرج الذين قدَّر الله تعالى موتهم إلى

مصارعهم ليموتوا فيها، فلا رادّ لقضائه جلّ وعلا، ولا معقّب لحكمه، وما حدث في أحدٍ قضاه الله تعالى وقدره ابتلاءً وتمحيصاً.

﴿وَلَيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من إخلاص أو نفاق.

﴿وَلَيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ليكشف ما فيها، فالتمحيصُ هنا الكشف والتمييز^(١).

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فهو سبحانه لا يحتاج إلى الابتلاء، ولكنه قدره بحكمته إظهاراً لحال المنافقين، وتمييزاً لهم عن المؤمنين.

• العفو عن المنهزمين:

وأكدت الآيات مرةً ثانيةً عفوهُ سبحانه عن الصحابة الذين تركوا ميدان المعركة في أحدٍ وانهزموا، بعدما ذكرت من شأن المنافقين، وكأنّها تحثهم وتشجّعهم على ترك النفاق، وتحسين الاعتقاد، حتى يشملهم عفو الله تعالى ومغفرته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ في أحد.

﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: تمكّن الشيطان من إيقاعهم بالزلل، وهو المخالفة والمعصية.

﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب في مخالفة أمر النبي ﷺ بالثبات، فجرّهم ذلك إلى الهزيمة.

﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وهذا يقوِّي رجاء المذنبين في عفو الله تعالى،

ويشجعهم على التوبة، وتحسين الظن به سبحانه، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفر الذنوب، ولا يعاجل المذنبين بالعقوبة، كي يرجعوا إلى الله، ويتوبوا ويستغفروا.

فما أعظم العبر والدروس المستفادة من غزوة أحد!..

• أثر الإيمان بالقضاء والقدر:

ويحسنُ بعدَ فضح المنافقين تحذير المؤمنين من التشبه بهم، والتأثر بأقوالهم وإشاعاتهم التي كانوا يشيعونها في المدينة المنورة. قال تعالى:

﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم المنافقون.

﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: قال المنافقون في حق إخوانهم ولأجلهم.

﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا.

﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ جمع غاز، أي: كانوا غزاة مجاهدين، فأصابهم موت أو

قتل.

﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أي: لو كانوا مقيمين عندنا ما أصابهم موت

وقتل.

﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: لا تقولوا مثل هذا القول، فإنه يؤدي

إلى الحسرة والألم في القلوب.

وهذا يبين لنا الآثار الطيبة للإيمان بالقضاء والقدر في نفوس المؤمنين؛

ففيه تخفيف لآلام المصابين وأحزانهم، فالرضا بقضاء الله وقدره يزيل عن

القلوب والنفوس أمثال الجبال من الهموم والأحزان، ويضع مكانها راحة

وسكينته، لا يحسّ بها ويتذوقها إلا المؤمنون بالله تعالى، المستسلمون لقضائه وقدره.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خيرٍ، احرصْ على ما ينفعُك، واستعنْ بالله ولا تعجزْ، وإنْ أصابك شيءٌ فلا تقلْ: لو أنّي فعلتُ كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإنَّ (لو) تفتحُ عملَ الشيطان» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فالحياة والموت بيده سبحانه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ منكم، فله كمالُ القدرة والعلم، ﷻ.

ويجعل الإيمان بالله تعالى وقضائه وقدره نظرَ المؤمن إلى الموتِ مختلفاً عن نظر الكافر إليه، فالموتُ في نظر المؤمن رحمةٌ ومغفرةٌ، وانتقالٌ إلى دار هي خيرٌ من دار الدنيا، بينما الموتُ في نظر الكافر انتهاء وانقطاع عن الدنيا ومتاعها، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١٥٧).

من حطام الدنيا الفانية.

﴿وَلَكِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٥٨).

فالإنسان لا ينتهي بالموت، بل هو البداية لما بعده من حساب وجزاء ومسؤولية.

• خُلُقُ النَّبِيِّ ﷺ:

وبعد بيان كل هذه الفوائد والعبر والدروس، التفتت الآياتُ إلى النبي ﷺ تبين له كيف يعاملُ أصحابه بعد غزوة أُحُد، وتذكره بفضل الله تعالى عليه بما جعل في قلبه الشريف من شفقة على عباد الله ورأفة بهم:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ .

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ﴾ فقد جبَّله الله تعالى على الرحمة والسماحة واللفظ، هذه حقيقة جوهره الشريف، ومعدنه الكريم ﷺ.

فأخلاقه الكريمة لا تكلف فيها ولا تصنع، بل هي فطرة فطره الله تعالى عليها، وجبله جبل عليها، وهي من الله ﷻ لا من غيره، قال الحسن البصري رحمه الله: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به (١).

وهذا الخلق الكريم هو السبب الرئيس لتعلق الصحابة به ﷺ وشدة محبتهم له رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وكانت أخلاقه الكريمة سبباً لهداية الكثير منهم للإسلام. وصدق الله تعالى في قوله الكريم:

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾ أي: خشناً في كلامك ومعاملتك.

﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ جافي الطبع قاسي القلب.

﴿لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ أي: لابتعدوا عنك، وأعرضوا عن دعوتك، وما تعلقوا

هذا التعلق الشديد بك.

فقد كانوا ﷺ شديدي المحبة له ﷺ والتعلق به، وبلغوا الغاية في هذا الأمر، حتى قال عروة بن مسعود الثقفي عندما أرسلته قريش ليكلّم النبي ﷺ، وهو في الحديبية: والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّثون النظر إليه تعظيماً له. [رواه البخاري (٢٧٣١ و ٢٧٣٢)].

وتدلُّنا الآية على أن الداعي إلى الله ينبغي أن يكون رحيماً بالناس، لطيفاً بهم، يتحبَّب إليهم بلين الكلام والمعاملة الحسنة، ويتجاوز عن أخطائهم، ويتحمَّل جفوتهم وقسوتهم، وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه عندما يرسلهم لدعوة الناس بقوله: «يَسِّرُوا وَلَا تَعْسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تَنْفِّرُوا» [رواه مسلم (١٧٣٤)].

وفي رواية أخرى له [١٧٣٢]: «بَشِّرُوا وَلَا تَنْفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تَعْسِّرُوا». ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ أي: عما صدر منهم في حقك يوم أحد، عندما فرّوا عنك، وتركوك تواجه خطر المشركين.

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: وادعُ الله تعالى ليغفرَ لهم، فدعائك مُجَابٌّ لا يُرد.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ تطبيقاً لنفوسهم، وتشريعاً لمبدأ الشورى في الأمة.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ على أمرٍ بعد الشورى فأْمُضِهِ دون تردُّد.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إمضاء أمرٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه وحده سبحانه، ويوفقهم ويسددهم.

والعجيب أن هذه الصفات الكريمة التي وُصف بها رسول الله ﷺ في القرآن الكريم قد ذكرت في التوراة والإنجيل قبل طمسها وإخفائها.

ففي أثناء حروب الفتح لبلاد الشام ومصر، وقع في يد عبد الله بن عمرو بن العاص زاملة - أي صرة - فيها نُسخٌ عن التوراة والإنجيل التي كانت متداولة بين أهل الكتاب، وكان عبدُ الله أحياناً يحدثُ الناس عما وجد فيها. ولَمَّا سألَه عطاء بن يسار قائلاً: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل والله، إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيُّها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وجزراً للأُميين، أنت عبي ورسولي، سميتُك المتوكِّل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخابٍ بالأسواق، ولا يدفعُ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضهُ الله حتَّى يقيمَ به المِلَّةَ العَوجاء، ويفتحَ به أعيناً عُمياً، وأذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً. [رواه البخاري (٢١٢٥) و(٤٨٣٨)].

ولا شك أن هذه الآية الكريمة عندما وجهت النبي ﷺ هذا التوجيه

الكريم، أمرته أن يفعل ما يجعل أصحابه يزدادون حباً له، وتعلقاً به ﷺ، فالفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم، مع اللين واللفظ بهم، كل ذلك يجعلهم يزدادون تعلقاً به ﷺ، وحباً له، وإقبالاً عليه، خلافاً لما استتجه سيد قطب غفر الله له - كما مر معنا - .

والتوكل يجب أن يكون على الله تعالى وحده لأن الأمر بيده، والنصر بمشيئته وقدرته :

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ ويمنع عنكم تأييده ونصره .
﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي : لا أحد ينصركم بعد أن منع الله عنكم النصر .

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مع الأخذ بأسباب الوقاية والسلامة، فالتوكل على الله تعالى لا يمنع من الحذر والحيطّة والأخذ بالأسباب المؤدّية إليهما .

• تحريم الغلول:

وببدو أنّ الرماة عندما تسرّعوا بترك مواقعهم من أجل الغنيمة، كانوا يظنون أنّ النبي ﷺ سيحتفظ بشيء من الغنيمة لنفسه، وأنّه لن يقسمها بينهم، فأنزل الله تعالى قوله الكريم يبرئ النبي ﷺ من الاحتفاظ بشيء من الغنيمة لنفسه :

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَ مَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَ﴾ أي : وما صحّ لنبي أن يخون من الغنيمة، فإنّ النبوة تنافي الخيانة^(١) .

وشأنه ﷺ أعلى من ذلك وأعز.

ثُمَّ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ عَقُوبَةَ مَنْ يَأْخُذُ شَيْئاً مِنَ الْغَنِيمَةِ لِنَفْسِهِ مِنْ دُونِ حَقِّ، وَمَنْ يَأْخُذُ شَيْئاً مِنَ الْأَمْوَالِ الْعَامَةِ لِنَفْسِهِ مِنْ دُونِ حَقِّ أَيْضاً، فَقَالَ:

﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَحْمِلُ الشَّيْءَ الَّذِي غَلَّهُ لِنَفْسِهِ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قامَ فينا رسولُ الله ﷺ يوماً فذكر الغلُولَ، فعظَّمَهُ وعظَّم أمره، ثم قال: «لَا أَلْفِينَ أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فيقولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْ، فأقولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَّغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمَحَمَةٌ، فيقولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْ، فأقولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَّغْتُكَ. لَا أَلْفِينَ أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فيقولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغْنَيْ، فأقولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ بَلَّغْتُكَ» [رواه البخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١)]. الصامت من المال: الذهب والفضة.

فالمسؤولية عن الأموال العامة كبيرة، وشأنها عند الله خطير، وعلى من أوْتُمِنَ عليها أن يكونَ وقافاً فيها عند الحدود المشروعة، لا يتصرف فيها إلا بما يُرْضِي الله تعالى، وإلا حُشِرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يَحْمِلُ مَا أَخَذَ لِنَفْسِهِ، وما استأثر به دون غيره من الناس، ثم يكونُ بعدَ ذلك الحساب، فيخاصمُه كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ حَقٌّ فِي الْمَالِ الَّذِي أَخَذَهُ لِنَفْسِهِ.

﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فحقوق العباد لا يضيع منها شيءٌ عند الله تعالى، وهو أحكم الحاكمين.

﴿أَفَمِنْ أَتْبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْأَصِيرُ﴾.

ولا يستوي عند الله الأمين والخائن:

﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بطاعته، فحفظ ما أوْتَمَنَ عليه، وأدَّى الحقوق إلى أصحابه.

﴿كَمْ بَاءٍ يَسْخَطُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: أتى يوم القيامة وهو يحملُ آثارَ خيانتِه التي تعرَّضه لغضب الله تعالى.

﴿وَمَا أَوْلَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: ثُمَّ مأواه بعد فضيحتِه في أرض المحشر جهنم، وبئس المصير.

﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: يكون الناس يوم القيامة متفاوتين في المراتب والمنازل، لتفاوتهم في الطاعات وحفظ الأمانات.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كلَّ عاملٍ بعمله.

• المنة الكبرى:

وبعد هذه الشهادة الربانية ببراءة النبي ﷺ من كل ما يمكن أن يقع في الأوهام والظنون، بيّن الله تعالى حقيقة المقام الرفيع العالي الذي أكرمه الله تعالى به بالنسبة لعبادة المؤمنين فقال ﷻ:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فالرسول ﷺ منّة الله الكبرى على المؤمنين، بعثه الله تعالى لهدايتهم إلى الإسلام، وتعليمهم الحلال والحرام، وتطهير قلوبهم ونفوسهم من الآثام.

أدبه الله تعالى وكمّله وجملّه، ليكون القدوة الطيبة الحسنة لهم، في أقواله وأفعاله وأخلاقه وصفاته، واختاره تعالى من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته

ومجالسته، والانتفاع به ﷺ، كما قال ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وخصَّ سبحانه المؤمنين بالذكر - مع أنه ﷺ رحمةٌ لكل العالمين - لأنهم الذين انتفعوا به ﷺ بالإيمان به، واتباع سنته، فآلمته عليهم أعظمُ والنعمةُ في حقهم أتمُّ وأكمل.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي: آيات القرآن الكريم.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من دنس الكفر والفساد وسوء الأخلاق.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآن والسنة.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل بعثته ﷺ.

﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا شك فيه.

هذا البيان الإلهي لما ترتب على بعثته ﷺ من خير كبير للمؤمنين، يجعلهم يزدادون محبة للنبي ﷺ، وتعلقاً به، واتباعاً لسنة ﷺ.

• مواجهة صريحة:

وأخيراً توجهت الآيات الكريمة تخاطبُ الصحابة ﷺ بهذه المصارحة والمكاشفة، حول السبب المباشر لمصابهم في أحد، بقوله الكريم:

﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥).

﴿أَوَلَمْآ أَصَبْتَكُمْ مَّصِيبَةً﴾ في أحد.

﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَهَا﴾ في بدر، عندما قتلتم من المشركين سبعين، وأسرتم سبعين.

﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي: تساءلتم: من أين هذا المصاب ونحن مسلمون، وفيما رسول الله ﷺ، وقد وعدنا سبحانه بالنصر؟.

﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بسبب مخالفتكم أمر الرسول ﷺ ومعصيتكم له.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد.

فمصائبكم، وإن كان من الله تعالى وبمشيئته وقدرته، إلا أن سببه من أنفسكم وعصيانكم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فلا يكون شيء إلا بإذنه تعالى ومشئته.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٦٦ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ١٦٧.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذِ اللَّهِ﴾ فلا تأثير للأسباب في الإيجاد والإعدام، إنما المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى وحده، وله سبحانه حكم كثيرة فيما قدر عليكم في أحد، منها:

﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٦٦ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أي: ليميز سبحانه بين المؤمنين والمنافقين.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا﴾ أي: ادفعوا الكفار بتكثير جيش المسلمين.

﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، وهو ما حدث قبل القتال، فعندما رجع عبد الله بن أبيّ ابن سلول زعيم المنافقين، بثلاث الجيش إلى المدينة المنورة، وخذل النبي ﷺ والمسلمين، كلمهم عبد الله بن عمرو بن حرام، وقال لهم: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال^(١).

﴿هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بسبب خذلانهم النبي ﷺ والمؤمنين، أو هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان^(٢).

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٣٥/١.

(٢) تفسير البيضاوي: ٦٢١/١.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يظهرون خلاف ما يبطنون.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من كُفر ونفاق.

ويؤكد كفرهم أنهم ما كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر، وما كانوا يردُّون ما حدث في أحد إلى علمه ومشيئته سبحانه وتقديره، بل كانوا يقولون ما حكاه الله عنهم بقوله:

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: عن إخوانهم في النسب الذين استشهدوا في أحد.

﴿وَقَعَدُوا﴾ وهم قاعدون عن القتال.

﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أي: لو أطاعونا، فتركوا القتال، وقعدوا عنه مثلنا، ما قُتلوا.

﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ أي: ادفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ عندما يحضركم في أجلكم المقدَّر لكم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنَّ القعود سببٌ للنجاة من الموت.

وسبق ومرَّ معنا مثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

• حقيقة القتل في سبيل الله:

تميّزت سورة آل عمران بتصحيح كثير من التصورات المنحرفة، والمفاهيم الخاطئة، فالقتل في تصوّر الناس مَوْتُ، ولكنه إذا كان في سبيل الله تعالى فهو حياة وكرامة، جاء هذا التصحيح لحقيقة القتل في سبيل الله في سياق تكريم الله تعالى لشهداء أحد، وتأسيّة لأهلهم وإخوانهم الذين أصيبوا بقتلهم، وردّاً على المنافقين الذين قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ فلا يُعَدُّ القَتْلُ في سبيل الله موتاً.

جاء هذا التقرير بأسلوب النهي عن تصوّر القتل في سبيل الله موتاً، ووُجّه الخطابُ إلى النبي ﷺ مواساةً له ﷺ وتسليّةً له عن مصابه بأصحابه في أحد، فكأته وحده المصاب، وهذا يدلُّ على شدّة حزنه ﷺ على مَنْ قُتِلَ من أصحابه في أحد، وخاصّةً عمّه حمزة ﷺ سيد الشهداء. حتى إنّه ﷺ أذن للنساء أن يبكين على شهداء أحد، فلم ينكر عليهنّ عندما سمع بكاءهنّ، ولكنه تأثر ﷺ عندما لم يسمع باكية تبكي عمّه حمزة ﷺ، فعن أنس ﷺ قال: لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ من أحد، سمع نساء الأنصار يبكين، فقال: «لَكِنَّ حَمْزَةَ لَا يَؤَاكِي لَهُ» فبلغ ذلك نساء الأنصار، فبكين حمزة، فنام رسولُ الله ﷺ ثم استيقظ، وهنّ يبكين، فقال: «يَا وَيْحَهُنَّ مَا زَلْنَّ يَبْكِينَ مِنْذُ الْيَوْمِ، فَلْيَبْكِينَ، وَلَا يَبْكِينَ عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ الْيَوْمِ» [أخرجه أبو يعلى بسندين (٦٨٢ و ٦٨٧) رجال أحدهما رجال الصحيح].

وتحدّثت الآيات عن حياة الشهداء مرّةً ثانيةً في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، فللشهداء حياة برزخية خاصة بهم:

﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

ولمّا سُئِلَ النبي ﷺ عن هذه الآية قال: «أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ، لها قناديلٌ معلقةٌ بالعرش، تَسْرُحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلّع إليهم ربهم اطلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيُّ شيءٍ نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات، فلمّا رأوا أنّهم لن يُترَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا، قالوا: يا ربّ نريدُ أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتلَ في سبيلك مرّةً أخرى، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تُرْكُوا» [رواه مسلم (١٨٨٧)].

• فرحة الشهداء واستبشارهم:

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٧٠).

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من أنواع النعيم والتكريم.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: يفرحون ويُسرُّون بإخوانهم الذين تركوهم في الدنيا وهم يجاهدون، لأنهم إذا استشهدوا لحقوا بهم، ونالوا من الكرامة مثل ما نالوا، فهم بذلك يستبشرون.

وقيل: إنَّ الشهداء سألوا الله ﷻ أن يخبر إخوانهم بما نالوا من الخير والكرامة، ليرغبوا في الجهاد، فأخبرهم الله ﷻ بما أنزل على النبي ﷺ، ففرحوا بذلك واستبشروا^(١).

ففرحُ الشهداء واستبشارُهم إنما هو باستمرار المسلمين على طريق الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى واللاحاق بهم في الجنة، وهم يتمنون العودة إلى الحياة الدنيا ليجاهدوا ويُقتلوا كما مرّ معنا في الحديث.

وجاء أيضاً: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحبُّ أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض، إلا الشهيدُ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، لما يرى من الكرامة» [رواه البخاري (٢٨١٧) ومسلم (١٨٧٧)].

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بعد القتل والاستشهاد.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من الدنيا، فما عند الله خير وأبقى.

وكما يستبشر الشهداء بإخوانهم المجاهدين، يستبشرون أيضاً لأنفسهم بما أنعم الله عليهم:

(١) انظر: تفسير الخازن: ١/٦٢٦.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧١﴾ .

سواء كانوا من الشهداء أم من غيرهم، فالله سبحانه لا يضيع أجر المجاهدين الذين لم يستشهدوا؛ قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله تعالى لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنمة» [رواه البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦)].

• الجهاد بعد غزوة أحد:

وبفضل هذا التوجيه الرباني الكريم، والأسوة الصالحة بالنبّي القائد العظيم ﷺ، استمرّ الصحابة رضي الله عنهم على طريق الجهاد، فلم يهنوا، ولم يفتروا، رغم ما أصابهم في أحد، وشهد الله تعالى بفضل جهادهم، واستجابتهم لدعوة النبي ﷺ عندما دعاهم إلى الجهاد، بقوله الكريم:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٢﴾ .

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ أي: ما أصابهم في أحد من قتل وجراح وآلام.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهو ثناء كريم على الصحابة رضي الله عنهم، الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من أحد في أثر المشركين، رغم ما أصابهم من جراح وآلام، وقد أراد رسول الله ﷺ بهذا أن يرفع المشركين، ويريهم أن المسلمين لا زالوا بخير وقوة، ولم يأذن ﷺ لأحد أن يخرج معه سوى من حضر وقعة أحد إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، الذي استشهد أبوه في أحد، أذن له لقوله ﷺ لرسول الله ﷺ: «إن أبي كان خلفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة، لا رجل فيهنّ، ولست بالذي أوترك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلف على أخواتك. فتخلفن عليهنّ.

قال ابن هشام بعد أن ذكر خبر جابر: وإنما خرج رسول الله ﷺ مُرْهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوّة، وأنّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

وروى ابن إسحاق... أنّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من بني عبد الأشهل كان شهدَ أحداً مع رسول الله ﷺ قال: شهدتُ أحداً مع رسول الله ﷺ، أنا وأخ لي، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي، أو قال لي: أتفوتنا غزوةً مع رسول الله ﷺ؟! والله ما لنا من دابةٍ نركبها، وما مِنّا إلا جريحٌ ثقیلٌ.. فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنتُ أيسرَ جرحاً، فكان إذا غلبَ حملته عُقبته، ومشى عُقبته، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون^(١).

وبلغوا حمراء الأسد على ثمانية أميالٍ من المدينة المنورة، وكان المشركون قد أجمعوا الرجعةً ليهجموا على المدينة، ويستأصلوا المسلمين، فلما علموا بخروج النبي ﷺ مع أصحابه، ألقى الله الرعبَ في قلوبهم - كما مرّ معنا - فانصرفوا عما أجمعوا إليه، وعادوا إلى مكّة المكرمة.

• بدر الآخرة:

عندما وقف أبو سفيان بعد معركة أحد على الجبل يصيحُ: اعلُ هبل، قال للنبي ﷺ وأصحابه: موعدُكم موسم بدر القابل، ولبدرٍ موسمٌ سنوي يجتمعُ الناس فيه للبيع والشراء، فلما اقترب الموعدُ خرج أبو سفيان مع المشركين من قريش، فألقى الله الرعبَ في قلوبهم فرجعوا، واستأجر أبو سفيان بعض التجار المسافرين إلى المدينة، ليثبتوا المسلمين عن الخروج، ويشيعوا بينهم أن قريشاً خرجت بجمع كبير لا طاقةً للمسلمين به، ولم تؤثر هذه الشائعات على معنويات المسلمين، بل زادتهم إيماناً بالله تعالى، وثقةً بتأييده ونصره، فخرجوا مع النبي ﷺ متوكلين على الله تعالى وحده، وأنزل سبحانه مثيلاً عليهم قوله الكريم:

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٤٤/٣.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣).

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ المستأجرين من قبل أبي سفيان.

﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ أي: قريش.

﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ فلم يلتفتوا إلى هذه الأقوال، ولم يتأثروا بها.

﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ بالله تعالى، وبقينا بنصره وتأيدته.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي: إن الله هو الذي يكفينا أمرهم، ونعم

الكافي هو ﷺ.

وهي الكلمة التي قالها إبراهيم ﷺ عندما أُلقي في النار، عن ابن عباس

رضي الله عنه: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها

محمد ﷺ وأصحابه حين قال لهم الناس: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ...﴾. إرواه

البخاري (٤٥٦٣).

وهذا يدلنا على أنّ الصحابة رضي الله عنهم استفادوا من دروس أحد، وعرفوا أنّ

النصر من الله تعالى بطاعته وتقواه، وأنّ الخذلان من المعاصي والمخالفة.

وكانت نتيجة خروجهم متوكلين على الله تعالى مستجيبين لأمر النبي ﷺ،

أنهم حضروا موسم بدر، بينما تخلف أبو سفيان والمشركون، وتناقل الناس

ذلك فازداد احترامهم وتقديرهم للنبي ﷺ وأصحابه، وانفردوا في سوق بدر،

فباعوا واشتروا وربحوا، ثم رجعوا إلى المدينة المنورة بالسمعة الطيبة والربح

الوفير، ونالوا فوق ذلك رضوان الله تعالى وثناءه الخالد عليهم بقوله الكريم:

﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤).

﴿فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ﴾ أي: لم يصبهم أي مكروه

يسوءهم.

﴿وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ.

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ بما أعطاهم وأنعم عليهم.

ثم بيّن سبحانه مصدر هذه الشائعات وحقيقتها، فقال:

﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٧٥).

﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: إن ذلكم المخوف والمثبط عن

الخروج هو الشيطان، يخوف بوسوسته أولياءه الذين يوالونه ويتأثرون بوسوسته.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: لا تخافوا من أولياء الشيطان، ولا تقعدوا عن قتالهم،

كما قال في سورة النساء: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (١٧٦).

﴿وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين حقاً بالله تعالى، فينبغي أن

تخافوا منه سبحانه، بطاعته واتباع سُنَّة نبيه عليه الصلاة والسلام.

• ملاحظة هامة:

إنَّ المتدبر للآيات الكريمة السابقة التي أنزلت في غزوة أحد يلاحظ أنها

اشتملت على كثيرٍ من العتاب والمواساة، وأنَّ الآيات التي يغلب عليها العتاب

خاطبت الصحابة ﷺ، بينما الآيات التي يغلبُ عليها معنى المواساة خاطبت

النبي ﷺ.

وهذا يدلُّ دلالةً قاطعة على أنَّ الله تعالى لا يحمل النبي ﷺ أي تبعه عمّا

حدث في أحد، فلا مسؤولية على النبي ﷺ عمّا أصاب المسلمين في أحد، ولم

تدخله الآيات حتى في إطار المسؤولية الجماعية، كما أدخلت عامّة الصحابة

فيها - كما مرّ معنا -.

وما فعله ﷺ قبل خروجه إلى أحد من مشاورته لأصحابه، ثم قراره

بالخروج إلى أحد، وتنظيم أصحابه قبل المعركة حسب طبيعة أرضها، وما

أوصاهم به من الثبات والطاعة، وشجاعته عليه الصلاة والسلام وثباته في موقعه

أثناء اشتداد القتال، وفرار أكثر أصحابه عنه، ثمَّ ما فعله بعد المعركة من

الخروج في أثر المشركين، هو ما ينبغي أن يفعله أمهرُ القواد العسكريين، وأكثرهم إخلاصاً وشجاعةً، ودرايةً وخبرةً بشؤون القتال، وقيادة الرجال.

والعجبُ كلُّ العجبِ من الذي لا يدرك هذه الحقيقة، رغم تدبره للآيات الكريمة وما كتبه في ظلالها، حتى قال: «لقد كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرّضت لها، وهي بعدُ ناشئة، ومحاطة بالأعداء من كل جانب، والعدو رابضٌ في داخل أسوارها ذاتها، نقول: كان في استطاعة رسول الله ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المرة التي تعرّضت لها، لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة، مستنداً إلى رؤياه الصادقة، وفيها ما يشير إلى أنَّ المدينة درعُ حصينة، ولم يستشر أصحابه»^(١).

كان على الكاتب - وهو سيد قطب - غفر الله له، أن يتذكر حقيقة هامة، وهو انتصاره ﷺ على المشركين في أول المعركة، وقد سجّل الله تعالى هذا النصر وخلّده بقوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢] - كما مرَّ معنا - فخروجه ﷺ كان فيه خيرٌ ونصرٌ، ولم يكن سببَ المصائب الذي حدث بعد ذلك، والذي حدث بسبب الخلاف والمعصية، كما ذكره الله سبحانه وأكّده في عدّة مواضع من الآيات الكريمة التي نزلت بسبب غزوة أحد.

والرؤيا التي أشار إليها سيد قطب ﷺ ذكرها بعضُ كتّاب السير والمفسرين كأنّها كانت قبل خروجه ﷺ إلى أحد، وأما المحدثون، فقد رووها بألفاظ تدل على أنّه قد قصّها بعد غزوة أحد، وهي في [البخاري (٧٠٣٥) ومسلم (٢٢٧٢)] باللفظ الآتي:

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ في المنام أنّي أهاجرُ من مكة إلى أرضٍ بها نخلٌ، فذهبَ وهلي إلى أنّها اليمامةُ أو هجرٌ فإذا هي المدينةُ يثرب، ورأيتُ في رؤيائي هذه أنّي هزئتُ سيفاً، فانقطعَ صدره،

فإذا هو ما أُصِيبَ به المؤمنون يومَ أُحُدٍ، ثم هزَّزَتْهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ، فإذا هو ما جاء الله به من الفتحِ واجتماعِ المؤمنين، ورأيتُ فيها أيضاً بقرأً، والله خيرٌ، فإذا هم النفرُ من المؤمنين يومَ أُحُدٍ، وإذا الخير ما جاء الله تعالى به من الخيرِ وثوابِ الصدقِ الذي آتانا الله بعدَ يومِ بدرٍ [ورواه ابن ماجه في سننه (٣٩٢١)] بهذا اللفظ أيضاً].

[وفي مسند أحمد (١٣٨٦١)]: من حديث أنس رضي الله عنه: «رأيتُ فيما يرى النائمُ كأنني مردفٌ كبشاً، وكأنَّ ظُبةَ سيفي انكسرت، فأولتُ أني أقتل صاحبَ الكتيبة، وأنَّ رجلاً من أهل بيتي يُقتلُ» وفي سننه علي بن زيد، وهو ثقة سيئ الحفظ، وليس فيه ذكرٌ للدرع الحصينة.

وليس في رواية «الصحيحين» أنه ﷺ أدخل يده في درع حصينة، وأنه أولها المدينة المنورة. وينبغي التحويلُ على رواية «الصحيحين» لأنَّ رؤيا الأنبياء حقٌّ ووحىٌ، ولا يُعقلُ أن يوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ بواسطة الرؤيا، بالبقاء في المدينة المنورة، والتحصن فيها، ثم يخالف النبي ﷺ ما أوحى الله إليه بالرؤيا ويخرج إلى أُحُد.

• المسارعون في الكفر:

ونعودُ بعدَ هذه الملاحظة الهامة إلى سياق الآيات الكريمة التي توجَّهت بالخطاب إلى النبي ﷺ توأسيه، وتخفف من همه وحزنه، بسبب ما أظهره المنافقون واليهود، من شماتةٍ بالنبي ﷺ والمسلمين بعد مصابهم في أُحُد:

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٦).

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: لا يحزنك الذين يقعون في الكفر سريعاً، وهم المنافقون واليهود.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بمسارعتهم إلى الكفر، لأن الله غني عنهم وعن إيمانهم وطاعتهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نصيباً في ثواب الآخرة ونعيم الجنة، ولذلك خذلهم، ولم يوفقهم للإيمان.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم بيّن سبحانه سبب خذلانه لهم، وعدم هدايتهم، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٧٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: استبدلوا الكفر بالإيمان، وآثروا الكفر على الإيمان بسوء اختيارهم وكسبهم.

﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ إنما يضرّون أنفسهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنه عذاب عظيم، فلا بد أن يكون أليماً.

وإمهال الله تعالى لهم، وتأخير العذاب عنهم، مكرٌ بهم، واستدراجٌ لهم:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١٧٨).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ بسبب إصرارهم على كفرهم ومعاصيهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فيه ذلّة ومهانة.

• التمييز بين الخبيث والطيب:

ثمّ بعد هذا التهديد الشديد بالعذاب العظيم والأليم والمهين، توجهت الآيات بالخطاب المباشر للكفار من المنافقين واليهود، تبيّن لهم الحكمة من مصاب المسلمين في أحد، ثمّ تدعوهم إلى الإسلام، وترغبهم فيه، بقوله تعالى:

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٩).

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾، فلا يترككم الله مختلطين بالمؤمنين، لا يعرف الصادق من الكاذب، والمخلص من المنافق، لا بد أن يميز الله بينهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالامتحان والاختبار، أو بأن يطلعكم الله تعالى على ما ستره عنكم من الغيب، ولا سبيل لكم إلى هذا.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ لأنه سبحانه استأثر بعلم الغيب، فلا يطلع عليه إلا مَنْ شاء من رسله، ولهذا قال جل شأنه:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يختار سبحانه من رسله من يشاء، فيطلعهم من الغيب على ما يشاء، كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٦٦) إِلَّا مَنْ أَزْجَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿[الجن]﴾.

وقد أطلع الله تعالى النبي ﷺ على المنافقين، فكان ﷺ يعرفهم بأسمائهم، لكنه ﷺ كان يعاملهم بحسب ظاهرهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى.

ثم دعتهم الآية إلى الإيمان، والدخول في زمرة المؤمنين:

﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فالإيمان يقتضي التصديق بجميع الرسل دون تفريق بينهم، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

ثم رغبهم بالثواب الجزيل والأجر الكبير إن آمنوا:

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ في مقابل العذاب العظيم والأليم

والمهين.



الْفَصْلُ الْخَامِسُ

مع أهل الكتاب مرة ثانية

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٥﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاكُمْ سَكَتُكُمْ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُفُوعُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٨٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ١٨٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بَالِيسَتٍ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٨٨﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ١٨٩﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ دُخِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ١٩٠﴾ تَتْلُوهُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَشَقُّوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ١٩١﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ١٩٢﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازٍ مِنَ الْعَذَابِ لَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٩٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٩٤﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ١٩٥﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٩٦﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ١٩٧﴾ إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ

ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَامْنَأْ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٦﴾ رَبَّنَا
وَعَايِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٧﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ
أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلِذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ بَحْرَى مِنْ
نَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٨﴾ لَا يَعْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي
الْأَلْبَدِ ﴿١٩٩﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٠﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ
تَجْرَى مِنْ نَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿٢٠١﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ يَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبَرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٣﴾

• تمهيد:

وبعد هذه الوقفة الطويلة المتأنية لآيات سورة آل عمران عند غزوة أحد،
وبيان ما فيها من عبرٍ بليغة، وعظاتٍ نافعة، ودروسٍ مستفادة، عادت الآيات
إلى موضوعها الأساس الأول، وهو المواجهة مع أهل الكتاب، ودعوتهم إلى
دين الإسلام القائم على التوحيد، والاستسلام الكامل لله تعالى الواحد الأحد،
المنزه عن الشريك والصاحبة والولد، وهو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء
والمرسلين ﷺ، وبيان الانحراف الذي أدخلوه على عقائدهم، والتغيير والتبديل
الذي أحدثوه في التوراة والإنجيل، وتصديق القرآن الكريم لنزول التوراة
والإنجيل على موسى وعيسى ﷺ، وما فيهما من صفات النبي ﷺ والبشارة به.

وغلب على الآيات أسلوب التهديد والوعيد، بعد أن استعملت أساليب
المجادلة والمناظرة، بسبب أن السورة أوشكت على النهاية، فلا بدَّ من اتباع
أسلوب الحسم والجزم.

• طوق من نار:

سبق معنا أنَّ سورة آل عمران تميّزت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة والمفاهيم المنحرفة، وفي الآية التالية تصحيحٌ لتصوّر خاطئٍ لأخبار أهل الكتاب ورهبانهم، قال تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وهم الأقباط والرهبان الذين بخلوا بما علموا من صفات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، فكتموها عن الناس.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنّما نزلت في أهل الكتاب، ويخلهم بيان ما علموه من أمر محمد ﷺ، وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل العلم^(١).

﴿بَلْ هُوَ سَرٌّ لَّهُمْ﴾ لأنه تعالى سيعاقبهم على ذلك أعظم عقاب، بيّنه بقوله:

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: سيحملون عقاب ما بخلوا به.

فهو من الطاقة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ الآية [البقرة:

١٨٤]، وليس من التطويق، أو من الإلزام، أي: سيلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ الآية [الإسراء: ١٣]، وقال إبراهيم النخعي: معنى ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ سيجعل لهم يوم القيامة طوقاً من النار^(٢).

والبخلُ في اللغة: أن يمنع الإنسان الحق الواجب عليه.

وقد كتم أهل الكتاب صفات النبي ﷺ ونعوته المذكورة في التوراة والإنجيل،

(١) تفسير القرطبي: ٢٩١/٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٩٢/٤.

وبيانها واجبٌ عليهم، أوجبه الله عليهم عندما أخذ عليهم العهد والميثاق، الذي مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ الآية [آل عمران: ٨١].

وهو ميثاق أخذه الله على أنبيائهم، وسيأتي معنا أنه سبحانه أخذه على عامة أهل الكتاب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧].

ويحتمل لفظ الآية معنى آخر، وهو البخلُ بالمال، وتكون الآية بهذا المعنى في مانعي الزكاة، وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين، واستدلوا له بقول النبي ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُوَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعاً أَفْرَعُ لَهُ زَيْبَتَانِ، يَطْوِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزِمَتَيْهِ (يعني شِدْقَيْهِ) ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ...﴾ الآية. [رواه البخاري (١٤٠٣)]. والشجاع الأقرع: الثعبان الذي لا شعر له.

ولكن المعنى الأول يتفق مع سياق الآية وسباقها أكثر من هذا المعنى، ولا مانع من القول: إن معنى الآية ينسحب أيضاً على مانعي الزكاة، كما ورد في الحديث الشريف، وهو في الأصل في علماء أهل الكتاب الذين كتموا صفات النبي ﷺ التي كانت في التوراة والإنجيل، وقد مرَّ معنا في الحديث الشريف أيضاً أن كاتم العلم عمن يحتاج إليه يُلْجَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لله سبحانه كلُّ ما في السماوات والأرض مما يتوارثه الناس، سواء كان علماً أو مالاً أو غيرهما.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

• جرأتهم على الله تعالى:

ولم يكتفوا بجريمة البُخل، وكنتم شهادة الحق التي أوتمنوا عليها، بل تجرّؤا على الله تعالى، فوصفوه بصفات لا تليقُ بكَماله وجلاله وغناه سبحانه، منها ما حكاها الله تعالى في قوله:

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝﴾

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال ذلك بعض اليهود عندما سمعوا قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْضِي وَبِضْطٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فقالوا للنبي ﷺ: يا محمد، افتقر ربك فسال عباده القرض.

وقالوا أيضاً لأبي بكر الصديق ﷺ، عندما دخل بيت المدراس - وهو المكان المخصص لتعليم علوم دينهم - فوجد فيه رجلاً من أحبارهم، يقال له: فنحاص، فقال له: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإننا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا.

فغضب أبو بكر ﷺ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟» فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه! فوجد فنحاص ذلك، فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا...﴾ الآية^(١).

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فكما تجرؤوا على الله تعالى

فوصفوه بصفاتٍ لا تليقُ بكماله وغناه، تجرؤوا من قبل على أنبيائه فقتلوهم.
﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: العذاب.

﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: جزاء على الجرائم الكبيرة التي صدرت عنكم.
﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

• دعوى كاذبة:

وتابعت الآيات تكشفُ جرائمهم، وتفضح أكاذيبهم، مع التهديد والوعيد عليها:

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ وهم اليهود :

﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ أي: أوصانا.

﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي: حتى يقرب قربانا،
فتنزل نارٌ من السماء فتأكله.

وهو كذبٌ وافتراءٌ على الله تعالى، فالمعجزاتُ التي أيد الله تعالى بها الأنبياء لم تكن متشابهة، فالعصا واليد البيضاء من معجزات موسى عليه السلام، والناقَةُ معجزة صالح عليه السلام، وإحياء الموتى وإبراء المرضى من معجزات عيسى عليه السلام... إلخ. ولهذا ردَّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: المعجزات المختلفة الدالة على

صدقهم.

﴿وَالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي: وجاء بعضهم بالقربان الذي تأكله النار كما ذكرتم.

﴿فَلَمَّا قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ ولم تؤمنوا بدعوتهم .

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم .

وبادرت الآيات بعد كشف هذه القبائح والأكاذيب إلى مواساة النبي ﷺ ،
بقوله تعالى :

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٥) .

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ﴾ أي : بالحجج والبراهين
القاطعة الدالة على صدقهم .

﴿وَالزُّبُرِ﴾ والمواعظ والزواجر ، أصلها من الزبر ، وهو الزجر .

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ الذي يبين الحق ، ويرشد إلى الصراط المستقيم .

• الواعظ الصامت:

ثم هددهم الله تعالى ، وتوعددهم بالموت وما بعده من حساب وعقاب ،
وهو واعظ صامت ، ومع صمته فهو أبلغ واعظ :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحَّجَ عَنِ النَّارِ
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (١٨٥) .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ والله سبحانه هو وحده الحي الذي لا يموت ، كما
سبق بيانه في أول السورة ، وكما في قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَإِنَّ (١٨٥) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحْمَنِ] .

وقوله أيضاً : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القَصَص: ٨٨] .

فالموت أمر محتَم لازم لكل الأحياء ، قهر الله ﷻ به القياصرة والأكاسرة ،
وأذل به أعناق الجبابرة ، فانتقلوا به من سعة القصور إلى ضيق القبور .
والذوق : إدراك الطعم ومعرفته .

وما عَرَفَ طعم الموت إلا الأموات ، ولو قدر الله لبعضهم أن يعودوا ،
ويتحدثوا عن طعم الموت لمات الأحياء خوفاً وغمّاً وهمّاً . أسأله سبحانه أن

يرحمنا، ويخفف عنا سكرات الموت، ويثبتنا على الإيمان^(١).

﴿وَلَئِنَّمَا تُنَوِّتُ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْفِتْمَةِ﴾ أي: تُعْطُونَ جزاء أعمالكم تاماً وافياً يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء.

﴿فَمَنْ زُحِّجَ عَنِ النَّارِ﴾ أي: أُبْعِدَ عن النار.

وكلمة ﴿زُحِّجَ﴾ تدل على صعوبة النجاة من النار، إذ حُقِّتْ بالشهوات التي تجذبُ الناس إليها، وتقربهم منها.

﴿وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ﴾ بفضل الله تعالى ورحمته - كما مر معنا -.

﴿فَقَدْ فَازَ﴾ الفوز الحقيقي الذي لا يعادله فوز آخر، ونجا النجاة التي لا خطر بعدها.

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ فالتمتع بالدنيا قليل وحقير، والغرور بها - وهو الاغترار والاندفاع - كثير.

• مآسٍ ونكبات:

لا بد أن يصاب المسلمون في مواجعتهم الطويلة المستمرة مع أهل الكتاب ببعض الخسائر في أنفسهم وأموالهم، ولهذا توجَّهت الآيات تخاطبُ المسلمين بقوله تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ستصابون ببلاء يقع على أموالكم بما تتعرضُ له من نهبٍ وسلبٍ، ويقع على أنفسكم بما يصيبكم من جراح وقتل. واللام في ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ لام القسم، والنون الثقيلة لتأكيد مضمون القسم، الذي يأتي لتأكيد أمر في المستقبل.

(١) انظر: حياتنا والموعود المجهول.

فَالْآيَةُ تَحَدَّثُ عَمَّا يَقَعُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَجَاءَ الْحَدِيثُ عَنْهُ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَنْ مُصَابِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدٍ، فَكَأَنَّ الْمَصَابَ فِي أَحَدٍ الْبَدَايَةُ لِسُلْسِلَةٍ طَوِيلَةٍ مُتَعَاقِبَةٍ مِنَ الْمَآسِي وَالْمَحَنِّ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ، تَمْتَدُّ اِمْتِدَادَ تَارِيخِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، بِسَبَبِ الْمَوَاجَهَةِ وَالصَّرَاعِ الْقَائِمِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً، وَالْكَفَّارِ عَامَّةً، دَلٌّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ:

﴿وَلَنَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وَهَمَّ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ وَمَا أَكْثَرَ مَا سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ، وَلَا زَالُوا يَسْمَعُونَ مِنْ أَذَى يُوَجَّهُ إِلَيْهِمْ مِنْ إِذَاعَاتِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَوَسَائِلِ إِعْلَامِهِمْ، الَّتِي تَبَثُّ سُمُومَهَا فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِمُخْتَلَفِ لُغَاتِ الْعَالَمِ.

وَنَظَرَةُ إِلَى تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ الطَوِيلِ تَدُلُّ عَلَى صَدَقِ قَوْلِهِ تَعَالَى، فَتَارِيخُهُمْ حَافِلٌ بِالْمَآسِي وَالنَّكَبَاتِ الَّتِي حَلَّتْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأَكْثَرُهَا فِدَاخَةٌ كَانَ بِسَبَبِ الْمَوَاجَهَةِ مَعَ الْقَوَى الصَّلِيبِيَّةِ الْحَاقِدَةِ وَالْيَهُودِيَّةِ الْمَاكِرَةِ.

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: لَقَدْ نُكِبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَيْدِي الْمَغُولِ وَالتَّتَارِ الَّذِينَ اجْتَاكُوا مَشْرِقَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ أَكْثَرَ مِمَّا نُكِبُوا بِهِ عِنْدَمَا اجْتَاكَ الصَّلِيبِيُّونَ مَغْرِبَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ.

أَقُولُ: اجْتِيَاكُ الْمَغُولِ وَالتَّتَارِ كَانَ لِفَتْرَاتٍ مُّحْدُودَةٍ، ثُمَّ تَوَقَّفَ وَانْتَهَى بِدُخُولِ الْمَغُولِ وَالتَّتَارِ فِي الْإِسْلَامِ، بَيْنَمَا الْاجْتِيَاكُ الصَّلِيبِيُّ لَا يَزَالُ مُسْتَمِرًّا لَمْ يَتَوَقَّفْ بَعْدُ، وَإِنَّ الدَّارِسَ لِأَحْدَاثِ التَّارِيخِ يَجِدُ أَصَابِعَ الصَّلِيبِيَّةِ تَقِفُ وَرَاءَ الْاجْتِيَاكِ الْمَغُولِيِّ لِمَشْرِقِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ.

وَبَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ الْمُسْلِمِينَ عَمَّا يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ بَلَاءٍ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، يَبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَسْبَابَ النِّجَاةِ وَالسَّلَامَةِ الْمَعْنُوِيَّةِ بِقَوْلِهِ:

﴿وَإِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أَي: مِمَّا يَجِبُ الْعَزْمُ عَلَيْهِ

مِنَ الْأُمُورِ.

وَهَذَا حُثٌّ لَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، وَهُوَ مَا رَكَزَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ السُّورَةِ فِي

عدّة مواضع، مرّ معنا بعضها في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقوله أيضاً: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

• الميثاق العام:

وكما أخذ الله الميثاق على النبيين أن يؤمنوا برسول الله ﷺ إن أدركوا زمانه، وأن ينصروه، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١]^(١)، أخذ الله الميثاق على علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يبينوا أمر النبي ﷺ للناس كما ذكر في التوراة والإنجيل، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ وهذا يدل على أنه سبحانه علم أنهم سيكتمون أمره، وهو ما أخبر عنه بقوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: طرحوا الميثاق وراء ظهورهم، ولم يراعوه ويلتفتوا إليه أصلاً، فإنَّ النَبَذَ وراء الظهر تمثيل واستعارة لترك الاعتداد وعدم الالتفات، وعكسه جعل الشيء نصب العين ومقابلها^(٢).

﴿وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: وأخذوا بدله من حطام الدنيا الفانية.

﴿فَبُيِّنَ مَا يَشْرُونَ﴾ فبيّن ما أخذوا من الدنيا.

قال ابن كثير رحمه الله: هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ الله

(١) أستمح القارئ عذراً لكثرة تذكيره بما سبق في الكتاب، فما قصدتُ إلا إبراز الوحدة الموضوعية للسورة، وبيان الاتفاق والاحتباك بين آياتها التي بلغت المئتين.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٤٩/٤.

عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوّهوا بذكره في الناس، فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكنتموا ذلك^(١) من أجل المراتب الدينية التي كانت لهم، والتي استغلّوها أقبح استغلالٍ لجمع المال وكنزه، وكما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُونُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبْشِرْهُمْ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وكانوا يتظاهرون أمام الناس بغير حقيقتهم، يظهرون أمامهم بمظهر الورع والتعفف والزهد، بينما الطمع والجشع يملأان قلوبهم ونفوسهم، وقد فضحهم الله تعالى لنبه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بقوله:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا﴾ أي: يفرحون بكتمان ما في التوراة والإنجيل من صفات النبي ﷺ، وتحريف ما فيهما.

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي: يحبون أن يثنى عليهم الناس، ويصفونهم بصفات التقوى، والورع، والزهد، والتقديس، والتطهير.

حتى إنهم ابتدعوا القاباً لأنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، وهم في حقيقتهم أبعد الناس عن هذه الأعمال والصفات التي يدعونها، وكم سمعنا ولا زلنا نسمع عن فضائح وقبائح لكثير منهم يندى لها الجبين.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ فلا نجاة لهم من عذاب الله تعالى.

وبعد نفى النجاة من العذاب أثبت له بقوله:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

● مناجاة ودعوات:

وبعد أن طال الشُّرى، وامتدت المواجهة، وتضاعفتِ الهمومُ، وازدادت الكروبُ، وأُثخنت الأبدان بالجراح، وظَلِمَتِ الأرواحُ إلى الراح، جاءها النداء من الله تعالى يدعوها إلى واحدةٍ فضله ورحمته، وظلالِ أمنه وأنسه، فقد آن للمتعبين المكدودين أن يستريحوا، وللمهمومين المكروبين أن ينقّسوا عن قلوبهم، ويبثوا همومهم، ويخففوا أحزانهم، آن للمجروحين أن يضمّدوا جراحهم، ويمسحوا دماءهم.

لقد عوّدنا الله تعالى في سورة آل عمران أن يأخذ بأيدينا - كلما ألمّت بنا الخطوبُ وتكاثرت الهموم والكروب - إلى ساحة رحمته وفضله، وأن يوقفنا على أبواب جوده وكرمه، بآيات كريمة، يعلمنا بها كيف نناجيه ندعوه، ونبثه همومنا، ونسأله سبحانه السلوى عن أحزاننا ومعاناتنا.

إنّ هذه الدعوات مفاتيح الفضل الإلهي والجود الصمداني، تفضّل الله تعالى بها على عباده المؤمنين في التنزيل الحكيم، ليستفتحوا بها أبواب فضله وجوده وإحسانه، ويستمطروا بها شآبيب رحمته، ويستنزلوا بها معونته ومدده ونصره، ﷻ، وتقَدّست ذاته، وتسامت صفاته، ولا إله غيره.

وهيأت الآيات الكريمةُ النفوس والقلوب لمناجاة ربها، والوقوف في ساحة فضله ورحمته، بتذكيرها بفضل الله سبحانه، المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء، فخرائنُ جوده وكرمه مليئةٌ، لا ينقصها جوده وعطاؤه، وخزائنه سبحانه مقدوراته، وهو قادر على كل شيء:

﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩)

فلا تستعظموا المسألة، اسألوه كلَّ شيءٍ، وأنتم موقنون بالإجابة، مصدّقون بكمال قدرته وسعة رحمته.

• تفكر وتذكر:

وقبل التوجه إلى الله تعالى بالدعاء، أرشدتنا الآيات لتفكر في بعض مخلوقاته، وننظر نظر التدبر والتأمل في بعض مقدوراته، لنزداد إيماناً به سبحانه وتعظيماً:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝﴾ .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بتعاقبهما، وما يحدث فيهما من تبدل في الطول والقصر حسب الناموس الدقيق الذي أحكمته القدرة الإلهية لهما .

﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ لدلائل واضحة، وبراهين قاطعة، على وجود الله تعالى وجوده، ووحدانيته وكماله وغناه، لأصحاب العقول والمتفكرين بعقولهم .
فالعقل هو لب الإنسان، وأفضل شيء في بُنيته وتكوينه إن أحسن صاحبه الانتفاع به .

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾ .

والإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، ومعرفة عظمته وقدرته بالتفكر في مخلوقاته، يدفع الإنسان إلى ذكره في كل أحواله:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: يُكثرون ذكر الله تعالى فلا يفترون ولا يغفلون، تتغير أحوالهم، ويتقلبون في أعمالهم، وتبقى قلوبهم وسرائرهم عامرة بذكر ربهم، تتذوق بذكره رَوْحَ الإيمان وبرد اليقين، ولذة الحضور، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] .

وكيف لا تطمئن بذكره تعالى، وهو يذكرهم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]؟!

ولهذا كان رسول الله ﷺ يذكُرُ الله ﷻ في كلِّ أحيائه. [رواه مسلم (٣٧٣) عن السيدة عائشة ؓ].

وينبغي أن يكون مع الذكر تفكُّرٌ:

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتفكرون في الخلق لا في الخالق، لأنَّه جلَّ وعلا لا تحيطُ به الأفكار، ولا تدركه الأبصار، وأتى للمخلوق أن يحيط بالخالق ﷻ!؟.

• تنزيه الخالق سبحانه:

ويؤدِّي التفكُّرُ في المخلوقات إلى تعظيم خالقها، والاستسلام والانقياد لحكمه، والإقرارُ بحكمته جلَّ وعلا في إيجادها وإبداعها:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ﴾ تنزهه عن العبث والباطل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

أما المؤمنون فيقولون:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ينزهون الله تعالى ويسألونه الوقاية من عذاب النار.

وفي اقتران الذكر بالتفكُّر إشارةٌ إلى محدودية العقل الإنساني، وقصوره عن إدراك الحقائق كلّها، فلا بدَّ له من نور الذكر وهدايته.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ أَنْصَارٍ﴾ (١٩٢).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ أي: أذلّته وأهنته وأهلكته.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ أَنْصَارٍ﴾ يمنعون عنهم الخزي والعذاب، فالتفكُّر يجعلُ الإنسان يؤمن بالحياة الثانية يوم القيامة، وأنَّه سبحانه ما خلقَ هذا الخلقَ وأبدعه هذا الإبداع للعب والعبث والظلم، فلا بدَّ إذاً من حياةٍ ثانية يُظهر الله تعالى بها عدله وفضله وحكمته.

• منادي الإيمان:

ولا يصح الإيمان إلا بالتصديق برسالة النبي ﷺ واتباعه:

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ﴾ وهو خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فهو المنادي للإيمان الصحيح المقبول عند الله تعالى:

﴿أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ الذي هو خالقكم ومالككم ومدبر أمركم.

فدعوته عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى لا إلى نفسه، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٤) وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾ [الأحزاب]، فدعوته إلى الله بأمر الله تعالى.

﴿فَعَامَنَّا﴾ فصدقنا بدعوته، واستجبنا لرسالته.

ولا يخفى ما في الآية من تعريض بالمعرضين عن دعوة النبي ﷺ، وخاصة من أهل الكتاب الذين فرقوا بين الرسل، فأمنوا ببعضهم، وكفروا ببعض.

ثم بعد أن أعلنوا استسلامهم الكامل لله تعالى وحده، واستجابتهم لدعوة رسوله ﷺ، تقدموا إلى الله تعالى يسألونه قائلين:

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ التي أسلفناها.

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ بتوفيقنا إلى العبادات والطاعات المكفرة للسيئات، كالصلاة والصيام والحج والعمرة.

﴿وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أي: ألحقنا بالصالحين الأخيار، فهي أمنية الأنبياء والصالحين، وقد جاء في دعاء يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا وَعْدَتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا﴾ في الدنيا.

﴿مَا وَعَدْنَاهُ عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على السنة رسلك من النصر والتأييد والعزة.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بعذابك.

﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الذي وعدتنا بإجابة دعائنا، عندما قلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وهكذا علمنا الله تعالى بهذه الدعوات أن نسأله خيرَي الدنيا والآخرة.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام في الليل لصلاة التهجد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بثُّ عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهلِهِ ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلثُ الليل الآخر قعد، فنظرَ إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ...﴾ الآيات، ثم قام فتوضأ واستنَّ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة. [رواه البخاري (٤٥٦٩)]. وقوله: (استنَّ) أي: مرر السواك على أسنانه.

● استجابة الدعاء:

ثم أخبر سبحانه عن استجابته لهذه الدعوات بفضله ورحمته فقال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنسِيَّ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَآخِرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنتَهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: فأجابهم ربهم، وأعطاهم ما سألوه، وأثابهم على عبادتهم، لأنَّ الدعاء عبادة، ولا يضيع عند الله ثواب أيَّ عبادة أو طاعة إذا كانت خالصة لله تعالى وحده.

﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنسِيَّ﴾ أي: سواء كان الداعي ذكراً أو أنثى.

﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ في الدين والنصرة والموالة، وفي الثواب والمسؤولية.

ثم ذكرت الآية بعض العبادات التي يُتَقَرَّبُ بها إليه تعالى، واختارت ما يناسب موضوع السورة، والمواجهة بين المسلمين وأهل الكتاب:

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من أجل دينهم وعبادة ربهم.

﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: أجبروا على الخروج من ديارهم ظلماً وعدواناً من أجل دينهم وعقيدتهم.

وهو من أشد أنواع الظلم التي يتعرض لها الإنسان، حتى جعلها الله تعالى سبباً لمشروعية الجهاد بقوله الكريم: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج] (١).

وهو ظاهرة فاشية في المجتمعات البشرية المعاصرة، فما أكثر المشردين عن بلادهم وأوطانهم ظلماً وعدواناً، من أجل أفكارهم ومعتقداتهم.

﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِ﴾ أي: تعرضوا للأذى بالضرب والسجن والتعذيب، وغير ذلك من ضروب الأذى المبتكرة مع مرور الأزمان من أجل إعانة الظالمين على ظلمهم وبغيهم.

﴿وَقَاتِلُوا﴾ في سبيل الله، لدفع الظلم، ورد البغي.

﴿وَقَاتِلُوا﴾ في جهادهم، ولحقوا بقافلة الشهداء.

﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بالتجاوز عنها وسترها وتطهيرهم منها.

﴿وَلَا تُدْخِلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ثم بعدها يكرمهم الله بدخول الجنات.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كل ذلك بفضل الله تعالى ورحمته.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ فهو سبحانه المختص به، ولا يقدر عليه غيره.

• المتاع القليل:

إنّ مواجهة المسلمين لقوى الكفر والشرك مستمرة مع الزمان، وتوالي الأيام والأعوام، والأيام دُول، يومٌ لك ويومٌ عليك، يومٌ تُساء، ويومٌ تُسر، وهو

(١) انظر: تفسير سورة الحج (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج) في هذا التفسير.

سبحانه الذي يعزّ ويذلّ، ويعطي ويمنع، كما أنه هو الذي يقلّب الليل والنهار، فلا ينبغي الاغترارُ بتغلّب قوى الكفر، وتمكّنها في الأرض لبعض الفترات، بسبب ضعف المسلمين وبُعدهم عن دينهم، والاختلاف والتنازع القائم بينهم.

﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾.

لقد أنزل الله قوله الكريم: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ على النبي ﷺ، والأمة المسلمة في بواكير ظهورها ونموّها، فكان سلطانها محدوداً في المدينة المنوّرة، وكانت قوى الشرك والكفر تتحكّم في أرض العرب.

ومن وراء أرض العرب كانت الدولتان الكافرتان الفارسية والرومية تتحكّمان في معظم بلاد المعمورة، كما هو الحال في القوتين الكبيرتين للدولتين الكافرتين روسية وأمريكة.

ففي نزول هذه الآية تبيّنت كبير للمسلمين، ورفع لمعنوياتهم، وكأني بها في هذا العصر تخاطب المسلم الذي بهرته قوة الدول الكافرة، وشدة تسلطها على الدول الصغيرة الضعيفة، يستخرونها في مصالحهم، ويزجون بها في صراعاتهم.

وكلمة ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ تدلّ على السعة والرخاء، وقوة التمكن الذي يجعلهم يتردّدون بحرية في طول البلاد وعرضها، كما هو الواقع المشاهد في عصرنا الحاضر.

﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

فلا تغترّ أيها المسلم بظاهر ما ترى فإنه ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ لن يطول، وكل آت قريب، والأمر بيد الله تعالى الذي مرّ معنا قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ويقيني لو عاد المسلمون إلى دينهم، ووجدوا كلمتهم، ما تقلّب الكفار في البلاد، وتحكموا في العباد.

﴿ثُمَّ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَهَادُ﴾ أي: بس ما مهّدوا لأنفسهم ببيعهم وظلمهم. وبالمقابل:

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّازَّارِ﴾ (١٩٨).

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أكرمهم الله به، فأنزلهم في جنته ومستقر رحمته.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّازَّارِ﴾ لأنه لا ينقص ولا يزول ولا ينتهي، وهو خير مما يتقلّب فيه الكفرة الفجار.

• مضاعفة أجر مؤمني أهل الكتاب:

وتعود الآيات إلى موضوعها الأساس مع أهل الكتاب، لتبيّن ثواب الذين استجابوا منهم لدعوة رسول الله ﷺ فأمنوا وأسلموا، فلهم فضلهم في الإسلام، ومكانة بين المسلمين:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١٩٩).

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: بعضهم.

﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

وجاءت كلمة ﴿يُؤْمِنُ﴾ لتدلّ على أن إيمان بعض أهل الكتاب مستمر ومتجدد في كل زمان ومكان.

فعلى المسلمين أن يتفهّموا مراد الله تعالى في كلماته، ويبادروا إلى دعوتهم

إلى دين التوحيد، دين الإسلام، الذي لا يقبل الله غيره، عليهم أن يزيحوا العوائق التي تعوق أهل الكتاب عن الإسلام، والتي خلفتها المواجهة الطويلة معهم، فَثَمَّةٌ عَوَائِقُ كَثِيرَةٌ مِنَ الْاِفْتِرَاءَاتِ وَالْاَكَاذِيبِ الَّتِي اخْتَرَعَهَا الْقُسُوسُ وَالرَّهْبَانُ وَالْحَاخِمَاتُ، والتي حاولوا فيها تشويه حقيقة الإسلام، وسيرة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ليصدوهم عن الإسلام، ويبعدوهم عنه، فإن استجابتهم للإسلام ممكنة وقريبة إن أحسنّا دعوتهم وتعريفهم بحقيقة الإسلام.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ في القرآن الكريم.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ في التوراة والإنجيل قبل التحريف والتبديل.

﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين له سبحانه وحده.

﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَآيَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ كما فعل المجرمون من الأحرار

والقسس والرهبان.

﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وهو أجر مضاعف، كما أخبر سبحانه بقوله:

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِيَدِهِ ءِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّنَا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٢﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الفصص].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وسرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء ووصول

الثواب.

• الصبر والمصابرة والمرابطة:

ثم جاءت الآية الأخيرة في سورة آل عمران على رأس المئتين، تأمر المسلمين بالتزام عِدَّةِ النصر المعنوية التي سبق ذكرها في عدد من الآيات، نظراً للمواجهة المستمرة مع أهل الكتاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ بالثبات على طريق الجهاد، والاعتصام بدين

الله تعالى، فإنكم على الحق الواضح المبين.

والأمر بالصبر لا يعني الاقتصارَ على معناه السلبي، وحبس النفس على المكروه فقط، بل الواجبُ مع الصبر المصابرة: ﴿وَصَابِرُوا﴾ وهي بذل المجهود لمجاوزة المكروه، والتغلب على الصعاب والعقبات.

فالمصابرةُ عمل إيجابي يقتضي العمل وبذل الجهد للتغلب على الشدائد، وهو أمرٌ مطلوب، ولا يتعارض مع الصبر، فاحتمال المكروه شيء، والعمل على الخلاص منه بمعاناة أسباب النجاة والسلامة شيء آخر، وكلاهما مطلوبٌ ومشروع، والأمة المسلمة مكلفة بهما، ومرّ معنا ما فعل النبي ﷺ بعد مصابه في أحد.

﴿وَرَابِطُوا﴾ بمراقبة عدوكم، ورصد حركاته ومخططاته التي يرسمها للعدوان عليكم، فلا تغفلوا عنه، ولا تأمنوا جانبه، ولا تنشغلوا بمصالحكم الشخصية الدنيوية عن مراقبته ورصد حركاته وسكناته، فهو يتربّص بكم الدوائر، ولا يألو جهداً لينال منكم، وما حدث في أحد عبرة بليغة للمسلمين في كل عصر ومصر.

وأصلُ المراقبة لغةً: المكثُ في الأماكن القريبة من العدو لمراقبته والمبادرة إلى التصدي له عند مهاجمته لبلاد المسلمين.

وهي نوع من أنواع الجهاد، وعبادةٌ من أعظم العبادات وأكثرها ثواباً؛ قال رسول الله ﷺ: «رباطٌ يومٍ في سبيلِ الله خيرٌ من الدنيا وما عليها» [رواه البخاري (٢٨٩٢)].

وإذا مات المسلم وهو مرابط أجرى الله له ثوابَ المراقبة إلى قيام الساعة، قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُّ له على عمله إلا المراقبة في سبيلِ الله، يُجْرَى عليه عمله حتى يُبْعَثَ، ويأمن الفتان» [رواه أحمد (١٥٠/٤)] وقوله: «الفتان» السؤال في القبر بعد دفنه.

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «رباطٌ يومٌ وليلةٌ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعملُهُ، وأجرى عليه رزقُهُ وأَمِنَ الفتانَ» [رواه مسلم (١٩١٣)].

ولهذا كان كثيرٌ من العلماء والصالحين يحرصون على الإقامة في المدن الواقعة على الحدود الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد الكفار، لينالوا فضل وثواب المراقبة في سبيل الله.

والجدير بالذكر أنَّ تطور أساليب الحرب وأنواع الأسلحة جعل بلاد المسلمين معرضة للخطر مهما كانت بعيدة عن بلاد الكفار، وأصبح كلُّ مسلمٍ في أي موقع من مواقع عمله في رباط، إن عزمَ عليه ونواه، وقصدَ بعمله وجه الله تعالى.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم وأحوالكم وأعمالكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المفلحين، ويسدّدنا لما يحبه ويرضاه^(١).
والحمد لله أولاً وآخراً.



(١) كان الفراغ من كتابة تفسير سورة آل عمران في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك للعام الثامن بعد الأربعمئة والألف من هجرة النبي ﷺ، في بلد الله الحرام مكة المكرمة، حماها الله تعالى وصانها وبلاد المسلمين.

فهرس الموضوعات

- تقديم: بقلم الناشر ٥
- من مزايا هذا التفسير ١١
- مقدمة التفسير ١٣
- أولاً: التفسير والتأويل ١٦
- ثانياً: المنهج الملتزم ١٧
- ١ - تفسير القرآن الكريم بالقرآن نفسه ١٧
- ٢ - تفسير القرآن الكريم بالسُّنة الشريفة الصحيحة ١٨
- ٣ - الالتزام في تفسير الكلمات القرآنية بمعانيها في اللغة العربية ١٨
- ٤ - مراعاة ما صحَّ من أسباب النزول في فهم الآية الكريمة مع ملاحظة أن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم ١٨
- ٥ - تفسير القرآن الكريم بالمأثور الصحيح من أقوال الصحابة والتابعين ١٩
- ٦ - مراعاة الاتساق بين الكلمات والجمل في الآية الواحدة، ومراعاة الاتساق والاحتباك أيضاً بين آيات السورة الواحدة من خلال موضوع السورة ١٩
- ٧ - إبراز ما أشارت إليه بعض الآيات الكريمة من الحقائق العلمية التي توصل إليها الناس في العصر الحاضر ١٩
- ٨ - اجتناب الإسرائيليات ٢٠
- ٩ - منهج تفسير الآيات المتشابهة ٢١
- ١٠ - ملاحظات وتصويبات لأشياء وقع فيها صاحب الظلال رحمه الله ٢٢

تفسير سورة الفاتحة

الثناء والدُّعاء في سورة الفاتحة

- مقدمة في فضل سورة الفاتحة وموضوعها ٢٣

- تفسير سورة الفاتحة: الثناء والدعاء في سورة الفاتحة ٢٧

تفسير سورة البقرة

الإسلام لله تعالى في سورة البقرة

- مقدمة في موضوع السورة ٣٧
- الفصل الأول: القرآن والإنسان ٤١
- الحروف النورانية ٤٣
- الكتاب الكامل ٤٤
- الإيمان بالغيب ٤٦
- الإيمان بيوم القيامة ٥٠
- هرم الجحود والفساد ٥٢
- خَتَمَ وَطَبَعَ ٥٣
- المنافقون ٥٥
- مرض وفساد ٥٦
- سفهٌ وجهل ٥٨
- قلقٌ وحيرة ٦٠
- الخائفون من النور ٦٢
- قضيتان هامتان ٦٥
- الإنسان والأرض والسماء ٦٦
- التحذير بالقرآن ٦٩
- ترهيب وترغيب ٧١
- الأمثال في القرآن الكريم ٧٤
- عقول منفتحة وعقول منغلقة ٧٥
- من صفات الفاسقين وقبائحهم ٧٧
- تقطيع الروابط الإنسانية ٧٨
- ميتينان وحياتان ٧٨
- مكان الإنسان ومكانته ٨٠
- استفهام واستعلام ٨٢

- ٨٤ - قابلية الإنسان للتعلم
- ٨٧ - سجود التحية والتكريم
- ٨٨ - الإهباط إلى الأرض
- ٩٠ - التوبة والتكليف والمسؤولية
- الفصل الثاني: التوراة وبنو إسرائيل ٩٣
- ٩٥ - يَا بَنِي إِسْرَائِيل !
- ٩٨ - الأمر بالمعروف وفعله
- ١٠٠ - وسائل في التربية والتهذيب
- ١٠١ - من صفات الخاشعين
- ١٠٣ - النجاة من الظالمين وإهلاكهم
- ١٠٦ - عبادة العجل الذهبي
- ١٠٧ - شريعة التوراة
- ١٠٩ - سؤال التعنت والعناد
- ١١٢ - الزاحفون على مقاعدهم
- ١١٤ - عيون الماء في الصحراء
- ١١٦ - الذلة والمسكنة والغضب
- ١١٩ - ميثاق الطور
- ١٢٢ - بنو إسرائيل والبقرة
- ١٢٦ - قلوب قاسية
- الفصل الثالث: بنو إسرائيل من السلف إلى الخلف ١٣٠
- ١٣٣ - تحريف الكتاب
- ١٣٧ - أمانئ خادعة
- ١٣٩ - مبادئ من شريعة القرآن وشريعة التوراة
- ١٤٢ - تناقض في المواقف
- ١٤٥ - تكذيب الرُّسل وقتلهم
- ١٤٨ - التعصب والحسد
- ١٥٢ - حرصهم على الحياة

- عداوتهم للملائكة ١٥٥
- اتّباعهم للشياطين ١٥٧
- تأديب وتحذير ١٦٤
- التدرّج في التشريع والنسخ ١٦٧
- من أخلاق الإسلام ١٦٩
- تناكر وتجاهد ١٧٢
- تنزيه الحق سبحانه عن الولد ١٧٦
- تثبيت ومواساة ١٨٠

• الفصل الرابع: التوحيد، وإبراهيم عليه السلام، والبيت الحرام ١٨٤

- إبراهيم عليه السلام ومقام الإمامة ١٨٦
- البيت الحرام ١٨٩
- الأمة المسلمة ١٩٤
- ملّة التوحيد ووصية الأنبياء بها ١٩٧
- الإسلام ملّة جميع الأنبياء ٢٠١
- الأمة الوسط والقبلة الوسط ٢٠٦
- أمة الشهادة والإسلام ٢٠٩
- استقبال البيت الحرام ٢١٢
- التنافس المحمود ٢١٦
- تمام النعمة ٢١٨
- الذكر والشكر ٢٢٠
- الاستسلام لحكم الله القَدَرِي ٢٢٣
- السعي بين الصفا والمروة ٢٢٧
- كتمان العلم ٢٣٠

• الفصل الخامس: العقيدة والشريعة ٢٣٣

- الإلهيّة والعُبوديّة ٢٣٦
- من أدلة التوحيد ٢٣٧
- براءة وحسرة ٢٣٩
- التحذير من اتّباع الشيطان ومن التقليد الأعمى ٢٤١

- ٢٤٤ - العبادة والشكر
- ٢٤٨ - أكلة النار
- ٢٥٠ - آية البرّ
- ٢٥٤ - القصاص والحياة
- ٢٥٧ - تشريع الوصيّة
- ٢٦١ - تشريع الصيام
- ٢٦٣ - نزول القرآن في رمضان
- ٢٦٧ - الصيام والدعاء
- ٢٦٩ - تخفيف وتيسير في أحكام الصيام
- ٢٧٤ - تحريم أكل المال بالباطل
- ٢٧٦ - الأهلّة والمواقيت الشرعية
- ٢٧٨ - تشريع الجهاد وتحريم العدوان
- ٢٨١ - استمرار الجهاد
- ٢٨٥ - الحج والجهاد
- ٢٨٦ - الإحصار في الحجّ والعمرة
- ٢٨٨ - التمتع بين العمرة والحجّ
- ٢٨٩ - من محظورات الإحرام
- ٢٩١ - التجارة والعمل في الحجّ
- ٢٩٣ - الذكر والدعاء في الحج
- ٢٩٨ • الفصل السادس: إسلام واستعلام (أسئلة الصحابة)
- ٢٩٩ - توجيه رفيق وإرشاد لطيف
- ٣٠٠ - الفاسدون المفسدون المعاندون
- ٣٠٤ - إسلام وسلام
- ٣٠٨ - تذكير وتحذير
- ٣٠٩ - الاختبار والصراع
- ٣١٣ - أسئلة الصحابة
- ٣١٤ - التشريع لله تعالى وحده
- ٣١٦ - السؤال عن القتال في الأشهر الحُرُم

- السؤال عن الخمر والميسر ٣١٩
- السؤال عن الصدقة ٣٢١
- السؤال عن مخالطة الأيتام ٣٢٢
- تحريم النكاح بين المسلمين والمشركين ٣٢٣
- السؤال عن المحيض ٣٢٥
- الفصل السابع: الأسرة وتشريع الطلاق ٣٣٠
- حرص الإسلام على الأسرة ٣٣١
- اليمين اللغو واليمين المنعقدة ٣٣٢
- الإيلاء ٣٣٤
- الأصل في الطلاق الحظر ٣٣٦
- عدّة المطلقات ٣٣٦
- المساواة بين الحقوق والواجبات ٣٣٨
- الطلاق الرجعي مرتان ٣٣٩
- الطلقة الثالثة ٣٤٢
- التحذير من الإضرار والعدوان ٣٤٣
- الرجوع إلى الحياة الزوجية ٣٤٥
- حقّ الأولاد في الرضاعة والنفقة ٣٤٦
- عدّة الوفاة ٣٤٩
- الطلاق قبل الدخول ٣٥٢
- الصلاة والطلاق ٣٥٤
- تخفيف وتيسير ٣٥٧
- الفصل الثامن: أخبار وقصص من التاريخ ٣٦١
- تمهيد ٣٦٣
- الفارّون من الموت ٣٦٣
- الحثّ على الثبات والاستبسال والبذل ٣٦٥
- قصة طالوت وداود وجالوت ٣٦٧
- السكينة والبركة بآثار الأنبياء ٣٧٠
- الاختبار ٣٧١

- المعركة ٣٧٣
- التفاضل بين الأنبياء والمرسلين ٣٧٦
- سبب النزاع والاختلاف بين الناس ٣٧٧
- آية الكرسي ٣٧٩
- لا إكراه في الدين ٣٨٢
- مناظرة إبراهيم للطاغوت ٣٨٥
- الحياة بعد الموت ٣٨٦
- من علم اليقين إلى عين اليقين ٣٨٩
- الفصل التاسع: مبادئ أساسية في الاقتصاد الإسلامي ٣٩٣
- السَّنَابِل السَّبع ٣٩٥
- الشريعة الإنسانية ٣٩٦
- أسف وحسرة ٤٠٠
- الأموال التي تجب فيها الزكاة ٤٠٢
- حزب الشيطان ٤٠٣
- إخفاء الصدقات ٤٠٥
- أفضل مصارف الصدقات ٤٠٨
- اقتصاد إسلامي لا ربوي ٤١٠
- من أضرار الربا ٤١٣
- إعلان الحرب على المُرابين ٤١٤
- الأخلاق الإسلامية في المعاملات المالية ٤١٧
- توثيق الحقوق في المعاملات المالية ٤١٩
- توثيق الحقوق بالرهن ٤٢٤
- إسلام الصحابة لله ٤٢٥
- التكليف منوط بالوسع ٤٢٩

تفسير سورة آل عمران

التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران

- مقدمة في سَبَب نزول سورة آل عمران ٤٣٣

- ٤٣٣ - وفد نجران
- ٤٣٥ - تاريخ قدومهم
- ٤٣٧ • الفصل الأول: القرآن والإسلام
- ٤٣٩ - مَوْضُوع سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ
- ٤٤٠ - الحي القيوم
- ٤٤١ - الخلق والأمر
- ٤٤٢ - الفرقان
- ٤٤٣ - التصوير في الأرحام
- ٤٤٤ - المحكم والمتشابه
- ٤٤٥ - القلوب الزائغة
- ٤٤٧ - الراسخون في العلم
- ٤٤٨ - دعاء وابتهاال
- ٤٤٩ - أسباب الزيغ والضلال
- ٤٥٠ - آية من الله تعالى
- ٤٥٢ - مقارنة
- ٤٥٤ - رضوان الله تعالى
- ٤٥٦ - أساليب وفنون
- ٤٥٨ - شهادة التوحيد
- ٤٦٠ - وديعة عند الله
- ٤٦١ - الإسلام دين الله ﷻ
- ٤٦٣ - كلمة الفصل
- ٤٦٤ - قتلة الأنبياء والمصلحين
- ٤٦٦ - أكاذيب وأضاليل
- ٤٦٨ - مناجاة
- ٤٧٠ - التحذير من موالة الكافرين
- ٤٧٢ - طريق الوصول
- ٤٧٥ • الفصل الثاني: الإنجيل والنصارى

- ٤٧٧ - تمهيد
- ٤٧٧ - الاصطفاء
- ٤٧٨ - امرأة عمران
- ٤٧٩ - الوليدة المنذورة
- ٤٨٠ - في كفالة زكريا
- ٤٨٣ - البشارة بيحيى
- ٤٨٤ - الاصطفاء الأول والثاني
- ٤٨٦ - مصادر قصة مريم وعيسى
- ٤٨٩ - إلقاء الأعلام
- ٤٨٩ - البشارة بعيسى
- ٤٩٠ - العذراء البتول
- ٤٩٢ - المعجزات
- ٤٩٣ - الصراط المستقيم
- ٤٩٤ - أنصار الله
- ٤٩٧ - الرفع إلى السماء
- ٥٠٠ - أتباع عيسى ﷺ
- ٥٠٢ - المباهلة
- ٥٠٤ - كلمة العدل
- ٥٠٦ - الإسلام دين إبراهيم ﷺ
- ٥٠٨ • الفصل الثالث: التوراة واليهود
- ٥١١ - تحذير
- ٥١١ - أهل الكتاب
- ٥١٤ - من خداع اليهود ومكرهم
- ٥١٥ - استحلالهم لأموال الناس
- ٥١٧ - أيمانهم الكاذبة
- ٥١٨ - تحريف الكتاب
- ٥٢١ - ميثاق النبيين
- ٥٢٢ - الاستسلام لله تعالى

- ٥٢٣ - الإيمان بجميع الأنبياء
- ٥٢٤ - كتمان الحق
- ٥٢٦ - الإصرار على الكفر
- ٥٢٧ - بذل المحبوب
- ٥٢٨ - التحدي بالتوراة
- ٥٣٠ - البيت الأول
- ٥٣٢ - بلد السلام
- ٥٣٣ - الحج إلى بيت الله الحرام
- ٥٣٤ - الصد عن سبيل الله
- ٥٣٦ - الاعتصام بالله تعالى
- ٥٣٧ - جبل الله
- ٥٣٨ - المسؤولية جماعية
- ٥٣٩ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٥٤٢ - المسلمون وأهل الكتاب
- ٥٤٤ - خير الأمم
- ٥٤٥ - شَرَطَ الله تعالى
- ٥٤٦ - دعوة أهل الكتاب
- ٥٤٧ - أمة الرسالة
- ٥٤٨ - جبل الناس
- ٥٤٩ - المغضوب عليهم
- ٥٥٠ - المؤمنون من أهل الكتاب
- ٥٥١ - سعي ضائع
- ٥٥٢ - التحذير من بطانة سوء
- ٥٥٥ - شماتهم بالمسلمين
- ٥٥٧ • الفصل الرابع: غَزْوَةُ أُحُد
- ٥٦٠ - تَمْهيد في الحديث عن غزوة أحد
- ٥٦٢ - الطريق إلى أُحُد
- ٥٦٤ - الإمداد بالملائكة

- ٥٦٥ - الصبر والتقوى
- ٥٦٧ - ليس لك من الأمر شيء
- ٥٦٨ - تحريم الربا
- ٥٧١ - المسارعة إلى التوبة
- ٥٧٢ - العفو عند المقدرة
- ٥٧٣ - عدم الإصرار على الذنوب
- ٥٧٥ - وأنتم الأعلون
- ٥٧٦ - مداولة الأيام
- ٥٧٧ - لا تتمنوا لقاء العدو
- ٥٧٩ - إشاعة كاذبة
- ٥٨٠ - شجاعة الصديق وثباته
- ٥٨١ - فهم خاطئ
- ٥٨٣ - الكتاب المؤجل
- ٥٨٤ - الصبر والنصر
- ٥٨٥ - الرعب من جنود الله تعالى
- ٥٨٧ - عتاب المنهزمين
- ٥٨٨ - إلى قلب المعركة
- ٥٩٠ - شجاعة النبي ﷺ وثباته
- ٥٩٢ - نعاس وأمن في الميدان
- ٥٩٤ - العفو عن المنهزمين
- ٥٩٥ - أثر الإيمان بالقضاء والقدر
- ٥٩٦ - خلق النبي ﷺ
- ٥٩٩ - تحريم الغلول
- ٦٠١ - المنّة الكبرى
- ٦٠٢ - مواجهة صريحة
- ٦٠٤ - حقيقة القتل في سبيل الله
- ٦٠٦ - فرحة الشهداء واستبشارهم
- ٦٠٧ - الجهاد بعد غزوة أحد

- ٦٠٨ - بدر الآخرة
- ٦١٠ - ملاحظة هامة
- ٦١٢ - المسارعون في الكفر
- ٦١٣ - التمييز بين الخبيث والطيب
- ٦١٥ • الفصل الخامس : مع أهل الكتاب مرة ثانية
- ٦١٧ - تمهيد
- ٦١٧ - طوق من نار
- ٦١٨ - جرأتهم على الله تعالى
- ٦٢٠ - دعوى كاذبة
- ٦٢١ - الواعظ الصامت
- ٦٢٢ - مآسٍ ونكبات
- ٦٢٤ - الميثاق العام
- ٦٢٦ - مناجاة ودعوات
- ٦٢٧ - تفكّر وتذكّر
- ٦٢٨ - تنزيه الخالق سبحانه
- ٦٢٨ - منادي الإيمان
- ٦٣٠ - استجابة الدعاء
- ٦٣١ - المتاع القليل
- ٦٣٣ - مضاعفة أجر مؤمني أهل الكتاب
- ٦٣٤ - الصبر والمصابرة والمرابطة
- ٦٣٧ • فهرس الموضوعات



التفسير الموضوعي

لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

تأليف

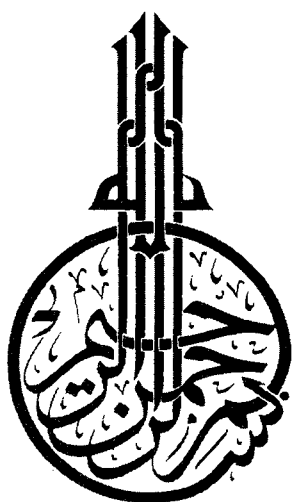
عبد الحميد محمود طه

المجلد الثاني :

ويحتوي على تفسير هذه السور

النساء - المائدة - الأنعام

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أسَّسَهَا:
محمَّد بن عيسى وَوَلَدَهُ
سنة ١٢٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٢٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

تفسير سورة النساء حقوق الإنسان في سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ من أبرز ما أفرزته الحضارة المادية الغربية المعاصرة كثرة العدوان على حقوق الناس ومصادرتها، وهو ما تؤكد الأصوات الكثيرة المرتفعة من كلّ مكان، الداعية إلى الدفاع عن المظلومين، وحماية حقوق المضطهدين، ومساعدة اللاجئين والنازحين عن بلادهم وأوطانهم، فراراً من الظلم والطغيان.

واهتمت الشريعة الإسلامية، التي أنزلها الله تعالى برحمته، لرعاية مصالح الناس وهدايتهم، بحقوق الإنسان اهتماماً كبيراً، حتى قرنت بينها وبين حقوقه تعالى على عباده، وقدّمته في كثير من الحالات عليها.

ولقد اهتمّت سورة النساء بشكل خاص بحقوق الإنسان، ودارت معظم آياتها في فلكه، فقد قررت في أول آياتها وحدة الأصل الإنساني للبشر، ومساواتهم في دين الله تعالى وشرعه، وربطت بين حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان، إذ هو تعالى خالق الإنسان ومالك أمره، وهو الذي شرع له هذه الحقوق، وأمر الناس أن يتّقوه بالتزامها واحترامها.

وكَلِّمًا تَشَعَّبَتْ أفكار السورة وموضوعاتها، عادت إلى التذكير بحقوق الإنسان وتعظيمها، ولعلّ هذا سبب تأخير إحدى آيات الميراث إلى ختامها.

ولم تقرر السورة هذه الحقوق تقريراً جامداً جافاً، كما هو الحال في القوانين والتشريعات الوضعية، بل جاء تقريرها بأسلوب التربية والتهذيب، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتربية، يربّي ويشرّع في آن واحد، ومن خلال تهذيبه للنفوس وتربيتها شرع الكثير من الأحكام المتصلة بحقوق الناس على بعضهم.

وركزت السورة في صدرها على حقوق الضعفاء في المجتمع، وخاصةً اليتامى والنساء، وهما الجانبان المستضعفان في المجتمعات الجاهلية، فاهتمت الآيات بهم اهتماماً كبيراً، وقرّرت لهم حقوقهم الإنسانية الكاملة، وأمرت الأولياء والأوصياء والقضاة وولاة الأمر بالمحافظة عليها، وأبرزت من خلال ذلك حقّ الإنسان في الملكية الفردية المشروعة، وحقه في سلامة عرضه وحياته وعقيدته وعبادته.

وغاصت الآيات إلى أعماق النفس البشرية، فكشفت الأمراض والآفات النفسية التي تدفع الناس إلى العدوان على حقوق بعضهم، كآفات الحسد والبخل والكبر والعُجب والرياء، وعرضت شرائح من أبناء المجتمع المدني في عصر التنزيل، أصيبوا بهذه الآفات وابتلوا بها، تحذيراً لعامة الناس منها.

واهتمت الآيات بتشريع الجهاد، وجعلت من مقاصده الدفاع عن حقوق المستضعفين من الناس، كما بيّنت حرص الشريعة الإسلامية على حياة الناس، فأمرت المجاهدين بالثبّت في أثناء القتال، فالجهاد ما شرعه الله تعالى للقتل وسفك الدماء، وإنما شرعه سبحانه لغايات سامية رفيعة، منها تأمين الحقوق والمحافظة عليها.

وحضّت الآيات الناس على أن يحرصوا على حقوقهم، ويتمسكوا بها، وأمرتهم أن يسعوا بأنفسهم لسلامتها، وشرعت لهم الوسائل التي تسلم بها حقوقهم، كالهجرة من البلد الذي لا تصان فيه الحقوق، وكالتشهير بالظالمين وفضحهم، وتحذير الناس من ظلمهم وبغيهم.

ووقفت الآيات عند حادثة بني الأبيرق، فأبرزت حقاً من أهم حقوق الإنسان،

وهو براءة ذمته حتى تثبت إدانته، وبينت أيضاً من خلال ذلك اهتمام الإسلام بمبدأ العدل، وأداء الأمانات، وإيصال الحقوق إلى أصحابها، وأداء الشهادة بالصدق والحق، وربطت كل ذلك بتقوى الله تعالى وعبادته وحده، فإن مراعاة حقوق العباد جزء لا يتجزأ من حقه تعالى عليهم بتوحيده وعبادته وحده سبحانه.

وردت الآيات على أهل الكتاب، الذين جحدوا نبوة النبي ﷺ، وطعنوا في صحة رسالته، فبينت بطلان عقائدهم، وعدوانهم على حقوق الناس، وأكلهم أموالهم بالباطل، وجُرأتهم على الأنبياء ﷺ، بالافتراء على بعضهم، وقتل آخرين، ثم توجت كل ذلك بشهادته تعالى على صدق نبوة النبي ﷺ وصحة رسالته، وأنها الرسالة العامة التي ختم الله تعالى بها رسالاته إلى الناس، ورضيها لهم ديناً وشرعاً يحمي بها حقوقهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد جاء تفسير هذه السورة - بحمد الله تعالى - في فصوله السبعة، متفقاً تماماً مع موضوع السورة الأساس، ومنسجماً مع تسلسل آياتها:

- الفصل الأول: حقوق الضعفاء.
- الفصل الثاني: آفات نفسية.
- الفصل الثالث: الحكم بشرعية الله تعالى.
- الفصل الرابع: التكليف بالجهد والحض عليه.
- الفصل الخامس: حادثة بني الأبيرق.
- الفصل السادس: الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل.
- الفصل السابع: عقائد أهل الكتاب.

إن هذا التفسير دعوة إلى الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية، يبين المستوى الإنساني الرفيع الذي بلغته أحكام هذه الشريعة، من خلال مصدرها الأول كتاب الله تعالى.

أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم. اللهم آمين.

اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان

إلى يوم الدين.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

حقوق الضعفاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الصَّيِغَةَ بِالْكَبِيرِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنْ وَرَبَّعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُوْثِقُوا الشَّهَادَةَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَحْضِرَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً صَغِيرًا حَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَسْتَفِئُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ عَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَرَبٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَرَبٌ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مَنَّهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَسَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاستَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَعَادُوهُمَا فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَضْلُوهُنَّ لِيَتَّخِذُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَدْحَسَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ بَيْتَقًا غُلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ

وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ
 بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا
 بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ
 النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ
 مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
 رَزَقْتُمْ بِهِ مِنْ تَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن
 يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنَ فَيِّنَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّنَ بَعْضٍ فَإِن كُفُّوهُنَّ يَإِذْنَ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ
 غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى
 الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَلَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ وَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا
 مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْإِطْلَالِ إِلَّا أَن تَكُونُ بِحِكْمَةٍ عَنِ تَرَاصٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا
 أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَحْتَابُوا كِتَابِيرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ
 سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾

• الأصل الإنساني الواحد:

بدأت سورة النساء بتقرير وحدة الأصل الإنساني لجميع البشر، من خلال
 هذا النداء الإلهي العلوي الموجه إليهم جميعاً، سواءً في ذلك الموجودون في
 عصر التنزيل، وكل من يأتي بعدهم إلى قيام الساعة:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ بخشيته وطاعته، والتزام أحكام شريعته، فهو سبحانه خالقكم ومربيكم ومالك أمركم شتم أم أبيتم.

وظهرت في هذا النداء المناسبة بين توحيد الحق سبحانه، ووحدة الأصل البشري، ودلت كلمة ﴿رَبَّكُمُ﴾ على صلة المخاطبين بالله تعالى، وأن عليهم أن يحافظوا على هذه الصلة، بعبادته سبحانه وحده، والتزام أحكام شريعته.

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ والمراد بها نفس آدم ﷺ.

وهذا دليل على كمال قدرته تعالى، وأنه حقيق أن يُتَقَى، فإن خلق الناس من نفس واحدة، مع ما بينهم من اختلاف في الأجناس والصفات والألوان والمواهب والمَلَكات، من أعظم الدلائل على وجوده تعالى، وكمال قدرته وحكمته، ولهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَلَقَ السِّنَّ وَاللَّيْلَ وَالنَّجْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وفي الآية ردُّ على الماديين المنكرين لوجود الخالق ﷻ، قال الفخر الرازي رحمه الله: «فلو كان الأمر بالطبيعة والخاصية لكان المتولد من الإنسان الواحد لم يكن إلا أشياء متشاكلة في الصفة، متشابهة في الخلقة والطبيعة، فلما رأينا في أشخاص الناس: الأبيض والأسود، والأحمر والأسمر، والحسن والقبيح، والطويل والقصير، دلَّ ذلك على أن مدبرها وخالقها فاعل مختار، لا طبيعة مؤثرة، ولا علة موجبة»^(١).

وذكر سبحانه هذا المعنى أيضاً في قوله الكريم: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّزٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: وخلق من نفس آدم وزوجه، وهي المرأة الأولى، خلقها تعالى من جزء من أجزاء آدم ﷺ، وقد بين النبي ﷺ هذا الجزء الذي خُلِقَتْ منه حواء فقال: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عَوِجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرُهَا طَلَاقُهَا» [رواه مسلم (١٤٦٦)].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً وهو يوصي بالنساء: «واستوصوا بالنساء خيراً، فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرْتُهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فاستوصوا بالنساء خيراً» [رواه البخاري (٥١٨٦)].

قال ابن حجر رحمه الله قوله: «فإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ» بكسر الضاد وفتح اللام، وقد تسكن، وكأنَّ فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحاق في المبتدأ عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إِنَّ حَوَاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ الْأَقْصَرِ الْأَيْسَرِ وَهُوَ نَائِمٌ» وكذا أخرجه ابن أبي حاتم وغيره من حديث مجاهد^(١).

فالمراد من ﴿زَوْجَهَا﴾ الأم الأولى للبشر، والزوج في لغة العرب يطلق على الرجل والمرأة، لأنَّ الرجل يكون منفرداً، فإذا اتخذ امرأة فقد صار زوجاً، وأصبح كل واحد منهما زوجاً للآخر، وكلمة: زوجة، لغة رديئة، وشاعت عند الفقهاء ليميزوا بينها وبين الرجل، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

فالمرأة خُلِقَتْ من بعض أجزاء الرجل، وعندها لهذا السبب ميل ونزوع فطري وطبيعي إليه، وكذلك عند الرجل ميل إلى المرأة وأنس بها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وهذا ينفي التصورات السخيفة التي كانت سائدة بين الناس، والتي ترى أنّ المرأة منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء^(١).

﴿وَبَنَ مِنْهُمَا﴾ أي: نشر سبحانه منهما بالتوالد والتناسل.

﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي: ونساء كثيرة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: وتقيكم البرد.

ورأى بعضهم في ذلك تنبيهاً على أنّ اللائق بحال الرجال الظهور والاشتهار، وبحال النساء الاختفاء والخمول^(٢).

ودلت الآية على أنّ جميع البشر أسرة إنسانية واحدة.

• مبادئ في التواصل والتعاون:

ثم كررت الآية الأمر بالتقوى، إشعاراً بأهميتها، وخاصةً في مجال الصلات الاجتماعية بين الناس، ولهذا جاء في المرة الثانية مقروناً بذكر الأرحام، التي هي أهم أسباب التواصل والتقارب بين الناس:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: اتقوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً به، وذلك بطاعته، وترك معصيته، واتقوا الأرحام بصلتها وعَدَمِ قطعها.

وأصل ﴿تَسَاءَلُونَ﴾ تتساءلون، وقُرئت: (تَسَاءَلُونَ) بإدغام التاء في السين، وقرأ بعضهم: (الأرحام) بالخفض عطفاً على الضمير (به) أي: تتساءلون بالله وبالأرحام، كقولك: سألتك بالله وبالرحم، وناشدتك بالله وبالرحم. وكان من عادة العرب أن يقولوا ذلك.

والسؤال بالأرحام ضربٌ من الاستعطاف، وليس قَسْماً بها، والمراد منها الأقارب، فتشمل كل من يجمع بينك وبينه نسب وإن بعد^(٣).

وبهذا المعنى يكون في الآية تعريضٌ بعاداتهم في الجاهلية؛ إذ كانوا

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١/ ٥٧٤.

(٢) تفسير الخازن: ٣/ ٢.

(٣) روح المعاني: ٤/ ١٨٥.

يتساءلون بينهم بالرحم وأواصر القرابة، ثم يهملون حقوقها، ولا يصلونها، ويعتدون على الأيتام من إخوانهم وأبناء أعمامهم، فناقضت أفعالهم أقوالهم^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي: حافظاً عالماً لا يغيبُ عنه شيء من أمر خلقه، فهو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم، كما جاء في الحديث الصحيح: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].

ففي الآية تقريرٌ للمساواة بين الناس في الأصل الواحد، وحثٌ لهم على التواصل والتعاون والتعارف، واحترام حقوق بعضهم، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويتأكد الأمر بالتواصل والتعاون كلما ازدادت صلات القرابة بين الناس وقويت. قال القرطبي رحمته الله: «اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأسماء رضي الله عنها وقد سألته: أأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك»، فأمرها بصلتها وهي كافرة، فلتأكيد هذا دخل الفضل في صلة الكافر»^(٢).

والناس في أشد الحاجة إلى هذه المبادئ مبادئ المساواة والتعارف والتعاون والتواصل، ولا يمكن للإنسان أن يتمتع بحقوقه الإنسانية إلا في ظلها، ولهذا قررها تعالى في أول آيات السورة، بكل هذه الصراحة والوضوح والحزم والإلزام.

● المحافظة على أموال اليتامى:

وبادرت الآيات بعد إعلان هذه المبادئ إلى تشريع الأحكام التي تضمن تطبيقها بين الناس، فالإسلام لا يكتفي بإعلان المبادئ البراقة، ويتركها خالية فارغة من مضمونها.

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٢١٨/٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٦/٥.

وبدأت الآيات بتشريع الأحكام، التي تكفل حماية حقوق الضعفاء في المجتمع، فالمجتمع الذي يتمتع الضعفاء فيه بحقوقهم كاملة، لا بد أن يكون مجتمعاً إنسانياً كريماً، يتمتع جميع أفرادَه بحقوقهم الإنسانية الكاملة. والمستضعفون من الأيتام والنساء في المجتمعات الجاهلية حقوقهم مهدورة وأموالهم مأكولة؛ ولهذا توجهت الآيات بالخطاب إلى أوصياء الأيتام وأوليائهم تأمرهم بالمحافظة على أموال الأيتام، وتحذّرهم من التفريط بها والعدوان عليها:

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْأَسْفَىٰ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا ۖ﴾

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: إذا بلغوا ورشدوا - كما سيأتي -.

واليتيم: الإنسان الصغير الذي مات أبوه، من اليتيم، وهو الانفراد، ومنه الدرة اليتيمة لانفرادها، ويقع اسم اليتيم على الصغير والكبير لغة، لبقاء معنى الانفراد عن الآباء، لكن في العرف اختص اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فإذا بلغ الصبي وصار يستغني بنفسه عن غيره زال عنه اسم اليتيم^(١). وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يُتَمَّ بعدَ احتلامٍ» [رواه أبو داود (٢٨٧٣)].

ويستدعي تسليمُ اليتامى أموالهم عند بلوغهم المحافظة عليها، فالمراد بإيتاء أموالهم، قطع المخاطبين أطماعهم الفارغة عنها، وكفّ أكَفهم الخاطفة عن اختزالها، وتركها على حالها غير متعرّض لها بسوء، حتى تأتيهم وتصل إليهم سالمة^(٢).

ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

(١) تفسير الخازن: ٥/٢.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٣٩/٢.

﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: لا تستبدلوا أموال اليتامى المحرمة عليكم بأموالكم، فتركوا أموالكم الحلال، وتأكلوا الحرام من أموالهم، فالخبِيث والطَّيِّب: الحرام والحلال.

وقد يكون المراد من الخبيث والطيب: الرديء والجيد، وكان أولياء اليتامى يأخذون الجيد من مال اليتيم، ويجعلون مكانه الرديء، فيأخذ أحدهم الشاة السمينه، ويجعل مكانها الهزيلة، ويأخذ الدرهم الجيد، ويجعل مكانه الزائف، ويقول: شاة بشاة ودرهم بدرهم، فذلك تبديلهم، فنهوا عنه^(١).

ثم نهاهم سبحانه عن منكر آخر كانوا يتعاطونه، فقال:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: لا تأكلوها مضمومةً إلى أموالكم، ولا تسووا بينهما في الأكل، فهذا حلال وذاك حرام.

أو: لا تأكلوها مع أموالكم.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾ أي: إن أكل أموالهم ذنبٌ عظيم فاحذروا من الوقوع فيه.

• تحريم ظلم البنات اليتامى:

ثم نهاهم سبحانه عن منكر آخر كان شائعاً بينهم في الجاهلية، يتعلق بحقوق البنات اليتامى، فقال:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿٣﴾﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ أي: إن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن.

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن.

فالآية تحرص على دفع الظلم المتوقع عن اليتيمات، ولهذا بالغت في

(١) تفسير الخازن: ٥/٢.

صرفهم عنهنّ، وترغيبهم بغيرهنّ من النساء، ففيها مسارعة إلى دفع الشرّ قبل وقوعه، فربّ واقع لا يُرفع^(١).

وكانوا قبل نزول الآية يتزوّجون من تحلّ لهم من اليتامى، لا رغبةً فيهنّ، بل في مالهنّ، ويسئنون في صحبتهنّ ومعاشرتهنّ، أو لا يعطونهنّ مهور أمثالهن من النساء؛ بينت ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سألتها عروة بن الزبير عن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها، تشركه في ماله، ويعجبّه مالها وجمالها، فيريد وليّها أن يتزوّجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنها عن أن ينكحوهنّ، إلا أن يقسطوا لهنّ، ويبلغوا لهنّ أعلى ستتهن في الصداق، فأمرّوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن.

قال عروة: قالت عائشة: وإنّ الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: ١٢٧] وقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَرَرَّعْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧] رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال. قالت: فنها أن ينكحوا عمّن رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال. [رواه البخاري (٤٥٧٤)].

ونبه ابن حجر رحمته الله إلى أن قول عائشة رضي الله عنها: وقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَرَرَّعْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ كذا وقع في رواية صالح، وليس ذلك في آية أخرى، وإنّما هو في الآية نفسها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ...﴾ [النساء: ١٢٧]^(٢)، كما سيأتي إن شاء الله.

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٤٢/٢.

(٢) فتح الباري: ٢٤٠/٨.

• تشريع تعدد الزوجات:

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ أي: ثنتين ثنتين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، لا يزداد على ذلك.

وبهذا تكون الآية قد أضافت بيان حكم شرعي آخر، إلى جانب تحريم ظلم اليتامى من النساء، وهو مشروعية تعدد الزوجات، فيجوز لكل رجل أن يختار لنفسه قسماً من هذه الأقسام بحسب حاله، فإن قدر على نكاح اثنتين فاثنتان، وإن قدر على ثلاثٍ فثلاثٌ، وإن قدر على أربعٍ فأربع. لا أنه يضّم عدداً.

وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة، وأن الزيادة على أربع من خصائص رسول الله ﷺ، التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة^(١).

فالمقام مقام امتنان وإباحة، ولو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره، قال الشافعي رحمه الله: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ، المبيّنة عن الله، أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة. وهذا الذي قاله الشافعي مجمّع عليه بين العلماء^(٢).

روي: أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اخترْ منهنَّ أربعاً» [رواه أحمد (١٤/٣) والترمذي (١١٢٨) وابن ماجه (١٩٥٣)].

والجدير بالذكر أن تعدد الزوجات كان مشروعاً في الشرائع السابقة وشائعاً بين الأمم من دون حدٍّ، فالشريعة الإسلامية هي التي حددت التعدد، ومنعت الزيادة على أربع.

ولم يكتفِ الإسلام بالتحديد ويتركه لهوى الرجل، بل قيده بالعدل، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

(١) تفسير الخازن: ٧/٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٥٦/١.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أي: إن خفتم ألا تعدلوا بين أربع زوجات، أو بين ثلاثٍ أو اثنتين، فاختراروا واحدة، أو: فحسبكم واحدة، واتركوا الجمع.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: أو ما ملكتم من الإماء السراري بالتملك المشروع، وقد قيدته الشريعة الإسلامية بشروط وقيود، بحيث يندر تحققه.

﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي: اختيار الزوجة الواحدة أقرب إلى ألا تميلوا عن الحق وتجوروا.

قال بعضهم: إن فيها إشارة إلى استحباب الزيادة على الواحدة لمن لم يخف عدم العدل، لأنه سبحانه قدّم الأمر بالزيادة، وعلّق أمر الواحدة بخوف عدم العدل، ويا ما أُحِيلَى الزيادة إن ائتلفت الزوجات^(١).

وأما إنْ خَافَ الْجَوْرَ فيمنع من التعدد، ويحرم عليه، درءاً لمفسدة الظلم، فما يؤدي إلى الحرام فهو حرامٌ في الشريعة الإسلامية، والعدل مطلبٌ أساس هام في التشريع الإسلامي، كما سيأتي.

والعدل الواجب على الزوج بين نسائه هو العدل الذي يقدر عليه، وذلك بالتسوية بينهما في النفقة والمبيت والصحة وحسن العشرة، ولا يكلف أن يعدل بينهما فيما لا قدرة له عليه، وهو الميل والمحبة، فذلك من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وسيأتي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تُلْمَنِي فيما تملك ولا أملك» [رواه أبو داود (٢١٣٤) والنسائي (٦٤/٧) والترمذي (١١٤٠) وابن ماجه (١٩٧١) وابن حبان (٤١٩٤)] قال الترمذي: يعني به الحب والمودة، كذلك فسره أهل العلم.

ولتعدد الزوجات في الإسلام حكمٌ كثيرة، أفاض العلماء في الحديث

(١) روح المعاني: ١٩٦/٤.

عنها، وأفردتها بعضهم بالتأليف^(١)، ويكفي أن نذكر أنَّ الخلل الاجتماعي الذي تشهده كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة، نتيجة زيادة عدد النساء على الرجال، بسبب كثرة القتل بين الرجال في الحروب المدمرة، الأمر الذي يجعل من تعدد الزوجات أمراً لازماً لحل هذه المشكلة، فضلاً عن كثير من العقبات التي تواجه كثيراً من الأزواج، كعقم الزوجة أو مرضها مرضاً يمنع زوجها من الاتصال بها، أو مسارعة الضعف والشيخوخة إليها، أو شدة الغريزة عند بعضهم، بحيث لا تكفيه امرأة واحدة لتحسينه وحمايته من شرور الزنى ومفاسده^(٢).

• حق الزوجة في المهر:

ثم قررت الآيات حق المرأة المنكوحه في المهر مطلقاً، اليتامى في ذلك وغيرهنَّ سواء، فوجهت الخطاب إلى الأزواج، لأنهم المكلفون بذلك، وإلى الأولياء الذين يأخذون مهوراً بناتهم ونسائهم:

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنَّ نَحْلَةً ۖ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا ۝﴾

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنَّ نَحْلَةً﴾ أي: أعطوهنَّ مهورهنَّ عطيةً من الله تعالى للمرأة، أو: عطيةً عن طيب نفسٍ منكم.

والتعبير عن إيتاء المهور بالنحلة، مع كونها واجبةً على الأزواج، لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب خاطر^(٣).

﴿فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ أي: فإن طابت نفوسهنَّ عن شيء من ذلك الصداق فوهبته لكم.

(١) انظر كتاب: هل نملك تحريم تعدد الزوجات؟، للأستاذ بسام عبد الوهاب الجابي، من منشورات دار ابن حزم في بيروت. (الناشر).

(٢) انظر: الزواج في الإسلام، للمؤلف، ص ٧٩.

(٣) تفسير أبي السعود: ١٤٣/٢.

﴿فَكُلُوهُ هَبْطًا مَّرِيَّتًا﴾ أي: فكلوه طيباً سائغاً لا إثم فيه ولا ملامة.

وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك، ووجوب الاحتياط؛ حيث بنى الشرط على طيب النفس فقال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ ولم يقل: فإن وهبن لكم^(١)، فلا يحل أخذ ما تدفعه المرأة بسيف الحياء أو بالفهر والإكراه وسوء المعاملة.

ودلت الآية أيضاً على أنَّ المهر حقُّ المرأة، فلا يجوز لوليها أن يزوجهَا من دون مهر، فإن فعل ذلك فلها مهرٌ أمثالها من النساء.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عن الشُّغارِ. والشُّغارُ: أن يزوّج الرجلُ ابنته على أن يزوّجه الآخرُ ابنته، ليسَ بينهما صداق. [رواه البخاري (٥١١٢)].

وذكرُ البنتِ في تفسير الشُّغار مثلاً، وقد تقدّم في رواية أخرى ذكر الأخت، قال النووي: أجمعوا على أنَّ غير البنات من الأخوات وبنات الأخ وغيرهن كالبنات في ذلك^(٢).

• الحجر على السفهاء:

وكما اهتمت الآيات بالمحافظة على الحقوق الخاصة بأبناء المجتمع، وخاصة الضعفاء، اهتمت أيضاً بالحقوق العامة للمجتمع، فالشريعة الإسلامية شريعة شاملة كاملة، تلبي جميع حاجات الناس التشريعية، الفردية والاجتماعية، وتقيم توازناً بين حقوق الفرد الخاصة وبين حقوق المجتمع العامة، ففي الوقت الذي تقرّر حقوق الأفراد وتصورها لهم، تقرّر أيضاً حقوق المجتمع وتصورها له. وقد أبرزت الآيات هذه الحقيقة في سياق بيانها للحقوق الفردية الخاصة بالضعفاء في المجتمع، بقوله تعالى:

(١) تفسير النسفي: ٩/٢.

(٢) فتح الباري: ١٦٤/٩.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ أي: لا تعطوا السفهاء أموالهم.

والسفهاء: هم الذين لا يحسنون التصرف في المال، فيضيعونه بغير فائدة. وأصل السفه في اللغة: الخفة والحركة، يقال: تسفَّهَتِ الرياحُ الشجرَ، أي: مالت به. وينسحب وصف السفهاء على ناقصي الأهلية من اليتامى والمجانين والصغار، وينسحب أيضاً على المبذرين من البالغين الأصحاء، والخطاب في الآية لكل من يصح خطابه من الأولياء والأوصياء في المجتمع. والمراد من الأموال أموال السفهاء، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، وفي إضافتها إلى ضمير المخاطبين إشارة إلى حق المجتمع في حفظ هذه الأموال وصيانتها، ففي حفظها وعدم تضييعها منفعة للأمة بأسرها، لأن ما في أيدي بعض أفرادها من الثروة يعود بالصالح على الجميع، فمن تلك الأموال ينفق أربابها ويستأجرون ويشترون ويتصدقون، ثم تورث عنهم إذا ماتوا، وتتوزع بين ورثتهم من أبناء المجتمع، وبهذا تتداولها أيدي كثيرة، وهذه إشارة لا أحسب أن حكماً من حكماء الاقتصاد سبق القرآن إلى بيانها، وقد أبعد جماعة جعلوا الإضافة لأدنى ملاسة، لأن الأموال في يد الأولياء... وجماعة جعلوا الإضافة للمخاطبين، لأن الأموال من نوع أموالهم، وإن لم تكن أموالهم حقيقة... وأبعد جماعة آخرون فجعلوا الإضافة حقيقية؛ أي: لا تؤتوا يا أصحاب الأموال أموالكم لمن يضيعها من أولادكم ونسائكم، وهذا أبعد الوجوه. وقارب ابن العربي إذ قال: لأن الأموال مشتركة بين الخلق تنتقل من يد إلى يد، وتخرج من ملك إلى ملك^(١).

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك في وصف هذه الأموال:

(١) التحرير والتنوير: ٢٣٥/٥.

﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ وفي قراءة: (قيماً) والمعنى واحد، كما جاء عوداً بمعنى عياداً، أي: تقومون بها وتتعشون^(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينهى ﷺ عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال، التي جعلها الله للناس قياماً، أي: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن هنا يؤخذ الحَجْرُ على السفهاء»^(٢).

﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ أي: اجعلوها مكاناً لرزقهم وكسوتهم، بأن تتجروا وتترَبَّحوا حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من صلب المال^(٣).

هذا إن وجدت الأرباح، وإلا فلا بدّ من الإنفاق عليهم من أموالهم، ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أي: منها^(٤).

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: قولاً جميلاً، لأنّ القول الجميل يؤثر في القلب، ويزيلُ السفه. أو: قولاً طيباً تطيبُ به أنفسهم، وترتفع معنوياتهم. فمما لا شك فيه أنّ منع الإنسان من التصرف في ماله يُدخلُ عليه الألم والحزن، ويخفف القول الطيب الجميل بعض ما يجده الإنسان في نفسه.

• تسليم الأموال إلى اليتامى:

ثم بيّنت الآيات كيف تسلّم أموال اليتامى لهم ووقته، بقول الله تعالى:

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أي: اختبروا عقولهم، وتبينوا أحوالهم ومعرفتهم بالتصرف

(١) تفسير البضاوي: ١٠/٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٥٨/١.

(٣) تفسير أبي السعود: ١٤٥/٢.

(٤) زاد المسير: ١٣/٢.

في المال قبل البلوغ، وذلك بأن يُدْفَعَ لليتيم ما يتصرّف فيه، حتى تتبيّن حاله. وفيه دليل على جواز الإذن للصبي العاقل في التجارة^(١).

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: بلغوا مبلغ الرجال والنساء، لقوله تعالى في

سورة النور: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٩).

والبلوغ للذكور والإناث بالاحتلام والسنّ، وتختصّ الإناث بالحيض والحبل، والسنّ عند جمهور العلماء خمس عشرة سنة، للحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: عرضني رسول الله ﷺ يوم أحد في القتال، وأنا ابن أربع عشرة سنة، فلم يُجزني، وعرضني يوم الخندق، وأنا ابن خمس عشرة سنة، فأجازني. [رواه مسلم (١٨٦٨)].

والبلوغ عند الإمام مالك في رواية ابن القاسم: ثماني عشرة سنة للذكور والإناث، وعند الإمام أبي حنيفة: ثماني عشرة سنة للغلام، وسبع عشرة سنة للإناث.

وبلوغ ابن عمر ليس من الضروري أن يكون معيار بلوغ عامة الناس.

﴿فَإِنْ أَسْقَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ أي: أبصرتم وتبينتم منهم حسن تصرف في المال، من غير ضعف ولا تبذير.

﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: سلّموا إليهم أموالهم.

فتسليم المال إلى اليتيم يكون بشرطين: إيناس الرشد، والبلوغ، فإن وُجد أحدهما دون الآخر لم يجز تسليم المال^(٢).

ودلّت الآية على وجوب المبادرة إلى دفع المال عند تحقق الشرطين، وعدم التأخير عن ذلك؛ لأن الإيناس أول ما يتبادر من العلم.

ثم أكد تعالى وجوب تسليم المال إلى اليتيم والمحافظة عليه قبل ذلك فقال:

(١) تفسير النسفي: ١١/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٣٨/٥.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهُمَا إِشْرَاقًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ أي: لا تسارعوا إلى أكل أموال اليتامى قبل أن يكبروا، وذلك بالإسراف في إنفاقها.

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: ومن كان من الأولياء والأوصياء غنياً عن مال اليتيم، غير محتاج إليه، فليحترز عن أكله، ولا يأخذ منه شيئاً.

﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فليأكل بقدر جهده الذي يبذله في حفظ مال اليتيم، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس ومكانهم وزمانهم.

وهو ما ذهبت إليه السيدة عائشة رضي الله عنها، فقد قالت في الآية: إنها نزلت في مال اليتيم، إذا كان فقيراً، أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف.

وفي رواية أخرى: أنزلت في ولي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلح ماله. [رواه البخاري (٤٥٧٥)].

وهذا يدل على أن الشريعة الإسلامية تحرص على حقوق جميع الناس، ولا تهمل حق أحدٍ مهما كان.

ثم أرشدت الآية الأوصياء والأولياء إلى الإشهاد على تسليم المال لليتيم، فإن ذلك يبعدهم عن تهمة الخيانة، ويدفع عنهم الخصومة:

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ بأنهم قبضوها وتسلموها، وبرأت عنها ذممكم.

وهذا الإشهاد مستحب عند طائفة من العلماء، فإن القول قول الوصي لأنه أمين، وقالت طائفة: هو فرض، وهو ظاهر الآية، وإنما هو أمين للأب، ومن ائتمنه الأب لا يقبل قوله على غيره^(١).

﴿وَكُنْ لِلَّهِ حَاسِبًا﴾ أي: محاسباً، فهو سبحانه رقيب عليكم، كما مر في أول آيات السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، فحاسبوا أنفسكم قبل أن يحاسبكم ربكم جل وعلا، ولا تتجاوزوا حدوده التي حدّها لكم.

(١) تفسير القرطبي: ٤٥/٥.

• تقرير المزيد من حقوق الضعفاء:

انتعش الضعفاء، ورفعوا رؤوسهم، وأخذوا يتطلعون في ظل الشريعة الإسلامية الجديدة إلى مزيد من حقوقهم المهدورة في المجتمعات الجاهلية، وما هي أم كُجّة زوجة أوس بن ثابت الأنصاري، الذي توفي عنها وعن ثلاث بنات، تأتي إلى رسول الله ﷺ، تشكو إليه ما صنعه رجلان من أبناء عم زوجها، أخذوا ماله، ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يُعطى إلا مَنْ قاتلَ على ظهور الخيل، وطاعنَ بالرمح، وضاربَ بالسيف، وحازَ الغنيمة. فذكرت أم كُجّة ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاهما فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركبُ فرساً، ولا يحملُ كلاً، ولا ينكأُ عدوّاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «انصرفا حتى أنظرَ ما يحدثُ الله لي فيهنَّ» فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم وإبطالاً لقولهم^(١):

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرٌ نَّصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧).

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي: من المال.
 ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرٌ﴾ أي: سواء كان المال الذي تركه الميت قليلاً أم كثيراً.
 ﴿نَّصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: مقطوعاً لابدّ لهم أن يحوزوه، فهو حقٌّ شرعيٌّ مقررٌ للوارث، بيّن بعد ذلك آيات الميراث مقداره - كما سيأتي -.
 قال القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا: في هذه الآية فوائد ثلاث:
 إحداها: بيان علة الميراث، وهي القرابة.
 الثانية: عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أو بعيد.

(١) تفسير القرطبي: ٤٦/٥.

الثالثة: إجمال النصيب المفروض، وذلك مبين في آية المواريث، فكان في هذه الآية توطئة للحكم وإبطال لذلك الرأي الفاسد، حتى وقع البيان الشافي^(١).

ولما كانت الشريعة الإسلامية تجمع بين العدل اللازم المفروض، وبين الإحسان المستحب المندوب، توجهت الآيات إلى البالغين من الورثة، تحضهم على الإحسان للذين يحضرون قسمة الميراث من الأقارب واليتامى والمساكين، الذين لا نصيب لهم في الميراث:

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم من الميراث شيئاً تطيباً لقلوبهم. ﴿وقولوا لهم قولا حسنا لا اذى فيه ولا منة﴾.

● الجزء من جنس العمل:

وانتقلت الآيات من خطاب الورثة، إلى خطاب الأولياء والأوصياء والقضاة وكل من له صلة بقسمة المواريث، تعظهم وتذكّرهم، وتوصيهم بالضعفاء من الورثة، وتستشير شفقتهم عليهم وعاطفتهم نحوهم، لكي يحفظوا لهم حقوقهم:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا﴾ أي: أولاداً صغاراً.

(١) تفسير القرطبي: ٤٦/٥.

﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: خافوا عليهم من الفقر والضياع بعدهم، بسبب عدوان الأولياء والأوصياء عليهم.

﴿فَلْيَسْتَفْؤُا اللَّهَ﴾ أي: فليتقوا الله بهؤلاء الصغار الضعفاء الذين أوْتَمَنُوا على حقوقهم، وليشفقوا عليهم كما يشفقون على أولادهم الصغار، فالجزاء من جنس العمل، فقد يتعرض أولادهم إلى مثل ما يتعرض له هؤلاء الأيتام، فكما يحبون أن يُعامل أولادهم من بعدهم، عليهم أن يعاملوا هؤلاء الأيتام.

روى ابن جرير الطبري بسنده: «عن الشيباني قال: كُنَّا بالقسطنطينية أيام مَسْلَمَةَ بن عبد الملك، وفينا ابن محيريز وابن الديلمي وهانئ بن كلثوم، فجعلنا نتذاكر ما يكون في آخر الزمان، فضِقتُ ذرعاً بما سمعتُ، فقلتُ لابن الديلمي: يا أبا بشرٍ بودي أنه لا يولدُ لي ولدٌ أبداً، فضرَبَ بيده على منكبي وقال: يا ابن أخي لا تفعل، فإنه ليست من نسمة كتبَ الله لها أن تخرجَ من صلبِ رجلٍ، إلا وهي خارجةٌ، إن شاء وإن أبى، ثم قال: ألا أدُلُّكَ على أمرٍ إن أنت أدركتَهُ نَجَاكَ الله منه، وإن تركتَ ولدك من بعدك حفظهم الله فيك؟ قلت: بلى. فتلا عند ذلك هذه الآية»^(١).

﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: عدلاً وصواباً، يحفظون فيه الحق لأصحابه من غير حَيْفٍ أو جَوْرٍ، فإنَّ حقوق اليتامى وأموالهم شأنها في الإسلام خطير، وأكلها ذنب كبير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ أي: على وجه الظلم بغير حق.

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: إنما يأكلون في بطونهم ما يجرُّ إلى النار، ويؤوّل إليها يوم القيامة.

﴿وَسَبَّحُوا بُرُوقًا سَعِيرًا﴾ أي: وسيدخلون يومَ القيامةِ ناراً مسعرة موقدة.

• ميراث الآباء والأبناء:

مهد قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ...﴾ [النساء: ٧] لنزول آيات الميراث الثلاث، التي جمع الله تعالى فيها بإعجاز باهر، بين الأحكام والتفصيل، وقد فصل فيها سبحانه تفصيلاً بديعاً دقيقاً أنصبة الورثة من تركه المتوفى، بإحكام وإتقان باهر.

وقد ذكروا في سبب نزول آيات الموارث، أنَّ مستضعفين آخرين أتوا إلى النبي ﷺ، لكي ينصفهم، ويدفع عنهم ظلمَ الجاهلية وقسوتها.

فقد أخرج [أحمد (٣/ ٣٥٢) وأبو داود (٢٨٩١) والترمذي (٢٠٩٣) وابن ماجه (٢٧٢٠)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتِلَ أبوهما معك في أحد، وإنَّ عمَّهما أخذَ مالهما. قال: «يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ» فنزلت آية الميراث، فأرسل إلى عمَّهما فقال: «أعْطِ ابنتي سعدِ الثلثين، وأمَّهما الثمن، فما بقي فهو لك».

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وما أجملها من وصية! فهو سبحانه أرحم بأولادنا منا، أي: يأمركم الله بالعدل في أولادكم، فإنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث، فأمر تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يشمل كل ولد موجود، ولو كان جنيناً في بطن أمه^(١).

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أي: إذا اجتمع الولد والبنتان كان له سهمان، وللبنيتين سهمان.

وأما في حال الانفرد فالابن يأخذ المال كله. والبنتان تأخذان الثلثين، دل عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً﴾ أي: كانت الأولاد نساءً خُلصاً، بنات ليس معهن ابن.

﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي: زائدات على اثنتين.

﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: ثلثا ما ترك الميت من المال.

﴿وَإِنْ كَانَتْ وَحْدَةً﴾ أي: كان للميت بنت واحدة.

﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ أي: نصف ما ترك الميت، إن لم يكن معها ابن، فإن كان

معها ابن فلها الثلث، وللابن الثلثان.

وإذا كان الثلث نصيب البنت الواحدة، فالثلثان نصيب البنيتين، وسيأتي في آخر السورة - عند آية الميراث الثالثة - أن للأخت عند عدم الوالد والولد نصف الميراث، وللأختين الثلثين، والبنتان أمسُ رحماً بالميت من الأختين؛ ولهذا أوجب لهما أكثر العلماء الثلثين.

وجاء نصيب الولد ضعف نصيب أخته في الميراث، منسجماً مع عدالة الشريعة الإسلامية وواقعيتها؛ إذ كلفت الشريعة الإسلامية الذكر بمسؤوليات مادية أكثر من الأنثى، فالأنثى في الشريعة الإسلامية لا تكلف بالإنفاق على أحد، بل أوجب الإسلام نفقتها إذا لم يكن لها مالٌ على أقرب الناس منها، ولم يكلفها بالعمل والاكْتِسَاب، فالبنتُ نفقتها على والدها، والزوجةُ على زوجها، والأمُّ على أولادها، والأختُ على إخوتها، وإذا ما تزوجت أخذت المهر، بينما إذا تزوج أخوها كُلف بدفع المهر والإنفاق على الأسرة.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٦٢/١.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: لكل واحد من والدي المتوفى سدس ما ترك.

﴿إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: إن كان للمتوفى ولد، ذكراً كان أو أنثى.

﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ أي: ثلث ما ترك المتوفى.

وسكتت الآية عن بيان نصيب الوالد في هذه الحالة؛ لأنه يأخذ الباقي من التركة؛ إذ هو داخل في حالته المقررة في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ فبيان نصيب أحدهما يدل على أن الباقي من التركة للثاني، وهو ما جاء مصرحاً به في الحديث النبوي الشريف: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوَّلَى رَجُلٍ ذَكَرَ» [رواه البخاري (٦٧٣٢)].

وينقص نصيب الأم من الثلث إلى السدس إذا كان للميت إخوة، اثنان من الإخوة والأخوات فأكثر، لقوله تعالى:

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ وليس للإخوة في هذه الحالة شيء، فالباقي يأخذه الأب، كرجل مات عن أبوين وأخوين، فإنَّ للأم السدس، والباقي - وهو خمسة أسداس - للأب، سدس بالفريضة، والباقي بالتعصيب، قال قتادة: وإنما حجب الأخوة الأم من غير أن يرثوا مع الأب شيئاً، معونة للأب؛ لأنه يقوم بشأنهم وينفق عليهم، دون الأم^(١).

﴿مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: هذه الفروض والسهام، تعطى لأصحابها بعد قضاء دين المتوفى، وإنفاذ وصيته التي أوصى بها من ثلث ما ترك.

وذكر الوصية مقدّم على الدّين في اللفظ لا في الحكم؛ لأنَّ كلمة (أو) لا تدل على الترتيب، والدّين يُبدَأُ به قبل تنفيذ الوصية؛ لأنه حقٌّ سابق في مال الميت، فالمدين لا يملك من ماله إلا ما هو فاضلٌ عن وفاء دينه.

قال ابن كثير رحمته الله: «أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يُفهم من فحوى الآية الكريمة.

وروى [أحمد (٧٩/١) والترمذي (٢٠٩٦)]: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنكم تقرأون: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية^(١).

﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: الذين ذكر الله فروضهم في الآية، هم آباؤكم وأبناؤكم، فالتزموا بما فرض الله فيها، فإنكم لا تدرون أيهم أنفع لكم، فقد ينفع الله الوالد بدعاء ولده الصالح له بعد موته، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [رواه مسلم (١٦٣١)].

وقد ينفع الله الولد بصلاح والده يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي: ما قُدِّر من الفرائض في الموارث فريضة واجبة أوجبها الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: في كل ما قُدِّر وشرع، فالتزموا بشرعه وتمسكوا بحكمه.

• ميراث الزوجين:

ثم بين سبحانه التوارث بسبب الزواج وعصمة النكاح، وما كانوا في الجاهلية يتوارثون به، فقال:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٦٣/١.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَاكَرٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: إن لم يكن لهنَّ فرْعٌ وارث من بطونهن، ذكر أو أنثى، منكم أو من غيركم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ﴾ أي: من المال.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: من بعد وفاء ما عليهنَّ من دين، وتنفيذ وصاياهن، وهذا يدل على أن للمرأة في الإسلام حقاً في الإيصاء والتعامل بالدين كالرجل.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ أي: للزوجات ربع ما ترك الزوج المتوفى إذا لم يكن له ولد، ذكر أو أنثى، منهن أو من غيرهن.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ﴾ أي: من المال.

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ من بعد وفاء ما عليكم من دين، وتنفيذ وصاياكم.

والجدير بالذكر أنَّ الزوجة الواحدة لها الربع أو الثمن، ولو كنَّ أربع زوجات يشتركن في الربع أو الثمن، وأنَّ اسمَ الولدِ يطلق على الذكر والأنثى، ولا فرق بين الولد وولد الابن.

• ميراث الإخوة من الأم:

والإخوة من الأمَّ لهم نصيبٌ في الميراث إذا لم يكن للمتوفى والد أو ولد، قال تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً﴾ أي: تورث كلالَةً أيضاً.

والكلالة: اسم مصدرٍ من الكلال، وهو التعبُ والإعياءُ، والمرادُ به: الميتُ الذي يموْتُ من غيرِ والدٍ ولا وليٍّ.

﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: وللمتوفى أخٌ من أم، أو أخت من أم، واكتفى ببيان حكم الرجل عن المرأة، لدلالة العطف على اشتراكهما فيه.

﴿فَلِكُلٍّ وَحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ إِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ لأنهم يستحقون الميراث بقربة الأم، وهي لا ترث بأكثر من الثلث؛ ولهذا لا يفضل الذكر منهم على الأنثى^(١).

﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وإنما تكرر ذكر الوصية والدَّين، لاختلاف الموصين والمدينين.

وهذا يدل على اهتمام الشريعة الإسلامية بحقوق الناس، وحرصها على وصول أصحاب الحقوق إلى حقوقهم، ولهذا شرط الله تعالى على الموصين ألا يدخلوا الضرر بوصاياهم على الورثة، فقال:

﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أي: يوصي بها غير مُدْخِلِ الضرر على الورثة، كأن يوصي بأكثر من الثلث، أو يوصي بوفاء دين ليس عليه، أو يقر بماله أو أكثره لأجنبي ويترك الورثة^(٢)، أو يقر به لبعض الورثة ليحرم الآخرين، وكل ذلك إضرار محرّم، مخالف لشرع الله تعالى.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام وصية من الله تعالى عهد بها إليكم، فالتزموا بها.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بمصالح عباده.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو حلم وأناة، لا يعاجلهم بالعقوبة حتى يرجعوا ويتوبوا.

(١) تفسير النسفي: ٣٠/٢.

(٢) تفسير الخازن: ٣٠/٢.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣).

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام التي سبق بيانها، شرع الله تعالى الذي شرعه لكم، فهي بمثابة الحدود المحددة للمكلفين لا يجوز لهم تجاوزها. ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ومن التزم ما شرع الله تعالى وما سنَّ له رسول الله ﷺ، ورضي بذلك:

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وجاء بعد هذا الترغيب في التمسك بشريعة الله تعالى التهيب والوعيد لمن أعرض عنها:

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِيمٌ﴾ (١٤).

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: ومن يخالف حكم الله تعالى وشرعه. ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ أي: ويتجاوز شرعه سبحانه إلى ما يشرعه البشر من الشرائع والقوانين الوضعية.

﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ أي: ماكثاً فيها أبداً.

﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِيمٌ﴾ لهوانه على الله تعالى.

ولعل أفراد اللفظ هنا في آية التهيب، وجمعه هناك في آية الترغيب، للإشعار بأنّ الخلود في دار الثواب بصيغة الاجتماع أجلبّ للأنس، كما أنّ الخلود في دار العذاب بصيغة الانفراد أشدّ في استجلاب الوحشة^(١).

(١) تفسير أبي السعود: ١٥٤/٢.

• سلامة العرض:

وكما حفظ الإسلام للإنسان حقوقه المادية، حفظ له أيضاً حقوقه المعنوية، وأهمها سلامة عِرضِهِ، وصيانته عن القدح والذم، ولهذا حَرَّمَ الزنى، وحرَّمَ أيضاً قذف الإنسان بالزنى، واتهامه به. وشرط لثبوت جريمة الزنى شهادة أربعة شهود عدولٍ. وشرع سبحانه في أول الأمر عقوبةً للزناة بقوله:

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝﴾.

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَدْحَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ أي: يفعلن الفاحشة، وهي جريمة الزنى، سُميت بالفاحشة لزيادة قبحها.

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي: اطلبوا شهادة أربعة من المسلمين. والخطابُ للحكام والقضاة، فلا تثبت جريمة الزنى إلا بشهادة أربعة شهود، أو بإقرار الزاني أربع مرَّاتٍ في أربعة مجالس.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي: شهدوا عليهن بالزنى.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ أي: احبسوهن في البيوت، فلا يخرجن منها.

﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي: حتى يستوفي الموت أرواحهنَّ.

ففي الآية تهويلٌ للموت، وتصويرٌ له في صورةٍ مَنْ يتولَّى قبض الأرواح.

فالمرأة الزانية تُحبَسُ في البيت، وتُحمَلُ على الإقامة الدائمة فيه، وتُمنَعُ من الخروج والتسكُّع في الشوارع والطرقات، فلا يتعرَّضُ لها أحد، ولا تتعرَّضُ لأحد. وقد شرع هذا الحكم أولاً قبل تشريع حدِّ الزنى، ولهذا قال تعالى يشير إلى أنه حكم مؤقت:

﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: يشرع لهن حكماً خاصاً يبين فيه كيفية

معاملتهن.

وأما الرجال الزناة فشرع لهم سبحانه أولاً عقوبة الأذى:

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (١٦).

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ﴾ أي: واللذان يفعلان الفاحشة، والمراد بهما صنف الرجل المتزوجين وغير المتزوجين، أو اللذان يفعلان فاحشة اللواط.

﴿فَأَذُوهُمَا﴾ أي: بالشتم والتعير، والضرب بالنعال.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي: تابا عن الفاحشة، وتركما ما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: فتوقفوا عن إيذائهما.

أو: أعرضوا عنهما بالإغماض والستر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: يقبل توبة التائب ويرحمه.

وهذا أيضاً قبل تشريع حد الزنى بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] وهذا إذا كانا غير متزوجين، أما إذا كانا متزوجين فعقوبتهما الرجم كما ثبت في السنة الصحيحة من قوله وفعله ﷺ.

• المسارعة إلى التوبة:

ومن المعلوم أن تشريع العقوبات لا يكفي وحده لتطهير المجتمع من المجرمين، ولا بد أن ترافقه التربية والتوجيه والإرشاد، ولهذا اتجهت الآيات تخاطبُ العصاة والمجرمين تحثهم على التوبة، وترغبهم فيها:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧).

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: إن قبول التوبة كالأمر المحتوم على الله تعالى بمقتضى وعده بقبول توبة التائبين.

﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي: متلبسين بجهالة، وهي السفه والطيش والجهل، فهي وصفٌ كاشفٌ، لأن ارتكاب القبح يدعو إليه السفه والجهل.
قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره^(١).

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي: يتركون الذنب، ويتوبون عنه بعد فعله بزمن قريب، ولا يصرون عليه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ويمتد زمن التوبة إلى وقت الاحتضار وانتهاء الحياة، ولكن الآية تحث على المبادرة إلى التوبة، وعدم الإصرار على الذنب، لأن الإنسان لا يدري متى ينزل به الموت وينتهي أجله، فقد تفوته التوبة، ويموت مصراً على المعصية، وقد تدمن النفس على المعصية، فلا تستطيع تركها والتخلص منها.

وفي الآية إشارة أيضاً إلى قصر الحياة وقرب الموت، فكل آت قريب، وعمر الإنسان مهما طال قليل، والموت منه قريب.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يقبل سبحانه توبتهم بفضلهم ورحمته فهي عِدَّةٌ وهبةٌ كريمة من الله ﷻ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالتائبين المخلصين في توبتهم.

﴿حَكِيمًا﴾ في العفو عنهم وقبول توبتهم.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: ولا توبة للذين يعملون السيئات ويصرون عليها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُنْتُ الْأُنْثَىٰ﴾ فهي توبة اليأس، وهي غير مقبولة، كتوبة فرعون عندما أدركه الغرق: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكُهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٩﴾ ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس].

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: ولا توبة أيضاً للذين يموتون على الكفر، فكما لا يقبل الله توبة الكافر يوم القيامة، فإنه لا يقبل أيضاً توبة المصرين حين ينزل بهم الموت.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المذكورون من الفريقين.

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: هيأنا لهم عذاباً مؤلماً موجعاً.

• تحريم مظالم جاهلية:

وتابعت الآيات تقرّر الحقوق، وتدفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ أي: لا يحل لكم أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تؤخذ المواريث، وهن كارهات لذلك. وهي من صور الظلم التي كانت المرأة تعاني منه في الجاهلية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوّجها، وإن شاؤوا زوّجوها، وإن شاؤوا لم يزوّجوها، وهم أحقّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك. [رواه البخاري (٤٥٧٩)].

ثم أضافت الآيات دفع مظلمة جاهلية أخرى كانت تصدر من الأزواج الذين يسيئون معاملة زوجاتهم، فوجهت الخطاب إليهم:

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ﴾ أي: لا تضاروهن في العشرة

لترك لك صداقها أو بعضه، أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك، على وجه القهر لها والإضرار^(١).

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ أي: إلا أن يكون سوء العشرة من جهتهن، كإيذاء الزوج وأهله، وقيل: الفاحشة هي الزنى، فالمراد إذا نشزت أو زنت حلّ للزوج أن يسألها الخلع بما أعطاه من المهر أو ببعضه.

وبعد أن نهاهم سبحانه عن ظلم المرأة والإضرار بها، أمرهم تعالى بالمعاشرة الحسنة والمعاملة الطيبة، فقال:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: بحسب ما أمر الله تعالى، وسنّ رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، يتودّد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقتها بعدما حملت اللحم فسبقني، فقال: «هذه بتلك» [رواه أبو داود (٢٥٧٨)، وابن ماجه (١٩٧٩)].

وكان يجمع نساءه كلّ ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهم العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كلّ واحدة إلى منزلها. [رواه أبو داود (٢١٣٥)]^(٢).

ومن حسن العشرة أيضاً: الصبرُ عليهنّ، واحتمالُ ضعفهنّ وتقصيرهنّ. ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أي: سئمتن صحبتهن فلا تفارقوهنّ، واصبروا على معاشرتهنّ، فالإسلام حريص على بقاء الأسرة، ولا يشجع الطلاق. ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فقد تكره النفوس ما في عاقبته خير كثير.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٦٨/١.

(٢) المرجع السابق: ٣٦٩/١.

ففي الآية إرشادٌ إلى التأني والترؤي وعدم الاغترار بالمظاهر الخادعة، قال رسول الله ﷺ: «لَا يَمُرُّكَ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةٌ - أَي: لَا يَبْغُضُ - إِلَّا كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ» [رواه مسلم (٩٦٤١)].

ومرّ معنا وصيته ﷺ بالنساء وقوله: «استوصوا بالنساء، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرَتْهُ...» [رواه البخاري (٥١٨٦)].

وحرم الله أيضاً على الأزواج استرداد شيءٍ من مهر المرأة، إذا أرادوا طلاقها، فقال:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ أي: إِنْ أَرَدْتُمْ تَطْلِيقَ امْرَأَةٍ وَتَزَوُّجَ أُخْرَى:

﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ أي: مَا لَا كَثِيرًا.

﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لَا تَأْخُذُوا مِنَ الْقِنْطَارِ شَيْئًا.

﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ وهو استفهامٌ إنكارٍ وتوبيخ.

والبهتان: اتهام البريء، وكان أحدهم إذا أراد امرأةً جديدةً رمى زوجته بفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها، ويتمكّن بذلك من الزواج بغيرها.

وتابعت الآيات تستعظم هذا الذنب وتوبّخ فاعليه:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: كَيْفَ تَأْخُذُونَ الْمَهْرَ! وَقَدْ

تَمَّ اجتماع بعضكم إلى بعض، وخلا بعضكم إلى بعض؟ فَإِنَّ حسن العهد من الإيمان، والله يُسألُ عن صحبة ساعة، أَبَعَدَ أَنْ صَحَبَتْهَا وَعَاشَرَتْهَا تَأْخُذُ مَهْرَهَا، وَتَظْلِمُهَا حَقَّهَا؟! .

وكلمة ﴿أَفْضَى﴾ تدلُّ على عمق الصلة بين الزوجين، وتذكير للزوج بما كان بينه وبين زوجته قبل أن تسوء العلاقة بينهما، فهي ترسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضُمَّتَهما فترةً من الزمن، وفي كلِّ اختلاجة حُبِّ إفضاء، وفي كلِّ نظرة ودِّ إفضاء، وفي كلِّ لمسة جسم إفضاء، وفي كلِّ اشتراك في ألم وأمل إفضاء^(١).

﴿وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً مؤكداً شديداً عند عقد النكاح، فللصحبة السالفة حرمة أكيدة، فراعوها، وأوفوا بموجب ميثاقها.

أخرج الحاكم والبيهقي في «الشَّعَب»: عن عائشة ؓ قالت: جاءت عجوزٌ إلى النبي ﷺ، فقال: «كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلتُ: يا رسول الله تُقبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «يا عائشة إنها كانت تأتينا زمانَ خديجة، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان»^(٢).

• تحريم الزواج من زوجات الآباء:

مرَّ معنا في أول آية في السورة أَنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من جزءٍ من أجزاء الرجل، وأنَّ هذا أصل الميل الفطري عند الرجل والمرأة إلى بعضهما، فكلُّ واحدٍ منهما زوج للآخر، ولهذا فَإِنَّ الزواج حقٌّ من الحقوق الطبيعية لكلِّ من الرجل والمرأة، ومطلب ضروري لهما.

وقد شرعه الله تعالى في الإسلام، وحثَّ عليه النبي ﷺ قولاً وفعلاً، واهتمَّت الآيات الكريمة به، فبيَّنت كثيراً من أحكامه، ومن الأحكام التي بيَّنتها

(١) في ظلال القرآن: ٦٠٦/١.

(٢) فتح الباري: ٤٣٦/١٠.

آيات سورة النساء بيان المحرمات في النكاح، وبدأت الآيات أولاً بتحريم الزواج من أزواج الآباء، الذي كان سائداً في الجاهلية، وكان مظهراً من مظاهر الظلم الذي كانت المرأة تعاني منه كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ [النساء: ١٩]، وكثيراً ما كان الولد الكبير للمتوفى يتزوج بزوجة أبيه، حتى أنزل الله تعالى قوله الكريم:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢).

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء، فإنهن محرمات عليكم.

وفسر بعضهم النكاح بالوطء، وعليه تكون موطوءة الأب بزواج أو بزنى محرمة على الابن.

وتشمل كلمة (الآباء) الأجداد مهما علوا، فنساؤهم محرمات على أحفادهم.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: لكن لا تؤاخذون على ما قد سلف ومضى قبل نزول التحريم، مما يدل على أنه كان سائداً في الجاهلية.

قال ابن كثير رحمه الله: «حرم الله تعالى زوجات الآباء تكريماً لهم، وإعظماً واحتراماً أن توطأ من بعده - أي: من قبل ولده - حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه»^(١).

وروى ابن جرير الطبري بسنده إلى عكرمة: «أنه قال: نزلت في أبي قيس بن الأسلت، خلف على أم عبيد بنت ضمرة، كانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلف على بنت أبي طلحة بن عبد العزى، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة بنت الأسود، وكانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٧٠/١.

صفوان بن أمية، وفي منظور بن رباب، وكان خلف على مُليكة بنت خارجة، وكانت عند أبيه رباب بن سيّار^(١).

﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أي: إنَّ نكاحَ زوجة الأب فاحشة؛ لأنَّ زوجة الأب بمنزلة الأم، ونكاح الأمهات حرام، ولهذا سماه فاحشة لأنه من أقبح المعاصي. ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: وكان مقتاً، والمقت: أشدُّ الغضب، فهو يورث المقت من الله تعالى، ويورث أيضاً مقت الولد لأبيه بعد أن يتزوج امرأته.

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وطريقاً سيئاً لقضاء الشهوة، كما قال في الزنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فمن تعاطاه بعد هذا البيان، فقد ارتدَّ عن دينه، ويعاملُ معاملة المرتد. فقد روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه: عن خاله أبي بُرْدَةَ: أنَّه بعثه رسولُ الله ﷺ إلى رجلٍ تزوجَ امرأةَ أبيه من بعده، أن يقتله، ويأخذَ ماله. [رواه أحمد (٤/ ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧) وأبو داود (٤٤٥٧) والترمذي (١٣٦٢) والنسائي (١٠٩/٦) وابن ماجه (٢٦٠٧)].

• المحرّمات في الزواج:

ثم أضافت الآيات بيان المحرمات في النكاح بقوله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي: اللاتي ولدنكم مهما علونَ كأُمِّ الأب وأم الأم.

(١) تفسير الطبري: ٣١٨/٤.

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ أي: اللاتي من فروعكم مهما نزلت كبت الابن وبنت البنت.
 ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ جمعُ أختٍ، وهي كلُّ امرأةٍ شاركتك في أصلك. فيشمل
 التحريمُ الأخواتِ الشقيقاتِ من الأب والأم، والأخواتِ من الأب، والأخواتِ
 من الأم.

﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ جمعُ عمّة، وهي كلُّ امرأةٍ شاركت أباك في أصله، وهنَّ
 جميع أخواتِ الأب وأخواتِ آبائه وإن علون، وقد تكون العمّة من جهة الأم
 كأخت أب الأم.

﴿وَحَلَائِكُكُمْ﴾ جمع خالة، وهي كل امرأة شاركت الأم في أصلها كما في
 العمّات.

﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ أي: مهما نزلن.

فهذه الأصناف السبعة محرّمة بالنسب، وحرمتهن مؤكّدة، لا تحلُّ بوجه من
 الوجوه.

وأما المحرّمات بالسبب فهن:

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ فكل امرأة أرضعتك
 فهي محرّمة عليك، وهي أمك من الرضاعة، وبناتها محرّمات عليك، وهنَّ
 أخواتك من الرضاعة.

والجدير بالذكر: أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.

وذكر سبحانه الأم والأخت ليدل على تحريم جميع الأصول والفروع.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل للنبي ﷺ: ألا تتزوج
 ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخي من الرضاعة» [رواه البخاري (٥١٠٠)].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»
 [رواه البخاري (٥٠٩٩)].

فكلُّ مَنْ حُرِّمَتْ بسبب الولادة والنسب حُرِّمَ نظيرها بسبب الرضاعة، وإنّما
 سمّى الله المرضعات أمهاتٍ لأجل الحرمة، فيحرم عليه نكاحها، ويحلُّ له النظر

إليها، والخلوة بها، والسفر معها، ولا يترتب عليه جميع أحكام الأمومة من كل وجه، فلا يتوارثان، ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر^(١).

ولا يتعدى التحريم إلى أحدٍ من قرابة الرضيع، فليست أخته من الرضاعة اختاً لأخيه، ولا بنتاً لأبيه، إذ لا رضاع بينهم^(٢).

والرضاع المحرّم هو الذي يقع في السنتين الأوليين من عمر الرضيع، وعند أبي حنيفة يمتدّ إلى انتهاء سنتين ونصف.

﴿وَأَمْهَتْ نِسَائِكُمْ﴾ فمن تزوّج امرأة حرّمت عليه أمّها وجميع جداتها من قبل الأب والأم، ويثبت التحريم بمجرد العقد عليها؛ دخل بها أو لم يدخل.

﴿وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ أي: ويحرم عليكم بنات نساءكم اللاتي ربيّن في بيوتكم.

وهذا بيانٌ لعلة التحريم، وليس شرطاً له، فبنتُ الزوجة تحرم على الزوج مطلقاً سواء نشأت في حجره أم لا.

﴿مَنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي: بشرط أن يتم الدخول بأمرها.

وأما إذا طلقها قبل الدخول بها أو ماتت، فتحل له بنتها لقوله تعالى:

﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا حرج عليكم أن

تتزوجوا بناتهن إذا فارقتوهن بطلاق أو موت.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ أي: ويحرم عليكم أزواج أبنائكم، جمع حليلة،

والرجل حليل، لأنّ كل واحد منهما يحل للآخر، أو يحل فراش الآخر؛ من الحل أو من الحلول.

﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي: الذين ولدوا منكم فعلاً، وهم أولادكم في

النسب، وخرج بذلك الذين كانوا يتبنونهم.

(١) تفسير الخازن: ٤٢/١.

(٢) فتح الباري: ١٤١/٩.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتزوّج السيدة زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان ﷺ قد تبناها، وأنزل سبحانه في ذلك قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ودلت الآية على أنه يحرم على الرجل أزواج أبنائه وأبناء أبنائه مهما نزلوا من النسب والرضاع بنفس العقد، ولا يشترط الدخول.

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي: وحرم عليكم الجمع بين الأختين في النكاح، فالجمع بين الأختين في التزويج حرام بالإجماع، سواء كانتا شقيقتين، أم من أب، أم من أم، وسواء النسب والرضاع^(١).

وأضاف النبي ﷺ تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن تُنكَحَ المرأة على عمّتها أو خالتها. [رواه البخاري (٥١٠٨)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا» [رواه البخاري (٥١٠٩)].

وورد في رواية علة التحريم، فعند ابن حبان: عن ابن عباس رضي الله عنهما: نهى أن تزوّج المرأة على العمّة والخالة، وقال: «إِن كُنَّ إِذَا فَعَلْتُنَّ ذَلِكَ قَطَعْتُنَّ أَرْحَامَكُنَّ» إذ يحدث بينهما ما يحدث عادة بين الضرائر من الكراهية والقطيعة.

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: إلا ما مضى قبل التحريم، فهو مغفور لكم.

ولهذا قال تعالى بعده:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(١) فتح الباري: ١٦٠/٩.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢٤﴾.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: وحرّم عليكم المتزوجات من النساء.

وحرمتهن مؤقتة ما دام النكاح قائماً، فإذا انفسخ بطلاق أو موت، وانقضت عدتهن، حلّ الزواج منهن، فالإسلام يبيح تعدد الزوجات، ويحرّم تعدد الأزواج حرصاً على سلامة الأنساب.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: إلا ما ملكتم من الأسيرات المتزوجات.

فإذا أذن وليّ الأمر في استرقاقهن، فيجوز لمن يملكها بعد القسمة أن يطأها بملك اليمين بعد أن يستبرئها بحيضة، ليتأكد من خلوّ رحمها عن حملٍ سابق، فإذا ما حملت وولدت أصبحت أمّ ولدٍ يحرم بيعها، وتصبح حرة بعد موت سيدها. فالتسرّي بملك اليمين من الأسباب المشروعة للوصول إلى الحرية، وهو أيضاً من أسباب منع الزنى وانتشار الفواحش في المجتمع كما سيأتي معنا.

﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كتب الله عليكم تحريم هذه الأصناف من النساء كتاباً. وقرئ بالرفع، ومعناه: هذه فرائض الله عليكم فالتزموا بها.

• تحريم نكاح المتعة:

﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي: أحل الله لكم ما سوى المحرمات المذكورات.

﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ﴾ أي: أحل الله لكم أن تطلبوا بأموالكم غير ما ذكر من النساء متزوجين:

﴿عَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي: غير زانين. والسفاح: الزنى، من السفح وهو الصَّبُّ، وسُمِّي الزنى سفاحاً، لأنَّ الزاني لا غرض له سوى صب النطفة^(١).

ثم بيَّن سبحانه أنَّ الزوجة تستحقُّ المهرَ كُلَّهُ إذا استمتع زوجها بها، فقال: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: فما انتفعتُم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح فآتوهنَّ مهورهنَّ، فإذا جامعها مرَّةً واحدةً فقد وجب المهرُ كاملاً إن كان مسمًى، أو مهر مثلاً إن لم يسمَّ^(٢). ولا يجوز أن تُحْمَلَ الآيةُ على جواز نكاح المتعة، لأنَّ رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة وحرمه^(٣).

ونكاحُ المتعة: هو أن ينكح الرجلُ المرأةَ بمالٍ معلوم إلى أجلٍ معيَّن، ليلةً أو ليلتين أو أسبوعاً، بثبوتٍ أو غير ثبوتٍ، ويقضي منها وطراً، ثم يتركها. والإشهاد على العقدِ مستحبٌّ، وإذن الولي غيرُ معتبرٍ، ولا ميراثٌ بينهما في هذا النكاح، وعلى المرأة الاعتداد بعد انتهائهما بحيضتين كاملتين، فإن كانت لا تحيضُ فعدتها خمسة وأربعون يوماً، والفراق يكون بانتهاء المدَّة، أو أن يهب المتمتعُ المرأةَ ما بقي منها، والنسب فيه ثابتٌ، لأنَّه - بزعمهم - عقدٌ مشروع غيرُ منسوخ^(٤).

وأبيح نكاح المتعة في أول الأمر بالسُّنَّة في الغزو البعيد والسفر الطويل، إذ يشتدَّ الشَّبَقُ، ويقلُّ الصبر، وتُخشى الفتنة، وهم حديثو عهد بإباحية وكفر، ثم حُرِّمَ بالسُّنَّة أيضاً، فلا علاقة للآية بنكاح المتعة البتَّة، إنما هو نكاحٌ أبيح بالسُّنَّة أولاً، ثم نُسخَ حكمُ الإباحة وحُرِّمَ بالسُّنَّة أيضاً، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «وقد تكلف قومٌ من مفسري القراء، فقالوا: المراد

(١) تفسير الخازن: ٥٠/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ١١٩/٥.

(٣) المرجع السابق: ١٣٠/٥.

(٤) انظر: نكاح المتعة في الإسلام حرام، للشيخ محمد الحامد.

بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نُسِخَتْ بما روي عن النبي ﷺ: أَنَّهُ نَهَى عَنْ مَتْعَةِ النِّسَاءِ، وهذا تَكْلُفٌ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَجَازَ الْمَتْعَةَ، ثُمَّ مَنَعَ مِنْهَا، فَكَانَ قَوْلُهُ مَنْسُوخاً بِقَوْلِهِ، وَأَمَّا الْآيَةُ فَإِنَّهَا لَمْ تَتَضَمَّنْ جَوَازَ الْمَتْعَةِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِيهَا: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ فدل ذلك على النكاح الصحيح، قال الزجاج: ومعنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فما نكحتموهن على الشريطة التي جرت، وهو قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي: عاقدين التزويج ﴿فَتَأْتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، ومن ذهب في الآية إلى غير هذا، فقد أخطأ، وجهل اللغة^(١).

وقال الشيخ الآلوسي رحمه الله: «هذه الآية لا تدل على الحل، والقول بأنها نزلت في المتعة غلط، وتفسير البعض لها بذلك غير مقبول، لأنَّ نَظْمَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِأَبَاهُ، حَيْثُ بَيَّنَّ سَبْحَانَهُ أَوَّلًا الْمَحْرَمَاتِ، ثُمَّ قَالَ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ وفيه شرطٌ بحسب المعنى، فيبطل تحليل الفرج وإعارته، ثم قال جل وعلا: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ وفيه إشارة إلى النهي عن كون القصد مجرد قضاء الشهوة وصب الماء واستفراغ أوعية المني، فبطلت المتعة بهذا القيد، لأنَّ مقصودَ المتمتع ليس إلَّا ذاك^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن سُبْرَةَ الْجَهَنِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وفي رواية: عام الفتح -، فقال ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذْنُتُ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عَنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً» [رواه مسلم (١٤٠٦)].

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرٍ، وَعَنْ أَكْلِ لَحْمِ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ. [رواه مسلم (١٤٠٧)].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ﴾ أي: لا حرج عليكم

(١) زاد المسير: ٥٤/٢.

(٢) روح المعاني: ٦/٥.

فيما يتم عليه الاتفاق والتراضي بين الزوجين بعد تسمية المهر، كأن تحطَّ عنه بعضه، أو تهبَّ له كله، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنَيْئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤] أو يزيد لها على مقداره، أو فيما تراضيا به من مقام أو فراق.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

• حقوق الزوجات المملوكات:

ولمَّا كان الزواج حقًّا من حقوق الإنسان مهما كان لونه أو جنسه أو مستواه المادي، أرشدت الآيات الرجال الفقراء - الذين لا قدرة لهم على مهور النساء الحرائر والإنفاق عليهن - إلى الزواج من النساء المملوكات، فالزواج منهنَّ أقلُّ كلفةً، وأخفُّ مؤونةً من الزواج بالحرائر.

ويحقق هذا فوائد اجتماعية كثيرة، إذ يؤدي إلى إحصان كثير من الشباب والفتيات في المجتمع، ويحول دون انحدارهم إلى دركات الانحلال الأخلاقي وممارسة الفواحش، كما يؤدي إلى قيام كثير من الأسر، وإزالة العوائق المادية التي تعوق قيامها، فهو من محاسن نظام الرق الإسلامي، إذا التزم الناس بضوابطه وقيوده الشرعية. قال تعالى:

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمِنْ فَتْيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشَى أَلَعَنْتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥).

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ أي: فضلاً وسعة، وهو الغنى الذي يتمكن

صاحبه من المهر والنفقة، وسُمِّيَ الغنى طَوْلاً، لأنَّه ينال به من المهر ما لا ينال مع الفقر^(١).

﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: أن يتزوج الحرائر المسلمات.
﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: فليتزوج من الإماء المؤمنات، والفتيات: الجواري المملوكات، جمع فتاة، أطلق عليهن الفتيات تكريماً لهن.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، كُلُّكُمْ عِبْدُ اللَّهِ، وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: غُلَامِي وَجَارِيتِي، وَفَتَايَ وَفَتَاتِي» [رواه مسلم (٢٢٤٩)].

والتقييد بالمؤمنة للاستحباب؛ بدليل أن الإيمان ليس شرطاً في الحرائر اتفاقاً، إذ يجوز نكاح الحرة الكتابية، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: وممَّا وسَّعَ الله على هذه الأمة نكاح الأمة اليهودية والنصرانية وإن كان موسراً^(٢).

وذهب بعضهم إلى أن التقييد بالمؤمنة شرط، فلا يجوزُ التزويج بالأمة الكتابية.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ أي: فاكتفوا بظاهر الإيمان، فإنَّه سبحانه العالم بالسرائر، وربُّ أمةٍ مؤمنةٍ تفضلُ حرَّةً.

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: كلُّكم من نفس واحدة، كما مرَّ معنا في أول آيات السورة [١] فالأحرار والأرقاء من أصلٍ واحدٍ.

(١) تفسير الخازن: ٥٢/٢.

(٢) تفسير النسفي: ٥٣/٢.

ولا يخفى ما في الآية من تشجيع على نكاح الإماء عند الضرورة، فقد كانوا يستنكفون عن ذلك، ويفتخرون بالأحساب والأنساب، ولا التفات إلى شيء من ذلك في الإسلام، لأن التقوى أساسُ التفاضل فيه.

والإسلام يحفظ حقوق جميع الناس، ولا يهدر حقَّ أحدٍ على حساب غيره، ولهذا شُرِطَ لصحة نكاح المملوكات إذنُ سادتهنَّ، قال تعالى:

﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: اخطبوهن إلى ساداتهن.

واتفق العلماء على أن نكاح الأمة بغير إذن سيدها باطل، لأن الله تعالى جعل إذن السيد شرطاً في جواز نكاح الأمة^(١).

وتأمل جمال التعبير القرآني ﴿أَهْلِهِنَّ﴾ وما فيه من تكريم للإنسان، وتقدير لمشاعره مهما كان.

ثم بيّنت الآياتُ الشروطَ الأخرى الواجب مراعاتها في الزواج من المملوكات، التي تحفظ لهنَّ حقوقهنَّ كاملةً، فلا فرق في هذا بينهن وبين الحرائر:

﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورُهُنَّ﴾ أي: أدوا إليهن مهورهنَّ بإذن أهلهن، وحذف ذلك لتقدم ذكره، قال مالك رحمته الله: المهر للأمة ذهاباً إلى الظاهر^(٢). أي: الظاهر المتبادر من الآية.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: من غير مُظْلٍ وإضرار ونقصان.

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخَذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: بشرط أن يكنَّ عفيفات غير زانيات، وغير ذواتِ أخدان.

والأخدان: جمع خدن، وهو الصاحب، وأكثر ما يستعمل فيمن يُصاحبُ بشهوة، يقال: خدن المرأة، وخدنيها، يعني حبُّها الذي يزني بها في السرّ.

فالمسافحة: الزانية مع غير شخص معيّن، تتبع كلّ من يدعوها.

(١) تفسير الخازن: ٥٤/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٤/٢.

وذات الخِذْن: هي التي تتخذُ خليلاً تختصُّ به، فلا تزني بغيره حتى تملَّه، وهو أمرٌ شائعٌ كثيراً في المجتمعات الغربية.

﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾ أي: بالزواج، فهو حصن ووقاية من الفواحش.

كما قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ» [رواه مسلم (١٤٠٠)].

• تخفيف العقوبة عن الضعفاء:

﴿فَإِنْ أَتَيْتَ بِمَحْشُورَةٍ﴾ أي: إن قارفت الزنى وفعلته.

﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: فعليهنَّ نصف ما على الحرائر إذا زنين، والمرادُ به الجلدُ، أمَّا الرجمُ فلا ينتصف؛ فيجلدن خمسين جلدة.

وهذا يدل على أنَّ الشريعة الإسلامية تقدِّر ظروف الإنسان، وتخفِّف عنه بعض ما عليه بسببها، والرقُّ من أسباب التخفيف، لأنَّه ضعفٌ، والشريعة الإسلامية تراعي الضعفاء، بخلاف ما كان سائداً في أعراف وقوانين المجتمعات الجاهلية، كانوا يشدّدون على الضعفاء، ويخفّفون على الأقوياء.

كما جاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ قَرِيشاً أَهَمَّتْهُمُ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومَةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ جُبَّارٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: «أَتَسْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟!» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ - وَفِي رِوَايَةٍ: هَلَكَ - مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَتَّهَمُ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقُطِعَ مِخْلَبُ يَدِهَا» [رواه البخاري (٦٧٨٨)].

وكان المعمول به في القانون الروماني الشهير أن تشدّد العقوبة كلما انحطت الطبقة، فكان يقول: ومن يستهو أرملةٌ مستقيمةٌ أو عذراء فعقوبته إن كان

من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله، وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الأرض.

وكان المعمول به في القانون الهندي الذي وضعه منو، وهو القانون المعروف باسم منو شاستر: أنَّ البرهميَّ إن استحقَّ القتل، فلا يجوز للحاكم إلا أن يخلق رأسه، أما غيره فيقتل^(١).

وما تزال الجاهلية الحديثة في أمريكا وفي جنوب إفريقية وفي غيرها تزاوُل هذه التفرقة العنصرية، وتغفّر للأشراف البيض ما لا تغفّره للضعاف الملونين، والجاهلية هي الجاهلية حيث كانت^(٢).

ولا فرق في الشريعة الإسلامية في عقوبة الأرقاء بين المتزوج وغيره، فالآية شرّعت هنا عقوبة الأمة الزانية المتزوجة، والسُّنة شرّعتها لغير المتزوجة، قال الزهري: فالمتزوجة محدودة بالقرآن، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث^(٣).

فعن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ سئلَ عن الأمة إذا زَنَتْ ولم تحصن، قال: «إذا زَنَتْ فاجلدوها، ثم إذا زَنَتْ فاجلدوها، ثم إذا زَنَتْ فاجلدوها، ثم يبعوها ولو بضيفٍ» [رواه البخاري (٦٨٣٧)].

﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشَى الْفَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي: إن تشريع نكاح الإماء للذي خاف الإثم الذي تؤدي إليه غلبة الشهوة وشدتها، وهو الزنى.

ومعنى العنت في اللغة: المشقة، واستُعيرَ للزنى لما فيه من الإثم والضرر في الدين والبدن والعرض.

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: إن تصبروا عن نكاح الإماء حتى ييسر الله لكم الحرائر خير لكم، وذلك حتى لا يكون الولد رقيقاً يتبع أمه في الحرية

(١) في ظلال القرآن: ٦٢٩/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تفسير القرطبي: ١٤٣/٥.

والعبودية، وقد لا تستطيعُ المملوكَةُ القيام بواجباتها الزوجية كالحرة لانشغالها بخدمة سيدها.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

• تذكير وتحذير:

وقد عَوَّدَنَا الحقُّ سبحانه أنه كلما ذكر بعض آيات الأحكام ذكر بعدها ما يؤكدها ويشجع على التمسك بها، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: يريد سبحانه أن يبين لكم الأحكام التي فيها صلاحكم وسعادتكم.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: ويدلُّكم أيضاً على مناهج الأنبياء والصالحين من قبلكم.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ويقبل توبتكم إذا قصرتم وأخطأتم، أو يريد أن يجعل طاعتكم له فيما شرع لكم كفارة عما سلف من ذنوبكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبْنَ بِالسَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرْتِ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمصالح عباده، حكيم في كل ما شرع لهم.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ قَبِلُوا مِثْلًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يريد أن يقبل توبتكم فتمسكوا بشرعه، والتزموا بأحكامه، فهي لسعادتكم.

كرر سبحانه هذا المعنى تأكيداً بأسلوب الجملة الاسمية إظهاراً لفضله

تعالى على عباده فيما شرع لهم، وحثاً لهم على الانقياد لأحكامه والتسليم لها، ولهذا قال في مقابل ذلك:

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: ويريد الذين غلبت عليهم شهواتهم فصاروا عبيداً لها، وأطاعوها من دون الله تعالى، كما في قوله سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٢٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعم بل هم أضل سبيلاً﴾ [الفرقان].

﴿أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ أي: أن تميلوا عن الحق الذي شرعه سبحانه لكم، فتهجروا إلى شرائعكم الوضعية الناقصة، التي تميل مع مصالح واضعها الشخصية أو الحزبية أو الطبقية أو القبلية، كما هو معروف من حال القوانين الوضعية التي يضعها الناس لأنفسهم.

وتبين الآية حرص المنحرفين عن الحق من عبيد الأهواء والشهوات على نشر فسادهم بين الناس.

ويا سبحان الله ما أصدق كلام الله تعالى! إنه يفسر لنا ما نشاهده في المجتمعات المعاصرة من النشاط الدؤوب المتواصل لرؤساء الضلال والفساد في نشر فسادهم وضلالهم، وكيف يحشدون له كل ما يستطيعون من وسائل الإعلام والتزوير والتحسين، فالزناة يسعون بجذ ونشاط إلى إشاعة الفواحش بين الناس، وكذلك المدمنون على الخمر والمخدرات... إلخ.

ولا يدل قوله سبحانه: ﴿مِيلًا عَظِيمًا﴾ على جواز الميل القليل - في مفهومه المخالف - عن أحكام شريعة الله، إنما الآية جاءت تصف واقع المفسدين، وأنهم يبذلون جهودهم لكي يبعدونا إبعاداً كاملاً عن ديننا وشريعة ربنا جلّ وعلا، فلنحذرهم على ديننا، فخطرهم كبير وعظيم، ففي الآيات تذكير لنا بفضل سبحانه علينا فيما شرع لنا، وفيها أيضاً تحذير لنا من مخالطة المفسدين وبيان خطرهم علينا وعلى ديننا.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: يريد سبحانه في هذه الشريعة السمحة الميسرة أن يخفف عنكم الأثقال التشريعية، التي في الشرائع السابقة، وهذا من فضله تعالى الكبير على هذه الأمة، أنه جعل شريعتها شريعة رحمة وسماحة ويسر كما مر معنا في سورة البقرة [١٨٥].

﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ أي: خلق الإنسان خلقاً محدوداً عاجزاً، ولهذا خفف سبحانه التكاليف فيما شرع له في هذه الشريعة السمحة، وجعل مناط التكليف فيها ما تتسع له إمكانياته الضعيفة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية [البقرة: ٢٨٦].

وقد يكون المعنى: وخلق الإنسان ضعيفاً أمام ميوله وشهواته الفطرية، ولهذا أحلَّ له تعالى ما يؤدي إلى الاستجابة لهذه الشهوات دون إفراط ولا تفريط، كما في قوله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقوله أيضاً: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

فالشريعة الإسلامية شريعة التوسط والاعتدال، تلبي كل الحاجات وال رغبات دون إفراط ولا تفريط.

ففي الآية إشارة إلى ميزات الشريعة الإسلامية على غيرها من الشرائع.

• حرمة الأموال والأنفس:

وَحَتَمَتِ الْآيَاتُ حَدِيثَهَا عَنْ حَقِّقِ الضَّعْفَاءِ بِتَقْرِيرِ حَقِّقِينَ مِنْ أَهَمِّ حَقِّقِ الْإِنْسَانِ؛ وهما: حقه في التملك المشروع للمال، وحقه في الحياة؛ من خلال نداء وجهته للمؤمنين:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۖ﴾ (٢٩)

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: لا يأخذ بعضهم مال بعض بطريق الكسب المحرم.

فللأموال في الشريعة الإسلامية حُرمتها، وللإنسان حق في ملكية المال، الذي يصل إليه بطريق مشروع، ولا يجوزُ الاعتداء على هذا المال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

والباطل: الحرام، ويشمل طرق الكسب المحرمة في الإسلام كلها، كالربا والقمار، والغصب، والسرقة، والغش، والاحتيال، والرشوة... إلخ. ومنها أكل أموال اليتامى ظلماً، ومهور النساء بغير حق، كما مر معنا. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ أي: لكن أخذ المال واكتسابه بوسيلة من وسائل الكسب المشروعة جائز، كالتجارة القائمة على رضا العاقدين، فهي مثال للكسب المشروع في الإسلام.

وخصّصَت التجارة بالذكر لأن أكثر المبادلات المالية بين الناس تتم بها، فهي البيع والشراء، واشتهرت قريشٌ بالتجارة، وكان للعرب في مكة وحولها أسواق معروفة مشهورة كعكاظ ومجنة وذبي مجاز.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضهم بعضاً، فللحياة البشرية حرمتها في الإسلام، ومن قتل غيره عامداً تسبّب في قتل نفسه قصاصاً.

أو: ولا تقتلوا أنفسكم فإنكم كنفس واحدة، فمن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ آجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

أو: لا يقتل أحدكم نفسه بالانتحار، فكما حرّم الإسلام على الإنسان أن يقتل غيره، حرّم عليه أيضاً أن يقتل نفسه، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ فِيهَا (يطعن) فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مَخْلُداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مَخْلُداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مَخْلُداً فِيهَا أَبَداً» [رواه مسلم (١٠٩، ١١٠)].

وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلَّةٍ غَيْرِ الْإِسْلَامِ كَاذِباً فَهُوَ كَمَا قَالَ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّ بِه يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُلٍ نَذْرٌ فِي شَيْءٍ لَا يَمْلِكُهُ» [رواه مسلم (١١٠)].

وينسحبُ هذا المعنى أيضاً على من يقتل نفسه بتعريضها لأسباب الهلاك في غير مواطن القتال والجهاد.

أخرج [الإمام أحمد في «المسند» (٢٠٣/٤، ٢٠٤) وأبو داود في «سننه» (٣٣٤)]:
عن عمرو بن العاص ﷺ قال: احتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقتُ أن أغتسل فأهلك، فتيّمتُ، ثم صليتُ بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «يَا عَمْرُو صليتُ بأصحابك وأنتَ جُنُبٌ؟!» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلتُ: إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته سبحانه بكم: أنه شرع لكم ما يصون أموالكم، ويحفظ حياتكم، فالجؤوا إليه تعالى في الأزمات والشدائد، وأحسنوا الظنَّ به، فإنه يجيبُ المضطر، ويكشفُ سوءَ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

(١) بذل المجهود: ٥٩/٣.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: يأخذ مالا، أو يقتل نفساً، أو يفعل كل ما نهى عنه سبحانه فيما تقدم من الآيات.

﴿عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ أي: معتدياً فيه ظالماً في فعله، كأن يكون عالماً بتحريمه، متجاسراً على انتهاكه.

﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ أي: فسوف ندخله يوم القيامة ناراً شديدة هي نار جهنم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه تعالى قادرٌ على كل شيء، فعَالٌ لما يريد. ودَلٌّ هذا الوعيدُ الشديدُ على أنَّ العدوانَ على حرَمَاتِ النفوس والأموال من كبائر الذنوب، وأنَّ الشريعة الإسلامية تهتم بحقوق الإنسان، وتعظم حرمتها.

ولمَّا خطب النبي ﷺ في مكة المكرمة يوم النحر قال: «يا أيُّها الناسُ أيُّ يومٍ هذا؟» قالوا: يومٌ حرامٌ، قال: «فأيُّ بلدٍ هذا؟» قالوا: بلدٌ حرامٌ، قال: «فأيُّ شهرٍ هذا؟» قالوا: شهرٌ حرامٌ، قال: «فإنَّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا» فأعادها مراراً، ثم رفع رأسه فقال: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟» قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته: «فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» [رواه البخاري (١٧٣٩)].

وأتبع سبحانه هذا الوعيدَ الشديدَ على انتهاك حرَمَاتِ الإنسان ترغيباً في اجتناب هذه الكبائر، والمحافظة على حقوق الناس، فقال:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: كبائر الذنوب التي نهاكم الله تعالى

عنها، ونهى عنها أيضاً رسوله ﷺ، ولا شك أنَّ منها: قتل النفس، وأكل المال ظلماً وعدواناً.

وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في الكبائر، قال: «الشُّرْكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس، وقولُ الزور» [رواه مسلم (٨٨، ٨٩)]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اجتنبوا السَّبْعَ الْمُؤَبَّاتِ» - أي: المهلكات - قيل: يا رسولَ الله وما هنَّ؟ قال: «الشُّرْكُ بالله، والسَّحَرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيم، وأكلُ الرِّبَا، والتولِّي يومَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» [رواه مسلم (٢٣٣)].

﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أي: نغفرها لكم، ونمحوها عنكم.

فصغائر الذنوب تكفَّرُ باجتنابِ الكبائر وفعل الطاعات، أمَّا الكبائر فلا بدَّ لها من التوبة والاستغفار بعد الإقلاع عنها، والندم على فعلها، قال رسول الله ﷺ: «الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضانَ مكفَّراتٌ ما بينهنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الكبائرُ» [رواه مسلم (٢٣٣)].

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي: حسناً شريفاً تكرمون فيه، هو الجنة.



الفصل الثاني

آفات نفسية

﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٦﴾ كَات يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٦ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَلَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ آمِنْتُمْ مِمَّا تَرَكْتُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٧﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ۚ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالَّذِينَ حَقِظْتَ مِنْهُنَّ حَفِظْنَ لِّلْعَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَالَّذِينَ خَافُونَ شُرُوهُمْ فَعَظُمُوا ۚ وَأَهْضُرُوهُمْ فِي الْمَصَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ ۚ فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ۝٣٨﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ۚ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝٣٩﴾ وَأَعْتَدُوا لِلَّهِ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْخَارِجِ عَلَى الْحَرْبِ وَالْخَارِجِ بِالْحَرْبِ ۚ وَالْجَنِّبِ وَالْوَبِيِّ ۚ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٤٠﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِمًا ۝٤١﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا ۚ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۝٤٢﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا ۚ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُصَغِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝٤٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّىٰ لَهُمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ۚ

وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْجِيْنَ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَسَاءٌ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيْبَسُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا رَزَقْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انْظُرْ كَيْفَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيفًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴿٥٧﴾

• تربية وتشريع:

يقرن الله ﷻ في القرآن الكريم بين بيان الأحكام وتشريعها؛ وتربية النفوس وتهذيبها، لكي تنقاد لهذه الأحكام، وتتمسك بها، فالقرآن الكريم كتاب هداية وتشريع، وتربية وتهذيب.

هذه الحقيقة القرآنية الكريمة تبدو في سورة النساء واضحة أكثر من غيرها

من السور، وهاهي الآيات في هذه السورة بعدما شرعت من الأحكام ما شرعت تتجه إلى تربية النفوس وتهذيبها، وتخليصها من الآفات النفسية الخطيرة التي تُبتلى بها.

والحسد أعظم الآفات النفسية خطراً، وأكثرها أثراً على سلوك الإنسان، وترجع إليه أكثر أسباب الخلاف والنزاع القائمة بين الناس، وهو الباعث الأول على الظلم والعدوان وانتهاك حرمة الحقوق الإنسانية.

ويتولد الحسد في نفوس الناس بسبب التفاوت الذي قدره الحكيم العليم بين الناس في المواهب والملكات والأرزاق، هذا التفاوت الذي جعله سبحانه سبباً لقيام التعاون والتعارف بين الناس، كما قال جل وعلا: ﴿أَمْهَرِ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

كان أيضاً سبب ابتلاء بعضهم ببعض، إذ الحياة الدنيا دار للابتلاء والاختبار، والناجحون بهذا الابتلاء هم الذين يستجيبون لنداء الحق سبحانه وقوله:

﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (٣٢).

﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لا يحسد بعضكم بعضاً.

فالحسد: أن يتمنى الحاسد زوال النعمة عن أخيه، وتحوّل إليه، فعلى الإنسان أن يرضى بما قسم الله تعالى له، ولا يحسد أخاه على ما أعطاه ربه سبحانه.

روي: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [رواه أحمد (٣٢٢/٦) والترمذي (٣٠٣٢)].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي: لكل من الرجال والنساء الحق أن يملك ناتج جهده وكسبه، والرازق هو الله تعالى، فعلى المقلّ ألا يتمنّى نصيب غيره، وعليه أن يتوجّه إلى الله تعالى يسأله المزيد من فضله: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ فإنّ خزائنه سبحانه لا تنقص ولا تنفذ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو تعالى يَعْلَمُ ما يصلح لعباده، فارضوا بما قسم الله سبحانه لكم، ولا تعترضوا على قسمته وحكمته.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسَالَ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ أَنْتَظَارُ الْفَرَجِ» [رواه الترمذي (٣٥٧١)].

• نسخ التوارث بالتحالف:

وأقربُ مثال على التفاوت في الأرزاق تفاوت سهام الورثة وحظوظهم من التركة، وعلى كل وارث أن يرضى بنصيبه وحظه الذي قدره المشرّع الحكيم سبحانه دون أدنى اعتراض:

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوَهُمُ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ أي: جعل الله لكل تركة ورثاً يتولون تقاسمها كما شرع سبحانه، فالتزموا بشرعه.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوَهُمُ نَصِيبُهُمْ﴾ أي: والذين بينكم وبينهم تحالف وتعاقد على التوارث، فاتوهم نصيبهم من الميراث بحسب التحالف الذي تمّ بينكم، وهذا كان في ابتداء الإسلام، يتوارثون بالحلْف ثم نُسخ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ...﴾ قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة، يرثُ المهاجريُّ الأنصاريُّ دون ذوي رحمه

بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ نسخت. [رواه البخاري (٢٢٩٢ و ٦٧٤٧)]^(١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَنُكُمْ﴾ أي: قبل نزول هذه الآية. ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَفْسِهِمْ﴾ أي: من الميراث، فأیما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، وهو أبلغ وعد ووعد؛ وعد للطائعين، ووعد للمخالفين.

• تنظيم الأسرة:

ثم ساقَت الآيات مثالا آخر على التفاوت في المواهب والملكات، بينت معه نظام الأسرة، قال تعالى:

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِذَا ضَلَلْتَ فِي الْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ شُرُوهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاحِجِ وَأَضْرِبُوهُمْ إِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي: يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية، فإدارة الأسرة ورعايتها منوطة بالرجل، وتنتقل في غيابه إلى المرأة.

﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: بسبب ما جعل الله بين الرجال والنساء من تفاوت في المواهب والملكات، فالرجال أقوى على تحمُّل المسؤوليات من النساء في الأعم الأغلب.

﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: وبسبب آخر، وهو تكليف الرجال بالإنفاق

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٨٤/١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

على الأسرة، فالغُنى بالغُرم، فما دام الرجل هو المكلّف بنفقة المرأة، فينبغي أن تكون له القوامة عليها.

والمرأة الصالحة هي التي ترضى بشرع الله تعالى، فتطيع زوجها، وتجعل من طاعتها له طاعة لله تعالى فيما أمر وشرع.

﴿وَالضَّالِّحَتُ قَنَئِنْتُ﴾ أي: مطيعات لله تعالى قائمات بحقوق الأزواج.

﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ أي: يحفظن في غيبة أزواجهن ما كلفهن الله بحفظه من العرض والمال، فهن الراعيات في غيبة أزواجهن، ومسؤولات عما استرعاهن الله تعالى.

﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: في مقابل حفظ الله تعالى لهن حين أوصى الأزواج بهن، وأمرهم بحسن معاشرتهن وأداء حقوقهن كاملة كما مر معنا.

وقد ذكر الإمام البخاري في «صحيحه» باباً مستقلاً قال فيه: باب: المرأة راعية في بيت زوجها، ثم أورد فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته، والأميرُ راعٍ، والرجلُ راعٍ على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته» [٥٢٠٠].

• معالجة نشوز المرأة:

والإسلام حريص على سلامة الأسرة واستمرارها في أداء وظيفتها، ولهذا بيّن سبحانه للأزواج كيفية معالجة ما يطرأ على جو الأسرة من سوء تفاهم، يؤدّي إلى تعكير صفو الحياة الزوجية بسبب نشوز المرأة، فقال:

﴿وَالَّذِي تَخَاوَنُ نُّشُوزُهُ﴾ أي: تخافون عواقبه السيئة.

والنشوز: العصيان، مأخوذ من النَشَز، وهو ما ارتفع من الأرض، والمرأة الناشِزُ: هي التي تتعالى على زوجها، وترفع نفسها عن طاعته.

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي: خوّفوهن عقوبة الله تعالى، لأنّه سبحانه هو الذي كلفها بطاعة زوجها في غير معصية، وانصحوهنّ بالترغيب والترهيب، كتذكيرها بقول

النبي ﷺ: «إِذَا بَاتِ الْمَرْأَةُ مُهَاجِرَةً فَرَّاشَ زَوْجِهَا لَعْنَتُهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تَرْجِعَ» [رواه البخاري (٥١٩٤)].

وقوله ﷺ أيضاً: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وصَامَتْ شَهْرَهَا، وحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ» [رواه أحمد (١/١٩١) والطبراني].

فإن لم تنتفع بالموعة لجأ إلى أسلوب هجرها في الفراش:

﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ أي: اهجروهن في الفراش، واعتزلوا النوم معهن، والمضجع موضع الإغراء والجاذبية التي تبلغ فيه المرأة الناشز قوة سلطانها، فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتز بها، وتصبح في الغالب أميل إلى التراجع والملاينة.

فإن لم تنجح، وأصرَّت المرأة على نشوزها وعنادها، واستبدَّ بها الهوى الجامح، فلا بدَّ حينئذٍ - حتى لا يستفحل المرض، ويهدد الأسرة بالسقوط - من استعمال دواء أقوى وأشد، ولو كان مؤلماً مرّاً، إذ يُحْتَمَلُ أخفُّ الضررين لدفع أشدهما، وهو ضرب التأديب الذي تصاحبه شفقة المؤدب والمربي:

﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ أي: ضرباً غير مبرح ولا شائن، كما قال رسول الله ﷺ في خطبة حجة الوداع: «اتقوا الله في النساء، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهنَّ ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاذْرُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مَبْرَحٍ» [رواه مسلم (١٢١٨) وانظر تمام الحديث ثمة].

وقوله: «تكرهونه» أي: لا يأذن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم.

والضرب المبرح: هو الضرب الشديد الشاق، ومعناه: اضربوهن ضرباً ليس بشديد ولا شاق، وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يترك أثراً.

ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام ما ضرب امرأة قط، فقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة له ولا خادماً قط، ولا ضرب

بِيَدِهِ شَيْئاً قَطُّ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ تُنْتَهَكَ حُرْمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ» [رواه مسلم (٢٣٢٨) والنسائي في الكبرى (٩١١٩) أحمد (٢٨١/٦)].

وكان ﷺ يحث أصحابه على عدم الضرب، ويقول: «لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يُجامعها في آخر اليوم» [رواه البخاري (٥٢١٤)].

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ أي: بترك النشوز والعودة إلى الطاعة والموافقة.

﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ أي: لا تطلبوا وتبحثوا عن طريقة تحتجون بها عليهن، وتؤذونهن بسببها، فعلى الأزواج أن يَغضُّوا النظر عن عثرات نسايتهم، ويحتملوا هفواتهن - كما مر معنا -.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ فاحذروا غضبه، فإنه تعالى أقدر عليكم منكم على أزواجكم، ففيه تهديد للرجال الذين ييغون على نسايتهم من غير سبب.

وقد يكون النشوز أحياناً من كلا الزوجين، فعلى أولياء الأمور في مثل هذه الحال، أن يعملوا على إزالة ما بين الزوجين من نزاع وخلاف، وإعادة الوفاق والتفاهم إليهما بواسطة التحكيم:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيمًا ٣٥﴾.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ أي: إن علمتم حدوث خلاف بين الزوجين.

﴿فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾ أي: رجلاً يصلح للتحكيم من أهل الزوج.

﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: وابعثوا آخر من أهل المرأة.

فإن أقارب الزوجين يحرصون في العادة على الإصلاح، ويعرفون بواطن الأمور أكثر من غيرهم، فإن لم يوجد من أهلها من يصلح لذلك يرسل من غير أهلها.

﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي: إن قصد الحكمان الإصلاح أوقع

الله تعالى بحسن سعيهما الألفة والوفاق بين الزوجين. وقد يكون المعنى: يوفق الله بين الحكمين، فيتفقان على رأي واحد يتم بواسطته التوفيق بين الزوجين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وفي ذلك تهديد للزوجين والحكمين ليسلكوا طريق الحق ويلتزموا به.

ودلت الآية على أَنَّ الإسلام يفضل أن تسوى الخلافات الزوجية في نطاق الأسرة بين الزوجين، وإذا تعذر عليهما ذلك بسبب غمق الخلاف، واستفحال النزاع يلجأ حينئذ إلى تحكيم الأقارب منهما.

● أسرة إنسانية واحدة:

ثم خرجت الآيات عن نطاق الأسرة الزوجية، إلى دائرة الأسرة الإنسانية الواحدة التي تضم جميع البشر، كما مر معنا في أول السورة، فبينت كيف يجب أن تكون الصلات الاجتماعية بينهم بعد بيان صلتهم مع الله تعالى:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي: اعبدوا الله وحده، وأخلصوا في طاعته وعبادته، فلا تشركوا معه شيئاً، فالله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له ﷻ.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عَمَلَ عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» [رواه مسلم (٢٩٨٥)].

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا﴾ أي: أحسنوا إلى الوالدين إحساناً، فهما أحق الناس بالشكر والإحسان، والبر والطاعة، بعد شكر الخالق وطاعته، ولهذا ذكرا في الآية قبل غيرهما من الناس، وقد قرن سبحانه شكرهما بشكره في سورة لقمان

فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدِكَ إِلَىٰ الصِّبْرِ ۚ﴾.

﴿وَبِذَىٰ الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ أي: أحسنوا إلى الأقارب واليتامى والمساكين، بالمحافظة على حقوقهم والاهتمام بشؤونهم، فالشريعة الإسلامية تهتم كثيراً بالضعفاء في المجتمع، وتسعى إلى تقوية الصلات الاجتماعية بين الناس وخاصة الأقارب والجيران، ولهذا أضافت الآية الوصية بالجيران: ﴿وَالْجَارَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: أحسنوا إلى الجار القريب، فله حقوق القرابة وحقوق الجوار.

• حقوق الجيران:

فللجار في الإسلام حقوق أمر الله برعايتها، منها: تفقّد أحواله، وطلاقة الوجه عند لقائه، ومعاونته فيما يحتاج إليه؛ وكفّ أسباب الأذى عنه. وفي الحديث الشريف: عن أبي شريح: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه» [رواه البخاري (٦٠١٦)]، وزاد [أحمد (٣٨٥/٦)] في رواية: قالوا: وما بوائقه؟ قال: «شره».

وهذا يدل على تعظيم حق الجار، وأنّ الإضرار به من الكبائر. وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» [رواه البخاري (٦٠١٤)].

﴿وَالْجَارَ الْجُنُبَ﴾ أي: وأحسنوا أيضاً إلى الجار الذي لا قرابة له، فله عليكم حقوق الجوار فقط.

﴿وَالصَّاحِبَ بِالْجُنُبِ﴾ أي: وإلى الجار المصاحب في مجلس أو سفر أو عمل، فمجاورته مؤقتة، وليست مستمرة، فله عليك حق الصحبة في مؤانسته وملاطفته ودفع الأذى عنه.

قال ابن حجر رحمه الله: «اسم الجار يشمل المسلم والكافر، والعابد والفاسق،

والصديق والعدو، والغريب والبلدي، والنافع والضار، والقريب والأجنبي، والأقرب داراً والأبعد، وله مراتب بعضها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصفات الأول كلها، ثم أكثرها وهلم جرّاً... فيُعطى كلُّ حقه بحسب حاله»^(١).

• حق الضيف والغريب:

﴿وَابْتَغِ الْسَّبِيلَ﴾ أي: أحسنوا إلى ابن السبيل، وهو المسافر أو الضيف يمرُّ بك فتكرمه وتساعدته، وتحسن إليه.

فللضيف في الإسلام حق، حتى إنَّ الإمام البخاري قال في «صحيحه»: باب حق الضيف. ثم روى الحديث الشريف بسنده: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: دخل عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «أَلَمْ أُخْبِرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟» قُلْتُ: بلى، قال: «فَلَا تَفْعَلْ، ثُمَّ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» [رواه البخاري (٦١٣٤)]. والزَّوْرُ: الزائر والضيْفُ.

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسولَ الله إِنَّكَ تَبْعُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلَا يُفْرُونَنَا، فما ترى؟ فقال: «إِنْ نَزَلَتْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَأَقْبَلُوا، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ» [رواه البخاري (٦١٣٧)].

وكما جعل النبي ﷺ للضيف حقاً؛ أوصاه ألا يُثْقَلَ على أهل البيت، حتَّى لا يُخْرِجَهُمْ، فقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزُهُ يَوْمَ وَلِيلَةٍ، وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُخْرِجَهُ» [رواه البخاري (٦١٣٥)].

والجدير بالذكر أنَّ الشريعة الإسلامية جعلت لابن السبيل - وهو المسافر المنقطع في الطريق - سهماً من مصارف الزكاة، فيجوز إن كان مسلماً مساعدته من أموال الزكاة.

(١) فتح الباري: ١٠/٤٤١.

• حقوق العبيد:

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: وأحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من العبيد والإماء، فإنهم من الضعفاء الذين اهتَمَّ الإسلامُ بحماية حقوقهم، وكثيراً ما أوصى النبي ﷺ بهم في حياته وعند وفاته عليه الصلاة والسلام، فعن علي رضي الله عنه قال: كَانَ آخِرُ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» [رواه أحمد (١١٧/٣) وابن ماجه (٢٦٩٧)].

وفَضَّلَ رسول الله ﷺ في حديثٍ آخَرَ كيف يجبُ أن تكونَ معاملتهم، فعن المعروف بن سويد قال: مررنا بأبي ذرٍّ بالرَبْدَةِ، وعليه بُرْدٌ، وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذرٍّ لو جمعتَ بينهما كانت حُلَّةً، فقال: إنَّه كان بيني وبينَ رَجُلٍ من إخواني كلامٌ، وكانت أمُّه أعجميةً، فغيرتهُ بأُمِّه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال: «يا أبا ذرٍّ إِنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهليَّةٌ، هُم إخوانُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَأَطِعُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلَا تَكْلِفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِيتُوهُمْ» [رواه مسلم (١٦٦١)].

وأمر رسول الله ﷺ مَنْ ضَرَبَ مملوكه أن يعتقه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ لَطَمَ مَمْلُوكَهُ أَوْ ضَرَبَهُ، فَكَفَّارَتُهُ أَنْ يُعْتِقَهُ» [رواه مسلم (١٦٥٧)].

وعن سويد بن مقرن: أَنَّ جاريةً له لطمها إنسانٌ، فقال له سويدٌ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الصَّوْرَةَ محرمةٌ؟ لقد رأيتني وإنِّي لسابِعُ إخوةٍ لي مَعَ رسولِ الله ﷺ، وما لنا خادِمٌ غير واحدٍ، فعمدَ أحدنا فلطمه، فأمرنا رسولُ الله ﷺ أن نعتقه. [رواه مسلم (١٦٥٨)].

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: كنتُ أضربُ غلاماً لي، فسمعتُ مِنْ خلفي صوتاً: «اعلم أبا مسعود، اللهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ» فالتفتُ فإذا رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله هو حرٌّ لوجهِ الله، فقال: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلْفَحْنِكَ النَّارُ، أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ» [رواه مسلم (١٦٥٩)].

.. هكذا حمى الإسلام الضعفاء، وصان لهم حقوقهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: متكبراً متعاضماً في نفسه، لا يحترم الناس، ولا يقوم بحقوقهم.

﴿فَخُورًا﴾ أي: يفتخر على الناس ويتناول عليهم.

ولا يخفى شدة الاتساق بين موضوع الآية وخاتمتها، فالمختال الفخور يأنف من أقاربه الفقراء، ومن جيرانه الضعفاء، فلا يحسن إليهم، ولا يلوي بنظره عليهم، ولأن المختال هو المتكبر، ومن كان متكبراً فلا يقوم بحقوق الناس^(١).

• التحذير من البخل:

وثمة آفة نفسية أخرى، قرينة للحسد، ولا تقل عنها قبحاً وخطراً، وهي آفة البخل، وهي كالحسد، لها آثار سلبية على علاقة الإنسان مع أبناء مجتمعه، تحمله على حب الذات والأثرة والمادية والجشع، وتورثه قسوة في طبعه، وغلظة في نفسه، وتدفعه إلى انتهاك حقوق الآخرين والعدوان عليهم. قال تعالى في المتصفين بها:

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧).

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ وكأن الآية تعني المختالين الفخورين الذين لا يحبهم سبحانه، فهم الذين يبخلون، ويمتنعون عن أداء ما أوجب الله عليهم لأقاربهم وجيرانهم وسائر أبناء مجتمعهم، ويظلمونهم ويستحلون حقوقهم.

كما في الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ

مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ» [رواه مسلم (٢٥٧٨)]. والشع: أشد أنواع البخل.

﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: ويشجعون على البخل، ويأمرون غيرهم به، لأنهم يكرهون السخاء، ويمقتون الجود والكرم، فهم لا يبخلون بما عندهم فقط، وإنما يبخلون بما عند غيرهم أيضاً.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ويتظاهرون بالفقر، ويجحدون نعم الله عليهم، فالبخيل يجحدُ نعمة الله، فلا تظهرُ عليه آثارها، ولا تتبينُ في مأكله ولا في ملبسه ولا في عطائه وبذله.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: هيأنا للكافرين نعمة الله الجاحدين لها عذاباً مهيناً.

والكفر: هو الستر والتغطية، والبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدُها^(١).

والجدير بالذكر أنه سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبَرٍ» قال رجل: إنَّ الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة؟ قال: «إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمالَ، الكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» [رواه مسلم (٩١)].

ومعنى بطر الحق: إنكاره ودفعه. وغمط الناس: احتقارهم.

• التحذير من الرياء وحب الظهور:

ونبّهت الآيات إلى آفة نفسية أخرى، قد يظنّها بعض الناس كرمًا وجوداً،

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٩٠/١.

وهي في حقيقتها مظهرٌ من مظاهر حُبِّ الذات والتكبر والافتخار؛ وهي آفة حب السمعة والرياء، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ينفقون أموالهم من أجل السمعة والشهرة بين الناس، لكي يمدحوا بالكرم والإحسان، حتى إن بعضهم ينفق على المداحين من رجال الصحافة والإعلام أكثر مما ينفق على المحتاجين واليتامى والضعفاء.

ومر معنا [الآية: ٣٦] أنه سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ولا يؤمنون بالإيمان الصحيح بالله تعالى ولا باليوم الآخر.

فما بعثهم على الإنفاق إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم باليوم الآخر، إنما الذي بعثهم على هذا الإنفاق الشيطان الذي زين لهم هذه الآفات الخطيرة: الحسد والبخل والكبر والرياء، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال أيضاً: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

وختم الله سبحانه الآية هنا بقوله:

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: ومن يكن الشيطان صاحباً له فبئس صاحب، لأنه إلى الشر ساحب.

﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أي شيء على أولئك الذين يبخلون ويحسدون ويرأون؟ أي مسؤولية تلحقهم:

﴿لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾، فهو سؤال فيه توبيخ لهم على الجهل بالمنفعة الحقيقية، فأى مصلحة لهم في ذلك؟ وهذا كما يقال للعاق: ما ضرَّك لو كنت باراً؟^(١).

وفي السؤال مع التوبيخ تحريض لهم على التفكير، لعلّه يؤدي بهم إلى إدراك ما هم عليه من خطأ، ومعرفة الحق والصواب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ لا تخفى عليه سبحانه حقيقة أعمالهم ومقاصدهم.

• عدل وفضل:

ثم قال سبحانه يبيّن كمال عدله وعظيم فضله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: لا يكون منه ظلم أبداً، ولا حتى مقدار ذرة فما دونها في الصغر، فلا ينقص أحداً ثواب عمل عمله مهما كان صغيراً، كما في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

هذا عدل الله سبحانه، وأما فضله فينبه بقوله:

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا﴾ أي: وإن كان مثقال الذرة حسنة يضاعفها أضعافاً كثيرة، كما قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا يِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال أيضاً: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

(١) تفسير النسفي: ٧٢/٢.

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ﴾ أي: ويعطى من عنده على سبيل التفضل.
 ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً عظيماً لا يحيط بمقداره إلا الله ﷻ.
 فلا ينبغي لأحد أن يتوجّه إلا إليه سبحانه، ولا يعتمد إلا عليه.
 ويظهر سبحانه عدله وفضله يوم القيامة:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

﴿فَكَيْفَ﴾ أي: كيف يكون حالهم يوم القيامة وهم يحملون كبائر الذنوب كالحسد والبخل والكبر والرياء.

﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي: إذا جئنا يوم القيامة بنبي كل أمة ليشهد على أعمالهم وما فيها من قبح وفساد.
 ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أي: يا محمد ﷺ.

﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي: لتشهد على هؤلاء الذين بلغتهم دعوتك، ووصلتهم رسالتك.

وقد بكى رسول الله ﷺ عندما سمع هذه الآية، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ» قلت: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إني أشتي أن أسمع من غيري» فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال لي: «كفّ، أو أمسك» فرأيت عينيه تذرفان. [رواه البخاري (٥٠٥٥)].

واختلفوا في سبب بكائه، فرأى بعضهم أنه ﷺ بكى لأنه مثل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمرٌ يحقُّ له طول البكاء.

ورأى ابن حجر رحمته الله أنه بكى رحمة لأمته، لأنه علم أنه لا بد أن يشهد

عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيماً، فقد يُفْضَى إلى تعذيبهم^(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ شِئَىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿٤٢﴾

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا فضل الله تعالى عليهم.

﴿وَعَصَوُوا الرُّسُولَ﴾ أي: وخالفوا سنة الرسول ﷺ.

﴿لَوْ شِئَىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي: لو يُدْفَنُونَ في تراب الأرض، ويصبحون جزءاً منها، وذلك بسبب ما يرون من أهوال هذا اليوم، وما يلحقهم فيه من الخزي والفضيحة، كما قال سبحانه في سورة النبأ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ ﴿٤٢﴾.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: وحالهم أنهم لا يستطيعون أن يخفوا شيئاً من قبائحهم وفضائحهم.

• الحرص على الطهارة:

وعندما وصلت الآيات إلى هذا الحد من الترهيب والتخويف، والتربية والتهذيب، التفتت إلى المؤمنين تخاطبهم، وتشرع لهم من الأحكام ما فيه نجاتهم من هول يوم القيامة وأفزاعه.

فالقرآن الكريم يقدّم التشريع تارةً، ثم يعقّب عليه بتربية النفوس وتهذيبها لِيُتَقَبَلَ على هذا التشريع وتعمل به، كما مرّ معنا في صدر السورة [الآية: ١٧]، وتارة أخرى يمهد للتشريع بتهذيب النفوس وتربيتها، وبذلك يرفعها إلى المستوى الذي تصبح فيه مستعدة لقبول التكليف والالتزام بالأحكام، كما هو الحال هنا.

والأمر المُعْجِبُ المُعْجِزُ أَنْ تَكُونُ الأفكار وتغير الأسلوب في الآيات الكريمة لا يؤثر على اتساق جرسها، وانسجام تسلسلها ووقعها على المسامع والقلوب، إنه كلام العزيز الحكيم.

(١) انظر: فتح الباري: ٩٩/٩.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ أي: لا تصلوا وأنتم في حال السكر من نحو خمر أو نوم.

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أي: ما تقرؤون في الصلاة.

ففي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إذا نَعَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَنْمَ حَتَّىٰ يَعْلَمَ مَا يَقْرَأُ» [رواه البخاري (٢٦٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يَصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّىٰ يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنْ أَحَدَكُمُ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسِبُ نَفْسَهُ» [رواه البخاري (٢١٢)].

هذه الآية نزلت قبل التحريم القطعي للخمر، وقد ذكروا في سبب نزولها [ما أخرجه أبو داود (٣٦٧١) والترمذي (٣٠٢٦) وحسنه، والنسائي، والحاكم (٣٠٧/٢) وصححه]: عن علي رضي الله عنه قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر، فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَدَّمُونِي، فَقَرَأْتُ: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون. فنزلت. وفي رواية [ابن جرير (٩٥/٥) وابن المنذر]: إِنَّ إِمَامَ الْقَوْمِ يَوْمَئِذٍ هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ، وَكَانَ ذَلِكَ لَمَّا كَانَتِ الْخَمْرُ مَبَاحَةً^(١).

ومن المعلوم أَنَّ الخمر لم تحرم دفعةً واحدةً:

- فقد أنزل الله تعالى أولاً ما ينفرهم عنها في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

- ثم أنزل آية النساء هذه، فضيَّقَ فيها عليهم أوقات شربها .

- ثم أنزل تحريمها القطعي في قوله الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿١٠﴾ [المائدة].

وأكد هذا قولُ السيدة عائشة رضي الله عنها : إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمَفْصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ : لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا : لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ : لَا تَزْنُوا، لَقَالُوا : لَا نَدْعُ الزَّنى أَبَدًا . [رواه البخاري (٤٩٩٣)].

﴿وَلَا جُنْبًا﴾ أي : وَلَا تَصَلُّوا وَقَدْ أَجْنَبْتُمْ .

والجنب : هو غير الطاهر من إنزالٍ مني بشهوةٍ أو جماعٍ، وأصلُ الجنبَةِ لغةً : البعد، وسُمِّيَ الذي أصابته الجنبَةُ جنبًا، لأنَّه يتجنَّبُ الصلاةَ والمسجدَ، وقيل : لمجانِبته الناسَ حتى يغتسل^(١) .

﴿إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ أي : غيرَ مسافرين، أو غير مجتازين في المسجد .

﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي : إلى أن تغتسلوا .

فالمعنى على الأول : لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ جُنُبٌ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مُسَافِرِينَ وَلَمْ تَجِدُوا الْمَاءَ، فَتِيْمَمُوا .

وعلى الثاني : لَا تَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ وَأَنْتُمْ جُنُبٌ، إِلَّا مُجْتَازِينَ فِيهِ، كَأَنْ تَكُونَ طَرِيقَهُ عَلَيْهِ فَيَمُرُّ فِيهِ .

وقد ذكروا في سبب النزول ما يؤيِّدُ المعنى الثاني، قال ابن كثير رحمه الله : «يُرْوَى أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ أَبْوَابُهُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَكَانَتْ تَصِيبُهُمْ

الجنابة، ولا ماء عندهم، فيردون الماء، ولا يجدون ممراً إلا في المسجد،
فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرُ سَبِيلٍ﴾^(١).

ويؤيده قولُ النبي ﷺ: «لا يبقين في المسجد بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابُ أبي بكر» [رواه البخاري (٣٦٥٤) وانظره بتمامه ثمة].

وعن جِسرَةَ بنتِ دِجاجةَ قالت: سمعتُ عائشةَ رضي الله عنها تقول: جاء رسولُ اللهِ ﷺ، ووجوهُ بيوتِ أصحابِهِ شارعةٌ في المسجدِ، فقال: «وَجَّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ» ثُمَّ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَصْنَعْ الْقَوْمُ شَيْئاً؛ رَجَاءً أَنْ تَنْزَلَ فِيهِمْ رَخِصَةٌ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «وَجَّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ، فَإِنِّي لَا أَحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلَا جُنُبٍ» [رواه أبو داود (٢٣٢)].

ثم شرع تعالى التيمم بدل الغسل والوضوء للعاجز عن استعمال الماء، بسبب فقد الماء أو المرض، فقال:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ والمراد مرض يضره استعمال الماء، كزيادة ألم، أو تأخير بُرء.

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي: ولا ماء معكم.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنَ الْأَعْيَابِ﴾ أي: أحدث بخروج شيء من أحد السبيلين.

وأصل الغائط في اللغة: هو المكانُ المنخفضُ من الأرض، وكان العربُ يقصدون الأماكن المنخفضة لقضاء الحاجة.

﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: جامعتموهن، أو (لامست بشرتكم بشرتهن) ^(٢).

﴿فَلَمْ تَحْدُوا مَاءً﴾ أي: فلم تقدروا على استعمال الماء، لعدمه أو بُعده، أو فقد آلة الوصول إليه، أو لوجود مانع يحول بينكم وبينه.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: فاقصدوا وجه الأرض الطاهر.

(۱) مختصر تفسیر ابن کثیر: ۱/۳۹۴.

(٢) هذا قول الشافعية، ومذهب الجمهور أن ملامسة بشرة المرأة لا تنقض الوضوء أو التيمم إلا إذا كانت بشهوة.

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: أوقعوا المسح بوجوهكم وأيديكم منه، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهُكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ولذلك يسر الأمر عليكم، ورخص لكم.

فالتييم من خصائص الأمة المسلمة، وهو دليل على يسر أحكام الشريعة الإسلامية وسماحتها.

• الضالُّون المضلُّون:

ثم سلكت الآيات مسلكاً جديداً، واتَّبعَتْ أسلوباً مغايراً في تربية المؤمنين، وتنقية نفوسهم من الآفات الخطيرة التي سبق التحذير منها، فعرضت أصنافاً من الناس ابتلوا بهذه الآفات، وبيَّنت كيف استولت على نفوسهم، وتمكنت من قلوبهم، ودفعتهم إلى الظلم والعدوان، وإلى الكذب والاحتيال، وأوصلتهم إلى تحريف كلام الله تعالى، والعدوان على أنبيائه ورسوله ﷺ.

اختارت الآيات صنفين من الناس، كانوا يعيشون مع المؤمنين في المدينة المنورة، ويشكّلون قطاعاً كبيراً من مجتمعها، وهم اليهود والمنافقون، وبهذا المسلك الجديد، جمعت الآيات بين تربية المؤمنين، وتنقية نفوسهم من هذه الآفات، وبيان تحذيرهم أيضاً من مكر وكيد اليهود والمنافقين.

اتَّبعَتْ الآيات في عرضها أسلوب الاستفهام التقريري، الذي يُقصد به التعجيب وتنبيه المخاطب، ليتأمل أحوال هؤلاء الناس، ويراهم على حقيقتهم المزرية وصورتهم القبيحة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَتَّخِذُوا السَّبِيلَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾؟ أي: ألم تنظر إلى الذين أعطوا جزءاً

يسيراً من علم الكتاب المنزل عليهم؟! والمراد بهم أحبار اليهود الذين أعطوا حظاً من التوراة فقط، فقد حُرِّموا من بركة فهمه والعمل به.

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ أي: يختارون الضلالة، ويستبدلون بها الهدى، كما فعل المنافقون الذين قال تعالى فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِتَحَدُّثِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: ويريدون منكم - أيها المؤمنون - أن تضلُّوا سبيل الحق، وتنحرفوا عنه كما ضلُّوا، لأنهم لا يريدون لكم الهداية والخير، فهم ضالُّون مضلُّون، حالهم كحال الذين يتبعون الشهوات، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٤٥).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ وهؤلاء من جملتهم، فكونوا على حذر من كيدهم ومكرهم.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: متولياً لأموالكم، فثقوا بولايته تعالى لكم، وتمسكوا بأحكام دينه وشرعه.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: ينصركم ويؤيدكم.

ولا يخفى ما في ختام الآية من تثبيت للمؤمنين، وشحن لعزائمهم، ورفع لهمهم، وهم يواجهون أعداءهم.

ثم أفاضت الآيات اللثام عن هؤلاء الضالين المضلين:

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٤٦).

﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: هم من اليهود، و(من) هنا لبيان الجنس.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يزيلون كلام الله تعالى عن مواضعه التي وضعه سبحانه فيها، حسبما تقتضيه شهواتهم من إبدال غيره مكانه، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤٠] أي: التي وضعه سبحانه فيها.

ثم بيّنت الآيات كيف تجرّؤوا على الرسول ﷺ، وحاولوا المكر به، وتوجيه الأذى إليه:

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: ويقولون للرسول ﷺ: سمعنا كلامك، ولا نطيعك فيه، وقد بلغوا في هذا الغاية في الكفر والعناد وسوء الأدب.

﴿وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وهو قول ذو وجهين: يحتمل الذم، أي: اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت، فلو أجيبت دعوتهم لم يسمع رسول الله ﷺ شيئاً، ويحتمل المدح، أي: اسمع غير مسمع مكروهاً. وهم لا يريدون بها المدح، إنّما يقولونها نفاقاً، ويضمرون الذم.

﴿وَرَعَيْنَا﴾ أي: أرعنا سمعك، وهم يريدون نسبته عليه الصلاة والسلام إلى الرعونة.

﴿لَيَأْتِيَنَّكَ السَّيِّئَاتُ﴾ أي: يقولون ذلك صرفاً للكلام إلى ما يضمرون من السب والتحقير.

﴿وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ أي: واتهاماً للنبي ﷺ، وطعنًا في صحة نبوته، إذ كانوا يقولون فيما بينهم: لو كان نبياً حقاً لعرف ذلك، وأظهره الله عليه.

ويدلّ قولهم هذا على شدة غباثتهم، فقد كان النبي ﷺ يعرف ما يريدون من كلامهم، وما يضمرون في نفوسهم، ولكنه ﷺ ما كان يواجههم بما يكرهون، ولا ينزل إلى مستواهم، بسبب أخلاقه العالية الكريمة.

ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السّام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: وعليكم السّام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إنّ الله يحبّ الرّفق في

الأمير كُلهُ» فقلتُ: يا رسولَ الله، أو لم تسمع ما قالوا؟! قال رسولُ الله ﷺ: «قد قلتُ: وَعَلَيْكُمْ» [رواه البخاري (٦٠٢٤)].

وقد فضحهم سبحانه هنا وكشف خبيثة نفوسهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنُظِرْنَا﴾ أي: بدل قولهم: ﴿وَأَسْمَعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا﴾.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي: لكان قولهم هذا خيراً لهم عند الله تعالى وأعدل، وأبعد عن الريبة.

وهذا يدل أن على الإنسان أن يبتعد عن الكلمات المريبة، التي تحمل معاني قبيحة سيئة.

﴿وَلَكِنَّ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرْهُمْ﴾ أي: ولكنه سبحانه خذلهم، ولم يوفقهم إلى الهدى والصلاح، وطردهم من ساحاته، بسبب كفرهم وعنادهم وجحودهم.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: فلا ينجيهم ولا يقبل منهم؛ لأنهم آمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعضهم، فقلوبهم محرومة من الخير، مُبْعَدَةٌ عنه. أو: لا يستجيب للإيمان منهم إلا عدد قليل، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سُعْنَةَ ﷺ.

• طمس الوجوه:

ثم توجهت الآيات بالخطاب مباشرة إليهم، تدعوهم إلى الإيمان الكامل؛ إقامة للحجة عليهم، وإلزاماً لهم بها، وتوعدهم بأشد أنواع الوعيد والعذاب، وتذكّرهم ببعض أنواعه التي أنزلها الله تعالى على أسلافهم:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ أي: على محمد ﷺ.

ويلاحظ أنه تعالى وصفهم هنا بأنهم أوتوا الكتاب، ولم يصفهم بأنهم أوتوا

نصيلاً من الكتاب؛ تأليفاً لهم، لكي يستجيبوا لدعوته، وتذكيراً لهم بأنّ عندهم الكتاب الذي يشهدُ بصدقِ دعوة النبي ﷺ، وصحة رسالته.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: مصدقاً للتوراة، ومعنى تصديقه إيّاها: نزوله حسبما نُعتَ لهم فيها، أو كونه موافقاً لها في توحيد الله تعالى والإسلام له، والإذعان لدينه وشرعه، أو شاهداً على أنّ الله تعالى أنزلها على موسى ﷺ.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أي: من قبل أن نمحو ملامحها، وصور ما فيها من عين وحاجب وأنف وفم، ونجعلها على هيئة أقفائها، أو نديرها فنجعل الوجوه إلى الخلف والأقفاء إلى الأمام.

وقد يكون المراد طمس القلب والبصيرة، وتغيير أحوالهم إلى الصغار والذلة بعد العز.

وفي تنكير (وجوه) المفيد للتكثير، تهويل للخطب، وفي إيهامها لطف بالمخاطبين، وحسن استدعاء لهم إلى الإيمان^(١).

﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَهْبَابَ السَّبْتِ﴾ أي: أو نلعنهم ونطردهم من الرحمة، ونُنزل بهم العذاب، كما عذبنا أصحاب السبت من أسلافهم، وهم الذين ذكرهم تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٥) فجعلناها نكلاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتقين ﴿[البقرة].

وفصل خبرهم أكثر في قوله أيضاً: ﴿وَسَأَلْتُهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبُتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٦) وَإِذْ قَالَتْ أُمُّهُ مَنَّهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهِلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُم وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٧) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَهْتَوُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابٍ بَيِّنٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (١٨) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهَوُّوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (١٩) [الأعراف].

وقد اختلف العلماء الذين حملوا طمس الوجوه على الحقيقة، في زمن

(١) تفسير أبي السعود: ١٨٥/٢.

وقوعه، هل يقع في الدنيا أم في الآخرة؟ بعضهم قال: في الآخرة، وبعضهم قال: إنه منتظر بعد، ولا بد من طمس في اليهود ومسح قبل قيام الساعة، ورأى بعضهم أن الوعيد بوقوع أحد الأمرين، كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿أَوْ نُلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ﴾ فإن لم يقع الأمر الأول، فلا نزاع في وقوع الأمر الثاني، فإن اليهود ملعونون بكل لسان، وفي كل زمان، فاللعن بمعناه الظاهر، والمراد من التشبيه بلعن أصحاب السبت، الإغراق في وصفه^(١)، أي: المبالغة في وصفه.

ورأى بعضهم أنه مثل ضربته الله لهم في صرفهم عن الحق، وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء، إلى سبيل الضلالة يهرعون، ويمشون القهقري على أدبارهم^(٢). لكن هذا لا ينسجم مع قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: نافذاً أو كائناً، فهو واقع لا محالة إن لم يؤمنوا، فالأمر ليس مثلاً، إنما هو تهديد بعذاب واقع.

● الذنب الذي لا يُغفر:

وتابعت الآيات تهديداتها، وقررت معه قاعدة هامة من قواعد العقيدة الإسلامية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي: إن مات عليه، فهو حُكْمٌ مُبَرَّمٌ قدره الله تعالى، فالكفر ذنب لا يُمحى أثره، وصاحبه مخلص في العذاب أبداً. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: يغفر ما دون الشرك ولو كان ذنباً كبيراً. ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: لمن تعلقت مشيئته تعالى بمغفرة ذنوبه.

(١) روح المعاني: ٥٠/٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٠٠/١.

ففي الآية - بعدما تقدّم من الوعيد - ترغيبٌ بالتوبة، وحثٌّ عليها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وفيها أيضاً دليل على أنّ صاحب الكبيرة إذا مات من غير توبة، فإنّه في خطر المشيئة، إن شاء عفا الله تعالى عنه، وأدخله الجنة بمنّته وكرمه، وإن شاء عذّبه بالنار، ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه^(١).

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: ارتكب ما تُستَحَقَّرُ دونه الآثام، وهو إشارة إلى المعنى الفارق بينه وبين سائر الذنوب، والافتراء كما يُطلق على القول يُطلق على الفعل^(٢).

فالفرق بين الشرك وغيره من الذنوب والآثام أنه ذنبٌ لا يغفر.

وفي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام فبشّرني أنّه مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ» [البخاري (٧٤٨٧) ومسلم (٩٤)].

• المادحون أنفسهم:

والتزمت الآيات أسلوبَ التقرير والتعجيب، في عرضها لقبائح أهل الكتاب وبيان آفاتهم النفسية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٤٩).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: يمدحون أنفسهم، ويشنون عليها. وأصل التزكية لغةً: هي التطهير والتنزيه من القبيح قولاً، كما هو الظاهر

(١) تفسير الخازن: ٩٤/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٩٥/٢.

هنا، وفعلاً، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ [الشمس: ٩]، وقوله أيضاً: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]^(١).

والمراد بهم اليهود الذين يقولون: نحنُ أبناءُ الله وأحباؤه، ويرون أنَّ لهم تفوقاً وامتيازاً على الناس، وهو ما جعلهم يستحلُّون العدوان على حقوق الناس، ويسعون في نشر الفساد بينهم، كما أنَّ هذا القولُ أساسُ الفكرة الخبيثة العنصرية التي تنادي بتفوق بعض الأجناس البشرية، والتي كانت ولا تزال سببَ كثير من الحروب المدمرة.

﴿بَلِ اللَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يشني سبحانه على من يشاء، ويهدي إلى الأخلاق الفاضلة والخصال الرفيعة من يشاء؛ لأنَّه سبحانه العليم الحكيم، كما قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [التَّجْم: ٣٢].

وأفادت كلمة (بل) التي هي للإضراب، على أنَّ التزكية المعتمد بها هي تزكية الله تعالى، لا تزكية غيره، وأنَّ هؤلاء الذين يزكون أنفسهم لا حظَّ لهم من تزكية الله تعالى.

﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أي: إن الله تعالى يعاقب الذين يزكون أنفسهم، ولا يظلمهم شيئاً، ولا مقدار فتيلٍ، وهو ما يحدثُ بقتل الأصابع من الوسخ، أو هو الخيط الرفيع في شقِّ نواة التمر، فالله تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ منزَّهٌ عن الظلم مطلقاً.

ثم أوردت الآيات تعجيباً آخر، وهي تخاطب النبي ﷺ:

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فإن تزكيتهم لأنفسهم بادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه تعالى لن يعذبهم على ذنوبهم، يتضمَّن ما هو أعظمُ جرماً،

(١) انظر: روح المعاني: ٥٤/٥.

وأكثر قبحاً من تركيتهم أنفسهم؛ إذ ينسبون إلى الله تعالى ما يستحيل عليه سبحانه بالكلية، من قبول الكفر، ورضاه به، ومغفرة كفر الكافر^(١).

وهو سبحانه لا يرضى أبداً عن الكفر كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، ولا يغفره أيضاً، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٩].

فتزكيتهم أنفسهم كذب على الله تعالى؛ ولهذا جعل افتراءهم عين الكذب؛ لشدة قبحه وشناعته، كأنه أمرٌ مرئي ينظر إليه، مع أنه مما يُقال ويُسمع.

﴿وَكُفِّي بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ فافتراءهم على الله تعالى فقط إثمٌ كبيرٌ واضح يستحقون به أشد العقوبات وأعظمها.

• المؤمنون بالجبت والطاغوت:

وقد دفعتهم هذه الآفات النفسية الخطيرة - وخاصة آفة الحسد - إلى الكفر برسالة النبي ﷺ وجحودها، وإلى طمس ما في التوراة من صفاته ونعوته عليه الصلاة والسلام، ودفعتهم أيضاً إلى تفضيل عبادة الأصنام والأوثان على عبادة الله تعالى وطاعته وحده؛ ولهذا أنزل الله فيهم قوله الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ﴾ (٥١).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ أي: يؤمنون بالأوثان والأصنام، ويصدقون من يدعو إلى عبادتها.

فالجبت: الأصنام والأوثان. والطاغوت: المبالغ بالطغيان، وهي كلمة تنسحب على كل من يدعو إلى عبادة غير الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ

(١) تفسير أبي السعود: ١٨٩/٢.

يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ التُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾.

وقد نزلت هذه الآية في حُيَيِّ بن أخطب وكعب بن الأشرف، من زعماء يهود المدينة، عندما جاؤوا إلى مكة بعد غزوة بني النضير، يستنصرون المشركين على حرب رسول الله ﷺ والمسلمين، فأجابوهم، وخرجوا معهم، مما أدى إلى غزوة الخندق أو الأحزاب.

روى ابن أبي حاتم: عن عكرمة قال: جاء حُيَيِّ بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكؤماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيح، ومحمد صنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيح من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله هذه الآية^(١).

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يقولون لأجل الذين كفروا وفي حقهم: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أقوم ديناً وأرشد طريقة من محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين. وسارعت الآيات بعد أن فضحتهم، وحكت مقالتهم الشنيعة القبيحة، إلى كشف مصيرهم وبيان مآلهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ﴿٥١﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته وطردهم من ساحات فضله.

﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ أي: لن تجد من يدفع عنه وينصره في الدنيا والآخرة.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٠٣/٩.

ولهذا لن ينتفع اليهود بجيوش الأحزاب التي قدمت لنصرتهم، وعاد الأحزاب خائبين خاسرين، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

• الكافرون برسالات الأنبياء:

وانتقلت الآيات من ذمهم على تزكية أنفسهم، إلى ذمهم على بخلهم وشحهم:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ ﴿٥٣﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ أي: لو كان لهم نصيب في السلطة والتصرف في توزيع الأرزاق على الناس.

﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي: فعند ذلك يبخلون على الناس، ولا يعطون أحداً مقدار نقير. والنقير: النقرة في ظهر النواة، وهو مثل في القلة كالفتيل.

فالحمد لله الذي جعل تقسيم الأرزاق بيده، لا بيد أحد من عباده، فمن شأن الناس البخل والشح، بله اليهود أكثر الناس شحاً، وأعظمهم حقدًا وحسدًا، وكيف يؤتون الناس شيئاً وهم البغاة الحسدّة، الذين حسدوا النبي ﷺ على ما آتاه الله تعالى من النبوة والرسالة، وحسدوا المسلمين على التوفيق والهداية.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ ﴿٥٤﴾.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ والمراد بالناس محمد ﷺ وأصحابه، أو المراد محمد ﷺ وحده، وجاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد؛ لأنه عليه الصلاة والسلام اجتمعت فيه من خصال الخير والبركة ما لا تجتمع مثلها في جماعة، ومن هذا القبيل يقال: فلان أمة وحده، يعني أنه

يقوم مقام أمة^(١).

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أي: فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل - وهم من ذرية إبراهيم - النبوة، وأنزلنا عليهم الكتاب، وأعطيناهم ملكاً كبيراً، حتى جمع الله لبعضهم النبوة والملك كداود وسليمان عليهما السلام.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: ومع ذلك فمن اليهود من آمن بإبراهيم وما أنزل الله عليه وعلى الأنبياء والمرسلين من أولاده، ومنهم من أعرض عنه وكفر به، وسعى في صد الناس عن دعوته.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي: كفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وجحودهم. ولا شك أن الكفر برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كفر برسالة إبراهيم عليه السلام، فرسالة جميع الأنبياء واحدة، وهي الدعوة إلى الإسلام لله تعالى وتوحيده، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أُوحِيَٰ إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التحل: ١٢٣]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَوَّلَى الْآثَانِ بِإِبْرَاهِيمَ لَآلِذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

• من الحقائق العلمية في القرآن:

وإمعاناً في الوعيد والتهديد، وصفت الآيات صورة من صور تسعير جهنم بهؤلاء المكذبين المعاندين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نَصَبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَنَّهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا﴾ أي: سوف ندخلهم نارا نشويهم فيها.

﴿كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: كلما احترقت جلودهم.

﴿بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ أي: أعدنا تلك الجلود غير محترقة، فالجلود تعاد في

كل مرة.

وإنما قال: ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ لتبديل صفتها، كما تقول: بدلت الخاتم قرطاً^(١).

﴿يَلِدُوهَا أَلْعَابٌ﴾ أي: ليدوم إحساسهم بالعذاب، فلا ينقطع بل يزيّد، كما

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَنِيًّا﴾ أي: غالباً على أمره، فعلاً لما يريد.

﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما قدر وحكم.

ومن المعلوم أنّ المراكز العصبية في الجلد هي التي تنقل الإحساس والشعور بالألم إلى داخل النفس، فالآية تشير إلى حقيقة علمية كبيرة ما كانت معروفة عند نزول القرآن الكريم.

وقال تعالى في مقابل هذه الصورة المرعبة:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من كل نقص وعيب يكون في نساء الدنيا، كالحيض والنفاس والأخلاق المذمومة.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: ظلاً ممتداً منبسطاً، في غاية الاعتدال.

فما أعجب هذا التقابل! وما أحكمه! إن له وقعاً قوياً على القلوب، ففي مقابل السعير المتأجج والجلود الناضجة المشوية، نرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات ندية، وظلال ممتدة رخية.



(١) انظر: تفاسير البيضاوي والخازن والنسفي: ٩٩/١.

● أداء الأمانات وحفظ الحقوق:

بهذا تكون الآيات الكريمة عملت لتفتح مغاليق العقول، وتزيل صدأ القلوب، وتطهر النفوس من رواسب الحسد والكبر والرياء، حتى تهيئها لتقبل الأحكام العملية والمبادئ الأخلاقية، وهامي تصب فيها الآن مبدأ أخلاقياً رفيعاً، في تواصل الناس وتعاملهم، وأصلاً كبيراً هاماً من أصول التشريع والحكم في الإسلام، قال القرطبي رحمته الله: «هذه الآية من أمهات الأحكام، تضمنت جميع الدين والشرع»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فالأمر هو الله جل جلاله، والمأمورون هم جميع المكلفين، والأمر صريح ملزم، وهو أداء الأمانات إلى أصحابها، وهو يتناول حقوق الله تعالى على عباده، وحقوق العباد بعضهم على بعض.

قال ابن كثير رحمته الله: «وهو يعلم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله جل جلاله على عباده من الصلاة، والزكاة، والصيام، والكفارات، والنذور، وغير ذلك. مما هو مؤتمن عليه، لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك»^(٢).

وقسم بعضهم الأمانات التي أمر الناس بأدائها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: رعاية الأمانة في عبادة الله جل جلاله: وهو فعل المأمورات، وترك المنهيات، قال ابن مسعود: الأمانة لازمة في كل شيء، حتى في الوضوء والغسل من الجنابة، والصلاة، والزكاة، والصوم، وسائر أنواع العبادات.

(١) تفسير القرطبي: ٢٥٥/٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٠٥/١.

الثاني: هو رعاية الأمانة مع نفسه: وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه، فأمانة اللسان حفظه من الكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك، وأمانة العين غضها عن المحارم، وأمانة السمع ألا يُشغله بسماع شيء من اللغو والفحش، ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك.

الثالث: هو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى^(١).

ويجب أداء الأمانات إلى أصحابها، ولو كانوا فجاراً فساقاً، فالإسلام يحفظ لجميع الناس حقوقهم، ومن الكلمات الماثورة عن علماء المسلمين: العقوق لا يمنع الحقوق.

وكان ميمون بن مهران من علماء السلف يقول: ثلاث يؤدّين إلى البرِّ والفاجر: الرحمُ توصلُ برّةً كانت أو فاجرةً، والأمانة تؤدّي إلى البرِّ والفاجر، والعهد يوقى به للبرِّ والفاجر^(٢).

ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تحن من خانك» [رواه أبو داود (٣٥٣٤ و ٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤)].

وقد نزلت هذه الآية يوم الفتح على النبي ﷺ، وهو داخل الكعبة المعظمة، روى ابن جرير بسنده: عن ابن جريج قال: نزلت في عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، قبض منه النبي ﷺ مفاتيح الكعبة، ودخل بها البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان، فدفع إليه المفتاح.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لما خرج رسول الله ﷺ، وهو يتلو هذه الآية - فداؤه أبي وأمي - ما سمعته يتلوها قبل ذلك^(٣).

ولا شك أنّ الحكم بين الناس بالعدل من أعظم الأمانات، وأثقل التبعات، التي يحملها الحُكّام والقضاة، فأداء الأمانات أساس التعامل الأول بين الناس

(١) انظر: تفسير الخازن: ١٠١/٢.

(٢) روح المعاني: ٦٤/٥.

(٣) تفسير الطبري: ١٤٥/٥.

في المجتمع، والحكم بالعدل أهم أسس نظام الحكم في الإسلام؛ ولهذا قرن تعالى بينهما فقال:

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أي: وإنَّ الله تعالى يأمركم أن تحكموا بين الناس بالعدل، فعلى الحاكم أن يأخذ الحقَّ ممَّن وجب عليه، لمن وجب له، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له بعد أن بويع بالخلافة: «وإنَّ أقوامك عندي الضعيف حتى آخذَ له بحقه، وإنَّ أضعفكم عندي القوي حتى آخذَ منه الحقَّ»^(١).

فولاية الناس في الإسلام مسؤولية جسيمة وكبيرة، وأمانة ثقيلة؛ ولهذا جاء الأمر بالعدل مقيداً بالحكم بين الناس، ولم يأت مطلقاً، كما هو الحال في أداء الأمانات، فهو كالتصريح أنه ليس لجميع الناس أن يشرعوا في الحكم، بل ذلك لبعضهم ممن يصلح له ويقدر عليه^(٢).

ففي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر! إنني أراك ضعيفاً، وإنني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم».

وفي رواية أخرى قال: قلتُ: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يوم القيامة خزيٌّ وندامةٌ، إلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا» [رواه مسلم (١٨٢٥)]. وفي مقابل ذلك، فإنَّ للحاكم العادل - الذي يقدرُ على حمل أمانة الحكم، ويؤدِّي الحقوق كاملة إلى رعيته - مكانةٌ كبيرةٌ عالية يوم القيامة.

ففي الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المقسطينَ عندَ الله على منابرٍ من نورٍ، عن يمينِ الرحمنِ ﷻ، وكلتا يديه يمينٌ، الذين يعدلونَ في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا» [رواه مسلم (١٨٢٦)].

(١) حياة الصحابة: ٤٢٧/٣، طبعة دار القلم - دمشق.

(٢) انظر: تفسير الرازي: ١٠/١٤٦.

فالعدل حقٌّ من أهم حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية، مهما كان هذا الإنسان.

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُم بِذِهِ﴾ أي: نعم الشيء الذي يعظكم الله به، أمراً ومذكراً

فكلمة ﴿يَعِظُكُمْ﴾ تفيد الأمر والتذكير والنصح، وهذا الشيء هو أداء الأمانات والعدل في الحكومات، فالأمر إذاً خطير وكبير.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فراقبوه في أعمالكم وأماناتكم، فهو سبحانه سميع لأقوالكم، بصير بجميع أعمالكم وأحوالكم.

• طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله:

ولا يقوم المجتمع العادل الذي يتمتع الناس فيه بحقوقهم كاملة، إلا في ظل شريعة الله تعالى، وطاعة المحكومين للحاكم الملتزم بهذه الشريعة، وهو ما بينه تعالى من خلال ندائه للمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي: الزموا طاعته في كل ما أمركم به ونهاكم عنه.

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي: أطيعوه أيضاً في كل ما أمركم به، ونهاكم عنه؛ لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

وأعاد الفعل (أطيعوا) وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى؛ اعتناءً بشأنه ﷺ، وقطعاً لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن، وإيداناً بأن له استقلالاً بالطاعة لم يثبت لغيره، ومن ثم لم يُعده في قوله سبحانه:

﴿وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ إيداناً بأنهم لا استقلال لهم فيها استقلال الرسول ﷺ^(١).

(١) روح المعاني: ٦٥/٥.

وهم الحُكَّام والقادة، وأضاف بعضهم إليهم العلماء، فطاعتهم مقيدة بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

وأكد هذا المعنى سببُ نزول الآية، فعن علي رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سريةً، فاستعمل رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها. فهثموا، وجعل بعضهم يمسك بعضها ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو دَخَلُوهَا ما خَرَجُوا مِنْهَا إلى يومِ القيامةِ، الطاعةُ في المعروفِ» [رواه البخاري (٤٣٤٠)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، إذ بعثه النبي ﷺ في سرية. [رواه البخاري (٤٥٨٤)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «السمعُ والطاعةُ على المرءِ المسلمِ فيما أحبَّ وكرهَ، ما لم يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فإذا أُمرَ بِمَعْصِيَةٍ فلا سمعَ ولا طاعةً» [رواه البخاري (٧١٤٤)].

وعن أم الحصين، قالت: حججتُ مع رسولِ الله ﷺ حَجَّةَ الوداعِ، فسمعتُه يقول: «إِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدِّعٌ (أي: مقطوع الأطراف) - وحسبُها قالت: أسودٌ - يقودُكم بكتابِ الله، فاسمعوا له وأطيعوا» [رواه مسلم (١٨٣٨)].

وقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ يدل على أن الحُكَّام يجب أن يكونوا من المسلمين، فلا تجوز ولاية الكافر على المسلم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] - كما سيأتي معنا -.

فطاعة ولي الأمر واجبة على الرعية ما دام متمسكاً بالكتاب والسنة، فإذا زال عنهما فلا طاعة له، وإنما تجب طاعته فيما وافق الحق^(١).

(١) تفسير الخازن: ١٠٤/٢.

﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: اختلفتم في شيء.

وكلمة (شيء) نكرة تفيد العموم، فالشريعة الإسلامية تلبي حاجاتكم التشريعية لكل شيء تتنازعون فيه.

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: فراجعوا فيه كتاب الله تعالى، وسنة رسول الله ﷺ.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: إن كنتم تؤمنون بالله تعالى حقاً، وأنكم مسؤولون أمامه يوم القيامة، فيجب عليكم طاعته، والاحتكام إلى دينه وشرعه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

فالحاكمية والتشريع في نظام الإسلام لله تعالى وحده، فهو سبحانه الخالق والمالك، وله الحكم في خلقه وملكه، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ودلت الآية على أن الذي لا يرضى بتحكيم شريعة الله تعالى غير مؤمن، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: تحكيم شريعة الله تعالى بينكم خير لكم من تحكيم الشرائع التي يشرعها البشر؛ لأنها شرائع ناقصة وغير عادلة، تتأثر بأهواء ومصالح واضعها.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن مرجعاً وعاقبة ومالاً.

فإن تحكيم شريعة الله يؤدي إلى إشاعة الأمن والعدل والسلام والتعاون بين أبناء المجتمع، كما يؤدي إلى الرخاء وسعة العيش، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْحِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

• الإعراض عن تحكيم شريعة الله كُفر ونفاق:

فالرُّضا بأحكام الشريعة الإسلامية دليل على صحة الإيمان وصدقه، والإعراض عنها دليل على الكفر والنفاق، ولهذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ أي: يدَّعون.
 ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: من الشرائع الإلهية السابقة.
 ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ أي: إلى رأسٍ من رؤوس الضلال والكفر.
 ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي: وقد أمرهم الله تعالى أن يكفروا بالطاغوت، وبما يدعو إليه من شرك وضلال.

قال ابن كثير رحمته الله: «هذا إنكارٌ من الله تعالى، على من يدَّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى الأنبياء الأقدمين صلوات الله عليهم وسلامه، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية، أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف»^(١).

﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، ولهذا زَيَّنَ لهم الإعراض عن شريعة الله، والتحاكم إلى ما يشرعه طواغيت الكفر والضلال، مما يدلُّ على

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٠٩/١.

أنهم وقعوا في حبال الشيطان، فأسلموا أمرهم إليه، وأذعنوا لنزغاته ووساوسه.

وكلما دعوتهم إلى الانقياد والتحاكم لشرع الله تعالى، أعرضوا مستكبرين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (٦١).

أي: يعرضون عنك و عما تدعوهم إليه إعراضاً كاملاً، يدل على عنادهم وتكبرهم، ويدل على كذب ادعائهم بالإيمان، فهم كذابون منافقون، أظهر إعراضهم عن تحكيم شريعة الله كفرهم ونفاقهم، ولهذا صرحت الآية بنفاقهم. وما أكثر الذين تنسحب عليهم هذه الآيات في المجتمعات الإسلامية، من الذين يعرضون عن شريعة الله تعالى، ويعارضون تحكيمها، ويسعون جاهدين إلى عزلها وحصرها في مجال العبادات الفردية الشخصية، مما يدل على أنَّ النفاق قد استشرى كثيراً بين المسلمين.

• أعذار واهية وأيمان كاذبة:

ويؤدّي الإعراض عن تحكيم شريعة الله تعالى، وتعطيل أحكامها، إلى البلاء والغلاء والفتن، وهو الواقع المشاهد في أكثر المجتمعات الإسلامية، وهو ما حذرنا سبحانه منه بقوله:

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (٦٢).

﴿فَكَيْفَ﴾ أي: كيف يكون حال هؤلاء المعرضين عن شريعة الله تعالى.

﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: إذا نزلت بهم المصائب والنوازل بسبب إعراضهم عن شريعة الله، وتحكيمهم شرائع طواغيت الكفر والضلال.

﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ أي: ثم يأتون إليك، حين يصابون؛ معتذرين.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: يحلفون بالله تعالى أنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى غيرك الإساءة والمخالفة؛ بل أرادوا الإحسان والتوفيق. وهي دائماً دعوى كل من يحدد عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته، إنها حجة الذين يزعمون الإيمان، وهم غير مؤمنين، وحجة المنافقين الملتوين، هي دائماً وفي كل حين، والله سبحانه يكشف عنهم هذا الرداء المستعار، ويخبر رسوله ﷺ أنه يعلم حقيقة ما تنطوي عليه جوانحهم^(١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن قبول عذرهم، دون أن تفضحهم؛ ليظلوا على وجلٍ وحذر. أو: أعرض عنهم، ولا تهتم بهم؛ فإن الله مجازيهم.

﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: ازجرهم عن النفاق والكفر والكذب، وخوفهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة، وأن ما أصابهم في الدنيا من المصائب شيء يسير بالنسبة لما ينتظرهم يوم القيامة إن أصرُّوا على الكفر والنفاق.

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: خالياً بهم، فإن النصيحة في السر أنجع وأقرب إلى القبول.

﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: قولاً مؤثراً.

فكأنها تقول للنبي ﷺ: ابسط لهم لسان الوعظ، بمقتضى الشفقة عليهم، وانقبض بقلبك عن المبالاة بهم، والسكون إليهم.

فما أعظم هذه الشريعة، وما أرحم أحكامها! إنها تأمر النبي ﷺ أن يعامل

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٦٩٥/٥.

المعرضين عنها هذه المعاملة الرحيمة الحكيمة، تأمره أن يبذل جهده في وعظهم وإرشادهم، وإنقاذهم من وهدة النفاق وشقوته، وسوء عاقبته، مع أخذ الحذر منهم، وعدم الاطمئنان إليهم.

• طاعة رسول الله ﷺ وشفاعته:

ثم قررت الآيات وجوب طاعة كل رسول أرسله الله تعالى، فالرسول ليس مجرد واعظ يلقي كلمته ويمضي، لتذهب في الهواء بلا سلطان، كما يقول المخادعون عن طبيعة الدين وطبيعة الرسل، فللرسول سلطان، ويجب أن يُطاع، لكي يحقق المنهج الذي أرسله الله تعالى به^(١):

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمر من الله تعالى، فطاعته طاعة لله تعالى، ومعصيته معصية لله تعالى - كما سيأتي عند قوله سبحانه: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وفي هذا التقرير توبيخ للمعرضين عن طاعته عليه الصلاة والسلام. وفتحت الآية بعد هذا التقرير والتوبيخ للمعرضين سبيلاً للتوبة، كما هو شأن القرآن الكريم دائماً، فبعد أن يحذر وينذر وينبه إلى موضع الداء، ومكمن الخطر، يدعو إلى الاستغفار والتوبة، فلا يأس من رحمة الله تعالى، ومهما كانت الذنوب كبيرة، فإن رحمته تعالى ومغفرته أوسع منها:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بالنفاق والتحاكم إلى شرائع الطواغيت.
 ﴿جَاءُوكَ﴾ أي: تائبين من النفاق، نادمين على ما سلف منهم.
 ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ أي: سألوا الله تعالى أن يغفر لهم.

(١) في ظلال القرآن: ٦٩٥/٥.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ الرَّسُولُ﴾ بالشفاعة لهم، وسأل الله أن يغفر لهم، ويقبل توبتهم.

والقياس يقتضي أن يقول: واستغفرت لهم، وإنما عدل الخطاب عنه تفخيماً لشأنه عليه الصلاة والسلام، وتنبيهاً على أن من حق الرسول ﷺ أن يقبل اعتذار التائب، وإن عظم جرمه، ويشفع له^(١).

فإذا جاؤوك فقد جاؤوا من خصه الله برسالته، وجعله سفيراً بينه وبين خلقه، ومن كان كذلك فإن الله تعالى لا يرد شفاعته، فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات، من لفظ الخطاب إلى لفظ الغيبة^(٢).

﴿لَوْجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: لعلموا أن الله يقبل توبتهم ويرحمهم. ثم أقسم الله تعالى بذاته المقدسة، وأضافها إلى ضمير الخطاب الموجّه إلى النبي ﷺ تكريماً له وتشريفاً، على انتفاء إيمانهم حتى ينقادوا لحكمه عليه الصلاة والسلام انقياداً كاملاً، ويسلموا له تسليماً مطلقاً:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: فو ربك لا يؤمنون، وزيدت (لا) لتأكيد معنى القسم.

﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: فيما اختلفوا فيه من الأمور، ووقع بينهم تنازع بشأنه، ومنه الشجر لتداخل أغصانه.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ أي: لا يجدوا في أنفسهم أي ضيق وانزعاج من حكمك، بل يرضوا بما حكمت. ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: وينقادوا لك انقياداً ظاهراً وباطناً.

(١) تفسير البضاوي: ١٠٨/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١٠٨/٢.

فلا يصح إيمانُ أحدٍ بالله تعالى إلا إذا آمن بالنبِيِّ ﷺ، وانقادَ لحكمه انقياداً كاملاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وذكروا في سبب نزول هذه الآية: أنَّ رجلاً من الأنصار خاصم الزبير بن العوام رضي الله عنه عند النبي ﷺ في شراجِ الحرَّة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاريُّ: سرح الماء يمر، فأبى عليه، فاخصما عند النبي ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ للزبير: «اسقِ يا زبير، ثم أرسلِ الماءَ إلى جارك» فغضبَ الأنصاريُّ فقال: أن كان ابن عمَّتِكَ. فتلوَن وجهُ رسولِ الله ﷺ ثم قال: «اسقِ يا زبير، ثم احبسِ الماءَ حتى يرجعَ إلى الجدرِ» فقال الزبيرُ: والله إنني لأحسبُ هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [رواه البخاري (٢٣٥٩)].

وشراجِ الحرَّة: أماكن مسيل الماء في الحرَّة. والجدر: هي الحواجز التي تحبس الماء.

ومن المعلوم أنَّ خصوصَ السبب لا يمنعُ عمومَ الحكم، وحكم هذه الآية باقٍ إلى يوم القيامة، وليس مخصوصاً بالذين كانوا في عصر النبي ﷺ، فإنَّ قضاء شريعته عليه الصلاة والسلام قضاؤه^(١).

• يُشر الشريعة وسماحتها:

ثم بيَّنت الآياتُ يُسرَ الشريعة الإسلامية وسماحتها، وأنَّه تعالى ما كلَّفنا فيها التكاليِف الشاقة، فما كلَّفنا إلا طاعة الرسول ﷺ والتمسُّك بسنَّته ﷺ:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْثًا﴾ (١١).

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي: لو أنه سبحانه فرض علينا التكاليِف الشاقة الصعبة كقتل النفس والخروج من الديار.

(١) روح المعاني: ٧١/٥.

﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: ما فعل هذا التكليف إلا قليل من المؤمنين.

لقد علم تعالى ضعفنا فرحماً، وأرسل إلينا هذا الرسول الكريم ﷺ الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

والذي وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: ما خُبر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها. [رواه البخاري (٣٥٦٠)].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: ما يؤمرون به من طاعة الرسول ﷺ والتمسك بشريعته.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ أي: ثباتاً على الإيمان وعلى التمسك بشريعة الإسلام، فإن يسر الشريعة، وسهولة تكاليفها يستدعي التمسك بها، والثبات عليها، فلا عذر لأحد في تركها وهجر أحكامها.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوصي بالاعتدال في العبادة، وينهى عن التشدد والغلو فيها؛ ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قَالَتْ: «مَنْ هَذِهِ؟» قَالَتْ: فَلَانَةٌ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا قَالَتْ: «مَهْ عَلَيْكُمْ بِمَا تَطِيقُونَ، فَوَ اللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا» وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ. [رواه البخاري (٤٣)].

وقولها: (تذكر من صلاتها) أي: يذكرون أن صلاتها كثيرة، وأنها لا تنام في الليل.

﴿وَإِذَا لَا تَيْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أي: وفي حال ثباتهم على الدين، وتمسكهم بشريعته، نعطيههم من عندنا أجراً عظيماً، لا يعلم مقداره إلا معطيه، وهو الله جل جلاله.

﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

أي: ونوفقهم أيضاً للسير على الصراط المستقيم، الذي يصلون به إلى أعلى المراتب التي تتلَّعُ إليها نفوسُ المؤمنين الصالحين والشهداء والصديقين.

• الرفيق الأعلى:

واستمرت الآيات ترغِّبُ المؤمنين في طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام والتمسك بشريعته وسنته، وتطمعُهم بمرافقة أكرم الخلائق في أرفع المراتب وأعلاها يوم القيامة:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ أي: المبالغين في الصدق والإخلاص في أقوالهم وأفعالهم، وهم خواصُّ المقرَّبين من الأنبياء كأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ وهم الذين بذلوا أرواحهم في طاعته تعالى وإعلاء كلمته.

﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ أي: المتمسكين بشريعته وسنته، فلا صلاح للإنسان إلا إذا التزم بشرع الله تعالى وتمسَّك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: وما أحسنَ صحبة هؤلاء ومرافقتهم في الملاء الأعلى في الجنة! فالرفيق: الصاحب، مأخوذ من الرفق، وهو لين الجانب واللطف في المعاشرة.

فطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم مفتاح الوصول إلى المقامات العالية الرفيعة، مقامات النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وكفاه عليه الصلاة والسلام بذلك شرفاً وتكريماً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنتُ أبيتُ مع رسولِ الله ﷺ فأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فقال لي: «سَلْ» فقلتُ: أسألكَ مرافقتَكَ في الجنة، قال: «أو غيرَ ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السُّجُودِ» [رواه مسلم (٤٨٩)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتَرَاءُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَائِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ» [رواه الترمذي (١٢٠٩)].

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً﴾

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بلوغهم هذه المراتب الرفيعة في الجنة فضل تفضل الله تعالى به عليهم.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً﴾ أي: بعباده وأعمالهم، وما يتفضل به عليهم، فما نالوا هذه الدرجات العالية إلا بفضل سبحانه عليهم، فلا ينبغي لأحد أن يغتر بعمله، ويُعْجَبَ بعبادته، فالله سبحانه هو الذي وفقهم إلى هذه العبادات والطاعات، وأعانهم عليها، فالفضل منه سبحانه أولاً وآخرًا.

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ في الدنيا والآخرة قالت: قال رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشَرُوا، فَإِنَّ لَنْ يَدْخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله مِنْهُ بِرَحْمَةٍ، واعلموا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ» [رواه مسلم (٢٨١٨)].



الْفَضْلُ الرَّابِعُ

التكليف بالجهاد والحض عليه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَنَاتٍ جَمِيعًا﴾ (٧٦) وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْطَأَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٧﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِسْتَنِي كُنتَ مَعَهُمْ فَأَفُورَ فُورًا عَظِيمًا ﴿٧٨﴾ ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٩) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٨١﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٨٢﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَإِذَا هُم بِالنَّارِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٨٣﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٤﴾ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴿٨٥﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاءَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٧﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلِمَهُ الَّذِينَ

يَسْتَبْطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٢﴾ فَقِيلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٣﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٨٤﴾ وَإِذَا حُيِّمُ بِنَجِيَّتِهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أَرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُمُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَلَغَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِ الْآلِقِيُّونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عِزُّ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِرَينَ
 وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا
 ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ
 نَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
 الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ
 وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ
 مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾
 وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
 الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ
 مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَّائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ
 يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ
 وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ
 كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَصْعَوْا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا
 قَضَيْتُمْ صَلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ
 الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهْوَ فِي آَبَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
 فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ .

• تحذير ونصير:

وما دام الناس معرضين لهذه الآفات النفسية الخطيرة التي تدفعهم إلى الاختلاف والتنازع وإلى البغي والعدوان، فلا مناص من تكليف المؤمنين بالقتال، وحثهم على الجهاد، لكي يتمتعوا بحقوقهم، ويعيشوا بسلام واطمئنان، فما أكثر ما يُفرض السلام بالقوة، وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر عند رجال السياسة: التوازن الاستراتيجي، فإذا ما اختل هذا التوازن، وتفوقت إحدى القوى على غيرها أصبح السلام في خطر، وتعرضت حقوق الناس للعدوان والظلم.

ولهذا توجَّهت الآيات الكريمة بخطابها إلى المؤمنين تناديهم محذرةً ومستنفرةً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ۖ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ الحِذْرُ: الحَذَرُ، أي: الحَذَرُ الحَذَرُ؛ وهو لا يكون إلا من مَخُوفٍ وخطر، يقال: أخذ حِذْرَه، إذا تيقَّظ، واحترز من المخوف، كأنه جعل الحذر آلتَه التي يقي بها نفسه، ويعصم بها روحه. والمعنى: احذروا واحترزوا من العدو^(١).

والحذر يكون بالانتباه والاستعداد والأخذ بأسباب القوة والوقاية والحيلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وبعد بيان التحذير من العدو أمر سبحانه بالنفير:

﴿فَانْفِرُوا﴾ أي: اخرجوا للجهاد وقتال الأعداء.

﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: متفرقين، جماعة بعد جماعة، وسرية بعد سرية، وهذا عندما لا يكون الخطر كبيراً، فيكفي حينئذ أن يخرج للقتال بعض أفراد الأمة، وينصرف الآخرون إلى الاهتمام بمتطلبات الحياة الأخرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

﴿أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أي: اخرجوا إلى الجهاد مجتمعين إذا كان النفير عاماً، وذلك عندما يكون الخطر كبيراً، ويحتاج إلى حشد كل طاقات الأمة القتالية، فحينئذ يكون الجهاد فرض عينٍ على كل قادر عليه، كما في قوله تعالى:

(١) تفسير النسفي: ١١٣/٢.

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

• المتقاعسون عن الجهاد:

ولا تخلو أمة أو مجتمع عن الجبناء المتقاعسين عن القتال، ولهذا اتجهت الآيات إلى الحديث عنهم، ووصف أحوالهم، وبيان مواقفهم، فهم ثغرة كبيرة في جسم الأمة يجب المبادرة إلى سدّها، وإحكام إغلاقها، وإلا تسرب العدو منها إلى مقاتل الأمة فأجهز عليها.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبُطَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالِ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢).

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبُطَنَّ﴾ أي: ليتناقلنّ وليتخلفنّ عن الخروج إلى الجهاد، من بطأ بمعنى أبطأ، أو ليبطئن غيره ويشبطه، من بطأ منقولاً من بطؤ^(١)، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]، والواقع فإنّ التباطؤ والتقاعد عن الجهاد يؤدي إلى تشجيع الآخرين على التباطؤ والتقاعد.

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ أي: أصابتكم في الجهاد مصيبة كهزيمة أو قتل.

﴿قَالَ﴾ أي: المتباطئ المتخلف عن الجهاد.

﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ أي: بالعودة والتخلف، فإنه يرى التخلف عن الجهاد نعمة من الله، مع أنه معصية كبيرة.

﴿إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: حاضراً مع المجاهدين في المعركة، فلو كنت معهم لأصابني مثل ما أصابهم.

وهكذا اختلّت نظرتّه إلى الأمور فرأى التخاذل والجبن نعمة من نعم الله تعالى عليه.

(١) انظر: تفسير أبو السعود: ٢/٢٠٠.

﴿وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٣).

﴿وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: فانتصرتهم وغنمتهم.

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأنه غريبٌ عنكم، ولا صلة بينكم وبينه.

﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ أي: كنتُ مع المجاهدين في ميدان القتال.

﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: فأنال نصيباً وافراً من الغنيمة.

فهو يتحسّر على الكسب المادي الذي فاته بسبب تخلفه عن الجهاد، لا على ما فاته من ثواب الجهاد وشرفه، وكأن الآية تكشف سبب جبنه وتخلفه عن الجهاد، إنه الحرص على المنافع المادية، والتعلق بالشهوات الأرضية الفانية، وهذا ما صرحت به الآيات الكريمة في موضع آخر: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَالَكُمُ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمُ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وأعرضت الآيات عن المتخلفين، والتفتت إلى المجاهدين تحضُّهم على الجهاد، وتبيّن لهم الثواب العظيم، الذي أعدّه الله لهم:

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَاتِلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤).

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة.

فكلمة ﴿يَشْرُونَ﴾ من ألفاظ الأضداد، وقد جاءت بمعنى البيع أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَأَنُوفِهِم مِّنَ الزَّهْدِ﴾ [يوسف: ٢٠].

فهم الذين تعلقت قلوبهم وأرواحهم بالآخرة فأثروها على الدنيا، فإن تقاعس المتقاعسون عن القتال فليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في سبيل الله طلباً لرضوانه وفسيح جناحه .

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: فللمجاهدين الأجر العظيم والثواب الجزيل في حال استشهادهم، أو في حال فوزهم على عدوهم وانتصارهم .

فليس أمام المجاهدين في أرض المعركة إلا إحدى الحُسنيين: الشهادة أو النصر، كما جاء في الحديث الشريف: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» [رواه مسلم (١٨٧٦)] .

• وجوب مساعدة المستضعفين:

وتابعت الآيات حُضَّ المسلمين على الجهاد والثبات مع بيان مقصد آخر من مقاصده، وهو نصرَةُ المستضعفين، وتخليصهم من المجتمعات الظالمة التي لا يتمتع الإنسان فيها بحقوقه الإنسانية وكرامته .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥) .

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أي: وفي سبيل مساعدة المستضعفين، فإنَّ مساعدة المستضعفين وتخليصهم من أيدي الظالمين جهادٌ في سبيل الله، فهو من قبيل عطفِ الخاصِّ على العام .

والمرادُ بهم الذين يعيشون تحت قهر الظلمة وفي سلطانهم، كالذين لم يتمكنوا من الهجرة من ضعفاء المسلمين، وقد كان الرسول ﷺ كثيرَ الاهتمام بهم حتى كان يدعو لهم في صلاته .

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ» ثم قال قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ: «اللَّهُمَّ نَجِّ عِيَّاشَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ، اللَّهُمَّ نَجِّ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ نَجِّ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، اللَّهُمَّ نَجِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرٍّ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سَنِينَ كَسَنِي يَوْسُفَ» [رواه البخاري (٤٥٩٨)].

وتدلُّ الآية أنَّ على المسلمين أن يساعدوا الجاليات المسلمة المستضعفة التي تعيش في بلاد الكفر، حتى يتمتعوا بحقوقهم كاملةً، ويؤدُّوا العبادات المفروضة عليهم بحرية، فإن كثيراً من الجاليات المسلمة لا تتمتع بأبسط الحقوق الإنسانية، ففي البلاد الغربية التي يرفع أهلها شعارات المحافظة على حقوق الإنسان يُمنع المسلمون من رفع أصواتهم في الأذان، ويضيقون على المرأة المسلمة التي تلبس الملابس الإسلامية الساترة، كما يضيقون عليهم في أسباب كسبهم ومعاشهم.

﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ وهو بيان للمستضعفين وأصنافهم.

وذكرت الآية الولدان تكميلاً للإثارة، والحض على دفع الظلم عنهم، وتنبيهاً على شدة الظلم الواقع عليهم حتى وصل إلى أطفالهم. وفيه إشارة إلى أنَّ الإسلام يحفظ حقوق جميع الناس صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ أي: الذين ظلم أهلها بالكفر والشرك والعدوان على حقوق المستضعفين.

ودلَّ دعاؤهم هذا على أنهم كانوا متبرِّمين من الإقامة فيها، ويتمنَّون مغادرتها، بسبب ما يلقون فيها من ظلم وعدوان.

﴿وَأَجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: اجعل لنا ولياً يتولَّى أمرنا، ويستنقذنا من أعدائنا.

﴿وَأَجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ أي: ينصرنا عليهم.

كانوا يدعونه بالخلاص ويستنصرونه، فيسرَّ الله لبعضهم الخروج إلى

المدينة، وبقي بعضهم إلى الفتح، حتى جعل الله لهم من لدنه خيرَ وليٍّ وناصر، وهو محمد عليه الصلاة والسلام، فتولاهم أحسنَ التولي، ونصرهم أقوى النصر^(١).

• بين غايتين:

ثم عقدت الآيات مقارنةً بين الغاية الأساس للقتال عند المسلمين، وبين غاية القتال عند المشركين؛ إبرازاً لنبل وسمو غاية القتال عند المسلمين، وهو أسلوبٌ جديدٌ اتبعته الآيات لحث المسلمين على القتال، بتعريفهم بغايته النبيلة، إذ الأشياء تُعرفُ بأضدادها:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وشتان ما بين الغايتين والمقصدتين، بين الذين يقاتلون لرفع كلمة الله في الأرض، ونشر دين الحق وشريعة العدل والسماحة، وبين الذين يقاتلون من أجل رؤوس الشرك والكفر والظلم ودعاة الضلال والفساد.

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: فقاتلوا يا جندَ الرحمنِ أتباعَ الشيطانِ وأنصاره وجنوده، ولا تخافوا منهم ومن مكرهم وكيدهم واحتيالهم.

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ وهو رأس الطواغيت.

﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ لأنه تعالى يؤيدكم وينصركم.

ولا يعني هذا الاستهانة بمكر الأعداء، فمكرهم في حدّ ذاته كبيرٌ وخطيرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، فعلينا واجب الحذر منه، والعمل على كشفه وإبطاله.

(١) تفسير النسفي: ١١٦/٢.

وعادتِ الآياتُ إلى أسلوب التعجيب، التعجيب من أحوال هؤلاء الجبناء المتقاعسين عن القتال، والذين كان بعضهم قبل التكليف به ونزول آياته يطلبونه ويتشوقون إليه، فلمَّا كُلفوا به جبنوا وتقاعسوا عنه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْفَى وَلَا تُظْلَمُونَ قَلِيلًا ۝﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: عن القتال.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: اشتغلوا بما أمرتم به من الطاعات كالصلاة والزكاة.

فلا ينبغي للمؤمن أن يتعرض للبلاء ويتمناه، فقد يجزع ويضعف عند لقائه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «أيُّها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتهموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قال: «اللهم مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصِرْنَا عَلَيْهِمْ» [رواه البخاري (٢٩٦٦)].

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فِرْقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ أي: يخافون من قتال الكفار كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسه، لا شكا في الدين، ولا رغبة عنه، ولكن نفورا عن الأخطار بالأرواح، وهذه خَشْيَةُ طَبْعٍ، لا أن ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقاداً، فالمرء مجبولٌ على كراهة ما فيه هلاكه غالباً^(١).

ويمكن صدور مثل هذا الشعور عن أي إنسان بحكم جبلته وأصل فطرته، قال تعالى يصفُ حال بعض المؤمنين عندما توجه النبي ﷺ إلى بدر: ﴿كَمَا

(١) تفسير النسفي: ١١٨/٢.

أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَانَمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ [الأنفال].

وقد تكون هذه الآيات في المنافقين، فإن التكليف بالقتال يمحّص المؤمنين، ويميز بينهم وبين المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

ويؤكد هذا المعنى ما حكاه سبحانه بعد ذلك من أقوالهم:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾، فمثل هذا القول لا يصدر عن المؤمنين؛ إذ فيه اعتراض على حكم شرع الله تعالى، وإن كان بعض المفسرين رأى أنه سؤال عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم، لا اعتراض لحكمه^(١).

لكن يضعف هذا الرأي سؤالهم تأخير تكليفهم بالقتال:

﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: هلا تركتكم ولم تفرض علينا القتال، حتى نموت بآجالنا. والقائلون لهذا القول هم المنافقون، لأن هذا القول لا يليق بالمؤمنين^(٢).

﴿قُلْ مَنَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي: تمتعكم بالدنيا قصير؛ لأنها فانية زائلة، وهذا يدل على أن تعلقهم بالدنيا هو الذي حملهم على التثاقل عن القتال والخشية منه.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الله تعالى بطاعته، وبإدراكه تنفيذ أمره، مجاهدًا في سبيله.

﴿وَلَا تَظْلُمُونَ فِتْلَةً﴾ أي: ولا تنقصون من أجوركم شيئًا قليلًا، ولو قدر فتيل، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَزِيَّكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

ودلت الآيات على أن أحكام الشريعة الإسلامية لا تتأثر بعواطف الناس،

(١) تفسير النسفي: ١١٨/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١١٨/٢.

ولا تستجيب لموجات الحماس الآنية التي تطرأ عليهم، إنها تشريع العليم الحكيم الخبير.

• تطيّر ونفاق:

ثم ذكّرتهم الآيات بحقيقة يعرفونها، لكنهم يغفلون عنها في غمرة انشغالهم بالدنيا وتعلقهم بما فيها:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَلَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: ينزل بكم الموت، فلا نجاة لكم منه، فالأجل مقدّر، والتباطؤ عن الخروج إلى الجهاد لا يمنع منه.

والتعبير بـ ﴿يُدْرِكُكُمُ﴾ يدل على شدة تباعدهم عن أسباب الموت، وهو قريب جداً منهم، فهم مجذّون في الهرب منه، وهو مجدّ في طلبهم، لا يفتر نفساً واحداً في التوجه إليهم^(١).

فحال الموت معهم طالب ومطلوب، والمطلوب لا يفوت الطالب مهما أمعن بالهرب والفرار.

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: ولو كنتم في حصون مرفوعة عالية.

فالله سبحانه قدّر لكل نفس موعداً مع الموت فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ومن عادة الجبناء المتقاعسين عن القتال، كثرة التشاؤم والتطيّر، وتوقع المكروه، وهو أمر مذموم، حكاه الله تعالى عن المعارضين لدعوة الأنبياء كقوم

(١) روح المعاني: ٨٧/٥.

فرعون، قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وذكره أيضاً سبحانه من قول أصحاب القرية التي جاءها المرسلون: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

وذكره الله سبحانه هنا من أقوال أعداء النبي ﷺ من يهود المدينة والمنافقين فيها:

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي: ما تحسن أحوالهم به في الدنيا، كالنصر والسعة في العيش والرخاء.

﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ينسبونها إلى الله تعالى.

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: ما تسوء بها أحوالهم كالهزيمة والقحط وغلاء الأسعار.

﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: ينسبونها إلى النبي ﷺ، ويضيفوها إليه، قائلين: ما حصلت إلا بشؤمك.

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: كل من الخير والشر بقضاء الله تعالى وقدره، فهو سبحانه خالق كل شيء، كما قال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يكادون يفهمون حديثاً.

وهو تقييح لحالهم، وتعجيب من شدة غباوتهم.

ولما كان الموضوع يتصل بأمر هام من أمور الاعتقاد، فصله سبحانه بعدما أجمله، حتى لا يبقى فيه أدنى لبس أو غموض، فقال:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي: فمنه سبحانه خلقاً وإحساناً وتفضلاً.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَبِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي: منكم أيها الإنسان تسبباً واستجلاباً، فهو كقوله في موضع آخر: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فالمصائب والبلايا منا تسبباً، ومن الله تعالى خلقاً وإيجاداً وتقديراً، كما قرر فيما سبق: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي: إن الله تعالى أرسلك رسولا للناس، تبين لهم دين الله وشرعه، ولا علاقة لك في الحوادث، ولا تأثير لك عليها.

فهو ردُّ على قولهم عندما تصيبهم السيئة: ﴿هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء: ٧٨].

وفيه دليل أيضاً على عموم رسالته عليه الصلاة والسلام، فهو رسول إلى كل الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق نبوتك وعموم رسالتك.

وأوجب الله تعالى طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، وجعلها طاعة له سبحانه؛ تأكيداً لصدق رسالته وصحة نبوته، فقال:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ (٨٠).

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ لأنه عليه الصلاة والسلام المبلغ عن الله تعالى.

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ أي: تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

ويجب الإخلاص في طاعة الرسول ﷺ، كالإخلاص في طاعته تعالى، في القول والعمل، والسر والعلن، ولا ينبغي أن تكون طاعته عليه الصلاة والسلام كطاعة المنافقين، الذين كانوا يتظاهرون أمامه بالانقياد والطاعة، ويضمرون في قلوبهم مخالفته ففضحهم الله تعالى بقوله:

﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١).

﴿وَيَقُولُوا طَاعَةٌ﴾ أي: يقولون إذا أمرتهم بأمر: أمرك طاعة.

﴿فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا من عندك.

﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: أضمر فريق منهم مخالفة أمرك.

فالتبَيُّت: كلُّ أمرٍ يُفَعَّلُ بالليل. أو من الإعداد والتزوير بالنفس، كما يفعل الشاعرُ عندما يبيِّت ما يقول شعراً في نفسه، والمراد أنهم يضمرون خلاف ما يظهرون.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ لأنه تعالى عليم بذات الصدور، ويكتبه عليهم ليجازيهم عليه.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبالِ بهم، فإنهم لا يضرّون بذلك إلا أنفسهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كفى به سبحانه وليّاً وناصرّاً وحافظاً ومعيناً لمن توكل عليه.

• التحدي بمعاني القرآن الكريم:

ومن الطبيعي بعد أن وصفتهم الآيات بقلّة الفهم، في قوله تعالى الذي مرّ معنا: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] أن تدعو الناس إلى إعمال الفكر في آيات القرآن الكريم؛ لفهم معانيها، والاسترشاد بهديها:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي: يتأملون في معانيه، ويتبصّرون في مبانيه.

والتدبر: التأمل والنظر في أدبار الأمر، وما يؤول إليه في عاقبته، ثمّ استعمل في كل تأمل وتفكير^(١).

(١) تفسير النسفي: ١٢٣/٢.

ولا يخفى ما في الآية من تحدٍّ للمعاندِين المخالفين، فهذه دعوة قرآنية تدعو المتشككين في صحته وصدقه إلى التأمل والتفكر في معانيه، فشاهد صدقه وصحته فيه، ومخالفتهم للقرآن وتشككهم في صحته نتيجة قصورهم عن فهم آياته، فالعيبُ فيهم، والقصورُ منهم؛ ولهذا قال سبحانه في موضع آخر: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْفَرَاءَاتٍ أَمَرَ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فمعاني القرآن الكريم بارزة واضحة، وقلوبهم هي المقفلة دون فهمها وإدراكها.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: كما يزعم الكفار والجاحدون.

﴿لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: لوجدوا فيه تناقضاً وتفاوتاً كثيراً، كما هو حال كلام البشر.

فلا يوجد متكلم من البشر يتكلم كثيراً، إلا وقع في كلامه اختلاف كثيراً وتضارب، كالتفاوت في اللفظ، أو التناقض في المعنى، أو مخالفة الحقيقة والواقع، بينما القرآن الكريم كله في أعلى درجات البلاغة يشبه بعضه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً، ويُفسر بعضه بعضاً، كما قال تعالى في وصفه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

فلا يوجد فيه أدنى تناقض وتفاوت واضطراب، ودل ذلك على أنه كلام الحكيم العليم: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

● التحذير من نشر الإشاعات:

ومن عادة الجبناء المتقاعسين عن القتال، إشاعة الأكاذيب، ونشر الأراجيف، وهو أمر مذموم، يستفيد منه الأعداء كثيراً في أوقات الحروب والأزمات، وللإشاعات في العصر الحاضر تأثير كبير على سير القتال ونتائجه،

ويسمّون ذلك الحرب الإعلامية النفسية، وقد اهتمّت بها الدول كثيراً، ورصدت لها الأموال الضخمة، وحشدت لأجلها كثيراً من المختصين بها، وبين ﷺ خطرها وأهميتها بقوله:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣).

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي: إذا وصل إلى مسامعهم أي خبر يوجبُ أمناً أو خوفاً، بادروا إلى إذاعته بين الناس قبل التثبت من صحته.

وكثيراً ما يعمد العدو إلى إشاعة أخبار كاذبة عن هزيمته وضعفه، فيأمن الناس، ويتركون أسباب الحذر والحيلة، فيباغتهم بهجومه، أو يشيع أخباراً عن هزيمة لحقت بسرية من سرايا المسلمين، تؤدّي إلى انتشار الذعر والخوف والاضطراب في سائر صفوف المسلمين وجنودهم، فيستفيد العدو من ذلك أيضاً، والواجب في مثل هذه الأحوال السكوت، وعدم إذاعة وإشاعة ما تسمع. وقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» [رواه مسلم في المقدمة (٥)].

والواجب أيضاً التثبت من صحة الأخبار، وذلك بسؤال أهل الخبرة والاختصاص، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: إلى أصحاب الاختصاص، الذين يعرفون حقيقة ما يذاع ويشاع.

﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: لعلم حقيقة هذا الخبر أهل التدبير والفتنة والتجربة، وهم المختصون بمعرفة مكاييد العدو في الحروب.

والاستنباط: من النبط، وهو الماء الذي يخرج من البئر أول ما تحفر،

واستنباطه استخراجاً، فاستعير لما يخرج الرجل من المعاني بفضل ذكائه وصفاء ذهنه وفطنته^(١).

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: بما شرع لكم من أسباب السلامة والوقاية، ونبّهكم وحذركم من مكاييد عدوكم.

﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ أي: لوقعتم في أشراك الشيطان وحبائل أعوانه من شياطين الإنس والجن.

﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: إلا قليلاً من ذوي الفطنة والذكاء والمعرفة والتجربة، وهم أهل البصائر النافذة، والعزائم المتمكنة، والنيات الخالصة من أفاضل المؤمنين، الذين يعلمون أنه ليس من شرط كون الدين حقاً حصول الدولة في الدنيا، أو كونه باطلاً حصول الانكسار والانهازم، بل مدار الأمر في كونه حقاً وباطلاً على الدليل^(٢).

وفي الآية حثٌّ على الوقاية والحذر من مكاييد العدو، وذلك برصد حركاته ووسائل إعلامه، ودراسة كل ما يصدر عنه من إذاعات وإشاعات، لمعرفة مقاصده وأهدافه القريبة والبعيدة، فالقرآن الكريم يربّي المسلمين، ويهيئهم لظروف الحرب والسلام.

وفيها إشارة أيضاً أن استنباط الحقائق والأحكام من مظانها، يتصدى له المختصون من العلماء، فهو فنٌّ من الفنون لا يحسنه إلا أصحاب الدراية والاختصاص، كما جاء في الحديث الشريف: أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: «فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليلبّغ الشاهد الغائب، فإنّ الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه» [رواه البخاري (٦٧)].

وفي رواية أخرى بلفظ: «ربّ مبلغٍ أوعى من سامعٍ».

(١) تفسير الخازن: ١٢٤/٢.

(٢) روح المعاني: ٩٥/٥.

• التحريض على القتال:

ولمّا فرغت الآيات من وصف مواقف المتقاعسين عن القتال والجهاد، التفتت فجأةً إلى النبي ﷺ تأمره أن يقاتل في سبيل الله وحده، وبهذا تعود الآيات إلى ما سبق من التحريض على القتال بأسلوب جديد:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤).

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ولو تخلف عن القتال معك الجبناء المتقاعسون. ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: لا يضرك قعودهم وتقاعسهم، فتقدم إلى الجهاد، وإن لم يخرج معك أحد، فإن النصر من الله تعالى لا من الجنود. وما كان ﷺ ليأمره بشيء إلا وهو كفء له، فهو ﷺ مليء بمقاتلة الكفار كلهم وحده، وإن كانوا أهل الأرض كلهم^(١).

والجدير بالذكر أن الصحابة رضي الله عنهم لم يتخلفوا عن الخروج إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ، بل كانوا يحرسون حرصاً شديداً على الخروج معه، حتى إن بعضهم كان يبكي أسفاً وحنناً إذا لم يتمكن من الخروج معه إلى الجهاد، وقد خلد الله تعالى في التنزيل الحكيم دموعهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْعَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

وكان رسول الله ﷺ يتخلف أحياناً عن الخروج إلى الجهاد مواساةً لهم، ويقول في ذلك: «والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

فما كان يتخلف عن الخروج إلى الجهاد معه عليه الصلاة والسلام إلا المنافقون وأصحاب الأعذار، وثلاثة فقط من غير المنافقين وأصحاب الأعذار تخلّفوا عنه في غزوة تبوك، وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وقد شهد الله تعالى بجهاد الصحابة رضي الله عنهم مع رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصُورِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبُهُمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال].

وأكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: رغبهم في القتال وشجعهم عليه، كما قال في سورة الأنفال: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ الآية [٦٥].

وفي هذا دليل على أن من واجب أمير الجند الاهتمام برفع معنويات جنوده، فإنه يؤدي إلى ثباتهم واستبسالهم، ويسمونه في العصر الحاضر التوجيه المعنوي، أو التعبئة النفسية.

وكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك، ففي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال في ميدان المعركة في غزوة بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فسمعه عمير بن الحمام الأنصاري فقال: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ بخ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها» فأخرج تمرات من قرنه (أي: جعبته) فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل. [رواه مسلم (١٩٠١)].

وكان قادة الجند من الصحابة يفعلون ذلك، فقد روي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أنه قال لجنده وهم يواجهون العدو: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ

أَبْوَابِ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ» فقام رجلٌ رثَّ الهيئةَ، فقال: يا أبا موسى أَنْتَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ، فَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ. ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيْفِهِ، فَأَلْقَاهُ، ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْعَدُوِّ، فَضْرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ. [رواه مسلم (١٩٠٢)].

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لعلَّ الله أن يكفَّ قوة الكفار وشدتهم بثبات المؤمنين واستبسالهم.

وكلمة ﴿عَسَى﴾ تفيدُ بالنسبة لله تعالى تحقق الوقوع.

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أي: قوة، فهو القوي القادر القاهر.

﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ أي: عقوبة وعذاباً.

فإنَّه تعالى قادرٌ على تدمير قوة الكافرين من غير تكليف المؤمنين بقتالهم، ولكنَّه تعالى جعل الحياة دارَ اختبارٍ وابتلاءٍ وتكليفٍ، ولهذا كلَّف المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال عز شأنه: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمَّد: ٤].

• الدال على الخير كفاعله:

والداعي إلى الجهاد والمعرض عليه كالمجاهد في الأجر، بيَّن سبحانه ذلك من خلال تقريره للقاعدة التالية:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾ (٨٥).

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً﴾ أي: يشفع لغيره ليجلب له حقاً، أو يدفع عنه ضرراً، أو يحرضه على عمل مشروع مبرور، أو يصلح بين متخاصمين، بشرط أن يفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى.

﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أي: من ثواب الشفاعة، أو من ثواب الخير الواقع

بها، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» [رواه مسلم (١٥٠٦)].

وقال أيضاً: «مَنْ دَعَا إِلَى هَدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أَجْوَرٍ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أَجْوَرِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

وكما أَنَّ الداعي إلى الخير له مثل أجور من تبعه، فالداعي إلى الشر عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً﴾ كَانَ يَدْعُو إِلَى بَدْعَةٍ أَوْ ضَلَالَةٍ، أَوْ يَعُوْقُ عَنْ طَاعَةٍ وَعِبَادَةٍ، أَوْ تُوْدِي شَفَاعَتَهُ إِلَى ظَلَمِ النَّاسِ وَالْعُدْوَانِ عَلَى حَقِّهِمْ: ﴿يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ أَي: نصيب من وزرها.

والكِفْلُ: هو المثل المساوي.

واختيار النصيب في الشفاعة الحسنة؛ لأنَّ جزاء الحسنة يضاعفُ، والكِفْلُ في الشفاعة السيئة؛ لأنَّ من جاء بالسيئة لا يُجْزَى إلى مثلها، ففي الآية إشارة إلى لطف الله تعالى بعباده^(١).

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيّاً﴾ أَي: مقتدراً أو حفيظاً.

● السلام في الإسلام:

وتستدعي الشفاعة اللقاء والزيارة، ومن أهمَّ آدابها التحية، وتحية المسلمين فيما بينهم السلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

فالإسلام دينُ السلام والمحبة، ودينُ التواصل والتعاون، وما شرع الله تعالى الجهاد، وحرَّض على القتال إلا لدفع العدوان، ورد الظلم، وقمع الطغيان، ونشر دعوة الإسلام بين الناس، فكان من المناسب في سياق آيات

(١) روح المعاني: ٩٨/٥.

التحريض على القتال، إيراد آية التحية والسلام؛ إبرازاً لحرص الإسلام على نشر السلام والتعاون بين الناس.

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ۝٨٦﴾

﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَةٍ﴾ أي: إذا قوبلتم بتحية، أو وُجِّهت لكم تحية، كأن يقال: حياك الله، أو حياكم الله، أي: جعل الله لك حياة، فهي دعاء. وكانت العرب تقول هذه اللفظة، فلما جاء الإسلام بدل بذلك السلام، وإنما اختير لفظ السلام على لفظ حياك الله؛ لأنه أتم وأحسن وأكمل، فمعنى السلام السلامة عن الآفات، فإذا دعا الإنسان بطول الحياة بغير سلامة، كانت حياته مدمومة منغصة^(١).

ومن عادة العرب أيضاً أنهم إذا تبادلوا التحية عند اللقاء، كان ذلك دليلاً على المسالمة والمودة وعدم الاعتداء، فكانوا يرون التحية عهداً والتزاماً بالمسالمة والمودة، ينبغي الوفاء به.

﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي: قابلوا التحية بأحسن منها، فالإسلام يشجع كل فضيلة، ويحث على التنافس في الخيرات، والتسابق إلى الفضائل.

﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: ردوا مثلها، فالزيادة على التحية مندوبة، والمماثلة مفروضة.

وفي الحديث الشريف: عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه، فقال النبي ﷺ: «عشر» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ فجلس، فقال: «ثلاثون» [رواه أبو داود (٥١٩٥) والنسائي (في الكبرى) والترمذي (٢٦٨٩) وحسنه].

فالمماثلة في الردَّ مشروعة في الإسلام.

(١) انظر: تفسير الخازن: ١٢٧/٢.

قال القرطبي رحمته الله: «أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنّة مرعّب فيها، ورده فريضة؛ لقوله تعالى: ﴿فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾»^(١).

وإنما كان الردّ واجباً لأنّ السلام معناه الأمان، فإذا ابتدأ به المسلم أخاه فلم يجبه، فإنّه يتوهم منه الشر، فيجب عليه دفع ذلك التوهم عنه^(٢).

واتفقوا على أن من سلّم لم يجزئ في جوابه إلا السلام، ولا يجزئ في جوابه: صُبِّحْتَ بالخير، ونحو ذلك^(٣).

فالتحية في الإسلام السلام ابتداءً وردّاً، وقد حثّ النبي صلى الله عليه وآله على إفشائه بين المسلمين، للأثار الطيبة التي تترتب عليه، فقال صلى الله عليه وآله: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [رواه مسلم (٥٤)].

فالسلام سنّة لمن عرف ومن لا تعرف.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي: محاسباً ومجازياً على كل شيء، ومنه التحية وردّها.

والحساب والجزاء يوم القيامة، دليل على كمال قدرته تعالى وتمام حكمته وعدله، ولهذا أكده تعالى بقوله:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧).

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو الواحد الأحد، الذي لا معبود بحق سواه.

﴿لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك فيه.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أكثر صدقاً من الله تعالى.

(١) تفسير القرطبي: ٢٩٨/٥.

(٢) فتح الباري: ٧/١١.

(٣) المصدر السابق: ١٤/١١.

فإخباره تعالى عن يوم القيامة حقٌّ وصدقٌ لا خُلْفَ فيها أبداً.

• توحيد المواقف من المنافقين:

وبعد التحذير والتنفير والحضُّ على القتال، وكشف مواقف الجبناء المتقاعسين عنه، انتقلت الآياتُ إلى الحديث عن المنافقين، فهم أكثرُ الناسِ تقاعساً عن الجهاد، وتعويقاً عنه، كما أنهم أنشط الناس في نشر الإشاعات الكاذبة، وإذاعة الأراجيف في أثناء القتال، إنهم الطابور الخامس الممالي للعدو، كما يسمُّون في هذا العصر، يعملون جاهدين لتفكيك المجتمع الإسلامي، وإشاعة الخلل والاضطراب فيه، فهم أخطر عليه من العدو الظاهر، الذي يقاتله المسلمون في ميادين القتال، فليس للمنافقين ميدان معيَّن يواجهون فيه، فهم مبعوثون ومنتشرون بين المسلمين في كل مكان، ويشكلون جزءاً من البنية الداخلية للمجتمع، ويعرفون جميع مداخله وعوراته وثغراته ونقاط ضعفه، فلا عجب أن تهتمَّ الآياتُ الكريمةُ بهم في سياق حديثها عن القتال والجهاد، ومواقف المتقاعسين والمعوقين، فخطرهم كبير، وضررهم عظيم، وعلى المسلمين واجب الحذر منهم، وأن يقفوا منهم موقفاً موحداً، لا تردد فيه، ولا اختلاف؛ فأوقاتُ الحروب والأزمات لا تحتمل مواقف الخلاف والنزاع والتردد؛ ولهذا قال سبحانه منكرًا على المسلمين اختلافهم في شأن المنافقين:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨).

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ أي: ما لكم تفرقتم في شأن المنافقين فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم.

﴿وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: والله سبحانه ردَّهم إلى الكفر بسبب أعمالهم الخبيثة. فأصل معنى الركس لغةً: ردُّ الشيء مقلوباً.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: من أبعد الله عن الهدى بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى الهداية، فكل طرق الهداية مسدودة عليه؛ بسبب انطماس بصيرته، وإصراره على كفره وفجوره. وكيف ترجون هدايتهم، وهم يريدون الكفر لكم؟!:

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩).

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أي: متساوين معهم في الكفر. ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا توالوهم وتجعلوهم لكم أصحاباً وأنصاراً. ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: حتى يؤمنوا ويبرهنوا على صدق إيمانهم بهجرة خالصة في سبيل الله تعالى.

والهجرة إما أن تكون من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو بهجر الكفر والفجور، أو بالخروج للقتال والجهاد في سبيل الله.

ويبدو أن المراد منها هنا المعنى الأخير؛ إذ جاءت الآية في سياق ما سبق معنا من آيات التحذير والتنفير، وكان المنافقون يتخلّفون عن الخروج إلى القتال، فإذا ما خرجوا إليه وثبتوا فيه، دلّ ذلك على صحة إيمانهم وصدق إسلامهم.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله تعالى. ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكان ظفرتهم بهم وتمكنتهم منهم.

﴿وَلَا تَنَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوها منهم، فهم في الحقيقة لا يقدمون لكم إلا الخذلان والضعف.

ثم استثنى الآيات طوائف منهم بقوله تعالى :

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغَنِّيلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُغَنِّيلُوكُمْ وَآلَقُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۖ﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي : إلا الذين ينتسبون وينتمون إلى قوم بينكم وبينهم عهد ومسالمة .

وهذا الاستثناء يرجع إلى القتل لا إلى الموالاة ؛ لأن موالاة الكفار والمنافقين لا تجوز بحال^(١) .

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ أي : أو الذين جاؤوكم ممسكين عن القتال ، لا معكم ولا عليكم ، وهم طائفة ثانية غير الأولى ، ينتسبون إلى قوم محاربين للمسلمين ، جاؤوا إلى المسلمين ، يعلنون بألسنتهم دخولهم في الإسلام .

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُغَنِّيلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي : ضاقت صدورهم عن قتالكم ؛ لأن ذلك يظهر نفاقهم ، كما ضاقت عن قتال قومهم ؛ لأنهم أقاربهم .

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَنَلُوكُمْ﴾ أي : من لطفه سبحانه بكم أن كفهم عنكم .

﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُغَنِّيلُوكُمْ وَآلَقُوا إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ﴾ أي : المسالمة والمصالحة .

﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي : فما أذن تعالى لكم في قتالهم .

وثمة طائفة ثالثة من المنافقين ، لهم حكمٌ يختلف عن الطائفتين سالفتي

الذكر، فهؤلاء لا همّ لهم إلا أنفسهم ومصالحهم، فهم يتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين، ويتظاهرون بالكفر أمام قومهم:

﴿سَتَجِدُونَ ءٰخِرِينَ يُرِيدُونَ اَنْ يَّامُنُوْكُمْ وَيَٰمَنُوْا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوْا اِلَى الْفِتْنَةِ اُرْكَسُوْا فِيْهَا فَاِنْ لَّمْ يَعْزِلُوْكُمْ وَيَلْقَوْا اِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوْا اَيْدِيَهُمْ فَاْخْذُوْهُمْ وَاَقْلُوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ وَاُوْلٰئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا ﴿٩١﴾﴾ .

﴿سَتَجِدُونَ ءٰخِرِينَ يُرِيدُونَ اَنْ يَّامُنُوْكُمْ﴾ أي: يأمنوا منكم بالتظاهر بالإسلام.

﴿وَيَٰمَنُوْا قَوْمَهُمْ﴾ أي: بالوفاق وإظهار الكفر.

﴿كُلٌّ مَا رَدُّوْا اِلَى الْفِتْنَةِ اُرْكَسُوْا فِيْهَا﴾ أي: كلما دُعوا إلى الكفر رجعوا إليه وانتكسوا فيه، فإذا ما دعتهم مصالحهم وأهوائهم إلى الكفر والشرك، كفروا وأشركوا، فهم أسرى مصالحهم وأهوائهم.

﴿فَاِنْ لَّمْ يَعْزِلُوْكُمْ﴾ أي: إن لم يتركوا قتالكم.

﴿وَيَلْقَوْا اِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ أي: ولم ينفادوا لكم مسالين.

﴿وَيَكْفُرُوْا اَيْدِيَهُمْ﴾ أي: ولم يكفوا عن قتالكم سرّاً أو جهراً.

﴿فَاْخْذُوْهُمْ وَاَقْلُوْهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ﴾ أي: حيث ظفرتم بهم وتمكنتم منهم.

﴿وَاُوْلٰئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا﴾ أي: جعلنا لكم حجة واضحة في قتالهم؛ وذلك لظهور حالهم من الغدر والكفر.

• حكم القتل خطأ:

ودلّ تقسيم المنافقين إلى هذه الطوائف الثلاث، والتمييز بينها في الحكم، على حرص الإسلام على نشر السلم والعدل بين الناس، وأنه سبحانه عندما شرع القتال ما جعله غايةً في حدّ ذاته، إنّما شرعه وسيلةً لنشر العدل والسلام، ولهذا قال تعالى في بيان حكم القتل خطأ:

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ أي: ليس من شأن المؤمن ولا يليق به أن يقتل مؤمناً بغير حق، إلا على وجه الخطأ، كأن يرمي حيواناً أو عدواً محارباً فيصيب مسلماً.

فقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ﴾ ليست على النفي، وإنما هو على التحريم والنهي، كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]^(١).

ولما كان إثم الخطأ مرفوعاً في الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥] بين تعالى أن الأمر في القتل الخطأ ليس كذلك؛ حفظاً للنفوس، فعلى الإنسان واجب الثبوت والتحرّي والتأني، عند أي فعل يمكن أن يؤدي إلى القتل. وعلى القاتل خطأ الكفارة حتى يغفر الله له إثم ترك الثبوت، وقد بينها سبحانه بقوله:

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعليه تحرير نفس مؤمنة من الرقّ وذلّ العبودية.

وفي الآية إشارة إلى أنّ الحرية حياة، وأنّ العبودية موت، فمن تسبّب في موت نفس حية، فعليه أن يسعى في إحياء نفس كالميتة، وهي النفس المستعبدة، وذلك بتحريرها وتخليصها من العبودية.

وتشريع كفارة القتل الخطأ، وسيلة من الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام

لتحرير الأرقاء، وتخليصهم من ذلّ العبودية، وإلى جانب ذلك ضيق الإسلام طرق الاسترقاق، وأغلق منافذه الكثيرة التي كانت في الجاهلية، فقصرها على وسيلة واحدة، وهي الأسر في أثناء القتال، بعد أن يأذن ولي أمر المسلمين في استرقاق الأسرى، إذا رأى المصلحة في ذلك.

﴿وَدِيَّةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ أي: وعليه أيضاً دية تسلّم إلى أهل القتيل، وهي ما يُعطى من المال عوضاً عن دم القتيل إلى أهله الذين يرثونه.

﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي: إلا أن يعفو أهل القتيل عن القاتل، بترك أخذ الدية منه، وسُمّي العفو عنها صدقةً حثّاً عليه، وتنبهاً على فضله، وعن النبي ﷺ قال: «كلُّ معروفٍ صدقة» [رواه مسلم (١٠٠٥)]^(١).

وأما الكفارة التي هي حقّ الله تعالى فلا تسقط عن القاتل بعفوهم.

﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ أي: إن كان المقتول خطأً من قوم كفارٍ محاربين لكم.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: والمقتول خطأً مؤمناً.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعلى قاتله الكفارة فقط، ولا تُعطى لأهله الدية؛ لأنهم كفارٌ محاربون، فلا نعطيهم ما يستعينون به على قتالنا.

﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: إن كان المقتول خطأً من قوم كفار معاهدين أو أهل ذمة، فحكمه حكم المسلم في وجوب الكفارة والدية.

فالإسلام يحفظ الحقوق لجميع الناس، ولو كانوا غير مسلمين، ويشرع الأحكام التي تحفظ الحياة، وتُشيع الأمن والسلام بين جميع الناس.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: النفس المؤمنة المملوكة؛ بسبب إفسار، أو تعذر الحصول عليها، كما هو الحال في هذا العصر.

(١) تفسير البضاوي: ١٣٦/٢.

﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين، بدلاً من إعتاق الرقبة المؤمنة.

﴿تُوبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: شرع سبحانه الكفارة والدية، توبة منه سبحانه على القاتل خطأ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فيما أمر وقدر وشرع.

• تحريم العدوان على حق الحياة:

ومهدت الآية السابقة في حكم القتل خطأ، للحكم المقصود تقريره، وهو تحريم قتل النفس، وتقبيح جريمة العدوان على حق الحياة، فقال تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٦).

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ أي: قاصداً قتله، كأن يرميه بآلة تقتل عادةً.

﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

وذلك بسبب ارتكابه جرماً كبيراً عظيماً، وهو القتل والعدوان على الحياة الإنسانية، وقد قرنه تعالى بالشرك، الذي هو أعظم الذنوب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٧٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَذُ فِيهِ مِهْكًا﴾ [الفرقان].

فقتل النفس جريمة كبيرة وورطة عظيمة، وفي الحديث الشريف: عن معاوية رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ ذنبٍ عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» [رواه النسائي (٨١/٧) والحاكم (٤/٣٥١) وصححه^(١)].

(١) انظر: الترغيب والترهيب: ٩٥/٣.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا» [رواه البخاري (٦٨٦٢)].

والجدير بالذكر أَنَّ مثل هذا الوعيد الشديد، الذي ذكرته الآية في قتل المؤمن عمداً، قد أوردتْ السُّنَّةُ مثله في قتل الكافر المعاهد، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مَعَاهِدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» [رواه البخاري (٦٩١٤)].

وَدَلَّتْ الآيةُ الكريمةُ والأحاديثُ الشريفة على خلود القاتل المتعمد في النار، وأنه لا توبةَ له، وشاع هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأجاب بعضُ العلماء بأنَّ ذلك جاء على سبيل التغليظ في الزجر؛ لما مرَّ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ولتظاهر النصوص الدالة على أَنَّ عصاة المؤمنين لا يخلدون في النار، ويجوزُ في حقِّ الله تعالى أن يخلف الوعيد، ويمتنع في حقه أن يخلف الوعد، ومن أدعية الصالحين: يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ وَفَى، وَإِذَا تَوَعَّدَ عَفَا.

وحمل الآخرون الآية على أَنَّها في القاتل المستحلِّ، وكفره مما لا شك فيه، فليس ذلك محلاً للنزاع، واستدلوا بما ورد في سبب نزولها، فقد أخرج ابن أبي حاتم: عن ابن جبير: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَقِيسَ بْنِ ضُبَابَةَ الْكِنَانِيِّ، أَنَّهُ أَسْلَمَ هُوَ وَأَخُوهُ هِشَامٌ، وَكَانَا بِالْمَدِينَةِ، فَوَجَدَ مَقِيسُ أَخَاهُ هِشَامًا ذَاتَ يَوْمٍ قَتِيلًا فِي الْأَنْصَارِ، فِي بَنِي النَّجَارِ، الَّذِينَ قَالُوا: مَا نَعْلَمُ لَهُ قَاتِلًا، وَلَكِنْ نُوَدِّي الدِّيَةَ، فَدَفَعُوا إِلَى مَقِيسَ مِئَةً مِنَ الْإِبِلِ دِيَةَ أَخِيهِ، فَلَمَّا انصرف مَقِيسٌ، وَمَعَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَهْرٍ، أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَعَهُ إِلَى بَنِي النَّجَارِ، عَمِدَ مَقِيسَ إِلَى الْفَهْرِيِّ فَقَتَلَهُ، وَارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَرَكَبَ جَمَلًا مِنَ الدِّيَةِ، وَسَاقَ مَعَهُ الْبَقِيَّةَ، وَلَحِقَ بِمَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي أَهْدَرَ النَّبِيُّ ﷺ دَمَهُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَقُتِلَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ^(١).

ومهما قيل في الآية، فَإِنَّ فِيهَا دليلاً على حرص الشريعة الإسلامية على

(١) انظر: روح المعاني: ٥/ ١١٥.

حماية حق الإنسان في الحياة، فالعدوان على حياة إنسان واحد في نظر الإسلام، عدوان على حياة جميع الناس، قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلٍ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

• الأمر بالتثبُّت في أثناء الجهاد:

ولهذا اتجهت الآيات، تخاطبُ المؤمنين أمرًا لهم بالتثبُّت، في أثناء خروجهم إلى الجهاد، لكي لا يقتلوا نفساً معصومة، ولا يعتدوا على حياة بريئة، فالجهاد في الإسلام ما شرع للقتل وسفك الدماء، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ رَبُّ اللَّهِ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إذا خرجتم إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: فتثبتوا وتحققوا، حتى تميزوا بين العدو المحارب المستحق للقتل، وبين غيره.

وقد نزلت هذه الآية عندما كانت الأسلحة بسيطةً فرديةً، لا تزيد عن سيف ورمح، وأما في العصر الحاضر، وبعد أن صنع الإنسان أسلحة الفتك والدمار الجماعي الشامل، فيتأكد الأمر بالتثبُّت أكثر من ذي قبل، فلا يجوزُ القصف العشوائي الشامل المدمر، الذي يقتل المقاتلين وغيرهم ممن لا يجوز قتلهم.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ أي: لمن حيَّاكم بتحية الإسلام.

وفي قراءة: (السلم) أي: ألقى إليكم الاستسلام والانقياد.

﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي: لست من أهل الإيمان، وإنما قلت ذلك متعوذاً من القتل، فتقتلوه.

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تطلبون غنيمة ماله الذي هو حطام سريع.

وفي الحديث الشريف: عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقة من جُهينة، فصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قال: ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصارِ رجلاً منهم، فلَمَّا غَشِيَنَاهُ، قال: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فكفَّ عنه الأنصاريُّ، فطعنته برمحٍ حتى قتلته، فلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فقال لي: «يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» قلتُ: يا رسولَ اللهِ إِنَّهُ إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قال: «قتلته بعدما قال: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟» فما زال يكرِّرها عليَّ حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك اليوم. [رواه البخاري (٦٨٧٢)].

قوله: (حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم) أي: إن إسلامه كان ذلك اليوم، لأنَّ الإسلامَ يجبُ ما قبله، فتمنى أن يكون ذلك الوقت أول دخوله في الإسلام؛ ليأمن من جريرة تلك الفعل.

وفي رواية عند الطبراني في «الكبير»، والبخاري في «مسنده»: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعثَ سريةً فيها المقدادُ، فلَمَّا أَتَوْهُم وجدوهم تفرَّقوا، وفيهم رجلٌ له مالٌ كثيرٌ، لم يبرح، فقال: أشهدُ أن لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فأهوى إليه المقدادُ فقتله، فذكروا ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ، فقال: «يا مقدادُ، قتلتَ رجلاً قال: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!» فأنزل اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾.

ولا مانع أن تنزل الآية في الأمرين معاً^(١).

﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: عند الله لكم غنائم كثيرة تغنيكم عن قتل أمثاله.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: أول دخولكم في الإسلام، عندما نطقتم

(١) انظر: فتح الباري: ٢٥٩/٨، ١٩٠/١٢.

بلفظ الشهادة، فحصنتم بها أنفسكم وأموالكم، قبل التأكد من صدق إيمانكم، ومن مواطاة قلوبكم لألستكم.

﴿فَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ كُفْرًا﴾ أي: بالهداية وصدق الإيمان، والثبات على الإسلام، وكأن الآية تقول لهم: عاملوا من ينطق بكلمة الإسلام كما عوملتكم. ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: ولا تعجلوا بقتل إنسانٍ معصومٍ الدم، وكرر هذا الأمر تأكيداً لتعظيمه، وبياناً لخطورته.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تسرعوا إلى القتل وسفك الدماء، وخذوا بأسباب الحَيَطة والحذر، فإنه تعالى مَطَّلِعٌ على أعمالكم، وسائلُكم عنها.

• درجات المجاهدين في الجنة:

وحتى لا يحتجَّ المتشاقلون عن الجهاد بما سبق من الأمر بالتثبُّت، فيحتجوا بها على قعودهم، عادتِ الآياتُ تحضُّرُ على الجهاد والقتال، بأسلوبٍ جديدٍ تبيِّنُ من خلاله درجات المجاهدين وفضلهم:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ أي: عن الجهاد.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ أي: غير أصحاب الأعذار، كالمرضى والضعفاء، بسبب الشيخوخة والعجز، فإنهم كالمجاهدين، لأنَّ العذر أَعَدَّهُم عن الجهاد.

وفي الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه قال: كُنَّا مع النبي ﷺ في غَزَاةٍ فقال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» [رواه مسلم (١٩١١)].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَلَى عَلَيْهِ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٩٦﴾ فجاءه ابنُ أمِّ مكتوم، وهو يُملئها عليّ، قال: يا رسولَ الله، والله لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ - وكان أعمى - فأنزلَ الله على رسوله ﷺ وَفَخُذْهُ عَلَى فֶخْذِي، فَثَقُلْتُ عَلَيَّ، حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرْضَ فֶخْذِي، ثُمَّ سُرِّي عَنْهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿عَبْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾. [رواه البخاري (٤٥٩٢)].

﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: لا مساواة بين المجاهدين وبين القاعدين عن الجهاد من غير عذر.

ونفى التساوي بين المجاهد والقاعد بغير عذر، وإن كان معلوماً، توبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه، ونحوه: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٩] فهو تحريك لطلب العلم، وتوبيخ على الرضا بالجهل^(١).

﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي: في الآخرة، فالمراد درجة من درجات الجنة.

قال ابن عباس ؓ: أرادَ بالقاعدينَ هنا أولي الضرر، فضَّلَ الله المجاهدين على أولي الضرر درجة؛ لأنَّ المجاهدَ باشرَ الجهادَ بنفسه وماله مع النية، وأولو الضرر، كانت لهم نية، ولم يباشروا الجهاد، فزَلُوا عن المجاهدين درجة^(٢).

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي: كلاً من المجاهدين والقاعدين وعد الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، بِحُسْنِ عقيدتهم وإخلاصهم في نيتهم.

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ أي: الذين لا عذر لهم ولا ضرر فيهم.

﴿أَجْرًا عَظِيماً﴾ أي: ثواباً جزيلاً، بيَّنه سبحانه بقوله بعد ذلك:

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٩٦).

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾، ففي الجنة درجات خاصة للمجاهدين، ذكرها النبي ﷺ في قوله: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ

(١) تفسير النسفي: ١٤٤/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١٤٥/٢.

حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نَبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فِإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ - وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

قال ابن حجر رحمته الله: «وليس في هذا السياق ما ينفي أن يكون في الجنة درجات أخرى، أُعِدَّتْ لغير المجاهدين، دون درجة المجاهدين»^(١).

ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر لهم ويرحمهم.

• الهجرة من بلاد الكفر والظلم:

وكما قرَّرَ الإسلام للإنسان حقوقه كاملةً، أوجبَ عليه أن يسعى بنفسه لتحصيل هذه الحقوق، بأن يجاهد لتحصيلها - كما مرَّ - فإن غلبَ وعجزَ عن تحصيلها بنفسه، فعليه أن ينأى عن الإقامة في البلد الذي تُهدَّرُ فيه حقوقه، ولا تصان كرامته، ويفتن فيه عن دينه، فسلامةُ الدين هي أوَّلُ المهمات في نظر الإسلام، ولهذا أنزل الله في المتقاعسين والمتثاقلين عن الهجرة، فراراً بدينهم وحقوقهم، قوله الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم عند حلول أجالهم.

﴿طَالِيَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: وهم في حال ظلمهم أنفسهم، بسبب إقامتهم في بلد يُفْتَنون فيه عن دينهم، وتصادر حقوقهم، ولا تصان كرامتهم.

ويبدو أنَّ هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة، أسلموا، ولم يهاجروا، وأجبروا على الخروج مع جيش المشركين إلى بدر، فقتل بعضهم في صفوف المشركين.

وهو ما تفعله في العصر الحاضر كثير من دول الكفر، إذ تجنّد رعاياها من المسلمين، وتسوقهم إلى قتال الشعوب المسلمة، والعدوان على بلادهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **إِنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، يَكْثُرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ يُرْمَى بِهِ فَيَصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يَضْرِبُ فَيَقْتُلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِيَ أَنْفُسِهِمْ﴾.** [رواه البخاري (٤٥٩٦)].

قال ابن حجر: «هكذا جاء في سبب نزولها، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، عند ابن المنذر والطبري: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يخفون الإسلام، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت، فكتبوا بها إلى مَنْ بَقِيَ بِمَكَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَا عَذْرَ لَهُمْ»^(١).

﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: قالت لهم الملائكة: في أي الفريقين كنتم؟ أفي فريق المسلمين أم في فريق المشركين؟ وهو سؤال توبيخ وتقريع.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كنا مقهورين ذليلين في أرض الكفر، فأكرهنا الكفار على الخروج إلى القتال معهم، وقولهم هذا اعتذار عما وبّختهم الملائكة به، لكن الملائكة لم تقبل اعتذارهم، وردوه عليهم مكذبين موبخين:

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ أي: كنتم قادرين على الهجرة، وأرضه سبحانه واسعة، فلماذا لم تهاجروا فراراً بدينكم كما فعل غيركم؟.

﴿فَأُولَٰئِكَ مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم إلى أن تكون جهنم مسكنهم وموضع إقامتهم، بسبب ترك الهجرة الواجبة عليهم، حتى فتنوا عن دينهم، فساعدوا الكفار، وقتلوا تحت رايتهم.

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وبئس المصير مصيرهم إلى جهنم.

ثم استثنى الله سبحانه أصحاب الأعداء من الضعفاء الذين لا يستطيعون الهجرة والتحول عن بلد الكفر والظلم، ممّا يدل على يسر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال:

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ أي: لا يستطيعون الحيلة، وهي تحصيل أسباب الهجرة وما تحتاج إليه.

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: ولا يعرفون إذا خرجوا المسالك والطرق.

وأفاد ذكر ﴿الْوِلْدَانِ﴾ وهم الصغار، إلى أنّ عليهم الهجرة أيضاً، والواجب على أوليائهم أن يهاجروا بهم، فخطر الافتتان عن الإسلام في جانبهم أشدّ وأعظم، إذ ينشؤون في بلاد الكفر، في ظل أنظمتهم الكافرة، وتوجيهاته الفاجرة، في مدارسهم ومعاهده وتقاليدهم البعيدة عن أخلاق المسلمين وعاداتهم.

قال ابن العربي رحمته الله: قسّم العلماء الذهاب في الأرض قسمين: هرباً وطلباً، فالأول ينقسم إلى:

١ - الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام: وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي ﷺ، فإن بقي في دار الحرب عصى.

٢ - الخروج من أرض البدعة: قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم في أرض يسب فيها السلف.

٣ - الخروج من أرض غلب عليها الحرام: فَإِنَّ طَلَبَ الْحَلَالِ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

٤ - الفرار من الأذية في البدن: فإذا خشي على نفسه، فقد أذن الله في الخروج عنه والفرار بنفسه، ليخلصها من ذلك المحذور.

٥ - الفرار خوف الأذية في المال: فَإِنَّ حُرْمَةَ مَالِ الْمُسْلِمِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ، وَالْأَهْلُ مِثْلُهُ^(١).

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (٩٩).

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ أي: المستضعفون الذين لا يستطيعون الهجرة.

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَغْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي: يتجاوز عنهم بفضلته تعالى. و﴿عَسَىٰ﴾ من الله تعالى واجب؛ لأنه إطماع وترجّ، والله سبحانه إذا أطمع عبداً وصله^(٢).

وفي تعليق العفو بكلمة الإطماع والترجي إشارة إلى أنّ ترك الهجرة الواجبة أمر خطير، حتى إنّ أصحاب الأعداء غير مستيقنين بالعفو والنجاة من المسؤولية.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ أي: يعفو عن عباده بفضلته ويغفر لهم.

ثم قال تعالى يحث على الهجرة في سبيله ويشجع عليها:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٠٠).

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا﴾ أي: يجد مكاناً يؤويه، أو يجد طريقاً يراغم بسلوكه الظالمين، أي: يفارقهم على رغم أنوفهم.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٥٠/٥.

(٢) تفسير الخازن: ١٤٨/٢.

والرغم: الذل والهوان، وأصله في اللغة: لصوق الأنف بالرغام، وهو التراب^(١).

﴿وَسَعَةً﴾ أي: ويجد أيضاً سعةً وخلاصاً من الهمّ والضيق الذي كان فيه، إما سعة في الرزق، أو في حرية العبادة وإظهار الدين، أو الأمن بعد الخوف، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسَعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].
﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ أي: يموت في الطريق قبل وصوله إلى مقصده.

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ثبت أجره عند الله تعالى، ثبوت الأمر الواجب بحكم الوعد السابق، الذي لا خُلْفَ فيه.

ويدخل في حكم الآية، من قَصَدَ فعلَ طاعةٍ من الطاعات، ثم عجز عن إتمامها، كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملاً^(٢)، لقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِمَرِيٍّ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ» [رواه مسلم (١٩٠٧)].

وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصَدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فَرَاشِهِ» [رواه مسلم (١٩٠٩)].

وذكروا في سبب نزول الآية، ما رواه ابن أبي حاتم: عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرجَ ضمرَةُ بْنُ جَنْدَبٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ أَنْ يَصَلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَزَلَّتْ الْآيَةُ^(٣).

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر للفارّين بدينهم ويرحمهم، ويسّر لهم سبل الأمن والسلام.

(١) تفسير النسفي: ١٤٩/٢.

(٢) تفسير الخازن: ١٤٩/٢.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٢٨/١.

● قصر الصلاة في السفر:

وبمناسبة ذكر الهجرة والسفر في سبيل الله تعالى، ذكر سبحانه رخصة قصر الصلاة في السفر، وكأنه تعالى أراد بيان هذه الرخصة، في هذا الموضع، التشجيع أيضاً على الضرب في الأرض والسفر في سبيله:

﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

﴿وَإِذَا صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتُم في نواحي الأرض، في برّها وبحريّها وجوّها.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: لا حرج عليكم أن تخففوا من الصلاة، فتصلوا الصلاة الرباعية المفروضة ثنائية.

فالمسافر يصلّي الظهر والعصر والعشاء، ركعتين ركعتين، حتى يقيم، فحينئذٍ يعود إلى صلاتها أربعاً أربعاً.

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: إن خفتُم أن يتعرّضوا لكم بقتال أو غيره من العدوان.

وقد نزلت هذه الآية قبل أن يمتدّ سلطان الإسلام وأمنه إلى البوادي والمناطق البعيدة عن المدينة، وبقي حكمها مشروعاً بعد أن زال الخوف، وأعزّ الله الإسلام، وانتشر الأمن والسلام في أطراف الأرض.

وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة، فكان يصلّي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. [رواه البخاري (١٠٨١)].

وعن حارث بن وهب قال: صلّى بنا النبي صلى الله عليه وسلم، آمن ما كان، بمنى ركعتين. [رواه البخاري (١٠٨٣)].

وعن يعلى بن أمية قال: قلتُ لعمر بن الخطاب: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد آمن الناس! فقال: عجبْتُ منه، فسألتُ

رسول الله ﷺ عن ذلك قال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» [رواه مسلم (٦٨٦)].

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي: فاحذروهم، ولا تثقوا بهم.

• صلاة الخوف:

أما صلاة الخوف في حال المواجهة وتوقع الخطر، فلها أحكام خاصة، شرعها سبحانه بقوله:

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْنَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا كنت يا محمد - ﷺ - في أصحابك، وأردت أن تقيم الصلاة بهم جماعة.

﴿فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ أي: فلتقف فرقة منهم معك، فتصلي بهم.

وفي الآية إيجاز، فقد دللت على أن الإمام يقسم الجنود فرقتين: فرقة تصلي أولاً مع الإمام، بينما تكون الأخرى في مواجهة العدو.

﴿وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: وليحملوا أسلحتهم وهم في الصلاة، حيطة وحزمًا، والمراد الأسلحة الخفيفة التي يمكن حملها.

﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: أتموا الركعة وسجدوا لها، أو أتموا صلاتهم، وفرغوا منها. فقد ذكرت الأحاديث الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام، صلى صلاة الخوف بأصحابه أكثر من مرة، وبهيات مختلفة.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف في بعض أيامه، فقام طائفة معه، وطائفة بإزاء العدو، فصلّى بالذين معه ركعة، ثم ذهبوا، وجاء

الآخرون فصلّى بهم ركعةً، ثم قضت الطائفتان ركعةً ركعةً. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: فإذا كان خوفٌ أكثر من ذلك، فصلّ ركباً أو قائماً، تومئ إيماءً. [رواه مسلم (٨٣٩)].

وعن سهل بن أبي حثمة: أنّ رسول الله ﷺ صلّى بأصحابه في الخوف، فصفّهم خلفه صفّين، فصلّى بالذين يلونه ركعةً، ثم قام، فلم يزل قائماً حتى صلّى الذين خلفهم ركعةً، ثم تقدّموا، وتأخر الذين كانوا قدّامهم، فصلّى بهم ركعةً، ثم قعد حتى صلى الذين تخلّفوا ركعةً، ثم سلّم. [رواه مسلم (٨٤١)].

وثمة هيئة أخرى لصلاة الخوف، رُويت عن النبي ﷺ، ويرجع اختلاف هيئات الصلاة، لاختلاف ظروف المواجهة مع العدو، ومدى تحقق الخطر.

ثم أكملت الآية وصفها لصلاة الخوف، بقوله تعالى:

﴿فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَّائِكُمْ﴾ أي: فليرجع الذين صلوا معك أول الصلاة، ليقفوا في مواجهة العدو.

﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي: الركعة الثانية التي بقيت عليك ثم يتمون بقية صلاتهم.

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، كرر تعالى الأمر بحمل السلاح، وأضاف إليه الأمر بالحذر من العدو؛ لأنه قد لا ينتبه إلى انشغال المسلمين بالصلاة في أول الأمر، ويحاول عندما يشعر بانشغالهم بالصلاة انتهاز الفرصة، ويفوت عليه ذلك التيقظ والحذر مع أخذ الأسلحة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغَفَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْنَتِكُمْ﴾ أي: يتمنى الكفار أن ينالوا منكم غرة وغفلة عن أسلحتكم وعددكم.

﴿فَيَبْشِرُونَكُم مِّمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: فيهجمون عليكم هجمة واحدة مباغطة.

فللمفاجأة في الحرب أثر كبير في إضعاف العدو وتحطيم قوته.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي: ولا إثم ولا حرج عليكم في حال المطر أو المرض أن تضعوا

أسلحتكم بجانبكم، لصعوبة حمل السلاح في مثل هذه الأحوال، بشرط أن تكونوا في أقصى درجات الانتباه والحذر.

﴿وَحَذُّوا حُذْرَكُمْ﴾ أي: من مباغته العدو ومفاجأته.

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: أعد لهم عذاباً فيه إذلال وإهانة.

وهذا وعد للمؤمنين بالنصر على الكفار بعد أمرهم بالحزم والحذر، وفيه رفع لهمم المسلمين، وتقوية لعزائمهم، فالأمر بالحذر وأخذ أسباب الحيطة لا يعني ضعف المسلمين، وقوة عدوهم، إنما هي أحكام كلّفنا الله تعالى بها، مع توكلنا عليه، واعتقادنا أن النصر بيده جل وعلا.

وقد دلّت هذه الأحكام على أنّ الشريعة الإسلامية حريصة على سلامة قوة المسلمين وعزتهم، وأن ذلك في نظرها أهم الواجبات، فهو مقدّم حتى على الصلاة، التي هي أهم أركان الإسلام بعد النطق بالشهادتين، فإذا كانت أحوال المواجهة شديدة، ولم يتمكنوا معها من الصلاة جماعة، أو كانت الصلاة جماعة تعرضهم لخطر التدمير والقتل، كما هو الحال في هذا العصر، بعد أن صنع الناس أسلحة الدمار الجماعي الشامل، يصلّون فرادى، قائمين أو جالسين، إذا كان القيام يعرضهم للخطر، وعند تعدّد أداء الصلاة في وقتها بسبب شدة القتال، يأخرونها كما فعل النبي ﷺ عندما اشتد على المسلمين الحصار في معركة الخندق.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء عمرُ يومَ الخندقِ، فجعلَ يسبُّ كفَّارَ قريشٍ ويقول: يا رسولَ الله ما صلَّيتُ العصرَ حتى كادتِ الشمسُ أن تغيبَ، فقال النبي ﷺ: «وأنا والله ما صلَّيتها بعدُ» قال: فنزل إلى بطحان، فتوضّأ، وصلّى العصر بعدما غابتِ الشمسُ، ثم صلّى المغربَ بعدها. [رواه البخاري (٩٤٥)].

ويجوزُ أيضاً تأخيرُ الصلاة لتفويت فرصة الفرار على العدو، وتعجيل النصر للمسلمين، كما فعل الصحابة في معركة السوس، التي تمّ بها فتح حصن تُسْتُر، في بلاد فارس.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: حضرت عند مناهضة حصن تُسْتَر عند إضاءة الفجر، واشتدَّ اشتعال القتال، فلم يقدرُوا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحْنُ مع أبي موسى - الأشعري - ففتَحَ لنا. وقال أنس: وما يَسْرُنِي بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. [رواه البخاري في كتاب صلاة الخوف، باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو].

ودلت مشروعية صلاة الخوف على أهمية صلاة الجماعة، كما دلت على حرص الشريعة الإسلامية على سلامة المسلمين، فشرعت لهم صلاة الخوف في حال الخطر ومواجهة العدو، لكي لا يستفيد العدو من انشغال المسلمين بالصلاة.

وقد تعلقَ بظاهر الخطاب بعضُ الفقهاء، فأروا أن صلاة الخوف شرعت على وجه الخصوص معه عليه الصلاة والسلام فقط، ولكن جمهور العلماء يقولون بمشروعيتها أبداً، والخطابُ للنبي ﷺ ليقنّدي به غيره، وقد فعلها الصحابة بعده عليه الصلاة والسلام.

﴿إِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

﴿إِذَا قُضِيَتْهُمُ الصَّلَاةُ﴾ أي: إذا أدبتم الصلاة وفرغتم منها.

﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: أكثرُوا من ذكر الله في جميع الأحوال.

فذكره تعالى مطلوب من المسلم في جميع تقلباته، وخاصة في ميادين القتال عند مواجهة العدو، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

﴿إِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي: فإذا أمتم وزالت أسباب الخوف.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها تامة بجميع شروطها وفروضها.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ أي: فرضاً مفروضاً في أوقات محدودة، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٢٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ زُرْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿[البقرة].

وتابعت الآيات شدَّ عزائم المسلمين، ورفع همهم، لكي يستمروا على طريق الجهاد:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا ولا تتوانوا.

﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: في ملاحقة الكفار وقتالهم، حتى لا تبقى لهم قوة تهددكم.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي: فإن آلام القتال مشتركة بينكم وبينهم، فكما تكابدون من آلام القتال والجراح فإنهم يكابدون مثلها، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: وتمتازون عليهم بإيمانكم بالله تعالى، ورغبتكم بثوابه ونصره، فينبغي أن تكونوا أصبر منهم على مشقات القتال وآلامه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليمًا بأحوالكم، حكيماً فيما شرع لكم وكلفكم.



الْفَضْلُ الْخَامِسُ

حادثة بني أبيرق

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ١١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ١١٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١١٧ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١١٨ هَآتَاكُمْ هَؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١١٩ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا ١٢٠ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٢١ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ١٢٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١٢٣

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَحْوِهِمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١٢٤ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١٢٥﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١٢٦ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ١٢٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَافُنِي مِنْ عِبَادِكُمْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ١٢٨ وَلَا تُلَظِّقْنَهُمْ وَلَا تَمِينْنَهُمْ وَلَا تَمُرُّنَّهُمْ فَلْيَتَكُونَنَّ أَذَاكُ الْأَنْعَامِ وَلَا تَمُرُّنَّهُمْ فَلْيَغِيرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ١٢٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ١٣٠﴾

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ
 قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُحْزِ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ
 مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطًا ﴿١٢٦﴾

● الحادثة وحقوق الإنسان:

اهتمت الآيات في سورة النساء بهذه الحادثة اهتماماً كبيراً؛ لصلتها بالعدوان على حقٍّ من أهم حقوق الإنسان، وهو براءة ذمته عن أيِّ مسؤولية حتى تثبت بالأدلة القطعية، واتهام الإنسان البريء والعدوان عليه وسيلة شائعة، كثيراً ما تلجأ إليها أنظمة الحكم الاستبدادية، لتتخلص من مناوراتها ومعارضيتها.

ولما كان الإسلام دين العدل والمساواة - كما مرّ في آيات السورة - وتحرصُ الشريعة الإسلامية على حماية الحقوق لجميع الناس، مسلمين أو غير مسلمين، ودفع الظلم عنهم، أنزل الله تعالى الآيات التالية على النبي ﷺ، ليحمي حقَّ إنسانٍ واحد، ويدفع عنه الظلم، ويبرِّئه مما اتُّهم به كذباً وبهتاناً، وقد ذكرت بعضُ الروايات أنه يهودي، من يهود المدينة المنورة.

وملخصُ الحادثة: أنَّ أهل بيتٍ من بني ظَفَرٍ من بيوت الأنصار، يقال لهم: بنو أبيرق، ثلاثة إخوة، بشر وبشير ومبشّر، نقبوا مشربةً لرفاعة بن زيد في الليل، وسرقوا منها أدرعاً له وطعاماً، وقيل: إنَّ السارق بشيرٌ وحده، وكان منافقاً، وقيل: إن اسمه طعمة بن أبيرق، فشكاهم ابن أخي رفاعة، قتادة بن النعمان، إلى رسول الله ﷺ، فجاء ابنُ عمِّ لهم يدعى أسير بن عروة مع رجال من بني

ظَفَر، يدافعون عن بني أبيرق، فقال أسير: يا رسول الله، إِنَّ هَؤُلَاءِ عَمَدُوا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ، هُم أَهْلُ صِلَاحٍ وَدِينٍ، فَأَنْبُوهُم بِالسَّرْقَةِ، وَرَمُوهُم بِهَا مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ. وجعل يجادل عنهم، ويتهم بالسرقَة لبَّيد بن سهل، وقيل: زيد بن السمين، يهوديين، وقيل: رجل من الأنصار، حتى قال النبي ﷺ لقتادة: «عَمَدَتْ إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ فِيهِمْ إِسْلَامٌ وَصِلَاحٌ، تَرْمِيهِم بِالسَّرْقَةِ، عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَلَا بَيِّنَةٍ» فرجع قتادة إلى عمه، فأخبره بما قال رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَاتِ التَّالِيَةَ. [رواه الترمذي (٩٣/٤) والحاكم (٣٨٥/٤) وابن جرير (١٨١/٩)]^(١):

• اجتهاد النبي ﷺ:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (١٠٥).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي: بما عرفك الله، وأوحى به إليك، إما بوحى ونص، أو بنظر واجتهاد، على قواعد الوحي وأصوله.

ففي الآية دليل على أَنَّ للنبي ﷺ أن يجتهد فيما لم ينزل عليه فيه شيء، وربما أذاه اجتهداه إلى أمر فيحكم به، ويكون في الباطن بخلاف ذلك، لكن مثل ذلك لو وقع لم يُقرَّ عليه ﷺ لثبوت عصمته.

ويؤكد ذلك حديث أم سلمة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ خَصْمَةً بَبَابِ حَجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسَبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لْيَتْرُكْهَا» [رواه البخاري (٧١٨١)].

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٧٦/٥؛ مختصر تفسير ابن كثير: ٤٣٤/١.

قال ابن حجر: «والحكمة في ذلك، مع أنه كان يمكن إطلاعه بالوحي على كل حكومة، أنه لما كان مشرعاً كان يحكم بما شرع للمكلفين، ويعتمده الحكام بعده... ولا يسمى ذلك خطأ في الاجتهاد، قال الشافعي: الحكم بين الناس يقع على ما يسمع من الخصمين، بما لفظوا به، وإن كان يمكن أن يكون في قلوبهم غير ذلك، وأنه لا يقضي على أحد بغير ما لفظ به، فمن فعل ذلك فقد خالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ»^(١).

وسكوته ﷺ عن بعض المسائل التي عرضت له، حتى نزل عليه الوحي بحكمها، كانت من المسائل التي ليس لها أصول في الشريعة.

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ أي: لا تكن لأجل الخائنين مخاصماً للبراء.

وفي هذا دليل على أن النياية عن المبتل والمتهم في الخصومة لا تجوز، فلا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد، إلا بعد أن يعلم أنه محق.

ومشى الكلام في السورة على حفظ أموال اليتامى والنساء، فبين أن مال الكافر محفوظ عليه كمال المسلم، إلا في الموضع الذي أباحه الله تعالى^(٢).

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ أي: استغفر الله للمذنبين من أمتك والمتخاصمين بالباطل، وقد مر معنا من قريب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وذهب الطبري إلى أن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخائنين. وردّه ابن عطية فقال: «وهذا ليس بذنب؛ لأن النبي ﷺ إنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءتهم»^(٣).

(١) انظر: فتح الباري: ١٣/١٧٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٣٧٧/٥.

(٣) المحرر الوجيز: ٢١٩/٤.

فالحاكم يحكم - كما مر معنا - بما يسمع، ولا يُعَدُّ النبي ﷺ مذنباً إذا حكم بحسب ما سمع وأخطأ، ولكن لا يُقَرَّر عليه الصلاة والسلام على الخطأ، لثبوت عصمة النبوة له.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر للتائبين ويرحمهم.

• تحريم الدفاع عن المجرمين:

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: لا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية.

جعلت الآية معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم؛ لأن وبال المعصية راجع إليهم. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به غيره، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿هَآئِنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ١٠٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ أي: مبالغاً في الخيانة والاثم، مفرطاً فيهما، ومصرّاً عليهما.

وبذلك أخرجت الآية من وقع في الخيانة والمعصية مرة، وبادر إلى التوبة والاستغفار، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يستترون من الناس حياءً وخوفاً من ضررهم.

﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يستحيون منه سبحانه، وهو أحق أن يستحيا منه، ويخشى عقابه، وإنما فُسر الاستخفاء منه تعالى بالاستحياء؛ لأن الاستتار

منه عز شأنه محال، فلا فائدة في نفيه، ولا معنى للذم في عدمه^(١).

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: على الوجه اللائق به سبحانه، أو هو معهم بعلمه وسمعه وقدرته **عَلَّامٌ**، لا يخفى عليه خافٍ من سرهم، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿إِذْ يُنَبِّئُونَ مَا لَا يُرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: إذ يدبرون ويزورون سرّاً قولاً لا يرضى سبحانه عنه، لأنّ فيه دفاعاً عن المجرم؛ وانهاماً للبريء.

وذلك أنّ قوم طعمة قالوا فيما بينهم: نرفع الأمر إلى النبي ﷺ، فإنه يسمع قول طعمة، ويقبل يمينه، لأنّه مسلم، ولا يسمع قول اليهوديّ لأنه كافر^(٢).

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: عالماً بكل أعمالهم علم إحاطة، لا يخفى عليه شيء منها.

﴿هَآأَنَتُمْ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ (١٠٩).

﴿هَآأَنَتُمْ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يا هؤلاء المجادلون عن المجرمين في الحياة الدنيا، وهو خطاب مشافهة للتوبيخ والتقريع.

﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: لا أحد يجادل الله عنهم يوم القيامة؛ إذ كلُّ إنسانٍ مشغول بنفسه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٢٥) وَأُخِيهِ (٢٥) وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ (٣١) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: لا أحد يكون عليهم حافظاً ومحامياً من بأس الله تعالى وعقابه.

(١) روح المعاني: ١٤١/٥.

(٢) تفسير الخازن: ١٦٢/٢.

• اتهام البريء بُهتان:

هكذا كشفت الآيات الحقيقة، وأظهرت براءة البريء، وأشارت إلى المجرم الحقيقي، ووبّخت المدافعين عنه، ثم دعتهم إلى التوبة والاستغفار، وشجعتهم عليها، بأسلوب الخبر، وتقرير الحكم العام، الذي ينسحب عليهم وعلى غيرهم. وهو أسلوب تربوي حكيم من أساليب القرآن الكريم المهدّبة، والتي تأتي في مواضعها المناسبة المؤثرة، حيث تكون النفوس مستعدة للاستجابة والتوبة، بعد أن وُوجهت بخطئها، وعرفت شناعة وفداحة جرمها.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ أي: يسيء به إلى غيره، كأن يتهم بريئاً.

﴿أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ﴾ أي: بفعل معصية يعود ضررها على نفسه فقط.

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر سبحانه له ذنوبه، إن تاب

عنها ويرحمه.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لأنّ وباله يعود على نفسه،

فالمسؤولية شخصية، ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فلا يعاقب بذنوب غير فاعله.

وبعد أن قررت الآيات مسؤولية الإنسان الشخصية عن ذنوبه، توعدت الذين يتهمون غيرهم بجرائمهم ومعاصيهم، ويحاولون التملّص من المسؤولية عنها، بأشد أنواع الوعيد والتهديد:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝﴾.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ أي: ومن يفعل ذنباً صغيراً كان أو كبيراً.

﴿ثُمَّ يَرْمِيهِ بَرِيئًا﴾ أي: ثم يتهم به إنساناً بريئاً.

وفي هذا إشارة إلى أن الأصل في الإنسان براءته، وأن محاولة إسقاط هذه البراءة عدوانٌ على حقٍّ من أعظم حقوقه.

﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾ أي: كذباً عظيماً، سُمِّيَ بهتاناً من البهت، وهو الكذب الذي يُتَحَيَّرُ في عظمه وشناعته وقبحه.

﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ أي: واحتمل أيضاً مع البهتان ذنباً ظاهراً.

إذ ارتكب في الحقيقة ذنوبين، واتصف بصفتين قبيحتين، فهو بفعل الذنب آثم، وبرمي البريء باهت.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيَّةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قيل: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُهُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ» [رواه مسلم (٢٥٨٩)].

● عصمة النبوة:

ودلّ ما حدث على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته ونبوته، كما دلّ على فضل الله تعالى عليه، وعنايته به، وعصمته له، فالنبي ﷺ لا يُقَرُّ على خطأ؛ لأنّه محفوظٌ بحفظ الله تعالى، ومعصوم بعصمته، ولهذا توجّهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تبين له فضل الله تعالى عليه، بقوله الكريم:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ أي: لولا فضله سبحانه ورحمته عليك، لتمكّن فريقٌ من الناس، وهم قوم طعمة بن الأبيرق، أن يبعدوك عن القضاء بالحق والعدل، مع علمهم بحقيقة الحال.

﴿وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: والحقيقة أنهم ما تمكنوا من ذلك، وعاد وباله عليهم.

﴿وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: فإنهم وإن سَعَوْا في إضلالك، فإنك ما وقعت فيه، وما أصابك منه ضرر؛ لأنك اتبعت أصول القضاء الصحيحة، وبيّنت حكمك على ظاهر الحال.

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: أنزل عليك القرآن الكريم والسنة المطهرة.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أي: علّمك من أحكام الشرع وأمور الدين، ومن علوم الغيب وخفيات الأمور، التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ أي: كان فضل الله تعالى عظيماً فيما علّمك وأنعم عليك من النعم الجليلة والخصائص العظيمة.

ولهذا كان ﷺ يقوم من الليل حتى ترمّ قدماه، فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [رواه البخاري (١١٣٠)].

ومن فوائد ما حدث أيضاً: بيان كمال علمه تعالى، وأنه مطلع على مكنونات الضمائر والسرائر، فما يدبره المؤتمرون فيما بينهم سرّاً، للاحتيال على الناس والإضرار بهم، والعدوان على حقوقهم، لا يخفى على الله تعالى، الذي يعلم سرهم ونجواهم، ولهذا قال تعالى:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ أي: لا خير في كثير ممّا يدبرونه سرّاً؛ ويتناجون به.

والنجوى: المسارة، والناس عادةً إذا أرادوا المكر والشر يخفونه ويتحدثون به سراً، كما فعل بنو الأبيرق.

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا نجوى من أراد أن يخفي صدقته، فإن إخفاء الصدقة أفضل من إظهارها، قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: أمر بعمل من أعمال البر المعروفة المشروعة.

فالتناجي في عمل الخير جائز، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْنَجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: سعى في إصلاح ذات البين، وإزالة أسباب الخصام بين المتخاصمين، فله أن يتحدث سراً مع كل جانب، ولو كان في حديثه كاذباً، إذا قصد الإصلاح.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الكذاب الذي يضلح بين الناس، ويقول خيراً وينمي خيراً» [رواه مسلم (٢٦٠٥)].

وإصلاح ذات البين من أعظم القربات والعبادات، فهو يؤدي إلى إشاعة الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع، ويخلصهم من الاختلاف والنزاع، قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن أقول: تحلق الدين» [رواه أبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩)].

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: خالصاً لوجه الله تعالى.

﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم قدره إلا الله ﷻ.

• حجية الإجماع:

ومن فوائد ما حدث أيضاً: بيان خطر مخالفة الرسول ﷺ ومعاداته، ومحاولة تلبيس الأمر عليه، حتى يخطئ في قضائه وحكمه، كما فعل بنو الأبيرق، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ .

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ، من بعد وضوح الأدلة الدالة على صدقه، وصحة رسالته ونبوته، فمخالفته حينئذٍ مخالفة عنادٍ وجحودٍ.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويسير في غير طريق المؤمنين، الذين يطيعون الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ويعظمونه ويتمسكون بسنته.

﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى﴾ أي: ندعه ونخلي بينه وبين طريق الضلال الذي اختاره، فيزداد ضلالاً وإثمًا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: ندخله فيها ونشويه بنارها.

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

دلَّت الآية على أن الله تعالى حفظ المؤمنين من الاجتماع على الخطأ والضلال، فلا تجتمع آراؤهم على ضلالة.

وجاء في الأثر: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» [رواه أحمد (٣٦٠٠) والبزار (١٣٠) والطيالسي (٢٤٦) والطبراني في الكبير (١٨/٩) رقم (٨٥٨٣، ٨٥٩٣) وأبو نعيم في الحلية (١/٣٧٧ - ٣٧٨)، وهو موقوف حسن].

وهذه الآية دليلٌ في رأي كثير من العلماء على حجية الإجماع، وهو اتفاق آراء العلماء على حكم قضية حادثة لا نص فيها.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما عُلِمَ اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضُمَّنَتْ لهم العصمة من الخطأ في اجتماعهم، تشريفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم ﷺ. وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، ومن العلماء من ادَّعى تواتر معناها، والذي عَوَّل عليه الشافعيُّ بعد التروي والفكر الطويل في الاحتجاج على كون الإجماع حجةً تحرم مخالفته، [هو] هذه الآية الكريمة وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها»^(١).

وقد عَوَّدنا الله في كتابه الكريم، أنه كلما تَوَعَّد ببعض آيات الوعيد، أتبعها ببعض آيات الترغيب، وها هي الآيات تفتَحُ لبني الأبيرق وأمثالهم باب التوبة وترغبهم فيها، فلا يَأْسَ من رحمة الله تعالى، ومهما كانت ذنوبُ الإنسان كبيرة، فإنَّ الله تعالى يغفرها، إلا ذنب الشرك به سبحانه، ولهذا كرر تعالى قوله الكريم للمرة الثانية في السورة:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وكأنه تعالى ذكر قوله الكريم هذا في سياق قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] لكي يبيِّن خطر مخالفة الرسول ﷺ، وخطر مخالفة إجماع المسلمين، إذ يؤدِّي ذلك إلى الذنب الكبير العظيم الذي لا يغفر، وهو الإشراك به جل وعلا.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٣٧/١.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ابتعد كثيراً عن طريق الحق، الذي هو طريق الرسول ﷺ، وسنته من بعده، وما تُجمِعُ عليه أمته من بعده أيضاً. ويلاحظ أنه تعالى ختم الآية في المرة الأولى بقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ أَفْرَأَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؛ لأنها جاءت هناك في سياق الخطاب الموجه لأهل الكتاب، فنبهوا بهذا إلى أن الشرك افتراءٌ كبيرٌ على الله تعالى الواحد الأحد. وأما هنا فالكلام موجه إلى المسلمين، فنبهوا على أن الشرك من الضلال البعيد؛ تحذيراً لهم من مخالفة الرسول ﷺ، فالمغايرة في ختام الآية جاء حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم وسياقه^(١).

• حقيقة الشرك ومصدره:

ثم بيّنت الآيات حقيقة الشرك ومصدره الأصلي، وبعض مظاهره العملية؛ تأكيداً لما قرره تعالى في قوله السابق: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١١٧﴾ وتحذيراً للمؤمنين من مقارفته ومقاربتة:

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ ﴿١١٧﴾.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا﴾ أي: هؤلاء المشركون ما يعبدون من دون الله تعالى إلا إناثاً.

وهو تصويرٌ للشرك في أقبح صوره، فقد كان العرب يستضعفون الأنثى ويظلمونها، ويحرمونها من أكثر حقوقها - كما مرّ في صدر السورة - وكانوا أيضاً يعبدون أصناماً يسمونها بأسماء الأنثى، كالكلات والعزى ومناة وإساف ونائلة، فأئى ضلال أبعد من هذا الضلال، يشركون بالله تعالى غيره، ويزعمون أن شركاءه تعالى إناث؟!.

ثم كشفت الآيات عن مصدر هذا الضلال البعيد ومنبعه، بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي: وعبادتهم لهذه الأصنام هي في

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ٢٣٣.

الحقيقة طاعةً للشيطان المتمرد على الله تعالى، العريق في العصيان، فهو مصدر كل كفر وشرك؛ إذ هو الذي دعاهم إليه، وزينه لهم، وهم في حقيقة الأمر عباد للشيطان، وكثيراً ما حذر الله تعالى الإنسان من طاعة الشيطان وعبادته، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿[يسر].

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا أَخْذُنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ١٦١﴾ .

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدته تعالى من رحمته، بسبب تكبره وجراءته على مخالفة أمره، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ١٦٢﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿[الحجر].

فالشيطان هو العدو الأول للإنسان، يعمل دائماً لإضلال الناس وإبعادهم عن طاعة ربهم سبحانه، ومن وقاحته أنه أعلن ذلك:

﴿وَقَالَ لَا أَخْذُنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: قال للحق سبحانه بعد أن تكبر عن أمره، ورفض سجود التكريم والتحية لآدم: لَا أَخْذُنَ مِنْ عِبَادِكَ جزءاً كبيراً معلوماً، قدر لي أن أغويهم وأضلهم.

ودلّ قول الخبيث هذا على ثقته الكبيرة في قدرته على إضلال الناس وإغوائهم، ولعلّ ذلك يرجع إلى دراسته لطبيعة تكوين الإنسان، وإطلاعه على نقاط الضعف فيه، ففي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرَكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يَطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقاً لَا يَتِمَّالِكُ» [رواه مسلم (٢٦١١)]: أي: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات.

وقد تمكّن الخبيث فعلاً عن طريق الشهوات من إضلال أكثر الناس، كما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿[الأعراف].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر].

والعجيبُ أنَّ أحدَ الكتابِ المعاصرين، الذين كتبوا في التفسير، غفل عن هذه الآيات وأمثالها في التنزيل الحكيم، وعن الواقع الأليم الذي انحدر إليه أكثر الناس في الماضي والحاضر، فزعم أنَّ الصلاح غلبَ على جماعةِ البشر في كلِّ عصر، وبقي معها من الشرور حظٌ يسير، ينزع فيه الشيطان منازعه، وكَلَّ الله أمرَ الذيادِ عنها إلى إرادةِ البشر، بعد تزويدهم بالنصح والإرشاد بواسطة الشرائع والحكمة^(١).

وكانَ صاحبُ هذا الكلام لم يقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله أيضاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]، كما غفل عن دركات الشرور والفتن والظلم والطغيان في المجتمعات البشرية ماضياً وحاضراً.

• صرعى الأمانى الباطلة:

﴿وَلَا ضَلَّئَنَّهُمْ وَلَا مَنِينَئِهِمْ وَلَا مَنِينَئِهِمْ فَلْيَبْتَكَنْ ءَاذَانَ الْأَنْعَمِ وَلَا مَنِينَئِهِمْ فَلْيَعْيَرْتُ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَا ضَلَّئَنَّهُمْ﴾ أي: بدعوتهم إلى الضلال وتزيينه لهم.

﴿وَلَا مَنِينَئِهِمْ﴾ أي: ولألقين في نفوسهم الأمانى الباطلة، والمواعيد الكاذبة؛ لأشغلهم بها عن عبادتك وطاعتك.

يقال: مَنَاه، إذا وعده المواعيد الباطلة التي يحبُّها، وما أكثر الذين أوقعهم الشيطان في شراكه بالأمانى الباطلة التي مَنَاهم بها، كما حكى الله عنه فيما يقوله لأهل النار يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٠٤/٥.

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿إبراهيم: ٢٢﴾.

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَنْتَكُنْ عَذَابُكَ الْآنُفُسُ﴾ أي: فليقطعن آذان الأنعام استجابةً لأمري.

وكان العرب في الجاهلية يفعلونه بالبحائر والسواحب، وهي الحيوانات التي كانوا يسيبونها لآلهتهم، ويتركونها دون أن ينتفعوا بها، وقد أبطل ذلك سبحانه فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وِصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَّبَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أي: ولأمرنهم بتغيير صورة الأعضاء السوية، إلى ما يظنون أنها أحسن من الصورة التي كانت عليها، كالوشم في الجلد، ووشر الأسنان، والنمص لإزالة الحواجب المستوية.

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، ما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، وهو ملعون في كتاب الله. [رواه البخاري (٥٣٤٣)].

قوله: (وهو ملعون في كتاب الله) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَمَا آتَانَاكَ الرَّسُولُ فَخُذْهُ وَمَا نَهَكَمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ويُستثنى من ذلك إزالة الشاذ عن أصل الخلقة السوية، وإزالة ما يحصل به ضرر، كإصبع زائدة، أو سن زائدة، أو طويلة تعيق عن الأكل والاستعمال، أو إزالة ما نبت لامرأة من لحية أو شارب أو عنفة، كما يجوز للزوجة التحمير والنقش والتطريف^(١) إذا كان بإذن الزوج، لأنه من الزينة^(٢).

(١) هو عملية قص الأظافر وتزيين اليد.

(٢) انظر: فتح الباري: ٣٧٨/١٠.

ومن تغيير خلق الله تعالى: العلاقات الجنسية الشاذة عن أصل الفطرة السوية، كاللواط والسحاق، ويلتحق بهما ما استحدثه الناس مما يسمّى التلقيح الاصطناعي وأطفال الأنابيب^(١).

وكل ذلك مظاهر على طاعة للشيطان وموالاته، وقد توعّد الله تعالى من يفعل ذلك بقوله:

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهراً.

فطاعة الشيطان تؤدي بالإنسان إلى التعب والعناء في الدنيا، وإلى الشقاء والعذاب في نار جهنم يوم القيامة، وتلويث البيئة وإفسادها أكبر شاهد واقعي على التعب والعناء الذي يترتب على تغيير خلق الله المحكم. والسبب في ذلك أن مواعيده خداع وغرور:

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ﴾ أي: يعدّهم الشيطان بالمواعيد الكاذبة، ويمنيهم بالأمانى الخادعة الفارغة، فيتعبون في تحصيلها، ويظلون طول أعمارهم راكضين لاهثين وراءها، فلا يقبضون إلا على الريح، ولا يجنون إلا الحسرة والألم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أََعْمَلُهُمْ كَرَابٍ يَقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: إلا باطلاً وضلالاً وكذباً واحتيالاً، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [النور: ٣٩].

وهو ما قرره سبحانه هنا في قوله:

(١) انظر: الأنساب والأولاد، للمؤلف.

﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ ﴿١٢١﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين غرهم الشيطان فأطاعوه واتبعوه.
 ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مفراً أو ملجأً يمتنعون به من النار، فلا بدّ لهم من ورودها، ولا يعدلون عنها إلى غيرها.
 وفي المقابل، بيّنت الآيات مصيرَ الذين أطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان بقوله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّ لَهُمْ جَنَّتُ بَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ ﴿١٢٢﴾.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّ لَهُمْ جَنَّتُ بَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وعده سبحانه وعد حق وصدق لا يتخلف، فهو ليس كوعد الشيطان.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي: لا أحد أصدق من الله تعالى، وهو تأكيد لقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾، وهذه التوكيدات أتت في مقابل مواعيد الشيطان الكاذبة لأتباعه وأوليائه.

• ميزان العقاب والثواب:

فحياة الإنسان وموته لا يقومان على أساس الأمانى الفارغة، والمواعيد الخادعة، التي يلقيها الشيطان في نفوس كثير من الناس:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٢٣﴾.

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: ليس الأمر منوطاً بأمانى الكافرين المنكرين للمسؤولية والحساب بعد الموت، ولا بأمانى أهل الكتاب،

الذين أطمعهم الشيطان بالمغفرة والجنة، حتى قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

إنما الأمر منوطٌ بتشريع شرعه العليم الحكيم، أساسه التكليف والمسؤولية، والجزاء القائم على المبدأ التالي:

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ أي: يعاقب بسببه، إذا أصرّ عليه، ولم يتب عنه، والسوء يشمل كل مخالفة لدين الله وشرعه.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ولا يجد له يوم القيامة غير الله تعالى ولياً يمنعه، ولا نصيراً ينصره. هذا هو ميزان الحساب والعقاب. وفي مقابله بينت الآيات ميزان الفضل والثواب بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١١٢).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالنساء يُثَبَّنَ على أعمالهن الصالحات كالرجال، وينبغي أن يتمتعن بحقوقهن الإنسانية الكاملة في الدنيا.

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم مهما كان قليلاً، ومرّ معنا أن النقيير النقرة الصغيرة في النواة، وهو مثّل في القلة كالفتيل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة].

• أحسن الناس ديناً:

ثم أنثى سبحانه على المستسلمين المنقادين لأحكام دينه وشرعه، وسنة نبيه

عليه الصلاة والسلام، وجاء هذا الثناء في مقابل ما مرَّ معنا من قوله سبحانه في المعاندين الجاحدين: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ [النساء: ١١٥]:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: أسلم نفسه لله تعالى إسلاماً كاملاً، وجعلها سالمة له جل وعلا، منقادة له وحده، ونبه في هذا الاستفهام على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية^(١).

فأحسنُ الناس ديناً مَنْ يسلمُ نفسه لله تعالى إسلاماً كاملاً.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله وعبادته وسلوكه وأخلاقه، وذلك باتِّباعِ شرع الله تعالى، والتمسُّكِ بسُنَّةِ النبي ﷺ.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن سائر ما يخالفها من العقائد والنحل، فهي مِلَّةُ التوحيد، التي أمرنا بالتمسُّكِ بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٥) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة].

فأساسُ مِلَّةِ التوحيد الإسلام الكامل لربِّ العالمين.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: بوأه الله تبارك وتعالى هذه المكانة الرفيعة، وتفضَّل عليه بها لكمال إسلامه واستسلامه له جل وعلا.

والخَلَّةُ: صفاء المودة، وقيل: الخلَّة: الافتقار والانقطاع، فخليلُ الله: المنقطع إليه، وسَمِّي إبراهيمُ خليلاً لأنَّه انقطعَ إلى الله في كلِّ حالٍ، وقيل:

(١) تفسير البضاوي: ١٧٤/٢.

الْخَلَّةُ: الاختصاص والاصطفاء، وسُمِّي إبراهيمُ خليلاً لأنه والى في الله وعادى في الله^(١).

وفائدة الإخبار عن هذه المرتبة الرفيعة، التي تفضل الله سبحانه بها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ تأكيد وجوب اتباع ملته وطريقته؛ لأنَّ مَنْ بَلَغَ مِنَ الزلفى عند الله أَنْ اتَّخَذَهُ خَلِيلاً، كَانَ جَدِيراً بِأَنْ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُ وَطَرِيقَتَهُ^(٢).

وقد أمر الله نبينا ﷺ بذلك بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وله سبحانه أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ؛ لِأَنَّهُ الْمَالِكُ الْخَالِقُ:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ ﴿١٢٦﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وتديراً.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ إحاطة علم وقدره، جلَّ وعلا.

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد بَيَّنَّتْ لَنَا حقيقة التوحيد وملته، ووجوب التمسُّك به، بعد أن بَيَّنَّتْ حقيقة الشرك ومصدره.



(١) انظر: تفسير الخازن: ١٧٤/٢. وقيل: الخلَّة: تخلل الحب كل ذرة في القلب، قال الشاعر:

ولذا سُمِّي الخليل خليلاً

قد تخللت موضع الروح مني

(٢) تفسير النسفي: ١٧٤/٢.

الْفَصْلُ السَّالِسُ

الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل

﴿وَسْتَغْفِرُونَكَ فِي النَّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُغْفِرُكُمْ فِيهِمْ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَى النَّسَاءِ
الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَزَعْنَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا
لِلْبَيْتِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا
ثُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ
الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ
تَعْدِلُوا بَيْنَ النَّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِغْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ
وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا
حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا
النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ
لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا
الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعِزُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ
كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرْ

الْمُتَّقِينَ إِنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ يَخْذُلُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ وَإِنَّ لَهُمْ لَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مِنْكُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٣٠﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ فَسَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَتَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ بِحَكْمِ بَيْنِكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٣١﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ يَخُذِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣٣﴾ بَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُلُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٣٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٣٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٣٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٣٧﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ إِنْ تُبْدُوا حَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٣٩﴾

• تعظيم حقوق الضعفاء:

وعادت الآيات إلى الموضوع الأصلي، الذي أبرزته في صدر السورة، وهو تقرير حقوق الضعفاء في المجتمع وحمايتهم، ويبدو أن تشريع ميراث النساء والصغار أثار نوعاً من الدهشة والاستغراب عند بعضهم؛ إذ رأوه تشريعاً جديداً عليهم لم يألوه، ولم يكن له سابقة في مجتمعهم الجاهلي، فقد كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار، فلما نزلت آيات الميراث قالوا: يا رسول الله، كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية.

وذكر بعض المفسرين أن عيينة بن حصن أتى النبي ﷺ فقال: أخبرنا أنك

تعطي الابنة النصف والأخت النصف، وإنما كنّا نورث من يشهد القتال ويحوزُ الغنيمة، فقال عليه الصلاة والسلام: «بذلك أُمِرْتُ»^(١). وأنزل الله تعالى:

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى
النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ
وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝﴾

﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ أي: ويستخبرونك في شأن النساء وحالهن. والاستفتاء: طلب الفتوى، وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشرعية وكشفه وتبيينه.

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي: قل: الله تعالى يبيّن لكم حكمه فيهنّ. فهذه الأحكام شرعها الله تعالى، وما عليكم إلا الإذعان لها والرضا بها، وهذا هو المظهر العملي للاستسلام لله تعالى، الذي مرّ في الآية السابقة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥].

وأفاد تقديم لفظ الجلالة (الله) تعظيم شأن هذه الأحكام، وزاد في تعظيمها قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: وهذه الأحكام التي تتلى عليكم موجودة في الكتاب العلوي، وهو اللوح المحفوظ.

فهي أحكام إلهية علوية، تفيد أنّ العدل والإنصاف في حقوق النساء واليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى، فعليكم مراعاتها وعدم الإخلال بها.

وقد يكون المراد من الكتاب: القرآن الكريم، والمعنى: إن الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم.

﴿فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي: ما فرض لهن من الميراث

والمهور، وكان الرجل منهم - كما سبق - يضمُّ اليتيمة ومالها إلى نفسه، فإن كانت جميلة تزوّجها، وأكلَ مالها، وإن كانت دميمةً منعها من الزواج وعضلها، حتى لا يشاركه أحد في مالها.

﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: في أن تنكحوهنَّ لجمالهنَّ، أو: عن أن تنكحوهنَّ لدمامتهنَّ، فحذفتُ حرف الجرِّ بعد (ترغبون) أفاد كلا المعنيين.

﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان، وهم الصغار، لكي تورثوهم كما شرع الله في آيات الميراث.

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أي: ويأمركم أن تقوموا برعاية حقوق اليتامى والمحافظة عليها بالعدل، كما بيّنه سبحانه في صدر السورة.

﴿وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وهو حثُّ لهم على الاستكثار من فعل الخير، وخاصّة في مجال رعاية اليتامى والضعفاء، وحفظ حقوقهم وأموالهم.

• اختيار أخفّ الضررين:

ولا يعني تعظيم حقوق الضعفاء، التمسك بها كاملة في جميع الظروف والأحوال، فقد تطرأ أحوالٌ تحتاج المرأة فيها للتنازل عن بعض حقوقها، لحماية ما هو أهم لها منها، وهو ما يسمّى في الشريعة الإسلامية: اختيار أخفّ الضررين لدفع أعظمهما، وهو ما شرعه تعالى في قوله:

﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ أي: خافت من زوجها ترفعاً عليها أو تجافياً عنها.

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي: لا حرج ولا إثم على الرجل

والمرأة أن يتصالحا بينهما، ويتفقا على أن تتنازل له الزوجة عن شيء من حقوقها، لكي تحافظ على الأسرة، وتبقى الصلة الزوجية قائمة بينهما، كأن تنزل له عن حقها في القسمة، أو عن شيء من مهرها أو نفقتها.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿وَإِنْ أَمْرُهَا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجلُ تكونُ عنده المرأة، ليس بمستكثرٍ منها، يريدُ أن يفارقَها، فتقول: أجعلُك من شأني في حلٍّ. فنزلت هذه الآية في ذلك. [رواه البخاري (٤٦١٠)].

ومعنى قولها: (ليس بمستكثر منها) أي: في المحبة والمعاشرة والملازمة.

وقولها: (أجعلك من شأني في حل) أي: وتركني من غير طلاق^(١).

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي: الاتفاق خيرٌ من الفراق، فالإسلام حريص على سلامة الأسرة واستمرارها.

قال ابن كثير رحمه الله: «ولما كان الوفاق أحبَّ إلى الله من الفراق قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ بل الطلاق بغیضٌ إليه ﷺ؛ ولهذا جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغضُ الحلالِ إلى الله الطلاق» [رواه أبو داود (١٢٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨)]^(٢).

﴿وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي: جُبِلَتِ الْأَنْفُسُ عَلَى الشُّحِّ، وهو أشدُّ البخل، فهو حاضر معها، لا يغيب عنها، فكل واحد من الزوجين يشح بحقه، ولا يتنازل عن شيء منه للآخر لمصلحة الأسرة.

ثم حثَّ سبحانه على مقاومة الطبع ومتابعة الشرع فقال:

﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا﴾ أي: تحسنوا معاشرة أزواجكم، وتصبروا عليهنَّ، وإن كرهتموهنَّ، مراعاة لحق الصلحة، وبقاء الأسرة.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: وتتقوا الله في حق المرأة، فلا تظلموها، ولا تجوروا عليها.

(١) فتح الباري: ٢٦٦/٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٤٥/١.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازيكم بأعمالكم ويشيبيكم على إحسانكم.

• العدل بين الزوجات:

ثم واجهت الآيات الرجال المتزوجين بأكثر من امرأة، بحقيقة الضعف البشري عن إقامة العدل الكامل، الشامل للأمور المادية والمعنوية بين نساءهم، بقوله تعالى:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩).

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: مهما حرصتم على العدل والتسوية بينهما، فلن تستطيعوا ذلك؛ لأن الإنسان لا يستطيع التحكّم بعواطفه ومحبه، فيميل إلى واحدة أكثر من الأخرى دون إرادته.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني القلب. [رواه أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٦٤/٧) وابن ماجه (١٩٧١)].

وبما أن التكليف في الشريعة الإسلامية منوط بالوسع والقدرة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فلا يكلف الرجل أن يعدل بين نسائه في الأمور العاطفية، كالمحبة والميل، ومع ذلك لا يجوز له أن يميل إلى المرأة التي يحبها ميلاً كاملاً، بحيث يعرض عن الأخرى:

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ أي: فلا تبالغوا بالميل إلى واحدة منهن. ﴿فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: حتى تصبح الأخرى كالمعلقة، لا هي ذات زوج، ولا مطلقة، فهذا ظلم محظور في الإسلام.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ

كَانَ عِنْدَهُ امْرَأَتَانِ، فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِيقَهُ سَاقِطٌ» أي: مائلٌ.
[رواه أبو داود (٢١٣٣) والترمذي (١١٤١) والنسائي (٦٣/٧) وابن ماجه (١٩٦٩) والحاكم (١٨٦/٢) وصححه].

ثم شَجَّعت الآيةُ الأزواجَ الذين يسيئون معاشرَةَ نساءهم على الإصلاح، وترك سوءِ المعاشرَةِ، بقوله تعالى:

﴿وَإِنْ تَصْلَحُوهَا﴾ أي: ما مضى من سوءِ المعاشرَةِ لنسائكم.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: تتقوا الله تعالى في ذلك، فقبلوا عليه تائبين مستغفرين.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: يغفر لكم ما مضى من سوءِ المعاشرَةِ ويرحمكم.

وقد مرَّ معنا أن النبي ﷺ بيَّن فضيلةَ التزامِ الحق والعدل في جميع شؤون الحياة، وخاصة مع الأهل في داخل الأسرة، وفي كل من كانت له عليه ولاية، فقال: «إِنَّ الْمَقْسُطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدُلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وإن لم يتمكَّن الزوجان من الصلح، واستمرَّ الخلاف قائماً بينهما، وتعدرت إزالته، فيمكنهما في هذه الحالة أن يفترقا، لقوله تعالى:

﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ أي: من فضله وغناه سبحانه.

وفي هذا تسليَةٌ لكلٍّ واحدٍ من الزوجين بعد الطلاق ووقوع الفراق.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ أي: في فضله ورحمته وغناه.

﴿حَكِيمًا﴾ في كل ما يشرع من أحكام.

وتشريع الطلاق في مثل هذه الحالة، عندما تتعدَّرُ إزالةُ الخلاف بين الزوجين، تشريع حكيم، فيه درَّةٌ لمفاسدٍ كثيرةٍ وخطيرةٍ، تترتب على إجبار

الزوجين المتنازعين أن يعيشا مع بعضهما، وهما في تنافر وخصام مستمرين، فإنَّ هذا يؤثر على الأولاد، ويمتد فسادُه إلى المجتمع المحيط بالأسرة.

وبعد أن كانت كثير من الدول النصرانية تنكِّرُ على المسلمين تشريع الطلاق، تراجعوا عن إنكارهم، وأقروه في مجالسهم التشريعية، بعد أن تفاقمت الأضرار والمفاسد الاجتماعية المترتبة على منعه.

• الوصية الخالدة:

يتوقف الالتزامُ بأحكام الشريعة الإسلامية وتطبيقها على مدى شعور كلِّ من الزوجين بمراقبة الله تعالى وخشيته، وهو ما دأبت آيات السورة من أولها على تقويته في النفوس وتمكينه في القلوب، فلقد رأينا في أول آية كيف تكرر الأمر بالتقوى، وكيف ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، واستمرت الآيات على ذلك، وخاصة في خواتيمها.

وها هي بعد أن تُقرَّرَ أنه تعالى له ملك السماوات والأرض، تبين أن التقوى هي وصيته الخالدة لجميع الناس، في كل كتاب أنزل، وعلى لسان كل نبي أرسل:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: بخشيته وطاعته والتزام شرائعه.

فالتقوى وصيةٌ قديمةٌ ما يزال سبحانه يوصي عباده بها.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ أي: إن تجحدوا وصيته وتعرضوا عنها.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فاعلموا أن له تعالى ما في السماوات وما في الأرض، فهو غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم وطاعتكم وتقواكم،

كما قال تعالى إخباراً عما قاله موسى ﷺ لقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَيُّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وكذلك قال هنا أيضاً:

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ أي: كان سبحانه ولا يزال غنياً عن عباده، محموداً في كل ما يقدره ويشعره.

ثم أكد تعالى هذا المعنى، مبيناً كمال رقابته على خلقه وكمال قدرته عليهم، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: شهيداً على كل شيء وحافظاً له.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٢﴾.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ فهو غني عنكم، ووجودكم ليس أمراً لازماً، فهو منوط بمحض مشيئته تعالى وقدرته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ ولا يخفى ما في الآية من تحدٍ للناس، وبيان شدة افتقارهم جميعاً لله تعالى في إيجادهم وإمدادهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا لم يطيعوا أمره، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٣٤﴾ [إبراهيم: ١١]. فالخير كل الخير في طاعته تعالى وتقواه، ففي ذلك خير الدنيا والآخرة:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١٣٤).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: فاعلم يا مَنْ همُّه

في الدنيا، أن عند الله تعالى خيرَي الدنيا والآخرة، فإذا ما أقبلت على عبادته وطاعته، وتمسكت بشريعته، أعطاك وأغناك في الدنيا والآخرة، فالعطاء فيهما منوط بمشيئته وحده، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

فلا يقتصرن قاصرُ الهمة على السعي للدنيا فقط، ولتكن همته ساميةً إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

فما لطلاب الدنيا يطلبون أحسهما، ويحرمون أنفسهم من خير الآخرة الباقي، الذي لا يفنى ولا يبيد، ويعرضون أنفسهم لعذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود].

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

وقد جمعت الآية بين الوعد والوعيد، فضلاً عن رفعها لهمم الناس عن حصر اهتمامهم بالدنيا، وقصر نشاطهم عليها.

• التزام العدل والثبات عليه:

ومن المظاهر العملية لتقوى الله تعالى: التمسك بمبدأ العدل في مختلف الشؤون، في الحكم والشهادة والتعامل مع الآخرين، وعدم الانحراف عنه مراعاة لمصالح شخصية وصلات اجتماعية، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: كونوا مواظبين على العدل، مجتهدين في إقامته.

فالقَوَامُ بالقسط: المبالغ في القيام بالعدل في جميع الأحوال.

﴿شَهِدَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: تقيمون شهادتكم بحق وصدق لوجه الله تعالى.

﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على أنفسكم، كالإقرار بالحق.

﴿أَوْ أَوْلَادِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي: أو كانت على الوالدين والأقربين، فعليكم أن

تتمسكوا بالعدل وتقولوا الحق، ولو على أنفسكم أو على الوالدين والأقربين، فأقيموا الشهادة عليهم لله تعالى.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي: إن يكن المشهود عليه غنياً أو

فقيراً، فالله أولى بهما منكم، فكلوا أمرهم إلى الله تعالى، فهو أعلم بحالهم منكم، فلا تحابوا غنياً لغناه، ولا ترحموا فقيراً لفقره، واشهدوا بالحق والصدق.

﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي: فلا تتأثروا بهوى أنفسكم فتعدلوا عن الحق

في أداء الشهادة.

﴿وَإِنْ تُلَاقُوا﴾ أي: تلووا ألسنتكم إلى غير الحق. فاللَّيْ: هو التحريف

وتعمد الكذب.

﴿أَوْ تُعْرَضُوا﴾ أي: تعرضوا عن أداء الشهادة بكتمانها، وقد نهى سبحانه

عن كتمانها فقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِمْ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وختم سبحانه الآية بتهديد الفريقين المحرفين للشهادة والكاتمين لها فقال:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ وسيجازيكم عليه.

ففي الآية تربية وتهذيب للمسلمين، وتعويد لهم على التزام الحق والصدق

في الحكم والشهادة، مهما كانت الأحوال والظروف، ولا يخفى ما فيها أيضاً من صلة بحادثة بني الأبيرق، وتأديب قومهم الذين جادلوا عنهم، وحاولوا دفع التهمة عنهم إلى غيرهم.

• الدوام على الإيمان والثبات عليه:

وكما أمر تعالى المؤمنين بالدوام على مبدأ العدل وقول الحق، في جميع

الأحوال والظروف، أمرهم أيضاً بالثبات على الإيمان، والتمسك بأركانه؛ لأنه الأصل الذي يقوم عليه العدل والحق:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اثبتوا على الإيمان بالله، وداوموا عليه.
﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: وآمنوا بصدق رسوله محمد عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: وآمنوا بالقرآن الكريم.
﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وآمنوا بكل كتاب أنزله تعالى من قبله كالطوراة والإنجيل.

وأشار قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وقوله: ﴿أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ إلى أن القرآن الكريم نزل مفروقاً منجماً بخلاف الكتب قبله.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهي أركان الإيمان الأساسية، فمن يكفر بواحدة منها:
﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ابتعد كثيراً عن الإيمان، فالكفر بواحدة منها كفر بها كلها.

وبعد دعوة المؤمنين للثبات على الإيمان، والتمسك بجميع أركانه، توعدت الآيات المترددين بين الإيمان والكفر بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ أي: بالإصرار عليه حتى الموت.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لأنه تعالى لا يغفرُ الكفرَ والشركَ، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: ولا يهديهم إلى طريق النجاة من العذاب، بسبب تمسكهم بالكفر وإصرارهم عليه.

• تحريم الجلوس في مجالس الكفر والمعاصي:

ولما كان التردد بين الإيمان والكفر شأن المنافقين، أمر الله النبي ﷺ أن يخبرهم بالعذاب الأليم الذي ينتظرهم، بأسلوب التهكم:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٣٨).

أي: أخبرهم يا محمد، بأن لهم عند الله عذاباً أليماً. ووضع ﴿بَشِّرِ﴾ مكان: أخبر؛ تهكماً بهم.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (١٣٩).

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أنصاراً وأحباباً، ويعرضون عن المؤمنين، مع أنه سبحانه حرّم ذلك في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى أيضاً: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

﴿أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ﴾ أي: أطلبون العزة والمنعة بموالاة الكفار؟! وهو سؤال إنكار وتوبيخ.

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: فإن العزة بمشيئته وقدرته تعالى، يُعزُّ من يشاء، ويذل من يشاء، صرّح بذلك في آيات كثيرة:

منها قوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].
وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].
وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ وهو القرآن الكريم.
﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فقد كان المشركون يخوضون في ذكر القرآن الكريم في مجالسهم، مستهزئين به، فنهى المؤمنون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وأنزل الله في ذلك قوله الكريم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِبَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].
ثم إن اليهود في المدينة كانوا يفعلون مثل فعل المشركين، وكان المنافقون يجلسون إليهم، ويخوضون معهم في الاستهزاء بالقرآن الكريم.
﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ أي: إنكم في الوزر مثلهم؛ لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو إنكم مثلهم في الكفر إن رضيت بذلك.
قال العلماء: وهذا يدل على أن مَنْ رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر أو خالط أهله كان بالإثم بمنزلتهم إذا رضي به، وإن لم يباشره^(١).
﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لأنهم كانوا يجتمعون على الكفر بآيات الله تعالى والاستهزاء بها.

● من صفات المنافقين ومواقفهم:

واستطردت الآيات إلى بيان بعض صفات المنافقين، وبيان مواقفهم من المسلمين، بقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنٌ مِنْ اللَّهِ فَالَوْ أَلَمَ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ فالَوْ أَلَمَ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١).

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون ما ينزل بكم من خير أو شر. ويدلُّ سياق كلمات الآية على أن المنافقين يترَبَّصون في أثناء الجهاد، وقد تخلَّفوا عنه، منتظرين ما يسفر عنه من نصر المسلمين أو هزيمتهم. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنٌ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: تحقق لكم نصر من الله تعالى. ﴿فالَوْ أَلَمَ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: ادَّعى المنافقون أنهم كانوا معكم؛ ليشاركوكم في الغنيمة.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: وإن كان للكافرين ظهور على المسلمين. ﴿فالَوْ أَلَمَ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: قال المنافقون: ألم نتمكن من قتالكم وقتلكم، فأبقينا عليكم ولم نفعل ذلك. والاستحواذ: الاستيلاء والغلبة والتمكُّن.

﴿وَنَمْنَعُكُم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك بتخذيلهم عن قتالكم، وإفشاء أسرارهم لكم، فأعطونا نصيباً مما غنمتم.

فغاية المنافقين تحقيق المنافع المادية، لا يهتمون بدين أو مبدأ، فهم عبيد الدرهم والدينار، يقفون معه حيث يكون.

وسمَّى الله ظفر المسلمين فتحاً عظيماً لشأنهم، بينما سمَّى ظفر الكافرين نصيباً تخسيساً لحظهم؛ لأنه لحظة من الدنيا يصيبونها^(١).

(١) تفسير النسفي: ١٨٨/٢.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: فالله سبحانه يفصل بين المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، عندما تُبلى السرائر، وتنكشف الضمائر، فلا ينتفع المنافقون بما كانوا يتظاهرون به في الدنيا.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: في يوم القيامة، أو في الدنيا بتسليط الكافرين على المؤمنين تسليطاً كاملاً يؤدي إلى استئصالهم، يمكن أن يحصل للكافرين ظهور على المؤمنين في بعض الأحيان، ابتلاءً للمؤمنين وتمحيصاً، ولكن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

ويمكن أن ينصرف المعنى إلى الظهور بالحجة والبرهان، والمؤمنون دائماً أعلى حجة وأقوى برهاناً.

وقد يكون المراد: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ما دام المؤمنون متمسكين بدينهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ يَضُرَّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَلَيَضُرَّنَّ اللَّهَ مَنْ يَضُرُّهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فما غلب المسلمون إلا بسبب تفرقهم وتخاذلهم وبعدهم عن أحكام دينهم وشريعتهم.

ويكون قوله تعالى على هذا رداً على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه من زوال دولة المؤمنين، وظهور الكافرين عليهم.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَأَوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٤٢).

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: بزعمهم وظنهم، ممّا يدل على غيبتهم وجهلهم، فالله سبحانه لا يُخدع؛ لأنه العالم بالسرائر والضمائر.

والخديعة: الحيلة والمكر، وأصل معناها في اللغة: الإخفاء، والمخادع: يُظهرُ ضدَّ ما يُضمر، قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

﴿وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾ أي: وهو سبحانه يعاملهم معاملة المخادع لهم؛ لأنه يعلم سرائرهم وضمائرهم فيملي لهم استدراجاً وزيادة في ضلالهم وطغيانهم، ثم يخذلهم ويحرمهم من المنافع الدنيوية، التي تعلقت بها نفوسهم، فلا يجدون إلا الحسرة والألم، ويحشرهم يوم القيامة مع المؤمنين في أول الأمر، ثم يعزلهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقَسٌ مِنْ تَوْرِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وبعد أن كشفت الآيات سرائر المنافقين وصفت ظواهرهم وبيّنت مواقفهم: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا﴾ أي: قاموا إليها متثاقلين كارهين؛ لأنهم لا يتذوقون حلاوتها، ولا يشعرون بلذة مناجاة الله تعالى فيها؛ بسبب ظلمة الكفر التي تملأ قلوبهم.

﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي: لا يقومون إلى الصلاة إيماناً واحتساباً، وإنما يقومون إليها رياءً وسمعة.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يذكرون الله في صلاتهم إلا ذكراً قليلاً بالسنتهم؛ لأنهم في صلاتهم ساهون لاهون.

وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ وصف الذي يؤخر الصلاة عن وقتها فقال: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» [رواه مسلم (٦٢٢)].

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: متحيرين مترددين بين الإيمان والكفر.

﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: لا يُعَدُّون من المؤمنين ولا من الكافرين.

فالقوم لا هوية لهم ولا مبدأ، مبدؤهم - كما مر - مصالحهم المادية،

يدورون معها حيث تدور، وهذا شأن كثير من الناس في هذا العصر، بسبب حياتهم في ظل الحضارة المادية الغربية، مما يدل على كثرة النفاق وذيوعه بين الناس.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً إلى الهدى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين، تنهاهم عن التشبه بالمنافقين وموالات الكافرين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

أي: أتريدون بموالات الكفار أن تجعلوا لله عليكم حجة ظاهرة تستحقون بموجبها العذاب، فالله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه باستحقاقه العذاب.

﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَفَقِّينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي: في أسفل طبقات النار، فهم أشد الناس عذاباً، فاحذروا أن تكونوا مثلهم وتشبهوا بهم.

﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخرجهم من العذاب أو يدفعه عنهم.

ثم فتحت الآيات للمنافقين باب التوبة؛ حثاً لهم على ترك النفاق:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: عن النفاق.

﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أي: ما أفسدوا من نياتهم وأعمالهم في أثناء نفاقهم.

﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: تمسكوا بدينه تعالى، ووثقوا به جَلَّ جَلَالُهُ وحده.

﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: جعلوا طاعتهم وعبادتهم لله تعالى وحده، خالصة عن كل رياء وشرك.

﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في عداد المؤمنين في الدنيا والآخرة.
﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعثهم جميعاً، المؤمنين في الأصل والتائبين عن النفاق.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ ﴿١٤٧﴾

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أي: الله سبحانه غني عن تعذيبكم، فعذابكم منوط بكفركم وجوداً وعدماً، فإذا ما زال عنكم الكفر، وحلَّ محله الإيمان والشكر، انتفى عنكم العذاب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ أي: يرضى بالقليل من أعمال عباده، ويجزي عليها الثواب الجزيل.

﴿عَلِيمًا﴾ بأحوالهم وحقيقة أعمالهم.

• التشهير بالظالمين وفضحهم:

ومن الوسائل التي شرعها الله تعالى للمظلومين، لدفع الظلم عنهم، وتحصيل حقوقهم: التشهير بالظالمين، وفضحهم بين الناس، وقد أثبتت الوقائع جدوى هذه الوسيلة في ردع الظالمين عن ظلمهم، وخاصةً في العصر الحاضر، بعد أن أصبح لوسائل الإعلام تأثيرٌ قوي على الناس؛ ولهذا نرى الطغاة المستبدين، عندما يتسلّمون مراكز السلطة، يبادرون إلى تسخير رجال الإعلام ووسائله لخدمة أغراضهم، والتستر على طغيانهم وظلمهم وفسادهم.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿١٤٨﴾

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: لا يحب الله سبحانه إعلان السوء والقول القبيح.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: إلا جهر من ظلم. وقد يكون الاستثناء منقطعاً، ويكون المعنى: لكنَّ المظلومَ يجوزُ أن يجهر بظلم الظالم.

قال العلماء: لا يجوزُ إظهار أحوال الناس المستورة المكتومة؛ لأنَّ ذلك يصير سبباً لوقوع الناس في الغيبة، ووقوع ذلك الشخص في الريبة، لكن مَنْ ظَلِمَ يجوز له إظهار ظلمه فيقول: سُرِقَ مني، أو غُصِبَ مني، ونحو ذلك، وإن شُتِمَ جاز له أن يشتم بمثله، ولا يزيد شيئاً على ذلك^(١).

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «المستبَّان ما قالا فعلى البادئ، ما لم يعتد المظلوم» [رواه مسلم (٢٥٨٧)].

فالتشهير بالظالمين وفضحهم أمر مشروع في الإسلام، وهو من قبيل الانتصار للمظلومين عليهم، ودفع ظلمهم عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [الشورى].

وللمظلوم أيضاً أن يدعو على ظالمه، وهو من قبيل الانتصار للمظلوم على الظالم، وذكره بعضهم في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾.

وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن: «واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» [رواه البخاري (١٤٩٦)].

وقوله: «حجاب» أي: ليس لها صارف يصرفها ولا مانع. والمراد: أنها مقبولة وإن كان عاصياً.

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجورته على نفسه» [رواه أحمد (٣٦٧/٢) وإسناده حسن]^(٢).

(١) تفسير الخازن: ١٩٥/٢.

(٢) فتح الباري: ٣/٣٦٠.

ومما يدلُّ على أنَّ التشهير بالظالمين وسيلةٌ ناجعةٌ لكفِّهم عن ظلمهم، الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، فقال له: «أذهب فاصبر» فأتاه مرتين أو ثلاثاً، فقال: «أذهب فاطرح متاعك في الطريق» ففعل، فجعل الناسُ يمرُّون ويسألونه، فيخبرهم خبرَ جاره، فجعلوا يلعنونه: فعل الله به وفعل، وبعضهم يدعو عليه، فجاء إليه جاره فقال: ارجع فإنك لن ترى مني شيئاً تكرهه. [رواه أبو داود (٥١٥٣)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ أي: يسمع دعاء المظلومين، ويعلم ظلم الظالمين. ومع أنَّه تعالى أعطى المظلومين حقَّ الانتصار من الظالمين، حثَّ المظلومين على العفو عمَّن ظلمهم عند التمكن منهم، فقال:

﴿إِنْ يُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (١٤٩).

﴿إِنْ يُبَدُّوا خَيْرًا﴾ أي: مكان الجهر بالسوء.

﴿أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ أي: تخفوا الخير فتعملوه سرّاً.

﴿أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: تعفوا عن مَظْلَمَةٍ، وتتركوا التشهير بالظالم والانتقام منه بعد القدرة عليه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: إنه تعالى كان ولم يزل ذا عفوٍ عن أصحاب المعاصي والآثام، مع قدرته على عقابهم، فاعفوا أنتم ظلمكم إذا تاب عن ظلمه وكف عنه.

فالانتقام من الظالم عدلٌ، والعفو عنه عند المقدرة عليه فضلٌ وإحسانٌ، شجّع عليه تعالى في عدد من الآيات، منها: قوله الكريم: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [التحل: ١٢٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].



الْفَصْلُ السَّابِعُ

عقائد أهل الكتاب

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ
بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٨﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ
عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ
بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَائِنَا مُوسَىٰ سُلْطَنَا مُبِينًا
﴿١٥٩﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ
وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٦٠﴾ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقُلْنَا لَهُمُ الْآيَاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦١﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ
مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاءُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا
﴿١٦٣﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٤﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٦٥﴾ فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُجَلَّتْ لَهُمْ
وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٦﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْإِطْلَاقِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٧﴾ لَكِنَّ الرَّاغِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٨﴾ ﴿١٦٩﴾ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْحِيثَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ

وَسَلِّينَ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ
عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ
حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ
بِعِلْمِهِ ۚ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
طَرِيقًا ﴿١١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ
جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢٠﴾ يَأْتِيهِ الْكِتَابُ لَا تَغْلُو فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رُسُولُ اللَّهِ ۚ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ ۚ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ ۚ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ ۚ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ وَلَهُ
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٢١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا
﴿١٢٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾
يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٢٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ
وَاعْتَصَمُوا بِهِ ۖ فَسُخِّرْ لَهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَهَدَيْهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ
اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنْ أَمَرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُ ۚ وَلَهُ ۚ أُخْتُ ۚ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ۚ فَإِنْ كَانَتَا أُنثَىٰ ۖ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ
مِثْلُ الْأُنثَىٰ ۚ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ ﴿١٢٧﴾

• كُفْرُ الْجَاهِدِينَ لِرِسَالَةِ الْإِسْلَام:

بعد أن تحدّث الآيات فيما سلف، عن مواقف أهل الكتاب من النبي ﷺ، ومعارضتهم لدعوته، وبعد أن بيّنت الآفات النفسية الخطيرة التي ابتلوا بها، والتي دفعتهم إلى العدوان على الناس، وانتهاك حرمة حقوقهم، كان من

الضروري أن تكشف عن زيغهم عن الحق، وانحرافهم عن عقيدة التوحيد، التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين.

ولعلَّ سبب تأخير هذا الحديث المتعلق بعقائد أهل الكتاب إلى ختام السورة تقريباً، ليأتي في مقابل ما سبق من الحديث عن الإيمان وحقيقته وأركانه، وعن الإسلام لله تعالى والانقياد لأحكام دينه وشرعه، وعن الطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ، والتمسك بسنته، وعن وصية الله الخالدة لجميع الأنبياء والمرسلين، بالتزام التقوى، والتمسك بمبدأ العدل واحترام حقوق الناس.

فإذا ما أتى بعد ذلك الحديث عن عقائد أهل الكتاب، تمَّ التقابل وظهرت معالم الطريق الحقيقي الذي يجب على جميع الناس أن يسيروا عليه، والذي تُصان لهم به كرامتهم وحقوقهم.

أبرزت الآيات في مستهل عرضها لعقائد أهل الكتاب، تفريقهم للإيمان بين الرسل، فهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، مع أن الرسل جميعاً قد دعوا إلى توحيد الحق سبحانه وعبادته وحده، والاستسلام لأحكام شرعه، والكفر ببعض الرسل كفر بهم جميعاً، والإيمان بهم جميعاً ركنٌ أساسٌ من أركان الإيمان كما تقدّم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: بحسب ما تقتضيه آراؤهم، وتؤدّي إليه مذاهبهم.

﴿وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ أي: نؤمن ببعض الأنبياء والرسل ونكفر ببعضهم، وهذا هو سبب كفرهم بالله تعالى ورسله.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: يريدون أن يتخذوا طريقاً وسطاً

بين الإيمان والكفر، ولا توسط في ذلك، والحقُّ كلٌّ لا يتجزأ، والإيمان بالله تعالى لا يتم إلا بالإيمان بجميع رسله.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي: أولئك المفرقون بين الله ورسله في الإيمان، هم الكافرون كفراً محققاً، وهو ما فعله أهل الكتاب من اليهود والنصارى، صدّق اليهود بموسى والأنبياء، وكفروا بـعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وصدّق النصارى بـعيسى والأنبياء، وكفروا بمحمد ﷺ.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: يُهانون فيه ويدلون.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٥٢﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لم يفرقوا في الإيمان بينهم، بل آمنوا بهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا أَرْسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ففي الآية ترغيب لأهل الكتاب بالإيمان برسالة محمد ﷺ، خاتمة الرسالات، فإذا آمنوا بها غفر الله لهم ما سلف منهم في حال كفرهم، وأعطاهم أجوراً مضاعفة.

• جحود وعناد:

ثم شرعت الآيات تعدد بإيجاز مواقف الجحود والعناد التي وقفها أهل الكتاب من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فبدأت بموقفٍ لهم من خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَى سُلْطَنًا مُبِينًا ۝١٥٣﴾ .

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: يسألك يا محمد أهل الكتاب، وهم أحبار اليهود، جاؤوا إلى الرسول ﷺ، وطلبوا منه أن ينزل الله عليهم كتاباً مكتوباً من السماء، كما نزل التوراة على موسى .

فردَّ الله تعالى عليهم، مبيناً أن سؤالهم هذا سؤال تعنتٍ وجحودٍ وعنادٍ، لا سؤال إيمان وتصديق، فقال:

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: فقد سأل أسلافهم موسى سؤالاً أكبر عناداً وجحوداً وتعنتاً .

﴿فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: عياناً .

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بسبب ظلمهم، وهو تعنتهم، وسؤالهم أمراً في غير موضعه، فقد اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى موضع مناجاته ربه، لكي يستغفروا الله عن عبادة العجل، كما مرَّ تفصيل قصتهم في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنْظَرُونَ ۝١٥٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[البقرة].

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: وأعظم من ذلك شناعة وقبحاً، عبادتهم العجل الذهبي، بعد المعجزات الكثيرة التي أجراها الله تعالى لهم على يد موسى ﷺ .

﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أي: تجاوزنا عن كل ذلك تفضلاً منا وإحساناً .

﴿وَإِنَّا بِمُوسَى سُلْطَنًا مُبِينًا﴾ أي: حجة ظاهرة على من خالفه .

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ
وَآخِذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١٥٤).

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ أي: ورفعنا فوقهم جبل الطور؛ تهديداً لهم عندما رفضوا إعطاء العهد والميثاق على العمل بأحكام التوراة والتمسك بها.

وقد ذكر الله تعالى ذلك في عدد من الآيات الكريمة:

كقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَنقَضْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب القرية التي أذن الله لهم بدخولها دخول الخاضعين له تعالى.

فخالفوا أمره، كما أخبر سبحانه عنهم في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ
الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨].

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي: لا تتجاوزوا أمره تعالى في يوم السبت.

فخالف بعضهم أمره، واحتالوا على شرعه، وأخبر سبحانه عن ذلك في
قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٣٥)
فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿وَآخِذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: أخذ سبحانه منهم عهداً مؤكداً شديداً لكي يلتزموا أمره وشرعه. فكانت نتيجة ذلك كله:

• كفر متوارث:

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥).

﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ﴾ أي: غضبنا عليهم ولعنناهم وفعلنا بهم ما فعلنا بسبب نقضهم ميثاقهم.

﴿وَكُفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: وبسبب كفرهم بآيات الله تعالى التي أنزلها عليهم في التوراة.

﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: قلوبنا محجوبة عن دعوتك ورسالتك؛ وهو ما قالوه لخاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، عندما دعاهم إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

وقال تعالى هنا في معرض الرد عليهم:

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم وعنادهم.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: فلا يؤمن منهم إلا عدد قليل، استجابوا لدعوة الإسلام، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سُعنة.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦).

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: وبسبب كفرهم في أمر عيسى عليه السلام.

وتأمل كم مرة وُصفوا بالكفر، فكفرهم متوالٍ عليهم، ومتعاقبٌ تعاقبَ أجيالهم، فهو كفر عريق متوارث فيهم، ينتقل من السلف إلى الخلف.

﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ أي: وافترائهم على مريم فرية عظيمة، فقد

اتهموها زوراً وكذباً بالزنى، عندما قالوا لها: ﴿يَتَّخَذَتْ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧).

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: وبسبب ادّعاءهم الكاذب أنهم قتلوا عيسى ابن مريم رسول الله، وجاء وصفهم له بالرسالة على سبيل الاستهزاء والعناد.

ونفى سبحانه ادّعاءهم الكاذب هذا نفياً قاطعاً، بعد أن حكاه عنهم مباشرة، فقال:

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: اشتبه عليهم أمره ﷺ، فأخذوا غيره، فقتلوه، أما عيسى ﷺ فرفعه تعالى إلى السماء، كما ذكر تعالى في قوله الكريم: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: اختلفوا في شأن عيسى ﷺ.

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: لفي تردد وحيرة.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي: ليس لهم علمٌ بحقيقة ما حدث لعيسى ﷺ، لكنهم يتبعون الظن.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: وما قتلوه قتلاً يقيناً كما زعموا بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨).

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: بل الحقيقة أن الله تعالى رفعه إليه، ونجّاه من

مكرهم وكيدهم، فهو حيٌّ في السماء، وسينزل قُبيل قيام الساعة، فيقتلُ الدجالَ، ويكسرُ الصليبَ، كما سيأتي في الحديث الشريف الصحيح.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: وكان الله ولا يزال قوياً لا يُغلبُ، حكيماً في كلِّ ما قَدَّرَ وشرع^(١).

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: وما من أحد من أهل الكتاب.

﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي: إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام الإيمان الصحيح بأنه عبد الله ورسوله قبل موت عيسى عليه السلام، بعد نزوله إلى الأرض.

فالمراد: أهل الكتاب الموجودون في زمن نزول عيسى إلى الأرض.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد: عموم أهل الكتاب، وردوا الضمير إلى الكتابي عندما يموت، وهذا الإيمان لا ينفعه، لأنه جاء متأخراً عند اليأس من الحياة.

لكن الأحاديث الشريفة الصحيحة، التي بلغت مبلغ التواتر، والتي تحدّثت عن نزول عيسى قُبيل قيام الساعة إلى الأرض، تقوّي الرأي الأول:

منها: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب - وفي رواية: الجزية - ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

[رواه البخاري (٣٤٤٨)].

وهذا مصير من أبي هريرة رضي الله عنه إلى أن الضمير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

﴿يَهُدَى﴾ وكذا في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعودُ على عيسى، أي: إلا ليؤمننَّ بعيسى قبل موت عيسى، وبهذا جزم ابنُ عباسٍ رضي الله عنه فيما رواه ابنُ جرير من طريق سعيد بن جبير عنه بإسناد صحيح، ومن طريق أبي رجاء عن الحسن قال: قبل موت عيسى، والله إنه الآنَ لحَيٍّ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون، ونقله عن أكثر أهل العلم، ورجحه ابن جرير وغيره^(١).

﴿وَيَوْمَ الْفَيْصَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: شهيداً على أنه بلغهم رسالة ربه، وأقرَّ بالعبودية على نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة].

• عدوان أهل الكتاب على حقوق الناس:

وكما اعتدى اليهود من أهل الكتاب على الأنبياء، فقتلوا بعضهم، وافتروا على بعضهم، فاتهموهم بِتُّهَمٍ كاذبة باطلة، كذلك اعتدوا على كثير من الناس، فبَغَوْا عليهم، وظلموهم، وأكلوا حقوقهم، وهو ما أخبر عنه تعالى بقوله:

﴿فِي ظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.

﴿فِي ظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي: بسبب الظلم الذي فعله اليهود حرَّم الله عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: وبسبب منعهم كثيراً من الناس عن

الإيمان بالله تعالى، والاستجابة لدعوة رسله، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ووقائع التاريخ شواهد عليها.

﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: وبسبب أكلهم الربا مستحلين له، وقد حرّمه تعالى عليهم، فهم الذين ابتدعوا هذه النظم الاقتصادية القائمة على الربا، والتي يتمكنون بها من امتصاص خيرات الأمم والشعوب في جنات الأرض.

﴿وَأَكْلَهُمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: وبسبب عدوانهم على أموال الناس، وأكلهم لها بالطرق المحرّمة، كالرشوة والغش والقمار والغصب.

لهذه الأسباب كلّها شدّد الله تعالى عليهم في الدنيا، وحرّم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة.

ثم استثنى تعالى المؤمنين منهم، كعبد الله بن سلام وأصحابه، فقال:

﴿لَنْ كُنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿لَنْ كُنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أي: الثابتون في العلم المتمكنون فيه، أو الذين يعملون بعلمهم، ولما علموا من صفات النبي ﷺ ما أوصلهم إلى الإيمان به، والتصديق برسالته، آمنوا وصدقوا.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وعامة المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فلا يفرّقون في الإيمان بين نبي ونبي، ولا بين كتاب وكتاب.

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ أي: وأمدح المقيمين الصلاة، ونُصِبَتْ على الاختصاص والمدح؛ إبرازاً لفضيلة إقامة الصلاة.

﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المؤدّون الزكاة المفروضة عليهم.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: المؤمنون بالإيمان الصحيح بأن الله هو الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد، ويصدّقون باليوم الآخر وما فيه من مسؤولية وجزاء.

﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم قدره إلا الله تعالى المتفضّل به، ويلاحظ كيف أنّ الآية الكريمة أبرزت حقيقة الإسلام الكامل بوجهيه اللذين لا ينفصلان عن بعضهما، وهما: التصديق القلبي، والانقياد العملي.

• الوحي والنبوة:

وردّاً على أهل الكتاب المنكرين لصحة رسالة نبينا ﷺ وصدق نبوته قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ كهود وصالح وشعيب ﷺ، فظاهرة الوحي إلى جميع الأنبياء واحدة، لا خلاف فيها، تقوم بين ذاتين، ذات علوية أمرة ملقية، وذات ضعيفة مأمورة متلقية.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم الأنبياء الذين أوحى الله إليهم من قبائل بني إسرائيل.

﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وهو الكتاب المنزل على داود ﷺ.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤).

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: سميناهم لك، وأخبرناك بخبرهم من قبل نزول هذه الآيات، كآدم وزكريا ويحيى وإدريس وإلياس ولوط واليسع وذو الكفل، عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي: لم نذكرهم لك، ولم نقص عليك شيئاً من أخبارهم، فلا يعلمهم إلا الله تعالى، لكنه سبحانه نوه بذكرهم، وأخبر في عدة آيات أن أنبياءه ورسله إلى جميع الأمم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقوله أيضاً: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فالنبوات والرسالات تتابعت على البشر منذ فجر وجودهم، وأولهم آدم عليه السلام، وآخرهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، وتوقف الوحي وفتر بينه وبين عيسى عليه السلام تمهيداً لبعثته، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

وانقطع الوحي، وختمت النبوة بوفاة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فلا نبى بعده أبداً، كما أخبر عليه الصلاة والسلام في عدد من الأحاديث الشريفة الصحيحة، وأكد ذلك الله سبحانه بصريح قوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أي: خاطبه تعالى من وراء حجاب وأسمعه كلامه بلا واسطة.

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٦٥).

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي: أرسل

الله تعالى الرسل يبشرون الناسَ بفضله ورحمته، وينذرونهم من عقابه وأليم عذابه؛ إزاحة لعذرهم، لثلا يقولوا يوم القيامة: لولا أرسلت إلينا رسولاً يبين لنا شريعتك وعبادتك وطاعتك، فلقد تمت حجة الله على المكلفين من خلقه ببعثه الرسل وإنزال الكتب، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فما أرسل الرسل، وأنزل الكتب إلا بمحض إرادته ومشيئته وحكمته جل وعلا.

● الشهادة الأزلية الخالدة:

إنكار أهل الكتاب لنبوة خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ، وجحودهم لرسالته: عدوان كبير على أعظم وأقدس حقوقه عليه الصلاة والسلام، فهو اتهام له بالكذب على الله تعالى، وهو أقبح أنواع البهتان، ولهذا ردّ الله جل وعلا عليهم أبلغ رد، فأعلن شهادته الأزلية الخالدة بصدق رسالته عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، فقال:

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١٦٦).

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن الكريم المعجز.

﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: أنزله وهو سبحانه عالم بمن ينزله عليه، فهو العليم الحكيم المحيط بأحوال خلقه، يعلم أين يجعل رسالته، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ أي: والملائكة يشهدون أيضاً بصدق رسالتك وصحة نبوتك.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وحسبك يا محمد شهادة الله تعالى، وإن لم يشهد معه غيره، فشهادته أعلى وأعظم من كل شهادة، وتغنيك عن غيرها.

فسيدنا محمد ﷺ خيرته سبحانه من خلقه، وصفوته من عباده، اختاره بعلمه وحكمته، ليحمل للناس أعظم رسالة وأكملها وأتممها، ويختتم به وحيه المنزل على خلقه. فالويل كل الويل لمن ينكر نبوته عليه الصلاة والسلام ولا يؤمن برسالته، بعد أن شهد الله تعالى له هذه الشهادة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١٦٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كفروا برسالته ﷺ وجحدوا نبوته.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ومنعوا الناس عن سبيل الحق، وهو الإسلام، رسالة خاتم الأنبياء ﷺ.

﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ فهم الضالون المضلون، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ أي: ظلموا سيدنا محمداً ﷺ، بإنكار رسالته وجحد نبوته.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: إن أصرروا على كفرهم وظلمهم، إذ ينطبق عليهم قوله تعالى المتقدم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿١٦٩﴾ وذلك بسبب عنادهم وجحودهم وإصرارهم على ظلمهم.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: خلودهم أبداً في النار يسير عليه تعالى غير عسير.

وبعد أن بيّنت الآيات الشهادة الربّانية الخالدة، على صحة رسالة النبي ﷺ وصدق نبوته، وجّهت الدعوة إلى كلّ الناس للإيمان به:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٧).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: جاءكم الرسول الخاتم ﷺ بالدين الحق الثابت، الذي لا يقبل الله سبحانه غيره.

﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أي: فآمنوا برسالته، وأذعنوا لدعوته، خيراً لكم في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ أي: تصروا على الكفر وتعرضوا عن قبول دعوته.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: فإنه سبحانه غني عنكم، لأنه مالك السموات والأرض. ونظيره قوله تعالى الذي مرّ: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

فما أرسل الله لكم هذا الرسول، وأنزل عليكم هذا الكتاب إلا رحمةً بكم، إذ هو عليمٌ بأحوالكم، وبما يصلح لكم، ويسعدكم في الدنيا والآخرة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

• حقيقة عيسى عليه السلام:

ثم وجه سبحانه دعوة خاصة إلى النصارى من أهل الكتاب، بيّن لهم فيها حقيقة عيسى عليه السلام وعبوديته لله ﷻ، كما بيّن لهم ضلالهم عن الحق، وكشف لهم سبب هذا الضلال، ثم دعاهم إلى الإيمان برسالة النبي الخاتم ﷺ، رسالة الإسلام، فقال:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد في أمر عيسى فترفعوه فوق عبوديته لله تعالى.

والغلو: مجاوزة الحد، وهو سبب انحراف النصارى عن الحق.

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: لا تفتروا على الله تعالى وتصفوه بصفات لا تليق بكماله ووحدانيته، فهو سبحانه منزّه عن الصاحبة والولد والشريك.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «لا تُظَرُونِي كما أَظَرَتِ النصارى ابنَ مريمَ، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبدُ الله ورسوله» [رواه البخاري (٣٤٤٥)].

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: إنما هو عبد الله تعالى ورسول، شأنه كشأن بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ أي: وهو أيضاً كلمة الله تعالى، لأنه تعالى خلقه بالكلمة التكوينية (كن) فكان، كما مرّ آنفاً، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: خلقها في مريم، وأوصلها إليها، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦].

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: وهو أيضاً روح من أمر الله تعالى ومن خلقه ومن عنده.

ف (من) ليست للتبعض، بل هي بيانية، كما في قوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجن: ١٣] (١).

وأضيفت الروح إلى الله تعالى على وجه الاختصاص، لأنها مما استأثر تعالى بعلمها، كما قال سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الاسراء: ٨٥].

أو أضيفت على وجه التشريف، كنافقة الله وبيت الله، وقد أضاف سبحانه روح آدم إليه أيضاً في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: فصدقوا بأن الله واحدٌ أحدٌ، لا شريك له ولا ولد، وآمنوا برسله، وكلهم دعوا إلى عبادته تعالى وحده، وكلهم عبيد له، اختارهم تعالى لحمل رسالته إلى خلقه.

﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي: لا تقولوا بالتثليث، فتجعلوا عيسى وأمه شريكين لله تعالى في صفات الألوهية، فهي عقيدة باطلة مكفرة، حكم سبحانه على قائلها بالكفر فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ووصف سبحانه المسيح وأمه بقوله: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِالْطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: اتركوا هذه الأقوال الفاسدة الباطلة يكن خيراً لكم. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: تعالى وتقدس عن ذلك وتنزه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: خلقاً وملكاً وتدبيراً، فهو سبحانه غني عن الولد والشريك.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٨/١.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومدبراً، فهو سبحانه قائم على جميع مخلوقاته، فلا يحتاج إلى غيره، وكلهم محتاجون إليه جل وعلا.

• اعتزاز عيسى بعبوديته لله تعالى:

ثم بَيَّنَّتِ الآيات أن عيسى عليه السلام يعتزّ بعبوديته لله جلّ جلاله، ويتمسك بها ولا يأبأها:

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢).

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أي: لن يأنف عيسى عليه السلام عن عبوديته لله تعالى، ولن يتركها ويتخلّى عنها أو يتنحى عنها. وأصل معنى يستنكف: من نكف الشيء إذا نحته، ونكفت الدمع إذا نحته بإصبعك عن خدك.

﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: وكذلك الملائكة المقربون، فإنهم مع علو منزلتهم وكرامتهم، لن يستنكفوا عن عبوديتهم لله تعالى وخضوعهم له جلّ جلاله. ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ﴾ أي: ومن يمتنع عن عبادته تعالى، ويستكبر من جميع خلقه.

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعهم يوم القيامة، فيحاسبهم ويجازيهم.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧٣).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهم الذين عبدوه سبحانه وحده، وأذعنوا لأمره ومشيتته، وتمسكوا بشرعه واتبعوا رسله.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بما أعدّ لهم في الجنة من النعيم المقيم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: وأما الذين لم يذعنوا لأمره، ولم ينقادوا لدينه وشرعه.

﴿فَعَذَابُ اللَّهِ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

• برهان ونور:

بهذا البيان الواضح ظهرت معالم الحق، وأشرقت أنواره، وتميّزت تميّزاً ظاهراً عن الضلال، من دون أدنى غموض أو لبس، وأنّ للآيات الكريمة أن توجه نداءها مرّة ثانية إلى جميع الناس، كما فعلت في أول السورة ومطلعها:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: قد جاءكم في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن الكريم، برهان واضح جلي من ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ورباكم، فدلّكم على العقيدة الصحيحة والمنهج القويم.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أي: وأنزلنا إليكم أيضاً نوراً موضحاً.

وهي الأحكام التي شرعها الحق لكم، والتي تبيّن لكل إنسان حقوقه وواجباته، فإذا ما التزمتم بهذه الأحكام وتمسّكنم بها في جميع شؤون حياتكم، حفظت لكل إنسان حقوقه كاملة، فلا يعتدي أحدٌ على أحدٍ، ولا يظلم أحدٌ غيره، فالنور قوي واضح، يميز بين الحقوق، ويعرف بالواجبات.

ودين الله وشريعته هو النور، والإعراض عنه ظلمة وخيرة وعدوان وخذلان:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُخِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مَوْلَاهُ وَفَضْلِ وَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ

صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: تمسّكوا بدينه وشرعه.

﴿فَسَيُذِخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: ببركة تمسكهم بدينه وشرعه ينزل عليهم الرحمات، ويبارك لهم في الخيرات، فيعيشون في سعة ورخاء وسلام.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: ويدلّهم على الطريق الذي يوصلهم إلى رحمته وجنته ورضوانه، وهو الصراط المستقيم، طريق الإسلام لله تعالى وحده، والاستسلام لأمره وشرعه، الطريق الذي يتوجه المؤمنون إلى الله تعالى في كل صلاة، يسألونه بضراعة أن يشبّتهم عليه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

• حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان:

فحقُّ الله على عباده أن يعبدوه وحده، ويتمسكوا بدينه وشرعه، وحقُّ العباد على الله تعالى أن يتفضّل عليهم برحمته وهدايته وجنته.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّ حقَّ الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يُشْرِكُوا به شيئاً»، ثم قال: «هلْ تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ» [رواه مسلم (٣٠)].

وتبرز من خلال طاعة الناس لله تعالى وعبادتهم له وحده حقوق الإنسان على أخيه الإنسان، فهي في الحقيقة حقوق لله تعالى، لأنه هو الذي قررها للإنسان وشرعها له، وقد أخرج تعالى الآية الثالثة من آيات المواريث، التي يقرّر فيها حق الإخوة الأشقاء في الميراث إلى آخر سورة النساء، فختم بها السورة، بعد أن قرر في سباقها حقوقه تعالى على عباده، وحق عباده الذي تفضّل به عليهم، وأفاد بذلك أن حقوق الإنسان في الإسلام من حقوق الله تعالى على عباده، فالالتزام بها والمحافظة عليها عبادة وطاعة لله تعالى.

وفي الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه: دخلَ عليَّ النبيُّ ﷺ وأنا مريضٌ، فدعا بوضوءٍ، فتوضّأ، ثم نضحَ عليَّ مِنْ وَضُوئِهِ، فأفقتُ فقلتُ: يا رسولَ الله، إنّما لي أخواتُ. فنزلتْ آيةُ الفرائضِ. [رواه البخاري (٦٧٤٣)].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أُمِرُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ .

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: يسألونك أن تفتيهم .

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهو من لا ولد له ولا والد .

﴿إِنْ أُمِرُوا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: وليس له والد .

فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر، لأن السؤال في الفتيا كان عن الكلالة، والمراد من الولد الذكر والأنثى .

﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أي: له أخت شقيقة من أبيه وأمه، أو من أبيه .

﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: لها نصف ما ترك الميت من المال .

﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ أي: والأخ يرث الأخت، ويأخذ جميع مالها، إن قُدر الأمر على العكس، بأن ماتت هي، وبقي أخوها بعدها، وليس لها ولد ذكراً كان أو أنثى .

﴿إِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين، فلهما الثلثان مما ترك الميت .

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: فللذكر منهم نصيب ثنتين من أخواته .

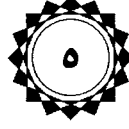
﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي: يبين الله لكم هذه الأحكام، لئلا تضلوا، فهي بمثابة النور الكاشف، الذي يبين لكم الصراط المستقيم الذي يحفظكم من الضلال .

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم ما يصلحكم ويحفظ لكم حقوقكم

ويسعدكم في الدنيا والآخرة، فالتزموا بأحكام شرعه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، وسلم تسليماً كثيراً.





تفسير سورة المائدة الحلال والحرام في سورة المائدة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ معرفة ما أحلّ الله تعالى للناس وما حرّم عليهم في الشريعة الإسلامية؛ التي هي خاتمة الشرائع الإلهية من أوجب الواجبات، وأهمّ الضرورات، فلا تستقيم حياة الإنسان إلا إذا أقامها على هدي الدين الحنيف، المستمدّ من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ.

وإنّ لتشريع الحلال والحرام في الإسلام التصاقاً قوياً بحياة الإنسان العملية، في عبادته، وطعامه، وشرابه، وملبسه، ونكاحه، ومعاملاته، وأخلاقه، وسلوكه، وسائر شؤونه.

وموضوع سورة المائدة يظهر للمتأمل في أول آياتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْفُسِ إِلَّا مَا يَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۖ﴾.

ومن المعلوم أنّه ما من آية في القرآن الكريم ابتدأت بثناء الله سبحانه عباده

المؤمنين بصفة الإيمان ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلا بين الله تعالى فيها بعض أحكام دينه ومعالَم شريعته .

قرر هذه الحقيقة الصحابيُّ الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عندما جاءه رجلٌ فقال: اعهدْ إليَّ (أي: أوصني) فقال له: إذا سمعتَ الله يقولُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سَمْعَكَ، فإنه خيرٌ يأمرُ به، أو شرٌّ ينهى عنه ^(١).

وفي القرآن الكريم ثمانٍ وثمانون آية صُدّرت بهذا النداء: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، منها ستُّ عشرة آية في سورة المائدة؛ وهي:

- ١ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [١].
- ٢ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [٢].
- ٣ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [٦].
- ٤ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [٨].
- ٥ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [١١].
- ٦ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [٣٥].
- ٧ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [٥١].
- ٨ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ [٥٤].
- ٩ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا﴾ [٥٧].
- ١٠ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [٨٧].
- ١١ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [٩٠].
- ١٢ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَ لَكُمْ مِنَ الشَّيْءِ مِنَ الصَّيْدِ﴾ [٩٤].
- ١٣ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [٩٥].
- ١٤ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِلَ لَكُمْ سُوءُكُمْ﴾ [١٠١].
- ١٥ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [١٠٥].
- ١٦ - ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ﴾ [١٠٦].

والجدير بالذكر أن الله تعالى لم يذكر في أي سورة من سور القرآن الكريم مثل هذا العدد من الآيات الكريمة المصدّرة بهذا النداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فسورة البقرة - وهي أطول سور القرآن الكريم - فيها عشر آيات فقط مفتحة بهذا النداء.

فافتتاح سورة المائدة بقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...﴾ وتضمّن السورة هذا العدد الكبير من الآيات الكريمة المصدّرة بهذا النداء الإلهي العُلويّ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدلُّ على موضوع السورة الأساس، وهو التشريع المتعلّق بالحلال والحرام، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها في سورة المائدة: «إنّها من آخر ما أنزل الله، فما وجدتم فيها من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه»^(١).

ولو تدبّرنا هذه الآيات الكريمة المصدّرة بهذا النداء، وموقع كل آية منها بين آيات سورة المائدة الأخرى، لرأينا أن جميع آيات سورة المائدة تدور في فلك هذه الآيات الست عشرة التي تبين وتشرّع أحكاماً كثيرة، أبرزها يتصل بموضوع الحلال والحرام في الطعام والشراب والصيد والذبائح، وهذا يتناسب تماماً مع اسم السورة «المائدة»، وبعضها يتعلّق بالنكاح والأسرة، وبعضها يتصلّ بالعبادات كالصلاة والحج، وبعضها بالأيّمان والكفّارات، وبعضها بالعقوبات كالقصاص والحدود، وبعضها يتصل بموضوع الحكم والقضاء والشهادات وإقامة العدل بين أفراد المجتمع من جهة، وبين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الإنسانية الأخرى من جهة ثانية، كما تبين كيف ينبغي أن تكون علاقة المسلمين بغيرهم من أصحاب الملل والنحل وخاصة اليهود والنصارى.

وتركّز آيات سورة المائدة من خلال هذا الحشد الكبير من الأحكام على بيان أن الله تعالى هو وحده الإله المستحقّ للعبادة والطاعة، فهو سبحانه وحده الخالق والمالك والمدبّر لأمر خلقه، فالتشريع عموماً، والتحليل والتحريم

(١) الجامع لأحكام القرآن (المشهور بتفسير القرطبي): ٢١/٦.

خصوصاً، له سبحانه وحده، قال ﷺ في ختام الآية الأولى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

وبما أن المسلمين هم وحدهم الملتزمون بتطبيق شرع الله تعالى، والوقوف عند حدود ما أحلَّ الله تعالى لهم، وما حرَّم عليهم، لأنَّهم آمنوا بالله الواحد الأحد، وصدَّقوا برسالاته، التي كلَّفهم بها، اتجهت آيات سورة المائدة تناديهم بهذا النداء العلوي الكريم بكلِّ ما فيه من تكريم لهم وتشريف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

فلنلقِ أسماعنا وأبصارنا لهذا النداء الإلهي الكريم، ولنفتح له قلوبنا وعقولنا حتَّى يفيضَ الله تبارك وتعالى علينا من أنوار التنزيل الحكيم، ويمنَّ علينا بفهم بعض معاني آياته، والوقوف على بعض ما فيها من حِكم وأحكام. سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وقد قسَّمت هذا البحث في تفسير هذه السورة إلى ستَّة عشر جزءاً، بعدد النداءات الستَّ عشرة التي وردت في السورة من الله تعالى للمؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ورأيت أن هذه النداءات الإلهية للمؤمنين هي المحور الأساس لآيات السورة كلّها. ولهذا جعلت بحثي في موضوع سورة المائدة تبعاً لهذه الآيات الكريمة.

وعنَّونْتُ هذه النداءات بالعناوين التالية:

- ١ - الأمر بالوفاء بالعقود.
- ٢ - الأمر بأكل الطيبات واجتناب الخبائث.
- ٣ - الأمر بالطهارة.
- ٤ - الأمر بالعدل.
- ٥ - التحذير من نقض الميثاق وذكر نعمة الله.
- ٦ - الأمر بالتقوى والتحذير من اتباع الهوى.
- ٧ - التحذير من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء.
- ٨ - التحذير من الرِّدة وعاقبتها.

- ٩ - التحذير من قبائح أهل الكتاب والكفار.
 - ١٠ - النهي عن تحريم الطيبات.
 - ١١ - الأمر باجتنب الخمر والميسر نهائياً.
 - ١٢ - الأمر بالانقياد لأمر الله في شرعه.
 - ١٣ - التحذير من قتل الصيد عند الإحرام وفي الحرم.
 - ١٤ - التحذير من كثرة السؤال.
 - ١٥ - الأمر بإصلاح النفس والتحذير من المفسدين.
 - ١٦ - الأمر بصيانة مال المسلم وتنفيذ وصيته.
- فإن وفّقت في توضيح موضوع السورة وتمكّنت من إبراز الوحدة الموضوعية لها فبفضل من الله سبحانه ومعونته، فله الحمد أولاً وآخراً، وإن أخطأت فبسبب قصوري وضعفي، وأستغفر الله العظيم، وأسأله سبحانه أن يغفر لي ذنوبي ويستر عيوبي، ويقبل هذا الكتاب ويجعله نبراس خير ورشاد للمسلمين.
- وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.



النِّدَاءُ الْأَوَّلُ

الْأَمْرُ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّ
 الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

افتتح الله تعالى سورة المائدة بهذه الآية الكريمة، وذكر فيها الموضوعات الأساس التالية: الوفاء بالعقود، تحليل بهيمة الأنعام، استثناء ما يحرم منها بسبب بعض العوارض، إباحة الصيد لغير المحرم، وخارج أرض الحرم، التشريع والحاكمة لله سبحانه وحده.

ولا يخفى على المتدبر ما في الآية الكريمة من بلاغة رفيعة معجزة، قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: «هذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بصيرة بالكلام»^(١).

وقال الشيخ الشوكاني رحمه الله: «فيها من البلاغة ما تتقاصر عنه البشرية مع شمولها لأحكام عدة»^(٢).

ثم حكى الشوكاني في تفسيره عن النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن؛ فقال: نعم أعمل مثل بعضه. فاحتجب أياماً كثيرة، ثم خرج فقال: والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إني

(١) تفسير القرطبي: ٣١/٦.

(٢) فتح القدير: ٤/٢.

فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلّ تحليلًا عامًا، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا^(١).

• الوفاء بالعقود:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَمِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ واحد العقود عقدٌ.

وأصل العقد في اللغة: الربط المُحكَّم، وهو يستعمل في الأجسام والمعاني، فيقال: عقدتُ الحبلَ والعهدَ.

والمراد من العقود: العقود التي عقدها الله على عباده، وألزمهم بها من الأحكام، والعقود التي يعقدونها فيما بينهم من عقود المعاملات، فالآية تشملُ الأمرين جميعاً^(٢).

وفي الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم حين بعثه إلى نجران: هذا بيان من الله ورسوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٣). والوفاء: حفظ ما يقتضيه العقد، والقيام بموجبه^(٤).

والعقد الذي يجبُ الوفاء به ما وافق كتابَ الله تعالى، وسُنَّةَ رسولِ الله ﷺ، فإن خالفهما فهو ردٌّ، لا يجبُ الوفاء به ولا يحلُّ^(٥)، لأنَّ سبحانه وحده الذي يحكمُ ويشرُّعُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، فكلُّ ما يخالفُ حكمَ الله تعالى وشرعه ردٌّ على صاحبه، كائناً مَنْ كان.

(١) فتح القدير: ٤/٢.

(٢) المرجع السابق: ٥/٢.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/٢.

(٤) روح المعاني المشهور بتفسير الألوسي: ٤٨/٦.

(٥) فتح القدير: ٥/٢.

وهذا يبيّن لنا بطلان القول الذي يردّه بعض الناس: العقدُ شريعة المتعاقدين، فالعقد الذي يكونُ شريعة المتعاقدين، هو الموافقُ لشريعة الله تعالى، وإلا كان باطلاً وإثماً وضللاً.

قال رسول الله ﷺ: «ما بَالُ رجالٍ يشترطونَ شروطاً ليست في كتابِ الله، فأَيُّما شرط ليس في كتابِ الله فهو باطلٌ، وإن كان مئةَ شُرْطٍ، ففَضَاءُ الله أحقُّ، وشُرْطُ الله أوثقُ» [رواه البخاري (٢٥٦٣) ومسلم (١٥٠٤)].

• الوفاء بالعقود وتحليل بهيمة الأنعام:

شرع الله تعالى بيان الأحكام التي أمرَ بالوفاء بها بمقتضى عقد الإيمان، فقال سبحانه:

﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ فبدأ بتشريع ما يتعلّق بضرورات حياة الإنسان، والطعام من أهم هذه الضرورات، وهو ينسجُم مع اسم السورة «المائدة».

والمتدبّر للآية الكريمة يلاحظ أن بيان حلّ الانتفاع ببهيمة الأنعام، جاء بصيغة الإخبار: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ﴾ بعد ما سبقه من الأمر الملزم بالوفاء بالعقود، فكأنّ إحلال بهيمة الأنعام يستدعي من المؤمنين الوفاء بالعقود، فإنّ عدم الوفاء بالعقود ونقضها يؤدّي إلى تضيق دائرة الحلال، والتشديد في التشريع، كما حدث مع اليهود، فإنهم لما نقضوا الميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم، حرّم الله سبحانه عليهم كثيراً من الطيبات، وشدّد عليهم في شريعة التوراة التي كلّفهم بها.

ذكر هذا الشيخ البقاعي رحمه الله في تفسيره المسمّى: «نظم الدرر في تناسُب الآيات والسُور»، وقد أصاب رحمه الله وأفاد، فقد ذكر الله سبحانه هذا في آيات كثيرة في سورة المائدة، تحدّث عن اليهود، ونقضهم للميثاق، وما ترتب على ذلك. وسيأتي الحديث عنها في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله. وبهذا كشف الشيخ البقاعي رحمه الله سرّ ارتباط الآيات الكريمة التي تحدّثت عن كثير من أفعال بني إسرائيل وصفاتهم بموضوع سورة المائدة وما أحلّ الله تعالى فيها وما حرّم.

• الانقياد لله تعالى والتشريع:

إن ارتباط التشريع عامة، والتحليل والتحرير خاصة، بمدى انقياد الأمة، واستسلامها لله سبحانه، ووفائها بعهدته وميثاقه، من الموضوعات الأساسية الكبيرة التي عالجها القرآن الكريم، ورَكَزَ عليها في عدد من سُوره الكريمة كسور: البقرة والنساء والأنعام والمائدة.

ويكفينا في هذا أن نقرأ خواتيم سورة البقرة، ونقف على سبب نزولها، ونتدبر كلمات الحق سبحانه، وهو يثني على أصحاب رسول الله ﷺ، بسبب انقيادهم ﷺ لأمره جلّ وعلا: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، مما أدّى إلى أن يرفع الله تعالى الحرج عنهم، ويجعل التكليف منوطاً بالوسع، تيسيراً على هذه الأمة، ورحمةً بها، فأنزل قوله الكريم: ﴿لَا يَكْلِفُ اللّٰهُ نَفْسًا ۖ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَآءُ وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، قال: فأتوا رسول الله ﷺ، ثم برَكُوا على الرُّكْب، فقالوا: أي رسول الله! كلّفنا من الأعمال ما نُطِيقُ: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غفرانك ربنا وإليك المصير» قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلمّا اقترأها القوم، وذلت بها ألسنتهم^(١)، أنزل الله ﷻ في إثرها: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ

(١) أي: بالاستسلام لذلك، أو تواضعت. (الناشر).

رُسُلِهِمْ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل ﴿٢٨٦﴾: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾. الآية [البقرة: ٢٨٦]. [رواه مسلم (١٢٥) وأحمد (٤١٢/٢)]^(١).

وإن ما ذكره الله تعالى في قصة بني إسرائيل عندما أمرهم أن يذبحوا بقرة، يبين سبب تشديد الله تعالى عليهم فيما كلّفهم به، وما حرّم عليهم من طيبات كانت حلالاً لهم، قال تعالى: ﴿فَظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

وحتى تعلم فضل الله سبحانه على الأمة المسلمة بما يسرّ لها في الشريعة الإسلامية السمحة، اقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ وعلى الذين هادوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ أَلْحَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام].

إنك تجد في الآية الأولى الرحمة والسماحة واللطف والتيسير في كل كلمة من كلماتها، لأنها تتحدث عن الشريعة الإسلامية، بينما تستشعر التشديد والتهديد والتعنيف في الآية الثانية التي تتحدث عن شريعة التوراة، فاعرف لأصحاب رسول الله ﷺ فضلهم عندما أعلنوا إذعانهم وانقيادهم لله سبحانه وقالوا: سمعنا وأطعنا، وتقبل مثلهم أحكام دين الله تعالى وشرعه بإذعان وانقياد واستسلام، وأنت تعلم أنه سبحانه يحكم ما يريد ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، يُحِلُّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء مطلقاً، أو في حال دون حال، وليس لأحد غير الله سبحانه أن يحلل أو يحرم، وما علينا إلا القبول والإذعان والرضا بكل ما شرعه

(١) انظر: تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل)، في تفسيرنا الموضوعي هذا.

الله تعالى لنا، وهو سبحانه العليم الحكيم والعزیز الرحيم، لا يُسأل عن تحريم أو تحليل أو تخصيص أو تفضيل ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

• بهيمة الأنعام:

البهيمة: اسم لكل ذي أربع من دواب البر والبحر، سميت بذلك لإبهامها من جهة نقص نطقها وفهمها، وبعضهم رأى أن البهيمة كل مخلوق ذي روح لا عقل له مطلقاً^(١).

والأنعام: اسم للإبل والبقر والغنم، سميت بذلك لما في مشيها من اللين والنعومة، وهي الأزواج الثمانية المذكورة تفصيلاً في سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبِّئِ الْأَزْوَاجَ مِنَ الْإِنْسَانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ وَاللَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِنْسَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَحْنُوعِي يَعْلَمُ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ وَاللَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثِيَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وذكرت أيضاً إجمالاً في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ زَوْجٍ﴾ [الزمر: ٦].

والزوج: الصنف الواحد سواء كان ذكراً أو أنثى.

والمراد من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾: أُحِلَّ لَكُمْ أَكْلُ بهيمة الأنعام وسائر وجوه الانتفاع الأخرى التي ذكرها الحق سبحانه في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا بِطُغْيَانِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمْرٍ لِّبَنَاءٍ خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

(١) انظر: روح المعاني: ٤٩/٦.

إن نعمة الله تعالى على الإنسان بالأنعام عظيمةٌ وجليلةٌ، تمتدُّ من طعامه وشرابه إلى ثيابه وملابسه، إلى الاستعانة بها في حمله مع أثقاله في أسفاره، وفوق كل ذلك استمتاعه بجمالها وهي تغدو وتروح، فلا عجب أن يتكرَّر في القرآن الكريم تذكير الإنسان بفضل الله تعالى عليه بخلق الأنعام وتسخيرها له: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْفَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمَّا تَكُونُوا فِيهِ إِلَّا سِقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ [التحل].

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ أبطل العادات والتقاليد الجاهلية التي كانت سائدة بين العرب قبل الإسلام، والتي كانوا بسبب هذه العادات والتقاليد يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى في تفسيرنا لهذه السورة، لأنه سبحانه ذكرها فيها.

قال القرطبي رحمه الله: «وكانت للعرب سنن في الأنعام من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي - سيأتي بيانها -، فنزلت هذه الآية رافعة لتلك الأوهام الخيالية والآراء الفاسدة الباطلة»^(١).



(١) تفسير القرطبي: ٣٤/٦. ولقد أثبتت الياء في كلمة الحامي في تفسير ابن كثير والقرطبي.

النداء الثاني

الأمر بأكل الطيبات واجتناب الخبائث

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعَتَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلْتِجَ وَلَا آمِينَ
 أَلْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَنَعَوْنَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاؤُ قَوْمٍ أَنْ
 صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالنَّفْقَةِ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
 وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ
 لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّبْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى
 النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَفْسِحُوا بِالْأَرْزَاقِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُمْ
 وَأَخْشَوْ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْنْتُ عَلَيْكُمْ نَعَمِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي
 مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ
 الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ
 اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا
 ءَاتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَةِ فَقَدْ حِطَّ
 عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

شرح الله تعالى في آية النداء الثاني بتفصيل ما أجمله في الآية الأولى، وبدأ بالتحذير من فعل المحرمات، إشارة إلى أن الحاضر مقدّم على المبيح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أُمْنِينَ
الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفُونَ فُضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ
صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ...﴾ أي: لا تحلوا
هذه الأمور، بأن يقع منكم الإخلال بشيء منها، أو بأن تحولوا بينها وبين من
أراد فعلها^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾: شعائر الله: معالم دين الله تعالى،
كالأوامر والنواهي، والواجبات والمستحبات، وأماكن العبادات والطاعات.

﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: الأشهر الأربعة الحرم، التي ذكرها الحق سبحانه
في قوله الكريم: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَيْسُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وبين النبي ﷺ هذه الأشهر في خطبة حجة الوداع فقال: «ألا إن الزمان قد
استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها
أربعة حُرُم... ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب» [رواه البخاري (٣١٩٧)
ومسلم (١٦٧٩)].

وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [٣٦] يبين المراد
من النهي عن إحلال الشهر الحرام في آية المائدة، وظلم النفس - بحملها على
المعاصي والآثام في الأشهر الحرم - أبلغ في الإثم والقبح منه في غيرها، قال
قتادة رحمه الله: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً ووزراً من الظلم فيما

(١) انظر: فتح القدير: ٦/٢.

سواها، وإن كان الظلم على كلِّ حالٍ عظيماً، ولكنَّ الله يعظُّم من أمره ما يشاء^(١).

﴿وَلَا أَلْهَدِي﴾ وهو ما يُهدى إلى بيت الله الحرام ليُذبحَ تقرباً إلى الله تعالى في أرض الحرم، ولا يكون إلا من الأنعام التي سبقَ ذكرها، فلا يجوزُ التعرُّضُ له بالغصب أو السرقة، أو منعه من الوصول إلى أرض الحرم.

﴿وَلَا أَلْقَلِيدَ﴾ جمع قلادة، وهي ما يقلدُ به الهدى من قشر الشجر أو جلْد الحيوان أو غيرهما، ليعلمَ الناسُ أنَّه هديٌّ، فلا يتعرَّضُ له أحد.

وعطفُ القلائد على الهدى من قبيلِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ.

﴿وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ أي: قاصدين بيتَ الله الحرام، فلا يجوزُ التعرُّضُ لهم، أو صدُّهم عن بيت الله الحرام، ما داموا:

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الآية تعني المسلمين.

ثم رفع الله سبحانه حظر الصيد عن المحرم إذا تحلل من إحرامه فقال:

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ والأمرُ للإباحة، وقد عودنا الله تعالى في القرآن الكريم على أنَّ كلَّ فعلٍ أمرٍ يأتي بعدَ حظرٍ ومنعٍ ينصرفُ إلى الإباحة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقوله أيضاً: ﴿فَالَّذِينَ بَشِرُوهُمْ وَيَتَّعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فإذا حلَّ المحرم من إحرامه حلَّ له الصيدُ خارجَ أرضِ الحرم لزوالِ المانع وهو الإحرامُ بالحج أو العمرة.

• أخلاق ومبادئ:

ثم ختم الله سبحانه الآيةَ الكريمةَ بتقرير المبادئ الإنسانية الرفيعة في تعامل المسلمين مع أعدائهم أو حتى فيما بينهم، فقال:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ أي: لا يحملنكم

(١) تفسير ابن كثير: ٣٥٥/٢.

بُغْضُ قَوْمٍ لَصَدِّهِمْ إِيَّاكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عَلَى الْإِعْتِدَاءِ عَلَيْهِمْ، وَانْتِقَامُكُمْ مِنْهُمْ لِلتَّشْقِي.

فعلى المسلم أن يعامل مَنْ عصى الله فيه، بأن يطيع الله تعالى فيه، كما جاء في الحديث الشريف: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ اتَّيَمَّنَكَ، وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ» [أخرجه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤)].

هذا الخلق الكريم - كما قال سيد قطب رحمه الله - قمة في ضبط النفس، وفي سماحة القلب، وهي القمة التي لا بد أن ترقى إليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهديها، وترتفع بها إلى هذا الأفق الكريم الوضي^(١).

ومن هذه المبادئ والأخلاق الكريمة قوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ إنها دعوة ربانية موجهة إلى جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ليتعاونوا فيما بينهم على القيام بكل ما أمر الله سبحانه، واجتناب كل ما نهى الله تعالى عنه، فيدخل في معنى البر والتقوى جميع ما سبق ذكره في الآية الكريمة من المحافظة على محارم الله وشعائر دينه، كما يدخل في معنى الإثم كل إخلال بها، وانتهاك لحرماتها، ويندرج في العدوان المنهى عنه كل أنواع الظلم والبغي والاعتداء، فالتعاون لمنع الظلم والبغي أمر مطلوب في الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أرايت إن كان ظالماً؟ قال: «تحجره، أو تمنعه، من الظلم، فإن ذلك نصره» [رواه البخاري (٢٤٤٤) ومسلم (٢٥٨٤)].

• التعاون والتكافل:

والتعاون في الإسلام يقوم على أساس الأخوة الإسلامية، فلا يقف عند حدود تقديم المعونة المادية، بل يتعدى ذلك، ويتجاوزها إلى التكافل والتضامن في جميع جوانب الحياة الإنسانية حتى في المشاعر الوجدانية والعاطفية، كما

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ٨٣٩.

قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [رواه مسلم (٢٥٨٦)].

فكل مسلم في ظل مبادئ التعاون الإسلامية مسؤول عن رعاية مصلحته الخاصة ومصالح الآخرين العامة في حدود استطاعته، ولهذا شرع الإسلام مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجعل من كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي حارساً وراعياً للمصلحة العامة في المجتمع، كما جعل المجتمع مسؤولاً مسؤولية قائمة على التكافل والتضامن عن حماية الضعفاء فيه، ورعاية مصالحهم، وتأمين كفايتهم للعيش حياةً كريمةً. ولهذا فرض الزكاة في أموال الأغنياء، وجعلها ركناً أساساً من أركان الإسلام الخمسة.

وإذا لم تكف الزكاة بسبب طوارئ ونكبات عامة أخذ من أموال القادرين مقداراً ما يسد حاجة المحتاجين، ففي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ، إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ (زيادة في ما يركب على ظهره من الدواب) فَلْيُعْذْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ زَادَ فَلْيُعْذْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ» قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل. [رواه مسلم (١٧٢٨)].

وهذا في وقت الحاجة والشدة حيث لا تكفي فريضة الزكاة والواجبات الإسلامية الأخرى في النفقات.

انظر كيف قرّر رسول الله ﷺ مسؤولية التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع المسلم بقوله عليه الصلاة والسلام: «أَيُّمَا أَهْلٍ عَرَصَتْ بَاتَ فِيهِمْ امْرُؤٌ جَائِعاً فَقَدْ بَرَّكَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى» [رواه أحمد في «مسنده» (٤٨٨٠) وإسناده صحيح].

• التعاون والتأمين:

فلا خوف ولا قلق في ظل مبادئ التعاون والتكافل الإسلامية، ولا حاجة

في ظلّ الإسلام إلى ما استحدثته الإنسان في العصور المتأخرة من نُظم التأمين ضدّ الحوادث والأخطار، بسبب انتشار الخوف والقلق بين الناس، ولا حاجة للقائلين بحواز التأمين ضدّ المخاطر والحوادث بمفهوم التعاون في الإسلام، فالتعاون في الإسلام يختلف اختلافاً جذرياً عن مفهوم التأمين، والتعاون في الإسلام تضحية وبذل وعطاء، فهو تبرُّع محض كالصلة والصدقة والهدية، بينما القصد من عقد التأمين الذي تُبرمه الشركة المؤمّنة مع المستأمن الحصول على الكسب والربح، فهو عقدٌ معاوضة لا تبرُّع، تتعهد بموجب هذا العقد أن تدفع شركة التأمين للمستأمن عند وقوع الخطر المؤمّن منه مبلغاً معيناً من المال، في مقابل تعهّد المستأمن أن يدفع لشركة التأمين مبلغاً من المال يقسّط على دفعات يتفق عليها. فإذا وقع الخطر تحقّق الربح للمستأمن والخسارة لشركة التأمين، وإذا لم يقع ربحت شركة التأمين كلّ الأقساط المالية التي دفعها المستأمن، فعقد التأمين إنّ حقق ربحاً للمستأمن حقق خسارة للمؤمّن والعكس بالعكس، فهو عقد معاوضة، لا دخل فيه للتعاون مطلقاً، فالتعاون وقصد التبرع لا وجود لهما في عقد التأمين مطلقاً من كلا الجانبين، وشركات التأمين لا تعمل إلا لحساب نفسها ولمصلحتها التي تتعارض مع مصالح المستأمن، فهي شركات مالية احتكارية، لها أضرارها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية^(١).

التأمين يصبح حلالاً جائزاً في الشريعة الإسلامية إذا كان تعاوناً محضاً، فإذا ما اتفق عددٌ من الأشخاص على التعاون فيما بينهم ضد الحوادث والأخطار بأن يدفع كل واحد منهم مبلغاً من المال إلى صندوقٍ يبقى ملكاً لهم، يُعطى من هذا المال كلّ من يصابُ منهم بمصيبة أو حادثة من حوادث الدهر خلال مدّة محدودة يتفقون عليها، وما يبقى من هذا المال بعد انتهاء هذه المدة يوزّع عليهم. صحّ مثل هذا التعاون والتأمين وحلّ، لقيامه على محض التبرع والتعاون، وتجرّده عن قصد الربح المعلق على حدوث الخطر.

(١) انظر كتاب: التأمين في الشريعة والقانون، للدكتور شوكت عليّان، ط ٢، دار الرشيد في الرياض.

إنَّ عقود التأمين السائدة في العصر الحاضر تشبه القمار والميسر، لأنَّ غايتها تحقيق ربح معلق على خطرٍ يعتمد على مجرد المصادفة والحظ، ولهذا فهي غير جائزة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

• الميتة والخنزير:

وتفصيلاً للمحرّمات التي أشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّبْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخِصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ الميتة: كلُّ حيوانٍ مات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وأمّا الدم فالمحرّم منه المسفوح، الذي يخرج من الجسم، أمّا الدم الذي يبقى في العروق أو في الكبد والطحال بعد ذبح الحيوان فمباح، يجوز أكله تبعاً للحم، إذ يصعب فصله بعد الذبح عن اللحم، والدليل على ذلك تقييد الدم بالمسفوح في آية سورة الأنعام [١٤٥]: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ جميع أجزاء الخنزير.

وهنا ينبغي أن نتوقف قليلاً عند قوله تعالى: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ بسبب انتشار أكل لحم الخنزير عند كثير من الأمم الكافرة، بينما الإجماع منعقد بين

المسلمين على تحريم الخنزير بجميع أجزائه، وخصَّ الله تعالى ذكر لحم الخنزير للدلالة على تحريم عَيْنِهِ، دُبْحٍ أم لم يذبح، وليعمَّ التحريمُ جميعَ أجزائه^(١).

فإذا كان اللحمُ - وهو أهُمُّ ما يُقَصَّدُ من الخنزير - محرَّماً، فغيرُ اللحم من الأجزاء الأخرى كالدهن والشحم أولى بالتحريم، وقد وصفه الله تعالى بصفة الرَّجْسِ - كما مرَّ معنا في آية الأنعام - وهو النجس والقذر.

ويكفي تحريم الله تعالى للخنزير، ووصفه بصفة الرجس: للدلالة على خبيثه وضرره، وكلَّما تقدَّم الناسُ في العلوم يكتشفون ما يحمل الخنزير من آفات وأضرار لآكله، ففي لحم الخنزير تكثُرُ الديدان، وخاصةً الدودة الشريطية، التي يسبِّبُ وجودها في أمعاء الإنسان أعراضاً كثيرة من مغصٍ، وإسهال، وقيء، وآلام في الرأس، ودُّوار وإغماء، وقد تنتابه نوبات صرع، وتشنُّجات في بعض أعضائه، وتقاوم حويصلات هذه الدودة الحرارة ما دامت داخل لحم الخنزير، لأنه موصل رديء للحرارة، وإذا زيد في إنضاج لحمه للتأكد من قتلها أصبح هضمه عسيراً على الإنسان.

كما يوجد في لحم الخنزير أيضاً الديدان التي تسبِّبُ مرض التريخيَّا، الذي يسبب آلاماً شديدة في العضلات بسبب انتفاخ النسيج العضلي وصلابته.

ويوجد في لحم الخنزير أيضاً بعض الجراثيم العفنة والباراتيوفيد التي تسبِّبُ التهابات في الجهاز الهضمي، قد تؤدي إلى الوفاة خلال بضع ساعات.

ومن المعلوم أن الخنزير يحب أكل القاذورات والفضلات والفئران الميتة التي تحمل الدودة الحلزونية الشعرية، التي تتسلل إلى الإنسان، فتصيب عضلات جهاز التنفس والقلب، مما يتسبب بصعوبة التنفس المُفضي إلى الموت.

وفضلاً عن كلِّ ذلك فلحمُ الخنزير أعسر اللحوم هضمًا باتفاق، لأن أليافه

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢/٢٢٢.

العضلية محاطة بخلايا شحمية عديدة أكثر من لحوم الحيوانات الأخرى المباح أكلها^(١).

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فقد يكتشف الإنسان في المستقبل آفات أخرى في لحم الخنزير، فقد مرَّ على الناس زمنٌ طويل منذ أن أنزل الله تعالى في القرآن الكريم تحريم الخنزير قبل أن يكتشف الناس هذه الآفات، ولهذا علينا أن نترك أمر التحليل والتحريم إلى شريعة الله العليم الخبير، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون، ورحم الله سيد قطب الذي قال: «أفلا تستحق هذه الشريعة التي سبقت العلم البشري بعشرات القرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها، فنحرّم ما حرّمت، ونحلّل ما حلّلت، وهي من لدن حكيم خير»^(٢).

• تنبيه وتحذير:

والجدير بالذكر هنا أنّ الأمم التي تأكل لحم الخنزير، أدخلت دهنه وشحمه وبقية أجزاء جسمه في كثير من الأطعمة المصنّعة، فكثيرٌ من المعلّبات يضعون فيها شيئاً من دهن الخنزير، كما أنّهم يمزجونه بالشطائر والحلويات، فعلى المسلمين واجب الحيطّة والحذر من مثل هذه المعلّبات والأطعمة المستوردة حتى يتأكّدوا من خلوّها من دهن الخنزير ولحمه.

وإنّ مادة الجيلاتين التي شاع استعمالها في كثير من صناعات الأطعمة والحلويات والمرطبات البوطة (الجيلاتي) تستخرج من جلود وأعصاب وأوتار عضلات الحيوانات وعظامها، وخاصّةً الخنزير، كما تستخرج من الكولاجن المستمد من الخنزير^(٣).

ومن الثابت أنّ أرخص الحيوانات في العالم أجمع هو الخنزير، ولهذا على المسلم أن يتوقّع دائماً وجود مشتقات الخنزير في الأطعمة المصنّعة في البلاد

(١) عن كتاب: أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية، بتصرف قليل واختصار.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٧٧/١.

(٣) انظر: أحكام الأطعمة، ص ٣٠٩.

الكافرة، في الخبز والحلويات والكاتو والبسكويت والمعلبات واللحوم والحساء والسلطة والجبن والجيلو وغير ذلك من الأطعمة، فعليك أيها المسلم أن تنتبه قبل كل شيء إلى الغلاف الخاص لهذه الأطعمة، وتؤكد من محتوياتها، فإذا وجدت بعض الكلمات الآتية فاعلم أن ضمن هذا الغلاف بعض مشتقات الخنزير:

(Pork, Ham, Bacon, Shorting, Lord, Galatin)^(١).

﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ويحرم عليكم كل حيوان ذكّر عليه عند ذبحه غير اسم الله تعالى، فقد أوجب الله تعالى أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، ومتى عدل عن ذلك، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو وثن أو طاغوت أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فهي حرام بالإجماع^(٢)؛ قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسَقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَى أُولِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿وَالْمُنْخَفَقَةُ﴾ أي: ويحرم أيضاً أكل الحيوان الذي يموت بالخنق، إما قصداً بفعل فاعل، وإما اتفاقاً بأن يلتف وثاقها حول عنقها فتموت به، وسواء خُنِقَتْ بفعلٍ مسلم أو غير مسلم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل الجاهلية يخنقون البهيمة ويأكلونها، فحرم ذلك على المؤمنين^(٣).

﴿وَالْمَوْقُودَةُ﴾ أي: وحرم عليكم أكل الموقودة، وهي التي تموت بالضرب بعضاً أو بحجر أو غير ذلك، وأصله: وقذه أي ضربه، والوقد: شدة الضرب.

• حكم صيد البنادق:

جاء في «الصحيحين»: من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول

(١) أحكام الأطعمة، ص ٣٠٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٨/٢.

(٣) روح المعاني: ٥٧/٦.

الله، إِنِّي أرمي بالمعراضِ الصيدَ فأصيبُ، فقال: «إذا رميتَ بالمعراضِ فخرقَ فكله، وإن أصابَ بَعْرَضِهِ، فَإِنَّمَا هو وقيدٌ فلا تأكله» [رواه البخاري (١٧٥) ومسلم (١٩٢٩)]. والمِعْرَاضُ: السهم الذي لا ريشَ فيه، أو العصا التي رأسها محدّدٌ.

قال الشوكاني رحمه الله: «فالحقُّ أنه لا يحلُّ إلا ما خرق لا ما صدم، فلا بدُّ من التذكية (الذبح) قبل الموت، وإلا كان وقيداً، وأمّا البنادقُ المعروفةُ الآن، وهي بنادقُ الحديدِ التي يُجعلُ فيها البارودُ والرصاصُ، ويرمى بها، فلم يتكلّم عليها أهلُ العلمِ لتأخّر حدوثها، فإنّها لم تصل إلى الديار اليمنية إلا في المئة العاشرة من الهجرة، وقد سألتني جماعةٌ من أهل العلم عن الصيد إذا مات، ولم يتمكن الصائدُ من تذكيته حيّاً. والذي يظهر لي أنه حلالٌ، لأنها تخرقُ، وتدخلُ في الغالبِ من جانبٍ، وتخرجُ من الجانب الآخر، وقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «إذا رميتَ بالمعراضِ فخرقَ فكله» فاعتبر الخرقُ في تحليلِ الصيد»^(١).

لكن المتأخرين من الفقهاء بحثوا في حكم صيد البنادق، ولم ينظروا كما فعل الشوكاني إلى تحقق الخرق فقط، فقد يحدثُ الخرق بالضرب أيضاً، ولهذا نظروا إلى سبب الخرق، فإن حدثَ الخرقُ في جسم الصيد بسبب حِدَّة آلة الصيد، ومات الصيدُ به كان حلالاً، أما إذا حدثَ الخرقُ بسبب ثقل آلة الصيد فلا يحلُّ أكله إلا إذا أدركه حيّاً وذبحه، إذ يكون في هذه الحالة وقيداً مات بقوة وثقل الآلة التي ضرب بها.

قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكره حديث عدي بن حاتم السابق ذكّره: «ففرّق بين ما أصابه بالسهم أو بالمِرْزاق ونحوه بحدّه فأحله، وما أصابَ بعرضه فجعله وقيداً لم يحله، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء»^(٢).

وقال الشيخ ابن عابدين رحمه الله، وهو أحد فقهاء المذهب الحنفي: «وفي

(١) فتح القدير: ٩/٢.

(٢) تفسير ابن كثير: ٨/٢.

التبيين (اسم كتاب) الأصل أَنَّ الموتَ إذا حصل بالجرح بيقين حل، وإن [حصل] بالثقل، أو شَكَّ فيه، فلا يحلُّ حتماً أو احتياطاً، ولا يخفى أَنَّ الجَرَحَ بالرصاص إنما هو بالإحراق والثقل بواسطة اندفاعه العنيف، إذ ليس له حدٌّ فلا يحلُّ، وبه أفتى ابن نُجيم^(١).

وهذا رأي وجيه ونظر سديد، فلو نظرنا إلى ماسورة البندقية من الداخل لوجدناها لولبية الشكل لتجعل حركة الرصاصة المندفعة منها في الهواء لولبية، وهذا يسبَّب لها مزيداً من الاحتكاك بالهواء مما يؤدي إلى رفع حرارتها إلى درجة عالية، كما أَنَّ شدة الاندفاع وقوته تعطيها ثقلًا كبيراً، فدخلها إلى الجسم يتم بحرارتها العالية وقوة الثقل التي فيها، لا بحدّها إذ لا حدَّ لها.

• التذكية المجلّة:

﴿وَالْمُرْدِيَّةُ﴾ أي: وحرم عليكم أكل المتردية، وهي التي تقع من مكانٍ مرتفع أو في بئر فتموت، ولا فرق بين أن تقع بنفسها أو تقع بفعل غيرها.
﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ أي: المنطوحة التي ينطحها غيرها فتموت.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ أي: ويحرم أكل ما افترسه أو أكل منه ذو ناب كالأسد والنمر والذئب، فماتَ بذلك، لا ما أكلَ كلّه، لأن ما أكلَ كلّه لا يتعلّق به حكم، ولا يلحقه الاستثناء في قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ أي: إلا ما أدركتموه، وفيه بقية حياة، وذكّيتموه أي ذبحتموه. فالاستثناء راجعٌ إلى جميع ما تقدّم ذكره من المحرّمات سوى ما لا يقبل التذكية كالميتة والخنزير^(٢).

وتذكية الحيوان بذبحه تطيب له، لأنّ التذكية في اللغة: معناها التطيب، يقال: رائحة ذكية، أي: طيبة، فالحيوان إذا أُسِيلَ دمه بالذبح فقد طُيِّبَ، لأنّ بقاء الدم فيه يجعل الفساد يتسارعُ إليه، فمن المعلوم أنّ الدم يحملُ إلى الجسم

(١) حاشية ابن عابدين المسماة: رد المحتار على الدر المختار: ٣٠٤/٥.

(٢) انظر: روح المعاني: ٥٨/٦.

الغذاء، ويحمل منه أيضاً السموم والفضلات، فبقاء الدم في الجسم بعد موت الحيوان يعرضه لسرعة الفساد، ويعرض أكل لحم هذا الحيوان لكثير من الأمراض والأخطار، ولعل هذا من حُكْم تحريم الله تعالى أكل الميتة والدم، فذبح الحيوان تطهير وتطيب له وإباحة لأكله.

• الأصل في أكل اللحوم الحظر:

والآية تدلُّ على أنَّ الأصلَ في أكل اللحم الحظر والمنع، إلا ما قام الدليل على حله، قال الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رحمته الله: «الأصل في الأضباع - وطء النساء - التحريم، فلا يحل البضْعُ إلا بعقد صحيح مستجمع لأركانه وشروطه، كما لا يباح أكل لحوم الحيوانات إلا بعد تحقق تذكيتها من أهل التذكية، فإن الله تعالى حرَّم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ لغير الله به، وحرَّم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وأكيلة السبع إلا ما ذُكِّي، فهذا يدل على أنَّ الأصل في الحيوان التحريم إلا ما ذكَّاه المسلمون أو أهل الكتاب، بقطع الحلقوم، وهو مجرى النَّفْس، والمريء، وهو مجرى الطعام والماء، مع قطع الودجين في قول طائفة من أهل العلم»^(١).

• اللحوم المستوردة والمعلَّبة:

واستناداً إلى هذه القاعدة - الأصل في اللحم الحظر - بيَّن رحمته الله الحكم الشرعي في اللحوم المعلَّبة والمستوردة فقال:

«فما يردُّ من اللحوم المعلَّبة، إن كان استيرادها من بلاد إسلامية، أو من بلاد أهل الكتاب، أو معظمهم وأكثرهم أهل كتاب، وعادتهم يذبحون بالطريقة الشرعية، فلا شكَّ في حله.

وإن كانت تلك اللحومُ المستوردة تستورد من بلاد جرت عادتهم، أو

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، ص ١٣٠.

أكثرهم، أنهم يذبحون بالخنق، أو بضرب الرأس، أو بالصعق ونحو ذلك، فلا شك في تحريمها.

وكذلك ما يذبحه غير المسلمين وغير أهل الكتاب من وثني أو مجوسي أو قادياني أو شيعي ونحوهم، فلا يباح ما ذكَّوه، لأن التذكية المبيحة لأكل ما ذكِّي لا بد أن تكون من مسلم أو كتابي عاقل له قصد وإرادة، وغير هؤلاء لا تباح تذكيته.

أما إذا جهل الأمر في تلك اللحوم، ولم يعلم عن حال أهل البلد التي وردت منها تلك اللحوم، هل يذبحون بالطريقة الشرعية أم غيرها؟ ولم يعلم حال المذكين وجهل الأمر، فلا شك في تحريم ما يرد من تلك البلاد المجهول أمر عاداتهم في الذبح تغليباً لجانب الحظر، وهو أنه إذا اجتمع مبيع وحاضر، فيغلب جانب الحظر، سواء أكان في الذبائح أو الصيد، ومثله في النكاح، كما قرره أهل العلم، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والحافظ ابن رجب، وغيرهم من الحنابلة، وكذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني، والإمام النووي، وغيرهم كثير، مستدلين بما في «الصحاحين» وغيرهما: أن النبي ﷺ قال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكر اسم الله عليه فكل، فإن وجدت معه كلباً آخر فلا تأكل» [رواه البخاري (٥٤٨٣) ومسلم (١٩٢٩)]^(١).

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي: وحُرِّمَ عليكم أكل الذبائح التي ذُبِحت على النصب، وهي حجارة كانت منصوبةً حول الكعبة، وكان العرب في الجاهلية يذبحون عندها، وينضحون بدماء تلك الذبائح البيت الحرام، ثم يشرحون اللحم، ويضعونه على هذه الحجارة المنصوبة، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحُرِّمَ عليهم أكل هذه الذبائح حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله تعالى، لأن الذبح عند النصب من الشرك، فهو داخل فيما أهل به لغير الله،

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، ص ١٣١.

وُحْصَ بالذكر لتأكيد تحريمه، ولدفع ما كانوا يظنون أن ذلك لتشريف البيت الحرام وتعظيمه^(١).

• الذبح عند الأقدام:

ويدخل في هذا القسم أيضاً الذبح عند أقدام القادمين، نبّه على هذا سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته الله، فقال: الذبح تحت الأقدام يمحّض الذبائح للحرام، ويوقع في الآثام، وذكر اسم الله تعالى عليها لا يحلّها ما دام القصد بذبحها تعظيم القادم لا إكرامه، وقد اختلف الفقهاء في كفر الذابح لهذا القدوم، ونحن نأخذ بالقول بعدم تكفيره، لما في «الدر المختار» عن «المنية» - اسم كتاب -: إِنَّا لَا نَسِيءُ الظَّنَّ بِالْمُسْلِمِ أَنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَى الْآدَمِيِّ بِهَذَا النُّحْرِ، وَكُتِبَ عَلَيْهَا ابْنُ عَابِدِينَ: «أَيُّ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ، لِأَنَّهُ الْمَكْفُرُ، وَهَذَا بَعِيدٌ عَنْ حَالِ الْمُسْلِمِ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَصْدُ الدُّنْيَا، أَوْ الْقَبُولُ عِنْدَهُ بِإِظْهَارِ الْمَحَبَّةِ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ فِي ذَلِكَ تَعْظِيمٌ لَهُ لَمْ تَكُنِ التَّسْمِيَةُ مَجْرَدَةً لِلَّهِ تَعَالَى حِكْمًا... حرمت، ولا ملازمة بين الحرمة والكفر»^(٢).

• الاستقسام بالأزلام:

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ أي: وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ.. والاستقسام: طلبُ معرفة ما قُسمَ لهم في المستقبل، والأزلام: ثلاث قطعٍ من الخشب، كُتِبَ على أحدها: أمرني ربي، وعلى الثاني: نهاني ربي، والثالث غفل لم يكتب عليه شيء، فإذا قصدوا فعل شيء أجالوا هذه الأزلام؛ فإن خرج الأمر مضوا في فعلهم، وإن خرج الناهي تجنبوا، وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً.

• سؤال الكهّان والعرفّان:

وإنما حرّم الله الاستقسام بالأزلام، لأنّه تعرّض لدعوة علم الغيب، ونوع

(١) تفسير ابن كثير: ١١/٢؛ وفتح القدير: ١٠/٢.

(٢) من: ردود على أباطيل، تحت مقولة: بدع ثلابس قدوم الحجاج.

من الكهانة المحرمة في الإسلام، قال ﷺ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» [رواه أبو داود (٣٩٠٤) والترمذي (١٣٥) والنسائي في الكبرى (٩٠١٧) وابن ماجه (٦٣٩)].

وقال المحقق ابن عابدين ﷺ: «وَالكَاهِنُ - كما في «مختصر النهاية» للسيوطي - من يتعاطى الخبرَ عن الكائنات في المستقبل، ويدّعي معرفة الأسرار، والعَرَّاف: المنجّم الذي تعاطى معرفة مكان المسروق والضالة (الضائعة)».

قال سيدي الشيخ محمد الحامد ﷺ: «وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْكَاهِنَ هُوَ مَنْ يَدَّعي معرفة الغيب بأسباب، وهي مختلفة، فلذا انقسم إلى أنواع متعددة، كالعَرَّاف والرمّال والمنجّم، والذي يخبرُ عن المستقبل بطلوع النجم وغروبه، والذي يضرب بالحصى، والذي يدّعي أَنَّ صاحِباً له من الجن يخبره عما سيكون، والكل مذموم شرعاً، محكوم عليهم وعلى من يصدّقهم بالكفر، وفي «الفتاوى البزازية» - اسم كتاب - : يَكْفُرُ بِادِّعاء علم الغيب، وبإتيان الكاهن وتصديقه، وفي «الترخانبة» - اسم كتاب - يكفر بقوله: أنا أعلم المسروقات أو أنا أخبرُ عن إخبارِ الجن إياي... قلتُ: وأمّا ما وقع لبعض الخواص كالأنبياء بالوحي، والأولياء بالإلهام، فهو بإعلام من الله تعالى فليس مما نحن فيه»^(١).

• علم الأرصاد الجوية:

وقد استثنى العلامة الألوسي ﷺ في تفسيره ما يقوله علماء الفلك عن أوقات حدوث الكسوف والخسوف، لأنهم يبنون أقوالهم على الحسابات لندرة خطئهم^(٢).

كما يستثنى من ذلك تنبؤات علماء الأرصاد الجوية، لأنَّ أقوالهم مبنية على ما يشاهدونه بآلات الرصد والتصوير من اتجاهات الرياح والسحب، وقياس

(١) انظر: ردود على أباطيل: ٣٦٩/١؛ وحاشية ابن عابدين.

(٢) انظر: روح المعاني: ٥٩/٦.

سرعتها، ودرجات حرارتها وكثافتها، وقد أخبر الحق سبحانه في كتابه الكريم أنه يرسل الرياح تبشّرُ بنزول المطر، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

• قِدَاحُ الْمَيْسِر:

وللأزلام معنى آخر، ذكره بعض علماء التفسير، وهو قِدَاحُ الْمَيْسِر، وكانوا يلعبون بها مقامرةً ولهواً، يتعرّفون بوساطتها على صاحب القسم والحظ الذي يكون المال له، قال القرطبي في تفسيره: «وهي قِدَاحُ الْمَيْسِر، وهي عشرة، سبعة منها فيها خطوط، وثلاثة أغفال، أي لا خطوط فيها، وكانوا يضربون بها مقامرةً ولهواً ولعباً، وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمعدم زمن الشتاء، وقال مجاهد: الأزلام هي كعاب فارس والروم التي يتقمارون بها»^(١).

وعلى هذا المعنى للأزلام فالآية تدلُّ أيضاً على تحريم القمار، وتدل على أنّ كسبه حرام مهما كانت صورته وأغراضه، فالإناصيبُ الذي يخصّص ربحه لمساعدة الفقراء أو الأيتام أو المعوقين لا يجوز ولا يحلُّ.

ثم قال تعالى:

﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ أي: تعاطي الاستسقام بالأزلام فسق، وغي وضلالة وجهالة وشرك.

• الاستخارة المشروعة:

وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه، بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول: «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥٩/٦.

أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيَسْمِيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةُ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عاجِلُ أَمْرِي وَأَجَلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةُ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عاجِلِ أَمْرِي وَأَجَلِهِ - فَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ» قَالَ: وَيَسْتَيِّ حَاجَتِهِ. [رواه البخاري (٦٣٨٢)].

وقد يكون قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ يرجع إلى جميع ما ذكر من الاستحلال لجميع هذه المحرمات، وكلُّ شيءٍ منها فسقٌ وخروجٌ من الحلال إلى الحرام، والانكفاف عن هذه المحرمات من الوفاء بالعقود، إذ قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

• السَّمة المميّزة للمسلم عن الكافر:

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ أي: انقطع رجاء الكفار من إبطال دينكم ورجوعكم عنه باستحلال هذه الخبائث التي حرّمها الله تعالى عليكم.

﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ فلا تخافوا من الكفار.

﴿وَأَخْشَوْنَ﴾ أَنَّ أَجَلَ بَكْم عِقَابِي إِنْ خَالَفْتُمْ أَمْرِي وَارْتَكَبْتُمْ مَعْصِيَتِي^(١).

وذكر ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية معنى آخر يتفق مع موضوع الآية أكثر مما تقدم، فقال: «وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّ الْكَفَّارَ يَتَّسِقُونَ مِنْ مِثَابَةِ الْمُسْلِمِينَ، لَمَّا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَخَالَفَةِ لِلشَّرِكِ وَأَهْلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَثْبِتُوا فِي مَخَالَفَةِ الْكَفَّارِ، وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ﴾»^(٢).

إِنَّ وَقُوفَ الْمُسْلِمِ عِنْدَ حُدُودِ مَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، أَعْظَمُ مَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْمُسْلِمُ عَنِ الْكَافِرِ، فَشَأْنُ الْكَافِرِ الْإِنْسِيَاقُ وَرَاءَ أَهْوَاءِ نَفْسِهِ وَغَرَائِزِهِ، فَلَا يُحِلُّ حَلَالًا، وَلَا يَحَرِّمُ حَرَامًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ، بَيْنَمَا يَظَلُّ

(١) روح المعاني: ٦٠/٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ١٢/٢.

المسلم وقافاً عند حدود ما شرع الله تعالى له، فلا يستحلُّ إلا ما أحلَّ الله تعالى له، ولا يحرم إلا ما حرم الله عليه، ويظهر هذا الأمر جلياً واضحاً في شأن المطاعم والمشارب.

ففي أي مكان وزمانٍ يمكن أن تُميّز المسلم عن غيره من طعامه وشرابه، فالمسلم لا يأكل الميتة ولا لحم الخنزير ولا الدم ولا المنخقة، ولا يشرب الخمر، فإذا خالف المسلم أمر ربه، وخاف من الكفار، ولم يخف من الله تعالى، فقد طمسَ أعظم العلامات التي تميّزه عن الكفار. ولهذا لا يُعذر المسلم في أي حالٍ من الأحوال، بتناول المحرمات من الطعام والشراب إلا في حالة واحدة فقط، هي حالة الاضطرار، التي بيّنها الله سبحانه في ختام هذه الآية الكريمة بقوله:

﴿أَيُّومَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

• أهمية تشريع الحلال والحرام في الإسلام:

أكمل الله سبحانه دين الإسلام يوم أنزل هذه الآية على النبي ﷺ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أهمية تشريع الحلال والحرام في الشريعة الإسلامية، فلا يكون دين المسلم كاملاً إلا إذا ألزم نفسه تشريع الحلال والحرام، فلا حلال إلا ما أحله الله تعالى، ولا حرام إلا ما حرّمه سبحانه، ولا دين إلا ما شرعه ﷻ.

وقد نزلت هذه الآية في عرفة يوم حجة الوداع وكان يوم الجمعة أيضاً، قال عمر رضي الله عنه: والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة. [رواه البخاري (٤٤٠٧) ومسلم (٣٠١٧)].

وختم الله سبحانه بهذه الآية تشريع الحلال والحرام، ومات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بواحدٍ وثمانين يوماً^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ١٣/٢.

• تمام النعمة:

ولمّا أكملَ الله تعالى للأمة المسلمة دينها تَمَّتْ نعمته سبحانه عليها: ﴿وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فتمامُ نعمة الله تعالى على الإنسان بالإسلام، فمن هداه الله سبحانه للإسلام، وشرح صدره للإيمان، ووفقه إلى الالتزام بما شرعه الحق سبحانه من الحلال والحرام، فقد أتمَّ الله تعالى عليه النعمة، فكلُّ نعمةٍ من نعم الله تعالى من غير الإسلام ناقصةٌ غيرُ تامةٍ، ولا تكون النعمة تامة إلا في ظل الإسلام، وهو الدين الذي رضىه الله تعالى لنا، فعلينا أن نرضاه لأنفسنا: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فأَيُّ رعايةٍ أفضلُ من رعاية الله سبحانه لهذه الأمة؛ حتى اختار لها دينها ورضيه لها، إنَّ ذلك يلقي على عاتق الأمة المسلمة مسؤوليةً ثقيلةً في مقابل هذه الرعاية، فما أحقَّ وما أكفرَ من يهملُ أو يرفضُ ما رضىه الله له، فيختار غير ما رضىه الله تعالى له!

• الاضطرار:

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه حالة الاضطرار التي يُعذر المسلم فيها بتناول المحرمات من الطعام والشراب. قال ابن كثير رحمه الله: «فمن احتاج إلى تناول شيءٍ من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى، لضرورةٍ ألجأته إلى ذلك، فله تناولها، والله غفور رحيم، لأنَّه تعالى يعلمُ حاجةَ عبده المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له»^(١). والمخمصة: المجاعة التي تخمُّصُ فيها البطون، أي: تضمر فيها البطون. ويشترط لمن يضطر إلى تناول المحرمات أن يكون ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ أي: غير مائلٍ ومنحرفٍ للإثم، ومختار له، ولهذا عليه ألا يأكل من الطعام المحرم إلا المقدار الذي يحفظ حياته. قال الفقيه الحنبلي ابن قدامة رحمه الله: «ويُباحُ أكلُ ما يسدُّ الرمقَ، ويأمنُ معه

(١) تفسير ابن كثير: ١٤/٢.

الموت بالإجماع، ويحرم ما زاد على الشبع بالإجماع أيضاً، وفي الشبع روايتان، أظهرهما لا يباح، فإذا اندفعت الضرورة لم يحلّ له الأكل كحالة الابتداء، ولأنه بعد سدّ الرمق غير مضطر، فلم يحلّ له الأكل للآية، والرواية الثانية: يباح له الشُّبْع، كما روى جابر بن سُمرة: أَنَّ رجلاً نَزَلَ الحرّة ومعه أهله وولده، فنفتت عنده ناقة، فقالت له امرأته: اسلخها حتى نقدد شحمها ولحمها ونأكله، فقال: حتّى أسأل رسولَ الله ﷺ، فسأله، فقال: «هل عندك غنى يغنيك؟» قال: لا، قال: «فكلوها» [رواه أبو داود (٣٨١٦) وأحمد (٢٠٨٠٠)].

ولأن ما جاز سدّ الرمق منه، جاز الشبع منه كالمباح، ويحتمل أن يفرّق بين ما إذا كانت الضرورة مستمرة، وبين ما إذا كانت مرجوة الزوال، فما كانت مستمرة، كحالة الأعرابي الذي سأل رسولَ الله ﷺ، جاز الشُّبْع، لأنه إذا اقتصر على سدّ الرمق عادت الضرورة إليه عن قرب، ولا يتمكّن من البعد عن الميتة مخافة الضرورة المستقبلية، ويُفضي إلى ضعف بدنه، وربما أدى ذلك إلى تلفه^(١).

وهذا تحقيق سديد ومفيد، فإذا كانت الضرورة مؤقتة ويرجو زوالها اقتصر على ما يسدّ رمقه، ويحفظ حياته، وأما إذا كانت الضرورة مستمرة فله أن يأكل حتّى يشبع. والله سبحانه أعلم.

وينبغي التنبيه إلى أن مَنْ يستطيع تحصيل الطعام الحلال كالسمك، والطعام المصنوع من الخضار ولحم الدجاج المذبوح ذبحاً شرعياً، لا يُعدّ مضطراً إذا عافت نفسه هذا الطعام، وتاقت إلى لحوم الأنعام من الإبل والغنم والبقر، فالضرورة تقدّر بقدرها.

● الطيّبات:

وبعد أن بيّن الله سبحانه ما حرّمه علينا من لحم الحيوانات، شرع سبحانه في بيان ما أحلّ لنا فقال:

(١) انظر: المغني: ٥٩٥/٨.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ وقد جاء هذا البيان جواباً لسؤال وجه للنبي ﷺ، كما هو ظاهر.

والطَّيِّبَات والطَّيِّب، ضد الخبائث والخبث.

وقد وصف الله تعالى النبي ﷺ بأنه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فكل طيب حلال في شريعة الإسلام، وكل خبيث حرام فيها أيضاً.

ومعنى الطَّيِّب: الذي يُستلذُّ ويُستطابُ لخلوه عن المكروه، طاب الشيء طيباً: لذّ وزكى، فالأرضُ الطيبة التي تصلح للنبات، وريحٌ طيبة إذا كانت ليّنة رحيّة، وطُعمَةٌ طيبة إذا كانت حلالاً، وامرأة طيبة إذا كانت حساناً عفيفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، وكلمة طيبة إذا لم يكن فيها مكروه، ونكهة طيبة إذا لم يكن فيها نتن، وطعام طيب الذي يستلذ الآكل طعمه^(١).

وأصل الخَبْث في كلام العرب: المكروه، فإن كان من الكلام فهو الشتم، وإن كان من المِلَل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب فهو الضار، ومنه قيل لما يُرمى من منفيّ الحديد: الخَبْثُ، وخَبْثُ الحديد والفضة ما لا خير فيه، وقوله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ شَيْئاً، فَلَا يَقْرَبْنَا فِي الْمَسْجِدِ» [رواه البخاري (٨٥٣) ومسلم (٥٦٥)]، يريدُ الثوم والبصل والكُرَّاث، وخَبْثُها من جهة كراهة رائحتها^(٢).

(١) انظر: لسان العرب: ١/٥٦٣.

(٢) لسان العرب: ٢/١٤٤.

فالطَّيِّبُ من الطعام ما خلا عن المكروه في البدن والدين، فلا ضرر منه على البدن ولا على الدين، ولهذا ذهب أكثر المفسرين إلى القول بأن الطيبات هي الحلال.

قال سعيد بن جبير: ﴿قُلْ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل: الطيبات: ما أحلَّ لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق^(١).

• صيد الجوارح:

﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾ أي: وأحلَّ لكم صيد ما علَّمتم من الجوارح؛ مثل: الكلاب والفهود والصقور وأشباهها، سُميت جوارح من الجرح وهو الكسب، تقول العرب: فلان جرح أهله خيراً، أي: كسبهم خيراً، ويقولون: فلان لا جرح له، أي: لا كاسب له، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: ما كسبتم من خير أو شر^(٢).

ومعنى ﴿مُكَلِّينَ﴾ أي: معلموها فنَّ الصيد، لهذا قال سبحانه بعدها: ﴿تُعَلِّمُوهُمْ بِمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾.

والصيد من أكبر مصادر الطعام للإنسان، أباحه الله تعالى خارج أرض الحرم وفي غير حال الإحرام، فللإنسان أن يصطادَ بوساطة آلات الصيد الجارحة، أو بوساطة الحيوان الجارح المدرب على الصيد، دلَّ على ذلك قوله تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارح معلماً، وأمسك على صاحبه، وكان صاحبه قد ذكر اسم الله عند إرساله حلَّ الصيد، ولو قتله الجارح.

ويشترط في حال قتل الجارح الصيد أن يكون قتله حدث بسبب ما أحدث

(١) تفسير ابن كثير: ١٥/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

فيه من جرح، أما إذا قتله خنقاً فلا يحلُّ أكله، لأنه أصبح من المنخنقة التي حرّمها الله تعالى، قال القرطبي رحمته الله: «لو مات الصيد في أفواه الكلاب من غير بضع - أي جرح - لم يؤكل، لأنه مات خنقاً»^(١).

وهذا يدلُّ على أن الصيد بواسطة الشراك المفخّخة إذا مات الحيوان فيها خنقاً، لا يحلُّ أكله أيضاً، أما إذا أدركه الصياد حيّاً فذبحه فيحلُّ حينئذٍ أكله.

وجاءت السُّنة الشريفة بمثل ما دلّت عليه الآية الكريمة، ففي «الصحيحين»: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إنني أرسل الكلاب المعلّمة، وأذكرُ اسمَ الله عليها، فقال ﷺ: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسمَ الله، فإن أمسك عليك فأدركته حيّاً فاذبحه، وإن أدركته قد قُتل، ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته» [رواه البخاري (٥٤٨٣) ومسلم (٦/١٩٢٩)].

وفي روايةٍ لهما: «فإن أكل فلا تأكل فإنني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» [البخاري (٥٤٨٧) ومسلم (٢/١٩٢٩)].

وليس قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ على إطلاقه، فهو مقيّد بالصيد من الحيوانات التي أحلَّ الله تعالى أكلها كالأرانب والغزلان والبَطِّ والحمام والعصافير وغيرها مما لم يرد فيها تحريمٌ.

أما الحيوانات التي ورد فيها تحريم فلا يحلُّ أكلها، يحلُّ فقط الانتفاع بالأجزاء الطاهرة منها، كريشها وشعرها وعظامها وعاجها، كما يحلُّ الانتفاع بجلودها إذا دُبغت، قال النبي ﷺ: «أَيُّمَا إِهَابٍ دُبِغَ فَقَدْ طُهِرَ» [رواه الترمذي (١٧٢٨) والنسائي (٤٢٤١)].

وقال أيضاً لما ماتت شاة لأُم المؤمنين ميمونة: «هَلَا انتفعتُم بجلدها» قالوا: إنها ميتة، قال: «إِنَّمَا حُرِّمَ أَكْلُهَا» [رواه البخاري (٥٥٣١) ومسلم (٣٦٣)].

فكل جلود الحيوانات تطهرُ بالدباغ إلا جلد الخنزير لأنَّ عينه نجسة.

(١) تفسير القرطبي: ٧١/٦.

• ما يحرم أكله من الحيوانات:

والحيوانات التي يحرم أكلها كلُّ حيوانٍ ذي نابٍ يصيدُ بنابه، أو ذي مَخْلَبٍ يصيدُ به، والمخلَبُ الظفر، من السباع والطيور، ودليل تحريم أكلها أَنَّهُ ﷺ نهى عن أكل كل ذي نابٍ من السباع، وكل ذي مخلبٍ من الطير. [رواه مسلم (١٩٣٢) وأبو داود (٣٨٠٢) ومالك في الموطأ (١٣) كتاب الصيد].

ولأن طبيعة هذه الحيوانات مذمومة شرعاً، فهي حيوانات جارحة قاتلة مؤذية، يُخشى أن يتولّد من لحمها شيءٌ من طباعها، فيحرم أكلها إكراماً لبني آدم^(١)، كما أنها تأكل الجيف، فقد تُسبّب لأكلها كثيراً من الأمراض.

وكذلك يحرمُ أكلُ هوامِّ الأرض والحشرات كالفأرة والوزغ - وهو سام أبرص - والقنفذ والحية والعقرب والضفدع والزنبور والبرغوث والقمل والذباب والبعوض والقراد^(٢)؛ لأنها من الخبائث، قال رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ كُلُّهُنَّ فَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلبُ العقور» [رواه البخاري (١٨٢٩)].

ويدلُّ جلُّ قتلها في الحرم على تحريم أكلها، لأنَّ المباح لا يقتل، بل يُصاد أو يُذبح^(٣).

ويحرم أيضاً أكلُ لحوم الحمر الأهلية، بخلاف الوحشية فإنها ولبنها حلال، لما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نهى عن متعة النساءِ يومَ خيبر وعن لحومِ الحُمُرِ الإنسية. [رواه البخاري (٤٢١٦) ومسلم (١٤٠٧)]. ومتعة النساء: أي الزواج بهن بعقد لوقت معين.

وعن جابر رضي الله عنه قال: أكلنا زمنَ خيبر الخيلَ وحُمَرَ الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمار الأهلي. [رواه مسلم (١٩٤١)].

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ١٩٣/٥.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: أحكام الأطعمة، ص ٢٥٩.

﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

• حكم ذبائح اليهود والنصارى:

وبعد أن ذكر تعالى ما حَرَّمَ من الخبائث وما أَحَلَّ من الطَّيِّبَات قال:

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۚ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۚ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مَتَّحِدِينَ ۚ أَخَذَانِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾، ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتاب فقال تعالى:

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني ذبائحهم، وهذا أمرٌ مجمَعٌ عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلالٌ للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزّه عنه تعالى وتقدّس^(١).

وقال القرطبي رحمه الله: «لَمَّا كَانَ الْقِيَاسُ أَلَّا تَجُوزَ ذَبَائِحُهُمْ، كَمَا نَقُولُ: إِنَّهُ لَا صَلَاةَ لَهُمْ، وَلَا عِبَادَةَ مَقْبُولَةَ، رَحَّصَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَبَائِحِهِمْ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَخْرَجَهَا النَّصُّ عَنِ الْقِيَاسِ»^(٢).

وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ ما كان محرّماً عليهم في شرائعهم وأحلَّ في الشريعة الإسلامية أصبح حلالاً لهم، لأنَّ الشريعة الإسلامية نسخت العمل بالشرائع السابقة، فقد أصبح التحليل والتحريم مرتبطاً بشريعتنا الإسلامية فقط، ولذلك لو أطعمونا خنزيراً أو نحوه وقالوا: هو حلال في شريعتنا، وقد أباح الله لكم طعامنا، كذبناهم، وقلنا: إن الطعام الذي يحلُّ لكم في شريعتنا هو الذي

(١) تفسير ابن كثير: ١٩/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٧٧/٦.

يحل لنا لا غيره، فحاصل المعنى: طعامهم حلٌ لكم إذا كان من الطعام الذي أحلته لكم^(١).

فقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ ليس على عمومه، بل هو مخصص بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ...﴾ الآية [المائدة: ٣]، فلو علمنا أنَّ أهل الكتاب يذبحون ذبْحاً يجعل البهيمة في حكم الميتة حرمت، كما لو فعل ذلك المسلم، لأنهم ليسوا أعلى من المسلمين، بل هم في هذا الباب كالمسلمين، فكلُّ ذبيح من مسلم أو كتابي يجعل الذبيحة في حكم المنخنة أو الموقوذة أو المتردية أو النطيحة، ذبْحٌ يحرم أكل البهيمة، ويجعلها في عداد الميتات لما مرَّ معنا في الآية الكريمة التي يُخصَّص بها عموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ فالبهائم التي يذبحونها بوساطة الصعق الكهربائي أو الضرب على الرأس أو الخنق لا يحلُّ أكلها، لأنها في حكم الميتة والموقوذة والمنخنة.

● آراء شاذة:

هذا هو الحق الذي درج عليه علماء المسلمين وعامتهم، ولا عبرة برأي من شذَّ عن الحق، وزعم أنه يتمسك بعموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾. ذهب إلى هذا الرأي الشاذ الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه «الحلال والحرام في الإسلام»، وقد سبقه إليه محمد رشيد رضا وأستاذه محمد عبده، في الفتوى المشهورة عنه، والتي عُرفت بالفتوى الترنسفالية، لأنها صدرت ردّاً على سؤال جاء من بلاد الترنسفال في البلقان، كما ذهب إليه بعض المتأخرين من فقهاء المالكية.

ولا دليل لأصحاب هذا القول من علماء وفقهاء المذهب المالكي سوى جملة ذكرت على لسان القاضي أبي بكر ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن»، وهي: «ولقد سئلت عن النصرانيِّ يُقتلُ عنق الدجاجة ثم يطبخها، هل تؤكل معه

(١) انظر: روح المعاني: ٦/ ٦٥.

أو تؤخذ منه طعاماً؟ فقلتُ: تؤكل، لأنها طعامه، وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا».

وليس في هذا ما يصلح دليلاً علمياً، لأنه ذكر بعد ذلك في الكتاب نفسه وفي الصفحة نفسها ما يناقضه ويسقطه، ففي [صفحة ٢٢٩/١ الطبعة الأولى]: «فإن قيل: فما أكلوه على غير وجه الذكاة كالخنق والحطيم، فالجواب: إن هذا ميتة، وهي حرامٌ بالنص، وإن أكلوها فلا نأكلها نحن كالخنزير، فإنه حلال لهم ومن طعامهم، وهو حرامٌ علينا»^(١).

• أهل الكتاب:

المراد بأهل الكتاب في القرآن الكريم اليهود والنصارى، وهو قول عامة المفسرين^(٢)، قال تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٥) هَتَأْتُمْ هَتُوءًا حَنَجَجْتُمْ فِيْمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيْمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[آل عمران].

وسياأتي معنا قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ... ﴿الآية.

ولا شك أن اليهود والنصارى هم الذين أنزل الله عليهم التوراة والإنجيل؛ قال القرطبي رحمته الله: «وأما المجوس فالعلماء مجتمعون، إلا من شذ منهم، على أن ذبائحهم لا تؤكل، ولا يتزوج منهم، لأنهم ليسوا أهل كتاب»^(٣).

(١) انظر كتاب المؤلف: نظرات في كتاب «الحلال والحرام في الإسلام».

(٢) انظر: فتح القدير: ١٤/٢؛ وتفسير أبي السعود: ١٠/٢؛ و«نظرات في كتاب الحلال والحرام».

(٣) تفسير القرطبي: ٧٧/٦.

● المحصنات الكتابيات:

وكما أنّ في الطعام ما هو طيّبٌ وخبيثٌ، فإن في النساء أيضاً طيّبات وخبيثات، والنساء الطيبات هنّ النساء العفيفات، سواء كنّ من المسلمات أو الكتابيات، قال تعالى:

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ قال ذلك في سياق العطف على الطيّبات، أي: وأحلّ لكم نكاح المحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، فدلّت الآية الكريمة على حلّ الزواج من اليهوديات والنصرانيات.

وخصّصت هذه الآية عموم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وشرط الله تعالى أن يعاملنّ كما تعامل النساء المسلمات من حيث تقديم المهر لهنّ فقال:

﴿إِذَا تَتَمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾.

وكذلك شرط سبحانه العفة في الرجال كما شرطها في النساء فقال:

﴿مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أي: غير مجاهرين بالزنى،

ولا متخذى عشيقات.

ثم ختم سبحانه الآية محذراً من الكفر بعد الإيمان، ومبيّناً ما يترتب على ذلك من حبوط ثواب الأعمال الصالحة، وبطلانها في الدنيا، والخسارة الكبرى يوم القيامة، فقال:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾، وجاء هذا تذييلاً

لقوله في صدرها: ﴿أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ﴾ تعظيماً لشأن ما أحله الله تعالى وما حرّمه وتغليظاً على من خالف ذلك^(١).

(١) انظر: روح المعاني: ٦٧/٦.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ

الأمر بالطهارة

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُثًا فَاطْحَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَمَلَكُمْ وَمِمَّنَّهُ الَّذِي
وَأَفْقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

• تمهيد:

اعتنى القرآن الكريم بإظهار السمات والخصائص التي يتميز بها الإسلام عن غيره من الشرائع والأديان، ومن هذه الخصائص أنه دين التوسط والاعتدال، ولهذا فإن في الشريعة الإسلامية مختلف الأحكام التي تلي كل حاجات الإنسان الجسدية والروحية، والعقلية والعاطفية، والدينية والدنيوية، وتراعي التوازن والتوسط فيما بينها بحيث تحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة.

هذا الاهتمام القرآني بخصائص الإسلام وميزاته، لا نراه في موضوعات الآيات والسور فحسب، إنما نراه أيضاً في ترتيب الآيات واتساقها فيما بينها وفي موقع كل آية بالنسبة لسبقها وسيقاها.

انظر على سبيل المثال إلى أسلوب القرآن الكريم في تهذيب النفوس،

وتربيتها في الترغيب تارةً والترهيب أخرى، وكيف قرن بين آيات الترغيب وآيات الترهيب بحيث يبقى الإنسان بين الرغبة والرغبة، والرجاء والخوف.

وهكذا الحال في الموضوعات الأخرى، فثمة حِجْمٌ وأسرارٌ في مواقع الآيات من بعضها، وكذلك لموقع الكلمة القرآنية بين كلمات الآية الواحدة، وما أكثر ما استدل العلماء على المعنى المراد من الكلمة القرآنية من موقعها بين الكلمات المجاورة لها.

• طيبات الروح:

وقد جاء النداء الثالث يبين أحكاماً تتعلق بأهم العبادات، وهي عبادة الصلاة، بعد ما سبق بيانه من أحكام تتعلق بالطعام، وهو من مطالب الإنسان المادية الجسدية، للتوفيق والموازنة بين حاجات الإنسان الجسدية في الطعام والشراب، وتطلعاته الروحية إلى عبادة الله تعالى، ولعلّ العلامة الألوسي رحمته الله قصد هذا المعنى عندما قال في بداية النداء الثالث: «يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ» شروع في بيان الشرائع المتعلقة بدينهم بعد بيان ما يتعلق بدينهم»^(١).

وجاء بعده سيد قطب رحمته الله فقال: «إنها لفئة إلى لونٍ آخرٍ من الطيبات، طيبات الروح الخالصة، إلى جانب طيبات الطعام والنساء، لونٍ يجد فيه قلبُ المؤمن ما لا يجده في سائر المتاع، إنها لذة اللقاء مع الله ﷻ في جوٍّ من الطهر والخشوع، فلما فرغ من الحديث عن متاع الطعام والزواج، ارتقى إلى لذة الروح والقلب في الطهارة والصلاة، التي بها تتكامل حياة الإنسان»^(٢).

• الوضوء والغسل والتيمم:

ولما كانت الطهارة من الحَدَثَيْن الأصغر والأكبر، بالوضوء والغسل أو بما

(١) روح المعاني: ٦٨/٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٨٤٩/٢.

يقوم مقامهما من التيمم، شرطاً أساسياً لصحة الصلاة، بين الله سبحانه أحكام الطهارة بقوله الكريم:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة.

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ وهذه هي الفروض الأساسية للوضوء التي لا يصح دونها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ بقراءة النصب، يدل على فرض غسل القدمين إلى الكعبين في الوضوء، وأما بقراءة الخفض فتدل على مشروعية المسح على الخفين، وأن ذلك يقوم مقام غسل القدمين بالشروط المذكورة في كتب الفقه، أو نقول: جاءت قراءة الخفض لتتناسب الكلام والمجاورة، وهذا ذائع وشائع في كلام العرب كقولهم: «جحرُ ضبٍّ خربٍ»، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه^(١).

ثم بين الله تعالى وجوب الغسل من الحدث الأكبر، وهو الجنابة، بقوله:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا﴾.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٦/٢.

ثم شرع سبحانه التيمم ليقوم مقام الوضوء والغسل عند فقد الماء، أو تعذر استعماله بسبب المرض، فقال:

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

وبين سبحانه كيفية التيمم، وأنه يكون بمسح الوجه واليدين بالصعيد الطاهر فقال:

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾^(١).

ثم ختم الله سبحانه الآية الكريمة، كما ختم آية المحرمات من الطعام، ببيان سماحة الشريعة الإسلامية ويُسر أحكامها، فقال تعالى:

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ وهذا من فضله سبحانه ومِنته العظمى على هذه الأمة المسلمة، فلا تتم نعمة الله على الإنسان إلا إذا تعلم هذه الأحكام وعمل بها، فيكون حينئذ حقاً من الشاكرين:

﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

● التذكير بالميثاق:

وناسب بعد بيان هذه النعم الجزئية، أن يذكرهم بنعمته الشاملة الكبرى، وهي نعمة الإسلام والإيمان:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فالله سبحانه يطالب المؤمنين بهذا التذكير أن يوفوا بعقدهم وميثاقهم معه سبحانه، ويحذّرهم عواقب نقض العهد والعقد معه كما فعل بنو إسرائيل من قبلهم، فالتذكير بالنعمة والميثاق يستدعي للوفاء به القيام بالتكاليف التي كلفنا الله بها.

(١) راجع تفسير الآية (٤٣) من سورة النساء في تفسيرنا هذا.

والمراد بالميثاق: عهدهم الذي عاهدوا رسول الله ﷺ عليه عند دخولهم في الإسلام، أو هو ميثاق الفطرة الأول الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين استخرجهم من صُلب أبيهم آدم، وهم في عالم الذرِّ والنطفِ، والذي أخبرنا الله سبحانه به في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولا يؤدي حق هذا الميثاق ويفي به إلا من يتقي الله تعالى، ولهذا ختم الآية بقوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.



النِّدَاءُ الرَّابِعُ

الأمر بالعدل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾

يَبَيِّنُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا النِّدَاءِ الْكَيْفِيَّةَ الْعَمَلِيَّةَ لِلْمَحَافَظَةِ عَلَى مِيثَاقِهِمْ
مَعَ اللهِ تَعَالَى، فَقَالَ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ .

إِنَّ الْمَحَافَظَةَ عَلَى عَهْدِ اللهِ وَمِيثَاقِهِ تَسْتَدْعِي الْقِيَامَ بِأَرْبَعَةِ أُمُورٍ؛ هِيَ:

١ - الْقِيَامُ لِلَّهِ .

٢ - الشَّهَادَةُ بِالْقِسْطِ .

٣ - التَّزَامُ الْعَدْلُ فِي مُعَامَلَةِ الْآخَرِينَ وَلَوْ كَانُوا أَعْدَاءً لَنَا .

٤ - التَّزَامُ التَّقْوَى .

وَلَا يَقُومُ بِهَذِهِ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةَ إِلَّا مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ، وَقَمَعَ هَوَاهُ، وَقَدَّمَ أَمْرَ

اللَّهِ وَشَرَعَهُ عَلَى أَمْرِ نَفْسِهِ وَمُصْلَحَتِهِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أَي: كُونُوا كَثِيرِي الْقِيَامِ بِحَقُوقِ اللهِ،

مداومين على ذلك، ونبه بلفظ ﴿قَوَّامِينَ﴾ إلى أن القيام بأمر الله لا يكفي مرة أو مرتين، بل يجب أن يكون ذلك أمراً دائماً ولازماً ومستمراً.

﴿شَهِدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولا تكون الشهادة بالقسط، وهو العدل، حتى تخلو عن كل المؤثرات الخارجية عنها.

فكثيراً ما يخضع الشهود عند أداء الشهادة لضغوط مصالحهم الخاصة، أو لضغوط العلاقات الاجتماعية من قرابة أو صداقة أو جوارٍ، فإذا تمكّن الشاهد من تجريد شهادته عن كل هذه المؤثرات، كان بحق شاهداً بالقسط، وكانت شهادته لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شَهِدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

فمن نجح في الوفاء بعهد الله وميثاقه فاز ونال ما وعد الله به في قوله الكريم:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن نقض عهد الله وميثاقه فكذب وكفر، استحقّ وعيد الله في قوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.



النِّدَاءُ الْخَامِسُ

التحذير من نقض الميثاق، وذكر نعمة الله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بِعَدِّ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ نَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَعْزُبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ أَدْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَتَقَوَّمُ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ يَالْحَقُّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا أَقْبَلُكَ قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْلُبَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْبَلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣١﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقُ أَخَعْرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِى سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٢﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾

وجاء النداء الخامس للمؤمنين يذكّرهم بنعمته سبحانه عليهم بكفّ شرّ الكفار عنهم، ويبين لهم أنّ التزام التقوى والتوكل على الله وحده أهمّ أسباب الوقاية والحفظ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ۖ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

والقوم الذين همّوا بأن يبسطوا بالمؤمنين هم مشركو قريش، أو يهود المدينة المنورة، وكلاهما همّ بذلك، إلا أنّ سياق الآيات تتحدّث عن اليهود ونقضهم للعهد والميثاق - كما سيأتي - وهذا يرجّح أنّ اليهود هم الذين تعينهم الآية الكريمة، وأنّ هذا النداء جاء توطئة للحديث عن أكثر الناس نقضاً لعهد الله وميثاقه.

• الناقضون الميثاق:

أخذ الله تعالى العهد والميثاق على بني إسرائيل، واختار من كل قبيلة من قبائلهم الاثنتي عشرة رجلاً من علمائهم وأشرافهم نقيباً عليهم، ومهمة هؤلاء النقباء أن يشرفوا على تنفيذ العهد ورعايته.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

وأخبرهم سبحانه أنّه معهم يؤيدهم وينصرهم إذا أوفوا بالعهد، فأقاموا الصلاة، وأدّوا الزكاة، وآمنوا برسول الله تعالى، ودافعوا عنهم، وأنفقوا أموالهم في سبيل طاعة الله ومرضاته:

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

وأخبرهم أيضاً أنَّ لهم إن فعلوا هذا إلى جانب النصر والتأييد في الدنيا، أن يكفر الله عنهم سيئاتهم يوم القيامة، ويدخلهم الجنة:

﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَآ أُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

ثم بيّن عاقبة العذر والكفر فقال:

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ويلاحظ في الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل أنه تضمن وجوب الإيمان بجميع رسل الله تعالى، فلم يفعل اليهود ذلك، بل قالوا: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وكذلك أخذ الله عليهم العهد أن يدافعوا عن الرسل وينصروهم، ولكنَّ أيدي اليهود الآثمة امتدَّت إلى الرسل بالقتل، وهُمُّوا أكثر من مرَّة بقتل سيد الرسل وخاتمهم محمد ﷺ، وقد سجَّلَ الله سبحانه جرائمهم هذه في آيات كثيرة؛ منها قوله ﷻ: ﴿فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ تَايَاتٍ اللَّهُ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيٍ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

ونتيجة نقضهم للميثاق لعنهم الله سبحانه وأبعدهم عن رحمته:

﴿فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحُفُّونَ أَلْكَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعَنَهُمْ﴾.

كما جعل قلوبهم غليظة يابسة لا تقبل الحق ولا تدعن له:

﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً﴾.

حتى تجرؤوا على كتاب الله الذي أنزله عليهم فحرّفوه وغيروه:

﴿يَحُفُّونَ أَلْكَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

وتركوا قسماً كبيراً مما كُفِّوا به :

﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ .

وأصبحت الخيانة لازمة لهم :

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ

كعبد الله بن سلام رضي الله عنه .

والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ تعبير طريف : ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ الفعل الخائنة والنية الخائنة والكلمة الخائنة والنظرة الخائنة . . . يجملها النص بحذف الموصوف وإثبات الصفة (خائنة) لتبقى الخيانة وحدها مجردة، تملأ الجو وتلقي ظلالها وحدها على القوم، فهذا هو جوهر موقفهم مع رسول الله ﷺ ^(١) .

ومع ذلك أمر رسول الله ﷺ أن يعفو عنهم ويصفح :

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولعل الأمر محمول على الندب والاستحباب، تأليفاً لهم، وصفحاً عن الإساءات التي صدرت منهم بحق رسول الله ﷺ .

• نقض النصارى للميثاق:

وكما نقض اليهود الميثاق نقض النصارى الميثاق أيضاً :

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾ أي : قالوها دعوى دون أن يحققوها في حياتهم، وذلك أنهم سمّوا أنفسهم بهذا الاسم ادعاءً لنصرة الله تعالى ^(٢) .

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٨٥٩/٢ .

(٢) التفسير الكبير: ١٨٨/١١ .

﴿أَحْذَرْنَا مِنْهُمْ﴾ وكان توحيدُ الله أساسَ الميثاق، ومنه كانت نقطة انحرافهم ونقضهم للميثاق.

﴿فَسُوا حَظًا مِمَّا دُكِرُوا بِهِ﴾ فتركوا قسماً كبيراً من دين الله وشرعه الذي كُلفوا به، وتفرقوا إلى فرقٍ وأحزابٍ متعادية ومتباغضة، فجعل الله سبحانه العداوة والبغضاء لازمةً لهم، ولاصقةً بهم إلى يوم القيامة:

﴿فَاغْرِبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وصدق الله تعالى؛ فالخلافات والعداوات القائمة بين الأمم النصرانية كانت ولا تزال لازمةً لهم، ولاصقةً بهم.

• حاجة أهل الكتاب إلى رسالة الإسلام:

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ إلى أهل الأرض جميعهم؛ عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، واتجهت الآيات الكريمة تخاطبُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لتؤكد عمومَ رسالة النبي ﷺ، وأنه أرسل إليهم وإلى غيرهم، فكونهم أهل كتاب لا يعني أنهم غير مكلفين برسالة الإسلام، فهم في أشد الحاجة إلى رسالة الرسول ﷺ، رسالة الإسلام الناسخة لكلِّ الشرائع والملل السابقة:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. ومن خلال هذا الخطاب الموجه إلى اليهود والنصارى، بين الله شدة حاجتهم إلى رسالة النبي ﷺ، وضرورة الرسالة الإسلامية إليهم، التي جعلها الله رسالة التيسير والسماحة، ولهذا قال الله بعدها: ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ لأنه ﷺ جاء بالتيسير، فأحلَّ لهم الطيبات، وحرَّم عليهم الخبائث، ووضع عنهم التكاليف الشرعية الثقيلة التي كانوا مكلفين

بها، كما جاء في آية سورة الأعراف [١٥٧]: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو ﷺ نور الأنوار والنبى المختار، الذي نوره الله تعالى ونور به العالمين فجعله سراجاً منيراً.

﴿وَكُتِبَ مُبِينٌ﴾ وهو القرآن الكريم والتنزيل الحكيم.

● سبل السلام:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٦).

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ طرق السلامة من كل مخافة، وما أكثرها فيهم! المخافة من الحروب والنزاعات القائمة بينهم، ومن القلق والاضطراب الذي يملأ قلوبهم، ويسيطر على نفوسهم، حتى شاعت فيهم الأمراض النفسية والجسدية.

أو: هي السبل التي توصلهم إلى الله، والسلام اسم من أسمائه الحسنى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

أو: السبل التي توصلهم إلى جنة الله تعالى ورضوانه، والجنة دار السلام: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥] فالجنة دار السلام، لأنها سالمة عن كل المنغصات، فلا هم فيها ولا حزن، ولا خوف ولا قلق.

﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ظلمات الكفر والضلال، وظلمات المادية الملحدة الباغية، وظلمات الانحلال والشهوات الطاغية.

﴿يَاذِينِهِ﴾ بتوفيقه وهدايته.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام دين الإنسان والسلام.

• من ضلالات أهل الكتاب:

ومما يؤكّد حاجة أهل الكتاب إلى رسالة الإسلام، الضلالات الكبرى في عقائدهم، والتي أصبحوا بها كافرين؛ قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

ورد الله سبحانه عليهم بتبكيته، وبيان بطلان قولهم:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

فعيسى عليه السلام شأنه شأن جميع المخلوقات داخل في ملكوته سبحانه وتحت قهره ومشيئته:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن ضلالات أهل الكتاب التي انتشرت وشاعت بين اليهود والنصارى، الدعوى الباطلة التي جعلتهم يرون لأنفسهم امتيازاً وتفوقاً على غيرهم من البشر:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۖ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ وهي أصل أفكار التمييز العنصري واللوني المنتشرة بينهم، والتي دفعتهم إلى استعمار الأمم والشعوب، وسرقة خيراتها، ونهب ثرواتها.

وبين الله سبحانه بطلان هذه الضلالة الفاشية بينهم فقال:

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ بالبلايا والمحن والمصائب في الدنيا، وفي النار يوم القيامة.

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ لا امتياز لكم عليهم.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وهم المؤمنون بالله تعالى وحده، ويرسله ﷺ دون تفريق بينهم.

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وهم الذين كفروا به سبحانه ويرسله ﷺ.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

● جاء البشير النذير ﷺ:

وكرر الله تعالى النداء لأهل الكتاب ليؤكد أن سيدنا محمداً ﷺ أرسل إليهم كما أرسل إلى غيرهم، وأنه عليه الصلاة والسلام جاء مبشراً لمن آمن برسالته برحمة الله ورضوانه وجنته، ومنذراً من أعرض عن رسالته بغضب الله وسخطه وعذابه، وأن بعثته عليه الصلاة والسلام جاءت بعد انقطاع رسالات الله تعالى لفترة امتدت من عهد عيسى عليه السلام إلى عهده ﷺ على مدى ستة قرون متوالية تقريباً، وقد أصبح الناس عامة، وأهل الكتاب خاصة، في أمس الحاجة إلى رسالته عليه الصلاة والسلام، فلا حجة لأحد بعد أن بُعث النبي البشير النذير

ﷺ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يقول: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاء البشير النذير وأقام الله بذلك حجته الكبرى على خلقه:

﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتِّبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

جاء في الحديث النبوي: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم، لأنه ليس بيني وبينه نبيٌّ» [رواه البخاري (٣٤٤٣)].

• جحود وخذلان:

بيّنت الآيات الكريمة التالية مواقف بني إسرائيل من نبيِّ الله موسى عليه السلام توطئة وتمهيداً لبيان مواقفهم من سيدنا رسول الله ﷺ، فمن المعلوم أن اليهود كانوا يشكلون قسماً كبيراً من سكان المدينة المنورة عندما هاجر إليها رسول الله ﷺ، وكانوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام يتوقعون بعثته، ويستفتحون به، أي يسألون الله النصرَ به عليه الصلاة والسلام لما يجدون في التوراة من نعوته وصفاته، فلما بُعث ﷺ، وهاجر إلى المدينة، ورآه اليهود، وتأكدوا أنه حقاً النبيُّ المنتظر، كفروا به، وجحدوا نبوته، وأنكروا رسالته عليه الصلاة والسلام إلا قليلاً منهم، وسجّل الله موقفهم هذا بقوله الكريم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وأما مواقفهم من نبيِّ الله موسى عليه السلام الذي أرسله الله إليهم، وخلصهم على يديه من ظلم فرعون وطغيانه، الذي كان يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وأنعم الله عليهم إكراماً لموسى عليه السلام نعماً جليلة كتظليل الغمام، ونبع الماء من الحجر، وإنزال المن والسلوى، وفوق كل ذلك أنزل عليهم التوراة نوراً وهدايةً، ومع كل هذه النعم وقفوا من نبيِّ الله موسى موقف الجحود والخذلان،

عندما طلب منهم موسى أن يجاهدوا في سبيل الله، ويدخلوا الأرض المقدسة، وقبل أن يطلب منهم ذلك ذكرهم ببعض نعم الله عليهم:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ وهذا يدل على أن وجود الأنبياء في أي مجتمع من المجتمعات من أعظم وأجل النعم، فكلما هلك نبي في بني إسرائيل قام فيهم غيره من لدن موسى إلى زمن عيسى عليه السلام.

﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أي: تعيشون عيش الملوك لكثرة ما أفاض الله تعالى عليكم من رزقه وفضله.

﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ في ذلك الزمن^(١)، وإلا فإن الأمة المسلمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً ﷺ، وأكثر أرزاقاً وأموالاً، وأوسع ملكاً، وأدوم عزاً^(٢).

﴿يَنْقُورُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝﴾

﴿يَنْقُورُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ وهي أرض فلسطين من بلاد الشام.

والمقدسة: المطهرة، ولعل ذلك بسبب كثرة الأنبياء الذين عاشوا وماتوا فيها، أو لكون المسجد الأقصى فيها.

(١) ما ورد على لسان موسى عليه السلام من ذكر الأنبياء والملوك إنما هو نبوءة منه ﷺ لما سيظهر في هذه الأمة من ملوك وأنبياء (م).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٧/٢.

﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: التي أمركم الله تعالى بدخولها، وفرضه عليكم، ولا يتم هذا إلا بقتال أعدائكم وجهادهم.

فالكُتُبُ هنا معناه الفرض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وهو ما ذهب إليه السُّدِّي من علماء التفسير^(١). ويرجح هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا زُجْدُوا عَلَىٰ أَعْدَائِكُمْ فَتَنَقَّلُوا خَسِرِينَ﴾ أي: لا تنكسوا عن الجهاد.

• رجلاَن مؤمنان:

ولكن قوم موسى نكلوا عن الجهادِ جبناً وخوفاً:

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ﴾ هكذا دون أن يصفوه بصفة النبوة أو الرسالة التي أكرمهم الله تعالى بهما.

﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وبهذا جمعوا إلى الجبن والخوف صفة العجز والكسل.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بصدق الإيمان والخوف من الله تعالى.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: اهجموا على أعدائكم، واقصدوا الهدف الرئيس وهو باب مدينتهم، التي يتحصنون فيها.

(١) انظر: روح المعاني: ١٠٦/٦.

فإذا ظفرت بهذا الهدف، وتمكنت منه، انتصرت على عدوكم:
﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ﴾.

وتوكلوا على الله مع بذل الجهد والتضحية إن كنتم حقاً مؤمنين به سبحانه:
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

رجلان فقط من أمة اليهود أظهرها صدق الإيمان وعزم اليقين، فنصحا وأخلصا لله في نصحهما، ولكن القلوب القاسية الغليظة التي ران عليها الخوف والجبن والعجز لم تنتفع بهذا النصح:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (٢٤).

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾.

بل ضموا إلى كل ذلك الوقاحة وسوء الأدب مع الله تعالى، ثم مع نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فما أقبح هذا الجواب!

وما أجمل ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ يوم بدر حين استشارهم في قتال المشركين، وقال لهم: «أشيروا علي أيها الناس» فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجلٌ واحدٌ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله أن يرئكَ منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

وتكلم أيضاً المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾،

ولكنا نقاتلُ عن يمينِكَ، وعن يساركِ، ومن بين يديكَ، ومن خلفكَ [رواه البخاري (٣٩٥٢)]^(١).

وتهلّل وجهُ رسولِ الله ﷺ وأشرقَ، وسرّه ذلك، وحُقَّ له عليه الصلاة والسلام أن يُسرَّ، ولعينه أن تقرَّ، بما أنعمَ الله تعالى عليه بأصحابه الأخيار الأطهار الصفوة الطيبة المختارة بعد الأنبياء^(٢).

وحُقَّ لموسى ﷺ أن يأسفَ ويحزنَ وهو يواجهُ من قومه كلَّ هذا الجحود والخذلان، مع الوقاحة وسوء الأدب، فلا يملكُ إلّا أن يتوجّه إلى الله بكلماتٍ تقطرُ حزناً وأسى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢٥).

وحكّم الله تبارك وتعالى عليهم بالحرمان من خيرات الأرض المقدسة وبركاتها مدّة أربعين سنة، حتى انقضى جيلٌ هؤلاء المتخاذلين الجبناء:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾^(٢٦).

• عاقبة الحسد (جريمة القتل الأولى):

وإذا كان الحرمان عاقبة الخذلان، تُرى ما عاقبة الحسد والبغي الذي جعل يهودَ المدينة المنورة يقفون من رسولِ الله ﷺ مواقفهم المشهورة التي أشرت إليها سابقاً؟ قال الله تعالى:

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣٩/٢؛ وانظر: سيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٣٣٦.

(٢) انظر ما كتبه عن سورة النمل في هذا التفسير تحت عنوان: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اقرأ على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم^(١).

﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: قدّم كل واحدٍ منهما عبادةً يتقرب بها إلى الله.

﴿فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ فقبل الله تعالى عبادة أحدهما.

﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وردّ عبادة الآخر، فحسد المردود أخاه المقبول، وقال له:

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾. فردّ عليه أخوه مبيناً سبب قبول الله لعبادته:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالتقوى سبب قبول العبادة.

ثم بيّن موقفه من أخيه الحاسد فقال:

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِيدَى إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ .

إنّ الخوف من الله سبحانه هو السبب الذي حمله على أن يقف من أخيه هذا الموقف، ولهذا أردف قائلاً:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: إني أريد أن ترجع إلى الله يوم القيامة وأنت تحمل إثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك.

أو: إني أريد أن تحمل إثمِي وإثمك في قتلِك إياي، وهذا يتفق مع ما ورد

(١) هكذا ابتدأ ابن كثير رحمه الله تفسير هذه الآيات: ٤١/٢.

في بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة بأنه يؤخذ يوم القيامة من حسنات القاتل فتعطى للمقتول، فإذا فنيت حسنات القاتل، ولم يستوفِ المقتول حقه، أخذ من خطايا المقتول فطُرحت على القاتل، ثم طُرح في النار، ولهذا ختم كلامه بقوله:

﴿فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاُ الظَّالِمِينَ﴾.

وقصد بهذا الكلام أن يخوِّفه من عذاب الله يوم القيامة لعله يرتدع وينزجر. ولكن النفس الحاقدة الحاسدة لم تنزجر ولم تتعظ بل زينت لصاحبها جريمة القتل وشجعتة عليها:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهكذا أصبح القاتل من الخاسرين في الدنيا والآخرة، وتلك هي عاقبة البغي والحسد، فأَيُّ خسارةٍ أعظم من هذه الخسارة؟!.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا، لَأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ» [رواه البخاري (٣٣٣٥) ومسلم (١٦٧٧)].

ولم يذَرِ القاتلُ ما يفعلُ بجسدِ أخيه المقتول حتى علّمه الله تعالى أن يدفنه بالتراب، بواسطة ما أراه من صنيع الحيوان:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيْلَئِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.

فأصبح من النادمين لا على القتل، بل على كونه لم يعرف في أول الأمر كيف يتصرف بجسد أخيه الميت، حتى تعلّم ذلك من الغراب.

وهكذا فإن أول ميت من بني آدم مات بالقتل، وتتابعت بعد ذلك النكبات والمآسي وحمّامات الدماء والمذابح البشرية الجماعية بسبب الحقد والحسد

والبغي، ولم تتوقف حتى يومنا هذا، بل ازدادت في عصرنا الحاضر حدةً وشدةً وبربريةً وهمجيةً ووحشيةً، وكل يوم نسمع عن مذابح يصل ضحاياها إلى الآلاف، كما نسمع عن اكتشاف مقابر جماعية تضم رفات المئات من بني البشر، دفنتهم الجرافات، ودفعتهم إلى باطن الأرض المجتررات.

وعقّب الله تبارك وتعالى على هذه القصة بتهديدٍ شديدٍ لأولئك الذين يعتدون على حق الحياة للإنسان، وخصّ بالذكر بني إسرائيل، لأنهم أكثر الناس جرأةً على القتل ومسبباته بإثارة الفتن والحروب بين الناس، ويكفي أنهم قتلوا كثيراً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وحاولوا أن يقتلوا خاتمهم وإمامهم سيدنا رسول الله ﷺ حسداً وحقدًا، ولكن الله سبحانه عصمه من كيدهم ومكرهم كما سيأتي معنا في قوله الكريم: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ﴾ (٣٢).

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إن قتل الإنسان الواحد جريمةٌ كبرى، ومسؤولية عظمى، إنه عدوان على حق الحياة لجميع الناس.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بإنقاذها من أسباب الهلاك، أو منع القاتل من ارتكاب جريمته.

﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

ورغم كل هذا الوعيد الشديد وما فيه من بيان واضح لم يرتدع المجرمون عن جرائمهم:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ

لَمُسْرِئُونَ ﴿٣٢﴾ ومعنى الإسراف في القتل: قتل الإنسان البريء، الذي لا يستحقُّ القتل، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

إذاً لا بد من العقاب الرادع، والجزاء الزاجر للمجرمين، حتى يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم، ولهذا شرع الله تعالى العليم بأحوال النفوس البشرية والحكيم بما يصلحهم، العقوبات الزاجرة التي تحمي المجتمع الإنساني من المجرمين، وتستأصل منه القتلة المفسدين.

• العقوبات الزاجرة لقطاع الطرق والمفسدين في الأرض:

وعندما أشرقت شمسُ الإسلام على العالم من أرض العرب كانت الجزيرة العربية مليئة بقطاع الطرق والمجرمين، وما كان الإنسان آمناً على نفسه وماله وعرضه في أي مكان سوى مَنْ كان يعيش في أرض الحرم في مكة المكرمة، يؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وكلمة (يُخَفِّطُ) تذكّرنا بالواقع الأليم الذي تردّى إليه الناس في عصرنا الحاضر بعد أن ملأت جرائم الخطف والاعتداء على الإنسان جنبات الأرض، وأصبح الإنسان مهدّداً بالخطف والقتل سواء كان مقيماً أو مسافراً، طائراً في الجو، أو سائراً في البر والبحر.

والعجيب أن نسبة الجرائم والمجرمين وعصابات القتل والخطف منتشرة انتشاراً كبيراً في المجتمعات الغنية والمترفة والمتقدمة في مجال العلوم، وأصبحت مواجهة عصابات الإجرام وقمعها وحماية المجتمع منها من أكبر المشكلات التي تواجه حكومات الدول في العصر الحاضر.

لقد فقد الإنسان في ظل الحضارة المادية الحديثة الشعور بالأمن والاطمئنان، وفشلت القوانين الوضعية في حماية الإنسان من خطر المجرمين، كما فشلت السجون الكثيرة التي كدّسوا فيها آلاف المجرمين في معالجتهم،

وتقويم انحرافهم، ودفعهم إلى الحياة الكريمة المستقيمة، بل أصبحت السجون ملتقى المجرمين، يتعارفون فيها، ويتشاورون، ويتبادلون الخبرات، ويعقدون الاتفاقات، وقد ثبت أن كثيراً من عصابات المجرمين نشأت من داخل السجون.

ولا خلاص للإنسانية من خطر اتساع الجريمة والمجرمين، والقضاء على عصاباتهم، إلا بتطبيق ما شرعه الله تعالى في القرآن الكريم وسُنَّة نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

لقد نجح الإسلام نجاحاً كبيراً وばهراً في تأمين الناس - الذين كانوا قبل الإسلام يُتَخَفُّون في أنحاء الجزيرة العربية المترامية الأطراف - خلال وقت قصير بالنسبة لأعمار الأمم والشعوب، وعالج الإسلام نزعَ الإجرام في نفوس المجرمين، فقلعها من نفوسهم، وغرس في قلوبهم معاني الخير والصلاح، وحوّل الأعراب الذين كان ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، إلى مجاهدين وعلماء رفعوا لواء الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها.

● وثيقة تاريخية:

وفي «صحيح البخاري» - وهو أصح وأوثق كتاب حفظ السُنَّة النبوية - شهادة رجلٍ عاش في الجاهلية والإسلام، ورأى التحول الكبير الذي أحدثه الإسلام في مجتمعات الجزيرة العربية، هذا الرجل هو عدي بن حاتم الطائي، الذي كان في الجاهلية يتزعم عصابات الأعراب من قبيلة طيء، ويأخذ منهم ربع الأموال والأسلاب التي يحصلون عليها من القوافل المسافرة بين الشام والعراق والحجاز.

قال ﷺ: «بيننا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخرٌ فشكا إليه قطع السبيل، فقال ﷺ: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبتت عنها، فقال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة (المرأة المسافرة) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله» قلت: فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَا طيء، الذين سَعَوْا البلاد؟! قال: «ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى ابن هُرْمُز؟ قال: «كسرى بن هرمز،

ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرجُ ملءَ كفهٍ أو فضةً يطلبُ مَنْ يقبلُهُ، فلا يجدُ أحداً يقبلُهُ مِنْهُ»، قال عديُّ رضي الله عنه: فرأيتُ الطعينةَ ترتحلُ من الحيرةِ حتى تطوفَ بالبيتِ لا تخافُ إلا اللهَ، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةً لتروُنَّ ما قال أبو القاسم رضي الله عنه: «يُخرجُ الرجلُ ملءَ كفهَ ذهباً أو فضةً فلا يجدُ مَنْ يقبلُهُ مِنْهُ» [رواه البخاري (٣٥٥٩)].

• آية الحرابة:

شرع الإسلام العقوبات الزاجرة لقمع المجرمين المعتدين على الأنفس والأموال في آيتين كريمتين من آيات سورة المائدة، وهما آية الحرابة وآية السرقة، جمع الله في هاتين الآيتين كلَّ ما تحتاجه المجتمعات البشرية من العقوبات الرادعة والكفيلة بتأمين الناس وحمايتهم من عصابات المجرمين.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الحربُ في الأصل: معناها السلبُ والأخذُ، والمراد من الذين يحاربون الله ورسوله في الآية قُطَاعُ الطريق، ومن يعتدي على الناس جهرةً، ولو في داخل المدن، وسمَّتهم الآية محاربين لله ورسوله استعظاماً لجرمهم وأذاهم. وقوله تعالى:

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ يدل على أنَّ إشاعة الخوفِ والذعرِ بين الناس، وتهديدهم من أكبر أسباب الفساد في المجتمع.

﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ إن قتلوا إنساناً معصوماً الدم.

﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي: ترفع أجسادهم على خشبة بعد قتلهم، ليراها الناس زجراً وردعاً لغيرهم عن مثل جريمتهم إذا أخذوا المال وقتلوا.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ أي: تقطع مختلفاً، بأن تقطع

أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن اقتصروا في جريمتهم على أخذ المال، ولم يقتلوا.

﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يُبعدوا من الأرض بسجنهم مدة يراها الحاكم كافية لتأديبهم، وهذا إذا لم يقتلوا أحداً، ولم يأخذوا مالاً، جزاء ترويعهم الناس، وقطعهم الطريق.

و(أو) للتنوع، وقال مالك: بل هي للتخيير، فيتخير الإمام في المحارب المسلم بين الأمور الثلاثة^(١).

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ وهذا الذي شرعه الله يجعل لهؤلاء المجرمين العار والذل والفضيحة في الدنيا، ولهذا قال فقهاؤنا: لا يُصلى على مَنْ قُتِلَ من قَطَّاعِ الطريقِ أثناء قطعهم للطريق قبل إلقاء القبض عليهم، أما لو قُتلوا في غير المحاربة أو ماتوا يُصَلَّى عليهم^(٢).

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذا لم يتوبوا عن جرائمهم حتى ماتوا فلهم في الآخرة عذاب عظيم^(٣).

• شريعة الرحمة والإحسان:

وإلى جانب هذه العقوبات الشديدة الزاجرة للذين يهددون أمن المجتمعات البشرية، وينشرون فيها الخوف والفرع، فتح الله الحكيم العليم باب التوبة والإنابة لأولئك المجرمين ليعودوا إلى الحياة المستقيمة الشريفة من جديد، فقال جلّ وعلا بعد آية الحراة:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَلَّا اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فمن تاب من هؤلاء المجرمين، وانتهى عن جرائمه قبل أن تصل إليه يد

(١) فتح الباري: ١١٠/١٢.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ٥٨٤/١.

(٣) وانظر: فتح الباري: ١١/١٢ ما روى عن سبب نزول الآية من حديث أنس رضي الله عنه.

ولي الأمر، ويقع في أيدي رجال الأمن، وأتى تائباً نادماً، غُفِيَ عنه، وقُبلت توبته، واستأنف حياته في المجتمع بأمنٍ واطمئنانٍ، وهذا يدلُّ على سمو التشريع الإسلامي، وملاءمته لجميع الناس، مهما اختلفت نزعاتهم، وتنوعت ظروفهم، فثمة مجرمون كثيرون سلكوا طريق الجريمة بسبب ظروف صعبة مرت بهم، أو تورطوا في الجريمة بسبب طوارئ وأحداث واجهتهم، فلا ينبغي لمثل هؤلاء أن يُجبروا على الاستمرار في طريق الجريمة، فمن الحكمة أن ييسر لهم سبيل العودة إلى الحياة المستقيمة الشريفة، فمن تاب منهم، ورجع عن جرائمه، تاب الله عليه، وقبله المجتمع الإسلامي عضواً نافعاً فيه.

أما الذين يصرون على الجريمة، ويحترفون الإجرام، ويصشون آذانهم عن سماع داعي التوبة، ويستمررون في طريق الإجرام، وتخويف الناس، وزعزعة أمنهم، فلا سبيل إلى إصلاحهم إلا باستئصالهم، وبترهم من المجتمع، ولن ينفع مع هؤلاء علاجٌ إلا علاجُ المَبْضَعِ والمِشْرَطِ، الذي يلجأ إليه الطبيب الجراح عندما يضطر إلى بتر العضو الفاسد من جسم الإنسان حتى لا يسري فسادُه إلى بقية الجسم.

إنَّ التشريع الإسلامي قائم على الرحمة والإحسان والعفو والمغفرة، والدليل على ذلك أنَّ الله سبحانه فتح باب التوبة والإنابة لأكبر المجرمين إذا تابوا وجاؤوا مستسلمين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾.

وفي هذا ردٌّ على أولئك المتخربين الذين يتهمون التشريع الإسلامي بالقسوة والشدَّة، وينتقدون تلك العقوبات التي شرعها الله العليم الحكيم والخير الرحيم لحماية المجتمعات البشرية من الخوف والفرع وجرائم الخطف والقتل والغصب.

إنني على يقينٍ لو أنَّ هؤلاء المنتقدين للشريعة الإسلامية وقعوا يوماً ما ضحية جريمة من جرائم المفسدين في الأرض، وذاقوا مرارة الخوف والقلق،

وعاشوا ساعاتٍ الاضطرابِ التي يعيشُها ضحايا هؤلاء المجرمين، لعرفوا حينئذٍ حكمة الله سبحانه في تشريع هذه العقوبات ورحمته بعباده.

• أسلوب التربية في الإسلام:

وتدل هذه الآية أيضاً على أنَّ الإسلام لا يعتمد في تربية النفوس البشرية وتهذيبها وإصلاحها على العقوبات الزاجرة فقط، فالعقابُ في الإسلام ليس هو الأسلوب الرئيس المعتمد في التربية والإصلاح، لقد شرع الله العقاب في الإسلام للشاذين من البشر، الذين لا ينفعُ معهم إصلاحٌ ولا تهذيب، أما الأسلوب المعتمد في الإسلام لإصلاح النفوس وتهذيبها وتربيتها، فهو غرسُ الإيمان بالله تعالى فيها، وجعلها تستشعرُ خشية الله تعالى بعبادته وطاعته والجهاد في سبيله، ولهذا قال تعالى بعد آية الحراة وقبل آية السرقة وهو ينادي المؤمنين النداء السادس في سورة المائدة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].



النِّدَاءُ السَّادِسُ

الأمر بالتقوى والتحذير من اتباع الهوى

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُمْ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْتَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ يَتَأَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْزِنُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُكَ وَعِدَّتُهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّكِبِيُّونَ وَالْأَحْصَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ

وَالْأَنفِ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَفَقِينًا عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ .

* * *

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ .

هذا هو الأسلوب المعتمد في الإسلام في تربية النفوس الإنسانية وإصلاحها، وهو يشمل بعد الإيمان بالله ثلاثة أمور:

أولها: تقوى الله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله تعالى وقاية، وذلك باتقاء المعاصي والآثام.

ولا يتم هذا إلا بتربية وجدان الإنسان وضميره، وتعويده على الشعور بالخوف من الله تعالى ومراقبته، وإن أي إصلاح لا يبدأ من إصلاح وجدان الإنسان وضميره، إصلاح فاشل لن يؤدي إلى فلاح أو نجاح.

ثانيها: التقرب إلى الله بالعمل الصالح:

﴿وَاتَّبِعُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا وابحثوا عن كل عمل صالح يقربكم إلى الله تعالى.

وثالثها: الجهاد:

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: جاهدوا أنفسكم أولاً لإصلاحها وتصفيتها، ثم جاهدوا أعداءكم في سبيل مرضاة ربكم. ثم بين الله تعالى استحالة توسل الكفار يوم القيامة بما كانوا يرونه أقوى الأسباب والوسائل للنجاة من عذاب النار، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦).

لأنه سبحانه كتب عليهم الخلود في النار، فلن يخرجوا منها أبداً:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٣٧).

• آية السرقة:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣٨).

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ شرع الله تعالى قطع يد السارق والسرقة حمايةً لأموال الناس.

والسرقة: أخذ مال الغير خفيةً، ويشترط لقطع يد السارق شروط:

١ - أن يكون المسروق مالاً متقوماً: تبلغ قيمته عشرة دراهم فأكثر.

٢ - أن يأخذه السارق من حرزه: كأن يخرجهُ من الدار أو الحانوت أو

الخزانة. فالحرز: كل بقعة معدة للإحراز، ممنوع الدخول إليها إلا بإذن.

٣ - أن لا يكون للسارق شبهة ملك في المال: كما لو سرق من دار أبيه، أو من مال زوجته.

٤ - أن لا يكون السارق قد سرق عن ضرورة: ولهذا قال الفقهاء: لا قطع بسرقة طعام مطلقاً، أي: ولو كان غير مهياً للأكل، لأنه عن ضرورة ظاهراً، وهي - أي: الضرورة - تبيح التناول^(١).

٥ - أن لا يكون المسروق سريع الفساد: كلبن ولحم غير محفوظين بما يمنع تسارع الفساد إليهما.

وقطع يد السارق والسارقة شرعه الله تعالى:

﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾ أي: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهما.

﴿نَكْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، ليكونا عبرة لغيرهما من الناس.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يشرع ما يشاء، فلا ينبغي لأحد أن يعترض على شرعه.

﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يشرع.

وقد أثبتت الوقائع - كما سبق بيانه - نجاح الشريعة الإسلامية في نشر الأمن بين الناس، في حين فشلت القوانين الوضعيّة في حماية أموال الناس وأنفسهم فشلاً واضحاً.

ثم فتح الله تبارك وتعالى باب التوبة لمن ابتلي بالسرقه، لأن طريق الإصلاح وتهذيب النفوس في الإسلام ليس قاصراً على الجزاء والعقاب، كما سبق بيانه، فقال ﷻ:

﴿فَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ٣/١٩٨؛ والفقهاء الحنفي في ثوبه الجديد، للمؤلف: ٣/٢٨٦.

• المسارعون في الكفر:

ثم شرعت الآيات الكريمة في بيان مواقف اليهود من سيدنا رسول الله ﷺ، وقدمت لذلك بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بهذا الأسلوب الاستفهامي التقريري، وواضح ما فيه من حزم وجزم، فهو ﷺ المالك يتصرف في ملكه كما يشاء.

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقدم سبحانه العذاب على المغفرة مع أن رحمته سبحانه سبقت غضبه، لأن سياق الآيات يتحدث عن تعلقت إرادة الله تعالى بتعذيبهم بسبب حقدهم على رسول الله ﷺ وحسدهم له وإعراضهم عن دينه.

ثم وجه الله ﷻ إلى رسوله ﷺ النداء يواسيه ويسلّيه مما كان يلقاه من كيد ومكر المنافقين واليهود:

﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ هذه الكلمة تدل على شدة تهافتهم على الكفر، ورغبتهم فيه، والمسارعون في الكفر فريقان:

أولهما: المنافقون:

﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَقْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾.

وثاني الفريقين: اليهود:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾.

• السَّمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ:

ومن قبائحهم أنهم:

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ وجاءت هذه الصفة بصيغة المبالغة، لأنهم كانوا يسمعون الكذب، ويصدقون به، ويقبلونه، وإن أقبح ما يعيب الإنسان أن يعطل ما وهبه الله تعالى من عقل وتمييز، فيسمع كل ما يلقى إليه من الأكاذيب دون أدنى تفكير، فيتخلى بهذا عن كرامته الإنسانية، ويتكس إلى الحيوانية.

ثم ذكر الله مرة ثانية هذه الصفة القبيحة مع الكشف عن مصادر الكذب الذي كانوا يسمعون ويصدقونه فقال:

﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وهم أحبارهم الذين كانوا لشدة بغضهم لسيدنا رسول الله ﷺ وفرط عداوتهم له لا يأتون إليه.

والذين حرّفوا كلام الله تعالى في التوراة:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ ويقولون لعامة اليهود السَّمَّاعِينَ لهم:

اذهبوا إلى محمد واسألوه عن حكم الله تعالى في هذه المسألة، ثم يوصونهم:

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ الموافق لافتراءهم وكذبهم.

﴿فَخُذُوهُ﴾ فاقبلوه منه.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ وإن ذكر لكم ما يخالفه.

﴿فَأَحْذَرُوا﴾ أي: لا تقبلوه منه.

وقد ورد في الأحاديث الشريفة الصحيحة ما يبيّن سبب نزول هذه الآيات، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن

الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلّدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتُم، إنّ فيها الرّجَمَ، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرّجَم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرّجَم، فقالوا: صدق يا محمّد فيها آية الرّجَم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة. [رواه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩)].

وعن البراء رضي الله عنه قال: مرّ على النبي ﷺ يهوديٍّ محمّم (مسوّد الوجه) مجلودٍ، فدعاهم فقال: «هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» قال: لا، ولولا أنّك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرّجَم، ولكنه كثير في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والضعيف، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرّجَم، فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أوّل من أحيا أمرَكَ إذ أماتوه»، فأمر به فرجَم، وأنزل الله تعالى هذه الآيات. [رواه مسلم (١٧٠٠)].

وهكذا فضح الله تعالى أبحار اليهود، وكشف كذبهم، وقال فيهم:

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ خزيه وفضيخته.

﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلن تستطيع دفع تلك الفتنة عنه، لأنّه

سبحانه أراد ألا يطهر قلوبهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ من رجس الكفر، وخبث

الضلال والكذب، بسبب سوء اختيارهم، وقبح عزمهم وكسبهم.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذلة ومهانة وفضيحة.

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

• الأَكَاوُنُ لِلشُّحْتِ:

ثم ذكر الله تعالى قبيحةً أخرى من قبائح اليهود الكبرى، وهي أكلهم للمال

الحرام فقال:

﴿سَمِعُوتَ لَلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٤٢).

﴿سَمِعُوتَ لَلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلشُّحِّ﴾ والمال كان ولا يزال معبودهم من دون الله تعالى، يسعون لجمعه بأي وسيلة كانت، ولقد ابتدعوا أقدراً وأحط أنواع التعامل والاحتيايل كالربا والقمار وعقود التأمين والرشوة؛ من أجل جمع المال والسيطرة على الموارد الاقتصادية للأمة والشعوب.

وخير الله تعالى نبيه ﷺ إذا جاء إليه اليهود متحاكمين أن يحكم بينهم بما أنزل الله عليه في القرآن الكريم أو أن يُعرض عنهم:

﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.

ثم بين له سبحانه أنه يحفظه من مكرهم وكيدهم:

﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾.

وأوصاه أن يحكم بينهم بالعدل:

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

والعجيب من حالهم أنهم كانوا يأتون إلى النبي ﷺ يحتكمون إليه، وهم لا يؤمنون به عليه الصلاة والسلام مع أن عندهم التوراة التي يؤمنون بها.

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣).

﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ؟!﴾.

ثم يعرضون عن حكم رسول الله ﷺ وعن حكم التوراة أيضاً:

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم أننى الله تعالى على التوراة التي أنزلها على نبيه موسى ﷺ فقال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وكان أنبياء بني إسرائيل وعلماءهم وعُبادهم جميعاً يحكمون بها:

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾.

وهي أعظم الأمانات التي استودعها الله أحبارهم، وجعلهم شهداء عليها: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ فأمانته حفظ التوراة موكولة إليهم، بينما تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولهذا حدث في التوراة ما حدث من تغيير وتبديل، وحُفظ القرآن الكريم بحفظ الله من أي تغيير أو تبديل.

وختمت الآية الكريمة بتوجيه الخطاب إليهم:

﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا﴾ فلا تخافوا من الناس فتغيروا وتبدلوا كلام الله من أجلهم، بل عليكم أن تخافوا من الله تعالى، فتحفظوا أمانته التي ائتمنكم عليها.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ قَلِيلًا﴾ فَإِنَّ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا قَلِيلٌ وَحَقِيرٌ وَزَائِلٌ.

ثم قرر الله تبارك وتعالى هذا الحكم الرهيب المخيف على المعرضين عن تحكيم دينه وشرعه فقال ﷻ:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

• الأحكام الثلاثة:

هذا هو الحكم الأول الصادر على المعرضين عن تحكيم شرع الله تبارك وتعالى، والحكم الثاني جاء أيضاً في ختام الآية الكريمة التي أخبر الله تعالى

بها أنه شرع لليهود حكم القصاص في جرائم القتل العمد، والجرح العمد، وقد أنزله الله تعالى في القرآن الكريم تقريراً له:

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذُنَ بِالْأَذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ .

وجاء الحكم الثالث بعد الشاء على الإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى ابن مريم عليه السلام، وبعد أمره جلّ وعلا أتباع عيسى عليه السلام أن يحكموا الإنجيل، وينفذوا ما أمرهم الله فيه، وفيه بشارة عيسى ببعثه محمد عليه السلام والأمر باتباعه وتصديقه عليه الصلاة والسلام:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ عَٰثِرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

هذه هي الأحكام الثلاثة التي حكم الله بها على المعرضين عن تحكيم شرعه ودينه، وهي: الكفر، والظلم، والفسق.

ولا شك أن كل من يحكم بشرع يخالف شرع الله تبارك وتعالى يكون ظالماً، فلا عدل إلا في ظلّ شريعة الله تبارك وتعالى، فهو وحده الحكم العدل، كما يكون فاسقاً خارجاً عن حكم الله وشرعه، ويكون أيضاً كافراً إذا فضّل على شريعة الله شريعة أخرى، أو رأى أن ما يتدعه الناس من شرائع وقوانين تناسب العصر أكثر من شريعة الله تبارك وتعالى.

فالحذر الحذر من الوقوع في مثل هذه الأفكار، والأدب الأدب مع ما شرعه لنا العليم الحكيم، فالأمر جدّ خطير.

• القرآن الكريم والكتب السماوية:

ومما يؤكد على خطورة هذا الأمر توجيه الخطاب بعد ذلك لسيدنا رسول الله

ﷺ:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ (٤٨).

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فَإِنَّ اسمَ المهيمن يتضمَّن معنى الأمين والشاهد والحاكم على كلِّ كتابٍ قبله، وهذا يدلُّ على أنَّ شريعة الإسلام ناسخةٌ لكلِّ الشرائع الإلهية التي أنزلها الله تبارك وتعالى.

قال ابن كثير رحمته الله: «جعلَ الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخرَ الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها»^(١).

وأمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يحكم بين الناس بما في القرآن الكريم:

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تتبع آراءهم الفاسدة، وتترك من أجلها ما أنزل الله عليك من الحق.

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وهذا يدلُّ على اختلاف الشرائع التي أنزلها الله على رسله الكرام ببعض الأحكام، مع اتفاقها على عبادة الله الواحد الأحد، قال رحمته الله: «نحنُ معاشرُ الأنبياء إخوةٌ لِعَلَاتٍ دِيننا واحدٌ» [رواه البخاري (٣٤٤٢)].

(١) تفسير ابن كثير: ٦٥/٢.

فشأنهم شأنُ الإخوةِ أبناءِ الأب الواحد، وإن اختلفت أمهاتهم، فالتوحيدُ أساسُ دعوةِ جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ثم قال تعالى مبيناً كمال قدرته وتمام حكمته:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فهو سبحانه قادرٌ على أن يجعلَ جميع الأمم على شريعة واحدة في جميع الأزمان.

ولكنه تعالى جعل لكل أمة شريعة ليختبر عباده فيما شرع لهم:

﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

ثم حضهم سبحانه على فعل الخيرات، والمبادرة إلى الطاعات فقال:

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾.

فالتنافس في العبادات والطاعات محمودٌ ومطلوبٌ، بينما التنافس والتسابق في شؤون الدنيا مذمومٌ ومكروهٌ، لأنَّ المرجع والمصير إلى الله تعالى:

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾.

• التحذير من اتباع الأهواء:

ثم أكد الله تعالى على الأمر بتحكيم شرعه، وحذر من اتباع الأهواء فقال:

﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا نُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ (٤٩).

﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهذا يعني أن أي انحرافٍ عن شريعة الله تعالى معناه اتباع الأهواء، فالإنسان مهما كان عالماً وحكيماً وملتزماً بالمثل العليا والفضائل، لا ينفك عن التأثر بأهوائه ونزواته، فهو معرض لضغوط شديدة من أهوائه ومصالحه، مع ضعفه ومحدوديته وقصوره، وكل هذا يؤدي إلى النقص والخلل في كل ما يضع لنفسه من قوانين ويشرع من شرائع.

وللهوى تأثيرٌ كبيرٌ على الإنسان، ولهذا حذر الله ﷻ النبي ﷺ من خداع الكافرين واحتيالهم، فينصرف عن شيءٍ مما شرعه الله تعالى له فيما أنزله عليه:

﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْرُقُوا عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ولا شك أن النبي ﷺ محفوظ ومعصوم بحفظ الله وعصمته - كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] - فالخطاب وإن كان للنبي ﷺ فالمراد منه أمته عليه الصلاة والسلام، فالتحذير لنا معشر المسلمين حتى لا يتمكن أعداؤنا من فتننا عن ديننا وصرفنا عن شريعة ربنا، لنحکم قوانینهم وشرائعهم.

وقد نجحوا بهذا مع الأسف الشديد، وفُتن كثير من المسلمين بقوانين أعدائهم وشرائعهم، وأتبعوا أهواءهم، وانصرفوا عن شريعة الإسلام إلى القوانين والشرائع المستوردة من أعدائهم، وهو السبب الرئيس لتفرقهم وتخاذلهم وذلتهم.

وشريعة الله تبارك وتعالى لا تتجزأ، فلا ينبغي التهاون بشيء منها، ولهذا جاء التحذير بهذه الصيغة: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْرُقُوا عَنْ بَعْضِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ والبعض يطلق على الجزء الصغير والكبير.

ولنا أن نقول أيضاً: إن التحذير للنبي ﷺ يدل دلالة واضحة على خطورة خداع واحتيال أعداء المسلمين، فالقوم قد أتقنوا صناعة الكذب والتزوير، وأدمنوا مهنة الاحتيال والخداع، فالحذر الحذر من الوقوع في شرك خداعهم واحتيالهم، فالشريعة الإسلامية هدفهم ومقصدهم.

وإن أي انحراف عن دين الله وشريعته يعود شؤمه وجزاؤه على المسلمين في الدنيا قبل عذاب الآخرة:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وهو ذنب التولي والإعراض عن قبول شرع الله وحكمه.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

ثم وبخت الآيات الكريمة أولئك الفاسقين المعرضين عن شريعة الله سبحانه، وأنكرت عليهم ذلك مع التعجب من حالهم، وهم يريدون الاحتكام إلى الشرائع الجاهلية، ومن المعلوم أن كل شريعة خالفت شريعة الله تعالى هي

شريعة جاهلية، وكل قانون أو نظام خالف شرع الله تعالى وحكمه هو قانون ونظام جاهلي، فالجاهلية ليست فترة تاريخية، إنما هي حالة توجد عندما ينصرف الناس عن شريعة الله ودينه إلى اتباع أهوائهم:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، ثم تساءلت:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فلا أحد حكمه أحسن من حكم الله

تعالى أو مساو له، لأن حكم الله تعالى هو حكم العليم الحكيم.



النداء السابع

التحذير من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنْهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْنَانُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذَا النَّدَاءِ مَوَالَاةَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَقَالَ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: أنصاراً وأصحاباً وأحباباً.

ثم بيّن السبب فقال:

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فولاية اليهود لبعضهم، ولا تكون لغيرهم، وكذلك النصارى ولايتهم ونصرتهم لبعضهم، ولا تكون لغيرهم.

وقد يكون المعنى المراد بيان أن اليهود يوالون النصارى على عداوة المسلمين، وكذلك النصارى يوالون اليهود على عداوة المسلمين، رغم ما بين اليهود والنصارى من خلافٍ وشقاقٍ، فالكفر ملّةٌ واحدةٌ، والكفار يجتمعون على عداوة المسلمين ومحاربتهم، ويؤيد هذا المعنى الواقع المشاهد من وقوف الأمم

الكافرة عامةً والنصرانية خاصةً إلى جانب اليهود الصهاينة ومساعدتهم في اغتصاب فلسطين وعدوانهم على العرب والمسلمين .

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَبِئْسَ مَا لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ الْوَعْدِ﴾ وهو وعيدٌ شديد يدل على شناعة وقبح موالاتهم، فإنَّ المعصية الموجبة لكفر فاعلها هي التي بلغت غاية القبح والشناعة .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بتعريضها لغضب الله وسخطه .

ومع هذا التحريم لموالات اليهود والنصارى كان المنافقون في المدينة المنورة يسرعون إلى موالاتهم ومناصرتهم، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيعًا ۚ﴾

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: مسارعين في موالات اليهود .

﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ من دوائر الدهر، ودولة من دُوله، بأن ينتصر الكفار على المسلمين، فالمنافقون لا يتوكلون على الله سبحانه، ولا يثقون بتأييده ونصره، ولهذا ردَّ الله ﷻ عليهم بقوله:

﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ وهو نصر المسلمين، وإعزاز دينهم، وظهورهم على أعدائهم .

﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ وهو إجلاء اليهود عن المدينة المنورة أو قتلهم .

﴿فَيُضْبِحُوا﴾ أي: المنافقون .

﴿عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِيعًا ۚ﴾

وأعزَّ الله تعالى دينه، ونصر نبيه ﷺ، فأجلى يهود بني النضير وقَيْنَقَاع عن المدينة، وقتل يهود بني قريظة، وغنم المسلمون أموالهم ومزارعهم وحصونهم، وأظهر سبحانه أيضاً نفاق أولئك الذين كانوا يوالونهم، ويُقْسِمُونَ الأيمان المغلطة للمؤمنين ليستروا نفاقهم:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: يا معشر يهود .

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ﴾ .

فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْآدْبَرُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [الحشر] .



النِّدَاءُ الثَّامِنُ

التحذير من الردة وعاقبتها

﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ .

ولما كانت موالاته اليهود والنصارى تستدعي الارتداد عن الدين، فقد وجهه الله تعالى النداء الثامن إلى المؤمنين، محذراً لهم من الارتداد عن دين الإسلام، ومبيناً قدرته سبحانه على نصر دينه، وإعلاء كلمته، فإن من يتولى عن نصره دين الله وإقامة شريعته، فإن الله سيستبدله بمن هو خير منه، وأشد قوة، وأكثر نصراً لدين الله تعالى، وقياماً على شريعته:

﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: متواضعين فيما بينهم.

﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: متعززين على أعدائهم من الكفار، وهذا كقول الله تعالى فيهم: ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ لا يردُّهم عن نصر دين الله تعالى رادًّا، ولا يصدِّهم عنه صادًّا.

وهذه الصفات التي اتصفوا بها من فضل الله تعالى عليهم وتوفيقه:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولا شك أنَّ هذه الآية الكريمة دلت على فضل خليفة رسول الله ﷺ الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفضل الصفوة الممتازة من الصحابة رضي الله عنهم الذين واجهوا فتنة الردة بعد وفاة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فنصر الله تعالى بهم دينه، وأقام بهم معالم شريعته قوية خفاقة في جنبات الأرض.

فولايته المؤمنين ومحبتهم ونصرتهم لا ينبغي أن تكون إلا لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين، ولهذا قال سبحانه على سبيل الحصر:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

أي: منقادون وخاضعون لحكم الله وشريعته.

ونتيجة موالاته تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين، هي العزة والنصر والغلبة:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» وابن عساكر: عن ابن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبَّت بأمرهم عبد الله بن أبي ابن سلول، وقام دونهم، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت هذه الآيات^(١).

(١) انظر: سيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٢٨٨.

وما أخرجهُ الطبرانيُّ في «الأوسط»: أنَّها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنَّه تصدَّق بخاتمه وهو راکعٌ. في سنِّه مجاهيل^(١).
ولو كان هذا كذلك لكانَ دفعُ الزكاةِ في حالِ الركوعِ أفضلُ من غيره، لأنَّه ممدوحٌ، وليس الأمرُ كذلك عندَ أحدٍ من العلماء^(٢).



(١) انظر: فتح القدير: ٥٣/٢.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٢٨/١.

النِّدَاءُ التَّاسِعُ

التحذير من قبائح أهل الكتاب والكفار

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا ذُرُوعًا وَلَحِيبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ
 أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَحِيبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
 لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ هَلْ تَعْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن
 قَبْلُ وَأَنْ أَكْذَرُ فَاسْفُحُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ
 وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَكُمْ
 قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ
 يُسِرُّونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا بَيْنَهُمُ الرَّبُّنِيُّونَ
 وَالْأَنْحَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْثِلَهُمُ الشُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ
 غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
 رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَّةَ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ
 وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا
 لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
 إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا
 يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ
 يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى
 تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
 طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى
 مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ

أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٥﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٩﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرُ أَنِّي يُؤْفِكُوكَ ﴿٨٠﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٨٢﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٨٣﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٤﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَتَاهُ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٦﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِيُّ ذَٰلِكَ بَٰنٌ مِنْهُمْ فَتَسِيرُ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٩١﴾

وحرّم الله تعالى على المؤمنين في النداء التاسع موالاة جميع الكفار: اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الملل والنحل، ففي هذا النداء تعميم بعد تخصيص، كما أن فيه بيان سبب الحكم، وهو أن الكفار ينظرون إلى شريعة الإسلام المطهرة المُحكمة نظرة المستهزئ بها فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ
وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾

أي: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم حقاً مؤمنين بشرع الله ودينه.

ثم ذكر سبحانه مثلاً يدل على استهزائهم بدين الله تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ والصلاة أعظم العبادات في الإسلام، والنداء إليها - وهو الأذان - من شعائر الإسلام الكبرى التي أمر الله تعالى المؤمنين بتعظيمها واحترامها - كما مرّ معنا في أول سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾.

والذي يحملهم على هذا أنهم لا يعقلون معاني الصلاة ولا يدركون ما فيها من حِكَمٍ وأسرار:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

• قبائح وفضائح:

ثم أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ أن يواجه أهل الكتاب ببعض قبائحهم وفضائحهم بأسلوب التحدي لهم:

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ أي: هل تنكرون وتعيون وتكرهون منا .
 ﴿إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد .
 ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي: وآمنا بالقرآن الكريم الذي أنزل إلينا .
 ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل نزول القرآن الكريم كالطورا والإنجيل .
 ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، خارجون عن طاعة الله تعالى وعن دائرة الإيمان الصحيح .

فأهل الكتاب من اليهود والنصارى يعادون المسلمين لأنهم مسلمون مستسلمون لله الواحد الأحد، ومؤمنون بكل الرسالات التي أنزلها سبحانه على الناس: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] .
 إنهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء، التي لم تضع أوزارها قط منذ فجر الإسلام حتى العصر الحاضر، ليردوا المسلمين عن دينهم، فيصبحوا مثلهم فاسقين، وكما قرّر الله تعالى هذه الحقيقة في هذا الموضع من سورة المائدة قرّره أيضاً في سورة البقرة وهو يخاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هَذِي سَبِيلُ اللَّهِ هِيَ الْهُدَىٰ وَلَٰكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

وهذه الحقيقة يريد أهل الكتاب في العصر الحاضر طمسها وتميعها - كما يقول سيد قطب رحمه الله - فلم يكن لهم بدّ بعد فشلهم في الحروب الصليبية السافرة، وفي حرب التبشير السافرة أيضاً، أن يسلكوا طريق الخداع والتزوير، فيتظاهروا ويشيعوا بين المسلمين أنّ قضية الدين والحرب الدينية قد انتهت، وأنّها كانت مجرد فترة تاريخية مظلمة عاشتها الأمم جميعاً، ثم تنور العالم وتقدّم، فلم يعد من الجائز ولا اللائق ولا المستساغ أن يقوم الصراع على أساس العقيدة... إنّما الصراع اليوم على المادة وعلى الموارد والأسواق

والاستغلالات فحسب، فلا ينبغي التفكير في الدين اليوم وفي الصراع من أجل الدين^(١).

لكن الواقع المشاهد يكذب دعواهم، ويظهر مدى تأثير الدوافع الدينية على سياستهم ومواقفهم السياسية، وخاصة في القارة الإفريقية وأمريكا الجنوبية، وأخيراً مواقفهم من مسلمي البوسنة والهرسك.

كما أمر ﷺ أن يقول لهم تبكيتاً وتعريضاً بقبائحهم وما أنزل الله عليهم من العقوبات:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۖ﴾.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: جزاءً ثابتاً لهم عنده تعالى.

﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ أي: ومسح بعضهم قرده، ومسح بعضهم خنازير، وهم أصحاب السبت الذين ذكرهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥].

﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: ومنهم أيضاً من عبد الطاغوت، وهو إما العجل الذهبي الذي عبده اليهود، وإما الشيطان الذي أطاعوه، وإما الكهنة والأخبار الذين أطاعوهم بعد أن غيروا كلام الله تعالى في التوراة والإنجيل.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات القبيحة.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٩٦٤/٢. قلت: لكن بعد أحداث (١١ أيلول ٢٠٠١م) عادت الحرب الصليبية سافرة شرسة، لا تبقي ولا تذر، نسأل الله أن يرد كيد أعدائه في نحورهم، ويحفظ المسلمين من شرورهم.

﴿شَرُّ مَكَانٍ وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: أكثر ضلالاً وبعداً عن طريق الحق المستقيم.

وكان بعض اليهود يأتون إلى رسول الله ﷺ، ويعلنون الإيمان بالستهم:

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَتَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (٦١).

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءَالَهُ أَتَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي: دخلوا كافرين، وخرجوا كما دخلوا كافرين.

﴿وَاللَّهُ أَتَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٢).

﴿وَرَأَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ﴾ أي: يبادرون إلى تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكل المال الحرام.

ولهذا ذمهم، وذم أعمالهم تلك فقال:

﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وكان الواجب على علمائهم وعُبادهم أن ينهوهم عن تعاطي هذه المحرمات، فلم يفعلوا ذلك، بل شاركوهم في فعل هذه المحارم والآثام بعد أن جالسوهم وأكلوهم:

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٦٣).

• جُرأتهم على الله تعالى:

ومن قبائح اليهود الكبرى جُرأتهم على الله ﷻ، ووصفهم له جلّ وعلا بأوصافٍ لا تليقُ بجلاله وكماله، وهو سبحانه المنزه عن كل نقص، والمتصف بكل صفات الكمال والجلال:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيزِيدَنَّ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي: بخيلة.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ ولهذا ترى فيهم البخل والحسد، والجبن والذلة.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فهو سبحانه الجواد الكريم، ينفق كما يشاء، لا كما نشاء، وهو واسع الجود والعطاء، الذي عنده خزائن كل شيء، والذي خلق لنا كل شيء نحتاجه، وصدق رسول الله ﷺ القائل: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا (أي: لا ينقصها) نفقة، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يُغَضْ مَا فِي يَمِينِهِ» [رواه البخاري (٤٦٨٤) ومسلم (٩٩٣)].

﴿وَلَيزِيدَنَّ كَيْدًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فَإِنَّ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ سَيَكُونُ نَقْمَةً عَلَى أَعْدَائِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ، فَكَمَا يَزِدَادُ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ إِيمَانًا سَيَزِدَادُ الْحَاقِدُونَ الْحَاسِدُونَ لَهُ طُغْيَانًا وَكُفْرًا.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فلا تجتمع قلوبهم، ولا تتفق كلمتهم، ولا يغرّنك اجتماعهم في فلسطين، وظهورهم فيها على العرب المسلمين، فهي فترةٌ وجيزةٌ من تاريخ تمزّقهم واختلافهم وتشتّتهم الطويل، وأعمار الأمم والشعوب لا تقاس بأعمار الأفراد.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ كُلَّمَا كَادُوا الرِّسُولَ ﷺ وَكَادُوا أُمَّتَهُ كِيدًا أَبْطَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَاقَ مَكْرَهُمُ السَّيِّئَ بِهِمْ.

﴿وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ وهذا من قبائحهم الملازمة لهم أنهم يجتهدون في الكيد والمكر وإثارة الشرور والفتن بين الناس في الأرض:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

● سبيل السعادة:

وبعد أن بيَّنت الآيات الكريمة ما بيَّنت من فضائحهم وقبائحهم فتحت لهم باب التوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى، كما تعودنا من أساليب القرآن الكريم التربوية، التي سبق الحديث عنها، فبيَّنت لهم سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، فأطمعتهم بفضل الله ورحمته وبرغد العيش، وسعة الرزق، وكثرة المال في الدنيا، ووجنات النعيم في الآخرة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ برسالة نبينا محمد ﷺ .

﴿وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: في القرآن الكريم .

﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لكثرة ما ينزل عليهم من السماء من

فضل الله ورحمته، وما ينبت لهم من الأرض .

فلا سعادة للناس ولا خلاص لهم من مشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية إلا

في ظلال شرائع الله تعالى، ولكنهم مع الأسف بعيدون عن شرائع الله تعالى إلا قلة قليلة .

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة متوسطة .

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ .

● تبليغ الرسالة:

ولا يعود الناس إلى دين الله تعالى وشريعته إلا إذا بلغناهم دعوة الله

سبحانه، وبيَّنا لهم مزاياها ومحاسنها، ولهذا جاء التعقيب على الآيات الكريمة

السابقة بخطابِ الله تعالى الموجه إلى نبيه ﷺ، أمراً له أن يبلغ رسالة الله سبحانه، ومحملاً له عليه الصلاة والسلام مسؤولية التبليغ:

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ وقد امتثل عليه الصلاة والسلام هذا الأمر، وقام به خير قيام، حتى توفاه الله تعالى .

قال الإمام البخاري رحمه الله: قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم .

وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بَلَغْتَ وأَدَيْتَ ونصحتَ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها إليهم، ويقول: «اللهم هل بَلَغْتُ؟» [رواه مسلم (١٢١٨)]^(١) .

وقد مر معنا أن الله ﷻ أنزل على النبي ﷺ في هذا الموقف العظيم قوله الكريم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

وتكفل الله ﷻ بعصمة نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم من الناس فقال سبحانه له:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ووجوه عصمة الله تعالى للنبي ﷺ كثيرة، وقد ذكرت بعضها في هذا الكتاب .

فلم يتمكن أصحابُ المكر والخداع من أحبار اليهود ومن المنافقين أن يجعلوا رسول الله ﷺ ينصرف عن شيءٍ قليلٍ من شرع الله تعالى .

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٧٧/٢ .

كما أَنَّ الله ﷻ حفظ النبي ﷺ من عدوان المشركين وبَغْيِ اليهود ومكرهم ومؤامراتهم، وكان الصحابة ﷺ يعلمون شِدَّةَ المخاطر التي تهدد النبي ﷺ فيقومون على حراسته، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «يا أيُّها الناسُ انصرفوا فقد عصمني الله ﷻ» [رواه الترمذي (٣٠٤٦)].

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يدل على أَنَّ الإسلام كُلُّه لا يتجزأ، وأنَّ بعضه ليس أولى بالأداء والتبليغ من بعض، فإذا أغفلت جزءاً من دين الله، فكأنك أغفلته كُلَّهُ.

كما تدلُّ الآية الكريمة على أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام لم يكتفِ شيئاً مِنْ وحي الله تعالى؛ فتبليغُ الرسالة منوطٌ به عليه الصلاة والسلام، أمَّا الهدايةُ فلله سبحانه وحده:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

• ضرورة التبليغ في العصر الحاضر:

إنَّ تبليغَ رسالة الإسلام للناس في العصر الحاضر أوجبُّ الواجبات علينا معشرَ المسلمين، فالناسُ في أمسِّ الحاجةِ إلى دين الله تعالى وشريعته، فقد فشلت القوانينُ الوضعيةُ التي ابتدعها الطواغيت، ويجب على المسلمين أن يبلِّغوا الناسَ دعوةَ الله تعالى، ويبينوا لهم محاسنها ومزاياها، إنَّ التبليغَ مهمة النبي ﷺ، ومهمةٌ من سار على طريقه، وتمسك بسنته عليه الصلاة والسلام.

وتأكيداً لأهمية التبليغ في حياة الناس قال تعالى:

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ﴾.

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: على شرع ودين يُعتدُّ به لظهور بطلان

وفساد ما أنتم عليه .

﴿حَتَّىٰ تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في القرآن الكريم، وهو المقصود من هذه الدعوة، فالإيمان برسالة القرآن الكريم وتطبيق شريعته المطلب الأساس من هذا الخطاب لأهل الكتاب، وما ذكر الله سبحانه التوراة والإنجيل إلا تأليفاً وتهديئةً لخواطريهم، وتقريباً لهم من القرآن الكريم، ففي التوراة والإنجيل ما يلزمهم بالقرآن الكريم وتطبيق شريعته .

وبقي أكثر القوم على عنادهم ومكابرتهم وغلوهم رغم كل هذه النداءات الموجهة من الله تعالى إليهم، بل ازدادوا بما أنزل الله سبحانه على رسول الله ﷺ طغياناً وكفراً :

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فلا تأسف ولا تحزن عليهم بسبب زيادة طغيانهم وكفرهم، والزم طريق التبليغ، وأقم عليهم الحجة، ولا تئس من إيمانهم وإصلاحهم فباب الهداية مفتوح للجميع .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٩) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: دخلوا في اليهودية .

﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ وهم الذين لم تبلغهم دعوة نبي، وظلوا على أصل الفطرة، فلا دين لهم يتبعونه، ولهذا كان المشركون من قريش يصفون من أسلم بالصابئ، لأنه في نظرهم خرج على سائر الأديان .

﴿وَالنَّصَارَىٰ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: فكل من آمن من هؤلاء بالله الواحد الأحد، وآمن باليوم الآخر، وعمل العمل الصالح الموافق لشريعة الله سبحانه .

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنهم يومَ القيامة من الناجين، الذين لا يخافون ولا يحزنون.

• عبَاد الهوى والشهوة:

وبيّن الله تعالى السببَ الرئيسَ الذي جعل بني إسرائيل ينقضون الميثاق الذي أخذه الله عليهم، ويكذبون الرسلَ، ويقتلون بعضهم، فقال تعالى:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠).

فالسبب الرئيس لكل هذه الجرائم هو اتباعهم لأهواء أنفسهم، وضعفهم أمام شهواتهم، فهم عبَاد الهوى والشهوة.

وظنَّ القوم بسبب غرورهم وإعجابهم بأنفسهم، وشعورهم بامتيازهم على الناس، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، أن الله ﷻ لن يعذبهم، ولن يتليهم:

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (٧١).

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا﴾ عن استماع الحق الذي أنزل عليهم في التوراة.

﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا، ورجعوا إلى تطبيق دين الله وشرعه.

﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا﴾ عن دين الله وشرعه، الذي أنزله عليهم في الإنجيل.

﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ لأن بعضهم ظلَّ متمسكاً بالحق والعقيدة الصحيحة.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

• بطلان عقائد النصارى:

ولا بدّ للآياتِ الكريمة أن تقف مع النصارى، وهم السواد الأعظم في أهل الكتاب، لتبين بطلان عقائدهم وفسادها.

لقد كفر فريق منهم، لأنهم رفعوا عيسى ابن مريم عليه السلام من مقام عبوديته لله إلى مرتبة الألوهية:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ ۖ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۖ﴾ (٧٢)

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾

ورد الله سبحانه عليهم بلسان عيسى عليه السلام الذي قال لهم:

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ فِي عِبَادَتِهِ أَوْ فِي مَا يَخْتَصُصُ مِنْ صِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَأَفْعَالُهُ ۖ

﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ۖ لِأَنهَا دَارُ الْمُوحِّدِينَ ۖ

﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ فَإِنَّهَا دَارُ الْمُشْرِكِينَ ۖ

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۖ﴾

ومن النصارى طائفة كفرت لأنها قالت بعقيدة التثليث:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ﴾ (٧٣)

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۖ﴾ فالإلهية بزعمهم مشتركة بين ثلاثة: الباري عز اسمه، وعيسى، وأمه عليها السلام.

﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ﴾ والحال أنه ليس في الموجودات مستحق للعبادة إلا إله واحد، منزّه عن الصاحبة والولد بأي وجه من الوجوه.

﴿وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ۖ﴾ من هذه العقائد الباطلة والأقوال الفاسدة.

﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ﴾

ثم حَضَّتْهُمُ الْآيَاتُ وَحَثَّتْهُمْ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ، وَالْعُودَةَ إِلَى عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ، كَمَا عَوَّدْتَنَا بِأَسْلُوبِهَا التَّربَوِي:

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧٤).

• حقيقة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم:

ثم بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةَ بِصِرَاحَةٍ تَامَةٍ حَقِيقَةَ الْمَسِيحِ عِيسَى عليه السلام وَحَقِيقَةَ أُمِّهِ بِقَوْلِهِ ﷺ:

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥).

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فهو عَبْدُ اللَّهِ، شَأْنُهُ فِي هَذَا كَشَأْنِ جَمِيعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ سَبَقُوهُ.

﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ فهي امرأةٌ كسائر النساءِ، إِلَّا أَنَّهَا بِالْعَتِّ بِالصَّدَقِ وَالتَّصَدِيقِ بِالْكَتَبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسَلِهِ، وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي شَأْنِهَا: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَقَارٌ مِنَ الْقَنِينِ﴾ [التحریم: ١٢].

وَتَأْكِيداً لِعِبُودِيَّةِ عِيسَى وَأُمِّهِ اللَّهُ تَعَالَى وَصَفَهُمَا الْحَقُّ جَلَّ شَأْنُهُ بِقَوْلِهِ:

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ فهُمَا يَحْتَاجَانِ إِلَى الطَّعَامِ، وَيَأْكُلَانِهِ، كَمَا يَحْتَاجَانِ إِلَى طَرَحِ فَضْلَاتِهِ، وَهَذَا يَتَنَافَى تَمَاماً مَعَ كَمَالِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَعَزَّتْهَا وَغَنَاهَا.

وبهذا تَظْهَرُ حَقِيقَةُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَحَقِيقَةُ أُمِّهِ وَاضِحَةً جَلِيَّةً، لَا لَبْسَ فِيهَا وَلَا غُمُوضَ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ حَقِيقَةَ عِيسَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ غَامُضَةٌ جَاهِلُونَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَمْ يَقْرَءُوا آيَاتَهُ، وَلَمْ يَتَدَبَّرُوا كَلِمَاتَهُ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَءُوا هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَلَمْ يَقْرَءُوا مَعَهَا أَيْضاً قَوْلَهُ ﷺ: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ

أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْضَرُهُمْ إِلَهِهِ جَمِيعًا ﴿النساء: ١٧٢﴾.

وسياتي معنا إن شاء الله في آخر سورة المائدة من الآيات الكريمة ما يؤكد عبودية عيسى ﷺ لله تعالى.

ومع كل هذا البيان والوضوح تراهم ينصرفون عن الحق:

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾.

أليس عجيباً أن يعبد الإنسان ما لا يستطيع منع ضرر عنه، أو إيصال نفع إليه، وينصرف عن عبادة الله الواحد الأحد السميع العليم:

﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

• الغلو في الدين:

وكشفت الآيات الكريمة سبب تمسكهم بهذه العقائد الباطلة رغم ظهور بطلانها، وبروز فسادها:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ إِنَّ الغلو في الدين هو الذي جعلهم يرفعون عيسى ابن مريم من مقام العبودية لله تعالى إلى مقام الألوهية.

والغلو: مجاوزة حد الاعتدال، بحيث يؤدي إلى الخروج عن الدين، ودين الله بين الغلو والتقصير، وغلو النصارى في محبة عيسى وتقديسه أوصلهم إلى ما مر معنا من العقائد الباطلة الفاسدة، وكذلك غلو بعض الفرق في محبة علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه ومحبة أهل البيت أوصلهم إلى الزيف عن الإيمان والوقوع في الخسران.

وقد حذر النبي ﷺ من الوقوع فيما وقع به النصارى فقال: «لا تظروني كما

أَظَرَّتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» [رواه البخاري (٣٤٤٥)].

وكان ﷺ يحبُّ أن يُدعى بصفة العبودية لله، ولهذا لما سمع رجلاً يقول له: يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللَّهُ ﷻ» [رواه أحمد في مسنده (١٣٥٢٩) عن أنس].

وغالى النصارى أيضاً في أتباع عيسى ﷺ وعلماء دينهم من الأحرار والرهبان، فزعموا لهم صفة العصمة، وهي لا تكون إلا للأنبياء ﷺ، واتبعواهم في كلِّ ما قالوه، فاستحلُّوا ما أحلَّوه لهم، وحرَّموا على أنفسهم ما حرَّمه عليه، ولهذا قال الله تعالى فيهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ولهذا حذَّره الله تعالى من تقليد أحرارهم ورهبانهم تقليداً أعمى، واتباعهم في ضلالاتهم، ممَّا أدى إلى انتشار الضلال في أجيالهم المتعاقبة: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ فاستحقوا بذلك لعنة الله تعالى على لسان أنبيائه:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨).

أي: يتجاوزون حدود ما شرع الله تعالى لهم.

● الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ومبدأ ضلالهم نشأ عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» [رواه أحمد (٣٩١/١) وأبو داود (٤٣٣٦) والترمذي (٣٠٤٧) وابن ماجه (٤٠٠٦)].

وأدى بهم الإدمان على المعاصي إلى موالة الكافرين فكفروا مثلهم، ولهذا قال ﷺ:

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

فلا يجتمع في قلب امرئ إيمان بالله تعالى وموالة للكافرين.

• تحديد المواقف:

ختم الله تبارك وتعالى هذه الجولة التي بين فيها فضائح وقبائح أهل الكتاب وبطلان عقائدهم وفسادها بآيات تحدّد مواقفهم من المسلمين فقال تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فعداوة اليهود

والمشركين على العموم واضحة للمؤمنين بسبب شدتهم بالكفر، واجترائهم على الأنبياء ﷺ بالتكذيب والقتل، وإفسادهم في الأرض، ونشر الفتن بين الناس.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّكُمْ﴾ ولا يعني هذا أنَّ النصارى لا يُعادون المسلمين، إنما عداوة النصارى للمسلمين أقل من عداوة اليهود والمشركين للمسلمين، وسبب تباين عداوة اليهود والنصارى للمسلمين مع أنهم جميعاً متصفون بصفة الكفر - كما مر معنا - بيَّنه الله تعالى بقوله:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا قَيْسِيْنَ﴾ وهم علماء النصارى ورؤساء دينهم.

﴿وَرَهْبَانًا﴾ جمع راهب من الترهُّب، وهو التعبُّد بالتخلِّي عن أشغال الدنيا، واعتزال أهلها، والانقطاع إلى العبادة، وتعمُّد مشاقها، حتى إنَّ منهم من كان يخصي نفسه، ويضع السلسلة في عنقه وغير ذلك من أنواع تعذيب النفس.

﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق والانقياد له إذا فهموه، أو أنهم يتواضعون ولا يتكبرون.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣).

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وظاهر الآية العموم، ويتعيَّن إرادة البعض، وهم الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ من الحبشة ومن بلاد الشام، وآمنوا به عليه الصلاة والسلام، لأنَّ النصارى ليسوا جميعاً كذلك.

﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ الذي عندهم من البشارة ببعثة سيدنا محمد ﷺ.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: مع محمد ﷺ وأُمَّته، وهم الشاهدون لأنهم يشهدون يوم القيامة على الأمم، وأنَّ الرسل قد بلغتهم دعوة الله تعالى.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٤).

وهذا دليلٌ يدلُّ على أنَّ الآياتِ أَرَادَتْ الذينَ أسلموا من النصارى، واستجابوا لدعوة النبي ﷺ.
ولهذا قال تعالى مبيناً حسن ثوابهم يوم القيامة:

﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٥).

أما الذين ظلُّوا متمسكين بالكفر من عاَمَّة النصارى، ولم يؤمنوا برسالة الإسلام، وكذبوا بآيات القرآن الكريم، فجزاؤهم بيَّنه الله تعالى بقوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (٨٦).



النِّدَاءُ الْعَاشِرُ

النهي عن تحريم الطيبات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ
 (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ
 بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ
 مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ
 أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

خَصَّصَ اللهُ ﷻ النداء العاشر لبيان رحمته تعالى بالأمة المسلمة بما أحلَّ لهم من الطيبات، وحرَّم عليهم من الخبائث، وجعل شريعة الإسلام سمحةً سهلةً قائمةً على التوسط والاعتدال، فلا غلوٌّ فيها ولا تفریط.

وجاء هذا النداء بعدما سبقه من ذكر الرهبان ليبين أن لا رهبانية في الإسلام كما هو الشأن عند النصارى، فقد يكون ذكرُ الرهبان على سبيل المدح كما مرَّ معنا، داعياً إلى الترهُّب والتشدد في الدين وزيادة الاجتهاد في العبادات والإعراض عن كثير من المباحات، ولهذا جاء التعقيبُ على ذلك بالنهي عن تحريم الطيبات التي أحلَّها الله تعالى، فالإسلام دينٌ قائمٌ على التوسط والاعتدال رحمةً بالمسلمين ولطفاً بهم^(١).

قال تعالى:

(١) انظر: الدرر في تناسب الآيات والسور.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض، كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني» [رواه ابن أبي حاتم].

وفي «الصحيحين»: عن أنس رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا أكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا! لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١)]^(١).

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ معناه: كما أن عليكم أن لا تحرّموا الحلال، فلا تعتدوا في تناوله، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، وهو كقوله تعالى: ﴿يَبْنِي ءَادَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ثم قال تعالى:

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَانْفِقُوا إِلَيْهِ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أي: بشرط أن يكون المأكول حلالاً طيباً.

(١) تفسير ابن كثير: ٨٧/٢.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعلٍ ما أحلَّ لكم، وترك ما حرَّم عليكم.
 ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

• أحكام الأيمان:

ولمّا كان تحريم الحلال يُعدُّ في الشريعة الإسلامية يميناً، بيّن الله تعالى أحكام الأيمان^(١) وكفارتها فقال ﷺ:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٨٩).

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ واليمين اللغو: هو أن يحلف على أمر في الماضي أو الحال وهو يظن نفسه صادقاً، ثم يتبين له أن الأمر على خلاف ما كان يظن، ولا مؤاخذه على هذا اليمين، على العكس من اليمين الغموس، الذي سُمي بهذا الاسم لأنه يغمس صاحبه في جهنم، فهو من كبائر الذنوب لما فيه من تعمّد الكذب.

فاليمين الغموس: هو الحلف بالله تعالى وهو يعلم أنه كاذب، وقد عدّه النبي ﷺ من كبائر الذنوب، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ قال: «الإشراك بالله» قال: ثم ماذا؟ قال: «عقوق الوالدين» قال: ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «التي يُقْتَضَعُ بها مالٌ امرئٍ مسلمٍ هو فيها كاذبٌ» [رواه البخاري (٦٩٢٠)].

(١) انظر: أحكام الأيمان في كتابنا: الفقه الحنفي في ثوبه الجديد: ٢/ ٢٩٩ - ٣٤٢، ط. دار القلم بدمشق.

وعن أبي أمامة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ فقال: «وإن كان قضييًّا من أَرَاكِ» [رواه مسلم (١٣٧)].

وذكروا معني آخر لليمين اللغو، فقد ذهب بعضهم إلى أَنَّ اليمين اللغو هو ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله، وبلى والله.

ثم ذكر الله النوع الثالث من أنواع اليمين فقال:

﴿وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ وهي اليمين المنعقدة، التي يُحْلَفُ بها على أمرٍ مستقبل، وفي هذه اليمين الكفارة إن حِثَّ الحالف فلم يبرِّ يمينه.

وبيَّن الله تعالى مقدار الكفارة فقال:

﴿فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ والمراد بتحرير الرقبة إعتاق العبد.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ شيئاً من هذه الأمور المذكورة كأن كان الحالف فقيراً.

﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ فعليه ليكفِّر عن يمينه أن يصوم ثلاثة أيام، وشرط بعضهم أن تكون ثلاثة أيام متتابعة.

﴿ذَلِكَ كَفَّرةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي: إذا لم تبرؤ بها.

﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بعدم المسارعة إليها أو إلى الحنث فيها، أو لا تركوا أيمانكم بغير تكفير.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.



النداء الحادي عشر

الأمر باجتنب الخمر والميسر نهائياً

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسُوا وَاللَّهُ يُوْحِثُ الْحَسِينَ ﴿٩٣﴾﴾

وجاء النداء الحادي عشر يبين بعض الخبائث التي حرمها الله تبارك وتعالى في الشريعة الإسلامية، فلا تُعدُّ من الطيبات التي أحلتها الآيات السابقة :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ الخمر: كلُّ مسكرٍ يخامرُ العقلَ، ويغْطِيهِ من الأُشْرَةِ .

﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ هو القمار، ويلحقُ به كل ما يشبهه من الكسبِ الذي يُعتمد فيه على مجرد الحظ والمصادفة .

﴿وَالْأَنْصَابُ﴾ هي الأصنام المنصوبة للعبادة .

﴿وَالْأَزْلَمُ﴾ هي التي كانوا يستقسمون بها كما مرَّ معنا في أول السورة [الآية : ٣] .

﴿رِجْسٌ﴾ أي : قدر تعاف منه العقول .

﴿مَنْ عَمِلَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: من تزيينه وتسويله.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: اجتنبوا تعاطي جميع ما ذكر، وهذا يقتضي الاجتناب المطلق، الذي لا يُنتفع معه بشيء من الوجوه، لا بشرب ولا بيع ولا تخليل ولا مداواة ولا غير ذلك.

وعلى هذا تدلُّ الأحاديث الواردة في الباب:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر، فقال رسول الله ﷺ: «هل علمت أن الله حرَّمها؟» قال: لا، قال: فسارَّ رجلاً (أي: حَدَّثَهُ سِرًّا) فقال رسول الله ﷺ: «بِمَ سَارَرْتَهُ؟» قال: أمرته ببيعها، فقال رسول الله ﷺ: «إن الذي حرَّم شُرْبُهَا حرَّم بَيْعَهَا» قال: ففتح المزايدة حتى ذهب ما فيها. [رواه مسلم (١٥٧٩)]^(١).

واستثنى بعض العلماء تخليل الخمر، قال في «الدر المختار»: «وحرَم الانتفاع بها، ولو لسقي دوابَّ أو لطينٍ أو نظيرٍ للتلهي أو في دواءٍ أو دهنٍ أو طعامٍ إلا لتخليلٍ»^(٢).

﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ أي: لكي تفلحوا بهذا الاجتناب.

وهذا يدلُّ على أن فعلَ مثل هذه الأمور الخبيثة كشرب الخمر أو تعاطي القمار خبيَّةٌ وخسرانٌ لما فيها من المفساد في الدين والدنيا. وقد بين الله سبحانه هذه المفساد بقوله:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ (٩١).

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ وما أكثر الخلافات والخصومات التي تحدث بين الناس بسبب الخمر والميسر!

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٨٩/٦.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ٢٨٩/٥.

﴿وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ مما يؤدي إلى فساد دينكم أيضاً .
 ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ؟﴾ . . وهذا يدلُّ على أنَّ تحريمَ هذه الخبائث قد بلغ الغاية،
 فقد انقطعت الأعدارُ بالكلية، وعليكم أن تنتهوا وتتركوا هذه الخبائث .

• نجاح الإسلام في محاربة الخمر والميسر:

لقد نجح الإسلام نجاحاً كبيراً في قلع هذه الآفات التي كانت راسخة في
 جسم المجتمع العربي الجاهلي، وقد حفظت لنا كتبُ السُّنة النبوية الشريفة
 وثائق تاريخية هامة، تبين مدى نجاح الإسلام في محاربة هذه الآفات والقضاء
 عليها، منها:

ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنتُ ساقِي القوم يومَ حُرْمَتِ الخمرِ
 في بيتِ أبي طلحة، وما شرابُهُم إلا الفضيخُ - البُسْر والتَّمَر - فإذا منادٍ ينادي،
 فقال: اخرج فانظر، فخرجتُ فإذا منادٍ ينادي: إِنَّ الخمرَ قد حُرِّمَتْ، قال:
 فَجَرَّتْ في سَكِّ المدينة، فقال أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فهرقُها. [رواه
 البخاري (٢٤٦٤) ومسلم (١٩٨٠)].

وفي رواية: فسمعتُ منادياً ينادي: أَلَا إِنَّ الخمرَ قد حُرِّمَتْ، قال: فما دخلَ
 علينا داخلٌ، ولا خرجَ منَّا خارجٌ حتى أهرقنا الشرابَ، وكسرنا القلال، وتوضأً
 بعضُنا واغتسلَ بعضنا، وأصبنا من طيبٍ أمَّ سُلَيْم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا
 رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَنصَابُ﴾ الآية.

وهكذا جعل الإسلامُ الخمرَ تجري في سَكِّ المدينة، وتُكسر آيتها بأيدي
 سقاتها وعُشَّاقها، مما يدلُّ على نجاح الإسلام، بينما فشلت أمريكة بكل
 ما عندها من الوسائل الحضارية الحديثة في محاربة الخمر، ففي عام (١٩١٩م)
 منعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية الخمر، وأصرَّت على المنع أربعة
 عشر عاماً، وحدث خلال هذه السنوات شيءٌ عجيب، صدرت بليون نشرة لبيان
 أضرار الخمر، وشرَّعت عقوبات كثيرة للمخالفين حتى بلغ عدد الذين أُعدموا
 (٣٠٠) شخص، والذين سجنوا (٥٣٣٣٥) شخصاً، ومقدار الغرامات النقدية

(١٦) مليون دولار، وقيمة المصادرات (٤٠٤) مليون دولار، ورغم كل هذه الإجراءات زاد عدد مصانع الخمر إلى عشرة أضعاف، ولكن بشكل سري، وفشل المنع، واضطرت الحكومة إلى رفع الحظر^(١).

فلماذا نجح الإسلام ولم يبين للناس أضرار الخمر الصحية، ولم يعرض عليهم بالكتب والنشرات والصور والمحاضرات ما يترتب على شرب الخمر من أضرار في الدم والكبد والمعدة... إلخ، بينما فشلت في العصر الحاضر كل هذه الجهود المبذولة لصرف الناس عن شرب الخمر؟!.

وسر نجاح الإسلام يكمن في آية تحريم الخمر التي صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاطبهم بصفة الإيمان بعد أن عمل على ترسيخه في قلوبهم ونفوسهم، ولذلك لم يحرم الإسلام الخمر في أول الأمر، إنما عمل أولاً على تنفيرهم منها بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم قلل من فترات تناولها عندما أنزل الله قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم أنزل تحريمها القطعي في سورة المائدة بعد أن رسخ الإيمان في قلوبهم.

الإنسان فكرة وعقيدة قبل أن يكون جسداً، وإصلاح الإنسان لا يكون إلا بإصلاح فكرته وعقيدته، ورحم الله سيد قطب عندما قال: «لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية، ومن التقاليد المتغلغلة في المجتمع الجاهلي... ولم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج هذه التقاليد في أول الأمر، لأنها تقوم على جذور اعتقادية فاسدة، فعلاجهما من السطح قبل علاج جذورها جهدٌ ضائع، إنما بدأ من العقيدة، بدأ من شهادة أن لا إله إلا الله، وطالت فترة إنشاء (لا إله إلا الله) في الزمن، حتى بلغت نحواً من ثلاثة عشر عاماً، حتى خلصت نفوسهم لله، وأصبحوا لا يجدون لأنفسهم خيراً إلا ما يختاره الله، عندئذ بدأت عملية تنقية رواسب الجاهلية الاجتماعية

(١) انظر كتاب: حياتنا والموعود المجهول، للمؤلف.

والاقتصادية والنفسية والأخلاقية، بدأت في الوقت الذي يأمرُ الله فيطيعُ العبادُ بلا خلافٍ، انحلت العقدة الكبرى عقدة الكفر والشرك، فانحلت العقد كلها، نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحتهم، فحال أمر الله بينها وبين الشفاء المتلمّظة، والأكباد المتقدمة، وكُسرت دنان الخمر فسارت في سكك المدينة»^(١).

• حكم اللعب بالنرد والشطرنج والكرة:

ويدل قوله تعالى في الخمر والميسر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ على تحريم كثير من أنواع اللعب واللهو كاللعب بالنرد (الزهر أو الطاولة) والورق والشطرنج، بسبب ما فيها من الأسباب التي حرم الله الخمر والميسر من أجلها.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره:

«فكلُّ لهوٍ دعا قليله إلى كثيره، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه، وصدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو كشرب الخمر، وأوجب أن يكون حراماً مثله. فإن قيل: إن شرب الخمر يورث السكر، فلا يقدرُ معه على الصلاة، وليس في اللعب بالنرد والشطرنج هذا المعنى؟!.

قيل له: قد جمع الله تعالى بين الخمر والميسر في التحريم، ووصفهما جميعاً بأنهما يوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويصدّان عن ذكر الله وعن الصلاة، ومعلوم أن الخمر إذا أسكرت فالميسر لا يسكر، وأيضاً فإن قليل الخمر لا يسكر، كما أن اللعب بالنرد والشطرنج لا يسكر، ثم كان حراماً مثل الكثير، وأيضاً فإن ابتداء اللعب يورث الغفلة، فتقوم تلك الغفلة المستولية على القلب مكان السكر»^(٢).

وقد جاء في الأحاديث النبوية الشريفة ما يؤكّد تحريم اللعب بالنرد، وهو

(١) من كتاب: في ظلال القرآن: ٩٧٤/٢ بتصرف.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٩١/٦ باختصار.

ما يسمَّى عند العوام (بالزهر والطاولة)؛ فعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَعَبَ بِالنُّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خَنْزِيرٍ وَدَمِهِ» [أخرجه مسلم (٢٢٦٠) وأبو داود (٤٩٣٩)].

قال العلامة ابن عابدين: «النردُ اسمٌ معرَّبٌ، ويقال له: النردشير، وهو حرامٌ مسقطٌ للعدالة بالإجماع» وقال في الشطرنج: «هو حرامٌ وكبيرةٌ عندنا، وفي إباحته إعانةُ الشيطانِ على الإسلامِ والمسلمينَ، واستثنى بعضُ الفقهاء اللعبَ بالشطرنج؛ فقالوا بجوازه إذا لم يصاحبه قمارٌ، ولم يداوم عليه، ولم يخلِّ بواجب، وإلا فحرامٌ بالإجماع»^(١).

وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَعَبَ بِالنُّرْدِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [رواه مالك في «الموطأ» (٩٥٨/٢) والبخاري في «الأدب المفرد» (ص ٣٦٨) وأبو داود (٤٩٣٨) وابن ماجه (٣٧٦٢) والحاكم (٥٠/١) وأحمد في المسند (١٩٤١٤)].

وعنه أيضاً: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ ضَرَبَ بِالْكَعَابِ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [رواه أحمد في «المسند» (١٩٣٩٣) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩٧٣٠) قال الشيخ أحمد محمد شاكر رحمته الله محقق المسند: وإسناده ضعيف، وقد رواه الحاكم موصولاً وصححه ووافقه الذهبي] والكعابُ: فصوصُ النردِ.

وهذه الأحاديثُ صريحةٌ عامَّةٌ في كلِّ لاعبٍ قَامَرَ أو لم يقامر، والجدير بالذكر أنَّ الشيخَ أبا بكر محمد بن الحسين الأجرِّي المتوفى سنة (٣٦٠هـ) قد ألَّفَ كتاباً سماه «كتاب تحريم النرد والشطرنج والملاهي»، ذكر فيه أدلة كثيرة تدلُّ على تحريم النرد والشطرنج^(٢).

وابتلي الناسُ في العصر الحاضر بحمى اللعب بالكرة، فضيَّعوا من أجلها الصلوات، وقامت بينهم بسببها الخصومات، حتى وصل الأمرُ إلى حدِّ الاقتتالِ

(١) انظر: حاشية ابن عابدين: ٢٥٣/٥.

(٢) حققه وخرَّج أحاديثه: عمر غرامة العمروي، ونشر في الرياض.

وسفك الدماء وإزهاق الأرواح كما حدث في بعض ملاعب الكرة في أوروبا، فقد قتل في حادث واحد سبعة عشر إنساناً بسبب خصومة وقعت بين المتعصبين للفريقين المتباريين، فلا يبعد أن ينسحب عليها حكم الخمر والميسر، لأنها كما هو الواقع المشاهد تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وتوقع العداوة والبغضاء حتى بين الأهل والأقارب والأصحاب، فضلاً عن الخسائر المادية الفادحة التي تنفق على بناء الملاعب الكبيرة وتدريب اللاعبين، والعجيب أن بعض المجتمعات الفقيرة تنفق النفقات الكثيرة على الكرة، بينما يتصور كثير من أبنائها جوعاً وحرماناً يصل بهم في بعض الأحيان إلى حد الموت.

ثم أمرهم الله جلّ وعلا بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في جميع الأوامر والنواهي، ويدخل في ذلك النهي عن الخمر والميسر.

ثم حذّره من المخالفة والعصيان فقال:

﴿وَاحْذَرُوا﴾، وختم الله الآية بتحذير المعرضين عن طاعة الله ورسوله عليه

الصلاة والسلام فقال:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

ولم يأل النبي ﷺ جهداً في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فقامت على الناس الحجة، وانتهت الأعذار، وانقطعت العلل، ففي الآية من التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى.

● التقوى والإحسان:

وتساءل الناس بعد نزول التحريم القطعي للخمر عن حال الصحابة الذين ماتوا والخمر في بطونهم قبل نزول تحريمها، وبعضهم قتلوا شهداء في غزوة

أحد، وسأل بعضهم رسول الله ﷺ قائلين: قُتل فلان وفلان وهي في بطونهم؟
فأنزل الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣).

وقال رسول الله ﷺ: «لو حُرِّم عليهم لتركوه كما تركتم» [رواه أحمد (١)]

[٢٩٥].

وقوله سبحانه:

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم وخرج.

﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ أي: تناولوه من المأكول والمشروب كائناً ما كان.

﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إذا اتقوا أن يكون فيه شيء من

المحرم، واستمروا على الإيمان والعمل الصالح، ولهذا قال بعدها:

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ أي: اتقوا ما حَرَّمَ الله عليهم بعد ذلك مع كونه مباحاً فيما

سبق، فإذا اتقوا المحرمات، واستمروا على ما هم عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، وكانوا في طاعة الله تعالى بحيثُ كُلَّمَا حَرَّمَ عليهم شيئاً من المباحات أطاعوا واتقوا، ثم، وثم، فلا جناح عليهم فيما طعموه في كُلِّ مَرَّةٍ من المأكَل والمشارب، إذ ليس فيها شيءٌ محرَّم عند تناوله^(١).

والآية تدلُّ على أنَّ التحليل والتحريم في المأكَل والمشارب يدورُ مع

النصوص، فالمهم الثبات على الإيمان مع التقوى والعمل الصالح حتى يصلَّ المؤمنُ إلى مرتبة الاستقامة الكاملة والإحسان، وينال محبة الله تعالى، ولهذا ختم الآية بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(١) انظر: روح المعاني: ١٨/٧.

ومرتبةُ الإحسان هي التي قال عنها رسول الله ﷺ عندما سُئِلَ عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].



النداء الثاني عشر

الأمر بالانقياد لأمر الله في شرعه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ اللَّهُ بِشَىءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ آيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمْ لِعَلَّاهُ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ يُغَيِّبُ
فَمَن أَعْدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وعادت بنا آية النداء الثاني عشر إلى الآية الأولى في السورة التي جعلها الله الموضوع الأساس الأول للسورة كلها، وفيها ذكر الله تحريم الصيد في الحرم وحال الإحرام فقال: ﴿غَيْرُ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١].

وحتى يظهر لنا موقع النداء الثاني عشر وما بعده من آيات السورة وموضوعها علينا أن نتذكر النقاط الثلاث التالية التي سبق تقريرها؛ وهي:

- ١ - التحليل والتحريم لله سبحانه وحده.
- ٢ - الأصل في اللحم الحظر والتحريم، حتى يقوم الدليل على حله.
- ٣ - التشريع عامة والتحليل والتحريم خاصة منوط بمدى استسلام الأمة وإذعانها لله تعالى.

ومن المعلوم أن الصيد كان ولا يزال مصدراً رئيساً من مصادر الطعام للناس، وقد ازداد أهمية في العصر الحاضر كثيراً، حتى أصبحت الدول تتنافس على الصيد، وتتقاتل أحياناً على موارده، كما تحشد الجيوش والأساطيل لحماية موارد الصيد والسيطرة عليها.

وقد أحلَّ الله تعالى صيد البحر مطلقاً، كما أحلَّ صيد البر إلا في أرض الحرم، أو في حال الإحرام.

وحتى يبين الله سبحانه ارتباط تحليل الصيد بمدى استسلام الأمة وإذعانها

لأوامره تعالى، قدّم له بقوله الكريم مخاطباً الصحابة الذين عاشوا عصر التنزيل والتشريع في الإسلام، والذين كان لخضوعهم واستسلامهم لأوامر الله تعالى تأثير كبير في يسر الشريعة الإسلامية وسماحة أحكامها، فقال ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبَلُّوْكُمْ اللَّهُ شَيْءٌ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَحَافُهُ. بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلُهُ عَذَابُ إِلِيمٍ ۖ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبَلُّوْكُمْ اللَّهُ شَيْءٌ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ اختبر الله تعالى أصحاب رسول الله ﷺ كما اختبر بني إسرائيل من قبل عندما حرم الله على بني إسرائيل العمل والصيد يوم السبت، وساق لهم سبحانه بحكمته وقدرته السمك الكثير يوم السبت، فكانت تأتيهم أسراب السمك واضحة قريبة في يوم السبت، بينما تختفي وتبتعد في أعماق البحار بعد ذلك، قصّ الله علينا خبرهم في قوله الكريم: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرِيكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَكَتِنَهُمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

فخالف أكثرهم أمر ربهم، وسقطوا في الاختبار، وأنزل الله عليهم العذاب: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

واختبر الله سبحانه أيضاً أصحاب رسول الله ﷺ وابتلاهم كما مرّ معنا بالصيّد وهم محرمون، قال الشوكاني رحمه الله: «كان الصيّد أحد معاش العرب، فابتلاهم الله بتحريمه مع الإحرام وفي الحرم، كما ابتلى بني إسرائيل ألا يعتدوا في السبت»^(١).

وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش

(١) فتح القدير: ٧٧/٢.

والطيرُ والصيدُ تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون^(١).

ويبين سبحانه الحكمة من هذا الاختبار فقال:

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: لتظهر طاعة من يطيع الله منهم في سره وغيبته عن الناس.

﴿فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد هذا الإعلام والبيان.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لمخالفته أمر الله وشرعه.

ونجح الصحابة رضي الله عنهم في الاختبار، وامثلوا أمر الله تعالى وشرعه، فلم تمتد أيديهم إلى ما حرم الله تعالى عليهم، ونتيجة لهذا أحل الله تعالى لهذه الأمة صيد البحر مطلقاً، وأحل صيد البر أيضاً، إلا في حال الإحرام، أو داخل أرض الحرم، كما شرع الله الجزاء والعقاب لمن يصطاد وهو محرم أو في أرض الحرم في النداء الثالث عشر.



النداء الثالث عشر

التحذير من قتل الصيد
عند الإحرام وفي الحرم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصْهُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْمَدَى وَالْقَلْبَدِئَةَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قال جلّ وعلا في النداء الثالث عشر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقُصْهُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ وهذا تأكيد لما سبق، وتمهيد لما يترتب عليه من أحكام.

﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعِدًّا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي: فعلى قاتل الصيد أن يذبح من النعم - وهي الإبل والبقر والغنم - ما يساوي الصيد ويمثله.
 ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يحكم ببيان مقدار الجزاء حكمان عدلان مسلمان.
 ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: يجعل هذا الجزاء هدياً يُهدى في أرض الحرم.
 ﴿أَوْ كَفَرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ أو يعطي بقيمة الهدى طعاماً للفقراء لكل مسكين مقدار ما يجب في زكاة الفطر.

﴿أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أو عليه أن يصوم أياماً بعدد المساكين.
 وهذا الجزاء شرعه الله تعالى ليدوق المخالف جزاء مخالفته، ولهذا قال:
 ﴿يَذُوقْ وَبَالَ أَمْرِ اللَّهِ عَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ﴾ قبل نزول هذه الآيات.
 ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ فقتل الصيد وهو محرم.
 ﴿فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.
 ثم قال تعالى في شأن الصيد:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا
 وَأَنْقَضُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أي: ما صيد من سمك البحر أو من حيوان البحر.
 ﴿وَطَعَامُهُ﴾ أي: وأحل لكم ما قذفه البحر ميتاً، إذا لم يكن مُتَتَبّاً.
 ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْسَيَّارَةِ﴾ يتمتع به ويستفيد منه المقيمون والمسافرون.
 ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: محرمين أو في أرض الحرم.
 ﴿وَأَنْقَضُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

والجدير بالذكر أن حيوان البحر يحلُّ أكله من غير ذبح، لما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ وَدِمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَانِ فَالْحَوْثُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدِمَانِ فَالْكَبْدُ وَالطَّحَالُ. [رواه ابن ماجه (٣٣١٤) وأحمد (٥٦٩٠) والدارقطني (٤/ ٢٧٢) والبيهقي (١١٢٨)].

وقال ﷺ في البحر: «هو الطَّهْرُ ماؤه، الحِلُّ مَيْتُهُ» [رواه أبو داود (٨٣) والنسائي (٥٠/١) والترمذي (٦٩) وابن ماجه (٣٨٦)].

وعلى هذا فدم السمك وما في جوفه طاهر حياً كان أو ميتاً، إلا إذا حصل تغَيَّر في رائحته، وفساد في لحمه، فلا يحلُّ أكله لما يترتب عليه من الضرر. والحكمة من تحريم الصيد في أرض الحرم تعظيم بيت الله الحرام وتكريمه، ولهذا قال الله ﷻ:

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ (٩٧).

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْآبِيَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ أي: سبباً لإصلاح أمور الناس في معاشهم ومعادهم، يلوذ به الخائف، ويأمن فيه الضعيف، ويجتمع فيه التَّجَار، ويتوجه إليه الحجاج والعمار. ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ﴾ وقد سبق الكلام عن ذلك في أول السورة [الآية: ٢].

﴿ذَلِكَ﴾ أي: شرع ذلك.

﴿لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه العليم بكل ما يحتاج إليه الناس في مصالحهم، ولهذا شرع لهم هذه الشرائع، فأحلَّ لهم ما أحلَّ، وحرَّم عليهم ما حرَّم، من أجل سعادتهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾.

فعليكم أيها الناس أن تنقادوا لشرع الله وأحكام دينه، وتطبقوها على أنفسكم:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨).

واعلموا أيضاً أن رسول الله ﷺ أدى ما كُلِّفه الله تعالى به، فبلغكم رسالته، وأقام عليكم حجته، فلا عذرَ لكم بعدَ اليوم:

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (٩٩).

فما أحلّ الله تعالى لكم إلا كلّ طيب نافع، وما حرّم عليكم إلا كلّ خبيث ضار بدينكم أو ببدنكم، فلا تغتروا بكثرة الخبيث، فالقليل الطيب أفضل من الخبيث الكثير:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ أَلْبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠٠).

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فلا تنظروا إلى الكم، بل انظروا إلى الكيف، إلى المفيد النافع مما أحلّ الله تعالى لكم. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ أَلْبَسٍ﴾ يا أصحاب العقول في البحث عن الطيب النافع بين ركام الخبائث الضارة. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

وفي العصر الحاضر أصبحت التنمية الهدف الأساس للإنسان في ظل الحضارة المادية التي يعيشها، وهي لا تعني سوى الزيادة في كمية الإنتاج بأيّ وسيلة من الوسائل، حتى أصبحت تنمية انتحارية، يمكن أن تمحو وتدمر كل آثار الحياة، فما أحوَج المتنافسين في مضمار التنمية والراكضين وراء زيادة الإنتاج إلى محطة استراحة، يريحون فيها أجسامهم وأعصابهم في ظلال هذه الآية الكريمة، يفصلون بين الوسائل والأهداف، يضعون جهدهم وتعبهم في مكانه الصحيح من الحياة، ليعرفوا معنى الحياة الإنسانية الحقّة، ويميزوا بين الخبيث ولو كان كثيراً، وبين النافع الطيب ولو كان قليلاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ أَلْبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٠٠).



النداء الرابع عشر التحذير من كثرة السؤال

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْحَوْا بِهَا كُفْرِيكَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءأُولُو كَأَن ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

اقبلوا شرع الله تعالى فيما أحلَّ لكم وحرَّم عليكم ، وأذعنوا له منقادين مستسلمين ، وإيَّاكم أن تسألوا عنه معترضين ، وهذا التحذير هو ما تضمَّنه النداء الرابع عشر :

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ فالمبادرة إلى تنفيذ أمر الله تعالى دون أيِّ اعتراضٍ أو سؤالٍ يخلِّصكم من المشقة والعنت الذي أصاب مَنْ قبلكم من الأمم .

انظروا مثلاً إلى ما أصاب بني إسرائيل بسبب كثرة أسئلتهم واعتراضهم على أوامر ربهم سبحانه في قصة البقرة ، لم يبادروا إلى تنفيذ أمر الله تعالى ، فسألوا نبيهم موسى ﷺ معترضين على أمر الله سبحانه ، فشَدَّ الله عليهم .

وما أكثر ما حذّر رسولُ الله ﷺ أمته أن يفعلوا مثل ما فعل بنو إسرائيل، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ فقال: «أيُّها الناس! قد فرضَ الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا» فقال رجلٌ: أكلٌ عامٍ يا رسولَ الله؟ فسكتَ عليه الصلاة والسلامُ حتى قالها ثلاثاً، فقال ﷺ: «لو قلتُ: نَعَمْ؛ لوجبتُ وَلَمَّا استطعتم» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «ذَرُونِي ما تركتكم، فإنما هلكَ مَنْ كانَ قبلَكم بكثرةِ سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه» [رواه مسلم (١٣٣٧)].

﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ بُدِّلْكُمْ﴾ أي: تظهر لكم بما يجبُ عليكم به النبي ﷺ أو ينزل به الوحي، فيكون ذلك سبباً للتكاليف الشاقّة، وإيجابٍ ما لم يكن واجباً، وتحريمٍ ما لم يكن محرماً، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحي بموت رسولِ الله ﷺ؛ فإنّه لا إيجاب ولا تحريم يتسبّب عن السؤال^(١).

وقد ورد في الحديث الشريف: «أعظمُ المسلمين جُرماً مَنْ سألَ عَنْ شيءٍ لَمْ يُحَرِّمْ، فحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ» [رواه البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨)].

ولهذا قال تعالى بعدها:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: تركها الله تعالى ولم يذكرها في القرآن الكريم كما جاء في الحديث الصحيح: «إنَّ الله فرضَ فرائضَ فلا تضيّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحَرَّمَ أشياءَ فلا تَنْتَهِكُوهَا، وسَكَتَ عن أشياءَ رحمةً بِكُمْ غيرَ نسيانٍ، فلا تَسْأَلُوا عَنْهَا» [أخرجه الحاكم (٣٧٥/٢) وصححه، والطبراني في الكبير (٥٨٩/٢٢) والبيهقي (١٢/١٠) من حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه].

ولا بدّ من تقييد النهي عن السؤال في هذه الآية بما لا تدعو إليه الحاجة، أما ما تدعو إليه الحاجة في أمور الدين والدنيا، فقد أذن الله تعالى بالسؤال عنه فقال: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

(١) انظر: فتح القدير: ٨١/٢.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: سألوها مثل هذه المسائل.

﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي: تاركين العمل بها، فإن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء فإذا أمروا بها تركوها^(١).

ثم بيّن سبحانه أن ما ابتدعه أهل الجاهلية في تحريم بعض أنعامهم باطل، لأن التحريم والتحليل لله سبحانه وحده، فقال:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَرَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾:

والبحيرة: هي الحلوبة من الأنعام، لا يسمحون لأحد أن يحلبها، ويزعمون أنهم يتركون لبنها لأصنامهم.

والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم المزعومة، ولا يحملون عليها شيئاً.

والوصيلة: الناقة التي تبكر بولادة أنثى، ثم تلد بعدها أنثى أخرى، ويسمونها وصيلة، لأنها وصلت إحداها بالآخرى ليس بينهما ذكر، فلا يذبحونها.

والحامي: فحل الإبل إذا تمكّن من تلقيح عددٍ معيّن من الإبل تركوه بعد ذلك لآلهتهم، ولم يحملوا عليه شيئاً.

ثم بيّن سبحانه كذبهم وافتراءهم في هذه الأمور فقال:

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَرَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وإذا لم يشرع الله تعالى هذه الأمور فمن الذي شرعها لهم؟! إن تقليدَهم

لآبائهم هو الذي شرعها لهم، ولهذا ذمَّ الله تعالى تقليدَهم الأعمى لآبائهم الذي جعلهم ينصرفون عن دين الله وشرعه وسُنَّة رسوله ﷺ فقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ الاقتداء والتقليد يجبُ أن يكون للعالم المهتدي الذي يبني قوله على الحجَّة والبرهان، فلا خيرَ في علمٍ لا هدايةَ معه، ولا تكونُ الهدايةُ من دون نظرٍ وتفكيرٍ واستبصارٍ.



النداء الخامس عشر

الأمر بإصلاح النفس والتحذير من المفسدين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْ أَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

حذر الله تعالى المؤمنين في النداء الخامس عشر من التأثر بالمفسدين الخارجين على دين الله وشرعه مهما كثروا، وعمّ فسادهم، وانتشر فسقهم، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْ أَنْتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وهذا كما جاء في الحديث الشريف: «لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس أحسناً، وإن أسوأوا ظلمنا، ولكن وطمّوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تَحْسِنُوا، وإن أسأؤوا فلا تظلموا» [رواه الترمذي (٢٠٠٧) من حديث حذيفة رضي الله عنه].

قال ابن كثير رحمته الله: «يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً.

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا

ما العبدُ أطاعني فيما أمرتهُ به من الحلالِ، ونهيتهُ عنه من الحرامِ، فلا يضرُّهُ مَنْ ضَلَّ بَعْدَهُ إِذَا عَمَلَ بِمَا أَمَرْتُهُ بِهِ»^(١).

فالآيةُ تحضُّ المسلمين على التمسك بدينهم ومبادئ شريعتهم، مهما كثر الفساد والمفسدون، فالحرامُ إذا شاع وانتشر لا يحلُّ، والحلال إذا ترك الناس العمل به لا يحُرِّم، ولهذا قال تعالى:

﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ أي: لا يضرركم ضلالُ من ضلَّ من الناس إذا اهتديتم أنتم إلى الحق وتمسكتم به.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وليس في الآية دليلٌ على جواز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعلُهُ ممكنًا، قال العلامة أبو السعود: «أي: لا يضرُّكم ضلالُ من ضلَّ إذا كنتم مهتدين، ولا يُتَوَهَّمَنَّ أَنَّ فِيهِ رخصةٌ في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتهما»^(٢).

وروي: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حمّد الله وأثنى عليه ثم قال: أيُّها الناسُ إنَّكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمَّهُم الله بعقابٍ من عنده» [رواه أحمد (٣٠) وأبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (٣٠٥٧) وابن ماجه (٤٠٠٥)].

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وذهب بعضهم إلى أنَّ العملَ بهذه الآية يكونُ عند غلبةِ المفسدين وأهل

(١) تفسير ابن كثير: ١٠٩/٢.

(٢) تفسير أبي السعود: ٩٨/٢.

الشرّ، بحيث لا يستطيع المسلم أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، فحينئذٍ عليه أن يهتم بإصلاح نفسه فقط.

واحتجوا بما روي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلتُ له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: آيَةُ آيَةٍ؟ قلتُ: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حتى إذا رأيتُ شُحاً مُّطَاعاً، وهَوًى مُّتَبِعاً، ودنيا مُّؤَثَّرَةً، وإعجابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فعليك بخاصّة نفسك ودع العوامَّ، فإنَّ مِنْ ورائكم أياماً الصّابرُ فيهنَّ مثلُ القابضِ على الجَمْرِ، للعاملِ فيهنَّ أجرُ خمسين رجلاً يعملونَ كعملكم» وفي رواية: قيل: يا رسول الله! أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجرُ خمسين منكم» [رواه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٥٨) وابن ماجه (٤٠١٤)].

قال العلامة القرطبي رحمه الله: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعيّن متى رُجِيَ القبول أو رُجِيَ ردُّ الظالم ولو بعنف، ما لم يخف ضرراً يلحقه في خاصّته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشقّ عصا، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم»^(١).

وهذا كلام سديد ومفيد، يتفق تماماً مع القواعد الفقهية في الشريعة الإسلامية، فلا يُزال ضررٌ بمثله، ويُحمَّل أخف الضررين لدفع أكبرهما.



النداء السادس عشر

الأمر بصيانة مال المسلم وتنفيذ وصيته

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ
ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنِ أَنتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ
الْأَثَمِينَ ﴿١٦٦﴾ فَإِنْ عَزَّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦٧﴾
ذَلِكَ أَذَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيَمَانِهِمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

وجاء النداء السادس عشر - وهو النداء الأخير في سورة المائدة - يبين بعض أحكام المعاملات المالية في المجتمع الإسلامي، فالمال أحد الضرورات الخمس، التي قررها الإسلام للإنسان، وشرع ما يؤمنها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال.

ولم يقتصر الإسلام على تشريع العقوبات لحماية هذه الضرورات، بل شرع للناس الشرائع المختلفة التي تنظم العلاقات المالية والاجتماعية فيما بينهم، وتكفل صيانة هذه الضرورات لكل فرد في المجتمع.

شرع الله تبارك وتعالى في النداء السادس عشر الضمانات التي تصون مال الإنسان عندما يكون مسافراً بعيداً عن أهله، وينزل به نازل الموت، فحتى تُنفذ وصيته بإيصال المال إلى ورثته قال تعالى:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من أهل دينكم .

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أو شهادة آخريْن من غير أهل دينكم إذا كنتم على سفر، ولم يكن ثمة شاهدان من أهل دينكم .

فعلى هذا تكون شهادة غير المسلمين على المسلمين جائزة في هذه الحالة، وهي حالة الوصية في السفر، إذا لم يوجد شاهدان من المسلمين، وهذا ما ذهب إليه بعض المفسرين، إلا أنَّ جمهور الفقهاء قالوا: لا تجوز شهادة الكافر على المسلم، وتأولوا قوله تعالى: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من عشيرتكم وقرابتكم ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير القرابة والعشيرة، والله سبحانه أعلم .

﴿فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذا يدل على أنَّ الإِشْهَادَ على وصية الإنسان قبل الموت .

ثم بيّن سبحانه كيفية أداء الشاهدين للشهادة فقال:

﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أي: صلاة العصر .

﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ﴾ وهو شرط لتحليف الشاهدين، فإذا لم تقع ريبَةٌ ولا اختلافٌ فلا حاجة إلى تحليفهما .

﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: لا نشترى بقسَمنا عوضاً نأخذه ولا ندفعه إلى أحدٍ، ولو كان قريباً لنا .

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أي: الشهادة التي أعلمنا الله تعالى بها عندما تحمّلناها .

﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ إذا غيّرنا شهادة الله أو أخذنا لأنفسنا أو لأحدٍ من أقاربنا شيئاً من مال الموصي .

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّاءَ إِنَّمَا فَخَارَانِ يَفُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَٰئِينَ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّاءَ إِنَّمَا﴾ أي : فإن ظهرَ وتحقّق أن الشاهدين ارتكبا خيانةً في الشهادة ، واستحقا بذلك إثماً .

﴿فَخَارَانِ يَفُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَٰئِينَ﴾ أي : فليقم اثنان من الورثة المستحقين للمال .

﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا﴾ أي : أحق وأصحُّ وأثبتُّ من شهادة الشاهدين السابقين .

﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ فيما قلنا في الشاهدين من الخيانة .

﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إن كنا قد كذبنا عليهما .

ويرجع بعد هذا إلى قول الورثة ، ولا تقبل شهادة الشاهدين اللذين استشهدهما الموصي قبل موته :

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ .

﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾ أي : على الوجه المرضي .

﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي : يكون الحاملُ لهما على الإتيان بالشهادة على وجهها الصحيح هو تعظيمُ الله سبحانه والخوف من الفضيحة بين الناس في حال عدم قبول شهادتهما ، وردّ اليمين على الورثة ، فيحلفون ويستحقّون ما يدّعون .

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا﴾ أي: وأطيعوا.
 ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(١).



(١) انظر: تفسير القرطبي، وتفسير وابن كثير.

خاتمة السورة المشهد العظيم

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَقَطِّعَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْنَا وَكُنْ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١٢١﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٢٣﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٢٤﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٥﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٦﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٧﴾

عوّدتنا الله تعالى في القرآن الكريم أن يختتم آيات التشريع والأحكام بذكر بعض المشاهد المخيفة من يوم القيامة، فيؤكد بذلك أهمية هذه الأحكام الشرعية، وعمق وشدة المسؤولية عنها، فلا يكون تفريط وتقصير فيها.

قال الإمام الفخر الرازي رحمته الله: «اعلم أنّ عادة الله تعالى جارية في هذا الكتاب الكريم أنّه إذا ذكّر أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام أتبعها إمّا بالإلهيات، وإما بشرح أحوال الأنبياء، أو بشرح أحوال القيامة، ليصير ذلك مؤكّداً لما تقدّم ذكره من التكاليف والشرائع»^(١).

وبدا سبحانه عرض بعض المشاهد من يوم القيامة بهذا المشهد العظيم فقال
جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿١٠٩﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ فاسمعوا خبرَ هذا اليوم وما فيه من الأحوال والأحوال. وخصّ سبحانه الرسل بالذكر لإظهار شرفهم ورفع مكانتهم، وإلا فيوم القيامة يومٌ مجموعٌ له الناسُ، وهو يومٌ مشهودٌ.

كما خصّ الرسل بالسؤال في هذا المشهد تقرّيعاً ولوماً للمكلفين الذين أرسل الرسل إليهم، فأعرضوا عن رسالتهم، ولم يستجيبوا لدعوتهم، وهو كسؤال الموءودة في يوم القيامة تقرّيعاً وتبكيّاً لوائدها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير] وإلا فالسؤال يوم القيامة عامٌّ وشاملٌ للرسل والمرسل إليهم، قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى توحيدتي وعبادتي وطاعتي.

﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وإنما قالوا ذلك مِنْ هَوْلِ يومِ القيامة، ومن شدّة الخوف والفرع في ذلك الموقف.

ولا يُعْتَرَضُ على هذا القول بأنّ الرسل عليهم الصلاة والسلام من الذين لا خَوْفَ عليهم ولا هُمْ يحزنون في يوم القيامة، فهذا حالهم وشأنهم في أكثر مواطن يوم القيامة، وقد جاء عَنْ بعضِ مواقف يوم القيامة في الحديث الشريف: «إِنَّ جَهَنَّمَ إِذَا جِيءَ بِهَا زَفَرْتُ زَفْرَةً، فلا يبقى نبيٌّ ولا صديقٌ إلا جثا لركبتيه» [رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٤١٢٨)]^(١) وذلك من شدة الهول الذي يصيبهم.

أو قال الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ من باب الأدب مع الله سبحانه، أي: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، أو لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، أو لا علم لنا إلا بالظواهر، أمّا ما غابَ عنا من البواطن فلا علم لنا به، ولهذا ختموا كلامهم بقولهم:

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

• التذكير بالنعمة:

ثم وجّه الله تعالى الخطاب إلى عيسى ابن مريم ﷺ على الخصوص توبيخاً للنصارى، الذين فُتِنُوا بعيسى ﷺ، وتجروؤوا على الله ﷻ، فوصفوه باتخاذ صاحبة والولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلا يليقُ بعاقِلٍ أن يصفَ الله تعالى بهذه الصفة، وهو الواحد الأحد والفرد الصمد، المنزه عن صاحبة والولد، قال الحقُّ ﷻ يبيّن قُبْحَ هذه المقولة وغلظتها وشدّة شناعتها: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم] أي: عظيماً، ثم بيّن خطورته فقال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُبْغَى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم].

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٦١/٦.

فلا جَرَمَ أن يخصَّ الحقُّ سبحانه عيسى ﷺ بهذا الخطاب بحضرة جميع الرسل في هذا الموقف العصيب من مواقف يوم القيامة، فيعدُّ أنواع النعم التي أنعم بها عليه وعلى والدته بقصد توبيخ النصارى، وتقريعهم على سوء مقاتلتهم وشناعة فريتهم، فكلُّ نعمةٍ من هذه النعم التي أنعم الله تعالى بها على عيسى ﷺ وعلى أمه تدلُّ على أنه عبدُ الله تعالى، كما تدلُّ على وحدانية الحقِّ سبحانه، وتفرّده بالغنى الكامل، والقدرة التامة، وتنزهه عن الصاحبة والشريك والولد.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝﴾

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ قبل موعد الكلام.

﴿وَكَهْلًا﴾ أي: وتكلّمهم في سنّ الكهولة، وأنت تدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: الكتاب والخط وحُسن تصريف الأمور.

﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ أي: وعلمّتك التوراة التي أنزلت على موسى قبله.

﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ الذي أنزله الله تعالى عليك.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ أي: تصوّر.

﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: مثل هيئة الطير.

﴿يَاذُنِي﴾ أي بقدرتي ومشيتي .

﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا يَأْذُنِي﴾ وكرره تأكيداً لكون ذلك وقع بقدره الله تعالى ومشيتته، لا بقدره عيسى ومشيتته .

﴿وَتُزَيَّرُ الْأَكْمَهَ﴾ وهو من وُلد أعمى .

﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وهو المصابُ بمرض البرص .

﴿يَاذُنِي﴾ بإذن الله من غير استعانة بدواء أو طبيب .

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى يَأْذُنِي﴾ أي: تخرج الموتى من قبورهم أحياءً بقدره الله تعالى ومشيتته، وذكر الإذن مع كل هذه الأفعال ليؤكد أنها أفعال الله تعالى على الحقيقة، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي: إلا بخلق الله الموت فيها^(١) .

ومن نعم الله تعالى على عبده ونبيه عيسى ابن مريم أيضاً أنه حفظه وحماه من مكر بني إسرائيل وكيدهم وشرهم، ولهذا قال في معرض التذكير بالنعم: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ .

ومن فضله سبحانه على عبده ونبيه عيسى ﷺ أنه ألهم الحواريين وهداهم للإيمان بالله وحده استجابة لدعوة عيسى ﷺ:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

● مائدة من السماء:

كان الحواريون خيرة مَنْ آمَنَ بعيسى ﷺ واستجاب لدعوته، فقد كانوا أنصاره وخلصاءه، هكذا وصفهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] .

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٢٧/١٢ .

ورغم كل المعجزات التي أعطاها الله تعالى لعيسى ﷺ، وأجراها على يديه، والتي سبق ذكر بعضها في الآيات السابقة، طلب الحواريون من عيسى ﷺ معجزة أخرى، وهي أن يسأل الله تعالى أن ينزل عليهم مائدة من السماء.

إنَّ طلبَ الحواريين هذه المعجزة يذكّرنا بما سبق الحديث عنه في أول السورة عندما تحدّثنا عن ارتباط التشريع بالانقياد لله سبحانه والتسليم له^(١).

كما يذكّرنا بفضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم الذين لم يسألوا رسول الله ﷺ أية معجزة بعد أن أسلموا، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وامتزجت بأرواحهم^(٢)، إنَّ ذلك يدلُّ على الفرق الكبير بين حواريي عيسى ﷺ وبين حواريي محمد ﷺ وأصحابه.

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝﴾

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ﴾ وقولهم: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ليس بشكٍّ في الاستطاعة، إنّما هو تلطف في السؤال، وأدبٌ مع الله تعالى، وهو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي، وقد علمت أنه يستطيع، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟^(٣).

أو: هل يرضى ربك ويقبل دعاءك؟.

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: اتقوا معصية الله بكثرة السؤال، فإنكم

(١) فارجع إليه في الصفحات الأولى من تفسير هذه السورة، لتقف على سر ارتباط هذه الآيات بموضوع سورة المائدة.

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع في تفسير سورة النمل (المعجزة والإعجاز في سورة النمل) وهو جزء من هذا التفسير.

(٣) تفسير القرطبي: ٣٦٥/٦.

لا تدرون ما يحل بكم عند طلب الآيات والمعجزات، فقد جاءكم منها ما يكفي ويغني عن غيرها.

ولكنَّ الحواريين أصرُّوا على طلبهم رغم موعظة عيسى عليه السلام لهم، وما في هذه الموعظة من عتابٍ لهم، وأكدوا طلبهم للمائدة ببيان حاجتهم لها، وأنَّ لهم فيها منافع دنيوية ودينية:

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (١١٣).

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ قدَّموا ذكر المنفعة الدنيوية وهي منفعة الأكل منها.
﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ فنزداد إيماناً بصحة رسالتك، وصدق نبوتك، ونجمع بين الخبر والنظر.

وهذا كما قال إبراهيم عليه السلام عندما سأل الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فيجتمع له الإيمان القائم على الخبر بقدرة الله تعالى على إحياء الموتى، مع الإيمان القائم على المعاينة والنظر.
ولهذا قال الحواريون بعد ذلك:

﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلم علماً قائماً على المشاهدة والمعاينة أنك صادق فيما دعوتنا إليه.

﴿وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: نشهد عليها عند الذين لم يحضروها.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١٤).

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي: نفرح ونسرُّ بها لأنها من الله تعالى، فنجعل وقت نزولها عيداً للفرح والسرور بفضل الله ونعمته، فهو فرح بالمنعم لا بالنعمة.

﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ أي: وتكونُ دليلاً وبرهاناً من الله سبحانه على كمال قدرته ووحدانيته وصدق عيسى عليه السلام في نبوته ورسالته.

﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

واستجاب الله تعالى دعاء عيسى عليه السلام، وأوحى إليه أنه سبحانه مُنْزِلُ المائدة عليهم، وأخبره سبحانه أيضاً بما يترتب على اقتراح الآيات والمعجزات من مسؤولية خطيرة وجسيمة:

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ مَنِ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٥).

ونظراً لشدة هذا التهديد والوعيد ذهب بعض المفسرين إلى أن الحواريين لما سمعوه استغفروا الله تعالى وقالوا: لا نريدُها، فلم تنزل المائدة عليهم.

إلا أن جمهور المفسرين قالوا: إنها نزلت، لأن الله سبحانه قال: ﴿إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ والله سبحانه أعلم.

• المواجهة الكبرى:

ثم ختم الله ﷻ عرضَ مشاهد من يوم القيامة بمشهدِ المواجهة الكبرى، مواجهة عيسى ابن مريم عليه السلام وجهاً لوجهٍ مع الذين غلّوا فيه، فعبدوه من دون الله تعالى، ورفعوه بزعمهم الباطل عن مقام عبوديته لله سبحانه إلى مقام الألوهية واستحقاق العبادَةِ، تعالى الله عما قالوا علواً كبيراً:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (١١٦).

وتبدأ المواجهة باستجواب الله تبارك وتعالى عيسى عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

وبادر عيسى عليه السلام في جوابه إلى تنزيه الحق سبحانه، وإلى إعلان براءته المطلقة من هذا القول، لأنه ليس من شأنه أصلاً، فكيف يكون العبد إلهاً؟! : ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ .

ثم استشهد عيسى عليه السلام الله العليم الخبير على براءته، مع إظهار التذلل والخضوع لجلاله وعظمته:

﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ .

ثم بين أنه كان يدعوهم إلى الدعوة التي كلفه الله تعالى بها، وهي عبادة الله تعالى، مع إقراره الصريح بعبوديته وعبوديتهم جميعاً لله الواحد الأحد:

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ .

وأنه يشهد على ذلك مدة وجوده بينهم:

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ .

ولما رفعه الله تعالى من بينهم إلى السماء أصبح الله وحده شاهداً عليهم:

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ لا يعني أمتني، فعيسى عليه السلام لم يمت بعد، وهو

لا يزال حياً يعيش في السماء التي رفعه الله تعالى إليها كما أخبرنا بذلك الحق

عليه السلام في قوله الكريم في معرض الرد على اليهود الذين زعموا أنهم قتلوا عيسى

عليه السلام: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ بل رفعه الله

إليه وكان الله عزيزاً حكيمًا ﴿[النساء].

ومعنى قوله تعالى: ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ رفعتني إلى السماء، فإن التوفي أخذ الشيء

وافيةً، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال الإمام القرطبي رحمته الله: «قيل: هذا يدلُّ على أنَّ الله ﷻ توفاه قبل أن يرفعه، وليس بشيء، لأن الأخبار تظاهرت برفعه، وأنه في السماء حيٌّ، وأنه ينزلُ ويقتل الدجال، وإنما المعنى: فلما رفعتني إلى السماء»^(١).

وقال ابن كثير رحمته الله: وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا النوم كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا»^(٢).

وقد بلغت الأحاديث النبوية الشريفة، التي أخبرت عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان إلى الأرض، وقتله المسيح الدجال والخنزير، وكسره الصليب، مبلغ التواتر، الذي يفيد العلم القطعي، بأن ذلك سيحدث، وهو من علامات الساعة الكبرى، التي يجب الإيمان بها، ولا يجوز جحودها وإنكارها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية» الحديث. [رواه البخاري (٣٤٤٨) ومسلم (١٥٥)]^(٣).

ولم يوفق سيد قطب رحمته الله في محاولته التوفيق بين قوله بموت عيسى عليه السلام والقول الصحيح المؤيد بالأحاديث الشريفة القطعية بأنه لا يزال حياً لم ينته أجله بعد ولم يمت، فقال: «وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه قد توفى

(١) تفسير القرطبي: ٣٧٧/٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣٦٦/١.

(٣) وقد جمعها المحدث الهندي المشهور محمد أنور الكشميري رحمته الله في كتاب مستقل فزادت على خمسين حديثاً، وسبعين أثراً عن الصحابة، وسمى الكتاب: «التصريح بما تواتر في نزول المسيح».

عيسى ابن مريم، ثم رفعه إليه، وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله، وليس هنالك فيما أرى أيّ تعارض يثير أيّ استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده، فالشهداء كذلك يموتون في الأرض، وهم أحياء عند الله، أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً، وكذلك صورة حياة عيسى عليه السلام^(١).

لكنّ التوفي الذي أفاده ظاهرُ الآيات بالنسبة لعيسى عليه السلام لا يعني الموت كما قدمنا، فلا حاجة إلى القول بأنّ حياته في السماء كحياة الشهداء، الذين أثبت الله لهم حياة برزخية خاصة بهم بعد موتهم، أما عيسى عليه السلام فقد أثبتت الأحاديث النبوية الشريفة المتواترة نزوله قبل قيام الساعة إلى الأرض ليعيش بقية حياته الدنيا التي قدرها الله تعالى له في الأجل الذي قدره الله تعالى له تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

ولقد رفع الله عيسى بجسده وروحه إلى السماء، بينما الشهداء ترتفع أرواحهم فقط بعد أن تنفصل بالموت عن أجسادهم التي تبقى في الأرض فلا يصحّ القياس عليهم.

• براءة وتفويض:

ثم يرد عيسى عليه السلام أمر الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله تعالى إلى الله الواحد الأحد العزيز الحكيم فيقول:

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ﴾ فعذابهم عدلٌ من الله سبحانه، لأنهم عبدوا غيره، ووصفوه بصفات لا تليق بكماله ووحدانيته.

﴿وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: القوي الذي لا يُغلب، والحكيم الذي لا يريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمة، فعذابه عدل، ومغفرته فضل، إلا أنه

(١) في ظلال القرآن: ١٠٠١/٢.

سبحانه لا يغفر للكافرين والمشركين لمقتضى الوعيد الذي تعلقت به مشيئته وحكمته .

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا الكلام يتضمن ردَّ المشيئة إلى الله ﷻ، فإنه الفَعَال لما يشاء، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى، الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا لله ندّاً وصاحبةً وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأنٌ عظيمٌ، ونبأٌ عجيبٌ، وقد ورد في الحديث: أن النبي ﷺ قام بها ليلةً حتى الصباح يردّها، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلةً فقرأ بآية حتى أصبح يركعُ بها، ويسجدُ بها ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١١٨)، فلما أصبح قلتُ: يا رسول الله ما زلتَ تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركعُ بها وتسجدُ بها؟ قال: «سألتُ ربِّي ﷻ الشفاعةَ لأمتي فأعطانيتها، وهي نائلةٌ إن شاء الله لِمَنْ لا يشركُ بالله شيئاً» [رواه أحمد (١٤٩/٥)] ^(١).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١١٩).

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك مجيباً عبده ورسوله عيسى ﷺ، واليوم هو يوم القيامة.

والمعنى: إنَّ صدقَ الصادقين في الدنيا ينفعهم الله تعالى به يوم القيامة، وتوحيدُ الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد أعظمُ الحقائق صدقاً،

(١) راجع تفسير ابن كثير: ١٢١/٢، والحديث رواه أحمد في مسنده برقم (٢١٢٢٥) قال الشيخ أحمد محمد شاكر محقق المسند: إسناده حسن.

قلت: وقد روى النسائي الحديث برقم (١٠١١)، وابن ماجه برقم (١٣٥٠)، كلاهما بهذا اللفظ: قام النبي ﷺ حتى أصبح بآية يرددها، والآية: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. الناشر.

ولهذا ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾^(١) ينفع الموحِّدين توحيدهم، وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثم بيَّن الله تعالى ذلك النفع فقال:

﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
فلا أعظم من هذا الفوز.

أسأل الله العزيز الرحيم أن يثبتنا على دين التوحيد، وأن يجعلنا من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه بمنه وفضله وكرمه.

• الخاتمة:

وتأتي أخيراً آية الختام لسورة المائدة بتقرير الحقيقة الكبرى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالله ﷻ هو خالق كل الأشياء ومالكها والمتصرف فيها، فله وحده سبحانه أن يشرع فيها ما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرّم ما يشاء، لا معقّب لحكمه، ولا رادّ لمشيئته.

وبهذا يظهر لك اتساق واتفاق خاتمة السورة مع موضوعها الأساس الأول المقرر في أول آياتها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].
والحمد لله أولاً وآخراً.



(١) المرجع السابق نفسه.

تفسير سورة الأنعام بصائر الحق في سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: ف يتميز العصر الحاضر بكثرة الاتصالات بين الناس وسهولتها، وقد قربت وسائل الاتصال والنقل الحديثة الناس بعضهم من بعض، وأصبح العالم بسببها صغيراً، واختلط الناس بعضهم ببعض رغم اختلاف أفكارهم وثقافتهم، وتعدّد مللهم ونحلهم، وتولّد من ذلك احتكاك بين الأفكار المتباينة والعقائد المختلفة، أدّى إلى قيام حوار وخصام ومناظرات ومجادلات.

ولا بدّ في النهاية أن تصل هذه المناظرات والمواجهات إلى ظهور الحق وثباته، بسبب قوة براهينه ودلائله، وإلى اضمحلال الباطل وهزيمته، بسبب ضعفه وتهافته وتناقضه: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والعقيدة الإسلامية أقوى العقائد وأثبتها، ولا زالت في الساحة شامخة ثابتة تتحدّى المخالفين، وتجادلهم، وتناظرهم، وتبدّد أوهامهم، وتحقق الفلج

عليهم، فهي أقرب العقائد إلى قلب الإنسان وعقله وفطرته، وتقوم على أساس متين، تسنده أقوى الأدلة وأوضح البراهين.

ولا يحتاج الإنسان المسلم لإثبات قوة عقيدته إلا أن يتزود ب زاد القرآن الكريم، ويتسلح بأدلتها القاطعة، وبراهينه الواضحة، وحججه البالغة.

وقد خصص الله تعالى سورة الأنعام لتكون زاداً للمؤمن، الذي يبني إيمانه على بصيرة، ويدعو إلى الله تعالى على بصيرة، فهي بحق سورة بصائر الحق.

وقد رأيت أن أبرز موضوعها هذا في هذا التفسير، الذي نتحدث فيه عن الموضوعات الأساس الكبرى لسور القرآن العظيم؛ لأن كل مسلم في هذا العصر في أشد الحاجة إلى معاني هذه السورة وموضوعها وأسلوبها في التعامل مع المخالفين له والمعارضين لدعوته.

وقد جاء هذا التفسير في أربعة فصول:

الفصل الأول: الحمد لله: ركزت الآيات فيه على إبراز اتصاف الله تعالى بصفات الكمال والغنى والوحدانية، ولهذا فهو وحده المستحق للحمد بذاته، وأبرزت الآيات في الوقت نفسه ضعف الإنسان وفقره وشدة حاجته لله تعالى.

وأما الفصل الثاني: إرشاد وتوجيه: فقد غلب على آياته أسلوب التوجيه والإرشاد، إذ اتجه الخطاب في أكثر آياته للمؤمنين.

وأما الفصل الثالث: مناظرة وردود: ففيه عرضت الآيات مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه، وفيه أيضاً ردود على كثير من أصحاب الملل الفاسدة والنحل الباطلة، قديمها وحديثها.

وأما الفصل الرابع: سفة وضلال: فقد ذكر الله تعالى فيه كثيراً من المفسد والضلالات التي كانت فاشية في المجتمع العربي الجاهلي، وبعد أن بين سبحانه فسادها وتناقضها ختم آيات السورة الكريمة بدعوة الناس إلى الوصايا العشر الخالدة.

ولا بدّ أن يستشعر القارئ الاتّساق والاتّفاق بين آيات السورة، وهو الهدف الأساس لهذا التفسير.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا ويسدّد خطانا، وأن يبصّرنا ببصائر الحق، ويثبّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



تَهْيِيد

مَوْضُوعُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ

البصائر لعقل الإنسان وقلبه كالإبصار لعينه، فهي تجلو الحقائق، وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات ويظهرها، والإسلام دين العقل والقلب والفترة، وأكثر ما يخاطب عقل الإنسان وفكره، يدعو إلى الإيمان والإسلام عن طريق عقله وتفكيره؛ ولهذا نرى القرآن الكريم يشني كثيراً على الإنسان الذي يُعْمَلُ عقله وتفكيره، ليتعرف على الحقيقة، ويميزها عن ركام الباطل والضلال، فلا أصحاب العقول أولي الأبواب والنهى والبصائر مكانة كبيرة، ومنزلة رفيعة في القرآن الكريم.

وحُصِّصَت سورة الأنعام - التي نزلت في مكة - لمحاورة جميع المعرضين عن الإسلام والمعاندين لدعوته من أصحاب الملل والنحل المختلفة، فلم تترك أصحاب ملّة ضالّة وعقيدة فاسدة قديمة أو حديثّة إلا وحاورتهم في آياتها وجادلهم، وبَيَّنَت فساد ملّتهم، وضلال نحلّتهم، كما سيظهر لنا من خلال تأملنا، وتدبرنا لآياتها.

فهي بحق سورة الحجاج والبراهين، تميّزت عن أخواتها من طوال السور بخلوها عن القصص القرآني، سوى بضع آيات تحدّثت فيها عن مناظرة إبراهيم عليه السلام لقومه، وهذه المناظرة من صميم الموضوع الأساس للسورة الكريمة.

وقد برز موضوع السورة في أول آياتها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

هكذا بدأت السورة بهذا الهجوم الكاسح على المخالفين والمعاندين، كأنها تدعوهم إلى ساحة الجدال والمناظرة لتكشف زيفهم، وتظهر ضعفهم.

ثم بعد ذلك شرعت في إيراد الأدلة وحشد البراهين حتى وصلت إلى قوله

تعالى في تقرير الحق: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وإلى قوله أيضاً: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ولا عجب إذاً أن تنزل سورة الأنعام بآياتها التي بلغت مئة وأربعاً وستين آية على النبي ﷺ دفعةً واحدةً، ومعها موكبٌ كبيرٌ من الملائكة لهم زَجَلٌ^(١) بالتسبيح والتقديس والتحميد، كما دلَّ على ذلك عدد من الآثار.

قال القرطبي رحمه الله: «هذه السورة أصلٌ في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملةً واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة، وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بنى المتكلمون أصول الدين»^(٢).



(١) أي: صوت رفيع عال. كما في: النهاية، لابن الأثير: ٢٩٧/٢.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٩٧/٧.

الْفَضْلُ الْأَوَّلُ

الحمد لله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَعْمَدُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرَبٍ مَكَتَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمْكِنْ لَكَ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦) وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩) وَلَقَدْ آسَيْنَاهُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنْتُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلِلَّهِ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ اخْتِذُوا لِيَا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ (١٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْغَايُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهْلُكُمْ

لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾
 الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلِكْتَبَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ
 لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا
 مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
 وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ
 يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوِي عَنْهُ وَإِنْ
 يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا
 وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ
 لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ
 أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ ﴿٣٠﴾ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرْنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْرَادَهُمْ عَلَى
 ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٣﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ
 يَجْحَدُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كَذَبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ
 لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٥﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ
 تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا
 تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾
 وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُزِلَّ ءَايَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَلِيرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمٌّ امْتَنَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي أَلِكْتَبِ
 مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظَّلْمَتِ مِنْ نِشَاءِ اللَّهِ
 يُضِلُّهُ وَمَنْ نِشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ
 السَّاعَةُ أَعَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ

وَتَنسَوْنَ مَا تَشْكُرُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاحْذَرْنَهُمْ بِالْأَسَاءِ وَالْضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ
 يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسًا تَصَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا
 أُوتُوا أَحَدَتْهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ
 كَيْفَ نَصْرِفُ أَلْيَابَ تَمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِن أَنَا أَنَا اللَّهُ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً
 هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا رِيسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَسْتَهْمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾
 قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ
 إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

بدأ الله تعالى سورة الأنعام بالشثناء على ذاته المقدسة، فقال ﷻ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
 يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يدل قوله سبحانه: (الحمد لله) على وجوب اتصافه تعالى
 بجميع صفات الكمال والجلال والجمال، فهو المستحق للحمد بذاته؛ لأنه
 سبحانه وحده المتصف بجميع صفات الكمال، وهو ثابت له سبحانه بطريق
 البرهان والاستدلال، كما سيظهر معنا في آيات سورة الأنعام.

وبعضهم فسّر الحمد بالإحاطة بأوصاف الكمال^(١)، ولما كانت كماله
 سبحانه غير متناهية، ولا يحيط بها أحد من المخلوقات، حمد الله تعالى نفسه
 بنفسه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ .

وقد وردَ في بعضِ أدعيةِ النبي ﷺ: «اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمَعْفَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [رواه مسلم (٤٨٦)].

ولما سُئِلَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه عن معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال: الحمدُ لله، كلمةٌ رضيها لنفسه^(١).

فما عَرَفَ اللهَ حقَّ المعرفةِ أحدٌ، وما أحاطَ بكَمالاته غيرُه تعالى، تقدَّست ذاته، وتباركت أَسماؤه، وتسامت صفاته، وسيأتي معنا قوله ﷻ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

واستحقاقُه سبحانه للحمدِ ثابتٌ دائمٌ قبلَ إيجادِه للخلقِ وبعده، وسواء حمده العبادُ أو كَفَرُوهُ؛ لأنَّ صفاتِ كماله وجماله وجلاله أزليَّةٌ أبديةٌ غيرُ حادثةٍ، ولا يطرأ عليها تغييرٌ أو تبدلٌ، فهو سبحانه خالقٌ قبلَ أن يَخْلُقَ، لأنَّه قادِرٌ على الخلقِ أزلاً، ورازقٌ قبلَ أن يَرْزُقَ، لأنَّه قادِرٌ عليه أزلاً.

والألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراقِ جميعِ المحامدِ، كما جاء في الحديثِ النبوي الشريف: «اللهمَّ لَكَ الحمدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الملكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الخَلْقُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الأمرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الخَيْرِ كُلِّهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ» [رواه البيهقي (٥/١) برقم (٩)].

وأمر الله عبادَه أن يشنوا عليه به في ضمنِ هذا الثناء الذي أثنى به على نفسه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ليرضى عن العبدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فيحمدُه عليها، ويشربُ الشربةَ فيحمدُه عليها» [رواه مسلم (٢٧٣٤)].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناءٌ أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمرُ عبادَه أن يشنوا عليه، فكأنَّه قال: قولوا: الحمدُ لله . . . وهو ثناءٌ على المحمود

(١) فتح القدير، للشوكاني: ٢٠/١.

بصفاته اللازمة والمتعدّية، والشكرُ لا يكونُ إلا على المتعدّية، وهو نقيضُ الذَّمِّ، وأعمُّ من الشكرِ، والشكر الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف»^(١).

ثم بيّن سبحانه موجب استحقاقه للحمد بقوله تعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فيجاءه تعالى للموجودات كافٍ في استحقاقه للحمد، فكيف بما يتفرّع عليها من فنون النعم المنوط بها مصالح العباد في المعاش والمعاد؟!^(٢)، فهو كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلِكِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مِثْنَى وَثُلْثَ وَرُبْعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

فهو سبحانه يستحقُّ الحمدَ لأنّه خالق السماوات والأرض، ويستحقه أيضاً لأنه مالكٌ للسماوات والأرض ومدبّرٌ ما فيهما من الأمر، ولهذا قال جلّ وعلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغِيثُ﴾ [سبا: ١].

ويستحقُّ سبحانه الحمدَ أيضاً على إرساله الرسل لهداية عباده، وإنزاله الكتب كما قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

والحمد لا يكونُ إلا للفاعل المختار، فخلقه سبحانه للسماوات والأرض كان بمحض مشيئته وإرادته، فكأنَّ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تصريحٌ بأنَّ المؤثّر في وجود العالم فاعلٌ مختار، خلقه بالقدرة والمشيئة^(٣).

ومعنى الخلق: الإيجاد والإنشاء والصنع والاختراع، فالله سبحانه خلق السماوات والأرض، أي: أوجدهما وأنشأهما.

ويأتي الخلق أيضاً بمعنى التقدير والقياس، يقال: خلق الثوب، أي: قدره

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢٠/١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٤/٢.

(٣) انظر: التفسير الكبير: ١٢/١٤٣.

وقاسه على ما يريد قبل العمل، ولا شك أنه سبحانه أنشأ السماوات والأرض وقدرهما، وقدر كل ما فيهما، فله سبحانه الخلق والتقدير لكل المخلوقات؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال ﴿أَيْضاً﴾: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾ [الأعلى].

● الظلمات والنور:

﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وهذا أيضاً من موجبات استحقاقه تعالى للحمد، فكما أن خلق السماوات والأرض من نعم الله تعالى الجليلة، كذلك جعل الظلمات والنور من نعمه العظيمة.

والجعل: هو الإنشاء والإبداع كالخلق، إلا أن الجعل أعم من الخلق، فهو يشمل الإنشاء والإبداع والاختراع، كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

ويشمل أيضاً الوضع والتشريع^(١)، كقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أَهْطَكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

ولهذا رأى بعضهم أن جعل الظلمات والنور هنا حكم جرى به قضاؤه، أو أنه سبحانه جعل الظلمات آثار المعاصي، والنور آثار الإيمان به سبحانه وطاعته، وبهذا يظهر لنا أن المراد من الظلمات والنور، كل ما يطلق عليه اسم الظلمة واسم النور حساً ومعنى، فيدخل تحته ظلمات الكفر، ونور الإيمان، وسيأتي معنا في السورة استعمال الظلمات والنور بهذا المعنى في قوله الكريم: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

كما سيأتي استعمال النور والظلمات بمعناهما الحسي في قوله تعالى:

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٤/٢.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وأورد الله تعالى كلمة الظلمات بصيغة الجمع لكثرة أسبابها وطرقها، فللشر والكفر أسباب كثيرة، أو لكثرة ملل الكفر والضلال. وفي الآية ردٌّ على الثنوية من المجوس، القائلين بأنَّ النور والظلمة يقومان بذاتهما^(١)، ولذلك فهم يؤلّهون النور والظلمة، وينسبون إليهما ما يقع من الحوادث.

كما أنَّ الآية تردُّ على الفلاسفة القائلين بقدم العالم، والقائلين بقدم الأنواع، والقائلين بقدم المادة من ملاحظة هذا العصر، فكلُّ ما سوى الله تعالى مخلوقٌ محدثٌ مسبوقٌ بالعدم، والله سبحانه هو القديم الأول الخالق المبدع جَلَّ جَلَّالَهُ.

﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون له سبحانه نظيراً في العبادة، كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٩٧] إِذْ سُوِّبَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء].

وأشار سبحانه في آيات كثيرة إلى أنَّ الكفار ساووا بين المخلوق والخالق كقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾ [الرعد: ١٦]^(٢).

و ﴿ثُمَّ﴾ في الآية لاستبعاد ما صنعه الكفار من كونهم بربهم يعدلون، فهو سبحانه المتفردُ بصفات الكمال، والخالقُ للسموات والأرض والظلمات والنور وحده، لم يشاركه في ذلك أحدٌ كما قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً﴾ [الكهف: ٥١].

وهكذا تضمنت هذه الآية الكريمة الأصل الكبير الذي يقوم عليه اعتقاد

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣٨١/٢.

(٢) انظر: أضواء البيان: ١٨١/٢.

المسلم المُوَحَّد، وهو التمييز بين صفات الخالق وصفات المخلوق، كما تضمنت الرد على جميع الملل والنحل الضالة التي كان منشؤها عدم تمييز أصحابها بين صفات الخالق جلّ وعلا وصفات المخلوق، وهو ما تتجه إليه معظم آيات السورة، كما سيأتي معنا إن شاء الله.

• بين أجلين:

ثم توجهت الآيات الكريمة بالخطاب إلى الإنسان، لتبيّن موقعه في هذا الكون، والحكمة من وجوده، وتميّزه عن غيره بالمسؤولية أمام الله تعالى بعد هذه الحياة، وبدأت تذكر الإنسان ببدايته:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ أي: الله تعالى الذي ابتدأ خلقكم من طين بخلق أبيكم آدم منه، أو ابتدأ خلق كل واحد منكم من نطفة مستخلصة من طين الأرض، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون].

﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أي: قدر وكتب أجلاً لموت كل واحد منكم، فبدايتك أيها الإنسان بمشيئة الله تعالى وقدرته، ونهاية حياتك على هذه الأرض بمشيئته سبحانه أيضاً وقدرته.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ أي: وهناك أجل معين مثبت عنده جلّ وعلا، ولا يعلمه غيره، لبعثكم جميعاً يوم القيامة، وحسابكم على ما أسلفتم في حياتكم الدنيا.

وجاء الإخبار عن الأجل الثاني بالجملة الاسمية تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لحاله، ولكونه ممّا استأثر الله تعالى بعلمه، فلا يعلمه أحد سواه، بخلاف أجل الموت، فقد يُعْلَمُ على وجه الإجمال والتقريب، على ما هو المعتاد من أعمار الناس، أو لظهور أماراته من الضعف والمرض والشيخوخة.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَضَى لِكُلِّ أَحَدٍ أَجَلَيْنِ: أَجَلاً مِنْ مَوْلَدِهِ إِلَى مَوْتِهِ، وَأَجَلاً مِنْ مَوْتِهِ إِلَى مَبْعَثِهِ ^(١).

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي: ثم مع كل هذا تشكون في قدرة الله تعالى على بعثكم يوم القيامة، فمن أفاضل الحياة وما فيها من العلم والقدرة وسائر الكمالات البشرية على مادة غير مستعدة لها أصلاً، وهي الطين، كان أقدر على إفاضتها عليها مرة ثانية بعد أن استعدت لها وقارنتها مدة من الزمن ^(٢).

وهكذا جعل الله تعالى لحياة الإنسان في الدنيا أجلاً تنتهي به، ولحياته في الآخرة أجلاً بمشيئته تعالى تبدأ به ولا تنتهي، والأجل الأول للابتلاء، وأما الثاني فللجزاء.

• خالق كل شيء:

ثم بين سبحانه كمال علمه وإحاطته بجميع أحوال الإنسان فقال:

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

أي: وهو الإله المعبود في السماوات وفي الأرض، فلا معبود بحق سواه جلّ وعلا، وقد أحاط علماً بسائر مخلوقاته، فهو كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

ويمكن أن يكون المعنى أيضاً: وهو الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض من سرٍّ وجهر، ويشهد له قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

وليس في الآية أيُّ دليلٍ لبعض الفرق الضالة كالجهمية القائلين بأنه سبحانه في كل مكان، لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحلَّ في شيء منها رب السماوات والأرض، الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٧/٢١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

شيء، ومحيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء^(١)، وهو سبحانه الموجود قبل كل سماء وفضاء، وظلام وضياء، وشمس وقمر، وعين وأثر، والباقي أزلاً بعد فناء كل المخلوقات: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢١﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

يتنزه سبحانه أن يحويه مكان، وهو خالق المكان والزمان: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقد جاء في بعض الأدعية المأثورة عن سيدنا رسول الله ﷺ: «اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» [رواه أحمد (٨٩٤٧) ومسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه].

• سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْمَكْذِبِينَ:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٤﴾.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أنزلها على رسوله ﷺ، أو التي بثها في المخلوقات، وأظهرها في الموجودات.
﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ تاركين لها، وغير منتفعين بها.
والسبب مسارعتهم إلى ردّها وتكذيبها:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٥﴾.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن الكريم.

على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه^(١).

لقد بلغ القوم الغاية في العناد والمكابرة، حتى طلب بعضهم من النبي ﷺ أن ينزل الله تعالى عليه القرآن مكتوباً في أوراق، كما نزل التوراة على موسى في ألواح، وأن ينزل الله تعالى عليه ملكاً يروونه بأعينهم، ليشهد أن هذا الكتاب من عند الله تعالى، فردّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧).

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعدما شاهدوه بأعينهم، بحيث لم يبق لهم أي اشتباه.

﴿لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هذا إلا سحر ظاهر واضح، وهذا شأن المُفْحَم المحجوج، ودَيْدُنُ المكابر اللجوج^(٢).

• الباحثون عن حقتهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُصِّي الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ (٨).

ثم بعد أن حكى الله اقتراحهم إنزال الملك:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ بين ما فيه من خطر عليهم:

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُصِّي الْأَمْرُ﴾ أي: لانتهى الأمر بهلاكهم، لأن قواهم البشرية لا تتحمل رؤية الملك.

ولهذا كان الملائكة ينزلون على الأنبياء ﷺ في صورٍ بشرية، مع أن الأنبياء مؤيدون بإمداد الله تعالى وتثبيتته، ولم ير نبينا ﷺ جبريل ﷺ بهيئته الملائكية إلا مرتين: أولاهما: في الأرض عند غار حراء، وثانيتها: عند

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٦٩/١.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ١١٢/٢.

سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فِي السَّمَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم].

أو: لو أنزلنا الملائكة عليهم لأنزلناهم بالعذاب والهلاك، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].
ويؤيد هذا المعنى قوله هنا:

﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ أي: لا يُمهَّلون ولا يؤخَّرون بل يعاجلون بالعذاب والهلاك، فحالهم في هذا الاقتراح كحال الباحث عن حشفه بظلفه.

ومن رحمته سبحانه وحكمته أن يرسل الرسول إلى الناس من جنسهم ليمكنهم مخاطبته والتلقي منه، ولو أرسل إليهم ملكاً لأرسله على هيئة الرجل ليمكنوا من رؤيته، ولهذا قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

أي: ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة الرسول البشري، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمَسُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]^(١).

وتجاه هذه المكابرة والعناد الشديد، لا بد من تأنيس قلب النبي ﷺ، وتسليته عما يلقاه منهم، وتثبيته في مواجهتهم، ولهذا قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٠﴾.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ﴾ أي: أحاط أو نزل أو حل.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥٦٩/١.

﴿يَالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به عندما كانت الرسل تتوعدهم به .
ولا تزال في الأرض آثارُ عذابهم باقيةً، فسيروا إليها، وانظروا فيها نظرَ المعبر والمتعظ:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ .

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى بلادِ صالح في الحِجْر، وإلى بحيرة لوط، الذين تمرُّون عليهم في أسفاركم إلى بلاد الشام .
﴿ثُمَّ أَنْظَرُوا﴾ نظرَ الاستبصار والاعتبار .
﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: للأنبياء والمرسلين .

• الرحمة أولاً:

ولما كانت سورة الأنعام سورة البراهين القاطعة والملزمة، نجدُ فيها كثيراً من الآيات التي تأمرُ النبي ﷺ أن يواجه أهل الكفر والعناد بما فيها من الأسئلة التقريرية الملزمة والمفحمة، ومنها:

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَبَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلْكاً وتديراً؟ .
ولما كانَ القومُ في غاية العنادُ أمرَ ﷺ أن يتولى الإجابة عنهم:
﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ فهو الجوابُ المتعيَّن بالاتفاق، ولا يستطيع أحد أن يجيب بغيره .

﴿كَبَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: إنه تعالى قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة تفضلاً وإحساناً .

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَمَّا خُلِقَ

اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» وفي رواية: «سبقت رحمتي غضبي» [رواه البخاري (٧٤٠٤) ومسلم (٢٧٥١)].

ومعنى سَبَقَ الرحمة وغلبتها: أنها أقدمُ تعلّقاً بالخلق، وأكثرُ وصولاً إليهم^(١).

فرحمته سبحانه أولاً لخلقه، وآثارُ إحسانه وفضله الواصلة إلى خلقه جلّ وعلا أكثرُ من آثارِ غضبه، ويتمتعُ الخلقُ بآثار الرحمة قبل أن تصيبهم آثارُ الغضب بسبب تماديهم في الكفر والعناد، كما هو مشاهدٌ من أحوال العباد، وصدق الحقُّ تعالى بقوله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

فالله ﷻ رحيمٌ بعباده، وما خلقهم ليعذبهم، ومن رحمته سبحانه أنه لا يعاجل المعاندين والعصاة من عباده بالعقوبة، بل يمهّلهم، ويقبلُ توبةَ التائب منهم، مهما كانت ذنوبه كبيرةً وكثيرةً، وما سبق ذكره في الآيات من الإخبار عن هلاك الأمم المكذّبة لرسُلها ليس من مقتضيات ذاته المقدّسة، بل من جهة الخلق بسبب تكذيبهم وعنادهم، وإصرارهم على كفرهم، كيف لا ومن رحمته أنه خلقهم على الفطرة السليمة، وهداهم إلى معرفته بما أرسل إليهم من رسل، وأنزل عليهم من كتب، وكلفهم بالسير على نهجه وشريعته، ليسعدوا به في الدنيا والآخرة.

• الحياة والمسؤولية:

وهذه أسباب التكليف والمسؤولية، ولهذا أخبر الله عن يوم القيامة في الآية الكريمة بعدما أخبر عن رحمته والتزامه لها بفضله وإحسانه فقال:

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه، فيومُ القيامةِ رحمةٌ كبيرةٌ من الله تعالى لعباده، ولا يدرك

(١) تفسير أبي السعود: ١١٥/٢.

الإنسان قيمة حياته في الدنيا إذا لم يستشعر مسؤوليته عنها أمام الله تعالى يوم القيامة .

إنَّ الإيمانَ بيوم القيامة يعطي حياتنا في الدنيا معناها، ويعرّفنا على جوهرها وحقيقتها، ومن دونه تصبح حياتنا لهواً وعبثاً، لا طعم لها ولا قيمة، بل تصبح فارغة تافهة مسئمة .

إن الذين يعانون مشكلة الفراغ في حياتهم لا يستشعرون مدى مسؤولياتهم عن هذه الحياة، ولو علموا مدى هذه المسؤولية وشمولها؛ لَمَّا وجدوا في حياتهم وقتاً فارغاً يسعون جاهدين لشغله بشتى وسائل التسلية واللهو، وإنَّ ملء الوقت الفارغ في حياة الإنسان المعاصر أصبح مشكلةً كبيرةً، ونظرةً واحدةً إلى الألهي والملاهي المطروحة بين أيدي الناس تبين لنا مدى الجهد الكبير الذي يُبذل لإنتاج هذه الوسائل التي لا تعود على الإنسان بأيّ فائدة حقيقية، ومع ذلك لم يستطع كل هذا أن يمتصّ الفراغ الذي يعاني منه الكثيرون، حتى لجأ بعضهم ليطرد السآمة والملل من حياته إلى سلوك طريق المغامرة والجريمة، لا حُبّاً بالجريمة، وإنما حُبّاً بالمغامرة لتغيير سَيْرِ حياته التي ملّها وسئمها، والوقتُ إن لم تملأه بالخير امتلأ بالشر^(١).

وهذا يبيّن لنا فضله سبحانه علينا، ورحمته بنا، عندما شرّفنا بالتكليف والمسؤولية، ففضلاً عن أنَّ التكليف ينظّم حياتنا، ويهذّب سلوكنا، ويقوّم المعوجّ من أخلاقنا، فإنّه أيضاً يجعلنا نتذوّق طعم الحياة الحقيقي، ونعرف قيمتها وجوهرها .

وتتجلّى يوم القيامة رحمته سبحانه بعباده أكثر مما هي عليه في الدنيا، ولقد بيّن رسول الله ﷺ هذا المعنى في قوله: «إِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ،

(١) انظر: حياتنا والموعود المجهول، للمؤلف.

وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة» [رواه البخاري (٦٠٠٠) ومسلم (٢٧٥٢)].

وهذه الرحمات الكثيرة الكبيرة التي أخرها سبحانه ليوم القيامة محجوبون عن ربهم وعن رحمته كما قال تعالى فيهم: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿٦٦﴾ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب]، فما أعظم خسارتهم، وما أشد حسرتهم: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾!.

وكما دلّ قوله سبحانه السابق: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢] على شمول ملكه سبحانه لكل مكان، دلّ قوله اللاحق بعد ذلك على شمول ملكه لكل زمان:

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٣﴾.

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ والمراد ما سكن فيهما أو تحرك، فاكتمى بأحد الضدين عن الآخر^(١)، فهو كقوله تعالى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد، ولا تنفك المخلوقات عن إحدى هاتين الصفتين، السكون أو الحركة، وهما من لوازم الحدوث.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لكل الأصوات، والعليم بكل المخلوقات، في أي مكان وزمان.

• كمال العبودية:

وبعد أن بيّنت الآيات الكريمة السابقة أنه تعالى متفرد وحده بصفات الكمال، وأنه تعالى وحده الخالق والمالك لجميع المكنونات، أمرت النبي ﷺ

(١) تفسير أبي السعود: ١١٦/٢.

أن يبين للناس شدة احتياجهم وافتقارهم إليه سبحانه، فلا ينبغي لهم التذلل والخضوع إلا له تعالى، وعليهم الاستسلام والانقياد لأمره جلّ وعلا.

ولما كان كمال العبد في كمال خضوعه واستسلامه لربه ﷻ، وكان النبي ﷺ أكمل الناس؛ لأنه أكثرهم خضوعاً واستسلاماً لله تعالى، أبرزت الآيات هذا المعنى وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٤﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا﴾ والولي في اللغة: المُعين والناصر والصاحب، ومن يتولّى الأمر أي: يقوم به، والمعنى: لا أتخذ وليّاً غير الله سبحانه.

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق^(١).

فهو تعالى الغني الذي لا يحتاج إلى أحد، والكل محتاجون إليه.

﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: هو الذي يرزق، ولا يحتاج إلى رزق أحد، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ٥٢ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٥٣﴾ [الذاريات].

وهو سبحانه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه المخلوق من طعام وغذاء، وبهذا ردّ جلّ وعلا على الذين وصفوا عيسى ﷺ وأمه بصفة الألوهية، ببيان حاجتهما إلى الطعام فقال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فكيف يتولّى المخلوق غير خالقه ورازقه؟! وكيف يقابل فضله عليه وإحسانه فيتولّى غيره؟! وهو جلّ وعلا غني عن ولايته وطاعته وعبادته.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧٠/١.

• المسلم الأول:

المسلم الأول هو نبيُّنا محمد ﷺ، أولُ هذه الأمة إسلاماً، وهو أيضاً أولُ الناس إسلاماً، لأنه أعظمهم خضوعاً لله تعالى واستسلاماً لأمره ومشيتته، وقد أُمِرَ ﷺ أن يعلنَ هذه الحقيقة للناس، وهو يدعوهم إلى الإيمان بالله، والاستسلام له وحده، ليكون قدوتهم وإمامهم.

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فهو أولُ مَنْ أسلم لله تعالى على الإطلاق في الرتبة، وأول من أسلم في الزمان بالنسبة إلى أمته عليه الصلاة والسلام^(١).

وكما أُمِرَ ﷺ أن يكون القدوة الكاملة في الخضوع والاستسلام لله تعالى، نُهي عليه الصلاة والسلام في الوقت نفسه عن كلِّ مظهرٍ من مظاهر الشرك، ليكون أيضاً في التنزه عن الشرك قدوة وأسوة لكلِّ الموحِّدين:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

ثم أُمِرَ عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يبيِّن للناس شدة خشيته لله تعالى، وعظيم خوفه منه، ومن المعلوم أنه كلما ازداد الإنسان قرباً من الله تعالى بطاعته وعبادته، ازداد تعظيمه لله تعالى، وخوفه منه؛ ولهذا كان ﷺ يقول: «أما والله إنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له» وفي رواية: «فوالله إنِّي لأعلمهم بالله وأشدُّهم له خشيةً» [رواه مسلم (١١٠٨)].

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وإذا كان هذا حاله ﷺ مع ربه ﷻ، فكيف ينبغي أن يكون حالنا معه جلَّ وعلا؟!.

فما أحوج المؤمن أن يتذكَّر دائماً هذا المعنى، وأن يواجه نفسه بهذه

(١) انظر: نظم الدرر: ٣٧/٧.

الحقيقة كلما غفلت عن الله تعالى، وشردت عن باب فضله ورحمته، أو همت بمعصيته، ففي الآية تحذير شديد من مقاربة المعاصي ومقارفتها، «وَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يوشِكُ أَنْ يرتع فيه» كما جاء في الحديث الشريف. [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)].

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ﴾ (١٦).

﴿مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: من يُصْرِفْ عنه العذاب يوم القيامة. ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ فلا نجاة لأحدٍ من عذاب الله تعالى إلا برحمته سبحانه وفضله، كما قال ﷺ: «قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، واعلموا أَنَّهُ لَنْ يَنْجُو أَحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ» [رواه مسلم (٢٨١٦)].

والمقاربة: القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير. والسداد: الاستقامة والإصابة.

﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ﴾ يعني أن صرف العذاب وحصول الرحمة هو النجاة والفلاح المبين.

• مالك النفع والضر:

وتابعت الآيات الكريمة بيان شدة افتقار الإنسان إلى خالقه جلّ وعلا، فبيّنت أنه تعالى بيده النفع والضر، فهو المتصرف في خلقه كما يشاء، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، وسلكت الآيات أسلوب التقرير، الذي يتناسب تماماً مع ما سبقه من إعلان الإذعان والاستسلام لله تعالى مع الاستمرار بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ:

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ، إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧).

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ، إِلَّا هُوَ﴾ فلا يزيله عنك إلا هو سبحانه،

فألجأ إليه إذا أصابك شيءٌ من الضر، وأنت تعتقد أنه وحده الذي يكشفه عنك، وعليك أن تأخذ بالأسباب التي توصلك بتقديره سبحانه ورحمته إلى السلامة والنجاة^(١).

﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ بَعْضُ أَهْلِ الْبَيْتِ عَنْ خَيْرٍ فَمَا تَقِمْ لَهُ إِلَّا مَا رَأَيْتَ لَهُ مِنْ دُونِ الْغُفُورِ الرَّحِيمِ﴾ هكذا على الإطلاق، فقد رتبه سبحانه طليقة وسعت كل شيء، ولا يقدر أحد أن يردَّ فضله سبحانه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَعْضُ أَهْلِ الْبَيْتِ عَنْ خَيْرٍ فَمَا تَقِمْ لَهُ إِلَّا مَا رَأَيْتَ لَهُ مِنْ دُونِ الْغُفُورِ الرَّحِيمِ﴾ [يونس: ١٠٧]. وكيف يستطيع أحد أن يردَّ فضله جلَّ وعلا؟!:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وفهر كل شيء، ودانت له الخلائق، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه^(٢).

والقهر: الغلبة، والقاهر: الغالب، ومعنى ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾: فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان، كما نقول: السلطان فوق رعيته؛ أي: بالمنزلة والرفعة^(٣).

ويمكن أن نقول: المراد فوقية تليقُ بجلاله وكمال صفاته.

والقاهر الذي يعملُ مراده كلَّه، ويمنع غيره مراده إن شاء؛ ولما كان في القهر ما يكون مذموماً نفاه سبحانه بقوله:

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فلا يوصلُ أثر القهر بإيقاع المكروه إلا لمستحقه.

(١) انظر تفصيل الموضوع في: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو قسم من هذا التفسير.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧١/١.

(٣) فتح القدير: ١٠٤/٢.

﴿الْحَبِيرُ﴾ بمن يستحق كل شيء^(١)، فهو سبحانه حكيمٌ في جميع أفعاله، وخبيرٌ بمواضع الأشياء، فلا يعطي ولا يمنع إلا بمشيئته وحكمته ﷻ.

• أعظم شاهد وأكبر شهادة:

ولا بدّ لدعوة النبي ﷺ من شهادةٍ تؤيّدُها، فأكرمهُ الله تعالى بأعظم شاهدٍ وأكرم شهادةٍ، قال ﷻ:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩).

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾؟ بدأت الآية بهذا الاستفهام لتنبية الأسماع والقلوب لما يأتي.

﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فشهادته سبحانه أكبر شهادة وأكرمها، لأنّه العليم الخبير، وهي شهادة باقية خالدة، لا تنتهي بموت النبي ﷺ، بل تستمرّ على مرّ الزمان، وكرّ الأعوام؛ لبقاء الشاهد ودوامه جلّ وعلا، وهي في التنزيل الحكيم، الذي أوحاه إلى نبيّه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: لأنذركم به يا أهل مكة، وسائر من بلغه من الأسود والأحمر، أو من الثقلين الإنس والجن.

أو: لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة^(٢).

وهذا يدلّ على عموم رسالة الإسلام، وشمول دعوة القرآن للإنس والجن في كلّ زمانٍ ومكانٍ إلى قيام الساعة، وأنّ على المسلمين أن يعملوا على نشر القرآن الكريم بين الناس، وإيصال معانيه إليهم بلغاتهم.

(١) انظر: نظم الدرر: ٣٩/٧.

(٢) تفسير أبي السعود: ١١٨/٢.

قال ابن جرير الطبري رحمته الله: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً ﷺ ^(١). فالقرآن هو حجته سبحانه على عباده بعد موت نبيه خاتم النبيين ﷺ الذي لا نبي بعده.

ثم بينت الآيات بطلان ما هم عليه من الشرك والكفر بأسلوب التقرير والتحدي:

﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ فما قيمة شهادتكم بجانب شهادة الله تعالى؟! فشهادتكم ظاهرة البطلان والفساد، لا يليق بأحد أن يشهد عليها.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ على ذلك أشهد.

﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

• الكاذبون والمكذبون:

وهناك شهود من البشر يعرفون صدق النبي ﷺ وصحة دعوته ورسالته، ولكنهم كتموا الشهادة بغياً وحسداً، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي: يعرفون رسول الله ﷺ بحليته ونعوته المذكورة في كتبهم معرفة تامة لا شك فيها، ومع ذلك كَفَرُوا أكثرهم به عليه الصلاة والسلام، وخانوا الأمانة التي أوثموا عليها، وكانت النتيجة:

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن كفرهم وجحودهم عائد على أنفسهم.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١) روح المعاني: ١١٩/٧.

فلا ظلم أشد من هذا الظلم، ظلم الشهود الذين أوْتُمِنوا على الشهادة فكتموها، ثم شهدوا بما يخالفها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كهؤلاء الذين حرّفوا كتابهم، وغيروا وبدّلوا كلام الله تعالى فيه .
﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: كذب بالدلائل والبراهين المؤيِّدة للنبي ﷺ كما فعل مشركو مكة .

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ من الكاذبين والمكذِّبين .

• أين شركاؤكم؟:

وعقبت الآيات على تكذيبهم وشركهم بعرض موقف لهم يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعَاتٍ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

أي: أين الشركاء الذين كنتم تدعون أنهم شركاء الله تعالى في استحقاق العبادة، وكنتم تتوجهون إليهم بالعبادة والطاعة؟! ولا يخفى ما في هذا السؤال من تهكم مرّ بهم، واستخفاف بهؤلاء الشركاء .

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أي: لم يكن لهم حجة يحتجّون بها، أو لم يكن لهم عذر يقدمونه .

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهذا يدل على شدة عنادهم وكثرة كذبهم، فهم يكذبون في الدنيا وفي الآخرة .

ولهذا قال تعالى يُعَجِّبُ الْقَارِئُ وَالسَّامِعُ مِنْ شِدَّةِ كَذِبِهِمْ:

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٤).

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ مع علمهم أنه لا ينفعهم.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم كذبهم الذي كانوا عليه في الدنيا عندما عبدوا الأصنام، وقالوا عنهم: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].
ودلّ قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على أن القوم لما عاينوا هول الموقف دُهِشوا وتحيروا حتى إنهم كذبوا، ولو لم يكونوا حيارى مدهوشين لما قالوا ما قالوه من الكذب؛ لأن جميع الحقائق تنكشف يوم القيامة^(١)، فلا تزوير ولا كذب ولا تدليس في هذا اليوم.

• المهلكون لأنفسهم:

وتتابعت الآيات بهذا الأسلوب، وهو عرض موقف من مواقف المعرضين عن الحق في الدنيا، ثم التعقيب عليه بموقف من مواقفهم يوم القيامة، فعاتت بنا الآيات إلى الدنيا مرة ثانية؛ لنشهد موقفاً من مواقف الإعراض والعناد، إعراضهم عن آيات القرآن الكريم، وهم يسمعونها من النبي ﷺ مباشرة:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٥).

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ولكنهم لا يسمعون سماع إجابة، فلا ينتفعون بما سمعوا، لأن قلوبهم وأسماعهم محجوبة عن أنوار الهداية.
﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: جعلنا على قلوبهم أغشية وحجباً تحجبهم عن فهم كلام الله تعالى وتعقله، بسبب عنادهم وفجورهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].
﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: وجعلنا في آذانهم صمماً عن السماع النافع لهم.

(١) روح المعاني: ١٢٤/٧.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ فقد بلغ القومُ الغايةَ في العناد والإعراض، فمهما رأوا من الآيات والدلالات والحُجج والبيّنات والبراهين لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف^(١).

ومع كلِّ هذا يأتون إلى النبي ﷺ بكلِّ وقاحة وتبجح مجادلين:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾ ولا يقولون مثل هذا القول الواضح الفساد والبطلان إلا تخديراً لمشاعرهم وأحاسيسهم وليبعدوا الناس عن الاستماع للقرآن الكريم.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٢٦).

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول ﷺ.

﴿وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ﴾ أي: يبتعدون عنه، فلا هم ينتفعون به، ولا يدعون غيرهم ينتفع به.

﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يهلكون إلا أنفسهم بموقفهم هذا من القرآن الكريم، ودعوة الرسول ﷺ؛ لأنَّ وباله يعود عليهم؛ وهم لا يشعرون.

• وقفة على النار:

وجاء تعقيب الآيات الكريمة على هذا الموقف للمشركين في الدنيا بعرض موقفٍ لهم يوم القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَكَوْنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٧).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ﴾ وشاهدوا بأَمِّ أعينهم ما فيها من الأهوال والأنكال، فحينئذٍ يكون حالهم حسرةً وندامةً على ما فرطوا في الدنيا.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧٢/١.

﴿فَقَالُوا يَلْبَسْنَا نَرُدُّهُ﴾ إلى الدنيا .

﴿وَلَا تُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : ظهر لهم عذاب جهنم الذي كانوا ينكرون تحققه ويكذبون به في الدنيا ، أو ظهرت لهم القبائح والفضائح التي كانوا يسترونها عن الناس في الدنيا^(١) .

ويحتمل أنه ظهر لهم ما كانوا يعلمونه في قرارة أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا كما قال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل : ١٤]^(٢) .

وحاصل هذه الأقوال : أنهم عندما يقفون على جهنم ، ويرون ما فيها من أنواع النكال والعذاب تتكشف لهم الحقائق ، وتظهر الخفايا والسرائر ، كما قال تعالى عن يوم القيامة : ﴿يَوْمَ بُلِيَ السَّارِيرُ﴾ [الطارق : ٩] .

ولهذا ينكشف يوم القيامة أهل الرياء والنفاق ، وأهل الزور والخداع ، يظهرهم جميعاً على حقيقتهم التي كانوا يستترون عليها في الدنيا .

لقد أحاط الله تعالى علماً بكلِّ أحوالهم ، ما أظهره وما أسروه ، بل إنه سبحانه علم من أحوالهم التي لن تكون أنها لو كانت كيف تكون ؛ ولهذا قال :

﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي : لو ردهم الله تعالى إلى الدنيا ، وحقَّق لهم أمانيتهم بالعودة إليها ليستأنفوا حياتهم فيها من جديد ، وليعملوا فيها العمل الصالح ، لعادوا إلى كفرهم وجحودهم وفسادهم وإفسادهم .

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في تمنيتهم الرجعة إلى الدنيا رغبةً بالإيمان والعمل الصالح .

(١) انظر : روح المعاني : ١٢٩/٧ .

(٢) انظر : مختصر تفسير ابن كثير : ٥٧٣/١ .

● وقفة بين يدي الله تعالى:

وتعود بنا الآيات مرةً ثالثةً إلى الدنيا، لتعرض لنا موقفاً آخر من مواقف الكفار:

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٢٩).

لقد رأى أكثر المفسرين أن هذه الآية معطوفة على ما سبقها من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ٢٨].

ولكنني أرى أن الواو في أول هذه الآية للاستئناف، وأن الآية تحكي موقفاً جديداً لنوع من أنواع الكفار، وهم الكفار الدهريون، المنكرون لوجود الخالق ﷻ، ويستتبع إنكارهم وجودَ الله تعالى إنكار يوم القيامة أيضاً، وقد ذكرهم الله تعالى في قوله الكريم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهذا الذي أراه يتفق مع ما سبق تقريره في موضوع السورة من أنها جاءت تردُّ أقوال الكفار، وتدحض مزاعمهم في شتى ألوان كفرهم، ويتفق أيضاً مع قوله تعالى بعد ذلك في سياق الآيات:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٠).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: وقف هؤلاء المنكرون لوجود الصانع بين يدي ربهم.

وتأمل الفرق بين قوله تعالى السابق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وبين قوله اللاحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ فالقول السابق في الكافرين المشركين الذين يقرون بوجود الخالق جلّ وعلا، ولكنهم يعبدون غيره، ويشركون به سبحانه، ويكذبون رسله، وينكرون يوم القيامة، وعذاب النار، وهو

العذاب الذي هدّدهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فناسبهم أن يقول تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ﴾ [المائدة: ٢٧].

والقول الثاني اللاحق: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ في المنكرين لوجود ربهم الذي خلقهم وربّاهم، وأمدهم بكل أسباب الحياة، فناسبهم أن يقول فيهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ فالآية الثانية تحكي إذاً موقفاً آخر مغايراً للأول لنوع آخر من الكفار، وليست تكراراً وتأكيداً للموقف السابق كما رأى كثير من المفسرين، فالقول بالتأسيس أولى من القول بالتأكيد؛ لأنه يتفق أكثر مع بلاغة القرآن الكريم وفصاحته.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَقُفُّوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ تمثيل لحبسهم للسؤال والتوبيخ، أو بمعنى الاطلاع، أي: عرفوه ﷻ حق التعريف^(١)، فأيقنوا بوجوده وكماله ووحدانيته جلّ وعلا.

﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ الثابت.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بالحق، وأكدوا اعترافهم بالقسم به سبحانه.

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: فذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم.

• حَمَلَةُ الْأَوْزَارِ:

ثم بيّن سبحانه الخسارة الكبيرة التي تحلّ بالمنكرين ليوم القيامة عندما يأتيهم هذا اليوم فجأة على غير انتظار واستعداد:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ ﴿٣١﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ خسروا حياتهم، وضيّعوا أعمارهم دون فائدة

(١) روح المعاني: ١٣١/٧.

تُرجى؛ بسبب إنكارهم ليوم القيامة، فلا قيمة للحياة الدنيا ولا معنى لها من دون الحياة الثانية، فهي كما سبق بيانه تعطي الحياة الدنيا قيمتها، وتبين حقيقتها وحكمها.

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: جاءتهم فجأة عندئذٍ تغشاهم الحشرات، وتملاً نفوسهم الزفرات.

﴿قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَى مَا ظَنَنَّا فِيهَا﴾ أي: على عدم استعدادنا لها، وتقصيرنا في العمل من أجلها، ومع الحسرة التي تذيب قلوبهم، وتحرق نفوسهم، يحاسبون على أعمالهم التي عملوها، فيحشرون يوم القيامة وهم يحملونها على ظهورهم: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ والأوزار: الذنوب والمعاصي، وأصل الوزر الحمل الثقيل، سُمي به الإثم والذنب لثقله الشديد، ويُجسّد الله تعالى بقدرته الأوزار ليحملها أصحابها على ظهورهم مجسّدة؛ زيادةً في عذابهم ومعاناتهم يوم القيامة.

ورأى بعضُ المفسّرين أنَّ قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ تمثيلٌ لحملهم مسؤولية معاصيهم وخطاياهم، وبيان سوء حالهم، وشدة ما يجدون من المشقة والعقوبة، وذكر الظهور في الآية كذكر الأيدي في قوله: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ^(١).

أو يكون المراد تحقيرهم وتشبيههم بالدوابِّ المسخرة لحمل أثقال الإنسان في الدنيا. قال سيد قطب رحمه الله: «ثم مشهدهم كالذّواب الموقرة بالأحمال ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ بل الدوابِّ أحسن حالاً، فهي تحمل أوزاراً من الأثقال، ولكنّ هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام، والدواب تُحطّ عنها أوزارها فتذهب لتستريح، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم، مشيعين بالتأثيم» ^(٢). والأولى أن نحمل الحمل على الحقيقة، فالله ﷻ قادرٌ على تجسيد

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٢٤/٢.

(٢) في ظلال القرآن: ١٠٧٢/٢.

الأعراض والمعاني، وقد وردت عِدَّةُ آثار تدلُّ على ذلك، منها ما ورد في تجسيد ثواب قراءة سورتي البقرة وآل عمران يوم القيامة، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين - البقرة وآل عمران - فإنَّهما يأتيان يومَ القيامةِ كأنَّهما غمامتان أو كأنَّهما غيايتان، أو كأنَّهما فرقان من طير صوافٍ تحاجَّان عن أصحابهما يومَ القيامة» [رواه مسلم (٨٠٤)].

والغاية: ما أظلك من فوقك. والفرق: القطعة من الشيء.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي: ما يحملون.

• الحياة الدنيا والآخرة:

وماذا يبقى من الدنيا إذا انسلخت عن الآخرة؟ إنها تصبح تافهة لا قيمة لها، لا يبقى فيها إلا العبثُ واللعبُ واللهو، ولهذا وصفها الله تبارك وتعالى بهذه الصفات فقال:

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢٢).

﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لأنها دون الشعور بالمسؤولية عنها أمام الله تعالى تصبح حياة الفارغين والفارغات، والتافهين والتافهات، الذين قصرُوا كلَّ همِّهم فيها على اللعب واللهو والعبث، والذين سبق حكاية قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وجلت حكمته تعالى أن يخلقهم للعبث واللهو: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم. [المؤمنون].

فلا بدّ إذاً بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثانية، وهي خير لأهل الإيمان والتقوى، الذين يستشعرون مسؤوليتهم أمام الله تعالى، فيملؤونها بطاعته ويعمرونها بعبادته:

﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ﴾ أي: يتَّقون الله تعالى ويخافون من حسابه وعذابه يوم القيامة.

وقد أفادهم هذا التقويم الرباني للحياة الدنيا والآخرة أنهم لم يصبحوا عبيداً للدنيا، لقد ركبوها ولم تركبهم، وعبدوها، فذللوها لله ولسلطانه، ولم تستعبدهم، وهم يتغنون وجه الله، ويرجون الآخرة، فسبقوا أهل الدنيا في الدنيا، ثم سبقوهم كذلك في الآخرة^(١).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الحقيقة، وتدركون الحكمة من وجودكم في هذه الحياة الدنيا، وتشعرون بمسؤوليتكم عن أعمالكم أمام خالقكم سبحانه.

• حقيقتان هامتان:

وتعود الآيات مرة ثانية إلى مواساة النبي ﷺ عما يجده من حُزنٍ ومعاناة بسبب ما يلقي من جحودهم وعنادهم، وتبرز في عودتها إلى مواساته حقيقتان هامتان:

أولاهما: مكانته عليه الصلاة والسلام الكبيرة عند ربه ﷻ، التي دلت عليها كثرة اهتمام الآيات بمشاعره عليه الصلاة والسلام، وحرصها على مواساته المرة تلو المرة، كلما عرضت موقفاً جديداً من مواقف العناد والاستكبار عند المشركين.

وثانيتها: شدة عنادهم وجحودهم، وكثرة الأذى الذي كانوا يوجهونه إلى النبي ﷺ، حتى قال تعالى مواسياً له عليه الصلاة والسلام:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ عندما كانوا يكذبونه عليه الصلاة والسلام، ويصفونه بأوصافٍ لا تليقُ به عليه الصلاة والسلام.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٠٧٢/٢.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ أي: إنهم في الحقيقة لا يكذبونك، إذ كنتَ ولا تزال فيهم الصادق الأمين، فما أصابك منهم ما أصابك إلا من أجلنا وبسببنا.

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم بآيات الله تعالى يكذبون.

فما أعظم مكانته عليه الصلاة والسلام عند ربه ﷻ! فقد جعل سبحانه ما فعله المشركون به عليه الصلاة والسلام من التكذيب راجعاً إليه تعالى، فبلغ عليه الصلاة والسلام في هذا الغاية في جلاله القدر، ورفعة المحل، والزلفى من الله ﷻ، إلى حيث لا غاية وراءه، حيث لم يقتصر على جعل تكذيبهم إياه عليه الصلاة والسلام تكذيباً لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بل نفى تكذيبهم له ﷻ، وأثبتته لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

• النصر القريب:

وتابعت الآيات تسليّة النبي ﷺ وتثبيتته، وهي تحمّل له البشارة بالنصر والظفر:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مُبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْذُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا﴾ فغاية الصبر النصر، وانتظار الفرج من الله تعالى عبادةً، وموعداً مع نصر الله تعالى قريباً، وهو النصر الذي يأتي إليك من الله تعالى، كما أتى من قبلك من الرسل.

﴿وَلَا مُبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ التي كتبها سبحانه بالنصر والظفر لرسوله، كما في قوله عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات].

وكما قال أيضاً: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].
وهذا يبين لنا بعض الحُكَمِ والعبر من قصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهي ما أشار إليها سبحانه بقوله:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ﴾ فلك فيهم أسوة وقدوة.

وكان رسول الله ﷺ شديد الحرص على إيمان المشركين، ومع ذلك فلا حيلة له معهم إلا الصبر، ولهذا قال سبحانه له:

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٥).

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عَظُمَ عليك إعراضهم عما يأتيهم من الآيات كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

﴿فَإِنْ أُسْطِطِعْتَ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا﴾ منفذاً.

﴿فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: بمعجزة من المعجزات التي اقترحوها، وطلبوها منك، فافعل لتشهد أنهم لا يزدادون عند إتيانك بها إلا إعراضاً وعناداً.

فالمرادُ ببيان شدة حرصه عليه الصلاة والسلام على هدايتهم، بأنه لو قدر أن يتكلفَ النزول إلى أعماق الأرض، أو الصعود فوق السماء، لفعله عليه الصلاة والسلام من أجل هدايتهم وإيمانهم، وبيان شدة عنادهم وإعراضهم.

ثم بين تعالى قدرته على هدايتهم رغم شدة عنادهم، فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ ولكنه سبحانه شاء أن يجعل لهم إرادةً وكسباً واختياراً، فإعراضهم عن الإيمان بسبب كسبهم واختيارهم، والإيمان

لا يكون بالإِجبار والإِكراه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] (١).

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يظنون أنَّ هدايتهم متوقفة على جلب آية مقترحة لهم، إنه الجد الصارم والحسُّم الجازم، كما قال سيد قطب رحمه الله، إلى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية (٢)، وإنه أيضاً يدلُّ على أنَّ هذا الكلام الذي يظهر فيه عزُّ الربوبية، كلام الله تعالى، أنزله على نبيه محمد ﷺ. ثم أكَّد سبحانه كمال قدرته، وأنه قادرٌ على جمعهم على الهدى، فقال:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي: الذين فيهم قابلية السمع؛ لأنَّ عقولهم وقلوبهم منفتحة على الخير، متوجهة له، فيتدبرون ما يلقي إليهم من آيات الله تعالى، ويتنفعون بدلائلها وبراهينها.

وأما هؤلاء المعاندون فهم كالأموات في عدم قابليتهم لسماع الخير وفي تبلُّد مشاعرهم عن إدراك أنوار الهداية، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً إِلَيْهِ لَا يُؤْمِنُوهَا﴾ [الأنعام: ٢٥].

ولهذا شبههم الله تعالى بالأموات الذين لا حسَّ فيهم ولا حياة، ومع ذلك فإنه سبحانه قادر على هدايتهم، كما هو قادر على بعث الأموات من قبورهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وهو سبحانه قادر أيضاً على كلِّ الآيات والمعجزات التي اقترحوها:

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، في تفسيرنا هذا.

(٢) في ظلال القرآن: ١٠٧٨/٢.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٧).

أي: لا يعلمون أنَّ عدمَ تنزيل الآياتِ المقترحةِ رحمةً من الله تعالى بهم، فلو أنزل الله تعالى آيةً مقترحةً، وأعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها، لأهلكهم سبحانه، واستأصلهم بالعذاب، كما أهلك المكذِّبين من الأمم قبلهم^(١).

• لسنا وحدنا في الكون:

والمخلوقات كلها محتاجةٌ إلى الخالق العظيم سبحانه، شأنها في هذا شأن الإنسان، وهي تستوي معه في صفة الحدوث والاحتياج والافتقار:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّالُكُمْ مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٨).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تدبُّ على الأرض وتنتقل فيها.

﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي: ولا طائر يطير ويتحرك مستعملاً جناحيه.

ولم يكتشف الإنسان حتى الآن طائراً من المخلوقات الأرضية يطير بأكثر من جناحين.

﴿إِلَّا أُمٌّ أُمَّالُكُمْ﴾ لأنَّ الله تعالى خلقهم كما خلقكم، وقدَّر لكل جنسٍ ونوعٍ وفردٍ منهم رزقه وأجله كما قدَّر لكم، وكل ذلك معلوم لله تعالى ومكتوب في لوح القدر.

﴿مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فجميع المخلوقات متساوون ومتماثلون في حاجتهم إلى الخالق البارئ، في حال الحدوث والابتداء، وفي حال الدوام

(١) انظر تفصيل الموضوع في تفسير سورة الإسراء (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء)، وهو جزء من هذا التفسير.

والبقاء، ويمتاز الإنسان عنهم جميعاً بالتكريم والتكليف والمسؤولية؛ لأن الله تعالى زوّده بأهلية التكليف والمسؤولية.

وتدلّ كثرة أنواع المخلوقات وأجناسها على وحدانية خالقها سبحانه، كما أنها تشهد على عظيم قدرته وكمال مشيئته وحكمته وسعة علمه ﷻ.

وكأن وصف المخلوقات في هذه الآية بالحركة من ديب وطيّران، جاء يقابل ما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣].

وسبق القول ثمة أنّ المخلوقات كلها لا تنفك عن إحدى هاتين الصفتين: السكون والحركة، وهما دليل على حدوثها وخلقها، وكما صرّح تعالى هناك بشمول ملكه للساكنات، صرّح هنا ﷻ بشمول ملكه وقهره للمتحرّكات، فلا يسكن ساكن، ولا يتحرك متحرّك إلا بمشيئته سبحانه وعلمه وقدرته.

ثم ماذا بعد خلقهم وإمدادهم بأسباب الحياة والبقاء، مع كثرة أجناسهم وأنواعهم وكثرة أشكالهم وصفاتهم وخصائصهم؟! ماذا بعد كلّ هذا الخلق المحكم المتكامل؟!.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فالبداية منه سبحانه، والنهاية إليه ﷻ، ليقضي بينهم بعدله، قال عليه الصلاة والسلام: «لَتَوْدُنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامةِ حتى يقادَ للشاةِ الجَلْحاءِ» (التي لا قرن لها) من الشاةِ القرناء» [رواه مسلم (٢٥٨٢)].

فخلقهم وإيجادهم لم يكن عبثاً ولا لعباً، والناس ليسوا وحدهم في هذا الكون حتى يكون وجودهم مصادفةً، وحتى تكون حياتهم سدىً، إنّ حولهم أحياء أخرى، كلها ذات أمرٍ منتظم يوحى بالتدبير والحكمة، ويوحى ذلك بوحدة الخالق، ووحدة التدبير، الذي يأخذ خلقه كله^(١).

ووحدة التدبير تظهر في التسخير، فلقد سخر الله تعالى هذه المخلوقات بعضها لبعض، وسخرها كلّها للإنسان وفائدته وحياته تكريماً له وتشريفاً، كما

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٠٨٠/٢.

قَالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرَىٰ فِيهِ بَاطِنُهُمْ وَلِيَبْلُغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الباقية].

• في الظلمات:

إنَّ حال هؤلاء المكذِّبين المعرضين عن كلِّ هذه الدلائل والبراهين، كما وصفهم الله تعالى في قوله الكريم:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَن يَشَاءِ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٣٩).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ﴾ فلا يسمعون الآيات سماعاً تتأثر به نفوسهم، وتتقبله عقولهم، ولا ينطقون بالحق المجلجل من حولهم، لأنهم غارقون في الظلمات.

﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات العناد والاستكبار، وظلمات الأهواء والشهوات، وظلمات الجهل والتقليد الأعمى، ظلمات متراكبة بعضها فوق بعض، غشيتهم من كلِّ مكان، واشتدت عليهم مع مرور الأزمان، ولا سبيلَ لهم إلى الخلاص منها إلا بنور الهداية والإيمان، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّرَ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإرادته سبحانه لا تُعَارَضُ، ومشيتته نافذة لا تُغَالَبُ:

﴿مَن يَشَاءِ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَن يَشَاءِ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ومع اتصافه جلَّ وعلا بكمال المشيئة فهو متصف أيضاً بكمال العلم

والحكمة، يدبر سبحانه أمر مخلوقاته بمشيئته وعلمه وحكمته، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويجعل الظلمات والنور.

إذاً علينا أن نلجأ إلى الله تعالى ليكشف عنا الظلمات، وينير لنا الطريق، علينا أن نتعرف عليه سبحانه في الرخاء بعبادته وحده وطاعته، ليستجيب دعاءنا في المحن والبلاء، فالإنسان مفتقر إلى فضل ربه وإحسانه ورحمته في جميع أحواله وأوقاته.

• الإنسان والدعاء:

الافتقار والاحتياج يلابس الإنسان دائماً، لأنه جزء من خلقه وتكوينه، فحاجته إلى الطعام والشراب متولدة من تركيبه العضوي وبنيته المادية المخلوقة من الطين، وحاجته إلى المعرفة والعلم نابعة من تكوينه العقلي، وحاجته إلى الجنس والتكاثر والتوالد، أساسها حياته المحدودة الفانية...

وكثيراً ما ينسى الإنسان حقيقة ضعفه وفقره، ويظن نفسه قوياً غنياً، فيتكبر ويتجبر، ويعرض عن الحق معانداً جاحداً، ولهذا أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يذكر المعرضين المعاندين بحقيقة ضعفهم وافتقارهم إلى رحمة ربهم وفضله، فقال:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني.

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى الأمم من قبلكم.

﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: أهوال يوم القيامة.

﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي: هل تدعون غير الله وتلجؤون إلى سواه؟.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم حقاً صادقين في اعتقادكم أن هذه الأصنام التي تعبدونها نافعة لكم، ودافعة عنكم الضرر والخطر.

ولما كان معنى هذا الاستفهام النفي، أي: لا تدعون في حال الخطر غير الله تعالى، استغنى به عن جواب الشرط المتقدم، ثم أكد سبحانه وأثبته بقوله:

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (٤١).

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ وقَدَّم المفعول على الفعل ليفيدَ الحصرَ والتخصيص، أي: بل تدعونه وحده، ولا تدعون غيره، فهو كقوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، لأنكم في قرارة قلوبكم وفي أصل الفطرة التي فُطرتُم عليها، تعلمون أنه هو وحده الذي يكشف عنكم الضرر، ويخلصكم من الخطر.

﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ كشفه عنكم، فاستجابته سبحانه للدعاء منوطةٌ بمشيئته وحده، فهو الفعال لما يريد، إن شاء أزال العُسْرَ، وأتاح اليسرَ، وإن شاء ترك الحال على ما قبل السؤالِ والابتهاالِ لحكمةٍ يعلمها سبحانه.

فهذه الآية تُقَيِّدُ الإطلاق في مثل قوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فثمة موانع تمنع الإجابة أو تؤخرها قائمة في الداعي نفسه، يعلمها سبحانه؛ فهو الذي يعلم السرَّ وأخفى، فقد لا يكون الداعي مخلصاً في دعائه، وقد يستبطئ الإجابة، ويسيء الظنَّ بالله تعالى، كما قال ﷺ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فيقول: قد دعوتُ ربِّي فلم يَسْتَجِبْ لي» [رواه مسلم (٢٧٣٥)].

﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي: تتركون ما تشركون به سبحانه من عبادة الأصنام والأوثان.

وقد يكونُ النسيانُ على حقيقته، نظراً لشدة الهول والخطر، إذ ينسى الإنسان في مثل هذه الأحوال كل ما سواه سبحانه، ويرجع إلى أصل فطرته الأولى التي فطره الله تعالى عليها، وهذا يكون في حال مواجهة الإنسان لأخطار كبيرة محدقة به لا سبيلَ له إلى النجاة منها، كعذاب الاستئصال، الذي أنزله الله تعالى بالأمم المكذبة للرسول، أو أهوال الساعة التي يستيقنُ الإنسان عجزه عن دفعها، ويصل إلى حدِّ اليأس من النجاة منها، ويكون دعاؤه ربَّه سبحانه يشبه

إيمان اليأس الذي يصدر عنه في مثل هذه الأحوال كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق، ويئس من النجاة، وأيقن بالهلاك: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩] ^(١).

● قسوة القلب:

فعلى الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى في كلِّ أحواله، لأنَّ احتياجه وافتقاره إلى الله تعالى صفة لازمة له، لا تنفك عنه أبداً، فهو مخلوق من خلقه سبحانه، ومملوك له ﷻ، وعبد من عبيده، وفي قبضة قدرته ومشيتته.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنه أرسل إليهم الرسل ليذكروا الناس بحقيقة فقرهم، واحتياجهم إليه ﷻ، فيقبلوا عليه داعين مطيعين، فهو سبحانه الرحيم الكريم، يحب أن يرى عباده على أبواب رحمته وكرمه، وفي ساحات جوده وعطائه. ولكنَّ أكثر الناس يعرضون عن دعوة الرسل مكذِّبين معاندين، فيسلط الله تعالى عليهم البلايا والمحن لعلَّها تخفف من عنادهم، وتكسر شوكة تكبرهم، فتلين قلوبهم، وتخضع نفوسهم، ويقبلوا على ربهم سائلين ضارعين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ^(٤٢).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: بالشدائد والمصائب في أموالهم وأنفسهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ أي: يتذللون إليه تعالى، ويقبلون عليه ضارعين، ولكنَّهم بسبب قسوة قلوبهم يصرون على عنادهم، ويبالغون في استكبارهم.

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو جزء من هذا التفسير.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣).

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقسوة القلب من أخطر أمراض النفس البشرية وأعصاها على كلِّ دواء، وموالاتهم للشيطان تزيد من قسوة قلوبهم وعنادهم.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي والكفر، والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلبٌ متحجّرٌ لا خير فيه.

• الاستدراج:

﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤).

﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام وأعرضوا عنها، ولم يتعظوا بها، أو أنهم انهمكوا في معاصيهم، ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء، استدرجهم الله تعالى بالرخاء.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأرزاق والخيرات وأسباب الملذات المادية، استدرجاً لهم ومكرّاً بهم، ومدّ الله تعالى لهم في زمن العطاء.

﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي: حتى إذا اعتادوا على رَغَدِ العيش، واطمأنوا إليه، واغتروا به، وانشغلوا بالنعمة عن المنعم، فلم يذكروه، ولم يشكروه، بل استغرقوا في المتاع، واستسلموا للشهوات، فأدّى ذلك إلى فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وأدّى هذا وذلك إلى نتائج الطبيعية من فساد الحياة كلّها، عندئذٍ جاء موعد السنّة الإلهية التي لا تبدّل:

﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً على غير توقع منهم وانتظار.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون قانطون.

قال الحسن البصري رحمته الله: مُكِرَ بالقوم وربُّ الكعبة، أُعْطُوا حاجتهم، ثُمَّ أُخِذُوا.

وقال قتادة: ما أَخَذَ اللهُ قوماً قط إلا عند سكرتهم وِغْرَتِهِمْ ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فَإِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ^(١).

وفي الحديث الشريف: عن عقبه بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعْاصِيهِ مَا يَحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [رواه أحمد (١٧٢٤٤)].

هذه سُنَّةُ الله تعالى التي لا تتبدل في استدراج الأمم الكافرة المعاندة، فلا ينبغي لنا أن نغترَّ بما عندهم من متاع الدنيا وزخارفها، وبما لديهم من أسباب الرخاء، فهو والله عَيْنُ الْبَلَاءِ.

ولو تدبَّرَ المسلمون هذه الآيات الكريمة، وتَأَمَّلُوا معانيها لما وُجِدَ فِيهِمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى حُضَارَةِ الْغَرْبِ الْمَادِيَةِ نَظْرَةَ الْإِنْبِهَارِ وَالْإِعْجَابِ، فتراهم يندفعون إلى تقليد الغربيين تقليداً أعمى، منسلخين عن مبادئ دينهم، ومنهج كتابهم، وسُنَّةِ نبيهم صلى الله عليه وسلم، وهم يظنون أنهم إذا لحقوا بهم وصلوا إلى مراتب الكمال، وحققوا لأنفسهم السعادة، مع أنهم لو تأملوا حقيقة حياتهم لوجدوهم أشقياء بما هم فيه لا سُعداء، إِنَّ الْعَذَابَ النَّفْسِيَّ وَالشَّقَاءَ الرُّوحِيَّ وَالشَّدُوذَ الْجِنْسِيَّ وَالْإِنْحِلَالَ الْخَلْقِيَّ الَّتِي تَقَاسِي مِنْهُ هَذِهِ الْأُمَمُ، لِيَكَادُ يَغْطِي عَلَى الْإِنْتِاجِ وَالرِّخَاءِ وَالْمَتَاعِ، وَلِيَكَادِ يَصْبِغُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا بِالنَّكَدِ وَالْقَلْقِ وَالشَّقَاءِ^(٢).

وإنَّ اِنْتِشَارَ الْآفَاتِ الاجتماعية كالخمر والمخدرات وعصابات المجرمين، وانتشار الأمراض الجنسية والشَّدُوذَ كالعقم وضعف المناعة، وانتشار التلقيح

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٧٨/١.

(٢) في ظلال القرآن: ١٠٩١/٢.

الصناعي الذي نقل عن الحيوان إلى الإنسان، ومخازن النطف البشرية والمتاجرة بها، كل ذلك مؤشرات على العواقب الوخيمة لهذه المجتمعات.

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥).

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: آخرهم، فلم يبقَ منهم أحد؛ لأنه سبحانه استأصلهم عن آخرهم.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي طهر الأرض من ظلمهم وفسادهم وإفسادهم، فهو من النعم الجليلة التي يُحْمَدُ عليها، والكمال له سبحانه في كل الأحوال، لا يزيده وجودٌ موجود، كما مرَّ في أول السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، ولا ينقصه فقد مفقود كما قال هنا: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥) (١).

• ما أضعف الإنسان:

وتابعت الآيات كشف الحقيقة للإنسان، الحقيقة الماثلة في ذاته، والقائمة في نفسه، فهي تعرّف الإنسان بالإنسان، تبيّن له حقيقة ضعفه، وشدة حاجته وفقره، حتى لا يغتر ولا يتكبر، ولا يعرض عن دعوة الحق ولا يتجبر:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ﴾ (٤٦).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ﴾ فلا سلطان لكم حتى على أجزائكم وحواسكم؛ لأنكم لستم أصحابها الحقيقيين، فمالكها الحقيقي بارئها وخالقها الذي قال: ﴿أَمِنْ يَمَلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَنْفَعُونَ﴾ [يونس: ٣١].

﴿وَحَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بأن غطى عليها، وحجبها عن الإدراك والتعقل.
والقلوب بيد الله سبحانه يقلبها كيف يشاء، ولا سلطان لأصحابها عليها
كما قال سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ. وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾
[الأنفال: ٢٤].

فما أضعف الإنسان الذي لا سلطان له حتى على قلبه، ولا يملك سمعه
وبصره! وهي أهم وسائل التمكين التي تمكنه من الاتصال بالعالم المحيط به،
وإدراك الأشياء من حوله، كما لا يستطيع أن يضمن بقاءها له لحظة واحدة.
﴿مَنْ إِلَّا غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمُ الْيَهُودُ﴾ أي: مَنْ غير الله يرُدُّ عليكم ما أخذ الله تعالى
منكم.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: انظر نظر المتعجب كيف بيّن الله تعالى
لهم حقيقة ضعفهم وعجزهم وافتقارهم إلى رحمة ربهم، ومع كل هذا البيان
والتبيين:

﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يعرضون عن كل ذلك.

وتأمل وحدة الأسلوب في السورة الكريمة، بين قوله هنا: ﴿ثُمَّ هُمْ
يَصْدِفُونَ﴾، وبين قوله في أول السورة: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.
فما أظلمهم لأنفسهم! وما أشقاهم بعنادهم وإعراضهم!

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ كما أتى الأمم من قبلكم فجأة.

﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ بعد ظهور أماراته وعلاماته^(١).

فقد يرسل الله تعالى بين يدي العذاب أماراتٍ وعلاماتٍ تدلُّ على اقترابه،
كما فعل سبحانه عندما عذب عاداً قوم هود، بأن أرسل إليهم عارضاً في جوٍّ

(١) تفسير أبي السعود: ١٣٥/٢.

السماء كمقدمة لعذابهم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يهلك بهذا العذاب إلا المشركون الكافرون، والمعاندون المعرضون؛ لأنه سبحانه ينجي عباده المؤمنين الصالحين، كما أخبر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

هكذا قدر الله تعالى بمشيئته وحكمته أن يكون الإنذار والتخويف للمعرضين المكذبين، وأن تكون البشارة للمؤمنين الصالحين:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٤٨).

هذه بشارة عظيمة من الله تعالى للمؤمنين الصالحين.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٤٩).

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة ربهم سبحانه.

• لا يستوي الأعمى والبصير:

والرسالة التي أكرم الله تعالى بها الرسل لم ترفعهم فوق مقام عبوديتهم له سبحانه، ولهذا أمر النبي ﷺ - وهو أشرف المرسلين، وخاتم النبيين - أن يقول للناس:

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَنْتَعِ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٥٠).

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: لا أقدر على ما يقدر عليه الله، فكأن

مقدوراتِه مخزونة حاضرة عنده^(١) لكمال قدرته جلّ وعلا .

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي : ولا أقول لكم : إنّي أعلم الغيب ، فلا يعلم النبي ﷺ من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى به ، فعلم الغيب مما استأثر الله تعالى به : ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ٦١ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن] .

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي : ولا أدعي أنني ملك ، إنما أنا بشرٌ مثلكم ، شرفني الله تعالى بالوحي ، وأنعم علي به .

﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي : ما أتبع إلا ما يوحى إلي ، فأنا عبدٌ لله ، لا أتخطئ حظي ، ولا أتعدّي حدّي ، ولا أثبت من ذات نفسي شيئاً ، وقد أوحى إليّ هذا القرآن لأُنذركم به خصوصاً ، وأُنذر به كلّ من بلغه عموماً .

والقرآن الكريم واضح الدلائل ، قاطع البراهين ، ثابت الحجج ، فلا يُعرض عنه إلا مَنْ كان أعمى البصيرة ، ولا يُقبل عليه إلا من نور الله تعالى قلبه وبصيرته .

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فكما لا يستوي الأعمى والبصير ، لا يستوي الإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، والنور والظلمات ، وعلى العاقل أن يميّز بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، فالتفكر مطلوب ، والحض عليه منهج قرآني مضبوط بضوابط الوحي المنزل .





الفصل الثاني

توجيه وإرشاد

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾
 (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتبين سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيَ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَبِيرٌ الْفَصِيلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْغَايُ نُورٌ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنَ ظِلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَدْوِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ

أَوْ يَلْسِكُمْ سُعِبًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٥٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٥٦﴾ لِكُلِّ نَبَلٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِئَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ جِسَامِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أَتَيْنَا قُلَّ ابْنِ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُزَيِّرْنَا لِلْإِسْلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٦٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْحَبِيرُ ﴿٦٣﴾

• تَمْهِيد:

لما وصلت الآيات الكريمة في سورة الأنعام إلى القول الفصل المميز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والنور والظلمات، وطوّقت الكافرين بالبراهين القاطعة، والحجج البالغة، وكشفت لهم حقيقتهم، وبيّنت لهم حذهم، وعرفتهم قدرهم، وقرّبت إليهم بصائر الحق، بصيرة بعد بصيرة، أمرت النبي ﷺ أن يلتفت إلى الجانب الآخر، إلى المؤمنين الذين نور الله تعالى قلوبهم وأحى نفوسهم، فقبلوا دعوته، وصدّقوا برسالته، فلهم حقوق المسلمين، ورحم المؤمنين، وهم محتاجون إلى هدى النبي ﷺ وتوجيهه وإرشاده.

وبهذا تبدأ الآيات الكريمة في السورة فصلاً جديداً، تبتُّ فيه الخطاب للمؤمنين: ترشدكم، وتبشّرهم، وتؤدّبهم، وتبيّن مكانتهم عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ.

• كرامة المؤمنين:

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ﴾ (٥١)

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ بالقرآن الكريم.

﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم مؤمنون بالله تعالى وبيوم القيامة، فالمؤمن محتاج إلى القرآن الكريم تلاوة أو استماعاً يتدبر آياته، فيزداد خشيةً لله تعالى، وتعظيماً له ﷺ؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحث المؤمنين على تلاوة القرآن الكريم، وحضور مجالسه، كقوله عليه الصلاة والسلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [رواه البخاري (٥٠٢٧)].

وقوله ﷺ أيضاً: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله يتلون كتابَ الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله في من عنده» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: ليس لهم غير الله تعالى ناصرًا ينصرهم، ولا شفيعاً يشفع لهم، حتى يأذن الله تعالى بالشفاعة لمن يشاء من عباده ويرضى، فهو القائل ﷺ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله تعالى بتعظيم أمره، واجتناب محارمه.

فللقُرآن الكريم سلطانٌ كبيرٌ على قلوب المؤمنين وأرواحهم، يصفِّي أرواحهم، ويهذب قلوبهم، ويصقل نفوسهم، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. فالقرآن الكريم يزود المؤمنين بالخشية التي تحجزهم عن المعاصي، وتدفعهم إلى الاستزادة من الطاعات والقربات.

ثم تابعت الآيات خطاب النبي ﷺ، تأمره أن يهتم بالمؤمنين، ويُقبل

عليهم، فلا ينبغي أن ينشغل بدعوة المشركين عنهم، فللمؤمنين كرامة عالية عند الله تعالى، وينبغي أن يُقدّموا في مجالس النبي ﷺ.

ولما طلب بعض المشركين من رسول الله ﷺ أن يخصّص لهم مجلساً خاصاً لا يشاركون فيه أحدٌ من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم، كبلال وعمار وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم، وأن يطردهم من مجلسه عندما يأتي إليه المشركون، أنزل الله تعالى ردّاً على طلبهم هذا قوله الكريم:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدْتَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: لا تُبعد المؤمنين الذين يواظبون على عبادة ربهم من أول النهار إلى آخره.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: مخلصين في عبادتهم، لا يريدون غير رضوان الله وثوابه، واجعلهم جلساءك وأخصاءك، كما قال الله تعالى: ﴿وَاصِرٌ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ شهادة رفيعة من الله لهؤلاء الضعفاء من أصحاب النبي ﷺ، ردّ الله تعالى بها على المستكبرين من المشركين الذين اتهموا المسلمين بأنهم لم يسلموا إلا بسبب حاجتهم وفقرهم.

ثم أكّد الله رده على المشركين بقوله:

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إن كان لهم قصدٌ غير الإيمان والإسلام فأنت لا تحاسبُ عنهم، كما أنهم لا يحاسبون عنك، فكلُّ إنسانٍ مسؤول عن عمله، والله سبحانه هو الذي يسألهم ويحاسبهم.

﴿فَطَرَدْتَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فتكون بسبب طردهم من الظالمين الذين يضعون الأمور في غير مواضعها، وحاشاه ﷺ أن يكون كذلك، وإنما

نزلت الآيات بهذا النهي الصريح الجازم ردّاً على اقتراح المشركين الفاسد، والاتهام الظالم لضعفاء المؤمنين، فتولّى سبحانه بنفسه الدفاع عنهم؛ إظهاراً لشرفهم وكرامتهم عنده سبحانه، فللمؤمن كرامته وفضله عند الله تعالى.

وفي «صحيح مسلم»: عن سعدٍ: في نزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ...﴾ نزلت في ستة: أنا وابن مسعودٍ منهم، وكان المشركون قالوا له: تُدني هؤلاء. وزاد في رواية ثانية: اطرّد هؤلاء لا يجترئون علينا. [رواه مسلم (٢٤١٣)].

• التفضيل بالإيمان والتقوى:

ثم بيّن سبحانه أنّه جعل التفاوت في العطاء والرزق سبباً من أسباب الابتلاء والاختبار في الحياة الدنيا، ولا علاقة له بالفضل والكرامة، فهما منوطان بالإيمان والتقوى، كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالتكريم والتفضيل من القيم المرتبطة بالإيمان والتقوى، لا بمتاع الدنيا وزخرفها الزائل الحائل، والرزق والغنى متاح في الدنيا لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم، تقيهم وفاجرهم، كما قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٣).

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: جعلنا التفاوت بين الناس بالرزق والعطاء اختباراً وامتحاناً، فاختر الله تعالى بحكمته الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، فسقط المستكبرون من أغنياء المشركين في الاختبار، وكان برهان سقوطهم قولهم:

﴿يَقُولُوا أَهْتُولَاءَ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: أنعم الله عليهم بالإيمان، ونحن المقدمون والرؤساء، وهم الفقراء؟! ففي قولهم إنكار لأن يكون أمثال هؤلاء الضعفاء ممنوناً عليهم من بينهم^(١)، كما حكى الله عنهم في آية أخرى قولهم عن المؤمنين: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ الآية [الأحقاف: ١١].

وردَّ سبحانه على إنكارهم هذا واعتراضهم على ما منَّ به من هداية الضعفاء الفقراء بقوله:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فهو سبحانه عليمٌ بأحوال عباده، حكيمٌ في أفعاله، يجعلُ هدايته وتوقيفه لمن علمَ أنَّهم أهلٌ لها، وأنَّهم يشكرونه على نعمته وفضله، ولا يجحدونها.

• رحمته سبحانه بالمؤمنين:

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يكرم المؤمنين كلما جاؤوا إليه، فهم أهلُ التقوى والكرامة:

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ابدأهم بالسلام تكريماً لهم، أو بلغهم سلام الله عليهم، وبشّرهم برحمته تعالى لهم.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: أوجب ربُّكم على نفسه الرحمة فضلاً منه وكرماً؛ لأنه أكرمُ الأكرمين وأرحمُ الراحمين^(٢).

وهي المرة الثانية في سورة الأنعام التي أخبر بها سبحانه أنه كتب على نفسه الرحمة، والظاهر من سياق الآية وسياقها أنَّ هذه الرحمة التي أوجبها الله

(١) تفسير النسفي: ٤٦٤/٢.

(٢) تفسير الخازن: ٤١٥/٢.

ﷻ على نفسه في هذه المرة خاصةً بالمؤمنين؛ تكريماً لهم وتشريفاً، وإظهاراً لعنايته سبحانه بهم وفضله عليهم.

ومن آثار رحمته سبحانه بالمؤمنين ما بيَّنه في قوله الكريم:

﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُم سُوْءًا يَّجْهَلِكُمْ﴾ أي: وهو في حال فعله للمعصية ومقارفته للسيئة متلبس بصفة الجهالة، وهي السَّفَه والطَيْشُ وسوء التدبير، وعدمُ النظر في العواقب، فأثر المعصية على الطاعة، وجَهْل ما يترتَّبُ على فعله من المضارِّ والمفاسد.

﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ارتكابه للسوء، برجوعه عنه.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله بعد توبته، وندمه على معصيته.

﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب عباده المؤمنين ويرحمهم، فما أعظم فضله سبحانه عليهم!

وهكذا أظهرت لنا الآياتُ الكريمةُ طريقَ الإيمان، وميَّزته عن طريق الكفر بحيث لا يكون بينهما التباسٌ واشتباهٌ أبداً:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْبَتَ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ لبيان صفات المؤمنين وصفات الكافرين.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتستوضح يا محمد ﷺ سبيلهم، فتعاملهم بما يجب أن يُعاملوا به^(١). وهذا المعنى على قراءة (سبيل) بالنصب.

وأما على القراءة بالرفع فالمعنى: لتتضح سبيلُ المجرمين، وإذا استبان سبيلُ المجرمين فقد استبان سبيلُ المؤمنين^(٢).

(١) انظر: تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ٤١٦/٢.

(٢) فتح القدير: ١٢٠/٢.

• عِزَّةُ الْإِيمَانِ:

وبعد أن بيّنت الآيات كيف ينبغي أن يعاملَ النبي ﷺ المؤمنون، بيّنت له بالمقابل كيف ينبغي له أن يعاملَ الكافرين المعاندين:

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَنْبِئُكُمْ بِأَهْوَاءِكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كائنًا ما كان، لأنَّ عبادتكم لغير الله تعالى قائمة على اتباع الأهواء، ومجردة عن أيِّ دليل وبرهان. ﴿قُلْ لَا أَنْبِئُكُمْ بِأَهْوَاءِكُمْ﴾ التي هي سبب ضلالكم، فما أنتم عليه هوى لا هدى، أربأ بنفسي عنه.

﴿قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إن اتبعتُ أهواءكم؛ لأنَّ الهدى والضلال نقيضان لا يلتقيان.

ولا بدَّ لكلِّ من يقرأ هذه الآيات الكريمة ويتدبرها أن يستشعرَ عِزَّةَ الْإِيمَانِ، والثقة الكبيرة التي تملأ قلبَ المؤمن، وعلينا أن نتذكَّر أنَّ النبي ﷺ أُمِرَ أن يواجه المشركين بكلِّ هذه العزة والثقة وهو في مكة المكرمة، حيث المشركون لا يزالون في قوتهم وَمَنْعَتِهِمْ، وكأنَّ الله تعالى أراد أن يبيِّن لهؤلاء المشركين المستكبرين المتعاليين على فقراء المسلمين وضعفائهم، عِزَّةَ الْإِيمَانِ وقوته في قلوب المؤمنين، وضعف الشُّرك والكفر وتخلُّله في قلوب الكافرين، الذين غلبت عليهم أهوائهم وأغمتهم شهواتهم.

ثم بيّنت الآيات بعد ذلك مصدر هذه العزة ومنيع هذه الثقة بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ وهو القرآن الكريم، الذي أنزله الله تعالى عليَّ.

﴿وَكَذَّبَتْ بَدُوءَ﴾ والذي أعرضتم عنه مكذِّبين، فهو مصدر عزَّتي، ومنبع ثقتي، ومؤيِّد دعوتي، هو معجزتي الكبرى التي أتحداكم بها.

﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: ما عندي غير القرآن الكريم من المعجزات التي تستعجلون إنزالها، أو: ما عندي من العذاب الذي تستعجلون إنزاله، أو الساعة التي تستعجلون قيامها تكذيباً بها واستبعاداً لها.

﴿إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فهو وحده الحاكم سبحانه الذي يقضي بيني وبينكم.

﴿يَقْضُ الْحَقَّ﴾ أي: يقضي القضاء الحق.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ بين الحق والباطل.

• آية وحديث:

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨).

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لا نَقْطَع وانتهى ما بيني وبينكم بإنزال العذاب عليكم، لكنَّ الأمر بيد الله تعالى الرحيم الحليم، والعليم الحكيم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ المصرِّين على الكفر والشرك.

والجدير بالذكر هنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يغلب عليه ضعف البشر وتسرعهم، الذي جُبِلَ عليه عامَّةُ البشر، وذلك عندما جعل الله تعالى بيده عليه الصلاة والسلام أمرَ هلاكهم واستئصالهم، وبشريته عليه الصلاة والسلام حقيقة لا شكَّ فيها، وقد أُمِرَ أن يواجه المشركين بها في آيات كثيرة، منها هذه الآيات التي نحن بصددِها، ولكنه عليه الصلاة والسلام ارتفع عن مقام بشريته، واستعلى على طبيعة البشر، عندما حَكَّمَهُ اللهُ تعالى بهم، فحَكَمَ عليهم ورحمهم، في الوقت الذي كان يعاني من شدة أذاهم وكيدهم.

ففي «الصحيحين»: عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ مِنْ أَحَدٍ؟ فقال: «لقد لقيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وكانَ أشدُّ ما لقيتُ منهم

يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ^(١)، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَاَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِيقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ ظَلَّلَتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمَعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، قَالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمْ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمَعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَطَبَقْتُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ^(٢)»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مَنْ أَصْلَابَهُمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

فلا معارضة بين الحديث الشريف وبين ما ورد في الآية الكريمة، ففي الآية إقرار بحقيقة بشرية عليه الصلاة والسلام، وأما فعله عليه الصلاة والسلام الذي دلَّ عليه الحديث الشريف فهو ارتفاعٌ وسموٌ فوق مستوى بشرية عليه الصلاة والسلام، بسبب الأخلاق الكريمة الرحمة التي أدبه الله تعالى بها، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد ذهب ابن كثير في تفسيره للتوفيق بين الآية والحديث مذهباً آخر فقال: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ إِلَيْهِ وَقُوعُ الْعَذَابِ الَّذِي يَطْلُبُونَهُ حَالِ طَلِبِهِمْ لَهُ لِأَوْقَعِهِ بِهِمْ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ فَلَيْسَ فِيهِ أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ وَقُوعَ الْعَذَابِ بِهِمْ، بَلْ عَرَضَ عَلَيْهِ مَلَكُ الْجِبَالِ أَنَّهُ إِنْ شَاءَ أَطَبَقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، وَهُمَا جِبَلَا مَكَّةَ اللَّذَانِ يَكْتَفِنَانِهَا جَنُوبًا وَشَمَالًا، فَلِهَذَا اسْتَأْنَى بِهِمْ، وَسَأَلَ الرِّفْقَ لَهُمْ^(٣).

(١) من رؤوس الشرك في ثقيف.

(٢) والأخشبان: الجبلان، وهما: جبل أبي قبيس، وجبل قُعيْقَعان، وهما من جبال مكة.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٨٣/١.

● مفاتيح الغيب:

وبعد هذا شَرَعَتِ الآياتُ الكريمةُ تَوَكُّدُ اتصافه جلَّ وعلا بصفات الكمال والغنى، وتذكُّرُ بعضِ المظاهر التي تدل على كمال علمه وقدرته ﷻ:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٥٩﴾.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ ومفاتيح: جمع مُفْتَح، ويقال: مفتاح، والمفتاح: عبارة عن كلِّ ما يحلُّ غلقاً محسوساً، كالقفل على البيت، أو معقولاً كالنظر، وهو في الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب، كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان.

فالله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، فمن شاء إطلاعاً عليها أطلعها، ومن شاء حجبها عنها حجبها^(١).

ويمكن أن يكون معنى ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ خزائنه، جمع مفتاح وهو المخزن، ويكون المعنى: وعنده خزائن الغيب، والمراد منه: القدرة الكاملة على كلِّ الممكنات^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنَّ إلا الله تعالى» ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]. [رواه البخاري (١٠٣٩)].

ولا شك أن هذه الخمس هي الأصول الكبرى التي تتفرَّع عنها أكثر المغيبيات:

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢/٧.

(٢) انظر: تفسير الخازن وتفسير البيضاوي: ٤١٨/٢.

١ - فعلمُ الساعة معناه: الإحاطةُ بعمر الدنيا وزمانها من بدايتها إلى نهايتها .

٢ - وتنزيل الغيث يعني: الإحاطةُ التامةُ بأرزاق المخلوقات ومقاديرها وكيفية توزيعها .

٣ - وعلمُ ما في الأرحام يعني: الإحاطةُ بكلِّ المخلوقات حالاً ومآلاً، ما هو كائن منها وما سيكون وكيف يكون، وما يتصل بكلِّ فردٍ منها من خصائص وأطوار وميِّزات، مما يجعل الفكر البشري عاجزاً عن تصويره. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد].

أضف إلى ذلك ما قررته العلوم الحديثة بأنَّ كلَّ مخلوق يحمل معه خصائص وموروثات كلِّ المخلوقات التي تتفرَّع عنه وتتناسل منه، فعلمُ ما في الأرحام علمٌ يمتدُّ عبر الزمان، مع تسلسل المخلوقات وتوالدها إلى نهاية عمر الدنيا، حيث يتوقف التوالد والتكاثر.

وتمكَّن الإنسان المعاصر من معرفة جنس الجنين وكونه ذكراً أو أنثى بواسطة التحاليل المخبرية وآلات التصوير، معرفة جزئية صغيرة جداً بالنسبة لما في الأرحام من أسرار وعلوم غيبية لا يحيط بها إلا خالقها وبارئها سبحانه .

٤ - ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أنه سبحانه وحده الذي أحاط علماً بأعمال وأقوال وحركات كلِّ نفس حية على الإطلاق من بداية وجودها إلى نهايتها .

٥ - كما أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ يدل على إحاطة علمه تعالى بالوقت المقدَّر لموت كل نفس ومكانه .

ومع ذلك فهذه الخمسُ مفاتيحُ خزائن الغيب المغيَّب عنَّا، والذي هو معلوم لله تعالى أزلاً وأبداً، وليستْ كُلُّ الغيبِ، فعلم الله تعالى لا يحده حدٌّ، ولا يحصره عدٌّ، وما في الحديث الشريف يُحْمَلُ على بيانِ بعضِ المهم لا على

دعوى الحصر. قال العلامة المفسر الآلوسي رحمته الله: «ولا شبهة في أن ما عدا الخمس من المغيبات لا يعلمه أيضاً إلا الله تعالى»^(١).

ويؤكد ما ذهب إليه الآلوسي قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ هكذا على الإطلاق يتسع علم الله تعالى ويمتدُّ لكلِّ ما في البرِّ والبحر.

ولا يقتصر علمه تعالى على ذوات المخلوقات، بل هو محيطٌ بكلِّ أحوالها وحركاتها، دلَّ على ذلك قوله:

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ فإحاطة علمه تعالى بحركة الورقة الساقطة أنموذج لأحوال سائرهما؛ لأنَّ الذي لا يغفل عن الورقة الميتة الساقطة لا شك أنَّ علمه محيطٌ بغيرها من الأحوال والحركات.

ويمتدُّ علمه ﷻ من حركة الورقة الميتة الساقطة إلى حركة البزوغ والنماء لكلِّ حبة في بطن الأرض:

﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: إلا يعلمها سبحانه، سواءً أريد بالكتاب المبين علمه سبحانه أو اللوح المحفوظ، فمعناهما واحد في المآل^(٢).

إنَّ في هذه الآية الكريمة جولةً تدير الرؤوسَ، وتذهلُ العقولَ، كما قال سيد قطب رحمته الله، جولةً في آماذٍ من الزمان، وآفاقٍ من المكان، وأغوارٍ من المنظور والمحجوب... ألا إنه الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن^(٣).

• النوم والموت:

ومن العلم الكامل وشموله، إلى القدرة الكاملة وإحاطتها بكلِّ الموجودات والمخلوقات، وخصَّت الآياتُ الإنسانَ بالذكر على سبيل التحدي للمعاندين

(١) روح المعاني: ١٧١/٢.

(٢) المرجع السابق: ١٧٢/٢.

(٣) في ظلال القرآن: ١٠١٢/٢.

والجاحدين، وليبان شدة افتقار الإنسان وحاجته إلى خالقه، وهو ما لمسنا تركيز السورة عليه في كثير من آياتها، فوجود الإنسان وبقاؤه وسائر أحواله وأطواره وتقلباته كلها منوطة بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ أي: ينيمكم بالليل، استعير التوفي من الموت إلى النوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز، فإنَّ أصل التوفي قبض الشيء بتمامه^(١).

وهو في النوم قبض جزئي في وقت قصير محدد، وأما في الموت فقبض كلي يمتدُّ إلى البعث من القبور يوم القيامة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

فالنوم هو الوفاة الصغرى، بينما الموت الوفاة الكبرى.

فلا سلطان للإنسان على نفسه عند النوم، لا جلباً ولا دفعاً، إذ لا قدرة له على استجلابه، وكم من الناس من ينأى عنه النوم، وهو يسعى إليه ويطلبه، حتى إن بعضهم يطلبه بواسطة العقاقير والمخدرات، وكم فيهم من يحاول دفعه عنه فلا يستطيع رغم ما يتناوله من المنبهات والمنشطات، فللنوم سلطانٌ قاهر على الإنسان، لأنه ليس من تدبيره وصنعه، وتأمل الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ فهو وحده سبحانه الذي يدبر ذلك ويقدره.

ومع أنَّ النوم من الظواهر التي تحدث في كيان الإنسان بشكل متجدد ومستمر، ويحدث فيه تغيراً كبيراً وعميقاً يمتدُّ إلى كلِّ أجزائه المادية والنفسية؛ فهو غيبٌ عن الإنسان، ولا يدري كيف يحدث، يتجرّد الإنسان عندما يأتيه النوم

من كلَّ حَوْلٍ وَطَوَّلَ، حتى من الوعي والإدراك، مع استمرار أسباب الحياة وظواهرها فيه بشكلها المعتاد، تبقى أنفاسه تتردد في صدره، وتستمر ضربات قلبه، ودماءه تجري في عروقه، وتتجدد ملايين الخلايا في جسده... فمن يدبر كلَّ هذا للإنسان في خلال نومه؟ وفي يقظته أيضاً، فهي عمليات تجري في داخل الإنسان في صحوه ونومه، ولا تخضع لإرادته، فما أضعف الإنسان! ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: ما عملتم وكسبتم في النهار، وأسندت الآية العمل والكسب للإنسان، لأنَّ له إرادة وكسباً فيه، مع أنَّ الله تعالى أحاط علماً ومشيةً وقدرةً بكلِّ ما يصدر عن الإنسان.

﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ﴾ أي: ثم يوقظكم في النهار، فكما أنَّ النوم بمشيئته سبحانه وقدرته، فالانتباه واليقظة كذلك بمشيئته سبحانه وقدرته، ولا كسب للإنسان فيه ولا قدرة له عليه.

وخصَّ سبحانه الليل بالنوم، والنهار بالكسب، جرياً على النواميس الكونية المعتادة التي تعلقت بها مشيئته وحكمته سبحانه، وليس معناه أنه سبحانه لا يعلم ما جرحنا بالليل، وأنه لا يتوفانا بالنهار، فتخصيص الشيء بالذكر لا ينفي ما عداه^(١).

وهكذا يُنمِّنا سبحانه ويوقظنا بقدرته ومشيئته حتى تنتهي أعمارنا وتحين آجالنا التي قدَّرها لنا بسابق علمه وإرادته:

﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ في الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ويحاسبكم عليه.

• الطريق المرسوم:

فمن يستطيع الإفلات والتملُّص من هذا التقدير الإلهي والقهر الرباني؟!.

(١) انظر: تفسير البضاوي: ٢/ ٤٢٠.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ (٦١).

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ومع القهر الرباني :

﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة، تحفظ وتكتب أعمالكم، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (٦٠) كِرَامًا كُنِينِ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَقْعَلُونَ﴾ [الأنفطار].

ولعلَّ الحكمة من توكيل الملائكة الحَفَظَةَ بالإنسان، إشعاره بوجود الرقباء عليه، وأن أعماله تكتب عليه، وستعرض يوم القيامة على رؤوس الأشهاد.

وينتهي عمل الحفظة بانتهاء حياة الإنسان :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي : باشر مَلَكُ الموت وأعوانه المرسلون لهذه المهمة قبضَ روح المتوفى.

﴿وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ أي : لا يجاوزون الموعدَ المحدد لموته بزيادة أو نقصان.

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقَّ ۖ لَا لَهُ الْخَلْكُ ۖ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِ﴾ (٦٢).

﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه يوم القيامة .

وتحوّلت الآية من صيغة الأفراد إلى الجمع لوقوع التوفي على الانفراد، فلكلِّ مخلوقٍ حيٍّ أجله الخاص به، بينما البعث والحشر يوم القيامة على الاجتماع.

﴿مَوْلَهُمْ﴾ مالهم الذي يتولّى تدبير أمورهم .

﴿الْحَقَّ﴾ الذي لا يقضي إلا بالعدل، أو الذي يتولّى تدبير أمورهم في الحقيقة، فهو المولى الحقيقي لهم، ولا مولى لهم غيره .

﴿لَا لَهُ الْخَلْكُ﴾ لا لغيره .

﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِ﴾ لا يشغله حساب عن حساب، ولا شأن عن شأن^(١).

إنَّه طريقٌ مرسومٌ لكم، ممتد من الدنيا إلى الآخرة، لا بدَّ أن تسيروا فيه وتقطعوا مراحلَه دون توقف ولا تردد.

• ظلمات البر والبحر:

وفي الطريق عقبات وشدائد، لا نجاة لكم منها إلا بالله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْنَبًا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٣)

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: من شدائد البر والبحر.

استعيرت الظلمة للشدة لاشتراكهما في الهول وعدم الإبصار، فيقال لليوم الشديد: يوم مظلم^(١).

﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: تدعونه متذللين، تخفون في أنفسكم مثل ما تظهرون.

فآية تشهد لهم بالإخلاص في دعائهم، بسبب مواجعتهم للشدائد والمخاطر، كما تصوّر الحالة النفسية المضطربة التي يمرُّ بها الإنسان عند مواجعتهم للشدائد والمخاطر، مما يدل على شدة ضعفهم وافتقارهم.

تقولون في دعائكم:

﴿لَّيْنٍ أَجْنَبًا مِنْ هَٰذِهِ﴾ الشدة والظلمة.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المعترفين بفضلك ونعمتك، فهو كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرِّْ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفَاكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَّيْنٍ أَجْنَبًا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

إنَّ تذكير الإنسان بحقيقة نفسه، وتعريفه بحقيقة ضعفه، من القضايا الهامة

(١) تفسير البضاوي: ٤٢١/٢.

التي ذكرها الله تعالى في آيات كثيرة، فعندما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه، ولهذا أبرزت آيات سورة الأنعام هذا المعنى، ورُكِّزَت عليه، وهي تجادل المعرضين وتصدّي للمعاندين:

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ فلا نجاة لكم إلا بالله تعالى، هو الذي ينجيكم من هذه الشدة والمحنة، ومن كل شدة ومحنة.

فالآية تشير إلى كثرة الشدائد والعقبات التي تعترض طريق حياة الإنسان، ولا غنى له عن معونة الله تعالى للنجاة منها.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ثم أنتم بعد كل هذه النعم تعودون إلى الشرك في عبادته سبحانه، ولا توفون بما صدر عنكم من عهود ومواثيق في أثناء الشدة والمحنة.

وأذكر القارئ الكريم بوحدة أسلوب التعبير في آيات السورة الذي برز في أول آياتها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

وما أجمله سبحانه هنا في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ فصله في تعقيبهِ على نجاتهم من الريح العاصف والبحر الهائج: ﴿فَلَمَّا أَبْجَدْتُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣^(١)].

• التحذير من الفرقة والاختلاف:

فما الذي جعلكم تتغيرون، وعن باب فضله ورحمته تبتعدون؟ إن نجاتكم من هذه الشدة والمحنة لا تعني انفلاتكم من قبضة قدرته وقهره جَلَّ جَلَالُهُ، فأنتم تحت قهره ومشيتته في حال الرخاء كما كنتم في حال المحنة والشدة:

(١) انظر: تفسير سورة يونس (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، في مكانه من هذا التفسير.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسْكُمُ شَيْعًا وَيَذِقَ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ من جهة السماء .

﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كالزلازل والخسوف .

فهو كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ [الملك] .

﴿أَوْ يَلِيَسْكُمُ شَيْعًا﴾ أي: يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق، فيجعلكم فرقاً مختلفين يقاتل بعضهم بعضاً، وهو معنى قوله: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٍ﴾^(١) .

والآية وإن كانت تخاطب المعرضين المعاندين من الكفار والمشركين، إلا أنَّ فيها تحذيراً للمسلمين .

ويبدو لنا أنَّ الله تعالى قدَّر أن يكون بلاء الأمة المسلمة بهذا النوع الأخير من العذاب، بلاء الاختلاف والافتتال والانقسام إلى فرق وشيع وأحزاب .

ففي الحديث النبوي: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: لما نزلت: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بالله من ذلك» ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بالله من ذلك»، ﴿أَوْ يَلِيَسْكُمُ شَيْعًا﴾ قال: «هذا أيسر» [رواه البخاري (٤٦٢٨)] .

وما أراد ﷺ تهوين أمر الاختلاف والافتتال في الأمة، فأمره شديد وخطير وعواقبه وخيمة، إنما أراد أنه أهون وأيسر من عذاب يستأصل الأمة المسلمة ويُفنيها فلا يبقى منها أحد، كما حدث للأمم الكافرة قبلها .

وقد سأل رسول الله ﷺ رَبَّهُ أَنْ يَجَنَّبَ أُمَّتَهُ هَذَا الْبَلَاءَ، ويعافيهَا مِنْ دَاءِ الْفِرْقَةِ وَالْاِخْتِلَافِ، لَكِنْ قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْغَالِبُ، فَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ

(١) تفسير الخازن: ٤٢٣/٢ .

ﷺ قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلتي ركعتين فصلينا معه، فناجى ربه ﷻ طويلاً، ثم قال: «سألتُ ربي ثلاثاً: سألتُهُ ألا يُهْلِكَ أمتي بالفرقِ فأعطينيها، وسألتُهُ ألا يُهْلِكَ أمتي بالسنة (القحط والجذب) فأعطينيها، وسألتُهُ ألا يجعلَ بأسَهُم بينهم فمنعنيها» [رواه مسلم (٢٨٩٠)].

فالفرقة والاختلاف والافتتال من أنواع العذاب يبتلي الله تعالى به الأمة بسبب إعراضها عن طاعته.

وتركها لشريعته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].
وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي: انظر نظر المتأمل المتفكر كيف نوضح الآيات ونفسرها بذكرها مرة بعد مرة بأساليب متنوعة.
﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: لعلهم يفهمون حجج الله تعالى وبصائره، فيتعظون بها وينتفعون.

ومع كل هذه البصائر والحجج والتنوع في أساليب عرضها، أعرضوا وكذبوا وكان قوم النبي ﷺ أول المعرضين وأشد المعاندين:

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ٦٦

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ الذين تربطك بهم آصرة النسب.

﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ مع أن القرآن هو الحق الثابت المؤيد بالحجج والبراهين.

وتكذيب قريش للنبي ﷺ، وهم قومه، يبرئ الدعوة الإسلامية عن أي شبهة يمكن أن يتعلّق بها أعداء الإسلام، فقد نزه الله الدعوة الإسلامية عن العصبية القومية والعرقية، فهي دعوة إنسانية شاملة في نشأتها وفي أهدافها.

وفي مقابل المعارضة الصادرة من قومه أمر عليه الصلاة والسلام أن يعلن براءته منهم، وأنه ليس موثقاً بهدايتهم، فمهمته قاصرة على تبليغهم دعوة ربهم سبحانه:

﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧).

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: لكل خبر في القرآن الكريم حقيقة يؤول إليها، ومنتهى ينتهي إليه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة. ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صحة هذا الخبر وتحققه.

• الابتعاد عن مجالس الكفر والفجور:

وعادت الآيات إلى توجيه المؤمنين وإرشادهم بمخاطبة النبي ﷺ لأنه قدوتهم وأسوتهم:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٦٨).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها بغير تأمل ولا بصيرة، بل طوع الهوى؛ كما يفعل خائض الماء في وضع رجله داخل الماء على غير بصيرة^(١).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فلا تجالسهم وانصرف عنهم.

وقد جاء هذا التوجيه والإرشاد على عكس ما أمر به ﷺ في شأن المؤمنين ومجالستهم فيما مرّ معنا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ولا تدُلُّ الآيةُ الكريمة على المقاطعة الكاملة للكافرين والمشركين، فلا بدَّ من مخالطتهم، والاتصال بهم لتبليغهم دعوة الله تعالى، فهي مقاطعة مؤقتة ما داموا يستهزئون بآيات الله سبحانه؛ ولهذا قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: غير حديثهم عن القرآن الكريم، وحينئذٍ يحلُّ لك أن تجالسهم.

وفي هذا دليل على تحريم الجلوس في أماكن المنكرات والمعاصي، وتحريم تلبية دعوة وليمة تشتمل على المنكرات والآثام، إلا إذا كنت قادراً على منعها.

﴿وَمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يشغلك بوساوسه، ويجعلك تنسى الأمر بالإعراض عنهم، وترك مجلسهم.

وهذا على سبيل الافتراض، إذ لا سبيل للشيطان إلى إشغال رسول الله ﷺ، ولذا عبّر بـ ﴿إِنْ﴾ الشرطية المزیدة ﴿مَا﴾ بعدها^(١)، فمراد الآية بيان الحكم في هذه الحالة بالنسبة لعامة المؤمنين.

﴿فَلَا تَعْدُ بَعْدَ الذِّكْرِ﴾ أي: بعد التذكّر.

﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَٰكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ما على الذين يتجنبون مجالسة الظالمين من حسابهم من شيء، فهم غير مسؤولين عمّا يجري في هذه المجالس معرضين عنها، والإعراض عنها تذكير لأهلها لعلهم يتعظون.

﴿وَلَٰكِنْ ذِكْرُنَا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لعل تلك الذكرى تمنعهم من

الخوض والاستهزاء.

إنّ مشاركة الظالمين في مجالس ظلمهم وفجورهم تشجيع لهم على الظلم

(١) روح المعاني: ١٨٢/٧.

والفجور، ومن لا قدرة له على منع المنكر ودفع الظلم، فلا يحضر مجالسهم، وإلا كان مثلهم في الإثم والمسؤولية، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ إِذَا جَاءَ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤].

• الاستمرار في التبليغ:

ولا ينبغي التوقف عن تبليغ الدعوة مهما كانت العقبات والمعوقات، كما لا ينبغي اليأس من هداية الكافرين، مهما اشتدوا في كفرهم، ولجؤا في عنادهم. والانصراف عن مجالسهم أثناء استهزائهم بالله تعالى لا يعني ترك تبليغهم وإنذارهم، فهو مقاطعة مؤقتة بحالة معينة:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ أَلْحْيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيْعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠).

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اترك الذين اتخذوا دين الإسلام الذي أمروا به ودُعوا إليه لعباً ولهواً^(١).

فالإسلام دينهم شأؤوا أو أبوا، آمنوا به أو كذبوا، فهو الدين الحق الذي لا دين سواه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسَلَمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وما أعرضوا عن الإسلام إلا بسبب اغترارهم بالدنيا:

﴿وَعَرَّتْهُمْ أَلْحْيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزينتها وزخرفها، أو فُتِنُوا باستمرارها ودوامها.

﴿وَذَكَرَ بِهِ﴾ أي: ذكّر بالقرآن الكريم ولا تترك وعظهم به.

(١) تفسير الخازن: ٤٢٦/٢.

﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مخافة أن تُسلم إلى الهلاك، وتُرهن بسوء عملها، وأصل الإِبْسَال والبَسْل في اللغة: المنع، ومنه أَسَدٌ باسِلٌ، لأن فريسته لا تفلت منه^(١).

فكأن ترك تذكيرهم ووعظهم يؤدي إلى إسلامهم لأعمالهم السيئة التي يُحْبَسُونَ في العذاب بسببها، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، فتبليغ الدعوة للناس، وتذكيرهم بها إنقاذٌ لهم من شر أعمالهم، فما أعظم رحمة الله بعباده، بإرساله الرسل لينقذوا الناس من شرور أعمالهم وتبعات كفرهم وفجورهم.

وهذا يبين لنا أهمية تبليغ الدعوة للناس وأهمية وعظهم بآيات القرآن الكريم، إنها عملية إنقاذ للنفوس البشرية من أشراكٍ نصبوها لأنفسهم بسبب سوء كسبهم واختيارهم، فلا غنى للناس عن دعوة الأنبياء ووحى الله تعالى؛ لأنهم بحاجة إلى من يحميهم من شرور أنفسهم، ومن سيئات أعمالهم، إنهم بحاجة إلى منقذٍ ينقذهم من ظلمات كفرهم وفجورهم.

وإن مسؤولية الإنقاذ واقعة على كاهل المسلمين؛ لأنهم وحدهم الذين يملكون وسائل الإنقاذ، وعندهم وحدهم أسباب السلامة والنجاة للبشرية، فالقرآن الكريم لا يزال في أيديهم غصّاً طريّاً كما أنزل، حفظه الله تعالى لهم لينقذوا الناس به، ليدّكروهم به، ويعظّوهم به، فذكّروا الناس بالقرآن، ولا تسلموهم إلى شرورهم ومعاصيهم، بلّغوهم القرآن، وعظّوهم به، وأنقذوهم به من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي: ليس لها من يتولّى دفع العذاب عنها يوم القيامة، أو يشفع ليخلصها من العذاب.

﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا﴾ فلا نجاة لها من العذابٍ مهما حاولت أن تفدي نفسها بأيّ فدية.

(١) تفسير البضاوي: ٤٢٦/٢.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي: أولئك الذين أسلموا إلى العذاب بسبب كفرهم وفجورهم.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

وكأن الآية الكريمة بذكرها لبعض أنواع العذاب في جهنم تستثير همم المسلمين ليقوموا بتبليغ الناس دعوة القرآن الكريم، لعلّ رحمة الله تعالى تدرك بعضهم قبل أن يُسَلَّموا إلى العذاب ويشربوا من الحميم، ويعانوا من العذاب الأليم.

• حَيْرَةٌ وَقَلَقٌ:

وإنّ في ابتعاد المؤمنين عن مجالس الكفر والفجور تحصيناً لهم ووقاية من أن يفتنوا عن دينهم، ويرتدّوا عن إسلامهم، فالمعاصي والآثام سريعة الانتشار، تسري إلى النفوس بوسائل شيطانية كثيرة، وهي بريد الكفر، وانطلاقاً من هذه النقطة قرّر الفقهاء القاعدة الشرعية الهامة: دفعُ المفسدة مقدّم على جلب المصلحة. ولعلّ مراد الآية الكريمة التالية توضيح هذه الحقيقة:

﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُنْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي: أبعد أن اتّضحت لنا الأدلة والبراهين وجاءتنا البصائر، وعرفنا أن النفع والضرر بيد الله تعالى المتصف بكمال العلم والقدرة، أبعد كلّ هذا نرجع إلى ظلمات الكفر والجهل؟!.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ الذي وفقنا إلى الإيمان، وشرح صدورنا بالإسلام، ونور قلوبنا ببصائر الحق، فنكون:

﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كالذي استغوته الشياطين وزينت له هواه ودعته إليه.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تصوير لحال النزول والهبوط في الأرض، فكأنَّ الإنسان عندما يستجيب لتزيينات الشياطين ويخضع لهواه، ينزل من سماء الإيمان إلى حضيض الكفر، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الْأَرْضُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].
وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿حَيْرَانَ﴾ تصوير للقلق والاضطراب النفسي الذي يصاب به المرتد عن الإيمان، فقد ذاق مرارة الكفر بعد أن عرف حلاوة الإيمان.

إنه تصويرٌ لحالة الإنسان المادي المعاصر الذي غَمَسَ نفسه في شهوات الأرض المادية ولذائذها الجسدية؛ ليستعيض بها عما فقد من لذة الإيمان وسكينته وبرّده وطمأنينته، ولكن هيهات، فلو اجتمعت متعُ الأرض كُلُّها ولذائذها في يد إنسان واحد لن تعوضه عن لحظةٍ واحدة من لحظات السكينة والطمأنينة التي يتذوقها قلب الإنسان المؤمن بالله تعالى.

إنَّ انتشارَ المخدّرات والمُسكِرات والمفتّرات بين الناس في العصر الحاضر، مع شيوع اللامبالاة، والشعور بعدم الانتماء، والانسلاخ عن أيِّ قيمة خلقية وبشرية واجتماعية، كلُّ ذلك يدلُّ دلالةً واضحةً على شدة المعاناة والحيرة والقلق التي يعاني منها الإنسان المعاصر، لقد أصبح الإنسان في ظلِّ هذه الحضارة المادية البعيدة عن دين الله وشرعه مخلوقاً تعيشاً معرضاً لضغوط نفسية كبيرة، ولا سبيل له للخلاص من تعاسته وشقائه وحيرته وقلقه إلا أن يستجيب لدعاة الهدى والإيمان:

﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا﴾ تعال إلينا، هلمَّ إلى السكينة والطمأنينة في ظلِّ الإيمان بالله تعالى.

• العلاج:

فلا علاج للاضطراب النفسي والحيرة والقلق إلا بالإيمان بالله تعالى، والإكثار من ذكره سبحانه، ففيه السكينة والطمأنينة للقلوب الحائرة والنفوس المضطربة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي [الرعد].

هذا علاج للحيرة والقلق، ولا علاج سواه، ولقد أخطأ سيد قطب رحمه الله خطأ كبيراً عندما تمنى للحائرين أن يسلكوا طريقاً واحداً، ولو كان طريق الضلال ليتخلصوا من حيرتهم، فقال: «إنه مشهود ذلك المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض، ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله، ويا ليتة يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد ولو في طريق الضلال»^(١).

وأقول: ليتة رحمه الله قال: يا ليتة يرجع عن طريق الضلال، فالضلال لا خير فيه، وهو سبب حيرتهم ومصدر اضطرابهم وقلقهم، ولا يجوز لنا أن نتمناه لأحد أبداً.

وقد بين لنا سبحانه بعد ذلك في الآية علاج الحيرة والقلق فقال:

﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ﴾ فلا نجاة إلا في هدى الله، في الإيمان به، والإكثار من ذكره.

﴿وَأْمُرْنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبالإسلام لأمره سبحانه ومشيتته.

وخير ما نحصن به قلوبنا من نزغات الشياطين وأسباب الحيرة والقلق أن نقيم الصلاة ونلتزم التقوى:

(١) في ظلال القرآن: ١١٣١/٢.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٢).

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته واجتناب محارمه، وتذكروا مسؤوليتكم يوم القيامة: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

ثم جاءت الآية التالية في ختام هذا الفصل تلخص كل ما أثبتته آيات السورة الماضية لله تعالى من صفات الكمال والجلال:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ فهو سُبْحَانَهُ الخالق وحده للخلق بالحق، فلا عبث ولا تعب في خلقه سُبْحَانَهُ:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فله سُبْحَانَهُ كمال القدرة في الدنيا ويوم القيامة، فلا يمتنع شيء على قدرته سبحانه، ولا يحتاج إلى شيء من الأسباب والآلات، فهو قادر على كل شيء من دون شيء.

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الثابت الذي يطابق الحقيقة ولا يخالفها أبداً.

﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ فهو سبحانه المالك يوم القيامة، ولا ملك لأحد سواه في هذا اليوم.

﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وله كمال العلم جلّ وعلا، ومع كمال العلم والقدرة:

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ إذاً فهو وحده المستحق للحمد، كما جاء في أول آيات السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

مناظرة وردود

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ هَازِرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءِلَٰهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلْيَلُ رَأَىٰ كُوكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ ٱلْأَفْلَاقَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَّمْ يَهْدِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يٰغُفُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّى فَطَرَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ خَافًا وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحٰجُّونِي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ؕ إِلَّا أَن يَشَآءَ رَبِّ شَيْئًا وَسِعَ رَبِّ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰنَهُمْ بِظُلْمٍ ؕ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّثَبِّتُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرٰهِيْمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ؕ نَرْفَعُ دَرَجٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلْمُتَصَلِّينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا ؕ كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَوَمِن ءَابَآئِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَإِخْوٰنَهُمْ وَأَجْنَبيئَهُمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِن عِبَادِهِ ؕ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبُهِدَهُمُ ٱفْتِدَءٌ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ؕ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ

اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ
 تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمَنَّهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَن تَرَوْا وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ
 ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ
 إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
 وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ
 عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
 وَتَرْكُمَا خَوْلَانِكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ
 نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَ عَنْكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ * إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ
 الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَآئِن تُوَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا
 وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا
 فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ
 فَمُسْتَوْفٍ وَمُسْتَوْدَعٍ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا
 بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ
 دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ
 إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ
 لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ
 كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ
 الْبَاصِرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بِصَآئِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ
 فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نَضْرِبُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ
 يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ
 شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْسَدَتَهُمْ وَابْصِرَتَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنذَرُكُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّا زَلَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٣١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْسَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١٣٣﴾ أَغْفِرَ اللَّهُ أَمْ يَتَّبِعِ حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٣٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٥﴾ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَفْضُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣٧﴾

• إبراهيم عليه السلام :

ولما كان نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام علماً من أكبر أعلام التوحيد ودعائه، وخير من دافع وجادل من أجل تقريره، حتى تمكَّن بفضل الله تعالى من إفحام خصومه، والفلج عليهم، ذكرت السورة صوراً من جداله ومناظراته مع خصومه، ليكون الأسوة الطيبة والمثال الرفيع لكلِّ المجادلين عن دين الله تعالى، والداعين إلى سبيله على بصيرة.

ومن المعلوم أنَّ خصوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون الأصنام، ويعظمون النجوم، وكانوا على درجة عالية من التحضر والتمدُّن، فحضارة ما بين النهرين وبلاد الرافدين من أقدم الحضارات البشرية وأشهرها.

وبدأ إبراهيم عليه السلام بدعوة أبيه إلى عقيدة التوحيد وعبادة الله وحده:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّي أَخَافُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ﴾ (٧٤).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ﴾؟ وهو استفهام تعجب واستنكار، وكلمة ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ تدلُّ على أنَّ أباه كان يصنع الأصنام بيده، وقد جاء في الأخبار أنه كان صانع أصنام.

وقد تلطف إبراهيم كثيراً في دعوته لأبيه، مع أنه لقي منه جفوةً وغِلظةً وعناداً، ظهر ذلك فيما ذكره الله عنه مفصلاً في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۚ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۚ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۚ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۚ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَا رَأْسُكَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمُ الْيَهُودُ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ لَهَاجًا وَلَا حِزًّا ۚ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ۚ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ سَاسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي خَفِيًّا ۖ﴾ (٧٥). [مريم].

ويبدو أنَّ إبراهيم عليه السلام أغلظ الخطاب لوالده بعدما رأى إصراره على الكفر وشدة عناده فقال:

﴿إِنِّي أَخَافُكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: في خيرة وجهل ظاهر.

وتعكس لنا كلمة إبراهيم عليه السلام هذه قوة ثقته بنفسه، واعترازه بعقيدته، مع أنه انفرد بهذه العقيدة دون أهله وقومه، فهو يرى أنَّ أباه وقومه في ضلال ظاهر واضح.

● ملكوت السموات والأرض:

ومردُّ هذه الثقة والاعتزاز أنَّ الله تعالى زوّد إبراهيم بكثير من الأدلة القطعية والبراهين اليقينية، فكانت بصائر الحق قوية واضحة في قلبه وعلى لسانه، دلَّ على ذلك قوله ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمَوْقِنِينَ ۖ﴾ (٧٥).

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: نبين لإبراهيم وجه

الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله ﷻ في ملكه وخلقهما، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه^(١).

والملكوت أبلغ من الملك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة، فزيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، فكأن الله ﷻ هدى إبراهيم ﷺ إلى مشاهدة النواميس الدقيقة الماثلة في الكون، التي تدل على وحدة خالقها ومبدعها ﷻ، فهي رؤية بالبصر والبصيرة، يستطيع الإنسان أن يحقق مثلها إذا أحسن استعمال عقله وسمعه وبصره، ولهذا أمرنا الله تعالى بها في عدة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فرؤية الملكوت للاستدلال بما فيه من حكم ونواميس وبصائر على وحدانية الخالق سبحانه، ليست خاصة بإبراهيم ﷺ.

وليس صحيحاً ما ذكر كثير من المفسرين من أنها رؤية بصر خاصة به ﷺ رآها بعينه عندما وقف على صخرة، فكشف الله له عن السماوات والأرض، ورأى ما فيهما من عجائب المخلوقات، ورأى أيضاً العرش والجنة والنار، ومكانه في الجنة، كل ذلك لا دليل عليه.

نعم، نستطيع أن نؤكد أن رؤية إبراهيم ﷺ لملكوت السموات والأرض أكمل من رؤية غيره بسبب المواهب الفكرية العالية التي أكرمها الله تعالى بها، فالأنبياء ﷺ أكمل الناس عقولاً، وأصحهم أجساماً، فما بالك بإبراهيم ﷺ خليل رب العالمين، وإمام الموحدين، وأفضل المرسلين بعد نبينا صلوات الله عليهم أجمعين، وقد أخبرنا ﷻ أنه أكمل له عقله، وآتاه رشدَه منذ نعومة أظفاره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ويؤكد ما ذهبنا إليه قوله تعالى في ختام الآية:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٩١/١.

﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّنِينَ﴾ أي: ليستدلَّ به وليكون من الموقنين، واليقينُ عبارةٌ عن علم يحصل بسبب التأمل بعد زوال الشبهة^(١).

● المناظرة:

ثم بيَّنت الآيات كيف ناظر إبراهيم عليه السلام قومه وجادلهم، ليبين لهم بطلان ما كانوا عليه من تقديس النجوم وعبادة لها؛ بسبب اعتقادهم أنها آلهة تؤثر في الحوادث الحادثة في الأرض، وعُرف عن إبراهيم عليه السلام أنه كان في أثناء مناظرته لخصومه ومجادلته معهم يلجأ إلى الأسلوب الواقعي العملي؛ ليشدَّ أنظارهم إلى الحقيقة، ويجعلها قريبة محسوسة منهم؛ ولهذا قام عليه السلام بتكسير الأصنام عندما أراد أن يبين لقومه عجزها وضعفها، وعدم استحقاقها للعبادة، وأنها لا تضر ولا تنفع.

وقد قصَّ الله علينا ما فعله بالأصنام في قوله الكريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَافِيُونَ﴾ ٥٢ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَا عِبَادِينَ﴾ ٥٣ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٥٤ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ ٥٥ ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٥٦ ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ ٥٧ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ٥٨ ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٥٩ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ٦٠ ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ٦١ ﴿قَالُوا إِنَّكَ أَنْتَ فَاعِلُ هَذَا سَاهِتًا يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٦٢ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ٦٣ ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٦٤ ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ٦٥ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ٦٦ ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٧ [الأنبياء].

وهاهو عليه السلام عندما أراد أن يبين لقومه عجز النجوم وضعفها، وأنها مخلوقةٌ

كسائر المخلوقات لا تستحق أن تعظم وتعبد، انتظر حتى أقبل الليل، وظهرت النجوم تلمع في ظلامه كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: ستره بظلامه.

﴿رَأَى الْكَوْكَبَ﴾ نجماً.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: قال لقومه: هذا ربي، وهو قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله كما هو، غير متعصب لمذهبه؛ لأنه أدعى إلى الحق، وأنجى من الشعب، ثم يكرّر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة^(١).

وبذا علّمنا ﷺ الطريقة المثلى التي ينبغي اتباعها في مناظرة الخصوم ومجادلتهم، ولا شك أنه بهذا استحوذ على انتباه قومه، وتمكّن من جلب أفكارهم وأنظارهم إلى ما سيقوله بعد ذلك ويقرره.

وانتظر ﷺ حتى غاب النجم متّبِعاً الأسلوب العلمي، كما سبق بيانه:

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب واحتجب عن الأنظار المشدودة إليه.

فوجئ القوم بصوت إبراهيم ﷺ يدوي في قلوبهم ويملاً أسماعهم:

﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾. ولم يشأ ﷺ أن يصدّمهم بالحقيقة دفعةً واحدة،

بل تدرّج معهم تألفاً لهم فقال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ ولم يقل لهم: لا أعبد الآفلين، فكلمة ﴿لَا أُحِبُّ﴾ تتضمّن معنى: لا أعبد، وتزيد عليها بالمعنى.

فعلى من يجادل المخالفين له في شأن العقيدة أن يحسن اختيار الألفاظ ذات المعنى الدقيق المناسب، والتي يتوصّل بها إلى إفحام خصمه وإلزامه بما يريد.

وكلمة ﴿الْآفِلِينَ﴾ لها دلالتها الكبيرة في موضوع المناظرة، فالأفول حركة، وهي من لوازم الحدوث، والأفول تغير، والإله لا يتغير، والأفول غياب وضعف، والإله حاضر أبداً لا يغيب، قوي لا يعتريه ضعف، والأفول

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٤٣٢.

في وقت معيّن ومكان معيّن يدلّ على أن النجم محكوم بنظام ثابت لا يستطيع الانفكاك منه، والمحكوم لا يكون حاكماً ولا إلهاً.

وبعضهم رأى أن إبراهيم عليه السلام كان في موقفه هذا في مجال النظر لنفسه، لا المناظرة، وقولهم هذا لا يتفق مع عصمة الأنبياء عليهم السلام وتنزههم عن الكفر والشرك منذ بداية حياتهم، ومع قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقد احتج أصحاب هذا القول فقالوا: كيف انتظر قومه معه حتى غاب النجم؟.

ويسقط احتجاجهم هذا إذا علمنا أن القوم كانوا يعظمون النجوم ويعبدونها، والمعروف أن عبادة النجوم ينتظرون ظهورها ليقوموا بمراسم عبادتها، ويمارسوا طقوس تعظيمها، فالقوم كانوا مستغرقين في عبادة النجم، مشدودين إليه.

ثم انتقل عليه السلام بمناظرته مع قومه إلى ما يروونه أكبر وأعظم من الكوكب، إلى القمر:

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ يشق بنوره الظلمة في أول طلوعه.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ كرّر الأسلوب نفسه مع المناظرة في الكوكب.

وانتظر أيضاً حتى غاب القمر.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

وبدا عليه السلام في هذه المرّة يصارحهم بالحقيقة، ويواجههم بها، فأظهر لهم عجزه عن إدراك الحقيقة منفرداً دون معونة من ربّه سبحانه وتوفيقه، فالإنسان محتاج إلى هداية ربّه بالبيان أولاً، وهي مهمة المرسلين عليه السلام، وبالمعونة

والتوفيق ثانياً، وهي هداية الله تعالى لمن يشاء من عباده، وتبقى الإنسانية تائهة ضالة دون معونة رب العالمين وبيان المرسلين.

• براءة وتفويض:

وكرر إبراهيم عليه السلام الأسلوب نفسه للمرة الثالثة مع الشمس، فلما أشرقت الشمس قال لقومه الذين يعبدونها عند الشروق كما قال في الكوكب والقمر:

﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومُ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا تَدْعُونَ﴾ (٧٨).

﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: هذا الطالع ربي، أو هذا الجرم ربي، واستعمل الإشارة بالمذكر صيانة للرب تعالى عن شبهة التأنيث، ولهذا قالوا في صفاته تعالى: علام، ولم يقولوا: علامة؛ تفادياً من علامة التأنيث^(١). ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ من الكوكب والقمر، كما يظهر في النظر، قال ذلك كما مر معنا إنصافاً لخصومه.

﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾؛ واجههم بالحقيقة كاملة:

﴿قَالَ يَنْقُومُ إِلَهِي بَرِيءٌ مِمَّا تَدْعُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَنْقُومُ﴾ يؤكد أنه عليه السلام كان مناظراً لقومه لا ناظراً لنفسه.

ولم يكتفِ عليه السلام بإعلان براءته من كل مظاهر الكفر والشرك التي كان قومه عليها، بل أخذ يعرفهم بالإله الحق، الذي يجب أن يتوجهوا إليه وحده بالعبادة والطاعة، واستعمل عليه السلام أسلوب الإخبار عن نفسه، ليكون لهم قدوة ومثلاً، فقال بصيغة الخبر المؤكّد:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٧٩).

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: وجهت عبادتي وطاعتي، لأن من كان مطيعاً لغيره

(١) انظر: تفسير النسفي: ٤٣٥/٢.

منقاداً إليه فإنه يتوجه بوجهه إليه ، فتوجيه الوجه كناية عن الطاعة^(١) .

﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أبداع خلق السموات والأرض وخلقهن على غير مثالٍ سبق .

﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلِّ المِلَل والعقائد المخالفة للتوحيد .

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في عبادته أحداً من خلقه .

وقابل قومُ إبراهيم عليه السلام موقفه هذا بمخاصمته ومجادلته وتهديده بالهتهم أن تصيبه بمكروه :

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٨٠) .

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ . فردَّ عليهم مستنكراً جدالهم :

﴿قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي: أتجادلونني في وحدانية الله تعالى وهو الذي دلّني على وحدانيته بالبصائر التي بصرني بها ، والدلائل التي أرشدني إليها . ولعله عليه السلام أراد ما مرّ معنا من قوله جلّ وعلا : ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] .

ثم ردّ على تخويفهم له من الهتهم فقال :

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي: لا أخاف من هذه الآلهة التي تعبدونها ؛ لأنها لا تضر ولا تنفع .

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها ، فهو سبحانه قادر أن يجعل فيما يشاء نفعاً وفيما يشاء ضرراً ، فالنفع والضرر منوط بمشيئته سبحانه وحده . وهكذا فوَضَّ عليه السلام أمره لله تعالى بعد أن أعلن براءته من الأصنام .

(١) روح المعاني: ٢١٣/٧ .

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه سبحانه بكل شيء، فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحقق بي مكروه من جهتها^(١).

وبهذا احتاط ﷺ لنفسه ولدينه، فلن يستطيعوا أن ينسبوا إلى ألهمتهم شيئاً من التأثير إذا قدر الله تعالى بعض المكروه، كما أظهر عبوديته واستسلامه لله تعالى، ورضاه بقضائه وقدره ﷻ، الذي له كمال العلم وتمام المشيئة، فلا يخرج شيء عن علمه ومشيئته أبداً.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتميِّزوا بين الإله العالم القادر وبين هذه الأصنام الضعيفة العاجزة، فالأمر واضح ظاهر، لا يحتاج إلى عناء وتفكير، ولا يحتاج إلا إلى شيء من التذكر.

• أَمْنٌ وَخَوْفٌ:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ من الأصنام والأوثان، وهي مأمونة الخوف بسبب عجزها.

﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ﴾ وهو أهل أن يخاف ويخشى وقد أشركتم به.

﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ يعني: ما ليس لكم فيه حجة ولا برهان.

فكانه ﷻ قال لهم: ما لكم تنكرون عليّ الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف^(٢).

﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ من العذاب؛ الموحدون أم المشركون؟.

(١) انظر: تفسير البضاوي: ٤٣٧/٢.

(٢) تفسير النسفي: ٤٣٧/٢.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم فأخبروني عما سألتكم عنه، ولا يخفى ما في كلامه ﷺ من تهكم مُرَّ بهم.

وجاء قوله ﷻ بعد ذلك على سبيل الاستئناف يفصل بين الفريقين المتناظرين، فيشهد بصحة قول إبراهيم ﷺ ويؤيده:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: لم يشوبوه، ولم يخلطوه بشيء من الشرك، بسبب إخلاصهم لله تعالى، فالشرك أعظم أنواع الظلم، دلَّ عليه ما جاء في الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلم نفسه؟! فقال: «إنه ليس الذي تغنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَبْتَغِي لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟! إنما هو الشرك» [رواه البخاري (٤٦٢٩) ومسلم (١٢٤)].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمَنُ﴾ يوم القيامة، فلا يصيبهم ما يصيب الناس من الفرع الأكبر في هذا اليوم، كما قال تعالى فيهم: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

﴿وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي: وهم في الدنيا على هدى ورشاد.

وهكذا خصم إبراهيم ﷺ قومه، وغلبهم بحجته التي أيده الله تعالى بها، وبصيرته التي شرح الله صدره لها، فقال سبحانه يبين فضله عليه:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٨٣﴾.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ﴾ بما نعطيههم من العلم والحكمة، فالعلم الذي يدلُّ على الله تعالى شرفٌ لصاحبه، وسعادةٌ في

الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ في كل أفعاله وأقواله.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده.

● شجرة النبوة:

وتابعت الآيات بيان فضل الله العظيم على إبراهيم عليه السلام:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٤).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل

إبراهيم عليه السلام.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: ومن ذرية إبراهيم؛ لأن الآيات تتحدث عنه، وتبين فضله.

﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فهو

كقوله سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فكما أحسن إبراهيم عليه السلام في طاعة ربه، وأخلص في الدعوة إلى توحيده،

أحسن الله تعالى إليه برفع درجاته، وجعل النبوة والكتاب في أولاده وذريته، فهو

أصل شجرة النبوة، ومنه تفرعت فروعها وأغصانها، فما من نبي أكرمه الله تعالى

بالنبوة والرسالة بعده إلا كان من ذريته عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَاقِبْتُهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ

الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٥).

أي: الكاملين في الصلاح. والجدير بالذكر أن عيسى من ذرية إبراهيم من

جهة أمه؛ لأن الله تعالى خلقه من أم دون أب.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُدَّاءَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

أي: فضل الله هؤلاء الأنبياء على غيرهم من العالمين .
وهؤلاء المذكورون في هذه الآيات ليسوا كل الأنبياء، فالأنبياء كثيرون،
وقد أشار سبحانه إليهم على وجه العموم بقوله الكريم:

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ أي: اخترنا للنبوّة من آباء الذين سبق
ذكرهم ومن أبنائهم وإخوانهم .
﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

تلك هي شجرة النبوّة المباركة المتفرّعة عن إبراهيم عليه السلام، والممتدّة امتداد
الأجيال البشريّة المتعاقبة، تحمل إليها رسالة الله تعالى .

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالله سبحانه هو المتفضّل بالهداية،
وليس لأحدٍ سابقةٍ استحقاق عليه ﷻ .

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: لو أشرك هؤلاء الأنبياء لبطل
وذهب عنهم كل ما أسلفوه من الأعمال الصالحة، فليس لأحد أن يغترّ بعمله،
ويُعجب بنفسه، فالفضل لله تعالى بدءاً وختاماً .

وإذا كان هذا حال الأنبياء ﷺ فما بالك بحال غيرهم من الناس؟! نسأل
الله العليّ القدير أن يُثبّتنا على صراطه المستقيم .

• التوكيل بالرسالة:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا

بِكُفْرِهِمْ﴾ .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الذي أنزله الله تعالى كالتوراة والإنجيل والقرآن، فالمراد جنس الكتاب.

﴿وَالْحِكْمَ﴾ أي: وآتيناهم الحكمة، وهي حُسن فهم الكتاب والعمل به.

﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ وهي الوحي الذي أنزله الله تعالى عليهم.

﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ أي: فإن يكفر بهذه الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة، هؤلاء المعارضون لدعوة الرسول ﷺ من أهل مكة.

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وهم كلُّ من آمن برسالة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، من الصحابة والتابعين لهم إلى يوم الدين، فالأمة المسلمة هي الأمة الموكَّلة بحمل الرسالة وأداء الأمانة، بعد أن ختم الله النبوة والرسالة بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

ومعنى توكيلهم بها أنهم وُفِّقوا للإيمان بها، والقيام بحقوقها، كما يُوكَّلُ الرجل بالشيء، ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه^(١).

فالأنبياء آتاهم الله الرسالة بما أنزل عليهم من الوحي، وكلفهم بتبليغها، بينما الأمة المسلمة وُكِّلَتْ بحفظ الرسالة، والقيام عليها، ونشرها بعد أن خُتِمت النبوة.

ففي الآية بَشَارَةٌ كَبِيرَةٌ للنبي ﷺ، وهو في مكة المكرمة، أن الله ﷻ سيظهر دينه، ويعزُّز رسالته، ويمكِّن له في الأرض، وفيها أيضاً تنويه بفضل الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار، الذين وكَّلهم الله تعالى على رسالته، وجعلهم الحَمَلَةَ والحَفَظَةَ لأمانته، وتنويه أيضاً بفضل الأمة الإسلامية، وبيان مسؤوليتها الكبيرة في حمل رسالة الإسلام وحفظها ونشرها بين الناس.

كما تدلُّ الآية على كمال الشريعة الإسلامية، فكتابتها القرآن الكريم الذي تعهَّد الله تعالى بحفظه، وحكمها سُنَّةُ النبي ﷺ المبيَّنة لأحكام الكتاب الكريم، ونبوَّتُها خاتمة النبوات، فَبِهِ عليه الصلاة والسلام اكتملت شجرة النبوة وخُتِمت،

(١) تفسير النسفي: ٢/٢٤١.

كما قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْبُجُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ! فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» [رواه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦)].

وبهذا يظهر كذب الدجالين من مُدَّعي النبوة بعده عليه الصلاة والسلام الذين سيأتي ردُّ آيات السورة عليهم، والإشارة إلى بعضهم إن شاء الله تعالى. فهو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وأفضلهم، جمع الله تعالى فيه كل فضائلهم ومحاسنهم بقوله تعالى مخاطباً له عليه الصلاة والسلام:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَتْهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: أولئك الأنبياء الذين سبق ذكرهم الذين هداهم الله تعالى بالوحي الذي أنزله عليهم.

﴿فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَتْهُ﴾ أي: لا تقتد إلا بهم، ولهذا قدّم المفعول ليفيد الحصر والتخصيص، وهداهم هو إيمانهم بالله تعالى وحده، واستسلامهم لأمره ومشيتته، وما كانوا عليه من الأخلاق الفاضلة الكريمة.

ثم بعد أن بيّن الله تعالى فضل النبي ﷺ وكمال دعوته ورسالته وصلتها برسالات الأنبياء قبله، أمره الله تعالى أن يتوجّه إلى أهل مكة بالخطاب:

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: إن دعوتي منزّهة عن كل الأغراض الدنيوية والمنافع المادية، فلا أطلب أي أجرٍ عليها، كما هو حال الأنبياء ﷺ الذين أمرت بالاعتداء بهم.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: ما هذا التبليغ الذي كُلفت به إلا تذكيراً وموعظة للعالمين.

وهذا يدل على عموم رسالة الإسلام، فهي رسالة كاملة وعامة ومنزهة عن كل الأغراض المادية، فعلى حملة الرسالة ودعاتها أن يعرفوا طبيعة هذه الرسالة، ليرتفعوا إلى مستواها، وينزّوها أنفسهم ودعوتهم عن أغراض الدنيا ومتاعها الرخيص.

• الرد على منكري النبوة:

ثم شرعت الآيات تردّ على المخالفين، وبدأت بالردّ على منكري النبوة بمناسبة الحديث عن النبوة والأنبياء، قال تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا يُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما عرفوا الله حق معرفته عندما أنكروا الوحي والنبوة وبعثة الأنبياء والمرسلين، فإنكارهم نابع من جهلهم بالله تعالى وصفاته الكاملة، فهو سبحانه الخالق العليم، والحكيم الرحيم، فلا يعقل أن يخلق الخلق ويتركهم دون هداية، وهو سبحانه يعلم شدة حاجتهم إليها، فإذا لم يكلّفهم بحمل رسالة، ولم ينزل عليهم وحياً، ولا نبوة، فلماذا خلقهم؟! ليتظالموا ويتخاصموا ويفتتلوا، ثم يموتون وينتهي الأمر؟! فما أجهل أولئك الذين أنكروا وحي الله ورسالاته، وجحدوا نبوة أنبيائه! ما أجهلهم بصفات الله تعالى وكمالاته!.

ويلتحق بهؤلاء أصحاب القول بالعقريات، الذين سيطرت على عقولهم ومشاعرهم المحسوسات والماديات، حتى أنكروا ظاهرة الوحي والنبوة،

فوصفوا الأنبياء بصفة العبقرية والنبوغ، ورأوا أن ما أتوا به نابغ من نبوغهم وعبقريتهم لا منزلاً عليهم من الله تعالى.

لكل هؤلاء أمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم على سبيل التحدي:

﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ فَإِنَّ إِنْزَالَ التَّوْرَةِ عَلَى مُوسَى ﷺ مِنْ الْأُمُورِ الذَّائِعَةِ الْمَعْرُوفَةِ حَتَّى عِنْدَ الْعَرَبِ، وَلِهَذَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ قَوْلَهُمُ الَّذِي سَيَأْتِي مَعْنَا فِي آخِرِ السُّورَةِ: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أَي: تَكْتَبُونَهُ فِي أَوْرَاقٍ، تَظْهَرُونَ بَعْضَهَا، وَتَخْفُونَ كَثِيرًا مِنْهَا. وَالْخَطَابُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ بَدَّلُوا وَغَيَّرُوا فِي التَّوْرَةِ، وَأَخْفَوْا بَعْضَ مَا فِيهَا، وَهَذَا مَا جَعَلَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَدْنِيَّةٌ.

لَكِنْ يُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَقُولَ: جَاءَ الْخَطَابُ فِي الْآيَةِ لِلْيَهُودِ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْبَارِ عَمَّا سَيَحْدُثُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَقَدْ أَخْبَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ قَبْلَ حَدُوثِهَا، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَزْمَلِ، وَهِيَ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي مَكَّةَ: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَقُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [٢٠] وَلَمْ يَكُنْ حَيْثُذِي فِي مَكَّةَ قِتَالٍ.

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ لِهَذِهِ الْآيَةَ قِرَاءَةً أُخْرَى بِصِيغَةِ الْغَيْبِ (يَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا)^(١).

ثُمَّ عَادَتْ الْآيَةُ تَخَاطَبُ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أُنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ أَي: وَمَنْ أُنْزَلَ الْقُرْآنُ الَّذِي فِيهِ عُلُومٌ لَا تَعْلَمُونَهَا وَلَا عِلْمُهَا آبَاؤُكُمْ؟.

وَلَمَّا كَانُوا جَاهِدِينَ مُعَانِدِينَ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَوَلَّى الْإِجَابَةَ عَنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ لِلْحَقِيقَةِ الثَّابِتَةِ:

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ أَي: اللَّهُ سَبْحَانَهُ أُنْزَلَهُ.

(١) انظر: مجموعة التفاسير: ٤٤٤/٢ وهي قراءة المكي والبصري.

﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ثم بعد تقرير الحقيقة لا تأبه بهم، ولا تهتم بعنادهم وإعراضهم، وتركهم في باطلهم يلعبون.

وقد تضمن قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أُنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ ردّاً علمياً ومنطقياً قاطعاً على منكري ظاهرة الوحي، ففي القرآن الكريم علوم ما كان أحد من البشر يعلمها، فما كان يعلمها النبي عليه الصلاة والسلام ولا أحد من قومه، بل لقد كشف التقدم العلمي في العصر الحاضر أنه يوجد في القرآن الكريم حقائق علمية كبيرة، ما عرفها أحد من البشر إلا في العصور المتأخرة، فلو أنّ منكري النبوة والوحي الذين لم يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم، ولم يدركوا تميزه على غيره من الكلام، لو أنهم تدبروا آياته وعرفوا بعض ما فيه من العلوم، لما وسّعهم إلا التسليم بأنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه تنزيل العزيز الحكيم.

• أم القرى:

فالقرآن الكريم بما فيه من إعجاز أكبر ردّ على منكري الوحي والنبوة؛ ولهذا التفتت الآيات الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم في سياق الردّ على منكري الوحي والنبوة، قال تعالى:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢).

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فهو كتاب منزل بواسطة الوحي على النبي ﷺ، كثير الفوائد عظيم المنافع.

﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة قبله كالتوراة والإنجيل.

﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وأنزل الله تعالى القرآن الكريم عليك يا محمد - ﷺ - لتنذر به أهل أم القرى ومن حولها.

وأمّ القرى: هي مكة المكرمة البلد الحرام، التي حرّمها الله تعالى يوم خلق

السموات والأرض، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يُلْتَقَطُ لِقَطْعُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهُ» [رواه البخاري (١٥٨٧) ومسلم (١٣٥٣)].

فهي أفضل البلاد وأعظمها، فيها الكعبة المشرفة بيت الله الحرام، قبله المسلمين، التي جعلها الله تعالى مثابة للناس وأمناً بقوله الكريم: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَبْكَأَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ الآية [المائدة: ٩٧].

وهي سُرَّةُ الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها تقع وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية^(١).

فقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يشير إلى هذه الحقيقة العلمية الهامة التي اكتشفت مؤخراً، فالأرض اليابسة كلها تقع حول مكة المكرمة، وهي مركزها، وفي هذا تأكيدٌ لعموم رسالة النبي ﷺ، وردُّ لمزاعم القائلين بأن رسالته عليه الصلاة والسلام هي للعرب فقط؛ لأنَّ بلاد العرب هي البلاد الواقعة حول مكة المكرمة، والحمد لله الذي ردَّ مزاعمهم، وهدى الإنسان إلى هذه الحقيقة العلمية التي ذُكرت في القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة، فمكة المكرمة هي أم القرى حقيقةً وشرعاً.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، فالإيمان باليوم الآخر يستلزم الإيمان بالوحي والنبوة، فهما أمران متلازمان، لا يمكن الفصل بينهما، فكل من يؤمن

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس، الإسقاط المكي العام، للدكتور حسين كمال الدين أحمد، ص ٢٤٢. ومما جاء فيها: وعندما تم توقيع حدود القارات الأرضية السبع على خريطة الإسقاط، وجدنا أن الحدود الخارجية لهذه القارات يجمعها محيط دائرة واحدة مركزها عند مدينة مكة المكرمة، أي: إن مكة تعتبر مركزاً وسطاً للأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية.

بيوم القيامة لا بد أن يؤمن بالقرآن الكريم، ويدفعه إيمانه بيوم القيامة والقرآن الكريم إلى تطبيق أحكامه، وأهمها إقامة الصلاة والمحافظة عليها.

﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فالصلاة عَلمُ الإيمانِ وعمادُ الدين، ومن حافظ عليها وأقامها على وجهها الصحيح المشروع لا بد أن يحرص على غيرها من أحكام القرآن وشريعته.

• الردُّ على مُدَّعي النبوة:

وكما رَدَّتْ الآياتُ الكريمة على منكري ظاهرة الوحي والنبوة، رَدَّتْ أيضاً بالمقابل على الدجالين الكذابين أدعاء النبوة من أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي اللذين ادَّعيا النبوة في آخر حياة النبي ﷺ، وكلٌّ من أتى بعدهما من الدجالين ومن سيأتي إلى قيام الساعة.

وقد ظهر في العصور المتأخرة بعضُ الكذابين الدجالين، منهم حسين علي المازندراني^(١) الذي لَقَّب نفسه بالبهاء، وادَّعى النبوة ونسخ القرآن الكريم، وتوحيد الملل والنحل.

ومنهم غلام أحمد القادياني^(٢) الذي ادَّعى النبوة أيضاً، وزعم أن نبوته تبع لنبوة النبي ﷺ كهارون مع موسى ﷺ. قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ كالذين أنكروا الوحي والنبوة وقالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، كما مرَّ معنا.

(١) ولد في مازندران في إيران، وقيل: في طهران عام (١٨١٧م)، وتوفي في عكا عام (١٨٩٠م).

(٢) ولد في قاديان من قرى البنجاب في الهند عام (١٨٣٩م)، ومات فيها عام (١٩٠٨م).

﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ أي: ادّعى النبوة كاذباً، وأنَّ الله تعالى أوحى إليه، والحقيقة أنه كذاب، وأن الله لم يوح إليه بشيء.

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ومن ادّعى أنه سيعارض وحي الله تعالى بما يفتره من القول، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

فلا أظلم من هؤلاء المكذِّبين لوحي الله تعالى، والدَّجالين المدَّعين للنبوة كذاباً، والمدَّعين القدرة على معارضة وحي الله تعالى.

ولا ينفَعُ مع أمثال هؤلاء دليل ولا برهان، ولا يناسبهم إلا التهديد والوعيد بأشدَّ أنواع العقاب، فانظر إليهم عند نزول الموت بهم:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: وهم في سكراته وكرباته التي تغمرهم.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ يضربون وجوههم وأدبارهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ويقولون لهم:

﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ أي: خلِّصوا أنفسكم من العذاب، أو: هاتوا أرواحكم، أخرجوها إلينا من أجسادكم، كأنهم يتقاضون منهم أرواحهم^(١).

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب المشتمل على الهون والشدَّة.

﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تعرضون عنها تكبراً بلا رويَّة ولا تفكير.

ويقال لهم أيضاً يوم القيامة عندما يحشرون إلى الحساب:

(١) تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ٤٤٨/٢.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ .

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ﴾ أي: منفردين عن الأموال والأولاد والخدم والأعوان.

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: وأنتم في حال ضعفٍ وذلةٍ مجردين عن كلِّ حولٍ وقوةٍ، كما كنتم عند خروجكم من بطون أمهاتكم، قال تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي: تركتم ما أعطيناكم في الدنيا من الأموال والمتاع، وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك من مالٍ إلا ما أكلت فأفئيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس» [رواه مسلم (٢٩٥٩)].

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: شركاء الله تعالى في استحقاق عبادتكم.

﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لم يبقَ اتصالٌ بينكم وبينهم.

﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وضاعت أمانيتكم الكاذبة فيهم.

• الردُّ على الطبيعيين:

ثم ردت الآيات على أصحاب القول بالطبيعة، الذين ينسبون كلَّ ظاهرة من الظواهر التي تجري في هذا الكون إلى الطبيعة، غافلين أو متغافلين عن الأحكام والإبداع والتنسيق بين كل الحوادث التي تجري حولهم، بحيث يلزمهم على وجه القطع أن يقرُّوا بوجود خالق واحد، هو وحده سبحانه الذي يخلق ويدبِّر ويقدر:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ ۖ تُوَفَّكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ﴾ كالحنطة والشعير والذرة .

﴿وَالنَّوَىٰ﴾ جمع نواة، وهي ما تكون داخل الثمرة .

والفَلَقُ: الشَّقُّ، فهو سبحانه الذي يشقُّ كل حبة ونواة، فيخرج منهما النبات والشجر، يحدث هذا الشَّقُّ بقدرة الله تعالى في باطن الأرض، وتحت الثرى، فكلُّ حبة أو نواة يشقُّها الله تعالى بقدرته من أعلاها ومن أسفلها، يخرج من الشق الأعلى أصل كل نبات وشجر، يتجه بقدرة الله ومشئته إلى الأعلى، ويخترق رغم ضعفه ولطفه طبقات التراب والحجارة، ليكون بعد ذلك الزرع والشجر، ويتجه بقدرته سبحانه أيضاً ما يخرج من الشق الثاني إلى الأسفل، فينفذ في طَيَّاتِ الأرض ليكونَ الجذورَ الضاربةَ في الأعماق، فمن كلِّ حبة ونواة يخرج الله تعالى أصليين متضادين، صاعداً ونازلاً، وهذا دليل باهر على كمال قدرته جلّ وعلا، وتمام مشيئته النافذة في كلِّ المخلوقات، فمن الذي يقدر أن يشق الحبة اليابسة ويخرج منها النبات؟! ومن الذي يستطيع أن يشق النواة الصلبة ويخرج منها النخل والشجر؟! مَنْ غيرُهُ ﷻ؟! .

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر من النطفة والحبة والنواة .

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ ويخرج الحبَّ والنوى والنطف من الحيوان والنبات والشجر .

إنَّ إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، من الظواهر المتجددة والمبثوثة في كثيرٍ من المخلوقات، وهي تحدث أيضاً في داخل أجسامنا، ففي كلِّ لحظة تتجدّد ملايين الخلايا، تنقسم ثم تموت، ويحيي الله غيرها، وفي كلِّ فترة تتخلّق ملايين الحيوانات المنوية داخل أجسامنا من الدم الذي تمدّه الأغذية المقطعة والمطبوخة والممضوغة والمهضومة .

ويلاحظ أن قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ عُدل به عن صيغة اسم الفاعل إلى الفعل المضارع؛ لأنَّ تصور إخراج الحي من الميت في ذهن القارئ والسامع يتأتَّى بالفعل المضارع أكثر من اسم الفاعل، ولعلَّ فيه إشارة إلى أنَّ الحيَّ أفضلُ من الميت، وأنه ينبغي الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي^(١).

فكلَّ ما يحدث في هذا الكون يحدث بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته، فما من حبة في طيَّات الأرض تنشق إلا بمشيئته تعالى وعلمه وقدرته، فبقدرته تعالى انشقت لا بقوة مودعة فيها، فهذه الظواهر لا تحدث من تلقاء نفسها، بل لابدَّ لها من خالق عليم حكيم.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ ۖ الْخَالِقُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، فله صفات الكمال وحده.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُضَرَفُونَ عن عبادته وطاعته، وتنسبون الحوادث إلى غيره ﷻ؟! وهو سبحانه:

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٩٦﴾.

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، ففالق الحبِّ والنوى هو أيضاً فالقُ الإِصباح، الذي يشقُّ عمودَ الصبح ونوره عن ظلمة الليل وسواده.

﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ ليسكن فيه الخلق للراحة.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: جعل لهما نظاماً معيناً ثابتاً يدلُّ على قدرته وحكمته، تحسب فيه الأيام والشهور والسنون.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وكلَّ هذه الظواهر تقديرُ الإله الغالب الذي أحاط علماً بكلِّ شيء.

(١) انظر: روح المعاني: ٢٢٧/٧.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: لتسترشدوا بها إلى الطرق والمسالك في البر والبحر، فهي مخلوقات مقهورة لا تأثير لها في الحوادث الأرضية، فلا تجلب لأحد نفعاً، ولا تدفع عنه ضرراً، ولا تستحق أن تعبد وتعظم.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: قد بينا بصائر الحق التي تدل على توحيد الخالق وكمال علمه وقدرته.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون هذه الحقائق وينتفعون بها، ويعلمون أنها لا تتحرك إلا بمشيئة الله تعالى وقدرته.

• الْمُسْتَقَرُّ وَالْمُسْتَوْدَعُ:

ثم بين الله تعالى كمال قدرته وعلمه في خلق البشر من نفس واحدة فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ فكل الناس متفرعون من نفس واحدة على رغم ما بينهم من تفاوت في الصفات والخصائص والملكات والمواهب، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًاؤًا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وظلت موروثات الناس تنتقل بقدرة الله تعالى من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات حتى الوقت المحدد لبروزهم وظهورهم على الحياة:

﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فالإنسان قبل أن يكون مجسماً بأعضائه وصفاته كان صيغة كروموزومية وموروثة معينة، فهو ست وأربعون كروموزوماً تحتوي على عدد كبير من الموروثات - الجينات - تتوزع عليها بصيغة تختلف من إنسان إلى

إنسان آخر، وهذه الكروموزومات والموروثات وُجِدَتْ كلها في آدم ﷺ، ثم أخذت تتوزع في ذريته.

وتصوّر المسألة بسيط، إن قرص الهاتف يحتوي على عشرة أرقام فقط نستطيع بإدارتها بترتيب مختلف أن نكلّم من نشاء في أرجاء المعمورة، فأرقام هواتف العالم كلّها موجودة في هذا القرص^(١).

فكل إنسان يحمل في خلاياه الجنسية موروثاتٍ كلّ من يتفرّع عنه من ذريته، والله سبحانه بكامل علمه ومشيتته وقدرته أحاط بها، وهي تنتقل من مستقرها في الأصلاب إلى مستودعها في الأرحام.

ومن المقرّر الآن في علوم تكوين الجنين أن الخلايا الجنسية الابتدائية تُشتقّ من جدار الحويصل المُحَيّ، ثم تهاجر وتنتقل إلى الغدد الجنسية الآخذة بالتكون في ظهر المخلوق الجديد ثم تتكاثر فيها^(٢).

فكل إنسان تنقّل من أصلاب آبائه إلى أرحام أمهاته من لدن آدم ﷺ حتى الوقت المحدد لبروزه إلى الحياة، إنّها رحلة طويلة وطويلة جدّاً، ولكنها مقدّرة ومعلومة في كلّ مراحلها وأطوارها وحركاتها؛ إنّها رحلة مبرمجةٌ بدقّة من قبل الله العليم الحكيم، فماذا يقول الطبيعيون وهم يواجهون هذه الحقائق العلمية الملزمة لكل إنسان عاقل بأن يؤمن بوجود خالق واحد عليم حكيم؟.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ المبيّنة لمراحل خلق البشر بدقّة علمية، وقد برزت في العصر الحاضر على الخصوص بسبب التقدّم العلمي الكبير الذي حققه الإنسان في هذا المجال، وكشفت عن المدى الواسع الكبير للإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون معاني هذه الآيات.

والفقه: الفهم واستعمال الفطنة وتدقيق النظر.

(١) القرار المكين، ص ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٥.

• الحَبُّ المتراكب:

وتنقلنا الآيات من تكوين الإنسان ورحلته الطويلة في الأصلاب والأرحام، إلى تكوين النبات بقدره الله تبارك وتعالى العليم الحكيم:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فهو سبحانه وحده الذي أنزل ماء المطر من السحاب الذي في جهة السماء.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أخرج الله تعالى بماء المطر كل ما ينبت من الأرض، وهي ظاهرة تدلُّ على عظمة الله تعالى، ولهذا جاء التعبير عنها بنون العظمة، فالمُخرج الحقيقي للنبات هو الله تعالى، والماء سبب، وكثيراً ما ينزل الماء ولا يخرج النبات؛ لأنَّ مشيئته تعالى لم تتعلق بخروج النبات.

ثم فصلت الآية الكريمة بعض أطوار خروج بعض النبات:

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: فأخرجنا من أصله الذي شقَّه الله تعالى في الأرض خضراً، أو نخرج من الماء الذي لا لون له خضراً، والخَضِرُ بمعنى الأخضر، وأكثر ما يُستعمل فيما تكون خضرته خلقية^(١).

ومن المعلوم المشاهد أنَّ كلَّ نبات يكون لونه أخضر عند خروجه من سطح الأرض، سواء كان زرعاً أو شجراً أو كلاً، وهو سبب اخضرار الأرض بعد نزول المطر بتقدير الله تعالى، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]. ثم:

(١) روح المعاني: ٢٣٨/٧.

﴿تُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ أي: ثم نخرج من هذا النبات اللطيف الأخضر الزرع الذي نخرج منه حَبًّا متراكباً بعضه فوق بعض.

وكلمة ﴿مُتَرَاكِبًا﴾ لم تأت هكذا اتفاقاً، وإنما تشير إلى مظهر من مظاهر قدرته تعالى وإبداعه في تركيب الحب داخل السنبلة تركيباً معجزاً، فلو أخرجنا حبات القمح من داخل سنبلتها، فلا يستطيع أحد أن يعيد تركيبها كما كانت، وإذا كان تركيبها معجزاً؛ فما بالك بأطوار خلقها منذ أن كانت حبة واحدة في ظلمات الأرض، فاعرف أيها الإنسان قدرة الله تعالى وعظمته وعلمه، واعرف فضله عليك وإحسانه إليك، واعرف أيضاً عجزك وافتقارك إليه سبحانه.

ثم تلقنا الآية من الحبِّ المتراكب في الزرع إلى ثمر الشجر:

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: ويخرج من طلع النخل الذي أخرجناه من الخضر قنوان دانية.

والطلع: أكامُ النخل التي يطلع منها الثمر، يطلع من النخل كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منصود^(١).

وقنوان: جمع قنو بمعنى العِذْق، وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب^(٢).

وقوله: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي: تميل بسبب ثقلها وكثرة ثمرها إلى الأرض فيسهل تناولها.

﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: ونخرج من الخضر جناتٍ من أعناب، والعنب والتمر من أشرف الثمار وأنفعها للإنسان، فهما قوت وفاكهة.

﴿وَالزَّيْتُونُ وَالرَّمَّانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ ونخرج أيضاً الزيتون والرمان؛ فبعضه مشتبّه، وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على حكمة مبدعها وقدرة صانعها، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٦/٢.

(٢) روح المعاني: ٢٣٨/٧.

الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْتَابٍ وَزَرَعٌ وَخَيْلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ [الرعد: ٤].

فلو لم يكن لها فاعلٌ مختار، وكان وجودها بسبب طبيعتها، لكانت على نسق واحد وشكل واحد، وحتى تعرفوا عظمة خالقها ومبدعها:

﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ أي: انظروا إليه عند أول ظهور ثمره كيف يكون صغيراً ضئيلاً، ثم انظروا إليه مرةً ثانية عند نضجه وقطافه كيف يصبح كبيراً ذا نفع عظيم ولذّة كاملة، فما الذي طوّره وغيره؟! والحادثات لا بدّ لها من محدث، والمتغيّرات لا بدّ لها من مغير.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنكم تجدون في نظركم إلى النبات؛ وتأمّلكم في مراحل تكوينه وأطواره؛ دلائل كثيرة وعظيمة، تجعلكم تؤمنون بوجود الخالق العظيم سبحانه، وهذا يدلّ على أن من ينسب هذه الظواهر إلى الطبيعة لا يكون من المؤمنين.

• الرد على القائلين بصفة الولادة والولد لله تعالى:

وهي من أقبح الأكاذيب والافتراءات على الله تعالى الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أي: وجعلوا الجنّ شركاء لله فعبدوهم، وقالوا: إنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ والحال أنه تعالى خلق الجن، فكيف يجعلون المخلوق شريكاً للخالق؟! .

﴿وَخَرَفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: اختلقوا لله سبحانه بنين وبنات جهلاً منهم بالله تعالى ووحدانيته وكماله وعظمته، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزُّ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ [مريم: ١].

ففي القرآن الكريم آيات كثيرة ردَّ سبحانه بها على من قال من مشركي العرب: الملائكة بناتُ الله، وردَّ أيضاً على النصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، وعلى اليهود الذين قالوا: عزيزُ ابن الله:

﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تقدَّس وتنزَّه وتعاظَمَ عَمَّا يصفه هؤلاء الجَهْلَةُ الضَّالُّونَ (٢).

﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ أَنِّي يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١).

﴿يَدْعِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ﴾ أي: مُدْعٍ السماوات والأرض ومُحْدِثُهُمَا على غير مثال سبق.

﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كيف يكون له ولد وهو خالق كل شيء، ومالك كل شيء، والمحيط علماً بكل شيء؟! تقدَّست ذاته، وتسامت صفاته جلَّالَه.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢).

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ المتَّصِفُ بكلِّ صفات الكمال، والمنزَّه عن كلِّ صفات الحدود والنقصان، ومنها الولادة والولد.

(١) انظر: تفسير سورة مريم (التوحيد والتنزيه في سورة مريم)، وهو جزء من تفسيرنا هذا.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٠٤/١.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو؛ لأنه وحده:

﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾ وحده.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ حفيظ وراقب.

• الإدراك والرؤية:

وكيف يكون له ﷻ صاحبةٌ وولد وشريك وهو:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تحيط به الأبصار.

فالإدراك: الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته.

والأبصار: جمع بصر، حاسة البصر، وهي مخلوقة محدودة.

ولا يحيط المخلوق الضعيف المحدود بالخالق جلّ وعلا.

وقد استدلت بعض الفرق الضالة كالمعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يرى

يوم القيامة، وليس في الآية نفي لرؤيته سبحانه، فرويته تعالى ثابتة للمؤمنين يوم

القيامة بصريح قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة].

وبالأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة، منها:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم

القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا:

لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا:

لا، قال: «فإنكم ترونه كذا» [رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)].

ومعنى قوله: «هل تضارون؟» أي: هل يحصل ضرر أو مانع؟.

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة

يقول الله ﷻ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا

الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من

النظر إلى ربهم» ثم تلا هذه الآية: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].
[رواه مسلم (١٨١)].

ومعنى قوله: «فيكشف الحجاب» إزالة الموانع القائمة فينا وهي التي تمنعنا من رؤيته سبحانه في الدنيا، فالحجاب هو النقص البشري الدنيوي، يزيله الله سبحانه عن أهل الجنة تكميلاً لهم وتشريعاً، ليتمكّنوا من رؤيته سبحانه رؤية تليق بذاته المقدسة، ويبقى الكافرون محرومين من رؤيته سبحانه، محجوبين عنه ﷻ، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فالأبصار ترى الله سبحانه يوم القيامة رؤية تليق بذاته بلا تكييف، ولكنها لا تحيط به كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به، قال سعيد بن المسيب رحمه الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ لا تحيط به الأبصار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كَلَّتْ أَبْصَارُ المخلوقين عن الإحاطة به^(١).

فلا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم الإحاطة بالعلم عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومرّ معنا في أول السورة الحديث الذي في [صحيح مسلم (٤٨٦)]: «لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فلا يلزم منه عدم الثناء^(٢).

﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أي: يحيط بها ويعلمها ويراها، فهو خالقها سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

والمراد من الأبصار هنا: النور الذي تدرك به المبصرات، ولعلّ هذا هو السرّ في الإظهار في مقام الإضمار^(٣)؛ إذ الأصل أن يقول: (لا تدركه الأبصار وهو يدركها) فدلّ إظهارها مرّة ثانية على أنّ بينهما تغييراً، فالأولى: حواسّ البصر، والثانية: النور الذي تدرك به المبصرات.

(١) تفسير الخازن: ٤٥٨/٢.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦٠٥/١.

(٣) روح المعاني: ٢٤٨/٧.

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ الذي لا تحيط به الأبصار.
 ﴿الْخَبِيرُ﴾ الذي يحيط بالأبصار وبأصحابها^(١).

• جاءت البصائر:

ولما وصلت الآيات الكريمة في سورة الأنعام إلى هذا الحد في الإثبات والرد: إثبات صفات الكمال والجلال لله تعالى، والرد على أصحاب النحل والملل الفاسدة الضالة بالحجج البالغة، والبراهين القاطعة، عقب على ذلك بقوله ﷻ على وجه التقرير والتحقيق:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾^(١٤).

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والبصائر للقلب كالإبصار للعين؛ لأنها تجعل القلب يبصر الحقيقة، فهي تجلو الحقائق وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات ويظهرها؛ ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: فمن أبصر الحق وآمن به فلنفسه أبصر؛ لأن نفعه لها، والله سبحانه غني عن إيمانه.

﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: ومن أعرض عن الحق وضل عنه فإن وبال إعراضه وضلاله على نفسه، فهو كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَاِزْرَةً وَلَا نُزِرْ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ أحفظ أعمالكم لأجازيكم عليها، إنما أنا منذر لكم والله سبحانه هو الحفيظ عليكم.

وهكذا بين الله تعالى أدلة الإيمان وبصائر الحق بياناً شافياً كافياً، ورد شبه المعارضين ونقضها، وكشف العلل وفضحها، فقال سبحانه:

(١) انظر: نظم الدرر: ٢٢٠/٧.

﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٥).

﴿وَكَذَلِكَ نَصْرِفُ الْأَيَاتِ﴾ أي: وكذلك نصرّف الآيات مثل ما تلونا عليك. وأصل التصريف: نقل الشيء من حالٍ إلى حالٍ، والمعنى: أننا نجعل الآيات تنتقل من معنى إلى معنى، حتى تأتي على جميع ما يحتاج إليه من المعاني والحجج والبراهين.

ولكنّ المعاندين المعارضين من المشركين ظلّوا على عنادهم وإعراضهم، وأتهموا النبي ﷺ بتعلّم ما أتى به من أهل الكتاب:

﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ أي: وليقول المشركون المعاندون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب، وتعلّمت منهم.

وهي شبهة باطلة تمسّكوا بها، وحكاها سبحانه عنهم في عدّة آيات؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فِيهِ تُكَلِّمُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، مع أنهم يعلمون أنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة، فأميته عليه الصلاة والسلام من أدلّة صدقه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلْزَمْتَ الْأَمْبِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والعجيب أنه لا يزال حتى الآن كثير من أعداء الإسلام كبعض المستشرقين يردّدون أمثال هذه الشبهة الباطلة التي كان يردّها من قبل المشركون المعاندون، وقد ردّها سبحانه، ويبيّن بطلانها وزيفها في عدّة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَزُ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فلقد أعجز القرآن الكريم فصحاء العرب، فكيف يأتي به النبي ﷺ من أهل الكتاب ذوي اللسان الأعجمي؟! ولو تأمّل المستشرقون معاني القرآن الكريم على وجه الإنصاف لما قالوا مثل هذه المقولة الكاذبة، فقد صحّح القرآن الكريم ما كان عليه أهل الكتاب من انحرافات في عقائدهم وعباداتهم، كما كشف كثيراً من الحقائق التي أخفوها في كتبهم، فلا يُعقل أن يكون القرآن منقولاً عنهم.

﴿وَلْيُبَيِّنْهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وَلْيُبَيِّنْهُ لِلْفَرِيقِ الْآخِرِ الَّذِي أَبْصَرَ الْحَقَّ وَآمَنَ بِهِ، حَتَّى يَكُونَ إِيمَانُهُ مَبْنِيًّا عَلَى بَصِيرَةٍ وَبِرْهَانٍ.

إن أمثال هذه الشبهات الواهية الضعيفة لا تؤثر على الحق في مسيرته ولا تعوقه؛ ولهذا أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ أن يتمسك بوحى الله تعالى، ويعرض عن أصحاب هذه الشبهات الواهية:

﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فلا تبال بهم، فالله سبحانه قادر على هدايتهم:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ تحفظ أعمالهم لتجازيهم عليها.
﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

• من أدب المناظرة:

والتفتت الآيات بعد ذلك إلى المؤمنين لتبين لهم أدباً من أهم آداب المناظرة والمجادلة مع المخالفين لهم:

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: نزهوا أنفسكم عن سب المشركين وشتيمهم وسب آلهتهم، عليكم فقط أن تبينوا لهم الأدلة والبراهين بأسلوب لطيف وموضوعي بعيد عن السباب والشتائم، فأنتم على حق، ومعكم بصائر الواضحة، وحججه البالغة، ولا حاجة بكم أن تلجؤوا إلى السب والشتيم، فإنه يؤدي إلى تنفيرهم وإعراضهم، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ

بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥].

ويؤدّي السبّ والشتّم أيضاً إلى مفسدة كبيرة بينها سبحانه بقوله: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا وَعُدْوَانًا وَتَجَاوَزًا مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ﴾. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: وهم على جهالة بالله تعالى، وما يجب له ﷻ من التعظيم.

وهذا يؤكد القاعدة الشرعية التي مرّت معنا وهي: «دفع المفسدة مقدّم على جلب المصلحة»، إن كان يوجد مصلحة في سبهم وشتّمهم. ومن هذا القبيل قوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قيل: وكيف يلعن الرجل والديه؟! قال: «يسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمّه فيسبُّ أمّه» [رواه البخاري (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠)].

﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ أي: كما زينا لهؤلاء حبّ أصنامهم، والمحاماة عنها، والانتصار لها، زينا للأمم السابقة عملهم الذي كانوا عليه بسبب سوء كسبهم واختيارهم.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ليحاسبهم عليه ويجازيهم. ثم حذرت الآيات المؤمنين من الانخداع ببعض الأساليب الملتوية التي يلجأ إليها الكفار في أثناء مناظرة المؤمنين لهم ليستروا فشلهم وعنادهم:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إنهم يكثرون الحلف بالله تعالى، ويبدلون جهدهم في تأكيدها، فلا تغتروا بها فهي أيمان كاذبة.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فالمعجزات بيد الله تعالى وحده.

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فهو سبحانه يعلم حقيقة حالهم، فلا

تغتروا بإيمانهم الكاذبة، فقلوبهم وأبصارهم تحت قهره ومشيتته سبحانه، وبقبضة قدرته، يقلبها كيف يشاء:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٠).

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما جحد المشركون ما أنزل الله تعالى لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر^(١).

فمجيء الآيات المقترحة لن يغيّر مواقفهم؛ لأن قلوبهم وأبصارهم في قبضة قدرته سبحانه قبل مجيء الآيات وبعدها. ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: نتركهم في كفرهم وضلالهم يتحيرون ويترددون.

فإيمانهم منوط بمشيئته سبحانه لا بمجيء الآيات والمعجزات:

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَيْنَا وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (١١١).

﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَيْنَا وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ معاينة ومقابلة.

﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فهو كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١٦) وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس]. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أن مشيئته سبحانه هي الغالبة النافذة.

• الإعلام المزخرف:

وقد عوّدنا الله تعالى في التنزيل الحكيم أنه كلما بين شدة عناد المشركين

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٠٨/١.

وإعراضهم، أنزل آياتِ تواسي النبي ﷺ وتسليّيه عمّا يلقي من عنادهم وإعراضهم؛ ولهذا قال تعالى في سياق ما تقدم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: كما ابتليناك بهؤلاء المعاندين جعلنا لكلّ نبيٍّ أعداء، فلست بدعاً بين الأنبياء.

﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ أي: شياطين من الإنس وشياطين من الجن - والشيطان: كلُّ عاتٍ متمردٍ من الجنّ والإنس^(١) - يتعاونون فيما بينهم على معارضة الأنبياء ﷺ.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: يوسوس شياطينُ الجنّ إلى شياطين الإنس، أو بعضُ الجن إلى بعض، وبعضُ الإنس إلى بعض.

﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ الأقوال المزخرفة الخادعة.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ لكنّه سبحانه قدّر أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: اتركهم ولا تبالي بخداعهم وأكاذيبهم، فإنّ الله تعالى ناصرٌك عليهم.

ولا يميل إلى هذا القول المزخرف ولا يتأثر به إلا من كان مثلهم في الكفر والفجور:

﴿وَلِنَصْنَعَنَّ إِلَيْهِ أَفْعَدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِنَرِّضُوهُ وَلِنَقَرِّبُوهُمَا مَا هُمْ مُقَرَّبُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلِنَصْنَعَنَّ إِلَيْهِ أَفْعَدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: لتميل إليه قلوب الذين

لا يؤمنون بيوم القيامة؛ لأنَّ حُبَّ الدنيا أعمى قلوبهم عن بصائر الحق، فمالت إلى هذه الأقوال المزخرفة الباطلة.

وبعد أن تميلَ إلى القول المزخرفِ الكاذبِ، ترضى به وتطمئنُّ إليه:

﴿وَلَيْرِضُوهُ﴾، ثمَّ بعد ذلك يقترفون ما فيه من إثم وفجور:

﴿وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾، فكانَ كلَّ مرحلة تؤدِّي إلى ما بعدها.

ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شرك الضالِّين المضلِّين، فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المزوَّق المزخرف الذي يخفون في طيَّاته السَّمَّ النَّاقِع، فما أكثر ما يخلطون السَّمَّ بالدسم، فلا استماع إلى أقوالهم قد يؤدِّي إلى الرضا بها، ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم وفجور.

وكأنَّي بالآية الكريمة قد نزلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطانٌ كبير، وتأثيرٌ شديدٌ على الناس، لقد وجَّه شياطينُ الإنس من أعداء الإنسان بوحى من شياطين الجنِّ كثيراً من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملَّووها بالبرامج المزخرفة المموَّهة، التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم.

• تحكيم القرآن الكريم:

فواجبُ المسلمين لحماية أنفسهم وأبنائهم من تأثير وسائل الإعلام الموجهة إليهم، أن يحكِّموا فيها كتاب الله تعالى، الذي فضَّل الله فيه كلَّ ما يحتاج إليه الإنسان لتمييز بين الحق والباطل والحلال والحرام، فما وافقه قَبِلوه، وما عارضه ردُّوه، وليحذروا من تحكيم غير ما أنزل الله تعالى عليهم استجابةً لمقترحات يقترحها الكفار عليهم، كما فعل مشركو قريش عندما قالوا للنبيِّ ﷺ: اجعل بيننا وبينك حكماً من أحوار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك^(١).

(١) انظر: روح المعاني: ٨/٨.

فلاحتكام في أمر الدين إلى غير القرآن الكريم إعراض عن كتاب الله تعالى، ويعد شكاً فيه، قال ﷻ يحذر من الوقوع في مثل هذا الأمر:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: كيف أطلب حكماً غير الله تعالى الذي أنزل القرآن الكريم، مبيناً فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام، بحيث لم يبق في أمر الدين شيء من التخليط والإبهام؟!.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: واليهود والنصارى الذين طلب المشركون تحكيم بعضهم يعلمون أن القرآن منزل من الله تعالى بالحق.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: المترددين في أنهم يعلمون ذلك. فالحكم في دين الله للقرآن الكريم لا لغيره؛ لأن تمام الدين وكماله في القرآن الكريم وصدقه وعدله:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فكل ما أخبر به حق لا مريبة فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة^(١).

والقرآن الكريم أيضاً ثابت لا يستطيع أحد أن يغيّره أو يبدله: ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ لأنها مصونة عن التغيير والتبديل، محفوظة بحفظ الله تعالى.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦١١/١.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقول العباد.

﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

ويؤدّي التأثير بأقوال الناس والاستجابة لمقترحاتهم إلى الضلال والبعد عن دين الله تعالى، ولهذا قال تعالى محذراً ومؤدّباً:

﴿وَإِنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَإِنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إن تطع أكثر الناس يبعدوك عن دين الله تعالى، أو يبعدوك عن الطريق الذي يوصل إلى رضوانه سبحانه. ثم بيّن تعالى سبب ذلك فقال:

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون في عقائدهم إلا الظن؛ لأنهم قلّدوا فيها آباءهم دون نظر وتدبّر.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يكذبون.

وتدلّ الآية على محدودية الإنسان وقصوره عن معرفة الحقيقة الكاملة؛ بسبب ضعفه ومحدوديته وغلبة أهوائه عليه، وكلّ ذلك يؤكّد حاجته إلى وحي الله تعالى، الذي أحاط علماً بكلّ شيء:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾.



الفَصْلُ الرَّابِعُ

سَفَهٌ وَضَلَالٌ

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١٧٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْآثِمِ وبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآثِمَ سَمِجَزُونَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوَكُمْ وَلَئِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٨١﴾ أَوَمَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٨٤﴾ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَن يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٨٦﴾ لَمْ يَكُنْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٧﴾ وَيَوْمَ نَبْحَثُهُمْ جَمِيعًا نَبْعَثُ الْجَنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَظْمِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨٩﴾ نَبْعَثُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَكِّرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَعَرَّيْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٩٠﴾ ذَلِكَ أَن لَمْ يَكُنْ

رَبُّكَ مُهْلِكٌ أَلْقَرَى يَظْلِمُ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تَعْبُدُونَ لَاتٌ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعِيهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زُفِّتْ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرَدُّوهُمْ وَلِيَأْسِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرِّثْ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرَعِيهِمْ وَأَنْعَمَ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِثْنَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤١﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتِ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٢﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٣﴾ ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِنَ الْإِنْسَانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِزِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ يَتَّبِعُوْنَ بَعْلَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإِنثَيْنِ أَمَّا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ قُلْ لَا أَمِيدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ

مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُلْفٍ وَرِيشِ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا إِنَّكُمْ إِلَيْنَا لآتُونَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعِدُّونَ ﴿١٥٠﴾ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ اللَّهُ أَوْفُوا بِذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يُلَاقُوا رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْأَكْتُابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا

مُنْظَرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهِ وَبِذَلِكَ
أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رِزْقًا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴿١٦٥﴾

• تمهيد:

انتقلت الآيات الكريمة في هذا الفصل من المناقشة والمجادلة حول موضوعات الإيمان الكلية الكبرى إلى بعض الموضوعات الجزئية التي كانت سائدة بين العرب في الجاهلية، لتبين بعض ما كانوا عليه من سَفَهٍ وضلال، ولتربط أيضاً بين هذه القضايا والموضوعات الجزئية وبين موضوعات الإيمان الكبرى، ولتؤكد أيضاً على حاجة الإنسان إلى شريعة الله تعالى، وإنزال الوحي، وبعثة الأنبياء ﷺ.

واستمرت الآيات الكريمة في هذا الفصل متمسكة بأسلوبها السابق الذي غلب على أكثر آيات سورة الأنعام، أسلوب المجادلة والمناظرة، ودفع الشبهات وردّها، والكشف عن أساسها ومصدرها، وبيان بطلانها وفسادها.

• التحليل والتحريم لله تعالى:

وجّهت الآيات الخطاب للمؤمنين تأمرهم فيه على وجه الإباحة بالأكل من لحوم الذبائح التي تذبح على اسم الله تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٨﴾

فإن من مقتضيات الإيمان استباحة ما أحلَّ الله تعالى، واجتناب ما حَرَّمَ،

ومفهومه أنه لا يباح الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه العرب في الجاهلية، فكانوا يأكلون الميتات وما ذُبِحَ على النُصُبِ تقرباً للأصنام وغيرها.

﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ (١١٩).

﴿وَمَا لَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يوجد سبب يمنعكم من أكل ما ذبح على اسم الله تعالى، إذ كان المشركون يحرمون على أنفسهم بعض ما أحل الله تعالى، كما سيأتي قريباً.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بين سبحانه على وجه التفصيل كل ما حرم عليكم.

﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم المحرم، كما سيأتي بيانه أيضاً.

فالحلال ما أحله الله تعالى، والحرام ما حرّمه سبحانه وحده، لا ما كان يفعله زعماء الضلال والكفر من تحليل وتحريم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ الناس بتحليل الحرام وتحريم الحلال.

﴿بِأَهْوَاءِهِمْ﴾ الفاسدة المنحرفة.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بما يناسب الناس وينفعهم، وبما يؤذيهم ويضرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين حدود ما شرع سبحانه لهم.

إن التحليل والتحريم من الأمور الخطيرة الهامة، لا ينبغي لأحد من الناس أن يدّعيها لنفسه، إنها منوطة بالله تعالى، فهو وحده الخالق الحاكم، فله سبحانه الخلق والأمر، وعلى الناس أن يلتزموا حدود ما شرع الله تعالى لهم.

﴿وَذَرُوا ظَهَرَ الْآثِمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآثِمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ (١٢٠).

﴿وَذَرُوا ظَهَرَ الْآثِمِ وَبَاطِنَهُ﴾ والإثم الظاهر: ما كان تحرّمه ظاهراً

ومعلومًا، وباطن الإثم: ما فيه شبهة، وقد جعل الله تعالى له في القلب علامة، وهي أن يضطرب القلب عند فعله، ولا يطمئن إليه، فقلب المؤمن لا يطمئن إلى المحرمات؛ قال رسول الله ﷺ: «البرُّ حُسْنُ الخلقِ، والإثمُ ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناسُ» [رواه مسلم (٢٥٥٣)].

ومعنى قوله: «حاك» تحرّك وتردّد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل منه في القلب الشك وخوف كونه ذنبًا.

ويمكن أن يكون المراد من ظاهر الإثم: أفعال الجارح، ومن باطنه: أفعال القلب كالحسد والكبر والعجب والرياء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ أي: يتجاوزون الحدود المشروعة، ويفعلون المحرمات.

﴿سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ أي: سيحاسبهم الله تعالى ويجازيهم على ما فعلوا في الدنيا من معاصٍ وآثام.

• التسمية عند الذبح:

ثم بيّنت الآيات تحريم الأكل من الذبائح التي لم تذبح على اسم الله تعالى لأن الذبح على غير اسمه تعالى من مظاهر الشرك، وقد حرّم الله تعالى كلّ مظاهر الشرك:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ كالميتة وما ذُبح لغير الله تعالى.

﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: إنه خروج عن طاعته سبحانه، أو إن الذبح على غير اسمه تعالى لفسق وخروج عن طاعته.

فلا يدخل فيه ذبيحة المسلم التي ينسى التسمية عليها عند الذبح، لِمَا صحَّ عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي

أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سَمُّوا عليه أنتم وكُلُّوا» قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر. [رواه البخاري (٢٠٥٧)].

ثم رَدَّت الآية شبهة من وحي الشياطين كانوا يتمسكون بها في الجاهلية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّلُواكَ﴾ كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فقد كان المشركون ينكرون تحريمَ أكل الميتة، ويدَّعون أنها ذبيحة الله، ويقولون للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله تعالى، فما قتل الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟! (١).

وهذا مثالٌ للشُّبُه والضلالات التي كان الشياطين يوحون بها إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا المسلمين، حَذَّر الله تعالى المسلمين منها فقال:

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: إن أطعتموهم في استحلال ما حرَّم الله تعالى فقد أشركتم، فكلَّ من أحلَّ شيئاً مما حرَّم الله، أو حرَّم شيئاً مما أحلَّ الله فهو مشرك، لأنه أثبت حاكماً - مشرعاً - غير الله ﷻ، ومن كان كذلك فهو مشرك (٢)، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ رُءُوسًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد روى [الترمذي (٣٠٩٥)] في تفسيرها: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم، فقال: «بلى إنهم أحلُّوا لهم الحرام، وحرَّموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيَّاهم».

• الإيمان حياة والكفر موت:

ثم ضربت الآيات مثلاً تبين فيه نعمة الإيمان وآثاره الطيبة الحميدة في قلوب المؤمنين وسلوكهم، وتقارن بينه وبين الكفر وظلماته وآثاره السيئة في

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦١٤/١.

(٢) تفسير الخازن: ٤٧٧/٢.

نفوس أصحابه وسلوكهم؛ فالمؤمنون مستضيئون بأنوار الوحي الإلهي، بينما المشركون غارقون في ظلمات الجهل والطين، ووساوس الشيطان، وتقليد رؤساء الضلال والكفر:

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٣٧)

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يعني: أو من كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، فالكفر موت، والإيمان حياة، ولا خير في قلب لا إيمان فيه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد يكون المعنى: أو من كان ميتاً بالجهل وهوى النفس فأحييناه بالعلم ومحبة الحق.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل^(١).

وقد مر معنا أنه سبحانه سَمَّى ما في السورة من أدلة وبراهين بصائر: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤]؛ فالمؤمن على بينة من ربه وبصيرة، يميز بها بين المحق والمبطل من الناس:

﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ فلا ينخدع بزخرف القول مهما كانت وسائل الخداع والتزوير قوية.

وسبق أن بينت من خلال ما تقدّم من آيات السورة خطورة وسائل الإعلام وشدة تأثيرها على الناس، وأنه لا سبيل لحماية المسلمين من خطرهما إلا بالاعتصام بالقرآن الكريم، وهذه الآية تأكيد لما سبق، فالقرآن الكريم هو النور

(١) تفسير البضاوي: ٤٧٧/٢.

الذي يضيء للمسلم طريق حياته، يسير به بين الناس مهما كانت نحلهم ومللهم، دون أن يتأثر بزخرف أقوالهم ووسائل إعلامهم.

وتدل الآية أيضاً على أن المسلم ينبغي أن يكون إيجابياً مع الناس، يمشي بينهم، ويعيش معهم على هدي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما تدل على ضرورة التطبيق العملي لأحكام القرآن الكريم، فالمعرفة النظرية لا تكفي، فلا بد للمسلم أن يمشي بالقرآن الكريم بين الناس، وقد ألزم نفسه بأحكامه عقيدة وعملاً وسلوكاً وخلُقاً.

فلا يمكن للمسلم أن يسير بالقرآن بين الناس بمجرد المعرفة النظرية، فالناس لا يرون من المسلم خبيثة نفسه وما عقد عليه قلبه، وعندما يرى الناس من المسلم صدقه وأمانته وعفته واستقامته وتنزهه عن المحرمات، وحرصه على الطاعات والعبادات، عندئذ يرون المسلم الذي يمشي بينهم بالقرآن الكريم، ويعرفون حقيقة الإسلام وجوهر الإيمان.

وبهذا يتميز المسلم الذي يمشي بين الناس بنور القرآن وهدى الإيمان عمّن يتخبط في ظلمات الكفر:

﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهي ظلمات الكفر والشهوات، وما أكثرها، يتراكم بعضها فوق بعض حتى تحجب صاحبها عن رؤية الحقيقة مهما كانت قريبة وواضحة.

فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ يدل على شدة الظلمات المحيطة به من كل جانب، فقد غلفت قلبه وختمت عليه، فأنى له أن يرى طريق الهداية، ويبصر معالم النور، وهو معرض عن هدي الله تعالى، مقبل على موالاة الشياطين الذين يزينون له المعاصي والفواحش بزخرف القول غروراً:

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

• أكابر المجرمين:

ورؤوس الضلال والكفر الذين يزينون للناس المعاصي والآثام موجودون

في كلِّ المجتمعات، منشأ ضلال الناس من تقليدهم تقليداً أعمى، فتراهم يسيرون وراءهم، وقد خدعتهم أقوالهم المزخرفة:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مَّجْرِمِينَ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ مَّجْرِمِينَ لِيَتَكَبَّرُوا فِيهَا﴾ قدر الله تعالى أن تكون الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء، فكما جعل فيها الأنبياء والمرسلين ومن سار على طريقهم من الصالحين المصلحين، جعل بالمقابل في كلِّ بلدٍ ومجتمعٍ أكابر المجرمين، ينشرون الفساد، ويعارضون دعوة الأنبياء والمرسلين، ويصدّون الناس عنها بكلِّ ما لديهم من وسائل المكر والخداع.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يعودُ وبالأمرِ مكرهم وإضلالهم إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. وأكابر المجرمين هؤلاء شأنهم التكبر والتجبر ومعارضة دعوة الأنبياء ﷺ حسداً وبغياً:

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤).

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ فيها بصيرةٌ من بصائر الحق وبرهان قاطع يلزمهم بتصديق النبي ﷺ.

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، وهذا يدلُّ على شدة الكبر والحسد في نفوسهم فكلَّ واحد منهم يريد ألا يختص أحدٌ دونه بشيء: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

وسبق أن مرَّ معنا أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يطرد الفقراء والضعفاء عن

مجلسه، وأنهم استنكروا أن يجعل الله هدايته في هؤلاء الضعفاء الفقراء فقالوا: ﴿أَهْتُولَاءَ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

وأنه تعالى ردّ عليهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وهاهو سبحانه يردّ عليهم هنا عندما رفضوا الإيمان، واعترضوا على تخصيص الرسول ﷺ بالرسالة دونهم، بقوله الكريم:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فلا يجعل رسالته إلا عند من يصلح لها من خلقه، وهو سبحانه العليم الحكيم.

وهذه شهادة ربّانية رفيعة بأنه عليه الصلاة والسلام خير من يصلح لحمل رسالة الله تعالى وتبليغ أمانته، فهدايته جلّ وعلا يجعلها في الشاكرين المعترفين لله تعالى بفضله وإحسانه عليهم، أمّا رسالته سبحانه فشأنها أخطر وأعظم، فلا يجعلها إلا في أكمل عباده خلقاً وخلقاً، ولهذا جاء قوله سبحانه هنا مطلقاً عن أي قيد بوصف معين، فدلّ على أنه ﷺ هو خيرته تعالى وصفوته من عباده على الإطلاق.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ الله ﷻ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل عليه الصلاة والسلام، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [رواه مسلم (٢٢٧٦)].

ثم بين سبحانه عاقبة هؤلاء المجرمين المتكبرين بقوله:

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ذلّة دائمة يوم القيامة، الجزاء من جنس العمل.

﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أي: بسبب مكرهم وخداعهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى.

• من حقائق القرآن العلمية:

والإسلام هو التسليم الكامل لله تعالى، والرضا بأحكامه الشرعية والقدرية دون أي اعتراض، فالمسلم لا يبغي على أحد، ولا يحسد أحداً، وذلك لأنّ الله

تعالى يشرح صدره للإسلام، وينوره بنور القرآن، ويحبب إليه الإيمان، ويزينه في قلبه:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢٥).

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أي: ييسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْفَتَنَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

يقال: شرح الله صدره فانشرح، أي: وسَّعه لقبول الإيمان والخير فتوسَّع، فمال إليه وقويت رغبته فيه. وبالمقابل:

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ أي: يخذله ويتركه في ضلاله.

﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ شديد الضيق، فلا يصل إليه شيء من الإيمان والخير.

﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ فإذا ما دُعي إلى الإسلام كأنه قد كُلف أن يصعد إلى السماء، ولا يقدر على ذلك، أو ضاق صدره عن الإسلام، فطلب مصعداً في السماء، أو كأنه يصعد إلى السماء بعداً عن الإسلام وتكبُّراً^(١).

هكذا فسّر المفسرون السابقون الآية الكريمة، وقد أضاف العلم الحديث معنى آخر للآية، لا يتعارض مع ما تقدم، فقد كَشَفَ العلم الحديث التوازن القائم بين ضغط الغلاف الجوي على جسم الإنسان، وبين ضغط الدم على جدران العروق والشرابين التي يجري فيها، فإذا ما صعد الإنسان في جو السماء اختلَّ هذا التوازن، ونتج عنه شعور الإنسان بضيق في صدره، وصعوبة في التنفس، مع دوار وثقل في رأسه، ويمكن أن يؤدِّي الاستمرار في الصعود إلى انفجار مجاري الدم في جسده، ولهذا صنعوا للطيارين الذين يصعدون إلى

(١) مجموعة التفاسير: ٤٨١/١.

طبقات عالية في الجو، ولرجال الفضاء، ملابس خاصة بهم، لتحفظ لهم التوازن وتحميهم من مخاطر اختلاله، فكلما ارتفع الإنسان تعرّض لمخاطر انخفاض الضغط الجوي ونقص الأوكسجين أيضاً، ولهذا تزوّد الطائرات بأجهزة خاصة تمدّ المسافرين بالأوكسجين اللازم في حال اضطرارها إلى الطيران المرتفع.

فالآية تشير إلى حقيقة علمية ما عرفها الإنسان إلا في العصر المتأخر، مما يؤكد أنّ القرآن الكريم من كلام الله تعالى العليم الحكيم.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ أَي: العذاب أو الخذلان:

﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومع أنّ الهداية والضلال بيده سبحانه وبمشيئته، فقد جعل للإنسان كسباً واختياراً، وجعل طريق الهداية أمامه مفتوحاً، وبصائر الحق على أطراف الطريق واضحة ظاهرة:

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو ظاهر لا لبس فيه ولا خفاء.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ الدلائل والبراهين والبصائر التي تبين الطريق وتوضحه.

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: ينتفعون بالدلائل والبصائر ويتعظون.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهؤلاء المنتفعين بالآيات الجنة السالمة عن كلّ الآفات والمنغصات، أو هي الدار التي يدعو إليها السلام، وهو اسم من أسمائه تعالى الذي قال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ متولّي أمورهم في الدنيا والآخرة.
﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات والعبادات.

• الانتقام من الظالمين بالظالمين:

وأما الذين أعرضوا عن دين الله و تولّوا غيره من شياطين الإنس والجن، فقد بيّن سبحانه حالهم يوم القيامة بقوله:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ شياطين الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، ويلوذون بهم، ويطيعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: يقال لهم: يا معشر الجن قد أضللتكم كثيراً من الإنس.

﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: انتفع بعضنا ببعض، فالمنفعة بين الفريقين متبادلة، فانتفاع الإنس بالجن بأن دلّوهم على الشهوات وأسباب التوصل إليها، وانتفاع الجن بالإنس بطاعة الإنس لهم ومولاتهم واتباعهم.

﴿وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ وكان هذا الاستمتاع إلى أجل معيّن ووقت محدّد، ثم انقضى ومضى وبقيت الحسرة والندامة.

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوٍ لَكُمْ﴾ منزلكم ومأواكم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ماكثين في النار بمشيئته سبحانه، فخلودهم في النار ليس واجباً ولا لازماً، وإنما هو بمشيئته سبحانه وتقديره، وقد أخبر

سبحانه في آيات كثيرة أنه شاء وقدّر أن يمكثوا فيها أبداً، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿١٢٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحراب].
﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

ومن حكمته سبحانه أن يسلط الظالمين بعضهم على بعضهم، فينتقم من الظالمين بالظالمين:

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾.

أي: كما جعلنا لظالمي الجن وشياطينهم تسلطاً على ظالمي الإنس، نسلط بعض الظالمين على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض؛ جزاء على ظلمهم وبغيهم.

وقد روي عن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه»^(١) [رواه الديلمي في «الفردوس»، وابن عساكر في تاريخه، وفيه ابن زكريا العدوي متهم بالوضع كما في «كشف الخفا»].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: هو أن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولّى عليهم خيارهم، وإذا أراد بقوم شراً ولّى عليهم شرارهم.
فعلى هذا القول: إن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عليهم ظالماً مثلهم، فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم^(٢).

ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الآية [الرعد: ١١]، وما جاء في الأثر «أعمالكم عمالكم كما تكونوا يولّ عليكم» [رواه الطبراني من كلام الحسن البصري، والحاكم والقضاعي عن أبي بكر مرفوعاً، وفي سنده مجاهيل كما في «كشف الخفا»].

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦١٩/١.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ٤٨٤/١.

• الاعتراف بالجريمة:

وتابعت الآيات الكريمة حكاية ما يقال للمكذّبين بدعوة الحق من الإنس والجن يوم القيامة:

﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أي: من جملتكم؛ فالرسل من الإنس، وأما رسل الجنّ فهم الذين بلّغوا قومهم ما سمعوا من رسل الإنس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَصَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ويمكن أن يرسل الله تعالى رسلاً من الجنّ كما أرسل من الإنس، كما رأى بعض المفسرين^(١).

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ أي: يقرؤون عليكم آياتي التي أنزلتها عليكم. ﴿وَيُذَرِّوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: ويخوفونكم من الحساب والجزاء في يوم القيامة.

﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ بقيام الحجّة علينا، وتبليغنا آيات الله تعالى، وهو اعتراف منهم بالجرم والكفر واستحقاق العذاب.

ثم بيّنت الآية الكريمة سبب إعراضهم عن دعوة المرسلين ﷺ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم الحياة الدنيا بزخرفها وزينتها وطول أمالهم فيها.

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٦/٧.

وقد قدّر سبحانه أنه لن يهلك أمة من الأمم مهما بلغ عنادها وكفرها، حتى يرسل إليهم رسولا ينذرهم ويحذرهم عاقبة كفرهم وفجورهم:

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

أي: وهم غافلون عن عاقبة كفرهم وفجورهم، لم ينذرهم رسول، ولم يحذرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].
لقد أعذر الله إلى الأمم بإرسال الرسل إليهم، وما ظلمهم سبحانه عندما أنزل بهم ما أنزل من العذاب والهلاك، كما أنه سبحانه لا يظلمهم أيضاً يوم القيامة بل يعاملهم على حسب أعمالهم التي عملوها في الدنيا:

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أي: لكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله، يبلغه الله إياها، ويثيبه بها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر^(١).

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه سبحانه عمل واحد منهم. فمن يعمل بطاعة الله تعالى فتواب عمله يعود على نفسه، والله غني عنه، لا يحتاج إلى أحد من خلقه، وجميع الخلق محتاجون إليه سبحانه:

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ ومن رحمته إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وعدم تعجيل عذاب المعاندين والمعرضين لعلهم يتوبون إلى الله، ويعودون إلى ساحة فضله ومغفرته.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٢٠/١.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ جميعاً بالإهلاك، فلا يظنُّ أحدٌ أنَّ الإهلاك متوقف على شيءٍ غير مشيئته تعالى .

﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أي : وهو سبحانه قادرٌ على أن يخلق بعد إهلاككم ما يشاء من المخلوقات من جنسكم أو من غير جنسكم .

﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ بعد أن أهلكهم .

فموعدُ الهلاك قادمٌ لا شك فيه :

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ .

فلا يعجز الله تعالى عنكم ، ولا مفرٌ لكم من سطوته وقهره جلَّ وعلا .

• الكلمة الأخيرة:

وبعد هذا التهديد والوعيد الشديد للمعاندين والمعارضين من المشركين ، أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يوجه لهم كلمة أخيرة على وجه النصيحة المشوبة بالتهديد الشديد :

﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عِقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ .

﴿قُلْ يَقَوْمِ﴾ أي : يا أقرب الناس إليَّ ، فأنتم أهلي وعشيرتي ، ولا آلو في نصحكم .

﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي : على أقصى تمكنكم واستطاعتكم ، أو على حالتكم التي أنتم عليها ، يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله : على مكانتك يا فلان^(١) . والمعنى : اثبتوا على كفركم وعداوتكم ، وهذا على سبيل التحذير لهم .
﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي ثابت على الإسلام ، لا أبالي بكلِّ ما ألقاه منكم ،

(١) تفسير النسفي : ٤٨٨/١ .

فهو كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظَرُونَ﴾ [هود].

إنها العزيمة والثقة التي تملأ قلب النبي ﷺ، وهو في أشد حالات المواجهة مع المشركين.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ﴾ أي: أكون لي أم لكم؟ وفي هذا الأسلوب اللطيف للإنذار إنصافاً في المقال، وحسن الأدب، مع إظهار الثقة والعزيمة في وجه المخالفين.

ثم بين أن عاقبة الدار للنبي ﷺ فقال:

﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وقد أنجز الله مواعده لرسوله ﷺ، فإنه تعالى مكَّنه في البلاد، وحكَّمه في نواصي مخالفه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذَّبه من قومه وعاداه وناوأه^(١).

• ضلالات جاهلية:

وعادت الآيات الكريمة تعرض نماذج أخرى للضلالات والمفاسد التي كانت فاشية بين العرب في الجاهلية:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق.

﴿مِنَ الْحَرْثِ﴾ الزرع والثمر.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم.

﴿نَصِيبًا﴾ جزءاً وقسماً.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٢١/١.

﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ﴾ أنه لله، والله لم يأمرهم بذلك، ولم يشرع لهم القسمة.

﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ وهذا القسم الآخر للأصنام والأوثان، وكانوا ينفقون ما جعلوه لله على الضيفان والفقراء، وما جعلوه للأصنام على سدنيتها والقائمين عليها.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ما كانوا ينفقونه في الوجوه التي ترضي الله تعالى.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ لأنهم ينفقونه على سدنيتها، فقد كانوا إذا أصابتهم شدة وقحط أو هلك ما جعلوه لشركائهم، أخذوا بدله مما جعلوه لله تعالى.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يحكمون من هذه الأحكام الفاسدة التي لا يقرها عقل، ولم يرد بها شرع، ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمئة من سورة الأنعام^(١).

ومن هذه الضلالات والمفاسد:

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَبُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيلِيسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَبُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ﴾ بوأد البنات الصغيرات بدفنهن في التراب أحياء خشية الفقر والعار، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل].

(١) تفسير القرطبي: ٩٠/٧.

وَأُخِّرَتِ الْآيَةُ بَيَانُ مَصْدَرِ التَّزْيِينِ وَالتَّحْسِينِ لِجَرِيْمَةِ قَتْلِ الْأَوْلَادِ لِتَشَوُّفِ
النَّفُوسِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ بَعْدَ أَنْ تَشْمِئُزَ مِنْ قُبْحِ الْجَرِيْمَةِ وَشَنَاعَتِهَا، فَقَالَ:

﴿شُرَكَاءُهُمْ﴾ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ كَانُوا يُوسُوسُونَ لَهُمْ زَخْرَفَ
الْقَوْلِ غُرُوراً، كَمَا مَرَّ مَعْنَا، أَوْ سَدَنَةُ الْأَصْنَامِ، وَسُمُّوا شُرَكَاءَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا
يُطِيعُونَهُمْ وَيُعْظَمُونَ أَمْرَهُمْ، فَأَصْبَحَتْ طَاعَتُهُمْ عِبَادَةً لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلَا تَزَالُ الشَّيَاطِينُ تَزِينُ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ
وَهُمْ أَجَنَّةٌ فِي بَطُونِ أُمَهَاتِهِمْ، بِعَمَلِيَّاتِ الْإِجْهَاضِ وَوَسَائِلِ الْإِسْقَاطِ الْمَخْتَلِفَةِ.

ثُمَّ كَشَفَتِ الْآيَةُ الْغَايَاتِ الْخَبِيثَةَ لِتَزْيِينِ مِثْلِ هَذِهِ الْجَرَائِمِ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا:
﴿لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيَكْسَبُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أَي: لِيَهْلِكُوهُمْ وَلِيُبْعِدُوهُمْ عَنِ الدِّينِ
الْحَقِّ.

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى عَصْمَتِهِمْ مِنْ هَذِهِ الْجَرَائِمِ وَالضَّلَالَاتِ، وَلَكِنَّهُ
سَبْحَانَهُ جَعَلَ لَهُمْ كَسْباً وَاخْتِياراً لَهَا:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوا فَعَلَهُمْ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أَي: أَتْرَكَهُمْ وَمَا يَخْتَلِقُونَ مِنْ
الْأَكَاذِيبِ وَالْأَضَالِيلِ بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ فَسَادُهَا وَتَبْلُغُهُمْ رِسَالَةُ اللَّهِ تَعَالَى.

ثُمَّ بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ جَانِباً مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالْمَفَاسِدِ الَّتِي كَانُوا يَفْعَلُونَهَا
فِي أَمْوَالِهِمْ مِنَ الزَّرْعِ وَالْأَنْعَامِ:

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا
وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (١٣٨).

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ﴾ أَي: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: هَذِهِ أَنْعَامٌ وَزُرْعٌ
وِثْمَارٌ حَرَامٌ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا.

﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ أَي: لَا يَأْكُلُ مِنْهَا إِلَّا مَنْ نَرِيدُ.

﴿بِرَعْمِهِمْ﴾ الْبَاطِلُ مِنْ غَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا بُرْهَانٍ.

﴿وَأَنعَمْتُ حُرِّمْتُ ظُهُورَهَا﴾ وهذه أنعام منعت ظهورها فلا تُركب ولا يُحْمَلُ عليها.

﴿وَأَنعَمْتُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: وهذه أنعام تذبح للأصنام، ولا يذكرون اسم الله عند ذبحها.

﴿أَفِرَّاءَ عَلَيْهِ﴾ على الله سبحانه.

﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ أي: بسبب ما كانوا يكذبون على الله تعالى.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٣٩).

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: الأجنة التي في بطون هذه الأنعام الحوامل حلالٌ للذكور خاصةً دون الإناث.

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: وهي محرمة على الإناث والزوجات.

﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: وإن تكن الأجنة ميتة فالذكور والإناث فيها سواء.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ في التحريم والتحليل والكذب عليه تعالى.

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ في كل ما يشرع، وتنزعه شريعته سبحانه عن هذه المفاسد والضلالات.

ويدلُّ هذا التهديد المتوالي: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ﴾ على خطورة التحليل والتحريم، فهو منوط بالله تعالى وحده، ولا يجوز لأحد أن يحلل شيئاً أو يحرمه من تلقاء نفسه.

• سفةٌ وجهل:

ولقد دأبت السورة كما مرَّ معنا على الردِّ على كل المخالفين، ولهذا

شرعت الآيات بعد أن بيّنت بعض ضلالات العرب في الجاهلية ومفسدهم، شرعت في ردّها وبيان قبحها وفسادها بقوله تعالى :

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٤٠).

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فالأولادُ نعمةٌ من الله تعالى، وقتلهم خسارةٌ كبيرةٌ وجريمةٌ عظيمةٌ، لا يفعلها إلا سفيهٌ طائشٌ جاهلٌ.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أي: وخسر أيضاً الذين حرّموا بعض ما رزقهم الله تعالى من الزروع والثمار والأنعام كذباً عليه سبحانه.

﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: جاروا عن الحقّ وابتعدوا عن الهدى.

ثم بيّن سبحانه أنه هو المالك الحقيقي للزروع والثمار والأنعام، لأنه هو الذي أنشأها وخلقها، فله سبحانه وحده أن يحلّل ويحرّم، فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٤١).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: مرفوعات عن الأرض على ما يحملها.

﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أي: متروكات على وجه الأرض غير مرتفعات عنها كالعنب والبطيخ والقرع ونحوها.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ﴾ أي: وأنشأ النخل والزروع مختلفاً في الطعم والرائحة واللون.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا﴾ في المنظر والحجم والطعم.

﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

وهذه المرة الثانية التي ذكر الله تعالى في سورة الأنعام قدرته على إنشاء

الزروع والأشجار والثمار، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي سِيَاق بَيَان قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى خَلْقِهَا وَإِبْدَاعِهَا، لذلك جاء مع ذكرها التوجيه الكريم من الله تعالى للنظر إليها والتأمل فيها خاصة عند نضجها لمعرفة عظمة خالقها ومبدعها: ﴿أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

أما في المَرَّةَ الثانية هذه فقد ذكرت في سياق بيان ملكه تعالى لها، لأنه هو خالقها ومبدعها، فهو سبحانه الذي يبيِّن ويشرِّع كيفية التصرف فيها، ولهذا قال سبحانه في ذيل الآية:

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ أي: إذا ظهر الثمر ولم ينضج بعد، والأمر للإباحة.

وفائدة الإباحة بيانُ جواز الانتفاع منه قبل أداء حق الله تعالى فيه الذي أوجبه بعد ذلك بقوله:

﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي: يوم قطعه وقطافه.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ أي: لا تتجاوزوا حدَّ الاعتدال في الأكل منه، قال عليه الصلاة والسلام: «كُلُوا واشربوا والبسُوا من غيرِ إسرافٍ ولا مَخِيلَةٍ» [رواه البخاري تعليقاً (٥٢/١٠) والترمذي (٢٨٢٠) والنسائي (٧٩/٥) وابن ماجه (٣٦٠٥)].

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم بسبب إسرافهم، ففيه وعيد شديد

للمسرفين

• الأزواج الثمانية:

ثم بيَّنت الآياتُ حكمته سبحانه وفضله في خلق الأنعام وتسخيرها للإنسان، وبطلان ما كان يفعل المشركون فيها:

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٤٦).

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ﴾ أي: وأنشأ سبحانه من الأنعام ما يحمل

الأثقال، ومنها ما يفرش للذبح، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره^(١). والمعنى الأول أظهر، لقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: كلوا مما أحلَّ لكم منه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ في التحليل والتحريم، والتي كان المشركون يسIRON عليها.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: عداوته ظاهرة لكم، فلا يريد بكم إلا الشر.

﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالْذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإُنْثَيَيْنِ
أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾ أي: أنثى سبحانه من الأنعام ثمانية أصناف، والزواج الفرد من الذكر أو الأنثى، لأن كلا منهما يقارن الآخر ولا ينفك عنه.

﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: من الغنم ذوات الصوف ذكر وأنثى.

﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ أي: ومن الغنم ذوات الشعر ذكر وأنثى.

﴿قُلْ ءَالْذَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإُنْثَيَيْنِ﴾ أي: قل لهؤلاء الجَهْلَةُ: هل حرم الله عليكم الذكرين من الضأن والمعز، أم حرم الأنثيين منهما؟ فهو استفهام إنكاري.

﴿أَمَّا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنْثَيَيْنِ﴾ أم حَرَّمَ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز؟.

﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ﴾ أي: نبئوني بأمرٍ معلوم يدلُّ على أن الله حَرَّمَ شيئاً من ذلك:

﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْإُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى.

﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى.

﴿قُلْ آلَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْإُنثَيْنِ﴾.

والآية تدلُّ على مشروعية المناظرة في العلم، لأنَّ الله تعالى أمرَ نبيِّه عليه الصلاة والسلام بأن يُناظرهم، ويبيِّن لهم فسادَ قولهم، فإن كان الله تعالى حَرَّمَ الذكور، فكل ذكرٍ حرام، وإن كان حَرَّمَ الإناث فكل أنثى حرام، وإن كان حَرَّمَ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فكل مولود حرام ذكراً كان أو أنثى^(١).

وبعد أن بيَّن سبحانه تهافت أقوالهم وتناقضها عقلاً، بيَّن بطلانها نقلاً أيضاً

فقال:

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا﴾ التحريم، وفيه تهكم شديد بهم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب إليه سبحانه تحريم ما لم يحرم.

﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فالمسارعة إلى التحريم من غير علم ضلال

وإضلال، فهو أمرٌ كبير وخطير لا ينبغي القول به من دون دليل قطعي يدلُّ عليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضعون الأحكام الشرعية في غير

مواضعها الصحيحة، قال تعالى محذراً من هذا الأمر: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ

أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفَعِّرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ولهذا نرى كثيراً من الفقهاء لا يطلقون لفظ الحرام على شيءٍ لم يجدوا فيه

نصباً قاطعاً، فإذا وجدوا نصباً قاطعاً بالتحريم والتحليل قالوا به، وإلا قالوا في

(١) تفسير القرطبي: ١١٥/٧.

الحل: لا بأس، وفي الحرمة: أكره، خوفاً من أن يشملهم هذا الوعيد والتهديد في مثل هذه الآيات الكريمة.

• شريعة الرحمة والتيسير:

التحليل والتحریم لا يكون إلا عن طريق الوحي الإلهي والشرع النبوي، ولهذا أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يقول للمشركين الذين يحللون ويحرمون من عند أنفسهم:

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥).

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي: لا أجِد طعاماً محرماً على أكل يأكله.

﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ وهي كل حيوان مات ولم يذبح ذبحاً شرعياً.

﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ أي: مصبوحاً سائلاً، فخرج منه دم الكبد والطحال، وما يبقى في العروق بعد الذبح.

﴿أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي: إن الخنزير قذر، أو إنه خبيث، أو إنه نجس، وقد أثبت العلم الحديث أن لحم الخنزير يحمل كثيراً من أسباب المرض^(١).

وفي كل فترة يكتشف العلماء آفات كبيرة فيه^(٢) تؤكد رحمته سبحانه

(١) انظر: تفسير سورة المائدة في هذه الموسوعة، المسمى (الحلال والحرام في سورة المائدة).

(٢) من آخر ما اكتشف ما توصل إليه الدكتور بورجن هانوفر من الدانمرك بعد أبحاث عديدة على حوالي (٢٥٥٨٥) مريضاً من بلاده، من اكتشاف الجرثومة المسببة لمرض كثير =

وحكمته في تحريم أكل الخنزير، كما تبين ضرورة أن يكون التحليل والتحريم بيده سبحانه وحده الذي وسع علمه كل شيء.

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ يدلُّ على تحريم استعمال جميع أجزاء جسم الخنزير، والجدير بالذكر هنا أنَّ الأمم التي تأكل لحم الخنزير، أدخلت دهنه وشحمه وبقية أجزاء جسمه في كثير من الأطعمة المصنَّعة كالخبز والحلويات والبسكوت والمعلَّبات واللحوم والحساء والسلطة والجبن وما يسمُّونه: الجيل، وغير ذلك من الأطعمة، فعلى المسلم أن ينتبه لهذا، ويتأكَّد من محتوياتها قبل أن يتناول منها شيئاً.

﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَيْتٍ﴾ وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالى.

وَسُمِّيَ ﴿فَسَقًا﴾ لتوغُّله في باب الفسق، وهو الخروج عن طاعة الله تعالى.

﴿فَمِنْ أَضْطَرٍّ﴾ أي: دعت الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرَّمات.

﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ غير قاصد التلذذ بالطعام المحرَّم، فهو كقوله: ﴿فَمِنْ أَضْطَرٍّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متجاوزٍ فيما يأكل قدر الضرورة.

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلا مؤاخذه عليه إذا تناول من الطعام المحرَّم ما يحفظ حياته حتى يجد الطعام الحلال، فشريعة الإسلام شريعة الرحمة والتيسير والسماحة.

ودلَّت الآية على أنَّ التحريم لا يكون إلا بوحى من الله تعالى، وأنَّ الأصل في الأشياء الحل والإباحة حتى يقوم دليلٌ على تحريمها، وقد جاءت الأدلة بعد ذلك بتحريم غير هذه المحرَّمات الأربعة كالخمر، وأكل كلِّ ذي ناب من

⁼ الانتشار في أوروبا، يبدأ بالإسهال والأنفلونزا وأعراض الزائدة الدودية، وينتهي بالالتهاب المزمن في المفاصل والكلى والقلب، وقد دعت هيئة الإعجاز العلمي في القرآن إلى جدّة ليتحدث عن أبحاثه العلمية. أخبار العالم الإسلامي، السنة (٢٣)، عدد (١٠٨٥).

السباع، وكلّ ذي مَخْلَبٍ من الطير، فالآية مكية، ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرّم غير هذه الأشياء^(١). والقول بأنّه لا يحرم مطعوم غير الأربعة المذكورة في هذه الآية باطلٌ بإجماع المسلمين^(٢).

وما كان أهل الجاهلية يحرمونه من الأنعام والحرث لا يوجد دليل على تحريمه في شريعة الإسلام، ولا في الشرائع الإلهية السابقة، ولهذا بيّن الله تعالى المحرّمات التي حرّمها على اليهود بسبب بغيتهم وظلمهم، وعدم انقيادهم لشريعة ربّهم، فقال سبحانه:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^(٣).

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ أي: حرّمنا على اليهود أكل كلّ حيوان ذي ظفر، وهو ما ليس منفرج الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط^(٣).
 ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ أي: شحم الجوف والكليتين.
 ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ من الشحم فإنه غير محرّم عليهم.
 ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ وما اشتملت عليه الأمعاء فإنه غير محرّم.
 ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي: والشحم المختلط بالعظم غير محرّم عليهم أيضاً.

وسبب هذا التحريم الذي خصّ به اليهود بيّنه سبحانه بقوله:

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ بسبب ظلمهم.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في كلّ ما نخبر عنه. قال تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنَّا الَّذِينَ هَادُوا﴾

(١) تفسير القرطبي: ١٦٥/٧.

(٢) أضواء البيان: ٢١٨/٢.

(٣) روح المعاني: ٤٧/٨.

حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَكُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٤٧﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿النِّسَاء﴾.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ أي: المشركون أو اليهود بما أخبرت عن بغيهم وما حرم الله عليهم.

﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ يمهلکم، ولا يعاجلکم بالعقوبة، فلا تغتروا بتأخير عقوبة تكذيبهم، فإنها إذا نزلت فلا يردُّها أحدٌ.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ عذابه وانتقامه.

﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ المكذِّبين لآياته والمعرضين عن شريعته.

• الردُّ على المحتجين بالقدر:

ولمَّا كانت آيات سورة الأنعام مهمةً بردُّ كلِّ الشبهات والضلالات التي يتعلق بها المخالفون في أي قضية من القضايا التي تتصدى لها - كما مرَّ معنا - رَدَّتْ هنا في الآية التالية شبهةً يحتجُّ بها المشركون في قضية التحليل والتحريم:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ﴿١٤٨﴾.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا﴾ أي: إنَّ الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه من الشرك حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي ما نحن عليه من الشرك، وأراده منا لحال بيننا وبينه.

﴿وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ مما حرمناه من الأنعام والحرث كما مرَّ معنا.

﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة، كذبوا أنبياءهم وقالوا مثل هذا القول.

﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَاسَنَا﴾.

ولا يزال كثير من الناس بعدهم حتى العصر الحاضر يحتجّون بمثل ما احتجّ به المشركون، فتراهم يقتربون المعاصي والآثام، ثم يحتجّون بالقدر، ويقولون: هكذا قدر الله علينا، وهي كلمة حق وصدق، فكل شيء بإرادته سبحانه وعلمه.

والتكذيب ليس في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ فالله سبحانه قادر على هداية جميع الناس إلى الإيمان ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

إنما الكذب في قولهم: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِهِ، ورضي ما نحن عليه، والذي يضمنونه إلى قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ فقد حكا الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

ورد سبحانه عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنْكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فأمر الله تعالى يغير مشيئته وإرادته، فهو سبحانه يريد لجميع ما يحدث في الكون، غير أمرٍ بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره سبحانه، وليس له أن يتعلق أو يحتج بمشيئته، فإن مشيئته لا تكون عُذْرًا لأحد فيما يفعله بكسبه واختياره، فلا يأمر سبحانه بالكفر والفجور، ولا يرضى به، مع أنه بمشيئته وإرادته جلّ وعلا.

فالذين يتمسكون بمشيئته سبحانه في شركهم وفجورهم مخطئون، وتمسكهم باطلٌ وفسادٌ، وهم مسؤولون ومحاسبون يوم القيامة عما أمرهم به سبحانه بواسطة الأنبياء والمرسلين ﷺ^(١).

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي: هل عندكم حجة وبرهان على صحة دعواكم في الاحتجاج بمشيئته تعالى فتظهِروه لنا وتبينوه؟ هل أعلمكم الله تعالى بما قدره عليكم؟ وهل كلفكم إلا بما أمركم به بواسطة أنبيائه ورسله؟.

(١) انظر: تفسير الخازن: ٥٠٤/٢.

﴿إِنْ تَنَبَّيْتُمْ إِلَّا الظَّنَّ﴾ إلا الوهم والخيال .
 ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَفْرُصُونَ﴾ وما أنتم إلا تكذبون على الله تعالى .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٤٩) .

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أي: السلطان، أو البينة الواضحة التي بلغت غاية الوضوح والقوة .

فلا حجة لأحد عصى الله تعالى، ولكن لله الحجة البالغة على عباده بما أرسل إليهم من رسل، وأنزل عليهم من كتب، ولهذا فإنه سبحانه يذكر المحتجين بمشيئته بما كلفهم به بواسطة رسله، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٣٦) [النحل] .

فرسالته سبحانه إلى المكلفين من عباده واضحة لا خفاء فيها: ﴿أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد جعل الله لهم كسباً واختياراً في ذلك، ولهذا فهم مسؤولون أمام الله سبحانه عما يعملون بكسبهم واختيارهم .

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لكنه سبحانه شاء أن يكون للمكلفين كسب واختيار كما سبق معنا من قوله تعالى: ﴿فَدَجَّاءُكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤] .

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يزيد في تبكيتهم وتقريعهم؛ بقوله لهم:

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٠) .

﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾ أي: أحضروهم للشهادة .

﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ الذي حرّمتم من الأنعام والحرث .
 ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: فلا تصدقهم، فشهادتهم كاذبة باطلة .
 ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ
 يَعْدِلُونَ﴾ وهي كما مر معنا في أول آيات السورة: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
 يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] .

• الوصايا العشر:

وجاء دورُ الوصايا بعد كلِّ هذا الحشدِ الهائل من الأدلة والبراهين،
 والمناظرات والمجادلات، والردود والتمحيصات، فمن أجل هذه الوصايا جمع
 الله تعالى في سورة الأنعام كلَّ هذه الحجج والبصائر، وهي عشر وصايا، بدأها
 سبحانه بقوله الكريم:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا
 تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَآيَهِمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
 بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ أي: أقصُّ عليكم وأخبركم بما
 حرّم ربكم عليكم وبما أوصاكم به:

- أولها: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ والإشراك بالله رأسُ المحرّمات وأكبرها
 وأقبحها، ولا يقبل الله معه شيئاً من الطاعات، ولذلك جعله بداية هذه الوصايا
 وعنوانها .

- وثانيها: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أوصاكم بالإحسان إلى الوالدين،
 وحرّم عليكم عقوقهما .

وقد اقترن الأمر بالإحسان إلى الوالدين مع الأمر بعبادته وحده في عدد من
 الآيات الكريمة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾
 [الإسراء: ٢٣] .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان].

- وثالثها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي: من أجل فقر، أو من خشيته، وكان بعض العرب في الجاهلية - كما مر معنا - يقتلون أولادهم بسبب تزيين الشياطين ووساوسهم، وقد حذر الله تعالى منه في عددٍ من الآيات الكريمة، منها قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. وقال سبحانه هنا:

﴿تَحْنُ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فقد تكفل سبحانه برزق الآباء والأبناء.

- ورابعها: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: ما كان ظاهراً منها وما كان خفياً، فهو كما سبق معنا من قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

- وخامسها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا تقتلوا النفس البشرية التي حرم الله قتلها، إلا بسبب مشروع يستوجب ذلك، قال رسول الله ﷺ: «لَا يَحِلُّ دُمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبِ الزَّانِي، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمَفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ» [رواه مسلم (١٦٧٦)].

فالاعتداء على حياة الإنسان بغير حق ذنب كبير، وجرم عظيم، وقد شرع الله تعالى القصاص حقناً لدماء الناس، وحفظاً لحياتهم، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وتوعّد سبحانه قاتل النفس دون حق بأشد أنواع العذاب يوم القيامة: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

ثم ختم الله تعالى هذه المجموعة من الوصايا بقوله:

﴿ذَلِكَ وَصَّنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: وصاكم بهذه الوصايا الكريمة لعلكم ترشدون، فإن كمال العقل هو الرشد.

ففي هذه الآية أسباب الكمال الإنساني، وأهمها توحيد الله تعالى، وإفراؤه وحده بالعبادة والطاعة، ثم برُّ الوالدين والإحسان إليهما، وتطهير النفس والسلوك من دنس المعاصي الظاهرة والباطنة، واحترام حقوق الآخرين والمحافظة عليها، ومن أهمها حق الحياة.

وبهذه الخصال الرفيعة يتميز الإنسان عن الحيوان، ويسمو في معارج الكمال، ويكون حقاً منتفعاً بعقله، متفهماً لحقيقة حياته وجوهر وجوده.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ أَوْفَاؤُهُ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّنَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

- سادسها: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: لا تعتدوا على حقوق الأيتام، ولا تقتربوا من أموالهم إلا بقصد حفظها لهم.

فقد اهتم الإسلام بالضعفاء في المجتمع، وأمر بالمحافظة على حقوقهم، قال رسول الله ﷺ يحثُّ على رعاية الأيتام وتربيتهم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّجَ بينهما. [رواه البخاري (٦٠٠٥)].

وتوعَّد الله تعالى آكلي أموال اليتامى بأشد أنواع الوعيد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]. وينبغي أن تستمر رعاية اليتيم وحفظه:

﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: حتى يصير بالغاً راشداً، قادراً على التصرف في ماله، والمحافظة عليه، كما قال: ﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

- وسابعها: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو مبدأ الإنصاف في المعاملات، والاحتراز والتوقي عن الشبهات.

ولما كان الالتزام بهذا المبدأ وتطبيقه في مختلف مجالات التعامل مع الناس أمراً عسيراً، قال سبحانه بعده:

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما يسعها ولا يعسر عليها، فما وراء الوسع معفو عنه.

- وثامنها: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: إذا تكلمتم بأداء شهادة أو تحكيم فاعدلوا، ولو كان الذي تشهدون عليه من أقاربكم، فلا ينبغي لعلاقات القرابة أن تؤثر على التزام الحق والعدل، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِالْأَقْسَطِ لِرَبِّهِمْ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا هَوًىَ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٠].

- وتاسعها: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: عهد الفطرة وعهد الإيمان وما عاهدتم الله عليه في النذور والأيمان، والعهود التي بينكم وبين الناس.

وأضيفت إلى الله تعالى لأنه أمر بحفظها والوفاء بها، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وختم الله تعالى هذه الآية بقوله:

﴿ذَٰلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لما في هذه المجموعة من الوصايا من التزامات يحتاج الإنسان دائماً أن يذكّر بها ليؤديها على الوجه الكامل.

• الصراط المستقيم:

- ختم الله تعالى هذه الوصايا بوصيةٍ عاشرة، جمع فيها كلّ ما تقدم من الوصايا السابقة، آمراً بالالتزام والاستقامة عليها، محذراً من أي انحراف عنها، فقال ﷻ:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣).

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ فهو المنهج القويم والدين المستقيم الذي ارتضاه الله تعالى لعباده المؤمنين، فاتبعوه جملةً وتفصيلاً.

وسبق أن مر معنا قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦] فكأن هذه الوصايا العشر جمع الله تعالى فيها كل التوجيهات والإرشادات التي ذكرت في آيات السورة.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي: لا تتبعوا الشرائع والعقائد والملل والنحل المخالفة لدين الإسلام.

﴿فَنَفَرَقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: تميل بكم عن الصراط المستقيم كما قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله ^(١).

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسولُ الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً» وخطَّ عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السُّبُلُ، ليسَ منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. [رواه أحمد (٤٦٥/١) والحاكم (٣١٨/٢) وصححه].

فللحق طريقٌ واحد، وللباطل طرقٌ كثيرة متفرقة متشعبة لكثرة الأهواء واختلافها، ولهذا وحَّد الله تعالى النور، وجمع الظلمات في أول آيات السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٣٣/١.

وكان بعض السلف يرى أن هذه الآيات الثلاث رسالة من النبي ﷺ إلى كل إنسان، مختومة بخاتمه عليه الصلاة والسلام، قال ربيع بن خيثم لجليس له: أيسرُك أن تُؤتى بصحيفةٍ من النبي ﷺ ولم يُفك خاتمها؟ قال: نعم، قال: فاقراً ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات الثلاث.

وقد أجمعت كل الشرائع الإلهية المنزلة عليها، ولم تنسخ قط في ملة، وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزلة على موسى، ونقل عن كعب الأخبار أنها مفتوح التوراة^(١).

﴿ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون الله تعالى بالتزام الصراط المستقيم، والابتعاد عن السبل، والملل والنحل المخالفة له. ومما يؤكد أهمية هذه الوصايا العشر، وإجماع الشرائع الإلهية عليها قوله تعالى بعد ذلك:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أي: وآتيناه موسى الكتاب تماماً على الذي أحسنه الله ﷻ إلى موسى ﷺ، فإنزال التوراة عليه من تمام نعمته جلّ وعلا وإحسانه على نبيه موسى ﷺ^(٢).
﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: وفي التوراة تفصيل كل شيء يحتاجون إليه في شريعتهم، وفيها أيضاً:

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعل بني إسرائيل يصدقون بقاء الله تعالى يوم القيامة.

(١) تفسير القرطبي: ١٣١/٧.

(٢) المرجع السابق: ١٤٣/٧.

وانتقلت الآيات من الحديث عن التوراة وعمّا فيها ، ومسؤولية بني إسرائيل عنها إلى الحديث عن القرآن الكريم :

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ .

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فالقرآن الكريم خيرُهُ كثير لا ينتهي ، ونفعُهُ كبيرٌ لا ينقطع ، وقد سبق وصفه بهذه الصفة في قوله تعالى - الذي مرّ معنا - : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام : ٩٢] .

ثم أمر سبحانه باتباع أحكامه ، وحذر من مخالفتها والخروج عنها فقال : ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي : لعلكم بهذا الاتباع والالتزام تنالون رحمة الله في الدنيا والآخرة .

• القرآن الكريم والعرب :

ولما انتقلت الآيات الكريمة للحديث عن القرآن الكريم انتقلت أيضاً إلى مخاطبة قوم النبي ﷺ وهم العرب ، لتبيين لهم مسؤوليتهم الكبيرة على وجه الخصوص في حمل رسالة القرآن الكريم إلى جميع الناس ، إذ قامت حجة الله عليهم أكثر من غيرهم من الأمم ، لأنّ القرآن الكريم نزل على رجلٍ منهم ، ونزل بلغتهم وفي أرضهم ، فلا عذر لهم :

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ .

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي : أنزلنا القرآن الكريم لينقطع عذرهم ، فلا تقولوا : أنزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا ولم ينزل علينا شيء .

﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ أي : وما كنا نفهم ما يقولون ، لأنهم ليسوا بلساننا ، ونحن في غفلة وشغلٍ مع ذلك عمّا هم فيه ^(١) .

(١) مختصر تفسير ابن كثير : ٦٣٥ / ١ .

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ (١٥٧).

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: أكثر هداية إلى الحق ومعرفته منهم، لحدة أذهاننا وغلابة حفظنا.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: فقد جاءكم في القرآن الكريم حجة واضحة تعرفونها؛ لظهورها، ولكونها بلسانكم.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ وفيه أيضاً هدى ورحمة كما في التوراة.

﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: فلا أظلم ممن كذب بآيات الله بعد أن عرّف صحتها أو تمكّن من معرفتها.

﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ وأعرض عنها، أو صرف الناس عنها، فجمع بين الضلال والإضلال^(١).

﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب السيئ الشديد.

﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي بسبب صدهم وإعراضهم عن القرآن الكريم وبصائره وبراهينه.

فالعرب مسؤولون عن رسالة القرآن الكريم أكثر من غيرهم، لأن حجة الله تعالى قامت عليهم قبل غيرهم وأكثر من غيرهم، فقد بلغهم النبي ﷺ رسالة الإسلام قبل أن يبلغ غيرهم، وقد مرّ معنا قوله تعالى: ﴿لَنُنْزِلَنَّ الْقُرْآنَ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، فبدأ رسول الله ﷺ بأمة القرى مكة المكرمة، ثم ثنى بما حولها من بقاع الأرض، وظلّ مشغولاً بتبليغهم معظم سنوات حياته في الدعوة حتى السنة السادسة من الهجرة، فبعد أن عقد عليه الصلاة والسلام صلح الحديبية مع قريش، ووضعت الحرب أوزارها، شرع النبي عليه الصلاة والسلام

(١) انظر: روح المعاني: ٦٢/٨.

في تبليغ الأمم والشعوب الأخرى خارج أرض العرب، وأرسل الرسائل والكتب إلى الملوك والأمراء، يدعوهم إلى الإسلام، ويبلغهم دعوة القرآن.

ويؤكد مسؤولية العرب الخاصة عن حمل رسالة القرآن الكريم إلى الناس كافة أَنَّ الله تعالى خَصَّصَ في القرآن الكريم آياتٍ كثيرة تبين ما كان فاشياً في المجتمع العربي الجاهلي من ضلالات ومفاسد، وقد مرَّ معنا كثير منها في سورة الأنعام، كما مرَّ معنا: أَنَّ النبي ﷺ أمر أن يناديهم بـ (يا قوم) تذكيراً لهم بروابط القرابة والجنس واللغة والأرض التي تربطه عليه الصلاة والسلام بهم، وما ناداهم عليه الصلاة والسلام بذلك إلا ليدكرهم بمسؤوليتهم الكبيرة الخاصة أمام الله تعالى عن حمل القرآن وتبليغه للناس.

فدعوة الإسلام منزّهة عن كل هذه الروابط، وهي أسمى منها، فهي رسالة عامة شاملة للإنس والجن، وقد قال تعالى يقرر هذه المسؤولية ويؤكددها ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

• أشرط الساعة:

فماذا ينتظر المعاندون والمعرضون من قوم النبي ﷺ بعد كل هذه الحجج والبصائر؟! ولم يبقَ إلا أن يكشف لهم عن المصير الأليم الذي ينتظرهم إن أصرُّوا على عنادهم واستكبارهم:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ (١٥٨).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لتقبض أرواحهم عندما تحينُ آجالهم، وقد مرَّ معنا وصفٌ للملائكة وهي تقبض أرواحهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ يوم القيامة ليسألهم ويحاسبهم.

﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ من أمارات الساعة وأشراتها، فقد جعل سبحانه ليوم القيامة علامات وأشراطاً تتقدم عليها، وهي أحداثٌ كبيرةٌ وعظيمةٌ خارقةٌ لعادات الناس ونواميس الكون في الحياة الدنيا، لأنها تأتي مقدمة لأعظم الأحداث الكونية وأشدّها هولاً، ألا وهي قيام الساعة، فعندما تقوم الساعةُ تتغير النظم والنواميس الكونية كلها الأرضية والسماوية، فالسماوات تتشقق وتطوى، والنجوم تنكدر وتزول عن مواقعها، والأرض تتغير معالمها، فتُنسَفُ جبالها، وتمتلئ وديانها ووهادها، والشمس تكور وتذهب أشعتها، ويزول ضوءها، ومبدأ هذا التغير الكلي لجميع النظم الكونية يكون عند حدوث علامات الساعة الكبرى، إن هذه العلامات تغيرٌ جزئيٌّ في النظم والنواميس الكونية، يؤذنُ بقرب حدوث التغير الكلي، وقد أشار الله تعالى إلى أشراط الساعة هذه في عدّة آيات، هنا في هذه الآية، وفي قوله أيضاً: ﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا أَلْسَاعَهُ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائنٌ من أمارات الساعة وأشراتها حين تطلع الشمس من مغربها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتّى تطلع الشمسُ من مغربها، فإذا طلعتُ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنَتْ من قبلُ» ثم قرأ هذه الآية. [رواه البخاري (٤٦٣٥)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن الله ﻻ يبسطُ يده بالليل ليتوبَ مُسيئُ النهار، ويبسطُ يده بالنهار ليتوبَ مُسيئُ الليل، حتّى تطلع الشمسُ من مغربها» [رواه مسلم (٢٧٥٩)].

﴿قُلِ أَنْظَرُوا إِنَّا مُنْظَرُونَ﴾ وهو تهديدٌ شديدٌ للكافرين، ووعدٌ أكيدٌ لمن سوفَ إيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٣٧/١.

● الدين الحق:

وعندما أشرقت سورة الأنعام على الانتهاء التفتت إلى النبي ﷺ تواسيه، وتخفف من معاناته، وتعلن براءته عليه الصلاة والسلام من جميع المخالفين لدعوته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٥٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ باتباعهم للسبل المخالفة، وإعراضهم عن الصراط المستقيم. وقرئ: (فارقوا دينهم).

وأضيف (الدين) إليهم مع أنهم فارقه وكفروا به، لأن الإسلام هو الدين الوحيد الحق الذي رضىه الله تعالى للناس جميعاً، ففطروهم عليه، ودعاهم إليه: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ أي: وأصبحوا نتيجة مفارقتهم للدين الحق فرقاً متعددة، وأحزاباً كثيرة مختلفة، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فكثرة السبل يؤدي إلى كثرة الفرق والأحزاب والملل والنحل والضلالة المضلة. ولا شك أن الآية تنسحب أيضاً على أهل الضلالة من الأمة المسلمة من أصحاب البدع والشبهات، قال ابن كثير رحمته الله: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحداً لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ أي: فرقاً كأهل الملة والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه»^(١).

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٣٨/١.

﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: أنت بريء منهم .
 ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ في الحساب والجزاء .
 ﴿ثُمَّ يَنْتَهُمُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: يحاسبهم يوم القيامة عما كانوا يفعلون في الدنيا .

ثم بيّنت الآيات فضل الله تعالى وعدله في الحساب يوم القيامة:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١٦) .

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾ وهذا من فضله سبحانه، فهو كقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرَجِ يَوْمٍ ذِي أَمْتُونَ﴾ [النمل: ٨٩] .
 ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا من عدله جلّ وعلا .
 ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص في الثواب أو زيادة في العقاب، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠] .

● إعلان الدعوة:

وكما أعلن إبراهيم ﷺ براءته من قومه ومن كفرهم وشركهم بعد أن ناظرهم وأقام الحجة عليهم - كما مرّ معنا - أُمِرَ نبيُّنا محمد ﷺ بعد أن واجه قومه والمعارضين لدعوته بكلّ ما تقدّم في السورة من الحجج البالغة والبراهين القاطعة، أن يعلنها دعوة ربانية خالصة عن شوائب الكفر والشرك، ويعلن انقياده لها، واستسلامه الكامل لله تعالى، المتصف بكلّ صفات الجمال والجلال والكمال، ليكون ﷺ القدوة المثلى، والأسوة العظمى:

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٦١) .

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ أي: دلّني ربي إلى الصراط المستقيم، وأمرني باتباعه والتزامه، فهو الدين الحق الذي تمتد جذوره في أعماق التاريخ البشري إلى عقيدة التوحيد التي نادى بها إبراهيم ﷺ:

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وتستدعي هذه العقيدة توحيد العبادة والسلوك، وتوجيه الحياة كلها بما فيها حسب منهج الله تعالى ودينه وشريعته:

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: قرباني وذبحي.

﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ فما أحيأ عليه من الإيمان والإسلام أموت عليه، وأبقى متمسكاً به حتى الموت.

﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خالصاً لله تعالى وحده.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: بهذا الإخلاص والتوحيد أمرت.

﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهو كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤].

ولم تترك السورة حتى في هذا الإعلان أسلوب الجدل وإقامة الحجة على المخالفين وهو ظاهر في قوله:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزَرُ وَذَرْ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا﴾ أي: أطلب ربّاً.

﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فكل ما سواه سبحانه مربوب لا يصلح للربوبية.

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ فكل مكلف له كسب واختيار، وإلى نفسه يعود نتيجة كسبه واختياره.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فالمسؤولية شخصية، فلا يحاسب أحد عن أحد، ولا يتحمل أحد ذنب أحد.
 ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ بسبب انحرافكم عن المنهج القويم والصراط المستقيم.



الْخَاتِمَةُ

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْأَلُوكُمُ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾

ثم ختم الله تعالى هذه السورة الكريمة ببيان الحكمة من خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وبيان السبب الذي جعل الكفار يعدلون بالله تعالى غيره من المخلوقات.

وبهذا يظهر الارتباط الوثيق بين أول آيات السورة وآخرها، ففي أولها قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ﴿١﴾﴾.

فالله سبحانه خلق السماوات والأرض، وجعل فيهما الظلمات والنور الحسية والمعنوية، وخلق الإنسان، وسخر له ما في السموات والأرض، وأقام له الحجج والبراهين، وأنزل عليه الآيات والبيّنات، وقرب له البصائر، وجعل له وسائل التمكين والتمييز ليصبح أهلاً للمسؤولية، ابتلاءً واختباراً، ليهلك من هلك عن بينة وبصيرة، ويحيى من حي عن بينة وبصيرة.

يَبَيِّنُ سبحانه كُلَّ ذلك ووضحه في آية الختام:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَسْأَلُوكُمُ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ﴾ يخلف بعضكم بعضاً في الأرض.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أَسأله سبحانه أن ينوّر قلوبنا ببصائر الحق، ويثبتنا على صراطه المستقيم،
والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه
والتابعين.



فهرس الموضوعات

تفسير سورة النساء

حقوق الإنسان في سورة النساء

- المقدمة ٥
- الفصل الأول: حقوق الضعفاء ٨
 - الأصل الإنساني الواحد ١٠
 - مبادئ في التواصل والتعاون ١٣
 - المحافظة على أموال اليتامى ١٤
 - تحريم ظلم البنات اليتامى ١٦
 - تشريع تعدد الزوجات ١٨
 - حق الزوجة في المهر ٢٠
 - الحجر على السفهاء ٢١
 - تسليم الأموال إلى اليتامى ٢٣
 - تقرير المزيد من حقوق الضعفاء ٢٦
 - الجزاء من جنس العمل ٢٧
 - ميراث الآباء والأبناء ٢٩
 - ميراث الزوجين ٣٢
 - ميراث الإخوة من الأم ٣٣
 - سلامة العِرْض ٣٦
 - المسارعة إلى التوبة ٣٧
 - تحريم مظالم جاهلية ٣٩
 - تحريم الزواج من زوجات الآباء ٤٢

- المحرّمات في الزواج ٤٤
- تحريم نكاح المتعة ٤٨
- حقوق الزوجات المملوكات ٥١
- تخفيف العقوبة عن الضعفاء ٥٤
- تذكير وتحذير ٥٦
- حرمة الأموال والأنفس ٥٨
- الفصل الثاني: آفات نفسيّة ٦٣
- تربية وتشريع ٦٤
- نسخ التوارث بالتحالف ٦٦
- تنظيم الأسرة ٦٧
- معالجة نشوز المرأة ٦٨
- أسرة إنسانية واحدة ٧١
- حقوق الجيران ٧٢
- حق الضيف والغريب ٧٣
- حقوق العبيد ٧٤
- التحذير من البخل ٧٥
- التحذير من الرياء وحب الظهور ٧٦
- عدل وفضل ٧٨
- الحرص على الطهارة ٨٠
- الضالّون المضلّون ٨٤
- طمس الوجوه ٨٧
- الذنب الذي لا يُغفر ٨٩
- المادحون أنفسهم ٩٠
- المؤمنون بالحبب والطاغوت ٩٢
- الكافرون برسالات الأنبياء ٩٤
- من الحقائق العلمية في القرآن ٩٥

- الفصل الثالث: الحُكم بشريعة الله تعالى ٩٧
- أداء الأمانات وحفظ الحقوق ٩٨
- طاعة أولي الأمر وتحكيم شريعة الله ١٠١
- الإعراض عن تحكيم شريعة الله كُفر ونفاق ١٠٤
- أعذار واهية وأيمان كاذبة ١٠٥
- طاعة رسول الله ﷺ وشفاعته ١٠٧
- يُسر الشريعة وسماحتها ١٠٩
- الرفيق الأعلى ١١١
- الفصل الرابع: التكليف بالجهاد والحض عليه ١١٣
- تحذير ونفير ١١٥
- المتقاعسون عن الجهاد ١١٧
- وجوب مساعدة المستضعفين ١١٩
- بين غايتين ١٢١
- تَطْيُرٌ ونفاق ١٢٤
- التحدي بمعاني القرآن الكريم ١٢٧
- التحذير من نشر الإشاعات ١٢٨
- التحريض على القتال ١٣١
- الدال على الخير كفاعله ١٣٣
- السلام في الإسلام ١٣٤
- توحيد المواقف من المنافقين ١٣٧
- حكم القتل خطأ ١٤٠
- تحريم العدوان على حق الحياة ١٤٣
- الأمر بالتبثُّب في أثناء الجهاد ١٤٥
- درجات المجاهدين في الجنة ١٤٧
- الهجرة من بلاد الكفر والظلم ١٤٩
- قصر الصلاة في السفر ١٥٤
- صلاة الخوف ١٥٥

- الفصل الخامس: حادثة بني أُبَيْرِق ١٦٠
- الحادثة وحقوق الإنسان ١٦١
- اجتهاد النبي ﷺ ١٦٢
- تحريم الدفاع عن المجرمين ١٦٤
- اتهام البريء بُهتان ١٦٦
- عصمة النبوة ١٦٧
- حجية الإجماع ١٧٠
- حقيقة الشرك ومصدره ١٧٢
- صرعى الأمانى الباطلة ١٧٤
- ميزان العقاب والثواب ١٧٧
- أحسن الناس ديناً ١٧٨
- الفصل السادس: الثبات على الإيمان والتزام التقوى والعدل ١٨١
- تعظيم حقوق الضعفاء ١٨٢
- اختيار أخف الضررين ١٨٤
- العدل بين الزوجات ١٨٦
- الوصية الخالدة ١٨٨
- التزام العدل والثبات عليه ١٩٠
- الدوام على الإيمان والثبات عليه ١٩١
- تحريم الجلوس في مجالس الكفر والمعاصي ١٩٣
- من صفات المنافقين ومواقفهم ١٩٥
- التشهير بالظالمين وفضحهم ١٩٩
- الفصل السابع: عقائد أهل الكتاب ٢٠٢
- كُفر الجاحدين لرسالة الإسلام ٢٠٣
- جحود وعناد ٢٠٥
- كفر متوارث ٢٠٨
- عدوان أهل الكتاب على حقوق الناس ٢١١

- ٢١٣ الوحي والنبوة
- ٢١٥ الشهادة الأزلية الخالدة
- ٢١٧ حقيقة عيسى عليه السلام
- ٢٢٠ اعتزاز عيسى بعبوديته لله تعالى
- ٢٢١ برهان ونور
- ٢٢٢ حقوق الله تعالى وحقوق الإنسان

تفسير سورة المائدة

الحلال والحرام في سورة المائدة

- ٢٢٥ المقدمة
- ٢٣٠ النداء الأول: الأمر بالوفاء بالعقود
- ٢٣١ الوفاء بالعقود
- ٢٣٢ الوفاء بالعقود وتحليل بهيمة الأنعام
- ٢٣٣ الانقياد لله تعالى والتشريع
- ٢٣٥ بهيمة الأنعام
- ٢٣٧ النداء الثاني: الأمر بأكل الطيبات واجتناب الخبائث
- ٢٣٩ أخلاق ومبادئ
- ٢٤٠ التعاون والتكافل
- ٢٤١ التعاون والتأمين
- ٢٤٣ الميتة والخنزير
- ٢٤٥ تنبيه وتحذير
- ٢٤٦ حكم صيد البنادق
- ٢٤٨ التذكية المحلّة
- ٢٤٩ الأصل في أكل اللحوم الحظر
- ٢٤٩ اللحوم المستوردة والمعلّبة
- ٢٥١ الذبيح عند الأقدام
- ٢٥١ الاستقسام بالأزلام

- سؤال الكهّان والعرفّان ٢٥١
- علم الأرصاد الجوية ٢٥٢
- قداح الميسر ٢٥٣
- الاستخارة المشروعة ٢٥٣
- السّمة المميّزة للمسلم عن الكافر ٢٥٤
- أهمية تشريع الحلال والحرام في الإسلام ٢٥٥
- تمام النعمة ٢٥٦
- الاضطراب ٢٥٦
- الطّيّبات ٢٥٧
- صيد الجوارح ٢٥٩
- ما يحرم أكله من الحيوانات ٢٦١
- حكم ذبائح اليهود والنصارى ٢٦٢
- آراء شاذة ٢٦٣
- أهل الكتاب ٢٦٤
- المحصنات الكتايات ٢٦٥
- النداء الثالث: الأمر بالطهارة ٢٦٦
- تمهيد ٢٦٦
- طيبات الروح ٢٦٧
- الوضوء والغسل والتيمم ٢٦٧
- التذكير بالميثاق ٢٦٩
- النداء الرابع: الأمر بالعدل ٢٧١
- النداء الخامس: التحذير من نقض الميثاق، وذكر نعمة الله ٢٧٣
- الناقضون الميثاق ٢٧٥
- نقض النصارى للميثاق ٢٧٧
- حاجة أهل الكتاب إلى رسالة الإسلام ٢٧٨
- سبل السلام ٢٧٩
- من ضلالات أهل الكتاب ٢٨٠

- ٢٨١ - جاء البشير النذير ﷺ
- ٢٨٢ - جحود وخذلان
- ٢٨٤ - رجلان مؤمنان
- ٢٨٦ - عاقبة الحسد (جريمة القتل الأولى)
- ٢٩٠ - العقوبات الزاجرة لقطع الطرق والمفسدين في الأرض
- ٢٩١ - وثيقة تاريخية
- ٢٩٢ - آية الحراية
- ٢٩٣ - شريعة الرحمة والإحسان
- ٢٩٥ - أسلوب التربية في الإسلام
- ٢٩٦ • النداء السادس: الأمر بالتقوى والتحذير من اتباع الهوى
- ٢٩٨ - آية السرقة
- ٣٠٠ - المسارعون في الكفر
- ٣٠١ - السماعون للكذب
- ٣٠٢ - الأكالون للسُّخْتِ
- ٣٠٤ - الأحكام الثلاثة
- ٣٠٦ - القرآن الكريم والكتب السماوية
- ٣٠٧ - التحذير من اتباع الأهواء
- ٣١٠ • النداء السابع: التحذير من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء
- ٣١٣ • النداء الثامن: التحذير من الردة وعاقبتها
- ٣١٦ • النداء التاسع: التحذير من قبائح أهل الكتاب والكفار
- ٣١٨ - قبائح وفضائح
- ٣٢١ - جُرأتهم على الله تعالى
- ٣٢٣ - سبيل السعادة
- ٣٢٣ - تبليغ الرسالة
- ٣٢٥ - ضرورة التبليغ في العصر الحاضر
- ٣٢٧ - عبَاد الهوى والشهوة
- ٣٢٧ - بطلان عقائد النصارى

- ٣٢٩ - حقيقة عيسى ﷺ في القرآن الكريم
- ٣٣٠ - الغلو في الدين
- ٣٣١ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٣٣٢ - تحديد المواقف
- ٣٣٥ • النداء العاشر: النهي عن تحريم الطيبات
- ٣٣٧ - أحكام الأيمان
- ٣٣٩ • النداء الحادي عشر: الأمر باجتنب الخمر والميسر نهائياً
- ٣٤١ - نجاح الإسلام في محاربة الخمر والميسر
- ٣٤٣ - حكم اللعب بالنرد والشطرنج والكرة
- ٣٤٥ - التقوى والإحسان
- ٣٤٨ • النداء الثاني عشر: الأمر بالانقياد لأمر الله في شرعه
- ٣٥١ • النداء الثالث عشر: التحذير من قتل الصيد عند الإحرام وفي الحرم
- ٣٥٥ • النداء الرابع عشر: التحذير من كثرة السؤال
- ٣٥٩ • النداء الخامس عشر: الأمر بإصلاح النفس والتحذير من المفسدين
- ٣٦٢ • النداء السادس عشر: الأمر بصيانة مال المسلم وتنفيذ وصيته
- ٣٦٦ • خاتمة السورة: المشهد العظيم
- ٣٦٨ - التذكير بالنعمة
- ٣٧٠ - مائدة من السماء
- ٣٧٣ - المواجهة الكبرى
- ٣٧٦ - براءة وتفويض
- ٣٧٨ - الخاتمة

تفسير سورة الأنعام

بَصَائِرُ الْحَقِّ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ

- ٣٧٩ • المَقْدَمَة
- ٣٨٢ • تمهيد: مَوْضُوعُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ
- ٣٨٤ • الفصل الأول: الحمد لله

- ٣٨٩ - الظلمات والنور
- ٣٩١ - بين أجلين
- ٣٩٢ - خالق كل شيء
- ٣٩٣ - سُنَّة الله في المكذِّبين
- ٣٩٥ - الباحثون عن حتفهم
- ٣٩٧ - الرحمة أولاً
- ٣٩٨ - الحياة والمسؤولية
- ٤٠٠ - كمال العبودية
- ٤٠٢ - المسلم الأول
- ٤٠٣ - مالك النفع والضرر
- ٤٠٥ - أعظم شاهد وأكبر شهادة
- ٤٠٦ - الكاذبون والمكذِّبون
- ٤٠٧ - أين شركاؤكم؟
- ٤٠٨ - المهلكون لأنفسهم
- ٤٠٩ - وقفة على النار
- ٤١١ - وقفة بين يدي الله تعالى
- ٤١٢ - حَمَلَةُ الأوزار
- ٤١٤ - الحياة الدنيا والآخرة
- ٤١٥ - حقيقتان هامتان
- ٤١٦ - النصر القريب
- ٤١٩ - لسنا وحدنا في الكون
- ٤٢١ - في الظلمات
- ٤٢٢ - الإنسان والدعاء
- ٤٢٤ - قسوة القلب
- ٤٢٥ - الاستدراج
- ٤٢٧ - ما أضعف الإنسان!
- ٤٢٩ - لا يستوي الأعمى والبصير

- الفصل الثاني: تَوْجِيهٌ وَإِرْشَاد ٤٣١
- تَمْهِيد ٤٣٢
- كرامة المؤمنين ٤٣٣
- التفضيل بالإيمان والتقوى ٤٣٥
- رحمته سبحانه بالمؤمنين ٤٣٦
- عِزَّةُ الْإِيمَان ٤٣٨
- آية وحديث ٤٣٩
- مفاتيح الغيب ٤٤١
- النوم والموت ٤٤٣
- الطريق المرسوم ٤٤٥
- ظلمات البر والبحر ٤٤٧
- التحذير من الفرقة والاختلاف ٤٤٨
- الابتعاد عن مجالس الكفر والفجور ٤٥١
- الاستمرار في التبليغ ٤٥٣
- حَيْرَةٌ وَقَلَق ٤٥٥
- العلاج ٤٥٧
- الفصل الثالث: مناظرة وردود ٤٥٩
- إبراهيم عليه السلام ٤٦١
- ملكوت السموات والأرض ٤٦٢
- المناظرة ٤٦٤
- براءة وتفويض ٤٦٧
- أَمْنٌ وَخَوْف ٤٦٩
- شجرة النبوة ٤٧١
- التوكيل بالرسالة ٤٧٢
- الرد على منكري النبوة ٤٧٥
- أم القرى ٤٧٧
- الردُّ على مُدَّعي النبوة ٤٧٩

- ٤٨١ - الردُّ على الطبيعيين
- ٤٨٤ - المستَقَرُّ والمستَوْدَع
- ٤٨٦ - الحَبُّ المتراكب
- ٤٨٨ - الرد على القائلين بصفة الولادة والولد لله تعالى
- ٤٩٠ - الإدراك والرؤية
- ٤٩٢ - جاءت البصائر
- ٤٩٤ - من أدب المناظرة
- ٤٩٦ - الإعلام المزخرف
- ٤٩٨ - تحكيم القرآن الكريم
- ٥٠١ • الفصل الرابع: سَفَهٌ وضلال
- ٥٠٤ - تمهيد
- ٥٠٤ - التحليل والتحريم لله تعالى
- ٥٠٦ - التسمية عند الذبح
- ٥٠٧ - الإيمان حياة والكفر موت
- ٥٠٩ - أكابر المجرمين
- ٥١١ - من حقائق القرآن العلمية
- ٥١٤ - الانتقام من الظالمين بالظالمين
- ٥١٦ - الاعتراف بالجريمة
- ٥١٨ - الكلمة الأخيرة
- ٥١٩ - ضلالات جاهلية
- ٥٢٢ - سفَهٌ وجهل
- ٥٢٤ - الأزواج الثمانية
- ٥٢٧ - شريعة الرحمة والتيسير
- ٥٣٠ - الردُّ على المحتجين بالقدر
- ٥٣٣ - الوصايا العشر
- ٥٣٦ - الصراط المستقيم
- ٥٣٩ - القرآن الكريم والعرب

- أشراف الساعة ٥٤١
- الدين الحق ٥٤٣
- إعلان الدعوة ٥٤٤
- الخاتمة ٥٤٧
- فهرس الموضوعات ٥٤٩



التفسير الموضوعي لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

تأليف
عبد الحميد محمود طه

المجلد الثالث :
ويحتوي على تفسير هذه السور
الأعراف - الأنفال - التوبة - يونس

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوحي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أَسَّسَهَا:
مَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
سنة ١٢٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

تفسير سورة الأعراف

أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن للتاريخ تأثيراً كبيراً على حياة الإنسان ومستقبله، ومع أن أحداثه مضت، إلا أنها تبقي بصماتها وآثارها واضحة على سلوكه وممارساته، وتساهم بشكل غير مباشر في تحريك أحداث الحياة البشرية، ودفع مسيرة الوجود الإنساني على الأرض.

ولقد اهتم القرآن الكريم بأحداث التاريخ، وفسح لها مساحة كبيرة فيه، وتخيّر منها الجانب المؤثر المنسجم مع الموضوعات التي يعالجها.

ولئن كانت دراسة التاريخ، وبيان الأسباب المحركة لحوادثه، من العلوم المتأخرة التي عرفها الناس، فلقد سبق القرآن الكريم إلى هذا العلم، فلم يكتف بعرض الوقائع التاريخية كما حدثت، وكما فعل قدماء المؤرخين وكتاب التاريخ، بل عرض الحدث التاريخي من خلال الأسباب الكامنة وراءه، ومن خلال النواميس الكونية الكبرى التي أبدعها الخالق العظيم لهذا الكون.

وسورة الأعراف هي أكثر طوال السور استشهاداً بأحداث التاريخ، تاريخ

الجماعات والأمم والحضارات، وسبب كثرة استشهادها بأحداث التاريخ؛ يتصل بموضوعها الأساس، الذي أرى أن آيات السورة ركزت عليه، ودارت في محوره، إنه أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وهو من أهم الموضوعات التي يجب على الناس أفراداً وجماعات دراستها والعناية بها؛ لصلتها الكبيرة بحاضرهم ومستقبلهم، واستمرار وجودهم الحضاري والمدني.

وقد جاء تفسير هذه السورة - بحمد الله وتوفيقه - في ثمانية فصول متتابعة بحسب تسلسل آياتها:

- الفصل الأول: التكليف الجماعي والمسؤولية الفردية يوم القيامة.
 - الفصل الثاني: قصة الوجود البشري الأول وصراعه المستمر مع الشيطان.
 - الفصل الثالث: النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم، وما فيها من تقرير وتحذير.
 - الفصل الرابع: بيان أن الخلق والأمر لله تعالى وحده، واختلاف الاستعداد والقابلية عند الناس.
 - الفصل الخامس: صفحات من التاريخ.
 - الفصل السادس: موسى وفرعون وبنو إسرائيل.
 - الفصل السابع: بنو إسرائيل بعد الخروج من مصر.
 - الفصل الثامن: العودة إلى مسرح الأحداث في مكة المكرمة.
- والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفقني للحق والصواب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم.



تمهيد

موضوع السورة

تعدُّ سورة الأعراف من السور المكية ؛ لأنَّ أكثر آياتها نزلت قبل الهجرة، كما أنها في موضوعها تتفق مع موضوعات العقيدة الإسلامية، التي اهتمَّ القرآن المكي ببيانها.

وقد احتلت القصص التاريخية أكبر مساحة فيها، وتناولت هذه القصص عرض جانب من حركة تاريخ الوجود البشري على الأرض، واهتمت بتاريخ الأمم والمجتمعات والحضارات، واختارت أقوى المجتمعات البشرية من عصور متعددة متوالية، وكأنها أرادت أن ترسم خطأً بيانياً لحركة التاريخ البشري على الأرض، وأبرزت من خلال ذلك السبب الرئيس المحرِّك لأحداث التاريخ البشري، ألا وهو المواجهة بين الخير والشر، الخير المتمثِّل بدعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من جانب، والشر المتمثِّل بالشیطان وأتباعه من جانب آخر.

كما أبرزت السورة من خلال المقدمات والتعقيبات (وذلك عندما تتوقف عن سرد الأحداث) بعض النواميس الإلهية الكونية التي تحكم بتقدير الله تعالى حركة استمرار الموجودات كلها، وأظهرت أيضاً النواميس التي تضبط بتقدير الله تعالى حركة وتاريخ الوجود البشري على الأرض، والأسباب الرئيسة الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات، وبيَّنت في مقابل هذه الأسباب الصفات المثالية للأمة التي هي جديرة ومؤهلة لبناء الحضارة الإنسانية الحقة، حضارة الإيمان والعدل والسلام.

ومع أنَّ سورة الأعراف من أطول السور القرآنية، فإنَّ وحدتها الموضوعية

تبرز بوضوح لكل من يتدبر معاني آياتها، فأياتها متكاملة فيما بينها، يفسر بعضها بعضاً، ويكمل بعضها بعضاً، وقد تعمّدت أن أظهر للقارئ هذا الجانب بكثرة استشهادي في تفسير آيات السورة من السورة نفسها، كما سيرى القارئ هذا واضحاً في أول تفسيرها وآخره إن شاء الله تعالى، مما يدلُّ على شدة الانسجام والاتساق بين آيات السورة حول موضوعها الأساس، وهو بيان الأسباب الرئيسة الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات، التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- ١ - الانحراف عن أصل الفطرة في الاعتقاد، والإعراض عن دين الله تعالى وأحكام شريعته.
- ٢ - الانحراف عن سنن الفطرة والشذوذ في العلاقات الجنسية.
- ٣ - الاغترار بالقوة والتكبر والطغيان والعدوان.
- ٤ - الطمع والجشع، وسلب حقوق الناس.
- ٥ - الاستبداد، وتحكُّم الفئة الفاسدة في السلطة والحكم، وممالة العامة لهم، والركون إليهم.
- ٦ - تحجُّر المشاعر، وتبلُّد المدارك، بسبب السرف والترف والانهماك بشهوات الحياة الأرضية المادية.
- ٧ - الانسلاخ عن الشعور بالمسؤولية وإنكار يوم الحساب والجزاء.



الْفُضَيْلُ الْأَوَّلُ

التَّكْلِيفُ الْجَمَاعِيُّ
وَالْمَسْئُولِيَّةُ الْفَرْدِيَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ
 أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا
 كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا
 كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَن
 خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَسْأَلُنَا يُظَلِّمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي
 الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعَالِيشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا
 لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ .

● الله أعلم بمراده وأسرار كتابه:

﴿الْمَصَّ ١﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الأعراف بهذه الآية الكريمة المؤلفة من الحروف الأربعة؛ وهي: ألف، لام، ميم، صاد، وهي ثالث سورة في المصحف بُدئت بالحروف، فسورتا البقرة وآل عمران بُدئتا بـ ﴿الْمَ﴾ وبُدئت الأعراف بها أيضاً

مع زيادة حرف (صاد)، وثمة سورة في المصحف بدئت بحرف (صاد) وسميت به .

ولا تزال معاني هذه الأحرف في أوائل بعض السور القرآنية من أسرار الكتاب العزيز، وللعلماء أقوال كثيرة في معانيها على سبيل الاحتمال، ولا يستطيع أحد أن يجرم ويقطع بأن ما ذهب إليه هو المعنى المراد منها، يبقى القول: (الله أعلم بمراده وأسرار كتابه) أحوط وأسلم، ويتفق مع قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

ولا بد أن يكون لهذه الأحرف ارتباط بموضوع السورة ومعاني آياتها، حتى يتم الاتساق والانسجام الذي تتميز به الكلمات القرآنية، والذي يظهر به وجه من وجوه إعجاز الكتاب الكريم، وهذا ما جعل ابن كثير رحمته ينتصر للرأي الذي يقول: إن هذه الحروف ذكرت بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أن ألفاظه من هذه الحروف التي يتخاطبون بها .

قال رحمته في مقدمة تفسير سورة البقرة: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل:

- ﴿آلَهُ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ البقرة.

- ﴿آلَهُ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ [آل عمران].

- ﴿الْمَصَّ﴾ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ في أول سورة الأعراف ^(١).

ولم يقتصر حديث السورة عن القرآن الكريم في أولها كما ذكر ابن كثير رحمته، وإنما جاء الحديث عنه أيضاً في ختام السورة كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّيكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

• تسكين وتثبيت:

﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِيُنْذِرَ بِهِ وَيُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك يا محمد - ﷺ - من الله تعالى.

﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: فلا يكن في صدرك ضيق.

ولعل سببه شعوره ﷺ بعظم الأمانة التي حُمِّلها، وضخامة المسؤولية عنها، وخوفه أن يقصُر في أدائها والقيام بتبعاتها، فأزال الله تعالى خوفه عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب الكريم في أول السورة، فالله جلّ وعلا هو الذي أنزل عليك الكتاب، واختارك لِحَمْلِ رسالته، و﴿اللَّهُ﴾ سبحانه العليم الحكيم ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والمعونة من الله تعالى تأتي على قدر التكليف والمؤونة، وسيأتي معنا فيما قصّه الله تعالى من أخبار الأنبياء في السورة كيف نصر الله تعالى أنبياءه وأيدهم، ولطف بهم، وأعانهم على القيام بما كلفهم به.

ويلاحظ أنّ النهي في الآية توجّه إلى الحرج: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ولم يُوجّه إلى النبي ﷺ، مع أنّه المراد بهذا النهي، وذلك لأن الشعور بالحرج في مثل هذه الأحوال أمر لا إرادي، يطرأ على الإنسان، ويتسلل إلى مشاعره دون إرادة منه، فالنبي ﷺ لم يستجلبه، ولا إرادة له فيه، ولهذا توجّه النهي إلى الحرج الذي تسلل إلى قلبه عليه الصلاة والسلام بغير إرادته.

وفائدة هذا النهي تطمين النبي ﷺ، وتسكين نفسه، وتخليّة صدره عن أيّ حرج يطرأ عليه، فيقوم ﷺ بحمل الرسالة وأداء الأمانة بقلب ثابت وصدر منشرح. ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿لِيُنْذِرَ بِهِ﴾ أي: لا يكن في صدرك حرج منه لكي تقدر على الإنذار به،

وهو القرآن الكريم، فإذا كنتَ منشرح الصدر ثابتَ القلبِ استطعت القيام بما كُلفتَ به من التبليغ والإنذار على أكمل الوجوه وأتمها.

والإنذار: الإعلامُ المقترنُ بالتهديد والوعيد، وهو عامٌّ لجميع المكلفين، ولهذا حُذف مفعول (تنذر) كما في قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ الْمَدِينَةِ ۖ قُرْ فَاذَرُ﴾ [المدينه].

وقدم الإنذارَ لارتباطه بدفع الحرج عن قلب النبي ﷺ، فالقيامُ بالإنذارِ أكثرُ مشقةً من القيامِ بالتذكير، لأنَّ الإنذار فيه المواجهة مع الكافرين والمعاندين، بينما التذكير موجَّهٌ للمؤمنين، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿وَذَكِّرْ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وفي الكتاب الذي أنزل إليك ذكرى للمؤمنين.

والذكرى: الموعظة النافعة، ولما كان المؤمنون هم المتعظين بآيات القرآن الكريم، خصَّهم سبحانه بالذكر هنا في أول السورة، وأكَّده في آخر السورة في قوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢٦﴾ كما سيأتي معنا.

ويلاحظ في الآية أيضاً أن الإنذارَ أتى أولاً للجميع، ثم أتى بعده دور التذكير للمؤمنين ووعظهم بآيات القرآن الكريم، وهو ما سنراه متبَعاً في أكثر آيات السورة.

• التكليف الجماعي:

وقام النبي ﷺ بما كلفه سبحانه به بقلب ثابت، وصدر منشرح، فأدَّى الأمانة، وبلغ الرسالة على أتم الوجوه وأكملها، وأصبحت المسؤولية منوطةً بالمكلفين الذين وصلتهم الرسالة، فاتَّجه خطاب الآيات إليهم:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾.

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: تمسَّكوا بما أنزل الله إليكم من أحكام دينه وشرعه في القرآن الكريم وسُنَّة النبي ﷺ.

فالسنة هي المصدر الأساس الثاني لدين الله وشرعه، وهي من الله تعالى:

﴿وَمَا يَطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم].

وقد أمر الله تعالى باتباع السُّنَّة في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا﴾ خطاب للأُمم والمجتمعات البشرية، ففيه تكليف لكل الأُمم والمجتمعات البشرية بتطبيق أحكام دين الله وشرعه، ومسؤولية كل مجتمع عن هذا مسؤولية جماعية، وبقاء الجماعة البشرية واستمرار قيام حضارتها مرتبط بمدى تمسُّكها بدين الله تعالى، واتباعها لأحكام شريعته، وهلاك الجماعة البشرية وسقوط حضارتها نتيجة إعراضها عن التمسك بدين الله وشرعه، ولهذا جاء بعد التكليف الجماعي التحذير الجماعي من اتباع غير ما شرع الله تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ﴾ أي: من دون الله تعالى، فالتمسك بشريعة الله تعالى اتباع له جلّ وعلا، والإعراض عنها إعراض عنه جلّ وعلا، واتباع لغيره سبحانه.

﴿أُولَئِكَ﴾ من شياطين الجن والإنس.

وسماهم ﴿أُولَئِكَ﴾ لأن اتباعهم وطاعتهم فيما يشرعون موالاتهم لهم.

فالذين يتَّبِعُونَ الشرائع الوضعية المخالفة لشريعة الله تعالى يعادون الله تعالى ربهم، ويوالون واضعي هذه الشرائع والقوانين، فالأمر كبيرٌ وخطيرٌ، ويجب على المسلمين الذين بهرتهم دنيا الأُمم الكافرة وزخارفها، فهجروا شريعة دينهم، واتبعوا الشرائع الوضعية التي استحدثتها الأُمم الكافرة، يجب عليهم أن يدركوا خطورة ما أقدموا عليه، على عقائدهم وعلى مصير

مجتمعاتهم، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات وتفكك المجتمعات.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما تتعظون إلا قليلاً.

فالآية تدلُّ على قلة المتعظين بآيات الكتاب الكريم بالنسبة للمعرضين عنه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَنَسِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

• الإهلاك الجماعي:

ثم أخبر سبحانه عن كثرة المجتمعات البشرية التي أهلكتها، والحضارات التي دمرها، بسبب إعراضهم عن اتباع ما شرع لهم، وتكذيبهم لرسولهم، فقال:

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَّتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: وكم من بلد أو مدينة أهلكتها بمن فيها.

و(كم) للتكثير، والمعنى: ما أكثر المدن التي دمرها الله تعالى، بسبب ظلم أهلها، باتباعهم أولياء دون الله تعالى، شرعوا لهم شرائع تخالف شريعته سبحانه.

وحديث الآية عن الإهلاك الجماعي للمدن يؤكِّدُ أَنَّ المسؤولية في الدنيا عن تطبيق شريعة الله مسؤولية جماعية، وَأَنَّ التكليف بتطبيق شرع الله في الأمم والمجتمعات تكليف جماعي، ولهذا كان العقاب الديني عن الإعراض عن شريعة الله جماعياً عاماً شاملاً كل من رضي بالعيش مع هذا المجتمع الظالم، قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلِئٌ وَقَصَّرَ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

[هود: ١١٧].

﴿فَجَاءَهَا بِأَسُنَا بَيَّتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: جاءها عذابُ الله ليلاً، أو نهاراً في

القيولة والراحة.

فالعذاب يأتيهم على حين غفلة منهم، دون أن تسبقه أمانة تدل على اقترابه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿[النحل].

ونزول الهلاك والعذاب في وقت الدعة والراحة والغفلة على غير توقع، يجعله أكثر ألماً، وأعظم وقعاً وأثراً.

• اعتراف متأخر:

ففي الآية تحذير من الاغترار بأسباب الأمن والراحة، فمهما كانت المجتمعات الظالمة قوية و متمكنة، فلا وقاية لها من عذاب الله تعالى وانتقامه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبٍ بِطَرَفِ مَعِشَتِهِمْ فَلْيَكُ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

ووصف سبحانه حالهم عند نزول الهلاك بهم فقال:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٥).

اعترفوا بذنوبهم، وأنهم يستحقون ما أنزل الله تعالى بهم.

ولكن اعترافهم هذا جاء متأخراً، فلا ينفعهم، ولا يدفع عنهم العذاب الذي نزل بهم، فهو كإيمان اليائس، لا ينتفع به صاحبه، ولهذا لم ينتفع فرعون بإيمانه بعد أن يئس من الحياة، وأحاطت به أسباب الهلاك: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿[يونس] (١).

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرَبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ

(١) انظر: تفسير سورة يونس في هذا التفسير الكامل للقرآن الكريم، تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٣﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿٣٤﴾ [الأنبياء].

فالإقامة الطوعية في المجتمعات الكافرة خطرٌ على دين الإنسان المسلم، كما هي خطرٌ على مصيره، يظلم المسلم بها نفسه، فيعرضها للهلاك الذي قدره سبحانه لهذه المجتمعات الفاجرة الظالمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ [النساء].

وفي الحديث الصحيح: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعِثُوا على أعمالهم» [رواه مسلم (٢٨٧٩)].

• المسؤولية الشخصية:

إنَّ التكليف الجماعي بتطبيق شريعة الله، والتزام منهج دينه، يستتبع المسؤولية الجماعية كما مرّ معنا، وهي التي يترتب عليها في حال الإعراض عن شريعة الله تعالى الإهلاك الجماعي، وهذا في الدنيا فقط كما في الحديث السابق. أمّا في الآخرة فالمسؤولية فردية شخصية، فكلُّ إنسان يُسأل عن عمله فقط، ويحاسب عما صدر عنه، قال سبحانه يؤكد هذه المسؤولية:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عن الرسالة التي أرسلها الله تعالى إليهم بوساطة الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وإثبات السؤال هنا لا يتعارض مع قوله سبحانه: ﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ﴾ [الرحمن: ٣٩] فمعناه: لا يحاسب غيره عنه، كما في قوله جلَّ

وعلا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ١٥]، أو لعلّ هذا في بعض أحوال يوم القيامة، فهو يوم طويل ومواقفه وأحواله كثيرة.

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أيضاً عن مدى استجابة أممهم لدعوتهم كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وسؤال المرسلين لتوبيخ المعرضين عن رسالتهم، لا للاستعلام، فهو سبحانه علام الغيوب، لا تخفى عليه خافية.

﴿فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

﴿فَلَنَقْضَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ على الرسل والمرسل إليهم كل ما كان منهم.

﴿بِعِلْمٍ﴾ ثابت ويقين، لا بظن وتخمين.

﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم وعن أعمالهم.

ويُظهر سبحانه عدله للناس يوم القيامة بوزن أعمالهم بميزان الحق والعدل:

﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي: وزن الأعمال والتمييز بينها يوم القيامة حق ثابت، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت أعماله الصالحة وحسناته.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالعيشة الراضية في الجنة، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿هُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارة].

﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩).

﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ لقلة حسناته، أو لعدم الاعتداد بأعمالهم بسبب كفرهم، فلا يَقْبَلُ الله من الكفار أي عمل مهما كان صالحاً، وهو القائل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فُطِرُوا عليها، كما سيأتي معنا في آخر السورة عند آية الميثاق العام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ الآية [١٧٢]، أو خسروا أنفسهم لأنهم غبنوها وحرموها من ثواب الله تعالى ورحمته ورضوانه يوم القيامة.

﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ فبدل أن يؤمنوا بآيات الله تعالى، كفروا بها، وهذا أقبح أنواع الظلم، وأكثرها شراً وفساداً.

وقوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بصيغة الحاضر الدالة على التجدد والاستمرار، يدلُّ على استمرارهم على الظلم وإصرارهم عليه^(١).

• الإنسان والأرض:

وبعد أن واجهت الآيات الكريمة الإنسان بهذه المواجهة الصريحة بكلِّ ما فيها من إنذار وتهديد، وبيّنت له واجبه مع أبناء مجتمعه عن تطبيق دين الله وشرعه، وما يترتب على ذلك من مسؤولية جماعية وفردية في الدنيا والآخرة، شرعت تتحدّث عن الميزات التي خصَّ الله بها الإنسان لكي يكون أهلاً لحمل هذه المسؤولية:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا لكم القوة والسيادة في الأرض،

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/٢١٤.

وقدرناكم على التصرف بكل ما فيها، فالإنسان سيّد المخلوقات الأرضية، وكل شيء فيها مسخر له، ومذل لمنفعته.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ﴾ أي: جعلنا لكم في الأرض كل ما تحتاجون إليه من أسباب الحياة والعيش، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٢٣﴾ وَآتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم].

ومع كل هذه النعم:

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على نعمه وفضله.

فالأرض مسخرة للإنسان، فهي له كالمهاد والفراش، وكل ما فيها مهياً له، وليس ثمة صراع بين الإنسان والأرض، أو بينه وبين الطبيعة، كما يتصور أكثر فلاسفة الغرب وأدباؤه، حتى إنهم رأوا أي اكتشاف لبعض ما خلق الله تعالى في الأرض انتصاراً، وأي زيادة للمجالات الفسيحة المحيطة بالأرض أو في داخلها غزواً، غزو البحار، وغزو الصحراء، وغزو الفضاء... إلخ؛ وهذا التصور الخاطئ يزيد في غرور الإنسان وتكبره، وينسيه فضل الله تعالى الذي خلقه، وهداه إلى كل ما توصل إليه.

• مفاتيح الرزق:

إن الإنسان في تكوينه المادي ابن الأرض، أنشأه الله منها، ومكنه فيها، وجعل له فيها كل ما يحتاج إليه من الأرزاق، وأمره أن يستطلع أسرارها، ويستثمر خيراتها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٤].

إن هذا التصور - كما قال سيد قطب رحمه الله -: «يشجعه ويملاً قلبه ثقة وطمأنينة... لأنه يتحرك في مواجهة كونٍ صديقٍ لا يبخل عنه بأسرارهِ، ولا يمنع

عنه خيراته، وليس في مواجهة كَوْنِ عدو يتربص به، ويعاكس اتجاهاته، ويسحق أحلامه وآماله . . . إنه تصور بائس، لا بدّ أن يُنشئ حالة من الانزواء والانكماش، أو حالة من الاستهتار والتمرد والفردية، وكلتا الحالتين لا تكوّن إلا القلق المضني، والبؤس النفسي والعقلي، والشروء والتمرد . . . وهي ليست مأساة الوجودية وحدها من مذاهب الفكر الأوربي، إنها مأساة الفكر الأوربي كله^(١).

ويبدو أنّ الحالة الثانية التي توقعها ﷻ هي التي برزت أكثر في حياتهم الاجتماعية، فالأنانية والقلق والتمرد هي السمات البارزة في حياتهم.

التحدي الكبير الذي يواجه الإنسان في حياته على الأرض هو الأسباب التي أقامها جلّ وعلا بحكمته وإرادته، بين الإنسان وبين خيرات الأرض وأرزاقها، لكي يميّز سبحانه بين الكسول الخامل، والمجتهد العامل، فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حاجاته وضرورات حياته بسهولة ويسر، لا بدّ له أن يأخذ بالأسباب التي قدّرها العليم الحكيم للوصول إلى خيرات الأرض وأرزاقها، فهي مفاتيح خزائن فضله ورحمته، فمن استفتح بعلمه وعمله وجده فتح الله تعالى له: ﴿كَلَّا نُمَدِّدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وهذا التحدي هو الذي بعث الإنسان إلى عمارة الأرض واستثمارها، مما أدّى إلى ظهور المدن والبلدات ونشوء الحضارات.

• التصوير والتكريم:

ومن الميزات التي جعلت الإنسان أهلاً للمسؤولية والتكليف، بُنيت المادية الجسدية المتميزة التي تمكّنه من استثمار خيرات الأرض، والتي امتنّ الله بها على الإنسان بقوله:

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٦٣ بتصرف واختصار.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أبيكم آدم، فهو أصل شجرة الوجود البشري، فخلقه خلق لجميع البشر.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بإعطاء آدم صورته البشرية المميزة له عن جميع المخلوقات، والتي انتقلت منه إلى جميع البشر.

فتصوير آدم بصورته الإنسانية الكريمة، تصوير لجميع أبنائه وذريته، وهذا التصوير من نعم الله تعالى الكبيرة على الإنسان، كنعمة خلقه وإيجاده، ولهذا قرن سبحانه بينهما، وذكره سبحانه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

ومنها قوله أيضاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار].

ويتم التصوير مع التكوين في داخل الأرحام: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

وجاء بعد الخلق والتصوير التكريم:

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود التكريم والاحترام لهذا المخلوق الذي سيستخلفه سبحانه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والذي سيشرِّفه الله تعالى بالتكليف والمسؤولية في حياته الأرضية، ويجعل له حرية واختياراً، وابتليه بالخير والشر.

وانقاد الملائكة لأمر الله تعالى:

﴿فَسَجَدُوا﴾ للإنسان سجود التكريم بعد أن بين لهم ﷺ أهلية الإنسان في

اكتساب العلوم والمعارف بأسلوب علمي، ذكره جلّ وعلا في سورة البقرة فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتْلُوا آيَاتِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْیْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فتصوير الإنسان بصورته الخاصة المتميزة، وتسخير المخلوقات له، وتكريمه وتزويده بأهلية اكتساب المعارف والعلوم، كلّ ذلك مقدمة لحياة التكليف والاختبار في الأرض.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ مع أن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود شمل إبليس، لأنه كان ملحقاً بهم، يعيش معهم بسبب كثرة عبادته لله تعالى.



الْفَصْلُ الثَّانِي

قِصَّةُ الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ الْأَوَّلِ
وَصِرَاعُهُ الْمُسْتَمِرُّ مَعَ الشَّيْطَانِ

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝١٢﴾ قَالَ فَأَهِطْ مِنْهَا
فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ
الْمُنْظَرِينَ ۝١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِ لِأَفْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا وَمَا مَدْحُورًا لَمَسَ نِعَمَكَ مِنْهُمْ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨﴾ وَيَتَادَمُّ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝١٩﴾ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِي أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا
لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١﴾ فَلَدَّهُمَا يَغُرُّرٌ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
وَرَقٍ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ
۝٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ۝٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ
وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾

● الإنسان والشیطان:

وحتى يتم اختبار الإنسان ابتلي بعداوة الشيطان، فبعد تكريم آدم بسجود
الملائكة، أظهر إبليسُ عداوته للإنسان فأبى أن يسجد ﴿إِلَّا لَا إِلَيسَ لَكَ يَكُنْ مِنَ
السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] مع أن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود شمل إبليس،

لأنه كان ملحقاً بهم، يعيش معهم بسبب كثرة عبادته لله تعالى.
وسأله سبحانه عن سبب عصيانه لأمره - وهو سبحانه أعلم - لكي يظهر
لآدم حقيقة إبليس، ويكشف له عداوته:

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝﴾

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: من آدم.
ثم بيّن سبب ما يراه لنفسه من فضل وتقدم على آدم، فقال:
﴿خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، فإبليس يرى أن الفضل والتقدم يرجع إلى
الأصل، فهو إذن مصدر النظريات التي استحدثها بعض الناس القائلة بتفوق
بعض الأعراق البشرية والأجناس على غيرها، والتي تسببت في كثير من
الحروب والنكبات لأبناء آدم، وآخرها الحربان العالميتان الأولى والثانية في
النصف الأول للقرن الميلادي العشرين.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝﴾

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من ساحة الفضل والرحمة والكرامة، وهي الجنة.
﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: فما يصح ولا يستقيم أن تتكبر في الجنة،
ولا يليق بك أن تعيش فيها، وهي دار المتقين المتواضعين.
وفي الحديث الصحيح: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:
«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» [رواه مسلم (١٤٩)].
﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلاء المهانين، والجزء من جنس العمل.

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾

أي: أمهلني ولا تُمتني إلى اليوم الذي يبعث فيه الناس من قبورهم وهو
يوم القيامة.

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (١٥).

أي: إِنَّكَ مِنَ الْمُؤَخَّرِينَ، لكن لا إلى يوم القيامة كما جاء في سؤاله لينجو من الموت، فلا نجاة لنفس منه، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٥].

وقد بيّن سبحانه في سورة الحِجْرِ أنه أنظره إلى يوم الوقت المعلوم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) وهو الوقت الذي قدره سبحانه لموت إبليس، ويكون قبيل قيام الساعة عند النفخة الأولى التي ينتهي بها الوجود البشري في الأرض بموت جميع الناس.

فما دام الإنسان في الحياة الدنيا فهو مُبْتَلًى بعبادة الشيطان له، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿بَنَيْنَا الْإِنْسَانَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦).

• قاطع الطريق:

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَفْعُدَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦).

﴿قَالَ﴾ الشيطان.

﴿فِيمَا آغَاوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب ابتلائي بالسجود لآدم الذي جعلني من الغاوين الضالين.

﴿لَأَفْعُدَّ لَهُمْ﴾ لآدم وذريته.

﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: على صراطك المستقيم، وهو طريق عبادتك وطاعتك الذي يوصل إلى الجنة، لكي أصدهم عنه، وأجعلهم ينحرفون عنه.

فحال إبليس في هذا كحال المجرمين الذين يقطعون الطريق على

المسافرين، وقوله هذا يدلُّ على إصراره على الشر والضلال، وأنَّ الشرَّ فيه أصيل وليس عارضاً ولا وقتياً^(١).

فإبليس يسعى جاهداً لكي يجعل الناس ينحرفون عن دين الله ومنهجه وشرعه الذي أرسل رسله لبيّنوه للناس، وكثيراً ما حذّرنا سبحانه من الانحراف عن هذا السبيل في آيات كثيرة، منها ما ذكره في أول هذه السورة: ﴿أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومنها قوله سبحانه أيضاً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

كما علمنا سبحانه أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم، والثبات عليه في كلِّ صلاة، عندما نقول خاشعين ضارعين: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وهكذا أعلن الخبيثُ عداوته للإنسان، وألزم نفسه أن يسعى بأقصى جهده وطاقته لإضلاله وإبعاده عن طريق الحق:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: من أي جهة أستطيع منها إضلالهم.

قال إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري رحمته الله: «معناه: ثم لآتيَنَّهُم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق، وأحسن لهم الباطل»^(٢).

﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ لفضلك وإحسانك، مطيعين لك ومنقادين لأمرك. وقول إبليس هذا جاء على سبيل الظنِّ والتوقع، فهو لا يعلم الغيب،

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٦٦.

(٢) جامع البيان: ٨/ ١٠٢.

ولكنّه علم نقاط الضعف البشري، التي يمكنه التسلط على الإنسان بواسطتها، فيحسّن له الضلال، ويبعده عن الصراط المستقيم.

وقد جاء في الحديث الشريف: أنه ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ ﷻ آدَمَ، تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل إبليس يُطيفُ به، ينظرُ إليه، فلمَّا رآه أجوفَ عرف أنه خَلَقَ لا يتمالكُ» [رواه أحمد (١٥٢/٣) وبنحوه في مسلم (٢٦١١)].

فالإنسان مخلوقٌ من تراب الأرض، وذو جوف يصلصلُ ويصوّتُ إذا ما نقر كالفخار، وعمره في الأرض محدود، فله إذن تعلّق قوي بشهوات الأرض، ولميوله الأرضية وشهواته الجسدية تأثيرٌ كبير عليه.

استحقَّ الخبيثُ بسبب تكبره وسوء أدبه مع الله تعالى الطردَ من منازل الملائكة في السماء أو من الجنة، كما استحق لعنة الله الملازمة له إلى يوم الدين:

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٨).

﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا﴾ مذمومًا، والذام: أشد الذم، ولم تُذكرْ هذه الكلمة في القرآن إلا في هذا الموضع، فهو ذم شديد خاص باللعين^(١).
﴿مَدْحُورًا﴾ مبعداً مطروداً.

﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو قَسَم من الله تعالى أن يدخل من تبع إبليس من بني آدم جهنم، وأن يملأها بإبليس وذريته وأتباعه.
وقد أكّد سبحانه هذا في عدة سور، فقال في سورة ص: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥).

وقال أيضاً في سورة الحجر: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣).

(١) انظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان، للنيسابوري: ٧٧/٨.

وقال أيضاً في سورة الإسراء: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ (١٦).

والتأمل لهذه الآيات يجدها كلها ذكرت كلمة (تبع) مما يدل على أن الموالين للشيطان والسائرين وراءه لهم إرادة وكسب واختيار في اتباعهم للشيطان، وإعراضهم عن الصراط المستقيم طريق الرحمن، ولهذا فهم مسؤولون عن اختيارهم وكسبهم. كما يتضح له سر تركيز الآية الكريمة في أول السورة على كلمة (تبع) في قوله جلّ وعلا: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)، وقوة الاتساق والانسجام بين آيات السورة.

• التجربة والدروس:

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه قدّر له أن يمرّ قبل هبوطه إلى الأرض واستقراره فيها بتجربة، يتزوّد منها بذخيرة كبيرة من العبر والدروس، ويظهر له من خلالها بأسلوب عملي واقعي شدة عداوة الشيطان له، وسعيه الحثيث لإضلاله، وتنغيص حياته، وتكدير معيشته.

أمر الله سبحانه آدم أن يسكن مع زوجته في الجنة:

﴿وَيَتَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

﴿وَيَتَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وأباح سبحانه لهما أن يتمتعا بكل ما فيها من الأرزاق والنعيم:

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من غير جهد وتعب وعناء.

فالحياة في الجنة خالية من التعب والنّصب، ورزق الجنة غير محجوب عن أهلها بحجاب الأسباب، كما هو الحال في الأرض.

وحرّم سبحانه عليهما الأكل من شجرة معيّنة، بيّنهما سبحانه لهما بقوله:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: ولا تدنّوا من هذه الشجرة، فمن حام حول

الحمى يوشك أن يقع فيه، وما يؤدي إلى الحرام فهو حرام، وكان هذا التحريم ابتلاءً منه سبحانه لآدم وزوجه، لإظهار طاعتهما لأمره، أو مخالفتهما له، ويُن سبحانه لهما ما يترتب على المخالفة والمعصية فقال:

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بمعصية ربهم.

وعاش آدم مع زوجه الحياة السعيدة الكريمة الميسرة الخالية عن التعب والنصب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه]، وعز على الشيطان الحاقده الحاسد أن يرى الإنسان سعيداً في حياته، فنصب له حبال كيده وأشراك مكره.

• ظهور السوء:

وتمكن الخبيث بوسوسته من إغوائهما، وتزيين المعصية لهما، مع أنه خارج الجنة، مما يدل على قدرته على إلقاء الوسوسة، وإيصالها إلى الإنسان وهو بعيد عنه:

﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدَىٰ لَٰهُمَا مَا يُورِي عَنْهُمَا مِنْ سَوءَٰتَيْهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي: ألقى إليهما الوسوسة، وهي الصوت الخفي المتكرر^(١).

وهدفه الأول من الوسوسة أن يزيل عنهما حرمة أهل الجنة وكرامتها وسعادتها، فيتلذذا بوحل المعصية وشؤمها وقبحها.

﴿لِبَدَىٰ لَٰهُمَا مَا يُورِي عَنْهُمَا مِنْ سَوءَٰتَيْهِمَا﴾ أي: ليظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما، فعورة الإنسان سوءته، وإظهارها وكشفها يسيء إليه، وينزله عن مرتبة

(١) روح المعاني: ٩٩/٨.

كرامته التي ميّزه الله تعالى بها عن الحيوانات، والتي رفعه إليها عندما أمر الملائكة بالسجود له سجود التكريم والاحترام كما مرّ معنا.

فاللام في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ﴾ لام التعليل، وليست لام العاقبة كما رأى بعض المفسّرين، الذين رأوا أنّ الشيطان لم يقصد بوسوسته ذلك، ولم يخطر له على بال، وإنّما آل الأمر إليه^(١).

والأصل أن تكون اللام للتعليل، وما ذكره هؤلاء المفسّرون بصيغة الضعف، هو الأقوى والأظهر، والغرض الأساس للخبث من وسوسته أن يزيل عن آدم وزوجه الحُرمة والكرامة بإظهار عوراتهما وكشف سوءاتهما، وكانا لا يريانها تكريماً لهما.

وما يفعله كثير من الناس في العصر الحاضر، من تعمّد كشف العورات، وإظهار السوءات، انتكاسٌ عن كرامة الإنسان وحرمة، وارتكاس وانحطاط إلى الحيوانية البهيمية ومزالقتها.

● نقاط الضعف البشري:

عرف الخبيث - كما ذكرت سابقاً - نقاط الضعف البشري، فتسلل إليهما بوسوسته من خلالها:

﴿وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ أي: لكي لا تكونا مثل الملائكة في القوة والقدرة، فللملائكة من القوة ما ليس للإنسان.

والنزوع إلى القوة من الغرائز التي جُبل الإنسان عليها، ورُكزت في أصل خلقته وفطرته. وفي قراءة شاذة: (إلا أن تكونا مَلَكَين) بكسر اللام.

وما نراه عند الأطفال من حُبِّ تملك للأشياء، والاستحواذ عليها دون الآخرين، أثر من آثار هذه الغريزة، ولا يزال الناس منذ فجر وجودهم، يجذّون وراء القوة، ويبحثون عن مصادرها، ويتصارعون حتى الموت من أجل

(١) روح المعاني: ٩٩/٨.

الاستحواذ عليها، يستوي في هذا الأفراد والجماعات، ولهذا النزوع إلى القوة والتنافس عليها أثر كبير في ظهور المدينيات ونشوء الحضارات.

لَكِنَّ الْمَلَائِكَةَ مَجْرَدُونَ مِنْ نَوَازِعِ الشَّرِّ، ومفطورون على طاعة الله تعالى والانقياد لأمره: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ أَثِلَّ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ولا تسلط للشيطان عليهم، ولا عداوة بينهم وبينه، كما هو الحال عند الإنسان، فهم مخلوقات نورانية لا ترابية ولا نارية. وأما الإنسان فبنيته المادية الترابية تشده إلى الأرض، رغم النفخة العلوية الروحية التي فيه، وقد ابتلي بعداوة الشيطان.

تُرى لو أُعطي الإنسان ما أُعطي المَلَكُ من القوة، ماذا يفعل بها؟ ماذا صنع الإنسان المعاصر عندما وضع يده على بعض مصادر القوة المادية بواسطة العلوم التي اكتسبها؟ يعيش الناس في العصر الحاضر تحت مظلة الرعب والخوف، المظلة التي تسمى بالتوازن الاستراتيجي بين وسائل الدمار التي تمتلكها الدول الكبيرة، إنَّ لدى كلِّ منها من وسائل التدمير ما يمكنها من تدمير الحياة البشرية في الأرض عشرات المرات، فسبحان الله ما أحكمه وما أرحمه! والحمد لله الذي لم يُعطِ الإنسان القوة التي أعطاها للملائكة، اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا.

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ وهي نقطة ثانية من نقاط الضعف البشري، وهي أيضاً خطيرة وثلمة كبيرة، فالإنسان ينزع إلى طول الحياة، يتوق إلى الخلود والبقاء، يكره الموت، ويتكدر عند ذكره، وقد عرف الشيطان هذه النقطة أو الثلمة عند الإنسان، فأتاه من خلالها: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وتمكَّن الخبيث بهذا من إيقاع الإنسان الأول في شرك خداعه ومكره، وأظهر نفسه بمظهر الناصح الأمين، وأخفى حقيقة العدو اللئيم:

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنَاصِحٌ﴾

أي: أقسم لهما وحلف لهما، وتدل صيغة المفاعلة (قاسمهما) على أنه كرر القسم أكثر من مرة، وأنهما كانا في أول الأمر لا يثقان به، ولا ينصاعان لوسوسته، وأنه حصلت بينهما مراوغات ومحاولات بذل فيها الجهد^(١).

• المعصية وشؤمها:

أخيراً تمكّن الخبيث من إنزالهما من مرتبة الطاعة والكرامة:

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ أي: أنزلهما عما كانا من عزّ الطاعة وشرفها ورفعتها.

ونبه سبحانه بهذا اللفظ على أن الشيطان أهبطهما من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإنّ التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل^(٢).

﴿بِغُرُورٍ﴾ أي: وهما متلبّسان بخداعه ومكره، فما زال يزيّن لهما المعصية، حتى أثار شهوتهما إلى المحذور، فغلب عليهما، وأنساهما نهي الله تعالى وتحريمه الأكل من الشجرة، فما أقدما على المعصية تصديقاً للشيطان، وإنّما أكلا منها بسبب ضعفهما أمام الشهوة التي أثارها الخبيث فيهما.

قال الألوسي رحمته الله: «وذهب كثير من المحققين إلى أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعاً ولا ظناً، وإنّما أقدما على المنهي عنه لغلبة الشهوة، كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهي، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال^(٣). ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥].

(١) انظر: نظم الدرر: ٣٧٣/٧.

(٢) تفسير البضاوي: ٥٣٤/٢.

(٣) روح المعاني: ١٠٠/٨.

وما إن أكلَا منها شيئاً يسيراً حتى أصابهما شؤم المعصية:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ نُزِعَ عَنْهُمَا لِبَاسُ الْجَنَّةِ، وَسَيِّمَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَرَأَى كُلُّهُمَا عَوْرَةَ الْآخَرِ، وَفُوجِئَا بِمَا طَرَأَ عَلَيْهِمَا مِنْ تَغْيِيرٍ وَتَبَدُّلٍ، وَأَدْرَكَا فَوْراً جَنَائِيَهُمَا وَمَعْصِيَتَهُمَا، وَغَلَبَ عَلَيْهِمَا الْحَيَاءُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَخْذَا يَبِحْثَانِ عَنْ شَيْءٍ يَسْتَرِ سَوْءَاتَهُمَا، فَلَمْ يَجِدَا غَيْرَ وَرَقِ شَجَرِ الْجَنَّةِ:

﴿وَطُفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أَي: شَرَعَا يَجْمَعَانِ وَرَقَ الْجَنَّةِ، وَرَقَةً فَوْقَ وَرَقَةٍ، لِكَيْ يَسْتَرَا بِهِ عَوْرَتَيْهِمَا. وَأَتَاهُمَا النَّدَاءُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى مُعَاتِباً مُوَبِّحاً:

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

فَهُمَا عَتَابَانِ وَتَوْبِيخَانِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، الْأَوَّلُ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَالثَّانِي عَلَى الْإِغْتِرَارِ بِوَسْوَاسَةِ الشَّيْطَانِ؛ مَعَ أَنَّهُ عَدُوٌّ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ لِلْإِنْسَانِ، وَقَدْ حَذَّرَهُمَا سُبْحَانَهُ مِنْ مَكْرِهِ وَكَيْدِهِ: ﴿فَقُلْنَا يَبَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِرِزْوَانِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٩].

• التوبة والمغفرة:

فَأَقْرَأَا بِالْمَعْصِيَةِ، وَسَأَلَا اللَّهَ تَعَالَى الرَّحْمَةَ وَالْمَغْفِرَةَ:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ بَارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ، فَشَوْمِ الْمَعْصِيَةِ وَوِبَالِهَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِنَا.

﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ بِفَضْلِكَ وَعَفْوِكَ وَإِحْسَانِكَ.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الْهَالِكِينَ، فَلَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَفَضْلِهِ، وَمَنْ دُونَهَا يَكُونُ مُصِيرُهُ الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ.

وَغُفِرَ سُبْحَانَهُ لَهُمَا، وَعُفِيَ عَنْهُمَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي أَوْحَى لِأَدَمَ بِكَلِمَاتِ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّٰثَ عَلَيْهُ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وَمِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ بِالْإِنْسَانِ أَنَّهُ فَتَحَ لَهُ بَابَ التَّوْبَةِ مِنْذُ فَجَرِ وَجُودِهِ، فَإِذَا

نسي ثم تذكّر، وإذا عثر ثم نهض، وإذا غوى ثم تاب: وجد باب التوبة مفتوحاً له، ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته من بعده، كما تزعم أسطورة الخطيئة التي جعلتها الكنيسة النصرانية أساساً من أسس عقيدتها، فالخطيئة في زعمهم ظلت تلازم البشرية حتى تمثل الإله في صورة المسيح فُصِّل، واحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة، ومن ثمّ يكتب الغفران لكل نصراني يتّحد بالمسيح، بواسطة بعض الطقوس التي يجريها في الكنيسة أمام بعض رجال الدين.

إنّ الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير - كما قال سيد قطب رحمه الله - لقد نسي آدم وأخطأ، ولقد تاب واستغفر، ولقد قبل الله توبته وغفر له، وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى، ولم يبقَ منها إلا رصيد التجربة، الذي يُعين الجنس البشري في صراعه طويل المدى مع الشيطان، أي بساطة، وأي وضوح، وأي يسر في هذه العقيدة^(١)؟!

• الهبوط إلى الأرض والصراع:

انتهت بهذه النتيجة التجربة وما فيها من دروس وعبر، وأمر الله تعالى الإنسان أن يهبط إلى الأرض التي خُلِقَ ابتداءً منها ليستخلفه سبحانه فيها:

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وكرر أمر الهبوط في حقه ليبين أنه قرين الإنسان، وأنه ابتلي به في جميع أحواله. أو الخطاب لآدم وحواء، وخوطبا بصيغة الجمع لأنهما أصل العنصر البشري كله^(٢).

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فبين الإنسان والشيطانِ عداوةً وصراعاً منذ فجر وجوده، وبين الناس أيضاً صراع هو السبب الرئيس الأول لحركة تاريخ البشرية

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٧٤.

(٢) تفسير النسفي: ١/ ١٠٣.

بتقدير الله تعالى، ولولا هذا الصراع لكانت حياة الإنسان في الأرض ساكنة هامة، لا حِسَّ فيها ولا حركة.

إنَّ جميعَ أحداث التاريخ البشري نابعةٌ من هذا الصراع القائم على الأرض بين الخير والشر، فهو محركها وباعث نشاطها.

إنَّ تفسير القرآن الكريم لأحداث تاريخ البشرية، يلتقي مع ما ذكره فلاسفة التاريخ من علماء الغرب، عندما ردُّوا حركة التاريخ البشري إلى الصراع، ولكنه يخالفهم في حقيقة هذا الصراع وأبعاده ومداه، فهو ليس صراعاً بين الطبقات على الموارد المادية ووسائل الإنتاج كما زعم أنجلز وماركس، يؤدي في النهاية بزعمهم إلى الحتمية التاريخية، بانتصار طبقة العمال (البروليتارية).

لقد أظهر الواقع أنَّ هذه الحتمية التاريخية وهمٌ وسرابٌ، وقد انهارت الشيوعية في أكبر معاقلها، وتراجعت عن الكثير من مبادئها، وأعلنت فشلها وإفلاسها.

إنَّ الصراعَ الذي يحرك أحداث التاريخ هو الصراع بين الخير والشر، الخير المتمثل في دين الله تعالى وشرعه المنزل على الناس بواسطة الأنبياء والمرسلين، وبين الشر المتمثل بالشیطان وأوليائه من الجن والإنس كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة].

• الاستقرار في الأرض:

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موضع استقرار لحياتكم ومعاشكم. ﴿وَمَتْنٌ﴾ وانتفاع بما فيها من خيرات خلقت من أجلكم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

واستقرار الإنسان في الأرض غير دائم، فهو مؤقَّت بوقت محدود، لا يزيد ولا ينقص، قدره الخالق العليم الحكيم، ولهذا قال:

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى انتهاء الوقت الذي قدره سبحانه لكم .
 فللأرض اتصال كبير بالإنسان، فمنها خُلِقَ، وفيها يعيش ويموت، وهي
 مركز صراعاته ونشاطاته الحضارية وسائر ممارساته كما قدره سبحانه:

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٥)

ذلك هو حكم الله تعالى وقدره، ولا خيار للإنسان فيه ولا حرية،
 فالأرض هي أمه ووطنه، يستطيع الإنسان أن يرتادَ النجومَ، ويطوفَ بمركباته في
 الفضاء الواسع الرحيب، ولكنه لن يجدَ مستقراً في غير الأرض، ولن يجدَ مكاناً
 فيه جميع أسباب حياته ومعاشه بين ملايين الكواكب والأجرام غير الأرض، كما
 قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وها هو الفضاء أمامكم، قربت بعضه لكم المناظيرُ الضخمة في المراصد
 العلمية، والمركبات الصاروخية، ابحثوا فيه عن وطن آخر للإنسان، وطوفوا بين
 أجرامه ومجراته: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [يونس: ١٠١]،
 واحجزوا منه ما تشاؤون، وتقاسموه كما تريدون^(١)، فلن تستطيعوا الاستقرار
 في غير الأرض.



(١) بدأت تظهر في بعض دول الغرب مؤسسات للمتاجرة بالأراضي في الكواكب
 والنجوم!

الْفَضْلُ الثَّالِثُ

النَّدَاءَاتُ الْإِلَهِيَّةُ الْأَرْبَعَةُ لِبَنِي آدَمَ
وَمَا فِيهَا مِنْ تَقْرِيرٍ وَتَحْذِيرٍ

﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ قَدْ اٰتٰوْنَا عَلٰیكَوْ لِيَّاسًا يُّوْرٰى سَوَءَ تَكْمُ وَرِيْثًا وَّلِيَّاسُ التَّقْوٰى ذٰلِكَ حٰثِرٌ ذٰلِكَ مِنْ اٰيٰتِ
 اَللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُوْنَ ﴿٣٦﴾ يَبْنِيْٓ اٰدَمَ لَا يَفْنٰنُكُمْ الشَّيْطٰنُ كَمَا اَخْرَجَ اٰبَوٰنَاكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا
 لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَءَ بُرْيَاهُمَا اِنَّهُمْ يَرٰنَكُمْ هُوَ وَقَبِيْلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاۤءَ
 لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٣٧﴾ وَاِذَا فَعَلُوْا فَحِشَةً قَالُوْا وَجَدْنَا عَلٰیهَا ءَاِبَاءَنَا وَاَللّٰهُ اَمَرَنَا بِهَا قُلْ اِنَّ اِلٰهَ لَا يَأْمُرُ
 بِالْفَحْشَآءِ اَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اَللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٣٨﴾ قُلْ اَمَرَ رَبِّيْ بِالْقِسْطِ وَاَقِيْمُوْا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ
 مَسْجِدٍ وَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُوْدُوْنَ ﴿٣٩﴾ فَرِيقًا هَدٰى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلٰلَةُ
 اِنَّهُمْ اٰخَذُوْا الشَّيْطٰنَ اَوْلِيَاۤءَ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ وَيَحْسَبُوْنَ اَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْنَ ﴿٤٠﴾ يَبْنِيْٓ اٰدَمَ خُذُوْا
 زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِيْنَةَ اَللّٰهِ
 الَّتِيْ اَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَاطْيَبَتِ مِنْ اَرْزَقٍ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 كَذٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴿٤٢﴾ قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْاِثْمَ
 وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَاَنْ تُشْرِكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطٰنًا وَاَنْ تَقُوْلُوْا عَلَى اَللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٤٣﴾ وَلِكُلِّ
 اُمَّةٍ اَجَلٌ فَاِذَا جَآءَ اَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُوْنَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُوْنَ ﴿٤٤﴾ يَبْنِيْٓ اٰدَمَ اِنَّمَا يٰتِيْنٰكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ
 يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ اٰيٰتِيْ فَمَنْ اَتَقٰى وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِآيٰتِنَا
 وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ﴿٤٦﴾ فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرٰى عَلَى اَللّٰهِ كَذِبًا اَوْ
 كَذَّبَ بِآيٰتِنَا اُولٰٓئِكَ يَنٰلُهُمْ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكِتٰبِ حَتّٰى اِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوْا اَيْنَ مَا
 كُنْتُمْ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْرِ اَللّٰهِ قَالُوْا ضَلُّوْا عَنَّا وَشَهِدُوْا عَلٰى اَنْفُسِهِمْ اَنَّهُمْ كٰفِرِيْنَ ﴿٤٧﴾ قَالَ اَدْخُلُوْا
 فِيْ اُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ اُمَّةٌ اٰخَرًا خَلَّتْ حَتّٰى اِذَا

أَدَارِكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَبُهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِذْ نُودُوا بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُوهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَحُونَ ﴿٥٣﴾

• يا بني آدم:

وبعد حديث الآيات عن مبدأ الوجود البشري على الأرض وسماته الكبرى؛ جاء دور النداءات والتعقيبات لتسليط الأضواء على دروسه وعبره من خلال أربعة نداءات بصيغة (يا بني آدم).

والحكمة من توجيه الخطاب إلى عامة الناس بهذه الصيغة واضحة، فالعهد قريبٌ بالحديث عن خلق آدم وتصويره وتكريمه، وعن حسد الشيطان له ومكره وإغوائه، مما أذى إلى إنزاله إلى حضيض المعصية، وتجريده من ثياب أهل الجنة، وظهور سوءته، ثم إعلان توبته، وقبولها بفضل الله تعالى ورحمته، وهبوطه إلى الأرض لتكون له مستقراً ومتاعاً إلى حين. فكل هذه الدروس والمواعظ ليست لآدم وحده، وإنما هي لجميع أبنائه، إنها للإنسان في كل زمان ومكان.

• اللباس والزينة:

﴿يَبْنَىْ ءَاَدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِىْ سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىْ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَاَيَاتِ اللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُوْنَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿يَبْنَىْ ءَاَدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أي: خلقنا لكم لباساً بأسباب نازلة من جهة السماء، بعضها نراه كالمطر، وبعضها لا نراه.

وقد توصلت الكشوفات العلمية إلى الإحساس بوجود هذه الأسباب اللامرئية بوساطة الأجهزة الدقيقة الحساسة، والتي عرفوا بوساطتها أنّ الأرض تستقبل في كلّ لحظة أنواعاً كثيرة من الأشعة حتى قال بعضهم: إنّ التربة التي يزرعها الفلاح في هذه السنة تختلف عن التربة التي كان زرعها في السنوات الماضية.

وقد يكون معنى ﴿اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أعطيناكم ووهبنا لكم، وكلّ ما أنعم الله به على الإنسان فقد أنزله عليه من غير أن يكون هناك علو وسفل، بل هو جارٍ

مجرى التعظيم، كما تقول: رفعت حاجتي إلى الأمير، وليس هناك نقل من سفل إلى علو^(١).

﴿يُؤَرِّى سَوَاءً بَيْنَكُمْ﴾ أي: يستر عوراتكم، التي أراد إبليس إظهارها من أبويكم، وقد نجح في تحقيق مراده، كما مر معنا، حتى طفقا يخفضان عليهما من ورق الجنة.

وقد ذكرت أنه ثمة ارتباط بين ستر العورة وكرامة الإنسان، وأن كشفها تجريد للإنسان عن كرامته، فمن فضل الله على الإنسان الذي حُرِمَ من ثياب الجنة، وأهبط إلى الأرض، أن أنعم عليه وهو في الأرض بنعمة اللباس الذي يستر بها عورته، ويحفظ له كرامته ومروءته.

﴿وَرِيثًا﴾ أي: وأنزلنا أيضاً عليكم ريشاً، والريش للطائر معروف، وهو لباسه وزينته، فاستُعير للإنسان لأنه لباسه وزينته.

والمعنى: وأنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سوءاتكم، ولباساً لزينتكم، لأنَّ التزيين غرض صحيح^(٢)؛ بشرط أن تكون الزينة تناسب حال المتزين، فللرجال زينة تناسب رجولتهم، وللنساء زينة تناسب أنوثتهن، وبشرط آخر أيضاً: وهو عدم الغلو والإسراف، كما سيأتي معنا.

• جمال الظاهر والباطن:

ثم انتقلت الآيات من الحديث عن لباس الأجساد إلى الحديث عن لباس الضمائر والقلوب:

﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى﴾ الذي يستر عورات النفس، وخصالها المذمومة.

فالعورات تُستَرُ بلباسين: حسي: وهو الثياب التي تستر سوءات البدن، ومعنوي: وهو التقوى التي تستر سوءات القلوب، وآفات النفوس كالكبَرِ

(١) روح المعاني: ١٠٣/٨.

(٢) تفسير الخازن: ٥٣٧/٢.

والعُجبِ والحقد والحسد والرياء وحب الظهور... إلخ؛ ولا علاج لكل هذه الآفات إلا بتقوى الله تعالى ومراقبته.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: ذلك اللباس الذي هو التقوى خيرٌ من لبس الثياب.

فلو تجمل الإنسان بأحسن الملابس، وهو لا يتقي الله تعالى، كان كله سوءاً. ولو كان متقياً وليس له إلا خُرَيْقة تواري عورته، كان في غاية الجمال والستر والكمال، المهمُّ جمال الباطن، والأفضل أن يجمع الإنسان بين جمالِ الباطن والظاهر، ولعلَّ النبي ﷺ نبه إلى أهمية جمال الباطن في قوله الكريم: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحت صلحَ الجسدِ كله، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كله، ألا وهى القلبُ» [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)].

فمن اتقى الله كان به مؤمناً، ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخيرية عليه، فحسن سمته وسلوكه، واستقامت أخلاقه، ورُئيت عليه بهجة الإيمان ونوره، «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح».

﴿ذَلِكَ﴾ إنزال اللباس.

﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: من الدلائل التي تدلُّ على وجود الله تعالى وجُوده وإحسانه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ولا يظهرون سوءاتهم، فيعرضون بذلك عن تكريم الله تعالى لهم. ومع الأسف فإنَّ كثيراً من بني آدم في هذا العصر لا يتذكرون نعمة الله عليهم باللباس والزينة.

• الكاسيات العاريات:

وبعد بيان أهمية اللباس وستر العورة، وعلاقته بزينة الإنسان وكرامته، جاء النداء الثاني لبني آدم يحذّرهم من مكر الشيطان وكيدهِ وفتنته:

﴿يَنْبَىٰ آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۚ إِنَّهُ يَرْسُكُم هُوَ وَفِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا رُوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿يَنْبَىٰ آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يوقعنكم الشيطان بالفتنة، ويبعدكم عن طريق الجنة.

﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ أي: كما تسبَّب بإخراج أبويكم من الجنة.

﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ الذي كان يسترهما في الجنة.

وصيغة المضارع (ينزع) تدلُّ على استمرار الشيطان على تعرية الإنسان وإظهار عورته، أو لكون أثر النزاع - وهو الحرمان من لباس الجنة - لا يزال مستمرّاً، فقد خرج آدم وزوجته من الجنة عاريين.

﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي: ليرى كلُّ واحد سوء الآخر.

فهدف الشيطان إظهار سوء الإنسان وعورته لأبناء جنسه، فيكون سبباً لإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش والزنى.

وهذا ما تسعى إليه دُور الأزياء ومصممو الملابس، إنهم يستهدفون أول كلِّ شيءٍ إظهار المفاتن، وإبراز العورات، بشكل يثير الغرائز، ويفجر الشهوات، حتى أصبح الناسُ في كثير من الحالات لا يستطيعون التمييز بين الكاسيات والعاريات، تماماً كما جاء في الحديث الشريف: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقر يضربون بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهنَّ كأسنمةِ البُحْبُ المائلة، لا يَدْخُلْنَ الجنةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مسيرةِ كذا وكذا» [رواه مسلم (١٦٨٠)]. «البخت»: نوع من الإبل.

وقد أصبح لهذا الدور شأنٌ كبير في المجتمعات الإسلامية، واحتلت مواقع الصدارة في معظم المجلات والصحف، مع أنَّ هدفها الأساس هو إظهار

العورات وإشاعة الفاحشة بين المسلمين، وإبعادهم عن دينهم، واستنزاف أموالهم.

• من صور الجاهلية قديماً وحديثاً:

قال سيد قطب رحمه الله: «إنَّ بيوتَ الأزياء ومصمميها، وأساتذة التجميل ودكاكينها، لهي الأربابُ التي تكمن وراءَ هذا الخبل الذي لا تفيقُ منه نساءُ الجاهلية الحاضرة، ولا رجالها كذلك، إنَّ هذه الأرباب تصدُرُ أوامرَها، فتطيعها القطعانُ والبهائمُ العاريةُ في أرجاء الأرض طاعةً مزريةً، وسواء كان الزي الجديدُ يناسبُ قوامَ المرأة أو لا يناسبه، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح، فهي تطيعُ صاغرةً، تطيعُ تلك الأرباب، وإلا عُيِّرَت من بقية البهائم المغلوبة على أمرها»^(١).

ومما يزيد في خطورة مكر الشيطان:

﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَفِيْلُهُ﴾ أي: هو وذريته.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا نَرُوهُمْ﴾ فهو يأتيكم من حيث لا تشعرون، لأنه محجوب عن أبصاركم، فعليكم شدة الحذر والوقاية منه، والانتباه لكيده.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فسلطان الشياطين على الكافرين أقوى، وتسلُّطهم عليهم أشد، بسبب ما بينهم وبين الشياطين من التناسب والميل إلى الشرور والآثام.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ الصحيحَ حصنٌ للمؤمن من كيد الشيطان وفتنته، فالكفار يستحسنون الفواحش، ويستحلون الفجور:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ أي: فعلاً قبيحاً متناهياً في القبح، ونهوا عنه:

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٨٤.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فالقوم أدمنوا على الفواحش وألفوها، فإذا ما نهوا عنها احتجوا لها بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله تعالى.

وكان العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت الحرام في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش، وهم الحُمس، يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسيّ ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسيّ ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على موضع العفة شيئاً ليستره بعض الستر.

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة في الليل، لأن الليل ستر، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر الله وشرعه، فأنكر الله عليهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

فقال تعالى ردّاً عليهم:

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة، والله لا يأمر بمثل ذلك^(١).

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو إنكار وتوبيخ، لأنهم نسبوا إلى الله تعالى أقوالاً لا علم لهم بها، ويتنزه سبحانه عنها.

• الوسطية والاعتدال:

فهو سبحانه لا يأمر إلا بما يصلح العباد والبلاد:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩).

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو الوسط في كل شيء، المتجافي

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٣/٢.

عن طرفي الإفراط والتفريط^(١).

فالشريعة الإسلامية قائمة على التوازن والتوسط بين متطلّبات الروح والجسد لدى الإنسان، وكل خلل يحدث في هذا التوازن، نتيجة سوء الفهم أو الجهل، يؤدّي إلى اضطراب في حياة الإنسان وسلوكه، وفساد في بنية المجتمع، وتآكل في حضارته.

فالصلاة التي هي أهمّ العبادات في الإسلام لها وقتٌ محدّد تؤدّى فيه، فإذا ما حان وقتها فعلى المسلم أن يؤدّيها على وجهها الصحيح المستقيم في أيّ مكان كان، سواء كان في المسجد أو خارجه:

﴿وَأَقِمُّوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: توجّهوا إلى عبادته سبحانه، مستقيمين على أمره، فهي تؤدّى في أي مكان، فالأرض في الإسلام كلّها مسجد، قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنَصِرْتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ» [رواه مسلم (٥٢١)].

يجب أن تكون العبادة لله تعالى وحده:

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. ومما يساعد الإنسان على ذلك، ويجعله مخلصاً لله وحده في عبادته، أن يتذكر مسؤوليته يوم القيامة أمام ربّه جلّ وعلا:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: كما أنشأكم من العدم يعيدكم يوم القيامة إلى حكمه وأمره سبحانه، ويبعثكم فريقين كما كنتم في الدنيا، فمن مات على الإيمان يبعث مع المؤمنين، ومن مات على الكفر يبعث مع الكافرين.

وفي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» [رواه مسلم (٢٨٧٨)].

(١) تفسير البضاوي: ٥٤١/٢.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٠).

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم أهل الإيمان والطاعة، الذين وفّقهم سبحانه إلى الإيمان والالتزام بأحكام الإسلام.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: أوجب عليهم الضلالة، والسبب:

﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أعرضوا عن دين الله وشرعه، واتبعوا ما شرعت لهم شياطين الإنس والجن، مخالفين أمره جلّ وعلا الذي جاء في أوائل السورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: وهم يظنون أنفسهم على هدايةٍ وحق.

وفيه دليلٌ على أنَّ الكافر الذي يظنُّ أنه في دينه على الحق، والجاحد المعاند في الكفر سواء^(١)؛ لأن الأول لم يستعمل عقله ومواهبه استعمالاً صحيحاً كاملاً كما سيأتي معنا في آخر السورة عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩).

• تحريم الإسراف:

وتأكيداً للوسطية والاعتدال التي تتميز بها الشريعة الإسلامية، انتقلت الآيات من الحديث عن شأن الإنسان في الصلاة والعبادة، إلى الحديث عن شأنه في المطالب الدنيوية والجسدية، من خلال النداء الثالث الموجه إلى بني آدم:

(١) تفسير الخازن: ٥٤٢/٢.

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ (٣١).

﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوْا زِيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: تزيّنوا بما أباح الله لكم من اللباس والرياش، عندما تجتمعون للعبادة، وخصّ التزيين عند العبادة بالذكر لأن العرب كانوا - كما مرّ معنا - يطوفون بالبيت عراة.

ودلّت الآية على أنّ ستر العورة زينة للإنسان، بل هو أعظم زينة له، فمهما استعمل الإنسان من وسائل الزينة، فإنّه يبدو قبيحاً إذا كان مكشوف العورة بادي السوء.

﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا﴾ مما أحلّ الله لكم من الطعام والشراب، فالإسلام دين الحياة، أمر الإنسان أن يستجيب لكلّ مطالب جسده المادية، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهٗ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

بشرط الاعتدال والتوسط، وعدم الإسراف والتقتير، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَا تُسْرِفُوْا﴾ في التزيين والأكل والشرب وغير ذلك من المباحات.

والإسراف: مجاوزة حدّ الاعتدال المشروع، والنهي عن الإسراف نهى عن ترك الحدود المشروعة، ولهذا قال كثير من المفسرين: ﴿وَلَا تُسْرِفُوْا﴾ بتحريم الحلال أو بالتعدي إلى الحرام^(١)، أولاً تتجاوزوا حدود الاعتدال في الزينة والطعام والشراب، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال رسول الله ﷺ: «كُلُوا واشربوا، والبسوا وتصدّقوا، من غير مَخِيلَةٍ، ولا سَرَفٍ، فإنَّ الله يُحِبُّ أن يرى نعمته على عبده» [رواه البخاري تعليقاً (١٠/٥٢) وأحمد (٢/١٨٢) والنسائي (٥/٧٩) وابن ماجه (٣٦٠٥)].

(١) انظر: تفسير البضاوي: ٥٤٣/٢؛ وروح المعاني: ١١٠/٨.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم ولا يرضى عنهم . وهو تهديد شديد للمسرفين .

• الأصل في الأشياء الإباحة:

ودلت الآية على أن جميع الأطعمة والمشروبات حلال، إلا ما خصّه الشرع بدليل في التحريم، لأن الأصل في جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع، وثبت تحريمه^(١).

ولهذا أنكر سبحانه على الذين يحرمون بعض الأشياء من عند أنفسهم، ولا دليل لهم يدل على تحريمها، فقال:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب والرياش وكل ما يتجمل به .
 ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: التي أخرجها سبحانه من الأرض من أجل عباده .
 ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ والمستلذات التي لا ضرر فيها من المأكّل والمشارب!؟ .

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: خلقها الله سبحانه في الدنيا للمؤمنين، لكي يستعينوا بها على عمارة الأرض بعبادته وطاعته، ولهذا يقيم الله الساعة عندما لا يبقى في الأرض أحد يعبدّه، وهي الحكمة التي خلق الخلق لها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿[الذاريات]﴾ .

﴿خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم، لأنه سبحانه حرّمها يوم القيامة على الكافرين الذين جحدوا فضل الله عليهم واستعملوا نعمه في الدنيا في غير

(١) تفسير الخازن: ٥٤٣/٢ .

طاعته، كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

فهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة، وخالصة أيضاً عن الهم والتعب والكدر كما هو الحال في الدنيا، تأتيهم أرزاقهم في الجنة وكل ما تشتهيهم أنفسهم من غير تعب وعناء، كما ذكرنا سابقاً.

﴿كَذَٰلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ وما فيها من أحكام تنظم حياة الإنسان الدينية والدنيوية، وتظهر السمة البارزة للشريعة الإسلامية، وهي الوسطية والاعتدال، وتلاؤمها مع حياة الإنسان، وشمولها لجميع جوانبها.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق ويعملون بها، فلا خير في علم لا عمل به. وإن سوء فهم كثير من المسلمين لحقيقة الإسلام وجهلهم بأحكام شريعته، من أعظم الأسباب التي أدت إلى ضعف الحضارة الإسلامية وتأكلها وانحسارها.

• المحرمات:

وفي مقابل الإباحة الأصلية، التي قررتها الآيات، انتقلت إلى بيان المحرمات على وجه الإجمال:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [٣٣].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: سرها وجهرها.

﴿وَالْإِثْمَ﴾ أي: وحرّم كل ما يوجب الإثم.

وهو تعميم بعد تخصيص، لأنّ الفواحش وإن كانت في اللغة اسماً لكل ما تفاحش من قول أو فعل، لكنه أصبح في العرف مخصوصاً بالزنى واللواط، ولعل سببه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:

[٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] وستأتي معنا.

وقيل: الفواحش: الكبائر؛ والإثم: الصغائر؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: إنما حرّم ربي الكبائر والصغائر^(١).

﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: وحرّم البغي بغير الحق، وهو الظلم والكبر، والاستطالة على الناس، ومجاوزة الحدّ بلا حق.

﴿وَأَن تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: وحرّم الشرك الذي ما أنزل الله فيه حجة ولا برهاناً، كما هو في الحقيقة والواقع، فلا حجة للشرك ولا برهاناً.

ووصفه سبحانه بذلك تهكماً بالمشرّكين، وتنبهاً إلى أن أصول العقيدة يجب بناؤها على الحجج والبراهين القطعية، ولا يجوز بناؤها على الظنّ والتقليد.

﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وحرّم الافتراء عليه سبحانه، وذلك بأن يصفوه بصفات لا تليق بكماله وجلاله ﷻ.

أو: حرّم أن تنسبوا إليه سبحانه تحريم أشياء لا علم لكم بتحريمها.

تلك أهم المحرّمات القطعية في دين الله تعالى، فكيف كذبوا على الله عندما استحلوا الفواحش كما مرّ معنا في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

• سنن إلهية ونواميس علوية:

ظهر لنا من خلال النداءات الإلهية الماضية لبني آدم أسباب كثيرة تؤدي إلى هلاك الأمم وسقوط الحضارات؛ منها: اختلال التوازن في سلوك الأفراد والجماعات بين مطالب الإنسان الجسدية والروحية.

فالإنهماك في اتباع الشهوات، وإرواء الغرائز الجسدية، والإسراف في المطاعم والمشارب والزخارف والزينة، وشيوع الرّزنى والعري، وكشف العورات

(١) انظر: تفسير الخازن: ٥٤٥/٢.

استجابة لوساوس الشيطان، كلُّ ذلك سيؤدي إلى انحلال الأخلاق وانهايار المجتمعات.

كما أنَّ الغلو في العبادات والمتطلبات الروحية، والانصراف الكامل إليها، وإهمال متطلبات الحياة الدنيوية، يؤدي أيضاً إلى تعطيل طاقات الإنسان عن عمارة الأرض واستثمارها وتحقيق معنى استخلافه فيها، بما يفرضه على نفسه من رهبانية وعُزلة، فيتوقف النمو، وتتآكل الحضارة وتضعف، ثم تنهار.

ومع ذلك؛ فإنَّ مسيرة الحياة الإنسانية على الأرض غير خاضعة لوتيرة واحدة، وغير ملتزمة بطريقة معيَّنة، بل نراها في اضطراب دائم، وتذبذب مستمر، والخط البياني للمسيرة البشرية يرتفعُ تارةً وينخفضُ تارةً أخرى، ويسرع ويتباطأ، وذلك بسبب ارتباط حركة التاريخ البشري بالصراع القائم بين الخير والشر، بين الرسائل الإلهية والشرائع السماوية، وبين الشيطان وأتباعه وأنصاره.

ومن خلال هذا الصراع الذي قدره العليم الحكيم يتشكَّل تاريخ الوجود البشري على الأرض، ويمارس الإنسان حرَّيته واختياره، يعلو أو يهبط، يعمر أو يخرب، يستقيم أو ينحرف.

ومن وراء كلِّ ذلك نواميس علوية وسنن إلهية لا تتبدل ولا تتغير، لأنها بمشيئته سبحانه وحكمته وعلمه، وقد ذكرها سبحانه في آيات كثيرة؛ منها:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ومنها: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

ومنها ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٧].

ولهذا قال تعالى هنا يبيِّن أن هلاك الأمم وسقوط الحضارات وإن كان مرتبطاً بأسباب تتصلُّ بحرية الإنسان واختياره، فإنَّه لن يخرج عن النواميس الإلهية الثابتة، التي جعلها ﷻ بمثابة الكواكب والضوابط لمسيرة تاريخ البشرية:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْقَدُونَ﴾ (٣٤).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ قدّره سبحانه بسابق علمه ومشيتته، أجلٌ في التمكن والظهور والارتفاع في سُلّم العمران والتحضر، وأجلٌ أيضاً للتراجع والانحيار والهلاك، فالتاريخ دُول، كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ودوام الحال من المحال، وكلّ شيء في هذه الدنيا مصيره إلى الزوال والانتهاء: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ المقدّر لهم.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ أي: قطعة من الزمان قليلة.

﴿وَلَا يَسْقَدُونَ﴾ فالآجال المقدّرة في علم الله ومشيتته، لا يستطيع فردٌ أو أمةٌ أن يغيّرها، عجزت همم الرجال عن خرق أسوار الأقدار.

• المسؤولية والجزاء:

وجاء النداء العلوي الرابع لبني آدم، يبيّن لهم مسؤوليتهم وتشريفهم بالتكليف، وما يترتب على ذلك من حساب وجزاء:

﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥).

﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: إن أتاكم رسل اختارهم الله تعالى منكم.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ أي: يعرضون عليكم أحكامي وشريعتي، ويخبرونكم بها، ويبينونها لكم بالتتابع، فالتعبير بـ (يقصّون) يفيد معنى التتبع والتتابع، فالرسل يتبع بعضهم بعضاً دون اختلاف بينهم في أصول رسالاتهم وشرائعهم.

والإتيان بـ (إن) الشرطية، وضم (ما) إليها، لتأكيد معنى الشرط، دلّ على أن إرسال الرسل أمر جائز عليه سبحانه لا واجب^(١)، فهو من رحمته سبحانه وفضله.

﴿فَمَنْ أَنْفَى﴾ الكفر والشرك.

﴿وَأَصْلَح﴾ العمل في طاعة الله وعبادته.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب الله تعالى.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما يفوتهم من الدنيا وزينتها عندما يموتون.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦).

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على المرسلين.

﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾: أي أعرضوا عنها تكبراً وعناداً.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَفْلِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُثَبِّتُ لَهُمْ قَوْلَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله

تعالى، فزعم أن هذا حرّمه الله سبحانه، أو ادّعى أنه يوحى إليه، وهو في الحقيقة كذاب دجال.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فأعرض عن دعوة رسله.

إنهما أمران متساويان بالكفر والقيح: الافتراء على الله تعالى، وتكذيب رسله، يجمعهما مصير واحد:

﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكَفْلِ﴾ أي: أولئك الكاذبون والمكذبون يأتهم

في حياتهم الدنيا ما كتب لهم من أرزاق وأموال، فكفرهم لا يمنع عنهم ما قَدَّرَ الله لهم من أرزاق الدنيا، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولما سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يرزق المؤمنين من أهل البلد الحرام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال له سبحانه: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

• الحكم والتنفيذ:

فتمتّعهم برزق الله سبحانه يمتدُّ إلى نهاية أعمارهم، وحينئذ ينقطع رزقهم، وينتهي تمتّعهم:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه.

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم.

﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أين أولياؤكم الذين أطعتموهم، وعصيتم من أجلهم الله تعالى؟! وهو سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استعلام.

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا عنا.

غابوا عنهم وهم في أشدَّ الحاجة إليهم.

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ وبهذه الشهادة يكونون هم الذين حكموا على أنفسهم باستحقاق العذاب والخلود في النار.

وينفذ الله تعالى الحكم عليهم يوم القيامة:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولِنَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ أي: مضت وعاشت قبلكم من كفار الجن والإنس.

وهذا يدلُّ على أنَّ الكفار يساقون إلى النار أمماً وجماعات، بعد أن يحشر كلُّ إنسان مع أمثاله في الكفر والفجور، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١].

ويساق إلى النار أولاً جماعات الزعماء ورؤوس الكفر والضلال، ثم يليهم أتباعهم على حسب دركاتهم في الكفر والفجور، قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وفي النار يستقبلُ بعضهم بعضاً باللعن والشتم بدلاً من التحية والسلام: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ في الكفر والفجور، كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

● سقوط الأقنعة:

فعلاقات المودة والصحبة التي أساسها الكفر، تنقطع يوم القيامة، وتتحول إلى عداوة وبغضاء، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧].

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا يركب بعضهم بعضاً من شدة الزحام، وهو ما يشير إليه الإدغام في (أذاركوا)^(١)؛ فالنار تمتلئ بهم كما أخبر سبحانه فيما سبق: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

ويضيّقها سبحانه عليهم زيادةً في عذابهم: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

وترتفع حرارة اللقاء فيما بينهم في جهنم:
﴿قَالَتْ أَذْنَبْتُهُمْ﴾ أي: الجماعات التي تأخر دخولها في النار، وهم العامة والأتباع.

﴿لَأُولَئِهِمْ﴾ الذين سبقوهم إلى النار، وهم زعماء الكفر ورؤساء الضلال:
﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي: كانوا سبب إضلالنا.
﴿فَعَذَابُكُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: عذاباً مضاعفاً، لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿قَالَ﴾ الحق سبحانه:
﴿لِكُلِّ﴾ من الأتباع والمتبوعين.
﴿ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما أعد لكل فريق من العذاب.

أما المضاعفة للزعماء والقادة فلضلالهم وإضلالهم، وأما المضاعفة للأتباع فلضلالهم، وتقليدهم الأعمى، بسبب غلبة أهوائهم وشهواتهم عليهم، فقد دأب زعماء الكفر والضلال - لكي يثبتوا زعاماتهم - على نشر الفساد والفواحش في مجتمعاتهم، ولهذا نرى أسواق الفساد رائجة في المجتمعات التي يحكمها الطغاة والمستبدون: الفواحش، وبيع الذمم، والخيانة، والمتاجرة بالرتب والمراتب، وغيرها من أنواع الفساد، فما سار الأتباع وراء زعمائهم إلا من أجل مصالحهم وشهواتهم.

ولهذا يردُّ عليهم الزعماء والقادة يذكرونهم بالحقيقة:

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجْتَهُم مَّا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجْتَهُم مَّا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لأنكم سرتهم وراءنا بإرادتكم واختياركم من أجل شهواتكم ومصالحكم.
﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بإرادتكم واختياركم لا بسبب اتباعكم لنا.

إنها لمواجهة كبيرة، ومصارحة تامة في جهنم، حيث تسقط جميع أقنعة النفاق والتزوير والتزييف: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤].

أظهر الحكيم العليم من خلالها الداء العضال الذي ينخر في جسم كثير من المجتمعات البشرية، ممتدًا من رأسها إلى قواعدها، حتى يهلكها ويدمرها، إنَّه داء المداينة والنفاق المستشري في المجتمعات التي يحكمها الطغاة والمستبدون، وواجب الشعوب والأمم في مثل هذه المجتمعات ألا يركنوا إلى الظالمين، وألا يكونوا من أعوانهم والملتقيين حول موائدهم، فإن ذلك يزيدهم طغياناً وفساداً، ويعرّض أتباعهم للمسؤولية الكبرى يوم القيامة: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومن الداء الذي علّمه سبحانه للأنبياء والصالحين ليدعوه به: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٥) وَتَجْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس].

• حسرة ويأس:

ومع الحسرة التي تملأ صدورهم، أيئسهم سبحانه من رحمته، وقَدَّر عليهم الحرمان الكامل من أي سبب من الأسباب التي تخفف عنهم العذاب، فهم محرومون حتّى من لحظة أمل، يتصوّرون فيها من مخيلتهم أنهم سيكونون من الناجين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لا يستجاب لهم، ولا تنزل عليهم رحمة أو بركة، فهم محرومون حرماناً كاملاً من أي سبب من أسباب النجاة.

أو: لا تفتَحُ لأرواحهم أبواب السماء عند موتهم، ويؤيده ما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «وإن العبد الكافر إذا كان

في انقطاع من الدنيا، وإقبالٍ إلى الآخرة، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوَّدُ
الْوُجُوهِ، معهم المسوحُ، فيجلسون منه مدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموتِ حتى
يجلسَ عند رأسِهِ، فيقولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سُخْطٍ مِنَ اللَّهِ
وِغْضَبٍ، فتفرق في جسده، فيتنزعُها كما يُتَنَزَّعُ السَّقُودُ^(١) من الصوفِ المبلولِ،
فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفَةً عَيْنٍ، حتى يجعلوها في تلك
المسوحِ، ويخرجُ منها كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فيصعدونَ
بها، فلا يمرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟
فيقولونَ: فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ
بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ فَلَا يَفْتَحُ لَهُ» ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفْنَحْ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [مسند الإمام أحمد (٤/٢٨٧)].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: في ثقب الإبرة،
والمعنى: لا يدخلون الجنة أبداً، إذ علّق دخولهم الجنة على أمرٍ مستحيل
الوقوع، والعرب كانوا يضربون المثل في عَظَمِ الخَلْقَةِ وضيقِ المسلك بالجمال
وثقب الإبرة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ وبمثل هذا الجزاء الدائم الذي لا ينقطع ولا أمل في انتهائه.

﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين عَظُمَتْ ذُنُوبُهُمْ وجرائمهم.

ولا يخفى التناسب بين ضخامة جِرمِ الجمل، وضخامة ذنوب المجرمين.

وكما يأتيهم العذاب من داخل نفوسهم التي أحرقها الندم وسحقها

اليأس، يطوقهم عذاب النار من كلِّ مكان:

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٤١).

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: لهم فراش تحتهم من نار جهنم.

(١) قضيب من الحديد ذو أشواك.

﴿وَمِنْ قَوْفِهِمْ غَوَاشٍ﴾ ولهم أغطية من نار من فوقهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ﴾ [الزمر: ١٦].

فالقوم بين نارين: نارِ الندم والحسرة في صدورهم، ونارِ جهنم التي تشوي جلودهم.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر، ولغيرهم بالطغيان والعدوان.

• تقرير وترغيب:

وفي مقابل الحديث عن عذاب الكافرين، توجَّهت الآيات للحديث عن مصير المؤمنين الصالحين، الذين يصلحون ولا يفسدون، ويعدلون ولا يظلمون، ويبدلون ما في وسعهم لعمارة الأرض لطاعة الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢).

بهذا الأسلوب المعجز أبرز سبحانه السمة الكبرى التي تتميز بها الشريعة الإسلامية، فهي شريعةٌ سمحةٌ ميسرةٌ، لا حرج فيها ولا عُسر، تتفق مع فطرة الإنسان، وتلائم إمكاناته وقدراته، ففي أثناء الحديث عن ثواب المؤمنين الصالحين، أخبر سبحانه عن سماحة الشريعة الإسلامية وسهولة تكاليفها بجملته معترضة بين المبتدأ وخبره، بصيغة الفعل: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: ما كلف الله تعالى نفساً إلا ما يمكنها القيام به بسهولة ويسر، فطريق الجنة إذن سهل وميسر، وبهذا جمع سبحانه بهذا الأسلوب بين التقرير والترغيب، مع المعنى الأساس الذي سيقَّت الآية لبيانه، وهو الحديث عن مصير المؤمنين الصالحين يوم القيامة.

ثم تحدَّثت الآيات عن العلاقة بين أهل الجنة، فهي على النقيض تماماً مما هي عليه بين أهل النار، فلا خصامَ بين أهل الجنة، ولا تحاسد،

ولا تباغض، لأنه سبحانه هذب نفوسهم وكمّلها وجملّها قبل أن يكرمهم بدخول الجنة:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تَتَكَّبُوا الْجَنَّةَ أَوْ رُتِّمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حقد تعلق فيها بمقتضى ما كان بينهم في الدنيا من خلاف وخصام، فلا يبقى فيها إلا المودة والمحبة. وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُخَبَّسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَّظَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» [رواه البخاري (٦٥٣٥)].

﴿تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فمنازلهم عالية مشرفة على أنهار الجنة. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: الحمد لله الذي أَرشدنا، وبيّن لنا طريق الهداية، ووقفنا للسير عليه حتى وصلنا إلى هذا النعيم العظيم. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فالطرق كثيرة، والمزالق خطيرة، فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً. فالقوم في غاية الخضوع والتواضع لله تعالى، لا يرون لأنفسهم أي فضل، ولا لعلمهم أي قيمة بجانب فضله سبحانه وتوفيقه. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوعد الصادق، وهو دخول الجنة لمن يؤمن بالله تعالى ويدعن لدينه وشرعه.

ولمّا تواضع القوم لله تعالى، وأقروا بفضله سبحانه عليهم، ولم يروا لأنفسهم وأعمالهم أي فضل، أكرمهم جلّ وعلا ببناء فيه تنويه بأعمالهم الصالحة:

﴿وَوُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم الصالحة شملتكم الرحمة وأدخلتكم الجنة.

وهكذا عاد بنو آدم الذين أطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان: إلى الجنة التي أخرجهم الشيطان منها، وهم في صُلب أبيهم آدم. أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم بفضلهم وكرمه.

• يوم الأذان:

ويبدو أَنَّ الغِلَّ الذي ينزعه الله من صدور أهل الجنة، هو ما كان بينهم فقط، أمَّا غِلُّهم على أهل النار فيبقى، ففي بقائه زيادة سعادة أهل الجنة ونعيمهم، فكلُّما أرادوا التشفي من أعدائهم وهم يُعَذَّبُونَ في النار، أمكنهم ذلك، وأقدرهم سبحانه عليه، حتى إنهم ينادونهم ويكلِّمونهم:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤)

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ من كانوا يعرفونهم في الدنيا، نادوا الذين عرفوهم وواجهوهم في ميادين الدعوة والجهاد، وفي ميادين الصبر والمصابرة، نادى الذين ألهبت سياط القهر والظلم أجسادهم، نادوا جلَّادِيهم:

﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾، وقالوا لهم على سبيل التوبيخ والتشفي:

﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ في كتابه ولسان رسله.

﴿حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟﴾

وهل يستطيع أهل النار أن يقولوا غير نعم؟!:

﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ أعادهم بعد الموت، وبعثهم من قبورهم، وحشرهم وسألهم، وحرَّمهم من الجنة، وأدخلهم النار، وكانوا في الدنيا ينكرون كلَّ هذه الحقائق المؤيَّدة بالبراهين القاطعة.

وانتهى الحوار بين أهل الجنة وأهل النار بنداء علوي، زاد أهل الجنة فرحاً وسروراً، وأهل النار كمداً وحسرة:

﴿فَإِنَّ مُؤَذِّنًا بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ لعنة خالدة باقية متجددة، لا تنتهي، كما أفادته (أن) الدالة على الابتداء.

يروى: أن طاوساً^(١) دخل على هشام بن عبد الملك، فقال له: اتق الله واحذر يوم الأذان، فقال: وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مُؤَذِّنًا بَيْنَهُمْ أَنَّ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فصعق هشام، فقال طاوس: هذا ذل الصفة، فكيف ذل المعاينة؟!^(٢).

والصدّ عن دين الله تعالى وشرعه أقبح جرائمهم:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون أنفسهم وغيرهم عن الدخول في دين الله تعالى والسير على الصراط المستقيم.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويريدون أن يسيروا على السبيل الأعوج المنحرف، يرفضون الاستقامة والصدق والأمانة والإيمان، ويميلون إلى الغش والمكر والخيانة.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفُورُونَ﴾ أي: وفوق ذلك ما كانوا يصدّقون بالحساب والمسؤولية في يوم القيامة، وهو من أعظم وسائل التهذيب والتربية والاستقامة.

• أصحاب الأعراف:

يتميّز يوم القيامة بكثرة النداءات فيه حتى سمّاه سبحانه يوم التناد، على لسان مؤمن آل فرعون عندما قال: ﴿وَيَقُولُ رَجُلٌ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر].

(١) من علماء التابعين.

(٢) تفسير القرطبي: ٢١٠/٧.

ومن هذه النداءات نداء أصحاب الأعراف، الذين سُميت السورة باسمهم، قال تعالى:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا سِمْيَهُمْ وَنَادَوُا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَئِنْ دَخَلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار حاجزٌ يفصل بينهما.

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي: وعلى أعالي هذا الحاجز رجال.

فالأعراف: جمع عرف، وهو ما ارتفع من الشيء، لأنه أشرف وأعرف مما ينخفض عنه، ومنه قيل: عُرف الديك، لارتفاعه على ما سواه من الجسد. ويبدو أنهم رجال صالحون من ذوي المعرفة والعلم والفضل، أو أنبياء؛ فكلمة (الأعراف) تدلُّ على علو مكانهم، والمعرفة تدلُّ على علو مكانتهم، وقد وصفهم الله تعالى في قوله:

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا سِمْيَهُمْ﴾:

وتفسيرُ الكلمة بأصل المعنى اللغوي لها، أولى ممَّا ذهب إليه أكثر المفسرين، بأن أصحاب الأعراف هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم. قال ابن جرير الطبري رحمته الله: «والصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال الله جلَّ ثناؤه فيهم: هم رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يصحُّ سنده»^(١).

وقوله سبحانه: ﴿سِمْيَهُمْ﴾ أي: بما يظهر على وجوههم من أثر الإيمان والطاعة، أو من أثر الكفر والفجور، وقد ذكر ﷺ في مواضع متعددة أن أهل الجنة يتميَّزون عن أهل النار يوم القيامة ببياض الوجوه ونضارتها وحسنها، منها قوله ﷺ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضَّتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران].

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ١٣٩/٨.

ومنها أيضاً قوله جلّ وعلا: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عس].

وجاء في أحاديث نبوية كثيرة: أن النبي ﷺ يتعرّف يوم القيامة على أمته بالغرّة والتّحجيل، وهما بياض وجوههم وأطرافهم من أثر الوضوء، ولما سُئِلَ رسول الله ﷺ: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: «أرأيت لو أنّ رجلاً له خيلٌ غرٌّ محجّلةٌ بين ظهريّ خيلٍ دُهمٌ بُهمٌ، ألا يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنهم يأتون غرّاً محجّلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض» [رواه مسلم (٢٤٩)].

وقوله سبحانه: ﴿سَيَمْنَهُمْ﴾ يدلُّ أيضاً على أنّ أصحاب الأعراف يميّزون بين أهل الجنة وأهل النار في أرض المحشر قبل دخولهم إلى الجنة والنار، فالمعرفة ﴿سَيَمْنَهُمْ﴾ لا بمكانهم، فإذا ما رأوا أصحاب الوجوه المستنيرة النضرة، سلّموا عليهم، وبشروهم بدخول الجنة.

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: أصحاب الأعراف.

﴿أَتَحَبَّ الْجَنَّةَ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: نادوهم مسلّمين عليهم قبل دخولهم إلى الجنة.

﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وهم يأملون ويرجون دخولها.

• نظرة في وجوه أهل النار:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: وعندما ينظرون إلى أصحاب النار.

وقوله: ﴿صُرِفَتْ﴾ يدلُّ على أنّ أصحاب الأعراف ما كانوا راغبين في النظر إلى وجوه المغضوب عليهم، لكي لا يتأذوا بمنظرهم المرعب، ولكنّ أبصارهم وقعت عليهم من دون قصد منهم، إذ قدّر سبحانه ذلك.

﴿قَالُوا﴾ أي: أصحاب الأعراف متعوذين بالله تعالى أن يكونوا منهم بسبب ما رأوا من سواد وجوهم وقُبِحَ منظرهم:

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقال السُّدِّيُّ^(١): «وإذا مروا بهم، بزمرة يُذهب بها إلى النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾»^(٢).

وعندما تقع أبصار أصحاب الأعراف على من عرفوا في الدنيا من زعماء الكفر والضلال، نادوهم موبِّخين لهم:

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ بصفاتهم التي كانت لهم في الدنيا، أو بالصفات التي ظهرت عليهم في الآخرة.

﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: ما نفعكم جمعكم في الدنيا للأموال والأعوان والخدم والحشم.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وما نفعكم أيضاً تكبركم وطغيانكم واستبدادكم وظلمكم.

وتابعوا لوم رؤوس الضلال وتقريعهم، وهم يشيرون إلى الذين كانوا في الدنيا مظلومين مهوَّرين مستضعفين، بسبب إيمانهم واستقامتهم:

﴿أَهْلُوَالَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٤٩).

﴿أَهْلُوَالَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي: كنتم في الدنيا تقسمون على أن هؤلاء المؤمنين الضعفاء، لن يرحمهم الله تعالى، ويفضلهم عليكم.

(١) من علماء التفسير، وهو السدي الكبير، معتمد في التفسير عند ابن كثير.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٣/٢.

لقد أعمى الكِبَرُ والغرور أبصاركم وبصائركم، حتى ظننتم أنكم أصحاب المكانة والتقدم في الدنيا وفي الآخرة أيضاً، إن كان هناك آخرة بحسب زعمكم، فقد كنتم تقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ الآية [الأحقاف: ١٤]، وتقولون أيضاً: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥].

انظروا إلى حُسن منظرهم وحالهم ومصيرهم، ها هم يقال لهم:

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

فالشأن في الآخرة يختلف عنه في الدنيا، التقدم في الآخرة بالإيمان والعمل الصالح، لا بالأموال ولا بالأولاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبا: ٣٧].

• نداء التذلل والاستجداء:

وأخيراً ذكرت لنا الآيات نداء أهل النار، فالقارئ الذي قرأ نداء أهل الجنة وأصحاب الأعراف لا بد أن تتشوّف نفسه لسماع نداء أهل النار، يدافعون فيه عن أنفسهم، ويعتذرون عمّا سلف منهم في الدنيا، ولكنّ نداءهم كان نداء تذلل واستجداء لأهل الجنة:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من طعام الجنة، فالقومُ يعدّون بالعطش والجوع، وليس لهم في جهنم شراب غير الحميم: ﴿وَسُئِلُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥]؛ وغير الزقوم والضريع: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ ① لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿[الغاشية].

ولا شك أن رؤيتهم لأهل الجنة - وما هم فيه من نعيم - تزيد في عطشهم وجوعهم، إنهم عبيد البطون، أتعبتهم بطونهم في الدنيا، وعذبتهم في الآخرة.

﴿قَالُوا﴾ أي: أصحاب الجنة:

﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١).

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي أنزله الله تعالى عليهم.

﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فلم ينظروا إليه نظرة التقدير والاحترام اللائقة به، بل استهزؤوا بدعائه، وأعرضوا عن رسله.

﴿وَوَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم الدنيا ببهارجها وزخارفها الزائفة، ومتاعها الزائل عن العمل للأخرة.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: يعاملهم سبحانه معاملة المنسيين المهملين المبعدين، لا أنه سبحانه ينسى: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (٥٢) [طه].

وقوله تعالى أتى على سبيل المقابلة كقوله: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَكَ آيَاتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٦].

أو أتى بمعنى: نتركهم في النار معذبين فلا يجيبُ الله تعالى دعاءهم، ولا يرحمهم، ولا يخفف عنهم، كما تركوا الإيمان بالله واليوم الآخر.

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: ونتركهم في العذاب بسبب جحودهم لآيات الله تعالى وإعراضهم عن دينه وشرعه.

• الكتاب المفضل والشريعة الكاملة:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿فَصَلَّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: بيّناً فيه الدلائل والأحكام والمواعظ وغير ذلك، مما علمنا حاجة الناس إلى بيانها وتفصيلها، فشريعتها كاملة.

أو فصلناه على علم بكل ما فيه، لا كيفما اتفق، حتى جاء بريئاً من كل خلل وقذح، معجزاً على مدى الدهر^(١): ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وجعلناه:

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقون بأنه كلام الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ.

فلماذا لم يبادروا إلى الإيمان به؟! وماذا ينتظرون!؟:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِيك سَوُّهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: هل ينتظرون إلا أن يقع ما فيه من عذاب وحساب؟ فلا استفهام ينكر عليهم إعراضهم عن رسالة القرآن الكريم.

والتأويل: ما يؤوّل إليه أمره وعاقبته، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «إن القرآن نزل حيث أنزل، ومنه آي قد مضى تأويلهنّ قبل أن ينزلن، ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آي قد وقع تأويلهنّ بعد النبي ﷺ ببسیر، ومنه آي يقع تأويلهنّ بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهنّ عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه آي يقع تأويلهنّ يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار» [رواه البيهقي في (السنن الكبرى)]^(٢).

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِيك سَوُّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: يقول الذين تركوه في الدنيا

(١) تفسير النيسابوري: ١٠٣/٨.

(٢) انظر: المختصر: ٥٥٧/١، تفسير الآية (١٠٥) من سورة المائدة.

قبل مجيء تأويله عندما يرون تأويله يوم القيامة، ويشاهدون النشرَ والحشرَ والحسابَ والجنة والنار:

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ الثابت الصادق الصحيح.

﴿فَهَلْ لَنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ في هذا اليوم، ويدفعوا عنا ما نحن فيه من العذاب.

﴿أَوْ تُرَدُّ﴾ إلى الدنيا.

﴿فَتَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الكفر والفجور، ولكن هيهات، هيهات، فلا تنفعهم شفاعة الشافعين، ولا عودة لهم إلى الدنيا، إنها أمانى باطلة، وأوهام كاذبة.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتضييع أعمارهم في الكفر والمعاصي.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغاب عنهم.

﴿مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ من الآلهة المزعومة التي عبدوها من دون الله تعالى.





الْفَضْلُ الرَّابِعُ

الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَاخْتِلَافُ الْأَسْغَدَادِ وَالْقَابِلِيَّةِ عِنْدَ النَّاسِ

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا فَقَالَ سُقْنَاهُ لِكُلِّ مَيِّتٍ
فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ
الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْجُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

• التدرُّج في الخلق:

والله ﷻ الذي أنزل الكتابَ المفصَّلَ والشرِعةَ الكاملةَ، هو وحده الذي
يجبُ أن يُطاعَ ويُعبَدَ، فالحاكميةُ والتشريعُ له وحده، لأنَّه هو الخالق
والمالك والمدير.

ولقد جاءت الكشوفاتُ العلميةُ الحديثةُ تؤكدُ أنَّ الكونَ حادثٌ غير قديم،
وأنَّه خاضعٌ لنواميسٍ وسننٍ تدلُّ على أنَّ له خالقاً مدبراً، يضبطُ حركته،
ويدبرُ أمره:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: إِنَّ مالكمم وخالقكم هو
الذي خلق السماوات والأرض، فخالق الكون والإنسان واحد.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الله تعالى التي لا يعلم مداها إلا هو سبحانه،
لا من أيامنا الأرضية، فالمراد من اليوم معناه اللغوي، وهو مطلق الوقت^(١).

وما يذكره العلماء من أرقام لعمر الكون ليست سوى تخمينات وظنون قائمة
على نظريات تخطئ أو تصيب، المهم أن الآية الكريمة تؤكد حقيقة التدرج في
الخلق، التي يقول بها العلماء في العصر الحاضر؛ فالله سبحانه ما خلق الخلق
دفعاً واحدة، إنما خلقه على مراحل وأطوار فصل سبحانه بعضها في سورة
فصلت، فقال: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾
ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ .

ولا شك أن الله سبحانه حكماً جليلاً وكثيراً في التدرج في الخلق، فهو
سبحانه قادر على إيجاد المكونات كلها دفعة واحدة، وفي مثل لمح البصر:
﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ومن غير أسباب ووسائل: ﴿إِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ولعل من حكم التدرج في الخلق، أن يبين لنا سبحانه بعض أدلة وجوده وقدرته
وحكمته، وأنه خلق الخلق بمحض إرادته واختياره، وأنه خلقه بمقتضى نوااميس
كونية أبدعها، مما ينفي وجود المصادفة في الخلق، كما يزعم الملاحدة الماديون.

• سبيل الهدى:

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو أعظم المخلوقات، ويُطلق في اللغة على أكثر من معنى: فهو سريرُ الملك، وسقفُ الملك، والملك، والسلطان، والعز^(١).

لقد أخبر سبحانه في سبعة مواضع من القرآن الكريم أنه جلَّ وعلا استوى على العرش، وقرن ذلك بأنه خلق السماوات والأرض، هذا الموضع أولها.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ الآية [يونس: ٣].

وثالثها: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

ورابعها: ﴿نَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾ (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ﴾ [طه].

وخامسها: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وسادسها: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

وسابعها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

مما يدلُّ على أن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ صفة من صفات كماله وجلاله، تدلُّ على عظمته وقدرته جَلَّ، نؤمن بها كما أخبر عنها سبحانه من غير تكليف ولا تشبيه ولا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

روى البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» عن عبد الله بن وهب، قال: كنا عند مالك بن أنس، فدخل رجل، فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى

الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿طه: ٥﴾ كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك، وأخذته الرُّحْصَاءُ - ٤ عرق كثير - ثم رفع رأسه، فقال: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿طه: ٥﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوعٌ، وأنت رجلٌ سوءٌ وصاحبٌ بدعةٍ. أخرجوه.

قال ابن كثير رحمته الله: «الظاهر المتبادرُ إلى أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمرُ كما قال نعيم بن حماد الخزاعي، شيخ البخاري، قال: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ ﷺ تَشْبِيهًُ، فَمَنْ أَثَبَّتَ لِلَّهِ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، وَنَفَى عَنِ اللَّهِ النِّقَاصَ، فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهَدْيِ»^(١).

• إبداع ونظام:

ومن أدلة وجود الله تعالى وقدرته وعظمته، إبداعه لنظام حركة الأفلاك، وتوالي الليل والنهار، وتعاقب الفصول والشهور والأوقات:

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ أي: يغطي بقدرته الليل بالنهار، ويؤكد هذا المعنى قراءة حميد بن قيس: (يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ) بفتح الياء، ونصب الليل، ورفع النهار، وتوافق القراءتين أولى من تخالفهما، فالليل قبل النهار، ويُعلم هذا من قوله تعالى أيضاً: ﴿وَأَيَّاهُمْ أَيَّلُ سَلَخَ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]؛ لأنَّ المسلوخَ منه يكون قبل المسلوخ^(٢)، فالأصل ظلام الليل، ونور النهار طارئ عليه.

﴿يَطْلُبُهُ حَيْثَا﴾ سريعاً، بلا فاصلٍ بينهما، فهما يتعاقبان بنظام دقيق محكم لا يتغير، يدلُّ على عظمة خالقه ومبدعه، قال ﷻ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٥/٢.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٣٦/٨.

إِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ فِي حَرَكَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ مَنْضِبُطَةٍ بِنَوَامِيْسٍ دَقِيْقَةٍ، وَإِنَّ الرُّوْعَةَ لَا تَكْمُنُ فِي ضَخَامَةِ الْمَكُونَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَقَطْ، بَلْ وَفِي حَرَكَتِهَا الدَّقِيْقَةِ الْمُوْزَوْنَةِ: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ أَي: خَلَقَهُنَّ سُبْحَانَهُ وَهُنَّ مَذَلَّلَاتٌ لِأَمْرِهِ، وَهُوَ النَّامُوسُ الْكُونِي الَّذِي أَبْدَعَهُ تَعَالَى لَهْنٍ، فَلَا يَخْرُجُنَّ عَلَيْهِ.

مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَجْرَامَ الْكَبِيرَةَ خَاضِعَةٌ لِإِرَادَتِهِ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ، فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ مَحْكُومَةٌ خَاضِعَةٌ لِخَالِقِهَا ﷻ، فَلَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْبَدَ وَتُعْظَّمُ، إِنَّمَا الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ هُوَ خَالِقُهَا وَمُسَيِّرُهَا جَلٌّ وَعَلَا.

• التَّشْرِيعُ لِلَّهِ وَحْدَهُ:

وَالنَّتِيْجَةُ الَّتِي يَجِبُ اسْتِخْلَاصُهَا مِنْ هَذَا الْعَرَضِ السَّرِيعِ لَخَلْقِ الْكَوْنِ وَمَا فِيهِ مِنْ نَوَامِيْسٍ تَضْبُطُ حَرَكَتَهُ، وَتَحْكُمُ مَسِيرَتَهُ، هِيَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فَالْكَوْنُ بِكُلِّ مَا فِيهِ لَهُ وَحْدَهُ ﷻ، لِأَنَّهُ هُوَ خَالِقُهُ وَمُبْدِعُهُ، وَيُدَبِّرُ أَمْرَهُ مِنْ أَصْغَرِ ذَرَاتِهِ إِلَى أَعْظَمِ أَجْرَامِهِ، فَيَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ فِيهِ لِمَالِكِهِ وَحْدَهُ، لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، فَهُوَ الْمَالِكُ وَالْحَاكِمُ، يَحْكُمُ مَا يَرِيدُ، وَيَشْرَعُ مَا يَرِيدُ، جَلٌّ وَعَلَا، لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ:

﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: تَنْزَرُهُ وَتَقْدَّسُ جَلٌّ وَعَلَا فِي ذَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَكَذَلِكَ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، فَهُمَا فِي غَايَةِ الْكَمَالِ وَالْإِحْكَامِ. وَأَصْلُ كَلِمَةِ (تَبَارَكَ) إِمَّا مِنَ الْبَرَكَةِ، وَمَعْنَاهَا الزِّيَادَةُ وَالنَّمَاءُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ رَبُّ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا خَلَقَهَا، وَيَمُدُّهَا بَعْدَ خَلْقِهَا بِأَسْبَابِ وَجُودِهَا وَكَثْرَتِهَا وَنَمَائِهَا. أَوْ مِنَ الْبُرُوكِ، وَهُوَ الثَّبَاتُ وَالِدَوَامُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْبَاقِي الدَّائِمُ الْمُنَزَّهُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ عَنْ كُلِّ تَغْيِيرٍ وَنَقْصٍ:

﴿بَنَزَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

● الدعاء مَخُّ العبادَةِ:

وبعد بيان هذه النتيجة اللازمة القطعية، توجّهت الآيات بالخطاب إلى جميع المكلفين بهذا الأمر الملزم الذي يظهر التناسق والاحتباك بين آيات السورة:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥).

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: توجّهوا إلى الله تعالى ربكم بالدعاء والعبادة والطاعة.

فهو خالقكم، ومالك أمركم، هو الذي خلقكم، وصوّركم، ومكنكم في الأرض، وسخر لكم ما في السماء والأرض، وحذّركم من مكر الشيطان عدوكم الذي يسعى لكي يصرفكم عن طاعة ربكم وعبادته، فالآية هنا تؤكد ما سبق في صدر السورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

وجاء هذا التأكيد بعد بيان فضله سبحانه على الإنسان في خلقه وتصويره وتمكينه، وبعد بيان قصته مع الشيطان، فواجب الإنسان أن يدعو الله ويتوجّه إليه وحده.

ادعوا ربكم، فإنكم مسؤولون يوم القيامة أمامه، ادعوه وأنتم متذلّلون له جلّ وعلا، خاضعون لأمره، منقادون لشرعه، فالدعاء مَخُّ العبادَةِ، ولا يقدم الداعي على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ما يدعو به، وأنه عاجز عن تحصيله، وعرف أيضاً أن ربّه يسمع الدعاء، ويعلم حاجة الداعي، ويستجيب له، ولا شك أن معرفة العبد نفسه بالعجز والنقص، ومعرفة ربه بالقدرة والكمال، من أعظم العبادات^(١)؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: ادعوه وأنتم في حال التضرّع والتذلّل والاستكانة له وحده ﷻ.

﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: سرّاً، فإنّ الإخفاء دليل الإخلاص، وهو سبحانه سميع

عليم، ومن أدب الدعاء الإخفاء.

(١) روح المعاني: ١٣٩/٨.

وفي الحديث الشريف: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «أيتها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم» [رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤)].

ومعنى «اربعوا على أنفسكم»: ارفقوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ﴾ المتجاوزين أمره سبحانه والمعرضين عن دينه وشرعه، ومنهم المتجاوزون في الدعاء، الذين يدعون غير ربهم، أو الذين يسألونه في دعائهم ما لا يليق بهم أن يسألوه منه سبحانه، كأن يسألوه شيئاً محرماً أو قطيعة رحم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل» قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء» [رواه مسلم (٢٧٣٥)].

وقوله: «يستحسر» أي: ينقطع عن الدعاء.

• الفساد والتلوث:

إن الإعراض عن دين الله وشرعه يؤدي إلى الفساد في الأرض، وانتشار الظلم بين الناس، كما يؤدي إلى انقسام المجتمعات إلى شيع وأحزاب، وتفككها وضعفها، وتآكل الحضارات وسقوطها، ولهذا قال تعالى محذراً من هذه النتائج السيئة:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦)

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: بعد أن جعلها الله تعالى صالحة، فخلقها على الوجه الملائم للإنسان ومعاشه، كما مر معنا في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وأصلحها سبحانه أيضاً بالشرائع السماوية التي أنزلها على أهل الأرض، يبين لهم فيها ما يصلح لهم من المناهج والشرائع التي تُسعدهم، وتُبقي لهم الأرض صالحة لحياتهم، عامرة بسعيهم وجدهم ونشاطهم.

إنَّ التزامَ دينِ الله وشرعه، والسير على منهج التوسط والاعتدال الذي امتازت به الشريعة الإسلامية، كما مرَّ معنا، من غير سرف ولا ترف، هو الذي يحفظُ جمال الأرض ونقاءها وبيئتها الصالحة للحياة عليها.

وإنَّ خروجَ الناس عن دين الله تعالى، واتباعهم لأهوائهم وشهواتهم من خلال الشرائع الوضعية التي تعكس حبَّ الذات والتملك والجشع والطمع في نفوسهم، هو الذي أدَّى إلى فساد الأرض وتلويث بيئتها الحياة فيها.

لقد أدَّى الطمعُ بالإنسان إلى إفساد الأرض وتلويث البرِّ والبحر والجو، حتى أصبح الوجود البشري على الأرض مهدِّداً، وأخذت أنماطُ من الحياة الحيوانية الفطرية بالانقراض.

إنَّ نفايات المفاعلات النووية وما يَسْرُبُ من إشعاعاتها، وعادم المعامل، وأسلحة التدمير الشامل من ذرية وكيميائية وجراثومية، أثر على بيئة الحياة في الأرض وأظهر الخلل فيها، وما الفجوة التي حدثت في الغلاف الأوزوني المحيط بالأرض إلا مظهراً من مظاهر الخلل والفساد في بيئة الحياة.

أضف إلى ذلك أنماط الحياة البشرية المصادمة للفطرة والكرامة الإنسانية المستحدثة، والتي أدَّت إلى الانحلال الخُلقي والتمزق الاجتماعي، وتغلَّب نزعة الأنانية والفردية، وعدم الشعور بالانتماء والمسؤولية على كثير من الشباب في العصر الحاضر.

● سبيل النجاة:

لقد مرَّ معنا أن الله تعالى نواميس في خلقه ثابتة لا تتغير، منها ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وسياتي معنا ما يماثله في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بِرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وإنَّ الطغيان والعدوان، والسرف والترف، والجشع والطمع، الذي تتسم حياة الناس في ظل الحضارة المادية وشرائعها الوضعية: أصبح خطراً يهدد بقاءها، وينذر بسقوطها، ولا نجاة للبشرية من هذا المصير المظلم إلا بالعودة إلى دين الله تعالى وشرعه، وهو ما أمر به سبحانه بعد أن حذر من عاقبة الفساد في الأرض، فقال:

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ارجعوا إلى دينه وشرعه، وأنتم خائفون من بأسه وانتقامه، وراجون رحمته وفضله.

فلا يأس من رحمة الله ولا قنوط، ومهما ابتعد الشاردون عن طريقه، وأبعدتهم معاصيهم وآثامهم عن بابه، فإنه غفور رحيم، يغفر لهم ويرحمهم إذا عادوا تائبين مستغفرين، ادعوه خوفاً من عدله، وطمعاً في فضله.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون العمل في عبادته وطاعته، وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ لكي يبين أن المراد من الرحمة آثارها، فكأنه تعالى قال: إن إحسان الله وفضله قريب من المحسنين.

• الرياح المبشرات:

ومن مظاهر فضله وإحسانه على عباده إرساله الرياح الحاملة للخير والخصب والنماء:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ تَخْرُجُ الْمَوْتُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: مبشرة بقرب أثر من آثار رحمته وفضله، وهو السحاب الحامل للمطر، كقوله تعالى في سورة الروم:

﴿وَمَنْ أَيْنِيهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُوكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦).

فالرياح الرطبة التي تأتي بتقدير الله تعالى من جهة البحار، تحمل السحاب، وتبشّر بقرب نزول المطر، والتنبؤات الجوية القائمة على رصد حركة الرياح واتجاهاتها، وقياس سرعتها وحرارتها، وكثافة بخار الماء فيها، لا تدخل في نطاق التكهن والتنبؤ المحظورين في الإسلام، فهي ليست من الغيب، لأنها تقوم على أمور مشاهدة محسوسة، بواسطة الآلات التي هدى سبحانه إلى صنعها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حتى إذا حملت الرياح السحب الكثيفة المشبعة ببخار الماء، فالرياح لا تأتي بالسحاب الممطر بشكل دائم ولازم، فقد تأتي أحياناً بالغبار والتراب إذا ما قَدَّر لها سبحانه أن تأتي من جهة الصحارى والأراضي اليابسة الجرداء.

﴿سُقْنُهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أي: سقنا السحاب بوساطة الرياح لبلد مجذب يابس، لا نبات فيه ولا زرع، فبإرادته تعالى وقدرته تتوجّه الرياح، وارتباط سيرها بالأسباب الأرضية التي تتصل بتقلبات الطقس لا يتعارض مع هذه الحقيقة، فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات، ومشئته سبحانه نافذة في ذرات الموجودات، وقدرته سبحانه من وراء كل الأسباب والمسببات.

﴿فَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْنَا بِالْمَاءِ﴾ أي: فأنزلنا بمشيئتنا وقدرتنا الماء بهذا البلد المجذب القاحل. فنزول الماء من السحاب بتقدير الله تعالى، وكثيراً ما تظهر السحب الكثيفة في جو السماء، ولا ينزل المطر.

﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي قَدَّر سبحانه إخراجها وخلقها.

وهذا دليل على قدرته سبحانه على إخراج الأموات، وبعثهم من قبورهم يوم القيامة:

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون، وتعرفون أنكم مسؤولون عن أعمالكم، وأنه سبحانه لم يخلقكم سدى.

• القابلية والاستعداد:

ولا يخرج النبات إلا من الأرض التي جعل الله فيها القابلية والاستعداد للانتفاع بماء المطر والإنبات، فثمة بقاع كثيرة لا تصلح للنبات، وكذلك النفوس البشرية، ترى بينها اختلافاً كبيراً في الاستعداد والقابلية للانتفاع من الشرائع الإلهية المنزلة عليهم، قال تعالى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ ذو التربة الطيبة المنبتة.

﴿يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بمشيئته سبحانه، ويكون طيباً نافعاً جميلاً.

﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾ أي: والبلد ذو التربة الخبيثة التي لا تصلح للإنبات، إما

لقسوتها أو لكثرة الأملاح فيها.

﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: لا يخرج النبات إلا خروجاً قليلاً لا خير فيه.

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ وهكذا يقرّب الله المعاني في ألفاظ وجمل رائعة

معجزة.

﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يعرفون فضل المنعم عليهم، ويتنفعون بما أنعم به عليهم،

عندما أرسل إليهم الرسل يحملون لهم الشرائع التي تسعدهم في الدنيا والآخرة.

إنهم أصحاب القلوب الطيبة التي تقبلُ شرع الله تعالى وتعمل به، فتبني

ولا تخرب، وتصلح ولا تفسد، وفي الحديث الشريف: عن أبي موسى

الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ ما بعثني الله من الهدى والعلم، كمثَلِ

الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّةٌ قِيلَتِ الماء، فأنبَتِ الكَلأ والعشب

الكثير، وكان منها أجادِبُ، أمسكتِ الماء، فنفع الله بها الناسَ، فشرَبوا وسقوا

وزرعوا، وأصاب منها طائفةٌ أخرى، إنّما هي قيعانٌ لا تمسِكُ ماءً، ولا تنبتُ

كَلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فِقَهُ في دينِ الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به، فعَلِمَ وعَلَّمَ،

ومثل مَنْ لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرْسِلْتُ به» [رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢)].

فالنفس البشرية مختلفة في مدى استعدادها وقابليتها للخير، تماماً كاختلاف بقاع الأرض في صلاحيتها للزراعة والنبات، ولا عجب في ذلك فالإنسان مخلوق من تراب الأرض.

بهذا المثل الرائع عن قابلية الإنسان واستعداده للخير أو للشر، ختمت الآيات الكريمة في سورة الأعراف حديثها عن الإنسان ومبدأ وجوده، وصراعه مع الشيطان، وصلته بالأرض، ومسؤوليته وحرية واختياره وتكليفه، وعلاقته بالكون والنواميس الدقيقة، التي أبدعها الخالق العظيم.



الْفَصْلُ الْخَامِسُ

صَفَحَاتٌ مِنَ التَّارِيخِ

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُكَ فِي صَلِيلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعِظُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعِظُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا ۖ آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعْبُدُ ۖ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصْبٌ ۖ أُنْجِدِلُونَنِي فِي سَمَاءِ سَمَيْتُوهَا ۖ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ فَانْظُرُوا ۖ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا ۖ يَسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ۖ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِبُونَ الْجِبَالَ طَبَاقًا ۖ فَادْكُرُوا ۖ آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ
 ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَتُصْلِحُوا مِثْرَ سَلٍّ مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ
 رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعُدُّهَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسِلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
 فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٨﴾ فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ
 لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْطَأُ إِذْ قَالَ يَقَوْمِ أَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ
 أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْيَسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ
 ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِهُرُونَ
 ﴿٨٢﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرًا لَهُ كَانَتْ مِنَ الْعَادَةِ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا
 كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدِينَةِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
 لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا
 تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ
 ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ
 عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ
 يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعُوبَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾
 قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ
 يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
 الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِكْثُرًا إِذَا لَخِيسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
 الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
 شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنُودِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
 فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِأَلْسَاءٍ

وَالصَّارِءَ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا
 الصَّارِءَ وَالسَّرَّاءَ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم
 بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ
 أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ
 ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
 يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
 يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا
 لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا جَعَلْنَا
 لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن جَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

• القرآن الكريم والتاريخ:

شرعت الآيات تعرض لنا صوراً تاريخية متلاحقة لمسيرة الإنسان على الأرض، كشفت لنا من خلالها كيفية تعامل الإنسان مع الرسائل الإلهية من جانب، ومع الشيطان من جانب آخر، صوراً واقعية للحياة البشرية، فيها الاستقامة والانحراف، والعدل والظلم، والعمران والخراب، والخير والشر، وأظهرت لنا من خلالها أيضاً دور المواجهة بين الخير والشر في تحريك أحداث التاريخ، والأسباب الأساسية الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات.

ولقد احتلت هذه الصور التاريخية مساحة كبيرة من السورة، مما يدل على الأهمية الكبيرة للتاريخ، وأن له دوراً هاماً في حاضر الوجود البشري ومستقبله. إنَّ للتاريخ في نظر القرآن الكريم تأثيراً كبيراً على حياة الإنسان ومستقبله، ورغم أنَّ أحداثه مضت وانقضت، إلا أنها تبقى بصماتها واضحة على السلوك البشري وممارساته، كما أنها تساهم بشكل غير مباشر في تحريك الأحداث ودفعها.

فمن طبيعة الإنسان أنه ينفعل مع الحوادث، يتأثر ويؤثر، وقراءة التاريخ

مرآة، يرى الإنسان من خلالها انفعالاته وردوده الانعكاسية على كل ما يواجهه في حياته، إنَّ التاريخَ ذخيرةٌ حيَّةٌ من التجارب الواقعية للحياة البشرية على الأرض، تُمدُّ الإنسان بفيض زاهر من العبر والدروس والعظات.

وروعة القرآن أنه يتخيَّر من الحدث التاريخي الجانب المؤثر في الإنسان، الذي يتفق مع الموضوعات التي يعالجها، ولهذا فإنَّ على الذي يريد أن يُلمَّ بالحدث التاريخي من جميع جوانبه، أن يتتبع حلقاته في جميع المواضع التي ذكر فيها، وسيرى في كلِّ موضع شيئاً جديداً، غير موجود في المواضع الأخرى.

اختارت الآيات الكريمة عدداً من المجتمعات البشرية البائدة الموهلة في القدم، والتي قامت في بلاد العرب، حيث أنزل القرآن الكريم، وفي البلاد المتاخمة لها، ويبدو أنَّ هذه البلاد، هي البلاد التي شهدت بزوغ فجر الحضارات البشرية، وظهور المجتمعات الإنسانية قبل غيرها، فهي البلاد التي تتوسط العالم القديم في قاراته الثلاث المتجاورة: آسية، إفريقية، أوربة؛ كما أنها تتمتع بمناخ معتدل، وفيها سهول كبيرة ذات تربة خصبة، تجري فيها أنهار غزيرة دائمة الجريان، مما يجعلها صالحةً لنمو المجتمعات البشرية أكثر من غيرها؛ فلا عجب أن يركِّز القرآن على تاريخ المجتمعات البشرية التي عاشت في هذه البلاد، إذ هي غنية بالتجارب الإنسانية بسبب كثرة الأمم التي سكنتها أو مرَّت منها، كما أنه سبحانه أرسل فيها كثيراً من الأنبياء والمرسلين، وأنزل فيها أعظم الشرائع.

لقد عرضت الآيات بعض الصور التاريخية لهذه المجتمعات بحسب تسلسلها الزمني، فبدأت بأقدمها ثم بالذي يليه... وكأنَّ السورة ترسم لنا خطاً بيانياً لحركة تاريخ المسيرة البشرية على الأرض، من مبدأ وجودها وحتى عصر خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه وعليهم الصلاة والسلام؛ عندما ظهرت الأمة المسلمة وحضارتها الإسلامية، وبهذا فصَّلت الآيات ما سبق أن ذكرته مجملًا

في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤)، وبيّنت لنا من خلال العرض الميداني الواقعي أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات.

• قوم نوح:

نوح ﷺ أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، والدليل على ذلك ما ورد في حديث الشفاعة، المتفق على صحته، قال فيه رسول الله ﷺ عن نوح: «... فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ».

و بعثته ﷺ إلى أهل الأرض باعتبار الواقع، كما قال ابن حجر رحمه الله، لصدق أنهم قومه، بخلاف عموم بعثة نبينا محمد ﷺ لقومه ولغير قومه^(١).

ويبدو أنّ قومَ نوح كانوا هم أهل الأرض في ذلك الزمن الموعّل في القدم، وكانوا يقيمون في العراق، بلاد ما بين الرافدين، قبل أن ينتشر الناس في الأرض.

وكان الناس في أول أمرهم منذ أبيهم آدم ﷺ موحدّين، يعبدون الله وحده، ثم طرأت عليهم الوثنية، فعبدوا الأصنام، وقد بيّن ابن عباس رضي الله عنهما كيفية انتشار عبادة الأصنام بينهم، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُ ۚ الْهَتَكُ وَلَا نَذَرُ ۚ وَدَا ۚ وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَئُوتُ وَيُؤْتُ ۚ وَسَرَا ۚ﴾ [نوح: ٢٣]: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم، عبّدت. [رواه البخاري (٤٩٢٠)].

ومعنى قوله: (ونسخ العلم) أي: ضاع علمهم بأصل الأنصاب، وفشا بينهم الجهل، ويؤيده - أي: ابن عباس رضي الله عنهما - قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) فتح الباري: ٤٣٤/١١.

وقصة نوح مع قومه قصة طويلة، امتدت على مدى تسعة قرون ونصف، ولم تعرض لنا الآيات سوى حلقة من حلقات المواجهة الكثيرة بينه وبينهم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۖ لَأنَّه لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ .

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾.

فمهمة الأنبياء الأساسية أن يدعوا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، أما الإيمان بوجوده سبحانه، فأمرٌ مركوز في فطرة الناس، وكل الدلائل العقلية تدلُّ عليه جلَّ وعلا، ولهذا قال نوح لقومه: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ وهي الكلمة التي قالها أيضاً جميع المرسلين لأممهم، كما سيأتي معنا.

• استكبار وعناد:

وكان ردُّ رؤساء الضلال في قومه غليظاً وخشناً:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ الَّذِينَ يَمْلُؤُونَ الْأَبْصَارَ بَزِينَتِهِمْ وَخَدَمَهُمْ وَأَعْوَانَهُمْ .

﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ أي: في ذهابٍ وابتعادٍ عن طريق الصواب.

وكلمة (نراك) تدلُّ على استكبارهم واستعلائهم.

ونفى ﴿لَنَرَنَّكَ﴾ عن نفسه صفة الضلال على أبلغ وجه:

﴿قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦١﴾.

﴿قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ۖ وهي المرّة الواحدة من الضلال .

ثم استدرك مثبتاً لنفسه صفة الرسالة التي أكرمه بها ربُّ العالمين:

﴿وَلَنَكَيِّنِي رَسُوْلًا مِّن رَّبِّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ .

ومبيِّناً المهمة التي كُلف بها :

﴿اُبَلِّغُكُمْ رِسٰلَتِ رَبِّيْ وَاَنْصَحُ لَكُمْ وَاَعْلَمُ مِّنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ .

﴿اُبَلِّغُكُمْ رِسٰلَتِ رَبِّيْ﴾ وهي أحكام دينه وشرعه .

﴿وَاَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وأتحرّى ما فيه صلاحكم وسعادتكم ، فلا أريد لكم إلا

الخير .

﴿وَاَعْلَمُ مِّنَ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ أي : وأعلم من صفات كمال الله وجلاله

ما لا تعلمون ، فهو رحيم بعباده ، يغفر للتائبين ويرحمهم ، وهو شديد العقاب ، لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين المعرضين عن رسالة ربهم .

وكان قومه قد استبعدوا رسالته ، واستنكروا أن يرسله الله إليهم ، فردَّ على

استنكارهم قائلاً :

﴿اَوْعَجِبْتُمْ اَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلٰى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوْا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ﴾ .

﴿اَوْعَجِبْتُمْ اَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فتعجبكم لا معنى له ، واستنكاركم

لا داعي له . والذكر : الوحي .

﴿عَلٰى رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ تعرفونه ، وتعرفون نسبه وصدقه وأمانته .

﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ من عذابه سبحانه .

﴿وَلِتَتَّقُوْا﴾ الكفرَ والمعاصي بطاعته سبحانه .

﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُوْنَ﴾ فالإنذار يدفع إلى التقوى ، وهي سبب الرحمة .

وجيء بحرف الترجي (لعل) في الرحمة ، للتنبيه على عزة الرحمة وعلو

مطالبها ، وأنها منوطة بفضل الله تعالى ومشيتته ، فلا اعتماد إلا عليه ^(١) .

(١) انظر : روح المعاني : ٨ / ١٥٣ .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأصرُّوا على شركهم وكفرهم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ من العذاب الذي نزل بهم، وهو الغرق بالطوفان.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين، وما آمن به إلا قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فِي الْفُلْكِ﴾ في السفينة التي صنعها بأمر الله ووحيه، كما ذكر سبحانه في قوله: ﴿وَأَصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: كانوا عُمَيِّ القلوب والبصائر عن رؤية دلائل الحق الواضحة، بسبب تكبرهم واتباعهم لشهواتهم وأهوائهم.

وهكذا أهلك الله مجتمعاً بشرياً كان من أقدم المجتمعات البشرية وجوداً، ودمَّر حضارته بسبب إصرارهم وعنادهم الذي امتدَّ تسعة قرون ونصف، مما يدلُّ على طول أعمارهم ورسوخ حضارتهم.

• عاد قوم هود:

ثم طوت الآيات أحقاباً طويلة من الزمن، حتى انتعش الوجود البشري مرَّة ثانية في الأرض، بعد أن تكاثر أبناء نوح الذين كانوا معه في السفينة، واختارت الآيات أُمَّة عاد قوم هود عليه السلام، الذين كانوا يسكنون في الأحقاف، في الجنوب من شبه الجزيرة العربية، ويسمَّى اليوم بصحراء الربع الخالي، وكان في الماضي خصباً كثير الخيرات، غنياً بالمياه والنباتات، قال تعالى:

﴿وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً.

﴿قَالَ يَنْفَوْمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهي الكلمة التي قالها نوح لقومه .

﴿أَفَلَا نَنْقُوتُ﴾ الله تعالى فتعبدوه وتطيعوه وحده .

وبادر الملائ من قومه إلى معارضة دعوته ، والصد عن رسالته ، كما فعل

الملائ من قوم نوح عليه السلام :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَزَلْنَا فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَزَلْنَا فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي : في حُـمـقٍ

وجهالةٍ وقلة عقل .

﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ .

ورد هود عليه السلام عليهم نافياً ما اتهموه به ، كما فعل نوح عليه السلام :

﴿قَالَ يَنْفَوْمْ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ .

أمين على رسالة ربي ، أو أمين في نصحتكم .

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ ؛ ولا بد أن يلحظ

القارئ كثرة التشابه بين قوم نوح وبين قوم هود ، مما يدل على أن طبيعة الإنسان لم تتغير مع مرور الزمن .

• قوة الأبدان والعضلات:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي : اذكروا فضل الله عليكم إذ

جعلكم تخلفون قوم نوح في عمارة الأرض واستثمار خيراتها، فاحذروا أن ينزل بكم من العذاب والهلاك مثل ما نزل بهم.

وببدو أن أمة عاد كانت في ذلك الوقت أقوى الأمم وأغناها، فكأن الأرض كانت لهم وحدهم، كما كانت لقوم نوح عليه السلام، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فكأن الآيات في سورة الأعراف اختارت في عرضها لمسيرة حركة التاريخ البشري، أقوى الأمم في عصرها، وأغنى المجتمعات، وأعظمها حضارة ومدنية، لكي تبين أسباب هلاكها وسقوط حضارتها.

ومما يؤكد أن قوم هود كانوا أقوى الأمم في عصرهم، أنه سبحانه خصهم بقوة أبدانهم وعضلاتهم في عصر كانت قوة الأبدان والعضلات أهم أسباب التفوق والتغلب، فلم يكن في عصرهم مثلهم في ضخامة الأجسام وقوتها، ولهذا قال لهم هود، وهو يذكرهم بفضله سبحانه عليهم:

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ أي: زاد في قوة أجسامكم وحجمها.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله تعالى عليكم لتعرفوا فضله وإحسانه، فتشكروه وتعبده وحده، وقد ذكر الله في سورة الشعراء تفصيلاً لبعض آلاء الله تعالى عليهم على لسان هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٧٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٧٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٨٠﴾ فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٨١﴾ وَانْقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٨٣﴾ وَحَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿١٨٤﴾﴾.

وهذا يدل على أن بلادهم كانت خصبة، أهلة بالسكان والعمران، جناتها كثيرة، ومياها غزيرة، وخيراتها وفيرة، وكان لهم حضارة قوية ما عرفت المجتمعات البشرية مثلها في عصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِمْرَ ذَاتِ الْاَعْمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْاَلْبَدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر].

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ فشكر المنعم بطاعته والتزام شريعته، هو طريق الفلاح والنجاح، ومَرَّ معنا أن الشيطان قال: ﴿وَلَا تَحِدُّ أَكْثَرَهُمْ شَكْرِي﴾ [الأعراف: ١٧]. وأصرَّ القوم على كفرهم وعنادهم كما فعل قوم نوح:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧٠﴾.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ فكأنَّ عبادة الله وحده منكر في نظرهم. ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان. إنَّ التمسك بالتقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد من أكبر المعوقات التي تقوم في وجه دعوة الأنبياء والمرسلين، وتمنع كلَّ إصلاح وتقدم. ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنه العناد والتحدي.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿٧١﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: قد نزل ووجب. فجعل المتوقع الذي لا بدَّ من نزوله بمنزلة الواقع^(١) ممَّا يدلُّ على شدة ثقته ﷺ برَّبِّه؛ فهو يعلمُ أنَّ الله تعالى نوايس في خلقه لا تتغير، منها إهلاك المعرضين عن دعوة رسله والمعاندين لدينه وشرعه. ﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: عذابٌ وسُخْطٌ.

وأردف ﷺ بيِّن لهم حقيقة أصنامهم التي يعبدونها فقال: ﴿أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ﴾ فهي ليست سوى أسماء، عارية عن المسمَّى، بسبب ضعفها وعجزها، إنَّ هي إلا رموزٌ وأسماء مخترعة.

(١) تفسير النسفي: ٥٧٨/٢.

﴿سَمِئْتُمُوهُمَا أَنتُمُ وَاَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة ولا برهان.
 ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نزول العذاب.
 ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.
 وبعد الانتظار:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢).

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من العذاب الذي أنزله الله على الأمة كلها، لأنهم آمنوا وخرجوا على ضلال المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه، ولم يسيروا مع تيار الضلال الغالب عليه، ولم يرضوا به.
 ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أوجبها سبحانه على نفسه فضلاً منه وإحساناً، كما قال:
 ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].
 ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً كلياً، ودمرناهم عن آخرهم، لأنهم كذبوا بآيات الله.
 ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بها، ومذعنين لها.

حبس الله عنهم المطر حتى أجذبت بلادهم، وبيست زروعهم، وهلكت أنعامهم، ثم أرسل عليه الريح العقيم والأعاصير المدمرة في أيام نحسات حاسمة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (٧٢) فهل ترى لهم من باقية؟ [الحاقة].

وهكذا أهلك الله أمة كانت أقوى الأمم في زمانها، ودمّر حضارة كانت أغنى الحضارات وأنضرها في عصرها، لأنهم أعرضوا عن دعوته، دعوة الرحمن، واتبعوا وساوس الشيطان.

• ثمود قوم صالح:

وانتقلت الآيات إلى موقع حضاري آخر في أرض العرب، وتحولت من

الجنوب إلى الشمال، إلى أمة ورثت كل ما كان لعاد من قوة وغنى وتمكن في الأرض، إلى ثمود التي كانت أيضاً أقوى الأمم في عصرها وأكثرها غنى وحضارة، قال تعالى:

﴿وإلى ثمود آخاهم صليحاً قال ينقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيري قد جاءكم بينة من ربكم هذِهِ ناقةُ الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها يسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وإلى ثمود آخاهم صليحاً قال ينقوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيري قد جاءكم بينة من ربكم﴾ أي: معجزة واضحة تدل على صدق صالح عليه السلام في نبوته ودعوته.

﴿هذِهِ ناقةُ الله لكم آية﴾ معجزة في كيفية خلقها، إذ خلقها سبحانه أمامهم من صخرة، وفي شربها، فقد كانت إذا وردت ماء البئر تشربه كله، وفي عطائها، فقد كانت تعطيهم لبناً كثيراً يكفيهم جميعاً، وما أعطوها إلا بعد أن سألوها، كما جاء في قوله تعالى عنهم في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ شَرِبْ وَلَكُمْ شَرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿فَذَرُوهَا﴾ اتركوها.

﴿تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾.

وبعد أن حذرهم من عذاب الله الأليم ذكّرهم بفضله عليهم:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْجِدُونَ مِنْ سُوءِهَا فَصُورًا وَنَجِّنُوهَا مِنَ الْبُيُوتِ فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ الْآلَاءَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ في القوة والغنى والتمكّن.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وجعلكم تنزلون وتسكنون في أرض الجُبر بين الحجاز والشام.

﴿تَنْحَدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور في سهولها.

وكلمة (القصور) تدلُّ على الغنى وامتداد العمران وكثرة الزخارف فيها.

﴿وَنَحْنُ الْجِبَالُ يُوْتًا﴾ أي: وتشقون الجبال، وتبنون فيها البيوت، فالعمران كان يغلب على حضارتهم، وكانوا يعيشون في غنى ورخاء، يقيمون في قصورهم شتاءً، ويصعدون إلى بيوتهم الجبلية صيفاً.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تنشروا الفساد في الأرض، فالإعراض عن عبادة الله تعالى ودينه وشرعه، يؤدي إلى نشر الفساد، فنعلم الله كثيرةً، والأرض صالحة للعيش الكريم السعيد، فلا تفسدوها بموالاته الشيطان واتباع الأهواء والشهوات.

• ضعف وقوة:

استجابت لدعوة النبي صالح ﷺ فئة قليلة من عامة قومه، وأبى أكثرهم، وانضموا إلى الأغنياء والوجهاء، وتعرض المؤمنون للأذى والسخرية، وعرضت لنا الآيات مشهداً من مشاهد المواجهة بين الفئة الضعيفة المؤمنة وبين زعماء الكفر والضلال ومن وقف معهم:

﴿قَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنِّي صَلَاحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّي قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (٧٥).

﴿قَالَ أَلَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: للذين آمنوا وقبلوا دعوة صالح ﷺ.

وجاء التقييد بوصف الإيمان، لكي يبين أن بعض العامة قد استجاب لدعوة الحق وآمن بها، وأما أكثرهم فظلوا على كفرهم متابعين لزعمائهم ورؤسائهم.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنِّي صَلَاحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّي﴾، قال لهم ذلك على سبيل السخرية

والاستهزاء والتهديد والوعيد، ولهذا عدل المؤمنون عن الجواب بـ (نعم) إلى إعلان إيمانهم بدعوة صالح عليه السلام على سبيل التحدي:

﴿قَالُوا إِنَّا بِكَ أَزْسِلُ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فصدق صالح واضح معلوم، والواجب المبادرة إلى الإيمان برسالته، وهو ما نواجهكم به، ولو كان يسوءكم ويؤلمكم.

عجباً للإيمان، ما أعظم تأثيره على النفوس والقلوب! جعل الفئة المستضعفة المقهورة فئة قوية تتحدى جبروت الظالمين، وتعلن كلمة الحق في وجوههم مجلجلة مدوية.. لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، فأصبحوا أقوياء بعد أن كانوا ضعفاء.

وفوجئ الطغاة المتكبرون بشجاعة المؤمنين وثباتهم وقوة إيمانهم، فلم يجدوا ردّاً عليهم ليحفظوا ماء وجوههم، ويستروا خزيهم، إلا أن يعلنوا كفرهم:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٧٦).

• وقفة على الأطلال:

ثم تهادوا في طغيانهم:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنًا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧).

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي: قتلوا الناقة المعجزة.

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن الانقياد لأمر ربهم الذي أخبرهم به صالح عندما قال لهم: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿وَقَالُوا يُصْلِحْ أَثْنًا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولا شك أنهم قالوا

ذلك على سبيل التحدي والعناد، كما فعل قوم عاد قبلهم، فمواقف المعاندين المعرضين عن دين الله متشابهة، ولو اختلف الزمان والمكان.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٧٨)

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، أخذتهم كما يؤخذ الشيء اليسير الحقيقير.

ودلّ حرف الفاء في قوله: (فأخذتهم) على التعقيب، فلم يُمهّلوا كثيراً بعد عقرهم الناقة المعجزة، بل عجل الله تعالى في إهلاكهم والانتقام منهم. وقد بيّن سبحانه في سورة هود أنه أمهلهم ثلاثة أيام فقط، عانوا في أثنائها أشد أنواع القلق والخوف مع الترقّب والانتظار: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (١٥).

وجاءتهم الصيحة من فوقهم والزلزلة من تحتهم:

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ هامدين لا حراك بهم، دُمّرت الزلزلة قصورهم ومساكنهم وسائر عمرانهم.

ونجّى الله ﷻ نبيّه صالحاً والمؤمنين، فوقف ﷺ على أطلال قومه وخرائب عمرانهم وجثثهم الهامدة:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ

النَّصِيحَاتِ﴾ (٧٩)

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أشاح بوجهه عنهم لهول منظر الخراب والدمار والموت.

﴿وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَاتِ﴾.

وكما خاطب صالحٌ قومه بعد أن أهلكهم الله، خاطب نبيُّنا محمد ﷺ قتلى المشركين بعد غزوة بدر حين ألقوا في القليب، ناداهم بأسمائهم وأسماء

آبائهم: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً؛ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» [رواه البخاري (٣٩٧٦)] قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً.

وهكذا أهلك الله تعالى أمة ثمود، وسقطت حضارتهم، فلم يبقَ منها إلا الأطلال والقصور المنحوتة في صخور الجبال، وعندما مرَّ بهم النبي ﷺ وأصحابه، وهم في الطريق إلى تبوك، قال ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم زجر فأسرع حتى خلفها. [رواه مسلم (٢٩٨٠)].

• قوم لوط:

ومضت الآيات مع حركة التاريخ البشري في الأرض، وتجاوزت أمماً كثيرة وحضارات كبيرة، حتَّى وصلت إلى العصور التاريخية التي تمكَّن الإنسان من رؤية بعض معالمها، ومعرفة شيء عن أحداثها، وصلت إلى عصر إبراهيم عليه السلام، حيث انتشرت المجتمعات البشرية وتكاثرت، وبرزت فيه عدَّة حضارات، واختارت الآيات منها مجتمعاً بشرياً كان يقيم في أرض فلسطين في منطقة البحر الميت أو بحيرة لوط، وقفت الآيات عند هذا المجتمع البشري لكي تبين سبباً من أكبر أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وهو الخروج عن سنن الفطرة التي فطر الناس عليها في شأن تكاثرهم وتناسلهم، وتلبية رغباتهم الجنسية.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ منكرأ وموبخاً:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ﴾ الفعل التي بلغت أقصى غاية في القبح والسوء.

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فإن مباشرة العمل القبيح قبيح واختراعه أقبح.

ثم بين ﷺ هذه الفاحشة المنكرة والباعث عليها فقال:

﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ مُّسْرِفُونَ﴾ (٨١).

﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي: أمثالكم من الذكور، كما في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٦) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (٦٦).

فالقوم كانوا شاذين جنسياً، يأتي بعضهم بعضاً دون تمييز بين صغير وكبير، وما ذكر الرجال هنا إلا زيادة في النكير عليهم وتوبيخهم.

﴿شَهْوَةً﴾ أي: من أجل الشهوة فقط، لا من أجل غرض آخر، وهو التكاثر والتناسل وبقاء النوع، فالقوم عبيد الشهوة الشاذة.

﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: متجاوزين النساء، ومعرضين عنهن، وهن محل الاشتاء الفطري للرجال.

• الإسراف والشذوذ:

ثم بين ﷺ سبب الشذوذ، ومجاوزة الفطرة، فقال:

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: خارجون عن حدود الاعتدال.

فحياة الترف والسرف، التي سبق أن حذر سبحانه منها في قوله: ﴿يَبْنَىٰ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَشَرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] هي التي أدت بهم إلى الانحراف والشذوذ.

ولهذا انتشر الشذوذ في كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة المترفة، كالمجتمعات الأوروبية والأمريكية، المجتمعات التي أباحت الزنى، وسهّلت الاتصال بالنساء، وشجعت عليه بكلّ وسائل إعلامها، ومن أجله استحدثوا فنون التعري وإظهار السوءات.

فالشذوذ الجنسي ليس سببه منع اختلاط الرجال والنساء، وتحريم الزنى، ومنع المرأة من كشف زينتها، وإظهار مفاتها أمام الرجال، كما يزعم بعضهم، إن شهادة الواقع تكذبهم، وتخرق عيونهم، ففي أوربة وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أنثى - كما في عالم البهائم - ومع ذلك انتشر الشذوذ الجنسي بينهم، ومعدله في ارتفاع دائم، ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ السلوك الجنسي عند الرجال والسلوك الجنسي عند النساء في تقرير كنزي الأمريكي^(١).

ويلاحظ المتدبر للآيات الكريمة أن لوطاً عليه السلام لم يبادر إلى دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، كما فعل سلفه من الأنبياء في الكلمة التي قالها كل واحد منهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، بل بادر عليه السلام إلى تحذير قومه من عواقب الشذوذ المنتشر بينهم، لأنه لاحظ شدة تأثير الشذوذ عليهم، لقد غلب على عقولهم وقلوبهم وسد كل منافذ الخير فيهم، حتى أصبحوا صرعى شهوتهم وشذوذهم، فهم في سكرة الشهوة لا يسمعون أي موعظة تتعلق بغير ما هم فيه، شأنهم شأن من أدمن على المخدرات، وقد وصف الله سبحانه حالتهم هذه في سورة الحجر فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢).

ولهذا بادر عليه السلام أولاً إلى إيقاظهم من سكرتهم، وإنقاذهم من حمأة الشذوذ الذي تمكّن منهم، ومواجهة العلة المستحكمة فيهم، وهذا يدل على أن مهمة الأنبياء عليه السلام لا تقتصر على إصلاح عقيدة الناس وعبادتهم، بل تمتد مهمتهم إلى إصلاح حياتهم الاجتماعية، وتتصدى لكل المفاسد الأخلاقية المنتشرة بين الناس.

● مطر من حجارة:

وتجاهل القوم نصيح لوط، ومواجهته لهم بعثتهم، وتذكيرهم بعواقبها

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٣١٦/٣.

الوخيمة، وبدل أن يردوا عليه، التفت رؤساء الضلال والفساد فيهم إلى العامة، وهم يسخرون من لوط ومن كان من أهله، ويتوعدونهم بطردهم من بلدهم:

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظَاهَرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

عابوا عليهم تنزههم عن حماة الفواحش التي انغمسوا فيها، مما يدل على شدة تأثير الشذوذ عليهم، حتى أنزلتهم إلى هذا المستوى الهابط، حيث اختلّت الموازين، وانعكست القيم، فأصبحت الرذيلة فضيلة في نظرهم، وصارت العقبة جريمة يُعاقب صاحبها بسببها، ويُطارَد من أجلها، فلا مكان له بين الملوئين الفاسدين.

ولا خير في مثل هذا المجتمع، ولا علاج له إلا الاستئصال والحسم، بسبب تحكّم الفساد فيه:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ مَن كانوا معه في بيته، إذ دبّ الفساد وانتشر في جميع بيوتهم وأسرههم، كما قال سبحانه في سورة الذاريات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ وهو بيت لوط عليه السلام.

﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ أي: كانت من الباقين في العذاب، لأنها كانت تُسر الكفر، وتوالي قومها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا﴾ من حجارة لا من ماء، كما ذكر سبحانه في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٧﴾﴾ .

وقد أخطأ سيد قطب رحمه الله عندما قال: «وقد أمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف، ترى هل كان هذا المطر المغرق والماء الدافق لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه؟!»^(١) مع أنه رحمه الله قال في موضع آخر: «حجارة ملوثة بالطين»^(٢).

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فالعاقبة أليمة، لأن الجريمة كبيرة وخطيرة، إن انتشار الشذوذ الجنسي في مجتمع من المجتمعات مؤثر خطير إلى انحلال هذا المجتمع وتآكله وسقوط حضارته.

مضى لوط عليه السلام بعيداً دون أن يتوقف أو يلتفت، كما فعل صالح عليه السلام عندما وقف على أطلال قومه، فالمنظر مُخيف لا يُحتمل، وتابع السير كما أمره ربه في قوله: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبَعَ أَذْنَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

• قوم شعيب:

وعندما اقتربت الآيات الكريمة في مسيرتها التاريخية من عصر موسى عليه السلام، وقفت عند مجتمع بشري، عاش في موقع متوسط بين بلاد قوم لوط وبلاد ثمود في الحجر، وهو مجتمع المديانيين، مجتمع التجار ورجال الأعمال الواقع بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، ولقد استفاد المديانيون من موقع بلادهم على طرق التجارة، فاشتغلوا بها، ودرّت عليهم أرباحاً طائلة وثروات كبيرة.

وقفت الآيات عند هذا المجتمع لتبيّن سبباً كبيراً من أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وهو الطمع والجشع الذي يؤدي إلى انتشار الغش في المعاملات، والاحتيال في المبادلات التجارية. قال تعالى:

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٣١٦.

(٢) المرجع السابق: ٤/١٩١٥.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ ؛ بدأ ﷺ كما بدأ سلفه من الأنبياء بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده، فهي أساس كل إصلاح، ولا صلاح لأي مجتمع من دونها، ولم يخرج عن هذه القاعدة غير لوط ﷺ بسبب كثرة الشذوذ الغالب على قومه كما مر معنا.

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جاءتكم معجزة واضحة دالة على صدق نبوتي.

وسكت الآيات عن هذه المعجزة، وانتقلت في الحديث عن مواجهة شعيب للمفاسد الاجتماعية التي كانت تنخر في جسم المجتمع المدياني، وتهدده بالهلاك والسقوط.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: أتموا الكيل والميزان.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم.

● التلاعب بالمقاييس:

إن انتشار الغش والاحتيال والتلاعب بالمكاييل والموازين في الأمة، يؤدي إلى تمزق في بنيتها الاجتماعية، وكساد في اقتصادها، وركود في تجارتها، فلا يثق الناس بعضهم ببعض، ويبقى كل طرف من أطراف المعاملات على حذر من الأطراف الأخرى، فلا يتعامل معهم إلا مضطراً.

ولقد حذر الله سبحانه في عدة آيات من القرآن الكريم من العواقب الوخيمة للتلاعب بالمقاييس الموضوعية لضبط التبادلات التجارية بين الناس، كالمكاييل والموازين، وسمى سورة كاملة بالمطففين الذين يفعلون ذلك، بدأها

مهتداً متوعداً بقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ .

فالتلاعب بالمقاييس يؤدي إلى نشر الفساد في الأرض، ولهذا قال شعيب عليه السلام لقومه:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: بعد أن جعلها الله صالحة لحياة الإنسان، وبعد أن أصلحها سبحانه أيضاً بالشرائع التي أنزلها كما مر معنا في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف].

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

فإنَّ الصدق والأمانة في المعاملات التجارية يؤديان إلى إنعاش الاقتصاد ورواج التجارة وزيادة الأرباح، وقد لمس هذا كبار المنتجين في الدول الصناعية، فعملوا على تحسين إنتاجهم لترويجه بين الناس وكسب ثقتهم، لا حباً بالصدق والأمانة، فإنهم مصدر كبير للتزوير والخيانة.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم حقاً مصدقين بدعوتي منقادين لرسالتي، فلا بدَّ للأخلاق الطيبة الحسنة أن تستند إلى قيم ثابتة راسخة في وجدان الإنسان، وإلا تغيرت وتبدلت بحسب تقلب المصالح المادية وتغيرها.

وتابع شعيب عليه السلام مواجهة الآفات الاجتماعية المنتشرة بين قومه فقال:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٦)

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: لا تقطعوا الطرق على المسافرين

وأنتم تتوعدونهم، فقد حملهم الطمع والجشع على اعتراض طرق القوافل المارة ببلادهم لكي يأخذوا منها الإتاوات والمكوس^(١).

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وتمنعون عن دين الله تعالى.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ فكانوا يضطهدون المؤمنين ويؤذونهم، ويحاولون فتنهم عن دينهم كما كان مشركو قريش يفعلون بالمسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتطلبون أن تكون شريعة الله موافقةً لأهوائكم وشهواتكم.

ولا يخفى ما في خطابه ﷺ من التوبيخ والتهكم بهم، حيث طلبوا ما هو محال، إذ طريق الحق لا يعوج^(٢).

وبعد أن واجههم ﷺ بمفاسدهم وأمراض مجتمعتهم، ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ﴾ أي: كثر عددكم بعد القلة، وكثر أموالكم بعد الفقر، فاشكروا نعمة الله عليكم وأطيعوه واعبدوه وحده.

﴿وَأَنْظُرُوا﴾ نظر التفكر والاعتبار.

﴿كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط.

• الدعوة والحرية:

رأى قادة المجتمع المدياني وأصحاب الثراء والسلطان في دعوة شعيب ﷺ خطراً يهدد مكانتهم وزعامتهم، إنه يواجههم بظلمهم وبغيهم، وينكر عليهم الوسائل التي اتبعوها لزيادة ثرواتهم، فدعوته ﷺ لم تقتصر على إصلاح العقيدة والعبادة، بل انتهت إلى إصلاح المجتمع كله وإصلاح أنماط التعامل والكسب فيه، فلا ينبغي أن يكون فيه احتيال وخداع، واعتداء على حقوق الضعفاء والغرباء، وأكل أموالهم بالباطل، فتصدوا له محاولين منعه عنها: ﴿قَالُوا

(١) الضرائب المأخوذة من التجار المسافرين.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٧٨/٨.

يَشْعِبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٦﴾ [هود: ٨٦].

ثم هددوه بإخراجه وإبعاده عن بلده لكي يأمنوا من خطر دعوته، وأخذوا
يلاحقون الذين استجابوا لدعوته، يؤذونهم، ويضيقون عليهم.
وانقسم المجتمع المدياني إلى طائفتين: الطائفة المؤمنة المستضعفة،
والطائفة الغنية المستكبرة.

وعزَّ على شعيب ﷺ أن يرى المؤمنين مضطهدين مستذلين، فطالب
بالكف عن أذاهم، وإعطائهم حرية العقيدة والعبادة، فقال:

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى
يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٧).

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا﴾
أي: احبسوا أنفسكم عن اضطهاد المؤمنين والعدوان عليهم، أعطوهم حريتهم.
﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: حتى يقضي الله بيننا فإنه سبحانه سينصر الحق
وأهله، ويخذل الباطل وأهله.
﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

فلا بدَّ للحق أن ينتصر إذا ما أتيحت له الحرية في مواجهة الباطل، وهو
ما طلبه شعيب من قومه عندما قال لهم: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي:
ارفعوا أيديكم عن المؤمنين، واتركوا الأفكار تتواجه بحرية، فنحن لا نجبركم
على الدخول في ديننا، فدعونا نبليَّ دعوة ربنا دون أن تضيقوا علينا.

وهذا ما كان نبينا محمد ﷺ يبحث عنه عندما أخذ يعرض نفسه على قبائل
العرب في المواسم، فكان يوافي في الموسم الحجاج في منازلهم في عكاظ
ومجنة وذئ المجاز، يدعوهم إلى أن يحموه حتى يبلغ رسالة ربِّه ﷻ (١).

(١) سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، للمؤلف، ص ١٩٥.

فعلى الدعاة في العصر الحاضر أن يدركوا أهمية الحرية لدعوتهم، عليهم أن يسعوا إلى إقامة المجتمع الحر، الذي يستطيعون أن يبلغوا فيه دعوة الله بحرية، فهي دعوة قوية مؤيدة بدلائل الحق يمكنها أن تكتسح جميع الدعوات المخالفة لها، إذا ما أتيح لها ميدان التفكير الحر الكريم.

• مصرع المستبدين:

ورفض القوم دعوة شعيب إلى الحرية، ورأوا فيها خطراً عليهم، فأجهزوا عليها، وفرضوا جوّ القهر والاستبداد على الناس.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰؤُكُمَا كَرِهَيْنِ﴾ ﴿٨٨﴾ .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فلا حرية لكم، إمّا الطرد والإبعاد عن الوطن، وإما أن تعودوا إلى العيش الذليل في ظلّ النظم الجائرة.

﴿قَالَ أُولَٰؤُكُمَا كَرِهَيْنِ﴾ أي: كيف نعود فيها ونحن كارهون لها؟! فالعقائد لا تُبنى بالإجبار والإكراه.

﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَلَّاحِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ .

﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ فبعد أن نجانا الله من هذه العقائد الفاسدة، وهدانا إلى الإيمان، وأذاقنا لذته وحلاوته، نرجع إليها! هذا لن يكون أبداً! .

قال شعيب ذلك على سبيل التغليب، إذ عدّ نفسه واحداً من الجماعة المسلمة التي كانت كافرة، ثم هداها الله تعالى، وإلا فهو لم يكن قط كافراً،

شأنه كشأن سائر الأنبياء ﷺ، لا يكون منهم كفر أبداً، محفوظون منه قبل النبوة، ومعصومون منه بعدها.

ثم ردَّ ﷺ الأمر إلى مشيئة الله تعالى وقدره فقال:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ إنه أدب الأنبياء الرفيع مع الله تعالى، فلا ينبغي للمؤمن أن يغتر بإيمانه، بل عليه أن يفوض الأمر إلى الله، وأن يسأله دائماً أن يثبت عليه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكما أن مشيئته سبحانه نافذة بكل شيء فعلمه أيضاً محيط بكل شيء:

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ فيجب الاعتماد عليه وحده.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في الثبات على الإيمان، والنجاة من كيد الأشرار.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: افصل واحكم بيننا وبينهم بالعدل.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي: خير الحاكمين.

ولم يستطع الطغاة المستبدون أن يمنعوا شعبياً من تبليغ دعوة ربه، إذ كان

من أشرف قومه، وله فيهم منعة وحماية، كما ذكر سبحانه في سورة هود:

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (٩١)، فالتفتوا إلى المؤمنين الضعفاء يتهددونهم، ويسومونهم أنواع

الأذى والاضطهاد:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِيُنِ أَتَّبِعْتُمْ شُعْبًا إِنَّا كُمْ إِذَا لَخِيرُونَ﴾ (٩٠).

تخسرون أرزاقكم، وتطردون من أعمالكم ووظائفكم، وتحرمون من

أسباب رزقكم ومعاشكم، كما يفعل الظالمون المستبدون في هذا العصر وفي

كل عصر، ولكن البغي والظلم لا يدوم، والله سبحانه يملئ للظالم حتى إذا

أخذه لم يفلته.

﴿فَاَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ (٩١).

﴿فَاَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة ومعها الصيحة، كما ذكر سبحانه في موضع آخر فقال: ﴿وَاَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧].
﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ هامدين، لا حراك فيهم ولا حياة.
وبهذا المصير الأليم سقط مجتمع الطمع والجشع والاستبداد، ودالت دولة المتكبرين الظالمين:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا فِيهَا الْخَسِرِينَ﴾ (٩٢).

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا فِيهَا﴾ كأنهم ما كانوا وما أقاموا في بلدهم دهرًا طويلاً، يتمتعون برغد العيش وسعة الرزق.
﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا فِيهَا الْخَسِرِينَ﴾ خسروا أموالهم وحياتهم وآخرتهم.
ولا يخفى التوافق بين تعليق الآية على هلاكهم وسقوطهم، وبين قولهم الذي كانوا يتوعدون به المؤمنين: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعْبًا لِنَكُنَّ لَكُمْ إِذَا لُخِرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٩٠] فمن الخاسرون: الهالكون أم الناجون؟!
ووقف شعيب عليه السلام على أطلال قومه ينظر نظرة الأسى والحزن، ثم أعرض عنهم:

﴿فَنُوحِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٩٣).

﴿فَنُوحِيَ عَنْهُمْ﴾ وهو يدفع حزنه وأساه.
﴿وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾. ثم سأل نفسه سؤال المتعجب من حزنه على هلاكهم، كأنه ينكر على نفسه أن تحزن عليهم:
﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فهم كافرون غير مأسوف على هلاكهم.

ولكن قلوب الأنبياء لا تحمل حقداً على أحد، ولا تريد للناس إلا الخير والسعادة.

• أزمات ومنعطفات:

وتوقفت الآيات قليلاً عن مسيرتها مع تاريخ الأمم الهالكة والحضارات الساقطة، وكأنها أرادت من وقفها هذه أن تعطي القارئ فترة تأمل وتفكير في أسباب هلاك هذه الأمم وسقوط حضارتها، كما أرادت أن تبين حقيقة بارزة في تاريخ الوجود البشري على الأرض، فحياة الأمم والشعوب لا تسير على نسق واحد، ولا تتبع خطاً واحداً، ثمّة منعطفات كبيرة تعترض مسيرتها، وأزمات كبيرة تواجهها، قدّرها العليم الحكيم، لكي تنتبه هذه الأمم إلى طريقها، وتتعرف على أخطائها، وتصحيح اتجاهها وخط سيرها، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ﴾ أي: بالبؤس والفقر، ونقص الأرزاق، وكساد الأسواق، وهو ما يسمّى في عصرنا الحاضر: الأزمات الاقتصادية، أو الكساد الاقتصادي.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: ضرر على صحتهم وأبدانهم، فتفشو بينهم الأمراض.

أو: ضرر ناتج عن الكوارث الطبيعية؛ كالأعاصير والفيضانات والزلازل. والآية لا تعني أن الأمراض والنكبات والأزمات تأتي مع دعوة الأنبياء ﷺ، وإنما تحدث هذه المصائب بعد إغراض الأمم عن دعوة الأنبياء، وبعد تكذيبها لهم، وهجرها لشريعة الله تعالى المنزلة عليهم. والحكمة منها:

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: لعل المعاندين المكذّبين تلين نفوسهم وتخضع

قلوبهم، فيقبلون على الله تعالى تائبين مستغفرين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٤٦) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٧) ﴿فَلَمَّا تَسَوَّأَ

ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ابْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٩٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٥﴾ [الأنعام].

فالأمة التي لا تنبها الشدائد والأزمات، وتظل سادرة في ضلالها، مصرّة على أخطائها، لا بدّ أن تصل في النهاية إلى حافة الهاوية والسقوط، والرخاء المادي الذي يأتي بعد الأزمات، هو مقدّمة الهلاك والدمار:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ والسيئة: كلُّ ما يسوء الإنسان، والحسنة: كلُّ ما يستحسنه الطبع والعقل، والمراد منهما هنا: الشدة والرخاء، والمعنى: أنه تعالى جعل مكان البأساء والضراء، النعمة والسعة والخصب والصحة^(١).

• مؤشرات الهلاك والسقوط:

﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أي: حتى كثروا، كثرت أولادهم، ونمت أموالهم، وأبطرتهم النعمة.

وكلمة (عفوا) توحى بحالة نفسية خاصة، حالة قلة المبالاة، حالة الاستخفاف والاستهتار.. وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة، حين يطولُ بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء - أفراداً وأممًا - كأن حساسية أنفسهم قد ترهلت، فلم تعد تفعل شيئاً، أو تحسب حساباً لشيء^(٢).

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ كما مسنا، وذلك من عادة الدهر وتقلباته، وتعاقب أحواله.

ردُّوا ذلك إلى الدهر، وغفلوا عن النواميس الإلهية في تدبير شؤون الخلق، وأنهم حسب الناموس الإلهي يُستدرجون إلى هاوية الهلاك والسقوط،

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/٦٠٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/١٣٣٧.

فأعمارُ الأمم والشعوب ليست كأعمار الأفراد، وسنن الله تعالى في خلقه لا تتغير كما مرَّ معنا، فلا ينبغي لنا أن نغترَّ بما نرى عند بعض المجتمعات الكافرة من رخاء في العيش، وسعة في المال، فقد يكون مقدمة الهلاك والدمار، وإنَّ من يتأمل في حياتهم، يجدهم في حقيقة الأمر أشقياء لا سعداء، ويرى عوامل السقوط ومقدمة الدمار تنخر في جسم مجتمعاتهم، فالتفكك الأسري والاجتماعي، والانحلال الخلقي، والشذوذ الجنسي، وانتشار الزنى حتى بين المحارم، وشيوع الأمراض الجنسية، والعقم والإيدز، والآفات الاجتماعية، كالمخدرات والخمور، والأمراض العصبية والنفسية، وعصابات المجرمين، وطرق التلقيح الشاذة، وبنوك النطف البشرية، والمتاجرة بها، وتلوث البيئة... إلخ، كلُّ هذا مؤشرات على اقتراب هذه المجتمعات من هاوية الهلاك والسقوط^(١).

﴿فَاخَذْنَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة على غير توقع.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو أشدُّ أنواع الهلاك، لأنه ينزل فجأة على غير توقع وانتظار، كما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذُ بك من زوالِ نعمتِكَ، وتحوُّلِ عافيتِكَ، وفجاءةِ نِقْمَتِكَ، وجميعِ سَخَطِكَ» [رواه مسلم (٢٧٣٩)].

• ترغيب وتحذير:

إنَّ بقاء المجتمعات واستمرار الحضارات منوط بمدى التزام الناس بدين الله وشرعه، ولو أنَّ أصحاب الحضارات البائدة والأمم الهالكة استجابوا لدعوة

(١) مسز بوش، زوجة رئيس أغنى وأقوى دولة في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) تحدثت فقالت: مشاكلنا: الإدمان، والأمهات الأطفال (شابات في عمر ١٤ عاماً و ١٥ عاماً أمهات بلا أزواج)، وقضية الأسر المفككة، والبطالة... العاصمة فيها أكبر نسبة من الجرائم والتشرد والتسيب. (مجلة الوطن العربي، العدد ١١٩).

أنبيائهم، ما حلَّ بهم الهلاك والدمار، بل زادهم الله تعالى من نعمه، وأمدهم بأسباب العيش الكريم والحياة السعيدة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ التي أهلكها الله تعالى بسبب كفرها وظلمها.

﴿ءَامَنُوا﴾ بالله تعالى.

﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما حرم سبحانه عليهم.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليسرنا لهم سبل العيش الكريم

السعيد من كلِّ جانب.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ الأنبياء، فلم يؤمنوا، ولم يتقوا.

فالأزمات الاقتصادية، والكوارث والنكبات، وانتشار الأمراض، وقيام الحروب والفتن؛ لا تكون إلا بسبب ابتعاد الناس عن دين الله وخروجهم على طاعته.

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بإرادتهم واختيارهم.

فمتى يدرك الناس هذه الحقيقة؟! فالله سبحانه ما خلقهم ليفسدوا في الأرض، ويطغى بعضهم على بعض، وما استخلفهم إلا ليعمروا الأرض بطاعته، وينشروا العدل في ظل شريعته، وعليهم أن يعتبروا بمصير الأمم قبلهم، وأن يكونوا على حذر من عذاب الله تعالى وانتقامه.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾ ليلاً.

﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾؟! والاستفهام ينكر عليهم ما هم فيه من غفلة وعدم انتباه،

والاعتبار بمصائر الأمم السابقة، وهو موجَّهٌ إلى سكان المدن والحوضر، لأنَّهم في العادة أكثر انشغالا بشؤون الحياة، وانهماكاً بملذَّاتها.

﴿أَوَامِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩٨).

﴿أَوَامِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى﴾ نهاراً.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وهم يلهون، ويشغلون بما لا فائدة فيه.

وكأن هذا الإنكار موجّه في العصر الحاضر إلى الملايين من سكان الحواضر، الذين يتكدّسون في الملاعب وصلات اللهو والعبث، يمشون ويهيجون، ويرتفع صراخهم وضجيجهم لحركة لاعب، أو انشَاء راقصة، غافلين عن مصيرهم.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩).

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ بأسه ونقمته، وقدرته عليهم، وأخذه إياهم، وهم في حال لهوهم وغفلتهم.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين ضيعوا حياتهم وأعمارهم في لهوهم وغفلتهم.

قال الحسن البصري رحمته الله: المؤمن يعمل بالطاعات؛ وهو مشفق وجلّ، والفاجر يعمل بالمعاصي؛ وهو آمن^(١).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يبين.

﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي: يخلفون من كان يعيش قبلهم في الأرض، ويرثون ديارهم، كما قال سبحانه: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٨/٢.

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ [إبراهيم: ٤٥]؛ إنها دعوة للانتباه والاعتبار.

﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أنه سبحانه قادر على إهلاكهم بذنوبهم ومعاصيهم، كما أهلك الذين من قبلهم.

ثم بيّن سبحانه أنهم في قبضته وقدرته، ورهن إرادته ومشيتته، فقال:

﴿وَنَطِيعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ونحن نختم على قلوبهم، فلا سلطان لهم عليها، وإذا ختم عليها بسبب ذنوبهم، أصبحت محجوبة عن قبول أي موعظة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع الانتفاع والتدبر والاتعاظ.

• تشبیت ومواساة:

والتفتت الآيات إلى النبي ﷺ تواسيه وتثبته في مواجهة عناد قومه وإعراضهم:

﴿تِلْكَ الْأَقْرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿تِلْكَ الْأَقْرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الحجج والبراهين الدالة على صدقهم وصحة رسالتهم، تماماً كما جئت قومك بالبيّنات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾؛ لأنهم اعتادوا على تكذيب الحق، وأدمنوا على الباطل، واستمروا على ذلك بعد بعثة الرسل ومجيئهم بالبيّنات، كأنه لم يرسل إليهم أحد، أو كأنهم لم يروا حجة، ولم يشاهدوا معجزة، فاستمروا على التكذيب والكفر بعد رؤية الحجج ومشاهدة المعجزات، ولم ينتفعوا بها.

فللعادات والتقاليد التي ألفها الإنسان تأثير كبير عليه، ولقد ألف القوم الكفر والضلال، وطال عليهم الأمد فيه، حتى أصبحت قلوبهم قاسية متحجرة،

لا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكراً، إلا ما يتصل بأهوائها وشهواتها، ولهذا ختم الله عليها:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ وإذا طبع الله على قلوبهم، حُجِبَتْ عن سماع دعوة الخير والتأثر بها.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أي: لأكثر الأمم الماضية.

﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: وفاء بالعهد.

﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الطاعة، ناكثين للعهد.

والمراد بالعهد: إما عهد الفطرة التي فطركم الله سبحانه عليها، والذي سيأتي الحديث عنه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

أو عهد الإيمان الذي كلّفوا به بواسطة المرسلين، ونصبت لهم من أجله الدلائل والحجج، وأنزلت الآيات، وأجريت المعجزات.

وما دام شأن أكثر الناس عدم الوفاء بالعهد، فلا عجب أن تلقى من قومك ما تلقى من عناد وإعراض، فشأنهم في هذا شأن أكثر الناس من قبلهم.



الْفَصْلُ السَّابِعُونَ

مُوسَى وَفِرْعَوْنُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ
 الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ
 عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١١٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ
 بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١١٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ
 فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنُّظُرِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ
 مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٢١﴾ يَا ثُوكَ بِكُلِّ
 سَجِرٍ عَلِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالَ
 نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا يَكُومُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكِينَ ﴿١٢٥﴾ قَالَ
 أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى
 مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٢٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ فَغُلِبُوا
 هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١٢٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ رَبِّ مُوسَى
 وَهَارُونَ ﴿١٣٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا
 أَهْلَهَا فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَلِّتَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا إِنَّا
 إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا نَنْقُمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفَرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا
 مُسْلِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ
 قَالَ سَنْقُبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٣٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
 وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوا أَوِذِنَا
 مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي

الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحُسَنَاءُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيَتَسَحَّرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَنْ كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

• بنو إسرائيل في مصر:

وعادت الآيات بعد هذه الوقفة التأملية القصيرة، إلى متابعة حركة التاريخ البشري، ففتحت صفحة التاريخ على قصة موسى عليه السلام مع فرعون وبني إسرائيل والمجتمع المصري.

كان المصريون في تلك الفترة يضطهدون بني إسرائيل ويظلمونهم، لأنهم غرباء عنهم، إذ رحل آبائهم إلى مصر، وسكنوا فيها، في زمن يوسف عليه السلام، عندما كانت مصر تحت حكم ملوك الهكسوس.

ويلاحظ أنَّ الآيات توقفت طويلاً عند هذه القصة، حتى أخذت من السورة مساحة كبيرة، إذ تناولت فيها الحديث عن أمتين ومجتمعين، وعن نبين كريمين، أُرسلوا معاً في وقت واحد، هما موسى وهارون عليه السلام، كما يلاحظ أنَّ القصة لم تنتهِ عند هلاك فرعون وجنوده، كما حدث في القصص السابقة، بل امتدَّ حديث الآيات عن الناجين من ظلم فرعون، ماذا فعلوا بعد نجاتهم، وكيف

كان موقفهم من موسى وهارون عليهما السلام، وكيف كان تمسكهم والتزامهم بالشرعة التي كُلفوا بها.

رسمت الآيات في بداية القصة خطاً بيانياً عاماً لأحداثها، بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الرسل الذين سبق ذكرهم.

﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات التي أيدناه بها.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها.

فالأيات واضحات، ومع ذلك كذب بها فرعون وملؤه بدل أن يصدقوا بها، وهو عين الظلم، لأنه وضع الشيء في غير موضعه.

﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض.

● مهمة موسى عليه السلام:

ثم شرعت الآيات تفصل حوادث القصة، وبدأت تصف المواجهة الأولى بين موسى عليه السلام وفرعون:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤).

ناداه باللقب الذي كان يُنادى به ملوك الأسرة المصرية الحاكمة تأليفاً له، ثم عرّفه بصفته المتعلقة بمهمته، ولم يعرفه بنفسه، لأن فرعون كان يعرف موسى، فقد نشأ في قصره، وتربى في كنفه.

وكلمة موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كبيرة، ودعوى عريضة، فوجئ بها فرعون وهو في مجلس ملكه، يحيط به وزراؤه وقواده وأعوانه، وقد صدرت عن موسى بصيغة التأكيد والقطع، مما يدل على شدة ثقة موسى عليه السلام بنفسه الذي تابع كلامه مؤكداً صدق رسالته قائلاً:

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٠٥).

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ وفي قراءة (حقيق عليّ) أي: واجبٌ عليّ ألا أقول على الله إلا الصدق، لأنّ الأنبياء والمرسلين هم أعرف الناس بجلال الله تعالى وكماله، وأكثرهم خشية وتعظيماً له، فلا يخبرون عنه إلا ما هو حق وصدق، ومع ذلك:

﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بحجّة قاطعة تدلّ على صدق رسالتي.
﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وظلمك، ودعهم لكي يذهبوا معي إلى الأرض المباركة.

فمهمة موسى لم تكن قاصرةً على تبليغ الدعوة، كما فعل سلفه من الأنبياء والمرسلين، فمن مهمته أيضاً أن ينقذ بني إسرائيل من ظلم فرعون، ويخرجهم من مصر إلى الأرض المباركة في فلسطين.

● المعجزتان:

وطلب فرعون من موسى أن يظهر المعجزة، ويقدم البيّنة:

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَابِتَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ (١٠٦).

في دعواك أنك رسول من رب العالمين، فبادر موسى ﷺ إلى إظهار المعجزة الأولى دون تردد:

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٠٧).

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ ألقي موسى عصاه، فانقلبت بعد إلقائها بقدرة الله ومشيبته إلى ثعبان حقيقي ظاهر واضح.

وقبل أن يستيقظوا من هول المفاجأة، أظهر ﷺ المعجزة الثانية:

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٠٨).

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه.
﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ بياضاً نورانياً خارجاً عن المألوف والمعتاد.
وجحد فرعون وبطانته المعجزتين، وأتھموا موسى ﷺ بالسحر:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٩).

ماهر في السحر. وأضاف فرعون تهمة ثانية فقال:

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾ (١١٠).

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ أرض مصر، إنها عقدة الحاكم الظالم المستبد، فكل معارض لظلمه واستبداده يتهم بأنه طامع في الحكم والسلطان.
﴿فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾ أي: تشيرون في أمر هذا الذي يزاحمكم على السلطة والحكم.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِرِينَ﴾ (١١١).

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخر أمرهما، وأصل (أرجه) أرجئه.
﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِرِينَ﴾ وأرسل في المدن رجالاً يجمعون السحرة ويأتون بهم:

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ (١١٢).

ويبدو أن صناعة السحر والشعوذة كانت رائجة في المجتمع المصري في ذلك العصر.

وطلب السحرة الأجر من فرعون:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾.

سألوه الأجر على ما يقدمون من سحر إن تغلبوا على موسى عليه السلام، فالسحر صنعتهم، ومورد رزقهم.

وفي قراءة (أُتِنَ لَنَا لأجراً؟) بصيغة الاستفهام المفيد للشرط، فهم لا يهتمون بغير المال والمكافأة، ولا يرون في الموضوع أي صلة بالدين والعقيدة. ووعدهم فرعون ومناهم:

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

﴿قَالَ نَعَمْ﴾. وأطعمهم بالمكانة والتعظيم:
﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

● المباررة:

واجتمع الناس في ميدان كبير خارج المدينة في ضحى يوم عطلة وراحة وزينة، كما ذكر سبحانه في سورة طه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخْشَرَ النَّاسُ ضَحًى﴾. ووقف موسى عليه السلام في مواجهة السحرة، الذين خيروه قائلين:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَن تُلْقَى وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

وتدل كلماتهم هذه على رغبتهم في أن يقدموا عروض سحرهم قبل موسى عليه السلام، لكي يصرفوا أعين الناس إليهم، فالساحر لا يستطيع أن يغير حقيقة الشيء، ويقلبه عن ماهيته، ولكنه يستطيع أن يجعل الناظر إليه يتخيل ذلك. وأجابهم موسى على سبيل التحدي:

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما يحملون من حبال وعصي.

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي: صرفوا أعين الناس عن الحقيقة، وهي أن

حبالهم وعصيتهم لا تزال كما هي جامدة لا تتحرك، وجعلوا الناس يتخيلون أنها تتحرك، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوُا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه].

واستعان السحرة للوصول إلى مأربهم ببعض الحركات والأصوات المربعة المخيفة، دلَّ على ذلك قوله سبحانه:

﴿وَأَسْرَهُبُهُمْ﴾ أي: استدعوا إدخال الذعر والخوف في نفوس الناس.
 ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ عظيم في فن السحر، أو في نظر الناس المشاهدين لهم.
 وتأثرت الجموع المحتشدة بما شاهدت، وهاجت واضطربت، حتى إن موسى ساوره شيء من الخوف والقلق أن تضيع الحقيقة بين ركام هذا الباطل، ولكن الله سبحانه ثبته وبشّره بالنصر والظفر، فالحقيقة لن تضيع في ركام الباطل لأنها مؤيدة من الله تعالى، قال سبحانه في سورة طه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴿١١٨﴾. ثم أمره أن يلقي عصاه:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ ﴿١١٧﴾.

وما إن ألقاها حتى انقلبت بقدره الله تعالى حية عظيمة، ابتلعت كل وسائل الكذب التي ألقاها السحرة في الميدان.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٨﴾.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فظهر الحق وانجلي وثبت.
 ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والتمويه والكذب، لمعارضة المعجزة.

﴿فَعُتِلُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ ﴿١١٩﴾.

﴿فَعُتِلُوا هُنَالِكَ﴾ أي: غلب فرعون وملؤه وجنوده هنالك في ميدان التحدي.
 ﴿وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ وصاروا ذليلين مبهوتين.

• هزيمة الباطل:

وأما السحرة فكان لهم شأن آخر، عرفوا حقيقة المعجزة، وعظمة خالقها، فخرُّوا على الأرض ساجدين لله ﷻ:

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

كأنما ألقاهم على الأرض مُلقٍ، مما يدُلُّ على أن الحقَّ بهرهم، فلم يتمالكوا أنفسهم من عظمة ما شاهدوا، واضطروهم إلى السجود لرب العالمين، وأعلنوا إيمانهم به، وانقيادهم لأمره، واتباعهم لرسوله:

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢١﴾

ولم يكن إيمان السحرة هزيمة للطغيان والاستبداد فقط، وإنما كان أيضاً كشفاً لزيهه، وإظهاراً لقبحه وخداعه، ولهذا لجأ فرعون لكي يستتر على هزيمته ومساوئه، إلى أسلوب التهديد والوعيد، وتوجيه التهم إلى المؤمنين:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنَتمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنَتمْ بِهِ﴾ بالله تعالى.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: من غير أن آذن لكم.

فمعنى (قبل) هنا: من غير، كما في قوله تعالى: ﴿لَنفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]^(١) أي: من غير أن تنفذ كلمات ربي، فكللماته سبحانه لا تنفذ. ولو أن السحرة استأذنوا فرعون بالإيمان بالله تعالى وتصديق دعوة موسى وهارون، فلن يأذن لهم، لأنه لن يتخلَّى عن استبداده وطغيانه.

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢/ ٢٦١.

وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يدلُّ على شدة تكبره وطغيانه، فكأنَّ سلطان القلوب بيده، وتحت أمره ومشيتته، ورحم الله سيد قطب عندما قال: «كأنَّما كان عليهم أن يستأذنه في أن تنتفض قلوبهم للحق، وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها، أو أن يستأذنه في أن ترتعش وجداناتهم، وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً، أو يستأذنه في أن تشرق أرواحهم، وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها، أو كأنَّما كان عليهم أن يدفعوا اليقين، وهو ينبت من الأعماق، أو أن يطمسوا الإيمان، وهو يترقرق من الأغوار، أو أن يحجبوا النور، وهو ينبعث من شعاب اليقين»^(١).

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ﴾ أي: إن ما صدر عنكم كان مؤامرة تمَّت بينكم وبين موسى سرّاً.

﴿فِي الْمَدِينَةِ لُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: لتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وأصحاب السلطة والسلطان فيها، وتحلُّوا محلَّهم وتصبح الدولة والسلطة لكم. إنه الأسلوب نفسه الذي يلجأ إليه المستبدُّون في كلِّ عصر ليستروا فسادهم واستبدادهم، ويخنقوا معارضيهم، ويتمكَّنوا من تصفيتهم والقضاء عليهم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تأمركم.

ثم فصل ما أجمل من تهديد ووعد، فقال:

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ اليد من جانب، والرجل من جانب آخر. ﴿ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على جذوع النخل، كما جاء في سورة طه: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِبْرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُسْلِبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٧١).

إنه التهديد بالعذاب حتى الموت بعد أن اتهمهم بالتآمر مع موسى ﷺ مع

أنه ما كان يعرفهم ولا رآهم ولا اجتمع بهم، وفرعون يعلم ذلك، وما قال ما قال إلا تستراً وتدليساً على رعا دولته وجهلتهم، كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (١).

• الشهداء البررة:

ولم يتأثر السحرة بتهديد فرعون ووعيده، ولم تتزعزع قلوبهم المؤمنة التي كانت قبل الإيمان متعلقة بالدنيا ومتاعها الزائل، كما مر معنا في قولهم لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

إنها الآن تتحدى جبروت الطاغية، ولا تبالي بتهديده ووعيده، وتستعلي على الدنيا بكل ما فيها من شهوات وأموال ورتب ومراتب:

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٥).

راجعون، وما عنده سبحانه من الثواب والنعيم أعظم وأبقى، وذكر سبحانه في سورة طه أنهم قالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٦) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (٧٧).

وقالوا له أيضاً في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٥٠) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِئَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥١).

فهم لا يبالون بتهديده ووعيده، بل واجهوه أيضاً بالحقيقة التي حاول التستر عليها باختراع تهمة التآمر والمؤامرة، فقالوا له:

﴿وَمَا نُنْفِمْ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٢٦).

﴿وَمَا نُنْفِمْ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ أي: وما تعيب علينا وتريد

(١) وانظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٤٣/٢.

الانتقام منا إلا لأننا آمنّا بالبراهين والدلائل التي هدانا ربنا إليها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

فلم يكن إيمان السحرة مجرد عاطفة ثارت في صدورهم عندما رأوا المعجزة، بل كان إيماناً عقلياً بعد التفكير والتدبر في آيات الله سبحانه، ثم توجهوا إلى الله تعالى يستمدّون منه الصبر والثبات، ويستعينون به على مواجهة ظلم الطاغية المستبد:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صب علينا من الصبر ما يغمرنا ويملاً قلوبنا.
﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، غير مفتونين ببغي الظالمين وعدوانهم.
وهكذا تحول السحرة من كفرة فجرة إلى شهداء بررة.

● بطانة السوء:

يبدو أن فرعون كان يتهيب من موسى عليه السلام في أول الأمر، ويخشى أن يمسّه شيء من الأذى، ولعلّ السبب أنه كان يتقن في قرارة نفسه صدق موسى، ولا بد أن تكون المعجزة قد تركت في نفسه الخوف والرغبة من أذاه، فلم يُنزل به ما أنزل بالسحرة من التعذيب والتقتيل، حماه الله سبحانه مع أخيه هارون من بطش الطاغية وظلمه كما وعدهما عندما كلّفهما بالرسالة: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ [١٢٥] قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿[طه]:

وعزّ على بطانة السوء، التي تحيط عادةً بأمثال فرعون من الحُكّام المستبدّين، أن يروا دعوة موسى مستمرة، فهي خطر على مصالحهم ومناصبهم، فشرعوا يحرضون فرعون على البطش بموسى وقومه:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنَقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [١٢٧].

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أتترك موسى وقومه لينشروا الفساد في أرض مصر؟! .

إِنَّهُمْ يَرُونَ فِي الْإِيمَانِ فُسَاداً ، لِأَنَّهُ يَهْدِدُ مَصَالِحَهُمْ وَمَرَاتِبَهُمْ وَامْتِيَازَاتِهِمْ .
﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أَي : وَيَتْرَكَ وَمَعْبُودَاتِكَ ؛ وَهِيَ الْأَصْنَامُ الَّتِي اتَّخَذَهَا ،
وَأَمَرَ قَوْمَهُ بِعِبَادَتِهَا ، وَفِي قِرَاءَةِ (وَالْهَيْتِكَ) كَعِبَادَتِكَ لَفْظاً وَمَعْنَى ، أَي : وَيَتْرَكَ
وَيَتْرَكَ عِبَادَتَكَ ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْعِبَادَةِ مَعْنَاهَا الْعَامُ ، وَهُوَ الطَّاعَةُ .

وَيَصْعَبُ عَلَى الطَّغَاةِ الْمُسْتَبِدِّينَ أَنْ يَرَوْا أَحَدًا يُخْرِجُ عَلَى طَاعَتِهِمْ ،
وَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ ، لِأَنَّهُمْ عَاتَدُوا عَلَى اسْتِعْبَادِ النَّاسِ ، فَكَلِمَاتُهُمْ تَشْرِيعٌ لَهُمْ ،
وَالْوَيْلُ لِمَنْ يُخَالِفُهَا ، يُتَّهَمُ فَوْرًا بِالْفُسَادِ وَالْخِيَانَةِ وَالتَّامَرِ وَالْعِمَالَةِ لِلْأَجْنَبِيِّ . .
وَيَكُونُ مَصِيرُهُ السَّجْنَ وَالتَّعْذِيبَ وَالْإِعْدَامَ .

وَعَرَفَ الْمُقْرَبُونَ مِنْ فِرْعَوْنَ كَيْفَ يَثِيرُونَ غَضَبَهُ عَلَى مُوسَى وَالْمُؤْمِنِينَ ، إِذْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ مَدَى تَأَلُّهُهُ وَحِرْصَهُ عَلَى الْاسْتِبْدَادِ وَالتَّسْلُطِ وَالطَّغْيَانِ ، فَجَحُّوا
بِأَسْلُوبِهِمْ هَذَا فِي إِثَارَةِ غَضَبِهِ :

﴿قَالَ سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِذْ
أَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ مَوْلُودٍ ذَكَرَ فِيهِمْ وَتَرَكَ الْإِنَاثَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ :
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي
نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ①﴾ ، وَالسَّبَبُ أَنَّ الْمُنَجِّمِينَ وَالْكَهَنَةَ أَخْبَرُوهُ بِزَوَالِ
مُلْكِهِ عَلَى يَدِ مَوْلُودٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ اقْتَرَبَ زَمَنُهُ .

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أَي : غَالِبُونَ .

وَتَدُلُّ كَلِمَتُهُ هَذِهِ عَلَى شِدَّةِ تَكَبُّرِهِ وَطَغْيَانِهِ وَظُلْمِهِ ، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ بِهَذِهِ أَنْ
يَطْمَئِنُّ رِجَالُ حَاشِيَتِهِ الْخَائِفِينَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ مِنْ دَعْوَةِ مُوسَى ﷺ .

● المحنة :

وَبَدَأَتْ مُحَنَةُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْ فِرْعَوْنَ ، وَأَخَذَ
مُوسَى وَأَخُوهُ هَارُونَ بِتَثْيِيتِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَقْوِيَةِ عَزَائِمِهِمْ فِي مُوَاجَهَةِ الْمُحَنَةِ :

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

فالأمر ليس كما زعم فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فالظلم لا يدوم، والطغيان لا يستمر، وهما من أعظم أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، والعاقبة الطيبة للمصلحين المتقين، لا للمفسدين الظالمين.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿قَالُوا﴾ قوم موسى:

﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة والدعوة، وهي المحنة الأولى.

﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ نبياً ورسولاً، تدعو إلى عبادة الله وحده.

ولا يخفى ما في كلامهم من تبرُّم وشعور بالخيبة من دعوة موسى ﷺ، كأنهم أشاروا إلى موسى ﷺ بأنَّ دعوته لم تغيِّر شيئاً من أحوالهم السيئة.

وتكشف كلمتهم هذه عن طبيعتهم المادية، فالهمم عندهم أن تتغيَّر أوضاع حياتهم ومعيشتهم أكثر من التغيُّر الذي حدث في عقيدتهم وعبادتهم.

فما كان من موسى ﷺ إلا أن بشرهم بقرب نصر الله تعالى:

﴿قَالَ عَنِ رَبِّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ وتصبحوا أصحاب السلطة والسلطان.

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ما تعملون من خير أو

شر، وطاعة أو عصيان، فيجازيكم عليه، فالله سبحانه لا يجازي العباد على حسب علمه، إنما يجازيهم على حسب عملهم.

وفي كلماته ﷺ تعريض بقومه، فكأنه أشار إليهم بأنَّ الظلم والفساد

يمكن أن يقع منكم كما وقع من فرعون وملائه، والله سبحانه يبتلي عباده بالخير

والشر، كما في قوله: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وهو سبحانه يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون.

واستمرت المحنة سنوات كثيرة، ومن لطفه سبحانه ورحمته بعباده المؤمنين الممتحنين، أنه أنزل في أثنائها الكوارث والنكبات بفرعون وقومه، فشغلوا بها عن تعذيب المؤمنين واضطهادهم، حتى إنهم طلبوا في آخر الأمر من موسى ﷺ أن يسأل الله تعالى أن يرفعها عنهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِاللِّسَنِ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِاللِّسَنِ﴾ أي: بسنوات القحط والجذب.

﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وتلف في المحاصيل الزراعية بما يصيبها من الآفات.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لعلهم يتعظون، فالشدائد قد ترقق القلوب، وتلين

النفوس، ولكن قلوبهم لم تلن بسبب شدة قسوتها وتحجرها، وظلُّوا على كفرهم وعنادهم.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ الغيث والخصب والسعة.

مما يدلُّ على أنَّ سنوات الجذب والقحط ما كانت متوالية، فقد تخللتها

سنوات خير وخصب، فلم يقدِّر سبحانه استئصالهم بالقحط والجذب.

﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: نحن مستحقون لها، ونحن أصحابها وأهلها، ولم

يردُّوها إلى الله تعالى، ويشكروه عليها.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ تسوءهم كالقحط والجذب وتلف المحاصيل.

﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: يتشاءموا بموسى والمؤمنين، ويقولوا: هذا

القحط والبلاء بسببكم، ولولا وجودكم بيننا لما أصابنا هذا الجذب والقحط.

وهذا شأن الكافرين في كل مكان وزمان، يردُّون الحوادث إلى غير خالقها ومدبرها سبحانه، فالخير لهم، والشر بسبب مخالفتهم، قال سبحانه في سورة يس: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وكان الكفار يقولون مثل هذا لرسول الله ﷺ كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨].

وردَّ سبحانه على فرعون وملئه بقوله:

﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ما يصيبهم من خير أو شر فبمشيئة الله تعالى وتقديره.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن كل شيء بقدر من الله تعالى، وأنه سبحانه خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل.

• الآيات المفصلات:

واستمرَّ موسى عليه السلام يدعوهم ويدكرهم، واستمرُّوا على طغيانهم وفسادهم، وأرادوا منه أن يكفَّ عن دعوتهم:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْنَيْنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْنَيْنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ﴾ أي: من معجزة، قالوا له ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية.

﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ وتصرفنا بها عما نحن عليه.

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

وكانت كلمتهم هذه الدالة على شدة إصرارهم على باطلهم، بداية مرحلة جديدة من الابتلاء أشد وأشق من المرحلة الأولى؛ أرسل الله عليهم فيها أنواعاً متعددة متوالية من النكبات والمصائب:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا
تُجْرِمِينَ﴾ (١٣٣).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ الأمطار والسيول التي طافت بهم، وطغت على أراضيهم ومدنهم وبيوتهم.

﴿وَالْجَرَادَ﴾ الذي أتى على زروعهم وثمارهم ومحاصيلهم.

﴿وَالْقُمَّلَ﴾ في أشعارهم وأبشارهم يمتص دمائهم.

﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ ملأت مياههم وأنيتهم.

﴿وَالذَّمَاءَ﴾ الرعاف الدائم^(١) الذي كاد أن يهلكهم، ويستنزف دماءهم.

﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ واضحات، أو أتت هذه المعجزات متواليات متميزات عن بعضها، ومع كل ما تقدّم لم يؤمنوا.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا تُجْرِمِينَ﴾ عريقين في الإجرام.

ثم سلّط الله عليهم بلاء أشد من كل ما تقدّم، وهو الطاعون، فمات منهم به خلق كثير:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَىٰ آدَعُ لَنَا رَبُّكَ يَمَا عَهْدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا
الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٣٤).

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: أصيبوا بالطاعون، حتى كان الذي يُصاب به يُهجّر، فلا يقترب منه أحد، ولا يدفن، وقد ابتلي به بنو إسرائيل بعد ذلك بسبب معاصيهم كما سيأتي معنا.

وفي الحديث الشريف: عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجزٌ أو عذابٌ أُرسل على بني إسرائيل، أو على مَنْ كان قبلهم، فإذا

(١) انظر: تفسير النسفي: ٢/٦٢٠.

سمعتُم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه» [رواه البخاري (٣٤٧٣) ومسلم (٢٢١٨)].

﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدُعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بما أكرمك من كرامة وإجابة الدعوة.

﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ أي: لئن دعوت الله وكشف عنا هذا الوباء الذي ابتلينا به.

﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾؛ وهكذا ألان الطاعونُ نفوسَهم، وأزال شيئاً من قسوة قلوبهم، فوعدوا موسى بالإيمان برسالته، والسماح لبني إسرائيل أن يخرجوا معه إلى الأرض المباركة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ (١٣٥)

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ﴾ بدعوة موسى ﷺ.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ أي: كشفه سبحانه عنهم إلى أجل معين قدره العليم الحكيم لهلاكهم، وما وعدوا به موسى من استجابة لدعوته لم يكن سوى انعكاس لحال الخوف والرعب الذي نزل بهم، فما كانوا صادقين في وعدهم، والله سبحانه يعلم حقيقتهم، وما رفع عنهم الطاعون إلا استدراجاً لهم إلى الأجل الذي قدره سبحانه لهلاكهم واستئصالهم.

﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي: ينقضون عهدهم مع موسى ﷺ، ويرجعون إلى بغيهم وطغيانهم.

وهذا حال كثير من الناس؛ يلجؤون إلى الله تعالى وقت الشدة والخطر فقط، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (١٣٥) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٣٦﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِثَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل].

● هلاك الطاغية وجنوده:

رفع الله عن فرعون وقومه أنواع الابتلاء الذي أنزله بهم، وانتهت مرحلة

البأساء والضراء، وأتت بعدها حالة السعة والرخاء، لتكون مقدّمة لهلاكهم، بحسب سنّته سبحانه في خلقه التي سبق الحديث عنها عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَاسِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩١) ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأعراف].

ولما بلغوا الأجل المقدّر لهلاكهم، أهلكهم سبحانه:

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (١٣٦)

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ في البحر العميق.

﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى.

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ معرضين ومشغلين بشهواتهم وأهوائهم.

وما أنزل الله تعالى العذابَ والهلاكَ على المجتمع المصري كلّهُ، كما فعل في المجتمعات البشرية الماضية التي قصّ علينا خبرها، قوم نوح وعاد وthumb و قوم لوط و قوم شعيب، إنّما أنزل سبحانه عذابه بفرعون وأعدائه وجنوده فقط، وأخبر عن ذلك في قوله في سورة القصص: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠١).

ويلاحظ أنّ الآيات في سورة الأعراف فصلّت في قصة موسى وفرعون المراحل والحوادث التي سبقت هلاك فرعون وجنوده، فذكرت وقائع في القصة غير موجودة في غيرها من السور، ولمّا وصلت إلى هلاكهم ذكرته مجملًا، وتركت تفصيله إلى سور أخرى في القرآن الكريم كسورة يونس وطه، ولعلّ سبب ذلك أنّ السورة اهتمّت بالحديث عن الأسباب المؤدّية إلى هلاك الأمم وسقوط الحضارات، ولهذا فصلّت الحوادث التي أدّت إلى الهلاك إبرازاً لأسبابه وانسجاماً مع موضوعها الأساس.

أدّى هلاك فرعون وجنوده إلى انتعاش بني إسرائيل وظهورهم وقوتهم كما أدّى أيضاً إلى انكماش الحضارة المصرية وتآكلها وسقوطها:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ
وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ وهم المؤمنون من بني إسرائيل الذين
كانوا يعانون من ظلم فرعون.

﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الأرض المباركة في بلاد
الشام.

ولم يتم لهم هذا بعد هلاك فرعون مباشرة، لأنهم - كما سيأتي معنا -
ما أطاعوا موسى ﷺ، وما شكروا الله على ما أنعم عليهم، وإنما تم لهم هذا
بعد مرحلة التيه في سيناء، وقد وصلوا إلى ذروة التمكين والاعتزاز في عهد داود
وسليمان ﷺ، ولم يدم لهم طويلاً بسبب فسادهم وعصيانهم^(١).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: أهلك سبحانه
عدوهم، ونجّاهم من ظلمه بسبب صبرهم مع موسى ﷺ على الشدائد والمحن.
﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من العمران والقصور.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ في الحدائق والبساتين.

ولم تفصل الآيات كيفية تدمير المنشآت الحضارية الكبيرة التي كانت في
مصر، والتي لا يزال بعض أثارها قائماً حتى العصر الحاضر، تدلُّ على ضخامة
هذه الصروح العمرانية، وعلى القوة المادية الكبيرة التي بلغت الحضارة المصرية
القديمة، وإنما اكتفت الآيات بالإخبار عن سقوطها، وانتهاء دورها التاريخي،
بعد أن فصلت الأسباب التي أدت إلى ذلك.



(١) انظر تفصيل ذلك في: (تفسير سورة الإسراء) في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد سمّيناه:
(المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

الْفَصْلُ السَّابِعُ

بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَخْبَلْتُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَتُ رَبِّيَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرْنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرْنِي فَلَمَّا بَلَغَ رُتْبَهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَامِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ

بِرَحْمَتِنَا رَبُّنَا وَيَعْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا
 قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخِذٌ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ
 ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْأَوْجُلَ سِينًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ
 ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا
 سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾
 وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ
 قَبْلِ وَارْتَىٰ أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ
 وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَكَتَبْنَا لَكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
 إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ
 يَنْقُوتُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
 الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
 الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
 يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَ قَوْمُهُ ۖ آتِ
 أَصْرِبَ بَعْصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ
 وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
 ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا
 مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ

سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رَجُزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ نَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَّا رِبْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ بِنَقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَهْمِئْنَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبُكُمْ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسَوِّمُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَسْمًا مِنْهُمْ الصَّدِيقُونَ وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأَخْرَجَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَافِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْفَيْصَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ يَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَنْتَلِ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَرَكَهْ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَدَّ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسُ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

• جهل ونكران:

لم تتوقف الآيات في هذه القصة عند هلاك المكذبين، كما فعلت في القصص السابقة، بل تابعت الحديث عن بني إسرائيل مع موسى وهارون عليهما السلام، وهم في طريقهم بعد خروجهم من مصر إلى الأرض المباركة، إلى فلسطين:

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: يَسَّرَ الله تعالى لهم اجتياز البحر، ففتح لهم فيه طريقاً، كما قال سبحانه في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى ﴿٧٧﴾﴾.

وقال أيضاً في سورة الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ أي: مرَّ موسى وبنو إسرائيل على قوم. ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يواظبون على عبادة أصنام، فأعجب بنو إسرائيل بهذه العبادة!.

﴿قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ صنماً نعبده.

﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ كما لهؤلاء القوم أصنام.

إنه طلبٌ عجيبٌ، يطلبونه من نبيِّ الله موسى عليه السلام الذي يدعوهم إلى عبادة الله وحده، والذي أخرجهم من مصر تحت راية التوحيد، وغضب عليه السلام من طلبهم هذا وردَّ عليهم:

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَٰجِلُونَ﴾ عظمة الله تعالى، وأنه هو وحده المستحق للعبادة.
 أو: إنكم متصفون بصفة الجهل، وهي السفه والحماقة والطيش؛ فمن
 قريب رأوا الآيات العظيمة التي تدلُّ على عظمة الخالق سبحانه: انفلاق البحر،
 وإهلاك فرعون وجنوده، ونجاتهم من ظلمه وطغيانه، فما أجهلهم!
 وتابع موسى ﷺ يبيِّن لبني إسرائيل ضلال هؤلاء القوم الذين يريدون
 تقليدهم في ضلالهم:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٩).

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مدمرٌ وهالك ما هم فيه من الضلال والكفر،
 فمعبوداتهم هذه يمكن تكسيرها وتدميرها، فلا تستحق أن تُعبد.
 ﴿وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعبادتهم باطلة لا خير فيها.
 ثم قال لهم موبخاً ومنكراً:

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠).

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ أي: كيف أطلب لكم معبوداً غير الله
 تعالى؟!.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنعم الكبيرة والآيات العظيمة التي أعطاها
 لكم، والتي لم يعط مثلها لغيركم، فكيف تقابلون نعم الله تعالى بهذا الجهل
 والجحود، وتسالون معبوداً غيره سبحانه؟!.
 وأضاف ﷺ مذكراً لهم ببعض نعم الله تعالى عليهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
 نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١٤١).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وفي قراءة: (نجاكم).

﴿مَنْ ءَالَ فِرْعَوْنَ يَسُومُنْكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ اَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ والابتلاء كما قلنا سابقاً يكون بالخير والشر، والنعمة والمحنة، وقد نجح القوم بالمحنة لما صبروا، ونجّاهم الله تعالى منها، وسقطوا في ابتلاء النعمة، فجحّدوا، ولم يشكروا الله تعالى، وطلبوا عبادة غيره ﷻ.

كتب سيد قطب رحمه الله في ظلال هذه الآية فقال: «إنّ موسى عليه السلام لا يواجه اليوم طاغوت فرعون وملئه، فقد انتهت المعركة مع الطاغوت، ولكنّه يواجه معركة أخرى، لعلّها أشد وأقسى وأطول أمداً... إنّها معركة استصلاح نفوس بني إسرائيل، التي أفسدها العيش الطويل في ظلّ الاستبداد والظلم والإرهاب، فامتلات بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من جانب آخر، وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية، التي تتعرّض طويلاً للإرهاب والطغيان»^(١). ولا شك أنّ الظلم والاستبداد والإرهاب يفسد النفوس القابلة للفساد، فثمة شعوب كثيرة حكّمها حُكّام مستبدّون، وعاشت في ظلّ إرهابهم وظلمهم فترات طويلة، ومع ذلك لم تصل إلى هذا الحد الهابط من الفساد، فالنفوس البشرية أنواع في قابليتها واستعدادها للخير والشر كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْاٰيٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُوْنَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ولدى بني إسرائيل استعداد كبير للفساد، أكدته مواقفهم التي ذكرتها الآيات الآتية.

● صعقة موسى:

سأل موسى عليه السلام ربّه أن يُنزل عليه الكتاب الذي وعده به عندما كان في مصر، فأمره تعالى أن يهيئ نفسه لهذا الأمر، فيقبل على العبادة معتزلاً الناس ثلاثين يوماً، وفعل موسى ذلك، فأمره سبحانه أن يزيد عليها عشرة أخرى، قال تعالى:

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٦٢.

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبَعِيكَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾.

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَزْبَعِيكَ لَيْلَةً﴾.

وقبل أن يعتزل موسى ﷺ قومه ويتوجه لميقات ربه بجانب جبل الطور، استخلف عليهم أخاه هارون:

﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾. وأوصاه ﷺ قائلاً:

﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا شك أن موسى يعلم حرص أخيه هارون على الإصلاح، وأنه لا يتأثر بأهواء المفسدين، فهو نبي كريم معصوم بعصمة النبوة، ولكن موسى ﷺ أراد التأكيد والتحذير، لكونه يعلم طبيعة قومه، وما عندهم من قابلية واستعداد للفساد، كما يعلم أن في قومه أشخاصاً فاسدين مفسدين، سيستغلون فترة غيابه في نشر فسادهم في المجتمع الإسرائيلي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا بَلَغَ رُجُؤُهُ، لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ في المكان والزمان الذي عينه له الحق سبحانه.

﴿وَكََلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير واسطة، أكرمه سبحانه بسماع كلامه.

وهو من الخصائص التي خصَّ الله تعالى بها موسى ﷺ، طمحت نفس موسى إلى أكثر من ذلك:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي: أكرمني بكرامة ثانية، وهي كرامة النظر إلى ذاتك المقدسة، كما أكرمتني بكلامك.

﴿قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ أي: لن تستطيع رؤيتي، وأنت في حياتك الأرضية الزائلة المحدودة.

ف (لن) هذه ليست لنفي الرؤية على وجه التأييد كما رأى بعض أصحاب الفرق، وإنما لنفي قابلية الرؤية في الدنيا، وهي كائنة يوم القيامة للمؤمنين، بعد أن يكملهم الله تعالى ويجمعهم، وتزول عنهم العوائق الدنيوية التي كانت فيهم. وقد ثبتت الرؤية بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة: من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة]. وقوله ﷺ في الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وقوله ﷺ أيضاً: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

والزيادة هي رؤية المؤمنين لربهم جلّ وعلا.

كما جاء في الحديث الشريف: عن صُهب (رضي الله عنه)، عن رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [رواه مسلم (٢٩٧)].

ومعنى قوله: «فيكشف الحجاب» أي: تُزال مانعية الرؤية عن المؤمنين، فيكملهم الله تعالى حتى يصبحوا أهلاً لرؤيته سبحانه. فالحجاب فينا نحن^(١).

وقد مر معنا أنه سبحانه يكمل أهل الجنة خلقاً وخلقاً عند قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا فِي صُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ ثَجَرٍ مِّن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه): أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها

(١) انظر: (تفسير سورة يونس) في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

سحابٌ؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «إِنَّكُمْ ترونه كذلك» [رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٩٩) واللفظ له].

ومعناه: ترونه سبحانه رؤية واضحة لا شك فيها كوضوح رؤية الشمس والقمر، كما يليق بجلاله سبحانه.

ومما يؤكد أن قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ لنفي قابلية الرؤية واستطاعتها في الدنيا، أنه سبحانه قال لموسى بعد ذلك:

﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ إذا تجليت لك، والجبل أمكن وأثبت وأقل تأثراً، ومع ذلك:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ رَبُّهُ، لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر له على الوجه اللائق بجلاله.
﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مذكوكاً مُفْتَتًّا.

ولم يتحمل موسى ﷺ هول منظر الجبل وهو ينهار ويفتت:
﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾ أي: سقط مغشياً عليه.
﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من صعقته وغشيته.

﴿قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الإقدام على سؤال الرؤية من غير استئذان.
﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك.

وظهر بهذا فضل سيدنا محمد ﷺ، فعندما أكرمه الله تعالى بمعجزة الإسراء والمعراج، وأراه من عجائب مخلوقاته في السماوات ما أراه، لزم ﷺ حدود ما أكرمه الله تعالى برويته، ولم يطمح ببصره إلى أكثر منه أدباً مع ربه جلَّ جلاله، فاستحق ثناء الكبير عليه في قوله سبحانه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ٧ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم].

• الشريعة والحضارة:

وبعد أن أفاق موسى ﷺ من صعقته، وأقبل على الله سبحانه تائباً، ذكره سبحانه بما أنعم عليه وما خصَّه به:

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤).

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي﴾ التي أنزلتها عليك .
﴿وَبِكَلِمِي﴾ وبتكليمي إياك .

﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فإن من الشكر الرضا بالنعمة والقناعة بها .
وأنزل عليه سبحانه التوراة مكتوبة في ألواح ، وقال جلَّ وعلا في وصفها :

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٤٥).

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إليه في أمر دينهم
وشريعتهم ، أي : كتبنا له فيها الأحكام الشرعية التي يحتاجون إليها في جميع
شؤون حياتهم .

فالشريعة أمر أساس في بناء حياة الأمة الاجتماعية والحضارية ، وبقاء
الأمة واستمرار حضارتها مرهون بمدى تمسكها بالشريعة المنزلة عليها .

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : كتبنا له كلَّ شيء من المواعظ وتفصيل
الأحكام .

فالشريعة الصالحة الكاملة هي التي تلبي جميع الحاجات التشريعية للأمة
في شؤون دينها ودنياها ، وهي مقوم أساس من مقومات الحضارة ، والمطلوب
من بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلِّ حضارة الظلم والقهر والاستبداد عندما
كانوا في مصر ، أن يقيموا في الأرض المباركة حضارة العدل والإيمان والحرية
والسلام ، وهاهي الشريعة الكاملة قد أنزلها الله عليهم ، وهاهو نبي الله موسى
ﷺ يقودهم إلى الأرض المباركة ، فهل سيكونون أهلاً لهذه المهمة الجليلة

ويرتفعون إلى مستواها؟ أم ستتقاصر هممهم وعزائمهم عنها، ويختار سبحانه لها غيرهم من الأمم؟ هذا ما ستكشف عنه الآيات في سورة الأعراف.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد وحزم وعزم، فالمهمة التي كُلِّفتم بها شاقة وكبيرة، تحتاج إلى جد وعزم وحزم.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بعزائمها وواجباتها، ولا يتبعوا رخصها فيعملوا بها فقط، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون في شرائعه المنزلة رُخْص لبعض الحالات الضرورية، فلا ينبغي العمل بالرخص فقط، وترك الواجبات والعزائم.

والنفتت الآيات تخاطب بني إسرائيل بأسلوب الوعيد والتهديد:

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب.

قال ابن جرير: «وإنما قال: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: (سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري) على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره»^(١).

• المعرضون عن الحق:

وتابعت الآيات بأسلوب التهديد والوعيد، فبيّنت سنة من سنّيه سبحانه في خلقه، بقوله جلّ وعلا:

﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّاءً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

﴿سَاصْرِفْ عَنْ عَائِتِي﴾ المبتوثة في الكون، والدالة على عظمتها سبحانه ووحدانيته، أو آياتي المنزلة على رسلي، فلا ينتفعون بها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٠/٢.

﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بالطبع على قلوبهم، فلا يتفكرون بما يشاهدون من الآيات والدلائل، ولا يعتبرون بمصائر الأمم قبلهم، كما مر معنا في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف].

فالكبر من آفات النفس الكبيرة، يجعل صاحبه قليل الفهم ضعيف الإدراك، لا ينتفع بموعظة، ولا يعتبر بمثل.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كما فعل فرعون وملؤه، لم يؤمنوا بالمعجزات الكثيرة التي رأوها.

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ بل يتعدون عنه معرضين.

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: إذا رأوا أيَّ طريق من طرق الضلال والفساد سارعوا إلى السير عليه، مما يدلُّ على الاضطراب والخلل في تفكيرهم وانعكاس القيم في نظرهم.

إننا لنرى في عصرنا الحاضر كثيراً من المسلمين المفتونين بحضارة الغرب المادية تنسحب عليهم هذه الآية تماماً، يعرضون عن الحق الذي في دينهم وشرعهم، ويتمسكون بكل ضلال وباطل يأتيهم من غيرهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض لا غفلة سهو وجهل^(١).

وسبب هذه الغفلة أنهم كذبوا بيوم القيامة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، ولا قيمة لحياة الإنسان إذا لم يستشعر في قرارة نفسه بمسؤولية في حياته، إنها جوهر حياته، ومحور وجوده:

(١) تفسير النسفي: ٢ / ٦٣٥.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧)

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم، وذهبت جهودهم سدى، لأنهم جرّدوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام ربهم، فماذا يبقى من حياتهم؟
﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟! .

• العجل الذهبي:

وحدث في أثناء غياب موسى عن بني إسرائيل ما كان موسى يخشى حدوثه، فبينما كان ﷺ بجانب الطور يناجي ربه، ويتلقّى التوراة التي فيها الشريعة الإلهية، لتكون أساس المجتمع والحضارة في الأرض المباركة، كان بنو إسرائيل عاكفين على عبادة عجلٍ مصنوعٍ من الذهب؛ ولهذا العجل قصة:

عندما أغرق الله فرعون وجنوده في البحر، التقط الإسرائيليون بعض حليهم التي كانوا يتزينون بها، ويزينون بها أيضاً سلاحهم ومتاعهم، فلقد كان المصريون القدماء يحرصون على التحلي بالذهب، ويتخذون منه الأساور، دل على ذلك ما ذكره سبحانه في كتابه عن فرعون أنه قال عن موسى ﷺ: ﴿أَمْرًا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٢) ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (٥٣) [الزخرف].

وكرم القوم عن موسى ﷺ أمر هذه الغنائم من ذهب المصريين، فقد كانوا يعلمون أنها لا تحل لهم، فما أحلّ الله الغنائم إلا للمسلمين كما جاء في الحديث الشريف الذي سبق ذكره: «أُعْطِيَتْ خُمْسًا لِمَنْ يَعْطِيهِنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... وَأُحْلِلْتُ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي...» [رواه مسلم (٥٢١)].

واستيقظ الضمير الديني للقوم في أثناء غياب موسى عنهم، وتساءلوا فيما بينهم: ماذا يصنعون بهذه الحلي؟ فأشار عليهم أحد رؤوس الضلال والفساد

فيهم، ويُدعى السامري، وكان يتظاهر بالورع والصلاح، أن يلقوها في النار، وأوقد الرجل لهم النار، وألقوا الحلي الذهبية فيها، وكان الرجل على خبرة بصياغة الذهب، فأخذ هذا الذهب المذاب في النار، وصنع منه تمثال عجل، ثم أخذ قبضة تراب كان يحتفظ بها، قبضها من أثر مَلَكٍ رآه، وهو متشكّل بهيئة البشر أنزله الله تعالى عند انفلاق البحر، فقد انتبه السامري إلى أن الأرض التي يطوؤها تخضّر بتقدير الله تعالى، كأن حياة سرت فيها، فأخذ منها قبضة من التراب، احتفظ به لأمر دبره في نفسه، أقرّ بذلك عندما سأله موسى بعد ذلك: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿[طه].

ألقي السامري حفنة التراب هذه في جوف العجل الذهبي، فسرى به نوع من الحياة الجزئية المحدودة بتقدير الله تعالى، وأثرت فيه قبضة التراب هذه كما تتأثر قطع الحديد بالمغناطيس القريب منها، وجعله هذا التأثر يصوت ويخور كما تخور البقر، وقال السامري لبني إسرائيل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] أي: ذهب موسى إلى مناجاة إلهه ونسي أنه هنا.

فعكفوا على عبادته، وفَتَنُوا به لكونه من ذهب، فالذهب كان ولا يزال معبود بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٩٣].

وحبُّ اليهود للذهب والمال أمرٌ معروف ومشهور، عبدوا العجل الذهبي، وأعرضوا عن نصح هارون لهم، وقالوا له: ﴿لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١] ففتنتهم بالعجل الذهبي كبيرة. قال تعالى هنا:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٤٨).

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: عجلًا متجسدًا، فهو

مجرد تمثال من ذهب .

﴿لَهُ خَوَاطِرٌ﴾ له صوت كصوت البقر، فكيف فُتِنُوا به، وعبدوه من دون الله تعالى؟! .

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾؟! فهو عاجز، لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر من الكلام وإرشاد السبيل .

﴿اتَّخَذُوهُ﴾ معبوداً وإلهاً .

﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ في عبادته، كما قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٢٤٧) .

ولما انتبهوا وعرفوا قُبْحَ ما صنعوا ندموا:

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) .

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ : أي ندموا .

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بقبول توبتنا .

﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ويستر خطيئتنا .

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين ضيعوا ثواب عباداتهم كلها بشركهم وكفرهم .

• خيبة أمل:

وأخبر علام الغيوب نبيّه موسى ﷺ بما أحدث قومه من بعده:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ بِنِسْمَا خَلَقْتُنِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَاحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠) .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا﴾ حزيناً .

﴿قَالَ يَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي: بئسما فعلتم في غيابي.

﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: أعجلتم سخط ربكم وعذابه بعبادة العجل؟!

واحتمله الغضب لله تعالى:

﴿وَأَلْفَى الْأَلْوَاخَ﴾ ألواح التوراة.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وهو يظن أن هارون قد قصّر في نصحتهم

وزجرهم.

﴿قَالَ﴾ هارون.

﴿ابْنَ أُمِّ﴾ أي: يا ابن أُمي، ذكّره بأمه ليرقق قلبه عليه، مع أنهما شقيقان.

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْهُ وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ عندما وعظتهم وزجرتهم.

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فلا تفعل بي ما يجعل الأعداء يفرحون بما

يصيبي منك.

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بعبادة العجل.

ترك موسى رأس أخيه هارون، واتجه إلى الله تعالى يسأله الرحمة له ولأخيه فقط، لم يسألها لأحد من بني إسرائيل، فقد رأى ﷺ أنهم لا يستحقون رحمة الله تعالى بعد أن لوّثوا أنفسهم بعبادة غيره تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥١).

وهذا يدلُّ على خيبة الأمل المُرّة التي أصيب بها موسى ﷺ، لقد كان يرجو ويأمل أن يبنى بهم في ظلّ شريعة التوراة مجتمع الإيمان والعدل والسلام في الأرض المباركة، ولكن مواقفهم هذه بددت آماله ﷺ، حتى سأل الله تعالى - في آخر المطاف معهم - أن يفرق بينه وبينهم، كما حكى الله سبحانه عنه في سورة المائدة عندما رفضوا تنفيذ أمره وقتال أعدائهم الذين كانوا يسكنون في فلسطين: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ

الْفَلْسِقِينَ ﴿[المائدة: ٢٥]﴾^(١)، تلك هي النتيجة التي انتهى إليها موسى ﷺ بعد المعاناة الطويلة مع قومه بني إسرائيل.

ثم بين سبحانه حكمه في عبَاد العجل فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

وأي فرية وكذبة أعظم من قولهم في العجل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، كما سبق معنا في تفسير الآية (١٤٨).

ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بعباده، يقبل توبتهم، ويغفر لهم، إن تابوا واستغفروا، ورجعوا عن كفرهم وفجورهم:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد عملها، وهذا دليل على أنهم أقلعوا عن السيئات، وهجروها نادمين على فعلها.

﴿وَوَآمَنُوا﴾ أي: جددوا إيمانهم بعد ارتدادهم وكفرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبة.

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُحُوتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سكن غضب موسى ﷺ.

﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها في أثناء غضبه.

(١) انظر تفصيل الموضوع في: (تفسير سورة المائدة) وهو جزء من تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه (الحلال والحرام في سورة المائدة).

﴿وَفِي تُسَخَّهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: وَكُتِبَ فِيهَا مَا فِيهِ هُدًى وَرَحْمَةٌ، والنسخ: الكتابة. ففيها الأحكام التي ترشد إلى الحق والعدل والرحمة والسعادة.

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون الله تعالى ويخشونه، ويلتزمون شريعته.

• ميقات التوبة:

وتابعت الآيات مسيرة بني إسرائيل التاريخية، وهم في طريقهم إلى الأرض المباركة:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُو أَسْمَاءَهُمْ إِنَّمَا فَعَلَكَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ من قومه.

﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم، وأهل الصلاح والتقوى فيهم.

﴿لِّمِيقَتِنَا﴾ لكي يخرجوا مع موسى إلى مكان مناجاته ربّه، ليتضرّعوا إلى

الله تعالى، ويستغفروه، ويسأله أن يتوب على بني إسرائيل بعد عبادة العجل.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة، فصعقوا.

وبَيَّنَّ الله في سورة البقرة سبب ما أنزله بهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَن

تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فعندما وصلوا مع موسى إلى مكان المناجاة عند جبل الطور، وشرع

موسى ﷺ يناجي ربّه، ويتلقّى وحيه، سألو موسى أن يروا الله سبحانه جَهْرَةً،

وقالوا له: لن نصدق أنك تناجي ربّك حتى نرى الله جَهْرَةً، فرجف الجبل بهم

فصعقوا وماتوا! أولئك هم خيار بني إسرائيل، اختارهم موسى بنفسه، وهو أَخْبَرُ

الناس بقومه، وإذا كان خيارهم هكذا، فما بالك بعامتهم؟!.

إِنَّ الْآيَةَ تَكْشِفُ عَنْ طَبِيعَةِ النُّفُوسِ الْمَادِيَةِ الْغَلِيظَةِ الَّتِي لَا تُؤْمِنُ إِلَّا

بِالْمَحْسُوسَاتِ، فَقُلُوبُهُمْ قَاسِيَةٌ، وَطَبَاعُهُمْ مَادِيَةٌ غَلِيظَةٌ خَشَنَةٌ، فَأَيُّ خَيْرٍ يُرْجَى

من مثل هؤلاء القوم، ولتذكّر هنا قوله تعالى الذي مرّ معنا في السورة: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد يقول قائل: لقد سأل موسى الرؤية قبلهم.

فأقول: هناك فرق كبير بين من سأل الرؤية حباً لله تعالى وشوقاً إليه، وبين الذين سألوا الرؤية شكاً وريبة.

ووقف موسى على الجبل وحيداً بين أجساد المصروعين، واتجه إلى الله تعالى داعياً بضراعة وخشوع:

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي﴾ أي: إنك قادرٌ على إهلاكنا من قبل عندما كنا بين أمواج البحر، فرحمتنا ونجيتنا من ظلم فرعون ومن البحر، فكما رحمتنا في الماضي، أسألك أن ترحمنا في حاضرنّا.

هكذا تعرّض ﷺ لرحمة الله تعالى السابقة لاستجلاب رحمته اللاحقة.

﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ من العناد وسوء الأدب وعبادة العجل.

﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك، فكأنه ﷺ يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان.

﴿تُضِلُّهُمْ بِمَا مَنَ شَاءَ وَتَهْدِي مَنَ شَاءَ﴾، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِلٌّ لمن هديت، ولا مُعْطِي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر^(١)، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وبعد هذا الثناء على الله تعالى، فوَّض الأمر إليه جلّ وعلا:

﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ أي: متولّي أمورنا كلّها، ثم طلب المغفرة والرحمة.

﴿فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ العافين، المتجاوزين عن الذنوب والمعاصي.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٤/٢.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ تحسن فيها أحوالنا .

﴿وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ﴾ : أي تبنا إليك ، وأنبنا إليك ، من هاد يهود : إذا رجع .

﴿قَالَ﴾ الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام :

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ فمشيئته سبحانه طليقة ، نافذة في كل شيء ، يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، وهو سبحانه العليم الحكيم .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكلُّ المخلوقات من آثار رحمته جلّ وعلا .

﴿فَسَاكُنْهَا﴾ فسأوجبها على نفسي تفضلاً وإحساناً .

﴿لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ الكفر والمعاصي .

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يدفعها غنيهم لفقيرهم ، مما يدلُّ على أنَّ مجتمعهم مجتمع متكافل متعاون ، لا حقد فيه ولا حسد ، ولا طمع ولا جشع .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي : يصدّقون بأنها من عند الله ، فيلتزمون بأحكامها ، ويقىمون دعائم حضارتهم على نهجها .

● بناء الحضارة الإنسانية:

قفزت الآيات الكريمة فوق أحقاب كثيرة من الزمان تزيد على ألفين من السنين ، وتجاوزت أمماً كثيرة وحضارات متعددة ، لكي تبين هوية الذين يتصفون بهذه الصفات الكريمة ، فكأنَّ جميع الأمم والشعوب الذين عاشوا في تلك الأحقاب الطويلة ، لا توجد فيهم هذه الصفات ، ولا يصلحون لأن يكونوا بناء الحضارة الإنسانية الحقة ، حضارة الإيمان والحق والسلام .

ترى من هم أولئك الموصوفون بهذه الصفات، الذين كتب الله تعالى على نفسه أن يرحمهم؟ إنهم:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِنِجِيلٍ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الذي لم يمارس القراءة والكتابة.

وهذه الصفة من صفات كماله عليه الصلاة والسلام، لأنها من أدلة صدقه في نبوته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والأمي أيضاً: المنسوب إلى الأمة الأممية، وهي الأمة العربية، وكانت الأمية فاشية بينهم في الجاهلية قبل الإسلام، وفي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ» [رواه مسلم (١٠٨٠)].

• النبي ﷺ في التوراة والإنجيل:

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ باسمه ونعوته.

﴿فِي التَّوْرَةِ وَإِنِجِيلٍ﴾. ذكر سبحانه الإنجيل قبل نزوله، كما ذكر النبي ﷺ والقرآن الكريم قبل مجيئهما، وقد أنزل الله التوراة والإنجيل على بني إسرائيل، أنزل التوراة سابقاً على موسى ﷺ، والإنجيل لاحقاً على عيسى ﷺ.

ورغم التغيير والتحريف للذين لاحقاً بالتوراة والإنجيل، وخاصة ما يتصل بالنبي ﷺ والإسلام، بقيت فيهما بعض الكلمات التي لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ ورسالة الإسلام التي أرسل بها، منها ما ورد في الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة ٧ - ٩: «ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمداً

(Himada) لكل الأمم، وسوف أملاً هذا البيت بالمجد، كذلك قال ربُّ الجنود، ولي الفضّة، ولي الذهب، هكذا يقول ربُّ الجنود، وفي هذا المكان أعطي السلام، هكذا يقول رب الجنود.

قال الدكتور البروفسور داود بنيامين الكلداني قسيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والذي أسلم بعد ذلك وسمّى نفسه (عبد الأحد داود): «لقد قمتُ بترجمة هذه الفقرة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية، كانت ابنة عمّ لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس والتي نجد أنها ترجمت الأصل العبري لكلمة (حَمْدًا) إلى الأُمنية، وكلمة (شالوم) إلى الإسلام»^(١).

ثم بعد أن استعرض معنى كلمة (حَمْدًا) باللغة العبرية، وجد أن لها معنى آخر وهو الحمد، فقال: «وأياً من المعنيين نختار فإنَّ الحقيقةَ الناصعةَ بأن كلمة (أحمد) هي الصيغة العربية لكلمة (حَمْدًا) وهذا التفسير هو تفسير قاطع لا ريب فيه ولا مرأى فيه. ولقد جاء في القرآن الكريم في سورة الصف الآية السادسة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾، وفي إنجيل يوحنا الذي كتب باليونانية استعمل الاسم (باراكليتوس) وهو صيغة وثنية، لم تكن معروفة في دنيا الأدب الإغريقي، ولكن كلمة (بيركليتوس) والتي توافق وتطابق اسم (أحمد) في معناه ومغزاه، وفي إشرافه وسموه وتمجيده، وفي مقامه المحمود الأعلى، لا بدّ وأن تكون ترجمتها من اليونانية (حَمْدًا) أو لعلّها (حميده) بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح، ولكن وأسفاه لا يوجد هناك إنجيل باق على الزمن باللغة الأصلية التي تحدّث بها السيد المسيح»^(٢).

(١) محمد في الكتاب المقدس، ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

وفي أثناء فتح الصحابة ﷺ لمصر، ظفر عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ ببعض كتب أهل الكتاب، فقرأها، واشتهر بين الصحابة باطلاعه على كثير من علوم أهل الكتاب وكتبهم، ولَمَّا سألَه عطاء بن يسار عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: «أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويُفْتَحُ به أعين عمي، وأذان صم، وقلوب غُفْ» [رواه البخاري (٢١٢٥ و ٤٨٣٨)].

ولقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدد من الآيات والسُور، وذكر أيضاً أن الصحابة ﷺ قد ذُكرت بعض صفاتهم في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِجٍ أَخْرَجَ شَطْعُهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَقَاطَ فَاَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

• من خصائص الشريعة الإسلامية:

ومن خلال الصفات التي ذكرتها الآيات للنبي ﷺ أظهرت بعض الخصائص والسمات للشريعة الإسلامية:

أولها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وثانيها: تحليل الطيبات وتحريم الخبائث:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهي كما مر معنا: المستلذات النافعة: ﴿قُلْ مَنْ

حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقد ذكرتُ ثمة أن

الأصل في الأشياء الإباحة.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ المستخبثة الضارة، فكل ما يضر الإنسان في دينه وعقله وعرضه ونفسه فهو حرام في الإسلام، ولهذا حرّم الله تعالى المسكرات والدم المسفوح ولحم الميتة والخنزير، وبعد أن ثبت ضرر الدخان وأنه من الخبائث ظهر حكمه في الإسلام وهو المنع والتحريم.

وثالثها: السماحة والتيسير:

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي: يخفف النبي ﷺ في شريعته الإسلامية، التكاليف الشرعية الثقيلة التي شرعت في الشرائع السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ الآية [المائدة: ١٥].

وقوله أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا» [البقرة: ٢٨٦] قال: «قد فعلت» [رواه مسلم (١٢٥)].

﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني ويضع الأثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة؛ وذلك مثل: قتل النفس في التوبة بعد الردّة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيين القصاص في القتل، وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت... شُبّهت بالأغلال مجازاً، لأنّ التحريم يمنع من الفعل، كما أن الغلّ يمنع من الفعل^(١).

هذه الصفات الثلاثة التي أبرزتها الآية الكريمة للشريعة الإسلامية، تدلّ على أنها الشريعة الصالحة للإنسان لكي يبنى في ظلّها حضارة العدل والإيمان والسلام. ثم تحدّثت الآيات عن الأمة التي ستحمل هذه الشريعة، وتبني تلك الحضارة في قوله تعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ أي: صدقوا برسالة النبي ﷺ.

(١) انظر: تفسير الخازن: ٦٤٨/٢.

﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ أي: عرفوا قدره العظيم ﷺ، فعظَّموه ووقَّروه وفخَّموه، ومنعوه من كل من يريده بسوء، ولا شك أن التمسك بسنته وتعظيمها، من تعظيمه ﷺ وتوقيره.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه، وجاهدوا في سبيل إعزاز دينه، ونشر رسالته وتطبيق شريعته.

﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن الكريم والسنة المطهرة، أي: التزموا بأحكام دينه، وتمسكوا بمنهجه وشريعته، فجعلوها أساس حياتهم في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون في الدنيا والآخرة.

وكل من اتصف بهذه الصفات، فهو من هذه الأمة، مهما كان لونه وجنسه ووطنه، فالأمة المسلمة أمة عالمية إنسانية، أكدت هذه الحقيقة الآيات الكريمة عندما التفتت هذه الالتفاتة الرائعة لتخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

كلماته: المنزلة على جميع رسله.

• الماء والغمام والمن والسلوى:

وبعد هذه القفزة الكبيرة ما يزيد على ألفين من السنين، عادت الآيات إلى الحديث عن بني إسرائيل، وهم في مسيرتهم التاريخية من مصر إلى فلسطين، وبدأت حديثها بالثناء على طائفة قليلة منهم، ظلوا متمسكين بالحق:

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ طائفة وجماعة.

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يدعون إلى الحق، ويرشدون الناس به.
 ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام.

وتدل هذه الشهادة الطيبة على دقة الأخبار القرآنية وصحتها وواقعيتها، فمن هؤلاء من أدرك النبي ﷺ وآمن به كعبد الله بن سلام، وكان من كبار أحبار اليهود بالمدينة المنورة، وميمون بن يامين، وزيد بن سَعْنَة، وغيرهم.

﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ اصْبِرْ فِي وَعْدِكَ الْحَجَرِ فَإِنِ اجْتَمَعَتِ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦١)

﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: جعلناهم اثنتي عشرة قبيلة.
 فالسَّبْطُ في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، وذلك لأن آباءهم هم أولاد يعقوب الاثنا عشر: يوسف ﷺ وإخوته.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ﴾ أي: عندما طلب قومه السُّقْيَا والماء، وهم في صحراء سيناء.

﴿أَنِ اصْبِرْ فِي وَعْدِكَ الْحَجَرِ﴾ فضرب.

﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ فانفجرت.

﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل سبط عين يستقون منها.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ فلا يتزاحمون على الماء، ولا يختصمون،

كما قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٦١).

ومما أنعم الله به عليهم أيضاً:

﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ ليقبهم وهج الشمس وحرها.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ وهو كلُّ ما منَّ الله عليهم من طعام دون تعب ولا عناء، يجدونه كالصمغ معلقاً على أغصان الأشجار والنباتات، أو يأخذونه من الأرض.

قال ابن كثير رحمه الله: «فالمَنَّ المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مُزج مع الماء صار شراباً طيباً... ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «الكمأة من المَنَّ، وماؤها شفاء للعين» [رواه البخاري (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩) واللفظ له]»^(١).

﴿وَأَسْلَوُا﴾ نوع من الطيور يشبه السَّمَانِي، كانوا يأكلون منه.

وقال لهم سبحانه:

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهو أمر للإباحة.

• ظلمٌ وفسقٌ وفساد:

وحذَّره من المعاصي ونشر الفساد، كما مرَّ معنا في آية سورة البقرة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ ولكنَّ القوم لم يشكروا الله على نعمه، ولم ينفذوا ما أمرهم به، بل فسقوا عن أمره، وظلموا بذلك أنفسهم، دلَّ على ذلك قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ومن صور فسقهم وظلمهم، ما فعلوه عندما أمرهم الله أن يدخلوا إحدى القرى التي مروا بها في سبيل، وهم في طريقهم إلى فلسطين، ولعلَّ سبب ذلك أنهم تبرَّموا من الطعام الذي أنعم الله به عليهم، كما حكى سبحانه ذلك عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَهُودُؤُا لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ الآية [البقرة: ٦١].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٧/١.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَازِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ ، وأباح لهم سبحانه ما فيها من طعام: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ والقرية التي أمروا أن يسكنوا بها هي إحدى قرى صحراء سيناء، وقد جرى لهم هذا الأمر في فترة التيه، وكانت القرية محاطة بأسوار، كما هو شأن جميع القرى والمدن في ذلك الوقت، فأمرهم سبحانه عندما يدخلون من بابها، أن يدخلوا خاضعين له تائبين مستغفرين، يحنون ظهورهم، ويسألونه سبحانه أن يحط عنهم ذنوبهم وأوزارهم. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: اسألوا الله أن يحط عنكم ذنوبكم. ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ لله تعالى، تحنون ظهوركم، ووجوهكم إلى الأرض، ووعدهم سبحانه على ذلك المغفرة والثواب العظيم. ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَازِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلم يفعلوا ما أمرهم الله تعالى به، وفسقوا عن أمره:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلُمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ .

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ ودخلوا دخول المتكبرين المتجبرين المتحجرين، صدورهم ورؤوسهم إلى السماء. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ﴾ وهو مرض الطاعون الذي مرّ معنا ذكره.

﴿يَمَّا كَانُوا يَظْلُمُونَ﴾ . وقال في سورة البقرة: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ .

● بلد الممسوخين:

واستمرت الآيات تكشف الستار عن جانب من تاريخ بني إسرائيل، لكي

تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ غَيْرُ جَدِيرِينَ بِالْتَمَكِينِ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَإِقَامَةُ حَضَارَةِ الْإِيمَانِ وَالْعَدْلِ وَالسَّلَامِ.

اتبعت الآيات في عرضها للواقعة التاريخية التالية أسلوب التحدي لليهود المدينة المنورة الذين عاصروا النبي ﷺ، بسبب مواقفهم السلبية المخزية منه عليه الصلاة والسلام، خاطبت الآيات النبي ﷺ تأمره أن يسأل اليهود عن بلد الممسوخين إلى صور القردة والخنازير.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرَكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرَكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ أي: التي كانت واقعة على ساحل البحر، وهي بلدة أيلة، أو إيلات، الواقعة على خليج العقبة من البحر الأحمر.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: عندما يعتدون في يوم السبت، ويعصون أمر الله تعالى فيه، أمرهم الله تعالى أن يعظموا يوم السبت، ويجعلوه يوم عبادة لا عمل فيه، فخالفوا أمره، واحتالوا لصيد السمك فيه.

ابتلاهم الله تعالى بظهور السمك في شواطئهم يوم السبت:

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ ظاهرة على الماء بكثرة.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وتغيّب بعيداً في أعماق البحر.

﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي: نختبرهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وخروجهم على طاعة ربهم.

وتدل الآية على أن معاصي كثيرة وكبيرة قد انتشرت بينهم، ولهذا ابتلاهم الله تعالى بظهور السمك يوم السبت.

وكان فيهم جماعةٌ صالحَةٌ، قاموا بوعظهم وتذكيرهم بطاعة ربهم،

وتخويفهم من غضبه وانتقامه مدة طويلة من الزمن، حتى دب اليأس من إصلاحهم في نفوس بعضهم، فترك هؤلاء اليائسون الوعظ والتذكير، وقالوا لإخوانهم المستمرين في الوعظ والتذكير كما ذكر سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إهلاكاً كلياً.

﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون أن يستأصلهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الوعَّاظ والمذكِّرون.

﴿مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: نعظهم معذرة إلى الله تعالى، كي تظهر براءتنا من ذنوبهم، وأنا غير راضين بها.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ونحن نرجو أن يُقْبِلُوا في يوم ما على الله تعالى، ويتوبوا عن معاصيهم، ويتقوا ربهم.

ولا شك أن هؤلاء الواعظين أفضل عند الله تعالى من الساكتين، لقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]،

ولقوله ﷺ: «مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» [رواه مسلم (٤٩)].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَجْمَعًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّوْءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا وأعرضوا عما ذكَّروهم به الصالحون.

﴿أَجْمَعًا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّوْءِ﴾ من العذاب الذي نزل بهم.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد لا رحمة فيه.

﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وإصرارهم على معاصيهم .
ثم بين سبحانه العذاب الذي أنزله بهم فقال :

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ .

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي : تكبروا عن ترك ما نهوا عنه من المعاصي .
﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ صاغرين مبعدين ذليلين ، كما قال سبحانه في سورة البقرة : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (٦٥) فجعلناها نكلاً لما بين يديها وما خلفها وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (١٦٦) .

ويبدو أن العامة مُسَخَّوْا إلى صُور القردة ، وأما رؤساء الضلال فيهم فمسَخَّوْا إلى صور الخنازير ، لقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة : ٦٠] .

• الذَّلَّةُ وَالشَّتَاتُ:

أظهر الله تعالى بما كشف من مواقف اليهود المخزية هذه ، استحقاقهم لحكمه الذي ألزمهم به في الدنيا ، والذي بينه سبحانه بقوله :

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ﴾ أي : أعلن ، أو حكم .
وفي قوة الكلمة ما يفيد معنى القسم ، فجاءت اللام بعدها كأنها جواب القسم :
﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود .
﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي : الذي ينزل بهم ، العذاب الذي يسوءهم كالسجن والقتل والتعذيب .
﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ للمستحقين له .
﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وأسلم .

والمتمثل في تاريخ اليهود يرى صدق ما ذكر في الآية الكريمة هذه، فلقد بعث الله عليهم في أثناء تاريخهم الطويل من يسومهم سوء العذاب، فكلما انتعشوا وانتفشوا، وطغوا في الأرض، سلط الله عليهم من يسومهم مختلف أنواع العذاب.

وسيبقى هذا الحكم ملازماً لهم إلى يوم القيامة، كما أخبر سبحانه، وما نراه في العصر الحاضر من استطالتهم في أرض فلسطين، وتمكّنهم فيها، ليس سوى فترة عارضة، ومقدمة لعذاب سينزله الله تعالى بهم، بسبب فسادهم، وبغيهم في الأرض المباركة، وأعمار الأمم والشعوب لا تقاس بأعمار الأفراد، ثم إن هذا التمكّن في فلسطين، ليس صادراً في الحقيقة منهم، إنما هو من الدول الكافرة الكبيرة التي تقف وراءهم، تؤيّدهم وتمدّهم. كما أخبر سبحانه في سورة آل عمران بقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَعْضٌ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

وقد حكم الله تعالى عليهم أيضاً بالتشتت والتفرّق في بقاع الأرض:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الْأَصْلِيحُونَ وَمِنْهُمْ ذُنُوبٌ وَإِلَهُاتٌ لَّهُمْ بَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فأصبحوا مشتين في بقاع بعيدة، كما هو المعروف من تاريخهم.

﴿مِّنْهُمْ الْأَصْلِيحُونَ﴾ الذين ظلّوا متمسكين بدين الله تعالى حتى بعث سيدنا محمد ﷺ، فأمنوا به، وصدقوا برسالته، كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

﴿وَمِنْهُمْ ذُنُوبٌ ذَلِكَ﴾ أي: منحطون عن مرتبة هؤلاء في التمسك بدين الله.

﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: اختبرناهم بالخير تارة وبالشر تارة

أخرى.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحقِّ ويتوبون عن المعاصي والفجور.

• غرور واستكبار:

ثم قَدِّمَتِ الْآيَاتُ وصفاً موجزاً لموقفهم من شريعتهم المنزلة على موسى في التوراة بعد التفرُّق والشتات:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى حَيْرٌ لِلَّذِينَ يُثْقُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦٩).

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: أتت بعد الأجيال الأولى أجيالٌ أسوأ حالاً من الأولين.

﴿وَرَثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: هجروا أحكام التوراة، وانصرفوا إلى أخذ ما يعرض لهم من شهوات الدنيا.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: يفعلون ذلك وهم يطمعون بالمغفرة، وأنه سبحانه لن يؤاخذهم، وسيتجاوز عنهم.

وهو غرورٌ شيطانيٌّ، خدعوا به أنفسهم بسبب تكبرهم، ورؤيتهم لأنفسهم امتيازاً على غيرهم من بني آدم، فلم يزعهم مكانة خاصة عند الله تعالى.

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: يرجون المغفرة، وهم مصرون على الذنوب، عائدون إلى مثلها، غير تائبين ولا مستغفرين.

وردَّ سبحانه على قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ بتوبيخهم وتذكيرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم:

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: المذكور في التوراة.

﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ إلا الصدق.

وقد كذبوا عليه سبحانه عندما قالوا: ﴿سَيُعَذِّبُنَا﴾ وهم يعلمون أن مثل هذا القول غير موجود في التوراة، لأنهم قرؤوها وعرفوا ما فيها.

﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي: ما في كتاب التوراة، وما غرّوا نفوسهم وأطمعوها بالمغفرة إلا ليقبلوا على شهوات الدنيا دون أي عائق يقوم في نفوسهم.

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى ويخافون عذابه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الحقيقة؟! كيف يجعل الله سبحانه المتقين الصالحين المصلحين كالمجرمين؟! كما جاء في قوله تعالى في سورة القلم: ﴿أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦).

ولهذا أثنى الله سبحانه بعد ذلك على المتمسكين بالكتاب المنزل عليهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧).

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ يحلون حلاله، ويحرّمون حرامه، ولا يتجاوزون أحكامه.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدّوها مستقيمةً كاملةً كما شرعها الله سبحانه، وتخصيص الصلاة بالذكر مع أن التمسك بالكتاب يدلُّ عليها لأهميتها.

﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ لأنفسهم ومجتمعهم بتمسكهم بشريعة ربهم سبحانه.

• ميثاق تحت الجبل:

وهو ميثاقٌ معروفٌ عند عامة بني إسرائيل، ذكره سبحانه في التوراة، وذكرهم به في القرآن الكريم، أخذه الله على آبائهم في عهد موسى ﷺ، ليتمسكوا بأحكام شريعتهم، فبعد أن سكن غضبُ موسى، وأخذ الألواح، وقرأها عليهم، استثقلوا ما فيها من تكاليف، وأبوا أن يلتزموا القيام بها، فرفع الله الجبل بكتلته الكبيرة الهائلة فوقهم، وهدّدهم بإسقاطه فوقهم إن لم يلتزموا

بالقيام بأحكام التوراة، فخرُّوا على الأرض ساجدين، وجعلوا طرفاً إلى الأرض، والطرف الآخر من وجوههم إلى الجبل خشية أن يسقط عليهم:

﴿وَإِذْ نَفَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَإِذْ نَفَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي: رفعنا الجبل فوقهم حتى أصبح كأنه مظلة فوق رؤوسهم.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: وتيقنوا أنه ساقط عليهم، وقيل لهم:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تمسكوا بأحكام الكتاب المنزل عليكم بعزم وحزم، وجد واجتهاد.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: تذكروا كل ما فيه من التكاليف والأحكام، ولا تغفلوا عن شيء منها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعلكم تصلون إلى درجة المتقين.

ومع ذلك نقض القوم عهدهم بعد ذلك، كما أخبر سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ الآية [٦٣].

• الميثاق الأول والفضرة:

وانتقلت الآيات بعد تذكيرهم بالميثاق الخاص بهم، إلى تذكيرهم بالميثاق العام، الذي أخذه جلّ وعلا على جميع بني آدم، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ الذين ولدهم نسلًا بعد نسل، سوى من لم يولد له.

﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: أخذ ربك من ظهور بني آدم، فهو بدل من بني آدم.

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادهم الذين تفرعوا عنهم.

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم، أن لا تُشرك، ولا أدخلك النار، فأبیت إلا الشرك» وفي رواية ثانية بلفظ: «قد سئلت ما هو أيسر من ذلك» [رواه مسلم (٢٨٠٥)].

و(الذرية): هي النسل، واشتقاق كلمة الذرية من الذر، يدل على أن النسل يحصل بعناصر صغيرة جداً، تبين في العصر الحاضر أنها الخلايا الجنسية، فالنطفة - كما يقول الأطباء - تُشتق من النطفة قبل زمن العلقة، وقبل تجسم الإنسان الجديد، فالخلايا الجنسية الابتدائية تُشتق من جدار الحويصل المحي، ثم تهاجر، وتدخل إلى الغدد الجنسية الآخذة بالتكوّن في ظهر المخلوق الجديد، ثم تتكاثر فيها^(١).

والإنسان قبل أن يكون مجسماً بأعضائه وصفاته، هو صيغة كروموزومية وموروثة معينة، فهو (٤٦) كروموزوماً، تحتوي على عدد كبير من المورثات (الجينات) تتوزع عليها بصيغة تختلف من إنسان إلى آخر، وهذه الكروموزومات والمورثات وُجدت كلها في آدم ﷺ . . ثم أخذت تتوزع في ذريته^(٢).

وجاء في الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم ﷺ بنعمان^(٣) يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراًها فنثرهم بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» إلى قوله: «الْمُبْطِلُونَ» [رواه أحمد (٢٤٥٥)] وقال الشيخ أحمد محمد شاكر مصحح المسند: إسناده صحيح، والحاكم (٥٤٤/٢) وصححه، ووافقه الذهبي.

(١) انظر: القرار المكين، ص ١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٣) موضع قرب عرفات.

﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: جعل كل واحد منهم شاهداً على نفسه لا على غيره.
﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ على أنفسنا بهذا الإقرار.

وقد حمل بعض المفسرين الآية على ظاهرها كما فسرها ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه من طرق كثيرة، وبعضهم رأى أن المراد بهذا الإشهاد هو ما فطرهم عليه من التوحيد، وما أقام لهم من الأدلة على ربوبيته ووحدانيته.

وقد فسّر الحسن البصري الآية بذلك، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ﴾ ولم يقل من آدم ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره، وقد انتصر ابن كثير لهذا الرأي، وردّ ما روي من الحديث عن ابن عباس بأنه موقوف^(١).

لكنني أرى أن الأولى المصير إلى ظاهر الآية والحديث، فمثل ما ورد في الحديث لا يُعرف بالرأي، وعلم المورثات والجينات في عصرنا الحاضر قرّب هذه الحقيقة من الأذهان، وقوله تعالى: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: أخرج بعضهم من ظهر بعض على نحو ما سيتوالدون ويتناسلون، وهو سبحانه قادر على كل شيء، وقد ذكرت أن المختصين من العلماء يقولون: إن النطف تُشتق من النطف.

نعم؛ يمكن القول بأن معرفة الخالق وتوحيده التي فطر الله تعالى عليها الخلق، من أثر هذا الميثاق العام الأول، قال تعالى فيها: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية. [رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) واللفظ له].

ومعنى «جمعاء»: كاملة الأعضاء، و«الجدعاء»: مقطوعة الأذن.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦٤/٢.

فمعرفة الله تعالى مركوزة في نفس كل إنسان، ولا عبرة بمكابرة الملاحظة من الماديين الدهريين، فهم ينكرون الحقيقة في أعماق نفوسهم، بسبب غرورهم واستكبارهم، وتظهر عندما يواجهون الموت ويُعاينون أسبابه، كما فعل فرعون عندما أدركه الغرق.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي: وأخذ عليكم هذا الميثاق لثلاث تقولوا.

﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبه عليه، لقد فطركم الله عليه، ونصب لكم في الكون المحيط بكم وفي أنفسكم الدلائل الكثيرة التي تذكركم به، كما أرسل إليكم الرسل وأنزل الكتب.

﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
الْمُظِلُّونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ سرنا على طريقهم مقلدين لهم.

﴿أَفَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُظِلُّونَ﴾ من آبائنا، لكن الله سبحانه جعل لكل إنسان مكلف إرادة وكسباً واختياراً، وزوده بالعقل ليميز به، كما أعطاه سمعاً وبصراً، وأرسل إليه مَنْ يدعوه إلى الحق ويبينه له، فهو مسؤول عن اختياره وكسبه.

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ التي تذكّرهم وتعظّمهم وترجزهم.
﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم وفجورهم، أو عن تقليد آبائهم.

● المنسلخون من الآيات:

إنّ الأدلة السمعية والعقلية، تقرع أسماعهم، وتحيط بهم، ولكنهم أعرضوا عنها، وسلخوا أنفسهم منها، كما فعل ذلك الرجل الذي آتاه الله الآيات، وقرب إليه البينات، فانسلك منها، فاقراً عليهم يا محمد - ﷺ - خبره:

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
الْعَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ ففي هذه الكلمات إشارة إلى أن اليهود كان عندهم علمٌ بخبر هذا الرجل .

ولا يهتُمُّنا معرفة هويته، ولا حاجة بنا أن نرجع إلى أهل الكتاب لنسألهم عنه، كما فعل كثير من المفسِّرين، يكفي أن نتعرَّفَ عليه من خلال الصفات التي وصفته بها الآيات القرآنية الكريمة.

فهو رجلٌ آتاه الله تعالى الآيات، ووفَّقه إلى معرفتها، وشرح صدره لها، حتى أصبح من أهل الصلاح والتقوى والعلم فترةً من الزمن، ثم فُتِنَ عن دينه بوسوسة الشيطان.

﴿فَإَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ من تلك الآيات، بأن كفر بها، وأعرض عنها.

والسلخ: كَشَطُّ الجلد، وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه: انسَلَخَ منه^(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ آئِلٍ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٧]؛ فالكلمة تدلُّ على أن الرجل كان متمسكاً بالآيات ومتصلاً بها اتصالاً قوياً، وأنه كان على صلاح وتقوى، وكانت هذه الدلائل والبراهين حصوناً مانعةً له من كيد الشيطان ومكره، فلَمَّا انسَلَخَ منها تمكَّن الشيطان من إضلاله.

﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ وتمكَّن منه، وأخضعه لوسوسته.

﴿فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ فصار من أتباع الشيطان الضالين.

فمن وفقه الله تعالى إلى تعلُّم بعض علوم الكتاب والسنة، فعليه أن يتمسك بها ويعمل بها، ولا يهجرها، وينشغل عنها.

(١) روح المعاني: ١١١/٩.

• اللاهثون وراء الشهوات:

ثم يبين سبحانه أن هذا الرجل ما ضلَّ إلا باختياره وكسبه، فقال:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لو أردنا لرفعناه بهذه الآيات إلى المنازل العالية، لكنَّ حكمته سبحانه اقتضت تعليق الجزاء والثواب باختيار الإنسان وكسبه.

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ولكنه مال إلى شهوات الأرض.

والإخلاد إلى الشيء: الميل إليه مع الاطمئنان به.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: أصبح تابعاً لهوى نفسه، عبداً لشهوته.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ فصار مثل الكلب الذي من طبعه:

﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ﴾ فهو يلهث دائماً في التعب والراحة.

وهي حالة تصيب الإنسان المنهمك في إرواء شهواته وغرائزه، والمبالغ في الترف والسرف الذي حذرت منه الآيات فيما سبق معنا في قوله تعالى:

﴿يَبْنَیْ عَادَمَ خُدُو زَيْنَكُمُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقد ظهرت أعراض هذه الحالة على كثير من الناس في العصر الحاضر، بسبب إسرافهم وانهماكهم في الحياة المادية، مع كثرة المتاع المادي المحيط بهم؛ تراهم في تعبٍ وهمٍ وقلقٍ واضطرابٍ، وهي أمراض العصر، لكثرة انتشارها فيه، والتي يسمونها بالأمراض النفسية والعصبية.

﴿ذَلِكَ﴾ الإنسان الذي انسلخ من الآيات، هو النموذج المصغر لأمة أرسل الله إليها رسلاً، وأنزل عليها كتباً، وبعث فيها كثيراً من الأنبياء، وخصَّها بنعم جليلة، ومعجزات كبيرة: أهلك عدوهم، ونجَّاهم من البحر، وظلَّهم بالغمام،

وأطعمهم المنّ والسلوى، وأنبع لهم عيون الماء في قلب الصحراء، وأنزل عليهم التوراة مكتوبة في ألواح... ثم بعد كل ذلك أعرضوا وغيروا وبدّلوا.

﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة في التوراة، والتي تأمرهم أن يتبعوا النبي الأمي إن أدركوا زمنه.

﴿فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون، تلك هي الحكمة الأساسية الكبرى للقصص في القرآن.

فما أسوأ هذا المثل لهؤلاء القوم!

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ﴾

ثم بين جلّ وعلا تمام إرادته ونفاذ مشيئته، فقال:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ﴾ فمن وفقه الله للهداية، فهو المهتدي الحقيقي الذي لا يضل، فلا تغتر أيها الإنسان بعلمك ومواهبك وقوتك، الجأ إلى الله تعالى دائماً، استعن به، وتوكل عليه، واسأله التوفيق والثبات.

﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ بحرمانه من التوفيق والثبوت.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وجاء بصيغة الإفراد في الهداية لأنّ طريقها واحد، وبصيغة الجمع في الضلال لكثرة طرقه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وسبب حرمانهم من توفيق الهداية، نابع من داخل نفوسهم، فقد أعرضوا عن أدلة الهدى، وأغلقوا أبصارهم وأسماعهم وعقولهم عنها، كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ أي: خلقنا كثيراً من الجن والإنس، علمنا أن مصيرهم إلى جهنم.

فالله سبحانه ما خلقهم ليعذبهم، وهو القائل: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ولكنه خلقهم ليشرفهم بالخلافة في الأرض، لكي يعمروها بطاعته وعبادته، فجعل لهم إرادة، ومنحهم حرية الاختيار، وزودهم بوسائل تمكنهم من التمييز لكي يحسنوا الاختيار، فعطلوها:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لأنها معطلة عن الفهم.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ شواهد الحق ودلائله.

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الحق.

﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ﴾ في عدم التمييز بين الحق والباطل.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، لأنها تميز على حسب الإمكانيات التي أعطيت لها.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عمّا فيه صلاحهم وسعادتهم، بسبب انشغالهم في

شهواتهم وأهوائهم.



الْفَصِيلُ الثَّامِنُ

الْعَوْدَةُ إِلَى مَسَرِّحِ الْأَحْدَاثِ فِي مَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾
وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُودًا أَوْ نَصَارًا أَوْ نَحْنُ يَدْعُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأَمَّا لَهُمْ إِلَهٌ كَبِيرٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ
مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ
اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْهَدُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۖ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ
لَاسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ الشُّوْءُ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلًا خَفِيًّا
فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفْلَكَ دَعَا اللَّهَ رَبَّهَا لَيْنِ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا
صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ
يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمُ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا
يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكَ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَلْمُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ
أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَادَاتٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ
كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَىٰ طُرُقِهِمْ لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَا يُنْصَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتْنَةِ ثُمَّ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

● أمة الحق والعدل:

وعندما وصلت الآيات إلى تقرير هذه النتيجة، توقفت عن متابعة حركة التاريخ البشري، وعادت إلى مكة المكرمة لتخاطب رواد الأمة المسلمة، الأمة التي قفزت الآيات قفزتها الكبرى فوق آحاد طويلة من الزمان لكي تتحدث عن رسولها ﷺ، وخصائص شريعته، وصفات أفرادها، كما مر معنا، تنوياً بدورها الكبير في بناء حضارة الإيمان والعدل والسلام.

فعلى المؤمنين حتى لا يكونوا من الغافلين أن يلجؤوا إلى الله تعالى، يسألونه التوفيق والثبات، ويدعونه بأسمائه الحسنى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على أحسن المعاني وأشرفها، وأعلى الصفات وأكملها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اسألوه بها واذكروه بها.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: اتركوا الذين يميلون وينحرفون في أسمائه سبحانه عن الحق إلى الباطل.

فمن إلحادهم في أسمائه ﷺ: أنهم اشتقوا لبعض أصنامهم أسماء من أسماء الله الحسنى، اشتقوا اللات، من الله، والعزى، من العزيز.

﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فأسماءه سبحانه توقيفية، لا تعرف إلا من كتابه وسنة نبيه ﷺ، ولا يجوز تغييرها، كما لا يجوز تسميته سبحانه بغير ما سمى به نفسه في الكتاب والسنة.

وبعد هذا التوجيه الكريم لأبناء هذه الأمة، أثنت الآيات عليهم بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يدعون إلى الحق، ويعملون على نشره بين الناس.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يحكمون ويعملون، إنهم يقيمون دعائم الحق والعدل في مجتمعهم، وينهضون بحضارتهم على أساسه، كما يسعون إلى نشره بين جميع الأمم والشعوب.

قال ابن كثير ﷺ: «جاء في الآثار أن المراد في الآية هذه الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها» ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].»

وفي «الصحيحين»: عن معاوية بن أبي سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، على الحق، لا يضرهم من خذلهم، أو

خالفهم حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ» [رواه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٠٣٧)]^(١).

ورواه البخاري بلفظ: «لا تَزَالُ من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرُّهم مَنْ خذَلهم، ولا مَنْ خالفهم، حتى يَأْتِيهم أَمْرُ اللَّهِ، وهم على ذلك» [رواه البخاري (٣٦٤١)].

• الأسلوب الأمثل في التربية والدعوة:

ثم توعدت الآيات بأسلوب الخبر، المعرضين عن دعوة النبي ﷺ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٢﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ إلى الهلاك والسقوط درجةً درجةً.

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وللاستدراج ناموسٌ إلهي، مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الصَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ﴿١٨٣﴾.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: وسأملِي لهم، فلا أعجلُ هلاكهم، ليزدادوا طغياناً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: إِنَّ أَخْذِي وبطشي قوي شديد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٧٠/٢.

ومن أساليب القرآن الكريم في التربية: أنه لا يقتصر على أسلوب الترهيب والوعيد، وإثارة المشاعر، واستجاشة العواطف، إنما يضيف إليه الترغيب، ويدعو إلى النظر والتفكير، فلا يخاطب القلب فقط، بل يخاطب القلب والعقل معاً، وهاهو يدعوهم بعد التهديد والوعيد إلى التفكير والنظر بقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ الذي صحبوه وعرفوه مدة طويلة، وهو رسول الله ﷺ، الذي ولد فيهم، ونشأ بينهم على أحسن الخصال وأكمل الخلال.

﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: من جنون، فحاشاه ﷺ من ذلك.

وهذا من افتراءاتهم الباطلة على النبي ﷺ ردها الله تعالى في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقوله أيضاً: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [٢] وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم].

فهو رسول الله ﷺ حقاً وصدقاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهر، يعرف ذلك كل من له أدنى تفكير ونظر.

والجدير بالذكر أن الدعوة إلى التفكير في حقيقة جوهره ﷺ تكررت في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيَكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئاً وَفُرْدَى ثُمَّ نَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

كما تكررت الدعوة إلى التفكير في الدلائل الكونية لمعرفة قدرة الله تعالى وعظمته، منها قوله تعالى هنا:

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: عليهم أن

ينظروا نظر التفكر في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض، وفي كل شيء خلقه الله تعالى فيهما، ليتدبروا ويعتبروا.

وعليهم أن يسارعوا إلى هذا التفكير والنظر قبل أن تحين آجالهم، ويأتيهم الموت:

﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ فلعل الموت أصبح قريباً منهم.

﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي: بعد القرآن الكريم.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، وهو الغاية والنهاية في الفصاحة والبيان، فماذا ينتظرون، وقد اقتربت آجالهم؟!.

ولمّا أصرّ القوم على كفرهم، واستمروا على عنادهم، طبع الله على قلوبهم، وحرّمهم من أسباب الهداية، كما هي سُنَّته في خلقه:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَهُ﴾ من دون الله تعالى.

﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ويتردّدون في ظلمات كفرهم وفجورهم.

• متى الساعة؟:

الإيمان بيوم القيامة من أكبر الموضوعات التي اشتدّ حولها الخلاف بين النبي ﷺ وبين مشركي العرب، فقد كانوا يستبعدون الحياة الثانية بعد الموت، وينكرون الحساب والجزاء، وكثيراً ما سألوا النبي ﷺ عن وقت القيامة على سبيل الإنكار والتحدّي، والاستهزاء والسخرية، وما كان رسول الله ﷺ يعلم وقتها، فهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُفِذَتْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى إثباتها وتقديرها؟ فهم لن يؤمنوا بها حتى يروها ثابتة واقعة فعلاً.

وكلمة (مرساها) لا تستعمل إلا في الشيء الثقيل، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، ومنه: مرسة السفن، فأمر الساعة كبير وثقيل.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر سبحانه بعلمها.

﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يظهرها في وقتها إلا هو سبحانه، فجعل المخلوقات بوقتها مستمر إلى حين قيامها.

ثم بين سبحانه حكمته في إخفائها فقال:

﴿نُفِذَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: شأنها ثقيل شديد على أهل السماوات والأرض، لما فيها من الأهوال والشدائد، فمجيئها ثقیلاً على أهل السماوات والأرض، إذ تتغير حينئذ النظم الكونية، والنواميس السماوية والأرضية كلها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فمن الحكمة إخفاؤها حتى لا تتعطل الحياة، وتتوقف مسيرتها، ولهذا قدر الحكيم الرحيم ألا تأتي إلا فجأة:

﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ على غير توقع وانتظار، وعجلة الحياة دائرة مستمرة.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتباعدانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يُليط (يُصلح) حوضه فلا يسقي فيه،

ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه (فمه) فلا يطعمها» [رواه البخاري (٧١٢١)].

فلو علم هؤلاء الناس أنَّ الساعة ستقوم عليهم، هل كانوا يهتمون بشؤون حياتهم هذا الاهتمام؟!.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها، كثير السؤال عنها.

فالحفي: «العالم بالشيء، أو المستقصي في السؤال»^(١).

وشأن المؤمن أن يخاف من المسؤولية أمام الله يوم القيامة، فهو خائف وجل منها، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

• النبي ﷺ وعلم الغيب:

وعادت الآيات لتؤكد أنه سبحانه استأثر بعلم الساعة:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فلا يعلمها غيره.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه سبحانه استأثر بعلمها، ولم يُطلع عليها

أحداً من خلقه، ولما أتى جبريل إلى النبي ﷺ وسأله: متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

قال ابن كثير رحمه الله: «فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم، محمد ﷺ،

نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي، والحاشر الذي يُحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في [صحيح البخاري (٥٣٠١)]:

«بعثت الساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها، ومع ذلك أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سُئل عنها»^(٢).

وأمره أيضاً أن يعلن ضعفه وعبوديته لله، وبرأته من ادعاء علم الغيب:

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٣٦/٧.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٧٢/٢.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: أنا عبد ضعيف، لا أستطيع أن أجلب لنفسي نفعاً، ولا أدفع عنها ضرراً، فكيف أملك علم الساعة؟!.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يطلعني عليه، وقد أعلمه تعالى بأمور معيية كثيرة، أخبر عنها رسول الله ﷺ، فكانت من دلائل نبوته، قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن].

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي: ولو كنت أعلم الغيب من نفسي، لما كانت حالي على ما هي عليه الآن، كنت أستكثر من المنافع، وأجتنب المضار، فلا يمسني ما يسوءني.
﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: ما أنا إلا عبد أرسلت بشيراً ونذيراً.
﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون برسالتي.

إنه رسول الله حقاً وصدقاً، الرسول الذي قطع الطريق على الدجالين مدَّعي علم الغيب، الذين يستغلون ميل النفس البشرية إلى استكشاف حُجب المستقبل، لكي يحققوا لأنفسهم المكاسب المادية، والعجيب أن صناعة الدجل هذه قد انتشرت في العصر الحاضر، عصر العلم المادي، ومرد ذلك إلى ضعف الإيمان، وشدة القلق والخوف من المستقبل، حتى خصَّصت أكثر الصحف والمجلات صفحات فيها لنشر تنبؤات الدجالين، وأطلقت عليهم لقب الروحانيين، ونشر بعضها استطلاعات صحفية كبيرة عنهم، ولهم في عاصمة فرنسا معرض دولي يجتمعون فيه ليعرضوا أكاذيبهم.

ذكرت إحدى المجلات عنهم ما يلي: «شَقَّتْ الأبراج والنجوم وقراءة الكف طريقها إلى حياة الغربيين، والجميع يتذكر كيف أن بريجنيف - الرئيس السابق في الاتحاد السوفيتي - وضع مصيره في كف امرأة منجمة لتعالجه

بأسلوبها الخاص، حتى رونالد ريغن حكم أكبر دولة في العالم من خلال المنجمين، فكانت زوجته نانسي تتصل بالمنجمين، وتنظم حسب نصائحهم برنامج زوجها اليومي، وبدأ عدد من المؤسسات الصناعية الكبرى تعتمد في اختيار كبار موظفيها على قراءة الكف... وتزايد الطلب على المنجمين، وكثرت عيادات الغيب، ففي فرنسا أكثر من خمسين ألفاً من باعة الأحلام والأوهام^(١)؛ فالعلم والمال والقوة لا تغني الإنسان عن الدين والإيمان.

• الانحراف عن الفطرة:

ثم بيّنت الآيات صورة من صُور انحراف الإنسان عن التوحيد الذي فطر عليه إلى الشرك بقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيئاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَدِيقًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم ﷺ.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق من آدم زوجته حواء.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليألفها، وتكون سكناً وطمأنينة لنفسه وقلبه، كما قال

تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: وطئها، وتم الاتصال الجنسي بينهما.

فما أجمل الكلمات القرآنية! فيها البلاغة والفصاحة، والصراحة

والوضوح، مع العفة والأدب، والتنزّه عن سقط الكلام.

﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيئاً﴾ وذلك عندما يكون الجنين في أول أطواره، لا ثقل فيه.

(١) مجلة الوطن العربي، عدد (١٠٨)، ١٩٨٩/٤/٧، ص ٤٨.

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت بالحمل كما كانت قبله من حيث قيامها وعودها وسائر أعمالها، فلم يَعْقُهَا حملها عن شيء مما كانت تفعله.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: أثقلها الحمل بسبب زيادة وزنه وحجمه في بطنها.

﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: توجه والدها الجنين إلى الله تعالى يدعوانه.

﴿لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا﴾ أي: ولداً سوياً مكتملاً في خلقه وتكوينه.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على إحسانك وفضلك.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَفَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَاحِبًا﴾ أي: أعطاهما ربهما ما سألاه، وهو الولد الصالح السَّوِيُّ المكتمل في تكوينه.

﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ أي: جعل هذان الوالدان لله تعالى شركاء في ما أنعم عليهما، فسميَا الولد بعبد العزى، وعبد الدار، وعبد شمس، أو نسباً ذلك إلى آلهتهما، أو جعلوا الولد ينحرف عن أصل فطرته إلى الشرك، كما مرَّ معنا في الحديث الشريف: «ما مِنْ مولودٍ إلا يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرّانه، ويمجّسانه...» [رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)].

﴿فَفَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه سبحانه وتقدس عن كل شرك.

وفي قراءة: (تشركون) فكأنها تخاطب المشركين في مكة المكرمة.

ودلّت صيغة الجمع في ختام الآية أنّ المراد منها العموم، وليست الآية في زوجين مخصوصين، كما رأى كثير من المفسرين، فقد ذهبوا إلى أنّ الآية في آدم وحواء، وأن شركهما كان شركاً في التسمية والصفة، لا في العقيدة والعبادة.

واستندوا إلى حديث [رواه أحمد (١١/٥) والترمذي (٣٠٧٧) والحاكم] عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا وَلَدْتُ حَوَاءَ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِّيه عَبْدَ الْحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ».

قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: «وعن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصّروا... وهو أحسن التفاسير، وأولى ما حُمِلت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره»^(١).

قال القرطبي: «ونحو هذا مذكور من ضعيف الحديث [في الترمذي (٣٠٧٧) وغيره]، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات، فلا يعوّل عليها من له قلب، فإن آدم وحواء ﷺ، وإن غرّهما بالله الغرور، فلا يُلدّع المؤمن من جُحر مرتين، قال عكرمة: لم يُخصّ بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم»^(٢). وسياق الآيات يؤكد أنها عامة في جميع المشركين.

قال تعالى بعدها:

﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١).

﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي: ما لا يقدر على أن يخلق شيئاً، وهو دليل العجز والضعف الذي يتنافى مع الألوهية، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاستَعْمَوْا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: وهم مخلوقون فكيف تجعلونهم آلهة؟!.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٢).

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لا يستطيعون نصر عبّادهم.

﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فلا يجلبون نفعاً، ولا يدفعون ضرراً، كما قال

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٧٢/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٣٣٨/٧.

تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْخَضَرُونَ﴾ [يس].

● حملة على الأصنام:

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لأنهم لا يسمعون.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ لا تتكلمون.

وتابعت الآيات هذه الحملة الشديدة على الأصنام بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ إن هذه الأصنام عبید مثل

عابديها، فهي مخلوقة مملوكة مثلكم، وحتى يظهر لكم ضعفها وعجزها:

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم ينفعونكم أو يضرونكم.

ألا ترون عجزهم وضعفهم، وتجردهم حتى عن الجوارح التي خلقها الله

تعالى لكم؟!:

﴿الْهَمْ أَجَلٌ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿الْهَمْ أَجَلٌ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

وترتفع حرارة المواجهة مع المشركين بعد هذه الحملة الشديدة على

أصنامهم، وتصل إلى درجة التحدي:

﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: افعلوا بي ما تقدرون عليه من الكيد والمكر.

﴿فَلَا تُظِرُّونَ﴾ وعجلوا به، ولا تؤخّروه، فإنني لا أبالى بكم ولا بأصنامكم، لأنني متوكّل على الله سبحانه، ومفوض إليه أمري.

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦).

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ القرآن الكريم.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ بالنصرة والتأييد، فكيف لا ينصرني ويمنعني من كيدكم ومكركم؟!.

وقد مرّ معنا في قصص السورة كيف نصر سبحانه أنبياءه، وحمى أوليائه، وأهلك أعداءه.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ﴾ إشارة إلى كيفية موالاته جلّ وعلا، فموالاته باتباع كتابه، والتزام شرعه ومنهجه، كما ذكرت السورة في أول آياتها: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)، وبهذا يظهر الاتساق والانسجام بين آيات السورة من أولها إلى آخرها.

فاتباع الشرع الإلهي والمنهج الربّاني هو الضمان للمجتمعات البشرية وحضارتها من الهلاك والسقوط.

وفي أثناء حرارة المواجهة تجددت الآيات مرة ثانية حملتها على الأصنام وهي تخاطب عابديها من المشركين:

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٧).

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: وهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله تعالى.

﴿لَا يَسْتَلِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فعجزهم ظاهر واضح.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨).

فلا سمع لهم ولا بصر، إنك أيها الواقف أمامهم تراهم ينظرون إليك

بأعينهم المصنوعة لهم من الجواهر المضيئة المتألثة، والحقيقة أنهم لا يبصرون.

• مجمع مكارم الأخلاق:

وبعد هذه الحملة الشديدة على الأصنام، أمرت الآية الكريمة النبي ﷺ أن يحسن معاملة المشركين تأليفاً لهم على الإسلام، بقوله تعالى الذي جمع مكارم الأخلاق:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩)

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: اقبل من الناس ما عفا وسهل وتيسر من أخلاقهم.

وكلمة (العفو) يدور معناها على السهولة واليسر.

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية عنه: ما أنزل الله - الآية - إلا في أخلاق الناس. [رواه البخاري (٤٦٤٣)].

ولما أنزل الله ﷻ على نبيه هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: «إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك» [رواه الطبري (٦٤٤/١٠) مرسلاً، وابن مردويه موصولاً من حديث جابر^(١)].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ، فابتدأته فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك» [رواه أحمد (١٤٨/٤) و(١٥٨)].

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف المستحسن من الأفعال، فإن الناس يقبلونه من غير نكير.

(١) انظر: فتح الباري: ٣٠٦/٨.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أعرض عن مقابلة السفهاء بمثل سفههم، واحلم عليهم، فالمراد احتمال سفههم وطيشهم، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عُيَيْنَةَ بن حصن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحُر بن قيس، وكان من النَّفَر الذين يُدْنِيهِم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً أو شبَّاناً، فقال عُيَيْنَةُ لابن أخيه: يا ابن أخي لك وَجْهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، فاستأذن له، فأذن له عمر، فلمَّا دخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تُعطينا الْجَزَلَ، ولا تحكُم بيننا بالعدل. فغضبَ عُمَرُ حتى هَمَّ به، فقال له الحُرُّ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ. والله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقَّافاً عند كتاب الله. [رواه البخاري (٤٦٤٢)].

قال القرطبي: «هذه الآية من ثلاث كلمات، تَضَمَّنَتْ قواعدَ الشريعة في المأمورات والمنهيات:

فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه: صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.
ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.
ودخل في قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحُضُّ على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزُّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة»^(١).

• حِصْنٌ وَوَقَايَةٌ:

الإحسان يكفُّ عنكَ أذى الإنسان كما قال سبحانه: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

(١) تفسير القرطبي: ٣٤٤/٧.

وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَلَا يَكْفُهُ عَنكَ إِلَّا الْاِلْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِيُعِيدَكَ مِنْ شَرِّهِ وَكِيدِهِ، ولهذا قال تعالى بعد آية مجامع مكارم الأخلاق:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أي: إذا أصابك من الشيطان وسوسة، وأنت في حال الغضب، ليصدك عن الإعراض عن الجاهل، ويحملك على الانتقام منه.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع استعاذتك، ويعلم أحوالك، فذكر الله حصنً ووقاية.

فالشيطان عدو الإنسان، يأتي الإنسان وهو في حال الغضب، لكي يورطه في أعمال خطيرة، قد تسبب شقاءه وتعاسته. ولهذا حثَّ النبي ﷺ على كظم الغيظ ودفع الغضب في عدد من الأحاديث، منها: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يَخْبِرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» [رواه أبو داود (٤٧٧٧) والترمذي (٢٠٢١) وحسنه].

وجاءت الآية تخاطبُ النبي ﷺ بالجملة الشرطية، لأن الشيطان لا سبيل له ولا تسلط له على النبي ﷺ، والمعنى: إن حصل في قلبك نزغ من الشيطان فاستعذ بالله، وإن لم يحصل ذلك البتة، فهو كقوله تعالى: ﴿لَنْ أَشْرَكَ لِحَبْطِ عَمَلِكُمْ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وهو ﷺ معصوم من الشرك فالخطاب له والمراد غيره من عامة المؤمنين. ويؤكد ذلك قوله تعالى في سياق الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: ألمَّ بهم شيء من وسوسة الشيطان.

﴿تَذَكَّرُوا﴾ أمره سبحانه ونهيه.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ مواقع الخطأ والزلل، فابتعدوا عنها.
أو إذا زلّوا وعصوا بادروا إلى التوبة ولم يصبروا، بينما يظل أتباع الشيطان وأولياؤه في ضلالهم وغيهم سادرين مصريّن.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي: وأما إخوان الشياطين من الإنس، فإنّ الشياطين يمدّونهم بالضلال، ويزيّنون لهم الفجور والآثام.
﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم، بل يستمرون، لأنهم يجدونهم منقادين ومستجيبين لوسوستهم.

فالشيطان - كما مرّ معنا في قصة الإنسان والشيطان - عدو الإنسان، وأصل كل شر وفساد، والقلوب الخبيثة هي التي لديها القابلية والاستعداد لقبول وسوسته كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَجَسًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وأما القلوب الطيبة المؤمنة فلا سلطان للشيطان عليها إلا في حال غفلتها عن ربها جلّ وعلا.

• القرآن كتاب البصائر:

ومن صور عناد أصحاب النفوس الخبيثة وإصرارهم على ضلالهم: إعراضهم عن القرآن الكريم، ومطالبتهم النبي ﷺ بالمعجزات، مع أنّ القرآن الكريم أعظم المعجزات، وأكثرها وضوحاً ودلالة على صدقه عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: لولا أحدثتها، وأنشأتها من نفسك.
﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: إنما ألتزم ما أنزله عليّ ربي، وأكتفي

به، فلا أتقدّم إليه تعالى بشيء بعد القرآن الكريم، ففيه الأدلة الكافية الواضحة القاطعة.

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: هذا القرآن فيه البصائر، وهي جمع بصيرة، وهي للقلب كالبصر للعين، لأنها تجعل القلب يبصر الحقيقة، فهي تجلو الحقائق وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات للعين ويظهرها، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]^(١).

﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وفيه أيضاً الهداية والرحمة للمؤمنين. ولهذا أمر الله تعالى بالإنصات عند تلاوته، إعظماً له واحتراماً، فمجالس تلاوة القرآن الكريم مجالس ذكر ورحمة:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وهو أمر مطلوب في الصلاة وخارجها. وكان المشركون يتواصون بالتشويش على النبي ﷺ عندما يتلو القرآن الكريم، حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فعلى المسلمين ألا يتشبهوا بالمشركين، وأن يُقبلوا على سماع القرآن خاشعين متدبرين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

والإنصات والاستماع والتدبر مقدمة الاتباع الذي أمر الله تعالى به في أول السورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

● سجود التلاوة:

وعادت الآيات في خاتمة السورة إلى الحصن والوقاية، فجعلته مسك

(١) انظر: تفسير سورة الأنعام (بصائر الحق في سورة الأنعام) في تفسيرنا الموضوعي هذا.

خاتمته، فمعركة الإنسان مع الشيطان لا تتوقف، والصراع قائم لا ينتهي ما دام الوجود البشري مستمراً في الأرض، والشيطان لا يزال على الطريق يراقب الإنسان، ويرصد تحركاته كما مر معنا في قوله: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا يَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿[الأعراف: ١٦] فَإِنْ أَحْسَسَ مِنَ الْإِنْسَانِ غَفْلَةً عَنْ رَبِّهِ أَلْقَى إِلَيْهِ وَساوسه، ورمى عليه شبابه وأشراكه، ولا سبيل للنجاة من شره والسلامة من مكروه إلا بذكر الله تعالى القائل:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (١٠٥)

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ لأن ذكر النفس أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء، مع استحضار عظمة المذكور في القلب.

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: وأنت في حال الضراعة والاستكانة والخضوع لجلاله وعظمته.

﴿وَخِيفَةً﴾ أي: وأنت في حال الخوف منه ﷻ.

هذا إذا ذكرته في قلبك، وأما إذا ذكرته بلسانك، فالأفضل أن يكون سرًّا لا جهراً:

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ قال ابن كثير: «يستحب أن يكون الذكر خفياً، لا يكون نداءً وجهراً بليغاً»^(١).

وهو أيضاً مستحب في الدعاء، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَإِتْقَانًا لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وجاء بعد الأمر بالذكر التحذير من الغفلة:

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين يسلمون أنفسهم وقلوبهم إلى الشيطان، فيقودهم إلى الهلاك والسقوط.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٨٠/٣.

وحتى تشتدَّ عزيمة المؤمنين على الذكر، وتنشط له هممهم، أخبرهم سبحانه أنهم ليسوا وحدهم في ساحة الذكر والخضوع والخشوع لجلاله، فثمة مخلوقات كثيرة وكبيرة معهم في الساحة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهذا يدلُّ على علو منزلتهم ورفعة مكانتهم، فهم الملائكة المقربون.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ حجلاً.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي: وينزهونه عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وكماله و غناه.

﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ لا لغيره سبحانه.

فعليك أيها المؤمن أن تقتدي بهم، في خضوعهم وانقيادهم لأمره وشرعه، وفي تسبيحهم وسجودهم.

وهذه أول آيات سجود التلاوة في المصحف، وهي من عزائم السجود؛ يسنُّ السجود عند تلاوتها أو سماعها اقتداءً بالملائكة المقربين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدة، فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، ويقول: يا ويله، أمر ابنُ آدمَ بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار» [رواه مسلم (٨١)].

اللهم اجعلنا ممن يتبعون كتابك وسنة نبيك ﷺ.



تفسير سورة الأنفال أسباب النصر في سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمُ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد: فقد سجّل تاريخ المسلمين في العصور المتأخرة هزائم كثيرة متتابعة في مختلف ميادين الحياة، وقد بثت الصحوّة الإسلاميّة في كثير من المسلمين روحاً جديداً، جعلتهم يتطلّعون إلى إحياء مجد سلفهم الصالح، ورفع الرايات من جديد، وتحقيق الانتصارات.

ولا سبيلَ لهم إلى ذلك إلا إذا أحسنوا العودة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام.

ويتناول هذا الباب من التفسير: أسباب النصر من خلال سورة الأنفال التي أنزلها الله تعالى بمناسبة أول وأعظم نصر تحقق في تاريخ المسلمين في عهد رسول الله ﷺ، في غزوة بدر الكبرى، التي مهّدت لكل الانتصارات التي تحققت للأمة المسلمة بعد ذلك.

إنّه يرسم طريق النصر للأجيال المسلمة، التي تتطلّع إلى النصر، ويبين

نظرة الإسلام إلى الحرب والسلام من خلال المعاناة الصادقة الكريمة للنبي ﷺ وأصحابه البدرين، الذين قدر الله تعالى لهم بمشيئته وحكمته أن يكونوا رؤاد الجهاد في الإسلام.

كما أن هذا الباب أصدق سجل لأحداث غزوة بدر من خلال أوثق المصادر التاريخية وأصدقها؛ آيات القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ^(١).

كما جاء صورة صادقة للهدف الأساس لهذا التفسير المبارك، وهو إظهار الاتساق والانسجام بين آيات السورة، مع تفسيرها تفسيراً علمياً عصرياً واضحاً من خلال موضوع السورة الكريمة.

وقد قسّمت تفسير هذه السورة إلى ثلاثة فصول:

• الفصل الأول: بيان الأسباب المباشرة للنصر، من خلال عرض ما حدث قبل المعركة وفي أثنائها.

• الفصل الثاني: بيان الأسباب غير المباشرة للنصر، التي ينبغي للأمة أن تسعى دائماً لتحصيلها لتضمن الحياة الكريمة العزيزة لها.

• الفصل الثالث: التحذير من أسباب الهزيمة، التي تنعكس آثارها السلبية على حياة الأمة في السلم والحرب.

وإني لأسأل الله تعالى أن يجعل هذا التفسير فاتحة خير ونصر للمسلمين، وأن يتقبّله مني.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



(١) انظر كتابنا: سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ص ٣٣٣ - ٣٥٠، ط: دار القلم بدمشق.

الْفَضْلِ الْأَوَّلُ

الْأَسْبَابُ الْمُبَاشِرَةُ لِلنَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْنِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يَغْشِيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَم فَدَوُّهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّيًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا

رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِإِثْبَاتِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ .

• البداية من النهاية:

نزلت سورة الأنفال، كما روى البخاري رحمته الله [٤٦٤٥] عن ابن عباس رضي الله عنهما بسبب غزوة بدر، وبدأت أول آياتها تعرض آخر ما حدث فيها، كأن ما حدث في آخرها أهم أحداثها، فماذا حدث في نهاية غزوة بدر؟.

حاز الصحابة البديرون رضي الله عنهم الغنائم التي غنموها من المشركين، وقيدوا الأسرى، قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «فينا أصحاب بدر نزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء» [رواه أحمد (٣٢٤/٥) وقوله: (بواء) أي: سواء].

وأصل النفل: الزيادة، وسميت الغنيمة نفلاً لأنها عطية من الله تعالى وفضل، تفضل الله تعالى به على الأمة المسلمة دون غيرها من الأمم.

ففي الحديث الشريف: قال عليه الصلاة والسلام: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَبِيبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

ولأن الغنيمة زيادة على ما يحصل للمجاهد من ثواب الجهاد، وبهذا المعنى يُطلق اسم النافلة على الصلاة الزائدة على الواجب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

كما يسمّى ولد الولد نافلةً، لأنه زيادة على الولد، كما في قوله تعالى أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

والاختلاف أمر خطير، وله تأثير سلبي كبير، ولو أنّه حدث قبل المعركة لأدّى إلى نتائج خطيرة بتقدير الله تعالى، ولكنّه سبحانه سلّم، فحدث الاختلاف بعد أن تحقق النصر، وهزم الله تعالى المشركين شرّ هزيمة، وأنزل بهم بطشته الكبرى، التي سبق وتوعدهم بها في قوله الكريم: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

ونزع الله تعالى سبب الاختلاف من أيديهم، وجعل أمر تقسيم الغنائم بيد رسول الله ﷺ، يقسمها بحسب ما يأمره تعالى، ويشرع له، فقال جلّ وعلا:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: حكم الأنفال مختصّ بالله تعالى وبالرسول ﷺ، يقسمه حسب ما يأمره الله تعالى.

وقد بيّن تعالى كيفية قسمة الغنائم بعد ذلك في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ﴾ [الأنفال: ٤١]، كما سيأتي معنا، وقد أّخر تعالى بيانه ليأتي متناسباً في موقعه من أحداث غزوة بدر.

ولم يؤدّ الاختلاف الذي حدث بين الصحابة إلى خصام، فما تعدّى أن يكون اختلافاً في وجهات النظر، انتهى برفعه إلى رسول الله ﷺ وسؤاله عنه، دلّ على ذلك قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾؛ فقد حسموا خلافهم عندما توجهوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه.

واهتمام السورة به لكونه بداية الشقاق والخصام المؤدّي إلى التفرّق والتحزّب والضعف والخذلان، فمبادرة السورة إلى ذكره يدلّ على وجوب المبادرة إلى معالجة مثل هذه الأمور التي تطرأ على المجتمع المسلم، قبل أن

تستفحل وتشتدّ وتمتدّ جذورها في جسم الأمة، وعندئذٍ تصبح المعالجة شاقة وبالغة الصعوبة، فمعالجة الداء قبل أن يستفحل أهون وأيسر، والأفضل من كلّ ذلك الوقاية من أسباب الخلاف والنزاع، والعمل على تجنب الأمة كل ما يمكن أن يؤدي إلى الخصام والشقاق، وهو ما نلاحظه في تشريعات الإسلام، فقد حرّم تعالى كل ما يمكن أن يكون سبب اختلاف وخصام بين المسلمين، كأكل الأموال بالباطل والغيبة والنميمة والسخرية والتكبر والتفاخر بالأحساب والأنساب... إلخ.

• إصلاح ذات البين:

وبعد أن جعلت الآية أمر الأنفال إلى الله تعالى وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام أمرتهم بثلاثة أمور هامة:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:

أولها: تقوى الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الاختلاف والنزاع، فخشيته تعالى ومراقبته تزيل من النفس أسباب الاختلاف والنزاع.

وثانيها: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق^(١)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وكونوا عبادَ الله إخواناً» [رواه البخاري (٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٦٣)].

وقد حثّ رسول الله ﷺ على إصلاح ذات البين، وبين خطورة الاختلاف على الدين، فقال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»

(١) تفسير النسفي: ٤/٣.

قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، فإنَّ فساد ذات البين هي الحالقة» [رواه أبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩) وقال: حديث صحيح].

وثالثها: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﷺ في كلِّ ما يأمران به، وينهيان عنه، ويدخل فيه أمر الأنفال، ولا تتحقق طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ إلا بالتزام الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ووقوع الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ يدلُّ على أهمية الإصلاح وخطورته، فلا تتمُّ التقوى ولا تكتملُ الطاعة إلا به.

وأساسُ التقوى في ضمير الإنسان ووجدانه، في خوفه من الله تعالى وتعظيمه ومراقبته، وكل ذلك في القلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا» ويشيرُ إلى صدره. [رواه مسلم (٢٥٦٤)].

فإذا ما وُجد في القلب شيءٌ من أسباب الخلاف والنزاع كالبغضاء والشحناء والحقد والحسد، دلَّ ذلك على ضعف التقوى، وكان سبباً لحرمان المسلم من نفحات رحمة الله تعالى في الأوقات المباركة.

وقد بيَّن رسول الله ﷺ هذا المعنى في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، منها: «تُعَرَضُ الأعمالُ في كُلِّ خميسٍ وإثنين، فيَغْفِرُ اللهُ ﷻ في ذلك اليوم لكلِّ امرئٍ لا يشركُ بالله شيئاً، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اركوا هذين حتى يصطلحا، اركوا هذين حتى يصطلحا» [رواه مسلم (٢٥٦٥)].

واركوا: اُخْرُوا.

كما دلَّ على أهمية هذه الأوامر الثلاثة قوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين حقَّ الإيمان، فالتزموا بهذه الأوامر الثلاثة.

فالمرادُ الحثُّ على التقوى والطاعة، وإصلاح ذات البين، والمساواة

إليها، فإنَّ كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث، وهي أيضاً أول أسباب النصر وأهمها، فالأمة التي تريد النصر يجب عليها أولاً أن تضمَّ صفوفها، وتصلح ذات بينها.

• بين الخوف والرجاء:

ثم بيّنت الآيات على وجه الاستئناف والحصر الظاهر الدالة على كمال الإيمان وقوته:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فزعت وخافت تعظيماً لشأنه ﷻ، وخشية منه لمجرد ذكره سبحانه.

ومن المعلوم أنَّ المؤمن كلما ازداد معرفةً بالله تعالى وإيماناً به، ازداد تعظيماً له تعالى وخشية منه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «ما بال أقوام يتنزّهون عن الشيء أصنعه، فو الله إنني لأعلمهم بالله، وأشدّهم له خشيةً» [رواه البخاري (٦١٠١) ومسلم (١١١٠)].

وكان عليه الصلاة والسلام كثير البكاء، ويقول لأصحابه: «لو تعلمون ما أعلم - من جلال الله تعالى وعظمته - لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قال ذلك في خطبة له قال عنها أنس بن مالك رضي الله عنه: ما سمعت مثلاً قط، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين. [رواه البخاري (٤٦٢١) ومسلم (٢٣٥٩)].

فالخوف من الله تعالى؛ والبكاء من خشيته؛ من علامات الصالحين المحبتين، الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقد عدَّ عليه الصلاة والسلام من الأصناف السبعة الذين يظلمهم الله في

ظَلَّه يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١)].

ولا منافاة بين قوله تعالى هنا: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وبين قوله في سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) لأنهما مقامان يجتمعان في قلب المؤمن، مقام تعظيمه وخشيته والخوف منه، ومقام رجاء رحمته وفضله وإحسانه، وقد جمع تعالى بينهما في آية واحدة فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيَتْ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ﴾ [الزمر: ٢٣] (١).

وقد يكون الاطمئنان بذكر الله تعالى في ذهاب الهموم والأحزان عن قلب المؤمن عندما يذكر الله تعالى، وذلك بسبب ما يفيض عليه سبحانه من فيوضات كرمه وإحسانه عند ذكره: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: إذا قُرئت عليهم آيات القرآن الكريم زادتهم تصديقاً بالله تعالى وبرسالة النبي ﷺ، فكل آية من آيات القرآن الكريم تزيد إيمانهم وتقويه بسبب زيادة الدلائل والبراهين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

فالقُرآن الكريم يثبت الإيمان في قلب المؤمن ويقويه، فهو نور على نور، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه، ويفوضون أمورهم إليه وحده، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، وهم يعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولهذا قال سعيد بن جبیر: التوكل على الله جماع الإيمان.

ومن أهم صفات المؤمنين العملية:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدونها بشكل صحيح مستقيم كما شرعت، يحافظون على أوقاتها، ويحرصون على تحصيل شروطها، وإقامة أركانها وسننها وآدابها، مع الخشوع فيها لجلال الله تعالى وحده. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ الزكاة وسائر الحقوق الواجبة والمستحبة.

• المؤمنون حقاً:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بهذه الصفات الخمس، وهي: الخوف من الله تعالى، والإخلاص له وحده، والتوكل عليه، وإقامة الصلاة، والإنفاق من أموالهم في الوجوه الواجبة والمستحبة. ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: هم المؤمنون حق الإيمان، الذين بلغوا مرتبة رفيعة في الإيمان والصلاح.

ولا يعني هذا أنهم وحدهم هم المؤمنون، فالقرآن الكريم نزل بلسان العرب وهم يقولون: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء^(١).

ويؤكد هذا المعنى قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم مقامات ومنازل رفيعة في الجنة على قدر صدقهم وصلاتهم، ففي الجنة درجات، كما أن في جهنم دركات، قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُومًا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره عن عمرو بن مرة، المختصر: ٨٥/٢.

وقال عليه الصلاة والسلام: «في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين مئة عام» [رواه الترمذي (٢٥٣٢) وحسنه].

وقال أيضاً: «إنَّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق والمغرب، لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدّقوا المرسلين» [رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١)]. «الغابر»: الذاهب.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: ولهم أيضاً سترٌ لذنوبهم، وتجاوزٌ عنها، فضلاً منه سبحانه. وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان مهما ترقّى في درجات الإيمان والصلاح لا يخلو عن بعض الذنوب، ويبقى محتاجاً إلى مغفرة الله تعالى وعفوه، فلا ينبغي لأحدٍ أن يُعجبَ بعمله، ويغترَّ بنفسه.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ خالٍ عن الكدرِ والمنغصات، لأنَّه من رزق الجنة ونعيمها.

• الإخراج من المدينة:

وبعد أن وصفت الآيات الأولى في السورة ما حدثَ حول الغنائم من اختلافٍ في نهاية غزوة بدر، عادت لتحكي أحداث الموقعة العظيمة من بدايتها، وهي تخاطبُ النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾.

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ فخرجُ النبي ﷺ من بيته في المدينة المنورة، ليعترض قافلة لقريش مقبلة من بلاد الشام؛ كان بأمر الله تعالى ومشيتته، فهو خروجٌ مشروعٌ ملتبس بالحق، دلٌّ على أنَّ اعتراض القافلة للاستيلاء على ما تحمِلُ من أموال المشركين أمرٌ مشروع، لأنهم كانوا أعداء للنبي ﷺ، آذوه، وعذبوا أصحابه، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة المنورة آخرًا، واستولوا على بيوتهم وأموالهم، فمن حقِّ

المسلمين أن ينتصروا لأنفسهم، وأن يستردوا بما يأخذون من القافلة بعض أموالهم. ومن حقهم أيضاً أن يعملوا على إضعاف عدوهم، وكسر شوكتهم، بالاستيلاء على أمواله، التي هي مصدر كبير من مصادر قوته وجبروته.

فالله سبحانه هو الذي أخرج النبي ﷺ بما أوحى إليه، وندب ﷺ أصحابه ليخرجوا معه، قال ابن إسحاق:

«لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها».

فانتدب الناس، فحفّ بعضهم، وثقل بعضهم، ذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حرباً.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسّس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة^(١).

وكان في خروج النبي ﷺ خيراً كبيراً له ولأصحابه، فما اختاره الله تعالى خيراً مما يختاره الإنسان لنفسه.

• المجادلة في الحق:

لقد كره فريق من المؤمنين التوجه إلى بدر لقتال جيش قريش الذي خرج من مكة لحماية القافلة، وأرادوا اعتراض القافلة، ولكن الله تعالى اختار لهم لقاء جيش المشركين، وظهر بعد ذلك أن ما أَرَادَهُ تعالى واختاره خيراً مما اختاروه لأنفسهم.

(١) سيرة ابن هشام: ١٨٢/٢.

وظهر هذا المعنى أيضاً في شأن الغنائم عندما نزعها الله من أيديهم، وجعل أمر تقسيمها في يد النبي ﷺ، يقسمها كما يأمره ربه جلّ وعلا، ولو بقي أمر الغنائم في أيديهم لوقع الخصام والشقاق بينهم بعد أن ظهرت بوادره في اختلافهم.

والتشبيه الذي دلّ عليه حرف الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ سيق لإبراز هذا المعنى، قال ابن كثير: «شبه به في الصلاح للمؤمنين، والمعنى أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم، وتشاحتم فيها، فانتزعها الله منكم، كان هذا هو المصلحة التامة لكم، كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء، وهم النفيّر الذين خرجوا لإحراز غيرهم، فكانت عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم على غير ميعاد رشداً وهدى ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]»^(١).

فإخراج الله تعالى النبي ﷺ إلى قتال المشركين في بدر كان فيه خير كبير للإسلام والمسلمين، وكذلك ما شرعه سبحانه واختاره في أمر الغنائم كان فيه أيضاً الخير والصلاح للمؤمنين، فالله سبحانه يعلم وأنتم لا تعلمون، والخير فيما يختاره جلّ وعلا.

﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ القتال بسبب الميل الفطري إلى السلامة، كما مرّ معنا في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أو: بسبب قلة عددهم، وعدم استعدادهم لقتال عدوهم، وذلك أنهم خرجوا لاعتراض القافلة كما مرّ معنا، فكان عددهم لا يزيد على ثلاثئة وبضعة عشر رجلاً، وليس معهم سوى سبعين بعيراً، يَعتَقِبُونَ عليها، ومعهم أيضاً فرسان فقط للزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ﷺ.

ومرّ معنا أن أبا سفيان علمَ بخروج النبي ﷺ، وأنه أرسل إلى قريش

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٨٦/٢، وذكر أنه أول الأقوال التي ذكرها الطبري في تفسيره لهذه الآية.

يستنفروهم إلى الخروج لحماية أموالهم، وإلى جانب ذلك غيّر الطريق التي كان يسلكها، فسلك طريقاً آخر قريباً من ساحل البحر، وتمكّن بذلك من النجاة، وأرسل إلى قريش الذين خرجوا مع أبي جهل يخبرهم بنجاة أموالهم، ويطلب منهم أن يرجعوا إلى مكة بعد أن سلمت أموالهم، ولكنّ أبا جهل أصراً على الماضي إلى بدر، وقال: والله لا نرجع حتّى نردّ بدرأ، فنقيم عليها ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونُسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها^(١). (الجزر): صغار الإبل، والقيان): المغنيات.

وعلم النبي ﷺ بعد أن خرج من المدينة بما حدث، فأخبر أصحابه بأنّ الله سبحانه وعده إحدى الطائفتين، إمّا الاستيلاء على القافلة وهي العير، أو الانتصار على النفير، وهو جيش المشركين.

ولكنّ فريقاً منهم كرهوا لقاء النفير، وتمتوا الاستيلاء على العير، وجادلوا النبي ﷺ في ذلك، وهم الذين قال تعالى فيهم:

﴿يُحَدِّثُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾.

﴿يُحَدِّثُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الذي أراد الله تعالى إظهاره بقتال المشركين، والانتصار عليهم، وكسر شوكتهم.

﴿بَعْدَ مَا بَيَّنَّ﴾ بعد أن أعلمهم الرسول ﷺ أنّ الله وعده إحدى الطائفتين: العير أو النفير، وقد فاتتهم العير، فلا بد إذاً أن يظفروا بالنفير وهم يعلمون صدق رسول الله ﷺ.

﴿كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أسباب الموت، بسبب قلّة عددهم، وعدم تأهبهم، مع كثرة عدوهم وتأهبه واستعداده.

(١) سيرة ابن هشام: ١٩١/٢.

• العير أو النفير:

ثم واجهتهم الآيات الكريمة بما أضمره في قلوبهم، واختاروه لأنفسهم، بينما أراد الله تعالى لهم أمراً آخر أجلاً وأعظم مما اختاروه:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الظفر بالقافلة، أو النصر على جيش المشركين.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ فرغبتهم متوجهة إلى العير، وودادتهم منصبّة عليها، لأنها لا خطر فيها. ﴿الشَّوْكَةُ﴾ السلاح أو حدته، وبهذا التعبير بين سبحانه سبب رغبتهم بالعير، وكراحتهم للنفير.

والحرص على الكسب من دون عناء ومشقة أمرٍ فطري مركوز في جبلّة الإنسان، يدل على ضعفه ومحدوديته، والصحابة رضي الله عنهم بشرٌ، شأنهم في هذا الأمر كشأن غيرهم من البشر.

وتدلّ الآية على كمال علم الله تعالى، وأنه يعلم السرّ وأخفى، يعلم سبحانه كلّ ما يهجس في النفس البشرية من خواطر ورغبات وأمانى: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ﴾ ويريد الله سبحانه أن يثبت الإسلام ويعزه، ويعلي أمره، بما أوحى إلى رسوله صلّى الله عليه وآله، وأنزل عليه من الآيات الكريمة التي شرع فيها الجهاد، وأمره به.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم، ولا يبقى منهم أحداً.

فالجهد ماضٍ ما دام للكفر شوكة وقوة في الأرض، تمنع انتشار الإسلام، وتحول بينه وبين الناس.

﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَبُطِّلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨).

﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَبُطِّلَ الْبَاطِلَ﴾ أي: شرع سبحانه ما شرع من الجهاد والقتال، وجمع بين المسلمين والمشركين في بدر على غير ميعاد، لكي يثبت الحق، ويعز دينه ويظهره، ويدحض الباطل ويقمعه ويدخره.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولو كره ذلك المشركون الكافرون.

فإرادته تعالى هي الغالبة، ومشيتته سبحانه التامة النافذة، والتسليم لأمره تعالى والانقياد لمشيئته دون أدنى اعتراض من أهم أسباب النصر. وهذا يكشف لنا جانباً من جوانب عظمة غزوة بدر، فقد كانت هذه الغزوة البداية لِعِزَّةِ الإسلام وظهوره وارتفاع راياته في جناب الأرض.

وكان البديرون من الصحابة رضي الله عنهم طليعة المجاهدين، ورواد الجهاد الأول، الذين شقوا الطريق لكل من سار عليه بعدهم، واقتفى آثارهم إلى يوم الدين، فلا عجب أن يكون لهم رضي الله عنهم امتياز على غيرهم، حتى قال رسول الله ﷺ يبين فضلهم ومكانتهم عند ربهم: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم» [رواه البخاري (٣٩٨٣)].

وعن رفاعه بن رافع رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟» فقال: «من أفضل المسلمين» قال: «وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة عليهم السلام» [رواه البخاري (٣٩٩٢)].

• الدعاء عند اللقاء:

وتابعت الآيات تصف ما حدث قبل المعركة:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (٩).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي: تسألون الله تعالى وتطلبون منه الغوث والنصر. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثنني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم

بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَتَى مُيُذِّكُمْ بِالْمَلِكَةِ مُرْدِفٍ﴾ فأمده الله تعالى بالملائكة. [رواه مسلم (١٧٦٣)].

فعلى الأمة التي تريد النصر أن تتوجه إلى الله تعالى بخشوع وخضوع، تدعوه وتساله النصر، بعد أن تستكمل الأسباب المادية في الإعداد والاستعداد التي أمر تعالى بها كما سيأتي معنا.

وعلى المجاهدين بشكل خاص أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء عند اللقاء في ميدان المعركة، فالدعاء أقرب إلى الإجابة في هذا الموطن كما فعل النبي ﷺ في بدر، وفعله أصحابه أيضاً.

واستجاب ﷺ لهم، وقال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَتَى مُيُذِّكُمْ بِالْمَلِكَةِ مُرْدِفٍ﴾ متتابعين، فالاستجابة أعقبت الدعاء.

وقد روي: أن النبي ﷺ لما ناشد ربه خفق ﷺ خفقةً، وهو في العريش الذي بنوه له ليتخذَه مقراً لقيادته، ثم رفع رأسه فقال: «يا أبا بكر أتاك نصرُ الله، هذا جبريلُ أخذَ بعنانِ فرسٍ، يقوده على ثنياه النقع»^(١). «النقع»: الغبار.

وفي [صحيح البخاري (٣٩٩٢ - ٢٩٩٥)]: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ أخذَ برأسِ فرسه عليه أداة الحرب».

ثم خرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

(١) سيرة ابن هشام: ١٩٦/٢.

الدُّبُرُ ﴿القمر: ٤٥﴾، ثم نزل إلى أرض المعركة، فأشارَ إلى مصارع مَنْ سيقْتَلُ من رؤوس المشركين قائلاً: «هذا مصرعُ فلانٍ - ويضعُ يدهُ على الأرض - هاهنا وهاهنا» قال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه راوي الحديث: فوالله ما ماطَ أحدٌ منهم عن موضع يدِ رسولِ الله ﷺ. [رواه مسلم (١٧٧٩)]. (ما ماط): ما مال ولا عدل.

• البشارة بالنصر:

ولكي تبقى قلوبهم متجهةً إليه وحده ﷺ، فلا يعتمدوا في النصر على غيره قال:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: وما جعل الإمدادَ بالملائكة إلا بشارةً لكم بالنصر، فإنَّ ذلك يشدُّ من عزيمة المقاتل، ويرفع معنوياته، ويزداد ثباتاً وإقداماً. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولتسكنَ بهذا الإمداد قلوبكم، فيزولَ ما كان بها من خوفٍ وقلقٍ بسبب قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وهذا ما تستهدفه برامجُ التوجيه المعنوي للجنود في العصر الحاضر، فإنَّ قادة الجيوش يحرصون أشدَّ الحرص على رفع معنويات جنودهم بشتى وسائل التوجيه، كما يحرصون على إزالة الخوف والقلق عن نفوسهم وقلوبهم، فالجنديُّ إذا استبدَّ به الخوف، وسيطر عليه القلق لا يثبتُ في أرض المعركة، ولا يصبر على أهوالها، ويُعدُّ نجاح القائد في رفع معنويات جنوده سبباً هاماً من أسباب النصر.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تحسبوا أنَّ النصر من الملائكة، إنما النصر من الله تعالى، منوطٌ بمشيئته وحده وقدرته، ومشيئته سبحانه طليقة نافذة، وقدرته كاملة، فلا يحتاجُ إلى وسائل وأسباب: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وما شرع الله الجهادَ، وكَلَّفَ المؤمنين بأعباء القتال إلا ابتلاء لهم واختباراً، قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٤].

كما أنَّ قتل المؤمنين للكافرين في ميدان المعركة أشدَّ إهانةً للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] فقتل صناديد قريش كأبي جهل بأيدي المؤمنين أنكى للمشركين من موتهم بقارعة أو صاعقة، وأشفى لصدور المؤمنين^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغْلَبُ.

﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وشرعه.

• النوم في الميدان:

ومما يدلُّ على حكمته سبحانه وكمال قدرته أنه جعل الصحابة البدرين ينامون مطمئنين ليلة المعركة، كأنَّهم في بيوتهم وعلى فرشهم لا في ميدان القتال قرب عدوهم، ومن المعلوم أنَّ الخائفَ القلق لا يستطيعُ النوم، فلا يغمض له جفن، ولا يهدأ له قلب، ولكنَّ الصحابة عليهم السلام ناموا في ميدان القتال متوسِّدين رمال بدر، مطمئنين آمنين، فكان نومُهم من نعم الله تعالى عليهم، ذكَّره به في قوله الكريم:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ﴾ أي: اذكروا فضل الله سبحانه عليكم عندما جعل النعاس يغلبُ عليكم، فنتمم آمنين مطمئنين بأمان الله تعالى وحفظه

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٩٠/٢.

ورعايته، قال علي بن أبي طالب عليه السلام: ما كان فينا فارسٌ يومَ بدرٍ غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ، إلا رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح. [رواه أبو يعلى (٢٨٠) وابن خزيمة (٨٢٩) وابن حبان (٢٢٥٧)].

وأَنزل الله عليهم المطر في تلك الليلة:

﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُم بِهِ﴾ من الحدث الذي أصابهم في نومهم.

﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ ويبعد عنكم وساوس الشيطان ونزغاته.

وكانت الأرض التي نزلوا بها أرضاً رملية غير متماسكة تغوص فيها الأقدام، وقد استغل الشيطان ذلك، وألقى في نفوسهم الوسواس، خوَّفهم بها من عواقب النزول في هذه الأرض، فردَّ الله كيده بالمطر الذي أنزله عليهم، وثبت به رمال الأرض فتلبدت، كما ثبتَّ الله تعالى به قلوبهم فقوَّأها.

﴿وَلَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وهي شجاعة الباطن.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وهي شجاعة الظاهر.

وقد أشارت الآية إلى أمرين هامين لهما تأثير كبير على سير المعركة:

أولهما: ينبغي لأمير الجند أن يحرص على تأمين راحة جنوده النفسية والبدنية قبل المعركة.

ثانيهما: وعليه أيضاً أن يحسن اختيار الأرض المناسبة للقتال، بحيث يتمكن الجنود من سهولة الحركة وسرعة المناورة، كما تساعد على حمايتهم من عدوهم.

وقد فعل النبي صلى الله عليه وآله هذا قبل المعركة، فعندما وصل عليه الصلاة والسلام إلى بدرٍ نزل على أول ماء فيه، فقال له الحُباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله أرايت هذا المنزل، أمزلاً أنزلكهُ الله ليس لنا أن نتقدَّم ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» فقال: يا رسول الله فإنَّ هذا ليس بمنزلٍ، فانهضْ بالناسِ حتى تأتي أدنى ماءٍ من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القُلبِ، ثم نبني عليه حَوْضاً فتملأه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لقد أشرتُ بالرأي» فنهضَ

رسولُ الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماءٍ من القوم فنزل عليه، ثم أمرَ بالقلبِ فَعُوْرَتْ^(١).

وهكذا تمكّنوا من الماء، وسيطروا عليه، كما ثبت الله تعالى الأرض، فأصبح سيرهم عليها سهلاً ميسوراً.

• مهمة الملائكة في بدر:

ثم بيّنت الآيات مهمة الملائكة الذين أمدَّ الله بهم المؤمنين في بدر:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيُّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ﴾ في تأييد المسلمين وتثبيتهم ونصرهم.

﴿فَتَيُّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما تلقونه في قلوبهم من التبشير بالنصر والتشجيع.

وللملك قوة على إلقاء معاني الخير في نفس الإنسان، كما أنَّ للشيطان قوة على الوسوسة في قلب الإنسان، ويسمَّى ما يلقي الملك لَمَّةً وإلهاماً، وما يلقيه الشيطان وسوسة^(٢).

ويؤيد ذلك الحديث النبوي الشريف: «إنَّ للشيطان لَمَّةً بَابِنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ، فإِيعَادُ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبُ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ، فإِيعَادُ بِالخَيْرِ، وَتَصْدِيقُ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» [رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي (١٠٩٨٥) وابن حبان (٩٩٧)].

﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وهو جندي من جنود الله، أيَّد به نبيُّه ﷺ في معارك كثيرة، منها:

(١) سيرة ابن هشام: ١٩٢/٢. والقلب: الآبار. ومعنى عُوْرَتْ: طمست ودفنت.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ١٨/٣.

معركة بدر، ومرّ معنا قوله ﷺ: «وُنْصِرْتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرِ» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

وفي غزوة بني قريظة ألقى الله الرعب في قلوبهم فنزلوا من حصونهم المنيعة مستسلمين، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وفي غزوة تبوك ألقى الله الرعب في الجموع المحتشدة من جيوش الروم عندما سمعوا بخروج النبي ﷺ لقتالهم من المدينة المنورة، وكان بينهم وبينه مسيرة شهر، وعندما وصل عليه الصلاة والسلام إلى تبوك، لم يجد جيشاً، ولم يلق حرباً.

﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: فاضربوا أيها المؤمنون فوق رقاب الكفرة لكي تقطعوا رؤوسهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ الآية [محمد: ٤].

ورأى بعض المفسرين أنَّ الأمر بالضرب موجه إلى الملائكة، وأنهم شاركوا فعلاً في القتال، واستندوا إلى بعض الروايات الدالة على مشاركة الملائكة في القتال، لكنَّ قوله تعالى السابق: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] يدلُّ على أنَّ مهمة الملائكة كانت تثبيت المؤمنين وتبشيرهم، ورفع معنوياتهم، ومن المعلوم أنَّ للملك قوة لا تعادلها أي قوة للبشر، فملك واحد يكفي لإهلاك جيش المشركين بأجمعه، ولا يحتاج الأمر إلى ألف من الملائكة مردفين.

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وهي أطراف أصابع اليدين، جمع بنانة.

والمعنى: إذا لم تتمكنوا من الضرب فوق أعناقهم، فاضربوهم في أي مكان، ولو كان رؤوس أصابعهم، فإنَّ ذلك يؤدي إلى إثنانهم بالجراح وإضعافهم وهزيمتهم.

ولا شكَّ أنَّ قطع رؤوس المقاتل يعوقه عن القتال، ويمنعه من

استعمال سلاحه، فعلى هذا يمكن أن يكون تكرير لفظ ﴿وَأَضْرِبُوا﴾ أريد به توجيه المؤمنين إلى موطن من مواطن الضعف عند أعدائهم، وهو مكشوف للمجاهدين يسهل عليهم الوصول إليه.

فالآية الكريمة توجّه المجاهدين إلى ضرب العدو في مقاتله، وتلفت أنظارهم إلى مواطن الضعف عند عدوهم ليضربوه من خلالها، وهو أمرٌ يحرص عليه كبار القادة العسكريين قبل المعركة، يبحثون بواسطة أجهزة استخباراتهم عن نقاط الضعف عند عدوهم لكي يضربوه من خلالها، دون أن تلحق بقواتهم خسائر كبيرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (١٣).

﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا الأمر بضربهم على رقابهم ورؤوس أصابعهم.
﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لأنهم خالفوا أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، فساروا في شق وطريق يخالف الطريق الذي شرعه الله تعالى وسار عليه الرسول ﷺ.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وما أنزله بهم في بدر شيء قليل من عقابه تعالى وعذابه الذي أعده لهم يوم القيامة.
ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى المشركين تبكيئاً لهم وتقريعاً:

﴿ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوا وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾ (١٤).

﴿ذَلِكَ كُمْ﴾ العقاب والعذاب.

﴿فَذُوقُوا﴾ اعرفوا طعمه، فهو مقدمة لعذاب أكبر ينتظركم.

﴿وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾.

ولعل هذا ما أراده رسول الله ﷺ عندما وقف على الحفرة التي أُلقيت فيها جثث قتل المشركين في بدر؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ترك

قتلى بدرٍ ثلاثاً، ثم أتاها، فقام عليهم، فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر: يا رسول الله كيف يسمعون؟! وأنى يجيبوا وقد جئوا؟! قال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا» [رواه مسلم (٢٨٧٤)]^(١).

وهذا يدلُّ على أنَّ عذاب القبر حق، وقد ذكر هذا الحديث في صحيح مسلم لإثبات عذاب القبر.

• الثبات عند الضربة الأولى:

وبعد أن تحدّث الآيات الكريمة عما حدث قبل بدء القتال في بدر، التفتت إلى المؤمنين تخاطبهم، وتأمّرههم بالثبات عند لقاء العدو والشروع بالقتال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال^(٢).

﴿فَلَا تُولُوهُمُ الْاَدْبَارَ﴾ فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم، ولو كانوا أكثر عدداً وعدة منكم.

فكلمة ﴿زَحَفًا﴾ تدلُّ على كثرتهم، بحيث يرى الجيش لكثرتهم كأنه يزحف. والثبات في وجه العدو عند أول اللقاء أهم عنصر في المعركة يحقق النصر، قال رسول الله ﷺ: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» [رواه مسلم (٩٢٦)].

وقال أيضاً: «يا أيُّها الناسُ لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ» [رواه مسلم (١٧٤٢)].

(١) قوله: (كيف يسمعون؟ وأنى يجيبوا؟) هكذا هو في عامة النسخ المعتمدة من غير نون، وهي لغة صحيحة، وإن كانت قليلة الاستعمال، كما في هامش صحيح مسلم: ٢٢٠٣/٤.

(٢) تفسير الخازن: ٢٠/٣.

ولهذا يعتمد القادة المحنكون إلى توجيه أقصى قوتهم إلى عدوهم في الضربة الأولى لكي يُشيعوا الذعر والخوف في قلوب جنود العدو، ويُحدثوا الخلل والاضطراب في صفوفه، فالثبات في وجه الضربة الأولى يقرر غالباً نتيجة المعركة بتقدير الله تعالى، فهو أمر خطير وحاسم في المعارك.

ولهذا توَعَّدت الآيات الكريمة الذين لا يثبتون في وجه العدو بأشد أنواع الوعيد:

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾

﴿وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَ ذُبُرِهِ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ﴾ أي: إلا إذا كان يريد الكرّ بعد الفرّ، وتظاهر بالفرار أمام العدو ليخدعه، ويستدرجه ليتمكن منه.

فمخادعة العدو في الحرب أمرٌ جائزٌ ومشروعٌ، قال عليه الصلاة والسلام: «الْحَرْبُ خَدَعَةٌ» [رواه البخاري (٣٠٣٠)].

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ أو ترك القتال لينحاز وينضم إلى جماعة مسلمة من جنود المسلمين محتاجين إلى معونته ومساعدته، كما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما ترك قتال الفرس في العراق، وانحاز مع بعض جنوده إلى جند المسلمين في بلاد الشام، تنفيذاً لأمر الخليفة أبي بكر رضي الله عنه.

ويمكن أن يقال في معنى الآية: إنه اضطر إلى الانسحاب من وجه العدو فانسحب انسحاباً منظماً، وانضم إلى ولي أمر المسلمين، ليعيد تنظيم صفوفه، ويعود إلى القتال مرة ثانية، ولهذا قال بعض المفسرين: المتحيز: الفار إلى النبي ﷺ وأصحابه، كذلك من فرّ اليوم إلى أميره وأصحابه^(١).

وقد فعل الصحابة رضي الله عنهم في معركة مؤتة مثل هذا الانسحاب أو التحيز، فقد فوجئوا بجموع كثيرة من جيوش الروم تزيد على مئة ألف، بينما كان عدوُّ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٩٢/٢.

الصحابة ثلاثة آلاف، ومع ذلك قاتلوهم، وثبتوا في وجوههم، حتى استشهد أمراؤهم الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ولما استلم خالد بن الوليد الإمرة، تمكن من الانسحاب والرجوع بالجيش إلى المدينة المنورة، وجعل الناس عندما وصلوا يحثون عليهم التراب، ويقولون: يا فُرَّار فررتم من سبيل الله! فيقول الرسول ﷺ: «ليسوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(١).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة، فكنت في من حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة، ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرَّارون، فقال: «لا، بل أنتم العكارون، أنا فتتكم وأنا فئة المسلمين» فأتيناه حتى قبلنا يده، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾. [رواه أحمد (٧٠/٢) وأبو داود (٢٦٤٧) والترمذي (١٧١٦)]. و«العكارون»: الكرَّارون.

فالانسحاب من أرض المعركة جائز في مثل هاتين الحالتين المذكورتين في الآية الكريمة، ويجب أن يكون انسحاباً منظماً لإعادة الكرّة واستئناف القتال، أما إذا كان انسحاباً كيفياً، بحيث ينسحب كل جندي كما يحب ويشتهي من دون هدف ولا نظام، فهو الهزيمة المحرمة في الإسلام، والتي ينطبق على من يفعله قوله تعالى:

﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رجع وهو متلبس بغضب الله تعالى وآثار سخطه.

﴿وَمَا وَنُهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ قال ابن كثير رحمته الله: إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام، وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري

(١) سيرة ابن هشام: ١٧/٤؛ وسيرة النبي ﷺ، للمؤلف، ص ٤٣٢.

[٢٧٦٦] ومسلم [٨٩]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبعَ الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف الغافلات المحصنات المؤمنات»^(١).

• المعركة:

وفي صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة حدثت المعركة، وبدأ القتال بالمبارزة، وخرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وقصد إلى حوض المسلمين ليشرب منه ويهدمه، فتصدى له حمزة رضي الله عنه فقتله داخل الحوض.

ثم خرج من المشركين عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فدعوا إلى المبارزة، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، فأنفوا من مبارزتهم، ونادى مناديتهم: يا محمد أخرج لنا أكفأنا من قومنا. فأخرج لهم رسول الله ﷺ ثلاثة من بني هاشم: عبيدة بن الحارث وحمزة وعلياً رضي الله عنهم، فقتل المشركون الثلاثة، وجرح عبيدة، وحمل إلى رسول الله ﷺ ومات رضي الله عنه بعد ذلك بجوار النبي ﷺ.

وبدأ القتال بهجوم شنه المشركون، وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يثبتوا لهجوم المشركين، وأن يردوهم بالنبال وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل»^(٢).

ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى الميدان بنفسه، فأخذ حفنة من تراب الأرض، ورماها في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه» [رواه الطبراني في

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٩٢/٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ١٩٥/٢.

الكبير (٣١٢٧ و ٣١٢٨) وفي الأوسط كما في مجمع البحرين (٢٣٧) بإسناد حسن كما في مجمع الزوائد (٨٤/٦) [١].

فما بقي أحدٌ من المشركين إلا دخل في عينه ترابٌ من تراب هذه الرمية .
وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يشدوا على المشركين، ويهجموا عليهم، وقال محرضاً لهم: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقتلُ صابراً مُحتسباً، مُقبِلاً غيرَ مدبرٍ، إلا أدخله الله الجنة» فقال عمير بن الحمام من فتيان الأنصار، وفي يده تمراتٌ يأكلهنَّ: بخٍ بخٍ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم قذفَ التمراتِ من يده، وأخذَ سيفَه فقاتل القومَ حتَّى قُتل [٢].
ونجح هجومُ الفئة القليلة المسلمة الصابرة، وفرَّ المشركون، وقد ملأ الرعبُ قلوبهم، بعد أن خلفوا وراءهم سبعين قتيلاً، فيهم رأسُ الشرك أبو جهل عمرو بن هشام، وسبعين أسيراً.

• تأديب المنتصرين:

وكي لا يصيبَ المؤمنين زهوُ المنتصرين وفخرُهم وإعجابُهم بجهادهم وأنفسِهم، أنزل الله تعالى عليهم مؤدباً لهم، ومذكراً لهم، بأنَّه هو الذي نصرهم، وهو الذي قتل من قُتل من أعدائهم:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: لم تقتلوهم بقوتكم، ولكنَّ الله قتلهم بمشيئته وقدرته، وبمعونته وتأييده لكم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ أي: وما كنت الرامي على الحقيقة

(١) وفعل رسول الله ﷺ ذلك أيضاً في غزوة حنين كما في صحيح مسلم (١٧٧٧).

(٢) سيرة ابن هشام: ١٩٦/٢.

عندما رميت التراب في وجوههم، ولكن الله هو الذي رمى، لأنه سبحانه هو الذي أوصل التراب والرمال إلى أعينهم.

وتدل الآية على أن الله تعالى خالق للعبد ولأفعاله، وأن أفعال العبد وإن كانت كسباً له فهي من خلق الله سبحانه وبمشيئته وقدرته.

والله تعالى يبتلي عباده بالمحنة والنعمة، وقد ابتلى الله تعالى المؤمنين بالنصر في بدر:

﴿وَلِيَبْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا﴾ وكانت نتيجته حسنة طيبة، إذ كانوا ﷺ أهلاً للنصر الذي أنعم الله تعالى به عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

ثم بشرهم الله سبحانه بأن كيد الكافرين ومكرهم صائر إلى الضعف والاضمحلال:

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾.

لأنه تعالى مع عباده المؤمنين المتقين ينصرهم ويؤيدهم.

وتأكيداً لهذه الحقيقة التفتت الآيات إلى الكافرين المنهزمين تفرعهم وتتهكم بهم:

﴿إِنْ تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿إِنْ تَسْتَفِينُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ وذلك أن أبا جهل دعا مستفتحاً في

أول القتال فقال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يُعرف فأحنه الغداة^(١). أي: اجعله مدحوراً مهزوماً.

﴿وَإِنْ تَنَهَوُا﴾ عن الكفر ومعاداة الرسول ﷺ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، فلقد جاءهم الإسلام بعز الدنيا وسعادة الآخرة.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ لمحاربته عليه الصلاة والسلام.

﴿نَعُدُّ﴾ لنصره وتأييده.

﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: مهما كانت الجموع التي تحشدونها كبيرة فلن تنفعكم شيئاً، لأنه تعالى مع المؤمنين.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يؤيدهم وينصرهم.



الْفَصْلُ الثَّانِي

الأسباب غير المباشرة للنصر

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وَاتَّقُوا فَتْنَةً لَا تُضِييَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَتَذَرُوكُمْ وَإِنْدَكُمْ بَصْرَةٌ وَرِزْقُكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ وَإِذْ ثَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْنِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الَّذِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولَٰئِكَ ﴿٣٨﴾ وَقَلِيلُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاتَّقُوا اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرَةً ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعَمْ الْمَوَالِي وَالنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفْصِيلِ أَلَمْ نَقِمْ لِلْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِمِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفُتِلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٤﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٥﴾ .

• طاعة الله ورسوله ﷺ:

وبعد أن بيَّنت الآيات الكريمة الماضية أسباب النصر المباشرة في المعركة، والتي يجب تحصيلها قبل القتال وفي أثناءه، شرعت الآيات تبين الأسباب غير المباشرة للنصر، والتي تبقى بها الأمة المسلمة قوية عزيزة منيعة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فهو كقوله تعالى في صدر السورة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[الأنفال: ١]﴾، وقد أمرت تلك الآية بطاعة الله ورسوله ﷺ في شأن الأنفال، وأمَّا هذه الآية فقد أمرت بالطاعة العامة الشاملة

في جميع شؤون الحياة، ولهذا حذّر سبحانه بعدها من الإعراض عن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ بقوله:

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أي: لا تعرضوا عن الرسول ﷺ، فطاعته ﷺ طاعة الله تعالى كما في قوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠].

فهو ﷺ المبلغ عن الله تعالى، فطاعته ﷺ لازمة كطاعة الله تعالى.

﴿وَأَن تَسْمَعُونَ﴾ أَنَّ طاعته واجبة عليكم بعد أن علمتم ما دعاكم إليه، وبعد أن بلغكم رسالة الله تعالى، فكل من بلغته رسالة الإسلام، أو سمع شيئاً من القرآن الكريم، وفهم معانيه، قامت عليه الحجة، ولزمته الإجابة، وعليه طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

يجب على الأمة المسلمة التي تسمع كلام الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار أن تلتزم بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام؛ باتباع أحكام الكتاب الكريم، والتمسك بسنته عليه الصلاة والسلام، كما يجب عليها أن تُعرض عن كل الشرائع الوضعية المخالفة للشرعية الإسلامية، فسماع القرآن الكريم يلزم السامع بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ بأذاننا.

﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم وجوارحهم وسلوكهم، ويُعرضون عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

وهذا كان حال المنافقين، الذين كانوا يتظاهرون بالسماع والطاعة، بينما هم يضمرون العصيان والمخالفة، قال تعالى فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ

عِنْدَكَ بَيِّنَاتٌ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ [النساء: ٨١].

وكذلك كان اليهود أيضاً في المدينة المنورة إذا سمعوا النبي ﷺ قالوا: سمعنا وعصينا، كما جاء في قوله تعالى عنهم: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسُنَنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الْأَدِينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالَوْا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعَ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وهذا مع الأسف حال كثير من المسلمين في العصر الحاضر، يسمعون كلام الله تعالى، ويتظاهرون بالتأثر بمواعظه وزواجه، وفي الوقت نفسه يظلون مُصِرِّين على معاصيهم وآثامهم.

قال القرطبي رحمه الله: «دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ قَوْلَ الْمُؤْمِنِ: سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ؛ لَا فَائِدَةَ فِيهِ مَا لَمْ يَظْهَرِ أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِامْتِثَالِ فِعْلِهِ، فَإِذَا قَصُرَ فِي الْأَوَامِرِ فَلَمْ يَأْتِهَا، وَاعْتَمَدَ النَّوَاهِي وَاقْتَحَمَهَا؛ فَأَيُّ سَمْعٍ عِنْدَهُ وَأَيُّ طَاعَةٍ؟!»^(١).
ثم أخبر سبحانه أَنَّ هَؤُلَاءِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، فقال:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ﴾ عن سماع الحق سماع إجابة وخضوع وانقياد.

﴿الْبُكْمُ﴾ عن الإقرار بالحق وإعلان الانقياد له والرضا به.

﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يستعملون عقولهم فيما خُلِقَتْ من أجله، وهو التمييز بين الحق والباطل، فهؤلاء شَرُّ الدواب، لأنَّ كُلَّ دَابَّةٍ مِمَّا سِوَاهُمْ مَطِيعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِيمَا خَلَقَهَا لَهُ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لَطَاعَتِهِ تَعَالَى وَعِبَادَتِهِ فَكَفَرُوا، وَلِهَذَا شُبِّهُوا بِالْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ

لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَادَانُ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثم بين تعالى أنه لا خير في هؤلاء، وأن نفوسهم قد غلب عليها الخبث والشر فقال:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع الإجابة والخضوع والانقياد، وسماع الفهم والانتفاع.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع الانتفاع بعد أن علم أنه لا خير فيهم.

﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: لأعرضوا عن الحق، ولم ينقادوا له رغم معرفتهم أنه حق.

وهو حال المعرضين عن الحق عناداً واستكباراً كفرعون وملئه، فقد رأوا المعجزات التي أيد الله بها موسى ﷺ، واستيقنوا بدلائنها على صدق موسى، ومع ذلك جحدوها: ﴿وَحَدَّوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُومًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

● الحياة والجهاد:

ثم كرّر تعالى النداء للمؤمنين فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بطاعتهما، والانقياد لأمرهما.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول ﷺ، فهو المبلغ عن الله تعالى.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الإنسانية الكريمة الطيبة، الحياة العزيزة المنيرة.

وفي الآية الكريمة دعوة إلى الاستجابة المطلقة لله تعالى ولرسوله عليه

الصلاة والسلام، ولكن مجيئها في سياق آيات الجهاد وفي سورة الأنفال التي نزلت بمناسبة غزوة بدر يجعلُ الدعوة في الآية دعوةً مخصوصةً إلى الجهاد، فالأمةُ المجاهدةُ هي التي تحيا الحياة الحقيقية، الحياة الكريمة اللائقة بالإنسان الذي كرمه ربه وسخر له كثيراً من مخلوقاته.

وقد يقول قائل: كيف يكون الجهاد حياةً وفيه القتلُ والموتُ؟!.

فأقول: القتل بالنسبة للمجاهد في سبيل الله تعالى حياةٌ أعلى وأشرف من الحياة الدنيا، حياة برزخية خاصة، يُكْرِمُ الله تعالى فيها الشهداء بنعيم الجنة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما بالنسبة للأمة المسلمة المجاهدة، فالجهاد يعطيها الحياة الكريمة العريضة المنيعة، وبهذا يكونُ الجهاد حياةً للمجاهدين الشهداء، وحياة للمجاهدين الأحياء، ويؤكد هذا أنه عندما أراد بعض الأنصار ترك الجهاد والانصراف إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية بعد أن أعزَّ الله الإسلام، و دخل الناس في دين الله أفواجاً، أنزل الله تعالى فيهم قوله الكريم: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] [انظر الحديث الذي رواه أبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٢)].

فالإعراض عن الجهاد والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله هو الهلاك، لأنه يؤدي بالأمة إلى الذلَّة والاستكانة وتمكَّن عدوها منها.

وينبغي أن تكون الاستجابة لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام عن طواعية واختيار، ورغبة ومحبة، لا عن قهر وإكراه وإجبار، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يُحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فالقلوب بيده سبحانه، ولا سلطان للإنسان على قلبه، ولا يستطيع أن يتحكم بعواطفه ومشاعره، فمن علم الله فيهم خيراً وفَقَّهم إلى الاستجابة لدعوة رسوله عليه الصلاة والسلام، وشرح صدورهم لذلك، ومن علم أن نفوسهم ودخائلهم يغلب عليها الخبث والشر حال بينهم وبين الاستجابة لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقد سبق أيضاً مثل هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فالآية تحث المؤمنين على المبادرة فوراً إلى الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ، وتحذّرهم من عواقب التثاقل عنها وتأخيرها، وكأنها تقول لهم: ما دامت قلوبكم مقبلة على الإيمان، فبادروا إلى تلبية دعوة الرسول ﷺ، فإن القلوب بيد الله تعالى يقبلها كيف يشاء، ولهذا علّمنا سبحانه أن ندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكان النبي ﷺ يكثر أن يقول تعليماً لنا: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» [رواه أحمد (١١٢/٣)، (٢٥٧) والترمذي (٢١٤٠) وابن ماجه (١٩٩)].

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: واعلموا أيضاً أنكم إلى الله تعالى يوم القيامة تجمعون، فيجازيكم أو يُثيبكم على حسب استجابتكم لدعوة رسوله عليه الصلاة والسلام.

• التحذير من الفتن:

ويترتب على مخالفة الرسول ﷺ وعدم الاستجابة لدعوته، التعرض للفتن والمصائب والنوازل، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فما من فتنة أصابت المسلمين بعده عليه الصلاة والسلام، إلا بسبب مخالفتهم لأمره، أو تركهم لسنّته، ولهذا جاء التحذير من الوقوع في الفتن بعد الأمر بالاستجابة لدعوته عليه الصلاة والسلام مباشرة، قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢٥).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين

البلاء العام وقاية، بإصلاح ذات بينكم، واجتماع كلمتكم على أمر الله، ورد من خالف إلى أمر الله^(١).

فطاعة الله ورسوله وقاية من الفتن، بينما المعاصي والآثام أسباب البلاء والفتن، وشرها يصيب العصاة وغيرهم من أبناء المجتمع، لأنهم سكتوا على المعاصي، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال رسول الله ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً» [رواه البخاري (٢٤٩٣) والترمذي (٢١٧٣)].
وقوله: «استهموا» أي: اقتسموها بالقرعة.

فالله سبحانه يعذب العامة بذنوب الخاصة إذا انتشرت المنكرات والفواحش بينهم:

ففي الحديث الشريف: عن أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله عنها، قالت: استيقظ رسول الله ﷺ محمراً وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلَّقَ بإصبعه الإبهام والتي تليها، قلت: يا رسول الله، أنهلك وفيها الصالحون؟! قال: «نعم إذا كثر الخبث» [رواه البخاري (٧٠٥٩) ومسلم (٢٨٨٠)]^(٢).

وشؤم المعاصي والمنكرات يعم جميع أبناء المجتمع في الدنيا فقط:
فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعِثُوا على أعمالهم» [رواه البخاري (٧١٠٨)].
فالفتنة إذا عُمِلَتْ هلكوا جميعاً، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار

(١) نظم الدرر: ٢٥٧/٨.

(٢) انظر: (العواصم من الفتن في سورة الكهف)، وهو باب من تفسيرنا الموضوعي هذا.

المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغَيَّرْ وجبَ على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجرانُ تلك البلدة والهربُ منها^(١).

ثم ختم سبحانه الآية مؤكِّداً التحذير من مخالفة أمره، ببيان شدة عقابه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

والجدير بالذكر هنا أنَّ انتشار المعاصي وشيوع المنكرات في المجتمع من أكبر أسباب الهزيمة والتخلف، لأنه يؤدي إلى الانحلال والفوضى والاختلاف.

• مأوى المجاهدين:

ولمَّا كان الصحابة رضي الله عنهم نواة الأمة المسلمة، وأول مَنْ حمل رسالتها، وحفظ أمانتها، وقام على نشرها، وتبليغها بعد رسول الله ﷺ؛ وجَّه سبحانه إليهم الخطاب في سياق هذه الآيات، وذكَّره في فضلته تعالى عليهم، لكي يعرفوا مدى مسؤوليتهم، وثقل التبعة الملقاة عليهم:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَانَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة.

﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَانَكُمْ﴾ في المدينة المنورة، وجعلها لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم، كما جعلها قاعدة انطلاق وارتكاز لكم في جهادكم، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ﴾ في بدر، وفي غيرها من الغزوات والمعارك.

وتدلُّ الآية على أهمية الأرض التي تكون للمجاهدين بمثابة قاعدة انطلاق لهم في جهادهم، كما تكون حصناً لهم يتحصنون به ويأوون إليه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يعرضُ نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج

عندما كان في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، يبحث عن مأوى يتخذه مع أصحابه قاعدة انطلاق لتبليغ رسالة الإسلام، ونشره بين الناس، وما أنزل الله تعالى آيات الجهاد وكلف المسلمين به حتى وجد النبي ﷺ القاعدة والمأوى في المدينة المنورة، فالمأوى وقاعدة الانطلاق ونقطة الارتكاز: ضرورة من ضرورات الجهاد، ينبغي للمجاهدين أن يُحَصِّلُوها قبل الشروع في الجهاد.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ بالغنائم التي أحلها لكم، كما مر معنا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على فضله بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام.

• التحذير من الخيانة:

للخيانة دور كبير في الفشل والهزيمة، وهي لا تعني فقط موالة العدو خفية، وإفشاء أسرار المجاهدين، وإيصالها إلى العدو، وتمكينه من معرفة نقاط الضعف في المجتمع الإسلامي عامة، وفي صفوف المجاهدين خاصة.. الخيانة في نظر الإسلام أشمل من هذا، إنَّ أي خلل ونقص يحدثه المسلم في عمله الذي كُلف به في شؤون دينه ودنياه، يعدُّ خيانة للأمانة التي يحملها، والمسلم يحمل أمانات كثيرة.

ولهذا توجَّهت الآيات بالخطاب إلى المسلمين تذكُّرهم بمسؤوليتهم عن الأمانات التي يحملونها، وتحذُّرهم من خيانة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وخيانة الأمانات التي كُلفوا بحملها والمحافظة عليها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾﴾

وأنتم تعلمون تبعة الخيانة، أو تعلمون أنكم تخونون، فالخيانة صدرت منكم عن قصد وعمد لا عن سهو وخطأ^(١).

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣١/٣.

ولمّا كان الباعث على الخيانة الحرص على المصالح المادية في الأموال والأولاد غالباً، قال سبحانه:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وامتحان من الله تعالى لكم، هل تطيعونه تعالى في أموالكم وأولادكم، أم تعصونه وتخونون أماناتكم من أجل أموالكم وأولادكم؟.

وذكر بعضهم أنها نزلت في أبي لبابة عندما أشار إلى يهود بني قريظة وهم محاصرون بأنّ الحكم فيهم القتل^(١).

وقد حذّر سبحانه من الافتتان بالأموال والأولاد في عدد من الآيات؛ منها: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله أيضاً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [التغابن].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فتوابعه سبحانه وجنّاته خير لكم من الأموال والأولاد، الذين لا يُغنون عنكم شيئاً يوم القيامة.

ثم يأتي النداء الرابع من الله تعالى للمؤمنين جامعاً لكلّ ما تقدّم بأسلوب الترغيب، لا بأسلوب الوعيد والتحذير:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: يجعل لكم نوراً

(١) انظر تفصيل القصة في: السيرة النبوية، لابن هشام: ١٤٣/٣؛ وتفسير الطبري: ٢٢١/٩.

وهداية في قلوبكم، تفرقون بها بين الحق والباطل، فترون الحق بجماله وضيائه، وترون الباطل ببقبحه وظلمته، فإن من اتقى الله تعالى بفعل أوامره وترك نواهيه، ووفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاحه، ومخرجه في الدنيا، وسعاده يوم القيامة^(١)، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

فالفرقان: مصدر زيدت فيه الألف والنون، وأريد به الوصف الفارق بين الحق والباطل^(٢).

فالتقوى تورث صاحبها النظر السديد، والرأي الثاقب، والقدرة على التمييز بين الخير والشر.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بسترها.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم بالعفو والتجاوز عنها، فضلاً منه سبحانه:

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

• المؤامرة:

ثم شرعت الآيات تبين بعض جرائم المشركين، وإعراضهم عن الحق، وعنادهم وضلالهم، وكأنه تعالى بهذه الآيات أراد أن يبين لنا ضرورة مجاهدة الكفار وقتالهم وكسر شوكتهم، ووضع حدّ لفسادهم وإفسادهم، فتشريع الجهاد أمرٌ ضروري، وفيه حكمٌ كثيرة وكبيرة، ولا بد لأمثال هؤلاء المجرمين المعاندين من قوة تدفعهم وتقمعهم، وتمنع عن الناس شرهم وضلالهم.

وقدّمت الآيات الحديث عن مكرهم بالنبي ﷺ، ومحاولتهم التخلص منه بأي وسيلة ولو كانت القتل، وقد اجتمعوا لهذا الأمر في دار الندوة.

قال ابن إسحاق: فحدّثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن عباس

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٩٩/٢.

(٢) أضواء البيان: ٣٤٩/٢.

ﷺ قال: لَمَّا أَجْمَعُوا لَذَلِكَ، وَاتَّعَدُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ، لِيَتَشَاوَرُوا فِيهَا فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَدَاً فِي الْيَوْمِ الَّذِي اتَّعَدُوا لَهُ، فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي هَيْئَةِ شَيْخٍ جَلِيلٍ، قَالَ: شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ سَمِعَ بِالَّذِي اتَّعَدْتُمْ لَهُ فَحَضَرَ مَعَكُمْ لِيَسْمَعَ مَا تَقُولُونَ، وَعَسَى أَلَا يَعْدِمُكُمْ مِنْهُ رَأْيٌ وَنُصْحًا.

فدخل معهم، فتشاوروا، وقال قائلٌ منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، لئن حبستموه ليخرجنَّ أمره من وراء الباب إلى أصحابه، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعه من أيديكم، فانظروا في غيره.

وقال قائلٌ منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا. فقال الشيخ النجدي: ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسنَ حديثه، وحلاوةَ منطقته، والله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحلَّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه، ثم يسيرُ بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم، دبّروا فيه رأياً غير هذا.

قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كلِّ قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً، ثم نعطي كلَّ فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، ويتفرَّق دمه في القبائل جميعاً. فقال النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأيَ غيره. فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له^(١).

وأنزل الله تعالى بعد ذلك قوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۖ﴾

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: ليحبسوك ويوثقوك.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ برّد مكرهم عليهم وجعلهم خائبين خاسرين .

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ لأنه يجازي الماكرين بمثل فعلهم، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشدّ ضرراً عليهم، وأعظم بلاءً من مكرهم^(١).

أو لأنه سبحانه لا يمكر إلا بالحق والصواب، ومكرهم باطل وظلم، فمكر الخلق من الحيلة والعجز، ومكر الخالق من الحكمة والقدرة^(٢).

• عناد واستكبار:

ثم تحدّث الآيات عن موقفهم عندما يسمعون القرآن الكريم، وعن شدّة إعراضهم عنه، ومعاندتهم لآياته الساطعة وحججه البالغة:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ بأذاننا فقط، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهذا منهم قولٌ بلا فعل، وإلا فقد تحدّثهم أكثر من مرّة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وقالوا معاندين:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا القرآن إلا ما سطره الأولون من الحكايات والأخبار. فما أشدّ عنادهم وما أعظم وقاحتهم!

وأبلغ منه قولهم:

(١) فتح القدير: ٣٠٣/٢.

(٢) تنوير الأذهان: ٢٠/٢.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ
أَوْ أَثْنِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣٢) .

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: إِنْ كَانَ الْقُرْآنُ
الكريم هو الحق الثابت المنزل من عندك .

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ تهلكنا بها .

﴿أَوْ أَثْنِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾! وبهذا القول بلغوا الغاية في الجحود والفساد،
والوقاحة والصلف والاستكبار، فبدل أن يقولوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ
مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا إِلَيْهِ، قالوا ذلك معاندين مستكبرين، وهذا يدلُّ على شدة
حسدهم للنبي ﷺ وبُغضهم له، فكأنَّ الهلاك والعذاب أهون عليهم من متابعتهم
عليه الصلاة والسلام والإيمان برسالاته، فنارُ الحسد المتأججة في صدورهم
جعلتهم يسألون لأنفسهم الهلاك بالحجارة أو العذاب الأليم .

ولله دُرُّ ابن المعتزِّ القائل:

اصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحَسَوِ دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
كَالنَّارِ تَأْكُلُ بَعْضُهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ
وَالْقَائِلُ أَيْضاً:

لِلَّهِ دُرُّ الْحَسَدِ مَا أَعْدَلَهُ بَدَأَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ

• الأمانان:

وردَّ سبحانه عليهم فبيَّن أنه قادر على إهلاكهم، ولكنه ﷻ أَمَرَ الْعَذَابَ
عَنْهُمْ إِكْرَاماً لِلنَّبِيِّ ﷺ الْمُقِيمِ بَيْنَهُمْ:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣) .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ﴾ يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ .

﴿فِيهِمْ﴾ «فإنه لِعَيْنٍ تُجَازِي أَلْفَ عَيْنٍ وَتُكْرِمُ»^(١).

وعدلت الآية عن توجيه الخطاب إليهم فوجهته إلى النبي ﷺ زيادة في بيان شرفه عليه الصلاة والسلام، وفضله ومكانته عند ربه ﷻ، وإقامته عليه الصلاة والسلام بينهم بركة عليهم، ورحمة من الله تعالى بهم.

وكان عليه الصلاة والسلام يقيم في أقدس البلاد، في البلد الحرام، الذي حرّمه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض، ومع ذلك فإن حلوله ﷺ في البلد الحرام زاده شرفاً وبركةً وحرمةً وتعظيماً، قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ [البلد]؛ فهو عليه الصلاة والسلام الرحمة المهداة من الله ﷻ إلى العالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وبعد أن بيّن سبحانه بركة وجوده عليه الصلاة والسلام على البلاد والعباد أتبعه ببيان ما يخلفه ﷺ بعد موته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى فقال:

﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: لو استغفروا لم يعذبوا، فكأن المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم^(٢).

قال عليه الصلاة والسلام: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ لِعُعُوبِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلَلُهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» [رواه الترمذي (٣٠٨٢)].

• ولادة المسجد الحرام:

وعندما أصرّ المشركون في مكة المكرمة على الكفر، وخرج النبي ﷺ من بينهم، وهاجر إلى المدينة المنورة، عذبهم الله تعالى بتسليط النبي ﷺ وأصحابه عليهم في بدر، فقتل من قُتل منهم، وأسِر من أسر، وقال جلّ وعلا يبيّن سبب تعذيبه إياهم:

(١) نظم الدرر: ٢٧٢/٨.

(٢) تفسير الرازي: ١٦٣/١٥.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُوهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤).

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: كيف لا يعذبهم الله.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: يمنعون المؤمنين الموحدين عن عبادة الله وحده في المسجد الحرام، ويقولون: نحن ولاية البيت الحرام؛ نصد من نشاء، وندخل من نشاء، فرد عليهم سبحانه بقوله:

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ فهم بسبب شركهم وكفرهم لا يصلحون لولاية المسجد الحرام الذي بُني لعبادة الله وحده، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

﴿إِنْ أَوْلِيَائُوهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ﴾ من المسلمين الموحدين.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ولاية لهم على المسجد الحرام.

ودلت الآية على أن بعضهم يعلمون هذه الحقيقة، ويجحدونها عناداً واستكباراً، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة].

ثم بين تعالى حقيقة عبادتهم التي كانوا يؤدونها عند المسجد الحرام فقال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٥).

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ﴾ أي: صغيراً وتصفياً.

والمكاء والتصدية ليستا بصلاة، ولكن الله سبحانه أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية^(١)، ولهذا قال سبحانه لهم:

﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ﴾ الذي نزل بكم يوم بدر.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

• التمييز بين الخبيث والطيب:

ومن جرائمهم أيضاً أنهم كانوا ينفقون الأموال الكثيرة للصد عن سبيل

الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال ابن إسحاق: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بالعر، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب أبائهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا. ففعلوا، ففهم أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في المُطْعَمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً؛ منهم: أبو جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشراً من الإبل. وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً^(٢).

(١) تفسير الخازن: ٣٨/٣.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١٠٣/٢.

وقد أخبر تعالى أنهم سينفقون أموالهم للصدّ عن سبيل الله، وأن ذلك لن ينفعهم:

﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغمّاً، لأن أموالهم تذهب من غير حصول المقصود.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في آخر الأمر.

وفي الآية بشارة للنبي ﷺ وللمسلمين بالنصر على المشركين، والتمكين للإسلام في الأرض.

ثم بين سبحانه عاقبة المصيرين على الكفر يوم القيامة فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ﴾ أي: يساقون إليها لا إلى غيرها.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فبالجهاد يميز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين:

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ والفساد من الصالح، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وفي يوم القيامة يظهر عدل الله سبحانه وفضله عندما يجعل أهل الإيمان والصلاح في الجنة بفضله:

﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾ أي: فيجمعهم، ويضمّ بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا ويتزاحموا، ثم يطرحهم في جهنم.

﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ بعدله سبحانه.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أموالهم وأنفسهم.

ولا يخفى ما في الآية من تحقير للكافرين واستهانة بهم، فرغم كثرتهم

وكثرة أموالهم، فإنَّ شأنهم شأن الأشياء القذرة الحقيرة التي يجمع بعضها إلى بعض لترمى دفعة واحدة في جهنم.

• الإسلام يُجِبُّ ما قبله:

والدعوة الإسلامية مستمرة لا تتوقف، فهي في الحرب والسلم، وقبل القتال وبعده وفي أثنائه، وما شرع الجهاد إلا لحماية الدعوة إلى الله تعالى، وإزالة طواغيت الكفر، الذين يقفون في طريق الدعوة، ويمنعون انتشارها بين الشعوب والأمم، وهاهي الآيات في سورة الأنفال تأمر النبي ﷺ أن يدعو المشركين بعد انتهاء القتال في بدر إلى الإسلام:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأُولَى﴾ (٢٤٨)

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الكفر بالدخول في الإسلام.

﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: يغفر الله لهم كل ما مضى من كفرهم وفجورهم وعدوانهم.

ففي «صحيح مسلم» [١٢١]: أنه لما أتى عمرو بن العاص إلى النبي ﷺ مسلماً، بسط النبي عليه الصلاة والسلام يده لبياعه، فقبض عمرو يده، فقال: «ما لك يا عمرو؟» قال: أردت أن أشرط، قال: «تشرط بماذا؟» قال: أن يغفر لي، قال ﷺ: «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله».

وقال ﷺ: «الإسلام يُجِبُّ ما قبله» [رواه ابن سعد في الطبقات (٦/١٣١)].

فبابُ الدخول في الإسلام مفتوح دائماً، والدعوة الإسلامية مستمرة لا تتوقف، ودلَّ الحديث على أن الله تعالى يغفر كلَّ الذنوب للكافر المحارب للمسلمين إذا جاء مسلماً مستسلماً.

وبعد أن رَغَّبَهُمُ اللهُ تعالى بالتوبة والتجاوز عن كل جرائمهم ومعاصيهم، هددهم سبحانه وتوَعَّدَهُمُ إذا عادوا إلى العناد والفساد، فقال:

﴿وَإِنْ يَئُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ في إهلاك أعدائه سبحانه ونصر أوليائه.

• الاستمرار في الجهاد:

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين تحضُّبهم على الثبات في الجهاد، والاستمرار فيه، فالطريق طويل، والمعوقات كثيرة، والعقبات كبيرة، والجهاد ماضٍ ما دام للكفر في الأرض شوكة ومنعة:

﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُلُّهُمْ لَكُمْ فَارٍ أَمْتَهُمْ فَأَتَى اللَّهُ

بِمَا يَمْشَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩).

﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: قاتلوا الكفار حتى لا تبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم.

وهذا ما فهمه الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من الآية الكريمة، فمن المعلوم أنه اعتزل الخلاف الذي حدث بعد مقتل الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولما جاءه رجل وقال له: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال رضي الله عنه: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُقْتَلُ في دينه، إما أن يقتلوه، وإما يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. [رواه البخاري (٤٦٥٠ و ٤٦٥١)].

فهذا هو المراد من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة^(١).

﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُلُّهُمْ لَكُمْ فَارٍ﴾ أي: ويكون الخضوع والاستسلام لأحكام

الله تعالى، إما بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكم الإسلام والعيش بين المسلمين في ظلّ سماحة الإسلام وعدله.

فالله سبحانه لم يشرع الجهادَ ويأمر بالقتال لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وهو سبحانه القائل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولا تقوم العقيدة بالإكراه، فالعقيدة لا تقوم إلا بالاقتناع والفهم، وإنما شرع الجهادُ لحماية الإسلام والمسلمين، ولتأمين نشره بين الناس، وإزالة العوائق التي تمنع انتشار الإسلام، وتحوّل دون تبليغه للناس.

﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ عن قتالكم، والصدّ عن سبيل الله، فكفّوا عن قتالهم، فهو كقوله سبحانه الآتي: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].
﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازي كل إنسان بعمله.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْمُ الْمَوْلَى وَيَغْمُ النَّصِيرُ﴾.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام وعن الخضوع لأحكامه.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾ يتولّى أموركم، ويؤيدكم وينصركم إن أطمعتموه وتمسّكتم بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وهو سبحانه:

﴿يَغْمُ الْمَوْلَى وَيَغْمُ النَّصِيرُ﴾.

ففي الآية حضٌّ على الاستمرار في الجهاد، والثبات عليه مع الثقة بنصر الله تعالى وتأويده.

• الغنيمة والضيء:

وعليكم أن تعلموا أيضاً كيفية قسمة الغنائم التي أحلّها سبحانه لكم، كيلا يقع بينكم اختلاف حولها:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الغنائم، وهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالقوة والغلبة، يَبَيِّنُ الله تعالى في هذه الآية كيفية قسمتها.

وأما الفبيء، وهو ما يَسَّرَ الله تعالى للمسلمين من أموال الكافرين من غير قتال وقهر، كأموال بني النضير التي نزلوا عنها بسبب الخوف والرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوبهم، فقد بيَّنه سبحانه في قوله: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ كَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَاتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر].

فالغنينة تخمَّسُ، توزع أربعة أخماسٍ منها على المجاهدين الغانمين، ويوزَّعُ الخمسُ الباقي منها على المصارف الخمسة المذكورة في آية الحشر السابق ذكرها، وفي قوله تعالى هنا:

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾ وذكر الله تعالى في أول المصارف الخمسة للتعظيم، فسهم للرسول ﷺ في حياته، ويصرف بعده في مصالح المسلمين، أو يرد على المصارف الأربعة الأخرى، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا نورث ما تركناه صدقة» [رواه مسلم (١٧٥٧)].

وسهم لذي القربى، وهم قرابته ﷺ من بني هاشم وبني المطلب بسبب نصرتهم للنبي ﷺ، والأسهم الثلاثة الباقية تُعْطَى لِلْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ المنقطعين في الطريق، أي: تعطى للضعفاء في المجتمع إقامةً للتكافل والتعاون بين أبناء المجتمع المسلم، وقد يكونُ النصرُ الذي تحقق ببركة دعائهم، قال رسول الله ﷺ: «ابغوني الضعفاء، فإنما تُرَزَقُونَ وَتُنَصَّرُونَ

بضعفائكم» [رواه أحمد (٢١٦٢٨) وأبو داود (٢٥٩٤) والترمذي (١٧٠٢) والنسائي (٣١٧٩)].

وفي رواية: «هل تُنصَرُّون وترزقون إلا بضعفائكم؟!» [روا البخاري (٢٨٩٦)].

• يوم الفرقان:

﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللّٰهِ﴾ أي: اعملوا بهذه القسمة وارضوا بها، إن كنتم آمنتُم بالله تعالى.

﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ من الآيات والمبشّرات والملائكة والنصر، وما أنزل الله تعالى كل ذلك في يوم بدر إلا تكريماً للنبي ﷺ، فهو المقصود بكل ما أنزله الله تعالى في هذا اليوم، ولهذا أفردته تعالى بالذكر، ونسبه إلى ذاته المقدسة بصفة العبودية تشريفاً له ﷺ وتكريماً.

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم معركة بدر الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل.

﴿يَوْمَ أَتَىٰ الْجَمْعَانِ﴾ بإرادته سبحانه وتقديره دون موعد سابق بينهما.

﴿وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم بيّن سبحانه كيف جمع بقدرته ومشيتته بين الفريقين لكي يقع الفرقان فقال:

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافِئِهِ فِي الْمِيعَدِ وَلَٰكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢).

﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ نازلون.

﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ بشاطئ الوادي القريب من المدينة المنورة.

﴿وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْأَقْصَى﴾ والمشركون نازلون بشاطئ الوادي الآخر البعيد عن المدينة المنورة.

﴿وَالرَّكْبُ أَهْلٌ مِنْكُمْ﴾ والقافلة على الطريق السفلي القريب من ساحل البحر على بعد ثلاثة أميال منكم.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم والمشركون على اللقاء في بدر.

﴿لَا خَلَفْتُمْ فِي الْبَيْعِ﴾ بسبب بُعد المكان عن مكة المكرمة وقربه من المدينة المنورة، وأيضاً بسبب قلة المسلمين وكثرة المشركين.

﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ولكنه سبحانه بقدرته ومشيئته قدر ذلك وقضاه، حتى وصل الجمعان إلى بدر في يوم واحد، ومن غير ميعاد سابق، ليقع ما أراد الله وقوعه في يوم الفرقان، فهو سبحانه الفاعل لما يريد، وقضاؤه كائن لا محالة، وقد قضى جلّ وعلا بإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

وبذلك قامت الحجة على المعاندين وظهرت:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليستمر في الكفر من استمر في الكفر على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه.

﴿وَيَجِيءُ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ويؤمن من آمن عن حجة وبصيرة، فالإيمان حياة القلوب كما مر في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُينَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وإلى هذا المعنى ذهب السيدة عائشة رضي الله عنها في قولها في حديث الإفك: فهلك في من هلك. [رواه البخاري (٢٦٦١ و ٤٧٥٠)].

وقد مر معنا أن يوم بدر كان حقاً فرقاناً بين الحق والباطل.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ودعائكم.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأحوالكم وأحوالهم.

ثم كشفت الآيات الكريمة عن بعض التدبيرات الإلهية الخفية التي مهدت للقتال وما أعقبه من النصر:

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾ فقد رأى النبي ﷺ المشركين جمعاً قليلاً، بمشيئته تعالى وقدرته، وأخبر عليه الصلاة والسلام أصحابه بذلك، ممّا جرّأهم على القتال وشجعهم عليه.

﴿وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: لضعفتم وهبتم المشركين، وحدث بينكم اختلاف في أمر قتالهم، وهذا يدلّ على أنّ إظهار القوة للعدو له تأثير على معنويات العدو وإحراز النصر.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: ولكنه سبحانه بلطفه ورحمته سلّمكم من ذلك.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عليم بكل ما يخفى في الصدور من شجاعة وجبن وجرأة وخوف.

وعندما وقف الجمعان أمام بعضهما في ساحة القتال، هياً الله تعالى أيضاً الأسباب المعنوية التي تشجّعهما على الاقتتال والالتحام، فهو ﷻ خالقٌ للأسباب والمسببات:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ لتتجرّؤوا على قتالهم، وتطمعوا في النصر عليهم، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم

بدر حتى قلتُ لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: بل هم مئة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه؛ فقال: كنا ألفاً. [رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير في تفسيرهما] (١).

﴿وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَغْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إن أصحاب محمد أكله جزور، أي: لا يتجاوزون المئة، وهكذا أغرى الله تعالى كلاً من الجمعين بالآخر.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: كان مقدراً في الأزل، فلا بد من وقوعه كما تعلق به إرادته جلّ وعلا.

وكرّره في الآيتين إبرازاً لأهميته، فالتقدير بمشيئته سبحانه أزلاً وأبداً، لا بمشيئة غيره، وكما بدأت الأمور بمشيئته تعالى تنتهي أيضاً بمشيئته سبحانه: ﴿وَالِإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فالبداية والنهاية منه وإليه جلّ وعلا.

وتقليل المسلمين في أعين المشركين كان قبل القتال، ثم بعد أن بدأ القتال والتحم الجمعان قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين تثبيتاً لهم، ورفعاً لمعنوياتهم، وكثر المؤمنين في أعين المشركين، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ فَتُفْتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافَّةٌ يَرْوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْأَعْيُنُ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأَوَّلِ الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

فلا تعارض بين الآيات، فكل آية تصف حالة من حالات يوم بدر وطوراً من أطواره.



(١) ذكره ابن كثير في تفسيره: ١١٠/٢.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

التَّحْذِيرُ مِنْ أَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَتَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لَلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابٌ آءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ آءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُبُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِنَّمَا تَشَفَعْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافَنْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبَيْدُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهَا تَوَكُّلاً عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ يَا ذَنْنَا اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٧١﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُنْخَضَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٢﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧٣﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا عَرَضْتُمْ هَذَا طَبِئاً وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَشْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِاللَّهِ مِنَ الْآخَرِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٨٠﴾

• التنازع والاختلاف:

بعد أن بيّنت الآيات أسباب النصر المباشرة وغير المباشرة، اتجهت اتجاهًا جديدًا يغلب عليه أسلوب التحذير من أسباب الهزيمة، واستهلّت حديثها بتذكير المسلمين بواجبهم الأساس الأول عند لقاء العدو في ميدان القتال:

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ لقتالهم، ولا تفرّوا، فالفرار كبيرة من كبائر الذنوب، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال].

ثم أمرتهم بالإكثار من ذكر الله تعالى في أثناء القتال:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ولا تغفلوا عنه سبحانه ولو في أشدّ الأحوال وأخطرها، فإنّ ذكر الله تعالى في مثل هذه الأحوال استمداد لمعونته وتأييده، واستنزال لنصره، ففي الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

ويؤيده قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

ويدلّ ذكره سبحانه في مثل هذه الأحوال العصبية على شدة محبته تعالى. و مرّ معنا عند قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآثار الطيبة للذكر، وذكره سبحانه يستدعي طاعته:

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالتزام ما شرعه سبحانه في الجهاد، وهذا الالتزام أهم أسباب النصر كما مرّ معنا في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ثم حذرت الآية الكريمة المسلمين من أكبر أسباب الفشل والهزيمة بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا﴾ فَإِنَّ الاختلاف يؤدي إلى الفشل والضعف .
 ﴿وَنَذْهَبَ بِحُكْمٍ﴾ أي: تتلاشى قوتكم، وتضيع جهودكم، فعاقبة الاختلاف
 والتنازع مُرَّةٌ ووخيمةٌ .
 ﴿وَأَصِرُّوا﴾ على مكاره القتال وشدائده ومخاطره .
 ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يؤيدهم ويقوِّيهم وينصرهم .

● التحذير من التكبر والطغيان:

ثم حذرتهم الآيات أيضاً من التشبه بأعدائهم في تكبرهم وطغيانهم
 وفخرهم وإعجابهم بأنفسهم، واغترارهم بقوتهم، فَإِنَّ ذلك من أسباب الفشل
 والهزيمة:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧) .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم النفير جيش المشركين، وعلى
 رأسهم أبو جهل عمرو بن هشام، الذين خرجوا من مكة لحماية القافلة، كما مرَّ
 معنا، ولمَّا علموا بنجاة القافلة أصروا على الذهاب إلى بدر .

﴿بَطَرًا﴾ أي: طغياناً وتكبراً وفخراً، فبدل أن يشكروا الله تعالى على نجاة
 أموالهم، ويعودوا إلى مكة، توجَّهوا إلى بدر، وقال قائلهم - وهو أبو جهل -:
 والله لا نرجع حتى نردَّ بدرأ، فنقيم عليها ثلاثاً، فننحر الجُرُزَ، ونطعم الطعام،
 ونُسقي الخمر... كما مرَّ معنا .

﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ومن أجل أن يراهم الناس، فالقوم يريدون الافتخار
 بقوتهم وأموالهم أمام الناس، كأنهم يرون لأنفسهم فضلاً على الناس بما لديهم
 من قوة وأموال .

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وليمنعوا الناس من الدخول في دين الله تعالى،
 ويعوقوا انتشاره بينهم .

﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وفيه وعيد شديد لهم ولكل من يتشبه بهم، فهو سبحانه عليم بجميع أحوالهم وأعمالهم ونياتهم، وهم في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، ولهذا سقاهم في بدر كؤوس المنيا بدل الخمر، وأقام عليهم النوائج بدل القيان.

• التحذير من وساوس الشيطان ومكره:

ثم كشفت الآيات للمؤمنين على سبيل التحذير لهم دُور الشيطان في توريط المشركين، وتزيينه لهم القدوم إلى بدر، ثم كيف تخلى عنهم وخذلهم، عندما جدَّ الجد وبدأ القتال والصدام بين الفريقين:

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: حَبَّبَ إلى المشركين أعمالهم الفاسدة، كالتكبر والطغيان، وحبَّ الرياء والسمعة، والصدَّ عن سبيل الله تعالى.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ أي: ألقى في صدورهم، وخيَّل لهم أنهم لا يُغلبون، بسبب قوتهم وكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أنه مجير لهم، فالتقوا مجازاً عن الوسوسة^(١).

ويمكن أن يكون الشيطان قد قال ذلك لهم حقيقةً، كما فعل عندما تأمروا على قتل النبي ﷺ قبل الهجرة، وقد مرَّ معنا ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

ويؤيد هذا المعنى قولُ ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ سَارَ إِبْلِيسُ بِرَأْيِهِ

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/٤.

وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أَنَّ أحداً لن يغلبكم، وإنِّي جارٌّ لكم^(١).

﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتَيَانِ﴾ فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة.
﴿نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ رجع مدبراً.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه وانقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل، أسلمهم شرَّ مَسْلَم، وتبرأ منهم عند ذلك^(٢)؛ قال تعالى: ﴿كَذَّبَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: إني أرى الملائكة الذين لا ترونهم.

وفي الحديث الشريف: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «ما رُئيَ الشَّيْطَانُ فِي يَوْمٍ أَقَلَّ وَلَا أَحَقَرَ وَلَا أَصْغَرَ مِنْهُ فِي يَوْمٍ عَرَفَةَ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَزُولِ الرَّحْمَةِ إِلَّا مَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «رَأَى الْمَلَائِكَةَ يَزْعُمُهَا جَبْرِيلُ» [رواه مالك في الموطأ (٤٢٢/١)].

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ وكذب عدو الله، والله ما به مخافة، ولكن عَلِمَ ألا قوة له ولا منعة.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

• التحذير من المنافقين وإشاعاتهم الكاذبة:

وللإشاعات الكاذبة دور كبير في بث روح التخاذل والهزيمة في نفوس المقاتلين، وما أكثرَ ما أدَّت إلى تحويل الانتصارات إلى هزائم! ولهذا تحرصُ الدول قديماً وحديثاً على إذاعة الإشاعات الكاذبة في المجتمعات المعادية، وتسخرُ لِبَثِّها مختلف وسائل الإعلام، وتحشد لأجل ذلك كل ما لديها من

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١١١/٢.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

إمكانات، وترسم من أجلها الخطط والبرامج، حتى أطلقوا عليها في العصور المتأخرة: الحرب الباردة، أو حرب الدعايات، أو الحرب النفسية.

وأكثر الإشاعات خطورةً تلك التي تصدر من داخل المجتمع، من أولئك الذين يخفون في نفوسهم ولاءهم للعدو، وهم الذين يُسمَّون في العصر الحاضر: (الطابور الخامس)، وقد سماهم الله تعالى: المنافقين، وحذَّر من مكربهم وكيدهم وافتراءاتهم في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى هنا:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٤٩].

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ وهو ما يخفون في قلوبهم من الكفر وموالاته أعداء المسلمين؛ قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ أي: غرَّ المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى بدر دينهم، فهم نفر قليلون، يقاتلون أضعافهم، فقد خدعهم دينهم، لأنه حملهم على تعريض أنفسهم لخطرٍ لا قبلَ لهم به.

بمثل هذه الإشاعات عمل المنافقون على توهين عزائم المؤمنين، وإضعاف معنوياتهم، وتخويفهم من قوة عدوهم.

وقد تكرر منهم مثل هذه الأقوال في أكثر المعارك والغزوات، ففي غزوة الأحزاب حكى الله تعالى عنهم قولهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وبين سبحانه كيف نواجه إشاعات المنافقين وافتراءاتهم، وذلك بكتمانها، وعدم إشاعتها بين الناس أولاً، ثم بتبليغها إلى أولياء الأمور في المجتمع ليبينوا حقيقتها، ويكشفوا زيفها وخداعها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ

الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

وإن ثقة المؤمنين بنصر الله تعالى وتوكلهم عليه يحميهم من التأثير بإشاعات المنافقين والمرجفين، ولهذا ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد استأجر أبو سفيان - عندما كان زعيماً للمشركين - بعض الرجال لكي يندسوا بين صفوف المسلمين في المدينة المنورة، وينشروا فيهم الإشاعات الكاذبة، ففشلوا، ولم يتأثر الصحابة عليهم السلام بافتراءاتهم بسبب قوة إيمانهم، وتوكلهم على ربهم، وأنزل الله تعالى يثني عليهم، ويشهد لهم بصدق الإيمان وحسن التوكل قوله الكريم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ فَفَضَّلَ لَهُمْ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

• في غمرات الموت:

وأخذت الآيات بعد ذلك تتوعد المنافقين والكافرين بسوء العاقبة والمصير عند الموت وبعده، وقد اتبعت أسلوب التهديد غير المباشر، فوجهت الخطاب للنبي ﷺ، أو لكل من يصلح لتوجيه الخطاب إليه، فجاء هذا الأسلوب متناسباً ومنسجماً مع الأساليب الملتوية التي يسير عليها المنافقون:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُفُّوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: لو رأيت الملائكة وهم يقبضون أرواح الكفار عند موتهم، لرأيت أمراً عظيماً مخيفاً مرعباً.

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران في تفسيرنا الموضوعي هذا، الذي جاء تحت عنوان: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ والملائكة يضربون الكفار على وجوههم وظهورهم، ويقولون لهم:

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فما تلقونه الآن قليل من كثير، ومقدمة لعذاب أشد ألماً وأعظم حسرة، وهو الاحتراق في نار جهنم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١).

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب والهون.

﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وفجوركم ومعاصيكم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا يكون منه سبحانه ظلم، ولا يُنسب إليه ظلم البتة، ولفظة ﴿بِظَلَمٍ﴾ ليست للمبالغة، إنما هي كبرّاز وعطار وجزار^(١).

وتدل الآية على أن للإنسان كسباً واختياراً فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال، وهذا الكسب والاختيار مناط مسؤوليته أمام الله تعالى القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]^(٢).

• من تاريخ الطغاة والمكذابين:

ثم ضرب الله تعالى مثلاً من تاريخ الطغاة والمكذابين تأكيداً لعدله وحكمته جلّ وعلا، فقال:

(١) انظر: تنوير الأذهان: ٣٠/٢.

(٢) انظر لتوضيح هذا المعنى: تفسير سورة يونس، الذي جاء في تفسيرنا الموضوعي هذا تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: عادة هؤلاء المعاندين من كفار قريش في مكة المكرمة، ومن المنافقين في المدينة المنورة، كعادة آل فرعون، وفرعون كان ولا يزال أقبح مثالٍ للظلم والطغيان والتجبر.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الكافرة والمكذبة.

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كما فعل المشركون والمنافقون.

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: فأهلكهم الله وعذبهم بسبب ذنوبهم، فلم يظلمهم سبحانه.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا يُغلب، ولا يُدفع عقابه عمن أراد معاقبته.

• أسباب زوال النعم:

ثم بين سبحانه سنة من سننه في خلقه جلّ وعلا، وتدلّ على تمام عدله وكمال حكمته، فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فلا يزيل الله تعالى نعمة أنعم بها على قوم من الأقوام حتى ينتقلوا من الحال التي كانوا عليها عند النعمة إلى حال أسوأ وأقبح مما كانوا عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١].

فأسباب زوال النعم ونزول العذاب والنقم نابعة من سلوك الناس وأعمالهم، والله سبحانه ما خلقهم ليعذبهم، وإنما خلقهم ليرحمهم، ويمنّ

عليهم برحمته وإحسانه، ويسعدهم بطاعته وعبادته، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ومن كماله جلّ وعلا اتصافه بالرحمة والإحسان، وبالغضب والانتقام، ولكن رحمته سبحانه سبقت غضبه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي» وفي رواية: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» [رواه البخاري (٧٤٠٤) ومسلم (٢٧٥١)].

ومعنى سبق الرحمة وغلبتها: أنها أقدم تعلقاً بالخلق، وأكثر وصولاً إليهم^(١). ولهذا كانت قريش قبل الإسلام تنعم بالأمن والرخاء، ولما بعث الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام، كذبوه وعاندوا دعوته، فغيّر الله تعالى حالهم، ونزع عنهم نعمة الأمن والرخاء، وسلط عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فبارت تجارتهم، وفقدوا كثيراً من أموالهم وأنفسهم، حتى فتح الله تعالى مكة المكرمة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ويعلم جميع أقوالهم وأعمالهم.

تلك هي سنّته تعالى الجارية في خلقه، فالذي لا يعرف قدر النعمة ولا يشكر المنعم، تُسلب النعمة منه وتنزع عنه، وشأن مشركي مكة فيما نزل بهم كشأن فرعون وقومه والأمم المكذبة قبلهم:

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَاثِرٍ ظَلِيمٍ﴾ (٥٤).

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أيّد الله تعالى بها الرسل الذين أرسلوا إليهم.

(١) تفسير أبي السعود: ١١٥/٢. وانظر: تفسير سورة الأنعام في تفسيرنا الموضوعي هذا الذي جاء تحت عنوان: (بصائر الحق في سورة الأنعام).

﴿فَأَهْلَكْتَهُمْ يَذُوبُهُمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم.

وبيّن سبحانه كيفية إهلاك فرعون وقومه على وجه الخصوص، لكثرة ما كانوا فيه من النعم، وشدة معاندتهم وتكبرهم: ﴿وَأَغْرَقْنَاهُ آلَ فِرْعَوْنَ كُلُّهُمْ كَانَ ظَالِمِينَ﴾ أي: وكل من المكذبين السابقين كفرعون وقومه، ومن المكذبين اللاحقين كمشركي قريش، كانوا ظالمين لأنفسهم، بسبب إعراضهم وعنادهم وتكذيبهم.

ولا يخفى أن تكرار ذكر فرعون وقومه جاء لمعنى آخر لم يكن في المعنى الأول، إذ الأول: لبيان أنه تعالى أهلكهم لما كفروا، والثاني: لبيان أنه تعالى لم ينزع نعمته عنهم ويغيّر حالهم حتى غيروا ما بأنفسهم، وكذبوا أنبياءهم.

• التحذير من الغدر ونقض العهد:

الإسلام دين السلم والسلام، أنزله الله تعالى لرعاية مصالح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة، والجهاد في الإسلام ليس غاية في حد ذاته، إنما هو وسيلة لعزة المسلمين وأمنهم، وتأمين انتشار دعوتهم، ولهذا شرع الله تعالى إلى جانب شريعة الجهاد والقتال قيام العهود والمواثيق بين المجتمع الإسلامي وبين المجتمعات البشرية الأخرى، وأعطى وليّ أمر المسلمين الحق الشرعي في عقد المعاهدات والمواثيق الدولية إذا ما رأى فيها مصلحة للمسلمين، وأمر سبحانه برعاية هذه المعاهدات والوفاء بها، ما دامت الأطراف الثانية ترعاها وتحفظها، كما حذر سبحانه في الوقت نفسه المسلمين من الغفلة عن عدوهم، والاعتماد على عهودهم ومواثيقهم معه.

فالكفر لا يأتي بخير أبداً، والكفار أكثر الخلق شراً وضراً، قرر سبحانه هذا المعنى محذراً من غدرهم وشرهم فقال:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فما داموا مصرين على الكفر، بعيدين عن الإيمان، فهم شرّ من يدبّ على الأرض، فالكفر أصل كل شرّ، والإيمان أصل كل خير.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُوتُ﴾ (٥٦).

أي: الذين كلَّمَا عاهدوا عهداً نقضوه، لأنهم لا يتقون الله تعالى ولا يخشونه، فهم كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

ثم بيَّن سبحانه كيفية التعامل معهم في حال نقضهم العهد، فقال:

﴿فَإِمَّا تَنْفِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ (٥٧).

﴿فَإِمَّا تَنْفِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: فإذا ما ظفرت بهم في ميدان القتال وتمكنت منهم. ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ﴾ فاغلظ عليهم في القتال، وشدد عليهم، واضربهم ضربةً تؤدب بها غيرهم ممن يريدون نقض العهد والغدر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ لعل ذلك يكون موعظةً لهم يتعظون بها، وينزجرون عن نقض العهد والغدر.

• الخدعة في الحرب لا في العهد:

هكذا ينبغي أن يُعامل الناقضون للعهد، وأما الذين يريدون الغدر ونقض العهد، فالأمر معهم يختلف:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (٥٨).

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: غدرًا ونقضاً للعهد، بعلامات وأمارات تلوح منهم.

وهذا يدلُّ على وجوب الحذر منهم، ومراقبة تحركاتهم، وعلى ولي أمر المسلمين أن يرصد المجتمعات الكافرة، وأن يطلع على كل أحوالهم، ولو كان مرتبطاً معهم بعهود ومواثيق، لكي لا يُفاجأ بغدرهم ومكرهم.

﴿فَإِنْ بَدَأُوا خِيَانَةً﴾ أي: أعلمهم أنك نقضت العهد الذي بينك وبينهم.

فالإسلام يحرمُّ الغدر، لأنه دين الصدق والوفاء، والمسلمون مكلفون بتعاليم الإسلام وأخلاقه ومثله في السلم والحرب، ومع الصديق والعدو، وهذه الحقيقة هي التي تجذبُ الناس إلى الدخول في الإسلام وترغبهم فيه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ الناقضين للعهد والغادرين مهما كانوا ولو كانوا من المسلمين.

ذكر ابن كثير في تفسيره: أنَّ معاوية رضي الله عنه كان يسيرُ في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخٌ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاءٌ ولا غدرٌ، إنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَلَا يَحُلِّنْ عَقْدَةً وَلَا يَشْدَهَا، حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمْدَهَا، أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه.

[رواه أحمد (١١١/٤) وأبو داود (٢٧٥٩) والترمذي (١٥٨٠) وقال: حديث حسن صحيح].

وقد يقول قائل: ألم يقل النبي ﷺ: «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ» [رواه البخاري (٣٠٣٠)] والانتصار على العدو يقتضي الاحتيال عليه؟

فأقول: مخادعة العدو والاحتيال عليه تتعارض مع معاهدته ومهادنته، والخدعة في الحرب، كما قال رسول الله ﷺ، لا في العهد، فما دام العهد قائماً فالواجبُ الوفاء به.

إنَّ الإسلام يعاهدُ ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره، نبذ العهد القائم جهرَةً وعلانيةً، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نفَضَ يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان، وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة، إِنَّهُ لَا يَبِيتُ الْآخِرِينَ بِالْهَجُومِ الْغَادِرِ وَهُمْ آمِنُونَ مَطْمَئِنُونَ إِلَى عَهْدِهِ وَمَوَاقِفِهِ لَمْ تَنْقُضْ وَلَمْ تَنْبِذْ، وَلَا يَرُوجُ الَّذِينَ لَمْ يَأْخُذُوا حَذَرَهُمْ حَتَّى وَهُوَ يَخْشَى الْخِيَانَةَ مِنْ جَانِبِهِمْ، فَأَمَّا بَعْدَ نَبْذِ الْعَهْدِ فَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ، وَكُلُّ وَسَائِلِ الْخُدْعَةِ حِينَئِذٍ مَبَاحَةٌ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ غَادِرَةٌ.

إِنَّ الإسلامَ يريدُ للبشرية أن ترتفعَ، ويريدُ للبشرية أن تعفَ، فلا يبيحُ الغدرَ في سبيل الغلب، وهو يكافحُ لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمحُ للغاية الشريفة أن تستخدمَ الوسيلة الخسيسة^(١).

ولا يعني إعلامُ العدو بنقض العهد ونبذه عدم الحرص على مفاجأته بالهجوم؛ فهذا أمرٌ وذاك أمرٌ آخر، فمفاجأة العدو بالهجوم، وإنزال الضربة الأولى به أمرٌ مشروعٌ في الإسلام، سنَّه رسول الله ﷺ، وكان حريصاً على تحقيقه في أكثر غزواته، فكان إذا أراد غزوة أخفى الجهة التي يقصدها، وإذا ما سُئل عنها ورى بغيرها - أي: أوهم أنه يريد غيرها -، لكي يفاجئ العدو، ويغزوهم وهم غارون غافلون.

فقد ذكر الإمام النووي في تبويبه لصحيح مسلم في أول كتاب الجهاد فقال: باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدُّم الإعلام بالإغارة.

ثم ذكر مسلم [١٧٣٠] حديث ابن عون قال: كتبتُ إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال؟ قال: فكتبَ إليَّ: إنَّما كان ذلك في أول الإسلام. قد أغارَ رسولُ الله ﷺ على بني المُصْطَلِقِ وهم غارون... إلى أن قال: وحدثني هذا الحديثُ عبدُ الله بن عمر، وكان في ذلك الجيش.

وقد شنعَ أحدُ الكتَّاب المعاصرين على نافع وخطَّأه، لأنه رأى نافعاً قَصَرَ أمر الدعوة قبلَ القتال على أول الإسلام، مع أنَّ نافعاً ما قصدَ إلى هذا المعنى، ما قصدَ إلا بيانَ جوازِ الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة.

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يريد غزوةً إلا ورى بغيرها. [رواه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٢٧٦٩)].

وإن الله تعالى لبالمرصاد لكل من يحاولون استغلال هذا المبدأ الإسلامي الرفيع، ويحاولون المكر والخديعة، ولهذا قال تعالى يتوعدُّهم ويتهدَّدُهم:

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٥٤٢.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْرِضُونَ﴾ ٥٩.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا﴾ أي: فاتونا ونجوا منّا، فلا نقدرُ عليهم.

﴿إِنَّهُمْ لَا يَعْرِضُونَ﴾ إنهم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، فمهما حاولوا الإفلات بالهرب والفرار فهم في قبضة قدرته سبحانه، وهو قادر على أن ينزل بهم عذابه في أي مكان وزمان، فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

● إعداد قوة الرمي والهجوم:

التفتت الآيات بعد ذلك إلى المؤمنين تأمرهم بإعداد كل ما يستطيعون إعداداه من أسباب القوة، القوة التي تجعل عدوهم يهابهم، ويخشى جانبهم، ويحافظ على عهوده ومواثيقه معهم، قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ ٦٠.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وبين رسول الله ﷺ أن القوة التي تأمر الآية بإعدادها، هي القوة العسكرية التي يمكن أن يوجه بها أقصى الضربات للعدو، والتي تنزل به أفدح الخسائر.

ففي الحديث الشريف: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» [رواه مسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤)].

فقوة الجيش المادية في قوة رماياته التي يرمي بها العدو، وفي قوة نباله ونيرانه وقذائفه وصواريخه، وفي قوة الطاقة المدمرة التي يستطيع توجيهها إلى العدو.

وتدلُّ الآية على أنَّه يجب على المسلمين أن يحصلوا كلَّ أسباب القوة خاصةً قوة الرمي في أثناء القتال.

وقوة الرمي وحدها لا تكفي لإحراز النصر، فلا بدَّ بعدَ رمي العدو وتدميره من استثمار ذلك، بالمبادرة إلى احتلال مواقعه، واستئصال ما تبقى من قوته، والقضاء على مقاومته، وذلك بشنِّ الهجوم عليه.

وهذا يتطلب إعدادَ القوة المهاجمة، قوة الهجوم والانقضاض على العدو لاحتلال مواقعه وأرضه، ولمَّا كانت الخيلُ أسرع وسائل الهجوم والكرِّ والفرِّ في ميادين القتال، خصها سبحانه بالذكر في آية إعداد القوة، فقال:

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي: وأعدوا ما تستطيعون من الخيل المربوطة المجهزة للهجوم والانقضاض على العدو بعد إثنائه وتدميره بقوة الرمي.

فكأنَّ الآية الكريمة ترسم مبدأً عسكرياً هاماً مقررّاً عند كبار القادة العسكريين؛ وهو إضعاف العدو بقوة الرمي أولاً، ثم الهجوم عليه ثانياً للقضاء عليه. وقد حثَّ النبي ﷺ على إعداد الخيل والفروسية للجهاد عليها في سبيل الله في أحاديث كثيرة، منها:

عن عروة بن الجعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيْلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة» [رواه البخاري (٢٨٥٠)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيْلُ ثلاثة، فهي لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، ولرجلٍ وزرٌ: فأما التي هي أجرٌ، فالرجلُ يتخذها في سبيلِ الله، ويعدُّها له، فلا تُغيَّبُ شيئاً في بطونها إلَّا كتبَ الله له أجرًا، ولو رعاها في مرجٍ، ما أكلتُ من شيءٍ إلَّا كتبَ الله له أجرًا، ولو سقاها من نهرٍ، كان له بكلِّ قطرةٍ تغيبها في بطونها أجرٌ - حتى ذكرَ الأجر في أبقالها وأروائها -، ولو استنت شرفاً أو شرفين كُتِبَ له بكلِّ خطوة تخطوها أجرٌ. وأما الذي هي له سترٌ، فالرجلُ يتخذها تكراً وتجملاً، ولا ينسى حقَّ ظهورها وبطونها في عُسرِها ويُسرِها، وأما الذي عليه وزرٌ، فالذي يتخذها أشراً وبطراً وبَذْخاً ورياء الناس فذاك الذي عليه وزرٌ» [رواه البخاري (١٤٠٢) ومسلم (٩٨٧)].

وقوله: «شرفاً أو شرفين»: أي قطعت مرتفعاً أو مرتفعين من الأرض.
كما كان النبي ﷺ يحث أصحابه على إتقان الرماية والفروسية والتدرب عليهما، ويشاركهم في ذلك، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون بالسوق، فقال: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان» فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال: «ما لكم لا ترمون؟!» فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم» [رواه البخاري (٢٨٩)].

وقوله: (ينتضلون) أي: يتدربون على إصابة الهدف.
وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أجرى رسول الله ﷺ ما ضمّر من الخيل من الحفيا إلى ثنية الوداع، وما لم يضمّر من الثنية إلى مسجد بني زريق. [رواه البخاري (٤٢٠) ومسلم (١٨٧٠)].

وقد عوّدنا سبحانه في كتابه أن يخاطب الناس بما يعقلون في عصر التنزيل، ولهذا لم يذكر سبحانه وسائل القتال والهجوم الحديثة التي اهتدى الإنسان إليها كالذبابات والطائرات والمدمرات وغيرها، فقد جاء ذكر الخيل مثلاً لإعداد ما يمكن أن يكون سبباً للقوة ووسيلة للنصر، ولقد أصبحت الناقلات الحديثة للجنود في الجو والبحر والبر من أهم أسباب النصر في العصر الحاضر، ويجب على المسلمين أن يعدّوها بأيديهم، وألا يكونوا عالة بها على غيرهم، فإن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ يدل على ذلك، وقد أثبتت شواهد العصر الحاضر أن الأمة التي تصنع سلاحها بأيديها هي الأمة القوية العزيزة.

ويتطلّب إعداد القوة علماً وعملاً ودراية وخبرة، ويجب على المسلمين أن يكونوا سباقين في كل هذه الميادين، وإلا كانوا جميعاً آثمين لتقصيرهم فيما أوجب سبحانه عليهم في هذه الآية.

● القوة الاقتصادية:

ثم بيّن تعالى ما يترتب على إعداد القوة من عزة ومنعة، ورهبة العدو وخوفه واحترامه للعهود والمواثيق، فقال:

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ولا شك أنَّ عدو الله هو عدو المسلمين، وكذلك عدو المسلمين هو عدو الله تعالى.

فالمسلمون يوالون أولياء الله تعالى، ويعادون أعداءه، وكرّر صفة العداوة لله والمسلمين تقبيحاً لحال الكفار، وبياناً لشدة عنادهم وإعراضهم، وهم المشركون في مكة ومن وقف بجانبهم من قبائل العرب.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا يَعْلَمُونَهُمْ﴾ أي: وترهبون أعداء آخرين لا تعلمونهم، إمّا لكونهم يخفون عداوتهم لكم كالمنافقين، أو لكونهم بعيدين عنكم، وبهذا المعنى تنسحب الآية على جميع الكفار في شتى بقاع الأرض.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَعْلَمُونَهُمْ﴾ بسبب كثرتهم وبُعدهم يؤكد المعنى الثاني. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعلم بغضهم للإسلام والمسلمين وكيدهم بهم.

ويتطلب إعداد القوة العسكرية في العصر الحاضر قوة اقتصادية يمكنها أن تتحمل النفقات الباهظة لإعداد الأسلحة الكثيرة المعقدة، وتدريب الجنود على استعمالها، وهذا واجب آخر يقتضيه الإعداد، فما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب، وهو ما دلّ عليه أيضاً قوله تعالى في آية الإعداد:

﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تثابون عليه ثواباً كاملاً. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً.

• الإسلام والسلام:

وإعداد القوة لا يعني بالضرورة مباشرة القتال والحرب، فالإسلام دين السلام، والجهاد في الإسلام وسيلة لعزة الإسلام والمسلمين وتأمين نشر الدعوة بين الناس، ولهذا شرع الله تعالى جواز مهادنة الكفار ومسالمتهم بعد أن أمر بإعداد القوة، فقال:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهُمْ وَتَوْكَلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ أي: مالوا للمصالحة والمسالمة.

﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فَمِلْ إِلَيْهَا، أَي: إلى المهادنة والمسالمة.
 ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ولا تخف من مكرهم وكيدهم، فإن الله تعالى كافيك
 كيدهم، وعاصمك من مكرهم.

وينبغي أن يكونَ هذا حال المسلمين في كلِّ الشُّؤن، يَعْذُونَ وَيَسْتَعِذُونَ،
 ويهيئون كل الأسباب المادية، وفي الوقت نفسه يعتمدون على الله، وتبقى
 قلوبهم وأرواحهم موصولة به.
 ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ودلَّ توجيه الخطاب للنبي ﷺ على أَنَّهُ يجوزُ لولي أمر المسلمين أن
 يصالح الأعداء ويسالهم إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين، قال القرطبي
 رحمه الله: «وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لنفع يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه،
 فلا بأس أن يتدبَّر المسلمون به إذا احتاجوا إليه»^(١).

وقد صالح النبي عليه الصلاة والسلام قريشاً صلح الحديبية، وكان فيه
 مصلحة كبيرة للإسلام والمسلمين، حتى سمَّاه الله تعالى فتحاً بقوله الكريم: ﴿إِنَّا
 فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

فأمرُ الصلح والحرب منوطُ برأي ولي أمر المسلمين، وليس بحتم أن
 يقاتل الكفار أبداً، أو يُجابوا إلى الهدنة أبداً^(٢).

• الوحدة بعد الفرقة:

وتثور عند المصالحات وتوقيع المعاهدات الهواجس والظنون ومشاعر
 القلق والحيرة والتردد، ولا سبيل إلى الخلاص من كلِّ ذلك إلا بالثقة بالله تعالى
 والتوكل عليه، ولهذا توجهت الآيات إلى النبي ﷺ تقويُّ ثقته بالله تعالى، وتشدُّ
 من عزيمته بقوله جلَّ وعلا:

(١) تفسير القرطبي: ٤٠/٨.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢٧/٤.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: إن كانوا يريدون بالصلح خديعة ومكرًا فإن الله تعالى كافيك مكرهم وكيدهم، وكما أيدك ونصرتك عليهم في الحرب فإنه سبحانه يعصمك من كيدهم ومكرهم في السلم .
﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار .

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ مع ما كان فيها من عصبية وضغائن وأحقاد، حتى أصبحوا كنفس واحدة وجسد واحد، كما قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى» [رواه مسلم (٢٥٨٦)] .

فوحدة الأمة وألفتها تدفع عنها مكر أعدائها وكيدهم، وتجعلها في مأمن من جميع مؤامراتهم ودسائسهم، وما نجح أعداء الإسلام في تأمرهم على المسلمين وكيدهم بهم، إلا بسبب تفرق المسلمين وتخاذلهم وتدابريهم، وما أكثر الشواهد المؤيدة لهذه الحقائق في تاريخ المسلمين وحاضرهم .

وإن من أجل النعم التي أنعم الله بها على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، تألفهم وتضامنهم بسبب إخلاصهم، وببركة محبتهم وطاعتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، فما كان أحد يتصور أن يجتمعوا حول رسول الله ﷺ هذا الاجتماع القوي الوثيق بعد طول التشتت وكثرة التمرق والتشردم، حتى قال سبحانه بين نعمته الجليلة عليهم في تأليفهم وجمعهم:

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه شهادة من الله تعالى أن ألفتهم ووحدتهم لم تقم على المنافع المادية، فالصحابة رضي الله عنهم الذين

كَوْنُوا نَوَاةَ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى الْمَنَافِعِ الْمَادِيَةِ، وَأَنْ أَمْوَالِ الْأَرْضِ كُلِّهَا لَتَعْجَزَ عَنْ جَمْعِهِمْ وَالتَّالِيفِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ.

ولقد حرصَ النبي ﷺ منذ البداية على تنزيه دعوته عن أي غرض مادي دنيوي، لأنَّ الأغراضَ الدنيوية من أموال ومناصبَ تفرِّق ولا تجمعُ، وتمزِّق ولا توحدُ، ولمَّا بايع الأنصار النبي ﷺ بيعة العقبة التي كانت اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة»^(١).

فلم يعدهم عليه الصَّلَاة والسَّلَام بأيِّ منفعةٍ دنيوية في مقابل دخولهم في الإسلام وجهادهم في سبيله.

فالإيمان بالله تعالى والاعتصام بدينه وشرعه هو الذي يوحد ويؤلف:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته ومشيتته سبحانه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيَّكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرُوا بِنِعْمَةِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالقلوبُ التي يؤلف بينها ربها لا يفرِّقها شيء.

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغْلَبُ، ولا يُخَيَّبُ رجاء مَنْ توكلَ عليه. ﴿حَكِيمٌ﴾.

● القوة بعد الضعف:

لقد جعلتهم هذه الألفة في ظلِّ شريعة الله تعالى أمةً قويةً تتحدى أعتى الأمم وأقواها، وتتغلَّب على أشدِّ الصعاب، وتقتحم أكبر الأخطار، مع ما كانوا عليه من قِلَّة في العدد والعُدَد، حتى قال الله تعالى فيهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ حَسَبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: يكفيك الله، ويكفيك من اتَّبَعَكَ من المؤمنين.

ولاشك أنه سبحانه هو وحده الكافي، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَصْرُوهٖ ۖ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فالفضل لله تعالى وحده، والكفاية من الله تعالى وحده أيضاً، ولكنه سبحانه أراد أن ينوّه بفضل الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار، وأن يبين أنهم أصبحوا بعد أن أَلَّفَ بين قلوبهم أمةً قويةً يُعْتَمَدُ عليها بعد الله تعالى، أمة جديرة أن تحمِلَ أمانةَ الله ورسالته إلى جميع أمم الأرض وشعوبها، وتحمِلَ في سبيل هذا الهدف كل المخاطر والصعاب.

ويمكن أن يكون معنى الآية: الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين بتبثيتهم وتقويتهم، ولهذا أمر الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام أن يشجّعهم على الجهاد ومواجهة الأخطار مهما كانت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِرُوا يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۖ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿١٥﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: شجّعهم وحُثّهم على القتال.

وكان رسول الله ﷺ يحرّضهم على القتال عند صفّهم ومواجهة العدو، كما فعل يوم بدر؛ حيث قال لأصحابه: «قوموا إلى جنةٍ عرضُها السماوات والأرض» قال عُمرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ: يا رسول الله جنةٌ عرضُها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخٍ بخٍ. فقال رسولُ الله ﷺ: «ما يحملُك على قولك: بخٍ بخٍ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءُ أن أكون من أهلها. قال ﷺ: «فإنك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قَرْنِه، فجعل يأكلُ مِنْهُنَّ، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتّى أكلَ تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلةٌ. فرمى بما كان معه من التمرِ، ثم قاتلهم حتى قتل. [رواه مسلم (١٩٠١)].

وقوله: (بخٍ بخٍ): كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير. وقوله:

(قرنه) أي: جعبته.

ثم بَيَّن سبحانه قوة المؤمنين بعد أن أَلَف بين قلوبهم فقال:

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة الحياة الدنيا، وأن وراءها حياة ثانية خالدة، فحرصهم على الحياة الدنيا يحملهم على الفرار من أرض المعركة.

والآية وإن جاءت بصيغة الإخبار إلا أن المراد منها الأمر والتكليف، فكأنه سبحانه يقول: إن يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا مئتين^(١).

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا مكلفين بالثبات في وجه عدوهم ولو كانت قوته تبلغ عشرة أضعاف قوتهم.

ولما كانت شريعة الإسلام شريعة رحمة ويسر، لا حرج فيها ولا مشقة، خفف الله تعالى عنهم بقوله الكريم:

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ في العدد والعدد.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم في المعارك التي خاضوها جميعاً أقلّ عدداً وعدداً من عدوهم، مع ذلك نصرهم الله سبحانه، وأيدهم، ومكّن لهم في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ فالصبر سبب النصر سواء أكانت قوة العدو أضعافاً كثيرة من قوة المسلمين أو كانت ضعفاً واحداً فقط، ولهذا ذكره تعالى قبل التخفيف وبعده.

﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وقدرته، فالنصر من

الله تعالى في جميع الأحوال، كما مرَّ في قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِرِينَ﴾ يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم.

والتخفيف في الحكم لم يمنع الصحابة رضي الله عنهم من الثبات في وجه عدوهم في واقع الأمر، ولو كانت قوّته تزيدُ على عشرة أضعاف قوّتهم، كما في غزوة مؤتة ومعركة اليرموك ومعركة القادسية وغيرها من معارك الفتح المظفّرة.

• التحذير من الانشغال بالأسرى:

ثم حذّرت الآيات الكريمة المؤمنين من الانشغال بأسر جنود العدو في أثناء القتال، فإن ذلك يؤدي إلى صرف جزء من قوة المسلمين لجمع الأسرى وحراستهم في وقتٍ يحتاجون فيه إلى توجيه كل قوتهم لضرب العدو وإضعافه، وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه.

وقد حدث يوم بدر أن الصحابة رضي الله عنهم بادروا إلى أسر المشركين قبل انتهاء القتال، وكان عليه الصّلاة والسّلام في العريش، وسعد بن معاذ رضي الله عنه قائمٌ على بابه في نفر من الأنصار يحرسون الرسول ﷺ، وكره سعدُ الأسر، وظهرت آثار الكراهة على وجهه، فقال له ﷺ: «لَكَأَنَّكَ يَا سَعْدُ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ الْقَوْمُ» قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أولُ وقعةٍ أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإِثْخَانُ في القتلِ بأهلِ الشرك أحبُّ إليَّ من استبقاء الرجال^(١).

واستشار ﷺ بعد ذلك أصحابه في الأسرى فقال: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟».

فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله هم بنو العمِّ والعشيرة، أرى أن نأخذ منهم فديةً، فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ما ترى يا ابنَ الخطاب؟».

قلتُ: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن

تمكّنتا فنضرب أعناقهم، فتمكّن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّنتي من فلان - نسيّاً لعمر - فأضرب عنقه، فإنّ هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلمّا كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبيكان، فقلت: يا رسول الله أخبرني من أيّ شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تابكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَفَ فِي الْأَرْضِ﴾. [رواه مسلم (١٧٦٣)].

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَفَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧).

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: حتى يبالغ في قتل جنود العدو، فيؤدي ذلك إلى ضعف قوة الكفر، ورجحان قوة الإسلام في الأرض. ولهذا لما قوي المسلمون، واشتد سلطانهم، أنزل الله عليهم قوله الكريم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُّوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وهذا مبدأ عسكري هام شرعه الله تعالى، وهو لا يمنع من المبادرة إلى أسر عدد قليل من جنود العدو إذا احتاج المسلمون إليهم ليعرفوا منهم قوة عدوهم، ونقاط الضعف في صفوفه، فللضرورة في الشريعة أحكامها، وتقدر بقدرها.

واستجواب الأسير للاستعلام منه عن أحوال العدو أمر جائز ومشروع، فعلة الصحابة يوم بدر قبل بدء القتال، فعندما نزل الصحابة بدرّاً، ووردت عليهم روايا قريش - أي: الإبل التي يستقون عليها الماء - وفيهم غلام أسود لبني

الحجاج، فأخذوه، فكان أصحابُ رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: ما لي علمُ بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعُتْبة وشيْبة وأمّية بن خلف. فإذا قال ذلك ضربه، فقال: نعم أنا أخبركم، هذا أبو سفيان.. ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلمّا رأى ذلك انصرف - أي: سلّم من صلاته -، قال: «والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم، وتتركوه إذا كذبكم» [رواه مسلم (١٧٧٩)].

وقوله: «لتضربوه... وتتركوه» هكذا وقع في النسخ بغير نون، وهي لغة سبق بيّناها مرّات.

وتابعت الآية مخاطبة الصحابة ﷺ:

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: تريدون حطام الدنيا العارض الزائل بأخذكم الفدية من الأسرى، والله سبحانه يريد لكم ثواب الآخرة. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع لكل حال ما يناسبها ويصلح لها.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكمٌ من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده، أو ألا يعذب أهل بدر. ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لنالكم وأصابكم بسبب ما أخذتم من الفدية عذاب عظيم.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنيمة. ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ لا عتاب فيه ولا عقاب، لأنّه حلالٌ لكم بشرع الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «لم تحلّ الغنائم لأحدٍ سود الرؤوس قبلكم» قال رسول الله ﷺ ذلك تواضعاً، فإنّ إحلال الغنائم لهذه الأمة تكرمة للنبي ﷺ،

فهو من الخصائص التي خصّه جلّ وعلا بها كما مرّ معنا في قوله: «أُعْطِيتَ خمساً...» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وتتضمّن هذه الآيات معاتبةً للصحابه ﷺ، ولهذا وجهت الخطاب إليهم، ولم توجهه إلى النبي ﷺ، لأنه لم يأمر بأخذ الأسرى، وما أراد عليه الصلاة والسلام قط عرض الدنيا.

• فداء ووفاء:

وبأسلوب رفيع يُظهر سموّ الدعوة الإسلامية وأخلاقها الكريمة وإنسانيتها الرفيعة، توجّهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ تأمره أن يدعو الأسرى إلى الإيمان بالله تعالى، والدخول في الإسلام؛ فالدعوة إلى الله تعالى لا ينبغي أن تتوقف في جميع الأحوال كما مر معنا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي: نية طيبة صالحة وعزماً على الإيمان والإسلام.

﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من المال الذي فدوا به أنفسهم.

فبعد أن استشار النبي ﷺ أصحابه في شأن الأسرى كما مرّ، قال لهم: «أنتم عالة، فلا ينفلتّن منهم أحدٌ إلا بفداءٍ أو ضريبةٍ عُني» [رواه أحمد (٣٨٣/١) والترمذي (٣٠٨٤) والحاكم (٢١/٣)].

وأصرّ عليه الصلاة والسلام أن يأخذ الفدية من جميع الأسرى، حتى من عمّه العباس وزوج ابنته السيدة زينب أبي العاص بن الربيع ﷺ جميعاً.

فغن أنس بن مالك ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: ائْذَنْ لَنَا فَلَنَتْرُكَ لَابْنَ أَخْتِنَا عَبَّاسَ فِدَاءَهُ، فَقَالَ: «لَا تَدْعُونَ مِنْهُ دِرْهَمًا» [رواه البخاري (٢٥٣٧)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء زوجها أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة رضي الله عنها، أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقّة شديدة، ثم قال: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَطْلُقُوا لَهَا أُسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا» فقالوا: نعم. وكان ﷺ أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه. إرواه أبو داود (٢٦٩٢).

وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ بالمدينة بعد أن فرّق الإسلام بينها وبين زوجها، وقبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بأموال لرجال من قريش، فلما أقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ، فاستجار بها فأجارته، وصرخت من ضقة النساء: أيها الناس إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع، فلما سلّم رسول الله ﷺ من الصلاة، قال: «أيها الناس هل سمعتم ما سمعت، والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت، إنّه يجير على المسلمين أديانهم».

ثم دخل ﷺ على ابنته فقال: «أي بُنَيَّة، أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له».

وأرسل ﷺ إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، أَصَبْتُمْ لَهُ مَالاً، فَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَرَدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَإِنَّا نَحِبُّ ذَلِكَ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَهُوَ فِيَّ اللَّهُ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ».

فردوه عليه، فاحتمله إلى مكة فأداه إلى أصحابه، ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله. ثم خرج إلى المدينة مهاجراً، فردّ عليه رسول الله ﷺ زينب على النكاح الأول^(١).

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٢١٩ باختصار.

﴿وَيَقِفَرُ لَكُمْ﴾ ما سلف من أعمالكم ومعاصيكم، فالإسلام يُجِبُّ ما قبله، كما مر معنا .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

وبعد أن أطمعتهم الآيات بالإيمان ورغبتهم بالإسلام، حذرتهم من الخداع والخيانة بقوله تعالى :

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : من قبل بدر بالكفر والصدِّ عن سبيل الله .

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ بأسرهم يوم بدر .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

● التحذير من موالاة الكافرين:

وجاءت الآيات الأخيرة في سورة الأنفال تحذّر المسلمين من موالاة الكافرين، وتبيّن ما يترتب على ذلك من شرٍّ مستطير، وفسادٍ كبير .

ولمّا كانت الهجرة إلى المدينة المنورة قبل فتح مكة المكرمة واجبةً على المسلمين، قسّمت الآيات الكريمة المسلمين إلى ثلاثة أقسام: المهاجرين، والأنصار، والمسلمين الذين لم يهاجروا، وبينت على ضوء ذلك حكم الموالاة والنصرة بينهم بقوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المهاجرون .

﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ وهم الأنصار، آووا إخوانهم المهاجرين، ونصروا الله ورسوله ﷺ فجاهدوا بأنفسهم وأموالهم.

﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ بينهم موالاةٌ كاملةٌ ونصرةٌ تامةٌ وتكافلٌ وتضامنٌ، حتى كانوا في أول الأمر يتوارثون فيما بينهم دون أقاربهم وذوي أرحامهم، بسبب الأخوة التي عقدها النبي ﷺ بينهم بعد الهجرة، فقد آخى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قائلاً: «تآخَوْا فِي اللَّهِ أَخُوَيْنِ أَخُوَيْنِ»^(١).

ثم بينت الآيات حكم موالاة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنورة بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكِيلٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا﴾ وهذا لا يعني ترك نصرتهم ومساعدتهم، بل يجب على المسلمين أن يقوموا بنصرتهم ومساعدتهم عندما يطلبون ذلك.

﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: إن طلبوا نصرتكم ومساعدتكم في أمر من أمور الدين فيجب عليكم أن تنصروهم.

﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: إلا إذا استنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم عهد وميثاق، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا عهدكم، فالإسلام دين الوفاء، والالتزام بالوفاء بالعهد يقدّم على الالتزام بنصرة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنورة.

هذا إذا كان هؤلاء المسلمون يستطيعون الهجرة، أما إذا كانوا لا يستطيعون الهجرة بسبب ضعفهم وعدم تمكّنهم منها، فالواجب نصرتهم واستنقاذهم في جميع الأحوال.

قال القرطبي رحمه الله: «إلا أن يكونوا مستضعفين، فإنّ الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة، حتى لا تبقى منا عين تطرف، حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى

لأحد درهم، كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما حلّ بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو، وبأيديهم خزائن الأموال وفضول الأحوال، والقدرة والعدد، والقوة والجلد»^(١).

وقد بين الله تعالى وجوب نصرة المستضعفين من المسلمين في قوله الكريم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]. ثم ختم الله الآية بما يفيد تهديد ووعد المتقاعسين عن نصرة إخوانهم فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

● فتنة وفساد:

ثم ذكر سبحانه المؤمنين بما يوجد بين الكفار من تعاضد وتناصر وخاصة عندما يواجهون المسلمين فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٣).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: ينصر بعضهم بعضاً عليكم، رغم تعدد نحلهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة، فالكفر ملّة واحدة باطلة في مواجهة الإيمان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وما أكثر الشواهد الدالة على ذلك في الماضي والحاضر.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إذا لم تقيموا هذه الموالاة والمناصرة فيما بينكم. ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تحدث فتنة في الأرض بسبب رجحان كفة الكفر بتعاونهم وتناصرهم، وبسبب تحاذلكم وتفرقكم، مما يؤدي إلى أن يُفتن كثير من المسلمين عن دينهم.

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ويقع في الأرض فساد كبير بسبب ابتعاد الناس عن

(١) تفسير القرطبي: ٥٧/٨.

دين الله وشريعته، فاعرفوا أيها المسلمون حقيقة رسالتكم، وجوهر مهمتكم التي كُلِّفتم بها، وسيسألكم الله عنها، إنَّ صلاح العالم في جنبات الأرض منوطٌ بكم، ومتوقفٌ على تعاونكم وتعاضدكم في حمل رسالة دينكم وشريعة ربكم وسُنَّة نبيكم ﷺ.

• فضيلة السابقين:

ثم توجَّع الله تعالى خاتمة السورة بهذا الثناء الطيب العطر على الصفوة الكريمة من المهاجرين والأنصار، الذين سبقوا إلى الإيمان والجهاد، وكوَّنوا نواة الأمة المسلمة:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

إنها شهادة ربانية رفيعة تظهر فضل السابقين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِنِ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وإنَّ المتأمل للآيات الأولى في سورة الأنفال وللآيات الأخيرة فيها يقف على مدى الانسجام والاتساق بين هذه الآيات:

ففي أول السورة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

وفي ختام السورة بعد أن أثنى الله تعالى على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ويلاحظ أنه في أول السورة قال في معرض الحث على الاتصاف بصفات المؤمنين: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤]؛ وذلك لأن الآيات جاءت تحثُّ

على الاتصاف بصفات المؤمنين، وتشجع على الازدياد من هذه الأعمال الصالحة، وكلما ازداد الإنسان عملاً بها رفع الله منزلته ودرجته في الجنة.

وأما في خاتمة السورة فلم تذكر الدرجات، لأن الآيات جاءت في سياق الثناء على السابقين من المهاجرين والأنصار، فكانهم ﷺ بلغوا الغاية في علو الدرجات، وتسّموا أرفع المنازل، فلا حاجة إلى أن يقول فيهم: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ [الأنفال: ٤].

وبعد أن أثنى سبحانه على السابقين الأولين بهذا الثناء الكريم، ألحق بهم في الولاية والنصرة مَنْ سار على طريقهم بعدهم، فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، وإن تأخرت رتبهم عنكم، فالإيمان والجهاد والهجرة هي العناصر الأساسية الجوهرية في الولاية والنصرة.

والهجرة المخصوصة التي كلف الله بها المؤمنين قبل الفتح توقفت وانتهى حكمها بفتح مكة، لكن الهجرة من بلاد الكفر والشرك حيث لا يستطيع الإنسان المسلم أن يعبد الله تعالى العبادة الصحيحة إلى بلاد المسلمين، لا زال حكمها قائماً، فعلى المسلم الذي يقيم بين الكفار أن يهاجر إلى بلدٍ مسلمٍ إن كان يستطيع ذلك.

قال عليه الصلاة والسلام: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين» قالوا: يا رسول الله لِمَ؟ قال: «لاتراءى ناراهما» [رواه أبو داود (٢٦٤٥)].

والمعنى: يلزم المسلم ويجب عليه إن استطاع أن يباعد منزله عن منزل المشرك بحيث إذا أُوقدت في أحد المنزلين نارٌ لا يراها أهل المنزل الآخر.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ أَنْفُسُهُمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ٩٩﴾ [النساء].

ويستثنى من ذلك أيضاً من يذهب إليهم ويقيّم بينهم ليلبّغهم دعوة الله تعالى وينشر الإسلام بينهم.

وتزداد الولاية والنصرة بين المسلمين إذا انضمّ إلى رحم الإيمان رحم القرابة والنسب، فقد اهتّم الإسلام بتقوية أواصر الصلة بين الأقارب والأرحام من المسلمين، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ۖ فِي التَّوَارِثِ إِذَا كَانُوا مُسْلِمِينَ ٢٠٣﴾
﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ ۖ﴾ أي: كما هو مبين في آيات الموارث التي أنزلها الله في كتابه الكريم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ ٢٠٤﴾
أسأل الله تعالى أن يعيد للمسلمين ألفتهم وتناصرهم وتعاونهم، وأن يردّهم إلى دينهم ردّاً جميلاً.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



تفسير سورة التوبة البلاغ الأخير في سورة التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فإن القرآن الكريم أصدق سجلٌ للحوادث التاريخية الكبيرة التي حدثت في أثناء نزوله على النبي ﷺ.

وإنَّ المسلمَ في أشدَّ الحاجة إلى الوقوف على دروس هذه الحوادث وعبرها وخاصة ما يتصل منها بالدعوة والجهاد، لكي يتبين له الأسلوب الأمثل الذي يجب عليه أن يسلكه في هذين المجالين في العصر الحاضر؛ العصر الذي أصبحت الدعوة أول وأهم واجبات المجتمعات الإسلامية؛ نظراً لشدة التقارب، وسهولة الاتصالات بينها وبين المجتمعات البشرية.

لقد نزلت سورة التوبة على الرسول ﷺ في آخر مراحل حياته، في وقت كان المجتمع الإسلامي يستعدُّ للخروج برسالة الإسلام إلى شعوب العالم المختلفة في أطراف الأرض، فجاءت آياتُ السورة منسجمةً مع حاجات المجتمع في هذه المرحلة، وهي تُعده للمهمة الكبيرة التي تنتظره.

وما أحوَجَ المسلمين إلى الوقوف على ما في هذه السورة من عبر ودروس

وهم يواجهون شعوب الأرض، بسبب كثرة وسائل الاتصال، التي قرّبت بين المجتمعات البشرية، وجعلتها تقريباً مفتوحة على بعضها، حتى أصبحت الدعوة إلى الله أكبر التحديات، وأعظم المهمات الملقة على كاهل المسلمين في العصر الحاضر.

هذا وإنّ تفسير سورة التوبة يتناول الحديث عن موضوعها الأساس، وقد جاء هذا الموضوع في أربعة فصول:

- الفصل الأول: البراءة من الكفار والمشركين: وبيان معناها ومداها.
- الفصل الثاني: أهل الكتاب: عقائدهم، وفضائح أحبارهم ورهبانهم.
- الفصل الثالث: المنافقون: وكيفية تطهير المجتمع من مكرهم وكيدهم.
- الفصل الرابع: مع المؤمنين بعد تبوك: إرشادات وتحذيرات في مجالي الدعوة والجهاد على ضوء ما تقدم.

فإن أصبَتْ فمن الله تعالى وتوفيقه، وإن أخطأتُ فمن ضعفي وتقصيري وأستغفر الله العظيم.



تمهيد

موضوع السورة

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمّا بعد: فإنّ سورة التوبة سجلّ صادق للأحداث الكبيرة التي شهدتها الدعوة الإسلامية في الستين الثامنة والتاسعة من هجرة النبي ﷺ؛ وهي: فتح مكة المكرمة، غزوة حنين، غزوة تبوك، إعلان البراءة من المشركين، ونبذ عهودهم في موسم حج العام التاسع.

ولم تأتِ الآيات في السورة مرتبة مع زمان هذه الحوادث، وإنما أتت مرتبة ومنسجمة مع موضوع وأسلوب السورة التي دارت آياتها في فلكه، وهو:

الكلمة الأخيرة القطعية النهائية بأسلوب البلاغ الأخير الموجّه إلى المشركين والكافرين عموماً بإعلان البراءة منهم.

ثم إلى أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام أو الاستسلام لأحكام الإسلام، وبيان فساد وضلال عقائدهم وفضائح أخبارهم ورهبانهم.

ثم إلى المنافقين بجميع شرائحهم، وكشفهم وفضحهم، وتبعهم في الحواضر والبادي لكي يتطهّر المجتمع من شرهم، ويسلم من مكرهم.

ولقد طال نفسُ السورة مع المنافقين بسبب خطورتهم على بُنية المجتمع وسلامته من الداخل وتماسكه ووحدته، ولقد كان المجتمع الإسلاميّ يتهيأ في ذلك الوقت للخروج برسالة الإسلام إلى شعوب الأرض في جميع أقطارها، فلا بدّ أن يكون مجتمعاً قوياً متماسكاً معافى من بُور النفاق، حتى يستطيع النهوض بالمهمة الثقيلة الكبيرة الملقاة على عاتقه.

ثم تحدّثت الآيات إلى المسلمين، وكان حديثُها معهم مزيجاً من الإرشادات والتوجيهات مع بعض التحذيرات، رسمت الآيات من خلال حديثها هذا كيفية تعامل المسلمين مع الناس، ونشر دعوة الله تعالى بينهم.

وبقيت السورة من خلال البلاغ الأخير حريصةً على إبقاء باب التوبة مفتوحاً لجميع الناس على أوسع مدًى له، فطبيعة الإسلام تأبى أن تجعل أحداً من الناس يئس من رحمة الله تعالى، ومع أنّ البسملة وما فيها من معاني الرحمة والإحسان لم تأت في أول السورة، فقد حُتمت السورة بذكر رحمة الله العظمى ومَنته الكبرى ببعثة النبي ﷺ، أكرم بها من رحمة، وأعظم بها من نعمة ومِنَّة!.

فكانت السورة بحق سورة البراءة والتوبة معاً، في وقتٍ واحدٍ، وكانت أيضاً سورة البلاغ الأخير.

ولا بدّ أن يلاحظ القارئ عدّة نقاطٍ هامةٍ:

أولها: أنّ آيات السورة أتت منسجمة ومتسقة اتساقاً كاملاً فيما بينها، وحول موضوعها الأساس.

ثانيها: اتفاق آيات السورة مع الأحداث الكبيرة والوقائع الضخمة التي حدثت في السنتين الثامنة والتاسعة من الهجرة.

ثالثها: انسجام معاني آيات السورة مع كثير من المبادئ القتالية التي دُكرت في سورة الأنفال قبلها، إذ جاء كثير من آيات سورة التوبة كتطبيق عملي لآيات سورة الأنفال، فلا عجب أن نستشهد كثيراً بآيات سورة الأنفال في أثناء الحديث عن معاني الآيات في سورة التوبة.



الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

بِرَاءَةٌ وَجِهَادٌ

﴿بِرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ① فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخَذِّرُ الْكَافِرِينَ ② وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ
الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ③ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ
الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ④ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَةً
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ⑥ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا
الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ
⑦ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ⑧ أَشْرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمًّا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑨ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ⑩ فَإِنْ تَابُوا
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَلَا حَوْلَ لَكُمْ فِي الَّذِينَ ۖ وَفُصِّلَ الْأَيْتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑪ وَإِنْ
تَكُونُوا آيَمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنَا فِي دِينِكُمْ فَتَقْلَبُوا آيَمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ⑫ أَلَا تَقْدِرُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ كَانُوا فِيهَا يَتَسَوَّوْنَ ⑬ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ⑭ قَتَلُوهُمْ
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِصُرُوكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَصِفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ⑮ وَيَذْهَبُ

عَظُّ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تَتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَوَضْوَنِ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَتَّخِذُوا عِبَادَةً إِلَّا عِبَادَةَ اللَّهِ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُحَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ رَضُوا بِهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْتُكُمْ فَلَمْ تُقِنْ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾

● البراءة:

بُدِثَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ بِإِعْلَانِ بَرَاءَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا بُدِثَتْ بِالسَّمَلَةِ كَسَائِرِ السُّورِ الْقُرْآنِيَةِ الْآخَرَى، وَالسَّبَبُ أَنَّهُ سَبَحَانَهُ مَا أَنْزَلَ الْبِسْمَلَةَ فِي أَوَّلِهَا.

قال القرطبي رحمه الله: «والصحيح أَنَّ التسمية لم تكتب لأنَّ جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة»^(١).

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١)

أي: هذه براءة من الله ورسوله واصله إلى الذين عاهدتم من المشركين. وأصل معنى البراءة في اللغة: انقطاع العصمة، يقال: برئت من فلان أبرأ براءةً، أي: انقطعت بيننا العصمة، ولم يبقَ بيننا علة^(٢).

والعصمة: الرباط والعلاقة، ولهذا يقال عن رباط الزوجية: عصمة النكاح، والبراءة بهذا المعنى ضد الولاية، التي هي تواصل وتناصر وتعاون. وتأتي البراءة أيضاً في اللغة بمعنى الإعذار والإنذار^(٣)، ولعلَّ هذا المعنى هو المراد في الآية، فهي إنذار وإعذار من الله ﷻ ورسوله ﷺ بانقطاع أي عصمة وصلة مع المشركين.

وشأن هذه البراءة خطير وكبير، فهي من الله ﷻ، ومن رسوله ﷺ، ومن نتائجها أن يرتفع الأمان عن المشركين، ولعلَّ ذلك سرُّ عدم افتتاح السورة بالبسملة، لأنها أمان، وبراءة نزلت بآية السيف، ليس فيها أمان^(٤).

ونسبت الآية البراءة إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، لبيان وقوعها وتحتملها من غير توقُّفٍ على رأي أحد، فهي منوطة بالله سبحانه وبمشيئته وحكمته جلَّ وعلا، فضلاً عن تفخيم أمرها وتهويل شأنها، وجاء التعبير عنها بالجملة الاسمية للدلالة على دوامها واستمرارها^(٥).

(١) تفسير القرطبي: ٦٣/٨.

(٢) تفسير الخازن: ٧٨/٣.

(٣) انظر: المعجم الوسيط: ٤٦/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٦٢/٨.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود: ٤٠/٤.

ونسبت الآية العهد إلى المسلمين ﴿عَهْدُكُمْ﴾ لأنهم هم الذين باشروا عقده مع المشركين.

• السياحة:

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: سيروا فيها حيث شئتم مدة أربعة أشهر، والخطاب للمشركين، والمراد من الأمر الإباحة والإعلام بحصول الأمان مدة أربعة أشهر.

والسياحة: التنقل في الأرض، والتوسع فيها حيث يشاء الإنسان.

ففي كلمة ﴿فَسِيحُوا﴾ من التوسعة والترفيه ما ليس في كلمة (سيروا)^(١)، وهذا يدل على قوة المسلمين وعزتهم، وتمكن الإسلام في أرض العرب عند نزول هذه الآيات، فقد أصبح المشرك مطلوباً بعد أن كان طالباً، وصار ذليلاً بعد أن كان قوياً منيعاً.

ويدل أيضاً على سمو الشريعة الإسلامية ورفعتها، فهي شريعة نبيلة سامية، لا تغدر ولا تخون، ولا تأخذ الناس على غرة وغفلة، بل تمنحهم الفرصة ليتأملوا في واقع الأمور، ويفكروا قبل أن يختاروا، فكأن ما في الآيات هنا تطبيق عملي للمبدأ الأخلاقي الكريم الذي شرعه سبحانه في قوله: ﴿وَلَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

قال المفسرون: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، أخذ المنافقون ينشرون الإشاعات والأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فلما رجع عليه الصلاة والسلام من تبوك أنزل الله عليه هذه الآيات.

(١) روح المعاني: ٤٣/١٠.

ومهما قيل في سبب نزولها، فهي تدلُّ على مدى القوة والعزَّة والتمكين في الأرض التي كانت للإسلام والمسلمين في هذه المرحلة.

• الشهور الأربعة:

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، فقيل: هي شَوَّال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأنَّ الآية نزلت في شَوَّال من السنة التاسعة.

وقيل: إنَّها وإن نزلت فيه، إلا أنَّ قراءتها على الكفار، وتبليغها إليهم، كان يوم الحجِّ الأكبر، فابتداء المدة من عاشر ذي الحجة، إلى انقضاء عشرين من شهر ربيع الآخر^(١). وهو الأظهر، لأنَّ الأجل لا يلزم إلا من يوم يُسمَعُ.

وقد ثبت أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أرسل أبا بكر الصديق ﷺ أميراً على الحج في العام التاسع، وأرسل معه صدر (براءة) ليقرأها على الناس، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب ﷺ؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: بعث النَّبِيُّ ﷺ (براءة) مع أبي بكر، ثم دعا علياً فأعطاه إياه وقال: «لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي» [رواه أحمد (٢٨/٣) والترمذي (٣٠٩٠) وحسنه].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: بعثني أبو بكر ﷺ في تلك الحجة في المؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، أن لا يحجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. [رواه البخاري (٤١٥٥ و ٣٤٧٧) ومسلم (٦٦)].

ثم قال تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ وهو تهديد ووعيد للمشركين، فهم في قبضة قدرته سبحانه، وتحت قهر مشيئته في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩].

فإمها لكم أربعة أشهرٍ ليس لعجزٍ عنكم، ولكن لمصلحةٍ لكم، ولطفٍ بكم.

(١) انظر: روح المعاني: ٤٣/١٠.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ والخزي: الذلة مع الفضيحة والعار، فهو حكم من الله تعالى بخزي الكافرين، إما في الدنيا بالأسر والقتل، وإما في الآخرة بالعذاب في جهنم، وقد يجمع الله تعالى لهم الذلة والفضيحة والعار في الدنيا والآخرة.

• الأذان يوم الحج الأكبر:

ثم أمر سبحانه بإذاعة البراءة وإعلام الناس بها في أعظم المحافل وأكبرها، فقال:

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُنْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾.

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ أي: وإعلام صادر من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام إلى جميع الناس في يوم الحج الأكبر، وهو يوم عرفة التاسع من ذي الحجة، أو يوم النحر العاشر من ذي الحجة، وهو الأظهر لأن أكثر مناسك الحج تؤدى فيه، ويؤيده ما مر معنا في حديث أبي هريرة السابق.

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: «يوم النحر» [رواه الترمذي (٩٥٧)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، فقال: «أي يوم هذا؟» قالوا: يوم النحر. فقال: «هذا يوم الحج الأكبر» [رواه أبو داود (١٩٤٥)].

ورأى بعضهم أنه اليوم الذي حج فيه رسول الله ﷺ حجة الوداع، فهو مخصوص بتلك السنة.

وأما تسمية الحج الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة، فلم يذكرها، وإن

كان زيادة ذلك الحج زيادة على غيره^(١)؛ أي: في الثواب لاجتماع فضل يوم عرفة مع فضل يوم الجمعة.

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ورسوله ﷺ أيضاً بريء منهم، وكررت البراءة لأهميتها وخطورتها، أو لكون الآية الأولى أخبرت بثبوتها، بينما الآية الثانية أعلمت الناس بها.

ولا شك أن في إعلان البراءة تهديداً شديداً وترهيباً كبيراً، فناسب أن يكون معها ترغيبٌ لهم بالتوبة عن الكفر والشرك، والدخول في الإسلام، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ بُنْتُمْ عَنْ الْكَفْرِ وَالْغَدْرِ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، فالإسلام جاء للناس عموماً بسعادة الدنيا والآخرة، وجاء للعرب خصوصاً بالعز والشرف والسؤدد والمجد.

﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة، وأصررتم على الكفر.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُّعْجِزٌ لِلَّهِ﴾ لأنكم في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته،

كما مر معنا.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبرهم بعذاب أليم ينتظرهم في

الآخرة، وجاء الإخبار بلفظ التبشير على سبيل التهكم والاستهزاء بهم.

ولما كانت البراءة تقتضي نبذ ونقض جميع عهود المشركين، استثنى

سبحانه عهود الذين لم يعزموا على الخيانة والغدر ونقض العهد، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من عهودهم.

﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم يعاونوا عليكم أحداً من عدوكم.
 ﴿فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: إلى تمام مدة العهد، ولو كانت بعد
 انقضاء الأشهر الأربعة، فالإسلام دينُ الوفاء والعدل، ولا يعامل أهل الوفاء
 كما يعامل أهل الغدر والخيانة.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فَإِنَّ الوفاء بالعهد وإتمامه من التقوى.

• آية السيف:

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا
 لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَّحِيمٌ﴾

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ أي: إذا انقضت ومضت أشهر الإمهال التي سبق
 ذكرها، والتي حرّم الله تعالى فيها قتال المشركين.
 ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهد.
 ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في أي مكان.
 ﴿وَاخْذُوهُمْ﴾ بالأسر.
 ﴿وَأَحْضُرُوهُمْ﴾ بالتضييق عليهم، ومنعهم من التردد والتثقل بين البلاد بحرية.
 ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: على كل طريق يمكنهم أن يسلكوه،
 والمراد مراقبتهم ورصد تحركاتهم.
 ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر، ودخلوا في الإسلام.
 ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم.
 ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: كفوا عن التعرّض لهم، ودعوهم وشأنهم.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما سلف من كفرهم وفجورهم، ويشبّهم
 على إيمانهم وعبادتهم.

وتسمى هذه الآية آية السيف عند بعض المفسرين، وهي في رأيهم قد

نَسَخَتْ^(١) الآيات التي تحثُّ على الصبر واحتمال أذى الكفار والعفو والصفح عنهم، وتحثُّ أيضاً على مسالمتهم ومهادنتهم.

ولا أرى معارضةً بين هذه الآية وبين الآيات التي تأمر بالصبر والعفو والمسالمة، فكل آية تعالج حالةً مخصوصةً، وتبيِّن الحكم الذي ينبغي اتباعه فيها، فلا معارضة ولا نسخ.

والآيةُ هذه في المشركين الناكثين للعهود والمواثيق، كما يدلُّ عليه سابقها وسياقها، تبيِّن كيف يكون التعامل معهم، وأنه لا يُقبل منهم بعد نقضهم للعهد إلا الإسلام والاستسلام الكامل لأحكامه.

وجعلها بعضُ العلماء في العرب الوثنيين خاصة، فالعربي الوثني كالمرتد لا يُقبل منهما إلا الإسلام، وإن لم يُسلما قُتِلَا بالسيف، لأنَّ المعجزة في حق العربي أظهر، فالقرآن نزل بلغة العرب، فكان كفرهم - والحالة هذه - أغلظ من كفر العجم^(٢).

ويجري مجرى الآية الكريمة الحديث الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢١)].

• تبليغ الدعوة:

وهذه الحملةُ الكبيرةُ للآيات الأولى في سورة التوبة على المشركين، والمتمثلة بإعلان البراءة منهم، ونبذ عهودهم، والتضييق عليهم، وحصارهم ورصد تحركاتهم، لا تعني اليأس من هدايتهم، والتوقف عن دعوتهم وتبليغهم،

(١) قلت: النسخ عند السلف أعم من معناه عند الأصوليين، فهو يشمل أيضاً تخصيص العام، وتقييد المطلق، فحمل عبارتهم على ما تواضع عليه الأصوليون يفسد المعنى (ن).

(٢) انظر: رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين): ٢٦٨/٣.

فالإسلام حريصٌ على هداية الناس مهما كانوا إلْباً عليه وعدوًّا له، وتبليغُ الدعوة هو السبيل للهداية، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمر الله تعالى بقتالهم بعد انقضاء الأشهر الأربعة.

﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب الدخول في جوارك، وأن تعامله معاملة الجار.

﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمنه.

﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: لكي يسمع كلام الله تعالى سماع فهم وتدبر، ويطلع على حقيقة الإسلام ودعوته، أو إلى أن يسمع كلام الله.

﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ثم بعد ذلك إذا لم يُسلم أبلغه إلى الموضع الذي يأمن فيه، وهو دار قومه، أو أي بلد يأمن فيه على نفسه.

وهذا يدلُّنا على شدة حرص الإسلام على الهداية وتبليغ الدعوة، كما يدلُّ على الأخلاق الإسلامية الكريمة.

قال سيد قطب رحمته الله: «ولقد كانت قمةً عاليةً تلك الإجارة والأمان لهم في دار الإسلام، ولكن قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراعى قمةً وراء قمةٍ، وهذه منها، هذه الحراسة للمشرك، عدو الإسلام والمسلمين، ممن آذى المسلمين وفتنهم وعاداهم هذه السنين، هذه الحراسة له حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام»^(١).

وقال ابن كثير رحمته الله: «ولهذا كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً، كما جاءه يوم الحديبية جماعةٌ من الرسل من قريش، فرأوا من إعظام

(١) في ظلال القرآن: ١٦٠٢/٣.

المسلمين لرسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم^(١).

والخطاب في الآية، وإن كان موجَّهاً للنبي ﷺ، فحكمها عام ينسحب على جميع المسلمين حكماً كانوا أو محكومين، لقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم» [رواه أبو داود (٢٧٥١) والنسائي (٢٠/٨) وابن ماجه (٢٦٨٣)].

إلا أن لولي أمر المسلمين أن ينقض أمان أي فردٍ من المسلمين، إذا كان فيه ضرر بهم، ويُعلم المستأمنين بنقضه^(٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: شرع الله ذلك الحكم لأن المشركين لا يعلمون حقيقة الإسلام، فتعريف الناس بحقيقة الإسلام أمر ضروري، يجب على المسلمين القيام به، وخاصة في عصرنا الحاضر، إذ أصبحت نفوس كثير من الناس مستعدة لقبول الإسلام بعد أن فشلت العقائد والنظم في إسعادهم وحل مشكلاتهم.

وبعد تقرير هذه الأحكام القطعية النهائية، بين سبحانه ضرورتها والحكمة منها بقوله:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا كُفُّوا أَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهد، لأن البراءة إنما هي في شأنهم^(٣).

﴿عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ أي: أمانٌ عند الله تعالى، وهم كافرون به

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٢٧/٢.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ٢٢٨/٣.

(٣) تفسير أبي السعود: ٤٤/٤.

سبحانه، وعند رسوله عليه الصلاة والسلام، وهم معرضون عن دعوته، معاندون لرسالته، فلا عهد للمشركين عند الله تعالى، ولا عند رسوله عليه الصلاة والسلام بسبب كفرهم وغدرهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في الحديبية، عند أول أرض الحرم سنة ست من الهجرة، وفيها عقد النبي ﷺ مع مشركي قريش صلح الحديبية، ودخل مع قريش قبائل من بني بكر، وهم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الدئل.

ولمَّا نقضت قريشُ العهدَ مع بني الدئل من بني بكر، أمر الله تعالى بإتمام العهد لمن لم ينقض^(١) فقال:

﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ﴾ في الوفاء بعهدهم.

﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهد فلا يخونون، ولا يغدرون.

وسبق مثله في قوله تعالى: ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

[التوبة: ٤].

• مصالح ومبادئ:

وتابعت الآيات تحذير المسلمين من مكر الكافرين وغدرهم، وهي تكشف لهم خبيثة نفوسهم، وما انطوت عليه صدورهم من حقدٍ ولؤمٍ بقوله تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ يَافُوهُمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿كَيْفَ﴾ تتقون بهم وتركون إليهم؟

﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ وحالهم أنهم إن ظفروا بكم وتمكنوا منكم.

﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً، ولا حقاً ولا ميثاقاً، فلا يلتزمون بمبدأ ولا بخلق ولا قيمة، مبدؤهم الوحيد مصالحهم وشهواتهم وأهواؤهم.

وكانَّ هذه الآيات الكريمة نزلت في هذا العصر، لشدة انطباقها على كثير من الناس، وخاصة على دهاقنة السياسة، المتاجرين بمصالح الأمم والشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها.

﴿يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يرضونكم بكلامهم المعسول المزوق الذي يتفوهون به، من خلال وسائل إعلامهم المقروءة والمرئية.

﴿وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ﴾ الإقرار بما ينطقون بألسنتهم، فقلوبهم تخالف ألسنتهم، وسرائرهم تغاير علانيتهم.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ خارجون على جميع المبادئ والقيم والأخلاق، فلا عقيدة تزعهم، ولا مروءة تردعهم.

وتخصيص الأكثر بوصف الفسق، بسبب ما يوجد عند بعضهم من تمسك جزئي بالقيم، ومراعاة لبعض الأخلاق، فكلمات القرآن الكريم في غاية الموضوعية والصدق.

ثم كشف سبحانه الباعث الذي يجعلهم يخرجون على المبادئ والقيم والأخلاق فقال:

﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٩.

﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: استبدلوا بالمبادئ القرآنية الكريمة، عوضاً دينوياً قليلاً.

ومهما كان هذا العوض فهو في حقيقته عرض دينوي زائل حقير قليل، وهو ما يسمَّى بلغة العصر الحاضر المصالح المادية، فإذا ما تعارضت مصالحهم المادية مع أي قيمة خلقية، ضربوا بها عرض الحائط، وجعلوها حبيسة الأوراق

التي كتبوها عليها، وضُحُوا بكلِّ قِيَمِهِم الأخلاقية ومثلهم الإنسانية من أجل مصلحة من مصالحهم، وشهوة من شهواتهم.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وأعرضوا عن دينه سبحانه وشرعه ومنهجه، لأنه يتعارض مع مصالحهم وشهواتهم.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسَّ ما كانوا يعملون من أعمال، لا تصدر إلا عن أهوائهم وشهواتهم.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (١٠).

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ على وجه الخصوص، لشدة حقدهم على المؤمنين وبُغضهم لهم، فهم لا يراعون حقوق أحد على الإطلاق من أجل مصالحهم. وكرَّره سبحانه إظهاراً لشدة حقدهم على المؤمنين، وما أكثر الشواهد على ذلك!

إنَّ في المذابح الكبيرة، والنكبات الكثيرة، التي حدثت في المجتمعات الإسلامية، على مدى تاريخهم الطويل، من عهد التتار والمغول والصليبيين إلى عهود الاستعمار الحديث، وما يحدث كلَّ يوم من عمليات الإبادة الجماعية والتصفيات الجسدية في فلسطين والبوسنة وأفغانستان والعراق وغيرها، إنَّ في كلِّ ذلك ما يبيِّن عمق الدلالة في قوله تعالى:

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قرابة ولا عهداً، ولا حقاً ولا ميثاقاً.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المتجاوزون لحدود كل القيم والمبادئ والأخلاق.

• الباب المفتوح:

ومع ذلك فبابُ التوبة مفتوحٌ لهم، فلا ينبغي التوقُّف عن دعوتهم، واليأس من هدايتهم وإيمانهم، فلعلَّ رحمةَ الله تعالى تدرِكُهم:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر والفجور واتباع الأهواء والشهوات.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ كدليل على صدقهم وإخلاصهم وصحة إيمانهم.

﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم من الحقوق، وعليهم ما عليكم من الواجبات، فالإسلام يجب ما قبله.

وكلمة الإيمان تزيل أمثال الجبال من الأحقاد والأضغان، ولحظة صدق وخشوع لله تعالى، يمحو بها سبحانه شقاء عُمر كامل.

فما أعظم الإسلام! وما أكرم مبادئه! المبادئ التي تتعالى على كل الضغائن والأحقاد، وتزيل من النفوس كل رواسب الماضي، وتأسو جراح القلوب والنفوس مهما كانت عميقة.

﴿وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الإسلام، وما فيه من مبادئ سامية، وأخلاق نبيلة كريمة.

إنَّ البشرية في أمس الحاجة إلى معرفة حقيقة الإسلام وسماحته ونبله، لكي يزول عن قلوب الناس ما فيها من أحقاد وضغائن لا تزال تستعر في صدورهم، وتنطفئ في نفوسهم نيران البغض والحسد والبغي على بعضهم، التي فجَّرتها فيهم الحضارة المادية الطاغية، تلك الحضارة التي قامت على مراعاة المصالح الذاتية، دون نظر إلى أي قيمة خلقية ومبدأ سماوي.

• أئمة الكفر والضلال:

وإذا ما ارتدَّ القوم بعد إيمانهم، وعادوا إلى حماة الضلالة، وغلبت عليهم نفوسهم وشهواتهم وأهواؤهم، فنقضوا عهد الإيمان وميثاق الإسلام، فقد شرع الله تعالى قتالهم وجهادهم حتى يُسلموا أو يستسلموا:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ آمِنْتُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنْتُمْ فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا آيَمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا آيَمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ آمِنْتُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضوا عهودهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم عندما دخلوا في الإسلام، فالدخول في الإسلام عهد وميثاق مع الله تعالى على توحيده وطاعته والالتزام لأحكام دينه وشرعه .

﴿وَطَعَنْتُمْ فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه وانتقدوه، وفضّلوا عليه نظاماً ابتدعوه، وقانوناً استحدثوه، يلائم أهواءهم وشهواتهم .

فأيُّ انتقاصٍ لأحكام الإسلام وانتقادها يُعدُّ كفراً وردّةً عن الإسلام، وكذلك إذا صدر عن أهل الذمة الذين يعيشون في بلاد المسلمين أي طعن في الإسلام، وانتقاصٍ لحكم من أحكامه، يعدّون ناقضين لعهد الذمة، فلا عهد لهم بعد ذلك ولا ذمة، ولا أمان لهم ولا سلام .

﴿فَقَبِلُوا آيَمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: قاتلوا رؤوس الكفر والشر والضلال، ولا شك أن قتالهم قتال لأتباعهم وأنصارهم .

﴿إِنَّهُمْ لَا آيَمَنَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهد لهم ولا ميثاق، عهدهم وميثاقهم شهواتهم ومصالحهم .

﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ عمّا هم فيه من الكفر والفساد والضلال .

وفي تخصيص أئمة الكفر بالقتال، إشارةً إلى حقيقة هامة، دلّ عليها قوله تعالى: ﴿وَطَعَنْتُمْ فِي دِينِكُمْ﴾ فالطعن في الدين عادة لا يصدر عن عامة الناس، إنه لا يصدر إلا عن العريقين بالكفر والضلال، الذين يدّعون لأنفسهم صفة الحاكمية، وهي استحداث القوانين وإصدار التشريعات، أو يدّعون لأنفسهم صفة النبوة زوراً وكذباً، فيغيّرون أحكام دين الله تعالى، ويعبثون بشريعته، ويدعون الناس إلى تصديقهم واتباعهم .

ولقد كان للمرتدين عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ رؤوس في الضلالة

والكفر، دعوهم إلى الردة وحَسَّنوها لهم؛ مثل: الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وطلحة الأسدي، وسجاح بنت الحارث التميمية^(١) وغيرهم. وللمرتدين عن الإسلام في العصر الحاضر رؤوسٌ في الضلال أيضاً، من أصحاب النظريات الإلحادية؛ مثل: داروين، وفرويد، وماركس، وأنجلز، ولينين، وسارتر... وغيرهم، ومن الدَّجَالين الكذابين مدعي النبوة؛ مثل: غلام أحمد القادياني، والبهاء حسين المازندراني... حتى يظهر آخرهم المسيح الدَّجَال قِبل قيام الساعة.

• الحُض على الجهاد:

ثم أخذت الآيات تحثُ المسلمين على الجهاد، وتشجّعهم على التصدي للمشركين وقتالهم:

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا أَسَاغًا مُمَازِلًا ۚ فَالْتَحِمْ بِهِ سَبِيلَكُمْ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَكُمْ حَقٌّ أَن تَقْتُلُوهُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۚ﴾ (١٣)

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا﴾ وهم مشركو مكة، مما يدلُّ على أنَّ هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة.

﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التي عقدها مع النبي ﷺ في الحديبية، عندما دخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خُزاعة في عقد النبي ﷺ وعهده، ثم إنَّ بعض قبائل بني بكر وثبوا على خُزاعة ليلاً بموضع يقال له: الوتير، قرب مكة، فغدروا بهم، وقتلوا عدداً منهم، وأعانتهم قريش على ذلك، وأمدتهم بالسلاح، فأرسلت خُزاعة عمرو بن سالم إلى المدينة المنورة يستنصر رسول الله ﷺ، ويخبره بما حدث، فأمر النبي ﷺ بالتجهز للجهاد، وأخفى

(١) ادَّعت سجاح النبوة وكانت أحد رؤوس الردَّة، وتزوجت مسيلمة الكذاب، ويقول ابن حجر في كتابه «الإصابة»: عادت بعد قتل مسيلمة إلى الإسلام، فأسلمت وعاشت إلى خلافة معاوية (ن).

وجهته، كي يفاجئ قريشاً ويبغتهم في مكة المكرمة، وسأل الله تعالى ذلك، وتم له عليه الصلاة والسلام ما أراد، وفتح مكة.

﴿وَهَكُومًا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة عندما كان يدعوهم إلى الإسلام قبل الهجرة، ولم يتمكنوا من إخراجهم عليه الصلاة والسلام، وما خرج مهاجراً إلى المدينة إلا بأمر ربه له بذلك^(١)، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]^(٢).

﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أُولَئِكَ مِرَّةً﴾ بالعدوان والأذى والقتال.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ أي: أتخافونهم فتتركون قتالهم؟! وهو توبيخ على الخشية والخوف من الكفار، والتقاعس عن قتالهم.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمن لا يخشى إلا الله تعالى.

وبعد هذا الحضر على الجهاد، وما فيه من توبيخ للمتقاعسين، أمرتهم الآيات أمراً صريحاً ملزماً بجهاد المشركين وقتالهم، وبيّنت لهم الحكمة من ذلك، بقوله تعالى:

﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُفْضِرُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤).

﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هكذا قدر الله تعالى أن يكلف المؤمنين بالجهاد، ليسلطهم على أعدائه، ويجعل عذابهم في الدنيا بأيدي أوليائه.

﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ وينزل بهم الذل والهوان.

﴿وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ لأن النصر بيده سبحانه.

(١) انظر: تفسير ابن عطية: ٤٢٨/٦.

(٢) انظر: (تفسير سورة الإسراء) في هذا التفسير الموضوعي الكبير، وقد أسمىناه: (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ عانوا كثيراً من ظلم الكفار وأذاهم وعدوانهم.

﴿وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾.

﴿وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فتمتلى بالسُرور والفرح بنصر الله تعالى بعد أن كانت ممتلئة بالغم والحزن.

وقتل الكفار لا يعني حرمانهم بالضرورة من الهداية والتوبة، فباب التوبة والهداية مفتوح، كما سبق، قبل القتال وبعده، والقتال لا يوقف الدعوة، ولهذا قال تعالى على سبيل الإخبار:

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ وحدث ما أخبر عنه سبحانه، إذ أسلم كثير من المشركين بعد ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يشرع إلا ما فيه حكمة ومصلحة، فامثلوا لأمره، وانقادوا لشرعه.

• الابتلاء بالجهاد والبراءة:

وقد اقتضت حكمته تعالى أن تكون الحياة الدنيا ابتلاء واختباراً، وأن التكليف بالجهاد من أسباب الابتلاء والاختبار للمؤمنين، ولهذا قال سبحانه مخاطباً لهم:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي: لا تتركون دون ابتلاء، لا بد أن يميز الله تعالى بين الصادقين والكاذبين، والمخلصين والمنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ

لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾
[العنكبوت].

ولا شك أنه سبحانه يعلم الصادق من الكاذب في الأزل، ولكنه سبحانه أراد وجوده وتحققه ليجازيهم عليه، فالجزاء على حسب العمل لا على حسب علمه سبحانه.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةً﴾ أي: لم يتخذوا من الكفار بطانة، والوالمؤمنين ويصاحبونهم. والوليعة: البطانة، والرجل يكون في القوم وليس منهم: وليعة، من الولج وهو الدخول.

والمعنى: أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين^(١).

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم فالشؤون كلها منكشفة له سبحانه، لا تخفى عليه خافية.

والابتلاء كما يكون بمجاهدة الكفار وقتالهم، يكون أيضاً بالبراءة منهم كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى.

• عمارة المسجد الحرام والأقصى:

واتبعت الآيات أسلوباً جديداً في حث المؤمنين على قتال المشركين، فذكرتهم بالمسجد الحرام ومسؤوليتهم عنه، وأنه لا ينبغي أن يبقى تحت سلطان المشركين وسيطرتهم.

وهذا يؤكّد ما سبق معنا، أن هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة المكرمة.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿٤﴾

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي للمشركين أن يكونوا

عُمَّاراً لمساجد الله، فضلاً عن المسجد الحرام، والعمارة إما البناء أو الدخول إلى المسجد والمكث فيه للعبادة، فالواجب يحثُّ على المسلمين ألا يتركوا المسجد الحرام بأيدي المشركين ليقوموا على عمارته، فهم ليسوا أولياءه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وبمثل هذا الأسلوب يمكن أن يقال للمسلمين في العصر الحاضر: ما كان لليهود أن يعمرُوا المسجد الأقصى، مع العلم أن ثمة فرقاً كبيراً بين اليهود وبين مشركي قريش، إذ كان مشركو قريش حريصين على المسجد الحرام وصيانته رغم شركهم وكفرهم، بينما اليهود يسعون إلى تخريب المسجد الأقصى وإزالة معالمه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿شَهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ بإظهار الشرك وعبادة غير الله تعالى، فأحوالهم شاهدةٌ عليهم، مع أن المسجد بُني لعبادة الله تعالى وحده القائل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت أعمالهم بسبب كفرهم وشركهم، فعمارتهم المسجد الحرام لا تنفعهم ما داموا على كفرهم وشركهم. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ إذا ماتوا على الكفر.

ثم يبين سبحانه المستحقين لعمارة المساجد، فقال:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ فلا يتركون دين الله وشرعه خشية من الناس.

﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و(عسى) في كلامه تعالى تفيدُ

الوجوب والتحقيق، وذكرت في الآية لتقطع أطماع المشركين في الانتفاع بأعمالهم، فأعمال المؤمنين من صلاة وزكاة وخشية لله تعالى، دائرة بين (عسى) و(لعل)، فما ظنك بأعمال المشركين؟! وفي هذا تنبيه للمؤمنين أيضاً لكي لا يغتروا بأعمالهم وأحوالهم^(١).

• الجهاد والعبادة في المسجد الحرام:

ومع أن عمارة المسجد الحرام والعبادة فيه من العبادات ذات الثواب الكبير والفضل الجزيل، فإنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى أفضل عند الله تعالى منها، دل على ذلك قوله سبحانه:

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(١٩).

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ والخطاب للذين كانوا يرون لأنفسهم فضلاً بخدمة الحجاج والعناية بالمسجد الحرام على المجاهدين، فالجهاد في سبيل الله تعالى أفضل عند الله تعالى من سقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام.

وقرن سبحانه بين الإيمان والجهاد لئنبه المشركين إلى كفرهم، وفيه بيان للتلازم الكامل بينهما، فالإيمان والجهاد متلازمان، ومن شأن المؤمن بالله تعالى وحده أن يجاهد في سبيله.

وتدلُّ الآية على أفضلية الجهاد وتقدمه على العبادة في المسجد الحرام، وعلى العبادة في غيره من المساجد بالأولى، فالمجاهدون في سبيل الله تعالى أفضل عند الله تعالى من العباد المعتكفين في المساجد والزوايا والخلوات.

كان عبدُ الله بن المبارك والفضيل بن عياض صديقين، وكان ابن المبارك

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٩٤/٣.

يتقربُ إلى الله تعالى بالجهاد والمرابطة في الثغور، بينما كان الفضيل معتكفاً في المسجد الحرام، فأرسل إليه ابن المبارك في سنة سبعين ومئة هذه الأبيات من طرسوس، وهو ثغرٌ في شمال بلاد الشام في مواجهة بلاد الروم، قال فيها:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا	لعلمتَ أنك في العبادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بدموعِهِ	فنحورُنا بدمائنا تَتَخَضَّبُ
أو كَانَ يُتَعَبُ خَيْلُهُ فِي باطلٍ	فخيولُنا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
ريحُ العبيرِ لكم ونحنُ عبيرُنا	رَهْجُ السنايكِ والغبارُ الأَطْيَبُ
ولقد أتانا مِنْ مقالِ نبينا	قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يَكْذِبُ
لا يستوي غبارُ خَيْلِ الله فِي	أنفِ امرئٍ ودُخانُ نارٍ تَلْهَبُ
هذا كتابُ الله يَنْطِقُ بيننا	ليسَ الشهيدُ بميتٍ لا يَكْذِبُ

ولما قرأ الفضيل الأبيات ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن^(١).

قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخُسْفَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وجاء في الحديث الشريف ما يؤكد هذا المعنى: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كنتُ عند منبر النبي ﷺ، فقال رجلٌ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلام إلا أن أعمُرَ المسجدَ الحرام. وقال آخر: الجهادُ في سبيلِ الله أفضلُ مما قلتُم. فزجرهم عمرُ رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبرِ رسولِ الله ﷺ، وهو يومُ جمعةٍ، ولكن إذا صليتُ الجمعة، دخلتُ فأستفتيه فيما اختلفتم

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير: ٣٥٢/١. والقصة رواها ابن عساكر، وقد ضَعَفَهَا بعض الكتاب المعاصرين لانقطاع في سندها، وهذا غير صحيح، فقد رواها بالسند المتصل الرافعي في (تاريخ قزوين). وحبذا لو التزم هذا الفاضل قواعد المحدثين في كل ما يرويه! انظر: نقض أوامم الاتهام، للأستاذ خالد السوسي، ص ٣٣٨ - ٣٤٠.

فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية. [رواه مسلم (١٨٧٢)].

وختم سبحانه الآية بقوله:

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضعون الأمور في غير مواضعها.
ثم أثنى الله تعالى على الصحابة الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله،
ليُظهر فضلهم على غيرهم تأكيداً لمعنى الآية السابقة، فقال:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠).

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي:
أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تجتمع فيهم هذه الصفات.

ولم تذكر الآية المفضل عليهم، لتفيد أن فضيلة الصحابة على الإطلاق،
ولا شك أن أهل السقاية والعمارة من جملة المفضل عليهم^(١).

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بنصر الله تعالى في الدنيا، وبالمنازل الرفيعة في الآخرة.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (٢١).

دائم لا ينتهي ولا يزول.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛
فوالذي نفسي بيده لو أن أحداً أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»

(١) انظر: نظم الدرر: ٤١٨/٨.

[رواه مسلم (٢٥٤٠)]. رضي الله عنهم وأرضاهم، أولئك الذين رفعوا رايات الإسلام بجهادهم وإخلاصهم.

• ولاء وحب:

وبراءة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام من المشركين، التي جاءت في صدر السورة، تقتضي براءة المؤمنين أيضاً من المشركين مهما كانت الصلات القائمة بينهم، فلا ينبغي أن يتخذ المؤمنون من الكافرين وليجةً أبداً، ولو كانوا أقرباءهم، أو كانت للمؤمنين مصالح مادية عندهم، ولتوضيح هذا المعنى وتأكيده، قال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ فَءُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: اختاروا الكفر وأعرضوا عن الإيمان، أو فضلوا الكفر على الإيمان. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكُمْ فَءُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم وضعوا ولاءهم؛ وهو النصرة والمحبة في غير موضعهما، فولاء المؤمن للمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَعِزُّكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ثم أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يوضح هذا المبدأ الإسلامي للمسلمين، ويفضله لهم أكمل تفصيل، فقال:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ﴾ الذين توقروا بهم وتعزون بالانتساب إليهم.

وكان العربُ في عصر التنزيل شديدي التمسك بأنسابهم، ولهذا قدّمهم سبحانه بالذكر.

﴿وَأَبْأَتْكُمْ﴾ وهم أقربُ الناس إلى الإنسان، وأحبُّهم إليه.

﴿وَإِخْوَانُكُمْ﴾ الذين تجمعكم بهم رابطة النسب وأرومتهم.

﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ اللاتي تجمعكم بهنَّ رابطة الزوجية.

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ وهم أقاربكم الذين تعيشون بينهم وتعاشرونهم.

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: بذلتم الجهد في تحصيلها واكتسابها، فالإسلام يقوم على المبادئ لا على المصالح، كما هو حال كثير من الناس في العصر الحاضر، كما مرَّ معنا.

﴿وَيَحْزَنُهُ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بسبب انشغالكم عنها بما كلفكم سبحانه به من الهجرة والجهاد، وهو كناية عن تعطل مصالحهم المادية.

﴿وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: بيوت تحبُّون السكنى فيها لطيبها وحسنها، وللذكريات الجميلة التي تربطكم بها وتشدكم إليها.

فإذا كانت هذه الأشياء المحبوبة طبعاً وفطرة للإنسان:

﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فمحبّة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فوق كلّ محبة في قلب المؤمن، ولما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا رسول الله لأنّ أحبَّ إليّ من كلّ شيءٍ إلا من نفسي». قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحبُّ إليّ من نفسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الآن يا عمر» [رواه البخاري (٦٦٣٢)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» [رواه مسلم (٤٤)].

﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ وحبُّ الجهاد في سبيل الله تعالى من محبته سبحانه، وقرن حبَّ الجهاد في الآية الكريمة مع حبِّ الله صلى الله عليه وآله وحبِّ رسوله عليه الصلاة

والسلام، تنوياً لشأنه، وتنبيهاً على أنه ممّا يجب أن يُحبَّ فضلاً عن أن يُكره^(١).

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ فانتظروا حتى ينزل بكم العذاب.

ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٦]، إذ المراد كراهيته بمقتضى هوى النفس وطبعها، وليس المراد من الآية الحبّ الطبيعي التابع لهوى النفس، فهذا الحبّ ليس داخلياً تحت اختيار الشخص، بل هو خارج عن حدّ الاستطاعة، فلا مؤاخذه به، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، بل المراد الحبّ العقلي الاختياري، الذي هو إثارة ما يقتضي العقل رجحانه، وإن كان على خلاف الطبع، ألا ترى أنّ المريض يكره الدواء المرّ بطبعه، ومع ذلك يميل إليه باختياره، ويهوى تناوله بمقتضى عقله، لما علم أو ظنّ أن صلاحه فيه^(٢).

ولهذا قيّد أكثر المفسرين الحبّ المطلوب في الآية بالحبّ الاختياري دون الطبيعي^(٣).

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يرشد الخارجين عن محبة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، ولا يوفّقهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم. وفي الحديث الشريف: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلّاً، لا ينزّعه حتّى ترجعوا إلى دينكم» [رواه أحمد (٤٢/٢) وأبو داود (٣٤٦٢)].

فالآية تدلّ على أنّ الدين يجب أن يكون الأول في حياة الإنسان، فإذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا، وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا^(٤).

(١) تفسير أبي السعود: ٥٥/٤.

(٢) انظر: شرح الشفا: ٥٣٩/٣.

(٣) انظر: تفسير البضاوي: ٩٧/٣؛ وتفسير أبي السعود: ٥٥/٤.

(٤) تفسير الخازن: ٩٨/٣.

قال العلامة النسفي رحمته الله: «والآية تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين»^(١).

وماذا يقول النسفي الذي عاش في القرن السابع الهجري لو أدرك القرن الخامس عشر الهجري، الذي غلبت على الناس فيه قيم الحضارة المادية وأخلاقتها المنحلة، وأصبحت المصالح المادية محور حياة أكثر الناس وهدفهم الأساس الأول، وجعلها كثير منهم وثناً يُعبد من دون الله تعالى.

نسأل الله العليّ القدير أن يتداركنا بلطفه، فالآية كما قال الآلوسي: شديدة على الناس، لأنها أمرتهم أن يتخلّصوا من شيء، لا يتخلّص منه إلا مَنْ تداركه الله بلطفه^(٢).

وهكذا كان حال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته الله، فقد كان من الصفوة النادرة في هذا العصر الذين أخلصوا لله تعالى إخلاصاً قدّموا فيه محبة الله تعالى ورسوله ﷺ على كلّ المحبوبات.

ولا يعني تحريم موالاة الكفار ولو من ذوي القربى، قطع جميع الصّلات بهم، والكف عن دعوتهم، وترك برهم ومساعدتهم، فالاستمرار بدعوتهم إلى الإسلام أمر مطلوب، كما أن برّ الأقارب منهم ومساعدتهم غير ممنوع، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[الممتحنة].

• يوم حنين:

يجب أن يكون ولاء المسلم لله تعالى وحده، ثم لأوليائه سبحانه، ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

والولاء لله تعالى يقتضي التوكلَ عليه سبحانه وحده، والاستعانة به وحده،

(١) تفسير النسفي: ٩٨/٣.

(٢) روح المعاني: ٧١/١٠.

وعدم الاعتماد على غيره، ولهذا جاءت الآيات الكريمة تذكّرهم بالدرس البليغ الذي لقّنهم سبحانه إياه يوم حنين، بقوله:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْثُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ﴾ أي: في معارك كثيرة كبدر والخندق وقریظة وخيبر، مع أنهم كانوا أقلّ عدداً وعدداً من أعدائهم. ونصّرهم سبحانه أيضاً يوم حنين:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ كانت بعد فتح مكة في سؤال من سنة ثمانٍ من الهجرة، وهي آخر المعارك التي باشر النبي ﷺ فيها القتال مع العرب المشركين في أرض العرب.

فبعد فتح مكة المكرمة عزّ على الوثنية العربية أن ترى راية التوحيد تخفق في رحاب مكة المكرمة، وأن تتحطم الأصنام والأوثان التي كانت فيها، فاجتمع رؤساء القبائل المشركة، ثقيف وهوازن والقبائل المجاورة لها في الطائف على مالك بن عوف النصري سيد هوازن، وحشدوا جموعهم بين مكة والطائف وراء عرفات إلى جهة الشمال في وادي حنين.

ولمّا علم رسول الله ﷺ بجموعهم هذه واستطلع أخبارهم، خرج بجيش الفتح، وكانوا عشرة آلاف، وانضمّ إليهم من الطلقاء في مكة ألفان. ويبدو أن انتصارات المسلمين المتوالية، والتي توجّها فتح مكة المكرمة، جعل بعضهم يزهو ويعجب بكثرة عددهم، حتى قالوا: لن نُغلب اليوم من قلة.

وبدأ القتال قبل طلوع الشمس في غلَسِ الصبح، روى ابن إسحاق بسند صحيح: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوفَ حطوط - كثير الميل - إنّما ننحدر فيه انحداراً في عماية الضبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا

وتهيؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا، ونحنُ منحنُّون، إلا الكتاب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحدٌ على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أيها الناس هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمّد بن عبد الله» قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، وانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد^(١).

وعن العباس ؓ قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقوا: المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، وأنا آخذٌ بلجام بغلته أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذٌ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباسُ نادِ أصحاب السَّمرَةِ^(٢)» فقلتُ بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمرَةِ؟ فوالله! لكانَ عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، فاقتتلوا والكفار... ثم أخذ رسول الله ﷺ حُصَيَّاتٍ، فرمى بهنَّ وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا وربَّ محمّدٍ» فوالله ما هو إلا أن رماهم بحُصَيَّاتِهِ، فما زلتُ أرى حدَّهم قليلاً، وأمرهم مدبراً حتى هزمهم الله. [رواه مسلم (١٧٧٥)].

• الإعجاب بالكثرة:

﴿إِذْ أَتَجَبَّكُمْ فَكَثَرْتُمْ﴾ عندما قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، كما مرَّ معنا.

وذكر ابنُ الجوزيَّ روايةً عن سعيد بن المسيب: أنَّ القائل لذلك أبو بكر

(١) سيرة ابن هشام: ٦٦/٤.

(٢) الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.

الصديق، وحكى ابن جرير الطبري أَنَّ القائل لذلك رسولُ الله ﷺ، وفيه بُعْدٌ، لأنه ﷺ كان في جميع أحواله متوكلاً على الله ﷻ، بل نظره إلى ما يأتي من عند الله ﷻ من النصر والمعونة^(١).

وتوجيه الخطاب في الآية ﴿أَعَجَبْتُكُمْ كَثَرْتُكُمْ﴾ إلى الصحابة يدلُّ دلالةً قاطعةً على أن النبي ﷺ لم يقل هذه الكلمة، ولا يعقل أن يصدرَ مثلها عنه ﷺ أبداً. ومن المستبعد أيضاً أن يكون أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد قالها، وقد أثبتت الروايات الصحيحة أنه من القلة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا، والآية خاطبت الفارَّين عن رسول الله ﷺ في حنين، ولا شك أن الذين قالوا تلك الكلمة كانوا منهم، ولعلَّ الذين نسبوها إلى أبي بكر صحَّفوا رواية ابن إسحاق المذكورة في السيرة؛ وهي: وحدثني بعضُ أهل مكة أنَّ رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين، ورأى كثرة من معه من جنود الله: لن تغلب اليوم من قلة. قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكر قالها^(٢).

وفرق كبير بين رجل من بني بكر وبين أبي بكر، وكلا الروايتين لابن إسحاق غير صحيحتين للمجاهيل في سنديهما.

ولعلَّ الذي نسب هذه الكلمة إلى النبي ﷺ، أخذها من قوله: «خير الصحابة أربعة، وخيرُ السرايا أربعمئة، وخيرُ الجيوش أربعة آلاف، ولا تهزم اثنا عشر ألفاً من قلة» [رواه أحمد (٢٢٤/١) وأبو داود (٢٦١١) والترمذي (١٥٥٥)].

والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الحديث في غير هذه المناسبة.

والكلمة في حدِّ ذاتها لا شيء فيها، إلا إذا صاحبها ما صاحبها من الإعجاب^(٣) الذي أنكرته عليهم الآية في قوله تعالى:

(١) تفسير الخازن: ٩٨/٣.

(٢) السيرة النبوية: ٦٦/٤، قلت: ومعناه على هذا التقدير: أننا إن غلبنا فلن يكون سبب ذلك قلة العدد، بل السبب هو الغرور بالكثرة، وعدم أخذ الحيطة ونحو ذلك (ن).

(٣) روح المعاني: ٧٤/١٠.

﴿إِذْ أَغْبَجْتُمْ كَفْرُتَكُمْ فَلَمْ تُنْعِنَ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لم تنفعكم تلك الكثرة، ولم تدفع عنكم عدوكم.

﴿وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: ضاقت مع سعتها عليكم من شدة ما اعتراكم من الرعب والخوف.

﴿ثُمَّ وَاسْتَمْتُمْ مَدِيرِينَ﴾ أي: منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتثبت، فلا تتزلزل، ولا تضطرب: على رسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبتوا بجانبه، والذين رجعوا إليه بعد أن سمعوا نداء العباس رضي الله عنه.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ بأبصاركم، وهم الملائكة.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والهزيمة.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا.

ثم فتح سبحانه لهم باب التوبة، وأطمعهم برحمته ومغفرته فقال:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وجاء بعد ذلك وفدٌ هوازن إلى رسول الله ﷺ تائبين مسلمين، وسألوه أن يردَّ إليهم أموالهم وسبيهم، فخيرهم ﷺ بين سبيهم وأموالهم، فاختاروا السبي، فردّه عليهم. [رواه البخاري (٤٣١٨ و ٤٣١٩)].

• تعظيم بيت الله الحرام:

وتستدعي البراءة من المشركين - المعلنة في صدر السورة - تطهير بيت الله الحرام من المشركين، ومنعهم من الاقتراب منه، فبيّث الله الحرام رمز توحيد

المسلمين ووحدتهم، يستقبلونه في صلاتهم، ويأتون إليه من كل فج عميق، حاجين ومعتمرين، يجب أن ينزه عن أي أثر للشرك والمشركين، صيانة لحرمة التي أوجبها الله تعالى له منذ خلق السماوات والأرض. ولهذا قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أخبر عنهم بالمصدر ﴿نَجَسٌ﴾ للمبالغة في ذمهم، فكأنهم عين النجاسة، أو لأنهم ذوو نجاسة، لخبث بواطنهم، وفساد عقائدهم، ولأنهم أيضاً لا يتطهرون، ولا يجتنبون النجاسات. والجدير بالذكر أن جمهور الفقهاء لا يرون نجاسة أبدانهم، وأن المراد من الآية خُبْتُ بواطنهم وعقائدهم.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تمكّنوهم من الاقتراب من المسجد الحرام؛ والمراد أرض الحرم، والآية دليل لمن يقول: الحرم كله مسجد.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو العام التاسع من الهجرة، ولم يحج فيه النبي ﷺ لكي لا يتأذى برؤية المشركين يحجّون ويطوفون بالبيت عراة، ولهذا أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لينادي في المشركين: «أَلَا يَحِجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عَرِيَانٌ» [رواه البخاري (٤١٥٥) ومسلم (٦٦)]، ويعلمهم بالبراءة ونبذ العهود، كما مرّ معنا في أول السورة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً، بسبب منع المشركين من الحرم، وانقطاع ما كان أهل مكة يستفيدونه من قدومهم عليهم من المكاسب والأرزاق.

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ فالرزق متعلّق بمشيئته تعالى وتقديره، وقد أغناهم سبحانه فعلاً، إذ انتشر الإسلام في أرض العرب، ودخل

الناس في دين الله أفواجاً، كما أغناهم سبحانه أيضاً بما فتح عليهم من الفتح حتى غنموا كنوز كسرى وقيصر.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم.

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع، ويحرّم ويشرّع.



الْفَصْلُ الثَّانِي

أَهْلُ الْكِتَابِ

عَقَائِدُهُمْ وَفَضَائِحُ أَخْبَارِهِمْ وَرَهْبَانِهِمْ

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُولَفَ وَهُمْ يَقْنُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ (٣٥) إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَمُوا فَلَا تُحِلُّوا فِيهِمْ أَنْفُسُكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا السَّبْقُ لِلَّهِ فِي الْكُفْرِ يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ

انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

• تمهيد:

كانت الآيات السابقة من أول السورة تركّز على انتشار الإسلام في أرض العرب، وتهتمّ باجتثاث الشرك، وتخليص المجتمع العربي منه، ويلاحظ أنّ أحكام الآيات الكريمة قطعية نهائية، لأنها جاءت كبلاغ أخير، وإنذار نهائي، فغلب عليها الإنذار والوعيد والتهديد، مع شيء من الترغيب، فالدعوة الإسلامية قائمة ومستمرة، ولا تتوقف في أي ظرف من الظروف، والإسلام لا يوصل الناس - مهما كانت جرائمهم وذنوبهم - إلى اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى.

وقد نجح أسلوب البلاغ الأخير والإنذار القطعي النهائي المتبع في هذه السورة الكريمة نجاحاً كبيراً، إذ انقاد العربُ المشركون للدين الجديد، فدخلوا فيه أفواجا، ولم ينته العام التاسع الهجري حتى جاءت إلى المدينة المنورة وفود العرب من أطراف شبه الجزيرة العربية تباعُ النبي ﷺ، وتعلن دخولها في الإسلام، ورضاها بأحكام شريعته.

• مشروعية الجزية وحقيقتها:

وبعد أن انتشر الإسلام في أرض العرب وتمكّن فيها، أمر الله تعالى

المسلمين أن يمدّوا رواق الدعوة والجهاد إلى البلاد المحيطة بهم؛ فرسالة الإسلام عامة، وهي للناس كافة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨].

وبدأت الآيات بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، لكثرة مخالطتهم للعرب، وقرب البلاد التي يغلبون عليها من شبه الجزيرة العربية؛ قال تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩).

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الإيمان الصحيح.

﴿وَاللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ولا يؤمنون باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، كما بينه تعالى في كتبه وعلى لسان أنبيائه ورسله.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، أو لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل انصرفوا عنهما، وابتدعوا أحكاماً تخالف ما شرع الله تعالى فيهما.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الذي هو دين الإسلام، القائم على الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَاسْلَمَةٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٩].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى.

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: حتى يعطوا الجزية عن قهر وغلبة وهم ذليلون.

والجزية: من الجزاء، مقدار من المال يؤديه المستطيعون منهم إلى بيت مال المسلمين، كدليل مادي يدلُّ على انقيادهم لحكم الإسلام، ورضاهم بالعيش تحت سلطانه وفي كنفه، وفي مقابل ذلك يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يُكرهون على الدخول في الإسلام، ولا يُمنعون من ممارسة طقوسهم وعباداتهم، كما لا يُمنعون عن شيء يعتقدون أنه حلال في ملَّتهم كأكل الخنزير وشرب الخمر.

وقد حذّر رسول الله ﷺ من ظلمهم والاعتداء عليهم، فقال: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيبِ نفسه؛ فأنا حجيجُه يومَ القيامةِ» [رواه أبو داود (٣٠٥٢)].

وفي الآية الكريمة دلالة واضحة على مدى القوّة والعزّة التي بلغت الدعوة الإسلامية عند نزولها، والتي يجب أن تكون كذلك دائماً، وفيها أيضاً بيان للأسلوب الذي يجب على المسلمين اتباعه في مجال التعامل مع أهل الكتاب.

• شرك أهل الكتاب:

ثم جاء قوله تعالى التالي على وجه التقرير والتأكيد لما وصف به أهل الكتاب في الآية السابقة، وكذلك على سبيل الإغراء للمؤمنين على قتالهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَ يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ الذين كانوا في المدينة المنورة.

﴿عُزِّرَ ابْنُ اللَّهِ﴾ واليهود يقدسون عزيزاً، فهو الذي أعاد كتابة التوراة بعد أن أحرقت في أثناء هجوم البابليين عليهم في عهد نبوخذنصر الملك البابلي.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٧٦) لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا [النساء].

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يجري على ألسنتهم فقط، من غير فهم، أو تعقل، أو تفكير فيه، فهو قول بعيد عن الحق، لم يستحيوا عن التلفظ به مع سخافته وظهور بطلانه، ولهذا ترى أكثر النصارى يعدّون عقيدة التثليث أمراً غيبياً وراء عقولهم، ولا مستند لهم في ترديد هذا القول الباطل سوى تقليد سلفهم من آبائهم وأجدادهم، ولهذا قال تعالى:

﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: يشبه قولهم هذا قول الذين كفروا من قبلهم^(١)، فالكفر قديم فيهم، يتوارثه الخلف عن السلف.

﴿فَكَذَّبُوا اللَّهَ﴾ وهو دعاء عليهم، وتعجب من بشاعة قولهم.

﴿أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل، ومع سخافته وبطلانه فهو كبير وشديد القبح في حق الله تعالى القائل: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ (٩٠) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا [مريم].

• عبادة أهل الكتاب للأحبار والرهبان:

ثم فصلت الآيات كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﷺ، وأنهم لا يدينون دين الحق، باتخاذهم ما يسمونهم رجال الدين أرباباً

(١) انظر كتاب: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، للأستاذ محمد طاهر التتير، فقد بين أن التثليث كان معروفاً عند الفراعنة والبوذيين والهنادك (ن).

يَقْدُسُونَهُمْ، وَيَطِيعُونَهُمْ طاعة عمياء، حتى لو شرعوا لهم أحكاماً تخالف دين الله تعالى وشرعه؛ قال تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١).

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فأطاعوهم في تحليل ما حَرَّمَ الله، وفي تحريم ما أَحَلَّ الله تعالى.

ولما دخل عدي بن حاتم الطائي - وهو على نصرانيته، والصليب في عنقه - على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ اعترض عدي فقال: إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبدُوهُمْ، فقال ﷺ: «بلى إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ، وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ» [رواه الترمذي (٣٠٩٥)].

فطاعة الذين يبتدعون شرائع وقوانين تخالف شريعة الله تعالى عبادة لهم من دونه سبحانه، إذ حَقَّ التشريع لله تعالى وحده، فهو الخالق وحده، وهو الأمر والمُشْرِع وحده سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

فالحكم له وحده، والطاعة يجب أن تكون لدينه وشرعه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: واتخذوا المسيح ابن مريم إلهاً، وجعلوه بزعمهم ابناً لله ﷻ، ورفعوه عن مقام عبوديته لله تعالى ﷻ، ولهذا حكم سبحانه بكفرهم فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِيَسْرِيَلُ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سبحانه هنا أيضاً:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى وتنزه وتقدس عن الشريك والصاحبة والولد.

• معارضة الأخبار والرهبان لدعوة الإسلام:

ولا شك أن الإسلام بعقيدته الواضحة النقية عن أي شائبة من شوائب الشرك، وبشريعته التي لا يستطيع أحد أن يعبث فيها، خطرٌ يهدد باطلهم وكفرهم، ولهذا أعرض أكثر أهل الكتاب عنه، وقاوموا انتشاره بتحريض من أخبارهم ورهبانهم، ووصف سبحانه ذلك بقوله:

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢).

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام الذي جعله سبحانه نوراً يهتدون به ويسترشدون، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة].

﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بما يصدر عن ألسنتهم من كفر وكذب وافتراء.

وما أكثر حملات التشويه للإسلام والافتراء عليه التي شنّها اليهود والنصارى - ولا يزالون - لطمس حقيقة الإسلام الناصعة، وتشويه صورته الجميلة، لصدّ الناس عنه، وتنفيرهم منه، ويقف على رأس هذه الحملات، ويتولى كبرها المستشرقون وزعماء التنصير، وأكثرهم من كبار الأخبار والرهبان، ويسخّرون لهذه الغاية كلّ ما لديهم من وسائل الإعلام، ويوجهونها إلى بلاد المسلمين آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد نقية صافية، وحفظ شريعته تامة كاملة، فالإسلام لا يزال بحمد الله تعالى قائماً في الساحة ثابتاً

قويّاً، يضيءُ الدربَ للحائرين بنوره وسنائه وجماله وبهائه، والدعوة الإسلامية مستمرة بحمد الله تعالى، حتى في عُقر دورهم وقلب بلادهم.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ظهوره وانتشاره.

فالإسلام دين الله تعالى الذي رضيه للناس إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

وسياتي الوقت إن شاء الله تعالى الذي لا يُعْبَدُ فيه غيره تعالى في الأرض كلها، فلا يبقى فيها غير دين الإسلام ظاهراً على جميع الأديان.

فليطمئن الدعوة إلى هذا الوعد الكريم من الله تعالى، الذي لا خُلْفَ في وعده، ولتقر أعينهم، وليستمرّوا على طريق الدعوة بأقدام راسخة، وكلّهم أمل ورجاء في رحمة الله تعالى ونصره وتأييده، فأعلام الحق ستبقى بإذن الله تعالى عالية خفاقة.

عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهَ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله هذا الدينَ، بعزٍّ عزيزٍ، أو بذلٍّ ذليلٍ، عزّاً يعزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذلاً يذلُّ اللهُ به الكفرَ» [رواه أحمد (١٠٣/٤)].

ويلاحظ أنَّ الله تعالى وصفَ اليهود والنصارى في ذيل الآيتين السابقتين بصفتي الكفر والشرك.

• من فضائح الأخبار والرهبان:

وكشفت الآياتُ للمسلمين بعضَ فضائح أخبار اليهود وrehبان النصارى الذين اتخذهم اليهود والنصارى أرباباً من دون الله تعالى، ويُنْتِ كيف استغلوا

مناصبهم الدينية لمصالحهم الدنيوية، وجاء الخطابُ للمسلمين على سبيل التحذير لهم من تقليدهم:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بالاحتيال والخداع والغش، وقد تمثل أكلهم لأموال الناس بالباطل في صور شتى:

منها: ما يأخذونه على تحليل الحرام، وتحريم الحلال، لصالح أصحاب المال والسلطان.

ومنها: ما يأخذه القسيس أو الكاهن مقابل الاعتراف له بالخطايا، وغفرانه لها في زعمهم.

ومنها: ما يجمعونه من أموال الناس لما يسمونه التنصير ومقاومة انتشار الإسلام، وقد جمع الكرادلة والبابوات والأساقفة والرهبان أموالاً كثيرة طائلة في الحروب الصليبية، ولا يزالون يجمعون الأموال للتنصير والاستشراق للصد عن سبيل الله^(١).

ومن فضائحهم في العصر الحاضر ما تناقلته الصحف ووسائل الإعلام في أمريكا عن القس «جيمي سويجارت» وما جمع من أموال طائلة بلغت سنوياً مئة وأربعين مليون دولار، وأنه يعيش في قصر كلف بناؤه مليون دولار، ويتنقل بطائرة خاصة له خارج ولايته، وأنه منغمس في الرذائل، ومثله أيضاً القس «جيمي بيكسر» الذي قُدِّرَ دخله السنوي بمئة وتسعة وعشرين مليون دولار، وقد

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣/ ١٦٤٥.

اعترف بأنه كان يمارس الزنى مع إحدى موظفاته، كما اعترفت زوجته بالإدمان على المخدرات^(١).

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ويمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام، فهم إلى جانب أكلهم للمال الحرام، يصدّون الناس عن اتباع الحق بكل ما لديهم من وسائل المكر والكيد والاحتيال.

ثم توعّد سبحانه كل من يتشبه بهم، وذلك بجمع المال، ومنع حقوق الله تعالى الواجبة فيه، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: الذين يجعلهم حبّ المال والحرص على جمعه يمتنعون عن إنفاق شيء منه في الوجوه التي شرعها الله تعالى.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والكنز: هو المال الذي لا تؤدّي منه النفقات الواجبة على أصحابه، كالزكاة، قال ابن عمر رضي الله عنهما: هو المال الذي لا تؤدّي زكاته، فما أدّيت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدّي زكاته فهو كنز^(٢)، لأنّ الزكاة والنفقات الأخرى الواجبة تنقصه، وقد تأتي عليه كلّ مع مرور السنين إذا لم يثمره صاحبه.

ويؤيد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وآله: «من آتاه الله مالاً، فلم يؤدّ زكاته، مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي: ثعبان سقط شعره لشدة حرارة سُمّه - له زبيبتان، يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذُ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك» ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. [رواه البخاري (١٤٠٣)].

(١) أخبار العالم الإسلامي، عدد: ١١٠٧، ١٤٠٩هـ/٦/٢٣ = ١٩٨٩م/١/٣٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٣٩/٢.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ (٣٥).

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، ويقال لهم تبكيئاً وتقريعاً:

﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾.

كما قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صُفِّحَتْ له صفائح من نار، فأُحْمِيَ عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وإِمَّا إِلَى النَّارِ» [رواه مسلم (٩٨٧)].

• العابثون بالأشهر الحرم:

ثم تطرقت الآيات إلى ذكر حالات كانت عند العرب في الجاهلية تشبه ما عليه الأحرار والرهبان عند أهل الكتاب، إذ كان بعض أصحاب المناصب الدينية في الجاهلية يستغلون مكانتهم ومناصبهم، فيعبثون في أوقات العبادات، ويغيرون مواضع الشهور عن مواقعها الأصلية في السنة، اتباعاً لأهوائهم، ومراعاة لمصالحهم.

ذكرت الآيات أولاً عدد الشهور القمرية في السنة، وأنه سبحانه جعل أربعة منها حُرماً:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقِيلُوا لِمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقُولُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣٦).

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: أي في كتاب

القدر الذي قدره العليم الحكيم .

﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وشهر رجب .

﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْنَا﴾ المستقيم ، الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وكان العرب متمسكين به ، فكانوا يعظمون الأشهر الحرم ، ويتركون القتال والغزو فيها .

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي : لا تظلموا في الشهور المحرمة أنفسكم بارتكاب المعاصي ومقارفة الآثام ، فالمعاصي والآثام أكثر إثماً وأشد قبحاً منها في غيرها من الشهور لحرمتها .

وحتى لا يظن أحد أن الجهاد يتوقف في الأشهر الحرم ، لأن العرب كانوا يمتنعون عن الغزو والقتال فيها ، قال تعالى :

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ مجتمعين متناصرين .

﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يؤيدهم وينصرهم ، فهو أمر عام بقتال المشركين في جميع الأوقات ، يبين أهمية التقوى ودورها في استئصال نصر الله تعالى ومعوته .

ثم بعد هذه المقدمة عن الشهور وعددها والحُرُم منها ، بيّنت الآيات حكم العتب فيها ، وتغييرها عن مواضعها ، بقوله تعالى :

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطَعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ذُنُوبُهُمْ أَعْمَلُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٧) .

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي : إنما النسيء كفر على كفر ، لأنه تحليل ما حرمه الله ، وتحريم ما أحله سبحانه .

والنسيء : تأخير شهر حرام إلى شهر آخر ، يفعله رجل من كنانة ، وكان

يقومُ في موسم الحج، فيعلنُ تأخير المحرَّم إلى صفر، فإذا فعل ذلك عقدوا أوتار القسي، وركبوا الأستة في الرماح، وأغاروا^(١).

﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضلالاً زائداً إلى ضلالهم، أو يُضِلُّ به زعماء الكفر أتباعهم، كما كان الأحبار والرهبان يضلُّون أتباعهم.

﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ أي: يحلُّون الشهر الحرام في عام بتأخيره عن موضعه، ويتركونه على حرمة في عام آخر، بحسب أهوائهم ونزواتهم.

﴿لِيُؤْطَفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ليوافقوا عدَّة الشهور المحرمة الأربعة.

﴿فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ اتباعاً لأهوائهم، مما يؤدي إلى اختلال القيم والموازن، وتضارب المصالح، والفوضى في المعاملات، ولهذا قال سبحانه:

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: حُبِّبَ لهم أعمالهم السيئة إما من قبل الشيطان أو من قبل نفوسهم الخبيثة.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

ومن رحمة الله وفضله على الأمة المسلمة أنه قدَّر أن تعود الشهور إلى مواقعها الأصلية في السنة العاشرة من الهجرة، التي حجَّ فيها النبي ﷺ، وأعلن ذلك في خطبته، فقال: «إِنَّ الزَّمانَ قد استدارَ كهَيْئته يومَ خلقَ اللهُ السَّمَاواتِ والأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحِجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ» [رواه البخاري (٥٥٥٠)].

● غزوة تبوك:

وانتقلت الآيات بعد الحديث عن أهل الكتاب، وضلال عقائدهم، وفساد

(١) انظر: تفسير الخازن: ١٢٠/٣.

أحبارهم ورهبانهم، إلى الحديث عن محاولتهم العدوانَ على الدولة المسلمة الفتية، ومحاولتهم القضاء عليها، وما فعله النبي ﷺ لرد عدوانهم. ويظهر لنا بهذا الاتساق والارتباط بين آيات السورة الكريمة، ولا شك أن الأمر بقتال أهل الكتاب، وبيان ضلالهم وفساد أحبارهم ورهبانهم، له صلة بالبراءة العامة المعلنة في صدر السورة، وهو توطئة وتمهيدٌ للحديث عن أعظم الأعمال العسكرية التي ختمَ بها النبي ﷺ سَجَلٌ مفاخره العسكرية في حياته المليئة بجلال الأعمال، وهي غزوة تبوك، التي كانت مفتاحَ الفتوح الكبيرة التي تَمَّت بعده عليه الصلاة والسلام بأيدي خلفائه وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم^(١).

تحدَّى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أقوى دول الأرض قاطبةً في ذلك الزمن، وهي الإمبراطورية الرومانية، التي كانت تعدُّ نفسها حاميةً أهل الكتاب، ورافعةً لواء النصرانية، والتي امتدَّ سلطانها إلى القارات الثلاث المعروفة في ذلك الوقت: أوروبا، وجنوب غربي آسيا، وشمال إفريقيا، وكانت قد انتصرت على الدولة الفارسية التي كانت تنازعها السيادة في العالم، وطردتها من جنوب بلاد الشام، وكان قد سَجَل سبحانه ذلك في القرآن الكريم، قبل حدوثه ببضع سنوات، فكان كما أخبر جلّ وعلا، قال سبحانه في سورة الروم: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ عِندِ رَبِّكَ بِمَقَامٍ ۚ ١٠٠﴾ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۚ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾.

وعندما كان هرقل ملك الروم يحتفل في بيت المقدس بانتصاره على الفرس في السنة السادسة من الهجرة، جاءه كتابُ النبي ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام، قال له فيه:

«من محمدٍ رسول الله إلى هرقلَ عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى.

(١) انظر تفاصيل الغزوة في كتابنا: سيرة النبي ﷺ، ص ٤٦٥، دار القلم - دمشق.

أما بعدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلَمَ تَسْلَمَ، وَأَسْلَمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ^(١) ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] [رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له].

وكان هذا الكتابُ أولَ احتكاكٍ للنبي ﷺ بأكبر قوة نصرانية في العالم. وبعثَ النبي ﷺ أيضاً رسالةً إلى ملك غسان الموالى للروم، والذي كان نصرانياً أيضاً، يدعوه فيها إلى الإسلام، فغدرَ برسولِ رسولِ الله ﷺ وقتلَه، فأرسل عليه الصلاة والسلام جيشاً بقيادة الأمراء الثلاثة الشهداء: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وحدثت معركة مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وكانت أولَ قتالٍ بين المسلمين وبين نصارى الروم والعرب في بلاد الشام.

عرف الرومُ خطرَ الإسلامِ عليهم، فعزموا على القضاء عليه، وأخذوا يحشدون جيوشهم في المشارف الجنوبية للبلقاء من أرض بلاد الشام، واستنفروا القبائل العربية الموالية لهم: غسان ومن معها، ليكونوا طليعة لجيوشهم. وجاءت أخبارُ الحشود الرومية والقبائل المتنصرة إلى المدينة المنورة وانتشرت بين الصحابة، حتى قال عمر رضي الله عنه: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ غَسَّانَ تَعْلُ الْخَيْلِ لَتَغْزُونَا. [رواه البخاري (٤٩١٣)].

وقوله: (تعنل) أي: تضع صفائح الحديد في حوافر الخيل.

● النفي العام:

ورأى رسول الله ﷺ أَنَّ الهجومَ خيرٌ وسيلةٌ للدفاع، وَأَنَّ الخروجَ إليهم أفضلٌ من انتظارِ هجومهم على المدينة المنورة، فعزمَ على الخروج والتوجه إلى

(١) عامة الناس من رعايا الدولة. وللأريسيين معنى آخر فضَّله السيد أبو الحسن الندوي في كتابه: السيرة النبوية، ص ٣٠٦، فانظره ثم.

تبوك في الشمال من أرض العرب، وحشد رسول الله ﷺ في جيش تبوك جنود الله من جميع القبائل العربية المسلمة، وسخر كل ما كان عنده وعند أصحابه من الإمكانيات لهذا الجيش، وأمر الناس بالاستعداد، وجلا لهم أمرهم، ليتأهبوا ويستعدوا، على خلاف عادته، فما غزى غزوة إلا ورى عنها، إلا في غزوة تبوك. وأنزل الله تعالى الآيات الكريمة التالية تستنفر المؤمنين وتحضهم على تلبية الدعوة إلى الجهاد، وتعاتب المتخلفين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: قيل لكم: اخرجوا مسرعين بجذ ونشاط.

﴿أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تهاقنم وتباطأتم عن الخروج إلى الجهاد، وملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاق السفر.

والجدير بالذكر أنهم استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ، مع بُعد الشقة، وكثرة العدو وقوته، فشق عليهم ذلك.

﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أرضيتم بالدنيا الزائلة الحقيرة بدل الآخرة ونعيمها الدائم.

﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: فما التمتع بالحياة الدنيا في جنب الآخرة إلا شيء قليل حقير.

قال رسول الله ﷺ: «ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع» [رواه مسلم (٢٨٥٨) والترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١٠٨)].

ثم انتقلت الآيات من العتاب إلى التهديد والوعيد:

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالذلة والهوان، وفي الآخرة بالاحتراق في النيران.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يحملون رسالة الإسلام، ويتحملون تبعاته الجسام، فدين الله تعالى باقٍ في الأرض إلى قيام الساعة، فإذا ضعفت وتوانيتم عن تحمل أمانته، نزع الله تعالى هذا الشرف الكبير منكم، وجعله في غيركم. وقد ذكر سبحانه مثل هذا المعنى في عدة آيات، منها: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ومنها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ لأنه تعالى غني عنكم وعن جهادكم.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينصر دينه ويعزُّ نبيه من دون جهادكم وقتالكم.

• في الغار:

والدليل على ذلك أنه تعالى نصر نبيه عليه الصلاة والسلام، ونجاه من كيد أعدائه المشركين، عندما هاجر إلى المدينة المنورة، وما كان معه عليه الصلاة والسلام أحدٌ من الناس سوى صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَنْزِلُ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَيَأْتِيهِمْ يُجْنُودٌ لَمْ تَرَوهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ .

﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي: إذا لم تنصروا النبي ﷺ وتلبوا دعوته

إلى الجهاد، فاذكروا كيف نصره الله تعالى.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عندما اضطره المشركون في مكة إلى الهجرة، بعد أن أذن الله تعالى له فيها.

﴿ثَافِكًا ثَيْنًا﴾ وهو عليه الصلاة والسلام واحد من اثنين.

﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ غار ثور، وهو جبل قرب مكة المكرمة، على بعد عدة أميال إلى الجنوب منها، مكث فيه النبي ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر الصديق، بعد أن خرج مهاجرًا، ثلاثة أيام، حتى هداً بحث المشركين عنه، وطلبهم له، قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الهجرة: لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنّا فيه ثلاث ليالٍ... [رواه البخاري (٣٩٠٥)].

ولما اقترب طلب المشركين من الغار، وأحاطوا به من كل جانب، وصعدوا فوقه، خاف أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حدّثني أبو بكر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله لو أنّ أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: «ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟!».

وفي رواية ثانية بلفظ: لو أنّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: «ما ظنّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟!» [رواه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) واللفظ للبخاري].

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصر والمعونة والحفظ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. فأبو بكر صاحب رسول الله ﷺ، ومن أنكر صحبته كفر، لإنكاره نص القرآن الكريم^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر رضي الله عنه، ففي الآية فضيلة كبيرة لأبي بكر رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿ثَاقِبَ اثْنَيْنِ﴾ يدلُّ على أنَّه أحقُّ الناس بخلافة النبي ﷺ^(١).

وسبق أن مرَّ معنا دليلٌ آخر لذلك، وهو أنَّ النبيَّ ﷺ استخلفه على الحجِّ في العام التاسع من الهجرة، وصحَّ أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام استخلفه ليومَّ الناس في الصلاة، عندما مرض ﷺ قبيل وفاته.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي تسكن بها القلوب.

﴿عَلَيْهِ﴾ على أبي بكر رضي الله عنه، أو على النبي ﷺ، والأظهر الأول، لأنه عليه الصلاة والسلام لم ينزعج حتَّى يسكن، فالسكينة لم تفارقه عليه الصلاة والسلام، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما^(٢).

قال في «الفتح»: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار...» [رواه الحاكم من طريق سعيد بن جبير عنه]^(٣).

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ فاشلة خاسرة، وهي كلمة المشركين التي اتفقوا عليها عندما اجتمعوا بدار الندوة، واتفقوا على قتل النبي ﷺ، فنجاه الله تعالى من كيدهم، وحفظه من مكرهم.

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ دائماً وأبداً، لأن إرادته سبحانه هي التامة النافذة، ومشيتته هي الغالبة.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغْلَب.

﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وأمره جلَّ وعلا.

• تلبية الدعوة:

وبعد أن استنهضت الآيات همَّ المؤمنين بهذا العتاب والتهديد، وهيات

(١) روح المعاني: ٩٩/١٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) فتح الباري: ١٠/٧.

قلوبهم لقبول الأمر بالنفير والاستجابة له، توجّهت إليهم بالأمر الموجب الملزم:

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١)

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا للجهاد، سواءً كان خفيفاً عليكم أم ثقيلاً، ركبناً ومشاةً، شباباً وشيوخاً، أقوياء وضعفاء.

قال ابن كثير رحمته الله: «أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر» (١).

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالجهاد في النفير العام واجب بالنفس والمال، ومن كان قوياً وذا مال عليه أن يقدم نفسه وي بذل ماله في سبيل الله تعالى.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل الجهاد وثوابه العظيم عند الله تعالى، فبادروا إلى الجهاد، ولبوا دعوة النفير.

وقد لبى الصحابة رضي الله عنهم دعوة النبي ﷺ إلى جهاد الروم، وبذلوا أموالهم، وخرجوا بأنفسهم، فلم يتخلف منهم سوى ثلاثة فقط من دون عذر كما سيأتي معنا. وخرج رسول الله ﷺ بأكبر قوة عسكرية حشدتها في حياته، بلغت ثلاثين ألف مجاهد، في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة، وما إن سمع الروم ومن معهم بخروجه عليه الصلاة والسلام حتى امتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً، فانسحبوا من مواقعهم في تبوك، ووصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، ونصب فيها

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٤٤/٢.

راياته، متحدياً أكبر دولة في الأرض حينئذٍ، وبثَّ سراياه في البلاد المحيطة بها، حتى وصلت إلى أيلة (العقبة) ودومة الجندل، فأخضعها لسلطانه، وأخذ من أهلها الجزية، ثم عاد ﷺ إلى المدينة المنورة مظفراً منتصراً.



الفصل الثالث

المنافقون

وكيفية تطهير المجتمع من مكرهم وكيدهم

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُولُوعُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٢١﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهْمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾ لَقَدْ اسْتَعَاذَ الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَالُوا لَكَ الْأُمُورُ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَا دُنِيَ النَّفْتِيُّ آلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوِلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾ قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضَوْا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرِضُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَنْتَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللهِ إِنْهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ
 ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ
 فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا
 آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ
 رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي
 الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَآلِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾
 وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ
 لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللهِ
 لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن
 يُحَادِدُ اللهُ وَرَسُولُهُ فَأَبَى لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ
 الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِلَّكَ اللهُ تَخْرُجُ مَا تَحْذَرُونَ
 ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ
 تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذَرُوا فَمَنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَذَّبُ طَائِفَةً
 بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
 ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنُهُمْ
 اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا
 وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ
 وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوَّيْ نُوْحٍ وَعَادِ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ
 وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يَأْتِيَنَّهُ فَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَلَكِنْ
 كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ حَتَّيْنِ تَخْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْغَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَفْقُونَ حَرْجٌ إِذَا مَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَتْهُمْ نَفِيسٌ مِنَ الدَّمَغِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُثُوا مَا يُفْقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ .

• توبيخ المتناقلين:

اتخذت الآيات غزوة تبوك مناسبةً للحديث عن المنافقين وكشفهم، وتنظيف المجتمع المسلم منهم، ولما كانت آياتُ السورة قطعياً ونهائياً جاءت كبلاغٍ أخير وإنذارٍ نهائيٍّ لهم، وفضحت آياتُ السورة جميع شرائع النفاق، فلم تغادر من المنافقين أحداً إلا فضحته وكشفت أمره، حتى سُميت السورة الفاضحة، وسميت أيضاً المبعثرة، لأنها أخرجت ما في قلوبهم ونفوسهم. وكانت غزوة تبوك اختباراً كبيراً، محصت المؤمنين، وميزتهم عن المنافقين، وكشفت كذب الكاذبين، وأظهرت صدق الصادقين. ولما أعلنت الآيات النفير العام، استجاب المؤمنون الصادقون لدعوة الجهاد كما مر معنا، وتناقل المنافقون وتخلّفوا، فاتجهت الآيات إليهم توبيخهم، وتظهر عجزهم وضعفهم أمام نفوسهم وأهوائهم، قال تعالى:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ .

﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دُعوا إليه .

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ منفعة دنيوية سهلة المآخذ .

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ سهلاً قريباً.

﴿لَا تَبْعُوكُ﴾ لخرجوا معك، ولبوا دعوتك.

﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ مسافة السفر، فلا تُقَطِّعْ إلا بمشقة وتعب

وعناء، ففي نظرهم لا يعادل ما يحصل لهم من التعب ما يرجونه من المنفعة.

فهم ذوو همم ضعيفة عاجزة قاصرة، ونفوس دنيئة مادية جشعة، لا تتحرك إلا لما يلوح لها من المنافع الأرضية الفانية، والإسلام رسالة كبيرة رفيعة، لا يقوم بأعبائها إلا أصحاب الهمم العالية، والنفوس الكريمة الأبية.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على علو الهمة، والتطلع إلى معالي الأمور، والإعراض عن سفاسفها، ومن أقواله عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ مُعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفَسَافَهَا» [رواه الطبراني في المعجم الكبير].

وقبل أن تشرع الآيات الكريمة باستعراض شرائح المنافقين وبيان الخصال المذمومة في كل شريحة، بينت موقف المنافقين إجمالاً من غزوة تبوك، وأخبرت النبي ﷺ بتخلفهم عن الخروج إليها، وأنهم بعد رجوع النبي ﷺ منها، سيأتون إليه معتردين عن تخلفهم، وهم يحلفون الأيمان الكاذبة على صحة اعتذارهم:

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو استطعنا الخروج إلى

غزوة تبوك لخرجنا، فكأنهم تمارضوا، وأدعوا الضعف والعجز عن الخروج إلى الجهاد، وحلفوا الأيمان الكاذبة على ذلك، وبهذا:

﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ لأن الأيمان الكاذبة تهلك أصحابها، وتعرضهم لسخط

الله تعالى وانتقامه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في أعتذارهم وأيمانهم.

● شهادة ربانية:

وسبق للمتخلفين من المنافقين أنهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يستأذنونهم في

العودة وعدم الخروج، عندما كان الرسول ﷺ يستعدُّ مع أصحابه للخروج إلى تبوك، فأذن لهم ﷺ لعلمه أنَّ خروجهم معه لا نفع فيه، وأنه لا يُعتمد عليهم في القتال، ولهذا توجهت الآيات تخاطب النبي ﷺ بهذا الأسلوب اللطيف:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ (٤٣).

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً له: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري؟ رضي الله عنك، ما جوابك عن كلامي؟ وعافاك الله، وغفر لك، وكلُّ هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدلُّ على تعظيم المخاطب به^(١).

﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في اعتذارهم.

﴿وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ فالتكليف بالجهاد ابتلاء واختبارٌ يميّز بين المؤمنين والمنافقين، ويظهر الصادقين من الكاذبين.

فالمؤمنون الصادقون لا يتخلّفون عن الجهاد، ولا يأتون إلى النبي ﷺ لكي يستأذّنوه في التخلّف:

﴿لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِقِينَ﴾ (٤٤).

وفي الآية الكريمة شهادة ربانية رفيعة، أكرمهم الله تعالى بها بسبب صدقهم وإخلاصهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥).

﴿إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ﴾ في التخلّف عن الجهاد.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بسبب الشك والاضطراب الذي يملأ قلوبهم .

﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ فهم في شكهم واضطرابهم يتحيرون، فاستئذنانهم يدل على حالهم، ويكشف حقيقتهم، فالشك والقلق والحيرة والاضطراب أبرز الصفات التي يتصف بها المنافقون .

ولو كانوا يريدون الخروج إلى الجهاد لأعدوا عدته، وأخذوا للأمر أهبة:

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ للسفر والجهاد .

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ خروجهم إلى الجهاد مع النبي ﷺ .

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فصرفهم عن الخروج، وزهدهم فيه، ونتيجة ذلك:

﴿وَقِيلَ أَفْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ عن الجهاد، كالعجزة والمرضى والنساء والصبيان، فللمكارم أهلها وأصحابها، كما قال الشاعر أبو الطيب المتنبي:

على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وتأتي على قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وأما شأن المتخلفين فكقول الحطيفة:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

• المسارعون إلى الفتن:

ثم بين سبحانه حكمته في تشييطهم عن الجهاد، فقال:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُتَمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشرّاً، والمعنى: لو خرجوا

معكم ما زادوكم قوة، لكن فساداً وشرّاً، بإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين، بتهويل الأمر، وشدة السفر، وكثرة العدو وقوتهم^(١).

﴿وَلَا تَوَضُّعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولأسرعوا بنشر الخلاف والفتن، وإشاعة الأخبار الكاذبة بينكم.

﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ يطلبون إحداث الخلاف والخلل والاضطراب في صفوفكم، فلا تأسفوا على تخلفهم عنكم.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: وفيكم من يسمع أكاذيب المنافقين، ويصدقها، بسبب سذاجتهم، وبساطتهم، وسلامة صدورهم.

ولا يخلو مجتمع عن أمثال هؤلاء السذج البسطاء من الناس، وهم نقطة ضعف في وحدة الأمة، كثيراً ما استغلها الأعداء، وتسلبوا عن طريقها إلى جسم الأمة، ففرقوها ومزقوها، بواسطة ما أشاعوا من أراجيف وأكاذيب.

فالواجب يقتضي توعية أمثال هؤلاء الناس وتحذيرهم من الوقوع في شباك المنافقين والمداهنين، وخاصة في أوقات الحروب والأزمات.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ علماً تاماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، ولا يخفى ما في الآية من وعيد لهم.

ثم ذكرت الآيات النبي ﷺ بماضي المنافقين الأسود، وصحيفة سوابقهم المشينة:

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨).

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ في غزوة أحد عندما خذلوا المسلمين، وعادوا مع زعيمهم عبد الله بن أبي، إلى المدينة المنورة، وكذلك في غزوة بني المصطلق، عندما استغل ابن أبي خلافاً حدث بين مهاجري وأنصاري، فقال

ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ الآية [المنافقون: ٨].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ (أي: ضربه على دبره) رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمعها رسولُ الله ﷺ فقال: «ما بالُ دعوى الجاهلية؟!» وزاد في رواية ثانية: «دعوها فإنَّها مُتَنَنَةٌ» فقال عبد الله بن أبي: فعلوها؟! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليمُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل. فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقام عمرُ فقال: يا رسولَ الله دعني أضرب عنقَ هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» [رواه البخاري (٤٩٠٧)].

وفي غير ذلك من مواقفهم المخزية.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد.

﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ بنصر الله وتأييده، وعصمة النبي ﷺ من مكرهم وكيدهم.

﴿وظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بعلو دينه وظهوره وانتشاره.

﴿وَهُمْ كَرِهُونُ﴾ لذلك، فكلَّمَا أعزَّ الله الإسلام وأهله ازدادت قلوبهم

غيطاً، ونفوسهم حقداً، فحالهم في هذا كحال أهل الكتاب الذين سبق معنا قوله تعالى فيهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

• أعذار واهية:

ثم عرضت الآيات نماذج من الأعذار الواهية التي اعتذر بها بعض المنافقين عن الخروج إلى غزوة تبوك، قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَسْأَلُنِي وَلَا تَقْتُلْنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَسْأَلُنِي﴾ في التخلف والقيود.

﴿وَلَا تَفْتَنِّي﴾ أي: لا توقعني في فتنة العصيان والمخالفة؛ فهو متخلف في حال الإذن وعدمه. أو: لا تعرضني لأسباب الافتتان، برؤية نساء الروم، الشقراوات الجميلات.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الذي اعتذر بهذا العذر: الجَدُّ بن قيس، إذ قال له النبي ﷺ ذات يوم، وهو في جهازه: «هل لك يا جدُّ العام في جلاذ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي، ما رجلٌ أشدَّ عجباً بالنساء مني، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبرَ عنهنَّ. فأعرضَ عنه رسولُ الله ﷺ وقال: «قد أذنتُ لك»، ففي الجَدُّ بن قيس نزلت هذه الآية. [أخرجه ابن المنذر والطبري (١٤٧/١٠) وابن مردويه^(١)].

هكذا تظاهر المعتذرون بهذا العذر بالورع والحرص على الدين، فما كان اعتذارهم عن الخروج إلى الجهاد إلا خوفاً من مقارفة المعاصي، وتورعاً عن رؤية أسابها!.. وهو ورع كاذب، ردّه الحق جلّ وعلا، فقال:

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ ففي الفتنة نفسها سقطوا لا في غيرها، فتخلفهم عن رسول الله ﷺ هو الفتنة بعينها، تلبّسوا بها، وأحاطت بهم من كل جانب.

وفي التعبير بالسقوط ما يشعر أنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشدَّ من مجرد الدخول في الفتنة^(٢).

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ كما أحاطت بهم الفتنة من كل جانب.

• حسد وشماتة:

وكيف يتظاهرون بهذا الورع الكاذب، وقلوبهم ممتلئة بالحقد والحسد للمسلمين عموماً، وللنبي ﷺ على وجه الخصوص؟! يظهر ذلك من قوله تعالى:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٤٧/٢؛ والسيرة النبوية، لابن هشام: ١١٨/٤.

(٢) فتح القدير: ٣٩٧/٢.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي: إذا أصابك في مغازيك وجهادك نصر وظفر وغنيمة يحزنون ويستأثرون، لشدة عداوتهم وبغضهم لك، فلا يريدون وصول أي خير إليك.

﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ شدة من شدائد القتال كجرح وقتل .
﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ بالحيلة والحذر في تخلفنا عن الجهاد،
وقعودنا عن الخروج .

فهم معجبون برأيهم، ويرون أنهم متصفون باليقظة والحذر والحيلة، كأنَّ الخروجَ مع النبي ﷺ نوع من المغامرة والتهور والتسرّع في زعمهم .
﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ وينصرفوا عن النبي ﷺ وهم شامتون مسرورون، لما ناله من المصيبة، ولسلامتهم منها .
وبعد أن فضحتهم الآيات، وكشفت خبيثة نفوسهم، أمرت النبي ﷺ أن يردَّ عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: إلا ما قدره سبحانه واختاره لنا بإرادته ومشيئته .

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ هو ناصرنا ومتولي أمورنا، ولا يختار لنا سبحانه إلا الخير، فنحن في جميع الأحوال نفوض أمورنا إليه تعالى، ونرضى بما كتب لنا جلَّ وعلا .

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ذلك هو شأن المؤمنين بالله تعالى، يفوضون أمورهم إليه، ويتوكلون عليه وحده، ويرضون بما كتبه لهم، وقدره عليهم .
وتهون المصائب على الإنسان إذا علم أنَّ ما قدر الله كائن لا محالة، وأنَّ

كلَّ ما ناله من خير أو شر، إنَّما هو بقدره وقضائه، ولا يجد الإنسان المسلم مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة.

وغاب عن الحسدة الشامتين أمرٌ آخر، أمر الله سبحانه النبي ﷺ أيضاً أن يبيِّنه لهم بأسلوب التوبيخ لهم والتقريع:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُوكُمْ إِنَّا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُوكُمْ إِنَّا﴾ أي: هل تنتظرون أن ينزل بنا.

﴿إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي: إلا إحدى العاقبتين اللتين كلُّ واحدة منهما هي حسنى العواقب، وهما: النصر والشهادة، فما يزعمونه مضرّة للمسلمين من القتل والشهادة، أنفع مما يعدُّونه منفعة من النصر والغنيمة^(١).

وجاء في الحديث النبوي الشريف: أنه ﷺ قال: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا جِهَاداً فِي سَبِيلِي، وَإِيمَاناً بِي، وَتَصَدِيقاً بِرَسُولِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أَرْجَعَهُ إِلَى مَسْكِنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: وبالمقابل فنحن ننتظر بكم إحدى السوءتين: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ كما أصاب من كان قبلكم من المكذبين.

﴿أَوْ يَأْتِيَنَا﴾ بالظفر بكم والنصر عليكم.

﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ولا يخفى ما في الأمر بالتربُّص من التحدي والتهديد لهم.

• نفقة مردودة:

ويبدو أنَّ بعض المنافقين بذل بعض المال للجهاد رياءً وسمعةً، وسترًا

(١) تفسير أبي السعود: ٧٣/٤.

لتخلفه عن الخروج بنفسه إلى الجهاد، فأمر الله تعالى النبي ﷺ برّد هذا المال، وعدم قبوله، قال سبحانه:

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمُ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ وهو خبرٌ جاء بصيغة الأمر، أي: لن تقبل منكم نفقاتكم، سواء أنفقتم طائعين أو مكرهين.

ومعنى عدم القبول أنه عليه الصلاة والسلام يردّها عليهم، أو أنه تعالى لا يثيبهم عليها، والسبب بيّنه تعالى بقوله:

﴿إِنْكُمُ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الإيمان، كافرين، فلا يقبل الله تعالى أيّ عمل صالح من كافر، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال أيضاً: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جُعدان كان في الجاهلية يصلُّ الرِّحْمَ، ويطعمُ المسكينَ، فهل ذلك نافعُه؟ قال: «لا ينفعُه، إنَّه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [رواه مسلم (٢١٤)].

فالكفر يمنع قبول أي عمل، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَذِرْهُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ومن الأدلة الدالة على كفرهم:

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ متناقلين، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ

الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

فلا رغبة لهم في الصلاة بسبب كفرهم، فلا يرجون على فعلها ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً.

ومن علامات كفرهم أيضاً:

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ للانفاق، وإذا ما أنفقوا فللرياء والسمعة، ودفع التهمة.

• المعدَّبون في الدنيا والآخرة:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ هذا أدب رباني رفيع، وجَّهه سبحانه إلى نبيه ﷺ، لأنه القدوة الطيبة للمؤمنين، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

ومن المعلوم أن الإعجاب بالشيء يستدعي تعلق النفس به، ونفس النبي ﷺ مُعْرِضَةٌ عن الدنيا إعراضاً كاملاً، ومتعلقة بالله تعالى، حتى كان ﷺ يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفي رواية: «كفافاً» [رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (٧٤٤٠)].

وكان في معيشته عليه الصلاة والسلام زاهداً في الدنيا، مُعْرِضاً عنها، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتالين حتى قبض رسول الله ﷺ. [رواه البخاري (٥٤٢٤) ومسلم (٢٩٧٠)].

وكان المنافقون ذوي أموال وأولاد، ومن أجلها فُتِنُوا ونافقوا، فجعلها سبحانه سبب شقائهم وعنائهم في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لهذا تراهم يكابدون في جمعها

وحفظها من الهموم الكبيرة والشدائد الكثيرة، ويكابدون أيضاً لما يصيبهم فيها من المصائب، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون التقرب بها إلى الله تعالى بسبب نفاقهم وكفرهم، فنفقاتهم - كما مر معنا - مردودة غير مقبولة. ولا يزالون هكذا حالهم حتى يختم لهم بالخاتمة السيئة فيموتوا على الكفر والنفاق:

﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكِفْرُونَ﴾.

وما أكثر ما نرى في حياتنا المعاصرة من أمثال هؤلاء المنافقين، يكذبون ويكدهون طول أعمارهم في جمع الأموال وتكديس الثروات، ثم يسقطون على طريق الكدح والكذب عندما توافيهم منيتهم، وما جنوا من حياتهم إلا التعب والشقاء والهم والعناء، كما قال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَمَرِيبٍ يَبْقِعَةُ الظُّلُمَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

أولئك تجار الآمال الخادعة والأمانى الكاذبة، المعذبون في الدنيا والآخرة.

• الانتماء والغرباء:

وثمة شقاء آخر يعاني منه المنافقون إلى جانب شقائهم بأموالهم وأولادهم، وهو الخوف والقلق، وعدم الشعور بالأمن، وهو نتيجة طبيعية لما يخفون في قلوبهم من كفر ونفاق، فشأنهم شأن المجرم الذي أخفى جريمته، وهو يخشى أن تظهر الأدلة التي تدل عليها.

كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ يخافون أن ينكشف أمرهم، ويُفتضح نفاقهم، بواسطة وحي ينزله الله تعالى على النبي ﷺ، ولهذا كانوا في همٍّ دائم وقلق مستمر، إنهم في أشد الحاجة إلى الإحساس بالأمن وتذوق الطمأنينة النفسية والسكينة القلبية، ولا يتأتى لهم هذا الإحساس إلا إذا طهروا

قلوبهم من النفاق، وأكدوا بذلك انتماءهم إلى المجتمع المسلم، عندئذ يشعرون أنهم جزء منه، ويتذوقون الأمن والطمأنينة في ظلاله.

ولهذا كانوا يحاولون التأكيد على صلتهم بالجماعة المسلمة والمجتمع المسلم، وأنهم جزء منه، بالأيمان الكاذبة:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ (٥٦).

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ في الدين والإيمان والإسلام، والحقيقة تكذبهم، فالإيمان ليس مجرد دعوى يدعيها الإنسان بلسانه، الإيمان تصديق وانقياد واستسلامٌ لدين الله تعالى وشريعته.

﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ بسبب الكفر والنفاق في قلوبهم، إنه الذي يقطعهم عنكم، فإذا ما انقطع حبل الإيمان والعقيدة انقطعت معه كل الحبال، وجميع الصلات الأخرى، كصلة النسب والأرض والمصلحة، وما حدث لنبي الله نوح مع ولده الكافر أكبر شاهدٍ على صحة ذلك: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٥٧) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود].

إن المنافقين غرباء عن المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه، وإن الشعور بالاغتراب نابغ من قلوبهم، وهو الذي يقلقهم ويزعجهم، ويجعلهم في همٍّ دائم، واضطراب نفسي مستمر.

﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون أن يُفْتَضَحَ حالهم، وتتكشف حقيقتهم.

إن الشعور بالانتماء أمن وسكينة، بينما الشعور بالاغتراب خوف وضعف وقلق واضطراب، وقد صوّرت الآيات الكريمة شدة خوف المنافقين وقلقهم بقوله تعالى:

﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٥٧).

﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلَجًا﴾ يلجؤون إليه.

﴿أَوْ مَغْرَبٍ﴾ في بطون الجبال وأعماق الشعاب.

﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ أي: مكان يدخلون فيه، يحسون داخله بالأمان والطمأنينة.

﴿لَوْلَوْا إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا إليه.

﴿وَهُمْ يَجْمَعُونَ﴾ وهم مسرعون إسراعاً لا يرُدُّهم عنه شيء، كالفرس

الجموح المسرع الذي لا يُثنيه اللجام.

النفاق قطعهم عن المجتمع المسلم، وجعلهم يشعرون بالخوف

والاغتراب، وهذا يدلُّ على قوة المجتمع المسلم، وسلامة بنيته الداخلية في

عهد النبي ﷺ وعهود أصحابه والتابعين بعده، وما دام المنافقون يشعرون

بالخوف والاغتراب، فالمجتمعُ المسلمُ بخير وعافية، وأما عندما تنعكس

الأحوال، وتتغير المواقف، وتضطرب القيم، ويستشعر المؤمنون الصادقون أنهم

غرباء عن مجتمعهم بسبب صدقهم وصلاحهم وتمسُّكهم بدينهم واستقامتهم

عليه، بينما يطمئنُ المنافقون، فالمجتمع عندئذٍ مجتمعٌ مريض، غلب عليه

الفسادُ والنفاقُ. ومن أعلام نبوته ﷺ قوله: «بدأ الإسلامُ غربياً، وسيعودُ غربياً

كما بدأ، فطوبى للغرباء» [رواه مسلم (١٤٥)].

• أهم أسباب النفاق:

الحرص على المصالح المادية، وشدة التأثر بها، هو أهم أسباب النفاق،

وكُلَّمَا غلبت المادية على نفوس الناس، ازداد النفاق، واستشرت جذوره في

أعماق المجتمعات الإسلامية، وهذا ما أكَّده الآيات القرآنية الكريمة، وهي

تتحدث عن شريحة من شرائح المنافقين:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ

يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: ومن المنافقين مَنْ كان ينتقد النبي ﷺ،

ويعيبه سراً في قسمة الصدقات، وهي أموال الزكاة، فحبُّ المال والحرص عليه

أعمى بصائرهم عن رؤية مقام النبوة، وإجلاله واحترامه، ومعرفة قدره عليه الصلاة والسلام، وأنه لا يفعل إلا ما يأمره به ربه جلّ وعلا.

﴿فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا﴾ قدر ما يريدون.

﴿رَضُوا﴾ بالقسمة واستحسنوها.

﴿وَإِنْ لَمْ يَعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون على النبي ﷺ، فرضاهم وغضبهم لأنفسهم ومصالحتهم، لا لدينهم.

وهذه الآيات جاءت في سياق الآية التي وصفتهم بكثرة الأموال والأولاد: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] مما يدل على شدة طمعهم وجشعهم، كما يدل أيضاً على قوة الاتساق والاحتباك بين الآيات الكريمة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٥٩).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وإن قلّ. وذكر الله ﷻ للتعظيم وللتنبية على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره سبحانه.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كفانا فضله وقسمه لنا.

﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ الذي لا يخالف أمره سبحانه.

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ لا إلى غيره سبحانه، فلو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم من اعتراضهم على قسمة النبي ﷺ.

• مصارف الزكاة:

ثم بين سبحانه مصارف أموال الزكاة والمستحقين لها، فلا يجوز صرفها لغيرهم، فقال:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٠).

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ المحتاجين حقيقةً وفعلاً، لا عجزاً وكسلاً، قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّةٍ سويٍّ» وهو الذي يقدر على العمل والكسب، غير عاجز ولا ضعيف. [والحديث رواه أحمد (١٦٤/٢) وأبو داود (١٦٣٤) والترمذي (٦٥٢)].

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الذين يعملون ويدأبون في طلب الرزق والاكتساب، فلا يحصلون على ما يكفيهم لسد حاجاتهم، وتمنعهم عقبتهم وكرامتهم عن دُلِّ السؤال والتكفف.

قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمرّة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْظَنُ له فيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» [رواه البخاري (١٤٧٩) ومسلم (١٠٣٩)].

﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الساعين في جمع أموال الزكاة وتحصيلها، فهؤلاء يُعْطَوْنَ أجورهم منها، ولو كانوا أغنياء.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ﴾ على الإسلام، كان رسول الله ﷺ يتألفهم على أن يسلموا، ويعطي آخرين أسلموا تقريراً لهم على الإسلام^(١).

وهذا يدل على أن لولي الأمر أن يصرف جزءاً من أموال الزكاة لنشر الدعوة الإسلامية بين الناس، فيعطي منها من يُرجى إذا دخلوا في الإسلام أن يقتدي بهم غيرهم.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أي: وفي فك الرقاب، وتخليص العبيد من الرقّ وذللّ العبودية. فالإسلام دين الحرية، وقد شرع كثيراً من الشرائع لتحرير الأرقاء، ومنها

(١) تفسير النسفي: ١٤٤/٣.

تخصيصُ جزءٍ من مال الزكاة لمساعدة العبيد المكاتبين، وهم الذين يتفقون مع ساداتهم على أن يؤدّوا لهم مبلغاً معيناً من المال في مقابل إعتاقهم وتحريرهم، وقد ندب الإسلام إلى ذلك وحثّ عليه في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] وشرع مساعدتهم من أموال الزكاة.

﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ الذين ركبتهُم الديون وأثقلتهم، ولا يملكون وفاءً لها، وخاصة الذين استدانوا لكي يصلحوا بين المتخاصمين، فهؤلاء يعطون من الزكاة لسدّ التزاماتهم ووفاء ديونهم.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: للمجاهدين في سبيل الله تعالى، يعطون من الزكاة ليستعينوا بها على أمر الجهاد.

﴿وَأَن السَّيْلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله في الطريق.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: فرض الله تعالى الزكاة في أموال الأغنياء، وجعلها في هذه المصارف، فلا يجوز لأحد أن يغيّرها ويبدّلها، لأنها فريضة الله العليم الحكيم:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ للزكاة دوراً كبيراً في نظام التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع المسلم، وأن لها صلة أيضاً بالدعوة الإسلامية ونشرها وحمايتها.

• أذن الخير:

أنزل القرآن الكريم النبي ﷺ في قلوب المؤمنين أعلى المنازل وأرفعها، فهو الأول في قلوبهم ونفوسهم، ووجدانهم وسلوكهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٦] ^(١).

وحبه عليه الصلاة والسلام وطاعته والتمسك بسنته أول كل شيء، ومقدّم

(١) انظر ما كتبه المؤلف في معنى هذه الآية في: تفسير سورة الأحزاب، وقد أصبح عنوان هذه السورة في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

على كل شيء في حياة المؤمنين، وقد مرَّ معنا التأكيد على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قَدْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

والقلوب التي ملأها مرضُ النفاق لا تعرفُ للنبي ﷺ هذه المنزلة، التي له في قلوب المؤمنين، وقد مرَّ معنا من قريب جرأة المنافقين على النبي ﷺ، وسوء أدبهم معه، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقد مهَّد سبحانه في هذه الآية لبيان شدة بغض المنافقين للنبي ﷺ، وسعيهم في إيذائه، فقال جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ أي: ومن المنافقين، وهم شريحة جديدة من شرائح النفاق، ظهرت فيهم خصلة من خصاله، وهي بُغض النبي ﷺ، والسعي في أذاه.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كلَّ ما يقال له ويصدِّقه.

وقصدوا بذلك ذم النبي ﷺ، وأنه في زعمهم سليم القلب، سريعُ الغرار، سهلُ خداعه والاحتياال عليه، فمهما فعلوا أو تكلموا، فإن جاؤوا إليه، وكلموه؛ واعتذروا له؛ صدَّقهم، وتجاوزَ عنهم، وقَبِلَ اعتذارهم، وهذا ما شَجَّعهم على التخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك.

وغفلوا عن حقيقة هامة، هي أنه عليه الصلاة والسلام كان يعاملهم بحسب علانيتهم، مع علمه عليه الصلاة والسلام بحقيقتهم، ويَكِلُ سرائرهم إلى الله تعالى، لأنه رسول في مقام الأسوة والقدوة، ولا يريد عليه الصلاة والسلام أن يَسَنَّ لِمَنْ بعده سنَّة التفتيش عن أسرار الناس، فيعاملوهم بالظن والحدس والتخمين، فإنَّ ذلك يُوَدِّي إلى الظلم.

وعندما فعل ذلك بعض أصحابه أنكر عليهم إنكاراً شديداً:

ففي الحديث الشريف: أَنَّ رجلاً من بني سُليم، مرَّ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعه غنمٌ، فسَلَّمَ عليهم، فقالوا: ما سَلَّمَ عليكم إلا ليعودَ منكم، فقاموا فقتلوه، وأخذوا غنمه وأتوا بها رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ آَلَفَ إِلَىٰكُمْ أَلَسَلَّمْتُ لَكُمْ مُّؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]. [رواه البخاري (٤٥٩١) ومسلم (٣٠٢٥) وأبو داود (٣٩٧٤)].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَةِ (اسم قبيلة) فصَبَّحنا القومَ، فهزمناهم، فلحقْتُ أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلَمَّا غشينا، قال: لا إله إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاري، وطعنته برمحٍ فقتلته، فلَمَّا قدمنا بلغَ ذلك النبي ﷺ، فقال: «يا أسامة! أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟!» قلت: إنَّما قال متعوذاً، قال: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟!» فما زال يكررها حتَّى تمنيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبلَ ذلك اليوم. [رواه البخاري (٦٨٧٢) ومسلم (٩٦)].

وبعد أن حكى الله تعالى قول المنافقين في النبي ﷺ، ردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن هو، يسمع الخير ويقبله، لا كما ظنَّه المنافقون بسبب غباثتهم وضعف إدراكهم. ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدِّق بالله تعالى.

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدِّق المؤمنين، ويقبل منهم، لما علم من إيمانهم وإخلاصهم.

﴿وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ وهو عليه الصلاة والسلام رحمة للذين أظهروا الإيمان من المنافقين، حيث قبل علانيتهم، ولم يكشف حقيقتهم ويفضحهم. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

فالويل كل الويل لمن يؤذي رسول الله ﷺ، ولا يعرف حقَّه وفضله، وينزله المنزلة الرفيعة التي أنزله الله تعالى بها.

● مطايا المنافقين:

الأيمان الكاذبة مطايا المنافقين، يحاولون أن يستروا بها نفاقهم، ويسخروها لمآربهم الفاسدة، وأغراضهم الخبيثة، إلا أن آيات التنزيل الحكيم كانت لهم بالمرصاد، تفضحهم، وتبين كذبهم:

﴿يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢)

﴿يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ أي: لترضوا عنهم أيها المؤمنون، فالمنافقون يسعون من أجل تأمين مصالحهم أن يكسبوا رضا المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والرسول ﷺ أحقُّ بالإرضاء من غيره، وذلك بطاعته، وموافقة أمره، واتباع سنته، وإيتاء حقوقه، وإعظامه وإجلاله عليه الصلاة والسلام في حضوره وغيبته.

ودلّ توحيد الضمير في ﴿يُرْضَوْهُ﴾ على أن رضا الرسول ﷺ من رضا الله تعالى، كما أن طاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠].

فتلازم رضا الله والرسول ﷺ جعلهما كشيء واحد، فعاد إليهما الضمير المفرد. أو نقول: الضمير للرسول ﷺ، والخبر له لا غير، لأن الكلام في إيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام وإرضائه، فيكون ذكر الله تعالى تعظيماً له عليه الصلاة والسلام^(١).

وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يدلّ على أن المؤمن الحقّ يسعى للحصول على رضوان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام دون نظر منه للناس، فلا ينافق، ولا يجامل، ولا يداهن، ولا يخاف في الله لومة لائم،

(١) انظر: روح المعاني: ١٢٨/١٠.

وكل شيء عنده يهون من أجل الوصول إلى رضوان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وكلمة المصلحة، ومراعاة المصالح وتأمينها، السائدة بين الناس في هذا العصر، والتي من أجلها تجاوزوا كثيراً من أحكام الدين، وخرقوا قواعد شريعته، لا مكان لها في حياة المسلم الحريص على الوصول إلى رضوان ربه سبحانه ورضا الرسول ﷺ.

وفي الحديث الشريف: عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ التَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخِطِ النَّاسِ، كَفَاهُ اللَّهُ مَوْئِنَهُ النَّاسِ، وَمَنْ التَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخِطِ اللَّهِ، وَكَلَّهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ» [رواه الترمذي (٢٤١٤)].

● الفاضحة:

فعلى أولئك المنافقين الحريصين على إرضاء الناس من أجل مصالحهم، أن يعلموا هذه الحقيقة المخيفة المرعبة:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣)

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يخالف الله ورسوله.

فالمحادة: المخالفة والمعادة، يقال: حادَّ فلان فلاناً، إذا صار في غير حده، وخالفه في أمره.

﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك العذاب في جهنم هو الذل والهوان والفضيحة.

والخوف من الفضيحة وانكشاف أمرهم، يلزم المنافقين - كما مر معنا - في كل أحوالهم وتصرفاتهم، حتى وهم في مجالسهم الخاصة مع بعضهم، قال تعالى يخبرهم عن خوفهم وحذرهم من الفضيحة:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنْ أَلَّاهُ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وقد أنزل الله سبحانه هذه السورة فعلاً، إنها هذه السورة التي بين أيدينا، قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة، فضحت المنافقين^(١).

﴿قُلِ اسْتَزِرُوا إِنْ أَلَّاهُ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ فمهما استهزأتم وأخفيتم فإن الله تعالى سيكشفكم ويفضحكم، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

﴿وَلِينَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

﴿وَلِينَ سَأَلْتَهُمْ﴾ بعد أن فضحهم الله سبحانه عما تكلموا به .
 ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الحديث على غير قصد ونظام .
 ﴿وَنَلْعَبُ﴾ بما لا حرج علينا فيه .
 ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: قل لهم ذلك موبخاً ومقرعاً غير ملتفت إلى اعتذارهم .

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي: لا تشتغلوا بالاعتذار، وتستمروا عليه، فالكذب ظاهر واضح، والجريمة كبيرة وعظيمة .
 ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الذي تدعونه وتظهرونه .

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٥٢/٢ .

وتدل الآية على أَنَّ الجِدَّ واللَّعب في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك^(١)؛ فأمر العقيدة خطيرٌ، وشأن الدين كبيرٌ، وعلى المؤمن أن يحذر من فلتات لسانه وزلاته.

﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ علم الله تعالى أنهم سيتوبون عن نفاقهم، ويُخلصون في إيمانهم.

﴿تُعَذِّبُ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: بسبب أنهم مصرون على النفاق متمسكون بالإجرام.

قال ابن إسحاق: كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت، ورجل من أشجع يقال له: مخشي بن حمير، يسرون مع رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: «أتحسبون جلاّد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟! والله لكأنّا بكم غداً مقرّنين في الجبال» إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار، فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله إنّما كنا نخوض ونلعب. وقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عُفي عنه في هذه الآية مخشي بن حمير، فتسمّى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة^(٢).

• اختلال الموازين وانعكاس القيم:

وللمنافقين صفات خاصة يتميزون بها عن المؤمنين، بينها سبحانه بقوله:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: يشبه بعضهم بعضاً، فهم من

(١) روح المعاني: ١٣١/١٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٥٣/٢.

طينة واحدة، وطبيعة واحدة، ولو اختلفت أفعالهم وأقوالهم، لأنها ترجع إلى أصل واحد، وتنبع من معين واحد، وهو سوء الطويّة، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عند المواجهة، والجبن عن المصارحة^(١).

تلك هي الصفات العامة لهم، وأما سلوكهم:

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ مما يدلُّ على مدى الخل والاضطراب في نفوسهم، حتى انعكست القيم في نظرهم، فأصبح المنكر معروفاً، يأمرون به، ويدعون إليه، وأصبح المعروف عندهم منكراً، يمتقونه ويمنعونه، وهو ما نراه في عصرنا الحاضر فاشياً في كثير من المجتمعات، حتى الإسلامية منها، مما يدلُّ على ذبوع النفاق وانتشاره الكبير بين الناس.

وفي الحديث الشريف: عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا فسق فتياؤكم، وطغى نساؤكم؟» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «نعم وأشدُّ، كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «نعم وأشدُّ، كيف بكم إذا أمرتُم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف؟» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «نعم وأشدُّ، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «نعم» [رواه رزين].

﴿وَيَقِضُون أَيَدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله، وإذا ما أنفقوا شيئاً، أنفقوه كارهين أو مرأئين.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا طاعة الله، وغفلوا عن ذكره، فحرمهم من رحمته وعفوه يوم القيامة، والجزاء من جنس العمل، كما جاء في قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيلَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ كَذَلِكَ أَتَيْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِيْكَ

(١) في ظلال القرآن: ١٦٧٣/٣.

أي: تعامل معاملة المنسي، والله سبحانه منزه عن النسيان ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون على ربهم، والخارجون عن طاعته.

• المنافقون والمستغربون:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٦٨).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: هي كافيتهم، فعذاب جهنم عذاب عظيم بلغ الغاية، فلا زيادة عليه. ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، وطردهم من ساحة فضله وإحسانه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ معهم في الدنيا لا ينفك عنهم، وهو ما مر معنا من الخوف والقلق والاضطراب.

ومع هذا الوعد القطعي دعتهم الآيات إلى التوبة والإنابة، فباب التوبة - كما سبق معنا - مفتوح، فلا يأس من رحمة الله، وطلبت منهم أن يعتبروا بمصير المعاندين المكذبين من قبلهم:

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩).

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: تمتعوا بنصيبهم المقدّر لهم من شهوات الدنيا وحظوظها. ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ مقتفين آثارهم دون أن تنظروا في مصيرهم. ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ في التمتع بشهوات الدنيا،

فمتاع الدنيا مقدر، ولا يستطيع طلاب الدنيا وعبيد متاعها أن يأخذوا منه إلا ما قَدَّر لهم.

﴿وُخْضِمُوا فِي الْبَاطِلِ﴾.

﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: كخوضهم في الباطل، فأنتم تقلّدونهم في باطلهم وشهواتهم فقط، تماماً كما هو حال المستغربين من أبناء المسلمين، يقلّدون الكفار في باطلهم وشهواتهم فقط.

﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فلا هم من أبناء الدنيا ولا من أبناء الآخرة.

والآية تذكّر المنافقين في قولهم الذي مرّ معنا من قريب: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

ثم صرحت لهم الآيات ببعض أولئك الذين استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم من الدنيا، وكيف أعرضوا عن دعوة المرسلين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ مدائن لوط.

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باتباعهم للشهوات، وإعراضهم عن البيّنات.

• مقارنة:

ثم عقدت الآيات الكريمة مقارنةً بين ما سبق من صفات المنافقين وسلوكهم ومصيرهم، وبين صفات المؤمنين وسلوكهم ومصيرهم، قال تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٧١).

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في التناصر والتكافل والتعاون.
﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ خلافاً للمنافقين الذين يأمرون
بالمنكر وينهون عن المعروف.
﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ بينما المنافقون لا يأتون الصلاة إلا وهم
كسالى، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، كما مر معنا.
﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، بينما المنافقون: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَتَسِيهُمُ إِنَّكَ الْمُنْفِقِينَ
هُمْ أَلْفَسِفُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

ولهذا كان مصير المؤمنين متميزاً عن مصير المنافقين:
﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون.

﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ومن رحمته تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ
طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ
طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ حيث الإقامة الدائمة.

ولمَّا سئل ﷺ عن بناء الجنة قال: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها
المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ
لَا يَبْئَسُ، ويخلد لا يَمُوتُ، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» [رواه أحمد (٣٠٥/٢)].

وعن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يَرَى
ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لِمَنْ

هي؟ فقال: «لِمَنْ طَيَّبَ الكلامَ، وأطعمَ الطعامَ، وأدامَ الصيامَ، وصَلَّى بالليل والناسُ نياماً» [رواه الترمذي (١٩٨٤)].

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر وأعظم وأجلُّ مما في الجنة من النعيم، فلا يكتمل تلذذ أهل الجنة بنعيمها إلا برضا الله تعالى عنهم، فمهما قدَّم السيّد لعبده من أنواع المآكل الفاخرة والأشربة الرفيعة، لا يلتذُّ العبدُ بها ما دام يشعر أنَّ سيده غير راضٍ عنه، فإذا ما أحسَّ برضاه، وعلم ذلك، كملت لذّته، وتَمَّت سعادته.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخيرُ في يدك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لمْ نعطِ أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ وأيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك؟! فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» [رواه البخاري (٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩)]. اللهمَّ إنا نسألك رضاك والجنة.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز بعده. فأين هذا المصير مما مرَّ معنا في مصير المنافقين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وفي الآية الكريمة دليلٌ قاطعٌ على أنَّ اللذة المعنوية الروحية أعلى وأعظم من اللذة الجسدية المادية.

والنتيجة العملية لهذه المقارنة بين المؤمنين والمنافقين أنه سبحانه أمر النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، وتطهير المجتمع من شرهم ومكرهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الجهاد الذي يتناسب مع كل فريق.

﴿وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ وشدد عليهم، ولا ترفق بهم.
 ﴿وَمَا وَلَنَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ إنها البلاغ الأخير والإنذار النهائي.
 • المنافقون كذابون:

يحاولون - كما مر معنا - ستر كذبهم بالآيمان:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُمِالُونَ يَنَالُونَ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَكْذِبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤).

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي: بعد أن أعلنوا الإسلام بالستهم.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت مع عمي، فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول: «لا تُنْفِقُوا على مَنْ عند رسول الله حتى يَنْفَضُوا».

وقال أيضاً: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلُّ» فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدَّقهم رسول الله ﷺ وكذَّبني، فأصابني همُّ لم يصبني مثله، فجلستُ في بيتي، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ١ - ٨] فأرسل إليَّ رسول الله ﷺ، فقرأها عليَّ ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ» [رواه البخاري (٤٩٠١) ومسلم (٢٧٧٢) واللفظ للبخاري].

﴿وَهُمْ يُمِالُونَ يَنَالُونَ﴾ أي: همُّوا بقتل رسول الله ﷺ، ولكنَّ الله عصمه من كيدهم، فلم يتمكنوا من ذلك.

ففي طريق العودة من تبوك اختار ﷺ أن يمرَّ بممرِّ جبلي ضيقٍ مشرفٍ على وادٍ عميق، فأرسل مَنْ ينادي في الجيش أن رسول الله ﷺ يريد أن يسلك العقبة، فلا يسلكها أحد، واسلكوا بطن الوادي، فأسرَعَ بعضُ المنافقين بعد أن اتَّتمروا

فيما بينهم على رسول الله ﷺ، فتلثموا، وحبسوا أنفسهم على رواحلهم قرب أول الممر، فلما بدأ رسول الله ﷺ في سلوك العقبة، غشيه المنافقون بإبلهم، فزحموا ناقته حتى سقط بعض متاعه، ولكن الله تعالى عصم نبيه عليه الصلاة والسلام، فقام حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بردهم، وضرب وجوه رواحلهم، فانحطوا إلى الوادي مسرعين، واختلطوا بالناس مستترين بظلام الليل.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويؤمن سعادته، لما جاء به.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب^(١)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

ورغم جريمتهم الكبيرة هذه رغبهم سبحانه بالتوبة، فقال:

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم هددهم وتوعدهم في حال الإعراض عن التوبة والإصرار على النفاق:

﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ﴾.

• المنافقون انتهازيون وصوليون:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥).

هذه شريحة أخرى من شرائح المنافقين، تبرز الانتهازية والوصولية في سلوكهم، أعلنوا الإسلام بالسنتهم، وقطعوا على أنفسهم العهود والمواثيق حتى يصلوا إلى مآربهم، ويحققوا مصالحهم.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٦).

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ أي: لما حقق الله تعالى لهم مرادهم،

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٥٧/٢.

ووسع عليهم أرزاقهم، منعوا الحقوق التي أوجبها سبحانه في أموالهم كالزكاة والنفقات الواجبة عليهم.

﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ورفضوا الانقياد لأمره تعالى، وهم مصرّون على ذلك. فماذا كانت النتيجة؟:

﴿فَاعْقَبْنَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧).

﴿فَاعْقَبْنَهُمْ﴾ أي: جعل تعالى عاقبة انتهازيتهم ووصوليتهم.

﴿نِفَاقًا﴾ ملازماً لهم راسخاً.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ في آخر حياتهم، حين تحينُ آجالهم، وتنتهي أعمارهم.

﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم.

فما أجرهم على الله تعالى! وما أجهلهم بصفات كماله وجلاله!.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: يعلم ما أضمره في أنفسهم، وما تحدّثوا به سراً فيما بينهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ لا تخفى عليه غائبة سبحانه.

• اللَّمَّازُونَ:

ومع اجتماع كلّ هذه العيوب والقبائح في المنافقين، فآلسنتهم طويلة وحادة، فلم يسلم أحدٌ من عيبتهم وطعنهم، فعندما رَغِبَ النبي ﷺ المسلمين في الإنفاق في سبيل الله لتجهيز جيش تبوك، استجاب المؤمنون لأمر رسول الله ﷺ، فأنفق الأغنياء أموالاً كثيرة، وقَدَّمَ الفقراء كلّ ما يستطيعون، حتى إنّ

بعضهم أجر نفسه في أعمال شاقة لكي يتصدق بأجرته، ويكون له سهم في نفقة جيش تبوك، فطعن المنافقون على الأغنياء والفقراء، ولم يسلم أحد منهم.

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ - وفي رواية: نحامل، أي: نؤاجر أنفسنا في الحَمْلِ - فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسانٌ بأكثر منه، فقال المنافقون: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وما فعل هذا الآخر إلا رِئَاءً، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية. [رواه البخاري (١٤١٥) ومسلم (١٠١٨) واللفظ للبخاري].

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩).

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يُعييبون المتطوعين.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: ويعيبون أيضاً المقلين الفقراء الذين لا يجدون شيئاً ينفعونه إلا ما حصلوه بمشقة وعناء، والله سبحانه يقبل القليل والكثير، ما دام صاحبه يبتغي به وجه الله تعالى، ورُبَّ درهمٍ سبق ألف درهمٍ بسبب إخلاص صاحبه.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي: ومع ذلك فإن المنافقين يسخرون منهم ويستهزئون بهم. ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم سبحانه على سخريتهم، والعزاء من جنس العمل، أو هو دعاء عليهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مقدّر ومقرّر، لا يدفعه عنهم استغفار أحد أبداً.

﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠).

﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي:

مهما بالغت في الاستغفار لهم، فلن يغفر الله تعالى لهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والله سبحانه لا يغفر لكافر أصرَّ على الكفر حتى مات عليه، فهو حكم قطعي حاسم نهائي جاء في سورة البلاغ الأخير.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للإيمان بسبب إصرارهم على نفاقهم وفسقهم، كما في قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [البقرة].

• الضاحكون قليلاً والباكون كثيراً:

وكيف يهديهم الله تعالى، وهم يكرهون كل ما يقربهم إليه تعالى، ويفرحون بما يسخطه سبحانه عليهم، يكرهون الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد، ويفرحون بالتخلف عنه:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: بقعودهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد.

ودلَّ فرحهم على كراهيتهم للجهاد في سبيل الله تعالى:

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فبين فرحهم بالتخلف وكراهتهم للجهاد ارتباط وثيق، يدلُّ على رسوخ الكفر والنفاق في أعماق قلوبهم، فقد يضعف الإنسان المؤمن أحياناً أمام نفسه، فيتخلف، ولكنه لا يفرح بتخلفه، بل يأسف بعد ذلك على تخلفه ويتألم، ويُقبل على نفسه يلومها، كما فعل الثلاثة من المؤمنين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، وسيأتي معنا إن شاء الله تفصيل خبرهم عند الآية [١٠٦].

وجعلتهم كراهيتهم للجهاد يثبطون غيرهم عنه:

﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ حرّ الصيف الذي خرج فيه النبي ﷺ إلى تبوك، وكان صيفاً حاراً.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ فلو أن لديهم فهم ما فرّوا من حرّ الصيف إلى حرّ جهنم، التي يزيد حرّها على حرّ الدنيا أضعافاً كثيرة.

قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً كلّها مثل حرّها» [رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)].

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ في الدنيا.

ومهما ضحك الإنسان في الدنيا فضحكه قليل، لأنّ أيام الفرح والسرور في الدنيا قليلة مهما طالّت، فالدنيا زائلة، والحياة فيها قصيرة، ومن كثر ضحكه في الدنيا زاد بكاؤه يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [رواه البخاري (٤٦٢١)].

﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وجاء الخبر بلفظ الأمر لتحديدهم وإظهار ضعفهم وعجزهم عن الإفلات من المصير الأليم الذي ينتظرهم.

● إسقاط وحرمان:

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِخُرُوجٍ فَقُلْ لَّنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَكِن تُقْتَلُونَ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إن ردّك الله إلى المتخلفين من

المنافقين، أو إلى من بقي منهم، إذ مات بعضهم في أثناء سفره عليه الصلاة والسلام إلى تبوك.

﴿فَاسْتَدْرِكْكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى.

﴿قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ وبهذا حرم الله المنافقين المتخلفين عن رسول الله ﷺ من شرف الجهاد معه، وأسقطهم من مقام صحبته عليه الصلاة والسلام سقوطاً قطعياً مؤبداً.

وسبب هذا الحرمان القطعي المؤبد، بينه سبحانه بمواجهتهم بتقاعسهم وتخلفهم:

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْفُجُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عندما استنفرتم للخروج إلى تبوك، فسبب الحرمان نابغ منكم، من كسبكم واختياركم.

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ المتخلفين من أصحاب الأعداء كالمرضى والنساء والصبيان، فلا تصلحون لجهاد، ولا خير يرجي منكم.

وكما حرمهم سبحانه في الدنيا من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ، حرمهم أيضاً من استحقاق التكريم بعد الموت، قال تعالى:

﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُورٌ لَهُمْ

فَلْيَسْفُوتَ ﴿٨٤﴾

﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾.

فمن المعلوم المشروع أنَّ المسلم يكرم بعد موته، بتغسيله وتكفينه والصلاة عليه والاستغفار له، ويجب على المسلمين أن يقوموا بذلك، ومن السنة بعد دفنه أن يقوموا عند قبره، يسألون الله تعالى له التثبيت والمغفرة وهو يُسأل في قبره.

والمنافق محروم من كل هذا، لأنَّ نفاقه قطعه عن المؤمنين، وعندما مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، جاء ابنه عبد الله ﷺ - وكان من

خيار شباب الأنصار - إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق. قال: فصللي عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّا تَأْتِي بَشِيرًا وَلَا نَقَمًا عَلَىٰ أَثَرِهِ﴾. [رواه البخاري (٤٦٧٢) ومسلم (٢٧٧٤) واللفظ للبخاري].

ثم بين سبحانه سبب النهي عن الصلاة عليهم، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله ﷺ، وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه»^(١).

وهذا يبين لنا أن البراءة المعلنّة في أول السورة براءة من جميع أصناف المشركين والكفار، وأنها شاملة للحياة وبعد الممات، وأنها أيضاً براءة قطعية نهائية. وعادت الآيات مرة ثانية تربّي المؤمنين، وتنهاهم عن الإعجاب بما في أيدي الكافرين والمنافقين من الأموال والأولاد، ووجهت الخطاب للنبي ﷺ لأنه القدوة الحسنة للمؤمنين والمثل الأعلى لهم:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ بجمعها وتشميرها وحفظها. ثم بعد ذلك:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٦١/٢.

﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فهم الأشقياء المعذبون في الحياة والممات .
ويدل تكرار النهي عن الإعجاب بما لدى المنافقين من متاع الدنيا وزينتها، على خطورته على المؤمنين، وقد فُتِنَ كثير من المسلمين بسبب ما يرون من متاع الدنيا وزخارفها عند الكافرين والمنافقين، وخاصة في عصرنا الحاضر، إنهم يظنون أنهم سعداء بما في أيديهم، ولو أمعنوا النظر في حياتهم لعرفوا مدى شقائهم وعنائهم، فالقلق والاضطراب وتعب القلوب والأعصاب وكثرة المشكلات، سَحَبٌ كثيفة ذات ظلال سود قاتمة تغطي حياتهم، وتعكر عيشتهم .
ومما يدل على شدة إصرار المنافقين على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ أنهم كلما أنزل الله تعالى سورة تأمر بالجهاد مع رسول الله ﷺ تقاعسوا وتخلّفوا:

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦)

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي :
أصحاب القوة والغنى من المنافقين .
﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ من الضعفاء والعاجزين .
وكأنه سبحانه أراد بهذا أن يبين كلمته فيما شرع من حرمانهم الدائم من شرف الخروج إلى الجهاد:

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧)

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع أنهم أقوياء أغنياء .
﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي : وختم الله على قلوبهم بسبب نفاقهم حتى أصبحوا لا يميزون بين ما ينفعهم وما يضرهم .
فأين حال هؤلاء المتقاعسين المتخلفين من حال المؤمنين المليين للدعوة والمسارعين إلى الجهاد؟! .

وقد عَوَّدنا سبحانه في هذه السورة على مقارنة أحوال المنافقين بأحوال المؤمنين، ولهذا قال تعالى :

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ولم يتخلفوا كما فعل المنافقون .

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ في الدنيا والآخرة .

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب الرفيعة في الدنيا والآخرة :

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ .

• البحوث والمنقرة:

وامتدَّ حديثُ الآياتِ الكريمة في سورة التوبة عن المنافقين وتشعب، مما يدلُّ على خطورة النفاق على سلامة المجتمع، وكانت الآياتُ ترصد أعمال المنافقين وتحركاتهم في كل مكان، ولهذا أطلق العلماء على هذه السورة اسم البحوث والمنقرة، لأنها بحثت عن أحوالهم، ونقّرت وفشّشت عنهم في كل مكان، وهاهي الآياتُ الكريمة تنتقل من المدينة إلى البادية لتتحدّث عن المنافقين من الأعراب في باديتهم؛ قال تعالى :

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ .

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي : جاء المعتذرون من أعراب البادية إلى رسول الله ﷺ ليأذن لهم في التخلف عن الخروج إلى تبوك .

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهم المنافقون من الأعراب الذين لم يجيئوا

ولم يعتذروا، فظهر بذلك نفاقهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله ﷺ في ادعائهم الإيمان.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: سيصيب الذين يصرون على الكفر حتى يموتوا عليه:
﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

• الأعداء المشروعة للتخلف عن الجهاد:

وبمناسبة الحديث عن المعتذرين من الأعراب، بين الله سبحانه الأعداء المشروعة التي يجوز لأصحابها أن يتخلفوا بسببها عن الخروج إلى الجهاد في حال النفير العام، عندما يكون الجهاد فرض عين على كل مستطيع له؛ فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١).

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ بسبب صغر أو كبر.

﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الذين يمنعهم المرض عن الجهاد.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ ليؤمّنوا لأنفسهم مؤونة السفر والسلاح، إذ كان المجاهدون في عهد النبي ﷺ مكلفين أن يؤمّنوا لأنفسهم كل ما يحتاجون إليه من عتاد وسلاح، وأما إذا تكفّلت الدولة لهم بنفقات الجهاد، كما هو الحال في العصر الحاضر، فلا عذر لهم في التخلف.

﴿حَرَجٌ﴾ إثم في التخلف عن الخروج إلى الجهاد.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة معذورون شرعاً في التخلف:

﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: إذا أخلصوا في إيمانهم بالله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن النصح لله ورسوله ﷺ أن يحافظوا على مصالح الأمة في غياب المجاهدين، وأن يحترزوا عن إشاعة الأراجيف

والأكاذيب، وإثارة القلاقل والفتن، وأن يقدموا مشورتهم ونصحهم إلى المجاهدين، إن كانوا من أهل الدراية والخبرة في شؤون القتال.

فعن تميم الداري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «الَّذِينَ النَّصِيحَةُ» قلنا: لمن؟ قال: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ» [رواه مسلم (٥٥)].

فليس على مَنْ أَحْسَنَ وَنَصَحَ فِي تَخْلُفِهِ عَنِ الْجِهَادِ بِعُذْرٍ مَشْرُوعٍ لَوْمْ يَلَامُ عَلَيْهِ أَوْ عِقَابٍ يَعَاقِبُ بِسَبَبِهِ، فَقَدْ سَدَّ بِإِخْلَاصِهِ وَنَصَحِهِ كُلَّ سَبِيلٍ إِلَى لَوْمَةٍ وَعِقَابِهِ. ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم ويشيهم على نصحتهم وإخلاصهم.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ رَجَالًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادياً، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ» وفي رواية: «إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ» [رواه مسلم (١٩١١)].

ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، ودنا من المدينة المنورة قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ وادياً، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِيهِ» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؛ حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ» [رواه البخاري (٤٤٢٣)].

• دموع خالدة:

ومن هؤلاء الذين أثنى عليهم رسول الله ﷺ فريق البكائين، الذين بلغ بهم حُبُّ الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ حدًّا جعلهم يبكون ويذرفون الدمع أسفًا، لأنَّهم لم ينالوا شرف الجهاد مع النبي ﷺ، ولم يستطيعوا الخروج معه إلى تبوك، وقد خلَّد الله تعالى دموعهم في التنزيل الحكيم، فقال:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٩٢).

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: لا حرج ولا إثم على الذين إذا

ما أتوك يطلبون منك أن تعطيتهم ظهراً يحملهم معك إلى تبوك، إذ كانوا فقراء لا يملكون ثمن راحل يرتحلون عليها.

﴿قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ بسبب أنه ﷺ أنفق كل ما كان عنده، وما جمعه، فلم يبقَ عنده شيء يقدمه لمن بقي من فقراء المجاهدين من حمولة وظهر.

﴿تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا رسول الله ﷺ، وابتعدوا عنه، كأنهم يريدون أن يخفوا شدة وجدهم وانكسارهم ودموعهم عن رسول الله ﷺ.

﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي: تسيل من الدمع، فكان أعينهم صارت كلها دمعاً فياضاً، وهو أبلغ من القول: أعينهم يفيض دمعها.

﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ على أنفسهم لكي يخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك.

وما كان الخروجُ إلى تبوك أمراً سهلاً كالخروج إلى نزهة، لقد كان كما مرَّ معنا في صيف حارٍّ لاهب، في وقتٍ طابت فيه الظلال، ونضجت الثمار، والمسافة بعيدة، تحتاج إلى السير مدةً شهر كامل في صحراء جرداء محرقة جافة، ولهذا سمى سبحانه زمن غزوة تبوك: ساعة العسرة، كما سيأتي معنا، وسمَّى الجيش الذي خرج معه: جيش العسرة، لكثرة ما عانوا من عسرة الطريق ومشاقه، وزاد في معاناتهم قلة الظهر والزاد والماء.

ورغم كلِّ هذا بكى فقراء المؤمنين الذين لم يجدوا ما ينفقون أسفاً وحزناً لما فاتهم من شرف الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك، بينما فرح المنافقون أولو الطول والغنى والسعة، بسبب قعودهم وتخلفهم؛ فما أعظم الفرق بين الفريقين! فريق البكائين، وفريق الفرحين الضاحكين، الفريق الذين فاضت عيونهم دمعاً، والفريق الذين اهتزت أصدقُهم وبطونهم ضحكاً، والذين توجهت الآيات باللوم والتقريع إليهم:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِزُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِزُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ رضوا بالدناءة والضعفة والانتظام في جملة الخوَالِفِ من العجزة والمرضى والصغار والنساء^(١).

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الجهاد وثوابه وشرف الخروج مع رسول الله ﷺ.

والجدير بالذكر هنا أنَّ رسول الله ﷺ كان يقدرُّ مشاعر الفقراء من أصحابه، وكان يشاركهم مشاعرهم وأحاسيسهم، حتى إنه أحياناً كان يترك الخروج إلى الجهاد مواساةً لهم، مع حبه الشديد للجهاد، وقد صرَّح ﷺ بذلك فقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لولا أن يشقَّ على المسلمين، ما قعدتُ خلافَ سريةٍ تغزو في سبيلِ الله أبداً، ولكن لا أجدُ سعةً فأحملهم، ولا يجدونَ سعةً، ويشقُّ عليهم أن يتخلفوا عني» [رواه البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦)].



(١) انظر: تفسير الخازن: ١٧٨/٣.



الْفَضْلُ الْإِلَهِيُّ

مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ تَبُوكَ تَحْذِيرَاتٌ وَإِسَادَاتٌ

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّيْفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ حُذِرْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَواتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِلَّهِ إِذَا

يَعَذِّبُهُمْ وَإِذَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلُقَنَّ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ
فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ يَحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَنَهُ عَلَى
تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَنَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴿١١١﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْأَنْزِيلِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَدِيثِ الْغَدِيرِ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِنُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَالْكَاهِنُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ
أَصْحَابُ الْحَرِيمِ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ
إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى
النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى
إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا
مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٠﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ
وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوِّتُ مَوَاطِنًا يَعِيطُ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ

يَهْ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَلَا يُفْقُوتُ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَذَلِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٣١﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْأَحْزَابِ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٣﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٤﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٥﴾ .

● تحذير المؤمنين من خداع المنافقين:

بعد أن انتهت الآيات من بيان مواقف المنافقين من غزوة تبوك، وتفصيل شرائعهم، اتجهت بالخطاب إلى المؤمنين تحذّره من كيد المنافقين وخداعهم، وترسّم لهم أسلوب التعامل معهم؛ قال تعالى:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيْنِيتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ .

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: يعتذر المنافقون إليكم أيها المؤمنون إذا رجعت إليهم من غزوة تبوك.

﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدّقكم، لأن الله سبحانه قد كشف لنا أمركم:

﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ﴾ وأظهر أسراركم، وفضح نفاقكم.

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في المستقبل، أتوبون وتتعطون بما مضى، أم تصرّون على نفاقكم؟.

﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ﴾ بعد الموت.

﴿إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ويجازيكم عليه.

ويقدم المنافقون مع أعذارهم الواهية أيمانهم الكاذبة، كما مرّ معنا:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥).

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوة تبوك.

﴿لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لتعرضوا عن لومهم وتوبيخهم على تخلفهم، وتصفحوا عنهم.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لا إعراض صفح ورضا، كما أرادوا، بل إعراض اجتناب وكره واحتقار. والسبب:

﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ قَذَرٌ وَحَبْثٌ، ومن شأن الرجس أن يُجْتَنَبَ ويكره ويُنبذ، فبواطنهم خبيثة نجسة، وأعمالهم قبيحة قذرة، ولهذا أعطوا إعراض المقت والغضب، بدل إعراض العفو والصفح.

﴿وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ باختيارهم وإرادتهم من النفاق.

وقد ينجح المنافقون بكلامهم المعسول وأيمانهم الكاذبة بخداع بعض المؤمنين، وكسب رضاهم، ولكنهم لا يستطيعون خداع الله تعالى عالم الغيب

والشهادة، الذي يعلم حقيقة ما يُخفون في صدورهم من حُبث ولؤم ونفاق، ولهذا قال سبحانه محذراً المؤمنين من التأثر بأقوال المنافقين وأيمانهم:

﴿يَحِلِّفُونَ لَكُمْ لِرِضَا عَنْهُمْ فَلِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

فلا قيمة لرضاكم بجانب رضا الله تعالى، ومن شأن المؤمن أن يكون رضاه تبعاً لرضا ربّه، فلا يرضى إلاّ عمّن يرضى الله تعالى عنه.

• جهل وحفاء:

وكذلك حذرت الآيات المؤمنين من منافقي الأعراب في البادية أيضاً، وجاء التحذير بأسلوب تنبيه المؤمنين إلى الصفات المذمومة في منافقي البادية:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أي: البدو الرّحل أشد في الكفر والنفاق من أهل الحواضر والمدن، لما فيهم من جفوة البادية وخشونة الحياة فيها.

ولا شك أن للبيئة تأثيراً كبيراً على طباع الإنسان وأخلاقه؛ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَتِنَ»

[رواه أبو داود (٢٨٥٩) والنسائي (١٩٥/٧) والترمذي (٢٢٥٦)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناسٌ من الأعرابِ على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنّا والله ما نقبلُ، فقال رسول الله ﷺ: «وَأَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ» [رواه مسلم (٢٣١٧)].

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: وهم أحرى أن يغلب الجهل عليهم بسبب قلة مخالطتهم للعلماء والوعاظ، وبُعدهم عن منابع العلم ومصادره.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده.

﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما قَدَره وشرعه.

فالواجب يقتضي من الدعاة والعلماء أن يأتوا الأعراب في منازلهم لنشر الدعوة بينهم، وتعليمهم أحكام دينهم، وكان رسول الله ﷺ يرسل أصحابه إلى القبائل لنشر الدعوة والعلم، وقد انتشر الإسلام نتيجة لذلك بينهم، وبقي بعضهم على الشرك، ووافق بعضهم أيضاً.

وقد بيّن تعالى أصناف الأعراب هذه فقال:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨)

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ وهم المنافقون، فقد كانوا يرون أموال الزكاة التي كانوا يدفعونها كارهين غرامة وخسارة، ولا يرونها صدقة وعبادة تقربهم إلى الله تعالى.

﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾ أي: ينتظر هذا الصنف من الأعراب أن تنزل بكم أيها المسلمون تقلبات الزمان وصروفه ومصائبه، ليتملص من دفع الزكاة ويمنعها. وقد حدث هذا فعلاً كما أخبر سبحانه، فعندما توفي رسول الله ﷺ امتنع كثير من الأعراب عن دفع الزكاة.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّءِ﴾ وهذا دعاء عليهم بنحو ما كانوا يرجون حصوله للمؤمنين.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

• شهادة وبشارة:

وأما المؤمنون من الأعراب، فقال الله تعالى فيهم:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: يجعل نفقاته التي ينفقها عبادةً يتقرب بها إلى الله تعالى.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ ويطلب أيضاً بنفقاته الفوز بدعوات الرسول ﷺ له، فقد كان رسول الله ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم، كما سيأتي معنا.

﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: إن نفقتهم قربة، أو إن دعوات الرسول ﷺ عبادةً تقربهم إلى الله تعالى. وهي شهادة طيبة رفيعة من الله تعالى بصحة إيمانهم وإخلاصهم في عباداتهم.

وبعد هذه الشهادة الربانية، أتبع الله تعالى بها البشارة الكريمة:

﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهي أقصى ما يؤمله المؤمنون ويرجونه من رب العالمين، اللهم أدخلنا برحمتك يا أرحم الراحمين:

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ أثنى على بعض القبائل العربية من سكان البوادي؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها، أما إنني لم ألقها، ولكن قالها الله ﷻ» [رواه مسلم (٢٥١٦)].

ولعل النبي ﷺ أشار إلى ما في هذه الآية الكريمة.

وعنه أيضاً: أنه ﷺ قال: «قريش والأنصار ومزينة وجهينة وأسلم وغفار وأشجع، موالٍ، ليس لهم مولى دون الله ورسوله» [رواه مسلم (٢٥٢٠)].

• فضيلة السابقين:

ثم عمم الله تعالى الثناء على جميع أبناء الأمة المسلمة، وخص بالذكر

روادها الأوائل، السابقين على درب الإيمان والجهاد من المهاجرين والأنصار، فقال جلّ وعلا:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الذين سبقوا إلى الإيمان والهجرة والنصرة، وللسابق فضل التقدم والسبق، ولهذا فضل الله تعالى الذين سبقوا إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

فلقد كان الحال في المراحل الأولى للدعوة الإسلامية شديداً، فما آمن في أثنائه إلا الصديقون، وأما بعد ذلك، وخاصةً بعد فتح مكة، فقد ظهر الإسلام وعزّ أهلُه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وظهر بهذا فضل السيدة خديجة أم المؤمنين ﷺ، فهي سبّاقة الخلق إلى تصديق الرسول ﷺ والدخول في الإسلام، فهي أول الناس إسلاماً باتفاق العلماء، وأول من صلّى مع رسول الله ﷺ^(١).

كما ظهر فضل أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وفضل الذين سبقوا إلى الإسلام بعدهم من المهاجرين والأنصار.

قال ابن كثير رحمه الله: «أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم

(١) تفسير الخازن: ٣/ ١٨٤؛ وانظر كتابنا: السيدة الأولى خديجة أم المؤمنين سبّاقة الخلق إلى الإسلام، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

وأفضلهم؛ أعني: الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم أبا بكر رضي الله عنه! فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك^(١).

وقد حذر رسول الله ﷺ من سبهم فقال: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثلَ أُحدٍ ذهباً، ما أدرك مُدَّ أحدِهِم ولا نصيفَهُ» [رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١)].

• شرط الإحسان:

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَحْسَنُونَ﴾ من بقية الصحابة، ومن جاء بعدهم، وسار على طريقهم إلى يوم الدين، وقد ذكر الله تعالى في التابعين شرطاً، وهو شرط الإحسان، ومعناه أن يقتدوا بالأعمال الحسنة التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم، وبهذا يُحسنون اتباعهم واقتفاء آثارهم.

ويدخل أيضاً في شرط الإحسان أن يذكروهم ذكراً حسناً، فلا يقولوا فيهم إلا قولاً حسناً، ولا يذكروهم إلا بخير، وهو أمر مطلوب في حق كل من توفاه الله تعالى من المسلمين، قال رسول الله ﷺ: «اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم» [رواه أبو داود (٤٩٠٠) والترمذي (١٠١٩) وابن حبان (٣٠٠٩)].

وقال أيضاً: «لا تسبوا الأموات فإنهم أفضلوا إلى ما قدموا» [رواه البخاري (١٣٩٣) وابن حبان (٣٠١٠)].

ويتأكد هذا الأمر في حق الصحابة رضي الله عنهم، لقوله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ولمَّا قيلَ للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إنَّ قوماً يشتمون أصحابَ محمدٍ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٦٦/٢.

ﷺ! قالت: قطع الله عنهم العمل، فأحبّ ألا يقطع عنهم الأجر. وقالت أيضاً: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم^(١).

ثم أخبر سبحانه برضاه عن الصحابة وعن كل من اتبعهم بشرط الإحسان في اتباعهم فقال:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعاتهم وعباداتهم وجهادهم، فلتقر أعينهم، ولتطمئن قلوبهم، فإنَّ أشدَّ ما يقلق الصالحين ألا يتقبل الله أعمالهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أفاض عليهم من فضله وإحسانه ونعمه، ورضوا أيضاً بما شرع لهم وكلفهم، ورضوا أيضاً بما قدر عليهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز بعده، فهو الفوز الحقيقي.

وتبيّن الآية وحدة الطريق الذي جمع بين المسلمين: السابقين والتابعين، فالإسلام طريق واحد، والقصد واحد، وهو الوصول إلى رضوان الله تعالى.

فيا فوزَ الثابتين على الطريق، حتى يكرمهم الله تعالى باللاحاق بقافلة الصالحين: ﴿أَنْتَ وَلِيُّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوَفِّي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

• فن النفاق:

ولا تظنَّ أخي القارئ الكريم أنَّ الحديث عن المنافقين قد انتهى، فالنفاق أمره خطير وشأنه كبير، وشرائع المنافقين كثيرة، ومشكلاتهم كبيرة، وما كان حديث الآيات عن فضل السابقين من هذه الأمة وفضل التابعين لهم بإحسان إلا استراحة على طريق البراءة الذي جعلتنا آيات السورة نسلكه من أول آية فيها، وهاهي الآيات الكريمة تعود بنا إلى الحديث عن المنافقين على سبيل تحذيرنا من شر مكرهم وكيدهم:

(١) انظر كتابنا: عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدَ بِهِمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١).

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ والخطاب في الآية للصحابه في المدينة المنورة.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ منافقون أيضاً.

﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾، أي: ألقوا فنَّ النفاق ومهروا فيه، فالنفاق فنٌّ لا يتقنه أي إنسان، لقد أصبح لهؤلاء المقيمين حول المدينة ويدخلها من المنافقين خبرة ودراية كبيرة في النفاق حتى إنك:

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ يا نبيَّ الله ﷺ مع قوة فطنتك، وصدق فراستك إلا إذا أعلمك الله تعالى بهم، لأنه سبحانه يعلمهم:

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، فمهما احتاطوا في ستر نفاقهم، وتفننوا في مكرهم واحتيالهم، فلا تخفى علينا حقيقتهم.

﴿سَعَدَ بِهِمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ المرّة الأولى عندما تتولّى الملائكة قبض أرواحهم عند موتهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩) وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال].

ويمكن أن تكون المرة الأولى في الحياة الدنيا قبل الموت، بما يصيبهم من همٍّ وقلق خشية أن يُفتضح أمرهم، وتظهر حقيقتهم، وبما يعانون أيضاً من التعب والشقاء في أموالهم وأولادهم، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

والمرّة الثانية تعذيبهم في قبورهم، وبعد المرّتين:

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في جهنم، حيث يعذبون فيها أشدَّ أنواع العذاب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

[النساء: ١٤٥].

• التوبة عن النفاق:

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٢).

ولقد نجح أسلوب البلاغ الأخير الذي اتبعته الآيات الكريمة في سورة التوبة، الأسلوب الذي تضمّن فضح المنافقين بكشف حقيقتهم، وبيان صفاتهم التي تميزهم عن المؤمنين، وعزلهم ومقاطعتهم وردّ صدقاتهم، ومنعهم من الخروج إلى الجهاد مرة ثانية بعد تبوك، وتهديدهم بأشد أنواع العذاب، وترغيبهم بقبول توبتهم إن تابوا وأقلعوا عن النفاق.

وأثمر ثماراً طيبة، إذ صلح إيمان كثير منهم، وتابوا عن النفاق.

قال ابن حجر رحمته الله: (باب: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا نَقُومُ عَلَىٰ قَبْرِهٖ﴾ [التوبة: ٨٤]) ظاهر الآية نزلت في جميع المنافقين، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم، قال الواقدي: أنبأنا معمر، عن الزهري قال: قال حذيفة: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ، إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَصَلِّيَ عَلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ» رهط ذوي عدد من المنافقين.

قال: فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة، فإن مشى معه وإلا لم يصل عليه.

ومن طريق أخرى عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً... ولعلّ الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك أن الله علم أنهم يموتون على الكفر، بخلاف من سواهم فإنهم تابوا^(١).

وفي «صحيح مسلم» [٢٧٧٩]: عن حذيفة قال: أشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

(١) فتح الباري: ٣٣٨/٨ مع اختصار قليل.

فبعد أن كان ثلث المدينة المنورة تقريباً من المنافقين، تاب أكثرهم عن النفاق، وحسن إيمانهم، فلم يبقَ فيها سوى اثني عشر منافقاً^(١)، وفي هؤلاء التائبين عن النفاق قال سبحانه:

﴿وَأَخْرُونَ﴾ أي: وفريق آخر من المنافقين.

﴿اعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بنفاقهم وتخلفهم عن رسول الله ﷺ وغير ذلك.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: خلطوا بين أعمال المؤمنين الصالحة، وأعمال المنافقين السيئة، فتارة يفعلون فعل المؤمنين، وتارة يفعلون فعل المنافقين، ثم وفقهم الله تعالى للتوبة فتابوا، وأخلصوا الله تعالى أعمالهم. ولهذا قال سبحانه:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عسى الله أن يقبل توبتهم، و(عسى) في كلامه تعالى تفيد الوجوب والتحقيق، كما مر معنا في قوله: ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

فمن أخلص الله تعالى في توبته، تاب عليه وقبل توبته، وهو سبحانه القائل: ﴿إِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]. وتأكيذاً لهذا المعنى ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والآية وإن كانت في التائبين عن النفاق إلا أن حكمها عام ينسحب على جميع التائبين.

هذا المعنى الذي ذكرته في تفسير الآية أولى مما ذهب إليه جمهور المفسرين، ويتفق مع سياقها من آيات السورة أكثر، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية نزلت في بعض المتخلفين من المؤمنين، وهم أبو لبابة الأنصاري

(١) وكان للمعاملة الطيبة والموقف الكريم الذي وقفه رسول الله ﷺ من زعيم المنافقين عبد الله بن أبيّ عند موته، أثر أيضاً في توبة كثير منهم عن النفاق.

وجماعة معه، تخلّفوا عن رسول الله ﷺ، ثم ندموا وتابوا وربطوا أنفسهم في سواري المسجد، وحلفوا ألاّ يحلّوا أنفسهم حتى يتوب الله عليهم.

وهذا الذي ذهبوا إليه رواية عن ابن عباس أخرجها البيهقي في «الدلائل»، وهي تخالف الرواية الصحيحة الثابتة عن كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلّفه، وستأتي معنا، ففيها ما يدلّ على أنّ المتخلّفين من المؤمنين عن تبوك ثلاثة فقط، تخلّفوا من دون عذر مشروع، وليس أبو لبابة منهم، والمعروف أنّ أبا لبابة ربط نفسه في سارية المسجد في غزوة بني قريظة عندما أرسله النبي ﷺ إلى يهود بني قريظة ليطلب منهم أن ينزلوا من حصونهم على حكم الله ورسوله ﷺ فيهم، فلمّا كلّمهم أشار إليهم إشارة إلى عنقه، فهموا منها أنّ الحكم هو قتلهم، وندم في الحال، وعلم أنّه بهذه الإشارة قد خان الله ورسوله ﷺ، وذهب إلى المسجد وربط نفسه في سارية من سوايره، حتى حلّه رسول الله ﷺ بيده^(١).

• الزكاة طهارة ونماء:

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ بقبض صدقات التائبين من المنافقين، وقبولها منهم، بعد أن كانت غير مقبولة منهم، كما مرّ معنا؛ فقال:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣).

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب والآثام، فالحسنة تمحو السيئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلقٍ حسنٍ» [رواه الترمذي (١٩٨٧)].

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ١٤٣/٣.

﴿وَزُكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: وتنمّي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين^(١).

ففي التزكية معنى النماء والبركة، وقد يجعل الله البركة والزيادة في أموالهم، ويكون المعنى: تنمي أموالهم ببركة أخذها منهم، والله سبحانه يبارك في المال المزكى، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتْ سَبْعَ سَبَائِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال ﷺ أيضاً: ﴿يَمَحُقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وتدلُّ الآية على أنَّ لولي أمر المسلمين أن يأخذ الزكاة من المكلفين، ويجبرهم على دفعها له، كما فعل أبو بكر الصديق ﷺ عندما قاتل مانعي الزكاة، وقال: والله لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدُّونه لرسولِ الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. [رواه البخاري (١٤٠٠) ومسلم (٢٠)].

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادعُ الله لهم، واستغفر لهم، فإنَّ أصلَ معنى الصلاة في اللغة الدعاء، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ٩٩].

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته، فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى» [رواه البخاري (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨)].

﴿إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: إن دعائك رحمةٌ لهم، وطمأنينة لقلوبهم ونفوسهم، لأنهم يستدلون بها على قبول الله تعالى لصدقاتهم. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

● الحث على التوبة والصدقة:

ثم أخبرهم سبحانه بأسلوب الاستفهام التقريري بقبول صدقاتهم، فقال:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٠٤)

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وهي بشارة عظيمة للتائبين بقبول توبتهم، تُرْعِبُ بالتوبة وتحض عليها.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يقبلها سبحانه ويشب عليها، وقد أسند تعالى أخذ الصدقات إلى نفسه، مع أن الذي يأخذها هو الإنسان الذي أوتيها، لأنه سبحانه هو الذي شرع الزكاة وأوجبها، وهو أيضاً الذي يشب عليها.

وفي هذا تعظيم لشأن الزكاة والصدقات، وبيان لأهميتها وشرفها ومكانتها الرفيعة عند الله تعالى، ألا ترى أنه سبحانه عندما أراد أن يعظم شأن بيعة الرضوان قال: ﴿إِنَّ الَّذِيكُ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

ومن هذا القليل الحديث القدسي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ! مَرَضْتُ فَلَمْ تُعْذِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرَضَ فَلَمْ تُعْذِهِ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُذَّتُهُ لَوْجَدْتَنِي عِنْدَهُ. يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَطَعْمَتَكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوْجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ! اسْتَسْقَيْتَكَ فَلَمْ تُسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي» [رواه مسلم (٢٥٦٩)].

وجاء أيضاً في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ - إِلَّا أَخَذَهَا

الرحمنُ بيمينه، وإنْ كانتَ تمرَّةً، فتربو في كفِّ الرحمنِ حتى تكونَ أعظمَ من الجبلِ، كما يربِّي أحدكم فُلُوهُ أو فصيلُهُ» [رواه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤) واللفظ له]. والفلو: المهر. والفصيل: ولد الناقة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يقبل توبة التائبين ويرحمهم.

• الحرص على السمعة الحسنة:

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَقُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء التائبين:

﴿أَعْمَلُوا﴾ بطاعة الله تعالى، وأخلصوا له في عملكم.

﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنَّ عملكم لا يخفى على الله

ولا على رسوله ﷺ ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله ﷻ^(١).

ففي الآية تهديد بأنَّ عملهم لا يخفى على الله ورسوله ﷺ والمؤمنين. وفيها أيضاً ترغيبٌ بفعل الخير والإخلاص، فإنَّ مَنْ علم أنَّ عمله لا يخفى، سواء كان خيراً أو شراً، رغب في الخير، وتجنَّب الشر.

وكذلك فيها ترغيب من جانب آخر، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام إذا رأى عملكم الصالح سرَّ بذلك، ودعا لكم، وإذا رآها المؤمنون أثنوا عليكم، وذكروكم ذكراً طيباً حسناً، وكان لكم بينهم سُمعة حسنة، وهو أمر مشروع يباين الرياء المذموم، لأنَّ الرياء أن تعملَ العملَ لأجل الشهرة والسمعة بين الناس، لا تقرباً إلى الله تعالى، وأمَّا الحرصُ على حُسْنِ السمعة بين الناس بأن تنأى بنفسك عن مواضع التهمة والريبة، وأن تكون قدوةً حسنةً في فعل الخير، فهو

(١) فتح القدير: ٤٠٠/٢.

أمر مشروع، سألَه إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

ويسألُه المؤمنون أيضاً في دعائهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وهذا فضلاً عن الثواب يوم القيامة:
﴿وَسُودُّونَ إِلَىٰ عَلِيِّ الْعَلِيِّ وَالشَّهَدَةِ فَيُشْكِرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

• المتخلفون الثلاثة من المؤمنين:

كان بين المتخلفين عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ثلاثة من المؤمنين، تخلفوا من غير عذر، ولم يعتذروا للنبي ﷺ بأعذار واهية كالمنافقين، بل أقروا له بذنبهم في التخلف، وهم كعب بن مالك الشاعر المعروف، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، قال تعالى فيهم:

﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجَّوْنَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَأَخْرَجُوا﴾ أي: ومن المتخلفين آخرون.

﴿مُرَجَّوْنَ لَأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: مؤخَّرون حتى يحكم الله تعالى فيهم، فالإرجاء التأخير، وفي قراءة: (مُرَجَّوُونَ).

وأخّر سبحانه أمرهم خمسين ليلة، كما سيأتي معنا في قصّتهم، ولهذا قال:

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فأمرهم موقوف بين هذين الأمرين.
﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ولنستمع إلى قصّتهم من كعب بن مالك رضي الله عنه وهو يتحدّث عن تخلفه:

«لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أنّي كنتُ تخلفتُ في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها.

كان من خبري أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفتُ في تلك

الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أعدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم.

فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو^(١).

وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتي فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنث إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ، فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق^(٢)، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ونظره في عطفه^(٣). فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

(١) أي: فات وسبق.

(٢) أي: متهماً بالنفاق.

(٣) أي: منعه جمالاً ثوبه ونظره إلى نفسه نظرة التكبر.

فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرنى همي، وطفقت أذكّر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.

فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أنني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه.

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

فجئته، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟».

فقلت: بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

فقمْتُ، وثار رجال من بني سَلِمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذرت إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك.. فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالاً مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بنُ الربيع العَمَريُّ، وهلال بن أُمِة الواقفي. فذكروا لي رجلين قد شهدا بداراً فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ؛ فاجتنبنا الناسُ، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرفتُ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنْتُ أَشَبَّ القومِ وأجلدهم، فكنْتُ أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يكلِّمني أحدٌ، وأتى رسول الله ﷺ فأسلمَ عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّكَ شفّتيه بردُ السَّلامِ عليَّ أم لا؟ ثم أَصَلِّي قريباً منه، فأسأله النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُ نحوه أعرَضَ عني.

حتى إذا طَالَ عليَّ ذلك من جَفْوَةِ الناسِ، مشيتُ حتَّى تسَوَّرْتُ جدارَ حائطِ أبي قتادة، وهو ابنُ عَمِّي، وأحبُّ الناسِ إليَّ، فسلمتُ عليه، فوالله ما ردَّ السلام، فقلتُ: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكت، فعدتُ له فنشدته، فَسَكَتَ، فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى، وتولَّيتُ حتَّى تسَوَّرْتُ الجدارَ.

فبينما أنا أمشي بسوقِ المدينةِ إذا نبطيُّ من أنباطِ الشامِ مَمَّنْ قَدِمَ بالطعامِ يبيعه بالمدينة، يقول: مَنْ يَدُلُّ على كعبِ بنِ مالكٍ؟ فطفقَ الناسُ يشيرونَ له، حتى إذا جاءني دفعَ إليَّ كتاباً من ملكِ غَسَّانَ، فإذا فيه: أَمَّا بعدُ، فَإِنَّهُ قد بلغني أَنَّ صاحبَكَ قد جفاكَ، ولم يجعلكَ اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضِيعَةٍ، فالحقُّ بنا نواسِكَ. فقلتُ لَمَّا قرأتُها: وهذا أيضاً من البلاءِ. فتيَمَّمْتُ بها التَّوْبَةَ فسَجَرْتُه بها.

حتى إذا مضتُ أربعونَ ليلةً من الخمسين، إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إِنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرُكَ أن تعتزلَ امرأتَكَ. فقلتُ: أطلقُها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلِها، ولا تَقْرَبْها. وأرسل إلى صاحبَيِّ مثلَ ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقِّي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضيَ اللهُ في هذا الأمرِ.

فجاءت امرأةَ هلال بنِ أميةَ رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إِنَّ هلالَ بنَ أميةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدِمَه؟ قال: «لا،

ولكن لا يقربك» قالت: إِنَّه والله ما به حركةٌ إلى شيءٍ، والله ما زال يبكي منذُ كان من أمرِهِ ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنت رسولَ الله ﷺ في امرأتِكَ كما أذنَ لامرأةِ هلال بن أمية أن تخدمه. فقلتُ: والله لا أستأذنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدريني ما يقولُ رسولُ الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجلٌ شابٌّ.

فلبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كملتُ لنا خمسونَ ليلةً من حين نهى رسولُ الله ﷺ عن كلامنا. [رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ للبخاري] وستأتي بقية الحديث عند تفسير الآية [١١٨] من السورة.

• مسجد الضرار:

وأرجأتِ الآياتُ أمرَ هؤلاء الثلاثة كما أرجأَ الله تعالى أمرهم، وشرعت تتحدّث عن شريحة أخرى من شرائح المنافقين، بنوا مسجداً عُرفَ فيما بعدُ بمسجد الضرار، أنزل الله تعالى فيه قوله:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧).

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: بنوا مسجداً لأجل الضرر، إذ قصدوا الإضرار بالمسلمين من أهل مسجد قُباء.

﴿وَكَفْرًا﴾ أي: ولأجل تقوية الكفر والنفاق.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولأجل التفريق بين المؤمنين، الذين كانوا يصلُّون جميعاً في مسجد قُباء، فبنوا مسجد الضرار قريباً منه، ليصلِّي فيه بعضهم، مما يؤدي إلى الاختلاف وتفرُّق الكلمة.

﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وبنوه أيضاً ترقُّباً وانتظاراً لمن عادى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وهو أبو عامر الفاسق، والد حنظلة، الذي استشهد في أحد وغسلته الملائكة.

وكان أبو عامر قد تنصّر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكانت له مكانة كبيرة بين قومه الخزرج، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأصبحت كلمة الإسلام عالية فيها، وأعزّ الله المسلمين في غزوة بدر، فاض الحقد والحسد في قلب أبي عامر، فخرج إلى المشركين في مكة ممالئاً لهم على حرب رسول الله ﷺ، وقدم معهم إلى أحد، وحفر في أرض المعركة حفراً، وقع في إحداها رسول الله ﷺ.

وحاول أبو عامر قبل القتال أن يجعل قومه من الأنصار يخذلون رسول الله ﷺ، فردوا عليه ردّاً قبيحاً، ونالوا منه وسبوه، ودعا عليه رسول الله ﷺ قبل أن يخرج من المدينة إلى المشركين أن يموت بعيداً طريداً، فأصابته دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، إذ خرج أبو عامر بعد أحد من أرض العرب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده هرقل ومثاه، فكتب أبو عامر إلى جماعة من المنافقين يخبرهم أنه سيقدم بجيش كبير يغلب به رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يستقبلون فيه من يأتيهم من عنده برسائله، ويكون له مرصداً إذا قدم عليهم بنفسه.

فبنوا مسجد الضرار مجاوراً لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا إليه ﷺ، وسألوه أن يأتي إليهم، فيصلي في مسجدهم، لكي يستروا أمرهم، ويحتجوا بصلاته عليه الصلاة والسلام، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء، فعصمه الله تعالى من الصلاة فيه، وقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من تبوك، وقبل أن يصل المدينة بيوم، أنزل الله تعالى عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، فبعث ﷺ إلى ذلك المسجد من حرّقه وهدّمه قبل وصوله إلى المدينة. [رواه الطبري (١١/٢٣)].

﴿وَلَيَحْلِفَنَّ أَيُّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ بَنَوْهُ﴾

﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ أَي: ما أردنا ببناؤه إلا الخير.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم .

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ .

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل فيه أبداً، وهو يدل على تحريم الصلاة فيه تحريماً قطعياً دائماً .

• المسجد المؤسس على التقوى:

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام بنائه، أسسه النبي ﷺ يوم وصل إلى قباء، وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة المنورة .

﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: أن تصلي فيه، وهذا يدل على فضل الصلاة في مسجد قباء، ولهذا كان رسول الله ﷺ يزور مسجد قباء كل سبت ركباً وماشيّاً ويصلي فيه ركعتين . [رواه البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩)] .

وحض النبي ﷺ على الصلاة فيه، فعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ، فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ» [رواه أحمد (٤٨٧/٣) والنسائي (٣٧/٢) وابن ماجه (١٤١٢)] .

وهذا لا يتعارض مع ما جاء في الحديث النبوي الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، هو المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى .

قال ابن كثير رحمته الله: «إِذَا كَانَ مَسْجِدُ قُبَاءَ قَدْ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى، وَلِهَذَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: اخْتَلَفَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى، أَحَدُهُمَا قَالَ: هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ الْآخَرُ: هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَاهُ، فَقَالَ: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا» [مسند أحمد (١٦٦/٥)]^(١) .

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٧٠/٢ .

وبعد أن أثنى سبحانه على المكان، أثنى أيضاً على الرجال الذين يعمرونه بطاعته تعالى، فقال:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، وَمِنَ الْأَقْدَارِ وَالنَّجَاسَاتِ، فَهُمْ يَحِبُّونَ الطَّهَارَةَ الْمَعْنَوِيَّةَ وَالْحَسِيَّةَ.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ الحريصين على طهارة نفوسهم وأجسامهم.

ففي الحديث الشريف: عن عويمر بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ لأهل قُباء: «إِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الثَّنَاءَ فِي الطَّهْوَرِ، فَمَا هَذَا الطَّهْوَرُ؟» قالوا: يا رسول الله ما نفعل شيئاً، إلا أن جيراناً لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أديبارهم من الغائط، فغسلنا كما غَسَلُوا. [رواه أحمد (٤٢٢/٣) وابن خزيمة (٨٣)].

• الأساس المحكم:

ثم بيّن تعالى أن بناء الأعمال يجب أن يكون على أساس الإخلاص لله تعالى وحده، وخشيته وتقواه وطلب رضاه، عندئذ يكون الأساس محكماً قوياً، وأما إذا كان أساس الأعمال الغش والكذب والنفاق، فإنه أساس ساقط منهار، قال سبحانه:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي: على طرف جرف وشيك السقوط.

فالشفا: الشفير والحرف، ومنه يقال: أشفى على السقوط، إذا دنا من الحرف والشفير وقرب من السقوط.

والجُرْفُ: المكان الذي جَرَفَ الماء ما تحته فأصبح هارياً ضعيفاً وشيك السقوط.

﴿فَأَنهَارٌ بِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: سقط البناء ببانيه في نار جهنم، وهكذا أوقعه عمله الفاسد في جهنم.

وجاء المثال بأسلوب الاستفهام التقريري، تعقيباً على بناء مسجد الضرار، رائعاً واضح الدلالة والمعنى، غير محتاج إلى جواب، فجوابه قد سبق فيما آل إليه مسجد الضرار، ولهذا سكنت الآية عن جوابه، وخُتمت بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للخير والصلاح بسبب ظلمهم وفسادهم ونفاقهم.

أغاظ هدم مسجد الضرار وتحريقه المنافقين، وملاً قلوبهم حسرة وألماً، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله:

﴿لَا يَزَالُ بُنِنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿لَا يَزَالُ بُنِنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: سيبقى البناء الذي بنوه سبب غضب وحسرة في قلوبهم بسبب هدمه وتحريقه، وسيظل ذلك ملازماً لهم، ينغص عيشهم، ويكدر حياتهم حتى الموت.

﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إلا أن يموتوا، فلا يرتاحون من حسراتهم وآلام نفوسهم وقلوبهم إلا بالموت، وما بعده أشد وأعظم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بهدم بنائهم.

فما يُبنى باسم الإسلام، ويُراد به الكيد بالإسلام وأهله، تجب إزالته كلياً، كما فعل رسول الله ﷺ بمسجد الضرار، كي لا يغتر به السذج والبسطاء، وحتى لا يتمكن أعداء الإسلام من الوصول إلى مآربهم من بنائه.

والسعي في إزالة الضرر، واستئصال مسبباته، قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية، ولهذا قال الفقهاء: «الضرر يُزال» أي: تجب إزالته، ولا يجوز إقراره والسكوت عنه.

• تجارة رابحة:

وانتقلت الآيات مباشرةً من ركام مسجد الضرار المحترق، وقلوب المنافقين المحترقة أيضاً بالأسى والحسرة، إلى الترغيب بالجهاد الذي تثاقل عنه المنافقون، وتخلّفوا عن الخروج إليه، وكأن الله تعالى أراد أن يبين للمنافقين حقيقة الجهاد الذي تثاقلوا عنه، والخسارة الفادحة التي نزلت بهم عندما حرموا أنفسهم من المشاركة فيه.

إنّ الجهاد عقدٌ تجارة رابحة، ربحها لا حدّ له، نصر وظفر وعزة في الدنيا، وجنة في الآخرة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إنّهُ عقدٌ مع رب العزة ﷻ، ومكان التسليم والاستلام فيه ميدان المعركة، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ فالجنة هي المقصودة في العقد، وما يبذله المؤمنون المجاهدون من نفس ومال وسيلة إليها. ويدل قوله تعالى: ﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ على تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، كأنه قيل: الجنة الثابتة لهم المختصة بهم^(١).

ووصف سبحانه كيف يتم عقد البيع فقال:

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يقاتل المؤمنون أعداء الله تعالى لإعلاء كلمته. ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قتلوا أو قُتلوا، فهم مجاهدون، باذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، الجنة واجبة لهم بفضله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَرِ تُجْرِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ

(١) روح المعاني: ٢٧/١١.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَكَتِكُمْ طَبِئَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿[الصف]﴾.

﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أي: وعداً ثابتاً قطعته الله على نفسه بفضله وإحسانه، وذكره في التوراة والإنجيل والقرآن، مما يدل على أن التكليف بالجهاد موجود في جميع الكتب المنزلة.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي: استبشروا أيها المجاهدون وافرحوا

بما تفضل الله تعالى به عليكم في هذا البيع:

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

• رِبْحُ الْبَيْعِ:

إنها لدعوة كريمة من الله تعالى إلى الجهاد، أكرم بها من دعوة! تَلَطَّفَ سبحانه بالمؤمنين كل هذا اللطف، حتى سأل عباده المؤمنين أن يبيعوه مُلْكَهُ، فهم وأموالهم وأنفسهم ملك لله تعالى، وهو سبحانه الغني عنهم وعن جهادهم ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

قال بعض العلماء: لا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ مما في هذه الآية^(١).

وذكرت بعض الروايات أنها نزلت بمناسبة بيعه العقبة الثانية، وهي من أعظم المناسبات التي مهّدت للهجرة إلى المدينة، قال فيها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: «أشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع، لا نقيلاً ولا نستقيلاً. فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية. [رواه الطبري (١١/٣٥)].

(١) روح المعاني: ٢٦/١١.

لكن يعترض على هذه الرواية ما عرف من تأخر آيات سورة التوبة في النزول، إلا إذا استثنينا هذه الآية، وما عرف أيضاً من أن آيات الجهاد ما نزلت إلا بعد الهجرة. والله سبحانه أعلم.

• صفات المؤمنين:

ثم بين تعالى صفات المؤمنين الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل إعلاء كلمته، فكان سائلاً يسأل: من يفعل ذلك؟ فيقال له:

﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْلِصُونَ الْمَكِينُونَ السَّاجِدُونَ وَالْمَعْرُوفُونَ وَالْمُسْتَسِرِّينَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿التَّائِبُونَ﴾ عن المعاصي والآثام، فالمؤمن غير معصوم عن المعاصي، ولكنه لا يصبر عليها، بل يبادر إلى الإقلاع عنها، والتوبة والندم على فعلها. واستهلال الآية بهذه الصفة فيه حث على التوبة، وتشجيع للمنافقين كي يبادروا إلى التوبة عن النفاق، فما أكثر ما حثهم الآيات على التوبة، وأطمعتهم بالمغفرة، حتى سُميت السورة سورة التوبة.

﴿الْعَمِيدُونَ﴾ أي: المطيعون لله تعالى وحده في كل ما شرع لهم، فلا يحلّون إلا ما أحله لهم سبحانه، ولا يحرمون إلا ما حرّمه عليهم، ولا يفعلون كما يفعل أهل الكتاب بطاعة أبحارهم ورهبانهم فيما يشرعون لهم، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿الْحَمِيدُونَ﴾ أي: الذين يشنون على الله تعالى بكل صفات الكمال في جميع الأحوال؛ السراء منها والضراء.

﴿الْمُخْلِصُونَ﴾ في ملك الله تعالى للنظر والاعتبار، أو للجهاد في سبيله، أو لطلب العلم، أو للاكتساب وطلب الرزق الحلال، أو لأداء مناسك الحج والعمرة، وكل ذلك من المقاصد المشروعة للسياحة في الأرض، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال أيضاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

وقد يراد من السياحة الصيام، لأنَّ الصائم يترك الشهوات والملذات من الطعام والشراب والنكاح.

﴿الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ لله تعالى في صلاتهم.

﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: الذين ينفعون الناس، يرشدونهم إلى طاعة الله تعالى، ويحذرونهم من معصيته، فلا يعزلون أنفسهم عن أمتهم ومجتمعهم ما داموا يستطيعون ذلك، وجاء حرف العطف بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكونهما متلازمين، فكأنَّهما خصلة واحدة.

وفوق كل ما تقدَّم من صفاتهم، فهم وقَّافون عند حدود شريعة الله تعالى، فلا يتجاوزونها، ولا يخرقون أسوارها، لكي ينصرفوا إلى غيرها. وهو المراد من قوله سبحانه:

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ فحدود الله: أحكام دينه وشرعه، وما أكثر ما حذَّر الله سبحانه من مجاوزتها أو انتهاكها، كقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ الآية [البقرة: ١٨٧].

وقوله أيضاً: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوْهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والمعيار الحقيقي لمدى تدبُّن الإنسان هو وقوفه عند حدود الله تعالى، ولهذا أخره سبحانه عن جميع الصفات السابقة، وخصَّه بالعطف عليها بحرف الواو، لبيان أهميته، ولخطورته في حياة المؤمنين.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بهذه الصفات الكريمة، بشرهم بفضل الله ورحمته والجنة، فالجنة ليست للمجاهدين فقط، إنما هي لهم ولغيرهم من المؤمنين المتصفين بهذه الصفات الكريمة، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخُسْفَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

• تحريم الاستغفار للمشركين:

ومهما كانت صلوات النسب قويةً بين المؤمنين والكافرين، فإنها تنقطع بالموت، ولهذا حرّم الله تعالى على المؤمنين أن يستغفروا لأقاربهم من المشركين بعد موتهم على الكفر، وحرّم عليهم أيضاً أن يصلّوا عليهم ويقوموا عند قبورهم بعد دفنهم، كما مرّ معنا، قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

أي: ما صح لهم الاستغفار في حكم الله وحكمته، من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك^(١)، أما قبل موتهم فيجوز الاستغفار لهم بالدعاء لهم بالهداية إلى الإيمان.

وببدو أنّ النبي ﷺ كان يستغفر لعمّه أبي طالب حتى نزلت هذه الآية، ففي الحديث الشريف: عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية، فقال النبي ﷺ: «أَيُّ عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كلمةٌ أُحاجُّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية: يا أبا طالب ترغّب عن مِلَّةِ عبد المطلب؟! فلم يزا إلا يكلمانه حتى قال آخر شيءٍ كلّمهم به: على مِلَّةِ عبد المطلب، فقال النبي

(١) تفسير النسفي: ٢٠٤/٣.

﴿لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ﴾ فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. [رواه البخاري (٣٨٨٤)].

وحتى لا يحتج أحدٌ باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، بقوله: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] بين سبحانه أن استغفار إبراهيم لأبيه كان بسبب وعده له بذلك، فقال:

﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وذلك عندما قال إبراهيم لأبيه: ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ بموته على الكفر، أو بواسطة الوحي. ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي: تبرأ إبراهيم من أبيه، وقطع استغفاره له. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: كثير التأوه، مما يدل على شدة رأفته، ورقة قلبه، ورهافة أحاسيسه، وقوة عاطفته ومشاعره.

﴿حَلِيمٌ﴾ كثير الصبر، عظيم الصفح، ولهذا قابل غلظة والده وجفوته، برفقة وشفقة وعطف^(١).

وقد يقال: إذا كان الأمر كذلك، فلمْ مُنعنا من الاقتداء به، في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]؟

أقول: لعل سبب ذلك أن أكثرنا لا يفرقون بين الاستغفار بمعنى طلب الهداية لمن تُرجى منه، وهو جائز، وبين الاستغفار بمعنى طلب المغفرة لمن مات

(١) انظر تفصيل ذلك في: تفسير سورة مريم، التي أصبح عنوانها في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوحيد والتنزيه في سورة مريم).

على الكفر، وهو غير جائز، أو لعلَّ استغفاره ﷻ لأبيه كان من خصائصه^(١).
ثم يبيِّن سبحانه أنه لا يؤاخذهم على ما صدر منهم قبل نزول هذه الآيات، فقال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١٥﴾.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي: ليحكم عليهم بالضلال والعصيان.
﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ بعد أن وفقهم للإيمان.
﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ أي: يبين لهم ما يجب اتقاؤه واجتنابه.
﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١١٥].

فالتحليل والتحريم لله تعالى وحده، لأنه هو الخالق والمالك، وهو الذي يدبّر أمر الخلق وحده سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١١٦﴾.

فعلیکم أن تتوجهوا إلى الله تعالى وحده، فهو مولاكم وناصرکم، وعلیکم أيضاً أن تتبرؤوا ممن تبرأ الله تعالى منهم، فاتصال الآيات بما صدر الله تعالى السورة من البراءة واضح وظاهر.

● ساعة العسرة:

وبعد أن مرّت خمسون ليلةً على المتخلفين الثلاثة من المؤمنين، الذين أرجأ الله تعالى أمرهم في قوله تعالى السابق: ﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] أنزل الله سبحانه توبته عليهم، وأخبر سبحانه قبلها بتوبته على جميع

(١) انظر: التفسير الكبير: ٢٣٠/٢١.

المهاجرين والأنصار الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فقال:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ .

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ بزيادة في كماله عليه الصلاة والسلام وترقيته ورفعة شأنه، فالإنسان مهما ترقى في العبادة والخشوع لله تعالى، محتاج دائماً إلى توبته سبحانه عليه.

﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي: وتاب سبحانه على المهاجرين والأنصار.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي: الذين اتبعوا النبي ﷺ، وخرجوا معه إلى تبوك في وقت العسرة، وقت الشدة والضيقة، ولهذا سُميت غزوة تبوك غزوة العسرة، وجيشها جيش العسرة، لكثرة المعوقات والشدائد التي واجهتهم، ومع العسرة وشدائدها خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه، فلم يتخلف منهم سوى ثلاثة، فالمعوقات مهما اشتدت وكثرت، لا تمنع أصحاب الهمم العالية من الوصول إلى غاياتهم النبيلة السامية.

إن في الآية الكريمة وساماً ربانياً رفيعاً تفضل الله تعالى به على جنود جيش العسرة، تقديراً لجهادهم وصبرهم وتحملهم لمشقات العسرة، لقد كانوا في قلة من الظهر، حتى كان العشرة يعتقبون البعير الواحد، وكانوا في قلة من الزاد، حتى كان الواحد منهم يلوک التمرة، ثم يخرجها من فمه، ويعطيها صاحبه ليشاركه فيها، وخرجوا في حر شديد، وساروا في مفازة مهلكة، وعطشوا عطشاً كادت رقابهم أن تنقطع من شدته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتبس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو

بكر: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادعُ لنا، قال: «تحبُّ ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت، ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر. [رواه الطبراني في الأوسط (المجمع: ١٩٤/٦)].

• التوبة:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من بعد ما قاربت أن تميل قلوب بعضهم عن الحق بسبب عظم الشدة، وضخامة المشقة، لكنهم ﷻ صبروا واحتسبوا، وثبتهم ﷻ، وندموا على الخواطر السيئة التي خطرت لهم.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عمّا طاف في خواطرهم، وهجس في نفوسهم لما علّمه سبحانه من إخلاصهم، وكرّر سبحانه ذكر توبته عليهم زيادة في تطيب نفوسهم وقلوبهم وتطمينهم، مما يدلُّ على إحسانه تعالى إليهم ﷻ.

﴿إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهنيئاً لكم جند العسرة، هنيئاً لكم توبة الرؤوف الرحيم بكم.

إنني لأتصور مدى سعادتهم وفرحتهم رضي الله تعالى عنهم، وهم يسمعون النبي ﷺ يتلو عليهم هذه الآيات الكريمة:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ أي: وتاب سبحانه على المؤمنين الثلاثة الذين أرجأ سبحانه أمرهم، والذين قصّ علينا كعب بن مالك قصّتهم، كما مرّ معنا عند تفسير الآية (١٠٦) من السورة، وقد أرجأت بقية قصّتهم إلى موضعها هنا مع الآيات الكريمة:

قال كعب بن مالك: فلما صليت صلاة الفجر صُبَحَ خمسين ليلةً، وأنا

على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله، قد ضاقتُ عليَّ نفسي، وضاقتُ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشِرْ!

قال: فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أنْ قد جاءَ فرجٌ، وأذنَ رسولُ الله ﷺ بتوبةِ الله علينا حين صُلِّي صلاةُ الفجرِ، فذهبَ الناسُ يبشروننا، وذهبَ قِبَلِ صاحبيِّ مبشرون، وركضَ إليَّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرس، فلمَّا جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرنِي، نزعتُ له ثوبيَّ، فكسوتهُ إِيَّاهما ببشراه، والله ما أملكُ غيرهما يومئذٍ، واستعرتُ ثوبين فلبستُهما، وانطلقتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فيتلقاني الناسُ فوجاً فوجاً يهتفونني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبةُ الله عليك.

حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ حوله الناسُ، فقام إليَّ طلحةُ بنُ عُبَيْدِ الله يُهرولُ حتى صافحني وهنأني، والله ما قامَ إليَّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، فلمَّا سلَّمتُ على رسولِ الله ﷺ قال رسولُ الله ﷺ وهو يبرُقُ وجهُه من السرور: «أبشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذُ ولدنكَ أمك» قلتُ: أَمِنَ عندكَ يا رسولَ الله أَمِ مِنْ عِنْدِ الله؟ قال: «لا بل مِنْ عِنْدِ الله» وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهه حتى كأنه قطعةُ قمرٍ، وكُنَّا نعرفُ ذلك منه.

فلمَّا جلسْتُ بين يديه قلتُ: يا رسولَ الله إِنَّ مِنْ توبتي أنْ أنخلَعَ من مالي صدقةً إلى الله تعالى وإلى رسوله. قال رسولُ الله ﷺ: «أمسكْ عليك بعضَ مالك، فهو خيرٌ لك» قلتُ: فإني أمسكُ سهمي الذي بخير.

فقلتُ: يا رسولَ الله إن الله إِنَّمَا نَجَّاني بالصدق، وَإِنَّ مِنْ توبتي أنْ لا أحدثَ إلا صدقاً ما بقيتُ. فوالله ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبلاه الله^(١) في صدق الحديث، منذُ ذكرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، وإني لأرجو

(١) أي: أنعم عليه.

أن يحفظني الله فيما بقي .

وأنزل الله على رسوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩] فو الله ما أنعم الله علي من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبتُهُ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرًا ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَهُمْ بِجَهَنَّمَ جَزَاءُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة].

قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾ وليس الذي ذكر مما خُلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه. فقبل منه. [أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ للبخاري].

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع سعتها بسبب مقاطعة الناس لهم. ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ من كثرة الحزن والهم والوحشة التي نزلت بهم. ﴿وَوَظَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي: وعلموا أنه لا ينجيهم من غضب الله تعالى وسخطه إلا اللجوء إليه تائبين مستغفرين خاشعين.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمُ لِيَتُوبُوا﴾ أي: أنزل سبحانه توبته عليهم ليصبحوا من جملة التوابين المقبولين، أو ليستقيموا على التوبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

• كونوا مع الصادقين:

جاء تعقيب الآيات الكريمة على توبة الله تعالى على المؤمنين الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، بتوجيه المؤمنين هذا التوجيه الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ (١١٩).

الذين صدقوا في إيمانهم وطاعتهم، ولم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ. وإن لم تستطيعوا أن تكونوا معهم بأجسامكم، فكونوا معهم بقلوبكم وأرواحكم، كما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما رجَعَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوك، فدنا من المدينة قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لِقَوْمًا، مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ وادياً إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِيهِ» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ» [رواه البخاري (٤٤٢٣) وأبو داود (٢٥٠٨) وابن ماجه (٢٧٦٤) واللفظ له].

وفي الآية فضيلةٌ لجنود جيش العسرة، وهي شهادة الله تعالى لهم بالصدق والإخلاص في إيمانهم وجهادهم ﷺ.

أو: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ الذين صدقوا في اعترافهم بذنب تخلفهم عن رسول الله ﷺ، ولم يعتذروا له بالأعذار الكاذبة كما فعل المنافقون.

ولهذا وفقهم الله تعالى بعد ذلك، وتابَ عليهم بسبب صدقهم، وهو ما أشار إليه كعب بن مالك رضي الله عنه أحد المتخلفين الثلاثة في آخر قصَّة تخلفه وتوبة الله تعالى عليه التي مرَّت معنا.

ولا شك أنَّ عاقبة الصدق حميدة طيبة، تحدَّث عنها النبي ﷺ فقال: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ، وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفَجْوَرِ، وَإِنَّ الْفَجْوَرَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا» [رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧)].

ومفهوم الآية النهي عن مخالطة المنافقين والكذابين، ووجوب مبادعتهم، والحذر من كيدهم ومكرهم، فَمَنْ جالَسَ جَانِسَ، وعلى المؤمن أن يحرصَ على مجالسة أهل الإيمان والصلاح، وأهل العلم والتقوى، وينأى بنفسه عن مجالس الفساق والفجار والكذبة والمنافقين.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ، إِنَّمَا أَنْ يُخْذِيكَ (يعطيك)، وَإِنَّمَا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ، إِنَّمَا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِنَّمَا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً» [رواه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٢٦٢٨)].

• يا حيران رسول الله ﷺ:

ثم بينت الآيات الكريمة فضيلة وشرف وكرامة ضحبة رسول الله ﷺ والجهد معه، بقوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾، وهو ﷺ أفضل الصادقين وسيدهم، وقد أكرم الله تعالى أهل المدينة ومن حولها بجوار رسول الله ﷺ، فلا ينبغي لهم أن يتخلفوا عن الجهاد معه، ولا أن يخالفوا سنة من سنته عليه الصلاة والسلام، وهو حُكْمٌ عام ينسحب على جميع المسلمين والمسلمات، وخصت الآية أهل المدينة ومن حولها لقربهم من رسول الله ﷺ، وتشرفهم بجواره الكريم، مما يدل على أنه ينبغي لكل من يكرمه الله تعالى بسكنى المدينة أن يكون شديد الحرص على سنته ﷺ، وأن يتحفظ من مخالفته أكثر من غيره، فقد أكرمه الله تعالى بنعمة عظيمة، يجب عليه أن يعرف قدرها، وما يترتب عليه من أجلها.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: لا يرغبوا لأنفسهم بالراحة، بينما رسول الله ﷺ بالمعاناة والمشقة، وكيف يرغبون بأنفسهم عن نفسه، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٦].

هذا الشعور هو الذي جعل أبا خيثمة رضي الله عنه يلحق برسول الله ﷺ إلى تبوك، إذ كان في أوّل أمره قد تخلّف عن الخروج أياماً، وفي يوم حار رجّع أبو خيثمة إلى بيته، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستانه، قد رشّت كل واحدة منهما عريشها، وبرّدت له فيه الماء، وهيّأت له طعاماً، فلمّا نظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، قال: رسول الله ﷺ في الضّحّ (الشمس) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظلّ باردٍ، وطعام مُهيّأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنّصف (الإنصاف). ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتّى ألحق برسول الله ﷺ فهيئنا لي زاداً، ففعلنا، ثم قدّم ناضحه (بعيره) فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

قال الناس لما رأوه من بعيد: هذا راكبٌ على الطريقٍ مقبل. فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أبا خيثمة» فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلمّا أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له: «أولى لك يا أبا خيثمة» فأخبره الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير^(١).

بيّن سبحانه أنه يعطي المجاهدين ثواب كل ما يصيبهم من عناء ومشقة في طريق الجهاد، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ۖ﴾ عطش.

﴿وَلَا نَصَبٌ ۖ﴾ تعب.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ ۖ﴾ مجاعة شديدة.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ﴾ وهم يجاهدون في سبيل الله.

﴿وَلَا يَطْغَوْنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ۖ﴾ أي: لا يضعون قدماً في مكان

يغضب الكفار.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ۖ﴾ أي: ولا يصيبون من العدو إصابة، كقتل أو

جرح أو أسر أو غنيمة.

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ١٢١/٤ بتصرف قليل.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح، فلا ينقصهم الله شيئاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالجهاد من أعلى مراتب العبادة، يصل به المجاهدون إلى مرتبة الإحسان.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ
اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ في سبيله تعالى.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ وهم في طريقهم إلى الجهاد.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يعطيهم الله تعالى على كل نفقة بذلوها في سبيل الله، وعلى كل حركة لهم على طريق الجهاد، أحسن الثواب وأكملها، فالله سبحانه يجعل بفضله ثواب العمل القليل كثواب العمل الكبير إذا كان في سبيل الله.

• مراعاة المصالح العامة كلها:

ولاشكَّ أنَّ الترغيب الكبير للخروج إلى الجهاد، بهذا الاستقصاء والتتبع لكل حركة من حركات المجاهدين، يجعل كل فرد من أفراد الأمة يندفع إلى الجهاد، لكنَّ هذا الاندفاع الجماعي الكلي إلى الجهاد لا ينبغي أن يكون إلا في حالات الخطر الكبير، وذلك عندما يعلن وليُّ أمر المسلمين حالة النفير العام، كما فعل النبي ﷺ عندما خرج إلى تبوك لدفع خطر اجتياح الروم لبلاد المسلمين، وهذه حالات استثنائية مؤقتة، لا تبقى مستمرة إلا ببقاء أسبابها، إذ إنَّ دوامها واستمرارها يعطل حياة الأمة، ويعوّق تقدمها، فثمة مصالح عامة ضرورية للمجتمع ينبغي تأمينها، ولا يكون ذلك ممكناً إذا انصرف الجميع إلى الجهاد، ففي الأحوال العادية حيث لا يكونُ الخطرُ داهماً يكون الجهاد فرضاً

كفاية، إذا قام به البعض سقط إثم التكليف عن الآخرين، وهو ما دلّت عليه الآية التالية في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَسْفِرُوا كَأَفَّهٖ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّیَسْفَرَهُوٓا۟ فِی الدِّیْنِ وَلِیُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَیْهِمْ لَعَلَّهُمْ یَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِیَسْفِرُوا كَأَفَّهٖ﴾ أي: ما صحّ وما استقام أن يخرج جميع المؤمنين إلى مقصد واحد كجهاد أو طلب علم، بل ينبغي أن يكون خروجهم مدروساً بحسب خطة موضوعة، يراعى فيها تأمين جميع المصالح الضرورية العامة التي تحتاج إليها الأمة، فالأخذ بالأسباب أمر مشروع، ورسم الخطط المستقبلية لتأمين المصالح العامة للأمة وتقدمها أمر مرغوب في الإسلام، وهذه الآية الكريمة تدلّ عليه.

وقد فعله نبي الله يوسف عليه السلام، عندما رسم خطة مستقبلية لمواجهة سنوات القحط والجفاف: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَاكًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (١٢٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَعَّةٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (١٢٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ﴾ [يوسف] (١).

وَيَبَيِّنُ الْآيَةُ كَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ تَرَاعَى جَمِيعُ الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ لِلْمَجْتَمَعِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي: هلاً خرج من كل مجتمع كأهل بلد أو قبيلة كبيرة، أو أهل منطقة، جماعة قليلة.

﴿لِّیَسْفَرَهُوٓا۟ فِی الدِّیْنِ﴾ أي: ليطلبوا علمَ الفقه في دين الله تعالى، أي: ليفهموا أحكام شريعة الله، وهو من أشرف العلوم وأفضلها.

ففي الحديث الشريف: عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقِهِهُ فِي الدِّينِ» [رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) واللفظ للبخاري].

(١) انظر: تفسير سورة يوسف في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا، تحت عنوان: (الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ» [رواه الترمذي (٢٦٤٧) وحسنه].

وذكرت الآية الخروجَ لطلب العلم على سبيل التمثيل، فأشرف العلوم وأعلى المقاصد لا ينبغي لجميع أبناء المجتمع أن ينصرفوا إلى تحصيله، بحيث تتعطل المصالح الأخرى، بل يقوم به جماعة من كل مجتمع، وينصرف الآخرون إلى تأمين الجوانب الأخرى التي تحتاج إليها الأمة، وكذلك الشأن في الجهاد وغيرها من المقاصد والأغراض.

﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي: وليجعلوا الغاية من خروجهم خدمة أمتهم، وأبناء مجتمعهم، فإذا رجعوا قاموا بتعليمهم وإرشادهم إلى ما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم ويؤذيهم.

فالآية الكريمة توجه المسلمين إلى أن تكون استجابتهم الجماعية لتنفيذ الواجبات الشرعية العامة، استجابة منظمة واعية، تراعى فيها جميع المصالح الضرورية للأمة.

ولم يغفل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، عندما استنفر الأمة كلها لمواجهة الخطر الذي كان يهدد كيان الأمة كلها في تبوك، فخلّف عليه الصلاة والسلام وراءه في المدينة المنورة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، لكي يرقى مصالح أهل بيته في غيابه خاصة، ومصالح الأمة عامة، ومن المعلوم أن عليّاً رضي الله عنه أمة في الجهاد والشجاعة والإقدام، ومع ذلك خلّفه ﷺ في المدينة.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف عليّاً، فقال: أتخلّفني في الصبيان والنساء؟! قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي» [رواه البخاري (٤٤١٦) ومسلم (٢٤٠٤) واللفظ للبخاري].

● خطة مدروسة:

وكذلك أمر سبحانه المسلمين أن يكون جهادهم لأعدائهم منظماً

مدروساً ، فقال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي : قاتلوا الكفار القريبين منكم ، ابدؤوا بقتال العدو القريب حتى تصلوا بعده إلى البعيد ، وبذلك تتمكنون من قتال المشركين كافة ، الذي سبق في قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة : ٣٦] .

فلا تعارض بين الآيتين ، ولا نسخ ، كما رأى بعض المفسرين ، فالآية هنا ترسم للمسلمين الخطة التي يجب اتباعها في قتال جميع الكفار ، فلا ينبغي لهم أن يفتحوا على أنفسهم جبهات متعددة في وقت واحد ، إذا كانوا لا يستطيعون القيام بها ، كما هو الحال في أمر الدعوة ، يبدأ الإنسان بدعوة الأقرب فالأقرب حتى يصل إلى البعيد ، ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ في أول الأمر : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، ولما فرغ ﷺ من دعوة قريش التفت إلى غيرها من قبائل العرب ، ثم توجه رسول الله ﷺ إلى نشره في خارج أرض العرب ، وبدأ ببلاد الشام التي كانت تحت سيطرة الروم ، لأنها كانت أقرب البلاد إلى أرض العرب .

فشؤون الجهاد والدعوة وغيرها يجب أن تخضع لخطة مدروسة مرسومة ، ولا ينبغي أن تكون قرارات المسلمين ومواقفهم فيها ارتجالية عاطفية ، حتى لا يتمكن أعداء الإسلام من استدراج المسلمين إلى الوقوع في شرك خداعهم ومكرهم .

﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي : شدة في قتالهم ، فإن ذلك يؤدي إلى إدخال الخوف والرعب في قلوب غيرهم من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿فَإِذَا تَشَفَّعْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال : ٥٧] .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ الملتزمين بأحكام شريعته، وللجهاد في الإسلام أحكامٌ يجبُ على المسلم المجاهد أن يلتزم بها.

هكذا بينت هذه الآياتُ الكريمةُ الخطوطَ العامة التي ينبغي للمسلمين أن يسترشدوا بها في جميع شؤون حياتهم، وقد جاءت كلماتٍ نهائية للنظام العام للمجتمع الإسلامي، وخاصة في مجال الدعوة والجهاد والتعامل مع غير المسلمين.

• الكلمة الأخيرة:

وقبل أن تصل بنا الآيات إلى ختام السورة، وقفت وقفةً قصيرةً نهائية مع بقايا المنافقين المصريين على نفاقهم، لتوجه لهم الإنذار النهائي القطعي، وتقول لهم الكلمة الأخيرة من خلال وصف موقفهم السلبي من السورة الكريمة، قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن الكريم.

﴿فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أي: فمن المنافقين من يقول ساخراً مستهزئاً: أيكم ازداد إيماناً وتصديقاً بهذه السورة؟! فكأنهم لا يجدون أي فائدة من السور والآيات التي تنزل على رسول الله ﷺ بسبب النفاق الذي استولى على قلوبهم وغطى على عقولهم ومداركهم.

وردَّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: زادتهم تصديقاً وتعظيماً لله تعالى

ولأمره وشرعه.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: وهم أيضاً يفرحون بتتابع نزول الوحي والقرآن،

ولهذا حزنوا حزناً شديداً على انقطاع الوحي بموت رسول الله ﷺ.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ:

انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما أتيا

إليها بكت، فقالا لها: ما يُبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؟! قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أن الرحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها. [رواه مسلم (٢٤٥٤)].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفراً إلى كفرهم، لأنهم كلما جحدوا نزول سورة، أو استهزؤوا بها، ازدادوا كفرًا.

فالقرآن الكريم رحمةٌ وهدايةٌ للمؤمنين، وحجةٌ وشقاء على الكافرين: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ بسبب إصرارهم على النفاق.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوَنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوَنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: ألا يرى هؤلاء المنافقون المصرون على النفاق أن الله تعالى يبتليهم ويختبرهم في كل عام مرة أو مرتين بأنواع المصائب والعذاب، أو بما ينزل من آيات وسور تفضحهم وتكشف نفاقهم، ومع ذلك:

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: لا يتوبون عن نفاقهم، ولا يتعظون ويعتبرون بما أنزل الله فيهم.

وأنى لهم أن يتعظوا بما أنزل الله تعالى، وهم يستثقلون مجالس القرآن وينصرفون عنها؟!.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧).

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: أشار بعضهم إلى بعض بنظرات الإنكار والغضب، ثم تساءلوا سرّاً:

﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين إذا قمتم وتركتم المجلس.
 ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ عن مجلس التنزيل خشية أن يكون فيه ما يفضحهم ويكشف أمرهم.

﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن هداية الإيمان، وهو دعاء عليهم.
 ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم لا يفهمون كلام الله تعالى، فلا يتدبرونه ولا يتعظون به.

• الختم والطابع:

وأخيراً ختم الله تعالى سورة التوبة بهذا الخطاب الموجّه للمؤمنين عامة وللعرب منهم خاصة، ذكّرهم ﷺ بمنّته الكبرى عليهم، ببعثه رسول الله ﷺ منهم، لكي يعرفوا قدر المسؤولية التي أُلقيت عليهم، فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم ومن نسبكم، عربي تعرفون نسبه وحسبه.

قال القرطبي رحمه الله: «والخطاب للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاءهم بلسانهم، وبما يفهمونه، وشرفوا به غابر الأيام، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ، وأنه من

صميم العرب وخالصها»^(١).

ورأى بعض المفسرين: أنَّ الخطاب في الآية لجميع المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال ابن كثير رحمته الله: «يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: مِنْ جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]»^(٢).

ويمكن القول: إنه خطاب للمؤمنين كافة، إلا أن الإسلام عند نزول الآية كان قد انتشر بين العرب خاصة، ولم ينتشر بعد بين الأمم الأخرى. ومن صفاته الكريمة عليه الصلاة والسلام:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد شاق عليه عنتكم.

والعنتُ: المشقة والمكروه، فلا يريد بكم إلا الخير والسهولة واليسر، ويصعب عليه أن يصيبكم أي مكروه ومشقة، فهو رسول الرحمة، أرسله الله تعالى بالشرعية السمحة الميسرة، التي نفى الله تعالى عنها الحرج والمشقة، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقال عليه السلام أيضاً: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥].

وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا بعثهم في أي شأن بالتييسير؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بَشِّرُوا وَلَا تَنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تَعْسِرُوا» [رواه مسلم (١٧٣٢)].

ويختار رسول الله ﷺ الأيسر؛ قالت عائشة رضي الله عنها: ما خيَّر رسول الله ﷺ

(١) تفسير القرطبي: ٣٠١/٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٨٠/٢.

في أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه.
[رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧)].

وكان رسول الله ﷺ يترك في بعض الأحيان بعض النوافل خشية أن تُفرض على أمته؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل، وهو يحب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس، فيُفرض عليهم. [رواه البخاري (١١٢٨)].

وعنها أيضاً: أن رسول الله ﷺ صلى ذات ليلة في المسجد، فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثرت الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: «قد رأيتُ الذي صنعتُم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيتُ أن تُفرض عليكم» وذلك في رمضان. [رواه البخاري (١١٢٩)].

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حريصٌ على هدايتكم وسعادتكم، فما أكثر ما تحمّل رسول الله ﷺ من أجلكم، ونصح لكم!.
﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يشفقُ عليهم، ويرحمهم، ويحسن إليهم، ويدعو لهم في حياته ﷺ، ويشفع لهم يوم القيامة.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى (جمع) لي الأرضَ فرأيتُ مشارِقها ومغارِبها، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلَكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأَعْطَيْتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَّةٌ (أي: القحط)، وَأَنْ لَا يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ (جماعتهم)، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأَمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةٌ عَامَّةٌ، وَأَنْ لَا أَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» [رواه مسلم (٢٨٨٩)].

ثم أفردت الآية الأخيرة النبي ﷺ بالخطاب بعد أن بينت بعض السمات المميزة للشريعة الإسلامية، كآثار وظلال لشخصيته الكريمة الرحيمة:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن هذه الرسالة السمحة الكريمة.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا يسعك إلا أن تقول: حسبي الله، أي: يكفيني

الله وينصرني.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على غيره.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وكيف لا تكون بالله الكفاية والنصرة وهو ربُّ

العرش العظيم؟! فلا كافي إلا هو سبحانه، ولا ناصر سواه.

وجاءت كلمات الآية الأخيرة كختم رسمي للسورة كلها، أظهر الله تعالى

بها سمة البلاغ الأخير الموجه في السورة إلى جميع الناس.

لقد بدأه سبحانه بالبراءة من المشركين، وختمه برحمته العظمى ومنته

الكبرى ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، فالبلاغ ما وجه في الحقيقة إلا لخيرهم

وسعادتهم، فلعله يسوقهم إلى الإيمان، ويجعلهم ينضمُّون إلى النبي الكريم

ﷺ، ليسعدوا برسالته، رسالة الإسلام والسلام، رسالة السماحة واليسر

والسعادة في الدنيا والآخرة.

فمن تولَّى وأعرض عنها، فهو الجاني على نفسه، وحسبه أن رسول الله

ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، حسبه أن الله ربُّ العرش العظيم هو مولاه

وناصره صلى الله عليه وآله وسلم.

أسأله سبحانه أن يثبتنا على دينه، ويحشرنا تحت لوائه، اللهم آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان

إلى يوم الدين.





تفسير سورة يونس الإنسان بين التَّقدير والتَّكليف في سورة يونس



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربَّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فَإِنَّ الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان، لا يصح من دونه، لما له من اتصال وثيق بكمال الله سبحانه، وكمال علمه وإرادته، وهو موضوع خطير ودقيق، ضلَّت فيه أفهام كثير من الناس، فتشعبت آراؤهم، وتعددت فرقهم.

وكان السَّلَفُ الصالح مُنسكين عن الخوض في مسائله، اتباعاً للأمر النبوي الشريف: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا» [رواه الطبراني في (الكبير) من حديث ابن مسعود، وهو حديث صحيح].

وقد اضطر المتأخرون من علماء الأمة للخوض فيه بسبب ظهور البدع وشيوع الفتن في الدين، إشفاقاً على عامة المسلمين من الزيغ والضلال.

ولما تدبرْتُ آيات سورة يونس وجدتها تركِّز على موضوع القضاء والقدر، فترددت كثيراً قبل الكتابة في موضوعها، ثم عزمْتُ متوكلاً على الله تعالى، ومستعيناً به سبحانه، والذي جعلني أجمع رأيي، وأعزم في أمري، أنني وجدت

آیات السورة الکریمة تقرر موضوع القضاء والقدر ببساطة ووضوح لا خفاء فيه ولا لبس، بحيث لم تدع فيه مجالاً لأدنى ریب أو زیع.

واسترشدت بما كتبه شيخنا الشيخ محمد الحامد رحمته الله في هذا الموضوع، وقد قرأه علينا في الدرس، وقرّره قبل نشره، فأفاد رحمته الله وأجاد، ودفع كلّ ما يمكن أن يعلق بالأذهان من شبه بما آتاه الله تعالى من علم وبيان ودقة وإحكام، فجزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأسأله سبحانه أن يجمعنا به تحت لواء سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأن يرفع مقامه في عليين.

كما استعنت بما كتب غيره من أهل العلم والفضل، وما ذكره أصحاب التحقيق والتدقيق من علماء التفسير رحمهم الله تعالى.

وقد قسمت الكتاب إلى تمهيد وأربعة فصول:

فخصّصْتُ التمهيد: لتعريف القارئ بموضوع السورة، وشرح معنى التقدير، وضرورة التكليف، وعلاقة أعمال العبد بالقضاء والقدر، ومعنى الإرادة والمشیئة، وكيفية التوفيق بين الآيات في هذا الموضوع.

ثم جاءت فصول الكتاب الأربعة تسایر آيات السورة الکریمة:

• **الفصل الأول:** للوحي وضرورته، وحاجة الناس إليه، وصلة الوحي بكمال حکمته سبحانه وعلمه وتدبيره لشؤون المكونات.

• **الفصل الثاني:** لبيان مواقف الناس من آيات التنزيل الحكيم، ومن عبادة الله تعالى، ولمواقفهم وأحوالهم في حال الخطر، ثم ما يعتریهم من أحوال بعد نجاتهم منها.

• **الفصل الثالث:** لبعض حجج عقيدة التوحيد البالغة الملزمة، وللمؤیدات الكبرى لرسالة النبي صلی الله علیه وسلم.

• **الفصل الرابع:** لبيان أحوال السعداء والأشقياء، وذكر نماذج لكلا الفريقين من الأمم الغابرة.

جعلنا الله تعالى بمنّهِ وكرمه من السعداء، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين دعواهم في الجنة سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

اللهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



قَهْد

موضوع السورة

لا بدّ لفهم موضوع سورة يونس من توضيح الأمور الآتية:

أولاً: التقدير:

إن وجود الكائنات بعد العدم يدلّ على وجود الله تعالى، وإن ارتباط بعضها ببعض من أصغر ذراتها إلى أكبر أجرامها، يدل على وحدانيته سبحانه، وتنزّهه عن الشريك، كما أنّ كثرة أجناس المخلوقات؛ وكثرة أنواعها وأفرادها، وتخصيص كل فرد منها بخصائص يميّز بها عن سائر المخلوقات دليل على كمال إرادته تعالى، وتمايم مشيئته، ونفوذها في كلّ المكونات.

ثم إنّ إيجاد المخلوقات، وإبرازها من العدم على نحو ما تعلّق بها علمه سبحانه، واقتضتها إرادته، دليل على عظمة قدرته.

والتقدير من القدر، ويقال لكلّ من الإحاطة العلمية، والتخصيص بالإرادة، والإبراز بالقدرة على وفق ذلك، يقال له: قدر، من قولهم: قدرّت الشيء: إذا أحطت بقدرة، أو خصصته بقدر مخصوص بإرادتك، أو وضعته على قدر مخصوص على وفق هذه الإرادة^(١).

ثانياً: قدم صفاته سبحانه:

ويجب التنبيه إلى أنّ صفات الله تعالى قديمة قدم ذاته تعالى، قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله: إنّ الله سبحانه أزلي بصفاته الأزلية، فهو أول بلا بداية، وآخر بلا نهاية، واتصافه بصفاته الذاتية أزلي أيضاً.

(١) انظر: البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة، للشيخ سلامة العزامي رحمه الله.

والعلم منها، فتعلّقه بالمعلومات تعلّق أزلي لم يسبقه جهل، ولم يتجدّد له سبحانه علماً ما لم يكن يعلم، وإنّ من المعلوم من الدين بالضرورة استحالة البدء عليه سبحانه، وهو أن يبدو له سبحانه ما كان خافياً عنه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

والإرادة: صفة أزلية أبدية قائمة بذاته تعالى، تخصّص الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود وعدم، وصفة ومقدار، وزمان ومكان وجهة. ويكون الإبراز من بعدُ بصفة القدرة؛ وهي صفة أزلية أبدية يتأتّى بها إيجاد كلّ ممكن وإعدامه على وفق الإرادة. وللقدرة تعلّقان:

١ - تعلّق صلوحى قديم: أي إنها صالحة في الأزل للإيجاد والإعدام لكل ممكن.

٢ - وتعلّق تنجيزي حادث: وهو الإيجاد والإعدام بالفعل للممكنات التي قدّر الله إيجادها وإعدامها^(١).
والجدير بالذكر بيان أنّ المشيئة والإرادة مترادفان ومعناها واحد^(٢).

ثالثاً: التكليف:

وتظهر حكمة التقدير بالتكليف، فتقدير المكونات على ما هي عليه يبدو عبثاً ولعباً من دون تكليف، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال جلّ جلاله أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فلا منافاة بين التقدير والتكليف، بل إنّ التقدير يقتضي التكليف، قال الشيخ العزامي رحمه الله: «فمن التقدير انبثق التكليف، وكان رحمةً على رحمة،

(١) ردود على أباطيل: ٨٧/٢.

(٢) المرجع السابق: ٣٨٤/١.

ولهذا جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» [رواه مسلم (٢٥٧٧)]^(١).

رابعاً: إرادة المكلف واختياره:

ولا بدّ للتكليف من إرادة واختيار، وإرادة المكلف واختياره أساس التكليف، وما يستتبع من مسؤولية وثواب وعقاب، ولهذا أراد الله تعالى للإنسان المكلف أن يكون مريداً، وشاء سبحانه له أن يشاء، فخلق له إرادة وجعل له اختياراً، فإرادة الإنسان مخلوقة ومحدودة مثله، ولا يعقل أن تكون إرادته تامة نافذة كإرادة الخالق سبحانه، فإرادة المخلوق مخلوقة وتابعة لإرادة خالقه ومشيتته: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

خامساً: أفعال المكلف واتصالها بالقضاء والقدر:

ولا يُسأل المكلف عن الأفعال الصادرة عنه بلا إرادة ولا اختيار، ولهذا فإنّ العلماء يميّزون في الحكم بين أفعال المكلف الاختيارية وأفعاله الاضطرارية.

قال الشيخ محمد الحامد رحمته الله: «الفرق واضح بين الأفعال التي يأتيها الإنسان بمحض اختيار وحرية تصرف، وبين ما ينزل به ويصيبه من أمور ليس في إمكانه دفعها عن نفسه، كحركة المرتعش مثلاً وكالجوع والعطش والنعاس، فإنّه فيها مقهور، وعليها مجبور، فلا حساب عليه ولا عقاب.

أما الأولى فإن المذمة فيها متجهة إلى فاعلها إن كانت سيئة، والمحمدة تناله إن كانت حسنة، من حيث إنه فعل ما فعل بمحاكمة ذهنية، نظر فيها إلى المقدمات ونتائجها، واتخذ سبيله إلى الأسباب التي تُفضي إلى مسبباتها، فهو بهذا جدير بالمدح إذا أحسن، وبالذمّ إن أساء.

(١) البراهين الساطعة، للغزالي.

وليس يصحُّ في الأذهان التسوية بين النوعين في الحكم من حيث إنها إنكار لما تقضي به بدهة الفكر وواقع الحال، فإنَّ الحيوانات لها موازنات في أفعالها، تفرّق بها بين ما ينفعها منها وما يضرها، فهي تتقي الحفر والوهاد، ولا تلقي بأيديها إلى التهلكة، وتميّز طيب المرعى من خبيثه، وصافي الماء من كدره. . . إذا كانت هذه حالها - وهي لا تملك من سعة أفق التفكير ما يملكه الإنسان - فهل يسوغ في المنطق الصحيح أن يكونَ هو أدنى منها فكراً، وأقلَّ بصرًا في الأمور، فيدّعي أنّه فاقد الاختيار فيما يأتي ويذر؟! اللهمَّ إنَّ هذا مما لا يقبله العلم، ولا يقرُّه العقلُ الصحيحُ والمنطقُ السليم.

نحن نشعر يقيناً أننا نأتي ما نأتي من الأعمال مختارين، وهذه ضرورةٌ عقليةٌ ليس من الممكن جحدها ودفعها إلا أن ينسلخ المرءُ من رشاده تائهاً في بيداء الضلال.

لو أنَّ الأمر كان إجباراً محضاً فعلامَ السمع وعلامَ البصر؟! وعلامَ إرسال المرسلين مبشرين ومنذرين؟! وأي معنى مع هذا لوعده الله ووعيده؟! هل كان هذا إلا لأنَّ للعبد تمييزاً يسبق عمله، واختياراً يتقدّم فعله، أما الذي في علم الله فغيّب عنه، يظهر بعد صدوره، ويثبت بعد حصوله، وهذا لا ينفي اختيار العبد ولا يلغيه»^(١).

وقال ﷻ في موضع آخر: «وليس القدر الإلهي إلا العلم الأزلي السابق، وتعلّق الإرادة الأزلية طبق هذا العلم، والترتب بين تعلّق العلم الأزلي بالأشياء وبين تعلّق الإرادة ترتب عقلي للفهم فقط، لا ترتب وقوعي متأخر، لأنَّ كلاً من العلم والإرادة صفة أزلية لله تعالى لا افتتاح لاتصاف مولانا بها ولا ابتداء، فالله تعالى أزلي قديم بذاته وصفاته، والإرادة الإلهية هي تخصيص الله الشؤون منذ الأزل، وقد يكون الشيء المخصص مرَضِيّاً ومأموراً به كالطاعات، وقد يكون غير مرضيٍّ كالمعاصي، فالإرادة غير العلم وغير الرضا وغير الأمر، وهذا هو

الذي توجهه لغة العرب، وهي ملاك النصوص الدينية ووعاؤها، فإذا علم الله أزلاً من زيد مثلاً أنه سيفعل كذا باختياره ولا يفعل غيره، والإرادة تعلقت بهذا الذي تعلّق به العلم بلا ترتب وقوعي متأخر كما قلنا، فهل يكون الله مجبراً له على ما يفعل، خيراً كان هذا الفعل أو شراً؟^(١).

سادساً: التوفيق بين النصوص:

ثم رسم ﷻ مسلكاً وفق فيه بين النصوص القرآنية وأظهرها مجموعة واحدة صدرت من إله واحد، لا تناقض في بياناته، ولا يضل في إرشاداته، فقال:

«فما كان من النصوص موهماً للإطلاق، وأنَّ العبد حرٌّ في أفعاله، فهو محمول على كسب الفعل وتحصيله بتوجيه عزمه إليه، وقصده إياه بإرادته، وهذا تنطق به آيات كثيرة، مثل: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، و﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْيَغْيِبِمْ وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

والنصوص التي ظاهرها الإجبار تُحمَلُ على عقوبة أنزلها الله بهم، وضلال ألزمهم إياه، لمزيد تعنتهم، وقبيح تنكّرهم للحق، ومحاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، و﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقد تُحمَلُ على أنَّ الله قادر على أن يهدي الخلق كلهم، وأنه ليس بعاجز، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، و﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقد تُحمَلُ على علم الله أزلاً بالذي سيكون من العبد خيراً كان أو شراً، كقوله عليه الصلاة والسلام: «السعيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بطن أمه» [رواه الطبراني في (الصغير)] والعلم ليس فيه معنى الإجبار.

فلا تعارض بين الآيات ولا تضارب، ومعاذ الله أن تكون آيات الله

سبحانه يضرب بعضها بعضاً وهو القائل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِعَاتُ مِنَ الْأَمْثَلِ وَأَمْ لَا يَأْتِي الْبَاقِعَاتُ مِنَ الْغَيْبِ﴾ [النساء: ٨٢]»^(١).

على ضوء هذا التوضيح لما سبق يمكننا أن نلاحظ كيف أن آيات السورة الكريمة تدور في هذا الفلك من أول آية إلى آخر آية.



الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

ضرورة الوحي وصلته بالتقدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ② قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ③ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ④ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ⑤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ⑥ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑦ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ⑧ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑪ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَامٌ وَمَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑫ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَبَدَّرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ⑬ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑭ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا

لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ .

• هذه الحروف المقطعة:

افتتح الله تعالى سورة يونس بقوله الكريم:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ .

﴿الرَّ﴾ وقد ذكر علماء التفسير في الأحرف المقطعة التي استهلَّ الله تعالى بها بعض السور القرآنية أقوالاً كثيرة في معانيها، وتدلُّ كثرة هذه الأقوال على حقيقة هامة، هي: أَنَّ الإنسان مهما تدبَّر كلمات الله تعالى فلن يقف على كل معانيها وأسرارها، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى القول بأن معاني هذه الحروف مما استأثر الله تعالى بعلمها، فهي من الآيات المتشابهات التي لا يعلم حقيقة معانيها إلا الله سبحانه القائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧] .

ورأى فريق آخر أنها ذكرت لبيان إعجاز القرآن الكريم، وتنبيه الأسماع إليه، فقد كان المشركون ينفرون عند سماع القرآن، فلما نزلت: ﴿الرَّ﴾، و﴿الْمَصَّ﴾... استنكروا هذه الألفاظ، فلما أنصتوا إلى رسول الله ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبت في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم، ففي هذه الحروف إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم^(١).

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٢٩/١.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير رحمه الله في تفسيره، وأيده بقوله: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة»^(١).
وسورة يونس من بين هذه السور، وسيأتي معنا ما فيها من بيان لإعجاز القرآن وعظمته.

• الكتاب الحكيم:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ تلك: للإشارة إلى الآيات الموجودة في سورة يونس، وهي تستعمل للإشارة إلى البعيد، والتباعد هنا للتعظيم، كما قال الشوكاني رحمه الله^(٢).

وقد تكون الإشارة إلى كل ما تقدم نزوله من آيات القرآن.

ومعنى ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذو الحكمة لاشتماله عليها، أو المحكم عن الكذب والافتراء^(٣).

أو الحكيم بمعنى الحاكم، فهو حاكمٌ بالحلال والحرام، وحاكمٌ بين الناس بالحق، فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى المحكوم فيه، أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان، وبالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه، فهو فعيل بمعنى المفعول^(٤).

ولا شك أن القرآن الكريم يتّصف بكل هذه المعاني، فهو ذو حكمة، ومحكم، وحاكم، ومحكوم فيه، لأنه كلام الحكيم الخبير، قال تعالى: ﴿الرَّكَّبُ أُنْكَبَتْ أَيْنُهُمْ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

(١) انظر: تفسير سورة النمل في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد جعلنا عنوانها في هذا التفسير: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

(٢) فتح القدير، للشوكاني: ٤٢١/٢.

(٣) تفسير البضاوي: ٢٢٥/٣.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٣٥/٨.

• التعجب من نزول الوحي:

أثار نزول الوحي على سيدنا رسول الله ﷺ تعجب المشركين من العرب وإنكارهم، فاستهل سبحانه سورة يونس بذكر هذا التعجب، ورده بيان ضرورته للناس، فقال ﷺ:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾؟ وهمزة الاستفهام في ﴿أَكَانَ﴾ لإنكار تعجبهم، وتوينخ لهم عليه، مع التعجب منه، فليس في الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضي العجب، فلو أرسل الله تعالى لهم ملكاً لأرسله إليهم بهيئة رجل، حتى يستطيعوا التلقي عنه، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

والعجب: حالة تعتري الإنسان من رؤية الشيء على خلاف العادة.

ولم يكن إرسال سيدنا محمد ﷺ أمراً جديداً على خلاف العادة، فقد أرسل الله تعالى كثيراً من الرسل قبله، وهو عليه الصلاة والسلام خاتمهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

وذكر المفسرون أن المراد من الناس في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ كفار العرب، لكنني لا أرى مانعاً من تعميمها على جميع الكفار من العرب وغيرهم الذين أنكروا ظاهرة الوحي، واستبعدوا وقوعها، بسبب قُصُر عقولهم ومداركهم على الظواهر المادية المحسوسة المحيطة بهم، أو بسبب غلبة التعصب والحسد على قلوبهم ومشاعرهم، مما جعلهم ينكرون نبوة نبينا محمد ﷺ، وهذا ما فعله بعض المستشرقين من أمثال «درمنغهام»، و«واط»، و«جولدتسهر» وغيرهم.

● قَدَمُ الصَّدَقِ:

﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هذه هي المهمة الأساس للرسول ﷺ، وهي الإنذار والتبشير.

وجاء الإنذار عاماً لكل الناس، لأنهم يحتاجون إلى مَنْ يهدّدهم ويتوعّدهم، ويعرّفهم نتيجة إعراضهم عن دعوة ربهم، أو مخالفتهم لحكم من أحكام شريعته وخروجهم عليها.

وجاء التبشير خاصاً بالمؤمنين ليقوّي رغبتهم في دعوة ربهم، ويشدّ عزمهم للتغلب على المعوقات النابعة من أهوائهم ونزواتهم، والعقبات التي يقيمها الأعداء في طريقهم.

وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى ﴿قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قالوا: المراد بقدّم الصدق السعادة التي قدّرها الله تعالى لهم في سابق علمه، وتعلّقت بها إرادته سبحانه، وكتبها في اللوح المحفوظ، ولهذا المعنى اتصال وثيق بموضوع السورة الذي سبق الحديث عنه.

وقالوا أيضاً: الأجر الحسن بما قدّموا من أعمال، أو المنزلة الرفيعة يوم القيامة، أو شفاعة النبي ﷺ.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فللمؤمنين سابقة فضل عند الله تعالى سبقت في علمه سبحانه، وتعلّقت بها إرادته، وبها ينالون يوم القيامة الثواب العظيم والمنازل الرفيعة، ويكرمهم الله تعالى بشفاعة النبي ﷺ.

والسبب في إطلاق لفظ القَدَمِ على هذه المعاني أن السعي والسَّبق لا يحصل إلا بالقدم، فسُمي المسبب باسم السبب، كما سُميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد^(١).

وأضيفت القَدَمُ إلى الصدق للدلالة على زيادة الفضل، أو لتأكيد تحققها

(١) تفسير الخازن: ٢٢٧/٣.

وزيادة مدحها^(١)، أو للتنبيه على أنَّ ما نالوه من المنازل الرفيعة كان بسبب صدق القول والنية^(٢).

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّا هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وفي قراءة: ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقول الكافرين هذا فيه اعترافٌ بعجزهم عن معارضة القرآن الكريم، قال الألوسي رحمته الله: «وفي هذا اعترافٌ بأنَّ ما عاينوه خارجٌ عن طوق البشر، نازلٌ من حضرة خلاق القوى والقدر، ولكنهم سمّوه بما قالوا تمادياً في العناد»^(٣).

• الأيام الستة:

وردَّ الله سبحانه على الكفار المتعجبين من الوحي والمنكرين له، بيان أنه تعالى الخالق للكون كلّ، وأنه سبحانه مالكة، يتصرّف فيه كما يشاء، وأنَّ حكمته سبحانه من الخلق والتكوين أن يعمره المكلفون بطاعته وعبادته، فلا بدَّ إذن من التكليف، ولا يتم التكليف إلا بإنزال الوحي على مَنْ يختارهم سبحانه لحمل رسالته، وتبليغ أمانته لعباده المكلفين بطاعته وعبادته؛ قال سبحانه على وجه الإلزام والتقرير:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ لأنَّه خالقكم ومالككم ومدير أمركم، فهو سبحانه ربكم شتم أو أبيت.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: إن ربكم الذي تعجبون من

(١) تفسير البضاوي وتفسير النسفي: ٢٢٧/٣.

(٢) روح المعاني: ٦٢/٤.

(٣) المرجع السابق: ٦٤/٤.

إرساله إليكم رجلاً منكم هو الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في ستة أوقات؛ فالمراد من اليوم معناه اللغوي وهو مطلق الوقت^(١).

وما دمنّا لا ندري مقدار هذه الأيام وحقيقتها فلا ينبغي أن ندخل في تحديدها، فهي كما قال سيد قطب رحمه الله: «ذُكِرَتْ لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق، فالأيام الستة غيبٌ من غيبِ الله الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر، فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه»^(٢).

وتدل الآية الكريمة على أنه سبحانه ما خلق الخلق دفعة واحدة، بل خلقه على التدرج في ستة أوقات مع أنه سبحانه قادر على خلقه دفعة واحدة في أقل من لمح البصر: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا وَحْدَةً كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

ولا بد للتدرج في الخلق من حكم عظيمة يعلمها سبحانه، وقد ذكر المفسرون أن من حكمته سبحانه أن يعلم عباده الفرق والتثبت في الأمور، والتأني في الأحوال، ولا شك أن في التدرج في الخلق دليلاً على كمال مشيئته سبحانه، فما خلق الخلق مجبراً عليه، بل خلقه بمحض إرادته ومشيئته وعلمه.

وقد فصل سبحانه التدرج في الخلق في قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت].

• ثم استوى على العرش:

وقوله سبحانه:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ نؤمن به على المعنى الذي أراده سبحانه من غير تكيف، ولا تشبيه، ولا تعطيل.

(١) روح المعاني: ٦٤/٤.

(٢) في ظلال القرآن: ١٧٦٢/٣.

روى البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» بسنده عن عبد الله بن وهب قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرُّحضاء (عرق كثير)، ثم رفع رأسه فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوعٌ، وأنت رجلٌ سوءٌ وصاحبٌ بدعةٍ، أخرجوه.

قال ابن كثير رحمه الله: «الظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

بل الأمر كما قال نعيم بن حماد الخزاعي، شيخ البخاري، قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائص، فقد سلك سبيل الهدى»^(١).

والعرش أكبر المخلوقات وأعظمها، ويطلق في اللغة على أكثر من معنى، فهو سرير الملك، وسقف البيت، والمُلْك، والسلطان والعز^(٢).

• التقدير والتدبير:

ثم أكد سبحانه كمال قدرته وتمايم مشيئته بقول: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يقدّر ويقضي أمر جميع المخلوقات، فلا يحدث حدث في العالم كله إلا بإرادته سبحانه وقضائه وتدبيره وحكمته، فلا يخرج أمر عن قضائه وتقديره^(٣).

فالتقدير والتدبير له وحده سبحانه، ولهذا قال ﷻ:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٢٥٠.

(٢) انظر: فتح القدير: ٢/٢١١.

(٣) انظر: تفسير البضاوي والخازن: ٣/٢٢٧.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، فنفي الشفاعة يدلُّ على استبداده سبحانه وحده بالتدبير والتقدير، وهو تقرير لعظمته سبحانه إثر تقرير، فلا يشفع أحد في أي وقت إلا بعد إذنه تعالى المبني على الحكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة^(١).

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فالموصوف بهذه الصفات الجليلة هو ربكم المستحق للعبادة.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده، فلا ربَّ غيره، ولا معبود سواه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فأمر الله سبحانه بإفراجه بالعبادة والطاعة ظاهرٌ واضحٌ لا يحتاج إلى تفكُّر كثير، وتعقُّل كبير، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

• أهمية الإيمان بالقضاء والقدر:

ومن خلال هذه الآيات الكريمة تظهر لنا أهمية الإيمان بالقضاء والقدر، فهو ركن من أركان الإيمان، فلا يكون العبدُ مؤمناً بالله تعالى وكمالهِ ووحدانيته إلا إذا صدَّق بالقضاء والقدر، الذي يدلُّ على أنه لا يحدث شيء في الكون كلُّه إلا بسابق علمه سبحانه وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال الشيخ محمد الحامد رحمته الله: «الإيمانُ بالقدر أساسٌ من أسس العقيدة، وركن من أركانها، ولما سُئل النبي ﷺ عن الإيمان قال: «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره» [رواه مسلم (٨)]. وشرُّ القدر هو بالنسبة إلى العبد المتصف بالشر لا إلى الرب تعالى وتبارك سبحانه، فهو منزَّه عن الشر مطلقاً، وكان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام ربه تعالى: «الخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك» [رواه مسلم (٧٧١)]^(٢).

فأفعاله سبحانه كلُّها حَكَمٌ، وعدم ظهور الحكمة في بعضها لقصور علم

(١) روح المعاني: ٦٥/٤.

(٢) ردود على أباطيل: ٣٨٨/١.

المخلوق عن علمه سبحانه، وما هو شرٌّ في نظر الناس ليس شرّاً بالنسبة إليه سبحانه، فما خلقه إلا لحكمة بالغة، قال الشيخ العزامي رحمته الله: «ويقرب ذلك إلى فهمك أن تنظر إلى فعل الطبيب الشفيق على المريض في إعطائه الدواء الكريه قهراً، وقطعه العضو الذي يخشى من بقاءه على الجسد كله، ونحو ذلك، فهو شرٌّ في نظر الضعفاء لما فيه من الإيلام وتشويه الجسد بقطع شيء منه، وهو في النظر السليم يعدُّ خيراً لما يُفضي إليه من الصحة والسلامة لباقي البدن، وكلُّ أفعاله تعالى من هذا القبيل عند من دقق النظر وكان من أولي الأبواب»^(١).

ولقد فطن الناس في العصر الحاضر إلى أهمية استمرار البيئة كما خلقها الله تعالى وأبدعها، وأنَّ أي تغيير فيها تشويه لها وتلويث قد يؤدي إلى أخطار كبيرة تهدد حياة الإنسان ووجوده على الأرض، ولهذا ترى أنصار حماية البيئة يبذلون الجهود الكبيرة لحماية جميع أنواع الحيوانات من الانقراض، سواء منها القريبة من الإنسان أو البعيدة عنه في أعماق البحار الدافئة والمتجمدة، كل ذلك لاعتقادهم أنَّ لوجودها حكمة وارتباطاً بحياة الإنسان ووجوده.

فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين. وتدبيره سبحانه للأمور كلها يمتد للدنيا والآخرة، للحياة وبعد الممات، فلا فوت للإنسان إذا مات من قدرته سبحانه وإرادته:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إلى ربكم أيها الناس رجوعكم بعد الموت فاستعدوا للقاءه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ لا خُلْفَ فيه، إذ سبق بذلك علمه، وتعلقت به مشيئته.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ من العدم.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت إلى الحياة.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، فلا ينقص من أجورهم شيئاً، بل يزيدهم من فضله. أو: ليجزيهم بما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا، فالإيمان عدلٌ قويم، والشرك ظلم عظيم^(١).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بلغ الغاية في حرارته.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

وتغيّر نظم الكلام عند الحديث عن العذاب عن نظمه في الحديث عن الثواب، للتنبيه على أنَّ المقصود بالذات من إعادتهم إلى الحياة بعد الموت هو الثواب للمؤمنين، وأما عقاب الكافرين فغير مقصود^(٢)، فهو واقع بالعرض، ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم؛ فالله سبحانه ما خلق الخلق ليعذبهم، ولكن الناس يعرضون أنفسهم إلى عذاب الله تعالى بكفرهم وفجورهم: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ويلاحظ المتأمل للآيات السابقة أنها أثبتت للإنسان كسباً واختياراً في إيمانه أو كفره، وبيّنت في الوقت نفسه كمال علم الله سبحانه المحيط أزلاً بكل المخلوقات، وتمام مشيئته النافذة في كلِّ الحادثات.

• الشمس المضيئة والقمر المنير:

ومن مظاهر تدبيره سبحانه لأمر المخلوقات وتقديره لنواميس الكائنات خلقه الشمس والقمر، وتخصيص كل واحد منهما بخصائص ونواميس يسير عليها لا يتجاوزها، وإبداعه لنظام الليل والنهار، وجعل كل ذلك مرتبطاً بمصالح العباد وحياتهم على الأرض:

(١) تفسير البضاوي وتفسير النسفي: ٢٢٨/٣.

(٢) تفسير النسفي: ٢٢٨/٣.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ أي: ذات ضياء.

﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نور.

وقد تساءل بعض المفسرين عن سِرِّ وصف الشمس بالضياء، ووصف القمر بالنور، فقال بعضهم: خصَّ الشمس بالضياء لأنها أقوى وأكمل من النور، وخصَّ القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء^(١).

وقال آخرون: ما بالذات ضوء، وما بالعرض نور، وقد نبّه ﷺ بذلك على أنه خلق الشمس مضيئة بذاتها، والقمر منيراً بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها^(٢).

وهذه حقيقة علمية عرفت في العصور المتأخرة، فنور القمر مستمدٌّ من ضوء الشمس، وهو انعكاسٌ لأشعة الشمس، ولهذا سَمَّى الله تعالى الشمس بالسراج، لأنها مضيئة بذاتها، كما وصف القمر بالمنير لأن نوره انعكاس لأشعة الشمس عليه، قال تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح].

﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: وقَدَّرَ لسير القمر منازل لا يجاوزها ولا يقصُر عنها، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

وهذا التقدير والتنظيم جعله الله بفضله من أجل الإنسان وفائدته: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فتقوم به مصالح الناس الدينية والدنيوية،

(١) تفسير الخازن: ٢٢٩/٣.

(٢) تفسير النسفي: ٢٢٩/٣.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الأنعام: ١٢].

• العلم والتقوى:

وهذا التقدير والإبداع ما خلقه الله تعالى عبثاً ولا باطلاً:

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي يدلُّ على كمال قدرته سبحانه وبديع حكمته.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ دلائل قدرته، وبراهين وجوده وعظمته، فيؤمنون به ويصدقون بوحدانيته وكماله.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، ومجيء أحدهما بعد الآخر على وفق النظام المقدر لهما.

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أنواع المخلوقات والنواميس والنظم التي تحكمها، والتي تدل على وجود خالقها ومبدعها.

﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله تعالى بعبادته وطاعته واتباع رسله.

ويلاحظ أنه سبحانه ختم الآية الأولى بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ثم ختم الآية الثانية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، مما يدلُّ على أن الإنسان الذي يتأمل ويتدبر ويلاحظ بديع صنع الله في مخلوقاته، ويعلم ما فيها من الأدلة والبراهين على وجوده سبحانه ووحدانيته، لا بد أن يؤمن بالله ويخشاه، ويعمل في طاعته وعبادته ليتقي عذابه وغضبه، فالعلم مع الإيمان يؤدي إلى العمل بطاعته، ويوصل طلاب الحق إلى معرفة ربهم وتقواه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

● المطمئنون بالدنيا:

إلا أنَّ أكثر الناس يغفلون عن آيات الله تعالى الماثلة في هذا الكون، بسبب انشغالهم بالحياة الدنيا وانكبابهم على ملذاتها، وصرفهم كل إمكاناتهم في تأمين متطلباتها، حتى إنَّهم لا يتوقعون لقاء الله تعالى، ولا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، وتلك هي مشكلة أكثر الناس، وخاصة في العصر الحاضر: الغفلة عن الأدلة الكثيرة التي قرَّبها العلم من أسماعهم وأبصارهم، والاعتراض بالدنيا والاطمئنان بها.

هذه الغفلة عن آيات الله تعالى لا تخلِّصهم من الحساب يوم القيامة، ولا تنجيهم من العقاب، فقد زوَّدهم سبحانه بكل وسائل النظر والتفكير، وأرسل إليهم رسلاً ينذرونهم ويحذرونهم، وجعل لهم إرادة واختياراً وكسباً، وقدرة على التمييز والاختيار:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يتوقعون لقاء الله تعالى يوم القيامة، أو لا يخافون لقاء الله تعالى لأنهم لا يؤمنون به.

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فسكنوا إليها، وقصروا همهم على ملذاتها وزينتها.

﴿وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا﴾ مما جعلهم يغفلون عن آيات الله تعالى فلا يتفكرون بها

ولا يلتفتون إليها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾:

﴿أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

فسوء اختيارهم وكسبهم وغفلتهم عن ربهم أوصلهم إلى عذاب النار.

• الواصلون إلى الجنة:

وبالمقابل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله تعالى وآياته التي غفل عنها الغافلون.
 ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي كُلفوا بها بواسطة الأنبياء والمرسلين.
 ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: يوفقههم ربهم للسير على طريق الحق،
 ويثبتهم عليه حتى يصلوا إلى جنته ورضوانه بسبب إيمانهم، فهو كقوله ﷻ:
 ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].
 فنظرهم إلى الأدلة الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، واستجابتهم لدعوة
 المرسلين، جعلهم في كنف الله ورعايته وتوفيقه، فسدد خطاهم، ونور بصائرهم،
 فاستقاموا على الصراط، حتى وصلوا بفضل الله تعالى إلى رضوانه وجنته.
 ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ حيث السعادة الأبدية الحقة،
 والنعيم الدائم الذي لا ينقطع، فلا يشغلهم فيها عن ربهم سبحانه طلب رزق
 وتحصيل لذة وتحقيق متعة، أعطاهم سبحانه فوق ما يؤملون وأعظم مما يشتهون.
 ولهذا يقبلون على تسبيحه سبحانه وتمجيده وتقديسه والثناء عليه بما هو
 أهله، فيزيدهم الله سبحانه من فضله، ويفتح عليهم خزائن جوده وكرمه، فتزداد
 سعادتهم ويتضاعف سرورهم:

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا﴾ أي: كلام أهل الجنة في الجنة، أو دعاؤهم فيها.

﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي: يصفون الله تعالى بصفات الجلال التي يقال فيها: جلّ عن كذا وجلّ عن كذا، وهذا معنى التسبيح والتنزيه والتقديس، ثم يشنون عليه سبحانه بصفات الإكرام والكمال وهو التحميد..

﴿وَيَحْيِيَهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: يقابلون بالسلام من ربهم: ﴿يَحْيِيَهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

ومن الملائكة الذين يدخلون عليهم من كل باب قائلين لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَانَهُمْ﴾ أي: وخاتمة كلامهم أو دعائهم:

﴿إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

● المستعجلون للعذاب:

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه ورحمته إمهال الكافرين، وعدم تعجيل عذابهم، لعلمهم ينتبهوا من غفلتهم، ويصحّوا من سكرتهم، فتفتح بصائرهم على الأدلة الماثلة حولهم، وتستنير عقولهم وقلوبهم بأنوار الهداية، فتنقاد لدعوة المرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم، وتلتزمهم بهذا الإمهال الحجة، وتقوم عليهم البينة، فإذا ما استعجلوا العذاب لفرط جهلهم وعنادهم فالله سبحانه لا يعجل لعجلتهم، ومشيتته سبحانه أجلّ وأعز من أن تكون تابعة لمشيئتهم، بل يتركهم سبحانه متحيرين مترددين في ظلمات كفرهم:

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسَرَ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١).

﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَلْسَرَ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي: مثل استعجالهم بالخير.

فمن المعروف شدة حب الإنسان للخير، واستعجاله في تحصيله.

﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لأهلكوا وأميتوا، ولكن حكمته سبحانه اقتضت

إمهالهم.

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يترددون ويتحيرون.

وما أشدَّ جهلهم حين يستعجلون العذاب! ألا فليظفروا إلى أحوالهم عندما يصيبهم شيء من المكروه، وحينئذ يستشعرون ضعفهم، ويعرفون ذلَّتْهم وافتقارهم، فيقبلون على الله تعالى ضارعين يسألونه كشف الضر عنهم:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ كالفقر والمرض.

﴿دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي: دعانا في جميع أحواله؛ سواء كان مضطجعا أو قاعداً أو قائماً، وهذا يدلُّ على أنه يستمر في الدعاء والسؤال حتى يكشف الله عنه المكروه.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ أي: مضى واستمر على ما كان عليه من الإعراض عن الله تعالى، والانصراف إلى الدنيا وزينتها وشهواتها. أو: مرَّ عن موقف الدعاء والابتهاال والشعور بالضعف والذلة إلى موقف التكبر والتجبر.

• من حقائق النفس البشرية:

﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والمسرفون هم المتجاوزون لحد الاعتدال، والمبالغون في الإقبال على الدنيا وشهواتها، مما جعلهم غافلين عن آخرتهم ومصيرهم.

والتزيين: التحسين والتحييب، ولا شك أن نفوسهم الأماراة بالسوء زينت لهم أمر الإقبال على الدنيا والانهماك بشهواتها، والانصراف عن أمر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب.

هذه حقيقة من الحقائق التي تنطوي عليها النفس البشرية، تواجهنا بها الآية الكريمة بكل ما فيها من موضوعية وصدق، مع عمق في تحليل نفس الإنسان، وبيان ما انطوت عليه من نزعات ونزغات.

وقد أحسن سيد قطب رحمته الله عندما تحدّث عن الاتساق والاتفاق بين كلمات الآية الكريمة وبين الحالة النفسية للإنسان فقال: «والسياق ينسّق خطوات التعبير، وإيقاعه مع الحالة النفسية التي يصوّرها، والنموذج البشري الذي يعرضه، فيصوّر منظر الضر في بقاء وتلبّث وتطويل: ﴿دَعَا نَا لِجَنِّهِۦٓٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾، يعرض كل حالة وكل وضع وكل منظر، ليصور وقفة هذا الإنسان، وقد توقف التيار الدافع في جسمه أو في ماله أو في قوته كما يتوقف التيار أمام السد، حتى إذا رفع الحاجز ﴿مَرَّ﴾ كلمة واحدة تصور الاندفاع والمروق والانطلاق ﴿مَرَّ﴾ لا يتوقف ليشكر، ولا يلتفت ليتدبّر، ولا يتأمل ليعتبر، ﴿مَرَّ﴾ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْۢمَسَةٍ﴾، واندفع مع تيار الحياة دون كابح ولا زاجر ولا مبالاة»^(١).

• جزاء المجرمين:

ثم التفتت الآيات تخاطب المشركين وتذكرهم بمصير الأمم السابقة التي كذّبت رسلها، وإهلاك الله تعالى لهم بسبب ذلك:

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: عندما أشركوا. ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، مما يدلُّ على أن ظلمهم كان بتكذيب الرسل وإعراضهم عن المعجزات والحجج التي جاؤوا بها. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ مهما طال عليهم الزمن، وامتدَّ بهم العمر، لأن الله علم أنهم يصرون على كفرهم^(٢).

فالسبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسول، بعد أن أقام الله عليهم الحجة

(١) في ظلال القرآن: ١٧٦٩/٣.

(٢) تفسير البضاوي: ٢٣٤/٣.

بالبينات والمعجزات التي جاء بها الرسل، وعلمه سبحانه (أنهم لن يؤمنوا) لم يكن سبب هلاكهم، كما أنه لم يكن سبب امتناعهم عن الإيمان، إنما هلاكهم كان بسبب اختيارهم للكفر، وإعراضهم عن دعوة المرسلين.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإهلاك.

﴿يَحْزَى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وهو وعيد شديد للمشركين المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ والمكذبين له، ولا يخفى من صفة الإجرام التي وصفوا بها ما فيها من دلالة على تأكيد اختيارهم وكسبهم ومسؤوليتهم عن هذا الكسب والاختيار.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: ثم استخلفناكم في الأرض بعد الأمم السابقة التي أهلكناها، والخطاب للذين أُرسل إليهم سيدنا محمد ﷺ، وهو يشمل الذين شهدوا بعثته، ومن يأتي بعدهم من الأجيال إلى قيام الساعة.

﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أتعملون خيراً أم شراً؟ فنعاملكم على حسب عملكم لا حسب علم الله سبحانه، فالله سبحانه يعلم ما يكون قبل أن يكون، وهو سبحانه يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه^(١).

قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ» [رواه مسلم (٢٧٤٢)].

وقد بين الله تعالى لنا من خلال هذه الآيات الكريمة قاعدة عظيمة جليّة في موضوع القضاء والقدر، وهي تقرر أن للإنسان كسباً واختياراً، وأنه سبحانه سيحاسبه ويسأله عمّا صدر عنه من عمل باختياره وكسبه، لا بمقتضى علمه سبحانه به.



الْفَصْلُ الثَّانِي

مَوَاقِف

﴿وَإِذَا تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ
بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِغَيْرِ قِسْيَةٍ إِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ ١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ
لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ
كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمْ تُؤْتُونَ اللَّهَ مَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ
عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ٢٠﴾ وَإِذَا أَقْبْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا
تَمَكُرُونَ ٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي أَلْفُلِكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ
وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهِمُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ
فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ
قَدِرُوا عَلَيْهِمْ أَتَيْنَاهُمْ أَتْرَافًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢٥﴾

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾
وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ ۚ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ
وُجُوهُهُمْ قُطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ
نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ ﴿٦٨﴾
فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَّبَيِّنُنَا وَيَبَيِّنُكُمْ إِنَّ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٦٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَأُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
أَسْلَفَتْ ۖ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٠﴾

• القرآن والنبي ﷺ:

وجاءت الآيات الكريمة بعد ذلك تبين مواقف الخلائف في الأرض الذين أرسل إليهم سيدنا محمد ﷺ، وبدأت ببيان موقفهم من القرآن الكريم عندما كان الرسول ﷺ يتلوه عليهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَىٰ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلَهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِي ۚ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ ووضحت الدلالة على أنها كلام الله تعالى وعلى صدق رسول الله ﷺ.

﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَىٰ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلَهُ﴾ وهو طلب عجيب يدل على أنهم طلبوه على سبيل السخرية والاستهزاء، أو طلبوه على سبيل الجدل امتحاناً للنبي ﷺ (١).

وعلى كلا الاحتمالين فهو طلب لا يصدر إلا عن قوم لا يرجون لقاء الله تعالى، ولا يدركون مدى المسؤولية المترتبة على مثل هذا الكلام.

(١) انظر: التفسير الكبير: ٥٩/١٧.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾ أي: قل أيها الرسول لهم: ما يصح لي أصلاً تبديله من جهتي ومن عندي.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: ما أتبع إلا ما يوحى إلي من غير زيادة ولا نقصان، لأنه من عند الله تعالى لا من عندي، فحاله عليه الصلاة والسلام مقصورة على اتباع ما يوحى إليه، فلا يستقل بشيء دونه أصلاً^(١).

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهو تأكيد لعبوديته عليه الصلاة والسلام لربه، ولشدة خشيته منه ﷺ، وفيه ردٌّ على تعريضهم به عليه الصلاة والسلام عندما طلبوا منه تبديل القرآن الكريم.

• حقيقة القرآن الكريم:

وبعد أن بين سبحانه بطلان ما اقترحوه بين حقيقة القرآن الكريم وأنه من عند الله تعالى، نزل على النبي ﷺ بأمره تعالى ومشيته:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لو شاء الله أن لا ينزل هذا القرآن علي ما قرأته عليكم.

﴿وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم الله به على لساني.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: فقد أقمت بينكم أربعين سنة من قبل نزول القرآن لا أتلوهُ ولا أعلمه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم في التدبر والتفكر فيه، لتعلموا أنه ليس مني، ولكنه كلام الله تعالى.

وفي الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم معجز خارق للعادة، فإن من عاش

بين أظهرهم أربعين سنة، لم يمارس فيها علماً، ولم يشاهد عالماً، ولم يُنشئ شعراً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بَرَّتْ فصاحته فصاحة كل منطق، وعلا عن كل منشور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه: عَلِمَ أَنَّهُ مَعْلَمٌ من الله تعالى.

● الصادق الأمين:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٧)

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟ وهو استفهام إنكاري معناه النفي، أي: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشدَّ إجراماً ممن كذب على الله.

وحاشا رسول الله ﷺ أن يكون كذلك، ولقد اشتهر عليه الصلاة والسلام بغاية الصدق والأمانة بين قومه، فلا يُعقلُ أن يترك الكذب على الناس، ويكذب على الله تعالى.

وقد استدلَّ هِرَقْلُ ملكُ الروم بهذا على صدق النبي ﷺ عندما سأل أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفر وزعيم المشركين، ومع ذلك اعترف بالحق، فقال له هِرَقْلُ: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب ليكذب على الله. [رواه البخاري (٧)].

وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته. [رواه أحمد (٣٠٢/١) و٢٩٠/٥].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، وهو تعريض للمشركين المكذِّبين للقرآن الكريم، أي: ولا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله ﷻ.

ويدلُّ على أنَّ الكاذب على الله تعالى والمكذب بآياته في الكفر سواء^(١)،

ولهذا كرّر وصفهم بصفة الإجماع بقوله سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

• توبيخ واستنكار:

وبعد أن بينت الآيات الكريمة موقف المشركين من القرآن الكريم، بينت موقفهم من العبادة:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: يعبدون آلهة مزعومة لا تضر ولا تنفع، والعبادة أعظم أنواع التعظيم، فلا تليق إلا بمن يضر وينفع، ويحيي ويميت.

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، وهذا يدل على شدة جهلهم حيث ينتظرون من هذه الآلهة التي لا تضر ولا تنفع أن تشفع لهم عند الله تعالى.

﴿قُلْ أَنْتَبِئْتُمْ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم على وجه التوبيخ والاستنكار: أخبرون الله أن له شريكاً في ملكه، أو شافعياً بغير إذنه، وهو سبحانه لا يعلم أن له شريكاً في السماوات ولا في الأرض؟! ﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩).

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق مجتمعين على التوحيد من غير اختلاف، وذلك من عهد آدم عليه السلام إلى عهد نوح عليه السلام.

وقيل: المراد من ﴿النَّاسُ﴾ العرب خاصة، وكانوا على التوحيد من زمن

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلى أن ظهر عمرو بن لُحَي، وجلب الأصنام إلى أرض العرب، ونشر عبادتها بينهم^(١). فحدث الاختلاف بينهم حيثئذ:

﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ وصاروا مللاً، فالشرك أمر طارئ على الناس.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ولولا

ما تقدم أن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه سبحانه جعل لكل المخلوقات أجلاً معدوداً ومحدوداً، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، وأنزل العقوبة على المكذبين^(٢).

وفي الآية كما قال القرطبي إشارة إلى القضاء والقدر.

ولا شك أن اختلاف الناس دليل على أنه سبحانه جعل لهم إرادة واختياراً وكسباً، واقتضت مشيئته وحكمته سبحانه أن تكون الحياة الدنيا للابتلاء والتكليف، ولا يتم هذا إلا إذا تمتع المكلف بالإرادة والكسب والاختيار.

• اقتراح المعجزات:

أظهرت لنا الآيات السابقة أنَّ القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، وأنه يكفي للدلالة على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته، ويغني عن أي معجزة أخرى، وطلب معجزة ثانية لا يكون إلا مكابرة وعناداً، وقد اشتهر مشركو مكة بالعناد والمكابرة، وعرفوا بكثرة مواقف العناد والمكابرة، وجاءت الآية الكريمة تعبر عن هذه المواقف بصيغة المضارع:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لتؤذن أن هذه المقالة من دأبهم وعادتهم^(٣).

(١) روح المعاني: ٨٩/٤.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١٨٨/٢.

(٣) روح المعاني: ٩٢/٤.

﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هلاً أظهر الله على يده معجزة من المعجزات التي اقترحوها، والتي جاء ذكرها مفصلة في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ (٩٢) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣) (١).

ولو أنصفوا لوجدوا في القرآن الكريم ما يكفيهم ويغنيهم عن كل هذه المعجزات المقترحة.

وأمر الله تعالى النبي ﷺ أن يرد عليهم بقوله:

﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: إن إنزال المعجزات من الغيب المختص بإرادته سبحانه.

﴿فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: انتظروا قضاء الله تعالى بيني وبينكم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

• من الآداب القرآنية:

وكيف يحقق الله تعالى ما اقترحوه من المعجزات وهم لا يقابلون نعمه سبحانه التي أنعم بها عليهم إلا بالجحود والكفران، وهو حال أكثر الناس؟!.

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُفَةٌ أَيَّائِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ (٢١).

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ كالصحة والسعة في الرزق.

﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: من بعد مرض أو قحط أصابهم، وللصحة بعد المرض، والغنى بعد العسر، وقع شديد وتأثير كبير على الإنسان.

(١) انظر تفصيلاً للموضوع: تفسير سورة الإسراء، في تفسيرنا الموضوعي هذا، والذي جاء تحت عنوان (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

ويلاحظ المتأمل لكلمات الآية الكريمة أنه سبحانه أسند إلى ذاته المقدسة إذاقة الرحمة للناس، بينما لم يسند الضراء إليه سبحانه، مع أن الكل بإرادته وقدرته، وهذا يجعلنا نفقه أدباً من الآداب القرآنية التي تحلّى بها الأنبياء ﷺ، ألا ترى إلى أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه سبحانه عندما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

كما يجعلنا نستيقن أن الخير فضلٌ منه سبحانه، بينما الشرُّ لا يكون إلا بما يصدر عنا من أسباب تؤدي إليه، مع أنه من خلق الله تعالى وتقديره، إذ هو الخالق لكل شيء، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعَمَهُ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

• الله أسرع مكرًا:

وقوله سبحانه:

﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيْ آيَاتِنَا﴾ يدل على مسارعتهم إلى المكر حال إنزال الرحمة عليهم، فكلمة ﴿إِذَا﴾ تفيد المفاجأة، ومعنى المكر: الكيد والاحتياال الخفي، أي: يسارعون إلى تكذيب آيات الله تعالى، والاحتياال في دفعها.

وجاء الجواب من الله تعالى يتناسب مع مسارعتهم إلى المكر:

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أعجل عقوبة.

قال الشوكاني رحمه الله: «وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرًا من باب المشاكلة، كما قرّر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز»^(١).

ويمكن حمل المكر على المعنى الأصلي له على الوجه اللائق بكماله

(١) فتح القدير: ٤٣٤/٢.

سبحانه، قال الآلوسي رحمته الله: «وقد شاع أنه لا يُستعمل في حقّه تعالى إلا على سبيل المشاكلة، وليس بذلك كما حُقِّق في موضعه»^(١).

فالله سبحانه أشدّ استدراجاً وإمهالاً حتى يظنّ الظانّ من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنّما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه^(٢).

أو أنه سبحانه قابل مكرهم بمكر أشدّ منه، وهو إمهالهم إلى يوم القيامة^(٣). ويؤكدّه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنْ رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكة الموكّلين بحفظ أعمالكم.

﴿يَكْتُبُونَ مَا تَكْرَهُونَ﴾ وأنتم لا تشعرون، فما تدبّرونه غير خافٍ على الكرام الكاتبين فضلاً عن رب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية.

• بين الأمواج العاتية:

ولا بد لتوضيح هذه المعاني من مثال عملي كامل يبيّن فضل الله تعالى على الإنسان، بنقله من الضرّ الشديد إلى الرحمة والسعة، ويبين أيضاً موقف الإنسان بعد ذلك ومكره، لأنّ المعنى الكلي المجرد لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي^(٤):

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢٢).

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: الله سبحانه يهيئ لكم أسباب السير في البر والبحر ويمكنكم منه، فلو لا النواميس والوسائل التي جعلها الله سبحانه في

(١) روح المعاني: ٩٤/٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٨٩/٢.

(٣) تفسير الخازن: ٢٤١/٣.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٧٠/١٧.

البر والبحر ما تمكّن الإنسان من السير فيهما. أو: هو الذي جعلكم قادرين على السير في البر والبحر بما سخر لكم وخلق من أجلكم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ﴾ أي: في السفن، والفلك كلمة تطلق على المفرد والجمع.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ﴾: وجرت السفن بركابها بريح طيبة هادئة لينة.

﴿وَفَرَحُوا بِهَا﴾ لموافقتها لمقصودهم.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ في البحر.

﴿وَوَلَّوْا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم.

﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير إشراك به سبحانه، لرجوعهم إلى الفطرة

التي فطروا عليها، وهي التوحيد، ولعلمهم أنه لا ينجيهم من الهلاك إلا الله وحده، ولهذا يقولون في دعائهم:

﴿لَيْنَ أُنَجِّتَنَا مِنْ هَٰذِهِ الْأَهْوَالِ، أَوْ هَذِهِ الشَّدَائِدِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا.

لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: والله لنكونن من الشاكرين لك دائماً.

• البغي في الأرض:

﴿فَلَمَّا أَتَجَنَّهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣).

﴿فَلَمَّا أَتَجَنَّهُمْ﴾ مما نزل بهم من الشدائد والأهوال.

والفاء تدل على سرعة الإجابة.

﴿إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: يفسدون في الأرض، والبغي:

مجاوزة الحد، يعني أنهم أخلفوا الله ما وعدوه، وتجاوزوا في الأرض إلى غير ما أمر به سبحانه من الكفر والمعاصي.

وكلمة (إذا) تدلُّ على المسارعة والمبادرة إلى البغي حال شعورهم

بالنجاة، وهذه طبيعة أكثر الناس في كل عصر ومصر، يقبلون على الله تعالى في الضراء، وينسون فضله، ويُعرضون عن طاعته وعبادته في الرخاء، فتراهم يفرحون بالنعمة، وينسون المنعم.

وجاء التعقيب على هذا المثال العملي الصادق في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إن وباله وعاقبته ترجع عليكم، فهو كقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

أو: إن بغيكم واقع على أمثالكم وأبناء جنسكم^(١)؛ إذ الناس بمثابة نفسٍ واحدة بما بينهم من وشائج وصلات؛ فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءَ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] أي: يقتل بعضهم بعضاً.

أو: إن بغيكم عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وجاء في الحديث الشريف: «ما من ذنب أجدر أن يُعَجَّلَ لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة؛ من البغي وقطيعة الرحم» [رواه الترمذي (٢٥١١)] وقال: حديث حسن صحيح.

﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تتمتعون متاع الحياة الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: ثم ترجعون إلينا.

﴿فَنَنْتَقِمُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ونحاسبكم عليه، فالبغي سريع

الزوال، شديد الوبال.

• حقيقة الحياة الدنيا:

ثم ذكرت الآيات مثلاً آخر لسرعة انتهاء الحياة الدنيا وقصر متاعها، وقلته وحقارته، فهي سريعة التقلب، وشبكة الانقضاء:

(١) تفسير النسفي: ٢٤٣/٣.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْيَنْتَ وَطَرَكَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ رُوتَ عَلَيْهَا أُنْتَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: فاختلط نبات الأرض بالماء، فنبت ونما.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ كالحبوب والكلاء.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: استكملت زينتها بأنواع النبات وألوانه الزاهية.

﴿وَأَزْيَنْتَ﴾ أي: تزينت كما تتزين العروس وتبرج.

وأهلها مزهوون بها، مطمئنون إليها، يظنون أنهم أصحاب الأمر والنهي فيها، لا يغيرها عليهم مغير، ولا ينازعهم فيها منازع.

﴿وَطَرَكَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدْ رُوتَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض متمكنون منها، وذلك بسبب شدة اغترارهم بها.

﴿أُنْتَهَا أَمْرُنَا﴾ قضاؤنا بهلاكها.

﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ في زمن غفلتهم ونومهم، أو في حال انتباههم ويقظتهم، فلا يمنع من عذاب الله مانع، ولا يدفعه دافع.

﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ محصودة مقطوعة.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ أي: كأن نباتها لم يكن ولم يقم منذ زمن قريب، من غني بالمكان، إذا أقام فيه.

وهكذا الدنيا بعد زوالها كأنها لم تكن، تزول في ومضة ولحظة بعد أن بذل أهلها فيها ما بذلوا، وأملوا منها ما أملوا، فما أشد خيبتهم! وما أعظم حسرتهم! خيبة وحزن في الدنيا، وحسرة وعذاب يوم القيامة، كما مر معنا في

أوائل السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ مَا إِلَيْنَا غَفِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿﴾ بإرادتهم واختيارهم.

وختم الله تعالى هذين المثليين الرائعين لحقيقة الدنيا وموقف الناس منها بقوله الكريم:

﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فالتفكر بداية التذكر والانسلاخ عن حال الغفلة الذي يغلب على الراضين بالحياة الدنيا والمطمئنين بها.

• الدعوة إلى دار السلام:

ومن المناسب بعد أن بينت الآيات الكريمة حقيقة الدنيا، وزهدت الناس بها، أن تبين بعض ما في الجنة من النعيم، فقد دأب القرآن الكريم على تشويق المؤمنين إلى الجنة، لتتعلق قلوبهم بها، وتتطلع نفوسهم إليها، وتسمو أرواحهم نحوها، فيسيروا على طريقها، ويلتزموا المنهج الرباني الذي يوصل إليها. قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٢٥).

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ وهذه دعوة مفتوحة من الله العزيز الرحيم موجهة إلى سائر العباد بواسطة النبي ﷺ.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريلَ عند رأسي، وميكائيلَ عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعتُ أذنكَ، واعقلَ عقلَ قلبك؛ إِنَّمَا مِثْلُكَ وَمِثْلُ أَمْتِكَ كَمِثْلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَاراً، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتاً، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَائِدَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولاً يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ. فَاللَّهُ هُوَ الْمَلِكُ، وَالْدَّارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولُ، فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مَا فِيهَا» [رواه الترمذي (٢٨٦٠)].

وسميت الجنة بدار السلام لأنه سبحانه هو السلام، وأضافها إلى اسم من

أسمائه الحسنی تعظيماً لها، أو لكثرة ما فيها من التحية بالسلام، فالحمد سبحانه
يسلم على أهلها، والملائكة تسلم عليهم أيضاً، كما مر معنا في قوله تعالى:
﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سَبْحَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[يونس: ١٠].

أو لسلامتها عن الآفات والنقائص والنكبات، فلا تعب فيها ولا نصب،
ولا هم ولا حزن: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾
الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر].

أو لسلامة أهلها من النقص في خلقهم وخلقهم، فلا يكرمهم الله تعالى
بدخول الجنة حتى يهذبهم ويجمّلهم ويكملهم، قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي
صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِحْوَناً عَلَىٰ سُرُرٍ مِّنْ قَلِيلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زَمْرَةٍ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَىٰ أَشَدِّ كَوَكِبٍ دريٍّ فِي
السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا يَتَقَلَّبُونَ، أَمْشَاطُهُمْ
الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأُلُوءَةُ^(١)، أَزْوَاجُهُمُ الْحَوَرُ الْعَيْنِ،
أَخْلَاقُهُمْ عَلَىٰ خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَىٰ صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سَتُونَ ذِرَاعاً فِي السَّمَاءِ»
وزاد في رواية: «لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يَسْبِّحُونَ
اللَّهَ بَكْرَةً وَعَشِيًّا» [رواه البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا
مُرْدًا مَكْحَلِينَ، أَبْنَاءُ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً» [رواه الترمذي (٢٥٤٥) وحسنه].
اللهم أنت السلام، ومنك السلام، نسألك أن تدخلنا دار السلام بسلام.

● الهداية الخاصة:

ثم قال سبحانه بعد أن دعا إلى دار السلام:
﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: يوفق من يشاء إلى طريق الجنة، وهو

(١) أي: مباخرهم نباتات عطرية فائحة الشذى.

دين الإسلام، فيلتزم بأحكامه ويسير على نهجه، فالدعوة عامة، والهداية خاصة، فلا يدخل الجنة إلا المهديون^(١)، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩] فإيمانهم وعملهم الصالح سبب توفيق الله سبحانه لهم.

والإنسان محتاج دائماً إلى هداية الله وتوفيقه ومعاونته، فالطريق طويل، والعقبات كثيرة، والمعوقات كبيرة، ولهذا علّمنا ربنا أن نسأله الهداية كلّما وقفنا في الصلاة نناجيه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

• الحسنى والزيادة:

ثم بيّنت الآيات بعض النعيم الذي أعدّه الله تعالى في دار السلام لعباده المؤمنين الذين لبوا دعوته وانقادوا لرسالته:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة دار السلام ودار الإحسان: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي إكرامهم بالنظر إلى وجه ربهم الكريم. وقيل: الزيادة في حسناتهم فضلاً منه سبحانه. وقيل: هي مغفرة الله ورضوانه. ولا مانع من إرادة العموم.

قال الطبري رحمه الله: «إِنَّ الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة، وأن يبيض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادة عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة أن يكرمهم

(١) انظر: تفسير البضاوي: ٢٤٦/٣.

بالنظر إليه، وأن يعطيهم غزافاً من لآلئ، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله، فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعَمَّ^(١).

وقال ابن كثير رحمته: «هي تضعيف ثواب الأعمال، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القصور والحدور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه: النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف»^(٢).

• رؤية الله تعالى يوم القيامة:

وقد أثبتت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وهي رؤية تليق بذاته المقدسة بلا تكييف ولا تشبيه، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة].
ويُحَرِّمُ الْكُفَّارُ مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قال تعالى: ﴿كَأَلَّا يَنْهَضُوا عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحُجُوجٌ﴾ [المطففين: ١٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك» [رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)].
فيراها المؤمنون دون أن يضارَّ بعضهم بعضاً لزحمة أو مشقة.

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله ﷻ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم

(١) تفسير الطبري: ١٠٨/١١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٩٠/٢.

من النظر إلى ربهم» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. [رواه مسلم (١٨١) والترمذي (٦٥٥٥) وابن ماجه (١٨٧)].

ومعنى قوله: «فيكشف الحجاب» أي: تزال مانعية الرؤية عن المؤمنين، فيكملهم الله تعالى حتى يصبحوا أهلاً لرؤيته سبحانه، فالحجاب فينا. وقد مر معنا من قريب أنه سبحانه يكمل أهل الجنة خلقاً وخلقاً، فهو سبحانه منزّه عن حجاب يحجبه.

• ترغيب وترهيب:

وتابعت الآية وصف أهل الجنة بقوله تعالى:

﴿وَلَا يَرَهُمْ﴾ لا يعلو، أو لا يغشى، أو لا يلحق.

﴿وُجُوهُهُمْ قَرَّةٌ﴾ غيرة وسواد وكآبة.

﴿وَلَا ذُلٌّ﴾ ولا هوان ولا مذلة، فلا يصيبهم ما يصيب أهل النار،

ولا تشوب نعيمهم شائبة من شوائب المكاه، قال تعالى: ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أي: نصرته في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضلته ورحمته^(١).

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ومن أساليب القرآن الكريم الجمع بين الترغيب والترهيب، ولهذا انتقلت الآيات إلى وصف أصحاب النار:

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَغِيهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِّنْ أَيْلٍ مُّظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧٧).

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوا السيئات فكفروا بالله، وخالفوا أمره.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١٩١/٢.

وجاء التعبير عن عمل السيئات بكلمة (كسبوا) ليؤكد اختيارهم وإرادتهم في كفرهم ومعاصيهم، فما عملوا السيئات مجبرين، وهم مسؤولون عنها ومجزيون: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا﴾ فلهم جزاء السيئة مثلها من العقاب، والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات، فالحسنات تضاعف فضلاً منه سبحانه، وأما السيئات فالجزاء عليها بمثلها عدلاً منه سبحانه.

﴿وَرَهَقُهُمْ ذُلٌّ﴾ وتغشاهم ذلة وشدة.

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي: ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم. ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُظْلِمًا﴾ أي: كأنما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم، من شدة ما يعلو وجوههم من السواد والحزن والكآبة يوم القيامة.

﴿أَوَلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ما تكون فيها أبداً.

• الطاعة والعبادة:

وتأكيداً لقوله سبحانه: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ [يونس: ٢٧] عرضت الآيات المشهد التالي من مشاهد الحشر يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرِيقًا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نجمعهم يوم القيامة جميعاً، المؤمنين والكافرين. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم، واثبتوا فيه. ﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ﴾ أي: أنتم أيها المشركون وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا.

﴿فَرِيقًا بَيْنَهُمْ﴾ ففرقنا بين العابدين والمعبودين، وميزنا بينهم.

والمراد: قطع الصلات التي كانت بينهم وبين الشركاء، فهو كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاءُ الْكُذَّابِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ﴾ وهم الأصنام، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه، فينطقها الذي أنطق كل شيء.

أو: المراد الملائكة الذين كان بعض العرب يعبدونهم ويقولون عنهم: بنات الله - تعالى الله عن ذلك وتقدس - كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبا: ٤٠].

وقد يكون المراد من الشركاء رؤساء الضلال وزعماء الكفر الذين وضعوا للناس شرائع وقوانين مخالفة لشريعة الله تعالى، فحرموا ما أحلَّ الله، وأحلوا ما حرم، وأطاعهم أتباعهم، فأصبحوا بطاعتهم عابدين لهم من دونه سبحانه، فالطاعة نوعٌ من أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [٢٦] وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يسر].

وقال أيضاً في طاعة عامة أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأحبارهم ورهبانهم: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ولما دخل عدي بن حاتم الطائي على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية - وكان عدي على نصرانيته لم يسلم بعد - قال للنبي ﷺ: إنهم لم يعبدوهم، فقال رسول الله ﷺ: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» [رواه الترمذي (٣٠٩٥)].

﴿مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَعْبُدُونَ﴾ بل كنتم في الحقيقة تعبدون أهواءكم الداعية لكم إلى هذه العبادة.

• أمل خائب:

فما أعظم حسرتهم! وما أشدَّ خيبتهم! كانوا يرجون أن يشفع لهم شركاؤهم عند الله، كما سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فبدل أن يشفعوا لهم يتبرؤون منهم، وتنقلب المودة إلى عداوة، كما في قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].
ويشهدون الله سبحانه أنهم كانوا لا يشعرون بعبادتهم:

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

أي: قد علم الله - وكفى به شهيداً - أنا ما كنا عن عبادتكم إيانا إلا غافلين ما نشعر بها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في ذلك الموقف تختبر كل نفس ما قدمت من عمل، فتعرف نفعه وضرره.
﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه.
﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الذي هو مالکهم ومتولي أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوا مولى لهم.
﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع وبطل عنهم.
﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بأنهم آلهة وشركاء وشفعاء، وبهذا ضاع العمل، وخاب الأمل.



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

حُجَجٌ وَمُؤَيَّدَاتٌ

لَعْقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۚ فَإِنِّي أَخْشَوُكَ ۝ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتِي رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا لِلْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ فَإِنِّي تَوَكَّلُونَ ۝ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ ۚ إِنِّي خَشِيتُ إِلَى الْحَقِّ أَهَقُ ۚ أَن يَنْبَغَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي ۚ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ (٣٥) وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ (٣٦) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ ۚ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝ (٣٩) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۝ (٤٠) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ (٤١) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأَعْمَىٰ وَلَوْ كَانَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ۝ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ (٤٤) وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانُوا لَا يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۚ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝ (٤٥) وَإِنَّا نُرِيتُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝ (٤٦) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ۚ فَإِذَا جَاءَ رُسُلَهُمْ فُتِنَ بَيْنَهُمْ بِالْفِئْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِيدُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ هَارًا مَآذَا يَسْتَعِجِلُونَ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أُنْذِرْهُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَالَتُنَّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعِجِلُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِيَّيَّ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

• الحجج الثلاث:

وبعد بيان مواقف الناس المُستخلفين في الأرض من القرآن الكريم وعبادة غير الله تعالى، ومواقفهم في حال الخطر من الله تعالى وفي حال الرخاء، وإقبالهم على الدنيا وانهماكهم بها، وقيمة الدنيا بالنسبة لما عند الله في الآخرة، بعد كل هذا شرعت الآيات الكريمة تعرض بعض الحجج والبراهين والمؤيدات للإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة النبي ﷺ، فعرضت ثلاث حجج دامغة وقاطعة لعقيدة التوحيد، ثم بعدها بيّنت المؤيدات الكبرى لرسالة الإسلام، واتبعت أسلوب الاستفهام التقريري المفيد للقطع والجزم في عرض الحجج الثلاث الدالة على توحيد الخالق سبحانه.

• الحجة الأولى: التدبير والتقدير:

ويأتي التدبير على وفق التقدير الذي سبق به علمه ﷺ، وتعلّقت به إرادته، ولما كان الرزق أهم شيء يهتم به الإنسان في حياته ومعيشته بدأت الآيات به، قال سبحانه:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴾ (٣٦)

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بإنزال المطر.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ بإخراج النبات، ويشكل الماء والنبات العناصر الأساسية الكبرى لكل ما يحتاج إليه الإنسان في معيشته.

ثم تتابعت الأسئلة التقريرية الملزمة بتركيبتها القصيرة السريعة متلاحقة كأنها مطارق تنزل على رؤوس الغافلين، تذكّرهم بحقيقة فقرهم، واحتياجهم إلى الله وحده خالقهم ومدبر أمور حياتهم ومعاشهم:

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾، و(أم) للإضراب، والانتقال السريع لتقرير حقيقة ثانية، والسمع والبصر أعظم الوسائل التي تصل الإنسان بالعالم الخارج عنه، وتمكّنه من الوصول إلى رزقه الذي أنزله الله تعالى من السماء، أو أخرجه له من الأرض، والتعبير بكلمة ﴿يَمْلِكُ﴾ يدلُّ على أنَّ السمع والبصر لا يحدثان إلا بإرادته وقدرته سبحانه، فهو المالك لهما على الحقيقة، فلا يسمع الإنسان بأذنه إلا إذا أراد الله له أن يسمع، وقدّر له ذلك، ولا يبصر أيضاً بعينه إلا إذا أراد له سبحانه أن يُبصر، وقدّره له، وليست الأذن والعين السليمتان سوى سبيلين للسمع والبصر، ستر الله تعالى بهما قدرته وتدبيره وأمره التكويني: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، فهو سبحانه المالك الحقيقي للسمع والبصر، فلا سمع ولا بصر إلا بمشيئته وقدرته.

• في أجسامنا:

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهذه ظواهر مبثوثة في جميع المخلوقات، وهي أكثر وضوحاً في النبتة الخضراء الحية عندما تخرج بقدرة الله تعالى من الحبة اليابسة أو من الجذر اليابس في أطباق الثرى، وأيضاً عندما تخرج الحبة اليابسة من داخل الثمرة أو النبتة الحية الخضراء بقدرة الله

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

إنَّ إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي بقدرة الله تعالى ظاهرة مستمرة حتى في داخل أجسامنا، ففي كل لحظة تنقسم ملايين الخلايا في أجسامنا، ثم تموت ويحيي الله تعالى غيرها، وفي كل فترة تتولد داخل أجسامنا ملايين الحيوانات المنوية من الدم الذي تمدّه الأغذية المقطعة والمطبوخة والممضوغة والمهضومة. أبعدَ مرورها بكل هذه المراحل كيف يخلق الله تعالى منها هذه المخلوقات الحية التي هي أصل النوع الإنساني وعنصر توالده وتكاثره؟!.

• من يدبّر الأمر:

وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ﴾ تعميم بعد تخصيص، إذ جاء هذا السؤال التقريري على عمومه بعدما سبقه من التنصيص على بعض ظواهر الخلق والتدبير في المكونات.

من يدبّر أمر المكونات كلّها بدءاً من الذرة الصغيرة ذات النواة والجسيمات السابحة على أفلاكها من حولها، إلى المجرات الكبيرة الجارية على أفلاكها والتي تحوي المجرة الواحدة منها ملايين الكواكب والنجوم؟!.

أجيبوا على هذا السؤال أيها الماديون، أيها الدهريون، أيها الطبيعيون، أيها الملحدون! من يدبّر الأمر؛ أمر كل السابحات الجاريات في أعماق الذرات، والسابحات الجاريات في آفاق الفضاء؟ كم قدّم الناس من جهد وتعب وبحث ونظر وأموال حتى تمكّنوا من وضع بعض الأقمار الصناعية على أفلاك قريبة من الأرض في الفضاء؟ وكم يبذلون من جهود في مراقبتها ومتابعتها؟ كم عين تراقبها؟ وكم أذن تتسمع إلى ما يصدر منها؟ وأقمار الإنسان الصناعية لا تعد شيئاً بجانب الكواكب والأقمار الربانية، الأرض بمن عليها وما حولها من أقمار

لا تعادل هبابة صغيرة بالنسبة للمجرّات الفضائية وما فيها من أجرام، فمن يدبّر أمرها؟ ويضبط حركتها؟ وينظّم سيرها؟! .

• أفلا تتقون:

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لا بد لهم أن يقولوا: الله وحده الذي يدبّر الأمر، فلا مجال للمكابرة والعناد، والقائلون هذا القول هم الذين عاشوا في الجاهلية قبل الإسلام، أقروا لله تعالى بالربوبية، أقروا بأنه سبحانه الخالق والمالك والمدبّر للأمر، إلا أنهم جحدوا إلهيته سبحانه واستحقاقه للعبادة وحده، فعبدوا غيره، واتخذوهم شفعاء إليه سبحانه، فأشركوا وكفروا .

وهم مع شركهم وكفرهم وجاهليتهم خيرٌ من كثير من الناس في العصر الحاضر، هم خيرٌ من الملاحدة الماديين والطبيعيين والدهريين الذين ينكرون وجود الله تعالى، مع أنهم عرفوا أسرار الجاريات السابحات في أعماق الذرات، وعرفوا دقّة النظام وإبداع الناموس في تدبير شؤون المجرّات، عرفوا كثيراً من أسرار إبداع الخلق في أعماق البحار ولا يزالون غافلين عن الخالق العظيم الذي يدبّر الأمر .

لا نملك إلا أن نقول لهم ما أمر الله تعالى أن نقوله:

﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكُمْ﴾ عذاب الله تعالى الذي قرّب إلى أسماعكم وأبصاركم كلّ هذه الأدلة الدالة على وجوده سبحانه .

ولم يأمرنا سبحانه أن نقول لهم: أفلا تعلمون، فالقوم يعلمون بما شاهدوا ويشاهدون في مراكز بحوثهم ومخابرهم ومراصدهم ومركباتهم الفضائية وأقمارهم الصناعية، فهم محتاجون لمن يقول لهم: ﴿أَفَلَا نُنْقِزُكُمْ﴾ .

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ .

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الثابت الواجب الوجود الذي لا شك فيه ولا ريب .

﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ فلا واسطة بين الحق والضلال، فمن تخطى الحق وقع في الضلال، ومن زاغ عن الإيمان كفر.
﴿فَأَنَّى تُصْرِفُونَ﴾ فكيف تختارون الانصراف عن الحق إلى الباطل؟!

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، وكما انصرف هؤلاء الكفار عن الحق إلى الضلال.
﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وجب عليهم قضاؤه وحكمه في سابق علمه^(١).
﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمرّدوا وخرجوا عن الإيمان الذي فطرهم الله تعالى عليه إلى الكفر.
﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكون منهم اختيار للإيمان وكسب له.

• الحجة الثانية: بدء الخلق وإعادته:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟ ولا يخفى ما في هذا السؤال من إلزامٍ قاطعٍ مع التحدي لهم ولشركائهم الذين يعبدونهم من دون الله تعالى.
ولمّا كان القوم لا يؤمنون بالإعادة، وينكرون يوم القيامة، وكان أمر إعادة الخلق مسلماً بظهور برهانه، ولمشاهدتهم له كلّما أنزل المطر على الأرض اليابسة الميتة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/ ١١٤.

فمكابرتهم تمنعهم من الإقرار بالحقيقة، وهي أن جميع شركائهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابةً صغيرةً، أو يعيدوها إلى الحياة بعد الموت.

ألم تقرأ قوله تعالى وهو يضرب مثلاً يبين فيه عجزهم: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وما دامت مكابرتهم تمنعهم من إعلان الحقيقة بأنفسهم، إذن أعلنها أنت بنفسك أيها النبي، أعلن في وجوههم الحقيقة التي تستيقننها أنفسهم وقلوبهم، وتأبى ألسنتهم أن تنطق بها:

﴿قُلِ اللَّهُ يَكْبِدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

وقل لهم أيضاً تقريباً وتوبيخاً لعجزهم عن إعلان الحقيقة:

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل؟! ما الذي يجعلكم معرضين عن الحق غير مذعنين له!.

● الحجة الثالثة: الهداية:

قال الشوكاني رحمه الله: «الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشورى: ٧٨].

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: (١)].

وللهداية في القرآن معنيان:

أولهما: الإرشاد والبيان.

ثانيهما: التوفيق والتسديد والمعونة.

فمن رحمته سبحانه بخلقه أنه خلقهم وهداهم إلى كل ما يحتاجون إليه في أمر حياتهم ومعادهم، وجاءت هدايته سبحانه لكل مخلوق بما يتناسب معه،

فلكل نوع من أنواع المخلوقات هداية خاصة به تناسب ظروف حياة هذا النوع ومستلزماتها.

والمتمثل للهداية عند بعض الحيوانات يستيقن وجود الله سبحانه وقدرته ورحمته:

انظر إلى النحلة كيف هداها الله تعالى لتنظيم حياتها، وبناء مساكنها، وجني طعامها، وسلوك السبل المذلة لها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾ [النحل].

ومن النحل بين الأشجار والأزهار إلى النمل في طيات التراب، تأمل كيف هداه الله تعالى لتنظيم حياته الاجتماعية في تجمعات سكنية بينها في داخل الأرض، وكيف يجمع غذاءه ويدخره بطريقة علمية مدروسة، فلا تؤثر فيه عفونة الأرض ورطوبتها^(١).

وانظر إلى الأسماك في أعماق البحار كيف هداها ربها إلى كل ما تحتاجه في كل شؤون حياتها داخل المياه، بل هداها سبحانه إلى الهجرة داخل المحيطات طولاً وعرضاً، فلا تضل عن مقصدها، ولا تخطئ هدفها. وارفع بصرك إلى جو السماء، وانظر إلى الطيور المهاجرة شمالاً وجنوباً وهي تقطع أجواء القارات والمحيطات، بلا آلات توجيهها، ولا مخططات تعتمد عليها، إنها تعتمد فقط على هداية الله تعالى.

ومن الطبيعي أن تكون هداية الله تعالى للإنسان أعلى من هداية الحيوان وأكمل، كي تتناسب مع الميزات والخصائص التي خصه سبحانه بها، فليست هداية الله للإنسان قاصرة على إرشاده إلى طرق تحصيل معاشه، وتأمين أسباب بقائه، فهو مخلوق كرمه تعالى وشرفه بحمل التكليف والمسؤولية، فجاءت هداية

(١) انظر: تفسير سورة النمل في كتابنا هذا: التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم، وقد جاء تفسيرها هذه السورة تحت اسم (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

الله تعالى له تعرّفه بالمنهج الذي كُلّف به، ليعمر الحياة بعبادته سبحانه، ويسعد في دنياه وآخرته، بهذه الهداية تحدّى الله تعالى المشركين وشركاءهم فقال:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بإعطاء العقل، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق إلى النظر والتدبّر بما نصب في الآفاق والأنفس^(١).

ولا بدّ أن يكون جوابهم: لا، لأنّ عجز شركائهم واضح ظاهر، ولذلك أمر النبي ﷺ أن يقول لهم على سبيل التقرير والإلزام:

﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ لا غيره سبحانه.

﴿أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ فالله سبحانه هو الذي يهدي إلى الحق، فهو أحق أن يتبع، لا رؤساء الكفر والضلال، فإنهم لا يقدرّون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله تعالى.

فأصل ﴿يَهْدِي﴾: يهتدي، فأدغمت التاء بالدالِ وفُتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل وتعبّدون غير الله تعالى؟!.

• العقائد لا تُبنى على الظن:

هذه بعض حجج العقيدة الإسلامية التي جعلت منها عقيدة قوية راسخة لا تنزعزع، لأنها تستند إلى الحجج البالغة، والأدلة القاطعة، وكلّ العقائد المخالفة لها ظاهرة البطلان، بيّنة الفساد، ليس لها أدلّة تسندها، ولا حجج تحتج بها، لهذا تجد أصحابها في ريب وحيرة وتردد كما وصفهم الله تعالى في قوله:

(١) روح المعاني: ١١٣/٤.

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦).

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾، أنهم يقلّدون آباءهم أو رؤساءهم في الضلال والكفر.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: إنَّ الشك لا يغني عن اليقين شيئاً، ولا يقوم مقامه، فلا ينبغي أن تُبنى العقائد على مجرد الظن، فتحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالظن غير جائز^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، ولا يخفى ما فيه من الوعيد بسبب اتباعهم للظن والتخمين وإعراضهم عن الحق واليقين.

• إعجاز القرآن الكريم:

وبعد بيان بعض حجج عقيدة التوحيد انتقلت الآيات إلى الحديث عن مؤيدات العقيدة الإسلامية، وبما أن آيات التنزيل الحكيم هي أكبر وأعظم مؤيدات الدعوة الإسلامية شرعت الآيات في الحديث عن إعجاز القرآن الكريم، وتحدّى به كل المخالفين:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧).

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما صح وما استقام أن يكون مثل القرآن في علو أمره وإعجازه مفترى^(٢)، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو مبرأ عن الافتراء والكذب، والدليل في القرآن نفسه، فلا يقدر على مثله إلا الله تعالى.

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكنَّ الله أنزله يصدّق الكتب المتقدمة عليه في النزول كالطوراة والإنجيل، فيشهد أن الله تعالى أنزلها.

(١) انظر: تفسير الخازن وتفسير النسفي: ٢٥٤/٣.

(٢) تفسير البضاوي: ٢٥٤/٣.

﴿وَقَفَّيْلَ الْكَلْبِ﴾ أي: ويبين ويفصل ما كتب الله وفرض على الأمة المسلمة من أحكام وتشريعات.

﴿لَا رَبَّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شك فيه لأنه من رب العالمين.

• في ميدان التحدي:

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتحدى بالقرآن جميع المكذبين له، ولا يزال هذا التحدي قائماً، وسيبقى إلى قيام الساعة، فالقرآن الكريم في الساحة يتحدى، وهو منذ نزوله حتى الآن وحده في ميدان التحدي يصول ويجول، ويعلن أنه كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ، فأين المكذبون؟!.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا دُورَ مَثَلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ أم يقول هؤلاء المكذبون: افترى محمد عليه الصلاة والسلام القرآن من قبل نفسه؟! وهو استفهام إنكار وتوبيخ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: إن كان الأمر كما تقولون.

﴿فَاتَّبِعُوا دُورَ مَثَلِهِ﴾ أي: بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة، فالتحدي بأي سورة من سور القرآن الكريم الطوال والقصار، وقد تكرر التحدي في عدة مواضع من القرآن الكريم مما يدل على الثقة الكبيرة بأنه كلام الله تعالى:

تحداهم أولاً بالقرآن كله: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] (١).

فعجزوا، فنزل بالتحدي إلى عشر سور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا دُورَ مَثَلِهِ مُفْتَرِيَّتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

فعجزوا أيضاً، فتحدهم بسورة واحدة كما في هذه الآية وفي آية سورة

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء، وقد جاءت في هذا التفسير الموضوعي الكبير تحت اسم: (المواجهة والتبني في سورة الإسراء).

البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣٣].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم وأشعارهم ومعلقاتهم، وإليهم المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به^(١).

● مقدار التحدي:

ومن المعلوم أنَّ سورة الكوثر أقصر سور القرآن الكريم، وهذا يعني أنَّ التحدي بمقدار سورة الكوثر، وهو موجه إلى كلِّ المعارضين للقرآن من الإنس والجن أفراداً وجماعات.

﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: سوى الله تعالى.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم أنَّ القرآن الكريم مفترى.

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول! .
وليس إعجاز القرآن الكريم في فصاحة كلامه وبلاغته وحُسن نظمه فحسب، بل إعجازه في معانيه التي لا تنتهي، وفيما اشتمل عليه من أخبار الأمم السابقة والحوادث المستقبلية.

ولهذا دعا القرآن الكريم الناس ليتدبروا آياته، ويتأملوا في معانيه، فيكتشفوا وجوهاً كثيرة لإعجازه، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال سبحانه هنا يقرِّع المخالفين للقرآن الكريم ويوبخهم، لأنَّهم كذبوا به قبل أن يتدبروا آياته، ويفهموا معانيه وبعض ما اشتمل عليه:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩).

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، فتكذيبهم للقرآن غير مقبول عند أهل العلم

المنصفين، لأنه صدر عن جهل بالقرآن لا عن علم.

وكثيراً ما نواجه في عصرنا الحاضر أمثال المشركين من أهل الجاهلية الذين يسارعون إلى تكذيب القرآن الكريم قبل أن يعلموا شيئاً عنه، ما أكثر ما نقرأ ونسمع عن أناس يدعون لأنفسهم صفة العلم والفهم والموضوعية، ويحملون ألقاباً علمية كبيرة، يكيلون الاتهامات جُزافاً للكتاب الكريم وللسنة النبوية الشريفة وهم أجهل الناس بالكتاب والسنة، ترى أحدهم يحاول انتقاد القرآن، وهو لا يستطيع قراءة آية من آياته، فضلاً عن فهم معانيها، وترى بعضهم يتناول بلسانه على كبار رجال الفكر الإسلامي وعلمائه وهو لا يستطيع قراءة كلماتهم بشكلها الصحيح، والأنكى من ذلك مسارعة كثير من الناس إلى الخوض في أحكام دين الله تعالى وإصدار الفتاوى فيها كأنهم أصحاب العلم والتخصص فيها. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتتابع الآية الكريمة إظهار حقيقة هؤلاء المكذبين لكتاب الله وبيان زيفهم وخداعهم:

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: وكذبوا أيضاً بالقرآن قبل أن يأتيهم التأويل المنتظر، وهو ما يؤول إليه من الصدق في الإخبار بالمغيبات^(١).

﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا شأن المكذبين للحق في كل زمان، يسارعون إلى التكذيب عناداً واستكباراً قبل معرفة الحقيقة.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: انظر نظر الاعتبار كيف أهلك الله الظالمين المكذبين.

• المغيبات في القرآن الكريم:

والمغيبات التي أخبر عنها القرآن الكريم كثيرة، منها ما ذكره عن بعض تاريخ الأمم السالفة وأخبار بعض الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى

(١) روح المعاني: ١٢١/٣.

هذه الأمم، ومنها إخباره عن بعض أحداث مستقبله، وقد حدث أكثرها كما أخبر ﷺ عَلامَ الغيوب.

ومن هذه الأخبار المستقبلية في القرآن، والتي سارع المشركون إلى تكذيبها، ولكنها وقعت كما أخبر سبحانه عنها، ما جاء في أول سورة الروم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أقرب أرض من بلاد العرب، وهي بلاد الشام. وبعضهم يقول: في الأغوار بين فلسطين والأردن، ولا شك أنها من بلاد الشام، فلا تعارض بين الرأيين، وقد حدث هذا قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، فقد انتصر الفرس على الروم، واحتلوا قسماً كبيراً من بلاد الشام، وبعد أن أخبر عما حدث، أخبر عما سيحدث في المستقبل، فقال: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَافِلُونَ﴾ (٣) في يَضَعُ سِنِينَ. أي: وبعد هزيمة الروم سيغلبون الفرس خلال بضع سنين، وسارع المشركون إلى تكذيب القرآن، واستبعاد حصول ذلك، ولكنَّ خَبَرَ عَلامَ الغيوب لا يكون إلا حقاً وصدقاً، ففي العام السادس من الهجرة انتصر الروم على الفرس، واستعادوا سيطرتهم على بلاد الشام.

وما أكثر الآيات التي نزلت على النبي ﷺ تثبته وتواسيه، وهو في قمة مواجهته للمشركين، وتبشره بالظهور والنصر والتمكين في الأرض، وحدث كل ذلك كما وعد الله سبحانه في كتابه.

وهناك أخبار كثيرة عن أشراط الساعة الكبرى وعلاماتها، وما يكون بين يديها، وما يحدث عند قيامها، لم تقع بعد، ولكنها ستقع كما أخبر عنها العليم الخبير سبحانه.

• التبرؤ من المفسدين:

ومن المغيبات التي أخبر عنها سبحانه قوله بعد ذلك:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: ومن هؤلاء المكذبين من سيؤمن بالقرآن الكريم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾، فيبقى مصرّاً على كفره حتى الموت.
﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ المصّرّين على الكفر.

وعلمه سبحانه أنهم سيصّرّون على الكفر، ويستمرّون عليه، لا يعني إجبارهم؛ فما أصرّوا على الكفر إلا بإرادتهم واختيارهم وكسبهم، كما أنّ الذين علم الله تعالى أنهم سيؤمنون به بعد تكذيبهم له، سيؤمنون بإرادتهم واختيارهم، ولو كانوا مجبرين على الإيمان ما صدر عنهم ما صدر من تكذيب وإعراض وكفر.

وجاءت الوقائع والأحداث مطابقة تماماً لما أخبرت به الآية القرآنية؛ إذ آمن بعد ذلك كثير من مشركي قريش، وأصبحوا من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، وظلّ فريق آخر منهم مصرّاً على الكفر حتى مات عليه.
وأمر رسول الله ﷺ أن يقول للمصّرّين على الكفر والتكذيب:

﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١).

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: لي جزاء عملي، ولكم جزاء عملكم، أنتم مسؤولون عن عنادكم وإصراركم، ولا يسألني ربي إلا عن عملي.
﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تؤاخذون بعلمي، ولا أؤاخذ بعملكم.

فالمسؤولية شخصية، ولا يتحمل أحد وزر أحد، وهذا أيضاً يؤكد وجود الاختيار والكسب عند الإنسان المكلف.

• من أسباب الهداية:

وكان تكذيبهم للنبي ﷺ وإعراضهم عن دعوته يسبب له عليه الصلاة والسلام حزناً شديداً، لأنه كان شديد الحرص على هدايتهم ورشادهم، ولهذا

جاءت الآيات الكريمة تواسيه عليه الصلاة والسلام، وتبين له أنَّ أمر توفيقهم إلى الإيمان منوط بإرادته سبحانه وحده ومشيئته:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٢).

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن، ولكنهم لا يستجيبون كالصَّم الذين لا يسمعون أصلاً.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ﴾؟ فكما لا تقدر على إسماع الصَّم لا تقدر على جعل هؤلاء يسمعون منك سماع إجابة.

﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ فكيف إذا انضم إلى صممهم عدم استعمالهم لعقولهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ (٤٣).

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: يشاهد دلائل الصدق وأعلام النبوة في كمال خَلْقِكَ وَخُلُقِكَ.

﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى﴾ أي: لا تقدر على هداية العمي الذين لم يوفقوا إلى رؤية دلائل النبوة.

﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ فكيف إذا انضم عمى البصر عن رؤية دلائل النبوة إلى عمى البصيرة عن التفكير والاستبصار؟!.

وفي الآية إشارة إلى أنَّ النظرَ إلى النبي ﷺ ورؤية محاسنه الخَلْقِيَّةِ والخَلْقِيَّةِ من أسباب الهداية، وقد اهتدى كثير من الصحابة إلى الإيمان فور رؤيتهم لوجهه الشريف عليه الصلاة والسلام، قال عبد الله بن سلام ﷺ: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة انجفل (أسرع) الناس إليه، فكنثُ فيمن انجفل، فلَمَّا رأيته عرفتُ أنَّ وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول:

«يا أيها الناس: أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» [رواه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: حسن صحيح].

ورضي الله عن حسان بن ثابت القائل:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مَبِينَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ
● المعرضون عن الهداية:

ولا تظنن أن الله ﷻ ظلمهم بعدم توفيقهم للهداية والإيمان، فقد أعطاهم الله سبحانه كلَّ أسباب الهداية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٤٤

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً فيه مصلحة لهم.

فقد زوّدهم بوسائل التمييز والإدراك والفهم، ونصب لهم الأدلة والحجج، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وحذّرهم فيها وبشّرهم، وجعل لهم أهلية الكسب والاختيار بالإرادة التي وهبها سبحانه لهم.

﴿وَلَكِنَّ الْنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باختيارهم ما يُغضب ربهم عليهم، ولهذا حرّمهم سبحانه من هدايته ولم يوفّقهم إليها.

وليس لأحد أن يتحكّم على الواحد الأحد، فيقول: لِمَ لم يمنعه وهو قادر على منعه؟ بل الأجدر أن يوجه اللوم إلى العبد، فيقول: لم لم يطعه؟ وهو متمكن من طاعته؟^(١) فليس لأحد سابقة استحقاق على الله تعالى، فالكل مُلْكٌ له سبحانه، وحضرته سبحانه حضرة إطلاق: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وبهذا الاعتبار لا يتصور منه ظلم قطعاً، لأنّ الظلم تصرف في ملك الغير

(١) البراهين الساطعة.

على خلاف الإذن والمصلحة^(١)، وهو سبحانه حكيم فيما أعطى وفيما منع، إن أثناب بفضله، وإن عاقب بفعده.

• الخسارة الكبرى:

وما أكثر ما حذّر سبحانه من يوم القيامة؛ وعرض لهم مشاهد مما سيكون في هذا اليوم العظيم:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرُّهُمْ لِبِئْسَ إِلا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥).

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرُّهُمْ لِبِئْسَ إِلا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ أي: اذكر يوم يجمعهم الله تعالى، فيستقلون مدة أعمارهم، ولا يرونها إلا شيئاً يسيراً، كأنها ساعة من نهار، وذلك لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا، فأصبحت بالنسبة لهم كالعدم، أو استقلوها لشدة ما يلقون من العذاب ويرون من الأهوال.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف بعضهم بعضاً، ولكنهم لا ينتفعون بهذه المعرفة، فكل واحد مشغول بنفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيماً﴾ (١٠) يُصْرُوهُمْ يَوْمَ الْمَجْزُمِ لَوْ يَقْدِرُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمِذٍ بَيْنِيهِ (١١) وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ [المعارج].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ خسروا أنفسهم وحياتهم وأهلهم وأصحابهم، خسروا الإيمان والإسلام، والجنة والرضوان، والحسنى والزيادة، ولا عوض لخسارتهم ولا جبر لها.

وسبب خسارتهم عدم هدايتهم:

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

• الانتقام العاجل والآجل:

وتابعت الآيات الكريمة مواساة النبي ﷺ عما يلقاه من تكبرهم وعنادهم:

(١) انظر: ردود على أباطيل: ١٠٤/٢.

﴿وَأَمَّا زُنَيْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نُوَفِّيكَ فَإِنَّا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦).

﴿وَأَمَّا زُنَيْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم.
 ﴿أَوْ نُوَفِّيكَ فَإِنَّا مَرَجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والمعنى: إن لم ننتقم منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً.

وقد أراه الله سبحانه ذلهم وأسرهم وانكسار سورة كبرهم يوم بدر، وما بعده من المواطن، حتى أقر سبحانه عين النبي ﷺ بفتح مكة، وتكسير الأصنام، وتطهير البيت الحرام، فله الحمد والمنة.

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم عليه.
 وعذاب يوم القيامة أشد من عذاب الدنيا، عندما تعرض كل أمة على الله تعالى بحضرة رسولها الذي أرسل إليها:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، فينجو المصدقون، ويهلك المكذبون، وهذا تكريم من الله تعالى لعباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام، فلا يقضي الله تعالى بينهم حتى يأتي رسولهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالشَّاهِدِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وكذلك ختم الآية هنا بقوله سبحانه:

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

• الآجال المقدرة:

ومن الشواهد على عنادهم وتكبرهم استعجالهم للعذاب، وسبق أن بين الله سبحانه في هذه السورة الحكمة من إمهالهم - الآية [١١] -، وحكاة عنهم هنا كشاهد يشهد على شدة عنادهم واستكبارهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨).

وهو خطاب موجه للنبي ﷺ والمؤمنين .

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩).

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر على دفع ضرر عن نفسي أو جلب نفع لها، فكيف أملك جلب العذاب لكم؟! .
﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أقدر عليه أو أملكه، فالأمور كلها منوطة بمشيئته سبحانه وحده .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: مدة مضروبة ووقت معين قدره العليم الخبير لهلاكهم .
﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ المقدّر لهم .

﴿فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلأفراد والجماعات والأمم وللدنيا كلها بما فيها آجال مقدّرة معينة، لا تزيد ولا تنقص، ولا تتقدم ولا تتأخر .
إنّ للحياة نواميس كبيرة تسير عليها بتقدير الله سبحانه، فلا تقصر عنها ولا تتجاوزها، أوقاتها محدودة، وأحداثها مكتوبة، فهي مبرمجة - إن صحّ هذا التعبير الحديث - وهذا دليل على وجود الخالق المدبّر سبحانه .

• إيمان البأس واليأس:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: أخبروني .

﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ﴾ ليلاً .

﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ما الذي يستعجلون من نزول العذاب، ولا شيء فيه يستدعي الاستعجال فكلّه مكروه؟! وماذا يكون حالكم عند وقوعه؟! .

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ ءَأَلْتُمْ وَفَدَّ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ .

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أبعدما وقع عذاب الله عليكم، وحلَّ بكم سخطه آمنتم به، حيث لا ينفع الإيمان لوقوعه في غير وقته مجرداً عن الاختيار والكسب، فهو إيمان البأس، لأنه أتى عند نزول العذاب والبأس، كما مرَّ معنا في قصة فرعون عند غرقه، وهو أيضاً إيمان اليأس، لأنَّه وقع عند اليأس من الحياة، وهو إيمان الإلجاء والقهر لأنهم ما آمنوا وقتئذٍ إلا مجبرين ومقهورين، ولهذا لا ينتفعون به، ولا يقبله الله سبحانه منهم، ولهذا يقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:

﴿ءَأَلْتُمْ وَفَدَّ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ عندما كنتم تستهزئون بالنبي ﷺ والمؤمنين وتقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وممَّا يؤكد أنه سبحانه لا يقبل إيمان اليأس قوله بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بكفرهم وفجورهم:

﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الذي لا ينتهي ولا ينقطع في جهنم.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الآثام والمعاصي.

وقد سبق أن نبهتُ إلى مدلول كلمة ﴿تَكْسِبُونَ﴾ على وجود الإرادة للإنسان والاختيار في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهْمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

• حيرة وقلق:

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي: يستخبرونك.

﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي: أحق عذاب الله؟ أو أحق يوم القيامة؟.

ويدلُّ السؤال على حيرتهم وقلقهم، فهم غير مطمئنين إلى عقائدهم الباطلة، ولهذا أمر الله الحكيم العليم نبيه ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ أي: نعم وربي.

﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ إنَّ عذاب الله حق، أو إنَّ يوم القيامة حق.

والجوابُ المؤكَّدُ بالقسم يدلُّ على أنَّ القوم يستشعرون في قرارة أنفسهم حيرةً وقلقاً، وأن نوازع الفطرة التي فُطروا عليها تجذبهم إليها، وجاء الجواب المؤكَّدُ بالقسم المجرد عن أي دليل وبرهان متناسباً تماماً مع الحالة النفسية التي يمرون بها.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: وما أنتم بفائتين من العذاب، فهو مدرّكم لا محالة إذا لم تنقذوا أنفسكم بالإيمان بالله تعالى والتصديق مع الإذعان لرسالة النبي ﷺ.

فالبدارَ البدارَ إلى ساحل الأمان وسُلم النجاة قبل أن ينزل بكم العذاب، فحيثُ لا فداء لكم منه ولا خلاص ولا نجاة:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والشرك.

﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خيرات وأموال.

﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب.

ولكنّها لا تملك ما تفدي به نفسها، ولو ملكت الفدية فلا تُقبل منها، ولا تنفعها شفاعة. فبادروا إلى الإيمان في فسحة الحياة قبل فوات الأوان، وقبل أن يحرق الأسي قلوبكم، ويعقد الخوف ألسنتكم:

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ إنها الحقيقة التي لا بدَّ منها، ولهذا جاء

التعبير عنها بصيغة الماضي تأكيداً لها، فالقوم بهتوا ودهشوا عندما رأوا العذاب، فلم يقدروا أن ينطقوا، فما كان منهم إلا أن أسروا الندامة.

﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وسبق أن قلنا: إن الظلم لا يكون من الله تعالى أبداً، والقوم ظلموا أنفسهم بكسبهم واختيارهم.

ومما يؤكد صدق الوعد أنه صدر عن مالك السموات والأرض:

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فوعده ثابت لا محالة.

﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لسوء استعدادهم، واستيلاء الغفلة عليهم بسبب اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها وانهماكهم بها، كما مر معنا.

وهو سبحانه الذي يتصرف في ملكه، فلا يحدث في ملكه شيء لا يريد:

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وخصَّ الإحياء والإماتة بالذكر لما لهما من صلة بوعدده سبحانه بالبعث والنشور، فقال بعد ذلك:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة.



الْفَضْلُ الرَّابِعُ

أَحْوَالُ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾
 قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ
 مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ
 الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
 يَشْكُرُونَ ٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ
 شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ
 ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 ٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ
 لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦٥﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٦٦﴾ هُوَ
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ
 ٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ
 عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
 اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ
 بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٧٠﴾ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأًا نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوِّمُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي
 وَتَذَكَّرِي بِبَابِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً
 ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ

أَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْغَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ
بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ
الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا
يُقْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا
نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى
أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى
إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ
لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْكُمْ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى
اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾
وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾
وَجَوَازِنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَالْبَحْرُ فَرَعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ
قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ
قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَابَةً وَإِنَّ كِبِيرًا مِنَ
النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِثْوًا صَدَقَ وَرَدَقْنَاهُمْ مِنَ الظَّيْبَتِ فَمَا
اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي
شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾
 إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسُّوْنَ لِمَا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
 عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ
 جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَيَجْعَلَ الرِّجْسَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْتَنِي
 الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ هَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ
 فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
 أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَوَمَّٔ وُجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ
 ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ
 بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفُّ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ
 فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَنْبِئِ
 مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُفَّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَافِكِينَ ﴿١٠٩﴾

وتعود بنا الآيات للمرة الثالثة إلى رحاب القرآن الكريم، لتحدثنا عن جانب آخر في القرآن الكريم غير ما تقدم.

ففي المرة الأولى: بينت لنا الآيات علاقة النبي ﷺ بالقرآن الكريم، وأنه عليه الصلاة والسلام يتلقى القرآن بالوحي من الله تعالى وأنه متبع له، ولا دخل له فيه، فلا يستطيع تغييره أو تبديله، أو تقديم نزوله عليه أو تأخيره.

وفي المرة الثانية: تحدثت الآيات عن إعجاز القرآن الكريم، وبيّنت بعض أوجه الإعجاز فيه، وأنه المعجزة الكبرى المؤيدة للنبي ﷺ.

وأما في المرة الثالثة: فتحدثنا الآيات عن آثار القرآن الكريم الطيبة في

قلوب ونفوس المصدقين به والمذعنين لشرعه ونهجه؛ فهم السعداء بالقرآن الكريم، وأما المعرضون عنه فهم الأشقياء به.

• أسباب السعادة:

وتبدأ الآيات بنداء موجه إلى جميع الناس، فرسالة القرآن عامة شاملة لكل الناس:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: قد جاءكم كتاب من الله تعالى يتصف بأربع صفات رئيسة:

١ - فالقرآن واعظ بما فيه من زواجر عن المعاصي والآثام.

٢ - ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ والقرآن شافٍ لما في الصدور من الأمراض المعنوية الخطيرة، كالكفر، والشك، والنفاق، والجهل.

وإنه لتعبير عجيب عن حقيقة عميقة، كما قال سيد قطب رحمه الله: «إنَّ هذا القرآن شفاءٌ لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء، إنه يدبُّ في القلوب فعلاً ديب الشفاء في الجسم المعلول، يدبُّ فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب، ويدبُّ فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقّي الفطرية، فتتهزُّ وتفتَح وتتلقي وتستجيب، ويدبُّ فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية، ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تسكب الطمأنينة في القلوب»^(١).

٣ - ﴿وَهُدًى﴾ وفي القرآن هداية ورشاد إلى الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٨٠٣.

٤ - ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه أيضاً رحمة من الله تعالى للمؤمنين، تنزل عليهم عندما يتلون آياته ويتدبرون كلماته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» [رواه مسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (١٤٥٥)].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وهكذا جمع الله تعالى في القرآن الكريم كل أسباب السعادة في الدنيا والآخرة: ففيه الموعظة، والشفاء، والموعظة تهذب النفوس من آفاتهما، والشفاء يطهر القلوب مما يلحقها ويدنس صفاءها، كما أن في القرآن شفاءً بإذن الله من أمراض الأجسام وأسقامها.

ثم بعد ذلك فيه الهداية إلى أقوم طريق: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وفوق كل ذلك الرحمات الربانية التي يفيضها الله تعالى على عباده المؤمنين عندما يكونون متحلِّقين حول مائدة القرآن الكريم يتلونه ويتدارسونه.

• الفرح بفضل الله ورحمته:

بهذا ينبغي أن يكون فرح المؤمنين:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ وهو القرآن الكريم، إذ هو فضل عظيم من الله تعالى، ورحمة جليلة وكبيرة.

﴿فَإِذْ ذَٰلِكَ فَانفَرُوا﴾ أي: قل لهم يا محمد: عليكم أن تغتنموا ما في القرآن الكريم من الفضل والرحمة، فقبلوا عليه فرحين به، مسترشدين بهديه، متمسكين بشرعه.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الزائل.

أو: عليكم أن تفرحوا بالنعمة، لأنها من فضل الله ورحمته، لا من حيث كونها نعمة، وحينئذ يكون فرحكم بالمنعم لا بالنعمة، وتتعلق قلوبكم بالله تعالى وحده، وهذا خير لها من التعلق بحطام الدنيا الزائل، والذي تشوبه الأكدار والمنغصات.

• حاجة الناس إلى الشريعة الإسلامية:

ومما يؤكد شدة حاجة الناس إلى هدي القرآن وشرعه، ما كان عليه الناس في الجاهلية؛ وما هم عليه الآن أيضاً؛ من فوضى في التشريع، وخاصة في مجال التحليل والتحريم، فقد حرم أهل الجاهلية على أنفسهم كثيراً من الرزق الطيب الذي أنعم الله به عليهم:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ
أَمْرًا عَلَى اللَّهِ تَفَتَرُونَ﴾ (٥٩).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي: أخبروني عما أنعم الله عليكم من رزق، فحرمتم بعضه، وأحللتم بعضه، وذلك كقولهم: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ شَاءَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

فعلى أي أساس صدر هذا التحريم والتحليل؟! وما القواعد التي جعلتكم تحرّمون هذا وتحلون هذا؟!

إنَّ التحريم والتحليل في شريعة الإسلام قائم على قواعد وأسس واضحة، استهدفت سعادة الإنسان وسلامة دينه وبدنه، فكلُّ حكم من أحكام الشريعة مرتبط بأصول وقواعد، ولهذا لا تجد فيها تعارضاً واختلافاً، بل إنها تتفق فيما

بينها، ويكْمُل بعضها بعضاً وتتلاءم مع طبيعة الإنسان وحياته، وتلبي كلَّ حاجاته التشريعية في كلِّ زمان ومكان، وهذا ما تتميز به الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع والقوانين الوضعية، وعندما يتعد الناس عن شريعة الله تعالى يقعون في الفوضى التشريعية، وتظهر شدة حاجتهم إلى شريعة الله تعالى، وفضله سبحانه عليهم بإنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ.

﴿قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟! فلا تشريع ولا تحليل ولا تحريم إلا من عند الله تعالى بواسطة الوحي الذي ينزل على رسول الله ﷺ.

ولهذا توعَّدت الآيات أولئك الذين يرفعون أنفسهم إلى مقام التشريع والتحليل والتحريم:

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، ما ظنُّهم أن يصنع بهم ربهم يوم القيامة وقد كذبوا عليه سبحانه؟!.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بإنزال أفضل الشرائع وأكملها وأكثرها سماحة ورحمة وملاءمة لمصالح الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه، بل يعرضون عن دينه وشريعته إلى ما يستحدثون من تشريعات متهافئة وقاصرة، لا تلبي حاجاتهم، ولا تلائم فطرتهم.

• كمال علم الله تعالى:

وكمال الشريعة من كمال علم مُشرِّعها، ولهذا فإنَّ شريعة الله تعالى كاملةٌ لكمال علمه سبحانه الذي وسع كل شيء:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، والشأن: الخطب والأمر والحال، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور^(١). ولما كانت تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن أعظم الشؤون، لأنه كان يتلوه للتبليغ والعبادة، خصّه سبحانه بالذكر، فقال:

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي: وما تتلو مما أنزل الله عليك من قرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وهو خطاب شامل لسائر العباد برّهم وفاجرهم.

وروعي في كلا الخطابين ما يليق به، ففي خطاب النبي ﷺ جاءت كلمة «الشأن» ولا تقال إلا لما يعظم من الأعمال والأحوال، لأن عمل العظيم عظيم، وفي الخطاب الثاني جاءت كلمة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لأنها شاملة للعمل الجليل والحقير^(٢).

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: إلا كنا عليكم رقباء مُطَّلِعِينَ على أعمالكم حافظين لها.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ حين تدخلون في العمل وتلبسون فيه.

والإفاضة: الدخول في العمل مع الانشراح والانبساط فيه.

فالله سبحانه شاهدٌ علينا ونحن نقوم بأي عمل من الأعمال، كما أنه سبحانه في سابق علمه قد أحاط بنا وبأعمالنا:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا يغيب عن علمه

سبحانه وبصره وزن ذرة في أي مكان كانت، في السماوات أو في الأرض.

(١) تفسير الخازن: ٣/٢٦٥.

(٢) انظر: روح المعاني: ٤/١٤٤.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ ولا يغيب عن علمه سبحانه وبصره ما هو أصغر من الذرة أو أكبر منها.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهي أيضاً مكتوبة في لوح القدر الذي كتب فيه سبحانه كل المقدرات التي سبق بها علمه، وتعلقت بها إرادته، فكيف تغيب عنه سبحانه؟! فهو كقوله ﷻ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فسبحان من أحاط علمه بأوراق الأشجار، وقطرات الأمطار، وحبّات الرمال، وكل ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار!

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من صلة كبيرة بموضوع القضاء والقدر، فأعمالنا كلّها من خير وشر سبق بها علمه قبل أن تكون، وعندما تكون، فهو سبحانه يعلمنا ويرانا ونحن نعملها، ولا نعملها إلا بمشيئته، فلا يحدث في الكون شيء لا يريده سبحانه، فأرادته سبحانه نافذة في كل المكونات، وإحاطة علمه سبحانه لأعمالنا وإرادته لها لا ينفي اختيارنا وكسبنا لها.

ولا يخفى أيضاً ما للآية من أثر عميق على نفسية الإنسان المؤمن وهو يستشعر رقابة الله تعالى عليه في كل أحواله وأعماله، ورحم الله ابن كثير عندما ختم تفسيره لهذه الآية بالحديث الشريف:

قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)]^(١).

● السعداء أولياء الله تعالى:

وعلمه الأزلي سبحانه لا يتغيّر ولا يتبدّل، وما تعلقت به إرادته سبحانه على وفق علمه لا يتغير ولا يتبدل، وقد علم سبحانه أنّ الناس بما جعل لهم من إرادة واختيار وكسب سيكونون فريقين: سعداء وأشقياء.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٩٩/٢.

والسعداء هم أهل الإيمان والتقوى، هم أولياء الله الذين لهم قَدَمُ الصديق عند ربهم، وهم الذين يفرحون بفضله ورحمته، ويتمسكون بشريعته، ويتعظون بمواعظه، وهم الذين قال فيهم:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

ففرحهم بالله تعالى ورحمته وفضله غلب على قلوبهم، فلا يلتفتون إلى ما يجمعه غيرهم من حطام الدنيا ويتنافسون عليه، فلا يخافون أن يفوتهم شيء من الدنيا، ولا يحزنون عليه إذا فاتهم.

أو إنهم لا يخافون من حصول ضارّها، ولا يحزنون من فوات نافعها.

أو إنهم لا يخافون ولا يحزنون يوم القيامة، لأنهم يكونون في حمايته وكنفه، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

أو إنهم عند الموت لا يحزنون على مفارقة الدنيا، ولا يخافون مما يستقبلون من أمور الآخرة بسبب ما تحمل لهم ملائكة الرحمة من البشارة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقد يكون المعنى المراد شاملاً لجميع هذه المعاني ولمعانٍ آخر يعلمها سبحانه، وما ذكره الشوكاني رحمته الله في قوله: «والمراد بنفي الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم، لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظنّ برّبهم»^(١) فهو غير صحيح، ويجانب الصواب، لأنّ الخوف من الله تعالى يغلب على قلوب الأولياء والصالحين، وكلّما ازداد العبد قرباً منه تعالى زاد خوفه

وخشيته منه سبحانه، مع قوة رجائه برحمته سبحانه وفضله، وقد وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿المعارج﴾.

وقال أيضاً فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ يَتَائِبَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿المؤمنون﴾.

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فكيف خفيت عليه؟!

• صفاتهم:

ثم وصفهم سبحانه بقوله:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٢).

وأصل معنى (الولي) من الولاء، وهو القرب والنصرة، فولي الله هو الذي يتقرب إلى الله تعالى بطاعته مع اجتناب معاصيه ومحارمه، ومن كان كذلك فإن الله تعالى يقربه ويعينه ويوفقه وينصره.

كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحْبَبَهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرَجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» الحديث [رواه البخاري (٦٥٠٢)].

فالولي يحبُّ الله تعالى، ويحبه الله سبحانه، ويحفظ له حواسه وجوارحه، فلا يستعملها الولي إلا في ما يُرضي الله سبحانه، أو المراد أنه سبحانه يوفقه في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وييسر عليه استعمالها في طاعته، ويحميها عن مواقف المعاصي والآثام.

والحديث يدلُّ على وجوب احترام الأولياء، والتأدب معهم، والحذر من إيذائهم. والتقوى هي علامتهم التي بها يُعرفون، فكل من كان تقيًّا كان لله وليًّا،

فهم الذين يتولّونه سبحانه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، وأعظم كرامة يكرمهم الله تعالى بها أن يوفقهم لطاعته والاستقامة على شريعته، ولهذا قالوا: الاستقامة عين الكرامة.

ولا يلتفت الأولياء إلى خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على أيدي بعضهم، ولا يريدون صدورها على أيديهم إلا إذا تضمّنت مصلحةً للمسلمين خاصةً أو عامةً، ويخافون أن تكون استدراجاً من الله تعالى أو تشغلهم عنه سبحانه.

وخوارق العادات ليست دليل الولاية، فالله سبحانه يخلقها على أيدي الصالحين وغير الصالحين، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة: أن الله سبحانه يخلق على يد الدجال عندما يظهر قبيل قيام الساعة كثيراً من خوارق العادات استدراجاً له، وابتلاءً للناس به.

• الرؤيا الصالحة:

ثم بيّن سبحانه بعض ما أولاهم من الخير في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٤).

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ والبشرى في الدنيا هي الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو تُرى له.

كما جاء في الحديث الشريف: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له» [أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٥ و ٤٥٢) والترمذي (٣١٠٥) وابن ماجه (٣٨٩٨)].

والرؤيا الصالحة: هي الصادقة التي تكشف عن بعض الوقائع المستقبلية، والتي فيها خير ومسرّة لمن رآها أو رؤيت له، وقد عدّها النبي ﷺ جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة لصدقها وتحققها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» [رواه البخاري (٧٠١٧) ومسلم (٢٢٦٣) واللفظ له].

ولا يكون جزء النبوة نبوة، فالمراد أنها من صفات وشمائل النبوة، ووجه تخصيص هذه الأجزاء العددية أنه عليه الصلاة والسلام مكث يوحى إليه في المنام ستة أشهر، ثم نزل عليه الوحي، واستمر ثلاثاً وعشرين سنة، فهي إذن بالنسبة له عليه الصلاة والسلام جزء من ستة وأربعين.

وجاء أيضاً: أن المراد من البشرى في الحياة الدنيا: الثناء الحسن.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» [رواه مسلم (٢٦٤٢)].

فتناء الناس عليه من غير تعرض منه لثنائهم دليل على رضا الله عنه.

وأما البشرى في الآخرة فهي الجنة كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿لَا يَدْبِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لأقواله سبحانه، ومنها ما وعد به أوليائه في كتابه وبواسطة رسله.

فهي قدم الصدق التي أمر النبي ﷺ أن يبشر بها المؤمنين، كما مر معنا في أول السورة، وهي السعادة التي قدرها لهم سبحانه في سابق علمه وكتبها في اللوح المحفوظ، وبها يتحقق لهم الفوز العظيم: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

• الأشقياء:

وأما الأشقياء فهم الذين جاء النبي ﷺ لينذرهم بغضب الله وعذابه، وليقيم حجته سبحانه عليهم، وهم الذين عانى رسول الله ﷺ كثيراً من عنادهم وإعراضهم:

﴿وَلَا يَخْزُنَكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥).

فهو سبحانه السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم، والمالك لجميع المخلوقات.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦).

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ولا يصلح المخلوق المملوك أن يكون ندًا لله تعالى وشريكاً.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ على الحقيقة، وإن كانوا يسمونهم شركاء.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون إلا الظن والوهم الذي لا حقيقة له.
﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هم إلا يكذبون.

ومن الأدلة على وحدانيته سبحانه وكمال قدرته وعظيم فضله ورحمته أنه:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ (٦٧).

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه من عناء العمل والحركة.
﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: مضيئاً.

فالليل والنهار من أعظم الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته وكمال قدرته، فتدبير نظام الليل والنهار بهذا الشكل الدقيق المحكم الثابت المستمر يدل على وحدانيته سبحانه وعظمته، كما يدل على حكمته ورحمته، فهو من نعمه الكثيرة التي أفاضها على مخلوقاته عموماً، وعلى الإنسان خصوصاً، الذي

يحتاج إلى سكون الليل لراحته، كما يحتاج إلى ضوء النهار لسعيه واكتسابه، ولهذا جاء التذكير بالليل والنهار في آيات كثيرة وبأساليب متنوعة.

وجاء هنا بأسلوب الخبر الصادق ليتناسب مع ما تقدّمه من حكاية أوهام المشركين وأكاذيبهم وظنونهم الخائبة، ومن شأن العاقل أن يُصغي للخبر الصادق، ويفتح له سمعه ليعرف الحقائق التي يحملها، ألا ترى أن الله ختم الآية بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع اعتبار وتذكر.

• الكذبة الكبرى:

وثمة نوع آخر من الأشقياء، وهم الذين وصفوا الله سبحانه بصفات لا تليق بكماله سبحانه ووحدانيته، فنسبوا إليه سبحانه الجزئية والولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهو الفرد الصمد، والواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، والذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلٰطٰنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٨).

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ تقدست ذاته، وتسامت صفاته.
﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كل شيء.

فاتخاذ الولد من صفات المخلوقين، وهو دليل حاجتهم وفنائهم، أما القديم أزلاً، والباقي أبداً، والقيوم على كل شيء، فهو الغني، ولا غنى على الحقيقة إلا غناه، لأن الكل محتاج إليه سبحانه قائم به.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل ملك له سبحانه، فكيف يتخذ منهم ولداً؟!.

إنها دعوى باطلة كاذبة لا يؤيدها عقل ولا نقل:

﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلٰطٰنٍ بِهٰذَا﴾ أي: ما عندكم من حجة ولا برهان.

﴿أَقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كيف تتجرؤون على الله تعالى، وتصفونه سبحانه بصفات لا يؤيدها عقل ولا نقل ولا علم؟! .
إنها الكذبة الكبرى التي لا فلاح ولا نجاح لكل مَنْ يقول بها:

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩) .

وكيف يفلحون وهم يكذبون على الله تعالى؟! .

﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠) .

﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ وتمتعهم ببعض حظوظ الدنيا كما هو مشاهدٌ عند بعضهم، قليل وقصير، وملئ بالمنغصات والمكدرات .
﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم مصيرهم إلى الله تعالى الذي حكم عليهم بالعذاب الشديد:

﴿ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

• الإنذار الأخير:

ثم أوردت الآيات نماذج للأشقياء والسعداء، وكان اختيارها لهم دقيقاً متلائماً تماماً مع موضوع السورة كما سيظهر لنا .

وبدأت بقوم نوح كنموذج للأشقياء، فذكرت الحلقة الأخيرة لقصة نبي الله نوح عليه السلام معهم، ومن المعلوم أنَّ نوحاً عليه السلام مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، مما يدلُّ على أنَّ أعمار قومه كانت طويلة، وأنَّهم عُمرُوا في الحياة الدنيا زمناً كبيراً، ثم بعد هذا العمر المديد جاءهم العذاب، فأغرقوا بالماء بسبب إصرارهم على الكفر، وتكذيبهم لنبيهم نوح عليه السلام، فما قيمة حياتهم المديدة وقد انتهت بالعذاب الذي لن ينقطع عنهم أبداً؟! .

فبعد إغراقهم أتاهم عذابُ البرزخ في النار، ثم يوم القيامة يخلدون في

جهنم، قال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذَلُّوْا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، والفاء في ﴿فَأَذَلُّوْا﴾ تدل على التعقيب، أي: جاءهم عذاب البرزخ في النار بعد هلاكهم بالغرق.

فالدنيا إذن متاع قليل مهما طالَّت وامتدت:

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَرُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِيَّائِي اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١).

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ على المصرِّين على الكفر والشرك.

﴿نَبَأٌ نُوحٍ﴾ خبر نوح مع قومه الذين هم أمثال قومك في العناد والكفر.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَرُ إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عَظُمَ وَشَقَّ.

﴿عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي: قيامي بتذكيركم ووعظكم. وهذا يدلُّ على أنَّ قوله

هذا كان المواجهة الأخيرة مع قومه والإنذار الأخير لهم.

﴿وَتَذِكْرِي﴾ إياكم.

﴿إِيَّائِي اللَّهُ﴾ الدالة على وحدانيته.

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على غيره، فافعلوا ما بدا لكم.

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أي: أجمعوا كلَّ ما تقدرون عليه للتخلص مني.

﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ مع شركائكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مستوراً.

فما كان ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا الْأُلُوفَ﴾ يبالي بمكرهم وكيدهم سواء كان مستوراً أو ظاهراً.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: نفذوا وحققوا ما عزمتم عليه.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تمهلوني، وهذا يدلُّ على أنه ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا الْأُلُوفَ﴾ بلغ الغاية في

التوكل على الله تعالى كما بلغ الغاية أيضاً في تحذيرهم.

• الجناة على أنفسهم:

ولم ينسَ ﷺ في كلماته الأخيرة لقومه أن ينزّه دعوته عن الأغراض الدنيوية ومتاعها الرخيص، فقال:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢).

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أصررتم على إعراضكم وعنادكم.
 ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ يستوجب إعراضكم.
 ﴿إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ما أجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، فدعوة الأنبياء أسمى من الدنيا كلها لأنها من الله وإلى الله.
 ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين الخاضعين لأمره سبحانه وحكمه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٣).

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على تكذيبه، مع أنه ﷺ ما ترك سبيلاً لإقناعهم إلا سلكه، كما جاء في قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٥) ﴿لَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (٦) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاعَهُمْ فِيْٓ أَفَادِنِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (٧) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ (٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي أَتَلَوْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح].
 وبقي ألف سنة إلا خمسين عاماً يسلك معهم كل هذه الأساليب، والنتيجة:

﴿فَجَبْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ من المؤمنين.

﴿فِي الْفُلْكِ﴾ في السفينة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا﴾ عن الهالكين.

﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ﴾ نظّر التدبر والاعتبار.

﴿كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُذَرِّينَ﴾ الذين أنذرهم وحذرهم، وعمرهم عمراً كافياً ليتذكروا ويتعظوا، ولكنهم أصرُّوا واستكبروا استكباراً، فهم الجناة على أنفسهم بسوء كسبهم واختيارهم.

والإنسان هو الإنسان، لا يتغير، ولا يتبدل، مهما تعاقبت الأجيال، وتجددت الأيام، ولا يزال عنادُ قوم نوح وإعراضهم عن الحق المؤيد بالبينات، باقياً عند كثير من الناس، يتوارثونه جيلاً عن جيل حتَّى عصرنا الحاضر، ولقد عانى الأنبياء بعد نوح ﷺ من عناد أقوامهم وإعراضهم كما عانى نوح ﷺ.

• الطبع على القلوب:

قرَّرت هذه الحقيقة الآية الكريمة التي سلكت الأنبياء الذين أرسلهم الله من بعد نوح حتى عهد موسى وهارون في خبر واحد:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كلُّ رسول إلى قومه.

﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدقهم.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بسبب تعودهم تكذيب الحق وتمرُّنهم عليه قبل بعثة الرسل، استمروا على حالهم هذه بعد بعثة الرسل، كأن لم يُبعث إليهم أحد^(١).

أو: إنهم لم ينتفعوا بالبينات، فكذبوا رسلهم بعد مجيء البينات كما كذبوهم من قبل^(٢).

لكنَّ قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يتفق مع المعنى الأول أكثر من المعنى

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٢٧٥/٣.

(٢) تفسير الخازن: ٢٧٥/٣.

الثاني، فللعادات والتقاليد التي اعتاد عليها الإنسان تأثير كبير عليه، لقد ألف القوم الكفر والضلال، وطال عليهم الأمد فيه، فأصبحت قلوبهم قاسية، لا تنكروا منكراً، ولا تعرف معروفاً، ولا تتأثر إلا بأهوائها وشهواتها، فهي القلوب التي طبع الله عليها بسبب إسراف أصحابها في المعاصي والآثام.

انظر إلى قوله تعالى يبين سبب قسوة قلوب أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ في المعاصي والآثام، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَتْ مِنْهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ [الحديد: ١٦]. ولهذا كان اليهود من أهل الكتاب يقولون للنبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: مغلفة ومغلقة ومطبوع عليها، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

فتغليظ القلوب والطبع عليها من الله تعالى وبمشيئته، إلا أنه بسبب اختيارهم للمعاصي وكسبهم لها: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

• **فرعون وملؤه:**

وهم الأنموذج الثاني للأشقياء، ولما وصلت الآيات إلى قصة موسى وفرعون وقفت عندها، ففصلت بعض وقائعها، وأضافت عليها حلقة جديدة، انفردت بها السورة، فلم تذكر في غيرها، ولعل سرَّ التفصيل في قصة موسى وفرعون أن اتصالها بموضوع السورة أكثر وأظهر ممَّا سبقها، وخاصة الحلقة الأخيرة الجديدة فيها.

عاش فراعنة مصر حياة ترف وسرف وبذخ ما عُرف لها مثيل في الحضارات القديمة، وإنَّ آثارهم الباقية حتى الآن تدلُّ على ذلك، فلا تزال هذه الآثار شواهد صدق على مدى الترف الذي كانوا عليه، لقد كان متاعهم في الحياة الدنيا كبيراً بالنسبة لمتاع غيرهم فيها، وأما بالنسبة للآخرة ونعيمها فهو قليل وحقيق، وخاصة بعد أن نزل بهم العذاب والهلاك.

ويبدو أنَّ فرعون موسى بلغ الغاية القصوى في الترف والسرف، والقوة

والسلطان، والبطش والطغيان، فأرسل الله تعالى إليه رسولين كريمين ليبلغاه وقومه رسالة الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ الذين يملؤون العين بمظاهر الغنى والقوة المحيطة بهم .

﴿بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات التسع التي أيد الله تعالى بها موسى وهارون ﷺ، وكلّ معجزة كافية لإظهار صدقهما في دعوتهما .
﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: تكبروا وأعجبوا بأنفسهم وبقوتهم .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِّمَّنْ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا﴾ عن المعجزات:
﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مِّمَّنْ﴾ .

فردّ موسى عليهم مستكراً وموبّخاً:

﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ .

فلا فلاح لمن يمارس السحر .

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكَرِيمَةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا﴾ أي: لتصرفنا .

﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾؟ إنّ التقليد الأعمى للآباء والأجداد أو لغيرهم من أكبر المعوقات التي تقف في وجه الإصلاح والمصلحين في كل زمان ومكان .

وأول ما يسارع المبطلون إلى الاحتجاج بها، ثم يكيلون التهم لدعاة الإصلاح بأنهم لا يقصدون الإصلاح، إنما يقصدون أن يحلوا محلهم في سلطانهم ومُلْكهم: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم يعلنون بكل وقاحة وتبجح:

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين.

ثم تحدثت الآيات بعد هذه المواجهة عن مواجهة ثانية بين موسى ﷺ من جهة، وبين السحرة الذين جمعهم فرعون واستعان بهم من جهة ثانية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ (٧٩).

بفنون السحر.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٨٠).

واجه موسى السحرة بكل هذه الثقة والتحدي.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١).

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما ألقوا من العصي والحبال.

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُ﴾، فلا يبقى له أثرًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فالمفسدون لا يكون منهم إصلاح أبدًا،

ولا بقاء لفسادهم، لا بد أن يمحقه الله تعالى ويزيله.

﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢).

﴿وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمَتِهِ﴾ بأوامره سبحانه وأحكامه، أو بكلماته التكوينية،

أو بما سبق من قضائه وقدره.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ لأن إرادته سبحانه هي النافذة، وقدرته هي الغالبة. ولم تتحدث الآيات عن نتائج المواجهة، إذ عُرِفَت النتيجة من خلال إظهار قوة الحق وسلطانه الغالب القاهر، وضعف الباطل وفساده.

● المحنة:

وانتقلت الآيات تتحدث عن محنة المؤمنين الذين استجابوا لدعوة موسى، فوصفتهم بأنهم كانوا من شباب بني إسرائيل، وأنهم آمنوا رغم خوفهم من بطش فرعون:

﴿فَمَاءٌ آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣)

﴿فَمَاءٌ آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشراف وأغنياء بني إسرائيل، فإنهم كانوا يمنعون الشباب عن الإيمان خوفاً على أموالهم ومصالحهم من انتقام فرعون، وهو أمر واقع ومشاهد في كل عصر ومصر، فإن كثيراً من أصحاب الوجاهة والمراتب يعرضون عن الحق ويدافعونه حماية لمصالحهم ومراتبهم.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يصرفهم ويصدّهم عن الإيمان، فالخوف لم يكن على أنفسهم، إنما كان خوفهم على دينهم وإيمانهم، فالبلاء كان كبيراً، والمحنة شديدة، والسبب ما كان عليه فرعون:

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ متكبر ومتجبر.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد.

ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يتمنى البلاء، ويعرض نفسه له، بل عليه أن يسأل الله تعالى العافية والسلامة لدينه ونفسه، فإنه لا يدري كيف يكون حاله عند نزول البلاء، فلعله لا يثبت فيفتن عن دينه، أما إذا نزل به البلاء فعليه الثبات مستعيناً بالله سبحانه ومتوكلاً عليه، وهذا ما نصح به موسى ﷺ المؤمنين:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فثقوا به سبحانه واعتمدوا عليه.
﴿إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ حقاً الله تعالى .

﴿فَقَالُوا عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿فَقَالُوا عَلَى اللّٰهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره، ثم توجهوا بالدعاء إلى الله تعالى قائلين :
﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ﴾ أي : لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا،
أو لا تجعلنا موضع فتنة لهم، فيتسلطوا علينا، ويزدادوا طغياناً وكفراً ويقولوا :
لو كنتم على حق ما سلطنا عليكم .

﴿وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

• الكيس والعجز:

والتوكل على الله تعالى لا ينافي الأخذ بالأسباب، والدعاء سبب للمقصود، فمن أخذ بالأسباب، واعتقد أن الله هو الخالق، ولا تأثير للأسباب في خلق المسببات، كان متوكلاً. ومن ترك الأخذ بالأسباب التي ينبغي له أن يأتي بها مع التمكن من فعلها كان عاجزاً.

قال رسول الله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

وقال أيضاً: «إن الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل» [رواه أبو داود (٣٦٢٧)].

والكيس: النباهة والتفطن والحزم بإتيان الأسباب المشروعة الموضوعة للمسببات، وترك ذلك ليس من التوكل في شيء، ولا ممّا يقتضيه الإيمان

بالقدر، فما تراه في الناس من ذلك بِحُجَّةِ الاعتماد على القدر إنما هو من الجهل بالشرع والقدر^(١).

فالقدر لا يدلُّ على جري الأمور على محض المصادفة والاتفاق، وإنَّما يدلُّ على إجرائها على نظام خاص ووضعتها على قدر معين بحيث تؤخذ المسببات من أسبابها^(٢).

ولهذا أوحى الله إلى موسى أن يأمر قومه أن يأخذوا بأسباب السلامة والوقاية من ظلم فرعون وبطشه، مع الإكثار من عبادته والتوكل عليه سبحانه:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٧).

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتخذوا في مصر المنازل والمساكن، ولعلَّ ذلك لإيهام فرعون وجنوده أن بني إسرائيل غير راغبين في الخروج من مصر مع موسى، فقد كان من جملة الأمور التي طالب بها موسى، أن يرسل فرعون بني إسرائيل مع موسى ليخرجهم من مصر، ويخلصهم من ظلم فرعون واستعباده لهم، قال تعالى: ﴿فَأَنبِئْهُمْ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْبُدْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّا آتَيْنَاكَ﴾ [طه: ٤٧].

وكان فرعون معارضاً لهذا ليبقى بنو إسرائيل مسخرين في خدمته وخدمة قومه.

واتخاذُ المساكن يدلُّ على الرغبة في التوطن والاستقرار، فيتوهم فرعون أن بني إسرائيل غير راغبين بالخروج من مصر مع موسى، فيخفف من مراقبتهم وحراستهم.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: صلُّوا في بيوتكم، وكان من دينهم أنهم

(١) البراهين الساطعة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم^(١).

﴿وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ في بيوتكم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

• الدعوة المستجابة:

ولما أتى موسى ﷺ بكل المعجزات التي أيده الله بها، ورأى استكبار فرعون وملئه وإصرارهم على الكفر، وعدوانهم على المؤمنين، وبطشهم بهم، وبغيهم عليهم؛ توجه إلى الله تعالى يدعو مع أخيه هارون على فرعون وملئه، فلا سبيل للمظلوم المقهور إلا أن يتوجه إلى الله تعالى يستنصره على ظالمه، والله سبحانه الحكيم العدل لا يخيب مظلوماً لجأ إليه:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ من كل شيء ينزئ به في

الدنيا.

﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ابتلاء واختباراً لهم.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ أي: فكان عاقبة ما أعطيتهم الضلال والإضلال.

فالله سبحانه ما أعطاهم ليضلوا، وإنما أعطاهم ليبتليهم.

وقد يقول قائل: لماذا أعطاهم وهو سبحانه يعلم أنهم سيضلون؟!.

والجواب:

أولاً: أنه سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿أَلَا لَهُ

الْخَلْقُ﴾ سبحانه، ﴿وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٥] في خلقه له أيضاً.

وثانياً: لا يتم الابتلاء في الحياة الدنيا إلا بإمداد الناس بأسباب الابتلاء والعطاء، وتفاوت الناس فيه من أسباب الابتلاء.

وثالثاً: قضت حكمته سبحانه وإرادته ألا يحاسب الناس بمقتضى علمه سبحانه بما سيعملون، وإنما يسألهم عن أعمالهم التي عملوها باختيارهم وكسبهم.

• الرضا بالكفر كفر:

﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْرِيهِمْ﴾ أي: أهلكها وامحها.

﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: اطبع على قلوبهم، واجعلها قاسية، فلا يؤمنوا إلا إيمان اليأس والبأس الذي لا ينفعهم حين ينزل بهم العذاب الأليم.

ولا تظن أن موسى وهارون رضيا بكفر فرعون وملئه بهذا الدعاء، فالرضا بالكفر كفر، إنما سألا الله ذلك لينتقم منهم أشد الانتقام.

ومن هذا القبيل ما جاء في الحديث الصحيح في فتح مكة: أن عبد الله بن أبي سرح الذي أهدر النبي ﷺ دمه، أتى به عثمان بن عفان رضي الله عنه (وكان أخاه من الرضاعة) إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله بايعه، فكفَّ ﷺ عن بيعته، ونظر إليه ثلاث مرات، كل ذلك يأبى أن يبايعه، فبايعه بعد الثلاث، ثم أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رأيته كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟» قالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين» [رواه أبو داود (٢٦٨٣) والنسائي (١٠٥/٧ - ١٠٦) (١)].

فتوقفه عليه الصلاة والسلام عن بيعته لا يعد رضاً بكفره، إنما لرغبته في الانتقام منه.

(١) روح المعاني: ١٧٤/٤.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، والخطاب لموسى وهارون، إذ شارك هارون في الدعوة بالتأمين على دعاء موسى ﷺ.

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: اثبتا على أمر الله، ولا تستعجلا، فإن الإجابة كائنة في الوقت الذي يشاء الله تعالى، لا في الوقت الذي تشاءان، فمشيئته سبحانه هي الغالبة والنافذة.

﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعان طريق الجهلة في استعجال الإجابة أو عدم الثقة بوعده سبحانه.

وفي الحديث: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل»، يقول: قد دعوت فلم يستجب لي» [رواه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥)].

• طريق بين الأمواج:

ولما حان الوقت الذي سبق به علمه سبحانه وتعلقت به إرادته لإجابة الدعوة، أمر الله تعالى موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً، وعندما علم فرعونُ بخروجهم خرج مع جنوده في أثرهم، ولما وصل موسى وقومه إلى شاطئ البحر شقَّ الله تعالى لهم بقدرته طريقاً في البحر يساً:

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠).

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: جعلهم سبحانه يجتازون البحر، ويقطعون به الطريق الذي شقَّه لهم بين الأمواج الهائجة الثائرة، وقد أمسكتها قدرة الله تعالى على أطراف الطريق كالجبال العالية، ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ (٩١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء]. أي: كالجبل العظيم.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ ظلماً واعتداءً، وأعماهم الغضب والحقْدُ عن رؤية الحقيقة ومعرفة المعجزة الخارقة في الطريق الذي شقته القدرة الإلهية بين الأمواج العاتية، فدخلوا فيه.

وما إن وصل بنو إسرائيل إلى اليباسة حتى أمر الله تعالى الأمواج الهائجة المزبدة أن تطبق على فرعون وجنوده وأسلحته ومراكبه وزينته.

• أدركه الغرق:

وتمزقت جيوش الطاغية، وضاعت بين الأمواج، عندئذ عرف المتجبر المتكبر نفسه، وأدرك ضعفه وعجزه، ولمّا أدركه الغرق ويئس من النجاة، وأيقن بالهلاك:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ يا لروعة التعبير ودقة التصوير! ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ الطالب صار مطلوباً، تغير الموقف في لحظات، فقد كان فرعون طالباً لبني إسرائيل، جاداً في أثرهم، وهاهو بين الأمواج أصبح مطلوباً من قبل الهلاك والغرق، ولا نجاة له منه، فقد أدركه وأحاط به من كل جانب.

﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إنه إيمان البأس واليأس، إيمان القهر والإلجاء الذي لا يقبله الله تعالى، ولا ينفع صاحبه، الإيمان المجرد عن الكسب والاختيار، ولهذا قيل له تقريراً وتوبيخاً:

﴿ءَالْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١).

﴿ءَالْقَنَ﴾ تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات.

﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بطغيانك وظلمك، وادعائك صفة الربوبية والألوهية، عندما كنت تقول: ﴿قَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ عَزِيزٍ﴾ [القصص: ٣٨].

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا﴾ فقط، وهو تهكم مرُّ بمن كان يدعي لنفسه صفة الربوبية والألوهية، فنلقي بدنك على ساحل البحر جثة هامدة لا روح فيها، أو على نجوة مرتفعة من الأرض .

﴿لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ أي: لتكون لمن يأتي بعدك عبرة وموعظة، تبين لهم أن الإنسان مهما تجبر وطغى فإن الله تعالى ينتقم منه .
والعجيب أن كثيراً من الناس لا يتعظون، ولا تزال الإنسانية تعاني من ظلم وطمع الطغاة، كما جاء في خاتمة الآية:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفِلُونَ﴾ بسبب انهماكهم بالدنيا وشهواتها .

● لا نجاة لفرعون من العذاب:

وقد تعلّق بعضهم بهذه الآية، فقالوا بإيمان فرعون ونجاته، وأنه سبحانه لم يزد على أن عاتبه وبكّته بقوله: ﴿ءَأَكْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] .

وقد ردّ عليهم الشيخ محمد الحامد رحمته الله، وجاء في ردّه: «قالوا ذلك غافلين عن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]، فإيمانه إيمان يأس غير مقبول .

ثم ماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُسَّ الَّلُورْدُ الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُسَّ الَّلُورْدُ الْمُرُودُ﴾ [هود] .

أفيقدمهم إلى النار ويوردهم إياها ثم يعود أدراجه إلى الجنة، ما هذه المهزلة التي يتنزّه عنها القرآن؟! .

وماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥] أليست الأولى هي الدنيا، والآخرة هي يوم القيامة وما بعده؟! .

على أن هناك آيات أخرى قاطعة لشبهتهم، وليس بعدها مجال لقائل، ولا اجتهاد لمجتهد، إذ الاجتهاد في موارد النصوص ممنوع، وليس لأحد مع الله كلام فيما قضاه: ﴿وَأَسْكَبَرَهُ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُودُهُ فَفَبَدَّلْنَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَنَظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصر].

فهل بقي شك في كفر فرعون وجنوده؟! (١).

وقال الألوسي رحمه الله: «ولهذه الآية وأشباهها وقع الإجماع على كفر المخذول، وعدم قبول إيمانه، ويشهد لذلك أيضاً ما رواه ابن عدي والطبراني: من أنه عليه السلام قال: «خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً» فهو من أهل النار المخلدين فيها بلا ريب» (٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال لي جبريل: لو رأيته وقد أخذت من حال البحر (طينه الأسود) فدسست في فيه مخافة أن تناله الرحمة» [رواه أحمد (٣٠٩/١) والترمذي (٣١٠٧) وحسنه].

وهو من قبيل الرغبة بالانتقام منه، لا من قبيل الرضا بكفره، وقد مر معنا منذ قليل ما يماثله.

• ماذا يبقى من الإنسان إذا تجرد عن اختياره؟!

وهكذا استجاب الله تعالى لدعوة موسى وهارون، وأهلك فرعون وجنوده

(١) انظر: العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

(٢) روح المعاني: ١٨٤/٤.

ونجّى بني إسرائيل من طغيانه وظلمه، وأنعم عليهم بنعم كثيرة، فكيف قابلوا نعم الله عليهم؟.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٩٣).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ﴾ أي: منزلاً صالحاً مرضياً.
 ﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الخيرات النافعات.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: جاءهم ما كانوا به عالمين، فقد كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مقرين به، مجمعين على نبوته، غير مختلفين فيه، لما يجدونه مكتوباً عندهم من صفاته عليه الصلاة والسلام، فلما بُعِثَ اختلفوا فيه، فأمن به عدد قليل منهم كعبد الله بن سلام، وكفر أكثرهم به بغياً وحسداً^(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز بين المحق والمبطل.

فكما جحد فرعون وملؤه المعجزات التسع الحسية التي أيد الله بها موسى وهارون، ولم يؤمن إلا عندما يؤس من الحياة، كذلك جحد أكثر أهل الكتاب آيات التوراة والإنجيل التي تحدّثت عن خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وجحد المشركون في مكة أيضاً آيات القرآن الكريم وما فيها من بلاغة وإعجاز، فلماذا الجحود؟! ولماذا الإنكار؟!

تلك هي مشكلة الإنسان مع الحق، وليس المشكلة في غموض الحق أو خفائه، الحق واضح ظاهر، لا لبس فيه ولا غموض، ولكن المشكلة قائمة في نفس الإنسان، ونابعة من داخله، فهو مصدرها، وعليه تقع تبعاتها ونتائجها.

لماذا لا يُقبل أكثر الناس على الحق بإرادتهم واختيارهم؟! لماذا يعرضون عنه وهم مختارون، ويقبلون عليه وهم مقهورون مجبورون كما فعل فرعون؟! إذن فليجرّد الإنسان من إرادته واختياره وكسبه، وليُقهر على الحق ويُجبر عليه،

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢٨٦/٣.

فلتذبح إرادة الإنسان وليُصَحَّ باختياره من أجل الحق، وليصبح الإنسان بلا إرادة ولا اختيار، عندها يفقد العقل قيمته، لأنه آلة التمييز والاختيار عند الإنسان، فماذا يبقى بعد ذلك من الإنسان؟!.

يصبح الإنسان بعد ذلك كمًّا مهملاً، لا تكريم له ولا تشريف، ولا تدبُّر له ولا نظر، وبالتالي لا تكليف ولا نبوات ولا رسالات، ويصبح الإنسان بهذا التصور زمرة من زمر الحيوانات التي تعيش على هذه الأرض، بل يصبح إيجاد الخلق وإبداع المكونات لعباً وعبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِئِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

تباركت ربي مكوّن الأكوان، وخالق الإنسان، ما أعظم حكمتك! وما أجل نعمتك! خلقت الإنسان، وجعلت له إرادة واختياراً، كرمته فكلفته، وسخرت له ما في السموات والأرض ليسعد بعبادتك، وينعم بطاعتك.

• التفاتة رائعة:

كانت الآيات تتحدّث عن بني إسرائيل، فالتفتت فجأةً تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، ومهدت بهذه الالتفاتة الرائعة لمتابعة الخطاب للنبي ﷺ الذي كان يتألم ألماً شديداً بسبب إعراضهم عن الحق وجحودهم لآياته:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤).

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، ففي الخطاب تثبيت للنبي ﷺ، وتوبيخ لأهل الكتاب لتركهم الإيمان برسالته عليه الصلاة والسلام، رغم ما عندهم من الدلائل القاطعة على صدقه وصحة نبوته.

وفيه أيضاً دفعٌ لأي شك يمكن أن يطرأ على قلب أحد من المؤمنين .

نقل ابن كثير عن قتادة قوله: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» ثم قال ابن كثير بعد ذلك: «وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم»^(١).

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: أقسم لقد جاءك الحق اليقين من ربك بأنك رسول الله حقاً، وأن أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ الشاكين المترددين.

والشك والتردد أخف من التكذيب، ولهذا قال بعده انتقلاً من الأخف إلى الأشد:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥).

لابد أن يظهر في كلامه سبحانه عزُّ الربوبية وكبرياؤها واستعلاؤها، وهذا أيضاً من فوائد توجيه الخطاب للنبي ﷺ، ففيه يظهر أن هذا الكلام كلام الله تعالى، وأنه لا دخل للنبي ﷺ فيه إلا اتباع آياته وتبليغها للناس، فلا يعقل أبداً أن يخاطب النبي ﷺ نفسه بمثل هذا الخطاب.

• كلمة ربك:

وأخيراً وصلت الآيات الكريمة إلى تقرير الحقيقة الكبرى التي مهّدت لها بما سبق من الخطاب الموجه للنبي ﷺ، وهي:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٠٧/٢.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۖ ﴿٩٧﴾﴾ .

ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في تفسير قوله تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فقالوا: هي حكمه وقضائه سبحانه، أو كلمته التي كتبها في اللوح المحفوظ، والتي تعلّق بها علمه سبحانه وإرادته في الأزل.

وقال شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمته الله: «يقول تعالى ذكره: الذين وجبت عليهم يا محمد كلمة ربك، وهي لعنته إياهم بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]؛ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ لا يصدّقون بحجج الله، ولا يقرون بوحداية ربهم، ولا بأنك الله رسول، ولو جاءتهم كل آية وموعظة فعاينوها. ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ حتى يعاينوا العذاب الأليم، كما لم يؤمن فرعون وملؤه، إذ حَقَّتْ عليهم كلمة ربك حتى عاينوا العذاب الأليم»^(١).

ثم قال رحمته الله: وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل. ثم نقل بسنده عن مجاهد وقتادة قولهما: حَقَّ عليهم سخط الله بما عصوه^(٢).

• قوم يونس:

ثم قال سبحانه على وجه التوبيخ واللوم لمن كان مثل فرعون وملئه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُوَسَّسُ لِمَآءِ أَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۖ ﴿٩٨﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا﴾ أي: فهلأ كانت قرية من القرى التي أهلكها الله تعالى آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينة العذاب كما أخر فرعون إيمانه، فنفعها ذلك الإيمان وقبّله سبحانه.

(١) جامع تأويل آي القرآن: ١٧٠/١١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي: لكن قوم يونس - وهو من أنبياء الله أرسله سبحانه إلى أهل نينوى من أعمال الموصل في شمال العراق -.

﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عندما آمنوا بعد نزول العذاب بهم، قَبِلَ الله إيمانهم، ونفعهم به، فكشف عنهم عذاب الهوان والذلة في الحياة الدنيا.

وكلمة ﴿كَشَفْنَا﴾ تدلُّ على أنَّ العذاب نزل بهم حقيقة، وهو رأي جمهور المفسرين.

﴿وَمَقْنَعُهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى انتهاء حياتهم وانقضاء آجالهم.

قال ابن كثير رحمته الله: «وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرَّعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابَّهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندما رحمهم الله وكشف عنهم العذاب».

ولا بدَّ لنا أن نتساءل: كيف قبل سبحانه إيمان اليأس من قوم يونس، ولم يقبله من غيرهم؟!.

والجواب: أنه سبحانه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لإرادته سبحانه مطلقة، فلو عَذَّبهم سبحانه لعَذَّبهم بعدله، وعندما عفا عنهم عفا عنهم بفضله، والله يعطي فضله من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

ولعلَّ سبب هذه الخصوصية التي خَصَّ الله بها قوم يونس عليه السلام، أنه سبحانه علم صدقهم في إيمانهم، وإخلاصهم في توبتهم، والدليل أنهم لما رفع عنهم العذاب لم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، بل ثبتوا على الإيمان، واستقاموا على التوبة حتى انتهت آجالهم. أمَّا غيرهم من أهل إيمان اليأس فما كانوا صادقين في إيمانهم، ولا مخلصين في توبتهم، ولو أنه سبحانه قبل إيمانهم ورفع عنهم العذاب، لعادوا إلى ما كانوا عليه من طغيان وكفر.

وقد مرَّ معنا في هذه السورة بعض الأمثلة العملية لحقيقة كثير من الناس، وكيف أنهم يقبلون على الله تعالى في حال الخطر، ثم إذا نجَّاهم منه أعرضوا عنه سبحانه، وانغمسوا في حماة الكفر والفجور، فليرجع القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتِهِمْ إِذَا لَّهُمْ مَكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ [يونس: ٢١]. وإلى قوله أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِى يُسِرُّكَ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِى أَلْفَاكٍ﴾ الآية [يونس: ٢٢]، ليعلم مدى الانسجام والاتفاق بين آيات السورة كلها وبين موضوعها الأساس.

لقد قدَّر الله سبحانه الخلود في النار لكلِّ من يموت مصرّاً على كفره وشركه، لأنهم مهما امتدَّت أعمارهم سيظلون متمسكين بالكفر، حتى إنهم بعد معاينة عذاب جهنم، لو ردُّوا إلى الحياة الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من كفر وفساد وعناد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ يَأْتِى رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٩٧] بَلْ بَدَاهُم مَّا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [الأنعام].

فسلَّم لحكمته سبحانه، وأذعن لأمره، وارضَ بقضائه وقدره، تسلَّم بفضله، وتفرَّج برحمته سبحانه.

• لا إكراه في الدين:

ثم بيَّن سبحانه كمال قدرته ومشيتته فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩٩).

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا تحقيقٌ لدوران إيمان جميع المكلفين وجوداً وعدمًا على قطب مشيتته سبحانه^(١).

لكنَّه سبحانه شاء أن تكون الدنيا دار تكليف وابتلاء وامتحان، فشاء

(١) روح المعاني: ١٩٣/٤.

سبحانه أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به، وشاء الكفر ممن علم أنه يختار الكفر ولا يؤمن به^(١).

وكان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن به جميع الناس، ويتابعوه على إيمانهم^(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن به جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله ﷻ أنه لا يؤمن به إلا مَنْ سبقت له من الله السعادة في الذكر الأول - وهي قَدَمُ الصدق التي ذُكرت في أول السورة - ولم يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، لأنه كان حريصاً على إيمانهم^(٣) كلهم.

ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تملك أن تكرههم على الإيمان، فالإيمان لا يكون بالإكراه، إذ هو تصديق وإقرار، ولا بد له من إرادة واختيار، كما قال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته أو بقضائه، أو بتوقيفه وتسهيله، أو بعلمه^(٤)، فلا يحدث شيء في ملكه من دون علمه سبحانه وإرادته.

﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ العذاب أو الغضب.

﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا ينتفعون بعقولهم، ولا يستعملونها بالنظر في

الحجج والبراهين.

(١) تفسير البضاوي: ٢٩١/٣.

(٢) تفسير الخازن: ٢٩١/٣.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) تفسير البضاوي: ٢٩٢/٣.

• ميادين البحث والنظر:

وميادين البحث والنظر والتعقل واسعة وكبيرة، وقد أعطاهم سبحانه وسائل البحث والنظر وأمرهم به:

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾ نظر التدبّر والتعقل.

﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هكذا على الإطلاق، فكل ما في السموات والأرض دلائل وبراهين على وجود الله تعالى ووحدانيته، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من التحدي مع الثقة، فلن يجد أهل البحث والنظر في السموات والأرض إلا النواميس المحكمة المتناسقة الدالة على أنها تدبير إله واحد أحكمها وأبدعها، كما أن الآية تدلّ على أن الإسلام فتح للناس ميادين البحث والنظر على أوسع مداها، فلا حَجَر في الإسلام على فكر الإنسان، فالكون بكل ما فيه ميدان بحث ونظر.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: علم سبحانه أنهم لا يؤمنون، وما أمرهم بالنظر إلا ليقيم الحجة عليهم، ويبين لهم نتيجة اختيارهم وكسبهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والذين أنزل الله سبحانه بهم بأسه وعذابه بسبب كفرهم وعنادهم.

﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وإذا جاء الأجل المقدّر والوقت المنتظر:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

بما سبق من وعده سبحانه بنجاتهم وفوزهم .
وهكذا لم تترك الآيات الكريمة سبيلاً من سبل إقناع الناس وتقريب حقيقة الإيمان من عقولهم وقلوبهم إلا سلكته، مما يدل على أهلية الإنسان للاختيار والكسب، وأنه مزود بالإرادة والتمييز .

• إعلان:

وبعد كل ما تقدم أمر النبي ﷺ أن يعلن في وجوههم ثباته على الحق، واعتزازه به، وعدم تأثره بإعراضهم وعنادهم:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ في أي وقت مهما كانت الظروف .

إن كثرة ركاب الباطل وانتشاره قد يضعف من عزيمة بعض الدعاة، وينال من حماسهم في حمل الدعوة، وصمودهم في وجه تيارات الباطل، فتتزعزع ثقتهم، وتضعف مقاومتهم، ويجرفهم التيار . . فلا بد إذن من هذا الإعلان، ففيه قوة معنوية تمتد الداعية بالثقة والعزيمة، فلا يلين ولا يضعف، ولا يتوانى ولا يتخاذل:

﴿وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ﴾ الذي بيده حياتكم وموتكم، فهو وحده المستحق للعبادة .

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلا مDAHنة في أمر العقيدة والإيمان ولا مسابرة، فهي تكليف مفروض، وإن كانت في الأصل بالاختيار والكسب .

ثم بينت الآية مضمون الأمر الإلهي:

﴿وَأَنْ أَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٠٥ ﴿﴾.

﴿وَأَنْ أَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: استقم على دين الله ولا تمل عنه.
﴿حَنِيفًا﴾: تاركاً كل ما يخالفه.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فإنَّ أيَّ ميل عن الحق يؤدي إلى الوقوع في الشرك والكفر، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

• النفع والضرر من القدر:

والسبب الرئيس لانحراف أكثر الناس عن عبادة الله وحده اعتقادهم أنَّ غير الله تعالى قد يجلب لهم النفع، أو يدفع عنهم الضرر، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠٦ ﴿﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ لأن كل شيء بمشيئته سبحانه، وقد مرَّ معنا قوله ﷻ أيضاً: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩].

فكل ما يصل إلى المخلوق من خير أو شر فبقضائه سبحانه وبقدره.

وقد جاء في الحديث الشريف: قوله عليه الصلاة والسلام: «واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح].

ومن أدعية النبي ﷺ: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» [رواه مسلم (٥٩٣)].

والجدُّ: هو الحظ، والمجدود هو المحظوظ، فالحظ من جملة المقدرات الإلهية كما أنَّ الحرمان قدرٌ، وقد ييسر الله أسباب المحبوبات لبعض عباده لينالوا ما قسم لهم منها، وقد تحول الأقدار بين العبد وبين ما يريد^(١).

(١) ردود على أباطيل.

ولا يعني هذا الانصراف عن تحصيل الأسباب، فالله سبحانه قدّر الأسباب والمسببات، وقد مرّ معنا أن العجز ترك الأخذ بالأسباب، وأن الأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر.

• من آثار الإيمان بالقدر:

وقد دفع الإيمان بالقدر سلف هذه الأمة الصالح إلى سيادة الأمم في كل ميادين الحياة، فكانوا بحق السباقين إلى كل خير ورشاد، كيف لا وهم يسمعون قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

وقوله: ﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقوله: ﴿فَأَمْسُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقد سألوا رسول الله ﷺ حين ذكر لهم أَنَّ القلم قد فرغ من كتابة ما هو كائن، فقالوا: أفلا نتوكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «لا، فكلُّ ميسر» وفي رواية: «كلُّ لا ينال إلا بالعمل» [رواه البخاري (٦٥٩٦) ومسلم (٢٦٤٩)].

وفي رواية أخرجهما البزار: فقال القوم بعضهم لبعض: فالجذ إذا^(١).

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ أي: دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضر.

﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسك لأنك وضعت طاعتك وعبادتك في غير موضعها، وحاشا النبي ﷺ أن يفعل ذلك، فالخطاب له عليه الصلاة والسلام تبييناً، ولغيره تحذيراً.

• يا كاشف الضر:

وما عليك إذا أصابك شيء من الضر إلا أن تتوجه إلى الله تعالى ليكشفه عنك:

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾ فلا يزيله عنك غير الله تعالى.

وقدّم مع الدعاء عملك وجهدك في تحصيل أسباب كشف الضرّ، مع الاعتقاد أنها أسباب فقط، وأن الكاشف الحقيقي للضر هو الله سبحانه وحده، فالأسباب لا تأثير لها بنفسها إلا إذا وافقت قدر الله تعالى، قال ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى» [رواه مسلم (٢٢٠٤)].

﴿وَإِنْ يُرْذَكِ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي: لا مانع ولا دافع لفضله، لأن إرادته سبحانه هي الغالبة النافذة.

﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يصيب بكلّ من الخير والضر من يشاء من عباده.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يغفر بالبلاء ويرحم بالعطاء، وهذا خاصّ بأهل الإيمان، قال ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ! إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» [رواه مسلم (٢٩٩)].

• الخلاصة:

وجاءت الآية قبل الأخيرة تلخّص كلّ ما سبق تقريره في السورة:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ببعثة الرسل وإنزال الكتب، فلا عذر لكم.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بالتصديق والقبول والإذعان.

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه وثوابه يعود عليها.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ واختار الكفر والفجور.

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال ضلاله وكفره على نفسه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: ما أنا مسؤول عنكم، إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩).

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بالامتثال والتبليغ.

﴿وَأَصْبِرْ﴾ على تبليغهم، وتحمل ما تلقاه منهم.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فينصرك عليهم، ويعزّ دينه، ويعلي كلمته.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

فما على الدعوة إلى الله تعالى إلا الاتباع والامتثال والاستمرار في الدعوة إلى الله تعالى، مهما طال الزمن، واشتدت المحن، واضعين نصب أعينهم هذا التوجيه الحكيم للنبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس].

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله ربّ العالمين.



فهرس الموضوعات

تفسير سورة الاعراف

أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الاعراف

- المقدمة ٥
- تمهيد: موضوع السورة ٧
- الفصل الأول: التكليف الجماعي والمسؤولية الفردية يوم القيامة ٩
 - الله أعلم بمراده وأسرار كتابه ٩
 - تسكين وتثبيت ١١
 - التكليف الجماعي ١٢
 - الإهلاك الجماعي ١٤
 - اعتراف متأخر ١٥
 - المسؤولية الشخصية ١٦
 - الإنسان والأرض ١٨
 - مفاتيح الرزق ١٩
 - التصوير والتكريم ٢٠
- الفصل الثاني: قصة الوجود البشري الأول وصراعه المستمر مع الشيطان .. ٢٣
 - الإنسان والشيطان ٢٣
 - قاطع الطريق ٢٥
 - التجربة والدّرس ٢٨
 - ظهور السوءة ٢٩
 - نقاط الضعف البشري ٣٠
 - المعصية وشؤمها ٣٢

- التوبة والمغفرة ٣٣
- الهبوط إلى الأرض والصراع ٣٤
- الاستقرار في الأرض ٣٥
- الفصل الثالث: النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم وما فيها من تقرير وتحذير ٣٧
- يا بني آدم ٣٩
- اللباس والزينة ٣٩
- جمال الظاهر والباطن ٤٠
- الكاسيات العاريات ٤١
- من صور الجاهلية قديماً وحديثاً ٤٣
- الوسطية والاعتدال ٤٤
- تحريم الإسراف ٤٦
- الأصل في الأشياء الإباحة ٤٨
- المحرمات ٤٩
- سنن إلهية ونواميس علوية ٥٠
- المسؤولية والجزاء ٥٢
- الحكم والتنفيذ ٥٤
- سقوط الأقنعة ٥٥
- حسرة ويأس ٥٧
- تقرير وترغيب ٥٩
- يوم الأذان ٦١
- أصحاب الأعراف ٦٢
- نظرة في وجوه أهل النار ٦٤
- نداء التذلل والاستجداء ٦٦
- الكتاب المفصل والشرعة الكاملة ٦٧
- الفصل الرابع: الخلق والأمر لله وحده واختلاف الاستعداد والقابلية عند الناس . ٧٠
- التدرج في الخلق ٧٠

- ٧٢ - سبيل الهدى
- ٧٣ - إبداع ونظام
- ٧٤ - التشريع لله وحده
- ٧٥ - الدعاء معُ العبادة
- ٧٦ - الفساد والتلوث
- ٧٧ - سبيل النجاة
- ٧٨ - الرياح المبشرات
- ٨٠ - القابلية والاستعداد

- ٨٢ • الفصل الخامس: صَفَحَاتٌ مِنَ التَّارِيخِ
- ٨٤ - القرآن الكريم والتاريخ
- ٨٦ - قوم نوح
- ٨٧ - استكبار وعناد
- ٨٩ - عاد قوم هود
- ٩٠ - قوة الأبدان والعضلات
- ٩٣ - ثمود قوم صالح
- ٩٥ - ضعف وقوة
- ٩٦ - وقفة على الأطلال
- ٩٨ - قوم لوط
- ٩٩ - الإسراف والشذوذ
- ١٠٠ - مطر من حجارة
- ١٠٢ - قوم شعيب
- ١٠٣ - التلاعب بالمقاييس
- ١٠٥ - الدعوة والحرية
- ١٠٧ - مصرع المستبدّين
- ١١٠ - أزمات ومنعطفات
- ١١١ - مؤشرات الهلاك والسقوط
- ١١٢ - ترغيب وتحذير

- تثبيت ومواثاة ١١٥
- الفصل السادس: مُوسَى وَفِرْعَوْنُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ ١١٧
- بنو إسرائيل في مصر ١١٨
- مهمة موسى ﷺ ١١٩
- المعجزتان ١٢٠
- المباراة ١٢٢
- هزيمة الباطل ١٢٤
- الشهداء البررة ١٢٦
- بطانة السوء ١٢٧
- المحنة ١٢٨
- الآيات المفصّلات ١٣١
- هلاك الطاغية وجنوده ١٣٣
- الفصل السابع: بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ ١٣٦
- جهل ونكران ١٣٩
- صعقة موسى ١٤١
- الشريعة والحضارة ١٤٤
- المعرضون عن الحق ١٤٦
- العَجَلُ الذهبي ١٤٨
- خيبة أمل ١٥٠
- ميقات التوبة ١٥٣
- بناء الحضارة الإنسانية ١٥٥
- النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ١٥٦
- من خصائص الشريعة الإسلامية ١٥٨
- الماء والغمام والمنّ والسَّلْوَى ١٦٠
- ظلمٌ وفسقٌ وفساد ١٦٢
- بلد الممسوخين ١٦٣

- الذَّلَّةُ والشَّتَاتُ ١٦٦
- غرور واستكبار ١٦٨
- ميثاق تحت الجبل ١٦٩
- الميثاق الأول والفطرة ١٧٠
- المنسلخون من الآيات ١٧٣
- اللاهثون وراء الشهوات ١٧٥

- الفصل الثامن: العَوْدَةُ إِلَى مَسَرِّحِ الْأَحْدَاثِ فِي مَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ ١٧٨
- أمة الحق والعدل ١٧٩
- الأسلوب الأمثل في التربية والدعوة ١٨١
- متى الساعة؟ ١٨٣
- النبي ﷺ وعلم الغيب ١٨٥
- الانحراف عن الفطرة ١٨٧
- حملة على الأصنام ١٩٠
- مجمع مكارم الأخلاق ١٩٢
- حِصْنٌ ووقايةٌ ١٩٣
- القرآن كتاب البصائر ١٩٥
- سجود التلاوة ١٩٦

تفسير سورة الأنفال

أسباب النَّصْرِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ

- المقدمة ١٩٩
- الفصل الأول: الْأَسْبَابُ الْمُبَاشِرَةُ لِلنَّصْرِ ٢٠١
- البداية مِنَ النِّهَايَةِ ٢٠٢
- إصلاح ذات اليمين ٢٠٤
- بين الخوف والرجاء ٢٠٦
- المؤمنون حقاً ٢٠٨

- ٢٠٩ - الإخراج من المدينة
- ٢١٠ - المجادلة في الحق
- ٢١٣ - العير أو النفير
- ٢١٤ - الدعاء عند اللقاء
- ٢١٦ - البشارة بالنصر
- ٢١٧ - النوم في الميدان
- ٢١٩ - مهمة الملائكة في بدر
- ٢٢٢ - الثبات عند الضربة الأولى
- ٢٢٥ - المعركة
- ٢٢٦ - تأديب المنتصرين
- ٢٢٩ • الفصل الثاني: الأسباب غير المباشرة للنَّصر
- ٢٣٠ - طاعة الله ورسوله ﷺ
- ٢٣٣ - الحياة والجهاد
- ٢٣٥ - التحذير من الفتن
- ٢٣٧ - مأوى المجاهدين
- ٢٣٨ - التحذير من الخيانة
- ٢٤٠ - المؤامرة
- ٢٤٢ - عناد واستكبار
- ٢٤٣ - الأمانان
- ٢٤٤ - ولاية المسجد الحرام
- ٢٤٦ - التمييز بين الخيِّث والطَّيِّب
- ٢٤٨ - الإسلام يُجِبُّ ما قبله
- ٢٤٩ - الاستمرار في الجهاد
- ٢٥٠ - الغنيمة والفِيء
- ٢٥٢ - يوم الفرقان
- ٢٥٦ • الفصل الثالث: التَّحذِيرُ مِنْ أَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ
- ٢٥٧ - التنازع والاختلاف

- ٢٥٩ التحذير من التكبر والطغيان
- ٢٦٠ التحذير من وساوس الشيطان ومكره
- ٢٦١ التحذير من المنافقين وإشاعاتهم الكاذبة
- ٢٦٣ في غمرات الموت
- ٢٦٤ من تاريخ الطغاة والمكذبين
- ٢٦٥ أسباب زوال النعم
- ٢٦٧ التحذير من الغدر ونقض العهد
- ٢٦٨ الخدعة في الحرب لا في العهد
- ٢٧١ إعداد قوة الرمي والهجوم
- ٢٧٣ القوة الاقتصادية
- ٢٧٤ الإسلام والسلام
- ٢٧٥ الوحدة بعد الفرقة
- ٢٧٧ القوة بعد الضعف
- ٢٨٠ التحذير من الانشغال بالأسرى
- ٢٨٣ فداء ووفاء
- ٢٨٥ التحذير من موالاتة الكافرين
- ٢٨٧ فتنة وفساد
- ٢٨٨ فضيلة السابقين

تفسير سورة التوبة

البلاغ الأخير في سورة التوبة

- ٢٩١ المقدمة
- ٢٩٣ تمهيد: موضوع السورة
- ٢٩٥ الفصل الأول: براءة وجهاد
- ٢٩٦ البراءة
- ٢٩٨ السياحة
- ٢٩٩ الشهور الأربعة

- الأذان يوم الحج الأكبر ٣٠٠
- آية السيف ٣٠٢
- تبليغ الدعوة ٣٠٣
- مصالح ومبادئ ٣٠٦
- الباب المفتوح ٣٠٨
- أئمة الكفر والضلال ٣٠٩
- الحضر على الجهاد ٣١١
- الابتلاء بالجهاد والبراءة ٣١٣
- عمارة المسجد الحرام والأقصى ٣١٤
- الجهاد والعبادة في المسجد الحرام ٣١٦
- ولاء وحُب ٣١٩
- يوم حنين ٣٢٢
- الإعجاب بالكثرة ٣٢٤
- تعظيم بيت الله الحرام ٣٢٦
- الفصل الثاني: أهل الكتاب عقائدهم وفضائح أخبارهم ورهبانهم ٣٢٩
- تمهيد ٣٣٠
- مشروعية الجزية وحقيقتها ٣٣٠
- شرك أهل الكتاب ٣٣٢
- عبادة أهل الكتاب للأحبار والرهبان ٣٣٣
- معارضة الأحبار والرهبان لدعوة الإسلام ٣٣٥
- من فضائح الأحبار والرهبان ٣٣٦
- العابثون بالأشهر الحرم ٣٣٩
- غزوة تبوك ٣٤١
- النفير العام ٣٤٣
- في الغار ٣٤٥
- تلبية الدعوة ٣٤٧

- الفصل الثالث: المنافقون وكيفيَّة تطهير المُجتمع من مَكْرِهِم وَكَيْدِهِم ٣٥٠
- توبيخ المتشاكليين ٣٥٣
- شهادة ربانية ٣٥٤
- المسارعون إلى الفتن ٣٥٦
- أعذار واهية ٣٥٨
- حسد وشماتة ٣٥٩
- نفقة مردودة ٣٦١
- المعذَّبون في الدنيا وللآخرة ٣٦٣
- الانتماء والغرباء ٣٦٤
- أهم أسباب النفاق ٣٦٦
- مصارف الزكاة ٣٦٧
- أذن الخير ٣٦٩
- مطايا المنافقين ٣٧٢
- الفاضحة ٣٧٣
- اختلال الموازين وانعكاس القيم ٣٧٥
- المنافقون والمستغربون ٣٧٧
- مقارنة ٣٧٨
- المنافقون كذَّابون ٣٨١
- المنافقون انتهازيون وصوليون ٣٨٢
- اللَّمَّازون ٣٨٣
- الضاحكون قليلاً والباكون كثيراً ٣٨٥
- إسقاط وحرمان ٣٨٦
- البَحْوث والمنقَّرة ٣٩٠
- الأعذار المشروعة للتخلُّف عن الجهاد ٣٩١
- دموع خالدة ٣٩٢
- الفصل الرابع: مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ تَبَوُّكِ تَحْذِيرَاتٍ وَإِرْشَادَاتٍ ٣٩٥
- تحذير المؤمنين من خداع المنافقين ٣٩٧

- ٣٩٩ - جهل وجفاء
- ٤٠٠ - شهادة وبشارة
- ٤٠١ - فضيلة السابقين
- ٤٠٣ - شرط الإحسان
- ٤٠٤ - فن النفاق
- ٤٠٦ - التوبة عن النفاق
- ٤٠٨ - الزكاة طهارة ونماء
- ٤١٠ - الحث على التوبة والصدقة
- ٤١١ - الحرص على السمعة الحسنة
- ٤١٢ - المتخلفون الثلاثة من المؤمنين
- ٤١٦ - مسجد الضرار
- ٤١٨ - المسجد المؤسس على التقوى
- ٤١٩ - الأساس المحكم
- ٤٢١ - تجارة رابحة
- ٤٢٢ - ربح البيع
- ٤٢٣ - صفات المؤمنين
- ٤٢٥ - تحريم الاستغفار للمشركين
- ٤٢٧ - ساعة العسرة
- ٤٢٩ - التوبة
- ٤٣١ - كونوا مع الصادقين
- ٤٣٣ - يا جيران رسول الله ﷺ
- ٤٣٥ - مراعاة المصالح العامة كلها
- ٤٣٧ - خطة مدروسة
- ٤٣٩ - الكلمة الأخيرة
- ٤٤١ - الختم والطابع

تفسير سورة يونس

الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس

- المقدمة ٤٤٥
- تمهيد: موضوع السورة ٤٤٨
- أولاً: التقدير ٤٤٨
- ثانياً: قدم صفاته سبحانه ٤٤٨
- ثالثاً: التكليف ٤٤٩
- رابعاً: إرادة المكلف واختياره ٤٥٠
- خامساً: أفعال المكلف واتصالها بالقضاء والقدر ٤٥٠
- سادساً: التوفيق بين النصوص ٤٥٢
- الفصل الأول: ضرورة الوحي وصلته بالتقدير ٤٥٤
- هذه الحروف المقطعة ٤٥٥
- الكتاب الحكيم ٤٥٦
- التعجب من نزول الوحي ٤٥٧
- قدم الصدق ٤٥٨
- الأيام الستة ٤٥٩
- ثم استوى على العرش ٤٦٠
- التقدير والتدبير ٤٦١
- أهمية الإيمان بالقضاء والقدر ٤٦٢
- الشمس المضيئة والقمر المنير ٤٦٤
- العلم والتقوى ٤٦٦
- المطمئنون بالدنيا ٤٦٧
- الواصلون إلى الجنة ٤٦٨
- المستعجلون للعذاب ٤٦٩
- من حقائق النفس البشرية ٤٧٠
- جزاء المجرمين ٤٧١

- الفصل الثاني: مَوَاقِف ٤٧٣
- القرآن والنبي ﷺ ٤٧٤
- حقيقة القرآن الكريم ٤٧٥
- الصادق الأمين ٤٧٦
- توبيخ واستنكار ٤٧٧
- اقتراح المعجزات ٤٧٨
- من الآداب القرآنية ٤٧٩
- الله أسرع مكرراً ٤٨٠
- بين الأمواج العاتية ٤٨١
- البغي في الأرض ٤٨٢
- حقيقة الحياة الدنيا ٤٨٣
- الدعوة إلى دار السلام ٤٨٥
- الهداية الخاصة ٤٨٦
- الحسنى والزيادة ٤٨٧
- رؤية الله تعالى يوم القيامة ٤٨٨
- ترغيب وترهيب ٤٨٩
- الطاعة والعبادة ٤٩٠
- أمل خائب ٤٩١
- الفصل الثالث: حُجَجٌ وَمُؤَيَّدَاتٌ لِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ ٤٩٣
- الحجج الثلاث ٤٩٤
- الحججة الأولى: التدبير والتقدير ٤٩٤
- في أجسامنا ٤٩٥
- من يدبّر الأمر ٤٩٦
- أفلا تتقون ٤٩٧
- الحججة الثانية: بدء الخلق وإعادته ٤٩٨
- الحججة الثالثة: الهداية ٤٩٩
- العقائد لا تُبنى على الظن ٥٠١

- إعجاز القرآن الكريم ٥٠٢
- في ميدان التحدي ٥٠٣
- مقدار التحدي ٥٠٤
- المغيِّبات في القرآن الكريم ٥٠٥
- التبرؤ من المفسدين ٥٠٦
- من أسباب الهداية ٥٠٧
- المعرضون عن الهداية ٥٠٩
- الخسارة الكبرى ٥١٠
- الانتقام العاجل والآجل ٥١٠
- الآجال المقدَّرة ٥١١
- إيمان البأس واليأس ٥١٢
- حيرة وقلق ٥١٣

• الفصل الرابع: أحوال السَّعْدَاءِ والأَشْقِيَاءِ ٥١٦

- أسباب السعادة ٥١٩
- الفرح بفضل الله ورحمته ٥٢٠
- حاجة الناس إلى الشريعة الإسلامية ٥٢١
- كمال علم الله تعالى ٥٢٢
- السعداء أولياء الله تعالى ٥٢٤
- صفاتهم ٥٢٦
- الرؤيا الصالحة ٥٢٧
- الأشقياء ٥٢٨
- الكذبة الكبرى ٥٣٠
- الإنذار الأخير ٥٣١
- الجناة على أنفسهم ٥٣٣
- الطبع على القلوب ٥٣٤
- فرعون وملؤه ٥٣٥
- المحنة ٥٣٨

- ٥٣٩ - الكيس والعجز
- ٥٤١ - الدعوة المستجابة
- ٥٤٢ - الرضا بالكفر كفر
- ٥٤٣ - طريق بين الأمواج
- ٥٤٤ - أدركه الغرق
- ٥٤٥ - لا نجاه لفرعون من العذاب
- ٥٤٦ - ماذا يبقى من الإنسان إذا تجرّد عن اختياره؟! ..
- ٥٤٨ - التفاتة رائعة
- ٥٤٩ - كلمة ربك
- ٥٥٠ - قوم يونس
- ٥٥٢ - لا إكراه في الدين
- ٥٥٤ - ميادين البحث والنظر
- ٥٥٥ - إعلان
- ٥٥٦ - النفع والضرر من القدر
- ٥٥٧ - من آثار الإيمان بالقدر
- ٥٥٧ - يا كاشف الضر
- ٥٥٨ - الخلاصة
- ٥٦١ • فهرس الموضوعات



التفسير الموضوعي لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

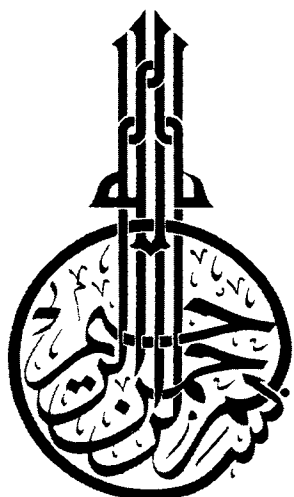
تأليف
عبد الحميد محمود طه

المجلد الرابع

ويحتوي على تفسير هذه السور

هـود - يوسف - الرعد - إبراهيم - الحجر - النحل - الإسراء

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أَسَّسَهَا:
مَحْمَدُ بْنُ وَوَلَدٍ
سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245



تفسير سورة هود المَسْؤُولِيَّةُ وَالْجَزَاءُ فِي سُورَةِ هُودَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد: فإنّ سلوك الإنسان في حياته ينبع من نظرته إلى الحياة، ومدى إدراكه لحكمة خلقه وجوهر وجوده فيها.

ولابدّ للمؤمن بالله تعالى أن يرى الحياة دارَ اختبار وتكليف، وأنه مسؤولٌ عنها أمام الله تعالى، لأنّه سبحانه عليم حكيمٌ، ينتزّه عن العبث واللعب، فما خلق الخلق وجعله على هذا النظام المحكم البديع للعبث واللعب، ما خلقهم سبحانه إلا بالحق، ليؤدوا رسالةً كلّفهم بها، ويعمّروا الأرض بطاعته وعبادته.

وإنّ انصراف أكثر الناس عن هذه العقيدة، وتجاهلهم لهذه الحقيقة، هو السبب الرئيس لكلّ شقاء وفساد وبغي في الأرض، فالحياة من دون تكليف ومسؤولية حياةٌ تافهةٌ فارغةٌ لا تُطاق، تورث الإنسان الشعور بالإحباط والسامة والملل، وقد تدفعه إما إلى اليأس والحيرة، أو إلى الإجرام والظلم والبغي والعدوان، وهو واقعٌ أكثر الناس في ظل الحضارة المادية المعاصرة، التي أقيمت على عدم الشعور بالمسؤولية أمام الخالق العظيم، وعدم الالتزام بأحكام دينه وشريعته.

إنَّ تعريفَ الناسِ بمسؤوليتهم أمام خالقهم من أعظم القضايا التي اهتم بها القرآن الكريم، بعد قضية توحيد الحق سبحانه، وقلَّ أن تمرَّ بنا سورة من سور القرآن الكريم، إلا ونرى فيها تقريراً لهذه المسؤولية، أو دعوة للتصديق بها، أو ردّاً على الجاحدين لها.

وقد برز هذا الموضوع في سورة هود، كموضوع أساس لها، دارت معظم آياتها في فلكه، فجاءت بحق سورة المسؤولية والجزاء.

ولا عجب أن ترى النبي ﷺ، وهو أعظمُ الناس معرفة بالله تعالى وخشية له، أكثر الناس تقديراً لهذه المسؤولية، حتى روي عنه من طرق متعددة: أنَّه لما رَوَى الشيب في رأسه الشريف ﷺ وقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: عَجَلَ إِلَيْكَ الشَيْبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قال: «شَيْبَتَنِي هُوْدٌ، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت» [رواه الترمذي (٣٢٩٣)].

إنَّ الناسَ في هذا العصر في أمسِّ الحاجة إلى التصديق والإقرار بالمسؤولية والجزاء، فهي السبيل الوحيد لصقل نفوسهم، وتقويم سلوكهم، وتعريفهم بقيمة حياتهم، وجوهر وجودهم، وإبعاد الحيرة والقلق والاضطراب عن نفوسهم وقلوبهم الحائرة القلقة المضطربة، إنها برُّ الأمان، وسُلم النجاة، لأولئك الحائرين الشاردين التائهين، الذين أفرزتهم الحضارة المادية المعاصرة، وضيعتهم الفلسفات الوجودية الفارغة، فما أحوجهم إلى مثل هذا التوجيه.

وقد جاء هذا التفسير - بحمد الله - في ثلاثة فصول، منسجمة تماماً مع سياق الآيات في السورة:

- الفصل الأول: التكليف والمسؤولية.
 - الفصل الثاني: قصص من التاريخ.
 - الفصل الثالث: الاستقامة على التكليف والتحذير من الظلم.
- أسأل الله تعالى أن يثبِّتنا على الحق، وينور قلوبنا بأنوار التنزيل الحكيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



قَهِيد

موضوع السورة

الناسُ في سورة هود فريقان :

أولهما : الفريق المؤمن بالله تعالى ، الذي يرى أنَّ حياته في الدنيا للابتلاء والتكليف ، وأنَّه مسؤول عنها أمام الله تعالى يوم القيامة ، فمثابٌ أو معاقبٌ .

والفريق الثاني : كافرٌ بالله تعالى ، جاحدٌ لفضله وإحسانه ، سلخ نفسه عن الشعور بأي تكليف ومسؤولية ، والحياة في نظره لا قيمة لها ولا معنى ، سوى أنها فرصةٌ يُحقِّق فيها أهواءه ونزواته ، ثم تنتهي كما انتهت حياة مَنْ سبقه .

ولا شكَّ أن بين الفريقين تبايناً كبيراً في الاعتقاد والأخلاق والسلوك والمعاملات ، ومنشأ هذا التباين : الاختلاف الكبير بينهما في النظر إلى الحياة .

فالمؤمن : ملتزمٌ بدين الله وشرعه ، متَّبِعٌ لرسالة أنبيائه ، إن أصابته ضرأٌ صبر ، ولجأ إلى الله تعالى ، وإن أصابته سرأٌ شكر ، وظلَّ ملتزماً بمنهج الاستقامة .

أما الكافر : فهُمَّة قاصرٌ على الدنيا وما فيها من زينة وبهارج وزخارف ، يُؤوسُ في الضرأ ، وبَطِرُ فخورٌ في السراء : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كُفُورًا ﴾ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرَأٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود] .

فشتان ما بين الحياتين ، حياة أساسها التكليف والمسؤولية ، وحياة لا أساس لها ولا هدف ، فمثل ما بين الفريقين من تباين كما بين البصير والأعمى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا نَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٢٤] .

ثم أوردت السورة بعض قصص الأنبياء مع أممهم ، إظهاراً للتباين بين

الفريقين بشواهد من واقع الحياة البشرية على الأرض، وأظهرت من خلال عرضها لهذه القصص طبيعة هذه المسؤولية وأبعادها، ومدى تأثيرها على استمرار الحياة البشرية وبقاء العمران.

ثم أبرزت فيما عَقِبَتْ به على قصص الأنبياء مع أممهم، حجمَ وعُمُقَ الجزاء المترتب على هذه المسؤولية، وأنه سيكون وافياً، وأنه يبدأ من الدنيا، ويمتدُّ إلى الآخرة، وأنه لا يستفيدُ من هذه القصص، ولا يعتبرُ بها إلا الذين يؤمنون بمسؤوليتهم عن الحياة الدنيا أمام الله يوم القيامة.

كما أن الانسلاخَ عن هذه المسؤولية يؤدي إلى نشر الفساد والترف والظلم في المجتمعات البشرية، ثم يؤدي بها إلى السقوط والهلاك.

والناس كما كانوا في الدنيا فريقين، سيكونون يوم المسؤولية والجزاء فريقين أيضاً: الأشقياء والسعداء، وسيكون مصيرهما متبايناً تبايناً جذرياً.

فموضوع المسؤولية والجزاء يظلُّ آيات السورة من أولها، عندما أبرزت جانب الإنذار في رسالات الأنبياء، إلى آخرها عندما تحدثت عن مصير السعداء والأشقياء يوم القيامة.



الْفُضْلُ الْإِلَهِيُّ

التَّكْلِيفُ وَالْمَسْئُورِيَّةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ
وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَفْهَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ يُعْصِبْكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ
فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾
أَلَّا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ
بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ
أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكُفُورٍ ﴿٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا
الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا
يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ
نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأَنزِلُوا بَعْشَرَ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَزِينَ
وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ
بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ

إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَنْبَعٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحِمَهُ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ. مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْأَنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ .

• إِحْكَامٌ وَتَفْصِيلٌ:

بدأ ﴿سُورَةُ هُودٍ﴾ كما بدأ من قبلها سورة يونس، ومن بعدها سورة يوسف، بالحروف المقطعة، بقوله الكريم:

﴿الرَّ كُنْتُ أَحْكَمْتَ ءَايَتُهُمْ ثُمَّ فَصَلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾﴾ .

﴿الرَّ﴾ وهي من الحروف النورانية المقطعة، التي سبق الكلام عليها في أول سور: البقرة وآل عمران والأعراف.

﴿كُنْتُ﴾ أي: هذا كتاب، أو هو كتاب عظيم الشأن، جليل القدر.

﴿أَحْكَمْتَ ءَايَتُهُمْ﴾ أي: نُظِّمْتُ نَظْمًا مُتَقَنًّا مُتَنَاسِقًا مُحْكَمًا جَمِيلًا، كالبناء

المحكم، الذي لا خلل فيه ولا نقص، فلا اختلاف بينها ولا تعارض ولا تناقض، فكل كلمة فيها في موضعها المناسب لها، والمنسجمة تمامًا مع ما قبلها

وما بعدها، وكلُّ حرفٍ له دلالة ووقعه وجَرَسُه، بلا زيادة فيها ولا نقص، وكل آية في موضعها المناسب لها في السورة، مما يجعلها تنسجم تماماً مع سياقها وسباقها ومعناها.

وهي محكمة أيضاً في معانيها البليغة، وحججها القاطعة، الدالة على أنها كلام الله تعالى، فإحكامها في نظمها ومعانيها.

والإحكام في القرآن الكريم كامل في حروفه وكلماته وآياته وسوره، وهو إحكامٌ معجز، يدلُّ على أنه كلام الحكيم العليم جلَّ وعلا، كما قال تعالى في أول سورة يونس: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

وكقوله ﷺ أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَإِنَّهُ لَكُنْزٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ].

وجاءت آياتُ القرآن الكريم محكمة، مع أنها نزلت منجّمةً على مدى ثلاث وعشرين سنة، نزلت أحياناً الآية أو بعضها، أو الآيات من السورة، أو السورة كاملة، على حسب الوقائع والمناسبات، فما أعظم إحكامه، فهو محكمٌ في الأرض بعد التنزيل، كما أنه محكمٌ في السماء.

وفي القرآن الكريم إحكام باهر معجز أيضاً، مع أن فيه تأصيلاً وتفصيلاً، فتأصيل القواعد والمبادئ، وتفصيل الأحكام وتفريعها، لم يؤثر في الكتاب الكريم على إتقانه وإحكامه وانسجامه، ولهذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: جُعِلَتْ مَفْصَلَةً، مشتملةً على كل ما يحتاج إليه الإنسان في دينه، ففيه بيان العقيدة الصحيحة مع أدلتها العقلية والنقلية، وبيان العبادات والأحكام وسائر التكاليفات، فضلاً عما فيه من أخبار الأمم السابقة، والأمثال والحكم والمواعظ، وما سيكون في الحشر والمعاد... إلخ، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقد يكون المراد من التفصيل نزول القرآن منجماً، ف ﴿ثُمَّ﴾ على هذا المعنى تفيدُ الترتيب الزمني، وقدّمنا أن نزوله منجماً لم يؤثر على إحكامه وإتقانه، لأنه:

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: أحكم آياته حكيمٌ وفصلها خبيرٌ، عالم بحقائق الأمور جلّ وعلا.

• نذارة وبشارة:

وفي هذا الإحكام والتفصيل دعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، والانقياد لدينه سبحانه وشرعه، واتباع رسله:

﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لثلاثا تعبدوا إلّا الله، فتقبلوا على عبادته وحده، وتعرضوا عن عبادة غيره.

﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إني لكم من جهته تعالى نذير، أنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من كفر وشرك وعبادة غيره سبحانه.

وبشير أبشركم برحمته وثوابه إن آمنتُم به وحده، وتمسكتُم بدينه وشرعه.

فأنتم مسؤولون أمامه جلّ وعلا، ومحاسبون عن أعمالكم في حياتكم، والله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولن يترككم سدى، ولهذا أرسلني إليكم نذيراً وبشيراً، وهو القائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم [المؤمنون].

والقائل أيضاً: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ طِفْلاً مِّن مَّيِّ يُمَتَّى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ نَسَوًى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدَرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ [القيامة].

• استغفار وتوبة:

فاعقبوا دعوة الله تعالى وأسلموا له، وادخلوا في دينه، واسألوه أن يغفر لكم ما سلف منكم من آثام وخطايا، مع التوبة عنها وتركها والندم على فعلها:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (٣).

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اسأله مغفرة ما مضى من ذنوبكم.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ثم توبوا إلى الله في المستقبل، بالندم على ما فات، والإقلاع في الحال، والعزم على عدم العود في المستقبل، فلا يقال: إن الاستغفار هو التوبة، بل بينهما تباين^(١).

وأصل معنى الاستغفار: طلب الغفر، أي: الستر، ومعنى التوبة: الرجوع، ويطلق الأول على طلب ستر الذنب من الله تعالى والعفو عنه، والثاني على الندم عليه مع العزم على عدم العودة إليه، والقلب يميل فيه إلى حمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة والاستمرار عليها^(٢).

﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أي: يمتعكم في الدنيا بحياة طيبة حسنة، فمن عبد الله وحده وتاب من ذنوبه، عاش في أمن وراحة ورضا نفس، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح].

وسياتي معنا قول هود لقومه: ﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وإن ضيقت عليه الدنيا أحياناً، فهو ابتلاء من الله تعالى لتكفير سيئاته ورفع درجاته، وتبقى حياته مع ذلك طيبة، لأنه يرجو الله تعالى ويتقرب إليه ويرضى بما قدره له.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الموت.

(١) الصاوي على الجلالين: ١٩٣/٢.

(٢) روح المعاني: ٢٠٧/١١.

فألطافه سبحانه تحفُّ بكم، وعنايته تحوطكم طول حياتكم، حتى تنتهي بالموت آجالكم، إن أخلصتم في عبادته تعالى وطاعته والتوبة إليه .
ودلَّت الآية على أن منافع الدنيا صغيرة خسيصة منقضية، ولهذا سمّاها بالمتاع .

• تقرير المسؤولية:

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ أي: في الطاعة والعمل الصالح .

﴿فَضْلُهُ﴾ أي: جزاء فضله، إمّا في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، فلا يضيع عنده تعالى شيء أبداً، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فاستكثروا من الأعمال الصالحة، وتنافسوا في تحصيلها، فإنَّ التنافس في الطاعات عمل مبرور مشكور، حثَّنّا عليه سبحانه فقال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد جاء في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص ﷺ: «ومهما أنفقت فهو لك صدقة، حتّى اللقمة ترفعها في في (فم) امرأتك» [رواه البخاري (٥٣٥٤)].

وعن ابن مسعود ﷺ في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ قال: مَنْ عَمِلَ سيئةً كُتِبَتْ عليه سيئةٌ، ومن عمل حسنةً كُتِبَتْ له عشرُ حسناتٍ، فإنَّ عُوقِبَ بالسيئة التي كانَ عَمَلُهَا في الدنيا بقيتْ له عشرُ حسناتٍ، وإنَّ لَمْ يَعاقَبْ بها في الدُّنيا أخذَ مِنَ الحسناتِ العشرِ واحدةً، وبقيتْ له تسعُ حسناتٍ، ثم يقول: هلكَ مَنْ غلبَ آحادُهُ أعشارَهُ^(١). أي: هلك من كانت سيئاته أكثر من حسناته بعشرة أضعاف .

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تُعرِضُوا عن الإيمان، وتصرُّوا على الكفر. وأصلها: تتولوا.

﴿فَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكَ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء.
وقد وصفه تعالى في موضع آخر بالعظيم، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين].
فيوم المسؤولية والجزاء يوم كبير وعظيم، أكدّه تعالى أيضاً بقوله:

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: إلى حكمه وأمره مرجعكم يوم القيامة، فلا مفرّ لكم منه، ولا رجوع لكم إلى غيره تعالى.
﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يستعصي على قدرته شيء من الممكنات، فهو تعالى قادر على موتكم وإحيائكم وبعثكم من قبوركم، وحشركم وحسابكم وجزائكم.
● كمال علمه تعالى:

هكذا أوصلت الآيات إليهم دعوة الله تعالى، على لسان النبي ﷺ، وقرّرت مسؤوليتهم عن أعمالهم، وأظهرت شفقتة عليه الصلاة والسلام عليهم من هذه المسؤولية، وما يترتب عليها يوم القيامة من حساب وجزاء، ومع هذه الدعوة المشوبة بالشفقة عليهم، أعرضوا عنها وأصرّوا على كفرهم وفجورهم:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر، مستمرّين على ما كانوا عليه من التولي والإعراض، فإنّ من أعرض عن شيء ثنى عنه صدره.

﴿لِیَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي: ليبقى ما في صدورهم مخفياً عن الله تعالى.
ولعلّ نص الآية إنما يصوّر حالة واقعة كانت تصدر عن المشركين، ورسول الله ﷺ يُسْمِعُهُمْ كلام الله تعالى، فيثنون صدورهم، ويطأطئون رؤوسهم

استخفاء من الله، الذي كانوا يحسُّون في أعماقهم أنه هو قائلُ هذا الكلام، وذلك كان يظهر منهم في بعض الأحيان^(١).

لكنه سبحانه يعلم السرَّ وأخفى، فلا يخفون عليه ﷻ في جميع أحوالهم: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: حين يغطون أنفسهم بثيابهم للنوم، وكثيراً ما يحدث الإنسان نفسه في هذا الوقت، وتمرُّ به الخواطر والهواجس. ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يستوي بالنسبة إلى علمه تعالى سرهم وعلايتهم.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهو تعليل لما سبق وتقرير له، فهو سبحانه يعلم ما في صدورهم وقلوبهم من الخواطر والهواجس، لا يخفى عليه شيء منها، وكيف يخفى عنه ما يسرون وما يعلنون. وقد وسَّعَ علمه تعالى كلَّ شيء من مخلوقاته، فهو ليس قاصراً عليهم، ولهذا قال تعالى يبين كمال علمه ورحمته وإحسانه على خلقه:

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ والدابة كلُّ ما يدبُّ على الأرض، أي يمشي عليها ويسير، فشملت جميع الدواب عاقلةً وغير عاقلة، فما مِنْ مخلوقٍ يدبُّ على الأرض إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه.

وتستعمل كلمة ﴿عَلَى﴾ للوجوب، فهو كالواجب عليه تعالى بحسب الوعد والفضل والإحسان، والمراد أنه تعالى التزم به، وتكفل به التزاماً لا يتخلف، ففي الحقيقة ﴿عَلَى﴾ بمعنى: من، وجاء التعبير بـ ﴿عَلَى﴾ ليزداد العبد ثقة بربه وتوكلاً عليه، وإن أخذ بالأسباب فلا يعتَمِدُ عليها، بل يثق بالله تعالى ويعتمد

(١) في ظلال القرآن: ٥١٤/١٢.

عليه، وليكن أخذه بالأسباب امثالاً لأمره تعالى^(١)، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: موضع قرارها في الأصلاب.

﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: موضعها في الأرحام.

قال العلامة الألوسي رحمته الله: «المنطفة بالنسبة إلى الأصلاب في حيزها الطبيعي ومنشئها الخلقى، وأما بالنسبة إلى الأرحام فهي مودعة فيها إلى وقت معين»^(٢).

وفي هذا إشارة إلى حقيقة علمية في علوم تكوين الجنين، ترى أن الخلايا الجنسية الابتدائية تشتق من جدار الحويصل المُحِّي، ثم تهاجر وتنتقل إلى الغُدِّ الجنسي الآخذة بالتكوُّن في ظهر المخلوق الجديد، ثم تتكاثر فيها، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]^(٣).

فَعَلَّمَهُ تَعَالَى مَحِيطٌ بِأَحْوَالِ مَخْلُوقَاتِهِ كُلِّهَا، مِنْ بَدَايَةِ خَلْقِهَا، وَفِي أَثْنَاءِ تَقْلِبَاتِهَا وَأَطْوَارِهَا، وَيُوصِلُ إِلَيْهَا الرِّزْقَ عَلَى حَسَبِ الْأَحْوَالِ وَالْأَطْوَارِ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا.

﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كل ما ذكر في كتاب مبين، هو اللوح المحفوظ، ففيه جميع أرزاق الدواب وأمكنتها وأزمنتها وأحوالها، وهذا من

(١) الصاوي على الجلالين: ١٩٤/٢.

(٢) روح المعاني: ١٢/٣.

(٣) انظر: تفسير سورة الأنعام، الوارد في هذا التفسير الموضوعي الكبير تحت عنوان: (بصائر الحق في سورة الأنعام).

باهر قدرته تعالى، لزيادة طمأنينة العبد بربه، ومراجعة الملائكة الموكلين بالأرزاق، لا خوفاً من نسيانه، إذ هو مستحيل عليه^(١).

فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

• الخلق والابتلاء بالتكليف:

وبعد أن بينت الآيات كمال علمه تعالى، بينت كمال قدرته:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَنتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: خلق سبحانه السموات والأرض وما فيهن في ستة أوقات، ولم يخلقهن دفعة واحدة في وقت واحد، مع قدرته التامة على ذلك. والمراد باليوم الوقت مطلقاً، لا اليوم المتعارف. ودلّ الخلق المتدرج على أنه تعالى خلق الخلق بمحض إرادته ومشيئته وبقدرته.

وقد فصل تعالى مراحل الخلق في سورة فصلت فقال: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَنَكْفُرَنَّ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَنَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ (٢) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (٣) فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٤)﴾.

(١) الصاوي على الجلالين: ١٩٤/٢.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ أي: كان عرشه قبل خلقهما على الماء.

وهو دليل على أن خلق العرش والماء قبل خلق السموات والأرض.

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. قال: وعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» [رواه مسلم (٢٦٥٣)].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ» قَالُوا: بِشْرَتَنَا فَأَعْطِنَا، فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ» قَالُوا: قَبِلْنَا، جَنَّاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ؟ قَالَ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ» [رواه البخاري (٧٤١٨)].

﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق الله السموات والأرض وما فيهما، ورَتَّبَ فيهما كل ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم، وسَخَّرَهَا لَكُمْ، لِيُخْتَبِرَكُمْ بِالتَّكْلِيفِ، وَيُظْهَرَ الْمُحْسَنَ مِنْكُمْ وَالْمُسِيءَ، وَيُمَيِّزَ بَيْنَ الْمَطِيعِ وَالْعَاصِي. ولم يقل: أكثر عملاً، بل قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله ﷻ، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقدَ العملُ واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل (١).

فما خلق الله الخلق عبثاً ولا لعباً، يتنزه تعالى عن ذلك، وقد نفاه تعالى في عدد من الآيات، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان].

وبين تعالى في آيات كثيرة أنَّ الابتلاء بالتكليف هو حكمة الخلق؛ منها قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالتكليف والمسؤولية عنه والجزاء أساس وجود الإنسان وخلقته، وهو أيضاً أساس خلق المكونات كلها، وإنكار الإنسان لهذه الحقيقة، ومحاولته الانسلاخ عن الشعور بالمسؤولية، إنكار لجوهر وجوده وحكمة خلقه، وانتكاس عن مرتبة التكليف والتشريف التي ميزه الله بها عن الحيوان.

• إنكار واستهزاء:

ولهذا أوردت الآيات بعد ذلك أقوال المنكرين للبعث والحساب والجزاء، بأسلوب التعجيب:

﴿وَلَيْنَ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ أي: إن واجهتهم بالحقيقة الكبرى التي هي سر وجودهم وحكمة خلقهم، وأنهم مبعوثون بعد الموت للمسؤولية والجزاء.

﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: لكان منهم انصراف عن مواجهة الحقيقة وتغافل عنها، إلى تكذيب الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ووصف القرآن الكريم بأنه سحر مبين.

فقد ألفت القوم الحياة التافهة الفارغة، الخالية عن الشعور بالمسؤولية، ولا يريدون أن يسمعو من يذكّرهم بقيمة حياتهم وجوهر وجودهم، ويرفعهم عن المستوى الهابط الذي انتكسوا إليه وأدمنوا عليه.

وزاد في غرورهم وغفلتهم إمهالهم وتأخير العذاب عنهم، مع أنَّ إمهالهم من رحمته تعالى بهم، لعلمهم ينتبهون من غفلتهم ويصحون من سكرتهم.

﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أُمَّةً مَعْدُودَةً لَيَقُولُنَّ مَا يَحِسُّهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [٨].

﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَّا أُمَّةً مَعْدُودَةً﴾ أي: إلى أمد محدود وأجل مسمى.

فكلمة «الأمة» تستعمل في القرآن والسُّنة في معان متعددة، فيراد بها الأمد، كقوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِلَّا أُمَّةٌ مَّعْدُودَةٌ﴾، وقوله أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وتستعمل في الجماعة كقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

وتستعمل أيضاً في الملة والدين، كقوله تعالى إخباراً عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٢٢] (١).

﴿يَقُولُونَ مَا يَحْسِبُهُ﴾ أي: ما يؤخر هذا العذاب عنا؟! وأي شيء يمنعنا؟! يقولون ذلك استعجالاً للعذاب على وجه الاستهزاء والتكذيب.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أي: عندما يأتيهم في الأجل المحدد له، لا يرفعه عنهم رافع، ولا يدفعه دافع، فلا مناص لهم منه، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج].

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاء وتكديماً، وعبر عن وقوعه بالماضي لتأكيد وقوعه وتحققه.

• يأس وكفران:

ثم بيّنت الآيات كيف يكون حالهم عند نزول العذاب بهم، وذلك بشرح أحوال الإنسان النفسية عندما تنزل به غير الزمان، ويواجه صروفه وتقلباته، وما دامت حياة الإنسان حياة ابتلاء واختبار، فهي لا تسير على وتيرة واحدة:

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كَافُورٌ﴾ ﴿٩﴾.

﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ أي: نعمة، كصحة وسعة وأمن ورخاء.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي: ثم سلبناها منه، وحرمانها منها، بعد أن كان متعلقاً بها حريصاً عليها، فكلمة ﴿نَزَعْنَاهَا﴾ تُشْعِرُ بِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِهَا وَحِرْصِهِ عَلَيْهَا^(١).
 ﴿إِنَّهُ لَيُئْسُ﴾ أي: شديد القنوط من رحمته تعالى، فلا يرجو أن يعيدها إليه أبداً.

﴿كَفُورٌ﴾ أي: عظيم الكفران لما سلف من فضله تعالى وإحسانه عليه.
 هذا شأن أكثر الناس عندما تتغير أحوالهم، وتنزل بهم صروف الدهر وغيره، يحزنون على ما فاتهم حتى يغلب عليهم اليأس والقنوط من رحمته تعالى، وينسون أنهم كانوا يتمتعون بنعمه، ويتقلبون في فواضل إحسانه، من غير سابقة استحقاق.

وعندما تتغير أحوالهم من الضيق إلى السعة، ومن الضراء إلى السراء، فإنهم يتكبرون ويتجبرون ويغترون بما في أيديهم، ظانين أنَّ حالهم هذه ستدوم لهم، ينشغلون بالنعمة عن المنعم، فلا يشكرونه، بل يكفرونه، ويعرضون عن طاعته، ويستعملون نعمته في معصيته، وينسون أن الحياة دار ابتلاء واختبار، وأنه تعالى يبتليهم بالخير تارةً وبالشر أخرى.

﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ﴾ أي: أنعمنا عليه بالسعة والرخاء، بعد أن أصابه الفقر والقلّة، أو بالصحة بعد المرض، أو بالفرح بعد الضيق والشدة.
 ﴿لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي: زالت المصائب والنكبات التي أضرت بي وساءتني. هكذا يقتصر بنظره على الأسباب، ويغفل عن مسبب الأسباب الذي قدّر كل شيء.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: إنَّ الإنسان في تلك الحالة بطر متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله تعالى، ويشغله الفرح والفخر عن شكر خالقه وطاعته،

ففرحه بالنعمة قوي شديد، يصل به إلى حدّ البطر والكِبَر، وسبب شدة فرحه أن منتهى أمل الكافر محصور بالدنيا فقط، فإذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات^(١).

ويلاحظ أنّه تعالى أسند إيصال الخير إلى ذاته جلّ وعلا، فقال: ﴿أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ﴾ ولم يسند إلى ذاته إيصال الشر فقال: ﴿بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ﴾ مع أن كل شيء بعلمه وتقديره ومشئته، فدلّ بذلك على أن مراده تعالى رحمة عباده والإحسان إليهم، وأن ما ينالهم من شرٍّ وضرٍّ بسبب سوء كسبهم واختيارهم، كما قال في سورة الشورى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾. وقال في سورة النساء: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

• صبر وشكر:

ثم استثنت الآيات من هذه الأحوال، المؤمنين بالله تعالى، الذين يرون الحياة على حقيقتها، ويكشف لهم إيمانهم بالله عن جوهرها، فهم يرونها حياة ابتلاء واختبار، فيها تكليفٌ، ويترتب عليه مسؤولية وجزاء، فلم يُخلَقوا عبثاً لمجرد الأكل والشرب واللذة والمتاع، ولا بدّ أن تختلف أحوالهم عن أحوال غيرهم عندما يواجهون تقلّبات الحياة، إنهم يصبرون عند الشدة والضراء، ويشكرونه تعالى عند السعة والرخاء:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: على ما أصابهم، إيماناً بالله واستسلاماً لقضائه.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: فلا تشغلهم النعمة عن طاعته تعالى وعبادته وشكره.

وفي الحديث الشريف: عن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «عجباً

لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

فالإيمان بالله تعالى هو النور الكاشف، ينيرُ للإنسان طريقَ حياته، ويحدد له المواقف والمنعطفات، ويعينه على تجاوز العقبات، وتحمل المشقات، وهو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

وقوله ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج]. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: لهم ستر لذنوبهم ومعاصيهم وتجاوز عنها. فالؤمن غير معصوم من الذنوب، فقد يدركه ضعف الإنسان فيخطئ ويزلُّ، ولكنه لا يصرُّ على المعصية ولا يتمسك بها. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لهم أجر كبير على طاعتهم لله تعالى وانقيادهم لدينه وشرعه.

هكذا جمعت لهم الآية بهذه البشارة بين مطلبين كبيرين، هما: الخلاص من العذاب، والفوز بالثواب.

• تثبيت وتحريض:

والتفتت الآيات إلى النبي ﷺ، تثبته في مواجهة عناد المشركين وجحودهم، وتحثه على متابعة تبليغهم وإقامة حجة الله تعالى عليهم:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١١﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي: فلعلك لشدة ما تراه من كفرهم وعنادهم ترك تبليغ بعض ما يوحى إليك.

ولعلّ: للترجي، وهو يقتضي التوقُّع، ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه، ولا ترجح وقوعه، لجواز أن يوجد ما يمنع منه، والمانع منه عصمته ﷺ عن كتم الوحي المأمور بتبليغه.

والمقصود من ذلك تحريضه عليه الصلاة والسلام، وتهيج داعيته لأداء الرسالة^(١)؛ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد يكون المقصود الاستفهام الإنكاري، الذي يفيد نفى واستبعاد ترك تبليغهم، وحضه على التبليغ مع عدم المبالاة بتكذيبهم وعنادهم^(٢).

﴿وَضَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ﴾ أي: عارضٌ لك ضيقٌ صدرٍ عند تلاوته عليهم، بسبب مسارعتهم إلى ردّه وتكذيبه.

وقال تعالى: ﴿وَضَائِقُ﴾ ولم يقل: ضيق؛ ليدل على أنه ضيقٌ عارض غير ثابت؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أفسح الناس صدرًا^(٣).

وما كان ضيقٌ صدره من تلاوة القرآن الكريم، بل كان من عنادهم وجحودهم ومسارعتهم إلى تكذيبه، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ أي: مخافة أن يقول المشركون: هلاً أنزل عليه مال كثير، أو جاء معه ملك يصدّقه!

﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ أي: ليس عليك إلا إنذارهم بما أوحاه الله إليك، فلا تبال بعنادهم وتكذيبهم، والاقتصار على صفة النذير لمناسبة المقام، فالمقام مقام ترهيب ووعيد.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ يحفظ كل ما يقولون، فتوكل عليه

(١) روح المعاني: ١٨/١٢.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢/٩.

(٣) تفسير النسفي: ١٨٢/٢.

وفوض أمرك إليه، واستمر في تبليغهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

• التحدي بالقرآن الكريم:

ولا شك أن معجزة القرآن الكريم كافية لبيان صدق رسالته عليه الصلاة والسلام، وصحة نبوته، فالإعراض عنها، وعدم الاعتداد بها، أشد قبحاً وشناعة من مواقف العناد والجحود، ومن سؤالهم ما سألوا من المعجزات، ولهذا قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: بل يقولون افتراه وأنه ليس من عند الله. وهو إضراب بـ ﴿أَمْ﴾ المنقطعة عن ذكر مواقفهم السابقة إلى ما هو أقبح منها.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ﴾ أي: قل لهم: إن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بعشر سور مثل القرآن الكريم، في البلاغة والنظم والمعنى.

﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾ أي: مختلقات من عند أنفسكم، إن صحَّ أنني اختلقته من عندي. ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

والجدير بالذكر أن هذا التحدي بعشر سور حدث أولاً قبل الهجرة؛ لأن سورة هود من السور المكية، ثم تحدّاهم بسورة واحدة، فأنزل في سورة البقرة المدنية قوله الكريم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

ومعجزة القرآن الكريم خالدة باقية، والتحدي به لا يزال قائماً، والقرآن الكريم لا يزال في الساحة نقياً غصّاً طرياً، يتحدّى المعارضين لدعوته والمنكرين لصحته.

ولهذا كان الشاعر المسلم المشهور محمد إقبال يقول لولده: يا بُني اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك الساعة.

﴿فَإِلَّا تَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿فَإِلَّا تَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: ظهر عجزهم عن الاستجابة للتحدي، والخطابُ لعامة المسلمين، وجاء عاماً بعد أن كان خاصاً بالنبِيِّ ﷺ، فدلَّ على بقاء المعجزة القرآنية وخلودها، واستمرار التحدي بها في كل زمان ومكان.

﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: اعلّموا علماً يقينياً لا شائبة فيه بوجه من الوجوه، أنما أنزل القرآن الكريم، ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من وجوه إعجازه، في بيانه ونظمه ومعانيه، فلا يحيط بها غيره تعالى.

﴿وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أيضاً أن لا إله إلا هو وحده المستحق للعبادة، فتمسكوا بعبادته وطاعته، وازدادوا يقيناً بأن القرآن منزل من عنده تعالى. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: فهل أنتم مخلصون ومستسلمون لله تعالى ولشرعه.

ويمكن أن يكون الخطاب للمشرّكين في قوله: ﴿فَإِلَّا تَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: من دعوتهم للمعانة ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ أيها المشركون المعاندون ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ أي: بإذنه وأمره، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متّبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة^(١).

• عمل الدنيا وعمل الآخرة:

وقسّمت الآياتُ الناس إلى فريقين: فريق يحصر همّه ونشاطه بالدنيا وبهارجها وزينتها، وفريق آخر ينظر إلى الآخرة ويهتم بها، ويجعل حياته الدنيا ونشاطه فيها قنطرة إلى الآخرة:

(١) انظر: تفسير النسفي: ١٨٨/٢.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: من كان يريد بعمل الخير والبر الحياة الدنيا وما يحسنها ويزينها، كمن يبنى المشافي للفقراء، ويساعد الضعفاء والمحتاجين، للسمعة والشهرة، أو لكسب أصواتهم في الانتخابات، والوصول إلى المناصب العالية الدنيوية.

وإدخال كلمة ﴿كَانَ﴾ على إرادتهم الدنيا للدلالة على استمرارها منهم، بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلاً^(١).

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوصل إليهم أجور تلك الأعمال في الدنيا كاملة، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من أجور تلك الأعمال شيء.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: وهم في الدنيا لا ينقصون شيئاً، ويوفون أجورهم بحسب ما يشاء الله تعالى، لا بحسب ما يشاؤون، فما كل ما يتمناه المرء يدركه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ أي: أولئك المريدون للدنيا وزينتها، الذين ليس لهم يوم القيامة إلا النار؛ لأنهم لم يعملوا للآخرة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية فيها، فلا جرم ليس لهم في الآخرة إلا النار.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: وظهر في الآخرة حبوط صنعهم الذي صنعوه في الدنيا، والذي كان يمكن أن يؤدي إلى الثواب في الآخرة لو صنعوه لها.

﴿وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ لأن عمل الدنيا باطل فاسد، بينما عمل الآخرة

مقبول مبرور، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

• البَيِّنَةُ والشاهد:

ثم عقدت الآيات مقارنةً بين الفريقين، وشرعت تتحدث أولاً عن الفريق المؤمن:

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَلَتَأْرَ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧).

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: كان على نور واضح ودليل ظاهر من ربه، وهو القرآن الكريم، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ (٢) ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [البينة].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

فالقرآن الكريم هو البَيِّنَةُ، الذي يبيِّن الحقَّ ويوضحه، وهو النور الهادي إلى سواء السبيل. واسم الموصول ﴿أَفَمَنْ﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: كمن ليس كذلك، وحذف الخبر لدلالة سياق الآية عليه.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: يتبعه شاهد يشهد بأنه من عند الله تعالى، وهذا الشاهد من القرآن الكريم نفسه، غير خارج عنه، وهو إعجازه الباهر، كما مرَّ في آية التحدي بالقرآن عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣].

وفسر بعضهم البَيِّنَةُ بالفطرة التي فطر سبحانه الناس عليها، وهي كلمة

التوحيد، التي قال تعالى فيها: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُمْ لَهَا قَدْ أَلْهَمْتُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَكْفُرَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال فيها النبي ﷺ: «ما مِنْ مولودٍ إلا يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء - أي: لا نقص فيها - هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة راوي الحديث: واقروا إن شئتم: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لَهُمْ لَهَا قَدْ أَلْهَمْتُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَكْفُرَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. [رواه مسلم (٢٦٥٨)].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً في خطبة له: «ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» [رواه مسلم (٢٨٦٥)]. ومعنى قوله: «اجتالهم»: حوّلهم وصرفتهم.

وأما الشاهد فهو ما أوحاه الله إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكملّة المعظمة، المختمة بشريعة محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين^(١).

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى﴾ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة. وتخصيص كتاب موسى ﷺ بالذكر؛ لأنَّ جميع أهل الكتاب مجمعون على أنه من عند الله تعالى، بخلاف الإنجيل، فإنَّ اليهود مخالفون فيه، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الفريقين أولى^(٢).

﴿إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ أي: أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلى الأمة المسلمة، إماماً لهم، وقدوة يقتدون به في دينهم، ورحمة منه تعالى بهم، فهو نعمة عظيمة تفضل بها سبحانه عليهم.

﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: أولئك المتّصفون بتلك الصفة الحميدة، وهي أنهم على بينة من الله تعالى في جميع شؤون حياتهم، يصدّقون بالقرآن الكريم، ويتمسكون بأحكامه، ويجعلونها نبراس حياتهم.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٤٠/٢.

(٢) روح المعاني: ٢٨/١٢.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: من يكفر بالقرآن الكريم من جميع أهل الملل والنحل الأخرى، إذ هو رسالة الله تعالى إلى الناس كافة حتى قيام الساعة.

﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي: فهو معذبٌ فيها لا محالة، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به، إلا كان من أصحاب النار» [رواه مسلم (١٥٣)].

﴿فَلَا تُكْ فِي مَرْيَمَ مِنْهُ﴾ أي: لا تكن أيها الإنسان في شك من أمر القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى.

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: إنه الحق الثابت من ربك الذي يربيك في دينك ودنياك.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ومع ظهور البينة وقوة الشاهد، وظهور أدلته وحججه، فإن كثيراً من الناس لا يصدقون به.

أو: يعرضون عنه عناداً واستكباراً، أو انهماكاً بالدنيا وانشغالاً بشهواتها عن الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

• مقارنة وتمثيل وتقرير:

ثم انتقلت الآيات للحديث عن الفريق الثاني، الفريق الكافر الفاجر؛ لتتم المقارنة بينهما:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يكذب على الله تعالى، وينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله وحكمته، كمن ينسب إليه سبحانه الولد والشريك، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، أو يجحد حكمته تعالى في خلقه، فينكر يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وجزاء.

﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك الموصوفون بأفح الظلم وأشدّه، يعرضون يوم القيامة على ربهم للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ أي: الذين يشهدون عليهم يوم القيامة كالنبيين.

أو: جوارحهم التي يُنطقها الله لتشهد عليهم.

﴿هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: بالافتراء عليه تعالى، ووصفه بما لا يليق بكماله وجلاله وغناه.

ويجوز أن يكون المراد بالأشهاد الحضّار، وهم جميع أهل الموقف، على ما قاله قتادة ومقاتل من علماء التفسير، ويكون قولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ذمّاً لهم بذلك، لا شهادة عليهم^(١).

ويؤيده الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «يُدْنَىٰ المؤمنُ مِنْ رَبِّهِ حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فيقرره بذنوبه: تعرف ذنب كذا؛ يقول: أعرف ربّ، يقول: أعرف مرتين، فيقول: سترتها في الدنيا وأغفرها لك اليوم. ثم تُطَوَّىٰ صحيفةُ حسناته، وأمّا الآخرون - أو الكفّار - فينادى على رؤوس الأشهاد: هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ» [رواه البخاري (٤٦٨٥)].

﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك، مما يدل على شدة وقبح عاقبة ظلمهم وافتراءهم عليه تعالى.

أو: يقول ذلك جميع أهل الموقف. نسأله تعالى أن يعيذنا من الخزي على رؤوس الأشهاد، وأن يغفر ذنوبنا ويستر عيوبنا.

ثم ذكرت الآيات بعض قبائحهم وجرائمهم؛ لتبيّن استحقاقهم لهذا المصير الأليم:

(١) تفسير أبي السعود: ٧٢/٥.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون الناس عن الدخول في دين الله تعالى، ويفتنونهم عن دينه بوسائلهم الشيطانية الكثيرة، كتهديدهم بالسجن والتعذيب والقتل، والتضييق عليهم في أرزاقهم، وتهجيرهم من أوطانهم، أو بتزيين الباطل لهم، وإغرائهم بشئ أنواع المغريات.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويطلبون لها اعوجاجاً، فيصفون دين الله تعالى وشريعته بالاعوجاج، وأنها في نظرهم غير صالحة لعصرهم وزمانهم، وهي في الحقيقة مستقيمة قوية، تلي حاجات الناس التشريعية في كل عصر ومصر.

وقد يكون المعنى: ويبغون من أهلها أن ينحرفوا عنها بتركها والإعراض عن أحكامها.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: وفوق كل ذلك هم كافرون بالآخرة وما فيها من مسؤولية وجزاء.

وأفاد تكرار الضمير (هم) تأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به، كأن كفر غيرهم لا يعد شيئاً بالنسبة إلى كفرهم وإنكارهم لمسؤوليتهم أمام الله تعالى.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الجرائم، لا يستطيعون أن يفلتوا من عقابه تعالى لو نزل بهم، فهم دائماً تحت قهره وفي قبضة قدرته وسلطانه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: وما كان لهم أنصار يمنعونهم من عذاب الله تعالى ويدفعونه عنهم إذا نزل بهم.

﴿يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأنهم كانوا يضلُّون الناس عن دين الله تعالى، قال

سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي: غلبت عليهم شهواتهم، واستبدَّ بهم غرورهم وتكبرهم، فحجبوا عن رؤية الحق وسماع أدلته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ونتيجة ذلك الخسارة الكبرى والعظمى، التي لا تلافي لها:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٦١﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا سعادة أنفسهم وراحتها؛ لأنهم سلخواها عن الشعور بمسؤوليتها أمام خالقها وبارئها.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وغاب عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة المزعومة وشفاعتها.

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ﴾ ﴿٦٢﴾.

أي: حقاً أنهم يوم القيامة هم الأخسرون، فهم أخسر من كل خاسر؛ لأنهم كانوا أظلم من كل ظالم.

وحتى تكتمل المقارنة بين الفريقين، ويظهر التباين بين المصيرين، بيّنت الآيات مصير الفريق الأول، الذي كان على بيّنة من ربه، بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٦٣﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: اطمأنوا إليه، وخضعوا

له، ووثقوا بفضلله ورحمته، وصدقوا بوعده ووعيده، وأنهم مسؤولون يوم القيامة أمامه. وأصلُ الإخباتِ في اللغة: نزولُ الخبت، وهو المنخفض من الأرض.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكنون فيها أبداً.

ثم ضربت الآيات للفريقين مثلاً محسوساً، يظهر شدة ما بينهما من تباين واختلاف، فمن أساليب القرآن الكريم الرفيعة في التربية والتهذيب وتقريب المعاني: ضرب الأمثال:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤).

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ شبهت الآية فريق الكافرين بالأعمى الذي لا يبصر، والأصم الذي لا يسمع، وشبهت فريق المؤمنين بالبصير قوي الإبصار، وبالسميع شديد السمع.

وهذا المثلُ يلائم الأحوال والأوصاف التي سبق ذكرها في الآيات، فالكافرون يتعامون ويتغافلون عن مشاهدة آيات الله تعالى الماثلة في المكونات، ويعرضون عن سماع آيات القرآن الكريم والانتفاع بها، بينما المؤمنون يستعملون أبصارهم في رؤية دلائل الحق التي تدلهم على ربهم، ويسمعون آياته المحكمة، فينفعهم الله تعالى بها، فيعرفون حكمة خلقهم وجوهر وجودهم، وأنهم مكلفون مسؤولون أمام خالقهم جللاً وعلاً.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: لا يستويان في المثل والحال والصفة، وهو استفهام إنكاري يذكّرنا بالاستفهام الإنكاري الأول في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمٍ مِّن رَّبِّهِ...﴾ [هود: ١٧].

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتذكرون أن الفريقين لا يستويان، لا في الحال ولا في المال، فكما أنهما لا يستويان في الدنيا عقيدة وسلوكاً وخلقاً، كذلك لا يستويان في الآخرة مصيراً وجزاء.

وكانَّ الآية تقررُ ضرورة المسؤولية والجزاء، للتمييز بين الفريقين، ولهذا

قال تعالى في معرض الردّ على المنكرين للمسؤولية والجزاء يوم القيامة:
﴿أَفَجَعَلَ الْمُتَسَلِّمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿[فاطر].



الْقَصَصُ الثَّانِي

قِصَصٌ مِنَ التَّارِيخِ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْرِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَبَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَبَّلَكَ أَنْتَ إِلَّا الْإِذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا زَايَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَوٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْ هَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَتَقَوَّمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لََّ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَتَقَوَّمُ مَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْتَوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَانَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا قُلْ إِنْ أَفَرَبْنَاهُ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّثْقِلٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْزِيلُ قُلْنَا أَهْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ وَقَالَ آتِكُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُحَرَّطًا وَمُرْسَهًَّ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعُ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٧﴾ وَقِيلَ يَتَارُضُ آبُلَي مَاءٍ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٨﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٩﴾ قَالَ يَبْنُوهُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَكُم مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَرَحِمْنِي أَكُن مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥١﴾ قِيلَ يَبْنُوهُ أَهَيْطَ بِسَلَمٍ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ فَذَكَرْنَا مِنَ الْأَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفِقُوا عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٤﴾ يَنْفِقُوا لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَنْفِقُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوٍّ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٩﴾ إِنِّي قَوْلُكْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿٦١﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لِنَجْزِيَ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّيَهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٦٢﴾ وَذَكَرْنَا عَادَ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٣﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفِقُوا عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٥﴾ قَالُوا يَصْلِحْ فَذَكَرْنَا فِيْنَا مَرْجُوءًا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ

ءَابَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ آدَمَ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَبْصُرُ مِنكُم مِّنَ اللَّهِ إِنَّ عَصِيئَتَهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَتَقَوْمِ هَٰذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿١٧﴾ كَان لَمْ يَعْنَوْا فِيهَا ؕ أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ؕ أَلَا بَعْدَ إِشْمُودٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَدْ لَبِثْتُ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٢٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَفَشَرْتُنَهَا بِإِسْحَاقٍ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ ﴿٢١﴾ قَالَتْ يَوٰلَيْتِي ؕ أَلِدْتُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢٢﴾ قَالُوا أَعْجَبِينَ مِّن أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٢٥﴾ يَتْلُو رَبَّهُمْ ؕ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٢٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ مُّضَاهٍ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمُ عَصِيبٍ ﴿٢٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ؕ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٢٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٢٩﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ ءَاوَيْتُ إِلَىٰ ذِكْرِ شَدِيدٍ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْفُتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ؕ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٣٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٣٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْيَمِينَ وَالْيَمِينَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٣٤﴾ وَيَتَقَوْمِ أَوْفُوا الْوَيْكَالَ

وَالْمِيرَاتِ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيََتْ
 اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ
 تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ
 ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى
 مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
 وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ
 لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُبُّوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي رَجِمَهُ وَدُودُ ﴿٩٠﴾ قَالُوا
 يَنْشَعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ
 عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَهْطِ اعْزُرْ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُوا مِنْهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنِّي
 رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ
 يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا
 بِجَنَّتِنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ
 جَنَّتِيمٌ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا
 وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾
 يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً
 وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ❦

• تمهيد:

ذكرت الآيات في هذا الفصل قصص بعض الأنبياء مع أممهم، ومع أن
 هذه القصص سبق ذكرها في سورة الأعراف، وذكر بعضها في سورة يونس، إلا
 أنها اشتملت هنا على زيادات، وأبرزت أفكاراً ومعاني جديدة، تنسجم مع
 موضوع السورة، ومع الأفكار التي مرّت معنا في صدرها.

ففي هذه القصص شواهد واقعية لصفات الفريقين اللذين مثلت لهما الآيات

في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا لَذَكُّونَ﴾ [هود: ٢٤].

فقد أظهرت التباين الواضح بينهما في السلوك والمصير، كما دلّت على أن مسؤولية الإنسان عن عمله تمتد من الدنيا إلى الآخرة، وأن ما يترتب عليها من جزاء قد يكون في الدنيا قبل الآخرة، فضلاً عما فيها من تثبيت للنبي ﷺ والمؤمنين، ومواساة لهم وهم يواجهون عناد المشركين وجحودهم، كما أن فيها تأكيداً لصدق رسالته عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، فقد أبرزت وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، في إخباره عن المغيبيات الماضية من وقائع الأمم وأحداث التاريخ، وأنه حقاً كلام الله تعالى، أنزله بعلمه الذي وسع كل شيء.

كما أظهر سبحانه أيضاً في هذه القصص الإحكام والتفصيل في آيات السورة؛ تقريراً لما جاء في أول آياتها: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِنَا ثُمَّ فَصَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

فقد فصل الله في هذه القصص أخباراً مؤكّدة لمعاني ما سبق من الآيات، سيأتي إن شاء الله بيانها في موضعها، وبذلك أظهر سبحانه مدى الإحكام والتفصيل والانسجام والاتساق بين آيات السورة الكريمة، إنه كلام العزيز الحكيم.

• قصة نوح وقومه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٥).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي: فقال لهم:

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اقتصر ﷺ في أول كلامه على الإنذار، لأنه أحسن منهم الإعراض، وتوقع الجحود والفساد.

والإنذار: إعلام بالمحذور، لا لمجرد التخويف والوعيد، بل وللحذر منه.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلِمِ﴾.

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا ولا تطيعوا إلا الله تعالى وحده، فهو الذي يستحق العبادة والطاعة.

﴿إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْآلِمِ﴾ أي: إني أخاف عليكم أن يصيبكم عذاب يوم آليم.

وقد جاء كلامه ﷺ تعليلاً للنهي عن عبادة غير الله تعالى، وتحقيقاً للإنذار، وأظهر ﷺ مع الإنذار شففته عليهم، فهم قومه الذين يخاف عليهم عذاب يوم آليم، وهو يوم الطوفان أو يوم القيامة.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ أي: أصحاب الغنى والوجاهة، الذين يملؤون العين بزيئهم وشارتهم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهو ذم لهم على كفرهم، فلا يُعَدُّ مدحاً لهم أنهم من أصحاب الغنى والوجاهة؛ لأنهم كفروا بالله تعالى، وأعرضوا عن دعوة رسوله ﷺ.

﴿مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أي: فكيف تمتاز علينا وتكون نبياً؟! كأنهم أرادوا أن يكون ملكاً.

ونستشف من قولهم: ﴿مَا نَرْنِكَ﴾ كبرهم وغرورهم وترفعهم على غيرهم. ﴿وَمَا نَرْنَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ أي: أخسائنا وأدانيينا والضعفاء فينا، جمع أرذل.

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: ظاهر الرأي أو أول الرأي.

والمعنى: أَنَّ اتباعهم لك شيء عَنْ لَهِم بديهة من غير روية ونظر، ولو أنهم تفكروا، وترثثوا ما اتبعوك.

وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأمور المادية الدنيوية، فمقياسُ الفضل عندهم هو الغنى وكثرة المال، وعليه يبنون إكرام الناس وإهانتهم. ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: وما نرى لك ولأتباعك فضيلة علينا بعد أن اتبعوك، فهم لا يزالون أراذل فقراء.

﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَذِبٍ﴾ أي: وعبروا عن تكذيبهم لنوح عليه السلام والمؤمنين بالظن، تظاهراً بالتأني وعدم المسارعة إلى الجزم والقطع، واحترازاً عن الوقوع فيما اتهموا به المؤمنين، وهو المسارعة إلى تصديق دعوة نوح عليه السلام، من غير تفكير ونظر.

واستمع عليه السلام إلى جميع أقوالهم، وتركهم يُذَلُّون بكل ما لديهم، مما يدلُّ على ثقته عليه السلام بنفسه، وعلمه بقوة حججه، ولما انتهى القوم من كلامهم، بادر عليه السلام إلى ردِّها وبيان ضعفها وتناقضها:

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ﴾ (٢٨).

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: أخبروني إن كنتُ على برهانٍ واضح يشهد بصدق دعوتي.

﴿وَأَتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي: نعمة عظيمة من عنده، وهي النبوة.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت البيِّنة عليكم فلم تهدكم.

والبيِّنة كما تكون بصيرة ومبصرة، تكون في حال خفائها وعدم فهمها عمياء، كالأعمى لا يهدي ولا يهتدي، وبيِّنة نوح عليه السلام ظاهرة واضحة، ومع ذلك فقد خفيت عليهم، فهو تعريضٌ بضعف مداركهم، وقلة فهمهم.

﴿أَنُلْزِمُكُمْوهَا﴾ أي: أنكرهكم عليها.

﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ﴾ أي: وأنتم معرضون عنها، لا تتدبرون فيها، ولا تحاولون فهمها.

ولا يخفى ما في كلامه ﷺ من ردٍّ على انتقادهم للمؤمنين، بأنهم بادروا إلى تصديق نوح دون نظر وتفكير، فدعوته ﷺ تقوم على التفكير والنظر والدليل والبرهان، ولا تقوم على التقليد الأعمى، ولا على الإكراه والإجبار.

﴿وَيَقُولُ لَا اسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِئُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ (٢٩).

﴿وَيَقُولُ لَا اسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا﴾ أي: لا أطلب منكم ما لا تؤدونه إليّ في مقابل إيمانكم واتباعكم، فدعوتي منزّهة عن المطالب الدنيوية والمنافع المادية.

﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ما أجري إلّا من عند الله تعالى؛ لأنها دعوة خالصة له ﷻ.

والجدير بالذكر أنّ جميع الأنبياء ﷺ أعلنوا مثل ذلك، فبرؤوا دعوتهم عن أي كسب ونفع دنيوي، حتى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أمره ربّه أن يعلن ذلك لقومه: ﴿قُلْ لَا اسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

وهذا ما يجب على الدعاة أن يلتزموا به، فينزّها دعوتهم عن كل غرض دنيوي، ويجعلوها نقية خالصة لله تعالى.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهو جواب عمّا أشاروا إليه بقولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا﴾ [هود: ٢٧].

فكأنهم قالوا له: إنّ اتباع الضعفاء والفقراء لك مانع لنا عن اتباعك.

ولمّا طلب كبار مشركي قريش من النبي ﷺ أن يطرد ضعفاء المؤمنين والفقراء، ويبعدهم عن مجلسه حتى يأتوا إليه ويستمعوا منه، أنزل سبحانه ردّاً على طلبهم قوله الكريم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا

عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾
[الأنعام: ٥٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فمواقف العناد والجحود عند الأمم الكافرة متشابهة، ولو اختلفت الأزمنة والأمكنة، كما أن مواقف الأنبياء ﷺ وثباتهم على مبادئهم متشابهة أيضاً؛ لأن دعوتهم واحدة.

﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: إنهم مسؤولون عن أعمالهم أمام الله تعالى، فهو الذي يحاسبهم، وهو عليم بصدق إيمانهم، وصلاح أعمالهم، فكيف أطردهم؟! وهو كقوله أيضاً: ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء].

﴿وَلَكِنِّي أَرْسَلْتُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون أن الإنسان مسؤول عن أعماله يوم القيامة، وقد يكون المراد من وصفهم بالجهل وصفهم بالسفه والطيش والحماقة، والمعنى على ذلك: ولكنكم قوم تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة، وجعل فقرهم وضعفهم رذالة.

﴿وَيَقُولُ مَنْ يُضَرِّي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ مَنْ يُضَرِّي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ أي: لا أحد يمنعني ويحميني من عذاب الله تعالى إن خالف أمره، وطردت المؤمنين، وهذا إقرارٌ ضمني بالمسؤولية أمام الله تعالى.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتعظون.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أي: حين أدعي النبوة.

﴿عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي: رزقه وأمواله، حتى تستدلوا بعدمها على كذبي، وهو ردٌ على قولهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] فالنبوة لا تُنال بكثرة المال، وهي أعزُّ من الدنيا بما فيها.

وقد يكون مراده ﷺ: ليسَ عندي خزائنُ الله فأعطيكم منها إن آمنتم، فالإيمان يجب أن يكون خالصاً لله تعالى، منزهاً عن أي نفع دنيوي.

﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أي: ولا أدعي علم الغيب، حتى أعلم ما في نفوس أتباعي، وما تخفيه ضمائرهم.

﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وهو ردٌ على قولهم: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

وهو ما أمر الله النبي ﷺ أن يقول لقومه: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَعْبُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أي: لا أقول لفقراء المؤمنين الذين تحتقرهم أعينكم لن يؤتيهم الله في الدنيا والآخرة خيراً، حتى لا يكونوا أفضلَ منكم، فالله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: من صدق الاعتقاد أو عدمه.

﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن قلتُ شيئاً من ذلك.

فللنبي حدوده المرسومة بواسطة الوحي المنزل عليه، لا يستطيع تجاوزها، وإلا عرَّض نفسه للمسؤولية والجزاء.

هكذا نقض ﷺ بقوة بيانه وعلو برهانه أقوال الملائ من قومه، ويبيِّن سقوطها وتهافتها، مما جعلهم ينصرفون عن مجادلته، ويقبلون على معاندته وتهديده:

﴿قَالُوا يَنْتُحِقُ حَدِيدُنَا فَانْكُرَتْ جِدْلُنَا فَاِنَّا بِمَا نَعِدُنَا اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣٢﴾﴾ .

وظهر بقولهم هذا جهلهم أيضاً؛ لأنَّ العذاب بيد الله تعالى، لا بيد نوح عليه السلام. ولهذا ردَّ عليهم:

﴿قَالَ اِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهٖ اللّٰهُ اِنْ شَاءَ وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿قَالَ اِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهٖ اللّٰهُ اِنْ شَاءَ﴾ فالعذاب منوط بمشيئة الله تعالى وحده.

﴿وَمَا اَنْتُمْ بِمُعْجِزِيْنَ﴾ أي: وما أنتم بقادرين على الفرار منه إن أتاكم.

ثم أضاف عليه السلام، يبيِّن تمام مشيئته تعالى ونفاذها في جميع المكونات:

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيْ اِنْ اَرَدْتُ اَنْ اَنْصَحَ لَكُمْ اِنْ كَانَ اللّٰهُ يُرِيْدُ اَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَاِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ ﴿٣٤﴾﴾ .

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِيْ اِنْ اَرَدْتُ اَنْ اَنْصَحَ لَكُمْ اِنْ كَانَ اللّٰهُ يُرِيْدُ اَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن كان الله يريد أن يضلَّكم فلا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم؛ لأن إرادته تعالى فوق إرادتي.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو خالقكم ومالك أمركم، ومشيئته نافذة فيكم.

﴿وَاِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ﴾ ليحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

وبعد أن نقلت الآيات هذه المحاورة، التي حدثت قبل آلاف السنين بين نوح والملأ من قومه، توقفت قليلاً عن متابعة عرض أحداث القصة، لتؤكد صدق القرآن الكريم، وأنَّه كلام الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ، ولتردَّ على اتهام المشركين له عليه الصلاة والسلام بافترائه، وتقرِّر مسؤوليته إن افتراه، فهي نقاط هامة بارزة في هذه المحاورة:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْعَرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ أي : أبعد هذه الأخبار المغيَّبة التي لا يعلمها أحد إلا الله تعالى ، يدعي المشركون أنَّ محمداً افترى القرآن الكريم؟! .

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أي : إن صحَّ أنني افتريته فعليَّ عقوبة إجرامي .

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْعَرُونَ﴾ أي : وأنا بريء من إجرامكم في اتهامي بالافتراء ، وغير مسؤول عن ذنوبكم وآثامكم ، فكلُّ إنسانٍ مسؤولٌ مسؤوليَّةً شخصيَّةً عن أعماله أمام ربه ﷻ .

• سفينة نوح :

واستأنفت الآيات بعد هذه الوقفة القصيرة ، عرض قصَّة نوح ﷺ مع قومه :

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ وهذا إقناط له ﷺ من إيمانهم ، وإعلام له بأنَّه لم يبقَ فيهم من يتوقع إيمانه ، وجاء هذا الوحي بعد أن لبث فيهم مدَّة طويلة وهو يدعوهم ، ويتحمَّل أذاهم ، ويصبرُ على غِلظتهم وجفوتهم ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

وبعد أن أقنطه تعالى من إيمانهم ، دعا نوحٌ عليهم ، وهي الدعوة التي حكاها عنه تعالى في قوله : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٣٧﴾﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ بِيُضَلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح] .

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي : لا تحزن بما كانوا يواجهونك به من العناد والأذى والتكذيب ، في هذه المدة الطويلة ، فقد اقترب وقت الانتقام منهم .

ثم أمره تعالى أن يهيئ أسباب النجاة من الغرق، ويصنع السفينة؛ وهذا يدل على مشروعية الأخذ بالأسباب، وأن الأسباب والمسببات منه جلّ وعلا:

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: اصنع السفينة محفوظاً برعايتنا وحمايتنا.

والفلك: اسم يدل على المفرد والجمع.

﴿وَوَحْيُنَا﴾ أي: واصنعها على حسب ما نوحى إليك ونعلمك، فقد كان

﴿يَجْهَلُ كَيْفِيَّةَ صَنْعِهَا﴾، فأوحى سبحانه إليه ذلك.

﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تراجعني فيهم، ولا تسألني رفع

العذاب عنهم.

﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي: محكوم عليهم بالإغراق.

وهكذا قضى الحق سبحانه قضاءه المبرم، فلا رادّ له.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ

مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾ أي: وشرع ﴿يَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾ بحسب توجيهات الوحي.

ودلّ التعبير بالمضارع على ملازمته على صنعها واستمراره عليه بدأب وجدّ.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أي: استهزؤوا به، إما لكونهم

ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والهدف منها، أو لأنه كان يصنعها فوق أرضٍ يابسة بعيدة عن الماء، وقد يكون استهزاؤهم استبعاداً لوقوع العذاب الذي توعدّهم به.

ولم يتأثر ﴿يَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾ باستهزائهم، ولم يشغله عن متابعة عمله، وكان يجيبهم

جواب الواثق من ربه جلّ وعلا:

﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ أي: إن تسخروا منا ونحن نعمل في صنع السفينة، ونسعى في تحصيل أسباب النجاة من الغرق.

ودلّ قوله على أنّ المؤمنين كانوا يساعدونه في صنع السفينة.

﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي: فإننا نقابل سخريتكم بمثلها، بسبب جهلكم وغروركم، أو إنّنا نسخر منكم عندما ينزل العذاب بكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (٣٩).

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: فسوف تعلمون علم المشاهدة واليقين، مَنْ يصبى عليه عذاب فيه ذل ومهانة، وهو الغرق في الدنيا. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي: يحلّ عليه عذاب دائم أبداً لا ينقطع، وهو عذاب النار يوم القيامة.

ولا بدّ أن تكون السفينة كبيرة ضخمة، بذل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مع المؤمنين جهداً كبيراً متواصلاً حتى أكملوا صنعها.

وانتظر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بعد أن فرغ من صنع السفينة، الأجل الموعود الذي جعله له الله تعالى علامة، وهي نبع الماء بقوة من الثور.

وهو تنور الخبز الذي كان نوح ﴿عَلَيْهِ﴾ ينضج فيه الخبز، وقد يكون المراد الجنس، فيشمل تنور نوح وكل تنور في الأرض، وقد يراد بالتنور وجه الأرض^(١).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وهو نزول العذاب بهم.

﴿وَفَارَ الْتَوُورُ﴾ أي: نبع منه الماء وارتفع بشدة وغزارة.

وهو دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى، إذ أخرج الماء من موضع وجود النار.

● شحن السفينة وتحميلها:

وعلم نوح ﷺ أَنَّ وقت الطوفان قد أزف، فأسرع إلى السفينة يحمل فيها ما أمره سبحانه بحمله، وهو حمل عجيب شحنه فيها ﷺ بقدرته تعالى ومشيتته وأمره:

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: احمل في السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات الأرضية البرية زوجين ذكراً وأنثى.

فالشزوج: الفرد الذي له مُشاكِلٌ من نوعه، فالذكر زوج للأنثى، وهي زوج للذكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقرئ على الإضافة: (من كل زوجين اثنين).

ولا بدَّ أنه تعالى سخر هذه الأزواج لنوح ﷺ، فجاءته منقاداً طائعة، إذ هو سبحانه الأمر والمعين على تنفيذ الأمر، والمعونة تأتي على قدر المؤونة، فلا حاجة بنا إلى الخوض بكيفية الشحن كما فعل المفسرون، كما لا حاجة أيضاً إلى تقييد عموم الآية بقدرة نوح واستطاعته، كما رأى سيد قطب رحمه الله حين قال: «﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ مما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء، وما وراء ذلك خبط عشواء»^(١).

إنَّ الآية مطلقة تدلُّ على العموم، ويؤكد العموم قراءة الجمهور بالإضافة، كما ذكرنا (من كل زوجين اثنين)؛ و(كل) إذا أضيفت إلى نكرة عمّت، وتخصيص العموم من دون مخصص هو خبط عشواء، ويدلُّ العموم على أنَّ الطوفان عمَّ الأرض اليابسة كلها في ذلك العصر، فالأمر معجزٌ خارقٌ لقدرات

(١) في ظلال القرآن: ٥٤٨/٤.

البشر، أجراه جلّ وعلا على يد نبيه نوح ﷺ، كما أجرى كثيراً من المعجزات وخوارق العادات على يد غيره من الأنبياء ﷺ، فشحنُ السفينة بأزواج من جميع الأنواع الأرضية البرية، أمر معجز تمّ بأمر الله ومشئته وقدرته، وقد سّماه الله آية، أي: معجزة؛ في قوله: ﴿وَأَيُّ لَٰهُمۡ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يسر: ٤١].

كما سمّى سبحانه صنْع السفينة نفسها آية في قوله الكريم: ﴿فَأَنبِئْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وكأنها أول سفينة صنعها الإنسان في التاريخ.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحمل في السفينة أهلك، وهم أهل بيته من النساء والأولاد.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي: إلا من سبق عليه قضاء الله تعالى في الهلاك والغرق، لأنه اختار الكفر، وهم زوجته وأحد أولاده، قال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتُ نُوْحٍ وَأَمْرَاتُ لُوطٍ ۚ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنۢ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمَّ يُعْنِيَا عَنْهُمَا مَنَ اللَّهُ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]؛ وكانت خيانتهم بالكفر والمخالفة في الدين.

وقال جلّ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنۢ كُلِّ زَوْجٍ مِّنۡ ثَنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنۡهُمۡ وَلَا تَحْطِطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿وَمَن ءَامَنَ﴾ أي: واحمل المؤمنين أيضاً، فقد وعد سبحانه بنجاة الأنبياء، ونجاة أتباعهم من المؤمنين، كما في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما آمن إلا عدد قليل من قومه، مع أنه ﷺ لبث يدعوهم مدة طويلة امتدت نحو ألف عام، كما مرّ معنا.

ولهذا الخبر دلالته، فمن أجل هذا العدد القليل المؤمن، أجرى الله

الطوفان الذي دمرَّ كلَّ شيء في الأرض من حياة وعمران، وجعل وراثته الأرض وعمرانها بعد ذلك لهذا العدد القليل المؤمن، إِنَّ البذرةَ المسلمة في الأرض شيءٌ عظيمٌ في ميزان الله تعالى^(١).

● الطوفان:

وأمرهم ﷻ أَنْ يركبوا في السفينة على اسمه تعالى:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا مُرْسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّبَهَا مُرْسَهَا﴾ أي: وقت جريها وإرسائها، فحركتها وثباتها بمشيئته تعالى وقدرته، فهي في رعايته وحماه.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر للمؤمنين ما سلف من معاصيهم، ويرحمهم بتيسير سبل نجاتهم.

وفتح سبحانه بقدرته ومشئته أبواب السماء بماء منهمر، وفجَّر الأرض عيوناً، فتدفَّق الماء من كل جزء من أجزائها، من جبالها ووديانها وسهولها، ومن بين صخورها وحبّات رمالها وترابها، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ ١١ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر].

والتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدره الله تعالى، وهو إهلاك الكفرة بالطوفان الذي عمَّ الأرض كلها.

وارتفع الماء فوق اليابسة، وطفَت السفينةُ فوق الماء، وتحركت بقدره الله ومشئته، الذي قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا﴾ [القمر: ١٤].

وثارَت العواصفُ، وهاجَت الأمواجُ، وارتفعت حتى غدت كالجبال العالية، وجرت السفينةُ بعناية الله بين هذه الأمواج الهائلة:

(١) في ظلال القرآن: ٥٧١/٤.

﴿وَهُی تَجْرِی بِهِمْ فِی مَوْجٍ کَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِی مَعَزِلٍ یَنْبِئُ ارْكَبْ
مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِینَ﴾ (٤٢).

﴿وَهُی تَجْرِی بِهِمْ فِی مَوْجٍ کَالْجِبَالِ﴾ أي: تشبه الجبال في ضخامتها وعلوها وارتفاعها، ومن كابد البحر حين ارتجاجه وهيجان أمواجه، ورآه ثائراً مزبداً مزمجرأً، يدرك دقة هذا التشبيه وموضوعيته، ومع ذلك ظلت السفينة تجري بهم بمشيئته تعالى ورعايته، وتحت كنفه وحراسته، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِی بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾ [القمر].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿إِنَّا لَمَّا طَعَا أَلَمَاءُ حَمَلْنَاكَ فِي الْبَارَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

● الوالد المشفق والولد المغرور:

وفي هذا الوقت العصيب، رأى نوح ﷺ أحد أولاده خارج السفينة، مذعوراً خائفاً، وهو يشتد راكضاً فراراً من الغرق، مع غيره من الفارين المتجهين إلى الأماكن المرتفعة والقمم العالية، فثارت في صدره مشاعر الأبوة الإنسانية الحانية، وهي لا شك عند الأنبياء أقوى وأكمل من غيرهم؛ لأن الأنبياء ﷺ أكمل الناس في جميع الصفات الإنسانية المادية والمعنوية^(١).

واندفع النبيُّ الوالد ينادي ولده بصوت تغلب عليه شفقة الأبوة وحنانها:

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِی مَعَزِلٍ﴾ أي: كان عند ركوب السفينة في مكان عزل به نفسه عن أبيه وإخوته والمؤمنين، فلم يكن بين رُكَّابها، وقيل: في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم، ولذلك دعاه إلى السفينة^(٢).

﴿يَنْبِئُ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِینَ﴾ أي: اركب معنا في السفينة، وكن مع المؤمنين، ولا تكن مع الكافرين فتكون من الهالكين.

(١) انظر: الأنساب والأولاد، للمؤلف.

(٢) روح المعاني: ٥٩/١٢.

وغلبَ على الولدِ الكافرِ الجهلُ والطيشُ والغرورُ، فرفض دعوة أبيه الحانية المشفقة.

﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ (٤٣).

﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: سألجأ إلى جبل مرتفع يمنعني من الغرق في الماء.

قال ذلك ظناً منه أن هذا الطوفان كغيره من السيول المعتادة، التي يعتصم منها بالأماكن المرتفعة، فبيّن له نوح ﷺ أن الأمر اليوم يختلف، وأنه قضاء الله المبرم: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا مانع اليوم من الطوفان الذي أمر به جلّ وعلا، وتعلّقت به إرادته، وسبق به علمه، فلا بدّ أن يدركهم الطوفان، ولو كانوا في قمم الجبال.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي: إلا مَنْ أراد الله رحمته ونجاته، وهم الذين ركبوا في السفينة، نوحٌ ومنّ معه من المؤمنين.

وانقطع الحوار بين الوالد المشفق، وبين الولد العاق المغرور، قطعه الموج المرتفع الهادر، مما يدل على قوة الطوفان وسرعته وشدته.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ أي: كان الولد من الهالكين.

ففي لحظة واحدة تغيّر المشهد، وابتلع الموج الهادر كل شيء، وإننا - كما قال سيد قطب رحمه الله - بعد آلاف السنين، لنمسك أنفاسنا ونحن نتابع السياق، والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد، وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجة الغامرة تحسّم الموقف في سرعة خاطفة راجفة، وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب^(١).

(١) في ظلال القرآن: ٥٤٩/٤.

● انتهاء الطوفان وعودة التوازن:

ووقع قضاؤه تعالى، وتمَّ أمره، ثم بأمره تعالى هدأت العاصفة أيضاً، وتوقَّف الماء المنهمر من السماء، والمتفجّر من الأرض، وخيم السكون:

﴿وَقِيلَ يَتَّارُضْ اَبْلِغِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءُ اَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٤٤﴾ .

﴿وَقِيلَ يَتَّارُضْ اَبْلِغِي مَاءَكِ﴾ أي: اشربي ماءك الذي خرج منك للطوفان، وردَّيه إلى جوفك، دون المياه المعهودة التي كانت على سطحك في الأنهار والعيون والبحيرات وغيرها، فلا بدَّ أن يعودَ التوازن الذي قدَّره العليم الحكيم إلى الأرض، والذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِشَ وَمَنْ لَشَيْءٍ لَهُمْ رِزْقَيْنِ ٢٠ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [الحجر].

ولا شكَّ أنَّ قدرته سبحانه تتعلَّق بذرات الموجودات مهما دقَّت، وأنَّ مشيئته تعالى نافذة فيها أيضاً، وأنَّ علمه وسع كلَّ شيء، وهو يعلم مكايل المياه، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، فلا يعسر عليه تعالى التمييز بين مياه الطوفان، وبين غيرها من المياه التي كانت على سطح الأرض، ألا ترى أنَّه ﷻ يميِّز في كل لحظة بقدرته وعلمه بين المياه المالحة والعذبة في الأرض، فلا تطفئ إحداهما على الأخرى، كما أخبر عن ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

﴿وَنَسَمَاءُ اَقْلِي﴾ أي: أمسكي وتوقفي عن إرسال المطر.

وتمَّ مراده تعالى مباشرة دون تأخير، فكل المكونات من سماء وأرض وأجرام وذرات متفاداة لأمره ومشيئته ﷻ.

﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ أي: نقص الماء وشرع بالتراجع، رجع ماء الأرض إلى

موطنه في جوفها، وقد كشف علم طبقات الأرض عن وجود كميات هائلة من المياه في جوفها. وارتفع ماء السماء بالتبخر المعهود، أو بالوسيلة التي قدرها العليم الحكيم.

﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: تمَّ الأمرُ الإلهي، ووقع مراده جل وعلا بإهلاك الكافرين.

﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي: رست السفينة على جبل الجودي، وهو جبل في شمال العراق.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً للقوم الذين ظلموا أنفسهم بعنادهم وكفرهم.

ولم يصرَّح سبحانه بمن أغاض الماء، ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة وقال: بُعْدًا، كما لم يصرَّح بقائل: يا أرض ويا سماء، سلوكاً في كل واحد لسبيل الكناية، وأنَّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكُون قاهر، وأنَّ فاعلها واحد لا يُشَارَك في فعله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوي غيره^(١).

● المسؤولية الشخصية:

ويبدو أنَّ نوحاً عليه السلام ما عرف أنَّ ولده أصبح من الهالكين، بعد أن حال الموجُ بينهما، كما أنه ما كان يعلم أنَّ ولده كان كافراً، وبقيت أمواجُ القلق والخوف على ولده تتقاذفه، كما كانت أمواجُ الطوفان تتقاذف السفينة، ولمَّا سكنتِ العاصفةُ، وأقلعتِ السماءُ، وغيضَ الماءُ، أخذ ينظر حوله في الآفاق البعيدة والقمم العالية، التي بدأت تظهر، لعلَّه يرى ولده، ثم توجه إلى الله تعالى ضارعاً:

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٩٠.

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أي: إن وعدك حق ثابت لا خُلفَ فيه، ولا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، وإن ابني من أهلي.

﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ أي: أعلم الحُكَّام وأعدلهم.

﴿قَالَ يَنْتُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ﴾
﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿قَالَ يَنْتُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: إنه لا يُعدُّ من أهلك، أو ليس من أهلك الذين أمرتُك بحملهم في السفينة.

وعلى التقديرين لم يكن ولده من الذين وعد الله بإنجائهم، ويبيِّن سبحانه سبب ذلك فقال:

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي: إنه ذو عمل غير صالح، فجعل العامل نفس العمل مبالغة، فقد كان كافراً، ونجاة من نجا بسبب إيمانه وصلاحه.

وقرابة النسب تنقطع بالموت على الكفر، ولهذا لا يتوارثان، وقرابة الدين أقوى من قرابة النسب، ولهذا لا تنقطع بالموت، بل تبقى وتستمر، وينفع الله تعالى الميت المسلم بصلاة المسلمين عليه ودعائهم واستغفارهم له، ويجمع الله بينهم بفضله ورحمته في الجنة، بعد أن يلحقَ المقصّر منهم بالسابق، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تسألن ما ليس لك به علم بجواز مسألته، وفيه دليل على أن نوحاً عليه السلام كان يجهل كفر ولده.

﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: إنني أحذرك بعد أن عرفت حقيقة الأمر، أن تكون من العصاة.

فلا تدلّ هذه الموعظة على أن نوحاً عليه السلام قارف ذنباً، بل هي تأديب له، وتحذير من فعله في المستقبل، ولهذا بادر عليه السلام إلى اللجوء إلى الله تعالى، والاستعاذة به ليعصمه من مقارفة أي ذنب، وأظهر بهذا الدعاء احتياجه وافتقاره إلى الله تعالى، وكمال خضوعه له:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (٤٧).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: أعوذ بك أن أسألك ما لا علم لي بصحته؛ تأديباً بأدبك واتعاضاً بموعظتك.

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ أي: ما سبق مني، وهذا يدل على كماله عليه السلام، وعظيم خشيته لله تعالى، حتى رأى أن ما سبق منه ذنب ينبغي عليه أن يستغفر الله منه.

﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ أي: بالعصمة والفضل والإحسان.

﴿أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ أي: الهالكين.

والجدير بالذكر أن خبر نوح مع ولده لم يذكر إلا في سورة هود، مع أنه سبحانه ذكر قصة نوح في عدة سور، وخصّص لها في المفصل سورة كاملة سُميت باسمه.

وقد دلّت هذه الحلقة من قصة نوح عليه السلام، على أن الإنسان مسؤول عن عمله مسؤولية شخصية فردية، فلا يسأل أحد عن ذنب غيره مهما كانت القرابة بينهما، فمن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وكلّ إنسانٍ مكلفٌ مسؤول عن كسبه واختياره، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَغْرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ (١٣) ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (١٤) ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) [الإسراء].

ولعلَّ هذا سر انفراد سورة هود بهذه الحلقة الجديدة من قصة نوح ﷺ مع قومه، فهي تتفق تماماً مع موضوع المسؤولية والجزاء، الذي تدور آيات السورة في فلكه.

• البشرية من جديد:

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٨﴾.

﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ أي: انزل من السفينة بأمن وسلام من الله تعالى وخيرات نامية تفضّل بها عليك.

﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ أي: وتفضّل سبحانه بها أيضاً على أمم ممن معك في السفينة.

فالبشرية الجديدة تتشعّب منهم، وهم يحملون في أصلاهم نطف النسل الجديد، الذي سيمتدّ وجوده إلى يوم القيامة، إذ قدّر سبحانه أن يكون نوح ﷺ هو الوالد الثاني للبشرية بعد آدم ﷺ، فمن أولاده الذين كانوا معه في السفينة، تناسل البشر وانتشروا في الأرض، وأصبحوا بعد ذلك قبائل وشعوباً، وأمّا الآخرون من المؤمنين الذين كانوا معه في السفينة، فلم يجعل الله تعالى - بحكمته وقدرته - لهم ولداً ولا نسلأ، وأخبر سبحانه عن ذلك في سورة الصافات بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هَرَمًا ٧٧ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ٧٨ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ٧٩﴾.

وهكذا بدأت عمارة الأرض بالمؤمنين الموحّدين، كما بدأت في فجرها الأول في عهد آدم ﷺ، الذي كان رسولاً إلى أولاده، فالكفر طارئ على البشرية، والله سبحانه خلق البشر موحّدين، وفطرهم على ذلك، ثم طرأ عليهم الكفر بسبب تزيين الشيطان ووسوسته، كما مرّ معنا في الحديث الشريف: «إني

خَلَقْتُ عِبَادِي حَنَفَاءَ كُلِّهِمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» [رواه مسلم (٢٨٦٥)].

وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله:

﴿وَأُمَمٌ سَتَمَتَّعْتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِتَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: وسيكون ممن معك في السفينة أمم سيمتتعهم الله تعالى مدة حياتهم في الدنيا، ثم يكون مصيرهم بسبب كفرهم وفجورهم إلى العذاب الأليم يوم القيامة.

فقد عادت البشرية الجديدة إلى التوحيد، الذي كانوا عليه في عهد آدم ﷺ، وهبطوا من السفينة مؤمنين موحدين، ثم أخرج الله منهم نسلًا انقسموا إلى فريقين: فريق مؤمن بالله وبمسؤوليته أمامه يوم القيامة، وهم أمم السلام والبركات والخيرات، وفريق آخر كافر بالله، جاحد للمسؤولية والجزاء، وهم أمم المتاع والعذاب.

وكان محمد بن كعب القرظي رحمه الله عندما يقرأ هذه الآية يقول: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة^(١).

وهذه الحقيقة، حقيقة أنَّ أول عقيدة عُرفت في الأرض هي عقيدة الإسلام لله تعالى وحده، تفودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمون علماء الأديان المقارنة، وغيرهم من التطويريين، الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة، سبقته أطوار شتى من التعدد للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية والأرواح والشموس والكواكب . . . إلى آخر ما تتخط به هذه البحوث، التي قامت منذ بدايتها على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة، تهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي، وترغم أنَّ الأديان من صنع البشر، وأنها تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان^(٢).

(١) تفسير ابن كثير: ٤٤٨/٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٥٥٥/٤.

وأوردت الآيات تعقيباً واحداً على قصة نوح عليه السلام، بخطاب وجهته إلى النبي ﷺ، تصبره وتثبتته في مواجهة عناد قومه وأذاهم:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٩).

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ فهي من التاريخ البعيد السحيق الموغل في القدم، والتي ما كان النبي ﷺ ولا قومه يعلمونها. ولا يزال الجهل بها مستمراً حتى عصرنا الحاضر، فهي من العصور التاريخية المظلمة، التي لم يتمكن المؤرخون من إلقاء أي ضوء كاشف عليها، ولهذا أطلقوا عليها اسم عصور ما قبل التاريخ. ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي: من قبل الوقت الذي أوحى الله فيه هذه الآيات إليك. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: اصبر على تبليغ الرسالة كما صبر نوح عليه السلام، فإن النصر والفوز للمتقين، كما كان لنوح عليه السلام والمؤمنين معه.

● قصة هود وقومه:

﴿وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَنشُرُ إِلَاةَ مَفْرُوتَ﴾ (٥٠).

﴿وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: أرسلنا إلى عاد أخاهم في النسب هوداً عليه السلام. وكانوا أمة تسكن الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، ما بين عُمان إلى حضرموت، ولعلها الآن منطقة صحراء الربع الخالي، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّجُومُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

﴿قَالَ يَنْفَوْرُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: اعبدوا الله وحده وأطيعوه. وكانوا مشركين يعبدون الأصنام.

﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ عِندَهُ﴾ أي: ما لكم معبود يستحق العبادة غير الله تعالى .
 ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم بجعل الألوهية لغيره تعالى إلا كاذبون .
 ثم أعلن ﷺ براءة دعوته وترفعها عن أي مطلب دنيوي ونفع مادي، فقال:

﴿يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: ما أجري إلا على الذي خلقتني؛ لأن دعوتي خالصة له جل وعلا، فهي منه وإليه .
 وقد مر معنا أن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أعلنوا مثل هذا الإعلان، عند قول نوح: ﴿وَيَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩] .
 ويبدو أن هوداً ﷺ أعلن ذلك ردّاً على اتهام قومه له أو تلميحهم له، بأنه يريد من دعوته هذه أن يحقق لنفسه بعض المكاسب المادية، ولهذا قال معقباً:
 ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعقلون أنني لا أريد من دعوتي هذه أي كسب دنيوي .

﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اسألوا ربكم المغفرة لما سلف من كفركم ومعاصيكم، بالإيمان به وعبادته وحده .

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: توبوا إلى الله بترك الكفر والمعاصي والندم عليها .

وقد مر معنا في أول السورة أن نبينا عليه الصلاة والسلام، قال مثل ذلك لقومه عندما كان يدعوهم: ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]؛ فقد حثهم النبي ﷺ على قبول دعوته والاستغفار والتوبة، وأطعمهم بالمتاع الحسن في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، كما فعل هود ﷺ، الذي قال لقومه:

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أي: ينزل سبحانه المطر عليكم متتابعاً بالخير الكثير الوفير.

ويبدو أنهم كانوا أهل غنى وسعة، وأهل زرع وضرع، وقد حبس الله تعالى عنهم المطر بسبب بغيتهم وظلمهم وإعراضهم عن دعوة نبيهم ﷺ، دلّ على ذلك قوله تعالى على لسان هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿٢٧٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿٢٨٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٢٨١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿٢٨٣﴾ وَحَنَّتِ وَعْيُونُ ﴿٢٨٤﴾ [الشعراء].

وأما احتباس المطر فدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٨٤﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فالقوم كانوا يتلهفون على نزول المطر، بسبب احتباسه الطويل عنهم، ولهذا أطعمهم نبيهم هود ﷺ به.

﴿وَزَيْدَكُمُ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ أي: يمدكم ربكم بمزيد من أسباب القوة والسعة والغنى، فقد كانوا أقوياء في الأبدان والأموال، وقد أشار ﷺ إلى قوة أبدانهم في قوله الذي حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ [الأعراف: ٦٩].

وقد أبطرتهم قوتهم، وجعلتهم يتكبرون على الناس ويظلمونهم، ولهذا قال لهم نبيهم هود:

﴿وَلَا تُلَوُّا جُبْرِمِينَ﴾ أي: لا تعرضوا عن دعوة الله وعبادته، مصرّين على ما أنتم عليه من ظلم وإجرام، فقد كانوا عتاة أقوياء جبارين، كما مرّ في قول هود لهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

وقد حكى الله تعالى عنهم من شدة تكبرهم وتجبرهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فدعوة الأنبياء ﷺ دعوة خير وإصلاح للناس، تواجه الظالمين وتردعهم عن ظلمهم وطغيانهم.

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣).

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: ما جئتنا بحجة تدل على صحة دعوتك، ومعجزة تبين صدق رسالتك.

قالوا ذلك عناداً وتغافلاً عن البينات والحجج التي أيده الله تعالى بها، فما من نبي بعثه الله تعالى إلا وأيده بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» [رواه البخاري (٤٩٨١)].

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ﴾ أي: وما نحن الذين نترك عبادة آل هارون ونتبع قولك.

﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾ أي: صادرين عن قولك.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما نحن لك بمصدقين.

فكلامهم يدل على تكبرهم وتجبرهم، وأنهم مصرّون على كفرهم وشركهم، ومتمسكون بأوثانهم وأصنامهم، وقد قابلوا نبيهم هوداً بهذه المقابلة الجافية الغليظة، التي أظهر الله جفوتها وغلظتها في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٦).

ثم ازدادوا جفوةً وغلظةً وسوء أدبٍ معه ﷺ، فقالوا له:

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾
 مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ .

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي: لا نقول فيك إلا قولاً واحداً، وهو أن بعض آلهتنا غضب من مقالتك، وأصابك بسوء، جنون أو خبل.

● براءة وتحد:

فما كان من هود عليه السلام إلا أن واجه جفوتهم وغلظتهم بشجاعة وثقة، فأعلن براءته من كفرهم وشركهم، وتحداهم وتحدى آلهتهم أيضاً أن يقدرُوا على إيصال أي ضرر إليه:

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: إني أشهد الله أنني بريء مما تشركون من دونه تعالى، واشهدوا أنتم أيضاً أنني بريء من ذلك. وهو إمعان منه عليه السلام في تحديهم وفي التهكم منهم، والاستهانة بقوتهم ووعيدهم.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ أي: فكيدوني أنتم وآلهتكم مجتمعين، فإني لا أبالي بكم ولا بهم.

﴿ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ أي: لا تمهلوني ولو طرفة عين.

وهذا الموقف الشجاع من أعظم المعجزات، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً، بين الجمل الغفير والجمع الكثير، من عتاة عاد الغلاظ الشداد، وقد خاطبهم وحقرهم وحقر آلهتهم، وهيجهم على مباشرة المضارة، فلم يقدرُوا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيئاً، فكيف لا وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع، واعتصم بحبل متين^(١)، حيث قال:

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٠٥/٥.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فهو ربي وربكم شتم أم أبيتم .
وتدلُّ كلماته ﷺ على شدة ثقته بالله تبارك وتعالى واعتماده عليه .
﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي : ما من دابة تدب على الأرض ، إلا هو مالك لها ، قادرٌ عليها ، فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإرادته وقدرته جلَّ وعلا ، فأنتم في قبضة قدرته ، وتحت قهر مشيئته ﷻ .
والناصية : مقدِّمة الرأس ، والأخذ بالناصية تمثيلٌ للقهر والتمكن ، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالقهر والتمكن من إنسان آخر ذلَّ له وخضع ، قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمنَّ عليه ، جزؤا ناصيته ، ليكون ذلك علامةً على قهره ، فخطبوا في القرآن بما يعرفون^(١) .
﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي : إنَّه سبحانه مع كمال قدرته وتمام مشيئته ، على عدل وحكمة ، لا يظلم أحداً ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل .
أو : إنه تعالى لا يضيع عنده معتصمٌ به ومتوكل عليه ، ولا يفلت منه ظالم .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا نَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي : إن تعرضوا عن دعوتي فأنتم المسؤولون عن ذلك أمام ربكم ، أما أنا فمُسَوِّلٌ عن تبليغ رسالة ربكم ، وقد أبلغتكم هذه الرسالة ، وأدبت لكم الأمانة .
﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي : وهو سبحانه قادر على أن يهلككم ويستخلف قوماً غيركم .

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أي: لا تضرونه تعالى بإعراضكم؛ لأنه الغني عنكم، فطاعتكم لا تنفعه، وكفركم وفجوركم لا يضره جلّ وعلا.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ﴾ أي: إن ربي رقيب مهيمن على كل شيء، فهو قائم على كل نفس، فلا تخفى عليه أعمالكم، وهو سائلكم عنها، ومجازيكم عليها.

• العذاب الغليظ:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨).

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: بإنزال العذاب بهم. وفي التعبير عنه بالأمر المضاف إلى ضميره ﷻ، وعن نزوله بالمجيء، ما لا يخفى من التفتيح والتهويل^(١).

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي: نجينا هوداً والمؤمنين بفضل منّا عليهم.

﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: شديد، وهو الريح العقيم.

ذكره سبحانه هنا مجملاً، وفصله في مواضع أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا عَادُ فَافْتَكُوا بِرِيحٍ صَّارَصٍ عَالِيَةٍ﴾ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا بِرِيحٍ خَاوِيَةٍ﴾ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة].

وقوله أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (١٩) تَزْعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا بِرِيحٍ مُّتَفَعِفٍّ﴾ [القمر].

وقوله أيضاً: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف].

ثم دعت الآيات إلى الاعتبار بقصّتهم، والاتعاظ بما حلّ بهم:

(١) تفسير أبي السعود: ١٠٧/٥.

﴿وَيْلَكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿وَيْلَكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: هذه قصتهم ومصيرهم، كفروا بآيات ربهم عناداً واستكباراً بعد أن استيقنوا صحتها، كما فعل فرعون وقومه، الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي: عصوا جميع رسل الله تعالى، فعصيان رسولهم هود عليه السلام عصيان لجميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: اتبعوا المتجبرين المعاندين من رؤساء الكفر والضلال.

ولا يخلصهم هذا الاتباع من المسؤولية والجزاء يوم القيامة، فكل إنسان مسؤول عن اختياره وكسبه، وإن رؤساء الضلال والكفر يتبرؤون يوم القيامة من أتباعهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْكُذَّابَ وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿٦٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كَرِهْنَا فَنَتَّبِعُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة].

وجزاؤهم يبدأ من الدنيا ويمتد إلى الآخرة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدُ لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦١﴾﴾ .

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فهي لعنة ملازمة لهم لا تفارقهم، تتبعهم حيث كانوا، وتدور معهم حيث داروا، والمراد منها الإبعاد عن رحمته تعالى، ولا تخفى المقابلة بين أتباعهم لزعمائهم، وأتباع اللعنة لهم.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: أتبعوا أيضاً يوم القيامة لعنة توصلهم إلى عذاب جهنم.

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدُ لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ وهو دعاء عليهم بالهلاك مع

كونهم هالكين؛ لتفطيع حالهم والاعتبار بقصصهم، ويبدو أن وصفهم بقوم هود لتمييزهم عن عاد الثانية، إذ يرى بعض المفسرين أنه وجد في التاريخ أمتان

سُمِّيتَا بَعَادَ، وقوم هود هم عاد الأولى، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠]، والله سبحانه أعلم.

● قصة صالح وثمود:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾.

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، وهي قبيلة كبيرة كانت تسكن في شمال الجزيرة العربية، في وادي الحجر بين المدينة المنورة وتبوك، قريباً من ساحل البحر الأحمر.

وقال لهم صالح ﷺ الكلمة التي قالها نوح وهود ﷺ من قبله: ﴿قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وهذا يدلُّ على أن رسالة الأنبياء واحدة. ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: هو الله الذي ابتداءً خلقكم من تراب الأرض، فهو وحده المستحق للعبادة.

وإخباره عن هذه الحقيقة دليلٌ على صحة نبوته وصدق رسالته، فما كان الناسُ في زمنه يعرفونها، وقد أخبر سبحانه عنها في عدد من آيات التنزيل الحكيم، منها قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]. وقوله أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن ثَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: وهو أقدركم على عمارتها، والتمكين فيها، فلولا أنه تعالى ذلَّل الأرض لحياة الإنسان، ومهدّها له، ومكَّنه من الاستفادة من خيراتها، ما استطاع الإنسان أن يعيش عليها.

فكلمة نبيِّ الله صالح تذكيرٌ لقومه بفضل الله تعالى عليهم، فقد يسَّر لهم بناء القصور الفخمة والبيوت الكبيرة، وقد استفادوا من الجبال المحيطة بهم، فقطعوا صخورها ونحتوها، وبنوا بها بيوتهم وقصورهم، كما حكى سبحانه ذلك

عنه في قوله الكريم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْعِدُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِنُونَ الْجِبَالَ بَيْوُتًا فَاذْكُرُوا أَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: اسألوه أن يغفر لكم ذنوبكم، ثم توبوا إليه بترك الكفر والمعاصي والندم عليها، ومر معنا أن نوحاً وهوداً   أمرا قومهما بالاستغفار والتوبة، كما فعل صالح  .

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ أي: يسمعكم، ويبصركم، ويعلم جميع أحوالكم، ورحمته أيضاً قريبة، قال تعالى: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿حُجِبٌ﴾ أي: لمن دعاه وسأله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾  .

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قال الملأ من قومه: يا صالح كانت لك قبل هذا الكلام مكانة ووجاهة بيننا، وقد انقطع الآن رجاؤنا فيك. ويبدو أن صالحاً   كان معروفاً بينهم بسداد الرأي وحسن المشورة، فكانوا يرجعون إليه في كثير من أمورهم.

﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: من الأصنام والأوثان.

ودل سؤالهم على إنكارهم وتعجبهم، وأنهم لا حجة لهم في عبادة الأوثان سوى تقليد آبائهم تقليداً أعمى.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ أي: وإننا نشك في صحة دعوتك وغير مطمئنين إليها، فالمريب: الموقع في الريبة، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

﴿قَالَ يَنْقُومِ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ
إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ .

﴿قَالَ يَنْقُومِ آرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: أخبروني
إن كنت على حجة وبصيرة من ربي وأكرمني بالنبوة.

وهذه الأمور، وإن كانت محققة الوقوع، ولكنها صدرت بكلمة الشك،
اعتباراً لحال المخاطبين، ورعايةً لحسن المحاوره، لاستئصالهم عن المكابرة^(١).

﴿فَمَن يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ أي: فمن يجبرني من عذاب الله تعالى إن
عصيته بترك تبليغ الرسالة التي كلّفني بها، فأنا مسؤول عن التبليغ، كما أنكم
مسؤولون عن قبولها والانقياد لها.

ويلاحظ التشابه في كثير من نقاط الحوار، بين الأنبياء والأمم الكافرة التي
أرسلوا إليها، مع اختلاف الزمان والمكان، كما يلاحظ اهتمام الأنبياء بإبراز
مسؤوليتهم أمام الله تعالى عن تبليغ الرسالة، ومسؤولية الأمم عن قبولها
والالتزام بها.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: فما تزيدونني بما تقولون سوى أن أصفّكم
بالخسران، وأقول لكم: إنكم الخاسرون.

أو: لا تفيدونني إن أطعتم وتابعتكم غير الخسران، فكيف أترك دعوة ربي
ورحمته، وأسير وراءكم في طريق الخسران والضياع؟! .

﴿وَيَنْقُومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿وَيَنْقُومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: هذه الناقة التي خلقها الله تعالى
على غير مألوف الناس وعاداتهم، معجزة تدل على صدق رسالتي وصحة نبوّتي.

أُصِيفَتِ النَّاقَةُ إِلَيْهِ تَعَالَى إِضَافَةً تَشْرِيفٍ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهَا دُونَ سَابِقِ
 أَسْبَابٍ، لِتَكُونَ مُعْجَزَةً، فَهِيَ لَهُمْ مُعْجَزَةٌ، تَدُلُّهُمْ عَلَى صِدْقِ نَبِيِّهِمْ صَالِحٍ، كَمَا
 أَنَّهَا كَانَتْ تَدُرُّ عَلَيْهِمْ لَبَنًا يَكْفِيهِمْ كُلَّهُمْ، وَلِهَذَا كَانَتْ عِنْدَمَا تَرُدُّ الْمَاءَ تَشْرِبُهُ كُلُّهُ،
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].
 ﴿فَذَرَوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أَي: اتركوها تأكل وترعى، فليس عليكم
 مَوْنَةٌ إِطْعَامَهَا.

﴿وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءً﴾ أَي: لَا تَتَعَرَّضُوا لَهَا بِمَا يَسِيءُ إِلَيْهَا، فَضْلاً عَنْ قَتْلِهَا.
 ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أَي: يَنْزِلُ اللَّهُ بِكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا مِنْ وَقْتِ التَّعَرُّضِ لَهَا،
 فَلَا يُؤَخَّرُ عَنْكُمْ. وَقَدْ جَاءَ وَصْفُهُ أَيْضاً بِعَذَابٍ عَظِيمٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا
 تَمْسُوهَا إِسْوَاءً فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].
 وَمَعَ أَنَّهُ ﷻ حَذَّرَهُمْ، خَالَفُوا أَمْرَهُ وَقَتَلُوا النَّاقَةَ الْمُعْجَزَةَ:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ ١٥٦.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أَي: تَمَتَّعُوا بِالْحَيَاةِ فِي مَسَاكِنِكُمْ
 مَدَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ، وَبَعْدَهَا يَنْزِلُ بِكُمْ الْعَذَابُ، عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ.
 ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ أَي: وَعْدٌ حَقٌّ ثَابِتٌ لَا خُلْفَ فِيهِ.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ
 رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ١٦٦.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أَي: نَجَّاهُمْ اللَّهُ
 تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، كَمَا نَجَّى نُوحًا وَهُودًا وَالْمُؤْمِنِينَ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ.
 ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أَي: وَنَجْبَانِهِمْ مِنْ ذُلٍّ وَفُضِيحَةٍ ذَلِكَ الْيَوْمِ.
 ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أَي: هُوَ الْقَادِرُ الْغَالِبُ، يَنْجِي مَنْ يَشَاءُ
 بِرَحْمَتِهِ، وَيَهْلِكُ مَنْ يَشَاءُ بِعَدْلِهِ.

ثم بيّن سبحانه العذاب الذي أنزله بهم فقال:

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمًا﴾.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ أي: طوّقتهم الصيحة من كل مكان، وهي الصاعقة والصوت المفزع، ومعها الزلزلة الشديدة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمًا﴾ [الأعراف: ٧٨].

ويمكن أن يراد بالرجفة الارتعاشة الشديدة التي حلت في أجسادهم عندما سمعوا الصوت الهائل المفزع، سكنت بعدها أجسامهم سكون الموت، فلا حراك بها.

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمًا﴾ أي: هامدين موتى لا يتحركون.

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ﴾.

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأنهم لم يقيموا ويتمتعوا بهذه الديار التي كانت تزخر بحركتهم ونشاطهم.

﴿أَلَا إِنَّ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: كفروا بربهم، وجحدوا بآياته، فهم يستحقون العذاب الذي أنزله الله بهم.

﴿أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ﴾ أي: هلاكاً لهم وإبعاداً لهم عن رحمته وساحات فضله.

وقد جاء هذا التعقيب شبيهاً بتعقيبه تعالى على إهلاك عاد: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

• بين يدي قصة لوط وقومه:

وغيّرت الآيات الأسلوب المطرد، الذي التزمته في عرضها لبعض وقائع الأمم الغابرة: ﴿وَالَّذِينَ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠]، ﴿وَالَّذِينَ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود: ٦١]؛ لأنها ستعرض بين يدي قصة لوط وقومه خبراً عن نبي الله إبراهيم عليه السلام،

والبشارة التي تفضل الله تعالى بها عليه، وهذا الخبر يناسب قصة لوط مكاناً وزماناً وموضوعاً:

فالمكان: الأرض المباركة فلسطين، فقد كان ﷺ يقيم في فلسطين، في البلدة التي تسمى الآن باسمه: الخليل، بعد أن هاجر من بلاد قومه العراق، أما القوم الذين أرسل إليهم لوط فكانوا يقيمون في مدينة سدوم وما حولها، في مكان البحر الميت الآن أو بحيرة لوط.

والزمان: كان متقارباً أيضاً، فالواقعتان حدثتا في وقت واحد تقريباً.

والموضوع: بيان العقابة الطيبة للذين يلتزمون الحدود المشروعة المنسجمة مع الفطرة السليمة في علاقاتهم الجنسية، من حصول الخيرات والبركات والنسل الطيب والذرية الطاهرة، وبيان النتيجة السيئة الوحشية لمن يتجاوزون الحدود المشروعة، ويشذون عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

● إبراهيم والبشرى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ خَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ وكانوا من الملائكة؛ لأن رُسُلَهُ تعالى إلى الأنبياء ملائكة، كما في قوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]. وتدل كلمة ﴿رُسُلُنَا﴾ على أنهم كانوا ثلاثة فأكثر.

﴿بِالْبُشْرَى﴾ وهي البشارة بالولد، ولم يرزق ﷺ بعد بولد من زوجته سارة، وكان قد سأل الله تعالى أن يهبه ولداً عندما هاجر من بلاد قومه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٨﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصفافات].

فرزقه الله ولداً من هاجر، وكانت أمة مصرية مملوكة لزوجته سارة، وهبتها له فأولدها إسماعيل، فغارت منها سارة، وحدث بينهما ما يكون بين الضرائر، فأمره الله تعالى أن يأخذ هاجر وإسماعيل، ويسافر بهما إلى وادي مكة من أرض

الحجاز، ويتركهما هناك، ويرجع إلى مكان إقامته في فلسطين، وكان من خبرهما بعد ذلك ما ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنْزِلَ إِلَهُكُمْ فِي لَيْلٍ مُبَارَكَةٍ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا غَوَّاسًا يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْتُّكُمْ فَأْتُمْنِي فأتواهم بغداة فأخبره في ليلهم أنهم بلغوا قَالُوا الْمَلَائِكَةُ أُولَئِكَ حَافِيَا فَعُدَّدُوا إِلَهُ الْمَلَائِكَةِ وَالذِّكْرِ الْمَكْرُومَ ﴿١٢٦﴾ فذُكِّرُوا بِالْغَدَاةِ فَأَخَذُوا نِسَاءَ الَّذِينَ كَفَرُوا خَائِفَةً أُولَئِكَ كَانُوا فِي السَّاعَةِ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلمنا عليك سلاماً.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عليكم سلام، وقد حيَّاهم ﴿بِأَحْسَنِ مِنْ تَحِيَّتِهِمْ﴾؛ لأنها جملة اسمية دالة على الدوام والثبات، فهي أبلغ^(١).

وجاءت الملائكة إليه بهيئات بشرية، فأسرع بتقديم الطعام إليهم:

﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: ما تأخر في المجيء، بل عجل فأحضر عجلًا سميناً مشويًا على الجمر، مما يدل على كرمه وحبه للضيوف، ومسارعته إلى إكرامهم، قال تعالى: ﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَهُهُ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات].

ومن المعلوم أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون؛ لأن أجسادهم نورانية، فلم يمدوا أيديهم إلى الطعام:

﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ﴾ أي: لما رأى أيديهم لا تمتد إلى الأكل من العجل أنكرهم، وظن أنهم لم يأتوا بخير، كما هو المعروف عند الناس.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: استشعر خوفًا منهم.

وصارحهم ﴿بِمَا فِي نَفْسِهِ﴾، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، فردَّ عليه الملائكة يطمئنونه ويعرفونه بحقيقة أنفسهم ومهمتهم:

﴿قَالُوا لَا تَحْفَ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ أي: أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط.

ثم أخبروه بالبشارة التي يحملونها له، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَا نَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ۖ قَالْ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُونِ ۚ﴾ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بِشَرِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالِ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالِ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿الحجر﴾.

ويبدو أن زوجه سارة ما سمعت البشارة بالولد أول الأمر، إذ كانت بعيدة عن المجلس في داخل بيتها، وحضرت عند الحديث عن إهلاك قوم لوط:

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ بَشَرْتَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۖ﴾ ﴿٧١﴾.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي: ضحكت سروراً بهلاك المفسدين الشاذين المعرضين عن النساء إلى الرجال، ولعلَّ ميلَ النساء الفطري إلى الرجال هو سبب سرورها، فشذوذ الرجال وانصرافهم عن النساء يؤثر كثيراً عليهن.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ أي: بشرناها بولد اسمه إسحاق.

ولا يخفى ما في نسبة البشارة إلى الله تعالى - مع أنَّها كانت بلسان رسله من الملائكة - من تكريم لهذه المرأة الصالحة، التي استنكرت انحراف الشاذين من الرجال، وفرحت بانتقام الله تعالى منهم.

﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: وبشرناها أيضاً بأنها ستعيش حتى تقرر عينها برؤية ولد ولدها، يعقوب بن إسحاق ﷺ، فهي بشارة مضاعفة وفرحات متوالية، على قلب هذه المرأة الكريمة الصالحة.

ودلَّت البشارة على أنَّ إسحاق سيعيش حتى يتزوج، فهو لم يكن الذبيح كما يزعم اليهود، بل الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

﴿قَالَتْ يَوَئَلَيْهِ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۖ﴾ ﴿٧٢﴾.

﴿قَالَتْ يَوَئَلَيْهِ﴾ أي: قالت وهي في غمرة فرحتها، تعلن استعظامها لقدرة الله تعالى وتعجبها منها.

وأصل الويل في اللغة: الخزي، ثم شاع النطق به عند النساء في كل أمر يستعظم ويتعجب منه.

﴿وَأَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا في سن العجز والإياس؟!.

ومن المعلوم أنَّ المرأة إذا تقدّمت بها السن، ينقطع دمٌ حيضها، وتتعلّل أجهزة الإخصاب والولادة فيها، وهذا إذا كانت ولوداً، فكيف إذا كانت عقيماً كزوج إبراهيم، التي استبدّت بها الفرحة، فضربت بيدها على وجهها، ورفعت صوتها تعلنُ تعجبها من عظيم قدرة الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ كَأَمْرُهُ فِي صَرَخٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩].

﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ أي: وهذا زوجي في سن الشيخوخة، يقال: إنها كانت في سن التسعين، وكان ﴿عَبْدًا﴾ في سن المئة والعشرين، والله أعلم.

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: بالنسبة إلى سنّته تعالى في عباده.

• بيت النبوة:

﴿قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ (٧٣).

﴿قَالُوا أَنْعَجِينَ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: قال الملائكة: أتعجبين من أمر الله في قدرته وحكمته جلّ وعلا، وأنت في بيت النبوة ومهبط الوحي، وموضع المعجزات والكرامات والأمور الخارقة للعادات؟!.

﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: رحماته تعالى متتابعة عليكم، وخيراته النامية المتكاثرة عليكم يا أهل البيت.

والمراد به بيت النبوة، البيت المفرد العلم، معدن النبوة، ومحتد الرسالة، الذي تفرعت منه كل النبوات والرسالات، حتى ختمت بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والتسليم، قال تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ودلت الآية على دخول الزوجة في أهل البيت، ويؤكد ما أنزل الله في بيت النبوة، مخاطباً أمهات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣].

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ﴾ أي: إنه المحمود الذي يستوجب الحمد، عظيم الكرم والإحسان والشرف والمجد، جلّ وعلا.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (٧٤).

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ أي: ذهب الخوف الذي اعتري إبراهيم حين أنكر أضيافه.

﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ أي: بعد أن ذهب الخوف وحصل السرور بالبشرى.
﴿يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: شرع يجادل رُسُلنا في شأن عقاب قوم لوط لعله يؤخر عنهم.

وفصل تعالى هذه المجادلة في سورة العنكبوت بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا ظَالِمِينَ﴾ (٢١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهَاجِرُكَ (٢٢).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ﴾ (٧٥).

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي: غير عجول على الانتقام من الكفار.

﴿أَوَّهٌ﴾ أي: كثير التأوه خوفاً من الله تعالى، وتأسفاً على الناس.

﴿مُنِيبٌ﴾ أي: راجع إلى الله غير غافل عنه.

وهو مدح من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الكريمة، التي تدل على رقة قلبه، ورهافة مشاعره، وشفقته الكبيرة على الناس، فمجادلته عليه السلام كانت بسبب دوافع نفسية كريمة، يُعذر بسببها ولا يلام عليها. ولهذا اكتفى الملائكة بقولهم له:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَانْتِهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ مَرْدُودٍ ٧٦﴾ .

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدل، إنه قد جاء قضاء ربك المحتم، وحكمه المبرم، بعد أن أمهلهم تعالى مدة تكفي للتوبة والإنابة، لكنهم أصروا على كفرهم وفجورهم. ﴿وَإِنَّهُمْ ءَانْتِهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ مَرْدُودٍ﴾ أي: عذاب لا يُمنع ولا يُدفع بجدال أو غيره.

• في بيت لوط:

وجاءت الملائكة إلى لوط عليه السلام، وهو في بيته، بهيئات جميلة حسنة، وانتقلت الآيات إلى بيت لوط، لتصف لنا كيف استقبل أضيافه ذوي الوجوه الحسنة، وما حدث له مع قومه:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ٧٧﴾ .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ﴾ أي: ساءه مجيئهم، خوفاً عليهم من قومه. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: أحسَّ بضيق وانقباض في صدره، وقال يحدث نفسه: هذا يوم شديد.

وحدث المكروه الذي توقعه من قومه، فما لبثوا عندما سمعوا بأضياف لوط، أن أتوه مسرعين:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُورُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ٧٨﴾ .

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: جاؤوا إلى بيت لوط مسرعين يدفع بعضهم بعضاً، وهم يتسابقون إلى الفاحشة.

﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: وكانوا قبل هذا الوقت منهمكين في

فعل السيئات، فالقوم أدمنوا على الفواحش والشذوذ، ولهذا لم يستحيوا من مسارعتهم إليها، ولم يجدوا في أنفسهم أدنى غضاضة.

ولما رآهم ﷺ مقبلين نحوه كالثيران الهائجة، وسُعار الشهوة يضطرم في صدورهم، ما كان منه إلا أن تصدّى لهم أمام بيته، ليدفعهم عن ضيوفه، وعن شرف بيته وكرامته، وعرض عليهم أعز ما عنده:

﴿قَالَ يَقُومُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أي: هؤلاء بناتي فتزوجوهن.

وأراد ﷺ بهذا العرض عليهم، أن يحمي أضيافه ببناته، ويبدو أنه ﷺ ما قصد بناته الصُّلبيات فقط، وإنما قصد عموم نساء قومه، فهو بالنسبة لمقامه الرفيع بينهم كالوالد لهم، والدليل على ذلك ما حكاه سبحانه عنه في قوله: ﴿اتَّاتَوْا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء].

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أي: هن أطهر لكم حقيقة ومعنى، ففي إتيان النساء في المأوى الطبيعي استجابةً للفطرة السليمة، أمّا إتيان الذكور في موضع القذارة والنجاسة، فهو شذوذ عن الفطرة السليمة، وانتكاسٌ إلى القذارة والنجاسة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي: اتقوا الله بالخوف منه وخشيته والتزام حدوده، ولا تلحقوا بي الذلة والمهانة والفضيحة، باعتدائكم على حرمة أضيافي، وهي محاولة منه ﷺ في استثارة نخوتهم، لعلَّ فيهم بقية من مروءة ونخوة، كما حكى الحق عنه في سورة الحجر: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٧٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٨١﴾ لَعَنَّاكَ إِنْهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أي: أليس فيكم رجلٌ واحد فيه خير واستقامة

ورشاد؟!.

وهذا يدلُّ على أن سُعار الشهوة الشاذة غلب عليهم جميعاً، كما غلب على قلوبهم فلم يبقَ فيها أي جانب من جوانب الخير، حتى اختلَّت القيمُ عندهم،

وانعكست نظرُتهم إلى الأمور، فأصبح المعروف المألوف باطلاً ومنكراً في نظرهم، ولهذا ردوا عليه قائلين بوقاحة وسوء أدب:

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (٧٩).

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ما لنا في النساء اللاتي تريدُ أن ننصرف إليهن من حاجةٍ ومأربٍ. فقضاء الوطرٍ وتلبية نداء الشهوة بالطريق الفطري المشروع أمرٌ باطل في نظرهم.

﴿وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: من العمل الخبيث الفاحش.

فما أقبح الإنسان عندما ينسلخ عن مسؤوليته، وتستبدُّ به أهواؤه ونزواته! إن قومَ لوط صورةٌ للواقع الأليم الذي يمكن أن تنحطَّ إليه البشرية، يبين لنا ضرورة التكليف، وشدة حاجة الناس إلى الرسائل الإلهية، التي تبين لهم حكمة وجودهم، وجوهر حياتهم، وتربي في نفوسهم ووجدانهم الشعور بالمسؤولية أمام خالقهم، فلا يمكن ضبط النفوس الجامحة إلا بتربية الوجدان الديني، الذي يجعل الإنسان يستشعر رقابة الله تعالى عليه ويقدر مسؤوليته أمامه يوم القيامة.

ولنا أن نتصور مدى المعاناة النفسية الأليمة، التي مرَّ بها نبي الله لوط عليه السلام، في تلك الفترة الحرجة، وبدو أنه التفت أخيراً إلى ضيوفه، كالمعتذر إليهم عما يروونه من قومه:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (٨٠).

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أي: لو أجدُ عندكم قوةً أستعينُ بها على هؤلاء الكفرة الفجرة، لفعلتُ بهم وفعلتُ. وحذف جواب (لو) لدلالة السياق عليه، وليذهب الخيال في تقديره مذهباً بعيداً.

﴿أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أو ألجأ إلى جانب قوي منيع، أمتنع فيه معكم.

لقد شغلته المعاناة النفسية الأليمة عن قوة الله تعالى وحوله، ولهذا قال سيدنا رسول الله ﷺ: «يَغْفِرُ اللَّهُ لِلْوَطِ إِنْ كَانَ لِيَأْوِي إِلَى رَكْنٍ شَدِيدٍ» [رواه البخاري (٣٣٧٥)].

ورأى بعض العلماء أنَّ في قول النبي ﷺ هذا مدحاً للوط، لأنه لم يأوِ إلى قوم، وأوى إلى الله تعالى.

وقال النووي: يجوز أنه لما اندهش بحال الأضياف قال ذلك، أو أنه التجأ إلى الله في باطنه، وأظهر هذا القول للأضياف اعتذاراً^(١).

عندئذ كشف الملائكة له عن حقيقتهم، وجلوا له أمرهم:

• الصبح القريب:

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ أي: لن يتمكنوا من الوصول إليك، فدعنا وإياهم وتنح عنهم، فالله سبحانه لا يتخلى عن أحبائه وأوليائه، بله أنبياءه، وهو القائل: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

فلن يغلبَ الفجارُ الأبرارَ، والله سبحانه ما خلق الخلق لأصحاب المجون والفجور والشذوذ.

أذن الله تعالى لأحد ملائكته أن يظهر جزءاً من بنيته النورانية، في وجوه أولئك الذين أعمت الشهوة الشاذة بصائرهم، فطمست أعينهم، وسلبت بمشيئته تعالى وقدرته قوة الإبصار، فرجعوا يلتمسون الدروب في الظلام إلى بيوتهم،

(١) انظر: فتح الباري: ٤١٦/١.

وهم يقولون: إن هؤلاء أسحر أهل الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ﴾ [القمر: ٣٧].

ثم التفت الملائكة إلى لوط قائلين له:

﴿فَأَمْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: اخرج من البلد مع أهلِكَ في الليل.

﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا ينظر أحد إلى ما وراءه، كما يفعل النازحون عن بلدهم ووطنهم، يغادرونه، وهم ينظرون إليه، مودعين آسفين على فراقه، فالبلد بمن فيه بلد ملوث بالمجون والفجور، فلا تأسفوا على فراقه، ولا تنظروا إليه نظرة مودّع.

﴿إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي: لا تسر بها، ولا تخرجها معك؛ لأنها ليست على دينك، ولا بد أن يصيبها ما يصيب قومها من العذاب، ولن تنفعها صلتها بك، لأنها اختارت الكفر، وهي مسؤولة عن كسبها واختيارها، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فكل إنسان - كما مر معنا - مسؤول مسؤولية فردية شخصية عن عمله.

ويبدو أن لوطاً عليه السلام استعجل إنزال العذاب بهم من شدة ما عانى منهم، وما رأى من خبثهم وإجرامهم وشرهم، فقال له الملائكة:

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أي: إن الموعد الذي قدره الحق ﷻ لإنزال العذاب بهم، عند ظهور نور الصبح، وهو قريب.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ﴾ (٨٢).

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا﴾ أي: لما جاء أمر الله تعالى بإهلاكهم، وتطهير الأرض من دنسهم وفسادهم وشدوذهم، قلبنا الأرض بهم، وجعلنا

أعلاها في موضع أسفلها، والجزاء من جنس العمل؛ لأنهم عكسوا الأمور، وانتكسوا عن الفطرة السليمة، التي فطر الناس عليها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ أي: أنزل الله عليهم أيضاً حجارة من طين متحجّر متتابع فوق رؤوسهم.

﴿مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ (٨٣).

﴿مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلّمة، فكل حجر موجه لواحد منهم لا يخطئ هدفه، لأنه مرسل من عند الله تعالى القوي العزيز العليم.

وقد عذبهم الله تعالى بعذاب ثالث قطعاً لدابّهم، قال تعالى: ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَغِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٦) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٨﴾ [الحجر].

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ أي: وهذه الحجارة يمكن أن تنزل على غيرهم من الظالمين، ففي الآية تهديد ووعد شديد لكل الشاذين المنحرفين المتشبهين بقوم لوط.

● قصة شعيب وقومه:

وتحوّلت الآيات إلى الشمال قليلاً من بلاد ثمود، إلى قوم نبي الله شعيب عليه السلام في مدين:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْشَطُونَ﴾ (٨٤).

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، وقال لهم كما قال الأنبياء من قبله:

﴿قَالَ يَبْقَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾.

وأبرز عليه السلام آفة خطيرة ابتلي بها قومه، وهي التلاعب بالمكاييل والموازين، ليأكلوا أموال الناس بالباطل، فقال:

﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: إني أراكم بسعة وغنى ورخاء، فلا تزيلوا هذه النعمة عنكم بالغش والاحتيال.

﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُ﴾ أي: أخشى أن ينزل بكم - إن أصررتم على كفركم ومعاصيكم - عذاب يوم لا ينجو منه أحد.

﴿وَيَقَوْمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨٥).

﴿وَيَقَوْمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: أتموهما بالعدل، وأزيلوا ما أحدثتم فيهما من نقص.

فهو ينصحهم ليصلحوا ما أفسدوا من المكيال والموازين، حتى يتحقق العدل في جميع معاملاتهم المستقبلية، وتشيع الثقة بينهم.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: ولا تنقصوا الناس أي حق من حقوقهم، مما يدل على أن الاحتيال والكذب والغش كان سائداً في معاملاتهم.

﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تعملوا على نشر الفساد في الأرض.

وكانوا إلى جانب ما تقدم يقطعون الطرق على الناس، مستفيدين من موقع بلادهم على طرق القوافل بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا نَكَّرَكُمُ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

﴿يَقَيِّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (٨٦).

﴿يَقَيِّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما يبقى لكم من مال حلال بعد أن تردوا الأموال المسروقة والمغصوبة إلى أصحابها، خير لكم من الأموال الكثيرة التي جمعتموها بالباطل، بشرط أن تؤمنوا بالله تعالى، وتلتزموا بأحكام دينه وشرعه، فلا خير مع الكفر.

أو: إن كنتم تصدقوني فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، فما يرزقكم الله تعالى بالحلال خيرٌ ممَّا تجمعونه بالحرام.

وقد يكون مراده أن يبين لهم أن الحلال الطيب ولو كان قليلاً، خيرٌ من الخبيث الكثير المحرم، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرُهُ الْخَبِيثُ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّوَلَّى الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي: وما أنا الذي أحفظ أعمالكم وأسألكم عنها، بل أنا مبلغ وقد أعذرت إذ أذرت، وأنتم مسؤولون أمام ربكم.

لكنَّ الشرَّ والطمع وحبَّ المال أعمى بصائرهم، واستعمر قلوبهم، ولوث ضمائرهم، فلم يتأثروا بموعظة نبيهم، وردوا عليه بتهكم وازدراء واحتقار:

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (٨٧).

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُنَا أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾؟! أي: من الأصنام والأوثان.

وقد بلغوا في قولهم هذا أقصى مراتب الانحراف والزيغ والضلال، حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الأمر بذلك، حتى ادعوا أن لا أمر به من العقل واللب أصلاً، وأنه من أحكام الوسوسة والجنون، وعلى ذلك بنوا استنفاهم^(١).

كان صلاته ﷺ في نظرهم من أفاعيل المجانين، وأنها هي التي أمرته بذلك. ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أي: وصلاتك توحى إليك أيضاً لكي نمتنع عن التصرف في أموالنا كما نشاء؟!.

إنَّه الجشع وطغيان المال الذي يدفع أصحابه إلى استغلاله واستثماره بطرق تعسفية، كالربا والاحتكار والغش والتلاعب بالمقاييس، تحت شعار الحرية

الاقتصادية، ويؤدي هذا إلى تكديس الثروات في أيدي حفنة قليلة من الناس، يزيدهم سرفاً وترفاً وبطراً، ويزيد عامة الناس فقراً وفاقة وحرماناً.

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ولا يخفى أنهم ما أرادوا وصفه ﴿بِهَذِهِ الصِّفَاتِ﴾ بل أرادوا التهمك به والسخرية منه ﴿بِهَذِهِ الصِّفَاتِ﴾.

• خطيب الأنبياء:

وردَّ ﴿بِهَذِهِ الصِّفَاتِ﴾ عليهم متجاهلاً تهكمهم واستهزاءهم، ووجه كلامه إلى تأكيد صدق رسالته، وصحة نبوته، وإلى تنزيه دعوته عن تحقيق أي كسب مادي له، فقد رزقه الله تعالى رزقاً طيباً حلالاً يكفيه ويغنيه، وهو لا يريد بدعوته إلا الإصلاح العام في المجتمع.

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: أخبروني كيف أتخلَّى عن دعوتي، وهي قائمة على بينة واضحة من ربي، ورزقني معها رزقاً طيباً حسناً، يغنيني ويكفيني؟!.

فقوله هذا يشبه قول الأنبياء السابقين الذين نزهوا دعوتهم عن أي كسب مادي، عندما قال كل واحد منهم: ﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١] كما مر معنا، لكن شعباً ﴿بِهَذِهِ الصِّفَاتِ﴾ عرض هذا المعنى بأسلوب آخر.

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفَكُمُ إِلَىٰ مَا أَنهَكُم عَنْهُ﴾ أي: وما أريد أن أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه، لأستأثر بالنفع والكسب دونكم. وهو تعريض ببعض الأساليب الملتوية التي يلجؤون إليها، لاحتكار البضائع وتحقيق الأرباح.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما أريد بدعوتي إلا الإصلاح والنصيحة والموعظة، على قدر استطاعتي.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: وما توفيقِي إلا بتأييده سبحانه ومعونته، ولهذا فإني أتوكل عليه وأرجع إليه لا إلى غيره.

وكان الخليفة الأموي الصالح عمر بن عبد العزيز رحمته الله، يختم كتبه إلى عمّاله بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(١).

ثم أضاف شعيب عليه السلام إلى موعظته ودعوته تهديدهم بعذاب الله تعالى، مع إخبارهم بشفقته عليهم، وخوفه أن يصيبهم ما أصاب الأمم الهالكة من حولهم، وجمع عليه السلام كل هذه المعاني بكلمات بليغة مؤثرة، فهو حقاً خطيب الأنبياء:

﴿وَنَقُورَ لَا يَجْرِمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾

﴿وَنَقُورَ لَا يَجْرِمَكُمُ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ أي: لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على الكفر والفساد، فيصيبكم العذاب والهلاك، كما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح.

﴿وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ فهم قريبون منكم في المكان والزمان، فالعذاب الذي أنزله الله بقوم لوط ذاع وانتشر بين الناس، وتناقله المسافرون والركبان، وآثاره لا زالت باقية حتى اليوم، في أخفض مكان في العالم عن سطح البحر، وهو البحر الميت أو بحيرة لوط.

ثم ختم عليه السلام كلماته بحثهم على الاستغفار والتوبة، كما فعل الأنبياء قبله:

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

أي: عظيم الرحمة كثير المودة للمستغفرين التائبين.

وبقي قوم شعيب مصرّين على كفرهم وفسادهم، مع أنهم سمعوا أدلة الحق

الواضح على أحسن وجه وأبلغه، وقابلوا كلامه المحكم المؤيد بالحجج القاطعة بالإعراض، وتظاهروا بالغباء، وقلة الفهم، ولوّحوا له مهديين متوعدين:

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهم أكثر كلامك، فهو كلام غريب غير مفهوم في نظرهم، مما يدل على تبلُّد مشاعرهم، وغلظة طباعهم. وكثيراً ما نشاهد في عصرنا الحاضر أمثال الملاء من قوم شعيب، ممن طغى حُبُّ المال على نفوسهم، وسيطر على أفكارهم، فلا يفهمون إلا ما يسمّى في العصر الحاضر لغة المال، وهي في الحقيقة لغة الجشع والشره والطمع، فإذا ما حدثتهم بلغته أنصتوا إليك بكل ذرة في أجسادهم، وأما إذا حدثتهم حديثاً آخر أعرضوا عنك، وأغلقوا دون حديثك أسماعهم وعقولهم، ورأوا فيما تحدثهم به مضيعة لوقتهم. ثم أضافوا قائلين:

﴿وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا﴾ أي: نراك قليل المال لا قوة لك. فالمال في نظرهم هو القوة، وما كان ﴿ب﴾ من أصحاب الثراء الواسع والغنى الكبير. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أي: لولا عشيرتك التي تنتمي إليها لقتلناك رجماً بالحجارة. وقد هدّده أيضاً بالإخراج من البلاد وطرده منها، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مَلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: أنت لست عزيزاً علينا، وإنما رهطك وعشيرتك هم الأعزة عندنا.

وبدو أن رهطه ﴿ب﴾ كانوا مثلهم متمسكين بالكفر والفساد، ولهذا أظهروا الميل إليهم والإكرام لهم.

• توبيخ وتحد:

وما كان شعيب ﴿ب﴾ يعتزُّ بعشيرته، ولا يعتمد عليهم، ولا يحتمي بهم،

ومرَّ معنا أَنَّهُ أعلنَ اعتزازه بالله تعالى واعتماده عليه وحده، عندما قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ولهذا ردَّ عليهم منكرًا قولهم هذا وموبخًا لهم عليه:

﴿قَالَ يَنْقُومِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٩٢).

﴿قَالَ يَنْقُومِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾؟! أي: كيف تجعلون رهطي أعزَّ عليكم من الله ﷻ؟! فإن تهاونكم بي تهاون بالله تعالى، فهو الذي أرسلني إليكم. ولا يخفى ارتفاع نبض كلماته وحرارة عاطفته، ممَّا يدل على غضبه ﷻ لربه تعالى:

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ أي: جعلتموه سبحانه كالشيء المنبوذ وراء ظهوركم، لا تبالون به، ولا تخافون من سطوته، وأنتم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء منكم، ولا نجاة لكم من سطوة عذابه وانتقامه.

ثم ألقى ﷻ إليهم كلمته الأخيرة، بصيغة الإنذار الأخير لهم:

﴿وَيَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ (٩٣).

﴿يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعملوا بالأسلوب والطريقة التي تختارونها لأنفسكم، فأنتم مسؤولون عن عملكم واختياركم، ومجزيون عليه أوفى الجزاء وأعدله في الدنيا والآخرة.

﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي: بما شرعه لي ربي وكلفني به، فكلُّ منَّا مسؤول عن عمله وكسبه واختياره.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يفضحه ويهينه بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ أي: وستعلمون أيضاً أننا الكاذب. وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه ﷺ، ووصفه بالضعف والهوان. ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: انتظروا ما يحلُّ بكم إني معكم منتظر. وهكذا أظهر ﷺ ثقته الكاملة بالله تعالى، وتحذَّاهم بصراحة وعرض بهم ووبَّخهم، دون أن يبالي بتهديدهم ووعيدهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمٌ﴾ (٩٤).

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أي: بفضل منه تعالى، كما نَجَّى الأنبياء السابقين، ومن كان معهم من المؤمنين. ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ كما أخذت قبلهم ثمود، وارتعشت أجسامهم، واهتزت لقوتها، ثم همدت، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمٌ﴾ [الأعراف: ٩١]. وقال هنا: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمٌ﴾ أي: هامدين لا حراك بهم.

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ (٩٥).

﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: مضوا وانقضوا كأنهم ما كانوا وما سكنوا هذه الديار، ولا جمعوا هذه الأموال. ﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ أي: هلاكاً لمدين وبُعداً لهم عن رحمته تعالى، كما أبعدت ثمود عن رحمته وساحات فضله. وذكر سبحانه ثمود لأنهم كانوا جيرانهم، قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم^(١).

ويمكن أن يكون ذِكْرُ ثمودَ، لأن مصير مدين وإهلاكهم يشبه مصير ثمود.

● موسى وفرعون:

وختمت الآيات استعراضها التاريخي لبعض قصص الأنبياء مع أممهم، بوقف قصيرة عند نبي الله موسى ﷺ مع فرعون، أظهرت فيها مسؤولية كل إنسان مسؤولية شخصية فردية، وأشارت إلى أن اتباع قوم فرعون وطاعتهم له لا يخلصهم من مسؤوليتهم أمام الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾.

أي: أرسلنا موسى مؤيداً بالمعجزات الباهرة، والحجة البينة الواضحة.

﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: إلى فرعون وأعدائه ورجال دولته.

ومن المعلوم أن رسالة موسى كانت أيضاً إلى بني إسرائيل وعامة المصريين، ولكن الآيات ذكرت رأس الضلال وحاشيته، الذين كانوا أكثر الناس طاعة له، ومسارعة إلى تنفيذ أوامره، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اتبعوه اتباعاً أعمى دون أدنى نظر وتفكير.

﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: وما كان أمر فرعون على خير وهدى، بل كان طاغية متجبراً يدعي لنفسه صفة الألوهية والربوبية، ويقول ما حكاه تعالى عنه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وفي وصفه بعدم الرشاد تجهيلاً لمتبعيه، الذين تابعوه على أمره، وهو شر محض وضلال ظاهر، وأعرضوا عن دعوة موسى ﷺ المؤيدة بالمعجزات الباهرة والسلطان المبين.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿٩٨﴾ .

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: يتقدمهم يوم الحساب والجزاء، فكما كان قدوتهم في الضلال في الدنيا، كذلك يتقدمهم إلى النار يوم القيامة.
﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي: يوردهم النار كما يورد الراعي قطع الغنم، ويدخلون فيها وراءه.

وهذا نص صريح في عذاب فرعون يوم القيامة في النار، ورد على القائلين بنجاته من العذاب^(١).

﴿وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس الورد الذي يردونه النار، لأن الورد إنما يراى لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنار على ضد ذلك^(٢).
ولعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما لعن الأمم الكافرة قبلهم، فقال:

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ ﴿٩٩﴾ .

﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فهي لعنة تتبعهم وتلازمهم ولا تفارقهم في الدنيا والآخرة.

ولما كانت اللعنة أمراً زائداً على عذابهم، جعلت كمعونة لهم على سبيل التهكم، فوصفت بقوله تعالى:

﴿يَبْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي: وبئس العون المقدم لهم. ويطلق الرfid في الأصل على كل ما يضاف إلى غيره.



(١) انظر: تفسير سورة يونس في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا، تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

(٢) تفسير أبي السعود: ١٣٥/٥.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ

الاستقامة على التكليف والتحذير من الظلم

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَفْضُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْبِيْ ۚ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا رَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلَيْنِ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تُكَ فِي مَرْبَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَقْصُوفٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي سَكِّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمِمَّا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ

رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَاؤُنَ تَحْتِلِفِينَ ﴿١٧٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ
كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٩﴾

● التعقيب:

وشرعت الآيات في التعقيب على تلك القصص، وبيان ما فيها من مواضع وعبر وحكم، بعد أن أبرزت في أثناء عرضها مسؤولية الإنسان الشخصية الفردية، عن كسبه واختياره، والجزاء الذي يبدأ في الدنيا ويمتد إلى الآخرة. والتفتت الآيات في أول تعقيب إلى مخاطبة النبي ﷺ، تثبته وتواسيه في مواجهة قومه، وتؤكد أن هذه الأخبار التاريخية من وحيه تعالى، المنزل على الرسول ﷺ:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ ذلك الذي تقدّم ذكره، بعض أخبار البلاد والمدن الهالكة والحضارات البائدة، نقصه عليك يا محمد. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: بعضها لا تزال آثارها قائمة ماثلة للعيان، كديار ثمود، التي مرّ النبي ﷺ فيها وهو في طريقه إلى تبوك. فعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لما مرّ بالحِجْر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم» ثم تقنّع بردائه، وهو على الرَّحْلِ. [رواه البخاري (٣٣٨٠)].

وفي رواية أخرى عنه: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحِجْر في غزوة تبوك، أمرهم ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهرقوا ذلك الماء. [رواه البخاري (٣٣٧٨)]. وبعض هذه القرى الهالكة أصبح حصيداً عفى عليه الزمن، ومحا آثاره كالزرع المحصود إذا مرّ عليه زمن طويل.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ﴾ (١٠١).

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: ما ظلمهم الله تعالى بإهلاكهم، فهو منزَّهٌ عن الظلم، وعن جميع صفات النقص، ولكن ظلموا أنفسهم بسوء اختيارهم وكسبهم، عندما ظنَّوا أنَّهم غير مسؤولين، وأنهم خلَقوا للعبث واللغو والبغي، فأعرضوا عن رسالات الله تعالى وكذبوا أنبياءه.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: فما نفعتهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله تعالى، عندما نزل بهم العذاب والهلاك، فما دفعت عنهم عذاباً، ولا أخرت عقاباً.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ﴾ أي: وما زادوهم غير تخسير، فبدل أن ينفعوهم زادوا في خسارتهم، التي لا عوض لها، ولا تلافي عنها، إذ صرفوهم عن المهمة الأساسية التي خلَقهم الله لها، وهي عبادته تعالى وعمارة الأرض بطاعته والتزام شرائعه.

● تحذير عام:

وإهلاكه تعالى للبلاد الظالمة، وإسقاطه للحضارات الفاسدة، لم ينته ولن يتوقَّف، فله تعالى سننٌ في خلقه لا تتغير ولا تتبدل، وهذا ما قرره تعالى في التعقيب الثاني بقوله:

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢).

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: ومثل ذلك الإهلاك والتدمير الذي أنزله الحق في الأمم الظالمة الباغية، سيكون انتقامه وإهلاكه للبلاد الظالمة والأمم الفاسدة الطاغية.

وقد يختلف أسلوب التدمير والانتقام من الأمم الباغية الظالمة، ولكنه واقعٌ

بهم لا محالة، كما يشاء سبحانه وكما تعلّق به علمه، قال تعالى: ﴿وَأَمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، فإذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١١٠]. [رواه مسلم (٢٥٨٣)].

ومهما كان انتقام الله تعالى من الظالمين، فهو أليم شديد: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وفي الآية تحذير عام لكل الأمم والأجيال، ولجميع الأفراد والجماعات. ولا يعتبر بهذه القصص ويستفيد من دروسها ومواعظها، إلا الإنسان الذي يشعر بمسؤوليته عن هذه الحياة، ويؤمن أنه ما خُلِقَ عبثاً، وأنه مكلف مسؤول مثاب أو معاقب، فالشعور بالمسؤولية مفتاح كل خير وصلاح، والانسلاخ عنها مفتاح كل شر وفساد، وقد دأبت الآيات الكريمة في السورة على التركيز على هذا المعنى وإبرازه، وهو التعقيب الثالث على ما تقدم من قصص في السورة، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [١١٢].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: إن فيما تقدّم من أخبار الأمم الهالكة لعبرة وموعظة لمن قدّر مسؤوليته عن أعماله يوم القيامة، وخاف مما فيها من حساب وجزاء، فأصلح عمله وسلوكه، والتزم بدين الله تعالى وشرعه.

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: يوم القيامة يوم لا بدّ منه، يجمع الله تعالى فيه جميع الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكَ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي: يشهده جميع الخلائق ولا يغيب عنه أحد.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ (١٠٤).

أي: وما نؤخر يوم القيامة إلا لأجل مقدر محسوب، سبق في علمه تعالى، وتعلقت به إرادته ومشيتته، ولا يعلمه إلا هو ﷻ، فإذا انتهت العدة المقدرة المحسوبة، أقامه العليم الخبير.

● الأشقياء والسعداء:

ومر معنا أن الناس بالنسبة لهذا اليوم فريقان: فريق جاحد له، وفريق مصدق به، وكذلك يكونون فيه عندما يقيمه الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (١٠٥).

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: عندما يأتي يوم القيامة لا يجروا أحد على الكلام إلا بإذنه جل وعلا، فالمُلك فيه لله تعالى وحده، والأمر والحكم فيه له أيضاً وحده، وحتى الملائكة المقربون والأنبياء والمرسلون لا يتكلمون إلا بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

ففي أول الحشر يخيم على الخلائق صمت رهيب، وسكون عميق شامل، قبل أن يبدأ الحساب، ويميز الله تعالى بين الأشقياء والسعداء:

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فمن المكلفين شقي وجبت له النار، واستحق العذاب، بسوء كسبه واختياره، ومنهم سعيد، وجبت له الجنة، بفضل الله تعالى، بسبب حسن اختياره وكسبه.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

أي: فأما الذين اختاروا طريقَ الشقاء، وأصرُّوا عليه حتى الموت، فمصيرهم إلى النار، لهم فيها من شدَّة حرها زفيرٌ وشهيقٌ، وهو كناية عن تردد أنفاسهم بصعوبة ومشقة، فالزفيرُ إخراجُ النَّفْسِ بصعوبة، والشهيقُ أخذه كذلك.

﴿خَلْدِيَّتٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

﴿خَلْدِيَّتٌ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: ما كُثِنَ فيها ما دامتِ السموات والأرض. وهذا التوقيفُ عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع، بناء على مناجاة قول العرب: (ما أقامَ ثبيرٌ)، (وما لاح كوكبٌ)، و(ما اختلف الليل والنهار)، وغير ذلك من كلمات التأييد، وليس المرادُ تعليقُ قرارهم فيها بدوام السموات والأرض، فإنَّ النصوصَ القاطعةَ دالةٌ على تأييد قرارهم فيها، وانقطاع دوام السموات والأرض.

وإن أريد التعليقُ فالمراد سموات الآخرة وأرضها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ^(١)، وهي باقية بمشيئته تعالى لا زوال لها.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وهذا الاستثناءُ يبيِّن لنا أن دوام بقائهم وخلودهم فيها، بمشيئته تعالى كما أخبرنا بنصوص قاطعة كثيرة عن ذلك، فمشيئته تعالى نافذة أبداً فيهم، وخلودهم في النار ليس أمراً ذاتياً، إنما هو بمشيئته جلَّ وعلا.

ولهذا قال سبحانه بعد ذلك، يبين طلاقة مشيئته وكمالها:

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وقد أراد خلودهم في النار أبداً، وأخبر عن ذلك

بآيات كثيرة:

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ١٣٩/٥.

منها قوله الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَخْرُجُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٥﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [النساء].

ومنها قوله أيضاً: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

والجدير بالذكر أنَّ المفسرين اختلفوا في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، نقل كثيراً منها ابن جرير رحمته الله في كتابه، واختار ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أنَّ الاستثناء عائدٌ على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين؛ من الملائكة والنبیین والمؤمنين، حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر، ثم رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من لم يعمل خيراً قط، ولكنه قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله... ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها^(١).

وأما مصير السعداء، فهم في الجنة خالدين فيها أيضاً بمشيئته تعالى:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوفٍ﴾ [١٠٨].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: إن خلودهم في الجنة منوط بمشيئته تعالى، وقد أخبر تعالى في آيات كثيرة أنه شاء خلودهم أبداً.

قال ابن كثير رحمته الله: «معنى الاستثناء - هاهنا - أنَّ دوامهم فيما هم فيه من

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٦٠/٢.

النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً^(١).

﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُورٌ﴾ أي: أعطوا في الجنة عطاءً غير مقطوع، فهو مستمر بفضل الله تعالى أبداً، كما في قوله الكريم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

• الجزاء الوافي:

وعادت الآيات إلى مخاطبة النبي ﷺ تثبته وتواسيه، مما يدل على شدة ما كان ﷺ يعاني من عنادهم وغلظتهم، كما تدل على أنها نزلت عليه وهو في مكة المكرمة، في ذروة مواجهته للمشركين، وتؤكد على تقرير المسؤولية الكاملة والجزاء الوافي لجميع المكلفين:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾
نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مَنُوصٍ ﴿١٠٩﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ﴾ أي: لا تكن في شك من سوء عاقبة ما يعبد هؤلاء المشركون، الذين تواجههم وتلقى منهم الأذى والجحود.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ﴾ أي: ما يعبدون إلا الأصنام والأوثان، كما كان آباؤهم يعبدونها، فهم مثل آبائهم في الشرك والكفر، وسيصيبهم مثل ما أصاب آباءهم، كما قصصنا عليك.

﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ﴾ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مَنُوصٍ ﴿١٠٩﴾ أي: وإنا سننزل بهم نصيبهم المقدر لهم من العذاب، كاملاً غير ناقص.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٦٠/٢.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: آتيناه التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل، آمن به بعضهم وكفر آخرون، كما اختلف قومك في القرآن الكريم.
 ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدّر ألا يعاجل الكافرين بالعذاب، وأن يمهّلهم إلى الأجل المقدر لهم، لأنزل العذاب الذي يميّز بينهم وبين المؤمنين، فيهلك الكافرين، وينجي المؤمنين، كما حدث فيما قصّبه علينا.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإن كفار قومك ليستحققون معاجلتهم بالعذاب؛ لأنهم في شك منه وارتياب.

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقُنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِقُنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: وإن كلا الفريقين، المؤمن والكافر، مسؤولون أمام الله تعالى، وسيوفهم جزاء أعمالهم من ثواب وعقاب.
 ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بحقيقة أعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها، ولهذا سيكون الحساب كاملاً، والجزاء من عقاب وثواب وافياً.

● الأمر بالاستقامة:

فالناقد بصير، وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت، والإنسان تحت الرقابة الإلهية الدائمة، وهو مسؤول أمام الحق تعالى مسؤولية كاملة، وهذا يفرض عليه الالتزام الدائم بدين الله تعالى وشرعه، والاستقامة الكاملة على منهجه، ولهذا توجهت الآيات إلى النبي ﷺ، تأمره أمراً صريحاً قاطعاً ملزماً:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي: كن دائماً على الصراط المستقيم، الذي أمرك الله

تعالى به، فهو أمرٌ شاملٌ لكل أوامر الله تعالى، في العقيدة والعبادة والمعاملة، وتحمل أعباء الرسالة، وتبلغ الأمانة.

ولا بد أن يستشعر القارئ لهذه الكلمات أنها أمرٌ علوي، أمر به النبي ﷺ، وصدرت من ذاتِ أمرٍ، وليس نابعاً من ذاته ووجدانه، كما يزعم الجاحدون لظاهرة الوحي، كما يدرك المتدبر للآية ثقل المسؤولية الملقاة على عاتق النبي ﷺ، فمهمته ثقيلة، ومسؤوليته متميزة عن غيره من الناس، ولهذا وجهٌ إليه الخطاب أولاً.

ولما كان النبي ﷺ أعظم الناس معرفة بالله تعالى، وأشدّهم خشيةً له ﷻ، كان أكثر الناس تقديراً لخطورة الأمر الإلهي، الذي أمره الحق ﷻ به، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما نزلت على رسول الله ﷺ آيةٌ أشدّ من هذه الآية ولا أشقّ^(١).

ثم عمّم سبحانه الأمر بالاستقامة إلى جميع المؤمنين، فقال:

﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي: وليستقم أيضاً مَنْ تاب من الكفر والشرك، وشاركك

في الإيمان والسير على طريق الإسلام.

﴿وَلَا تَقْعُوزُوا﴾ أي: لا تنحرفوا عن حدود الله التي شرعها لكم بإفراط أو

تفريط، فإنَّ أيَّ تجاوزٍ للحدود المشروعة يخلُ بحقيقة الاستقامة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

[البقرة: ٢٢٩].

ومن هنا كانت الاستقامة شديدةً وثقيلةً، فهي تستدعي أولاً فقهاً بدين الله

تعالى وعلماً بأحكامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢٣٠].

وقول النبي ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ» [رواه البخاري (٧١)].

كما تستدعي الاستقامة أيضاً خوفاً من الله تعالى، ومراقبة له، ولهذا ختم سبحانه آية الأمر بالاستقامة فقال:

﴿إِنَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فشأنها شأن خطير، ولهذا قال العلماء: الاستقامة عينُ الكرامة، فمن وفقه الله تعالى إليها فقد أكرمه أعظم كرامة، وله عند الموت أكبر بشارة، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

• الركون إلى الظالمين:

ثم حذرتهم الآيات من أمرٍ كبيرٍ خطيرٍ، يصادمُ الاستقامة ويخالفها مخالفةً كاملة، بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تميلوا أدنى ميل إلى الظالمين مهما كانوا. والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه، وخطابُ الرسول ﷺ وَمَنْ معه من المؤمنين، للتثبيت على الاستقامة، التي هي العدل، فإنَّ الميلَ إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ظلمٌ على نفسه أو على غيره^(١).

والركونُ حقيقةُ الاستناد والاعتماد، والسكونُ إلى الشيء والرضا به، ولهذا نقل العلماء في بيان حقيقته أقوالاً متقاربة. قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم، وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم^(٢).

(١) تفسير أبي السعود: ١٤٤/٥.

(٢) تفسير القرطبي: ١٠٨/٩.

وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس رضي الله عنه: لا تداهنوا. وقال ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنه: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم رضىتم بأعمالهم ^(١). والآية عامة في جميع الظالمين، سواء كانوا من الكفار والمشركين، أو من عصاة المؤمنين، قال القرطبي رحمته الله: «وهذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي، من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية» ^(٢).

﴿فَمَسَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصُرُونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه تعالى أولياء ينقذونكم، ولو وجدوا لا يستطيعون نصركم. فالركون إلى الظالمين ظلم في نظر الإسلام، لأنه يشجع الظالمين على ظلمهم، ويجعلهم يتمادون فيه. ولعمري إن الآية أبلغ شيء في التحذير من الظلمة والظلم، ولهذا قال الحسن: جمع الدين في لاءين؛ يعني: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، ﴿وَلَا تَزْكُوا﴾.

ويُحْكِي أَنَّ الموفق أبا أحمد طلحة العباسي صلي خلف الإمام، فقرأ هذه الآية فعُشِيَ عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف الظالم ^(٣). وقال الله جل جلاله للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْلَا أَن تُبَنِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ^(٤) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ^(٥) [الإسراء]. وإذا كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم، فما حالنا؟! أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق، وألا يجعلنا فتنة للظالمين.

• الصلاة والإحسان:

ثم بين تعالى أفضل وسيلة يستعين بها المؤمن للثبات على الحق، ويعتصم بها من الزلل ومن الركون إلى الظالمين، فقال:

(١) تفسير ابن كثير: ٤٦١/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ١٠٨/٩.

(٣) روح المعاني: ١٥٥/١٢.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرُوا لِلذَّاكِرِينَ﴾ (١١٤).

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ أي: أقم الصلاة في الصباح والمساء، وفي ساعات من الليل، أو طائفة من الليل.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: إن فعل الحسنات، كإقامة الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا والذنوب.

وفي الحديث الشريف: عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرُوا لِلذَّاكِرِينَ﴾» قال الرجل: ألي هذه؟ قال: «لِمَن عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي» [رواه البخاري (٤٦٨٧)].

والسيئات التي تُمحي بأداء الصلوات هي الذنوب الصغيرة، أما الذنوب الكبيرة فلا بد لها من توبة، لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مِّدْحَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ولقول النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات ما بينهنّ إذا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ» [رواه مسلم (٢٣٣)].

﴿ذَلِكَ ذَكَرُوا لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي: إقامة الصلاة ذكرى للذاكرين، لأنها تذكّرهم بالله تعالى، ومسؤوليتهم يوم القيامة أمامه، فتبعثهم إلى طاعته، وتحجزهم عن معصيته، كما قال سبحانه: ﴿أَتُلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنِ الصَّلَاةَ نَهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١١٥).

أي: اصبر على إقامة الصلاة، والقيام بما كُلفت به، وذلك بالدوام عليها

والتمسك بها، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

فإنه تعالى لا يضيع أجر المحسنين في طاعته وعبادته، وقد مر معنا أنه يوفيه أجورهم كاملة من غير بخس، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ودلت الآية على أنَّ الصبر على الصلاة وغيرها من التكاليف الشرعية، يوصل إلى مرتبة الإحسان، وهي مرتبة رفيعة، عرّفها النبي ﷺ بعد أن سألته جبريل عنها فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

وأشار عليه الصلاة والسلام في الجواب إلى حالتين: أرفعهما: أن يغلب عليه مشاهدة الحق سبحانه بقلبه، حتى كأنه يراه بعينه. والثانية: أن يستحضر أنَّ الحقَّ سبحانه مطلعٌ عليه يرى كل ما يعمل. وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته، قال النووي: معناه أنك إنما تراعي الآداب المذكورة، إذا كنت تراه ويراك، لكونه يراك لا لكونك تراه، فهو دائماً يراك، فأحسن عبادته وإن لم تره^(١).

• الترف وانتشار الفساد:

ثم بيّن تعالى أنَّ من مسؤولية كل فرد، مقاومة المفسدين ودفع فسادهم، فإن ذلك من أهم أسباب سلامة المجتمع وبقائه، وإن شيع الفساد في المجتمع وتغلب المفسدين عليه، يؤدي إلى هلاكه وسقوطه، فقال سبحانه:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هلاً

كان في الأمم الهالكة من قبلكم أولو عقل وفضل وقوة، يهون المفسدين عن الفساد، ويمنعونهم من نشره بين الناس.

وسُمِّيَ الفضلُ والجودُ بقیَّةً، لأن الرجل يستبقي مما يخرجهُ أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقیة القوم، أي: من خيارهم، ومنه قولهم: «في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا»^(١).

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آتَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لكن القلة المؤمنة التي أنجيناها من الأمم الهالكة، ما كانت قادرةً على قمع المفسدين، بسبب قَلَّتْهم وضعفهم، فالتقادرون على قمع المفسدين كانوا هم المفسدين الذين اتبعوا شهواتهم ونزواتهم.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ﴾ أي: تركوا النهي عن الفساد واهتموا بتحصيل شهواتهم وسرفهم وترفعهم.

ولا شكَّ أنَّ الترفَ والتبذيرَ من أهم أسباب شيوع الفساد في المجتمعات، ولهذا نرى المترفين في كل عصر أكثر الناس فساداً، وأشدَّهم مسارعة إلى مقاومة دعوة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ مُنْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيَّ الْقَوْلُ فَنَدَمْنَاهَا نَدَمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿وَكَانُوا جُحَرِمِينَ﴾ أي: وكان هؤلاء المترفون مجرمين، ارتكبوا جرائم كثيرة، ونشروا فساداً كبيراً، حتى وصلوا إلى ما هم عليه من السرف والترف والتبذير.

وكلمة ﴿لَوْلَا﴾ فيها معنى التفجع والأسف، وفي ذلك إشارة إلى أنه تعالى ما خلق الخلق ليعذبهم فهو الرحمن الرحيم والبرُّ الكريم، وأنه تعالى ما أهلكهم إلا بسبب ظلمهم وفسادهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (١٧)

أي: الله سبحانه لا يهلك الأمم ويسقط الحضارات ما دام أهلها على صلاح وخير وهدي، فهو الحكم العدل المنزه عن الظلم. وقد يكون المراد من الظلم هنا الشرك والكفر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، فلا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يبغي أقرباؤهم على ضعفائهم، فعذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أسأؤوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظلم، ويقال في الأثر: «المُلك يبقى مع الكفر، ولا يبقى مع الظلم». والدليل عليه أن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق^(١).

وأكد هذا المعنى القرطبي رحمه الله فقال: دلَّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذابُ الشرك في الآخرة أصعب، وفي «جامع الترمذي» [٢١٦٨] من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعْتَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»^(٢).

فالمجتمعات البشرية التي يتحكَّم فيها الفاسدون والظالمون، ويشيع فيها الظلم والعدوان واضطهاد الضعفاء، هي المجتمعات التي يتسارع إليها الهلاك والدمار، وتنتهي بالسقوط قبل غيرها من المجتمعات، وشواهد التاريخ ووقائع العصر الحاضر، تصدِّق ذلك وتؤكدده، وهذا يبين لنا خطورة الركون إلى

(١) تفسير الرازي: ١٤٤/٥.

(٢) تفسير القرطبي: ١١٤/٩.

الظالمين، والوعيد الشديد لكل من يداهنهم ويمالئهم، فضلاً عما يعاونهم على ظلمهم واستبدادهم.

• الرحمة والخلق:

ثم بين تعالى كمال قدرته وتما حكمة ورحمته وإحسانه في مخلوقاته، فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لا اختلاف بينهم، ولا نزاع، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنه تعالى خلقهم ليبتيهم ويختبرهم، فجعل لهم اختياراً وقدره على التمييز بين الخير والشر، وهذا سر استمرار الاختلاف قائماً بينهم.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: لا يزالون مختلفين في الحق، مخالفين له، إلا مَن هداهم الله تعالى إلى الحق ورحمهم، لأنه علم منهم حسن الاستعداد للخضوع للحق، والرضا به، والالتزام بمنهجه، كما في قوله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] (١).

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: خلقهم ليرحمهم، ويسعدهم بطاعته وعبادته، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) انظر: تفسير سورة البقرة، في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا، تحت عنوان (الإسلام لله تعالى في سورة البقرة).

ويحجبُ أكثرُ الناسِ أنفسهم عن رحمته تعالى، بكفرهم وظلمهم، ويعرضون أنفسهم للعقاب والعذاب بسوء اختيارهم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: حَقَّتْ ووجبت.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين، الذين أعرضوا عن عبادة الله وطاعته، ولم يصدقوا بمسؤوليتهم عن أعمالهم أمامه تعالى.

والحسابُ والجزاءُ أمرٌ ضروري يدلُّ على كمال حكمته تعالى ورحمته في خلقه، كما في قوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢] (١).



(١) انظر: تفسير سورة الأنعام، وقد أسميناهما في تفسيرنا الموضوعي هذا: (بصائر الحق في سورة الأنعام).

الْخَاتَمَةُ

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِهٖ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

وأخيراً ختم الله تعالى السورة بإجمال ما فصله فيها، فقال:

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِهٖ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠).

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنُ بِهٖ فُؤَادَكَ﴾ أي: في كل نبأ نقصه عليك من أنباء الرسل السابقين، تثبيتاً لقلبك على الحق، وأنت تواجهه عناد المشركين وأذاهم.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وجاءك في هذه السورة بيان الحق الثابت الذي لا محيد عنه، إلى جانب ما فيها من موعظة بليغة، وتذكرة نافعة للمؤمنين.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ (١٢١).

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ أي: اعملوا بالأسلوب والطريقة التي تختارونها لأنفسكم. فأنتم مسؤولون عن عملكم واختياركم، ومجزيون عليه أوفى الجزاء وأعدله في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي: إنا عاملون على طريقتنا وأسلوبنا كما شرع لنا ربنا .
وقد مر معنا أن نبي الله شعيباً قال لقومه مثل ذلك: ﴿وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، وكذلك قال تعالى هنا:

﴿وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ .

أي: انتظروا عاقبة كسبكم واختياركم، إنا منتظرون ما وعدنا ربنا من فضله ورحمته .

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ملكاً وعلماً وتدبيراً، لا تخفى عليه خافية .
﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ أي: إلى قدرته ومشيئته وعلمه يرجع أمر الخلق كله .
﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك وناصرك .
﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلن يترككم جلاً وعلاً دون مسؤولية وجزاء .
وهكذا أظهر سبحانه بهذا الإجمال، جميع ما سبق تفصيله في آيات السورة، إنه الإحكام والتفصيل في التنزيل الحكيم، وإنه حقاً كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .



تفسير سورة يوسف الْوَحْيُ وَالنُّبُوءَةُ وَالْعِلْمُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ حاجتنا ماسَّةٌ وشديدةٌ إلى الحُكَمِ الكبيرة، والأحكام الكثيرة، والمواعظ البليغة، في قصة يوسف عليه السلام، وخاصةً إلى الجانب الذي برزَ كمحورٍ أساس لموضوع السورة، وهو بيان حقيقة الوحي، وكونه مصدراً من مصادر الحقيقة والعلم، وتقريبه بأسلوب علمي موضوعي إلى أذهان الناس، والرد على الماديّين المنكرين له، الذين قَصَّروا معرفة الحقائق على ما يخضع لحواسِّ الإنسان بواسطة العلوم التجريبية المحسوسة.

وقد جعلهم هذا ينكرون كثيراً من الحقائق الثابتة، ويرون أنها أمور غيبية تدخل في دائرة الظنِّ والحَدْس والتخمين، أو في دائرة التخيلات والأوهام.

وإنني لأرى أنَّ أمثلَ أسلوب للردِّ عليهم وتزييف أفكارهم، هو أسلوب القرآن الكريم، الذي أنزله الحكيم العليم، والذي اعتمد على العقل والواقع.

لقد خاطب الله تعالى في كتابه الكريم جميعَ الناس على اختلاف أفكارهم ومشاربهم ومستوياتهم، كما جادل جميعَ المخالفين والمعاندين من الماضين

والمُتَأَخِّرِينَ والمُحَدَّثِينَ، فلم ينزله الله لعصر واحد، كما هو حال الكتب السابقة، بل جعله سبحانه خاتِمَ كتبه ورسالاته ووَحْيِهِ، وخاطب به جميع الأجيال المتعاقبة إلى قيام الساعة.

وقد جاء هذا التفسير في ثلاثة فصول:

• الفصل الأول: تَضَمَّنَ الحديث عن المحن المتوالية التي مَرَّ بها يوسف

عليه السلام .

• الفصل الثاني: تحدَّث عن حياته عليه السلام بعد اجتيازه للمَحَن، وانتقاله إلى

سُدَّة الحكم والسلطان.

• الفصل الثالث: التعقيبات التي أوردها سبحانه على حوادث القصة.

وسيرى القارئ كثرة العِبَر والمواعظ المبنوثة في كلِّ كلمةٍ وآيةٍ من آياتِ هذه السورة، والتي لا يمكن حصرها والإحاطة بها؛ لأنَّ معاني كلام الله لا يستطيع أحدٌ أن يحيط بها، فقد أبرزتُ منها ما ظهر لي مع إقراري بقصوري وعَجْزي.

أسأله سبحانه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم الدين، وينفع به قارئه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



قَهِيد

موضوع السورة

لا شك أنَّ للقصَّة في القرآن الكريم حِكْماً جليلاً، وفوائد علمية كبيرة، إضافة إلى المواعظ الكثيرة والعبر البليغة، فكلامُ الله تعالى ينتزَعُ عن اللغو والباطل وما لا فائدة فيه .

ولقد جاءت قصَّةُ يوسف عليه السلام في سورة كاملةٍ دليلاً واضحاً على هذه الحقيقة، إذ ظهر فيها من الحِكم والمواعظ والعبر شيءٌ كثيرٌ، لا يمكن استقصاؤه، لتعذر الإحاطة بمعاني كلامِ الحكيمِ العليمِ في القرآن الكريم .

وما ذُكِرتِ القصَّةُ كاملةً في سورةٍ واحدةٍ استغرقت جميعَ آياتها تقريباً، إلا للاستفادة بما فيها من حِكم وأحكام وعبر ومواعظ، وهذا ما قرره تعالى في مستهل السورة بقوله الكريم: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِكِينَ ۝٧﴾ .

وقرَّره أيضاً في التعقيب الأخير على حوادث القصَّة ووقائعها في آخر آيات السورة: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١﴾ .

وقد برز من بين هذه الحِكم الكثيرة والعبر البليغة موضوعُ السورة الأساس الذي ركزت عليه آياتها، وأبرزته في كثير من حوادث القصَّة ووقائعها، كما سيأتي معنا، وهو التأكيدُ على أنَّ القرآن الكريم وَحْيٌ من الله تعالى، أنزلَ على النبي ﷺ، وأنَّ الوحيَ مصدرٌ من أعظم مصادر العلم والحقيقة، فالحقيقةُ لا تُعرَفُ كُلُّها بالعلوم التجريبية وحواسِ الإنسان المادية، فثمةُ مصدرٌ آخر للحقيقة، لا يصل إليه إلا من اختارهم الله تعالى واجتباهم من الأنبياء والمرسلين، وهو الوحي المنزَّل من الله تعالى عليهم .

وقد أبرزت الآيات الأولى في السورة هذا الموضوع وأكّده بقوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

كما أكّده أيضاً من التعقيب الأول على حوادث القصة في قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

ويلاحظ القارئ أنّ سورة يوسف اهتمت كثيراً ببيان صلة الوحي بالعلم، وأنّ الوحي مصدرٌ من مصادره، فعلمٌ تعبیر الرؤيا وعلومُ يوسف ﷺ التي كانت سببَ نجاته من محنة السجن وتمكينه في أرض مصر وسلطانها، ممّا علّمه الله تعالى يوسف بواسطة الوحي، ولهذا قال ﷺ: ﴿ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

وعلومُ يعقوب ﷺ التي عبّر بها رؤيا يوسف، وواجه أيضاً بها أولاده مما علّمه الله بواسطة الوحي أيضاً، ولهذا قال ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

ووصفه سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

وكلُّ هذه العلوم جزءٌ من علم الله تعالى الذي وسّع كلّ شيءٍ علماً، والذي قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. كما سيأتي معنا عند الحديث عن هذه الآيات في مواضعها إن شاء الله تعالى.



الْفُضِّلُ الْأَوَّلُ

الْمَحَنُ الْمُتَوَالِيَةُ الَّتِي مَرَّ بِهَا يُوسُفُ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُكَ نَفْسُكَ رُءُيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْمَسْأَلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ أَفَقُلْنَا يُوسُفُ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنَلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا بَنَاتَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَا غَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمَا عَشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا بَنَاتَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَبْقَبِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ

الْمُسْتَعَان عَلَى مَا نَفْسُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ. قَالَ يَبِشْرِي هَذَا عُلْمٌ
 وَأَسْرُهُ بِضَعَّةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا
 فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأُمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
 نَتَّخِذَهُ وَلَدًا. وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى
 أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَّقَتْ الْأَتْرَابُ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ
 قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا
 لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بُرْهَنَ رَبِّهٗ ؕ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ
 ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ
 بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
 أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ
 مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ
 إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ
 ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَلْقَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا
 فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَعَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ
 سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا
 مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ
 مَا ءَامُرُهُ لَيَفْعَلَنَّهُ لَئِيْلَ الْجُنَّتِ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا
 نَصْرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ
 إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ. حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ
 مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ
 رَأْسِي خُبْرًا نَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْهُ نَبْتًا بِتَأْوِيلِهِ ؕ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ
 تُزْقَاهُمَا إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعَتْ مَلَّةَ آبَائِهِ إِتْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْصِيحُ السَّجِينُ عَزَابًا مُتَفَرِّقَاتٍ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَلَدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْشُرَ وَآبَاءَكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْصِيحُ السَّجِينُ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُتَيَّ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَّهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسِتُّ يَتَأَيَّاهَا ثَلَاثُ آفَتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّادِقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعٍ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٍ سُبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسِتُّ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهٖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاودْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصَحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

• القرآن الكريم واللغة العربية:

ابتدأ الله تعالى سورة يوسف بالتنويه بفضل القرآن الكريم وشرفه، فقال:

﴿الرَّ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١)﴾.

أي: هذه الآيات المنزلة على محمد ﷺ آيات الكتاب الواضح الدلالة على أنه كلام الله تعالى.

وقد أنزله سبحانه باللغة العربية، فقال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)﴾.

فالقرآن الكريم عربي اللغة، أنزله سبحانه على النبي العربي سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ﷺ في أرض العرب، إذ قدر سبحانه أن تكون رسالة كل رسول بلسان قومه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِبَلْسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد جاء التأكيد على وصف القرآن الكريم بأنه عربي اللغة في عدد من الآيات الكريمة: منها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

ومنها قوله ﷺ: ﴿وكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

ومنها قوله ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٦٦) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٦٧) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ...] وغير ذلك من الآيات.

وكل ذلك يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم عربي اللغة بجميع

(١) سبق الحديث عن مثل هذه الحروف في تفسير سورة البقرة.

كلماته ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾^١ الآية [فصلت: ٤٤].

وقال أيضاً : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨]. وما ذهب إليه بعضهم من وجود كلمات قليلة غير عربية في القرآن غير صحيح ، فالقرآن كله عربي ، وما مِنْ كلمة فيه إلا كان العرب يتكلمون بها قبل نزوله . ويدلُّ نزولُ القرآن الكريم باللغة العربية على فضلها وشرفها على سائر اللغات ، لأنَّه سبحانه اختارها لغةً لأفضل الكتب وأشرفها ، كما يدلُّ على أنَّ اللغة العربية تمتاز بقدرتها الفائقة على تأدية المعاني مهما كانت .

قال ابن كثير رحمته الله : «الْكِتَابِ الْمُبِينِ» ، أي : الواضح الجليُّ الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها ، ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وذلك لأنَّ لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنفوس^(١) .

فكانه رحمته الله يرى أنَّ القرآن الكريم كتاب مبين واضح جليُّ لأنه نزل بلغة العرب ، أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأديةً للمعاني .

● اللغة العربية والعلم:

وهذا يفتدُّ مزاعمَ القائلين بعجز اللغة العربية عن مسابقة ركب التطور العلمي في العصر الحاضر ، وهي أكذوبة كبيرة ، وفريضة عظيمة على اللغة العربية ، روجها أعداء الإسلام من المستشرقين ، وأخذ بها مع الأسف كثيرٌ من المثقفين العرب ، فعزلوا لغتهم العربية عن مجالات الدراسة والتدريس في معظم الجامعات والكليات العلمية ، وغفلوا عن حقيقة هامة ، هي أنَّ اللغة العربية كانت لغة الحضارة الإسلامية التي ضُمَّت تحت أجنحتها مختلف الثقافات والعلوم التي كانت سائدة في العالم ، الحضارة التي خلَّفت أكبر تراثٍ علمي وحضاري لأمة من الأمم .

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣٩ .

وغفلوا أيضاً عن أن كون اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم الذي لا تنتهي معانيه، والذي أخبر عن كثير من الحقائق العلمية التي ما عُرفت إلا في العصر الحاضر، وقد ذهب بعض العلماء في مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي عُقد في القاهرة سنة (١٩٨٦م) إلى المطالبة بجعل الكلمات القرآنية العلمية لأطوار خلق الجنين هي المصطلحات العلمية، ونادى هؤلاء بتعميمها على سائر الأوساط العلمية، بسبب ما وجدوا من دقتها العلمية المتناهية في وصف أطوار الجنين وأحواله.

ولقد نجحت جامعة دمشق منذ تأسيس كلياتها العلمية نجاحاً باهراً في تدريس مختلف العلوم الطبية والهندسية والطبيعية باللغة العربية، وتمكّن القائلون عليها من تعريب مختلف المصطلحات العلمية، فكانت بحق مثلاً علمياً عربياً يجب الاقتداء به.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ثم قوله سبحانه بعد ذلك مباشرة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ يدلُّ على مرونة اللغة العربية، وقدرتها على تأدية مختلف المعاني بأفصح المباني وأوضحها، فأحسن القصص أنزلها سبحانه باللغة العربية، وهي في الأصل قصة غير عربية في أشخاصها وأحداثها، فالقصة عبرية، مع ذلك قصّها الله تعالى علينا في القرآن العربي المبين بأرفع بيان؛ وأفصح كلام؛ في سورة واحدة، بأداء واقعي كامل، رغم تنوع الشخصيات والمواقف، ورغم كثرة العواطف والمشاعر ودقتها واختلافها، وكلُّ ذلك يدل على فضل اللغة العربية وشرفها وقدرتها على تأدية مختلف المعاني سواء كانت تاريخية أو علمية أو غير ذلك.

وعلى العرب أن يدركوا هذه الحقيقة ويعقلوها ويفهموها، عليهم أن يدركوا حكمته سبحانه في اختيار لغتهم للتنزيل الحكيم، ويعرفوا بذلك قدرها ومكانتها، وسرّ قوله تعالى في أول سورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وإيراد القصة العبرية باللغة العربية يدلُّ أيضاً على أنَّ القرآن الكريم وحيٌّ من الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى يخاطبُ النبي ﷺ:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ﴾ (٢) ﴿٣﴾ .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ فلا علاقة للنبي ﷺ بالقرآن الكريم سوى أنه تلقاه بواسطة الوحي وبلغه للناس .

وما كان ﷺ قبل نزوله عليه يتوقع نزوله، ولا يتطلع إليه، فنزول القرآن الكريم على النبي ﷺ كان مفاجأة كبيرة له ﷺ، كما قال في ختام الآية:

﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ﴾ الذين لم يخطرُ بالهم، ولم يقرع سمعهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يدلُّ على أن قصص القرآن يغني عن غيره من القصص، ففيه الأدب العالي الرفيع الذي يحكي واقع النفوس البشرية وما جُبِلت عليه من خير وشر بواقعية صادقة أمينة سليمة، فيها دروس كبيرة، وعظات كثيرة، وعبرٌ بليغة، سنشير إليها إن شاء الله تعالى في مواضعها.

• رؤيا يوسف ﷺ:

وقعت أحداثُ قصة يوسف في القرن السابع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب، أي قبل نزولها على النبي ﷺ في القرآن الكريم بأكثر من ألفين وثلاثمئة سنة .

بدأت القصةُ في بيت نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق ابن نبي الله وخليله إبراهيم ﷺ، وكان يعقوبُ مقيماً في بادية فلسطين من أطراف بلاد الشام الجنوبية . وكان ليعقوبَ ﷺ اثنا عشر ولداً من زوجاته الأربع، فهم أولادُ علاتٍ، أصغرهم (بنيامين) شقيق يوسف ﷺ .

ويشاء الله تعالى أن يرى يوسف رؤيا وهو لا يزال غلاماً صغيراً في نهاية العقد الأول من عمره على الراجح، يأتي إلى أبيه ليقصها عليه:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

كانت هذه الرؤيا محور القصة وبدايتها، وكان تحققها وتأويلها نهايتها السعيدة. وعرف نبي الله يعقوب بعين النبوة التي تبصر الحقائق ولا تخطئ أن الله تعالى قدر لولده يوسف مستقبلاً باهراً مشرقاً، وأنه سبحانه سيصطفيه ويجتبيه ويكرمه بكرامة النبوة، التي أكرم بها من قبل أباءه يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام. وجاء في الحديث الشريف: «أن رسول الله ﷺ سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَم؟ قال: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» قالوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ» [رواه البخاري (٤٦٨٩)]. وأدرك يعقوب عليه السلام أيضاً أن إخوة يوسف سيخضعون له ويعظمونه، ويخروون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، فنصح يعقوب ولده يوسف أن يكتُم هذه الرؤيا، وخاصةً عن إخوته، خوفاً عليه من حسدهم وبغيهم، فإنَّ كلَّ ذي نعمة محسودٌ، كما جاء في الحديث الشريف: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإنَّ كلَّ ذي نعمة محسود» [رواه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم^(١)].

﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ

مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾

﴿قَالَ يَبْنَئُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: فيحتالوا لك ليهلكوك أو يضرُّوك بتزيين الشيطان وتسويله:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(١) انظر: المعجم الأوسط (٢٤٥٥): ٣/٥٥؛ فيض القدير: ١/٦٣٠.

ثم أخبره ﷺ بأن الله تعالى سيصطفيه، ويشرفه بكرامة النبوة:

﴿وَكَذَٰلِكَ يُخَوِّفُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبْنَائِكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ يُخَوِّفُكَ رَبُّكَ﴾ أي: وكما أكرمك ربك بهذه البشريات التي أراكها في منامك، يختارك ويصطفيك ربك للنبوة.

• تأويل الأحاديث:

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا وتعبيرها، وهو ما ذهب إليه جمهور المفسرين، حتى قال القرطبي رحمه الله: «وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا، وقد كان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها»^(١).

والتأويل: رد الشيء إلى الغاية المرادة منه، يقال: أوّل الشيء إليه: أرجعه، وأوّل الكلام: فسّره، ورده إلى الغاية المرجوة منه، وأوّل الرؤيا: عبّرها^(٢).

والأحاديث: جمع حديث، وهو ما يتحدّث به من كلام. فالرؤيا التي يراها الإنسان في نومه مجموعة أحاديث تختلف باختلاف مصدرها.

وقد بين النبي ﷺ أقسام الرؤيا بحسب مصدرها فقسمها إلى ثلاثة أقسام:

- ١ - رؤيا صالحة وهي بشرى من الله.
 - ٢ - ورؤيا تحزين من الشيطان.
 - ٣ - ورؤيا من حديث الإنسان مع نفسه.
- قال عليه الصلاة والسلام: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المسلم تكذب،

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٩/٩.

(٢) انظر: المعجم الوسيط.

وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة - وفي رواية: من خمسة وأربعين - والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث الإنسان نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس» [رواه مسلم (٢٢٦٣)].

والجدير بالذكر أن هذا التقسيم للرؤيا لغير الأنبياء ﷺ، فرؤيا الأنبياء وحي لا تسلط للشيطان عليهم، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢].

وقالت عائشة رضي الله عنها: أول ما بدئ رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. [رواه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)].

• الرؤيا عند علماء النفس:

ويرى أكثر علماء النفس أن الرؤيا التي يراها الإنسان في نفسه حديث نفس مصدره نفس الرائي، فهي نشاط نفسي للنائم، وهو ما ذهب إليه الفيلسوف القديم أرسطو، وتابعه عليه من الفلاسفة المتأخرين سيغموند فرويد، فهو يرى أن الرؤيا نتاج نشاطنا النفسي الخاص، وتحقيق مقنع لرغبة مكموعة أو مكبوتة^(١).

فالرؤى والأحلام عند أكثر علماء النفس ناتجة عن عوامل نفسية، ووليدة سلسلة من الظواهر النفسية، وتعبير عن رغبات مكبوتة، وتذكير بحالات ومشاهد سبق أن مرت بنا منذ زمن طويل، وعليه فإنه من المنطقي أن تفسر الأحلام على طريقة التحليل النفسي، وذلك بأن يوضع الإنسان في حالة نفسية تماثل بعض المماثلة تلك التي تسبق النوم، وتماثل حالة التنويم المغناطيسي من حيث توزيع الطاقة النفسية، ثم يأخذ المحلل بدراسة الحلم من خلال هذه المقارنة^(٢).

(١) انظر: المقدمة لكتاب تفسير الأحلام، ص ١٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧.

فأكثُر علماء النفس يحصرون الرؤيا في النوع الثالث الذي ذكره النبي ﷺ في الحديث السابق في قوله ﷺ: «ورؤيا مِمَّا يَحْدُثُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ» [رواه مسلم (٢٢٦٣)].

لكنَّ الواقع المشاهد يدلُّ على أنَّ للرؤيا مصادرَ أخرى خارجةً عن نفس الإنسان كما أخبر النبي ﷺ، فالرؤيا التنبئية التي تنبئ الإنسان عن بعض ما سيحدث له في المستقبل واقعٌ معروفٌ ومشهودٌ، ولم يستطع فرويد إنكارها، فقد رأى أنَّ هذه المسألة ليست موضعَ تفكير، وهو يفضل أن يقال: إن الأحلام تحيطننا علماً بالماضي، أما اعتقاد الأقدمين بأنَّ الأحلام تنبئ بالمستقبل فأمر لا يخلو في رأيه كل الخلو من الصدق^(١).

وقد أكَّد العالم الفرنسي شارل ريشيه من خلال التجارب التي قام بها، بشكل لا يقبل الشكَّ أنَّ كثيراً من الناس يرون في نومهم أحلاماً تنبئ بأمور غيبية، وعلَّل ريشيه وغيره من العلماء هذا الأمر بأنَّ الإنسان ليس جسداً فحسب، بل هو روح أكثر منه جسداً^(٢).

إنَّ الحقيقة لا تُعرفُ كلُّها بواسطة حواس الإنسان الظاهرة المحدودة، فحواسه وإدراكه تنام معه عندما ينام، كيف يرى الإنسان ويسمع ويدرك مختلف المشاعر من خوف وألم وغضب وسرور وهو نائم؟!.

● الرؤيا التنبئية:

الرؤيا التنبئية محورُ قصة يوسف ﷺ، ودوافعُ حوادثها الأساسية، وقد سمَّى الله تعالى هذه الرؤى التنبئية: الأحاديث، وتأويلها علمٌ من العلوم التي أكرم الله تعالى بها يوسف ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ يَحْيِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وهو ما تنبأ به أبوه يعقوب ﷺ، وقد تمَّ هذا بالفعل، وأخبر الله تعالى أنه أنعم

(١) المقدمة لكتاب تفسير الأحلام، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥.

على يوسف ﷺ بعلم تأويل الأحاديث في الآية التي ستأتي معنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١].

وكان لهذا العلم الذي علّمه الله يوسف ﷺ دورٌ كبير في تحريك أحداث القصة كما سيأتي معنا، وشعر ﷺ بفضل الله عليه بما علّمه فقال كما سيأتي معنا: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

فهو علم وهبّي لا يخضع لمقاييس التعليم المادية، ولا يُكتسب، وهو علم أيضاً لا يخطئ إذا صدر عن الأنبياء ﷺ كرؤياهم، فهي دائماً رؤيا صادقة لا تخطئ، لهذا هي جزءٌ من الوحي كما مرّ معنا في حديث [البخاري (٣) ومسلم (١٩٠)].

وكل ذلك يدلُّ على وجود مصادر للحقيقة وراء المصادر المادية التي عرفها الناس وألفوها.

وقد يكون للعوامل النفسية تسبّب في الرؤى والأحلام، كما يرى علماء النفس، ولكنها ليست الأسباب الوحيدة، إذ يتعرّض الإنسان في نومه لمؤثرات متعددة بعضها نابع من نفسه، وبعضها خارج عنه، إمّا من الله تعالى بواسطة الملك، وإمّا من الشيطان بنزغه ووساوسه كما سيأتي معنا في الحديث النبوي الشريف.

ولهذه الإلقاءات تأثيرٌ على الإنسان في حال اليقظة أيضاً، ويشعر الإنسان بآثارها بما يجده في نفسه من نوازع تنزع به إلى الخير أو تنزع به إلى الشر.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بَابِنِ آدَمَ وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِعَادٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فإِعَادٌ بِالْخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخَرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ» [رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي (١٠٩٨٥) وابن حبان (٩٧٧) في صحيحه^(١)].

فالرؤى التنبؤية واقعٌ مشاهد، لا يمكن إنكاره، وقد أخبر الله في قصة يوسف عن وقوع عدد منها؛ وهي: رؤياه عندما كان صغيراً، ورؤيا صاحبيه في

(١) انظر: موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان: ٤٠/١.

السجن، ورؤيا المَلِكِ، وكلها رؤى تنبئية صادقة، وهي من هذه الناحية أنموذج مصغر لظاهرة الوحي، ومثال مقرب لمعناه وحقيقته.

ولهذا عدَّ رسول الله ﷺ الرؤيا التنبئية الصادقة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة كما مرَّ معنا، لأنها تشبه الوحي في إلقائها وخفائها، وتشبهه أيضاً بصدقها وموافقتها للحقيقة.

وأما كونها جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فبالنسبة له عليه الصلاة والسلام، إذ ابتدئ عليه الصلاة والسلام في أول نزول الوحي عليه بالرؤيا الصادقة كما مرَّ معنا في حديث عائشة رضي الله عنها مدة ستة أشهر، ثم استمر بعد ذلك نزول الوحي عليه مدة ثلاثة وعشرين عاماً، فكانت مدة الوحي بالرؤيا جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من مدة نزول الوحي عليه ﷺ.

والرؤيا التنبئية الصالحة بالنسبة للمؤمن بشرى من الله تعالى له في حياته الدنيا، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَتِهِ أَنْ يَفْعَلُ بِشَيْءٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ غُيُوبُ النَّاسِ﴾ [يونس].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرايت قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]؟ فقال: «تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له» [رواه أحمد (٤٤٥/٦)] والترمذي (٣١٠٥) ^(١).

وتعبير الأنبياء للرؤيا علم أوحى الله تعالى به إليهم، ولهذا فهو علم وهبي لدُنِّي من الله تعالى لا يُخطئ ولا يُخالف الحقيقة أبداً، وشواهد سورة يوسف تؤكد هذه الحقيقة كما سيأتي معنا. وأما غير الأنبياء الذي يعبرون الرؤيا؛ فتعبيرهم يمكن أن يخطئ أو يصيب، لأنه نتيجة جهدهم وكسبهم، ومهما بلغوا

(١) انظر: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو تفسير سورة يونس في هذه الموسوعة الكبيرة (التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم).

من الفضل والعلم، وشفافية الروح، وعلو المدارك، فلن يصلوا إلى مقام النبوة، لأنه مقامٌ غير مكتسب، لا اختيَارَ لهم فيه، بل هو محضُ فضلٍ من الله تعالى.

وأقربُ مثالٍ إلى ذلك ما جاء في الحديث الشريف: أَنَّ رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إِنِّي أرى الليلةَ في المنامَ ظِلَّةً تَنْطِفُ (تَقْطُرُ) السَّمْنَ والعسلَ، فأرى الناسَ يتكفون منها بأيديهم، فالمستكثِرُ والمستقلُّ، وأرى سبيّاً واصلاً من السماءِ إلى الأرضِ، فأراك أخذتَ به فعلوتَ، ثم أخذَ به رجلٌ من بعدِكَ فعلا، ثم أخذَ به رجلٌ آخرُ فعلا، ثم أخذَ به رجلٌ آخرُ فانقطعَ به، ثم وُصِلَ له فعلا.

قال أبو بكر: يا رسولَ الله بأبي أنتَ واللهِ لَتَدْعَنِي فَلَأَعْبُرَنَّهَا.

قال رسولُ الله ﷺ: «اعبرها».

قال أبو بكر: أما الظُّلَّةُ فَظُلَّةُ الإسلامِ، وأما الذي يَنْطِفُ من السَّمَنِ والعسلِ فالقرآنُ، حلاوتهُ ولينه، وأما ما يتكفُّ الناسُ مِنْ ذَلِكَ فالمستكثِرُ مِنَ القرآنِ والمستقلُّ، وأما السببُ الواصلُ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ فالحقُّ الذي أنتَ عليه، تأخذُ به فيُعَلِّيكَ اللهُ به، ثم يأخذُ به رجلٌ مِنْ بعدِكَ فيعلو به، ثم يأخذُ به رجلٌ آخرُ فيعلو به، ثم يأخذُ به رجلٌ آخرُ فينقطعُ به، ثم يوصلُ له فيعلو به. فأخبرني يا رسولَ الله بأبي أنتَ أصبْتُ أم أخطأتُ؟

قال رسولُ الله ﷺ: «أصبْتُ بعضاً وأخطأتُ بعضاً» [رواه البخاري (٧٠٤٦)].

فأبو بكر رضي الله عنه على علمه وفضله يخطئ ويصيب في تعبير الرؤيا، لأنه ليس نبياً، فالأنبياء وحدهم يصيبون ولا يخطئون، لأنهم يرون الأمور بعين النبوة التي لا تخطئ.

● إخوة يوسف ليسوا أنبياء:

وتابعت الآيات الكريمة حكايةَ كلمات يعقوب لولده يوسف ﷺ:

﴿وَبَشِّرْهُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ﴾ بنزول الوحي والنبوة.

﴿وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ أي: وعلى من يصطفيهم ويختارهم للنبوة من آل يعقوب.

فكلمة (آل يعقوب) تعمُّ الأنبياء وغيرهم، وقد تفرَّعَ من أبناء يعقوب

الأسباط - القبائل - الاثنا عشر، الذين يَكُونُونَ اليهود، وقد اختار الله تعالى منهم من عهد موسى إلى عهد عيسى كثيراً من الأنبياء.

ولا دليل في الآية على أَنَّ إخوة يوسف كانوا أنبياء، كما رأى بعض المفسرين، فما صدر منهم في حق أبيهم وأخيهم - كما سيأتي معنا - لا يتفق مع أخلاق الأنبياء قبل النبوة وبعدها، ولو كان إخوة يوسف هم مراد قوله تعالى: ﴿إِلَّا يَعْقُوبَ﴾ لكان الأظهر والأخصر أن يقول: وعلى إخوانك.

والقول بأنهم لم يكونوا أنبياء هو قول أكثر المفسرين سلفاً وخلفاً، فلم يُنقل عن أحدٍ من الصحابة ولا عن التابعين أنه قال بنبوتهم، لكن وُجِدَ بعد ذلك بعض المفسرين القائلين بنبوتهم كابن زيد والبغوي، وقد بالغ في ردّه القرطبي وابن كثير، وذكر ابن تيمية رحمته الله في مؤلف له خاص هذه المسألة، وملخصه: الذي يدلُّ عليه القرآن واللغة والاعتبار أَنَّ إخوة يوسف عليهم السلام ليسوا بأنبياء، واحتجَّ مَنْ قال بأنهم أنبياء بقوله تعالى في آيتي البقرة والنساء: ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ وفسَّر ذلك بأولاد يعقوب، والصواب: أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته، كما يقال لهم: بنو إسرائيل، ويقال لسائر الناس: بنو آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩) وَقَطَعَهُمْ أَثْنَ عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَّةً... الآية [الأعراف]: صريح في أَنَّ الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، وكل سبط أمة، وقد صرَّحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وأصل السَّبَط شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر عنهم الأولاد^(١).

ولو كانوا أنبياء ما وصَّاهم يعقوب عليه السلام عندما حضره الموت بالثبات على عبادة الله الواحد الأحد؛ قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

(١) انظر: روح المعاني: ١٨٤/١٢.

﴿كَأَنَّمَهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ يَكْرَاهِمَا بِالنَّبُوَّةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بِأَحْوَالِ خَلْقِهِ.

﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَفْعَالِهِ، فَلَا يَجْعَلُ النَّبُوَّةَ وَالرَّسَالَةَ إِلَّا فِي أَكْمَلِ النَّاسِ خَلْقًا وَخُلُقًا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وَلَا شَكَّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ بِعَيْنِ النَّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ، عِنْدَمَا بَشَّرَ وَلَدَهُ يُوسُفَ بِكُلِّ هَذَا الْمُسْتَقْبَلِ الْبَاهِرِ، فَقَدْ كَانَ حِينَئِذٍ نَبِيًّا يُوحَى إِلَيْهِ، وَرُؤْيَا يُوسُفَ لَا تَحْمِلُ فِي تَعْبِيرِهَا كُلِّ هَذِهِ الْمُبَشِّرَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا يَعْقُوبُ، وَقَدْ صَرَّحَ ﴿يُوسُفُ﴾ بِأَنَّ حَدِيثَهُ هَذَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، كَمَا سَيَأْتِي مَعْنَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُفُ: ٨٦].

وَلَوْ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَصْطَفِي بَقِيَّةَ أَوْلَادِهِ وَيَكْرِمُهُم بِالنَّبُوَّةِ كَمَا يَكْرِمُ يُوسُفَ، لَبَشَّرَهُمْ كَمَا بَشَّرَهُ، وَأَخْبَرَهُمْ كَمَا أَخْبَرَهُ، مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ النَّبُوَّةَ فِي أَنْبَاءِ يَعْقُوبَ كَانَتْ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطْ.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلْسَائِلِينَ﴾.

أَي: فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ عِبْرٌ كَثِيرَةٌ، وَعِظَاتٌ بَلِيغَةٌ، وَأَدَلَّةٌ قَاطِعَةٌ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، لِكُلِّ الَّذِينَ سَأَلُوا عَنْ قِصَّتِهِمْ، أَوِّ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَ وَلِلَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَ، لِقُوَّةِ دَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَى الْمَحْذُوفِ، كَقَوْلِهِ: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ﴾ [النحل: ٨١] أَي: وَالْبَرْدِ.

فَالْقِصَّةُ مَلِيئَةٌ بِالْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ، وَلَمْ تَذْكَرْ فِي التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ لِمَجْرَدِ الْإِطْلَاعِ عَلَى أَحْوَالِ بَعْضِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَيَتَنَزَّهُ كَلَامُ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ عَنِ اللَّغْوِ وَالْبَاطِلِ وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَلِهَذَا كَرَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ دَعْوَةَ النَّاسِ لِيَتَدَبَّرُوا آيَاتِهِ، وَيَعْرِفُوا مَا فِيهَا مِنْ حِكْمٍ وَإِحْكَامٍ وَإِعْجَازٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وَقَوْلِهِ أَيْضًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

● البغاة الحسدة:

أول دروس قصة يوسف وعظاتها أنها بيّنت خطورة الحسد، وشدة تأثيره على النفوس، وما يترتب عليه من ارتكاب الجرائم، وحدوث الخصام، فقد كشفت الآيات أن نفوس إخوة يوسف انطوت على حسد كبير لأخيهم، وبيّنت أن مبعث حسدهم أنانيتهم، وطمعهم، وحب الاستحواذ والتملك المسيطر عليهم.

وأكثر ما يقع الحسد بين الإخوان والأقارب، والجيران والأقران.

وقد وقعت أول جريمة قتل في الأرض بسبب الحسد، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والعجيب أن الله تبارك وتعالى أمر النبي ﷺ أن يقرأ هذه الآية وما بعدها على خلائف وذرية إخوة يوسف من اليهود الذين كانوا في المدينة المنورة، قال ابن كثير في بداية تفسيرها: اقرأ على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم^(١).

وقد ختم الله تبارك وتعالى هذه القصة بقوله في بني إسرائيل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

وكثيراً ما تظهر صفات الآباء في أبنائهم وأحفادهم، فكأن سورة يوسف تكشف لنا حقيقة ما تنطوي عليه نفوس اليهود من بني إسرائيل سلائل إخوة يوسف، وهذا يفسر لنا ما عُرف عن اليهود من الحسد والبغي والسعي لنشر

(١) انظر تفصيل القصة في: تفسير سورة المائدة، المسمى في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

الفتن والفساد بين الناس، وما عُرف عنهم أيضاً من عنصرية بغیضة قائمة على شعورهم بالامتياز عن بقية الناس.

• التسوية بين الأبناء:

وبعد أن أشارت الآية السابقة إلى ما في السورة من عظات وعبر، نقلتنا الآيات مباشرة إلى إخوة يوسف وكيدهم ومكرهم به، وبيان سبب هذا الكيد والمكر:

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝﴾

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا﴾ فحقدتهم على يوسف وأخيه لم يكن مبعثه سوى أن يعقوب عليه السلام كان متعلقاً بولده يوسف وأخيه أكثر من تعلقه ببقية أولاده، وهو أمر طبيعي يوجد عند كثير من الآباء والأمهات، فالأب عادة يحب ولده الصغير ويعطف عليه أكثر من أولاده الكبار، لأنه يشعر أن الصغير يحتاج إلى عطفه ورعايته أكثر من الكبير الذي اشتد عوده، وقويت بنيته، وأصبح مستغنياً عن عطف والده ورعايته.

وقد سبق أن تمتع إخوة يوسف بعطف أبيهم ومحبته عندما كانوا صغاراً، كما يتمتع يوسف وأخوه الآن، فالضعيف موضع الشفقة والعطف أكثر من القوي، ولما سُئلت إحدى الأمهات: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يشفى.

فلا عُدْرَ لإخوة يوسف بحسدٍهم لأخيهم وانتقادهم لأبيهم، وهو نبي كريم لم يفعل ما يفعله بعض الآباء الجهلة، عندما يفضلون ولداً على ولد بالأموال والهدايا، وهو أمرٌ مستنكرٌ وغير مشروع، حذر منه النبي ﷺ.

فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: أعطاني أبي عطيةً، فقالت عَمْرَةُ بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله ﷺ. فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيتُ ابني من عَمْرَةَ بنت رواحة عطيةً، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله. قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟» قال: لا. قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين

أولادكم» فرجع فردَّ عطيته. وفي رواية قال: «لا أشهد على جورٍ» [رواه البخاري (٢٥٨٧ و ٢٦٥٠) ومسلم (١٦٢٣)].

فالأب مطالب أن يعدل بين أولاده بالأموار المادية، فلا ينبغي أن يخصَّ بعضهم بمال أو هدية دون إخوته، فإنَّ هذا يبعثهم على التحاسد والتباغض، ويشير بينهم الخلاف والشقاق، وكم تسبب بعض الآباء في إثارة الخصومات بين أولادهم بسبب سوء تصرفهم هذا.

ولا يطالب الأب أن يسوي بين أولاده بالأموار العاطفية كالمحبة والشفقة، لأنه لا يقدر على ذلك، فلا سلطان للإنسان على قلبه، ولا يستطيع أن يتحكَّم بعواطفه، ونبينا ﷺ لم يستطع أن يسوي بين زوجاته بالمودة والمحبة، مع أنه كان يقسمُ بينهما بالعدل، ويقول: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» [رواه أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٦٣/٧) وابن ماجه (١٩٧١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩]^(١).

﴿وَتَحْنُ غَضَبُهُ﴾ أي: ونحن جماعة يعصب بعضها بعضاً، ويشد بعضها أزر بعض. أو: ونحن جماعة قادرون على خدمته والقيام بحاجاته ومنافعه أكثر من يوسف وأخيه، والعصبة تُطلق على العشرة، وما زاد عليها.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَنِي ضَلَّلِ مُبِينٌ﴾ أي: إنه في محبته لهما أكثر من محبته لنا في خطأ واضح! قالوا ذلك في حق أبيهم، وهم يعلمون أنه نبي كريم، فقد أعماهم الحقد والحسد عن رعاية حقوق النبوة وحقوق الأبوة، وعن وجوب رعايتها. وتدل الآية على أن يوسف ﷺ كتم عن إخوته أمر الرؤيا كما أوصاه أبوه، فما أشاروا إليها في حديثهم هذا فيما بينهم.

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا: السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمه نساء الإسلام، ط. دار القلم بدمشق.

● المؤامرة:

وبعد انتقادهم أباهم، ووصفهم له بالضلال المبين، شرعوا يأتُمرون بأخيهم يوسف، ويبحثون عن طريقة يتخلَّصون بواسطتها منه، وكان قتله أو رميه بمهلكة من الأرض هو رأي أكثرهم:

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ٩.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: أرضاً نائية منقطعة يهلك فيها.
﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يَصِفُ لكم ويخلص لكم وجه أبيكم، فيقبل عليكم، ويزداد حُبُّه لكم.

ظنوا أنه عندما يفقد يوسف، يخرج حُبُّه من قلبه، وما علموا أنه عندما يفقده سيزداد حُبًّا له وشوقاً إليه، وأنَّ خيال ولده المفقود سيبقى ماثلاً في قلبه، وأنَّ قلبه لن يخلو لهم، وهو يعلم أنهم سبب إبعاد حبيبه عنه ومفارقتة له.
وقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يدلُّ على غِلظة نفوسهم، وتبلُّد مشاعرهم، فغياب المحبوب يلهبُ الشوقَ ويضاعفُ المحبةَ، وأنَّى لهم أن يستشعروا هذه المعاني؛ وقلوبُهم ممتلئةٌ بالحقْد والحسد والضغينة والبغى.

﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ وهكذا أضَمروا التوبة قبل الذنب^(١).

والتوبة قبل ارتكاب الجريمة لا تكونُ توبةً، بل هي تبريرٌ للجريمة وتشجيعٌ على اقترافها، والتوبة الحقيقية لا تكون إلا مع الندم على ارتكاب الجريمة، وما دامَّ المجرمُ غيرَ نادمٍ على اقترافه لجريمته فلا يُعدُّ تائباً مهما تاب واستغفر، قال النبي ﷺ: «الندمُ توبة» [رواه أحمد (٤٢٣/١ - ٤٢٣)].

وقد انحدرَ هذا التبريرُ للجريمةِ بالتوبةِ الجاهزةِ إلى ذريتهم وخلفهم، إذ هي السمَّةُ البارزةُ لكثيرٍ من اليهود، حتى وصفهم الله تعالى بها في قوله الكريم:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٢٤١.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

قال ابن كثير في تفسيرها: «أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم، ويعدون بها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه»^(١).

ويبدو أن أحدهم استفطع قتل يوسف، فاقترح عليهم مكيدة أخرى للتخلص منه، لا قتل فيها:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ أي: ألقوه في قعر الجُبِّ وظلمتها الغائبة عن الأنظار.

والجُبُّ: البئر الواسعة، سميت جُبًّا لأنها جُبَّتْ من الأرض، أي قُطعت. وأراد القاتل بئراً معينة معروفة لديهم، ولهذا عرّفها فقال: (الجب) وتقع على طريق القوافل بين بلاد الشام ومصر.

﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي: يأخذه بعض المسافرين السائرين على الطريق. والالتقاط: أخذ شيء مشرف على الضياع، ومنه اللقيط: الولد الصغير الذي يوجد ملقى على الأرض لا يعرف أبواه.

وبهذا يصبح الكريم ابن الكريم يوسف ﷺ لقيطاً في أيدي الغرباء. ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم فاعلين بمشورتي.

ويدلُّ قوله هذا على أنه كان مرتاباً من قبولهم لرأيه، بسبب ما يرى من شدة حقدهم وضيعيتهم على يوسف ﷺ، ولكن الله تعالى غالب على أمره، قدر ليوسف ألا يموت حتى يُبتلى بما ابتلي به، ثم يمكّنه الله تبارك وتعالى في

الأرض، فانصرفوا عن قتله وإلقائه في مهلكة من الأرض، إلى إلقائه في الجب الواقعة على طريق القوافل، وانفقوا على هذا الرأي، ثم ائتمروا فيما بينهم على أسلوب التنفيذ وارتكاب الجريمة.

• تنفيذ الجريمة:

وشرعوا في تنفيذ الجريمة، وجاؤوا أباهم قبل التنفيذ:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾.

فوجئ أبوهم بهذا السؤال المغلف بالاستنكار والعتاب، وادعائهم النصح لأخيهم يوسف، والنصح يدل على الإخلاص والأمانة، وكذبوا بهذه الدعوى، فقلوبهم كانت ممتلئة حقداً على يوسف ﷺ.

وقبل أن يسمعوا جواب أبيهم على سؤالهم وعتابهم طلبوا منه أن يرسله غداً معهم إلى المراعي والقفار، كأن كلامهم أمرٌ محقق لا شك فيه ولا ارتياب:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي: ليتمتع بالخصب والسعة واللعب.

ولا بد أنهم قالوا ذلك بحضور يوسف، الذي فرح بهذا الرأي ببراءة الأطفال وضمّ صوته إلى أصواتهم ليأذن له أبوه ليخرج غداً مع إخوته.

ثم أكّدوا لأبيهم أنهم سيقومون على حفظه ورعايته:

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾.

وقابل يعقوب ﷺ مكر أولاده وكيدهم بصدرٍ سليم، ونفسٍ بريئة صافية، فهو نبي كريم، لا يحمل في صدره غشاً لأحد فضلاً عن أولاده، وهو أيضاً أبٌ رحيمٌ ممتلئ القلب بعاطفة الأبوة الصادقة، ولهذا صارح أولاده بما يحمله في قلبه من المحبة الشديدة لولده يوسف، وما درى ﷺ أنه بهذه المصارحة

والمكاشفة قد سَعَرَ أحقادَ أولاده على أخيه، وألهبَ مشاعرَ الحقد والغضب في نفوسهم، فجعلهم أكثرَ تصميمًا على تنفيذ جريمتهم:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (١٣).

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: إنَّ ذهابكم به يُدخل عليَّ حزنًا، فأنا شديدُ المحبة له، لا صَبْرَ لي على مفارقتِه ولو لبعض يوم، وشدةُ المحبة تؤدِّي إلى مشاعر الخوف والقلق على المحبوب.

﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فقد كانت أرضهم كثيرةَ الذئاب، وكان يوسف صغيرًا، لا يستطيعُ الامتناع منها بنفسه.

﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: وأنتم عنه في حال غفلةٍ وانشغالٍ.

فردُّوا على أبيهم والغيظُ يأكلُ قلوبهم:

﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ (١٤).

﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ فينا منعةٌ وقوة.

﴿إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ أي: إنا لضعفاء عاجزون مستحقون للهلاك، لأنَّه لا نفع في حياتنا، فإذا ما ضيَّعنا أخانا، وأكله الذئب، فنحن لِمَا سواه أشدُّ تضييعًا.

وأيُّ أبٍ يكونُ في مثل موقف يعقوب عليه السلام لا بد أن يستجيبَ لطلب أولاده، فرفضه لطلبهم معناه أنه لا يثق بهم، وأنَّه لا ياتمنهم على أخيه، فأذن لهم، وذهبوا بيوسف معهم.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْتَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥).

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ أي: اتفقوا كلُّهم على إلقائه في

ظلمة الجب.

وحكى الله تعالى إجماعهم على جريمتهم هذه، لأنها جريمة فظيعة منكّرة، فكلّهم اشتركوا بها، وتحملوا وزرها، وقاموا بتنفيذها بلا رادع ولا مانع، فلم يهتز ضمير واحد منهم في أثناء تنفيذ الجريمة، وهو يرى أخاه الصغير خائفاً زائغ البصر، يستشير شفقتهم بصراخه ودموعه، فلا يتحرك قلب واحد منهم، ولا يهتز ضميره ووجدانه.

ولا بدّ أن يوسف عليه السلام قد فوجئ بعد ابتعادهم عن أبيهم بانفجار أحقادهم المكبوتة في صدورهم، فقد ظهرت فجأة في عيونهم التي تنظر إليه شراً، وتقذح في وجهه ناراً، وفي أيديهم التي انهالت عليه ضرباً ولكماً.

ألا ما أقسى قلوبهم التي لم تتأثر باستغاثات أخيهم الصغير ودموعه وهم يدفعونه دفعاً إلى مكان الجريمة، ثم وهم يشتركون كلّهم في إلقائه في ظلمة قعر الجُبِّ!

ولقد سرّت هذه القسوة من قلوبهم إلى قلوب أبنائهم وأحفادهم وأنسالهم، حتى وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

ولا عجب بعد هذا في كلّ ما جرى ويجري من جرائم اليهود التي ارتكبوها ولا يزالون يرتكبون أمثالها في فلسطين^(١).

• في قعر الجُبِّ:

وأدركت رحمة الله الغلام الصغير وهو في قعر الجُبِّ وظلمته، يتحسس موطئاً لقدميه، وموضعاً يستند إليه، وهو يرتعش من برودة الماء، ويرتجف من هول الجريمة التي فاجأته على غير توقع وانتظار.

خرج مع إخوته طلباً للأنس والانشراح، فإذا به يُلقَى في قعر بئر مظلمة،

(١) إذا أردت أن تعرف شدة قسوة قلوب اليهود، فاقراً كتاب: الكنز المرصود في قواعد التلمود، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

وينقل من جُجْر والده وعطفه وحنانه إلى وحشة الجُبِّ وظلمتها وعفونتها ورطوبتها... وتداركه الله برحمته ولطفه:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ بوحى الإلهام أو بوحى الإنباء، الله سبحانه أعلم.

المهم أنه ﷺ تداركه برحمته ولطفه بما سَكَنَ نفسَه المضطربة، وأزال وحشته وخوفه، فشعرَ أَنَّ الله تعالى معه يرعاه ويرحمه ويلطف به، وأنه سينجيه من محنته، ويظهره أيضاً على إخوته، حتى يَأْتِيَ الوقت الذي يذكرهم فيه بجريمتهم هذه:

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف لعلَّو سلطانك، وقوة شأنك حينئذٍ.

أو: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّ الله تعالى آتسَه وهو في قَعْرِ الجُبِّ وظلمتها، فأزال وحشته، ونَفَسَ كربته بما أوحى إليه، فتحولَ قَعْرُ الجُبِّ المظلمة الموحشِ إلى أُنْسٍ ونورٍ.

ولا يتخلَّى سبحانه عن أصفياه وأوليائه أبداً، يمدُّهم ويرعاهم، ويكلِّوهم برحمته وعنايته، وهم في ذُرْوَةِ معاناتهم، فعندما كان رسولُ الله ﷺ في غَارِ ثور، والمشركون مُحْدِقُونَ بالغارِ من كلِّ جانبٍ، والسيوفُ بأيديهم مُشْرَعَةٌ، وقلوبُهم ممتلئةٌ بالحقد والغضب، وأبو بكر ﷺ يذرفُ الدمعَ بصمتٍ، وهو في داخلِ الغارِ مع رسولِ الله ﷺ خوفاً عليه، أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿وَلَا تَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وعندما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة ونظر إليها نظرة المودِّع أنزل الله عليه قوله الكريم مثبتاً ومبشراً له بالعودة إليها: ﴿إِنَّ الَّذِي

فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ [القصص: ٨٥].

ولما خافت أم موسى على وليدها من الذبّاحين، وأوحى الله إليها أن تلقية في اليمِّ، وهو أمرٌ كبير وخطير على كل أم في مثل موقف أم موسى، ثبَّتْها الله سبحانه، وسكَّن قلبها، وأزال حزنها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ كَالْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

• التزوير والكذب:

وانتظر إخوة يوسف بعد ارتكاب جريمتهم حلول الظلام ليستتروا به، فإنَّ ملامح وجوه المجرمين تكادُ تفضحهم:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦).

أي: يتكلّفون إظهار الجزع والأسف على يوسف، وهم يبكون. وفي ذلك درسٌ للحكّام والقضاة، فلا ينبغي لهم أن يتأثروا بالمظاهر التي يفتعلها بعض المتخاصمين، أخرج ابنُ المنذر عن الشَّعْبِيِّ قال: جاءت امرأةٌ إلى شريح القاضي تخاصمُ في شيء، فجعلت تبكي، فقالوا: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف عِشَاءً يبكون^(١).

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَابْكُ الْذِئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٧).

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ في العدو على الأقدام، أو في أعمالٍ توزعناها من سقي ورعي واحتطاب وصيد.

﴿وَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَلْعِنًا﴾ الذي يَتَمَتَّعُ به الإنسان كالشباب والطعام.
 ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ بعد ابتعادنا عنه مباشرة. فكأنه كان ينتظر ذهابهم ويراقب حركاتهم، فهو ذئبٌ ذكيٌّ أريب!
 وكانوا في قرارة أنفسهم يعلمون أنَّ أباهم لن يصدِّقهم، فكذبُهم واضحٌ مكشوفٌ لكل عاقل، بله نبيُّ الله يعقوب عليه السلام؛ ولهذا قالوا:
 ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: ما أنت بمصدق لنا فيما قلنا ولو كنا في حقيقة الأمر صادقين.
 لقد ألهاهم الحقدُ الفائرُ عن سبِّ الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى^(١).

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ .

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ﴾ أي: قميص يوسف الذي نزعوه عنه قبل أن يلقوه في الجُب.
 ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: هو الكذب بعينه.
 وللقميص دورٌ كبير في قصة يوسف عليه السلام، كما سيأتي معنا، ويبدو أنهم غفلوا عن تمزيق القميص، إذ لم تصفه الآية إلا بأنه قميص مُلَطَّخٌ بدم كذب، مما دلَّ على كذبهم، فلا يُعقل أن ينزع الذئب قميص يوسف قبل أن يأكله، إنه إذا لذئب ذو أناةٍ وحِلْمٍ!
 وحيلةُ إخوة يوسف هذه لا يصدِّقها أيُّ إنسان، ومن الطبيعي ألا يصدِّقها نبي الله يعقوب، الذي ينظرُ بعين النبوة التي تصيبُ ولا تخطئُ، وبإحساس الوالد الرحيم الشفيق.
 ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي: زينت وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً منكراً قبيحاً.

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ١٩٧٥.

● الصبر الجميل:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فشأني وحالي صبرٌ لا جزعَ فيه ولا شكوى فيه للخلق، مع الرضا بقدر الله تعالى وقضائه.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أسأله تعالى المعونة في كشف الحقيقة، وإظهار تزويركم وكذبكم.

ويبدو أن الله تعالى خَصَّ هذه الأمة المسلمة بقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ التي أنزلها في قوله الكريم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة].

فلو كان يعقوب عليه السلام يعلم هذه الكلمة لقالها عندما فقد ولده يوسف، وواجه هذه المصيبة الكبيرة.

هكذا استقبل عليه السلام مصيبته بفراق ولده الحبيب يوسف، ومصيبته أيضاً بعقوق أولاده، واحتيالهم وكذبهم، وحقدهم على أخيهم، وحسدهم له؛ ولهذا طلب المعونة من الله تعالى ليوافقه كذبهم وتزويرهم، وما كان عليه السلام يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الصبر الجميل والاستعانة بالله تعالى.

استعان بالله تعالى وحده، ولم يطلب معونة أولاده؛ لأنه يعلم أنهم هم سبب بلائه ومصيبته، فكيف يستعين بهم، ولم يقم عليه السلام يبحث بنفسه عن ولده، ويتفحص عنه لمعرفة بشدة حقدهم على يوسف، فقد خشي إن بالغ في الطلب والبحث عنه أن يقدموا على إيذائه وقتله؛ ولهذا لم يجد سوى الصبر الجميل، وتفويض الأمر بالكلية لله تعالى، لا سيما إن قلنا: إنه عليه السلام كان عالماً بأن ما وقع لا يمكن تلافيه حتى يبلغ الكتاب أجله^(١).

وتركت الآيات الكريمة يعقوب عليه السلام، وقد طوى جوانحه على آلامه وأحزانه، وانتقلت إلى يوسف عليه السلام في قعر الجُبِّ تقصُّ أخباره وتحكي أحواله:

(١) انظر: روح المعاني: ٢٠٢/١٢.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩).

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: جماعة من المسافرين.
﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ إلى الجبِّ ليستقي منها الماء.
﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أي: أرسل دَلْوَهُ إلى ماء الجب، فرأى يوسف عليه السلام فيها سُلَّم
النجاة وسبيل الصعود من قاع الجب، فتعلق بها، وفوجئ الوارد بغلام يخرج
متشبَّهًا بدلو الماء، فصاح مستبشراً:
﴿قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ أي: يا بشرى أقبلي هذا أوانك، نزل البشري منزلة
شخص يُنادى، ممَّا يدل على شدة وقع المفاجأة على نفسه عندما رأى يوسف.
● استعباد الحر:

﴿وَأَسَرُّهُ بِضَاعَةً﴾ أي: أخفوا أمر وجوده في البئر، وجعلوه بضاعةً للتجارة،
ولم يكلّفوا أنفسهم عناء التحقيق في أمره ومعرفة حقيقته.
﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ولا يخفى ما فيها من تهديد ووعد لأولئك الذين
استعبدوا يوسف عليه السلام، وهو حرٌّ كريم.
واستعباد الحرِّ واسترقاقه من كبائر الذنوب في الإسلام، قال عليه الصلاة
والسلام: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنتُ خصمه
خصمته: رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورجلٌ باع حرّاً فأكَلَ ثمنه، ورجلٌ استأجر
أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره» [رواه البخاري (٢٢٧٠)].

فالإسلام دين الحرية، فهو يسعى في تحرير الناس من عبادة العباد إلى
عبادة الله تعالى، ولهذا شجّع على تحرير الأرقاء، وجعل ذلك عبادةً من أفضل
العبادات التي يتقرَّب بها إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْعَقَبَةُ ۖ فَكُ رَقَبَةً﴾ [البلد].

وشرع الإسلام صرف مال الزكاة في فكِّ الرقاب من أسْرِ العبودية ورقّها، قال

تعالى: ﴿إِنَّمَا أَصْدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ فُلُوهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالْفَدْرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

كما جعل تحرير الرقبة كفارةً لكثير من الذنوب والآثام كالقتل خطأً، والإفطار في رمضان بغير عذر، وعدم الوفاء باليمين المنعقدة... وغيرها.

ولم يكتفِ الإسلام بذلك، بل ضيق مصادر الاسترقاق المشروع وجعلها قاصرةً على استرقاق الأسرى في الجهاد إذا رأى وليُّ أمر المسلمين مصلحةً في استرقاقهم وأذن فيه، فلا يجوزُ استرقاق الأسرى إلا بهذا الشرط، وبذلك أغلق الإسلام المصادر الكبيرة التي كانت للرق، وفوض وليُّ الأمر بإغلاق المصدر الوحيد الذي أقره الإسلام إذا وجد المصلحة في ذلك؛ ولهذا لما تنادت الدول في نهاية القرن الميلادي الماضي إلى تحريم الرق ومنعه وافق السلطان العثماني وليُّ أمر المسلمين في ذلك الوقت على منعه وتحريمه، وأصدرَ أمراً بمنع استرقاق الأسرى، وبهذا أغلق هذا المصدر الوحيد في نظر الإسلام لاسترقاق الإنسان.

• باعوا النبي ﷺ:

وهكذا أصبح الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسف ﷺ عبداً مُسْتَرَقّاً، وحُمِلَ بضاعةً إلى سوق الرقيق في مصر، وعُرضَ كأَيِّ سلعةٍ للبيع:

﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠).

﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي: باعه مسترقوه بثمنٍ قليل.

﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ ولو كان الثمنُ كثيراً لكان دراهم موزونة لا معدودة.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي: كانوا غير حريصين عليه ولا راغبين فيه، لأنهم التقطوه التقاطاً، والمِلَقْطُ للشيءِ متهاوٍ به، ولهذا باعوه بثمنٍ قليلٍ بَخْسٍ.

ورأى بعضُ المفسرين أنَّ إخوة يوسف هم الذين استرقوا أخاهم، وهم الذين تولَّوا بيعه لرجال القافلة، وذلك أنهم كانوا يرصدون العجب، ولما رأوا

الوارد يستخرجه منها جاؤوا إليهم وزعموا أنه عبدٌ أبق لهم، وسكت يوسف خوفاً منهم، ثم باعوه للسيارة بثمن بخس، وكانوا فيه من الزاهدين.

ولا يخفى ما في هذا الرأي من التكلف وتشتيت الضمائر، والمعروف أن المجرم يتعد عن مكان الجريمة كي لا تُحيط به الشكوك.

وظلَّت عينُ الله تعالى ترعى يوسف وتكلؤه في جميع تقلباته ومراحل حياته، وقدَّر سبحانه أن يشتري يوسف رجلٌ تفرَّس في وجهه الخير والنبل وكرم المَحْتَد، كان هذا الرجلُ هو عزيز مصر، كما صرَّحت الآيات بعد ذلك، ومن رحمته تعالى بيوسف أن جعله بضاعةً كاسدةً في نظر طالبي الشراء، إلى أن حضرَ عزيزُ مصرَ بقدرة الله ومشيتته، وألقى الله تعالى محبة يوسف في قلبه والرغبة في شرائه، فاشتراه، وأخذه إلى بيته معزَّراً مكرماً، وأوصى زوجته به.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١)

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أي: اجعلي محل ثوائه وإقامته حسناً مرضياً، وهذا كناية عن إكرامه ﷺ نفسه على أبلغ وجه وأتمه^(١)، ولا شك أن إكرام مثواه إكرامٌ لنفس يوسف ﷺ.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ في قضاء مصالحنا.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: نَتَّبِئْناه ونجعل له ولداً لنا. ويبدو أن عزيز مصر كان لا يولد له.

وكان التَّبْنِي واستلحاق إنسان بنسب إنسان آخر أمراً شائعاً في المجتمعات القديمة، وعند العرب قبل الإسلام، حتى إنَّ النبي ﷺ تَبَنَّى زيدَ بنَ حارثة،

والحقه بنسبه الشريف قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام، فكان يُدعى: زيد بن محمد، حتى أنزل الله تعالى على النبي ﷺ تحريم ذلك بقوله الكريم: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝﴾ ادَّعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ [الأحزاب]. فرجع النبي ﷺ عن ذلك، وحرَّم أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه وقال: «ليس من رجل ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كَفَر» [رواه البخاري (٣٥٠٨) ومسلم (٦١)].

وقد جرت العادة أن يهان الرقيق ولا يُكرم، ولكنَّ الله تعالى هيأ ليوسف ﷺ أن يعيش مُكْرَمًا ومعزَّزًا في أرفع بيوت مصر وأعلاها، مما يدلُّ على عنايته تعالى ورعايته له في محنته وغربته ورقَّه وحرمانه من أبيه وأهله، ولهذا قال جلَّ وعلا:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له مكاناً كريماً في أرض مصر حتى أمرَ عزيزُ مصرَ وهو الرجل الثاني في الحكم والسلطان امرأته دون سائر حاشيته بالعناية بيوسف وإكرام مثواه وإقامته.

● والله غالب على أمره:

فعاش ﷺ في قصر عزيز مصر معزَّزاً مُكْرَمًا، ونما وشبَّ أحسن شباب وأجملَه وأكملَه، وجمَعَ الله تعالى له جمالَ الخلق وجمالَ الخلق، وعلمَه سبحانه في هذه الفترة من حياته علوماً كثيرةً، منها علم تعبير الرؤيا:

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِّن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وقد علَّمه الله تعالى هذا العلم من غير واسطة، كما هو ظاهر من لفظ الآية، ومن قوله الذي سيأتي أيضاً: ﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ فلا يستعصي عليه أمر، ولا يمانعه شيء، وهو القائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أو: والله متول على أمر يوسف لا يكُله إلى غيره^(١).
وقد أرادوا هلاكه، وأراد الله تعالى سلامته ونجاته، فكان ما أراد
سبحانه، فلا راداً لقضائه، ولا غالب لمشيئته ﷻ.
﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن الأمر كله لله تعالى وحده.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﷻ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: بلغ الغاية في اشتداد جسمه وقوته، ويكون هذا عادة ما بين الثلاثين إلى الأربعين من عمر الإنسان، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنًا قَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: آتيناه علم النبوة وحكمتها. أو: آتيناه حكمة في أقواله وأفعاله، وعلمناه علوماً كثيرة، كما أشرنا سابقاً، ولعلّه الأرجح، لأن الله تعالى قال عن موسى ﷺ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] وما كان حينئذ نبياً، فما نبأه سبحانه حتى عاد من مدين إلى مصر، إذ أوحى إليه وهو في طريق عودته.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين بلغوا مرتبة الإحسان في طاعته تعالى وعبادته، وهي المرتبة التي قال فيها ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

• تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء:

ثم أخبر سبحانه كيف كان يوسف ﷺ محسناً في طاعته وعبادته، ووقافاً عند حدوده المشروعة في أخرج الساعات وأخطرها وأكثرها فتنه وابتلاء:

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢٦٣/٤.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ لقد أعجبت سيده البيت زوجة العزيز بجمال يوسف وشبابه ووسامته وكمال رجولته، ففتنت به، وأحبته وعشقتة، وشجعتها على ذلك كونه ﷺ يعيش قريباً منها في قصرها، فهو في بيتها، يغدو ويروح أمام ناظريها، وهو في ريعان شبابه، وقد حباه الله تعالى نضرةً وجمالاً وبهاءً، لا نظير له في زمانه، حتى وصفه ﷺ عندما رآه ليلة الإسراء والمعراج بقوله: «فإذا أنا بيوسف؛ إذا هو قد أعطي شطر الحسن» [رواه مسلم (١٦٢)].

ولا شك أن دخول الرجل على المرأة واختلاطه بها من أكبر أسباب الافتتان التي تؤدي إلى الفواحش والزنى، ولهذا حرم الإسلام اختلاط الرجل بالمرأة، وخلوته بها، قال رسول الله ﷺ: «لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذي رحمٍ محرمٍ» [رواه البخاري (٥٢٣٣) ومسلم (١٣٤١)].

وحذر النبي ﷺ من دخول الرجال على النساء فقال: «إياكم والدخول على النساء» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحموم؟ قال: «الحموم الموت» [رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢)]. والحموم: القريب من جهة الزوج.

وأراد ﷺ في قوله هذا أن يبين أن شأن القريب إذا دخل على المرأة أخطر من غيره، لأن النساء عادةً يتساهلن في الاحتجاب والتستر عن الأقارب، ولأنه يدخل دون أن يخشى إنكار الناس عليه.

وقد شرط الله تعالى في الخادم الذي يدخل على النساء لخدمتهن، أن يكون طفلاً لا يعرف شيئاً عن أمور العلاقات الجنسية مع النساء، أو كبيراً لا شهوة له نحو النساء، فقال: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الذِّي لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

وأمر سبحانه أيضاً الرجال والنساء جميعاً أن يغيضوا أبصارهم عن النظر إلى العورات والمحرمات، وأن يحفظوا عوراتهم بسترها، والبعد عن الفواحش

والآثام، فقال جلّ وعلا: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

• المعركة:

وعندما تُفتَنُ امرأةٌ برجلٍ وتشتهيه تدنو منه بلطف، وهي تُعَرِّضُ عليه حسنَهَا وجمالَهَا وتُغريه بنفسها؛ ليكونَ هو المفتونُ بها والطالبُ لها. ولا بدَّ أن تكونَ امرأةٌ العزيز قد فعلت ذلك، وحاولت أن تلفتَ نظرَ يوسفَ إلى جمالِها ومواضعِ الفتنة في جسدها. والفرصُ المواتيةُ لغرضها هذا كثيرةٌ وكبيرةٌ، فقد كانا يعيشان في بيت واحد وتحت سقفٍ واحد، وهي السيدة الآمرة في البيت، مما يدلُّ على طول المحنة التي مرَّ بها يوسف ﷺ.

ومدلول كلمة (وَرَاوَدَتْهُ) يدلُّ على طول المحنة وشِدَّتِها، إذ معناها دارت عليه بالحيل، فهو كناية عن المخادعة التي هي لازم معنى: (راد، يرود)، إذا جاء وذهب، فقد دارت عليه بكل حيلة، ونصبت له أشراك الخداع، ويلزم منه القصد والإتيان، والإقبال والإدبار، والرفق والمهلة، وإعمال الحيلة^(١).

ولا بدَّ أن يكونَ ﷺ قد عَرَفَ قصدها، وفَهمَ مرادها، فالأنبياء ﷺ أذكى الناس، وأكثرهم فطنة ونباهةً، فكان ﷺ يسعى ما استطاع أن يغضَّ بصره عنها، ويتجاهل نظراتها وحركاتها، ويسعى أيضاً أن يبقى بعيداً عنها، ولكنَّ مشكلته ﷺ أنه كان يعيشُ في قصرها، وتحت سلطانها وأمرها، وهو المعنى البارز من قوله تعالى: ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ فيوسف ﷺ مضطراً أن يكونَ في بيتها، وأن يكونَ أحياناً موجوداً في مخدعها المخصَّصِ لها وحدها، والذي تنام فيه مع زوجها، وهذا يبيِّن لنا مدى المعاناة النفسية الشديدة التي كان ﷺ يعاني منها، والإحراج الشديد الذي كان يشعرُ به وهو يواجه تبرجها وتهتكها. والأنبياء ﷺ أظهُرُ الناسِ نفوساً، وأنقاها قلوباً، وأكثرهم حياءً.

ومرّت أيام، ولعلّها شهور وأعوام، على هذه المعركة الصامتة الرهيبة بين الظّهر والعفاف، والحياء المسلح بسلاح الإيمان بالله تعالى من جهة، وبين الشهوة المسعورة المسلحة بسلاح الفتنة والإغراء والتمكن والسلطان من جهة أخرى.

وكلّما ازداد ﴿يُوسُفُ﴾ إغراضاً وإباءً ازدادت إقبالاً عليه، وشغفاً به، وازدادت تهتكاً وإغراءً.

وأخيراً فاضّ بها الكيل، وبلّغ السيلُ الرّبى، وانتقلت من التلميح إلى التصريح، وقذفت إلى ميدان المعركة كلّ ما تملك من أسباب الفتنة والإغراء، وأسباب التمكن والسُّلطان، أمرته بالحضور إلى مخدعها، وضربت عليه الحصار، وطوّفته بكل ما عند المرأة الأنثى الغنية المثرفة من أطواق الإغراء والفتنة، ومن وراء كل ذلك طوّفته أيضاً بطوق الحصار المادي عندما غلّقت الأبواب:

﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ أحكمت إغلاق الأبواب، كل الأبواب، وهذا يدلّ على أن ميدان المعركة كان وراء عدة أبواب مغلقة.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: تهَيَّأْتُ لك، وتزيّنت لك، فكل ما ترى أمامك لك وحدك، فتعال إلى الاتصال، وهلمّ إلى الوصال.

• الانتصار:

واحتدم الصّراع، ووصلت المعركة إلى لحظات الحسم، فحسمها ﴿يُوسُفُ﴾ بكلمة:

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ وانتصر نبيّ الله يوسف، انتصرت العِفَّة والبراءة والطّهرُ على الرذيلة والدناءة والسفاهة، لقد عادَ نبيّ الله بمعاذٍ فانتصر، عزّ من اعتزّ بالله، وانتصر من استنصر بالله.

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ كيف أعصي ربي الذي أحسنَ مثواي؟! أكرمني ورحمني، وكان معي في كلّ محنة، ومنّ عليّ بكلّ نعمة.

وكأنّي بيوسف ﴿يُوسُفُ﴾ كان في تلك اللحظة التي قال فيها هذه الكلمات يعيش حقيقتها، تذكّر حاله عندما ألقاه إخوته في الحب، وكيف أدركته رحمة الله

تعالى، فأنسته، وبشّرته وهو في ظلمة قعر الجب ووحشته ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

وتذكّر حاله وهو في سوق العبيد معروضاً للبيع بأيدي النخاسين، والزبائن يطوفون به، يتأملونه، ويقلّبونه كما يقلّب المتاع، ثم يُعرضون عنه زاهدين به، حجبهم الله تعالى بقدرته ومشيتته عن رؤية ملامح الجمال والبهاء في مُحيّاه، جعله الله تعالى بضاعة كاسدة في نظرهم حتى جاء عزيز مصر إلى السوق، ففترّس فيه معاني النبل والظهر، وألقى الله تعالى محبته في قلبه، وأخذه إلى بيته معززاً مكرماً، وأوصى به زوجته قائلاً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

ولهذا رأى كثير من المفسرين أنّ يوسف عليه السلام أراد بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ عزيز مصر، لأنّه كان سيده ومالكه في نظر الناس، وقد أحسن إليه وأكرمه، وأكرم مثواه، وأوصى زوجته به، فلا أقابل إحسانه بالإساءة إليه وخيانته.

وفي كلمات يوسف عليه السلام تعريض كبير بامرأة العزيز، فهي زوجته، وعليها أن تحافظ على عرضه وشرفه، وهذا من أوجب واجبات المرأة نحو زوجها، قال تعالى: ﴿فَالصِّلَاحُ قَبْلَ ذَلِكَ حَفِظْتُ لِنَفْسِي بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

﴿إِنَّهُ لَا يُلْقِيهِ الظَّالِمُونَ﴾ الذين يضعون الشيء في غير موضعه، فإذا وضعت الخيانة في موضع الأمانة كنت ظالماً، ولا فلاح للظالم ولا نجاح.

وجاءت كلمات يوسف عليه السلام بغاية التناسق والحسن، ذكر أولاً حقّ الله تعالى ووجوب رعايته، ثم ذكر حقّ الرجل الذي أحسن إليه، وقبح خيانته، ثم ذكر حقّ نفسه، وأنّ عليه أن يحفظها ويصونها عمّا يُشينها ويؤذيها، فهذه اللذة القليلة يتبعها ضرر كبير في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة، وبهذا يكون ظالماً لنفسه، ولا فلاح للظالمين^(١).

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٨/١١٧.

● إثبات ونفي:

بيّنت لنا الآياتُ الكريمة أكثر من مرة أنَّ الله تعالى كان مع عبده ونبيه يوسف عليه السلام في كل محنة مرَّ بها، وأنه سبحانه غالبٌ على أمره يكلؤه ويرعاه، وهاهي الآياتُ تبين لنا هنا معونته تعالى ليوسف عليه السلام وتثييته له، وهو يواجه امرأة العزيز في معركة من أخطر المعارك، وفي محنة من أكبر المحن التي مرَّت به في حياته.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودِيٌّ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ .

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودِيٌّ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أثبتت الآية همَّ امرأة العزيز وقصدها الفاحشة، وعزمها عليها، ونفت همَّ يوسف عليه السلام، فما همَّ بالفاحشة، ولا قصدَ إليها، ولا عَزَمَ عليها، فقالت تؤكِّد همَّ امرأة العزيز وعزمها على الفاحشة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودِيٌّ﴾ أكَّدته باللام الموطئة للقسم، وبـ (قَدْ) الدالة على التحقيق والتوكيد.

وعندما تحدَّثت الآية عن يوسف نفَتَ همُّه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فلم يهَمَّ بها عليه السلام، ولم يقع منه أيُّ قصدٍ للفاحشة والمعصية؛ لأنه رأى برهان ربه، كان عليه السلام حاضر القلب والنفس مع الله تعالى، كان في مرتبة الإحسان التي أشرنا إليها سابقاً عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، والتي وصفها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

فالآية بيّنت فضله سبحانه على يوسف، وتثييته له في محنته، فلولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها، و(لولا) حرفٌ يدلُّ على امتناع شيءٍ لوجود غيره، وهَمَّ يوسف لم يقع، ولم يوجد، لوجود برهان الله تعالى، وجواب (لولا) هنا مقدَّم، أو مقدَّرٌ محذوف دلٌّ عليه ما قبلها، وهو كما يقال: قد كنت من الهالكين لولا

أَنَّ فَلَانًا خَلَّصَكَ، وما زعمه بعضُ علماء اللغة من أَنَّ تقدَّمَ جواب (لولا) شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح، غير صحيح، فالقرآن الكريم هو أفصح كلام عربي، كما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢) فهو الكلام الذي يُحتج به على غيره، ولا يُحتج بغيره عليه أبدًا.

وقد تكرر مثل هذا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]؛ فلولا تثبيتُ الله لأَمِّ موسى وربطه على قلبها، كادت أن تكشف أمرَ موسى، وكذلك هنا لولا تثبيتُ الله تعالى ليوسف لَهَمَّ بها، فالأمرُ خطيرٌ والمحنةُ شديدةٌ، وعنايةُ الله تعالى ورعايته كانت مع يوسف ﷺ تثبته وتحفظه، فما همَّ وما عزم وما قصد. ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

والهمُّ والعزم من أعمال القلب، وقلبُ يوسف ﷺ كان ممتلئاً بذكر الله تعالى، فلا يجتمعُ فيه النقيضان، دلَّ عليه ما حكاه سبحانه عنه فيما سبق: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» [رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧)].

فلا يجتمعُ الخوفُ من الله والتصديقُ به، مع العزم على الفاحشة والمعصية في وقتٍ واحد وقلب واحد.

وإنِّي لأعجبُ من الروايات الشاذة المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين والتي ذكرها بعضُ المفسرين، فهي واضحةٌ البطلان، ظاهرةُ الفساد، بعضها يقول: جلس يوسف منها مجلس الرجل من المرأة، وبعضها شطح بخياله إلى شيء من التفصيل فقال: استلقت له، وجلس بين رجلها ينزع ثيابه، ويحل التُّكة - رباط السروال -، كأنهم كانوا حاضرين معهما، وغفلوا عن الكلمة المدوِّية الصريحة المعلنة التي هتَف بها لسان يوسف ﷺ وقلبه: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾.

ولقد كان العلامة الفخر الرازي رحمته الله في تفسيره من خير المدافعين عن نبي الله يوسف، ودفع عنه هذه التهمة الظالمة التي لا تليق بكمال الأنبياء عليهم السلام، الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم ليكونوا الأسوة الحسنة للناس، أجتزئ من كلامه ما يلي مع بعض التصرف والاختصار:

إِنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِتِلْكَ الْوَاقِعَةِ شَهِدَ بِبِرَاءَةِ يُوسُفَ عليه السلام:

- فيوسف قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

- وقال أيضاً: ﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].

- والمرأة اعترفت وقالت: ﴿الْأَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١].

- والنسوة قلن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

- وزوج المرأة عرّف الحقيقة فقال لزوجته: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

- وقال لها أيضاً: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

- وكذلك أظهر الشاهد من أهلها براءة يوسف عليه السلام، وحتى إبليس شهد

بطهارته بقوله: ﴿فَعِرْثُكَ لَا تُؤْمِنُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿[ص]،

ويوسف عليه السلام منهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

- وفوق كل ذلك شهادة الله تعالى العليم الخبير: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ

وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] (١).

• برهان ربه:

لقد تعددت آراء أصحاب الروايات الشاذة الذين اتهموا يوسف عليه السلام بالهَمِّ

على فعل المعصية، في تفسير ﴿بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾، ويدلُّ تعدُّد الآراء على ضعفها

وتناقضها.

فبعضهم قال: إِنَّ المرأة قامت إلى صنم في زاوية البيت، فسترته بثوبٍ

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٨ / ١٢٠.

وقالت: أستحيي من إلهي هذا من أن يراني على معصية، فقال يوسف: أتستحيين من صنم ولا أستحيي من إلهي القائم على كل نفس بما كسبت؟! فوالله لا أفعل ذلك أبداً.

وبعضهم قال: تمثّل له يعقوبُ عاضاً على أصابعه، وهو يقول: أتعمل عمل الفجار وأنت مكتوبٌ في زمرة الأنبياء؟!.

وبعضهم قال: رأى في سقف الغرفة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢].

وبعضهم قال: سمع هاتفاً يقول: لا تكن كالطير يكون له ريش، فإذا زنى ذهب ريشه.

وبعضهم قال: ركضه جبريلُ ﷺ فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج^(١). وكل هذه الروايات اجتمعت على شيء واحد رغم ما فيها من اختلاف، وهو أن برهان ربه الذي رآه يوسف ﷺ كان شيئاً مادياً محسوساً، رآه بعينه أو سمعه بأذنه.

ولكنني أرى أن البرهان كان شيئاً معنوياً رآه بعين بصيرته، قال العلامة أبو السعود رحمه الله: «لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» أي: حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى، وسوء سبيله، والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ومشاهدته لها مشاهدةً واصلهً إلى مرتبة عين اليقين^(٢).

وقد نقل هذا الالوسي في «روح المعاني»، وأقرّه عليه^(٣).

وقال البقاعي رحمه الله: «لَوْلَا أَنْ رَأَى» بعين قلبه ﴿بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ الذي آتاه إياه من الحكم والعلم، كان البرهان حاضراً لديه حضور من يراه بالعين، لم يُعْطِهِ وفور شهوة ولا غلبة هوى^(٤).

(١) انظر: مجموعة التفاسير: ٣/٣٩٦.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢/٢٦٦.

(٣) انظر: روح المعاني: ١٢/٢١٣.

(٤) نظم الدرر: ١٢/٦٣.

ويتفق هذا المعنى تماماً مع موضوع السورة الأساس، فالوحي نوع من العلم يلقيه الله تعالى في قلوب مَنْ يشاء من عباده، فتنجلي لهم بواسطته الحقائق، ولقد مرَّ معنا أن الله تعالى قادرٌ على إلقائه إليهم وهو نائمون، بما يريهم من الرؤيا الصادقة، فما بالك إذا كانوا أيقاظاً متبهرجين؟!.

وقد يقول قائل: لا شك أن يوسف عليه السلام كان يَعْرِفُ من قبلُ قُبْحَ الزنى، وأنه فاحشةٌ ومعصيةٌ، فرويته له في هذا الوقت تحصيل أمر حاصل.

وأقول: إنَّ المعارف والعلوم لدى الإنسان تكون على درجاتٍ متفاوتةٍ في الوضوح والظهور والاختناع بها، فثمة أمورٌ كثيرة نعرفها، ثم تطرأ علينا أحوال تزيدنا بها معرفةً وبقيناً، وقد يغفل الإنسان أحياناً عن كثير من الحقائق التي يعرفها، ثم يتذكرها فجأةً في بعض الأحوال، ويزداد يقيناً بها، ولعلَّ البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام من هذا القبيل، فقد كان يعلم أن الزنى حرام وقبيح، ولكنه في هذا الوقت بالذات ازداد علماً ومعرفةً وبقيناً بقبح الزنى وشناعته وتحريمه، فكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون، وأوجب ما يجب أن يُحذَرَ منه، ولذلك فعل من الاستعصام والحكم بعدم فلاح من يرتكبه^(١).

ثم بين الله تعالى الحكمة من جعل يوسف يرى برهان ربه فقال:

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ كَالِهَمِّ بِالزَّنى ودواعيه.

﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ كَالزَّنى وغيره من كبائر الذنوب.

وسبب صرفه عن السوء والفحشاء بينه الله سبحانه في قوله:

﴿إِنَّهُ، مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

• الضرار:

ثم بادرَ عليه السلام ففرَّ من ميدان المعركة، واتَّجه مُسرِعاً نحو أول الأبواب

(١) تفسير أبي السعود: ٢٦٦/٢.

المغلقة، فَرَّ ﴿٢٤﴾ وهو المنتصر؛ لأنَّ بقاءه معها وراء الأبواب المغلقة، والستائر المُسدَّلة، يعرِّضه للشبهة والتهمة، والعاقل يسعى لدرء الشبهات عن نفسه، ويتجنَّب مواطن التهمة والريبة.

وهو درس عملي علَّمه يوسف ﴿٢٥﴾ لكلِّ عاقلٍ يتدبَّرُ معاني كلمات الله تعالى في تنزيله الحكيم.

وَرَسَمَ لَنَا ﴿٢٦﴾ أيضاً في سلوكه هذا أمراً آخر، وهو أنَّ على الإنسان في مثل هذه المواقف أن يتهم نفسه فيفِرَّ، ولا يقرَّ مغترّاً بنفسه، زاعماً أنَّه متمكن منها، ومسيطرٌ عليها، فقد يضعف الإنسان أمام نفسه، ويرمي لها بالزَّمام، فتقوده إلى المهالك، وما أكثَرَ الذين انخدعوا بأنفسهم في مثل هذه المواطن، فضعفوا وسقطوا!!

درسانِ بليغانِ وعبرتانِ كبيرتانِ فيما فعله يوسف ﴿٢٧﴾، يحتاجُ إليهما كل فتى وفتاة في هذا العصر.

أولهما: اتِّهامُ النفسِ وعدمُ الركونِ إليها والثقة بها.

وثانيهما: تجنُّبُ مواطنِ الرِّيبةِ واتقاؤها.

فإذا ما ابتليتَ ففِرَّ ولا تقرَّ، وتذكَّرْ نبيَّ الله يوسف ﴿٢٨﴾، فأنْتَ مهما كنتَ لست أقوى منه، ولا أنقى منه.

ويجب أن يَصمَّ إلى فرار الجسد عن مواطن التُّهمة والرِّيبة وابتعاده عن مواضع الفتنة، فراراً آخر بالروح والقلب إلى الله تعالى الذي قال: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وقد فعل يوسف ﴿٢٩﴾ هذا أيضاً كما سيأتي، وهو خلاصة التوجيه الكريم الذي توجَّه به نبيُّنا محمد ﴿٣٠﴾ إلى ابن عباس ؓ قائلاً: «يا غلامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كلماتٍ: احفظِ الله يحفظكَ، احفظِ الله تجده تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله» [رواه الترمذي (٢٥١٦)].

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٥).

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ والاستباق: طلبُ السَّبقِ إلى الشيء، قال العلماء: هذا من اختصار القرآن المعجز الذي تجتمع فيه المعاني^(١).

بادَرَ ﷺ كما قلنا إلى تركِ موضعِ الفتنة، واتَّجه مسرعاً إلى الباب، واستبدَّت الشهوةُ بالمرأة، وطغت على جميع مشاعرها، واندفعت وراءه متهاككةً عليه، مع أَنَّ المرأةَ في مثل هذه الحالات تفضِّل أن تكون مطلوبةً لا طالبةً، فلا تكتمل لذَّتها ومتعتها إلا بذلك، وتَشَبَّهت بِشبابه من الخلف وهي تجذبه إليها:

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي: شَقَّتْ قميصه طولاً من جهة ظهره.

ثم وقعت المفاجأة، إذ فوجئنا بظهور زوجها عند الباب:

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ أي: وَجَدَا زوجها عند الباب، فهو (سَيِّدُهَا) وحدها لا (سَيِّدُهُمَا) وليس سيِّداً ليوسف؛ لأن ملكيته ليوسف في الأصل ليست مشروعةً، والإسلام لا يعترف باستعباد الحرِّ، ولا يقرُّه كأمر واقع، ويبقى الإنسان حرّاً في شرع الله تعالى، والحرامُ يبقى حراماً، ولا يحلُّ مهما طال عليه الزمن، وشاع بين الناس.

وهو سيِّدُها، لأنَّ الزوجَ سيِّدُ زوجته، ومالكُ أمرِها بعد الزواج، وعليها أن تطيعه في غير معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «لو كنتُ أمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها» [رواه الترمذي (١١٥٩)].

وفوجئت برؤية زوجها، فبادرت تدفع التُّهمة عن نفسها وتتهم يوسف ﷺ:

(١) تفسير القرطبي: ١٧٠/٩.

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ تذكّرت الآن أنها أهلُ هذا الرجل ، وأنها موضعُ أمانته وشرفه .

﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ ، وهكذا وضعت نفسها في موضع المُدَّعي والقاضي ، وأصدرت الحكم بسجنِ المتهم أو بمعاقبته بعذاب أليم .

وهذا يدلُّ على أنها أرادت الانتقامَ من يوسف ﷺ لكبريائها الجريئة التي مرَّغها بالتراب ، وتبرئة نفسها أيضاً .

● براءة يوسف ﷺ :

ومن عادة أكثر الناس في مثل هذه المواقف أن تستبدَّ بهم الغيرةُ، فتثور ثائرتهم ، وتغلي مراحل الغضب في صدورهم ، ويندفعوا دون أدنى تبصُّرٍ ورويةٍ إلى تصديق التهمة .

وكم أدى مثل هذا الاندفاع والتهور إلى اتهام البراءة ، وحدث المظالم ، وسفك دماء بريئة ، ولهذا شرع الله تعالى لإثبات جريمة الزنى شهادة أربعة شهودٍ عدولٍ من ذوي الديانة والأمانة ، كما توعَّد الذين يرمون غيرهم بتهمة الزنى بعقوبة القذف فقال جل وعلا : ﴿وَالَّذِينَ يَمُونُ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور : ٤] .

وقولها : ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ؟ بأسلوب الاستفهام ، يدلُّ على أنها أرادت استفزازَ مشاعر زوجها وإثارة غضبه وغيته ، فينتقم من يوسف ﷺ قبل أن يحقق بالأمْر ، ويكتشف الحقيقة .

ولكن الله سبحانه أراد أمراً آخر ، وهو غالبٌ على أمره ، أراد جلَّ وعلا إظهار براءة نبيه يوسف من التهمة التي حاولت هذه المرأة إلصاقها به ، وهو سبحانه يدافع عن الذين آمنوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج : ٣٨] .

وهو ﷻ يدافع عن أنبيائه وأصفيائه الذين اختارهم بحكمته وعلمه ، ورفعهم

إلى مقام الأسوة الحسنة للناس، فلا يَمُكِّنُ الفَجَّارَ والفسَّاقَ من تشويه سمعتهم، وتغيير الناس عنهم.

ولمَّا حاول بعضُ بني إسرائيل أن يفعلوا مثل هذا بنبي الله موسى ﷺ، وأشاعوا عليه قالة السوء، أظهر الله تعالى براءته وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ألهم سبحانه زوجَ المرأة أن يقابلَ استفزازها له بهدوءٍ وتأنٍّ ورويةً، ويبدو أنه لم يصدِّق ادعاءها بسبب ما علمه من أخلاق يوسف ونُبُلِهِ وصدقه وأمانته. وبادرَ ﷺ إلى الدفاع عن نفسه قائلاً بثبات قلب ورباطة جأش:

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ فَمِيسُةً، قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٢٦).

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ واضطرَّ ﷺ أن يوجِّه التهمة إليها ليدافع عن نفسه، ولولا ذلك لَكُتِمَ عليها ولم يفضَّحها^(١).

فالسترُ أولى في مثل هذه الحالات، وهو ما ندب إليه الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

وتدلُّ قرائنُ الحال كلها على صدق يوسف وبراءته، فتغلق أبواب القصر لا يتمُّ إلا بأمرها وإرادتها، وزينتُها الكاملة، وحرصُها على إبداء مفاتنها، ووجودها عند الباب، كلُّ ذلك يدلُّ على كذبها، ولو كان ﷺ طالباً لها لحاصرها في الداخل لا عند الباب.

ومع كلِّ هذه القرائن هَيَّا الله تعالى برحمته شاهداً من أهلها ليكون ألزَمَ لها:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

• المتكلمون في المهد:

واختلف المفسرون في الشاهد، هل كان كبيراً أو صغيراً، فقال بعضهم: كان صبيّاً في المهد أنطقه الله ﷻ، وهي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ، وهم صغارٌ: ابنُ ماشطةِ ابنةِ فرعونَ، وشاهدُ يوسفَ، وصاحبُ جُريجَ، وعيسى ابنُ مريمَ» [رواه أحمد (٣٠٩/١) وابن حبان (٢٩٠٤)].

إلا أن ما رواه البخاري [٣٤٣٦] ومسلم [٢٥٥٠] يدلُّ على أنَّ المتكلمين في المهد ثلاثة فقط، ليس شاهد يوسف منهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عيسى ابنُ مريمَ، وصاحبُ جريجَ، وبيننا صبيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُ وَشَارَةَ حَسَنَةٍ، قَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْضَعُ...».

وقد ظنَّ بعضهم أنَّ حديثَ أصحاب الأخدود الذي أورده مسلم [٣٠٠٥] يعارضُ هذا الحديثَ، لكنَّ لفظَ الحديث يدلُّ على أنَّ المتكلمَ في قصة أصحاب الأخدود ما كان صبيّاً في المهد، بل كان غلاماً، ولفظه: «... حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغَلَامُ: يَا أُمُّهُ اصْبِرِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ».

ولهذا رجَّح القرطبي رحمته الله أن يكونَ الشاهد رجلاً لا صبيّاً في المهد، وقال: لو كانَ صبيّاً تَكَلَّمَ لَكَانَ الدَّلِيلُ نَفْسَ كَلَامِهِ دُونَ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى اسْتِدْلَالٍ بِالْقَمِيصِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ خَرَقَ عَادَةٍ وَنَوْعَ مُعْجَزَةٍ^(١).

وللمرّة الثانية يُذكر قميص يوسف في القصة، وهو في هذه المرة غير القميص الذي حَمَلَهُ إِخْوَانُهُ إِلَى أَبِيهِمْ، وَجَاؤُوا عَلَيْهِ بِدَمٍ كَذِبٍ.

(١) تفسير القرطبي: ١٧٤/٩.

وقد قدّر تعالى أن يجعل في هذا القميص الدليل القاطع على براءته ﷺ وصدقهِ ، وأن يجيء ذلك على لسان شاهدٍ من أهل امرأة العزيز الذي قال :

﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ أي : من جهة صدره .

﴿فَصَدَقَتْ﴾ في ادّعائها .

﴿وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ لأن تمزيق القميص في هذه الحالة يدلُّ على أنه هو الطالبُ لها ، وأنها كانت تدفعه عنها .

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ من جهة ظهره .

﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها كانت تطلبه وهو مُعرَّضٌ عنها .

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ تأكّد زوجها من صدق يوسف ﷺ وأمانته وبراءته ، وعرف كذبها وخيانتها ، ومع ذلك لم يفعل شيئاً سوى أن قال على وجه العموم دون أن يوجّه كلامه إليها :

﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُمْ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ إنَّ ما حدث من مكركنَّ واحتيالكن ، وهو مكرٌ واحتيالٌ كبير ، فالمرأة تملكُ من وسائل المكر والكيد بالرجل شيئاً كثيراً ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : «ما تركتُ بعدي فتنةً أضّرَّ على الرجالِ مِنَ النِّسَاءِ» [رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)] .

وتُعطينا الآيات صورة لما يحدث في المجتمعات الغنية المترفة المنحلّة البعيدة عن الإيمان بالله تعالى ، فالانهماكُ في السَّرَفِ والترفِ قد جمّد مشاعرهم البشرية ، وأضعف الإحساسَ الفطريّ الطبيعيّ في غيرتهم على أعراضهم

وشرفهم، وهذا ما نشاهده في العصر الحاضر في المجتمعات المادية الغربية من تبلد في المشاعر يصل في كثير من الحالات إلى حد الدياثة^(١). واكتفى عزيز مصر بتوجيه بعض اللوم والعتب إلى زوجته بأسلوب الوعظ والنصح بعد أن أمر يوسف بكتمان ما حدث:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾^(٢).

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي: لا تتحدث به، ولا تهتم به، ولا تلتفت إليه. ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل: إنك كنت خاطئة، محافظة على مشاعرها، كأنه كان يخشى مواجهتها بهذه الصفة. وقد تعجب بعضهم من برودة أعصابه، وسكون نفسه في موقف تغضب فيه النفوس عادةً، وردوا سببه إلى لطف الله تعالى بنيه يوسف عليه السلام^(٣). ولا شك أن فيه لطفاً من الله تعالى، ولكني أرى أن سببه يعود إلى حياة السرف والترّف والبعد عن دين الله وشريعته.

ويُسدّل الستار على المشهد وما فيه - كما قال سيد قطب رحمته الله - وقد صوّر السياق تلك اللحظة بكلّ ملاساتها وانفعالاتها، ولكن دون أن ينشئ منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقاعاً للوحل الجنسي المقبوح^(٣)، كما يفعل كثير ممن يسمونهم بأدباء القصة في العصر الحاضر، تجار الأدب الجنسي المكشوف. لقد أخذت مشاهد الجنس في القصة مساحتها كاملة في حدود المنهج النظيف اللائق بالإنسان، من غير تزوير ولا نقص، ولا تحريف للواقع، ومَرّت الآيات على هذه المشاهد، وهي تعرض أحداث القصة دون أن تقف عندها، كأنها محور حياة الإنسان كلّها كما يفعل أدعياء الأدب، إنهم يحاولون مسح

(١) الدياثة: فقد الغيرة والخجل. والديوث: من يرى الحبّ في أهله وخاصته، ويقرهم عليه.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ١٧٥/٩.

(٣) في ظلال القرآن: ١٩٨٣/٤.

الكائن البشري باسم الواقعية والصدق الفني، فيعرضون مواقف الجنس كما لو كانت هي وجهة الحياة البشرية بجمالها، فيجعلون منها مستنقعا واسعا عميقا، مزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية^(١).

● المقطعات أيديهن:

وشاع الخبرُ وانتشر، رغم التكتُّم عليه، ومحاولة إخفائه، ولاكتُهُ السنةُ ربّات القصور من أمثال امرأة العزيز، اللواتي لا همَّ لهنَّ إلا أن يتحدثن عن خفايا القصور وفضائحها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَى عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣٠)

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ أي: عزيز مصر، فهي زوج عزيز مصر الذي يأتي في التمكن والسلطان بعد الملك مباشرة.

﴿تُرْوَدُ فَتَنْهَى عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: تطلبه للوصال، وإيثارهنَّ صيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة، كأنها صارت سجيّة لها، أَضْفَنُهَا إِلَيْهَا ﴿فَتَنْهَى﴾ لإبانة ما بينهما من التباين البين، الناشئ عن الخادمة والمخدومية، أو المالكية والمملوكية، مبالغة في لومها^(٢).

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: غلبها حبه حتى شقَّ شغاف قلبها، وهو حجابها أو وسطه. ومرادهنَّ تأكيد لومها، وعذّلها في حُبّها له، وهي امرأة العزيز، بينما هو فتى من فتيانها، ومملوكٌ من ممالكها، فلموهنَّ غيرُ متّجهٍ إلى تقبيح الزنى، فكأنهنَّ لا يرينَ به شيئاً ولا قُبْحاً، وإنما لومُهنَّ مُتّجِهٌ إلى كونها لم تراع في اختيارها ما يناسبها في مكانتها الاجتماعية المرموقة.

(١) في ظلال القرآن: ١٩٥٩/٤.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢٢٦/١٢.

﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خطأ واضح ظاهر لأنها لم تحسن اختيار من يناسبها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (٣١).

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: علمت بلومهنَّ لها، وما يتحدثنَّ به عنها.

وجاء التعبير عنه بالمكر؛ لأنَّ إشاعته ونشره فضيحة كبرى بالنسبة لمكانتها العالية المرموقة في أوساط المجتمع، فهو نوعٌ من أقبح أنواع الغيبة المحرمة في الإسلام، التي قال تعالى فيها: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا يَخِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنَّ إلى وليمةٍ في قصرها.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ أي: هيأت لهنَّ مجلساً للطعام يتكئنَّ فيه، كما هو حال المترفين المتكبرين.

﴿وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتقطع ما يقدم لهنَّ من طعام وفاكهة، وهذا يدلُّ على أنَّ المصريين القدماء قطعوا شوطاً كبيراً في التمدُّن.

وبعد أن أمرت بتقديم الطعام إليهنَّ، وانشغلنَّ بتقطيعه وتناوله، أمرت يوسف ﷺ أن يظهر أمامهنَّ.

﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وما كان ﷺ يستطيع مخالفة أمرها، فلا يزال يعيش في قصرها، ويبدو أنَّ زوجها لم يفكر في إبعاد يوسف عنها.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أي: عظمته لحسنه وجماله، فدهشنَّ وتحيرنَّ.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جرحنَّ أيديهنَّ، وسالت دماؤهنَّ، فما أحسنَ بالم الجراح لفرط دهشتنَّ وخيرتهنَّ وانشغالهنَّ بجماله ﷺ.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: يتنزه الله خالق هذا الجمال ومبدعه، فمن قدر على خلق هذا الجمال يتنزه عن كلِّ صفات النقصان، ويتَّصف بكلِّ صفات الكمال.

﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ لَأَنَّهُ فَاقَ الْبَشَرَ بِالْحُسْنِ وَالْجَمَالِ، وفاقهم أيضاً بعفته وأمانته، مع أنه في غاية شبابه ورجولته.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ في جماله وأخلاقه.

ويدل قولهنّ هذا على أنّ رسالة الأنبياء والمرسلين قد وصلتْهنّ وبلغتْهنّ فهنّ يُقررنّ بوجود الله خالق المكوّنات، وبوجود عالم الملائكة، فما من أمةٍ إلا أرسل الله تعالى إليها رسولاً كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

والمصريّون من أقدم الأمم حضارةً ومدنيّةً، ولا بدّ أنّ الله تعالى أرسل إليهم رسلاً، وكان يوسف ﷺ واحداً منهم.

• ضحايا الفساد والاستبداد:

وحولتْهنّ رؤية يوسف من العذل إلى العزْرِ^(١)، وأحست امرأة العزيز بشيء من الزهو والانتصار:

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ زودتهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ
لَيَسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (٣٢).

﴿قَالَتْ﴾ وهي تشير إلى يوسف بإشارة التفخيم:

﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ أي: في حبه وعشقه.

ثم اعترفت لهنّ بكل صراحة قائلة:

﴿وَلَقَدْ زودتهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ﴾ أي: عصم نفسه عنها رغم كثرة المراودة

وقوتها، ورغم اكتمال شبابه ورجولته.

وبعد أن تراجعن عن لومها وعذلها، لم تجد غضاضة أن تصارحنّ بأنها ما زالت

عاشقةً له، مشغوفةً به، مصممةً على أن تنال مرادها منه، ولو بالتهديد والوعيد:

(١) العذل: اللوم. والعز: النصر والتأييد.

﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرَهُ لَكُنْتَنَ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ ، ويدلُّ قولُها هذا على أنَّ الفضيحةَ لم تؤثرْ على مكانتها، ولم تضعفْ سلطانها وتسلُّطها، فالمجتمعاتُ التي استشرى فيها الفسادُ والاستبدادُ لا تؤثرُ فيها الفضائحُ، بسببِ إدمانها عليها وكثرتها فيها.

فلا زالت امرأةُ العزيز تستطيعُ سجنَ نبيِّ الله يوسفَ ﷺ، وتعريضه لصنوف من الأذى والعذاب.

لقد عرف تاريخُ البشرية وواقعُها المعاصرُ كثيراً من أمثال هذا المجتمع المنحلِّ الهابط، الذي تتحكَّمُ بمصير أبنائه حَفَنَةٌ من الرجال الضعفاء المنحلين، الذين سيطرت عليهم شهواتهم ونزواتهم، فأسلموا أمورهم إلى نساءهم وخليلاتهم، حتى أصبحنَ الحاكِماتِ الحقيقياتِ لهذه المجتمعات، وأصبحتْ أكبرُ الشؤونِ وأخطرُها تُدارُ من مخادعهنَّ وأماكن لهنَّ وفجورهنَّ.

وهذا ما يفسِّرُ لنا بقاءَ يوسف في قصرها رغم الفضيحة التي حدثت.

إنَّ من المتوقع في مثل هذه الأحوال أن يبادرَ عزيزُ مصرَ إلى إبعاد يوسف عن زوجته بعدما رأى من شدَّةِ تعلقها وشغفها به، ولكنَّه لا يملكُ قرار الإبعاد، لأنَّه بيدها لا بيده، فهي الحاكمة الحقيقية وهي صاحبة القرار.

ولم تستطعْ هذه المرأةُ بكلِّ سلطانها وجمالها وأنوثتها أن تتصرَّ على نبيِّ الله يوسف ﷺ، الذي لا يزالُ يعيشُ قريباً منها، في قصرها وتحت أمرها وسلطانها، وانضمَّ إليها جميعُ من تعرف من المترفات، يعرضنَ معها كلَّ ما يملكنَ من أسبابِ الفتنة والإغراء وأسباب الوعيد والتهديد.

وما كان ﷺ صخرةً صماءً، لا إحساسَ لها ولا شعور، كما قال الشاعر:

أصخرةٌ أنا، ما لي لا تغيِّرُنِي هذي المُدَامُ ولا هذي الأغاريذُ

بل كان يحمل قلباً إنسانياً كريماً رحيماً، ينبضُ بأعلى المشاعر وأرفعها، ولهذا اتَّجه إلى الله تعالى يدعوه، وهو واقفٌ بينهنَّ، وهنَّ يراودنه عن نفسه، ويتبارزنَ في عَرْضِ فِتْنَتِهِنَّ وجمالهن عليه:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٣).

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ اختار ﷺ أخفَّ الضررين، وأهونَ الشرين، فالسجن فيه إضرارٌ ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضرارٌ بدينه وخُلُقِه، وهو أشدُّ ضرراً وأعظمُ خطراً من الأول، ورسم ﷺ بسلوكه هذا القاعدة الشرعية الفقهية: «يُختار أهونُ الشرِّين وأخفُ الضرِّين».

والسجنُ بلاءٌ لا ينبغي لأحدٍ أن يتمنَّاه، ولكنَّه ﷺ آثره على ما يدعونه إليه، فهو معنى قوله: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ثم تواضع لله جلَّ وعلا، وأظهر افتقاره لمعونته سبحانه، فجرد نفسه عن كل حول وقوة، فلا حَوْلَ له إلا بالله تعالى، ولا ثباتَ له في محنته إلا بتشيته سبحانه، فأقبل على الله ﷻ يناجيه بضراعةٍ وخشوعٍ:

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أُمِلُّ بسبب ضعفِي وطبعي إليهن.
 ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون، أو من السفهاء الطائشين.
 فلا يغترَّ إنسانٌ بنفسه، ويُعرض عن ربه، فلا يمتنعُ أحدٌ عن معصية الله تعالى إلا بعونه ومدده جلَّ وعلا.
 ودلَّ دعاؤه ﷺ على أنَّ الزنى لا يحلُّ بالإكراه مهما كان شديداً، ولو أُكْرِهَ رجلٌ بالسجن على الزنى ما جازَ له إجماعاً^(١).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٤).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ بتشيته ومعونته سبحانه.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاءِ الملتجئين إليه.

﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

ونفذت امرأة العزيز تهديدها ووعيدها بعد أن يئست من نيل مرادها، ودخل
﴿يُوسُفُ﴾ السجن:

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنتُهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ﴾ أي: عزيز مصر ومن حوله.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ الدالة على براءة يوسف وأمانته وعفته.

﴿لَيْسَجُنتُهُ حَتَّى حِينٍ﴾ دون إدانة ولا محاكمة، ولهذا لم يحددوا مدة معينة
لسجنه، فالحين وقت غير محدد، وكم في السجون من أبرياء، هم ضحايا
الفساد والاستبداد، وما أكثر الذين دخلوها أحياء، وخرجوا منها أمواتاً!

• يوسف ﴿يُوسُفُ﴾ في السجن:

ودخل نبي الله الكريم ابن الكريم ابن الكريم السجن بعد أن
خرج من محنته الكبرى في قصر العزيز تقياً نقياً، ليواجه محنة أخرى؛ ضيق
السجن وظلمته ووحشته، والشعور بالظلم والاضطهاد، وهو سجن آخر للنفس،
يزيدها همماً وألماً وحسرة.

ومن رحمة الله تعالى بيوسف أنه هياً له سبب خروجه منه عند دخوله:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعِصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي
أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ فقد دخل ﴿يُوسُفُ﴾ باختياره وإرادته كما مر معنا في

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وبقيت امرأة العزيز تراوده حتى دخوله السجن.

وأما الفتیان فإنهما أدخلتا السجن مُكْرَهَيْنِ مُجْبَرَيْنِ، وكانا من حاشية ملك
مصر والمقربين منه، أحدهما: كان طباح الملك، والمسؤول الأول عن طعامه،

وثانيهما: كان ساقِي الملك، والمسؤول الأول عن شرابه، وقد نُمِيَ إلى الملك أن مؤامرة تحاك لقتله بواسطة دسّ السُّم في طعامه أو شرابه، فأمرَ بسجن السَّاقِي والطَّبَّاح للتحقيقِ معهما في الأمر.

وللرؤى والأحلام تأثيرٌ كبير على المسجونين، إذ هي صلتهم الوحيدة بالحرية والحياة خارج أسوار السجن، تمنّيهُم بأمانٍ عَذْبَةٍ، تبعث آمالهم، وتنعش قلوبهم ونفوسهم.

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَعَذَبَ الْمُنَى وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَنًا رَغَدًا
فهي محور حديثهم عندما يستيقظون من نومهم.

• رؤيا الفتيتين:

وعادت الآيات مرة ثانية إلى موضوع الرؤيا وتأويلها، فللرؤيا في قصة يوسف دورٌ كبيرٌ في تحريك أحداث القصة بتقدير الله تعالى، ولها أيضاً صلة وثيقة بموضوع السورة، كما مر معنا [انظر: سورة يوسف: ٤] إذ قدّر سبحانه أن يرى كل واحدٍ من هذين الفتيتين رؤيا، قصّها على نبيّ الله يوسف طالباً منه تعبيرها:

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي﴾ أي: رأيتُ، وعبر بالمضارع لاستحضار صورة الرؤيا. ﴿أَعَصِرُ خَمْراً﴾ أي: أعصر عنباً، وسمّاه خمرأً باعتبار ما يؤول إليه، فلا يعصرون العنب إلا ليصنعوا من عصيره الخمر، ويبدو أن الساقِي هو صاحب هذه الرؤيا.

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ ويبدو أنها رؤيا الطباخ، فرؤيا كل واحد منهما متصلة بطبيعة عمله في قصر الملك.

﴿نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبرنا بتعبير ما رأينا، وبين لنا مآلها، فأول ما يهجس في خاطر السجين إذا رأى رؤيا أنها رؤيا تنبئية، وأنه يمكن أن يرى من خلال تعبيرها مصيره ومستقبله.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في تعبير الرؤى.

فقد كان يُعَبَّرُ للسجناء رؤاهم وأحلامهم، وكان أيضاً يُحَسِّنُ إليهم في

معاملته، يواسيهم ويساعدهم. فهو من المحسنين حقاً، أحسنَ في طاعة الله تعالى وعبادته، كما مرَّ معنا، وأحسنَ في معاملته مع الناس في سعة القصور وفي ضيق السجون، بقي ﷺ محافظاً على جوهره الأصيل المضيء، ثابتاً في مقام الإحسان، رغم ما طرأ على حياته من تغيير وتبدل.

ولم ينسَ ﷺ مهمته الأساس التي كلفه الله تعالى بها، وهي الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، فهو نبيُّ مرسلٍ كريمٍ يحمل دعوةً ورسالةً، وعليه أن يبلغها للناس في كلِّ مكانٍ، في القصور أو في السجون، وفي أي زمان، وما علَّمه تعالى علمَ تأويل الرؤيا إلاَّ ليسخِّره في دعوته وتبليغ رسالته، فهو وسيلةٌ لجذب الناس إليه، والتفافهم عليه، وهو أيضاً وسيلةً لتعريف الناس بصدقه وصحة نبوته، وتقريب معنى الوحي وحقيقته من قلوبهم وعقولهم، كما مرَّ معنا في موضوع السورة.

• دعوة إلى الله في السجن:

وقام ﷺ بذلك خير قيام، عرض على الفتين أولاً الأمر المعجز الخارق لعادات الناس الذي أجراه الله تعالى على يده كدليل على صدقه وصحة نبوته، وهو قدرته على رؤية الحوادث المستقبلية القريبة الحدوث، وذكر لهم أمثلة عملية على ذلك:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ من خارج السجن بواسطة الزائرين من الأهل والأقارب والأصحاب، وما أراد ﷺ طعام السجن الذي يقدم عادةً للسجناء، والذي ألفوه واعتادوا عليه، وعلموا أنواعه وأوقاته، فنفسُ السجناء تنتظرُ بشوقٍ ولهفةٍ زيارةً صديقٍ أو قريبٍ، وتفرح كثيراً بما يحمله الزائرون لهم من هدايا أو طعام.

إِنَّ الزَّيَارَةَ تَنْعِشُ آمَالَهُمْ، وَتَبْعُثُ فِيهِمُ الْحَيَوِيَّةَ وَالنَّشَاطَ، وَتَجْعَلُهُمْ يَشْعُرُونَ أَنَّهُ يَوْجَدُ فِي الْعَالَمِ الثَّانِي خَارِجَ أَسْوَارِ السَّجْنِ مَنْ يَهْتَمُّ بِهِمْ، وَيَشَارِكُهُمْ هُمُومُهُمْ وَحَزَنُهُمْ. وَإِخْبَارُ السَّجِينِ بِزَيَارَةِ قَرِيبَةِ الْوُقُوعِ، وَبِمَا يَحْمِلُ الزَّائِرُ مَعَهُ مِنْ طَعَامٍ، بَشْرَى سَارَّةَ لَهُ تَنْزِلُ عَلَى قَلْبِهِ نَزُولُ الْمَطَرِ عَلَى الْأَرْضِ الْعَطَشَى، الَّتِي طَالَ عَطَشُهَا، وَاشْتَدَّ ظَمْؤُهَا، وَعُرِفَ ﷺ بَيْنَ السَّجَنَاءِ بِهَذَا الْأَمْرِ، وَلِهَذَا ذَكَرَهُمْ بِهِ وَحَدَّثَهُمْ عَنْهُ حَدِيثَ الْوَائِقِ مِنْ نَفْسِهِ:

﴿إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ أَي: إِلَّا أَخْبَرْتُكُمَا بِحَقِيقَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكُمَا.

ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمَا أَنَّ هَذَا الَّذِي يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ لَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْهُ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فَهُوَ عِلْمٌ لَدُنِّي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، الَّذِي هُوَ مُصَدِّرُ كُلِّ عِلْمٍ، يَلْقِيهِ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِوَسْطَةِ الْوَحْيِ، وَعِلُومُ الْوَحْيِ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لَا يَلْحَقُهَا أَيُّ خَطَأٍ.

وَبِهَذَا تَمَكَّنَ ﷺ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى نَفْسَيْهِمَا بِلُطْفٍ وَذِكَاءٍ، وَأَنْ يَشْدَّ انْتِبَاهَهُمَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَعَرَضَ عَلَيْهِمَا عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ مِنْ خِلَالِ حَدِيثِهِ مَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ، فَقَدْ كَانَا يَثْقَانِ بِهِ ثَقَّةً كَبِيرَةً، فَقَالَ:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ الَّذِينَ كَانُوا يَعِيشُ مَعَهُمْ خَارِجَ السَّجْنِ فَهُمْ قَوْمُ الْفَتِينِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِمَا، فَهُوَ أَسْلُوبٌ لَطِيفٌ بَيْنَ فِيهِ خَطَأٌ مَا كَانَا عَلَيْهِ مِنْ مِلَّةٍ وَاعْتِقَادٍ.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ حَقَّ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَهُ سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ، وَلَا يَنْزَهُونَهُ عَنْ صِفَاتِ النِّقْصِ، فَمَعْرِفَةُ وَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ كَافِيَةٍ لِلْإِيمَانِ بِهِ، وَقَدْ كَانُوا كَمَا مَرَّ مَعَنَا يَعْرِفُونَ وَجُودَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ذِكْرُهُ، وَلَكِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَتَجَهَّوْنَ إِلَيْهِ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ.

ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِصِفَةٍ أُخْرَى تَجْعَلُهُمْ أَيْضاً غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى:

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: لا يصدقون بيوم القيامة، وما فيه من حسابٍ وجزاء وهو ركنٌ هامٌّ من أركان الإيمان يدلُّ على كمال قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨).

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فملتهم هي ملَّة التوحيد القائم على تنزيه الله عن أي شريك، وهذا الاتباع فضل من الله تعالى.

﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرون الله على نعمة إرسال الرسل، وإنزال الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

وبعد أن دخل ﴿يُوسُفَ﴾ إلى نفسيهما هذا المدخل اللطيف، أخذ يتوغل أكثر وأكثر في حذرٍ ولين، حتى أفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً، وصارحهما بفساد عقيدتهما وبطلانها بأسلوبٍ يقوم على التفكير والموازنة العقلية المؤدية إلى ظهور الحقيقة ورجحان كفتها:

﴿يَصْدِحِّي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢٩).

﴿يَصْدِحِّي السِّجْنِ﴾ فهما صاحبا سجنه، ورفيقا محنته ومشقته، فصحبته لهما صلبة صادقة ممزوجة بالألم والعناء، لا غشٍّ فيها ولا خداع.

﴿أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ فكثرة الأرباب توجد الخلل والفساد في العالم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثم إن هؤلاء مقهورون ومسحرون لله الواحد الأحد الذي ذلَّ كلُّ شيءٍ لعزِّ جلاله وعظمته سلطانه.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: ما تعبدون إلا أسماء لا مسميات لها؛ لأنها في الأصل لا تستحق أن تُعبد وتُعظم، فكأنها معدومة غير موجودة.

﴿مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أنزل الله حجة ولا برهاناً على عبادتها.
 ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: الحاكمية في الدين والتشريع لله تعالى وحده، وقد:
 ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم الثابت.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق، فيتخبطون في جهالاتهم وضلالهم.

ثم عبّر ﷺ لكل منهما رؤياه بعد أن وجّه إليهما هذه الدعوة الصريحة إلى دين التوحيد وعبادة الله تعالى وحده، فلقد رأى كل واحد منهما رؤيا تنبئية تخبر عن مصيره ومستقبله:

﴿يَصْصَحِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

﴿يَصْصَحِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: سيصبح ساقى الملك وصاحب شرابه، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، ولم يعينه لئلا يدخل الحزن على الآخر.

﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ أي: يقتل ويضلب، وتأكل الطير من لحم رأسه.

﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: قُدر وأُبرِم الأمر الذي سألتما عنه.

وهذا يدلُّ على شِدَّةِ ثقته بنفسه ﷺ، فهو ينظرُ بعين النبوة التي لا تخطئُ أبداً؛ لأنها تنظرُ بوحى الله تعالى علَّام الغيوب.

ولم يترك ﷺ الأخذَ بأسبابِ السلامة والخروج من السجن، مع توكله على الله تعالى، وتفويض أمره إليه، ولَمَّا أَمَرَ الْمَلِكُ بإخراج الساقى من السجن، وجاء يودُعُ يوسُفَ ﷺ، ويَعْرِضُ عليه مساعدته؛ طلبَ ﷺ منه أن يذكر أمره للملك، لعلَّه أن ينصفه ويخرجه من سجنه.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ
فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (٤٢).

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: عَلِمَ وتيقَّن بنجاته، فالظنُّ يأتي بمعنى اليقين والعلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءَ﴾ [الحاقة: ٢٠].

﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: سيِّدك ومتولِّي أمرك.

ولكنَّه بعدَ خروجه من السجن وعودته إلى العمل في القصر، انشغلَ بما فيه من زخرف ومتاع، وأنساه الشيطانُ قضية يوسف ﷺ، حتى مرَّت سنواتٌ ويوسفُ ﷺ في السجن:

﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي: تذكير الملك بقضية يوسف.

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ والبِضْعُ: ما بين الثلاث إلى التسع.

• رؤيا الملك:

بقي يوسف ﷺ في السِّجْنِ حَتَّى جَاءَهُ الْفَرَجُ من الله تعالى مباشرة، وكان ذلك بسبب ما قَدَّر سبحانه لملك مصر أن يرى في نومه رؤيا تنبئية، كانت بتقدير العليم الحكيم سبباً لخروج يوسف من السجن، ونهاية لمحنته وآلامه:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيَهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا نَعْبُورُونَ﴾ (٤٣).

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ مهازيل .
 ﴿وَسَبْعَ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ وقد التوت اليابسات على الخضر
 حتى غلبن عليهن، فحالهن كحال البقرات.

اهتمَّ الملك لهذه الرؤيا التي يظهر منها أنَّ الضعيف يغلبُ القوي، ولعلَّه
 خشي أن يكونَ لها صلة بحكمه وسلطانه، فجمع أَعوانه ووزاءه وكبار الكهنة
 والمنجِّمين والسحرة فقَصَّها عليهم، ثم قال:
 ﴿يَأْتِيَهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا نَعْبُورُونَ﴾ أي: إن كنتم عالمين بتعبير
 الرؤيا.

وعلمُ التعبير مختصٌّ بتفسير الرؤيا، وسمي هذا العلم تعبيراً، لأنَّ المفسر
 للرؤيا يعبرُ من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها^(١).

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ (٤٤).

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ أي: هذه الرؤيا مجموعة أحلام باطلة ومختلطة.
 وأصل معنى الضغث: الحزمة المختلطة من أنواع الحشيش، كما في قوله
 تعالى: ﴿وَعُذِّ بِيدِكَ ضُغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ، وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَقَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].
 وهكذا أعجزهم الله تعالى عن تعبيرها، وحجَّبتهم عن تأويلها لأمر دبره،
 وحكمة قدرها، فأقروا بعجزهم وجهلهم:
 ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾.

وكان الفتى السَّاقِي صاحبُ يوسف في السجن حاضراً مجلس الملك،

فعندما سمع رؤيا الملك، ورأى عجز المعبرين والمنجمين والسحرة عن تأويلها، تذكّر صاحب سجنه يوسف عليه السلام .

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ٤٥ .

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تذكّر أمر يوسف بعد مدة طويلة: سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدْر ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: أخبركم بتأويل رؤيا الملك. وكلماته تدلّ على شدة ثقته بنفسه.

﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: ابعثوني إلى من عنده علم التأويل والتعبير.

• تعبير الرؤيا:

ولمّا كان الأمرُ يتّصل بالملك، وعلى جانب كبير من الخطورة والأهمية ذهب السّاقى بنفسه إلى يوسف في السجن، فخاطبه باحترام وتعظيم قائلاً:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٤٦ .

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أيها المبالغ في الصدق.

قال ذلك حسبما علمه وجربّه من أحواله في مدة إقامته في السجن، وفيه إشارة إلى أنّ على المستفتي أن يعظّم المفتي (١).

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ وهذا يدل على أنّ رؤيا الملك شاعت وانتشرت بين الناس، وأحدثت نوعاً من الخوف والاضطراب في نفوسهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها، ويعلمون أيضاً فضلك وعلمك ومكانتك، وكأنه بهذا أراد أن يعتذر ليوسف عن تقصيره في حقّه ونسيانه لقضيته.

ودون أن يستفسر ﷺ عن الرائي وصفاته وأحواله ومهنته واسمه وكنيته والوقت الذي رأى فيه الرؤيا كما يفعل المعبرون، قال ﷺ بلسان الواثق من نفسه وعلمه؛ لأنه نبي يرى بعين الوحي والنبوة، ولا يحتاج إلى تفكير ومقارنة واستنباط واستدلال بالأسماء والأحوال، والأوقات والإشارات لمعرفة تأويلها:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (٤٧).

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ دائبين على الزرع بجدّ واجتهادٍ دون انقطاع مدة سبع سنين متوالية.

ويلاحظ أنّه ﷺ وجّه كلامه إلى عامة الناس؛ لأنه علم أنّ لهذه الرؤيا التنبئية صلة بالأحوال الاقتصادية والمعيشية التي سيكون عليها الناس لخمس عشرة سنة.

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبُلِهِ﴾ أي: اتركوا الحبّ بعد حصاد الزرع في داخل سبله وقشره، فذلك أبقى له على طول الزمن.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ أي: استخرجوا من الحبّ مقدار ما يكفيكم في هذه السنوات، وادّخروا الباقي، وليكن ما تأكلون أقل مما تدّخرون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ (٤٨).

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سبع سنين مُجْدِبَةٌ مُمَحِلَّةٌ شديدة على الناس.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ تستهلكون فيهنّ كلّ ما ادخرتم في سنوات الخصب السابقة.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ أي: إلا قليلاً تحفظونه لزراعته وبذره.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ (٤٩).

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بعد السنين السبع المجدية.

﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يُمَطَّرُونَ، فالغيث هو المطر.

﴿وَفِيهِ يَعْرِضُونَ﴾ الثمار والفواكه، مما يدلُّ على سعة الرزق وكثرة الخصب.

● التخطيط للمستقبل:

لم يكتفِ ﷺ بتعبير الرؤيا، بل بادرَ فوضعَ لهم خطة عمل لمواجهة سنوات القحط والجفاف، خطة اقتصادية تتناول الحياة الزراعية والتموينية للأمة خلال خمس عشرة سنة مقبلة.

فخطط التنمية في مختلف مجالات حياة الأمم والشعوب من تعليم وزراعة وصناعة وعمران، والتي عرفها الناس في العصور الحديثة، ليست حديثة ولا مبتكرة، إنها قديمة ذكرها القرآن الكريم، ووضع أصولها وطبقها النبيُّ الكريم ابن الكريم يوسف ﷺ.

ومع ذلك فإننا نرى أنَّ خطط التنمية تُرسم وتطبق في المجتمعات الغربية الكافرة أكثر بكثير من المجتمعات الإسلامية التي يُتلى فيها القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار!

نراهم يخططون لمستقبل حياتهم، ويضعون نصب أعينهم أهدافاً عاليةً لتقدمهم، ثم يطبقون خططهم ومناهجهم، وغالباً ما ينجحون في الوصول إلى أهدافهم وأمانهم، بينما نرى أنفسنا في عالمنا الإسلامي المعاصر متخلفين وفاشلين، فلماذا وبين أيدينا القرآن الكريم يرشدنا ويهدينا؟!.

ولا يتعارضُ التخطيطُ للوصول إلى مستقبل أفضل مع الإيمان بالقضاء والقدر، فالتخطيط ليس إلا أخذاً بالأسباب الموصلة بتقدير الله تعالى إلى الأفضل، والأخذ بالأسباب مطلوبٌ شرعاً في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أحرصُ على ما ينفعُك، واستعن بالله ولا تعجز» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

ويوسف عليه السلام الذي رسم هذه الخطة لأحوال الأمة المعيشية لمستقبلٍ يمتدُّ خمسة عشر عاماً نبيٌّ كريمٌ، مؤمنٌ بقضاء الله وقدره، ويعلم أن كلَّ شيءٍ خلقه تعالى بقدرٍ، سبق به علمه سبحانه، وتعلقت به مشيئته في الأزل، ويعلم أيضاً أن الإنسان لا يستطيع أن يخترق أسوار القدر، ولكنَّ القدرَ غيبٌ عن الإنسان، وقد أمر بأن يسعى في تحصيل أسباب ما يراه نافعا، واجتناب أسباب ما يراه ضاراً، ثم يرضى بما قدر الله تعالى له.

ولم يكتفِ عليه السلام بتعبير رؤيا الملك، بل قدَّم لهم نُصحه وإرشاده وخبرته وعلمه في شؤون الزراعة والادخار والتموين، وهذا يدلُّ على أن العلوم التي علَّمها الله تعالى يوسف لم تكن محصورةً في علوم العقيدة والعبادة وتعبير الرؤيا، فقد كان عليه السلام يَعْلَمُ علوماً كثيرة تتعلق بشؤون الزراعة والادخار والتموين تعلَّمها دون أن يدخل مدرسةً وجامعةً، علَّمه الله إياها بواسطة الوحي الذي أنزله عليه، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿ذَلِكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

ولم يبخل عليه السلام بعلمه وخبرته، كما يفعل الآن الخبراء الذين تستقدمهم الدول المتخلفة من الدول المتقدمة في مجال العلوم، فلا يقدمون مشورتهم وخبرتهم للمحتاجين إليها حتى يأخذوا عليها ثمناً باهظاً وامتيازاتٍ كبيرة، قدَّمها عليه السلام للمحتاجين إليها قبل أن تُطلبَ منه، قدَّمها لمن أساءوا إليه وظلموه وأدخلوه السجن بسبب عفته وأمانته، قدَّمها لهم، وهو لا يزال في سجنهم قبل أن يخرجوه منه.

● المطالبة بالتحقيق:

وعرف الملك فضل يوسف عليه السلام وعِلَّمه، فأمرَ بإخراجه من السجن وإحضاره إليه:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلِ الَّتِي سَوَّاهُ الَّتِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ؟﴾ ولكن يوسف عليه السلام أبى أن يخرج من السجن حتى تثبت براءته، فقد رأى أن دخوله السجن عرّضه للشبهة، ولهذا أصرّ أن ينفى عنها قبل خروجه .

وقد وردت السُّنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره؛ ففي «الصحيحين»: عنه عليه السلام قال: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى، وَبِرَحْمَةِ اللَّهِ لَوْ طَأَّ لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رَكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ لِأَجْبُثُ الدَّاعِي» [رواه البخاري (٤٥٣٧) ومسلم (١٥١)، (٢٣٨)].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» معناه: لا تظنوا أن إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كان يشكُّ في قدرته تعالى على إحياء الموتى، فلو كان يشكُّ لَكُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْهُ، هذا من تواضعه عليه الصلاة والسلام وحرصه على تبرئة الأنبياء عليهم السلام من كل سوء .

وأراد النبي ﷺ من قوله: «ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي» مدح يوسف، والثناء عليه بسبب صبره وقوّته على تحمل آلام السجن، وفي الوقت نفسه أظهر عليه الصلاة والسلام تواضعه وضعفه وافتقاره إلى الله تعالى، وما أراد عليه الصلاة والسلام انتقاد يوسف والطعن عليه، كما فهم صاحبُ كتاب (مؤتمر تفسير سورة يوسف) حتى دعا إلى الإعراض عن الحديث الشريف ورفضه^(١) .

وحمل القرطبي رحمه الله الأمر على اختلاف وجهات النظر في أمر له أكثر من جهة جيدة، فقال: «كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف، للشيخ عبد الله العلمي الغزي: ٢/ ٩٠٠ .

إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟! فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة»^(١).

فالمبادرة إلى الخروج عند نبينا ﷺ أولى، لأن فيها مسارعة إلى التخلص من بلاء السجن، ويمكنه بعدها المطالبة بإظهار براءته، وكشف الحقيقة، وقد كان عليه الصلاة والسلام يكره تمنّي البلاء ويقول: «لا تتمنّوا لقاء العدو، وسلّوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا» [رواه مسلم (١٧٤١)].

ولا ننس «أنه ﷺ نبي الرحمة»، «وأنه ما خيّر بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن مأثماً» [رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧)].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ من الملك ليخرجه من السجن.

﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِسْوَةِ الَّتِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: ما خبرهن في هذا الأمر، واختار ﷺ واقعة تقطيع الأيدي من بين وقائع القصة لأنها أعجب الوقائع وأغربها، وأكثرها إثارة للسامع، فيستقصي الحوادث المتصلة بها والأسباب المؤدية إليها.

واتبع ﷺ أسلوب الاستفهام والتلميح تهيجاً للملك لينصرف إلى التحقيق فيما حدث، فلا يغضب على يوسف بسبب رفضه تنفيذ أمره، والحضور إليه.

﴿إِنَّ رَبِّي يَكِيدُهَا لِيَكِيدَنَّهُمْ﴾ أي: إن الله عليم بمكرهن واحتيالهن.

• التحقيق والبراءة:

ونجح ﷺ في تحقيق مراده، وبادر الملك إلى التحقيق وباشره بنفسه، وأظهرت نتيجة التحقيق براءة يوسف وعفته وأمانته وأنه سجن ظلماً، فأمر بإحضار النسوة، وسألهن سؤال المتهم لهن:

(١) تفسير القرطبي: ٢٠٧/٩.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أُمَرَاتُ الْعَزِيزِ الْكَفْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وفوجئنا بالتهمة الموجهة إليهن، فلم يستطعن إنكارها، رغم ما لهنَّ من مكانة ووجاهة وسلطان، فقد وُجِّهت إليهن من الملك، ولكنهنَّ أعرضنَ بذكاءٍ ودهاءٍ عن الاعتراف والفضيحة إلى الشهادة ببراءة يوسف .

﴿قُلْتُ حَسْبُ اللَّهِ﴾ أي: يتنزه الله الذي خلق مثل يوسف عن كل نقص .

﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ في أي أمر من الأمور .

وهكذا ظهرت براءة يوسف ﷺ، وأجمع النسوة على ذلك، ولم تجد امرأة العزيز بداً من الاعتراف:

﴿قَالَتْ أُمَرَاتُ الْعَزِيزِ الْكَفْ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر وثبت بعد خفاء .

﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: وإنَّ يوسف لمن الصادقين في

قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦] .

ولمَّا علم يوسف ﷺ بظهور براءته وشهادة النسوة على ذلك واعترف

امرأة العزيز قال:

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ بقائي في السجن ومطالبتي بالتحقيق .

﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليعلم العزيز أنني لم أخنه في غيابه مطلقاً، فما

أدخلت السجن إلا ظملاً .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ فلو كنتُ خائناً ما نصرني ربي، وأظهر براءتي؛

لأنه سبحانه لا يوفق الخائنين ولا يسدُّهم، ولا بدَّ أن يأتي يومٌ يُظهرُ الله تعالى

فيه الحقَّ، ويُبطل مكر الخائنين، ويفضحه .

ثم أظهر ﷺ تواضعه لله تعالى، وافتقاره إليه، وفضله عليه، بعصمته عن السوء والفاحشة فقال:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ أي: ما أردت تزكية نفسي، بل أردت إظهار ما أنعم الله عليّ من العصمة والتوفيق^(١).

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: إنها بطبعها مائلة إلى الشهوات.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا ما رحمه الله تعالى من النفوس بعصمتها وحفظها.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ذنوب المستغفرين ويسترها، ويرحم عباده الصالحين فيعصمهم ويحفظهم.

• دروس وعبر:

وبهذا انتهت محنة يوسف ﷺ، وانتقل من ظلمة السجن إلى نور الحرية، فعلا نجمه، وذاع صيته، وانتشر خبره، بينما أفل نجم العزيز وزوجته، فلم يعد لهما أي ذكر، وعلم الناس فضل العفة والأمانة والصدق، وعلموا أيضاً قبح الخيانة والاحتيال والكذب.

ودالت دولة الخيانة والظلم، فالظلم ظلمات يوم القيامة، وعاقبته في الدنيا وخيمة، ومهما أملى الله تعالى للظالم فلا بد أن يأخذه: «إِنَّ اللَّهَ لِكُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» [رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣)].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَأَمْلِي لِمَنْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥].

فلا يغتر الظالمون بإملاء الله تعالى لهم، فدعوات المظلومين ترتفع إلى الله تعالى مع زفرائهم ودموعهم، والله ﷻ سميعٌ لأقوالهم عليمٌ بأحوالهم وهو الحكم العدل.

(١) تفسير البضاوي: ٣/ ٤٢٠.

والأيام دُولٌ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَوِّلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، والليالي حبالى، والصبحُ قريبٌ، وهو سبحانه المعزُّ والمذلُّ، والرافعُ والخافضُ، والمعطي والمانع: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].
ورحم الله القائل^(١):

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
والعاقِل من وَعِظَ بغيره، والشقي من وَعِظَ بنفسه.

ودلَّ ما تقدَّم أيضاً على أَنَّ العاقبةَ الطيبةَ للإحسان والتقوى، وَأَنَّ الله تعالى مع المتقين، وَأَنَّ مَنْ كَانَ مع الله كَانَ الله تعالى معه، وَأَنَّهُ سبحانه لَا يتخلَّى عن أنبيائه وأوليائه وأحبابه، وَأَنَّ وحي الله للأنبياء حق، فهم ينظرون بنور وحي الله تعالى فلا يخطئون ولا يزلون، فهم معصومون بعصمته تعالى، ومحفوظون بحفظه ورعايته.



(١) أبو البقاء الرندي، من قصيدة يرثي بها مدينة رندة في الأندلس التي سقطت بيد الكفرة (ن).

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ

يُوسُفُ ﷺ فِي سُدَّةِ الْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَوِي بِهِ؟ أَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهٖ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ ءَابَاؤُهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَصْكَتَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَافِظٌ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ ءِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحَقْتُ بِهِ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَلَّهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَتْ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ

أَذَنَ مُؤَدِّنَ ابْنَتِهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسْرِفُونَ ﴿٧٥﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْعُدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَقْعُدُ
صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٧﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا
لِنَفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ
وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٨٠﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ
اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٨١﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ
مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا يَتَّيَّبُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا
مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عَنْدَهُ
إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى
يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٥﴾ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّيَّبَانَا إِنَّ
ابْنَكُمْ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٦﴾ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي
كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٧﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٨﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ
يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ وَأَبِیْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٩﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا
تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي
وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ يَبْنَیْ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٩٢﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا
عَلَيْهِ قَالُوا يَتَّيَّبُهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَدَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٩٣﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
جَاهِلُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا أَءِذَا نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَازَلَك

اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقِمِيمِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ صَبِيرًا وَأَتُوفِ بِأَهْلِكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ
 ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْعَكِيدِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ
 بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَتَّبِعَانَا مَنِ اسْتَغْفَرَ لَنَا
 ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾
 فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَّهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ فِي الْغُفَاةِ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ
 أَبْوِيَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَحَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا
 وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَرَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ
 إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ
 وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
 مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

• المكين الأمين:

أعجبَ الملكُ بأمانةِ يوسفَ وصدقه وعفته، وأعجبَ أيضاً بعلومه وخبرته،
 فأحبه واشتاق لرؤيته:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ؟ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ﴿٥٤﴾

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ؟ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله خالصاً لنفسي، فلا يشاركني
 فيه أحد. وهذا يدلُّ على شدة حب الملك وشوقه إليه.

وكم بين أمر الملك السابق قبل التحقيق: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ؟﴾ [يوسف: ٥٠]
 وبين أمره اللاحق بعده من فرق: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ؟ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي﴾ فالعلمُ
 وحده لا يكفي لظهور الفضل، فما عرف الملك فضلَ يوسف بعلمه فقط، الذي
 ظهر له عندما عبَّر الرؤيا، إنَّما عَرَفَ فضله بعدَ التحقيق، وظهور براءته وعفته

وصدقه وأمانته ﷺ، ولا فائدة مِنْ عِلْمٍ لا خُلُقٍ معه، والإيمان بالله تعالى معدن الأخلاق الكريمة وأساسها ومنبعها.

وازدادَ تقديرُ الملك ليوسف وإعجابه به بعد أن رآه وسمع كلامه، فالكلامُ مرآةَ المتكلم، يُظهر حقيقته، ويكشف هويته، والإنسانُ مخبوءٌ تحت لسانه، فإذا تكلم عُرف.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: أصبح لك عندنا مكانةٌ كبيرة، ومنزلةٌ رفيعة، وأصبحت أيضاً مؤتمناً على كل شيء.

فالمكينُ الأمينُ أعزُّ الصفات وأكرمها وأرفعها، وقد أثنى الله تعالى بهما على أمين الوحي جبريل ﷺ بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٤٢﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير].

وقولُ المَلِكِ هذا يدلُّ على علوِّ مداركه، وحسنِ فراسته، وحبهِ للأخلاق الكريمة، وإنصافه وعدله، مع أنه من ملوك الهكسوس، وهم البدو الرُّحَل، الذين استولوا على الحكم في مصر، واستأثروا به دون الأسرة المصرية الحاكمة التي ينتمي إليها الفراعنة، ولهذا ذكره الله تعالى بالملك، ولم يذكره بفرعون، كما في قصة موسى ﷺ.

● طلب العمل والمنصب:

وعلوُّ الهمة من الإيمان، وما أرادَ الكريمُ ابنُ الكريم أن يعيشَ في بلاط الملك من غير عمل، كما هو حال كثيرٍ من حاشية الملوك والحكام، بل أرادَ أن يقومَ بعملٍ كبيرٍ مفيدٍ، ويتحمَّلَ مسؤوليته، فرشَّح نفسه لأخطر المناصب وأعلاها، وأكبرها عملاً وجهداً ودأباً وسهرأً، وأكثرها نفعاً لعامة الناس وضعفائهم وفقرائهم؛ والتكفل بإطعام شعوب جائعة في أزِمَاتٍ اقتصادية خانقة تبعته كبيرة، ومسؤولية جسيمة، يهرب منها الرجال؛ لأنها قد تكلفهم رؤوسهم^(١).

ومع ذلك رشَّح يوسف ﷺ نفسه لتحمل تبعه هذه المسؤولية الخطيرة:

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٠٠٥.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ (٥٥).

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أي: اجعل أمر إدارة خزائن المال والطعام في أرض مصر إليّ؛ فإني أمينٌ عليها، خبيرٌ بتدبير شؤونها ووجوه مصالحها.

وصف ﷺ نفسه بالأمانة والعلم، وهذا يدلُّ على جواز طلب المنصب لمن كان أهلاً له، ولو كان منصب إماره وولاية عامة، بل يجب عليه أن يطلب العمل لنفسه إذا توقّف عليه إقامة واجب، ولا يوجد من يقوم به غيره.

وما في «الصحيحين» [البخاري (٦٦٢٢) ومسلم (١٦٥٢)] من حديث عبد الرحمن بن سُمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها» واردٌ في غير ذلك^(١).

أي: وارد في حال وجود من يقوم بها ويصلح لها، فالأولى حينئذٍ ألا يطلبها لنفسه، وما طلبها ﷺ لنفسه إلا لعلمه أنه وحده الذي يستطيع القيام بأعبائها، ولهذا قال:

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ ولم يقل: إني حسيب كريم، ولا قال: جميل مليح، سألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال^(٢).

وأراد ﷺ بقوله هذا التعريف بنفسه، ليوضع في المنصب الذي يناسبها، وهو أمرٌ مطلوب، وما أراد تزكيتها، وهو أمرٌ مذموم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

• الرجل المناسب في المكان المناسب:

ووضع الإنسان في العمل الذي يناسبه أمرٌ ضروري وجوهري لتقدّم

(١) انظر: روح المعاني: ٥/٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٢١٦/٩.

المجتمع ونموه، ولذلك دعا الإسلام إلى التخصص والاختصاص، قال تعالى: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أمر الله تعالى في الآية الأولى بالرجوع في كل شأن إلى أصحاب العلم والخبرة فيه، وحذّر في الآية الثانية الإنسان من التدخل في شؤون ليست من اختصاصه، وقرّر مسؤوليته عن كل ما يقع نتيجة تصرفاته الفضولية وآرائه الطفيلية، فالتخصّص هو السبيل الأقوم ل عمران الحياة، وهو يستدعي وضع كل إنسان في مكانه الذي يتناسب مع كفاياته العلمية والعملية^(١).

وهو من مهمّات الحاكم ووليّ الأمر في المجتمع، فالمحابة في المناصب، ووضع الإنسان في غير موضعه المناسب له غشّ للأمة وخيانة لها، قال عليه الصلاة والسلام: «ما مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ ﷻ رِعْيَةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ رِعْيَتَهُ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» وفي رواية: «فَلَمْ يُحِطْهَا بِنُصْحِهِ لَمْ يُرَخَّ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ» [رواه البخاري (٧١٥٠) ومسلم (١٤٢)].

وقال أيضاً: «ما مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ لَهُمْ إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ» [رواه مسلم (١٤٢)].

وعن يزيد بن أبي سفيان ﷺ قال: قال لي أبو بكر الصديق ﷺ حين بعثني إلى الشام: يا يزيد، إِنَّ لَكَ قَرَابَةً عَسَيْتَ أَنْ تُؤْثِرَهُمْ بِالْإِمَارَةِ، وَذَلِكَ أَكْثَرُ مَا أَخَافُ عَلَيْكَ، بعدما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا حَتَّى يَدْخُلَهُ جَهَنَّمَ» [رواه الحاكم (٩٣/٤) وصحّحه].

ودلّ قوله ﷺ للملك: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ على جواز قبول العمل

(١) انظر: حياتنا والموعود المجهول، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

والوظيفة من الحاكم الكافر، وخاصةً إذا كان في العمل مصلحةً للمسلمين، ورعايةً لشؤونهم.

• الحاكم الصالح:

وَجَدَ الْمَلِكُ فِي يُوسُفَ ۖ الْأَمَانَةَ وَالخَبْرَةَ، فوافق على طلبه، وَسَلَّمَهُ مسؤوليةَ إدارةِ الشؤون الاقتصادية والزراعية والمالية في مملكته كلها، وأصبح ۖ الوزير الأول في مصر، وعزيزها، وصاحب الكلمة النافذة فيها بعد الملك، وجمع الله له بهذا النبوة والحكم، فقد كان نبياً وحاكماً، وفي هذا ردُّ على أولئك الذين يحصرون مهمة الأنبياء في بيان شؤون العقيدة والعبادة فقط، ويحاولون عزل الدين عن الشؤون المتعلقة بالحكم والسياسة والاقتصاد، وغير ذلك من الأمور العامة.

قال تعالى يبين فضله على نبيه يوسف ونعمته عليه:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ شَاءَ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ .

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما جعلنا له مكانةً عالية في قلب الملك جعلنا له مكانةً في أرض مصر كلها، ولا بدَّ أنه ۖ استفاد من هذا التمكين في الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونشر عقيدة التوحيد بين المصريين، فقد جعله الله رسلاً إليهم كما جعله حاكماً عليهم.

ونجح ۖ في نشر التوحيد في أوساط العامة من الضعفاء والفقراء، أمَّا كبار الأغنياء والمترفين الذين كانوا يشكّلون حاشيةً وبطانةً الأسرة الفرعونية فلم يتقبلوا دعوته، دلَّ على ذلك ما حكاه الله تعالى من كلام مؤمن آل فرعون وهو يخاطب فرعون وحاشيته في زمن موسى ۖ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

﴿يَبْتَوُا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي: ينزل في أي مكان يريد من أرض مصر، وهذا يدلُّ على قوة سلطانه ﷺ، وتمكُّنه في جميع مدن وقرى مصر، وكل ذلك من فضله تعالى ورحمته.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ بمقتضى حكمته تعالى وعلمه.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وكما أحسن ﷺ في الضراء والمحنة بصبره وتقواه، أحسن ﷺ أيضاً في السراء والنعمة، فأطاع الله تعالى في الأمة التي ولَّاه الله أمرها في سنوات السَّعة والرِّخاء، وفي سنوات الجَدْبِ والضَّراء.

وما أشدَّ حاجة الأمم والشعوب إلى الحاكم الصالح الذي يخشى الله تعالى ويتَّقِيه، فلا يغرُّه سلطان؛ لأنه يرى سلطانَ الله تعالى أعظم وأجل من سلطانه، ولا يستبدُّ به طمع؛ لأنه يرى أن ما عند الله تعالى خير وأبقى من كنوز الدنيا الزائلة، فقلبه متوجِّه إلى الآخرة التي قال تعالى عنها:

﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

● المعجزة الاقتصادية:

وكان ﷺ في حكمه حفيظاً عليمًا، كما وصف نفسه، استغل سنوات الخِضْبِ والرِّخاء أحسنَ استغلال، فوجَّه المصريين إلى الاستفادة منها ببذل أقصى الجهد، واستصلح كثيراً من الأراضي البور فأحياها، وأوصل إليها الماء من النيل بواسطة شبكة كبيرة من التُّرع والقنوات، ورسم لها نظاماً دقيقاً مُحْكَمًا للريِّ والصَّرف، ولا يزال هذا النظام قائماً حتى الآن في كثير من الأراضي المصرية، كما لا تزال كثير من التُّرع والقنوات تُنسب إليه ﷺ وتسمَّى باسمه.

ولم يسخر ﷺ طاقات الأمة لبناء القصور والقبور، كما فعل الفراعنة، الذين لا زالت آثارهم تدلُّ على طغيانهم واستبدادهم وظلمهم.

وأنشأ ﷺ أيضاً المخازن الكبيرة لخرن فائض المحاصيل الزراعية، وتمكَّن بمعونة الله له من تحقيق معجزة الخَزْنِ والادخار للمحاصيل الزراعية إلى مدى

أربع عشرة سنة، والتي تعجز عن مثلها أكبر الدول في عصرنا الحاضر، عصر التقنية والتكنولوجيا، وما أكثر ما نقرأ في المجلات والصحف عن التلف الذي يصيب المحاصيل الزراعية المدخرة بسبب سوء التخزين والادخار.

ولما انتهت سنوات الخُصْبِ والرِّخاءِ، وأقبلت سنوات القحط والجوع والجفاف، التي عمّت المنطقة كلها، مصرَ وما حولها من البلاد، وضع ﷺ نظاماً لتوزيع المُوْن والطعام على الفقراء والمحتاجين من داخل مصر وخارجها، وأشرف بنفسه ﷺ على التوزيع، وكان يباشره بنفسه أحياناً كما سيأتي معنا، دونَ تمييزٍ بين المصريين وغيرهم من المحتاجين.

فالإيمانُ بالله تعالى ينمّي مشاعرَ الخير في نفس الإنسان، ويدفعه إلى تقديم المعونة والمساعدة إلى كل الناس، فلا يميّز بينهم، كما يفعل الآن الماديون الغربيون عندما يضطرون لتقديم بعض المساعدات إلى غيرهم، تراهم يساوون الجائعين والمُعْدَمين في إفريقية وغيرها، ليتخلّوا عن دينهم وعقيدتهم مقابل ما يقدّمونه لهم لسد جوعهم ودفع خلتهم.

كان نبيُّ الله يوسف ﷺ مثلاً رفيعاً للحاكم الصالح والعالم المؤمن المتواضع، كان ﷺ عالماً بشؤون الزراعة، ومهندساً في الري، وخبيراً في الأدخار والتوزيع، وكل ما كان عنده من علوم آتاه الله تعالى إياها بفضله ورحمته دون معلم ولا كتاب ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

فالحقيقة لا تُعرَفُ كُلُّها بواسطة حواس الإنسان المادية، فثمة مصدر آخر للحقيقة أعلى وأرفع وأعظم، وهو وحي الله تعالى المنزل على أنبيائه.

• التوزيع:

ومضت سنوات الخير والرخاء، وكانت بالنسبة ليوسف ﷺ سنوات العمل والجهد المتواصل بالليل والنهار استعداداً وتحضيراً لسنوات القحط والجفاف، ألا يقرأ الكُسالى المتواكلون المنتشرون في العالم الإسلامي سورة يوسف ﷺ؟! وجاءت سنوات القحط والجفاف، وتحولت جهود النبي الكريم إلى تنظيم

توزيع المدّخرات، لا على المحتاجين الجائعين فقط، وإنما توزيع المدّخرات على سنوات الجفاف السبع، لتغطية حاجات الاستهلاك فيها كلها، فقد رأى ﷺ بعين النبوة من خلال رؤيا الملك البعد الزمني لامتداد أزمة الجفاف، فلا بدّ إذاً من رسم خطة للتوزيع كما فعل في خطة الإنتاج والادّخار، تغطي حاجات السنوات السبع، وتطبق بدقة وحزم وعزم.

خطة يستطيع المحتاج بواسطتها أن يأخذ حاجته، دون أن يقف ساعات كثيرة في طوابير طويلة على أبواب مراكز التوزيع، كما هو الحال في كثير من المجتمعات في العصر الحاضر، العصر الذي سخر فيه الإنسان الآلة، واستفاد منها في هذا المجال في توفير الجهد والوقت.

ورأى ﷺ ألاّ يقدّم الطعام من دون مقابل، فإنّ ذلك يشجّع الناس على سرعة استهلاكه وتبديده، ولهذا وجدّ من الحكمة أن يتقاضى ثمن الطعام من القادرين على دفع ثمنه.

• قدوم إخوة يوسف إلى مصر:

وشمل القحط والجفاف مصر وما حولها من البلاد، وتسامع الناس في كل مكان أخبار التوزيع للمؤن والطعام في مصر وأخبار حاكمها الصالح، فشدّوا إليه الرّحال من كل حدب وصوب، يمتارون في هذه السنوات العجاف:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨)

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ نَسَبَتْهُمُ الْآيَةُ إلى يوسف وعرفتْهم به، فلولاه لكانوا نكرات لا يذكرهم أحد، ولا يعرفهم، جاؤوا بعد مرور سنواتٍ طويلةٍ على جريمتهم التي ارتكبوها بحقّ أخيه وأبيهم.

ألجأتهم المجاعة والفاقة، فجاؤوا يمتارون لأنفسهم ولأهلهم ولأبيهم الشيخ الكبير، الذي لم ينسَ ولده يوسف، ولا يزال حزيناً على فراقه، ويمنيّ النفس بلقائه.

ولا بد أن نتساءل هنا: لماذا لم يبادر يوسف إلى الاتصال بأبيه بعد خروجه من السجن، وتمكّنه من حكم مصر، وهو يعلم شدّة حزن أبيه على فراقه؟ هل شغله تدبير شؤون الحكم وخطط الإنتاج والادخار عن أبيه وأمه وأخيه وأهله وذويه؟ أما كان يستطيع أن يرسل إلى أبيه رسولاً أو رسالة يخبره بمكانه، ويحيطه علماً بأحواله، فينهي بذلك آلامه وأحزانه؟!.

لا شكّ أنّه ﷺ كان يستطيع أن يفعل ذلك، ولعلّه لم يفعله لأنه نبيّ كريم، ورسولٌ أمين، لا يتحرّك ولا يسكن ألا بأمر الله تعالى ومشيتته، فعواطفه نحو أبيه وأمه وأهله وراء رسالته ونبوته.

وكذلك حال أبيه يعقوب ﷺ، فهو نبيّ كريم أيضاً مكلف برسالة حملها إلى القوم الذين كان مقيماً بينهم، ولا يستطيع مفارقتهم ومغادرة موطن رسالته حتى يأذن الله تعالى له بذلك، ولهذا لم يهاجر نبيناً ﷺ إلى الحبشة عندما هاجر أصحابه إليها، ولم يهاجر إلى المدينة المنورة حتى أذن الله تعالى له بالهجرة، مع أنّ أكثر أصحابه سبقوه بالهجرة، فشأن النبيّ الرسول يختلف عن عامة الناس، وما يمكن أن يردّ حول عامة الناس من تساؤل لا يردّ في حق النبيّ الرسول يوسف ﷺ.

﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وهذا يدلّ على أنّ يوسف ﷺ كان يقيم في مركز التوزيع ويشرف عليه بنفسه، أو أنه كان يتوقّع مجيئهم، فلمّا جاؤوا أمر أن يدخلوا عليه، ولكن قوله تعالى:

﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يرجّح الرأي الأول، إذ عرف أنهم إخوته بعد دخولهم عليه.

﴿وَهُمْ لَهُ مُكْرُونَ﴾ وهم لم يعرفوا أنه أخوهم يوسف، فقد كان صغيراً عندما ألقوه في الجبّ، وملامح الصغير تتغيّر بمرور السنين أكثر من الكبير، ويمكن أن تكون معرفته لهم حصّلت بعد أن سألهم وحقّق معهم.

فلا بد أنه سألهم عن أسمائهم وبلادهم وأولادهم وعبيدهم وخدمهم

ليعطيتهم على حسب حاجتهم، ولا بد أنهم أخبروه عن أبيهم وأخيتهم اللذين لم يحضرا معهم، ويئنون له سبب تخلف أخيتهم لشدة محبة أبيه له وخوفه عليه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبَائِكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أعطاهم ما جاؤوا لأجله، وما يحتاجون إليه في سفرهم، وكان يعطي كفاية عام واحد.

﴿قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبَائِكُمْ﴾ تظاهر بأنه يريد التأكد من صدقهم، فطلب منهم أن يحضروا أخاهم معهم في المرة القادمة.

ثم رغبهم بكرمه وحسن ضيافته ليعودوا إليه فقال:

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي: أعطيتهم لمستحقته كاملاً غير ناقص.

﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ للضيف والمكرمين له.

ثم بعد الترغيب توعددهم بالحرمان والمنع من دخول البلاد إذا لم يحضروا أخاهم معهم:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

بلادي.

﴿قَالُوا سَرَرُوا عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿قَالُوا سَرَرُوا عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنجتهد في طلبه من أبيه.

ثم أكدوا كلامهم قائلين:

﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾.

وكي يضمن ﴿يُضْمَنَ﴾ رجوعهم، أمر بعض أتباعه ومعاونيه أن يرُدُّوا إليهم ثمنَ

الطعام الذي أحضروه معهم دون أن يشعروهم بذلك، ليعرفوا كرمه وإحسانه فيرجعوا إليه:

﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢).

﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْنِهِ اجْعَلُوا بِضَعْنَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ في أوعيتهم.
 ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ إذا وصلوا إلى أهلهم.
 ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

• رسالة رمزية إلى يعقوب:

وعندما عادوا إلى أبيهم أخبروه بما حدث لهم، وبأدروا إلى مطالبته أن يرسل أخاهم معهم في المرة القادمة:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٣).

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ في المستقبل، جعلوا التهديد بالحرمان من الطعام توطئة للمطالبة بإرسال أخيهم معهم.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ﴾ أي: نرفع المانع، ونأخذ ما نحتاج من الطعام.
 ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وذكره قولهم هذا بقولهم السابق عندما سأله أن يرسل يوسف معهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

ولا بد أن دموعاً سالت من عينيه المقرحتين من كثرة البكاء على فراق يوسف حتى انطفأ نورهما، وانتظر ﷺ حتى هدأت نفسه، وتوقفت دموعه:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كيف آمنكم عليه، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وقد ذكرتُم مثل هذه الكلمات التي تذكرونها الآن: ﴿وَأَنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] فهل حفظتم يوسف؟! .
﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ فحفظ الله خيرٌ من حفظهم، والتفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه:
﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ونستدلُّ من كلمات يعقوب عليه السلام أنه لم يرفض طلبهم، فثمة هاجسٌ يهجس في قلبه أن وراء هذا الطلب سرًّا، وأنه ربَّما له صلة بولده الحبيب يوسف، فضلاً عن القحط الشديد الذي اضطره إلى إرساله معهم.
وبعد أن فتحوأ أوعيتهم وفوجئوا بوجود ثمن الطعام فيها، عادوا يطالبون أباهم بإرسال أخيهام معهم محتجين بما وجدوا في أوعيتهم:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا مَا بَنَيْ هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا مَا بَنَيْ﴾ أي: ماذا نطلب من هذا الرجل عزيز مصر بعد أن أحسن إلينا كلَّ هذا الإحسان؟! .
﴿هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ تفضلاً منه وكرماً، فينبغي أن نقابل كرمه هذا وإحسانه بالاستجابة لطلبه.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نحضرُ لهم الميرة، وهي الطعام الذي يجلب من بلد إلى بلد.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من المخاطر والمكاره.

﴿وَنَزَدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ حِمْلٌ بَعِيرٍ عَلَى أَحْمَالِنَا، وَكَانَ يُوسُفُ يُعْطِي كُلَّ إِنْسَانٍ حِمْلَ بَعِيرٍ.

﴿ذَلِكَ﴾ أَي: الَّذِي أَحْضَرْنَاهُ مِنَ الْمِيرَةِ.

﴿كَيْلُ يَسِيرٍ﴾ لَا يَكْفِينَا، فَلَا بَدَّ لَنَا أَنْ نَعُودَ لِلْمِيرَةِ مَرَّةً أُخْرَى.

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْحَاسِدِ أَنَّهُ يَكُونُ طَمَاعاً شَرِهاً، وَلَقَدْ أَصَابَ يُوسُفَ ۞ الْهَدَفَ تَمَاماً، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ إِخْوَتِهِ، وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ نَفُوسُهُمْ مِنْ طَمَعٍ وَشَرِّهِ، وَلِهَذَا أَطْمَعَهُمْ وَمَنَّاهُمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ ثَمَنَ طَعَامِهِمْ لِيَأْتَوْهُ بِأَخِيهِمْ، وَلَا عَجَبَ فِيمَا نَرَاهُ مِنْ جَشَعِ خَلْفِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ وَطَمَعِهِمْ وَحَسَدِهِمْ.

وَلَا بَدَّ أَنَّ يَعْقُوبَ ۞ تَسَاءَلَ فِي نَفْسِهِ عَنْ سِرِّ مَا فَعَلَهُ عَزِيزُ مِصْرَ مَعَ أَوْلَادِهِ؛ لِمَاذَا أَكْرَمَهُمْ وَاحْتَفَى بِهِمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ ثَمَنَ طَعَامِهِمْ بِهَذَا الْأَسْلُوبِ اللَّطِيفِ، وَطَلَبَ إِحْضَارَ أَخِيهِمْ مَعَهُمْ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، وَعَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَاخُ لَكُمْ مَنَ أَيُّكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]؟ وَالْأَنْبِيَاءُ ۞ أَفْطَنَ النَّاسَ وَأَذْكَاهُمْ، وَنَفُوسُهُمْ حَسَّاسَةٌ شَفَافَةٌ، شَدِيدَةُ التَّأَثُّرِ، سَرِيعَةُ الْفَهْمِ.

تُرَى هَلْ كَانَ مَا فَعَلَهُ يُوسُفُ بِإِخْوَتِهِ وَمُطَالَبَتِهِ بِأَخِيهِ رِسَالَةً رَمْزِيَّةً مِنْهُ لِأَبِيهِ^(١) أَخْبَرَهُ فِيهَا أَنَّهُ فِي مِصْرَ، وَأَنَّ وَقْتَ الْلِقَاءِ أَصْبَحَ قَرِيباً، وَسَيَأْتِي مَعْنَا فِي قَوْلِ يَعْقُوبَ: ﴿يَبْنَئِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] مَا يَشِيرُ إِلَى ذَلِكَ.

• التَّوَكُّلُ وَالْحَذَرُ:

وَافَقَ أَحْيَرًا نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُ عَلَى إِرْسَالِ وَلَدِهِ الشَّقِيقِ الْأَصْغَرِ لِيُوسُفَ مَعَ إِخْوَتِهِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقاً مُؤَكِّداً بِالْإِيمَانِ الْمَغْلُظَةِ عَلَى حِمَايَتِهِ وَحَفَظِهِ:

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف: ١٠٠٣/٢.

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٦).

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن تغلبوا وتهلكوا، فلا تقدرُوا على رده، وأصله من إحاطة العدو، فإن من أحاط به العدو فقد هلك غالباً^(١).

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ رقيب وحسيب، وهو أقصى ما يستطيع يعقوب أن يفعله لولده.

ولم ينسَ ﷺ أن يزود أولاده بوصاياهم عندما أرادوا السفر:

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٦٧).

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ كأنه ﷺ خشي عليهم من أعين الحُساد ومكرهم بسبب ما كان لهم من الهيئات الحسنة والأبهاء والجمال، فحذَّره ألا يدخلوا جميعاً من باب واحد عند وصولهم إلى مركز التوزيع، وأوصاهم أن يدخلوا أفراداً من أبواب متفرقة.

● العين والحسد:

فَلَعَيْنُ الحاسد تأثيرٌ سلبيٌّ ضار بالمحسود بتقدير الله تعالى، أثبتته النصوص القطعية وشواهد الواقع الكثيرة المحسوسة، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

وقال رسول الله ﷺ: «الْعَيْنُ حَقٌّ» [رواه البخاري (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧)].

(١) انظر: روح المعاني: ١٤/٥.

وقال أيضاً: «الْعَيْنُ حَقٌّ، ولو كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدْرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وإذا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا» [رواه مسلم (٢١٨٨)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كَانَ يُؤَمِّرُ الْعَائِنَ فَيَتَوَضَّأُ، وَيَغْسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ. [رواه أبو داود (٣٨٨٠) وأحمد (٤٤٧/٣)].

وقالت أيضاً: كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَقَاهُ جَبْرِيلُ، قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ يَبْرِيكَ، مِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ» [رواه مسلم (٢١٨٥)].

فثمة جانب خفي في الإنسان يتأثر ويؤثر، دأبت سورة يوسف على إثباته، فالرؤيا تدل على وجوده، كما مر معنا، فهي تدل على تأثره بما يلقي إليه من خارج الإنسان، والوحي وعلومه يؤكد، ويجعله حقيقة ملموسة، والعين الحاسدة تدل أيضاً على إمكانية تأثير الإنسان في غيره بمشيئة الله تعالى وتقديره. ولم يستطع الإنسان أن يعرف شيئاً عن هذا الجانب الخفي في كيانه، والذي يشكّل الجزء الهام، أو الأهم، في تكوينه، وهو الذي قال عنه سبحانه: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأرواح الناس أنواع، بعضها يغلب عليه الخير والصلاح، وهي الأرواح الطيبة، وبعضها يغلب عليه الشر والفساد، وهي الأرواح الخبيثة، المؤذية الحاسدة. وبعد أن أوصى يعقوب أولاده استدرك قائلاً:

﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مَنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فالحذر لا يدفع القدر، وما أوصاهم بالحذر إلا من قبيل الأخذ بالأسباب الظاهرة للسلامة والوقاية، وهو أمر مطلوب شرعاً، قال تعالى: ﴿وَحَذُّوا حُذْرَكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الآية [البقرة: ١٩٥].

﴿إِنَّ الْحُكْمَ الْقَدَرِي وَالشَّرْعِي.

﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فالتوكل لا يمنع من الأخذ بأسباب الوقاية والحذر.

• لقاء الشقيقين:

وتفرق إخوة يوسف على الأبواب تنفيذاً لوصية أبيهم:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَتْ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَتْ﴾ ذلك الدخول.

﴿يُعْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: يدفع عنهم شيئاً قدره تعالى عليهم.

ويعقوب عليه السلام يعلم ذلك، وما أوصاهم بالدخول متفرقين:

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أي: أظهرها بوصيته لهم، وهي خوفه وشفقته عليهم، وما صدر عن مجرد عاطفة فقط، بل عن علم بما يجزُّ حسد الحاسدين على المحسود من ضرر بتقدير الله تعالى.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ من أحوال النفوس وطبائع الأرواح، فالوحي مصدر من مصادر العلم، لا يكون إلا للأنبياء عليهم السلام.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق المستورة لأنهم محجوبون عنها.

ويشير قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ إلى أنه عليه السلام كان يتوقع حدوث شيء ما لأولاده، ولهذا ساوره القلق عليهم، وأوصاهم وحذرهم، فتصرفات عزيز مصر معهم غير عادية، ولعلها كما قلنا رسالة رمزية من يوسف لأبيه عليه السلام.

وبادر يوسف عليه السلام إلى ضم شقيقه الأصغر إليه، وتعريفه بنفسه، فعل ذلك بِنَجْوَةٍ عن إخوته:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُسُفَءَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

أي: لا تحزن بما فعلوه معنا، فقد أحسن الله إلينا، وجمع بيننا.
وأوصاه أن يكتم الأمر عن إخوته.
ورسم ﴿٦٩﴾ خطَّةً لإبقاء شقيقه عنده، وشرع في تنفيذها.

• الاتهام بالسرقة:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي: في وعاء شقيقه.
والسَّقَايَةُ: الإناء الذي يشرب به الملك، جعلت كيلاً يُكال به الطعام.
ولمَّا افتقدها الجنود وقف أحدهم ينادي:
﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ يا أصحاب العير، وهي الإبل التي عليها الأحمال.

وفوجئ إخوة يوسف بهذا الاتهام، فاهتموا له وانزعجوا منه:

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ .

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: قال إخوة يوسف وهو مقبلون على الجنود:
﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ؟﴾ .

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ .

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ﴾ سقايته التي يشرب بها، وكانت تشبه الكأس.
﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جائزة له.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل ضامنٌ أؤدِّيهِ إليه، وهي من كلام المنادي.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ (٧٣).

﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالسرقة، أي: والله ما جئنا لنشر الفساد في الأرض بالسرقة، فهي من أعظم أنواع الفساد في الأرض، وتؤدي إلى إشاعة الخوف والاضطراب في المجتمع، ولهذا شرع الإسلام قطع يد السارق حَسْماً لهذا الفساد، ودفعاً له.

﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ وكذبوا في دعواهم هذه، لأنهم احتالوا على أبيهم، فنزعوا يوسف منه، وألقوه في الجب، كما مر معنا في الآيات (١١ - ١٨).

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤).

﴿قَالُوا﴾ أي: الجنود.

﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾؟

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥).

﴿قَالُوا﴾ أي: إخوة يوسف.

﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ بأن يُسْتَرْقَ ويصبح عبداً للمسروق منه. وكان هذا جزاء السارق في شريعة يعقوب عليه السلام، ولهذا قالوا:

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: هذا جزاء السارقين في شريعتنا.

ولما شرع المفتش بالبحث عن المسروق في الأوعية:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي: شقيق يوسف .

وقد يقول قائل: هذا الكيد والاحتياث لا يليق بحال يوسف ﷺ؟ .

وأقول: لقد فعل يوسف ما فعلَ بامر الله تعالى ووحيه، ولهذا قال سبحانه:

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: أوحينا إليه وعلمناه إياه^(١).

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: ما كان يستطيعُ أن يأخذ أخاه في

شرع ملك مصر، لأنَّ شرعه معاقبة السارق بغير استرقاقه .

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فما أخذه إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه، فالأمر منوط

بمشيئته سبحانه .

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ بالعلم الذي نوحيه إليه، ونخصه به، كيوسف ﷺ،

فقد أعزّه الله تعالى، ورفعَ مقامه بالعلوم التي علّمه سبحانه إياها، في الدين

والعبادة وتعبير الرؤيا والزراعة والأدّخار والتوزيع، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ

ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١] .

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وفوق كل ذي علم من الخلق عليم؛ وهو

الخالق العظيم، الذي وسع علمه كل شيء .

فعلى العالم ألا يغترّ بعلمه، ويتواضع للناس، ويسخرَ علمه لفائدتهم، كما

فعل يوسف ﷺ، وعليه أيضاً أن يسعى دائماً في طلب العلم، والاستزادة منه،

قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] .

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٤٣٧/٣ .

وما فعله يوسف عليه السلام يدلُّ على جواز الاحتيال لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، قال عليه السلام: «إِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ» [رواه البخاري (٣٠٣٠)].

وقال أيضاً نُعَيْم بن مسعود العُظْفَانِيُّ عندما جاءه مُسْلِمًا في أثناء غزوة الخندق: «إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذَّلْ عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ»^(١).

وكان عليه السلام حينئذ محصوراً مع أصحابه في المدينة المنورة، من قِبَلِ القبائل المشركة المتحزِّبة على المسلمين، وقد انضمَّ إليهم يهودُ بني قريظة بعد أن نقضوا عهدهم مع النبي عليه السلام، واحتال نُعَيْم بن مسعود عليه السلام على الأحزاب ومن كان معهم من اليهود حتى تمكَّن من إشاعة الفرقة بينهم، وتوهين صفهم وفشلهم.

واحتال أيضاً بعضُ الصحابة على كعب بن الأشرف أحد كبار يهود المدينة، حتى أنزلوه من حصنه وقتلوه، وكفُّوا أذاه وشرَّه عن المسلمين.

● الحقد القديم:

وبدل أن يسعى إخوة يوسف لإثبات براءة أخيه:

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يُبَدِّهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧).

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: لا عجب أن يسرق، فقد سرق أخ له من قبل، وأرادوا يوسف عليه السلام.

وبهذا ثَبَّتُوا التهمة على أخيه؛ فما أغباهم! وما أشدَّ حقدَهم على يوسف عليه السلام! فلا زالت قلوبُهم بعد كلِّ هذه السنين تحقدُ على يوسف حتى اتهموه وافترؤا عليه.

(١) سيرة ابن هشام: ١٣٧/٢.

وغضب ﷺ عندما سمع إخوته يتهمونه بالسرقة ويفترون عليه، وحق له أن يغضب، ولو لم يكن نبياً كريماً رحيماً لبطش بهم، ولكنه كظم غيظه وأخفى انفعاله: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ولم يظهر الكلمة التي حاكت في نفسه، وهي:

﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: أنتم شرُّ منزلة عند الله، والله أعلم بحقيقة ما تقولون.

وبعد أن اتهموه وافترون عليه أخذوا يَتَمَسَّكُونَ له، ويتذللون ضارعين مستعطفين، إنها صفات خلفهم من اليهود لم تتغير مع مرور الزمان:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨)

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن والقدر.
 ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ورفض ﷺ استعطافهم ورجاءهم، وسقاه اقتراحهم، فهو أمرٌ يخالف دين الله تعالى وشرعه، فلا يجوز ترك الجاني، وأخذ البريء:

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا﴾ (٧٩)

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ ولم يقل: مَنْ سَرَقْنَا، ليكون كلامه موافقاً للحقيقة.

﴿إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا لَنَا﴾ لأننا نخالف الحكم الذي صدر عنكم عندما قلتم: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥].

والجدير بالذكر هنا: أن الإسلام حرَّم الشفاعة لمنع إقامة حدٍّ من حدود الله تعالى، كحد السرقة وحد الزنى بعد رفعه إلى الحاكم، فعندما كَلَّمَ أسامةُ بن زيدٍ رسولَ الله ﷺ في شأنِ المرأةِ المخزوميةِ التي سرقت، قال رسول الله ﷺ:

«يا أسامةُ أُنشِفْ في حدٍّ من حدود الله؟!» ثم قام فاخطبَ، فقال: «إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» [رواه البخاري (٦٧٨٨) ومسلم (١٦٨٨)].

وحرَّم أيضاً معاقبة غير الجاني في العقوبات البدنية كالجلد والسَّجْن والقصاص، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ١٦].

• تَأْنِيبُ الضَّمِيرِ:

﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨١).

﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فلما يسسوا من إجابة يوسف لمطلبهم، اعتزلوا وخلوا إلى بعضهم يتحدثون سرًّا ويتشاورون، فكأنهم يريدون الاعتراف بأمرٍ يخفونه.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ وهو الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ أي: وتعلمون أيضاً تقصيركم في حق يوسف، وما فعلتموه به.

﴿فَلَنَ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ فلن أرجع معكم وأغادر أرض مصر.

﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي﴾ في العودة.

﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ﴾ بما قضاه وقدر عليّ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا يُردُّ قضاؤه، ولا معقَّب على حكمه.

وهكذا استيقظ ضمير أحدهم بعد كل هذه السنين والأحداث، واعترف

بجريمتهم في حق يوسف وأبيه، فهو لا يستطيع مواجهة أبيه بعد أن استيقظ ضميره، ورأى بشاعة الجريمة التي اشترك فيها مع إخوته.

واحد من عشرة فقط استيقظ ضميره بعد أكثر من عشرين سنة، وهو يرى أباه في لوعته وحزنه وألمه، أين كان ضميره في خلال هذه السنوات الطويلة؟! لماذا لم يهتز ضميره عندما امتدت أيديهم إلى يوسف وألقته في الجب، وهو يسمع صراخه وتوسله؟!.

أكثر من ستين سنة مرت على مأساة فلسطين، ولا يزال الفلسطينيون المشرّدون عن بيوتهم يعيشون تحت الخيام، تلاحقهم نيران الصواريخ والطائرات والمذابح، وضمير اليهود لم يستيقظ بعد، فمتى؟! وتابع كبيرهم كلامه قائلاً:

﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ أَيْكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ أَيْكُمْ فَقُولُوا يَتَابَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾ ابنك السارق، ولا علاقة لنا به، لم يقولوا: (إن أخانا سرق) مما يدل على وقاحتهم، وسوء أدبهم مع أبيهم. ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ وهو غير صحيح، فشهادتهم قائمة على الظن لا على العلم، لأن وجود الصّواع في رَحْله لا يدلّ دلالة قطعية على أنه السارق، فمن جعل بضاعتهم في رحالهم في المَرّة الأولى، يستطيع أن يضع الصّواع في رَحْل أخيه.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: ما كنّا نعلم - حين أعطيناك الميثاق - بالمستقبل الغائب عنا.

ولما كانوا يعلمون أنّ أباهم لا يثق بهم بسبب ما رآه من كذبهم عندما جاؤوه عشاءً يكون، وأخبروه بأنّ الذئب قد أكل يوسف، طلبوا منه أن يتحقّق بنفسه من صدقهم، فقالوا:

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: اسأل أهل البلد التي كنا فيها .

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وأصحاب القافلة التي رجعنا معها .

﴿وَإِنَّا لَصَدِقُونَ﴾ .

والكذاب لا يُصَدِّقَ ولو كان صادقاً، ولهذا لم يصدقهم ﷺ ، وقال لهم

مثل ما قال لهم عندما جاؤوه عشاء يكون:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ .

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ . ثم أضاف قائلاً:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ فكان ما حَدَثَ قَوَى رجاءه بقرب اللقاء .

واشتداد المحنة يؤذن بقرب انفراجها، إنه الأمل بالله تعالى:

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ .

● دموع يعقوب ﷺ:

أعرض ﷺ عن أولاده، وانصرف إلى آلامه وأحزانه:

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُوْسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ .

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُوْسُفَ﴾ أظهر أسفه وحزنه على فراق يوسف رغم

قَدَمَ العهد به، ولم يظهر أسفه على فراق ولديه الآخرين مع أنه حديث عهد

بفراقهما، ولعلَّ السبب أنه يعرف مكانهما وما حَدَثَ لهما، أمّا يوسف فلا يعلم

مكانه وما حَدَثَ له .

﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ والبكاء الطويل، فإنَّ الحزن المديد والبكاء

الكثير يضعفُ البصر، وقد يذهبه مع طول السنين .

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غيظاً وحزناً.

وشدة حزنه تدلُّ على قوة مشاعر الأبوة في قلبه، وهي مشاعر إنسانية رفيعة تفيض بها قلوب الكُمَّل من الناس، وكلَّما ازداد الإنسان إيماناً بالله سبحانه، كانت عواطف الأبوة أقوى في قلبه، وأنصح في نفسه، فالإيمان بالله يكمل إنسانية الإنسان، ويفجِّر فيها ينابيع الخير والإحسان والحنان.

ولهذا نرى الكفَّار يغلبُ عليهم ضعفُ المشاعر الإنسانية، ولا عجب أن نراهم يقطعون أرحامهم، ويتخلَّون عن أبنائهم من أجل ملذاتهم الجسدية، وقد أصبحت قطيعةُ الرحم، وانحلالُ الأسرة أعظمَ السَّمات البارزة في حياتهم الاجتماعية^(١).

والأنبياء ﷺ أكمل الناس إيماناً، فهم أكملهم وأصدقهم في مشاعرهم الإنسانية عامةً، ومشاعر الأبوة خاصةً، وكان حزنُ يعقوب عليه السلام أثراً من آثار مشاعر الأبوة الكريمة من قلبه.

والحزنُ الشديدُ غيرُ محظورٍ، لأنه من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، إنَّما المحظورُ والمنهيُّ عنه لطم الخدود، وشقُّ الجيوب، والنِّياحةُ كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

قال رسولُ الله ﷺ عندما ماتَ ولده إبراهيمُ: «تدمعُ العينُ، ويحزنُ القلبُ، ولا نقولُ إلا ما يرضي ربَّنا، والله يا إبراهيمُ إنا بك لمحزونون» ولمَّا رأى عبدُ الرحمن بن عوف دموعَ رسول الله ﷺ قال له: وأنت يا رسول الله؟! قال: «يا ابنَ عوفٍ إنَّها رحمةٌ» [رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥)].

ودمعت عيناه ﷺ عندما رُفِعَ له ولدٌ لإحدى بناته وهو يموتُ، وقال: «هذه رحمةٌ جعلها في قلوبِ عباده، وإنَّما يرحمُ الله من عبادهِ الرحماء» [رواه البخاري (١٢٨٤)].

وأقبل إخوة يوسف على أبيهم يلومونه بدل أن يواسوه:

(١) انظر كتاب المؤلف: الأنساب والأولاد، ص ٤١، وهو من مطبوعات دار القلم بدمشق.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ٨٥﴾.

أي: والله لا تزال تذكر يوسف حتى تدنو من الموت أو تموت حقيقة. وتدل كلماتهم على أنهم لا يزالون على حقدهم وحسدهم ليوسف، وغيرتهم منه، فلم يخل لهم وجه أبيهم بإبعاد يوسف عنه، كما كانوا يؤملون، بل ازدادوا تعلقاً به وشوقاً إليه، وظلّ طوال هذه السنين يأمل بلقائه.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨٦﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أشكو همي - الذي لا أستطيع حبه في قلبي - وحزني إلى الله تعالى، فدعوني مع ربي أبته همي، وأرفع إليه حزني. والبت: أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه، فيثبته إلى غيره^(١).
﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من رحمة الله وإحسانه ما لا تعلمون، فسيأتيني بالفرج من حيث لا أحسب. فقد كان عليه السلام يعلم أن يوسف لا يزال حياً، ويتوقع لقاءه؛ لأن رؤيا ولده يوسف كانت رؤيا صادقة، وقد عبرها نبي الله يعقوب بعين النبوة التي لا تخطئ أبداً.
ثم أمر أولاده أن يعودوا مرةً ثالثةً إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، وكأنه كان يتوقع وجود يوسف في مصر، ويرى أن ما حدث لأخيه له علاقة بيوسف:

﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ٨٧﴾.

﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: تعرّفوا أخبار يوسف وأخيه بحواسكم في صبر ومن غير يأس:
﴿وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي: من رحمة الله تعالى، ففيها الاسترواح من

الكرْبِ الخانِقِ، لما ينسم على الأرواح من رَوْحِ الله اللطيف الرحيم.

﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ فلا يَأْسَ مع الإيمانِ مهما اشتدَّ الكرب والضيق، وإنَّ المؤمنَ لفي رَوْحٍ من ظلالِ إيمانه، وفي أُنْسٍ من صلته بربه، وفي طمأنينةٍ من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدَّةِ ومخانِقِ الكروب^(١).

● كشف الحقيقة:

لم يستجب إخوةُ يوسف لطلب أبيهم، وانتظروا حتى نفقت ميرثهم، واشتدَّت حاجتُهم، فيمموا وجوههم شطرَ مصر يمتارون، وقد عضَّتْهم السنون، وأتت على كُلِّ ما عندهم، ولم يجدوا ثمنًا لميرثهم سوى نقودِ زيوفٍ كاسدةٍ. ودخلوا على يوسف يشكون إليه فاقتهم، يرجون إحسانه وفضله:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرَجَلَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرَجَلَةٍ﴾ أي: ببضاعة مدفوعة غير مقبولة.

﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فأتَمَّ لنا كيل الميرة.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بقبول بضاعتنا الكاسدة، ولا تَنَقِصْ كيلنا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء وأكملَه.

ويلاحظ أنهم أعرضوا عن وصية أبيهم، فلم يذكروا كلمةً واحدةً بشأن أخيه؛ بل ركَزوا اهتمامهم على طلب المساعدة المادية، فكأنَّها في نظرهم أولى من أخيه ومن وصية أبيهم، فالمطالبُ المادية هي المحور الأساس في حياتهم.

ولما رأى ﷺ ذلَّتْهم وانكسارَهم رَقَّ لحالهم، فكشف لهم حقيقته، وأظهر أمره بعد أن ذكَّرههم بجريمتهم المنكرة، وما أظهر ﷺ لهم أمره حتى أذن الله تعالى له في ذلك.

(١) في ظلال القرآن: ٢٠٢٦/٤.

قال ابن كثير رحمه الله: «والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرّف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك»^(١).

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٨٩).

أي: عندما كنتم متلبّسين بحال الجاهلين، أصحاب السفاهة والحماسة والطيش، فالمراد من الجهل هنا السّفَه والحق والطّيش، كما في قوله الشاعر:
أَلَا لَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ
وكأنه عليه السلام ذكّرهم بحالهم القبيحة التي كانوا عليها؛ ليبادروا إلى التوبة والاستغفار، وتصفية أنفسهم وتطهيرها، وما أراد عليه السلام الانتقام والتشفي، فالأنبياء عليهم السلام لا يحقدون على أحد، ولا يقابلون الإساءة بمثلاً، إنما يقابلون الإساءة بالإحسان، ويدفعون السيئة بالحسنة، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وتحقّق بهذا ما أوحى الله تعالى به إلى يوسف عندما جعلوه في غيابة الجب: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَتِّنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].
وفاجأتهم الحقيقة وأدهشتهم، فما كانوا يتوقعون أن يؤول أمر يوسف إلى كل هذا العزّ والسلطان والتمكين، حتى يصبح عزيز مصر، ويأتي إليه إخوته الذين ألقوه في الجب يطلبون فضله وإحسانه، وكأنّهم لم يصدّقوا ما سمعوا، فسألوه:

﴿قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنَّ يُوْسُفَ قَالَ أَنَا يُوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٠).

﴿قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنَّ يُوْسُفَ﴾ أحقّاً أنت يوسف، يوسف حاكم مصر، ومن بيده مفاتيح خزائنها وخيراتها؟!.

فَاجَابَهُمْ ﷺ مُوَكَّدًا لَهُمُ الْحَقِيقَةُ:

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ الشقيق.

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بفضلِهِ وَرَحْمَتِهِ، فلا تعجبوا.

﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فالتقوى والصبر سلاحُ المؤمن وعدَّته في كل أحواله وتقلباته؛ وخاصة في أوقات المصائب والمحن، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَبِرِزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق].

وقال أيضاً: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل].

• بين موقفين:

وأقرَّ إخوة يوسف بفضل يوسف عليهم، وعرفوا أنَّ الله تعالى فضَّله عليهم، واعترفوا أنهم كانوا مخطئين بحسدهم له وبغيهم عليه:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: والله لقد فضَّلَكَ الله علينا.

﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ قالوا ذلك معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق، والسعة والملك، وأقرُّوا له بأنَّهم أساءوا إليه، وأخطؤوا في حقه^(١).

فَاجَابَهُمْ ﷺ بقلبه الطاهر النقي:

﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: لا عتب عليكم ولا لوم اليوم، فلن أذكر

لكم منذ اليوم ذنباً، فالماضي قد مضى بما فيه، وقد مسح لقاء اليوم شقاء السنين الطويلة، وعناء المحن الماضية الكثيرة.

ولم يكتفِ ﷺ بهذا، بل توجه إلى الله تعالى يسأله المغفرة لهم والستر عليهم. ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وبعد قرون كثيرة متوالية وقف خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ عند الكعبة المشرفة، بعد أن دخل مكة المكرمة فاتحاً، وقال يخاطب أهل مكة: «ما تقولون أنني فاعلٌ بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

ولا شك أن يوسف ﷺ وقف من إخوته موقفاً كريماً ونيلاً، ولكن موقف رسول الله ﷺ كان أكرم وأنبل؛ لأن يوسف ﷺ قال ذلك لإخوته، بينما النبي ﷺ قاله لقبيلته وعشيرته، وإخوة يوسف ألقوه في الجب، وأبعدوه عن أبيه، بينما المشركون كذبوا رسول الله ﷺ وآذوه، وعذبوا أصحابه، ومنعوه أن يبلغ دعوة الله تعالى، حتى خرج مهاجراً إلى المدينة المنورة، فحاربوه، وحاولوا قتله، وقتلوا كثيراً من أصحابه، ومثلوا بهم، وألبوا الأحزاب عليه، ثم بعد كل هذا عفا عنهم بعد أن تمكن منهم، فكان عفوه عليه الصلاة والسلام أكمل وأنبل.

• الدواء والشفاء:

ثم أمرهم ﷺ أن يسرعوا بالبشرى إلى أبيه قائلاً:

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وعادت آيات السورة للمرة الثالثة إلى قميص يوسف، وهو في هذه المرة لا يحمل دماً كذباً، ولا دليل براءته، وإنما حمل في هذه المرة الدواء والشفاء

لعيني أبيه يعقوب اللتين أبيضتا من الحُزنِ على فراقه، فما سرُّ هذا القميص؟ إنَّه قميص يوسف، يحمل أثراً من جسدِ نبيِّ الله يوسف ﷺ، جعل الله تعالى فيه الشفاءَ لِعَيْنِي يعقوبَ ﷺ، فالأمرُ معجزةٌ أكرمَ الله تعالى بها نبيَّين كريمين، وهو سبحانه قادر على خلق الشفاء من دون دواء، وما الدواء إلا سبب للشفاء، أما المسبب الحقيقي فهو الله تعالى.

والأمر ليس خاصاً بالأنبياء ﷺ، فكثيراً ما قرأنا وسمعنا أن الله تعالى منَّ بالشفاء على بعض المرضى بعد أن يئس الأطباء من شفائهم، ولقد ذكر الطبيب الفرنسي ألكسيس كاريل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» كثيراً من حوادث الشفاء من دون دواء، رآها بنفسه أثناء ممارسته لمهنته؛ مما دفعه إلى تأليف كتابه هذا للردِّ على الماديين، الذين ينكرون الجانب الروحي لدى الإنسان.

ومن آخر ما قرأتُ في هذا الموضوع ما نشرته جريدة «المسلمون» في تحقيق صحفي عن حوادث شفاءٍ حدثت لمرضى بعد أن يئس الأطباء من شفائهم^(١).

فالشفاء بيد الله تعالى يخلقه عند تعاطي أسبابه كتناول الدواء، ويخلقه أيضاً من دون أسباب بقدرته ومشيئته، فلا ينبغي لأحدٍ أن يئس من رحمة الله تعالى، والإنسانُ ليس مادةً فقط، بل هو روحٌ ومادةٌ، والروح هي الجانب المهم في تكوينه، ومع ذلك فهو لا يعلم شيئاً عنها.

وقول يوسف ﷺ:

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَإَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يدل على شدة ثقته بتحقيق ما يقول؛ إنَّه على يقين أن أباه سيشفى ويرجع بصيراً كما كان؛ لأنَّه يكلِّمهم بلسان النبي الذي لا ينطق عن الهوى، إنَّه هو إلهٌ وحى يوحى، والوحي لا يخطئ أبداً، لأنَّه من العليم الخبير سبحانه.

ونلاحظ كيف تأدب ﷺ مع أبيه بقوله:

(١) انظر: جريدة المسلمون، عدد (١٩٠)، تاريخ ١٨/٢/١٤٠٩ هـ.

﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ولم يقل: وأتوني بأبي، فأبوه نبي كريم لا يأتي إليه إلا إذا أذن الله تعالى له بذلك، كما سبق بيانه، ولهذا سكت عن أبيه مفوضاً أمر حضوره إلى مصر إلى ربه سبحانه.

• ربح يوسف وآثار الأنبياء:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: انفصلت عن البلد التي كانت فيها وغادرتها.

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن كان حوله من الأهل والأحفاد:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي: إني لأشم رائحة يوسف، وعبر بكلمة (أجد) لتأكيد منها، رائحة يوسف موجودة حقيقة في حاسة شمّه، وهو يحس بها حقيقة لا تخيلاً، كما هو حال العشاق المتيّمين، كقول أحدهم:

وإني لأستشفي بكلّ غمامة يهبّ بها من نحو أرضك ريح
وقول الآخر:

ألا يا نسيم الصبح ما لك كلّما تقرّبت منّا فاح نشرك طيباً
كان سُلَيْمَى نُبَّتْ بِسِقَامِنَا فَأَعْطَتْكَ رِيَّاهَا فَجِئْتَ طَبِيباً

ومثله في الشعر كثير، وكلّه من المبالغات والتخييلات، لكن قول يعقوب

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ حقيقة وجدها نبي كريم فأخبر عنها.

كيف وجدها؟ وكيف ميّزها عن غيرها؟ وكيف تذكّرها وقد مرّ على مفارقتها ليوسف أكثر من عشرين عاماً؟.

والجواب: إنّها أمرٌ معجز، أوجدها الله تعالى بقدرته لنبيه الكريم يعقوب

﴿فهي معجزة له وحده، ولهذا لم يجدها من كانوا معه، ولم يشعروا بها، وهو ما جعل يعقوب ﴿يَسْتَدْرِكُ قَائِلًا لَهُمْ﴾:

﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ أي: لولا أن تنسبوني إلى الفند - وهو فساد العقل بسبب

تقدم العمر - لصدّقتموني.

ولقد حدث ما توقعه ﷺ منهم:

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ (٩٥).

أي: والله إنك لا زلت متمسكاً بخطئك القديم، وهو توقع لقاء يوسف ورؤيته.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦).

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ حاملُ القميص.

﴿أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي: رجع قوي البصر، كما كان قبل أن

يضعف بصره بسبب طول حزنه.

فالأنبياء ﷺ أكمل الناس خلقاً وخلقاً، وهم معرضون كسائر البشر إلى إصابتهم بالمرض والضعف، ولكنهم لا يصابون بأمراضٍ منقّرة تنفّر الناس عنهم، وضعف البصر والعمى لا يُعدّ من الأمراض المنقّرة.

أظهر الله تعالى في قميص يوسف معجزتين ليعقوب ﷺ:

الأولى: عندما وجدَ ريح يوسف عندما فصلت العير من مصر.

والثانية: أنه رجع بصيراً عندما لامسَ القميص وجهه..

فأيُّ سرٍّ جعله الله تعالى في قميص يوسف؟!.

وهذا يفسّر لنا شدة حرص الصحابة رضي الله عنهم على آثار النبي ﷺ، فكان إذا ما توجّساً ابتدرؤوا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يَبْصُقُ بصاقاً ولا يتنخّم نُخامةً إلا تلقّوها بأكفّهم، فدلّكوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدرؤوها. [رواه البخاري (٢٧٣١ - ٢٧٣٢)].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ والحلاق يحلقه، وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجلٍ. [رواه مسلم

وعندما نامَ رسولُ الله ﷺ في دارِ أنسٍ، جاءتْ أمُّه بقارورةٍ تجمَعُ فيها عَرَقُهُ، فسألَهَا رسولُ الله ﷺ عن ذلك، فقالت: نجعلُهُ في طيبنا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطَّيْبِ. [رواه مسلم (٢٣٣٢)].

وفي روايةٍ أخرى قالت: نرجو بركتَهُ لصبياننا. قال: «أصبِتِ».

وكان ﷺ إذا صَلَّى الغداةَ جاءَ خدَمُ المدينة بآتيهم فيها الماء، فما يُؤْتَى بإناءٍ إلا غمسَ يده فيها، فربَّما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها. [رواه مسلم (٢٣٢٤)].

وعن طلْق بن عليٍّ رضي الله عنه قال: خرجنا وفدًا إلى رسولِ الله ﷺ، فبايعناه وصلَّينا معه، وأخبرناه أنَّ بأرضنا بَيْعَةً لنا، واستوهبناه من فَضْل طَهُورِهِ، فدعا بماءٍ، فتوضَّأ وتمضمضَ، ثم صبَّه لنا في إِداوَةٍ، وقال: «إِذَا أَتَيْتُمْ فَاكْسِرُوا بَيْعَتَكُمْ، وَاَنْضَحُوا مَكَانَهَا هَذَا الْمَاءَ، وَاتَّخِذُوهَا مَسْجِدًا» فقلنا: إِنَّ الْبَلَدَ بَعِيدٌ، وَالْحَرَّ شَدِيدٌ، وَالْمَاءَ يَنْشَفُ، فقال: «مُدُّوهُ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَزْدَادُ إِلَّا طَيِّبًا» فقدمنا بِلَدْنَا، وَكَسَرْنَا بَيْعَتَنَا، ثُمَّ نَضَحْنَا مَكَانَهَا، وَاتَّخِذْنَاهَا مَسْجِدًا، فنادَيْنَا فِيهِ بِالْأَذَانِ، قَالَ: وَالرَّاهِبُ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ، فَلَمَّا سَمِعَ الْأَذَانَ قَالَ: دَعُوهُ حَقًّا. ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ثَلَاثَةً مِنْ تَلَاعِنَا فَلَمْ نَرَهُ بَعْدَهُ. [أخرجه النسائي (٧٠١)].

والتلعة: مجرى الماء في أعلى الوادي، وما انهبط من الأرض؛ فهي من الأضداد، والجمع: تلاع.

• تعارض وتناقض:

وأول كلمة قالها يعقوب عليه السلام بعد أن ردَّ الله عليه بصره:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد كان عليه السلام على علم من الله تعالى لا يخطئ، علَّمه الله تعالى إِيَّاهُ بواسطة الوحي الذي ينزله على الأنبياء، فهو مصدرٌ كبيرٌ من أكبر مصادر الحقيقة والعلم، والإنسان لا يعرفُ كلَّ شيءٍ بواسطة حواسه الظاهرة المحدودة، وما يمكن أن يتعلَّمه بحواسه قليل جداً

بالنسبة لما يمكن أن يتعلّمه ويتلقاه من الله تعالى، وهذا ما أكدت عليه آيات السورة، كما مرّ معنا.

ولا بدّ من التنبيه هنا إلى أنّ بعض المتأخرين ممن كتبوا في تفسير سورة يوسف، حاول صرف معاني هذه الآيات الكريمة عن حقيقتها التي وُضِعَتْ لها إلى معاني مجازية، فما وُفّق، وجانب الصواب، ووقع في تناقض وتعارض واضحين^(١).

فالأصل الذي ينبغي التزامه في التفسير أن تُحْمَلَ الكلمات القرآنية على معناها الحقيقي، ولا يجوز صرفها إلى معنى آخر مجازي إلا بوجود صارف من القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة.

فلا يجوز أن نفسّر قميص يوسف بمكانته ووجاهته في السياسة والحكم، وكيف يستقيم لنا هذا المعنى والله يقول: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا؟﴾! فما فائدة اسم الإشارة إذا لم يكن ﴿يُسَيِّرُ بِهِ إِلَى قَمِيصِهِ الَّذِي كَانَ فِي يَدِهِ، وَسَلَّمَهُ لِإِخْوَتِهِ؟﴾!

وكيف يقول لهم: ﴿فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾! إذا كان مراده المكانة والوجاهة التي كانت له في مصر؟! فهل المكانة والوجاهة من الأشياء المادية التي تلقى إلقاء؟ أم تنقل نقلاً ويتحدث بها؟.

والأنبياء ﷺ لا يهتمون بالمراتب والسلطان، ولا يحفلون بالوجاهة والمكانة، فيوسف لا يهتم لها كل هذا الاهتمام حتى يكلف إخوته أن ينقلوا أخبارها إلى أبيه، ويعقوب ﷺ نبيّ كريم أيضاً، لا يهتم بكل هذه الأمور الدنيوية حتى يفرح بها فرحاً يرد له بصره، وهل وجد يعقوب راحة يوسف ﷺ من خلال مكانته وسلطانه أم من قميصه؟! اللهمّ إنني أبرأ إليك من مثل هذا التخليط وسوء الفهم.

• تأويل الرؤيا:

وبادر إخوة يوسف يطلبون من أبيهم أن يسأل الله تعالى المغفرة لهم معترفين بذنوبهم:

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف: ١٢٦٥/٢.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧).

ولم يُجِبْهُمْ ﷺ إلى طلبهم مباشرة، بل أخره إلى وقت آخر، كأنه ﷺ أراد أن يشعرهم بفداحة ذنبهم.

أو: أنه أخر الاستغفار إلى وقت تُرجى فيه الإجابة أكثر كوقت السحر.

أو: لعله ﷺ أخره حتى يلتقي بيوسف ويراها ويطمئن عليه، فما رآه كمن سمعا:

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٩٨).

وتدل الآية على جواز طلب الاستغفار من أهل الصلاح والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وَرَحَلَ يَعْقُوبَ وَأَبْنَاؤُهُ إِلَى مِصْرَ:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (٩٩).

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: ضمَّهما ﷺ إليه.

ويدل ظاهر الآية على أن أمه كانت حية؛ خلافاً لما ذهب إليه أكثر المفسرين، فإنهم قالوا: ماتت أمه قبل أن تبدأ أحداث القصة، وتأثروا بذلك بما يروى عن بني إسرائيل من أخبار، وهي أخبار لا ثقة بها، كما سيأتي، والأصل حمل الكلام على حقيقته، ولم تُذكر في القصة لأنه لم يكن لها دور في حوادثها.

﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي: ادخلوا مصر دخول المستوطنين

بها بلا خوفٍ من أحدٍ، فأنتم آمنون.

أو: لعله ﷺ خرج لاستقبالهم إلى حدود بلاد مصر، وقال لهم ذلك ثمة.

وكرَّم ﷺ والديه، وأجلسهما على السرير الذي كان يجلس عليه:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ والظاهر أنه سرير مرتفع عما حوله، ولا يجوز للولد أن يجلس في مجلس مرتفع عن مجلس والديه .
 ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: وانحنى والدا يوسف وإخوته ليوسف انحناء التواضع والتحية، وكان هذا جائزاً في شريعتهم، وهو محرّم في الإسلام .
 ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهي التي ذكرها سبحانه في أول السورة .

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صدقاً .

فهي رؤيا تنبئية صادقة، وقد علم يعقوب ﷺ صدقها منذ سمعها من يوسف، ولهذا كان يقول: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالرؤيا الصادقة وسيلة من وسائل العلم تقرب للإنسان حقيقة الوحي الذي يتلقاه الأنبياء ﷺ .

ثم تحدّث ﷺ بنعم الله تعالى عليه بعد مفارقتة لأبيه، فقال:

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، ولم يذكر ﷺ إحسان الله تعالى بتيسير إخراجهم من الجُبِّ حتى لا يعرض بإخوته .

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: البادية التي كانوا يقيمون بها، والواقعة بأطراف بلاد الشام الجنوبية .

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: أفسد الشيطان ما بيني وبين إخوتي . ولا تسلط للشيطان على يوسف ﷺ؛ لأنه نبي كريم، وإنما تسلط على إخوته كما مر معنا، مما يؤكد أنهم لم يكونوا أنبياء .

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي: إنه تعالى لطيف في تدبيره، لما يريد، يلفظ بعباده من حيث لا يعلمون، ويرفق بهم .

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بأحوال عباده.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في تدبير أمور خلقه.

● أمنية يوسف:

ثم توجه ﷺ إلى الله تعالى بهذا الدعاء الخاشع الضارع:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوفِّني مُسْلِمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّلَاحِينَ﴾.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قَدَّمَ ﷺ بين يدي دعائه اعترافه بفضل الله تعالى عليه بما أعطاه من الملك والسلطان، وبما علَّمه من علوم تعبير الرؤيا.

﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يا مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سبق.

﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: أنت متولِّي أمري كله في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وبعد هذا الشناء والتفويض رفع ﷺ إلى ربِّ العزة سُؤله:

﴿تُوفِّني مُسْلِمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّلَاحِينَ﴾ واشتمل على أمرين:

أولهما: ﴿تُوفِّني مُسْلِمًا﴾ أي: أُمِّتني وأنا مستسلمٌ لأمرِك ومشيئتك وحدك، وهي أمنية كل مؤمن بالله تعالى، أن يموت على الإسلام الكامل له ﷺ كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فالموت على الإسلام مطلبٌ عزيز ونفيسٌ وشريفٌ، حتى تشوّفت إليه نفسُ الكريم ابنِ الكريم يوسف ﷺ، إنه ﷺ يتَّهَمُ نفسه، ويخشى أن ينزلَ به الموتُ وهو في حال غفلةٍ عن ربه، وإذا كان هذا حالُ النبيِّ الكريم فما حالنا نحن؟! ولهذا كان النبيُّ ﷺ يكثر من القول تعليمًا لنا: «يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبَّتْ قلبي على دينك» [رواه مسلم (٢٦٥٤)].

وهو ما علّمنا إياه ربّنا بقوله الكريم: ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وثانيهما: ﴿وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ﴾ في الرفيق الأعلى مع الأنبياء والصديقين والشهداء الذين ذكرهم تعالى في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٩٦].

وهم الذين طلب النبي ﷺ اللحاق بهم وهو يَجُودُ بأنفاسِهِ الأخيرة، قالت عائشة رضي الله عنها: فلما نزل برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى السقف ثم قال: «اللهم الرفيق الأعلى» فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ. [رواه البخاري (٤٤٤٩)].

تلك هي أُمْنِيَّةُ يوسف عليه السلام عزيز مصر، وصاحب سلطانها وخيراتها: الموتُ على الإسلام، واللاحقُ بقافلة الصالحين الأبرار، أصحاب الرفيق الأعلى.

أسألك ربّي الوفاة على الإسلام واللاحق بالصالحين.



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

تَعْقِيَّاتٌ عَلَى قِصَّةِ يُوسُفَ ﷺ

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا وَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسِعَ اللَّهُ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَطَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا فَتَنَجَّىٰ مِنْ شَأْنٍ وَلَا يُرَدُّ بِأُسْنَاءِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قِصَّتِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ .

• التعقيب الأول:

وبعد أن فرغت آيات السورة من قصة يوسف ﷺ أوردت بعدها سبعة تعقيبات :
كان أولها في قوله تعالى وهو يخاطب النبي ﷺ :

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ الذي تقدم من قصة يوسف .

﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الغائب عنك، والذي لا تعرفه إلا بالوحي؛ ولهذا قال بعده: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي: نُزِّلْهُ عَلَيْكَ بالوحي، وهو ما أرادت السورة أن تؤكد به حقيقة واقعة بآثاره المحسوسة الملموسة، وقصة يوسف وما فيها من أخبار الغيب من آثار الوحي المحسوسة الملموسة.

وقد جاء التعقيب الأول هذا متفقاً تمام الاتفاق مع ما قرره سبحانه في صدر السورة بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾.

فلولا الوحي ما عرف النبي ﷺ القرآن الكريم، وما وقف على ما فيه من أخبار وأحداث ماضية غائبة عنه، فبين رسول الله ﷺ وبين الزمن الذي حدث فيه حوادث قصة يوسف أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً، وكان عليه الصلاة والسلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وعاش بين قوم أميين، يغلب عليهم الجهل، وبعيداً عن مواقع أحداث القصة؛ ولهذا قال تعالى له:

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: لدى إخوة يوسف.

﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ على إلقاء يوسف في الحب.

﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بيوسف عليه السلام.

اختار سبحانه ذكر هذا المشهد من مشاهد قصة يوسف؛ لأنه كان أخفى مشاهدتها وحوادثها، فقد بالغ إخوة يوسف عندما مكروا به في إخفائه، ورغم هذا أظهره العليم الحكيم، الذي يعلم السر وأخفى، والذي يعلم كل غائبة في السموات والأرض، وأعلم به النبي ﷺ بالوحي المنزل عليه بعد ألفين وثلاثمائة سنة من زمن وقوعه؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٤٤] وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [٤٥] وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [القصص].

فالوحي إذاً مصدرٌ من مصادر المعرفة والعلم، وهو مصدرٌ يقيني لا يخطئ أبداً، ولا مجالاً لإنكاره؛ لأنه يحمل في مضمونه مؤيّدات صدقه، وشواهد وقوعه وصحّته.

● قصة يوسف بين القرآن والتوراة:

وقد زعم بعض المستشرقين والمتأثرين بهم أن النبي ﷺ قد استقى هذه الأخبار من التوراة، وهذا الزعم باطل من وجوه كثيرة:
أولاً: ليس ثمة دليل واحدٌ يثبت وقوعه.

ثانياً: كان عليه الصلاة والسلام أمياً، لا يقرأ ولا يكتب.

ثالثاً: عاش عليه الصلاة والسلام في مكة بعيداً عن أهل الكتاب وعن مواقع القصة في مصر وفلسطين.

رابعاً: القصة عبرية في أبطالها، وقد كانوا يتكلّمون بعدة لغات: العبرية والآرامية والمصرية القديمة، بينما ذكرت القصة في القرآن الكريم باللغة العربية وبأعلى أساليب البلاغة والفصاحة عند العرب، كما قال سبحانه في أولها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

خامساً: هناك فروق جوهرية كبيرة بين ما ذكره القرآن الكريم عن حوادث القصة، وبين ما هو موجود في التوراة، ولو كان النبي ﷺ اقتبسها من التوراة كما زعموا لما وجدت هذه الفروق، وفيما يلي بعضها:

١ - لم يذكر القرآن سوى رؤيا واحدة ليوسف، وهي رؤياه للشمس والقمر والكواكب، ولم يذكر أنه قصّ رؤياه على إخوته، بينما تذكر التوراة له رؤيا ثانية سابقة على هذه الرؤيا، وهي أنه رأى نفسه مع إخوته في الحقل، ومع كل واحد حزمة، وأنه رأى حزم إخوته سجدت لحزمته، وفيها أيضاً: أنه قصّها عليهم، وقصّ عليهم أيضاً رؤياه الثانية.

٢ - ذكرت التوراة أن يعقوب انتهر ولده يوسف عندما قصّ عليه رؤياه،

وقال له: هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض؟! بينما القرآن ذكر أن يعقوب أثنى على ولده يوسف، وتنبأ له بمستقبل باهر.

٣ - ذكرت التوراة أن يوسف ذهب مع إخوته إلى المرعى بأمر أبيه، بينما ذكر القرآن أن يعقوب عليه السلام كان يخشى على ولده من الذهاب مع إخوته، وأنه ما أرسله معهم إلا بعد طلبهم وإلحاحهم.

٤ - مر معنا في القرآن أنهم جاؤوا أباهم عشاءً ليكون بعد أن جعلوا يوسف في الجب، وهم يحملون القميص، بينما ذكرت التوراة أنهم أرسلوا القميص إلى أبيهم بواسطة رسول أرسلوه إليه.

٥ - ذكر القرآن أن يعقوب قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وفي التوراة أنه مزق ثيابه، ولبس مسحاً وناح على ابنه أياماً كثيرة.

٦ - ذكر القرآن أن وارد السيارة أخرج يوسف من الجب، وفي التوراة أنهم سحبوه منها وباعوه للقافلة.

٧ - لم تذكر التوراة وصية عزيز مصر لزوجته بيوسف ﴿أَكْرِمِي مَوْتَهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَخِذَهُ، وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

٨ - لم تذكر التوراة عند المراودة تغليق الأبواب، وذكرت أن يوسف هرب وحده إلى الباب، وأنها لم تلحق به، وأنها أمسكت ثوبه فتركه في يدها.

٩ - ذكرت التوراة أن عزيز مصر حمي غضبه عندما اتهمت زوجته يوسف، بينما القرآن الكريم ذكر ما يخالف ذلك.

١٠ - لم تذكر التوراة شيئاً عن كلام النسوة وحادثة تقطيع الأيدي، كما أنها لم تذكر دعوة يوسف صاحبي سجنه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد.

١١ - وصف القرآن حاكم مصر بالملك، بينما وصفته التوراة بفرعون.

١٢ - في القرآن أن يوسف عبّر رؤيا الملك للساقى وهو لا يزال في

السجن، بينما في التوراة أنَّ فرعون أرسلَ إليه وأخرجَه من السجن، ثم قصَّ عليه حلمه فعبره يوسف له.

١٣ - لم تذكر التوراة قول يوسف: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ [يوسف: ٥٥].

١٤ - ذكرت التوراة أنَّ إخوة يوسف سافروا إلى مصر مرَّتين، وأنه أظهرَ لهم أمره في المرة الثانية، بينما مرَّ معنا في القرآن أنهم سافروا إلى مصر ثلاث مرات، وأظهر لهم أمره في المرة الثالثة.

١٥ - صرَّح القرآن بأنَّ الذين سجدوا ليوسف هم أبواه وإخوته، بينما ذكرت التوراة أن الذين سجدوا ليوسف هم إخوته فقط بعد موت أبيهم^(١).

• التعقيب الثاني:

ومع كلِّ هذه الحقائق التي أوردتها السورة، والتي تؤكِّد ظاهرة الوحي ووقوعها، ونزول القرآن الكريم على النبي ﷺ بواسطة الوحي، مما يدلُّ على صحة نبوته وصدق رسالته، نرى كثيراً من الناس يعرضون عن هذه الحقائق وينكرونها ويجادلون فيها، ويشيرون بالشبهات حولها، ولهذا جاء التعقيب الثاني على قصة يوسف في قوله تعالى:

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

فمهما كنتَ حريصاً على إيمانهم وتصديقهم، فقرَّبْتَ لهم الحقائق، وحشدتَ لهم البراهين القطعية، والحجج البالغة، فإنَّ أكثرهم يبقى مُعْرِضاً عن الحق مُعَانِداً له.

وهي حقيقة واقعة ملموسة ومشهودة في كلِّ عصر من عهد النبي ﷺ وحتى يومنا هذا، فلا عَجَبَ بعد ذلك أن نرى في عصرنا المادي الحاضر أقواماً

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف: ١/١٢٢، عن الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين.

ينكرون ظاهرة الوحي، ويستبعدون حدوثها، بل ينكرون الجوانب الروحية في الإنسان، كما نرى أيضاً مَنْ ينكُرُ نبوة النبي ﷺ وصحة رسالته، زاعمين أنه اقتبس ما في القرآن الكريم من أخبار من كتب أهل الكتاب، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون، وما حملهم على هذه المزاعم الباطلة إلا التعصّب الأعمى المذموم، وإنّ قوله تعالى في هذا التعقيب: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لدليل على أنه كلام العليم الخبير الذي وسع علمه كل شيء في كل زمان ومكان.

● التعقيب الثالث:

وجاء التعقيب الثالث على قصة يوسف ينزّه النبي ﷺ عن أي غرض مادي، فدعوته عليه الصلاة والسلام كدعوة جميع المرسلين قبله منزّهة عن الأغراض الدنيوية المادية التي جعلها المعاندون لدعوته هدفهم الكبير، الذي يسعون وراءه في حياتهم، ويضحون من أجله بكل حقيقة، قال تعالى يخاطب النبي ﷺ:

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤).

وهذا دليلٌ يدلُّ على صدقه عليه الصلاة والسلام: لقد فتح الله عليه فتوحاً كبيرة، وجاءته أموالٌ كثيرة، وغنم غنائم عظيمة، وتوفي عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة، وليس في بيته شيء يأكله ذو كبدٍ حرّ، إلا شطر شعيرٍ على رفِّ حُجرة السيدة عائشة عليها السلام (١).

ولمّا طلب منه أمهات المؤمنين أن يوسّع عليهنّ في النفقة بعد أن فتح الله عليه، هجرهنّ عليه الصلاة والسلام شهراً، واعتزلهنّ حتى أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِهِ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَنَعَالَيْكَ أُمْتَعَكُنَّ وَأُسْرَعَكُنَّ سَرَلًا جَمِيلًا﴾ (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

(١) انظر: السيدة عائشة أم المؤمنين، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

فمن يفعل ذلك غير الأنبياء ﷺ؟! لَمَّا ملك يوسف ﷺ كنوز مصر وخيراتها، وأصبح الحاكمَ الحقيقي فيها، سأل الله تعالى أن يرحل عن الدنيا ليلحقَ بقافلة الصّالحين في الرفيق الأعلى، وما سأل ذلك عندما كان مُمتَحَنًا في الجب والسجن، بل سأل ذلك وهو متربّع على سُدّة الحكم في مصر وبيده مفاتيح خزائنها وخيراتها، وكذلك فعل نبينا ﷺ عندما شعر أنّه بلغَ دعوته، وأدى أمانته، وعلم أنها أصبحت في أيّد أمانة ستحملها بعده إلى أطراف الدنيا، اختار عليه الصلاة والسلام الرفيق الأعلى.

• التعقيب الرابع:

وما أكثر البراهين والبيّنات في القرآن الكريم، وما أكثرها أيضاً في أنفسنا وفي الكون المحيط بنا، ومع ذلك فإنّ كثيراً منّا يعرضون عنها ولا ينتفعون بها؛ ولهذا قال تعالى في التعقيب الرابع:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

أي: ما أكثر الدلائل التي يشاهدونها، ولا يتفكرون فيها، ولا ينتفعون بها. وما أصدقَ هذه الآية الكريمة في أولئك العلماء الباحثين في المخابر والمراصد ومراكز البحث العلمي، وهو يشاهدون كثيراً من آثار قدرة الله تعالى وحكمته في هذا الكون، ومع ذلك تراهم لا يؤمنون بمبدعها وخالقها سبحانه!. وقد يقول قائل: كيف نقول: إنّ أكثر الناس لا يؤمنون بالله تعالى ولا ينتفعون بما يشاهدون من آثار قدرته، وقد مرّ معنا في آيات السورة ما يدل على إيمان أكثرهم بالله تعالى، فالنّسوة اللاتي قَطَّعن أيديهن قُلْنَ: ﴿حَسْبُ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] وهنّ نساء الطبقة المترفة في مصر، وهذا يدلُّ على أنهنّ كُنَّ يعرفن الله تعالى؟!.

وأقول: لقد ذكرتُ هذا في موضعه وبيّنتُ وجهه، وقد زادته الآية التالية وضوحاً:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

فهم يقرّون بوجود الله تعالى - فما أنكر وجود الله تعالى إلا حَفَنَةً من الماديين والدهريين - ولكنهم مع إقرارهم بوجوده يشركون بعبادته وطاعته، وما أرسل الله تعالى الرسل ليقولوا للناس: آمنوا بوجود الله تعالى، فالإيمان بوجوده سبحانه فطرةً مركوزةً في فطر الناس، عرفت بها كل الأمم والشعوب، وإنما أرسل الله تعالى الرسل ليقولوا للناس: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] أي: اعبدوه وحده وأطيعوه وحده، ولا تعبدوا غيره من صنم أو وثن أو حاكم أو شيطان أو ملك أو ولي أو نبي.

ومرّ معنا قول يوسف لصاحبي سجنه: ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ أَبْرَأَبْتُ مُتَفَرِّقَتِ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَحْدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَتَشْرَعُونَ وَأَبَاكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [يوسف].

فتأمل الانسجام والاتفاق بين ما حكى الله من كلام يوسف ﷺ وبين ما جاء في التعقيب على القصة: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

ولابدّ لأولئك المعرضين عن الأدلة والبراهين ذوي العقول المغلقة، والمشارع الغليظة المتبلدة من أسلوب آخر يهزّ مشاعرهم، لعلّها تفتتح على الهدى وتقبل الرشاد، وهو أسلوب الترهيب مما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة:

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: نازلة ومصيبة تنزل بهم فجأة.

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو يأتيهم يوم القيامة بأحواله وأفزاعه، وهم لا يشعرون بإتيانه وغير مستعدين له. فهو كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ

الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾
[النحل: ٤٥].

● التعقيب الخامس:

وجاء التعقيب الخامس يأمرُ النبي ﷺ أن يبين للناس حقيقة الطريق الذي يسير عليه في الدعوة إلى الله تعالى:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨).

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ فالدعوة إلى الله تعالى بأسلوب عقلي علمي أساسه الحجة والبرهان هي سبيلي الذي أسيرُ عليه، فالإيمان بالله يقومُ على الإقناع بالحجة والبرهان، لا بالإكراه بالسيف والسنان، ولا بواسطة التهويلات والشعوذات وإحاطة الإنسان بهالة من الافتراءات والأكاذيب.

دعوة الإسلام دعوة واضحة بيّنة صريحة، تستند إلى الحجج والبراهين والأدلة العقلية والنقلية، وهي دعوة مفتوحة مستمرة إلى قيام الساعة، فلا تنتهي وتموت بموت النبي الخاتم ﷺ، بل هي مستمرة بعده يحملها أصحابه وإخوانه المؤمنون برسالته.

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ إلى يوم الدين.

وتصدير الآية بـ ﴿قُلْ﴾ يدلُّ على حقيقة الوحي الذي يقوم على تلقي النبي ﷺ من ربه ﷻ، وقد تكرر مثل هذا الاستهلال للآية كثيراً في القرآن، حتى بلغ عددُ الآياتِ المصدرة بـ (قل) أكثر من ثلاثمئة آية، وكلُّ ذلك يؤكّد تلقي النبي ﷺ للقرآن الكريم من مصدرٍ خارجٍ عنه، منزّه عن كل صفات النقص.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: وأنزهه الله وأجلّه وأعظمه وأقدسّه عن أن يكون له

شريك، أو نظير، أو عديل، أو نديد، أو ولد، أو والد، أو صاحبة، أو وزير، أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً^(١).

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لأنني بريء منهم، ومن كل مظاهر شركهم وكفرهم. ودعوته عليه الصلاة والسلام هذه ليست بدعاً بين دعوات الأنبياء قبله، بل هي مكملّة وخاتمة لها، وكما أوحى الله إليهم أوحى إليه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠٩).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ فالأنبياء رجال أوحى الله إليهم كما أوحى إلى النبي ﷺ، واختارهم من أهل المدن كما اختاره عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة أم المدن وأفضلها وأقدسها، فلماذا ينكر كثير من المستشرقين ظاهرة الوحي بالنسبة للنبي ﷺ، بينما يُقرّون بها وينزلوها على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء؟!.

ثم وَجَّهَت الآية الدعوة للمعارضين والمعادنين إلى الاعتبار بآثار الأمم المكذبة المعارضة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فيعتبروا بآثارهم التي ما زالت باقية بعدهم، فهي كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فآثارهم تدل على أن الله تعالى أهلكتهم ونجّى رسله والمؤمنين كما جاء في قوله: ﴿فَتُذَكَّرُ نَجَىٰ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]؛ فالعاقبة الطيبة لهم في الدنيا والآخرة، كما مرّ معنا بالنسبة ليوسف عليه السلام:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦٥.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

• التعقيب السادس:

ومهما اشتدت المحن، وطال عليها الزمن، فلا بد أن يأتي الله تعالى بعدها بالفرج، فكلُّ آتٍ قريب، والصبحُ غيرُ بعيدٍ، لقد امتدت محنة يوسف عليه السلام أكثر من عشرين سنة، ثم جعل الله العاقبة الحميدة الطيبة له، فلا يأسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تعالى ولا قنوط، فالنصرُ قد يتأخَّرُ، والفرجُ قد يتراخى، والأمرُ منوطٌ بمشيئته تعالى وقدرته، والله سبحانه لا يعجل لعجلة عباده:

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ وَلَا يَرُدُّ
بِأَسْنَاعِنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ أي: استيأس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أنهم كذَّبواهم، وأنهم لن يصدِّقوهم، فالظن هنا بمعنى اليقين كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٢].

فقد لبث نبيُّ الله نوح عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم بعد أن يؤسَّ من إيمان قومه دعا عليهم قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٦) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَبْسُتُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح].

فعندما تشتدُّ المحنة يأتي الفرج من الله تعالى، والمؤمنون في أشدِّ حالات الافتقار إلى رحمته سبحانه ونصره، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فجأة على غير انتظار.

﴿فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ﴾ نجاته، وهم النبي ﷺ والمؤمنون معه.

﴿وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَاعِنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يُردُّ عذاب الله إذا نزل عن القوم

المجرمين.

• التعقيب السابع:

ثم ختم الله تعالى آياتِ السورة بقوله الكريم:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فما ذكرتِ القصة إلا لِمَا فيها من العبر والعظات، يدرُّكها وينتفعُ بها أصحابُ العقول الذين يستعملون عقولهم ولا يعطلونها، ففي الآية دعوة لأصحاب العقول كي يستعملوا عقولهم، ويتدبروا آيات القرآن الكريم، ليجدوا الأدلة القاطعة على صدق النبي ﷺ، وصحة رسالته. وقد صَدَّرَ الله تعالى سورة يوسف بهذه الدعوة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾، وجاءت مرةً ثانية في ختامها لتدل على أهمية استعمال الإنسان لعقله بشكل علمي وموضوعي، ومجرَّد عن التعصُّب والهوى، فلا ينبغي المسارعةُ إلى إنكار الحقائق بحجة أنها أمور غيبية لا تدركها حواس الإنسان، فوَقَّاع قصة يوسف حقائق واقعية تاريخية، وليست خيالاتٍ وظنوناً وأوهاماً. ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ يُخْتَلَقُ.

﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين والعقيدة.

﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فالإيمان هو الشرط الأساس الأول للانتفاع

بآيات التنزيل الحكيم، وما فيها من حِكم وأحكامٍ وعبرٍ ومواعظ.

أسأله سبحانه أن يثبتنا على الإيمان، وأن يجعلَ لنا من كلِّ همٍّ فرجاً، ومن

كل ضيقٍ مخرجاً، إنَّه هو السميع العليم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى

آله وأصحابه والتابعين.



تفسير سورة الرعد الأسباب والمسببات في سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

موضوع السورة

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اهتمت سورة الرعد بموضوع من أخطر الموضوعات في الاعتقاد، زاغت بسببه عقائد كثير من الناس عن الصراط المستقيم، وهو موضوع الأسباب، وارتباطها بالمسببات.

مهّدت الآيات في السورة لبيان الاعتقاد الحق ببيان كمال قدرة الله تعالى وعلمه وتماث مشيئته، ونفاذها في جميع المكونات، من السماوات التي رُفعت بقدرته تعالى بغير عَمَد، إلى الشمس والقمر المسخَّرين بقدرته ومشيئته، إلى الأرض الممدودة وما فيها من جبال وأنهار، إلى الثمرات وما فيها من اختلاف في الخصائص والصفات، فهو سبحانه الذي يدبّر الأمر ويفضّل الآيات، فلا خالق سواه، ولا مدبّر غيره، وعلمه تعالى وسع كلّ شيء، يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، فلا يتحرك في الكون كلّ متحرّك؛ ولا يسكن

ساكنٌ؛ إلا بعلمه وقدرته ومشيتته ﷻ، فهو الذي يُرينا البرق خوفاً وطمعاً، وهو أيضاً الذي يُنشئُ السحابَ الثقال.

وليست الأسباب إلا نواميس أبدعها الله سبحانه بحكمته، تجري الظواهر الكونية عليها بمشيئته وقدرته، فلا تأثير لها إلا إذا وافقت قدره تعالى وتدبيره، فله وحده الخلق والتدبير، والتأثير والتخصيص، والجميع خاضعون لمشيئته، وتحت قهر قدرته، والأسباب الظاهرة والخفية لا تخلق ولا تؤثر، ومشيئته جلّ وعلا دائماً النافذة الغالبة: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ [الرعد: ١١].

وللإنسان كسبٌ واختيارٌ، وكسبه واختياره ليس سوى أسباب لما قدره الله تعالى عليه بسابق علمه ومشيتته، ومع ذلك لا ينبغي للإنسان أن يتكل على ما سبق به علمه تعالى، فهو غيبٌ عن الإنسان، بل عليه أن يحرص على التمسك بما كُلف به من أمر الله تعالى التشريعي، وفي الوقت نفسه يرضى بأمره القدري، أولئك هم المستجيبون لدعوته، الراضون بشريعته، المطمئنون بذكره، لهم بسبب تحصيلهم لهذه الأسباب النتائج الطيبة والعواقب الحميدة، لهم حسن المآب وعقبى الدار.

أسأله تعالى أن يجعلنا منهم، ويثبتنا على الحق، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].



تفسير سورة الرعد

الأسباب والمسببات في سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسٍ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحِينَ أُنثِينَ يُغَشَّى اللَّيْلُ أَلْتِهَارًا ۝٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّدٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۝٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءَاكُلُ نَارًا لَعَنَّا لَعْنَةَ اللَّهِ الْكَافِرِينَ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَابِهِمْ وَأُولَئِكَ النَّارُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٧﴾ وَتَسْعَاجِلُونَا بِالْسَيْتَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَقْتُ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتِ ۝٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۝١٠﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝١١﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝١٢﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝١٣﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِآيَاتِهِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٤﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۝١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۝١٦﴾ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ۝١٧﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْأَرْوَاقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُلْهِئُ السَّحَابَ الْثِقَالَ ۝١٨﴾ وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ

لَهُمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَتُحَدِّثُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّحْدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَا كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْبَاطِلَ فَمَا الزَّبَدُ يَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْإِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَنْذِرُ أَوْلِيَاءَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَيَعْمَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ ﴿٢٦﴾ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَصْلُحُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَسَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ بِهٍ الْمَوْتَى بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ

كَفَرُوا فَصَبَّيْهِمْ بِمَا صَنَعُوا فَارِجَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ
 الْوَعْدَ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلِي مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
 عِقَابِ ﴿٣٧﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُهُمْ أَمْ تُتَّبَعُونَهُ بِمَا
 لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّنٌ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن
 يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٨﴾ هَلُمَّ عَذَابِي فِي الْحَبَرَةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ
 وَاقٍ ﴿٣٩﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُمَاتُهَا تَنَافَسَتْ
 عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ
 إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا
 وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٤١﴾ وَكَذَلِكَ أُنزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا
 لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا
 كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٤٣﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِبُ
 وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٤٤﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
 وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ
 وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٦﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ
 نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَن عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى
 بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٨﴾ .

• الْخَلْقُ وَالتَّدْبِيرُ:

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

بدأ الله تبارك وتعالى سورة الرعد بالأحرف النورانية المقطعة:

﴿الْمَرْ﴾ كما بدأ السور التي قبلها: يوسف وهود ويونس، والتي بعدها:

إبراهيم والحجر، بدأت كلها بقوله تعالى: ﴿الرَّ﴾ وخصت الرعد بزيادة حرف الميم، ولا شك أن لهذه الحروف دلالاتها ومعانيها، وتدل زيادة المبنى على

زيادة المعنى، ممَّا يدلُّ على أنَّ لسورة الرعد ميزة تمتاز بها على ما قبلها وما بعدها من السور.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: تلك آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها^(١) فكانَّها نفسُ الكتاب، وليست سورة من سوره، فهي من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد، وإيقاع واحد، وجوُّ واحد، وعطرٍ واحدٍ، من بدئها إلى نهايتها^(٢).

﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي: والقرآن الكريم المنزَّلُ إليك من ربك كلُّه حق ثابت لا شك فيه، فليس الكمالُ لسورة الرعد وحدها، وإنما هو وصفٌ ثابت للقرآن الكريم كله.

ومع كماله وقوة دلائله وبراهينه فإنَّ كثيراً من الناس يعرضون عنه، ولا يؤمنون به بسبب قلة النظر وعدم التدبر:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بأن القرآن الكريم كلام الله أنزله على النبي ﷺ.

ثم شرعت الآيات ببيان كمال قدرة الله تعالى، وأنها وحدها المؤثرة في الموجودات كلها، كما أنَّ مشيئته تعالى وحدها هي النافذة في جميع المكونات:

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: الله ﷻ بقدرته الكاملة خلق السماوات مرفوعةً بالنسبة إلى الأرض بغير عمد - كما ترونها - فهي مرفوعة مباشرة بقدرته تعالى ومشيئته بغير أسبابٍ تؤدي إلى رفعها، كما في قوله

(١) تفسير النسفي: ٤٦٦/٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٠٣٩/٤.

سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْفَنِّ فِي الْأَرْضِ رَوْسَى أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على الوجه اللائق بجلاله وكماله ووحدانيته - كما مر معنا -.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: ذللهما لمنافع عباده ومصالح بلاده، وهما يجريان بقدرته تعالى ومشيتته إلى وقت معلوم ينتهيان إليه ولا يجاوزانه، فهما جرمان مقهوران محكومان لقاهر عليم حكيم.

﴿يَذَرُ الْأَمْزَرَ﴾ أي: الله وحده يدبر أمر المخلوقات كلها، فلا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته وقدرته ﷻ، فله وحده الخلق والتدبير، ولا خالق سواه، ولا مدبر غيره.

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: يبين الدلائل الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته، وتمام مشيئته.

﴿لَعَلَّكُمْ يُلْقَاءَ رَبَّكُمْ تَوْفَنُونَ﴾ أي: لعلكم تصدقون تصديقاً لا شك فيه بلقاءه تعالى، والمصير إلى حكمه، وأمره بعد الموت، فالقادر على الخلق والتدبير قادرٌ على الإعادة والجزاء، فأنتم في قبضة قدرته تعالى، وتحت قهر مشيئته في الحياة وبعد الممات.

• التأثير والتخصص:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْأَيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ (٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: الله وحده الذي بسط الأرض، وجعلها ممتدة

بالنسبة للإنسان، ومع أن شكلها الكلي كروي، إلا أنه تعالى جعلها بحكمته وقدرته مبسوبة للإنسان، ممتدة امتداد نظره، فهذا دليل على كمال قدرته وحكمته، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٧٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٧٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٨٠﴾﴾ [الغاشية].

وبهذا المد والبسط للأرض تمكّن الإنسان من العيش عليها، ومن الثقلب في جنباتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ أي: جعل تعالى في الأرض جبالاً ثابتة وأنهاراً جارية.

وكثيراً ما يقرن سبحانه بين الجبال والأنهار في آيات كثيرة؛ منها: ﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

ومنها أيضاً: ﴿أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ لَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

ومن المعلوم أن الجبال تمدد الأنهار بالماء، إذ ينبع أكثرها من سفوح الجبال. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: جعل سبحانه في الأرض من كل الثمرات زوجين اثنين، كل واحد منهما زوج للآخر، يقابله ويكمله، ويتم بهما التكاثر والتوالد بقدرته تعالى ومشيتته.

فالزوجية مبثوثة في كل أنواع المخلوقات، وهي بتدبيره سبحانه ومشيتته سبب بقاء الأنواع وتكاثرها، مع أنه تعالى هو الخالق الحقيقي للأسباب والمسببات، كما في قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقوله أيضاً: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].
﴿يُعْشَى الْأَيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يغطي سبحانه الليل بالنهار، كما في قوله الكريم: ﴿يُعْشَى الْأَيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُكَا﴾ [الأعراف: ٥٤].

واكتفى بذكر تغشية الليل بالنهار مع تحقق عكسه؛ للعلم به، فهو كقوله: ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الزمر: ٥].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لقوم يتأملون هذه الظواهر الكونية، فيعلمون أنَّ لها صانعاً حكيماً عليمًا قادراً، يدبّر أمرها، ويهيئ أسبابها.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَتٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَتٌ﴾ أي: ويوجد في الأرض قطع متقاربات في المكان، ومع ذلك فهنَّ مختلفاتٌ في الخصائص والصفات، فهذه رخوة، وتلك صلبة، وبعضها طيبة، وبعضها سبخة، وبعضها تصلح للزراع فقط، وبعضها تصلح للزراع والشجر، أو للشجر فقط، وهذا يدل على وجود مخصص، حصَّ كل قطعة بخصوصية تميزها عن غيرها.

﴿وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ﴾ أي: وفيها أيضاً جنات من أعناب وزرع.

﴿وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ أي: وفيها أيضاً نخيل، بعضها صنوان متفرع من أصل واحد، وبعضها غير صنوان، نخلة منفردة بأصلها لا صنولها.

﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَحِدٍ﴾ أي: تُسقى هذه الجنات والزروع والنخيل بماء واحد.

﴿وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ أي: ومع وجود أسباب التشابه، نجعلها متفاوتةً في الطعم والرائحة واللون والحجم وغير ذلك من الصفات والخصائص، ممَّا يدلُّ على أنَّ الأسباب ليست هي المؤثرة والمخصصة، فالتأثير والتخصيص للخالق المدبر، الذي أعطى كلَّ حبة وثمره صفاتها وخصائصها، بقدرته الكاملة، ومشيتته النافذة، وحكمته الباهرة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لقوم يعملون بمقتضى العقل.

فإنَّ العقل المتفكر في هذه الظواهر لا بدَّ أن يجزَمَ بوجود خالق قادر عالم،

هو وحده الذي خلق الخلق، وهو وحده الذي يدبّر أمره، وما الأسباب والصفات والطباع إلا آثار قدرته، وبديع حكمته سبحانه، فالأسباب لا تخلق، والطباع لا تؤثر كما يزعم الدهريون والطبائعيون، إنما المؤثر الحقيقي هو الله تعالى وحده، خالق الأسباب والمسببات.

● أعاجيب المعاندين:

وتوقفت الآيات فجأة عن عرض دلائل قدرته تعالى وباهر حكمته، والتفتت تخاطب الإنسان المستغرق في تأمل هذه الظواهر الكونية، المتعجب من بديع الحكمة الربانية، لئنّه إلى أمور ثلاثة أكثر عجباً:

- الأمر الأول: إنكار الكافرين قدرة الله تعالى على إعادتهم إلى الحياة بعد

الموت:

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا ءَأَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلُلُ ۖ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: إن تعجب ممّا ترى من عظيم قدرته تعالى

وباهر حكمته ونفاذ مشيئته، فعجب قولهم:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ أي: بعد الموت وتمزّق أجسادنا وتفرّقها.

﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: ألنا نعاد ونخلق من جديد؟! وهو استفهام بعد

استفهام يدل على إنكارهم لقدرة تعالى على إعادتهم إلى الحياة ثانية بعد الموت.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك قد كفروا بربهم، لأنهم أنكروا

قدرته على إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، فإنّ إنكارهم هذا وصف له سبحانه

بالعجز والعبث واللعب، وهو الإله القادر الحكيم العليم، يتنزّه عن كل صفات

النقص والعجز.

﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلُلُ ۖ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: وأولئك مقيّدون بأسباب الضلال، فلا

يُرَجَى خلاصهم منها، كالكبّير والحسد والطمع والجشع وتغلّب الشهوات والأهواء.

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بسبب سوء كسبهم وإعراضهم عن التفكير في الدلائل والشواهد التي تدلهم على كمال قدرته تعالى ومشيئته.

- والأمر الثاني: الذي يُتَعَجَّبُ منه أيضاً، بيَّنه تعالى بقوله:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية.

وذلك أنَّ المشركين كانوا يطلبون من النبي ﷺ العقوبة والعذاب، بدلاً من السلامة والعافية، وقد حكى سبحانه ذلك عنهم في آيات كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانِ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

ومنها أيضاً: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج].

وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا مِجْرَاءً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ أي: والحال أنه قد مضت العقوبات في الأمم المكذبة أمثالهم، فما لهم لم يعتبروا بالأمم المعذبة قبلهم؟! والمثلات: جمع مثلة، وهي العقوبة تنزل بالإنسان، فيجعل مثلاً ليرتدع به غيره.

وليس تأخير العذاب عنهم بسبب إهمال وضعف، بل لأنه تعالى حلیم رحيم، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ أي: مع ظلمهم أنفسهم.

وحقيقة المغفرة الستر، والمراد أنه سبحانه يستر المذنبين، ويؤخر عذابهم، لعلهم يتوبون عن ظلمهم، فهو ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار^(١).

فَاللَّهُ ۖ لَا يُعْجِلُ لِعِبَادِهِ، وهو القائل: ﴿وَلَوْ يُعِجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَجُوبُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

وهو أيضاً سبحانه شديد العقاب:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: للمصرّين على كفرهم وفجورهم. وبهذا يعتدل الرجاء برحمته تعالى والخوف من عقابه، كما في قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

- وأما الأمر الثالث المعجب: فذكره الله تعالى في قوله:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هلاً أنزل عليه معجزة من ربّه تدلّ على صحة نبوّته، وصدق رسالته.

ووجه التعجب من قولهم هذا أنّ الله تعالى أنزل على النبي ﷺ معجزة القرآن الكريم الخالدة التي تدل دلالة واضحة على صحة نبوته، وصدق رسالته، وتغني عن غيرها من المعجزات، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت].

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي: إنّما عليك أن تبلغهم رسالة ربك، وتندّرهم من عذابه، ولست مكلفاً بالاستجابة لمطالبهم واقتراحاتهم التي تدل على جحودهم وعنادهم.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: ولكل قومٍ نبيٍّ مخصوصٍ بهم، أيده الله بمعجزات تناسب قومه، وتدللهم على الحق.

والمعجزة القرآنية معجزة بيانية تناسب ما اشتهر به العرب من الفصاحة وحسن البيان، فلماذا يعرضون عنها ويطلبون غيرها؟! إنه لأمر عجيب حقاً!

وقد يكونُ (هاد) معطوفاً على (منذر)، و(لكل قوم) متعلّق به، فالمنذر والهادي هو رسولُ الله ﷺ لجميع الأقسام.

• كمال علمه تعالى:

وبعد توقّف الآيات مع أعاجيب المعاندين والجاحدين استأنفت حديثها عن كمال صفاته جلّ وعلا، فبينت كمال علمه الذي وسّع كل شيء من مخلوقاته، كبيرها وصغيرها، حاضرها وغائبها، ظاهرها وخفيها:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ أي: الله تعالى يعلم ما تحمِلُ كل أنثى في رحمها، ويعلم أيضاً ما تضع كل أنثى، فهو كقوله: ﴿سَرَّيْلَ نَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد.

و(كلّ) إذا أضيفت إلى نكرة تفيّد العموم لكل أنثى خلقها الله تعالى في هذا الكون المترامي الأطراف، كل أنثى في الإنسان والحيوان، في الوبر والمدر، في السهول والجبال وأعماق الوديان، في الأنهار ولجج البحار. ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: ويعلم سبحانه ما تغيض الأرحام، وما تزداد.

ومعنى تغيض: تنقص، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعِضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

ويقابل النقص الزيادة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾.

ولنتأمل دقّة الكلمة القرآنية، وشدة اتساقها مع ما قبلها وما بعدها؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ ولم يقل (وما تزيد)؛ لأن الزيادة التي تحصل في الأرحام زيادة محسوبة مقدّرة.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وليست زيادةً فائضةً عن مقدار الحاجة.

ويقرّرُ علمُ الطبِّ الحديث أنَّ الأرحامَ لا يغيضُ منها شيءٌ عن الحاجة في الأحوال الطبيعية أبداً^(١).

وحمل علماء التفسير الغيضَ والزيادةَ في الأرحام على الدم الذي يدخلُ إليها ويخرجُ منها، وعلى مدة الحمل، فقد تنقُصُ أو تزيدُ، وعلى عدد الأجنة في حياتها أو موتها واكتمال تخلُّقها أو نقصه.

• من الحقائق العلمية في القرآن:

وأضافَ علمُ الطبِّ الحديثُ أبعاداً جديدةً في معاني الآية الكريمة:
منها: نقصُ السائل الأمينوسي وزيادته، وهو سائلٌ يظهر في البويضة الأمشاج في جوفٍ ممتلئٍ بالماء، يزدادُ ويكبرُ حتى يحيطُ بالحمل من كل جوانبه، ويصبح الجنين سابحاً في هذا الماء، يبلغ حجمه (٥٠ سم^٣) في الأسبوع الثاني عشر من بداية الحمل، ثم يزداد حتى يصل إلى اللتر في الأسبوع السادس والثلاثين من الحمل، ثم بعد ذلك يبدأ بالنقص والغيض تدريجياً، فإذا تأخرت الولادة عن موعدها شحَّ كثيراً.

وتستدعي الضرورة تبدل هذا السائل، فيتبدل دائماً عبر الأغشية وعبر المشيمة وبواسطة البلع والتبول من الجنين، وقد قُدِّرت سرعة تجددته بحوالي (٤٠٠ - ٥٠٠ سم^٣) في الساعة عند تمام الحمل، أي إنَّه يتجدد بكامله في اليوم الواحد حوالي (٨ - ١٢) مرة، فهو إذن دائماً في غيض وازدياد.

ويجري في الأرحام أيضاً غيضٌ وازديادٌ فيما يسمونه: الدوران الرحمي المشيمي، إذ من المعلوم أنَّ الدم الوارد إلى الرحم عند حدوث الحمل يتضاعف خمس عشرة مرة تقريباً، وهذا الدم يخترق جدار الرحم ليصبَّ في البحيرات الدموية الموجودة في المشيمة، حيث تسبح زغابات الجنين فتأخذ من الدم غذاء الجنين، وتعطيه فضلاته وإفرازاته، وهذه الدورة الدموية تغيضُ وتزدادُ، تحمل للجنين رزقه وهواءه، وتطرح عنه فضلاته وسمومه، وهي محسوبة بدقة، وتزيد

(١) انظر: كتاب القرار المكين، ص ٨٦.

تدريجياً مع ازدياد حاجات الجنين، وصدق الله العظيم: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

والرحم نفسه يزداد حجمه ووزنه، ويتضاعف من ألف إلى ألفي مرة، ليستوعب الجنين والمشيمة والسائل الأمينوسي، وربما توءماً آخر، ثم يبدأ الغيضُ بعد الولادة مباشرةً، فيغيض ويضمّر في فترة النفاس، حتى يعود إلى وزنه وحجمه الذي كان عليه قبل الحمل.

وتزداد الأرحام بالحمل، وقد تغيض في حالات البويضة الرائقة، حيث يتلاشى الحمل، ويدوبُّ، وهو بين النطفة والعلقة، ويرتشفه الرحم، فلا يرى الطبيب على شاشة تصوير الرحم إلا كيساً ممتلئاً بالسائل الأمينوسي.

وقد تغيض الرحم أحد التوءمين، ويبقى الآخر ينمو ويزداد حتى الولادة.

ويغيض الرحم ويزداد في غير أوقات الحمل، فهو دائماً في حال غيض وازدياد، ففي أثناء الحيض يغيض الرحم غشاءه الباطن، وينقطع عنه الدم ويتآكل، ثم يطرحه إلى الخارج، وفي أثناء الطهر يستعدُّ الرحم لاستقبال الحمل فيزداد، ويبقى الرحم بتقدير الله تعالى في غيضٍ وازديادٍ دائمين^(١).

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: وكل شيء خلقه الله تعالى بقدر معين، لا يزيد عنه، ولا ينقص عمّا تعلقت به إرادته، وسبق به علمه.

فكل حادث يحدث بوقت وحال معينين، ويهيئ الله له أسباباً تُساق إليه حسب ما تقتضيه حكمته الباهرة جلّ وعلا، كما قال: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال أيضاً: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وعندما سأل فرعون موسى ﷺ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه].

(١) انظر: القرار المكين، ص ٩٠ - ٩٨ بتصرف واختصار.

فهو مقدر الأسباب والمسببات وخالق كل شيء ﷻ.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩﴾

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيب عن خلقه، وما يشاهدونه.

أو: يعلم المعدوم والموجود.

﴿الْكَبِيرُ﴾ أي: العظيم الشأن، فهو أكبر من كل كبير، ويتضاءل عنده

تعالى كل شيء فيه صفات تقتضي الكبر، فالكل في قبضة قدرته ومشيئته.

﴿الْمُتَعَالِ﴾ أي: المستعلي على كل شيء في ذاته وصفاته ﷻ، فلا يدنو

من أوج علوه - في ذات أو صفة أو فعل - عالٍ، كما قال ﷻ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ

الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ويستوي السر والجهر بالنسبة إلى علمه تعالى، ولهذا قال:

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٠﴾

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِ الْقَوْلِ

فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ويستوي في علمه من يستتر

بالليل، ومن يتحرك في النهار، بارزاً ظاهراً، متصرفاً في حوائجه، فيستوي في

علم الله السر والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات.

والسارب: الذهاب في الطريق، ومنه قولهم: انسرب الماء، وقال

الأصمعي: خلَّ سَرَبه، أي: طريقه^(١).

• الارتباط بين الأسباب والمسببات:

ومع كمال علمه تعالى وقدرته، وتمام مشيئته، اقتضت حكمته سبحانه أن

يدبر أمر المكونات بأسباب ومسببات، وأن يكون بينهما ارتباط بتقديره ومشيئته أيضاً، مع العلم أنه تعالى قادر على الخلق والتدبير من غير تقدم أسباب: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وبث سبحانه الأسباب في جميع المكونات الظاهرة والخفية، والمشاهدة والغائبة، وأخبر عن ذلك بقوله:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرَ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١).

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: لكل إنسان ملائكة تعتقب في حفظه من جميع جوانبه، فالمعقبات: جمع معقبة، من عقب إذا جاء على عقبه من غير فاصل زمني، كأن أحدهم يطاء عقب الآخر، ويجوز أن يكون إطلاق المعقبات على الملائكة، لأنهم يتعقبون أقوال الشخص وأفعاله، ويتبعونها ويحفظونها بالكتابة^(١)، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنِينًا﴾ [الانفطار].

وقال أيضاً: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون» [رواه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢)].

﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: كائنة من أمر الله.

منهم من يحفظونه بأمر من الله تعالى من أسباب الضرر والهلاك، فقد أخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبي الدنيا وغيرهم: عن علي رضي الله عنه قال: لكل عبد

(١) انظر: روح المعاني: ١١٢/١٣.

حفظه يحفظونه، لا يخرُّ عليه حائطٌ، أو يتردَّى في بئرٍ، أو تصيبه دابةٌ، حتَّى إذا جاء قدرُ الله الذي قُدِّرَ له خَلَتْ عنه الحفظَةُ، فأصابه ما شاء الله أن يصيبه^(١).

وروى الطبراني بإسنادٍ حسنٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: ملائكةٌ يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدره خَلُّوا عنه^(٢).

وقد يُتساءل عن فائدة هذا الحفظ، والمقدَّر كائنٌ، وغيرُ المقدَّر لا يكونُ؟. والجواب: هكذا تعلَّقت مشيئته تعالى وحكمته في تدبير مخلوقاته، وكما جعل للمحسوسات منها أسباباً محسوسة، وربط بها مسبباتها مع قدرته تعالى على إيجاد المسببات بغير أسباب، كذلك جعل في غير المحسوسات المغيبات عنَّا أسباباً ربط بها المسببات.

فللعالم نواميسٌ ونظمٌ أبدعها العليم الحكيم، تدل على وحدانيته، تعلَّقت بها إرادته، وسبق بها علمه، يدبِّر تعالى بها أمر مخلوقاته، وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله بعد ذلك:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: إن الله تعالى لا يغيِّر حال قومٍ من خير أو شر كانوا عليه حتى يغيروا الذي بأنفسهم من طاعة أو معصية، ومن إيمانٍ أو كفرٍ، فقد شاء سبحانه أن تكونَ أسبابُ تغيير أحوال الإنسان نابعةً من نفسه وسلوكه، فلا يعامل الحقُّ عباده بحسب علمه فيهم، بل يعاملهم بحسب عملهم الواقع بكسبهم واختيارهم.

والنصوصُ في هذا المعنى كثيرة، منها: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُنْرَفَهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

(١) روح المعاني: ١١٣/١٣.

(٢) فتح الباري: ٣٧٢/٨.

ومنها أيضاً: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. ولما تساءل الصحابة عن سبب الخسارة الكبيرة التي حلت بهم في غزوة أحد، أخبرهم سبحانه أنها بسبب نابع من أنفسهم فقال: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وحتى لا يسيء أحد فهم هذه النصوص، فيظن أن مشيئته تعالى تابعة لمشيئته عباده، بين سبحانه طلاقة مشيئته وكمالها، وأنها هي النافذة في جميع مخلوقاته، وأن مشيئة مَنْ يشاء من عباده تابعة لمشيئته تعالى المطلقة فقال: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ أي: فلا يدفعه شيء. ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ﴾ أي: ليس لهم من دون الله من والٍ يلي أمرهم، ويدفع عذابه عنهم. فقد دلت الآية على أن خلاف مراد الله تعالى محال^(١).

• إنشاء وتدبير وتسبيح:

فكسب الإنسان واختياره ومشيئته ليست سوى أسباب لما قدره تعالى بسابق علمه ومشيئته، والأسباب لا تأثير لها بالمسببات، الخالق والمدبر والمؤثر هو الله تعالى وحده، ونحن مكلفون بتحصيل الأسباب، فهي المفاتيح التي نستفتح بها خزائن جوده تعالى وإحسانه، ولا ينبغي الاتكال على ما سبق في علمه تعالى، وتعلقت به مشيئته، فالأقدار غيبٌ عنا.

وفي الحديث الشريف: عن علي رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ ومعه عودٌ ينكت به في الأرض، فنكس، وقال: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ» فقال رجلٌ من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: «لا، اعملوا فكلٌ ميسرٌ» وزاد شُعْبَةُ في روايته: «لما خُلِقَ له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَالْفَقْرَى﴾ الآية [الليل: ٥]. [رواه البخاري (٦٦٠٥)].

وإذا ترك الإنسان الأسباب توكلًا على ما قدر له عرض نفسه للمسؤولية والعقوبة، بسبب المخالفة وترك التكليف.

والنواميس الكونية التي نراها في هذا الكون ليست سوى أسباب أجرى الله تعالى بها مقدراته، ومن المعلوم المشاهد أنَّ الظواهر الكونية ترتبط بأسباب ونواميس، ومع ذلك فالآية الكريمة تردُّ أمرَ تدبيرها وحدثها إلى الله تعالى وحده كما تردُّ أمر رؤيتها لها أيضاً إليه تعالى وحده:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: هو سبحانه وحده الذي يجعلكم ترون البرق وأنتم خائفون من نعمته، طامعون في رحمته؛ ولولا أنه تعالى أقدرنا على رؤية البرق ما رأيناه ولو كانت أسباب الرؤية موجودة لدينا سليمة غير معطلة.

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: وهو وحده تعالى الذي ينشئ السحاب المثقلة بالماء الكثير.

وقد أخبرنا سبحانه في سورة الروم أنَّ تكوين السحاب مرتبط بأسباب ونواميس قدرها العليم الحكيم، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَجَعَلَهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨﴾ .

وقال في سورة النور أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ۝٤٣﴾ .

وكل ذلك يدل على أنه سبحانه وحده خالق الأسباب، ومقدّر النواميس، فهو الذي ينشئ السحاب، وما الرياح التي تحمل بخار الماء إلى طبقات الجو الباردة حيث يتكاثف ويتراكم بعضه فوق بعضه، إلا أسباب ونواميس لا تؤثر إلا بتقديره تعالى ومشيئته.

والواجب على المسلم أن يردَّ الحوادث كلها إلى الله تعالى لا إلى أسبابها

ونواميسها، كما جاء في الحديث الشريف: عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صَلَّى بنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصبحِ بالحديبية في إثرِ السماءِ كانتُ من الليلِ، فلمَّا انصرفَ، أقبل على الناسِ فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «أصبحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَاْفِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَاْفِرٌ بالكوكبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوَاءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَاْفِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بالكوكبِ» [رواه مسلم (٧١)].

وهو ما دلَّ عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: ينزه الرعدُ الحقَّ ﷻ عن صفات النقص تنزيهاً متلبساً بحمده على كماله تعالى وغناه.

وهو محمولٌ إمَّا على التسبيح كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

أو هو محمول على المعنى المجازي، لأنَّ الرعدَ ظاهرةً كونيةً تدل على عظمة خالقها ومدبرها ﷻ.

وقد سبق معنا في سورة البقرة الحديث عن حقيقة الرعد عند قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْدِعُهمُ فِيْ آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: والملائكة تسبِّحُ أيضاً بحمده تعالى من خشيته وتعظيمه وإجلاله كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ أي: والله سبحانه هو الذي يرسل الصواعق، وهي شحنات كهربائية حارقة تنزل من جهة السماء عند حدوث ظاهرة الرعد والبرق.

﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من يشاء سبحانه إهلاكه وتدميره، سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو عمراناً، فتكوين الصواعق ونزولها يتم بإرادته وقدرته سبحانه، وإن كان مرتبطاً بأسباب ونواميس كما يقول علماء الأرصاد الجوية. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي: والمشركون يجادلون رسول الله ﷺ في وحدانيته تعالى وكمال قدرته ونفاذ مشيئته مع كثرة الظواهر الكونية التي تدل على ذلك. ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ أي: وهو جل وعلا شديد القوة والنقمة والعقوبة.

● دعوة الحق:

فالمؤمن الحقيقي يسعى في تحصيل الأسباب، ولكنه لا يعتمد عليها، بل يعتمد على الله تعالى وحده، ويتوجه إليه وحده بالعبادة والدعاء:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسُطُ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكَاذِبِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝١٤﴾ .

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: لله تعالى وحده دعوة الحق، لأنه سبحانه الذي يسمع الدعاء، ويجب الداعي إذا دعاه.

أو: له تعالى الخضوع الحق، لأنه وحده المستحق للعبادة والتذلل والخضوع، فهو الإله الحق الخالق القادر المدبر، كما في قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أي: والآلهة المزعومة التي يتوجه إليها الكفار بالدعاء والعبادة لا يستجيبون لهم بشيء، فلا يجلبون نفعاً، ولا يدفعون ضرراً بسبب ضعفهم وعجزهم، فدعاؤها باطل لا يؤدي إلا إلى الحسرة والأسف.

مثلهم كمثل الذي يمدُّ يديه إلى الماء يدعوه ويسأله أن يذهب عطشه ويرويه، فلا يسمع الماء دعاءه، ولا يحس بعطشه:

﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيُغْلِقَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغٍ﴾ أي: يمدُّ يديه إلى الماء داعياً له ليصل إلى فمه، فلا يصل الماء إلى فمه أبداً، لأنه عاجز ضعيف، لا يتحرَّك من نفسه، لا بدُّ له من محرِّك يحركه، فمع أنه سبب للري ودفع العطش، وسبب لخروج النبات من الأرض، فإنَّه لا يؤثر بنفسه إلا إذا وافق قدر الله تعالى بخلق الري وإخراج النبات.

فالذين يتعلَّقون بالأسباب، وينسبون التأثير إليها واهمون ومخطئون، فالشمس والقمر والنجوم والنار وغيرها من المعبودات الزائفة ليست سوى أسباب كالماء، لا تؤثر ولا تخلق، فالتوجه إليها بالدعاء والعبادة وهمٌ وضلال.

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: في خسارة وضياع وبطلان.

فجميع المخلوقات من أصغر ذراتها إلى أضخم أجرامها خاضعة لله تعالى، فهي في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝١٥﴾

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: لله ﷻ يخضع وبذل وينقاد كل من في السماوات والأرض، إما طائعين، كانقياد المؤمنين لأمره تعالى الشرعي، وإما كارهين كانقياد الكافرين لأمره القُدري، فمن يستطيع أن يخرج على نواميس قدرته وسطوة أقداره جلَّ وعلا؟!.

﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: وحتى ظلالهم خاضعة دائماً لنوانيس قدرته جلَّ وعلا، فهي تمتد في أول النهار وتنقبض في آخره، بحسب الناموس الكوني الذي وضعه القادر القاهر العليم الحكيم، كما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝١٦﴾ ثُمَّ قَبَضَتْهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿ [الفرقان].

فلكلِّ مخلوقٍ سجودُهُ وخضوعُهُ الخاصُّ به، والملائمُ له، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَّلَهُ، عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ [النحل].

• تقرير وبرهان:

وبعد هذا البيان الواضح لانتقاد جميع المخلوقات لله تعالى، أمرت الآيات النبي ﷺ أن يسأل المعاندين الجاحدين سؤال التحدي لهم:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَنَعَمْ وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ سَتَوَى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ أي: من خالق السماوات والأرض ومدير أمرهما؟ .

وبادرت الآيات إلى الجواب قبل أن يجيب المسؤول؛ لأن السائل والمسؤول في تقرير الجواب متساويان، فالجواب أمر بدهي منطقي لا تردد فيه ولا توقف: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فالسائل والمسؤول يقرآن بأن الله هو رب السماوات والأرض، لا رب سواه ﷻ .

وما أوردت الآية السؤال والجواب إلا لإلزام المسؤولين بما بعده، وهو: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَنَعَمْ وَلَا ضَرًّا﴾؟ أي: قل على سبيل الإلزام لهم: بما أن الله وحده هو رب السماوات والأرض، فكيف اتخذتم غيره أولياء، وهم عاجزون ضعفاء، لا يستطيعون جلب نفع لأنفسهم، ولا دفع ضرر عنها، فضلاً عن أن ينفعوكم أو يضروكم؟! .

وتابعت الآية تلقين النبي ﷺ الحجة بعد الحجة، والبرهان بعد البرهان، مما يؤكد أنه كلام الله تعالى، أنزله على النبي ﷺ، ليس له فيه إلا التلقي والتبليغ .

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾؟ وهو سؤال إنكار، أي: لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر دلائل الحق وبصائره، والبصير الذي أبصر الدلائل والبصائر، فآمن بالله تعالى وخضع لأمره وشرعه .

﴿أَمْ هَلْ سَوَّيْنَا الظُّلُمَتِ وَالنُّورَ؟﴾ أي: وكذلك لا يستوي الكفر والإيمان، فلا تشابه بينهما أبداً بأي وجه من الوجوه، فهما ضدان ونقيضان لا يلتقيان.

واتجهت الآية بعد هذا البرهان القاطع الملزم توبّخ المشركين المعاندين:

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ؟﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فالله سبحانه خالق كل شيء، ولا خالق سواه حتى يشبهه الأمر عليهم بين مخلوقاته تعالى وبين مخلوقات غيره، فليس في الوجود مخلوق لغيره تعالى.

﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: من الأسباب والمسببات.

﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: وهو المتفرد بالربوبية والقهر، فالجميع في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته جلّ وعلا.

فهذا تقرير لما سبق الإخبار عنه في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥].

• الحق والباطل في الحال والمآل:

ومن أساليب القرآن الكريم في تقريب المعاني وتوضيحها ضربُ الأمثال، ولهذا أوردت الآيات المثليين التاليين لتوضيح ما سبق تقريره وتأكيده، وتقريبه للأذهان وتثبيته في القلوب:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (١٧).

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: أنزل الله تعالى من جهة السماء ماءً، وهو ماء المطر الذي ينزله الله تعالى من السحاب الثقال، الذي سبق ذكره في قوله: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي: وسالت مياه الأمطار في الأودية التي نزلت عليها على حسب مقدارها وسعتها.

وأشار سبحانه بهذه الكلمة: ﴿يَقْدَرُهَا﴾ إلى اختلاف قلوب الناس في قبول الحق والانتفاع به، كما في الحديث الشريف: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبْلَ الْمَاءِ، فَأَنْبَتَ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تَمْسِكُ مَاءً، وَلَا تَنْبُتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقه في دينِ اللَّهِ ونفعه ما بعثني الله به، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» [رواه البخاري (٧٩)].

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِعًا﴾ أي: فحمل السيل زبدًا عاليًا منتفخًا، وهو الرغبة وما يعلق بها مما يطفو على سطح الماء، هذا هو المثل الأول.

وأما الثاني فهو:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرٍّ أَيْ: وينشأ أيضاً زبد مثل زبد الماء من فلزات المعادن، التي يذيبونها في النار طلباً للذهب والفضة، ليتحللوا بهما، أو طلباً للحديد والنحاس وغيرهما من المعادن، التي يصنعون منها الأواني والوسائل التي يتمتعون بها في حياتهم.

ثم بيّن الله تعالى وَجَهَ التشبيه والتمثيل فقال:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: فإن الحق مثل الماء الذي تسيل به الأودية، والذي يثبت في الأرض، ويتنفع به الناس، ومثل المعادن المذابة أيضاً التي تستقر وتثبت، ويتنفع بها الناس.

وأما الباطل فمثل الزبد الطافي على سطح الماء وفوق المعادن المذابة، تراه منتفخاً منتفجاً مستكبراً متعالياً، ثم لا يلبث أمام قوة وسطوع براهين الحق أن يضمحل ويتلاشى، فيا خسارة مَنْ يتعلّق بالباطل؛ ويعتمد عليه، ويغترّ بانتفاخه وظهوره! ويا خسارة مَنْ يعتمد على الأسباب ويغترّ بها، ويعرض عن الله تعالى خالق الأسباب والمسببات!.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: يذهب متفرقاً ضائعاً مهماً علا وانتفخ.

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يثبت ويبقى في الأرض، فلا يذهب ولا يضيع، فالباطل مهماً علا على الحق فإن الله تعالى يمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق وأهله، كما في قوله سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: كذلك يضربُ الله الأمثال المقربة للمعاني، والملائمة لها، والتي تدلُّ على رحمته تعالى بعباده، حيث يسرَّ لهم أسباب فهم آياته، والانفعا بها، فيسرَّ لهم بهذه الأمثال الرائعة البليغة المحكمة سبل الهداية والاستجابة لدعوته، فلا عُذْر للناس في الإعراض عن دعوة الله تعالى، وعليهم أن يستجيبوا لها.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْهَادِ ۖ﴾

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: العاقبة الحسنة الطيبة.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي: لبذلوا ذلك كله، ليخلصوا أنفسهم من عذاب النار يوم القيامة، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحِسَابِ﴾ أي: يُحَاسِبُونَ حساباً عسيراً على جميع ذنوبهم، فلا يُغْفَرُ لهم شيء منها، ممَّا يؤدي إلى عذابهم، فَمَنْ نَوَقِشَ الْحِسَابَ عَذْبَ، كما ورد في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذْبٌ فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾

[الانشقاق: ٨]؟ قال: «ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض، مَنْ نُوقِشَ الحسابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُدْبٌ» [رواه مسلم (٢٨٧٦)].

﴿وَمَا أَوْفَوْهُم جَهَنَّمَ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ آيَةُ الْيَوْمِ﴾ أي: وبئس المكان الممهّد لإقامتهم في جهنم.

• مقدمات ونتائج:

ثم عقدت الآيات مقارنةً بين المؤمنين والكافرين، لإظهار ما بين الفريقين من تفاوت كبير في الاعتقاد والسلوك والأخلاق، وفي العاقبة والمصير أيضاً:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَثُلًا الْأَلْبَابِ ۚ﴾ (١٩).

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي: فاستجاب للحق ورضي به وانقاد له.

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾؟! أي: كمن هو أعمى القلب والبصيرة، فما استجاب للحق

ولا رضي به.

﴿إِنَّمَا يَنْذَرُ أَثُلًا الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يتعظ وينتفع بهذه المواعظ والأمثال أولو

العقول الصافية المبصرة المتحررة من أسر التقاليد والشهوات.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (٢٠).

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ والمراد العهد الذي عقده على أنفسهم حين اعترفوا

بربوبية الله تعالى في أصل الفطرة التي فُطروا عليها، والذي أخبر الله تعالى عنه

في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أو المراد العهد الذي قطعوه على أنفسهم حين استجابوا لدعوته تعالى،

واتبعوا رسله، فإنَّ هذا العهد يلقي عليهم التزاماتٍ وتبعاتٍ بالانقياد لأمره،

والتمسك بأحكام دينه وشرعه.

﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ أي: ولم يكن منهم نقض لهذا العهد والميثاق، بل

استمروا عليه وتمسكوا به.

ولا شك أن الوفاء بعهد الله تعالى يستدعي الوفاء بجميع العهود والمواثيق التي يقطعها الإنسان على نفسه .

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي : من الأرحام والجيران والمؤمنين ، بالإحسان إليهم ، ومعاونتهم ، ومناصحتهم ، ومراعاة حقوقهم ، فالمسلم لا يعيش لنفسه فقط ، إنما يعيش لينشر الخير والصلاح في البلاد وبين العباد .

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي : يخافون من الله تعالى خالقهم ومالك أمرهم ، فيراقبونه في كل أعمالهم وأقوالهم ؛ لأنهم يؤمنون بالجزاء والمسؤولية أمامه يوم القيامة ، فيخافون أن يشدد عليهم الحساب ، فالرقابة على أعمالهم وسلوكهم نابعة من داخل قلوبهم ومن أعماق وجدانهم .

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي : حبسوا أنفسهم عن المحارم والمآثم ، وقاموا بما كلفهم الله به ، ابتغاء مرضاته سبحانه من غير نظر إلى سواه .

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي : أدوها كاملة مستقيمة كما شرعت وكلفوا بها .

﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي : أنفقوا من أموالهم النفقات الواجبة عليهم في السر والجهر ، وفي الليل والنهار ، لأنهم يبتغون بها وجه الله تعالى .

﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي : يعاملون الناس معاملة طيبة كريمة ، فيتجاوزون عن المسيء ، ويدفعون القبيح بالحسن ، كما في قوله تعالى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

وقوله أيضاً : ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

[فصلت : ٣٤] .

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقَى الدَّارِ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات الجميلة لهم العاقبة الحسنة الطيبة يوم القيامة. وهي:

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ جَنَّةٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾
بَابُ (٢٣) .

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: جنات الإقامة الدائمة، يدخلونها ولا يتحولون عنها. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: ويدخلها معهم الصالحون من آبائهم وأزواجهم وأولادهم، فالدار لا تطيب من دون الأحاب، ولهذا يجمع الله بينهم في الجنة، ليكتمل سرورهم ونعيمهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي: يدخلون عليهم من أبواب الجنة، أو من أبواب القصور، يحملون إليهم من ربهم البشائر والهدايا والتحيات، قائلين لهم:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٢٤).

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: بسبب صبركم على طاعته تعالى، أكرمكم ورحمكم وتفضل عليكم. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: فنعم عاقبة الدنيا الجنة، فما أجملها من عاقبة! نسأل الله تعالى أن يكرمنا بها. ثم قال سبحانه في الفريق الآخر الأعمى، المعرض عن بصائر الحق وشواهد:

﴿وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٢٥).

﴿وَالَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: أعرضوا عن عهد الله وميثاقه، وانتكسوا في مهاوي الشرك والكفر.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي: لأنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم وشهواتهم، فهم أنانيون فرديون ماديون، غلبت عليهم الأثرة، فجمدت مشاعرهم البشرية، وأضعفت أحاسيسهم وعواطفهم الإنسانية.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ويعملون على نشر الفساد في الأرض.

فالإيمان بالله تعالى صلاح للعباد والبلاد، بينما الكفر فساداً للأفراد والمجتمعات، يؤدي إلى إشاعة الفردية والأنانية وتقطيع الأواصر الإنسانية، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَثَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

ويلاحظ أن هذه الصفة ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أتت في مقابل ثلاث صفات كريمة للفريق الأول، وهي: إقامة الصلاة، والإنفاق، ودفع السيئة بالحسنة، مما يدل على أهمية هذه الصفات، وتأثيرها الكبير في إصلاح المجتمع وتنقيته من الفساد.

﴿أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات القبيحة لهم الطرد والحرمان من رحمته تعالى، ولهم أيضاً العاقبة السيئة يوم القيامة في جهنم، فشتان ما بين الفريقين من اختلاف في العقيدة والسلوك والمصير.

• الأسباب والرزق:

وقد يقول قائل: ما دام الكفار أصحاب عنادٍ في الاعتقاد، وفسادٍ في الأخلاق والسلوك، فلماذا يوسّع الله تعالى عليهم الرزق، فإن سعة الرزق والغنى تزيد في عنادهم وفسادهم؟.

وجاء الجواب على هذا التساؤل في أثناء قوله تعالى:

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ۖ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: الرزق منوط بمشيئته تعالى وحكمته، يوسعه على من يشاء، ويقلله على من يشاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

وجعل سبحانه لتحصيل الرزق في الدنيا أسباباً، ميّز بها بين المُجِدِّ العامل والكسول الخامل، وأتاح سبحانه هذه الأسباب لجميع الناس، دون تمييز بين المؤمن والكافر، فالدنيا دارُ ابتلاءٍ واختبارٍ لجميع المكلفين، والرزق من أسباب الابتلاء، فأساببه متاحة للجميع، كما قال تعالى: ﴿كُلَّا نُمِدُّ هُنُوْلًا وَهُنُوْلًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولمَّا سأل إبراهيم عليه السلام ربه الرزق للمؤمنين من أهل مكة، بيّن له تعالى أنه يرزق الكافرين أيضاً في الدنيا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِّنَ الثَّمَرَاتِ مَن ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فسعة الرزق ليست دليلاً على كرامة صاحبه عند الله تعالى، كما أن قلته ليست دليلاً على إهانته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿١٧﴾﴾ [الفجر].

فالقوم عملوا على تحصيل أسباب الرزق، فأتقنوا العلم والعمل، فوسّع الله تعالى عليهم رغم كفرهم وفجورهم وفسادهم.

والمسلمون إذا ما حصلوا أسباب الرزق، وأحسنوا العلم والعمل مثلهم، وسّع الله تعالى عليهم من فضله وكرمه.

ومع أن الرزق في الدنيا متاح للجميع بمشيئته تعالى، إلا أن مواقف الناس منه تختلف:

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فرح الكافرون بكثرة الغنى، وسعة الرزق، فرح بطرٍ وعنادٍ وفسادٍ، حصروا همهم في الدنيا، وقصروا نشاطهم عليها، فجعلوها غايتهم ومنتهى آمالهم، مع أنها في الحقيقة وسيلة إلى حياة أعلى وغاية أسمى، وهي الآخرة.

وأدّى بهم الفرحُ بالدنيا إلى الاغترار بها، والاطمئنان إليها، فغفلوا عن الآخرة والعمل من أجلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿يونس﴾.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ أي: وما الحياة الدنيا بكل ما فيها من رزق ومتاع في جانب الآخرة إلا شيء قليل يسير، تنقضي بسرعة كالزبد المنتفخ فوق الماء، لا يلبث حتى يتلاشى وينطفئ.

وصرفهم اغترارهم بالدنيا وتعلقهم بها عن رؤية شواهد الحق وأدلتها، فأعرضوا عن آيات القرآن الكريم معاندين، وأقبلوا على النبي ﷺ يسألونه مزيداً من المعجزات:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وهو الأمر المعجب الذي سبق ذكره في صدر السورة.

ورد سبحانه على طلبهم هناك بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]. وجاء رده تعالى هناك متناسباً تماماً مع موقع الآية من سباقها وسياقها. أما هنا فردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ﴾ فالهداية والإضلال بمشيئته تعالى التامة النافذة في كل الموجودات، وليست المعجزات سوى أسباب قدرها العليم الحكيم لهداية من شاء هدايته، ومهما أنزل تعالى عليهم من معجزات وخوارق عادات لن يؤمنوا إذا لم تتعلّق مشيئته بهدايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وهو سبحانه مع تمام مشيئته، عليم حكيم، يعلم أين يجعل هدايته، فيهدي إليه من أناب، أي: أقبل إلى الحق وتأمّل في دلائله وشواهد، ورجع عن الباطل.

● الاطمئنان بذكر الله تعالى:

ونتيجة ذلك تنشرح صدور المؤمنين لدعوة الله تعالى، وتطمئن بذكره:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الذين آمنوا برسالة النبي ﷺ، وتسكن قلوبهم وتستقر بالقرآن الكريم، فعندما تتلو كلام الله تعالى أو تسمعه يزول عنها الاضطراب والقلق والوحشة، وتمتلئ بالسرور والسكينة والانس.

وإطلاق الذكر على القرآن الكريم شائع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله أيضاً: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وسبب اطمئنان قلوبهم بذلك علمهم أنه أعظم المعجزات، فلا يقترحون الآيات التي يقترحها غيرهم^(١).

والعدول إلى صيغة المضارع (وتطمئن) لإفادة دوام الاطمئنان وتجده، فإن القرآن الكريم معجزة باقية إلى يوم القيامة^(٢).

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: تطمئن القلوب بذكره تعالى لا بذكر غيره، فكأن الذين لا يطمئنون بذكره لا قلوب لهم.

وسبب اطمئنان القلوب بذكره تعالى: لأنها فُطِرَتْ على معرفته وتوحيده، وكل الأدلة العقلية والشواهد الحسية تدلُّ على وجوده تعالى ووحدانيته، وهذا ما يجعل القلوب تستقر وتسكن عند ذكره، دون أن يداخلها شيء من القلق والاضطراب والحيرة التي تمتلئ بها قلوب الجاحدين المعاندين المنحرفين عن أصل الفطرة التي فطرهم سبحانه عليها.

(١) روح المعاني: ١٤٩/١٣.

(٢) تفسير أبي مسعود: ٢٠/٣.

ولا يتنافى هذا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]؛ لأن وجل القلوب عند ذكره تعالى لا يتنافى مع اطمئنانها، فالاطمئنان عدم الشك والقلق والحيرة، لا عدم الخشية والتعظيم، والوجل من آثار خشيته تعالى وتعظيمه، وقد تهتز القلوب أولاً عند ذكره خشيةً وتعظيماً، ثم تطمئن وتسكن وتستأنس برحمته تعالى وفضله، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وبما أن ذكره تعالى ينفي عن القلوب الحيرة والقلق والاضطراب، أمرنا سبحانه أن نكثر من ذكره وألا نغفل عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسِعِهُ بِكُورٌ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب].

فذكره سبحانه تبقى قلوبنا مطمئنة إليه، مستأنسة بفضله ورحمته، فإذا ما نزل بها الموت سمعت النداء القدسي الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارجِعي إلىٰ ربِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِذِّي ۝ ۞ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر]. أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

ولا شك أن من كان كذلك عاش حياة طيبة خالية عن القلق والحيرة والاضطرابات النفسية والعقد العصبية، وما أكثرها في عصرنا الحاضر؛ بسبب غفلة الناس عن ربهم، وبُعدهم عن طاعته وشريعته، ولهذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي مَنَاسِكِ﴾ ۞

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فرح وسرور وقرّة عينٍ لهم. أو: خير وكرامة لهم. أو: عيش طيب لهم. والكل متقارب. و ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ عبارة جامعة، تدلُّ على أن أطيب الأشياء في كل الأمور حاصل لهم^(١).

(١) تفسير النيسابوري: ٨٦/١٣.

﴿وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ أي: ولهم أيضاً مصير ومرجع حسن، وهو الجنة.

● المعجزة القرآنية:

وبعد أن بينت الآيات كيف يؤدي اختلاف المقدمات والمواقف في الدنيا إلى اختلاف في المصير والنتائج في الآخرة، التفتت إلى النبي ﷺ، تبين له المعجزة الكبرى التي خصَّه الله بها، وتطلب منه أن يدعو المخالفين إليها، وأن يواجههم بها، ففيها من مؤيدات الحق وبراهينه وحججه ما ليس في غيرها:

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك إلى أمة، كما أرسلنا من قبلك إلى الأمم السالفة، فأنت لست بدعاً في الرسل. وفي الآية إشارة إلى ما تمتاز به الأمة المسلمة التي أرسل إليها النبي ﷺ، فهي آخر الأمم.

﴿لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: لتقرأ عليهم القرآن الكريم الذي أوحينا إليك، رحمة لهم وسبباً لهدايتهم.

ومع ذلك قابلوا هذه النعمة الكبرى بالإعراض والجحود:

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: والحال أنهم يكفرون بالرحمن الذي أرسلك رحمة للعالمين.

فلا تبال بعنادهم وإعراضهم، واستور في دعوتهم وتحديهم بما أوحى الله إليك. ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الرحمن الذي كفرتم به وجحدتم فضله، هو خالقي ومالكه، الذي ربّاني وبلغني أعلى مراتب الكمال، فلا يستحق العبادة والطاعة أحدٌ غيره.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ أي: توكلت عليه وحده، لا على غيره، وإليه توبتي ورجوعي، فارجعوا عما أنتم عليه من كفر وعناد.

ثمة حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من القرآن الكريم، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقتَه وتكيّفت به أكثر من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى، لقد صنع في هذه النفوس وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثاراً في أقدار الحياة، بل أبعد أثراً في شكل الأرض ذاته، فكم غيّر الإسلام والمسلمون من وجه الأرض، إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ^(١).

وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتهُ وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» [رواه البخاري (٤٩٨١)].

فلقد انقضت معجزة كل نبي بموته، وأما القرآن الكريم فهو المعجزة الباقية على امتداد الأيام، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء.

﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: ليس الأمر بيدي، فأنا عبدٌ مرسلٌ، بل الأمر كله لله تعالى، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو سبحانه قادر على الإتيان بما اقترحموه من الآيات والمعجزات، لكن مشيئته لم تتعلق بذلك، كما قال تعالى عندما حكى مقترحاتهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩١) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا فَيَجْريَ﴾ (٩٢) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِغٌ وَالْمَلَكَةِ قَبِيلًا﴾ (٩٣) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه. قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء].

• تبشير وتثبيت:

ويبدو أن بعض المؤمنين تمنّوا خلق مثل هذه المعجزات طمعاً في إيمان المشركين، فأنزل الله تعالى:

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٦١.

﴿أَفَلَمْ يَأْتِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: أفلم يعلم ويتبين؟! واستعمل (اليأس) هنا بمعنى العلم؛ لأن الآيسَ عن الشيء عالمٌ بأنه لا يكون.

﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي: أنه تعالى لو يشاء هداية جميع الناس لهداهم، فإنه قادرٌ على ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، لكنه تعالى شاء أن يكون لهم كَسْبٌ واختيارٌ، ابتلاء لهم.

ثم حملت الآية إلى المؤمنين البشرى باقتراب النصر تهيئة لهم:

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أي: تصيبهم قارعةٌ تفرعهم وتقلقهم؛ والمراد المصائبُ والبلايا التي ابتلوا بها، كالقتل والأسر وسنوات القحط والجذب.

﴿أَوْ تَحُلَّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: تنزل قريباً منهم فتفرعهم وتقلقهم، بحيث يظلون دائماً في همٍّ وحُزنٍ وخوفٍ وقلق، فلن يتركهم الله تعالى آمنين مع طغيانهم وظلمهم.

﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ أي: حتى يأتي أمره تعالى، الذي قدره بالفتح والنصر، وكان هذه الآية نزلت قبل فتح مكة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ فوعده حقٌ وصدق لا يتخلف، وقد حقق سبحانه لهم كل ما وعدهم به من فتح ونصر وتمكين، كما في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وبعد تبشير المؤمنين بالنصر وتثبيتهم، اتجهت الآيات إلى تثبيت النبي ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْ رِيسِلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۖ﴾

﴿وَلَقَدْ أَسْهَزَيْ رِيسِلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أمهلتهُم وأخرت عقابهم.

﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف كان عقابي إياهم؟ وهو استفهام يفيد تعظيم العقاب الذي أنزله سبحانه بهم، ويحمل في طياته وعيداً شديداً لأمثالهم من المعاندين المستهزين.

ثم بيّن تعالى كمال قدرته، وأنهم جميعاً تحت قهر مشيئته، وبيّن أيضاً عجز وضعف معبوداتهم وأصنامهم، بأسلوب الاستفهام الإنكاري، الذي ظهر لنا في كثير من آيات السورة:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظُهُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٣٣).

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: أفمن هو رقيب ومهيمن على كل نفس بما عملت من خير أو شر، كمن ليس كذلك؟! .

وحذف الجواب للدلالة السياق عليه، وهو قوله سبحانه:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: قل لهم على سبيل التحدي: اذكروا أسماء هؤلاء الشركاء، وبيّنوا أوصافهم، فإن أسماءهم وأوصافهم تدل على عجزهم وضعفهم وأنهم لا يستحقون العبادة.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أم تخبرونه أن له شركاء في الأرض، وهو لا يعلمهم، مع أنه تعالى يعلم ما في السموات والأرض؟.

﴿أَمْ بَيِّظُهُ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: أم أنكم تتعلّقون بمجرد أقوال باطلة لا أساس لها في الحقيقة والواقع؟.

وبعد أن أزاحت الآيات عنهم كل الشبهات، وسدت عليهم جميع المنافذ، وطوّقتهم بالحجج والبراهين الدامغة، واجهتهم بالحقيقة، وهي أنهم وقعوا أسرى أوهام وأضاليل:

﴿بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي: بل حُبب للذين كفروا شركهم وعنادهم، بسبب اتباعهم لوساوس الشيطان، أو انقيادهم لأهوائهم وشهواتهم، فكانت النتيجة:

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: ومُنِعُوا عن السير على الطريق المستقيم، المؤدي إلى فضله تعالى ورضوانه.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: ومن يضلل الله تعالى بخذلانه وحرمانه من توفيقه ومعونته، فما له من هادٍ يوفقه للهدى؛ لأنَّ إرادته تعالى هي الغالبة النافذة في جميع المخلوقات.

● العاقبتان:

وهؤلاء الضالون المخذولون معذبون في الدنيا والآخرة:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (٣٤).

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: هم في الدنيا أشقياء معذبون، بسبب القلق والحيرة والاضطراب الذي يملأ نفوسهم، ويعشش في قلوبهم، فلا يتذوقون سكينَةَ الإيمان وحلاوته، وبرَد اليقين، الذي يشعر به المؤمنون عندما يذكرون سبحانه ويتلون آياته، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهم أشقياء أيضاً بأنواع المصائب والقوارع، التي ينزلها الله تعالى بهم، كما مرَّ قريباً: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١].

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي: عذاب يوم القيامة أشق من عذاب الدنيا، لشِدَّتِه ودوامه، وليس لهم هناك مانع يمنع عنهم عذابه تعالى.

ثم بيَّنت الآيات في مقابل شقاء هؤلاء وحرمانهم، بعض أنواع النعيم الذي أعدَّه الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَبَّاتٌ عُنُقَى الَّذِينَ أَتَقَوْا وَعُنُقَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥).

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة الغريبة العجيبة التي وُعدَ

المتقون، فالمثل يُطْلَقُ على الشيء الغريب، وكل ما في الجنة غريب عجيب لا مثل له، كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «قال الله ﷻ: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» [رواه مسلم (٢٨٢٤)].

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تجري الأنهار تحت قصورها ودورها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿أَكُلُوا دَانِئًا وَظِلُّهَا﴾ أي: طعامها وثمارها وظلالها دائمة لا تنتهي، كما قال تعالى: ﴿وَفَكَهْمٌ كَثِيرٌ﴾ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ [الواقعة].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مئة سنة لا يقطعها» [رواه مسلم (٢٨٢٦)].

﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَوْا﴾ أي: تلك الجنة مآل المتقين ومصيرهم.

﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ فستان ما بين العاقبتين والمصيرين.

• التنزيل العربي:

وجاء بعد بيان العاقبتين مباشرةً وصفٌ موقفي الفريقين من المعجزة القرآنية، وكأنَّه تعليل للاختلاف بين العاقبتين والمصيرين:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَلْكَتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (٣٦).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ أَلْكَتَبَ﴾ أي: من المسلمين، أو ممن سبقهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى.

والمراد: المنتفعون بالكتاب دون غيرهم، المؤمنون به الإيمان الصحيح، والتمسكون بأحكامه، فكأنه ما أنزل إلا إليهم.

﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يفرحون بما أُنْزِلَ الله إليك في القرآن الكريم، ولا تضيق صدورهم به، ولا يضطرب في نفوسهم الحسد والبغي، كما حكى الله عن عامة أهل الكتاب في قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: ومن الجماعات الكافرة الذين تحزبوا على النبي ﷺ من المشركين واليهود والنصارى، من ينكِرُ بعض القرآن الكريم، لأنه يتعارض مع عقائدهم الباطلة، فالمشركون أنكروا التوحيد والمعاد وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، واليهود أنكروا النسخ لأحكام شريعتهم، والنصارى أنكروا وصف المسيح بالعبودية لله تعالى.

وأما ما في القرآن الكريم من قصص وأخبار عن الأمم الماضية، وحكم وأمثال، فما استطاعوا أن ينكروا شيئاً منها، فكأنهم بإنكارهم ما أنكروا من القرآن الكريم يريدون أن يكون تنزيله تابِعاً لأهوائهم، ولهذا توجَّهت الآية تخاطب النبي ﷺ، تأمره أن يعلن تمسكه بكل ما أوحى الله تعالى به إليه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابٍ﴾ فالعبادة والدعوة والمرجع إلى الله تعالى وحده، لا إلى أهوائكم المختلفة وأرائكم الباطلة، وهذا ما دعا إليه جميع الأنبياء السابقين.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (٢٧).

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أنزلنا إلى الأنبياء السابقين، أنزلنا القرآن الكريم عليك حُكْمًا قاطعاً ثابتاً ملزماً، يفصل بين الحق والباطل، لا يقدر

أَحَدٌ أَنْ يَنْقُضَ شَيْئاً مِنْهُ، عَرَبِي اللِّسَانِ وَاللُّغَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

فَتَمَسَّكَ بِهِ، وَاحْذَرَهُمْ أَنْ يَضْلُوكَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ:

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أَي: مَا لَكَ وَلِيٌّ يَنْصُرُكَ مِنَ اللَّهِ، وَلَا وَاقٍ يَقِيكَ مِنْ عَذَابِهِ.

وَمِثْلُ هَذَا التَّحْذِيرِ وَالْوَعِيدِ لِلنَّبِيِّ ﷺ يُوَكِّدُ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا دَخَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ إِلَّا التَّلْقِي وَالتَّبْلِيغُ، كَمَا أَنَّ فِيهِ حَسْماً لِأَطْمَاعِ الْكَافِرِينَ، وَتَهْيِيجاً لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثَّبَاتِ وَالتَّمَسُّكِ بِجَمِيعِ مَا كَلَّفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ غَيْرِهِ.

وَبِمِثْلِ هَذَا الْخُطَابِ ثَبَّتَ اللَّهُ تَعَالَى النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مُوَاجَهَةِ مَكْرِهِمْ وَكَيْدِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴿٧٥﴾﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿٧٥﴾﴾.

وَاعْتَرَضَ أَكْثَرَ الْمُنْكَرِينَ لِبَعْضِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، عَلَى بَشَرِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ أَنَّ شَأْنَهُ ﷺ فِي هَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أَي: كَمَا أَرْسَلْنَاكَ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أَي: وَهُمْ يَتَصَفُّونَ بِالصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ مِنَ الزَّوْاجِ وَالتَّوَالِدِ، وَهِيَ مِنْ أَبْرَزِ الصِّفَاتِ الْمَحْسُوسَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى بَشَرِيَّتِهِمْ.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الزَّوْاجَ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى أَنَّ إِرسَالَهُ

تعالى لهم كان بمحض إرادته ومشيئته، فما كان للرسول أي تدخل فيما أوحاه إليهم، وفي المعجزات التي أيدهم بها.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما كان لأي رسول منهم أن يأتي بمعجزة إلا بمشيئة الله تعالى، الذي قدر كل شيء، وجعل لكل مقدراً أجلاً محدوداً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر:

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل أمر قضاءه الله تعالى أجل مؤقت بوقت محدود معلوم.

• المحو والإثبات:

فلا يتحرك في الكون متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمحض مشيئته وقدرته جلّ وعلا:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩).

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي: يدبر أمر المخلوقات والمكونات حسب مشيئته تعالى، وكما سبق في علمه الأزلي الذي أحاط بكل مقدراته، كما مر معنا في أول السورة: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الرعد: ٢].

وكما قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٦) تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧).

وقد اختار هذا المعنى الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره من بين أقوال كثيرة للمفسرين، عرضها ثم قال: «وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية وأشبهها بالصواب، القول الذي ذكرناه عن الحسن ومجاهد، وذلك أن الله تعالى ذكره توعد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة، وتهددهم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

يُعْلِمُهُمْ بِذَلِكَ أَنَّ لِقَضَائِهِ فِيهِمْ أَجْلاً مُبْتِئاً فِي كِتَابٍ، هُمْ مُؤَخَّرُونَ إِلَى وَقْتٍ مَجِيءٍ ذَلِكَ الْأَجَلُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: فَإِذَا جَاءَ ذَلِكَ الْأَجَلُ، يَجِيءُ اللَّهُ بِمَا شَاءَ مِمَّنْ قَدَّرْنَا أَجْلَهُ، وَانْقَطَعَ رِزْقُهُ، أَوْ حَانَ هَلَاكُهُ أَوْ اتَّضَاعُهُ، مِنْ رَفْعَةٍ أَوْ هَلَاكِ مَالٍ، فَيَقْضِي ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ، فَذَلِكَ مَحْوُهُ، وَيَثْبُتُ مَا شَاءَ مِمَّنْ بَقِيَ أَجْلُهُ وَرِزْقُهُ وَأَكَلُهُ، فَيَتْرَكُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَلَا يَمْحُوهُ^(١).

فَالْمَحْوُ وَالْإِثْبَاتُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فِي الْمَكُونَاتِ لَا فِي الْأَقْدَارِ، وَهُوَ مُرْتَبِطٌ بِمَوْضِعِ السُّورَةِ الْأَسَاسِ، فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ وَحْدَهُ الْخَالِقُ الْمَدْبِّرُ الْمُؤَثِّرُ، وَالْأَسْبَابُ لَا تَخْلُقُ وَلَا تُؤَثِّرُ، وَلَا تَثْبُتُ وَلَا تَمْحُو، وَالْكَلِّ يَحْدُثُ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ.

وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ جَمْهُورَ الْمَفْسِّرِينَ حَمَلُوا الْمَحْوَ وَالْإِثْبَاتَ فِي الْآيَةِ عَلَى مَحْوِ الْأَقْدَارِ الْمَكْتُوبَةِ وَإِثْبَاتِهَا، وَاخْتَلَفَ الْقَائِلُونَ بِذَلِكَ، فَحَمَلَ بَعْضُهُمُ الْآيَةَ عَلَى الْخُصُوصِ، وَأَخْرَجُوا مِنْ عُمُومِهَا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ، وَالْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، فَهِيَ مَقْدَرَاتٌ ثَابِتَةٌ لَا تُمَحَى، وَحَمَلَ آخَرُونَ الْآيَةَ عَلَى الْعُمُومِ، فَالْأَقْدَارُ بِرَأْيِهِمْ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا، وَيَثْبُتُ مَا يَشَاءُ، وَاسْتَدْلُوا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» [رواه البخاري (٢٩٨٥)].

وَبِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ [٢٧٧/٥] عَنْ ثَوْبَانَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحَرِّمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يَصِيبُهُ، وَلَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ».

وَبِمَا رَوَى عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَضَرَّعُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَثْبُتَهُمْ فِي السَّعْدَاءِ، فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمَصْنَفِ» [٣٠٠٢٣]: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا دَعَا عَبْدٌ قَطُّ بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ، إِلَّا وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي مَعِيشَتِهِ: يَا ذَا الْمَنِّ وَلَا يُمَنُّ عَلَيْهِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَيَا ذَا الطَّلَوِ

والإنعام، لا إلهَ إِلَّا أَنْتَ ظَهَرُ اللّٰجِئِينَ، وَجَارُ الْمُسْتَجِيرِينَ، وَمَأْمُنُ الْخَائِفِينَ،
إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي عِنْدَكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ شَقِيًّا فَامْحُ عَنِّي اسْمَ الشَّقَاوَةِ، وَأَثْبِتْنِي عِنْدَكَ
سَعِيدًا، وَإِنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي عِنْدَكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ مُحْرَمًا مَقْتَرًا عَلَيَّ رِزْقِي، فَامْحُ
حِرْمَانِي، وَبَسِّرْ رِزْقِي، وَأَثْبِتْنِي عِنْدَكَ سَعِيدًا مَوْفَقًا لِلْخَيْرِ، فَإِنَّكَ تَقُولُ فِي كِتَابِكَ
الَّذِي أَنْزَلْتَ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وغيره: عن عمر رضي الله عنه: أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ:
اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيَّ شَقْوَةً أَوْ ذَنْبًا فَامْحُهَا، وَاجْعَلْهُ سَعَادَةً وَمَغْفِرَةً، فَإِنَّكَ
تَمْحُو مَا تَشَاءُ وَتَثْبِتُ، وَعِنْدَكَ أُمُّ الْكِتَابِ ^(١).

وجمعوا بين هذه الأحاديث والآثار، وبين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا
يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَنْفِذُونَ﴾ [النحل: ٦١] بحمل ما ورد من الزيادة على البركة في
العمر، والتوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، ويُبقي له ذكراً
حَسَنًا بعد موته.

وقد تكونُ في رأي بعض العلماء الزيادة حقيقية، وذلك بالنسبة إلى علم
الملك الموكل بالعمر، وقد سبق في علم الله تعالى ما يكونُ ويقعُ، وهو لا يتقدم
ولا يتأخر، فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب هو
الذي في علم الله تعالى، فلا محو فيه البتة، ويقال له: القضاء المبرم، ويقال
للأول: القضاء المعلق ^(٢).

وقد يقال على هذا: ما الحكمةُ في تعليق هذه الأقضية على بعض الأعمال
بالنسبة لعلم الملائكة؟.

لا شكَّ أنَّ في ذلك حِكْماً كثيرة، وقد يكونُ منها إظهارُ فضل هذه

(١) روح المعاني: ١٦٩/١٣.

(٢) فتح الباري: ٤١٦/١٠.

العبادات، كالصدقة والدعاء وصلوة الرحم، وترغيب الناس فيها، لأنهم مفطورون على حب الحياة وسعة المال والغنى.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: عنده تعالى العلم الثابت الأزلي الذي لا محو فيه ولا تغيير، وهو الأصل لجميع ما يكتب.

والمشهور عند أكثر المفسرين أنه اللوح المحفوظ الذي لا يغير ولا يبدل ما فيه، وما من كائن إلا مكتوب فيه.

ويقوي ما اختاره الإمام الطبري بأن المراد من المحو والإثبات تدبيره تعالى لأمر مخلوقاته، حسب مشيئته وعلمه وحكمته، قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ (٤٠).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ أي: إنزال العذاب بهم، كما مر في قوله تعالى: ﴿هُمَّ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا فَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١].

﴿أَوْ تُتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: نقبضك ونميتك قبل ذلك.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ أي: إنما عليك تبليغ الرسالة فقط، وليس من الضروري أن ترى نزول العذاب بهم، فإنه منوط بالأجل الذي قدره تعالى، وسبق به علمه، وهو لا يتغير ولا يتبدل.

﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: حسابهم جزاؤهم علينا لا عليك، فلا تهتم بما وراء تبليغ الرسالة، وما يترتب على التبليغ من مسؤولية وحساب، كما في قوله سبحانه في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٦١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٦٢).

فعلى الداعي إلى الله تعالى أن يهتم بالدعوة فقط، دون أن يتطلع إلى النتائج، فهي في حد ذاتها غايةً وعبادةً من أعظم العبادات، وثباته عليها من

أجلّ النعم، وأعظم الانتصارات، فأنت أيها الداعي عبدُ الله تعالى وتدعو إلى الله تعالى، ولست عبداً للنصر والفوز، إنّ الدعاة إلى الله تعالى ليس عليهم إلا أن يؤدّوا تكاليف الدعوة في كلّ مراحلها، وليس عليهم أن يبلغوا بها إلا ما يشاؤه الله، كما أنّه ليس لهم أن يستعجلوا خطوات الحركة، ولا أن يشعروا بالفشل والخيبة إذا رأوا قدر الله يُبْطِئُ بهم عن الغلب الظاهر والتمكين في الأرض^(١).

• حُكْمُهُ تَعَالَى الْمَبْرَمَ وَشَهَادَتُهُ الْخَالِدَةَ:

وفي الآية أيضاً تهديدٌ غيرُ مباشرٍ للكافرين، أتبعه سبحانه بتهديد صريح مباشر فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٤١﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ننقصها بظهور المسلمين عليها، فالمرادُ على هذا المعنى: أرضُ مكة، وأطرافها: ما حولها، أو ننقصها بخرابها، أو بموت أهلها، أو بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير فيها.

والأولى حمل الآية على العموم، فهي تدعو المشركين إلى الاعتاز بمصير القرى الهالكة، والأمم البائدة المعذبة من حولهم، حتى لا يغتروا بطول أعمارهم، وكثرة أموالهم، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

وكقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي: لا راد لحكمه، فهو نافذ وواقع لا محالة، ليس له دافع ولا مانع، ولا يتعقب حكمه أحدٌ بتغيير أو نقص.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: له سبحانه كمال القدرة، ولا يشغله حساب عن حساب، بل يحاسبهم يوم القيامة جميعاً، ويجازيهم جميعاً.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مكر الكافرون من قبلهم بالرسول والمؤمنين، فكان مكرهم وبالاً عليهم، كما يمكر المشركون برسول الله ﷺ وأصحابه.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: مكرهم لا يؤثر إلا بمشيئته تعالى وقدرته، فهو خالق الأسباب والمسببات فمكر من مكر منهم لا يضر ولا يؤثر، إلا إذا وافق قدر الله تعالى، كما جاء في قول نبي الله إبراهيم عليه السلام وهو يناظر قومه: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

فلا يصاب الإنسان إلا بما سبق به علمه تعالى، وتعلقت به مشيئته: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَسْسِسْكَ اللَّهُ بَصُرٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُدْرِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: يعلم ما تكسب وتختار كل نفس من خير أو شر، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٧].

ومع هذا الكسب والاختيار، لا يقع إلا ما سبق به علمه سبحانه وتعلقت به مشيئته، فلا تأثير لمكرهم إلا إذا وافق قدر الله تعالى.

﴿وَسِعَعُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ أي: وسيعلمون لمن تكون العاقبة الطيبة المحمودة والتي ذكرتها آيات السورة أكثر من مرة، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقِيَ الدَّارِ ﴿٢١﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، وقوله: ﴿تِلْكَ عُقِيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقِيَ الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم بينت الآيات في آخر السورة شدة عنادهم، وتحجّر عقولهم، وقسوة

قلوبهم، فلا يزالون ينكرون صحة نبوته عليه الصلاة والسلام، وصدق رسالته، بعد كل هذه الدلائل الشواهد والأمثال الحسية والعقلية:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (١٢).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ وأمر النبي ﷺ أن يقول لهم مقابل جحودهم وعنادهم:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: شهادته تعالى على صدق رسالتي وصحة نبوتي تكفي عن كل شهادة، فهي أعظم من كل شهادة، ولا تكون إلا حقاً وصدقاً.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أي: وشهادة من عنده علم القرآن الكريم، وما فيه من إعجاز يدل على صدق النبي ﷺ، وصحة رسالته، والذين سبق بيان صفاتهم في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أَولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١٩) الَّذِينَ يُوَفُّونَ وَعْدَهُ اللَّهُ وَلَا يَنْقُضُونَ الْوَعْدَ [الرعد].

وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، ويكون المراد على هذا بمن عنده علم الكتاب: من أسلم من أحبار اليهود والنصارى، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه.

والأولى حمل الآية على العموم، فيدخل فيه من أسلم من أحبار اليهود والنصارى، وهو ما يتفق مع ما سبق في السورة من إشادة بالقرآن الكريم، وتنويه بدلائل الإعجاز التي فيه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتُ﴾ [الرعد: ٣١].

وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

[الرعد: ٢٨].

وقوله أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧].

وفي إضافة شهادة المؤمنين إلى شهادة الله تعالى، تكريماً كبيراً لهم، وتنويهً بعلمهم ومعرفتهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

ونحن نشهد بما شهد الحق سبحانه به، نشهد بصدق النبي ﷺ وصحة رسالته، ونسأله تعالى أن يثبتنا عليها.



تفسير سورة إبراهيم الدَّعْوَةُ وَالْهُدَايَةُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

موضوع السورة

دارت آيات سورة إبراهيم في فَلَكَ الدعوة والهداية، فبدأت بالحديث عن دعوة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، ووظيفته الكبرى في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ليسيروا على منهج الحق والصراط المستقيم.

وثنت بالحديث عن دعوة موسى ﷺ، وأوردت معها دعوة الأنبياء ﷺ مجملَةً، فأظهرت بذلك وحدة دعوتهم ووحدة مصدرها.

وقبل ختامها عرضت دعوة إبراهيم ﷺ من خلال دعواته الضارعة الخاشعة التي رفعها من جوار بيت الله الحرام.

والمقصد الأساس من الدعوة الهداية إلى عبادة الله الواحد الأحد، والدعوة سبب الهداية والطريق المؤدي إليها، وبينهما ما بين الأسباب والمسببات من الارتباط، وفي الوقت نفسه لا تكون الهداية إلا بإذنه تعالى ومشيئته، فهو الخالق والمالك والمدبر، ولا يحدث شيء في الكون إلا بعلمه ومشيئته: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ولهذا كان التثبيت على الهداية أول شيء سأله إبراهيم ﷺ في دعواته: ﴿وَاجْبِنِي وَبَنِيَ اَنْ نَّعْبُدَ الْاَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وهو ما يحتج به يوم القيامة رؤساء الضلال على أتباعهم: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ هَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١].

ومع ذلك فالإنسان المكلف مسؤول ومحاسب، لأن له اختياراً وكسباً وقدرة على التمييز، وفعل ما يختاره، وهو ما يحتج به الشيطان يوم القيامة على أتباعه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ اِلَّا اَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقد أقام الله تعالى الحجة على الناس بدعوة الرسل إليهم، ففيها البلاغ والكفاية لمعرفة الصراط المستقيم، والخروج من ظلمات الجهل والضلال والشرك، إلى نور الإيمان وهدايته.

وببقى الإنسان دائماً مفتقراً إلى الله تعالى في الهداية وفي الثبات عليها، والاستمرار على الصراط المستقيم حتى تنتهي حياته الدنيا، ولهذا عليه دائماً أن يلجأ إلى الله تعالى، يسأله المعونة والتثبيت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة].



تفسير سورة إبراهيم الدَّعْوَةُ وَالْهِدَايَةُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أُنزِلَتْهُ إِلَيْكَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي صُلَحٍ بَعِيدٍ ③ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑤ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ⑥ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُكُمْ لَمِنْ شَكْرَتِهِمْ لَا زَيْدٌ لَكُمْ وَلَمِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنَا وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ ⑧ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ⑨ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مَنْ دُونِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ⑩ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا

يَاذِنِ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا
وَلَصَّرِينَا عَلَى مَا نَأْذِيهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ
لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَلْظَالِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ
كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنَ رَأْيِهِ جَهَنَّمَ فِئْتَنَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَبْجَرَعُهُ وَلَا
يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَشِيٍّ مِنْ رَأْيِهِ عَذَابٌ
غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا
يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُونَ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ
عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا
لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا
أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ
الْظَالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ لِيَحِبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً
طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذِنُ
رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ
خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ
إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ
الْقَرَارَ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا

بَعَّ فِيهِ وَلَا خُلَافَ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ
 مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ
 ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَاتَّكُم مِّن كُلِّ مَا
 سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ
 إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ
 كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن يَتَّبِعُنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ
 دُونِ بَيْتِكَ بَوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ
 تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا
 يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
 إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدَّلِيلُ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا
 وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ
 اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ
 مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْقِدْتُمْ هَوَاهُ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ
 فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَلَمْ تَكُونُوا
 أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
 وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمْتَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ
 وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْصِيَنَّ اللَّهُ تَخْلُفَ
 وَعِدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُبَدِّلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا
 لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِّن
 قِطْرَانٍ وَتَعْنَى وُجُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
 ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٥٢﴾

● دعوة النبي الخاتم ﷺ:

بدأت سورة إبراهيم ببيان دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ووظائفهم التي كُلِّفُوا بها، من خلال الحديث عن دعوة خاتمهم عليه الصلاة والسلام، ووظيفته التي كُلِّفَ بها، والتي هي أثقل الوظائف، وأعظمها سعةً وشمولاً، إذ كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وُبعث النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة.

افتتح الله تعالى آيات السورة بالحروف النورانية المقطعة، كما افتتح سورة الرعد قبلها، ومرّ معنا أنَّ فاتحة سورة الرعد رباعية الأحرف: ﴿الرَّكَدْ﴾، وأما سورة إبراهيم فتلاثية الأحرف:

﴿الرَّكَدْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾.

﴿الرَّكَدْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أي: هذا كتاب أنزلناه إليك، والخطاب للنبي ﷺ. ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: لتخرج الناس بدعائك إياهم من ظلمات الجاهلية والكفر والضلال، إلى نور الإيمان وهدية وعدله. ودلت كلمة ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ على كثرة طرق الكفر وملله، بينما دلت كلمة ﴿النُّورِ﴾ على أنَّ طريق الإيمان واحد لا ثاني له، وفي كلمة ﴿النُّورِ﴾ أيضاً إشارة إلى وضوحه، وكثرة بيانه وحججه وبراهينه.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: تخرجهم من الظلمات إلى النور بتيسير ربهم وتوفيقه، أو بمشيئته سبحانه، فمن النبي ﷺ الدعوة والتبليغ والبيان، ومن الله تعالى التوفيق والهداية.

والعلاقة بين الدعوة والهداية كعلاقة الأسباب بالمسببات، كما سبق تقريره في سورة الرعد، فالارتباط بينهما بالوجود فقط، وأمّا التأثير فلله تعالى، الذي قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فهو سبحانه عليم حكيم، يعلم أين يجعل هدايته، كما يعلم أين يجعل دعوته ورسالته، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾ [الرعد: ٣٧].

﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: إلى دين الإسلام، وهو طريق العزيز الذي لا يغلب، والحميد المستحق للحمد على إنعامه وإحسانه جلّ وعلا.

وفي ذكر الاسمين الكريمين من أسمائه الحسنی تنويه بالقرآن الكريم المُعْجِز، الذي لا يقدر على إنزاله إلا العزيز الذي لا يغلب، والمستحق للحمد على كماله وتفضله بهذه النعمة العظمى على عباده، كما أنّ فيهما حثاً على التمسك بدين الله وشرعه، والإذعان لأحكامه، فالهداية إلى النور لا تتم إلا بالاستسلام لدين الله تعالى، والرضا بأحكام شريعته، فالعقيدة والشريعة وجهان لحقيقة واحدة لا يمكن الفصل بينهما.

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (٢).

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتديراً، وهو دليل على غناه جلّ وعلا، فهو غني عن عبادتنا وطاعتنا، وما أرسل إلينا الرسل وأنزل علينا الكتب إلا بمحض رحمته وإحسانه، ولهذا توجهت الآية تتوعد المعرضين عن رحمته تعالى والجاحدين لها: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: في يوم القيامة، يوم المسؤولية والجزاء.

• أسباب الضلال:

ثم بيّنت الآيات أن أسباب وقوعهم في العذاب الشديد يوم القيامة نابعة من داخل نفوسهم، إذ هي نتيجة كسبهم واختيارهم:

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٣).

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: الذين يفضلون الحياة الدنيا

على الآخرة، ولهذا تراه منصرفين إلى الدنيا فقط، منهمكين بالعمل لها، غافلين عن عمل الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿لَا بَلَّ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿[القيامة].

وقوله أيضاً: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿[الأعلى].

ودلت كلمة ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ على اختيارهم وكسبهم، حتى إن بعض المفسرين قال في تفسيرها: يختارونها عليها، فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره^(١).

وقال الإمام الطبري رحمه الله: «يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها ومعاصي الله فيها، على طاعة الله وما يقربهم إلى رضاه من الأعمال النافعة في الآخرة»^(٢).

فالتعلق بالدنيا والانهماك بهما من أكبر أسباب الإعراض عن دعوة الأنبياء والمرسلين.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يعرضون بأنفسهم، ويمنعون غيرهم عن قبول الدعوة التي تخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويطلبون أن يروا في دعوة الله تعالى ما يكون عوجاً قادحاً فيها.

أو: ويصفون دين الله تعالى وشريعته بالاعوجاج بواسطة الافتراء والكذب، كما يفعل ملاحة هذا العصر من دعاة الإلحاد والعلمانية، فهم يصفون الشريعة الإسلامية بالقصور والجمود، والعجز عن تلبية الحاجات التشريعية للعصر الحاضر، وهي في الحقيقة مستقيمة وقوية وغنية؛ تلبي حاجات الناس في كل عصر ومصر، وصدق الله العظيم القائل في سورة هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿(١٩)﴾.

(١) تفسير البضاوي: ٥٠٨/٣.

(٢) جامع البيان: ١٢١/١٣.

ويمكن أن يكون المعنى: ويريدون مِنْ أهلها أن ينحرفوا عنها، بهجرها والإعراض عن أحكامها.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ضلوا عن دعوة ربهم، وابتعدوا كثيراً عن صراط العزيز الحميد.

• تيسير أسباب الهداية:

ومن رحمته سبحانه بالناس أنه يَسِّرْ لهم أسباب الهداية، وقَرَّبْ الدعوة منهم، وذلك بإرسال كل رسول بلغة القوم الذي أرسل إليهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ أي: وما أرسلنا من رسولٍ قبلك يا مُحَمَّدٌ ﷺ إلا بلغة القوم الذين أرسل إليهم.

ويُطْلَقُ اللسانُ على الجارحة واللغة، والمراد هنا اللغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقَ الْبَشَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: ليبين لهم رسالته ودعوته، فيسهل عليهم فهمها، ولا يكون لهم عذر في الإعراض عنها.

ومن المعلوم: أن النبي ﷺ بُعث إلى الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨].

والسنة الناس مختلفة، ولغاتهم متنوعة، فالحجة قامت على العرب، فكيف تقوم على غيرهم؟!.

والجواب: إنها تقوم عليهم بتبليغهم الرسالة، وذلك بنقل مبادئها ومضمونها إلى لغاتهم، وهي مسؤولية العرب على وجه الخصوص أكثر من غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الرَّحُفُ: ٤٤].

وتدل الآية أنَّ على الدعاة أن يتعلموا لغة القوم الذين يدعونهم، لكي يتمكنوا من إيصال الدعوة إليهم، وذلك من أسباب تيسير فهمها وقبولها.

﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: فيخذل الله تعالى من يشاء عن قبول الدعوة، ويوفق لقبولها من يشاء، فالدعوة وتبليغ الرسالة سببٌ للهداية، وهي وظيفة الرسل، أمَّا قبول الدعوة والهداية إليها فمن الله تعالى، حسب مشيئته وسابق علمه، ولذلك رفع: ﴿فَيُضِلُّ﴾ لأنه أريد به الابتداء لا العطف على ما قبله^(١).

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: وهو سبحانه الغالب على أمره، الفَعَّال لما يريد، والحكيم في توفيق من وفقه للإيمان وهداه إليه، وفي إضلال من أضله عن الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

• دعوة موسى عليه السلام:

واختارت الآيات بعد الحديث عن دعوة النبي الخاتم ﷺ، الحديث عن دعوة موسى عليه السلام، ففيها ما يميزها عن دعوة الأنبياء، فقد كانت موجهةً لأمتين مختلفتين: الأمة المصرية الحاكمة، والأمة الإسرائيلية المحكومة المقهورة.

وقد أيد الله تعالى دعوة موسى بمعجزات حسية كثيرة وكبيرة، تدلُّ على صدق دعوته وصحة رسالته، ونجح موسى عليه السلام مع أخيه هارون، بعد طول معاناة وصبر، فخلَّص بني إسرائيل من الظلم الذي كانوا يعانون منه، وكان عليه

(١) تفسير الطبري: ١٢١/١٣.

بعد ذلك أن يركّز دعوته على بني إسرائيل، ليشبّتها في قلوبهم، ويجعلهم يلتزمون بصراط العزيز الحميد، ويتمسّكون بشريعة التوراة التي كلّفهم سبحانه بها. واقتصرت الآيات على إظهار هذا الجانب من دعوة موسى ﷺ لصلته بموضوع السورة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالمعجزات التي أيدناه بها. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: أخرجهم بالدعوة من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: وذكرهم بما في أيام الله السالفة من النقم والنعم التي مرّت عليهم أيام المحنة والشدة والبلاء، حين كانوا تحت قهر فرعون وجنوده، وأيام الفرج والنصر والعزة، حين أصبحوا ملوكاً بعد أن كانوا مملوكين. فالآية تتحدّث عن المرحلة الثانية لدعوة موسى ﷺ، بعد النجاة من فرعون وظلمه، وهي المرحلة التي توجبُ على بني إسرائيل الانقيادَ والإذعانَ لله تعالى، وشكره ومعرفة فضله وإحسانه عليهم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا التذكير دروساً وعبراً يتنفع بها كل صبار شكور.

والصَّبَّارُ: الكثيرُ الصبرِ على طاعة الله تعالى وعن معاصيه، وعند التعرُّض للبلاء والمحن، والشكور: الكثير الشكر لله تعالى على نعمه وإحسانه. والآية تشيرُ إلى أنَّ حياة الإنسان لا تستمرُّ على وتيرة واحدة، فقد يُبتلى بالخير تارةً، وبالشرِّ تارةً أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْخَيْرِ وَالْخَيْرِ فَتْنَةً وَلِئِنَّا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وعلى الإنسان أن يواجه ظروفَ الحياة وتقلُّباتها بالصبر والشكر، ولا يتمُّ له

هذا إلا إذا كان مؤمناً بالله تعالى، فالإيمان أمرٌ ضروري للإنسان، به تصبح حياته خيراً مهما تغيرت وتبدلت، كما في الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

ولا يعرف الإنسان قيمة النعمة، ويتذوق طعمها الحقيقي، إلا إذا عرف طعم الحرمان، وتذكر أيام الظلم والطغيان، ولهذا ذكّر موسى ﷺ قومه بالظلم الذي كانوا فيه:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أي: وفي تخليصكم من ظلم آل فرعون نعمة عظيمة، لا تستطيعون أن تقوموا بحق شكرها.

ويمكن أن يكون معنى كلمة ﴿بَلَاءٌ﴾ اختباراً وامتحاناً من الله تعالى لكم، في حال المحنة وفي حال النعمة، فعليكم بالصبر والشكر، وأقبلوا على عبادته تعالى وطاعته، وتمسكوا بشريعته، فهو كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وسنّ موسى ﷺ للدُّعاة إلى الله تعالى من بعده أسلوباً كريماً في الدعوة، فتذكير الناس بأيام الله تعالى، وما كان فيها من نقم ونعم، يرقق قلوب المدعويين، ويفتح نفوسهم للاستجابة وقبول الدعوة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُهُمْ لَمَّا شَكَّرْتُمْ لَا زَيْدَنَكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُهُمْ لَمَّا شَكَّرْتُمْ لَا زَيْدَنَكُمْ﴾ أي: أذنكم ربكم، وأعلمكم

إعلاماً واضحاً، على لسان رسله، وفي كتبه المنزلة، لئن شكرتموني على نعمي وإحساني لأزيدنكم منها، فالشكرُ سببٌ لدوام النعم، وزيادة الفضل والإحسان، وحقيقةُ الشكر الاعترافُ بنعمة المنعم وفضله مع تعظيمه وطاعته.

﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن جحدتم فضله تعالى عليكم، وأعرضتم عن طاعته وعبادته، فإنَّ عذابه الذي ينزله بكم شديد في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا تزولُ النعمة، وتحرمون من التمتع بها، وفي الآخرة بعذاب جهنم.

ويبدو أن موسى ﷺ أحسَّ مِنْ قومه العناد، والاستمرار على ما كانوا عليه من الفساد، فشَدَّ عليهم بالوعيد، وأغلظَ له بالترهيب:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَفَنِي حَيْدٌ﴾.

فهو جلَّ وعلا غنيٌّ عنكم وعن جميع المخلوقات، لا تنفعه طاعتكم، ولا يضرُّه كفركم وفجوركم، مستوجبٌ سبحانه للحمد بذاته، لكماله ﷻ، وإن لم يحمدّه أحدٌ من خلقه.

• دعوة الرسل ﷺ:

ثم ذكَّروهم موسى ﷺ بأيَّام الأمم قبلهم، وبالعذاب الذي أنزله الله تعالى بهم، بسبب كفرهم وإعراضهم عن دعوة الرسل ﷺ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: لا يحصي عددهم ولا يحيط بهم علماً إلا الله تعالى، ممَّا يدل على كثرتهم.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحة والمعجزات الدالة على صدق دعوة الرسل.

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: كذبوا الرسل، وردُّوا أقوالهم، ووضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم وتسكيتاً.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: وقالت الأمم المعاندة لرسولهم: إننا ننكر صحة رسالتكم وصدق دعوتكم.

﴿وَأَنَّا لَنَبَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ أي: وإنَّا في شكٍ مُوقِع بالريبة مما تدعوننا إليه، وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده.

ودلَّت الآية على أنَّ موقف الأمم المكذبة من دعوة الرسل متشابهة، مع أنها كانت أمماً كثيرة، وعاشت في بلاد متباعدة، وأزمان مختلفة، فالبنية النفسية والعقلية للإنسان بقيت كما هي، لم تتغير ولم تتبدل، على الرغم من تبدُّل أنماط المعيشة وتطورها.

ودلَّت الآية أيضاً على أنَّ دعوة الرسل واحدة، وأنهم اتبعوا أسلوباً واحداً في مواجهة أقوامهم، وهذا يدلُّ على أنَّ مصدرَ رسالتهم واحد، وهو وحي الله تعالى، فدعوة الرسل من الله تعالى، وإلى الله ﷻ.

وردَّ الرسلُ على تكذيبِ وعنادِ أقوامهم بقوة برهانهم، مع رباطة جأشٍ وثبات قلبٍ:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كيف تشكُّون بالله تعالى ووحدانيته، وهو مبدعُ السمواتِ الأرض، فكلُّ شيءٍ فيهما يدلُّ على وجوده ووحدانيته جلَّ وعلا؟!.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: أرسلنا إليكم يدعوكم ليرحمكم ويغفر لكم ذنوبكم التي سلفت منكم قبل الاستجابة لدعوته والإيمان به، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنْتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ويجعلكم تتمتعون بأعماركم حتى تحين آجالكم. فالإيمان بالله تعالى والاستجابة لدعوته يؤدي إلى خيري الدنيا والآخرة. وتظهر لنا من كلمات الرسل شدة شفقتهم على أممهم وأقوامهم، وحرصهم على إيمانهم وصلاحهم، واحتمالهم لغلظتهم وإعراضهم، ومع ذلك ظلّ المعرضون المعاندون متمسكين بإعراضهم وعنادهم.

﴿قَالُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا فضل لكم علينا، فلماذا تكون لكم النبوة دوننا؟!.

إنَّه الحسد الذي جعلهم يعرضون ويعاندون، ومعه التقليد الأعمى للأباء والأجداد:

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أي: تريدون بهذه الدعوة أن تمنعونا عما كان عليه آبائنا.

فالحسد والتقليد الأعمى كانا ولا يزالان أعظم المعوقات عن دعوة الأنبياء ﷺ، وعن كل خير وصلاح.

﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فأتونا بحجة واضحة تدلُّ على صحة دعوتكم، وهو سؤال تعنت وعناد؛ لأنه تعالى أيد المرسلين بالبينات والحجج القاطعات، الدالة على صدقهم وصحة رسالتهم.

وبقي الرسل ﷺ على هدوئهم ورباطة جأشهم، على الرغم ممَّا في كلام معارضيه من أسباب الإثارة والانفعال والغضب، فالداعي إلى الله تعالى عليه أن يتحلَّى بقوة الإرادة ورباطة القلب:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: ما نحنُ إلا بشرٌ مثلكم، لا ندعي خلاف ذلك ولا ننكره.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: ولكن الله يتفضل على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة، فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب الخطير الجليل، فلا كسب لنا ولا اختيار بما تفضل به ربنا علينا، وبشريتنا لا تمنع مشيئته تعالى عنا.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما صحَّ وما استقام أن نأتيكم بشيء مما تقترحون إلا بمشيئته تعالى، فنحن خلق من خلقه جلَّ وعلا، في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته.

﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وعليه جلَّ وعلا؛ لا على غيره يتوكل المؤمنون.

وهكذا واجه الأنبياء ﷺ عناد أقوامهم واستكبارهم، بإظهار المزيد من انقيادهم وطاعتهم لله تعالى، وافتقارهم إليه، واعتمادهم عليه وحده، ثم أضافوا إلى ذلك متسائلين:

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَعَصِينَ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْنُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي: وأي عذر لنا في عدم التوكل عليه تعالى، وقد هداانا السبل الموصلة إلى رحمته وفضله، فكما أن الدعوة منه وإليه سبحانه، فالهداية أيضاً منه جلَّ وعلا، فهو إذن حقيق بأن نتوجه إليه بالعبادة والطاعة وكمال التفويض.

وبهذا أيضاً أعلن الرسل ﷺ كمالَ عبوديتهم لله تعالى، وتجردُهم وانسلاخهم عن أيِّ حول وقوة لهم، فالفضلُ لله تعالى أولاً وآخراً، والتوكلُ عليه والتفويضُ إليه وحده.

ودلَّ هذا الإذعانُ لله والتوكلُ عليه: أَنَّ الرسلَ ﷺ أحسوا أن معارضيتهم يمكرون بهم، فبادروا إلى مصارحة أقوامهم بما يدبرون ويمكرون، معلنين ثباتهم على الدعوة، وتمسُّكهم بالرسالة، وأنهم لا يبالون بمكرهم وأذاهم:

﴿وَلَصَبِرَ عَلَىٰ مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فكما توكلنا عليه تعالى في الدعوة والهداية، نتوكل عليه أيضاً في الصبر على أذاكم وكيدكم، فتوكلُّنا عليه سبحانه دائم في جميع الأحوال والظروف.

وحدث ما توقعه الرسل ﷺ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: ليكوننَّ أحدُ الأمرين، إمَّا إخراجُ الرسل من ديارهم وأوطانهم، وإمَّا أن يعودَ الرسلُ إلى ملتهم وكفرهم، أي: يصير الرسل إلى ملة أقوامهم، لأنَّهم ما كانوا قبل الرسالة كافرين، وإنما كانوا على أصل التوحيد الذي فطر الله الناس عليه، وقد حفظهم سبحانه من لوث الشرك والكفر، حتى أكرمهم بعصمة النبوة والرسالة.

وقد يكون قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ مبنياً على ظنِّهم أنَّ الرسل كانوا على ملتهم، ثم خالفوهم، لأنَّ الرسل ما كانوا قبل الرسالة يظهرون مخالفتهم^(١).

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وبهذا الوحي ثبَّتَ الله تعالى الرسل،

وَبَشَّرَهُمْ بِإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ، فَلَا يَتَخَلَّى سَبْحَانَهُ عَنْ رُسُلِهِ وَأَصْفِيَائِهِ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: لنسكننكم أرض الظالمين بعد إهلاكهم سكنى الأمنين المتمكنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: ذلك الإهلاك للظالمين، والتمكين للمؤمنين، حق ثابت لمن خشي الله تعالى وأتقاه، وخاف عذابه الذي توعد به الكفار والفجار.

أو: لمن خاف الله تعالى وتذكر أنه قائم عليه، يعلم كل أحواله، ومحيط بكل أعماله، كما في قوله سبحانه: ﴿أَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

● العذاب الغليظ:

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أي: سألوا الله تعالى الفتح والنصر، وهو إما من الرسل بعد أن يؤسوا من إيمان المعاندين من قومهم، فاستنصروا الله تعالى عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقد يكون الاستفتاح من المشركين المعاندين، كما فعل مشركو قريش في بدر قبل بدء القتال، ففي بعض الروايات أن أبا جهل قال حين اللقاء: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأجبه الغداة. فكان المستفتح، فأنزل الله

تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]. [رواه أحمد (٥/ ٤٣٢) والنسائي في الكبرى (١١٢٠١) والحاكم (٣٢٨/٢)].

وقد يكون المراد كلا الفريقين، فكل منهما قد استنصر وطلب الفتح.
﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: وخسر كل جبار متكبر معاند للحق، ولم يفلح باستفتاحه، ففتحه سبحانه أفلح به الرسل والمؤمنون.

﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾.

﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ﴾ أي: بين يديه جهنم. وهو وصف لحاله في الدنيا، فإنه مرصد لها، واقف على شفيرها، لا يفصله عنها إلا الموت.
﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: ويسقى في جهنم من ماء يسيل من جلود المعذبين فيها.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمَنْ وَرَّاهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: يشربه بصعوبة ومشقة، جرة بعد جرة، لا باختياره، وإنما يجبر على تجرعه، ولا يقدر على ابتلاعه، بسبب شدة حرارته وقبح طعمه ورائحته، فكيف يكون حاله لو ابتلعه؟!.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: تأتيه أسباب الموت، وتحيط به من كل مكان، فيعاني من آلامها، ولكنه لا يموت فيستريح، لأنه تعالى هو المميّت، والأسباب لا تأثير لها، وقد قدر سبحانه لأصحاب النار الخلود فيها، يعذبون فيها أبداً بأسباب الموت ولا يموتون، كما قال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: ويستقبل دائماً عذاباً غليظاً متجدداً، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

وقد يقول قائل: ألا ينتفعون يوم القيامة بأعمالهم الصالحة التي فعلوها في الدنيا، كقري الضيف وإغاثة الملهوف، وعمارة بيت الله الحرام؟! والجواب: جاء في قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: أعمالهم ضائعة ذاهبة، كرماد حملته الريح، ففرقته ونسفته في يوم عاصف، فلم تُبقِ منه شيئاً، وكذلك أعمال الكفار لا تنفعهم يوم القيامة، بسبب كفرهم وجحودهم، فلا يقبل الله العمل إلا إذا كان خالصاً له، وابتغي به رضوانه، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدرّون يوم القيامة أن يحصلوا شيئاً من ثواب أعمالهم، لأنها ضاعت وبطلت بسبب كفرهم، وهذا يزيدهم حسرةً وغماً وكمداً، فكم تعبوا وشقوا في الدنيا، فما جنوا إلا العذاب، ولا حصدوا إلا الشقاء، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: ذلك هو الخسران الكبير، الذي لا يرجي عودُه، فخسارتهم كبيرة عميقة لا تلافي لها.

● تخصم أهل النار:

والمسؤولية والجزاء يوم القيامة أمران ضروريان، يُظهران حكمة الله تعالى من خلقه، فما خلق الله تعالى هذه المكونات، وأبدع فيها ما أبدع من النواميس عبثاً ولعباً، ذلك ظنُّ العابثين اللاعبين في الحياة الدنيا، الغافلين عن حكمة خلقهم وجوهر وجودهم:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَاشَأُ يَذْهَبَكُم وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: ألم تعلم أيها الإنسان أن الله خلق السماوات والأرض وما فيهما بالحق الثابت، القائم على حكمته الباهرة، ومشيئته وقدرته.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن يشأ يعدمكم، ويخلق خلقاً آخر مكانكم، فوجودكم واستمرار حياتكم مرتبطان بمشيئته تعالى الطليقة وقدرته التامة، فمنه سبحانه الإيجاد والإمداد.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وما ذلك على الله تعالى بممتنع ومتعذر، فهو قادرٌ على كل شيء، وهو الحقيق بأن يُطاع ويُعبد، وما أرسل سبحانه الرسل، وأنزل الكتب، إلا لبيِّن لكم كيف تعبدونه وتُطيعونه، فطاعةُ الرسل طاعةُ الله تعالى، ومعارضة دعوتهم والانصراف عنهم إلى غيرهم من رؤوس الكفر وزعماء الشرك ضلال وفساد في الدنيا، وحسرة وعذاب في الآخرة.

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالِ الصُّعْفَتَانِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجوا جميعاً من قبورهم إلى أرض الحساب

والجزاء، ولَمَّا وصلوا إلى جهنم واجتمعوا فيها:

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: قال الأتباع من عامة الكفار لرؤسائهم في الضلال والكفر: إِنَّا كُنَّا أَتْبَاعًا لَكُمْ فِي الدُّنْيَا. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ أي: هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله تعالى؟.

﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهَ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ أي: قال رؤساء الضلال مُعْتَذِرِينَ: لو هَدَانَا الله إلى طريق الحق والنجاة لَهْدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ.

وهي كلمة حقٌ أريدَ بها باطلٌ، فالهداية لا تكون إلا بمشيئته تعالى، ولكنهم تغافلوا عن حقيقة أخرى هامة أيضاً، وهي أَنَّ الله تعالى جعل لهم اختياراً وكسباً، وحذَّرهـم وأنذرهم من اختيارِ الكفرِ والضلالِ، ورغَّبهم بعبادته وطاعته وحده بواسطة دعوة الرسل ﷺ، فلا عذر لهم في الاحتجاج بمشيئته تعالى، بعد أن ألزمهم بحججه البالغة، وآياته القاطعة.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ﴾ أي: ما لنا من مهرٍ ومنجى من العذاب، فلا يفيدنا الجزع، وهو شدة الحزن، كما لا يفيدنا الصبر وحبس النفس على المكاره والآلام، فالعذابُ أمرٌ لازمٌ لا خلاصَ لنا منه.

ودلَّت الآية على أَنَّ اجتماع عامة الكفار بزعماء الكفر ورؤساء الضلال في جهنم لا يُخَفِّفُ من شقائهم وآلامهم، بل يزيدهم شقاءً وحسرةً وألماً، فلا يواسي بعضهم بعضاً، بل يتوجَّه بعضهم إلى بعض باللوم والتقريع والنزاع والخصام، ممَّا يزيدُ في حسرتهم وشقائهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّنَا كُنَّا كَرَّةً فَتَبَرَأْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة].

فهي صورة من صور الخصام والنزاع بين أهل النار، تزيد في شقائهم وعذابهم وحسرتهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤].

• خطبة الشيطان في جهنم:

ثم انتقلت الآيات إلى وصف مواجهة الكفار لرأس الشر ومنبع الكفر، للشيطان في دركات جهنم، فإنَّ هذه المواجهة أبلغ في الألم، وأعمق في الأسف والندم، فَحَكَّتْ كلمة الشيطان وخطبته في أهل النار، التي يردُّ بها على لومهم وتقريعهم له، فجاءت كلمة صريحة زادت في أسفهم وألمهم:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لما فُرِغَ من الحساب، واستقر أهل الجنة فيها، وأهل النار فيها.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ أي: إِنَّ الله وعدهم وعداً صادقاً ثابتاً لا خُلْفَ فيه، بواسطة رسله وكتبه المنزلة عليكم.

﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: وعدتكم وعوداً كاذبةً باطلةً، كذبت بها عليكم، فخدعتكم وغررت بكم، كما في قوله تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: وما كان لي عليكم تسلُّ وسلطةٌ أجبركم بها على طاعتي واتباعي، سوى أنني دعوتكم فاستجبت لي باختياركم وإرادتكم.

﴿فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تلموني بسبب وعودي الباطلة، وخداعي لكم، ولوموا أنفسكم على استجابتكم لدعوتي بلا حجة ولا برهان،

بل بمجرد تزيين وتسويل، ولوموا أنفسكم أيضاً لإعراضكم عن دعوة ربكم، المؤيدة بالحجج والبيانات.

ولا يريدُ الشيطان بهذه الكلمات أن يتنصّل من مسؤولية خداعهم والتغريب بهم، فهو يعلم أنه مسؤول عن ذلك، بل أراد أن يبيّن لهم أنهم أحقّ باللوم منه، وأن عليهم أن يتوجهوا أولاً باللوم إلى أنفسهم.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتَ بِمُخْرِجِيَّ﴾ أي: ما أنا بمغيثكم ومخلصكم من العذاب، وما أنتم أيضاً بمغيثين لي، فكلانا مبتلى بالعذاب، ومحتاجٌ إلى مغيث يغيثه ويخفف عنه.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: إني أنكرت وتبرأت اليوم من إشراككم لي بالله سبحانه، عندما أطعتموني وجعلتموني معبوداً من دونه تعالى.

فطاعة غيره تعالى شركٌ وكفرٌ، وكثيراً ما حذّرنا سبحانه من ذلك في آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى في سورة يس: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنهم عبدوا غيره تعالى، وهو وحده المستحق للعبادة، فوضعوا العبادة في غير موضعها الصحيح، وهو أقبح أنواع الظلم، كما قال تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿يَبْنَىءَ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ولا شكَّ أن كلمةَ الشيطان هذه أكثرُ إيلاماً من كلمات رؤوس الضلال زعماء الكفر، فهي أكثرُ صراحةً، واجههم فيها بالحقيقة كاملة، دون أدنى مواردٍ وانحرافٍ، فلم يُغفلْ أيّ جانبٍ من جوانب الحقيقة، كما فعل رؤساء الضلال وزعماء الكفر.

وكما تعلّقت مشيئته تعالى في الدنيا بهداية المؤمنين إلى الحق وتشبيتهم عليه، تعلّقت أيضاً بنجاتهم من العذاب ودخولهم الجنة، ولهذا قال تعالى في

مقابل ما سبق من صور الخصام بين أهل النار، والأسف والندم الذي يحرق نفوسهم وقلوبهم:

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ﴾ (٢٣)

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره ومشيبته جل وعلا .

﴿يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: تستقبلهم ملائكة الجنة، وتحيةهم، وتسلم عليهم، كما في قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۖ﴾ (٥٢) .

وقوله تعالى أيضاً في سورة الرعد: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾ (٢٤) .

• كلمتان وشجرتان:

ثم ضرب الله تعالى مثلين لدعوة الرسل ولدعوة الشيطان، أظهر فيهما ما بين الدعوتين من تباين كبير، وما يترتب على كل دعوة من آثار في الفرد والمجتمع:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۖ﴾ (٢٥)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كلمة التوحيد، أساس دعوة الأنبياء جميعاً ﷺ .

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: مثلها كمثل شجرة طيبة .

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: جذورها قوية راسخة في الأرض، وأعلاها مرتفع بارز في جهة السماء .

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: تعطي ثمرًا طيباً في كل وقت بمشيئته تعالى وقدرته.

ووجه تشبيه كلمة التوحيد وأثرها في نفوس المؤمنين وسلوكهم بالشجرة الطيبة الراسخة الجذور، الممتدة الأغصان، الدائمة العطاء، أن الإيمان راسخ ثابت قوي في قلوب المؤمنين، لأنه يتلاءم مع أصل الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما أنه مؤيد بالبراهين والحجج القاطعة، التي تزيد قوة وثباتاً في قلوب المؤمنين، وهو يثمر العمل الصالح، والطاعة الخالصة لله تعالى، والأخلاق الطيبة الكريمة.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتذكرون ما في هذه الأمثال من عظات وعبر ودروس نافعة.

وأما المثل الثاني، فضرب للكلمة الخبيثة:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أي: اقتلعت من فوق الأرض؛ لأن جذورها قريبة من وجه الأرض، غير ممتدة في أعماقها، مما يدل على عدم ثباتها، وضعف جذورها في داخل الأرض.

﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أي: ما لها استقرار في الأرض ولا ثبات.

وكذلك حال عقائد الشرك والكفر، لا ثبات لها في قلوب الكافرين؛ لأنها تصادم فطرة التوحيد التي فُطروا عليها، ولا تستند إلى أي حجج وبراهين، ولهذا نراهم في اضطراب نفسي وقلق فكري، لا يجدون برد الإيمان وسكينته التي يتذوقها المؤمنون، فلا تستند عقائدهم إلا على مجرد التقليد الأعمى، والاستجابة لوساوس الشيطان ونزغاته ووعوده الكاذبة.

• تثبیت وخذلان:

ثم بيّنت الآيات عنايته تعالى بالمؤمنين، وتثبيته لهم على الحق، وهم يواجهون مكر شياطين الجن والإنس وكيدهم وفتنتهم:

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧).

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ أي: يثبتهم تعالى على القول الثابت، المؤيد بالحجج والبراهين.

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: على مدى حياتهم في الدنيا، فلا يكون منهم أدنى انحراف عن دين الله القويم وصراطه المستقيم.

وهذا التثبيت هو الهداية التي يدعو بها المؤمنون في كل صلاة قائلين: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وقد علّمنا سبحانه أن نسأله الثبات على الحق، في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله الكريم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّهَابٌ﴾ [آل عمران: ٨].

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ بِصَرْفِهِ حَيْثُ يَشَاءُ» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ مَصْرِفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ» [رواه مسلم (٢٦٥٤)].

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: ويثبتهم على الحق أيضاً في أول ما يستقبلون من منازل الآخرة، عندما يُسألون بعد الدفن في قبورهم، فيجيبون ولا يتلثمون، كما في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نَعَالِهِمْ، يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَقْعُدَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ

أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فِيرَاهُمَا جَمِيعًا» [رواه مسلم (٢٨٧٠)].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قَالَ: «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقول: رَبِّي اللَّهُ وَنَبِيِّ مُحَمَّدٍ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾» [رواه مسلم (٢٨٧١)].

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: يخذل الله الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم واختاروا طريق الضلال، فلا يهديهم ولا يشبّتهم.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يفعل الله ما تتعلّق به مشيئته، فهو الفَعَالُ لما يريد، ومشيئته طليقة نافذة في كلّ الموجودات، مع العلم أنه تعالى عليمٌ حكيمٌ.

ثم أكّدت الآيات مسؤوليتهم عن العذاب الذي وصلوا إليه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: ألم تر إلى رؤوس الكفر والضلال، الذين أعرضوا عن دعوة الله تعالى، وهي أعظم النعم التي منّ بها عليهم، فكفروا بها وجحدوها، بدل أن يشكروا الله عليها، والسؤال للتعجيب من حالهم وسوء اختيارهم وكسبهم.

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي: وأوردوا قومهم الذين اتبعوهم دار الهلاك، وهي نار جهنم، كما فعل فرعون، الذي قال الله عنه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَّسِ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وهي نتيجة تعطيل قومه لعقولهم وأفكارهم، وطاعتهم له طاعة عمياء، عندما قال لهم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٦٩].

﴿جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ ٢٩﴾ .

أي: أوصلهم زعماء الضلال إلى جهنم، يحترقون في نارها، وهي بئس المقر والمأوى.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ٣٠﴾ .

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا﴾ أي: جعلوا أمثالا ونظراء لله تعالى في استحقاق العباداة.
﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: ليضلوا الناس عن سبيل الله، وهو الصراط المستقيم الذي بُعث المرسلون لكي يبينوه للناس، ويدعوهم للسبيل عليه، كما مرَّ في أول السورة: ﴿كَتَبْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ١﴾ .

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: تمتعوا بشهواتكم التي هي سبب ضلالكم وكفركم، فَإِنَّ مَا لَكُمْ وَعَاقِبَتُكُمْ إِلَى النَّارِ، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وفي مقابل أمر الوعيد والتهديد، الذي وجهته الآية للضالين المضللين، أمرت النبي ﷺ أن يذكر المؤمنين بالاستقامة على أمر الله، والثبات على طاعته:

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الصَّلَاةَ وَيُفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بِنِعْعٍ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ٣١﴾ .

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: قل يا محمدُ لعباد الله الذين استجابوا لدعوته، واتبعوا رسله، وفي وصفهم بالعبودية لله تعالى والإيمان به تشریف وتكريم.

﴿يُفِقُوا الصَّلَاةَ وَيُفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: قل لهم أن يستمروا على أداء الصلاة على وجهها الصحيح المشروع، وإنفاق بعض المال على وجوهه

المشروعة، كما أمر سبحانه، فَإِنَّ ذَلِكَ يَشْتَبِه على الحق، لأنهم يستزلون بذلك رحمة الله تعالى عليهم ومعونته وهدايته.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: من قبل أن يأتي يوم القيامة، الذي لا انتفاع به بدرهم ولا دينار، ولا بصداقة أو قرابة، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

• الشكر والعبادة:

فشكر النعمة يتطلّب معرفة المنعم، والانقياد لأمره وطاعته وعبادته، والواجب على الإنسان كلما تعددت نعم الله عليه وزادت، أن يزداد شكراً لله تعالى، واعترافاً بفضلِهِ وإحسانه، وإقبالاً على عبادته وطاعته، ولهذا توجّهت الآيات إلى بيان كثرة نعم الله تعالى على الإنسان، وأنها لا تحصى بعد ولا تحدّ بعد:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ (٣٢).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي: من أجلكم؛ فكل ما في هذه الظاهرة الكونية الكبيرة من إبداع وإحكام، من أجل تأمين رزقكم، وضروريات معاشكم، فهذه اللقمة التي تصل إلى أفواهكم، سخر الله من أجلها ظواهر كونية كبيرة أدّت إلى وصولها إليكم، كما في قوله تعالى في سورة عبس: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٥﴾ فَأَبْيَأْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٦﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ﴿٢٧﴾ وَزَيَّنَّاهَا وَمَخَلَّا ﴿٢٨﴾ وَحَدَّائِقُ عُلبًا ﴿٢٩﴾ وَفِكْهُمَ وَأَنَابًا ﴿٣٠﴾ مَنَّاعًا لَكُمْ وَلِأَعْمَارِكُمْ ﴿٣١﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: وسخر لكم السفن المختلفة في أنواعها وأحجامها، لتجري في البحر بمشيئته سبحانه، التامة النافذة

في كل الموجودات، فلولا هذه النواميس التي جعلها في البحار والرياح، ما تمكن الإنسان من تسيير السفن في البحر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ أي: كما سَخَّرَ لكم البحارَ لانتفاعكم ومصالحكم، سخر لكم الأنهار أيضاً لمنافعكم ومصالحكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ أي: وسخر لكم الشمس والقمر دائمين في جريانهما، حسب الناموس الكوني الذي أبدعته حكمة الخالق، فلا يتوقفان ولا يفتران، ولا يطرأ أيُّ خلل واضطراب على حركتهما، وكل ذلك دبره الحكيم العليم من أجل مصالحكم ومنافعكم واستمرار وجودكم على هذه الأرض.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: وسخر من أجل مصالحكم ومنافعكم الليل والنهار، فهما يتعاقبان بحسب نظام دقيق مرتبط أشد الارتباط بحياتكم ومنافعكم، كما في قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَأَيُّ لَهِمُ الَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ﴾ (٢٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٢٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠).

وقوله أيضاً في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَكُونُ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣).

فكل هذه النظم الكونية الدقيقة وضعت من أجل الإنسان، وتأمين مصالحه ومنافعه وحياته على الأرض، مرتبطة بها كلها ارتباط الأسباب بالمسببات، وكلها في الحقيقة من الخالق العظيم، كما قال جلَّ وعلا في سورة الجاثية:

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْتَرَى الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتُنْفِغُوا مِنْ فُضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَّا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَّا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم كل ما سألتموه بلسان حالكم وفقركم واحتياجكم، فهو أعلم منكم بما تحتاجون إليه، وما هو ضروري لحياتكم واستمرار وجودكم، لأنه هو الخالق لكم ولكل ما يحيط بكم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَن خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وثمة نعم خفية كبيرة وعظيمة لا يعلمها الإنسان، لأنها لا تخضع لحواسه ومداركه فلا يستطيع أن يحيط بها؛ لا يحيط بها إلا خالقها جلّ وعلا.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ أي: لا تستطيعون حصرها والإحاطة بها، فنعمة الله أكبر وأجلّ وأوسع من مداركم وتصوركهم، وحقه جلّ وعلا عليكم في عبادته وطاعته أعظم بكثير من طاقاتكم وقدراتكم، فمهما عبدتموه فأنتم مقصّرون في حق شكر نعمه، ومع ذلك:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي: كثير الظلم لنفسه بالإعراض عن طاعة ربه، وكثير الجحود لنعمه تعالى عليه، كما مرّ في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وأكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

● دعوة إبراهيم عليه السلام:

قدّمت الآيات في مقابل الإنسان الظلوم الكفور، أنموذجاً للإنسان الشكور العابد القانت لله تعالى وحده، وذلك من خلال ذكرها للدعوات الخاشعة الضارعة التي رفعها نبي الله إبراهيم عليه السلام إلى ربه جلّ وعلا، من جوار بيته الحرام.

ويبدو أن إبراهيم عليه السلام رفع هذه الدعوات، بعد أن فرغ من رفع قواعد بيت الله الحرام، ويمكن أن تكون مجموعة من الدعوات صدرت عنه في أحوال وأوقات مختلفة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ٣٥﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أي: اجعل مكة المكرمة بلدًا ذا أمنٍ. فالأمن أمر هام وضروري للإنسان في كل بلد، ولهذا كان الأمن أول شيء سأل به إبراهيم عليه السلام لمكة المكرمة.

وهذه هي المرة الثانية التي يسأل إبراهيم فيها الأمن لمكة المكرمة، فقد مر في سورة البقرة أنه سأل الأمن في دعائه لمكان مكة، قبل بنائها وظهورها، عندما كان المكان وادياً مقفرًا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٣٦﴾.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي: ثبتني وأبنائي على ملة التوحيد، وأبعدنا عن عبادة الأصنام.

ففي دعائه هذا إظهار لعبوديته لربه وافتقاره إليه، فهو يعلم أن الهداية بمشيئته جل وعلا، ويناسب اسم الرب حال إظهار الإنسان لذئته وضعفه، وافتقاره لربه جل وعلا، ولهذا نرى أكثر الدعوات القرآنية الكريمة مصدرة بهذا الاسم الكريم، الذي يدل على أنه تعالى هو الخالق المالك المدبر لجميع شؤون خلقه، وأنه المربي لهم، والمتفضل عليهم، بأسباب الوجود والنماء والتربية.

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلْنِ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَبْعِنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦﴾.

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلْنِ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: إن الأصنام تسببن في إضلال كثير من الناس، عبدوها، وأعرضوا عن عبادة الله تعالى.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: فمن تبعني في دعوتي إلى التوحيد، والاستسلام لله تعالى وشرعه، فإنه على ديني وملتي، والمتمسكين بحبلي.

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ومن عصاني وخالف دعوتي، فإنك تقدر على أن تغفر له وترحمه.

وبهذا أعلن ﷺ براءته من عبدة الأصنام، وردَّ أمرهم إلى الله تعالى، إن شاء عذبهم بعدله، وإن شاء غفر لهم بفضله، كما قال عيسى ﷺ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وليس في مثل هذه الأدعية - كما قال ابن كثير رحمه الله - أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجوز وقوع ذلك^(١)، فقد أخبرنا الله تعالى أنه قدَّر العذاب والخلود للمصيرين على الكفر، والمتمسكين به حتى الموت، فلن يغفر الله لهم ولن يرحمهم.

• الصلاة في الحرم:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (٧).

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي: أسكنتُ بعض ذريتي بوادٍ لا زرع فيه، لأنه لا يصلح للزرع، بجوار بيتك المحرم، الكعبة المعظمة، ونسبه إلى الله تعالى نسبةً تشريف وتكريم، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرُوبَ أَيْمَنَ الْمَشْرِقِ وَأَقْبَسَ النُّجُومَ إِنَّ رَبَّكَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٩٧].

وأراد ﷺ في قوله: ﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ ولده إسماعيل عليه السلام، ومن يولد له، وذلك عندما أتى به من بلاد الشام إلى وادي مكة، وتركه هناك مع أمه

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٠١/٢.

هاجر، ولم يكن فيه يومئذٍ أحدٌ، كما مرَّ في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [١٢٦].

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أسكنتهم بهذا الوادي الخالي من كل مرتفقٍ ومرترقٍ، ليقوموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك. قال القرطبي رحمه الله: «تضمنت هذه الآية أنَّ الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها»^(١).

وهذا ما دل عليه الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجد الحرام» [رواه البخاري (١١٩٠)].

وقد أخرج الإمام أحمد [٥/٤] وصححه ابن حبان [١٦١٨]: عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: أنَّ الرسول ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاةٍ فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة صلاةٍ في هذا».

وفي «سنن ابن ماجه» [١٤٠٦]: من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً: «وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاةٍ فيما سواه».

وروى البزار [كشف: ٤٢٢] والطبراني في «الكبير»: من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه رفعه: «الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاةٍ، والصلاة في مسجدي بألف صلاةٍ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمئة صلاةٍ» قال البزار: إسناده حسن^(٢).

وتكرير النداء ﴿رَبَّنَا﴾ وتوسيطه، لإظهار كمال عنايته بإقامة الصلاة، فإنَّها عماد الدين، ولذا خصَّها بالذكر من بين سائر شعائره^(٣).

(١) تفسير القرطبي: ٣٧١/٩.

(٢) فتح الباري: ٦٧/٣.

(٣) روح المعاني: ٢٣٧/١٣.

﴿فَجَعَلَ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: اجعل قلوب الناس تسرع إليهم شوقاً وحباً.

﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي: ارزقهم من أنواع الثمار لعلهم يكونون من الشاكرين المعترفين بفضلك وإحسانك.

وفيه دليل على أنَّ تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات، وإقامة الطاعات^(١).

ولا يخفى ما في دعائه ﷺ من مراعاة حُسن الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة، واستئصال الرحمة، واستجلاب الرأفة، ولهذا من عليه بحسن القبول، وإعطاء المسؤول، ولا بدَّ في ذلك من خليل الرحمن ﷺ^(٢).

ولا يزال أهل مكة المكرمة، يتمتعون ببركة هذه الدعوات الكريمة، بالأمان والأمان، وتعلُّق قلوب المؤمنين ببلدهم الحرام، وبالأرزاق والثمار المختلفة المحمولة إليهم من جنات الأرض وأطرافها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن تَبِيعَ أَهْلُ هَذِي مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصاص: ٥٧].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: تعلم سرنا كما تعلم علننا من الحاجات وغيرها، وما سألناك هذه الحاجات لكونها غير معلومة لك، بل لإظهار افتقارنا إليك، وتذللتنا لعزتك.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: قال الله تعالى ذلك تصديقاً لنبيه ﷺ.

(١) تفسير الخازن: ٥٣٥/٣.

(٢) روح المعاني: ٢٤٠/١٣.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ بعد حكاية قول ملكة سبأ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤].
ويمكن أن تكون تتمّة لكلام إبراهيم عليه السلام، والتفت من الخطاب إلى الإخبار لتربية المهابة، والإشعار بعلّة الحكم وعمومه^(١).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ٣٩.

أي: الحمد لله الذي وهب لي مع كبر سنّي، إسماعيل وإسحاق، إن ربي لمجيب الدعاء، فالسمعُ بمعنى القبول والإجابة، كما في قولنا في الصلاة: «سمع الله لمن حمده».

وكان عليه السلام قد سأل الله تعالى أن يرزقه الولد، عندما خرج مهاجراً من بلد قومه، فقد حكى الله عنه ذلك بقوله في سورة الصافات: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ١٠٠.

وكأنه عليه السلام بهذا الثناء على الله تعالى، يتوسّل إليه بحمده واعترافه بسابق نعمه عليه، وهذا ما فعله نبي الله زكريا عليه السلام في دعائه الذي قال فيه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].
فقد عوّده الله تعالى الإجابة وأطمعه فيها، والكريم لا يخيب من أطمعه بفضله وعوّده على إحسانه وكرمه.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ ٤٠.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي: اجعلني مواظباً على إقامة الصلاة بمعونتك وتوفيقك، فالإنسان مفتقر إلى الله تعالى في كلّ أموره، والعبادة منه سبحانه وإليه، والفضل له أولاً وآخرأً.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل من ذريتي مقيمي الصلاة، فقد دعا عليه السلام أولاً

لنفسه ثم للصالحين من ذريته، ليكونَ أسوةً حسنة لهم في إقامة الصلاة والمواظبة عليها، كما جاء في دعائه مع ولده إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ أي: تقبل دعائي وعبادتي وطاعاتي، وهو أدب رفيع مع الله تعالى، يدعو ويتذلل إليه، ثم يسأله أن يتقبله بفضله وكرمه.

وقد ظهر مثل هذا الأدب أيضاً في دعائه ﷺ مع ولده إسماعيل، عندما كانا يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (٤١).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ أي: اغفر لي ما فرط مني مما أراه ذنباً.

وهذا يدل على شدة تواضعه ﷺ لربه، واتهامه لنفسه بالتقصير في حق شكر نعم الله تعالى عليه.

وهذا الشعور كان يدفع نبينا محمداً ﷺ لمضاعفة عبادته وقيامه في الليل، فكان يقوم حتى ترم قدماه، ففي الحديث الشريف: عن المغيرة رضي الله عنه قال: إنَّ كَانَ النَّبِيَّ ﷺ لِيَقُومُ، أَوْ لِيَصْلِي، حَتَّى تَرِمَ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ، فَيَقَالَ لَهُ، يَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا» [رواه البخاري (١١٣٠)].

﴿وَلِوَلَدَيَّ﴾ أي: واغفر لأمي وأبي، ويبدو أنَّ أمه كانت مؤمنة، ووقع استغفاره لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، بإصراره على الكفر حتى الموت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ ابْنَاهُ إِذْ هَمَّ بِإِثْمِهِ إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعْدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ ابْنَهُ هِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: واغفر للمؤمنين كافة يوم القيامة، عند وقوع الحساب، وسبق لنبي الله نوح ﷺ سؤال المغفرة لجميع المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

وكان الشعبيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ما يسرني بنصيبني من دعوة نوح وإبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما للمؤمنين والمؤمنات حُمْرُ النَّعَمِ^(١).

• الظالمون يوم القيامة:

وفي دعوات إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تعريضٌ كبير بمشركي قريش، الذين انحرفوا عن ملة التوحيد التي كان عليها جَدُّهم الأول إسماعيل وأبوه إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما، وتعريضٌ أيضاً بعبادتهم الأصنام والأوثان في بيت الله الحرام، الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل لعبادة الله تعالى وحده، ليكون رمزاً لوحدة الأمة المسلمة وتوحيدها، وتعريضٌ أيضاً بإعراضهم عن دعوة النبي الخاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي من أجل وأعظم نعم الله تعالى عليهم، وتمسكهم بعبادة الأصنام والأوثان، وهو من أقبح وأعظم أنواع الظلم.

ولهذا توجهت الآيات الكريمة إلى النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تخاطبه مثبتة له في مواجهة هذا الظلم الكبير الذي أحدثه المشركون في مكة المكرمة، وتتوعد هؤلاء الظالمين بأشد أنواع الوعيد والتهديد:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: ولا تحسبن الله عندما يُنظرُ المشركين، ويؤخر عقابهم، أنه غافل عنهم، مهمل لهم، فإنه سبحانه يتنزه عن الغفلة، ولا يعزبُ عنه شيء في الأرض ولا في السماء، فدُم على الدعوة إلى التوحيد، ونزله عن الغفلة.

وفي الآية تنبيهٌ إلى خطورة ذلك الحسبان والظن، وأن الاحتراز عنه واجب، حتى نُهي عنه النبي المعصوم، فالغفلة من صفات النقص التي يتنزه الله تعالى عنها كلها.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: إنما يؤخرهم ليوم تتجمد فيه الأبصار من شدة الخوف، فترتفع أعينهم، وتبقى مفتوحة لا تطرف ولا تهتز من هول ما يرون في هذا اليوم.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مسرعين رافعي رؤوسهم.

أو: خافضي رؤوسهم. يقال: أقنع: إذا رفع رأسه، وأفقع: إذا طأطأ رأسه ذلة وخضوعاً، والآية محتملة للوجهين^(١).

ويتقوى الوجه الثاني بقوله تعالى في سورة المعارج: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نَصْبِ يَوْفُضُونَ﴾ (٤٣) خَشَعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

فالآية تصفهم عند الخروج من قبورهم وتوجههم إلى أرض المحشر، فلا ينظر أحد إلى أحد من شدة الخوف.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا تطرف أعينهم، لأنهم لا يستطيعون تحريكها من شدة الخوف.

﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: وقلوبهم خالية فارغة، لفرط الحيرة والدهشة، لا تعي شيئاً.

وما دام الحق سبحانه غير غافل عنهم، فاستمر في إنذارهم بما أنزل الله عليك في القرآن الكريم من آيات الوعيد والتهديد:

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ حُجِّبْ دَعْوَتَكَ وَتَوَسَّلِ الرُّسُلَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي: أنذر يا محمد الناس من عذاب يوم

القيامة، لتخرجهم من الظلمات إلى النور، فهي وظيفتك الكبرى التي أرسلت من أجلها، كما مرّ في أول آيات السورة: ﴿الرَّكَتُوبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ٢﴾.

وهاهي الآيات في ختام السورة تعرض صوراً من العذاب الشديد والغليظ. ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: فيقول الذين ظلموا: ربنا أخر العذاب عنا، وردّنا إلى الدنيا، وأمهلنا مدة يسيرة. ﴿حُبِّ دَعْوَتِكَ وَتَسْبِيحِ الرَّسُولِ﴾ أي: نستدرك ما فاتنا من إجابة دعواتك، واتباع رسلك.

وتظهر من خلال كلماتهم شدة ندمهم، وعمق حسرتهم على ما فرطوا. وغاب عنهم في هذا السؤال حقيقتان كبيرتان:

الحقيقة الأولى: أنه تعالى قدّر أن لا عودة لأحدٍ إلى الحياة الدنيا، فهي فرصة إذا ضاعت لا تعوّض، كما في قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿حَقَّقْ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠﴾.

ويستوي في هذا الأمر الكافرون والمؤمنون، وأكد ذلك قوله تعالى في خطاب موجّه للمؤمنين في سورة المنافقون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ٩﴾ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١﴾.

الحقيقة الثانية: أن الهداية منوطة بمشيئته تعالى وتوفيقه، كما مرّ معنا، فإذا لم يشأ الله هدايتهم فلن يهتدوا، ولو عادوا إلى الدنيا مرة ثانية فسيعودون إلى ضلالهم وعنادهم وظلمهم، وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله في سورة الأنعام:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنَّا نُرْدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِإِثَابِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

ولهذا قرر الحق جلَّ وعلا خلودهم الأبدي في نار جهنم، لأنه تعالى يعلم مدى إصرارهم على كفرهم، وشدة عنادهم، مهما امتدت أعمارهم.

وأجيبوا على طلبهم العودة إلى الدنيا بقوله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٩﴾ أَي: أقسمتم من قبل في الدنيا، ما لكم عنها انتقال، وما لكم بعث ولا حساب ولا جزاء.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿٤٦﴾ أَي: ومع أنكم سكنتم في مساكن الظالمين من قبلكم.

﴿وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴿٤٧﴾ أَي: وتبين لكم من أخبارهم وآثارهم كيف أهلكناهم، وانتقمنا منهم، فلم تعتبروا ولم تتعظوا.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٨﴾ أَي: وضررنا لكم أيضاً في القرآن الكريم الأمثال، على أَنَّ سَنَةَ اللَّهِ فِي إِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ لَا تَبْدُلُ، وأنه سيصيبكم ما أصابهم، فأعرضتم عن ذلك كله عناداً واستكباراً.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٩﴾﴾ .

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴿٥٠﴾ أَي: والحال أنهم حين انتقمنا منهم، قد مكروا مكرهم الشديد القوي، واحتالوا في إبطال الحق وتأيد الظلم، ودفع أسباب الزوال والهلاك عنهم، فما نفعهم مكرهم، ولا ردَّ عنهم قضاءه تعالى المبرم في إهلاكهم. فالمقصود بيان عجز الأسباب التي باشروها عن التأثير بنفسها، ومكرهم

لا يزيد عن تحصيل الأسباب ومعاناتها، وهي لا تأثير لها بنفسها، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: لا تأثير له، لأنه متعلق بقدرة الله تعالى ومشيتته، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ أي: وإن كان احتيالهم في حد ذاته قوياً شديداً بحيث يمكن أن تزول به الجبال الراسية، لو وافق قدر الله تعالى ومشيتته.

● صُور من العذاب الغليظ:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤٧).

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ وهي المرة الثانية في ختام السورة، تتوجّه الآيات بمثل هذا الخطاب للنبي ﷺ، كأنها تقول له: استمر في دعوتهم وإنذارهم، وثق بنصر الله تعالى وتأنيده، وأنه لن يخلف ما وعد به رسله من النصر والفوز والعز، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ أي: إنه تعالى ذو عزة وغلبة، لا يمتنع عليه شيء أراد، قادر على الانتقام ممن كفر وجحد. ثم بيّنت الآيات كمال قدرته تعالى ونفاذ مشيئته، في تبديل الأرض والسموات يوم القيامة:

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨).

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ أي: يتم ويحدث ما قدره تعالى وأراد، فيبدل الله السموات، ويحشر الناس على أرض جديدة، وتحت سموات جديدة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ

القيامة على أرضٍ بيضاء عفراء كقُرْصَةِ النقي (الدقيق الناعم) ليس فيها عِلْمٌ لأحدٍ [رواه مسلم (٢٧٩٠)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾ فأين يكون الناس يومئذٍ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط» [رواه مسلم (٢٧٩١)].

ويرى بعضهم أن تبديل الأرض بتبديل صفاتها فقط، ومدها وإزالة الجبال والوديان منها، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥٠﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٥١﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٥٢﴾﴾.

وقال أيضاً في سورة الانشقاق: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٢﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾. ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: برزوا من قبورهم استجابةً لأمر الله الواحد القهار ومشيتته.

ثم أوردت الآيات صورةً أخرى لحال الظالمين المعاندين، ذوي المكر الشديد يوم القيامة:

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: مشدودين بعضهم إلى بعض بالقيود والأغلال، وتصفيدهم زيادة على إهانتهم وإذلالهم، لا من أجل احتمال فرارهم، فلا فرار لأحدٍ، ولا فوت له من قبضة قدرة الحق جلَّ وعلا.

﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ أي: تُطلى أجسامهم بالقطران، حتى يكون لهم كالقمصان.

ومن المعلوم أن الإبل عندما تُصَابُ بالجرب، تطلى بهذه المادة لحرق الجرب بحدتها وحرها وتنن ريحها، ومن صفاته أيضاً: تسارع اشتعال النار فيه.

﴿وَتَقْنَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ أي: تعلقو النار وجوههم، وهم يسحبون في جهنم على وجوههم: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهمْ ذُقُوا مَسَّ سَفَرٍ﴾ [القمر: ٤٨].

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥١).

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: قدّر الله تعالى لهم هذا العذاب، ليجزي كل نفس ظالمة مجرمة ما كسبت وما اختارت، فما ظلمهم الله تعالى، ولكنهم كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: إنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب، لكمال قدرته وتمام مشيئته.

وبعد عرض هذه الصور الرهيبة من صور العذاب الغليظ، ختم الله تعالى آيات السورة بقوله:

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۖ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٥٢).

﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي تقدّم ذكره في السورة بلاغ، فيه كفاية للناس في الموعظة والدعوة.

﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي: أنزله تعالى على رسوله ﷺ لينذر به الناس، ويخرجهم بتوفيقه تعالى وهدايته من الظلمات إلى النور.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي: وليعلموا أنه تعالى إله واحد، لا يستحقّ العبادة والطاعة أحد غيره، فتوحيد العبادة والطاعة لله جلّ وعلا أساس دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمقصود الأول في رسالتهم والكتب التي أنزلت عليهم.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: وليتذكر هذه الحقيقة الكبرى ويتفهمها أولو الألباب، الذين يحسنون استعمال عقولهم، فللعقل الذي أكرم الله به الإنسان دور كبير في الهداية، لأنّه أعظم الوسائل التي تمكن الإنسان من المعرفة،

فدعوة المرسلين من الله تعالى وإلى الله تعالى، وهي تُخاطبُ عقولَ الناس، وتدعوهم إلى أن يحسنوا أعمالها، والهداية من الله تعالى أيضاً، بتوفيقه ومعونته، كما في قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥ ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٦ .

اللهم ثبتنا على الصراط المستقيم، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين .



تفسير سورة الحجر الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمُ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذا هو تفسير سورة الحجر، في هذه الموسوعة القرآنية التي تتحدث عن الوحدة الموضوعية لآيات السور القرآنية الكريمة، وذلك من خلال ما يظهر لي من معاني كلماتها وآياتها.

ويتناول موضوع سورة الحجر حياة الإنسان المحدودة بالموت، وموقعها من الكون الكبير المحيط بها، ولقد أبرزت السورة الكريمة من خلال هذا الموضوع عدداً من الحقائق الهامة الضرورية للإنسان:

أولها: أنّ هناك ارتباطاً بين جميع أجزاء هذا الكون، وقد جعل الله تعالى هذا الارتباط قائماً على توازن دقيق، وهو السبب الأساس، بتقدير الله تعالى، لاستمرار وجود المكوّنات، وعندما تقوم الساعة يختلّ هذا التوازن ويضطرب، وتتغير بتقديره تعالى النواميس والنظم التي كانت تضبط توازنه.

ولقد أدرك أنصار حماية البيئة من التلوث في العصر الحاضر جزءاً من هذه الحقيقة، ولهذا تراهم يبذلون جهوداً كبيرة لحماية الحياة من أخطار التلوث الذي

قد يؤدّي بتقدير الله تعالى إلى حدوث خلل في التوازن القائم بين المكوّنات .

ثانيها: يجب على الإنسان أن يكون متوازناً في سلوكه وحياته مع طبيعة حياته الروحية والفكرية والمادية والاجتماعية، ويستهدف الإسلام في كل تشريعاته إلى إقامة مثل هذا التوازن في حياة الإنسان، وهو السبب الأساس لسعادته وراحته .

ثالثها: للأمل تأثيرٌ كبير على سلوك الإنسان، وهو يعكس مدى التوازن القائم في حياته، وطول الأمل في الحياة بحيث يتجاوز حدودها، ويؤدّي إلى خلل واضطراب كبيرين في حياة الإنسان وسلوكه، ويؤدّي أيضاً بتقدير الله تعالى إلى اضطراب وخلل في بيئة حياة الإنسان .

رابعها: الأمل في الله تعالى، هو الأمل الذي لا ينبغي أن يُحدّد بحدٍّ، فهو الضمانة الكبرى لجعل حياة الإنسان متوازنةً، لا إفراط فيها ولا تفريط، ولا يأس ولا قنوط، بشرط أن يكون هذا الأمل مقترناً بخشية الله تعالى وتعظيمه، والحرر من المسؤولية أمامه يوم القيامة .

تلك هي النقاط الأساس البارزة، فيما يبدو لي، في سورة الحجر .
وقد جاء هذا التفسير في أربعة فصول وتعقيب أخير :

- الفصل الأول: بيان تأثير الأمل على حياة الإنسان وسلوكه .
 - الفصل الثاني: بيان التوازن في الكون والحياة .
 - الفصل الثالث: القصة الأولى: الإنسان والشیطان، ونقاط الضعف البشري التي يستغلّها الشيطان ليُدخلَ الخللَ على حياة الإنسان .
 - الفصل الرابع: القصة الثانية: إبراهيم ولوط عليهما السلام والأمل في الله تعالى .
 - وأخيراً التعقيب على دور القرآن الكريم في تحقيق التوازن في حياة الإنسان .
- أسأله سبحانه أن يسدّد خطانا، وينور أبصارنا وبصائرنا، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه لنا، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم .



الْفُضِّلُ الْأَوَّلُ

بَيَانُ تَأْثِيرِ الْأَمَلِ عَلَى حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَسُلُوكِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ١﴾ رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ٢
 ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٣ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا وَلَهُمَا كِتَابٌ
 مَعْلُومٌ ٤ مَا تَسْبِقُ مِنْ أَمَةٍ أَجَلُهَا وَمَا يَسْتَنْجِرُونَ ٥ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ
 لَمَجْنُونٌ ٦ لَوْ مَا تَأْتِيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٧ مَا نَزَّلَ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا
 كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ
 الْأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ١١ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ
 الْمُجْرِمِينَ ١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ
 فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ١٥﴾

● الأحرف المقطعة:

بدأت سورة الحجر بالتنويه بفضل القرآن الكريم، ولَفَتِ أنظار المخاطبين إلى حسن استماعه، وتدبر آياته ومعانيه بقوله تعالى:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ١﴾

وتُشَبِّه هذه البداية لسورة الحجر، بداية سورة يونس في قوله عزَّ شأنه: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ١﴾ وسبق أن قلْتُ هناك: ذكر علماء التفسير أقوالاً

كثيرة في معاني الأحرف المقطعة التي استهل الله تعالى بها بعض السور القرآنية، ودلت كثرة أقوالهم على حقيقة هامة، وهي أَنَّ الإنسان مهما تدبّر كلمات الله تعالى فلن يقف على كل أسرارها، ولن يحيط بمعانيها، وهذا ما جعل كثيراً من المفسرين يرون أن معاني هذه الحروف مما استأثر الله العليم الحكيم بها، فهي من الآيات المتشابهة التي لا يعلم حقيقة معانيها إلا الله سبحانه الذي قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

ورأى فريق آخر من علماء التفسير أَنَّ هذه الأحرف ذُكرت في أول بعض السور لِلْفَتْحِ الْأَنْظَارِ إِلَى إعجاز القرآن الكريم، وتنبيه الأسماع إليه، فقد كان المشركون ينفرون عند تلاوة القرآن، فلما نزلت: ﴿الْعَمَّ﴾، ﴿الْمَصَّ﴾، ﴿الرَّءَّ﴾، استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا إليه ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف، ليثبت في أسماعهم وأذانهم، ويقيم الحجة عليهم، ففي هذه الحروف إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها، ليكونَ عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم^(١).

وقد انتصر ابن كثير ﷺ في تفسيره لهذا الرأي، فقال بعد أن ذكر العلماء الذين ذهبوا إليه: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة»^(٢).

وانظر على سبيل المثال إلى قوله سبحانه هنا:

﴿الرَّءَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: تلك السورة آيات الكتاب الكامل والمقروء، والمبين للحق والباطل، والحلال والحرام، والظاهر إعجازه وإبداعه.

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٢٩/١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، مقدمة التفسير.

والآية تدلُّ على أَنَّ القرآنَ مكتوبٌ ومقروءٌ، وقد حفظ الله تعالى بهاتين الصفتين القرآن الكريم، فهو محفوظ في الصدور، ومكتوب في السطور، كما سيأتي معنا عند قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

• ودادة وحسرة:

ثم شرعت الآياتُ الكريمةُ في بيان مضمون السورة وموضوعها الأساس بقوله تعالى:

﴿زُبَيْمًا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

أي: سيأتي على الكفار وقت يتمنون فيه لو كانوا مسلمين، ولكن هذه الودادة والأمنية لا تنفعهم، لأنها جاءت في غير وقتها، فهي ودادة تغلب عليها الحسرة والندم، وأمنية تزيدهم حزنًا وأسفًا.

وستكون هذه الودادة المشوبة بالحسرة والندم عندما ينزل الموت بهم، ويعانون العذاب، ولهذا جاء التعبير عنها بكلمة ﴿زُبَيْمًا﴾ التي تفيد التقليل، إذ الموتُ يبهتهم بسكراته وغشياته، فإذا ما أفاقوا منها، وأدركوا شيئاً من الصحو، ودُّوا في لحظات الصحو والإفاقة القليلة لو كانوا مسلمين.

ويعقب هذه الودادة القليلة في الدنيا حسرات كثيرة يوم القيامة، فكلُّما عاين الكفار شيئاً من أهوال يوم القيامة ولونا من ألوان النكال والعذاب في جهنم، وشاهدوا نجاة المسلمين منها، تمنَّوا وودُّوا لو كانوا مسلمين، فيوم القيامة هو يومُ الحسرة، لكثرة ما فيه من حسرة وندامة:

﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٧﴾ يُؤَلِّقُ لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانَا خَلِيلًا﴾ [الفرقان].

ثم التفتت الآياتُ تخاطبُ النبي ﷺ:

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ أي: اتركهم يأخذوا حظوظهم من هذه الدنيا.

ولا يخفى ما في الخطاب من تحقير للكافرين وإهانة لهم، فلا عمل لهم في الدنيا إلا الأكل والتمتع بمتاعها المادي الزائل الحقيق، تلك هي معقد آمالهم، ومنتهى طموحاتهم، فما الذي يميزهم عن الحيوانات؟! ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

كما لا يخفى ما في هذا الأمر من تهديد ووعد لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

• الدنيا وسيلة لا غاية:

والأكل والتمتع بما خلق الله تعالى في الحياة الدنيا من الطيبات الحلال ليس محظوراً ولا ممنوعاً، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

وقال أيضاً في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٨٧) ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلْالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالحلال الطيب غير محظور في الإسلام، إنما المحظور المحرم هو الإسراف في التمتع بالدنيا، والانشغال بها عن الآخرة، وهذا ما أراد الله سبحانه أن يبينه في قوله:

﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: يشغلهم طول الأمل في الدنيا عن العمل للآخرة والاستعداد لها، فالدنيا وسيلة للآخرة ومطية لها، وليست غاية في نفسها، فالله سبحانه ما خلق الخلق وأحكمه وأبدعه للأكل والمتاع، يتنزه الله عن ذلك وهو الحكيم العليم.

وإن كثيراً من الناس يخطئون عندما يجعلون الدنيا غاية لخلقهم ووجودهم

فيها، ويغفلون عن الآخرة وما ينتظرهم فيها من مسؤولية وحساب، ولهذا تراهم منصرفين بكل طاقاتهم وجهودهم إلى الدنيا، غافلين أو متغافلين عن الحكمة من خلقهم ووجودهم، وهي عبادته سبحانه وعمارة الأرض بطاعته.

وكما بدأت الآية بالتهديد والوعيد ختمت به أيضاً بقوله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم وعاقبة آمالهم.

• آمال وآجال:

وتدل الآية على أن كثرة التلذذ والتنعيم في الدنيا يؤدي إلى طول الأمل فيها وقلة العمل للآخرة، فمن طال أمله قلَّ عمله، لأنَّ الأمل الطويل يشغل صاحبه عن أجله، ولهذا عدَّ النبي ﷺ طول الأمل من الشقاء، فقال: «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا» [رواه البزار (كشف: ٣٢٣٠)].

وكثيراً ما تتجاوز الآمال حدود الآجال، فمهما امتدَّ عمر الإنسان فلن يعيش حتى يحقق كل آماله في حياته، وقد حذر النبي ﷺ من الوقوع في شرك الآمال الطويلة بأمثلة واقعية محسوسة، منها:

ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخطَّ خطاً في الوسط خارجاً منه، وخطَّ خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط، فقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيطٌ به، أو قد أحاطَ به، وهذا الذي هو خارجُ أمله، وهذه الخطوط الصغارُ الأعراضُ، فإن أخطأه هذا نهشَهُ هذا» [رواه البخاري (٦٤١٧) والترمذي (٢٤٥٤) والنسائي (تحفة: ٧/ ٢٠) وابن ماجه (٤٢٣١)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: خطَّ رسولُ الله ﷺ خطاً، وقال: «هذا الإنسان» وخطَّ إلى جنبه خطاً، وقال: «هذا أجله» وخطَّ آخرَ بعيداً منه، فقال: «هذا الأملُ، فبينما هو كذلك إذ جاءهُ الأقربُ» [رواه البخاري (٦٤١٨) والنسائي (تحفة ١/ ٢٨٥)].

وخيرُ علاجٍ لطولِ الأملِ الإكثارُ من ذكر الموت، لأنَّه حدود أعمارنا،

ونهاية حياتنا في الدنيا، وهو ما أمر به ﷺ بقوله: «أَكثَرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللِّذَاتِ» [رواه ابن ماجه (٤٢٥٨) والترمذي (٢٣٠٧) وحسنه] أي: قاطعها.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أَنَّ طَوْلَ الأَمَلِ مِنْ أسبابِ هلاكِ الأمة المسلمة في آخرِ الزمن، فقال: «صَلاَحُ أَوَّلِ هذهِ الأمةِ بالزُهادةِ واليقينِ، وهلاكُ آخرِها بالبخلِ والأَمَلِ» [رواه الطبراني وابن أبي الدنيا في اليقين (٣) والأصبهاني في الترغيب (١٦٤)]. وفي إسناده احتمال للتحسين كما قال المنذري في الترغيب (٤٨٩٥، ٤٨٩٦).

ولا شك أَنَّ قوله عليه الصلاة والسلام ينسحبُ على كثير من المسلمين في العصر الحاضر لشدة تأثيرهم بالحياة المادية الغربية، قال عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: «إنما أخشى عليكم اثنتين: طَوْلَ الأَمَلِ، وَاتِّبَاعَ الهوى، فَإِنَّ طَوْلَ الأَمَلِ يُنْسِي الآخرةَ، وَاتِّبَاعَ الهوى يَصُدُّ عَنِ الحقِّ»^(١).

• الكتاب المعلوم:

فلا ينبغي الاغترار بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة، فكل شيء فيها مآله إلى زوال، وقد جعل الله تعالى له أجلاً محدوداً لا يتجاوزه:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾.

أي: أجل مقدّر معلوم لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِثُّونَ﴾.

فلا تستطيع أي أمة، مهما بلغت في القوة والعلم والحضارة، أن تغير من أجلها الذي قدّره الله سبحانه، لا تقديماً ولا تأخيراً.

وجاء الإخبار عن التأخير بصيغة الاستفعال ﴿يَسْتَعِثُّونَ﴾ للإشعار بعجزهم

عن ذلك مع طلبهم له^(١)، فالإنسان مفطورٌ على حب الحياة والبقاء، وكرهية الموت والفناء.

• إعراض وجحود:

ويؤدّي الإسراف في التمتع بالدنيا وطول الأمل فيها إلى الإعراض عن الحق وجحوده، وهو ما فعله مشركو مكة عندما قالوا للنبي ﷺ على سبيل الاستهزاء والتهكّم:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: يا أيها الذي يدّعي نزول القرآن عليه. ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ في دعوتك إلى عبادة الله الواحد، وترك ما وجدنا عليه آبائنا، أو في ادّعاك نزول القرآن عليك من الله تعالى. ويشبه قولهم هذا قول فرعون في نبي الله موسى ﷺ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] فمواقف المعاندين المعرضين عن الحق وأقوالهم واحدة، ولو اختلفت أزمانهم وبلادهم. ثم بلغ بهم العناد والجحود إلى مطالبة النبي ﷺ أن ينزل الملائكة عليهم بالعذاب إن كان صادقاً في دعوته:

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

أي: هلاً تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك، كما حدث للأمم المكذبة من قبل^(٢).

وردّ سبحانه على طلبهم هذا بقوله:

(١) روح المعاني: ١١/١٥.

(٢) انظر: تفسير البياضوي وتفسير النسفي: ٥٤٩/٣.

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿٨﴾

﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بالحق الذي قدره سبحانه بمشيئته واقتضته حكمته، لا بحسب أهوائهم ومشيتهم.
﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ ولو نزلت عليهم الملائكة لَعَذَّبُوا وَأَهْلَكُوا ولم يُؤْخَرُوا ويُمهَلوا.

• حفظ القرآن الكريم:

ثم ردَّ سبحانه على استهزائهم بالنبي ﷺ، ووصفهم له بصفة الجنون، وإنكارهم نزول القرآن الكريم عليه، بقوله ﷻ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿٩﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الكريم.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ من التحريف والتبديل والزيادة والنقص.

ففي الآية تأكيدٌ يفيدُ الجزم والقطع على أنه سبحانه هو الذي نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ، وأنه سبحانه هو الذي يتولَّى حفظ القرآن الكريم بما قدر له من أسباب الحفظ، وأوَّل أسباب حفظه اختيار النبي الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ليكونَ الأوَّل للقرآن الكريم، والحافظ له، والمبلِّغ، فكيف تجرَّؤوا على مقامه الشريف، ووصفوه بصفة الجنون، وقد اختاره الحقُّ سبحانه لأمانة حمل القرآن الكريم وحفظه وتبليغه؟!.

فالقرآن الكريم محفوظٌ بحفظ الله تعالى رغم أنف المعاندين والجاحدين، مهما تعاقبت عليه الأزمان والحدَثان، ولقد فعل سبحانه ما وعد بالآية الكريمة، وظهر بهذا أنه كلامُ الله تعالى الذي لا يتخلَّف عن الحقيقة.

وقد مرَّ على القرآن الكريم حتى الآن ما يزيدُ على أربعة عشر قرناً، وهو محفوظٌ بحفظ الله تعالى، لم يلحقه أي تغيير أو تبديل، ولا زيادة ولا نقص،

كما أخبر سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وتم حفظه رغم كثرة المعارضين له والمعادنين، ورغم ضخامة الأحداث والنكبات التي نزلت بالمسلمين على مدى تاريخهم، وسيبقى بإذن الله محفوظاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

● محاولات فاشلة:

لقد باءت بالفشل كل محاولات أعداء الإسلام لكي ينالوا من القرآن الكريم ما يريدون من تحريف وتبديل، منذ نزوله وحتى العصر الحاضر، مع العلم أنهم نجحوا في الافتراء على سُنَّة رسول الله ﷺ، ممَّا حمل علماء المسلمين على بذل جهود علمية مُضْنِيَّة حتى تمكنوا بحمد الله من تمحيص السُنَّة وتنقيتها، كما نجحوا في إحداث الفتن بين المسلمين، وتقسيمهم إلى فرق وشيع وأحزاب، ونجحوا أيضاً في فتنة كثير من المسلمين عن دينهم وأخلاقهم. ولكنهم لم يستطيعوا بحمد الله أن يحدثوا في القرآن الكريم أي تغيير أو تحريف، رغم شدة مكرهم وقوة كيدهم.

قال سيد قطب رحمه الله: «لقد بذل أعداء هذا الدين - وفي مقدمتهم اليهود - رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد، في الكيد لدين الله، وقدروا على أشياء كثيرة... ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد - والظروف الظاهرة كلها مهياة له - لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ... لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله ﷺ مجرد وعدٍ، أما هو اليوم من وراء كل تلك الأحداث الضخام، ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول»^(١).

● انقطاع الوحي وتامام النعمة:

لقد تولَّى الله سبحانه حفظ القرآن الكريم، فبقي محفوظاً لم يلحقه باطلٌ من

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢١٢٨/٤.

بين يديه ولا من خلفه، بينما لم يتكفل سبحانه بحفظ الكتب المنزلة قبل القرآن كالنوراة والإنجيل، وجعل حفظها موكولاً بأحبار اليهود والنصارى ورهبانهم، فغيروا فيها وبدّلوا، وأحدثوا فيها من التحريف ما أحدثوا، حتى أصبحت متعارضة فيما بينها ومتناقضة، كما أصبحت مليئة بالأكاذيب والضلالات التي ينتزّه عنها كلام العقلاء من الناس، بله كلام الله تعالى الحكيم العليم الذي قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَانَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وجاء حفظ الله سبحانه للقرآن الكريم حجة قائمة على الناس إلى قيام الساعة، تلزمهم بالإسلام ديناً وشرعة، إذ اقتضت مشيئته سبحانه أن يكون الرسول ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن يُخْتَمَ الوحي بنزول القرآن الكريم، فلا نبي بعده أبداً، ولا وحي.. . انقطع الوحي، وتمت كلماته سبحانه صدقاً وعدلاً، تنير الطريق للناس، وتبين لهم معالم الحق والهدى إلى قيام الساعة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّبُوَّةَ قَدْ انْقَضَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي، وَلَا نَبِيَّ» [رواه أحمد (١٣٧٥٨) والترمذي (٢٢٧٢) وقال: حسن صحيح].

وقال ﷺ أيضاً: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ» [رواه البخاري (٣٥٣٢) ومسلم (٢٣٥٤)]^(١).

● البشارة الخالدة:

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ تثبت كبير للنبي ﷺ في مواجهته لكيد المشركين ومكرهم، فالآية مكية نزلت على النبي ﷺ وهو

(١) انظر تفصيل الموضوع: في تفسير سورة الأحزاب، في تفسيرنا الموضوعي هذا، تحت عنوان: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

يواجه أذى المشركين وجحودهم وعنادهم.

كما أن في الآية بشارة للنبي ﷺ وطمأنينة على بقاء الإسلام، فلن يستطيع أحد أن ينال من هذه الدعوة الجديدة الوليدة، فهي مستمرة وباقية بعد أن تكفل الله تعالى بحفظها وبقيائها.

وتطمئنه أيضاً على حفظه للقرآن الكريم وحسن تلقّيه له من الوحي، فهي كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْفَعْ ۚ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ [القيامة].

فَلْتَقَرَّ عَيْنُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وليطمئن قلبك، فكلماتُ الله تعالى التي أنزلها عليك، وجمعها في قلبك، وبينها بلسانك، ستبقى ما بقي الزمان، حجة قائمة، تدل الناس على صدق نبوتك، وصحة رسالتك، صلى الله عليك وسلم وبارك، وعلى آلِكَ وأصحابك ما بقيت كلمات الحق في الأرض تهدي الحائرين وترشد الضالين.

● قلوب المجرمين:

ثم تابعت الآيات الكريمة تسليّة النبي ﷺ عما يلقي من أذى المشركين ومكرهم:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾

أي: أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أممهم.

والشيع: جمع شيعة، وهي الفرقة والطائفة من الناس المتألفة المتفقة الكلمة^(١)، أصلها من فعل (شاع) المتعدّي، بمعنى تبع، لأنّ بعضهم يشايع بعضاً ويتبعه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۚ﴾

فما تلقاه من هؤلاء المكذّبين المعاندين لقي مثله الأنبياء والمرسلون من أقوامهم.

(١) تفسير القرطبي: ٦/١٠.

ثم أخبر سبحانه عن تمام مشيئته، وكمال قدرته، وأنه بمشيئته وقدرته يدخل الاستهزاء والتكذيب في قلوب المجرمين من مشركي مكة بسبب عنادهم واستكبارهم، فقال:

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

والسُّلُكُ: إدخال الشيء في الشيء.

والمعنى: فكما سلطنا التكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الأولين، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين من مشركي مكة^(١).
فقد بيّنت الآية ما انطوت عليه قلوب المجرمين من استهزاء وتكذيب.
ونتيجة السُّلُكُ:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن أو بمحمد ﷺ.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: وقد مضت سنته تعالى بإهلاك المكذبين المعاندين، ففي الآية وعيد وتهديد لمشركي مكة.

● باب من السماء:

وما ظلمهم الله سبحانه بإدخال الاستهزاء والتكذيب في قلوبهم، لعلمه سبحانه شدة عنادهم وتكبرهم، قال عزّ شأنه: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

وقال أيضاً: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]^(٢).

(١) انظر: مجموعة التفاسير: ٥٥١/٥.

(٢) انظر تفصيل الموضوع في: تفسير سورة يونس، وقد جاء تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس) في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا.

ثم بَيَّنَّ سبحانه شِدَّةَ عِنادِهِمْ واستكبارِهِمْ بجحودهم للمعجزات الحسية المشاهدة، فقال:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤).

أي: يصعدون، قال ابن كثير رحمته الله: «يخبر الله تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق، أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: إنما سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا» (١).

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (١٥).

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أي: سُدَّتْ أَبْصَارُنَا، أو أَخَذَتْ، أو سُحِرَتْ، أو صارت سَكْرَى، أو غُشِيَتْ وَغُطِّيَتْ، وكلُّها أقوال متقاربة تدل على أنهم أرادوا أنه فسدت أَبْصَارُنَا، واعتراها خللٌ في إحساسها كما يعتري عقل السكران فيختل إدراكه (٢).

ثم أضرَبوا عن قولهم: ﴿سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، وادَّعوا أنهم مسحورون: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي: سَحَرَهُمُ مُحَمَّدٌ عليه السلام.

وهذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان (٣).

كما أنه يرد اقتراحهم رؤية الملائكة الذي سبق الإخبار عنه في قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧].

فالآية سبقت لبيان عِنادِ المشركين والردِّ عليهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٠٩/٢.

(٢) روح المعاني: ٢٠/١٥.

(٣) فتح القدير: ١٢٣/٣.

قال سيد قطب رحمه الله: «يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدؤ المكابرة السمجة، ويتجلى العناد المزري، ويتأكد أن لا جدوى من الجدل مع هؤلاء، ويثبت أن ليس الذي ينقضهم هو دلائل الإيمان، وليس الذي يمنعهم أن الملائكة لا تنزل، فصعودهم هم أشد دلالة وألصق بهم من نزول الملائكة، إنما هم قوم مكابرون، بلا حياء وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف»^(١).

وقول بعض الدارسين لظواهر الإعجاز العلمي في القرآن: «إن فيها حقيقة علمية يؤكدها ما نُقل عن أحد رواد الفضاء، أن بصره قد سُدَّ عندما صعد إلى الفضاء» يخرج الآية عن مقصدها الأساس، بل يجعل للمعاندين من المشركين عذراً في قولهم: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا﴾ ما دام قولهم يحل هذه الحقيقة العلمية، وهذا يفسد المعنى المراد فساداً كبيراً.

فالواجب علينا الحذر من الوقوع في مثل هذا، فلا ينبغي تحميل كلمات القرآن معاني تُخرجها عن مقصدها الأساس الذي سبقت من أجله، كما لا ينبغي تفسير الكلمة القرآنية بمعزل عن سياقها وموضعها من الآية القرآنية.



الْفَصْلُ الثَّانِي

بَيَانُ التَّوَازُنِ فِي الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَةً لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَافِظَةً مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّزْرُوعٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا أَعَدَدْنَا خَزَائِنَهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذْرَانَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَبَيْنَ أَلْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ هَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

● تَمْهِيد:

عندما ينسى الإنسان أنَّ حياته محدودةٌ بأجلٍ معيَّن لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، وأنَّ مواهبه وقواه الجسدية والفكرية محدودةٌ أيضاً ومقدَّرةٌ بمقاديرٍ معينة، يقع حينئذٍ الخللُ في حياته وسلوكه، فيغترُّ بنفسه، وتطول آماله بحياته، وتطغى عليه أهواؤه وشهواته، ويمتدُّ الخللُ والفسادُ إلى علاقة الإنسان مع غيره من الناس وإلى العالم المحيط به.

وما ينطبقُ على الإنسانِ ينطبقُ أيضاً على المخلوقات والمكونات كُلِّها، فالخالقُ واحدٌ، بل إنَّ بَيْنَ الإنسانِ والمكوناتِ ارتباطاً يدلُّ على كمالِ حكمةِ الله تعالى وعلمه، فقد جعلَ اللهُ لجميعِ المكوناتِ والمخلوقاتِ أعماراً وأجالاتٍ محدَّدة، وهذا التقديرُ مرتبطٌ بالنواميس الكونية التي جعلها سبحانه بقدرته ومشيتته أسبابَ استمرارِ الحياة وبقاءِ المخلوقاتِ إلى الأجلِ المحدد لها.

فشمّة ارتباط وتوازن بين مقادير المخلوقات وبين أعمارها وآجالها، يدل على حكمة الخالق وقدرته وعلمه، ولقد كشف العلم الحديث بعض أسرار هذا الارتباط والتوازن، ففي مجال الكواكب والأجرام السابحة في الفضاء وجدوا أنّ حركتها وسرعتها مرتبطة بأحجامها وكتلتها، ووجدوا أنّ الجاذبية التي جعلها الله ﷻ بين النجوم والأجرام، والتي تحفظ بتقديره سبحانه التوازن بين هذه الأجرام الكبيرة، وتضبط حركتها على أفلاكها، مرتبطة أيضاً بأحجامها وكتلتها وكثافتها، ولذلك قالوا: إنّ قانونَ الجاذبية الثقالية، التي توصّل إليها «نيوتن» هو: كلُّ جسمٍ مادي يجذبُ أيَّ جسمٍ إليه بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتي الجسمين وعكس مربع البعد بينهما^(١).

وهذا يدلُّ على أنّ أيَّ نقصٍ أو زيادة في كتلتي هذه الأجرام يؤدي إلى خلل في مواقعها وحركتها، يمتدُّ تأثيره إلى التوازن القائم بينها، ويظهر أثره على استمرار الحياة بسبب ما يحدث من خلل في نواميسها.

ولقد ركّزت آياتُ سورة الحجر التالية على التقدير الذي قدره الله تعالى للمكوّنات، وما يؤدي إلى التوازن القائم بينها، وارتباط كل ذلك بحياة الإنسان المحدودة على الأرض، وكلُّ ذلك أدلة قطعية الدلالة على وحدانية الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته سبحانه.

• السماء في القرآن الكريم:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَةً لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٦)

هل المراد من السماء حقيقتها وجرمها المادي أو جهتها؟ كلا المعنيين ممكنٌ هنا، ولا نستطيع ترجيح أحدهما من دون مرجح، ولا يقال: الأصل حملُ الكلام على معناه الحقيقي، لأنَّ القرآن الكريم أورد كلمة (السماء) بكلا المعنيين في مواضع كثيرة، فمثلاً الآيات التي أخبرت عن إنزال المطر من

(١) علم الفلك، لمحمد رضا مدور.

السماء أرادت جهة السماء، لأنَّ المطر يُنزِلُهُ الله تعالى من السحاب، الذي هو في جهة السماء، إذ جاء التصريح بهذا المعنى في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨]. ومنها أيضاً قوله عزَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَزَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ الآية [النور: ٤٣].

واستناداً إلى مثل هذه الآيات نستطيع أن نقول: إنَّ المراد من السماء في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] السحاب الذي في جهة السماء.

وهناك آياتٌ أرادت حقيقة السماء وجزمها، كقوله تعالى:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

إنَّما الذي نستطيع تأكيده والجزم به أنَّ حقيقة السماء مغايرة لحقيقة النجوم والكواكب، للمغايرة بينهما في آيات كثيرة، كقوله سبحانه: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ① و﴿إِذَا الْكَوَاكِبُ انثَرَتْ﴾ [الانفطار].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

وقوله عزَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

ولا شك أن الزينة تغاير المزين.

● الجمال في المكونات:

وقوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي: نجومًا، أو مواقع النجوم ومنازلها التي

أقسم الله تعالى بها في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ ② وإنَّه لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [الواقعة]، أو منازل الشمس والقمر.

وأصل البروج في اللغة: الظهور، ومنه تبرُّج المرأة بإظهار زينتها، ولهذا تُسمَّى القصورُ الكبيرة العالية: البروج، جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَيُّنَمَا كُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿وَرَيْنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي: زينا السماء للناظرين إليها بأبصارهم، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةً الْكُوكِبِ﴾ [الصفات: ٦].

أو زينها للناظرين إليها نظر التفكر والتدبر، المستدلين بذلك على قدرة مقدِّرها وحكمة مدبِّرها جلَّ شأنه^(١).

ولا شكَّ أنَّ جمالَ المخلوقات يدلُّ على وجود خالقها وكمال حكمته ومشيتته، لما فيه من دلالة على الإبداع والاختيار والتنسيق، وكثيراً ما نرى الآيات الكريمة تنبها إلى ظاهرة الجمال الماثرة في كل المكونات دليلاً على وجوده سبحانه ونعمته وفضله، قال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٥ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَحُونَ وَحِينَ سَرَحُونَ﴾ [النحل].

وقال أيضاً في جمال النبات: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ﴾ [الحج: ٣].

وتأمل كيف لفت سبحانه الأنظار إلى إبداعه في اختلاف ألوان الثمار والجبال، وما يترتب على هذا الإبداع من جمال، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فسبحانه ما أعظم حكمته وما أجلَّ رحمته!

• حَرَسَ فِي السَّمَاءِ:

جمع الله تعالى للسماء الجمال المادي والجمال المعنوي، فقد زيناها بالكواكب والنجوم، وحفظها أيضاً من رجس الشياطين ودنسهم، فقال عزَّ شأنه:

(١) روح المعاني: ٢٣/١٥.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ .

الرجيم: المطرود عن كل خير، فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها، وبالغاوين من أبناء آدم فيها، أمّا السماء فهو مطرودٌ عنها مطارد، لا ينالها ولا يدنسها، إلا محاولة منه تُردُّ كلما حاولها^(١). بدليل قوله سبحانه:

﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ أَسْرَفَ أَلْسَمَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ .

مبين: واضح ظاهر.

والملاحظ أنه سبحانه كلما لفت الأنظار إلى حكمته وإبداعه في تزيين السماء، ذكر بعده حفظه للسماء من الشياطين، كما في هذه الآيات، وفي قوله أيضاً الذي سبق ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله أيضاً الذي مر معنا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ﴾ ﴿٦﴾ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ [الصافات].

فكما جعل سبحانه الكواكب زينةً للسماء الدنيا، جعلها أيضاً مراكز لحراسة السماء وحفظها من الشياطين، وَرَدَّ ذلك صراحة على لسان الجن في قوله تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدُ السَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ .

ويظهر لنا من خلال هذه الآيات أن السماء ما كانت محروسة قبل البعثة النبوية ونزول القرآن الكريم، إذ كان بعض الجن والشياطين يصعدون إلى السماء، يسترقون السمع من الملائكة.

وهل كانوا يصعدون حتى يصلوا إلى جرم السماء؟ أم كانوا يصعدون في جو السماء وجهتها؟ النصوصُ القرآنيةُ مطلقةٌ تحتّمُ هذا وهذا.

وقد رويَ عن النبي ﷺ ما يرجحُ الثاني، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ الملائكةَ تنزِلُ في العنانِ (وهو السحاب) فتذكرُ الأمرَ قُضي في السماءِ، فتسترقُّ الشياطينُ السمعَ فتسمعه، فتوحيه إلى الكُهانِ، فيَكْذِبُونَ مع الكلمةِ مئةَ كذبةٍ من عند أنفسهم» [رواه البخاري (٢٢١٠)].

● الشهب المشتعلة:

ويطلقُ الشهاب في اللغة: على الشعلة الساطعة من النار الموقدة، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

ويطلق أيضاً على الكوكب المضيء اللامع، وعلى بعض الأجزاء الصغيرة الملتهبة المنفصلة عن بعض الكواكب والنجوم الملتهبة، وهذا المعنى هو المراد هنا في قوله: ﴿فَاتَّبَعُهُ، شِهَابٌ مُبِينٌ﴾.

ومن الثابت علمياً أنَّ بعض النجوم وخاصةً القريبة من الشمس ذات حرارة عالية ملتهبة، وما ينفصل عنها من أجزاء ملتهب مثلها، وتزداد التهاباً وحرارة عندما تصل إلى جو الأرض وتحتكُ بهوائها.

وليس من الضروري أن تكونَ الشهبُ لرمي الشياطين المسترقين للسمع فقط، إذ من الممكن أن يكون لها حِكْمٌ أخرى لا نعلمها، الله سبحانه يعلمها.

● الجبال الرواسي:

ثم تنقلنا الآيات الكريمة من السماء وبروجها وزينتها إلى الأرض وجبالها ونباتها:

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩).

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطانها ليتمكن العيش عليها والانتفاع بها، فهو كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُوءُ﴾ [الذاريات: ٤٨].

ولا يلزم من ذلك نفْيُ كرويتها، كما قال بعض قدماء المفسرين، كما أنَّ الكرة العظيمة لعظمها تُرى كالسطح المستوي^(١).

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسًا﴾ أي: جبلاً ثابتة.

وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ يدل على عظمة القدرة الإلهية التي أصبحت الكتل الجبلية الهائلة بالنسبة لها أشياء صغيرة تُلقى على الأرض، كما تدلُّ على أنَّ الجبال أضيفت إلى الأرض، وثُبَّتَتْ فيها كما يَثْبُتُ التودُّ في الأرض، وقد جاء وصف الجبال بالأوتاد في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٧].

واتفقت الآيات بهذا مع ما يقوله علماء طبقات الأرض عن دور الجبال في تثبيت القشرة الأرضية، وعن وجود جذور للجبال في داخلها تعمل على تثبيتها وتمنع انزلاقها.

وتدل كلمة ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ أيضاً على أنَّ الجبال خُلقت بعد خلق الأرض، إلا أنَّ استعمال كلمة (جعل) بدل (ألقى) في بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، جعل بعض المفسرين يرون احتمالاً أنه سبحانه خلق الأرض من دون الجبال أولاً، ثم خلق فيها الجبال.

قال الفخر الرازي رحمته الله: «فإن قيل: أتقولون: إنَّه تعالى خلق الأرض من دون الجبال فمالَت بأهلها، فخلق فيها الجبال؟ أو تقولون: إنَّ الله خلق الأرض والجبال معاً قلنا: كلا الوجهين محتمل»^(٢).

لكنَّ الحديث الشريف يرجِّح الوجه الأول: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسولُ الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله ﷻ التربةَ يومَ السبتِ، وخلق فيها الجبالَ يومَ الأحدِ، وخلق الشجرَ يومَ الإثنينِ، وخلق المكروهَ يومَ الثلاثاءِ، وخلق النورَ يومَ الأربعاءِ، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميسِ، وخلق آدمَ بعدَ العصرِ مِنْ يومٍ

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٧٤/١٩؛ وروح المعاني: ٢٨/١٥.

(٢) التفسير الكبير: ١٧٥/١٩.

الجمعة في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» [رواه مسلم (٢٧٨٩)].

• التقدير والتوازن:

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: مقدّر بمقدار معيّن معلوم حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه، فكل شيء في الأرض، وفي الكون أيضاً، مقدّر بمقدار معيّن محدود لا يتجاوزه، قدره العليم الحكيم على وفق النواميس التي جعلها سبحانه أسباب استمرار الحياة، وهذه النواميس ليست حتميةً ولازمةً بنفسها، إنّما حتميتها وثباتها واستمرارها متعلّق بمشيئته سبحانه وقدرته.

فالتدبير والتقدير له سبحانه، كما أنّ الخلق له سبحانه وحده؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] ^(١).

وقد كشف العلم الحديث بعض حكم التقدير والتحديد وارتباطه بنواميس استمرار الحياة التي قدرها سبحانه، فثمة توازن عجيب في مجال التنفس بين الحيوانات والإنسان والنبات والبحر، فالإنسان والحيوان يستنشق من الهواء الأوكسجين، ويلقي ثاني أوكسيد الكربون، ويقابلُه النبات الذي يأخذ ثاني أوكسيد الكربون، ويلقي الأوكسجين، وإذا زادت نسبة ثاني أوكسيد الكربون في الهواء امتصّ البحر الزيادة، وأعاد التوازن إلى الهواء.

ولو كانت الأرض أقلّ وزناً مما هي عليه لنقصت جاذبيتها، وابتعد الهواء عن جوها المحيط بها، وعدمت الحياة عليها، ولو كانت أثقل مما هي عليه لازدادت جاذبيتها، وتعذّرت الحركة فوقها، وازداد وزن الإنسان بشكل يعطل نشاطه وحيويته، ويؤثر على حركته، فاعلم عظمة حكمته سبحانه، وبديع صنعه،

(١) انظر: تفسير سورة يونس، المسمّى هنا في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

وإحاطة علمه، وسراً من أسرار إعجاز كتابه في قوله عزّ شأنه: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾.

فكل ما في الأرض يتناسب تماماً مع حاجات الناس المعيشية، مما يدل على فضله سبحانه وإحسانه عليهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ بما يسّر لكم فيها من أسباب الكسب وتحصيل الرزق. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنَ﴾ وجعل لكم أيضاً الأولادَ والخدمَ والدواب والأنعام، فلکم منافعهم، وعلى الله سبحانه أرزاقهم لا عليكم^(١).
فما أعظم فضله سبحانه وإحسانه!

• خزائنه سبحانه:

ولا تظنّ أن تقدير المخلوقات بمقادير معينة محددة يدل على أن خزائنه سبحانه محدودة، فخرائنه سبحانه لا تحدّها حدود، ولا تحيط بها أوزان ولا أعداد، لأنها آثار قدرته سبحانه، قال تعالى:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: ما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما خلقنا منه، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره سبحانه، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد^(٢).
وبهذا بين سبحانه سعة قدرته وكمال غناه.

ثم بين بعد ذلك كمال حكمته وتمام مشيئته، فقال:

﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ حدّته مشيئته واقتضته حكمته سبحانه.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٣٠٩/٢.

(٢) تفسير البضاوي: ٥٥٦/٥.

فإذا ما ضيق الله تعالى عليك الرزق، فلا تظننَّ أنَّ ذلك التضيق بسبب قلة ما عنده سبحانه، إنما ضيقه عليك لحكمة يعلمها، بين بعضها بقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿لَنَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فخزائنه سبحانه ملأى لا ينقصها عطاؤه وإحسانه، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى، لَا يُغِيضُهَا (أي: ينقصها) نَفَقَةٌ، سَحَاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُغَضْ مَا فِي يَمِينِهِ» [رواه البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣)]. قوله: «سحاء» أي: فياضة بالعطاء في كلِّ الأوقات.

وجاء في الحديث القدسي: «يا عبادي! لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْ سَكَمَ وَجَنَّتُمْ، قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته، ما نقصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما ينقصُ المحيطُ (الإبرة) إذا أُدخلَ البحرُ» [رواه مسلم (٢٥٧٧)].

وهذا التمثيلُ تقريبٌ للأذهان، ومعناه: لا ينقص شيئاً أصلاً كما سبق في الحديث الذي قبله، لأنَّ ما عندَ الله لا يدخله نقصٌ، إذ هو من رحمته وكرمه، وأثر من آثار مشيئته وقدرته.

• الرياح اللواقح:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ أي: أرسلنا الرياح حواملَ تحملُ المطرَ.

فاللواقح: جمع لاقح، وهي الأنثى التي قبلت اللقاح، فحملت الجنين، ووصف سبحانه الرياح بكونها لواقح، لأنها حوامل تحمل المطر، كما في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ

لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ [الأعراف: ٥٧].

ومعنى ﴿أَفَلَتِ سَحَابًا﴾ حملت سحاباً، ولهذا يقال للريح التي لا تحمل خيراً: عقيم: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

وتأتي اللواقح أيضاً بمعنى الملاقح، أي: التي تُلَقَّح غيرها، فالريح تُلَقَّح السحاب فيدُرُّ المطر، وتُلَقَّح الشجر، فتفتح عن أوراقها وأكمامها وثمارها^(١).

وللرياح أيضاً دورٌ في تلقيح عناصر النبات المؤنثة بعناصره المذكرة، فعندما تهبُّ الرياح تحملُ غبارَ الظِّلَعِ المذكَرِ إلى أزهار النبات المؤنثة، وهذا المعنى، وإن كان حقيقةً علميةً يحتمله لفظ كلمة (لواقح)؛ إلا أنَّ الوحدة الموضوعية لمعاني كلمات الآية لا تحتمله، وهي قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: من السحاب الذي في جهة السماء الذي حملته الرياح.

﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ﴾ أي: جعلناه لكم سقياً، تسقون به مزارعكم ومواشيكم. ولفظ (أسقينا) أبلغ من (سقينا) لما فيها من الدلالة على جعل الماء مُعَدًّا لهم ينتفعون به متى شاؤوا^(٢).

• خزان الماء في السماء والأرض:

وقوله سبحانه:

﴿وَمَا أُنْزِلُ لَهُ، بِخَزَائِنٍ﴾ يدل على تفرُّده سبحانه بالقدرة الكاملة، إذ نفى عنهم ما أثبتته لنفسه بما سبق من قوله ﷻ: ﴿وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]؛ فهو سبحانه الذي يرسلُ الرياحَ، ويثير السحابَ، ويخزن الماء فيه، وينزله منه.

أو ﴿وَمَا أُنْزِلُ لَهُ، بِخَزَائِنٍ﴾ في داخل طبقات الأرض وتحت ثراها.

(١) أضواء البيان: ٣/ ١٣٤٢؛ ومجموعة التفاسير: ٥٥٦/٥.

(٢) روح المعاني: ٣١/١٥.

وقد قالوا: إِنَّ مِنَ المِياه الجوفية التي يستخرجها الناس من باطن الأرض في العصر الحاضر قد خَزِنَتْ فيها منذ ملايين السنين بقدرته سبحانه، الذي خلق في الأرض أسباباً لحفظ الماء وبقائه فيها كل هذه الأزمان السحيقة، فهو سبحانه الخازن لهذه المياه على الحقيقة، ولو لم يخلق سبحانه لهذه المياه أسباب الحفظ لغارت في الأرض وضاعت، فَإِنَّ طبيعة الماء تقتضي الغور والانسياب، فوقوفه عند حده لا بدُّ له من سبب مخصص^(١).

قال عزّ شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَنَ يَأْتِيَكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].
وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

فبقدرته سبحانه جعل للماء خزائن في جو السماء وباطن الأرض.

● الوارث ﷻ:

وبعد أن بيّن سبحانه تقديره للمخلوقات، وتخصيصه لكل منها بمقدار معين على مقتضى حكمته ومشيئته، بيّن سبحانه أن الموت والحياة بمشيئته أيضاً وقدرته، وأنه سبحانه الذي لا يموث، فهو القديم الذي لا بداية له، والباقي الذي لا نهاية له، فحضرته سبحانه حضرة إطلاق عن النواميس والحدود، قال ﷻ:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣) ﷻ.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ فهو سبحانه وحده الذي يحيي بالإيجاد، ويميت بالإفناء.

﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون بعد موت المخلوقات وفنائها، كما قال جلّ وعزّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۖ وَيَسْأَلُ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

ويقال للباقي: وارث، استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فناءه^(١)؛
فالله سبحانه هو الباقي بعد فناء خلقه، متصفاً بصفات الكمال والجلال.

● المستقدمون والمستأخرون:

ولا يُخْرِجُ الموتُ والفناء المخلوقاتِ عن إحاطة علمه سبحانه وقدرته، فهو سبحانه محيطٌ بها في شتى أحوالها وأطوارها، موجودة كانت أو معدومة، في الحياة وبعد الممات، قال عزَّ شأنه:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾.

أي: من تقدّم ولادةً وموتاً ومن تأخر، أو من خلق الله تعالى ومن لم يخلقه بعد، أو المتقدمين في الطاعات والمقصرين فيها.
فالآية تبينُ كمالَ علمه تعالى لما كان ويكون، فلا يخفى على الله شيءٌ من أحوال خلقه، فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم أو تأخرهم في الحدوث والوجود، وتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات^(٢).
ولن يقيم الله الساعة حتى تكتمل عدة المخلوقات التي سبق علمه سبحانه بهم، وتعلقت إرادته بخلقهم: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمُ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤].
وهو وحده سبحانه القادر على جمعهم وحشرهم بعد موتهم وتفتت أجسامهم:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للحساب والجزاء.
﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في إيجاده للمخلوقات على الوجه اللائق بها، وفي تقديره الحشر للجزاء والحساب.
﴿عَلِيمٌ﴾ وسعَ علمه كلَّ شيءٍ وأحاط بكلَّ شيءٍ سبحانه.



(١) تفسير النسفي: ٥٥٨/٥.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٨٢/١٩.

الفصل الثالث القصة الأولى الإنسان والشيطان

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٦﴾ وَالْبَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٣٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ يَبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٤٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ هَمَّهُمْ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ خُزْنٌ مَقْسُومٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٥﴾ أَتَخْلَوْهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٥٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥٨﴾﴾

• التراب والنار:

عَرَضُ القصص الواقعية والتاريخية على سبيل الاستشهاد والتأكيد لموضوع السورة وأفكارها من أساليب القرآن الكريم البارزة فيه، وهامى الآيات الكريمة

في سورة الحجر تؤكد ما سبق تقريره فيها بذكر بعض القصص الواقعية والتاريخية، وتبدأ بقصة الإنسان والشیطان.

فبيّنت الآيات في بداية القصة الاختلاف القائم بين تكوين البنية المادية للإنسان وبين تكوين بنية الشيطان، بقوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝﴾

والمراد من الإنسان في الآية: آدم ﷺ أول مخلوق من البشر، خلق الله تعالى بنيته المادية من تراب الأرض، وجاء التصريح عن ذلك بآيات كثيرة؛ منها: ﴿يَكْنُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وبيّن سبحانه أنّ ذلك التراب مُزج بالماء، فصار طيناً يعلّق بالأيدي: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وأنّ هذا الطين تغيّر واسودّ حتى صار حمأً مسنوناً، ثم ييس حتى صارت له صلصلة كالفخار، كما في الآية هنا، وفي قوله أيضاً: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

فالحاصل أنّ التراب لما بُلّ صار طيناً، فلمّا أنتن صار حمأً مسنوناً، فلمّا ييس صار صلصلاً^(١).

والجدير بالذكر أنّ علم التحليل الكيميائي أثبت أنك لو أخذت حفنة من تراب الأرض، وأجريت عليها التحليل الكيميائي لوجدتها تتكون من ستة عشر عنصراً هي نفس العناصر التي يتكوّن منها جسم الإنسان، ووجدت أيضاً اتحاد النسبة المئوية بين العناصر في التراب وجسم الإنسان^(٢).

وأما الشيطان فقد خلقه الله تعالى من نار السموم:

(١) فتح القدير: ١٣٠/٣.

(٢) انظر: جريدة العالم الإسلامي، العدد (١٠٦٤)، تحت عنوان: الإعجاز العلمي للقرآن.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٢٧).

والجان: أبو الجن أو الشيطان، خلقه الله قبل خلق آدم من نار السموم، وهي الشديدة الحارة التي تقتل، فقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

وفي الحديث الصحيح: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نورٍ، وَخُلِقَ الجانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نارٍ، وَخُلِقَ آدمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» [رواه مسلم (٢٩٩٦)].

• نَفْخُ الرُّوحِ:

ثم شرعت الآيات تبين ما حدث بعد أن خلق الله تعالى آدم ﷺ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٨).

فقد بين الله تعالى للملائكة طبيعة البنية المادية للمخلوق الجديد، ثم قال لهم:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩).

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: أتممت خلقته، وعدلت صورته، وهياته لنفخ الروح فيه. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ والنفخ: إجراء الريح في الشيء، والروح: جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم.

وحقيقة قوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ إضافة خَلَقَ إلى خَالَقِي، فالروح خلق من خلقه سبحانه، أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: أَرْضِي وَسَمَائِي، وَبَيْتِي، وَنَاقَةَ اللَّهِ، وَشَهْرَ اللَّهِ، وَمِثْلَهُ ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ في الآية الكريمة: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ

إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ [النساء: ١٧١] (١).

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾: المراد منه تمثيلُ إفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها، وليس هناك نفخ حقيقة (٢).

والعلماء متفقون على أن قوله: ﴿رُوحِي﴾ إضافة خلق الله للخالق للتحريف والتكريم، كبيت الله، وناقة الله.

وأما حقيقة الروح فلا يعلمها إلا الله تعالى القائل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

• خطأ جسيم:

وقد أخطأ سيد قطب رحمه الله خطأ جسيماً عندما استعمل ألفاظاً موهمة لمعنى فاسد، يصادم العقيدة الإسلامية القائمة على توحيد الخالق سبحانه، وهو معنى الحلول الذي شاع عند بعض المتصوفة القائلين بأن الكون كله بما فيه مجموعة إلهية، والله تعالى روح لها، وهذا كفر قطعاً كما قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله، إذ هو الحلول الذي يتبرأ منه المؤمنون (٣).

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: «ولا نملك أن نسأل: كيف تلبَّست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني، فالجدل على هذا النحو عبث عقلي.. إنه يقول: كيف يتلبَّس الخالد بالفاني؟ وكيف يتلبَّس الأزلي بالحدث؟ ثم ينكر أو يثبت أو يعلل، بينما العقل الإنساني ليس مدعواً أصلاً للفصل في الموضوع، لأن الله يقول: إن هذا قد كان، ولا يقول: كيف كان؟

(١) تفسير القرطبي: ٢٤/١٠.

(٢) روح المعاني: ٢٦/٥.

(٣) انظر: العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

فالأمر إذن ثابت، ولا يملك العقل البشري أن ينفيه، وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده، من غير تسليم بالنص^(١).

لكن علماء التفسير فهموا الآية فهماً لا يثير مثل هذه التساؤلات الفاسدة التي أثارها: كيف يتلبس الخالد بالفاني؟ وكيف يتلبس الأزلي بالحادث؟ والتي أثبتتها بعد ذلك بقوله حكاية عن الله تعالى: «إن هذا قد كان...» إن هذا لم يكن أبداً، وليس في الآية ما يدل على هذا التلبس، فإن قوله سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ لا يدل على هذا المعنى قطعاً، وإلا لزم القول بأنه سبحانه حلّ وتلبس في البيت الحرام عندما قال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وأنه سبحانه تلبس وحلّ في الناقة عندما قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهو القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، تقدّست ذاته وتسامت صفاته ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقد قال سبحانه ردّاً على النصارى الذين زعموا أنه حلّ في عيسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

فهو سبحانه واحدٌ أحدٌ، مبينٌ لخلقِه بذاته وصفاته وأفعاله، ولا يكون الإنسان مؤمناً إلا بهذا الاعتقاد.

● سجود الملائكة:

ثم أمر سبحانه الملائكة بالسجود لآدم على وجه التحية والإكرام: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾ وفي أمرهم بالوقوع، أي: السقوط، دليلٌ على أن

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢١٤٠.

المأمور به ليس مجرد الانحناء، كما قيل، بل السجود بالمعنى المتبادر^(١)، وهو محرم في الإسلام على أي وجه، سواء كان للتحية أو للتعظيم أو للعبادة. قال رسول الله ﷺ: «لو كنتُ امرأةً لأحدٌ أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها» [أخرجه الترمذي (١١٥٩)، وقال: حديث حسن صحيح].
وامثل الملائكة لأمر الله تعالى:

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ﴾، فلم يشذَّ أحدٌ منهم. ﴿أَجْمَعُونَ﴾ ولم يتأخر أحدٌ عن أحد، بل أوقعوا الفعل مجتمعين في وقت واحد^(٢).

• إباء إبليس:

وأبى إبليس السجود تكبراً:

﴿إِلَّا إِلَٰهَ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٣١﴾

بعد أن شمله الأمر الإلهي بالسجود مع الملائكة، كما جاء مصرحاً به في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]. ولما سأله سبحانه مقررراً وموبخاً:

﴿قَالَ يَبْنَٰلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٣٢﴾

ردَّ الخبيث لعنه الله بوقاحةٍ وتبجح:

(١) روح المعاني: ٤٥/١٥. قلت: السجود لآدم استجابة لأمر الله، فهو في الحقيقة عبادة لله، وكان آدم جهةً للسجود، فهو بمثابة الكعبة، لذلك عندما امتنع إبليس عن السجود، كان عاصياً لله تعالى، قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] (ن).
(٢) روح المعاني: ٤٥/٥.

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

رأى لنفسه فضلاً على آدم، لأنَّ أصلَ إبليس من نارٍ، بينما أصلُ آدم من طين، وقد جاء التصريحُ به في سورة الأعراف في قوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾.

وما درى الخبيث أنَّ الفضل لا يكون بالأصل، وإنما يكون بعبادته سبحانه وطاعته وامثال أمره، فاستحقَّ بسبب تكبره وتجبره طرده ولعنته:

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: اخرج من زمرة الملائكة، أو من السماء، أو من الجنة، فإنك مطرودٌ من كلِّ خير وكرامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ الباقية التي لا تزول.

﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ وجعل يومَ الدين غايةً لها، لأنَّه أبعدُ غايةٍ يضربها الناسُ في كلامهم، فالمراد دوائها من غير انقطاع، أو لأنه يوم الدين يعذب بما ينسى اللعن معه، أو يزداد يوم الدين عذاباً إلى اللعنة التي عليه^(١).

عندئذٍ تسعَّرت نفسُ الخبيثِ حقداً على الإنسان وحسداً له، فسأل الله تعالى أن يؤخر أجله، ويطيل عمره إلى يوم القيامة:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْني إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فاستجاب الله تعالى دعوته، وهو سبحانه يعلم أنه سيسعى لإضلال كثير من

الناس وإغوائهم انتقاماً منهم، إذ اقتضت حكمته سبحانه أن تكون الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأن يكون الشيطان فيها من أكبر أسباب الابتلاء والاختبار.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إنك من الذين أُخِّرْتُ آجالهم.

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

وهو وقت النفخة الأولى التي يصعق بها كل من قدر سبحانه موتهم من أهل السماوات والأرض: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

• نقاط الضعف البشري:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب ابتلائي بالسجود لآدم الذي جعلني أضل. ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أقسم لأزين لهم في الأرض. وأراد من قوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ما فيها من شهوات كثيرة، وآمال طويلة، تجعلهم ينصرفون عن عبادة الله تعالى وطاعته، ويغفلون عن الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء. ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا يدل على شدة ثقة الشيطان بنفسه وشدة مكره وخداعه.

ويبدو أنه علم نقاط الضعف عند الإنسان بما شاهد من تكوين جسده، فالإنسان مخلوق من تراب الأرض، وله جوف يصوت ويصلصل كالفخار، وعمره في الأرض مقدّر ومحدود، فله إذن ميل وتعلق بشهوات الأرض.

وقد جاء في الحديث الشريف: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ ﷻ آدَمَ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ

يدعُهُ، فجعلَ إبليسَ طيِّفٌ به، ينظرُ إليه، فلمَّا رآه أجوفَ عرفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لا يتمالِكُ» [رواه أحمد (١٢٤٧٨، ١٣٥٩٥)].

فلشهوات الإنسان الجسدية تأثيرٌ كبير عليه إذا أثّرت وسُعّرت، ولهذا أخذ الخبيث على نفسه أن يزيّن للإنسان شهواته الجسدية الأرضية، ويثير في نفسه رغباته الجنسية، حتى يجعله ينهمك بها، وينصرف عمّا كلّفه الله تعالى به من العبادة والطاعة.

ويمكن بهذا من إدخال الخلل على التوازن في حياة الإنسان في حال طاعته لربه والتزامه بشرعه ومنهجه.

لقد أحلّ الله تعالى للإنسان أن يلبي مطالب جسده الأرضية ضمن حدود تقيم في حياته توازناً بين دنياه وآخرته، وبين جسده وروحه، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، كما سبق بيانه في أول الباب، فإذا ما انخدع بتزيينات الشيطان، واستجاب لنزغاته، وقع الخلل في هذا التوازن، ودخل بالتالي في العناء والشقاء.

● مطايا الشيطان:

وأهم مطايا الشيطان ووسائله لتحقيق أغراضه: التسويف وتطويل الأمل، فالإنسان بطبعه يميل إلى الأرض ويحبُّ البقاء فيها، ويكره الفناء، وهي نقطة ضعف كبيرة في الإنسان، وعن طريقها تمكّن الخبيث من إغواء آدم وحواء عندما كانا في الجنة، وجعلهما يرتكبان المحظور، ويأكلان من الشجرة المحرّمة عليهما، فقد أخبرهما بأنها شجرة الخلد، وأقسم كاذباً أنهما ينالان الخلود والمُلْك الذي لا يبلى إن أكلا منها: ﴿فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ نَهْمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف].

﴿فَوَسَّوْا إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّكِدُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

فالآماني الكاذبة والآمال الطويلة مطايا الشيطان لإغواء الإنسان، قال سبحانه: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

● سبيل النجاة:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤١).

الذين أخلصتهم لك، واصطفيتهم لطاعتك، أو المخلصين في طاعتهم لك، ولا يلتفتون لأحد سواك.

وفيه مدح للإخلاص، فهو سبيل النجاة من كيد الشيطان ومكره.

ثم بيّن سبحانه أنه ليس للشيطان تسلط على أحد من عبيده، بحيث يتمكن من قهره وإجباره على المعصية، يستوي في هذا المخلصون وغيرهم، فقال عزّ شأنه:

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١).

أي: حق عليّ أن أراعيه بلا انحراف فيه، ولا عدول عنه إلى غيره، وهو فضل منه سبحانه التزم به لعباده.

﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (٤٢).

﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: ليس لك تسلط وإجبار على أحد من عبادي المخلصين وغيرهم، فلا يستطيع إبليس سوى تحسين المعصية، وتزيين الفاحشة، ولهذا يتبرأ من أتباعه يوم القيامة عندما يتجهون إليه باللوم والتقريع: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله سبحانه:

﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء مما تقدم، ولكنه بسبب انقيادهم للشيطان

ومتابعتهم له^(١)، فسلطانه عليهم بسبب انخداعهم بكيده ومكره، ولهذا وصفهم الله تعالى بصفة الغاوين، فالغواية والضلالة نابعة من أنفسهم.

• أبواب جهنم:

وجاءت الآيات تتوعد أولئك الغاوين الموالين للشيطان المتبعين له، حتى يرتدعوا عما هم فيه وينزجروا:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وفي جَعَلِ جهنم موعداً لهم تهكم مُرَّ بهم، فكأنَّهم على ميعاد مع جهنم^(٢).

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي: لجهنم سبعة أبواب، أو سبع طبقات.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ معيَّن له ومفرز، والسبب فيه اختلافهم في مراتب الكفر والفجور.

ثم بيَّنت الآيات مصيرَ المخلصين الذين لم يتمكن الشيطان من إغوائهم اتباعاً للأسلوب القرآني في الجمع بين الترهيب والترغيب:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾

هكذا على الإطلاق دون قيود وحدود، ويقال لهم:

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: ادخلوا الجنة التي هي دار السلام بسلام.

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٩/١٩٤.

(٢) روح المعاني: ٥٢/١٥.

﴿ءَامِنِينَ﴾ من طرء المكذرات والمنغصات، ومن الحقد والحسد، فقد وصلتكم دار السلام والأمان.

فلا يدخلون الجنة حتى يطهّر الله تعالى قلوبهم ونفوسهم من جميع الآفات، وكذلك يكمل ويكمل أجسامهم:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٤٧).

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ﴾ من حقد، حتى أصبحوا:

﴿إِخْوَانًا﴾ يجلسون مع بعضهم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٤٨).

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: لا يصيبهم في الجنة تعب وعناء.

﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بفضلته وكرمه.

● النشوء والارتقاء:

لابدّ لنا هنا أن نشير إلى خطأ ما يسمى بنظرية النشوء والارتقاء، أو نظرية داروين، نسبة إلى اليهودي الإنكليزي دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢م)، لأنّها تصادمُ الآيات القرآنية الكريمة التي سبقت في هذه السورة، وفي غيرها من السور القرآنية، والتي بيّن الله تعالى فيها كيف بدأ خلق الإنسان، وذلك بسبب انتشار هذه النظرية بين كثير من أبناء المسلمين، فهي تدرّس في كثير من مدارسهم وجامعاتهم، وتحدّث عنها بشكل مستمر وسائل الإعلام بواسطة الأفلام التلفزيونية التي يسمونها: العلمية، مع أنّ نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية تكذبها، وكذلك العلم الحديث قد نقضها ولم يعد يأبه بها^(١).

(١) انظر: القرار المكين.

وتقول هذه النظرية: إن الأحياء يتخلَّق بعضها من بعض بسبب تأثير البيئة والزمن، وإن هناك اختياراً طبيعياً في الأحياء، بحيث لا يبقى إلا الأقوى، وصفاته هي التي تورث عنه.

وقد صنَّف أصحاب هذه النظرية المخلوقات الحية، فوجدوا أن أعلاها الإنسان، يليه القرد، وأن أداها وحيد الخلية، فقالوا تبعاً لهذا: إن الخلق ابتداءً بوحيد الخلية، ثم تطور وارتقى حتى وصل إلى الإنسان^(١).

وتصنيفهم للمخلوقات يدل على وحدة الخالق سبحانه، وهو أمر سبق أن لاحظته علماء المسلمين منذ زمن بعيد، ونَبَّهوا عليه، كابن خلدون في مقدمته، والدِّمِيرِي، والبلخي، والفخر الرازي^(٢).

وأما قولهم: «إنَّ الأحياء يتخلَّق بعضها من بعض بسبب تأثير البيئة والزمن» فلا دليل لهم عليه، فلو أنَّ مهندساً أنشأ ألفَ بناية تتميز كل واحدة عن التي قبلها ببعض التفاصيل، ولكنها تشترك كلها بطريقة واحدة في التصميم والإنشاء، فهل نقول: إن كلَّ بناية قد اشتقت من التي قبلها وتطورت عنها؟! أم نقول: إن الذي صمم وأنشأ الأولى هو نفسه الذي صمم وأنشأ الثانية وطورها حسب الظروف التي حدثت^(٣).

ثم إنَّ علم الوراثة الحديث قد هدم كلَّ أساس لهذه النظرية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تورث الفروع المتفرعة عنها كل ما تحمل من خصائص بواسطة الكروموزومات، ولا نجد بين أجناس المخلوقات اتفاقاً في الخصائص الموروثة، بل نجد بينها تبايناً ظاهراً، واختلافاً حتى في عدد الكروموزومات، فعددها مثلاً في الإنسان (٤٦)، وفي القرد (٤٨)، وفي الغنم (٥٤)، وفي الحصان (٦٦)، وفي الكلب (٧٨)^(٤).

(١) انظر: القرار المكين.

(٢) انظر كتاب: خلق الإنسان بين الطب والقرآن.

(٣) انظر: القرار المكين.

(٤) المصدر السابق نفسه.

ولهذا فقد أعلن القرار العلمي على بطلان النظرية الداروينية، بل إن داروين نفسه في كتابه «أصل الأنواع» أقرَّ بوجود ثغرات كثيرة ومشكلات كبيرة معقدة في نظريته، منها: أنه عثر على هياكل حيوانات تعود إلى ما قبل العصر الجليدي تشبه هياكل لحيوانات مماثلة لا تزال موجودة^(١).

وقد عثروا في السنوات الأخيرة في البحار القريبة من جزر القمر على سمكة كانوا يعتقدون انقراضها منذ عدة ملايين من السنين.

كل ذلك يؤكِّد بطلان هذه النظرية التي سبق وأكدت الآيات الكريمة بطلانها وفسادها.



(١) انظر كتاب: نقض أوهام المادية الجدلية (الديالكتيكية)، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

الْفُضِّلُ الرَّابِعُ

الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ

إِبْرَاهِيمَ وَلُوطَ ۖ وَالْأَمْلُ بِاللَّهِ تَعَالَى

﴿بَنِي عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّهَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلَيْكَ ﴿٥٣﴾ قَالَ أُبَشِّرُكُمْ بِبَتُولٍ أُنْجَبَتْ عَلَيْهَا نَارُ الْمَلَكِ الْكِبَرِ فَوَيْدٌ يُنْبِشِرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَا بِمَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاطِنِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَدِيرُ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَاكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَفَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَنُوكَ إِنَّمَا لَيْسَ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّمَا لَيْسَبِيلُ مِصْرَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْقَمَسْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَامَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ .

● الرجاء والخوف:

تناولت القصَّةُ الثانيةُ موضوعَ الأمل عند الإنسان من جانب آخر، وهو أملُ الإنسان بالله تعالى ورحمته.

وفي هذا الجانب ينبغي أن يكونَ أملُ الإنسان بربه كبيراً، ورجاؤه به عظيماً، فلا قنوط من رحمة الله تعالى، ولا يأس في جميع الأحوال والظروف، بل الواجب على الإنسان المؤمن أن يكون على ثقة كبيرة بالله تعالى، وأن يكون أمله برحمته سبحانه قوياً، فلا يجتمع الإيمان بالله تعالى مع اليأس والقنوط من رحمته، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ويجب على الإنسان المؤمن في الوقت نفسه ألا يغفل عن مسؤوليته عن أعماله أمام الله تعالى يوم القيامة، وما يترتب عليها من حساب وعقاب، فالإنسان مهما اجتهد في طاعة الله يجد نفسه مقصراً، ومهما تحرَّز عن المعاصي والذنوب لا بدَّ أن يدركه ضعف الإنسان فيقارِفُ بعضها، ولهذا ينبغي أن يكون دائماً على خوف ووجل من الله تعالى، وبهذا يجمعُ الإنسان المؤمنُ بين الرجاء والخوف في قلبه، يرجو رحمة الله، ويخشى عذابه، ويبقى بهذا الجمع متوازناً في حياته ومستقيماً في سلوكه، فلا يستطيعُ الشيطان أن يستغلَّ قوةَ رجائه وطول أمله برحمته ربه، فيوقعه بِشْرِكٍ غروره وخداعه، فالخوف من الله وخشيته تقطع على الشيطان الطريق.

أما إذا أَمِنَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَعَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَاءُ بِرَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ عِنْدَئِذٍ يَقَعُ الْخَلَلُ فِي حَيَاتِهِ، ويتمكن الشيطان من المكر به وخداعه، الأمر الذي حذَّر منه سبحانه في آيات كثيرة، منها قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفَرُورُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر].

وما أكثر الذين تمكَّن الشيطانُ من التغرير بهم من جانب الرجاء والأمل، إذ جعلهم يطمعون بفضل الله ورحمته، ويغفلون عن عقابه وعذابه، فانغمسوا في المعاصي، وأخَّروا التوبة حتى نزل بهم الموت، وفاجأهم الأجلُ المجهول، عندئذٍ

يدركون خسارتهم وتفريطهم، فيسألون الله تعالى أن يؤخر آجالهم، ويطيل في أعمارهم، كما قال سبحانه فيهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون].
إنها ودادة وأمنية لا تتحقق، لأن آجالهم لا تتقدم ولا تتأخر كما سبق بيانه في السورة.

• المغفرة والعذاب:

وتأكيداً لهذه المعاني بدأ الله تعالى القصة الثانية في سورة الحجر بقوله الكريم:

﴿نَحْنُ عِبَادٌ خَالِدُونَ إِنَّا أَلْفُ عَشْرٍ﴾ (٤٩).

وقوله سبحانه: ﴿عِبَادِي﴾ تشریف كبير للمؤمنين المقرين بالعبودية لله تعالى، ومغفرته سبحانه لا تكون إلا لمن تاب وأناب، وأقلع عن المعاصي والآثام، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].
ومهما كانت ذنوب الإنسان التائب كبيرة، فإن الله تعالى يغفرها، ويسترها برحمته وفضله، إذا صدق صاحبها في توبته، وأخلص لله تعالى في إنابته: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَإِنِّي إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُ أَلَمْ يَنْزِلْ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [الزمر].
بشرط أن يبادر إلى التوبة دون تسويف لها وتأخير، لأنه لا يدري متى ينزل به أجله المقدر لموته، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]؛ أي: يتوبون بعد زمن قريب من فعل المعصية دون تسويف ولا تأخير، وإلا لم تقبل توبتهم، وانسحب عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَكُنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

على هؤلاء المسوفين الذين غرهم طول الأمل في الحياة الدنيا أن يعلموا أن عذاب الله أليم:

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾.

ولا يخفى ما في أسلوب العرض في الآيتين الكريمتين من تغليب لجانب الرجاء والأمل برحمة الله تعالى ومغفرته، فتقديمه بالذكر مع تأكيده وتوصيف ذاته سبحانه به دون التعذيب، يرجح جانب الرجاء، كما يرجحه أيضاً أمره سبحانه رسوله ﷺ أن يبلغ عباده هذا المعنى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]؛ فكأنه سبحانه أشهد رسوله ﷺ على نفسه في التزام المغفرة والرحمة^(١).

وينبئ العلماء إلى أن على الإنسان أن يغلب في نفسه جانب الخوف والخشية في حال السعة واليسر، كي لا تغلبه شهواته، وأن عليه أن يغلب جانب الرجاء والأمل في حال المرض والخطر، كي يكون على ثقة بالله تعالى ورحمته.

• ضيف إبراهيم:

ويتفق تغليب جانب الأمل والرجاء مع سياق الآيات الكريمة في السورة التي شرعت في عرض قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إليه يحملون له البشارة بغلام عليم:

﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وهم الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم عليه السلام بالبشارة. وكلمة ﴿ضَيْفٍ﴾ تدل على المفرد والجمع لأنها مصدر.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وهم متشكّلون بهيئة البشر.

﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ﴾ أي: فزعون خائفون.

ولا تظن أن إبراهيم عليه السلام واجههم بهذا عندما دخلوا عليه، فقد كان عليه السلام

كريماً، ويحبُّ أن يغشاه الضيوفُ دائماً في بيته، وإنَّما قال ذلك في نفسه بعد أن قدَّم لهم الطعام، ولم تمتد أيديهم إليه، لأن أجسام الملائكة نورانية، فهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يحتاجون إلى ما يحتاجُ إليه الإنسان المخلوق من تراب الأرض، والذي يتغذى بما تخرجه له الأرض.

فقد أجملت الآيات هنا ما فصلَّته في سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرِ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيمٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ فَأَقْبَمَ فَضْحِكْتِكُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

● البشري:

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: كثير العلم، وهو إسحاق، إذ جاء التصريح به في سورة هود [٦٩ - ٧١]، فقد صرحت الآيات باسمه واسم ولده يعقوب ﷺ، وأما الغلام الذي بشر به إبراهيم والموصوف بالحلم في قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فهو إسماعيل ﷺ.

فالبشارة تكررت لإبراهيم ﷺ، ولهذا حكى الله تعالى عن إبراهيم قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. ثم تابعت الآيات تقصُّ الحوار بين الملائكة وإبراهيم ﷺ:

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وسؤاله ﷺ على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى على الخلق والإيجاد من دون مصاحبة الأسباب، فقد تقدَّم ﷺ هو وزوجته في السن، وكبرا، وشاخا، فضلاً عن أن زوجته كانت عقيماً لا تلد.

ولم يكن سؤاله على سبيل الاستبعاد كما زعم بعض المتأخرين من الكتاب^(١).
وقد جاء التصريح بالتعجب في قوله تعالى في سورة هود: ﴿قَالَتْ يَوَئَلَيْهِ أَالِدُ
وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ
وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٧﴾﴾.
وردَّ الملائكة على إبراهيم مؤكداً البشارة:

﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَاطِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: لا تكن من الآيسين من خرق الله تعالى العادة لك، فهذا يدل على أن
مقصده ﷺ استعظام نعمته عليه في ضمن التعجب العادي المبني على سنة الله تعالى
بين عباده، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته ﷻ، فإنه ﷻ أجلُّ قدراً من ذلك^(٢).
وبادر ﷺ إلى نفي القنوط عنه:

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: الكفار الذين لا يعرفون سعة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته
فاستفهامه للإنكار لنفي القنوط عن نفسه بأبلغ وجه^(٣).
وهكذا بينت لنا الآيات الكريمة من خلال هذه المحاور أنه يجب أن يكون
أمل الإنسان بالله تعالى كبيراً، مهما كانت الظروف المحيطة به، فقدوته سبحانه
طليقة لا تحدّها حدود، ولا تقف أمامها موانع وعادات ونواميس، فالذي قدّر
النواميس قادر على خرقها.

● مهمة المرسلين:

ولما اطمأن إبراهيم ﷺ إلى ضيوفه، وذهب عنه الخوف والحذر منهم،

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٤٨.

(٢) انظر: روح المعاني: ٦٢/١٥.

(٣) المرجع السابق نفسه.

وعرف حقيقتهم، أقبل يسألهم عن المهمة التي أرسلوا من أجلها:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

أي: ما أمركم وشأنكم الخطير الذي أرسلتم لأجله، فكأنه ﷺ أدرك أن مجيئهم ليس للبخشارة فقط:

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .

وهم قوم لوط الذين كانوا يقيمون في بلاد سدوم وعمورة، حيث البحر الميت الآن في فلسطين، واستثنوا منهم:

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾ .

وهم البيت المسلم الوحيد الذي كان في قوم لوط، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَا وَهَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات].

وشدّت امرأة لوط عن هذا البيت المسلم، فقد كانت موافقة لقومها على كفرهم، فشمّلها العذاب والهلاك الذي أنزله الله تعالى بهم، ولم ينفعها رباط الزوجية الذي يربطها بنبي الله لوط ﷺ، بسبب كفرها، فاستُثِيَتْ من آل لوط الناجين بقوله تعالى:

﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ، فَدَرَبَتْهُ، فَدَرَائِغَ الْغَوِيَّاتِ ﴿٦١﴾﴾ .

أي: حكمنا وقضينا أنّها مع الباقين من الكفرة لتهلك معهم.

وبهذا كشف الملائكة ﷺ حقيقة المهمة التي أرسلوا من أجلها لإبراهيم ﷺ.

• استباق الحوادث:

ثم انتقلت الآيات لتصف ما حدث للرسول مع لوط ﷺ وقومه، والملاحظ أن الآيات هنا في سورة الحجر لم تراعى الترتيب الوقوعي لأحداث القصة، كما

فعلت عندما عرضت القصة في مواضع أخرى من القرآن الكريم، مثل: سورة هود، فقد استبقت هنا الحوادث، وقَدَّمت ذكر بشارة الملائكة للوط عليه السلام بهلاك قومه، ونجاته هو وأهل بيته المؤمنين مما سينزل بهم، قَدَّمت البشارة قبل الحديث عن معاناة لوط عليه السلام من قومه عندما أتوا مسرعين إلى بيته ليعتدوا على ضيوفه، ويفعلوا الفاحشة بهم، ومدافعتهم عليه السلام لهم وما لقي في ذلك منهم.

ولعلَّ الحكمة في استباق الآيات للأحداث، والمبادرة إلى ذكر البشارة قبل وصف المحنة والشدة تقوية أمل المبتلى بالمحنة بالله تعالى، وتعزيز ثقته به سبحانه، فكأنَّ الآيات تقول للإنسان المبتلى بالشدة والضيق: أيها الإنسان الممتحنُ، كُنْ على ثقة كبيرة برحمة الله وفضله، إياك أن تئس مهما اشتدت عليك المحن، واجتمعت عليك المصائب والنقم، فرحمته سبحانه قريبة، وفرجُه غير بعيد. وبهذا يظهر لنا مدى الارتباط والاتساق بين الآيات وموضوع السورة.

• في بيت لوط:

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ﴾.

أي: لما كان الملائكة المرسلون في بيت لوط عليه السلام، وليس المراد ابتداء مجيئهم، فالآيات لم تراعى الترتيب الوقوعي لحوادث القصة، كما قلتُ قبل قليل.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

ولم يقل عليه السلام هذا للملائكة عندما جاؤوا إليه، وإنما قال لهم ذلك بعد أن جاء قومه إلى بيته مسرعين، ووقف عليه السلام دون ضيوفه، يمنع عنهم أذى قومه وفحشهم وشذوذهم، وعانى في هذا عناءً شديداً، حتى اضطر إلى القول: ﴿لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى زَوْجِي شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

والملائكة جالسون في هيئة البشر لا يتكلمون، ولا يساعدونه في دفع قومه

وردهم، عندئذٍ التفت إليهم منكراً موقفاً الخذلان وترك النصره قائلاً لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

فردّ الملائكة عليه، كاشفين له حقيقتهم، ومبينين له جلية الأمر:

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

فأتوا بكلمة ﴿بَلْ﴾ التي تدل على الإضراب عمّا حسبه من ترك النصره له^(١). أي: ما تركنا نصرتك، بل جئنا لنصرتك بالعذاب الذي كنت تتوعد قومك به، وكانوا يشكون فيه، ويكذبونك من أجله. ثم أكدوا كلامهم قائلين:

﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

وتأكيداً لصدقهم بادروا إلى نصرته، فطمسوا أعين قومه، وأخذوا على أبصارهم، فانصرف قوم لوط وهم لا يبصرون شيئاً، يتلمسون طريقهم بأيديهم وهم يقولون: إِنَّ لوطاً يؤوي في بيته أسحر أهل الأرض! قال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (٣٦) ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فُطِمَسَتْ أَعْيُنُهُمْ فِذْوُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ (٣٧) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾ (٣٨).

• الصبح القريب:

ثم أمر الملائكة لوطاً ﷺ بترك هذا البلد الظالم أهله، والهجرة عنه، مع المؤمنين من أهل بيته، لينجوا من العذاب الذي سينزل به:

﴿فَاسْرِ يَا هَلِكٌ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ (٦٥).

﴿فَاسْرِ يَا هَلِكٌ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: اخرج منها مع أهلك المؤمنين بعد مضي جزء من الليل.

(١) انظر: روح المعاني: ٦٧/١٥.

﴿وَاتَّبِعْ أَذْيَرَهُمْ﴾ وَوَصَّوْا لوطاً بأن يكون في مؤخِّرةِ أهله، ليحميهم ويطلع على أحوالهم.

وهكذا ينبغي أن يكونَ حالُ أمير القوم أو الجماعة في حال الانسحاب من مكانِ الخطر، يسيِّرُ في آخرهم، ويقدِّمُ نجاتهم على نجاة نفسه، ويحمي ضعيفهم، ويحمل المنقطع منهم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ حتى لا يرى ما وراءه من عذاب لا يطيقه، أو لا يلتفت متحسِّراً على مفارقة مثل هذا الوطن.

﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضي إليه. وهذا دليل على رحمته سبحانه ولطفه بعباده المؤمنين، نجَّاهم من الهلاك، وأرشدهم إلى مكان الأمن والسلامة.

ويبدو أن لوطاً عليه السلام كان يستعجلُ نزولَ العذاب بقومه لكثرة ما رأى من جرائمهم وكفرهم ومنكرات أخلاقهم، فأخبره تعالى أنه قدَّر أن يكونَ هلاكهم عند شروق الشمس في الصباح:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ﴾.

فلا يتغير الأجل الذي قدَّره سبحانه وقضاه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

● التصدي:

وبعد أن استبَقَّت الآياتُ الحوادثَ، وبادرت إلى كشف حقيقة ضيف لوط، والمهمة التي جاؤوا من أجلها، عادت إلى الورا لتبين شذوذ قوم لوط، وما فعلوا حين سمعوا بقدوم ضيف لوط عليه السلام:

﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

فرحين بضيوف لوط، لا لإكرامهم، والقيام بحق ضيافتهم، بل ليفعلوا الفاحشة بهم.

فما كان من لوط عليه السلام إلا أن تصدَّى لهم، يدافع عن ضيوفه، حتى لا يُفتضح بهم، ويبدل كل ما يستطيع ليكفَّ شرَّ قومه عنهم:

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ ٦٨.

﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَيْفِي﴾ وحق على الرجل أن يكرم ضيفه.

﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فيهم، فإنَّ من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أمرهم.

﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تعرّضوني للخي والهوان بالاعتداء عليهم.

لكنَّ شهوة الشذوذ تسعّرت في نفوسهم، واستبدّت بقلوبهم، وغلبت على كلّ رواسب المروءة والحياء فيها، فردوا عليه مؤنّبين ومهدّدين، لأنّه استضاف هؤلاء الغرباء، ويذكرونه بما سبق أن نهوه عنه:

﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ٦٩.

أي: أو لم ننهك أن تضيف أحداً من العالمين، وتحول بيننا وبينهم. فإنهم كانوا يتعرّضون لكل من يمرُّ ببلادهم، وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنه بقدر طاقته. ثم ذكّرهم بالطريق الفطري الذي أحله الله تعالى لقضاء هذه الشهوة المتّقدة في نفوسهم:

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ٧٠.

يعني: نساءكم وأزواجكم، فإنَّ للنبيّ مقام الأبوة في قومه، ويؤكد ما حكاه الله عنه في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ٧٠ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء].

ولكنَّ الشذوذ والانحراف عن الفطرة السليمة سيطر عليهم، واستبدَّ بهم،

فغلبَ على عقولهم، وجَمَدَ أحاسيسهم ومشاعرهم، ولهذا أقسمَ اللهُ تعالى بعُمْرِ النبي ﷺ ليؤكدَ شِدَّةَ تأثيرِ الشذوذِ عليهم، فقال ﷻ:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢).

﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بعمرِكَ قَسَمِي.

• مقام رفيع:

قال القاضي أبو بكر ابن العربي: «قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له، وهكذا قال القاضي عياض: أجمع أهل التفسير في هذا أنه قَسَمَ من الله ﷻ بمدة حياة محمد ﷺ، وأصله ضم العين، من العُمَر، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد - ﷺ - وقيل: وحياتك، وهذا نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف»^(١).

وقال ابن كثير ﷻ: «أقسم الله تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريفٌ عظيمٌ، ومقامٌ رفيعٌ، وجاءَ عريضٌ، قال ابن عباس ﷻ: ما خلقَ الله وما ذراً وما براً نفساً أكرمَ عليه من محمدٍ ﷺ، وما سمعتُ الله أقسمَ بحياة أحدٍ غيره»^(٢).

وليس قَسَمَ اللهُ تعالى بحياة النبي ﷺ معترضاً في قصة لوط كما رأى القرطبي في «تفسيره»^(٣)؛ إذ الخطاب موجّهٌ منذ بداية القصة للنبي ﷺ، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿نَبِيٍّ عَادِيٍّ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبَتْهُمْ عَنْ صَافٍ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ [الحجر] فهو إذن متفق تماماً مع سباق الآيات، ومتفق أيضاً مع سياقها، فستعودُ الآيات بعدَ قليلٍ تخاطبُ النبي ﷺ كما سيأتي معنا. وهذا أيضاً يبيِّن خطأ سيد قطب ﷻ عندما قال: «بينما المشهد البشعُ

(١) تفسير القرطبي: ٣٩/١٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣١٥/٢.

(٣) تفسير القرطبي: ٤٠/١٠.

معروضٌ على هذا النحو المثير، يلتفتُ السياقُ خطاباً لمن يشهدُ ذلك الخطاب على طريقة العرب في كلامهم بالقسم ﴿لَعَنُوكَ إِنَّمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢) (١). فالخطاب للنبي ﷺ، وليس لمن يشهدُ ذلك المشهد باتفاق المفسرين. وجاء متفقاً مع سباق الآيات من أول القصة ومع سياقها في نهايتها.

• سكرة لا ثورة:

﴿إِنَّمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: ضلالتهم أو غوايتهم، وما أجملَ قول البيضاوي رحمه الله: «غوايتهم أو شدة غلמתهم التي أزالَتْ عقولهم وتميزهم» (٢). ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون أو يترددون أو يلعبون.

وهذا يبيِّن لنا شدة تأثير الشذوذ الجنسي على من ابتلي به، إذ يفقد معه تفكيره وتميزه وتوازنه، ويجعله منظمس البصر والبصيرة، فلا يرى ولا يبصر إلا ما يطفئ غلته، وينقع غلته، ويسكن شهوته.

وهذا يفسِّر لنا ما يُنشرُ في الصحف عن فضائح لرجال كبار من ذوي المناصب العالية والوجاهة في مجتمعاتهم، ضُبطوا وهم يمارسون هذا الشذوذ. لقد انتشر الشذوذ الجنسي في المجتمعات الغربية وغيرها انتشاراً كبيراً، نتيجة الانحلال الخلقي، وانعدام القيم الدينية الصحيحة، ونتيجة تشجيع وسائل الإعلام لما يسمونه بثورة الجنس، وهي - والله - سكرة وليست ثورة، سكرة أعمت بصائرهم وأبصارهم عن رؤية العواقب الوخيمة التي تهددهم وتقرع أبوابهم.

وما الأمراض الجنسية الخطيرة المنتشرة في هذه المجتمعات، وعلى رأسها مرض فقد المناعة المكتسب الذي يسمونه (الإيدز) إلا بداية لهذه العواقب الوخيمة لسكرة الجنس المسيطرة عليهم، وصدق الله العظيم: ﴿لَعَنُوكَ إِنَّمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

فأيُّ خيرٍ يُرجى من مجتمع تسود فيه سكرة الجنس؟! مثل هذا المجتمع

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢١٥٠/٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٧١/٣.

الذي استشرى فيه الفساد، واستفحل فيه الداء، لا يمكن إصلاحه، فقد أصبح مغلوباً على أمره، لا يقبل أي علاج أو إصلاح، فلا بدّ إذن من استئصاله وبتره، كي لا يسري فسادُه وشذوذه إلى غيره من المجتمعات.

● الاستئصال:

أهلك الله تعالى الأمم المكدّبة للأنبياء والمرسلين، كلُّ أمة بنوع واحد من أنواع العذاب، أمّا قومٌ لو طُفد أهلكهم الله تعالى بثلاثة أنواع من العذاب، يكفي كلُّ واحدٍ لإهلاكهم واستئصالهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ (٧٣)

وهو صوتٌ شديدٌ قاصفٌ، جاءهم عند شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ (٧٤)

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا﴾ أي: قلب الله تعالى بلادهم، وذلك برفعها إلى عنان السماء ثم قلبها، لا كما زعم بعضهم بحدوث بركان أو زلزال، ورفعها وقلبها ثم الهوي بها جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤَنَّفَكَةُ أَهْوَى﴾ (٥٣) ﴿فَعَشْنَهَا مَا عَشَى﴾ (٥٤) [النجم]، والهوي لا يكون إلا من ارتفاع وعلو.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ وهو النوع الثالث من أنواع العذاب الذي أنزله الله تعالى بهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ﴾ (٨٧) مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ [هود].

فالمطر كان من حجارةٍ ولم يكن مطراً معهوداً كما زعم بعضهم^(١).

والحجارة من طين مستحجر، وكلُّ حجر معلّمٌ بعلامة خاصة بصاحبه الذي

(١) انظر: تفسير سورة النمل، المسمّى في هذا الكتاب: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

أعد له، فأهلكهم الله جميعاً، حاضرهم وغائبهم، إذ تتبعتهم الحجارة فضربتهم وأهلكتهم، وطهرت الأرض من فسقهم ورجسهم.

• الحصن الحصين:

ثم عَقَّبَ سبحانه على ما أنزل بقوم لوط من أنواع العذاب بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ (٧٥).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لعلامات ودلالات على قدرته سبحانه، وعلى انتقامه سبحانه من الذين يكذبون رسله، ويخرجون على منهجه الذي رسمه لهم، وفطرته التي فطرهم عليها.

﴿لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتأملين بعين بصيرتهم وبصرهم آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد، فأثارهم في بحيرة لوط أو البحر الميت لا تزال باقية وماثلة للعيان في هذه المنطقة التي أصبحت نتيجة ما حدث فيها أخفض منطقة في العالم عن مستوى سطح البحر، كما صارت بحيرة منتنة لا يعيش فيها مخلوق مائي حي حتى الآن.

﴿وَأَنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ (٧٦).

أي: إنها واقعة على الطريق الواضح الذي كان المشركون من أهل مكة يسиров فيه عندما يسافرون من الحجاز إلى بلاد الشام، فيمرُّون عليها ليلاً أو نهاراً، قال ﷺ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ (٧٧) **وَبِأَيِّ لِّفْلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** [الصفات]. ولكنهم لا يعقلون، فلا ينتفع من هذه القصص وما فيها من عبر ومواعظ إلا المؤمنون، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٧٨).

فالإيمان حصن المؤمن الحصين من غوائل الشذوذ وشروخ الانحراف، ولا سبيل لحماية مجتمعاتنا الإسلامية منها إلا بتقوية الإيمان في القلوب، وترية

الأجيال الناشئة على مراقبة الله تعالى وخشيته، وإبعادهم عن أسباب الإثارة الجنسية الوافدة إلينا من بلاد الغرب والشرق لإشاعة الفاحشة والشذوذ بين أبنائنا وبناتنا، وتشجيع الزواج بتسهيل أسبابه وتيسير وسائله.

• وقفة تأمل:

ثم عرّجت الآيات على أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب في مدين، لكونهم قريبين من قوم لوط، فمدين تقع إلى الجنوب من البحر الميت على الطريق المؤدي إلى الحجاز، ومَرَّتْ الآيات عليهم من غير توقف، للتذكير بحالهم فقط، شأنها شأن المسافرين المسرع:

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

والأيكة: الشجرُ الملتف، وكان ظلمهم بكفرهم، وقطعهم الطريق على المسافرين، ونقصهم المكيال والميزان.

﴿فَأَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

أي: إن قوم شعيب وقوم لوط على طريق مبين واضح بين الحجاز والشام. ثم توقفت الآيات قليلاً عند أصحاب الحجر، الذين تقع منازلهم على الطريق نفسه إلى الجنوب من مدين بلاد قوم شعيب:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

وهم ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام.

﴿وَعَايَنَهُمْ عَايَتَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾

أي: آتيناهم الدلائل الدالة على صدق نبي الله صالح الذي أرسل إليهم،

كالنافقة التي خلقها الله تعالى من صخرةٍ بدعاءٍ صالح ﷺ، فأعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾

من غير خوفٍ من الموت؛ لا غترارهم بطول الآمال والأعمال، ولا تزال بيوتهم الباقية حتى الآن - وهي منحوتة في داخل الصخر - تشهدُ على أنَّهم كانوا مطمئنين إلى الدنيا، غير خائفين من نوازلهـا ومصائبهـا، كما تدلُّ على طول آمالهم فيها، وكثرة انهماكهم بشهواتها، ولعلَّ هذا سرُّ توقف الآيات عندهم هذه الوقفة المتأنية، ليتأمل الإنسان في أحوالهم، ويعتبر بمصيرهم.

وقد مرَّ النبي ﷺ على بلادهم، وهو في طريقه إلى غزوة تبوك، وأمر أصحابه إذا دخلوا مساكنهم أن يدخلوها معتبرين خائفين من الله تعالى وسطوته وانتقامه، فقال ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم؛ إلا أن تكونوا باكين» ثم قنَّع رأسه، وأسرع السير، حتى أجاز الوادي. [رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠)].

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّبِيحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أي: في وقت الصباح.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

من الأموال والزروع والثمار.

فآلية تدلُّ على أنَّ القوم كانوا على درجة عالية من الغنى والثراء، وهو سبب انشغالهم بالدنيا، وطول آمالهم فيها، وغفلتهم عن الآخرة.



التعقيب الأخير دَوْرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي تَحْقِيقِ التَّوَاظُنِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْصَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَنَافِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأَخْفِصْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِصِينَ ﴿٩١﴾ وَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَسْتَعْلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعِمْنَا أَنْكَ بِصَبْقِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعِذْ بِرَبِّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

وأخيراً جاء التعقيب على ما تقدّم من إهلاك الله تعالى للأمم المكذبة للرسول والمفسدة في الأرض، يبيّن ضرورة إهلاكهم، وتطهير الأرض من شرورهم، فالله سبحانه ما خلق الخلق بهذا الإتيان والإحكام والتوازن الذي تقدّم بيانه في آيات السورة، للفساد والإفساد، ولا للعب واللهو، فأفعاله سبحانه منزّهة عن كل ذلك، قال ﷺ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْصَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا خلقاً متلبساً بالحق

والحكمة، فلا يلائمه استمرارُ الفسادِ، واستقرارُ الشرورِ فيه، وقد اقتضت الحكمةُ إهلاكَ أمثال هؤلاء دفعاً لفسادهم، وإرشاداً لمن بقي إلى الصلاح^(١).

وقد أضاف سيد قطب رحمته الله في ظلال هذه الآية معنىً جديداً مفيداً بقوله: «إنَّ الحقَّ عميقٌ في تصميم هذا الوجود، عميقٌ في تكوينه، عميقٌ في تدبيره... ولم يتلبَّس بتصميمه خداعٌ ولا زيفٌ ولا باطلٌ، والباطلُ طارئٌ عليه، ليس عنصراً من عناصر تصميمه»^(٢).

فالحقُّ ثابتٌ أصيلٌ، والباطلُ طارئٌ دخيلٌ، والساعةُ آتيةٌ لا ريبَ فيها، لإحقيقِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ حيث ينتقمُ الله تعالى فيها من المكذِّبين والمعاندين لدعوة المرسلين.

وما دام الحقُّ قوياً وأصيلاً:

﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.

• الصفح الجميل:

وهكذا عادت الآياتُ الكريمةُ إلى مخاطبة النبي ﷺ، بهذا التوجيه الكريم للعفو عنهم، والصبر على أذاهم، ومقابلة عنادهم وإعراضهم بالأخلاق الكريمة الطيبة التي كان يتصف بها ﷺ.

﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ والصفح: العفو، وفَسَّرَه بعضهم بأنه ترك التثريب، أي: ترك العتاب واللوم، وهو أبلغ من مجرد العفو، وروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الصفحَ الجميلَ ما خلا من عتاب^(٣).

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

[الزخرف: ٨٩].

(١) انظر: روح المعاني: ٧٧/١٥؛ وتفسير البضاوي: ٥٧٣/٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٢١٥٣/٤.

(٣) روح المعاني: ٧٧/١٥.

وفي أمره عليه الصلاة والسلام بالصفح عنهم دليلٌ على أنه كان قادراً على الانتقام منهم.

وقد يقول قائل: كيف وهو ﷺ لا يزال في مكة في قلة من أصحابه؟ والجواب: إنه كان يستطيع أن يدعو عليهم، كما فعل غيره من الأنبياء، عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومعلوم أنه لم يدعُ على قومه، بل كان يدعو لهم. ففي الآية توجيه كريمٌ إلى دعوة الكفار بالحلم والتأني، واحتمال جفوتهم وغلظتهم، حتى يشرح الله تعالى صدورهم للإيمان، وليست منسوخةً بآيات القتال، كما رأى بعض المفسرين.

وهذا التوجيه الكريم ليس خاصاً بالنبي ﷺ وحده، فحكمه يشمل كل داعية يدعو إلى الله تعالى، إذ هو ﷺ قدوتهم، ولا نجاح لهم في دعوتهم إلا بالاعتداء به، والتزام سنته ومنهجه، وقد جاءت بعض الآيات تعمم الخطاب بالصفح، كقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩].

● الخلاق العليم:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لجميع المخلوقات على الإطلاق. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع أحوالهم، فلا يخفى عليه شيء من أمرهم، فعليك أن تكمل الأمور إليه، ليحكم بينك وبينهم.

فكأن الآية تعلل ما سبق من التوجيه الكريم إلى الصفع الجميل. ورأى بعضهم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تقريرٌ ليوم القيامة وتأكيده، فهو سبحانه قادر على إقامة الساعة؛ لأنه ﴿الْخَلَّاقُ﴾ الذي لا يعجزه شيء، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تمرق من الأجساد بعد الموت، وما تفرق في التراب، فهو كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وبهذا تكون الآية مؤكدة لما قبلها من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥]، ومعللة أيضاً قوله: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه.

• السبع المثاني:

وتابعت الآيات الخطاب للنبي ﷺ تبين فضل الله العظيم عليه، بما آتاه من آيات القرآن الكريم، المظهرة للحق الذي خلق الله السموات والأرض من أجله:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الثَّمَانِي أَلْفِ عُرْفٍ الْعَظِيمِ﴾ (٨٧)

ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المراد من السبع المثاني: آيات سورة الفاتحة السبع، فهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وقيل لها: المثاني؛ من التثنية، لأنها تتكرر في الصلاة، أو من الثناء، لاشتغالها على ما هو ثناء على الله ﷻ، وقيل لها: القرآن العظيم، لأنها أعظم سورة فيه.

ففي الحديث الصحيح: عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنتُ أصلي في المسجد، فدعاني رسولُ الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيتُه، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنِّي كنتُ أصلي. فقال: «ألم يقلِ اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟» ثم قال: «ألا أعلمُك سورةً هي أعظمُ السور في القرآن، قبلَ أن تخرجَ مِنَ المسجد؟» ثم أخذَ بيدي، فلَمَّا أرادَ أن يخرجَ قلتُ: ألم تقل: لأعلمنَّك سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآن؟ قال: «الحمدُ لله ربَّ العالمين، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُه» [رواه البخاري (٤٤٧٤)]. وعطف (القرآن العظيم) على (السبع المثاني) مع أنَّ المرادَ بهما واحدٌ لما عُلم في اللغة العربية من أنَّ الشيءَ الواحدَ إذا ذكرَ بصفتين مختلفتين، جازَ عطفُ إحداهما على الأخرى، تنزيلاً لتغاير الصفات منزلةً تغاير الذات^(١).

وذهب فريقٌ آخر من المفسرين إلى القول: بأنَّ الله تعالى أعطى النبي ﷺ سورة

الفاتحة، وأعطاه أيضاً القرآن العظيم، فيكونُ العطفُ من قبيل عطفِ العامِّ على الخاصِّ، وهو لا يتعارض مع ما ذكر في الحديث النبوي السابق، إذ يمكن أن يقال: إنَّ تسمية الفاتحة بالمثاني وبالقرآن العظيم، لا ينافي وصف القرآن بكامله بذلك أيضاً، فقد وصف الله تعالى القرآن بصفة المثاني في قوله الكريم: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

فهو مثانٍ من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً.

كما أنَّه ﷺ لما سُئِلَ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم^(١).

والأولى المصيرُ إلى هذا المعنى، لأنَّه يتفقُ مع موضوع الآية التي نزلت تبينُ فضل الله العظيم على نبيه ﷺ، فقد أعطاه سورة الفاتحة، وأعطاه القرآن العظيم، وخصَّ الفاتحة بالذكر تنويهاً بالمعاني العظيمة التي اشتملت عليها. وقد مر معنا بعضها عند الحديث عن سورة الفاتحة.

● التحذير من زهرة الدنيا وزينتها:

ومن حصَّه الله تعالى بهذا الفضل العظيم، وأنزلَ عليه سورة الفاتحة والقرآن العظيم، لا ينبغي أن يلتفتَ إلى الدنيا، ويهتمَّ بها إلا بالقدر الذي يبلغ فيها رسالة القرآن العظيم، ولهذا جاءت الآيات بعد ذلك بهذا التوجيه الكريم والتأديب الرفيع للنبي ﷺ:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب.

﴿إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ﴾ أَزْوَاجًا مِّنْهُنَّ أَي: أصنافاً من الكفار من زهرة الدنيا وزينتها، فإنه مستحق بالنسبة لما أوتيته^(١).

فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعَنَا بِهِ﴾ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿طه: ١٣١﴾.

ولهذا كان رسول الله ﷺ لا يحفلُ بالدنيا، ولا يهتمُّ بها، بل قَصَرَ هَمَّهُ، ووجَّه عزمه إلى تبليغ دعوة الله تعالى، مع أنَّ النهي في الآية لا يفيدُ الإلزام والتحريم، فليس ثَمَّةَ مانعٍ شرعيٍّ يمنعُ النبيَّ ﷺ من التوسُّع في المعيشة، ضمنَ حدود ما أحلَّ الله تعالى من الطيبات، وهو سبحانه القائل: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

لكنَّه عليه الصلاة والسلام اختارَ شظفَ العيش، وعدمَ التمتع بمتاع الدنيا، ودَامَ على ذلك هو وأهلُ بيته حتى توفاه الله تعالى^(٢)، ليكونَ أسوةً وقُدوةً لأصحابه ولأُمَّته من بعده، إذ كان يخشى عليهم من أن تُفْتَحَ عليهم الدنيا، ويقبلوا على زهرتها وزينتها، ويُفْتِنُوا بها.

وهذا يفسِّرُ لنا دعوة النبيِّ ﷺ التي قال فيها: «اللهمَّ اجعلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قَوْتًا» وفي رواية: «كفافاً» [رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥)].

وقوله عليه الصلاة والسلام عندما اجتمع عليه أصحابه بعد أن سمعوا بقدوم أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بمالٍ من البحرين، قال لهم: «أَبْشِرُوا وَأَمْلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسِطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَّا فُتِنُوا كَمَا تَنَّا فُتِنُوا، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكْتُمْ» [رواه البخاري (٣١٥٨) ومسلم (٢٩٦١)].

وقد مرَّ معنا في أول السورة ما يفيدُ أنَّ كثرةَ الإقبال على الدنيا وكثرةَ التمتع

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير السفي: ٥٧٦/٣.

(٢) انظر: تفسير سورة الأحزاب، ضمن هذا التفسير الكبير، وقد أسميناه هنا: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

والتلذذ بطبيعتها المادية، يؤدّي إلى طول الأمل، والانشغال بها عن عبادته سبحانه وطاعته، إذن فقد جاء هذا التوجيه الكريم للنبي ﷺ منسجماً تماماً مع موضوع السورة، ومتفقاً مع ما سبقه من الآيات الكريمة.

• التواضع ولين الجانب:

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فيه توجيه آخر للنبي ﷺ كي لا يهتم بأصحاب الدنيا، ولا يحفل بهم إذا أعرضوا عن دعوته، فقد كان ﷺ يحرص على إيمانهم، ويشق عليه بقاؤهم على الكفر، بسبب مزيد شفقته عليه الصلاة والسلام حتى قال الله تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقال له أيضاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

فلا ينبغي للنبي عليه الصلاة والسلام أن يهتم بهم بعد أن بلغهم دعوة الله تعالى، وأقام عليهم حجته، بل عليه أن يهتم بالمؤمنين، فيقبل عليهم متواضعاً لهم، ولهذا قال ﷺ للنبي عليه الصلاة والسلام:

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تواضع لهم، وارفق بهم، وأقبل عليهم ولو كانوا فقراء، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فراخه إليه، بسط جناحيه عليهم، والتعبير عن اللين والعطف والتواضع بخفض الجناح يدل على أن للمؤمنين مكانة كبيرة عند الله تعالى، فالله سبحانه أمر نبيه عليه الصلاة والسلام، وهو صفوته من خلقه، أن يتواضع للمؤمنين.

وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام مع أصحابه، كما قال ﷺ في وصفه:

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمنين فيما بينهم، يتواضعون ويتراحمون، كما كان حال الصحابة رضي الله عنهم: ﴿تَحَمَّدَ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

● النذير المبين:

ومقابل خفض الجناح للمؤمنين، أمرت الآيات النبي صلى الله عليه وسلم أن يواجه المعاندين والمكذبين بالإنذار والتخويف، فهو الأسلوب اللائق بهم:

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩).

البين النذارة، فإنذاره عليه الصلاة والسلام واضح وصريح لا خفاء فيه.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩١).

أي: أنذركم من عذاب أليم، كالعذاب الذي أنزله الله تعالى على المقْتَسِمِينَ، وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على تكذيب المرسلين، فقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

أو هم جماعة من مشركي مكة، اقتسموا مداخل مكة، لينفروا القادمين إليها في أيام الموسم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويؤكدده قوله بعد ذلك:

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفُرْعَانَ عِضِينَ﴾ (٩١).

أي: جعلوه سحراً، أو جعلوه أجزاء متفرقة، فبعضه في نظرهم سحر، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، وبعضه كذب، وكل هذه الأقوال تدل على خيبتهم واضطرابهم.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَعَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أقسم الله تعالى بذاته المقدسة رداً على أولئك المقتسمين المكذّبين المعاندين، ليسألنهم يوم القيامة سؤال التوبخ والتقريع.

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

في الدنيا من الكفر والفجور.

● إعلان الدعوة:

ثم أمرت الآيات النبي ﷺ بمواجهة المشركين علناً مع التحدي بعقيدة التوحيد عقائدهم الفاسدة والباطلة:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: اجهر بما أمرك الله به، وواجه الناس به، وبلغهم وحي الله تعالى، معلناً ذلك من غير استخفاء ولا خوف، أو فرق بين الحق والباطل بما أمرك الله تبليغه، وأصله من الصّدع، بمعنى التفريق والشق. وكانت هذه الآية فاصلةً بين مرحلتين من مراحل الدعوة، إذ كان النبي ﷺ قبلها مستخفياً مع أصحابه حتى نزلت، فخرج هو وأصحابه^(١).

قال ابن إسحاق في «السيرة»: «ثم إن الله ﷻ أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن ييادئ الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين، فيما بلغني، من مبعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾»^(٢).

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تلتفت إلى المشركين، ولا تأبه بمعارضتهم

(١) تفسير الخازن: ٥٧٩/٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢٣٧/١.

وعنادهم ولا تَخَفْهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ مَكْرَهُمْ، وحافظك من كيدهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وتأتي المعونة من الله تعالى على قدر التكليف والمؤونة، فعندما كلفه بإعلان الدعوة بالجهر بها أخبره سبحانه بكفايته وحمايته عليه الصلاة والسلام من كيد المستهزئين وأذاهم، فقال ﷺ:

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥).

من كبار المشركين؛ كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، وغيرهم، الذين كانوا يبالغون في أذى رسول الله ﷺ والاستهزاء به، وقد أهلكهم الله تعالى جميعاً، وكفى ﷺ شرهم.

﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٩٦).

عاقبة شركهم وكفرهم يوم القيامة.

• منابع القوة:

ثم أرشده سبحانه إلى منابع القوة التي يستمدُّ منها النبي ﷺ القوة والعزيمة للقيام بالأعباء الثقيلة التي كلفه الله تعالى بها، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧).

من الطعن في القرآن الكريم والاستهزاء بك.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨).

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ كي يذهب عنك ما تجده في صدرك من ضيق وحزن،

ونزّه ربك جلّ وعلا عن كلّ ما لا يليقُ بكماله وجلاله، مع الثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال.

فالتسبيحُ: تنزيه الله عن كلّ صفات النقص.

والحمد: الثناء على الله تعالى بكلّ صفات الكمال، بأن تقول: سبحان

الله، والحمد لله، أو: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

وهذا يدلُّ على أنّ ترديد مثل هذه الأذكار مع خشوع القلب، له تأثير كبير في شرح الصدر، وتنفيس الهم، وتخفيف الحُزن، كما أنه يمدُّ الإنسان بقوة وعزيمة، تكون عوناً له بإذن الله على مواجهة المصاعب والنوائب.

والجدير بالذكر أنّ الإمام البخاري رحمه الله قد ختم كتابه «الجامع الصحيح» بالحديث النبوي الشريف (٧٥٦٣): «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ».

﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: المصلّين، عبّر عن الصلاة بالسجود لأن فيه غاية التذلل والخضوع لله تعالى، و«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، كما قال رسول الله ﷺ [رواه مسلم (٤٨٢)].

فالإكثارُ من الصلاة، وخاصةً في جوف الليل، ومن التسبيح والحمد، وغير ذلك من الأذكار، يؤدّي بفضل الله ورحمته إلى انشراح النفس، وإزاحة الضيق والهم عن الصدر، كما قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]^(١).

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وكان ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة. [رواه أبو داود (١٣١٩) وأحمد (٣٨٨/٥)].

(١) وهي آخر آية سمعها سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله قبل أن يتوفى، انظر كتاب: الشيخ محمد الحامد، للمؤلف، وهو من مطبوعات دار القلم.

● اليقين والسراب:

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿٩٩﴾

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ﴾ أي: دُم على ما أنت عليه من عبادته سبحانه وطاعته، فلا قيمة لحياة الإنسان ووجوده من دون عبادة الله تعالى وطاعته، فبها يدرك جوهر حياته وحكمة وجوده.

﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: حتى يأتيك الأجل الموعود الذي لا شك فيه، وهو الموت.

ومن رحمته سبحانه أنه جعل أجل الإنسان المقدر لموته مجهولاً بالنسبة للإنسان، فلو كشف الله تعالى للناس آجالهم، وبيّن لهم نهاية أعمارهم، لتعطلت سبل حياتهم، وتوقف سعيهم، وشلت حركتهم، فما أعظم رحمة الله بنا!

ولكن لا ينبغي أن يحملنا جهلنا بموعدنا مع الموت على نسيانه والغفلة عنه، فتطغى علينا آمالٌ كبيرةٌ لا تتسع لها حياتنا، ونتخطى فيها آجالنا، ثم يأتينا الموت فيقطعنا عنها، فنقع في الحسرة الدائمة؛ الحسرة على حياة أضعناها، ونحن نركض خلف آمال لا تتسع لها حياتنا، فما هي إلا سرابٌ خادعٌ، سعيها طويلاً وراءه، وركضنا كثيراً من أجل تحصيله، ثم سقطنا على الطريق مع موعدنا المجهول، ونكون كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَبٍ يُقِيعَهُ يَحْسَبُهُ الْظُّمَأُنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

ما أكثر الذين تنسحب عليهم هذه الآية، أولئك هم تجار الخيال وأسرى الآمال^(١).

وحتى لا نكون منهم علينا أن نتذكر دائماً قول الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَأَعْبُدْ

(١) انظر كتابنا: حياتنا والموعد المجهول.

رَبِّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»، والخطابُ وإن كان للنبي ﷺ، فهو عام وشامل، وغيره عليه الصلاة والسلام أولى به، لأنه عليه الصلاة والسلام معصومٌ عن الغفلة، فلا تكونُ منه فترة عن العبادة، وانقطاع عن الطاعة أبداً.

ولمَّا سُئِلَتِ السيدة عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ قالت: «كان عمله ديمةً (مستمراً)، وأنتُمْ يستطيعُ ما كان رسولُ الله ﷺ يستطيعُ؟!» [رواه البخاري (١٩٨٧) ومسلم (٧٨٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالُ إِلَى اللَّهِ مَا دُوِّمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ» [رواه البخاري (٦٤٦٤) ومسلم (٧٨٢)].

• التكليف لا يسقط عن المكلفين:

وفي الآية ردٌّ على بعض الملحدين القائلين بسقوط التكليف بالعبادة عن الذين يَصِلُونَ - بزعمهم - إلى درجة الكَشْفِ والشهود، لأنَّ العبادة - بزعمهم أيضاً - ليست إلا لمحجوبين، ولقد مرقوا بذلك من الدين، وخرجوا من رتبة الإسلام وجماعة المسلمين^(١).

قال ابنُ كثير رحمه الله: «ويستدل بهذه الآية على أنَّ العبادة كالصلاة ونحوها واجبةٌ على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلِّي بحسب حاله، كما ثبت في «صحيح البخاري»: عن عمران بن حصين رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «صَلِّ قائماً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ».

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أنَّ المراد باليقين المعرفة، فمتى وصلَ أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفرٌ وضلالٌ وجهلٌ، فإنَّ الأنبياء ﷺ كانوا - هم وأصحابهم - أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنَّما المراد من اليقين هاهنا الموت^(٢).

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/٨٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٣٢١.

ولا تقتصر العبادة في الإسلام على الصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنما تمتدُّ إلى كلِّ شؤون الحياة، فطاعة الله تعالى فيها عبادة، وهذه هي عبادة النبي ﷺ التي بنى بها أفضل المجتمعات، وأخرج خير الأمم، وأنتج أنصر الحضارات الإنسانية وأزكاها وأزهاها.

أسأله سبحانه أن ينور بصائرنا وقلوبنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله أولاً وآخراً.



تفسير سورة النحل التَّوْحِيدُ وَالشُّكْرُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ نعم الله تعالى على الإنسان كثيرة وجليلة، لا يحصيها عدّ، ولا يحدها حدّ، وإنّ على الإنسان أن يتوجّه بالشكر إلى الله تعالى وحده على ما أنعم عليه وأولاه، وما خصّه من خصائص، امتاز بها على غيره من المخلوقات.

ومع كثرة نعمه سبحانه على الناس، فإنّ كثيراً منهم ينشغلون بالنعمة عن شكر المُنعم، وينقطعون بها عن طاعة ربهم سبحانه وعبادته.

ولقد جاءت سورة النحل تذكّر الإنسان بفضل الله تعالى عليه من خلال عرضها لثلاث مجموعات لبعض نعمه جلّ وعلا على الإنسان، وتبيّن له أيضاً كيف يكون الشكر، وارتباط الشكر بتوحيد الله تعالى، والانقياد لدينه وشرعه، فهي بحق سورة التوحيد والشكر، كما أنها في الوقت نفسه سورة النعم، والناس في العصر الحاضر في أشدّ الحاجة إلى هذه المعاني.

ولقد جاء الحديث عن موضوعها في هذا التفسير من خلال خمسة فصول

متسلسلة ومتوالية، مع توالي آيات السورة، بحيث يظهر الانسجام والتناسق الكامل بين آيات السورة من خلال الحديث عن معانيها، وهذه الفصول هي:

• الفصل الأول: المجموعة الأولى من النعم (نعم الله في خلق الإنسان وتنظيم حياته).

• الفصل الثاني: جحود وعناد ومفارقات مستنكرة.

• الفصل الثالث: المجموعة الثانية من النعم (نعم الله الضرورية لاستمرار حياة الإنسان).

• الفصل الرابع: المجموعة الثالثة من النعم (نعم الله التي يحتاج إليها الإنسان في حمايته ووقايته).

• الفصل الخامس: مواسة وتثبيت.

• ثم التعقيب الأخير والختام.

أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد، وأن ينور قلوبنا بنور التنزيل الحكيم، وأن يجنبنا الخطأ والزلل.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



تمهيد

موضوع السورة

إنَّ أي متدبر لآيات سورة النحل، يرى أنَّها تدور في فَلَكِ شكر الله تعالى، وارتباطه بتوحيده سبحانه وطاعته، والانقياد لدينه وشرعه.

وقد أبرزت الآيات فضل الله تعالى على الإنسان من خلال عرضها لبعض نعمه سبحانه على الإنسان في ثلاث مجموعات من النعم المتجانسة أو المتصفة ببعض الصفات المشتركة فيما بينها.

كما أبرزت الآيات مواقف أكثر الناس من ربهم سبحانه وما تفضَّل به عليهم من خلال إعراضهم عن دعوات الأنبياء والمرسلين، وإصرارهم على الكفر والشرك والفجور.

فللشكر ارتباطٌ وثيقٌ بالتوحيد والاستسلام، والانقياد لرسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أنَّ الجحود والكفران مرتبطان بالكفر والشرك والفجور.

وتركيزُ آيات سورة النحل على هذه المعاني، جاء بمثابة تحليل لِنَفْسِية الإنسان، وتعرية لحقائق النفس البشرية، وما انطوت عليه في دخيلتها.

وقد ذكر الله تعالى في المجموعة الأولى من النعم سبحانه في خلق الإنسان وإيجاده، ونعمه في تنظيم بيئته حياته، وجعلها صالحةً لحياته ومعيشتة.

وذكر سبحانه في المجموعة الثانية بعض النعم الضرورية لاستمرار حياة الإنسان، وفي الوقت نفسه تمتاز هذه النعم بكونها أدلة على كمال علمه سبحانه وقدرته وتماام مشيئته.

وذكر سبحانه في المجموعة الثالثة النعم التي يحتاجُ إليها الإنسان في حمايته ووقايته.

وجاء تعقيب آيات السورة بعد عرضها لكل مجموعة يدور حول بيان حقيقة الشكر، وارتباطه بعقيدة التوحيد والتسليم، والانقياد لدين الله مع ضرب الأمثال العقلية والتاريخية لتقريب هذه الحقائق، وتذكير الناس بها، ممّا سيراه القارئ للكتاب.

كما اهتمّت بعض آيات السورة بتثبيت المؤمنين الشاكرين على طريق الشكر، فلا يكون منهم انشغال بالنعمة عن المنعم، أو تعلّق بالنعمة بحيث يكفرون بالمنعم، ويجحدون فضله عليهم.

وكل ذلك ينسق بين الآيات، محكم التسلسل، قوي الاتساق، يدلّ على أنّ التنزيل الحكيم هو كلام ربّ العالمين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.



الْفُضِّلُ الْأَوَّلُ

الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى مِنَ النِّعَمِ
نِعَمُ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَنْظِيمِ حَيَاتِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١) يُزِيلُ الْمَلَكُ الْوَجْهَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَالنَّعْمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَيْبِهِ إِلَّا يَشِقُّ الْأَنفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَاللَّيْلَ وَالنَّجْمَ وَالْجِبَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًا حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَىٰ الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَنَّا وَإِلَّا تَجْمِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوبُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ .

● حقيقة هامة:

بدأت السورة بتقرير حقيقة هامة من خلال جملة فعلية إخبارية بصيغة الماضي، هذه الحقيقة هي أَنَّ كُلَّ مَا قَدَّرَ اللهُ سبحانه من مكُونات وحادثات هي كائنة وحادثة لا محالة في وقتها المقدر لها، فما سبق به علمه سبحانه، وتعلقت به إرادته جلَّ وعلا، لا بدَّ أن يقع ويبرز إلى الوجود في الوقت المقدر لوجوده. والحوادث والمخلوقات التي قَدَّرَ سبحانه تكوينها ووجودها، ولمَّا يأت وقتها المقدر لها بعدد، هي في حكم الحادثة الموجودة. قرَّرَ اللهُ سبحانه هذه الحقيقة ردًّا على المشركين، الذين كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وحسابه يوم القيامة استبعاداً واستهزاءً، فقال سبحانه لهم:

﴿إِنِّي أَمُرُّ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿إِنِّي أَمُرُّ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والاستعجال: طلب مجيء الشيء قبل وقته، والله سبحانه لا يعجل لعجلة عباده، فكلُّ شيء عنده بمقدار وأجل مسمًى، سواءً في هذا النعم والنقم، فلكلِّ نعمة قَدْرُها ووقتها، وكذلك لكلِّ نعمة قَدْرُها ووقتها، وإرادته جلَّ وعلا نافذة في كلِّ المكُونات، ولا مصادفة في الخلق والتقدير، وكل شيء بتقدير العليم الخبير.

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى﴾ تنزَّه وارتفع عن صفات العجز والتقصير، فله سبحانه الكمال المطلق، تقدَّست ذاته، وتسامت صفاته:

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

● حياة القلوب ونور العقول:

كان الأولى بالمشركين أن ينظروا في نعمه التي لا تُحصى، والتي تفضَّل سبحانه بها عليهم، بدل أن يستعجلوا عذابه وحسابه، وأعظم هذه النعم إنزال الوحي وإرسال الرسل:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [٢].

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي: بالوحي، فبه تحيا القلوب من موت الكفر والجهل، قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال ﷺ أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولا حياة للقلوب والعقول من دون وحي الله تعالى، ففي ظلاله يتذوق الإنسان طعم الحياة الكريمة السعيدة، ويدرك حكمة وجوده، ولا معنى لحياة الإنسان من دونه، ولهذا سمّاه الله تعالى روحاً، لأنه يعطي للمخلوقات كلّها معنى لوجودها، ويظهر حكمة خلقها وإبداعها، ومهما أوتي الإنسان من النعم فكمالها وتمامها بنعمة الوحي، الذي يصله بالله تعالى، ويوجهه إلى طاعته وعبادته.

وقد سمّى الله تعالى الوحي روحاً في عدّة آيات:

منها قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ومنها أيضاً: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

والخلق محتاجون إلى وحي الله تعالى كحاجة أجسادهم إلى أرواحهم، فهو أعظم نعمه سبحانه عليهم، ولهذا ذكره سبحانه في صدر سورة النحل - وهي سورة النعم - تنويهاً بضرورته، وشدة حاجة الناس إليه.

﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: ينزل الله تعالى الوحي بأمره ومشئته.

﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من الذين اصطفاهم سبحانه للنبوة والرسالة، فنزول الوحي منوط بمشيئته سبحانه وحده، وكذلك اصطفاء المنزل عليهم يكون بمشيئته تعالى وحده.

ولمّا اعترض مشركو قريش على إنزال الوحي على النبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ

هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٌ ﴿الزخرف: ٣١﴾ رَدَّ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ اعْتِرَاضِهِمْ فَقَالَ: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ؟﴾ [الزخرف: ٣٢].

ورَدَّ عليهم أيضاً في سورة الأنعام فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٧٤﴾.

فالنبوة اصطفاء وعطاء من الله تعالى، لا تُستجلب ولا تُكسب، بل هي محض فضل منه سبحانه، يختار لها من يشاء بحكمته وعلمه كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَكِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنِ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

والأمر الأساس الذي يتضمّنه الوحي توحيد الله تعالى:

﴿إِن أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: أعلموا الناس أنه لا معبود بحق إلا الله تعالى، مع تخويفهم وتحذيرهم من عبادة غيره.

﴿فَأَقْضُوا﴾ أي: فاتقوا الله يا أيها المستعجلون لعذابه، فإن عذابه قريب، وبطشه شديد.

• الخلق والحق:

بالوحي يُظهِر سبحانه حكمته في خلقه، فما خلقه سبحانه عبثاً ولا باطلاً، بل خلقه جلّ وعلا بالحق:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٢﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ لا بالباطل، فالحق أساس الخلق، وما أنزل الله الوحي إلا لإحقاق الحق، كما قال تعالى: ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ زُلْزُلًا وَوَحْيًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وتجريد الخلق عن الحق اتهام لله جلّ وعلا في حكمته ورحمته، وهو ما نفاه سبحانه عن نفسه في آيات كثيرة؛ منها قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

ومنها أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ [الأنبياء].

ومنها أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان].

ونفاه سبحانه هنا أيضاً، وعده شركاً يتنزه عنه فقال:

﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وانتقلت الآيات من الحديث عن الخلق عموماً إلى خلق الإنسان على وجه الخصوص، وبيان ما في خلقه من قدرة عظيمة وحكمة باهرة:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: من ماء قليل، وهي مبدأ وجود الإنسان، تتكون من مني الرجل والمرأة، قال تعالى: ﴿الَّذِي يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ امْرَأَةٍ﴾ [القيامة: ٣٧]. وقال ﷺ أيضاً: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والنطفة الأمشاج: هي البويضة الملقحة وما يحيط بها من سوائل.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ أي: فإذا هو بعد هذه البداية الضعيفة الحقيرة، يخاصم ربه وينكر فضله عليه، ويجحد نعمته.

وكلمة ﴿إِذَا﴾ الفجائية تدلُّ على أنَّ المتوقع من الإنسان الذي خلقه الله تعالى من النطفة الضعيفة القليلة الحقيرة، أن يقرَّ بفضل الله تعالى، وينقاد لأمره، ويشكر نعمته، لا أن يكفر ويجحد، ويخاصم في قدرة الله تعالى ويجادل، ففي الآية وصف للإنسان بالوقاحة والتمادي في كفران النعمة^(١).

ومراد الآية الإنسان الكافر الجاحد، لا الإنسان المؤمن المخبت الخاشع،

وقد لقي النبي ﷺ من أمثال هذا الإنسان الجاحد عناءً وأذى، حتى جاء أحدهم بعظم قد رمّ وبلي، وفتته أمام النبي ﷺ، وقال: يا محمد، أترعّم أن الله يبعث هذا؟! فأنزل الله ردّاً عليه قوله الكريم في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ (١).

• الأنعام منافع وجمال:

وبعد وصف الإنسان بالكفران والجحود، تابعت الآيات تذكيره ببعض نعم الله تعالى عليه:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾.

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ من أجلكم ولمنافعكم، وهي: الإبل والبقر والغنم، قال تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٦١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٦٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٦٣﴾ فللأنعام صلة وثيقة بمعيشة الإنسان ومصلحه.

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ وهو ما يُدْفَأُ به للوقاية من البرد من لباس وفرش وأغطية وغير ذلك، كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

﴿وَمَنْفَعٌ﴾ أي: ولكم في الأنعام كثيرة وكبيرة ستفصلها الآيات. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: ومن لحوم الأنعام تأكلون. أفرد منفعة الأكل بالذكر لأهميتها وكثرة اعتماد الناس عليها.

وتقديم الجار والمجرور أفاد الحصر والتخصيص، إذ الأكل من لحوم الأنعام هو المعتاد المعتمد عليه عند أكثر الناس، وقد يأكل الناس أحياناً من

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١٧١/٣.

لحوم الحيوانات الأخرى كالطيور والأسماك إلا أنَّ اعتمادهم في الدرجة الأولى على لحوم الأنعام.

وثمة وجه آخر لانتفاع الناس من الأنعام ذكره سبحانه بقوله:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: تتذوقون برؤية الأنعام الجمال، فترتاح نفوسكم، وتنشرح صدوركم.

والجمال: ما يُتَجَمَّلُ به ويُتَزَيَّن، أو هو الحسن، ويكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة والأفعال أيضاً^(١)، وجمال الأنعام في صورتها وتكوينها.

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: عندما تردونها من مراعيها إلى مرايحها في آخر النهار، فإنها تقبل ملأى البطون، حافلة الضروع، وللإبل رغاء، وللشاة ثغاء، يتردد بين الحقول والبيوت وهي تنادي صغارها.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: وحين تخرجونها في الصباح إلى المراعي.

وتقديم الإراحة لأنَّ الجمال فيها أظهر، إذ تقبل حينئذ تتهادى في مشيها وقد امتلأت بطونها وضروعها، تحمل الخير لأصحابها، فيكون سرورهم برؤيتها في ذلك الوقت أكثر وأكمل.

• رواحل ومراكب:

ثم أضافت الآيات بيان منفعة أخرى للإبل على وجه الخصوص، وهي منفعة الحمل والنقل، فلقد كان الناس يعتمدون عليها في أسفارهم، تحملهم مع أمتعتهم وبضائعهم:

(١) تفسير القرطبي: ٧٠/١٠.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلَغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧).

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي: وتحمل الإبل الأحمال الثقيلة التي يثقل عليكم حملها ونقلها، فالإبل هي المرادة بالذكر هنا، فهي التي تحمل الأثقال في الأسفار، وينبغي على الإنسان أن لا يحمّلها فوق طاقتها، وأن يرفق بها في السير، فيريحها في أثنائه، ويهتم بإطعامها وسقيها، فالإسلام دين الإحسان والرحمة.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتُم في الخُضْب فاعطوا الإبلَ حَظَّها من الأرض، وإذا سافرتُم في السَّنة (القحط) فأسرعوا عليها السير^(١)، وإذا عرَّستُم بالليل فاجتنبوا الطريق، فإنَّها مأوى الهوام بالليل» [رواه مسلم (١٩٢٦)].

﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلَغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أي: تحمّلکم وتحمل أثقالکم إلى بلد لا تصلون إليه من دونها إلا بجهد ومشقة وعناء.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بخلق الأنعام لكم وتسخيرها وتيسير الانتفاع بها. وانتقلت الآيات من الإبل الرواحل إلى الدواب المراكب، وهي تذكّر الناس ببعض نعمه سبحانه عليهم:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨).

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِرِكْبُوهَا﴾ أي: وخلق الخيل والبغال والحمير لأجل أن تركبوها.

﴿وَزِينَةً﴾ أي: وجعلها زينة.

وأشار تغيير نظم اللفظ في الآية إلى أن الزينة بفعل الخالق جلّ وعلا، بينما

(١) كي تصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها.

الركوب بفعل المخلوق، أو لأن الركوب منفعة أساسية مقصودة، بينما التزئ منفعة كمالية غير مقصودة^(١).

وتدل الآية على إباحة اتخاذ هذه الحيوانات للزينة والجمال، مع أنه من الكماليات في الحياة، وليس من الضروريات والحاجيات، فالتزئ والتجمل ضمن الحدود المشروعة أمر جائز مباح، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَبْنِيْ أَدَمَ خُدُوًا زِينَتًا لِّكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢).

• إعجاز ومعجزة:

﴿وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من وسائل الحمل والنقل والركوب. فقدرته سبحانه طليقة، تتسع لما كان ولما يمكن أن يكون، والآية مفتوحة، تنسحب على كل الوسائل التي توصل الإنسان إلى صنعها بهداية الله تعالى وتوفيقه، كالسيارات والطائرات والقطارات وغيرها من المراكب، التي يمكن أن يتمكن الإنسان من صنعها في المستقبل؛ فالله سبحانه هو خالقها وحده، لأنه هو الذي أبدع النواميس التي تسيّر هذه المركبات بمقتضاها، وكذلك هو الذي خلق المواد التي صُنعت منها، وهو أيضاً الذي خلق الطاقة التي تحركها، وهو سبحانه أيضاً الذي هدى الإنسان إلى صنعها وتركيبها على وفق النواميس التي أبدعها جلّ وعلا، وبثها في المكونات.

والإشارة إلى هذه الوسائل بصيغة الإجمال والإبهام دون التصريح بها تدلّ على حكمته سبحانه ورحمته بعباده، إذ لم يكن شيء من هذه الوسائل في عصر التنزيل، وما كان يخطر على قلب أحد وجود مثلها، والله سبحانه بحكمته ورحمته يخاطب الناس على قدر عقولهم وتصوراتهم، حتى لا يؤثّمهم ويفتنهم، فلا يكون منهم اعتراض على كلامه جلّ وعلا ولا تكذيب.

(١) انظر: تفسير البضاوي: ٥٨٦/٣.

ورضي الله عن عبد الله بن مسعود عندما قال: ما أنت محدثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة. [رواه مسلم كما في الفتح (١/٢٢٥)].

وبؤب الإمام البخاري في «صحيحه» [٤٩] في كتاب العلم فقال: باب من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا. ثم روى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: حَدَّثُوا النَّاسَ بما يعرفون، أتحبون أن يكذبَ الله ورسوله؟!.

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم أنه خاطب الناس في عصر التنزيل على قدر فهم عقولهم وتصوراتهم، وفي الوقت نفسه فإن كلماته تتسع لمعانٍ كثيرة متجددة لا يمكن حصرها، بحيث تنسحب على جميع ما كان ويكون من الحقائق فهو جديد دائماً، لا تنتهي معانيه، ولا يخلق على كثرة الرد.

قال صاحب «أضواء البيان»: «ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول، ولم يصرّح هنا بشيء منه، ولكن قرينة ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات، تدلّ على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية كالطائرات والسيارات.

ويؤيد ذلك إشارة النبي ﷺ في الحديث الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لينزلن ابنُ مريمَ حكماً عادلاً، فليكسرنَّ الصليبَ، وليقتلنَّ الخنزيرَ، وليضعنَّ الجزيةَ، ولتتركنَّ القلاصَ، فلا يسعى عليها، ولتذهبنَّ الشحناءَ والتباغضَ والتحاسدَ، وليدعونَّ إلى المالِ فلا يقبله أحد» [رواه مسلم (١٥٥)].

ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام: «ولتتركن القلاصَ، فلا يسعى عليها» فإنه قَسَمَ من النبي ﷺ أن الإبل ستترك، فلا يسعى عليها، وهذا مُشَاهِد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة^(١).

(١) أضواء البيان: ٢١٨/٣ - ٢١٩.

وبهذا ظهر إعجاز في كتاب الله ، ومعجزة لرسول الله ﷺ ، وظهر أيضاً أنه لا جمود ولا تحجر في تفكير المسلم وعقيدته .

قال سيد قطب رحمه الله : «إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ، ومن ثمَّ يهيئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما يتمخض عنه القدرة ، ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل ، استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة»^(١) .

• السبيل القاصد والسُّبُل الجائرة:

إن خلق الأنعام والدواب ، وتسخيرها للإنسان ، من نعم الله العظيمة على الإنسان ، وأعظم منها أنه سبحانه أنزل الكتب ، وبعث الرسل ، لكي يبينوا للناس الطريق المستقيم ، والمنهج القويم الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة ، ويوصلهم إلى فضل الله ورحمته ، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك :

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩) .

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي : إن بيان الطريق الموصل إلى الحق عليه سبحانه ، تفضلاً منه على عباده ، ورحمةً بهم ، فهو كقوله : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢] ، فعلى الله سبحانه - كما قال الزجاج - تبين الطريق الواضح المستقيم ، ودعوة الناس إليه بالحجج والبراهين^(٢) .

ولهذا أنزل الله سبحانه الملائكة بالوحي على الأنبياء والمرسلين كما مرَّ معنا في قوله تعالى : ﴿يُزِيلُ الْمَلَكُةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢] .

﴿وَمِنْهَا جَايِزٌ﴾ أي : ومن السبل مائل عن الاستقامة ، لا يوصل إلى المقصد ، مائل عن القصد وهو الوصول إلى الله تعالى والفوز برضوانه .

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٦١ .

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٥٨٧ .

وتغيير الأسلوب في الآية يدلُّ على أنه ليس بحقٍّ على الله تعالى أن يبيِّن طرق الضلالة^(١).

فقد تكفَّل سبحانه بفضلِه ورحمته ببيان الطريق القاصد المستقيم فقط، إذ كل طريق يخالفه طريق جائر، فلا حاجة إلى بيانها وتفصيلها، وهي كثيرة ومتشعبة، فمعرفة طريق الحق تكفي وتُغني، وقد حذَّر سبحانه من الانحراف عن الطريق القاصد المستقيم، فأَيُّ انحرافٍ عنه يوقع في الطرق الجائرة الضلالة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

• من بلاغات القرآن الكريم:

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ من بلاغات القرآن الكريم، ففي كلمة ﴿قَصْدٌ﴾ كثير من المعاني، هي في الحقيقة ميزات وخصائص للشرعية الإسلامية؛ يقال: قصد الطريق قصداً: استقام، وقصد إليه: توجه إليه عامداً، وقصد في الأمر: توسط لم يُفْرِط ولم يُفْرِطْ، وقصد في الحكم: عدل، وقصد في النفقة: لم يسرف ولم يقتّر، وقصد في مشيه: اعتدل فيه. والقاصد في الأسفار: السهل، يقال: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة: هيئة السير، لا تعب فيها ولا بقاء، والقاصد من السهام: المستوي نحو الرمية، يقال: قصد السهم: أصاب، والقصد: الرشد، يُقال: هو على القصد أو على قصد السبيل: إذا كان راشداً^(٢).

فالاستقامة والرشد، والتوسط والاعتدال، والسهولة واليسر كلها من معاني القصد، وهي من خصائص وميزات الشريعة الإسلامية، فالحمد لله الذي جعلنا على السبيل القاصد، وأسأله تعالى الثبات عليه.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هداية التوفيق إلى الإيمان، والسير على السبيل

القاصد.

(١) تفسير البضاوي: ٥٨٦/٣.

(٢) انظر: المعجم الوسيط: ٧٣٨/٢.

ولكنه سبحانه بحكمته ومشيتته قدّر أن يكون للإنسان اختيار وكسب وإرادة، فبيّن له السبيل القاصد، وحذّره من السبل المخالفة، لأنّها سبلٌ جائرةٌ، وأنزل الكتب، وبعث الرسل، ومكّنه سبحانه أيضاً من التمييز والاختيار، بما وهب له من وسائل التمكين، وهي العقل والسمع والبصر، وجعله مسؤولاً عن كسبه واختياره.

• نعم من السماء والأرض:

واستمرت الآيات في تذكير الإنسان بنعم الله تعالى عليه، فشرعت في النعم التي جعلها سبحانه في البيئة المحيطة بالإنسان، إذ جعلها سبحانه صالحة لعيش الإنسان، مسخرة لمنافعه ومصالحه، قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: الله وحده الذي ينزل الماء من السحاب المرتفع في جو السماء.

﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ لكم أيها الناس من هذا الماء شرابٌ تشربونه.

ومن المعلوم أن مصادر المياه العذبة من ينابيع وآبار وأنهار وبحيرات تغذيها مياه الأمطار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقوله ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

فماء الأمطار ضروريٌ لسقيا الناس، وضروري أيضاً لطعامهم، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ومن ماء المطر الذي أنزله سبحانه النبات الذي ترعون فيه أنعامكم ودوابكم. وكذلك:

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١١)

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: يخرج الله تعالى بماء المطر لكم أيها الناس الزرع الذي يعطيكم الحبوب المختلفة، كالحنطة والذرة والشعير، وينبت به أيضاً الزيتون الذي فيه غذاء لكم ودواء، والنخيل التي جعل الله في ثمارها الغذاء، والفاكهة والأعنان التي تتغذون فيها وتتفكّهون، وغيرها من أصناف الفاكهة والثمار الكثيرة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإنزال من السماء والإنبات من الأرض.

﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لدليلاً على وجود الله تعالى وجوده وفضله وإنعامه لقوم يتفكّرون فيما خلق الله تعالى لهم.

• تسخير الليل والنهار:

وانتقلت الآيات من عالم النبات إلى عالم الأفلاك:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٢)

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ أيها الناس.

﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ الليل لسكونكم وراحتكم، والنهار لانتشاركم ونشاطكم ومعاشكم، فبيئة حياتكم منظمة تنظيمًا دقيقاً محكماً متكاملاً.

والإنسان يحتاج إلى ظلمة الليل، كما يحتاج إلى ضوء النهار، وقد كشف العلم الحديث أن لتعاقب الليل والنهار أثراً كبيراً حاسماً في المحافظة على التوازن في بيئة الحياة واستمرارها، وأن له أيضاً ارتباطاً وثيقاً بنمو النبات، وفي المحافظة على النسبة المتوازنة في العناصر المكوّنة للهواء.

كما أن تعاقب الليل والنهار يخضع لنظام علوي دقيق، أبدعه الخالق العليم

الحكيم لكي يتخذہ الناس أساساً لضبط حساباتهم ومواعيدهم في شؤون حياتهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا آيَاتٍ فَحُورًا آيَةً آيَلٍ وَجَعَلْنَا آيَةً النَّهَارِ مَبْصَرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

فالليل والنهار خاضعان لنظام دقيق محكم ثابت، لا يتغير إلا بمشيئة الله تعالى وحده وقدرته، ويبقى الناس مهما أوتوا من قوة وعلم، عاجزين عن أيّ خرق لهذا النظام أو إحداث أدنى خلل فيه.

● تسخير الشمس والقمر والنجوم:

وكما سخر الله تعالى الليل والنهار للإنسان، سخر له أيضاً الشمس والقمر والنجوم، وقال في سياق تذكير الناس ببعض نعمه عليهم:

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: سخر الشمس والقمر لمنافعكم، فجعل الشمس مصدراً أساسياً للضوء والحرارة، وجعل القمر مصدراً للنور.

وفَصَّلْ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ يُنُسَ فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً
وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ .

وجعل سبحانه الشمس بعيدة عن الأرض بُعداً دقيقاً محكماً، بحيث لا يصل إلى الأرض من ضوئها وحرارتها إلا مقدار ما يحتاجه الناس في حياتهم ومعاشهم، وأي زيادة أو نقص في هذا المقدار الموزون يجعل بيئة الحياة في الأرض غير صالحة لاستمرار الحياة فيها، فكلُّ شيء أبدعه الله تعالى موزون بميزان العلم والحكمة، كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَا مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿١﴾.

(١) انظر في تفصيل الموضوع: تفسير سورة الحجر، المسمى في تفسيرنا الموضوعي هذا: (الأجل والأمل في سورة الحجر).

﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي: والنجوم بأجرامها الكبيرة وأعدادها الكثيرة، مذلات مقهورات تحت قهره جلّ وعلا وإرادته.

والعدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية يفيد الدوام والاستمرار، فالنجوم خاضعة دائماً لإرادة الله تعالى وقدرته، ولا تأثير لها في غيرها من المخلوقات والحوادث إلا بمشيئة الله وقدرته، وفي هذا ردّ على كل من يعتقد أن للنجوم تأثيراً في الحوادث الأرضية، فهي مسخرة لفائدة الناس، وفي قراءة: (والنجوم مسخرات بأمره) أي: وجعل النجوم مسخرات من أجلكم ولمنافعكم. وسيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَنَّا وَابْتَلَيْنَاهُمْ هُمْ يَسْتُنْذِرُونَ﴾ [النحل: ١٦]، بعض أوجه انتفاع الناس بالنجوم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً. ويلاحظ أنه سبحانه ختم الآية السابقة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَفْكُرُونَ﴾ [النحل: ١١]، أي: يتدبرون ويتأملون في هذه الظواهر الكونية المذكورة في الآية، وهي فعلاً تحتاج إلى شيء من التفكير والتدبر لكي ينكشف للناس ارتباط إنزال المطر بإخراج النباتات المتنوعة.

بينما ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأنّ الظواهر الكونية في هذه الآيات دلائل القدرة الباهرة فيها أكثر وضوحاً وبروزاً، فلا حاجة للتدبر والتفكير في إدراكها، يحتاج الإنسان فقط إلى أن يستعمل عقله بموضوعية وتجردٍ ليدرك ما فيها من أدلة واضحة تدل على عظمة الخالق وقدرته وحكمته.

• معارض للفن والجمال في الأرض:

وعادت الآيات إلى الأرض مرة ثانية لتذكّر الإنسان بلون آخر من النعم، سبق للآيات أن ذكرت مثله في الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

فالجمال ظاهرة مثبتة في كلّ المخلوقات، تدل على وجود الله سبحانه وقدرته وحكمته، كما تدل على فضله ورحمته:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣).

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: واذكروا ما خلق الله لكم في الأرض من الأجناس والأنواع.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا﴾ وهي مع كثرتها مختلفة في الألوان والأشكال والأحجام، تظهر لكم في غاية الحسن والجمال، قُدِّمَتْ لكم في إطار جميل ولوحات منسقة لكي تنتفعوا بها، وتتذوقوا جمالها وحسنها، فتتشرح صدوركم، ويزداد سروركم، فما أعظم فضل الله تعالى عليكم! جعل الله في الكون المحيط بكم معارض كثيرة للفن والجمال، فيها لوحات فنية في غاية الحسن والتنسيق، عرضت الآيات الكريمة بعضها في عدة آيات؛ منها: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُتْبِتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ﴾ [الحج: ٥].

ومنها أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَنًا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَنًا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (١٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْذَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر].

والجمال يتذوقه الإنسان بفطرته، فلا يحتاج معه إلى استعمال فكر وعقل ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الجمال والحسن والتناسق والانسجام بين الألوان والأشكال.

﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ﴾ يتعظون ويعتبرون.

● تسخير البحر:

وفي البحر أيضاً منافع كبيرة ومعارض فنية جميلة رائعة:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً ثَلَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٤).

﴿وَهُوَ﴾ وحده سبحانه.

﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ هذا المخلوق الكبير العظيم الذي يغطي أكثر الأرض .
 ﴿لِنَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ من أسماكه الكثيرة المتنوعة، وصفه بالطراوة
 لسهولة أكله ولطافته .

وفيه إشارة إلى المبادرة إلى أكله فور استخراجهِ من البحر، فمن المعلوم أنَّ
 السمك الطازج ألذ مذاقاً ونكهة من غير الطازج، ولهذا تُقام أفخم مطاعم
 السمك بجانب أماكن صيده ترغيباً للناس بلحم السمك الطازج الطري .
 والبحر مصدر كبير من مصادر طعام الإنسان، زادت أهميته في العصر
 الحاضر بسبب تطور وسائل الصيد وتقديمها، وبسبب شَرِّه الناس وشدة طمعهم
 وجشعهم، حتى أصبحوا يتنافسون على مصايد السمك في لجج البحار،
 ويحشدون الجيوش، وتشتعل الحروب .

وقد ذكر سبحانه البحر في عدة آيات في معرض الامتنان على الناس بتسخيره
 لهم، أو في سياق الأدلة الدالة على قدرته وعظمته سبحانه؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي
 سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢] .

وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أيضاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
 وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَرَى الْفُلُكُ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢] .

ومن منافع البحر أيضاً: الدرر التي يستخرجونها من أعماقه لتكون حلية
 وزينة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان المذكورين في قوله
 سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَإِنَِاءٌ لَكُمْ تَذْكُرَانِ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ
 مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢١] .

وإلى جانب كل هذه المنافع جمال البحر الأسر، وحسنه الباهر، ففيه
 لوحاتٌ جماليةٌ رائعةٌ تأسر العين، وتبهر القلب، ويزداد البحر جمالاً وحُسنًا
 بالسفن وهي تتهاذى بين أمواجه، تشق بصدورها صفحة الماء الممتدة على مدى
 امتداد النظر .

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ دونك يا أيها الإنسان هذه اللوحة الفنية الرائعة، لترى فيها السفن بأحجامها المختلفة جارية في البحر، وقد خلّفت وراءها على صفحته الزرقاء خطوطاً طويلة للمياه البيضاء المُرْبِدة الهائجة.

ومن وجوه انتفاع الناس في البحر: الانتقال والسفر بواسطته بين البلاد البعيدة، وبين القارات المنفصلة عن بعضها بالبحار الكبيرة المحيطة، وقد يَسَّرَ الله تعالى للناس صنع السفن والمراكب التي يسافرون عليها في البحار للتجارة والكسب والصيد وغيرها من المقاصد:

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: سخر الله لكم ركوب البحر لكي تطلبوا الرزق من فضله تعالى وإحسانه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على هذه النعم الكبيرة.

• الجبال أوتاد الأرض:

وانتقلت الآيات الكريمة من أعماق البحار وما فيها إلى ذرى الجبال وقممها وجذورها، فبيّنت فضل الله تعالى على الإنسان بتثبيت الأرض بالجبال، فلا تتزلزل ولا تضطرب، لكي يستطيع الإنسان أن يعيش عليها بأمان واطمئنان:

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (١٥).

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا﴾ أي: ألقى سبحانه في الأرض جبالاً ثقيلة ثابتة.

﴿أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تضطرب بكم.

ومن المعلوم أن باطن الأرض الذي تستند عليه قشرتها سائل ملتهب، والحمم التي تقذفها البراكين يؤكد ذلك، وهذا يجعل سطح الأرض مضطرباً منزلقاً غير مستقر، وقد ذكر المفسرون أنه سبحانه لَمَّا خلق الأرض جعلت تمرور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال^(١).

(١) انظر: تفسير البضاوي وتفسير الخازن وتفسير النسفي: ٣/ ٥٩٠؛ وقد ذكره ابن كثير في

تفسيره وعزاه إلى الحسن البصري. مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢٦.

قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢].

فهي بالنسبة لسطح الأرض كالأوتاد، وهو ما صرَّح به تعالى في قوله: ﴿أَلَّا يَجْعَلَ الْأَرْضَ مَهْدًا ۖ وَالْجِبَالُ أَوتَادًا﴾ [النبا].

ف للجبال دور كبير في تثبيت الأرض، حتى قال بعض المفسرين: «الجبال بالنسبة للأرض كالعظام للجسم، والأرض بلا جبال كاللحم بلا عظام»^(١).

وقد أثبت علماء طبقات الأرض أنَّ للجبال جذوراً ممتدة في داخل الأرض، والعجيب أن العلامة البيضاوي رحمته الله وهو من علماء القرن السابع الهجري المتوفى سنة (٦٨٥هـ)، أشار إلى هذه الحقيقة بقوله: «فلما خُلِقَت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة»^(٢).

وكلمة ﴿وَالْقَى﴾ تدل على عظمته تعالى وقدرته، فجبال الأرض كلها بأثقالها وصخورها شيء يلقى على الأرض إلقاءً، فما أعظم قدرته جلَّ وعلا!

ثم ذكر سبحانه نعمته على الإنسان بالأنهار:

﴿وَأَنْهَزْنَا﴾ أي: وجعل في الأرض أنهاراً تحمل الماء العذب لسقياكم وسقيا أنعامكم ومزارعكم.

وللأنهار اتصال وثيق بالجبال، لأنها تستمدُّ ماءها من الجبال، إذ هي مخازن الماء بتقدير الله تعالى، وكثيراً ما تُذكر الأنهار والمياه العذبة مع الجبال، كما ذُكرت هنا، وفي قوله سبحانه أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْاسِيَ شِجَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

• علامات في النهار والليل:

ومن رحمته سبحانه بالناس أنه جعل بين الجبال فجاجاً وأودية لكي تكون

(١) تنوير الأذهان: ٣٠٢/٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٩٠/٣.

للناس بمثابة طرقات وممرات، فلا يضطرون إلى صعود الجبال الشاهقة في أسفارهم وتنقلاتهم، فقال جل وعلا:

﴿وَسُبُلًا﴾ أي: جعل بين الجبال طرقاً تسلكونها، فتصلون إلى مقاصدكم بسهولة ويسر، كما في قوله سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣].

إن هذه الوديان والفجاج بين الجبال مقدرة بتقدير الحكيم العليم، بحيث تكون طرقاً تصل بين المناطق التي قطعها الجبال عن بعضها، يسلكها الناس إلى مقاصدهم فلا يضلون ولا يتيهون.

﴿لَعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بتلك السبل إلى مقاصدكم، وتصلون إلى بُغيتكم، فاعرفوا فضل الله تعالى عليكم، واشكروه على ما أعطاكم.

ومن فوائد الجبال والوديان والأنهار أيضاً أنها علامات ترشد الناس إلى الطرق والجهات، فهي معالم على الطرق ترشد المسافرين:

﴿وَعَلَّمَنَّا وَيَلْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَعَلَّمَنَّا﴾ أي: وجعلها لكم علامات تهتدون بها في أسفاركم، وهي علامات النهار، وقد جعل سبحانه بفضلها لليل علامات أيضاً، وهي النجوم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَيَلْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فللنجوم مواقع خاصة في جهة السماء يهتدي بها المسافرون في البر والبحر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

ومواقع هذه النجوم ثابتة لا تتغير، مما يدل على أن لها نظاماً يحكمها ويقهرها، أبدعه الخالق العليم الحكيم جل وعلا، ولهذا أقسم سبحانه بمواقع النجوم لما فيها من دلالة كبيرة على عظمته وقدرته: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [٧٥] وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [الواقعة].

● عجز وقصور:

وتوجهت الآيات بعد هذا العرض لبعض نعم الله تعالى إلى المشركين بهذا السؤال، تنكر عليهم به شركهم وكفرهم وإعراضهم عن توحيد جلاله وعلا وطاعته وعبادته:

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ وهو الله سبحانه المتفرد وحده بالخلق والتدبير الذي قال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، فلا خالق سواه جلّ وعلا .
 ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً بسبب عجزه وضعفه، فكيف تجعلونه في استحقاق الطاعة والعبادة كالخالق المنعم المتفضل عليكم بهذه النعم الجليلة الكثيرة؟! .
 ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الحقيقة الظاهرة التي لا تحتاج إلى إعمال عقل وفكر؟! .
 وتحولت الآيات من أسلوب الإنكار إلى أسلوب التقرير والتحدي، تبين فضل الله تعالى عليهم، وعجزهم عن إحصاء وحصر نعم الله تعالى عليهم:

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ أي: لا تضبطوا عددها لسببين: أولهما: كثرتها، وثانيهما: عجزكم وضعفكم وجهلكم .

فالأول نابع من النعم نفسها، والثاني نابع من المنعم عليهم .
 ولا يزال الناس منذ فجر وجودهم وحتى العصر الحاضر، عاجزين عن حصر نعم الله تعالى وإحصائها وضبطها بعدد معين، والعصر الحاضر عصر الحاسبات الآلية التي لها قدرة على استيعاب أعداد كبيرة من المعلومات، ومع ذلك فالناس فيه يجهلون أكثر مما يعلمون، وثمة مجالات كثيرة في أنفسهم وفي الكون المحيط بهم لم تبلغه معارفهم، ولم تتصوره عقولهم، لا يزالون كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] .

وثمة أيضاً نعم كثيرة خفية تتوقف عليها حياة الناس واستمرارها، لا يعلمها الناس، أشار إليها سبحانه بقوله الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وما دمت عاجزين عن إحصاء نعم الله تعالى عليكم، فأنتم أعجز عن القيام بحق شكرها، فحقه سبحانه عليكم كبير وعظيم، فاعبدوه وأطيعوه وأنتم مقرون بفضلته جلّ وعلا، ومعترفون بتقصيركم وعجزكم عن حق شكره سبحانه، واسألوه أن يتجاوز عن تقصيركم ويرحمكم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولهذا كان النبي ﷺ يقوم من الليل في عبادته سبحانه ومناجاته حتى تتشقق قدماه الشريفتان، ويرى نفسه مقصّراً في حق شكره سبحانه، ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَنْفَطَرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَحَبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا» [رواه البخاري (٤٨٣٧)].

قال العلماء: إنما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف، لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبدلوا مجهودهم في عبادته، ليؤدّوا بعض شكره، مع أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد^(١).

ثم أكّد سبحانه إحاطة علمه بكلّ أحوال الناس ظاهرها وباطنها، فهم لا يعلمون نعمه سبحانه عليهم، وهو ﷻ أحاط بكلّ شيء علماً:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

لا تخفى عليه خافية.



الفصل الثاني

جُحُودٌ وَعِنَادٌ.. وَمُفَارَقَاتٌ مُسْتَنْكَرَةٌ

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يَسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِبِّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَى أَلْوَمُ وَالسَّوَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا حَبْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ حَبْرٌ وَلِنَعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عِدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَبِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّاعُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
 كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ
 مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا
 وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ
 هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّنَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي
 إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
 لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ
 الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيدِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ
 ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيهِمْ
 ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْتِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾
 ﴿٥١﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَمَا يَكُمُ مِنْ تَعَمُّقِ فِعْلِ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا
 مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٤﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾
 لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْ مِنْهُ فَنَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ
 لَشَتَّى عَنْكُمْ كُنْتُمْ تَقَرُّونَ ﴿٥٧﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بُشِّرَ
 أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٩﴾ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ
 عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٠﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ
 الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْمَزِيدُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ
 يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَغْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٢﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ
 مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِيفُ آسِنَتُهُمُ الْكَذِبِ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٠) وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِشُبَّانٍ لَهُمْ الَّذِي أَحْثَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾ .

● حملة على الأصنام:

وبعد أن عرضت الآيات هذه المجموعة من نعم الله تعالى على الإنسان، شرعت في بيان موقفه من خالقها جلَّ وعلا، فأكثر الناس وقفَ موقف الجحود والعناد، فبدل أن يتوجَّهوا إلى الله تعالى بالشكر والطاعة والعبادة، جحدوا فضله، وكفروا بنعمته، فعبدوا غيره، وأشركوا به سبحانه آلهةً مزعومةً ظاهرة العجز والضعف:

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (٢٠)

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كالأصنام والأوثان.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ بسبب ضعفهم وعجزهم.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ محتاجون في وجودهم إلى خالقهم، الذي أخرجهم من العدم إلى الوجود.

فالإله الذي يستحق العبادة يجب أن يكون واجب الوجود أزلاً وأبداً، موجوداً بنفسه، ولا يستمد وجوده من غيره.
وهذه الآلهة المزعومة أيضاً:

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢١)

﴿أَمْوَاتٌ﴾ جمادات ميتة، لا حياة فيها ولا إحساس ولا شعور.

﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فلو كانوا آلهة على الحقيقة، لكانوا أحياء حياة حقيقية غير مكتسبة، وغير مسبقة بالعدم، ولا يلحقها موتٌ وفناء، فالإله الحق حيٌّ

لا يموت، قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

فالحياة والموت بيده سبحانه، وبمشيئته وقدرته، كما أنه وحده المنعم المتفضل، فكيف تعرضون عن عبادته وطاعته، وتعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع عاجزة جامدة؟! فما أشد عنادكم! وما أعظم جحودكم! وما أصدق قول الله تعالى فيكم: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّكُم لَإِنسَانٌ لَّا شَكْرَ لَهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والإله الحق ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب، قادراً على بعث الناس يوم القيامة، بينما هذه الآلهة المزعومة جاهلة عاجزة.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يعلمون متى يبعثون.

• حاملو الأوزار:

وبعد هذه الحملة على الأصنام، أتبعته الآيات بحملة أخرى على المشركين من عبديتها، فوجهت الخطاب إليهم تفرغهم، وتوبيخهم، وتقرر حقيقة التوحيد الكبرى التي يجب عليهم الإقرار بها والتسليم لها:

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ (٢٢).

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ شتم أم أبيتم، فهو خالقكم، ومالك أمركم، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وما فيها من بعث وحساب، وعقاب وثواب.

﴿قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ﴾ جاحدة للحق.

﴿وَهُمْ مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: وشأنهم التكبر والتجبر، وهو السبب الذي يجعلهم ينكرون الحق ويجحدونه.

ومثل هؤلاء لا يجدي معهم إلا أسلوب الوعيد والتهديد:

﴿لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (٢٣).

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً.

﴿أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم على عملهم وكفرهم أشد

الجزاء.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ المتصفين بصفة التكبر، فضلاً عن الذين استكبروا

عن عبادته وطاعته، وجحدوا فضله ونعمه وإحسانه.

ومن صور جحودهم وتكبرهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٤).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقكم ورباكم بفضله وإحسانه بما أنعم

عليكم.

﴿قَالُوا﴾ بوقاحة وجراءة على الله تعالى وعلى كلامه المنزل على رسوله ﷺ:

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو أكاذيب وأباطيل كان الأقدمون يرددونها.

وقد حكى الله تعالى عنهم مثل هذا القول في آيات كثيرة؛ منها: ﴿وَقَالُوا

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ

هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

بهذه الأكاذيب والافتراءات على كلام الله تعالى كانوا يصرفون الناس عن

سماع القرآن الكريم، ويصدونهم عن دين الله تعالى، فعليهم يوم القيامة أن

يتحملوا مسؤولية ضلالهم وإضلالهم لغيرهم:

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا

يَزُرُّونَ﴾ (٢٥).

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فسيجازيهم سبحانه على جميع ذنوبهم،

فلا يغفر لهم شيئاً منها، بسبب رسوخهم بالكفر والضلال، ودعوتهم إليه، وصددهم عن الحق.

﴿وَمَنْ أَوَّارَى الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وسيجازيهم سبحانه أيضاً عن بعض ذنوب الذين اتبعوهم من عامة الكفار، الذين استغلوا جهلهم فأضلّوهم، وحسّنوا لهم السير في طرق الضلال، قال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَنْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهذا لا يعني إفلات عامة الكفار ونجاتهم من المسؤولية عن كفرهم وضلالهم، فهم مسؤولون، لأنه سبحانه زوّدهم بأهلية التمييز والنظر، كما أنه سبحانه أرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب، ليبين لهم طريق الحق القاصد الذي يجب عليهم أن يسيروا فيه، فلا عذر لهم، وجهلهم لا يخلصهم من المسؤولية، ولا ينقص آثامهم، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هَدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي: ألا بش ما يحملون.

• الواقعون في شرّ أعمالهم:

ثم دعتهم الآيات إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم:

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٣٦).

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل مشركي مكة المكرمة.

والمكر: الاحتيال والخديعة لإبطال دعوة الأنبياء والمرسلين، فأبطل سبحانه مكرهم، وأحبط كيدهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: نقض الله مكرهم من قواعده وأساسه الذي بُني عليه.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فسقط عليهم السقف وهم تحته، فوقعوا في شر أعمالهم، وردَّ الله تعالى مكرهم عليهم، كما قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. وقال أيضاً: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل].

ودلَّ قوله تعالى: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ على أنهم كانوا تحته، والعرب تقول: خرَّ علينا سقف، ووقع علينا حائط، إذا كان القائل يملكه وإن لم يكن وقع عليه^(١).
﴿وَأَتْلَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أتاهاهم العذاب والهلاك في الدنيا من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، فقدر الله تعالى لا يرد، ومشيتته نافذة في ذرَّات الموجودات، ومن مأمنه يُؤتى الحذر، فلا تغتر أيها المتكبر الظالم بقوتك وبأسك ومالك وسلطانك، و«مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْزَامُنْ»^(٢).

• مثوى المتكبرين:

وهذا في الدنيا:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧١﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾ أي: يعذبهم بعذاب يذلهم فيه، إذ الخزي هو العذاب مع الذلة والهوان.

﴿وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ﴾ في زعمكم واعتقادكم.

﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفُقُونَ فِيهِمْ﴾ أي: كنتم تعادون الأنبياء والمرسلين والمؤمنين من أجلهم، فما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم العذاب والهوان؟!.

(١) انظر: فتح القدير: ١٥٧/٣.

(٢) عجز بيت لأبي البقاء الرندي، وصدره: هي الأمور كما شاهدتها دُولٌ.

فهو كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَبُذِرَتِ الْجَنِّمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصِرُونَ﴾ [الشعراء].

ولا سبيل لهم في مثل هذا الموقف إلا السكوت، وهو إقرار ضمني على أنفسهم بما كانوا عليه من كفر وفجور، وعناد وكبر، صمتوا والأسف والندم يحرق قلوبهم.

وتكلم المؤمنون:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهو الوحي الذي أنزله الله على رسله.

أي: قال الذين انتفعوا به، فعبدوا الله وحده وأطاعوه، والعلم يدعو للإيمان، وهو من أشرف ما يتصف به الإنسان، ووصف المؤمنون به إجلالاً لهم وتكريماً، لكونه منشأ كل فضيلة^(١).

﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ففي هذا اليوم يظهر أهل الحق ويكرمون، ويدل أهل الباطل ويهانون بالخزي والسوء.

وبدأ عذابهم وهوانهم من حين مفارقتهم للدنيا، عندما تأتيهم الملائكة لتقبض أرواحهم:

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٨).

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: تحضر إليهم ملائكة الموت، وهم مصرؤون على ظلم أنفسهم بالكفر والشرك، فالقوم يصرون على جحودهم وعنادهم حتى الموت.

(١) انظر: نظم الدرر: ١٤/١٤٣.

﴿فَأَقْوَ السَّكَمَ﴾ أي: أظهروا الجزع والخوف حين عاينوا الموت، فاستسلموا وانقادوا، وذلوا ولانوا، وانسلخوا عن تكبرهم وعنادهم، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ نفوا عن أنفسهم أيَّ عمل سيئ كالكفر والجحود. وتردُّ عليهم الملائكة قائلين: ﴿بَلَىٰ﴾ وهي هنا لنفي النفي، فما نفوه عن أنفسهم من عمل السوء منفي. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا فائدة من الإنكار، فالله سبحانه عليم بكلِّ أعمالكم.

تقول الملائكة ذلك لهم، وهم يضربونهم ويعذبونهم، بين سبحانه ذلك في سورة الأنفال، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. ويقال لهم يوم القيامة:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

المتكبرين عن الإيمان، الجاحدين فضل الله تعالى عليهم. والمثوى: المأوى ومكان الإقامة، وجهنم شرُّ مَثْوَى ومَأْوَى للمتكبرين.

● مقارنة:

عودنا سبحانه في كتابه العزيز على المقارنة بين أحوال الكافرين وأحوال المؤمنين، وهو أسلوبٌ تربويٌّ رائعٌ، ففي مقابل ما مرَّ معنا من قوله تعالى في المستكبرين الجاحدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رُبُّكُمْ قَالُوا اسْطِئِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل]، قال سبحانه هنا:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ربهم فعظموه وعبدوه وأطاعوه.

﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ﴾ أي: أنزل ربنا خيراً، خيراً يسعد الإنسان إن تمسك به في الدنيا والآخرة.

واتفق القراء على نصب ﴿خَيْرٌ﴾ ورفع ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤] فظهر بذلك الفرق بين جواب المقرّين و جواب الجاحدين^(١).

ففي نصب ﴿خَيْرٌ﴾ دليل على أنهم لم يتلعثموا في الجواب، فجاء جوابهم مطابقاً تماماً للسؤال: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنزل خيراً. وأما الجاحدون فأنكروا الإنزال، وعدلوا عن الجواب، فقالوا: أساطير الأولين.

وفي مقابل مثوى المتكبرين، قال سبحانه يبيّن مصير المؤمنين وفضله عليهم: ﴿لَذِذُ آبَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي التوفيق والنصر والرزق الطيب الحسن. ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: ثوابهم في الآخرة خير مما أعطوا في الدنيا. ﴿وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ وهي:

﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣١).

﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يقيمون فيها إقامة دائمة.

﴿يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ دون تحديد أو تقييد لمشيئتهم، يُعطى المؤمنون في الجنة كلّ ما يشاؤون وزيادة على ما يشاؤون، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: هكذا يتفضّل الله سبحانه على المتقين في دار رحمته وكرامته، في الجنة.

وفي مقابل قوله سبحانه في الكافرين الجاحدين: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٢٨]، قال سبحانه في المؤمنين المتقين:

﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٢).

﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ﴾ أي: يموتون وهم على أظھر حالٍ وأزكاها، طاهرين من الشرك والكفر والفجور والظلم.

أو: أحوالهم عند الموت طيبة سهلة، إذ يبشرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة، فيحصل لهم الفرح والسرور والابتهاج، فيسهل عليهم قبض أرواحهم، ويطيب لهم الموت على هذه الحالة^(١).

كما في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» فقلت: يا نبي الله أكرهية الموت؟ فكلنا يكره الموت، فقال: «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجَّته؛ أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه؛ كره لقاء الله، وكره الله لقاءه» [رواه مسلم (٢٦٨٤)].

﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة للمؤمنين.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ من الله تعالى، أو منّا.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما كنتم تعملون من توحيد الله وعبادته وطاعته وشكره وصلتم إلى فضله ورحمته وجَّته.

• الظالمون لأنفسهم:

وتساءلت الآيات بعد هذا المقارنة سؤال المتعجب:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٣).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ أي: ماذا ينتظر هؤلاء

الكفار؟! لماذا يصرون على الكفر والجحود، ولا يبادرون إلى الإيمان؟! هل ينتظرون أن تأتي الملائكة لتقبض أرواحهم، أو يأتي أمر ربك المقتدر لقيام الساعة، وكلاهما أمر مقدر محتم لا بد منه، كما مر معنا في صدر السورة: ﴿أَفَأَمْرُ اللَّهِ فَلَا سَتَعَجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

وكأن الآيات بهذا السؤال تردُّ على استعجالهم للعذاب ولقيام الساعة استهزاءً وإنكاراً، فعليهم أن يبادروا إلى الإيمان لإنقاذ أنفسهم، بدل أن يستعجلوا العذاب، فهو أمر واقع لا محالة. وشأنهم في استعجال العذاب ليس بدعاً، فهو شأن جميع المعاندين المكذبين من قبلهم:

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حتى أصابهم الهلاك، ونزل بهم العذاب.
﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإصرارهم على الكفر، والإعراض عن الإيمان.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: جزاء سيئات ما عملوا بكسبهم واختيارهم.
﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم إحاطة كاملة العذاب الذي كانوا يستهزئون به، ويستعجلونه سخريه وإنكاراً.

● المحتجون بالقدر:

ومن صور عنادهم وجحودهم أيضاً أنهم أنكروا ما أرسل الله إليهم من الرسل، وما أنزل عليهم من الكتب، وقالوا متجاهلين متغافلين ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا

مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴿٣٦﴾، وكلامهم هذا حق، ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً منهم، لا يرد عليهم، فكل شيء بمشيئته سبحانه وإرادته، ولكنهم قالوه لإنكار بعثة الأنبياء والمرسلين، ومضمون كلامهم: أنه سبحانه لو كان كارهاً لما فعلنا نحن وآباؤنا من عبادة الأصنام، وتحريم ما لم يحرمه الله علينا كالسوائب والبحائر وغير ذلك، لأنكره علينا، وما أمكننا منه.

ورَدَّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قالوا مثل قولهم، واحتجوا على كفرهم وفجورهم بالقدر كما احتج هؤلاء.

﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه سبحانه لم ينكر عليكم كفركم وفجوركم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة رسولاً^(١)، كلّفهم بإبلاغ الأمم رسالة ربهم التي نهى فيها عن الشرك والكفر، وبَيَّن فيها ما أحلّ لهم وما حرّم عليهم، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، وهو أمر أكده سبحانه في آيات كثيرة؛ منها قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وكلّهم دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن عبادة غيره:

﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: مُرُوا الناس بعبادة الله وحده،

واجتناب عبادة الطاغوت، وهو اسم يطلق على كل معبود من دون الله تعالى، كالأصنام والشياطين والكهان والمتكبرين والمتجبرين الفراعنة المستبدّين الذين

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٣٣٠/٢.

يرفعون أنفسهم إلى مقام الحاكمية والتشريع، والله سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك، ولا يرضى لعباده الشرك والكفر أبداً، قال سبحانه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْغَبُ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

والناس مكلفون بأن تكون أعمالهم وأقوالهم موافقة لأمره وشرعه سبحانه، لا لإرادته سبحانه، لإرادته غيبٌ عَنَّا، لا نعلمها حتى يقع مراده سبحانه، أما أمره ونهيه فقد أعلمنا به بواسطة أنبيائه وكتبه، ولهذا قال سبحانه في معرض الرد على المحتجين بالقدر: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [١٢٨] قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ [الأنعام].

فالله سبحانه قادرٌ على هداية الناس جميعاً، ولكنه سبحانه قَدَّرَ أن يكون لهم كسب واختيار ومشية:

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ أي: وفَقَّهم لاختيار طريق الإيمان واتباع الرسل.
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: ومنهم من لزمته الضلالة لاختياره إياها وتمسكه بها.

ويؤكد وجود الكسب والاختيار عند الناس دعوته سبحانه لهم إلى النظر والاعتبار بمصير المعاندين المصيرين على الكفر من قبلهم:

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ لعلكم تعتبرون بمصيرهم.
ويؤكد أيضاً إرادتهم واختيارهم أن النبي ﷺ كان شديد الحرص على إيمانهم وهدايتهم، واجتهد كلَّ الاجتهاد في تبليغهم ودعوتهم، ومع ذلك بقي كثير منهم مصريين على الكفر، و متمسكين بالشرك، فما كان له ﷺ أن يجبرهم على الإيمان، ولا يستطيع أن يجعلهم ينسلخون عن اختيارهم وإرادتهم التي جعلها الله تعالى فيهم، حتى قال الله تعالى للنبي ﷺ:

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [٢٧].

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ أي: إن الله لا يهدي من

حكم بضلاله بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَنْصِيرٍ﴾ أي: ما لهم يوم القيامة من ينصرهم، ويدفع عنهم العذاب.

• إنكارهم يوم القيامة:

ومن صور عنادهم وجحودهم أيضاً إنكارهم حقيقة كبرى، من أعظم الحقائق ظهوراً وقوة، وهي يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨)

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف.

﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾، فكذبهم سبحانه ورد عليهم قائلاً:

﴿بَلَىٰ﴾ نفي لفنيهم البعث، بل يعثهم الله تعالى.

﴿وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ثابتاً لا يتخلف.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعده سبحانه حق ثابت لا يتخلف.

أو لا يعلمون أنهم بعد الموت يُبعثون ويُحاسبون، فهو كما قال تعالى في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٧).

ثم بين سبحانه الحكمة من الحساب يوم القيامة فقال:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ (٣٩)

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ أي: ليحكم سبحانه بين الناس في كل شيء

اختلفوا فيه، فيميز المحق من المبطل.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ في قولهم: لا يبعث الله من يموت.

وفي اتهامهم الله تعالى بالعجز عن إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، فله سبحانه كمال القدرة، وتمام الإرادة النافذة في كل شيء:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٤٠).

كما أَراده سبحانه، فأمره التكويني للأشياء واحد لا يتكرر، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥].

وهو سبحانه قادر على أن يخلق المكونات كلها بأمر تكويني واحد، كما قال جلَّ شأنه: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَجِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].
فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم الجبار، الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء، فلا إله غيره ولا رب سواه^(١).

• صورة وضيفة:

وبينما كانت الآيات تعرض صور الجحود والعناد للمشركين المستكبرين التفتت فجأة لتعرض صورة مشرقة وضيفة للمؤمنين الشاكرين المستسلمين لله تعالى، والمقرّين بفضله، والمتوجّهين إليه وحده يطلبون رضوانه، فلم يبق في قلوبهم ونفوسهم تعلقٌ بغيره سبحانه، وأقبلوا عليه سبحانه وحده، فلم تشغلهم النعم عن المنعم، بل هجروا النعم عندما رأوا أنها ستعوقهم عن الوصول إلى رضوانه:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: الذين تركوا الأوطان والخلان والجيران والأموال في سبيل الله.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أي: أودوا وعدّبوا.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٣٣١/٢.

إنهم أصحاب رسول الله ﷺ، الذين ظلمهم المشركون في مكة، فصبوا عليهم أنواعاً كثيرة من الأذى والعذاب، حتى خرجوا فراراً بدينهم وعقيدتهم من ديارهم وأموالهم، فلحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك، فجعلها لهم دار هجرة، فهاجروا إليها، وجعل لهم فيها أنصاراً من المؤمنين، فأووهم ونصروهم وواسوهم^(١).

﴿لَبِئْسَ أَهْلُهَا أَهْلًا﴾ أي: لننزلهم في الدنيا منزلةً حسنةً، مع الرزق الحسن، والنصر على عدوهم، وتمكينهم في الأرض. وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله تعالى بعد الهجرة، فمن ترك شيئاً لله عوضه الله تعالى خيراً منه.

﴿وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما عجل لهم في الدنيا.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ مقداره ومداه.

فلا علم لأحد بما أعد الله تعالى لعباده الصالحين في الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في سبيل الله تعالى، فتحملوا الشدائد، ومفارقة الديار والأوطان والأهل والخلان.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يُفَوِّضُونَ أمرهم إلى الله تعالى، ويرضون بما أصابهم في سبيله.

• رُؤَادُ الطَّرِيقِ:

ودلت الآية على أن الطريق إلى الله تعالى محفوف بالمخاطر والمكاره، مليء بالعقبات والمصاعب والمعوقات، لا يسير فيه إلا ذوو الصبر والمصابرة، أصحاب الهمم العالية والنفوس الكريمة العزيزة، الذين لا تستعبدتهم النعمة، بل تبقى قلوبهم متعلقة بالمنعم وحده ﷻ.

(١) انظر: تفسير الخازن: ٦٠٣/٣.

وإذا كان هذا حال العامة منهم، فما بالك بالخاصة رؤاد الطريق القاصد، ودعاته وشذاته من الأنبياء والمرسلين، لقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكونوا من الرجال الأقوياء، فاصطفاهم سبحانه لنفسه، وربّاهم على عينه، وكملهم وجمّلهم بأعلى الأخلاق وأسمى الصفات، ليكونوا الأسوة الحسنة والقُدوة الطيبة، وهم يحملون للناس رسالته، ويقودونهم في الطريق الموصل إلى فضله ورحمته.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٤٣].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أقوياء خلُقاً وخلُقاً.

﴿نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ بواسطة الملائكة المختارين لهذه المهمة، كما مرّ معنا في أول السورة: ﴿يُزِيلُ الْمَلَكُ الْرُوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]. وكان مشركو مكة يقولون جاحدين نبوة النبي ﷺ: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً^(١).

فالنبي ﷺ رجلٌ من البشر، كما كان سائر الأنبياء قبله، ولهذا توجهت الآية تخاطبهم على سبيل التحدي لهم بعد أن عرضت الآيات صوراً من جحودهم وعنادهم، فإن شككتهم في هذه الحقيقة بسبب جهلكم:

﴿فَتَشَاءُ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أهل العلم من أتباع الأنبياء السابقين.

﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن جميع الأنبياء كانوا رجالاً من البشر، وأن محمداً ﷺ مثلهم، وليس بدعاً منهم، فلماذا تجحدون رسالته معترضين على بشريته؟!.

إنّ الحكمة تقتضي أن يرسل الله سبحانه إلى البشر رسولاً منهم ليتمكنوا من رؤيته وسماع كلامه وفهم رسالته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [٩٤] قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمَسُّونَ مِطَمِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا [الإسراء].

وَدَلَّتْ الْآيَةُ أَنَّ عَلَى الْجَاهِلِ أَنْ يَسْأَلَ الْعَالَمَ الْمُتَخَصَّصَ مَهْمَا كَانَ هَذَا الْعَالَمُ، فَالْحِكْمَةُ ضَالَةٌ الْمُؤْمِنِ يَأْخُذُهَا مِنْ أَيْ وَعَاءٍ خَرَجَتْ.

• الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ:

ولقد أرسل الله الرسل إلى البشر بالحجج والبراهين، وأنزل عليهم الكتب، فمن الضروري أن يكونوا بشراً ليقوموا لهم الحجج، وينصبوا الأدلة والبراهين، ويبينوا لهم مراد الله تعالى في كتبه المنزلة، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ ۝٤٤﴾.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي: أرسلناهم بالبينات والزبر، وقد يكون المعنى: أسألوا أهل العلم بالبينات والزبر التي أرسل بها المرسلون.

والبينات والزبر: ركنان أساسيان في رسالة كل رسول من الله تعالى، فالبينات: هي الحجج والبراهين المؤيدة لصدقه وصحة رسالته. وأما الزبر: فهي الكتب المنزلة على الرسل، وفيها الأحكام والشرائع التي أرسلوا بها عليهم الصلاة والسلام.

ووظيفة الرسل بالنسبة لهذه الكتب المنزلة عليهم، ووظيفة تبليغ وبيان، ولهذا التفت الآيات إلى النبي ﷺ تخاطبه بقوله تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أنزلنا إليك القرآن الكريم لتبين للناس ما فيه من أحكام وتشريع، كلّفهم الله تعالى بها، فالرسول ﷺ يبين لجميع الناس مراد الله ﷻ ما أجمل في كتابه الكريم ولم يفصّله، فهو الأمين المؤمن على أسرار معاني القرآن الكريم، ولا يمكن فهم مراد ما أجمل سبحانه في كتابه من غير السُّنة النبوية المطهرة.

وإن الذين يعرضون عن السُّنة المطهرة، ويزعمون أنهم يتمسكون بالقرآن الكريم فقط، هم في الحقيقة معرضون عن دين الله تعالى وشرعه، ومعرضون أيضاً عن كتاب الله تعالى الذي أمر باتباع سُنّة رسول الله ﷺ والتمسك بها في

آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فأحكام دين الله تعالى وشرعه تستمدُّ من الكتاب والسنة، فالكتاب غالباً يشرع أصول الأحكام، والنبى ﷺ يبينها ويفصلها في أقواله وأفعاله وتقريراته، ولهذا قال النبى ﷺ لأصحابه في حجة الوداع: «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه» [رواه مسلم (١٢٩٧)].

وقال ﷺ أيضاً: «صلوا كما رأيتموني أصلي» [رواه البخاري (٦٣١)].

وللنبى ﷺ إلى جانب تبیین مجمل القرآن الكريم، أن يستقل بتشريع الأحكام، لأنه عليه الصلاة والسلام - كما وصفه الحق سبحانه - لا ينطق عن هوى نفسه أبداً، فكل ما يصدر عنه تشريع ووحى من الله تعالى: ﴿وَمَا يَطِّقُ عَنِ أَلْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم].

وكما آتاه الله تعالى القرآن، آتاه السنة أيضاً، وأمر بطاعته في آيات كثيرة؛ منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وجعل سبحانه طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعةً له ﷺ، فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ولا وصول إلى رحمته سبحانه وجنته إلا بطاعة رسوله ﷺ، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: يا رسول الله ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى» [رواه البخاري (٧٢٨٠)].

ولهذا أخبر الله تعالى عن أصحاب النار أنهم يعذبون فيها وهم يقولون: ﴿يَلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ فيما أنزل الله تعالى إليهم، فالتفكر في آيات الله تعالى أمر مطلوب، لفهم معانيها، والاتعاظ بها، والوقوف على إعجازها، وهو التدبر

الذي حثَّ سبحانه عليه في مواضع من القرآن الكريم؛ منها: ﴿كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِّدَّبْرُواْ بِأَيْتِيْهِ وَلِتَذْكُرْ أَوْلُواْ الْآلِبِ﴾ [ص: ٢٩].

ومنها أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

• تهديد ووعيد:

وعادت الآيات الكريمة بعد هذه الوقفة القصيرة عند المهاجرين والمرسلين، إلى الجاحدين المعاندين، تنوعدهم، وتهددهم، لعلهم يرجعون عن عنادهم وجحودهم، قبل أن يهلكهم الله تعالى كما أهلك من قبلهم:

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤٥).

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوا السيئات، وهم أهل مكة الذين مكروا برسول الله ﷺ، وصدوا أصحابه عن الإيمان.

﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ أي: يجعلها تغور تحت أقدامهم، كما فعل سبحانه بقارون من قبلهم، الذي جحد فضل الله تعالى عليه، واغترَّ بنفسه وماله، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

فكانت عاقبة جحوده وغروره: ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه، إما لغفلتهم، وإما لإتيانه من ما منهم، أو من حيث يرجون إتيان ما يشتهون^(١)، كما مرَّ معنا في قوله سبحانه: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمُ مِنَ الْفَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ فَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤٦).

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَقَلِيهِمْ﴾ أي: يهلكهم في أثناء تصرفهم وانتقالهم في الأسفار وفي إقبالهم وإدبارهم.
﴿فَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بممتنعين من عذاب الله تعالى، أو فائتين بالهرب والفرار من قبضة قدرته جلّ وعلا.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٧).

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: وهم خائفون وجلون، بأن يهلكهم على دفعات شيئاً فشيئاً، حتى يهلكهم عن آخرهم.
والمراد من تنويع التهديد بهذه الأحوال الثلاثة بيان قدرته سبحانه على إهلاكهم بأيّ وجه كان، لا بيان الحصر^(١)، فثمة أحوال كثيرة لإهلاكهم، وكل هذا التهديد والوعيد ليعرفوا قدرة الله تعالى عليهم، فيقبلوا على طاعته.
﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، فإذا لم يأخذكم بالعقوبة مع ما فيكم، فإنما رأفته تقيكم، ورحمته تحميكم^(٢).

• مواكب الساجدين:

ثم دعتهم الآيات إلى التأمل والتفكير فيما حولهم من المخلوقات، ليروا أنها جميعاً خاضعة لله تعالى، مستسلمة ومنقادة له جلّ وعلا، فلا ينبغي أن يشذوا عما حولهم من المكونات:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعُوهُ ظُلُمًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ (٤٨).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ له حجم وظل.

(١) تفسير أبي السعود: ١١٧/٥.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٦٠٧/٢.

﴿يَنْفَعِيَا ظِلُّهُ﴾ أي: تمتد ظلاله بقدرة الله تعالى، ثم تفيء وتنقبض حسب ناموس إلهي دقيق محكم، لا يختل ولا يضطرب.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ أي: يحدث تفيؤ الظلال كل يوم مرتين، مرة من جهة اليمين، ومرة من جهة الشمال، بقدرته سبحانه، كما قال في سورة الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

ولعل أفراد ﴿الْيَمِينِ﴾ وجمع ﴿الشَّمَائِلِ﴾ كإفراد ﴿النُّورِ﴾ وجمع ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ إذ يرمز باليمين لطريق الحق، وهو واحد، ويرمز بالشمال لطرق الباطل، وما أكثرها!

﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ﴾ أي: وهم في حال السجود لله تعالى ذليلون صاغرون، فكل ما له ظل يسجد لله جلّ وعلا، ويخضع له، وينقاد لمشيئته.

ثم ضُمَّت الآيات جميع المخلوقات إلى مواكب الساجدين:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ فجميع المخلوقات السماوية والدواب الأرضية خاضعة لله تعالى خضوع الطبع والانقياد لمشيئته التامة النافذة في جميع المخلوقات، أو خضوع التكليف والانقياد لأمره سبحانه.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أي: والملائكة أيضاً تسجد لله تعالى، وتخصيصها بالذكر تعظيماً لها وتفخيماً لأمرها، فإن هذه المخلوقات النورانية العظيمة تسجد لله جلّ وعلا أيضاً، وسجود كل شيء بحسبه، فسجود المسلمين والملائكة لله تعالى سجود عبادة وطاعة، وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع^(١).

﴿وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته ﷻ والسجود له.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أي: يخافون الله تعالى خوف الإجلال والتعظيم والهيبة، وهو سبحانه فوقهم بالقهر والغلبة، أو فوقية تليق بذاته سبحانه، كما قال: ﴿وَهُوَ أَلْفَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٦١].

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لأنهم منقادون تماماً لأمره سبحانه ومشيتته، كما وصفهم في سورة الأنبياء فقال: ﴿لَا يَسْقُوتُ لَهُ بِالْقُلُوبِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ .

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلِكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعْدَاتِ مِنَ الطَّرِيقَاتِ تَجَازُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى» [رواه الحاكم (٣٨٨٣) والترمذي (٢٣١٢) واللفظ له، وهو في البخاري (٦٤٨٥) ومسلم (١٤٩٩) مختصراً]. وقوله: «أطت»: صَوَّتَتْ من ثقل ما تحمل.

ومن السُّنَّة إذا سمع المسلم هذه الآية أو قرأها، أن يضم نفسه إلى مواكب الساجدين، فيسجد لله تعالى سجود التلاوة.

• تقرير التوحيد:

إن للشكر ارتباطاً وثيقاً بالتوحيد، ولا يكون الإنسان شاكراً إلا إذا كان موحداً، يعبد الله سبحانه وحده، لقد ركزت آيات سورة النحل على هذا المعنى في مواضع متعددة، وأبرزته بأساليب متنوعة، مرَّ معنا بعضها، وهاهي الآن تقرره بأسلوب نهى قاطع حازم عن الشرك، صادر عن الله تعالى مباشرة.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ فالإثنينية تنافي الألوهية، والإله الحق واحدٌ

أَحَدٌ لَا يَتَعَدَّدُ. وفي الآية ردُّ على الثنوية من المجوس، الذين يعتقدون بوجود إله للنور والخير وإله للظلمة والشر.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِدٌ﴾ إذ يستحيل أن يكون في الوجود إلهان اثنان، والوحدة من لوازم الألوهية، لأنها دليل الكمال.

وهذا الإله الواحد هو الخالق المنعم، الذي يجب أن يُعبد ويُعظَّم:

﴿فَأَنَّى فَآرْهَبُونَ﴾ أي: فارهبوني وخافوني، ولا ترهبوا غيري.

وتحوُّل صيغة الكلام من الغيبة إلى التكلم والحضور، بأسلوب الالتفات أبلغ في الترهيب، كما أنَّ تقديم المفعول على الفعل يفيد الحصر؛ فالرهبة من الله تعالى وحده المالك الخالق الذي بيده كل شيء ﷻ:

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: له العبادة والطاعة والخضوع دائماً.

فمعنى الدين هنا: الطاعة، ومعنى الواصب: الدائم اللازم، كما في قوله تعالى: ﴿تُخَوِّرًا وَهَلُمَّ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصفات: ٩].

قال ابن قتيبة: «ليس من أحد يُدان له ويطاع إلا انقطع ذلك لسبب في حال الحياة أو بالموت، إلا الحق ﷻ، فإن طاعته واجبة أبداً، لأنه المنعم على عباده، المالك لهم، فكانت طاعته واجبة دائمة أبداً»^(١).

فهو سبحانه الدائم الباقي، الذي لا يزول سلطانه، فكلُّ مُلك وسلطان ناقص وزائل غير مُلكه وسلطانه جلَّ وعلا، وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ قال: «يَقْبُضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مَلُوكُ الْأَرْضِ؟!» [رواه البخاري (٦٥١٩)].

أخبر جلّ وعلا عن ذلك في قوله الكريم: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وختم الله تعالى الآية بهذا الاستفهام الإنكاري:

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نُنْقِذُ﴾ بعد أن قامت الدلائل على أنه سبحانه وحده الخالق والمالك والمنعم، فكيف تخشون غيره وتعبدون سواه؟!.

• المنعم الحقيقي:

﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾.

﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ أي نعمة، دقّت أم عظمت، ظهرت أم خفيت.

﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ وحده لا من سواه، فهو المنعم المتفضل عليكم بجميع النعم، والذين يوصلون إليكم النعم ليسوا سوى وسائل مسخرة بمشيئته سبحانه وقدرته.

وقد يقول قائل: إذا كان الله سبحانه هو المنعم وحده، فلماذا حثّ النبي ﷺ على شكر أصحاب المعروف والفضل من الناس في عدد من الأحاديث الشريفة، منها: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» [رواه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤) ومسنند أحمد (٧٤٩٥) وقال: صحيح؟!].

وأقول: هذا خلق كريم من أخلاق النبي ﷺ سنّه بفعله، وحثّ عليه بقوله، لأنّ لهؤلاء الناس كسباً واختياراً في فعلهم، فهم يشكرون على بادرة الخير النابعة من نفوسهم بمشيئته سبحانه وتقديره، وفي شكرهم تشجيع لهم على المزيد من أعمال الخير والإحسان.

فلو لم يخلق الله تعالى في قلوب الآباء مشاعر العطف والحب والحنان لأولادهم ما اهتّم والد بولده، وما حفلت أمٌّ بولدها، فالمنعم المتفضل إذن هو الله تعالى، فالشكر له أولاً، ثم للوالدين كما قال سبحانه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

ثم إن شكر الله تعالى طاعة له وعبادة وخضوع، بينما شكر غيره بر وإحسان وامتنان، قد لا يتجاوز اللسان.

• في مواجهة الأخطار:

ويستشعر الناس شدة احتياجهم وافتقارهم إلى الله تعالى وفضله ورحمته حين تواجههم الأخطار، وتحيط بهم الأهوال والشدائد، ولهذا قال سبحانه بعد أن قرر أنه وحده المنعم المتفضل:

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ أي: إليه سبحانه تتوجهون، وأنتم ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة، فلا تسألون غيره، تنسون الآباء والأبناء والأصدقاء، لأنكم تعلمون أنه تعالى وحده المنعم المتفضل، والقادر على كشف الضر عنكم، كما قال سبحانه في مواضع كثيرة منها: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ثم ماذا يكون منكم بعد أن ينعم عليكم بالنجاة والسلامة:

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أي: يعودون إلى الشرك والجحود والعناد.

ونبه سبحانه بكلمة ﴿إِذَا﴾ الفجائية على مسارعتهم إلى الكفر والجحود كما قال في سورة الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وعقَّب سبحانه على موقف الجحود والكفر، فقال موبِّخاً لهم مع التهكم المرير منهم:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ^{٥٤} فَتَمَتَّعُوا^{٥٥} فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ^{٥٤}﴾ من النعم، فإن عاقبة كفرهم وجحودهم عائدة عليهم،

كما قال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا أَجْلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتُهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣].

﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة جحودكم، وغِبَّ تمتعكم بنعمه، وإعراضكم عن شكره.

وفعل الأمر للتهديد والوعيد، ومثله في القرآن كثير:

كقوله ﷻ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

• مفارقات مستنكرة:

وبعد صور الجحود والعناد، عرضت الآيات صوراً لمفارقات وتناقضات قبيحة مستنكرة، تدل على مدى الجهل والسفه والطيش التي كانوا عليها في الجاهلية:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٦).

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئاً.

﴿نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأنعام والزرع والثمار، فصله سبحانه في سورة الأنعام فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٣٦).

ثم أقسم جلَّ وعلا بنفسه على نفسه، أنه سيحاسبهم على فعلهم هذا، وقسمه سبحانه يدل على شدة غضبه عليهم.

﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي: تكذبون في تأليه الأصنام، وجعل قسم من نعم الله تعالى لها، فالله سبحانه يغضب أشد الغضب من الذين يجحدون فضله، ويتقربون بما أنعم به عليهم إلى غيره.

وثمة مفارقة أخرى أكثر قبحاً وأعظم جهلاً وكفراً، كانوا عليها في الجاهلية:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ وهم كنانة وخزاعة من العرب، وصفوا الملائكة بالأنوثة، وجعلوها بنات لله ﷻ، فعبدوها معه جلّ وعلا، ونسبوا إليه تعالى الولد، واختاروا لأنفسهم أقوى القسمين من الأولاد وهم البنون، ونسبوا إليه سبحانه أضعفهما، وهن الإناث، وما كانوا يرضون الإناث لأنفسهم، إذ كانوا يكرهون الإناث من الأولاد كراهية شديدة، ولهذا قال لهم سبحانه موبخاً لهم ومُبَكِّتاً: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴿٥٨﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٥٩﴾﴾ [النجم].

﴿سُبْحَنَهُ﴾ عن قولهم هذا؛ فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، والمُنَزَّه والمقدّس عن الصاحبة والولد.

﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الأولاد والذكور، مع أنّ الذكور والإناث من خلقه ومن ملكه وعبيده، فقولهم هذا كذب وافتراء، وجهل وحماقة كما قال سبحانه في سورة الصافات: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهم لَقَوْلُوكَ ﴿١٥٦﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٧﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٨﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٩﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ .

ثم بيّن سبحانه شدّة كراهيتهم للأنثى في أولادهم، فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٥٨﴾﴾ .

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار وجهه مسوداً من الكآبة والحزن.

﴿وَهُوَ كَاطِمٌ﴾ وهو مملوء القلب حنقاً وغيظاً.

﴿يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: يستخفي عن قومه وأبناء مجتمعه، كأنه فعل جرمًا شنيعاً مستقبحاً.

﴿يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: يستخفي عن قومه وأبناء مجتمعه، كأنه فعل جرمًا شنيعاً مستقبحاً.

وهذا يدلُّ على أنَّ كراهية الأنثى كانت سائدة وشائعة بينهم، حتى كانوا يرون في ولادة البنت لأحدهم عاراً وسبة، تستدعي منه التستر والاختفاء عن الأنظار. ثم صورت الآيات الحيرة والنوازع النفسية المتصارعة في قلوبهم، فقالت: ﴿يَمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي: أترك جسد المولودة ويريه، ويرضى بهوان نفسه؟! ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أم يخفيه في التراب، ويكتم أنفاسه، ويريح قلبه وأعصابه منه، وذلك بوأدها، ودفنها في التراب حية؟! ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ببئس ما نسبوا إلى الله تعالى، وبئس ما قالوا، وبئس ما فعلوا.

• الأجل المسمى:

يتنزه الله سبحانه عن كل صفات النقص، ويتصف بكل صفات الكمال، وإنما يكون النقص فيهم وينسب إليهم:

﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ كالضعف والعجز، والحاجة والذلة، والطيش والرعونة، وقتلهم لأولادهم أثر من آثار طيشهم وجهلهم وحقاقتهم. ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: له سبحانه الكمال المطلق، الذي لا تلحقه شائبة نقص أبداً.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء، والذي لا يمتنع عليه شيء، أو هو الواحد الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع أقواله وأفعاله ﷻ.

ومن عزَّته سبحانه وحكمته، أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على جرائمهم:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ المجرمين الظالمين.

﴿يُظْلِمُهُمَ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض.

﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ تدبُّ عليها. أي: لأهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين، فشؤم الظلم والفجور يعمُّ ويتشتر، بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِّمُوا أَنْتَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفي الحديث النبوي الشريف: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب مَنْ كانَ فيهم، ثم بُعِثُوا على أعمالهم» [رواه مسلم (٢٨٧٩)].

ولعل السبب في ذلك تقصير الآخرين وتقاعسهم عن زجر المجرمين ومنعهم من فجورهم وظلمهم.

﴿وَلَكِنْ﴾ بحكمته سبحانه ورحمته.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سبق به علمه، وتعلقت به إرادته ومشيئته، فعزته سبحانه تصاحب حكمته، فهو يمهّل ولا يهمل.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً﴾ أي: شيئاً من الزمن ولو يسيراً.

﴿وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾، إنها آجال محددة ومبرمجة بدقة، لا يستطيع أحد أن يقدمها أو يؤخرها، لأنها تقدير العزيز الحكيم ﷻ، كما قال في سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَكُنْ لِلَّهِ بَئِيدٌ بِصِيرٌ﴾ ﴿٥٥﴾.

• أعجب المفارقات:

ومن أعجب المفارقات المستنكرة التي كانوا عليها: أنَّ بعضهم كان يرجو لنفسه العاقبة الحسنة يوم القيامة، إن كان هناك حياة ثانية، هكذا يشركون بالله تعالى، ويفترون عليه، وينكرون يوم القيامة، ثم يقولون: إن كان هناك حياة ثانية بعد الموت فستكون العاقبة الحسنة لنا فيها!:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (٦٢) .

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ في اعتقادهم .

﴿لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم من البنات ، ومع ذلك :

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ وهو :

﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي : لهم العاقبة الحسنة يوم القيامة .

وقد حكى الله مثل هذا القول العجيب في عدة آيات ؛ منها : ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَسْأَلْ قَنُوطًا﴾ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت] .

ومنها قول صاحب الجنتين الكافر في سورة الكهف : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٣٦) .

ومنها قول أحد كبار مشركي قريش الذي قال الله تعالى فيه : ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم : ٧٧] .

وغرورهم وتكبرهم سبب هذه المفارقات والتناقضات ، بَيَّنَّ سبحانه ذلك فيما حكاه عنهم في قوله : ﴿وَقَالُوا لَنَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا : ٣٥] ؛ أعماهم الغرور عن رؤية الحقيقة ، فكيف يفعلون المعاصي والمنكرات ويرجون الحسنات؟! .

وردَّ سبحانه عليهم أبلغ رد وأوجزه فقال : ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ فكأن ألسنتهم هي الكذب ذاته ، أو كأنها صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها ، فهو من بليغ الكلام وبديعه ، ومثله قولهم : عينها تصف السحر ، أي : ساحرة ، وقدَّها يصف الهيف ، أي : هيفاء ، وقول أبي العلاء المعري :

سرى برق المعرفة بعدد وهنٍ فبات برامة يصف الكلالا^(١)

ثم ألقى سبحانه في وجوههم الحقيقة كاملة :

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي: حقاً أنَّ لهم النار بلا شك ولا ريب.

﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ وأنهم معجلون إليها يوم القيامة غير مؤخرين.

● مواسة وتكريم:

وكررت الآيات القَسَمَ بالله تعالى مرة ثانية، وهي في هذه المرة تخاطب

النبي ﷺ مواسية له، ومسلية عما يلقي من عناد قومه وجحودهم:

﴿ثَلَاثَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)

﴿ثَلَاثَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ القبيحة المنكرة،

وحسّنها لهم بوسوسته.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: فهو وليهم في الدنيا، لأنهم استجابوا لوسوسته،

وانقادوا لمكره وخداعه، ومن كان الشيطان وليه وناصره، فهو مخذول مغلوب في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم القيامة.

وفي سياق المواسة والتسلية للنبي ﷺ، بيّنت الآيات له وظيفته الكبرى

التي شرفه الله تعالى بها وكرمه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا لِنُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦٤)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا لِنُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ فتمييز بين الهدى

والضلال، وتفرق بين الحق والباطل، والحلال من الحرام؛ فلا يعرف الحق إلا منك، ولا يظهر الهدى إلا بك، وكلُّ الطرق جائرة إلا الطريق الذي تدعو إليه،

وتسير عليه، فهو الطريق المستقيم القاصد إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأنزلنا إليك الكتاب ليكون سبيل هداية المؤمنين، وسبب نزول الرحمات عليهم.

فالقرآن الكريم روح القلوب والنفوس، كما مرَّ معنا في أول السورة ﴿يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [٢]: يفيض الله تعالى على المؤمنين من بركاته ورحماته عندما يتمسكون بالقرآن الكريم، تلاوة وتدبراً وعلماً وعملاً.

وكما تحيا الأرض الميتة اليابسة بالمطر، تحيا القلوب بالقرآن الكريم، ولهذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (١٥)

يسمعون آيات الله سماع تدبُّر وتفكُّر.

والجدير بالذكر أنه سبحانه قرن في أكثر من موضع بين حياة القلوب بالقرآن الكريم، وبين حياة الأرض اليابسة بالمطر، منها قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (١٦) أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد].



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَّةُ مِنَ النِّعَمِ

نِعَمُ اللَّهِ الصَّرُورِيَّةُ لاسْتِمْرَارِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿١١﴾
وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾
وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ وَيُنْفِقُكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمِنْ يَدَيْهِمْ يَزِيدُهُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كُفِرْتُمْ بِهِ
رِزْقُهُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ
أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَعْلَمُوا أَنَّكُمْ رَزَقْتُمْ مِنْهُ فَتَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ رَزَقْتُمْ مِنْهُ فَتَتَّقُوا
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٨﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ
مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ
بِخَبَرٍ هَلْ يَسْتَوى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ وَلِلَّهِ عِثَبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾

● عبرة ونعمة:

بعد أن انتهت الآيات من عرض صور العناد والجحود والمفارقات العجيبة المستكرة لدى كثير من الناس، استأنفت تذكير الناس بمجموعة ثانية من نعم الله تعالى عليهم، فعرضت هذه النعم كدلائل وبراهين على وجود الله تعالى وجُوده وقدرته وعظمته ﷻ، ولهذا جاءت بداية العرض بأسلوب التأكيد والتقرير:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ لِيُنذِرَ الَّذِينَ يُطْغَوْنَ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدُمِرَ لِبَنَاتٍ خَالِصَاتٍ لِلشَّارِبِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم^(١) تدل على كمال قدرة الله سبحانه وحكمته. هذه العبرة هي:

﴿شُقِّيقُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أي: نسقيكم من بعض ما في بطون الأنعام، كما قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ لِيُنذِرَ الَّذِينَ يُطْغَوْنَ فِي بُطُونِهِمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

والأنعام من أسماء الأجناس، ويجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ، كما هو الحال هنا، ويجوز التأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس، كما في آية سورة المؤمنون^(٢).

ولعل حكمة التذكير هنا للتنبيه على أن للذكر الفحل ارتباطاً بتكوّن اللبن في بطن الأنثى، ولهذا يمتد التحريم بالرضاع إليه.

قال القرطبي رحمه الله: «استنبط بعض العلماء الجُلة من عود هذا الضمير أن لبن الفحل يفيد التحريم، وبه قضى النبي ﷺ حين أنكرته عائشة رضي الله عنها في حديث أفلح أخي أبي القعيس، فللمرأة السقي، وللرجل اللقاح»^(٣).

والحديث الشريف هو الذي ترويه عائشة رضي الله عنها: أن أفلح أخا أبي القعيس

(١) تفسير البيضاوي: ٦١٥/٣.

(٢) انظر: أضواء البيان: ٢٩٥/٣.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٤/١٠.

جاء يستأذن عليها، وهو عمها من الرضاعة، بعد أن نزل الحجاب: فأبيت أن آذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته بالذي صنعت، فأمرني أن آذن له. [رواه البخاري (٥١٠٣)].

ففي الأنعام عبرة باهرة للإنسان، هي في الوقت نفسه نعمة كبيرة من نعم الله عليه، ثم بين سبحانه وجه تخصيص العبرة في الأنعام فقال:

﴿شَقِيقَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

• مصانع اللبن:

والأنعام جزء من الحيوانات اللبونة، التي تُغذي صغارها بلبنها، وهي كثيرة، تفرد الأنعام من بينها بأنها مجتررة، لأنها تقوم بإعادة الطعام من بطنها إلى الفم مرة ثانية بعد نقه وتليينه، لتطحنه مرة ثانية ثم تبتلعه، وتسمى هذه العملية: الاجترار، ويطلق على الأنعام بسببها اسم: المجترات.

كما تتميز الأنعام بتركيب معدتها، فهي مؤلفة من أربعة أقسام: الكرش، الشبكية، أم التلايف، المعدة الحقيقية.

ومن المعلوم أن غذاء الأنعام يتكون من الأعشاب وأوراق الأشجار والأشواك والحبوب ومخلّفات الحصيد، وكلها مواد سللوزية ونشوية معقدة غير ذائبة؛ تتناولها بفمها، وتمضغها مضغاً جزئياً، ثم تبتلعها حتى تصل إلى الكرش حيث تدعى الفرث، كما يقول علماء اللغة: الفرث: السرجين ما دام في الكرش، والجمع فروث^(١).

ويوجد في الكرش أعداد هائلة من كائنات حية دقيقة كالبكتريا التي تشكل المكورات (٩٠٪) منها، والأوليات أو وحيدة الخلية، ويحوي كل غرام من مكونات الكرش على مليار كائن حي، وتزداد هذه الأعداد زيادة كبيرة في أثناء الأكل وبعده مباشرة.

تقوم هذه الأعداد الهائلة من البكتريا بعملية تكوين البروتين، وعملية

(١) الصحاح: ٢٩٨/١.

هدرجة الدهون، وتحويلها إلى أحماض، كما تقوم أيضاً بتكوين فيتامين (ب) إذا كان غذاء الحيوان يفتقر إليه.

وبواسطة شبكة أوعية الدم الكثيفة والحلمات والزغابات التي تغطي جدران الكرش والشبكية وأم التلافيف تتم عملية امتصاص العناصر الذائبة من الفرث، ونقلها إلى الدم، وتنتقل بواسطة الدم إلى ضرع الحيوان، وهو عبارة عن غدة لبنية مؤلفة من شبكة معقدة من القنوات، يتصل بعضها ببعض، وتصب جميعها في حويضة واحدة تنتهي بقناة الحلمة، ذات المصرة الحساسة لحفظ الحليب من الانسكاب، وتفرز هذه المصرة مادة قاتلة للجراثيم، لتمنع دخول أي مكروب إلى داخل الضرع.

وتحتوي الغدة اللبنية على شبكة ري معقدة ومتطورة من الأوعية الدموية لتوصيل الدم الشرياني إليها، ورفع الدم الوريدي ثانية منها، وتظهر أوردة اللبن واضحة على جانبي بطن الناقة والبقرة في طور الحلابة^(١).

• اللبن الخالص:

هكذا يخرج اللبن الأبيض الصافي اللذيذ من بين الفرث والدم بقدرة الله تعالى ومشيتته، بواسطة إبداعه سبحانه لعمليات دقيقة محكمة باهرة تحيّر العقول وتدهشها، وفي الآية الكريمة حقائق علمية كبيرة، ما كان أحد يعرفها عند نزول القرآن الكريم، مما يدل على أنه كلام الحكيم العليم جلّ وعلا.

والعجيب أن اللبن الذي يخرج بقدرة الله تعالى من بين فرث ودم، لا تجد فيه أي صفة من صفات الفرث والدم، كما وصفه سبحانه بقوله:

﴿بَنَّا خَالِصًا﴾ عن أي صفة من صفات الفرث والدم، نقيّاً ومعقماً.

﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ يجري في حلق الشاربين سهلاً لذيذاً هنيئاً مريئاً.

والكشوفات العلمية التي أظهرت الخصائص التي خصّ الله تعالى بها

(١) اقتبسْتُ هذه المعلومات من محاضرة للطبيب البيطري الأخ الصديق أحمد جواد، فقد زودني - حفظه الله - بصورة عن محاضرة له بعنوان: الأنعام والعبرة.

الأنعام دون سائر الحيوانات اللبونة الأخرى، تبيّن لنا سر تخصيص الله تعالى لها في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ ففي كلِّ المخلوقات التي خلقها الله سبحانه عبرة، بل عبر كثيرة، ولكن الأنعام تفرد من بينها بعبرة مخصوصة متميزة لا توجد في غيرها، هي تكوينها العضوي المتميز لتكون مصانع اللبن الصافي المعقم السائغ للشاربين.

وللبن الأنعام وما يستخلص منه دور كبير في غذاء الإنسان، فهو من نعم الله الكبرى على الإنسان، يستطيع أن يستغني به عن غيره من الأطعمة والأشربة. وفي الحديث النبوي الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أتى رسول الله ﷺ بلبن فشرب فقال: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا سَقَى لَبَنًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَجْزِي مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ» [رواه أبو داود (٣٧٣٠)].

• عتاب ومِنَّة:

ومن اللبن الخالص السائغ انتقلت الآيات إلى نعمة أخرى، نعمة يسيء كثير من الناس استعمالها، فتصبح بسبب ذلك نقمة وبلاء لهم:

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٦٧).

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ ثمر.

﴿نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أنتم باختياركم وسوء تدبيركم.

وتأمل دقة التعبير وعمق دلالاته، فعند الحديث عن اللبن السائغ قال سبحانه: ﴿شُعْبِكُمْ﴾ [النحل: ٦٦]، بينما قال هنا: ﴿نَتَخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي: خمرًا؛ فالسُّكَّر: ما يسكر.

﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالدبس والخل والعصير، وغير ذلك مما أحل الله اتخاذها من ثمرات النخيل والأعناب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: السَّكَّرُ: ما حَرَّمَ الله من ثمرتيهما. والرزق الحسن: ما أحلَّ من ثمرتيهما^(١).

ولا دلالة في الآية على حلِّ الخمر، كما فهم بعض المفسرين، فاضطروا إلى القول بأن هذا الحكم منسوخ، واحتجوا بأن الآية مكية، نزلت قبل تحريم الخمر بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَفْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩١﴾ [المائدة].

فذكر السَّكَّر في مقابل الرزق الحسن، يدل على سوء اتخاذهم وصنيعهم. ففي الآية تعريض بهم، وعتاب لهم على اتخاذهم ما يضرهم، ويذهب عقولهم من ثمرات النخيل والأعناب التي يتخذون منها الرزق الحسن أيضاً، وبهذا جمع الله تعالى في آية واحدة بين العتاب والمنَّة، كما بيَّن سبحانه أيضاً كراهية الخمر قبل أن ينزل الآية الدالة على تحريمه.

ففي الآية قولان:

أحدهما: يروى عن الشعبي والنخعي: أنها منسوخة.

وثانيهما: أنها جامعة بين العتاب والمنَّة^(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم في النظر والتأمل والاعتبار، فالعقل من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وعليه أن يحافظ عليه، فلا يُذهِبُه بتناول المسكرات، وعليه أيضاً أن يحسن استعماله.

• مصانع العسل:

ثم انتقلت الآيات إلى نعمة ثالثة، وهي العسل، وهذه النعمة التي لا تتدخل بها يد الصنعة البشرية، كما هو الحال في ثمرات النخيل والأعناب، ولهذا تبقى كما خلقها الله تعالى نعمة، جعل الله تعالى فيها الغذاء والشفاء، وقد وكل الله

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٢٦/٢؛ وتفسير الطبري: ٩٠/١٤.

(٢) تفسير النيسابوري: ٨٧/١٤.

بصنعها حشرة صغيرة، علّمها سبحانه أسرار صناعة هذه النعمة، وهياً لها الأسباب والمواد التي تحتاج إليها، وسمّى سبحانه سورة النعم باسم هذه الحشرة الصغيرة (النحل) للدلائل الكبيرة، والحكم البديعة التي جمعها الحكيم العليم في هذه الحشرة الصغيرة، وفي العسل الذي تقوم بصنعه:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ أي: ألهم خالقك ومالك أمرك أيها الإنسان النحل، بما رُكّب في طبائعها وأصل خلقتها، وواحد النحل نحلة، كنخيل ونخلة.

﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: ابني بيوتك إما في الجبال أو فوق جذوع الأشجار، أو فيما بينه الناس للنحل الذي يربونه قريباً منهم.

والبيوت التي يبنّيها النحل من أعجب البيوت وأدقها وأحكمها، لا يقوى على مثلها إلا حُذّاق المهندسين بآلاتهم الدقيقة وحاسباتهم، فهي بيوت سداسية الشكل، ذوات أضلاع متساوية، مرصوفة إلى بعضها بإحكام وإتقان، بحيث لا تجد بينها أدنى فراغ، ولا ترى فيها أي تخلخل وتفاوت، ولعل تأنيث الضمير في قوله تعالى: ﴿اتَّخِذِي﴾ يشير إلى حقيقة هامة، وهي أن إناث النحل هن العاملات اللواتي يقمن بجميع أعمال بناء البيوت وصنع العسل، أما الذكور فلا عمل لهم سوى تلقيح النحلة الملكة، التي تقوم بوضع البيض للتكاثر والتناسل.

وللنحل حياته الجماعية الخاصة به، ففي كلّ خلية تسكن عشيرة من النحل، وتعيش حياة جماعية قائمة على أعلى درجات التنسيق والتعاون بين أفرادها.

ففي كلّ خلية ملكة، تمتاز بكبر حجمها، ينحصر عملها في وضع البيض، وتقوم العاملات بإطعام الملكة من الغذاء الملكي الخاص، وهو غذاء مركّز تركيزاً كبيراً، يحتوي على البروتينات والسكريات والأملاح المعدنية والفيتامينات، تفرزه النحلات العاملات من غدة خاصة بين فكّيها، ويحتوي أيضاً على مواد

لها خواص الهرمون الأنثوي، ليساعد على نضج البيوض في أعضاء الملكة التناسلية، التي يمكن أن تضع في كل يوم ما بين ألف إلى ألفي بيضة ملقحة. وتقضي النحلات العاملات عمرهن في عمل دائب، فمنذ اليوم الرابع تبدأ النحلة الصغيرة عملها بإطعام اليرقات بعد خروجهن من البيض، ومن العاملات ما يُدعى بوصيفات الملكة، يقمن بتنظيف جسمها، وتمشيط شعرها وتقديم الطعام لها، وأكثر العاملات يطرن خارج الخلية بحثاً عن رحيق الأزهار، وغبار الطلع والماء، ويقوم بعضهن بأعمال البناء، وصب الشمع على شكل أقراص مكوّنة من ثقب سداسية، تستعمل خزانات للعسل ومهداً للبيوض، وبعضهن يقمن بأعمال تنظيف الخلية وتهويتها وحراستها^(١).

• رحيق الأزهار:

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٦٩).

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي تشتهين الأكل منها، إذ جعل الله تعالى في رحيق جميع الأزهار المواد الأولية المكوّنة للعسل.

والرحيق: سائل مائي رقيق حلو، يقدّمه النبات للنحلة وللحشرات الأخرى، مقابل الخدمات التي تقدّمها هذه الحشرات للنبات، والإنسان هو المستفيد، فهذه الحشرة الصغيرة تقدم خدمات كبيرة للناس، فهي علاوة على صنعها للشمع والعسل، تقوم بتلقيح الأزهار، ونقل غبار الطلع من الأزهار المذكورة إلى الأزهار المؤنثة بواسطة حركتها الدائبة بينها، ومن دون مشاركة النحلة فإن عدداً كبيراً من الأزهار قد لا تثمر.

ويوجد الرحيق عادة في الجزء السفلي من الزهرة المسمى (الكؤيس)، وقد يوجد في بعض النباتات في مؤخرة الجزء السفلي من الأوراق.

(١) العسل فيه شفاء للناس، ص ٤٣ - ٤٥ باختصار وتصرف.

وتختلف كمية الماء والسكر في الرحيق من نبات لآخر، والنحلة تعرف هذا جيداً، ولهذا السبب تذهب إلى الأزهار التي يكون التركيز السكري فيها أعلى من غيرها، فسبحان من علّمها وألهمها!

ولكي تحصل النحلة على مقدار قطرة من الرحيق، فإنّ عليها أن تزور عدداً كبيراً من الأزهار، يقدر بـ (٥٠٠ - ١١٠٠)، ولكي تحصل على مئة غرام من العسل، فعلى النحلة أن تزور ما يزيد على مليون زهرة، وتمتص النحلة الرحيق بخرطومها، حتى إذا امتلأت به معدتها الخاصة بالعسل عادت طائرة إلى الخلية^(١).

• السبل المذلة:

وعلى النحلة أن تقطع مسافات كبيرة في الحقول والبساتين والغابات لتحصل على ما تريد من الرحيق، وقد يَسّر الله تعالى لها معرفة الطرق التي تسلكها حتى لا تضيع، فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَسْأَلُكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلّاً﴾ أي: سيري في الطرق التي ألهمك الله تعالى أن تسلكي فيها، فهي مذلة لك ومسهلة، فلا تضيعن فيها ولا تضلين عنها.

وتستطيع النحلة أن تطير بسرعة (٦٥ كم) في الساعة، وإذا كانت تحمل من الرحيق ما يعادل ثلاثة أرباع وزنها، فإنها تستطيع أن تطير بسرعة (٣٠ كم) في الساعة، ويكلف الكيلو غرام الواحد من العسل النحلة ما بين (١٣٠) ألف إلى (١١٥) ألف حمل من الرحيق، فلو فرضنا أن الزهور تقع على بعد (١٥٠٠) متر من الخلية، فعلى النحلة أن تطير مقدار ثلاثة كيلومترات في كل نقلة، وعليها لصنع كيلو غرام واحد من العسل أن تطير مسافة تصل إلى (٣٦٠ - ٤٠٠) ألف كم، أي: ما يعادل عشر مرات محيط الأرض حول خط الاستواء^(٢).

إنه جهد كبير هائل تبذله هذه الحشرات الصغيرة لتقدم كيلو غراماً واحداً من العسل للإنسان، فسبحان من ألهمها وذلّل لها السبل!

(١) العسل فيه شفاء للناس، ص ٤٧.

(٢) المرجع السابق نفسه.

● العسل غذاء وشفاء:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ وهو العسل، وسمّاه شراباً لأنه يُشرب، فله قيمة غذائية كبيرة، فهو أسرع المواد السكرية تمثيلاً في الجسم، لأن معظم سكرياته أحادية: سكر فواكه وسكر عنب، تُمتص مباشرة في الجسم من دون هضم، وهو يحتوي أيضاً على أملاح، وفيتامينات، وحامض الفورميك، ومواد غير معروفة تبلغ (٤٪) من تركيب العسل، وربما كان لكل هذه الخصائص أكبر الأثر في تجديد القوة الطبيعية لمن يتناول عسل النحل^(١).

﴿تُخْتَلِفُ أَلْوَنُهُ﴾ بحسب اختلاف الأزهار والنباتات التي رعتها النحل.
﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: جعل الله تعالى في العسل شفاء للناس من كثير من الأمراض التي تصيبهم.

● من إعجاز السُّنة النبوية العلمي:

ولا بدّ أن يكون للشفاء بالعسل علاقة بالمقدار المستعمل منه، فلكل مرض مقدار معيّن يناسبه، ولهذا حددت مقادير الأدوية بدقة، وإذا ما استعمل الإنسان مقدراً من العسل يتناسب مع مرضه، حصل الشفاء، وبرأ بإذن الله تعالى.

دل على ذلك الحديث النبوي الشريف: فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنه، وفي رواية: استطلق بطنه^(٢)، فقال ﷺ: «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثانية، فقال ﷺ: «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثالثة، فقال ﷺ: «اسقه عسلاً» ثم أتاه فقال: فعلتُ، فقال: «صدق الله وكذب بطنُ أخيك، اسقه عسلاً» فسقاه، فبرأ. [رواه البخاري (٥٦٨٤) ومسلم (٢٢١٧) واللفظ للبخاري].

وقد ثبت علمياً أن العسل يبيد الجراثيم، ويقضي عليها، وقد أجرى الطبيب

(١) مجلة العلم، عدد (٢١)، ص ٢٦.

(٢) استطلق بطنه: أي أصابه الإسهال.

الجراثيمي (ساكيت) اختباراً علمياً عن أثر العسل في الجراثيم، فقام بزرع جراثيم مختلف الأمراض في مزارع العسل الصافي، ولبت ينتظر... فأذهلته النتيجة المدهشة، فقد ماتت جميع الجراثيم وقضي عليها، لقد ماتت جراثيم الحمى النمشية (التيفوس) بعد (٤٨) ساعة، وجراثيم الحمى التيفية بعد (٢٤) ساعة.. وجراثيم الزحار العصري قضي عليها تماماً بعد عشر ساعات.. وهذا ما جعل الطبيب ظافر العطار والأستاذ سعيد القربي يذهبان في مقالة بعنوان: (العسل ينقذ الإنسان من جراثيمه الممرضة) في مجلة (طبيبك) عدد تشرين (١٩٧٠م)، إلى القول: إن قول (ساكيت): إن جراثيم الزحار قد قضي عليها بعد عشر ساعات فقط، قد يعطينا فهماً جديداً للحديث النبوي - الذي سبق ذكره - فاستطلاق البطن يمكن أن يكون بسبب الزحار، وتجربة (ساكيت) أثبتت أن العسل يقضي على جراثيمه^(١).

وبهذا ظهر علّم جديد من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، ووجه جديد من وجوه إعجاز سنّته، فهذه الحقائق العلمية ما عرفها العلماء إلا في العصر الحاضر.

وقد أجمع الأطباء والباحثون قديماً وحديثاً على أن العسل يصلح لعلاج كثير من الأمراض، فقد اعتمد عليه كمادة مضادة للعفونة، ومبيدة للجراثيم في أحدث مجالات الطب الحديث لحفظ الأنسجة والعظام والقرنية أشهراً عديدة، واستعمالها حين الحاجة إليها في جراحة التطعيم والترميم.

كما أظهرت الدراسات الحديثة الفرق الشاسع بين السكر العادي والعسل في مجال التغذية، وخصوصاً للأطفال، فالسكاكر المصنعة من العسل لا تحدث نخراً، ولا تسبب نمو الجراثيم.

كما برهنت دراسات (ف. بوكسي) خاصية العسل في تثبيت الكلس على العظام والأسنان، وأثره الفعّال في نمو العظام الطبيعي عند الإنسان والحيوان.

(١) مجلة العلم، عدد (٢١)، ص ٦٢ - ٦٣.

• معالجات بعض الأمراض بالعسل:

وفي العسل شفاء من أمراض العين، وأحدث ما نشر عن معالجة أمراض العين بالعسل ما كتبه كل من (ماكسيمنو) و(بالتينا) عام (١٩٣٧م) عن قيمة العسل كعلاج ضروري للأطفال المصابين بقصر البصر.

وفي مجال أمراض الأنف والأذن والحنجرة أبحاث تؤكد فائدة تطبيق العسل موضعياً في معالجة اللوزتين، والتهاب الجيوب المزمن، والتهاب الفم القلاعي وتقرحاته، وأكدت بعض الأبحاث خاصية العسل كمادة مضادة للتهاب المهبل والإحليل والمثانة.

وفي مجال الطب العقلي فإن حقن محاليل العسل الوريدية يعد تنويعاً وإتقاناً لأحدث صيغة في المعالجة الطبية لأعقد الحالات المرضية^(١).

ونشرت مجلة (العلم) التي تصدر في تونس في عددها (٢١) سنة (١٩٧٤م) عدّة مقالات لمشاهير الأطباء عن المعالجات في العسل منها:

- (حقن محلول العسل الوريدي في المعالجة السريعة للروماتزم) للدكتور نوفوسلسكي.

- (استعمال البنج الموضعي العسلي) للدكتور فوينبرغ.

- (الاستشفاء بالعسل في الأمراض النسائية، معالجة الحكة) للدكتور شولترز ونهوف.

- (معالجة جروح الحرب بالعسل) للدكتور تمنوف.

- (التحريات الإحصائية عن الأثر المانع لسم النحل على حدوث السرطان عند النحّالين) إعداد: سعيد القربي.

- (معالجة التسمم الغولي بالعسل) إعداد: الكتور رين.

(١) انظر: مقدمة كتاب: العسل فيه شفاء للناس.

- (حقن المحاليل العسلية عقب العمليات الجراحية) للطبيين محمد نزار الدقر ومروان صباغ.

- (الاستشفاء بالعسل كمضاد للعفونة) للطبيب محمد البيروتى .

وأخيراً لا بد أن أذكر كتاباً ألفته (إيفا كرين)، رئيسة جمعية أبحاث النحل البريطانية، صدر في عام (١٩٧٥م) عن العسل من كل نواحيه؛ وقد أنهت المؤلفة الحديث عن الخواص الحيوية للعسل، ومنافعه الطبية بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾. وترجمته ما قالت حرفياً: وهنا ونظراً لأن العسل مفيد على نطاق واسع، وغير مؤذٍ، فإنه يحق لنا بكل تأكيد أن ننهي هذا الفصل بالتعبير من السورة (١٦) من القرآن حينما تكلم عن العسل أنه ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾^(١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَإِنَّ مَنْ تفكر في النحل ونظام حياته، والعسل الذي يصنعه لا بد أن يؤمن بوجود خالق قادر عليم حكيم ﷻ، ولا بد أيضاً أن يدرك عظيم فضله وإحسانه على الإنسان فيما أنعم عليه وسخر له.

• التفاوت في الآجال:

وبعد الحديث عن نعمة العسل ومصانعه وما فيها من دلائل، التفتت الآيات إلى الناس وهي تواجههم ببعض الحقائق الماثلة في بنيتهم وتكوينهم وأطوار حياتهم:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ ثُمَّ يُوَفِّيكُمْ مِّنْ بَرِّهِ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٧٠).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّكُمْ ثُمَّ يُوَفِّيكُمْ مِّنْ بَرِّهِ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْعُمُرِ﴾ بآجال مقدرة مختلفة.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ بَرُّهُ إِلَىٰ أَزْدِلِ الْعُمُرِ﴾ ومنكم من يطول عمره حتى يعود كما كان في بداية حياته ضعيفاً جاهلاً ناقص العقل، وهي أصغر فترات حياته وأخسها، وهي من الآفات التي علّمنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله منها.

(١) العسل فيه شفاء للناس، ص ١٢.

فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنه كان يأمر بهؤلاء الخمس ويخبرهن عن النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر» [رواه البخاري (٦٣٧٠)].

﴿لَيْتَ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي: لكي يصير إلى حال شبيهة بحال الطفولة في الجهل وسوء الفهم، يغلب عليه فيها النسيان والضعف والخلل، وتكاثر عليه فيها الأسقام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء.

﴿يَذِيرٌ﴾ على كل شيء، يبدل أحوال مخلوقاته كما يشاء سبحانه. فلا يتم التفاوت في أحوالهم وآجالهم إلا بمشيئته وقدرته، ولو كان هذا التفاوت بمقتضى الطبائع، كما يقول الملحدون والماديون، لما وجد التفاوت الكبير في أحوال المخلوقات وأعمارها وخصائصها. وتدل الآية على أن التبدل والتغير من صفات المخلوقات، أما صفات الخالق جلّ وعلا، فلا يلحقها تغير أو تبدل، فعلمه سبحانه أزلي كامل، وقدرته أزلية كاملة كسائر صفاته، لا تتغير كما تتغير قدرة البشر وعلمهم.

• التفاوت في الأرزاق:

وكما جعل الله سبحانه الناس متفاوتين في أعمارهم وآجالهم، جعلهم أيضاً متفاوتين في أرزاقهم، فقال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْيِ رَبِّهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١).

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فوسّع الرزق على بعض الناس، وضيقه على آخرين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

والتفاوت في الرزق من نعم الله سبحانه على الناس، فبسببه يتعارفون ويتواصلون، ويتبادلون المنافع، وتقوم المجتمعات، وتنشأ الحضارات، ويمتد العمران، وصرَّح سبحانه بحكمته هذه فقال: ﴿أَهْرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحَارًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فالرزق بيده سبحانه، وتوزيعه بين الناس منوط بمشيئته وحكمته، والأغنياء الذين وسع الله عليهم أرزاقهم لا يملكون رزق أحد أبداً، فرزقهم ورزق غيرهم من الضعفاء والمماليك بيد الله تعالى.

﴿فَمَا الَّذِي كَفَّرُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ لأنه سبحانه يرزق السادة والعبيد، والملاك والمماليك.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فالجميع متساوون في كون رزقهم على الله تعالى ومنه سبحانه، وما يقدمه السيد لعبده من رزق، هو في الحقيقة من رزق الله تعالى، قدَّره سبحانه للعبد في مال سيده، وكذلك ما يقدمه الغني من مال للفقير، ليس إلا الرزق الذي قدَّره سبحانه وفرضه للفقير في مال الغني، فالسيد والغني ليسا سوى وسائل مسخرة لإيصال رزق الله تعالى إلى من شاء من عباده.

﴿أَفَنِعْمَةَ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فلا ينبغي لأحد أن يجحد فضل الله تعالى عليه فيما رزقه وقدر له، ولا ينبغي أيضاً لأحد أن يرى لنفسه فضلاً على غيره في الرزق، لأن الرزاق الحقيقي هو الله تعالى وحده.

● نعمة الزواج والحياة العائلية:

وأضافت الآيات إلى كل ما تقدَّم من النعم، نعمه سبحانه على الناس فيما يسَّر لهم من أسباب بناء الحياة الاجتماعية بينهم، وذلك بالتزاوج والتناسل، وبناء الحياة الزوجية والعائلية على المحبة والمودة:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم ونوعكم.

﴿أَزْوَاجًا﴾ لتأنسوا بها، وتسكنوا إليها، كما قال سبحانه في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أي: أولاداً وأولاداً أولادٍ .
﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذات النافعات، فكيف بعد كل هذه النعم الجليلة تؤمنون بغيره سبحانه؟! .

﴿أَفِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وكل ما سوى الله تعالى باطل، كما جاء في قول الشاعر:
«أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ»

وهي أصدق كلمة قالها شاعر، فعندما سمعها النبي ﷺ قال: «أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمةٌ لبيد^(١): أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ» [رواه مسلم (٢٢٥٦)].
﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: هم يجحدون.

فعبادتهم غيره سبحانه تدل على إيمانهم بالباطل، وجحودهم لنعمه سبحانه وفضله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ لأن الرزق بيده سبحانه وحده، كما مر معنا من قريب، فلا أحد غير الله تعالى يملك شيئاً من الرزق في السماء أو في الأرض.

(١) هو لبيد بن ربيعة العامري، أشهر شعراء الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقة، أسلم، وامتنع عن قول الشعر بعد إسلامه لاشتغاله بحفظ القرآن وتدبره، توفي سنة (٤١هـ).

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فكما أنهم لا يملكون شيئاً من الرزق، فلا يستطيعون أيضاً إنزال شيء من رزق السماء، أو إخراج شيء من رزق الأرض، إلا بمشيئته تعالى وتقديره.

وتؤكد الآية ما سبق تقريره في السورة بأن شكر الله تعالى على نعمه يستوجب عبادته وحده، وأن من يعبد غيره لا يكون شاكراً له تعالى أبداً. ولهذا ختم الله تعالى عرض المجموعة الثانية من النعم بالنهي القطعي عن أي مظهر من مظاهر الشرك، فقال:

﴿فَلَا تَصْرِيحُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَلَا تَصْرِيحُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي: لا تجعلوا له شركاء، أو لا تجعلوا له مثلاً تشركونه به سبحانه، فهو لا مثل له ولا شبيه ولا شريك، كما قال جلّ وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالخلق كلهم عبيده وفي ملكه، فلا تشبّهوا الخالق بالمخلوق، والرازق بالمرزوق، والقادر بالعاجز.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فُبح أعمالكم، وعظم جرائمكم، وسيعاقبكم عليها أوفى عقاب.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

• المثل الأول:

ثم ضرب سبحانه مثلين يبيّن للمشرّكين فيهما قبح شركهم وشناعته:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ بسبب عجزه وضعفه.

﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا﴾ أي: وعبدًا أنعمنا عليه وأعطيناه رزقاً طيباً كثيراً.

﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ فهو يستعمل نعم الله تعالى عليه في مساعدة الناس في جميع الأحوال والأوقات.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي: هل يتساوى المتصفون بهذه الأوصاف المتباينة من الفريقين؟! فالعبد الفقير عاجز لا يستوي مع الغني الكريم المنفق، مع أنهما يتفقا في البشرية والمخلوقية والاحتياج إلى فضل الله ورزقه، فما ظنكم برب العالمين عندما تشركون به الأصنام، وتجعلونها تساوي القوي القادر القاهر في استحقاق العبادة والطاعة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد كله لله تعالى المتصف بكل صفات الكمال والجلال، فلا يستحقه أحد سواه.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه وحده سبحانه المنعم المتفضل، وأن كل ما سواه ليسوا سوى وسائط مسخرة بمشيئته وقدرته جَلَّ جَلَالُهُ.

• المثل الثاني:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح^(١).

﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي: أخرس خلقة، فهو لا يسمع. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ وهو أيضاً لا يقدر على فعل أي شيء لنفسه أو لغيره، بسبب شدة عجزه.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي: وهو ثقل على من يلي أمره ويعوله. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: إذا ما وجهه في قضاء أي حاجة، لا ينجح ولا يفلح.

(١) انظر: روح المعاني: ١٤/١٩٦.

فمن كان هذا حاله في العجز والضعف:

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾؟ لَأَنَّ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ ذَا

قوة في جسمه، وذا رشد في عقله ودينه.

﴿وَهُوَ﴾ في نفسه أيضاً.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على هداية واستقامة ورشد، لا يحتاج إلى

موجّه ومرشد.

ويقال هنا كما قيل في المثل السابق: فكما أن التباين بين الرجلين واضح،

وأنهما لا يستويان مع اتفاقهما في الصورة والخلقة البشرية، فبالأولى ألا تستوي

الأصنام العاجزة عن النطق والحركة، والمحتاجة إلى من يحملها وينظفها في

استحقاق العبادة مع الله تعالى القوي القادر القاهر جلّ وعلا.

فله سبحانه كمال العلم والقدرة، لا يعزب عن علمه شيء في السموات

والأرض:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض

مما غاب عن العباد، وسع سبحانه كل شيء علماً، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته

إلا كلمح البصر لكمال قدرته جلّ وعلا.

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: بل هو أقرب من لمح البصر، ولا تنافي بين

التشبيهين، لأن المراد بيان سرعة تحقق مراده تعالى، لا بيان زمان وقوعه.

﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.



الْفَضْلُ الرَّابِعُ

الْمَجْمُوعَةُ الثَّالِثَةُ مِنَ النِّعَمِ
نِعَمُ اللَّهِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ
فِي حِمَايَتِهِ وَوَقَايَتِهِ

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ
تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَحْثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْبَوْنَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا
الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ
الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ .

• الإخراج من البطون:

وعادت الآيات مرة ثالثة إلى تذكير الناس ببعض نعم الله تعالى عليهم،
وبدأت من نعمة إخراج الإنسان من بطن أمه، قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ في الوقت المقدّر بحكمته ومشيبته لخروجكم، وذلك حين يستكمل الجنين نموه، ويصبح في حال يمكنه معها العيش خارج رحم أمه، وهو القدر المعلوم الذي ذكره سبحانه في قوله في سورة المرسلات: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي رَقَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وتسمى عملية خروج الجنين من بطن أمه: المخاض، وهي تنطوي على أدلة باهرة على كمال حكمة المولى سبحانه وقدرته، وتدل على رحمته سبحانه وفضله على الإنسان، بما يسّر له من أسباب الخروج من بطن أمه بسلام، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّيْلَ بَسَّرْنَاهُ﴾ [عبس: ٢٠].

فمن رحمته تعالى وحكمته أنه جعل حوض الأم يشبه قناة مفصلة تفصيلاً دقيقاً على قياس رأس الجنين عند تمام الحمل، وعندما يبدأ المخاض، ويبدأ الرحم بالتقلص دافعاً رأس الجنين شيئاً فشيئاً إلى الأسفل، الذي يندفع باتجاه الحوض بأوضاع معينة ومقدّرة بدقة، حتى يحصل ما يسميه الأطباء بالتدخل، وهو اجتياز رأس الجنين لمدخل الحوض الأعلى، ولا يحصل التدخل إلا إذا تقدم الرأس بالعرض، لأن أقطار المضيق العلوي عرضانية.

ولا بد بعد ذلك أن يدور رأس الجنين، وهو في الحوض، حتى يتناسب مع أقطار مضيق الحوض السفلي الطولانية، وعملية الدوران محسوبة بتقدير الله تعالى بدقة، وقد جعل الله تعالى من أجلها القناة الحوضية أشبه بأسطوانة ملساء، وجعل فيها شوكين عظميين بارزين، فإذا استمرت تقلّصات الرحم تدفع رأس الجنين شيئاً فشيئاً إلى الأسفل، حتى يصطدم بالشوكين المذكورين، اللذين يوجهانه بحيث يدور، وتتطابق أقطاره مع أقطار المضيق السفلي.

هذه هي الحكاية - كما قال الطبيب المتخصص بالحمل والولادة -: رأس

يتدخّل بالعرض، ثم يدور في الحوض، ويتخلص منه بالطول، ولولا أن الحوض قد أُعِدَّ على قياسه بعناية لَمَا أمكنت الولادة، حتى إن الرأس إذا كان صغيراً فإنه يمر بسرعة أكبر، وكثيراً ما تعرضه هذه السرعة للرض والنزف الدماغي...

والسؤال الذي ما زال يحير الأطباء هو: كيف تبدأ آلام المخاض وتحصل الولادة الطبيعية في الوقت المناسب؟ ما هو السبب؟ ولماذا يبدأ الرحم تقلصاته التي لا تتوقف حتى ولادة الوليد؟^(١).

والجواب على تساؤل الأطباء هنا هو في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ فبأمره تعالى يتقلص الرحم، وبمشيئته النافذة في ذرات الموجودات، وحكمته الباهرة، تتم عملية إخراج الجنين من بطن أمه.

• وسائل التمكين:

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي: أخرجكم من بطون أمهاتكم وأنتم لا تعلمون شيئاً، ولا تقدرون أيضاً على شيء، في غاية الجهل والضعف، وفي أشد حالات الافتقار، فأمدكم الله تعالى بمعونته ورحمته، التي أحاطكم بها منذ بداية وجودكم في أرحام أمهاتكم.

﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وهي وسائل التمكين، التي تُمكن الإنسان أن يدرك ما حوله من المخلوقات، وما فيها من دلائل تدله على وجود الله تعالى ووحدانيته، فهي من النعم الجليلة على الإنسان، تستوجب منه شكراً خاصاً خالصاً لله تعالى عليها:

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وأول ما يقتضيه هذا الشكر استعمال هذه الوسائل في الاستدلال على وجود الله تعالى والإيمان به وتوحيده ﷻ.

ولهذا قال سبحانه منبهاً على دليل من أدلة وجوده وعظمته وقدرته:

(١) انظر: القرار المكين، ص ٧٩ - ٨٠.

﴿الَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩)

﴿الَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾ أي: مذللات ومهيئات للطيران في الجو.

﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ ما يمنعهن من السقوط إلا الله تعالى بقدرته وحكمته، فقد خلق سبحانه في أجسام الطير وفي الجو الأسباب التي تمكّن الطير من الطيران، ولمّا هدى الله الإنسان إلى هذه الأسباب، بوسائل التمكين التي زوّده بها: السمع والأبصار والأفئدة، واكتشف النواميس الدقيقة الكونية المحيطة بالأرض، تمكّن بفضل الله تعالى من صنع الطائرات، والاستفادة منها في الركوب والحمل، فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دالة على كمال قدرته وحكمته ورحمته.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون بوجود الله تعالى ووحدانيته.

• نعمة المساكن والأثاث:

ومن نعم الله تعالى على الإنسان أن هيا له كل ما يحتاج إليه من أسباب الراحة الجسدية والنفسية في حياته، فقال سبحانه في معرض الامتنان على الإنسان:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٨٠)

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ لراحة أبدانكم، واطمئنان نفوسكم، فهو سبحانه الذي خلق المواد الأولية من الحجر والمدر والخشب والحديد، وغير ذلك من المواد التي يحتاج إليها الإنسان في بناء المساكن، وهدهد سبحانه أيضاً إلى أساليب بنائها وعمارتها، بحيث يجد فيها كل ما يحتاج إليه من الراحة

الجسدية والنفسية، وأنعم عليه سبحانه أيضاً ببيوت أخرى متنقلة، يحتاج الإنسان إليها في أسفاره ورحلاته.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخفُّ عليكم حملها ونقلها.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ أي: يوم سيركم ورحيلكم.

﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ أي: وتخف عليكم أيضاً في يوم إقامتكم، فلا يثقل عليكم إقامتها وتشيدها.

﴿رَمَنَ أَصْوَابَهَا وَأُوبَارَهَا وَأَشْعَارَهَا﴾ أي: وجعلكم تتخذون من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها:

﴿أَثْنًا﴾ لبيوتكم؛ كالفرش والبسط والوسائد وغير ذلك.

﴿وَمَتَاعًا﴾ تتمتعون بها وتنتفعون بها.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ تبلى وتنفى، أو إلى حين انقضاء آجالكم وموتكم.

• نعم الحماية والوقاية:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَّا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ (٨١)

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الجبال والأشجار والصخور وغيرها.

﴿ظِلَالًا﴾ تستظلون بها من حر الشمس ووهجها، وهي نعمة عظيمة يعرف قيمتها وضرورتها أهل المناطق الحارة على وجه الخصوص.

وقد اكتشف العلماء في العصر الحاضر وجود طبقات كثيفة، تحيط بالأرض، تظللها وتحميها من بعض الأشعة الكونية المؤذية القاتلة؛ منها طبقة الغلاف الأوزوني، وقد أقلق العلماء وأقضى مضاجعهم الثقب الذي حدث فيه، بسبب سوء استعمال الناس في العصر الحاضر لبعض نعم الله تعالى وإسرافهم فيها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَاتًا﴾ أي: معاقل وحصوناً تتحصنون فيها من شدة الحر والسيول والفيضانات والأعاصير.

﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابًا تَنَاقِلُونَ﴾ أي: والبرد أيضاً، وهي القمصان والثياب المصنوعة من القطن والكتان والصوف، لكي تحمي أجسامكم من الحر والبرد.

﴿وَسَرَابًا تَنَاقِلُونَ بِأَسْكَكُمْ﴾ أي: وجعل لكم الدروع التي تحميكم في أثناء القتال من ضربات عدوكم.

فالله سبحانه هو المنعم بهذه النعم، ألا ترى كيف منَّ الله تعالى على نبيه داود عليه السلام بإلانة الحديد له، وتعليمه صناعة الدروع فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِّنَكُمْ مِّنْ بِأَسْكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۚ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ].

• تمام النعم:

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: كما أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة، التي تحتاجون إليها في حياتكم ومعاشكم، ينعم عليكم أيضاً بنعمة أخرى، هي أجل وأعظم من جميع ما ذكر، وبهذه النعمة يتم فضل الله تعالى عليكم، هذه النعمة هي: نعمة الإسلام، وإنزال الوحي بالقرآن، وهي النعمة العظمى التي تبقى النعم من دونها ناقصة، فلا تتم إلا بها، لأنها تبين للناس كيف يشكرون الله تعالى على نعمه؟ وكيف يصلون إلى رحمته ورضوانه؟.

ولهذا أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ عشية يوم عرفة في حجة الوداع قوله الكريم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخَبَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

فهل تقبلون هذه النعمة العظيمة، وترضون بما رضىه الله لكم، وتنقادون لأمره، وتسلمون لأحكام شرعه؟!

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فتسلمون..

أم تعرضون عن دينه وشرعه، وتجدلون فضله؟:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٨٢﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن دعوتك يا محمد.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ فليس عليك عتب في تقصير، فقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، فلا يضررك إعراضهم، ولا تحزن عليهم.
إن إعراضهم عن دين الله وشرعه أمر عجيب مستقبح مستنكر:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٣﴾

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ فيقرّون أنها من الله تعالى، حكى الله تعالى ذلك عنهم في عدة آيات، منها: قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مَّنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٣﴾

ومع إقرارهم ينكرونها، فيعرضون عن دعوة نبيه ﷺ، ويعبدون غيره:
﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ فلا فائدة من إقرارهم بفضل الله عليهم إلا إذا انقادوا لدينه، ورضوا بشريعته، واتبعوا نبيه عليه الصلاة والسلام.
﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون المعاندون.

• من مشاهد يوم القيامة:

ولا يصلح لهذا العناد والجحود إلا أسلوب الإنذار والوعيد، ولهذا اتجهت الآيات إلى عرض بعض المشاهد المخيفة المرعبة في يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْنُونَ﴾ ﴿٨٤﴾

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم، أن رسالة الله تعالى قد بلغتهم، وأن حجته تعالى قد قامت عليهم، وهذا الشاهد هو النبي الذي أرسل إليهم؛

وسيدنا محمد ﷺ هو نبي الأمة المسلمة والشاهد عليها، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ شِئِيَ لَهُمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿٤٢﴾. ثم بعد ذلك.

﴿لَا يُوَدُّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الكلام والاعتذار، كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُوَدُّنَ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ﴾ [المرسلات]. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم، لأن الآخرة ليست دار تكليف^(١).

فطلب الرضا منسداً عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

ومن قوله ﷺ وهو يناجي ربه: «لك العُتْبَى حتى ترضى»^(٢). ومشهد ثانٍ من مشاهد الوعيد والتهديد:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ﴾ ليرتاحوا منه، ولو لفترة قصيرة. ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم العذاب، ولا يمهلون. والمشهد الثالث مشهد المواجهة بين عامة الكفار وبين رؤسائهم في الكفر والضلال:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٨٦﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ الذين أطاعوهم، وساروا وراءهم

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٦٣٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤٨/٢.

وقلدوهم، واتبعوا القوانين والشرائع التي ابتدعوها لهم.

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا ندْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أي: الذين فُتِنَّا عن طاعتك وعبادتك بطاعتهم وعبادتهم، كأنهم يسألون الله تعالى أن يضاعف عذابهم، وقد ذكر ذلك صريحاً في آيات؛ منها: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أُمِرْتُ بِالصَّلَاةِ وَالْعِزَّةِ وَالْجَبَلِ﴾ [الأحزاب: ٦٨].

ويردُّ زعماء الكفر والضلال على أتباعهم مكذِّبين لهم، ملقين تبعة ضلالهم على أنفسهم:

﴿قَالَ قَوْأُ إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لأنكم ما عبدتمونا في الحقيقة، بل عبدتم أهواءكم وشهواتكم، فمسؤولية ضلالكم نابعة من نفوسكم، وهو ما يشير إليه الشيطان عندما يقول لأهل النار يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

﴿وَالْقَوُأُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَالْقَوُأُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ﴾ أي: أعلنوا انقيادهم واستسلامهم لله تعالى في يوم القيامة، بعد التجبر والتكبر والعناد والجحود.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وبطلت وضاعت جميع افتراءاتهم وأكاذيبهم، فعندما تظهر الحقائق، ويشرق نورها، تتلاشى الأكاذيب وتضمحل، كما يتلاشى الزبد وينطفئ بعد أن كان فوق الماء منتفخاً منتفخاً.

ثم بعد هذه المواجهة بين عامة الكفار وبين رؤسائهم ذكر سبحانه أنه قدَّر لرؤوس الكفر والضلال زيادة في العذاب على غيرهم:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في أنفسهم.

﴿وَصَدُّوهُمْ غَيْرَهُمْ .

﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بمعارضتهم لانتشار دين الله تعالى، وسعيهم في نشر الكفر والضلال .

﴿زِدْنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الذي يستحقونه على كفرهم .

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ﴾ أي: بسبب سعيهم في نشر الفساد بين العباد، فالصدُّ عن دين الله تعالى أعظم أسباب الفساد في البلاد .
وأهل النار متفاوتون في دركاتهم، كما أن أهل الجنة متفاوتون في منازلها ودرجاتها .



الْفَضِيلُ الْخَامِسُ مُؤَاسَاةٌ وَتَثْبِيتٌ

﴿وَيَوْمَ نَعْتَبُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْعَبْثِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٩٠) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ عَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكُنَا نَتَّخِذُونَ آيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ تَفْعَلُونَ﴾ (٩٢) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَنَسْتَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) ﴿وَلَا نَخْذُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَاقَدِمَ بَعْدَ بُيُوتِهَا وَتَذُقُوا الشَّوَّ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤) ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥) ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفْءُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩) ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠) ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفَوِّقٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠١) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٠٢) ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَلَّا يُخَذِّبَ إِلَيْهِ

أَعْبَجِيْ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُّبِيْنٌ ﴿١٣﴾ إِنَّ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِيْنَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢٣﴾ فَكُلُوا مِنْ مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِعَيْرٍ لِلَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِيْنَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٢٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَعَلَى الَّذِيْنَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِيْنَ عَمِلُوا الشُّوْءَ يَجْعَلُ لَهُمْ تَابًا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾

• الشريعة الكاملة:

ولما انتهت الآيات من تذكير الناس ببعض نعم الله تعالى عليهم من خلال المجموعات الثلاث، وختمتها ببيان أن تمام النعم في الانقياد لله تعالى وحده، والاستسلام لحكمه وشرعه، وتوَعَّدت الجاحدين بعرضها لبعض مشاهد

العذاب يوم القيامة، شرعت تواسي النبي ﷺ عما يلقي من جحود المشركين وعنادهم، وتثبت المؤمنين وهم يواجهون أذى المشركين وعدوانهم.

استهلّت الآيات هذا الفصل بتكرير ما سبق ذكره، بأن كل رسول يشهد على أمته يوم القيامة، فقد ذكرته هناك في معرض التهديد والوعيد للمنكرين الجاحدين، وذكرته هنا في معرض مواساة النبي ﷺ، وبيان فضل الله تعالى عليه بما أكرمه به:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (٨٩).

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: منهم، فكل نبي بُعث من قومه إليهم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: على قومك وأمتك، التي هي خير الأمم وأعظمها، والتي اجتباها الله تعالى واختارها من بين الأمم لتحمل أعظم رسالة وأكملها وأشملها، وهي رسالة الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] (١).

وكما أكرمه سبحانه بمقام الشهادة على أعظم الأمم، أكرمه أيضاً بالرسالة الكاملة الشاملة، رسالة الإسلام والقرآن:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا بَيَانًا كَامِلًا﴾.

﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين والتشريع، فهو الطريق القاصد الذي تكفل الله تعالى ببيانه في صدر السورة عندما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

(١) انظر بسط الموضوع في: تفسير سورة الحج، المسمى في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج).

ففي القرآن الكريم الدين الكامل والشرعية التامة نصّاً وأصلاً، وما من حُكم يحتاج إليه الناس إلا له في القرآن الكريم نص صريح فيه أو أصل يتفرع منه.

وتدخل السُّنَّة الشريفة كلّها في آية واحدة من آياته، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وكل علوم الدين والشرعية من أصول وفروع، ورواية ودراية، تدور في فلك آياته ومعاني كلماته التي لا تنتهي.

﴿وَهْدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ وفي القرآن الكريم أيضاً أسباب الهداية إلى طريق السعادة، وأسباب استئزال رحمة الله تعالى والوصول إلى رضوانه وجنته، فضلاً عما فيه من بشائر للمسلمين، فكلما واجهتهم المصائب والنكبات ونزلت بهم المحن، وجدوا في كتاب الله تعالى الروح والراحة لقلوبهم ونفوسهم، فالتمسك به عصمة للمسلم من الخطأ والزلل، ونجاة له من الهموم والأحزان والمحن، فهو بر الأمان وسُلم النجاة، من تمسك به سلم، ومن عمل به أمن.

اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع صدورنا، ونور قلوبنا، وذهاب همومنا، وجلاء أحزاننا.

• العدل في الإسلام:

وتأكيداً لكمال شريعة القرآن ذكرت الآيات أصلاً من أصوله الكبرى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٠).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وهو الإنصاف، ومن الإنصاف الإقرار بنعمه سبحانه علينا، وشكره عليها، فشكر الله وحده هو العدل، وشكره سبحانه لا يكون إلا بتوحيده وطاعته وحده، والإعراض عمّن سواه، فيلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا

الله وحده لا شريك له، ولذلك قال من قال: العدل في هذا الموضع شهادة أن لا إله إلا الله. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ^(١).

ومن العدل: إخلاص العمل لله تعالى وحده، قال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله تعالى ^(٢).

ومن العدل أيضاً: التسوية في الحقوق فيما بين الناس، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه ^(٣).

والعدل بهذا المعنى أمر الله تعالى به في آيات كثيرة؛ منها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

ومنها أيضاً: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل أيضاً: التوسط والاعتدال في شؤون الحياة من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، فدين الله تعالى بين الغالي والمقصر، والشريعة الإسلامية قائمة على أساس التوسط والاعتدال بين مطالب الدنيا والآخرة، ومطالب الروح والجسد، وهذه الميزة تجعلها تتفق مع الإنسان، وتلبي حاجاته التشريعية في كل زمان ومكان؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

وقال أيضاً: ﴿يَبْنَٰى ءَادَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال أيضاً: ﴿وَاتَّبَعْنَا نِسَانَ آتَيْنَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٣/١٠٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٤٣/٢.

(٣) تفسير النسفي: ٣/٦٣٤.

وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

وقال أيضاً في معرض الشناء على المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يَدْخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته، واعلموا أن أحبَّ العملِ إلى الله أدومُهُ، وإن قَلَّ» [رواه مسلم (٢٨١٨)].

• الإحسان:

﴿وَالْإِحْسَانَ﴾ أي: ويأمر سبحانه بالإحسان أيضاً، ويكون في العبادات والمعاملات:

فالإحسان في العبادات: أن تؤدِّي تامةً على الوجه اللائق، كما جاء في الحديث الشريف: عندما سئل النبي ﷺ: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨)، واللفظ للبخاري]. وهذا الإحسان من حيث الكيفية، وأما من حيث الكمية فيكون بأداء نوافل العبادات الجارية لما يوجد من نقص في الواجبات.

والإحسان في المعاملات: بالتجاوز عن الناس، والتفضل عليهم، والعفو عنهم، فالعدل الإنصاف، والإحسان التفضل، وأعلى مراتبه العفو عند المقدرة، والإحسان إلى المسيء، وهو بهذا المعنى مندوب في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولما أنزل الله على النبي ﷺ قوله الكريم: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك» [رواه الطبراني مرسلاً (١٥٥٤٨) وابن مردويه موصولاً^(١)].

(١) كما في فتح الباري: ٣٠٦/٨.

وسياتي إن شاء الله تعالى مزيد تفصيل لهذا المعنى في آخر السورة عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

﴿وَاتَّيَّ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: ويأمر بإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وصلتهم، والإحسان إليهم فهو تخصيص بعد تعميم، يدل على اهتمام الإسلام بتقوية الصلات الاجتماعية بين الناس، وخاصة بين الأقارب، فللقريب في الإسلام حق واجب على قريبه، بصريح قوله تعالى: ﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ بَذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

• المنهيات الثلاثة:

ثم أوردت الآية في مقابل هذه المأمورات الثلاثة، ثلاثة منهيات: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ أي: ينهى سبحانه عن الأعمال الفاحشة المفرطة في القبح كالزنى الذي نهى عنه ووصفه بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ أي: وينهى أيضاً عن المنكر، وهو يعم جميع المعاصي والردائل والدنئات على اختلاف أنواعها. ﴿وَالْبَغْيِ﴾ أي: وينهى أيضاً عن البغي، وهو الكبر والظلم والحقد والتعدي، وحقيقته: تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصّه بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره^(١).

فكما اهتم الإسلام بإيتاء ذي القربى لما له من آثار إيجابية طيبة في تقوية العلاقات الاجتماعية بين الناس، اهتم كذلك في المنهيات بالبغي، لما له من آثار سلبية في القطيعة والتهاجر والاختلاف بين أبناء المجتمع الواحد، فالآية الكريمة بأوامرها ومنهياتها، تربي الفرد، وتهذب نفسه، ليصبح عضواً صالحاً نافعاً في مجتمع قوي متماسك، فهي أصل كبير من أصول الإسلام جاءت في

(١) تفسير القرطبي: ١٠/١٦٧.

سياق قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] كبرهان عملي على أن القرآن الكريم قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم وعلاقتهم مع ربهم سبحانه، وعلاقاتهم فيما بينهم، حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لكفت في كونه تبياناً لكل شيء^(١).

ولهذا ختمها سبحانه بقوله:

﴿يُعِظُكُمْ﴾ بما يأمركم وينهاكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فضل الله عليكم فتشكروه على نعمه وإحسانه، بطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

• الثبات على الإسلام والوفاء بعهده:

وبعد هذه المواساة والتكريم للنبي ﷺ، التفتت الآيات إلى المؤمنين تثبتهم على الطريق المستقيم القاصد، وتحثهم على التمسك بعهد الإيمان:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ أي: اثبتوا على الإسلام الذي التزمت به طائعين، حينما أجبتم دعوة رسول الله ﷺ، فمبايعته مبايعة لله تعالى، كما في قوله عز شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِي يَبَايِعُكَ إِنَّمَا يُبَايِعُكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِ سُبُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ أيمان البيعة.

﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد توثيقها على اسم الله تعالى.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهداً ورقياً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض للعهد، وعدم الوفاء به، فيجازيكم عليه، فاثبتوا على الإيمان، وتمسكوا بالإسلام.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَصَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ ائِمَّنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ﴾ (٩٢).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَصَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ أي: ولا تكونوا كالمرأة الحمقاء التي كلما غزلت شيئاً من الصوف أو الوبر وأحكمته؛ نقضته وفرقته.

﴿تَتَّخِذُونَ ائِمَّنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ وبهذا تجعلون عهودكم ومواثيقكم وسيلة للمكر والخديعة والفساد بينكم.

﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: بسبب أن المشركين كانوا أكثر عدداً وماً من المسلمين.

• فَهَمَّ سَيِّئٌ:

وهو ما يفعله كثير من ضعاف الإيمان من المسلمين في العصر الحاضر، يرون غنى الكفار وقوتهم، وضعف المسلمين وفقرهم، فيفتنون عن دينهم، ويرتدون إلى الكفر، وما علموا أن هذا الضعف والفقر ليس بسبب كونهم مسلمين، فالإسلام دين العلم والقوة، وما تَخَلَّفُ المسلمين إلا بسبب سوء فهمهم لحقيقة دينهم، وانصرافهم عن كثير من أحكام شريعته، وما علموا أيضاً أن هذا التفاوت بين الأمم والشعوب هو ابتلاء من الله تعالى وامتحان، كالتفاوت الذي جعله سبحانه بين الأفراد في الأرزاق والمواهب والملكات، ولهذا قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ أي: إنه تعالى يختبركم ويمتحنكم بهذا التفاوت بينكم وبين الكفار، ليظهر الثابت على إيمانه والتمسك بدينه، من الذي يغتر بقوة الكفار وغناهم، فيفتن عن دينه، ويرجع القهقري إلى الكفر والشرك،

فالتفاوت بين الأمم والشعوب أحوال عارضة لا تدوم، والأيام دول، يوم لك ويوم عليك، والعطاء والرزق منوط بأسباب، هي بمثابة المفاتيح له، وهي العلم والعمل والجد والسعي، فمن حصل عليها، واستفتح بها رزق الله تعالى، فتح الله له، سواء كان مؤمناً أو كافراً: ﴿كَلَّا تُبَدِّلُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

فمتى يفقه المسلمون هذه الحقائق، ويتمسكون بدينهم، ويقبلون بجد وعزم على العلم والعمل في ظل شريعة دينهم؟! بهذا فقط يلحقون ركب الأمم التي سبقتهم، بل ويتقدمون عليهم.

ثم ختم الله سبحانه الآية متوعداً فقال:

﴿وَلَيَبْيَنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيظهر المحق من المبطل، ويجازيكم بأعمالكم ثواباً وعقاباً.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فهو سبحانه قادر على أن يجعل جميع الناس متساوين في القوة والرزق والدين، ولكنه سبحانه جعل الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، وجعل التفاوت والتباين بين الأفراد والأمم من أسباب الابتلاء والاختبار. ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن علم سبحانه خبث طويته وسوء نيته، كما قال جلّ وعلا في سورة البقرة: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٧).

﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن علم سبحانه طيب نفسه وصفاء سيرته كما قال سبحانه في سورة الرعد: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ (١٧) وذلك بأن يوفقه إلى معرفة الحق، ويشرح صدره للانتفاع بدلائله وآياته، فالابتلاء والاختبار في الدنيا، والحساب والعزاء في الآخرة:

﴿وَلْتَسْأَلْ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بكسبكم واختياركم.

• التحذير من زلة القدم:

نزلت هذه الآيات في مكة المكرمة، عندما كان الصحابة رضي الله عنهم يتعرضون لأقسى أنواع العذاب والأذى، بسبب إيمانهم واستجابتهم لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم فكانوا في أمس الحاجة إلى مثل هذه الآيات، لكي تثبتهم، وتشد عزائمهم، ولهذا عادت الآيات مرة ثانية تأمرهم بالثبات على عهد الإيمان، وتحذرهم من نقضها، إلا أنها في هذه المرة بينت لهم ما يترتب على نقضها من عواقب سيئة وخيمة:

﴿وَلَا تَنْجَذُوا أَيَّمَنَكُمُ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٩٤).

﴿وَلَا تَنْجَذُوا أَيَّمَنَكُمُ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تعقدوا الأيمان، وتدخلوا في عهد الإسلام، وأنتم تريدون الخديعة والفساد، فإن عدم الإخلاص يؤدي إلى عدم الثبات، والانحراف عن طريق الحق.

﴿فَزَلَ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: تنتقلون من خير إلى شر، لأن القدم إذا زلت، نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقط في ورطة: زلت قدمه^(١).

﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبزلة القدم هذه تقعون في السوء بسبب إعراضكم وانصرافكم عن دين الله تعالى، هذا في الدنيا.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

• أهم أسباب الردة:

ولما كان التعلق بشهوات الدنيا أهم أسباب الفتنة والردة عن الدين،

(١) تفسير القرطبي: ١٧٢/١٠.

اتجهت الآيات إلى تزهيد المؤمنين بشهوات الدنيا العاجلة الفانية، ورفع همهم وقلوبهم لتتعلق بما عند الله تعالى من النعيم الدائم في الجنة:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٩٥).

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تتركوا عهد الله تعالى، وتأخذوا بدله عوضاً من شهوات الدنيا، وهو مهما بلغ قليل وحقير بجانب ما عند الله تعالى من النعيم والثواب المقيم، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل» [رواه مسلم (١١٨)].

﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الدنيا بما فيها، لأنها زائلة منتهية، ولا تصفو من كدر.

﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والفهم والتمييز.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٦).

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ ينقضي ويزول مهما كثر عدده وطال أمده.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النعيم.

﴿بَاقٍ﴾ لا نفاد له ولا انتهاء، كما قال سبحانه في معرض الحديث عن نعيم الجنة: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

بل هو في ازدياد، كما في قوله أيضاً: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وبعد أن زهدهم سبحانه بشهوات الدنيا، ورغبهم بنعيم الآخرة، وعدهم بالأجر العظيم، والثواب الجزيل إن ثبتوا وصبروا فقال:

﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على العهد، وثبتوا على طريق الحق، وتحملوا

الأذى والاضطهاد من أجل دينهم.

﴿أَجْرُهُمْ يَاحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة، إذ يعطيهم الله سبحانه الثواب بحسب أحسن أعمالهم التي تقربوا بها إليه في الدنيا.

• الحياة السعيدة الطيبة:

وفي سياق الترغيب بينَ سبحانه أنَّ الحياة السعيدة الطيبة لا تكون إلا في ظلال الإيمان والعمل الصالح، فقال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٧).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ﴾ فالمرأة في هذا كالرجل.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بشرط الإيمان، فلا قيمة لأي عمل صالح من دون الإيمان بالله تعالى، ولهذا قال سبحانه في أعمال الكفار: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فلا بد لقبول العمل الصالح من الإيمان بالله الواحد الأحد، والانقياد لرسالة الإسلام.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا، وذلك بأن ييسر له تعالى سبل العيش الكريم والرزق الحلال، ويجعله قانعاً راضياً به، لا يبغى على أحد، ولا يحسد أحداً، كما يجعله يتذوق حلاوة الإيمان، وبرد اليقين، ولذة عبادة الله تعالى ومناجاته، ويعرف حكمة خلقه ووجوده، فتسكن نفسه، وتقر عينه، فلا قلق في نفسه ولا حيرة ولا اضطراب في قلبه وفكره.

ومهما أوتي الإنسان من أسباب الغنى المادي، فلن يستشعر هذه المعاني، ويتذوق طعم السعادة، إلا في ظلال الإيمان بالله وطاعته وعبادته، ولهذا ترى كثيراً من الناس في العصر الحاضر عندما ابتعدوا عن الإيمان، وطغت عليهم الأفكار المادية الملحدة، أصبحوا أسرى القلق والهم والحيرة، والشعور بالضيق والتمزق، وصدق سبحانه القائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

فلا ينبغي للمسلم أن يغترَّ بأسباب الرخاء المادي الفاجر الكافر، كما مرَّ معنا الإشارة إليه في قوله: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢].

إنهم بسبب بعدهم عن معاني الإيمان، لم يجنوا منه إلا الهم والقلق والحيرة والتمزق، وكل ذلك بسبب جوع أرواحهم، وجفاف مشاعرهم، وقسوة قلوبهم، وظلمة عقولهم.

وبعد الحياة الطيبة في الدنيا الجزاء الكريم يوم القيامة:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

● الحصن الحصين من أسباب الردّة:

ومن أراد أن يثبته الله تعالى على الحق، ويمنعه من أسباب الردة والتعلق بشهوات الدنيا، والتأثر بوساوس الشيطان، فعليه أن يكثر من تلاوة القرآن الكريم بتدبر وخشوع، فهو الحصن الحصين للإيمان، ولهذا اتجهت الآيات إلى حث المؤمنين على تلاوة القرآن الكريم، والتأدب بأدابه والعمل بأحكامه:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨).

أي: الجأ إلى الله تعالى، واسأله أن يعيذك ويحميك من وساوس الشيطان المبعد عن رحمته تعالى، لأنه سبحانه لعنه وطرده من ساحات فضله وكرمه.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٩٩).

فلا تسلط للشيطان على المؤمنين ما داموا يذكرون الله تعالى ويتوكلون عليه ﷻ، فالمؤمن ذو القلب الموصول بالله تعالى لا يقبل وساوس الشيطان، ولا يتأثر بها.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ (١٠٠).

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي: يتخذون الشيطان ولياً بطاعته وقبول

وساوسه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: والذين هم بسبب طاعتهم للشيطان ومتابعتهم له يشركون بالله تعالى ويكفرون به.

• موقفان متباينان:

ومن رحمته تبارك وتعالى وحكمته أنه نزل القرآن الكريم مفرقاً على مدى بعثة النبي عليه الصلاة والسلام التي امتدت ثلاثة وعشرين عاماً، وفي خلال ذلك اقتضت رحمته وحكمته سبحانه أيضاً نسخ بعض الآيات الكريمة بآيات أخرى، رحمة بالمؤمنين، وتثبيتاً لهم، فقال سبحانه يبين موقف الكفار من ذلك وموقف المؤمنين:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ بنسخ الآية الأولى بالآية الثانية، كما قال في سورة البقرة: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا﴾ أي: الكفار. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: متقول على الله تعالى، تأمر بشيء، ثم يبدو لك ما يخالفه.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة الله تعالى في ذلك، ولا يميزون بين الخطأ والصواب.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، المَلَكُ الْمُقَدَّسُ الْمُطَهَّرُ الْمُؤْتَمَنُ على وحي الله تعالى إلى أنبيائه.

﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ الثابت والحكمة التامة.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: لِيُثَبِّتَ بالقرآن الكريم الذين آمنوا، فيزدادوا إيماناً وثباتاً، فكلما أنزل الله تعالى شيئاً من القرآن الكريم ازداد المؤمنون إيماناً وثباتاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وخاصة عندما ينزل الله تعالى آية ناسخة لحكم آية، ويرى المؤمنون ما في الآية الناسخة من رعاية لمصالحهم، وملاءمة للمرحلة الجديدة التي هم فيها، فترسخ عقائدهم، وتطمئن قلوبهم، فالتنزيل الحكيم يرفع مصالحهم، ويقدر ظروفهم وأحوالهم؛ ففيه الرحمة والحكمة، وفيه أيضاً:

﴿وَهْدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

• جهل وغباء وكذب:

ومما يدل على شدة جهل المشركين وغبائهم، اتهامهم النبي ﷺ بتهمة واضحة البطلان، وهي التي ذكرها سبحانه بقوله:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي
وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أي: الله سبحانه يعلم أن المشركين يقولون: إن الذي يعلم محمداً ﷺ القرآن بشراً، وهو جبر الرومي غلام حداد عند الصفا، كان النبي ﷺ يجلس إليه أحياناً، وكان مولى لبني الحضرمي. فردَّ سبحانه عليهم فريتهم التي تدل على شدة جهلهم وغبائهم، وتدل أيضاً على شدة حقدهم على النبي ﷺ، فقال:

﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي﴾ أي: لسان الذي يشيرون إليه ويميلون إليه أعجمي لا يفصح، ولا قدرة له على البيان.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن الكريم.

﴿لِسَانٌ عَكَبْتُ ثِيْبٌ﴾ عجز عن مثل سورة منه الفصحاء والبلغاء، فكيف فاتهم إدراك هذه الحقيقة الواضحة؟! .

وسبب هذا الغباء والجهل كفرهم بالله تعالى وآياته، فإنَّ الكفر يؤدِّي إلى ظلمة في القلب والنفس، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق، فتبقى قلوبهم مظلمة محرومة من نور الإيمان وبصائرهِ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في يوم القيامة.

والكذب على الله تعالى لا يليق بأي إنسان مؤمن، فكيف اتهموا به أصدق الصادقين رسول الله ﷺ الذي اشتهر بينهم بالصدق والأمانة؟!:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٠٥).

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله تعالى.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي: إن الكفار هم الكاذبون على الحقيقة، الموغلون في الكذب، لأن الكفر بالله تعالى أعظم الكذب.

• الإكراه على الكفر:

وفي سياق آيات التثبيت هذه، توعدَّ الله تعالى المرتدِّين عن الإسلام فقال:

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦).

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعليهم غضب من الله تعالى كما سيأتي بيانه.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر بإكراه شديد ملجئ، فكفر بلسانه فقط.

﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ثابت على الإيمان ساكن به، لم يتزعزع؛ فهو مؤمن، وما تَلَفَّظَ به لسانه بالإكراه لا يؤثر على عقيدته.

وقد أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر، حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين عنه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر^(١).

وأجمع العلماء أيضاً على أن من أكره على الكفر، فاختر القتل، أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة^(٢).

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية^(٣).

روي أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد، فأباه أبواه، فربطوا سمية بين بعيرين، ووجئت بحربة في قُبلها، وقالوا: إنما أسلمت من أجل الرجال، فقتلوا، وقتلوا ياسراً، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يا رسول الله إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: «ملئ عمار إيماناً إلى مُشاشه» [رواه النسائي (٥٠١٠)].

والمشاش: رؤوس العظام اللينة التي يمكن مضغها.

. وأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: «ما لك؟ إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»^(٤).

وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه الملجئ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه^(٥).

(١) تفسير القرطبي: ١٨٢/١٠.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٤٨/٢.

(٤) تفسير أبي السعود: ١٤٣/٥.

(٥) المرجع السابق نفسه.

﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طاب به نفساً، وفتح له قلبه باختياره.
 ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: عليهم غضب عظيم، وأظهر الاسم الجليل
 ﴿اللَّهِ﴾ لتربية المهابة، وتقوية تعظيم العذاب^(١).
 ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ أَصْحَابُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الْأَخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْكَافِرِينَ﴾ (١٠٧).

﴿ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ أَصْحَابُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عَلَى الْأَخِرَةِ﴾ أي: هذا العذاب بسبب
 إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة.
 ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين يختارون الكفر ويرضون به.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٠٨).

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المرتدون إلى الكفر باختيارهم ورضاهم.
 ﴿الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ فلا ينتفعون بها لمعرفة
 دلائل الإيمان.
 ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عن ربهم بسبب تعلقهم بشهوات الدنيا.

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْأَخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٠٩).

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً.
 ﴿أَنَّهُمْ فِي الْأَخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم، وصرفوها في
 شهوات الدنيا الزائلة الحقيرة.
 • عقوبة المرتدين:

هذا التشديد والوعيد يدل على أن الردة عن الإسلام جريمة منكرة كبيرة

(١) المرجع السابق نفسه.

فللعقيدة الإسلامية قداستها وحرمتها، ولا يسمح الإسلام أبداً لضعاف النفوس أن ينتهكوا حرمة عقيدته، ويتسلّقوا أسوارها، ويخرجوا عليها، بعد أن دخلوا فيها طائعين راغبين.

فلا عجب أن يشدد الله تعالى كل هذا التشديد على المرتدين، ويتوَعَّدُهم كل هذا الوعيد، فيعلن سبحانه غضبه العظيم عليهم، والطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، ويحكم عليهم بالحرمان من الهداية في حال إصرارهم على ردّتهم، وإيثارهم لشهوات الدنيا الزائلة الحقيرة.

ولا عجب أيضاً أن يأمر النبي ﷺ بقتل المرتد المصرّ على رده بقوله الكريم: «من بدل دينه فاقتلوه» [رواه البخاري (٣٠١٧)].

فللعقيدة الإسلامية حرمتها وقداستها، ويجب صيانتها من عبث العابثين كما كان بعض يهود المدينة المنورة يفعلون، فقد كانوا يعلنون دخولهم في الإسلام أول النهار نفاقاً واستهزاءً، ثم يرتدون عنه في آخر النهار، وأنزل الله تعالى فيهم قوله الكريم: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِاللَّهِ أَنزَلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَّهَ النَّهَارِ وَآكُفِّرُوا ءَآخِرَهُ لَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

• الحث على التوبة والرجوع إلى الإسلام:

وبعد كل هذا التشديد والوعيد للمرتدين، فتح الله تعالى لهم باب التوبة، وحثهم على الإنابة والعودة إلى الحق، والرجوع إلى الطريق القاصد المستقيم، فالإسلام دين الرحمة، ومهما نأى الإنسان بنفسه عن طريق الحق، وجمحت به أهواؤه وشهواته، فإنه يستطيع الرجوع، والتوبة تمحو الحوبة، ولحظة صدق وإخلاص مع الله تعالى تزيل شقاء عمر كامل، ولهذا قال سبحانه:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ
مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٠)

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ إلى المدينة المنورة.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ أي: من بعد ما عُذِّبُوا حتى ارتدوا عن الإسلام.
 ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا﴾ على الجهاد وما أصابهم فيه.
 ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر.
 ﴿لَعَفْوٌ رَجِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «وذكر عن بعض أهل التأويل أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا تخلَّفوا بمكة بعد هجرة النبي ﷺ، فاشتد المشركون عليهم حتى فتنوهم عن دينهم، فأيسوا من التوبة، فأنزل الله فيهم هذه الآية، فهاجروا ولحقوا برسول الله ﷺ»^(١).

ولا شك أن هجرة الديار والأوطان والأهل والعشيرة والخلائن، أمر شاق على النفس، إلا أن شعور المؤمن بمسؤوليته الشخصية أمام الله تعالى يوم القيامة يهون مشقة الهجرة عليه، فلن ينتفع يوم القيامة بقرابة أو عشيرة أو ولد، ولهذا قال سبحانه يذكر المهاجرين بهذا المعنى:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ فلا يجادل أحد عن أحد، كما قال سبحانه في سورة عبس: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: تُعطى كل نفس جزاء عملها كاملاً، لا عمل غيرها.
 ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الآية التي تحت على التوبة والهجرة قد تأخر نزولها كثيراً عن آيات السورة، إذ نزلت بعد الهجرة بعدة سنوات في المدينة المنورة، ومع ذلك جاءت متسقة تماماً في موضوعها مع موضوع السورة، وفي

(١) تفسير الطبري: ١٢٣/١٤.

موضعها من آيات السورة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، فمع أن ترتيب نزوله يختلف اختلافاً كبيراً عن ترتيب آياته في السور، فإن الانسجام والاتساق بين آياته في السور يبدو واضحاً وقوياً لكل من يتدبر معاني الكتاب الكريم.

• نعمة الأمن والطعام:

وانتقلت الآيات من وعيد وتهديد المرتدين إلى وعيد وتهديد الجاحدين ببيان ما يترتب على عدم شكر النعمة من نزاعها وحرمان أصحابها منها، وقربت لهم هذا المعنى بمثل واقعي فيه تعريض كبير بهم، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ قال ابن كثير رحمته الله: «هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يُتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].»

وهكذا قال هاهنا:

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هنيئاً سهلاً^(١).

﴿مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ في الأرض، إذ تُحمل إلى أسواق مكة البضائع والأرزاق من جميع البلاد.

وتدل الآية على أن الأمن والاستقرار، وتوفر الطعام والأرزاق، من النعم الكبرى؛ فإن الأمن والطعام نعمتان عظيمتان، تعرف قيمتهما على وجه الخصوص الشعوب المضطهدة المظلومة المحرومة منهما، بسبب الحُكَّام المستبدِّين

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٤٩/٢.

المتاجرين بطعام شعوبهم، وضروريات عيشهم، في ظل أنظمة جائرة فاسدة تُعطي الحاكم حق تملك وحياسة كل ما لدى الأفراد من نتاج جهدهم وكدهم.

﴿فَكَفَرْتَ بِاتِّعَارِ اللَّهِ﴾ أي: جحدت نعم الله تعالى عليها، بالشرك والكفر والإعراض عن دعوة النبي ﷺ.

﴿فَإَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ بنزع نعمة الطعام والأمن عنهم، فعرفوا طعم الجوع والخوف، وكانا شديدين عليهم أحاطا بهم من كل جانب حتى صارا لهم كاللباس.

حدث ذلك لمشركي مكة بعد الهجرة، إذ سلط الله سبحانه النبي ﷺ وأصحابه عليهم وعلى طرق تجارتهم وميرتهم، وقطع سبحانه أيضاً المطر عنهم، حتى جفت بواديهم ونفقت مواشيهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين، كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد، حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان] قال: فأتي رسول الله ﷺ ف قيل له: يا رسول الله استسقى لمضر، فإنها قد هلكت، قال: «لمضر؟! إنك لجريء، فاستسقى فسقوا...» [رواه البخاري (٤٨٢١)].

وكل ذلك:

﴿يَمَّا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ من الكفر والشرك والفجور.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم، يعرفون أصله ونسبه وخلقه، وبعثته ﷺ فيهم أعظم نعم الله تعالى عليهم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وطعنوا في صحة نبوته.

﴿فَاَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بما أنزل فيهم من الخوف والجوع .
 ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهم في حال ظلمهم وبغيهم وكفرهم .

• أهم المحرمات من الأطعمة:

وبعد أن انتهت الآيات من تهديد الكافرين، توجهت إلى المؤمنين تأمرهم على سبيل الإباحة أن يأكلوا من رزق الله تعالى، ويتمتعوا بما أحل لهم من الطيبات:

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ .

ثم عليهم بعد ذلك أن يشكروا الله تعالى:

﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ بمعرفة حقها، فلا يقابلوها بالكفران والعصيان.

﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم حقاً تعبدون الله وحده، فاعرفوا قدر

نعمه عليكم، واشكروه عليها.

ومن الشكر أن يقف الإنسان عند حدود ما أحلَّ الله تعالى له، فلا

يتجاوزها إلى المحرمات، وأهمها في المطاعم ما ذكره سبحانه بقوله:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ .

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ التي ماتت حتف أنفها من غير ذبح شرعي .

﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح .

﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن في لحم الخنزير

أضراراً بالغة كثيرة، وأنه ناقل جيد لكثير من الأمراض الخطيرة .

حتى إن بعض الباحثين من المسلمين ألف كتاباً في الأمراض التي ينقلها

الخنزير إلى الإنسان جاء فيه: «الخنزير حيوان قذر، يأكل النجاسات والقمامات

ومخلفات المجازر والجيف والجرذان والفئران . . إلى غير ذلك، ويصاب بعدد كبير من الأمراض، وبائية وغير وبائية لاتقل عن (٤٥٠) مرضاً، ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من (٧٥) مرضاً وبائياً إلى الإنسان، غير الأمراض العادية الأخرى التي يسببها أكل لحمه مثل: تليُّف الكبد، وعسر الهضم، والحساسية الغذائية، وتساقط الشعر من الرأس، وتصلب الشرايين، وضعف الذاكرة، والعقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم، وكثرة الأكياس الدهنية، ثم آثاره السيئة على العقّة والغيرة في التكوين النفسي^(١).

﴿وَمَا أَهْلَ لَعْنِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: وحرّم عليكم كل ما ذبح على غير اسمه تعالى فالواجب الذبح على اسمه تعالى، لأنه هو الخالق لهذه الذبائح، وهو الذي سخرها لنا، وأحلها، فلا يحل الأكل مما ذبح على غير اسمه تعالى، كما قال جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّاطِطِينَ لَيُؤْخُونَ إِلَىٰ أُولِيَآيِهِمْ لِيُجْدِلُوهُمْ وَإِنْ أُطِيعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومن يُسر الإسلام أنه أباح المحرّمات عند الضرورة المُلجئة إليها، ولهذا قال سبحانه:

﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ﴾ إلى الأكل من هذه المحرّمات، فيحل له بشرط أن يكون:

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير قاصد بالأكل منها المعصية، بل قصده حفظ حياته، لأنه لا يجد غيرها.

﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متجاوز المقدار الذي يحفظ حياته، فالضرورات تقدر بقدرها. فهو كقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]^(٢).

وكذلك قال هنا أيضاً:

(١) الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، ص ٩١.

(٢) انظر تفصيل هذا الحكم في: تفسير سورة المائدة في هذا التفسير الموضوعي الكبير، وقد أسميناه هنا: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإنه سبحانه يعلم حاجة المضطر، فيتجاوز عنه ويغفر له.

ومن الشكر أيضاً الانقياد والتسليم لأحكام دين الله تعالى وشرعه، والوقوف عندها، ورفض كل ما يخالفها من القوانين والشرائع الوضعية المستحدثة فالحلال ما أحله الله تعالى في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، والحرام ما حرّمه سبحانه في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أي: لا تحلّوا ولا تحرّموا بمجرد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل، فكل قول فيه تحليل وتحريم، ولا يستند إلى دليل شرعي من الكتاب والسنة، قول كاذب، مردود على صاحبه.

وقوله: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ من فصيح الكلام، جعل قولهم كأنه عين الكذب، فإذا نطقت به ألسنتهم، فقد حلّت الكذب بحليته وصورته، كقولك: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر^(١).

وقد مر معنا في السورة مثل هذا في الآية الكريمة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ [النحل: ٦٢].

فالتحليل والتحريم من غير دليل شرعي افتراء على الله تعالى، ولهذا قال: ﴿لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا يحققون فلاحاً ولا نجاحاً، فالشرائع والقوانين المخالفة لشرع الله تعالى لا تحقق إلا الظلم والفساد.

(١) انظر: تفسير النسفي: ٦٥١/٣.

﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١١٧﴾ .

﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ أي: يتمتعون في ظل قوانينهم الجائرة الظالمة متاعاً قليلاً لا يلبث أن ينقطع ويزول.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم القيامة، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ .

ثم ذكر الله تعالى مثلاً واقعياً لما يترتب على عدم الانقياد والتسليم لدين الله وشرعه؛ وضرب الأمثال سمة بارزة في سورة النحل كما مر معنا.

فعندما رفض بنو إسرائيل الانقياد والتسليم لأحكام الشريعة التي كلفوا بها، شدد الله تعالى عليهم، وحرّم عليهم كثيراً من الطيبات التي أحلها لهم:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ .

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: فيما أنزلناه عليك من قبل، كقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلِّ ذِي طُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ [الأنعام].

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ فيما وضعنا عليهم من الآصار التشريعية الثقيلة.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

ثم رحمهم سبحانه بشريعة الإسلام السمحة الميسرة التي أنزلها على سيدنا محمد ﷺ؛ فإذا ما انقادوا لها، وآمنوا بها، غفر سبحانه لهم كل ما سلف منهم من جحود وعناد:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ﴾ أي: عملوا ما يسيء إليهم كالكفر والمعاصي، وهم متصفون بصفة الجهالة، وهي الطيش والسفه وعدم النظر في العواقب، وهي التي كان النبي ﷺ يستعيذ منها في دعائه:

فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزلَّ أو نضلَّ، أو نُظْلَمَ أو نُظْلَمَ، أو نجْهَلَ أو يُجْهَلَ علينا» [أخرجه أبو داود (٥٠٩٥) والترمذي (٣٤٢٧) وابن ماجه (٢٢٣٥) واللفظ للترمذي].

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم واستقاموا على أمر الله وشرعه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: التوبة.

﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.



التحقيب الأخير بَيَانُ حَقِيقَةِ الشُّكْرِ وَارْتِبَاطُهُ بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّسْلِيمِ

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢١﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحَبُّنَهُ
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَعَاقِبَتُهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى
الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٥﴾ ادْعُ
إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَدِّ لَهُمُ الْبَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا
صَلَ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ
صَدَرْتُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي
ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

• الرجل الأمة إبراهيم ؑ:

وتوجت الآيات خاتمة السورة بما يتناسب تماماً مع موضوعها الأساس
الذي دارت في فلكه: التوحيد والشكر، فذكرت إبراهيم ؑ إمام الموحدين
الشاكرين فقال سبحانه مقررًا ومؤكداً:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢١﴾﴾

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ وهي الجماعة الكثيرة، فقد كان عند إبراهيم ؑ من
من الخير الكثير ما يوجد عند أمة، فقد جمع الله تعالى فيه كمالات لا تكاد

توجد إلا متفرقة في أمة جمّة، وهو عليه الصلاة والسلام رئيس الموحّدين، وقدوة المحققين، نصب أدلة التوحيد، ورفع أعلامها، وخفض رايات الشرك، ونكس أعلامها^(١).

وهو أمة أيضاً، لأنه الإمام الذي يُقتدى به، حتى أمر خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ بالاعتداء به، كما سيأتي.

وهو ﷺ أمة أيضاً، لأنه كان يعلم الناس الخير، كان عبد الله بن مسعود يثني على معاذ بن جبل رضي الله عنه ويقول: إن معاذ بن جبل كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين. وقال: الأمة: الذي يعلم الناس الخير، والقانت: المطيع لله ﷻ، وكذلك كان معاذ معلماً للخير، مطيعاً لله ﷻ ورسوله^(٢).

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً لله سبحانه قائماً بأمره.

﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق القائم على التوحيد.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أي وقت من الأوقات، وبذلك ردّ الله تعالى على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، وردّ سبحانه أيضاً على كفار قريش عندما قالوا: نحن على ملة إبراهيم.

وجاء هذا الرد صريحاً في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَّهُ وَهَدَنَّهُ إِنْ صَرِطَ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أي: كان ﷺ قائماً بحق شكر نعم الله تعالى عليه، وهي شهادة عالية ربانية في إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كما قال سبحانه في سورة النجم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

(١) انظر: روح المعاني: ٢٤٩/١٤.

(٢) انظر كتاب: معاذ بن جبل، للمؤلف، وهو من منشورات دار القلم بدمشق، عن أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير.

ثم بَيَّنَّ سبحانه بعض نعمه على إبراهيم ﷺ، فقال: ﴿أَجْتَنَّبَهُ﴾ أي: اصطفاه واختاره للنبوَّة والرسالة. ﴿وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الإسلام القائم على التوحيد.

﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٢).

﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: أعطيناه في الدنيا كل ما يجعل حياته حياة طيبة حسنة، أو جعلنا له سمعة حسنة طيبة عند جميع الأمم، فكل الناس، على اختلاف مللهم ونحلهم، يحبُّون إبراهيم ويحترمونونه ويثنون عليه. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ومما يدل على فضل إبراهيم ﷺ، أن أفضل الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ أمر باتباع إبراهيم في ملة التوحيد:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٣).

بل كان إمام الموحِّدين وقودتهم، وهو تأكيد لما سبق تقريره.

• الآخرون السابقون:

ثم عرَّضت الآيات باليهود، الذين لم ينقادوا لأحكام دين الله وشرعه، فحرمهم الله تعالى من نعمة كبيرة، وحولها إلى غيرهم، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤).

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: فُرض تعظيم يوم السبت، والتفرُّغ فيه للعبادة.

﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: على الذين اختلفوا في شأنه مع نبيهم موسى ﷺ، إذ أمرهم بيوم الجمعة، فخالفوه، واختاروا يوم السبت.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يومَ القيامةِ، بيدَ أنهم أوتوا الكتابَ مِن قبلنا، وأوتيناهُ مِن بعدهم، وهذا يومُهم الذي فرضَ عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبعٌ، فاليهودُ غداً، والنصارى بعد غدٍ» [رواه البخاري (٢٣٨) ومسلم (٨٥٥) واللفظ له].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يقضي بينهم ويجازيهم على مخالفتهم لأمر نبيهم.
﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

• الاستمرار في الدعوة:

ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ تأمره أن يستمرَّ على طريق الدعوة، وتبيِّن له الأسلوب الأمثل فيها، فكأنها تقول له: لا ينبغي للعقبات والمعوقات التي يقيمها المشركون المعادون على طريق الدعوة أن تجعلك تتوقف عن دعوتهم وتبليغهم، بل يجب عليك أن تستمر في السير على طريق الدعوة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ وهي القول المحكم الصحيح القائم على الدليل القاطع الملزم، الذي يوضح الحق، ويزيل الشبهة.

﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾ وهي الكلمة المذكَّرة بأمر الله تعالى، والزاجرة عما نهى عنه، والتي تُقدِّم بأسلوب عاطفي وجداني مقنع.

﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: وجادل المعاندين منهم بأحسن طرق المجادلة في رفق ولين، ومن غير فظاظة، أو جادلهم بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس، ويجلو العقول^(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: إنما عليك أن

(١) انظر: تفسير النسفي: ٦٥٦/٣.

تدعوهم بهذا الأسلوب الطيب الكريم، أما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما، فهو بيد الله تعالى العليم بالضالين والمهتدين.

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين، تبين لهم كيفية التعامل مع غير المسلمين، لتقريبهم من الإسلام، وتعريفهم بمبادئه السامية الكريمة بأسلوب عملي، وخاصة المبدأ الذي قرره الآية الكريمة التي سبق ذكرها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]؛ فالعدل يقتضي المماثلة في المعاملة، كأن يعاقب الجاني بمثل جانيته:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ فمن اعتدى عليكم فاقتصوا منه بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن الزيادة ظلم، والظلم محرم في الإسلام، فهو كقوله سبحانه في سورة الشورى: ﴿وَحَزْرٌ أَوْ سَيِّئٌ سَيِّئٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

والآية شرعت أولاً العدل، ثم حثت على العفو، وهو الإحسان، وهو ما حثت الآية هنا عليه:

﴿وَإِنْ صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة بالمثل.

﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ الذين يحبسون أنفسهم عن الانتقام، ويتجاوزونه إلى مرتبة العفو والإحسان، وهي مرتبة رفيعة عزيزة، شرعها الله تعالى على سبيل الندب والتفضل في آيات كثيرة، منها: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وألزم الله تعالى بها النبي ﷺ تكريماً له وتشريفاً؛ قال العلامة المفسر أبو السعود العمادي رحمه الله: «أمر عليه الصلاة والسلام أمراً صريحاً بما ندب إليه غيره تعريضاً من الصبر، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور، لزيادة علمه بشؤونه سبحانه، ووفور وثوقه به، فقال:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧).

﴿وَأَصْبِرْ﴾ على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذى، وما عانيت من إعراضهم عن الحق بالكلية^(١).
﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: إلا بتوفيقه ومعونته وثبته.

وقد صبر رسول الله ﷺ لله تعالى، وعفا عنهم عندما تمكّن من الانتقام منهم لله تعالى أيضاً عندما فتح مكة، وقال لهم: «ما تقولون أنني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] اذهبوا فأنتم الطلقاء» [رواه البيهقي (١٨٧٣٩) وابن سعد].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تحزن على الكفار المعاندين المعرضين عن دعوتك.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: لا يضيقن صدرك من مكدهم وكيدهم، فإن الله ناصرَك وكافيك وعاصمك من كيدهم ومكرهم.
ثم ختم الله تعالى السورة بهذه البشارة الكريمة الرحيمة للنبي ﷺ خصوصاً وللمؤمنين عموماً فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨).

ينصرهم ويؤيدهم ويمنعهم، فمن أراد أن ينصره الله ويمنعه فليكن من المتقين والمحسنين.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ويثبتنا على طريقهم.



تفسير سورة الإسراء المُؤَاجَهَةُ وَالتَّثْبِيْتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اشتدّت في العصر الحاضر المواجهة بين المسلمين وبين أعداء الإسلام في الشرق والغرب، بسبب المواقع الجديدة التي اكتسبها الإسلام في المجالات الفكرية والعلمية.

فقد كان التقدّم العلميّ الكبير الذي تحقّق في العصر الحاضر مؤيِّداً قوياً للفكر الإسلامي، لفت أنظاراً كثير من علمائهم ومثقفهم، واستحوذ على اهتمامهم بعد أن فشلت النظم الوضعية من أديان وغيرها في معالجة المشكلات الكبيرة المعقّدة في حياة الناس، وأصبحت الفرصة مواتيةً لنشر الإسلام بين الأمم والشعوب أكثر من ذي قبل.

ويجب على المسلمين عموماً والدعاة إلى الله تعالى خصوصاً أن يستشعروا مسؤوليتهم عن نشر الدعوة الإسلامية بين الناس، وأن يدركوا أهمية مضاعفة جهودهم ونشاطهم في هذا المجال، وعليهم أن يُحسنوا عرض الإسلام على الناس بالتزامهم أولاً بتطبيق أحكامه، وإبرازه للناس بشكلٍ عمليٍّ، ثم عليهم ثانياً

أن يُظهروا محاسنه، ويبيّنوا للناس مزاياه، وقدرة التشريع الإسلامي على إيجاد الحلول النافعة لكلّ المشكلات التي تعترض حياة الناس بأسلوب علمي مبسّط.

ولقد مرّت الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ بمرحلة عصيبة جدّاً في السنوات التي سبقت هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة، وما أحوجنا أن نتعرّف على أسلوب الدعوة إلى الله في هذه المرحلة من خلال التنزيل الحكيم الذي كان ينزل على الرسول ﷺ مرشداً ومواسياً ومثبّتاً.

وهذا التفسير - تفسير سورة الإسراء - يعرض أسلوب الدعوة إلى الله تعالى في ذروة المواجهة التي قامت بين النبي ﷺ وبين قوى الكفر والشرك في هذه المرحلة، من خلال سورة الإسراء التي كانت آياتها تنزل على النبي ﷺ أثناءها. وقد قسّمْتُ هذا التفسير إلى أربعة فصول بحسب الموضوعات الأساس في السورة الكريمة؛ وهي:

• الفصل الأول: الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالأرض المقدسة، وإفساد بني إسرائيل في الأرض المقدسة مرتين قبل الإسلام، وعقوبتهم على ذلك، وأثر هذين الأمرين في تثبيت النبي ﷺ.

• الفصل الثاني: القرآن الكريم، والمبادئ الأساس الكبرى التي يدعو الناس إليها.

• الفصل الثالث: المواجهة بين النبي ﷺ وبين المشركين في هذه المرحلة (المكية).

• الفصل الرابع: التثبيت الذي أكرم الله تعالى به نبيّه عليه الصلاة والسلام، وهو في ذروة المعاناة والمواجهة.

والله تعالى أسأل أن يتقبّله ويجعله في ميزان حسناتي، ويسدّد خطاي لما يحبُّ ويرضى، ويعفو عنيّ ويغفر لي.

والحمد لله أولاً وآخراً، وسبحان الله، والله أكبر، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وسلّم تسليمًا كثيراً.



تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

سورة الإسراء من السور المكيّة، ويبدو أنّها نزلت في أواخر المرحلة المكية قبل هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة، وكان النبي ﷺ حينئذٍ في ذروة المواجهة مع المشركين.

توفيت في هذه المرحلة أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها الزوجة الأولى للنبي ﷺ، وكانت له عليه الصلاة والسلام خير سندٍ وعونٍ على الدعوة إلى الله تعالى، وتوفي عمّه أبو طالب في العام نفسه، وكان للنبي ﷺ عضداً وحِزْراً، منعه من كفّار قريش، فلما مات نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تطمعُ به في حياة أبي طالب، حتى كان بعضُ سفهائهم يعترض النبي ﷺ في الطريق، وينثر الترابَ على رأسه الشريف.

ودخل ﷺ بيته مرة والترابُ على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لَا تَبْكِي يَا بَنِيَّةُ، فَإِنَّ اللَّهَ مانِعٌ أباك» ويقول بين ذلك: «ما نالت مِنِّي قريشُ شيئاً أكرهه حتّى مات أبو طالب»^(١).

وخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتبسُ النصرَةَ من ثقيفٍ والمنعةَ بهم من قومه، حتى يتمكّن من تبليغ دعوة ربّه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ، ولكنهم لم يفعلوا، بل أغرّوا به سفهائهم وعبيدهم يسبّونه، ويصيحون به، ويرمونّه بالحجارة، حتى ألجؤوه إلى حائط - بستان - لعبة وشيبة ابني ربيعة، فلما اطمأن ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٤٦/٢.

تَكَلَّنِي، إلى بعيدٍ يتجهَّمَنِي، أم إلى عدوٍّ مَلَكَتَهُ أُمْرِي؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسعُ لي. أَعُوذُ بنورِ وَجْهِكَ الذي أشرقَتْ له الظلماتُ، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة؛ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بي غضَبَكَ، أو يحِلَّ عليَّ سَخَطُكَ، لك العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»^(١).

في ذروة المواجهة هذه وشدة المحنة أكرم الله تعالى نبيَّه ﷺ برحلة الإسراء والمعراج، فكان فيها تشريفٌ للنبي ﷺ وتكريم، وتثبيت له، وتسلية عن همومه وأحزانه، وأنزل الله تبارك وتعالى آيات السورة تحمل للنبي ﷺ التثبيت بالقرآن الكريم، والتثبيت على آيات القرآن الكريم، كما تحملُ له بشارات النصر القريب، وفي هذه البشارات تثبيتٌ له ﷺ أيضاً، وهو في ذروة المواجهة للشرك والمشركين.

● الإسراء والزمر:

روي عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في كُلِّ ليلة بني إسرائيل والزُّمَر. [رواه النسائي في الكبرى (١٠٥٤٨) والترمذي (٢٨٤٤) وأحمد (١٨٩/٦)]. تُرى لماذا كان رسول الله ﷺ يجمع بين هاتين السورتين في القراءة كل ليلة؟ ألكثرة ما فيهما من خطابِ الله تعالى للنبي ﷺ، حتى أصبح عليه الصلاة والسلام المحور الأساس الذي تدور آيات السورتين في فلكه؟.

أو لِمَا في السورتين من تشريف للنبي ﷺ وتثبيت، كقوله سبحانه في الزمر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ لَهُمْ أَمْوَالٌ حَرَامٌ وَبَنُونَ حَرَامُونَ وَبَنُونَ حَرَامُونَ وَبَنُونَ حَرَامُونَ﴾؟. أو لكونهما تتحدثان عن صلاة الليل وفضلها كما سيأتي معنا في سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَاجَدْ لَهُ ذَوُ الْقُرُونِ أَجْمَعُونَ﴾؟. وقوله سبحانه في الزمر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتَلْتُ أَنْتَ أَمَّنْ هُوَ قَتَلْتُ أَنْتَ أَمَّنْ هُوَ قَتَلْتُ أَنْتَ﴾؟. ويرجو رحمة ربه. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؟. أم لهذا ولهذا ولغير ذلك من المعاني التي أفاضها الله سبحانه على قلب نبيِّه ﷺ.



الْفُضَيْلُ الْأَوَّلُ

الْإِسْرَاءُ، وَافْسَادُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ
قَبْلَ الْإِسْلَامِ مَرَّتَيْنِ، وَعُقُوبَتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ
وَأَثَرُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فِي تَثْبِيهِ النَّبِيِّ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا
حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي
إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ۝٢ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلٍ مَّع نُّوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا
۝٣ وَفَصَّلْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا جُلُكَ الدِّيَارِ وَكَاتَ وَعْدًا مَّفْعُولًا
۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيكٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ
أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّكُوا مَا عَلُوا بُعْدًا رَبَّنَا ۝٧ عَنَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَلَئِنْ عُدْتُمْ
عَدُوًّا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾

● الإسراء والمعراج:

بدأت سورة الإسراء بقوله ﷻ:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا
حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ .

• من التسبيح إلى التكبير:

بدأت السورة بالتسبيح، وخُتِمت كما سيأتي معنا بالتكبير في قوله سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِثٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

﴿سُبْحَنَ﴾ مصدرٌ: سَبَّحَ تسبيحاً، بمعنى نَزَّهَ تنزيهاً، ويستعمل ﴿سُبْحَنَ﴾ على أنه علم للتسبيح دائماً، وهو يدلُّ على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السَّبَّح؛ وهو الذهاب والإبعاد في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧].

ولا يجوز استعمال ﴿سُبْحَنَ﴾ إلا في تنزيه الله، تعالت أسماؤه، وعظم كبريائه، فهو يدل على تنزيه الله تعالى عن جميع النقائص، أو فيه معنى الأمر؛ أي: نَزَّهوا الله تعالى وبرُّوه من جميع النقائص^(١).

والتكبيرُ أبلغُ لفظاً للعرب في معنى التعظيم والإجلال.

وفي ابتداء السورة بالتسبيح وختمها بالتكبير دليلٌ على أنَّ العبدَ مهما بالغَ في تنزيه الحق سبحانه وتمجيده، واجتهد في عبادته وحمده، يَبْقَ مقصراً عن القيام بحقه جلَّ وعلا.

ولهذا كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه الشريفتان، كما سيأتي، وإذا قيل له: أتفعلُ هذا، وقد غفرَ اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟» [رواه البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩)].

كان النبي ﷺ يرى نفسه مقصراً في حقِّ شكر الله تعالى على ما أولاه وأعطاه من النعم العظيمة، وما خصَّه به من الخصائص الجليلة الكبيرة، وقد تضمَّنت سورة الإسراء بعض هذه الخصائص، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يُقْبِلُ على العبادة والتذلل لله سبحانه، مقرأً بتقصيره في شكر ربه جلَّ وعلا على

(١) انظر: تفسير روح المعاني: ١٥/٣.

فضله العظيم عليه، حتى إنه كان يقولُ في سجوده لله تعالى في صلاته في الليل: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ، وبِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [رواه مسلم (٤٨٦)].

● الإسراء:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى﴾ الإسراء: السير بالليل.

﴿يَعْبُدُهُ﴾: هو النبي ﷺ، والعبودية لله تعالى أشرف الأوصاف، وأعلى

المراتب.

﴿يَلَا﴾ ظرف لـ (أسرى)، وهي تحمِلُ معها زمانها، فلا يحتاجُ إلى ذكره، ولكنَّه سبحانه ذكر ﴿يَلَا﴾ ليبينَ أنَّ الإسراء كان في بعض أجزاء الليل، فلا يتوهم أحدُ أنَّ الإسراء كان في ليالٍ.

﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في مكة المكرمة.

﴿إِلَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ في بيت المقدس، الذي بناه نبيُّ الله يعقوب بعد رفع

إبراهيم وإسماعيل ﷺ لقواعد بيت الله الحرام بأربعين سنة كما سيأتي.

ويُستفاد من الأحاديث الشريفة الكثيرة التي وردت في الإسراء والمعراج:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُسْرِيَ بِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ مَرَّةً وَاحِدَةً يَقْظَةً لَا مَنَاماً.

يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾.

ويؤكدُه أيضاً تكذيبُ قريش للنبي ﷺ عندما حدّثهم عن الإسراء، فلو كان

مناماً لما ردّوه عليه وما كذبوه.

وأنه ﷺ عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَى بَقِيَّةِ

السَّمَاوَاتِ، وَسَلَّمْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ رَأَوْهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ ارْتَفَعَ فَوْقَ ذَلِكَ

إِلَى مَسْتَوًى سَمِعَ فِيهِ صَرِيفَ أَقْلَامِ الْقَدَرِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، وَرَأَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى،

وَرَأَى جَبْرِيلَ بِصُورَتِهِ الْمَلَائِكِيَّةِ، وَلَهُ سِتْمَةُ جَنَاحٍ، وَفَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ هُنَالِكَ

الصلوات خمسين صلاة، ثُمَّ خَفَّفَهَا سُبْحَانَهُ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ رَحْمَةً مِنْهُ وَلُطْفاً

بِعِبَادِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ شَرَفِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ الْمَفْرُوضَةِ وَأَهْمِيَّتِهَا.

ثم هبط رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلّى بهم هناك، وأظهر الله تعالى بذلك شرفه وفضله على سائر الأنبياء بإمامته لهم، ثم عاد ﷺ إلى مكة المكرمة بغلس قبل انتهاء الليل.

وقوله تعالى:

﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّا﴾ يدل على المعراج؛ لأنّ معناها: لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة^(١).

والآية تدلّ على أنّ النبي ﷺ هو المقصود بمعجزة الإسراء والمعراج، ففوائد هذه المعجزة الكبيرة مختصة به عليه الصلاة والسلام وعائدة عليه.

وقوله سبحانه في ختام الآية:

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فيه إيماء إلى أن الإسراء والمعراج ليس إلا لتكريمه عليه الصلاة والسلام، ورفع منزلته، لأن الإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة، فهو سبحانه سميع بصير^(٢).

● المعجزة الأرضية والمعجزة السماوية:

والآية الكريمة تدلّ على أنّ عروج النبي ﷺ ورؤيته ما رأى في السماوات من الآيات العظيمة الجليلة حدث في ليلة واحدة هي ليلة الإسراء.

واكتفت الآية بالإشارة إلى المعراج في قوله تعالى: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّا﴾، ولم تصرّح به كما صرّحت بالإسراء، لأنّ المعراج معجزة سماوية لا يستطيع النبي ﷺ أن يأتيهم عليها بالأدلة المادية المحسوسة كما فعل في المعجزة الأرضية وهي الإسراء.

فقد أخبرهم ﷺ في موضوع الإسراء بالأدلة القطعية المحسوسة التي تلزمهم بتصديقه، وتدل صراحة على صدقه عليه الصلاة والسلام.

روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا كَذَبْتَنِي قَرِيشٌ

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/١٢.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣٠٩/٣.

قُمْتُ فِي الْحَجَرِ، فَجَلَا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» [رواه البخاري (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِي بِي فَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ؛ فَظَعْتُ وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مَكْذِبِيَّ، فَقَعَدْتُ مَعْتَزلاً حَزِيناً» فَمَرَّ بِهِ أَبُو جَهْلٍ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ» قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ»... فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤْيٍ! فَاَنْفَضْتُ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ، وَجَاؤُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مَصْفَقٍ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعِ يَدِهِ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّباً لِلْكَذِبِ، قَالُوا: وَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَعَ لَنَا الْمَسْجِدَ؟ وَفِيهِمْ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ، وَرَأَى الْمَسْجِدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَا زِلْتُ أَنْعُتُ حَتَّى التَّبَسَّ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ، قَالَ: فَجِئْتُ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عَقِيلٍ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ» قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ فِيهِ. [رواه أحمد (٤٩٠/١) والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٥) والبيهقي (٣٨٦/٢)]^(١).

وعن ابن شهاب: قَالَ أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: فَتَجَهَّزَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا: هَلْ لَكَ فِي صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَا أَشْهَدُ لَيْتَنِي كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: فَتَصَدَّقْ فِي أَنْ يَأْتِيَ الشَّامَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟! قَالَ: نَعَمْ، أَنَا أَصَدِّقُهُ بِأَبْعَدِ مِنْ ذَلِكَ، أَصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ أَبُو سَلَمَةَ: فِيهَا سَمِّيَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّدِيقَ. [مسند أحمد (٣٠٩/١)].

وجاء في رواية: أَنَّ الْمَشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا عَلَامَةُ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: «مَرَرْتُ بِعَيْرٍ لِقُرَيْشٍ، وَهِيَ فِي مَكَانٍ كَذَا وَكَذَا، فَنفَرْتُ الْإِبِلُ مِنَّا وَاسْتَدَارَتْ،

وفيها بعيرٌ عليها غرارتان: غرارةٌ سوداءٌ، وغرارةٌ بيضاءٌ، فَصُرِعَ فَانْكَسَرَ» فلمَّا قَدِمَتِ الْعِيرُ سَأَلُوهُمْ فَأَخْبَرُوهُمْ الْخَبَرَ عَلَى مِثْلِ مَا حَدَّثْتَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وهكذا قَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ الْأَدْلَةَ الْمَادِيَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِهِ وَصَحَّةِ إِسْرَائِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى.

وَأَمَّا مَعْرَاجُهُ ﷺ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَمَا رَأَى فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْكُبْرَى فَلَا سَبِيلَ إِلَى إِثْبَاتِهَا بِالْأَدْلَةِ الْمَحْسُوسَةِ الْمَادِيَّةِ، لِأَنَّهَا مَعْجَزَةٌ سَمَاوِيَّةٌ، وَلِهَذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ وَمَشِئَتُهُ أَنْ يُشِيرَ إِلَيْهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِشَارَةً لَا تَصْرِيحاً فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَ﴾.

وَفِي قَوْلِهِ أَيْضاً فِي سُورَةِ النَّجْمِ: ﴿أَفْتَمُزُّنَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ ١٢ ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ ١٣ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ ١٤ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ ١٥ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ١٦ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ ١٧ ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ١٨.

وَقَدْ ثَبِتَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» [٢٥٦]: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، قَالَ: رَأَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَعْرُجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَقْبِضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَنْهَضُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيَقْبِضُ مِنْهَا:

وَقَالَ ﷺ أَيْضاً: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَرَ جَبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ: أَمَّا الْأُولَى فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ، فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ، وَأَمَّا الْآخَرَى فَإِنَّهُ صَعَدَ مَعَهُ حِينَ صَعَدَ بِهِ^(١).

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَايَةِ الْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى وَالْأَدَبِ مَعَهُ جَلًّا وَعِلًّا عِنْدَمَا رَأَى مَا رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، وَلِهَذَا وَصَفَهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ مَا ذَهَبَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا ﴿وَمَا طَغَى﴾

ما جاوزَ ما أمر به، قال ابن كثير رحمته الله: وهذه صفةٌ عظيمةٌ في الثبات والطاعة، فإنه ما فعلَ إلا ما أمر به، ولا سألَ فوق ما أُعطي، وما أحسنَ قولَ الناظم:

رَأَى جَنَّةَ الْمَأْوَى وَمَا فَوْقَهَا وَلَوْ رَأَى غَيْرُهُ مَا قَدْ رَأَاهُ لَنَاهَا^(١)

وأما التصريح بالمعراج فقد جاء في الأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة المنتشرة التي كادت أن تكون متواترة - كما قال العلامة نور الدين القاري في كتابه «شرح الشفا» - وأكتفي بذكر حديث واحد منها، وهو: ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُنِيتُ بِالْبَرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ، طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مَنتهى طَرَفِهِ، قَالَ: فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبُطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَجَاءَنِي جَبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جَبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفُطْرَةَ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ، فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ^(٢)؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِّحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ عليه السلام، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جَبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جَبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِّحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَتِي الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا بِي، وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ.

ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ، فَذَكَرَ مِثْلَ الْأَوَّلِ، فَفُتِّحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عليه السلام، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٥٢/٤.

(٢) أي: أطلب للإسراء وصعود السماء؟ وليس استفهاماً عن بعثة الدعوة. كما في: شرح الشفا، للقاري.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس عليه الصلاة والسلام، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخير، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحَّبَ بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحَّبَ بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كُلُّ يومٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ، لا يعودون إليه.

ثم ذُهِبَ بي إلى سِدْرَةِ المنتهى، وإذا ورقُها كآذانِ الفيلة، وإذا ثَمَرُها كالقلال، قال: فلَمَّا غَشِيهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ، تَغَيَّرَتْ، فما أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يستطيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فأوحى اللهُ إِلَيَّ ما أوحى، ففرضَ عليَّ خمسينَ صلاةً في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فرضَ رَبُّكَ على أُمَّتِكَ؟ قلت: خمسينَ صلاةً. قال: ارجعْ إلى رَبِّكَ، فاسأله التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا يطيقونَ ذلكَ، فَإِنِّي قد بلوتُ بني إسرائيلَ وَخَبِرْتُهُمْ، قال: فرجعتُ إلى رَبِّي فقلتُ: يا رَبِّ خَفِّفْ عن أُمَّتِي، فحَظَّ عني خمساً فرجعتُ إلى مُوسَى فقلتُ: حَظَّ عَنِّي خَمْساً، قال: إِنَّ أُمَّتَكَ لا يطيقونَ ذلكَ، فارجعْ إلى رَبِّكَ فاسأله التَّخْفِيفَ، قال: فلمْ أزلْ أَرْجِعُ بين ربي تعالى وبين موسى، حتى قال: يا مُحَمَّدُ إِنَّهِنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وكلُّ صلاةٍ عشرٌ، فتلكَ خمسونَ صلاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فلمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تَكُتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ واحدةً.

قال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجعْ إلى رَبِّكَ فاسأله التَّخْفِيفَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: قد رجعتُ إلى رَبِّي حتى استحييتُ مِنْهُ» [رواه مسلم (١٦٢)].

● المسجد الأقصى:

وهو ثاني مسجد بُني في الأرض بعد المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسول الله، أيُّ مسجدٍ وُضِعَ في الأرض أولٌ؟ قال: «المَسْجِدُ الحَرَامُ» قلتُ: ثم أي؟ قال: «المَسْجِدُ الْأَقْصَى» قلتُ: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنةً، وأينما أدركتَكَ الصلاةُ فَصَلِّ، فَإِنَّهُ مَسْجِدٌ» [رواه البخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠)].

بناه نبيُّ الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وجدُّ بناءه نبيُّ الله سليمان عليه السلام.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ يدلُّ على فضل هذا المسجد، وفضل الأرض المباركة التي حوله، فقد عبَدَ الله تعالى في المسجد الأقصى كثيرٌ من الأنبياء عليهم السلام، وكان قبلةً لهم، وقد استقبله نبيُّنا صلى الله عليه وآله وأصحابه رضي الله عنهم في الصلاة بعد الهجرة ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، حتَّى أنزل الله عليه الآيات الكريمات التي يأمره بها أن يستقبلَ بيتَ الله الحرام: ﴿قَدْ رَزَى نَقْلُكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وهو أحدُ المساجد الثلاثة التي يسافرُ إليها من أجل الصلاة والعبادة فيها، لما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله: «لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثةٍ مساجدٍ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى» [رواه البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧)].

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله أنَّ ثوابَ الصلاة فيه يضاعف إلى خمسمئة ضعف. ولعلَّ منْ حكمةِ الله تعالى في الإسراء برسولِ الله صلى الله عليه وآله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم العروج من المسجد الأقصى إلى السماوات، إظهارَ

شرف هذا المسجد، وبيان فضله، فالسفر إليه بقصد العبادة قربة من القرب التي يُتقرب بها إلى الله تعالى، فعَلَهُ النبي ﷺ فعلاً في الإسراء، وحث عليه في حديث شد الرحال السابق ذكره.

وعن ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله أفطنا في بيت المقدس، فقال رسول الله ﷺ: «اتوه فصلوا فيه» - وكانت البلاد إذ ذاك حرباً - «فإن لم تأتوه وتصلوا فيه، فابعثوا بزيث يسرج في قناديله» [رواه أبو داود (٤٥٧)].

● بلاد الشام:

ويدل الإسراء بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى على فضل بلاد الشام، إذ هي البلاد المباركة الواقعة حول المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

وهي مهاجر نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَحْنُ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه نجى إبراهيم من نار قوميه، وأخرجه من بينهم مهاجراً إلى بلاد الشام، والتي قال فيها رسول الله ﷺ: «ستكون هجرة بعد هجرة، فخير أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم» [رواه أبو داود (٢٤٨٢)].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع، فقال ﷺ: «طوبى للشام» فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله؟ فقال: «لأن الملائكة باسطة أجنحتها عليها» [رواه الترمذي (٣٩٥٤)].

وعن ابن حوالة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجتهدة: جند بالشام، وجند باليمن، وجند بالعراق» فقلت: خير لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، قال: «فعليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إذا أبيتم فعليكم بيمينكم، واسقوا من غدركم، فإن الله توكل لي بالشام وأهله» [رواه أبو داود (٢٤٨٣)].

ولعلّ ذلك سببُ رغبة النبي ﷺ بفتح بلاد الشام، ونشر رسالة الإسلام فيها قبل غيرها من البلاد، بعد أن أعزّ الله الإسلام في أرض العرب:

- فقد بعث النبي ﷺ في العام السابع من الهجرة جيشاً بقيادة زيد بن حارثة إلى بلاد الشام وصل حتى مؤتة.

- وغزا رسول الله ﷺ مشارف بلاد الشام الجنوبية بنفسه في غزوة تبوك، ونصبَ راياته فيها قرابة شهر، وبعث منها سراياه إلى البلاد الواقعة حولها حتى وصلت إلى أيلة (العقبة).

- وجهزَ النبي ﷺ قبيل وفاته جيشاً إلى بلاد الشام بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه، وأوصى في مرض وفاته الخليفة من بعده أن يبعث جيشَ أسامة، وقد نفذَ أبو بكر رضي الله عنه وصية رسول الله ﷺ هذه.

والجدير بالذكر أيضاً: أن عيسى عليه السلام ينزل من السماء إلى الأرض في بلاد الشام، ويُقتل المسيح الدجال بابِ لُد من أرض فلسطين، أخبر بذلك سيدنا رسول الله ﷺ في عدد من الأحاديث الصحيحة التي بلغت مبلغ التواتر.

فبلاد الشام رَحِمٌ وثيقٌ وقوي بمهبط الوحي في مكة المكرمة والمدينة المنورة، تمتد جذوره في أعماق التاريخ إلى عهد إبراهيم عليه السلام، عندما نزل بأرض الشام، وأنزل ولده إسماعيل وأمه هاجر بأمر الله تعالى في أرض مكة، وكان كثيراً ما يتردّد مسافراً بين بلاد الشام ومكة المكرمة متفقداً ولده إسماعيل، حتى أمره الله تعالى برفع قواعد بيت الله الحرام ليكون مثابة للناس وأمناً.

وشدّد على أوامر هذه الرحم وقواها الإسراء بنبيّنا ﷺ من بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى، وخلّدها التنزيل الحكيم في القرآن الكريم.

فبلاد الشام عموماً وأرض فلسطين خصوصاً أرض إسلامية، هي للإسلام والمسلمين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ومهما حاول أعداؤنا أن ينزعوا عنها هويتها الإسلامية هذه فلن يتمكّنوا، فقد قدر الله تعالى أن تكون للإسلام والمسلمين، قد يستطيعون احتلالها، والإقامة فيها لفترة محدودة من الزمن لا تعدّ

شيئاً بالنسبة لعمرها المديد الطويل، كما حدث في أثناء الحروب الصليبية، ولكن مآلها أن تعود إلى أيدي أصحابها المسلمين المستسلمين لله تعالى الواحد الأحد، والذين يرفعون في جنباتها شهادة الإسلام لله والتوحيد؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وإذا كان هذا ما كتبه الله تعالى في الأرض عموماً؛ فما بالك بالأرض التي بارك الله تعالى فيها وحولها، مهاجر إبراهيم ﷺ ومصرى رسوله الكريم ﷺ؟!.

• القضاء المُحكَّم:

فلن تكون هذه الأرض الطيبة المباركة مقراً للمفسدين، هذا قضاء الله ﷻ المحكم الذي قدره وأخبرنا به في القرآن الكريم، فبعد أن ذكر لنا معجزة الإسراء والمعراج، وأنه سبحانه شرف الأرض المباركة بإسراء رسول الله ﷺ إليها وعروجه منها إلى السماوات العُلا، ذكر لنا سبحانه جزءاً من تاريخ هذه الأرض المباركة، وأنه سبحانه قدر ألا تكون مأوى للمفسدين.

• الإفساد في الأرض:

والإفساد في الأرض يقع عندما يخرجُ الناس على الشرائع السماوية التي أنزلها الله عليهم، ويخالفون الأنبياء والرسل الذين أرسلهم إليهم، ولا شك أن شريعة التوراة من أعظم الشرائع التي أنزلها الله تعالى على بني إسرائيل، وتعبدهم بها من زمن موسى ﷺ حتى زمن عيسى ﷺ.

ولما صدر عن بني إسرائيل ما صدر من فساد في الأرض المباركة وإفساد، ومخالفة لشريعة التوراة التي كلّفهم بها، ومخالفة أنبيائهم والاعتداء عليهم، أخبرنا سبحانه في القرآن الكريم ما ترتّب على ذلك من طردهم من الأرض المباركة وتسليط عدوهم عليهم.

• العبد الشكور:

وجاءت الآية الكريمة مباشرة بعد آية الإسراء تتحدّث عن شريعة التوراة

التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ، وألزم بني إسرائيل بها، وجعل التمسك بها سبيل هدايتهم وسعادتهم:

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ۝﴾

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝﴾، وأوصاهم:

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي: ربًّا تكلون إليه أموركم غير الله سبحانه.

فالوكيل: فعيل بمعنى مفعول، وهو الموكول إليه؛ أي: المفوض إليه الأمور، ولا ينبغي أن يكونَ هذا التفويضُ إلا لله تعالى، لأنه سبحانه وحده الذي يقوم على شؤون الخلق وكفائتهم، فمرادُ الآية النهي عن الإشراك بالله تعالى.

ثم ذكَّروهم سبحانه بشدة حاجتهم إليه حين نجَّى آباءهم من الغرق في سفينة نوح، ولم يكن لهم حينئذٍ وكيلٌ يتوكلون عليه سوى الله تعالى:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝﴾

وفي الآية إشارة إلى أن نجاة من كان مع نوح في السفينة ببركة شكر نوح ﷺ، وفيها أيضاً حثٌّ للذرية على الاقتداء به، وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفر^(١).

● إفساد بني إسرائيل في الأرض:

يبدو أنَّ بني إسرائيل لم ينتفعوا بما أنعم الله تعالى عليهم بنعمة إنزال التوراة وما جعل لهم فيها من أسباب الهداية والسعادة، فعقَّب على هذا مباشرةً بالحديث على ما كان منهم من فساد في الأرض، وما ترتب على ذلك من طردهم من الأرض المباركة، وتسليط عدوهم عليهم:

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/١٦.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَهُمْ أَحْسَنُكُمْ لَإِنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَنَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَزْهَقَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ .

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: أعلمناهم وأوحينا إليهم وحياً جازماً صادقاً لا يتخلف في الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة:
﴿لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ .

● إفساد بني إسرائيل في المرتين حدث قبل الإسلام:

وظاهر الآيات الكريمة يدلُّ على أن إفساد بني إسرائيل مرتين في الأرض حدث قبل الإسلام، وهو ما ذهب إليه علماء التفسير، إلا أنهم اختلفوا في تحديد زمن المرتين، وتاريخهما، والقوم الذين سلَّطهم الله تعالى على بني إسرائيل في المرتين، ولا يترتب على ذلك كبير غرض، المهم أنه لما كثرت معاصيهم، واشتدَّ فسادهم وإفسادهم، سلَّط الله تعالى عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى.

لكنَّ بعض المتحدِّثين في التفسير من المعاصرين ذهبوا إلى أن الآيات تتحدَّث عن إفساد بني إسرائيل بعد نزول القرآن الكريم:

فالمرة الأولى برأيهم كانت عندما عارضوا دعوة الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ومكروا به، وألبوا عليه المشركين، فسَلَّطَ الله سبحانه النبي ﷺ وأصحابه عليهم، فأجلى بعضهم عن المدينة وقتل بعضاً آخر منهم.

والمرة الثانية برأيهم هي ما يحدث من بني إسرائيل في العصر الحاضر في فلسطين، ويميل كثير من المعاصرين إلى هذا الرأي، وهو غير مسلَّم لهم، فظاهر

الآيات الكريمة يرده، لأن قوله تعالى بعد أن ذكر الإفسادتين: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] يدلُّ صراحة على أن المرّتين حدثتا قبل نزول الآيات الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ خطابٌ لبني إسرائيل الذين كانوا موجودين عند نزول القرآن الكريم، ولكلِّ مَنْ يأتي بعدهم، ومعناه واضح، ففيه تهديدٌ وتحذيرٌ لهم من العودة إلى الإفساد من جديد بعد الذي تقدّم منهم في المرّتين السابقتين، فإنهم إذا عادوا إلى الإفساد عاد الله تعالى فعاقبهم بمثل ما عاقبهم في المرّتين الأولىين^(١).

ونستطيع القول: إن في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] إشارة إلى كلّ فساد صدر عن بني إسرائيل بعد نزول القرآن الكريم، سواء في ذلك ما صدر عنهم في المدينة المنورة عندما عارضوا دعوة النبي ﷺ وألبوا المشركين عليه، وما يصدر منهم في العصور المتأخرة من عمل على نشر الفساد في الأرض، بما ابتدعوه واستحدثوه من نظم اقتصادية فاشلة، وفلسفات ملحدة منحلة، وما يفعلونه أيضاً في فلسطين من ظلم واستبداد وإفساد.

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] بهذا الإطلاق دون أن يقيّد بعدد معين، كما فعل قبل ذلك، يدل على كثرة الفساد الذي يصدر عن بني إسرائيل، وهو ما تؤيده وقائع وأحداث العصور الحديثة.

• الإفسادة الأولى:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: إذا حان وقت عقاب الإفسادة الأولى.
﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، ويبدو لي - والله أعلم - أن الإفسادة الأولى لبني إسرائيل وما حدث بعدها من تسليط عدوهم عليهم هي التي ذكرها الله سبحانه في سورة البقرة في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ أَمَلًا مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّنَا أَلْهَمْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ

(١) انظر كتاب: لتفسدن في الأرض مرّتين، وهو من تأليف: محمد علي دولة، ومن منشورات: دار القلم بدمشق.

عَلَيْكُمْ أَلْقَتَالُ أَلَا تُفْتَلَوُا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُفْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَنْبَاءَنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٦﴾ .

فقد كان بنو إسرائيل بعد موسى ﷺ على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسَلَّطَ الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة.

واستمروا على هذه الحالة إلى زمن داود ﷺ في القرن العاشر قبل الميلاد، عندما نصره الله سبحانه على جالوت ملك الكنعانيين فقتله، وردَّ الله تعالى في عهده إلى بني إسرائيل قوتهم وعزَّتْهم كما أخبر في قوله الكريم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ ﴿٦﴾ .

وقد قوي سلطان بني إسرائيل، وامتدَّ ملكهم، وعلا شأنهم في هذه الفترة، وخاصةً في عهد نبي الله سليمان بن داود ﷺ، الذي وهبه الله تعالى ملكاً عظيماً، وسخر له سبحانه الريح العاصفة تأتمر بأمره، يوجِّهها بأمره رحيةً ليئة حيث يريد، وكذلك أخضع الله تعالى له مَرَدَّةَ الجن والشياطين، يأتُمرون بأمره، ويعملون له ما يشاء من الأعمال الكبيرة والمنشآت الضخمة الهائلة، وعَلَّمَهُ منطق الطير، وأسمعهم كلام النمل، كل ذلك ذكره سبحانه في عدة آيات من القرآن الكريم^(١).

● الإفسادة الثانية:

وأما الإفسادة الثانية فكانت في الفترة الممتدة بعد موت سليمان ﷺ إلى عهد عيسى ﷺ، وقد كان طغيانُ بني إسرائيل في هذه الفترة أكبر، وإفسادُهم في الأرض أعظمَ من المرة الأولى، حتى إنهم تجرَّؤا على أنبياء الله تعالى،

(١) انظر: تفسير سورة النمل، الذي أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

فكذبوهم، وقتلوا بعضهم، ولهذا استوجبوا لعنة الله عليهم، وتسليط عدوهم عليهم، وتشيتهم في الأرض، وتمزقهم كل ممزق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَصَبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المائدة].

ويبدو أن الله ﷻ سلط عليهم في هذه المرة أكثر من عدو، إذ سلط عليهم أولاً البابليين في زمن بختنصر في القرن السادس قبل الميلاد، وسلط عليهم الآشوريين في الشمال، ثم سلط عليهم الروم، حتى جاء الفتح الإسلامي، فكان الإسلام رحمة لهم ولغيرهم من شعوب الأرض، فلم يتمتع اليهود بالحقوق الإنسانية الكريمة إلا في عهود الحكم الإسلامي وفي البلاد التي حكمها المسلمون، فقد كانوا ولا يزالون محتقرين مكروهين من قبل أكثر شعوب الأرض، ولعل قوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨] إشارة إلى رحمته لهم بالإسلام الذي خلصهم من الظلم والاحتقار والكرهية، ومتعهم بالحقوق الإنسانية التي قررها لجميع الناس، كما سيأتي معنا في هذه السورة.

● شبهات مردودة:

وقد يقول قائل: كيف كان الإسلام رحمة لهم وقد أجلى النبي ﷺ بعضهم عن المدينة المنورة، وقتل الباقيين منهم وهم يهود بني قريظة؟!.

فأقول: إنه عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين بصريح قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُُّهْدَاةٌ» [رواه ابن سعد (١/١٩٢) والحاكم (١/٣٥) والطبراني في الصغير (١/٩٥) وابن عدي في الكامل (٤/٢٣١)].

فهو رحمة لهم ولغيرهم، ولما قَدِمَ النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة المنورة لم يتعرض لهم بشيء، بل وادعهم وسالمهم، ولكثهم نقضوا عهودهم معه عليه الصلاة والسلام، ومكروا به، وحاولوا قتله، وألبوا عليه أعداءه من المشركين،

فاضطرَّ ﷺ أن يفعلَ ما فعلَ بهم من الإجلَاء والقتل، فموقفه عليه الصلاة والسلام من يهودِ المدينة موقفٌ خاصٌّ بيهودِ المدينة.

أمَّا موقفُ الإسلام من اليهودِ عموماً في البلاد التي دخلها الإسلام وعاشت في ظلِّ الحكم الإسلامي فيتجلَّى في موقف الإسلام من أهل الذمة، واليهود من أهل الذمة، وقد تمتَّعوا طيلة امتداد الحكم الإسلامي والحضارة الإسلامية بحقوق أهل الذمة، التي قرَّرها الإسلام لهم، وألزم المسلمين حكماً ومحكومين بها^(١).

وتدل الآيات الكريمة على أنَّ ما حدث لبني إسرائيل في المرة الثانية كان أبلغ وأفظع مما حدث لهم في المرة الأولى، قال سبحانه في المرة الأولى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ [الإسراء: ٥].

وهذا الوصف لهؤلاء المبعوثين لا يدلُّ على إيمانهم وإسلامهم كما زعم بعض المحدثين من المتكلمين في التفسير؛ إذ احتجَّ بهذا على أنَّ المبعوثين هم الصحابة ﷺ عندما سلَّطهم الله على يهود المدينة المنورة، فالله سبحانه عودنا أن يصف الصالحين من الناس بصفة العبودية، ويضيفهم إلى ذاته تشريفاً وتكريماً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وأقول: ليس في هذا أيُّ دليل علمي على صحة ما ذهب إليه، فكل الناس مسلمهم وكافرهم عبيد لله سبحانه، ولا يخفى على المتأمل أنَّ الإضافة في آية الإسراء ﴿عِبَادًا لَنَا﴾ تمت بحرف اللام الدالُّ على الملك والاختصاص، فهي ليست إضافة مباشرة كما في آية الفرقان [٦٣] ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾.

وقوله تعالى في وصف هؤلاء المبعوثين: ﴿أُولَئِكَ شَدِيدُ الْجَآنِ مَتَفَقَّاءٌ﴾ ما حكاه الله تعالى عن بني إسرائيل عندما التقوا بجالوت وجنوده: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذا يدل على قوة وشدة بأس جالوت وجنوده.

﴿فَجَاسُوا خِلَالِ الدِّيَارِ﴾ أي: ترددوا وبحثوا في بلادهم عن الفارين المنهزمين

(١) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين، للدكتور عبد الكريم زيدان (ن).

عن بني إسرائيل، وهذا لم يحدث عندما أجلى النبي ﷺ بني النضير وبني قينقاع عن المدينة المنورة، وعندما حاصر بني قريظة في حصونهم، وقتلهم بعد أن نزلوا منها على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه.

وإن قوله سبحانه أيضاً بعد ذلك: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٧] يدلُّ صراحة على أن المبعوثين على بني إسرائيل قد دخلوا المسجد الأقصى في المرة الأولى طلباً للفارين المنهزمين من بني إسرائيل، وهذا لم يحدث أيضاً عندما سلَّط الله النبي ﷺ وأصحابه على يهود المدينة المنورة. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ محتم الوقوع والحدوث.

وأما في المرة الثانية فقد قال سبحانه يصف ما حدث فيها:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ﴾ أي: بعثناهم عليكم، وسلَّطناهم عليكم، ليسوءوا وجوهكم، فيظهر على وجوهكم آثار المساء والكآبة من كثرة ما يقتلون منكم ويأسرون.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ أي: ليهلكوا ويدمروا الذي غلبوا عليه واستولوا عليه تدميراً فظيعاً لا يوصف.

وهذا عقابُ الله تعالى لهم في الدنيا، وأما عقابُ الآخرة ففي جهنم حيث يحصرون فيها، ولا يخرجون، ولهذا ختم الله تعالى الآيات الكريمة بقوله:

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه ولا يتفلت أحد منهم.

ومجيء (إذا) في الحديث عن المرة الأولى والمرة الثانية - وهي ظرف لما يستقبل من الزمان - لا يدلُّ على أنَّ زمن المرتين بعد نزول آيات القرآن الكريم، لأن الآيات تتحدث عن قضاء الله تعالى المحكم الذي تعلق به إرادته ومشيته منذ الأزل، وأخبر عنه في التوراة التي أنزلها على بني إسرائيل، فهي تدل على الزمان المستقبل بالنسبة لنزول التوراة لا بالنسبة لنزول القرآن الكريم. والله تعالى أعلم.

والجدير بالذكر أيضاً: أنَّ الصحابة رضي الله عنهم لما فتحوا فلسطين، ودخل عمر بن

الخطاب ﷺ بيت المقدس صلحاً، لم يكن يوجد في بيت المقدس أحدٌ من اليهود، لأنَّ الرومَ ما كانوا يَمَكِّنُون اليهود من الإقامة في بيت المقدس، بل إنَّ أهل بيت المقدس طلبوا من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ أن يمنع اليهود من دخول بيت المقدس، والدليلُ على ذلك أنَّه جاء في العهد العمري الذي أعطاه عمرُ لأهل بيت المقدس في سنة (١٥هـ) الموافق (٦٣٦م) ما نصه:

«هذا ما أعطى عبدُ الله عمرُ أميرُ المؤمنين أهلَ إيليا من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمتها وبريئتها، وسائر ملَّتتها، أنَّه لا تُسكَنُ كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم. ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارَّ أحدٌ منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحدٌ من اليهود»^(١).

وهذا الشرط الأخير اشترطه بطريرك القدس صفرونيوس.



(١) انظر بقية كتاب عمر لهم في تاريخ الطبري: ١٥٩/٤ - ١٦٠، طبع دار الفكر في بيروت. قلت: وقد شرح كتاب عمر بن الخطاب هذا ابن قيم الجوزية في كتابه الجامع «أحكام أهل الذمة» وقد أفرده بالنشر بعنوان «الشروط العمريّة»، وكلا الكتابين نشرتهما جامعة دمشق بتحقيق الدكتور صبحي الصالح رَحِمَهُ اللهُ (ن).

الْفُضَيْلُ الثَّانِي

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

وَالْمَبَادِيُ الْاَسَاسُ الْكُبْرَى

الَّتِي يَدْعُو النَّاسُ اِلَيْهَا

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١) ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٢) ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (٣) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَددَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (٤) ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُقُبِهِ وَيُخْرِجُهُ لهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (٥) ﴿أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (٦) ﴿مَن أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (٧) ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً قَرِيبًا أَتَيْنَاهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبًّاكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩) ﴿مَن كَانَ يُرِيدِ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (١٠) ﴿وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ (١١) ﴿كُلًّا نَّمِيزُ هَهُؤُلَاءِ وَهَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١٢) ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا﴾ (١٣) ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (١٤) ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (١٥) ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا حَتَاكَ الدَّلِيلَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ (١٦) ﴿رَبِّكُمْ أَغْلَرُ بِمَا فِي نَفْسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّلِينَ غَفُورًا﴾ (١٧) ﴿وَمَا ذَا الْقُرْآنِ

حَقَّهُ وَالْمُسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ بَذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ بَعْثَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْتَحِبْنَهُمْ زُرْقًا إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سِيئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٣٩﴾ .

• القرآن الكريم:

القرآن الكريم أعظم المعجزات التي أكرم الله تعالى بها النبي ﷺ، وهي معجزة باقية بعده ﷺ منار هداية لكل الناس في كل زمان ومكان.

وكان للقرآن الكريم تأثير كبير في تثبيت النبي ﷺ وهو يواجه قوى الشرك والمشركين، وجاء هذا التثبيت في آياته الكريمة التي حملت للنبي ﷺ بشائر النصر والتأييد والتمكين في الأرض وظهور الإسلام، وفي الآيات الكريمة التي نزلت لتواسي النبي ﷺ، وتخفف من معاناته وأحزانه وهو يواجه عناد المشركين وجحودهم.

وجاء التثبيت أيضاً في أسلوب نزول القرآن الكريم مفرقاً على النبي ﷺ، وكان لهذا تأثير كبير في تثبيت النبي ﷺ وهو يواجه كيد المشركين ومكرهم، وكل ذلك ستحدث عنه الآيات الكريمة في سورة الإسراء.

بدأت الآيات تتحدث أولاً عن مضمون الهداية في القرآن الكريم بالمقارنة مع مضمون الهداية في التوراة، فقال ﷺ:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۖ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ﴾.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ هكذا يهدي على الإطلاق دون قيد زمانٍ أو مكانٍ، فما أعظم الفرق بين قوله تعالى عن التوراة: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]، فقد جعل الهداية بالتوراة مقيدة ومحدودة، وبين قوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ فقد جعل هداية القرآن الكريم مفتوحة مطلقة في كل زمان ومكان!

ووصف الله سبحانه القرآن الكريم بثلاث صفات أساس:

أولها: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: للطريقة التي هي أقوم الطرق. فكلمة (التي) صفة لموصوفٍ حُذِفَ اختصاراً، ويمكن تقدير الموصوف بالطريقة، أو الملة، أو الشريعة، أو الدعوة، أو الحالة، وإبهامُ الموصوف يدل على تعظيم شأنه وحاله، فحذفه أولى في البلاغة، فمهما قُدِّرَتِ الموصوف وأثبتت لن تجد مع الإثبات ذوقَ البلاغة الذي تجده مع الحذف^(١)، فالقرآن الكريم يهدي لأعظم عقيدة وأكمل شريعة.

ثانيها: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهذه الصفة الثانية نتيجة لازمة للصفة الأولى، فلا بد أن يكون للشريعة القيمة أثر، وذلك هو الأجر الكبير.

ثالثها: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وعطف الله تعالى الصفة الثالثة على الثانية ليبين لنا أنه بشر المؤمنين بنوعين من البشارة:

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/٢٢.

الأولى: بثوابهم وهو الأجر الكبير.

والثانية: بعقاب أعدائهم وهو العذاب الأليم^(١).

وخصَّ الله سبحانه الآخرة بالذكر من بين القضايا التي لم يؤمن بها الكفار لكونها من أهم قضايا الإيمان التي كان المشركون ينكرونها، كما سيأتي معنا في آيات السورة، وكذلك لمراعاة التناسب بين الأعمال والجزاء عليها^(٢).

● الإنسان العجول:

ثم بيَّن الله تعالى حاجة الإنسان إلى هداية القرآن الكريم وما فيها من مبادئ رفيعة وقيم أخلاقية كريمة، يحتكم إليها في شؤون حياته، فلا يضل ولا يزل، ومهما اكتسب الإنسان من علوم ومعارف يبقى ضعيفاً محدوداً محتاجاً إلى هداية القرآن الكريم، وسبب ذلك نوازع الهوى والشهوة التي جبل عليها، والتي لها تأثير كبير على الإنسان بحيث تغلبه وتجعله عجولاً متسرعاً متهوراً، فإذا غلبت عليه شهوته، اختلت في نظره القيم، فلا يميز بين الخير والشر، بل نراه في كثير من الأحيان يضع الشر في موضع الخير تماماً كما وصفه الله سبحانه:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۖ﴾

فلا عجب إذا رأينا كثيراً من الناس في العصر الحاضر يضعون الرذيلة في موضع الفضيلة، فيرون الفجور والانحلال والزنى تحرراً وتقدماً، ويرون الغش والاحتياال والكذب مهارةً وذكاءً، ويعدون التهور والمغامرة والعجلة شجاعة وإقداماً، بينما يرون العفة والتعفف تأخراً وانحطاطاً، ويرون الصدق والأمانة تزمتاً وتشدداً، ويعدون التأني والحلم جبناً وضعفاً وتردداً.

إن كثيراً من الأمور التي يبالغ الناس في طلبها والعمل من أجل تحصيلها، اعتقاداً منهم أن فيها خيراً كثيراً لهم، هي في حقيقة أمرها منبع شرٍّ وضررٍ بالغ

(١) انظر: التفسير الكبير، للرازي: ١٦١/٢٠.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٥/٢٢.

بهم، ومرّد ذلك إلى استعجالهم في إرواء شهواتهم ونزواتهم، وسيطرة أهوائهم على سلوكهم وتفكيرهم، ومهما استعجل الإنسان في تحصيل ما يشتهي فلن يأتية إلا ما قدّر الله تعالى له، ومهما استبطأ حركة الزمن فلن يتمكن من تغييرها.

• حركة الزمن:

﴿وَجَعَلْنَا آيَلُ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ آيَلُ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَّهُ تَفْصِيلًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا آيَلُ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوْنًا آيَةَ آيَلُ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ما أعظم فضل الله تعالى على الإنسان عندما جعل حركة الزمن تسير بمقتضى حكمته ومشئته وقدرته سبحانه وحده، إنها تسير على سنن ثابتة محكمة قدّرها الحكيم العليم، الذي أحكم وأحسن كل شيء خلقه، بحيث تستمر الحياة معها، وخاصة حياة الإنسان، وما له في هذا الترتيب المحكم لحركة الزمن من مصالح كبيرة في دينه ودنياه:

﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَّهُ تَفْصِيلًا﴾.

وحتى ندرك مدى فضل الله سبحانه الحكيم العليم على الإنسان في تنظيم وضبط حركة الزمن، لنتصوّر ما يمكن أن يحدث للحياة عموماً وللإنسان خصوصاً لو قدّر الله ﷻ للإنسان العجول الذي يضعف أمام نزواته وشهواته أن يسيطر على حركة الزمن ويتحكّم فيها... وقد مرّ معنا كيف اختلّت في نظره القيم والفضائل، فوضع في مكانها القباح والردائل نتيجة تهوره وتسرع وضعفه أمام شهواته ونزواته.

لقد وضعت العلوم التجريبية بتقدير الله تعالى يد الإنسان المعاصر على جزء يسير من أسرار النواميس التي جعلها الله تبارك وتعالى في هذه الحياة الدنيا، فماذا صنع الإنسان بهذه المعارف؟ ماذا صنع الإنسان عندما اكتشف قوانين الذرة وقوة التدمير الهائلة التي تحدث نتيجة تحطيمها؟ وماذا صنع ويصنع عندما

تمكن من التلقيح خارج الرحم، وما ترتَّب على ذلك من الفوضى الأخلاقية والاجتماعية في الأنساب وحياة الأسرة والاقتصاد^(١)؟.

فالحمد لله تعالى الذي نظَّم الكونَ مكاناً وزماناً، وقَدَّرَ سبحانه فأحسن تقديره، وجعل ذلك منوطاً بمشيئته وحكمته ورحمته وعلمه، لا بمشيئة الإنسان وقصوره وجهله وعجلته؛ فكم في تقلُّب الليل والنهار بهذا النظام المحكم الثابت من مصالح حيوية للإنسان، ففي الليل يسكنُ الناسُ ويرتاحون، وفي النهار ينتشرون للمعاش والصنائع، ويتقلُّب الليل والنهار يعلمون عدد الأيام والشهور والأعوام، ويعرفون حساب الآجال المضروبة لعباداتهم ومعاملاتهم، فله سبحانه المنة الكبرى على الإنسان في ضبط وتنظيم تقلُّب الليل والنهار: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تَصْبِرُونَ﴾ (٧٧) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص].

• مسؤولية الإنسان:

والزمن الذي قدَّره الحكيم العليم، وأحكم حركته، وضبط مقاديره؛ ظرف لأعمال الإنسان، ولا تستقيم الحياة الإنسانية في ظرفها الزمني المقدَّر المحكم إلا إذا كان الإنسان مسؤولاً عن أعماله.

كما أنَّ الإنسان لا يلتزم بهداية القرآن الكريم التي هي أقوم إلا إذا كان مكلفاً بها ومسؤولاً عنها، فلا يعقل أن يترك الله تعالى - وهو الحكيم العليم - الإنسان دون أن يجعله مسؤولاً عن أعماله، وإلا كان خلقه سبحانه للإنسان عبثاً ولعباً يتنزه الله سبحانه عنه، وهو الحكيم العليم:

﴿يُحَسِّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة].

(١) انظر كتاب المؤلف في هذا الموضوع: الأنساب والأولاد في الإسلام.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ فَتَعَلَىٰ آلَ اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

ويقتضي تقرير المسؤولية الحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، فلا بدّ إذاً بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثانية يكون فيها الحساب والثواب والعقاب، ويتحمل الإنسان فيها مسؤوليته عن أعماله:

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَيْرُهُ فِي عُقْبِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَيْرُهُ فِي عُقْبِهِ ۖ﴾ وطائر الإنسان عمله الذي طار عنه، أي: صدر عنه، سواء كان خيراً أو شراً، فكلُّ إنسانٍ ملزَمٌ بعمله، ومسؤولٌ عنه، وهو مسجَّلٌ عليه، ويقدم له يوم القيامة في كتاب منشور:

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾، ويقال له:

﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

● المسؤولية الشخصية:

ومسؤولية الإنسان عن عمله مسؤولية شخصية خاصة به:

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَرَّأَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ﴾ فأثر الهداية وفائدتها تعودُ على الإنسان نفسه لا على غيره.

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ كما أنَّ عاقبة الضلال والزيغ والانحراف يعود وبالها على الإنسان نفسه.

﴿وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَرَّأَىٰ﴾ فلا يحمل أحدُ ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].
وقوله أيضاً: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَنْفَالِهِمْ وَلِيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فما يحمله المضللون إنما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال، فجزاء الضلال مقصورٌ على الضالين^(١)، فالآيتان تنسحبان على زعماء الضلال ودعاة الكفر والشرك، فهم يحملون يوم القيامة مسؤولية ضلالهم ومعها مسؤولية نشرهم للضلال والفساد.

• الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته:

ومع هذا التقرير فإنَّ عدلَ الله تعالى اقتضى ألا يسأل أحداً إلا بعد أن يقيم عليه الحجة؛ فقال سبحانه:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يقيمُ عليهم حجةَ الله تعالى، ويبين لهم شريعته، فلا تكليف قبل الشرع.

ويستثنى من ذلك معرفة الله تعالى وتوحيده، لأنه سبحانه مكن الإنسان من معرفته لربه بالفطرة التي فطره عليها: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّ لِلَّهِ لِيَخْلُقَ ذَلِكَ الْدِّينَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وبالعقل الذي منَّ الله تعالى به على الإنسان، فلو لم يبعث الله رسولاً لوجبَ على كل من يستطيعُ النظر والتفكر أن يعرف خالقه سبحانه فيؤمن بوجوده ووحدانيته.

فمن عاش ومات ولم يسمع برسول ولم تبلغه دعوته مسؤول فقط عن الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته، ولا يسأل عن عبادة الله تعالى والتزام شريعته والإيمان بما يجب الإيمان به ممَّا لا سبيل إلى معرفته إلا بواسطة الرسل، فليس

(١) انظر: روح المعاني: ٣٥/١٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ على عمومته، فهو مخصص بأدلة أخرى كثيرة كقوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]. فبعثه الرسل لبيان عبادة الله تعالى وشرعه لا لمعرفة الخالق، فالإنسان مزود بما يعرفه بخالقه سبحانه وتوحيده، ولهذا كانت كلمة الأنبياء جميعاً لمن أرسلوا إليهم: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] ^(١).

• الترف والفسق:

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ومشيتته ألا يحاسب الناس بمقتضى علمه سبحانه بهم، بل بمقتضى عملهم، فلا مسؤولية لمن يموت صغيراً، ولو علم الله سبحانه أنه لو بلغ فسق عن أمره سبحانه، وهذا يجعلنا نأخذ بقول القائلين بنجاة الأطفال الذين يموتون قبل البلوغ، ولو كانوا أبناء الكافرين، ولا يهلك الله تعالى أمة من الأمم أو بلدة من البلدان إلا إذا فشت المعاصي فيهم فعلاً، وعملوا بغير طاعة الله تعالى، قال عزَّ شأنه:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: دنا الوقت المقدر في علمه لهلاك قرية. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي: أقمنا عليهم الحجة وأرسلنا إليهم من يأمرهم بطاعة الله سبحانه، فهذا كقولك: أمرته فقراً، فإنه لا يفهم منه إلا الأمر بالقراءة، فحذف المأمور به، لأن قوله: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يدل على أنهم أمروا بطاعة الله تعالى، فالفسق معناه الخروج عن الطاعة، والله سبحانه لا يأمر به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

(١) انظر حكاية الله تعالى هذه الكلمة على لسان الأنبياء في سورتي الأعراف وهود.

وخصَّ ﷺ المترفين بالذكر لأنَّ غيرَهم تبع لهم، فالمترفون هم المتنعمون من ذوي السلطان والغنى، فهم أئمةُ الفسق ورؤساء الضلال، وهم في الغالب المُسارعون إلى تكذيب الأنبياء والمرسلين، وإلى أعمال الفسق والفجور، والعامَّة تبع لهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبا: ٣٤].

وهذا دليلٌ على أن الترف من أعظم أسباب الفسق والفجور. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ هذا هو ناموس العدل الإلهي والحكمة الربانية الذي لا تبديل له ولا تغيير.

فكل الأمم والشعوب التي عذَّبها سبحانه وأهلكها، كان هلاكها وعذابها بسبب ذنوبها ومعاصيها:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧).

فهو سبحانه أحاط علماً بذنوب كل الأمم والشعوب المتعاقبة والمتعاصرة، وهو سبحانه لا يبدأ الناس بالتعذيب والهلاك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فهو سبحانه لم يخلق الخلق ليعذبهم، بل ليشرفهم بعبادته، ويُسعدهم بطاعته، ويكرمهم بعد ذلك بجنته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والأشقياء بسوء كسبهم واختيارهم وظلمهم يعرضون أنفسهم للهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

● طلاب الدنيا:

والإقبال على الدنيا والاهتمام بها من أهم أسباب الترف والسرف والفسوق

والعصيان، لأنه يصرف الإنسان عن الشعور بمسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة، ويجعله يُعرضُ عن الاهتمام بشأن هذه المسؤولية، ولهذا بين الله تعالى لطلاب الدنيا والمتهاكين على تحصيل زهرتها، واقتناص لذائذها؛ بين لهم أنَّ الفوز بالدنيا وما فيها لا يحصل لكلِّ مَنْ يطلبها، فما أكثر مَنْ يصرفون همَّهم وجهدهم لتحصيل أسباب السرف والترف، فلا يصلون إلى ما يريدون، ويخسرون بذلك الدنيا والآخرة؟!.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾، فالأمرُ منوطٌ بمشيئة الله تعالى، فما أشدَّ خسارة مَنْ يعرضُ عن الدين من أجل الدنيا، فيخسر الدين والدنيا.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: مُبَعَّدًا عن رحمة الله تعالى. وما أعظم ربح مَنْ اتجه إلى الآخرة وسعى من أجل الفوز بها!:

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩).

فثَمَّة شروط ثلاثة:

أولها: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي: يريدُ بعمله وجه الله تعالى ورضوانه والدار الآخرة، فالمطلوبُ أن يقصد طاعة الله تعالى، وأن يستشعر عبوديته له سبحانه.

ثانيها: ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذي يليقُ بها، فينبغي أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال المشروعة التي شرعها الله سبحانه للوصول إلى ثواب الآخرة.

ثالثها: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مصدِّق بكلِّ ما يجبُ التصديقُ به في كتاب الله تعالى، وسنة النبي ﷺ.

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ بهذه الشروط يكون عمله وسعيه مشكوراً، أي: مثاباً عليه عند الله تعالى.

• التفاوت بين الناس:

ولمّا كانت الحياة الدنيا ابتلاءً واختباراً فلا بدّ أن يمدّد الله تعالى طلاب الدنيا وطلاب الآخرة بأسباب الابتلاء والاختبار من أموال وأولاد وغير ذلك، ولا بدّ أيضاً أن يكونوا متفاوتين في الإمداد، ليكون الاختبار أتمّ وأكمل:

﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ فالإمداد ليس بطريق الإلزام، بل هو بمحض الفضل والإحسان.

﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعاً.

ثم بيّن سبحانه كيف جعلهم متفاوتين بالإمداد والعطاء فقال:

﴿أَنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

﴿أَنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، فلا تستقيم الحياة إلا بهذا التفاوت؛ لا بدّ من وجود رفيع ووضيع، ومالك ومملوك، وموسر وصعلوك، كما قال سبحانه في سورة الزخرف: ﴿أَهَرَّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

والتفاوت بين الناس في الآخرة أكبر من التفاوت بينهم في الدنيا، لأنّه يكون في الجنة ودرجاتها العالية الرفيعة التي لا يقدر قدرها إلا الله سبحانه: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

• التي هي أقوم:

مرّ معنا أن الله سبحانه وصف القرآن الكريم بقوله عزّ شأنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴿[الإسراء: ٩]، وَبَيَّنْتُ أَنَّهُ سَبْحَانَهُ حَذَفَ الْمَوْصُوفَ تَعْظِيماً لِّشَأْنِهِ، وَأَنَّ حَذْفَهُ أَوْلَى فِي الْبَلَاغَةِ، ثُمَّ تَحَدَّثَتِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَطَبِيعَتِهِ، وَنَزَعَةَ التَّسْرُّعِ وَالْعَجَلَةِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا، ثُمَّ عَنِ مَسْئُولِيَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَطَبِيعَةِ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةِ.

وهاهي الآيات الكريمة الآن تشرع في تفصيل وتوضيح ما في القرآن الكريم من هداية للتي هي أقوم، كأنها بعد أن قررت مسؤولية الإنسان بدأت تبين مدى هذه المسؤولية وعمقها وشمولها، ببيان المبادئ القرآنية الكريمة التي يجب على الإنسان أن يلتزمها ويطبقها في جميع شؤون حياته، والتي هو مسؤول عنها أمام الله سبحانه يوم القيامة.

ويجدر التنبيه إلى أن قوله سبحانه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] لا يُراد به التفضيل، وهو ما ذهب إليه أبو حيان رحمته الله في تفسيره «البحر المحيط»، فلا مشاركة بين الطريقة التي يهدي إليها القرآن وغيرها من الطرق، بل المعنى: للتي هي قيِّمة، أي: مستقيمة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقوله أيضاً: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥]^(١).

• الهداية إلى أقوم عقيدة:

أول هذه المبادئ وأعظمها وأخطرهما مبدأ التوحيد في الاعتقاد، وهو أساس كل المبادئ الإسلامية، فتوحيد الله تعالى أصلها، وكلها فروع، تتفرع عنه، فلا تصلح إلا به، ولا تتفرع إلا عنه، ولهذا بدأت الآيات الكريمة بتقريره بهذا الخطاب الملزم:

﴿لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّحْذُومًا﴾ (٢٢).

﴿لَا يَجْعَلُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به كل من يصلح

(١) انظر: البحر المحيط: ١٣/٦؛ وروح المعاني: ٢٢/١٥.

خطابه من المكلفين، وجاء الخطابُ للنبي ﷺ ليدلَّ على خطورته وأهميته بالنسبة لجميع المكلفين.

وبيّنت الآية الكريمة ما يترتب على الانحراف عن توحيد الله سبحانه بهذه الكلمات الموجزة البليغة الواضحة:

﴿فَنَقَعْدُ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾؛ فكلمة (تقعد) تدل على شدة مشاعر القلق والهَمِّ والحيرة التي تسيطر على الإنسان عندما ينحرف عن عقيدة التوحيد، إنه يصبح مذمومًا مخذولًا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ﷻ وَمِنْ قِبَلِ الْمُؤْمِنِينَ الموحدين، ومذمومًا ومخذولًا أيضًا مِنْ قِبَلِ نفسه وعقله.

فلا راحةَ لنفس الإنسان إلا في ظلال عقيدة التوحيد، فهي التي تتفق مع الفطرة التي فطر الله سبحانه الإنسان عليها، ولهذا ترى المُعرضين عن عقيدة التوحيد في همٍّ دائم وقلق وحيرة، لأنَّ نفوسهم لا تجد السكينة والراحة إلا في توحيد الله سبحانه، ولا يطمئن العقل السويُّ وينسجم إلا مع عقيدة التوحيد، لأنها تتفق تماماً مع أبسط المبادئ العقلية للإنسان.

وهذا يجعلنا نختار مرة ثانية ما جَوَّزه أبو حيان من حمل القعود في الآية الكريمة على حقيقته، لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً متفكراً^(١).

● الهداية إلى أقوم سلوك اجتماعي؛ الإحسان إلى الوالدين:

ويحتاج الإنسان حاجة ماسة إلى قواعد واضحة في السلوك الاجتماعي تنظّم وتحدّد علاقته بالآخرين من أفراد المجتمعات التي يعيش فيها، ولا شك أن مجتمع الأسرة أهم المجتمعات الإنسانية التي يرتبط بها الإنسان، ويحتاج إليها، ولهذا اهتم الإسلام كثيراً بتقرير قواعد السلوك الاجتماعية التي تنظّم علاقة أفراد الأسرة فيما بينهم، وتحافظ عليها وتقويها، وأهمها علاقة الإنسان بوالديه اللذين هما أصل وجوده، فالإنسان فرعٌ والديه، وامتدادٌ لهما، ويجب عليه أن يُحسِنَ علاقته بهما.

(١) انظر: البحر المحيط: ٢٢/٦.

وقد أكد سبحانه هذا الواجب، وأمر به، وشرعه مقروناً بواجب عبادته ﷻ وحده، فجاءت الآية الكريمة تهدي إلى أقوم عبادة، وإلى أقوم سلوك اجتماعي تجاه الوالدين:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُلِغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ .

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أمر أمراً قاطعاً مبرماً، وأفاد تقديم الأمر بعبادة الله تعالى على الأمر بالإحسان للوالدين تقييد الإحسان للوالدين وطاعتهما بطاعة الله تعالى وعبادته، «فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وهذا ما صرّحت به الآيات الكريمة في سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُہُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثَمَرٍ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥﴾ .

ولما كان شأن كثير من الناس أنهم يستقلون خدمة آبائهم في حال ضعفهم وشيخوختهم، حتى صار أكثرهم يعرضون عن آبائهم، ويضعونهم في الأماكن المخصصة لإيواء العجزة وكبار السن، ويكتفون بزيارتهم في المناسبات فقط، وبعضهم يقتصر على إرسال الهدايا والرسائل إلى والديه، ولا يكلف نفسه مشقة زيارتهما ورؤيتهما، وهو حال أكثر الناس في العصر الحاضر، وخاصّة في المجتمعات الغربية الكافرة، فإنّ الآيات الكريمة تلزم الإنسان المسلم بخدمة والديه والإحسان إليهما، وتركز بشكل خاص على خدمتهما، وهما في سنّ الضعف والشيخوخة:

﴿إِنَّمَا يُلِغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وتأمّل كلمة (عندك) ما أجملها

وما أعظم وقعها على نفس الإنسان المؤمن، إنها تلزمه بخدمة والديه بنفسه دون أن يصدر منه أدنى تأفف أو تضجر مما يستقذر منهما أو يستثقل.

﴿فَلَا تَقُلْ لِّمَا أَفِي﴾ هكذا بهذا النهي الحازم الجازم، إياك أن توجه لوالديك أدنى كلمة تدل على تأففك وتضجرك من خدمتهما فتجرح مشاعرهما، وتنال من كرامتهما، تذكر كم كانا يستعذبان خدمتك وأنت صغير، وكم كانا يسعدان، وهما يزيلان عنك الأقدار والأوساخ.

وإذا صدر منهما أو من أحدهما شيء لا يعجبك؛ فإياك أن تغلظ لهما الكلام: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا﴾ بدل التأفف والنهر:

﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾: جميلاً شريفاً لطيفاً، فلا تدع والديك باسميهما، فإنه من الجفاء وسوء الأدب، ولا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر إليهما شزراً. عليك أن تكون رحيماً بهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا:

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ وعليك أن تتواضع لهما من كثرة رحمتك وعطفك عليهما.

ولا تكتف برحمتك الفانية المحدودة، بل ادع الله تعالى لهما أن يرحمهما برحمته الواسعة الباقية:

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾.

ثم وعد الله تعالى من أضمر بر والديه في نفسه، وتوعد من أضمر عقوقهما فقال:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾: بقصد الصلاح والبر دون العقوق.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ الراجعين إلى الله تعالى والتائبين عمّا فرط

منهم من تقصير، فلا يكاد يخلو إنسان عن التقصير والخطأ، وهذا من لطف الله

تعالى بالأبناء، وبالأباء أيضاً، فالآية فيها حثٌ للمقصرين في حق آبائهم على التوبة والمبادرة إلى تلافي تقصيرهم، كما أنَّ فيها حثاً للأباء على التسامح مع أبنائهم بالإغضاء عن بعض تقصيرهم وهفواتهم، وأن يكونوا عوناً لأبنائهم على برهم والإحسان إليهم.

• حق المسلم على المسلم:

ثم بعد برِّ الوالدين أمر الله تعالى بالإحسان إلى الأقارب، وبصلة الأرحام، ووسَّع بذلك دائرة السلوك الاجتماعي القائم على الإحسان واحترام الحقوق بصيانتها وأدائها لمستحقِّها، فقال عزَّ شأنه:

﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ﴾.

﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، وحقه: أن تساعد إذا كان محتاجاً، فالمساعدة المادية أهمُّ حق للقريب على قريبه، وتزداد تأكيداً كلما كانت القرابة أقوى وألصق.

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ توسيع لدائرة الواجب الاجتماعي نحو المحتاجين من أبناء المجتمع، سواء كانوا من المقيمين فيه، أو كانوا من الغرباء عنه المسافرين المنقطعين.

ولا يقتصر هذا الحق على المساعدة المادية فقط، بل يتجاوزها إلى إقامة علاقات أخرى تستدعيها طبيعة الحياة الاجتماعية:

قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» قيل: ما هنَّ يا رسول الله؟ قال: «إِذَا لَقِيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرَضَ فَعُدَّهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ» [رواه مسلم (٢١٦٢)].

وقوله: «فَشَمِّتْهُ» بالسَّين والشَّين؛ بأن تقول له: يرحمك الله، بعد أن يحمّد الله تعالى.

• الهداية إلى أقوم سلوك في إنفاق المال:

بَيَّنَ اللهُ ﷻ أقوم سلوك في إنفاق المال بمراعاة المبادئ التالية:

١ - الامتناع عن إنفاق المال على المحرمات:

فإن ذلك تضييع للمال وتبذير نهى الله سبحانه عنه وحرَّمه ولو كان مقدار المال المنفق على المحرمات قليلاً؛ قال تعالى:

﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا﴾ أي: لا تصرف المال إلى مَنْ لا يستحقه، فإن التبذير:

إنفاق المال في غير موضعه المشروع، كَمَنْ يلقي البذر في الأرض كيفما كان من غير تعهّد لمواقعه^(١).

ثم أكّد سبحانه تحريم التبذير بتشبيه المبذرين بالشياطين:

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: مماثلين للشياطين في صفات السوء

ومنها التبذير.

﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي: مبالغاً في كفران النعمة، فقد صرف

ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدرات إلى المعاصي ونشر الفساد والكفر.

ولا شك أَنَّ التبذير صرفٌ للمال الذي هو من نعم الله تعالى في غير مصرفه

المشروع، فهو كفرٌ للنعمة، يقابل الشكر الذي هو صرف النعمة في الوجه

المشروع الذي خُلِقَتْ من أجله.

٢ - القول الميسور:

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾.

﴿وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ إذا اعترتك حائلٌ من قلة المال،

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/٦٣.

ونزلت بك ضائقة مادية حملتك على الإعراض عن المحتاجين وترك مساعدتهم: فلا يجوز أن تجعلك الضائقة المادية تغلظ القول لهم، فتجرح مشاعرهم، وتنال من كرامتهم، بل عليك أن تتجمل بالرفق ولين الجانب، وتلطّف معهم بالكلام: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

وهكذا يبين الله تعالى لنا أقوم طريق في تعاملنا مع الناس في حال اليُسْر والعُسْر.

٣ - التوسط في الإنفاق بين البخل وبين الإسراف:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩).

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: لا تسرف في الإنفاق، وتتجاوز حدود التوسط والاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط، وخير الأمور أوسطها كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وهذا من باب اللف والنشر، أي: فتقعّد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبي سلمى المزني^(١):

وَمَنْ كَانَ ذَا مَالٍ فَيَبْخُلُ بِمَالِهِ عَلَىٰ قَوْمِهِ يُسْتَغْنَىٰ عَنْهُ وَيُذَمَّمُ
وتصير في حال الإسراف وبسط اليد محسوراً، أي: عاجزاً لا تجد شيئاً تنفقه، أو نادماً مغموماً متحسراً ومتأسفاً على المال الذي ضيعته بالإسراف.

٤ - وعليك أن تعتقد أنّ شأن الرزق منوطٌ بالله سبحانه:

فهو الرازق القابض الباسط المتصرّف في خلقه بما يشاء، فيُعْني مَنْ يشاء، ويفقر مَنْ يشاء، وله في ذلك حِكْمٌ يعلمها سبحانه، فلا يجوز الاعتراض عليه، بل عليك التسليم والرضا بعد أن تأخذ بأسباب تحصيل الرزق والاكتساب بالسعي والعمل في الطرق المشروعة:

(١) شاعر جاهلي، وأحد حكماء العرب، وأحد أصحاب المعلقة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٣٠).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسّعه ويضيّقه بمشيئته التابعة للحكمة البالغة.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يعلم سرّهم وعلنهم، ويعلم من مصالحهم ما يخفي عليهم، فقد يكون تضيق الرزق عليك لمصلحتك وإن كانت خافية عليك^(١).

• الهداية إلى أقوم سبيل للمحافظة على حقوق الآخرين (تقرير حقوق الإنسان):

كرّم الله سبحانه الإنسان كما سيأتي معنا في قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، واستدعى هذا التكريم احترام حقوق الإنسان الأساسية؛ وأهمها: حقّه في الحياة، وحقّه في حماية ماله، وصيانة عرضه وكرامته، ولهذا حرّم الله تعالى الاعتداء على حياة الإنسان وعرضه وماله، وشرع العقوبات الزاجرة لكلّ من يعتدي على حقوق غيره كالقصاص وحدّ الزنى وحدّ القذف وحدّ السرقة.

ونادى رسول الله ﷺ في خطبته الشاملة المشهورة في حجة الوداع بحرمته حياة الناس وأعراضهم وأموالهم فقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ» [رواه البخاري (٤٤٠٦) ومسلم (١٦٧٩)].

• تحريم قتل الأولاد:

ولهذا حرّم الله تعالى قتل النفس عموماً من دون مبرر شرعي، وحرّم قتل الأولاد خصوصاً حتى لا يظنّ بعض الآباء والأمهات أنّ لهم الحقّ أن يتصرّفوا في حياة أولادهم كما يشاؤون، فحياة أولادهم ليست ملكاً لهم، ولا يجوز لهم التصرف فيها، قال تعالى:

(١) انظر: تفسير البضاوي وحاشية الكازروني: ٢٠١/٣.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، والإملاق: الفقر، وقد كان بعض العرب في الجاهلية يقتلون بناتهم بوأدهنَّ مخافة الفقر لما يرون من عجز البنات عن الكسب، وقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على النهب والسلب، وكانوا أيضاً يخافون أن تجلب لهم العار إذا تعرّضت للسخي، أو ألجأهم الفقر إلى تزويجها من غير الأكفاء، وفي ذلك عارٌ عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل].

وأخبر سبحانه أنه ضمن رزقهم ورزق أولادهم فقال:

﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ قدّم ضمان رزق الأولاد ليؤكد سبحانه أنه يرزق الأولاد من غير أن ينقص من رزق الآباء شيئاً.

وقد حرّم الله قتل الأولاد عموماً ذكوراً كانوا أو إناثاً فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾، مع أنّ بعض العرب في الجاهلية كانوا يقتلون بناتهم، وهذا يدل على أنّ القرآن الكريم لا يخاطب الناس في عصر التنزيل فقط، إنّما يخاطب جميع الناس، مهما تعاقبت أعصارهم، وتباعدت أقطارهم، إنّهم يخاطب الناس في عصرنا الحاضر الذين انتشر بينهم قتل الأولاد وهم أجنة في بطون أمهاتهم بواسطة عمليات الإجهاض، التي أصبحت تزيد عن خمسين مليون عملية كل عام^(١).

ولا يجوز شرعاً قتل الجنين وإسقاطه بعد اكتمال تخلّقه ونفخ الروح فيه، أي: بعد أربعة أشهر من أول الحمل، لأنّه أصبح شخصية إنسانية محترمة يتمتع بكلّ حقوق الإنسان، كما يكره إسقاطه قبل اكتمال تخلّقه من دون عذر يستدعي ذلك، لأنّ مآله إلى الحياة كما يقول الفقهاء.

(١) انظر كتاب: طفل الأنبوب والتلقيح الصناعي.

﴿إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: ذنباً عظيماً يدل على شدة فُجْح جريمة قتل الولد.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أيُّ الذنبِ أعظم؟ قال: «أَنْ تجعلَ لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أيُّ؟ قال: «أَنْ تقتلَ ولدك خشيةً أَنْ يطعمَ معك» قلت: ثم أيُّ؟ قال: «أَنْ تُزاني بحليلة جارك» [رواه البخاري (٦٨٦١) ومسلم (٨٦)].

فلا تحديد للنسل في الإسلام، والقول بأن موارد الأرض الاقتصادية لا تكفي لتأمين حاجات الناس من الغذاء قولٌ باطل وغير صحيح، فقد ضمن الله سبحانه رزق الناس جميعاً، وقدّر في الأرض أقواتها التي تكفي جميع الخلق قبل أن يخلقهم، ولو أنّ موارد الأرض وُجّهت لفائدة الناس وتأمين حاجاتهم، ولم تنفق على الكماليات ومظاهر السرف والترف واللهو ووسائل الحرب والتدمير، لَمَا حدثت المجاعات، وقضى كثيرٌ من الناس جوعاً.

وفي الوقت الذي تعاني فيه كثير من الدول الفقيرة من المجاعات تعاني في المقابل بعض الدول من فائض الإنتاج الغذائي لديها، فقد نشرت مجلة «نيوزويك» في عددها الصادر في (٨ ديسمبر ١٩٨٦م) أنّ فائض القمح لدى السوق الأوروبية المشتركة يكفي لبناء عدة أهرامات بحجم هرم خوفو في الجيزة، وفائض الزبدة يمكن أن نشيّد به ناطحة سحاب كبيرة، ولو استعمل فائض الحليب المجفّف لبناء صرْح شاهق لبلغ ارتفاع ذلك الصرح ثمانية أميال ونصف^(١).

• تحريم الزنى:

وحَرَّمَ الله سبحانه الزنى حمايةً لأعراض الناس وأنسابهم، وحمايةً لحياتهم أيضاً، فالزنى فيه عدوانٌ على الأعراض، ويؤدّي إلى اختلاط الأنساب، كما أنّ فيه عدواناً على حياة المزمّني بها، بسبب تعرّضها لخطر القتل، وهو أيضاً يؤدّي إلى قتل ولد الزنى قتلاً معنوياً بحرمانه من شرف النسب وكرامته، ويؤدّي أيضاً

(١) عن: مجلة العربي الكويتية، العدد (٣٤٠)، آذار ١٩٨٧م.

إلى انتشار الأمراض الخبيثة القاتلة، وما مِنْ مجتمع انتشر فيه الزنى إلا ابتلي أبناؤه بأخطر الأمراض، وما مرض الإيدز الذي يؤدي إلى ضعف مناعة الجسم إلا نتيجة طبيعية لانتشار الزنى.

ولقد ثبتَ علمياً أنَّ انتشار الأمراض الجنسية بسبب الزنى يؤدي إلى العُقم عند الرجال والنساء، حتى إنَّ مجلة «التايم» الأمريكية قالت في عددها الصادر في (١٠ سبتمبر ١٩٨٤م): إنَّ العقم يصيبُ واحداً من كل ستة في الولايات المتحدة، وإنَّ العقم قد ازداد بنسبة (٣٠٠٪) خلال العشرين عاماً الماضية، وذكرت «التايم» أيضاً في (١٠/٩/١٩٨٥م) أنَّ أهمَّ سبب للعقم هو انتشار الزنى والأمراض الجنسية؛ حيث تسبَّب الكلاميديا - ميكروبات صغيرة من أصغر أنواع البكتيريا - (٥٠٪) من حالات انسداد الأنابيب، ويسبَّب السيلان (٢٥٪) من جميع حالات انسداد الأنابيب^(١).

ونظراً لما في الزنى من خطر كبير على حياة الناس وأعراضهم وأنسابهم وأخلاقهم حرَّمه الله سبحانه، وحرَّم كل الوسائل التي تؤدي إليه؛ كتبرج النساء بإظهار محاسنهنَّ، واختلاطهنَّ بالرجال الأجانب عنهنَّ، والنظر إليهنَّ، والخلوة بهنَّ، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢).

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ﴾ أي: لا تفعلوا ما يؤدي إلى الزنى.

فالنهي عن قربان الزنى نهى عن الزنى نفسه، لأنَّ قربان الزنى داع إلى الوقوع فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيْبُهُ مِنَ الزِّنَى، مُدْرِكُ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ: الْعَيْنَانُ زَنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأَذْنَانُ زَنَاهُمَا الْاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زَنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زَنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرَّجْلُ زَنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهُوِي وَيَتَمَنَّى، وَيَصْدُقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ أَوْ يَكْذِبُهُ» [رواه البخاري (٦٣٤٣) ومسلم (٢٦٥٧)].

(١) انظر: طفل الأنبوب والتلقيح الصناعي.

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «لَا يَخْلُونُ أَحَدُكُمْ بامرأةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» [رواه البخاري (٥٢٣٣) ومسلم (١٣٤١)].

وحَرَّمَ رسول الله ﷺ أن تصفَ امرأةٌ محاسِنَ امرأةٍ أخرى لرجلٍ إلا أن يحتاج إلى ذلك لغرضٍ شرعيٍّ كنكاحها، فقال: «لا تباشِرُ المرأةُ المرأةَ، فتصفُها لزوجها، كأنه ينظرُ إليها» [رواه البخاري (٥٢٤٠)].

وهذا يدلُّ على أنَّ تصوير المرأة وعرض صورها على الرجال الأجانب عنها أشدُّ من تحريمِ وصفها.

وقوله تعالى في وصف الزنى:

﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ يدلُّ على شدة قبحه، وعظيم خطره، فالفاحشة: الفعل الظاهرة القبح وزائدته، وهو طريقٌ سيئٌ لقضاء الشهوة، يؤدي إلى قطع الأنساب واختلاطها، وإثارة الفتن، ونشر الأمراض الخبيثة القاتلة، ولهذا اقترن ذكره في القرآن الكريم بجرائم القتل، كما هو الحال هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

• تحريم قتل النفس:

وبين سبحانه حرمة حياة الإنسان بتحريم الاعتداء على حياته وقتله فقال:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (٣٣).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بسبب مشروع يبيح قتلها كما جاء في الحديث الشريف: «لا يحلُّ دُمُ امرئٍ يشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وأني رسولُ الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفسُ بالنفس، والشَّيْبُ الزاني، والتاركُ لدينه، المُفارقُ للجماعة» [رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦)].

ثم بين سبحانه عقوبة القاتل في الدنيا بقوله:

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حق يبيح قتله .

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ﴾ : لمن يلي أمرَ المقتول ، وهو كل من يرثه .

﴿سُلْطَانًا﴾ أي : تسلطاً على القاتل بأحد أمرين :

أولهما : القصاص بمطالبة الحاكم أن يقتل القاتل .

وثانيهما : العفو عن القصاص وأخذ الدية .

ثم حذر أولياء المقتول من تجاوز هذا السلطان الذي شرعه لهم فقال :

﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ أي : فلا يتجاوز الحدَّ المشروع ، بأن يقتل غير

القاتل ، أو يقتل اثنين أو أكثر كعادة أهل الجاهلية .

﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ وهذا تعليل لما سبق من نهى وليِّ المقتول عن الإسراف

في القتل ، فإنه سبحانه نصره بما جعل له من حق في القصاص أو الدية .

إن قتل النفس جريمة كبرى في نظر الإسلام ، إنها عدوان على حق الحياة

لكلِّ الناس ، جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى : ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي

إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة : ٣٢] .

وقال رسول الله ﷺ : «لَزَوَالُ الدُّنْيَا عِنْدَ اللَّهِ أَهْوَنُ مِنْ قَتْلِ مُسْلِمٍ» [رواه

النسائي (٨٢/٧) والترمذي (١٣٩٥) وابن ماجه (٢٦١٩)] .

وأما عقوبة القاتل في الآخرة فقد بيَّنها سبحانه بقوله : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لَهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا

عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٣] .

• تحريم الاعتداء على الأموال :

وكما قرر الإسلام للإنسان حقه في الحياة قرر له أيضاً حقه في التملك

المشروع للمال ، وصان له هذا الحق ، فحرَّم الاعتداء على مال الإنسان ، وشدد

التحريم إذا كان الاعتداء على مال الضعفاء في المجتمع كالأيتام ، فقال سبحانه :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٤﴾ .

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فالنهي كما ترى متوجّه إلى مجرد الاقتراب من مال اليتيم، وهذا يدل على شدة حرص الشريعة الإسلامية على حفظ مال اليتيم؛ لأنه ضعيف، لا يستطيع أن يحفظ مال نفسه، كما لا يستطيع أن يدفع العدوان عنه. وقد توعد الله سبحانه أولئك الذين يأكلون أموال اليتامى أشد أنواع الوعيد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

ثم استثنى سبحانه من تحريم الاقتراب من مال اليتيم الاقتراب منه لحفظه لليتيم ورعايته فقال:

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: ينبغي حفظ مال اليتيم بأحسن الطرق المؤدية إلى حفظه وصيافته حتى يصل اليتيم إلى السن التي يحسن فيها حفظ ماله بنفسه، عندئذ يُسلم له ماله بعد أن يختبر للتأكد من حسن تصرفه في المال، قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

● الوفاء بالعهد:

والوفاء بالعهد من أهم الأمور التي تنظم التعامل بين الناس، وتضمن وصول كل إنسان إلى حقه، ولهذا أمر الله تعالى به أمراً ملزماً، مشفوعاً بتقرير مسؤولية الإنسان عنه أمام الله تعالى، فقال:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يُسأل صاحبه عنه: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ .

ومن الوفاء بالعهد والعقد أداء حقوق الناس كاملة دون نقص فيها، ولهذا يجب الحرص على عدالة المقاييس كالمكاييل والموازين، قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥﴾ .

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: الميزان الذي لا خلل فيه .
 ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعاملاتكم .
 ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: وأحسن عاقبة، لأنه يؤدي إلى انتشار الأمانة والثقة بين الناس في تعاملهم .

إن أحوج ما تحتاج إليه المجتمعات البشرية أن تنتشر بين أفرادها الأمانة والثقة والطمأنينة، إن ذلك يؤدي إلى تنشيط التعاون الاقتصادي بين الناس، ويوفر عليهم كثيراً من الجهود والأموال التي يبذلونها للوصول إلى حقوقهم كاملة، وللتأكد من سلامة معاملاتهم عن أي غش ونقص وخداع .
 وظهر لنا من خلال هذه الآيات الكريمة كيف يبين الله تعالى لنا في القرآن الكريم أقوم الطرق في التعامل والتعاقد بين الناس، كما ظهر لنا شدة حرص الإسلام على احترام حقوق الآخرين وأموالهم وإيصال كل صاحب حق إلى حقه .

● السبيل الأقوم لعمران الحياة:

ولما كان التخصص ووضع الإنسان في المكان الذي يتناسب مع كفاءاته العلمية والجسدية هو السبيل الأقوم لعمران الحياة، دعا القرآن الكريم الناس إلى سلوك سبيل التخصص في شتى مجالات الحياة العلمية والعملية، وحرّم الله تعالى على الإنسان أن يتدخل في شؤون ليست من اختصاصه، أو يمارس عملاً لا يحسنه، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٦﴾ .

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل، فكل شيء لا يكون معلوماً لك لا تتدخل فيه .
 ثم قرّر سبحانه مسؤولية الإنسان عن جوارحه وملكاته فقال:

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وفي الآية تحذير للإنسان لكي لا يستعمل سمعه وبصره وقلبه فيما لا يحلُّ له، وخصَّ السمع والبصر والقلب بالذكر، لأنها أهم الوسائل التي تمكّن الإنسان من إدراك ما هو خارج عنه .
وقد يدفع العلمُ صاحبه إلى أن يرى لنفسه فضلاً وتميزاً على الآخرين فيتكبر عليهم، ويظهر أثر التكبر على هيئته ومشيته، فقال تعالى ناهياً عنه:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٣٧).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: ذا مرح، وهي مشية المختال المتكبر .
ثم علّل النهي بهذا التهكّم المر بالإنسان المختال المتكبر فقال:
﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن تقدر أن تحدث في الأرض خرقاً بشدة وطأتك ودوسك عليها .

﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ مهما تعاظمت ومددت قامتك .
فالآية تحثُّ على التواضع ولين الجانب وحُسن المعاشرة، وهي أقوم الأخلاق التي يحتاج إليها الناس في حياتهم الاجتماعية .
وكلُّ هذه المنهيات التي سبق ذكرها مكروهة عند الله تعالى، وهذا يكفي لتركها والكف عنها:

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨).

وهذه التكاليف التي تهدي إلى أقوم الطرق وأحسنها، والتي أوحى بها الحكيم العليم إلى النبي ﷺ من الحكمة الثابتة التي لا يتطرّق إليها تغيير ولا فساد:

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٩).

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾، فهي قيمٌ ثابتة، وحِكْمٌ بالغة، ونِعَمٌ

كبيرة جليلة، تستدعي منا أن نتمسك بها، ونحرص دائماً على تطبيقها في حياتنا حتى نكون فعلاً سائرين على الطريق الأقوم.

• التوحيد أولاً وآخرًا:

وكما بدأت الآيات الكريمة بمبدأ التوحيد حين شرعت في بيان المبادئ التي تهدي للتي هي أقوم، ختمت أيضاً هذه المبادئ بمبدأ التوحيد للتنبيه على أنه أهم هذه المبادئ، وأنه رأس كل حكمة ومنبعها، وقد كان التوحيد أهم قضايا المواجهة بين النبي ﷺ من جهة، وبين المشركين من جهة ثانية، ومر معنا في الآية الأولى ما يترتب على الشرك في الدنيا من الذم والخُذلان والحيرة والهم والقلق في قوله تعالى: ﴿فَنَقَعَدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

وهذه الآية الثانية تبين ما يترتب على الشرك يوم القيامة من العذاب الأليم في جهنم مع الندم والحسرة:

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ من قبل نفسك، بسبب شدة ما يعتريك من ندم وحسرة، وملوماً من قبل غيرك أيضاً.
﴿مَذْخُورًا﴾ مبعداً عن رحمة الله تعالى.

ولا يخفى على المتأمل ما في كلمة ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ من تحقير للمشرك؛ فكأنه خَشَبَةٌ تلقى في النار!



الْفُضْلُ الثَّالِثُ

المُؤَاجَهَةُ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ
فِي الْمَرْحَلَةِ الْمَكِّيَّةِ

﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنْكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ (٤١) وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْيَا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٣﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٤﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٥﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٦﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتَ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا أَهَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفَعْنَا إِيَّاكَ لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٥٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٥١﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَضْحَكُونَ إِلَيْكَ وَرُءُوسُهُمْ يَافِكُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٣﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٤﴾ وَذِكْرُكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٥﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٦﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخْفَوْنَ عُذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْسَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٩﴾ وَمَا مَنَعَنَا

أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۖ وَءَاتَيْنَا نُوحًا مِثْرَهُ فَظَلَمُوا بِهِ ۖ وَمَا تَرُسِلُ
 بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٩٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيحَ الَّتِي أُرْسِنَتْ إِلَّا
 فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا
 لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١٠١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ
 أَلْقَيْتُكَ مِنَ الْمَلَكَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ
 فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا ﴿١٠٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ
 وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَبْرِكَ وَجَلَاجِلُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
 غُرُورًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٠٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي
 لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَاتِبُكُمْ رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي
 الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٠٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ
 يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿١٠٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ
 يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا
 بِهِ تَبِعًا ﴿١٠٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿١١٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْبِهِمْ فَمَنْ أَوْفَى
 كِتَابُهُ بِمِيزَانِهِ فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ ۖ وَكَتَبْنَاهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ قِتِيلًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ
 أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿١١٢﴾ ۞

• القول العظيم:

واجه النبي ﷺ بعقيدة التوحيد كل مظاهر الشرك التي كانت عند العرب في الجاهلية وعند غيرهم، ومن مظاهر الشرك عند العرب أنهم كانوا يقولون عن الملائكة: إنهم بنات الله. وهو قول عظيم منكر، لأنهم يضيفون الأولاد إليه سبحانه؛ وهذا لا يليق بكماله سبحانه ووحدانته وبقائه، فالتوالد شأن المخلوقات التي تزول ولا تبقى، والتي تحتاج إلى بقاء نوعها بالتوالد، ويتنزه

الله سبحانه عن ذلك، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، والذي ليس كمثله شيء.

ثم إنهم بهذا القول: (الملائكة بنات الله) فضّلوا أنفسهم عليه سبحانه حين نسبوا ما يكرهون من البنات إليه جلّ وعلا كما قال عزّ شأنه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] من الأولاد الذكور، وقال سبحانه هنا منكرأ عليهم:

﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

﴿أَفَاصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ﴾ أي: أفخصّكم ربكم بالبين؟!.

﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا﴾: بنات لنفسه، وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعاداتكم:

﴿إِنَّكُمْ لَقَائِلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾! فلا أقبح ولا أشنع من هذا القول، قال سبحانه بيّن قبح هذا القول وشناعته: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝٩٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ﴾ [مریم].

وما أكثر ما كرّر سبحانه هذا المعنى في القرآن الكريم، ففضية التوحيد من أعظم القضايا التي أنزل الله القرآن الكريم من أجل تقريرها، وأكبر قضايا المواجهة بين النبي ﷺ وبين المشركين، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا﴾ أي: بيّنًا بطلان الشرك وفساده بالأدلة القطعية ليتذكروا الحقيقة، وهي توحيد الخالق سبحانه، وتنزيهه عن الشريك والولد.

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وإعراضاً عنه.

ومن الأدلة القاطعة الدالة على توحيد الله سبحانه وتنزيهه عن الشريك والولد ما أمر النبي ﷺ بمواجهة المشركين به:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْنَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٢).

أي: لطلبوا مغالبته وقهره، كما يفعل الملوك مع بعضهم، وهذا كقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. أو لطلبوا التقرب إلى الله تعالى لعلمهم بقدرته وقوته. وهذا يدل على عجزهم ونقصهم، وينافي وصفهم بالألوهية، ويؤكد توحيد الله تعالى وتفرد بالألوهية والربوبية وتنزهه عما يقولون:

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ (٤٣).

● التسبيح بحمد الله:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (٤٤).

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ فكل المخلوقات تقدسُ الله تعالى، وتنزهه، وتعظمه، وتشهد له بالوحدانية.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح الله تعالى ويحمده ويثني عليه.

﴿لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفهمون تسبيحهم لما بينكم وبين سائر المخلوقات من اختلاف في الصفات والخصائص.

ألا ترى أن اختلاف الناس في اللغات يجعلهم لا يفهمون كلام بعضهم بعضاً، على ما بينهم من تقارب وتشابه في خصائص الجنس وصفاته.

وقد ثبت في «صحيح البخاري» [٣٥٧٩]: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال:

«كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُوَكِّلُ».

فقد أسمعهم الله تعالى تسبيح الطعام معجزةً للنبي ﷺ.

وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَ فِي يَدِهِ حُصِيَّاتٍ، فَسَمِعَ لَهُنَّ تَسْبِيحُ كَحَنِينِ النحلِ، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. [رواه البيهقي في الدلائل (٦٤/٦، ٦٥)]^(١).

وقد أخبر سبحانه أَنَّ الطيرَ والجبال كانت تردّدُ التسبيحَ مع داود عليه السلام: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: ١٠].
﴿وَسَحَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]^(٢).
﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، فلا يعاجلُ سبحانه الكفار والمشرّكين والعصاة بالعقوبة لعلّهم يتوبون فيغفر سبحانه لهم.

• الحجاب المستور:

ثم بيّن سبحانه سببَ عدم انتفاع المشرّكين بالقرآن الكريم، وإعراضهم عن دعوة الرسول الأمين عليه أتمّ الصلاة والتسليم، فقال:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾.

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى في آذانهم ثقلاً يمنعهم من سماع آيات القرآن الكريم سماع إجابة وقبول:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ
أَذْنِهِمْ فُوقْرًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، فالأغطية التي على قلوبهم، والثقل الذي في آذانهم، والحجاب المستور؛ كل ذلك موانع حالت بينهم وبين هداية القرآن الكريم.

(١) البداية والنهاية: ١٩٧/٦.

(٢) انظر: تفسير سورة النمل، وقد أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

وسبب وجود هذه الموانع إعراضهم عن الإقرار بوحدانية الله سبحانه، وتمسكهم بشركهم وكفرهم:

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ هرباً من استماع أدلة التوحيد الفاطعة والانقياد لها.

والجزء من جنس العمل، فإن إعراضهم عن توحيد الله سبحانه والإيمان بيوم القيامة منعهم من الانتفاع بهداية القرآن الكريم، جاء ذلك مقررأ في مواضع متعددة من القرآن الكريم:

منها: قوله ﷺ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين].

ومنها: قوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

• حَيْرَة وضلال:

وكان بعض المشركين يدنو سرأً من رسول الله ﷺ يستمعون إليه وهو يتلو القرآن الكريم بغرض البحث عن شيء يحتججون به عليه يسند باطلهم وشركهم، فكشف الله تعالى أمرهم للنبي ﷺ فقال:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ ۚ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (٤٧).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ ۚ﴾ أي: بسبب استماعهم.

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ عندما يستمعون إليك.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾: ونحن أعلم بما يتناجون به، ويتحدثون به سرأً، فقد كانوا بعد الاستماع يجتمعون، ويتحدثون سرأً فيما بينهم بحثاً عن شيء يتمسكون به في مواجهتهم للنبي ﷺ، ولكنهم لا يجدون فيما سمعوه أدنى شيء يسند باطلهم، ويؤيد كفرهم وشركهم.

فالقرآن الكريم كلامُ الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عندئذٍ يضطرون إلى وصف النبي ﷺ بالصفات الباطلة المتناقضة:

﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَعْبُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: ساحراً.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ فقالوا تارة: ساحر، وتارة: شاعر، وتارة: كاهن، وتارة أخرى: مجنون، وكل ذلك يدلُّ على خيَرَتهم وضلالهم.

﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فلا يجدون طريقاً يتوصّلون به إلى الطعن بدعوة التوحيد التي يواجههم بها النبي ﷺ، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من تكريم للرسول ﷺ وتسليّة له وتثبيت.

• من الحقائق العلمية في القرآن الكريم:

ويستدعي الإيمان بوحداية الله تعالى وكمالهِ وتنزّههِ عن كلّ صفات النقص الإيمان بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، وكان المشركون من العرب ينكرون يوم القيامة، ويستبعدون وقوعه ويقولون:

﴿وَقَالُوا إِذًا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْنًا إِنْ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

﴿وَقَالُوا إِذًا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْنًا﴾ أي: فُتاتاً وتراباً.

﴿إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

وهذا الموضوع هو الموضوع الرئيس الثاني بعد التوحيد للمواجهة بين النبي ﷺ وبين المشركين، وقد ردّ الله تعالى عليهم بهذا الحزم والجزم المتضمن للتحديّ المُعجز، والذي يدل على أنّ يوم القيامة أمرٌ مسلّم لا شك فيه ولا ريب، لشدة ما له من صلة بتوحيده سبحانه وكمالهِ وقدرته وحكمته، فأمر سبحانه النبي ﷺ أن يواجههم متحدّياً لهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۖ (٥١)﴾ .

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ فلو صارت أجسامكم بعد الموت حجارة أو حديدًا، وهي أبعد عن قبول الحياة من العظام ورفات الأجسام.

﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أو صارت أجسامكم خلقًا تستبعد عقولكم وقلوبكم قبوله للحياة، فإن الله سبحانه قادرٌ على إعادتها إلى الحياة يوم القيامة.

ونقل بعض المفسرين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال في تفسير الآية: لو صارت أبدانكم نفس الموت؛ فإن الله تعالى يُعيد الحياة إليها^(١).

وفي الآية الكريمة إشارة إلى حقيقة علمية توصل إليها الإنسان في العصر الحاضر؛ وهي إمكانية تحويل العنصر إلى عنصر آخر إذا أمكن تغيير تركيبه الذري^(٢).

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ إذا صرنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر لا يقبل الحياة.

﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعيدكم الذي خلقكم من العدم.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحركونها استهزاء وتعجبًا.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾: استبعاداً منهم لوقوعه.

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾، وكل ما هو آتٍ قريب.

• تلبية الدعوة:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ (٥٢)﴾ .

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ ربكم ﷻ للخروج من قبوركم.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾، فتلبّون دعوته، وتخرجون من قبوركم مسرعين وأنتم تحمدون الله تعالى على كمال قدرته.

(١) انظر: التفسير الكبير: ٢٠/٢٢٦؛ وتفسير ابن كثير: ٤٤/٣.

(٢) انظر: حياتنا والموعود المجهول، للمؤلف.

أو: أنتم منقادون لأمره سبحانه ومشيتته انقياد الحامدين، واستعارةُ الدعاء والاستجابة للإخبار عن البعث يوم القيامة يدلُّ على سرعته ويُسرهِ^(١).

فهو كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقوله أيضاً: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].

فهي دعوة واحدة مستجابة، وكلمة واحدة مسموعة لا تتكرر، فإذا جميع الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، ولَبَّوْا دعوته سبحانه دون أدنى ترددٍ أو تأخر: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِصُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿وَتَطَّنُونَ﴾ عندما يقومون من قبوركم، وتلبَّون دعوة ربكم.

﴿إِن لِّبَنَتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ما مكثتم في الحياة الدنيا أو في قبوركم إلا زمناً قليلاً بسبب ما ترون من أهوال القيامة.

• طريق الدعوة الأقوم:

ثم بيَّنت الآيات الكريمة أفضل الطرق وأقومها في مواجهة المشركين ودعوتهم إلى الله تعالى:

﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي﴾ أي: المؤمنين.

﴿يَقُولُوا﴾ عند محاوراة المشركين ومواجهتهم في الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد.

﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: الكلمة التي هي أحسن، فإذا أردتم إقامة الحجة عليهم والزامهم بالدليل والبرهان فلا تخلطوه بالشتم والسب، لأن ذلك يؤدي إلى نفرتهم وإعراضهم عن دعوتكم، ويستغل الشيطان ذلك فيثير الفتن والشُرور بينكم وبينهم.

(١) انظر: تفسير البضاوي: ٢٠٤/٣.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ فعلى الدعاة أن ينتبهوا إلى هذا الأمر، ويلتزموا بهذا التوجيه الكريم في الدعوة إلى الله تعالى، ولا يَمْكُنُوا الشيطان من إثارة الفتن والشور:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَتْ لِلْإِنْسَانِ عُدُوًّا مُّبِينًا﴾.

وما أكثر الآيات في القرآن الكريم التي تؤكد على هذه الطريقة في الدعوة إلى الله تعالى، منها: قوله سبحانه: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِغَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله سبحانه أيضاً يخاطب موسى وهارون عليهما السلام عندما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وجديرٌ بنا أن ننتبه إلى أن هذا التوجيه الرباني الكريم للدعاة إلى الله تعالى جاء بعد الآيات الكريمة التي صوّرت شدة عناد الكفار وخشونتهم، جاءت بعد قول الله تعالى فيهم: ﴿فَسَيُخْضِعُونَ إِلَيْكَ زُجُوجَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] وهم يرفضون الحق عناداً وتكبراً واستهزاءً، فكأن الآيات تقول لنا: كلما ازداد الكفار عناداً وتكبراً، عليكم أن تزدادوا تعقلاً وتلطفاً وإحساناً في دعوتهم إلى الله تعالى، فإنكم لا تدرّون متى تدركهم رحمة الله وهدايته وتوفيقه.

ويقتضي أسلوب الدعوة الأقوم من الدعاة ألا يصرّحوا لمن يتصدّون لدعوتهم بوصفهم بأنهم من أهل النار، فإن ذلك يزيد في عنادهم، وشدة تمسّكهم بكفرهم، بل عليهم أن يطمعوهم برحمة الله وفضله، وأن يقولوا لهم بعد أن يقيموا الحجة عليهم بالدلائل والبراهين:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسَاءَ يَرْحَمُكُمْ﴾ فيوفّقكم للإيمان.

﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ إذا تمسّكتُم بالكفر.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: موكولاً ومفوضاً إليك أمرهم فتقصرهم على الإيمان وتجبرهم عليه^(١).

والتفات الآية الكريمة إلى النبي ﷺ بهذا الخطاب درسٌ بليغٌ للدعاة إلى الله تعالى، فإذا كان النبي ﷺ مع فضله وشرفه وعلو مكانته لا يستطيع أن يجبر المعاندين من الكفار والمشركين على الإيمان، فالأولى بغيره أن يلتزموا هذا الأسلوب الرفيع في الدعوة إلى الله تعالى، ويبلغوا دعوتهم للناس بالحكمة والموعظة الحسنة، ويفوضوا شأن هدايتهم إليه سبحانه.

● التفاضل بين الناس:

إنَّ هداية الناس إلى الإيمان منوطٌ بإرادته سبحانه ومشيئته، لأنَّه سبحانه يعلم مَنْ في السماوات والأرض، فعلمه سبحانه شاملٌ لجميع المخلوقات، يعلم كل مخلوق وما يليق به من هداية وضلال، ويعلم منزلته في طاعته سبحانه أو في معصيته، ولهذا فإنَّ الناس يتفاضلون في مراتب الطاعات، ويتفاضلون أيضاً في دركات المعاصي، وحتى الأنبياء ﷺ يتفاضلون فيما بينهم، لأنَّه سبحانه فضَّل بعضهم على بعض:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾، بما أنعم الله تعالى عليهم من المزايا الخلقية والنفسية، وبما أنزل عليهم من الكتب، وما كلفهم به من الشرائع.

ولهذا ختم الله تعالى الآية ببيان فضل نبي الله داود ﷺ بسبب إنزال الزبور عليه، فقال:

﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وخصَّ سبحانه داود بالذكر لكونه كان ملكاً قوياً

(١) انظر: روح المعاني: ٩٥/١٥.

شجاعاً، ومع ذلك فإنَّ الله سبحانه فضَّله بإنزال الزبور عليه، لا بما آتاه من ملك وقوة وشجاعة.

وهذا يدل على فضل نبينا عليه الصلاة والسلام، الذي جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وجعله رسولاً إلى الإنس والجن حتى قيام الساعة، وأنزل عليه القرآن الكريم، وتكفل بحفظه فلا يلحقه تغيير ولا تبديل.

• الرجاء والخوف:

ثم بيَّن سبحانه عجز الآلهة المزعومة التي عُبدت من دون الله سبحانه، فأمر النبي ﷺ أن يقول للمشركين بأسلوب التحدي والمواجهة:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم آلهة.

﴿مِنْ دُونِي﴾ أي: من دون الله تعالى.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقحط.

﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا نقله منكم إلى غيركم، ممَّا يدل على ضعفها وعجزها،

وينفي عنها استحقاق العبادة وصفة الألوهية.

بل إنَّ بعض مَنْ عُبدَ من دون الله كالملائكة وعيسى وعُزير يتنافسون في

التقرب إلى الله تعالى، فقال سبحانه فيهم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدونهم من دون الله.

﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: يطلبون لأنفسهم العبادة التي تقرَّبهم إلى

الله تعالى.

ويحرص كلُّ منهم أن يكون أقرب إليه سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

ويدفعهم إلى ذلك رجاؤهم في رحمة الله تعالى وخوفهم من عذابه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾، وهذا الجمع بين الرجاء والخوف شأن الصالحين، فهم لا يقنطون من رحمة الله تعالى، ولا يأمنون من عذابه. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ جديراً بأن يُحذَرَ وَيَحْتَرَزَ عنه كل مخلوق ولو كان من الملائكة أو المرسلين، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٧٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [المعارج].

• هلاك القرى:

اقتضت حكمة الله تعالى وإرادته أن تكون الحياة الدنيا دار ممر لا دار مقر، فكل حياة في الدنيا وشبكة الانتهاء، وكل عمران فيها مآله الخراب والدمار، فلا بقاء في هذه الدنيا لأحد، لا للأفراد ولا للجماعات، والمتأمل في تاريخ حياة الناس وحضاراتهم في الأرض يستيقن هذه الحقيقة، فكم من حضارات إنسانية زالت وهلكت وهي في أوج قوتها وعزتها، وكم من مدن تخربت وأصبحت أطلالاً وآثاراً بعد أن كانت مليئة بالحياة أهلة بالعمران، وصدق الحق سبحانه بقوله:

﴿وَلِنَ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٥٨).

﴿وَلِنَ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَمَةِ﴾ بموت أهلها وهلاكهم. ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بأنواع البلايا والمصائب، وما أكثرها في الحياة الدنيا!.

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ كتبه وقدره سبحانه خالق الحياة ومالكها. ولا يخفى ما في الآية الكريمة من وعيد للمشركين في مكة الذين جحدوا رسالة النبي ﷺ عناداً وتكبراً.

• نبي الرحمة:

ومن الخصائص الكبرى التي أنعم الله بها على النبي ﷺ أنه سبحانه أرسله رحمةً للعالمين، فهو ﷺ نبيُّ الرحمة، ولهذا قَدَّرَ سبحانه ألا يُنزلَ عذابَ الاستئصالِ على المكذِّبين له ﷺ، كما فعل بالأُمم السابقة التي كذَّبت رسلها، مثل قوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم من الأُمم التي أهلكها الله تعالى بسبب إعراضهم عن رسالة أنبيائهم وتكذيبهم لهم.

وقد جرت سُنَّةُ الله تعالى في خلقه أنه إذا أرسلَ رسولاً وكذَّبه قومه، وطلبوا منه معجزات تدل على صدقه، فأَيَّدَ الله تعالى رسوله بالمعجزات المقترحة، وحَقَّقَها لهم فلم يؤمنوا، واستمرُّوا على كفرهم وعنادهم، جرت سُنَّتُهُ تعالى أن يهلكهم بعذاب يستأصلهم جميعاً، كما حدث لثمود الذين كذَّبوا نبيَّهم صالحاً، وطلبوا منه معجزة، واقترحوا أن تكون ناقةً يخلقها الله تعالى من صخرة أمام أعينهم، فأَيَّدَ الله تعالى صدق نبيِّه صالح، وخلق الناقة من الصخرة كما اقترح قومه، ولكنهم لم يؤمنوا، وقتلوا الناقة، فأنزل الله تعالى عليهم العذاب وأهلكهم. وقد طلب مشركو قريش من النبي ﷺ كثيراً من المعجزات المقترحة، وسيأتي بيان ذلك في هذه السورة، فبيَّن سبحانه سبب عدم تحقيقه لهذه المعجزات المقترحة بقوله الكريم:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاثِنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾ .

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ أي: المعجزات المقترحة لإحياء الموتى، وقلب الصفا ذهباً، وتفجير الأنهار... إلخ.

﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ فالنبيُّ ﷺ نبيُّ الرحمة، والله سبحانه يعلم أن المشركين المقترحين هذه المعجزات سيكذِّبون بها كما فعل الأولون، وأوضح مثال لهم قوم صالح:

﴿وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: معجزة واضحة لكل من شاهدها.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾: فكفروا بها.

﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فهذه الآيات والمعجزات المقترحة جاءت مقدمة للعذاب ومخوفة لهم، فلمَّا لم يخافوا منها، ولم يؤمنوا؛ أنزل الله تعالى بهم ما أنزل من العذاب والهلاك^(١).

• في وجه العاصفة:

اقتضت حكمته سبحانه ومشيتته أن يكون تخويف مُشركي قريش بأسلوب آخر يتناسب مع الخصوصية الكبيرة التي خصَّ الله تعالى بها النبي ﷺ، وهي كونه عليه الصلاة والسلام نبيَّ الرحمة، فخوَّفهم سبحانه بما أنزل في القرآن الكريم من آيات التهديد والوعيد التي تضمنت وصف بعض أنواع النكال والعذاب في جهنم.

ولقد رأى النبي ﷺ من جملة الآيات الكبرى التي رآها ليلة الإسراء والمعراج النار، وما أعدَّ الله تعالى فيها من الأنكال والعذاب، فرأى في النار شجرة الزقوم التي ذكرها الله تعالى في سياق آيات التهديد والوعيد في عدة آيات من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثَمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

ومنها: قوله أيضاً في سورة الصافات: ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿١٩﴾﴾.

ولمَّا واجه النبي ﷺ أهل مكة بما حدث له ليلة الإسراء، وما رأى فيها، كان إخباره هذا فتنةً كبيرةً للناس، واختباراً عظيماً لهم، حتى إنَّ بعض ضعاف الإيمان من المسلمين ارتدُّوا إلى الكفر، ولم يصدِّقوا النبي ﷺ، وازداد

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٣٧.

المشركون تكبراً وعناداً حتى قال أبو جهل: هاتوا لنا تمراً وزبداء، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: ترقّموا؛ فلا نعلم الزقوم غير هذا^(١)!.
فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ مواسياً له ومثبتاً وهو يواجه هذه العاصفة الكبيرة من العناد والتكذيب والإنكار:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَاءَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾^(٢).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ فهم في قبضة قدرته سبحانه لا يخفى عليه شيء من كفرهم وعنادهم، وهو سبحانه قادر على أن يعصمك منهم، ويحميك من كيدهم ومكرهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّيَاءَ الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به. [رواه البخاري (٤٧١٦)]^(٢).

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي شجرة الزقوم المذكورة في القرآن الكريم، وقد وصفها الله ﷻ بأنها شجرة ملعونة، لأن أكلها من أصحاب النار ملعونون.
أو: لأنها تنبت في أصل الجحيم، وهو أبعد مكان من الرحمة.
أو: لكونها مكروهة ومؤذية وضارة^(٣).

وكان ذكراً في القرآن الكريم فتنة لهم إذ قالوا: كيف لا تحرقها النار؟ وما علموا أن النار لا تحرق إلا بمشيئته سبحانه وتقديره، فإبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار وشاء سبحانه ألا تحرقه النار؛ لم تحرقه، وكانت كما أمرها الحق سبحانه برّداً وسلاماً على إبراهيم.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: نخوف الكفار بآيات التهديد والوعيد.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٨/٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: تفسير البضاوي: ٢٠٦/٣.

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ فيزدادون تكبراً وعناداً.

مع أن تخويفهم بالآيات القرآنية الكريمة لا بالمعجزات المحسوسة كما حدث للأمم المكذبة قبلهم، رحمة من الله تعالى بهم ببركة نبي الرحمة الذي أرسل إليهم ﷺ، ومع ذلك ازداد القوم عناداً وطغياناً وتكديباً.

• الأصل والفرع:

إن موقف المشركين يشبه موقف إبليس وعناده وتكبره عندما شمله الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم احتراماً وتكريماً، فأبى تكبراً وعناداً، فموقف إبليس أصل في التكبر والعناد، وموقف مشركي مكة فرع منه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

وهذا كقوله الذي حكاه الله عنه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وازداد إبليس لعنه الله تكبراً وطغياناً، فقال مخاطباً رب العزة سبحانه:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ بأمرى بالسجود له؛ لم كرمته عليّ؟.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لأستولين على ذريته إلا قليلاً.

أو: لأضلنهم إلا قليلاً لا أقدر عليهم، وهم عباد الله المخلصون.

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾.

﴿قَالَ أَذْهَبَ﴾ فقد أنظرتك وأمهلتك.

ولا يخفى ما في أمره سبحانه من الإهانة لإبليس، كما تقول لمن يخالفك: افعل ما تريد.

وقد يكون المراد من الأمر بالذهاب: الطرد، كمعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاحْجُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧].

ثم خوَّفه وتوَعَّده سبحانه، وخوَّف وتوَعَّد أيضاً أتباعه بالعذاب الشديد في جهنم فقال:

﴿فَمَنْ نَبَعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ أي: جزاء كاملاً لا نقص فيه.

● الإنسان والشیطان:

﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿وَأَسْتَفْزِزُ﴾: واستخفف.

﴿مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ بدعوتك إلى الفساد والمعاصي، أو باللهو والغناء.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه.

وهذا أمر قَدْرِي، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَسُّمُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أي: تسوقهم إلى المعاصي سوقاً^(١).

فقد اقتضت إرادته سبحانه وحكمته أن يبتلي الإنسان بوسوسة الشيطان، فيزَيِّن له المعاصي والكفر، وبالمقابل اقتضت إرادته سبحانه وحكمته ورحمته أن يرسل الرسل، وينزل الكتب، ليبين للإنسان طريق الهداية، ويحذره من كيد الشيطان ومكره، وبهذا تصبح الحياة ابتلاء واختباراً للإنسان.

﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام، وإنفاقها في

المعاصي والآثام.

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤٩/٣.

﴿وَالْأُولَٰئِكَ﴾ يَإِغْوَاءُ الْآبَاءِ وَالْأُمَهَاتِ وَتَزِينُ الْفَوَاحِشَ وَالزَّنَى لَهُمْ، أَوْ بِتَزِينِ الْكُفْرِ لَهُمْ وَالْعَقَائِدَ الْفَاسِدَةَ الَّتِي تَنْتَقِلُ مِنَ الْآبَاءِ إِلَى أَوْلَادِهِمْ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» [رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)].

وَمِنْ أَسَالِيبِ الشَّيْطَانِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَرَادِهِ مِنْ أَتْبَاعِهِ أَنَّهُ يَعِدُّهُمْ الْوَعْدَ الْكَاذِبَةَ، وَيُطْمَعُهُمْ بِالْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ، قَالَ ﷺ: ﴿وَعِدُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أَي: إِلَّا خَدَاعًا وَكَذِبًا، وَلِهَذَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ لِأَتْبَاعِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي جَهَنَّمَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥).

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ أَي: الْمَخْلَصِينَ الصَّادِقِينَ، وَأَضَافَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَاتِهِ شَرِيفًا وَتَكْرِيمًا لَهُمْ. ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أَي: قُدْرَةٌ عَلَى إِغْوَائِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ، وَيَسْتَعِيزُونَ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أَي: حَافِظًا وَمُؤَيِّدًا وَنَاصِرًا.

• إقرار ثم إنكار:

وَعَادَتِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ تَخَاطَبُ الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَتَذَكِّرُهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَتُبَيِّنُ كَيْفَ يَقَابِلُونَ فَضْلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتَهُ لَهُمْ بِالْجُحُودِ وَالْكَفْرَانِ:

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٦٦).

﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يَرِييْكُمْ وَيُدَبِّرُ أُمُورَكُمْ، يُجْرِي لَكُمْ السَّفْنَ فِي الْبَحْرِ.

﴿لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتطلبوا من رزقه، وهو فضلٌ منه سبحانه.
 ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث هيأ لكم كلَّ ما تحتاجون إليه، وسهَّل ما يعسر عليكم.

وكلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ تذكِّر الناس بشدَّة حاجتهم إلى الله تعالى، فهو مالِكهم وخالِقهم ومربِّيهم، ولا يمكنهم الاستغناء عن فضله ورحمته، فهو ربهم حقيقة وواقعاً، سواء أقرُّوا أم جحدوا وكفروا.
 وإذا حملهم الكبر والحسد والطغيان على إنكار هذه الحقيقة اختياراً، فلا بدَّ أن يقرُّوا بها اضطراراً وقهراً، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: أحاطت بكم المخاطر.
 ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه﴾ ذهب عن خواطركم كل مَنْ تدعونه وترجون نفعه، فلا تذكرون ﴿إِلَّا إِلَهُه﴾ إلا الله جلَّ وعلا، وبهذا تقرُّون بتوحيد الله سبحانه وافتقاركم إليه، وهو إقرارُ الاضطرار والقهر حملكم عليه الشعور بالخوف والضعف.

﴿فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن هذا الإقرار، وعُدتم إلى الجحود والإنكار.
 ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ فهو مجبول على الكفران إلا مَنْ عصمه الله تعالى.

• في البر والبحر:

ورجوعكم إلى الجحود والكفران جهل وغرور، فإنكم في قبضة قدرة الله تعالى، وفي ملكه، وتحت قهره ومشيتته في أي مكان كنتم؛ في البحر أو في البر:

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ وكلمة ﴿جَانِبَ﴾ تدل على سرعة جحودهم

وكفرهم، فإنَّهم عادوا إلى الكفر والجحود فور وصولهم إلى الساحل: وهو جانب البر.

وتدل أيضاً على أنَّ جميع الجوانب والجهات في قبضة قدرته سبحانه، فلا مأمّن لكم في جانب دون جانب، فإنَّ القادر على إهلاككم في البحر قادرٌ أيضاً على إهلاككم في البر بأن يجعلكم تذهبون في أعماقه.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبكم، أي: ترميكم بالحصباء وهي الحجارة، يركمكم بها ويهلككم.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا﴾ تكونون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر الذي نجاكم منه.

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة أخرى، بأن يخلق فيكم الدواعي والأسباب التي تجعلكم تعودون إلى البحر باختياركم.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي الريح الشديدة التي تقصف وتكسر كل شيء تمر به.

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب كفركم وجحودكم.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي: نصيراً واثراً يقوم لنصرتكم والثار لكم.

• تكريم الإنسان وتفضيله:

ورغم أنَّ الإنسان كفورٌ وجهولٌ وظلومٌ فقد كرَّمه الله ﷻ، وخصَّه من بين سائر المخلوقات بكثير من الخصائص، وفضَّله على كثير منهم، وهذا ما صرَّحت به الآية القرآنية الكريمة، وقررت بحزم ووضوح:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (٧٠).

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ قاطبة، تكريماً شاملاً لبرّهم وفاجرهم، ويستدعي هذا التكريم احترام حقوق الإنسان، ولو كان كافراً فاجراً، فالعقوق لا يمنع الحقوق، والإنسان في نظر الشريعة الإسلامية مخلوق مكرم يجب أن تُصان حقوقه، ولن تجد في أيّ شريعة من الشرائع تكريماً للإنسان واحتراماً لحقوقه كما تجده في الشريعة الإسلامية.

وقد مر معنا كيف بين القرآن الكريم أقوم السبل التي تحمي حقوق الإنسان وتصونها، فلا يجوز الاعتداء على حياة الإنسان بغير حق، كما لا يجوز الاعتداء على عرضه وماله، وحتى الإيمان بالله تعالى وتوحيده لا يُكره عليه الإنسان ولا يجبر: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] بل يُدعى الإنسان إلى الإيمان بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة مع بيان الدليل والبرهان كما سبق ذكره.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ﴾ وهذا من فضل الله سبحانه على الإنسان؛ حملة في البر على ظهور الحيوانات التي خلقها وجعلها مسخرة ومذلة للإنسان، وحملة أيضاً برّاً وبحراً في المركبات المتنوعة التي هداه الله تعالى إلى صنعها، وقدر له الأسباب والنواميس التي تمكّن الإنسان من الاستفادة منها.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من زروع وثمار ولحوم وألبان، وسائر الأنواع والألوان الطيبة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة، وغير ذلك.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بما خصّهم من الخصائص وأنعم عليهم من النعم، فكثير من المخلوقات لم يكرمهم الله سبحانه كما كرم بني آدم. ويستدعي هذا التكريم والتفضيل من الناس أن يشكروا الله سبحانه، ويصرفوا ما خلق لهم لما خلّقوا له من العبادة والطاعة لله سبحانه وحده، فيوحّدوه، ويقبلوا على عبادته وطاعته وحده، ولا يشركوا به شيئاً.

فالتكريم سبب للتكليف، والتكليف في الحقيقة تشريف للإنسان وتكريم، شرفه فكلفه، ألا ترى أن تكليف النبي ﷺ بحمل رسالة الإسلام دليل على مكانته الرفيعة عند الله سبحانه وعظيم كرامته، والإنسان الظلوم الجهول هو الذي لا يقوم بأعباء ما كُلف به، ولا يستشعر مدى مسؤوليته أمام الله تعالى^(١).

• الجزء من جنس العمل:

ويترتب على التكليف مسؤولية الإنسان عن أعماله وما فيها من حساب وثواب وعقاب، ولهذا قال تعالى بعد آية تكريم الإنسان مباشرة:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْعِمِّهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ يَمِينُهُ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ﴾ (٧١)

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْعِمِّهِمْ﴾ أي: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم، والتشريع الذي كلفوا به.

أو: بكتاب أعمالهم، وهو الأظهر لما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْرِئَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].
ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَمَنْ أَوْفَىٰ كِتَابُهُ يَمِينُهُ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: لا يظلمون شيئاً قليلاً ولو كان بمقدار الخيط الأبيض المستطيل الذي في شق نواة التمر.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢)

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ﴾ الحياة الدنيا.

(١) انظر: تفسير سورة الأحزاب، وقد أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

﴿أَعْمَى﴾ البصيرة عن رؤية أدلة التوحيد القاطعة، وعن رؤية النعم الجليلة التي خصّه الله تعالى بها، فتغافل عن القيام بشكر مولاه وطاعته.

﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ لا يهتدي إلى طريق نجاته، والجزاء من جنس العمل، فهو في الآخرة أعمى البصر والبصيرة.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٧٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿طه﴾.

وسياأتي معنا قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: أكثر ضلالاً منه في الدنيا لزوال الاستعداد، أو لأن الاهتداء لا ينفعه.



الْفَصْلُ الرَّابِعُ

التَّيْبِيتُ الَّذِي أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ
وَهُوَ فِي ذُرْوَةِ الْمَعَانَةِ وَالْمُوَاجَهَةِ

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيََا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غِبْرَةً وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبَيَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَادَفْنُكَ ضَعْفَ الْحَبْرَةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا يَحْدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَحْدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَمِ الْصَّلَاةِ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَاسْأَلُونَا عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أُوحِيََا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَحْدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَلَّى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ جُلْأَلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِلَهُ وَالْمَلَكُةَ فَبَلِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

لِرُقِيكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا مِّثْلَكُمُ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبِكُمَا وَصَّيْنَا مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ شِيعَ عَائِيَّتِ بَيْنَتٍ فَسَتَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَسْحُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَفَرَّأْنَا فِرْعَوْنَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكِّثٍ وَنَزَّلْنَاهُ لَنُزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴿١١٢﴾

• التثبيت والعصمة:

كانت التحديات التي واجهت النبي ﷺ كثيرة وكبيرة ومتنوعة؛ فمن الإغراء بالمال والجاه والرئاسة، إلى التهديد والوعيد والمكر والأذى والخديعة والاحتيال، ولم يتركوا سبيلاً يثنون به النبي ﷺ عن دعوته إلا سلكوه، وباءت كل محاولاتهم بالفشل الذريع، فلم يتمكنوا بفضل الله تعالى ورعايته لنبيه ﷺ وتثبيته له وعصمته أن يجعلوا النبي ﷺ ينحرف ولو شيئاً يسيراً عما كلفه الله تعالى به.

بقي رسول الله ﷺ ثابتاً على الحق، يواجه كلَّ تحدياتهم ومكرهم الذي يُزيل الجبال عن مواضعها، فكان النبي ﷺ أثبت من الجبال، وأصلب من الصخر، ويكفي للدلالة على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لعمه أبي طالب عندما طلب منه ألاَّ يحمله من الأمر ما لا يطيق: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه؛ ما تركته»^(١).

وبين الله تعالى في هذه الآيات الكريمة فضله على النبي ﷺ في رعايته وتثييته فقال:

﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِفَتْرِى عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا نَخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾.

﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أي: قاربوا أن يخدعوك، وهذا يدل على شدة مكرهم وقوة كيدهم.

﴿عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ﴾ من الدعوة إلى عبادة الله وحده والأوامر والنواهي والأحكام.

﴿لِفَتْرِى عَلَيْنَا غَيْرُهُ﴾ لتتقوّل علينا غير ما أوحينا إليك.

﴿وَإِذَا لَا نَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: لو فعلت ذلك لجعلوك ولياً لهم ولخرجت من ولاية الله تعالى.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ على الحق برعايتنا وعصمتنا لك.

وهذا دليل - كما قال ابن كثير رحمه الله - على تأييد الله تعالى لرسوله ﷺ وتثييته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده

ومظهر دينه على مَنْ عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها^(١).

﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي: لقاربت أن تميلَ إلى اتباع مرادهم لقوة خداعهم وشدة احتيالهم، ولكن أدركتك عصمةُ الله تعالى، فمَنَعَكَ من أن تقرب من أدنى مراتب الميل إليهم، لأنَّ معنى الركون: أدنى مراتب الميل. وهذا صريحٌ في أنَّه عليه الصلاة والسلام ما همَّ بإجابتهم مع قوة الداعي إليها، ودليل على أنَّ عصمته عليه الصلاة والسلام بتوفيق الله تعالى وعنايته^(٢). ثم بيَّن ﷺ ما يترتب على الركون إلى الكفَّار والفجَّار من شدة في العذاب ومضاعفته، فقال:

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ (٧٥).

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة.

وهذا يدل أيضاً على علو منزلة النبي ﷺ ورفعتهَا، لأنَّ خطأ الكبير خطيرٌ، ولهذا قال الله تعالى لأُمّهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنَّ: ﴿يَسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ يَضَعُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠). [الأحزاب].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب أو يرفعه عنك.

وقد أظهر الله ﷻ في هذه الآيات الكريمة عزَّ الربوبية وقوتها وقدرتها، وأظهر ذلَّ العبودية وضعفها وافتقارها، كما دلَّت الآيات الكريمة على أنَّ القرآن الكريم كلامُ الله تعالى المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ، فلا يعقل أن يصدر مثل هذا الكلام عن رسول الله ﷺ، وفيها أيضاً دليل قاطع على أنه عليه الصلاة والسلام بلغَّ وحي الله تعالى، فأدَّى الأمانة، ولم يكتمْ شيئاً ممَّا أوحاه الله تعالى إليه.

(١) تفسير ابن كثير: ٥٣/٣.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٣٤٤/٣.

إِنَّ قَلْبَ المتدبِّر لهذه الآيات يمتلئُ خوفاً ورُعْباً، وتجعله يُقبل على الله تعالى يسأله التثبيتَ على الإيمان، فلا يضلُّ ولا يزلُّ، ولا يُفْتَن عن دينه، كما تجعله يتمسكُ بدينه مع شدة الحذر من أن يفتن عنه، فإذا كان حال رسول الله ﷺ وهو خيرة الله سبحانه من خلقه، وصفوته من عباده، أن يضاعف له عذاب الحياة والممات لو مال أدنى ميلٍ إلى الكُفَّار، فكيف يكونُ حالنا مع ما نحن عليه من ضعفٍ في اليقين ورقَّةٍ في الدين، ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله تعالى نسأله كما علَّمنا رسول الله ﷺ: «يَا مَقْلَبَ القُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» [رواه الترمذي (٣٥٢٢) وحسنه].

وكما بيَّن لنا الحقُّ سبحانه في كتابه: ﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

• الهجرة خروج لا إخراج:

وتكشف لنا الآيات الكريمة في سورة الإسراء عن جانب آخر من جوانب تثبيت الله تعالى للنبي ﷺ في مواجهة المشركين في مكة، يدل على أنه عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة، هذا الجانب هو ثباته عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة، وبقاؤه فيها حتى أمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة المنورة، لقد هاجر أكثرُ أصحابه، وبقي ﷺ في مكة يواجه كيد الكافرين وعنادهم وأذاهم، منتظراً أمر الله تعالى له بالهجرة، وكلَّما جاءه أبو بكر رضي الله تعالى عنه يستأذنه في الهجرة قال له ﷺ: «لَا تَعْجَلْ لَعَلَّ اللهَ يَجِدُ لَكَ صَاحِباً»^(١).

ولما أمره الله تعالى بالهجرة خرجَ عليه الصلاة والسلام مهاجراً تنفيذاً لأمره سبحانه، فأتى أبا بكرٍ في بيته فقال: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ فِي الخُرُوجِ والهجرة»^(٢). وهذا يدلُّ على أنه عليه الصلاة والسلام لم يخرج مهاجراً فراراً من أذى

(١) سيرة ابن هشام: ٩٢/٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

المشركين، وخوفاً على حياته منهم، بل خرج تنفيذاً لأمر الله تعالى، ليتخذ من دار الهجرة في المدينة المنورة قاعدةً ينطلق منها لتبليغ دعوة الله تعالى في مشارق الأرض ومغاربها، وليبني فيها نواة المجتمع المسلم والدولة المسلمة، التي تطبق شريعة الله تعالى، وتسعى لنشرها بين الناس جميعاً.

ولو أنه ﷺ أخرج من مكة بإخراج المشركين لأنزل الله تعالى عليهم عذاباً يهلكهم به ويستأصلهم، كما فعل بالأُمم المكذبة من قبلهم، ولكنه ﷺ خرج مهاجراً تنفيذاً لأمر الله تعالى، فهو نبي الرحمة، ولا ينزل بسببه عذاب استئصال يهلك الله به قومه؛ قال تعالى:

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ﴾ أي: ليزعجونك بعدوانهم وبغيهم وأذاهم.

﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾: أرض مكة.

﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ﴾ أي: بعدك.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زمناً قليلاً.

أي: لو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، لكن لم يقع الإخراج، وقد خرج رسول الله ﷺ مهاجراً بأمر ربه ﷻ.

قال مجاهد: أرادت قريش ذلك ولم تفعل، لأنه سبحانه أراد استبقاءها وعدم استئصالها ليسلم منها ومن أعقابها من يسلم^(١).

وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنْ قَرْنِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الْيَتَّى أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] إذ حملنا الإخراج في هذه الآية على التسبب في الخروج، فقد خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، لأنه لم يتمكن من نشر دين الله بين الناس بسبب معاندة المشركين في مكة وأذاهم،

وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى هنا في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾ فإن كلمة ﴿كَادَ﴾ تدل على مقاربة وقوع الشيء لا على وقوعه وحدوثه. هذه هي سُنَّةُ الله تعالى، وهي أنه سبحانه يهلك كل أمة أخرجت رسولها من بين ظهرانيها، وقد أضافها سبحانه إلى الرسل لأنها من أجلهم، فقال:

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (٧٧).

• أوقات الصلوات المفروضة:

فُرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج عندما كان النبي ﷺ فوق السماوات السبع، دلت على ذلك أحاديث الإسراء والمعراج الصحيحة، وأنزل الله تعالى في سورة الإسراء في بيان أوقات هذه الصلوات المفروضة إجمالاً قوله الكريم:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨).

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: لوقت زوالها وانتقالها من دائرة نصف النهار الأول في جهة الشرق إلى النصف الثاني في جهة الغرب، وهو أول وقت صلاة الظهر، والدلوك في اللغة: الانتقال والتحول، ولهذا قالوا أيضاً: أقم الصلاة لغروب الشمس.

﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إلى شدة ظلمته، وهو أول وقت صلاة العشاء.

ففي الآية إشارة إلى أوقات صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والمراد إقامة كل صلاة في وقتها الذي عُيِّن لها بواسطة جبريل عليه السلام، وذكرت الآية أوقات هذه الصلوات إجمالاً، لأن أوقاتها متصلة ببعضها، ثم ذكر سبحانه الصلاة الخامسة المفروضة وهي صلاة الفجر بقوله:

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾، وسميت قرآنًا لأن قراءة القرآن ركن من أركان الصلاة، وللحظ على تطويل القراءة في صلاة الفجر.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهد وت حضره ملائكة الليل وملائكة النهار.

ونزل جبريل ﷺ ظهر نهار ليلة الإسراء والمعراج فصلى بالنبي ﷺ مبيّناً له بالتفصيل أوقات الصلوات الخمس المفروضة.

• معراج المؤمنين:

وجاء الأمر بإقامة الصلوات المفروضة بعد الآيات الكريمة التي تحدّثت عن عناد المشركين وجحودهم، وما لقيه ﷺ أثناء مواجهته لهم من مكرهم وكيدهم، وتثبيت الحق سبحانه له عليه الصلاة والسلام، لأنّ في إقامة الصلاة قوة للمؤمن، ومعونة على تحمّل أعباء الحياة وتكاليفها.

إنّ المؤمن عندما يقيم الصلاة يتصل بالله سبحانه ويستمد منه المعونة والقوة، إنّ الصلاة تغذي روح المصلي بذكر الله تعالى وتشحذ همّته، وتقوي عزيمته، لأنها معراجه إلى الله تعالى، يستمد منه القوة والعزيمة والرشد وهو واقف بين يديه سبحانه يناجيه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥٥﴾ أَهْدِنَا آلْصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿الفاتحة﴾.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وكان رسول الله ﷺ إذا أهمّه أمرٌ لجأ إلى الصلاة، ففي «سنن أبي داود» [١٣١٩] و«مسند أحمد» [٣٨٨/٥]: من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَرَعَ إلى الصلاة.

• تهجد النبي ﷺ:

ومن المعلوم أنّه عليه الصلاة والسلام حملَ أعظمَ الأعباء وأثقلَ التكاليف لأنّ الله تعالى أرسله برسالة الإسلام إلى العالمين: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فالأمانة التي حملها ثقيلة، والرسالة كبيرة، وقد وصفها الله تعالى بذلك في قوله الكريم: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

ولهذا حثّه الله ﷻ على صلاة التهجد في الليل ليتلقّى فيها المدد من الله تعالى، والمعونة على القيام بأعباء المهمة الثقيلة التي كُلف بها، فقال:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ، نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٧٩).

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ قال ابن كثير رحمته الله: «أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في «صحيح مسلم» [١١٦٣]: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه سئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل»، ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد ما كان بعد نوم»^(١).

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فريضة زائدة على الصلوات المفروضة خاصة بك دون الأمة، أو تطوعاً، لا لكونها زيادة على الفرائض، بل لكونها زيادة له ﷺ في الدرجات، فإنه ﷺ مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيكون تطوعه في صلاة التهجد زيادة في درجاته، بخلاف من عداه من الأمة، فإن تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع في فرائضهم^(٢).

• المقام المحمود:

ويرجح المعنى الثاني قوله تعالى في ختام الآية الكريمة:

﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، فإن قيامه عليه الصلاة والسلام من النوم لصلاة التهجد في الليل يؤدي إلى رفع درجاته يوم القيامة حتى يصل بفضل الله تعالى إلى أعلى المقامات وأشرفها وهو المقام المحمود.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم، وخالقهم تبارك وتعالى»^(٣).

ومما يؤكد أن قيام الليل لم يكن مفروضاً على النبي ﷺ ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع

(١) تفسير ابن كثير: ٥٤/٣.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٣٤٦/٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ٥٥/٣.

هذا يا رسول الله وقد غُفِرَ لك ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ؟ قال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً» [رواه البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩)].

والمقام المحمود: من الخصائص الكبرى التي خصَّ الله تعالى بها النبي ﷺ يوم القيامة، وقد وردت فيه كثير من الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تدلُّ على علو منزلة النبي ﷺ، واختصاصه بهذه المنزلة دون سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن كثير رحمه الله: «لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أوَّل من تنشق عنه الأرض، ويُبْعَث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي يكون آدم عليه السلام فَمَنْ دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثرُ وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق»^(١).

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَتَدْنُو حَتَّى يَبْلُغَ العِرْقُ نَصْفَ الأُذُنِ، فَيَنْمُو هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِأَدَمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ كَذَلِكَ، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَشْفَعُ بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَوْمِئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَاماً مَحْمُوداً يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ» [رواه البخاري (١٤٧٥)].

● بشارات النصر:

ثم تتابعت الآيات الكريمة تنزل على النبي ﷺ وهو في أوج المواجهة للمشركين المعاندين، تحمل له بشارات النصر والغلبة والعزة، وتطلُّب منه أن يتوجَّه إلى ربه ﷻ يسأله التوفيق والنجاح في كل شؤون حياته:

﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي: إدخالاً مرضياً موفقاً كريماً.

﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: إخراجاً مرضياً موفقاً كريماً.

واختلف علماء التفسير في تعيين المراد من ذلك، فذهب بعضهم إلى أنه إدخال المدينة المنورة والإخراج من مكة، ويؤيده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَقُلْ رَبِّ...﴾ الآية [رواه أحمد (٢٢٣/١) والترمذي (٣١٣٩) وحسنه].

وذكروا قولاً آخر لابن عباس: أنه الإدخال في القبر، والإخراج منه. [رواه ابن جرير وابن أبي حاتم].

وقيل: إدخال مكة فاتحاً، وإخراجه منها آمناً عند الهجرة.

وقيل: الإدخال في المأمورات، والإخراج عن المنهيات.

وقيل: الإدخال فيما حمّله عليه الصلاة والسلام من أعباء النبوة، وإخراجه منها مؤدياً لما كلفه من غير تفريط.

والأظهر أن المراد إدخاله عليه الصلاة والسلام في كل ما يدخل فيه ويلا بيه من مكان أو أمر، وإخراجه منه، فيكون عامّاً في جميع الموارد والمصادر، وما ذكره المفسرون جاء على سبيل التمثيل لا التعيين^(١).

﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أي: حجة وقوة تنصرنني بهما على كل من عاداني، فلا بدّ للحق من حجة يستند إليها، ومن قوة تقهر الباطل، وتقمع أهله. وما علّم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يدعو بهذه الدعوة الكريمة، وهو يواجه عنّت المشركين وكيدهم إلا ليعطيه ويستجيب له، ولهذا جاءت هذه الدعوة الكريمة بشائر نصر وعزّ للنبي ﷺ، وظهور وغلبة للإسلام في المشارق والمغارب. ويؤكد هذا قوله تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٨١).

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر الحق الذي تسنده الحجة، وتؤيده القوة، وشرع

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/١٤٤؛ والبحر المحيط: ٦/٧٣.

الله تعالى بعد ذلك الجهاد، وأمر بالاستعداد والإعداد الذي يؤدي إلى انتصار الحق ودحر الباطل.

﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي: اضمحل وهلك، فَإِنَّ الْبَاطِلَ لَا ثَبَاتَ لَهُ مَعَ الْحَقِّ الْمُؤَيَّدِ بِالْبِرْهَانِ وَالْقُوَّةِ.

ولا يخفى على المتأمل للآية الكريمة ما فيها من تثبيت للنبي ﷺ لأنها تحمل له البشائر بقرب تحقق النصر، فهو آتٍ لا محالة، فكأنه جاء وتحقق، وما فيها أيضاً من تهديد ووعد للمشركين، فقد جاءهم من الله تعالى الحق الذي لا مرية فيه، والمؤيد بالبرهان الساطع، والذي لا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ، لأنه مؤيد بالقوة الغالبة.

والجدير بالذكر أن الله تعالى لَمَّا حَقَّقَ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَوْعُودَهُ بِالنَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ، ودخل رسوله ﷺ مكة فاتحاً وكان في البيت وحوله ستون وثلاثمئة صنم، جعل النبي ﷺ يطعنها بعود في يده وهو يقول: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً، جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ» فكانت الأصنام تتساقط على وجوهها محطمة مكسرة. [رواه البخاري (٤٧٢٠) ومسلم (١٧٨١)].

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ أي: هالِكاً وزائلاً.

• القرآن رحمة وشفاء:

وكيف لا يظهر الحق وينتصر، ويضمحل الباطل ويندحر، وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم، وفيه الحق المؤيد بالبرهان، والدعوة إلى جهاد أصحاب الباطل باللسان والسنان، كما أن فيه الشفاء والرحمة للمؤمنين، لأنه يطهر قلوبهم من أمراض الشك والنفاق والشرك، ومن القلق والحيرة، ويملؤها بنور الإيمان وبرد اليقين؟!.

ولا ينتفع بالقرآن الكريم إلا المؤمنون بأنه كلام الله تعالى المنزل على رسوله عليه الصلاة والسلام، وأمّا الكافرون به، الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عنه، فلا يزدادون بالقرآن الكريم إلا ضللاً وكفراً، والسبب في إعراضهم وتكذيبهم لا في القرآن الكريم، فهو كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ [فصلت: ٤٤].

ولهذا قال ﷺ هنا :

﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٨٢﴾ .

وفي القرآن الكريم آيات للشفاء من الأمراض الجسمية أيضاً، يخلق الله تعالى ببركة تلاوتها الشفاء من كثير من الأمراض البدنية إذا تليت مع حُسن اعتقاد وصلاح .

• أسباب الشر:

ولا يكون الشر إلا بالإعراض عن القرآن الكريم، وترك أحكامه، وهجر شريعته، فالخير من الله سبحانه فضلاً ورحمة، وأما الشر فهو بسبب إعراضنا عن هدي القرآن الكريم وشرعه القويم، فأَسْبَابُ الشرِّ نابعةٌ من أنفسنا وسوء كسبنا واختيارنا، ولهذا قال تعالى :

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ ﴿٨٣﴾ .

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ﴾ أي : إذا أنعمنا عليه بالصحة والخير أعرض عن هدينا وشرعنا وطاعتنا، وابتعد مستكبراً .

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالفقر والمرض وغيرهما من المصائب .

﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أي : شديد اليأس من رحمة الله تعالى .

وهذا حال بعض الناس، وبعضهم قد يعرض عن الله تعالى في الرخاء، ويذكره فقط في الضراء، ولهذا قال سبحانه في سورة فصلت : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ ﴿٥١﴾ .

وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد إنعام الخير إلى الله تعالى دليل على أن الخير مراد لله تعالى لذاته، تفضلاً منه سبحانه ورحمة، وأما الشر فهو غير

مراد له سبحانه بذاته، وإن كان بخلقه تعالى وإيجاده، بل هو بسبب إعراضنا عن هدي كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، يوضحه قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مَّصِيكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وسبق أن مرر معنا في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

• اختلاف المواقف:

ثم بيّن سبحانه سبب اختلاف مواقف الناس وأعمالهم بهذا التحليل العميق للنفس البشرية وما تنطوي عليه من نوازع للخير والشر، فقال:

﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي: يعمل عمله من خير أو شر على طريقته التي تناسب حال نفسه، وما انطوت عليه من نوازع الخير والشر، فإذا قويت نوازع الخير في نفسه كان عمله خيراً، وإذا قويت نوازع الشر في نفسه كان عمله شراً. أو كلُّ يعمل على طريقة تناسب روحه، وما انطوت عليه من طيب أو خبث، لأن الروح البشرية إما أن تكون روحاً طيبة أو روحاً خبيثة، والدليل عليه ما ورد في الحديث الشريف: «أنَّ ملك الموت عندما يجيء ليقبض روح العبد المؤمن يقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. وعندما يصعد بها إلى السماء تقول ملائكة السماء: ما هذه الروح الطيبة؟. ويقول ملك الموت عند قبض روح العبد الكافر: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب». وعندما يصعد بها تقول الملائكة: ما هذه الروح الخبيثة» [رواه أحمد عن البراء (٢٨٨/٤) ورواه مسلم (٢٨٧٢) وأبو داود (٣٢١٢) والنسائي (٧٨/٤) وابن ماجه (١٥٤٩) وانظر تمام الحديث ثمة].

وقد فسّرت الشاكلة أيضاً بالطبيعة والعادة والدين^(١).

(١) تفسير أبي السعود: ٣/٣٤٩.

فتصرفات الإنسان وأعماله الظاهرة تُعكسُ حقيقةً ما تنطوي عليه نفسه، وما تتَّصف به روحه، ومهما حاول بعض الناس كالمنافقين أن يستروا حقيقة دخالهم، وما تنطوي عليه نفوسهم، فلا بدَّ أن تظهرَ حقيقتهم فيما يبدر من أعمالهم وتصرفاتهم، «فكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ»، وإذا تمكَّنوا أن يستروا حقيقتهم عن الناس لبعض الوقت فإن الله سبحانه عليم بأحوالهم باطنًا وظاهرًا، يعلم ما يُخفون وما يكتُمون، ولهذا قال في نهاية الآية:

﴿فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

• قصور علم الإنسان:

واختلاف طبائع الناس نابع من اختلاف حقيقة أرواحهم، وهي سرٌّ من الأسرار التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلم حقيقة الروح إلا الله تعالى، قال سبحانه:

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ سؤال اختبار وامتحان، والسائلون بعض مشركي قريش بإشارة من يهود المدينة المنورة، الذين قالوا لهم: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي^(١). فأنزل الله تعالى سورة الكهف، وذكر فيها قصة أصحاب الكهف، وبعض الأخبار عن ذي القرنين، وأنزل هذه الآية في سورة الإسراء يأمر النبي ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من شأن ربي، فهو سبحانه الذي استأثر بعلمها، فلا يعلم حقيقة الروح غيره سبحانه^(٢).

والآية تتحدَّى جميع الناس، فمهما تعمَّقوا في العلم، وزادت معارفهم، تبقى علومهم ومعارفهم محدودة وقاصرة وقليلة بجانب علم الله تعالى، الذي قال:

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة.

(٢) قلت: وفَسَّرَ بعض أهل العلم الروح هنا بالوحي، وهو تفسير متجه، والله تعالى أعلم (ن).

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ﴾ يدل على أن كلَّ علمٍ يكتسبه الناس هو من فضل الله تعالى عليهم، فهو سبحانه الذي آتاهم هذا العلم وهداهم إلى تحصيله، والجهود التي يبذلها الإنسان في تحصيل العلم ليست سوى أسباب، أما المعلم الحقيقي فهو العليم الحكيم سبحانه، الذي ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ [العلق: ٥].

وكم في طلاب العلم من يعانون أسباب تحصيل العلم ولا يتعلمون. ولا يستطيع الناس أن يُحصِّلوا من العلوم إلا ما قدَّر الله تعالى لهم تحصيله، فالأمر منوط بمشيئته وقدرته سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فلا ينبغي لأهل العلم أن يغترُّوا ويتكبروا بسبب ما حصَّلوا من علوم، فالفضل لله العليم الحكيم أولاً وآخرأ، وعليهم أن يصرفوا علومهم في شكر الله تعالى الذي علَّمهم، وفي عبادته وعمارة الأرض بطاعته.

• تثبيت القرآن في قلب النبي عليه الصلاة والسلام:

أنعم الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام بتثبيت آخر غير ما مرَّ معنا من تثبيته وهو يواجه كيد المشركين ومكرهم في مكة المكرمة، وهو تثبيت القرآن الكريم في قلبه الشريف عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم، وقد كان ﷺ في أول الأمر يخشى عند نزول جبريل عليه بالقرآن الكريم أن ينسى بعض كلماته، ولهذا كان يردُّد كلمات القرآن بلسانه عندما يتلقَّاه من أمين الوحي جبريل عليه السلام، فأنزل الله تعالى عليه قوله الكريم: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِغْ ۚ قُرْآنَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ﴾ [القيامة: ١٧].

وقد تكفل الله في هذه الآيات الكريمة أن يجمع القرآن الكريم في صدر النبي عليه الصلاة والسلام، فلا يفوت النبي عليه الصلاة والسلام منه شيء أبداً، ثم أنزل عليه هذه الآية الكريمة يبيِّن فضله سبحانه بتثبيت القرآن الكريم في قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام فقال:

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ ﴿٨٦﴾ .

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وذلك بأن نمحوه من صدرك، ونمحوه أيضاً من السطور، وقد كان ﷺ يحرصُ على كتابة ما ينزل عليه من القرآن الكريم بواسطة كُتَّاب الوحي فور نزوله عليه .

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ تتوكل عليه في استرداده وإعادته .

وإن تثبيت القرآن الكريم في قلب النبي عليه الصلاة والسلام رحمة عظيمة من الله تعالى وفضل كبير، ولهذا قال سبحانه:

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ ﴿٨٧﴾ .

فالفضل والمِنَّة لله سبحانه في إنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ، وتثبيته في قلبه، وكذلك في تثبيته في قلوب حَفَّاز القرآن الكريم من أُمته .

وقد جاء في بعض الأحاديث: أَنَّ الله ﷻ سيرفَع القرآن الكريم في آخر الزمان قبل يوم القيامة، وذلك عندما يُعْرِضُ النَّاسُ عنه إعراضاً كلياً، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدْرَسُ الإسلامُ كما يُدْرَسُ وَشْيُ الثَّوبِ حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَدَقَةٌ وَلَا نَسْكٌ، وَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَيَبْقَى الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَحْنُ نَقُولُهَا» [رواه ابن ماجه (٤٠٤٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٨) والحاكم (٤٧٣/٤) وصححه].

• التحدي بالقرآن الكريم:

ثم قال سبحانه للنبي ﷺ زيادةً في تثبيته، وتقويةً لقلبه، وبياناً لجلال قدر القرآن الكريم وتفخيماً لشأنه:

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (٨٨) .

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ؛ هذا التحدي المطلق للإنس والجن بكل ما فيه من صراحة ووضوح وحزم تام وثقة كاملة يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو تحد مفتوح على كل زمان ومكان، فهو لا يزال قائماً في فم الزمن، يتحدث الإنسان والجن إلى قيام الساعة مجتمعين أو متفرقين :

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ أي : معيناً ومساعداً .

ورغم هذا التحدي الذي يدل دلالة قاطعة على أنه كلام الله تعالى ، ورغم ما في القرآن الكريم من الحقائق العلمية والأدلة القطعية التي تلزم الناس بالإيمان به ، والتصديق برسالته ، فإن أكثر الناس امتنع عن الإيمان به ، وأبى أن يذعن لرسالته كما قال سبحانه :

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ (٨٩) .

وكلمة (أبى) تدل على شدة إعراضهم عن القرآن الكريم ، وكثرة جحودهم ، وقوة عنادهم .

● المعجزات المقترحة:

ورغم ظهور عجز المشركين أمام تحدي القرآن الكريم ظلوا متمسكين بكفرهم وشركهم عناداً وجحوداً ، ولم يكتفوا بهزيمتهم أمام سلطان القرآن الكريم وعجزهم عن تحديه ومواجهته ، بل تقدموا إلى النبي ﷺ يطلبون منه تحقيق ما يقترحون عليه من المعجزات :

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَيْلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ .

(كِسْفًا) أي: قطعاً.

(قَيْلًا) أي: مقابلين لنا.

(زُخْرَف) أي: ذهب.

هكذا أرادوا أن يستروا هزيمتهم وعجزهم عن تحدّي القرآن الكريم، فقابلوا النبي ﷺ بكلّ هذا التكبر والجحود، فماذا كان جواب رسول الله ﷺ؟! .
كان جوابه عليه الصلاة والسلام دليلاً واضحاً على تثبيت الله تعالى له في مثل هذه المواجهة، فقد بقي عليه الصلاة والسلام هادئاً رابط الجأش، قوي الإرادة، فلم يتمكنوا من زعزعته وإثارته، بل أجابهم بكلمات تدل على شدة ثقته بربه، وعظيم تواضعه في نفسه، مع كمال التفويض لله والتزيه والتقديس:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ .

إنه عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة حقاً، فلو أنه عليه الصلاة والسلام استجاب لمقترحاتهم، وسأل الله تعالى أن يحقق لهم معجزة من هذه المعجزات التي اقترحوها كما فعل الأنبياء والمرسلون قبله، ثم كُذِّبوا، لاستأصلهم بالعذاب، وأهلكهم كما أهلك الأمم من قبلهم، ولكنه عليه الصلاة والسلام ثبت في وجه تكبرهم وجحودهم، وتحمل عنادهم رحمة بهم، لعل الله تعالى أن يهديهم فيسلموا، أو يخرج من أصلابهم من يوحد الله تعالى.

● شبهة زائلة:

ولم يبقَ للمشركين بعد كل هذا البيان القاطع شبهة يتمسكون بها تمنعهم من الإيمان إلا إنكارهم أن يرسل الله تعالى من البشر رسولاً:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ (٩٤).

فأزال الله تعالى شبهتهم هذه، وردَّ عليهم بقوله:

﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمَشُّونَ مِطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ﴾ (٩٥).

﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمَشُّونَ مِطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها ومقيمين كما هو حال البشر.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾.

فحكمته تعالى اقتضت أن يكون هناك توافق وتجانس بين الرسول والمرسل إليهم، ليسهل عليهم الاجتماع بالرسول والتلقِّي منه، ولو أنزل الله تعالى عليهم ملكاً لظهر لهم بصورة البشر، كما ظهر جبريل ﷺ للصحابة عندما أتى إلى رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة، وقال رسول الله ﷺ بعد انصرافه: «أتدرون من السائل؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذاك جبريل أناكم يعلمكم أمور دينكم» [رواه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٩)].

وحينئذٍ تحصل لهم الشبهة نفسها التي اعترضوا بها على النبي ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيُشُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

• الجولة الأخيرة:

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يواجه إنكارهم وجحودهم بكلمة أخيرة يوجِّهها لهم، وهي شهادة الله تعالى على صحة رسالته وصدق نبوته، وهي أعظم الشهادات وأجلُّها، لأنها شهادة العليم الخبير التي تُعني عن كل شهادة:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٩٦).

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، فلا كلام لأحدٍ بعد شهادة الحق

ﷺ، وهي تكفي عن كل دليل وبرهان يدل على صدق النبي ﷺ وصحة نبوته، ولهذا كانت هذه الكلمة الجولة الأخيرة في المواجهة.

وقد يقول قائل: كيف يعرف القوم أنَّ الله تعالى يشهد بصدق النبي عليه الصلاة والسلام؟.

قلت: إِنَّه سبحانه عليم بأحوال خلقه، فلو كان عليه الصلاة والسلام متقولاً على الله لأهلكه الحق سبحانه، كما قال: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

ولكنه سبحانه لم يفعل ذلك، بل أيد النبي ﷺ ونصره وثبته، وأنزل عليه الآيات الكريكات تحمل له بشار النصر منه سبحانه، وتبين الحجج القاطعة الدالة على صدقه وصحة رسالته:

﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ﴾ ولا يزال سبحانه:

﴿خَيْرًا بَصِيرًا﴾.

• المشي على الوجوه:

وبعد الجولة الأخيرة في المواجهة بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين المشركين جاء دور آيات الوعيد والتهديد، فكثير من الناس لا يصلح معهم أسلوب البيان بالبرهان، فلا بدّ إذاً من اللجوء إلى أسلوب الوعيد والتهديد، وبدأه سبحانه ببيان كمال قدرته وتما مشيئته النافذة في جميع خلقه، فلا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وِيكَمَا وَصْنَا مَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ﴾ بسبب سوء اختياره وكسبه وعناده وجحوده.

﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: لن تجد لهم أنصاراً يهدونهم إلى الحق

غير الله تعالى، فشأن الهداية والضلال منوط بإرادته التامة سبحانه النافذة في جميع مخلوقاته.

وجاء الإخبار بالآية عن الهداية بخبر الواحد، بينما أخبر عن الضلال بالجمع لبيان قلة المهتدين وكثرة الضالّين، أو لبيان وحدة طريق الحق وقلة سالكيه، وتعدّد سبل الضلال وكثرة الضالّال^(١).

ثم وصفت الآيات صورةً مرعبةً مخيفةً لكيفية حشرهم يوم القيامة وسوّقهم من قبورهم إلى أرض المحشر بقوله تعالى:

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: نسوقهم إلى أرض المحشر وهم يمشون على وجوههم حقيقة.

ولما سمع الصحابة رضي الله تعالى عنهم هذه الآية الكريمة ملأ الخوف والتعجب قلوبهم، فقالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، كيف يُحْشَرُ الناسُ على وجوههم؟! فقال عليه الصلاة والسلام مؤكّداً حقيقة ما جاء في الآية الكريمة: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادرٌ على أن يُمشيهم على وُجُوهِهِمْ» [رواه أحمد (٣/ ٢٢٩) عن أنس رضي الله عنه، وهو في البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦)].

وهذا الحشر على الوجوه لا يكون لجميع الناس، وإنّما هو للمعرّضين عن دعوة الرسول ﷺ والجاحدين لرسالته، فبعض الناس يُحشرون من قبورهم مشاةً، وبعضهم يحشرون ركباً تكريماً لهم.

قال عليه الصلاة والسلام: «يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على ثلاثة أصنافٍ: صنفٍ مشاة، وصنف ركباً، وصنف على وجوههم» قيل: يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم، إنَّهم يتقون بوجوههم كلّ حَدَبٍ وشَوْكٍ» [رواه أحمد (٥/ ١٦٤) والنسائي (١١٦/٤)].

ومع الحشر على الوجوه يكونون:

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٩٥.

﴿عُمِيًّا وَيُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي: لا يبصرون، ولا ينطقون، ولا يسمعون، وهذا - كما قال ابن كثير رحمته الله - يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا عُمِيًّا وَيُكْمًا وَصُمًّا عن الحق، فُجُوزُوا في محشرهم بذلك وهم أحوج ما يحتاجون إليه^(١)، والجزاء من جنس العمل كما سبق بيانه في هذه السورة. ومصيرهم بعد ذلك إلى جهنم:

﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: كلما سكنت زادها الله تعالى لهباً ووهجاً وجمراً.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِنَّ ذَا كُنَّا عِظَمًا وَإِرْفَتَاءً تَالْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

فالتكذيبُ بآياتِ الله، وإنكارُ يومِ القيامة من أعظمِ المكفَّراتِ قبحاً، لأنهما تَوَدَّيَانِ إلى وصفه سبحانه بصفات لا تليقُ بكماله وجلاله وحكمته وقدرته، ولهذا تكرر ذكرهما هنا في السورة استعظاماً لهما، وبياناً لشدة قبحهما. وعندما قدَّر سبحانه للمكذِّبين بآياته والمنكرين ليومِ القيامة أن يعذبَهم عذاباً شديداً لم يكن ظالماً لهم، إنَّما هم الذين ظلموا أنفسهم بالإعراض عن دلائل قدرته الماثلة في هذا الكون الكبير المحيط بهم:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة. ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾.

• الحسد والبخل:

كان حسد المشركين للنبي صلوات الله عليه أهم الأسباب التي جعلتهم يتمسكون

(١) تفسير ابن كثير: ٦٥/٣.

بعنادهم وجحودهم وإصرارهم على كفرهم وشركهم .

وقولهم الذي حكاه الله تعالى عنهم : ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] يدل على أن القوم لم يعترضوا على بشرية الرسول عليه الصلاة والسلام فقط ، وإنما اعترضوا أيضاً على حكمة الله في اختياره محمداً ﷺ وتفضيله عليهم واصطفائه من بينهم ، مع أنه عليه الصلاة والسلام كان يتيماً فقيراً ! .

وقد أظهر الله تعالى موقفهم من النبي عليه الصلاة والسلام موقف الحاسد عندما حكى قولهم في سورة الزخرف : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ . وردَّ سبحانه عليهم فقال : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] .

وقوله تعالى : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

والحسد يدل على بخل الحاسد ، ولا يكون الحسد عادة إلا عند الإنسان البخيل الشحيح الذي لا يحب إلا نفسه ، ولا يريد الخير لغيره ، ويكره أن يرى نعمة الله تعالى تصل إلى غيره ، ولهذا وصف الله تعالى المعاندين الجاحدين لرسالة النبي ﷺ بصفة البخل الشديد فقال :

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ .

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي : خزائن نعمة التي أفاض منها على كافة المخلوقات .

﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي : لبخلتم مخافة الفقر ، لأن عاقبة الإنفاق الفقر .
﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ مبالغاً في البخل .

ولا شك أن جنس الإنسان مجبور على البخل ، لأنه يستشعر حاجته وضعفه ، والذي يتغلب على ما جُبِلَ عليه من شح وبخل ، ويؤدّي ما أوجب الله عليه في ماله يكون من المفلحين : ﴿وَمَن يُؤْتَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

فَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ بُغْضِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَشِدَّةِ حَسَدِهِمْ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لِأَنَّهَا وَصَفَتْهُمْ بِأَبْلَغِ دَرَجَاتِ الْبَخْلِ وَالشَّحِّ، فَلَوْ أَنَّهُمْ مَلَكَوا خَزَائِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي لَا تَنْتَاهِي لِبَخْلِهِمْ بِهَا وَلَمْ يَنْفَقُوا مِنْهَا شَيْئًا.

• فرعون والمعجزات التسع:

مَرَّ مَعْنَا فِي آيَاتِ السُّورَةِ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْضَ الْمَعْجَزَاتِ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُفْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فُجْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ۚ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٣﴾.

وَذَكَرْتُ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ لَوْ حَقَّقَ لَهُمْ مَا طَلَبُوا، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِمْ لِأَهْلِكِهِمْ بِعَذَابٍ يَسْتَأْصِلُهُمْ، كَمَا أَهْلَكَ الْأَمَمَ الْكَافِرَةَ قَبْلَهُمْ، وَلَعَلَّ أَوْضَحَ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ مَوْقِفَ فِرْعَوْنَ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي أَيْدَى اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نَبِيَّهِ مُوسَى ﷺ بَعْدَ أَنْ طَلَبَهَا فِرْعَوْنُ مِنْ مُوسَى، ﴿قَالَ إِنْ كُنْتُ جِئْتُ بِثَآئِفَةٍ فَأَتِ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٠١ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٢ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ۝١٠٣﴾ [الأعراف].

وَتَتَابَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعْجَزَاتُ تَوْيِدَ مُوسَى ﷺ وَتَوَكَّدَ صَدَقَ نُبُوَّتِهِ وَصَحَّةَ رِسَالَتِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

فَاسْتَمَرَّ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ: ﴿وَقَالُوا مَا تَأْتِيَنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وَعَادَتِ الْمَعْجَزَاتُ تَتَابَعَتْ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَلَغَتْ تِسْعًا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۚ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

هَذِهِ الْمَعْجَزَاتُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ مُفَصَّلَةً ذَكَرَهَا هُنَا مُجْمَلَةً فَقَالَ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ۝﴾ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام. وقوله تعالى له: ﴿فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يظهر صدق النبي ﷺ للمشركين المعاندين، ويعرض بيهود المدينة المنورة الذين أشاروا على وفد المشركين الذي أرسلته قريش إليهم ليسألوا رسول الله ﷺ عما سبق الجواب عليه في سورة الكهف، وعن الروح التي مر ذكرها في هذه السورة.

﴿إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا﴾ أي: سحرت فاختل عقلك. فرد عليه موسى:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ مُشْبُورًا ۝﴾ .

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ أي: دلائل واضحة مكشوفة، فأنت يا فرعون في قرارة نفسك تعلم الحقيقة، ولكنك تنكرها تكبراً وجحوداً.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ مُشْبُورًا﴾ أي: هالكا.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ۝﴾ .

﴿فَأَرَادَ﴾ أي: فرعون.

﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ﴾ أي: موسى والذين آمنوا معه.

﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ بتعذيبهم بالصلب والقتل.

﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ .

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۖ﴾.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد إغراق فرعون.

﴿لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي: اسكنوها سكن المتمكن فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ويبدو أنها أرض فلسطين من بلاد الشام، لأنه سبحانه وصفها بهذا الوصف بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، كما مرر معنا عند الحديث عن أرض الإسرائ.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعاً، والمراد من الآخرة الكربة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة. والمراد على جميع ذلك قيام الساعة^(١).

واختار بعض المعاصرين ممن يتحدثون في التفسير أن المراد من الآخرة هنا هو الإفساد الثانية التي ذكرها الله تعالى في أول السورة عندما قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسرائ: ٧]، وأنها ما يفعله اليهود في العصر الحاضر في فلسطين، وفسر قوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جمعناكم في أرض فلسطين.

لكن هذا الرأي كما سبق وبينته لا يتفق مع قوله تعالى بعد أن ذكر الإفسادتين: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسرائ: ٨] فهو يدل دلالة واضحة صريحة على أن الإفسادتين حدثتا قبل نزول القرآن الكريم، والله أعلم.

• الآيات الأخيرة:

ثم جاءت الآيات الأخيرة في السورة كلماتٍ حانيةٍ رقيقةٍ تمسح على قلب النبي ﷺ ومواسية ومثبتة:

(١) انظر: روح المعاني: ١٨٧/١٥.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٠٥﴾ .

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن الكريم، فما أنزله الله تعالى إلا لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ وما أنزله سبحانه إلا مشتملاً على الحق، ففيه الهداية إلى أقوم دين وأحكم شريعة كما مر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يبشِّرُ المؤمنين بفضله سبحانه ورحمته، وينذر الكافرين المعاندين بعذابه وعقابه.

وجاءت الآية الكريمة هنا مخاطبةً النبي ﷺ مباشرةً بعد المواجهة الكبيرة التي سبق ذكرها في آيات السورة، ومنسجمةً مع وصف الله تعالى للقرآن الكريم في أول السورة: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝١٠٦﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠٧﴾ .

• نزول القرآن الكريم مفزقاً؛

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون نزول القرآن الكريم مفزقاً ومنجماً على حسب المراحل التي مرّت بها الدعوة الإسلامية، والحوادث التي واجهت النبي عليه الصلاة والسلام، فكان ذلك أدعى لتثبيت النبي ﷺ، وأسهل عليه في تبليغه للناس وقراءته عليهم، وهو من فضله سبحانه على نبيه عليه الصلاة والسلام، ومن الخصائص التي خصّه بها دون سائر النبيين والمرسلين الذين أنزل الله عليهم ما أنزل من الكتب جملة واحدة، فقال سبحانه:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ۝١٠٦﴾ .

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ﴾ أي: على مهل وتؤدة وثبتت، فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم.

﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ أي: شيئاً بعد شيءٍ على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، ويقع من الحوادث والوقائع.

وفي الآية ردٌّ على اعتراض مشركي قريش على إنزال القرآن الكريم مُفَرَّقًا، فقد حكى الله عنهم هذا في قوله الكريم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقد ظهر وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن الكريم في نزوله منجماً ومُفَرَّقًا على حسب ما تقتضيه الحوادث والوقائع على مدى ثلاث وعشرين سنة، ثم في ترتيب آياته في السور هذا الترتيب المحكم المتناسق مع موضوع السورة الأساس في آياتها الأولى، وهو يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فمن يستطيع أن يأتي بكلام يوافق الحوادث والوقائع التي تواجهه على مدى ثلاث وعشرين سنة، ثم بعد ذلك يجمع هذا الكلام ويؤلفه في كتاب يأتي متسقاً فيما بينه، ومحكماً غاية الإحكام؟! إنَّ ذلك فوق طاقة البشر وقدراتهم، ولا يقدر عليه إلا الخالق الحكيم سبحانه الذي أحاط بكل شيء علماً أزلاً وأبداً.

● سجود الشكر وسجود الخشية:

وأخيراً أمرت الآياتُ الكريمةُ النبي ﷺ أن يقول للكافرين تحقيراً لحالهم وتهويناً لشأنهم:

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ۚ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالَّذِقَانِ سَجْدًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ﴾ أي: القرآن الكريم.

﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فإن إيمانكم لا يزيده كمالاً، وامتناعكم لا يورثه نقصاً، لأن القرآن كتاب عزيزٌ كاملٌ بنفسه ومكملٌ لغيره.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: إن العلماء الذين قرؤوا الكتب السالفة من قبل

نزول القرآن الكريم، وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوة، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ورأوا فيها نَعْتَكَ وَنَعْتَ ما أنزل إليك:

﴿إِنَّا يَسْأَلُ عَلَيْهِمْ يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: يسقطون على وجوههم.

﴿سُجَّدًا﴾ تعظيماً لأمر الله تعالى، وشكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بعثة النبي ﷺ (١).

وشكراً له سبحانه أيضاً أن هداهم إلى الإيمان بخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجعلهم يدركون بعثته الشريفة، ويكونون من أمتة عليه الصلاة والسلام.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم.

﴿سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾ عما يفعل الكفار من التكذيب والعناد.

أو يتنزه ربنا عن خُلف وعده في بعثته خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويؤكد هذا المعنى قوله بعد ذلك:

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ فلا خُلف في وعده سبحانه.

ثم ذكر سبحانه أنهم يسجدون سجدة ثانية وهم يكون خشية من الله تعالى، وقد زادهم سماع آيات القرآن الكريم تعظيماً لله تعالى، فامتلات قلوبهم بالخشوع، وعيونهم بالدموع، فعادوا إلى السجود:

﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ سجود الخشية والتعظيم، وهذا يدل على شدة تأثرهم بسماع آيات القرآن الكريم، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي: سماع القرآن الكريم:

﴿خُشُوعًا﴾.

وفي «سيرة ابن هشام»: «عن ابن إسحاق قال: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه، وكَلَّمُوهُ وسألوه، ورجال من قريش في أُنْدِيَتِهِمْ حول الكعبة.

فلَمَّا فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عَمَّا أَرَادُوا، دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وتلا عليهم القرآن، فلَمَّا سمعوا القرآن فاضت أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ، ثم استجابوا لله، وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا ما كان يوصفُ لهم في كتابهم من أمره.

فلَمَّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خَيِّبَكُمُ اللَّهُ مِنْ رَكْبٍ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئنْ مجالِسُكُمْ عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نعلمُ ركباً أحقق منكم! فقالوا لهم: سلامٌ عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيراً»^(١).

وتدلُّ الآية على أَنَّ العلماء ينبغي أن يكونوا أكثر خشوعاً وخضوعاً لله تعالى من غيرهم، وأن تكونَ عيونُهُمْ فَيَاضَةً بالدَّمْعِ خشية من الله تعالى، وقد جاء في الحديث الشريف: «لا يُلْجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تعالى حتى يعودَ اللبنُ في الضَّرْعِ» [رواه النسائي (١٢/٦) والترمذي (١٦٣٣)].

• آية العز:

وكما بدأت آيات هذه السورة بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ووحدانيته خُتِمَتِ السورة بحمد الله تعالى وتمجيده وتكبيره

وتعظيمه، فله ﷻ تقدّست أسماؤه وتعالّت صفاته الأسماء الحسنى الدّالة على كماله وجلاله وجماله وإحسانه، ولنا أن نسمّيه سبحانه وندعوه بأي اسم من أسمائه الحسنى التي ذُكرت في القرآن الكريم وفي السّنة النبوية الشريفة:

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝﴾ .

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ إذا واجهتك مصائب الحياة الدنيا ألجأ إلى الله تعالى، ألجأ إليه سبحانه في كلّ مواجهة، وارفع إليه سبحانه يد الافتقار والضراعة، واستمطر بذلك تثبيته وتأييده، فأنت في كلّ موقف من مواقف الحياة محتاجٌ إليه سبحانه، ومفتقر إلى فضله وجوده.

وإذا دعوت الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى أو وقفت بين يديه سبحانه في الصلاة فلا ترفع صوتك بالدعاء والقراءة:

﴿وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ﴾ فإنّه سبحانه سميع بصير يعلم السر وأخفى.

﴿وَلَا تَخَافُوا يَهَا﴾ بحيث لا تُسمع من معك من المؤمنين.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أمراً وسطاً، وهذا يدل على أنّه يستحبُّ في الدعاء وقراءة القرآن الكريم عدم رفع الصوت فوق الحاجة.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِثْرٌ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ۝﴾ .

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يزعم النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، واليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والمشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ أي: في الربوبية، فهو سبحانه وحده الخالق المالك المدبر لجميع شؤون خلقه.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنَّه سبحانه غني لا يحتاجُ إلى أحد، وجميع الخلق محتاجون إليه سبحانه، وموالاته سبحانه لعباده المؤمنين مَحْضُ فضلٍ منه سبحانه لينصرهم ويمنعهم.

﴿وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عَظَمَه سبحانه تعظيماً يليق بجلاله وكماله.

وقد سَمَّى رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة: آية العز. [رواه أحمد (٤٣٩/٣) والطبراني (١٩٢/٢٠)].

وكان ﷺ يعلمُ هذه الآيةَ الصغيرَ من أهله والكبير^(١).

وتنفيذاً لأمر الله ﷻ في آية العز أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وأسأله سبحانه الثبات على الإيمان. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله أولاً وآخراً.



(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٧٠/٣.

فهرس الموضوعات

تفسیر سورة هود

المَسْئُولِيَّةُ وَالْجَزَاءُ فِي سُورَةِ هُود

- المقدمة ٥
- تمهيد: موضوع السورة ٧
- الفصل الأول: التَّكْلِيفُ وَالْمَسْئُولِيَّةُ ٩
 - إِحْكَامٌ وَتَفْصِيلٌ ١٠
 - نذارة وشارة ١٢
 - استغفار وتوبة ١٢
 - تقرير المسؤولية ١٤
 - كمال علمه تعالى ١٥
 - الخلق والابتلاء بالتكليف ١٨
 - إنكار واستهزاء ٢٠
 - يأس وكفران ٢١
 - صبر وشكر ٢٣
 - تثبيت وتحريض ٢٤
 - التحدي بالقرآن الكريم ٢٦
 - عمل الدنيا وعمل الآخرة ٢٧
 - البيّنة والشاهد ٢٩
 - مقارنة وتمثيل وتقرير ٣١
- الفصل الثاني: قِصَصٌ مِنَ التَّارِيخِ ٣٧
 - تمهيد ٤٠
 - قصة نوح وقومه ٤١
 - سفينة نوح ٤٨

- شحن السفينة وتحميلها ٥١
- الطوفان ٥٣
- الوالد المشفق والولد المغرور ٥٤
- انتهاء الطوفان وعودة التوازن ٥٦
- المسؤولية الشخصية ٥٧
- البشرية من جديد ٦٠
- قصة هود وقومه ٦٢
- براءة وَتَحَدَّ ٦٦
- العذاب الغليظ ٦٨
- قصة صالح وثمرود ٧٠
- بين يدي قصة لوط وقومه ٧٤
- إبراهيم والبشرى ٧٥
- بيت النبوة ٧٨
- في بيت لوط ٨٠
- الصبح القريب ٨٣
- قصة شعيب وقومه ٨٥
- خطيب الأنبياء ٨٨
- توبيخ وتحدَّ ٩٠
- موسى وفرعون ٩٣
- الفصل الثالث: الاستقامة على التكليف والتَّحذِيرُ مِنَ الظُّلْمِ ٩٥
- التعقيب ٩٦
- تحذير عام ٩٧
- الأشقياء والسعداء ٩٩
- الجزاء الوافي ١٠٢
- الأمر بالاستقامة ١٠٣
- الركون إلى الظالمين ١٠٥
- الصلاة والإحسان ١٠٦
- الترف وانتشار الفساد ١٠٨
- الرحمة والخلق ١١١

● الخاتمة ١١٣

تفسير سورة يوسف

الْوَحْيُ وَالنُّبُوءَةُ وَالْعِلْمُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ

- المقدمة ١١٥
- تمهيد: موضوع السورة ١١٧
- الفصل الأول: المَحَنُ الْمُتَوَالِيَةُ الَّتِي مَرَّ بِهَا يُوسُفُ ﷺ ١١٩
- القرآن الكريم واللغة العربية ١٢٢
- اللغة العربية والعلم ١٢٣
- رؤيا يوسف ﷺ ١٢٥
- تأويل الأحاديث ١٢٧
- الرؤيا عند علماء النفس ١٢٨
- الرؤيا التنبئية ١٢٩
- إخوة يوسف ليسوا أنبياء ١٣٢
- البغاة الحَسَدَةُ ١٣٥
- التسوية بين الأبناء ١٣٦
- المؤامرة ١٣٨
- تنفيذ الجريمة ١٤٠
- في قَعْرِ الجب ١٤٢
- التزوير والكذب ١٤٤
- الصبر الجميل ١٤٦
- استعباد الحُر ١٤٧
- باعوا النبي ﷺ ١٤٨
- والله غالب على أمره ١٥٠
- تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء ١٥١
- المعركة ١٥٣
- الانتصار ١٥٤
- إثبات ونفي ١٥٦
- برهان ربّه ١٥٨

- الفرار ١٦٠
- براءة يوسف ﷺ ١٦٣
- المتكلمون في المهد ١٦٥
- المقطعات أيديهن ١٦٨
- ضحايا الفساد والاستبداد ١٧٠
- يوسف ﷺ في السجن ١٧٣
- رؤيا الفتيتين ١٧٤
- دعوة إلى الله في السجن ١٧٥
- رؤيا الملِك ١٧٩
- تعبير الرؤيا ١٨١
- التخطيط للمستقبل ١٨٣
- المطالبة بالتحقيق ١٨٤
- التحقيق والبراءة ١٨٦
- دروس وعبر ١٨٨
- الفصل الثاني: يُوسُفُ ﷺ في سُدَّةِ الحُكْمِ والسُّلْطَانِ ١٩٠
- المكين الأمين ١٩٢
- طلب العمل والمنصب ١٩٣
- الرجل المناسب في المكان المناسب ١٩٤
- الحاكم الصالح ١٩٦
- المعجزة الاقتصادية ١٩٧
- التوزيع ١٩٨
- قدوم إخوة يوسف إلى مصر ١٩٩
- رسالة رمزية إلى يعقوب ٢٠٢
- التوكل والحذر ٢٠٤
- العين والحسد ٢٠٥
- لقاء الشقيقين ٢٠٧
- الاتهام بالسرقة ٢٠٨
- الحقد القديم ٢١١
- تأنيب الضمير ٢١٣

- دموع يعقوب ﷺ ٢١٥
- كشف الحقيقة ٢١٨
- بين موقفين ٢٢٠
- الدواء والشفاء ٢٢١
- ربح يوسف وآثار الأنبياء ٢٢٣
- تعارض وتناقض ٢٢٥
- تأويل الرؤيا ٢٢٦
- أمنية يوسف ٢٢٩
- الفصل الثالث: تَعْقِيَّاتٌ عَلَى قِصَّةِ يُوسُفَ ﷺ ٢٣١
- التعقيب الأول ٢٣١
- قصة يوسف بين القرآن والتوراة ٢٣٣
- التعقيب الثاني ٢٣٥
- التعقيب الثالث ٢٣٦
- التعقيب الرابع ٢٣٧
- التعقيب الخامس ٢٣٩
- التعقيب السادس ٢٤١
- التعقيب السابع ٢٤٢

تفسير سورة الرعد

الأسبابُ والمُسَبِّبَاتُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ

- المقدمة: موضوع السورة ٢٤٣
- تفسير سورة الرعد: الأسبابُ والمُسَبِّبَاتُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ ٢٤٥
- الْخَلْقُ وَالتَّدْيِيرُ ٢٤٧
- التأثير والتخصص ٢٤٩
- أعاجيب المعاندين ٢٥٢
- كمالِ عِلْمِهِ تعالى ٢٥٥
- من الحقائق العلمية في القرآن ٢٥٦
- الارتباط بين الأسباب والمسببات ٢٥٨
- إنشاء وتدمير وتسبيح ٢٦١

٢٦٤	- دعوة الحق
٢٦٦	- تقرير وبرهان
٢٦٧	- الحق والباطل في الحال والمآل
٢٧٠	- مقدمات ونتائج
٢٧٣	- الأسباب والرزق
٢٧٦	- الاطمئنان بذكر الله تعالى
٢٧٨	- المعجزة القرآنية
٢٨٠	- تبشير وتثبيت
٢٨٣	- العاقبتان
٢٨٤	- التنزيل العربي
٢٨٧	- المحو والإثبات
٢٩١	- حُكْمه تعالى المبرم وشهادته الخالدة

تفسير سورة إبراهيم

الدَّعْوَةُ وَالْهُدَايَةُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ

٢٩٥	• المقدمة: موضوع السورة
٢٩٧	• تفسير سورة إبراهيم: الدَّعْوَةُ وَالْهُدَايَةُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ
٣٠٠	- دعوة النبي الخاتم ﷺ
٣٠١	- أسباب الضلال
٣٠٣	- تيسير أسباب الهداية
٣٠٤	- دعوة موسى ﷺ
٣٠٧	- دعوة الرسل ﷺ
٣١٢	- العذاب الغليظ
٣١٥	- تخاصم أهل النار
٣١٧	- خطبة الشيطان في جهنم
٣١٩	- كلمتان وشجرتان
٣٢١	- تثبيت وحُذْلان
٣٢٤	- الشكر والعبادة
٣٢٦	- دعوة إبراهيم ﷺ

- ٣٢٨ - الصلاة في الحرم
- ٣٣٣ - الظالمون يوم القيامة
- ٣٣٧ - صُور من العذاب الغليظ

تفسير سورة الحجر

الْإِنْسَانُ بَيِّنَ الْأَمَلِ وَالْأَجَلِ فِي سُورَةِ الْحَجَرِ

- ٣٤١ • المقدمة
- ٣٤٣ • الفصل الأول: بَيَانُ تَأْثِيرِ الْأَمَلِ عَلَى حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَسُلُوكِهِ
- ٣٤٣ - الأحرف المقطّعة
- ٣٤٥ - ودادة وحسرة
- ٣٤٦ - الدنيا وسيلة لا غاية
- ٣٤٧ - آمال وآجال
- ٣٤٨ - الكتاب المعلوم
- ٣٤٩ - إغراض وجحود
- ٣٥٠ - حفظ القرآن الكريم
- ٣٥١ - محاولات فاشلة
- ٣٥١ - انقطاع الوحي وتامم النعمة
- ٣٥٢ - البشارة الخالدة
- ٣٥٣ - قلوب المجرمين
- ٣٥٤ - باب من السماء
- ٣٥٧ • الفصل الثاني: بَيَانُ التَّوَازُنِ فِي الْكُونِ وَالْحَيَاةِ
- ٣٥٧ - تمهيد
- ٣٥٨ - السماء في القرآن الكريم
- ٣٥٩ - الجمال في المكونات
- ٣٦٠ - حَرَسَ فِي السَّمَاءِ
- ٣٦٢ - الشهب المشتعلة
- ٣٦٢ - الجبال الرواسي
- ٣٦٤ - التقدير والتوازن
- ٣٦٥ - خزائنه سبحانه

- الرياح اللوايح ٣٦٦
- خزائن الماء في السماء والأرض ٣٦٧
- الوارث ٣٦٨
- المستقدمون والمستأخرون ٣٦٩
- الفصل الثالث: القِصَّةُ الأولى الإنسانُ والشَّيْطَانُ ٣٧٠
- التراب والنار ٣٧٠
- نَفْخُ الروح ٣٧٢
- خطأ جسيم ٣٧٣
- سجود الملائكة ٣٧٤
- إباء إبليس ٣٧٥
- نقاط الضعف البشري ٣٧٧
- مطايا الشيطان ٣٧٨
- سبيل النجاة ٣٧٩
- أبواب جهنم ٣٨٠
- النشوء والارتقاء ٣٨١
- الفصل الرابع: القِصَّةُ الثَّانِيَةُ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَالْأَمَلُ بِاللَّهِ تَعَالَى ٣٨٤
- الرجاء والخوف ٣٨٥
- المغفرة والعذاب ٣٨٦
- ضيف إبراهيم ٣٨٧
- البشري ٣٨٨
- مهمة المرسلين ٣٨٩
- استباق الحوادث ٣٩٠
- في بيت لوط ٣٩١
- الصبح القريب ٣٩٢
- التصدي ٣٩٣
- مقام رفيع ٣٩٥
- سكرة لا ثورة ٣٩٦
- الاستئصال ٣٩٧
- الحصن الحصين ٣٩٨

- ٣٩٩ - وقفة تأمل
- ٤٠١ • التعقيب الأخير: دَوْرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي تَحْقِيقِ التَّوْازُنِ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ
- ٤٠٢ - الصفح الجميل
- ٤٠٣ - الخلّاق العليم
- ٤٠٤ - السبع المثاني
- ٤٠٥ - التحذير من زهرة الدنيا وزينتها
- ٤٠٧ - التواضع ولين الجانب
- ٤٠٨ - النذير المبين
- ٤٠٩ - إعلان الدعوة
- ٤١٠ - منابع القوة
- ٤١٢ - اليقين والسراب
- ٤١٣ - التكليف لا يسقط عن المكلفين

تفسير سورة النحل

التَّوْحِيدُ وَالشُّكْرُ فِي سُورَةِ النَّحْلِ

- ٤١٥ • المقدمة
- ٤١٧ • تمهيد: موضوع السورة
- ٤١٩ • الفصل الأول: الْمَجْمُوعَةُ الْأُولَى مِنَ النَّعَمِ: نِعْمُ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَنْظِيمِ حَيَاتِهِ
- ٤٢٠ - حقيقة هامة
- ٤٢٠ - حياة القلوب ونور العقول
- ٤٢٢ - الخلق والحق
- ٤٢٤ - الأنعام منافع وجمال
- ٤٢٥ - رواحل ومراكب
- ٤٢٧ - إعجاز ومعجزة
- ٤٢٩ - السبيل القاصد والسُّبُلُ الجائرة
- ٤٣٠ - من بلاغات القرآن الكريم
- ٤٣١ - نعم من السماء والأرض
- ٤٣٢ - تسخير الليل والنهار
- ٤٣٣ - تسخير الشمس والقمر والنجوم

- ٤٣٤ معارض للفن والجمال في الأرض
- ٤٣٥ تسخير البحر
- ٤٣٧ الجبال أوتاد الأرض
- ٤٣٨ علامات في النهار والليل
- ٤٤٠ عجز وقصور
- ٤٤٢ الفصل الثاني: جُحُودٌ وَعِنَادٌ.. وَمُفَارَقَاتٌ مُسْتَنَكِرَةٌ
- ٤٤٤ حملة على الأصنام
- ٤٤٥ حاملو الأوزار
- ٤٤٧ الواقعون في شرِّ أعمالهم
- ٤٤٨ مثوى المتكبرين
- ٤٥٠ مقارنة
- ٤٥٢ الظالمون لأنفسهم
- ٤٥٣ المحتججون بالقدر
- ٤٥٦ إنكارهم يوم القيامة
- ٤٥٧ صورة وضيئة
- ٤٥٨ رُؤَاد الطريق
- ٤٦٠ القرآن والسُّنَّة
- ٤٦٢ تهديد ووعيد
- ٤٦٣ مواكب الساجدين
- ٤٦٥ تقرير التوحيد
- ٤٦٧ المنعم الحقيقي
- ٤٦٨ في مواجهة الأخطار
- ٤٦٩ مفارقات مستنكرة
- ٤٧١ الأجل المسمى
- ٤٧٢ أعجب المفارقات
- ٤٧٤ مواساة وتكريم
- ٤٧٦ حياة الإنسان
- ٤٧٧ عبرة ونعمة
- الفصل الثالث: الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ النَّعَمِ: نَعْمُ اللَّهِ الصَّرُورِيَّةُ لاستمرار

- ٤٧٨ مصانع اللبن
- ٤٧٩ اللبن الخالص
- ٤٨٠ عتاب ومثّة
- ٤٨١ مصانع العسل
- ٤٨٣ رحيق الأزهار
- ٤٨٤ السبل المذلّة
- ٤٨٥ العسل غذاء وشفاء
- ٤٨٥ من إعجاز السُنّة النبوية العلمي
- ٤٨٧ معالجات بعض الأمراض بالعسل
- ٤٨٨ التفاوت في الآجال
- ٤٨٩ التفاوت في الأرزاق
- ٤٩٠ نعمة الزواج والحياة العائلية
- ٤٩٢ المثل الأول
- ٤٩٣ المثل الثاني
- الفصل الرابع: المَجْمُوعَةُ الثَّالِثَةُ مِنَ النِّعَمِ: نِعَمُ اللَّهِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ
- ٤٩٥ فِي حِمَايَتِهِ وَوَقَايَتِهِ
- ٤٩٥ الإخراج من البطون
- ٤٩٧ وسائل التمكين
- ٤٩٨ نعمة المساكن والأثاث
- ٤٩٩ نعم الحماية والوقاية
- ٥٠٠ تمام النعم
- ٥٠١ من مشاهد يوم القيامة
- الفصل الخامس: مُوَاسَاةٌ وَتَثْبِيتٌ
- ٥٠٦ الشريعة الكاملة
- ٥٠٨ العدل في الإسلام
- ٥١٠ الإحسان
- ٥١١ المنهيات الثلاثة
- ٥١٢ الثبات على الإسلام والوفاء بعهده
- ٥١٣ فَهَمُّ سَيِّئٍ

- التحذير من زلة القدم ٥١٥
- أهم أسباب الردة ٥١٥
- الحياة السعيدة الطيبة ٥١٧
- الحصن الحصين من أسباب الردة ٥١٨
- موقفان متباينان ٥١٩
- جهل وغباء وكذب ٥٢٠
- الإكراه على الكفر ٥٢١
- عقوبة المرتدّين ٥٢٣
- الحث على التوبة والرجوع إلى الإسلام ٥٢٤
- نعمة الأمن والطعام ٥٢٦
- أهم المحرّمات من الأطعمة ٥٢٨
- التعقيب الأخير: بَيَانُ حَقِيقَةِ الشُّكْرِ وَارْتِبَاطِهِ بِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَالتَّسْلِيمِ ٥٣٣
- الرجل الأمة إبراهيم عليه السلام ٥٣٣
- الآخرون السابقون ٥٣٥
- الاستمرار في الدعوة ٥٣٦

تفسير سورة الإسراء

المُؤَاجَهَةُ وَالتَّنْبِيهُتُ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ

- المقدمة ٥٣٩
- تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ ٥٤١
- الإسراء والزمر ٥٤٢
- الفصل الأول: الإسراء، وإفساد بني إسرائيل في الأرض المقدّسة قبل الإسلام مرّتين، وعُقُوبَتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَثَرُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فِي تَنْبِيهِ النَّبِيِّ ﷺ ٥٤٣
- الإسراء والمعراج ٥٤٣
- من التسبيح إلى التكبير ٥٤٤
- الإسراء ٥٤٥
- المعجزة الأرضية والمعجزة السماوية ٥٤٦
- المسجد الأقصى ٥٥١
- بلاد الشام ٥٥٢

- ٥٥٤ - القضاء المُحَكَّم
- ٥٥٤ - الإفساد في الأرض
- ٥٥٤ - العبد الشكور
- ٥٥٥ - إفساد بني إسرائيل في الأرض
- ٥٥٦ - إفساد بني إسرائيل في المرتين حدث قبل الإسلام
- ٥٥٧ - الإفساد الأولى
- ٥٥٨ - الإفساد الثانية
- ٥٥٩ - شبهات مردودة
- ٥٦٣ • الفصل الثاني: القرآن الكريم والمبادئ الأساس الكُبرى التي يدعو النَّاس إليها
- ٥٦٤ - القرآن الكريم
- ٥٦٦ - الإنسان العجول
- ٥٦٧ - حركة الزمن
- ٥٦٨ - مسؤولية الإنسان
- ٥٦٩ - المسؤولية الشخصية
- ٥٧٠ - الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته
- ٥٧١ - الترف والفسق
- ٥٧٢ - طلاب الدنيا
- ٥٧٤ - التفاوت بين الناس
- ٥٧٤ - التي هي أقوم
- ٥٧٥ - الهداية إلى أقوم عقيدة
- ٥٧٦ - الهداية إلى أقوم سلوك اجتماعي؛ الإحسان إلى الوالدين
- ٥٧٩ - حق المسلم على المسلم
- ٥٨٠ - الهداية إلى أقوم سلوك في إنفاق المال
- ٥٨٢ - الهداية إلى أقوم سبيل للمحافظة على حقوق الآخرين (تقرير حقوق الإنسان)
- ٥٨٢ - تحريم قتل الأولاد
- ٥٨٤ - تحريم الزنى
- ٥٨٦ - تحريم قتل النفس
- ٥٨٧ - تحريم الاعتداء على الأموال
- ٥٨٨ - الوفاء بالعهد

- السبيل الأقوم لعمران الحياة ٥٨٩
- التوحيد أولاً وآخرأ ٥٩١
- الفصل الثالث: المواجهة بين النبي ﷺ وبين المشركين في المرحلة المكية ٥٩٢
- القول العظيم ٥٩٣
- التسبيح بحمد الله ٥٩٥
- الحجاب المستور ٥٩٦
- حيرة وضلال ٥٩٧
- من الحقائق العلمية في القرآن الكريم ٥٩٨
- تلبية الدعوة ٥٩٩
- طريق الدعوة الأقوم ٦٠٠
- التفاضل بين الناس ٦٠٢
- الرجاء والخوف ٦٠٣
- هلاك القرى ٦٠٤
- نبي الرحمة ٦٠٥
- في وجه العاصفة ٦٠٦
- الأصل والفرع ٦٠٨
- الإنسان والشیطان ٦٠٩
- إقرار ثم إنكار ٦١٠
- في البر والبحر ٦١١
- تكريم الإنسان وتفضيله ٦١٢
- الجزاء من جنس العمل ٦١٤
- الفصل الرابع: التثبيت الذي أكرم الله به نبيه ﷺ وهو في ذروة المعاناة والمواجهة ٦١٦
- التثبيت والعصمة ٦١٧
- الهجرة خروج لا إخراج ٦٢٠
- أوقات الصلوات المفروضة ٦٢٢
- معراج المؤمنين ٦٢٣
- تهجد النبي ﷺ ٦٢٣
- المقام المحمود ٦٢٤
- بشائر النصر ٦٢٥

- ٦٢٧ القرآن رحمة وشفاء -
- ٦٢٨ أسباب الشر -
- ٦٢٩ اختلاف المواقف -
- ٦٣٠ قصور علم الإنسان -
- ٦٣١ تثبيت القرآن في قلب النبي عليه الصلاة والسلام -
- ٦٣٢ التحدي بالقرآن الكريم -
- ٦٣٣ المعجزات المقترحة -
- ٦٣٤ شبهة زائلة -
- ٦٣٥ الجولة الأخيرة -
- ٦٣٦ المشي على الوجوه -
- ٦٣٨ الحسد والبخل -
- ٦٤٠ فرعون والمعجزات التسع -
- ٦٤٢ الآيات الأخيرة -
- ٦٤٣ نزول القرآن الكريم مفرقاً -
- ٦٤٤ سجود الشكر وسجود الخشية -
- ٦٤٦ آية العز -
- ٦٤٩ فهرس الموضوعات •



التفسير الموضعي لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

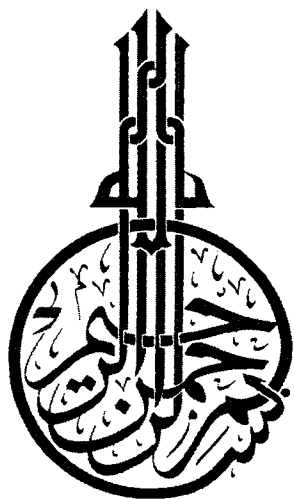
تأليف
عبد الحميد محمود طه

المجلد الخامس :

ويحتوي على تفسير هذه السور

الكهف - مريم - طه - الأنبياء - الحج - المؤمنون

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أَسَّسَهَا:
مَحَمَّدُ سَيِّدُ وَوَلَدُهُ
سَنَةُ ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

تفسير سورة الكهف العَوَاصِمُ مِنَ الْفِتَنِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد خاتم النبيين وأشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن عصرنا هذا من أشد العصور فتناً، وأكثرها محناً، يتعرَّض المسلمون فيه لشتى أنواع البلاء من فِتْنٍ وَمِحَنٍ، وَإِنَّ مِنْ أَوْجِبِ الْوَاجِبَاتِ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ طَرِيقِ السَّلَامَةِ فِي دِينِنَا، وَسَبِيلِ الْعَافِيَةِ فِي حَيَاتِنَا.

ولابدَّ لنا لنعرف طريق السلامة من الرجوع إلى كتاب ربنا، وإلى سُنَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فهما كهفُ السلامة والعافية في الدين والدنيا، وسبيلُ السعادة في الآخرة.

ويمكن لنا أن نَتَبَيَّنَ طريقَ السلامة وسبيلَ العافية من خلال سورة كريمة من سور القرآن الكريم، هي سورة الكهف، على ضوء الصَّحِيحِ الثَّابِتِ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وقد جاء تفسير هذه السورة في ستة فصول بعد هذه المقدمة:

- الفصل الأول: مقدمة في الفتن: تعريفها، المراد منها، أسبابها، سبل الوقاية منها.
 - الفصل الثاني: سورة الكهف: فضلها، وموضوعها، وصلتها بأسباب السلامة من الفتن.
 - الفصل الثالث: قصة أصحاب الكهف.
 - الفصل الرابع: قصة الغني والفقير.
 - الفصل الخامس: قصة موسى والخضر عليه السلام.
 - الفصل السادس: قصة ذي القرنين.
- وجاءت خاتمة السورة للتعقيب الأخير المنسجم مع موضوع السورة، للتأكيد على ارتباط آيات السورة ببعضها ارتباطاً محكماً.
- وإنني لأسأل الله العلي القدير أن يحفظني من الفتن، ويجنبني الزلل والخطأ، وأن يثبتني على دينه، ويديم عليّ نعمة العافية، وأن يعفو عني ويسترني بستره الجميل.
- وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



الْفُضْلُ الْأَوَّلُ

مُقَدِّمَةٌ فِي الْفِتَنِ

تَعْرِيفُهَا، الْمُرَادُ مِنْهَا، أَسْبَابُهَا، سُبُلُ الْوَقَايَةِ مِنْهَا

• تعريف الفتن:

الفتن: جمع فتنة، ولها في اللغة عدة معانٍ، أهمها:

١ - الابتلاء والاختبار:

وأصل هذا المعنى مأخوذ من قولك: فتنتُ الفضة والذهب، إذا أذبتُهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد، قال تعالى: ﴿لَا يَتْلُونَ وَلَا يَخْتَبِرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٠٢] أي: لا يبتلون ولا يختبرون. وقال ﷺ أيضاً: ﴿إِنَّمَا حُفَّتْ فِتْنَةُ فُلَانٍ تَكْفُرًا﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: نحن ابتلاء واختبار.

وقال ﷺ أيضاً: ﴿أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٢٦] أي: يختبرون.

ولمَّا كانت الأموال والأولاد اختباراً للإنسان وامتحاناً، قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدُكُمُ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وتأتي الفتنة أيضاً بمعنى قريب من معنى الابتلاء والاختبار، وهو معنى الإحراق، وجاء في هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

٢ - الإعجاب بالشيء:

وتأتي الفتنة بمعنى الإعجاب بالشيء، ولهذا يقال: فتنة: أي جعل فيه فتنةً، وأفتنه: أوصل الفتنة إليه، وفُتن الرجل بالمرأة: إذا أعجبته وأحبها، وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأة، وأهل نجد يقولون: أفتنته، وجاء قوله تعالى بهذا

المعنى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] أي: لا تظهرهم علينا فيعجبوا ويظنوا أنهم خير منا.

٣ - الميل عن الحق:

وتأتي الفتنة بمعنى الميل عن الحق، والفاتن: المضلُّ عن الحق، كما في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفِتْنِينَ﴾ [الصافات: ١٦٢] أي: مضللين عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلِإِن كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣] أي: يميلونك ويزيلونك.

فكل ما يؤدي إلى الميل عن الحق من كفر وضلال وإثم يُسمَّى فتنة، وجاء بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْفُرُ أَتَذِّن لِّي وَلَا نَقْتِي﴾ [التوبة: ٤٩] أي: لا تؤثمني، وردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] أي: في الإثم والضلal.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١] أي: الكفر والإثم والضلal.

٤ - الاختلاف والافتتال:

وتأتي الفتنة أيضاً بمعنى الاختلاف والافتتال الذي يقع بين الناس، وبهذا المعنى جاء قول رسول الله ﷺ حين أشرف على أطعم المدينة ثم قال: «هل ترون ما أرى؟ إني أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر» [رواه البخاري (١٨٧٨) ومسلم (٢٨٨٥)] أي: القتل والحروب والاختلاف.

تلك هي أهم المعاني اللغوية للفتن التي ذكرها اللغويُّ المشهور ابن منظور في كتابه «لسان العرب»، ولا يخفى على المتأمل فيها أن بينها صلة، فالإعجابُ بالشيء يؤدي إلى الميل عن الحق، وهذا يوقع الناس في الفتنة، التي هي بمعنى الاختلاف والافتتال، أو يوقعهم في الفتنة التي هي بمعنى الكفر والإثم والضلal، والإعجاب بالشيء نتيجة اختبار الله لنا وابتلائه بما خلق لنا في هذه الحياة من أسباب الابتلاء والاختبار.

• المراد من الفتن:

ونحن لا نقصِدُ بالفتن تلك التي تكون من الله سبحانه على وجه الابتلاء

والاختبار، وإنما نعني بالفتن ما يكون للعبد فيها كسبٌ واختيارٌ، وهي التي تُمِيلُهُ عَنِ الْحَقِّ، وَتُضِلُّهُ عَنْهُ، وتوقعه بالإثم والضلال والكفر، وتسبب الاختلاف والافتتال بين الناس.

● أسباب الفتن:

وأَسباب هذه الفتن يكون من التغيير والتبديل والانحراف عن دين الله سبحانه، وقد بَوَّبَ الإمام البخاري في أول [٩٢] كتاب الفتن في «صحيحه» فقال:

١ - بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وما كان النبي ﷺ يحذّر من الفتن.

٧٠٤٨ - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ السَّرِيِّ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ عَمَرَ^(١)، عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: قَالَتْ أَسْمَاءُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَنَا عَلَى حَوْضٍ أَنْتَظِرُ مَنْ يَرُدُّ عَلَيَّ، فَيُؤْخَذُ بِنَاسٍ مِنْ دُونِي، أَقُولُ: أُمَّتِي، فَيُقَالُ: لَا تَذَرِي، مَسْؤُوا عَلَى الْقَهْقَرَى».

قال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجَعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ نُفْتَنَ.

٧٠٤٩ - حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ مَغِيرَةَ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ^(٢): قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَا فَرَطُكُمْ^(٣) عَلَى الْحَوْضِ، لِيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رَجَالٌ مِنْكُمْ حَتَّى إِذَا أَهْوَيْتُ لَأَنَا وَلَهُمْ اخْتِلَجُوا^(٤) دُونِي، فَأَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَصْحَابِي! فَيُقَالُ: لَا تَذَرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ».

٧٠٥٠، ٧٠٥١ - حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بَكِيرٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا

(١) هو نافع بن عمر الجمحي المكي، أحد الأثبات.

(٢) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أي: سابقكم.

(٤) أي: أبعدوا عني.

فَرُطُّكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ وَرَدَ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ».

قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلًا؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه؛ قال: «إِنَّهُمْ مِنِّي؟» فيقال: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ: سَحَقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي».

قال ابن حجر رحمته الله: «قوله: «وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن» يشير إلى ما تضمنته حديث الباب من الوعيد على التبديل والإحداث، فإنَّ الفتن غالباً تنشأ عن ذلك... وحاصل ما حُمل عليه حال المذكورين أنهم كانوا ممن ارتدَّ عن الإسلام، فلا إشكال في تبرِّي النبي ﷺ منهم وإبعادهم، وإن كانوا ممن لم يرتد لكن أحدث معصية كبيرة من أعمال البدن أو بدعة من اعتقاد القلب، فقد أجاب بعضهم بأنه يحتمل أن يكون أعرض عنهم، ولم يشفع لهم اتباعاً لأمر الله فيهم حتى يعاقبهم على جنايتهم، ولا مانع من دخولهم في عموم شفاعته لأهل الكبائر من أمته، فيُخرجون عند إخراج الموحدين من النار. والله أعلم»^(١).

وأخرج ابن أبي شيبة [٣٨٤٤٧] عن حذيفة رضي الله عنه قال: لا تضرُّك الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحقُّ والباطل.

• أسباب السلامة من الفتن:

إذا كان التغيير والتبديل في دين الله والانحراف عن صراطه المستقيم منشأ الفتن، فإنَّ أسباب السلامة منها تكون بالتمسك بدين الله سبحانه الذي شرعه لنا دون تغيير أو تبديل، وبالاستقامة عليه، وذلك بالمداومة على تطبيقه، والسير على منهجه، وهذا يستدعي متاً عدة أمور:

أولها: العلم بالإسلام عقيدة وتشريعاً وأحكاماً:

حتى نكون على بصيرة ودراية، بحيث نميّز بين ما هو من الدين حقيقةً، وبين ما ليس منه من البدع والضلالات وأسباب الزيغ والانحراف.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٧/١٣.

وقد تكفلَ الله سبحانه بحفظ دينه، وإبقائه في الأرض حجة على الناس، بعد أن ختم النبوة والرسالة ببعثة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، فحفظ أصوله ومصادره الأساسية، وذلك بحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولم يتأت هذا الحفظ لأي دين سماوي آخر غير الإسلام، ولهذا فإن التمسك بالكتاب والسنة تمسكٌ بدين الإسلام، وأكبر عاصم يعصم الإنسان من الزيغ والانحراف والابتداع، وبالتالي من مباشرة الفتن أو أسبابها.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوصي أمته من بعده بأن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ففي «الموطأ» عن الإمام مالك رحمه الله قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «تركْتُ فيكم أمرين لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كتابَ الله تعالى، وسُنَّةَ رسولي ﷺ».

وفي سنن أبي داود [٤٦٠٧] والترمذي [٢٦٧٦]: عن العُرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صَلَّى بنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يوم، ثم أَقْبَلَ علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغةً ذرَفَتْ منها العيونُ، ووجلَّتْ منها القلوبُ، فقال رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ كأنَّ هذه موعظةٌ مودِّعٌ، فماذا تعهِّدُ إلينا؟ فقال: «أَوْصِيكُمْ بتقوى اللَّهِ تعالى، والسمع والطاعة، وإنَّ كانَ عبدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي، وسنَّةِ الخلفاءِ الراشدين المهديين، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإِيَّاكُمْ ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ».

والعلم لا يكونُ إلَّا بالتعلُّم على يد معلِّمٍ عليم بالكتاب والسنة، خبير بكيفية استنباط الأحكام منهما، مؤتمِنٌ على دين الله، يخشى الله ويتقيه، قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وما أرسل الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلَّا معلِّمين ومرشدين وهادين، قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَيَّ فَأَعَرْتُهُ طَعْنًا﴾ (١٧) ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَى﴾ (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) [النازعات].

وقال أيضاً: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] أي: دليل يذلهم ويرشدهم ويهديهم إلى دين الله وشرعه.

ولهذا فَإِنَّ التَّفَقُّهَ فِي دِينِ اللَّهِ عَلَى يَدِ فَقِيهِ بِصِيرٍ بِأَحْكَامِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَهَمِّ الْضَرُورَاتِ وَأَعْظَمِ سَبِيلٍ لِلْوُصُولِ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَالْعَصْمَةِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْمُنْكَرَاتِ، قَالَ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» [رواه مسلم (١٠٣٧)].

إِنَّ الرَّجُوعَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ دُونَ دِرَايَةِ وَخْبَرَةٍ بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ، وَمِنْ غَيْرِ اعْتِمَادٍ عَلَى أَصُولٍ وَضَوَابِطٍ وَقَوَاعِدٍ تَحْدُدُ طَرِيقَةَ اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ؛ يُؤَدِّي إِلَى الْوُقُوعِ فِي التَّعَارُضِ وَالْخِطِّ فِي دِينِ اللَّهِ خِطِّ عَشْوَاءٍ، كَمَا تُوْدِي فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ، إِلَى التَّشَكُّكِ وَالْانْسِلَاخِ عَنِ الدِّينِ وَالْمَرْوَقِ مِنْهُ.

وَالْجَهْلُ بِالْدِّينِ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ الْفِتَنِ، وَكَلَّمَا أَزْدَادَ النَّاسُ جَهْلًا بِدِينِهِمْ أَزْدَادَتِ الْفِتْنُ بَيْنَهُمْ، وَكَثُرَتْ أَسْبَابُهَا، فَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ مِنْ أَحَادِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: قَلَّةُ الْعِلْمِ، وَانْتِشَارُ الْجَهْلِ، وَكَثْرَةُ الْفِتَنِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» [٧٠٦٢]: مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامًا يُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ» - الْهَرْجُ: الْقَتْلُ - فَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ بَيْنَ كَثْرَةِ الْفِتَنِ بِكَثْرَةِ الْقَتْلِ، وَبَيْنَ انْتِشَارِ الْجَهْلِ وَقَلَّةِ الْعِلْمِ فِي دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ.

ثَانِيهَا: الْحَرَصُ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْعَمَلُ بِهَا، وَإِحْيَاءُ مَا أَنْدَسَ مِنْهَا: فَالرَّسُولُ ﷺ أَمَانٌ مِنَ الْفِتَنِ، وَلِهَذَا كَانَ عَصْرُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْضَرَ الْعُصُورِ وَأَزْكَاهَا وَأَنْقَاهَا، كَمَا أَنَّهُ كَانَ أَبْعَدَهَا عَنِ الْفِتَنِ، تَمَّ الدِّينُ بِهِ ﷺ، وَكَمَلَتْ بِهِ نِعْمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَكَانَ مَوْتُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ النِّقْصِ، وَحَدَّثَتْ فَتْنَةُ الرَّدَّةِ نَتِيجَةَ ذَلِكَ.

وَلَكِنْ وَجُودَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَحَرَصِهِمُ الشَّدِيدَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِسُنَّتِهِ ﷺ أَغْلَقَ بَابَ الْفِتْنَةِ، وَقَمَعَ الرَّدَّةَ، وَرَدَّ دَعَاةَ الْفُرْقَةِ وَالْإِخْتِلَافِ إِلَى جُحُورِهِمْ خَاسِئِينَ، وَهَذَا يَفْسِّرُ لَنَا سِرَّ حَرَصِ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى تَطْبِيقِ السُّنَّةِ تَطْبِيقًا كَامِلًا، وَإِصْرَارِهِ الشَّدِيدَ عَلَى تَنْفِيزِ وَصِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنْ يَبْعَثَ جَيْشَ أَسَامَةَ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ، مَعَ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ، بَعْدَ أَنْ

ذَرَّ قَرْنُ الْفِتْنَةِ فِي عَامَةِ الْبِلَادِ مِنْ حَوْلِهَا، وَقَدْ خَالَفَهُ عَامَةُ الصَّحَابَةِ، وَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِتَأْخِيرِ بَعْثِ جَيْشِ أَسَامَةَ، وَلَكِنَّهُ ﷺ أَصْرَّ عَلَى تَنْفِيزِ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ فِي هَذَا الْخَيْرُ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ تَمَكَّنَ ﷺ مِنْ قَمْعِ فِتْنَةِ الرَّدَّةِ، وَأَعَادَ لِلدِّينِ شَبَابَهُ، وَلِلْإِسْلَامِ قُوَّتَهُ وَجَمَالَه، بِبَرَكَةِ تَمَسُّكِهِ بِسُنَّتِهِ ﷺ وَحِرْصِهِ الشَّدِيدِ عَلَى تَنْفِيزِ وَصِيَّتِهِ.

وَكَانَ مَوْتُ الصَّحَابَةِ ﷺ وَرَحِيلُهُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَخَلْوُ الْأَرْضِ مِنْهُمْ ثُلْمَةً كَبِيرَةً فِي الْإِسْلَامِ، لِأَنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ فَهْقَاهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةُ سُنَّتِهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَتَمَسُّكًا بِهَا، وَكَانَ عَصْرُهُمْ خَيْرَ الْعَصُورِ بِشَهَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِنْدَمَا قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» [رواه البخاري (٢٦٥١) ومسلم (٢٥٣٣)].

فَوُجُودُ الصَّحَابَةِ ﷺ أَمَانٌ لِلأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ مِنَ الْفِتَنِ، كَمَا كَانَ وَجُودُهُ ﷺ أَمَانٌ لِأَصْحَابِهِ مِنَ الْفِتَنِ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا فِي حَدِيثِ نَبَوِي صَحِيحٍ: عَنْ أَبِي بَرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نَصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نَصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ، قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ» قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «النَّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النَّجُومُ، أَتَى السَّمَاءُ مَا يُؤْعَدُّ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبَتْ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُؤْعَدُّونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمْتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمْتِي مَا يُؤْعَدُّونَ».

وَقَدْ أَخْرَجَ هَذَا الْحَدِيثَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، وَبَوَّبَ لَهُ بِأَبَا مُسْتَقْلًا فَقَالَ: بَابُ بَيَانِ أَنَّ بَقَاءَ النَّبِيِّ ﷺ أَمَانٌ لِأَصْحَابِهِ، وَبَقَاءُ أَصْحَابِهِ أَمَانٌ لِلأُمَّةِ [رقم (٢٥٣١)].

قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْأَمَنَةُ وَالْأَمْنُ وَالْأَمَانُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّ النُّجُومَ مَا دَامَتْ بَاقِيَةً، فَالسَّمَاءُ بَاقِيَةٌ، فَإِذَا انْكَدَرَتِ النُّجُومُ، وَتَنَاقَرَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، انْشَقَّتِ السَّمَاءُ وَذَهَبَتْ، وَالنَّبِيُّ ﷺ أَمَانٌ لِأَصْحَابِهِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْإِخْتِلَافِ وَالْإِرْتِدَادِ، وَالصَّحَابَةُ أَمَانٌ لِلأُمَّةِ مِنَ الْفِتَنِ وَالْإِخْتِلَافِ وَظُهُورِ الْبِدْعِ وَالْحَوَادِثِ، وَقَدْ وَقَعَ كُلُّ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ ﷺ.

وجاء التحذير من مخالفة سنته ﷺ، وأنَّ ذلك يؤدِّي إلى وقوع الفتن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فما من فتنة أصابت المسلمين بعده عليه الصلاة والسلام إلا بسبب مخالفتهم لأمر من أوامره، أو تركهم لسنة من سننه، ولهذا كان للمتمسك بالسنة عند انتشار الفساد في الأمة أجر مئة شهيد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مئة شهيد» [رواه الطبراني في «الأوسط» (٥٤١٤)].

كما أنَّ العمل على إحياء سنة من سننه ﷺ من أعظم العبادات وأرفع القربات، لأنَّ إحياء السنة يدرأ عن الأمة سبباً من أسباب الفتن، ويرفع عنها بعض أنواع البلاء.

كما أنَّ إحياء سنته عليه الصلاة والسلام دليل على محبته، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ غَشٌّ لِأَحَدٍ فافْعَلْ، يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحْبَبَنِي، وَمَنْ أَحْبَبَنِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ» وفي رواية بلفظ: «فقد أحياني، وَمَنْ أَحْيَا نِي كَانَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ» [رواه الترمذي (٢٦٧٨) وحسنه].

قال ابن شهاب الزهري رحمه الله: بلغنا عن رجالٍ من أهل العلم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة^(١).

وقال عبد الله بن منازل: لم يضيع أحدٌ فريضةً من الفرائض إلا ابتلاه الله بتضييع السنن، ولم يُبَلَّ أحدٌ بتضييع السنن إلا أوشك أن يُبْتَلَى بالبدع.

ثالثها: اللجوء إلى الله سبحانه بالإكثار من عبادته وذكره ودعائه:

فيجب على المسلم عندما يواجه الفتن بأن يلجأ إلى الله سبحانه، فيقبل بعد أداء الفرائض على نوافل العبادات، ويكثر من الصلاة في جوف الليل، فإنَّ فيها استدراراً لفضل الله ورحمته، وسبباً لحفظه من الفتن والنجاة منها، فعن أمِّ سلمة رضي الله عنها زوج

(١) شرح الشفاء، للقاري.

النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فرعاً يقول: «سبحان الله ماذا أنزل الله من الفتن، وماذا أنزل من الخزان؟! مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ (يريد أزواجه لكي يصلين) يا رَبُّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ» [رواه البخاري (١١٢٦)].

قال ابن حجر: «وفي الحديث الندب إلى الدعاء والتضرع عند نزول الفتن، ولا سيما في الليل لرجاء وقت الإجابة لتكشف، أو يسلم الداعي ومن دعا له»^(١). وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعُهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرُهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِذَنَّهُ...» [رواه البخاري (٦٥٠٢)].

فنوافل العبادات ترفع الإنسان إلى مقام محبة الله سبحانه، ورعايته، فإذا سأل الله أعطاه، وإن استعاذ به أعاده.

وثواب العبادات أيام الفتن كبير وعظيم، يعدل ثواب هجرة إلى النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ» [رواه مسلم (٢٩٤٨)]. والهرج: الفتن التي تؤدي إلى كثرة القتل.

وسبب كثرة ثواب العبادات أيام الفتن أن أكثر الناس يغفلون عن العبادات، ويشتغلون عنها بما ابتلوا به من الفتن، ولا ينصرف لها إلا القليل من الأفراد^(٢).

● باب الفتن:

وشاءت حكمة الله أن يكون للفتن التي حدثت بين المسلمين ولا زالت قائمة بينهم في ازدياد، باب كان في أول الأمر مغلقاً حائلاً بين المسلمين وبين الفتن، وقد بدأ النقص والحلل يظهر بوضوح في جسم الأمة المسلمة بفتح هذا الباب، وفتحه كان بموت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه غيلة.

(١) فتح الباري.

(٢) انظر كتاب: فتنة الهرج، للدكتور عبد العزيز دخان، ط مكتبة الصحابة - الشارقة (ن).

وقد أخبر النبي ﷺ في بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة: أن وجودَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يدفعُ عن الأمة المسلمة الفتنَ، وأنَّ موتهُ يفتحُ على الأمةِ بابَ الفتنِ، فهو رضي الله عنه الباب الذي كان يمنعُ الفتنَ أن تدخلَ إلى مجتمع الأمة المسلمة. ولعلَّ السببَ في ذلك ما كان يتَّصفُ به رضي الله عنه من صلابَةٍ في دينِ الله، وحرصٍ شديدٍ على سنَّةِ رسولِ الله ﷺ، وتبصُّرٍ بالأُمور، وتقديرٍ للعواقب، فهو الذي أشارَ على رسولِ الله ﷺ في عددٍ من القضايا، ونزل الوحي موافقاً لرأيه، وهو الذي قال عنه ﷺ: «قَدْ كَانَ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَمِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَإِنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مِنْهُمْ» [رواه مسلم (٢٣٩٨)].

وقال ابن وهب: «مُحَدَّثُونَ»: ملهمون.

وهو الذي شهدَ له النبي ﷺ بكمال الدين، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يَعْضُونَ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدْيَ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَمَرَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ» قالوا: ماذا أُولَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «الدِّينُ» [رواه البخاري (٢٣) ومسلم (٢٣٩٠)].

ولقد ألبسه الله ثوبَ مهابةٍ ووقارٍ بسببِ كمالِ دينه وصلابته في الحق، وشدته فيه، ودفع عنه بهذا مكرَ الماكرين، وكيدَ الكائدين، حتى الشيطان كان يهابُ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه، ويتبعُدُ عن طريقه، أخبرَ بذلك رسولُ الله ﷺ بقوله مخاطباً عمرَ رضي الله عنه: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكاً فَجّاً إِلَّا سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ» [رواه البخاري (٣٢٩٤) ومسلم (٢٣٩٦)].

وقد أثر عنه رضي الله عنه أنه كان يقول: «لَسْتُ بِالْحَبِّ، وَلَا الْحَبُّ يَخْدَعُنِي» والْحَبُّ: الماكرُ المحتالُ.

• خَيْرُ الْفِتَنِ يَتَحَدَّثُ:

وشاءت حكمةُ الله وإرادته أيضاً أن يُكسَرَ بابُ الفتنِ على الأمة الإسلامية كسراً، ممَّا جعله لا يغلقُ بعدَ ذلك، لأنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه قُتلَ غيلةً بخنجر

أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة، حَدَّثَ بهذا أمينُ سرِّ رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ^(١) الذي كان رسولُ الله ﷺ يأتمنه على أسرارِهِ، فكان يقول: والله إنِّي لأعلمُ الناسَ بكلِّ فتنةٍ هي كائنةٌ فيما بيني وبينَ الساعةِ، وما بي إلا أن يكونَ رسولُ الله ﷺ أسرَّ إليَّ في ذلكَ شيئاً لم يحدثهُ غيري، ولكنَّ رسولَ الله ﷺ قال وهو يحدثُ مجلساً أنا فيه عن الفتنِ: «منهنَّ ثلاثٌ لا يكذَنَ يَدْرَنَ شيئاً، ومنهنَّ فتنٌ كريحِ الصيفِ، منها صغارٌ ومنها كبارٌ» قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري. [رواه مسلم (٢٨٩١)].

وتحدَّثَ حذيفة رضي الله عنه عن كسر بابِ الفتنة فقال: كُنَّا عندَ عمرَ رضي الله عنه، فقال: أيُّكم يحفظُ حديثَ رسولِ الله ﷺ في الفتنةِ كما قال؟ فقلتُ: أنا، قال: إنك لجريءٌ، وكيف قال؟ قلتُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «فتنةُ الرجلِ في أهلهِ ومالهِ ونفسِهِ وولدهِ وجاريهِ، يكفرُها الصيامُ والصلاةُ والصدقةُ والأمرُ بالمعروفِ، والنهيُ عن المنكرِ».

فقال عمرُ: ليسَ هذا أريدُ، إنَّما أريدُ التي تموجُ كموجِ البحرِ. فقلتُ: ما لك ولها يا أميرَ المؤمنين، إنَّ بينَكَ وبينها باباً مُغلَقاً. قال: أفيكسرُ البابُ أم يُفتحُ؟ قلتُ: لا، بل يُكسرُ. قال: ذلكَ أخرى أن لا يُغلَقَ أبداً.

فقلنا لحذيفة: هل كان عمرُ يعلمُ مِنَ البابِ؟

قال: نعم كما يَعْلَمُ أنَّ دونَ غدِ الليلةِ، إنِّي حدثته حديثاً ليسَ بالأغاليطِ. قال شقيقُ الذي روى الحديثَ عن حذيفة: فهَبْنَا أن نَسألَ حذيفةَ: مِنَ البابِ؟ فقلنا لمسروق: سَلُهُ، فسأله فقال: عُمَرُ. [رواه البخاري (١٨٩٥) ومسلم (١٤٤) واللفظ له].

(١) حذيفة بن اليمان: من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وهو معروف في الصحابة بصاحب سر رسول الله ﷺ، مات سنة (٣٦هـ). كما في: الاستيعاب، لابن عبد البر.

● هلاك المسلمين بالفتن فيما بينهم:

قَدَّرَ اللهُ ﷻ أَنْ يَكُونَ بِأَسْ الْمُسْلِمِينَ بَيْنَهُمْ، وَأَنْ يَبْتَلِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ أَكْثَرِ مِنْ ابْتِلَائِهِمْ بِتَسْلِيْطِ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، أَخْبَرَ بِهَذَا النَّبِيُّ ﷺ فِي عَدَدٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ ذَكَرَ بَعْضُهَا الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» فِي بَابِ مُسْتَقْتَلٍ بِعَنْوَانِ: (بَابُ هَلَاكِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ).

مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ: مَا رَوَاهُ ثَوْبَانٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى (جَمَعَ) لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مُشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَينِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يَهْلِكَهَا بَسَنَةٌ عَامَةٌ (بِقَحْطِ يَعْصِمُهُمْ)، وَأَلَّا يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ (أَي: جَمَاعَتَهُمْ وَأَصْلَهُمْ)، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأَمْتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بَسَنَةٌ عَامَةٌ، وَأَلَّا أَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» [٢٨٨٩].

قَوْلُهُ: «الْكَزْنَينِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ» الْمُرَادُ بِالْكَزَنِ الْأَحْمَرِ الذَّهَبُ وَهُوَ كَنْزٌ قِصْرٌ، وَالْأَبْيَضُ الْفِضَّةُ وَهُوَ كَنْزٌ كَسْرٌ، إِذْ غَلَبَ عَلَى الرُّومِ التَّعَامُلُ بِالذَّهَبِ، وَغَلَبَ عَلَى الْفَرَسِ التَّعَامُلُ بِالْفِضَّةِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْأَلْبَتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].
قَالَ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي «صَحِيحِهِ»: يَلْسِكُمْ: يَخْلُطُكُمْ مِنَ الْإِتْبَاسِ، يَلْبَسُوا: يَخْلُطُوا، شَيْعًا: فِرْقًا.

ثُمَّ رَوَى بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَذِهِ أَهْوُنُ - أَوْ أَيْسَرُ» [٤٦٢٨].

وأخرج أحمد [١٧٠/١] والترمذي [٣٠٦٨] وحسنه: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا...﴾ فقال النبي ﷺ: «أما إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد» وقد جاء تأويلها كما أخبر النبي ﷺ، ولا يزال بأس الأمة المسلمة بينها قائماً منذ أن كُسر باب الفتنة بقتل عمر رضي الله عنه.

● فتنة الدجال:

وهي من أعظم الفتن التي تكون بين يدي الساعة، والدجال رجل مشوه الخلقة، ناقص البنية، يدعي لنفسه صفة الألوهية، ويغتر به كثير من الناس، ويصدقونه ويتابعونه، رغم العور الظاهر في عينه، الذي يدل على عجزه ونقصه، ويتنافى مع ما يدعيه من صفات الألوهية والربوبية، لكنه يخدع الناس ببعض خوارق العادات التي تُجرى على يديه.

وبسبب كثرة الذين يضلون به، ويفتنون بدعوته، كانت فتنته من أعظم الفتن، التي تمر على البشرية في تاريخها، حتى جاء في الحديث الشريف: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من الدجال» [رواه الحاكم (٥٢٨/٤)]. وكثيراً ما حذر النبي ﷺ من الافتتان به، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب: كافر» [رواه البخاري (٧٤٠٨)].

وأدلة الحدوث التي تتنافى مع دعوى الربوبية والألوهية كثيرة وظاهرة في الدجال، وإنما اقتصر النبي ﷺ منها بقوله: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور» لكون العور أثراً محسوساً يدركه العالم والعامي الذي لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، فإذا ادعى الربوبية وهو ناقص الخلقة، والإله يتعالى عن النقص؛ عُلِمَ أنه كاذب^(١).

وقد رآه النبي ﷺ في منامه، ورؤيا الأنبياء وحى وحق، فوصفه بقوله: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم، سبط الشعر، ينطف رأسه ماء، قلت: من هذا؟ قالوا: ابن مريم، ثم ذهب ألتفت، فإذا رجل جسيم أحمر جعد

(١) انظر: فتح الباري.

الرأس، أعور العين، كأن عينه عنبة طافية، قالوا: هذا الدجال، أقرب الناس به شبهاً ابن قطن، رجلٌ من خُزاعة» [رواه البخاري (٣٤٤١)].

وأول ما يظهر الدجال من جهة المشرق من أصبهان، حيث يصدقه يهود أصبهان ويتابعونه، ثم ينتشر ذكره في الأرض، ويسير فيها حتى يغلب على كل المدن إلا مكة والمدينة، فإن الله سبحانه يحميها من شره، حتى ينزل عيسى عليه السلام، فيقتله في باب لُدٍّ من مُدُن فلسطين، وهذا يدل على أن ظهوره من علامات الساعة الكبرى، لأن نزول عيسى عليه السلام من أشراط الساعة الكبرى.

روى الإمام مسلم في «صحيحه» [٢٩٠١]: عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: أطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات» فذكر: «الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم».

وروى البخاري [١٨٨١] ومسلم [٢٩٤٣]: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من بلدٍ إلا سيطوه الدجال إلا مكة والمدينة، ما من نَقْبٍ إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، فينزل السبخة، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافرٍ ومنافقٍ».

وروى مسلم [٢٩٤٤]: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة الخضراء».

ويجب حمل هذه النصوص على الحقيقة دون المجاز، فما دامت الحقيقة ممكنة في ذاتها، فإن المصير إليها متعين، كما قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله: «وما ضلَّ مَنْ ضلَّ من الباطنية وأضرابهم إلا بتحويل النصوص إلى معاني لا صلة لها بها، وإلغاء المرادات القطعية منها، فكان الزيغ وكان الضلال»^(١).



(١) انظر كتاب: ردود على أباطيل، للشيخ محمد الحامد رحمه الله.

الْفَصْلُ الثَّانِي

سُورَةُ الْكَهْفِ

فَضَائِلُهَا، سَبَبُ نَزُولِهَا، مَوْضُوعُهَا،
وَصِلَتُهَا بِأَسْبَابِ السَّلَامَةِ وَالْعِصْمَةِ مِنَ الْفِتَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ
وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ﴿٢﴾ مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ۖ ﴿٣﴾
وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ
مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بِخَيْعِ نَفْسِكَ عَلَى نَاصِيَتِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ﴿٧﴾ وَإِنَّا
لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ۚ ﴿٨﴾ ۝﴾

• فضائل سورة الكهف:

ويقودنا الحديث عن فتنة الدجال إلى بيان فضائل سورة الكهف، إذ جاء في
حديث النبي ﷺ عن الدجال قوله: «فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ
الْكَهْفِ» [رواه مسلم (٢١٣٧)].

فمن فضائل سورة الكهف: أَنَّ فِيهَا وَقَايَةً وَعِصْمَةً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَقَدْ
تَأَكَّدَ هَذَا فِي عَدَدٍ مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ الصَّحِيحَةِ، وَبَوَّبَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ
فِي «صَحِيحِهِ» بَابًا مُسْتَقِلًّا لِهَذَا فَقَالَ: (بَابُ فَضْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآيَةِ الْكَرْسِيِّ).

ثم روى بسنده [٨٠٩]: عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفَظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ».

وروى هذا الحديث أيضاً الإمام أحمد [٤٤٩/٦] وأبو داود [٤٣٢٣] والنسائي [١٠٧١٩] والترمذي [٢٨٨٦] وابن حبان [٧٨٥]، وجاء في بعض رواياتهم بلفظ: «عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ».

كما رواه الإمام مسلم بسند آخر [٨٠٩] بلفظ: «مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ».

ورواية النسائي [١٠٧١٩]: «مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْكَهْفِ».

كما أخرج النسائي [١٠٧٢٠]: عن ثوبان رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ فَإِنَّهُ عَصِمَهُ لَهُ مِنَ الدَّجَالِ».

ولا تعارض بين الروايات، فمن قرأ مِنْ أَوَّلِهَا أو آخِرِهَا أو مِنْ أَيِّ مَكَانٍ فِيهَا حفظه الله ﷻ من فتنة الدجال.

ومن فضائل سورة الكهف أيضاً: أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَنُورُ قَلْبَ قَارِئِهَا، فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ: عَنْ ابْنِ عَمَرَ رضي الله عنه مَرْفُوعاً: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ قَدَمِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، يَضِيءُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجَمْعَتَيْنِ» [انظر: كنز العمال (٥٧٦/١)].

وروى غير واحدٍ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» [رواه البيهقي في «السنن» (٢٤٩/٣)].

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يقرؤها كل ليلة.

وأخرج ابن مردويه: عن عبد الله بن مُغَفَّل مَرْفُوعاً: «الْبَيْتُ الَّذِي تُقْرَأُ بِهِ سُورَةُ الْكَهْفِ لَا يَدْخُلُهُ شَيْطَانٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ» [انظر: جامع الأحاديث (١٠٥٢٨)].

وذهب غير واحدٍ من الأئمة إلى سُنَّةِ قِرَائَتِهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَتِهَا، وَقَالُوا: يَنْدُبُ تَكَرُّارُ قِرَائَتِهَا^(١).

(١) انظر: تفسير روح المعاني، للآلوسي.

وذكر العلامة ابن عابدين قراءة سورة الكهف في جملة ما اختص به يوم الجمعة .
وقال ابن قدامة في كتابه «المغني»: يستحبُّ قراءة الكهف يوم الجمعة .

• سبب نزول السورة:

وقد كان سببُ نزول سورة الكهف ابتلاءً واختباراً لرسول الله ﷺ من قبل أخبار المدينة، ليكشفوا حقيقة أمره، ويعرفوا صحة نبوته .

روى ابن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعثت قريشُ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أخبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلّوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهلُ الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجوا حتى أتوا المدينة، فسألوا أخبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهلُ التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالوا لهم: سلّوه عن ثلاثٍ نأمرُكم بهنَّ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسلٌ، وإلا فرجلٌ متقولٌ، فتروا فيه رأيكم: سلّوه عن فتية ذهبوا في الدهرِ الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ، وسلّوه عن رجلٍ طوافٍ بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلّوه عن الرُّوح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبيٌّ فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجلٌ متقولٌ! فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريشٍ فقالوا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصلٍ ما بينكم وبين محمدٍ، قد أمرنا أخبار يهود أن نسأله عن أمور . . فأخبروهم بها، فجاؤوا رسولَ الله ﷺ، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «أخبركم غداً عما سألتُم عنه» ولم يستثنِ - أي: لم يقل: إن شاء الله - فأنصرفوا عنه .

ومكث رسولُ الله ﷺ خمسَ عشرة ليلة لا يُحدِّثُ الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريلُ عليه السلام، حتى أرجف أهلُ مكة وقالوا: وعدنا محمدٌ غداً، واليوم

خَمْسَ عَشْرَةَ قَدْ أَصْبَحْنَا فِيهَا لَا يَخْبِرُنَا بِشَيْءٍ عَمَّا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ! وَحَتَّى أَحْزَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُكُثُ الْوَحْيِ عَنْهُ، وَشَقَّ عَلَيْهِ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، ثُمَّ جَاءَهُ جَبْرِيلُ ﷺ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِسُورَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، فِيهَا مَعَابِتُهُ إِيَّاهُ عَلَى حَزْنِهِ عَلَيْهِمْ، وَخَبِرُ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ مِنْ خَبَرِ الْفَتِيَّةِ، وَالرَّجُلِ الطَّوَّافِ، وَقَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] (١).

• موضوع سورة الكهف:

إذا تدبرنا الآيات الأولى في سورة الكهف ظهرَ لنا الموضوع الأساس للسورة، فالآياتُ تقرر أنَّ الحمد لله وحده، الذي أنزلَ أعظمَ نعمةٍ أنعمها على خلقه، وهي نعمة القرآن الكريم، عندما أنزله على النبي ﷺ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾.

فهو سبحانه المستحق للحمد، لأنه أنزل القرآن الكريم، الذي يهدي العباد إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وليس في القرآن الكريم شيءٌ من العوج، لا في ألفاظه ومبانيه، ولا في أخباره ومعانيه، أخباره كلها صدق وحق، وأحكامه عدلٌ، سالمٌ من جميع العيوب والخلل في ألفاظه ومعانيه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْقَارًا وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وبعد أن قررت الآية الأولى في سورة الكهف استحقاق الله سبحانه للحمد، ونفت عن القرآن الكريم النقص والخلل؛ أثبتت للقرآن الكريم الاستقامة، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَيَمَّا لِيُذْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

﴿فَيَمَّا﴾، أو أخبرت أنه فَيَمَّ بمصالح الخلق الدينية والدنيوية، وهذا يعني أنَّ

(١) انظر: تفسير ابن كثير.

القرآن الكريم كاملٌ بنفسه، ومكملٌ لِمَنْ يَتَمَسَّكُ بِهِ، ويسير على هديه ومنهجه.
وأُنزل الله سبحانه القرآن أيضاً:

﴿لِنُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ﴾ أي: لينذر الذين كفروا عذاباً شديداً من عند الله.
وحُذِفَ المفعول الأول لأنَّ القرينة تدل عليه، وحتى يقتصر على بيان حكمة إنزال القرآن الكريم.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الجنة.

﴿مَتَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا﴾.

أي: بلا انقطاع.

ثم كرر إنذار الذين قالوا اتخذ الله ولداً، وخصَّهم بالذكر استعظاماً لكفرهم وقبح قولهم الذي لم يكن ناشئاً عن علم وتفكير ونظر، فقال:

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

وشأنهم في هذا شأن آبائهم الذين قالوا مثل قولهم.

﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

وكان رسول الله ﷺ يحزنُ عندما يرى إعراضَ المشركين عن الإيمان بالله وعبادته، وهم يتمسكون بكفرهم وشركهم، ولهذا التفتت الآيات الكريمة إلى النبي ﷺ تقول له:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ بِخِصْمٍ فَفَسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

أي: لا تهلك نفسك حزناً بسبب إعراضهم عن الإيمان، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨].

● الحياة في الدنيا ابتلاء واختبار:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ﴾ (٧)

جعل الله كلَّ ما على الأرض زينةً للأرض، فما مِنْ شيءٍ خلقه الله إلا وفيه حكمةٌ، وله دورٌ في زينة الأرض، وقد تخفى هذه الحكمة عنا، لقصور عقولنا عن إدراكها.

والحكمة الكبرى مِنْ جعل ما على الأرض زينة لها هي الابتلاء والاختبار للمكلفين من المخلوقات؛ وقد بيّن الله تبارك وتعالى هذا المعنى في عدة آيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾ [الملك]. وبعد أن يتم الابتلاء والاختبار، يجعل الله كلَّ ما على الأرض من زينة تراباً لا نبات فيه:

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۖ﴾ (٨)

فسأَنْ ما على الأرض من أسباب الزينة كشأن النبات، لا تدومُ خضرته، ولا تبقى نضرته.

وما أكثر ما ذكر الله هذا المعنى في آيات التنزيل الحكيم، منها قوله تعالى في سورة الكهف نفسها: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۖ﴾ (٢٥).

هذا هو الموضوع الأساس الذي تدورُ في فلكه آيات سورة الكهف، وفي استفتاح السورة بذكر فضل الله سبحانه على العباد بإنزال القرآن الكريم بياناً لطريق النجاح والفوز في الاختبار والابتلاء، فالمعلّم الماهر الحكيم هو الذي يبيّن لتلاميذه العلوم التي سيُختبرون بها، كي يجتدوا ويجهدوا فيها، ليكونوا من الناجحين والفائزين.

ومن رحمته ﷺ بخلقه وعظيم حكمته أنه بيّن لهم أولاً طريق السلامة والنجاح قبل أن يمتحنهم ويختبرهم، وهذا من فضله العظيم سبحانه على الناس، وصف لهم الدواء قبل أن يبيّن الداء.

فالحياة كلها ابتلاء واختبار، وليست الدنيا دار نعيم، وكل ما على الأرض من زينة في هذه الدنيا فتنة للإنسان في حياته، وكلما كان تعلّقه بهذه الزينة كبيراً، كانت فتنته فيها أعظم وأكبر: ﴿أَلَمْ أَلْهَ الْأَنْبِيَاءَ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآٰلِآِئِ الْمُنْجَلِآتِ﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال في سورة الأنفال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمُورُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨).

● كَهْفُ السَّلَامَةِ:

وطريق السلامة والنجاح في الكتاب الكريم المُنَزَّلِ الكامل في نفسه، والمكمل لغيره، وفي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ الذي أنزل الله عليه الكتاب، والذي كاد أن يهلك نفسه أسفاً وحرصاً على نجاحنا في الاختبار وسلامتنا من الفتن.

إنَّ حرص النَّبِيِّ ﷺ على سلامتنا ونجاحنا يُلْزِمُنَا بوجوب التمسك بسُنَّتِهِ، فالخطرُ كبيرٌ، والامتحانُ عظيمٌ، ولهذا كان أسفه ﷺ شديداً وكبيراً على أولئك المعرضين عن الكتاب والسُنَّةِ، المفتونين بالزينة الباطلة الزائلة، وما أكثرها، وما أشدَّ خطرها! ولن نجد في غير الكتاب والسُنَّةِ السلامة والنجاة، فهما كهفُ السلامة من أخطار الفتن المحلقة بنا.

وكما كان كهفُ الجبل سبباً لسلامة أصحاب الكهف من كيد الكافرين ومكرهم، فالكتابُ والسُنَّةُ كهفُ السلامة والأمان لكلِّ إنسانٍ من فتن الحياة الدنيا، وهما سبيلُ السعادة في الدنيا والآخرة: ﴿وَأَقْلَمُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٧] أي: ملجأ ومأوى.

وكما كان ردُّمُ ذي القرنين سبباً لردِّ المفسدين وحماية الناس من شر أهل الشر والفساد، فإنَّ الكتاب والسُنَّةَ سبب لحماية المتمسكين بهما من الفتن في

الحياة الدنيا، وسيأتي معنا أن أيَّ خرقٍ يحدث في السدِّ يمكن المفسدين من الفساد والشر بين العباد، وكذلك فإنَّ أيَّ خَرْقٍ لأحكام الكتاب والسُّنة ومجاورة حدودهما يؤدِّي إلى التعرُّض للفتن، والوقوع في الشر، ويعطي المفسدين في الأرض فرصة للفساد والإفساد.

والجدير بالذكر أن سورة الكهف جاء ترتيبها في المصحف بعد سورة الإسراء التي تحدّثت بعض آياتها عن بني إسرائيل ودورهم الكبير في نشر الفساد في الأرض.

ففي سورة الكهف بيانٌ لأسباب السلامة من فتن الحياة الدنيا، ولهذا سنَّ النبي ﷺ قراءتها كل يوم جمعة، وهو أفضل أيام الأسبوع عند المسلمين، وأكثرهم يريخ نفسه في يوم الجمعة من عناء العمل الدنيوي، فقراءة سورة الكهف فيه مناسبة طيبة لتخلية النفس والقلب عن صدأ الغفلة عن الله سبحانه بسبب شدة الاهتمام بالدنيا ومشاغلها وهمومها ومشكلاتها، وفي قراءة سورة الكهف أيضاً تنوير القلب والنفس بنور التلاوة وهدى النبوة، وتحصينهما بالمعاني الطيبة الكريمة التي ركزت آيات السورة عليها.

وما دام الإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو معرضٌ للابتلاء والافتتان في كل لحظة من لحظات حياته، والفتنُ معروضةٌ عليه بأشكال مختلفة وأنماط متعددة، تارة بعد تارة، ولحظة بعد لحظة، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نَكْتَةٌ بِيضَاءٌ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلَ الصِّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدَ مِرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَحِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مَنكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه مسلم (١٤٤)].

فما دامت الفتنُ تعرضُ دائماً على الإنسان في حياته الدنيا، فعليه أن يداوم على قراءة سورة الكهف، متدبراً آياتها، ممعناً النظر في معانيها، كي ينور الله سبحانه قلبه، فيكون أبيض مثل الصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء،

وإلا صار قلبه بسبب تأثير الفتن عليه أسودَّ مرَباداً كالكوز مجحياً، أي: منكوساً لا خير فيه، لأنه لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكرُ منكراً، إلا ما أشرب من هواه.

كما تَضَمَّنَتِ السُّورَةُ ذَكَرَ أَهَمَّ أسبابِ الفتن في الحياة الدنيا، وبيَّنت مواقف المؤمن منها، وشرعت له أسباب السلامة والنجاة بأسلوب القصة، فكانت في موضوعها موافقةً لاسمها كهف السلامة والأمان.

كما عرضت سورة الكهف عدَّة قصص استغرقت معظم آياتها تثبيتاً لما ذكرته في آياتها الأولى، وتمكيناً لموضوعها الأساس في نفوس قارئها، وعقبت بعد كل قصة بتعقيب، يؤكِّد هذا المعنى ويقوِّيه، ففي أولها عرضت قصة أصحاب الكهف، ثم ثنت بقصة صاحب الجنتين، ثم ذكرت قصة آدم مع إبليس باختصار، ثم قصة موسى مع الخضر، وقبل أن تختتم آيات السورة عرضت قصة ذي القرنين. ولكل قصة من هذه القصص اتصال وثيق بموضوعها الأساس كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى.



الفصل الثالث قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ

﴿أَمَرَ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۖ﴾ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۖ﴾ (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۖ﴾ (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۖ﴾ (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۖ﴾ (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ ؕ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۖ﴾ (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ۖ لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ﴾ (١٥) وَإِذْ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۖ﴾ (١٦) وَتَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرْتَوُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُّرْشِدًا ۖ﴾ (١٧) وَنَحْسِبُهُمْ أَيُّكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۖ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ۖ﴾ (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۖ﴾ (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۖ﴾ (٢٠) وَكَذَٰلِكَ أَعَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَن السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّلُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا أُنَبِّئُوهُمْ بِنَبَأِ رَبِّهِمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ﴾ (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ

سَبْعَةً وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلِئِشْوَا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَشْوَا لَهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ .

• مصادر القصة:

القرآن الكريم هو المصدر الوحيد لقصة أصحاب الكهف لعدة أسباب؛ منها:
 أولاً: قول الله سبحانه للنبي ﷺ في سورة الكهف [١٣]: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾، وإنَّ في قوله سبحانه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ إشارةً إلى أنَّ هناك من يقصُّ نبأ أصحاب الكهف بغير حقٍّ، ولهذا لو تتبعنا ما ذكره كثيرٌ من المفسرين من أخبار أصحاب الكهف المأخوذة عن بني إسرائيل، لوجدنا فيها تعارضاً وتناقضاً، ممَّا يجعلها أخباراً ساقطة، ليس لها أيُّ قيمة علمية.

ثانياً: ذكر الله سبحانه في سياق قصة أصحاب الكهف صورةً من صور اختلاف رواة قصتهم، تلك هي صورة اختلافهم في تحديد عدد أصحاب الكهف، فقال ﷺ: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ جدلاً كبيراً قام حول عدد أصحاب الكهف، وأن الأقاويل والروايات فيهم كثيرة، ولا فائدة من هذا الجدل، فمهما كان عددهم فإنَّ أمرهم موكلٌ إلى الله سبحانه، وعلمهم عند الله العليم الخبير، وعند الفتة القليلة من الناس الذين شهدوا أمرهم عند حدوثه، والعبرة في قصتهم لا في عددهم، ولهذا نرى القرآن الكريم يوجِّه النبي ﷺ حتى لا يجادل في عددهم،

ولا يستفتي أحداً من المتجادلين فيهم، صيانةً لطاقة الإنسان العقلية أن تهدرَ في غير فائدة، واكتفاءً بما ذكره القرآن الكريم من أخبارهم وقصتهم، وقد عودنا الله سبحانه في كتابه الكريم ألا يذكر من القصة إلا ما فيه فائدة وعبرة وموعظة.

وقوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ بعد ذكر قولين من أقوال المتجادلين في عددهم يدلُّ على أنَّهما قولان غيرُ صحيحين، لأن معنى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يقولون قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يصيبه، والرجم: القول بالظنِّ، وبعد أن ذكرت الآية الكريمة القول الثالث فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ﴾ سكتت عنه، ولم تعلق عليه بشيء، فدلَّ هذا على أنه القول الصحيح في عددهم.

• فوائد وحكم:

في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة وحكم جليلة:

- منها: أنَّها تعلِّمنا الأدب مع الله سبحانه، بأن نردَّ العلم إليه سبحانه، فهو العليم الخبير: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾؛ فعلينا أن نردَّ علم الأشياء إلى خالقها جلَّ وعلا وإن علمنا بها، أدباً مع الله سبحانه.

- ومنها: أن المجادلة لإظهار الحق وإبطال الباطل ليست مكروهة ولا مذمومة، بل هي ممدوحة ومطلوبة إذا ترتب عليها إظهار الحق ودحض الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أما المجادلة المكروهة فهي التي تكون في أمور فيها شك وتردد، ولا يقصد منها سوى إظهار الجدل، وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ﴾ والممارة: المحاجة فيما فيه مرية، أي: تردد وشك، والمعنى المراد في الآية: فلا تجادل في شأن أصحاب الكهف إلا جдалاً ظاهراً، بأن تقصَّ عليهم ما في القرآن الكريم من غير تجهيل لهم ولا تعنيف.

- وعلِّمنا الله سبحانه في هذه الآية أيضاً: أدباً من آداب السؤال في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فالسؤال إمَّا للاسترشاد، وهو جائز، وإمَّا

للتعنت، وهو مكروه، وكلاهما غير لائق بمقامه ﷺ، فكان الآية تقول للنبي ﷺ: لا تسأل أحداً منهم عن قصة أصحاب الكهف، فإن فيما أوحى إليك لمندوحة عن غيره، مع أنهم لا علم لهم بها، ولا تسألهم سؤال متعنت تريد فضح المسؤول وتزيف ما عنده، فإنه مخلٌ بمكارم الأخلاق^(١).

أما السؤال للتعليم والإرشاد كما يسأل المعلم تلميذه عن مسألة، ثم يذكرها له، فلا مانع منه، وهو فنٌ من فنون التعليم، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يستعمله مع أصحابه.

• الآيات البينات:

إن قصة أصحاب الكهف - وإن استعظمها الناس وعجبوا منها - ليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه، وعظيم صنعته، وبديع حكمته، فإن خلق السماوات والأرض، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم، وجعل ما على الأرض زينة لها، وتحويلها بعد ذلك إلى صعيد جرز لا نبات فيه: آياتٌ بيناتٌ أعظم وأعجب من آية الله في أصحاب الكهف، ولهذا قدّم الله لقصة أصحاب الكهف بقوله قبلها:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾

وكلمة (أم) معناها: بل، وهي للإضراب والانتقال من كلام إلى كلام آخر، له تعلق بما قبلها بواسطة المعنى، فقصة أصحاب الكهف لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلق الله سبحانه في السماوات والأرض، فخلق السماوات والأرض أعظم من خلق جميع الناس: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال أيضاً: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۖ رَفَعَ سَعَىٰهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات].

والكهف: الثقب الواسع في الجبل، فإن لم يك واسعاً فهو غار. واختلف العلماء في الرقيم على أقوال؛ منها: أنها اسم بلدة أصحاب

(١) انظر: تفسير البيضاوي، وحاشية الشهاب عليه.

الكهف، أو اسمُ الجبل الذي فيه الكهف، والأظهرُ أنَّ الرقيمَ معناه المرقوم، فهو فعيل بمعنى مفعول، من قولك: رقمت الكتاب: إذا كتبتَه، ومنه: قوله تعالى: ﴿كُتِبَ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩] فهو كتابٌ كتبت فيه أسماءُ أصحاب الكهف وأنسابهم، وسبب خروجهم من بلدهم واختفائهم^(١).

والخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتُ﴾ للنبي ﷺ، وأريدَ به غيره لأنه عليه الصلاة والسلام كان يعرف من قدرة الله تعالى ما يجعله لا يتعاضمُ خبر أصحاب الكهف، والآية تؤكد سبب النزول الذي سبق ذكره^(٢).

• صفات أصحاب الكهف:

ذكر الله ﷻ عدة صفات لأصحاب الكهف، فقال:

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١٠) ﴿٣﴾.

فهم (فتية) جمع فتى، وهو من جموع القلة، ممَّا يدل على قلة عددهم، والفتى: الطري من الشبان. وهذا يدل على أنهم كانوا شباباً في مقتبل أعمارهم. وهم مؤمنون بالله سبحانه وحده، فقد وصفهم الله بالإيمان فقال:

﴿لَحْنٌ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَاهُهم بِالْحَقِّ إِنهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى﴾ (١٢) ﴿٤﴾.

فقد زادهم سبحانه هدى. وفهم من الآية الكريمة أنَّ مَنْ آمَنَ بربه وأطاعه زاده ربُّه هدى، لأنَّ الطاعة سبب للمزيد من الهداية والرشاد. ويبدو أنَّ هؤلاء الفتية كانوا من أسرٍ عريقة ذات جاه وثراء في بلدهم، فبعد

(١) انظر: تفسير أضواء البيان.

(٢) انظر: تفسير روح المعاني.

(٣) انظر: تفسير الآية (١١) في ص ٤١، والآية (١٢) في ص ٤٦، وقد أحرث تفسير بعض الآيات وقدمت بعضها على بعض ليتسق لي عرض القصة متسلسلة.

أن خرجوا فراراً بدينهم افتقدهم أهل البلد، وبحثوا عنهم وطلبوهم، ولما يسوا من وجودهم كتبوا أسماءهم، ورقموها في لوح، ووضعوه في مكان بارز في البلد، فلم يكن هؤلاء الفتية نكراتٍ مجهولةً، بل كانوا معروفين ومشهورين في مجتمعهم.

وكان لهم ثراء ومال، وقد حملوا بعض هذا المال معهم إلى الكهف، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَاَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ١٩]. والورق: النقود الفضية.

وجود كلبٍ معهم يدلُّ على ثرائهم، لأنَّ الكلب يُقتنى عادةً للصيد أو للحراسة، وهما شأنُ أصحاب الجاه والثراء، وقد أضافته الآيةُ الكريمة إليهم: ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطْرِ ذَرَأِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]؛ فالكلبُ كلبهم، وخاصٌّ بهم، وليس كما ذكرت بعض الروايات والحكايات أنَّه كلبُ راعٍ تبعهم وانضمَّ إليهم.

• رَبَّطَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ:

وقد تعرَّض هؤلاء الفتية لخطر كبير، ووعيد شديد، يصل إلى حد رجمهم بالحجارة حتى الموت، بسبب إيمانهم بالله، وعبادته وحده سبحانه، فثبتوا على دينهم، وتمسكوا بعقيدتهم، وواجهوا باطل وكفر قومهم بشجاعة وثبات وقوة أمدهم الله بها:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾.

وإنَّ قوله تعالى:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يدل على أنَّ الفتنة التي تعرَّضوا لها فتنةٌ كبيرةٌ وشديدة، وأنَّ المحنة التي وقعوا بها محنةٌ عصبيةٌ وأليمةٌ، لأنَّ معنى ربطنا على قلوبهم: ثبتنا قلوبهم وقويناها على الصبر، حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من قول

الحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم، والفرار بالدين إلى كهفٍ في جبلٍ موحشٍ لا ماء فيه ولا طعام.

فالربطُ على القلبِ لا يكونُ إلَّا عند الأحداث الكبيرة المخيفة المرعبة، التي تنزلُ لها القلوبُ، وتجزعُ فيها النفوسُ، كحال أصحاب رسول الله ﷺ عندَ مواجهتهم لجيش الكفار في بدر، وقد كانوا أكثرَ عددًا وعُدَّةً من المسلمين، فثبتهم الله ﷻ، وربط على قلوبهم، وأخبر عن ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ الْغُصَاثُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] .

وكحال أم موسى ﷺ عندما سمعتُ أن ولدها أصبح في يد فرعون وملئه، فخافت عليه خوف الأم على ولدها، وكادت أن تظهر أمرها وأمره، ولكن الله ﷻ ثبتها وربط على قلبها، وقال تعالى في ذلك: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] .

وأصل معنى الربط لغةً: الشد المعروف، تقول: ربطت الدابة: شدتها برباط، واستعمل في الآية على سبيل المجاز، ربط الله على قلبه إذا ثبته وصبره. وثبت أصحاب الكهف على دينهم، وصبروا على فراق أهلهم وأوطانهم، بسبب ربط الله سبحانه على قلوبهم، وقاموا يواجهون باطل قومهم، ويعلنون الحق في وجوههم:

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ .

ألا ما أشد ثباتهم! وما أعظم نعمة الله عليهم بربطه على قلوبهم، فالنفي بـ (لن) أبلغ من النفي بغيرها، لأنها تفيد استغراق الزمان كل الزمان، فلن يتجهوا بالعبادة إلى غيره سبحانه أبداً، لأنه وحده المستحق للعبادة.

﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي: قولاً ذا شطط، أي: بعيد عن الحق، مفرط بالبعد، أو قولاً هو عين الشطط، وهو من فعل: شَطَّ؛ إذا أفرط في البعد.

ومن نتائج ربط الله سبحانه على قلوبهم أيضاً أنهم أنكروا على قومهم عقيدتهم الفاسدة وعبادتهم لغير الله سبحانه :

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ﴾ .

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ فكلامهم عن قومهم إخبارٌ بمعنى الإنكار .
﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ و(لَوْلَا) هنا للتحضيض والطلب مع الإنكار ، و(السلطان البين) : الدليل القاطع الظاهر ، فالعقيدة يجب أن تكون مستندة على دليل ظاهر وبرهان واضح ، والعقيدة التي لا دليل عليها مردودة ومرفوضة ، والتقليد في أمر العقيدة غير جائز .

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي : لا أظلم ممن يكذب على الله ، وينسب له الشريك والولد ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً :
﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف : ٥] .

• الخروج إلى الكهف:

ولابدَّ لهؤلاء الفتية المؤمنين أمام التهديد والوعيد برجمهم بالحجارة حتى الموت أن يفروا بدينهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة قوّة وجبروت أصحاب السلطة من قومهم ، وهم بضعة شباب في مقبّل أعمارهم ، لا حول لهم ولا قوة إلّا قوة إيمانهم ، وثقتهم بربهم ، فخرجوا من بلدهم ، وهجروا أهلهم وقصورهم ، ولجؤوا إلى كهفٍ في جبل بعيد عن العمران ، لا ماء فيه ولا طعام ، ولا وطاء ولا غطاء :

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۖ﴾ .

وفي الآية دليل على حُسن الهجرة لسلامة الدين ، وقُبْحُ المقام في دار

الكفر أو في بلد لا تستطيع أن تعبد الله فيه، فالعزلة لسلامة الدين أمر واجب في الإسلام في مثل هذه الظروف، وأرض الله واسعة، ووطن المسلم حيث يستطيع أن يعبد الله: ﴿يَعْبُدُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرين فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة»^(١).

فعلى المسلم أن يفارق الكافرين، ويبتعد عنهم، وإن له حيثما ذهب مندوحة وملجأ يتحصن فيه، ويأمن به على دينه ونفسه وعرضه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

وجاء في السنة الشريفة عدد من الأحاديث النبوية تحض المسلم على اجتناب مواطن الفتن عند وقوعها:

منها قوله ﷺ: «ستكون فتن؛ القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به» [رواه البخاري (٣٦٠١) ومسلم (٢٨٨٦)].

ومنها أيضاً قوله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف (قمم) الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» [رواه البخاري (١٩) وأبو داود (٤٢٦٧) والنسائي (١٢٤/٨) وابن ماجه (٣٩٨٠)].

وقد تعرض أصحاب الكهف لأعظم الفتن، وهي الفتنة في الدين، إذ حاول قومهم أن يفتنوه عن دينهم، فقرروا اعتزال قومهم، وهجرة بلدهم وأهلهم، وقال بعضهم لبعض:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على الضمير المنصوب في ﴿اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ أي: وإذا اعتزلتم القوم ومعبودهم إلا الله، فإنهم كانوا يعبدون الله، ويعبدون

الأصنام كسائر المشركين، ويجوزُ أن تكونَ (ما) مصدرية على تقدير: وإذ اعتزلتموهم وعبادتهم إلّا عبادة الله، ويحتمل أن تكون (ما) نافية، وتكونُ جملة ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ إخباراً من الله تعالى عن عقيدة الفتية، وعبادتهم الله وحده، والجملةُ على هذا المعنى معترضة بين (إذ) وجوابها (فأووا)^(١).

• منطلق المغرورين:

ولا ينبغي لمن يتعرّض لمثل ما تعرّض له أصحابُ الكهف أن يغترّ بنفسه، وأن يستجيبَ لنزغات الشيطان: بأنك قوي الإيمان، يمكنك الثبات ومواجهة الفتنة، ذلك محضُ الخطأ، وهو منطقُ المغرورين المخدوعين بأنفسهم، المستجيبين لنزغات شياطينهم، فمهما كنتَ قويَّ الإيمان فلست أقوى إيماناً من أصحاب الكهف، الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] والذين ربط الله على قلوبهم كما مرَّ معنا ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤].

ولك في السابقين الأولين إلى الإسلام من أصحاب رسول الله ﷺ قدوة طيبة، وأسوة حسنة، فقد هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، ثم هاجروا بعد ذلك إلى المدينة المنورة، لينضموا إلى رسول الله ﷺ في دار الهجرة، فأين إيمانك من إيمان المهاجرين، الذين شهد الله لهم بصدق الإيمان، وأثنى عليهم بقوله الكريم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّالِحُونَ﴾ [الحشر: ٨]؟!.

• في داخل الكهف:

وكان للفتية المؤمنين ثقةً كبيرة بفضل الله سبحانه، ورجاء برحمته الواسعة، فتوكلوا عليه سبحانه، وسلّموا إليه أمرهم، وفوّضوا إليه شأنهم، وقال بعضهم لبعض: ﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ﴾ التّجّأوا إلى الكهف، واتخذوه مأوى لكم.

(١) انظر: تفسير البضاوي.

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ يبسط لكم ويوسع عليكم ربكم .

﴿مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ﴾ يسهل .

﴿لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذي أنتم فيه ، وهو الفرار بالدين ، واعتزال الأهل والمال

والوطن .

﴿مَرْفَقًا﴾ ما ترتفعون وتتفنون به .

وجاء جوابُ فعل الأمر: ﴿فَأَوْرُءَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَنْشُرْ﴾ مجزوماً، وهذا

يدلُّ على نصوع يقينهم، وصفاء إيمانهم، وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى .

ورحم الله سيد قطب عندما قال في ظلال هذه الآية: «وهنا ينكشفُ العجبُ

في شأن القلوبِ المؤمنةِ، فهؤلاء الفتيةُ الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون

ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجرّدون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء

الذين يأوون إلى الكهف الضيقِ الخشنِ المظلم، هؤلاء يستروحونَ رحمة الله،

ويحسّون هذه الرحمةَ ظليّةً فسيحةً ممتدة: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، ولفظة

﴿يَنْشُرْ﴾ تلقي ظلال السعة والبجوحة والانفساح، فإذا الكهفُ فضاءً فسيحٌ

رحيبٌ وسيعٌ، تنتشر فيه الرحمة، وتتسع خيوطها، وتمتد ظلالها، وتشملهم

بالرفق واللين والرخاء... إنّ الحدودَ الضيقةَ لتتناحُ، وإنّ الجدرانَ الصلدةَ

لترقُ، وإنّ الوحشةَ الموغلةَ لتشفُ، فإذا الرحمةُ، والرفقُ، والراحةُ،

والارتفاقُ، إنّهُ الإيمانُ، وما قيمةُ الظواهرِ؟! وما قيمةُ القيمِ والأوضاعِ

والمدلولات التي تعارفَ عليها الناسُ في حياتهم الأرضية؟! إنّ هنالك عالماً

آخر في جنبات القلب المعمور بالإيمان المأنوس بالرحمة، عالماً تظله الرحمةُ

والرفقُ والاطمئنانُ والرضوان»^(١).

• نومهم في الكهف:

ونام الفتية في الكهف متوكلين على الله تعالى، ومفوضين أمرهم إليه، ثقة

(١) في ظلال القرآن .

برحمته، واعتماداً على فضله، وشاءت حكمته ﷻ وإرادته أن يمتد نومهم ويطول حتى يتجاوز حدود الليالي والشهور إلى السنين والقرون:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١)

وضربه جلّ وعلا على آذانهم كناية عن كونه سبحانه أنامهم، ومفعول (ضربنا) محذوف، أي: ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع، فلا يسمعون شيئاً يوقظهم، والمعنى: أنماهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات. وعبر بالضرب ليدلّ على قوّة المباشرة واللصوق واللزوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ اللَّذَّةُ أَيْنَ مَا تُقَفُّوْا﴾ [آل عمران: ١١٢].

وذكر الجارحة التي هي الآذان لأن منها يكون السمع، ولا يستحكم نومٌ إلّا مع تعطل السمع، ومن ثقل نومه واستحكم، حتى منعه من القيام إلى صلاة الصبح يكون كما قال عنه النبي ﷺ: «ذاك رجلٌ بالَ الشيطانُ في أذنيه» [رواه البخاري (١١٤٤) ومسلم (٧٧٤)]^(١).

ولم تبين الآية هنا مدة نومهم، وذكر الله تبارك وتعالى في آيةٍ أخرى مدّة نومهم فقال:

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (٢٥)

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ أي: تسع سنين، فإنّه إذا سبق عددٌ مفسّرٌ، وعطف عليه ما لم يُفسّر، حُمِلَ تفسيره على السابق، فمدّة نوم أصحاب الكهف ثلاثمئة وتسع سنين بالتوقيت القمريّ، وثلاثمئة سنة بالتوقيت الشمسي. وهذا هو الحقّ الصحيح الذي لا يحومُ حوله شكٌ، فلا يعلمُ مدة نومهم إلّا الله ﷻ الذي ضربَ على آذانهم، ولهذا جاء التعقيبُ على الإخبار بمدّة نومهم بقوله سبحانه:

(١) انظر: أضواء البيان.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو سبحانه الذي يعلم غيب السماوات والأرض، أي: جميع ما غاب فيهما، فالغيب مصدر بمعنى الغائب والخفي.

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: ما أبصره وما أسمعاه جلّ وعلا! فعلم الغيب أمر عظيم، من شأنه أن يتعجب منه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والسمع والبصر صفتان من صفات الله سبحانه غير صفة العلم، وبصره وسمعه سبحانه لا يشبهان بصر المبصرين ولا سمع السامعين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فإن اللطيف والكثيف، والصغير والكبير، والجلّي والخفي، والسرّ والعلن على حدّ سواء في عدم الاحتجاب عن بصره وسمعه تبارك وتعالى^(١).

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: ما للفتية وليّ يتولّى أمرهم، فهو سبحانه وليّهم كما هو سبحانه وليّ المؤمنين الصالحين: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِينَ نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

• الحكم لله وحده:

وختم الله الآية بقوله:

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ فالحكم لله وحده، يحكم ما يريد، ولا حكم لغيره سبحانه، فالحلال ما أحله الله تعالى، والحرام ما حرّمه، والدين ما شرعه،

(١) روح المعاني.

والقضاء ما قضاه وقدره، وكما أَنَّ الخلقَ له، فالأمرُ له أيضاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأعراف: ٥٤].

ويفهم من هذه الآية: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ومن أمثالها أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله مشركون بالله إن استحلوا ذلك، وفضلوا هذه الشرائع الوضعية على شريعة الله، وقد جاء هذا المفهوم مبيناً في آيات أخر، كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوهِنَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجْدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فصرّح بأنهم مشركون بطاعتهم الشياطين، وهذا الإشراك في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [١٦] وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿[يس].

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله بعد أن ذكر عدداً من الآيات القرآنية في هذا المعنى: «وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أَنَّ الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على السنة أوليائه مخالفة لما شرعه جلّ وعلا على السنة رسوله ﷺ، أنه لا يشك في شركهم وكفرهم إِلَّا مَنْ طمسَ الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم»^(١).

● من آيات الله سبحانه:

وَإِذَا الْعَنَانِيَةُ رَاقِبَتْكَ عِيُونُهَا نَمَّ فَالْحَوَادِثُ كُلُّهَا أَمَانٌ ونشر الله سبحانه رحمته على الفتية وهم نائمون في الكهف، وتولّاهم بعنايته، وحفظهم هذه المدة الطويلة بحفظه ورعايته، فلم تمتد إليهم يد البلى، ولا نالت منهم رطوبة الأرض وبرودتها، ولا أثّرت فيهم حرارة الشمس وبيوستها، ولم يطلع عليهم إنسان، ولا اقترب منهم حيوان، كانوا طول مدة

(١) انظر: أضواء البيان.

نومهم محفوظين بحفظ الله تعالى الذي لا يُرام، محروسين بعينه سبحانه التي لا تنام.

حبس الله عنهم بقدرته شعاع الشمس فما مسهم، ولا أصاب أجسادهم:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧).

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: تميلُ عنهم إلى جهة يمين الكهف، فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم.

﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: تعدلُ عنهم إلى شمال الكهف.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ وهم في وسط الكهف بحيثُ ينالهم الهواء، ولا يؤذيهم حرُّ الشمس.

وصرفُ أشعة الشمس عنهم من الأمور الخارقة للنواميس الكونية، وهو من الآيات الدالة على قدرة الله ﷻ، ولهذا قال بعدها:

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ أي: مَنْ يدلّه الله سبحانه على الحق، ويوفقه للعمل به.

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الفائز والناجح في الدنيا والآخرة، وهذا ثناء من الله سبحانه على أصحاب الكهف، فقد هداهم الله سبحانه، ووفقهم ونشر رحمته عليهم، وجعل لهم في الكهف مرفقاً.

﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ وَمَنْ يخذله الله ويصرفه عن الحق.

﴿فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾.

• الحارس الأمين:

وطول النوم يستدعي عادةً تغيراً في جسد الإنسان من استرخاء وهيئات خاصة يكونُ عليها النائم، فما بالكَ إذا طالَ النومُ، وامتدَّ إلى سنين وقرون!

ومع ذلك فإنَّ الله سبحانه حفظهم بحفظه، وأحاطهم بعنايته ولطفه، فلم تتغيَّر أجسادهم، ولم يطرأ عليهم طول مدَّة نومهم ما يؤثر فيها، حتى إنَّ الناظر إليهم يظنُّهم مستيقظين لا نائمين:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَافًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۖ﴾

﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْكَافًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وهذا تأكيدٌ لقدرة الله سبحانه وعنايته بهم وحفظه لهم، فالفتية طول مدَّة نومهم كانوا أحياء نائمين لا أمواتاً هامدين، فقد كانوا يتحرَّكون ويتقلَّبون.

ونام كلُّهم أيضاً مثلهم:

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ في مدخل الكهف.

وإنَّ ذِكْرَ الآيةٍ لكلِّهم يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ جميع أسباب الحفظ والحراسة الأرضية التي يلجأ إليها الإنسان، وهو في مثل حال أصحاب الكهف قد تعطلَّت وتوقَّفت، فقد نام حارسهم، ولم يبقَ ثمة أحدٌ يحرسهم، وليس ثمة بابٌ يُغلق دونهم، ولا جدران تمنعهم، ولا عمران يحيط بهم، فمن يتولَّى حراستهم دون طوارق الليل في هذا الجبل البعيد المقفر؟!.

إنها عناية الله، وإنهم في كنف الله، سَخَّرَ اللهُ لهم جندياً من جنوده تولَّى حراستهم على مدى ثلاثة قرون كاملة، لم يغفل خلالها، ولم ينم، ولم يتبدَّل أو يتغيَّر، حرسهم الله بالرعب:

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ ألقى الله عليهم وعلى كهفهم من الهيبة والجلال والرعب بحيث لم يجرؤ أحدٌ من إنسانٍ ولا حيوانٍ يدنو منهم، والرعب من جنود الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدر: ٣١].

وقد سَخَّرَ اللهُ الرعبَ لنبِيِّهِ ﷺ، ونصره به على أعدائه، وبينه وبينهم مسيرة شهر، فبعد أن جمع الرومُ جموعهم في تبوك، وحشدوا فيها جيوشهم،

تراجعوا، وانسحبوا خائفين مذعورين عندما سمعوا بخروج النبي ﷺ من المدينة إلى حربهم وقتالهم، ولَمَّا وصل النبي ﷺ إلى تبوك لم يَلَقْ جيشاً يقاتله، ولا عدوًّا يحاربه، نصره الله ﷻ بجندي واحد من جنوده على أكبر دول الأرض حينئذٍ وأقواها عدداً وعدداً، قال ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطُهوْراً، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَيُبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

وواضح ما في الآيات من الدلالات المتعددة على ثبوت الكرامات للأولياء والصالحين، فلا شك في ولاية أصحاب الكهف وصلاحتهم، وما أكرمهم الله به من خوارق العادات دليل واضح على ثبوت الكرامات لأهل الولاية والصلاح.

• البعث من النوم:

وبعد أن ضرب الله على آذانهم فناموا ثلاثة قرونٍ كاملة، أيقظهم الله سبحانه بقدرته، فبعثهم من نومهم، وأثارهم من رقادهم، فكما أظهر الله سبحانه كمال قدرته بضربه على آذانهم سنين عدداً، أظهر سبحانه أيضاً كمال قدرته ببعثهم من نومهم، وترتب على ذلك أيضاً بيان كمال علمه سبحانه بمدّة نومهم، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ۚ﴾ (١٢)

فمن حَكَمَ بَعَثَ اللهُ سبحانه أصحاب الكهف من نومهم أن يبيّن للناس أي الحزبين المختلفين في مدّة لبثهم أحصى لذلك وأضبط له، وقد سكنت الآيات الكريمة عن الحزبين المذكورين، فلم تبيّن شيئاً عنهما، فلا يسعنا إلا السكوت والإمساك عن الخوض فيهما التزاماً لما سبق ذكره في فقرة (مصادر قصة أصحاب الكهف)^(١).

(١) انظر: ص ٣١ - ٣٢، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

وإنَّ المفسرين الذين حاولوا الكشف عن حقيقة الحزين المذكورين لم يصلوا إلى شيء مفيد، وجاءت أقوالهم مختلفة ومضطربة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ﴾ أي: لنعلم اختلاف الحزين واقعاً وحادثاً كما سبق أن تعلق به علمنا منذ الأزل، فليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ سبحانه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم، فهو سبحانه عالمٌ بكل ما سيكون قبل أن يكون، لا يخفى عليه شيء، كما سبق بيانه ودلَّت عليه آيات كثيرة.

● محاورة بعد النوم:

ومن الطبيعي أن يتساءل الفتية بعد بعثهم من النوم عن مدة نومهم، وأن تختلف آراؤهم:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (١٩).

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ لامُ العاقبة، فبعد أن بعثهم الله من نومهم، تساءلوا بينهم، وليست لامُ التعليل، فلم يبعثهم الله ليتساءلوا.

والحوار الذي حدث بينهم بعد استيقاظهم حول مدة نومهم يدلُّ على أنَّه سبحانه حفظ أجسادهم طول هذه المدة من التغير، فلم تطلْ شعورهم وأظفارهم، ولم تصفرَّ وجوههم وتبلى ثيابهم، كما زعم بعض المفسرين، فلو كان أصحاب الكهف بتلك الصفات لأنكروا أحوالهم عند استيقاظهم، ولم يقولوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (١).

(١) انظر: روح المعاني.

وإن قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ يدل على عدم حدوث التغير في أجسامهم، لأن معناها: كما أنماهم وحفظنا أجسامهم طول هذه المدة؛ بعثناهم^(١).

• النقود الفضية:

وصرفهم الإحساس بالجوع عن التفكير في مدّة نومهم إلى التفكير في تدبير طعام يسدّون به جوعهم، فأحضر أحدّهم نقوداً فضية كانت معهم وقال: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ المعهودة التي عاشوا بها، وخرجوا منها.

﴿فَلْيَنْظُرِ إِنِّي أَرْكِي طَعَامًا﴾ فليبحث عن أحلّ الطعام وأطيبه.

﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي: من ذلك الطعام.

وهكذا أرسلوا واحداً منهم بالنقود الفضية التي كانت معهم ليُحضِرَ لهم طعاماً من المدينة، وأوصوه بالحدَر، وأن يحسِنَ التخفّي، حتى لا ينكشف أمرهم، ويفتضح شأنهم:

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

وأكدوا وصيتهم له ببيان ما يترتب على انكشاف أمرهم من الخطر على حياتهم أو عقيدتهم:

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة حتى الموت.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا﴾ وهذا يدلّ على أن الفتية كانوا حذرين خائفين أن ينكشف أمرهم، ولم يعلموا أن الأعوام قد كرّت، وأنّ عجلة الزمان قد دارت، وأنّ أجيالاً قد تعاقبت، وأنّ معالم المدينة التي يعرفونها قد

(١) لباب التأويل، للخازن.

تغيّرت، وأنّ دولة الظالمين والمتسلّطين التي كانوا يخافون منها قد دالت، وأنّ قصتهم أصبحت خبراً من أخبار التاريخ يتناقله الخلف عن السلف. ويبدو أنّ تلك النقود الفضية كانت سبب انكشاف أمرهم، وظهور حقيقتهم.

● إظهار الحقيقة:

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَئِبُهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۖ﴾

﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وكما ضرب الله سبحانه على آذان أصحاب الكهف فجعلهم ينامون طيلة ثلاثة قرون متوالية، أطلع الناس عليهم، وكشف لأهل مدينتهم حقيقتهم.

فالإعثار: معناه الاطلاع والعرفان، لأنّ العاثر الذي يسقط لوجهه ينظر إلى موضع عثرته، وكان الإعثار مفاجأة كبيرة لأصحاب الكهف، عرفوا بعدها أنّ الدنيا تغيّرت كثيراً من حولهم، وأنهم من جيل قديم مضت عليه قرون، وأنهم أصبحوا أعجوبة في نظر الناس، وأنّ كلّ ما يربطهم بجيلهم من قرابات وصلات ومعاملات ومشاعر وعادات انقطع وانتهى، فسألوا الله سبحانه أن يميّتهم، واستجاب الله دعاءهم، فماتوا، والناس خارج كهفهم يتنازعون في أمرهم.

وقد بيّنت الآية الكريمة الحكمة العظمى والعبرة الكبرى من إظهار حقيقة أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فالحكمة من إظهار أمرهم: أن يعلم الناس أنّ وعد الله حق، وأن يوم القيامة آت لا ريب فيه، إذ دلّت قصة أصحاب الكهف على بعث الناس يوم القيامة بمثل واقعي محسوس، يقرب للناس حقيقة يوم القيامة، ولهذا بعث الله سبحانه الفتية من نومهم، وكشف شأنهم للناس؛ فمن قدر على حفظ أجسام

أصحاب الكهف مدّة ثلاثة قرونٍ متواليّةٍ من التفتت والتعفن والتحلل، مع تعرضهم للحر والبرد، والشمس والهواء، وحاجتهم إلى الطعام والشراب، صحت قدرته على إعادة الأجساد بعد موتها، وتفرّق أجزائها.

والبعث من الموت يشبه البعث من النوم، النوم قبض جزئي للروح، بينما الموت قبض كامل للروح، وفصل لها عن جسدها: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ أَلَّتْ قَاضِي عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

• مسجد على الكهف:

﴿إِذِ يَنْتَظِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ويبدو أنّ نزاعاً واختلافاً حصل بين الناس بعد انكشاف أمر أصحاب الكهف؛ فبعضهم أراد أن يسدّ باب الكهف ببناء: ﴿فَقَالُوا أَبْنِوْا عَلَيْهِمُ بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾.

ورأى آخرون - وهم أصحاب الكلمة المسموعة الذين إذا أرادوا أمراً لم يتعسر عليهم - بناء مسجدٍ عند الكهف:

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا﴾.

ولا تدلّ الآية على جواز بناء المساجد على قبور الصالحين، فليس فيها سوى حكاية رأي فريقٍ من الناس كانوا في عصر انكشاف حال أهل الكهف، إذ ليس في الآية مدحٌ لهم وحضٌ على التأسّي بهم^(١).

وقد صحّ: أنّ النبي ﷺ نهى عن بناء المساجد على القبور؛ ففي «صحيح مسلم» [٥٢٨]: عن عائشة رضي الله عنها: أنّ أمّ حبيبة وأمّ سلمة ذكرا لرسول الله ﷺ كنيسةً رأيَنها بالحبشة فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ أولئك إذا كان

(١) انظر: روح المعاني.

فيهم الرجلُ الصالحُ فماتَ؛ بنوا على قبره مَسْجِداً، وصَوَّروا فيه تلكَ الصورَ، أولئك شِرَارُ الخلقِ عندَ الله يومَ القيامةِ.

وروى مسلم في «صحيحه» [٥٢٩، ٥٣٠] أيضاً: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله ﷺ في مرضه الذي لم يَقُمْ مِنْهُ: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنصارى؛ اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ» قالت: فلولا ذاك أبرزَ قبره غيرَ أنه خُشِيَ أن يُتَّخَذَ مَسْجِداً.

ومن المعلوم: أن رسولَ الله ﷺ دُفِنَ حيثُ توفي في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، وكانت خارجَ المسجدِ، ولَمَّا احتِيجَ إلى توسعةِ المسجدِ ضُمَّتِ الحجراتُ إلى المسجدِ في عهدِ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وأصبحت الحجرةُ النبويةُ داخلَ المسجدِ النبويِّ الشريفِ.

وَحَتَمَتِ الآياتُ الكريمةُ قصَّةَ أصحابِ الكهفِ بحكايةِ بعضِ ما وقعَ بينَ الناسِ من تنازعٍ حولَ عددهم كما سبق بيانه^(١):

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٢٢).

ثم التفتت الآياتُ إلى النبي ﷺ تأمرُهُ أن يردَّ علمَ ذلك إلى الله سبحانه: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ فقصةُ أصحابِ الكهفِ طواها الزمنُ، وأصبحت من الغيبِ الموكولِ إلى علمِ الله سبحانه.

● تأديب وتعليم:

وكما أنَّ الماضي غيبٌ بالنسبة للإنسان، فالمستقبلُ أيضاً غيبٌ بالنسبة له، لا يدري الإنسانُ عنه شيئاً، وهو أيضاً موكولٌ إلى علمِ الله ومشيئته، فعلى الإنسانِ

(١) انظر: ص ٣١ - ٣٣ في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

ألا يقطع بأمر سيفعله في المستقبل، إلا أن يعلّقه على مشيئة الله تعالى، فكلُّ شيءٍ فيه مرهونٌ بإرادته سبحانه، ولا يعلم الإنسان شيئاً وراء اللحظة الحاضرة التي يعيش فيها، وعينه عاجزةٌ أن ترى ما وراء لحظة الحاضر الذي هو فيه:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ﴾ وهذا النهي تعليمٌ من الله تعالى للنبي ﷺ، فعندما سُئل عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين قال ﷺ: «غداً أخبركم» ولم يستثن، أي: لم يقل: إن شاء الله، كما مر معنا في سبب النزول^(١).

والمعنى: لا تقولن لأجل شيء تعزم على فعله في المستقبل: إنني فاعل ذلك الشيء غداً: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا قائلًا ذلك، أي: معلقاً بمشيئة الله، والمراد بـ (الغد): ما يُستقبل من الزمان لا خصوص الغد، فمن أساليب العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان، ومنه قول الشاعر زهير بن أبي سلمى:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عم

ففي الآية الكريمة تأديبٌ من الله تعالى للنبي ﷺ وتعليم، ممّا يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم كلام الله، منزلٌ على رسول الله ﷺ، ومع أن الخطاب للنبي ﷺ فحكمها عام لجميع المكلفين.

﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: اذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء، فكأن ترك الاستثناء ذنبٌ يستدعي التوبة والاستغفار.

﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي﴾ أن يوفقني.

﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف يدل على صحة نبوتي، ويرشد إلى صدق رسالتي.

(١) انظر: ص ٢٣ - ٢٤، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

وقد فعل ﷺ ذلك، فأعطى النبي ﷺ كثيراً من الآيات البينات كقصص الأنبياء المتباعدة في الماضي، والإخبار عن كثير من الحوادث المستقبلية، ففي الآية تهوين من الله ﷻ لقصة أصحاب الكهف، وهذا ينسجم مع تهوينه لها أولاً في قوله سبحانه: ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] ^(١).

وقد نبّه سيد قطب رحمه الله في ظلال هذه الآية الكريمة إلى أمر هام فقال: «ليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ولا يفكر في أمر المستقبل، ولا يدبر له، وأن يعيش يوماً بيوم، ولحظةً بلحظة، وألاً يصل ماضي حياته بحاضره وقابله... كلا، لكنّ معناه أن يحسب حساب الغيب، وحساب مشيئة الله التي تدبره، وأن يعزم ما يعزم، ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يد الله فوق يده، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فيها ونعمت، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن، ولم ييأس، لأنّ الأمر لله أولاً وآخرًا» ^(٢).

وما أجمل قول النبي ﷺ في هذا المعنى: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا، كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن (لَوْ) تفتح عمل الشيطان» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

• تعقيب:

لقد نجّى الله سبحانه أصحاب الكهف من الفتنة التي تعرّضوا لها في دينهم، حين التجؤوا إلى الله وحده، فلم يسألوا سواه سبحانه، ولم يستعينوا بغيره كما مرّ معنا، ولهذا جاء التعقيب على قصّتهم بأمر النبي ﷺ بتلاوة القرآن الكريم، والتوجه إلى الله سبحانه، والاستعانة به، فلا يوجد غير حمى الله، وقد التجأ إليه

(١) انظر: روح المعاني.

(٢) في ظلال القرآن.

أصحابُ الكهف، فشمّلهم برحمته وحمايته وهُداه، ونجّاهم من الفتنة الكبرى في دينهم، وجعلهم آيةً وعبرةً لغيرهم:

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ﴿٢٧﴾.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ وهو أمرٌ من التلاوة بمعنى القراءة. أو: يكون أمراً من التلو، بمعنى الاتباع؛ أي: اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ، والزم العملَ به^(١).

وقد يكونُ كلا المعنيين مراداً، فالأمرُ يتناولُ التلاوةَ والاتباعَ، والخطابُ وإن كان للنبي ﷺ فهو شاملٌ لجميع المكلفين.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا يقدرُ أحدٌ على تبديل كلمات القرآن الكريم غيره سبحانه. ﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ولن تجدَ عندَ غير الله ملجأً تلجأُ إليه عند نزول نازلةٍ، فكهفُ السلامةِ في كتاب الله تلاوةً واتباعاً، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ، ففيهما السلامةُ والسلامُ، والأمنُ والأمانُ عند مواجهة النوازل والفتن، أعاذنا الله منها.



الفصل الرابع

قِصَّةُ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ كُلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تُطْلِعْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا ۝٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ نَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَطْنُ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۝٣٥﴾ وَمَا أَطْنُ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۝٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً وَهًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۝٤١﴾ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِحْ يَقْلَبُ كَفْبَهُ عَلَىٰ مَا اتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْغُرُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ۝٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا

﴿٤٦﴾ أَمْأَلِ وَالْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْأَلًا ﴿٤٧﴾
 وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ نُرًّا وَالْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٨﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ
 جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٩﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا
 وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٥٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
 إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ
 بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥١﴾ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ
 الْمُضِلِّينَ عِزًّا ﴿٥٢﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا
 بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٣﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٤﴾ وَلَقَدْ
 صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ
 أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا
 ﴿٥٦﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ
 الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُولًا ﴿٥٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا
 قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ
 يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٨﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ
 لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا
 لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٦٠﴾

• تمهيد: فتنة الغنى وفتنة الفقر:

التفاوت بين الناس من أعظم أسباب الاختلاف والفتن، وخاصة التفاوت بينهم بالغنى والفقر، فالأغنياء فتنة كبرى للفقراء، والفقراء كذلك فتنة كبرى للأغنياء، هكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يكون الناس بعضهم لبعض فتنة، لأنه سبحانه جعل الحياة ابتلاء واختباراً كما سبق بيانه، قال ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقد كان فقراء الصحابة رضي الله عنهم من السابقين الأولين إلى الإسلام فتنة لأغنياء المشركين، وجاء بعضهم إلى النبي ﷺ، وطلبوا منه أن يجلس معهم وحدهم، ولا يجالسهم بفقراء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخبّاب وابن مسعود رضي الله عنهم، فقد روي أنهم قالوا للنبي ﷺ: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك، فإنّ ريح جبابهم تؤذينا، فنزلت هذه الآية:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبسها وثبتها.

﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: مع الذين يعبدون الله ويحمدونه ويكبرونه ويسبّحونه في أول النهار وآخره.

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ يريدون رضاه ﷻ، فلا يعبدونه رياءً ولا سمعةً، ففي هؤلاء الخير كل الخير، وبهم قامت دعوة الله، لأنهم لم يعتنقوها للأطماع وليكون لهم أتباع.

وبعد أن أمرت الآية النبي ﷺ أن يحبس نفسه ويثبتها مع فقراء أصحابه، نهته أن يصرف نظره عنهم إلى غيرهم:

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ ولا تصرف عينك النظر عنهم إلى غيرهم.

فالمرادُ نهى رسول الله ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين، وتعلو عينه عن رثاثة زيهم، طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُكَ رَبُّكَ حَيْرًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

● الغفلة عن ذكر الله:

إِنَّ فِتْنَةَ الْإِنْسَانِ بِالْمَالِ مِنْ أَكْثَرِ الْفِتَنِ، لأنها تصرف قلبه عن ذكر ربه إلى ماله وشهواته، وقد وصف الله سبحانه أولئك المشركين المفتونين بمالهم وغناهم، والمتكبرين على فقراء أصحاب النبي ﷺ بقوله:

﴿وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أي: لا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكر الله. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وهذا هو سبب غفلته عن ذكر الله، فحين اتجه قلبه إلى ماله وشهواته لم يبق فيه متسع لذكر الله تعالى، فالقلب الذي ينشغل بهذه الشواغل، ويجعلها غايته لا جرم يغفل عن ذكر الله، فيزيده الله غفلة، فشر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً عن ذكر الله، ممتلئاً بالهوى الداعي إلى الاشتغال بالمال والشهوات، وإن مآل مثل هذا الإنسان إلى ضياع وهلاك.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ فالفرط من التفريط وهو التضييع والنقص، أي: كان أمره ضياعاً وهلاكاً، أو من الإفراط وهو الإسراف، أي: وكان أمره إسرافاً، ومجاوزةً للحد، أو من السبق والتقدم من قولهم: فرسٌ فرط؛ أي: متقدّم للخيل، ويكون المعنى: وكان متقدماً على الحق معرضاً عنه نابذاً له وراء ظهره^(١).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢٩).

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ بكل هذه القوة والصراحة أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يقول لأولئك المفتونين بمالهم المتكبرين: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فالدين لله سبحانه، لا مجاملة فيه، ولا مساومة، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ والله سبحانه لا يبالي بإيمان من آمن، ولا بكفر من كفر، فليس في

(١) انظر كتاب: روح المعاني؛ وكتاب: أضواء البيان.

الآية تخيّر بين الإيمان والكفر، والأمر بالكفر فيها غير مراد، إنّما فيها تهديد ووعيد للكافرين، والدليل عليه قوله تعالى بعدها:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

ثم قال تعالى مبيناً ثواب من يؤمن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

• القصة الثانية: رجлан وجنتان:

وجاءت القصة الثانية في سورة الكهف متفقة تماماً مع ما سبق وقرره الله تبارك وتعالى من خطورة فتنة الغنى والفقر، وابتلاء الناس بعضهم ببعض نتيجة ما قدره الله بينهم من تفاوت في الرزق؛ قال تعالى:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ اضرب للمؤمنين الفقراء وللکافرين الأغنياء المفتونين بسبب غناهم، مثلاً رجلين:

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أعطينا أحدهما جنتين، ولم نعط الآخر.

وقد يعترض بعضهم على إعطاء واحد ومنع آخر، ويرون ضرورة التسوية بينهما بالعطاء، فثمة جنتان ورجلان؛ لكل رجل جنة، لكنه سبحانه العليم الحكيم لو سوى بينهما بالعطاء، لما حصل الابتلاء، ولما وقع الافتتان، وقد خلق الله سبحانه الحياة بما فيها اختباراً للخلق، وابتلاء كما سبق بيانه في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

ولو جعل الله سبحانه الناس متساوين بالعطاء لما وقع بينهم تعاون

وتواصل، واستغنى كل واحد بما في يده عن الآخرين، وحينئذٍ تتعطل الحياة، وتتوقف، لاستحالة أن يعيش الإنسان دون أن يتعاون مع الآخرين، قال ﷺ: ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرًا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ليس للعبيد تقسيم الأرزاق والأعطيات، ذلك شأن السيد والمالك، ولا حق للعبد أن يعترض على قسمة مالكة وخالقه فيقول: لِمَ أعطيت فلاناً ومنعتني؟! ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، الجميع عبيد له ومملكه، والرزق والعطاء من فضله، وليس لأحد سابقة استحقاق على الله تعالى، فإن أعطى فبفضله وإحسانه، وإن منع فبحكمته ومشيئته.

• الجنتان:

ولما كانت الجنتان سبب الافتتان والامتحان وصف الله تعالى ما جعل فيهما من ثمرات، وما خلق من خيرات، فقال ﷺ: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين، ولم يعين سبحانه مكانها، فلا تتعلق بذلك فائدة.

﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ من كروم متنوعة، وهي أشجار العنب.

﴿وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ﴾ وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ لتكونا جامعتين للأقوات والفواكه.

ومن المعلوم أن الثمار تنقص في عام وتتم في عام آخر غالباً، إلا أن الله ﷻ جعل الجنتين تعطيان الثمار كاملة دون نقص في جميع الأعوام:

﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءِأَنْتَ أَكُلَهُمَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا﴾.

﴿كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءِأَنْتَ أَكُلَهُمَا﴾ ثمرها.

﴿وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ ولم تنقص من ثمرها شيئاً كما هو المعهود في سائر

البساتين.

ولكي يدوم شربهما ويزيد جمالهما وبهاؤهما فجّر الله بينهما نهراً:
﴿وَجَعَلْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾.

وأعطى الله صاحب الجنتين أنواعاً أخرى من المال سوى الجنتين:

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٣٤).

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وإلى جانب هذا كله أعطاه الله الأولاد والخدم والحشم، وتلك هي الأمانى التي تتعلق بها قلوب كثير من الناس، قال قتادة رحمته الله: تلك والله أمانة الفاجر كثرة المال وعزة النفس (١).

• المحاورة:

وكان لصاحب الجنتين صديق فقير مؤمن، ويبدو من الآيات الكريمة أنّ هذا الفقير المؤمن كان يراجع صاحب الجنتين بالوعظ والدعوة إلى الله ﷻ، فما كان من صاحب الجنتين إلا أن ردّ عليه:
﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

ثم دخل بصاحبه إحدى جنتيه يطوف به فيها، وقد ملأ نفسه البطر، وسيطر عليه الغرور:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥).

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ وهو ظالم لنفسه بعجبه وكُفْرِهِ، لأنّه وضع نفسه في موضع الجحود والنكران بدل أن يضعها في موضع الشكر والعرفان.
﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾.

اغترّ بطول أمله وكثرة ماله، فأوصله ذلك إلى إنكار يوم القيامة:

(١) تفسير ابن كثير.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ كأن الله سبحانه خلقه وأنعم عليه ليأكل ويشرب ويتكبر ويتجبر، ثم ازداد بطراً وأشراً وطغياناً وكبراً فأقسم أنه إن رجع إلى الله يوم القيامة كما أخبره صاحبه المؤمن ليعطيته الله جنة خيراً من جنته هذه التي في الدنيا .
﴿وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ لا اعتقاده أن الله سبحانه أعطاه ما أعطاه في الدنيا بسبب استحقاقه لهذا العطاء! .

وهكذا سقط صاحب الجنتين بالاختبار، وفشل في الامتحان، وفتنه ماله عن دينه .

• عزة الإيمان:

انتفضت عزة الإيمان في قلب صاحبه المؤمن أمام هذا التكبر والتجبر والجحود والنكران، دون أن يبالي بالمال والنفر، ومن غير أن ينظر للغنى والبطر، فواجهه بحقيقته، وذكّره بأصله ونشأته:

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ ﴿٣٧﴾ .

جعل كفره بيوم القيامة كفراً بالله تعالى، لأن منشأ الشك في كمال قدرة الله سبحانه .

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٣٨﴾ .

وأصل (لكنّا): لكن أنا، حذفت الهمزة وتلاقت النونان فكان الإدغام، وكلمة (لكن) تدل على الاستدراك، كأنه قال: أنت كافر بالله، لكن أنا مؤمن به .

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وهلاً عند دخول جنتك قلت: ما شاء

الله، وهو إقرارٌ بمشيئة الله، إن شاء أبقاها، وإن شاء أبادها، لأنَّ معناها: الأمرُ ما شاء الله، أو: ما شاء الله كائن.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: وقلت: لا قوة إلا بالله، وهذا اعترافٌ بالعجز، وردُّ القدرة إلى الله سبحانه، فما تيسر لك من عمارتها وتدير أمرها فبمعونة الله وتيسيره. وجاء في الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمةً في أهل أو مالٍ أو ولدٍ فيقول: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، إلا دفع الله تعالى عنه كلَّ آفةٍ حتى تأتبه منيته» وقرأ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾. [رواه أبو يعلى، والبيهقي (٥٨٨٨)].

﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَلَدًا﴾ إن: أداة شرط، وجاء جواب الشرط في قوله:

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع أن يرزقني ربي جنَّةً خيرًا من جنتك، ويسلبك بكفرك نعمته. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويرسل عليها بلاءً من السماء. ﴿فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ فتصبح أرضاً ملساء، تزلق عليها الأقدام بسبب هلاك نباتها وأشجارها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض. ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ فلا تستطيع الوصول إليه.

● حسرة وندم:

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحْ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ وأهلك الله أمواله، وتدلُّ الآية على وقوع الإهلاك عاجلاً

بآفة سماوية .

﴿فَاصْبِرْ يَقْلُبْ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ وتغيّر حال صاحب الجنتين، فمن الغنى والازدهار إلى الهلاك والدمار، ومن حال البطر والاستكبار إلى حال الندم والاستغفار .

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وجنته ساقطة على عروشها .

والعروش : جمع عَرْش، وهو ما يُصنع من الأخشاب لتوضع عليها الكروم .
﴿وَيَقُولُ يَلَيِّنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ علم أنه أتى من قِبَلِ شِرْكَه، فتمنّى لو لم يكن مشركاً حتى لا يصيبه ما أصابه .

وفي الآية دليلٌ على أَنَّ إنكارَ يوم القيامة شركٌ بالله سبحانه وكفرٌ، لأنَّ منكرَ يوم القيامة ينسبُ صفةَ العجزِ إلى الله ﷻ ويسويه بخلقه، وهذا من الشرك .

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوْنَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًّا﴾ .

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوْنَهُ﴾ وفِتْنَةُ الرجلِ : طائفته التي يرجعُ إليها في أموره وشؤونه، والمعنى : ولا توجدُ فِتْنَةٌ تقدرُ على نصره بدفع الهلاك قبل وقوعه أو برّد الهالك .

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من غير الله سبحانه، فَإِنَّه وحده القادرُ على نصره .

﴿وَمَا كَانَ مُنْصِرًّا﴾ وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله، لأن النصرَ في ذلك المقام الذي وقع فيه الإهلاك لله وحده، فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره ﷻ .

﴿هَٰذَاكَ الْوَلِيُّ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ .

فثوابُ الله لأوليائه خيرُ ثوابٍ، وعاقبته خيرُ عاقبةٍ، فلا نجاة للإنسان من فتنة المال إلا بالله سبحانه، باللجوء إليه، والتمسُّكُ بشرعه، فإن أعطاك شكرت وأطعت، وإن منعك صبرت راضياً بحكمه، واثقاً بفضلِهِ وإحسانه .

• التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا:

الاغترار بالدنيا أكبر البواعث التي تبعث على الفتن، ولا سبيل إلى النجاة من الاغترار بالحياة الدنيا إلا بمعرفة حقارتها، وبيان سرعة زوالها، وقد ضرب الله هذا المثل بيانا لقصر الحياة الدنيا حتى لا يغتر بها الإنسان:

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ۝٤٥﴾ .

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخطاب في صدر الآية للنبي ﷺ ليذكر للناس ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها، حتى لا يغتروا بها، ويقعوا في شركا فتنتها .

﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ فهي كماء أنزله الله من جهة السماء .

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ فاختلط بالماء نبات الأرض حتى نما وازدهى .

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ فأصبح بعد ذلك نباتاً مهشماً مكسراً .

﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ تفرقه الرياح .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ لأنه سبحانه كامل القدرة .

والمأمل في الآية يرى أنها عرضت مثل الحياة الدنيا عرضاً سريعاً وقصيراً يتناسب مع المراد منها، فقد سيقّت الآية للتحذير من الاغترار بالحياة الدنيا وزينتها ببيان سرعة انقضائها وحقارة شأنها، فشأنها كشأن الماء الذي نزل من السماء، واختلط بنبات الأرض، الذي لا يلبث أن يصبح هشيماً تذروه الرياح، بهذه الجمل الثلاث القصيرة تبدأ الحياة وتنتهي، فما أقصرها وما أهونها! .

• زينة الحياة الدنيا:

وإذا كانت الحياة الدنيا سريعة الانقضاء، وشيكة الانتهاء، فما يكون فيها من أسباب زينتها سريع الانقضاء وشيك الانتهاء، والمال والبنون أكبر زينة في الحياة الدنيا:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [٤٦].

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقَدَّم الله سبحانه ذكر المال لأنَّ زينته في الدنيا عامَّةٌ لجميع الأفراد والأوقات، وأمَّا البنون فلا يترتَّبُ بهم إلا من بلغ منزلة الأبوة، ولأنَّ حاجة الإنسان إلى المالِ أشدُّ من حاجته إلى الأولاد.

إنَّ فتنة الإنسان بالأموال والأولاد كبيرةٌ وخطيرةٌ، ولهذا حذَّر القرآن الكريم من الفتنة بهما في عدة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوَلُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

فالأموال والأولاد اختبارٌ وامتحانٌ من الله سبحانه، فمن أطاع الله فيهما وشكره عليهما فاز ونجا، ومن شُغِلَ بهما عن طاعة ربه سبحانه خاب وخسر.

والتنافس بين الناس في المال والأولاد خطيرٌ وكبيرٌ، وهو من أكبر أسباب الاختلاف والافتتال وسفك الدماء، كما قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لُغَبٌ وَهِيَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَثَلٌ غِيثٌ آجِبٌ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

هكذا حياة أكثر الناس، يدور محور حياتهم الدنيا في فلك التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، أولئك صرعى أموالهم وأولادهم، المفتونون بهم عن طاعة ربهم، وبهذا تصبح أموالهم وأولادهم أعداء لهم، لأنهم سبب فتنهم عن طاعة ربهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن آزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٤٦] إِنَّمَا آمَوَلُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [التغابن].

لقد أنزل الله سبحانه بعض الأموال والأولاد من الإنسان منزلة العدو له لشدة خطر الفتنة بهم على دينه، وحذَّر الإنسان منهم حتى لا ينشغلوا بهم عن طاعة ربهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

● الباقيات الصالحات:

ولا ينتفع الإنسان بأمواله وأولاده يوم القيامة، الانتفاع يوم القيامة
بالباقيات الصالحات:

﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ﴾ لفظ عام يشمل كل الأقوال والأعمال الصالحة التي
تُرضي الله تعالى، فهي باقية لصاحبها غير زائلة، ولا نائية.

﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: هي خير يوم القيامة لظهور أثر خيريتها في ذلك اليوم.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأن صاحبها ينال في الآخرة ما كان يؤمله بها في الدنيا.

وفي الآية دليل على أن المال والبنين زينة وليسوا قيمة، فلا يجوز وزن
الناس بهما، قيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات.

وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكاً وعملاً في منزلهما
الذي وضعهما الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في
حدود ما أحل الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾
[الأعراف: ٣٢].

● مشاهد من يوم القيامة:

ثم عرضت الآيات الكريمة مشاهد من يوم القيامة تأكيداً لقيمة الباقيات
الصالحات وبياناً لأهميتها في هذا اليوم:

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧).

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: اذكر يوم نُزِيلُ الْجِبَالَ عَنْ أَمَاكِنِهَا،
وترى - يا محمد - الأرض بارزة لذهاب جميع ما كان عليها من جبال وعمران،
فإزالة الجبال يجعل سطح الأرض مستوياً لا انخفاض فيه ولا ارتفاع، كما في
قوله تعالى: ﴿وَسَتَلَوْنَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَبْقَى
فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه].

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي: جمعناهم إلى أرض المحشر بعد أن بعثناهم من قبورهم.
 ﴿فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فلم نترك منهم أحداً.
 ومن الحشر الشامل إلى العرض الكامل:

﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ (٤٨).

﴿وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ كما يعرض الجند على قائدهم، لا ليتعرف عليهم بل ليحكم فيهم.
 ﴿صَفًّا﴾ أي: مصطفين أو مصفوفين.

وتتحول الآيات من الوصف إلى الخطاب ليستشعر القارئ أنه يعيش هذا المشهد الرهيب في هذه اللحظة.

﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهو خطابٌ لأولئك الذين كانوا ينكرون يوم القيامة، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة حفاةً عراةً غُرلاً، وما معكم شيء من زينة الدنيا، التي كنتم تفتخرون بها.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظةٍ فقال: «أيُّها الناس: إنَّكم تُحْشَرُونَ إلى الله حفاةً عراةً غُرلاً؛ كما بدأنا أولَ خلقٍ نعيده» [رواه البخاري (٦٥٢٤) ومسلم (٢٨٦٠)].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وهو إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتوبيخ والتقريع.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَدُّلُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ والمراد من الكتاب كتب الأعمال، فالألف واللام فيه للاستغراق، جعل كل كتاب في يد صاحبه اليمين أو الشمال.
 ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ خائفين مما في الكتاب من الجرائم والذنوب.

﴿وَيَقُولُونَ بَوَلَّيْنَا﴾ ينادون على أنفسهم بالهلاك خوفاً من العذاب، كأنهم يقولون: يا هلاكُ أقبل فهذا أوانك.

﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ الاستفهام يدل على التعجب من دقة إحصاء الكتاب! .
﴿لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا عدّها، وذكر الصغيرة قبل الكبيرة اهتماماً بها وتنبهاً على خطورها.

رُوي عن الفضيل: أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: ضَجُّوا والله من الصغائر قبل الكبائر. وقال قتادة: اشتكى القوم - كما تسمعون - الإحصاء، ولم يشتك أحدٌ ظملاً، فإياكم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه^(١).

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا.

﴿حَاضِرًا﴾ مسطوراً في الكتاب.

﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

● فتنة الشيطان:

فتنة الشيطان للإنسان أعظمُ الفتن، وبلاء الإنسان به أشدُّ بلاء، لأنَّ الشيطان رأسُ الشر، ومنبعُ الكفر، وهو أكبرُ عدوٍّ للإنسان، ويجري منه مجرى الدم من العروق، وما أكثرَ ما حذّرنا الله سبحانه منه في آيات التنزيل الحكيم، فقد ذكر الله سبحانه قصّة آيينا آدم مع الشيطان في عدّة سور من القرآن الكريم. وفي سورة الكهف حذّرنا الله منه بعد أن بيّن حال المفتونين بالدنيا والأموال والأولاد، لأنَّ الاغترار بالدنيا والأموال والأولاد أعظم الوسائل التي يتمكن الشيطان بها من فتنة الإنسان، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ﴾

(١) انظر: روح المعاني.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ الشيطان من الجن، وأنَّ ذلك سبب خروجه عن طاعة ربه سبحانه، وأنه ليس من الملائكة المعصومين من الكفر والمعاصي الذين قال الله فيهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وقال فيهم أيضاً: ﴿لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا قَوْلِي وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. وكان إبليس مُلحقاً بالملائكة لكثرة عبادته، ولهذا شمله الأمر بالسجود لآدم. ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾؟! والاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ مع التعجب من حال أولئك الذين يوالون الشيطان ويتابعونه ويُفتنون به. والظاهر أنَّ المراد من الذرية الأولاد، ففي الآية دليلٌ على أنَّ للشيطان أولاداً، وهذا يؤكد أنه ليس من الملائكة، فالملائكة لا يتوالدون. ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ وهذا تصريحٌ بعداوة الشيطان وذريته للإنسان. ﴿يَتَّبِعُ لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين يطيعون الشيطان ويعصون الرحمن. ﴿بَدَلًا﴾ من الله سبحانه.

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً﴾ (٥١).

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ما أشهدتُ إبليس وذريته وأوليائه من المشركين خلق السماوات والأرض.

﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ ولا أشهدتُ بعضهم خلق بعض.

﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضْداً﴾ أي: أعواناً ومساعدين.

ولا يخفى على المتأمل للآية ما فيها من ردٍّ على المشركين من قريش، الذين طلبوا من النبي ﷺ أن يُبعد فقراء المسلمين عن مجلسه، كما مرَّ معنا في الآية (٢٨)؛ فكأنَّه تعالى يقول عنهم: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد ليسوا شركائي في تدبير العالم وخلقهِ، والدليل أنني ما أشهدتهم خلقَ السماوات والأرض، ولا خلقَ أنفسهم، ولا استعنتُ بهم، فهم كسائر الخلق، فلم أقدموا

على هذا الاقتراح الفاسد؟! كمن يقترح عليك أموراً كبيرة، فإنك تقول له مستهزئاً به: لست بسلطان البلد حتى تصدّر منك مثل هذه الاقتراحات الكبيرة!.

● سبيل النجاة:

وإذا أردت النجاة من فتنة الشيطان وكيده فاذكر عدوانه لك واستعن عليه بالله سبحانه: ﴿وَمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

واذكر يوم القيامة عندما يقول الله تعالى لأولياء الشيطان الذين أشركوا بالله، وعبدوا غيره، توبيخاً لهم وتقريعاً:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ (٥٢).

والموبق: المهلك، من قولهم: وبّق يَبِق، كوعد يعد: إذا هلك، وأوبقته الذنوب: أهلكته، ومنه السبع الموبقات، أي: المهلكات، والمعنى: جعلنا بين الكفار وبين من كانوا يعبدونهم موبقاً، أي: مهلكاً، لأنّ الهلاك يحيط بالجميع من كل جانب.

واحذر أن تكون بطاعتك للشيطان من المجرمين الذين يعلمون أنهم سيقعون في النار، ويُعَذَّبون بها، عندما يرونها يوم القيامة:

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (٥٣).

والظنّ هنا بمعنى اليقين، لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوها، والعرب تطلق الظنّ على اليقين، فهو من ألفاظ الأضداد، استعمل في القرآن الكريم بهذا المعنى في آيات كثيرة؛ منها: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا بِاللَّهِ كَمَ مِّنْ فَتْنَةٍ فَلَئِنَّ غَلَبَتِ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّاذُنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ومنها أيضاً: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠].

● أمثال القرآن الكريم:

والزم القرآن الكريم حتى تصل إلى كهف السلامة من كيد الشيطان ومكره، فقد ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم كثيراً من الأمثال لهدايتك وإرشادك بعبارات مختلفة، وأساليب متنوعة، واذكر كيف بين الله تبارك وتعالى في أول سورة الكهف أن إنزال القرآن الكريم هو نعمة الله الكبرى ومنته العظمى، وفي الآية التالية بين الله تعالى فضله علينا بما ضرب في القرآن الكريم من الأمثال المتنوعة لتكون أسباب الهداية والرشاد؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ومعنى: ﴿صَرَّفْنَا﴾ ردّدنا وكثّرنا، فالأمثال في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة - وقد مرّ معنا بعضها في سورة الكهف - وفيها المواعظ والزواجر والحكم:

- منها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝٢٦﴾ .

- ومنها: قوله تعالى في سورة الحج: ﴿بَنَاتُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ .

- ومنها: قوله تعالى أيضاً في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ .

- ومنها أيضاً: قوله ﷻ في سورة الرعد: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا

فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧٧﴾ .

وهكذا ضرب الله الأمثال، وميّز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ومع كل ذلك قابل الناس هذا البيان بالجدال والخصام:

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يُزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

• أسباب الضلال:

وقد يسأل الإنسان نفسه عن سبب إعراضهم عن الحق مع وضوحه وظهوره بكثرة الأدلة الدالة عليه. والجواب في الآيات التالية والمبدوءة بقوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾﴾ .

فالمانع الذي منع الناس من الإيمان والاستغفار بعد أن جاءتهم الرسل بالبينات الواضحات ما سبق في علم الله تعالى من أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم وعنادهم حتى تأتيتهم سنة الله في إهلاك الكافرين واستئصالهم، أو تأتيتهم العذاب أنواعاً مختلفة يتلو بعضها بعضاً، أو عياناً يرونه بأعينهم.

وما أرسل الله الرسل إلا ليقيم الحجة على الناس، يبشرون من أطاع الله بالجنة، وينذرون من عصاه بالنار:

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَعِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَائِيَّتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوءًا ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَعِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ وهذا تخصيصٌ للتعميم السابق في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

فالمجادلون بالباطل هم الذين كفروا ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ ليبطلوا الحق بجدلهم وخصامهم، ومع الجدل والخصام:

﴿وَاتَّخَذُوا عَائِنِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوا﴾ أي: سخرية واستخفافاً.

ولا يوجد أحد أظلم لنفسه وأعظم فتنة من أولئك الذين وُعظوا بآيات القرآن الكريم فأعرضوا عنها:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَهُ﴾ من المعاصي والكفر.

وسبب الإعراض عن آيات الله بينه الله سبحانه في قوله بعد ذلك:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ إنه سبحانه جعل على قلوب الظالمين

المعرضين عن آياته أغشية تغطي قلوبهم، حتى لا يفهموا كلام الله.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وجعل في آذانهم ثقلاً يمنعها من سماع ما ينفعهم من

الآيات، وما فيها من الأمثال، جزاءً وفاقاً لموقفهم موقف المستهزئ والمعرض

عن دعوة الرسل ﷺ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وتلك هي النتيجة:

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فكان هذه الآية تبين سبب قول الله

تعالى للنبي ﷺ في مطلع السورة: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخْعُ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا

الْحَدِيثِ أَسْفًا ﴿٦﴾﴾، فتأمل كيف تدور آيات السورة في فلك موضوعها الأساس

الأول الذي ذكره الله سبحانه في آياتها الأولى.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنه لا يعجل العقوبة للكافرين والمعرضين عن طاعته

وعبادته، فهو سبحانه حلیم يُمهّل ولا يُهمّل، فلا يظن أولئك المجادلون بالباطل

والمفتونون بسبب اتباعهم الشيطان أن الله سبحانه يتركهم دون عقاب وعذاب:

﴿وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴿٥٨﴾﴾ .

أي: ملجأ يلجئون إليه يحميهم من عذاب الله .
وقد دلت آيات كثيرة على أن الله سبحانه لا يؤخر شيئاً عن وقته الذي عينه له ولا يقدمه عليه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَغْرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١] .

وقال هنا في سورة الكهف:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ .



الْقِصَّةُ الْخَامِسُ

قِصَّةُ مُوسَى وَالْخَضِرِ ۝

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أBRَحْ حَتَّى أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا نَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسِيْنُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۝ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۝ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِنْ مِمَّا عَلَّمْتُ رُسُلًا ۝ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا ۝ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۝ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۝ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۝ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَاذْبُوا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآكَامُهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَنَحَذَّتْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَانِيْتُكَ إِنِّي أَبُولِي مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ۝ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي

الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ .

• موقع القصة في سورة الكهف:

دُكرت قصة موسى ﷺ والرجل الصالح (الخضر) في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الكهف، ولموقعها في السورة فوائد وحكم، كشف العلامة الفخر الرازي في «التفسير الكبير» عن اثنتين منها؛ فقال:

«أما نفع هذه القصة في الردِّ على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، فهو أنَّ موسى ﷺ مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقِّه ذهب إلى الخضر لطلب العلم، وتواضع له، وذلك يدلُّ على أن التواضع خيرٌ من التكبر.

وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف، فهو أنَّ اليهود قالوا لكفار مكة: إنْ أخبركم محمدٌ عن هذه القصة فهو نبي، وإلا فلا. وهذا ليس بشيء، لأنه لا يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع، كما أنَّ كون موسى ﷺ نبياً صادقاً لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلَّم منه، فظهر بما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها، ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود من القصتين المتقدمتين»^(١).

ولعلَّ ما ذكره الفخر الرازي يبيِّن لنا الحكمة من تهوين الله سبحانه لشأن قصة أصحاب الكهف بالنسبة لعجائب قدرته، كما سبق ومراراً معنا عند قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

• فتنة العلم:

وإضافة إلى ما ذكره الفخر الرازي أقول: إنَّ للقصة علاقةً بموضوع سورة

(١) انظر: التفسير الكبير.

الكهف الأساس، وهو الاختبار والابتلاء وسبيل العصمة من الفتن وطرق النجاة منها، وفتنة العلم من الفتن الكبرى التي يتعرض لها أهل العلم من علماء ومتعلمين، وقد بيّن الله سبحانه في قصة موسى والخضر السبل المنجية من فتنة العلم ببيان الصفات الطيبة التي ينبغي أن يتّصف بها العالم والمتعلم.

وتظهر فتنة العلم من جوانب متعددة:

- فالعلم سبب من أسباب تحصيل القوة: وقد وضعت العلوم التجريبية في يد الإنسان المعاصر كثيراً من مصادر القوة والطاقة التي خلقها الله سبحانه، والأمم المتعلّمة أقوى بكثير من الأمم الجاهلة والمتخلفة عن ركب العلم، والقوة تمكن الإنسان من الغلبة والسيطرة على غيره، وحب السيطرة من النوازع القوية الكامنة في نفس الإنسان، وهي سبب فتنة كثير من الناس، وقديماً أدعى فرعون لنفسه صفة الربوبية والألوهية بسبب قوته وكثرة جنوده؛ قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى (٧٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات].

وحديثاً انتشر الكفر بالله سبحانه والإلحاد وإنكار وجود الخالق العظيم بين كثير من الناس، وخاصة في إبان الطفرة العلمية التي حدثت في العالم الغربي في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر، وظنَّ بعض الناس أنهم بما توصّلوا إليه من الكشوفات العلمية أصبحوا أقوياء، وأنهم ملكوا زمام الأمر في الأرض، ويستطيعون الاستغناء عن الاعتقاد بوجود الخالق العظيم ﷻ.

- والعلم معرفة وإدراك يجعل الإنسان العالم يشعر بامتيازه على غيره من الناس: فهو يعرف ما لا يعرفون، ويدرك ما لا يدركون، والشعور بالتميز والتفوق سبب لفتنة كبرى، تؤذي إلى وقوع الفرقة والاختلاف، ونشوب الاقتتال بين الناس، وإنَّ فكرة التفوق والامتياز أصلُ الفكرة النازية الألمانية التي أغرقت العالم في بحار من الدماء والنكبات والكوارث في الحرب العالمية الثانية^(١).

(١) ومثلها في الجرائم والنكبات الصهيونية التي تقوم على فكرة التفوق اليهودي (شعب الله المختار) (ن).

- والعلم أيضاً سلاحٌ خطير ذو حَدَّيْنِ: يمكن أن يسخر للاحتيال والغش والخداع والتزوير وسلب حقوق الضعفاء والسُدُج والبسطاء، كما هو الحال في العصر الحاضر، إذ تمكنت بعض المجتمعات البشرية في أوربة وأمريكا بسبب تفوقها في بعض العلوم التجريبية أن تحقق مستويات عالية من الرفاهية والترف والسرف، لأنهم سَخَّروا العلم لمآربهم الذاتية، ومصالح أممهم فقط، وسرقة خيرات الأمم والشعوب التي يسمونها الشعوب النامية أو المتخلفة أو شعوب العالم الثالث، كما سَخَّروا أيضاً العلم للتدمير والتخريب بما صنعوا من آلات الحرب والدمار مما هو معروف ومشهور.

كل هذا يبيِّن لنا خطورة فتنة العلم، العلم البعيد عن الإيمان بالله، وفي قصة موسى والخضر بيان لأسباب النجاة من فتنته، تنكشف بإذن الله تعالى لمن تدبَّر آيات هذه القصة وأمعن النظر فيها.

• القصة في كتب السُّنَّة النبوية الشريفة:

ذُكرت قصة موسى والخضر في أوثق كتب السُّنَّة الشريفة؛ ففي «الصحاحين»: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ جَبْرِ قَالَ: قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبَكَّالِي^(١) يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى ﷺ صَاحِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَيْسَ هُوَ مُوسَى صَاحِبُ الْخَضِرِ، فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ^(٢)؛ سَمِعْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«قَامَ مُوسَى ﷺ خَطِيباً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى: أَيُّ رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟»

(١) تابعي من أهل دمشق، فاضل عالم لاسيما بالإسرائيليات، وكان ابنَ امرأة كعب الأبحار، وقيل غير ذلك.

(٢) قلت: الكذب بلغة أهل الحجاز هو ما خالف الحقيقة، سواء كان عن قصد أو عن غير قصد، فيدخل فيه الخطأ، وهو المقصود بكلمة ابن عباس ﷺ هنا (ن).

فَقِيلَ لَهُ: اَحْمِلْ حَوْتَاً فِي مِكَتَلٍ، فَحَيْثُ تَفْقَدُ الْحَوْتَ فَهُوَ نَمٌّ.

فَانْطَلَقَ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ فِتَاهُ، وَهُوَ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ، فَحَمَلَ مُوسَى ﷺ حَوْتَاً فِي مِكَتَلٍ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَفِتَاهُ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ فَرَقَدَ مُوسَى ﷺ وَفِتَاهُ، فَاضْطَرَبَ الْحَوْتُ فِي الْمِكَتَلِ، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمِكَتَلِ، فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ جَرِيَةَ الْمَاءِ حَتَّى كَانَ مِثْلَ الطَّاقِ (فَتْحَةُ فِي الْمَاءِ)، فَكَانَ لِلْحَوْتِ سَرَباً، وَكَانَ لِمُوسَى وَفِتَاهُ عَجَباً، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهُمَا، وَنَسِيَ صَاحِبُ مُوسَى أَنْ يَخْبِرَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَى ﷺ قَالَ لِفِتَاهُ: آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً.

قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذي أُمِرَ به.

قال: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ، وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً.

قال موسى: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي.

فَارْتَدَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً، يَقْصَصَانِ آثَارَهُمَا، حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ، فَرَأَى رَجُلًا مَسْجُوعًا (مَغْطًى) عَلَيْهِ بَثُوبٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُّ: أَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟

قال: أنا موسى.

قال: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم.

قال: إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ.

قال له موسى ﷺ: هَلْ أَتْبَعُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا؟

قال: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا؟

قال: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا.

قال له الْخَضِرُّ: فَإِنْ أَتْبَعْتَنِي فَلَا تُسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَحْدَثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا.

قال: نعم.

فانطلقَ الْخَضِرُ وموسى يمشيانِ على ساحلِ الْبَحْرِ، فمرَّتْ بهما سفينةٌ، فكلّما هم أن يحملوهما، فعرفوا الْخَضِرَ، فحملوهما بغيرِ نَوَلٍ (أجرٍ)، فعمدَ الْخَضِرُ إلى لوحٍ من ألواحِ السفينةِ فنزَعَهُ، فقال له موسى: قومْ حملونا بغيرِ نَوَلٍ؛ عمدت إلى سفيتهم فخرقتها لتُفَرِّقَ أهلها، لقد جئت شيئاً إمرأً.

قال: ألم أقل: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟.

قال: لا تؤاخذني بما نسيْتُ ولا ترهقني من أمري عُسرًا.

ثم خرجا من السفينةِ، فبينما هما يمشيانِ على الساحلِ إذا غلامٌ يلعبُ مع الغلمانِ، فأخذَ الْخَضِرُ برأسِهِ فاقتلَعَهُ بيده فقتلَهُ.

فقال موسى: أَقتلتَ نفساً زاكيةً بغيرِ نفسٍ؟! لقد جئت شيئاً نكراً.

قال: ألم أقلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟.

قال: وهذه أشدُّ مِنْ الْأُولَى.

قال: إن سألتُكَ عن شيءٍ بعدها فلا تصاحِبْنِي، قد بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا.

فانطلقا، حتى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استطعما أهلها، فأبوا أن يُضَيِّقُوهُمَا، فوجدا فيها جداراً يريدُ أن ينقضَّ فأقامه، يقولُ: مائلٌ، قال الْخَضِرُ بيده هكذا فأقامه (أي: أشار بيده فأقامه).

قال له موسى: قومْ أتيناهم فلم يضيفونا، ولم يطعمونا، لو شئتَ لَاتَّخَذْتَ عليه أجراً.

قال: هذا فراقُ بيني وبينكَ، سأنبئك بتأويلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عليه صبراً.

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «يرحمُ اللهُ موسى، لوِدِدْتُ أَنَّهُ كانَ صَبَرَ حَتَّى يَقْصَرَ علينا مِنْ أَخْبَارِهِمَا».

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «كانتِ الْأُولَى مِنْ موسى نسياناً، قال: وجاء عُصْفُورٌ حَتَّى وَقَعَ عَلَى حَرْفِ السفينةِ، ثم نقرَ في الْبَحْرِ، فقال له الْخَضِرُ: ما نقصَ

علمي وعلمُك من علمِ الله إلا مثل ما نقصَ هذا العصفورُ مِنَ البحرِ» [رواه البخاري (٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠) واللفظ له].

• رحلة العجائب، مجمع البحرين:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أْبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ واذكر إذ قال موسى بن عمران ؑ كما مرَّ معنا في الحديث الشريف.

﴿لِفَتْنِهِ﴾ لتابعه الذي كان يتبعه، وهو يوشع بن نون، كما مرَّ معنا أيضاً في الحديث الشريف.

وقوله تعالى: ﴿لِفَتْنِهِ﴾ يدل على تكريم الإسلام للإنسان، ولو كان خادماً أو عبداً، فينبغي أن يُنادى بالفاظ فيها معنى التكريم والاحترام، قال رسول الله ﷺ: «لا يقولنَّ أحدُكم: عبدي وأمّتي، كُلُّكم عبيدُ الله، وكُلُّ نسائِكُم إمَاءُ الله، ولكن ليقلُّ: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي» [رواه مسلم (٢٢٤٩)].

﴿لَا أْبْرَحُ﴾ لا أزال أسير.

﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ حتى أصل إلى مكان مجمع البحرين.

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أو أسير زماناً طويلاً.

ويبدو أنهما لم يسيرا زماناً طويلاً، سارا بعض يوم فوصلا إلى مجمع البحرين، إلا أنهما لم يعرفا أنَّ المكان الذي وصلا إليه، وجلسا فيه يستريحان، هو مجمع البحرين.

ولا بدَّ أن يكونَ هذا المكانُ قريباً من المنطقة التي كان يقيمُ فيها موسى ؑ، والمنطقةُ هذه إمَّا أن تكونَ في مصر أو في صحراء سيناء، وأقربُ مكانٍ يقعُ بين مصر وسيناء يلتقي فيه بحران، مكان في طرف البحر الأحمر من جهة الشمال، حيث يلتقي بحرُ العقبة وبحرُ السويس، الشعبان المتفرعان عن البحر الأحمر، والله سبحانه أعلم.

● الحوت العجيب:

جعل الله تعالى لموسى علامةً يعرفُ بها المكانَ المطلوب، هي فَقْدُه للحوت، وهو السمكة المشوية التي كانا يحملانها لتكونَ طعاماً لهما، ولما وصلا إلى مجمع البحرين، وجلسا إلى صخرة هناك ليستريحا، غلبَ عليهما النومُ والتعبُ فناما:

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي موسى ﷺ تفقُّد الحوت، ونسي فتاه أن يخبره بفقده، إذ ردَّ الله تعالى بقدرته الحياةَ إلى الحوتِ الميتِ، فاضطربَ في المِكتل، ثم قفز إلى البحر:

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

وانتبه الفتى إلى فَقْدِ الحوت، ورآه وهو يقفزُ إلى البحر، ويشقُّ طريقه داخلَ الماءِ، ورأى أيضاً كيف أمسك الله تعالى جريّة الماءِ عن طريق الحوت حتى أصبحَ مثل النفق داخلَ الماءِ، ومع كل هذه الخوارق للعادات أنسي أن يذكرَ شيئاً من ذلك لموسى ﷺ.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءٌ نَأْكُلُ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ واستأنفا سيرهما بقية اليوم واللييلة - كما مرَّ في الحديث الشريف - حتى شعرا بالتعب والجوع.

﴿قَالَ﴾ موسى .

﴿لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءٌ نَأْكُلُ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: تعباً ومشقة.

عندئذٍ تذكَّر الفتى أمرَ الحوتِ العجيب:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝﴾

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ أي: نسيت أن أذكر لك شأن الحوت العجيب.

فمع أنه أمر لا يُنسى، فقد قدر الله تعالى له أن ينسى تنبيهاً على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله تعالى وحفظه في قلب الإنسان وذاكرته، فالتذكُّر والنسيان لا يخضعان لإرادة الإنسان، فما أكثر ما ينسى الإنسان أموراً هامة في حياته، يتمنى أن يذكرها ولا ينساها، وعلى العكس ما أكثر ما يتذكَّر أموراً لا يريدُ تذكرها، بل يتمنى أن يطردها من ذاكرته وينساها، إن في الإنسان أسراراً لا تزال غيباً عنه.

وردَّ الفتى سبب النسيان إلى الشيطان أدباً مع الله سبحانه:

﴿وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۝ واتخذ الحوت طريقه في البحر اتخاذاً عجيباً، إذ أصبح طريقه في الماء مثل الطاقة والنفق.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۝﴾

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ الذي كنا نطلب.

﴿فَأَرْتَدَّا﴾ رجعا.

﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يتبعان آثار أقدامهما حتى وصلا إلى الصخرة.

● العبد الصالح:

وتمَّ اللقاء بين موسى ﷺ والعبد الصالح (الخضر)، ومرَّ معنا في الحديث الشريف كيف تمَّ اللقاء، وحال الرجل الصالح عند وصول موسى إليه.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿٦٥﴾ .

وقد وصفت الآية الكريمة هذا الرجل بثلاث صفات:

أولها: أنه عبدٌ من عباد الله الصالحين: وصفه الله تعالى بصفة العبودية، وأضافه إلى ذاته المقدسة بهذه الصفة أيضاً:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ وهذا تكريم كبير لهذا الرجل، وتشريف عظيم، فقد عودنا الله تعالى في كتابه الكريم أنه إذا أراد تكريم عبدٍ نسبه إلى ذاته المقدسة بصفة العبودية، انظر كيف كرم رسول الله ﷺ بقوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْأَجْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

وتأمل كيف كرم الصالحين بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

هذا الرجل الصالح عبدٌ من عباد الرحمن، واسمه الخضر - كما مرَّ معنا في الحديث الشريف - وقد سُمي بهذا الاسم لأنه جلس على أرضٍ مجدبة لا نبات فيها، فأنبثت واخضرتْ بقدرة الله سبحانه، تكريماً لهذا الرجل الصالح.

ففي «صحيح البخاري» [٣٤٠٢] و«سنن الترمذي» [٣١٥١]: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ، لَأَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فُرُوقٍ بِيضَاءَ فَاخْضَرَّتْ تَحْتَهُ».

تحيا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ نَزَلُونَهَا كَأَنَّكُمْ فِي بِلَادِ اللَّهِ أَمْطَارُ ثانيها: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هذه هي الصفة الثانية التي وصف الله سبحانه بها هذا الرجل الصالح.

وذهب جمهور العلماء إلى أن المراد من الرحمة؛ الوحي والنبوة، فالرجلُ في رأي جمهور العلماء: نبيٌّ، وقد تكرر في القرآن الكريم إطلاق الرحمة على

النبوة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٦٥) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ؟! [الزخرف].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكََةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (٦٦) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٦٧) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٦٨) رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [الدخان].
وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

ثالثها: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذه الصفة الثالثة لهذا الرجل الصالح، وهذه الصفة تؤكد نبوته؛ لأن الله تعالى علّمه مباشرة من دون تعليم معلّم، ولا إرشاد مرشد.

فمعنى قوله تعالى: ﴿مِّنْ لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا، ويدل تقديم ﴿مِّنْ لَّدُنَّا﴾ على ﴿عِلْمًا﴾ على اختصاص الله سبحانه بهذا العلم، كأنه سبحانه قال: علّمناه علماً يختص بنا، وهو علم الغيوب والأسرار الخفية لا يعلمها إلا الله تعالى، وفي استعمال كلمة ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ بدل ﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾ إشارة إلى تعظيم شأن هذا العلم^(١).

● موسى أفضل من الخضر:

وسواء كان هذا الرجل الصالح نبياً أم ولياً، فموسى ﷺ أفضل منه، لأنه نبيّ ورسول، أنزل الله تعالى عليه التوراة، وأسمعه جلّ وعلا كلامه: ﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف].

وموسى ﷺ من أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم الله بقوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وله عند الله سبحانه وجاهة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩].

(١) انظر: روح المعاني.

ولا يدل ذهاب موسى إلى الخضر ليتعلم منه على أَنَّ الخضرَ أفضل من موسى، فقد كان موسى ﷺ يَعْلَمُ علوماً لا يعلمها الخضر - كما مرَّ معنا في الحديث الشريف عندما قال الخضر لموسى: «إِنَّكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكِهِ اللَّهُ، لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ، لَا تَعْلَمُهُ» والخصوصية لا تقتضي الأفضلية كما هو مقرر عند العلماء، وهذا يقطع الطريق على القائلين بأنَّ الخضرَ أفضل من موسى.

قال ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقع لبعض الجهلة أَنَّ الخضرَ أفضل من موسى، تمسكاً بهذه القصة، وهذا يتصور ممَّن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر فيما خَصَّ اللَّهُ به موسى ﷺ من الرسالة وسماع كلام الله، وإعطائه التوراة، وَأَنَّ أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوته، حتى عيسى... والخضر وإن كان نبياً، فليس برسول باتفاق، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم، وإن قلنا: إِنَّ الخضرَ ليس بنبي بل ولي، فالنبيُّ أفضل من الولي، وهذا أمرٌ مقطوعٌ به عقلاً ونقلاً، والصائرُ إلى خلافه كافرٌ، لأنَّه أمرٌ معلوم من الشرع بالضرورة»^(١).

ورحلة موسى ﷺ إلى الخضر في طلب العلم، دليلٌ على فضله وسعة علمه، فكلَّمَا ازداد الإنسان علماً ازداد تعظيماً للعلم وحرصاً عليه، فالفضلُ في هذه الرحلة لموسى ﷺ على الخضر، ورحم الله القائل:

إِنْ زَارَنِي فَبِفَضْلِهِ أَوْ زُرْتُهُ فَلِفَضْلِهِ
فَالْفَضْلُ فِي الْحَالِينِ لَهُ

• أدب ولطف:

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ قال موسى ﷺ للرجل الصالح:

(١) انظر: فتح الباري.

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ وهذا أدبٌ ولطف من نبي الله موسى ﷺ، سنَّ به سنناً عالية ورفيعة لطلاب العلم، منها:

١ - جعل نفسه تبعاً للخضر، رغم تفضيله عليه، كما سبق ذكره، فقال له: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ فعلى طالب العلم أن يتواضع لمعلمه، وأن يتابعه، ليستفيد من علمه، وتقضي المتابعة من طالب العلم التسليم لمعلمه، وترك منازعته، والاعتراض عليه.

٢ - وقوله: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: من بعض ما علّمك الله سبحانه، مما يدل على شدة تواضع موسى ﷺ، والتواضع من صفات الكمال، ألا ترى كيف أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ أن يتواضع للمؤمنين، وهو لا شك أفضل منهم: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وهذا التواضع المأمور به رسول الله ﷺ لعامة المؤمنين لا بد أن يكون لأهل العلم أكثر وأعظم، لأن الله سبحانه رفع أهل العلم بما خصّهم من الفضل درجات: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

٣ - وقوله ﴿رُشْدًا﴾ أي: علماً ذا رشد، ولا خير في علم لا إرشاد فيه ولا هداية، إن العلم الذي لا رشد فيه فتنة لصاحبه كما سبق بيانه في فقرة (فتنة العلم)^(١)؛ فعلى المعلم واجب الإرشاد والهداية مع التعليم، وموسى ﷺ ما طلب العلم للعلم، إنما طلبه ليزداد هداية ورشداً، وهذا يدل على كمال تواضعه وإخلاصه ﷺ.

وعرف الرجل الصالح المكانة العالية لموسى ﷺ، فقال له:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (١٧).

فالإنسانُ العالم يشق عليه أن يسكت إذا سمع أو رأى شيئاً يخالف علمه. ثم استدرك الرجل معتذراً من موسى ومعللاً:

(١) انظر: ص ٧٧ - ٧٩، في هذا المجلد من تفسيرنا الموضوعي.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ (٦٨).

أي: كيف تصبر وأنت نبي ورسول على أمور منكّرة في ظاهرها؟! .
لكنَّ حُبَّ العلم حمل موسى ﷺ على أن يقول للخضر:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩).

فواجب المتعلّم أن يطيع المعلم، ويتواضع له، وعلى المعلم أن يذكر للمتعلّم كلّ ما يفيد إرشاده للخير، ولهذا أوصى الخضر موسى:

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (٧٠).

أي: لا تسألني عن شيء تشاهده من أفعالي حتى أبتدئك ببيانه، وهكذا تمّ الاتفاق، وبدأ الانطلاق.

• الجولة الأولى:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧١).

﴿فَانْطَلَقَا﴾ أي: موسى والخضر، وسارا على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فطلبوا من أصحابها أن يحملوهما، وعرف أصحاب السفينة الخضر، فحملوهما بغير أجر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أخذ الخضر فأساً وخرق به السفينة، ثم جعل في مكان الخرق وتدّاً لمنع دخول الماء على السفينة.

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؟! وهو استفهام للإنكار والاعتراض على فعل الخضر.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ أي: أتيت أمراً عظيماً. أمر الأمر: إذا عظم.

ذَكَرَ الْخَضِرُ عِنْدَئِذٍ مُوسَى بِمَا قَالَهُ مِنْ قَبْلُ:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢).

ولا يخفى ما في هذا التذكير من إنكار على عدم صبر موسى .

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ (٧٣).

﴿قَالَ﴾ موسى معذراً :

﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ أي : لا تحملني صعوبة ومشقة

في اتباعك وصحبتك .

وهكذا انتهت الجولة الأولى بعتابٍ من الخضر واعتذارٍ من موسى ﷺ .

• الجولة الثانية:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤).

﴿فَانْطَلَقَا﴾ يسيران على الساحل بعد أن تركا السفينة .

﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ لم يصل بعدُ إلى سنِّ البلوغ، يلعبُ مع أمثاله من

الغلمان، فأخذه الخضر :

﴿فَقَتَلَهُ﴾ ، فقال موسى معترضاً على ما فعل :

﴿قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ طاهرة من الذنوب .

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي : بغير حق .

﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ منكراً جداً .

ولا شك أن اعتراض موسى هذا أشد من اعتراضه الأول ؛ فقال الخضر :

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥).

وبالمقابل فقد كان عتابُ الخضر لموسى على اعتراضه هذه المرة أشدَّ من

سابقتهما، فقد زاد هنا: ﴿لَكَ﴾ ليدلّ على زيادة العتاب والإنكار، فزيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى.

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ (٧٦).

﴿قَالَ﴾ موسى.

﴿إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ بعد هذه المرة الثانية.

﴿فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد بلغت الغاية التي تعذر بسببها في فراقني، وكلام موسى عليه السلام يدلّ على أنه استحيا من الخضر، فقال له هذا القول. وقد صحّ أن نبينا ﷺ قال: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر على صاحبه لرأى العجب، ولكن أخذته من صاحبه ذمامة» أي: حياءً. وانتهت الجولة الثانية ببدء ظهور علامات الفراق.

● الجولة الثالثة:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (٧٧).

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ حتى وصلا إلى قرية. وهي قرية كبيرة، ذكرت بعد ذلك بلفظ مدينة: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: ٨٢].

وكانا في حاجة ماسة إلى الطعام، إذ بلغ منهما الجوع كل مبلغ:

﴿اسْتَطْعَمَ أَهْلُهَا﴾ فطلبا الطعام من أهل هذه المدينة.

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وكان أهل هذه القرية على درجة كبيرة من البخل.

والعجيب أن موسى عليه السلام لما وصل إلى مدينتين بعد أن خرج من مصر فراراً، لم يطلب حينئذ الطعام من أهل مدين مع شدة جوعه، بل توجه بالدعاء إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقابل الخضر إساءة أهل القرية لهما بالإحسان والإصلاح:

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ فمسح الخضرُ بيده على الجدار، فعاد مستويًا قائمًا بقدرة الله تعالى كما سبق وصرح معنا في الحديث الشريف: «قال الخضر بيده هكذا فأقامه» فمعنى قوله: «قال الخضرُ بيده» أشار الخضر بيده، وهو تعبيرٌ بالقول عن الفعل. عندئذ:

﴿قَالَ﴾ موسى .

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ .

ونعجبُ مرة ثانية من رغبة موسى أن يأخذ الخضرُ أجرًا على إقامة الجدار، إذا تذكرنا أن موسى ﷺ سقى لابنتي شعيب غنمهما، ولم يسألهما أجرًا رغم حاجته الشديدة إليه في ذلك الوقت: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص].

ولعلَّ الحامل الذي حمله على رغبته أن يأخذ الخضر أجرًا موقف اللؤم والبخل الذي رآه عند أهل هذه القرية .

قرر الخضرُ الفراق بعد هذا الاعتراض الثالث الذي صدر عن موسى بأسلوبٍ اقتراحٍ قديمه، ورغبة أباها: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ .

● كشف الأسرار:

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨) .

ولم يقل: بما لم تصبر عليه، بل قال: بما لم تستطع عليه صبرًا، أدباً مع موسى ﷺ .

ثم شرع في كشف الأسرار فقال:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ لأناس فقراء يحاولون في البحر، لتحصيل رزقهم .

﴿فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا﴾ ؛ لأن في طريقهم ملكاً ظالماً :
 ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة غير معيبة :
 ﴿غَصْبًا﴾ .

أسس الخضر عليه السلام بعمله هذا قاعدة نفيسة من قواعد الفقه، وهي : يُختار أخف الضررين لدفع أكبرهما، فيتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، فهو لم يخرق السفينة ليغرق أهلها، إنما خرقها ليحدث ضرراً صغيراً يدفع به ضرراً كبيراً، وهو أخذ الملك الظالم للسفينة غصباً .

﴿وَأَمَّا الْفُلَانُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا الْفُلَانُ﴾ الذي قتله .

﴿كَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ وللمؤمن كرامة عند الله تعالى .

﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فخشنا أن يكون هذا الولد سبباً لطغيان والديه بمجاوزتهما لحدود شرع الله، وكفرهما بالله، بأن يحملهما حُبٌ ولدهما على متابعتة ومطاوعته في معاصيه وكفره .

وسبق أن مر معنا كيف أن الأولاد فتنة كبيرة للآباء، وأن كثيراً من الآباء والأمهات يفتنون عن دينهم بسبب أولادهم .

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ .

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ﴾ أن يرزقهما الله بدله ولدًا خيراً منه ديناً، وأطهر قلباً وخلقاً .

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أكثر رحمة بوالديه وبراً بهما .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقامه .

﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مات أبوهما، وترك لهما مالاً تحت هذا الجدار .

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ وأراد الله سبحانه بسبب صلاح أبيهما أن يحفظ لهما مال اليتيمين كنزهما حتى يبلغا مبلغ الرجال، ولو سقط الجدار لأخذ أهل المدينة مال اليتيمين الضعيفين، وقد اشتهر أهل المدينة بشدة البخل واللؤم والطمع .

وهذا يدل على أن صلاح الآباء ينفع الله تعالى به الأبناء في الدنيا، كما حدث لهما مال اليتيمين، وفي الآخرة كما في قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَابْتَغَوْا دُرِّيَّهُمْ بِإِيمَانٍ الْحَقِّانِ بِهِمْ دُرِّيَّهُمْ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ﴾ [الطور: ٢١] .

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ قوتهما .

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ من تحت الجدار .

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ وهذا من رحمة الله بهما وفضله عليهما .

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ وكل ما صدر مني ما فعلته عن رأيي واجتهادي، إنما فعلته بأمر الله تعالى .

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وحذفت تاء (تستطع) للتخفيف، لأنها تكررت فناسب تخفيفها آخر مرة، أو لمناسبة ما خفف عن موسى لما عرف حقيقة الحال^(١) .

(١) انظر: روح المعاني .

● تعقيب:

إنَّ قصة موسى والخضر عليهما السلام ترسمُ لأهل العلم طريق السلامة من فتنة العلم:
- فالعلمُ أولاً يجب أن يقربَ صاحبه من الله تعالى، فلا خيرَ في علم لا يذكرُ بالله تعالى، ولا يدل عليه سبحانه.

- وعلى العالم مهما حصل من علوم ألا يغتر بعلمه، فما يُجهل من العلوم أكثر مما يُعلم، وعليه ألا ينقطع عن طلب العلم والازدياد منه، فإذا انقطع عن طلب العلم، وظنَّ أن عنده من العلم ما يُغنيه عن طلب المزيد، فهو جاهلٌ، والعلماء الحقيقيون يحصّنون علمهم بطلب المزيد، وإلا نقص علمهم واضمحل، وانتهى بهم إلى الجهل.

ففي رحلة موسى عليه السلام إلى الخضر أسوةً طيبةً حسنةً لكل عالم، وفي قوله تعالى لنينا عليه السلام: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] درسٌ بليغ لكل عالم ومتعلم.

- وعلى العالم أن يسخر علمه لينفع به الناس، ويساعد به الضعفاء، ويحميهم من ظلم الطغاة والمستبدين، ويعمل على حفظ حقوق اليتامى حتى يبلغوا، ويشد ساعدهم، كما فعل الخضر عليه السلام، فقد سخر ما آتاه الله من علم لمساعدة المساكين، وحماية سفينتهم من الملك الظالم، وحماية الوالدَيْن المؤمنين من شرِّ ولدهما وعقوقه، وحفظ أموال اليتيمين وحمايتهما، فأين ما فعله الخضر عليه السلام مما تفعله الدول المتقدمة مع الشعوب الضعيفة الفقيرة في عصرنا الحاضر؟! إنهم يسخرون علمهم للتزوير والغش والاحتيال وامتصاص خيرات الأمم والشعوب الضعيفة.

● العمل بالإلهام غير جائز:

يدلُّ قول الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئِ﴾ [الكهف: ٨٢] على نبوة الخضر عليه السلام، فما فعله عندما خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، كان بوحي من الله تعالى له وتشريع؛ وهو تشريع خاصٌّ بالخضر، لا يجوزُ العمل به في

الشريعة الإسلامية إلا بدليل ظاهر منها، كما أنه غير جائز في شريعة موسى عليه السلام بدليل معارضة موسى له.

وما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» عن عطاء أنه قال: كتب نجدة الحروري إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن قتل الصبيان؟ فكتب إليه ابن عباس: إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم.

وقد قصد ابن عباس رضي الله عنهما بهذا - كما قال السبكي رحمه الله - المحاجة، والإحالة على ما لا يمكن، ليقطع طمع نجدة الحروري الخارجي عن الاحتجاج بقصة الخضر، وليس مقصوده رضي الله عنهما أنه إن حصل ذلك يجوز القتل^(١).

ونقل في «حاشية الشهاب» عن السبكي أيضاً قوله: ما فعله الخضر من قتل الغلام لكونه طبع كافرأ مخصوص به، لأنه أوحى إليه أن يعمل بحكم الباطن خلاف الظاهر، وإن علم من شرعنا أنه لا يجوز قتل صغير، لاسيما بين أبوين مؤمنين، ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه كما أطلع الخضر عليه السلام لم يجز ذلك^(٢).

هذا هو الحق الذي لا يُعدّل عنه إلى غيره، فالخضر عليه السلام نبي، وما فعله شرع خاص به، لا يجوز لغيره أن يقلّده فيه.

وفي هذا رد على بعض الجهلة من المتصوفة الذين يقولون بجواز العمل بالكشف والإلهام، فلا يجوز العمل بكشف ولا إلهام إلا إذا وافق الكتاب والسنة، وحيث يكون العمل بمقتضى الكتاب والسنة، لا بمقتضى الإلهام والكشف.

وقد نبهت إلى هذا في كتاب «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» وذكرته فيه قول أبي الحسن الشاذلي رحمه الله: إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، فالله سبحانه ضمن العصمة للنبي، ولم يضمنها للولي.

ولقد أفاد العلامة الألوسي وأجاد في تفسيره «روح المعاني»، في الرد على القائلين بجواز العمل بالإلهام والاحتجاج به، ووصفهم بالشذوذ والإعثار، ثم

(١) انظر: روح المعاني.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين، المسمى بالفتوحات الإلهية.

أُتْنَبَ فِي ذِكْر مَنْ مَنَعَ الْعَمَلَ بِالْإِلْهَامِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ، فَقَالَ: «وَمَنْ صَرَّحَ بِأَنَّ الْإِلْهَامَ لَيْسَ بِحُجَّةٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ الْإِمَامِ الشَّعْرَانِيِّ، قَالَ: قَدْ زَلَّ فِي هَذَا الْبَابِ خَلْقٌ كَثِيرٌ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا، وَلَنَا فِي ذَلِكَ مُؤَلَّفٌ سَمِيَتْهُ «حَدُّ الْحَسَامِ فِي عُتْقٍ مِنْ أَطْلَقَ لِإِجَابِ الْعَمَلِ بِالْإِلْهَامِ».

وَقَدْ صَرَّحَ الْإِمَامُ الرَّبَانِيُّ مَجْدُّ الْأَلْفِ الثَّانِي الشَّيْخُ أَحْمَدُ السَّرْهَنْدِيُّ فِي كِتَابِ «الْمَكْتُوبَاتِ» فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ بِأَنَّ الْإِلْهَامَ لَا يُجَلُّ حَرَامًا، وَلَا يَحْرُمُ حَلَالًا. وَيَعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا مَخَالَفَةَ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالْحَقِيقَةِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ.

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: جَمِيعُ الْأَوْلِيَاءِ لَا يَسْتَمْدُونَ إِلَّا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ، وَلَا يَعْمَلُونَ إِلَّا بِظَاهِرِهِمَا.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الطَّرِيقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ إِلَّا عَلَى مَنْ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ. وَقَالَ أَيْضًا: مَنْ لَمْ يَحْفَظِ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَكْتُبِ الْحَدِيثَ لَا يُقْتَدَى بِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ، لِأَنَّ عَلَمَنَا مَقْيَدٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ^(١).

وَطَرِقَ الْإِنْذَارَ مَحْصُورَةً بِالْوَحْيِ، وَقَدْ خَتَمَ الْوَحْيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَحَدِيثَ مَنْ يَقُولُ: (حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي) مُرَدُّودٌ عَلَيْهِ، إِذَا تَعَارَضَ مَعَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِذَا لَمْ يَتَعَارَضْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ فَالْعَمَلُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا بِمَا حَدَّثَهُ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّهِ ﷺ.

قَالَ الْعَلَامَةُ الشَّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّ الْخَوَاصَّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَا حَاجَةَ بِهِمْ إِلَى أَخْذِ الْأَحْكَامِ مِنَ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَصِفَاءِ قُلُوبِهِمْ، وَنَقَاءِ نَفُوسِهِمْ، فَتَنْجَلِي لَهُمُ الْحَقَائِقُ الْإِلَهِيَّةُ فَيَعْمَلُونَ بِمَقْتَضَاهَا، هَذَا زَنْدَقَةٌ وَكُفْرٌ، لِأَنَّهُ هَدْمٌ لِأَحْكَامِ الدِّينِ»^(٢).

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اللَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ أَجْرَى سُنَّتَهُ، وَأَنْفَذَ كَلِمَتَهُ، بِأَنَّ أَحْكَامَهُ لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِوَسْطَةِ رَسَلِهِ السَّفَرَاءِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَقَدْ حَصَلَ الْعِلْمُ الْيَقِينُ

(١) انظر: روح المعاني؛ وكتاب: العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

(٢) انظر: أضواء البيان.

وإجماعُ السلف على ذلك، فمن ادعى أنَّ هناك طريقاً آخرَ يعرف بها أمره ونهيه، غير الطرق التي جاءت بها الرسل، يستغني بها عن الرسول، فهو كافر يُقتل ولا يُستتاب، وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، فمن قال: إنَّه يأخذ عن قلبه، لأنَّ الذي يقع فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب وسنة، فقد أثبت لنفسه صفة النبوة، كما قال نبينا ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي» وبلغنا عن بعضهم أنَّه قال: لا آخذُ عن الموتى، وإنَّما آخذُ عن الحي الذي لا يموت، وكذا قال آخر: أنا آخذُ عن قلبي عن ربي، وكُلُّ ذلك كفرٌ باتفاق أهل الشرائع^(١).



(١) نقل هذا عن القرطبي في تفسيره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، وأيده.

الفصل السادس قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۚ ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۚ ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْفَرْنَينِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۚ ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۚ ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۚ ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۚ ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا ۚ ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۚ ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۚ ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّينِ وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۚ ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَبْدَأُ الْفَرْنَينِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلْ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۚ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۚ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۚ ﴿٩٨﴾﴾

• فتنة الحكم:

شهوة الحكم والتسلط كانت ولا تزال أعظم أسباب الفتن بين الناس، فقد جُبِلَ الإنسان على حُبِّ التملك والتسلط، وتركَزَتْ في أعماق نفسه نزعة حب الشهرة والسمعة، وهذا جعل شهوة الحكم والتسلط في نفس الإنسان من أقوى الشهوات، وقد واجه النبي ﷺ أصحابه بهذه الحقيقة، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِضُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه البخاري (٧١٤٨)].

وإنَّ قارئَ التاريخ، والمتأملَ لأحداث الصراعات البشرية قديماً وحديثاً ليجدُ أن أكثرَها حدثٌ بسبب تلك النزعة الدفينة في أعماق النفس البشرية، نزعة التسلُّط والحكم، والشهرة والسمعة، فما أكثرَ الحروبَ التي نشبت بسبب هذه النزعة، وما أعظمَ البلايا والرزايا التي أصابت البشرية في مدى تاريخها الطويل بسبب شهوات الحُكَّام المستبدِّين، عبيد الشهرة والسمعة وطلَّاب السلطة والحكم.

إنَّ فتنةَ الحكم والتسلُّط كبيرةٌ وخطيرةٌ، لأنها تستند إلى جذور عميقة وراسخة في أعماق النفس البشرية، والحكام الذين ابتلوا بها، وخرجوا منها سالمين قليلون، أكثرهم صرعته الفتنة، وغلبت عليه شهوة التسلُّط والشهرة، وبهرته الأضواء المسلَّطة عليه، فشُغِلَ بنفسه عن مسؤوليته وأمته، ألا ترى أنَّ الخلافة الراشدة بعد رسول الله ﷺ ثلاثون سنةً فقط من عمر الإسلام الطويل الممتد من زمن رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، قال رسول الله ﷺ: «الخلافةُ بعدي في أمتي ثلاثون، ثم مُلْكٌ بعدَ ذلك» [رواه أحمد (٢٢٠/٥) والترمذي (٢٢٢٦)].

ولا يعني هذا أنَّ جميعَ حكام المسلمين بعد الخلفاء الراشدين لا خيرَ فيهم ولا صلاح، فقد كان فيهم حكام صالحون، أجرى الله على أيديهم خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين، لكنَّهم لم يصلوا إلى القمة السامقة التي تبوأها الخلفاء الراشدون ﷺ.

لقد كان ذو القرنين مثلاً طيباً للحاكم الصالح، الذي لم يُفتنْ بالحكم والسلطان، فلم يشغل بما آتاه الله تعالى من قوة الملك وأبهة الحكم والتمكين في الأرض، عن أمته التي حكمها، ورسالته التي حملها، إنَّه الحاكم الذي سَخَّرَ حكمه وسلطانه لنشرِ دين الله وعبادته في الأرض وعمارتها بطاعة الله تعالى، ودَرَأَ خطرَ المفسدين عنها بكل وسائل التمكين التي آتاه الله سبحانه وإياها.

وهذا جعلَ بعضَ المفسرين يصفون ذا القرنين بصفة النبوة، لكنَّ جمهور المفسِّرين على أنَّه كان حاكماً صالحاً، سَخَّرَ الله تعالى له كثيراً من الأسباب،

ويسَّرَ له سُبُلَ التنقل في الأرض والنظر في أحوال العباد، فاستثمر ذلك للدعوة والإرشاد وعمارة الأرض، ودفع أهل الشر والفساد.

تُرى مَنْ يكون ذو القرنين؟ وما هويته؟ وما جنسه؟ وما عصره؟.

أسئلة كثيرة ثارت حول شخصية ذي القرنين، لم يستطع الدارسون لتاريخ الأمم والمتخصصون في أخبار التاريخ أن يجدوا لها جواباً شافياً كافياً، وما خرجوا إلا بأخبار متعارضة وأقوال متناقضة لا تروي غليلاً ولا تشفي عليلًا.

• ذو القرنين ليس مَلِكًا من ملوك الفرس:

ذهب بعضُ الباحثين إلى أنَّ ذا القرنين أحد ملوك الفرس القدماء، وقد تحمَّس لهذا الرأي عالمان هنديان معاصران، هما: شبلي النعماني، وأبو الكلام آزاد، إلا أنَّهما اختلفا في تحديد اسمه، فذهب شبلي النعماني إلى أنه دارا الكبير ملك الفرس، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، أما أبو الكلام آزاد فقد رجَّح أنَّ يكون ذو القرنين هو كورش ملك الفرس في القرن السادس قبل الميلاد، وهو الذي قوَّض مملكة بابل، وأذن لليهود المسيبين فيها بالعودة إلى فلسطين.

لكن المدوَّن عن ملوك الفرس أنَّهم كانوا يدينون بالديانة المجوسية، التي تقومُ على عقيدة المثنوية، والتي تقول بوجود إلهين: إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة، كما تقوم على عبادة النار وتقديسها.

ولهذا حاول هذان الدارسان للدفاع عن رأيهما إثبات أنَّ الزراداشتية^(١) التي

(١) نسبة إلى زردشت، وهي أصل المجوسية، زعم بعضهم: أنه نبي. وزعموا أنه كان يقول: النور والظلمة أصلان متضادان هما مبدأ موجودات العالم، وأن مبدعهما واحد لا شريك له، وهما يتغالبان حتى يغلب النور الظلمة. لكنَّ التعارض بين ما نُسِبَ إليه من أقوال وعده من الأنبياء ﷺ واضح ظاهر.

قلت: يستأنس لنبوته بقوله ﷺ في المجوس: «سُئِلُوا فِيهِمْ سَنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ...» الحديث. والله أعلم. انظر: زردشت الحكيم، للأستاذ حامد عبد القادر.

كان يدينُ بها كل من الملكين تقول بوحدة الإله، وتأمراً بالخير، وتدين بالآخرة، كما استندا فيما توصّلا إليه إلى ما ورد في سفر نبوءة دانيال من أسفار العهد القديم^(١).

لكن آيات القرآن الكريم التي تحدّثت عن ذي القرنين صرّحت بأن مُلك ذي القرنين امتدَّ إلى أقصى حدود المغرب، قال تعالى: ﴿فَأَنْبَغَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴿[الكهف] أي: منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يمكن لأحد مجاوزته. ووقف كما هو الظاهر على حافة البحر المحيط الغربي الأطلسي؛ وفيه الجزائر المسماة بالخالدات^(٢).

بينما لم يتجاوز سلطان ملوك الفرس من جهة الغرب حدود قارة آسية إلى إفريقية أو أوربة.

وسياتي معنا أنه لا يوجد في التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر أي ذكر صريح لذي قرنين، فيها فقط كلمات غامضة تشير إلى الإسكندر ملك اليونان، دون تصريح بأنه ذو القرنين.

• ذو القرنين ليس الإسكندر المقدوني اليوناني:

وذهب كثير من المؤرخين والمفسرين إلى أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني اليوناني المتوفى سنة (٣٢٣ ق.م)، وليس لهم دليل على صحة قولهم هذا سوى شهرة الإسكندر عند المؤرخين، وما عرف عنه من قوة سلطانه، وامتداد ملكه، وكثرة الممالك والأمم التي دانت له وخضعت لحكمه.

والمشهور من شأنه أنه كان متصفاً بصفات خبيثة، تتنافى مع الصفات الطيبة الكريمة التي وُصف بها ذو القرنين في القرآن الكريم، فقد كان الإسكندر تلميذاً للفيلسوف اليوناني الشهير أرسطو، الذي كان يقول بقدّم العالم، كما اشتهر الإسكندر بأنه كان وثنيّاً، محبّاً للشهوات، مسرفاً في الملذات وسفك الدماء.

(١) انظر: التفسير الحديث، لدروزة.

(٢) روح المعاني.

ومهما حاول أصحابُ هذا الرأي، أن يدفعوا عن الإسكندر هذه الصفات، فلن يستطيعوا بسبب ذبوعها وشهرتها عند كثير من المؤرخين.

وقد اعترف فريد وجدي في ما كتبه عن الإسكندر في «دائرة معارفه» بثبوت هذه الصفات للإسكندر، وذكر أنَّ الإسكندر فسد قلبه في آخر حياته، حتى دعا إلى عبادته، والسجود أمامه، وأنه كان يعبد كُلَّ إله مزعوم يصادفه، ويقرب له القرابين والضحايا^(١).

وحاول فريد وجدي أن يوفقَ بين هذه الصفات المذمومة التي كانت للإسكندر وبين الصفات الطيبة التي وصف بها القرآن الكريم ذا القرنين، لأنَّ فريد وجدي من القائلين بأن الإسكندر هو ذو القرنين، فابتعد بهذه المحاولة عن الحقيقة، وتنكَّب العجادة، عندما زعم أن ما في القرآن الكريم عن ذي القرنين لا يدلُّ على صلاحه وإيمانه، وزعم أن قول ذي القرنين: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨] كما حكاها القرآن الكريم عنه، لا يدل على إيمانٍ معيَّن بدين من الأديان، بل المراد من آمن وعمل صالحاً على الإجمال^(٢).

وإن الإنسان ليقضي عجباً من هذا الذي ذهبَ إليه فريد وجدي غفر الله له، كيف غاب عن عقله أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ إذا ذكرا في القرآن الكريم انصرفا إلى الإيمان بالله سبحانه الذي أنزل القرآن الكريم لهداية الناس إليه، والإيمان به ﷻ، وأنَّ العملَ الصالحَ المقرون مع الإيمان هو العمل المطابق لمقتضى الإيمان بالله تعالى، ولو كان ذو القرنين في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لا يقصد الإيمان بالله تعالى، ولا العمل الصالح الذي يرضى الله عنه، فلماذا ذكره القرآن الكريم حكايةً عن ذي القرنين في سياق إقراره عليه؟!.

إنَّ مما يؤكد إيمان ذي القرنين بالله تعالى وحده الإيمان الصحيح قوله قبل ذلك: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]؛ ففيه

(١) انظر: دائرة معارف القرن العشرين، مادة (أسك).

(٢) المرجع السابق نفسه.

دلالة قاطعة صريحة على أنَّ الرجل كان مؤمناً بالله تعالى وباليوم الآخر أيضاً، وبما في هذا اليوم من ثواب وعقاب.

إن ما جاء في آيات سورة الكهف عن ذي القرنين يتنافى مع ما اشتهر به الإسكندر المقدوني من طغيان وظلم وكفر، وامتداد ملك الإسكندر وقوة سلطانه لا يدلان على أنه ذو القرنين الحاكم الصالح المؤمن بالله سبحانه، والداعية إلى عبادة الله تعالى، والذي سخر كل ملكه وسلطانه لنشر عبادة الله تعالى في الأرض، ودرء فساد المفسدين.

ولا يبعد في العقل أن يكون في رجال العصور القديمة رجلٌ بلغ ملكه قرني الدنيا دون أن يكون له ذكر في التاريخ، ثمة عصور قديمة لم يتمكّن المؤرخون من استطلاع أخبارها؛ والوقوف على أحوال الإنسان فيها، ولا زالت هذه العصور تسمّى في مصطلحات المؤرخين عصوراً ما قبل التاريخ، أي: ما قبل التاريخ المعروف، وعدم تمكن المؤرخين من معرفتها لا يعني عدم حدوثها، فما يجهله الإنسان أكثر بكثير مما يعلمه.

وصدق الله تعالى القائل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

فتاريخ الوجود البشري على هذه الأرض عميق، وشجرته ممتدة الجذور كثيراً في أعماق الزمن، وثمة أمم وقرون كثيرة عاشت على هذه الأرض وماتت وأرسل الله تعالى لها رسلاً، ولا نعلم عنها شيئاً، ولم يستطع المؤرخون والباحثون عن أخبار الماضين أن يقفوا لها على أثر أو يجدوا لها خبراً: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

• هل ذو القرنين أحد ملوك اليمن الأولين؟

لليمن حضارة قديمة وعريقة، ظهرت فيه المجتمعات البشرية قبل ظهورها في كثير من بقاع الأرض، وخرجت منه كثير من الشعوب والقبائل التي استوطنت بلاد الرافدين وشواطئ البحر الأبيض المتوسط وضاف نهر النيل،

فقد كان مخزناً للأمم والشعوب، وقامت على أرضه حضارات قديمة لا زالت بعض آثارها قائمة فيه.

وقد ذهب بعض المؤرخين والمفسرين إلى أن ذي القرنين أحد ملوك اليمن الحِميريين القدماء، وأنه كان معاصراً لنبي الله إبراهيم عليه السلام، وأنه اجتمع به في مكة المكرمة ودعا له إبراهيم عليه السلام.

ولعلَّ هذا القول أقرب إلى الحقيقة، لأن الأذواء كانوا من اليمن كذي منار، وذي نواس، وذي رعين، وذي يزن، وذي جدن.

ويذكر المفسرون أن ذا القرنين هو الذي افتخر به بعد ذلك تُبَّع اليماني عندما قال:

قَدْ كَانَ ذَا الْقَرْنَيْنِ جَدِّي مُسْلِمًا مَلِكًا عَلَا فِي الْأَرْضِ غَيْرَ مُفْنَدٍ
بَلَغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي أَسْبَابَ مُلْكٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدٍ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا فِي عَيْنِ ذِي خُلْبٍ وَثَاطٍ حَرَمَدٍ^(١)
وتُبَّع الذي نُسب إليه هذا الشعر، هو تُبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو كرب اليماني، وهو مشهور ومعروف عند المؤرخين والمفسرين، فقد ذكر في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق].

وكان تُبَّع هذا مؤمناً، ولهذا ذمَّ الله سبحانه قومه ولم يذمه، وروي عن النبي ﷺ: أَنَّهُ نَهَى عَنْ سَبِّهِ، روى ابن أبي حاتم: من طريق سهل بن سعد رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا تُبَّعًا، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ أَسْلَمَ» [رواه أحمد (٣٤٠/٥) والطبراني (٦٠١٣)].

(١) الخلب: الطين. والثأط: الحمأة. والحرمد: الأسود.

ولعلَّ اليهود عرفوا شأن ذي القرنين بواسطة تُبَّع، فقد ذكر المؤرخون أنَّ تُبَّعاً هذا خرج من اليمن، واستولى على كثير من البلاد، وأنه مرَّ بالمدينة المنورة، واستصحب من يهود المدينة حَبْرَيْن كانا قد نصحا وأخبرا أنه لا سبيل له على هذه البلدة، فَإِنَّهَا مُهَاجِرُ نَبِيِّ يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَأَنَّهُ طَافَ بِالْكَعْبَةِ وَعَظَّمَهَا وَكَسَاهَا الْمِلَاءَ وَالْوَصَائِلَ وَالْحَبَرَ، وَلَمَّا رَجَعَ إِلَى الْيَمَنِ دَعَا أَهْلَهَا إِلَى التَّهَوُّدِ عَلَى دِينِ مُوسَى ﷺ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ، وَلَكِنَّهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِ عَادُوا إِلَى الْوُثْنِيَّةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، وَلِهَذَا ذَمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَلَمْ يَذْمِهِ^(١).

فَذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ مُلُوكِ حَمِيرِ الْقَدَمَاءِ، وَزَمَانُهُ مُتَقَدِّمٌ عَلَى زَمَنِ تُبَّعٍ أَسْعَدَ أَبُو كَرِيبِ الْحَمِيرِيِّ بِكَثِيرٍ، فَقَدْ عَاشَ تُبَّعٌ بَعْدَ عَصْرِ مُوسَى ﷺ، بَيْنَمَا عَاشَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي عَصْرِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَذَكَرَ الْمَفْسِّرُونَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ مَعَهُ فِي مَكَّةَ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ ﷺ دَعَا لَهُ، وَأَوْصَاهُ بِبَعْضِ الْوَصَايَا، وَلَعَلَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ سَخَّرَ مَا سَخَّرَ لَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ بَبَرَكَةِ دَعَاءِ الْخَلِيلِ لَهُ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ^(٢)، وَاللَّهُ ﷻ أَعْلَمُ.

• السائلون عن ذي القرنين:

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞﴾

كَانَ السُّؤَالُ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَوْأَلِ امْتِحَانٍ وَاجْتِبَارٍ، كَمَا مَرَّ مَعَنَا فِي سَبَبِ نَزُولِ سُورَةِ الْكَهْفِ، وَالسَّائِلُونَ هُمْ كُفَّارُ قَرِيشَ بَتَلْقِينَ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ لَدَى السَّائِلِينَ بَعْضُ الْمَعْرِفَةِ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ، إِذْ لَا يَعْقِلُ أَنْ يَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ سَوْأَلِ الْامْتِحَانِ وَالْاجْتِبَارِ وَلَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْمَسْئُولِ عَنْهُ.

وَسَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ أَنَّ الْيَهُودَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ عِلِمُوا بِشَأْنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ مِنْ طَرِيقِ عِلَاقَتِهِمْ بِأَحَدِ تَبَايَعَةِ الْيَمَنِ، الَّذِي تَأْثُرُ بِبَعْضِ أَحْبَارِهِمْ، وَاعْتَنَقَ الْيَهُودِيَّةَ،

(١) انظر: تفسير ابن كثير لسورة الدخان.

(٢) انظر: روح المعاني.

وعمل على نشرها في ربوع اليمن، ويمكن أيضاً أن يكون ذو القرنين قد ذكر في التوراة التي كانت بين أيديهم في ذلك العصر، أما التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر، فلا يوجد فيها أي ذكر لذي القرنين، فيها فقط كلمات غامضة تشير إلى الإسكندر ملك اليونان، دون أن تصرح بأنه ذو القرنين، ففي سفر دانيال أن ملك اليونان هو التيس العافي والقرن العظيم الذي بين عينيه، وهو الملك الأول؛ أي: (الإسكندر)^(١).

ولا ثقة بأخبار التوراة بسبب ما طرأ عليها من تغيير وتبديل خلال التاريخ الطويل الذي مرَّ عليها، فلم يهيئ لها الله سبحانه ما هياً للقرآن الكريم من أسباب الحفظ، أكد هذه الحقيقة كثير من الدارسين لأخبار التوراة، ومنهم الباحث الفرنسي موريس بوكاي بعد أن قام بدراسة موضوعية لكل من القرآن الكريم والتوراة والإنجيل في ضوء المعارف الحديثة، وحرر نتيجة دراسته تلك في كتابه المشهور «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» وقال في خاتمة الكتاب: «لا يجوز النظر إلى كتب التوراة بزخرفها بدعيّاً بمميزات نريد أن تتميز بها، وإنما بأن ندرس موضوعياً ما هي عليه، وذلك لا يتضمن معرفة بالنصوص، بل يتضمن أيضاً معرفة بتاريخ النصوص، إن معرفة تاريخ النصوص تسمح في الواقع بتكوين فكرة عن الظروف التي قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون، وإلى التكوين البطيء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة».

• التمكن والأسباب:

ولنعد بعد هذه الجولة مع المؤرخين والمنقّبين عن آثار الغابرين إلى رحاب الآيات الكريمة في سورة الكهف، لنرى من خلالها الصورة الكريمة الوضيئة لذي القرنين، الحاكم الصالح الذي ابتلاه الله بالحكم والسلطان، فما فُتِنَ به ولا تكَبَّرَ ولا تجبَّرَ، بل تواضع لله تعالى وشكر.

(١) انظر: دائرة المعارف، لبطرس البستاني: ٤١٢/٨، دار المعرفة.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

أنعم الله تعالى على ذي القرنين بنعمتين كبيرتين :
أولهما : التمكين في الأرض ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي : جعلنا له قدرة
ومكنة على التصرف في الأرض ، فله أن يتصرف فيها كما يشاء .
ثانيهما : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي : أعطيناه كل ما يتوصل به إلى
المقصود من علم وقدره وآلة .

ويبدو أنَّ الأسباب التي مَنَّ الله تعالى بها على ذي القرنين ، لم تكن أسباباً
عادية مألوفة للناس في عصره ، فالإنجازات التي قام بها ، والأعمال العظيمة
التي نفذها تؤكد ذلك ، فقد كانت أسباباً خارقة لنواميس البشر وقدراتهم في ذلك
العصر ، فهي من قبيل الكرامات ، أكرمه الله تعالى بها ، ولهذا جاء الإخبار عنها
بصيغة التعظيم ، تعظيم المنعم وتعظيم النعمة :
﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

• رحلات ذي القرنين :

واستثمر ذو القرنين نعمة التمكين في الأرض ، واستعان بالأسباب التي آتاه
الله إياها ، فقام بثلاث رحلات في الأرض ، رحلات كبيرة وبعيدة ، تدل على أنَّ
الأسباب التي أعطاها لم تكن أسباباً عادية .

• الرحلة الأولى: إلى مغرب الشمس :

اتجه ذو القرنين في رحلته الأولى إلى مغرب الشمس ، وأراد أن يصل إلى
نهاية الأرض المعروفة للناس في عصره من جهة الغرب ، فسار مع جنوده
مستعيناً بالأسباب التي سخرها الله تعالى له :

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا
يٰۤذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (٨٦) .

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ حتى وصل إلى منتهى الأرض من جهة

الغرب، ووقف على ساحل المحيط الأطلسي، وكان الناس يظنون أنه نهاية الأرض من جهة الغرب، ولا ندري أيّ طريق سلك نحو الغرب، هل كان عن طريق أوربة أو عن طريق شمال إفريقية، والأرجح أنه كان من جهة الشمال الإفريقي، لأنه أقرب إلى مواطن الحضارات القديمة في مصر واليمن وبلاد ما بين الرافدين.

ونظر ذو القرنين إلى الشمس، وهي تغيب وراء الأفق الغربي في البحر المحيط، وأشعتها الحمراء عند الغروب تنعكس على صفحة المياه الداكنة الزرقاء، فرآها كأنها تغيب في عين ماء حمئة، أي: ذات حمأة، وهو الطين والتراب، ولهذا جاء اللفظ القرآني متناسباً تماماً مع ما رأى ووجد:

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي: رآها تغرب في عين حمئة.

﴿وَوَجَدَ عَنْهَا قَوْمًا﴾ ووجد في تلك البلاد قوماً كافرين.

فخبره الله ﷻ بين أن يقتلهم أو يمنّ عليهم:

﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، واستدل بهذه الآية القائلون بنبوة ذي القرنين، فظاهر الآية أن الله سبحانه خاطبه بواسطة الوحي، وقد يكون خطاب الله له بواسطة نبي كان معه، كما كان الحال في بني إسرائيل، إذ كانت تسوسهم ملوكهم بما يوحى الله تعالى إلى أنبيائهم.

واختار ذو القرنين أن يمنّ عليهم أولاً، فيدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته، فمن رفض عذبه بالقتل، ومن استجاب أكرمه وأحسن إليه:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنُ وَنَسْقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا إِسْرًا﴾.

وهكذا انتهت الرحلة الأولى بهذه الدعوة الكريمة إلى الله ﷻ.

● الرحلة الثانية: إلى مطلع الشمس:

ثم سار متوجهاً من مغرب الشمس إلى مشرقها، مستعيناً كما قدمنا بالأسباب التي يسرها الله تعالى له:

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ۝٩٠﴾

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أي: آخر الأرض المعروفة للناس في ذلك العصر من جهة الشرق، وهي البلاد الواقعة أقصى القارة الآسيوية من جهة الشرق، والمطلّة على المحيط الهادي، ولعلّها بلاد الصين أو ما يجاورها من البلاد شمالاً وجنوباً، ووجد هناك أقواماً يعيشون حياة بدائية بعيدة عن مظاهر التمدن والتحضر، حتى إنهم ما كانوا يعرفون كيفية اتخاذ المساكن والبيوت، يأوون إلى أسراب وكهوف في الجبال وباطن الأرض، ويبدو أنّهم كانوا أيضاً لا يعرفون اتخاذ الملابس، يعيشون عراة، لا يسترون أجسادهم بشيء، وقد وصفهم الله سبحانه فقال:

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾

ولا يُعْقَلُ أن يتركهم ذو القرنين على هذه الحالة البدائية التي تتنافى مع كرامة الإنسان، وهو الحاكم الصالح الذي سَخَّرَ حكمه وسلطانه لخدمة الأمم والشعوب التي استرعاها الله تعالى أمرها، ومدَّ سلطانه عليها، لا بدّ بعد أن يدعوهم إلى الإيمان بالله سبحانه وطاعته كما فعل في بلاد المغرب أن يرشدَهم إلى اتخاذ الملابس، ويعلمهم كيفية بناء المساكن، مستفيداً مما آتاه الله من العلوم والآلات بما سَخَّرَ له من الأسباب، وقد سكّنت الآيات الكريمة عن بيان ذلك، اكتفاء بالإشارة إلى الأعمال الكبيرة العظيمة التي قام بها ذو القرنين، فليس في الآيات إحاطة بكل أخبار ذي القرنين، بل جاءت الآيات تذكّر جزءاً من أخباره وأعماله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] و(من) تبعيضية، أي: سأذكر لكم نبأ مذكوراً من أنبائه.

وقد آتاه الله سبحانه قدراتٍ هائلةً، وإمكاناتٍ كبيرةً، استثمارها كلّها في مساعدة الشعوب الضعيفة الفقيرة، ولهذا جاء التعليق على ما آتاه الله تعالى، وهو لا يزال في أقصى الشرق بين هذه الشعوب الضعيفة الفقيرة:

﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (٩١).

وهذا يفيد تعظيم ما أعطى الله سبحانه لذي القرنين، فهو وراء ما وُصف بكثير، ممّا لا يحيطُ به إلّا علمُ اللطيفِ الخبيرِ، ويشير إلى المساعدات الكبيرة التي قدمها لهذه الشعوب الفقيرة.

• الرحلة الثالثة: إلى ما بين السدين:

وبعد أن قدّم ذو القرنين لهذه الشعوب البدائية الفقيرة ما قدّم من مساعدات وإرشاداتٍ رحل عنها، وسلك طريقاً ثالثاً، ويبدو أنّه طريقٌ معترض بين المشرق والمغرب، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ أُنْعِمْ سَبًّا﴾ (٩٢) *حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا* (٩٣).

﴿ثُمَّ أُنْعِمْ سَبًّا﴾ (٨٩) *حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ* أي: الجبلين، والسد: كما في «القاموس»: الجبلُ والحاجِزُ، لأنّه يسدُّ فجاً من الأرض.

والظاهر أنَّ المراد من السدّين في الآية الكريمة، سلسلتان كبيرتان من الجبال الشاهقة الارتفاع، وهاتان السلسلتان من الجبال تحجزان وراءهما صحارى شاسعة، مترامية الأطراف، يقطنُ فيها أقوامٌ بداءة قساة أشداء؛ يعيشون على الصيد والرعي، ويتنقلون في هذه الصحارى بحثاً عن أسباب الرزق لهم ولماشيتهم.

بينما تمتدُّ أمامَ هاتين السلسلتين الجبليتين من الجهة الثانية سهول زراعية ذات بيئة صالحة للزراعة وال عمران والاستقرار، ولا بدّ أن يكونَ سكان هذه السهول الزراعية أكثرَ تحضُّراً واستقراراً من جيرانهم البدو الرّحلّ سكان الصحراء، وكان هؤلاء البدو يندفعون من بين هذه الجبال إلى السهول الزراعية كلّما ضاقت بهم سُبلُ العيش بسبب جذب الصحراء، وقسوة المناخ، فيفتكون بأصحابها، وينشرون في هذه المناطق العمرانية والزراعية الخراب والدمار والفساد.

وعندما وصل إليهم ذو القرنين شكوا إليه ما يَلْقَوْنَ من هذه القبائل البدوية المتوحشة من فسادٍ وخرابٍ في بيوتهم وزروعهم ومحاصيلهم:

﴿قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ .

﴿قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

وعرضوا عليه أموالاً ليقيمَ لهم سدّاً بين هاتين السلسلتين الكبيرتين من الجبال، يمنعُ عنهم عدوان هؤلاء المفسدين وشرهم:

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ولا بد أن يكون هؤلاء الذين طلبوا من ذي القرنين بناءً سدّاً لهم، قد عرفوا قدرته على ذلك، ورأوا ما معه من وسائل وآلات وإمكانات تمكّنه من بناء السد، ولولا ذلك ما طلبوا منه أن يبني لهم السد، وما عرضوا عليه أموالهم.

وسبق أن بيّنتُ أنَّ الله ﷻ أعطى ذا القرنين كُلَّ وسائل القوة والتمكين في الأرض كما أخبر عن ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾ [الكهف: ٨٤].

كما بيّنتُ أن في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١] دليلاً على تعظيم ما آتاه الله تعالى، وأنَّ الوسائل والأسباب التي أنعم الله تعالى بها على ذي القرنين وراء أي وصف، فلا يحيطُ بها إلاّ العليم الخبير.

• ما مَكَّنِّي فيه ربي خير:

فماذا كان موقفُ ذي القرنين من هذا العرض المُغري الذي عرضه القومُ عليه ليبنيَ لهم السد؟ هل استغلَّ الموقف، واستثمر حاجتهم لمساعدته، فأخذَ منهم ما استطاع من أموالهم، ونهبَ ما أمكنه من ثمرات تعبهم وعملهم، كما تفعله في العصر الحاضر الدول الكبرى القوية مع شعوب الدول الضعيفة الفقيرة؟ هل شَرَطَ ذو القرنين عليهم أن يستغلَّ مشروع السد بعد بنائه لفائدته

عدداً من السنين؟ وهل أرهقهم بالديون ذوات الفوائد الربوية المركبة، حتى أصبح مشروع السد عبئاً ثقيلاً عليهم؟.

كان ذو القرنين حاكماً مؤمناً صالحاً يسعى لخير شعوب الأرض وسعادتهم، يستعين لتحقيق هذا الهدف النبيل بما آتاه الله تعالى من علوم وآلات وقدرات، ويعمل ليدفع عن الناس شرور المفسدين وعدوان المعتدين:

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ مما تبذلونه من أموالكم.

أين من يقول مثل هذه الكلمة في العصر الحاضر؟!.

أين المتعففون عن خيرات الشعوب الضعيفة النامية؟!.

أين القائلون: ما عندنا يكفينا وما آتانا ربنا يغنينا؟!.

أين الذين لا يستغلون قوتهم وعلمهم في سلب خيرات الضعفاء؟! وإذا تعففوا أحياناً، فإنهم يأخذون مقابل ما قدموا من مساعدات ومعونات عقائد هؤلاء الضعفاء وأخلاقهم وتراثهم، يمنعون عنهم المساعدة حتى يكفروا بدينهم، ويتخللوا عن أخلاقهم وتراثهم ولغتهم، وما أخبار التنصير واستغلال الكنيسة وكهنتها للمساعدات التي يقدمونها للضعفاء والمنكوبين لتنصيرهم عنّا ببعيد.

• فأعينوني بقوة:

وكان ذو القرنين إلى جانب عفته وحكمته وعلمه متواضعاً، ولهذا قال:

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾. إن وراء هذه الكلمات نفساً راضيةً متواضعةً كريمةً، لم تفتنّها القوة والسلطة، إنها النفس التي نجحت في أعظم ما يُختبر به الإنسان ويُفتن: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۝١﴾ ﴿أَن رَّاهُ أَسْتَفْهَى﴾ [العلق].

وما أكثر الطغاة والمتجبرين الذين أعمتهم السلطة والقوة عن رؤية حقيقتهم ومعرفة حجمهم!.

الإنسان مخلوقٌ ضعيفٌ محدودٌ، فمهما ملك من وسائل الغنى والسلطة والقوة، فهو محتاجٌ إلى مساعدة الآخرين، فقير إلى معونتهم.
لو عقل الظالمون والمتجبرون هذه الحقيقة ما ظلموا ولا تجبروا.

● بناء السد:

وشرع ذو القرنين في بناء السد، كما وعدهم بقوله:
﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾، واستفاد من مساعدة القوم له، فقد قدّموا له القوة العاملة التي حفرت الأرض وهيات مواد البناء.
وأما ذو القرنين فقد أشرف على تنفيذ البناء، وياشر بنفسه رفع البناء:

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (٩٦).

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: قطع الحديد، وخَصَّها بالذكر لأنها الركن القوي في السد، والعمدة الأساس في هيكله.

﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وارتفع البناء شيئاً فشيئاً، حتى أصبح مساوياً في الارتفاع لجانبي الجبلين اللذين أقيم السد بينهما، ثم أشعل النار في الخشب والحطب الذي وضعه بين قطع الحديد، دلّ على ذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ أَنفُخُوا﴾، ولا بدّ أن تكون آلات النفخ بعيدة عن موقع السد، فالنار كبيرة وعظيمة لا يستطيع أحد أن يقترب منها، ويدل على قوتها وشدتها قوله ﷻ:
﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ لقد أصبح هيكل السد كتلة ملتهبة من النار.

ثم قام ذو القرنين فصّبّ النحاس المذاب فوق هذه الكتلة الملتهبة من الحديد والنار:

﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

ولا يُعَقَّلُ أن يتمّ مثل هذا العمل الكبير بالوسائل البدائية البسيطة التي كان عليها الناس يومئذ، فمثل هذا المشروع الكبير يحتاج إلى آلات ضخمة ورافعات

كبيرة، يبدو أن ذا القرنين استعملها بعد أن هداه الله سبحانه إليها بما آتاه من الأسباب، وسخر له من وسائل التمكين حتى استطاع إنجاز هذا المشروع الكبير الذي وصفه الله ﷻ بقوله:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ (٩٧).

فما تمكّن المفسدون أن يعلوا عليه لارتفاعه وملاسته، ولا أن يخرقوه لصلابته وثخانته.

• هذا رحمة من ربي:

وبعد أن أتمّ ذو القرنين بناء السدّ نظر إليه وقال:

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨).

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ وتلك هي كلمة المؤمن الشاكر، المعترف بفضل الله عليه، فالفضل لله تعالى أولاً وآخرأ، ولا حول ولا قوة إلا بقوة الله العليّ القدير، إنّه الإخبات والتواضع والتذلل لله، والإقرار بفضلّه، لا التكبر والتجبر والبغي ورؤية النفس.

ومع قوة السدّ ومثانته، فإنّه لا يستعصي على قدرة الله، فإذا جاء الوعد الذي قدره الله سبحانه لهدمه:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، إنّ الجبال الرواسي التي أرساها القوي القادر بقوّته وقدرته لا تستعصي على مشيئته سبحانه وقدرته عندما يشاء الله سبحانه إزالتها ونسفها: ﴿وَسْتَلُونَا عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه].

والمراد من قول ذي القرنين: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ بيان أنّ هذا السدّ رحمة من الله بالأمم القريبة منه لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أنّه مع مثانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القوي القدير، فإن

بقائه إنما هو بفضل الله، ولكن إذا قامت القيامة فلا هذا السد ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف لحظة واحدة أمام قدرة الله، بل يدكها جميعاً دكاً في لمح البصر، وهذا تنبيه من ذي القرنين لتلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة السد^(١).

فوعده الله الذي ذكره ذو القرنين في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ هو يوم القيامة، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين. قال القرطبي: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أي: يوم القيامة، وقيل: وقت خروجهم.

وقال الألوسي: المراد من وقت ذلك يوم القيامة، وقيل: وقت خروج يأجوج ومأجوج، وتُعقَّب بأنه لا يساعده النظم الكريم. وكذلك قال أبو السعود في تفسيره^(٢).

● سؤالان هامان:

- من يأجوج ومأجوج؟
- وأين يقع سد ذي القرنين؟
وهما سؤالان هامان وكبيران، وقد حاول كثير من المفسرين قديماً وحديثاً الإجابة عليهما.

ولا يسعنا إلا أن نرجع إلى الكلمات القرآنية الكريمة نتدبرها، ونتأمل في مدلولات معانيها على ضوء ما ورد في السُّنَّة الشريفة حول هذا الموضوع، لعلنا نصل بفضل الله سبحانه وتوفيقه إلى بعض الحقيقة، أو إلى ضوء ينير لنا الطريق، ويوصلنا إلى استكشاف معالم الحقيقة.

وليس الخوض في هذا الموضوع نوعاً من الفضول العقلي أو الترف العلمي، فثمة تحديات كثيرة من أعداء الإسلام حول هذا الموضوع، تستهدف

(١) انظر: تفسير القاسمي، ط ١.

(٢) انظر: تفسير القرطبي، وأبي السعود، وروح المعاني.

تشكيك ضَعَافِ الْإِيمَانِ بصدق ما أخبر عنه القرآن الكريم، أو على الأقل تضعف ثقتهم بكلام الله سبحانه.

وهناك أمر آخر يستدعي منا أيضاً أن نخوض في هذا الموضوع، وهو أن لسدّ ذي القرنين ويأجوج ومأجوج علاقة وثيقة بالأمّة المسلمة عموماً وبالعرب من هذه الأمّة خصوصاً.

فإن كثيراً من الفتن التي أصابت المسلمين، ولا زالت تفتك بهم، لها ارتباط بسدّ ذي القرنين وبالقبائل المفسدة، الذين سمّاهم القرآن الكريم بيأجوج ومأجوج، الذين يظهرون في آخر الزمان قبيل قيام الساعة، فقد أخبر النبي ﷺ في عدّة أحاديث نبوية شريفة وصحيحة عن ظهور يأجوج ومأجوج مع أشرار وعلامات الساعة الكبرى، وسيأتي بعض هذه الأحاديث.

• «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ»:

والدليل على وجود علاقة بين الفتن التي أصابت الأمّة المسلمة وبين سدّ ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، الحديث الصحيح الذي رواه البخاري [٣٣٤٧] ومسلم [٢٨٨١]: من حديث أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله عنها قالت: استيقظ رسول الله ﷺ محمراً وجهه وهو يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ، فَتَحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وحلّق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْحَبْتُ».

والعجيب أن كبار شراح السُنّة النبوية الشريفة لم يتعرّضوا للكلام عن علاقة ردم يأجوج ومأجوج بالعرب، التي يدل الحديث الشريف على وجوده، وحملوا الشر الذي ذكره النبي ﷺ على الفتن التي أصابت الأمّة المسلمة بمقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه.

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «خَصَّ الْعَرَبَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا حِينَئِذٍ مُعْظَمَ مَنْ أَسْلَمَ، وَالْمُرَادُ بِالْشَرِّ مَا وَقَعَ بَعْدَهُ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ، ثُمَّ تَوَالَتْ الْفِتْنُ حَتَّى صَارَتْ

الأمّة بيد الأكلّة كما وقع في الحديث الآخر: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلّة إلى قِصْعَتِهَا» [رواه أبو داود (٤٢٩٧) وأحمد (٢٤٨/٥)]^(١).

والجدير بالذكر أن ابن حجر العسقلاني ظهر في القرن الثامن الهجري؛ أي: بعد أن اجتاحت المغول والتتر بلاد المسلمين في القرن السابع الهجري، وخربوا معظم معالم الحضارة الإسلامية حتى وصلوا إلى بغداد فخربوها أيضاً وقتلوا الخليفة العباسي، وذبحوا عدداً كبيراً من أهلها، وأحرقوا كتبها ومكتباتها.

• يأجوج ومأجوج:

ولا يعني هذا أن المغول والتتار الذين دمّروا كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية، هم يأجوج ومأجوج، إذ دلّت الأحاديث الشريفة الصحيحة على أن يأجوج ومأجوج يظهرون في آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض وقتله الدجال، وظهورهم من علامات الساعة الكبرى، التي لم يحدث شيء منها حتى الآن.

فقد جاء في حديث النّوّاس بن سميان عليه السلام: «أن النبي ﷺ بعد أن ذكر ظهور الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء وقتله له يقول: «ثُمَّ يَأْتِيهِ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنَ الدَّجَالِ، فَيَمَسَحُ وجوهَهُمْ، وَيَحْدُثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلَهُمْ عَلَى بَحِيرَةٍ طَبْرِيَّةٍ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُخَصِّرُ عِيسَى نَبِيَّ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّورِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ، فَيَرِغِبُ عِيسَى نَبِيَّ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ

(١) انظر: فتح الباري. والحديث الذي ذكر طرفه من حديث ثوبان: «أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلّة إلى قِصْعَتِهَا» فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت».

النَّغْفِ فِي رِقَابِهِمْ، فَيَصْبَحُونَ فَرَسَى (أي: موتى) كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ عِيسَى نَبِيُّ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فِيرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فِيرْسِلُ طَيْراً كَأَعْنَاقِ الْبُحْتِ (أي: الإبل)، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَرْسِلُ اللَّهُ مَطْراً لَا يُكْنَى (أي: لا يحمي) مِنْهُ مَدَرٌ (أي: بيوت الحضر) وَلَا وَبَرٌ (أي: بيوت البدو) فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلَقَةِ (أي: كالمرآة)» [رواه مسلم (٢١٣٧)].

وذكر الإمام مسلم في رواية ثانية: أَنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، يَقُولُونَ بَعْدَ أَنْ يَغْلِبُوا عَلَى الْأَرْضِ: «لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ. فَيَرْمُونَ بِنَسَابِهِمْ، فَيَرُدُّهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَخْضُوبَةً دَمًا».

فَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ كَمَا تَصَرَّحَ بِهِ الْأَحَادِيثُ الشَّرِيفَةُ الصَّحِيحَةُ، لَمْ يَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدُ، وَلَمْ يَغْلِبُوا عَلَيْهَا وَيَسْطَرُوا عَلَيْهَا سَيْطَرَةً كَامِلَةً، حَيْثُ يَصْلُ بِهَمِ الْغُرُورُ بِالْإِنْتِصَارِ وَالْغَلْبَةِ أَنْ يَقُولُوا: «لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ...».

وَجُمُوعُ الْمَغُولِ وَالتَّتَرِ الَّذِينَ اجْتَا حُوا مَشْرِقَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى بَغْدَادِ سَنَةِ (٦٥٦هـ) وَخَرَّبُوهَا وَأَحْرَقُوهَا، وَإِلَى حَلَبٍ وَدِمَشْقٍ، ثُمَّ نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ مَهْزُومِينَ بَعْدَ مَعْرَكَةِ عَيْنِ جَالُوتَ، لَيْسُوا قِطْعاً يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ فِظَاعَةِ التَّقْتِيلِ وَالتَّدْمِيرِ الَّذِي أَحْدَثُوهُ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى التَّبَسَ أَمْرُهُمْ عَلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْمَتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ مِثْلَ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْمَرَاغِيِّ وَجَمَالَ الدِّينِ الْقَاسِمِيِّ؛ فَزَعَمُوا أَنَّهَمْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ^(١).

وَلَوْ أَنَّهَمْ أَمَعَنُوا النَّظَرَ فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَأَدْرَكُوا خَطَأَهُمْ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ.

نَعَمْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْمَغُولَ وَالتَّتَارَ الَّذِينَ اجْتَا حُوا مَشْرِقَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ جِزْءٌ صَغِيرٌ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَمَقْدَمَةٌ

(١) انظر ما كتبه كُلُّ مَنْ الشَّيْخِ أَحْمَدَ الْمَرَاغِيِّ وَالشَّيْخِ الْقَاسِمِيِّ فِي تَفْسِيرِيهِمَا.

لهم، وإنَّ ظهور المغول والتتار في القرن السابع الهجري ظهور جزئي ليأجوج ومأجوج، سوف يتلوه الظهور الكلي قرب قيام الساعة بعد نزول عيسى نبي الله ﷺ إلى الأرض. كما ورد في الأحاديث الشريفة التي سبق ذكر بعضها.

ويؤكد هذا الذي ذهبَ إليه ما مرَّ معنا في حديث النبي ﷺ: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شُرِّ قَدِ اقْتَرَبَ» ولعلَّ في قول النبي ﷺ: «فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَذْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وتحليقُه بأصبعيه، إشارة منه ﷺ إلى الظهور الجزئي ليأجوج ومأجوج، الذي حدث في القرن السابع الهجري، عندما اجتاحت المغول والتتار مشرق العالم الإسلامي.

وبهذا يجتمع شَمْلُ الأحاديث الشريفة، وتبدو لنا متكاملة ومنسجمة.

وقد وقعتُ بعد أن توصلت إلى هذه النتيجة على كلام للعلامة القرطبي رحمه الله في «تفسيره»، يدل دلالة قوية على صحة ما توصلتُ إليه، قال رحمه الله: «نَعَتَ النَّبِيُّ ﷺ التُّرْكَ: «قَوْمٌ وَجُوهُهُمْ كَالْمِجَانِّ الْمَطْرُقَةِ»^(١)، وفي رواية: «يَنْتَعِلُونَ الشَّعْرَ» [رواه البخاري (٢٩٢٩) ومسلم (٢٩١٢)].

ولما علم النبي ﷺ عددهم وكثرة وحدّة شوكتهم قال ﷺ: «اتركوا الترك ما تركوكم» [رواه الطبراني بالأوسط (٥٦٣٤) والكبير (١٠٣٨٩) بإسناد حسن].

وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يرددهم عن المسلمين إلّا الله تعالى، حتى كأنَّهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم^(٢).

والترك الذين ذكر القرطبي أنَّهم مقدمة ليأجوج ومأجوج هم التتار، وبعضُ العلماء يطلقون عليهم اسم الترك، ولعلك لاحظتَ أنَّ القرطبي يذهبُ إلى هذا الرأي بتردد وحذر، لكن ما ورد في الأحاديث الشريفة من وصف يأجوج ومأجوج ومطابقته لصفات المغول والتتار، يؤكد رأيَ القرطبيِّ دون تردّد وحذر،

(١) أي: التروس السمكة، يقال: طارق النعل؛ إذا صيرها طاقاً فوق طاقٍ، وركَّب بعضها على بعض، أراد أنهم عراضُ الوجوه غلاظُها. انظر: لسان العرب.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.

فالوجوه المستديرة الغليظة التي كأنها المجان المطرقة التي ذكرها القرطبي جاءت صريحة واضحة في حديث نبوي صحيح وصف فيه النبي ﷺ يأجوج ومأجوج فقال: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ لَا عَدُوَّ لَكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَا تَزَالُونَ تَقَاتِلُونَ عَدُوًّا، حَتَّى يَأْتِيَ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، عَرَاضُ الْوُجُوهِ، صِغَارُ الْعُيُونِ، صُهْبُ الشَّعَافِ، مِنْ كُلِّ حَذْبٍ يَنْسَلُونَ، وَجُوهُهُمُ الْمَجَانُ الْمَطْرَقَةُ» [رواه أحمد (٢٢٣٣١)].

قوله: «صهْبُ الشَّعَافِ» أي: حُمْرة في أعلى شعورهم.

• هل يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد؟:

وقد يعترض بعضهم على ما سبق بيانه من كون المغول والتتار من يأجوج ومأجوج ومقدمة لهم، بأنَّ يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد، وسيظلون محصورين وراء السد حتى قُرْب قيام الساعة، حيث ينهدم، ويخرجون من ورائه، وينتشرون في الأرض، كما سبق ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدّثت عن علامات الساعة الكبرى.

وأقول ردّاً لهذا الاعتراض: إنّ السدّ الذي بناه ذو القرنين كان لحماية البلاد الواقعة قريباً منه من شرِّ يأجوج ومأجوج وفسادهم من الجهة التي بُني فيها، وليس لِحَضْرَمِهِمْ حَضْرًا كَلِيًّا مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، فيصبحوا معزولين في بلادهم عزلاً تامّاً، لا يستطيعون الخروج منها من أي جهة، فلا يتّصلون بأحد، ولا يتّصل بهم أحد، فسدّ ذي القرنين عَزَلَهُمْ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ، ولم يعزلهم من جميع الجهات.

والقول بأنَّهم محصورون وراء السد من جميع الجهات ولا يزالون كذلك، يؤدّي إلى القول بأنَّ رسالة الإسلام لم تبلغهم، وحجة الله عليهم بدعوتهم إلى الإيمان لم تقم عليهم، مع أنَّهم أكثر الناس، وهم محاسبون يوم القيامة، ومسؤولون عن كفرهم وعنادهم وفسادهم في الأرض، ومعذَّبون في نار جهنم، قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبِيكَ وَسَعْدِيكَ، فَيَقُولُ: ابْعَثْ بَعَثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِئَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ

إلى النار، وواحدٌ إلى الجنة، فحينئذٍ يشيبُ الصغيرُ، وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، فقال: إِنَّ فِيكُمْ أُمَّتَيْنِ مَا كَانَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا كَثَرْتَاهُ: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ» [رواه البخاري (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢)].

فيأجوج ومأجوج أكثر الأمم عدداً، فلا يُعْقَلُ أن يظلوا معزولين إلى قرب قيام الساعة دون أن تبلغهم دعوة الإسلام العامة الشاملة لكل الناس، فمعنى هذا أن رسالة الإسلام لم تصل إلى أكثر الناس.

والقول بأن رسول الله ﷺ بلغهم دعوة الإسلام ليلة الإسراء، لا دليل على صحته، كما أن القول بأنهم معزولون وراء السد عزلاً كاملاً إلى وقت ظهورهم وقرب قيام الساعة يتعارض مع الحديث الشريف الصحيح الذي سبق ذكره: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتُحِ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِثْلَ هَذِهِ».

• فتحت يأجوج ومأجوج:

ويستدلُّ القائلون بأن يأجوج ومأجوج محصورون بالآية الكريمة في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦).

فقوله: ﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ يدل على أنهم كانوا محصورين قبل أن يفتح لهم بانهدام السد الذي حصرهم، ويكون هذا قبل قيام الساعة، لأنه سبحانه قال بعد ذلك: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَلَّوْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧).

لكن هذا المعنى لا يُسَلِّم لهم، لأنَّ الفتح يستعمل أيضاً في معنى الظهور والتمكُّن والغلبة، واستعماله بهذا المعنى شائع حتى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وقال أيضاً: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢].

ويتعيَّن علينا أن نفسر الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ بهذا المعنى، أي: حتى إذا قدَّر الله ظهور يأجوج ومأجوج في الأرض، وغلبتهم عليها، وتمكنهم فيها. . ويتعيَّن علينا المصير إلى هذا المعنى في فهم الآية

لتنسجم مع ما ذكرته من الأحاديث النبوية الشريفة، فلا يوجد أدنى تعارض بين الآيات الكريمة وبين الأحاديث الشريفة، لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وعلى هذا ليس في الآية ما يدل على أن يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد إلى قرب قيام الساعة.

• تحقيق في حديث:

بقي أخيراً أن نذكر الحديث الذي يحتج به القائلون بأن يأجوج ومأجوج لا يزالون محصورين وراء السد، ومعزولين عن الناس، وهو حديث أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» [٥١١/٢] والترمذي [٣١٥٣] وابن ماجه [٤٠٨٠]: من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيُخْفِرُونَ السَّدَ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرُونَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِم: ارْجِعُوا فَسْتَحْفِرُونَهُ غَدًا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدَّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مَدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرُونَ شُعَاعَ الشَّمْسِ، قَالَ الَّذِي عَلَيْهِم: ارْجِعُوا فَسْتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَيَسْتَنْبِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيَنْشِفُونَ الْمِيَاءَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسَهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَعْفًا فِي رِقَابِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا».

قال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكُرُ شُكْرًا مِنْ لَحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ». قوله: «تَشْكُرُ» تسمن.

إن عدة تساؤلات تثور في النفس عند قراءة هذا الحديث: كيف استمر هؤلاء القوم يحفرون في السد آلاف السنين ولم يتسرب إليهم شيء من الملل أو اليأس من نقب السد؟! ولماذا يحفرون في الليل فقط؟! ثم كيف يتمكنون أخيراً من حفره والله سبحانه أخبر في كتابه العزيز أنهم لن يتمكنوا من نقبه: ﴿فَمَا

أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ [الكهف: ٩٧]! وكثيراً ما يعبر القرآن الكريم عن أمور في المستقبل بصيغة الماضي تأكيداً لمضمونها.

لعلّ هذه التساؤلات هي التي حملت ابن كثير رحمته الله أن يقول: «إسناده جيد، ولكن في متنه نكارة، لأن ظاهر الآية أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا نقبه»^(١).

ويعارضه أيضاً الحديث المتفق على صحته الذي سبق ذكره وهو حديث السيدة زينب: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ...» الحديث.

وذهب ابن كثير رحمته الله إلى القول بأنّ هذا الحديث يمكن أن يكون مما روي عن كعب الأحبار، وهو من يهود اليمن، أسلم بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وسكن المدينة المنورة، وروى عنه بعض السلف كثيراً من الإسرائيليات.

قال ابن كثير رحمته الله: «لكنّ هذا قد روي عن كعب الأحبار، أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان... وهكذا حتى يُلْهَمُوا أن يقولوا: إن شاء الله، فيصبحون وهو كما فارقه فيفتحونه.

وهذا متّجهٌ، ولعلّ أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنّه كثيراً ما كان يجالسه ويحدّثه، فحدّث به أبو هريرة، فتوهّم بعض الرواة عنه أنّه مرفوع، فرفعه، والله أعلم»^(٢).

• موقع السد:

ولنا بعد أن اتضحت بعض الحقائق عن يأجوج ومأجوج أن نتساءل عن موقع سد ذي القرنين؟.

فلنتأمل مصوراً طبيعياً للبلاد الممتدة من أواسط آسية إلى أقصى شمالها الشرقي، حيث يلتقي المحيطان الهادي والمتجمد الشمالي، هذه البلاد هي المواطن الأصلية للمغول والتتار والترك، أو القبائل التي تسمى بالإستبس، هذه

(١) انظر: تفسير ابن كثير.

(٢) المرجع السابق نفسه.

البلاد تشبه - كما يقول مؤلف كتاب «المغول» - إسكندناوة، في كونها مستودعاً للألم، ومنها خرجت غارات المتبربرين^(١).

والإستبس: أقوامٌ بدوية كانت تمارس ضغطاً على الإمبراطوريات المتمدنة الواقعة إلى الجنوب والغرب منها، وهذا الضغط تطور من اعتداءات انتقامية إلى غارات للفتح والتوسع^(٢).

وبناء السدود حول بلاد هذه القبائل المتوحشة لدفع شرهم، كان أمراً معروفاً في البلاد المتاخمة لهم.

ولم تكن فكرة بناء السد جديدةً على أهل البلاد المتاخمة لهم عندما: ﴿قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ اِنَّ يٰجُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْاَرْضِ فَهَلْ جَعَلْ لَكَ خَرَجًا عَلٰى اَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]؛ إذ قام الصينيون القدماء الذين يسكنون إلى الجنوب من بلاد المغول والتتار، ببناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم من هجمات هذه القبائل البدوية المتوحشة.

ومع ذلك لم تسلم الصين من شرهم، إذ تمكّنوا من اجتياز سور الصين من ناحية الغرب، ودخلوا الصين، واستولوا على الحكم فيها بعد أن استأصلوا «أسرة كين» التي كانت تحكم شمال الصين^(٣).

إذن فلشعوب الصين صلةٌ نسبٍ قوية وكبيرة بالمغول والتتار، أو ما يُسمّى شعوب الإستبس والتنجور والترك^(٤).

والم تأمل للتضاريس والجبال في هذه البلاد الشاسعة يلاحظ أنها شبه معزولة من جهة الجنوب الغربي بكتل هائلة من السلاسل الجبلية الشاهقة، والتي تعدُّ أكبرَ وأعلى الكتل الجبلية في الأرض، فسلاسل جبال (تيان شان) و(ألتاي)

(١) كتاب: المغول، للباز العُرْنِي، طبع دار النهضة.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) المرجع السابق نفسه.

في الشمال الغربي تمتدُّ إلى الجنوب حيث تواجهها جبال الهملايا، لتطوق فيما بينها بلاد منغولية وتركستان وشمال آسية، وتفرقها عن وسط آسية والهند. وهذا يجعلنا نعتقد احتمال وجود سد ذي القرنين بين سلاسل هذه الجبال، وقد أكد هذا الاحتمال ما ذكره المراغي صاحبُ التفسير عن «مجلة المقتطف» فقال: يأجوجُ هم التتار، ومأجوجُ هم المغول، يسكنون الجزء الشمالي من آسية، وتمتدُّ بلادهم من التبت والصين إلى المتجمد الشمالي، وغرباً إلى تركستان، وقد ذكر مؤرِّخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها، فكثيراً ما أفسدوا في الأرض، ودمروا كثيراً من الأمم، ومنهم من ذهب إلى أوربة في العهد القديم كالتيحيت والسمريان والهون، وكثيراً ما أغاروا على بلاد الصين وآسية الغربية... .

وقد كشفوا في القرن الحاضر آثار سدِّ قديم بجبال القوفاز، ويسمَّى باب الأبواب، أو دربنت، وهو غيرُ السدِّ الشهير الذي بناه ذو القرنين، فإنَّ هذا وراء نهر جيحون في عمالة بَلُخ، واسمه باب الحديد، بمقربة من مدينة تَرْمُذ، وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه، ومرَّ به أيضاً شاه رخ، وكان في بطانته العالم الألماني سيلدبرجر، وذكر السد في كتابه، وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر، وكذلك ذكره المؤرخ الإسباني كابنجو في رحلته سنة (١٤٠٣م)، وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتالة) بالأندلس إلى تيمورلنك، وقال: إنَّ سدَّ باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند. انتهى ملخصاً من مقتطف سنة (١٨٨٨م)، وبذلك تعلمُ أنَّ السد موجودٌ فعلاً^(١)، والله سبحانه أعلم.



خاتمة السورة التَّعْقِيبُ الْآخِرُ

﴿وَتَرْكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩ وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ۝١٠٠ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٠٢ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٠٥ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا ۝١٠٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝١٠٩ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝١١٠﴾ .

ويأتي التعقيب في آخر سورة الكهف منسجماً مع موضوعها الأساس، ومؤكداً ارتباط آيات السورة بعضها ببعض ارتباطاً محكماً، وشدة انسجامها واتفاقها مع موضوعها .

فبعد أن ختمت الآيات حديثها عن ذي القرنين بحكاية قوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]؛ ذكرت بعض مشاهد يوم القيامة، يوم الوعد الحق:

﴿وَتَرْكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝٩٩﴾ .

﴿وَتَرْكْنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ يوم يختلط الإنس والجن،

ويموج بعضهم ببعض، بعد أن يُنْفَخَ في الصور نفخة البعث من القبور.

﴿فَجَمَعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ وجمعنا الخلائق ليوم النشور.

يوم تُعْرَضُ جهنم على الكافرين ليرَوْا ما ينتظرهم فيها من أهوال العذاب، وأنواع النكال، فيزدادُ حزنهم وهمُّهم:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

وقد بيَّن النبي ﷺ كيفية هذا العرض فقال: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ ثَقَادُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زَمَامٍ، مَعَ كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ» [رواه مسلم (٢٨٤٢)].

• أعيُن وقلوب:

ووصف الله تعالى الكافرين الذين تُعرض جهنم عليهم، فقال:

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق، بسبب ما شغلوا به من أسباب الفتن من مالٍ وجاهٍ وأولادٍ، وعلمٍ وحكمٍ وسلطانٍ وشیطانٍ، مما سبق ذكره في آيات سورة الكهف. بينما مرَّ معنا قبل ذلك آية كريمة توافقها في المعنى، إلا أنها ذكرت القلوب: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

ولعلَّ سبب ذكر الأعين هنا انكشاف المغيبات وظهور المستورات، ووضوح المرئيات، هذه جهنم أمامهم تُعرض عليهم بما فيها من أنواع العذاب والنكال، يرونها بأعينهم.

أما الآية الثانية فقد جاءت في مجال التذكير والدعوة إلى الإيمان، فالكفار لا يزالون في الدنيا، ولا تزال الحقائق مستورةً عن أعينهم، وإن كانت ظاهرةً بأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة، والقلبُ محل إدراك البراهين، وموضع التصديق بالآيات، ولكنَّ قلوبهم حُجبت عن رؤية الحقائق والتصديق بالآيات

بما غلب عليها من أسباب الفتن وشواغلها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

• تهكُّم وإنكار:

وماذا أعدَّ الكافرون لهذا اليوم؟ وأين الذين اتخذوهم من دون الله تعالى أولياء وأنصاراً؟

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ (١٠٢).

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾؟! إن ما في هذا الاستفهام والتساؤل من مرارة التهكُّم والإنكار لينسجم كل الانسجام مع ما مرَّ معنا في قوله سبحانه وهو يستنكر اتخاذ بعض الناس الشيطان ولياً لهم من دون الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وتزداد مرارة التهكُّم والإنكار في قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّا أَعَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ لأن النُّزْل هو ما يقدم للضيف من طعام وغيره، فكيف تكون جهنم نزلاً لهم؟!.

وقد سبق أن مرَّ معنا أيضاً في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ (٥٢).

ثم تلتفت الآيات تخاطب النبي ﷺ تنوياً بذكره وتشريفاً لقدره عليه الصلاة والسلام:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤).

كانوا مفتونين بأعمالهم، ومعجبين بها، فسَعَوْا في تحصيلها، وكابدوا في تحقيقها، فضاع سعيهم، وبطل عملهم، عملوا وتعبوا، وظمئوا من أجل سراب

خَادِع: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرَابٍ يَغِيغُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

فخسارتهم أعظم خسارة، وندامتهم أشد ندامة.

ثم بين الله تعالى سبب بطلان عملهم وسقوط سعيهم فقال:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ جحدوا آيات الله وبراهينه التي جعلها دلائل وحدانيته، وبراهين صدق أنبيائه ورسله، وكذبوا بيوم القيامة، ولهذا:

﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾، نزدري بهم، ونحتقرهم، ولا نجعل لهم مقداراً ولا اعتباراً.

قال رسول الله ﷺ: «يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾» [رواه البخاري (٤٧٢٩) ومسلم (٢٧٨٥)].

تأمل أخي القارئ كيف جاءت الآية منسجمة مع قصة المتكبرين من مشركي قريش، المفتونين بمالهم وجاههم، الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعد عن مجلسه فقراء المسلمين، لأنهم يتأذون برويتهم، التي سبق ذكرها في موضوع: فتنة الغنى والفقر، ومنسجمة أيضاً مع قصة صاحب الجنتين المفتون بماله وولده وخدمه وحشمه حتى قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

ما أعدلك ربي، تقدست ذاتك، وتسامت صفاتك، في قولك الكريم:

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

وما أجمل قول الحق بعد ذلك، وما أعذب موقعه على قلب المؤمن:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ﴾

تلك هي الضيافة الكريمة الحققة التي يكرم الله تعالى بها عباده المؤمنين الصالحين، وذلك هو المنزل الطيب الرفيع، جنات الفردوس أوسط المنازل وأرفعها وأكرمها.

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۖ﴾

تعلقت بها قلوبهم ونفوسهم، فلا يختارون غيرها، ولا يحبون سواها، ولا يملون فيها، ولا يسأمون منها، مع طول المكث فيها والخلود. كما قال الشاعر:

فَحَلَّتْ سُوَيْدَا الْقَلْبِ لَا أَنَا بَاغِيَا سِوَاهَا وَلَا عَنْ حُبِّهَا أَتَحَوَّلُ

• كلمات الله تعالى:

وتلفت الآيات الكريمات مرة ثانية إلى النبي ﷺ تخاطبه لأنه يبلغ وحي الله تعالى ويبيئه للناس:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۖ﴾

أين المفتونون بعلومهم، والمغرورون بمواهبهم وإمكاناتهم؟! إن أجمل شيء أمام هذه الآية أن نمسك أقلامنا وألسنتنا فلا نكتب ولا نتكلم، ونترك عقولنا وأفكارنا وقلوبنا حرة طليقة تحلق فوق صفحات البحار الممتدة امتداد الآفاق، تكل العقول، وتنقطع الأفكار، وتمتلئ القلوب دون أن تحيط بمداد الكلمات الربانية: ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

فَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقْدَرَ قَدْرَ كَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ وَحِكْمِهِ .

إِنَّ رَبَّنَا ۖ كَمَا يَقُولُ وَفَوْقَ مَا نَقُولُ، سُبْحَانَكَ لَا نَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ .

وَتُخْتَمُ السُّورَةُ بِخَطَابِ ثَالِثٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ فهو ﷺ بشر كسائر البشر، وإنَّما تميز عنهم بما أوحى الله تعالى إليه :

﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾، وطريق الوصول إلى رضوانه ورحمته :

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ هذا هو سبيل

النجاة وكهف السلامة؛ الإيمان بالله سبحانه وحده، والعمل الصالح الخالص لله على هدي شريعة رسول الله ﷺ .



تفسير سورة مريم التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فإنّ مدار إيمان المسلم يقوم على توحيد الله تعالى، وتنزيهه عن صفات النقص والعجز والضعف، ومنها الاتصاف بصفات الولادة والولد. ولقد ضلّ بهذا كثيرٌ من الناس، ووقعوا في مهاوي الشرك، وزاغوا عن التوحيد، لأنّهم لم يفرّقوا بين صفات الخالق جل وعلا وبين صفات المخلوقين، فوصفوه سبحانه ببعض صفات خلقه، وغلّوا في بعض عبادته ورسله، فرفعوه عن مقام العبودية لله تعالى إلى مقام الألوهية، فضلّوا وأضلّوا.

لقد اهتمّ القرآن الكريم بموضوع توحيد الخالق سبحانه وتنزيهه اهتماماً كبيراً، فهو أهمّ قضايا الإيمان وأعظمها، تتمثل فيه أكبر جوانب المواجهة بين المسلمين الموحّدين وبين أهل الكتاب الزائغين الضالين، وقد حشد القرآن الكريم لهذا الموضوع كثيراً من الأدلة والبراهين، في عدد كبير من آياته وسوره. وسورة مريم إحدى أمهات السور التي تناولت جانباً كبيراً من هذا الموضوع، وقد جاءت متممةً لسورة آل عمران، ومؤكدةً على توحيد الله تعالى

وكماله وغناه، وتنزهه جَلَّ وعلا عن الاتصاف بصفة الولادة والولد، مع بيان حقيقة عيسى عليه السلام وأمه، وحقيقة عبوديتهما لله تعالى.

وسيالاحظ القارئ التكامل بين السورتين، بكثرة النقول التي سيجدها في هذا الكتاب عن تفسير سورة آل عمران في هذه السلسلة، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى يشبه بعضه بعضاً، ويكمل بعضه بعضاً، وتتجه آياته وسوره كلها لتبين جوهر الإيمان، وحقيقة الإسلام القائم على الاعتقاد بوحداية الله تعالى في ذاته، وصفاته، وأفعاله جَلَّ.

أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان، وأن يميّتنا عليه، وأن يحشرنا يوم القيامة تحت لواء خاتم النبيين، وإمام الموحدين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.



الْفُضِّلُ الْأَوَّلُ

قِصَّةُ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَمِيعَصَ ١﴾ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ٢ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّأءُ خَفِيئًا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيئًا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرْنِي يَرْثِي مِنِّي ٦ يَرْثِي يَرْثِي ٧ قَالَ رَبِّ أُنْزِلْ لِي آيَةً ٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ٩ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا ١٠ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ١١ قَالَ رَبُّكَ لَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٢ فَفَجَّ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١٣ يَبِيحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتِنَاهُ الْمَكْمُ صَبِيًّا ١٤ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٥ وَبَرًّا بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٦ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٧﴾

• الحروف المقطعة النُّورانية:

﴿كَمِيعَصَ ١﴾

وتقرأ: كاف، ها، يا، عين، صاد.

افتتح الله تعالى سورة مريم بهذه الحروف الخمسة، ولم تفتتح سورة بمثل

هذا العدد من الحروف سوى هذه السورة، وسورة الشورى التي افتتحت بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ﴾ [الشورى].

ولا شك أنَّ زيادة المبنى تدل على زيادة في المعنى، ومعاني هذه الحروف أسرارٌ تحيَّرت فيها الأفكارُ، وأتعبت أولي البصائر والأبصار! فعادوا بعد طول التدبُّر والتأمل محسورين، مقرِّين بالعجز والقصور عن الإحاطة بمعاني التنزيل الحكيم، المعجز، المتشابه، المثاني، المبين، وهم يتلون قوله الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

فكلام العليم الحكيم لا تنتهي عجائبه، ولا تُحدُّ فوائده وفرائده، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنتهي معانيه إلى حد، وهذا وجهٌ من وجوه إعجازه ينفرد به عن سائر الكلام.

ولهذا قالوا: إِنَّ الحروف المقطَّعة التي في أوائل بعض سوره تدل على إعجازه، وعجز الخلق عن الإتيان بمثل سورة من سوره، وحروفه قريبةٌ منهم، وفي متناول أيديهم.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير في تفسيره، فبعد أن ذكره وذكر العلماء الذين ذهبوا إليه قال ﷺ: «ولهذا، كُلُّ سُورَةٍ افْتُتِحَتْ بالحروف فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل قوله تعالى: ﴿آلَ ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة]. وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر»^(١).

وقد اعترض بعضهم على استقراء ابن كثير بثلاث سور افتتحت بالحروف المقطعة، ولم يذكر فيها الانتصار للقرآن، وهي: سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة القلم.

(١) انظر: تفسير ابن كثير، المقدمة.

إلا أن هذا الاعتراض يسقط إذا تأملنا آيات هذه السور كلها، ففي بعضها ذكر للقرآن الكريم، وتأكيد على أنه كلام الله تعالى، كما سيمر معنا في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿٩٧﴾﴾ .

وقوله في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

وقوله تعالى في سورة القلم: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

• موضوع سورة مريم:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾ .

تضمنت هذه الآية الكريمة العناصر الأساس لموضوع سورة مريم، وهي: الرب، والعبد، ورحمة الرب للعبد، وحاجة العبد للرب، وكمال الرب ﷻ في غناه عن كل ما سواه، وفي رحمته وإحسانه لعبيده، ولهذا سنرى في آيات السورة تركيزاً على الاسم الكريم الرحمن، الذي يدل على غاية الإحسان، وكمال العبد في تذله وعبادته لربه ومولاه، والأنبياء ﷺ أكثر الخلق عبادة وتذلاً لله تعالى، فهم النموذج الإنساني الكامل للكمال البشري بما امتازوا به من كمال العبودية لله تعالى.

• زكريا ﷺ:

وزكريا واحد منهم، وقد أبرزت الآيات من خلال عرضها لقصته مدى تذله لله تعالى، وافتقاره لربه ومولاه، زكريا مثالاً لكل الرجال، الذين يتصفون بأكرم الخصال، ويتحلون بأسمى الخلال، يحملون أنقى القلوب، وأصفها، وأتقها، وتنطوي سرائرهم وضمائرهم على أرق المشاعر الإنسانية، وألطفها، وأزكاها.

زكريا ﷺ العبد الإنسان، عبد الله تعالى وحده، ولم يعبد سواه، استشعر عبوديته لله تعالى، وافتقاره إليه، وحاجته إلى فضله وإحسانه، فسأله ودعاه، وأقبل عليه ضارعاً يُناديه ويُناجيه، يستنزل رحمته عليه، ويستمد منه معونته وفضله.

وزكريا إنساناً تفوراً في قلبه أكرم العواطف الإنسانية، وأنبل المشاعر الوجدانية، لم تستطع عقود السنين الطويلة التي عُمِّرَها أن تخدم عواطفه الإنسانية، أو تضعف مشاعره الوجدانية، ضعفت بنيته، ووهن عظمه، وشاب شعره، وبقيت عاطفة الإنسان في قلبه ونفسه في ريعان شبابها وصباها، بل إنها كانت تزداد قوة كلما تسرب الوهن والضعف إلى جسده، وظلَّت في قفصها الضعيف تضطرب في جنباته، وتغلي في داخله.

وهذا ما يسمِّيه علماء النفس بـ (التعويض)، الذي هو وسيلة دفاعية لمواجهة الشعور بالنقص، فعاطفة الأبوة والأمومة عند الإنسان مصدرها شعوره بالضعف والنقص، والولدُ تعويضٌ عن النقص والضعف عنده، لأنه امتداد له بعد الموت، وتعويضٌ عما يصيبه من نقص وعجز عند الهرم والشيخوخة، فلا عجب أن تقوى عاطفة الأبوة والأمومة كلما ازداد شعور الإنسان بالضعف، واقترب منه أجله الذي تنتهي فيه حياته.

• الولادة والولد من صفات النقص:

ولهذا فإنَّ وصفه سبحانه بصفة الولادة والولد، معناه اتصافه جل وعلا بصفة النقص، والعجز، والموت، والفناء، والانتها، وهو سبحانه الواحدُ الأحد، الفردُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

هو سبحانه القديم الأول أزلاً، وهو سبحانه الباقي الآخر، الدائم الوارث، الذي لا ينتهي ولا يزول أبداً، يتنزّه عن الولادة والولد، حي قيوم غني قاهر قوي، تقدّست ذاته، وتسامت صفاته، ﷻ.

وإذا كان كمالُ الإنسان في عبوديته لله تعالى وتذللّه له، وخضوعه لأمره وشرعه، فإن كماله جل وعلا في غناه ووحدانيته، وكبريائه، واقتداره.

فكمالُ المخلوق في العبودية، وكمال الخالق في الغنى والوحدانية، سُبح قُدّوس رب الملائكة والروح، ورب كل شيء ومليكه:

﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبْصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].
 ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
 ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].
 ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦].

هذه هي المعاني الأساس الكبرى في موضوع سورة مريم، مريم الفتاة العذراء، البتول، مريم الصديقة، الطاهرة، المنذورة، ربيبة الأصفياء والأتقياء، مريم أم العبد النبي الرسول عيسى عليه السلام، اللذين ضلَّ بسببهما كثير من الناس، فوقعوا في مهاوي الشرك والضلال، فوصفوا الله تعالى بصفات لا تليق بكماله وجلاله ووحدانيته وغناه، وما قصّة نبي الله زكريا عليه السلام إلا تمهيد لها.

● ملاحظة هامة:

ذكر الله تعالى بداية القصة في سورة آل عمران، وأكملها في سورة مريم، وهنا ملاحظة جديرة بالتذكير، فقد نزلت سورة مريم في السنوات الأولى من البعثة النبوية الشريفة، قبل أن يهاجر بعض الصحابة إلى الحبشة فراراً من أذى المشركين في مكة، دلّ على ذلك أن جعفر بن أبي طالب عليه السلام أحد المهاجرين إلى الحبشة، قرأ صدر سورة مريم على النجاشي ملك الحبشة.

فعن أم سلمة رضي الله عنها - وكانت من المهاجرات إلى الحبشة - قالت: أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمّرتنا به نبينا ﷺ، كائنًا في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذين فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام،

وُنُسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مَنَا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعِفَاقَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ - قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقَنَاهُ وَأَمَنَّا بِهِ... فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا... فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَلَّا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟

فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ.

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كَهَيَّعَ﴾ فَبَكَى وَاللَّهُ النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لَحِيَّتُهُ، وَبَكَتْ أَسَافَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ.

ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لِيُخْرِجَ مِنْ مَشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ. [رواه ابن إسحاق في السيرة (٩٠/١) مطولاً، وأحمد في المسند (٢٩٠/٥)].

بينما نزلت معظم آيات سورة آل عمران في السنة التاسعة من الهجرة، بسبب قدوم وفد نصارى نجران على النبي ﷺ، ومجادلتهم له حول حقيقة عيسى عليه السلام، فأنزل الله تعالى في سورة آل عمران الحلقَاتِ الأولى من قصة عيسى عليه السلام وأمه مريم، بَيَّنَّ فِيهَا حَقِيقَةَ عِبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ تَعَالَى خَلْقُهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْإِسْلَامُ، الْقَائِمُ عَلَى الْإِسْتِسْلَامِ الْكَامِلِ لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَالْإِنْقِيَادِ لِأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ، وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَشْهَدُ بِصَدَقِ نَزُولِ التَّوْرَةِ عَلَى مُوسَى، وَنَزُولِ الْإِنْجِيلِ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

فَبَدَايَةُ قِصَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمِّهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَقَدْ تَأَخَّرَ نَزُولُهَا حَتَّى

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أَسْمَيْنَاهُ فِي هَذَا التفسير الموضوعي الكبير: (التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ).

السنة التاسعة من الهجرة، وتتمة القصة في سورة مريم وقد تقدّم نزولها في السنوات الأولى من بعثته عليه الصلاة والسلام.

وقد ركزت آيات سورة آل عمران على شخصية مريم، فأبرزت عناية الله تعالى بها منذ أن كانت جنيناً في رَحِمِ أمها، كما ركزت الآيات أيضاً على المعجزات التي أجراها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام تأييداً لنبوته، وبيّنت مضمون رسالته التي أرسله الله بها، وهذه الجوانب تتفق مع الموضوع الأساس لسورة آل عمران، وهو بيان أن القرآن الكريم هو الفرقان بين الحق والباطل، وهو المصدق للتوراة والإنجيل، فكل ما يوجد فيهما مما يخالف القرآن الكريم ويعارضه لا صحّة له ولا أصل، بل هو طارئٌ عليهما بسبب التحريف والتغيير اللذين حدثا فيهما، وتتفق أيضاً مع سبب نزول الآيات، وهو احتجاج نصارى نجران على مزاعمهم الباطلة في عيسى عليه السلام بالمعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه تأييداً لصحة نبوته وصدق رسالته.

بينما ركزت الآيات في سورة مريم - كما سيأتي - على كيفية حملها بعيسى عليه السلام، وولادتها له، وعنايته سبحانه بها في أثناء ذلك، وكيفية مواجهتها لقومها بعد ولادتها، وكلام عيسى عليه السلام في المهد دفاعاً عن أمه، وبياناً لحقيقته، ثم اختلاف النصارى في حقيقته، وتخطيطهم فيها، وكل هذه الجوانب لها صلة كبيرة بالموضوع الأساس للسورة، وهو بيان كمال الله تعالى وغناه، ووحدانيته، وتنزهه عن الشريك والصاحبة والولد.

وهذا يدلنا على أن نزول القرآن الكريم على حسب المناسبات يختلف عن ترتيب آياته في السور، وأن اختلاف ترتيب نزوله عن ترتيبه في السور لم يؤثر على اتساق آياته واتفاقها فيما بينها، مما يظهر وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فتفرق نزوله منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة لم يؤثر على إحكامه واتساقه، ممّا يؤكد أنه من كلام الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

● الرب سبحانه والعبد:

ومعنى قوله تعالى:

﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي: هذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي «صحيح مسلم» [٢٣٧٩]: أنه كان نجاراً، يعمل من عمل يده في النجارة^(١).

والخطاب في الآية للنبي ﷺ، وأضيفت كاف الخطاب إلى اسم الله تعالى (الرب) ومعناه: المالك المدبر الخالق، ووصف زكريا ﷺ بصفة العبودية لله تعالى، وهي أشرف الصفات التي يتصف بها العبد، وينتسب بها للرب ﷻ، وقد وصف بها نبينا ﷺ في آيات كثيرة، منها:

قوله ﷻ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ عَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله أيضاً: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].

وهذا يؤكد أن محمداً وزكريا عليهما الصلاة والسلام مخلوقان من خلق الله تعالى، لم ترحزهما النبوة التي شرفهما الله تعالى بها عن مقام عبوديتهما لله جل وعلا.

وتدل رحمة الله تعالى عبده زكريا على حاجة العبد للرب، وأن العبد مهما ترقى في مدارج الكمال يبقى محتاجاً لفضل ربه وإحسانه، وأن الرب سبحانه رحيماً بعباده، فما خلقهم ليعذبهم، إنما خلقهم ليشرفهم بعبادته، ويكرمهم بطاعته، ويسعهم برحمته وإحسانه، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ولعل هذا سر تكرار السورة للاسم الكريم (الرحمن) الذي يدل على كمال الغنى والإحسان، ويشير إلى افتقار الإنسان وحاجته إلى رحمة ربه الرحمن.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٤٢/٢.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ٣٠﴾

أي: عندما سأل الله تعالى ودعاه دعاءً سرّاً.

ومن المعلوم أنّ الإخفاء والجهر بالنسبة لله تعالى سواء، إلا أنه عند العبد أشدُّ إخبائاً وخضوعاً، وأكثر إخلاصاً وخشوعاً، فهو أحب إلى الله تعالى القائل: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

• في محراب مريم:

ويبدو أنّ دعاء زكريا ﷺ قد تكرر، وأنّ المرة الأولى كانت في محراب مريم، فقد أكرم الله تعالى مريم بكفالة نبي الله زكريا ﷺ، وكان زوج أختها كما ورد في حديث الإسراء والمعراج الصحيح، فعندما رأى النبي ﷺ يحيى وعيسى في السماء، قال: «فإِذَا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة»، ورأى بعضُ المفسرين: أنّ زكريا كان زوج خالة مريم، ويمكنُ بهذا القول أيضاً أن يكون يحيى وعيسى ﷺ ابني خالة.

وكانت كفالة زكريا لمريم معجزةً له ﷺ، وتكرمة لمريم الفتاة الصغيرة المنذورة، التي نذرتهَا أمها، وهي لا تزال جنيناً في بطنها، وتلك هي بدايةُ القصة المليئة بخوارق العادات والمعجزات، بدأت في بيت آل عمران، من بيوت العلم، والعبادة، والصلاح في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ [آل عمران].

وجاء قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ معترضاً في أثناء كلام امرأة عمران، لتعظيم المولودة التي وضعتها، وتفخيم شأنها، وما قدر سبحانه أن يجري من الأمور العظيمة الخارقة على يد هذه المولودة.

وختمت الأم الصالحة دعاءها بتعويد الوليدة المندورة وذريتها بالله ﷻ من شر الشيطان الرجيم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها» [رواه البخاري (٤٥٤٨) ومسلم (٦١٣٣)].

ويدل الحديث على أنه لم يكن لمريم ذرية إلا عيسى عليه السلام، خلافاً لما في الأنجيل التي يتداولها النصارى^(١).

وحملت الأم الصالحة وليدتها المندورة إلى الأحبار والرهبان في المسجد، فاختلفوا في كفالة مريم، كل واحد يريد أن يكفلها ويشرف برعايتها، وهذا يدل على أن مريم ولدت في بيت معروف بينهم بالصلاح والعلم والعبادة، ثم اتفقوا بعد الاختلاف على الاقتراع، وألقوا أقلامهم في النهر، فحمل تيار الماء أقلامهم، وثبت بقدرة الله تعالى قلّم زكريا عليه السلام، فعرفوا أن الله تعالى أراد أن يكون زكريا كافلاً لمريم وراعياً لها، وهو سرّ قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكُمْ أَنَّى لَئِبْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

والآية تدلّ على أن زكريا عليه السلام خصص لها في المعبد مكاناً خاصاً لتعبد الله فيه، وما كان أحد يدخل عليها غيره، وأنه عليه السلام كلما دخل عليها مكان عبادتها وجد عندها رزقاً - أي: طعاماً - وهذا يدل على أن الله تعالى كان يرزقها ما تحتاج إليه من الطعام، وهي في داخل محرابها، وما كانت تحتاج إلى

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

الخروج ومخالطة الناس طلباً للرزق والطعام، فقد كفاها ربُّها ﷺ المؤونة بما يَسِّرُ لها من المعونة.

وكلمة (كَلَّمَا) تدل على التكرار والاستمرار، مما يدل على النشأة الكريمة العفيفة التي نشأت عليها مريم، وأنَّ هذه الكرامة قد تكررت لها.

ويتعجَّبُ النبيُّ الكريم مما يرى من طعام ورزق عندها، فيسألها سؤال المتعجب: ﴿يَمْرُؤُا أَفْنِ لِلَّهِ هٰذَا﴾ أي: من أين يجيء لك هذا الطعام والأبواب مغلقة عليك؟! فتجيبه الفتاة الصالحة الطاهرة جواب الواصل بربه، المطمئن إلى فضله ورحمته: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

أثارت هذه الفتاة الصالحة العابدة مشاعر الأبوة في قلب النبي الكريم زكريا ﷺ، فتوجَّه إلى الله تعالى بضراعة وخشوع، يسأله الذرية الطيبة الصالحة: ﴿هٰذَا لَكَ﴾ في محراب مريم ﴿دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

• دعاء خفي:

ثم كرر ﷺ الدعاء خالياً بنفسه في محراب عبادته:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعف.

وخصَّ العظم بالذكر لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصلُ ما فيه، فإذا وهن العظم كان غيره من البدن أوهن أو أضعف.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي: انتشر في رأسي الشيب.

ولا ترى كلاماً أفصح من هذا وأبلغ، فقله: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ دل على شمول الوهن كلِّ العظام فرداً فرداً، وقوله: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ فيه إسناد الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، فأفاد شمول الاشتعال الرأس كله^(١).

(١) انظر: تفسير النسفي: ١٤٦/٤.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: كنتُ مستجاب الدعوة قبل اليوم، سعيداً به، غير شقي فيه، والعربُ تقول: سعد فلانٌ بحاجته: إذا ظفر بها، وشقي: إذا خاب ولم ينلها^(١).

فقد عوّده سبحانه الإجابة وأطمعه فيها، والكريم لا يخيب من أطمعه بفضله، وعوّده على إحسانه وكرمه.

● من آداب الدعاء:

وهذا يدلُّ على أنَّ زكريا عليه السلام ما كان مردود الدعاء البتة، وقد توسَّل إلى الله تعالى هذه المرة من وجهين:

أولهما: أنه توسَّل إلى الله بالله: كما قيل: إنَّ محتاجاً سأل واحداً من الأكابر فقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا. فقال: مرحباً بمن توسَّل بنا إلينا. ثم قضى حاجته. فالمنعُ لا يسعى في إحباط إنعامه الأول، ولو رده ثانياً لكان رده محبطاً للإنعام الأول.

وثانيهما: أن مخالفة العادة شاقة على النفس: فلو تعوَّدَ إنسان على إجابة الدعاء، وصار بعد ذلك مردوداً، لكان في غاية المشقة، وزكريا تعوَّدَ على فضل الله تعالى، وإجابته لدعوته، فلو أنه سبحانه رده بعد أن وهن عظمه، وشاب شعر رأسه، لكان ذلك غاية الألم والشقاء له^(٢).

وقد علَّمنا زكريا عليه السلام بهذا الدعاء أدباً من آدابه، وهو إظهار الضعف والافتقار إلى فضل الله تعالى ورحمته قبل سؤال حاجته، عرض عليه فاقته أولاً، ثم سأل حاجته، واختار من أسماء الله الحسنى الاسم المناسب لحاله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، ولذلك قيل: إذا أراد العبدُ أن يُستجاب له دعاؤه، فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته^(٣).

(١) تفسير النسفي: ١٤٧/٤.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٨٣/٢١.

(٣) انظر: تفسير أبي السعود: ٢٥٤/٣.

واسم (الرب) يناسبُ حال تذلل الإنسان وضعفه وافتقاره، ولهذا نجد أكثر الدعوات القرآنية الكريمة مبدوءةً بهذا الاسم الكريم، الذي يدل على أنه الخالق المالك المدبر لجميع شؤون خلقه، وأنه المربي لهم، ﷻ.

• الدعاء بالولد الصالح:

ثم بدأ ﷻ يرفع سُؤله، ويبين حاجته، فقال:

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَآئِي وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝﴾.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَآئِي﴾ أي: أقاربه وأبناء عمومته، وكانوا من الأشرار في بني إسرائيل، فخاف ﷻ ألا يُحسنوا خلافته في منصبه الديني، ومكانته العلمية، وهذا يدلُّ على أنَّ المناصب الدينية في بني إسرائيل كانت بالتوارث، كما كانت مناصب الحكم والسلطان.

﴿وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد.

﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ أي: أعطني ولداً صالحاً من صليبي، يتولَّى حفظ الأمانة الدينية، وحسن القيام بها بعد موتي.

فمراده ﷻ أن يرزقه الله تعالى الولد الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقوله أيضاً: ﴿وَرَكِبْنَا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وتدل الآية على جواز الدعاء بالولد، مع أنه سبحانه قد حذرنا من فتنة الأولاد والأموال في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [النساء: ١٤].

وهذا إذا كان الأولاد غير صالحين، فيمكن حينئذٍ أن يكونوا فتنة لأبائهم

وأمهاتهم، أما إذا كانوا صالحين فإنَّهم يكونون عوناً لآبائهم وأمهاتهم على دينهم، وقرة عين لهم في حياتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

كما يكونون ذخراً لهم بعد موتهم، فالولد الصالح أجمل شيء يخلفه الإنسان بعد موته ورحيله عن الدنيا، وصدق رسول الله ﷺ بقوله: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [رواه مسلم (١٦٣١)].

• ميراث الأنبياء:

ثم بيَّن ﷺ المهمة التي سأل الولد من أجلها فقال:

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ﴾ أي: يرث علمي ومنصبي الديني، فقد كان رئيس الأخبار في بني إسرائيل.

وما أراد ﷺ وراثته المال، فهو نبي كريم لا تعلق لقلبه بالمال وجمعه وتوريثه، فإنَّ النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى هذا الحد، وأن يأنف من وراثته عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم، ولم يكن ﷺ ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه كما مر، ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا، وقد ثبت في «الصحيحين» [البخاري (٦٧٣٠) ومسلم (١٧٥٨)]: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورَثُ ما تركنا صدقة».

وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحنُ معاشر الأنبياء لا نُورَثُ»^(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «... والعلماء

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٤٤٣/٢

ورثة الأنبياء، إِنَّ الأنبياءَ لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكنهم ورثوا العلمَ [رواه أبو داود (٣٦٤١)، الترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣)].

ومرادُ زكريا ﷺ في قوله: ﴿وَبَرِّثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ النبوة، ومن المعلوم أنَّ النبوة لا تورث، فمعنى وراثته النبوة أن يجعله الله صالحاً لأن يوحى إليه، ولم يرد أن نفس النبوة تورث^(١).

فالنبوة لا تكون إلا بمحض فضل الله تعالى لمن يشاء من عباده ويختار: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٤].

ثم ختم ﷺ دعاءه بقوله:

﴿وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: برّاً تقيّاً صالحاً ترضى عنه.

والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج - كما قال القرطبي - من حَدِّ العداوة والفتنة إلى حَدِّ المسرة والنعمة^(٢).

• البشارة بيحيى:

واستجاب الله تعالى دعاءه، وناداه سبحانه بواسطة الملائكة:

﴿يٰۤزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

﴿يٰۤزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ ودل على أن النداء كان بواسطة الملائكة قوله سبحانه: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقد تولَّى سبحانه تسميته باسم لم يُسمَّ أحدٌ به من قبلُ تشريفاً له، فقال:

﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ ففي الأسماء النادرة تنويه بالمسمى بها.

ويمكن أن يكون معنى ﴿سَمِيًّا﴾ شبيهاً، فما عرف أن المرأة العاقر تلد، فلا

(١) تفسير النسفي: ١٤٧/٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٨٠/١١.

مثل له في هذا، وكانت ولادة يحيى من أبوين شيخين كبيرين إرهاباً ومقدمة لما هو أكبر وأعظم في الإعجاز، وهو ولادة عيسى ﷺ من أم بلا أب.

وقد بيّن سبحانه في الآية السابقة من سورة آل عمران [٣٩] مجموعة من الصفات الطيبة والخصال الرفيعة ليحيى ﷺ بقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: مصدقاً بعيسى ﷺ، ووصف عيسى ﷺ بذلك لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿كُنْ﴾ من دون توسط أسباب، وكان يحيى ﷺ أول من آمن بعيسى وصدق بنبوته ورسالته، أو يصدق بكلمة الله التي أنزلها الله تعالى على عيسى، والمراد بها الإنجيل، ﴿وَسَيِّدًا﴾ بالعلم والتقوى والعبادة، ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: عفيفاً عن النساء، مبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة، ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا من تتممة البشارة وكمالها، أي: ويكون نبياً معدوداً في عدادهم^(١).

• تعظيم قدرة الله تعالى:

وغمرت الفرحة قلبَ زكريا ﷺ بهذه البشارة الكريمة، وأقبل على ربّه يسأله متعجباً من قدرته جلّ وعلا، ومعظماً لها:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنتُ لِيَ غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

وهو السنُّ الذي تعتو فيه العظام والمفاصل، أي: تيس وتجف، وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، فلا دواء للهرم والشيخوخة.

ففي «صحيح البخاري» [٥٦٧٨]: قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله مِن داءٍ إلا وأنزلَ له دواءً».

ولأبي داود [٣٨٥٥] والترمذي [٢٠٣٩] بمعناه، وزادا: «غير داءٍ واحدٍ قالوا: وما هو؟ قال: «الهرم»».

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

ويشير إلى هذه الحقيقة قوله ﷺ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

فالضعف قرين الهرم والشيخوخة، وسؤال زكريا ﷺ سؤال المتعجب من قدرة الله تعالى والمعظم لها، لا سؤال المستبعد، فلو أنه ﷺ كان يستبعد قدرة الله على إعطائه الولد لما دعاه وتضرع إليه وسأله الولد، وحاشاه ﷺ - وهو نبي كريم - أن يستبعد قدرة الله تعالى على إعطائه الولد.

ويمكن أنه ﷺ أراد بسؤاله هذا أن يطمئن قلبه بمعرفة كيفية تحقق الوعد. قال سيد قطب رحمه الله: «إنه يواجه الواقع، ويواجهه معه وعد الله، وإنه ليثق بالوعد، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه، وهي حالة نفسية طبيعية في مثل موقف زكريا النبي الصالح الإنسان، الذي لا يملك أن يغفل الواقع، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله»^(١).

وهو ما فعله إبراهيم ﷺ عندما سأل الله تعالى أن يريه كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأجابه سبحانه بقوله:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنُّ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ ٩ ﴿.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك، فقد رتب سبحانه لا يتعاضدها شيء، فهو تصديق منه سبحانه لتعظيم زكريا لقدرة جلَّ وعلا^(٢).

﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنُّ﴾ أي: يسير، فهو سبحانه على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء، كما قال في سورة آل عمران: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَشَاءُ﴾ ١٤٨ ﴿.

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٠٣/٤.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ١٤٨/٤.

ثم ذكّره سبحانه بإيجاده، وخلق له من العدم، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾.

• علامة الحمل:

ثم سأل زكريا ﷺ ربه جل وعلا أن يجعل له علامة، يستدل بها على بدء حمل زوجته:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامة أعلم بها حمل امرأتي.

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: وأنت سوي الخلق، صحيح سليم، من غير خرس ولا بكم، والمراد ثلاث ليال متواليات مع أيامهن، لأنه سبحانه قال في سورة آل عمران: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١] فيحبس لسانك عن الكلام ثلاثة أيام فلا تستطيع تكليم الناس إلا بواسطة الإشارة والإيماء.

ويبدو أن لسانه ﷺ حبس عن تكليم الناس فقط، ولم يحبس عن تسبيح الله وذكره، لأنه سبحانه أمره أن يكثّر من تسبيحه وذكره في هذه الأيام الثلاثة كما مر معنا في قوله: ﴿وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ولما جاء الوقت المقدّر لتحقيق البشارة، وحبس لسانه ﷺ عن تكليم الناس، أكثر من التسبيح والعبادة شكرًا له ﷻ على ما أولاه وأنعم عليه، ولزم محراب عبادته، وما خرج منه إلا ليحثّ الناس على الإكثار من التسبيح والعبادة، كما قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

في طرفي النهار أوله وآخره.

• يحيى عليه السلام :

هكذا ولد يحيى عليه السلام من أمه التي كانت عاقراً، ووالده الشيخ الكبير الذي وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، وقاما على رعايته وتربيته التربية الصالحة، فنشأ عليه السلام وترى في بيت النبوة والصلاح والعلم والعبادة، وأكرمه الله تعالى بخصال حميدة، وأخلاق رفيعة - كما مر معنا - ويسر له سبحانه تعلم التوراة وفهمها منذ أن كان صغيراً، ولهذا نوه بذكره وبما أنعم عليه، فقال تعالى :

﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۚ وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكَمَ صَبِيًّا ۝١٢﴾

﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعلّم الكتاب وهو التوراة، فهو الكتاب المعهود عند بني إسرائيل، وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: ببجد وحرص واجتهاد. ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحَكَمَ صَبِيًّا﴾ أي: أعطيناه الفهم، والعلم، والجد، والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه، وهو صغير حَدَث. قال عبد الله بن المبارك: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما لِلْعَبْ خُلِقْنَا^(١).

وجعل الله تعالى في قلبه شفقة وعطفاً ورأفة، فقال :

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ۖ وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: وآتيناه رحمة وعطفاً ورأفة. ﴿وَزَكَاةً﴾ أي: طهارة من الدنس والآثام والذنوب، أو بركة، فجعله الله تعالى مباركاً نفاعاً معلماً للخير. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً لله، متجنباً للمعاصي.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٤٥/٢.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ ﴿١٤﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ فكان كثير البر لوالديه والإحسان إليهما .

﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ متكبراً متعالياً على الخلق والحق .

﴿عَصِيًّا﴾ أي : ولم يكن مخالفاً لأمر الله تعالى ، أو لم يكن عاقاً لوالديه .

ونلاحظ بهذا أن سورة مريم اهتمت بإبراز الجانب الوجداني العاطفي عند الإنسان ، كعواطف الأبوة والأمومة ، المركوزة في فطرة الإنسان ، وتعلق الإنسان بوالديه ومحبه لهما ، وكل ذلك تعويض - كما قلنا - عن الشعور بضعفه وقصوره وعجزه ، وهذه الصفات تتنافى تنافياً كاملاً مع صفة الألوهية ، فالإله كامل ، وغني ، وقوي ، وأزلي ، وسرمدي ، يتنزه عن الاتصاف بصفة الولادة والولد .

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿١٥﴾

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ﴾ أي : أمان عليه من الله تعالى في أشد المواطن والأوقات

التي يمرُّ بها الإنسان :

﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ .



الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ

قِصَّةُ عِيسَى وَمَرْيَمَ ۖ

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ﴾ (١٦) ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ﴾ (١٧) ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ﴾ (١٨) ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِإَهَبَ لِكَ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ﴾ (١٩) ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ﴾ (٢٠) ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَهٗ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ (٢١) ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ﴾ (٢٢) ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِئِجِئِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۖ﴾ (٢٣) ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ﴾ (٢٤) ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِئِجِئِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَبِيًّا ۖ﴾ (٢٥) ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ﴾ (٢٦) ﴿فَأَنَّتْ بِهِ فَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يُبْرَأُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ﴾ (٢٧) ﴿بَتَّأَخَتْ هَدْرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ۖ﴾ (٢٨) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ۖ﴾ (٢٩) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ﴾ (٣٠) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ﴾ (٣١) ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ﴾ (٣٢) ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ﴾ (٣٣) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ﴾ (٣٤) ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ﴾ (٣٥) ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ﴾ (٣٧) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ۖ﴾ (٣٨) .

● المعجزة الكبرى:

كانت ولادة يحيى عليه السلام من أمّه العاقر ووالده الشيخ الكبير مقدمة وإرهاصاً لمعجزة أكبر منها، بيّن الله تعالى بهذه المعجزة الكبيرة قدرته على خرق الأسباب والنواميس، فقدرته سبحانه طليقة، وهو جلّ وعلا قادرٌ على الخلق والإبداع، من دون أسباب ووسائل ومقدمات.

هذه المعجزة الكبرى هي ولادة عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ولهذا قرن الله تعالى بينهما بالذكر في سورة آل عمران، وقرن أيضاً بينهما هنا في سورة مريم، وهما هي الآيات الكريمة بعد أن تحدّثت عن زكريا ويحيى عليهما السلام، تبدأ في الحديث عن عيسى عليه السلام وأمه، وتبين كيفية حمله وولادته، وتكشف للناس حقيقة عبوديته لله تعالى، وكمال قدرة الله سبحانه في إيجاد خلقه، فالبشرية لم تشهد خلق نفسها، وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها، لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم، وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث، فشاء الله تعالى بحكمته أن يبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب، على غير السنّة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، ليشهدها البشر، ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزةً فذةً تلتفت إليها الأجيال إن عزّ عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان^(١).

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ بنت عمران، التي نذرته أمها لعبادة الله تعالى وخدمة المسجد قبل ولادتها - كما مرّ معنا - وسمتها بعد ولادتها مريم، ومعناها بلغتهم: العابدة، فكان أمّها تقرب إلى الله تعالى بهذه التسمية^(٢).

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢٣٠٤.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣/٢٩.

ومريم هي المرأة الوحيدة التي ذكرها الله سبحانه في القرآن الكريم باسمها في نحو ثلاثين آية، وقد تولاهما سبحانه بعنايته ورحمته منذ ولادتهما، ببركة دعاء أمها الصالحة لها، وتعويذها وذريتها من الشيطان الرجيم - كما مر معنا -.

ومن عادة الملوك والأشراف أنهم لا يذكرون حرائر زوجاتهم بأسمائهنَّ، بل يكنون عنهنَّ بالأهل والعيال ونحوه، فإذا ذكروا الإماء لم يكنوا، ولم يحتشموا عن التصريح، والسيدة مريم هي المرأة الوحيدة في القرآن التي تكرر التصريح باسمها نحو ثلاثين مرة، وحكمة ذلك الإشارة إلى أنها أمةٌ من إماء الله، وابنها عبدٌ من عبيد الله.

وَقَبِلَ تَعَالَى نَذْرَ هَذِهِ الْأُمِّ الصَّالِحَةِ، وَاسْتَجَابَ دَعَاءَهَا، وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ: ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧] (١).

فنشأت في رحاب المسجد، ورعاية نبي الله زكريا ﷺ، ولزمت محراب عبادتها، فلا يدخل عليها أحد غير زكريا ﷺ، ولا تخرج منه إلا في حالات الضرورة.

وكانت الملائكة تكلمها وهي في محراب عبادتها، وتخبرها بما أكرمها الله تعالى به: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

ويبدو أنَّ الاصطفاء الثاني غير الأول، فالاصطفاء الثاني لتكون أماً لعيسى من غير أب، وليجعلها ربُّها وولدها عيسى آية للعالمين.

ثم كررت الملائكة نداء مريم، فأمرتها أن تزيد من عبادتها وطاعتها لربها، توطئةً للمهمة الكبيرة التي اختارها الله تعالى لها: ﴿يَمْرِيئُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَذْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

(١) انظر: تفسير آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

ففي الصلاة عون من الله تعالى على القيام بالأعباء الثقيلة والمهمات الجسيمة قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

تلك هي الصورة الكريمة الوضيئة لمريم الطاهرة العفيفة، العذراء، البتول، في القرآن الكريم، حتى ذهب بعض علماء التفسير إلى القول بنبوتها، كالإمام القرطبي في تفسيره، إلا أن جمهور العلماء لا يرون نبوتها، لأن النبوة لا تكون في النساء، ولأن الله سبحانه وصفها بالصدّيقة في قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الْأَطْعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ أَنَّهُ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وصورتها أيضاً في السنّة الشريفة كريمةً وضيئةً، فعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ نسائها مريمُ بنتُ عمرانَ، وخيرُ نسائها خديجةُ بنتُ خويلدٍ» وأشار الراوي إلى السماء والأرض. [رواه البخاري (٣٤٣٢) ومسلم (٢٤٣٠)].

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريمُ بنتُ عمرانَ، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمّدٍ، وآسيةُ امرأةُ فرعون» [رواه أحمد (١٣٥/٣) والترمذي (٢٨٨٨) وحسنه].

• الاعتزال إلى المشرق:

﴿إِذْ أَنْبَأْتَ مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي: تنحّت واعتزلت من أهلها. ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: اعتزلت في مكانٍ يقع إلى الشرق من مساكن أهلها، وكان اعتزالها إلى جهة المشرق أمراً اتفاقياً، ولا حُجّة فيه للنصارى على استقبالهم جهة المشرق في صلاتهم.

وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ يدلُّ على أن مريم ما كانت حينئذٍ في محراب عبادتها في المسجد، فلو كانت ثمة لقال سبحانه: من محرابها.

ويبدو أنها كانت بعد بلوغها وطروء الحيض عليها تترك محرابها في المسجد إلى بيت أهلها، فإذا ما طهرت من حيضها واغتسلت عادت إلى محرابها في المسجد، ويمكن أن يكونَ اعتزالُها أهلها هذه المرة كان للاغتسال من الحيض، أو لقضاء الحاجة، فقد عودنا ربنا سبحانه في القرآن الكريم على

الإشارة إلى أمثال هذه المعاني بما يدل عليها، دون التصريح بها، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله:

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝﴾ [١٧]

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: جعلت بينها وبين أهلها حجاباً يسترها عنهم.

• لقاء مع الروح:

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل عليه السلام، وقد سماه الله سبحانه بهذا الاسم في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقوله أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء].
وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].
وعطفه على الملائكة عطفٌ للخاص على العام، تنويهاً بذكره وإظهاراً لمكانته الرفيعة بين الملائكة.

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: جاء إليها بصورة إنسان مستوي الخلق، ولو جاء إليها بصورته الملكية ما أطاقت النظر إليه.

ولهذا كان جبريل عليه السلام عندما ينزل على النبي ﷺ ويظهر له، يأتيه بهيئة إنسان، وما رآه النبي ﷺ بهيئته الملكية سوى مرتين فقط: المرة الأولى في الأرض عند غار حراء، والثانية في السماء ليلة الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم].

فالملائكة يستطيعون التشكل والتصور بغير هيئاتهم وصورهم الملكية التي خلقهم الله تعالى عليها، ولا يتشكّلون إلا بالهيئات الحسنة الكاملة، ولهذا جاء جبريل عليه السلام إلى مريم بهيئة إنسان كامل الخلق.

وما زعمه بعضُ المفسرين من أنه جاء إليها بصورة شاب أمرد وضيء الوجه، جعد الشعر، لتهيج شهوتها به، فتنحدر نطفتها إلى رحمها^(١) فغير صحيح، لأن خَلَقَ عيسى ﷺ كان أمراً خارقاً لكل النواميس والأسباب، وليس له ارتباط بأي سبب من الأسباب التي جعلها الله تعالى مقدمة لخلق غيره من البشر، وقد ثبت علمياً في العصر الحاضر أن إفراز مبيض المرأة للبويضة، وانحدارها إلى الرحم، غير مرتبط بشهوتها واتصال الرجل بها.

قال العلامة المفسر أبو السعود العمادي رحمه الله: «وأمّا ما قيل من أنّ ذلك لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها، فمع مخالفته لمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة، يكذبه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ [مريم: ١٨]، فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه»^(٢).

• المحاورة:

ولمّا رأَتْ هذا الطارئ الدخيل يقترب منها، ويخترق حرمة حجابها، لجأت إلى الله تعالى تستعيذ به، وتحتمي بحمايته، وقد عوّدها سبحانه على لطفه ورحمته، بما أكرمها به من العناية وأسباب التربية الكريمة في نشأتها:

﴿قَالَتْ إِنَّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾

أي: تتقي الله تعالى وتخشاه.

وقولها: ﴿إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني، أي: ينبغي أن يكون إيمانك مانعاً لك من الظلم، كذلك هاهنا معناه: ينبغي أن تكون تقواك مانعة لك من الفجور^(٣).

وبادر جبريل ﷺ إلى تهدئتها، وإزالة خوفها وقلقها:

(١) انظر: تفسير النسفي والبيضاوي: ١٥١/٤.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢٦٠/٣.

(٣) تفسير الخازن: ١٥١/٤.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ١٩.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾ أي: لأكون سبباً في هبته لك، وفي قراءة ثانية متواترة: (لِيَهَبَ لَكِ).

﴿غُلَامًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، ينشأ ويتربى في الخير والصلاح.

ولا بد في هذه اللحظة التي تسمع فيها جبريل عليه السلام يعرفها بنفسه وحقيقته ويقول لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أن يخلق الله تعالى في قلبها اليقين بصدقه، فلا يبقى قلبها نهباً للشكوك والوساوس، وقلب الإنسان بقبضة قدرته سبحانه يقلبه كيف يشاء، وهو اليقين الذي يخلقه الله سبحانه في قلوب الأنبياء عليهم السلام، عندما ينزل عليهم الوحي بواسطة الملك.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ ٢٠.

وقولها هذا يدل على تصديقها له بأنه رسول ربها، وعلى ثقتها به، ومعناه: كيف يكون لي ولد ولم يمسنني بشر في نكاح، ولم أكن فاجرة تبغي الرجال؟!.

وسؤالها هذا سؤال المتعجبة من قدرة الله تعالى والمعظمة لها، كسؤال نبي الله زكريا عندما بشرته الملائكة بحيي: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] كما مر معنا.

ويؤكد أنها كانت متعجبة من قدرة الله تعالى، ومعظمة لها: أن جوابه عليه السلام لها بواسطة الملك مثل جوابه تعالى لزكريا عليه السلام: ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي: الأمر كما قلت، فقدرته تعالى لا يتعاضدها شيء.

ويدل قول مريم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]، على أنها ما كانت تفكر في الزواج، وما كانت مخطوبة لأحد، خلافاً للروايات المذكورة في الأناجيل التي زعمت أن مريم كانت مخطوبة لرجل اسمه يوسف النجار، فلو كانت كذلك ما سألت ربها سؤال المتعجب من قدرته تعالى.

قال ابن كثير رحمه الله: «تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً؟ حاشا لله»^(١).

فهي العذراء البتول التي أحصنت فرجها، وصانت عرضها، وشهد الله تعالى لها بذلك في قوله الكريم: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا الْإِيمَانُ﴾ [التحریم: ١٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمراً مَقْضِيّاً﴾ .

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ أي: لنجعل خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب آية، تبيّن للناس كمال قدرته سبحانه.

﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ للمؤمنين به الإيمان الصحيح، وهو أنه عبد الله تعالى ورسوله، يدعو إلى عبادته سبحانه وحده، وتنزيهه سبحانه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَكَانَ أَمراً مَقْضِيّاً﴾ مقدراً تعلق به قضاء الله تعالى في الأزل فلا يرد ولا يبدل.

● الحمل والولادة:

وحملت به بعد هذه النفخة التي هي سرٌّ من أسرار الله تعالى، فلا يعلم حقيقتها إلا هو تعالى:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ .

أي: فاعتزلت وهو في بطنها، إلى مكان بعيد عن أهلها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٨٧/١.

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾.

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي: فالجأها المخاض، وهو آلام الحمل والولادة.

﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ ولم يقل: إلى نخلة؛ لأنه كان ساق نخلة يابسة.

ويبدو من فاء التعقيب في الآية أنَّ حملها بعيسى ﷺ وولادتها له، كانا بعد النفخة مباشرة في ساعة واحدة، ويؤكد أنه سبحانه قال في وصف خلقه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فثبت أنَّ عيسى ﷺ خلق كما قال الله تعالى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، وإنما تعقد تلك المدة في حق من يتولد من النطفة^(١).

ولا سند لما ذكره أكثر المفسرين أنَّ مدة حمله كانت تسعة أشهر أو ثمانية أو سبعة، إلا ما ترويه الأناجيل، ولا ثقة لنا بها؛ نظراً لما طرأ عليها من تغيير وتبديل وتحريف.

والمفاجأة التي حدثت لقومها عندما جاءت إليهم بعد الولادة تحمله بين ذراعيها، تؤكد أنَّ حمله وولادته كانا في وقت واحد، فلا يعقل أن تحمل به تسعة أشهر ولا يلاحظون عليها ما يظهر على المرأة الحامل، من تغير في جسدها، واضطراب في مزاجها وسلوكها.

• تمنِّي الموت:

واشتدت على مريم الآلام الجسدية للمخاض والطلق، حتى اضطرتها إلى التوقف عن سيرها لتبحث عن شيء يمكنها الاستناد عليه، فلم تجد سوى جذع نخلة يابسة قريب منها فاستندت إليه، ولم تنسَ آلام قلبها ونفسها، والفضيحة التي تنتظرها بين أهلها وقومها، وهي الفتاة العذراء في أول مخاضها، وفي غمرة آلامها الجسدية ووحدتها وحيرتها، فتمنَّت الموت!

تمنَّت الفتاة المؤمنة، العابدة، الصالحة، الموت:

﴿قَالَتْ﴾ تحدثت نفسها :

﴿يَلَيِّنِي مِثْقَلُ هَذَا﴾ ، ولا يتمنى مؤمن أو مؤمنة الموت مهما كانت آلام المحنة شديدة عليه ، فلا يجوز تمنى الموت إلا في حالة واحدة فقط ، إذا خشي الإنسان المؤمن أن يفتن عن دينه في محنته ، عندها فقط يجوز له أن يتمنى أن يميتة الله على الإيمان ليسلم له دينه ، فالإيمان أغلى على المؤمن من حياته .
قال ﷺ : « لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضُرِّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بَدَّ مَتَمَنِيًّا فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي » [رواه البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠)] .

بهذا الأدب الرفيع العالي مع الله تعالى يتمنى المؤمن الموت خوفاً على دينه ، وما تمت مريم الموت إلا حرصاً على دينها .
﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ أي : شيئاً حقيراً قليلاً ، شأنه أن يُنسى ولا يتألم أحد لفقده . وإننا من خلال هذه الكلمات لنكاد نرى ملامح مريم ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها وهي تتمنى لو كانت نسياً منسياً^(١) .
● رحمة الله ﷻ بمريم :

وأدركتها رحمة الله تعالى ، وحفَّت بها ألطافه جل وعلا ، وهي في حدة الألم ، وذروة المعاناة ، والمعونة تأتي على قدر المؤونة ، وعلى مقدار الكلفة والمشقة ، وكانت الصديقة مريم في هذه الفترة تمرُّ في محنة عظيمة ومشقة كبيرة ، فجاءت معونته سبحانه تفوق كل تصور وتقدير ، جاءت من حيث لا يحتسب أحدٌ أن تأتي منه ، جاءت من الجانب نفسه الذي امتحنت بسببه ، والله سبحانه لا يتخلَّى عن أحبابه وأوليائه .

وحدثت المفاجأة الكبرى والمعجزة العظمى دون تأخير ، فما إن انتهت مريم من كلماتها : ﴿يَلَيِّنِي مِثْقَلُ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم : ٢٣] حتى فاجأها صوتُ المنادي من تحتها :

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٠٧ .

﴿فَادْنِهَا مِنْ تَحْنِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾.

﴿فَادْنِهَا مِنْ تَحْنِهَا﴾ يا الله! الجنين الذي يخرج من أحشائها، وهو لا يزال في السبيل الميسر^(١) بقدرة الله تعالى، يناديهـا ﴿مِنْ تَحْنِهَا﴾ بأفصح لسانٍ، وأوضح بيانٍ، مواسياً ومرشداً:

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ فالله ﷻ لن يتخلّى عنك، وهو سبحانه الذي اصطفاك من بين نساء العالمين لهذه المعجزة الكبيرة، انظري إلى آثار رحمته ولطفه وعنايته.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنَكِ سَرِيًّا﴾ جدولاً من الماء يسري بأمر الله تعالى وقدرته في هذه اللحظة.

والمسافر إذا وقع على الماء في الصحراء يغشاه الأنس والسرور، ويمتلئ صدره بالحبور، وتزول عنه وحشة السفر ومتاعبه، فكيف إذا رآه يسري بين يديه للثو واللحظة، يشق الصخر ويثور من بين الحصا والحجر؟!.

﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكِ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾.

﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكِ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ﴾ الذي تستندين عليه، هزيه برفق ولطف كما تهز المرأة مهد طفلها.

﴿تُسْقِطُ عَلَيْكَ﴾ مباشرة وأنت في مكانك لا تتكلفين مؤونة الصعود عليه، ولا الانتقال لجمعه والتقاطه.

﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ طيباً صالحاً للاجتماع لم ييس ولم يجف.

فما أعظم قدرة الله تعالى، يحوّل بلحظة واحدة الجذع اليابس إلى نخلة كاملة دانية القطوف، يطلع السعف من أعلاه، ومن بين السعف يخرج الطلع، ثم يخضر، ويصفر، ويحمر، حتى يصبح بقدرة تعالى رطباً جنياً، وكل ذلك في لحظة واحدة، وهذا يؤكد أن مريم حملت بعيسى ووضعت في ساعة واحدة،

(١) إشارة إلى ما ورد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَلْسَيْلَ يَسْرُهُ﴾ [عبس].

فهناك تشابه بين حمل النخلة وحمل المرأة، فلا يكون حمل في النخلة المؤنثة حتى تؤبّر، وذلك بنقل العناصر المذكّرة إليها، وهاهو جذع النخلة يحدثُ مريم بلسان حاله قائلاً: أتعجبين من قدرة الله تعالى أن خلق منك ولداً، ولم يمسسكِ بشرٌ، وأنت فتاةٌ كاملةُ الأنوثة في ريعان حياتها وصباها؟! انظري إلى حملي وثمري، وقد كنت جذعَ نخلة يابسة لا حياة فيها، أليس حالي أعجب من حالك، وأدل على قدرة الله تعالى وعظمته؟!.

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فكلي من الجنّي، واشربي من السريّ، وقري عيناً برؤية الولد النبي^(١).

﴿فِيمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فسألك عن الولد سؤال المستنكر المتهم.

﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ عن الكلام، وكان مثل هذا النذر جائزاً في شريعتهم.

﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ فلن يكلفك سبحانه عناء المدافعة والمجادلة ورد التهمة، فقد هيأت العناية الإلهية مدافعاً يتولّى الدفاع عنك، وإظهار براءتك من كل التهم الموجهة إليك.

● المنادي من تحتها:

تلك هي الكلمات التي أنطقَ الله تعالى بها عيسى عليه السلام، وهو لا يزال في سبيل الخروج تحت أمه، وهو ما ذهب إليه بعض المحققين من المفسرين، قال في «نظم الدرر»: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ [مريم: ٢٤] وهو عيسى عليه السلام^(٢)، وهو قول

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٩٦/١١.

(٢) نظم الدرر: ١٥٨/١٢.

الحسن وسعيد بن جبير^(١).

وهو أولى من القول بأنَّ المَلَك هو الذي ناداها من تحتها، فالضمائر كلها ترجع إلى عيسى عليه السلام: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: عيسى ﴿فَانْبَدَتْ بِهِ﴾ بعيسى ﴿فَنَادَاهَا﴾ أي: عيسى ﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ بعيسى ﴿قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي: عيسى. ولو لم يكن عيسى هو المتكلم، ما عرفت مريم أنه يتكلم في المهد، وما أشارت إليه عند مواجهة قومها، ولا يليق بالملك أن يناديها من تحتها، وهي في حال الولادة والانكشاف^(٢).

وقد يقال: إنها عرفت أنه سيتكلم في المهد من بشارة الملائكة لها، التي أخبر الله عنها في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤٌ إِنَّ اللَّهَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ [آل عمران].

لكن هذه البشارة ذكرت أنه يتكلم في المهد، ولم تعين متى يكون كلامه، والطفل يبقى في المهد مدة طويلة قد تصل إلى سنتين، فما عرفت مريم أنه يتكلم بعد ولادته، ويدافع عنها إلا بعد سماعها لكلماته هذه من تحتها.

ثم إن كلمة ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ تؤكد أن المتكلم هو عيسى عليه السلام، فالقرآن الكريم لا يأتي بالكلمات جُزَافاً، ولا تقع فيه اتفاقاً، دون أن يكون لها مدلول تدل عليه، فما فائدة أن يكون الملك يناديها ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ حتى تحدد لنا الآية مكانه وجهته بالنسبة لمريم عند ولادتها، اللهم إلا أن تريد أن تبين لنا أن المتكلم هو عيسى عليه السلام، أنطقه الله تعالى بقدرته، وهو لا يزال تحت أمه في طور الخروج من رحمها.

• المواجهة:

وقرت عينُ أم عيسى العذراء الصَّديقة، وهذا قلبها، وزال عنها حزنها

(١) واستظهره أبو حيان في البحر المحيط، وروي عن مجاهد ووهب وابن جرير وابن زيد.

كذا في: روح المعاني: ٨٢/٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٢١/٢٠٥.

واضطربأُها، فأكلت من الرُّطْبِ المتساقط عليها، وشربت من الماء الجاري عند قدميها، ولَقَّتْ وليدَها ببعض ثيابها، وضمته إلى صدرها:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَمْرِئٌ لَّكَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۝﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ جاءت به تحمله في وضع النهار، غير خائفة ولا هيابة، لم تنتظر ظلام الليل لتستتر به عن أعين قومها، ونظرات الريبة والتهمة الموجهة إليها، فلن تبالي بكل أقوالهم وشتائمهم ونظراتهم.. منذ قليل كانت حزينه خائفة حائرة تمنى الموت، وأن تصبح نسياً منسياً، وهي الآن تأتي بعيسى قومها تواجههم وهي تحمله، فما أقوى قلبها وأثبت جنانها! وما أعظم رحمة الله تعالى بما أنعم عليها وأعطاهَا، فثبتها في وجه العاصفة وقواها!.

لله درك أم عيسى! لله درك أيتها العذراء الطاهرة البتول! حسبك أن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين، حسبك عناية الله تعالى بك، ورعايته لك منذ نعومة أظفارك، وحتى أتم بك المعجزة الكبرى، حسبك أن الله تعالى شهد بعفتك وطهرتك، وأنطق وليدك العبد الرسول يدفع عنك زور المزورين، وافتراء المفترين.

﴿قَالُوا يَمْرِئٌ لَّكَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۝﴾ فظيعاً منكراً.

هكذا سارع قومها إلى اتهامها، قبل أن يسألوها عن وليدها الذي تحمله، وغفلوا عن كل ما عرفوا من طهرها وعفتها وعبادتها، وهذا هو شأن عامة الناس في كل زمان ومكان، أيسرُ الأمور عليهم أن يسارعوا إلى اتهام الصالحين والصالحات، وتشويه سمعتهم، ونهش أعراضهم، وهو ما فعله المنافقون بالصَّديقة بنت الصديق، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، عندما أشاعوا عنها حديث الإفك، فوجدوا مَنْ يسمع لهم، ويردد كذبهم، وينشر بين الناس زورهم، وكان عليهم أن يكونوا كما قال الله تعالى في الآيات الكريمة، التي أنزلها في براءة أم

المؤمنين، والتي تُتلى في محارب المسلمين إلى يوم الدين: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]^(١).

ثم بالغ قوم مريم في زورهم وكذبهم، فقالوا لها على سبيل التهكم والتقريع والتوبيخ:

﴿يَتَّخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ آمَرَأ سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾.

﴿يَتَّخَذَ هَرُونَ﴾ في عفته ونزاهته وعبادته.

﴿مَا كَانَ أَبُوكَ﴾ عمران.

﴿آمَرَأ سَوًّا﴾ فنقول: تأثرت به، ونزعك عرق إليه.

﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ﴾ في وقت من الأوقات.

﴿بَغِيًّا﴾ تبغي الرجال للفجور، وتستميلهم إليها.

استقبلت العذراء الطاهرة عاصفة السباب والشتائم، ونظرات الريبة والاتهام، بثبات ورباطة جأش، فلم يتزعزع يقينها بطهارتها وعفتها، ولم تهتز ثقتها بربها، الذي وعدها بلسان وليدها أن يدافع عنها:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى وليدها، ليتولى الدفاع عنها، وردّ التهم الظالمة الجائرة عنها، فقالوا متعجبين:

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا﴾ لم يبلغ سن الكلام.

• إني عبد الله:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

﴿قَالَ﴾ بصوت واضح، سمعه كل الذين كانوا حولها:

(١) انظر كتابنا: عائشة أم المؤمنين، ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدرها دار القلم بدمشق.

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد، والفرد الصمد، والمنزه عن الصاحبة والشريك والولد.

أول كلمة أنطقه الله بها ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ بادر ﷺ إلى الإقرار بعبوديته لله تعالى قبل أن يردَّ على أقوالهم، ويكذِّب افتراءاتهم على أمه، أنطقه الله تعالى بهذا الإقرار الصريح بعبوديته له ﷻ، لأنه سبحانه علم أن كثيراً من الناس سيُفتنون به، حتى يرفعوه في اعتقادهم عن مقام العبودية إلى مقام الألوهية، وتنزيه الله سبحانه عن الاتصاف بصفات الولادة والنقص أوجب الواجبات، وأهم المهمات، ينبغي أن يقدِّم على تنزيه مريم وتبرئتها من الإفك الذي اتهموها به.

﴿ءَاتَلْنِي الْكِتَابَ﴾ بما قدره سبحانه سابق علمه وقدره.

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ بما قدره أيضاً سبحانه وقضاه، والنبي لا يكون أبداً ابن بغي.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ معلماً للخير، نفاعاً في أي مكان حللت ونزلت.

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وهما أوجب واجبات العبد لربه.

﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فعلى العبد أن يعبد ربه طيلة حياته، فلا يسقط عنه التكليف مهما كانت منزلته أو مرتبته.

وقوله يدل على أنه ﷺ يعبد الله تعالى وهو حي في السماء، كما كان يعبد في الأرض، لأنه لم يمت بعد، يموت في الأرض بعد رجوعه إليها، كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة المتواترة.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ﴿٣٢﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ أي: وجعلني برّاً بوالدي، أكرمها وأعظمها.

وتصريحه ﷺ ببره بوالدته يؤكد شعوره بضغفه وعجزه، فمشاعر الأبوة

والبنوة تعويضٌ - كما قلنا - عن شعور الإنسان بضعفه وعجزه وافتقاره، وهو يتنافى مع صفة الألوهية التي وصفوه بها كذباً وزوراً.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ متكبراً عاقاً، فعقوق الأم من أسباب الشقاء.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (٣٣).

ومن يمر بهذه الأطوار: الحدث، ثم الموت، ثم البعث، لا يكون إلهاً، تعالى الله وتنزه عن الحدث والتغير والتبدل، تقدست ذاته وتسامت صفاته وتباركت أسماؤه.

● حقيقة عيسى وأمه:

هذه حقيقة عيسى ابن مريم:

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (٢٤).

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وهي على خلاف ما يصفه به النصارى من الإلهية والبنوة لله تعالى، فلا صحة لما في الأناجيل المتداولة في أيدي النصارى، مما يتعارض مع توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، فلقد طرأ على الإنجيل كثيرٌ من التحريف والتبديل، والحذف والزيادة، ويؤكد ذلك أن جميع الأناجيل التي يتداولها النصارى أغفلت الحديث عن المعجزة الكبرى لعيسى ﷺ، وهي معجزة كلامه في المهد، مع أن رواة الأناجيل حرصوا كل الحرص على تتبع كل أمرٍ خارق للعادة، أجراه الله تعالى على يد عيسى ﷺ، ولا ندري سبباً لإغفال الأناجيل لهذه المعجزة الكبرى سوى أنها تدل على عبوديته لله تعالى.

وهذه أيضاً حقيقة أمه مريم، الصديقة العذراء، الطاهرة البتول، مع أن بعض الأناجيل ذكرت ما يؤيد افتراءات اليهود، واتهامهم لها بالزنى، فإنجيل متى وإنجيل لوقا عندما تحدثا عن نسب عيسى ﷺ، ذكرا أنه ابن يوسف

النجار، ومع أنهما اختلفا في أسماء وأعداد أجداد المسيح ﷺ إلا أنهما اتفقا على أن يوسف النجار آخرهم في سلسلة نسب عيسى ﷺ.

وسكت الأنجيل المتداولة بأيدي النصارى أيضاً عن الحديث عن بيت آل عمران، وعن امرأته ونذرهما، وما جرى بين الأبحار من خلاف على كفالة مريم، ثم اتفاهم بعد ذلك على الاقتراع، وهو المذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] (١).

هذا التباين الكبير بين ما ذكره القرآن الكريم عن عيسى ﷺ وأمه، وبين ما في الأنجيل المتداولة بأيدي النصارى، يجعلنا لا نثق بما فيها، ولا نجد لدينا مصدراً لمعرفة حقيقة عيسى وأمه أوثق وأصدق من القرآن الكريم، ففيه نجد: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَارُونَ﴾ أي: يشكون ويتنازعون ويتجادلون.

• الصراط المستقيم:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٣٥).

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ فما من شأنه ﷻ، وهو الواحد الأحد، والأول القديم، والآخر الباقي أزلاً وأبدًا، أن يتخذ ولداً. ﴿سُبْحَنَهُ﴾ عما يقول الظالمون، ويفتري المفترون. ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أرادته ﷻ.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كما خلق عيسى ﷺ، بكلمة: (كن)، ف (كان) من غير أب، فالإله القادر على الخلق والإيجاد من دون أسباب ومقدمات، يتنزّه عن الاتصاف بصفات المخلوقين، المتصفين بصفات النقص والاحتياج، والحدوث، والتغير، والولادة.

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران، الذي أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

فتوحيد الله تعالى وتنزيهه عن صفات المخلوقين هو لبُّ التوحيد وأساسه، وهو الدين الحق والصراط المستقيم، الموصِل إلى رضوانه تعالى وجنته:

﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ وحده .

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهو من تنمة كلام عيسى عليه السلام في المهد، أو مما قاله لهم بعد ذلك في سن الكهولة عندما أرسله الله تعالى إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، فهو كقوله عليه السلام يوم القيامة في إعلان براءته مما نُسب إليه، والذي ذكره سبحانه في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿١٧١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿١٧٢﴾ (١) .

• الاختلاف:

ومع وضوح الحق، وكثرة البينات الدالة عليه، اختلف النصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافاً كبيراً، قال عنه عليه السلام:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزَّب كل فريق منهم برأيه، أي: انفرد به .
﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي: من بين بني إسرائيل الذين أرسل إليهم عيسى عليه السلام،
فالخلاف نشأ منهم لا من غيرهم في عيسى وأمه:
- ففريق قالوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ عِيسَى عليه السلام، هبط إلى الأرض، ثم صعد إلى

(١) انظر: تفسير سورة المائدة، المسمى في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

السماء، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

- وفريق آخر قالوا: إنه ابن الله - سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً - وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣١﴾ أَخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهَنَتْهُمْ أَزْكَابًا مِن دُوبِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

- وفريق آخر قالوا: إنه ثالث ثلاثة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

- وفريق آخر قالوا: إنه ابن زنى، وهم اليهود الذين كذبوا برسالته، والذين قال الله فيهم: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء].

- وفريق آخر قالوا: إنه عبد الله ورسوله، وهم المؤمنون به حقاً، وقد اضطهدتهم الإمبراطورية الرومانية، حتى لم يبقَ منهم إلا عدد قليل كانوا يعيشون في مصر، ثم انقرضوا قبل ظهور الإسلام.

ثم توعد الله الذين كفروا بعد أن بيَّن اختلافهم بقوله الكريم:

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة لكثرة ما فيه من الأفاع والاهوال.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنَ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٨﴾.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أشد سمعهم وبصرهم في هذا اليوم

العظيم، يوم يأتون إلى موقف الحساب بين يدي الله تعالى، فلا نجاة فيه إلا للمؤمنين الموحدين، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» [رواه البخاري (٣٤٣٥) ومسلم (٢٨)].

﴿لَنْ يَكُنَ الظَّالِمُونَ﴾ الذين غَيَّرُوا وبدلوا وانحرفوا عن عقيدة التوحيد، ووصفوا الله بصفات النقص التي لا تليق بكماله وجلاله وغناه.

﴿أَلْيَوْمَ﴾ في الدنيا.

﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عن الحق.

﴿ثُمَّ يَنْبِئُ﴾ واضح ظاهر؛ بسبب غفلتهم عن رؤية الحق، وتعطيلهم لعقولهم وأسماعهم وأبصارهم عن النظر المحرر من رُبَّةِ الهوى والتقليد.

• يوم الحسرة:

فالقوم منشغلون بأهوائهم، وشهواتهم، ومصالحهم الدنيوية المادية، عن رؤية الحق والانقياد له، فلا ينتفعون بإنذارٍ ووعيدٍ مهما كان شديداً:

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أي: خوفهم من يوم القيامة، فهو يوم الحسرة، يتحسر فيه المسيء على إساءته، والمحسن على قلة إحسانه.

﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: عندما يُفْرَغُ من الحساب، ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

ويبقى القوم سادرين في غفلتهم، مصرّين على كفرهم وضلالهم، رغم شدة الإنذار وقوته:

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عما ينتظرهم في الآخرة.

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

ثم قرر سبحانه كماله وغناه وتفردّه وحده بالبقاء والدوام، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فهو وحده المالك على الحقيقة، الذي لا ينقطع ملكه ولا ينتهي، نزول الممالك والملوك، ويبقى مالك الملك، الواحد الأحد القهار، الوارث لكل ملك، لأنه الباقي الدائم، حيث يقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

فالولادة والولد من صفات النقص، وهي شأن المخلوقين الفانين الزائلين، يتنزه الله ﷻ عن الاتصاف بها، والذين لا يخرجون عن إرادته سبحانه ومشيتته قبل الموت وبعده:

﴿وإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فمرجعهم بعد الموت إلى مشيئته وحكمه وأمره ﷻ.

وبهذا التقرير الحاسم لكمال الله تعالى وغناه، واتصافه بصفة البقاء والدوام، وتنزهه عن الاتصاف بصفات النقصان، ختمت الآيات الكريمة قصة مريم وولدها عيسى عليه السلام.



الفصل الثالث التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهِ

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ الْهَيْئِ يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦﴾ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ وَنَدْبَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّغْنَاهُ يُحْيَا ٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إسماعيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ بِأَمْرِ أَهْلِهِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ٦٣﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ وَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ ٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعَذَابِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا

مَا مِثْلُ لَسَوْفَ أُخْرِجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَرَوَّيَكَ
لِنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَ
أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِينًا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلًا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ
رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَنْجِي الَّذِينَ أَنْقَا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تَلَّىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدًا ﴿٧٣﴾ وَكَرَّ أَهْلُكَا
قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَبِّيَا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا
مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ
الَّذِينَ أَهْتَدُوا هُدًى وَيُضِلُّ السَّالِكِينَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي
كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾
كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ
الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾
وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَىٰ الرَّحْمَنِ
عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

• ملة التوحيد:

إبراهيم عليه السلام علم من أكبر أعلام الموحدين في تاريخ البشرية، فقد دعا إلى التوحيد في البلاد التي كانت أكثر البلاد ازدحاماً بالناس، وأقدمها حضارة ورقياً وعمراناً، في بلاد الرافدين حيث ولد ونشأ، وابتلي من أجل دعوته إلى التوحيد

بما ابتلي به من طغيان المشركين وظلمهم، حَتَّى أُلْقِيَ فِي نَارٍ عَظِيمَةٍ أُجِبت من أجل إحراقه، فَنَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا، وَكَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا.

ثم هجر هذه البلاد لله تعالى، وانتقل إلى بلاد الشام، فدعا هناك إلى التوحيد في شمالها وجنوبها، ثم تحوَّلَ إلى وادي النيل، وهو يدعو إلى توحيد الخالق العظيم وعبادته سبحانه وحده، ثم رجعَ إلى فلسطين، وسافر إلى الحجاز من أرض العرب، ليرفعَ بأمر الله تعالى قواعدَ بيت الله الحرام، ويدعو الناس إلى الحج إليه ليعبدوا الله الواحد الأحد في رحابه.

وإبراهيم عليه السلام هو الذي رفعَ إلى الله تعالى هذه الدعوات الكريمة للأمة المسلمة الموحدة ونبىها عليه الصلاة والسلام، وشاركه فيها ولده إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ۝١٢٧ رَبَّنَا اجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٢٨ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَعَزُّ الْوَكِيلِ﴾ [البقرة].

وقد جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم الكتاب والنبوة، فكل دعاة التوحيد من الأنبياء والمرسلين الذين جاؤوا بعده من فروعه وذريته حتى خاتمهم وإمامهم سيدنا محمد ﷺ، ولهذا كانت ملة إبراهيم هي ملة الموحدين المسلمين إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية [الحج: ٨٧] (١).

فكلُّ من ينحرف عن ملة إبراهيم في التوحيد فقد أوقع نفسه بالسفاهة والجهل والحمافة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

(١) انظر: (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج) وهو تفسير سورة الحج في هذه السلسلة: (التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم).

وكان ﷺ أمةً في التوحيد والدعوة إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

ولهذا جعله الله تعالى قدوةً لإمام الموحدين وخاتم المرسلين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

فلا عجب بعد هذا أن تنتقل آيات سورة مريم، وهي سورة التوحيد والتزويه؛ إلى نبي الله إبراهيم ﷺ، لتعرض لنا جوهر دعوته، من خلال محاورته لأبيه، وهو يدعو إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، وترك ما كان عليه من الشرك والوثنية.

وجاء اختيار الآيات هذا الجانب من دعوة إبراهيم ﷺ لأبيه متفقاً ومتسقاً مع الجو المخيم على السورة، جو الأبوة والبنوة والمشاعر الإنسانية، التي تفيض بها قلوب الأنبياء ﷺ، والتي تدلُّ على كمال بشريتهم وإنسانيتهم، وفي الوقت نفسه تدل أيضاً على عبوديتهم لله تعالى، واحتياجهم وافتقارهم إليه سبحانه جل وعلا.

● الضعفاء المتألهون:

ومنبعُ هذه العواطف وأصلها كما بيَّنا، إدراك الإنسان لعجزه وضعفه، ومحدوديته، هذا الإدراك يقيُنُ مركزاً في فطرة كل إنسان، وفي كل مخلوق حي، ويستشعر كل إنسان هذه الحقيقة ويحس بها، إلا أنها تنتقل أحياناً إلى أعماق اللاشعور عند بعض المتألهين من المتكبرين والمتجبرين، فيظنون أنفسهم أقوياء، بسبب ما بأيديهم من بعض أسباب القوة والسلطان، فإذا ما نزعَت هذه الأسباب من أيديهم، عاد إلى ساحة شعورهم إدراكهم الفطري الغريزي بالضعف والعجز، وعادوا إلى معرفة افتقارهم واحتياجهم لخالقهم سبحانه.

انظر إلى فرعون المتأله الذي كان يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

ويقول أيضاً لأهل مصر: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

انظر إليه عندما انخلع عن أسباب ملكه وسلطانه، ووقع بين الأمواج في البحر ماذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وانظر إلى طاغية قوم إبراهيم عندما واجهه إبراهيم ﷺ بحقيقة عجزه وضعفه، كيف بُهت ودهش، وانخضم وانقطع: ﴿الَّذِي تَرَىٰ إِلَى اللَّهِ خَافَ بِإِزْهِمٍ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالكمال الإنساني مرتبطٌ بمدة إحساس الإنسان بحقيقة ضعفه، وافتقاره وعبوديته لله تعالى، والأنبياء ﷺ أكملُ الناس، لأنهم أكثرُ الناس إحساساً بافتقارهم وعبوديتهم لله ﷻ، فلا عجب أن تكونَ مشاعر الأبوة والبنوة، وهي تعويض عن الإحساس بالعجز والضعف، أقوى في قلوبهم وأنصح في نفوسهم وضمائرهم^(١).

وقد بينت لنا آياتُ السورة في أولها قوة عاطفة الأبوة عند نبي الله زكريا ﷺ، وأظهرت لنا من خلال صفات نبي الله يحيى ومن خلال كلمات نبي الله عيسى ﷺ قوة عاطفة البنوة عندهما، وتنتقل الآيات الكريمة الآن إلى النبي الكريم إبراهيم ﷺ لتعرضَ لنا صورةً أخرى من صور البر والحنان، بر الولد بأبيه.

● أدب الولد مع والده:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١).

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ أي: مبالغاً في الصدق، في دينه وعبادته، ودعوته، وفي كل شؤون حياته.

(١) انظر: الأنساب والأولاد، للمؤلف، وهو من مطبوعات دار القلم بدمشق.

﴿يَبْتَغِ﴾ جمع الله تعالى له المقامين، وشرّفه بالمنزلتين: منزلة الصّديق، ومنزلة النبي.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَبْتَغِ لِي مَعْزُودًا مَّا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢).

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ أزر صانع الأصنام، وسادن من سدنة الأوثان، صرح الله تعالى باسمه في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرَأْتُ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿يَبْتَغِ﴾ ناداه بمقام الأبوة احتراماً له وتأليفاً، ومن حقوق الوالد على ولده ألا يناديه إلا بما نادى إبراهيم ﷺ أباه.

﴿لَمْ تَعْبُدْ مَّا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ لقد سلك ﷺ في دعوة أبيه أحسن منهاج، واحتجّ عليه أبلغ احتجاج، بدأ بتخليه قلبه عن تعظيم الأصنام، فبين له أنها لا تستحق شيئاً من العبادة والتعظيم لعجزها وضعفها، فهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تجلب نفعاً لعبادها، ولا تدفع عنه ضرراً.

ثم لفت نظر أبيه إلى ما أكرمه الله تعالى به ومنّ عليه من النبوة، فقال مكرراً نداه بصفة الأبوة لما فيها من الاستعطاف والاستلطاف:

﴿يَبْتَغِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (٤٣).

﴿يَبْتَغِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ وهو النبوة، وهي علمٌ وهبي لا كسبي، يتفضل الله تعالى به على من يشاء من عباده.

﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ تأدب ﷺ مع أبيه، فلم يواجهه بوصفه بصفة الجهل التي كان عليها بسبب شركه وكفره، فعبّر عنها بقوله: ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾.

ثم دعاه متلطفاً متأديباً:

﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: أدلك على الطريق المستقيم والدين القويم، وهذا من أدبه ﷺ مع أبيه، جعل نفسه معه كدليل ورفيق في الطريق.

ثم بيّن إبراهيم لأبيه أن عبادة الأصنام ليست إلا طاعة للشيطان؛ لأنه مؤسسها الأول وراعيها، والداعي إليها:

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤﴾.

﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ بطاعته في عبادة الأصنام، فطاعة الشيطان خضوع له وعبادة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٥٦﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥٧﴾ [يس].

ولهذا عندما يتبرأ الشيطان من أتباعه وأوليائه يوم القيامة، يقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].
فطاعة الشيطان نوع من أنواع الشرك بالله تعالى.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فالشيطان عاصٍ للرحمن الذي عمّت رحمته وإحسانه جميع خلقه.

ثم حذره من سوء العاقبة بهذا الوعيد المشوب بعاطفة الشفقة واللطف، شفقة الولد على والده:

﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥﴾.

﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ إن أقمت على الشرك والكفر.
﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: قريباً له في العذاب وقريباً منه في النار.
أما الوالد المعاند، فقد قابل عطف ولده، وبره وإرشاده، بالفظاظة والغلظة والعناد:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابَرِهُمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦﴾.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَابَرِهُمُ﴾ فلم يقل له: (يا بني) مقابل قول إبراهيم: ﴿يَتَابَتِ﴾.

وقدّم الاستنكار وآخر النداء، ثم أضاف إليه التهديد والوعيد:
﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُ﴾ عن دعوتك إلى عبادة الله، وانصرافك عن عبادة الأصنام.
﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي: لأرمينك بأنواع الدّم والشم، أو بالحجارة حتى الموت،
فاحذرنى.

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وابتعد عني واعتزلني زماناً طويلاً.
وبقي إبراهيم عليه السلام على رفته وعطفه، وأديه مع أبيه، رغم ما لقي منه من
غلظة وخشونة وجفوة:

﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (٤٧).

﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ﴾ توديع ومشاركة، على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي:
لا أصيبك بمكروه، ولا أشافهك بما يؤذيك، وهو نظير قوله تعالى: ﴿لَنَأْغُمَّنَّكَ
وَلَنَكُمُ أَغْمًا﴾ سَلِمْتُ عَلَيْكُمْ لَا بَنَغِي الْجَهْلِينَ ﴿[القصص: ٥٥]﴾^(١).
﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي: سأدعوه بأن يغفر لك، بأن يوفقك للتوبة،
ويهديك إلى الإيمان.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ عظيم البر والإكرام.
فالاستغفار الذي وعد إبراهيم أباه هو طلب الهداية له والتوبة، ولهذا قال
في دعائه: ﴿وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وهو جائز ما دام المستغفر له في الحياة؛ لأنه يُرجى منه الإيمان، أما إذا
مات على الكفر فلا يجوز الاستغفار له، بمعنى طلب المغفرة له، قال تعالى:
﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبَاتِ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١٢٢) وَمَا كَانَ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا
إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿[التوبة: ١١٨]﴾.

وقد يقال: إذا كان الأمر كذلك؛ فلمْ مُنعنا من التأسّي بإبراهيم في قوله

(١) انظر: روح المعاني: ٩٩/٦.

تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الممتحنة: ٢].

لعل سبب ذلك: أن أكثرنا لا يفرقون بين الاستغفار بمعنى طلب الهداية لمن تُرجى منه، وهو جائز، وبين الاستغفار بمعنى طلب المغفرة لمن مات على الكفر، وهو غير جائز.

أو لعل استغفاره ﷺ لأبيه كان من خواصه، ومباحاً له ﷺ^(١).

• المهاجر الأول:

وهجر إبراهيم ﷺ أباه وقومه وبلاده من أجل دينه وعقيدته، فهو المهاجر الأول في سبيل التوحيد، هاجر إلى الله من أجل الله، وفي سبيل الله ﷻ، وخرجَ ومعه زوجته وابن أخيه لوط ﷺ بعد أن ألقاه قومه في النار، ونجّاه الله منها، وجعلها برداً وسلاماً عليه، خرج وهو يقول: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩].

وهده الله سبحانه إلى الأرض المباركة في بلاد الشام: ﴿وَبَجَيْنَهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وأعلن ﷺ قبل أن يغادر بلده، ويبتعد عن أهله وقومه اعتزاله لهم، وبرائه من شركهم وكفرهم، فقال:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٨١﴾﴾.

أي: وأرجو أن يستجيب الله دعائي، وألا يخيب رجائي، فقد عودني سبحانه على فضله ورحمته.

وقد سبق معنا في أول السورة أن زكريا عليه السلام قال أيضاً في دعائه: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

ووهب الله تعالى له الذرية الطيبة موساةً له في غربته:

﴿فَلَمَّا آعَزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

﴿فَلَمَّا آعَزَ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: اعتزل قومه ومظاهر شركهم وكفرهم.

﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بدل الذين اعتزلهم من أبيه وقومه الكفرة.

ولم تأت هذه الهبة الإلهية بعد الهجرة مباشرة، فالمشهور أن أول ما وهب الله له من الأولاد إسماعيل عليه السلام، استجابة لدعائه بعد هجرته من بلاده، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهَدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ [الصافات].

وكان إسماعيل من هاجر، ثم حملت زوجته الأولى سارة بإسحاق، وقد تزوج في حياة أبيه إبراهيم وولد له يعقوب عليه السلام.

ولعل ترتيب هبة إسحاق ويعقوب هنا في الآية، على اعتزال إبراهيم لأبيه وقومه، لبيان كمال عظم النعمة التي أعطاها الله تعالى لإبراهيم، بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء، وأخر سبحانه ذكر إسماعيل، لأنه أراد أن يذكره بفضله على الانفراد^(١).

وأنتم الله نعمته على إسحاق وولده يعقوب فأكرمهما بالنبوة:

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وهذا من فضله تعالى ورحمته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾

أي: جعلنا لهم ذكراً حسناً رفيعاً بين الناس.

(١) انظر: روح المعاني: ١٠٢/٦.

• موسى وهارون ؑ :

ثم ذكرت الآيات بعض الأنبياء العظام، الذين تفرّعوا من ذرية إبراهيم من فرع إسحاق، فقال تعالى :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ .

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام : استخلصه الله تعالى واصطفاه، وبكسرهما : وحّد الله تعالى بعبادته، فلم يعبد سواه .
﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ نبأه الله تعالى وأنزل عليه التوراة .

﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ٥٢﴾ .

﴿وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أوحى الله تعالى إليه، وكلمه بجانب جبل الطور في صحراء سيناء، من الشجرة التي كانت على يمين موسى ؑ ، حين عاد من مدين إلى مصر .
﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ تقريب منزلة ومكانة، وشرّفه جلّ وعلا بمناجاته وأسمعه كلامه .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾ .

فقد سأل موسى ؑ ربه فقال : ﴿وَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٢١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ كَيْ سَحَحَ كَثِيرًا ﴿٢٣﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿٢٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٢٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿طه﴾ .

• إسماعيل ؑ :

ثم ذكرت الآيات الفرع الثاني للنبوّة، المتفرعة من ذرية إبراهيم ؑ :

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ .

أكرمه الله تعالى بالنبوّة والرسالة، وخصه بصدق الوعد - وإن كان موجوداً

في غيره من الأنبياء ﷺ - تشريفاً له، ولأن صدق الوعد من أشهر خصاله ﷺ، حتى إنه لما وعد أباه إبراهيم بالصبر على ألم الذبح صدق في وعده لأبيه، وذلك عندما أراد إبراهيم ﷺ أن يذبحه تنفيذاً لأمر الله تعالى له بذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَّبِعُ أَخْلَ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١١٦﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١١٧ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَّبِعْ إِبْرَاهِيمَ ۝١١٨ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّبِّيَّ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٩ إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٢٠ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات].

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وهي من الخصال الشريفة الحميدة التي عُرف بها إسماعيل ﷺ، وهي من أهم الواجبات التي كُلف بها الإنسان نحو أهله، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]. ويأمر أيضاً قومه بها.

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وهذا نهاية في المدح، لأن المرضي عند الله تعالى هو الفائز في كل طاعة بأعلى الدرجات^(١).

ثم ذكر سبحانه إدريس ﷺ، وهو من الأنبياء المتقدمين في الزمن على إبراهيم ﷺ؛ ليبين لنا أن دعوة التوحيد قديمة لم تبدأ في عهد إبراهيم ﷺ، بل كانت قبله، ونادى بها الأنبياء منذ بدء الوجود البشري على الأرض:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝٥٦﴾.

وجمع الله تعالى له مع شرف النبوة والصديقية المكانة الرفيعة العالية عنده جللاً وعلا:

(١) تفسير الخازن: ١٦٥/٤.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ .

• صفتان متلازمتان:

ثم بعد أن ذكرهم سبحانه بأفرادهم وأعيانهم، ذكرهم على وجه الإجمال مشيراً إليهم بقوله الكريم:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٨﴾ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ أي: من أولاد آدم، كإدريس عليه السلام، فهم موصوفون بصفة الولادة التي تدل - كما قلنا - على عبوديتهم لله تعالى الذي أنعم عليهم، وفصلهم على غيرهم.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ كإبراهيم عليه السلام، أي: وهم متفرعون بالولادة ممن كانوا مع نوح في السفينة.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ كإسماعيل عليه السلام.

﴿وَإِسْرَءِيلَ﴾ يعقوب، ومن ذريته: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى عليه السلام.

ثم بين سبحانه كثرة عبادتهم وخضوعهم له جل وعلا فقال:

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أي: وهؤلاء ممن هداهم الله تعالى لعبادته، واصطفاهم لنبوته ورسالته.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي: سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعالى وحده، باكين من خشيته جل جلاله.

ويلاحظ المتدبر للآية الكريمة أنها أبرزت من صفاتهم صفتين متلازمتين، هما:

- صفة الولادة التي تدل على الحدوث والضعف والعجز.

- وصفة الخضوع لله تعالى والخشية منه.

وهذا يؤكد عبوديتهم لله تعالى، وينفي عنهم أي صفة من صفات الألوهية.
وهذه الآية من آيات سجود التلاوة في القرآن الكريم التي يُسَنُّ السجود لله تعالى عند تلاوتها أو سماعها.

• اتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ:

ورحل هؤلاء الأنبياء عن الدنيا عندما حانت آجالهم، وانقضت أعمارهم، وتركوا وراءهم أولادهم وذريتهم، الذين أصبحوا مع مرور الأيام أجيالاً كثيرة متعاقبة، فكيف كان حال هذه الأجيال؟:

﴿خَلَفَ مِنْ بَٰعِثِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾.

﴿خَلَفَ مِنْ بَٰعِثِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ بتركها أو بتغييرها وتبديلها، ومن أضاع الصلاة، وهي عمود الدين وركنه الركين، فهو لما سواها أضيع.

والسبب الرئيس لانحرافهم عن منهج الصالحين من آبائهم: اتباعهم للشهوات، وانهماكهم في الملذات:

﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ وكلمة ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ تدل على الانقياد والاستسلام، فقد أسلموا زمام أنفسهم للشهوات والنزوات، فقادتهم إلى الفساد والضلال، في مختلف شؤون الحياة.

﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: سوءاً وفساداً وضلالاً في الدنيا، وعذاباً شديداً في الآخرة، فمسؤولية الإنسان أمام الله تعالى مسؤولية شخصية: ﴿وَلَا نُزِرُ وَارِدَةً وَنَزَرُ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولا يُسأل الآباء عن ضلال أبنائهم، ولا ينتفع الأبناء الكفرة بصلاح آبائهم البررة، إلا إذا كانوا مؤمنين، فحينئذ ينفع الله بعضهم ببعض، ويلحق المقصّرين بالسابقين، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

• الوعد المأتي:

ثم فتحت الآيات الكريمة باب التوبة لعبيد الشهوات، المنهمكين بالنزوات والملذات، بقوله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ بالندم على ما سبق.

﴿وَأَمَنَ﴾ بالله الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أصلح به ما أفسده باتباع شهواته.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون التائبون.

﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بفضل سبحانه ورحمته.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾.

وفي الجنة:

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أعدّها الله تعالى للإقامة الدائمة فيها.

﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ المؤمنين التائبين، فصفة العبودية لله تعالى صفة دائمة

لازمة لهم.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: وعدهم بها وهي غائبة عنهم وهم غائبون عنها، ولكنهم

مصدقون بوجودها، وواثقون بوعد الله سبحانه بها.

﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ أي: إنّ الحال والشأن أن وعده تعالى لا بد أن يتحقق،

ولا بد أن يأتي المؤمنون إلى الجنة التي وعدهم سبحانه بها، فوعده سبحانه

لا يتخلف، فهو كقوله: ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨].

والجنة دار السلام، لسلامتها عن المنغصات والمكدرات، ولهذا قال الله

في وصفها:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١﴾ .

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلاماً لا فائدة فيه .

﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ ولكن يسمعون الكلمات التي تدل على المحبة والمودة، والتي يحب الإنسان أن يسمعها، وَيَسْلَمُونَ بها من كل عيب أو نقیصة، فكلام أهل الجنة لا كذب فيه، ولا نسيمة، ولا غيبة، ولا شتيمة، ولا سخرية .

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: لهم رزق دائم لا ينقطع عنهم ولا ينتهي .

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ١٢﴾ .

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ دار السلام والنعيم والخلود .

﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: نعطيها لمن كان من عبادنا الأتقياء الصالحين .

• خضوع الملائكة لله تعالى:

والله سبحانه خالق كل شيء ومالكة، سواء كان في الأرض أو في السماء، والمخلوقات كلها في قبضة قدرته سبحانه، وخاضعون لقضائه ومشيئته، وهام سكان السماء من الملائكة يعلنون هذه الحقيقة، حقيقة خضوعهم لله تعالى، فلا يتحركون إلا بأمره ومشيئته ﷻ :

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ١٣﴾ .

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قال ذلك للنبي ﷺ جبريلُ القويُّ الأمين عندما سأله النبي ﷺ قائلاً: «يا جبريلُ ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» فنزلت: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ . [رواه البخاري (٤٧٣١)] .

أي: فله سبحانه ما أمامنا وما خلفنا من الأماكن، وما نحن فيه، فلا نتقلُ

من مكانٍ إلى مكانٍ إلا بأمره ومشيتته، فهو الحافظ والعالم بكل حركة وسكون، ولا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بأمره ومشيتته.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ يتنزه سبحانه عن الغفلة والنسيان وعن كلِّ صفةٍ تدل على العجز والضعف والنقصان. وهو:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ١٥﴾.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ﴾ وحده، فلا ربَّ سواه، ولا إله غيره.

﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي: دُم على عبادته وطاعته، والخضوع لأمره ومشيتته، فإذا عرفت فالزم، فإذا عرفت الله تعالى بكماله وغناه ووحدانيته، فالزم الخضوع له وحده.

وكلمة ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ تدل على أنَّ للعبادة أعباء وتكاليف، ففيها مكابدة لشهوات النفس وميولها، وتستدعي صبراً على احتمال تكاليفها، والتجرد الكامل عن العلائق ومجاوزة للعوائق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس].

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم الله تعالى شياً ومثلاً ونظيراً. أو: هل تعلم أحداً يُسمَّى باسم الله غيره. وعلى كلا المعنيين فالاستفهام تقرير لوحدانيته جل وعلا وتنزهه عن الشريك والصاحبة والولد.

● الإيمان بيوم القيامة والتنزيه:

ويستدعي توحيد الله سبحانه وتنزيهه الإيمان بيوم القيامة، وما فيه من حسابٍ وعقابٍ وثوابٍ، فلا يُعقل أن يخلق الله تعالى هذا الكون الكبير ويُدبره هذا التدبير، ثم ينتهي بالموت والفناء، يتنزه الخلاق العظيم، والعليم الحكيم، عن اللعب والعبث والباطل؛ ولهذا قال جل وعلا لمنكري يوم القيامة والبعث: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

وقال لهم أيضاً: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَعًا مِنْ مَنِيٍّ مُتَّبَعًا ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَتُهُ فُسُوءًا ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُخْجِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة].

وإذا ما نظر الإنسان في نفسه، وتفكر في المخلوقات من حوله، لا بد أن يدرك سر خلقه وحكمة وجوده، فيقر بها قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا تُسَبِّحُكَ فَقَتَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

يتنزه الله جل وعلا عن الباطل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٧﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

ويتنزه أيضاً عن اللعب وهو القائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ ﴿٦٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء].

والقائل أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان].

ولا يكون الخلق بالحق إلا بالحساب والمسؤولية في يوم القيامة، فانظر كيف قرن الله تعالى بين الخلق والحق ويوم القيامة في قوله الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ أَصْفَحَ الْجَبِيلِ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥].

● استنكار واستبعاد:

ولهذا كان الإيمان بيوم القيامة أحد أركان الإيمان الكبرى؛ لما له من ارتباط وثيق بتنزيه الله ﷻ عن صفات النقصان، فهو من قضايا الإيمان الكبرى التي اهتم بها القرآن الكريم، وأنزل الله فيها كثيراً من الآيات الكريمة، يرد فيها على المشركين المنكرين ليوم القيامة، فقد كان كثير من العرب في الجاهلية يستبعدون إعادة الإنسان إلى الحياة بعد أن يموت ويتفتت ويصبح تراباً.

وكثيراً ما حكى الحق سبحانه استبعادهم هذا، ثم ردّ عليهم ببيان كمال علمه وقدرته جل وعلا، ومنزهاً نفسه عن العجز والضعف، قال سبحانه:

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ إِذَا مَا مِثْ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا﴾.

والمراد من (الإنسان): الإنسان المنكر ليوم القيامة الذي يقول ذلك على وجه الاستنكار والاستبعاد.
وردَّ سبحانه عليه بالأسلوب نفسه، أسلوب الاستفهام الذي يدل على الاستنكار:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلَ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾.

كان على هذا الإنسان أن يتذكر كمال قدرة الله جل وعلا عندما خلقه أول مرة، وأخرجه من العدم، ولم يكن شيئاً، فأخرجه إلى الوجود بقدرته، وجعله شيئاً بمشيئته وحكمته، فلو تذكر هذه الحقيقة لما أنكر يوم القيامة، ولما استبعد قدرة الله على إعادة خلقه مرة ثانية، فهو كقوله سبحانه للمشارك المكابر الذي جاء بعظم بال إلى النبي ﷺ ففتنه أمامه قائلاً: يا محمد، هل يستطيع ربك أن يعيد هذا العظم بعد أن رمَّ وبلي؟! فأنزل الله ردّاً عليه وعلى أمثاله من المنكرين ليوم القيامة: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) [يس]. [رواه الحاكم (٤٢٩/٢) وصححه، ووافقه الذهبي].

• الجاثون حول جهنم:

إن الله سبحانه يغضب من مثل هذا المخلوق الضعيف وهو يتجرأ عليه ﷺ، ويصفه بصفات الضعف والعجز والنقص، وإننا نستشعر آثار غضبه جل وعلا من خلال كلماته:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أقسم سبحانه باسمه المقدس الذي يدل على ربوبيته لكل مخلوقاته، مع إضافته إلى نبيه ﷺ تفخيماً لشأنه، وتنوياً بذكره.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أي: لنجمعنَّ الكفارَ المنكرين ليوم الحشر، مع قرنائهم من الشياطين الذين كانوا سبب ضلالهم وكفرهم.
﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ وهم في نهاية الذلة والمهانة جالسين على رُكَبِهِمْ.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ﴾ أي: ثم يخرجُ الله تعالى.

﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل أمة وطائفة.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ رؤساء الكفر والضلال فيها، فهم المتكبرون المتجبرون، المنكرون لإحسان الرحمن.

وتأمل تركيز السورة على الاسم الكريم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ من أسمائه سبحانه الحسنى هنا في الآية، وفيما مر معنا من الآيات؛ مثل:

﴿إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٥٨].

﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ [مريم: ١٨].

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥].

وسياتي أيضاً ذكر هذا الاسم الكريم في عدد من آيات السورة، وهذا يدل على اتصاف الله بكمال الغنى، وكمال الإحسان على عبده الضعيف الإنسان، كما رحم عبده زكريا عليه السلام: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢].

وكلمة ﴿لَنَنْزِعَنَّ﴾ تدلُّ على الجذب بقوة وشدة وعنف، وهي تقابل العتو وهو التكبر، والتجبر، ومجاوزة الحد، والجزاء من جنس العمل، وتدل أيضاً على أنَّ لله سبحانه مع صفة الرحمة التي غمرهم إحسانها وبرُّها، صفات أخرى من الجلال والكبرياء، والجبروت والانتقام^(١)، وهي أيضاً من صفات كماله جل جلاله.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلَاً﴾ (٧٠)

أي: احتراقاً وعذاباً، فلا يضع الله تعالى أحداً في غير موضعه اللائق به،
فله سبحانه كمالُ العلم والحكمة، يعلم الذين يستحقون أن يقدموا في العذاب
إلى أسفل الدرجات في جهنم.

● القضاء المحتم:

ثم اتجهت الآياتُ تبيينُ رحمته سبحانه بعباده المؤمنين، وفضله عليهم يوم
الدين، بزحزحتهم عن العذاب، وإبعادهم عن النار، بعد الورود والاقتراب،
بقوله تعالى:

﴿وَإِنْ مَنَكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧١)

﴿وَإِنْ مَنَكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ليرى ما في النار من أنواع العذاب والنكال
والأغلال، فيعرف مقدار رحمته سبحانه به، وفضله عليه إذا نجَّاه منها، ويكون
أيضاً تلذُّذه بنعيم الجنة أعظم وأكمل بعد رؤيته للعذاب والنكال.

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: كان ورودهم على النار لازماً، ألزم الله تعالى
به نفسه، وقضى به، فهو قضاءٌ محتمٌّ مُبرَّمٌ، وقسمٌ معظَّمٌ، أقسم الله تعالى عليه.

ويؤكد هذا المعنى ما جاء في «الصحيحين» [البخاري (١٢٥١)] ومسلم
(٢٦٣٢): عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يموتُ لأحدٍ من
المؤمنين ثلاثةٌ من الولدِ فتمسه النارُ إِلَّا تَحِلَّةُ الْقَسَمِ» وفي رواية: «فيلج النارُ إِلَّا
تَحِلَّةُ الْقَسَمِ» أي: إلا مقدار الوفاء بالقسم.

فمعنى الورود: الدخول، فقد قضى الله تعالى أن يدخل النارَ البرُّ والفاجر،
والتقي والشقي، ويسلَّمُ الله تعالى برحمته الأبرارَ الأتقياء من عذابها وحرها،
كما سلَّم إبراهيم عليه السلام من الاحتراق بنار الدنيا، فكانت عليه برداً وسلاماً، وهذا

هو المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء].

وقد يكون المراد من الورود الحضور والرؤية، وذلك عندما يمرون على الجسر المنسوب فوق جهنم، كما جاء في الحديث الشريف: «فِيضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرِّسْلِ بِأَمَّتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسْلُ، وَكَلَامُ الرُّسْلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قالوا: نعم، قال: «فَإِنَّهُمْ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عَظِيمِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُوبِقُ (يَهْلِك) بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْجِدُ (يَنْصَرِعُ وَيَرْتَمِي) ثُمَّ يُنْجُو...» [رواه البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢)].

﴿ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ۖ﴾ (٧٢).

﴿ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك، ونزَّهوا الله تعالى عن صفات النقص والولادة والولد، كما جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ» وفي رواية: «مَنْ إِيْمَانٍ» [رواه البخاري (٤٤)] و«البرة»: القمحة.

﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ جالسين على ركبهم، والمراد بالظالمين المشركون، إذ الشرك أقبح أنواع الظلم وأعظمها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۚ يَبْنَىٰ لَا شَرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وفي «صحيح مسلم» [٢٤٩٦]: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أخبرني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايعُوا تَحْتَهَا» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها،

فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ (٧٢)».

• سؤال وجواب:

فما قيمة الدنيا ومتاعها لمن مآله إلى النار ونكالها، فإن لحظة في عذاب النار يوم القيامة تُنسي كل نعيم كان في الدنيا، كما جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ» [رواه مسلم (٢٨٠٧)]. قوله: «يُصْبَغُ» أي: يغمس.

وكان المشركون من أغنياء قريش يفتخرون على فقراء المؤمنين بما عندهم من متاع، وزينة، ورياش، وأثاث، فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قوله الكريم:

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣).

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله تعالى وكماله وغناه، وعلى صدق النبي ﷺ.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمنين والكافرين.

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ منزلاً ومسكناً.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ مجلساً ونادياً.

والغاية من هذا السؤال الافتخار بما عندهم من أثاث وزينة ورياش.

وَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بقوله تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا﴾ (٧٤).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: وما أكثر ما أهلك الله قبلكم من أجيال.

﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ متاعاً وأموالاً.

﴿وَرِيًّا﴾ أي: وأحسنُ منظراً وهيئة، لكثرة زينتهم، ورياشهم، وأموالهم. ومع كل ما كانوا فيه من الغنى والتمكن أهلهم الله تعالى وعذبهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً.

فالإنسان مهما ملك من متاع ومال في الدنيا يبقى ضعيفاً عاجزاً، لا يستطيع أن يمنع نفسه من قضاء الله تعالى وقدره، ومهما عاش في الدنيا وعُمر فيها، فإن ماله ومصيره أيضاً إلى الله تعالى وحكمه وقضائه:

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ (٧٥).

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فطول العمر لأصحاب الضلالة مكر بهم، واستدراج لهم، ليزدادوا ضلالاً وإثماً، وقطع لمعاذيرهم يوم القيامة، حيث يقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَحَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

ثم ماذا بعد العمر الطويل والمال الكثير؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ في الدنيا بتسليط المؤمنين عليهم يقتلونهم أو يأسرونهم.

﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يوم القيامة، والساعة أدهى وأمر.

وحينئذ يعلمون حقيقة الجواب على ما صدر عنهم من سؤال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]؛ فالجواب يأتيهم عملاً وعلماً:

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي: فسيعلمون عندما يدخلون

النار أهم خير وهم في النار ودرجاتها أم المؤمنون وهم في الجنة ودرجاتها؟.

ومرة ثانية أذكّر القارئ بتكرار السورة للاسم الكريم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي يدل

على غاية الكرم والغنى والإحسان.

ويزداد المؤمنون إيماناً و يقيناً بهذه الآيات البينات :

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْقِئْتُ الصَّالِحَتُ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ ولهم فوق ذلك :

﴿وَالْبَيْقِئْتُ الصَّالِحَتُ﴾ تبقى لهم إلى يوم القيامة ، فينفعهم الله تعالى بها :

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء] .

فهي خيرُ رصيدٍ يدخرونه لهذا اليوم :

﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي : مرجعاً وعاقبة .

• سُخْرِيَّةٌ وَجَزَاءٌ :

وبلغ بالمشركين الفسادُ إلى أن يتهكّموا ويسخروا من المؤمنين ، لأنهم يصدّقون بيوم المعاد ، كما فعل العاص بن وائل السهمي ، أحد رؤوس المشركين في مكة ، عندما جاءه خَبَّابُ بن الأرت رضي الله عنه يطالبه بدين له عليه ، فقال له : لا أقضيتك حتى تكفر بمحمّد ، فقال خَبَّابُ : لا والله لا أكفر بمحمّد حتّى تموت ثم تبعث ، قال : فإنّي إذا متُّ ثم بُعثتُ جئتني ولي ثمّ مالٌ وولّد فأعطيك ! فأنزل الله تعالى به وبأمثاله من المشركين المنكرين ليوم القيامة :

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٧٨﴾﴾ .

يعني : إن كان ما تقول حقّاً ، وُبُعثتُ يوم القيامة ، سأكون فيها ذا مالٍ وولّدٍ كما كنتُ في الدنيا .

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ أي : أعلم علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به ؛ حتى ادّعى

أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟! .

﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أن يؤتيه ذلك .

﴿كَأَلَّا سَكَتْنُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ۖ﴾ (٧٩)

﴿كَأَلَّا﴾ ردع له وزجر، يتناسب مع سخريته واستهزائه.
 ﴿سَكَتْنُ مَا يَقُولُ﴾ من السخرية والاستهزاء، لنحاسبه عليه.
 ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: ونضاعف له العذاب لكفره واستهزائه وجراته
 على الله تعالى.

﴿وَنَرِئُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ (٨٠)

﴿وَنَرِئُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نجرده من المال والولد الذي كان له في الدنيا.
 ﴿وَيَأْتِنَا﴾ يوم القيامة.
 ﴿فردًا﴾ لا مال معه ولا ولد، ولا حول له ولا قوة، كما كان في أول خلقه
 ونشأته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدًا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ
 ظُهُورِكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٩٤].
 • الاعتزاز بغير الله ذل:

فما أضعف الذي يعتز ويستنصر بغير الله تعالى، ذي الملك والملكوت،
 والقوة والجبروت! وهو سبحانه المعز والمذل، والمعطي والمانع: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ
 لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].
 فالعزة لله تعالى الذي لا يُغْلَبُ، وهي بيده ومشيتته، ومن أرادها من عباده
 فعليه أن يؤمن به سبحانه، ويتقرب إليه بالعمل الصالح، ويتوجه إليه بالكلم
 الطيب، مثنيًا عليه ﷻ، مظهرًا فقره واحتياجه إليه ﷻ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ
 الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ
 شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ﴾ [فاطر: ١٠].

فالعزیز من اعتزَّ بالله تعالى وحده، والدليل من اعتزَّ بغيره من المخلوقات

العاجزة الضعيفة الفانية، ولهذا قال تعالى يُوَيْخُ أولئك الذين يعتزون بغيره ويتهمكم بهم:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ﴾ (٨١)

أي: ليتعزّزوا بهم.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۖ﴾ (٨٢)

﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار عليهم؛ لأنهم طلبوا العز من معدن الذل.

﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يوم القيامة.

﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ بخلاف ما أملوا منهم وظنوا فيهم.

فالعزة لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين المعتزين بالله سبحانه، كما قال جلّ شأنه على سبيل التقرير: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

• العوبة الشيطان:

فالإيمان بالله تعالى وحده هو الحصن الحصين من مكر الشياطين وكيدهم، فإذا ما انسلخ الإنسان عن الإيمان بالله تعالى، أو غفل عنه؛ سلّط الله تعالى عليه الشياطين تحضه على الشر، وتزينه له؛ ولهذا قال سبحانه يخاطب النبي ﷺ مُعْجَبًا له من حال الكافرين، الذين أصبحوا بكفرهم ألعوبة بيد الشياطين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ﴾ (٨٣)

أي: تغريهم وتهيجهم على المعاصي تهيجاً شديداً، بأنواع كثيرة من الوسوس والتسويلات، والأزّ والهزّ والاستفزاز أخوات، معناه شدة الإزعاج^(١).

وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان عندما يتجرَّد عن الإيمان بالله تعالى يصبح العوبة بيد الشياطين يهزونه فيهتز، فالآيةُ خَصَّتِ الكافرين بهذا التسلط الكبير للشياطين عليهم، ولا يعني هذا أنَّ المؤمنين غيرُ مبتلين بالشياطين ووساوسهم وتسويلاهم، فللشياطين تسلُّطٌ على الناس جميعاً سوى الأنبياء ﷺ، لكن استجابة الكافرين للشياطين أكثر، وتأثرهم بهم أعظم؛ لأن الإيمان بالله تعالى قوة وعزة للإنسان المؤمن، يتحصَّن به من مكر شيطانه، ولا ينال الشيطان من المؤمن ما يريد إلا عند غفلة المؤمن عن ربه سبحانه، فإذا ما ذكر الله تعالى عاد إلى مأمنه وحصنه كما قال تعالى: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٠٠] إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ [الأعراف].

وبعد أن بيَّن الله تعالى شدة تسلُّط الشياطين على الكافرين، وقوة تأثيرهم عليهم، قال للنبي ﷺ:

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالإيمان، ولا تستبطئ دخولهم في الإسلام، فالقوم في سكرة وغواية الشياطين وضاللتهم، والأمر منوط بمشيئته تعالى، وقد جعل لكل أجل كتاب.

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: نحصي عليهم أعمالهم، وأعمارهم، وأنفاسهم، فكل شيء بالعدِّ لا بدَّ أن ينتهي إلى حد، والمخلوق ضعيف محدود، والله سبحانه القوي القاهر الذي لا تحده حدود.

• نبي الرحمة ﷺ:

والعجيب أنَّ كلَّ المفسرين الذين رجعت إليهم وجدُّتهم يفسرون الآية ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ بالعذاب، مع أنَّ المشهورَ من حاله عليه الصلاة والسلام أنه ما كان يستعجلُ عذابَ المشركين، بسبب ما انطوى عليه قلبه الشريف من رحمة ورأفة

بكل الخلق، فهو ﷺ نبي الرحمة، كما وصفه جل وعلا بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وكان ﷺ يستعجل هداية الكافرين شفقة عليهم، ويتألم عندما يرى إعراضهم وعنادهم، حتى أنزل الله عليه قوله الكريم:

﴿فَلَمَّا كَبَخَعَ نَفْسُكَ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرْتَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو على المشركين، بل يدعو لهم مهما اشتدوا عليه وعلى أصحابه بالأذى، ولما اشتد أذى المشركين على أصحابه قال له بعضهم: يا رسول الله ادع على المشركين، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني لَم أُبْعَثْ لِعَانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

ولما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ قائلة: يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ؟ قال ﷺ: «لقد لقيتُ من قومِك، وكانَ أشدَّ ما لقيتُ مِنْهُم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ ياليل بن عبدِ كلال (من زعماء ثقيف)، فلم يجبنِي إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفقُ إلا بقرْنِ الثعالب (اسم مكان على طريق مكة الطائف)، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فيها فإذا فيها جبريلُ، فناداني فقال: إنَّ اللهَ ﷻ قد سَمِعَ قولَ قومِك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعثَ إليك ملكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهم، قال: فناداني ملكُ الجبالِ، وسلَّمَ عليَّ ثم قال: يا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قولَ قومِك لك، وأنا ملكُ الجبالِ، وقد بعثني ربُّكَ إليك لتأمرني بأمرِك، فما شئتَ؟ إنَّ شئتَ أن أطبقَ عليهم الأخشبين (الجبليْن الكبيرين)» فقال له رسولُ الله ﷺ: «بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابِهِم من يعبدُ اللهَ وحده، لا يشركُ به شيئاً» [رواه مسلم (١٧٩٥)].

لهذا كلُّه أجدُ نفسي مضطراً أن أخالفَ ما عرفتُ من آراء المفسرين،

وأقول: إنَّه عليه الصلاة والسلام ما كَانَ يتعَجَّلُ عذاب الكافرين، بل كان يتعَجَّلُ إيمانهم وهدايتهم.

• عهد عند الرحمن:

وبعد أن تحدَّثت الآيات عن يوم القيامة، وردَّت على المنكرين لهذا اليوم، وبيَّنت ارتباط الإيمان به بالإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، وتنزيهه سبحانه عن صفات النقص، ختمت حديثها عن يوم القيامة بأحد مشاهده الكبيرة، عندما يُحْشَر المتقون إلى مستقرِّ رحمة الرحمن في الجنة، ويُساق الكافرون إلى مستقر غضبه وعذابه في النار:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٨٥).

يقدمون على ربهم برفعة وكرامة، كما تقدم الوفود على الملوك، فيُستقبلون بالضيافة والكرامة، وتقول لهم الملائكة من خزنة الجنة: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

والوفد: هم القادمون ركبانا، ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه^(١): ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَقُومُهُمْ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ (٨٦).

﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما تُساق البهائم بالغلظة والشدَّة.

﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ عطاشاً، وقد تقطعت أعناقهم من العطش.

والسوق: الدفع بشدَّة، وهو كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ۖ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٥/٢.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٨٧).

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ أي: لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد، إلا من بعد أن يأذن الرحمن لمن يشاء ويرضى، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٥]، ولا يأذن الله تعالى بالشفاعة إلا للمؤمنين الموحدين؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ والعهد: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله ﷺ، والقيام بحقها.

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فَلْيَقُمْ، قالوا: يا أبا عبد الرحمن فعلمنا، قال: قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي بقريني من الشرِّ، ويباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليَّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد^(١).

• القول الثقيل المنكر:

وأخيراً عادت الآيات الكريمة إلى الموضوع الأساس للسورة، وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والشريك والولد، وهو الذي من أجله ذكرت قصة مريم وولادتها لعيسى عليه السلام، وبيّنت حقيقة عبوديتهما لله تعالى، عادت الآيات لتحكي القول المنكر:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ (٨٨).

ثم التفتت إلى أصحاب هذا القول لتفاجئهم بالإنكار والذم:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٦/٢.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ (٨٩)

أي: منكرًا عظيمًا ثقیلاً، على القلب والنفس والعقل، ومن شدة ثقله وعظمه:

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزُّ الْجِبَالِ هَذَا﴾ (٩٠).

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن من هذا القول الثقيل الفطيع مرة بعد أخرى، فكلمة ﴿يَنْفَطَرْنَ﴾ تدلُّ على تكرر التشقق.
﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِزُّ الْجِبَالِ هَذَا﴾ أي: تسقط قطعاً مهدودة.
وكل ذلك من أجل:

﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (٩١).

إنَّه جرأة على الله كبيرة، أن يوصف سبحانه بالنقص والعجز والولادة والولد، وهو الواحدُ الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فلو صُوِّرَ هذا القول بصورة مادية محسوسة، لما تحملته هذه الأجرام العظام على شدتها وقوتها، ولو ركب في هذه الأجرام العظام ما في الإنسان من إدراك وسمعت مثل هذا القول الفطيع، لما تحملته إجلالاً لله وتعظيماً، وغضباً من أصحاب هذا القول المنكر.

قال ابن كثير رحمته الله: «يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات مؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو»^(١).

فما أحلمك ربي وأعظمك! يجعلون لك الولد؛ وتمدُّهم بأسباب الحياة

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٦/٢.

والرزق! قال رسول الله ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ ﷻ، إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يَعَايِهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ» [رواه البخاري (٦٠٩٩) ومسلم (٢٨٠٤)].

وكما أَنَّ كلمة الشرك ثَقِيلَةٌ في جانب الباطل، فَإِنَّ كلمة التوحيد ثَقِيلَةٌ أَيْضاً في جانب الحق، دَلَّ عَلَى ثِقَلِهَا حَدِيثُ الْبَطَاقَةِ الَّذِي يَرْوِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سَجَلًا، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتَنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظْلَمَكَ كِتَابِي الْحَافِظُونَ؟» فيقول: لَا يَا رَبِّ، فيقول: أَفَلَاكَ عُذْرٌ؟ فقال: لَا يَا رَبِّ، فيقولُ اللَّهُ تَعَالَى: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ. فَتُخْرَجُ بَطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فيقولُ: احْضُرْ وَزَنِّكَ، فيقول: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فقال: فَإِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ. فَتَوْضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلَتِ الْبَطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» [رواه الترمذي (٢٦٣٩) وحسنه، وابن ماجه (٤٣٠٠) وابن حبان (٢٢٥) والبيهقي والحاكم (٦/١) وصححه].

• الولد رحمة من الرحمن:

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (٩٢).

فلا يليقُ بالله تعالى ذي الرحمة والإحسان أن يتخذَ ولداً، فهو محال بالنسبة لجلال الله تعالى وكماله وغناه؛ لأنَّ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ يَكُونُ لِحَاجَةٍ وَمُجَانَسَةٍ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَنْزَعُهُمَا.

وفي تخصيص ﴿الرَّحْمَنِ﴾ بالذكر وتكريره في السورة مرات كثيرة - كما أشرنا من قبل - دليلٌ على أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الرَّحْمَنُ وَحْدَهُ، وَلَا يَسْتَحِقُّ غَيْرُهُ هَذَا الْاسْمَ؛ لِأَنَّ أَصُولَ النِّعَمِ وَفُرُوعَهَا مِنْهُ وَحْدَهُ ﷻ، وَالْوَلَدُ رَحْمَةٌ مِنْ رَحِمَاتِهِ،

ألا ترى إلى قوله في أول السورة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢]، ورحمته سبحانه عبده زكريا بولده يحيى.

وقوله سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]؛ فعيسى عليه السلام رحمة من رحمت الرحمن، وأثر من آثار الإحسان، فلا يكون ولداً للرحمن أبداً.

ورحم الله العلامة النسفي عندما قال: «فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فانت وجميع ما عندك عطاؤه، فمن أضاف إليه ولداً فقد جعله كبعض خلقه، وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن»^(١).

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

أي: خاضعاً ذليلاً، فلا يستطيع أي مخلوق مهما كان أن يسلم نفسه عن عبوديته لله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

فالإلهية والعبودية تنافيان ولا تجتمعان، ومن كان عبداً لله تعالى لا يكون إلهاً أو ابن إله قطعاً.

﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

وكيف لا يحصيه وهو خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم، وهم في قبضة قدرته وتحت قهره وسلطانه ﷻ.

أحصاهم بسابق علمه ومشيتته أولاً، قبل أن يخرجهم من العدم إلى الوجود. وعدّهم بعد الوجود كما أحصاهم، ولن تقوم الساعة حتى يتم العدد الذي سبق به علمه، وتعلقت به إرادته ومشيتته ﷻ.

(١) تفسير النسفي: ١٨٣/٤.

﴿وَكُلُّهُمْ عَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (٩٥).

كل إنسان يأتي إلى الله تعالى وهو في غاية افتقاره وضعفه، وحاجته إلى رحمة ربه وإحسانه، بلا مال ولا ولد ولا حول ولا قوة. وبعد هذا التهديد والوعيد، وما فيهما من خوف ورهبة، التفتت الآيات الكريمات تخاطب المؤمنين الموحدين بكل هذا اللطف والعطف واللين؛ لتطمين قلوبهم، وإيناس نفوسهم، وإزالة ما يمكن أن يعلق بهما من خوف ووحشة، بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦).

أي: سيجعل لهم الرحمن مودة في القلوب بسبب إيمانهم به وحده، وعبادتهم له وحده، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحَبَّهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ ينادي في السماء فيقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحْبَبُوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يَوْضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ...» [رواه مسلم (٢٦٣٧)].



الخاتمة

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ۝٩٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾

وجاءت خاتمة السورة تخاطبُ النبي ﷺ كما كانت تخاطبه في أولها، تذكّره بفضل الله سبحانه عليه بإنزال القرآن الكريم عليه، رحمةً من رحمت الرحمن الكبرى، وحنةً له عليه الصلاة والسلام، مؤيداً لدعوته، وصحة نبوته، وصدق رسالته:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا ۝٩٧﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغتك، وهي العربية التي أنزل الله بها القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء].

فقصة مريم عبرية، بينما اللغة لغة عربية في غاية الفصاحة والبلاغة، وهذا دليل على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، أنزله على النبي ﷺ. ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك والكفر، وينزهون الله تعالى عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ وهم الذين لا يؤمنون بالله الواحد الأحد لجاجاً وعناداً.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ﴾ أي: من جيل من الناس كثير.

﴿هَلْ يُحْسِ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: هل بقي لأحدٍ منهم من حسٍّ أو حركة؟!.
 ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أو تسمع منهم ولو صوتاً خافتاً ضعيفاً؟!.

كانوا يملؤون الدنيا بضجيجهم وحركاتهم، ثم زالوا وبادوا، ولا يبقى إلا الواحد الأحد، الحي القيوم، القديم الباقي الذي لا يزول ولا يموت، والغني عن ولد يرثه يكون امتداداً له بعد موته، سبحانه وتعالى عما يصفه المبطلون.
 وقد أحسن سيد قطب رحمه الله بتصويره ظلال هذه الآية في نفس الإنسان عندما قال: «وهو مشهّد يبدؤك بالرجّة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق، وكأنّما يأخذ بك إلى وادي الردى، ويقفك على مصارع القرون، وفي ذلك الوادي الذي لا يكاد يحده البصر يسبح خيالك مع الشخصوس التي كانت تدبّ وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، والأمانى والمشاعر التي كانت تحيا وتتطلع.. ثم إذا الصمتُ يخيمُ، والموتُ يجثمُ، وإذا الجثثُ والأشلاءُ والبلى والدمار، لا نأمة، لا حس، لا حركة، لا صوت: ﴿هَلْ يُحْسِ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾؟ انظر وتلفت ﴿أَوْ﴾ هل ﴿تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾؟ تسمع وأنصت.. ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب، وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت»^(١).





تفسير سورة طه سَبِيلُ السَّعَادَةِ فِي سُورَةِ طه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم النبيّين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فما فتىّ الناس منذ فجر وجودهم يبحثون عن سبيل سعادتهم وراحتهم على هذه الأرض، وإنّ الجهدَ البشري بأكمله موجّه، كما يظنون، إلى تحقيق هذا الهدف، ومع ذلك لا نراهم يقتربون منه، بل يزدادون بُعداً عنه، فكثير من الناس كانوا ولا زالوا يعانون من الشقاء والتعاسة والبؤس والحرمان، حتّى غلب اليأسُ عليهم، واصطبغت نظرهم إلى الحياة بالتشاؤم، ورأوا أنّ السعادة في هذه الحياة سرابٌ خادعٌ لا وجودَ لها في عالم الحقيقة والواقع، ولعلّ ازدياد نسبة المنتحرين ومرضى الأعصاب، وازدياد تناول المسكرات والمخدرات والمهدئات، تؤكّد مدى التشاؤم والشعور بالفشل والخيبة عند كثير من الناس.

فهل السعادة سراب لا وجود لها، أم أنّ لها حقيقة ووجوداً، وثمة خطأ جعل أكثر الناس لا يسلكون الطريق الصحيح السوي المؤدي إليها؟!

الله سبحانه الخالق العظيم عليم حكيم، ورحمن رحيم، وبرّ كريم، ما خلق الإنسان وميّزه على غيره من المخلوقات، و سخر له ما في الأرض

والسماوات، من أجل أن يشقى في حياته، ما خلقه سبحانه إلا ليسعده ويرحمه، ويشرفه بعبادته وطاعته، ولهذا أنزل عليه كتبه، وأرسل إليه رسله، ليبينوا له الطريق الذي يسعده في حياته الدنيا والآخرة، وما شقى الناس إلا لبُعدهم عن هذه الطريق، فشقاء الإنسان نابغ من اختياره و كسبه .

وقد اهتمت سورة طه بإبراز هذا المعنى، وكأنَّ الله ﷻ أنزلها لتأخذ بيد الإنسان التائه الشارد برفق ولطف إلى طريق سعادته وراحته .

أسأل الله ﷻ أن يثبتنا على طريق الهداية، وأن يوفقنا للسير عليه حتى نموت ونحن على أكمل حال .

وقد جاء تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى في أربعة فصول وخاتمة :

- الفصل الأول: عظمة القرآن الكريم، وعظمة منزله ﷻ .
- الفصل الثاني: قصة موسى ﷺ مع فرعون .
- الفصل الثالث: قصة موسى ﷺ مع السامري .
- الفصل الرابع: قصة آدم ﷺ مع الشيطان .
- الخاتمة: التعقيب الأخير على ما تقدّم .
- وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله و صحبه وسلّم .



تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

تدور أفكار ومعاني سورة طه في النقاط التالية:

- ١ - الله ﷻ متصف وحده بصفات الكمال والجلال.
 - ٢ - الإنسان بضعفه وعجزه لا يستغني بنفسه، بل لا بد له من هادٍ يهديه الطريق، ويرشده إليه، ويمدّه أيضاً بأسباب وجوده وسعاده.
 - ٣ - الله سبحانه الرحمن الرحيم، أعطى الإنسان كل أسباب سعادته وراحته في الدنيا والآخرة.
 - ٤ - شقاء الناس نابع من إعراضهم عن طاعة ربهم وعبادته.
- ولقد أبرزت الآيات الأولى في السورة النقطة الأولى، واهتمت بذكر بعض صفات الجلال والكمال التي يتصف بها الحق جلّ وعلا.
- وقصة موسى مع فرعون أبرزت النقطتين الثانية والثالثة؛ فموسى ﷺ كان في أشد الحاجة إلى معونة الله تعالى وهدايته عندما ضل الطريق في صحراء سيناء، والله سبحانه لم يتخل عنه، ناداه وأوحى إليه وأرشده، وأرسله إلى فرعون ليصح له طريق سيره بعد أن ضلّ وطغى.
- ثم بينت الآيات فواصل إحسانه سبحانه و سوابغ نعمه على عبده موسى السابقة على الرسالة واللاحقة.
- وأبرزت قصة موسى ﷺ مع السامري كيف يشقى الإنسان، فالشقاء نابع من كسب الإنسان واختياره وتسويل نفسه، وأكدت على هذه الحقيقة من خلال الجانب الذي عرضته الآيات من قصة آدم مع الشيطان.
- وجاءت الآيات في خاتمة السورة منسجمة تماماً مع أولها، تؤكد أن سعادة

الإنسان في عبادة ربه وطاعته، وأنَّ شقاءه في إعراضه عن ربه سبحانه، وشروده عن ساحة فضله ورحمته، وأنه سبحانه قد أقام الحجة على الخلق بإنزال القرآن الكريم، وبَعَثَ الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد جاءت أيضاً مباني كلمات السورة منسجمة مع معانيها العذبة الرقيقة؛ فمن أراد أن يستشعر مدى رحمة الله تعالى بالإنسان وفضله وإحسانه عليه فليقرأ سورة طه، ومن أراد أن يتذوق عذوبة تلاوة القرآن ونداوتها ورقتها فليقرأ سورة طه.

وإذا ما شعرت بقسوة في قلبك، ووحشة في نفسك، وجفوة في طبعك، فاقراً سورة طه.

فهي في معانيها ومبانيها تتجه إلى إسعاد الإنسان، وجعله يتذوق طعم اللذة والسعادة حتى في تلاوتها، فلا تفارقه لذة تلاوتها منذ أن تطالعه آياتها الأولى: ﴿طه﴾ (١) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا نَذْكُرَكَ لِمَنْ يَخْشَى (٣) ﴿حتى آخر كلمة فيها: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (١٢٥).

إن فيها الصراط السوي الهادي إلى سعادة الدارين والذي أسأله سبحانه أن يهدينا إليه، ويثبتنا عليه.



الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

عَظَمَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَظَمَةُ مُنْزَلِهِ ﷻ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

• الحروف المقطعة النورانية:

﴿طه ١﴾

يقال فيها ما قيل في غيرها من الحروف المقطعة النورانية، وقد تقدّم القول فيها في عدد من أبواب هذا التفسير المبارك.

وزاد المفسرون هنا: أن ﴿طه﴾ كلمة مفيدة، ومعناها: يا رجل، أو فعل أمرٍ بالوطء: طأ، فقلبت الهمزة هاء، وذلك لما روي: أن النبي ﷺ كان يقوم في تهجدته على إحدى رجليه، فأمر بأن يطأ الأرضَ بقدميه معاً^(١).

قال ابن كثير رحمه الله: «روي عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾: يا رجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والضحاك، وأسند القاضي عياض في كتابه «الشفاء»

(١) انظر: تفسير النيسابوري: ٧٨/١٦.

عن الربيع بن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا صَلَّى قام على رِجْلٍ ورفع الأخرى فأنزل الله ﴿طه﴾ يعني: طأ الأرض يا محمد^(١).

وذكر هذه الرواية أيضاً ابن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري»^(٢).

وإن صَحَّت هذه الرواية، فلعلَّه ﷺ كان يراوِحُ بين قدميه بسبب طول قيامه في تهجده بالليل، وقد صحَّ أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تَصْنَعُ هذا يا رسول الله وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أحبُّ أَنْ أَكُونَ عبداً شكوراً» [رواه البخاري (٤٨٣٧)].

وعن المغيرة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورَّمت قدماه، ف قيل له: غفرَ اللهُ لك ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّر! قال: «أفلا أَكُونَ عبداً شكوراً؟!» [رواه البخاري (٤٨٣٦)].

قال ابن حجر: «وفيه - أي: الحديث -: أَنَّ الشكرَ يكونُ بالعمل كما يكون باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وفيه ما كان النبي ﷺ من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه»^(٣).

والأولى أَنَّ ﴿طه﴾ من الحروف المقطعة، لأنَّها رسمت في أول السورة كبقية الحروف، وقُرئت مثلها على نمط التعددية وأسلوبها^(٤).

● القرآن سعادة لا شقاء:

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

لا شكَّ أَنَّ الخطابَ للنبي ﷺ فهو الذي أنزل الله عليه القرآن الكريم،

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٩/٢.

(٢) انظر: فتح الباري: ٤٣٢/٨.

(٣) المرجع السابق: ١٥/٣.

(٤) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/٦.

والمعنى المراد: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتتعب، فإن الشقاء شائع في ذلك المعنى، ومنه: أشقى من راضٍ مهر^(١). هكذا قال بعض المفسرين.

وأصل الشقاء في لغة العرب: العناء والتعب، ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم^(٢)

وما قيل من أن المراد بالآية تعبهُ ﷺ بسبب طول قيامه بالقرآن الكريم مستبعد، فقد أمر ﷺ بطول القيام، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرِّمْلُ ۖ قُرْ آلِيلًا قَلِيلًا ۝ يَصْفَهُ ۖ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ ٢﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿[المزمل].

وقال أيضاً: ﴿وَمِنْ آلِيلٍ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وكان رسول الله ﷺ يشعر براحةٍ ولذةٍ في صلاته وقيامه كما سيأتي معنا، والتعب الذي كان يعتريه ﷺ هو من قيامه بأعباء تبليغ الدعوة، ومواجهته لعناد المشركين وأذاهم، ومن حرصه أيضاً على هدايتهم، وحزنه حزناً شديداً بسبب إعراضهم وعنادهم، حتى أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وقوله أيضاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ ۖ إِنَّ لَكَ يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله أيضاً: ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ ۖ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

فقوله تعالى: ﴿مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ تكريم للنبي ﷺ ومواساة وحسن خطاب.

ويمكن أن يكون المراد من الشقاء المعنى المضاد للسعادة، وهو التعاسة والشدة والمحنة والضلال، وقد أورد القرآن الكريم كلمة الشقاء بهذا المعنى في

(١) تفسير أبي السعود: ٣/٥.

(٢) أضواء البيان: ٤٠١/٤.

عَدَّةَ آيَاتٍ، منها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (١٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿[هود].

وبالمقابل قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا...﴾ الآية [هود: ١٠٨].

والآية بهذا المعنى تردُّ على أعداء الإسلام الذين يفترون عليه، ويصدُّون الناس عنه بزعمهم أنه يسبب الشقاء والعناء لهم، وأنه لا يتفق مع تطور حياتهم، ولا يليبي حاجاتهم، فيوقعهم بالضيق، ويحرمهم من مُتَعِ الحياة ومباهجها ولذائذها... إلى آخر ما في جُعبهم من الأكاذيب والافتراءات التي يحاولون إلصاقها بالإسلام وشرعية القرآن.

هذه الأكاذيب يرددها أعداء الإسلام في العصر الحاضر، وهي ليست جديدة، فقد كان المشركون في مكة المكرمة يرددونها أيضاً، ويواجهون بها النبي ﷺ منذ فجر الدعوة، ويقولون: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ (١) مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَلتَشْقَى (٢) إِلَّا نَذِيرًا لِّمَن يَخْشَى ﴿[طه] فليس الأمر كما زعمه المبطلون^(١).

● سبيل السعادة:

فالقرآن الكريم ما أنزله الحق سبحانه إلا لسعادة الناس، ولا سعادة لهم إلا باتباع منهجه، وتطبيق شريعته، وكلُّما نأى الناس عن شريعة القرآن ازداد شقاؤهم، وعظم بلاؤهم، تماماً كما أخبر العليم الحكيم في كتابه الكريم: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

فالله سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم، وما أنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله إلا رحمة بهم، لأنه جلَّ وعلا الرحمن، ولعلَّ تكرار الاسم الكريم (الرحمن) في سورة طه فيه إشارة إلى هذه الحقيقة، فسبيل سعادة الناس أفراداً

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٦٩/٢.

وجماعات، في الدنيا والآخرة، في منهج القرآن الكريم وشريعته، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إِلَّا نَذْكِرُهُ لِمَن يَخْشَى﴾

قال قتادة: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، لا والله ما جعله الله شقياً، ولكن جعله رحمةً ونوراً ودليلاً إلى الجنة.

ذكر إمام المفسرين الطبري هذا الأثر في تفسيره^(١) ثم قال: حدثنا سعيد عن قتادة: قوله: ﴿إِلَّا نَذْكِرُهُ لِمَن يَخْشَى﴾ وإن الله أنزل كتبه، وبعث رسله رحمةً رحم بها العباد، ليتذكّر ذاكرٌ، وينتفع رجلٌ بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر له، أنزل الله فيه حلاله وحرامه فقال:

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾

والعُلَى: جمع العُلَيَا، تأنيث الأعلى، وفي وصف السماوات بها دلالة على عِظَم قدرة من يخلق مثلها في علوّها وبُعد مرتقاها، ممّا يدل على تعظيم شأن القرآن الذي أنزله خالق الأرض والسماوات العُلَى.

فلا يمكن أن يكون القرآن الكريم سبباً للشقاء والتعاسة، بل هو سبيلُ السعادة وأثر الرحمة والحكمة، لأنّه تنزيلُ الحكيم العليم، الرحمن الرحيم، خالق الأرض والسماوات، العلي العظيم.

• كمال صفاته جلّ وعلا:

وصفاتُ الكمال التي يتّصفُ بها صاحب الرسالة لا بدّ أن تظهر آثارها في رسالته، والمرسل هو الله جلّ وعلا المتّصف بكلّ صفات الجمال والكمال، والمنزّه عن كلّ صفات النقص، تباركت أسماؤه، وتسامت صفاته، وتقدّست ذاته.

(١) تفسير الطبري: ١٠٤/١٦.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥).

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي: هو الرحمن، منزل القرآن، فإنزال القرآن من آثار رحمته جلّ وعلا، كما في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن]؛ فلا يمكن أن يكون نزوله سبب تعب وعناء وشقاء، بل هو سبيل كل سعادة وهناء.

وقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ من صفات كماله جلّ وعلا، من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل^(١).

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦).

أي: جميع الكائنات له جلّ وعلا، فهو خالقها ومالكها، وهي في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته وإرادته وحكمته، من أعظم أجرامها التي في السماوات إلى أصغر ذراتها التي في باطن طبقات الأرض وفي داخل ثراها. والثرى: هو التراب الندي الذي في أعماق الأرض.

ومن صفات كماله وجلاله سبحانه: كمال علمه، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَإِنْ يَخْهَرِ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧).

ولا شك أن الذي يعلم السرّ وأخفى، يعلم كل ما يسعد الإنسان، ويصلح له في الدنيا والآخرة.

والسرّ: ما أسره الإنسان إلى غيره، وأخفى منه: ما أخطره بباله من غير أن يتفوه به أصلاً. ويمكن أن يكون ما أخطره الإنسان بباله ولم يتفوه به، هو السر، وأخفى منه ما يكون في ساحاته اللاشعورية التي لا تخضع لإدراك صاحبها،

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٧٠/٢.

ولا سلطان له عليها، والتي تظهر أحياناً وتطفو على ساحة شعوره وإدراكه دون إرادة منه ومن غير استجلاب لها، فكم مِنْ أسرارٍ في أعماق نفس الإنسان غائبة عن ذاكرته، ولا يستطيع تذكُّرها مهما بذل من جهد، بل تبقى مستقرة في أعماق نفسه، وقد يموتُ صاحبها، وتُدفن معه في طيات التراب، لا يعلمها أحد سوى الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى.

فواجبُ الإنسانِ الأولُ أن يذعنَ لربه، ويخضعَ له، وينقادَ لدينه وشرعه، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون، وهو المتصف بصفات الكمال وحده:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبودَ بحق إلا هو ﷻ، لأنه هو وحده المتصف بصفات الكمال والمنزّه عن صفات النقص، فلا يستحقُّ العبادة سواه، وكمال شريعته من كماله جلّ وعلا فهي سبيل السعادة، فتمسَّكوا بأمره، وانقادوا لشرعه، وسيروا على منهجه، فهو المعبود وحده، الذي لا تصلحُ العبادةُ إلا له، ولا تصلحُ حياتكم إلا بعبادته وطاعته.

● كمال أسمائه سبحانه:

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الدالة على كماله وصفاته، ولا حدَّ لكمالهِ جلّ وعلا، ولا حصرَ لصفاته سبحانه، ولهذا فإنَّ أَسْمَاءَ الحسنى لا حدَّ لها ولا عدَّ:

فمن أَسْمَاءِ الحسنى ما بيَّنه سبحانه في كتابه وسنة نبيِّه ﷺ، وهي الأَسْمَاءُ التي يجب أن نذكره بها، وندعوه بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا ندعوه بغيرها، ولا نذكره أيضاً إلا بها: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أَسْمَاءِ الحسنى ما استأثر سبحانه به، ولم يُعلِّمه أحداً من خلقه، دل على ذلك ما جاء في بعض الأدعية المأثورة: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسمٍ هو لك سَمِّيت

به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في مكنون الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، وجلاء همي وعمي» [أخرجه رزين كما في (جامع الأصول)]^(١).

وكما لا يجوز أن نذكره سبحانه وندعوه بغير أسمائه الحسنى، كذلك لا يجوز أن نتقرب إليه بغير ما شرعه لنا، وبينه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فهما سبيل السعادة، فمن أراد الله تعالى به خيراً هداه إلى دينه وعلمه شريعته، كما جاء في الحديث الشريف: عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ الْمُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ» [رواه البخاري (٧١)].

ومفهوم الحديث: أن مَنْ لم يتفقه في الدين، ويتعلم أحكامه وشرائعه ما أراد الله تعالى به خيراً، وقد أخرج حديث معاوية من وجه آخر ضعيف أبو يعلى، وزاد في آخره: «وَمَنْ لَمْ يَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ لَمْ يَبَالِ اللَّهُ بِهِ» والمعنى صحيح كما قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله^(٢).

فمصدر شقاء الإنسان نابغ من إعراضه عن دين الله وشرعه، وجهله وسوء فهمه، فالله سبحانه ما خلق الخلق ليعذبهم ويشقيهم، ما خلقهم إلا ليعمروا الأرض بطاعته وعبادته، ويسعدوا بفضله ورحمته، وما من شقاء يصيبهم إلا بسبب إعراضهم عن طاعته وعبادته، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهو عين ما قررته آيات سورة طه في آخرها عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] كما سيأتي معنا.



(١) تيسير الوصول: ٧٦/٢.

(٢) انظر: فتح الباري: ١/١٦٥.

الفصل الثاني

قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۚ﴾ ﴿١﴾ ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَأَنَا اخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۖ﴾ ﴿٣﴾ ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ﴾ ﴿٤﴾ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ۚ﴾ ﴿٥﴾ ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۚ﴾ ﴿٦﴾ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ۚ﴾ ﴿٧﴾ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيٍّ وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ۚ﴾ ﴿٨﴾ ﴿قَالَ أَلْقَاهَا يَمْوَسَىٰ ۚ﴾ ﴿٩﴾ ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۚ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْزَنْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ۚ﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ وَخَرُجْ بِبَضَاءٍ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ۚ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿لِئَرْبِكَ مِّنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ۚ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۚ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۚ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَسِّرْ لِي أَمْرِي ۚ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ۚ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي ۚ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۚ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿هَٰرُونَ أَخِي ۚ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿أَشَدُّ بِهٖ أَرْوَىٰ ۚ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۚ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿كَىٰ سُبْحَانَكَ كَثِيرًا ۚ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿وَتَذَكَّرُكَ كَثِيرًا ۚ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۚ﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ ۚ﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ۚ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۚ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي وَلَوْلَٰصِعَ عَلَىٰ عِيقِي ۚ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۚ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿وَقُلْتَ نَسَا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ ۚ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۚ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّا فِي ذِكْرِي ۚ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۚ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۚ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَفْعُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ

أَنْ يَطْعَنِي ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافْ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَارَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ
 مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَغْدِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِثَابِتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ
 أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا
 يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾
 ﴿٥٥﴾ مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آدَمَ كُلِّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ
 ﴿٥٧﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِّنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُ يَا مُوسَى ﴿٥٨﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَىٰ ﴿٥٩﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ
 ضُجَىٰ ﴿٦٠﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦١﴾ قَالَ لَهُمُ مُّوسَىٰ وَبَنِيكُمْ لَا تُقَرَّبُوا عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا يُسْحَرُكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦٢﴾ فَتَنَزَّلُوا أَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ وَاسْرُوا التَّجْوَىٰ ﴿٦٣﴾
 قَالُوا إِن هَٰذِهِ لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ ﴿٦٤﴾
 فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ
 تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٦﴾ قَالَ بَلْ أَتَقُولُ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٧﴾
 فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٩﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا
 صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٧٠﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ فَقَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ
 هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧١﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعْ
 أَيْدِيَكُمْ وَأُنْجِلْكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَاصْلَابُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧٢﴾ قَالُوا لَنْ
 نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 ﴿٧٣﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُبَغِّفَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٤﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ
 رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٥﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ
 الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٦﴾ جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ
 أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٨﴾

فَأَنبَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ. فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَاشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْقَىٰ
إِسْرَءِيلَ قَدْ أُنْجِيتُكُم مِّنْ عَذَابِكُمْ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا
مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾
وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ .

• تَمْهِيد:

ثم ساقَت الآيات الدليل الواقعي على المبدأ الذي قرره فيما سبق بعرضها حلقات ووقائع من قصة موسى ﷺ مع فرعون أولاً، ثم مع السامري ثانياً. ومن الملاحظ أنَّ قصة موسى التي ذكر الله سبحانه بعض حلقاتها وأحداثها في عدد من سور القرآن الكريم، قد عُرِضَتْ في سورة طه بأسلوب متميز عن بقية السُور التي عُرِضَتْ فيها، وكما يلاحظ أيضاً أنَّ سورة طه انفردت بذكر بعض الوقائع والأحداث في قصة موسى لم تذكر في غيرها من السور، كما سيأتي معنا، ولهذه الوقائع التي انفردت بها السورة صلةٌ كبيرةٌ بموضوعها الأساس، الذي بقي بارزاً من خلال أحداث القصة التي غطَّت أكثر آيات السورة.

• أعظم حوادث القصة:

ظهر الأسلوب المتميز لعرض قصة موسى منذ بدايتها في سورة طه، فلم تُعْرَضِ القصة حسب التسلسل الزمني لحوادثها، بل بدأت الآيات القصة بعرض وقائعها من الواقعة التي تُعد بحق أعظم حوادث القصة وأخطرها، وهي واقعة نزول الوحي على موسى ﷺ، وتكليم الحق سبحانه، وتشريفه بالنبوة، وتكليفه بالرسالة، هذا الحدث أعظم أحداث القصة وأخطرها، إذ كان له أكبر الآثار وأعمقها في حياة موسى ﷺ خاصة، وفي حياة بني إسرائيل وتاريخهم عامة، وانعكست آثاره أيضاً على المسيرة التاريخية والحضارية للمنطقة كلها.

• ضعف وافتقار وحيرة:

كان موسى ﷺ عائداً من بلاد مدين إلى مصر عن طريق صحراء سيناء،

ومعه أهله، ويظهر لنا من خلال الآيات الكريمة أنه كان يعاني في أثناء رحلته من ظروف صعبة وشاقة، فالليلة شاتية باردة، والظلام دامس، وقد ضلَّ الطريق، وتاه عن المقصد، وأهله - كما تذكر الروايات - كانت تعاني من آلام حمل ومخاض، وهي في أمس الحاجة إلى المأوى والفرش الدافئ والماء الساخن، وحاول موسى أن يوقد النار بالوسائل المعروفة في ذلك الزمن، فلم يتمكن، وأخذ يتلفت حوله بحثاً عن المأوى والدفع، بينما كانت الريح الباردة تلسع وجهه، والظلام الدامس يغشي بصره بحجب كثيفة سميكة تحجب عنه أقرب الأشياء منه.

إن موقف موسى في ظروفه هذه المحيطة به، يمثل الإنسان بضغفه وعجزه وحيروته، وشدة حاجته، وافتقاره إلى معونة ربه وهدايته.. فلولا أن الله الرحمن خالق الإنسان، سخر له ما سخر في السماوات والأرض من أسباب الحياة، ما استطاع الإنسان العيش، وما تمكّن من إنشاء حضارة وعمران.

فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً، خلق الإنسان، وأعطاه كل أسباب الحياة التي يحتاج إليها، قال سبحانه: ﴿وَأَتَنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال أيضاً: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الباقية: ١٣].

كما أن الإنسان بحاجة أيضاً إلى هادٍ يهديه الطريق الذي يوصله إلى السعادة في الدنيا والآخرة، ومن دون هذه الهداية يظل الإنسان تائهاً، يضرب في صحراء الحياة ضرب عشواء، فالتمكن المادي لا يكفي وحده لسعادة الإنسان، بل لابد له من منهج يضبط سلوكه، ومن شريعة يسير على هدى أحكامها، تبيّن له الطريق القاصد، وتنقذه من حيرته وضلاله، وتوضح له مقصده وحكمة وجوده، فتكون له بمثابة المصباح الكاشف، الذي يبيّن له حقيقة حياته، وغاية مسيرته وسعيه وجهده.

تلك هي حال موسى ﷺ، إنسان تائه في الصحراء، في أشد الحاجة إلى

معونة ربه وهدايته، وهو سبحانه الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، يعلم أحواله وحاجاته وأسباب سعاده وهدايته.

• آنستُ ناراً:

ولمع نور النار من خلال حجب الظلام، فتبددت الوحشة، وسرى الأنس في داخل النفس، قال تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا﴾ جاء في الروايات أن موسى ﷺ استأذن شعباً في الخروج إلى أمه، وخرج بأهله، فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة، وقد ضلَّ الطريق، وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده، وقدر فصلد^(١) زنده، فرأى عند ذلك ناراً في زعمه، وكان نوراً^(٢).

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ أي: أقيموا في مكانكم.

﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي: رأيتُ ناراً، أدخلتُ رؤيتها الأنس إلى قلبي، فبددت ما فيه من وحشة وحيرة، فالإيناسُ: إبصارُ ما يؤنس به، وبينت الآيات في غير سورة طه مكان هذه النار، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ الآية [القصص: ٢٩].

﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ أي: لعلِّي آتيكم منها بشعلة من النار مقتبسة على رأس قطعة حطب، وهذا يدل على أنه كان هو وأهله محتاجين إلى دفع النار، وقد جاء هذا المعنى مصرحاً به في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشَهَابٍ مِّنْ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

(١) فصلد: أي صوّت ولم يقدح ناراً.

(٢) تفسير النسفي: ١٨٨/٤.

﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: ولعلني أيضاً أجد عند النار من يدلني على الطريق، وهذا يدل على أنه ﷺ قد ضل الطريق.

• في مقام النداء والنجوى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾؛ رأى عجباً، وجد ناراً بيضاء في داخلها شجرة خضراء، ولا شك أنه منظرٌ عجيبٌ مذهل، وقد ذكرت الشجرة في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْؤُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وصحبا موسى ﷺ من ذهوله عندما سمع نداء الحق سبحانه:

﴿نُودِيَ يَمْؤُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أعلمه سبحانه بنفسه، فالذي يناديه هو ربه الذي خلقه ورباه، ثم أصدر له أمره الأول:

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾. وبين له الحكمة من هذا الأمر فقال:

﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ المطهر الذي اسمه:

﴿طُوًى﴾، أمره الله تعالى بخلع حذائه ليباشر بقدميه بركة الوادي، إذ كان وادياً مقدساً^(١).

﴿وَأَنَا أَخْبَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَأَنَا أَخْبَرْتُكَ﴾ أي: أنا اصطفتك لنبوتي ورسالتي، وأسمعتك كلامي كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَمْؤُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

فالنبوة لا تكون بالاكتساب وتحصيل الأسباب، وإنما تكون باصطفاء الحق

(١) تفسير الطبري: ١٠٩/١٦.

سبحانه بمشيئته وعلمه وحكمته، فالله سبحانه الحكيم الخبير ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿فَاسْتَعِمْ لِمَا يُوحَى﴾ أي: استمع لما يوحى إليك، وتأهب له، واجعل همتك كلها متوجهة إليه، فهو أمر خطير عظيم.

● معرفة الله تعالى:

ثم ذكر له الله سبحانه بعض صفات كماله وجلاله، فهو الله المستحق وحده للعبادة والطاعة لتفرد صفات الكمال والجلال، فقال سبحانه:

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: أنا المعبود الحق، الذي لا يستحق العبادة أحدٌ غيري.

ودلّ قوله سبحانه هذا على أن معرفة الله تعالى هي أوجب الواجبات، وأول المهمات وأعظمها، فهي أول ما يجب على الإنسان أن يعلمه، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

قال ابن كثير رحمته: «هذا أول واجب على المكلفين، أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(١).

عرّف الله سبحانه موسى بأنه هو وحده سبحانه المستحق للعبادة والطاعة، فلا يستحق العبادة والطاعة أحدٌ غيره جلّ وعلا، لأنه وحده المتصف بصفات الجلال والكمال، وسبق تقرير هذه الحقيقة في أول السورة عند قوله تعالى الذي مر معنا: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨].

ولعله قد اتضح لنا الآن سِرُّ بدء الآيات بعرض قصة موسى من هذه الواقعة من موضع النداء والمناجاة في وادي طوى بجانب جبل الطور، هذه المعرفة هي

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٧١/٢.

التي تنير للإنسان درب حياته، وبها تظهر معالم المنهج الذي يجب عليه التزامه، ويبقى الإنسان من دون هذه المعرفة يتخبط في ظلمات الحيرة والقلق والجهل، فهي التي تخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، فيعرف الإنسان بها أن عليه أن يتوجه بطاعته وعبادته إلى الله الذي خلقه ورباه.

● عبادته سبحانه:

إنها كلمة جميع الأنبياء والمرسلين، فكل واحد منهم قال لقومه: ﴿يَقُولُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

لأنه سبحانه أوحاها إليهم جميعاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢١٥].

﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أي: توجه إليّ وحدي بالعبادة والطاعة، فمن أجل أن تسعد بعبادتي وطاعتي خلقتك، وأنعمت عليك بنعمي، وسخرت لك ما في أرضي وسماي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥١] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات].

فالله سبحانه غني عنك وعن عبادتك وطاعتك، ولا سعادة لك أيها الإنسان إلا بطاعة ربك وعبادته، والعيش في ظلال منهجه وشريعته.

فمعنى العبادة: الطاعة والخضوع والانقياد في جميع شؤون الحياة، وقد ظهر هذا المعنى في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [١] وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [يس].

ووصف سبحانه الذين أطاعوا أحبارهم ورهبانهم الذين غيروا أحكام شريعته فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

● ذكُّه سبحانه:

والصلاة لله تعالى تدلُّ على طاعته سبحانه، والانقياد والخضوع لأمره،

فهي العبادة بمعناها الخاص، وهي أهم العبادات، لأنها تصل الإنسان بالله تعالى، وتذكره به ﷻ، ولهذا خصّها سبحانه فذكرها بقوله:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ أي: صلّ الصلاة المشروعة على الوجه الكامل المستقيم من أجل أن تذكرني، فذكره سبحانه يجعل الإنسان في أعلى درجات السعادة الدنيوية، ولا سعادة حقيقية في الدنيا إلا بذكره سبحانه، فهي التي تصله بالله تعالى، وهي معراجة إليه سبحانه، بها يمتلئ قلب المصلي طمأنينة وسكينة، ويبتعد عن القلق والحيرة والاضطراب وتعب الأعصاب.

تجمع الصلاة للمصلي الانقياد والاستسلام لله تعالى بأسلوب عملي، بأداء قيامها وسجودها وركوعها، مع ذكره سبحانه ومناجاته بالآيات الكريمة التي يقرؤها، وبالتسبيحات الخاشعة التي يرددّها، وبالندوات والابتهالات التي يرفعها. ويُفيض الله تعالى على المصلي في مقابل ذلك من فيوضات رحمته وخزائن فضله وإحسانه، ويذكره سبحانه في الملاء الأعلى، أخبر عن ذلك بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في الملاء ذكرته في ملاءهم خير منهم، وإن تقرب مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً، تقربت منه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) واللفظ له].

أرأيت سعة فضله سبحانه ورحمته؟! أرأيت كيف أنه سبحانه أسرع إليك بمعونته ورحمته وإحسانه منك إليه بطاعتك وعبادتك، وهو سبحانه غني عنك وعن عبادتك وطاعتك؟!.

وهذا هو سرّ شعور المصلي الخاشع في صلاته بلذة مناجاته سبحانه، بهذه اللذة تزول عنه هموم الحياة وأحزانها، وبها يعرف حلاوة الإيمان: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَنَطَمَنُوا قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ولهذا كان الخشوع في الصلاة وزيدتها، وهو أعلى صفات المؤمنين المفلحين وأرفعها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون].

فالصلاة خير ما يستعين به الإنسان للتغلب على هموم الحياة ومصاعبها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصلاة واحدة خضراء غناء في صحراء حياة الإنسان، يجد فيها راحة قلبه وغذاء روحه وسكينة نفسه، تنزاح بها عن قلب الإنسان ونفسه أثقال الحياة وهمومها، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى. [رواه أبو داود (١٣١٩)]. وقوله «حَزَبَهُ»: أهمه وأحزنه.

• المسؤولية والجزاء:

ثم بين الله سبحانه لموسى عليه السلام - بعد أن شرفه بمعرفته، وكلفه بطاعته وذكره - مسؤولية الإنسان عن عمله يوم القيامة، فقال تعالى بأسلوب التقرير المؤكد:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَآيَةٌ ءَآكَدٌ أَتَتْهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ (١٥).

﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَآيَةٌ ءَآكَدٌ﴾ لا ريب في ذلك ولا شك.

فلا معنى لحياة الإنسان ووجوده على الأرض من دون تكليف ومسؤولية، ماذا يبقى من حياة الإنسان إذا انسلخ عن مسؤوليته أمام ربّه يوم القيامة؟! فالإيمان بيوم القيامة يعرف الإنسان قيمة حياته، ويجعله يدرك جوهرها، فهو نور كاشف يضيء لنا درب حياتنا، ومن دونه تصبح الحياة فارغة تافهة مملّة مسئمة، وهو ما يشعر به الناس الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بمسؤوليتهم أمام ربهم خالق الحياة ومدبرها سبحانه.

ومن حكمته جلّ وعلا ورحمته أنه أخفى عن كلّ المخلوقات وقت القيامة، لكي يبقى دولاّب الحياة مستمراً دون توقف، ولو أنه سبحانه كشف الوقت المقدر ليوم القيامة للناس، لأدّى ذلك بالذين يرونه بعيداً إلى تأخير التوبة

والتسويق بها، وبالذين يروونه قريباً إلى التوقف عن ممارسة نشاطهم المعيشي الدنيوي، وبهذا يُصاب دولاب الحياة بالشلل، وتتوقف مسيرتها على الأرض.

إن وقت الساعة ممّا استأثر الحقّ سبحانه بعلمه، فلم يُطلّع عليه نبياً مرسلًا، ولا ملكاً مقرباً، وقد أخبر سبحانه عن ذلك في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله الكريم: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقوله أيضاً: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعَتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضُ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وجاء الخبر عن ذلك أيضاً في السنّة، فعندما سأل جبريلُ النبي ﷺ قائلاً: أخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ» [رواه مسلم (٨)]. وقال سبحانه هنا:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أي: أكاد أخفيها حتى عن نفسي فكيف أظهرها لك؟ وهذا محمولٌ كما قال القرطبي: على ما جرت به عادة العرب في كلامها، من أن أحدهم إذا بالغ في كتمان الشيء؛ قال: كدتُ أخفيه عن نفسي، والله تعالى لا يخفي عليه شيء...

ومن هذا الباب قوله ﷺ: «ورجلٌ تصدّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شماله ما تنفقُ يمينه» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

ثم بيّن سبحانه الحكمة من تقرير يوم القيامة فقال:

﴿لَتَجْزِيَّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾ أي: بما تعمل في حياتها الدنيا من خير أو شر، فالمسؤولية شخصية ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ولا يُسأل الإنسان إلّا عن عمله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿[النجم]﴾.

ويدل قوله سبحانه: ﴿بِمَا سَعَى﴾ على أن للإنسان كسباً واختياراً في سعيه

وعمله، وأن له إرادة وحرية في ما يعمل وفي ما يترك، وهو أساس مسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة.

• تحذير:

وجاء بعد البيان والتقرير التحذير:

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾.

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ أي: لا يمنعك عن هذه القضايا الثلاث الكبرى، وهي: معرفة الله تعالى بكماله ووحدانيته، وطاعته بإقامة الصلاة والتزام دينه وشريعته، والإيمان بالمسؤولية أمامه سبحانه يوم القيامة.

﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي: الذي ينكرها ويجحدها، فلا يؤمن بالله تعالى الإيمان الصحيح، ولا يعبدُه ويذكرُه وينقادُ لشرعه، ولا يؤمن بالمسؤولية والجزاء يوم القيامة. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: أصبح تابعاً لهوى نفسه.

﴿فَتَرْدَى﴾ أي: فتهلك هلاك الشقاء والتعاسة والعذاب في الدنيا والآخرة. وهذا التحذير وجهه الله تعالى إلى موسى ﷺ، لأنه المخاطب والمكلم، والمراد به الإنسان المكلف، فكأنه سبحانه يقول لهذا الإنسان: في هذه القضايا الثلاث الأساسية سبيلُ سعادتك وسلامتك ونجاتك، وفي إعراضك عنها شقاؤك وعناؤك وعذابك في الدنيا والآخرة.

• تأنيس وتسكين:

لا بد أن موسى ﷺ، وهو في موقف المناجاة في الواد المقدس طوى، قد فوجئ بنداء الحق سبحانه له، ولا بد أن وقع المفاجأة أحدث عنده ذهولاً واستغراقاً في الكلمات الأزلية الخالدة التي أسمعها الله تعالى إياها، فنبهه الحكيمُ العليمُ الرحمن الرحيم من ذهوله واستغراقه بسؤاله سؤال تأنيس وتسكين لنفسه وقلبه:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ .

وكان ﷺ راعي غنم، عوّده عمله على حمل العصا، فالعصا آلة عمله، ورفيقه دربه وسفره، وأنتبه ﷺ من ذهوله واستغراقه وأجاب:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، ثم أردف يبين سبب عمله لها:

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ عند القيام وأثناء السير.

﴿وَاهْتَسُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أي: أضرب بها أغصان الأشجار ليسقط ورقها

فيسهل على غنمي تناوله فتأكله، كما قال الراجز:

أَهْتَسُّ بِالْعَصَا عَلَىٰ أَغْنَامِي مِنْ نَاعِمِ الْأَرَاكِ وَالْبِشَامِ

﴿وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ﴾ أي: ولي فيها حوائج أخرى غير ما ذكرت.

فكانه ﷺ أراد بهذا البيان أن يذكر أنه ما حمل العصا للعدوان، وإنما

حملها للانتفاع بها.

ومنافع العصا كثيرة، فصلها أعرابي للحجاج بن يوسف الثقفي عندما سأله

قائلاً: ما في يدك؟ قال: عصاي، أركزها لصلاتي، وأعدّها لعداتي، وأسوق

بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتسع خطواتي، وأثبُّ

بها النهر، وتؤمّني من العثر، وألقي عليها كسائي، فيقيني الحرّ، ويدفّني من

القرّ، وتدني إلي ما بعد منّي، وهي محمّلُ سفرتي، وعلاقةُ إداوتي، أعصي بها

عند الضراب، وأقرعُ بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب... (١).

• المعجزة الأولى:

﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ سَعَىٰ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾، واستجاب موسى لأمر الله تعالى:

﴿فَالْقَنَهَا﴾ أي: العصا.

﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ وفوجئ موسى ﷺ بالمعجزة التي ما خطرت له على بال، وما كان يتوقعها، انقلبت العصا بقدرة الله تعالى إلى حية تتحرك.

والحية: اسم جنس يقع على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، وقد وصفها سبحانه في موضع آخر بقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢] مما يدل على ضخامتها، فالثعبان: العظيم من الحيات.

ويبدو أنها تتحرك حركات سريعة، إذ وصفها سبحانه أيضاً في موضع آخر بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرِكًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

واجتمع على موسى هول المفاجأة والخوف الطبيعي الذي يعتري الإنسان في مثل هذه المواقف، فابتعد هارباً منها.

وطمأنه الله سبحانه، وأزال خوفه، كما مر معنا، وقال أيضاً: ﴿يَمُوسَى أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] وأمره أن يأخذها ويحملها:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾.

أي: سنعيدها إلى هيئتها الأولى، فنردها عصاً كما كانت. فأخذها موسى، فعادت بقدرة الله تعالى عصاً كما كانت.

• المعجزة الثانية:

ثم أمره سبحانه أن يُدْخِلَ يده من فتحة جيب قميصه تحت إبطه، ثم بعد أن يُدْخِلَهَا يُخْرِجَهَا، فقال:

﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِثْلَ بَيْضَاءِ الْأُخْرَى﴾.

﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أي: إلى جنبك تحت العضد. وجناحا الإنسان: جنباه، قال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ الآية [النمل: ١٢].

﴿تَخْرُجُ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: تخرج تتلألاً كأنها القمر من غير أذى فيها، ولا عيب، بقدرة الله تعالى ومشيتته.

﴿آيَةً أُخْرَى﴾ أي: معجزة ثانية، أجراها الله تعالى على يدك، وأيدك بها كدليل يدل على صحة نبوتك وصدق رسالتك.

﴿لَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾.

أي: فعلنا بك ذلك لنجعلك ترى بعض معجزاتنا الكبرى.

فهاتان المعجزتان: العصا واليد، اللتان أراهما الله تعالى موسى، هما بعض المعجزات التي أيده سبحانه بها، في أثناء مواجهة موسى لفرعون وملئه، فقد أيده الله تعالى بتسع معجزات أخبره سبحانه عنهن في قوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

وتدل كثرة المعجزات الحسية التي أيد الله تعالى بها موسى، على شدة عناد الذين أرسل إليهم.

• الرسالة:

ثم كلفه ﷺ بحمل رسالته وتبليغها، فأمره هذا الأمر الصريح:

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾.

أي: جاوز الحد في تكبره وكفره، وفي فجوره وظلمه، حتى زعم لنفسه صفة الربوبية، فقد حكى الله تعالى عن فرعون قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

وادعى أيضاً صفة الألوهية في قوله الذي ذكره سبحانه في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وبهذا بلغ غاية الطغيان والتكبر والتجبر، ولا شك أن موسى كان يعلم مدى طغيان فرعون وظلمه، لأنه نشأ في قصره، وتربى في كنفه، وابتلي بعد

ذلك بقتل رجل من أعدائه وجنوده، فخرج من مصر هارباً من ظلمه وطمغيانه، فأقام في مدين سنين، وهو يعملُ عند الرجل الصالح شعيب في رعاية الغنم، وتزوج إحدى ابنتيه، ولما ظنَّ أنَّ فرعونَ قد نسي أمره، أو أن مرور السنين قد جعله يعفو عنه، عاد إلى مصر، وفوجئ وهو في طريق عودته بتشريف الله له بالنبوة، وتكليفه بحمل الرسالة إلى فرعون وملئه وبنى إسرائيل.

يا لها من مهمة كبيرة وخطيرة! كيف يواجه موسى ﷺ فرعون الطاغية؟! لا بدَّ أن موسى ﷺ شعر بثقل الرسالة التي حُمِّلها، دلَّ على ذلك ما حكاه الحق سبحانه عنه في سورة الشعراء: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٢٢) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٢٤) [القصص]. وقوله أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٢٦) وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَيَّ هَارُونَ﴾ (٢٧) وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء].

• سؤال المعونة:

وفصّلت الآيات هنا في سورة طه سؤال موسى المعونة من ربه، ليبين شدة افتقار العبد للرب، فلا بدَّ للعبد من معونة ربه سبحانه في جميع الأحوال، ولا غنى لأحد عن الله تعالى، وهذا نبئُ الله موسى، وهو من أولي العزم من الرسل، يتوجه إلى الله تعالى يستعين به بخشوع وخضوع:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥)

سأل الله أولاً أن يوسّع له صدره، حتى يتمكن من حمل الرسالة، وأداء الأمانة، فإن ثقل الرسالة جعله - كما مر معنا - يشعر بضيق في صدره، وانسراح الصدر وزوال الضيق يقوّي من عزم الإنسان، ويحوّل الشعورَ بمشقة التكليف إلى متعة ولذة، ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يثقل خطى الحياة^(١).

والجدير بالذكر هنا أن الله تعالى أكرم نبينا محمداً ﷺ بشرح صدره لحمل

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٣.

رسالة الإسلام من غير سؤال، وأنزل عليه سبحانه في معرض الامتنان قوله الكريم: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ [الشرح].

ثم سأل موسى ﷺ ربه أن يسّر له أمره فقال:

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ⑤.

أي: سهل عليّ ما أمرتني به من مواجهة فرعون وتبليغه الرسالة.

﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ ⑥.

سأل موسى أيضاً ربّه أن يزيل النقص الذي كان يظهر في كلامه، ويبدو أنه نتيجة حادث حدث له في صغره ترك أثراً في لسانه^(١).

﴿يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ ⑦.

أي: ليكون كلامي واضحاً، فيفهموه ويعلموه، ولهذا فإنّ الله تعالى لا يختار لتبليغ رسالته إلا أكمل الناس خلقاً وخلقاً.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي﴾ ⑧.

أي: اجعل لي من أهلي مُعيناً ومساعداً يؤازرني ويساعدني في المهمة التي كُلِّفْتُ بها.

(١) هذا التفسير لعقدة لسان موسى ﷺ لا يتناسب مع الكمال البشري الذي جعله الله لأنبيائه ورسله بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وموسى ﷺ من أولي العزم من الرسل؛ فهو مبرراً من كل عيب أو عاهة جسدية، قال تعالى: ﴿بَنَاتٍ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِبَاهٌ﴾ [الأحزاب: ٦٩]. وهناك تفسير آخر وجيه يتفق مع ما ذكرنا، انظره في كتاب: القصص القرآني، للدكتور صلاح الخالدي، طبعة دار القلم - دمشق (ن).

سأل الله الوزير من أهله، ثم عينه فقال:

﴿هَذَا أَخِي (٣٠)﴾.

ثم سأل الله تعالى أن يقويه به، فليس كل وزير يكون عوناً وسنداً:

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى (٣١)﴾.

أي: قوّ به ظهري، أو زدني به قوة.

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾.

أمر النبوة وحمل الرسالة.

﴿كَيْ تُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣)﴾.

أي: كي نكثر من صلاتنا وعبادتنا، أو نزيد في تنزيهك وتقديسك عن صفات النقص.

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤)﴾.

أي: ونكثر من ذكرك، فيكون ذلك عوناً لنا على ما كلفتنا به، فإن الإكثار من الصلاة والذكر يمدُّ الإنسان بطاقة روحانية كبيرة، تعينه على تحمل التبعات الجسيمة والمهمات العظيمة، كما مر معنا.

ولهذا لما اختار الله تعالى مريم للمهمة الكبيرة العظيمة، أمر الملائكة أن تناديها وهي في محراب عبادتها لتضاعف من صلاتها وقنوتها وذكرها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)﴾ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿[آل عمران].

وكذلك عندما كلف الله تعالى نبينا محمداً ﷺ بحمل رسالة الإسلام أنزل

عليه في بواكير التنزيل قوله الكريم: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْلُ (١) فُرْ أَلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) يَصْفَهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبَّلِ الْفُزَانَ تَرْبِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل].
وتدل الآيات على أنه ينبغي على الإنسان إذا أحدث الله تعالى له نعمة، أن يُحَدِّثَ لله تعالى شكرًا، وذلك بمضاعفة طاعته وعبادته، والإكثار من تسبيحه وذكره جلَّ وعلا.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾.

أي: إنك عالم بأحوالنا، تعلم ضعفنا وافتقارنا.

• سوابق الفضل الإلهي:

واستجاب الحق سبحانه لدعوات موسى ﷺ، وحقق له سُؤْلَهُ، وأخبره سبحانه عن ذلك بقوله:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى (٣٦)﴾.

هكذا مرة واحدة أُعْطِيَ كل ما سألت، وبكلمة واحدة، فيها إجمال يُغْنِي عن التفصيل، وفيها إنجاز، لا وعد ولا تأجيل^(١).

ثم ذكَّره سبحانه بسوابق فضله وإحسانه عليه، وأنَّ موسى ﷺ كان في جميع مراحل حياته وتقلباته، موضع عنايته سبحانه، أحاطه بخفي الطافه، وحفَّه بكريم إحسانه، منذ بداية حياته وبواكير نشأته.

وبهذا عادت الآيات الكريمة عَوْدًا لطيفاً إلى قصة موسى ﷺ من بدايتها، وظلَّت الآيات محافظة على أسلوبها اللطيف الرهيف مكثفة بالمرور السريع على الأطوار والمراحل التي تَقَلَّبَ فيها موسى ﷺ دون استقصاء وتفصيل، اقتضت فقط على تذكير موسى ببعض منن الفضل الإلهي عليه، والوجود الصمداني والإحسان الرباني، قال تعالى:

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٣٤/٤.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: أنعمنا عليك قبل هذه المرة.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ .

أي: عندما أوحينا إلى أمك وحي الإلهام، أو بواسطة هاتف هتف بها بإذن الله تعالى، ولعلّه الأرجح، إذ تضمن الوحي أمرين ونهيين وبشارتين، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص: ٧].

بَيَّنَّ الله سبحانه لها ما ينبغي أن تفعله لينجو موسى من الأذى، ويسلم من الذبح، بعد أن أصدر فرعون أوامره بذبح كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل.

﴿إِنْ أَقْدَفِيهِ فِي النَّبُوتِ فَاقْدَفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ. وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿إِنْ أَقْدَفِيهِ فِي النَّبُوتِ﴾ أي: ضعيه في صندوق من الخشب.

﴿فَلْيُلْقِهِ فِي الْيَمِّ﴾ وألقي هذا الصندوق في نهر النيل.

وكنْتَ يا موسى وأنت داخل الصندوق والأمواج تتقاذفك موضع عنايتنا ورحمتنا وحفظنا، فبأمرنا وإرادتنا حملتك الأمواج إلى ساحل قصر فرعون:

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ ويلاحظ أنه جاء الخبر عن هذه الواقعة بصيغة الأمر والخطاب لمياه النهر، مما يدل على أنَّ مشيئته سبحانه تامة نافذة في جميع الموجودات، وهاهي مياه النهر تخضع لأمره سبحانه، وتنقاد لمشيئته جلَّ وعلا، فتؤدي الأمانة التي حملتها سليمة معافاة إلى الساحل حيث شاء الله تعالى وقدَّر. . . وأي ساحل؟ ساحل الأخطار، ساحل فرعون، الذي أمر بذبح أبناء بني إسرائيل.

● الحب من جنود الله تعالى:

حملتك مياه النهر بأمر الله تعالى إلى مَنْ كانت أمك خائفة عليك من ظلمه وطغيانه، حتى أخذك عدو الله وعدوك الذي كان يبحث عنك:

﴿يَا خُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلَهُ﴾ وهكذا أصبحت في قبضة فرعون، وتحت أمره وسلطانه، ومع ذلك حماك الحق سبحانه منه، فسلطان الله أقوى من سلطان فرعون، ما فرعون وما جنود فرعون بجانب سلطان الله ﷻ! حماك الله تعالى من فرعون بفرعون، وجعل سبحانه لك في قصره حرزاً وحصناً ووقاية وحماية. تباركت ربي ما أعظمك وما أرحمك! حماك الحق سبحانه من ظلم فرعون وجبروته بالحب، وجعل من الحب حارساً لك:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي: محبة عظيمة كائنة مني.

وجاءت كلمة ﴿مَحَبَّةً﴾ نكرة لما في تنكيرها من الفخامة الذاتية، ثم جعلت من الله تعالى، فأضيفت لها فخامة أخرى^(١).

فما رآك أحدٌ إلا أحبك، هكذا حرسك الله بالحب، وأصبح الحب جندياً من جنود الله تعالى: ﴿وَمَا يَلْمُكَ جُنُودُكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

فعندما رأتك سيدة القصر امرأة فرعون، أوقع الله محبتك في قلبها، فأنقذتك من الذبح، بعد أن أمر فرعون بقتلك؛ دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكِّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

وهي المرأة التي آمنت بعد ذلك برسالة موسى، ونفعها الله تعالى به، وقال عنها سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١].

﴿وَلِيُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ أي: ولتُرَبَّى وتنشأ في قصر فرعون، ترعاك عين الله

تعالى وتحرسك، وما من شرح يمكن أن يضيف شيئاً إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب^(١).

• تحريم المراضع:

وتابعت الآيات الكريمة تذكّر موسى ﷺ ببعض سوابق نِعَم الله تعالى عليه، وفي الوقت نفسه تعرض لنا حلقات قصة حياته ﷺ:

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَرَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتِنَّا فُتُونًا ۚ فَلَمِيتَ سِنِينَ ۚ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوِي ۖ﴾ (٤٠)

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ مشّت أخته تقصّ أثره، وتتبع أخباره، حتى وصلت إلى قصر فرعون، فوجدتهم منهمكين به، يبحثون له عن مريض، وكلّما أحضروا له مريضاً رفض ثديها، وأبى لبنها، فقد حرّم الله عليه المراضع، وأخبر سبحانه عن ذلك في قوله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ [القصص: ١٢].

وقبلوا منها عرضها، فدلّتهم على أمه التي ضمّته إلى صدرها، وألقمتها ثديها، فتقبله بإذن الله تعالى، عرفه سبحانه أنّ هذا الثدي ثدي أمه، ثدي المرأة التي حملته في أحشائها، وغذته بدمائها، ثدي الأم التي كادت من فرط حنانها وشفتها أن تكشف أمرها، وتبوح بسرّها، ولكنّ عناية الله تعالى أدركتها، وثبت قلبها: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ ۖ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ هكذا ردك الله تعالى إلى أمك، فقرّرت

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٣٥.

عَيْنُهَا وَزَالَ حَزْنُهَا، وَحَقَّقَ سُبْحَانَهُ لَهَا مَا وَعَدَهَا بِهِ عِنْدَمَا أَمَرَهَا أَنْ تَلْقِيكَ فِي النُّهْرِ دَاخِلَ الصَّنْدُوقِ.

• الابتلاء بالقتل:

وكذلك أدركتك عناية الله تعالى، وحفَّت بك الطَّافَةُ عِنْدَمَا ابْتُلِيتَ بِقَتْلِ رَجُلٍ مِنْ رِجَالِ فِرْعَوْنَ:

﴿وَقُلْتَ نَفْسًا﴾ خطأً دون أن تقصد إلى قتله، إنما أردت كَفَّهُ عَنْ ظَلَمِهِ.

وقد فصل سبحانه حادثة القتل في سورة القصص فقال: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وصدرت الأوامرُ بقتلك، وأرسل الله تعالى لك رجلاً يحذرك وينصحك: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمْوَسَى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٥٦﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص].

ويسر الله تعالى لك سبيل النجاة:

﴿فَنَجِّيكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ الذي أصابك بسبب قتل الرجل.

﴿وَفَنَّكَ فُتُونًا﴾ أي: اخترناك وامتحانك اختباراً بعد اختبار، وامتحاناً بعد امتحان، ونجيناك منها جميعاً.

• موعد وقدر:

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: أقمت سنين عند الرجل الصالح شعيب في مدين، ولعلها المذكورة في قوله تعالى على لسان شعيب في سورة القصص: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَٰئِنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسَى﴾ أي: ثم جئت إلى موضع النداء والمناجاة على القدر

الذي قدرته لك، والموعد الذي تعلق به مشيئتي، وسبق به علمي، فلم تتقدم عليه ولم تتأخر، إنها خطوات وحركات مقدرة محسوبة قدرها العليم الحكيم.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (٤١).

أي: اخترتك واصطفيتك لمحبتتي وكرامتي.

وهذا يدل على أنَّ لموسى عليه السلام مكانةً عاليةً عند الله تعالى.

أو كما قال سيد قطب رحمه الله: «﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ خالصاً مستخلصاً ممحضاً لي ولرسالتي ودعوتي، ليس بك شيء من هذه الدنيا، ولا لهذه الدنيا، إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها فما لك في نفسك شيء، وما لأهلك منك شيء، وما لأحد فيك شيء، فامض لما اصطنعتك له»^(١).

• عدة الداعية وأسلوبه في الدعوة:

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢).

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أي: بمعجزاتي التي أيدتك بها.

﴿وَلَا نَبِيَّ فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تفترا ولا تقصّرا في ذكري، فهو عدتكما في مهمتكما، اتخذنا ذكري جناحاً تطيران به^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله: «المراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما، وسلطاناً كاسراً له»^(٣).

وقد أمر الله تعالى بذكره عند لقاء العدو فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٣٦/٤.

(٢) تفسير النسفي: ١٩٨/٤.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٨٢/٢.

وقد يكونُ المراد من الذكر تبليغَ الرسالة، فإنَّ الذكر يقع على كل العبادات، وتبليغُ الرسالة من أعظمها^(١).
فيكون المعنى: ولا تقصِّرا في تبليغ رسالتي.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾

جاوَزَ الحدَّ باستكباره وظلمه وفجوره.
ومع ذلك أمرهما سبحانه أن يُليِّنا القول له:

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا﴾ لا خشونة فيه، ولا شدة ولا غلظة.

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتعظ ويقبل الموعظة.

﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ عقاب الله تعالى وانتقامه.

بهذا التوجيه الكريم بيَّن الله تعالى للدعاة الأسلوب الذي ينبغي عليهم اتباعه في الدعوة إلى الله تعالى، وهو أسلوبُ الرفق واللين ومحاولة الوصول إلى المراد بأيسر الطرق وأسهلها، كما في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي الحديث النبوي الشريف: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا بعثَ أحداً من أصحابه في بعض أمره، قال: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» [رواه مسلم (١٧٣٢)].

قال ابن كثير رحمته الله: «هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أنَّ فرعون في غاية

العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين^(١).

ومهما كان المدعو مبالغاً في كفره وظلمه، فلا ينبغي للداعية أن يئس من هدايته، بل ينبغي أن يدعوه دعايةً من يرجو هدايته، فلو يئس من هدايته لا يبلغه الدعوة بحرارة وحماس وإخلاص، ولهذا قال سبحانه لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي: وأنتما راجيان أن يتذكر أو يخشى، وحاصل الكلام: باشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله، ولا يخيب سعيه، فهو يجتهد بطوعه، ويحشد أقصى وسعه^(٢).

• تثبيت وتطمين:

ودلّ الخطاب الموجّه إلى موسى وهارون أن الله تعالى قد أوحى إلى هارون ونبأه وكلفه بالرسالة كما كلف موسى ﷺ، ولما اجتمع موسى مع أخيه هارون توجهوا إلى الله تعالى معاً بهذا الدعاء:

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ أي: نخاف أن يعاجلنا فرعون بالعقوبة والأذى قبل أن نتمكن من تبليغه. قالوا ذلك لما يعلمان من شدة ظلمه واستكباره. ﴿أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أو أن يزداد طغياناً واستكباراً بعد تبليغه الدعوة.

﴿قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمِعْ وَأَرَى﴾.

﴿قَالَ لَا نَخَافُ﴾ مما ذكرتما.

﴿إِنَّنِي مَعَكُمْ﴾ أي: لأنني معكما بالحفظ والنصر.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٨٢/٢.

(٢) روح المعاني: ١٩٥/٦.

﴿أَسْمِعْ وَأَرْئِ﴾ ما يجري بينكما وبينه من قول وفعل، فأفعل في كلِّ حالٍ ما يليقُ بها من دفع شرٍّ، وجلب خيرٍ.

وبهذا أزال سبحانه خوفهما وطمأنهما، ورحم الله القائل:

وَإِذَا الْعَنَابَةُ رَاقِبَتْكَ عِيُونُهَا نَمَّ فَالْحَوَادِثُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

• مواجهة الطاغية:

ثم بيّن الله تعالى لهما ما يقولان لفرعون عندما يواجهانه:

﴿فَأَنبِأَهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧)﴾.

﴿فَأَنبِأَهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ الذي رباك بفضله وإحسانه.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أطلقهم لكي يذهبوا معنا حيث يشاؤون.

﴿وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ أي: وكُفِّ عن ظلمهم وتعذيبهم بما تكلفهم القيام به من

أعمال السخرة الشاقة، وبما تفعله من تذيبح أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ بمعجزة تدل على صدقنا وصحة رسالتنا. والمراد

بها جنس الآية، كانقلاب العصا حية، واليد البيضاء المنيرة.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أي: السلامة والعافية والسعادة في الدنيا

والآخرة لمن اتبع دين الله تعالى وتمسك بطاعته وشريعته، وجيء بحرف الجر

(على) للإشعار بأنَّ السلام يكون لهم كمظلة واقية، تحميهم من أسباب الشقاء

والتعاسة والعذاب.

ودل مفهوم الآية أنه لا سلام ولا سعادة لمن لا يتبع الهدى، فلا سلام

لفرعون إذا أصرَّ على كفره وطغيانه.

ولما أرسل النبي ﷺ رسالته إلى هرقل ملك الروم يدعو فيها إلى الإسلام،

بدأ الرسالة بخاتمة هذه الآية، ونصَّ الرسالة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من

محمَّد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبَعَ الهدى، فأنتي

أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلَمْتُ تَسْلَمَ، وَأَسْلِمْتُ يُؤْتِيكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأُرْسِيِّينَ» [رواه مسلم (١٧٧٣)].

وقوله: «الأُرْسِيِّينَ»: الرعية التي تحكمها.

ودل قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا نُعَذِّبُهُمْ﴾ على أَنَّ مهمة الأنبياء والمرسلين لا تقتصر فقط على الدعوة إلى عبادة الله تعالى وطاعته، وإنما تمتد إلى مقاومة الطغاة والظالمين، وإلى العمل من أجل تخليص الأمم والشعوب من ظلمهم وبغيهم.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (٤٨).

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ من ربنا جلَّ وعلا الذي أرسلنا إليك.

﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ﴾ رسل الله تعالى.

﴿وَتَوَلَّى﴾ عن عبادته وطاعته.

وهذا التعريضُ بالعذابِ دونَ التصريحِ به مباشرة من التلطف واللين الذي أوصاهما الله تعالى به.

• حوار الإيمان مع الكفر:

ومع أن فرعون كان في غاية العتوّ والاستكبار والطغيان، إلا أَنَّ الله تعالى بقدرته ومشيتته منعه من البطش بموسى وهارون عليهما السلام، كما وعدهما سبحانه، بل اتجه إلى التفاوض مع موسى عليه السلام:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ (٤٩).

لم يُضِفْ نفسه إلى الربِّ، مع أنهما صرحا له بذلك عندما قالَا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

وذكر سبحانه في موضع آخر أنهما قالَا له أيضاً: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، فهو سبحانه ربنا وربك ورب جميع المخلوقات.

ولا شك أن إعراض فرعون عن إضافة نفسه إلى الربّ سبحانه يدلُّ على شدة طغيانه واستكباره، وهو تجاهلٌ وتغافلٌ عن حقيقةٍ مستقرّةٍ في أعماق نفسه، تقول له: إنك مخلوقٌ ومملوكٌ لخالقٍ عظيم، ومربوبٌ لرب كريم، وقد واجهه موسى بهذه الحقيقة في إحدى محاوراته له فقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَبْهُرًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وردّ موسى على سؤال فرعون بتذكيره بالحقيقة التي تغافل عنها في سؤاله:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (٥٠).

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ﴾ أي: ربنا لا ينبغي لأحد أن يسأل عنه، لأنه أوجد كل المخلوقات، وأخرجها من العدم، وخَصَّ كل مخلوقٍ بصفاتٍ وخصائصٍ تناسبه وتلائمه، وتميزه من غيره من المخلوقات، فكلُّ المخلوقاتِ تعرّف ربها الذي أوجدها وأمدّها بأسباب استمرار وجودها.

﴿ثُمَّ هَدَى﴾ أي: هداهم، فأرشدهم إلى كيفية الانتفاع بما أعطاهم الله جلّ وعلا، فهو الذي هدى النملة إلى تخزين طعامها، والنحلة إلى السبل التي تسلكها لجمع غذائها، والسمكة في أعماق البحار إلى أماكن تكاثرها وتناسلها، والطيور في جو السماء إلى طرق هجرته الممتدة فوق المحيطات والقارات... إلخ.

فهو الذي أعطى كلّ صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه جلّ وعلا، ما أعظم شأنه وأكمل قدرته! (١).

فإيجاد المخلوقات دليل على وجوده سبحانه، وتخصيص كل مخلوق بالخصائص التي تناسبه دليل أيضاً على وجوده سبحانه وكمال قدرته وعلمه

(١) أضواء البيان: ٤/٤١٩.

وحكمته، وهداية كل مخلوق إلى طرائق حياته ومعاشه وتكاثره دليل أيضاً على وجوده تعالى وكمال قدرته وتمام مشيئته وحكمته.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده فيها، وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمدّه بما يناسب هذه الوظيفة، ويعينه عليها، و(ثم) هنا ليست للتراخي الزمني، فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خُلق لها»^(١).

وأقول: الأولى أن نقول: (ثم) للتراخي الزمني، تدل على توالي عطايا الحق سبحانه وإمداده لمخلوقاته، فمنه الإيجاد والإمداد، والإمداد مستمر من الله تعالى لمخلوقاته إلى الأجل المسمى لها لموتها وفنائها.

وما يسمى الاهتداء الطبيعي الفطري، لا يحدث إلا بإيجاد الحق سبحانه عندما تتعلّق إرادته سبحانه بإيجاده، فهو حادث متجدد بإرادته سبحانه وقدرته، وقد مرّ معنا أن من أسمائه الحسنی: القيوم، ومن معانيه: أن المخلوقات كلها تقوم به جلّ وعلا، فإذا قطع سبحانه عنها إمداده انقطع وجودها وانتهت، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَكِّنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

• جواب مُفْهِم:

وجاء جواب موسى ﷺ في غاية البلاغة لاختصاره وعمق معانيه، وشموله لجميع المخلوقات، مع الإشارة إلى كثرتها وكثرة أجناسها وأنواعها وخصائصها، وافتقارها إلى خالقها وبارئها جلّ وعلا، الذي أوجدها من العدم، وأمدّها بأسباب استمرار وجودها، وهداها وأرشدّها، فهو ربّ العالمين، الواحد الأحد، الإله المستحق للعبادة والطاعة، لا إله غيره، ولا ربّ سواه جلّ وعلا، فهو جواب ملزم ومقنع ومفهم.

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٣٨/٤.

ولا بد أن فرعون قد بُهت بجواب موسى وأفحم، فاضطر أن يصرف الكلام إلى جهة أخرى:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾.

أي: فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة؟.

﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ لأنه من الغيب المغيب عني، فأنا عبد الله تعالى لا أعلم إلا ما علمنيه ربي جلّ وعلا.

﴿فِي كِتَابٍ﴾ أي: علم أحوال هذه القرون مثبت في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، الذي كتب الله تعالى فيه شؤون جميع المخلوقات.

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي: لا يغيب شيء عن علمه سبحانه، ولا ينسى شيئاً جلّ وعلا.

وكأن موسى عليه السلام قال ذلك ليبين كمال علمه سبحانه، وأنه لا يحتاج إلى كتاب، ولكنه أظهر مقدوراته التي قدرها في اللوح المحفوظ ليطلع عليها مَنْ شاء من الملائكة الموكلين بتصرّف شؤون المخلوقات.

• من دلائل وجوده سبحانه وجوده:

وتوقفت الآيات عن متابعة الحوار بين موسى وفرعون لكي تبين لفرعون وأمثاله من الجاحدين والمعاندين بعض البراهين الدالة على وجوده سبحانه وجوده، وبعض آثار رحمته وإحسانه، قال تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشاً ملائماً لحياتكم ومعاشكم،

فالأرض للإنسان كالمهد للطفل، وما البشرُ عليها إلا أطفالٌ، يضمهم حضنها، ويغذوهم دُرُّها، والله سبحانه بقدرته وحكمته أعطى الأرض خلقها لتكون صالحة لحياة الناس عليها، وأعطى الناس خلقهم أيضاً على الهيئة التي خلقوا عليها ليتمكنوا من الحياة على هذه الأرض، وهذا يدلُّ على أنَّ خالق الأرض والإنسان واحدٌ أخذ سبحانه.

﴿وَسَلِّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: وشقَّ لكم في الأرض طرقاً تمشون عليها، وتتنقلون بواسطتها في نواحي الأرض وأطرافها، قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو ماء المطر المنزل من السحاب في جهة السماء. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: فأخرج الله تعالى بماء المطر أصنافاً من نباتات كثيرة مختلفة في أشكالها وألوانها وطعمها وروائحها.

فالخالق هو الله تعالى وحده، ولهذا انتقلت صيغة الكلام من الغيبة إلى التكلُّم بصيغة التعظيم، ونظيرُ هذا الانتقال في القرآن كثير، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ الآية [الأنعام: ٩٩].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ الآية [فاطر: ٢٧].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ الآية ﴿مَعَ اللَّهِ بَلِّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

ويدل هذا الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم على تعظيم شأن إنبات النبات، فهو ظاهرة كبيرة، تدل على عظمة الخالق سبحانه، كما تدل على سعة فضله

وإحسانه على الناس، فلولا أن الله سبحانه أنزل المطر وأخرج الثمر لهلك الناس جوعاً وعطشاً.

• الزوجية في المخلوقات:

ودل قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ على حقيقة علمية، ما عرفها الناس إلا في العصور الحديثة، وهي الزوجية في النبات، وانقسامها إلى زوج مذكر وزوج مؤنث، فقلوه: ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً، سُميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض^(١).

جاء الخبر عن هذه الحقيقة في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَرَبَّى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَلَمَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]. وذكرت بعض الآيات أن الزوجية موجودة في جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. فالذكورة والأنوثة، والسالب والموجب، وانقسام المخلوقات إلى صنفين متكاملين، يكمل كل صنف الصنف الآخر الذي يقابله، ظاهرة مبثوثة في جميع المخلوقات، وتدل على حدوثها ونقصها وافتقارها، أما الخالق فهو واحدٌ أحدٌ، فرد صمد، قوي قاهر، حي قيوم، غني عن كل شيء، وكل الأشياء تقوم به، وتفتقر إليه جلّ وعلا.

وبعد أن بيّن سبحانه للناس دلائل وجوده وفضله وإحسانه، وجّه الخطاب لهم بأسلوب المتفضل المحسن، فقال:

(١) تفسير البضاوي: ٢٠٢/٤.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ ﴿٥٤﴾

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ﴾ فقد خلق الله سبحانه طعامكم وطعام أنعامكم .
والأمر هنا للإباحة ، ولا يخفى ما فيه من الامتنان والاستدلال على استحقاق المنعم وحده العبادة والطاعة ، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله :
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكر في الآية .

﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ أي : لبراهين ودلائل ينتفع بها أصحاب العقول الناهية عن اتباع الباطل وعبادة غير خالقها ورازقها جلّ وعلا ، فالتفكير والنظر سبيل الإيمان بالله تعالى ووحدانيته .

● الإنسان والأرض:

الإنسان مرتبط بالأرض ارتباطاً وثيقاً مُحْكَمًا ، قدّر هذا الرباط وأحكمه الخلاق العظيم سبحانه ، فبنية الإنسان المادية مكونة من تراب الأرض :

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٥٥﴾

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ كما قال تعالى في آيات كثيرة :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ﴾ [الحج: ٥] .

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ومصير أجسادكم بعد الموت إلى الأرض .

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ في يوم القيامة يوم البعث والنشور ، كما قال

تعالى : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥] .

إنه ناموس علوي قدره العليم الحكيم القادر القاهر للإنسان ، ومهما أوتي الإنسان من وسائل القوة والتمكين فلن يستطيع التغلّب من هذا الناموس القدري ، ولن يجد الباحثون بين النجوم كوكباً يلائم الإنسان مثل الأرض ، إنَّ جهودهم

ضائعة، يبددون فيها طاقات كبيرة لو وجهت إلى عمارة الأرض لكان ذلك أنفع للناس، ولوجد المحرومون ما يسد حرمانهم، والجائعون ما يسد جوعهم.

• عناد وجحود:

وتابعت الآيات بعد هذا التوقف القصير في محطة الدلائل والبراهين استعراض أحداث قصة موسى مع فرعون:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ أي: فرعون.

﴿ءَايَاتِنَا كُلَّهَا﴾ أي: كل المعجزات الدالة على صدق رسالة موسى وصحة نبوته.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بالآيات وردَّ البيّنات.

﴿وَأَبَىٰ﴾ الانقياد والإذعان لرب الأرض والسموات.

لقد بيّن الله تعالى لفرعون سبيل الهداية وطريق السعادة، فأعرض عنه استكباراً وعناداً، وأتبع هوى نفسه، فخاب وخسر، وشقي شقاء الأبد، وبهذا أظهر الحق لنا أن مصدر شقاء الإنسان نابع من نفسه، من كسبه واختياره.

كذب فرعون بالآيات البيّنات، وهو يعلم أنها حق وصدق، وقد كشف

سبحانه هذه الحقيقة في قوله الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٦﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُومًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النحل].

وردّ فرعون على موسى متهماً له بأنه يطمع في الحكم والسلطان، وأنه أتى

ينازع فرعون في سلطانه على أرضه وشعبه، وأن المعجزات التي أيده الله تعالى بها ليست سوى عمل من أعمال السحرة:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ﴾.

وهو سؤال استنكار، ومعناه: ما جئتنا نبياً هادياً، إنما جئتنا تريد لنفسك

الحكم والسلطان، فتخرجنا بسحرك من ديارنا، وتغلبنا عليها.

وهي الحجة نفسها التي يحتجُّ بها كل الطغاة والظالمين في جميع العصور، يتهمون كل داعية ومصلح ومعارض لطغيانهم وظلمهم بأنه يريد الحكم والسلطان لنفسه، وأنه لا يريد إصلاحاً ولا عدلاً، فدعوة موسى في نظر فرعون دعوة سياسية، بحسب الاصطلاح الدارج في العصر الحاضر، وقد يكونُ بين الدعاة والمصلحين مَنْ يتطلَّعُ إلى الدنيا ورتبتها ومراتبها وزخرفها وزهرتها، ويكثر هذا في عصور الفتن، كما أخبر ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيَمْسِي كَافِرًا، أَوْ يَمْسِي مُؤْمِنًا وَيَصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ» [رواه مسلم (١٨٦)].

وقوله: «بادروا» أي: سارعوا إلى الأعمال الصالحة قبل تعذُّرها والانشغال عنها بالفتن الحادثة.

لكنَّ الأنبياء عليهم السلام لا يكونُ منهم شيء من هذا أبداً، فدعوتهم منزهة عن جميع الأغراض الدنيوية خالصة لله تعالى، فهم معصومون بعصمة الله تعالى لهم، وهو سبحانه الذي اصطفاهم واختارهم وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وقد مرَّ معنا قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [١٣]، ﴿وَلِصْنَعِ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [٣٩]، ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [٤١] وسيأتي معنا في آخر السورة قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. وأراد فرعون أن يقوِّي تهمة لموسى ويعززها، فقال له على سبيل التحدي:

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ معارضاً لسحرك، ومماثلاً له.
﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ وحتى لا نتخلف عنه اجعله في مكان معلوم.

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ يستوي الجميع في معرفته.

ولم يُقبل فرعون على تحدي موسى مباشرة، بل رجع أولاً إلى أعوانه ومستشاريه كما دلت على ذلك الآيات في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۖ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۖ﴾ (٢٥) ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الدُّنْيَا حِشْرِينَ ۖ﴾ (٢٦) ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء].

• الاستعداد ورسم الخطط:

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۖ﴾ (٥٩).

﴿قَالَ﴾ أي: موسى.

﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيد لهم كما تدل عليه الصفة التي وصف بها.

﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي: وأن يُجمع الناس في وقت الضحى من النهار.

﴿فَقَتَلُوا فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ (٦٠).

أي: جمع أسباب مكره واحتياله، وأخذ يشجّع السحرة، ويعدّهم بالوعد والبراقة، ويمنيهم الأمانى الخلابه، قال تعالى: ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لَيْلَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۖ﴾ (٢٨) ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ۚ﴾ (٣١) ﴿لَعَلَّآ نَبْعُ السَّحَرَةِ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ۚ﴾ (٤٠) ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۚ﴾ (٤١) ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء].

ووقف موسى ﷺ في وسط الميدان حاملاً عصاه في مواجهة عدد كبير من السحرة الحاملين جبالهم وعصيتهم ووسائل سحرهم.

ووجّه موسى ﷺ قبل بدء المبارزة الدعوة إلى السحرة، وبلّغهم الرسالة التي كلّفه الله تعالى بتبليغها، ثم حذّرهم من عذاب الله وغضبه إذا أصرّوا على الوقوف بجانب الطاغية ومساعدته على طغيانه وظلمه:

﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَإِنَّكُمْ أَتَقَرُّوْنَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ (٦١).

﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَإِنَّكُمْ أَتَقَرُّوْنَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تصفوا معجزات الله تعالى

بصفة السحر.

﴿فَسَجِّتْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَي: فيهلككم الله تعالى بعذاب يستأصلكم به .
 ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ أي: خسر من كذب على الله تعالى .
 ويبدو أن كلمات موسى قد أثرت فيهم ، وأحدثت بينهم تنازعا واختلافاً :

﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ .

فتنازعوا واختلفوا ، واضطروا إلى الحديث الخفي فيما بينهم ليستروا
 تنازعهم واختلافهم ، وتوصلوا أخيراً إلى الاتفاق ، وخلاصة ما اتفقوا عليه :

﴿قَالُوا إِن هَٰذَا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْنَى﴾ .

﴿قَالُوا﴾ بعضهم لبعض .

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ﴾ يشيرون إلى موسى وهارون .

﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أرض مصر .

﴿بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْنَى﴾ أي: ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر

دونكم ، وسيطرا على مكاسبها المادية ومراتبها .

وهذا يدل على أَنَّ السحرة نظروا إلى موسى وهارون على أنهما منافسان

خطيران لهم على صناعة السحر وأرباحها وفوائدها ، كما يدل على أَنَّهُ كان للسحرة

في المجتمع المصري في ذلك الوقت انتشار كبير ومكانة عالية ، وقد جعلهم

الخوف على الأرباح والمناصب يوحدون كلمتهم وَصَفَّهم ، ولا بدَّ أَنَّ فرعون قد

دسَّ بينهم بعض أتباعه ليجعلوا السحرة ينظرون إلى موسى وهارون هذه النظرة .

فتحقق لفرعون ما أراد ، واتفقت كلمة السحرة ، ووحدوا موقفهم ، وأوصى

بعضهم بعضاً قائلين :

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ .

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾ أي: وحدوا عملكم الذي تكيدون به موسى وهارون .

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا﴾ أي: تقدّموا إلى ميدان المبارزة متعاونين متساندين.
 ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ أي: من فاز وغلب.
 وهكذا أعادوا تنظيم صفوفهم، وتوحيد كلمتهم، ورسم خططهم.

• الجولة الأولى:

وبثّ اجتماعهم واتفقهم الثقة في نفوسهم، فأقبلوا على موسى مخيّرين:

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ (١٥).

فاختار ﷺ الجولة الثانية ليرى ما يستطيعون أن يفعلوا من السحر ويظهر للناس حقيقة أمرهم:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسَعَى﴾ (١٦).

ألقوا حبالهم وعصيهم وهم يرفعون أصواتهم يشيدون بفرعون ترُفًا وتقربًا، كما ذكر سبحانه في سورة الشعراء فقال: ﴿قَالُوا جِأَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ﴾ (٤٤).

وامتلأت ساحة الميدان الفسيحة بالحبال والعصي، وتمكّن السحرة من جعل الناس يتخيّلون أنّها تتحرك، فالسحر الذي صنعه أثر في أعين الناس، فأصبحوا يتخيّلون أنّ الحبال والعصي تتحرك وتسعى، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (١٦).

كان لهذا السحر وقع كبير على أعين الناس، وتأثرت الجموع البشرية المحتشدة حول الميدان الكبير بما شاهدت، كما تأثرت بأصوات السحرة المرتفعة التي تصدر عنهم، فهاجت واضطربت، حتى ساور موسى ﷺ شيء من الخوف والقلق على ضياع الحقيقة بين ركام هذا الباطل، ولكن الله سبحانه ثبّته وبشّره بالنصر والظفر.

● الجولة الثانية:

فالحقيقة لن تضع في ركام الباطل، بل ستأتي عليه، وتلغيه من الوجود، لأنها من الله تعالى، وبالله سبحانه، والله جَلَّالٌ:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ .

هكذا بصيغة التقرير المؤكد، بكلام مستأنف مُصَدَّر بحرف التحقيق، مع تكرير الضمير: (أنت) وإظهار الخبر بصيغة أفعال التفضيل: (الأعلى). وأمره سبحانه بعد هذا التثبيت مباشرة أن يلقي عصاه:

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ لَلْفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى﴾ ﴿٦٩﴾ .

﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ لَلْفَ مَا صَنَعُوا﴾ تبتلع كل ما صنعوا بقدرة الله تعالى ومشيتته، فتلغي وجوده وتعدمه، فلم يبق في الميدان غير المعجزة.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ﴾ أي: حيلة ساحر، ومكر ساحر، والمراد به جنس الساحر، وهل ثبت كيد ساحر أم معجزة الحق جلّ وعلا؟! .

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى﴾ أي: لا فلاح للساحر ولا نجاح له في أي مكان كان.

ألقى موسى عصاه، فتحوّلت مباشرة إلى ثعبان مبین بقدرة الله تعالى، وابتلع الثعبان كلّ العصي التي كانت تملأ الميدان، تم كل ذلك بسرعة فائقة مذهلة، دل على هذه السرعة اختصار النص للأحداث المتتالية، وجاء بفعل ﴿لَلْفَ﴾ مجزوماً لوقوعه بجواب الأمر ﴿أَلْقَى﴾ فدل على الاستجابة السريعة للأمر الإلهي، فأرادته تعالى نافذة تامة في كل الموجودات.

● السجود لله تعالى:

وذهلت الجماهير وهذأت، وخيم على الميدان صمت رهيب، وذُعر شديد للحظات قليلة، إذ تعلقت أبصار الناس بالسحرة، وهم يخرون ساجدين على

أرض الميدان لله تعالى، بينما انطلقت أصواتهم تعلن إيمانهم برب العالمين، رب هارون وموسى، وجاء التعبير عما حدث بقوله تعالى:

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُبُجًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُبُجًا﴾ كأن قوة خفية ألقتهم، لم يتمالكوا أنفسهم أمام قوة الحق، ووضح البرهان، فانقادوا له مستسلمين خاضعين، وأعلنوا انقيادهم وخضوعهم وإسلامهم بشكل جماعي تلقائي، دون أن يستشير بعضهم بعضاً، ويراجع بعضهم بعضاً:

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

• القمع والإرهاب:

وشعر فرعون بمرارة الهزيمة أمام الجموع المحتشدة من الناس، الهزيمة التي هزّت عرش طغيانه وجبروته، فلجأ إلى الأسلوب الذي يلجأ إليه أمثاله من الفراعنة المستبدين في كل زمان، أسلوب القمع والبطش لإرهاب الجماهير، وجعل السحرة أول ضحايا قمعه وبطشه وإرهابه، وحتى يستر جرائمه وظلمه اتهمهم بالتواطؤ مع موسى، وأنهم متآمرون معه:

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلَفَ وَلَا صِلَئِلَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾ قال فرعون: آمنتُم لموسى وصدقتُم دعوته.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن أسمح لكم بذلك. كأن سلطان القلوب بيده وتحت أمره ومشيتته، مع أن أصحاب القلوب لا سلطان لهم على قلوبهم؛ القلوب بيد خالقها سبحانه القائل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

﴿إِنَّهُ﴾ أي: موسى.

﴿لِكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي: هو معلمكم الكبير الذي تعلَّمتم السحر منه، وتأمّرتُم معه عليّ وعلى رعتي. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣] (١).

﴿فَلَا قُطْعَتٌ أَيْدِيكُمْ وَأَنْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أي: أقسم أن أقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف، اليد من جانب، والرجل من الجانب الآخر.

﴿وَأَصْلَبَنِي فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: لأثبتن أجسادكم على جذوع النخل بواسطة مسامير تغرس في أجسادكم.

أراد اللعين بهذا التعذيب العلني للسحرة المؤمنين أن يخوف جماهير الناس ويردعهم حتى لا يؤمنوا بالله تعالى، ويصدقوا دعوة موسى عليه السلام.

﴿وَلَعَلَّكُمْ آيَتَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ يعني أنا أم رب موسى أشد عذاباً وأكثر دواماً.

• الإيمان يتحدى الطغيان:

ولم يأبه السحرة الذين ملأ الإيمان قلوبهم لتهديد فرعون ووعيده، وردوا عليه:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٦).

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ أي: لن نختارك ونسير وراءك.

﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ ونترك البراهين الواضحة التي بينت لنا طريق الحق والهدى.

وهذا يدل على أن إيمانهم لم يكن نزوة عاطفية آنية، كردة فعل عكسي لمشاهدتهم معجزة العصا، ولكنه إيمان راسخ قائم على البراهين القطعية، فكأن المعجزة أيقظتهم من غفلتهم، وجعلتهم يستعملون عقولهم، وينظرون فيها نظر

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف، وقد أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف).

المتفكر الباحث عن الحقيقة، فوجدوها وعرفوها من خلال النظر والتفكير الموضوعي الصحيح.

ثم أكدوا تمسكهم بإيمانهم وثباتهم عليه، فأقسموا بالله تعالى الذي فطرهم:

﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: خلقنا وأخرجنا من العدم.

ثم قالوا لفرعون متحدين له:

﴿فَاقْضَ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: افعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك.

﴿إِنَّمَا نَقْضُ هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فسلطانك محدود في حدود هذه الحياة الدنيا الزائلة الفانية الحقيرة.

هكذا تحدى إيمان السحرة طغيان فرعون، بعد أن كانوا قبل الإيمان خاضعين له، يستجدون ما عنده من حطام الدنيا، ويطلبون منه شيئاً من فُتاتها كما مر معنا: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ قال نعم وإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿[الأعراف].

ثم كرروا تحديهم لطغيانه وجبروته، فصرخوا في وجهه قائلين:

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ وهذا يدل على أن فرعون قد أكرههم على تعلم السحر ليستعين بسحرم عند الحاجة في تضليل الجماهير، وجعلهم يصدقون ادعاءه صفة الألوهية والربوبية.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ وهو رد على قوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلاناً لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع في المثوبة، والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان^(١).

وفَجَّرَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَنَطَقَتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ
دَعَاةً وَاعْظِمِينَ :

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ﴾ (٧٤)

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بأن يموت مُصِرًّا على كفره وفجوره .
﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ الحياة السعيدة ، بل يشقى فيها أبداً .

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ﴾ (٧٥)

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدنيا .
﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ أي : المنازل العالية في الجنة .

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ﴾ (٧٦)

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ حيث الإقامة الدائمة .
﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ﴾ أي : طَهَّرَ نَفْسَهُ مِنْ أَدْنَسِ
الكفر والفجور .

● عاقبة الطغيان:

ثم بينت الآيات عاقبة طغيان فرعون وظلمه بإيجاز:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا
تَخْشَىٰ﴾ (٧٧)

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي : سر بهم ليلاً لتنقذهم من ظلم
فرعون وطغيانه .

﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أي : جافاً لا ماء فيه ولا بلل .
﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أي : أن يدركك فرعون الذي خرج وراءهم بجنوده .

﴿وَلَا تَحْشَى﴾ من الغرق في البحر.

﴿فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ، فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (٧٨).

أي: فغمرهم من مياه البحر ما غمرهم، ونزل بهم من الغرق والعذاب ما لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى.

وقد فصل سبحانه ما حدث في سورة الشعراء فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعَبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ (٥٢) ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٣) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَعَّابُونَ﴾ (٥٥) ﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (٥٦) ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٥٧) ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (٥٨) ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٥٩) ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (٦١) ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣) ﴿وَأَرْزَقْنَاهُم مِّنَ الْآخَرِينَ﴾ (٦٤) ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (٦٥) ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ (٦٦).

هكذا كانت عاقبة طغيان فرعون وظلمه وفجوره مع جنوده الذين كانوا أعوانه على الظلم والطغيان:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ (٧٩).

لأنه قادهم في طريق الشقاء والتعاسة، وما دلهم على طريق السعادة والهداية، وهو ردُّ على فرعون وتهكُّم به عندما كان يقول لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وتلك هي العاقبة الأليمة التعيسة لكل الذين يسировون في ركاب الظالمين من أمثال فرعون، ويعرضون عن عبادة الله تعالى وطاعته والتزام أحكام شريعته.

• تحذير وترغيب:

ختمت الآيات الكريمة قصَّة موسى مع فرعون بهذا التحذير الموجه من قبل الحق سبحانه إلى بني إسرائيل بعد نجاتهم من ظلم فرعون وطغيانه:

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكُمْ مِنْ عُدُوْكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ ۝﴾ .

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَفْجَيْنَاكُمْ مِنْ عُدُوْكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: وعدكم سبحانه أن ينزل على موسى التوراة في مكان المناجاة بالجانب الأيمن من جبل الطور، وهو المكان الذي كلم الله تعالى فيه موسى، كما مرَّ معنا في أول القصة. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ وأنعم الله تعالى عليهم بعد خروجهم من مصر وهم في صحراء سيناء فأنزل عليهم المنّ: وهو طعام يشبه الكمأة، والسلوى: وهو طائر معروف.

ثم أمرهم أمر إباحة على سبيل الامتنان وبيان الفضل والإحسان:

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ۝﴾ .

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم حذرهم من الطغيان ومجاوزة الحد المشروع لهم فقد أعطاهم سبحانه كل أسباب الراحة والسعادة، رزق ميسر وشرعية التوراة تنظم حياتهم وتبين كيف يعبدون ربهم ويطيعونه.

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ بتجاوز حدود ما شرع الله تعالى لكم وعبادة غيره سبحانه، واستعمال نعمه بالمعاصي والفجور، فإنَّكم إنَّ حصل منكم طغيان حرمت أنفسكم أسباب السعادة، وعرضتموها للشقاء والحرمان والتعاسة.

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: فيغضب سبحانه عليكم، وينزل بكم عذابه وانتقامه. ﴿وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي: سقط وتردَّى في هاوية الشقاء والتعاسة. فسعادة الإنسان من الله تعالى وبالله جلَّ وعلا، بعبادته وطاعته وذكره، وشقاء الإنسان من إعراضه عن الله تعالى وعن عبادته والتزام شريعته.

وقد عودنا سبحانه في كتابه الكريم أن يقرن الترغيب بالترهيب، وهو

أسلوبٌ تربوي رفيع، فلا يئس أحد من فضله ورحمته، ولهذا قال جلّ وعلا
بعد التحذير والوعيد:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (٨٢).

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ فترك الكفر والفجور.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بالله الواحد الأحد وصدق رسله وانقاد لشعره.

﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ فأدى التكليف التي كلفه ربه بها.

﴿وَمَهَّدَتْ﴾ أي: استمر ثابتاً على طريق الحق مستقيماً عليه حتى الموت.

وبهذا ختمت الآيات قصة موسى عليه السلام مع فرعون وطغيانه وظلمه، ومهدت

بنداء بني إسرائيل وتحذيرهم إلى القصة الثانية في السورة: قصة موسى عليه السلام مع

السامري وطغيانه، إلا أن طغيان السامري يختلف عن طغيان فرعون كما سنرى

في الفصل التالي.



الفصل الثالث

قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام مَعَ السَّامِرِيِّ
صَاحِبِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ يَقُومُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَطُغَالٌ عَلَيْكُمْ الْفَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُومُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا يَرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنْسَاءَ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُفْتَحُ فِي الصُّورِ وَتُحْشَرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَلَّفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لِّئِنَّكُمْ إِيَّاهُ يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَالَكَ مِنْ حَمَلٍ ظُلُمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

• تمهيد:

ضرب الله تعالى لموسى ﷺ موعداً يأتي فيه إلى موضع المناجاة بجانب الطور لينزل عليه التوراة، وطلب منه سبحانه أن يعتزل قومه ثلاثين يوماً، ثم زادها عشرة يقضيها موسى في عبادة الله تعالى وذكره، ثم يأتي بعدها المكان الموعود، ويبدو أن الشوق إلى مناجاة الحق سبحانه جعل موسى يُسرع إلى مكان المناجاة قبل قومه، فسأله سبحانه وهو أعلم:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي﴾ أي: قريين مني.

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أي: لتزداد عني رضا.

فما عرف لذة مناجاة الحق سبحانه إلا مَنْ ذاقها وسعد بها، ومن تذوقها لا بد أن يشاق إليها، ويطلب المزيد منها.

وبعد أن أكرمه سبحانه وأنزل عليه التوراة مكتوبة في الألواح، أخبره سبحانه بما أحدث قومه في أثناء غيابه عنهم.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥).

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: امتحناهم واختبرناهم.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ وتمكّن السامري من إضلالهم، فعبدوا العجل الذهبي.

● قبضة السامري:

والسامريُّ رجلٌ من عبّاد بني إسرائيل كانت نفسه تتطلّع للزعامة في بني إسرائيل، ورأى الفرصة سانحةً له في غياب موسى ﷺ، فقام في بني إسرائيل واعظاً داعياً لهم للتوبة والتخلص من الأوزار التي يحملونها.

وكان بنو إسرائيل يحملون قطعاً من الحلّي الذهبية التي كان فرعون وجنوده يتزيّنون بها، التقطها بنو إسرائيل بعد أن أغرق الله فرعون وجنوده.

ومن المعلوم أنّ المصريين القدماء كانوا حريصين على التحلي بالذهب، ودل على ذلك ما حكاه الله سبحانه من كلام فرعون: ﴿أَمْرًا أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٢) ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾ [الزخرف].

وكتّم القوم عن موسى ﷺ أمر هذه الغنائم التي غنموها من المصريين، فقد كانوا يعلمون أنها لا تحلّ لهم، فما أحلّ الله الغنائم إلا في الشريعة الإسلامية للمسلمين كما جاء في الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةً شَهْرًا، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِّنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلَيْصَلْ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشِّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) واللفظ للبخاري].

وقام السامري، كما سبق، واعظاً في بني إسرائيل، لكي يتخلّصوا من هذه الحلّي، ولما سألوه: كيف يتخلّصون منها، أمرهم أن يلقوها في نارٍ أوقدها لهم، وألقوا الحلّي فيها.

ويبدو أن السامري كان خبيراً بصياغة الذهب، فأخذ الذهب الذائب في النار، وصنع منه تمثال عجل، ثم أخذ قبضةً من ترابٍ كان يحتفظُ بها، قبضتها من أثر ملكٍ رآه، وهو متشكّلٌ بهيئةِ البشرِ عند انفلاق البحر، فقد انتبه السامريُّ إلى أن الأرض التي يطوها تخضّرُ بقدره الله تعالى، كأنَّ حياةً سرت فيها، فأخذ قبضةً من ترابِ هذه الأرض واحتفظَ بها لأمرٍ دبره في نفسه، ولما أكملَ صياغة العجلِ الذهبيّ ألقي قبضةَ التراب فيه.

• اعتذار كاذب:

رجع موسى من مكان المناجاة حاملاً ألواح التوراة، وقد غلبَ حُزنه وغضبه - مما أحدثه قومه - على فرحه بالتوراة، قال تعالى:

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ لِمَ يَعِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ (٨٦).

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ ولَمَّا وصل إليهم بادر إلى لومهم وتعنيفهم:

﴿قَالَ يَقَوْمِ لِمَ يَعِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ بأن يكرمكم بالتوراة التي جعل الله فيها أسباب الهداية والسعادة لكم.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾؟ أي: مدة غيابي عنكم ومفارقتي لكم، يقال: طال عهدي بك، أي: زماني بسبب مفارقتك، والاستفهامُ للإنكار، يعني: لم يطل عهدي بمفارقتكم، وفي المثل: وما بالعهد من قدمٍ، لأنَّ طولَ العهد مظنةُ النسيان، والعهد قريبٌ لم يطل فكيف نسيتم؟! (١).

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بل أردتم أن ينزل سبحانه عليكم غضبه وعذابه.

(١) أضواء البيان: ٤٩٣/٤.

﴿فَأَخْلَقْتُمْ مَوْعِدِي﴾ أي: أخلفتم موعدي الذي وعدتموني به، وهو الثبات على عبادة الله تعالى وطاعته وحده.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧).

﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أي: ما أخلفنا موعدك باختيارنا، فلو ملكنا أمرنا ما أخلفنا موعدك.

اعتذروا بأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم، وهم كاذبون بهذا الاعتذار، إذ سيأتي معنا أن هارون ؑ زجرهم ونهاهم عن عبادة العجل، ولكنهم أصروا على عبادته.

﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أي: حملنا ذنوباً وآثاماً بسبب ما كنّا نحمل من حلي قوم فرعون، كما سبق بيان ذلك.

﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ في النار التي أوقدها السامري.

﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي: ألقى قبضة التراب التي كانت معه في جوف العجل الذهبي، فأثرت قبضة التراب هذه بتقدير الله تعالى في تمثال العجل، كأن شيئاً ما سرى من التراب إليه.

ويمكن تقريب هذا المعنى بما نشاهد من تأثير قطع الحديد بالمغناطيس القريب منها، وتأثير بعض المواد المشعة في الأجسام التي حولها.

وقد اكتشف الإنسان المعاصر وجود بعض العناصر المشعة المؤثرة في غيرها، ويمكن لهذه الإشعاعات أن تحدث آثاراً تدميرية ضارة إن استعملت في التدمير، كما يمكن أن تحدث آثاراً إيجابية نافعة إن استعملت في البناء والتعمير.

● عبادة العجل الذهبي:

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٨٨).

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً﴾ مصنوعاً من الذهب.

﴿لَهُ خَوَازِ﴾ أي: له صوت كصوت البقر.

ولقد تمكّن الإنسان المعاصر من صنع آلات كثيرة، يمكنها أن تُصدِر أصواتاً مختلفة كأصوات الحيوانات.

﴿نَقَالُوا﴾ أي: السامري ومن فُتِنوا بالعجل:

﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ أي: هذا معبودكم ومعبود موسى.

﴿فَنَسِيَ﴾ أي: نسيه موسى هنا، وذهب يطلبه عند جبل الطور.

فكيف فُتِنوا به وعبدوه من دون الله تعالى، ودلائل العجز والضعف والنقص والحدوث ظاهرة عليه؟!:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩).

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: ألا يرون أنه لا يكلمهم، ولا يرد عليهم جواباً.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب لهم نفعاً، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَازِ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٨١). وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

• موقف هارون:

ولم يقصّر هارون ﷺ في نهيبهم عن عبادة العجل، وسجّل الله سبحانه له ذلك فقال:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ (٩٠).

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ أي: ابتليتم بعبادة العجل، واختبرتم به فلا تعبدوه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي﴾ في عبادة الرحمن وحده .
﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ .

ولم يلقَ ﷺ منهم أدنى استجابة، وضاعت كلماته في خضمّ الفتنة الطاغية التي غلبت عليهم، وأجابوه بوقاحة وجراءة:

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ .

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ﴾ أي: لن نزال على عبادة العجل مقيمين .
﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ .

وألقى موسى ﷺ ألواح التوراة من يده بسبب شدة غضبه، وقبض بيده على رأس أخيه هارون، وأخذ يجذبه ويشده إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٠]:

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ .

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ بعبادة العجل .
﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: تتبع أمري ووصيتي التي أوصيتك بها .
وكان موسى ﷺ قد أوصى هارون عندما استخلفه في غيابه على بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] .

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ الذي أمرتك به .

وأجابه هارون ﷺ مترفعاً مستعظفاً ورأسه بين يديه:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ ﴿٩٤﴾ .

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ ذكر الأم ترقيقاً لقلب موسى عليه .

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إن قاتلت بعضهم ببعض .

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وهو الوصية بالإصلاح ، فإنَّ الإصلاح لا يكون إلا بمداراتهم والصبر عليهم حتى ترجع .

وأضاف هارون إلى قوله هذا ما حكاه سبحانه عنه في سورة الأعراف : ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَزَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . وقيل موسى اعتذار أخيه هارون عليه السلام ، واقتنع بسلامة موقفه فترك رأسه ، وأقبل على الله تعالى داعياً يسأله الرحمة له لأخيه فقط : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف : ١٥١] .

كأنه عليه السلام رأى أنَّ بني إسرائيل لا يستحقون مغفرة ولا رحمة بسبب الجريمة الكبرى التي أحدثوها بعبادة العجل .

• شقاء وطرد وحرمان:

والتفت موسى بعد ذلك إلى رأس الفتنة السامري يسأله مستجوباً :

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمُرِيُّ﴾ .

أي : ما شأنك ؟ وما الذي حملك على ما صنعت ؟ .

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ .

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أي : رأيت شيئاً لم يره غيري ، وهو أثر الملك في الأرض التي يمشي عليها .

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي : فأخذت قبضةً من تراب الأرض التي يمشي عليها الملك المرسل .

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ألقيتها في تمثال العجل الذهبي .

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي: وهذا أمر زَيَّنَتْه لي نفسي.

وهكذا أقر السامريُّ بجريمته، وبيَّن أن الذي دفعه إليها نابعٌ من أعماق نفسه، وكأن قصة موسى مع السامري ذكرت في السورة بكلِّ هذه التفاصيل لإظهار هذه الحقيقة، وهي: أنَّ ضلال الإنسان وشقاءه من داخل نفسه، من كسبه واختياره.

أقرَّ السامريُّ بجريمته ودافعه الذي دفعه إليها دون أن تبدر منه أي بادرة تدل على ندمه وتوبته، وكأنه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ معجبٌ بنفسه وبعمله. فما كان من موسى ﷺ في مقابل هذا الإعجاب بالنفس، والإصرار على الكفر، إلا أن أصدر عليه هذا الحكم الرهيب الذي يلازمه طول حياته، وهو الطرد من المجتمع البشري، والعيش بعيداً عن الناس كما تعيش الوحوش:

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٧).

﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تخالط أحداً، ولا يخالطك أحدٌ مدى الحياة.

فابتلي بالنفرة من الناس، فكان إذا دنا منه أحدٌ نأى عنه وهو يقول: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا تمسني ولا تدن مني، وعاش بعيداً عن المجتمعات البشرية في الفلوات شقياً طريداً محروماً حتى مات، والجزاء من جنس العمل، فقد أراد لنفسه المكانة بين الناس، والشهرة والسمعة، فأحدث لهم ما أحدث، فعذبه الله تعالى بضد ما أراد وقصد، وهذا في الدنيا، وأما بعدها:

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة.

﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أي: لن تستطيع أن تتخلف عنه، ولا نجاة لك منه، وهو العذاب في نار جهنم.

﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ أي: معبودك وهو العجل الذهبي.

﴿الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي: بقيت مصراً على عبادته.
 ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بالمبرد حتى يصبح ذرات صغيرة.
 ﴿ثُمَّ لَنَسْفَعَنَّهُ﴾ أي: لنذرين ذراته.
 ﴿فِي أَلْيَمٍ فَسَافٍ﴾ في مياه البحر وبين أمواجه.
 فعل ذلك ﷻ بالعجل ليظهر للذين فُتنوا به شدة غباثتهم.
 ثم التفت ﷻ مخاطباً لهم يبين لهم المعبود الحقيقي الذي يجب عليهم أن يلتزموا عبادته وطاعته دائماً فقال:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحق العبادة غيره جلّ وعلا، فهو المتصف وحده بصفات الغنى والكمال والجلال.
 ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنها نفس الكلمة التي دارت في فلكها آيات السورة، ففي أولها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]، وفي أول نداء إلهي أسمعته الحق لموسى ﷺ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ [طه: ١٤] كما هي هنا، إنها السبيل الوحيد لسعادة الإنسان في الدارين، ولقد شقي السامري وأمثاله بإعراضهم عنها شقاء ملازماً لهم في الدنيا والآخرة.
 ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه سبحانه بكل المعلومات.

• حاملو الأوزار:

وعادت الآيات كما بدأت تخاطب النبي ﷺ في تعقيبها الأول على ما ورد في القصتين، فكانه عليه الصلاة والسلام هو المقصود من عرض قصة موسى مع فرعون، وقصته مع السامري:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي: هكذا نقص عليك يا محمد من

أخبار الأمم الماضية مواساةً لك، وزيادةً في علمك، وتكثيراً لمؤيدات صدقك، وتنبيهاً وتبصيراً للمستبصرين من أمتك.

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ وهو القرآن الكريم، وسُمِّيَ ذِكْرًا، لأنه يذكرُ بالله تعالى وأسمائه وصفاته، ويذكرُ أيضاً بعبادته وطاعته وبدينه وشريعته.

وهو سبيل الهداية والسعادة، فمن تركه وأعرض عنه شقي شقاوة الأبد:

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾.

أي: يحمل عقوبة باهظة ثقيلة، وقد أخبرنا سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أنَّ الكفار والفجار يُحشرون يوم القيامة، وهم يحملون أثقال ذنوبهم على ظهورهم؛ كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ [الأنعام: ٣١].

وقوله أيضاً: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزُونُ﴾ [النحل: ٢٥].

ويا لسوء ما يحملون، إنها أحمال وأثقال تلازمهم أبداً، لاصقة بظهورهم دائماً!.

﴿خَلِيلِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾.

﴿خَلِيلِينَ فِيهِ﴾ فلا محيد لهم ولا فكاك عن العناء والشقاء بما يحملون.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ أي: بشئ الحمل حملهم يوم القيامة.

• النفخ في الصور:

وفي هذا اليوم يزداد حاملو الأوزار شقاءً وعناءً بسبب أهواله وأفزاعه بالإضافة إلى ما يحملون على ظهورهم:

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قال ابن كثير رحمته الله (١): ثبت في الحديث: أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الصور؟ فقال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».

وهذا الحديث أخرجه أبو داود [٤٧٤٢]، والترمذي [٢٤٣٠] وحسنه، والنسائي في الكبرى [١١٢٥٠]، وصححه ابن جبان [٧٣١٢]، والحاكم [٥٥٩/١]: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».

ورواه الترمذي أيضاً وحسنه من حديث أبي سعيد مرفوعاً: «كَيْفَ أَنْعُمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ التَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ» (٢).

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ أي: عطاشاً، قد ازرقَّت أعينهم من شدة العطش، أو نحشُرهم مشوهين بزرقة عيونهم وسواد وجوههم (٣).

ويؤيد القول الأول الآية الكريمة: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أي: عطاشاً.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يتحادثون سرّاً بينهم لشدة خوفهم.

﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا إلا عشر ليالٍ.

يستقصرون حياتهم في الدنيا بسبب ما يرون من أهوال يوم القيامة، تضاءلت الدنيا في حَسِّهم، وقلَّت أيامها في مشاعرهم، حتى أصبحت أياماً قليلةً

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٤٩٣/٢.

(٢) فتح الباري: ٣٦٨/١١.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٢٤٤/١١.

في نظرهم. ومع أنهم يتحادثون سرّاً بينهم، فإن الله سبحانه يسمعهم، ويعلم كلامهم، إنه سبحانه يعلم السرّ وأخفى:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لِّئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ (١٠٤).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أي: أصوبهم وأعقلهم.
 ﴿إِن لِّئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: ما لبثتم في الدنيا إلا يوماً واحداً، هكذا تضاءلت أعمارهم في الدنيا في نظرهم عندما عاينوا أهوال يوم القيامة.

● نسف الجبال:

وكان بعض منكري يوم القيامة يسأل رسول الله ﷺ عن حال الجبال في هذا اليوم سؤال المستبعد لها، والمستهزئ بها، فما كانوا يتصورون أن تُزال الجبال عن مواضعها، وأجابت الآيات عن سؤالهم هذا في معرض حديثها عن أهوال يوم القيامة، فلا شك أن إزالة الجبال ونسفها يزيد من أهوال هذا اليوم:

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ (١٠٥).

أي: يذريها ربي بقدرته تدريةً كاملةً. فالنسف: التذرية، فالله سبحانه يفتت هذه الكتل الصخرية الهائلة حتى تكون كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

ثم ينثر أجزاءها ويفرق ذراتها: ﴿وَيُسَّتِ الْجِبَالُ يَسًّا﴾ (١٠٥) فكانت هباءً منبثاً [الواقعة].

﴿وُسَّيْرَتِ الْجِبَالِ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ (١٠٦).

﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي: فيترك مواضع الجبال.
 ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ سهلاً مستوياً أملس.

﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۚ﴾.

أي: لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً.

• تلبية الدعوة:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۚ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ الذي يدعوهم إلى أرض المحشر، لأنهم عندما يخرجون من قبورهم يتحيرّون، لا يدرون أين يذهبون، يكونون حينئذٍ كما وصفهم الحق سبحانه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

ثم يدعوهم الداعي إلى أرض المحشر، فيؤمنون صوت الداعي ويتبعونه: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أي: لا يعدل عن إجابته واتباعه أحد، فيتوجهون جميعاً مسرعين حيث يؤمرون بذلة وانكسار وخضوع، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۚ﴾ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٨﴾.

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: سكنت لجلاله تعالى ومهابته. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: لا تسمع إلا صوتاً خفياً خافتاً، ولعلّه صوتُ خفق أقدامهم ونقلها إلى أرض المحشر.

وينخيم على أرض المحشر سكون رهيب، فلا يجرؤ أحدٌ على كلام، ولا يتقدّم أحد لشفاعة، حتى يأذن الحق سبحانه له:

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أي: لا تقبل، فلا يجرؤ أحد عليها. ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي: وقبل قوله في الشفاعة، كما قال

تعالى في سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿٢٨﴾ [النبأ].

فلا يتقدم أحد للشفاعة إلا بإذن منه سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

حتى النبي ﷺ صفوته سبحانه من خلقه لا يقوم مقامه المحمود الذي يشفع فيه حتى يأذن له الحق سبحانه، قال ﷺ في حديث الشفاعة: «... فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: ارفع رأسك، وسل تعطه، وقُلْ يسمع، واشفع تُشفع...» [رواه البخاري (٦٥٦٥)].

وقد أحاط سبحانه علماً بحال الشافعين والمشفوع لهم، وبحال الذين لا يستحقون الشفاعة:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ ﴿١١٠﴾ .

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدم من أعمالهم وما تأخر. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ أي: لا يحيطون بالله تعالى علماً. وأنى للمخلوق أن يحيط بالخالق، وللضعيف العاجز القاصر أن يحيط بالقوي القادر القاهر.

● خيبة الظالمين:

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ ﴿١١١﴾ .

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أي: خضعت وذلت الوجوه كلها للحَيِّ القيوم، فهو سبحانه وحده المتصف بالحياة الحقيقية التي لا موت معها، والتي لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال وانتهاء.

وهو سبحانه وحده القيوم، القائم بذاته، فلا يحتاج إلى أحد، والمقيم

لغيره، فكل المخلوقات تستمد وجودها وقيامها منه جلّ وعلا، فهو الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: وقد خسر من حمل ظُلماً.

والشرك بالله تعالى أقبح أنواع الظلم، وكثيراً ما أطلقت كلمة الظلم على الشرك؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله ﷺ أيضاً: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

فخية كل ظالم بقدر ما حَمَلَ من ظلم، فخية المشرِك دائمة مؤبدة، وخية المؤمن العاصي مؤقتة بوقت العقوبة المقدرة لمعاصيه، إلا إذا غفر الله تعالى له، وتجاوز عن معاصيه، وهذا إذا كان ظالماً لنفسه فقط، أما إذا كان ظالماً لغيره، فلا بدَّ أن يُبرِّكه المظلوم من مظلّمته.

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا درهمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَخَذَ مِنْهُ بِقَدَرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ، أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» [رواه البخاري (٢٤٤٩)].

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

أي: فلا يخاف أن يُظْلَمَ فيُزَادَ في سيئاته، ولا أن يُهْضَمَ فينتقص من حسناته، لأنَّه سبحانه الحكم العدل المنزه عن الظلم، القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

والقائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

فالمؤمن الذي لم يظلم أحداً آمينٌ يوم القيامة من أهواله وأفزاعه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

• القصة عبرية والتنزيل عربي:

قصَّ الله تعالى على النبي ﷺ أنباء السابقين كقصة موسى مع فرعون ومع السامري باللغة العربية؛ ومع أن القصة عبرية، فالتنزيل عربي مبين، وهذا يدل على أن القرآن الكريم كلامُ الله تعالى العليم الحكيم، ولهذا قال تعالى في التعقيب الثاني على قصة موسى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذَرُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ في أعلى درجات البلاغة والفصاحة والبيان.

وقد أكد سبحانه هذه الحقيقة في عدد من الآيات، منها قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَلَئِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٩﴾.

وقوله تعالى أيضاً في سورة فصلت: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿٢﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَاتِهِۦ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾.

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِذُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبٌ ۖ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وأنزل الله تعالى في صدر سورة يوسف قوله الكريم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾ وأشار بذلك إلى أن قصة يوسف أيضاً عبرية، وأنزلها سبحانه باللغة العربية، وتحدى ببلاغتها فصحاء العرب وأدباءهم وشعراءهم.

وكل ذلك يؤكد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على الرسول العربي النبي الأمي ﷺ.

﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: رددنا فيه الوعيد، وكررناه بأساليب كثيرة متنوعة، هي الغاية في البلاغة والفصاحة والإتقان.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي .

﴿أَوْ يُحَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: عظةً وتذكراً تدفعهم إلى طاعة الله وعبادته وحده، أو يذكرهم بالله تعالى وصفاته العليا وأسمائه الحسنى ودلائل وجوده جلّ وعلا . ولا شك أن القرآن الكريم أعظم مذكّر بالله تعالى، وقد سماه سبحانه ذكراً كما سبق معنا في قوله: ﴿ءَايَتُنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، ولعلّ هذا سرّ إسناد فعل الذكر على القرآن نفسه ﴿يُحَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، بينما أسند فعل التقوى إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

• الملك الحق سبحانه:

وعظمة القرآن الكريم من عظمة منزله جلّ وعلا، ولهذا عظم الله نفسه في سياق الآيات التي تتحدّث عن القرآن الكريم، فقال:

﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِيكَ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (١١٤).

﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ﴾ أي: جلّ الله وعظم وارتفع وتنزّه في ذاته وصفاته وأفعاله عن مماثلة المخلوقين، وعن مماثلة صفاتهم وأفعالهم، وتنزّه أيضاً عن إلحاد الملحدين، وعما يقوله المشركون والجاحدون. وفيه تنبيه عما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده^(١).

﴿الْمَلِيكَ﴾ المتصرف بالأمر والنهي، الحقيق بأن يُرجى وعده، ويخشى وعيده. وهذا يدل على أن قوارع القرآن سياسات إلهية تتضمن صلاح الدارين لا يحيد عنها إلا مخذول هالك^(٢).

﴿الْحَقُّ﴾ أي: الثابت في ذاته وصفاته، أو الملك الحق، فملكيته سبحانه حق يستحقها لذاته وحده، فهو جلّ وعلا الملك على الحقيقة، وأما غيره

(١) انظر: الخازن والبيضاوي: ٢٢١/٤.

(٢) روح المعاني: ٢٦٨/٦.

فَمُلْكُهُمْ مُؤَقَّتٌ زَائِلٌ مَحْدُودٌ، وقد مرَّ معنا قول السحرة لفرعون: ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مَلُوكُ الأَرْضِ؟!» [رواه البخاري (٦٥١٩)].

وبعد التعظيم والتمجيد لذاته سبحانه يأتي التوجيه والإرشاد لنبه ﷺ الذي أنزل عليه القرآن الكريم، والمخاطب بآيات السورة من أولها كما مرَّ معنا:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ فقد كان ﷺ حريصاً أشدَّ الحرص على استيعاب القرآن الكريم وحفظه فور تلقيه من أمين الوحي جبريل عليه السلام، فكان يردد كلماته وهي تُلقى عليه، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشقَّ عليه، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [القيامة] (١).

وقال سبحانه هنا: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته وتبليغه، ويتفق هذا المعنى تماماً مع ما قرَّره سبحانه في أول السورة في قوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (٢) فَالله سبحانه وضع عن النبي ﷺ مؤونة حفظه واستيعابه، وتكفل بتحفيظه للنبي ﷺ وجمعه في قلبه الشريف كما مرَّ معنا في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [القيامة: ١٧]، وقوله أيضاً: ﴿سَنُقْرَأُكَ فَلَا تَسْقَى﴾ [الأعلى: ٦].

● فضل العلم:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: زدني علماً بأسمائك الحسنی وصفاتك العليا، وكما لا تلك التي لا تعد ولا تحصى.

ومن المعلوم أنه كلما ازداد الإنسان علماً بالله تعالى ازداد خشية منه،

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٤٩٥/٢.

وتعظيماً له ﷺ، ونبينا ﷺ أعلمُ الخلق بالله جلَّ وعلا، وأشدهم له تعظيماً وخشية، وكان يقول: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا».

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِمَا يَطِيقُونَ، قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا» [رواه البخاري (٢٠)].

أو: رَبِّ زِدْنِي عِلْماً مِنَ الْوَحْيِ الَّذِي تَنْزِلُهُ عَلَيَّ. ولا شك أَنَّ الْوَحْيَ عِلْمٌ، وهو أوثقُ مصادر العلم وأعلاها وأعزها وأشرفها^(١).

أو: زِدْنِي عِلْماً بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي لَا تَنْتَهِي مَعَانِيهِ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العلماء.

أو: أَيُّ عِلْمٍ نَافِعٍ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلَّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْماً» [رواه الترمذي (٣٥٩٩) وابن ماجه (٣٨٣٣)].

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ حَيْثُ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِطَلَبِ زِيَادَتِهِ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مَا أَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ فِي شَيْءٍ إِلَّا الْعِلْمَ^(٢).



(١) انظر: تفسير سورة يوسف (الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف)، في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

(٢) روح المعاني: ٦/٢٦٨.

الْفَضِيلَةُ الرَّابِعَةُ

قِصَّةُ آدَمَ ﷺ مَعَ الشَّيْطَانِ

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَتَّعِدُكُمْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِرِزْقِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ۝١١٩ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعِدُكُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَجَرَةٍ الْخَالِدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝١٢٦ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝١٢٧﴾

عرضت الآيات الكريمة جانباً من قصة آدم ﷺ مع الشيطان، لتبين من خلال ذلك أن سعادة الإنسان في طاعته لله تعالى، وفي وقوفه عند الحدود التي شرعها له، وأن الله تعالى الرحمن أعطى الإنسان كل أسباب الراحة والسعادة، وأنه لا يشقى الإنسان إلا عندما يعرض عن عبادة ربه وطاعته، ويغفل عن ذكره، ويتجاوز الحدود التي شرعها الحق سبحانه له، وهذا هو موضوع السورة الأساس كما بينا في بدايتها:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥﴾

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ﴾ أي: وصيناه أن لا يأكل من الشجرة، كما ذكره

سبحانه في قوله: ﴿يَتَادَمُ أَشْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] ^(١).

﴿فَنَسِيَ﴾ أي: فترك الوصية وغفل عنها.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي: لم نجد له ثباتاً وصبراً عن الأكل من الشجرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود التكريم والتحية، وهذا قبل أن يخالف أمر الله تعالى، ويأكل من الشجرة، عندما أظهر الله تعالى فضله على الملائكة بما علّمه سبحانه، فصل ذلك سبحانه في سورة البقرة فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢١) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢٢) قَالَ يَتَادَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَنْبِئْتُمْ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمَ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ (٢٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٢٤).

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ الذي كان يعيش مع الملائكة، وشمله الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم.

﴿أَبَى﴾ أن يسجد تكبراً كما مرّ معنا في سورة الأعراف في قوله أيضاً: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (١٢).

﴿فَقُلْنَا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

﴿فَقُلْنَا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا﴾ أي: إبليس.

﴿عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ فكونا على حذر منه.

﴿فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي: فلا تطيعاه حتى لا يتسبب في إخراجكما من الجنة.

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف (أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف)، في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

﴿فَتَشَقَّى﴾ أي: فتقع في الشقاء والتعب والعناء إذا أخرجتما من الجنة. وسبب هذا الشقاء والعناء: أنَّ أسباب العيش في الأرض غير ميسرة، فلا بد أن يتعب الإنسان وينصب في تحصيلها والوصول إليها، وتعب الرجل وشقاؤه في هذا المجال أكثر من تعب المرأة، لأنه هو المكلَّف بالإنفاق على المرأة، ولعل ذلك سبب إسناد الشقاء إلى آدم دون حواء في قوله: ﴿فَتَشَقَّى﴾. والحال في الجنة يختلف، فالعيش فيها سهل ميسور، لا تعب فيها ولا نصب، وكل ما يحتاجه الإنسان فيها حاضر موفور؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾.

لكثرة ما فيها من طعام ولباس.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾ أي: لا تعطش، فالأشربة فيها كثيرة ومتنوعة. ﴿وَلَا تَصْحَى﴾ أي: ولا يصيبك فيها حرُّ الشمس، لأنَّ ظلَّها ممدودٌ، فلا تحتاج إلى أسباب الوقاية من الحر ولا من البرد، لاعتدال مناخها.

﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾.

﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي: أنهى الشيطان إلى آدم وسوسته وأوصلها إليه. والوسوسة: الصوت الخفي.

• الأكل من الشجرة:

﴿قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: الشجرة التي لا يموت من أكل منها.

﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ أي: لا يبيد ولا يفنى.

والإنسان بأصل فطرته يحبُّ البقاء، ويكره الموت والفناء، وهي نقطة ضعف كبيرة في الإنسان، اكتشفها إبليس الخبيث في الإنسان، وعن طريقها

تَمَكَّنَ مِنْ إِغْوَاءِ آدَمَ وَحَوَاءَ؛ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَهُمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنِ النَّاصِحِينَ ﴿١١﴾﴾.

وهكذا غرهما بالأماني والأيمان الكاذبة حتى أكلتا من الشجرة:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ فماذا كانت النتيجة؟.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا﴾ أي: ظهرت لهما عوراتهما، وزالت عنهما الحرمة والكرامة اللتان كانا يتمتعان بهما من قبل، إذ كانا لا يريان عورتيهما تكريماً لهما. وهذا أول شيء أصابهما من شؤم المعصية، نُزِعَ عنهما لباس الجنة، ورأى كل منهما عورة الآخر، فغلبَ عليهما الحياءُ من الله تعالى، فأخذا يبحثان عن شيء يستتران به، فلم يجدا غير ورق شجر الجنة.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أي: شرعا يجمعان ورق الجنة، ورقة فوق ورقة لكي يستترا به.

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ﴾ بالأكل من الشجرة.

﴿فَغَوَى﴾ أي: ضلَّ عن طريق الرشد، واغترَّ بكلام عدوه.

ونسب سبحانه العصيان والغواية إلى آدم وحده دون حواء، مع أنها أكلت معه، لأنَّ آدم هو المقصودُ في القصة، وحواء تبع له في الحكم^(١).

● توبة وهداية:

﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٣﴾﴾.

﴿ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ﴾ أي: اختاره سبحانه للنبوَّة بعد أن أهبطه إلى الأرض، ففعل المعصية صدرَ منه قبل النبوَّة.

(١) انظر: روح المعاني: ٢٧٥/٦.

﴿فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قَبِلَ سبحانه توبةَ آدم وعفا عنه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وهي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه ليستغفره بها، ويتوب عليه: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

﴿وَهَدَى﴾ أي: ووفقه سبحانه أيضاً في الثبات والاستقامة، أو بيّن له سبيل الهداية والسعادة بما أوحى إليه.

ثم أمرهما سبحانه بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض:

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [١٢٣].

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ بسبب ابتلاء بعضهم ببعض، فحياة الإنسان في الأرض حياة ابتلاء واختبار، وقد قدر سبحانه أن يكون ابتلاء الناس بعداوة الشيطان لهم، وكذلك ابتلاؤهم ببعضهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ بواسطة الرسل والكتب المنزلة عليهم.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ لأنه سار على طريق الهداية والسعادة.

● الشقاء في الدنيا والآخرة:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى﴾ [١٢٤].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ أي: عن الكتاب الذي فيه ذكري وعبادتي وطاعتي وهو القرآن الكريم، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [٩٩] وبيّن سبحانه هناك شقاء المعرضين عن القرآن وعذابهم يوم القيامة فقال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [١٠٠] خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ [١٠١].

وأضاف هنا سبحانه إلى بيان شقائهم في الآخرة بيان شقائهم وتعاستهم في الدنيا، فقال:

﴿فَإِنَّ لَهُمْ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: ضيقة شديدة قاسية تعيسة شقية.

فلا سعادة للإنسان إلا في ظل دين الله تعالى وشرعه، ومهما أوتي الإنسان من أسباب الغنى والمتاع والسرف والترف، فإنه يبقى شقياً قلقاً مضطرباً مهموماً، ما دام بعيداً عن حلاوة الإيمان وسكينته، وبرد اليقين وطمأنينته، ولذة ذكره سبحانه وعبادته.

فالحياة المقطوعة الصلة بالله ورحمته الواسعة ضَنْكٌ مهما يكن فيها من سعة المتاع، إنه ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله، والاطمئنان إلى حماه... ضنك الحرص على ما في اليد، والحذر من الفوت، ضنك الجري وراء بارق المطامع، والحسرة على كل ما يفوت، وما يشعر القلب بطمأنينة الاستقرار إلا في رحاب الله... إِنَّ طمأنينة الإيمان تضاعف الحياة طويلاً وعرضاً وعمقاً وسعة، والحرمان منه شقوة لا تعدلها شقوة الفقر والحرمان^(١).

إن أجمل تصوير لشقاء الإنسان المعرض عن الله وعبادته ورد في قوله تعالى في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا يَبِيعُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩).

ذلك هو سبب شقائهم وتعاستهم، ينصبون ويتعبون وراء آمال براقة خادعة، ثم يسقطون على الطريق، ليوажوها بعد ذلك مسؤوليتهم أمام ربهم سبحانه.

● الجزء من جنس العمل:

وبين سبحانه حالهم عندما يحشرون يوم القيامة فقال:

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ أي: أعمى البصر كما كان في الدنيا أعمى

البصيرة، فالجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢٣٥٥/٤.

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكَمَا وَصَّمَا مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وهذا في أول الحشر، أما بعد ذلك فدللت الآيات على أنهم يبصرون ويسمعون ويتكلمون، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥).

في الدنيا.

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ (١٢٦).

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا﴾ أي: فتركناها وأعرضت عنها.

﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ أي: وفي مقابل إعراضك عن آياتنا، فإنك تعامل اليوم معاملة المنسي المهمل، فترك في العذاب والشقاء.

وقد أكد سبحانه هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]. وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِيكُمْ مَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ [الباقية: ٣٤].

ومر معنا أنه ﷻ لا ينسى في قوله: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] فهو سبحانه منزّه عن كل صفات النقص.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (١٢٧).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: وهكذا.

﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ فتجاوز الحد وطغى.

﴿وَلَمْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ بل كذب بها، وأعرض عنها، فنجعل حياته وعيسته في الدنيا تعيسة شقية.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ من شقاء الدنيا وعذابها، فالله سبحانه يجمع للمكذبين بآياته بين شقاء الدنيا وشقاء الآخرة.



الخاتمة

التَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَبَضٍ فَتَرْتَبِصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصَّرْطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ .

• الاتعاظ بالأولين:

فالسعيد من وُعِظَ بغيره، والشقي من وُعِظَ بنفسه، وفي أخبار الأمم الماضية مواعظ كثيرة، وعبر بليغة، ولهذا قصَّ الله علينا في القرآن الكريم كثيراً من قصص الأولين وأخبارهم، كما في هذه السورة، ودعانا سبحانه إلى الاتعاظ بمن سبقنا، قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾﴾ .

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: أفلم يبين القرآن الكريم للكفار المعرضين المكذبين .
 ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: ما أكثر الأجيال البشرية التي أهلكناها بسبب كفرهم وطغيانهم .

﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي: والكفار المعرضون يمشون في مساكن أولئك الهالكين، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (١٥).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: إن في النظر في مصائر الأمم السابقة لدلائل ومواعظ وعبراً لأصحاب العقول الناهية عن التغافل والطغيان، فلا ينبغي لهؤلاء الكفار أن يغتروا بإمهال الله تعالى لهم، وتأخير العذاب عنهم، إنه قدر سبق به علمه سبحانه، وتعلقت به مشيئته، ولولاه لعاجلهم بالعقوبة:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ (١٢٩).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتأخير العذاب عنهم.

﴿لَكَانَ لِرِزَامًا﴾ أي: لكان العذاب ملازماً لهم، فاللزام: مصدر لازم يلازم ملازمة ولزماً.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ولولا الأجل المسمى أيضاً لكان عذابهم لزماً، ففي الآية تقديم وتأخير.

• الصلاة والرضا:

ومن المناسب عندما بين الله سبحانه أنه لا يعاجلهم بالعقوبة وأنه يؤخرهم إلى أجل مسمى، أن يأمر تعالى النبي ﷺ بالصبر على أذاهم وما يسمع من أقوالهم وعنادهم على سبيل المواساة له والتثبيت، فما كان رسول الله ﷺ يستعجل عذابهم، لأنه نبي الرحمة، بل كان يتألم ويحزن عليهم بسبب إعراضهم، كما مر معنا في أول السورة.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (١٣٠).

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وما أكثر ما قالوا في حقه ﷺ من أكاذيب

وافتراءاتٍ، سيأتي معنا بعضها في أول سورة الأنبياء في الآية الكريمة: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٥).

فلا تلتفت إلى أقوالهم، ولا تأبه بهم، واستعن على ذلك بالصلاة والذكر والتسبيح:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: وصلِّ حامداً لربك جلَّ وعلا، فقد يُراد بالتسبيح: الصلاة، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ سَبَّحَ سُبْحَةَ الضحى، وإنِّي لأَسْبِّحُهَا» [رواه البخاري (١١٧٧)].

﴿فَبَلِّغْ طُلُوعَ الشَّمْسِ﴾ أي: صلاة الصبح.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: صلاة العصر.

﴿وَمِنْ أَمَّا يَ اللَّيْلِ﴾ أي: ومن ساعات الليل.

﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فصلِّ، ولعلَّ المراد صلاة العشاء، أو التهجد في الليل.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ عند الزوال، وهو طرف النصف الأول من النهار، وقت

صلاة الظهر، وعند الغروب، وقت صلاة المغرب.

وبهذا تكون الآية قد ذكرت الصلوات الخمس المفروضة.

﴿وَلَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ فُرئت بفتح التاء وبضمها. ومعناها بالفتح: لعلَّكَ تَرْضَى بعباء

الله تعالى وفضله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

ومعناها بالضم: لعلَّ الله أن يرضيك بسبب كثرة صلاتك وتسبيحك.

والمعنيان متفقان، وذلك أنَّ الله تعالى إذا أرضاه، فلا شكَّ أنه يرضى،

وأنه إذا رضي فقد أرضاه^(١).

• الرضا والغنى:

وأقوال أكثر المفسرين تتَّجه إلى حصر الرضا بالآخرة، مع أنَّ الكلمة مطلقةٌ

تشمل الرضا في الدنيا والآخرة.

وقد منَّ الله تعالى على النبي ﷺ بالرضا في الدنيا وفي الآخرة: في الدنيا

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٦/١٦٩.

بالعزِّ والنصر، وبالقناعة وغنى النفس، فما توفيَّ ﷺ حتى قرت عينه برؤية دين الله تعالى ظاهراً، وكلمته سبحانه عالية عزيزة.

ولقد آتاه ربُّه قناعةً في نفسه، وغنى في قلبه حتى كان ﷺ يقول: «ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكنَّ الغنى غنى النفس» [رواه البخاري (٦٤٤٦)].

فالمتمتِّص بغنى النفس يكونُ قانعاً بما رزقه الله، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلحُّ في الطلب، ولا يلحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجدٌ أبداً، والمتتَّص بفقر النفس على الضد منه، لكونه لا يقنع بما أُعطي، بل هو أبداً في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه.

ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره، علماً بأن الذي عند الله خيرٌ وأبقى^(١).

القناعة والرضا من أهم أسباب السعادة الدنيوية، ولا يشعر المؤمن براحة القلب والنفس إلا بهما، وهذا ما أبرزته الآيات وهي تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٣١)

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تنظر نظر الرغبة والميل.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إلى ما أعطينا بعض الناس من متاع الدنيا وزينتها وزخرفها.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم بما أعطيناهم، هل يشكرون أم يكفرون؟.

فالعطاء في الدنيا للاختبار لا للتكريم، ويخطئ الذين يظنون أن توسعة الرزق عليهم في الدنيا دليلٌ على كرامتهم عند الله تعالى القائل في سورة المؤمنون: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿٥٥﴾ ضَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦).

فالدنيا لهوانها على الله تعالى يعطيها لمن يحبُّ ولمن لا يحب، كما قال

سبحانه: ﴿كَلَّا تُمَدُّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، أما الآخرة فلا يعطيها إلا لأحبابه.

﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ﴾ الذي قَدَّرَه سبحانه لك، والمراد منه: إما ثوابه في الآخرة، وإما الغنى والقناعة في الدنيا^(١).

﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: أفضل وأدوم.

ولا شك أن التعلق بالدنيا يؤدي إلى الطمع والجشع والحسد، وهي أهم أسباب التنافس والخصام والاختلاف بين الناس، وكم أورتهم شقاءً وعناءً وكوارث ونكبات. بينما القناعة والرضا يمنحان صاحبهما هدوء النفس، وراحة القلب، ويبعدانه عن القلق والهم وتعب الأعصاب.

وما أجملَ قولَ النبي ﷺ في هذا المعنى: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كِفَافًا، وَفَنَعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ» [رواه مسلم (١٠٥٦)].

والرزق الكفاف: ما يكفي صاحبه ويغنيه عن الناس.

ومن دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعلْ رزقَ آلِ مُحَمَّدٍ قوتًا» [رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له].

والقوت: ما يقوت البدن، ويكفُّ عن الحاجة، وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً^(٢).

وهذا يدل على أنه ﷺ كان أبعدَ الناس عن التطلُّع للدنيا، والخطابُ في الآية له عليه الصلاة والسلام ليكونَ أسوتهم وقُدوتهم.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (١٣٢).

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ أي: بالصلاة المفروضة، والمراد أهل بيته الذين يعيشون معه فيه.

ويؤمر بأدائها الصبي، وإن لم تجب عليه ليعتاد عليها كما في الحديث

(١) انظر: زاد المسير: ٣٣٥/٥.

(٢) فتح الباري: ٢٩٣/١١.

الشریف: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ»^(١)، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع» [رواه أبو داود (٤٩٥) بإسناد حسن].
ولا شك أن البيت الذي تؤدّى فيه الصلاة، ويذكر فيه الله سبحانه، تنزل فيه الرحمة، وتغشاه الملائكة، وتنأى عنه الشياطين، بينما البيت الذي لا تقام فيه الصلاة تغلب عليه الوحشة، وعلى أهله الجفوة والقسوة، وتغشاه الشياطين، ويزداد فيه الشر والفساد والخصام والاختلاف، ولهذا فإن صلاة التطوع في البيوت أفضل من صلاتها في المساجد، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبوراً» [رواه البخاري (١١٨٧) ومسلم (٧٧٧) واللفظ للبخاري].

• الصلاة وطلب الرزق:

﴿وَاصْطِرِّ عَلَيْهَا﴾ أي: داوم عليها، والمراد أداء الصلوات دائماً في أوقاتها المعينة لها لاستغراق الليل والنهار بها.
وأكد هذا المعنى الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «برّ الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [رواه مسلم (١٣٧)].
فلو كان المراد من الآية استغراق كل الوقت بالصلاة ما ذكر رسول الله ﷺ بعد ذلك برّ الوالدين والجهاد في سبيل الله.
وقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ دفع لما عسى أن يخطر ببال أحد من أن المداومة على الصلاة ربما تضرّ بأمر طلب الرزق، فكأنه قال: داوموا على الصلاة، ولا يشغلنكم الاكتساب وطلب الرزق عنها، فإن الرزق بيد الله تعالى، فإذا ما حان وقتها، فتركوا العمل وطلب الرزق، وانصرفوا إلى الصلاة.

قال تعالى في سورة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثَوَدْتُمُ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ فَإِذَا قُضِيَتْ

(١) إذا أمر الصبي بالصلاة وهو ابن سبع سنين، فعلى وليه أن يعلمه الصلاة قبل هذا السن (ن).

الصلوة فانتشروا في الأرض وابغوا من فضل الله وأذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴿١٣٣﴾.

فالإسلام دين النظام، نظم حياة الإنسان، فجعل للعبادة بمعناها الخاص وقتاً معيناً محدداً، كما مر معنا في أوقات الصلوات المفروضة: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَثَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠].

وكذلك خصص لبقية العبادات أوقاتاً مخصوصة كالصيام والحج، وأمر الإنسان في غير أوقات العبادة المخصوصة أن يسعى في تحصيل رزقه، وألاً يكون عالماً على غيره، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويُعدُّ سعي الإنسان في تحصيل رزقه عبادة إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى بإعفاف نفسه، وسعيه على عياله المكلف بالإنفاق عليهم، قال رسول الله ﷺ: «إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها، كانت له صدقة» [رواه البخاري (٥٣٥١)].

وتوعّد النبي الرجل الخامل الكسول الذي يتقاعس عن القيام بمسؤوليته نحو أهله وأولاده فقال: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوئ» [رواه أبو داود (١٦٩٢) والنسائي (٩١٣٢)].

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة لأهل التقوى. والآيات في هذا المعنى كثيرة، يكفي منها قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

• القرآن الكريم أعظم المعجزات:

ختم سبحانه السورة بذكر صورة من صور عناد المشركين وبعض أقوالهم في حق النبي ﷺ بمناسبة أمره سبحانه له بالصبر على ما يقولون، فقال تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هلا يأتينا محمد - ﷺ - بمعجزة من ربه

تدلُّ على صدقه في دعوى النبوة. قالوا ذلك وهم يتغافلون عن المعجزة الكبرى التي تحدّاهم الله تعالى بها، وهي القرآن الكريم.

ولهذا ردّ سبحانه عليهم بتذكيرهم بمعجزة القرآن الكريم الكبرى التي تغافلوا عنها فقال:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: ألم تأتهم معجزة هي أمّ المعجزات وأعظمها وأدومها، لأنها باقية خالدة، وهي معجزة القرآن الكريم، المشتمل على زبدة ما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، والمصدق لها، والشاهد على صحتها؟! وهذا كقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

وهكذا عادت آيات السورة إلى القرآن الكريم كما بدأت به في قوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾﴾ فهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى ليكون سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، وهو أيضاً المعجزة الكبرى الخالدة للنبي ﷺ على مدى العصور، وكر الدهور.

• قامت الحجة وأنزل القرآن الكريم:

القرآن الكريم حجة الله تعالى البالغة على الناس، لا عذر لهم بعد إنزاله أبداً، ولهذا أبقاء الله تعالى في الأرض كما أنزله وتكفل بحفظه، وهو سبحانه العليم الحكيم يعلم أنه لو لم ينزله لاعتذروا بعدم نزوله، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل نزول القرآن الكريم وبعثة النبي ﷺ.

﴿لَقَالُوا﴾ يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ بكتاب منزل عليه .

﴿فَتَّبِعْ آيَاتِكَ﴾ التي جاءنا بها .

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ﴾ بعذاب الدنيا وشقائها وتعاستها .

﴿وَنَخْزِي﴾ بعذاب الآخرة في النار . والخزي: أشد أنواع الذلة .

وما هو القرآن الكريم بحمد الله تعالى قد أنزل، والرسول الكريم خاتم النبيين ﷺ قد بُعث، وقام ﷺ بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، فأقام الله به الحجة على الناس، فلا عذر لأحد بعد ذلك، وما على الرسول ﷺ إلا أن يقول لهم بعد أن بلغهم:

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَيِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ (١٣٥) .

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَيِّصٍ﴾ أي: كل واحد منا ومنكم منتظر .

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: فانتظروا، وهو أمر فيه تهديد ووعد .

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب .

﴿مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ المستقيم المؤدي إلى السعادة في الدنيا

والآخرة .

﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي: ومن عرف الصراط وسار عليه، وتمسك بهديه، حتى

يلقى الله تعالى .

أسأله سبحانه الهداية والثبات والتوفيق .



تفسير سورة الأنبياء كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَأَمَّةُ التَّوْحِيدِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: يعاني المسلمون في العصر الحاضر من التمزُّق والاختلاف، وضعف الشعور بالانتماء إلى الإسلام، مما جعلهم يصلُّون إلى مرحلة فقدان ذاتهم الإسلامية، وهويتهم الإيمانية، فهم في أمسِّ الحاجة إلى الالتفاف حول دينهم ورسالتهم، وتقوية ارتباطهم بها، وانتمائهم إليها، لكي يعرفوا حقيقتهم، ويدركوا منزلتهم، ويتحمَّلوا مسؤوليتهم التي خصَّهم الله تعالى بها.

ولا يتحقَّق لهم هذا إلا بالعودة إلى كتاب الله تعالى، يتدبرون آياته، ويستشعرون من خلالها التبعات الجسام الملقاة على كواهلهم.

ولقد اهتمَّت سورة الأنبياء بهذا الموضوع، وركزت آياتها عليه، وهذا التفسير لسورة الأنبياء يبرزُ هذه المعاني من خلال السورة الكريمة.

وقد قسمته إلى فصلين:

● الفصل الأول: كلمة التوحيد أساس الرسالة الإسلامية، ومسؤولية

المسلمين عنها، ومواقف المشركين منها، والأدلة عليها.

● الفصل الثاني: الأنبياء رُوَاد وَحَمَلَة هذه الكلمة، وصلتهم بالامة المسلمة.

أسأله سبحانه أن يجعلنا من هذه الأمة، ويثبتنا على طريقها وسنة نبيها عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.



تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

سورة الأنبياء من السور المكيّة التي نزلت على النبي ﷺ في وقت مبكر من دعوته عليه الصلاة والسلام، دلّ على ذلك قول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: بني إسرائيل (الإسراء)، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هنّ من العتاق الأول، وهنّ من تِلَادِي. [رواه البخاري (٤٧٣٩)].

والعتاق: جمع عتيق، وهو القديم. وقوله: «مِنْ تِلَادِي» أي: مما حُفِظَ قديماً. والتلاد: قديم الملك، وهو بخلاف الطارئ.

قال ابن حجر رحمته الله: «ومراد ابن مسعود أنهنّ مِنْ أَوَّل ما تَعَلَّمَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ لَهُنَّ فَضْلاً لَمَا فِيهِنَّ مِنَ الْقَصَصِ وَأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ»^(١).

وقال في موضع آخر: «وحاصله أنه ذكر خمس سور متوالية، ومقتضى ذلك أنهنّ نزلن بمكة، ولكن اختلف في بعض آياتٍ منهنّ... وفي الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا أَنَا فِي الْأَرْضِ نَقُصُّهَا﴾ الآية [الأنبياء: ٤٤] قيل في جميع ذلك: إنه مدني، ولا يثبت شيء من ذلك، والجمهور على أنّ الجميع مكيات، وشذّ من قال بخلاف ذلك»^(٢).

وتلتقي السورة مع السور المكيّة في التركيز على الموضوعات المتّصلة بالعقيدة، وقد انفردت سورة الأنبياء من بينهنّ، بأنّها أبرزت كلمة التوحيد ودعائتها من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ومهّدت لهذا بوصف مواقف المشركين من النبي ﷺ وأقوالهم في الوحي المنزل عليه.

(١) فتح الباري: ٣٨٨/٨.

(٢) المرجع السابق: ٤٣٥/٨.

ولمَّا شرعتْ في الحديث عَنْ حملةِ لواءِ التوحيد وكلمته، بدأت به عليه الصلاة والسلام، كما أَنَّهَا خُتِمَتْ بالحديث أيضاً عنه ﷺ وعن رسالته وميزاتها وارتباطها بأساسها الأول وهو كلمة التوحيد، فهو ﷺ في السورة الفاتحُ الخَاتِمُ، ورسالته أعظم الرسالات وأشملها، وأمته أعظم الأمم، ولها ارتباط وثيق بجميع الذين آمنوا بكلمة التوحيد ورسالته، وأذعنوا لها مستسلمين مسلمين.



الْفَضْلِ الْأَوَّلِ

المُسْلِمُونَ وَكَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَمَوَاقِفُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهَا وَالْأَدِلَّةُ عَلَيْهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُخَذِّلُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنُكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكِلُونَ (١٣) قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَا تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَلَعَلَّيْنِ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَكَمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَخْرِجُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْشِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَوْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَقَعُلْ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٤﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ
الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْخُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾
وَمَن يَقُلْ مِثْلُ مِثْمٍ إِنَّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٩﴾ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾
أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴿٢١﴾
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنسَانَ
وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّنْ
فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنُلَوِّكُم بِالْأَشْرَارِ وَالْخَيْرِ فَمَتَنَّا وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾

● اقتراب الحساب:

بدأ سبحانه سورة الأنبياء بالإخبار عن أمرٍ مقدّرٍ مقرر، وهو يوم الحساب والجزاء، يوم القيامة، وهو ركنٌ من أركان الإيمان، وهو أعظم الموضوعات الفكرية في القرآن، فقال جلّ وعلا:

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ لأنه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ أيضاً بالنسبة إلى ما مضى من عمر الدنيا، فما بقي من الدنيا أقل مما مضى (١).

وبعثة نبينا ﷺ تدلُّ على اقتراب القيامة، إذ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، لا نبي بعده، قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وانشقاق القمر من المعجزات الحسية الكبرى التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٢٦٧/١١.

وفي الحديث الشريف: عن سهل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ويشيرُ بأصبعيه فيمُدُّهما. [رواه البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠) واللفظ للبخاري].

وأخرجه الطبري [٦٢١/١٤] بلفظ: وأشار بالسبابة والوسطى.
قال البيضاوي: «معناه أن نسبة تقدُّم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الإصبعين على الأخرى»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِي مَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ . . .» [رواه البخاري (٥٥٧)].
وظاهر الحديث الشريف: أَنَّ بقاء هذه الأمة وقع في زمان الأمم السالفة، وليس ذلك المراد قطعاً، كما قال ابن حجر رحمته الله، وإنما معناه أَنَّ نسبة مدَّة هذه الأمة إلى مدَّة مَنْ تَقَدَّمَ من الأمم مثل ما بين صلاة العصر وغروب الشمس إلى بقية النهار^(٢).

وهذا لا يدلُّ على أَنَّهُ ﷺ يَعْلَمُ وَقْتَ السَّاعَةِ على وجه التحديد، فهذا مما استأثر الله تعالى بعلمه، وإِنَّمَا يدلُّ على أَنَّهُ عليه الصلاة والسلام عَلِمَ اقْتِرَابَ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطَهَا بالوحي المنزَّل عليه.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ أي: والناسُ عن الآخرة والحسابِ ساهونَ لاهونَ.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن الاستعداد ليوم الحساب.

فأمرُ الناس في غفلتهم وإعراضهم عن الاهتمام بأمر الساعة، وانسلاخهم عن الشعور بمسؤوليتهم عن حياتهم، أمرٌ عجيب، مع أَنَّ الإيمان بيوم القيامة والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى يعطي للحياة معناها، ويجعل الإنسان يتذوَّق طعمها الحقيقي، ويدركُ جوهرها، ومع هذا يتغافل الناس عنها، ويهتمُّون بلهو الحياة ومتاعها القليل الزائل.

(١) فتح الباري: ٣٤٩/١١.

(٢) المرجع السابق: ٣٩/٢.

● والقلوب لاهية:

وكلما أرسل الله تعالى إليهم رسولا، وأنزل عليهم الآيات لكي ينتبهوا من غفلتهم، ويستشعروا مسؤوليتهم، ويتذكروا يوم الحساب والجزاء، ويعرفوا حكمة حياتهم، وجوهر وجودهم، استقبلوها لاعبين لاهين:

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٢).

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ في تنزيله.

﴿إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: استمعوه لاعبين، غير جاديين ولا مهتمين،

مما يدل على شدة غفلتهم، وانهماكهم بشهوات الدنيا.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ
السَّحَرَ وَأَنْتُمْ بُصُورٌ﴾ (٣).

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: غارقة قلوبهم في اللهو، مشغولة عن الآيات الكريمة

النازلة عليهم بشهوات الدنيا وزخرفها وزهرتها، فلا يتدبرون كلمات القرآن الكريم، ولا يتأملون في معانيه، ولا يفكرون في بلاغته وإعجازه، كأن بينهم وبين آياته حجاب يحجبهم عن أنواره، حتى إنهم كانوا يواجهون النبي ﷺ بهذه الحقيقة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي أَذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَافِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

فالتعلق بالدنيا، والانهماك بها، يصرف الإنسان عن التأثر بآيات التنزيل

الحكيم، وعن التفكير في يوم القيامة، ومسؤوليته أمام الله تعالى، وقد مر معنا في خواتيم سورة طه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَآبَقَىٰ﴾ (١٧)، ثم قال تعالى في فاتحة سورة الأنبياء بعدها: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (١).

وقد تكرر في القرآن الكريم مثل هذا التنسيق والاحتباك بين خواتيم السورة

وبين فواتح السورة التي بعدها عموماً، وتكرّر على وجه الخصوص لإبراز هذا المعنى وتأكيد، ففي خواتيم سورة الحجر قال تعالى: ﴿لَا تَدْنُ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨)، وفي أول سورة النحل بعدها قال جلّ وعلا: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ (١).

وكذلك صوّرت الآيات الكريمة في ختام سورة النجم شدة غفلة الكفار وإعراضهم بقوله تعالى: ﴿أَفَنُفِثَ هَذَا الْحَدِيثَ تَعْجَبُونَ﴾ (٦٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ (٦١) فَاتَّبِعُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)، ثم قال تعالى بعدها مباشرة في أول سورة القمر: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ وَأَشَقُّ الْقَمَرِ﴾ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢).

• والنفوس مضطربة حائرة:

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: وأسّر الذين ظلموا أنفسهم بالإعراض عن آيات القرآن الكريم النجوى، وهي اسمٌ من التناجي، ولا تكون إلا سرّاً، ومعنى إسرارهم لها مبالغتهم في إخفائها، وإبدال ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ من فاعل ﴿أَسْرُوا﴾ وهو الواو، ينبئ عن كونهم متّصفين بالظلم القبيح الفاحش^(١).

ومبالغتهم في إخفاء نجواهم يدلّ على خطورة موضوعها، وشدة اهتمامهم به، وهو معارضة دعوة النبي ﷺ، والبحث عن تهمة يتهمونه بها، لكي يصدّوا الناس عن الاستماع إليه وقبول دعوته.

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ هذا أوّل اعتراض لهم على النبي ﷺ، فهو بشر مثلكم، يتّصف بكل ما يتّصف به البشر من الأكل والشرب والحياة والموت، كما حكى سبحانه عنهم في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧).

واعترضهم على بشرية النبي ﷺ يدل على أنّ الحسد هو الباعث لهم على هذا الاعتراض، فكيف يمتارّ عليهم بالرسالة والنبوة وهو بشر مثلهم؟!.

ولهذا أضافوا إلى اعتراضهم على بشريته ﷺ اتهامه بالسحر:

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٥٤/٦.

﴿فَاتَّتَوَتْ السِّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ وهو سؤال إنكارٍ، ينكرُ فيه بعضهم على بعض إتيان النبي ﷺ والاستماع إليه، ويتهمون به بالسحر، فكأنَّ كُلَّ واحد منهم يلوم الآخر قائلاً: كيف تأتي السحر وأنت تعلم أنه سحر؟!.

وهذا يدلُّ على أنَّ سلطان القرآن الكريم كان يجذبهم إليه، وأنَّهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنَّه ليس سحراً، وأنَّه عليه الصلاة والسلام أبعد الناس عن السحر والاتصاف بصفات السحرة.

وقد سجَّلت كتبُ السيرة صوراً من صور استماعهم للقرآن الكريم، قال ابن إسحاق: «وحدَّثني محمدُ بن مسلم بن شهاب الزُّهري: أنَّه حدَّث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق، خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كُلُّ رجلٍ منهم مجلساً يستمعُ فيه، وكُلُّ لا يعلمُ بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلع الفجرُ تفرَّقوا، فجمعهم الطريقُ فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتَّى إذا كانت الليلةُ الثانيةُ عاد كُلُّ رجلٍ منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلع الفجرُ تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتَّى إذا كانت الليلةُ الثالثةُ أخذ كُلُّ رجلٍ منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتَّى إذا طلع الفجرُ تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرحُ حتَّى نتعاهدَ ألا نعودَ على ذلك، ثم تفرَّقوا»^(١).

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿قَالَ﴾ أي: النبي ﷺ يرُدُّ عليهم. وفي قراءة: ﴿قُلْ﴾ أمرٌ للنبي ﷺ أن يرد عليهم قائلاً:

(١) سيرة ابن هشام: ٢٧٥/١.

﴿رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أقوالكم في نجواكم مهما بالغتم في إخفائها .

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ المتصف بكمال السمع والعلم جلّ وعلا .
ثم أضافت الآيات أقوالاً أخرى للمشركين بأسلوب الإضراب والانتقال من قولٍ إلى قولٍ، يدلُّ على مدى الاضطراب والحيرة، وأنهم لا يكادون يقولون قولاً حتى ينصرفوا عنه إلى غيره :

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِ بِثَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ .

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ أي : قالوا : القرآن مجموعة أحلامٍ مختلطة .
ثم لم يرتاحوا إلى هذا القول ، فانصرفوا عنه إلى غيره قائلين :
﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾ أي : النبي ﷺ من تلقاء نفسه .
ثم انتقلوا عنه إلى غيره فقالوا :
﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما كان ﷺ شاعراً أبداً ، وما عُرف عنه ذلك .
هكذا شأنُ المحجوجِ المُبطلِ ، يترددُ بين باطل وأبطل منه ، ويتذبذب بين فاسد وأفسد منه ^(١) .

وأخيراً أعرضوا عن كلِّ أقوالهم السابقة ، وطلبوا من النبي ﷺ معجزةً تدلُّ على صدقه :

﴿فَلْيَأْنِ بِثَايَةٍ﴾ أي : إن لم يكن محمداً كما قلنا ، بل كان رسولاً من الله تعالى ، فليأتنا بمعجزة تدل على صدق رسالته وصحة نبوته .

﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ أي : مثل المعجزات التي أرسل بها المرسلون السابقون .

• الردود:

وبعد أن صوّرت الآيات الكريمة حيرة المشركين واضطراب أقوالهم

(١) تفسير أبي السعود : ٥٥ / ٦ .

شرعت تردُّ عليها، وبدأت بقولهم الأخير، وهو طلب المعجزة، فردت عليهم بقوله تعالى:

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: ما آمن من أهل بلد قبل مشركي قريش عندما جاءتهم المعجزات التي اقترحوها، فأهلكهم سبحانه بسبب ذلك. ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أفيؤمن هؤلاء المقترحون؟ أم يستمرون على كفرهم وعنادهم، كما فعل الكفار قبلهم.

ولقد علم سبحانه أنه لو أعطي هؤلاء ما يقترحون لظّلوا على كفرهم وعنادهم، فمن رحمته سبحانه أنه منع عنهم ما اقترحوا من معجزات، حتى لا يهلكهم كما أهلك الأمم المكذبة قبلهم، ولو أرادوا الإيمان لاكتفوا بالمعجزات التي أيّد الله تعالى بها رسوله ﷺ ابتداءً، وأوضحها دلالةً معجزةً القرآن الكريم.

وأما اعتراضهم على بشرية الرسول ﷺ فيبين سبحانه بطلانه وسقوطه بقوله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ من البشر، ولم نرسل ملائكة. ﴿فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: أهل العلم بأحوال الرسل السابقين، وهم أهل الكتاب.

﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أحوال الأنبياء السابقين وأخبارهم، فكلّهم كانوا من البشر، يجوزُ عليهم ما يجوزُ على البشر:

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ﴿٨﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ أي: المرسلين.

﴿جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ بل جعلناهم أجساداً يأكلون ويشربون. ووحد الجسد لأنه مصدر أريد به الجنس.

﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ لا يموتون، بل ماتوا كما مات مَنْ قبلهم وَمَنْ بعدهم من البشر.

ثم نَبَّهتِ الآياتُ إلى أَنَّ موت الأنبياء والمرسلين ما كان بسبب العذاب الذي أنزله الله تعالى بأمرهم المكذبة لهم، فقد وعدهم الله تعالى أن ينجيهم من هذا العذاب:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ بإنجائهم.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ من المؤمنين المصدقين برسالة الأنبياء ﷺ، كما أخبر سبحانه في سورة يونس فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وهم الطاغون الباغون المتجاوزون للحدود المشروعة، والعاثون اللاهون.

• العرب والقرآن الكريم:

ثم التفتت الآياتُ إلى مشركي مكة تخاطبهم على وجه الخصوص بأسلوب التقرير والتأنيب، تبيينُ لهم فضلَ الله العظيم عليهم بإنزال القرآن الكريم بلغتهم، وعلى رجلٍ منهم، فهو شرفٌ كبيرٌ خَصَّهم الله تعالى به دونَ سائر الأمم والشعوب، جعله لهم امتيازاً رفيعاً على الناس، فلماذا يعرضون عنه؟!:

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: فيه شرفٌ لكم، وعزٌّ لكم، إن آمنتم به وعملتم بما فيه.

والمراد بالذكر هنا: الشرف، أي: فيه شرفكم، ... وقيل: فيه ذكركم، أي: ذكر أمر دينكم، وأحكام شرعكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب ... وقال مجاهد: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: حديثكم، وقيل: مكارم أخلاقكم، ومحاسن أعمالكم، والقول الأول يعمها إذ هي شرفٌ كلها، والكتاب شرف لنا ﷺ، لأنه معجزته، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه ^(١).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قدر هذه النعمة الجليلة التي خصَّكم الله تعالى بها، فأين عقولكم؟! وهو سؤالٌ إنكاريٌّ توبيخي، يبعثهم على التفكير، ويدفعهم إلى إعادة النظر في موقفهم المعارض للنبي ﷺ ورسالة القرآن الكريم.

لقد كان القرآن الكريم شرفاً للعرب وعِزّاً لهم، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] حين حملوا رسالته فشرَّقوا بها وغربوا ... وقادوا به البشرية قروناً طويلة، فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب، حتى إذا تخلَّوا عنه تخلَّت عنهم البشرية، وانحط فيها ذكركم.

وما يملك العربُ اليومَ من زادٍ يقدِّمونه للبشرية سوى هذا الزاد، وما يملكون من فكرة يقدِّمونها للإنسانية سوى هذه الفكرة، فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذاك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم ^(٢).

● إفاء وإنشاء:

وبعد ما تقدَّم من توبيخ وتقريع وتقرير ملزم لهم بمسؤوليتهم عن حمل رسالة القرآن الكريم، ذكرت الآيات الكريمة صورةً من صور الأمم الهالكة المعذَّبة عند نزول العذاب بهم، لإثارة الهلع والرعب في قلوبهم؛ ذكرتها أولاً مجملة في قوله تعالى:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١)

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: ما أكثر البلاد التي أهلكها الله

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١١/ ٢٧٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٣٧٠.

ودمَّرَها بسبب ظلم أهلها وطغيانهم.

وكلمة ﴿كَمْ﴾ للتكثير، والقَصْمُ: الكسر الشديد الذي يفصل بين الأجزاء فصلاً كاملاً، ولا يتأتى ذلك إلا في الأشياء الصلبة القاسية، فدلَّت كلمة (القَصْم) على قوة هذه الأمة الظالمة، وشدة شكيمتها، فهي كالحجر الصلد في القوة والصلابة^(١)، ومع ذلك دمَّرَها الله تعالى، وأهلكها بسبب ظلمها، وهو الكفر والشرك.

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ أي: أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم واستئصالهم وقطع دابرهم بالكلية:

﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾.

وبهذا أظهر الحق سبحانه كمال قدرته على الإفناء والإنشاء.

وقد ذكر تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، وبأساليب متنوعة، منها قوله ﷻ في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾.

وقوله أيضاً في سورة المؤمنون: ﴿فَلَاخِذْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُشَاءً فَبَعَثْنَا لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾.

وبعد إجمال فصلت الآيات تفصيلاً موجزاً مرعباً أحوال أمة من هذه الأمم الهالكة عند نزول العذاب ببلدهم وساحتهم، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٢).

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: رأوا عذابنا، أو أدركوه بحواسهم، وتذوقوا مقدماته وبدائته.

﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يهربون ويفرون مسرعين من بيوتهم وقصورهم وأماكن لهُوهم وفجورهم.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٣].

﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ أي: قيل لهم ذلك، ويحتمل أن يكون القائل ملائكة العذاب، أو مَنْ كَانَ نَمَّةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قالوا ذلك على سبيل الهزء بهم^(١).

وقد يكون المنادي لسان الحال تقريراً وتشجيعاً لحالهم وتفظيلاً، لأنهم كانوا قبل نزول العذاب بهم يتوعدون المؤمنين بالنفي عن البلد والوطن والتشريد، قائلين لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]^(٢).

● سقوط المترفين:

﴿وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي: ارجعوا إلى النعيم الذي كان سبب بطركم وطغيانكم. والمترف: المتنعم، يقال: أُتْرِفَ على فلان، أي: وُسِّعَ عليه في معاشه^(٣).

ولا شك أن الله تعالى هو المنعم المتفضل، وقد انشغل القوم عن المنعم بالنعمة، ولهذا جاء بناء الفعل ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ بصيغة المجهول ليشير إلى غفلتهم عن ربهم سبحانه.

والترف مظهر من مظاهر السقوط في الاختبار بالنعمة، وما أكثر الذين سقطوا في هذا الاختبار، وسارعوا إلى تكذيب الرسل، وعارضوا دعوتهم، كما قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال أيضاً: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

ولهذا شرع الإسلام التوسط والاعتدال في الإنفاق، ونهى عن الإسراف

(١) روح المعاني: ١٦/١٧ - ١٧.

(٢) انظر: نظم الدرر: ٣٩٥/١٢.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٧٥/١١.

والترف، قال تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وأثار الترف والسرف تظهر بشكل واضح جلي في مساكن المترفين، وهي تدل على مدى ترف أصحابها وسرفهم، ولعل ذلك سبب تخصيصها بالذكر في قوله تعالى:

﴿وَمَسَكِنَكُمْ﴾ التي شيدتموها وزخرفتموها لتكون موضع ترفكم وبطركم وطمعياكم وفجوركم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عما جرى عليكم ونزل بكم من أنواع العذاب، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة بلسان الحال التي تحولتم إليها وأصبحتم فيها.

• سؤال الأطلال:

ولا شك أن آثار الهالكين شواهد ناطقة، يسمعاها المعتبرون المتعظون، فلا يمرون عليها مرور الغافلين العابثين اللاهين، كما يفعل أكثر الناس في العصر الحاضر، يهتمون برؤية آثار الأمم الغابرة، ويرون آثار الخراب والدمار الذي حل بها، ولا يفكرون في أسباب الخراب والدمار، ولا قدرة الخالق العظيم الذي أنزل بهم هذا الخراب والدمار.

السياحة في الأرض للاعتبار والاتعاظ أمر مشروع في الإسلام، ندب إليه القرآن الكريم في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى في سورة الحج: ﴿فَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيْهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾.

وقوله في سورة آل عمران: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٧].

وأنكرت الآيات الكريمة على أولئك الذين يمرون على أطلال الأمم

الهالكة وآثارها، وينقبون في خرائبها، دون أن يتعظوا ويعتبروا، قال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّكَ لَنُزَوِّلُ عَلَيْهِمْ مُصِيبِينَ ﴿٢٧﴾ وَيَأْتِلُّ أَفْلاَ تَعْقُلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ولما مرَّ النبي ﷺ على الحجر بلادِ ثمود قوم صالح، وهو في طريقه إلى تبوك، أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه إذا دخلوا مساكنهم أن يدخلوها معتبرين خائفين من الله تعالى وسطوته وانتقامه، فقال: «لا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَعْذِبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» [رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠) واللفظ له].

● إيمان اليأس:

ولا ينتبه المسرفون المترفون من سكرة السرف والترف إلا عند نزول العذاب بهم، حينئذٍ تزول عنهم نشوة الترف، ويصحون من سكرة السرف، ويعترفون بقبح ما كانوا عليه وخسته:

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: الويل والهلاك لنا بسبب إعراضنا عن طاعة ربنا، وانشغالنا بأسباب لهونا وسرفنا وفجورنا.

اعترفوا في وقت متأخر حيث لا ينفعهم الاعتراف، وندموا ولات ساعة مندم، إذ جاء اعترافهم متأخراً في وقت نزول البأس، واليأس من النجاة، وإيمان اليأس لا ينفع صاحبه، لأنه صدر عنه عندما يئس من الحياة، وشاهد أسباب الهلاك والعذاب؛ فهو مثل إيمان فرعون عندما أدركه الغرق، قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس] (١).

(١) انظر: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو تفسير سورة يونس في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

ودل قولهم: ﴿يَوَلِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ على أنهم يئسوا من النجاة، وأيقنوا بالهلاك، فلا ينفعهم فرار، فما كان منهم إلا الإقرار:

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ﴾ يرددونها، لا دعوى لهم غيرها، لأن أسباب الويل والهلاك قد طوقتهم.

﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: كالزراع اليابس المحصود بأسنة المناجل.

﴿خَمِيدِينَ﴾ أي: لا حركة لهم ولا صوت، كالنار المنطفئة التي صارت رماداً، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

أصبحت مدنهم وقصورهم التي كانت تموج بالحركة والنشاط قبوراً خامدة ساكنة هامدة، لا حِسَّ فيها ولا حركة.

• تنزُّهه سبحانه عن اللعب:

بهذه الصورة المخيفة المرعبة هيأت الآيات الكريمة النفوس الغافلة العابثة اللاهية، لمواجهة حقيقة الحياة، ومعرفة جوهرها، والوقوف على حكماتها. فالحق سبحانه الخالق العظيم، والعليم الحكيم، ما خلق المكوّنات، وأبدع الموجودات للهو واللعب والعبث، حاشاه جلّ وعلا وهو القائل:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات التي لا تُحصى أجناسها وأفرادها، ولا تحصر أنواعها وصفاتها وخصائصها، على هذا النمط البديع المتقن المحكم.

﴿لِعَيْنٍ﴾ أي: للهو واللعب، يتنزّه الخلاق العظيم والعليم الحكيم عن

هذا، فهو كقوله جلّ وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعبَةٍ﴾ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الدخان].

وكم رد ﷺ على منكري الحساب والجزاء والبعث بعد الموت بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ [المؤمنون].

وقوله: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى [القيامة].

ثم أكد ﷺ تنزهه عن اللعب والعبث فقال:

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَا تَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (١٧).

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَا تَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: لاتخذناه على الوجه اللائق بكمالنا وقدرتنا وحكمتنا، وحينئذ لا يكون لهواً، بل يكون عين الحكمة والحق والجد. فاللهو ممتنع في حقه جلّ وعلا، لأنه من صفات النقص التي لا تليق بجلاله سبحانه، وكمال قدرته وعلمه وحكمته. ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي: ما كنا فاعلين.

• قذف الحق على الباطل:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (١٨).

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أي: بل شأننا الذي يليق بكمالنا؛ إثبات الحق، وإبطال الباطل، وذلك برمي الحق على الباطل.

﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أي: يصيبه في أمّ دماغه، مما يؤدي إلى إزالته ومحقه، فالحق قوي أصيل، لا ثبات للباطل أمامه.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أي: ذاهب بالكلية.

وفي ﴿فَإِذَا﴾ الفجائية، والجملة الاسمية، من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى، فكأنه زاهق من الأصل^(١) كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

فكأن الحق جرم صلب قوي كالصخرة، قُذِفَ بها على جرم رخو أجوف. فالحق: هو القرآن الكريم المنزل على خاتم المرسلين. والقذف: الرمي الشديد. والباطل: كل ما استحدثه الناس من العقائد الفاسدة والأفكار الضالة.

﴿وَلَكُمْ أَوَّلُ نِمَافُونٌ﴾ أي: لكم يا أصحاب الباطل الهلاك والعذاب مما وصفتم به النبي ﷺ والقرآن الكريم، حين قلتم ما قلتم، ما حكاها الله تعالى عنهم في أول السورة.

وقد يخيل لبعض الناس أحياناً مخالفة الواقع لهذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير، وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشاً كأنه غالب، ويبدو فيها الحق منزوياً، كأنه مغلوب، وإن هي إلا فترة من الزمان، يمد الله فيها ما يشاء للفتنة والابتلاء^(٢).

وأعمار الأمم والشعوب لا تُقاس بأعمار الأفراد، إنها فترات تمحيص لأهل الإيمان، تنتهي بإحقاق الحق وثباته، وزهق الباطل وهزيمته، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّيْدُ فَيَزْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

وسياتي معنا في آخر السورة زيادة تقرير لهذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

• تسبيح وتمجيد:

كيف تجرأ المشركون على الله ﷻ، فوصفوه بصفات لا تليق بكماله

(١) روح المعاني: ٢٠/١٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٢٣٧٢/٤.

وجلاله، وأنكروا حكمته في خلقه، وتكبروا عن طاعته، وأعرضوا عن عبادته، وكذبوا أنبياءه ورسله؟! .

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) .

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ﷻ جميع المكونات خلقاً وملكاً، وإنشاءً وإفناءً، وإحياء وإماتة، وتديراً وتقديراً، وإثابةً وتعذيباً، وفوق كل ذلك: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ أي: وله ﷻ من عنده، وهم الملائكة المقربون، الذين لا يعلم حقيقتهم وعظمتهم إلا هو .

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ جلّ وعلا، وعن الانقياد والخضوع لأمره ومشيئته .
﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: ولا يطلبون الانقطاع والتوقف عن عبادته جلّ وعلا وطاعته، بسبب إعياٍ وتعَبٍ يلحقهم . بل:

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠) .

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ينزهونه جلّ وعلا بأنواع التقديس والتمجيد والتعظيم دائماً في الليل والنهار .

﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي: دون توقف وانقطاع، ودون ضعف وملل وسامة .
ثم اتجهت الآيات بعد هذا التنزيه والتمجيد للحق سبحانه إلى توبيخ المشركين، لأنهم عبدوا غير الله تعالى، واتخذوا آلهة ضعيفة عاجزة:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾ (٢١) .

﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: من تراب الأرض وأحجارها .
و﴿أَمِ﴾ للإضراب والانتقال لتحكي جريمة أخرى من جرائم المشركين مع الإنكار عليهم .

﴿هُمْ يُشْرُونَ﴾ أي: هم قادرون على نشر الأموات، وإخراجهم من قبورهم؟ .

فالإله الذي يستحقُّ العبادة يجب أن يكون قادراً على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء والابتداء، وهذه الأصنام التي اتخذوها بأيديهم من الأرض ضعيفة عاجزة، فكيف عبدوها وأعرضوا عن عبادة الله تعالى القوي القادر القاهر، المبدئ المعيد، المحيي المميت، جَلَّ جَلَلُهُ؟! .

وهكذا بعد هذه المقدمة عن النبي الخاتم، ومواقف المشركين منه ومن دعوته أوصلتنا الآيات إلى الموضوع الأساس للسورة، وهو كلمة التوحيد والأدلة عليها، وبدأت ببيان الدليل العقلي الملزم:

• دليل التوحيد العقلي:

أين عقولُ المشركين التي ميزهم الله تعالى بها، والتي جعلها سبحانه أعظم الوسائل التي يتعرفون بها على خالقهم جَلَّ جَلَلُهُ، الذي يجب عليهم عبادته وطاعته؟! وأين أبصارهم وأسماعهم؟! .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبِّحْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أي: في السماوات والأرض .

﴿إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: غير الله تعالى .

﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي: لاختلَّ نظامُهما، وفسدَتْ نواميسُهما .

فلو قدرنا إلهين، فإمّا أن يتفقا أو يختلفا، فإن اتفقا على الشيء الواحد، فذلك الواحد مقدورٌ لهما، ومرادٌ لهما، فيلزم وقوعه بهما وهو محال، وإن اختلفا، فإمّا أن يقع المرادان، أو لا يقع واحد منهما، أو يقع أحدهما دون الآخر، والكل محال، فثبت أنَّ الفسادَ لازمٌ على كل التقديرات^(١) .

فلا يجري أمرُ العالم إلا بأمر واحد، ومدبر واحد، ومقدر واحد جلّ وعلا، وهي حقيقة يدركها الإنسان بأدنى تفكير ونظر، قررها سبحانه في هذه الآية، وفي آيات أخرى، منها قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٥١/٢٢ .

وَلَوْ مَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ .

وقوله أيضاً في سورة الإسراء: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إلهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبِغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ .

وكما ختم تعالى تلك الآيات بتنزيهه عما يقولون ويشركون، ختم الآية أيضاً بتنزيهه وتقديسه فقال:

﴿سُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يتنزه الله رب العرش العظيم عما لا يليق به من صفات النقص التي يصفه بها المشركون، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.
ومن كماله ﷻ أنه:

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ أي: لا يعترض عليه أحد، لأنه لا كفاء له سبحانه في أي صفة من صفات كماله وجلاله، فهو واحد في ذاته، وواحد أيضاً في أفعاله وفي صفاته ﷻ، تقدّست ذاته، وتسامت صفاته.

﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لأنهم مملوكون مقهورون، فهم مسؤولون أمامه جلّ وعلا وحده، فهو مالكهم ورازقهم ومدبر أمرهم.

فلا ينبغي لأحد أن يعترض على الله ﷻ، ولا يسعنا إلا أن نستسلم ونذعن لأمره التكليفي والقدري، فلا يقال: لم خلق الله الكافر؟ وإنما يتوجّه السؤال إلى الكافر: لِمَ كفر بالله تعالى، وكلُّ الدلائل العقلية والنقلية تدله على وجوده ووحدانيته جلّ وعلا؟! وهو سبحانه حكيمٌ عليمٌ، لا يفعل شيئاً عبثاً ولعباً - كما مرّ معنا - فله الحكمة التامة والحجة البالغة.

فإذا ما استبان لك الحكمة، فاحمد الله تعالى على ما أعطاك وأولاك،

وإذا ما قَصَّرَ عقلُك عن إدراك الحكمة، فالزم الأدب مع الله تعالى، واتَّهم عقلك بالقصور، وقل: الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

• دليل التوحيد النقلي:

ثمَّ اتجهت الآيات إلى بيان دليل التوحيد النقلي السمعي بعد بيان الدليل العقلي، والتزمت الأسلوب السابق نفسه، أسلوب الإضراب والانتقال من دليل إلى دليل، مع الإنكار والتوبيخ، واستدعى المقام أن تضيف إليه هنا التحدي في إظهار دليل سمعي واحد يستندون إليه في شركهم وكفرهم:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَهَةً ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۚ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَهَةً﴾ أي: كيف اتخذوا من دونه جلَّ وعلا إلهة مزعومة. وأفاد تكرير صيغة ﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾ تأكيد حدوث الشرك، فهو أمر مفتعل حادث طارئ، لم يكن مصاحباً للوجود البشري على الأرض، فالتوحيد هو الأصل الثابت الذي يتفق مع صفاء الفطرة الإنسانية، والشرك دخيل طارئ.

وبعد الإنكار جاء التحدي:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تدعونه من شرك وكفر من جهة السمع والنقل، ففي أي كتاب أنزل؟.

﴿هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ﴾ أي: هذا القرآن الكريم الذي معي ليس فيه إلا الدعوة إلى توحيد الحق ﷻ.

﴿وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾ في التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب المنزلة قبلي، هل في كتاب من هذه الكتب أن الله تعالى أمر باتخاذ إلهة سواه جلَّ وعلا؟!

فلا يُعقل أن يأمر الله تعالى بعبادة أحد سواه، فهو شرك وكفر لا يأمر الله تعالى به، ولا يرضاه، وقد نَزَّه كتبه سبحانه عنه، كما نَزَّه رسله وأنبياءه عنه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ

الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنَّبُوءَةِ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمًا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ .

فالشرك بالله تعالى لا يدل عليه دليل عقلي ولا دليل نقلي، وليس له سند سوى الجهل والتعصب واتباع الهوى، ولهذا قال تعالى:

﴿لَا أَكْثَرُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقُّ﴾، وجهلهم بالحق أدى بهم إلى الإعراض عنه:

﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

• كلمة التوحيد:

ثم بينت الآيات وحدة الرسالات الإلهية، وأن جميع الأنبياء والمرسلين أجمعوا على كلمة التوحيد، ودعوا إليها:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٥﴾ .

فكلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» هي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين، وهي التي تدل عليها الأدلة العقلية والنقلية، ولم يرسل الله تعالى نبياً إلا بها، كما قرر سبحانه هنا وفي آيات كثيرة من آيات التنزيل الحكيم، إذ هي أعظم المبادئ التي أنزل الله تعالى القرآن من أجل تقريرها، وهي الأصل الأصيل الذي تدور في فلكه جميع آيات الكتاب الكريم، وتبنى عليها جميع تعاليم الإسلام؛ قواعده وأصوله وفروعه.

وهي الكلمة التي تلتقي عندها جميع دعوات الأنبياء والمرسلين، وما من نبي إلا قال لقومه هذه الكلمة: ﴿يَقُولُوا اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وهذا يؤكد أن مصدر جميع الرسالات السماوية مصدر واحد، وهو الوحي الإلهي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر].

نادى بها إبراهيم عليه السلام ، وحطّم من أجلها أصنام قومه - كما سيأتي معنا - قال تعالى: ﴿وَإِذْ هَبْنَا دَافِقَاتِ الْفَجْرِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

ودعا إليها يوسف عليه السلام وهو في قعر السجن: ﴿يَصْدِرُ مِنَ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف].

وتكلم بها عيسى عليه السلام وهو في المهد فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

وتوسّل بها إلى الله تعالى ذو النون عليه السلام وهو في بطن الحوت كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وأمر بها خاتم المرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام].

• براءة الأنبياء مما نسب إليهم:

والأنبياء عليهم السلام بريئون من كل أنواع الشرك التي نسبها الكفار إلى بعضهم زوراً وكذباً، ولهذا اتجهت الآيات بعد أن بينت أنهم مجمعون على كلمة التوحيد إلى الشهادة ببراءتهم مما نسب إليهم:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أي: قال ذلك بعض المنتسبين إلى الأنبياء زوراً

وبهتاناً، فالآية مشنعة على كل من نسب إليه سبحانه ذلك؛ كالنصارى القائلين: عيسى ابن الله، واليهود القائلين: عزيز ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(١).

وقد ذكر الله أقوالهم هذه في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّكَونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

فهو مجرد قول قالوه بأفواههم، لا نصيب له من الصحة أبداً، فما أمرهم أنبياءهم إلا بعبادة الله الواحد الأحد - كما مر معنا - ولهذا نزه سبحانه ذاته المقدسة عن هذا القول الباطل فقال:

﴿سُبْحَنَهُ﴾، ثم بين حقيقة هؤلاء الذين ينسبونهم إلى الله تعالى بنسب البُتوة فقال:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ فهم ليسوا أبناءً لله تعالى، بل هم عباد له ﷻ، كرمهم فاختارهم للنبوة والرسالة. وهم أكمل الخلق طاعة لله تعالى، وتذلاً له جلّ وعلا، شهد لهم سبحانه بذلك فقال:

﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يتقولون على الله تعالى بشيء أبداً، فلا يقولون قولاً حتى يأذن لهم، أدباً معه ﷻ، فأقوالهم تبع لقوله سبحانه، وأعمالهم أيضاً تبع لأمره سبحانه:

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعملون إلا بما يأمرهم به سبحانه، فهم بقوله تعالى يقولون، وبأمره يعملون.

ووصفه سبحانه للأنبياء بكمال انقيادهم له قولاً وفعلاً صدر عن علمه المحيط بكل شؤونهم:

(١) روح المعاني: ٣٢/١١.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨).

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما قدموا وأخروا.

والى جانب كل ما تقدم من الصفات الكريمة التي يتصف بها الأنبياء ﷺ، فهم أكمل الناس معرفة بالله تعالى، وأكثرهم تعظيماً له، وخشية منه ﷻ، يظهر ذلك منهم على وجه الخصوص يوم القيامة عندما تتجه إليهم أبصارُ الناس، مستشفعين بهم إلى الله تعالى، فلا يشفعون إلا بعد أن يأذن الحقُّ لهم بالشفاعة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أي: إلا لمن رضي عنه سبحانه، وأذن الرحمن لهم أن يشفعوا له، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَذِ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضَىٰ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

﴿وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، وأصل الخشية: الخوف مع التعظيم، ولهذا خص الله ﷻ بها العلماء^(١) في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولا شكَّ أنَّ الأنبياء ﷺ أعلمُ العلماء بالله تعالى وبكماله وجلاله، فهم أعظم الناس خشيةً منه ﷻ، وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً، فرخص فيه، فتنزه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب، فحمده الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعهُ، فوالله إنني لأعلمُهُم بالله، وأشدُّهم له خشيةً» [رواه البخاري (٦١٠١)].

وفي مقابل كمال عبودية الأنبياء لله تعالى أظهرت الآيات عزَّ ربوبيته سبحانه بقوله:

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩).

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الأنبياء ﷺ، على سبيل الافتراض.

﴿إِنِّ إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ﴾ أي: يدَّعي لنفسه صفة الألوهية التي لا يتصف بها إلا الله ﷻ.

﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: نجزي الذي يدعي هذه الدعوى جهنم كائناً من كان.
 ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: وبهذا الجزاء العظيم نجزي الظالمين، الذين يضعون طاعتهم وعبادتهم في غير موضعها.

وحاشا الأنبياء ﷺ أن يكونوا ظالمين، وهم أكثر الناس معرفة بالله تعالى، وانقياداً لأمره، وإذعاناً لمشيئته ﷻ الذي قال: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ (١٧) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء].

• من أدلة التوحيد المحسوسة:

وما إن فرغت الآيات من بيان أدلة التوحيد العقلية والسمعية، حتى شرعت تبين بعض أدلة التوحيد المحسوسة الماثلة في الكون:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقَّْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠).

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَنَقَّْنَاهُمَا﴾:

والرتق في اللغة: الضم والالتحام خلقاً كان أم صنعة، ومنه الرتقاء: المرأة الملتحمة محلّ الجماع.

وقرأ الحسن وزيد بن علي وأبو حيوة وعيسى: (رَتْقًا) بفتح التاء، وهو اسم المرتوق، والقياس أن يثنى ليطباق الاسم، فقال الزمخشري: هو على تقدير موصوف؛ أي: كانتا شيئاً رتقاً^(١).

(١) انظر: روح المعاني: ٣٤/١٧.

والفتق: الفصل بين الشيئين، فهو ضد الرتق.

وللعلماء قولان في المعنى المراد من الآية:

القول الأول: أن السماوات كانت لا تمطر، ففتقها الله بالمطر، والأرض

كانت رتقاً لا تنبت، ففتقها الله تعالى بالنبات، وهو المأثور عن ابن عباس.

فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في «الحلية» من طريق

عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رجلاً أتاه فسأله عن الآية، فقال:

اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرني، وكان ابن عباس، فذهب إليه

فسأله، فقال: نعم كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت،

فلما خلق الله تعالى للأرض أهلاً، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع

الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن علمت أن ابن عباس قد أوتي

في القرآن علماً، صدق ابن عباس، هكذا كانت^(١).

القول الثاني: ﴿كَانَتْ رَتْقًا﴾ أي: كانت السماوات والأرض شيئاً واحداً

ملتزقتين ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي: فصلنا بينهما، وهو قول أكثر المفسرين المعاصرين،

وقد استدلوا به على إعجاز القرآن الكريم العلمي، لأنه يتفق مع النظرية السائدة

عند العلماء، التي تقول: كان الكون كتلة واحدة، ثم حدث انفجار كبير أدى

إلى انفصال الأرض والشمس والنجوم عن بعضها.

ولكن يعترض على هذا القول بأنه لا ينسجم مع قوله تعالى في صدر الآية:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ وسواء قلنا: المراد من الرؤية: رؤية البصر أو رؤية

البصيرة، وهي العلم، فمتى رأى الكفار هذه الظاهرة الكونية التي حدثت قبل

وجودهم بزمان بعيد؟!.

والقول الأول الذي ذهب إليه ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما أولى، فالآية توجه

الأنظار إلى الظاهرة الكونية المشاهدة الدالة على وجود الله تعالى ورحمته

ووحدانيته، وهي ظاهرة إنزال المطر من جهة السماء بقدرته تعالى، وإنبات

النبات من الأرض بقدرته تعالى أيضاً، وهو أمرٌ مشاهد ملموس، خاضعٌ لنواميس إلهية دقيقة، تدل على عظمة مكنونها ومدبرها ومبدعها ووحدانيته جلّ وعلا.

ويؤكد أنه هو المعنى المراد قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

وجاء هذا المعنى موضحاً في آيات أخر من كتاب الله تعالى، كقوله ﷻ في سورة الطارق: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ لِأَنَّ الْمَرَادَ بِالرَّجْعِ: نَزُولُ الْمَطَرِ تَارَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَالْمَرَادُ بِالصَّدْعِ: انشِقَاقُ الْأَرْضِ عَنِ النَّبَاتِ.

وكقوله تعالى أيضاً في سورة عبس: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝﴾^(١).

● الماء والحياة:

وأما قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فمعناه: وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء من الحيوان والنبات والشجر^(٢).

فالماء سبب وجود الحياة بتقدير الله تعالى، والآيات بهذا المعنى في القرآن كثيرة، منها قوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرْسِلُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝﴾.

ومنها قوله تعالى في سورة الروم أيضاً: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِكِينَ ۝ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخِي الْمَوْقُوتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ يفيد العموم، وأريد به الخصوص، وله نظائر في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

(١) انظر: أضواء البيان: ٥٦٤/٤.

(٢) تفسير الخازن: ٢٤٥/٤.

وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿النمل: ٢٣﴾ ولا شك أنه كان عند سليمان أشياء ما كانت موجودة عندها .

وقوله أيضاً: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ولا شك أنه أريد به الخصوص، لقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقد يكون المراد من قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ماءً مخصوصاً هو ماء النطفة، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

وقوله أيضاً: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٦﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢٧﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [المرسلات].

وثمة قول آخر يذهب إليه كثير من العلماء المعاصرين، ذكره سيد قطب رحمه الله في «الظلال» فقال: «فأما شطر الآية الثاني: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فيقرر كذلك حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً، ويمجدون داروين لاهتدائه إليها، وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول؛ وهي حقيقة تثير الانتباه حقاً، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقيناً بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا أنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوفات العلمية له، وأقصى ما يقال هنا كذلك: إن نظرية النشوء والارتقاء لداروين وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه الآية بالذات»^(١).

وأرى أن هذا قول لا يخلو من مجازفة، ولا يتفق كما سبق مع صدر الآية ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فمهد الحياة الأول غيب عن الإنسان، لا يعلمه إلا الله

تعالى القائل: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فالآية تتحدث عن ظواهر كونية مرئية محسوسة تدل على وجود مكونها ووحدانيته سبحانه، ولهذا ختمها سبحانه بقوله:

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أفلا يصدقون بأن خالق هذه الظواهر الكونية واحدٌ أحدٌ، منزّه عن الشريك والصاحبة والولد.

• الجبال أوتاد الأرض:

وتابعت الآيات لفت الأنظار والأفكار إلى الدلائل الكونية المحسوسة الدالة على عظمة خالقها ووحدانيته:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثابتة.

﴿أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب ويختل توازنها فيتعذر قرارهم عليها.

ومن الثابت علمياً أنَّ للجبال دوراً في توازن الأرض وتثبيت قشرتها بتقدير الله تعالى، فهي للأرض كالأوتاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ أي: جعل الله تعالى في الأرض أو في الجبال، طرقاً واسعة، ليتمكن الناس بواسطتها من الانتقال من مكان إلى مكان، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدهم ومصالحهم، أو لعلهم يهتدون إلى الاستدلال على التوحيد وكمال القدرة والحكمة^(١).

(١) روح المعاني: ٣٨/١٧.

● السماء سقف الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٣٢﴾

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ أي: جعلنا السماء بمثابة السقف للأرض، تحيطُ بها، وتعلوها من جميع جوانبها، وهي مرفوعةٌ محفوظةٌ بتقدير الله تعالى عن السقوط، كما قال جلَّ وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وهي محفوظة أيضاً من الزوال إلى الأجل المسمى الذي قدره العليم الحكيم القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]، وزوالها يكون عند قيام الساعة، عندما تشقُّ بقدرته تعالى وتطوى.

وهي محفوظة أيضاً من أي خلل يطرأ على نوايسها الدقيقة المحكمة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُتُورٍ﴾ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: وهم عن كل هذه الأدلة الواضحة معرضون عن التفكر في خالقها ومبدعها، وعن الإيمان بأنه حكيم عليم واحد أحد، منزّه عن الشريك والولد، فرغم كثرة الأدلة الدالة على وحدانية الخالق وعظمته، ورغم وضوحها وظهورها، فإن أكثر الناس لا ينتفعون بها، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

• الليل والنهار والشمس والقمر:

الليل والنهار، والشمس والقمر، أقربُ الظواهر الكونية إلى حواس الإنسان، وأكثرها اتصالاً بحياته ومعيشته، ولهذا ذُكرت كثيراً في القرآن الكريم كأدلة واضحة على عظمة قدرة الله تعالى ووحدانيته:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

﴿وَهُوَ﴾ الله سبحانه وحده.

﴿الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ اللذين يتعاقبان بنظام محكم ثابت دقيق لا يتغير، يدل على وحدة مُبدعه ومُدبره.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ اللذين أيضاً يسيران بحسب نظام دقيق بديع ثابت، لا يلحقه أدنى خلل.

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ مما يدل على دقة النظام وإحكامه وإتقانه، كما في قوله تعالى في سورة يس: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وقوله أيضاً في سورة الأنعام: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

• ناموس الموت والحياة:

وانتقلت الآيات من نواميس الأفلاك السابحة في الفضاء، إلى ناموس الموت والحياة المقدر على جميع الأحياء، فهو من أعظم الأدلة على وحدانية الله تعالى، لأنه وحده جلّ وعلا الذي لا يموت، فكل مخلوق يعرف أنه سيموت، فالموت هو اليقين الذي تستيقن به الأحياء كلها، وهاهي الآيات الكريمة تخاطب صفوة الله تعالى من خلقه خاتم الأنبياء بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ أي: البقاء والدوام .

﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ كما مات من قبلك الأنبياء والمرسلون .

﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أي: أفإن مت أنت أبقى هؤلاء الكفار المشركون؟! كلا

بل سيموتون كما مات من قبلهم، وسيموت أيضاً كل الذين يأتون من بعدهم، فلا نجاة لأحد من الموت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمِيتٌ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّمُونَ﴾ [الزمر].

فلقد قهر الله جلَّ وعلا بالموت كل المخلوقات، وهو يدل على كماله جلَّ وعلا ووحدانيته، كما يدل على ضعف المخلوقات ومحدوديتها، وخضوعها لمشيئته سبحانه وقدرته .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ هكذا على الإطلاق، ف (كل) إذا أضيفت إلى نكره تعم، ويدخل في هذا العموم نفوس الأنبياء والملائكة المقربين .

﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ أي: مدركة حقيقة الموت وطعمه، لأنها ستصاب به .

والله ﷻ وحده الباقي الذي لا يموت، فهو المحيي والمميت، والمبدئ والمعيد، وهو الأول بلا بداية، والباقي أزلاً بلا نهاية، فهو وحده المتصف بالقدم والبقاء، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال أيضاً: ﴿كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ ﴿٣٦﴾ وَيَقَعُ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

ولهذا فهو وحده الإله المستحق أن يُعبد ويُطاع، وأما غيره من المخلوقات الحادثات القابلة للموت والفناء، فلا تستحق أن تُعبد وتُطاع، وهو سبحانه وحده الذي ينبغي الاستعانة به والتوكل عليه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

ولا يخفى أن الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ تشير إلى عبودية الأنبياء والمرسلين لله تعالى الذي قدر عليهم الموت كما قدره على غيرهم من المخلوقات، وهو رد على الذين غلوا في أنبيائهم، حتى رفعوهم عن مقام عبوديتهم لله تعالى إلى مقام الألوهية، كما أنه تهديد ووعيد لجميع الكفار والمشركين، لأنهم سيحاسبون، ويسألون عن شركهم وكفرهم بعد الموت.

فالموت ليس هو النهاية، والحياة الدنيا بما فيها من خير وشر اختبار وابتلاء، تظهر نتائجه بعد الموت، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: نختبركم تارة بالشر، وتارة بالخير، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

﴿وَالَّذِينَ نُرْجِعُونَ﴾ أي: تُرجعون بعد الموت إلى قدرنا وقضائنا فنجازيكم على أعمالكم في الدنيا.



الْبَقِصَةُ الثَّانِي

حَامِلُو كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَرُؤَادُهَا

﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَّخَذُوا لَكَ يَأْتِيهِمْ مِنْ عَجَلٍ سَائِرِينَ ۖ إِنَّا نَحْنُ اللَّهُ ۚ وَنَحْنُ الْمَلِئُكَ ۚ﴾
 بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَائِرِينَ ۖ إِنَّا نَحْنُ اللَّهُ ۚ وَنَحْنُ الْمَلِئُكَ ۚ
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ
 عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٨﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ
 فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا
 مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ
 رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ
 مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٢﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي
 الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ
 الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَكُونُنَّ يَوْمَلَاءَ
 كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
 مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ
 وَضِيَاءً وَذَكَرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٧﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٨﴾
 وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ تُنْكِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ
 عَلِيمِينَ ﴿٥٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ عَاقِبُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا
 عِبَادِينَ ﴿٥٢﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنْ
 اللَّعِينِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٥﴾
 وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٦﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَاءً إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ

يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى آعِينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا إِنَّكَ أَنْتَ هَذَا ﴿٦٢﴾ قَالُوا فَتَعْلَمُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٣﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٦﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٧﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٦٩﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴿٧٠﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَرِيبَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبِئْسَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسَقَيْنَ ﴿٧١﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَثُمَّ إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٣﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٤﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٥﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٦﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُنْصِبَكُمْ مِنْ بَاسِكُمْ فَعَلَّ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَسَلَّمْنَا الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٧٩﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيْ مَسَّيَ الصُّرُ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٠﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلُظًا فَقَدْ آْنَا أَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ

وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَرَكِرْنَا إِذْ نَادَى رَبُّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَبْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَانَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿٩٤﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَىٰ قَرِينِهِ أَهْلَ كُنْهَاتِهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَوِيلِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ تَطْوِي السَّمَاءُ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَلِيمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدرِيَتْ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُمْ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أُدرِي لَعَلَّهُمْ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

● تمهيد:

وبعد أن فرغت الآيات الكريمات من الحديث عن كلمة التوحيد وأدلتها

شرعت بالحديث عن حَمَلَة كلمة التوحيد وروّادها، عن بعض الأنبياء والمرسلين الذين شَرَّفهم الله تعالى بحملها إلى الناس.

وأبرزت الآياتُ في حديثها عن الأنبياء نقطتين هامتين يشترك جميعهم بالاتصاف بهما:

أولهما: حاجةُ الأنبياء وافتقارهم إلى الله تعالى، مما يدل على عبوديتهم له سبحانه.

ثانيهما: عنايته سبحانه بهم، واستجابته لدعائهم، وكثرة رحماته وألطافه المحيطة بهم عليهم الصلاة والسلام.

• الفاتح الخاتم:

بدأت الآياتُ حديثها عن الأنبياء بخاتمهم سيدنا محمد ﷺ، كما ختمته بالعودة إليه، والحديث عنه - عليه وعليهم الصلاة والسلام - فهو الفاتحُ الخاتم، وكلمةُ التوحيد التي حملها إلى جميع الناس، قدَّر الله تعالى أن تكون الكلمةُ الباقيةَ في الناس إلى قيام الساعة، فهو سيِّدُ الموحِّدين، وخاتم النبيِّين والمرسلين. أنزل الله تعالى عليه سورة الأنبياء، وهو في مكة المكرمة، يواجه بكلمة التوحيد جهل المشركين وعنادهم، ولهذا بدأت الآياتُ حديثها عنه ﷺ من موقف العناد والجهل الذي كان عليه المشركون، تثبيتاً له عليه الصلاة والسلام في مواجهتهم، وتخفيفاً لمعاناته وأحزانه:

﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ
وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٦).

﴿وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: ما ينظرون إليه إلا نظرةً المهزوء به، ويقول بعضهم لبعض بلغة الإنكار والاستصغار:

﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ بتقبيحها وعبثها وبيان عجزها وضعفها،

فهم يرون أنَّ هذا من الأمور التي تؤخذُ عليه، وينتقدُ بسببها، مع أنها من مناقبه وكمالاته.

﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ المتصف بكل صفات الكمال والجلال والإحسان.
 ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: منكرون جاحدون لفضله سبحانه وإحسانه ووحدانيته،
 التي تدلُّ عليها الأدلة العلمية والسمعية والمشاهدة المحسنة، كما مرَّ معنا.
 فهم إذن الذين ينبغي أن يُهزأَ بهم ويُسخَّرَ منهم، وجاء بالضمير الثاني
 ﴿هُمْ﴾ زيادة في تأكيد المعنى.

• المستعجلون للعذاب:

وكانوا بسبب عنادهم وشدة جهلهم واغترارهم بأنفسهم يستعجلون نزول
 العذاب بهم، وغابَ عنهم أنَّ تأخير العذاب عنهم رحمة من الله تعالى بهم ببركة
 النبي الكريم نبي الرحمة الذي أرسل إليهم، فللعذاب موعِدٌ قدَّره العليم
 الحكيم، فلا ينبغي لهم استعجاله:

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ (٢٧).

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: خُلق الإنسان وهو مطبوع على الاستعجال، وقلة
 التأنّي والثبات، فكأنَّه مخلوق من نفس العَجَل، تنزيلاً لما طُبِعَ عليه من الأخلاق
 منزلة ما طُبِعَ منه، والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم: خُلق من الكرم^(١).

ونظيره في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [الروم:
 ٥٤]. فمعناه كما قال في سورة النساء: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٨).

وكذلك قال تعالى في معنى ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عُجُولًا﴾
 [الإسراء: ١٠].

واستعجالهم الذي طبعوا عليه جعلهم يستعجلون العذاب، ولهذا قال الله تعالى:

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٢٤٨/٤.

﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: سأريكم الدلائل الدالة على صدق آياتي، وهي آيات العذاب التي توعدّهم الله تعالى بها.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا تستعجلوني بالإتيان بها، لأن فيها هلاككم وعذابكم.

ولا يقال: كيف نهاهم عن الاستعجال وقد طُبعوا عليه؟.

لأننا نقول: نعم جُبل الإنسان على العجل، ولكن في استطاعته أن يلزم نفسه بالتأني، كما أنه جُبل على الشهوات، كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وفي استطاعته أن يلزم نفسه بالكف عنها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: (١)].

وثمة باعث آخر كان يبعثهم على استعجال العذاب، وهو تكذيب النبي ﷺ واستهزاؤهم به عليه الصلاة والسلام، دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ وهو يوم القيامة، أو وقت نزول العذاب.

﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنه سيأتي ويتحقق.

وردّ سبحانه عليهم ببيان صورة من صور عذابهم يوم القيامة، فقال:

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٣٩).

أي: لو يعلم الذين كفروا حين وقوع العذاب بهم، وإحاطة النار بهم، وعجزهم عن دفعها عن ظهورهم ووجوههم، وعدم وجود مَنْ ينصرهم؛ فظاعة

وَشَنَاعَةُ وَشِدَّةُ الْعَذَابِ الَّذِي يَسْتَعْجِلُونَ نَزْوِلَهُ، لَمَّا اسْتَعْجَلُوا نَزْوِلَهُ وَاسْتَخَفُّوا بِهِ، فَجَهَلَهُمْ بِشِدَّةِ الْعَذَابِ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ.

وحذف مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ لدلالة الكلام عليه، كما حذف جواب ﴿لَوْ﴾ للدلالة على أنه من المسلّمات المفروغ منها التي لا حاجة للتصريح بها. والشؤون منوطة بمشيئة الله تعالى لا بمشيئتهم، ولهذا يأتيهم العذاب فجأة دون سابق اقتراح منهم:

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة.

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي: تدهشهم وتحيرهم بوقعها الشديد المفاجئ وقوتها.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي: فلا يقدرّون على دفعها والتخلص منها.

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا هم يُمهّلون ويُؤخّرون كما أمهلوا في الدنيا.

● مواصلة وتنشيت وتحدّ:

والتفتت الآيات إلى النبي ﷺ تواسيه عما يلقي من عناد المشركين واستهزائهم، بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رِئُسٌ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ رِئُسٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزأ بك المشركون.

﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل وأحاط بالمستهزئين

عقوبة استهزائهم، انتقم الله تعالى منهم، وكذلك سينتقم الله تعالى من هؤلاء الذين يستهزئون بك ويكفّيك شرهم وكيدهم.

وقد فعل الله سبحانه ذلك، وانتقم منهم، وأنزل على نبيّه الكريم قوله: ﴿إِنَّا

كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

وأمرت الآيات النبي ﷺ في معرض مواساته وشد أزره أن يقول للمشركين متحدياً لهم :

﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٤٢).

﴿قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي : من يحفظكم من بأس الرحمن وعذابه في الليل والنهار، فأنتم معرّضون لعذابه وانتقامه في أي وقت، ونبّههم بالاسم الكريم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ على أنه لا كاليء لهم غير رحمته العامة، التي بسببها أنظروهم، وأمهلهم، وأخر العذاب عنهم^(١).

ثم بيّن سبحانه أن المشركين لا يستحقون رحمته سبحانه، ولا يصلحون لها، لإعراضهم عن ذكره وعبادته، فقال :

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وكما هم عاجزون عن دفع عذاب الله تعالى عنهم، كذلك ألهتهم، فهي أعجز منهم :

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ (٤٣).

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ أي : ألهم آلهة سوى الله تحميهم وتحفظهم من عذابه، وكيف تحفظهم وهي ضعيفة عاجزة لا تستطيع أن تحمي نفسها.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي : لا يستطيعون حماية أنفسهم، بل يحتاجون إلى من يحميهم وينصرهم، كما قال سبحانه في سورة يس : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ ﴿٧٥﴾.

وقال هنا :

﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي : ولا يصحبهم نصر من الله تعالى، فكيف ينصرون غيرهم؟! ففاقد الشيء لا يعطيه.

وقد يكون المعنى: ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا، فإله سبحانه يجير ولا يجار عليه، كما قال ﷺ: ﴿قُلْ مَنْ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

والعرب تقول: أنا جارٌ لك وصاحبٌ من فلانٍ، أنا مجيرٌ لك منه^(١).

• دفع التوهم:

وقد يتوهم متوهم فيقول: ألا ترى إلى ما هم فيه من طول الأعمار وسعة الأرزاق، أليس هذا من حفظ آلهتهم ورزقها لهم؟
ودفعاً لهذا التوهم الباطل، قال سبحانه:

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤٤).

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ فتمتعهم هم وآباؤهم بطول الأعمار وسعة الأرزاق، بمشيئتنا وتقديرنا وحدنا، وهو استدراجٌ من الله تعالى لهم وابتلاء واختبار، وقد مرَّ معنا أنَّ الابتلاء يكون بالخير وبالشر عند قوله: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فلا ينبغي الاغترار ببعض ما يتمتع به الكفار في الدنيا، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ (١٩٦) مَتَّعْ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْإِهْلَاقَ [آل عمران].
والمتمائل لأحوال الزمان وتقلباته وما يحدث في الأرض من أحداث وتقلبات تستبين له الحقيقة:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بتدمير قراها، وإهلاك أهلها، بسبب تكذيبهم وإعراضهم عن طاعة ربهم.

قال ابن كثير رحمه الله: «وأحسن ما فُسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنْ

(١) انظر: أضواء البيان: ٤/ ٥٨٠.

أَلْقُرْآنَ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ [الأحقاف: ٢٧] والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة؟^(١).
وقد مر معنا في أول السورة قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿أَفَهُمْ أَغْلَبُونَ؟﴾ وهم أضعف حالاً وأقل عدداً من الأمم التي أهلكها سبحانه قبلهم؛ فهم إذن مغلوبون لا غالبون.
وكأنني أرى في الآية الكريمة إشارةً إلى كروية الأرض، فأى مكان من سطحها المكوّر يعد طرفاً من أطرافها. والله تعالى أعلم.

• الإنذار بالقرآن العظيم:

ثم أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ مرةً ثانيةً أن يقول للمشركين:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ وهو القرآن العظيم، فمهمتي أن أنذركم به، وأحذركم من مخالفته، وليس من مهمتي أن آتيكم بما تقترحون من معجزات، وبهذا الإنذار أقيم حجة الله عليكم، وأقطع أعداركم، ومهما تغافلتم عنه، وتصاممتم عن سماعه، فقد قامت به الحجة عليكم.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّرُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ أي: مهما بالغت في إنذاركم فالقوم سادرون في غيهم وضلالهم، لا يسمعون الإنذار، ولا ينتفعون به، مما يدل على شدة غفلتهم، فلا يتنبهون من غفلتهم إلا عندما ينزل العذاب بهم.

• نفحة عذاب:

﴿وَلَيْنَ مَسْتَهْمُ نَفْحَةٍ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لِقَوْلِكِ يَتُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾.

﴿وَلَيْنَ مَسْتَهْمُ نَفْحَةٍ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي: إن أصابهم شيء يسير قليل من

عذاب الله تعالى الذي توعدّهم به .

فالنَّفْحَةُ تدل على القلة، لأنها تفيّد معنى المرة الواحدة، وأصل النّفح هبوبٌ رائحةٍ شيء، وكلمة (المس) تدل على القلة أيضاً .

قال القرطبي رحمه الله: «النّفحة في اللغة: الدفعةُ اليسيرةُ، والمعنى: ولئن مسهم أقل شيء من العذاب»^(١).

﴿يَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: عندئذٍ ينتبهون من سكرتهم وغفلتهم، ويدعون على أنفسهم بالهلاك، معترفين بأنهم كانوا ظالمين، تماماً كما اعترف أهل القرى الظالمة التي قصمها الله تعالى قبلهم، كما مرّ معنا في أول السورة (الآية: ١١).

نفحة عذاب واحدة تجعلهم هكذا، فكيف يكون حالهم إذا أصابهم العذاب كله بعد أن يحاسبهم الله تعالى يوم القيامة على جميع ما صدر منهم من أقوال وأفعال بموازين عدله الدقيقة؟! ..

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٤٧).

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أي: ذوات العدل، ووضعها: إحضارها .

﴿يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: لأجل محاسبتهم يوم القيامة .

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ مهما كان قليلاً يسيراً .

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ حتى ولو كان مقداره مقدار حبة خردل، فحبة الخردل مثل للصّغر .

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي: أحضرناها للحساب والسؤال، فلا ينقص من إحسان

محسن، ولا يزداد في إساءة مسيء، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿يَبْقَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَحْرٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، فاللطيف الخبير هو الحكم العدل جلّ وعلا.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيسِينَ﴾ فلا مزيد على علمه سبحانه وعدله.

• التوراة والقرآن:

ولما وصلت الآيات إلى هذا المستوى من الوعيد والتهديد للمشركين المستهزئين بخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، عادت للحديث عن حَمَلَة كلمة التوحيد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فذكرت النبيين الكريمين موسى وهارون، واقتصرت على التوراة وصفاتها التي تجمعها بالقرآن الكريم إبرازاً لوحدة الرسالتين فيهما:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُنْقِبِينَ﴾ (٤٨).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: آتيناهما التوراة الكتاب الفارق بين الحق والباطل.

وتلتقي التوراة مع القرآن الكريم بهذه الصفة؛ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال أيضاً: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال أيضاً: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٣) من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران] وهو القرآن.

﴿وَضِيَاءً﴾ أي: ونوراً يُستضاء به في ظلمات الحيرة والجهالة.

وكذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ

تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الشورى: ٥٢﴾.

﴿وَذَكِّرْ لِلْمُنْتَفِعِينَ﴾ أي: موعظة للمتقين، أو شرفاً وعزاً للمتقين، والقرآن الكريم كذلك أيضاً، وقد مر معنا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: الذين يخافون من الله سبحانه ولم يَرَوْهُ، أو يخافون من الله تعالى في الخلوات بعيدين عن الناس.
﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون من يوم القيامة.

ولا يخفى ما في الآيات من تعريض بالمشركين المعرضين عن القرآن الكريم، والمستعجلين ليوم القيامة، ولهذا انتقلت الآيات بعد ذلك من التعريض إلى التصريح تواجهم بالحقيقة:

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾.

﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن الكريم.

﴿ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ كثير الخير، غزير النفع.

﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ جاحدون لبركاته، وغافلون عن آياته.

فالقرآن الكريم لا يُجْحَدُ ولا ينكر، لظهور إعجازه، وقوة دلائله، لا يجحده إلا المعاندون المكابرون، الذين انطمست بصائرهم، وتجمدت أحاسيسهم ومشاعرهم.

• إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام:

ثم وقفت الآيات طويلاً عند إبراهيم عليه السلام، لأنَّ لدعوة التوحيد صلة كبيرة به عليه السلام، فجذورها متصلة به، ومنتهاية إليه، فهو من أعظم المنادين بها في التاريخ

البشري القديم، ولهذا ارتبطت به دعوة التوحيد حتى غدا ﴿عَلِمَّا عَلَيْهَا، وَإِمَامًا بَيْنَ النَّاسِ لَهَا:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥١).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: ألهمه الله تعالى دلائل التوحيد منذ نعومة أظفاره.

وكان ﴿أَهْلًا لِّذَلِكَ﴾، فما اصطفاه الله لهذه الدعوة، وبين له حججها وأدلتها منذ صغره إلا بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (٥٢).

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ أي: الأصنام، مفردها تماثال، وهو اسم للشيء المصنوع على صورة مخصوصة كصورة إنسان أو غيره. ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي: مقيمون على عبادتها باستمرار. وسؤاله ﴿لأبيه وقومه سؤال إنكار﴾، أنكر عليهم فيه عبادتهم للأصنام، وكثرة ملازمتهم لها، وأشار إليها محقراً لها، ومهوّناً من شأنها.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (٥٣).

فلا حجة لهم في عبادتها سوى تقليد آبائهم وأجدادهم! وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويمه الأشياء بقيمتها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل^(١).

وفي مقابل تحجرهم وتقليدهم حَكَمَ ﷺ عليهم وعلى آبائهم بالضلال وواجههم بحكمه عليهم بشجاعة وصراحة:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

أي: بيّن واضح ظاهر، فالحق لا يصيرُ باطلاً بكثرة المعرضين عنه، والباطل لا يصيرُ حقاً بتوالي الأجيال عليه.
وفوجئ القوم بجرأة إبراهيم ﷺ وشجاعته وصراحته، فما كانوا يتوقعون مثل هذه المواجهة الجريئة من أحد، فسألوه مستوضحين:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: الجد.
﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ أي: المازحين الهازلين.
والمعنى: أبجد تقول ما تقول، أم تقوله لاعباً مازحاً؟
ولم يجد ﷺ حاجة إلى الجواب عن استفسارهم، بل بادر إلى تعريفهم بالاله الحقيقي الذي يجبُ عليهم أن يعبدوه، فمن خلال كلامه سيعرفون مدى جده وعزمه وحزمه:

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ .

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ فخالق السماوات والأرض من العدم هو ربكم شتم أم أبيت.
﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الذين يشهدون أن ربكم هو رب السماوات والأرض، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﷻ .
وهم الذين ذكروهم سبحانه بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وكلمات إبراهيم عليه السلام تدل على ثقته الكبيرة العظيمة بكلمة التوحيد التي يدعو إليها، إنه واثق وثوق الذي يشهد على واقع لا شك فيه، مع أنه عليه السلام لم يشهد خلق السماوات والأرض... ولكن الأمر من الوضوح والثبوت إلى حد يشهد المؤمنون عليه شهادة قائمة على العلم والمعرفة، فكل ما في الكون ينطق بوحدة الخالق المدبر^(١) كما مر معنا عند الحديث عن أدلة التوحيد.

• تحطيم الأصنام:

ثم أقسم عليه السلام على أنه سيدبر مكيدة لأصنامهم، يبين لهم فيها عجزها وضعفها، وأنها لا تستحق أن تكون مؤلَّهة معبودة:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ۝٥٧﴾

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي: والله لأبذلن جهدي في كيد أصنامكم.

والتاء من حروف القسم، ولا تستعمل إلا مع اسم (الله) الجليل.

﴿بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ أي: بعد أن تذهبوا بعيداً عنها، وما كانوا يتركونها إلا

في عيد لهم، يجتمعون فيه بعيداً عنها.

ويبدو أن قومه لم يحملوا تهديده على محمل الجد، إذ ما كانوا يتصورون

أحداً يتجرأ على أصنامهم.

ولما جاء يوم عيدهم خرجوا، وتخلف إبراهيم عليه السلام عن الخروج، واحتجَّ

أنه سقيم، كما أخبر سبحانه عن ذلك في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي التُّجُومِ ۝٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي

سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ فَنُؤَلَّوْا عَنْهُ مُدْرِينَ﴾ [الصفات].

قال ابن كثير: «إنما قال إبراهيم عليه السلام لقومه ذلك، ليقيم في البلد إذا ذهبوا

إلى عيدهم، فإنه قد أزعج خروجهم إلى عيدهم، فأحب أن يختلي بآلهتهم

ليكسرَهَا، فقال لهم كلاماً هو حقٌ في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه»^(١).

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٨).

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: جعل الأصنام قطعاً مكسرة محطمة.
 ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ أي: إلا أكبر الأصنام استبقاه، ووضع الفأس بجانبه.
 ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلهم يرجعون إلى هذا الصنم، فيسألونه عن كاسرها، فيتبين لهم عجزه، وتقوم بذلك الحجة عليهم.
 وعندما رجعوا إلى أصنامهم ووجدوها محطمة مكسرة:

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٦٠).

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) ﴿قَالُوا﴾ أي: قال الذين سمعوا إبراهيم يتوعد الأصنام:
 ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يعيهم.
 ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ذكروه بصيغة التجهيل، ت قليلاً لشأنه ﴿﴾.

● المحاكمة:

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (٦١).

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ﴾ أي: أحضروه ليحاكم أمام الناس.
 ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ العقوبة التي سيحكم عليه بها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٨٥/٣.

فما فعله إبراهيم عليه السلام عدواناً في نظرهم على مقدّسات الأمة، ومن حقّ كلّ فردٍ منها أن يشهد محاكمته وعقوبته.

وبدأت المحاكمة، وشرع القضاء يستجوبون إبراهيم عليه السلام:

﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

فهي لا تزال بنظرهم آلهة، مع أنها أصبحت جُذاذاً وحُطاماً.
وأجاب إبراهيم عليه السلام على سؤالهم جواب المستهزئ الساخر منهم:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَيْدُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

وأراد إبراهيم عليه السلام بهذا استدراجهم إلى الإقرار بالظلم بعبادتهم لهذه الأصنام.
ونجح إبراهيم عليه السلام بأسلوبه الساخر المتهكّم أن يجعلَ القضاءَ يقرون على أنفسهم بالظلم، وأنّهم أحقُّ أن يكونوا في قفص الاتهام بدل إبراهيم عليه السلام، إذ لامست كلماته مواضع الوجدان في أعماق نفوسهم:

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض:
﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ عبادة هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.
وجاء إقرارهم بصيغة مؤكدة مُصدّرةً بـ ﴿إِنَّ﴾ ووضعوا ضمير الفصل ﴿أَنْتُمْ﴾ ليزيدوا في تأكيدهم.

ولم تدم صحوّتهم هذه سوى فترة وجيزة، فسرعان ما رجعوا إلى ظلمهم وعنادهم حرصاً على رتبتهم ومراتبهم وشهواتهم.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «كانت بادرة خيرٍ أن يستشعروا ما في موقفهم من سُخْفٍ، وما في عبادتهم لهذه التماثيل من ظُلمٍ، وأن تتفتح بصيرتُهم لأول مرة، فيتدبروا ذلك السخف الذي يأخذون به أنفسهم، وذلك الظلم الذي

هم فيه سادرون، ولكنها لم تكن إلا ومضةً واحدةً أعقبها الظلام، وإلا خفقةً واحدةً عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود»^(١).

﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِفُونَ﴾ (٦٥)

﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه من ظلم. وأصل النكس: قلب الشيء بحيث يصيرُ أعلاه أسفله، وذكر الرأس للتصوير والتقييح^(٢).

شبهَ عودتهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء مستعلياً على أعلاه، وقُرئ: (نُكِّسُوا) بالتشديد، و(نَكَّسُوا) أي: نكسوا أنفسهم^(٣). وقالوا لإبراهيم عليه السلام:

﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِفُونَ﴾ وبهذا أقر القضاء بعجز أصنامهم، واتصافها بالنقص، مما يتنافى مع تأليهها وعبادتها، وهو ما كان إبراهيم عليه السلام يسعى إليه. ولعلها أوّل مرة في التاريخ يقومُ المتهم باستجواب قضاته، ويأخذ منهم اعترافاً بظلمهم، وإقرارهم بخطئهم، مما يؤهله لإصدار الحكم عليهم. أصبح إبراهيم عليه السلام هو القاضي والحاكم وهو في قفص الاتهام، وأصبح القضاء هم المتهمين المعترفين بالجريمة، وهم وراء منصة الحكم!. وأصدر عليه السلام حكمه منكراً وموبخاً:

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦)

أي: كيف تعبدون شيئاً عاجزاً ضعيفاً لا يملك لكم نفعاً ولا ضرراً؟!.

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٨٧/٤.

(٢) روح المعاني: ٦٦/١١.

(٣) تفسير البضاوي: ٢٥٧/٤.

ثم أعلن تضجره من عنادهم وإصرارهم على الباطل، وتمسكهم بالظلم، بسبب عبادتهم غير الله تعالى، فقال:

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧).

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أتضجرون منكم ومن عبادتكم غير الله تعالى، وبهذا حقرهم، وحقر معبوداتهم.

وكلمة ﴿أَفِ﴾ تدل على صوت المتضجر يعلن بها تضجره وسأمته. وهي الكلمة التي نهى الله تعالى الولد أن يواجه بها أحد والديه، لأنها تدل على سوء أدبه معهما، فقال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قبح ما أنتم عليه من تأليه هذه الأحجار وعبادتها، أين عقولكم التي ميزكم الله تعالى بها على كثير من خلقه؟!.

• الحكم والتنفيذ:

عند ذلك أخذت القضاة الظلمة عزة الإثم، كما تأخذ الطغاة دائماً حين يفقدون الحجة، ويعوزهم الدليل، فيلجؤون إلى القوة الغاشمة^(١)؛ يلجؤون إلى القمع والبطش والإرهاب:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨).

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ بالنار، ووجهوا كلامهم إلى الجموع المحتشدة ليصرفوهم عن التفكير في كلمات إبراهيم عليه السلام، خشية أن تلامس موضع الفطرة في أعماق نفوسهم.

ثم أثاروا غضب الجماهير على إبراهيم، فذكروهم بأصنامهم المحطمة:

﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فأمر إبراهيم وعقابه موكول إليكم.

وبهذا نجحوا في إلهاء الجماهير الغاضبة عن رؤية الحقيقة، وشغلهم بالانتقام من إبراهيم.

(١) في ظلال القرآن: ٢٣٨٧/٤.

وتدافعت الجماهيرُ النائرة الغاضبة إلى الانتقام، فجمعوا أكواماً كبيرة من الحطب، وأججوا ناراً هائلة، وبنوا في مكان مرتفع مشرف على النار بناءً، جعلوا في أعلاه منجنيقاً، ووضعوا إبراهيم فيه لإلقائه في النار بواسطته، كما أخبر سبحانه في سورة الصافات: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٩٧).

• حسبي الله ونعم الوكيل:

ولم يتزعزع ﷺ ولم يهتز، بل بقي رابط الجأش، ثابت القلب، ولم تؤثر فيه ألسنة النيران المتصاعدة في جو السماء، ولا صرخات الرعاع والعوام من حوله، كان ﷺ يردّد بقلبه ولسانه: حسبي الله ونعم الوكيل.

ففي «صحيح البخاري» [٤٥٦٣]: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وأُلقي ﷺ في النار وهو يردّد هذه الكلمة، وجاءه الفرج من الله تعالى مباشرة، قال ابن كثير: «وذكر بعضُ السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، وأمّا من الله فلي، ويروى عن ابن عباس قال: لما أُلقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أُمِرُ بالمطر فأرسله، قال: فكان أمرُ الله أسرع من أمره»^(١).

وليس غريباً أن تسعى ملائكة السماء لنصرة إبراهيم عليه السلام، فقد سعت دواب الأرض لمساعدته، ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبراهيم حين أُلقي في النار، لم تكن دابة إلا تطفئ عنه النار، غير الوزغ كان ينفع على إبراهيم» فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله. [رواه أحمد (٨٣/٦) والنسائي (١٨٩/٥) وابن ماجه (٣٢٣١)].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥١٤/٢.

● نَجَاةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مِنَ النَّارِ:

وأمر الله جلَّ وعلا النَّارَ بأمره الكوني القُدري أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم:

﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ (٦٩)

أي: كوني ذات بردٍ وسلام، أي: ابردي برداً غير ضار، ولذا قال علي كرم الله تعالى وجهه فيما أخرجه عنه أحمد وغيره: لو لم يقل: ﴿وَسَلَامًا﴾ لقتله بردها^(١).
فالنار من خلق الله تعالى، مستخرّة لقدرته، منقادّة لأمره ومشيتته، وإرادته جلَّ وعلا تامّة، نافذة في جميع المخلوقات.

وانقادت النار لأمره جلَّ وعلا ومشيتته، فلم تحرق إبراهيم ﷺ، مع أنها بقيت على ما كانت عليه ناراً، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ونجا إبراهيم ﷺ من النار، وردَّ الله عنه كيد الكائدين، ومكر الماكرين:

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۖ﴾ (٧٠)

أي: أخسر من كل خاسر، حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق قولاً وفعلاً، برهاناً قاطعاً على أنه ﷺ على الحق، وهم على الباطل، موجِباً لارتفاع درجته ﷺ، واستحقاقهم لأشد العذاب^(٢).

● الهجرة إلى الأرض المباركة:

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۖ﴾ (٧١)

﴿وَبَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ وهو الإنسان الوحيد الذي آمن برسالة إبراهيم؛ كان من أبناء عمومته، وقيل: ابن أخيه.

(١) روح المعاني: ٦٨/١١.

(٢) المرجع السابق: ٧٠/١١.

وكانت نجاة إبراهيم ولوط عليهما السلام تطبيقاً عملياً للمبدأ الذي قرره سبحانه في أول السورة في قوله الكريم: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض بلاد الشام.

هجر إبراهيم عليه السلام قومه ووطنه بعد أن رأى إصرارهم على شركهم وكفرهم، وكانوا في العراق، ولم تتعرض الآيات لبيان مصيرهم، واقتصرت على الحديث على الأنبياء عليهم السلام، ولا بد من أن سنته تعالى في إهلاك المكذبين المعاندين بعد رؤيتهم للمعجزات، قد شملتهم، وهي التي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿مَا ءَامَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرَيْبٍ أَهْلَكْتَهُمْ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦] كما مر معنا.

وخرج عليه السلام مهاجراً إلى الله تعالى، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩].

وقوله عليه السلام أيضاً: ﴿فَتَأْمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وكان عليه السلام أول مهاجر في سبيل الله تعالى مع لوط عليهما السلام، كما كان عثمان رضي الله عنه أول مهاجر في سبيل الله تعالى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجته السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعد أن خرج عثمان مع زوجته مهاجراً إلى الحبشة: «إِنَّ عُثْمَانَ أَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ بِأَهْلِهِ بَعْدَ لُوطٍ» [أخرجه البيهقي والطبراني].

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامة دينه واجب، وهذا النوع من الهجرة وجوبه باقٍ بلا خلاف بين العلماء في ذلك^(١).

● فضل بلاد الشام:

والأرض التي بارك الله تعالى فيها للعالمين، هي أرض بلاد الشام، بين

ذلك سبحانه في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَمَرَ بِعَبْدِهِ
لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْإِنشَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله أيضاً في الآية التي ستأتي معنا: ﴿وَلَسَلِمْنَ الْريِّحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى
الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وصفها سبحانه بالبركة العامة لأن أكثر الأنبياء ﷺ بُعثوا فيها، وانتشرت في
العالم شرائعهم منها، وهي أسباب لكل خير ديني ودنيوي، وقيل: المراد بالبركات
النعم الدنيوية من الخصب وغيره، والأول أظهر وأنسب بحال الأنبياء ﷺ^(١).

وفي السُّنَّة النبوية عددٌ من الأحاديث الشريفة في فضل بلاد الشام، حتَّى
عقد الإمام المنذري رحمه الله في كتابه: «الترغيب والترهيب» فصلاً خاصاً، جعل
عنوانه: «الترغيب في سكنى الشام وما جاء في فضلها» ذكر فيه ثمانية عشر
حديثاً، منها:

عن عبد الله بن حوالة رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيَصِيرُ الْأَمْرُ أَنْ
تَكُونُوا أَجْنَاداً مَجْنَدَةً، جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ» قال ابن حوالة:
خَرُّ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَدْرَكَتُ ذَلِكَ، فَقَالَ: «عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خَيْرُ أَرْضٍ لِّ
أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خَيْرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِبِمَنْكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ
عُذْرِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ - وفي رواية: تَكْفَّلَ - لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ» [رواه أبو داود
(٢٤٨٣) وابن حبان (٧٣٠٦) والحاكم (٥١٠/٤)]. وقوله «عُذْرِكُمْ»: جمع غدير.

وعن زيد بن ثابت رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ يوماً ونحن عنده: «طوبى
لِلشَّامِ، إِنَّ مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ بِاسْطِةً أَجْنَحَتْهَا عَلَيْهِ» [رواه الترمذي (٣٩٥٤) وصححه ابن
حبان (٧٣٠٤) والطبراني بإسناد صحيح].

وفلسطين هي أفضل أرض في بلاد الشام، لأنَّ فيها أولى القبلتين:
المسجد الأقصى، ومسرى رسول الله ﷺ، وهي الأرض المقدَّسة التي ذكرها

(١) انظر: روح المعاني: ٧٠/١١.

سبحانه في قوله الكريم على لسان نبيه موسى ﷺ: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

وعندما جاء ملك الموت إلى موسى ﷺ سأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة رميةً بحجر، قال رسول الله ﷺ: «فلو كنتُ ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريقِ عندَ الكثيبِ الأحمرِ» [رواه البخاري (١٣٣٩)] وهي أرض فلسطين.

● إسحاق ويعقوب ﷺ :

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٦).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي: وهبنا لإبراهيم إسحاق وولد ولده يعقوب، زيادةً على ما سأل، وكان قد سأل الله تعالى أن يرزقه الولد، فوهب له سبحانه إسماعيل من هاجر، وهو الذبيح.

وقد قصَّ الله تعالى قصته في سورة الصافات بقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۖ قَالَ يَتَأَتَّىٰ أَفْعَلَ مَا تُومِرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَكَلَّمَا لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَذَرْنَاهُ أَنْ يَتَّيْرَهُمَا ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾.

وعاش نبيُّ الله إبراهيم ﷺ حتى قرَّت عينه برؤية ولد ولده يعقوب ﷺ.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: جعلنا المذكورين جميعاً؛ وهم: إبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، أهل خير وصلاح.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ (٧٧).

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ يقتدى بهم في الخير والصلاح.

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يدعون إلى عبادة الله الواحد الأحد بإذنه، فهم أنبياء مرسلون.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أي: أمرناهم بواسطة الوحي بفعل الخيرات ليكونوا القدوة الصالحة علماً وعملاً.

﴿وَلَقَامَ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ وأمرناهم أيضاً بأداء الصلاة على الوجه المستقيم، وإعطاء الزكاة للمستحقين.

وعُظِفَ الصلاة والزكاة على فعل الخيرات من قبيل عطف الخاص على العام، تنويهاً بشرف هاتين العبادتين، فهما رأسُ أفعال البر والخير.

﴿وَكَاْنُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أي: كانوا مطيعين وخاضعين لله تعالى وحده.

وهي شهادة عالية رفيعة من الله تعالى، تدلُّ على براءتهم ﷺ من جميع افتراءات المفترين، وسهام المغرضين، المذكورة في الكتب التي يتداولها أهل الكتاب، والتي حاولوا بها تشويه سمعتهم عليهم الصلاة والسلام.

• لوط ﷺ :

﴿وَلُوطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعَلَمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا فُؤَرًا سَوَاءً فَلَسِقِينَ﴾ (٧٤).

﴿وَلُوطًا﴾ الذي آمن بدعوة إبراهيم - كما مر معنا - وهاجر معه، اختاره الله تعالى واصطفاه للنبوة.

﴿ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ يحكم به على الأمة التي أرسل إليها.

﴿وَعَلَمًا﴾ بالوحي الذي أنزله الله سبحانه عليه.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ﴾ وهي قرية (سدوم) وما حولها، وكان أهلها يعملون الأعمال المنكرة الخبيثة، ومن هذه الأعمال الخبيثة: الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾

أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ [الأعراف].

نَجَّاهُ اللهُ تعالى منها مع من آمن بدعوته، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت].

وبسبب خبث قوم لوط وفجورهم وصفهم سبحانه بقوله:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ في كفرهم وفجورهم.

﴿فَاسْفِينٍ﴾ أي: خارجين عن طاعة ربهم، وعن سنن الفطرة التي فطر الناس عليها بميل الرجال نحو النساء، لا ميل الرجال نحو الرجال.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ الخاصة التي جعلها سبحانه للمؤمنين الصالحين يوم القيامة.

﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في عقيدته وعبادته وسلوكه وخلقه. وكأنه سبحانه بهذه الشهادة الكريمة أراد أن يظهر براءة نبي كريم من أنبيائه من تخرُّصات أهل الكتاب وافتراءاتهم عليه، وخاصة أحبار اليهود فيما دسوه في كتبهم.

• نوح ﷺ :

ثم استأنفت الآيات مسيرتها التاريخية مع بعض الأنبياء من حملة كلمة التوحيد، بعد أن توقفت عند نبي الله إبراهيم، ومن يتصل به من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، فمرت على أقدم الأنبياء المذكورين تاريخاً، وأطولهم عمراً، على نبي الله نوح ﷺ، الذي ظل يدعو قومه إلى كلمة التوحيد وعبادة الله تعالى وحده ألف سنة إلا خمسين عاماً، دون كلل ولا ملل، وهو في أثناء

ذلك يتحمل جفوتهم وخشونتهم ووقاحتهم وسوء أدبهم، ولما ازداد عناؤه وبلاؤه منهم توجه إلى الله تعالى ضارعاً مستنصراً:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ٧٦﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: اذكر نبي الله نوحاً عندما دعا الله تعالى من قبل إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاءه، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ٩١﴾ فدعا ربه: أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿٩٠﴾ فَفَنَحْنَا نُوحًا وَالسَّمَاءَ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْنَفَىٰ الْمَاءَ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاجِ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٥﴾.

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أي: نجيناه مع أهله المؤمنين من الغم الشديد الذي أصابه من عناد قومه وأذاهم.

والكرب: أقصى الغم، وهذا يدل أنه ﷺ بلغ الغاية في الشدة والمحنة، كما يدل على عبوديته لله تعالى، وافتقاره إلى معونته ونصره جلّ وعلا:

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٧٧﴾.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: منعناه وحميناه منهم بإهلاكهم وإغراقهم، أو نصرناه عليهم^(١).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أي: غلب الشر والفساد عليهم، ولهذا أهلكهم الله تعالى، وهي سنته في الأمم الكافرة والمجتمعات الفاجرة.

﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

● داود وسليمان ﷺ:

ثم ذكرت الآيات نبين كريمين من أنبياء بني إسرائيل، هما: داود وسليمان

﴿٧٨﴾؛ جمع الله لهما النبوة والملك، وكانت أيامهم أنصرَ الفترات التي عرفها تاريخ بني إسرائيل وأزهاها، ومع ذلك ما سلّمنا من أكاذيب وافتراءات أحبارهم ورهبانهم. أبرزت الآيات عنايته تعالى بهما، وأظهرت في الوقت نفسه شدة عبوديتهما له جلّ وعلا، وافتقارهما إلى رحمته ومعونته، مع ما كانا فيه من سعة الملك، وقوة السلطان والحكم، فهما مفتقران إلى الله تعالى في كل قضية تعرض لهما، ومثلت الآيات لهذا بقضية رُفعت إليهما في أثناء حكمهما:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨)

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي: اذكر داود وسليمان.

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ أي: عندما رفعت إليهما قضية حكومة في زرع.

﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: رعته غنم قوم في الليل، وكانت بغير راع.

فالنفس: رعي الماشية في الليل بغير راع، كما أنّ الهمل: رعيها في النهار كذلك، وأصل النفس: الانتشار والتفرق، أي: تفرقت وانتشرت^(١).

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ أي: وكنا مراقبين لحكمهم، لا نقرهم على خلل

فيه، وهذا على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] في إفادة العناية والحفظ^(٢).

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٩)

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: علمناه وألهمناه حكم القضية، وهذا من فضله

تعالى على عبده ونبيه سليمان عليه السلام، وهذه الخصوصية التي خصّه الله سبحانه بها

(١) روح المعاني: ٧٤/١١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

لا تدل على أنه أفضل من أبيه داود عليه السلام، فالخصوصية لا تقتضي الأفضلية، ولهذا قال تعالى يبين فضله عليهما:

﴿وَكَلَّا﴾ يعني: داود وسليمان.

﴿إِنَّا حَكَمْنَا وَعِلْمًا﴾ أي: أعطيناه علماً بوجوه الاجتهاد وطرق استنباط الأحكام.

ودلت الآية على أن المجتهد إذا أخطأ لا يؤاخذ، قال الحسن البصري رحمته الله: لولا هذه الآية: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ فحمد سليمان، ولم يلم داود، ولولا ما ذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا، فإنه أثنى على هذا بعلمه، وعذر هذا باجتهاده^(١).

وهذا يدل أيضاً على جواز الاجتهاد للأنبياء، ليقتردي بهم العلماء في الحوادث التي لا نص فيها في الكتاب والسنة.

قال ابن حجر رحمته الله: «واستدل بهذه القصة على أن للنبي أن يجتهد في الأحكام، ولا ينتظر نزول الوحي، لأن داود عليه السلام على ما ورد اجتهد في المسألة المذكورة قطعاً، لأنه لو كان قضى فيها بالوحي، ما خص الله سليمان بفهمها دونه، وقد اختلف من أجاز للنبي أن يجتهد، هل يجوز عليه الخطأ في اجتهاده؟ فاستدل من أجاز ذلك بهذه القصة، وقد اتفق الفريقان على أنه لو أخطأ في اجتهاده لم يقر على الخطأ»^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» [رواه مسلم (١٧١٦)].

هكذا لفظ الحديث في «صحيح مسلم»: «إذا حكم الحاكم فاجتهد» فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد، والأمر بالعكس، فإن الاجتهاد مقدم على الحكم، فلا

(١) فتح الباري: ١٣/١٤٦.

(٢) المرجع السابق: ١٣/١٤٧.

يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع، وإنما معنى هذا الحديث: إذا أراد أن يحكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ...﴾ [النحل: ٩٨] إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالاجتهاد والسنن والقياس وقضاء مَنْ مضى، لأنَّ اجتهاده عبادةً، ولا يُؤَجَّرُ على الخطأ، بل يوضعُ عنه الإثم فقط... قال ابن المنذر: إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب، لا على الخطأ، مما يؤيده قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ﴾^(١).

ومهما قيل في الآية الكريمة، فإنها تدل على بشرية الرسل، وحاجتهم إلى معونة الله تعالى وهدايته ورحمته، وأنه سبحانه لا يتخلَّى عنهم أبداً، ولا يقرهم على ما يمكن أن يصدر عنهم بحكم بشريتهم، عليهم الصلاة والسلام.

• تسبيح الجبال والطيور:

وتابعت الآيات تبين فضله سبحانه على داود وسليمان، وبعض ما تفضل به عليهما من الخصائص والنعم، وبدأت بـ داود عليه السلام، لأنه الوالد: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ أي: وسخرنا الجبال والطيور يسبحن مع داود، وكان عليه السلام جميل الصوت، فإذا ما سبَّح الله تعالى ومجَّده، رددت الجبال والطيور معه تسبيحه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُوبِ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَمْدُ﴾ [سبأ].

ولما سمع النبي ﷺ أبا موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ القرآن، وكان جميل الصوت، قال له: «يا أبا موسى لقد أُوتيتَ مزاراً من مزامير آل داود» [رواه البخاري (٥٠٤٨)]. والمراد بالمزمار: الصوت الحسن، وأصله الآلة، أطلق اسمه على الصوت للمشابهة. وقوله: «آل داود» يريدُ داود نفسه، لأنه لم ينقل أن أحداً من أولاد داود ولا من أقاربه كان أعطي من حُسن الصوت ما أعطي^(٢).

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ للأنبياء مثل هذه الأعمال الخارقة لعادات الناس.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣١٠/١١.

(٢) انظر: فتح الباري: ٩٣/٩.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠).

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ أي: علمناه صناعة الدروع التي تلبسونها. ﴿لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتحميكم في أثناء حرب عدوكم، فلا يصل سلاخه إلى أجسادكم، وقد جاء في سورة سبأ أنه تعالى ألان له الحديد، فكان الحديد طوع يديه، يجعله خيوطاً، ينسجها بعد ذلك دروعاً، قال تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (١١) ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صِلْحًا إِيَّايَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١). ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أي: فاشكروا الله على هذه النعم.

• تسخير الريح والجن لسليمان عليه السلام:

أما سليمان فقد مكّن الله تعالى له في الأرض تمكيناً كبيراً، وسخر له كثيراً من مصادر القوة المادية فيها؛ منها الريح، قال تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ (٨١).

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض بلاد الشام. ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ فما أعطيناه وأنعمنا عليه إلا عن علم وحكمة. والملاحظ أنه سبحانه وصف الريح هنا بأنها ريح عاصفة، بينما وصفها في سورة ص بأنها تجري رخاءً، فقال: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦). فهل كان تسخير الريح لسليمان أنها تتحول بأمره من ريح عاصفة مدمرة إلى ريح رخيّة طيبة، تبشّرُ بقدوم الخيرات، ونزول البركات، وتدفع السفن الجاريات في أعماق البحار، وهذا من أعظم فوائد الرياح الرخيّة، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِقَكُمُ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفُلُكَ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]؟ (١).

(١) انظر: تفسير سورة النمل، وأطلق عليه هنا في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ ﴿٨٢﴾

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي: وسخرنا له من الشياطين من يغوصون له في أعماق البحار، ليستخرجوا له ما فيها من اللآلئ والدرر.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: وسخرهم سبحانه لسليمان ليعملوا له ما ذكر من بناء القصور، وتشيد القلاع والحصون، قال تعالى: ﴿وَلَسَلِمْنَ الرَّيْحَ غَدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَّاحُهاَ شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْدَرٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ].

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ أي: مراقبين، فلا يزيغ أحد عن أمر سليمان، أو يتوانى في عمله.

● أَيُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

الابتلاء، كما مر معنا، يكون بالخير والشر، وقد عرضت لنا الآيات الكريمة كيف ابتلى الله تعالى داود وسليمان بالخير، فشكرا الله تعالى على ما أعطاهما من القوة والسلطان والتمكين في الأرض، واستعملا النعمة في طاعته تعالى والتقرب إليه، وهاهي الآيات تعرض لنا نبياً كريماً ابتلاه سبحانه بالشر، فصبر على ابتلاء الله تعالى، ورضي بما قدر عليه وقضى، فلم يسخط، ولم يعترض، ولجأ إليه سبحانه يسأله المعونة والثبات، ويشكو إليه ما أصابه من ضر في أهله وماله وبدنه:

﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ۖ أَنِّ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٨٢﴾

أي: واذكر أيوب عندما دعا الله تعالى واصفاً نفسه بالعجز والضعف والافتقار، مثنياً على ربه بغاية الفضل والإحسان، فكأنه قال: أنت يا ربي أهلك أن ترحم، وأيوبُ أهلك أن يُرحم، فارحمه واكشف عنه الضر الذي أصابه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ، وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
وَذِكْرًا لِلْعَالِينَ﴾ (٨٤).

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي: أجبنا دعاءه.

﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ في جسده، وذلك بأن يسّر الله تعالى له سبيلاً للشفاء، فأمره أن يضرب الأرض برجله، ففعل، فنبتت بإذن الله تعالى عين ماء بارد، اغتسل به وشرب منه، فزال بإذنه تعالى كل داء كان به، كما قال تعالى في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٤١) أَرْكَضَ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾.

ثم ردّ سبحانه على أيوب أهله، وبارك له فيهم:

﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرًا لِلْعَالِينَ﴾ أي: رد الله على أيوب أهله، وبارك له فيهم، رحمة من الله لأيوب عليه السلام، وتذكراً لغيره من العابدين، ليكونوا مثله في الصبر على البلاء، والرضا بما قدر الله وقضى.
ثم أجملت الآيات ذكر بعض الأنبياء، واكتفت بوصفهم بصفتي الصبر والصلاح:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٨٥).

أي: كلهم متصفون بصفة الصبر.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٨٦).

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ الخاصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الكاملين في الصلاح.

ولا شك أن هاتين الخصلتين: الصبر والصلاح، تجمعان للمتصف بهما كل الفضائل الطيبة والأخلاق الحسنة.

• صاحب الحوت يونس عليه السلام :

وتوقفت الآيات قليلاً عند نبي الله ذي النون، أي: صاحب الحوت، وهو يونس بن متى عليه السلام، وكانت له قصةٌ عجيبةٌ، وخبرٌ مذهلٌ معجز، مع حوت من حيتان البحر:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ۖ أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧)

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ أي: اذكر ذا النون عندما ترك قومه وهجرهم غضباً منهم، فقد أرسله الله تعالى إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فلم يستجيبوا له، فغضب منهم، وهجرهم قبل أن يأذن الله له بذلك.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه القصةٌ مذكورة هاهنا وفي الصافات وفي سورة نّ، وذلك أنّ يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل نينوى، وهي قريةٌ في أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم... فركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فافترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها، فوقعت عليه أيضاً، ثم أعادوها، فوقعت عليه أيضاً، قال تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] فقام يونس عليه السلام، فألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت، وأوصى الله إليه ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً، فإنّ يونس ليس لك رزقاً، قال تعالى: ﴿فَالْنَقْمَةُ الْهَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]»^(١).

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: ترك قومه وهو يظنّ أنّ الله تعالى لن يؤاخذه ويضيق عليه بسبب تركهم.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٥١٨/٢.

فمعنى (يَقْدِرُ) يَضِيقُ، كما في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾.

وقوله أيضاً: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقَدَر، وقُدِر، مثل: قَتَر وقَتِر، أي: ضَيَّق وضِيق. والقول بأنه من القدرة والاستطاعة، مردود مرغوب عنه، لأن المعنى يكون: فظن أن الله لا يقدر عليه، ومن ظن بالله هذا الظن يكفر، ولا يصدر مثل هذا عن نبي من الأنبياء أبداً.

ويمكن أن يكون المعنى: فظن أن لن نقضي عليه بعقوبة، من القَدَر الذي هو القضاء والحكم، وهذا يتفق مع قراءة: (نُقَدِّر).

وكان على يونس عليه السلام ألا يترك قومه ويهجرهم، حتى يأذن الله له بذلك، ولهذا فإن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لم يترك مكة مهاجراً إلى المدينة حتى أذن الله تعالى له بالهجرة، ومما أنزله سبحانه عليه وهو في مكة قوله الكريم: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأَوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [ن: ٤٨].

والجدير بالذكر هنا: أن الله تعالى خَصَّ قوم يونس بخصوصية عظيمة، فبعد أن خرج يونس من بينهم مغاضباً، أرسل الله عليهم العذاب، ولما رأوا مقدماته تابوا وآمنوا، فقبل الله توبتهم، وكشف العذاب عنهم، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْسُ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ولعل سبب هذه الخصوصية أنه سبحانه علم صدقهم في إيمانهم، وإخلاصهم في توبتهم، حتى إنهم لما رفع عنهم العذاب ثبتوا على إيمانهم، واستقاموا على التوبة، ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر^(١).

﴿فَكَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أي: نادى يونس عليه السلام ربه ودعاه بعد أن التقمه

(١) انظر: تفسير سورة يونس، وقد أسميناه في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

الحوت، وهو في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت، جعلت الظلمة الشديدة المتكاثفة كأنها ظلمات، أو المراد: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل^(١). نادى بكلمة التوحيد، وهي:

﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا أنت.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: أنزهك تنزيهاً لا ثَقاً بكمالك وغناك ووحدانيتك.

﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسه، عندما تركت قومي قبل أن تأذن لي.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِجْنَهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ ببركة تسبيحه ومناجاته، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ

الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٢﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفات].

فسبحان الذي وسع سمعه كل شيء حتى سمع تسبيح ذي النون وهو في بطن الحوت، ورضي الله عن السيدة عائشة أم المؤمنين التي قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تكلمه في جانب البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الآية [المجادلة: ١]» [ذكره البخاري تعليقاً (٣٧٢/١٣)، ووصله أحمد (٤٦/٦) والنسائي (١٦٨/٨) وابن ماجه (١٨٨)].

﴿وَجِجْنَهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ الذي كان فيه.

﴿وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كذلك نخلص المؤمنين من غمهم وهمهم

إذا تابوا وأنابوا إلى الله تعالى، وتوجهوا إليه داعين مسبحين.

وفي الحديث الشريف: عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«دعوة ذي النون إذ دعاه وهو في بطن الحوت: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ

إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ

لَهُ» [رواه الترمذي (٣٥٠٥) والنسائي (١٠٤١٦) والحاكم (٥٨٤/٢)].

• زكريا عليه السلام :

وكان نبيُّ الله زكريا عليه السلام آخر الأنبياء الذين ذكرتهم الآيات، وأبرزت عند ذكرها له نداءه ربه، وهو يدعو ويسأله :

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ .

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أي : اذكر زكريا عندما دعا الله قائلاً :

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي : لا تتركني وحيداً بلا ولد يرثني .

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي : أنت خيرُ حيٍّ يبقى بعد ميت، وهو ثناء على الله بأنَّه الباقي بعد فناء الخلق، وأنَّه الوارث لهم، فكلهم يموتون إلا هو سبحانه، كما مر معنا عند قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

وقد فصل سبحانه دعاء زكريا في سورة مريم، فقال : ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاءُ خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ ^(١) .

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ دعاه .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ كما قال تعالى : ﴿يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم : ٧] .

﴿وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي : جعلناها صالحةً للولادة، وأزلنا أسباب العقم

(١) انظر : تفسير سورة مريم، الذي جاء في هذا التفسير الموضوعي تحت عنوان : (التوحيد والتنزيه في سورة مريم) .

منها، فقد كانت عقيماً لا تلد، كما مرَّ معنا في الآيات السابقة الذكر، وقوله بعد ذلك أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

• رجاء وخوف:

وبعد ذكر زكريا عليه السلام أثنى الله تعالى على جميع الأنبياء الذين سبق ذكرهم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يسرعون إلى فعل الطاعات والقربات التي تقرّبهم إلى الله تعالى، فالأنبياء عليهم السلام دعاة خير وصلاح، فهم يعملون الخير، ويدعون الناس إليه، ولا يصلح أمرُ الناس إلا بالأنبياء، ومن يقتدي بهم من عباد الله الصالحين.

﴿وَيَدْعُوكُمْ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ أي: يلجؤون إلى الله تعالى وحده، ويفزعون إليه في حال الرخاء وحال الشدة، وهذا يدل على كمال عبوديتهم لله تعالى، فهم مفتقرون إليه في جميع أحوالهم، فلا غنى لإنسان عن الله تعالى، فهو محتاج إليه مهما كان قوياً متمكناً، وعليه أن يذكره ويدعوه في حال الرخاء والقوة كما يلجأ إليه ويدعوه في حال الشدة، وهذا حال الأنبياء عليهم السلام، وهم الأسوة الطيبة لجميع الناس.

ومن وصايا النبي صلى الله عليه وآله وسلم لابن عباس رضي الله عنهما قوله: «تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦)].

وقد يكون المعنى: يدعوننا وقت تعبدهم، وهم بحال رغبة ورجاء، ورهبة وخوف، لأنَّ الرغبة والرهبة تتلازمان^(١).

وهو أمر واجب على كل مؤمن، بأن يكون بين حال الخوف من الله تعالى، فلا يأمنُ عذابه، وبين حال الرجاء في رحمته تعالى، فلا يئس من رحمته ومغفرته سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وقال أيضاً بعد ذلك: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

(١) تفسير القرطبي: ٣٢٦/١١.

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾ وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٣﴾ [الزمر].

﴿وَكَاؤُنَا لَنَا خَشِيعَةً﴾ أي: متواضعين لجلال الله تعالى خائفين منه.

وهذا يدل على أَنَّ حال التعظيم لله تعالى والخوف منه يغلب على قلوب الأنبياء ﷺ، لأنَّ الخشوع: هو الخوف اللازم للقلب، فيكون الخاشع هو الحَذَرُ، الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الوقوع في الإثم^(١).

وبهذا أثنى الله تعالى على الأنبياء بأعلى ما يمدح به الإنسان، وهي صفةُ المسارعةِ إلى الخيرات، التي تدلُّ على حرصهم الكبير على طاعة الله تعالى، والوصول إلى رضوانه، دون عُجْبٍ أو غرورٍ، يصابُ به كثيرٌ من العباد، بل مع فزعٍ من الله تعالى ورغبة في رحمته، وقلوب خاشعة لجلاله.

• مريم وابنها عيسى ﷺ:

قَدَّرَ ﷺ أن يكون جميع المرسلين رجالاً، لا نساءً، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]؛ إذ يترتب على حمل الرسالة تحمل أعباء ثقيلة، لا يستطيع النساء القيام بها.

أما النبوة فيمكن أن يكرم الله تعالى بها الكاملات من النساء كالسيدة مريم، عليها وعلى ولدها السلام، وقد يستأنس لهذا بأنه سبحانه ذكر السيدة مريم هنا في سورة الأنبياء في سياق من ذكر من الأنبياء ﷺ.

قال العلامة الآلوسي رحمه الله: «واستدلَّ بذكر مريم ﷺ مع الأنبياء في هذه السورة على أنها كانت نبيّة، إذ قرنت معهم بذكر، إلا أن يقال: إنما ذكرت لأجل ولدها عيسى ﷺ»^(٢).

وقد وصفها سبحانه بأنها صديقة، في قوله الكريم: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) تفسير الخازن: ٢٧٧/٤.

(٢) روح المعاني: ٨٩/١١.

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِاُنْكَارٍ اُنْطَعَامٍ اُنْظُرْ
كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ اُنْظُرْ اَنَّنِ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ [المائدة: ٧٥].
وشهد لها سبحانه هنا بالعفة والطهر، فقال:

﴿وَالَّتِي اُحْصِنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَالَّتِي اُحْصِنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: اذكر مريم التي صانت نفسها، وحفظت عرضها،
وأحصنت فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً، كما حكى سبحانه من
قولها: ﴿قَالَتْ اَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠] ^(١).
﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: أجرينا فيها روح المسيح، أو أمرنا
جبريل فنفخ في جيب درعها، فأحدثنا بذلك النفخ عيسى في بطنها، وإضافة
الروح إليه تعالى لتشريف عيسى ﷺ ^(٢).

أو لكون الروح من أمره تعالى، فلا يعلم حقيقتها إلا هو جلّ وعلا القائل:
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].
والجدير بالذكر هنا أنه تعالى نسب روح آدم أيضاً إلى ذاته القدسية فقال:
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨].

قال السهيلي رحمه الله: فلا يذهب وهماً إلى غير هذا، فإنه من لطيف الكناية،
لأن القرآن أنزه معنى، وأوزن لفظاً، وألطف إشارةً، وأحسن عبارة من أن يريد
ما يذهب إليه وهم الجاهل، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس،
فأضف القدس إلى القدوس، ونزّه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب ^(٣).

(١) انظر: مجموعة التفسير (الخازن والنسفي والبيضاوي): ٢٧٧/٤.

(٢) تفسير النسفي: ٢٧٧/٤.

(٣) تفسير القرطبي: ٣٣٨/١١.

وبهذا أصبحت مريم وولدها آية معجزة دالة على كمال قدرته تعالى وتمام مشيئته .
﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: وجعلنا شأنها وشأن ولدها وأمرهما
آية للعالمين، ولم يقل سبحانه (آيتين) لأن الآية فيهما واحدة.

• أمة التوحيد:

وجاء ذكر (العالمين) تمهيداً لتوجيه الخطاب إليهم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ أي: إِنَّ كلمة التوحيد التي دعا إليها جميع الأنبياء هي
ملتكم ودينكم، والخطاب للناس قاطبة، والإشارة إلى كلمة التوحيد، واكتفى
بالإشارة عن التصريح لبروزها وظهورها من خلال ما تقدّم من آيات السورة.

والأمة في الأصل: القوم يجتمعون على دين واحد، ثم اتسع فيها حتى
أطلقت على نفس الدين، والأشهر أنها الناس المجتمعون على أمر ومقصد
واحد، وإطلاقها على نفس الدين مجاز^(١).

والجملة خبرية أريد بها الأمر والإنشاء، والمعنى: أن ملة التوحيد أو
الإسلام ملتكم التي يجب عليكم أن تحافظوا عليها.

فجمهور المفسرين ذهبوا إلى أن المراد بـ (الأمة) هنا الملة والدين،
ولا مانع من حملها على معناها الأصلي، وأن المراد منها الناس المتمسكون
بملة التوحيد، ويكون المعنى المراد من الآية: تقرير وحدة المتمسكين بملة
التوحيد، ولو اختلفت أجناسهم وأزمانهم، وما الأنبياء الذين سبق ذكرهم إلا
رواد هذه الأمة الواحدة. وسياق الآيات أكثر انسجاماً مع المعنى الثاني.

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قُرئت بالنصب على الحال، أي: في حال اجتماعها على

(١) انظر: روح المعاني: ٨٩/١١.

الحق، كما يقول: فلان صديقي عفيفاً، أي: ما دام عفيفاً، فإذا خالف العِفَّةَ لم يكن صديقي^(١).

وَقُرِئَتْ بِالرَّفْعِ، بَدَلُ مَنْ ﴿أَمَتَكُمْ﴾ أو خبر ثان لها.

فكل من يَتَمَسَّكُ بكلمة التوحيد يعدُّ فرداً من أفراد الأمة وجزءاً منها، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي: اعبدونني وحدي، وأطيعوني وحدي، فلا رَبَّ لكم غيري، فربكم واحد، ودينكم واحد، وبهذا قررت الآية بكلام رب العالمين أعظم رابطة تربط بين العالمين، وقد أنزل الله تعالى سائر الكتب في شأنها، وبعث جميع الأنبياء دعاة إليها.

• اختلاف الناس:

ومع ذلك اختلف الناس، وأخبر سبحانه عن اختلافهم، فقال:

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَجِئُونَ﴾.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أي: جعلوا أمر دينهم بينهم قطعاً.

والآية تلقي في النفس الشعور بالأسف والإحباط، بسبب ما أحدثوا بينهم من تقطع واختلاف، ولهذا التفتت إلى الغيبة لتنعى عليهم ما أفسدوه من التفرق في الدين؛ وجعل أمره قطعاً موزعة، وتنهى قبائح أفعالهم إلى الآخرين، كأنه قيل: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه الأنبياء ﷺ كافة^(٢).

فالتوحيد هو الأصل الذي كان الناس عليه، والشرك طارئ عليهم، وهو الذي جعل الناس ينقسمون ويختلفون، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

(١) تفسير القرطبي: ٣٣٩/١١.

(٢) تفسير أبي السعود: ٨٤/٦.

الَّذِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿البقرة: ٢١٣﴾.

وقال سبحانه في سورة مريم بعد أن بين حقيقة عيسى ودعوته للتوحيد: ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢١٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١٧﴾﴾.

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَلِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿المؤمنون﴾.

ثم قررت الآيات مسؤوليتهم عما أحدثوه من تقطيع في دينهم عندما يرجعون يوم القيامة إلى الله تعالى للحساب والجزاء بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ إِلَهِنَا رَاجِعُونَ﴾ أي: كل فرقة من هذه الفرق المتقطعة المختلفة راجعون إلينا وإلى حكمنا ومشيتنا، فنسألهم ونجازيهم:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُيُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بما يجب الإيمان به من توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، وصدق الرسل الذين أرسلهم الله تعالى بدعوة التوحيد.

وهذا الإيمان شرط أساس لقبول العمل الصالح، فلا يقبل الله من كافر أي عمل صالح مهما كان عمله.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي: فلا يُجْحَدُ سَعْيُهُ ولا يُرَدُّ عمله، بل يُشكر ويُثاب عليه.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَنُيُونَ﴾ أي: وإنَّا لسعيه وعمله حافظون، لا نضيع منه شيئاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كَرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار].

● بطلان مزاعم التناسخ والتقمُّص:

والمسؤولية والجزاء في الحياة الثانية يوم القيامة، بينما السعي والعمل في الحياة الدنيا التي تنتهي بالموت، فإذا مات الإنسان انقطع سعيه، وانتهى عمله، ولا عودة له إلى الدنيا مرة ثانية، هكذا قدَّر الحق سبحانه، ولا يستطيع أحد أن يخرق أسوار ما قدَّر جلَّ وعلا، ويخالف هذا الناموس الكوني القدي، وقد أخبر سبحانه عن هذا الناموس الكوني في آيات كثيرة لكي يبادر الناس إلى العمل بطاعته قبل أن ينزل بهم الموت، فلن تتاح لهم الفرصة مرة ثانية، منها قوله تعالى هنا:

﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥)

أي: وحرام على أهل قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الحياة بعد إهلاكهم وموتهم، فلا رجوع إلى الحياة بعد الموت بأي شكل من الأشكال.

وهذا يدل دلالة قطعية على بطلان مزاعم كثير من الفرق الضالة بتناسخ الأرواح وتقمُّصها، ورجوعها إلى الحياة بعد مفارقتها لأجسادها بالموت بواسطة تقمُّصها لأجساد أخرى، هذه أقوال فاسدة باطلة تصادم دلالة النصوص القرآنية الكثيرة، فلا عودة إلى الحياة الدنيا بعد الموت أبداً.

وكلمة (حرام) تدل على المنع القطعي المطلق، وتؤكد القراءة الثانية (إنهم لا يرجعون)، كما تؤكد آيات كثيرة في سور آخر، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون].

وحتى الأجل المقدر لموت كل إنسان لا يغير ولا يؤخر أبداً: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠) وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون].

• يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ:

والبرزخ الفاصل بين الدنيا والآخرة يبدأ بالموت وينتهي بالبعث والنشور يوم القيامة، وقد جعل الله تعالى لهذا اليوم علامات ومقدمات تدل على اقترابه، من أعظمها غلبة المفسدين، وظهور المشركين في الأرض، وضعف سلطان الموحدين، قال سبحانه:

﴿حَقَّ إِذَا فَتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿حَقَّ إِذَا فَتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ﴾ أي: حتى إذ قدر الله تعالى ظهور يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ في الأرض، وغلبتهم عليها، وتمكنهم منها. فالفتح هنا: معناه الظهور والتمكُّن والغلبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]. وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] ^(١).

﴿وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أي: وهم يسرعون في المشي إلى الفساد، وتخريب البلاد، وقتل العباد، والحذب: المرتفع من الأرض. وهذا يدلُّ على كثرتهم، وقد دلَّت على ذلك أيضاً الأحاديث النبوية الشريفة، وفيها: أنهم يظهرون في آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، وقتله الدجال، ففي حديث النواس بن سمعان عليه السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «... ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم، قد عصمهم الله منه (أي: من الدجال) فيمسحُ عن وجوههم، ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجتُ عبداً لي، لا يدان (لا قدرة) لأحدٍ بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطُّور».

(١) انظر: تفسير سورة الكهف، المسمى في تفسيرنا الموضوعي هذا: (العواصم من الفتن في سورة الكهف).

وَبَعَثَ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلَهُمْ عَلَى بَحِيرَةٍ طَبْرِيَّةٍ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُخَصِّرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ (أَي: إِلَى اللَّهِ) فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ (دُودٌ يَصِيبُ الْبَهَائِمَ) فَيَصْبِحُونَ فَرَسَى (قَتْلَى)، كَمُوتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا، لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرَكَهَا كَالزَّلْفَةِ (الْمَرَّةِ).

ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبَتِي ثَمَرَتِكَ، وَرَدِّي بَرَكَتَكَ، فَيَوْمِئِذٍ تَأْكُلُ الْعَصَابَةُ مِنَ الرَّمَانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقَحْفِهَا (قَشْرِهَا) وَيُبَارِكُ فِي الرِّسْلِ (اللَبَنِ) حَتَّى إِنَّ اللَّقْحَةَ (الْحُلُوبَةَ) مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفَتَامَ (الْجَمَاعَةَ الْكَثِيرَةَ) مِنَ النَّاسِ.

فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاتِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شَرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ (يَزْنِي بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ) فِيهَا تَهَارُجُ الْحُمْرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ [رواه مسلم (٢٩٣٧)].

• الوعد الحق:

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوَّلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٧).

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أَي: اقْتَرَبَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَهُوَ الْوَعْدُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا شَكَّ فِي وَقُوعِهِ، وَالَّذِي ذَكَرَهُ سُبْحَانَهُ فِي أَوَّلِ آيَاتِ السُّورَةِ عِنْدَمَا قَالَ: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

﴿وَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: فَإِذَا هِيَ بَارِزَةٌ سَاكِنَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَا تَكَادُ تَتَحَرَّكُ أَوْ تَطْرُقُ، مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَالْهَوْلِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

ويقولون:

﴿يَوَلِّينَا﴾ أي: الويل والهلاك لنا، أو يا حسرتنا.

﴿تَدَّ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي: كنا في الدنيا غافلين عن هذا اليوم.

﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بوضعنا العبادة والطاعة في غير موضعها.

وهي الكلمة نفسها التي نطقوا بها عندما نزل بهم العذاب في الدنيا، الذي سبق ذكره في أوائل السورة: ﴿قَالُوا يَوَلِّينَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ (١٥). فتأمل الانسجام والاتساق بين أول السورة وآخرها.

وما إن تنتهي الآيات من تقرير اقتراب يوم القيامة، حتى تفاجئ المشركين بتقرير أمر آخر، أكثر هولاً وأشد فرعاً:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (١٦).

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: إنكم ومعبوداتكم من الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله، وقود جهنم، فالحصب: كلُّ ما يُرمى في النار لزيادة لهبها واشتعالها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ أي: داخلون.

ولا يخفى ما في الخطاب للكافرين من تقرير وتأکید مع الجزم والحزم.

﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧).

﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ أي: لو كان هؤلاء الذين تعبدونهم آلهة ما دخلوا النار، فالمؤاخذ المعذب لا يكون إلهاً معبوداً.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: وكل من العابدين والمعبودين خالدون في النار، ماكنون فيها أبداً.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠).

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أي: لهم في جهنم تنفّسٌ شديدٌ عسير بسبب شدة حرها، والزفير: صوت نفس المغموم، ومعناه في الأصل إخراج النفس الطويل بعد حبسه في الرئتين، وضدّه الشهيق، وهو يدل على شدة الغم والضيق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول، وفضاعة العذاب، أولاً يسمعون شيئاً يسرهم.

• السابقة الحسنى:

وقد عودنا ربنا في كتابه العزيز أنّه كلّما ذكر صورة من صور العذاب في جهنم، ذكر في مقابلة صورة من صور رحمته وفضله في الجنة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١٠١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي: إن الذين وعدهم الله تعالى أن يرحمهم ويكرمهم بدخول الجنة، بسبب إيمانهم به جلّ وعلا، وانقيادهم لأمره، واتباعهم لرسله.

﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي: أولئك عن جهنم مبعدون بفضله سبحانه ورحمته، فهم أصحاب السابقة الحسنة، أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٠٢).

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: لا يقربونها حتى لا يسمعوها أصوات المعدّبين فيها، فلجهنم صوتٌ شديد مزعج مخيف، دل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أي: وهم مقيمون إقامة دائمة في

الجنة، يتمتعون بكل ما تشتهيهِ أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

• الفرع الأكبر:

﴿لَا يُخْزِنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١٠٣).

﴿لَا يُخْزِنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ وفي قراءة: (لا يُخْزِنُهُم) وهو يدل على نجاتهم من كل الأفراع والأهوال الكائنة يوم القيامة، فمن نجا من الفرع الأكبر نجا من غيره من الأفراع.

وثمة أفراع وأهوال كثيرة، فأيهما هو الفرع الأكبر؟:

أهو فرع البعث من القبور وهول المطلع الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۖ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۖ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۖ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [النازعات]. وقوله: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يَوْفُونَ ۖ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج]؟.

أم عندما يساقون إلى أرض المحشر: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

ويحشر المجرمون على وجوههم: ﴿وَتَحْشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]؟.

أم عندما تُعرض عليهم جهنم، ويرون ما فيها من أنواع النكال والعذاب: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاتَّخَذَ لَهُ الدُّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]؟.

أم عند تطاير صحف الأعمال ونشرها وتوزيعها، فلا يدري الإنسان أيُعطى كتابه بيمينه أم بشماله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا سِيرًا ۖ وَيَقْلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق]؟.

أم عندما توضع الموازين القسط، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ

الْمُوزِنَ الْقِسْطَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أم عند الوقوف بين يدي الملك الجبار للسؤال والحساب، كما في قول النبي ﷺ: «ثُمَّ لَيَقْفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجَمَانُ يَتَرَجَّمُ لَهُ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوتِكَ مَا لَا؟ فليقولَنَّ: بلى، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ رَسُولًا؟ فليقولَنَّ: بلى. فينظرُ عن يمينِهِ، فلا يَرَى إِلَّا النَّارَ، ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ، فلا يَرَى إِلَّا النَّارَ، فَلْيَتَقَيَّنْ أَحَدُكُمْ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» [رواه البخاري (١٤١٣)].

أم عند الورود على جهنم والمرور على الصراط فوقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧٦﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَّتًا﴾ [مريم: ٤٠]. أم...؟ أم...؟ إلخ.

فيومُ القيامة يومٌ طويلٌ وعسير، وفيه من الأهوال والأفزع ما لا يعلمُ قدرها إلا الله جلَّ وعلا، أسأل الله أن ينجينا منها برحمته وفضله، وأن يجعلنا من الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر.

﴿وَنُلَاقَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ﴾ أي: تستقبلهم ملائكةُ الرحمة تهنئهم بنجاتهم من الفزع الأكبر، وفوزهم بالجنة والرضوان، قائلين لهم:

﴿هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيومُ القيامة في الحقيقة يومكم، لأنكم الفائزون فيه الفوز العظيم، وهو الذي كنتم توعدون به في الدنيا فصدقتم به وآمنتم، وعملتُم لتكونوا فيه من الفائزين: ﴿بُشْرُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

• طي السماوات:

هذه أحداثٌ كائنة لا محالة، قدَّرها الحكيم العليم القادر القاهر، وأكدها

جلَّ، فقال:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ أي: يوم القيامة نجمع السماء إلى بعضها بعد تقطيعها وتشقيقها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟!» [رواه البخاري (٦٥١٩)].

﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي: كما تطوي الصحيفة ما كتب فيها.

قال ابن كثير رحمته الله: «الصحيح عن ابن عباس: أن السجل هو الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير، لأنه المعروف في اللغة، فعلى هذا يكون المعنى: يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب، أي: على الكتاب بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] أي: على الجبين. وله نظائر في اللغة»^(١).

• كيفية الحشر:

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي: كما أوجدناه أولاً نعيده ثانياً، وهي قاعدة منطقية مسلمة، ذكرها سبحانه في مواضع كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس].

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٢٤/٢.

مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١٠٤﴾ [الإسراء].

وقد يكون المعنى: نعيده مثل الذي بدأناه، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا النبي ﷺ يخطب، فقال: «إِنَّكُمْ مُحْشُورُونَ خُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] [رواه البخاري (٦٥٢٦)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تَحْشُرُونَ خُفَاءَ عُرَاءَ غُرْلًا» قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظرون بعضهم إلى بعض؟ فقال: «الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَهْمَهُمْ ذَلِكَ» [رواه البخاري (٦٥٢٧)].

قال ابن حجر رحمته الله: «غُرْلًا: جمع أغرل، وهو الأكلف، وهو من بقيت غرلته، وهي الجلد التي يقطعها الخاتن من الذكر. ثم نقل عن ابن عبد البر قوله: يحشر الآدمي عاريًا، ولكل من الأعضاء ما كان له يوم ولد، فمن قُطِع منه شيء يُردُّ، حتَّى الأكلف»^(١).

﴿وَعَدَا عَلَيْنَا﴾ أي: نعيد الخلق بعد الموت وعداً كائناً لا محالة، لأنه تعلق به مشيئتنا، وسبق به علمنا.

﴿إِنَّا كُنَّا فَعَالِينَ﴾ أي: منجزين هذا الوعد، فاستعدوا له لكي تنجوا من أهواله وأفزاعه.

• تمكين الصالحين من الأرض:

والحياة في الدنيا تستمر، والعمران فيها يبقى، ما دامت كلمة التوحيد قائمة في الأرض، فما خلق الله تعالى الخلق إلا للموحدين، الذين يَعْمُرُونَ الأرض بطاعته وعبادته وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿[الذاريات].

ولا يقيم الله الساعة وينهي الحياة في الدنيا حتى يعرض الناس كلهم عن عبادته سبحانه وذكره، وتتعلل حكمة الخلق والوجود، حينئذ يقيم الله الساعة، كما جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله».

وفي رواية: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله» [رواه مسلم (١٤٨)].

فالأرض وما فيها خلقها الله تعالى من أجل الموحدين، لا من أجل العابثين واللاهين والمشركين والظالمين، قرر ذلك سبحانه وأخبر عنه في كل الكتب المنزلة:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥)

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ﴾ أي: الكتب التي أنزلت على الأنبياء عليهم السلام.

﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ، فالذكر هنا هو اللوح المحفوظ، الذي ذكر الله تعالى فيه كل ما يكون إلى قيام الساعة.

وفي الحديث الشريف: عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء» [رواه البخاري (٧٤١٨)].

﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي: المؤمنون الصالحون، الذين يلتزمون بدين الله تعالى وحده وشريعته.

وهذا المعنى ذكره سبحانه في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ومنها قوله أيضاً: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

وذكره أيضاً النبي ﷺ في قوله: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى (أي: جمع) لي الأرض، فرأيتُ مشارفها ومغاربها، وَإِنَّ أُمِّي سَيَبُلُغُ مَلَكُهَا مَا رُؤِيَ لِي مِنْهَا» [رواه مسلم (٢٨٨٩)].

وقد يقول قائل: فما بال المسلمين في العصر الحاضر، قد ضعف سلطانهم، وتمكّن منهم أعداؤهم؟!.

فأقول: صار حال المسلمين إلى ما ذكرت، لأنهم ابتعدوا في كثير من جوانب حياتهم عن طاعة ربهم، وعن منهجه وشريعته، إذ قدّر الله تعالى أن تكون قوتهم وعزّتهم بتمسّكهم بدينهم وشريعته، كما قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُصَرِّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] وقد قلّ في المسلمين الصالحون العاملون بدين الله تعالى وشريعته، فأصبحوا كما قال ﷺ: «يذهب الصالحون الأوّل فالأوّل، ويبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر، لا يبالىهم الله بالّة» [رواه البخاري (٦٤٣٤)].

والحفالة: الحثالة، ومعنى: «لا يبالىهم الله بالّة» أي: لا يرفع لهم قدراً، ولا يقيم لهم وزناً.

فالمراد من (الأرض) في الآية، أرض الدنيا كلها، والمعنى المراد ظاهر، وهو منسجم مع ما تقدم من الآيات ومع ما يأتي أيضاً، ولا حاجة إلى القول بأن المراد أرض الجنة، كما قال بعض المفسرين، كما لا حاجة إلى أن نخصصها بالأرض المباركة والمقدسة، كما قال مفسرون آخرون، فرسالة التوحيد عامة شاملة جميع البشر في كل الأرض.

• البلاغ والرحمة:

ويدل على عموم الوعد قوله سبحانه:

﴿إِنْ فِي هَذَا لَبَلَاغٌ لِّقَوْمٍ عَكِيدٍ﴾ (١٠٦).

أي: إن في هذا القرآن لكفاية موصلة إلى البُغية، فهو الطريق الموصل إلى

النصر والتمكين في الأرض ووراثتها، من اتبع القرآن، وعمل بما فيه، وصل إلى ما يرجو من الخير والثواب.

وقيل: البلاغ: الكفاية، أي: فيه كفاية، لما فيه من الأخبار، والوعد والوعيد، والمواظب البالغة فهو زاد العباد إلى الجنة^(١).

ولا يخفى أن المعنى الأول أوجه، لأنه يتفق مع ما تقدم من قول الله تعالى: ﴿أَنْتَ الْأَرْضُ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ولا وراثه للأرض إلا بالتمسك بشريعة القرآن الكريم.

﴿لَقَوْمٍ عِبَادِينَ﴾ الله وحده، وهم أمة محمد ﷺ.

قال ابن كثير رحمه الله: «هم الذين عبدوا الله فيما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم»^(٢).

والله سبحانه ما رضي للناس إلا الإسلام وشريعة القرآن: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وشريعة القرآن الكريم هي الرسالة التي بعث الله بها خاتم الأنبياء والمرسلين إلى العالمين، فهي رسالة شاملة عامة تتجاوز حدود الزمان والمكان. قرر سبحانه هذا المعنى بهذا الخطاب الصريح الواضح الموجه إلى النبي ﷺ والمؤكد بأسلوب النفي والإثبات:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

أي: ما أرسلناك إلا لرحم العالمين بإرسالك.

فهو ﷺ مرسل من الله تعالى الرحمن الرحيم، البر الكريم، رحمة للعالمين، لا لعالم واحد، وإنما لجميع العالمين، فمهما امتد الزمان، وتوالى

(١) تفسير الخازن: ٢٨٤/٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٢٥/٢.

الأجيال، وتقلّبت العُصُورُ، فإنَّ بعثة النبي ﷺ بالإسلام أعظمُ رحمةٍ تفضّل بها سبحانه على الخلق، وهو أمر ظاهر من جوانب كثيرة، منها:

١ - الرسالة الإسلامية التي أرسل بها النبي ﷺ هي سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، فما أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلا لهداية الناس إلى أقوم طريق، وأكمل دين، وأتم شريعة، ولا سعادة للناس إلا في ظلال هذه الرسالة، فهي سبيل سعادتهم في الدنيا والآخرة كما مر معنا في سورة طه.

٢ - جعل الله تعالى أحكام هذه الشريعة سمحة ميسرة خالية من الآصار والأثقال التشريعية التي كانت في الشرائع السابقة، كما قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ونفى عنها سبحانه كل ما يؤدي إلى الحرج والمشقة، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقد بوّب الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه باباً خاصاً لإبراز هذه الميزة الكبرى في الشريعة الإسلامية، فقال: باب الدين يُسر، وقول النبي ﷺ: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»، ثم روى بسنده (٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغُدُوءِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ».

٣ - قررت الشريعة الإسلامية مبادئ إنسانية رفيعة، كانت البشرية في أمس الحاجة إليها؛ منها:

مبدأ وحدة الأصل البشري، مهما اختلفت ألوان الناس وأعراقهم.

مبدأ المساواة بين الناس أمام دين الله تعالى وشريعته.

مبدأ تكريم الإنسان واحترام حقوقه وصيانتها وحمايتها.

مبدأ التعارف والتعاون بين الناس ولو اختلفت ألوانهم وأوطانهم.

مبدأ العدل، ومقاومة الظلم، ونصرة المظلوم، ومساعدة الضعفاء في المجتمع، وصيانة حقوقهم.

مبدأ الشورى، ومقاومة الاستبداد والطغيان... إلى غير ذلك من المبادئ الإنسانية التي جعلت الشريعة الإسلامية بحق رحمة كبرى للبشرية.

٤ - ولقد أثبت الواقع التاريخي هذه الحقيقة بالحضارة الإسلامية التي كانت أنصرَ حضارةً، سعدَ الناس في ظلالها على مدى أجيال وقرون كثيرة.

ولقد شملت هذه الرحمة الكفار الذين ما آمنوا برسالة الإسلام، والذين عاشوا في ظل هذه الحضارة، وتمتعوا بكل المبادئ الإنسانية التي قررتها الشريعة الإسلامية.

٥ - فضلاً عن ذلك فإنه ﷺ نبى الرحمة، لم يدع على الكفار الذين قاوموا دعوته، وعاندوا رسالته، ولم يأتهم بعذاب يستأصلهم ويهلكهم، كما حدث للأمم انسابقة، ولما قيل له: يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً، وإنما بُعثت رحمة» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

وقال أيضاً: «إنما أنا رحمة مهداة» [رواه ابن عساکر].

٦ - ومراً معنا أن استمرار الوجود في الدنيا منوط ببقاء الموحدين من الأمة المسلمة، وأن الساعة لا تقوم ما بقي في الدنيا من يعبد الله ويذكره.

● لا إله إلا الله محمد رسول الله:

وكلمة التوحيد هي الأساس الأول لرسالة الرحمة التي بُعث بها النبي ﷺ وبهذا أمرته الآيات أن يقول للناس:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ فكلمة التوحيد التي أنزلها الله على جميع الأنبياء والمرسلين، أنزلها سبحانه عليّ، وجعلها أساس دعوتي

وشريعتي، وقد مرَّ معنا في أوائل السورة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٢٥).

ويلاحظ أنه مع كون الخطاب في الآيتين للنبي ﷺ، اختلاف في الأسلوب، ففي الآية الأولى أخبر عن حقيقة واقعة بأسلوب الخبر، بينما قررت الآية الثانية الحقيقة بأسلوب الأمر الصريح الملزم بأن يواجه النبي ﷺ الناس بكلمة التوحيد، يدعوهم إليها قائلاً:

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: فهل أنتم مدعنون مستسلمون لهذه الكلمة: لا إله إلا الله؟.

وجاء الأسلوب أيضاً في الآية الثانية بصيغة الحصر: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ كأنَّ الله تعالى ما أوحى إليه إلا هذه الكلمة، مع أنه سبحانه أوحى إليه غيرها كآيات الأحكام، والقصص، والترغيب والترهيب... إلخ، وهذا يدلُّ على أنَّ المراد من الحصر هنا: تأكيد كلمة التوحيد، وإظهار أهميتها، لا نفي ما عداها، فهي الأصل الأصيل الأول لجميع ما أنزل الله تعالى في التنزيل الحكيم، وكل أحكام هذا الدين وشرائعه متصل بها، ومتفرع عنها.

فالاعتقادُ بأنَّ الله وحده المستحقُّ للعبادة والطاعة، معناه الانقياد له وحده في كل ما أمر وشرع، والإعراض عن كل ما نهى عنه وزجر، وهذه هي حقيقة الإسلام، فالإسلامُ هو: لا إله إلا الله اعتقاداً وقولاً، وسلوكاً وعملاً، ولهذا كان من لوازمها: محمد رسول الله ﷺ، لأنَّه الذي بيَّن للناس كيفية الاستسلام لكلمة التوحيد والعمل بها.

فلا يجوزُ الفصلُ بين الكلمتين، ولا يُستغنى بالأولى عن الثانية، فهما القرينتان، اعتقاداً وإقراراً وعملاً، ولهذا قرن الله تعالى طاعته بطاعة نبيه ﷺ في عدد من الآيات الكريمة، منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وجعل سبحانه طاعة الرسول ﷺ طاعة له، فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ودل قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ على أنّ المعرفة وحدها لا تكفي في الإيمان؛ لا بدّ مع المعرفة من الانقياد والاستسلام، ولا يتحقق ذلك إلا بتصديق النبي ﷺ واتباعه والتزام شريعته، فمن علم أنه لا إله إلا الله، وعبد غيره، ولم يصدق برسالة نبيه ﷺ لا يكون مؤمناً، بل هو كافر مشرك.

• آذنتكم على سواء:

أمضى النبي ﷺ المرحلة المكية من دعوته، التي امتدت ثلاث عشرة سنة، يدعو الناس إلى كلمة التوحيد، والإذعان لها والاستسلام، تنفيذاً لأمره سبحانه. وقد بين له سبحانه الموقف الذي يقفه منهم في حال إعراضهم، فقال:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ (١٠٩).

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الاستسلام والإسلام.

﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم ما أمرت به، وبلغتكم الكلمة التي ينبغي أن يعلمها جميع الناس، ولم أخصص أحداً بشيء دون غيره من الناس، فكلمة التوحيد لجميع الناس، وواجبي تبليغها لكل الناس.

وقد دلت هذه الآية على بطلان ما يعتقده أتباع بعض الفرق الضالة أنّ النبي ﷺ خصّ علي بن أبي طالب وأهل بيته بعلوم خاصة بهم، لا يعلمها أحد غيرهم، وبطلان قول من يقول: إنّ آيات القرآن معنى ظاهراً ومعنى باطناً، وإن معانيه الباطنة لا يعلمها إلا أناس مخصوصون، وإن للشرعية الإسلامية ظاهراً وباطناً. كل ذلك من الأباطيل والأكاذيب التي روجها أعداء الإسلام لتفريق الأمة المسلمة وتمزيقها منذ فجر وجودها، وقد نفاها علي رضي الله عنه لما سئل عنها.

ففي «صحيح البخاري» [١١١]: عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في

هذه الصحيفة، قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العُقْلُ، وفكاًكُ الأسير، ولا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بكافرٍ.

ومعنى قوله: «هل عندكم كتاب؟» أي: مكتوب أخذتموه عن رسول الله ﷺ مما أوحى إليه، ويدل على ذلك رواية المصنّف في الجهاد: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ وله في الديات: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن؟ ... وإنما سأله أبو جُحيفة عن ذلك لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أنّ عند أهل البيت، لا سيّما عليّاً، أشياء من الوحي خَصَّهم النبي ﷺ بها، لم يطلع غيرهم عليها، وقد سأل عليّاً عن هذه المسألة أيضاً قيس بن عبّاد، والأشتر النخعيّ وحديثهما في مسند النسائي^(١).

﴿وَإِنْ أَدْرِى﴾ أي: وما أدري.

﴿أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ من نزول العذاب بكم، أو من يوم القيامة الذي استأثر سبحانه بعلمه.

فالمستقبل غيبٌ عني، لا أعلمُ منه إلا أن يطلعني ربي عليه، فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة.

والآية الكريمة تؤكد بشريته ﷺ، وتدل على صدقه أيضاً، فهي تقرّر الحقيقة، وتبيّن للناس أنّه عليه الصلاة والسلام لا يدّعي علم ما لم يعلم، كما يفعل الدجالون الكاذبون فكمال العلم لله تعالى وحده.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

في قلوبكم وأعماق نفوسكم.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَنْعٌ إِلَيَّ حِينَ﴾.

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾ أي: وما أدري لعلّ تأخير عذابكم استدراج لكم وابتلاء واختبار.

﴿وَمَتَّعْ إِلَّا حِينٌ﴾ أي: وتمتّع لكم إلى حين وأجل مقدر، وهو ردُّ على ما تقدم من استعجالهم نزول العذاب بهم، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

● الخاتمة:

وفي ختام السورة:

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

﴿قُلْ﴾ أي: الرسول الخاتم ﷺ، وفي قراءة ﴿قُلْ﴾.

﴿رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: افضِ بيني وبين المعرضين عن دعوتي بالحق، ويكون ذلك بإظهار الحق وأهله، وبإعزازهم وتمكينهم، وقد فعل سبحانه ذلك كما مر معنا.

﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ﴾ كثير الرحمة، المُنْعِم المتفَضِّل على خلقه، والذي أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين.

﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ أي: الذي يُسْتَعَانُ به وحده.

﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على إبطال أقوالكم وأكاذيبكم التي سبق ذكرها في أول السورة، والتي توعدهم الله من أجلها أشد الوعيد عندما قال: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ (١٨).

وبهذا ظهر لنا اتساق آيات السورة واحتباكها، واتصال أولها بآخرها، كما ظهر لنا موضوعها الأساس، الذي دارت آياتها في فلكه، وهو كلمة التوحيد - دعوة جميع الأنبياء والمرسلين - الذين هم رواد الأمة المسلمة أمة التوحيد، وهي الأصل الأصيل لرسالة القرآن، رسالة الرحمة العظمى التي أنزلها الله تعالى على النبي الخاتم عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة وأتم التسليم.



تفسير سورة الحج الطَّرِيقُ إِلَى الْأَقَّةِ الْمُسْلِمَةِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اشتدت مؤامرات أعداء الإسلام على شعوب العالم الإسلامي في السنوات الأخيرة، واستهدفت أكثر هذه المؤامرات تفتيت الروابط الداخلية للمجتمعات الإسلامية، وإحداث الانقسامات العرقية والإقليمية والطائفية والمذهبية في داخلها.

ويبدو أن أعداء الإسلام يصدرون في كل مؤامراتهم وكيدهم ومكرهم عن خطة خبيثة، هدفها الأول والأخير اجتثاث جذور الصحو الإسلامية التي بدأت تنتشر في العالم الإسلامي منذ منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

وقد أقلقت هذه الصحو أعداء الإسلام، وأزعجتهم، وجعلتهم يستشعرون خطر عودة المسلمين إلى تسنم القيادة السياسية والحضارية في العالم بعد انتزاعها من أيديهم، فحشدوا كل ما لديهم من الكيد والمكر، وجندوا كل مراكز بحوثهم العلمية والاستراتيجية، وصدروا عن خطة موحدة - رغم ما بينهم من اختلاف

ونزاع - للعمل على امتصاص الصحوۃ الإسلامية بين المسلمين، وهي لا تزال تحبو ضعيفۃً هزيلةً قبل أن تقوى وتشتدّ، وللعمل أيضاً على استنزاف خيرات العالم الإسلامي؛ وإمكاناته المادية الكبيرة، كي يبقى عالماً مقسماً متخلفاً محطّماً، ومنشغلاً بتخلفه ومشاكله الداخلية عن إحراز أيّ تقدّم وتحقيق أيّ تغيير.

لقد بدأت هذه الخطة الماكرة الخبيثة تفرز سمومها في جسم المجتمعات الإسلامية، وتنشر شباكها وشراكها حول أية بادرة تقدّم، وبارقة أمل تظهر بين المسلمين، وقد أدّى ذلك إلى زيادة الانقسامات والنزاعات المصطنعة بين الشعوب الإسلامية، كما أدّى بالتالي إلى زيادة كبيرة في ركام المشاكل التي تُعاني منها هذه الشعوب والمجتمعات.

ولا سبيلَ لمواجهة هذه الخطة الماكرة إلا بتوعية عامّة المسلمين، وتحذيرهم من أخطارها، وتذكيرهم بروابط الأخوة الإسلامية التي أقامها الإسلام بينهم.

وإنّ على قادة الفكر الإسلامي مسؤوليّةً كبيرةً وجسيمةً في هذا المجال، وإنّ لديهم رصيذاً كبيراً يستطيعون الاستفادة منه في التصديّ لمؤامرات أعداء الإسلام وإبطالها:

لديهم القرآن الكريم الذي لا يزال بحمد الله تعالى غصّاً طريّاً كما أنزل، وكلّ ما فيه أسبابٌ تُوحّد المسلمين وتجمّعهم، وتُبعد عنهم كل أسباب الاختلاف والانقسام.

ولديهم أيضاً الحجُّ إلى بيت الله الحرام، الذي تهوي إليه قلوبُ المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتأتي إليه وفودهم كل عام من شتى بقاع الأرض، يلتقون في رحابه عابدين، ويلتفون حوله طائفين، ويعيشون في جواره وحرمة ساعاتٍ من أعمارهم أمةً واحدةً، لا يُفرقهم اختلافُ ألوانهم، ولا يميّز بينهم كثرةُ أجناسهم وتعدّد ألسنتهم.

لقد قُدِّرَ لي أن أشهد حجَّ عام (١٤٠٧هـ)، ويسَّرَ الله تعالى لي في هذا الموسم أداء أكثر مناسك الحج في أوقاتها المستحبة التي أَدَّاهَا فيها رسول الله ﷺ، فتذوقتُ من خلال هذه المناسك معاني روحية كبيرة ما تذوقت مثلها من قبل، لقد شعرتُ أنني جزءٌ من أمة مسلمة واحدة ذات جذور قوية راسخة في أعماق التاريخ، فحمدتُ الله تعالى أن جعلني من هذه الأمة، وشرفني بالانتساب إليها، وعدتُ من هذا الموسم قريرَ العين، قويَّ الأمل بمستقبل هذه الأمة المسلمة رغم كل المشاكل والصعاب التي تواجهها، ورغم كل المؤامرات التي تُحاك في داخلها ومن حولها.

عُدتُ إلى كتاب الله تعالى، وأخذتُ أمعن النظر في آيات (سورة الحج) على الخصوص، فوجدتها ترسم الطريق إلى بناء المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة، والعجيب أنني وجدتُ آياتها قد نزلت على الرسول ﷺ وهو يعيشُ المرحلة التي كان يتصدَّى فيها لبناء المجتمع الإسلامي الجديد، ووضع نواة الأمة الإسلامية الجديدة.

ثم يسَّرَ الله تعالى لي بعد ذلك الانتقال إلى مكة المكرمة، والعيشَ في جوار بيت الله الحرام، حيث يسَّرَ الله تعالى لي استكمالَ كتابة سطور تفسير هذه السورة (سورة الحج)، فجاء بحمد الله تعالى سوانح فكر وخواطر قلب في جوار بيت الله الحرام، كما جاء في أربعة فصول منسجماً مع تسلسل آيات السورة الكريمة.

• الفصل الأول: الإيمان بالله واليوم الآخر.

• الفصل الثاني: البيت الحرام، وفريضة الحج.

• الفصل الثالث: الجهاد.

• الفصل الرابع: الاصطفاء والاختبار للأمة المسلمة.

وإنني لأسأَلُ الله تعالى ألا يُبْقِي هذه الكلمات حبيسةً أوراقها، وأن ييسَّرَ

لها طريقاً إلى قلوب المسلمين، كما أسأله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به بفضلته ورحمته يوم الدين، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿الشعراء﴾.



تمهيد مَوْضُوع السُّورَةِ

ابتدأ الله تعالى آيات سورة الحج بهذا الخطاب الشامل لجميع المكلفين من الناس، الموجودين عند نزول الآية، والحادثين بعد ذلك إلى قيام الساعة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [١].

وقد تكرر هذا النداء في سورة الحج عدّة مرات:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ [٥].

- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُدْعَى لِي يُحْيِي الْمَيِّتِينَ﴾ [٤٩].

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ﴾ [٧٣].

- وختم الله تعالى سورة الحج بنداء خاص للمؤمنين بعد هذه النداءات الموجهة لجميع المكلفين من الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٧٧].

وإذا تأملنا الموضوعات التي ركّزت عليها آيات النداء للناس في السورة وجدناها تدور حول تقوى الله تعالى، وهي أعظم ثمار الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وبيان قدرته سبحانه على بعث الناس من قبورهم، وتفردّه سبحانه بالخلق، مع الكشف عن عجز الآلهة المزعومة وبيان ضعفها، والتصديق برسالة النبي ﷺ مع الإذعان والقبول.

ومن خلال عرض هذه الموضوعات الكبيرة ذكرت الآيات الكريمة الحجّ إلى بيت الله الحرام، وحثّت على تعظيم شعائره ومناسكه.

ثم شرعت الجهاد، وبيّنت الحكمة من مشروعيتها.

فكأنّ السورة الكريمة بمعالجتها لهذه الموضوعات ترسم الطريق المؤدي

إلى بناء المجتمع الإسلامي، وظهور الأمة المسلمة، الأمة التي يجمعها الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد، والتصديق برسالة الإسلام، ويمثل وحدتها وقوتها الحجُّ بمشاعره ومناصبه، ويحمي كيانه ويصون حُرُماتها الجهادُ في سبيل الله تعالى، ولهذا ابتدأت السورة بنداء الناس عامة وانتهت بنداء المؤمنين خاصة.

لقد نزلت سورة الحجَّ في المرحلة التي انتقلت خلالها الدعوة الإسلامية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، وهي مرحلة الهجرة، ومن المعلوم أن النبي ﷺ بدأ بعد الهجرة مباشرةً ببناء المجتمع الإسلامي، ووضع نواة الأمة المسلمة، فجاءت آياتُ السورة مزيجاً من الآيات المكيّة والمدنية على خلاف بين العلماء في تعيين المكي منها والمدني.

قال القرطبي رحمه الله: «وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلاً ونهاراً، سفرًا وحضرًا، مكياً ومدنيًا، سلميًا وحربيًا»^(١).

وإنَّ من حكمة الله تعالى في نزول القرآن الكريم مفرقاً على النبي ﷺ أن تنزل الآيات الكريمة مواكبةً للمراحل المختلفة التي مرّت بها الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ، ترسم له طريق الدعوة في كل مرحلة، وتلبّي الحاجات التشريعية لها، وتبيّن الحلول المناسبة لما يجدُّ من الحوادث في وقت حدوثها، ومواجهتها.

وقد نزلت آياتُ سورة الحجَّ في مرحلة الهجرة تضع الأسس الكبرى للمجتمع الإسلامي، وترسمُ الطريق إلى ظهور الأمة المسلمة.



الْفَضْلِ الْآخِرُ

الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقَا رِبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ سَكَرَىٰ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْتُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ

يَسْبَبِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لَيَقْطَعَنَّ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ
 بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّارِقِينَ وَالْمَجُوسَ
 وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ
 أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
 وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ
 يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَانِ حَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ
 نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ
 حديدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ
 اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا
 مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ
 وَهَدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ .

• زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ﴾ يأمر الله تعالى بهذا النداء جميع الناس بأن
 يتَّقوه . والاتقاء: تجنب المكروه والاحتباس منه ، والمعنى: احتسبوا بطاعته
 عن عقوبته ^(١) ، أو افعلوا وأوامره ، واجتنبوا نواهيهِ .

ورغَّبهم سبحانه بتقواه بتذكيرهم بأنه سبحانه ربُّهم ، فهو مالك أمرهم ومربيهم ،
 فلا يأمرهم إلا بما يُصلِحهم ويُسعدُهم ، ولا ينهاهم إلا عما يؤذيهم ويشقيهم .

ثم رَهَّبهم سبحانه ببيان موجب الأمر بالتقوى فقال:

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فلا نجاة لهم من أهوال الساعة وأفزاعها إلا بتقوى الله تعالى، فهي طريق النجاة وسُلَّم الأمان.

والزَّلْزَلَةُ أمر عظيم، وخطبٌ جليل، وحادثٌ هائل، وكائنٌ عجيب، ويكفي أنه سبحانه عَظَمَها، ولا عَظِيمٌ أعظمُ ممَّا عظمه الله تعالى.

ومعنى الزلزلة: شدة الحركة، وهي على هذا المعنى حادثة قبل بعث الناس من قبورهم، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ [الواقعة].

فهي حادثة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال يوم القيامة، وتصبح الأرض فيها كالسفينة في البحر الهائج، وتضطرب اضطراباً شديداً، وتختل النظم والقوانين الكونية الدنيوية، فتتناثر النجوم، وتنخسف الشمس والقمر، وتنشق السماء وتكشط.

وللزلة معنى آخر: وهو ما يحصل للنفوس والقلوب من الرعب والفرع، وهي على هذا المعنى كائنة داخل الصدور، وفي سويداء القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَاكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ زُلْزَلًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١] عندما حاصرتهم جيوش الأحزاب في غزوة الخندق.

وهذه الزلزلة للقلوب تحدث بعد بعث الناس من القبور، عندما يرون أهوال القيامة وأفزاعها.

ويمكن أن يكون المراد من الآية كلا المعنيين: تضطرب الأرض وتزلزل قبل قيام الساعة، وتزلزل القلوب والنفوس بعد قيام الساعة في عرصات القيامة.

• ذهول المَرْضَعَات والحاملات:

وبعد الحديث المجمل عن زلزلة الساعة في الآية الأولى تتجه الآية الثانية إلى شيء من التفصيل، فتتحدث عن أثر الزلزلة على النفوس البشرية، وشدة وقعها على قلوبهم، فالمرأة المرضعة، وهي التي تبشّر الإرضاع فعلاً، تذهل عن رضيعها من شدة ما يعترئها من الخوف والحزن:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (٢).

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ وجاء التعبير عن الرضيع بـ (ما) لتأكيد شدة الذهول، فالطفل الرضيع شيء تعرفه، ولكنها لا تدري مَنْ هو بخصوصه^(١).

﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ أي: تُلقي كل ذات جنين جنينها قبل تمام حملها، وقوله: ﴿ذَاتِ حَمَلٍ﴾ ولم يقل حامل أو حاملة، ليدل على شدة اتصال الجنين بأمه، وقوة ملازمته لها، ومع ذلك فَإِنَّ شدة الهول والفرع تحملها على وضعه وإلقائه^(٢).

وقد لاحظ الأطباء كثرة حوادث الإجهاض أثناء الحروب والقصف الجوي واختراق جدار الصوت، بسبب الرعب الشديد الذي يصيب الحوامل، ويؤدي إلى الإسقاط^(٣).

ويحمل الكلام في الآية على التمثيل إذا كانت الزلزلة يوم القيامة، فلو كان هناك مرضعةٌ ورضيعٌ لذهلت المرضعة عن رضيعها، ولو كان هناك حامل لوضعت حملها، لشدة الهول والفرع. وأما إذا كانت الزلزلة في الدنيا فببيل الساعة فيمكن أن يكون الكلام على حقيقته.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ على التشبيه من شدة الأمر الذي نزل بهم.

﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ على التحقيق.

﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم.

(١) انظر: روح المعاني، للآلوسي: ١١٢/١٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: كتاب القرار المكين، ص ٦٦.

وجاء الخطاب في رؤية الزلزلة للجمع بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ لأن جميع الناس يرونها، بينما جاء الخطاب لرؤية الناس سُكَّارِي بصيغة المفرد: ﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾ لأن الراي لا ينبغي أن يتَّصف بحال السكر، فلا بدَّ من أفراد المخاطب على وجه يعمُّ كل واحد منهم من غير أن يكون متَّصفاً بتلك الحالة، ويمكن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ، ولكن تعميم الخطاب لكل من يصلح خطابه أبلغ في التهويل^(١).

• أصنافُ الكُفَّار:

وفي ظل هذا الهول المرعب عرضت الآيات الكريمة أصناف الكُفَّار بحسب الدوافع التي دفعتهم إلى الكفر إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: وهم الذين كفروا بسبب التقليد الأعمى لغيرهم، فهم المقلِّدون.

والصنف الثاني: وهم الذين كفروا بسبب الكبر والحسد، فهم المتكبرون.

والصنف الثالث: وهم الذين كفروا بسبب حرصهم على مصالحهم المادية فهم النفعيون.

• الصنف الأول من الكُفَّار: المقلِّدون:

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول الله تعالى ذاماً لمن كَذَّبَ بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، مُعْرِضاً عَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ، مُتَّبِعاً فِي قَوْلِهِ وَإِنْكَارِهِ وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق، المتَّبِعِينَ للباطل، يتركون ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدُّعَاة إلى البدع بالأهواء والآراء»^(٢):

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرُ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: وبعض الناس.

(١) انظر: روح المعاني: ١١٣/١٧؛ والتفسير الكبير: ٤/٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢٠٦/٣.

﴿مَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ينازع في شأن الله تعالى، سواء في وجوده سبحانه أو في وحدانيته أو في صفة من صفات كماله سبحانه، وهذا الجدل - كما قال سيد قطب رحمه الله - يبدو عجباً من ذي عقل وقلب لا يتقي شر ذلك الهؤل المزلزل المجتاح، وهو جدال (بغير علم) جدال التطاول المجرد من الدليل، جدال الضلال الناشئ من اتباع الشيطان^(١).

﴿وَتَبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾: متجرد للفساد، بعيد عن الخير، فهو من قولهم: شجرة مرداء، لا ورق لها، والأمرد: المتجرد عن الشعر، ففيه معنى التجرد والتعري، والمراد به إبليس وجنوده ورؤساء الكفر والضلال^(٢).

ويدل قوله تعالى: ﴿يُجَادِلْ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على أن الجدل في وجود الله تعالى ووحدانيته لا يكون مع العلم، لأن العلم مع الإيمان بالله ووحدانيته، وإذا رأيت بعض من يُنسب إلى العلم يجادل في الله تعالى، فاعلم أن جداله جدال مكابرة وجحود وعناد.

كما تدل الآية الكريمة على أن الإيمان بالله تعالى ينبغي أن يكون مستنداً إلى النظر والاستدلال، لا على مجرد التقليد الأعمى، فلا تقليد في أصول الاعتقاد.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الشيطان وأمثاله من رؤوس الضلالة، وهي كتابة قدرية - كما قال ابن كثير رحمه الله - أي: قدر الله تعالى عليه.

﴿أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده.

﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ أي: يضلّه في الدنيا عن طريق الحق.

﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير في جهنم.

(١) في ظلال القرآن: ٧٣/١٧.

(٢) انظر: روح المعاني: ١١٤/١٧.

● تقرير الأدلة:

وتقريراً للأدلة والبراهين وتقريباً لها من أذهان هؤلاء الناس قال الحق سبحانه :

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتُوفُّ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ .

ويبدو أن الصنف الأول من الكفار، صنف المقلدين، كان كفرهم ناشئاً بسبب شكهم في صفة من صفات كماله سبحانه، وهي كمال قدرته على إعادة الحياة إلى الناس بعد موتهم وبعثهم من قبورهم ليوم القيامة، ولهذا وجه سبحانه النداء إلى هؤلاء الناس وأمثالهم فقال :

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾ أي : إن كنتم في ريب من البعث فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم وشككم .

● الإنسان والتراب:

وخلق الناس من ترابٍ في ضمن خلق أبيهم آدم ﷺ منه . أو : يخلق الأغذية التي يتكون منها المنى، فالمنى يستخلص من الدم، والدم مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان، والتراب مصدر أغذية الإنسان، ولعل المعنى الثاني هو الأظهر لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون : ١٢] .

والسلالة : فعالة من السل، وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول : سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد، والمعنى : خلقنا الإنسان من شيء مستخرج من طين .

وقد ثبت علمياً أنَّ العناصر التي تكون البنية المادية لجسم الإنسان هي

العناصر الأساسية نفسها المكوّنة للتراب، إلّا أنّ تحوّل التراب إلى جسم إنساني يحتاج إلى قدرة قادر عليم حكيم، فهو دليل على وجود الله تعالى وكمال قدرته وعلمه وحكمته، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال سيد قطب رحمه الله: «والإنسان ابن هذه الأرض، من ترابها نشأ، ومن ترابها تكوّن، ومن ترابها عاش، وما في جسمه من عنصرٍ إلّا له نظير في عناصر الأرض... ولكن أين التراب وأين الإنسان؟! أين تلك الذرّات الأولى الساذجة من ذلك الخلق السويّ، والمركب الفاعل، المستجيب المؤثر المتأثر، الذي يضع قدميه على الأرض، ويرفّ بقلبه إلى السماء، ويحلّق بفكره فيما وراء المادة كلها، ومنها ذلك التراب، إنها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وهي أنشأت ذلك الخلق من التراب»^(١).

ومن الثابت علمياً أننا لو أخذنا قطعة من جسم الإنسان وحللناها لوجدناها تتألف من ستة عشر عنصراً، وهي العناصر نفسها المكوّنة للتراب، وإنّ نسبة هذه العناصر فيما بينها في جسم الإنسان هي نفسها فيما بينها في التراب^(٢).

• النطفة:

ويأتي بعد التراب طور النطفة:

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وهي مبدأ وجود الإنسان، فلا وجود له قبلها، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

وقال أيضاً: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ [السجدة].

والنطفة في لغة العرب: الماء القليل، ويُطلق على الكثير، إلّا أنها بالقليل أخصّ. وقد ورد ذكر النطفة في القرآن الكريم في اثني عشر موضعاً.

وذكرت أحياناً باسم الماء المهين: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

(١) في ظلال القرآن: ١٧/٧٤.

(٢) انظر: مجلة أخبار العالم الإسلامي، العدد (١٠٦٤): الإعجاز العلمي في القرآن.

وَذَكَرْتُ بِاسْمِ الْمَاءِ الدَّفَاقِ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ﴾ [يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ] [الطارق].

وذكرت باسم المني أيضاً: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَنَّى ۚ﴾ [القيامة: ٣٧].
وليست هذه الألفاظ مترادفة ومتطابقة تماماً في المعنى، فلفظ المنيّ والماء يشمل النطفة ويزيد عليها السوائل التي تحتويها، يؤكد ذلك قوله تعالى الذي سبق ذكره: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَنَّى ۚ﴾ [القيامة: ٣٧]؛ فالنطفة جزء من المنيّ.
والأطباء يجعلون النُّطْفَ ثلاثة أنواع:

١ - النطفة المذكورة: وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المنيّ، والتي تفرزها الخصية.

٢ - النطفة المؤنثة: وهي البيضة التي يفرزها المبيض في المرأة.

٣ - النطفة الأمشاج: وهي البيضة الملقحة المختلطة من الحيوان المنوي والبيضة المؤنثة، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

• الأربعينات:

وبداية طور النطفة غيرٌ محدودة، وربّما كانت مفرطةً في القَدَم - كما يقول الطبيب مأمون شقفة في كتابه «القرار المكين» - لأنَّ النطفَ تتولد من التُّطف حتى النطفة الأولى في ظهر أبينا آدم، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وأما نهاية طور النطفة فمختلفٌ فيه بين الأطباء، فالطبيب محمد علي البار في كتابه «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» ذهبَ إلى أن طور النطفة ينتهي في اليوم السابع بعد التلقيح، عندما تلتصقُ البيضةُ الملقحةُ - والتي أصبحت بسبب الانقساماتِ الخلوية فيها كرةً جرثوميةً - بجدارِ الرحم^(١).

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٣٦٧.

فهو يرى أنَّ المراحل الثلاث، وهي: مرحلة النطفة، ومرحلة العلق، ومرحلة المضغة؛ تستغرق كلها أربعين يوماً فقط، هي الأربعون الأولى من حياة الجنين، واضطر بسبب هذا إلى تأويل الحديث الشريف الذي أخرجه الشيخان [البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وهو الصادق المصدوق - قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ...».

وذهب الطبيب مأمون شقفة إلى التمسك بظاهر الحديث، وأكد أن الأطوار الثلاثة متميزة في الزمن، يستغرق كلُّ طور منها أربعين يوماً، وأكد رأيه بأحدث ما توصل إليه الطب، وأيده بالصور والحسابات الدقيقة، وخصَّص لحديث الأربعينات فصلاً خاصاً في كتابه «القرار المكين». والله سبحانه أعلم.

● العلق:

﴿ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ﴾ ويأتي بعد طور النطفة طور العلق.

ومعنى العلق في اللغة: قطعة الدم المتخثر الجامد، وكلُّ ما علَّق أو علَق بالشيء، أو دودة في الماء تعلَّق في حلوق الدواب، وتمتصُّ منها الدم، وكان علماء التفسير يقولون عن العلق في الآية الكريمة: قطعة الدم الجامد، وقد بدأ المحذوثون من العلماء والأطباء ينصرفون عن هذا المعنى إلى المعنى الآخر للعلق المشتقة من العلوق والتعلُّق، فالعلق هي النطفة بعد أن تتعلَّق بالرحم وتكتسب صفة العلوق.

ويؤكد الطبيب مأمون شقفة أنَّ انطمار النطفة الأمشاج في جدار الرحم لا يعدُّ علوقاً، فلا تصبحُ علقَةً حتى تكبر، وتأخذ بالتدليُّ في جوف الرحم مرتكزةً من أحد أطرافها على جداره، ويبدأ هذا التعلق بعد مرور أربعين يوماً من أول أيام طمث المرأة الحامل، وينتهي في اليوم الثمانين عندما تكبر العلق، وتملاً جوف الرحم وتستند إلى جداره^(١).

(١) انظر: القرار المكين، ص ١٩٧.

● المضغة:

﴿ثَرَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾ والمضغة: القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ، إلا أنها لا تتقيّد بهذا المقدار بدليل تسمية الحديث الشريف لقلب الإنسان مضغة: «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحت صلحَ الجسدِ كله، وإذا فسدت فسدَ الجسدُ كله، ألا وهي القلب» [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)]^(١).

ووصف الله تعالى المضغة بأنها مُخْلَقَةٌ وغير مُخْلَقَةٌ، وقد تعددت أقوال المفسرين في المعنى المراد من هذا الوصف، والمشهور المتبادر أن المخلقة: المستبينة الخلق، أي: مضغة مستبينة الخلق مصورة، وغير المخلقة: التي لم يستبن خلقها وصورتها بعد.

وقالوا أيضاً: المخلقة: المسوأة التي لا نقصان فيها ولا عيب، وغير المخلقة: غير المسوأة، التي فيها نقص وعيب، وهذا يؤدي إلى تفاوت الناس في خلقهم وصورهم، وطولهم وقصرهم، وتماهم ونقصانهم^(٢).

وقالوا أيضاً: قوله تعالى: ﴿مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾ صفة لما تسقطه المرأة قبل الولادة الطبيعية، فبعضها تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقىها وقد صارت ذات شكل وتخطيط^(٣). إلا أن صدر الآية يردُّ هذا القول، فالآية تنادي الناس المخلوقين الموجودين، ولا يشمل الخطاب الذين لم يكتمل خلقهم، وأسقطوا وهم أجنة في بطون أمهاتهم.

ويقول الأطباء في العصر الحاضر: إنَّ العلقة عندما تعلق في جدار الرحم تبدأ في التمايز إلى طبقتين:

الأولى: خارجية، ووظيفتها قضم خلايا الرحم، والاتصال المباشر بالبرك الدموية الرحمية، لامتصاص الغذاء منها.

(١) انظر: إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس، للمؤلف؛ وكتاب: القرار المكين.

(٢) انظر: روح المعاني: ١١٦/١٧.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٠٦/٣.

والثانية: داخلية، ووظيفتها تكوين الجنين وأغشيته.

فالبطقة الخارجية غير مخلّقة، والداخلية مخلّقة يخلق منها الجنين^(١).

ولصاحب كتاب «القرار المكين» رأي قريب من هذا إلا أنه أوضح، يقول فيه: لا يمكن أن توجد كلمة في لغة العرب تصفُ محصولَ الحمل في اليوم الثمانين أبلغ وأدق وأكثر إعجازاً من هذه الكلمة: ﴿مُضْغَةً مُخْلَقَةً وَغَيْرَ مُخْلَقَةٍ﴾! إنها تتألف من جزء مخلّق مصوّر تعرفه إذا أخرج لك من الداخل على أنه بشر سويّ، ومن قرص لحمي أحمر، ليس عليه تصوير ولا تخلّق ولا أعضاء، هو المشيمة، وهما مرتبطان معاً^(٢).

• تحريم قتل الأجنّة المعوّقين:

ويجب التنبيه هنا إلى أنّ ولادة بعض الأطفال معوّقين ومُشوّهين اقتضته المشيئة الإلهية والحكمة الربانية، فالحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، ولا بدّ فيها ليتم الابتلاء والاختبار من التفاوت بين الناس في الرزق والأولاد، والخلق والصور، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

فقد ابتلى سبحانه الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء، والمرضى بالأصحاء، وكاملي البنية بناقصيها من المعوّقين والمشوّهين... إلخ، ولا يعرف الإنسان قَدْرَ نعمة الله تعالى عليه إلا عندما يفقدها أو يرى مَنْ ابتلي بفقدها.

ولا تتوقّف سعادة الإنسان على كمال بنيته، فكم من المعوّقين مَنْ يستشعر السعادة في حياته أكثر من كاملي البنية الأصحاء، بل إنّ في المعوّقين من أنعم الله تعالى عليهم بقدرات ومواهب لا يوجد مثلها عند كثير من الأصحاء.

أقول هذا ردّاً على أولئك الداعين إلى قتل الأجنّة الذين يكتشف الأطباء أنهم ناقصو التخليق، وأنهم سيولدون معوّقين، لقد وضع هؤلاء أنفسهم في غير

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن.

(٢) القرار المكين، ص ٢٣٢.

موضعها، وتجاوزوا حدودَ عبوديتهم لله تعالى خالق الحياة ومالكها، فرأوا أنفسهم كأنهم أصحابُ الحياة وصانعوها، يسمحون بالحياة لمن يريدون من البشر، ويحرمون منها مَنْ يريدون، ونسي هؤلاء أو تناسوا أَنَّ الحياة مُلْكُ الله تعالى وحده، وهو سبحانه أعلمُ منهم بما يصلح للحياة وما يناسبها، فعليهم أن يعرفوا قُدْرَهم، ويلزموا حُدُهم، ويتركوا شأنَ تدبير الحياة وتنظيمها لخالقها وبارئها سبحانه.

﴿لَنْبَيِّنَ لَكُمْ﴾ معناه: لنبيِّن لكم قدرة الله تعالى على تطوير خلق الإنسان حالاً بعد حالٍ، وطوراً بعد طورٍ، فإنَّ كل ذلك يتمُّ بقدرته سبحانه ومشيئته، فكلُّ تغيير يحدث للجنين داخل الرحم يتمُّ بقدرته سبحانه ومشيئته وعلمه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

فكمالُ التخليق والتصوير ونقصه منوطٌ بمشيئته سبحانه وحده وقدرته وحكمته، ولا يستطيع أحد تغييره وتبديله.

قال سيد قطب رحمه الله: «﴿لَنْبَيِّنَ لَكُمْ...﴾» فهنا محطة بين المضغة والطفل، يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة: ﴿لَنْبَيِّنَ لَكُمْ﴾ دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح في المضغة، وذلك على طريقة التناسق الفني في القرآن^(١).

أو: لنبيِّن لكم ما يُزيلُ عنكم الريب والشك في قدرة الله تعالى على بعثكم يومَ القيامة من قبوركم وإعادة الحياة إليكم^(٢).

• القدرُ المعلوم:

وبعد أن يتم تخليق الجنين وتنفخ فيه الروح يبقى في رحم أمه بمشيئة الله تعالى إلى وقت وضعه وخروجه من بطن أمه، قال تعالى:

﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الوقت الذي قدَّره الله تعالى لخروج الجنين طفلاً، كما في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات].

(١) في ظلال القرآن: ٧٥/١٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٢٢/٦.

والقرار المكين: هو الرحم الذي جعله الله تعالى بقدرته وحكمته مكيناً حافظاً للنطفة التي تُجَعَلُ فيه حتى يكتمل نموها، وتصل إلى الأجل المسمى في علم الله ومشيتته، فيلفظها الرحم، ويخرجها طفلاً:

﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي: طفلاً طفلاً، فهو مصدر يستوي فيه الواحد وغيره^(١).

وجاء قوله تعالى: ﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على سبيل الاستئناف ولم يُعطف على ما قبله، لأن دلالة ما قبله على كمال قدرة الله تعالى أجلى وأظهر، أي: ونحن نقر في الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها إلى أجل مسمى، وفيه إشارة إلى أن بعض ما في الأرحام لا يشاء الله تعالى إقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه^(٢).

فالإقرار بمشيئته سبحانه، والإسقاط بمشيئته أيضاً، والأجل المسمى محسوب بدقة وعناية، وإن الزيادة عليه أو الإنقاص منه ليس في مصلحة الجنين والأم.

وتقدير الأجل المسمى لولادة الجنين يتعلّق بنموه، بحيث يستطيع التلاؤم مع الظروف خارج الرحم، وحين تصبح أقطار حجم رأسه قد بلغت أقل من أقطار حوض أمه بقليل، بحيث تتم ولادته ببطء ولطف، فلا يمر فجأة فيؤدي ويتأذى، ولا يتأخر أكثر مما يلزم، وذلك لأن حوض الأم قناة مفصلة تفصيلاً دقيقاً على قياس رأس الجنين عند تمام الحمل، ولولا أن الحوض قد أُعِدَّ على قياسه بعناية لما أمكنت الولادة، فلو كان الرأس صغيراً فإنه يمر بسرعة تعرّضه للمرض والتزف الدماغ^(٣).

إنه التقدير الإلهي المحكم: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَعَرَّمْ الْفَلَدُونَ (٢٣) [المرسلات].

(١) روح المعاني: ١١٧/١٧.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٦/٤.

(٣) انظر: القرار المكين.

● من الأشدَّ إلى أرذل العمر:

﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي: لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل والتميز. وذكرَت لام التعليل هنا لبيان أهمية مرحلة بلوغ الأشد، فهي المرحلة التي يصبح فيها الإنسان مكلفاً ومسؤولاً، ولهذا أسند الله تعالى فعل البلوغ إلى المخاطبين تذكيراً لهم بأهمية مرحلة التكليف، وأنه أصبح لهم فيها استقلال وكسب واختيار.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّي﴾ بمشيئة الله تعالى وتقديره قبل بلوغ الأشد وبعده، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُأْبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلٍ وَلَيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وهو سنُّ الضعف والهزم والخرف. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: ليعود كهيئته الأولى عندما كان طفلاً فينسى ما علمه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]. وكان النبي ﷺ يستعيد من الارتداد إلى أرذل العمر فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أردَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر» [رواه النسائي (٥٤٩٦)].

● الزوجية في المخلوقات:

ثم ساقَت الآية الكريمة دليلاً آخر يبيِّن قدرة الله تعالى على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم، وجاء هذا الدليل من الآفاق المحيطة بالإنسان بعد ما سبق من الأدلة القائمة في نفس الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ﴾ والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، وصيغة المضارع (تري) للدلالة على التجدد والاستمرار^(١).

(١) تفسير أبي السعود: ٤/٧.

﴿هَامِدَةً﴾ أي: يابسةً ميتةً.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت ترابها لأجل خروج النبات.

﴿وَرَبَّتْ﴾ وانتفتحت بسبب نمو النبات وتداخل الماء.

﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنفٍ جميلٍ حسن المنظر.

وسمّاه الله زوجاً لأن له زوجاً آخر يقابله من جنسه ونوعه.

ومن الثابت علمياً أنّ عنصري المذكر والمؤنث موجودان في جميع النباتات كما هو الحال في الإنسان والحيوان، بل إنّ الزوجية مشاهدة في كل المخلوقات، وهذا من الحقائق العلمية التي أخبر عنها القرآن الكريم قبل أن يكتشفها الإنسان بزمان طويل، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يسر: ٣٦].

وهكذا يتحدث القرآن الكريم عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلّكهم في آية واحدة من آياته، وإنّما للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة، وإنّما للدليل على وحدانية الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والنبات والحيوان والإنسان^(١).

هذه الأدلة القائمة في نفس الإنسان وفي الكون المحيط به تدل دلالة قاطعة على وجود الله سبحانه ووحدانيته وكمال قدرته:

﴿ذَلِكَ يَٰٓأَنَّا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ذَلِكَ يَٰٓأَنَّا اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ فهو سبحانه الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله، المحقق لما سواه.

﴿وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ﴾ بدءاً وإعادة، وإلا لما أحيى النطفة والأرض الميتة.

﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(١) في ظلال القرآن: ٧٦/١٧.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ بمقتضى مشيئته سبحانه وحكمته .

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا شك فيها .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ .

• الصنف الثاني من الكفار: المتكبرون:

ثم بيّن الله تعالى حال الصنف الثاني من الكفار، وهم المتكبرون رؤوس الكفر والبدع ودعاة الضلالة، فقال عزّ شأنه:

﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝٨﴾.

أي: بلا عقل صحيح، ولا نقل صريح، بل بمجرد الرأي والهوى^(١).

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩﴾.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أي: معرضاً متكبراً، فإنّ ثني العطف كناية عن التكبر.

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فلا يكتفي بضلاله، بل يسعى لإضلال غيره.

وهذا الصنف من الناس لا ينفع معه بيان الدليل والبرهان، لا ينفع معه إلا التهديد والوعيد، ولهذا قال سبحانه مهدداً ومتوعداً:

﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: ذلة وصغار.

فلا يدع الله عزّ شأنه المتكبرين والمتعجرفين والضالين المضلين حتى يحطّم كبرياءهم الزائفة، وينكسها ولو بعد حين، وإنّما يمهّلهم أحياناً ليكون خزيهم أعظم وتحقيرهم أوضح وأكبر، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» [رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣)].

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٨/٣.

﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: وله في الآخرة عذاب أشد وأوجع، ويقال له تقريباً وتوبيخاً:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ أي: ذلك العذاب نتيجة عملك السيئ الذي عملته بكسبك واختيارك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

• الصنف الثالث من الكفار: الماديون النفعيون:

وهم طلاب الدنيا، عبيد الدرهم والدينار، الذين يزنون كل شيء حتى العقيدة بميزان الربح والخسارة، ويوجد هذا الصنف من الناس في كل زمان، ولكنهم في الزمن الحاضر أكثر عدداً وانتشاراً، بسبب طغيان الحضارة المادية المعاصرة. قال تعالى في شأنهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أي: وهو على طرف من الدين لا ثبات له فيه، كالذي يقف في طرف الجيش فإن أحسن بظفر قر، وإلا قر. ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ دنيوي في الصحة والسعة.

﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: ثبت على ما كان عليه ظاهراً، لا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين^(١)، فثباته في الحقيقة ليس على الإيمان، إنما ثباته على ما حصل له من منفعة مادية.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ بلاء أو مكروه في نفسه أو أهله أو ماله.

(١) تفسير أبي السعود: ٩/٤.

﴿أَنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: ارتدَّ ورجع عن دينه إلى الكفر.

وفي «صحيح البخاري» [٤٧٤٢]: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجلُ يقدمُ المدينةَ، فإنْ ولدتْ امرأتهُ غلاماً ومنتجتْ خيله، قال: هذا دين صالح. وإنْ لم تلدْ امرأتهُ، ولم تُنتجْ خيله، قال: هذا دينُ سوءٍ^(١).

وقد جرت سنته سبحانه في خلقه أن يمتحن المؤمنين ويبتليهم تمحيصاً لهم، فيظهر سبحانه بهذا صدق الصادقين وكذب المنافقين، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِئَلَّيْنَا لَا يَخْلُفَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَلِئَلَّيْنَا لَا يَجْعَلَنَّ اللَّهُ لَهُمْ سُلُولًا ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت].

• في حِمَى الإيمان:

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ لأنَّ الإيمان بالله تعالى فيه خير الدنيا والآخرة.

ورحم الله سيد قطب عندما تحدَّث في ظلال هذه الآية الكريمة عن أهمية العقيدة الإسلامية في حياة الإنسان الدنيوية، فقال: «إنَّ العقيدةَ هي الركيزةُ الثابتةُ في حياة المؤمن، تضطرب الدنيا من حوله، فيثبت هو على هذه الركيزة، وتتجاذبه الأحداث والدوافعُ، فيتشبَّث هو بالصخرة التي لا تتزعزع... لا ينتظر عليها جزاءً، فهي في ذاتها جزاءً، ذلك أنَّها الحمى الذي يلجأ إليه، والسند الذي يستندُ عليه، أجل هي في ذاتها جزاءً على تفتح القلب للنور، وطلبه للهدى، ومن ثمَّ يهبه الله العقيدة ليأوي إليها، ويطمئنَّ بها، هي في ذاتها جزاءً يدركُ المؤمنُ قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله تتجاذبهم الرياح، وتتقاذفهم الزوابع، ويستبدُّ بهم القلق، بينما هو في عقيدته مطمئن القلب، ثابت القدم، هادئ البال، موصول بالله، مطمئن بهذا الاتصال»^(٢).

وتصديق ذلك في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

(١) تفسير ابن كثير: ٢٠٩/٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٧٩/١٧.

فما أعظم خسارة هذا الصنف من الناس! : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْأَمِينُ﴾ الذي لا عوض عنه ولا تلافٍ له .

• الضلال البعيد:

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ .

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ : يعبد ويطيع غير الله تعالى .

﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ : في حال الإعراض عن عبادته وطاعته .

﴿وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ﴾ : في حال عبادته وطاعته، لأنَّ النفع والضرر بيد الله سبحانه وحده، وهو القائل : ﴿وَأِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] .

وقال رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجُفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح] .

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي : عبادة وطاعة ما لا يملك نفعاً ولا ضرراً ضلال بعيد عن الحق والهدى، وعن من بيده وحده النفع والضرر .

ثم بيّن سبحانه لأولئك الماديين النفعيين الذين يزنون عقيدتهم بميزان الربح والخسارة، ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل، بيّن لهم خطأهم باللغة التي يفهمونها ويتأثرون بها، لغة النفع والضرر، فهم عندما يتوجهون لغير الله تعالى استجلاباً للنفع ودفعاً للضرر، فإنهم يتوجهون إلى مَنْ ضرره أقرب إليهم من نفعه :

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ .

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ : لأنه يجلب لهم في الدنيا الخزي والذلة

والعار، ويوصلهم في الآخرة إلى العذاب الأليم في النار.

ثم بَيَّنَّ سوءَ حالِ معبودهم بعد أن بَيَّنَّ سوءَ عبادتهم، فقال سبحانه:

﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ الناصر.

﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ صاحب من الأوثان والأصنام ورؤساء الكفر والضلال.

• الفَعَالُ لما يريد:

فعلى الذين يبحثون عن السعادة الحَقَّةَ أن يتوجَّهوا بقلوبهم وعملهم إلى الجنة، فهناك السعادة الحقيقية والنعيم المقيم، عليهم أن يشمروا لها، ويعملوا من أجلها، ويتسابقوا على مضمارها ويتنافسوا في ميدانها، ففيها المنفعة الحَقَّةُ التي تُرجى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤).

فهل يوجد أحدٌ غير الله يفعل ما يريد؟! هل في هؤلاء الذين يخشى الناسُ شرَّهم، ويرجون نفعهم مَنْ يستطيعُ فعلَ كل ما يريد؟! هل فيهم فعَّال لما يريد؟! مَنْ غيرُ الله تعالى يتَّصف بالإرادة المطلقة، والمشيئة التامة النافذة في كل ذرَّة من ذرَّات الموجودات؟! مَنْ غيرُه تعالى يخلقُ الأسبابَ والمسبَّبات؟! مَنْ بيده ملكوتُ الأرض والسموات؟! ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]؟!

• حُسن الظن بالله تعالى:

الله ﷻ هو الخالق المالك المُدبِّر، وإرادته سبحانه نافذة في كل المخلوقات، والإنسان مملوك ومخلوق، وإرادته تابعة لإرادة خالقه ومالِكه ومدبِّر أمره، ولا يمكن أبداً أن تكون إرادة المخلوق أقوى من إرادة الخالق سبحانه، فلا يتحرك متحرِّك، ولا يسكن ساكن في الكون كله إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته. هذا الاعتقادُ أصلٌ كبير من أصول عقيدة التوحيد يجب الانتباه إليه

وملاحظته في كثير من الأمور التي يواجهها الإنسان في حياته، فلا تعترض أيُّها الإنسان على الله تعالى إذا ضَيَّقَ عليك في الرزق، فالأمر منوطٌ بمشيئته سبحانه لا بمشيئتك، ولن يأتيك من الرزق إلا ما شاء الله تعالى وقدره لك.

وإذا دعوت الله تعالى فلا تتعجَّلْ الإجابة وتقول: دعوتُ فلم يُستجب لي، فقد تكفَّلَ سبحانه بالإجابة في الوقت الذي يشاء، لا في الوقت الذي تشاء، واعلم أنَّ استعجالَ الإجابة من موانع الإجابة، كما في الحديث الشريف: «يَسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: قد دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي» [رواه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥)].

وإذا كنت في محنة أو ضائقة فثق بالله تعالى، وكن قويَّ الرجاء برحمته سبحانه وفضله، فلا ينبغي لطول المحنة وقوة الضائقة أن ترزعَ ثقتك بالله تعالى ورحمته، فلا تستبطئ نصرَ الله تعالى، اعتصم بالله، وتمسك بتقواه، وتذكر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق].

فاستبطاء النصر لن يؤدي إلى تعجيله، بل يؤدي إلى حرمانك منه، لأنك تسيء الظن بالله تعالى، وهو سبحانه معك يؤيدك وينصرك ما دمت تُحسِنُ الظَّنَّ به سبحانه: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حينَ يذكرُنِي» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

وسوء الظن بالله تعالى يحرمك من فضله وإحسانه، فمن أنت حتى تسيء الظن بالله تعالى؟! أنت خلقٌ صغير وضعيفٌ من مخلوقاته التي يعجز عقلك عن الإحاطة بها، ومهما كنت قوي الإرادة واسع الحيلة فلن تستطيع أن تغير شيئاً أرادَه الله تعالى وقضاه:

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ﴿١٥﴾

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليمدد حبلاً إلى سقف بيته.

﴿ثُمَّ لَيَقَطَّعَ﴾ أي: ليختنق بقطع نفسه.

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ﴾ أي: فليتصور في نفسه هل يُذْهِبُ عمله

هذا غيظ نفسه؟!.

فما عليه إلا أن يرضى عن الله تعالى، وأن يكون دائماً على ثقة به سبحانه

متوكلاً عليه متمسكاً بهدي كتابه:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، معتقداً أنه سبحانه الفعال لما يريد:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، له الحكمة

التامة، والحجة البالغة، لا مُعَقَّبَ لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

وكما أنَّ شأن الهداية والضلال في الدنيا منوطٌ بمشيئته تعالى، فهو سبحانه

أيضاً يتولَّى يوم القيامة محاسبة الناس والفصل بينهم مهما اختلفت مللهم ونحلهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فالله سبحانه شهيدٌ على أفعال جميع المخلوقات، حفيظٌ لأقوالهم، علِيمٌ

بسرائرهم وما تكنُ ضمائرهم، وهؤلاء المذكورون في الآية هم أصلُ جميع

الملل والنحل: المؤمنون وهو الناجون منهم، واليهود، والصابئون الذين لا دين

لهم، والنصارى، والمجوس، والمشركون.

• الخضوع والانقياد لله تعالى:

والدليلُ على كمال قدرة الله تعالى وتمام مشيئته سبحانه أنَّ كلَّ مَنْ يتفكَّر في

المخلوقات التي حوله يعلم أنها منقادَةٌ انقياداً تاماً لمشيئة الله تعالى وتدبيره،

خاضعة خضوعاً كاملاً للنواميس الكونية التي أحكمها الله تعالى ببالغ حكمته

وباهر صنعته، فالكلُّ في الحقيقة مسخَّرٌ ومذلَّلٌ لتدبيره سبحانه، ونافذ في الجميع

أمره ومشيتته، ولا يشذ عن الخضوع لأمره إلا المكلفون من الناس، فالمؤمنون منهم يسجدون لله تعالى سجود طاعة وعبادة، والكافرون الذين حق عليهم العذاب يأبون الخضوع والانقياد لله تعالى ويُعرضون عن أمره كفرًا وعنادًا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، وحمل بعض المفسرين السجود على حقيقته وقالوا: إن كل شيء يسجد لعظمته سبحانه، وسجود كل شيء مما يختص به^(١).

﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾: وما أعزَّ أحد نفسه بمثل سجوده لله تعالى وطاعته له، وما أذلَّ أحد نفسه بمثل إعراضه عن طاعة الله وعبادته، ولن يجد له مكرمًا يكرمه إذا أهانه الله تعالى وأذله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾: لأنه سبحانه يفعل ما يشاء.

● الخصمان:

وتمام مشيئة الله تعالى وإرادته لا يعني أن الإنسان لا مشيئة له ولا إرادة، فقد شاء الله تعالى أن يكون للإنسان المكلف مشيئة وإرادة، فله كسب واختيار في إيمانه وكفره وطاعته لله تعالى وإعراضه عنه، والدليل على ذلك أن كثيراً من الناس اختاروا الكفر بالله تعالى، وأعرضوا عن عبادته وطاعته، فأصبح الناس نتيجة ذلك فريقين: فريق مؤمن، وفريق كافر، وحدث بينهم ما هو واقع مشاهد من الخصام والاختلاف والافتتال بسبب الإيمان والكفر، قال تعالى:

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢١١/٣.

﴿هَٰذَا خِصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رِيهِمَ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ
فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿هَٰذَا خِصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رِيهِمَ﴾، وقد تعددت أقوال علماء التفسير في الذين نزلت بهم الآية الكريمة، وكان أبو ذر رضي الله عنه يقسم قسماً أنَّ الآية نزلت في الذين برزوا يوم بدر: من المؤمنين: حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنه، ومن الكفار: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة.

وقال بعضهم: هما المسلمون وأهل الكتاب.

وروي عن مجاهد عن ابن عباس: أنهم المؤمنون كلهم، والكافرون كلهم، من أيِّ ملة كانوا. وهذا القول يجمع الذين نزلت فيهم الآية وغيرهم^(١). وهو أظهر من غيره، لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم.

• ثياب من نار:

وما دام الإنسان يتمتع بأهلية الكسب والاختيار فهو مسؤول أمام الله تعالى يوم القيامة عن كسبه واختياره، ويترتب على هذه المسؤولية العقاب والثواب، قال تعالى:

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ أي: تقطع لهم في الآخرة ثياب من نار جهنم. وذكر بلفظ الماضي، لأن ما كان من أخبار الآخرة فالموعودُ منه كالواقع المحقق.

وقد تكون الثياب من قطران، كما في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغَشَّىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

وقد يكون المراد من ثياب النار ما يحيط بهم من النار كإحاطة الثياب، فصارت النار كالثياب كما صار الليل كاللباس في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ لِبَاسًا﴾ [النبا: ١٠].

(١) تفسير القرطبي: ٢٦/١٢.

ومع ثياب النار:

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ وهو الماء الحار المغلي بنار جهنم.

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾.

أي: يُذابُ به كلُّ ما في بطونهم حتى ينفذَ من جلودهم، قال ﷺ: «إِنَّ الْحَمِيمَ لِيَصُبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ، فَيَنْفَذُ الْحَمِيمُ حَتَّى يَخْلَصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلُتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ؛ وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ» [رواه الترمذي].

﴿وَلَهُمْ مَقْمَعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾.

يُضْرَبُونَ بِهَا، والمقاع: جمع مقمعة، وهي آلة القمع.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أي: من النار.

﴿مِنْ غَمٍّ﴾ أي: كُلَّمَا أَرَادُوا الخروجَ من النار بسبب ما يعترهم من الغمِّ العظيم.

﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ بأن يردوا من أعاليها إلى أسافلها بمقاع الحديد، فلا

خروج لهم من النار أبداً، ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً:

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

• ثياب من حرير:

ثم بيَّن سبحانه مصير الذين آمنوا بعد ما سبق ببيان مصير الذين كفروا فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّفُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾،

ولا يخفى على المتأمل تغيير الأسلوب من الشدة والغلظة إلى اللين والطلاوة.

وَأَسْنَدَتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ الْإِدْخَالَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تَكْرِيمًا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَتَعْظِيمًا لَشَأْنِهِمْ، وَلِبَيَانِ فَضْلِهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ.

﴿يُكْوَنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يَتَمَتَّعُونَ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ وَمِنْهَا أَسَاوِرُ الذَّهَبِ.

﴿وَلَوْلُؤُا﴾ أي: وَيَحْلُونَ لَوْلُؤًا أَيْضًا، وَهُوَ مَا يَسْتَخْرِجُ مِنَ الْبَحْرِ مِنْ جَوْفِ الصَّدْفِ.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ثِيَابُهُمْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ حَرِيرِ الْجَنَّةِ، فَمَا أَعْظَمَ الْفَرْقَ بَيْنَ ثِيَابِ النَّارِ وَثِيَابِ الْحَرِيرِ!

● القول الطيب:

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ (٢٤).

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: دَلَّهِمُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَرْشُدْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، الَّتِي لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا إِلَّا الْكَلَامَ الطَّيِّبَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة].

﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الَّذِي يَحْمَدُونَ فِيهِ رَبَّهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسَرِينَ: الْقَوْلُ الطَّيِّبُ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَقِيلَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَقِيلَ: الْأَذْكَارُ الْمَشْرُوعَةُ. وَأَمَّا الصِّرَاطُ الْحَمِيدُ فَهُوَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا.

وهذا المعنى لا يتنافى - كما قال ابن كثير رحمته الله - مع المعنى المذكور سابقاً^(١)، ولعلَّه هو المعنى المراد من الآية، لأنه يتفق مع ما سبق الحديث عنه في موضوع سورة الحج، فإنَّ القرآن الكريم عموماً وكلمة (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) خصوصاً أساسُ المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة.

ففي القرآن الكريم المنهج الكامل لكلِّ ما يحتاجُ إليه المجتمع من نظم

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢١٣/٣.

وتشريعات وأسس وقواعد، وفي كلمة (لا إله إلا الله) العقيدة التي تربط بين أفراد المجتمع الإسلامي، وتخرج منهم الأمة المسلمة التي جعلها الله تعالى خير أمة أخرجت للناس.

إنها الكلمة الطيبة ذات الجذور الراسخة الثابتة في قلب كل مسلم، والتي تمتد فروعها عالية شامخة إلى السماء، فيستظل بظلها المسلمون مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم، وتباينت ألسنتهم، وتباعدت بلادهم وأقطارهم. إنها تمثل الرابطة المعنوية التي تربط بين أبناء الأمة المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها، يستشعر المسلم من خلالها قوة وعمق الانتماء إلى الأمة المسلمة.



الْفَضْلُ الثَّانِي

الْبَيْتُ الْحَرَامُ وَفَرِيضَةُ الْحَجِّ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعُرَفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُلْطَمِ نُدْقُهُ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ٢٨ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ٢٩ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ٣٠ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ٣١ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْتِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلُمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣٥ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئْتُ جُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِنَالِهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾

• الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ:

وثمة رابطة أخرى للأمة المسلمة ذاتُ رحم وثيق بالكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، وهذه الرابطة هي الكعبة المشرفة في البلد الحرام مكة المكرمة، التي جعلها الله تعالى مثابةً للأمة المسلمة وأمناء، ورمزاً مادياً وروحياً لوحدة المسلمين وتوحيدهم، يتوجّهون إليها في صلاتهم كل يوم خمس مرات، وهم يعبدون الله الواحد الأحد، كما يؤدّون في حرَمها ورحابها مناسك حجّهم وعمرتهم، ولهذا جاء الحديث عن بيت الله الحرام في الآيات الكريمة بعد الحديث مباشرة عن الكلمة الطيبة لما بينهما من ارتباط، ولكونهما يمثلان الأساس المادي والروحي للأمة المسلمة، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِي كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَلَفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَامِ يُظَلَمِ نُفُوقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

لقد عرف أعداء الإسلام منذ فجر الإسلام أنَّ القرآن الكريم وبيت الله الحرام وما يؤدّي فيه من المناسك مقوماتُ الأمة المسلمة، فعملوا جاهدين ليُبعدوا المسلمين عن هُدي القرآن الكريم وشرعه، كما عملوا على وضع المعوقات - ولا يزالون - لصدّ المسلمين عن التوجّه إلى بيت الله الحرام وأداء مناسك الحج والعمرة فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الصَّدُّ: المنع، أي: وهم يصدّون غيرهم، وبهذا حَسَنَ عطفُ المستقبل على الماضي، فالماضي (كفروا) والمستقبل (يصدّون) فكأنه قال: إن الذين كفروا من شأنهم الصَّدُّ^(١).

وإن وقائع الماضي والحاضر في المحاولات الكثيرة التي قام بها أعداء الإسلام ولا يزالون يقومون بها للصدّ عن سبيل الله والمسجد الحرام لتؤكد حقيقة ما أخبر الله عنه في هذه الآية الكريمة، وتبيّن إعجاز كلام الله سبحانه،

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣١/١٢.

وهو يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

• الصَّدُّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ:

فقد كان رسول الله ﷺ أول مَنْ صُدَّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ عندما منعه المشركون من قريش من الدخول إلى مكة بعد خروجه إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام، ثم صَدَّتْهُ قَرِيشٌ مَرَّةً ثَانِيَةً مع أصحابه في العام السادس من الهجرة عندما أتى مكة معتمراً، وكان ما حدث بعده من صلح الحديبية.

وبقي أعداء الإسلام يعملون على وضع المعوّقات في وجه الحُجَّاج والعُمَّار بعد أن فتح الله تعالى مكة للنبي ﷺ في العام الثامن من الهجرة، وطَهَّرَهَا مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وأعاد عليه الصلاة والسلام للكعبة المعظمة صفاء التوحيد الذي بُنِيَ مِنْ أَجْلِهِ.

وكانوا يستغلُّون ضعف المسلمين وتفرُّقهم بعد أن دبَّ الوهن والضعف إلى الخلافة الإسلامية، فيتعرَّضون للحُجَّاج والعُمَّار، بل كانوا أحياناً يتمكنون من الوصول إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، ففي سنة (٣١٧هـ) تمكَّن بعض القرامطة الباطنيون من الوصول إلى مكة المكرمة، فعاثوا في رحاب حرَمِها وشعابها فساداً، وقتلوا عدداً كبيراً من الحُجَّاج في داخل المسجد الحرام، وألقوا بجثثهم في بئر زمزم، ونزعوا كسوة الكعبة، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم إلى بلادهم، فمكث عندهم اثنتين وعشرين سنة حتى ردَّوه في سنة (٣٣٩هـ)^(١).

وكذلك حاول الصليبيون بعد ذلك الوصول إلى بلاد الحجاز، ودخلوا أرض الحرم، ففي سنة (٥٧٨هـ) تعرَّض أرناط الذي كان مسيطراً على حصن الكرك لقافلة من الحُجَّاج، فاستولى عليها، ثم وضع مشروعاً ضخماً للزحف على الحجاز، فبنى أسطولاً بحرياً في أيلة على ساحل البحر الأحمر بعد أن استولى عليها، ثم أغار بأسطوله على ساحل الحجاز، ونزل بالحوراء قرب ينبع، ثم أبحر إلى رابغ، فنزل بها وخرَّبها، فسارع العادل أخو صلاح الدين

(١) انظر: البداية والنهاية: ٣١٧/١١.

فأرسل أسطولاً من مصر تعقّب سفنَ أرناط ودمرها أمام ساحل الحوراء، وقتل كلَّ من كان فيها من الصّليبيين، وتعقّب الفارّين إلى الشاطئ فأسرههم جميعاً، وأرسل بعضهم إلى مئى، فقتلوا هناك في موسم حج هذا العام^(١).

وفي العصر الحاضر أدرك المستشرقون والمنصّرون أهمية المسجد الحرام ودوره في التّأليف بين المسلمين وتوحيدهم، فعملوا على توجيه الدول النصرانية المستعمرة لوضع العراقيل والمعوقات في وجه المسلمين الذين يريدون أداء مناسك الحج والعمرة.

ولما لاحظت الحكومة الهولندية عندما كانت تستعمر أندونيسية أن أكثر الذين ثاروا على حكمها من أجل الاستقلال كانوا من حجاج بيت الله الحرام، أرسلت جاسوساً ادعى الإسلام، وسمّى نفسه عبد الغفّار بعد أن كان اسمه كريستيان ستوك، لمراقبة الحجاج، وإرسال التقارير عن مكة وما يجري فيها وخاصة في مواسم الحج.

ومن الكلمات المشهورة التي قالوها ما نُقل عن وليم جيفور ديلجران أنه قال: «متى توارى القرآن ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربيّ يتدرّج في سبيل الحضارة الذي لم يعبده عنها إلا محمّد وكتابه»^(٢).

وفي موسم حج عام (١٤٠٧هـ) حاول الحجاج الإيرانيون الحُمَينيون إثارة الشغب في مكة بعد عصر اليوم السادس من ذي الحجة، وتوجهوا إلى المسجد الحرام، وهم يرفعون صور الخميني، لكنّ قوات الأمن السعودية تمكنت بحمد الله تعالى من إيقافهم وتفريقهم، وأعادت النظام والأمن إلى ربوع الحرم الشريف، وأدى الحجاج مناسك حجّهم بيسر وسهولة.

إن الصّدّ عن المسجد الحرام صدٌّ عن سبيل الله ودينه وشرعه، والصّدّ عن سبيل الله صدٌّ عن المسجد الحرام، لما بينهما من تلازم واتصال، ولهذا توعّد الله تعالى الذين ينتهكون حرمة المسجد الحرام بأشدّ أنواع الوعيد بعد أن بيّن

(١) انظر: الصراع بين العرب وأوروبا.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي؛ وكتاب اللسان العربي والإسلام معاً في معركة المواجهة.

حق جميع المسلمين بعبادة الله وحده فيه، فقال:

﴿إِنَّ الذِّبْنَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: فلا فرق بين العاكف فيه وهو المكي المقيم فيه، والباد وهو غير المكي المسافر إليه؛ فلكل منهما الحق في عبادة الله تعالى في المسجد الحرام.

• الإلحاد في الحرم:

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾؛ وهي جملة شرطية جوابها:

﴿تَذِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

والإلحاد في اللغة: الميل، والمراد: الميل إلى الظلم في المسجد الحرام، والمقصود أرض الحرم بحدوده المعروفة حول مكة، حيث يمتد الحرم من المسجد ثلاثة أميال من جهة المدينة المنورة، وسبعة أميال من جهة العراق والطائف، وعشرة أميال من جهة جدة، وسبعة أميال من جهة اليمن.

والإلحاد إلى الظلم يشمل جميع المعاصي الكبائر والصغائر حتى الإرادة السيئة، فلعظم حرمة المكان توعّد الله تعالى على النية السيئة فيه، فمن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة المكرمة، هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة من الصحابة وغيرهم^(١).

• الأمة المسلمة والبيت الحرام:

وكما أن للبيت الحرام ارتباطاً وثيقاً بعقيدة التوحيد، فله ارتباط وثيق أيضاً بالأمة المسلمة ووجودها على الأرض، فتاريخ وجود الأمة المسلمة مرتبط بتاريخ البيت الحرام، فمنذ كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان قواعد بيت الله الحرام، كانا يرفعان إلى الله تعالى كلما ارتفع البناء هذه الدعوات: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿[البقرة].

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٦/١٢.

وعندما بوأ الله تعالى لإبراهيم عليه السلام مكان البيت، وأرشده إليه، وأمره أن يرفع قواعد، أوصاه أن يطهره من كل مظاهر الشرك، ويجعله خالصاً لعبادة الله وحده:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝﴾

«وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» قال ابن كثير رحمه الله: «هذا فيه تقرير وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش، في البقعة التي أُسِّست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له»^(١).
﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له من الطائفين الذين يؤدون عبادة الطواف حول الكعبة المشرفة، وهو من أخصّ العبادات التي لا تؤدَّى في مكان من الأرض سوى بيت الله الحرام، والمصلين القائمين في الصلاة الراكعين الساجدين، وقرن الطواف حول البيت بالصلاة إليه، لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف حوله، والصلاة إليه في غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب، وفي النافلة في السفر^(٢).
والأمر بالطهارة يشمل الطهارة الحسية والمعنوية، أي: وطهر بيتي من الأوثان والأقذار لمن يطوف به ويصلي عنده.

• تلبية الدعوة:

وبعد أن تمّ البناء أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يدعو الناس إلى حج بيت الله الحرام، ويعلمهم بذلك:

﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝﴾

﴿وَإِذْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ فذكر أن إبراهيم عليه السلام لما أمر بدعوة الناس إلى حج

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢١٦/٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بيت الله الحرم قال: يا ربَّ كيف أُبلِّغُ النَّاسَ، وصوتي لا ينفذهم؟! فقال تعالى: نادِ وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقال: يا أيها النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ قد اتخذَ بيتاً فحجُّوه، فيقال: إِنَّ الجبال تواضعتُ حتَّى بلغَ الصوتُ أرجاء الأرض، وأسمعَ مَنْ في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل من كتب الله له أن يحجَّ إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك^(١).

وهكذا ظهرت الأمة المسلمة للوجود، أمة التوحيد وأمة الإجابة التي عبدت الله وحده، ولبَّتْ دعوته، وأصبح الحج منذ ذلك التاريخ رمزاً لتوحيد الأمة المسلمة ووحدتها، الأمة التي تجاوزت الحدود والحواجز، وقطعت البلاد طولاً وعرضاً إلى حرم الله تلبي دعوة الله.

﴿يَا تُوكَّ رِجَالاً﴾ أي: مُشاة.

﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾: وركبانا.

﴿يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: من كل طريق بعيد.

وَمَنْ لم يتمكن من هذه الأمة أن يأتي بيتَ الله الحرام بجسده بسبب العجز والفقر، أتاه بروحه وقلبه واستقبله كلّما وقفَ يناجي ربه في صلاته.

• منافع الحج:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ
الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ (٢٨).

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَ لَهُمْ﴾ وللحج منافع كثيرة كبيرة جامعة لأُمور الدنيا والآخرة، وجاء التعبير عنها بصيغة التنكير للتعظيم والتكثير.

وأعظمُ منافع الحج الدينية: حصولُ الحاجِّ على التوبة والمغفرة، ووصوله

(١) ذكره ابن كثير (١٢٦/٣) وقال بعده: هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف، والله أعلم.

إلى رضوان الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [رواه البخاري (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠)].

وقال أيضاً: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» [رواه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩)].

وهو مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة، مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ إبراهيم عليه السلام، ويجدون محورهم الذي يشدُّهم جميعاً إليه: الكعبة المشرفة، التي يتوجهون إليها جميعاً، ويلتفون حولها، ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها، راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان^(١).

والحج موسم عبادة وتجارة، ففيه فوائد دنيوية لما يحدث فيه من مبادلات تجارية في مواسمه، فقد أباح الله تعالى الاكتساب في مواسم الحج، فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّاكِينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ثم قال تعالى منوهاً بمنافع الحج الدينية:

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ وجاء ذكرها على وجه الخصوص بعد ذكر منافع الحج إجمالاً لأهميتها، ولأنها المقصد الأساس من مشروعية الحج. وذكر الله تعالى: بعبادته وطاعته والتوجه إليه بالدعاء، مع التلبية والتسبيح والتكبير والتهليل في هذه البقاع الشريفة التي حرّمها الله تعالى وفضّلها على غيرها من بقاع الأرض.

• الأيام المعلومات:

ومن منافع الحج: أنه سبحانه جمع للحجاج فضيلة العبادة في أفضل مكان وزمان:

(١) في ظلال القرآن: ٨٩/١٧.

- فالمكان: بيت الله الحرام الذي قال فيه النبي ﷺ: «إِنَّ هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يَنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقُطُ لُقْطَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ» قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر. فقال ﷺ: «إِلَّا الْإِذْخِرَ» [رواه البخاري (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣)].

وقوله: «الإذخر» نبات طيب الرائحة.

وقال رسول الله ﷺ أيضاً في مكة المكرمة: «مَا أَطْيَبُكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبُّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ» [رواه الترمذي (٣٩٢٦)].

- والزمان: الأيام المعلومات، وهي أيام النحر والتشريق، وقيل: عشر ذي الحجة، وقد أقسم الله تعالى بها تنوياً بفضلها وشرفها بقوله سبحانه: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ لَيْلٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر].

وقال فيها النبي ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «وَالْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجَعْ بِشَيْءٍ» [رواه البخاري (٩٦٩)].

• من مناسك الحج:

﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل، وينضم إليها البقر والضأن والمعز.

وذكرها سبحانه ليدل على أن ذبحها في أيام النحر مناسك من مناسك الحج، يُسنُّ بعد رمي جمرة العقبة، ويستحب الأكل منها، ولهذا قال سبحانه:

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهو أمرٌ للإباحة، وقد أكل النبي ﷺ من لحوم هديه.

﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أي: المحتاج الذي أصابه بؤس وشدة.

ومن مناسك الحج: حلق الشعر أو تقصيره بعد رمي جمرة العقبة وذبح

الهدي، قال سبحانه:

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوْفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: ثم عليهم بعد الحلق أو التقصير أن يزيلوا ما لحق بأجسامهم من أوساخ وأظفار وشعور زائدة.

﴿وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ﴾ بإكمال أعمال حجهم، فإن الإحرام بالحج أو بالعمرة التزام بأداء جميع مناسكهما، فلا ينبغي التحلل من الإحرام إلا بعد أداء جميع المناسك.

﴿وَلِيَطَّوْفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهو طواف الإفاضة، ويسمى أيضاً طواف الزيارة، وهو الطواف المفروض في الحج، ويُعدُّ ركناً من أركانه، ويؤدَّى في أيام النحر بعد الوقوف بعرفة ورمي جمرة العقبة، وسُمِّي البيت بالعتيق تعظيماً له، فهو أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى وحده: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٩١﴾ [آل عمران].

والعتيق أيضاً معناه: الجيد الأصيل، وفيه يعتق الله تعالى بفضلله وكرمه رقاب المذنبين إذا أتوا تائبين مستغفرين.

• تعظيم حُرُمَاتِ الله:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ. وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَعَامُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ وحرمات الله: جميع ما حرَّمه الله تعالى ونهى عنه في الحج وغيره، ولَمَّا كانت مقارفة حرمات الله تعالى في أرض الحرم وأثناء القيام بمناسك الحج أقبح وأشنع، ذكرها سبحانه في سياق آيات الحج، والمعنى: ومن يجتنب المحارم التي حرَّمها الله تعالى، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه:

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما جعل الله تعالى على فعل الطاعات ثواباً كثيراً وأجرأً جزيلاً، كذلك جعل على

ترك المحرّمات واجتناب المحظورات^(١).

وفي معظم الحالات يكون ترك المحرّمات، والابتعاد عنها، أشقّ على الإنسان من فعل الطاعات، إذ يحتاج الإنسان إلى مجاهدة نفسه الأمّارة بالسوء ومغالبة إغراءات شياطين الإنس والجن.

وتشتد المجاهدة، وتزداد المعاناة، كلما ازداد الفساد، وانتشرت المعاصي، حتى يأتي زمانٌ يصبحُ القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر، كما جاء في الحديث الشريف: «اتثمروا بالمعروف، وانتهوا عن المنكر، حتّى إذا رأيتم شحاً مطاعاً، وهوى متّبعاً، ودنيا مؤثّرةً، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه، فعليك بنفesk، ودع عنك أمرّ العوام، فإنّ من ورائكم أياماً الصبرُ فيهنّ كالقَبْضِ على الجمر، للعاملِ فيهنّ مثلُ أجرِ خمسين رجلاً يعملون مثل عملِكُمْ» [رواه أبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٣٠٦٠) وقال: حديث حسن غريب].

ويصبح أجر العبادة كبيراً يعدل ثواب الهجرة، قال رسول الله ﷺ: «عبادة في الهرج كهجرة إليّ» [رواه مسلم (٢٩٤٨) والهرج: الاختلاف والفتن].

وللشباب الذي يعظم حرّمات الله تعالى، فيجاهد نفسه ليمنعها عن المعاصي والآثام، فضلٌ كبير عند الله تعالى يوم القيامة، يجعله الله تعالى مع الأصناف السبعة الذين يظّلهم الله سبحانه في ظلّ عرشه، فلا يصيبهم خوف ولا فزع، قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظّلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه: إمامٌ عادِلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمسجد حتّى يعود إليه، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا على ذلك، وتفرّقا عليه، ورجلٌ دعت امرأته ذات منصب وجمالٍ فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

وتعظيم حرّمات الله تعالى تعظيم له سبحانه، وخوف من حسابه وأليم عقابه، قال عزّ شأنه: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢١٨/٣.

وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (١) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ [النازعات].

• التحذير من الشرك وشهادة الزور:

ومن فضل الله تعالى على الأمة المسلمة أنه ما حرّم عليها شيئاً إلا أحلّ لها من المباحات ما يُغني عنه، قال تعالى:

﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أحلّ الله تعالى لكم أن تنتفعوا بسائر وجوه الانتفاع الموجودة في الأنعام، كالانتفاع من أصوافها وأوبارها وجلودها وألبانها ولحومها وغير ذلك، واستثنى ما ذكر تحريره في القرآن الكريم لعارض كالميتة والدم المسفوح وما ذُبح على غير اسم الله تعالى. فعلى المسلمين أن يعظموا حُرُمَاتِ الله باجتنابها، والابتعاد عنها، وخاصة كبائر المحرّمات، وأقبحها: الشرك بالله تعالى، وشهادة الزور:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي: اجتنبوا وابتعدوا عن الأوثان القذرة.

والأمر باجتناب ذوات الأوثان للمبالغة في التنفير عن عبادتها^(١).

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: قول الكذب، ومنه شهادة الزور، قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» - ثلاثاً - قلنا: بلى، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت! [رواه البخاري (٥٩٧٦) ومسلم (٧٨)].

وقال رسول الله ﷺ أيضاً: «عَدَلْتُ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ تَعَالَى» [رواه أبو داود (٣٥٩٩) والترمذي (٢٣٠٠)].

وذهب بعض علماء التفسير إلى أَنَّ قَوْلَ الزور هو الشرك بالكلام، وذلك أَنَّهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ، فيقولون في تلبيتهم: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكاً هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكٌ^(٢).

(١) روح المعاني: ١٤٨/١٧.

(٢) المرجع السابق: ١٤٩/١٧.

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١).

﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ حنفاء لله، أي: مائلين عن كل دين زائغ إلى الدين الحق؛ وهو دين الإسلام القائم على توحيد الله سبحانه. أو: مخلصين لله تعالى^(١). والإخلاص لا يكون إلا بالابتعاد عن كل مظاهر الشرك والوثنية ومنها الرياء وهو الشرك الأصغر.

ثم ضرب سبحانه مثلاً للمشرك في ضلاله وهلاكه وحيرته فقال:

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها.
﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أي: تقطعه الطيور الجارحة وهو في الهواء.
﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ بعيد مُهِلِك.

شبه الله تعالى بهذا المثل الإيمان بالسماء لعلوه وعزته، والإشراك بالسقوط منها، فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر، وشبه خيرة المشرك وقلقه واضطراب نفسه وتشتت أفكاره بالطيور الجارحة وهي تتخطفه وتقطعه وتمزقه.

• تعظيم شعائر الله:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٣٢).

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ﴾ الشعائر: معالم دين الله تعالى، كالأوامر والنواهي والواجبات والمستحبات وأماكن العبادة والطاعات^(٢). فشعائر الله أشمل من حُرُمات الله، إذ الحُرُمات من الشعائر. وتعظيم كل شعيرة من الشعائر بحسبها، فإن كانت من العبادات فتعظيمها

(١) تفسير أبي السعود: ١٨/٤.

(٢) انظر: تفسير سورة المائدة في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

بأدائها على الوجه المشروع، مع الإخلاص لله تعالى، وإن كانت من أماكن العبادة فتعظيمها باحترامها، والمحافظة على حرمتها، وتطهيرها من أي مظهر من مظاهر الشرك.

والمراد من ﴿شَعَتِرَ اللَّهُ﴾ في هذه الآية هنا: مناسك الحج ومعالمه، فقد جاءت الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن مناسك الحج، فالكعبة المشرفة، والطواف حولها بقصد العبادة من شعائر الله، وكذلك أرض الحرم، والموقف في عرفات، ومزدلفة، وأماكن رمي الجمار في منى من شعائر الله تعالى، والهدي والسعي بين الصفا والمروة، وغير ذلك من المناسك كلها من شعائر الله ومعالم دينه، يجب تعظيمها والمحافظة على حرمتها.

وحمل كثير من المفسرين الشعائر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَتِرَ اللَّهُ﴾ على الهدايا التي تذبح يوم النحر بعد رمي جمرة العقبة، وتعظيمها بأن يختارها حسناً سماناً غالية الأثمان، ولا شك أنها من شعائر الله تعالى ومن مناسك الحج، ولكنني أرى حمل كلمة الشعائر في الآية على مناسك الحج عموماً أولى.

﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي: فإن تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب، وهي التقوى الحقيقية التي يتصف بها المؤمن الصادق، أما تقوى الأعضاء فهي التقوى الصورية الكاذبة التي يتصف بها المنافق الذي تخشع أعضاؤه ولكن قلبه ساهٍ لاهٍ^(١).

• التحلل من الإحرام:

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهي منافع الحج الذي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]، والمراد من الأجل المسمى: انقضاء أيام الحج.

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أي: ثم تحلل الحجاج من إحرامهم وأعمال حجهم.

﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي: منتهى إلى الطواف حول بيت الله الحرام طواف

(١) انظر: روح المعاني: ١٥١/١٧.

الزيارة أو الإفاضة بعد قضاء المناسك، ويتحللون بهذا الطواف التحلل الأكبر من الإحرام، كما يقول الفقهاء، ويحلُّ لهم كل ما كان محظوراً عليهم في الإحرام حتى النساء.

وأما التحلل الأصغر من الإحرام فيكون بالحلق أو التقصير بعد رمي جمرة العقبة، فلا يحلُّ لهم بالتحلل الأصغر كل شيء، بل يبقى الجماع محظوراً عليهم حتى يطوفوا طواف الإفاضة.

• الإسلام لله تعالى:

والتقرب إلى الله تعالى بالذبح من العبادات التي شرعها سبحانه لكل الأمم، قال تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ أي: عبادة يتقربون بها إلى الله تعالى، والمراد هنا التقرب إليه سبحانه بذبح الأنعام كالهدايا في الحج، والأضاحي يوم النحر، والقصد من هذه العبادات تعظيم الله تعالى وبيان فضله سبحانه على عباده.

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، ولهذا يجب ذبحها على اسمه سبحانه وحده، والتقرب بذبحها إليه سبحانه وحده، وفي تشريع عبادة الذبح لكل الأمم دليل على وحدانية الله تعالى.

﴿فَاللَّهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: معبودكم واحد، ولو تنوعت شرائع الأنبياء، ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واستسلموا لحكمه وحكمته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾: وهم المستسلمون لله تعالى، والراضون بحكمه وقضائه.

والإخبات: الخشوع والخضوع والتواضع. والمخبتون هم:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣٥).

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت وخشعت.
 ﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ من المصائب والنوائب كالأمراض والمحن والغربة عن الأوطان، فهم راضون بأحكام الله تعالى الشرعية والقدرية.
 ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أي: الذين يؤدّون الصلاة كاملةً مستقيمةً بمراعاة أحكامها وأوقاتها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ في وجوه الخير ومساعدة المحتاجين.
 وهكذا تظهر لنا الآيات الكريمة تأثير عقيدة التوحيد على سلوك الإنسان المسلم، وشدة ارتباطها بعبادته ومنهج حياته.

• البُدن من شعائر الله:

مرّ معنا أن تعظيم شعائر الله دليل على التقوى في قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج]، وهنا يبيّن لنا سبحانه ارتباط التقوى بشعيرة من شعائره بقوله:

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦).

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ والبُدن: جمع بدنة، وهي ناقة أو بقرة تُذبح تقرباً لله تعالى، وسمّيت بدنة لضخامة بدنها، وكثرة لحمها.
 ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: نفع في الدنيا، وأجر في الآخرة.
 ﴿فاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: قولوا عند ذبحها: باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك. [أخرجه جماعة عن ابن عباس^(١)].

(١) كما في روح المعاني: ١٧/١٥٦.

﴿صَوَافٍ﴾ أي: وهنَّ قائماتٌ قد صففن أيديهنَّ وأرجلهنَّ. وكانوا إذا أرادوا ذبحها قيّدوها وهي قائمةٌ وذبحوها.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت على الأرض، وهو كناية عن الموت.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهو أمر للإباحة والندب، ولو لم يأكل وتصدّق بكل لحمها جاز.

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ وهو الراضي بما عنده من غير مسألة ولا تعرّض لها.

﴿وَالْمُعْتَرِ﴾ وهو الفقير المتعرّض للسؤال.

والأمر بالإطعام للإباحة والندب أيضاً، فيستحبُّ أن يأكل من هدي التطوع والتمتع والقرآن والضحايا، ويستحب أيضاً أن يتصدّق.

ثم بيّن سبحانه فضله علينا بتسخير هذه الحيوانات لمنافعنا الدينية والدنيوية، فقال:

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي: ذللناها لكم مع قوتها وضخامة أجسامها، فلا

تستعصي عليكم، بل تقودونها وتعقلونها صافّة قوائمها، ثم تطعنون في لبّاتها، وهذا كله فضل من الله تعالى عليكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على فضله وإحسانه.

● التقوى والإحسان:

ولا يكون الشكرُ على الحقيقة إلا بتقوى الله تعالى، والانقياد لأمره، والرضا بشرعه وقدره، ولهذا قال سبحانه:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٧)

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ فهو سبحانه غنيٌّ عنكم وعن عبادتكم، ولم

يأمركم أن تقتربوا إليه بذبحها لحاجته سبحانه إلى لحومها ودماؤها.

﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ﴾ ولكنّه سبحانه يتقبل منكم طاعتكم لأمره،

وانقيادكم لشرعه.

﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ﴾ كرهه سبحانه تذكيراً بنعمته وفضله .
 ﴿لشكروا الله﴾ أي : لتعظّموا الله تعالى وتوحّدوه وتمجّدوه .
 ﴿على ما هدّاكم﴾ أي : على هدايتكم وإرشادكم إلى عبادته وطاعته .
 ﴿وبشّر المحسنين﴾ الذين يخلصون لله تعالى في عبادته ، ويحسنون تطبيق شريعته .

وهكذا نلاحظ أنّ الآيات الكريمة تشدّنا إلى تقوى الله تعالى في كل شعيرة من شعائر دينه ، وهي التقوى التي أمر الناس بها في أول السورة عندما قال :
 ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورِبَ﴾ [الحج : ١] .

فكأن الآيات الكريمة تبين للناس حقيقة التقوى ، وأنها تلازم المسلم بكل عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى ، كما تبين مآل التقوى وعاقبتها الطيبة ؛ وهي الوصول إلى مرتبة الإحسان ، وهي أعلى المراتب في العبادة ، وكثيراً ما نرى اقتران التقوى بالإحسان ، كما في قوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وقوله أيضاً : ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٠] .

فالتقوى تصل بصاحبها إلى مرتبة الإحسان إذا استقام عليها صاحبها ، والإحسان أعلى المراتب ، وأرفع المنازل ، كما جاء في الحديث الشريف عندما أتى جبريل إلى النبي ﷺ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان : قال - أي جبريل - : فأخبرني عن الإحسان ، قال : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)] .



الفصل الثالث

الجهاد

﴿٣٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٩﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوْمِعُ وَبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِقَابُ الْأُمُورِ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٣﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٤﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ فَكَأَنَّمِنْ قَرِيبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدِ ﴿٤٦﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٧﴾ وَنَسْتَعْلِفُكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٨﴾ وَكَأَنَّمِنْ قَرِيبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَلِيَ الْمَصِيرِ ﴿٤٩﴾ قُلْ يَتَّخِذُ النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ آتَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٣﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْفِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ

مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ بَحْثُكُمْ
 بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ
 مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ
 رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ
 عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي
 النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ
 مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴿٦٣﴾

• تَمْهِيدٌ: سُؤَالٌ وَجَوَابٌ:

أثار ابن كثير رحمته الله سؤالاً في كتابه «البداية والنهاية» [٣١٧/١١] بعد أن ذكر ما فعله القرامطة الباطنيون عندما انتهكوا حرمة بيت الله الحرام، وقتلوا الحُجَّاج، وأخذوا الحجر الأسود، وقد سبق ذكره في بحث: (الصدُّ عن المسجد الحرام)، فقال رحمته الله: «وقد سألت بعضهم سؤالاً فقال: قد أحلَّ الله سبحانه بأصحاب الفيل ما ذكره في كتابه، ومعلوم أنَّ القرامطة فعلوا بمكة ما لم يفعله أحد، فهلَّا عوجلوا بالعذاب كما عوجل أصحاب الفيل؟».

ثم أجاب على ذلك فقال: «إِنَّ أصحابَ الفيل إنما عوقبوا إظهاراً لشرف البيت، ولَمَّا يُراد به من التشريف العظيم بإرسال النبي الكريم من البلد الذي فيه البيت الحرام، ولم تكن شرائع مقررة تدلُّ على فضله، وأمَّا هؤلاء القرامطة فإنَّما فعلوا ما فعلوا بعد تقرير الشرائع، وتمهيد القواعد، والعلم بالضرورة من دين الله بشرف مكة والكعبة... وكل مؤمن يعلم أنَّ هؤلاء قد ألحدوا في الحرم إلحاداً بليغاً عظيماً فلماذا لم يحتج الحالُّ إلى معاجلتهم بالعقوبة، بل أخرهم الربُّ تعالى ليوم تشخص فيه الأبصار».

وأقول إلى جانب ما ذكره ابن كثير رحمته الله: إِنَّ معاجلة الله تعالى بالعقوبة

لأصحاب الفيل بواسطة الطير الأبابيل: حدث قبل الإسلام وقبل ظهور الأمة المسلمة المكلفة بالجهاد، التي أناط الله تعالى بها مسؤولية المحافظة على حرّماته وشعائره، ومن أهمها وأعظمها: بيت الله الحرام.

فلا ينبغي للمسلمين أن ينتظروا نزول الطير الأبابيل على من ينتهكون حرمة بيت الله الحرام، فالواجب ألقي عليهم، والويل لهم إن قصّروا في القيام بواجب الجهاد وحماية حرّمات الله تعالى وشعائره وقديسية بيته الحرام.

ولعلّ مجيء أول آيات الجهاد في سياق الآيات الكريمة في سورة الحج بعد الآيات التي تحدّثت عن بيت الله الحرام، وارتباطه بالأمة المسلمة وعقيدتها ومناسك حجّها، يؤكّد مسؤولية الأمة المسلمة في المحافظة على حرّمات الله تعالى، وأنّ من أهمّ واجباتها وتبعاتها مجاهدة أعداء الإسلام عندما يحاولون انتهاك حرمة بيت الله الحرام، فقد أنهت آيات الجهاد في سورة الحج عصور الطير الأبابيل، وفتحت عهداً جديداً، عهد الأمة المسلمة المجاهدة التي تعرف كيف تصون حرّمات دينها، وتبذل دماءها وأرواحها للمحافظة على حرمة بيت الله الحرام رمز وحدتها وتوحيدها.

● مشروعية الجهاد:

ويستدعي تعظيم شعائر الله تعالى حمايتها، والمحافظة على حرّماتها، وقد مرّ معنا أنّ أعداء الإسلام ما فتئوا منذ فجر الإسلام يصدّون الناس عن دين الله تعالى وعن المسجد الحرام، ويسعون بكل ما أوتوا من قوة ومكر لينتهكوا حرمة شعائر الله تعالى، فلا بدّ إذن من قوة تقمّعهم، وتدفع شرهم وكيدهم، ولهذا شرع الله تعالى الجهاد، وجعله من أفضل العبادات التي يتقرب بها المسلم المجاهد إلى الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الأعمال أحبّ

إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» [رواه البخاري (٥٩٧٠) ومسلم (٨٥)].

والجهاد ضرورة للأمة المسلمة لا غنى لها عنه، إذ لا يمكن للأمة المسلمة أن تحمل رسالة الإسلام، وتحمل تبعاتها الجسام، وتسعى لنشرها بين الأناس إلا إذا كانت أمة قوية، تستطيع حماية الدعاة إلى الله تعالى، حتى يبلغوا الدعوة للناس في يسر وأمان.

ولهذا كان تشريع الجهاد في الإسلام مرتبطاً ببداية بناء المجتمع الإسلامي وظهور الأمة المسلمة، فما إن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وشرع يبنى المجتمع الإسلامي، ويصوغ نواة الأمة المسلمة حتى نزلت أول آيات الجهاد في سورة الحج.

• وعد ووعد:

ومن رحمته ﷺ بعباده المؤمنين: أنه أخبرهم قبل أن يكلفهم بالجهاد وقاتل أعداء الإسلام أنه سبحانه يدافع عنهم ويؤيدهم وينصرهم على أعدائهم، فقال عز شأنه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٢٨).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وتدل صيغة المبالغة في كلمة ﴿يُدْفِعُ﴾ على شدة عنايته سبحانه بالمؤمنين المجاهدين، فدفاعه سبحانه عنهم مستمر لا ينقطع، لأنه سبحانه يعلم أن عدوان الكفار على المؤمنين مستمر لا ينقطع.

وبعد أن وعد الله سبحانه المؤمنين توعد الكافرين فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، لأنه سبحانه يبغض الكفار لكثرة خيانتهم لأمانات الله تعالى، وأهمها الإيمان بالله الواحد الأحد، وطاعته وعبادته، والتصديق برسالة رسله، ويبغضهم أيضاً لكثرة كفرانهم لنعمه وجحودهم لفضله.

● الإِذْنُ بِالْقِتَالِ:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ أي: رُحِّصَ للذين يقاتلهم المشركون ويعتدون عليهم بالقتال.

﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ بسبب ظلم المشركين لهم، وكانوا يؤذونهم، فيأتي المسلمون النبي ﷺ بين مضروبٍ ومشجوجٍ يتظلمون إليه ﷺ، فيقول لهم: «اصبروا، فَإِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بِقِتَالٍ»، حتَّى هاجر، فأنزلت هذه الآية، وهي أول آية نزلت في القتال بعدما نُهي عنه في نيفٍ وسبعين آية، على ما روى الحاكم في «المستدرک» [٢٣٧٦] عن ابن عباس رضی اللہ عنہما، وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وكلمة ﴿أُذِنَ﴾ تدلُّ على أنهم كانوا ممنوعين من القتال، وكانت الآيات الكريمة المكية تأمرهم بالصبر، وتقضُّ عليهم قصص المؤمنين من أتباع الأنبياء قبلهم، كيف أوذوا وصبروا حتَّى أتاهم نصر الله تعالى، وهذا يدلُّ على أنَّ القتال في الإسلام ليس غايةً في حدِّ ذاته، بل هو وسيلة لحماية الدعوة الإسلامية وتأمين نشرها بين الناس.

● قاعدة الانطلاق:

وتدلُّ الآية أيضاً على أنه لا ينبغي القتال حتَّى يصبحَ للمسلمين قاعدة انطلاق وارتكاز ينطلقون منها، ويفيئون إليها، فقد بقي النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة المنورة عدة سنوات يعرضُ نفسه على قبائل العرب في أسواقها ومواسم حجِّها، يبحث عن مكانٍ يمتنع به حتَّى يبلغَ دعوة ربه^(١).

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء، المسمَّى: (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء)، وهو جزء من هذا التفسير الموضوعي الكبير.

قال ابن كثير رحمته الله: «فلما استقروا في المدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك»^(١).

كان النبي ﷺ يسير في طريق نشر الدعوة وبناء المجتمع الإسلامي على منهج دقيق مقدّر قدره الله العليم الحكيم، ولم تكن تصرفاته عليه الصلاة والسلام ارتجالية انفعالية للأحداث التي واجهها، صبر عليه الصلاة والسلام وأمر أصحابه بالصبر واحتمال المكروه والأذى عندما كان الصبر ضرورة من ضرورات المرحلة التي مرّت بها الدعوة الإسلامية حينئذٍ، وقاتلَ عندما أصبح القتال ضرورةً لحماية الدعوة، وتأمين نشرها بين الناس، بعد أن تمكن من استكمال أسباب القتال المادية، وصالح في الحديبية، لأنّ مصلحة الدعوة في مرحلتها التي وصلت إليها اقتضت الصلح، وفي كلّ هذا لم يتأثر عليه الصلاة والسلام بعواطف أصحابه الثائرة وحماسهم الديني المتأجّج في صدورهم، فالحماس العاطفي لا يصلح لبناء الأمم وإقامة المجتمعات والحضارات.

لماذا يغفل كثيرٌ منّا عن هذه الحقائق الناصعة الواضحة في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله ﷺ؟!.

فما أكثر ما استغلّ أعداء المسلمين بذكاء ومكر عواطف المسلمين ومشاعرهم الدينية، فقادوهم إلى مزالق خطيرة، وأوقعوهم في شرك مكرهم وخداعهم.

ثم بيّن سبحانه سبب الإذن بالقتال فقال: ﴿يَأْنَهُمْ ظُلُمُوا﴾ أي: بسبب ظلم المشركين لهم.

ولا يعني هذا أنّ عليهم أن يقاتلوا فور وقوع الظلم عليهم، فوقع العدوان سبب لمشروعية القتال، ولكنّ مباشرة القتال لا تكون إلا بعد الاستعداد له، والأخذ بالأسباب المادية الموصلة بإذن الله تعالى إلى النصر.

(١) تفسير ابن كثير: ٣/٢٢٥.

فقد بقي الصحابة ﷺ مع رسول الله ﷺ يتحملون الظلم والأذى قبل الهجرة ما يزيد على عشر سنوات، حتى أذن لهم سبحانه بالقتال.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وهو سبحانه قادر أن ينصر دينه، ويُعلي كلمته من دون قتال، ولكن حكمته تعالى اقتضت أن يبتلي المؤمنين بقتال الكافرين ومجاهدتهم، جاء ذلك صريحاً في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبُلُوا بِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٤].

وفي قوله سبحانه أيضاً: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

• الإخراج من الديار:

وإكراه الإنسان على ترك دياره ووطنه من غير سبب يستدعي ذلك من أشد أنواع الظلم الذي يتعرض له الإنسان، وخاصة إذا أخرج من داره، وأبعد عن أرضه بسبب إيمانه وعقيدته، ومهما وجد الغريب بيتاً يؤويه، وبلداً يطمئن فيه، فسبقى يستشعرُ ضعفَ الغربة وكربتها، ويعاني شوقَ الحنين إلى الأوطان، ويبكي على مفارقة الخلان، ولهذا ذكر سبحانه الإخراج من الديار في معرض بيان بعض أنواع الظلم الذي تعرّض له المسلمون عندما اضطروا للهجرة من أجل دينهم:

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَلَدَتْ صَوَافِعُ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي: الذين أخرجوا من مكة إلى المدينة من دون إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله تعالى وعبدوه وحده لا شريك له، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

• من سماحة الإسلام:

ثم بيّن سبحانه الحكمة من مشروعية الجهاد وقتال الأعداء، فقال:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: لولا أنه سبحانه يدفع بقوم عن قوم، ويكفّ شرّ أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لَفَسَدَتِ الأرضُ، ولأهلك القويُّ الضعيف^(١).

أو: لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهلُ الشرك، وعطلوا ما بنته أرباب الديانات من مواضع العبادات^(٢).

فآية تحضُّ على القتالِ المأذونِ به، وتبيّن ما يترتّب عليه من قمع لأهل البغي والشرك والكفر.

﴿لَهَدَمْتُ صَوَامِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان.

﴿وَبِيعُ﴾ وهي كنائس النصارى.

﴿وَصَلَوَاتُ﴾ وهي كنائس اليهود.

﴿وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ والمعنى: لهدمت صوامعُ الرهبان، وبيعُ النصارى، وصلواتُ اليهود، ومساجدُ المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيراً.

وقد دلّت الآية الكريمة على المنع من هدم كنائس أهل الذمة وبيوت عبادتهم، لأنها جرت مجرى بيوتهم وأموالهم، ولا يجوز أن يمكنوا من الزيادة عليها، ومتى أحدثوا زيادة وجب نقضها^(٣).

• بشارة وثناء:

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ فنصر الله سبحانه عباده المؤمنين مؤكّد الوقوع

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢٢٦/٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٧٠/١٢.

(٣) المرجع السابق نفسه.

والحدوث إذا نصرَ المؤمنون ربهم بطاعته وحده، والتزام شريعته وأحكام دينه،
كقوله عزَّ شأنه: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُنْصِتْ أَقْدَامُكَ﴾ [محمد: ٧].
﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ثم بيَّن سبحانه ما يترتب على انتصار المسلمين على أعدائهم من نتائج
طيبة: من حُسن السيرة، وإقامة العدل، وقمع الشر والظلم، مما يؤدي إلى
اتساع العمران وازدهار الحضارات:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ﴾ (٤١).

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من بشارة لأصحاب النبي ﷺ
بالنصر والتمكين في الأرض، وما فيها أيضاً من ثناء عليهم.
وعن عثمان رضي الله عنه: هذا والله ثناءٌ قبلَ بلاءٍ. يريد أنه سبحانه أثنى عليهم قبل
أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا^(١).

﴿وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ﴾ أي: ومرجع الأمور كلها إلى حكم الله تعالى وحده
وتقديره.

• نبي الرحمة:

اقتضت حكمة الله تعالى ومشيتته أن يكون للنبي عليه الصلاة والسلام الظفر
بأعدائه والظهور عليهم بواسطة جهادهم وقتالهم، فشرع الله تعالى الجهاد في
الإسلام، وجاهد النبي ﷺ أعداءه بنفسه مع أصحابه حتى أظهره الله عليهم،
بينما كان نصرُ الله تعالى للأنبياء السابقين يتمُّ بإهلاك الحقِّ سبحانه لأعدائهم
بواسطة ما أنزل عليهم من أنواع العذاب الذي استأصلهم.

(١) تفسير أبي السعود: ٢٢/٤.

فقد أهلك سبحانه قومَ نوحٍ بالغرق، وكذلك فعل سبحانه بفرعون وقومه، كما أهلك قومَ صالح بالصيحة، وقومَ لوطٍ بقلب بلادهم، وجعل عاليها سافلها، وقوم هود بالريح الصرصر العاتية... إلخ.

وبهذا امتاز النبي ﷺ على غيره من الأنبياء، فهو نبي الرحمة الذي لم يدعُ على قومه رغم كل الأذى والعذاب الذي لقيه منهم، وكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم، وإذا قيل له: ادعُ على المشركين؛ قال ﷺ: «إني لم أبعث لعناً وإنما بُعثتُ رحمة» [رواه مسلم (٢٥٩٩)].

ومما يدل على كمال رحمته وشفقته عليه الصلاة والسلام أنه لما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ أَمَرَ مَلَكُ الْجِبَالِ لِتَأْمَرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَاهُ مَلَكُ الْجِبَالِ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: مُرْنِي بِمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يَخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً» [رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

والأخشبان: جبلان في مكة يكتنفانها؛ وهما: أبو قبيس وقعيقان.

• الاعتبار بالآثار:

ولهذا جاءت الآيات الكريمة بعد آيات الجهاد مباشرة تتحدث عن الأمم السابقة التي كذبت رُسُلها، وإهلاك الله سبحانه لها بما استأصلها، حتى لم يبقَ منها إلا آثارها لتكون عبرة لكل من يأتي بعدها:

﴿وَلَنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: فكيف إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم، بعد أن أنظرتهم وأخترتهم.

﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مُعَطَّلَةٍ
وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ (٤٥).

﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: كم من قرية.
﴿أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مكذبة لرسولها.
﴿فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ وهاهي الآن قد أصبحت خالية، قد تخرب عمرانها، وتهدمت أركانها، بعد أن أهلك الله تعالى أهلها وسكانها.
﴿وَيَبْرِ مُعَطَّلَةٍ﴾ لا يستسقي منها أحد.
﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ منيع مرتفع، ومع شدة بنائه وارتفاع حصونه أنزل الله تعالى عذابه على سكانه.
ثم وجهت الآية الكريمة الدعوة إلى المشركين للسير في الأرض، والنظر في آثار الأمم السابقة نظر الاعتبار:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى
الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ فيعتبرون بما يرون من آثار، وما يسمعون من أخبار.
﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ليس العمى الحقيقي عمى البصر، ولكنه عمى القلوب التي لا تعتبر.
● الأجل المُسَمَّى:

والله سبحانه لا يعجل لِعَجَلَة عباده، فقد كان مشركو قريش يستعجلون نزول العذاب بهم عناداً ومكابرة، جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ وَآتِنَا عَذَابَ الْإِلِمِ﴾ [الأنفال: ٣٢].
فأنزل الله تعالى رداً عليهم:

﴿وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧).

فاليوم الذي قدره سبحانه للانتقام منهم لا بد أن يأتي، وإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حِلْمِهِ سبحانه^(١).
 فلكل شيء عنده أجل لا يتقدم ولا يتأخر، وحتى الأمم والحضارات لها آجالها المحددة التي لا تتغير ولا تتبدل، ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ولهذا قال سبحانه هنا:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨).

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: أخبرت عنها العذاب مع أنها ظالمة.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب عندما حان الأجل المسمى لها.
 ﴿وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ فمال ومرجع جميع الكائنات إلى حكم الله تعالى وقدره.

• النبيّ النذير:

ثم أمرت الآيات الكريمة النبي ﷺ أن يوجّه للناس هذا النداء:

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٤٩).

إن جو التخويف والتهديد هو الجو المخيم على سورة الحج في أغلب آياتها، فإن كثيراً من آياتها اتجهت إلى الوعيد والتهديد، فقد ابتدأت بمطلع عنيف مخيف: ﴿يَتَّيِبُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١).
 ثم انتقلت إلى مشاهد العذاب في جهنم: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن تَارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّن حديدٍ. (٢١)

(١) تفسير ابن كثير: ٢٢٨/٣.

ثم بدأت بتشريع الجهاد والقتال، وفيه ما فيه من عنف وشدة.
وبعده نقلتنا الآيات إلى مصارع المكذبين وآثار المعذنين: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْطَلَةٌ وَقَصِرَ مَشِيدٌ ﴿٤٤﴾﴾.
ثم أوصلتنا الآيات إلى هذا النداء من النبي ﷺ للناس:
﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولا يخفى ما تحمل كلمة (نذير) من تهديد ووعيد، مع أنه عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة كما مر معنا، فهو بشيرٌ قبل أن يكون نذيراً.

تُرى هل لهذا الجو المخيم على سورة الحج علاقة بالمرحلة التي نزلت السورة فيها؟ وقد مر معنا أن سورة الحج نزلت في الوقت الذي بدأ فيه النبي ﷺ يُرسي قواعد المجتمع الإسلامي الجديد، ويضع نواة الأمة المسلمة، وجو التهديد والوعيد يعكس لنا شدة الحرص على سلامة القواعد والأسس ومثانتها.
فبناء المجتمع الإسلامي الجديد وظهور الأمة الإسلامية من أعظم الأحداث التي شهدتها تاريخ البشرية على هذه الأرض، إنه يمثل ولادة حضارة إنسانية جديدة، يمتد تأثيرها إلى جميع شعوب الأرض ومجتمعاتها، فالواجب يقتضي أن تكون الأسس للمجتمع الجديد متينةً وسليمةً وواضحةً كي تتمكن هذه الأمة من تحمّل تبعاتها ومسؤولياتها الكبيرة تجاه البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها.

وبعد الإنذار الذي توجه به النبي ﷺ إلى جميع الناس بينت الآيات حال من آمن ورجع عما هو عليه من الكفر فقالت:

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

وحال الذين ظلوا متمسكين بكفرهم معارضين لدعوة النبي ﷺ:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ أي: بذلوا جهدهم في إبطالها.

﴿مُعْجِزِينَ﴾ معارضين لها .

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ سَمَّاهُمْ أَصْحَاباً لْجَهَنَّمَ ؛ لَشِدَّةِ مَلَاذِمَتِهِمْ لَهَا وَطُولِ مَكْثِهِمْ فِيهَا .

• جدال وضلال:

وسعي المشركين في إبطال آيات الله تعالى أمر معهود عند جميع الأمم التي كذبت دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ ، والنبي أعمُّ من الرسول ، فالنبي مَنْ نَبَّاهُ اللهُ تعالى ، وأوحى إليه ، فإذا أمره تعالى بالتبليغ صار رسولاً .

﴿إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي : إذا قرأ شيئاً من الآيات ألقى الشيطان الشُّبه على الكفار ، ليجادلوا الرسولَ بالباطل ، ويردُّوا ما جاء به ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أيضاً : ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخِرَ إِلَى أُولِيَ الْيَمِينِ يُجَدِِّلُوهُمْ وَإِنْ أطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من مواساة للنبي ﷺ ، وتسلية عمَّا يلقاه من عناد المشركين وجدالهم في آيات الله تعالى التي كان يتلوها عليهم .

﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي : فيبطل الله تعالى ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه ، إما بتوفيق النبي ﷺ لردِّه ، أو بإنزال ما يردُّه .

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ﴾ أي : يأتي بها محكمةً مثبتةً ، لا يستطيع أحد أن يعترضَ عليها بوجه من الوجوه .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

ثم بَيَّن ﷺ الحكمة من تمكين الشياطين من إلقاء الشبه على الكفار، فقال:

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ أي: ابتلاء واختباراً.

﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الكفار المُجاهرين بكفرهم.

• قسوة القلب:

فكلا الفريقين من الكفار يحمل في قلبه علة تجعله يتقبل نزغ الشيطان ووسوسته، فالعلة في قلوب الفريق الأول النفاق والشك، والعلة في قلوب الفريق الثاني قسوة القلب.

وثمة علاقة بين العلتين، فقسوة القلب مقدمة للنفاق والكفر. وكثرة المعاصي وإدمانها تؤدي إلى قسوة القلب، التي تدفع بصاحبها إلى اتباع هواه، حتى لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أُشرب من هواه، كما جاء في الحديث الشريف: «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عَوْدًا عَوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكْتُ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكْتُ فِيهِ نَكْتَةٌ بَيْضَاءٌ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلَ الصِّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا، كَالْكُوْزِ مُجَحَّيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه البخاري (٥٢٥) ومسلم (١٤٤)].

و«المرباد»: الذي في لونه غيرة. و«المجحِّي»: المنكوس أو المائل.

وتدفع قسوة القلب صاحبها إلى إنكار آيات الله تعالى وجحودها كما فعل بنو إسرائيل، قال تعالى توبيخاً لهم على إنكارهم لآياته التي شاهدوها بعد إحياء الميت لهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْجِبَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْجِبَارَةِ لِمَا

يَنْفَعِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشْفُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ٧٤﴾ .

فلا خير يُرجى من أصحاب القلوب القاسية، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿وَأَيُّ الظَّالِمِينَ لَفَى شِقَاقَ بَعِيدٍ﴾ أي: في عداوة وضلالٍ وعنادٍ بعيد.

ولا علاج للقلوب القاسية إلا بالتوبة والإنابة والإكثار من ذكر الله تعالى وعبادته وطاعته: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد مر معنا في صفات المختبين قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْتَبِينَ ٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُفِيصِي الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج].

وقال تعالى هنا يبين الآثار الحميدة الطيبة للخشوع والإخبات:

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤﴾ .

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، فشتان بين أصحاب القلوب القاسية وعنادهم وجدالهم لإبطال آيات الله تعالى، وبين أصحاب القلوب المخبئة الخاشعة الذين علموا أن القرآن الكريم حق ثابت أنزله الله تعالى:

﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ انقياداً وخشوعاً لكلام الله تعالى، الذي تخضع وتخضع لعظمته الجبال لو رُكِبَ فيها ما في الإنسان من شعور وإدراك، ثم أنزل عليها كلام الحق سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، مكافأة لهم على إخباتهم وخضوعهم وخشوعهم لكلامه سبحانه، فيتولاهم برحمته وعنايته، ويثبتهم على الصراط المستقيم، فلا يضلُّون ولا يزلُّون، ويحفظهم من فتن الشيطان وضلالاته بهدایتهم إلى ما يردُّها ويبطلها.

● اليوم العقيم:

وأما أصحابُ القلوب القاسية من المنافقين والمشركين فيظنون يتخبطون في ظلمات كفرهم ونفاقهم وشكهم:

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك وحيرة من القرآن الكريم.
﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، وسمي عقيماً لأنه منفرد عن سائر الأيام، لا مثل له في شدته، أو لا يوم بعده، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام، فما لا يوم بعده يكون عقيماً^(١).

ويؤكد أن اليوم العقيم هو يوم القيامة قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿الْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥٦﴾.

﴿الْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ فهو سبحانه وحده المالك والحاكم يوم القيامة فلا ملك لأحد غيره ولا حكم.
﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥٧﴾.

في مقابلة استكبارهم وجحودهم بآيات الله تعالى وسعيهم في إبطالها.

(١) روح المعاني: ١٧٥/١٧.

● قصة الغرانيق:

لا بدّ لنا عند هذه الآيات الكريمة أن نتعرّض لقصة الغرانيق التي ذكرها كثيرٌ من المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآيات الكريمة، وأولع بها المستشرقون وأعداء الإسلام.

والغرانيق: جمع غرنوق، وهو في الأصل الذكّر من طير الماء طويل العنق، وتقال للشاب الممتلئ شباباً وحسناً وبياضاً، وأريد بها هاهنا الأصنام^(١).

فقد روي: أن النبي ﷺ لما قرأ سورة النجم وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ﴾ قال: (تلك الغرانيقُ العُلَى، وإنَّ شفاعتها لُترتجى)، ويروى: (ترتضى)، وفي رواية: (إنَّ شفاعتها لترتجى، وإنها لمع الغرانيقِ العُلَى)، وفي أخرى: (والغرانقةُ العُلَى، تلك الشفاعةُ ترتجى).

فلَمَّا ختمَ السورة سجدة، وسجدَ معه المسلمون والكفَّار لَمَّا سمعوه أثنى على آلهتهم، وما وقع في بعض الروايات: أن الشيطان ألقاها على لسانه، وأن النبي ﷺ كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء يقاربُ بينه وبين قومه، وفي رواية أخرى: أن لا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه، وأن جبريلَ عليه السلام جاء فعرض عليه السورة، فلَمَّا بلغ الكلمتين قال له: ما جئتُك بهاتين، فحزنَ بذلك النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى تسلياً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ الآية [الحج: ٥٢].

وهذه القصة مردودةٌ من عدة وجوه:

١ - فهي من ناحية السند مردودة، فلم يخرج حديثها أحدٌ من أهل الصّحة، ولا رواه ثقة بسندٍ سليم متصل كما قال القاضي عياض في «الشفاء»^(٢).

ووصف ابنُ كثيرٍ رحمه الله أسانيدَها بعد أن أوردها فقال: «ذكرها محمد بن إسحاق في «السيرة» بنحو من هذا، وكلُّها مراسلاتٌ ومنقطعات»^(٣).

(١) انظر: شرح الشفا، للقاري: ١٤٠/٤.

(٢) شرح الشفا: ١٤٤/٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣٣٠/٣.

وقال القرطبي رحمته الله: «الأحاديث المروية في نزول هذه الآية ليس فيها شيء يصح، ثم نقل عن ابن عطية قوله: وهذا الحديث الذي فيه - هي الغرائق العلى - وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يدخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره في علمي مصنف مشهور»^(١).

وقال الشيخ الألوسي رحمته الله: «وقد أنكر كثير من المحققين هذه القصة، فقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وذكر الشيخ أبو منصور الماتريدي في كتاب «قصص الأنبياء» أن قوله: (تلك الغرائق العلى) من جملة إيهاء الشيطان إلى أوليائه من الزنادقة حتى يلقوها بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين، وحضرة الرسالة بريئة من مثل هذه الرواية»^(٢).

٢ - وهي مردودة أيضاً بسبب اضطراب متنها، وكثرة الاختلاف بين رواتها، فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه... إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

● عصمة النبي ﷺ من الشيطان:

٣ - وهي مردودة من جهة المعنى، لأنها تدل على أن للشيطان تسلاً على النبي ﷺ، وهو بالإجماع معصوم من الشيطان، فلا سلطان للشيطان على المخلصين من المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥].

فكيف يكون له سلطان على رسول الله ﷺ المعصوم بعصمة الله تعالى ورعايته؟! ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]. وكيف يستطيع الشيطان أن يدنو من النبي ﷺ حينما ينزل عليه الوحي

(١) تفسير القرطبي: ٨١/١٢.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٧٧/١٧.

والملائكة تحيط به من كل جانب، قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٨] أي: قد يخصه بمزيد من الملائكة يحفظونه، ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

والمعنى: أنه سبحانه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي^(١).

ولا يستطيع الشيطان أن يتشكَّل بصورة النبي ﷺ كما أنه لا يستطيع أن يتصور بصورة المَلَك، قال القاضي ابن العربي رحمه الله: «تصور الشيطان في صورة المَلَك مُلبَّسًا على النبي ﷺ كتصوره في صورة النبيِّ مُلبَّسًا على الخلق، وتسليط الله تعالى له على ذلك كتسليطه في هذا، فكيف يسوغ في لبِّ سليم استجازة ذلك؟»^(٢).

وقد صحَّ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ رَأَى فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَأَى، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي» [رواه البخاري (٦٩٩) ومسلم (٢٢٦٦) واللفظ له].

وقال أيضاً: «مَنْ رَأَى فِي النَّوْمِ فَقَدْ رَأَى، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَشَبَّهُ بِي» [رواه مسلم (٢٢٦٨)].

وقال أيضاً: «مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ» [رواه البخاري (٦٩٩٦) ومسلم (٢٢٦٧)]. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «ولياي، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» [رواه مسلم (٢٨١٤)].

● السجود لله تعالى:

أما سجودُ المشركين مع النبي ﷺ حين سجدَ في آخر سورة النجم، فقد رواه البخاري [٤٨٦٣] ومسلم [٥٧٦] وأبو داود [١٤٠٦] والنسائي [٩٥٨] وغيرهم، وليس فيه أيُّ ذكر لقصة الغرانيق، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قرأ:

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤٣٤.

(٢) روح المعاني: ١٧/ ١٧٨.

والنجم، فسجد فيها، وسجد كل مَنْ كان معه غير أن شيخاً من قريش أخذ كفاً من حصي أو ترابٍ ورفعَه إلى جبهته وقال: يكفيني هذا.

وروى البخاري [٤٨٦٢] والترمذي [٥٧٥] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والأنس.

وسبب سجود المشركين تأثرهم بسلطان آيات القرآن الكريم وبلاغتها، وما اعتراهم من خوفٍ عند سماع ما فيها من تهديدٍ شديدٍ، ووعدٍ أكيدٍ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا ﴿٥١﴾ فَأَبَقَىٰ ﴿٥٢﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ﴿٥٣﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهَوَىٰ ﴿٥٤﴾ فَعَشَنَهَا مَاءً غَشَىٰ ﴿٥٥﴾ فَيَآئِي ٱلْآءِ رَبِّكَ نَسْمَاوُ ﴿٥٦﴾﴾ [النجم].

فغلب الخوف على قلوبهم أن ينزل مثل ذلك فيهم ^(١).

وتأثرهم بالقرآن الكريم عند سماع ما فيه من آيات الوعيد والتهديد ليس غريباً عليهم، فقد روي: أن عتبة بن ربيعة لما سمع النبي ﷺ يقرأ سورة فُصِّلَتْ، وفيها قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] أمسك على فم الرسول ﷺ وناشده الرِّجَمَ، ورجع إلى المشركين من قريش، وهو يقول: أمسكتُ بفيه وناشدته الرِّجَمَ أن يكفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخشيتُ أن ينزل بكم العذاب ^(٢).

وكانوا يتواصون برفع أصواتهم وإحداث ضجة أثناء قراءة النبي ﷺ حتى لا يسمعوا القرآن الكريم ولا يتأثروا به: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وسجود المشركين هذا كان سبباً لعودة بعض المهاجرين إلى الحبشة، فقد تناقل الناس خبر السجود حتى وصل إلى مسامع المسلمين في الحبشة، فظنوا أن المشركين من قريش دخلوا في الإسلام فعاد بعضهم إلى مكة المكرمة.

(١) انظر: روح المعاني: ١٧/١٨٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: ٩١/٤.

• اتهام باطل:

فقصة الغرائق مردودة من جهة النقل والعقل، ولا حاجة إلى تأويلها على فرض صحتها، كما فعل كثير من المفسرين.

وقد استبعد سيد قطب رحمته الله أن تكون قصة الغرائق سبباً لنزول الآية، ولكنه حاول تأويلها فلم يوفق، وجانبه الصواب، وذكر معنى يصادم ما قرره قبل ذلك عندما ردّ حديث قصّة الغرائق فقال: وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلاً من أصول العقيدة، وهو عصمة النبي ﷺ من أن يدسّ عليه الشيطان شيئاً في تبليغ رسالته.

اتّهم سيد قطب الرسل بأنهم يودّون لو هادنوا الناس فيما يعزّ على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات، فيسكتوا عنها مؤقتاً لعلّ الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة، ويودّون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم، رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتمّ فيما بعد تربيتهم التربية الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة، ويودّون... ويجدّ الشيطان في تلك الرغبات البشرية فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات^(١).

ولا أدري كيف وقع رحمته الله في هذا التناقض، واتّهم الرسل ﷺ بهذه التهمة الباطلة التي تصادم عصمتهم عليهم الصلاة والسلام؟!.

ولا أظنّ أن سيد قطب رحمته الله كان يجهل حياة الرسل ﷺ، ولا يعلم صلابتهم في دين الله تعالى، وشدة تمسكهم برسالته، وأتباعهم لوحيه، وخاصة نبينا محمداً ﷺ.

ألم يقرأ سيد سيرة النبي ﷺ في مكة، والمحاولات الكثيرة التي بذلها المشركون ليجعلوا النبي ﷺ يترك تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، وأنهم سعوا إلى عمه أبي طالب لهذا الأمر؟! وكيف أنّ النبي ﷺ واجههم برده الحازم الذي

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/١٠٨.

قال فيه لعمّه: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهِرَهُ اللهُ أو أَهْلِكَ دونه ما تركته»؟! (١).

فكيف يمكن أن نتصور أن يُجاريهم النبي ﷺ في شيء من رغبات نفوسهم؟! ألم يقرأ عن ثباته عليه الصلاة والسلام عندما كان يعرض نفسه على قبائل العرب في أسواقهم ومواسم حجّهم، يطلب منهم أن يمنعوه حتى يبلغ دعوة ربه؟! وكيف رفض ﷺ طلب بعض القبائل أن يجعل لهم الأمر من بعده، فردّ عليهم: «الأمر لله يضعه حيث يشاء»؟! (٢).

ثم ألم يقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٨) وَذُؤَالُو تَذْهَنُ فَيَذْهَبُونَ ﴿[القلم]؟! فهل داهنهم النبي ﷺ وتُمْنَى أن يجاريهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم؟! اللهم لا .

● أمثلة مردودة:

وجانب سيد قطب رحمه الله الصواب أيضاً في الأمثلة التي ذكرها تأييداً لرأيه: ذكر قصة النبي ﷺ مع ابن أم مكتوم الأعمى، عندما أتى إليه عليه الصلاة والسلام يسأله عن أمر من أمور دينه، فأعرض النبي ﷺ عنه، لأنه كان مشغولاً بدعوة بعض كبار مشركي قريش إلى الإسلام، فعاتبه الله سبحانه بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿[عبس]، لكن حرصه عليه الصلاة والسلام على نشر الإسلام ليس مجاراةً لرغبات المشركين، ولا سكوتاً على بعض عاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم، فالمثال بعيد جداً عن المعنى الذي ذهب إليه سيد قطب رحمه الله.

ثم ذكر سيد قطب رحمه الله المثال الثاني، وهو ما روي في «صحيح مسلم» [٢٤١٣]: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرّد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢].

(١) سيرة نبي الهدى والرحمة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وقال سيد تعليقاً عليه: «وهكذا ردَّ الله للدعوة قيمها المجردة، وموازينها الدقيقة، وردَّ كيدَ الشيطان فيما أراد أن يدخلَ من تلك الثغرة، ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كُبراء قريش بإجابة رغبتهم»^(١).

ومن يقرأ هذه الكلمات يظن أن قيم الدعوة ضاعت، وموازينها الدقيقة اختلَّت، بمجرد حديثِ نفسٍ حدَّث النبي ﷺ به نفسه، وما ندري ما هو هذا الحديث، ولماذا نسيءُ الظنَّ بالنبي ﷺ ولا نقول: إن الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ...﴾ نزلت ردّاً على طلب المشركين - اطرده هؤلاء لا يجترئون علينا - ولم تنزل ردّاً على ما وقع في نفس رسول الله ﷺ، ونحن لا ندري ما وقع في نفسه عليه الصلاة والسلام؟!.

وحاول سيد قطب رحمه الله أن يلحق قصة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه بالمثلين السابقين فقال بعد أن ذكر القصة المختصرة: «وهكذا أنفذ الله شريعته وأحكمها، وكشف ما خالَجَ خاطِرَ رسول الله ﷺ من كراهية القوم لزواجه من مطلقة دعيه، ولم يمكِّن الشيطان أن يدخلَ من هذه الثغرة»^(٢).

والمثال بعيدٌ جداً عن التأويل الذي ذهب إليه سيد قطب رحمه الله في الآية الكريمة، فليس في موقف النبي ﷺ أدنى مجارة لرغبات المشركين، ولا سكوتٌ على بعض عاداتهم وموروثاتهم، فقد بادر رسول الله ﷺ بعد أن طلق زيدَ السيدة زينب إلى الزواج منها تنفيذاً لأمر الله تعالى، وأرسل زيداً يخطبها له^(٣).

وما أخفى ﷺ في نفسه إلا ما أخبره الله تعالى به من أنها ستكون زوجةً له، والقصة حدثت في المدينة المنورة بعد عدة سنوات من هجرته عليه الصلاة والسلام، ولم يكن في المدينة مشركون ليجارِيهم في رغباتهم ويسكت عن بعض عاداتهم وموروثاتهم.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/١٠٩.

(٢) انظر المرجع السابق: ١٧/١١٠.

(٣) انظر: تفصيل القصة في: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب) في هذا التفسير.

● مصلحة الدعوة:

فما ذكره سيد قطب رحمته الله في حق الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لا نوافقه عليه، وأما ما ذكره في حق غيرهم من أصحاب الدعوات عندما تدفعهم حماسهم ورغبتهم الملحة في انتشار الدعوة إلى اتخاذ وسائل وأساليب لا تستقيم مع موازين الدعوة الدقيقة، حرصاً على سرعة انتصار الدعوة، واجتهاداً في تحقيق مصلحتها، فنحن نقره عليه كل الإقرار، ونقول معه لأصحاب الدعوات: إن كلمة (مصلحة الدعوة) يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات، لأنها مزلة ومدخل للشيطان، يأتيهم منه حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص، وإن على أصحاب الدعوات أن يتدبروا آيات سورة الحج، ويعيشوا جو الرعب المخيف الذي يخيم على السورة ليشعروا بمدى المسؤولية التي يحملونها، وعليهم أن يقفوا عند مدلولات الآية الكريمة: ﴿مَنْ كَانَتْ يَطْنُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]، والآية الكريمة: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]؛ ليعرفوا الطريق الحقيقي إلى بناء المجتمع الإسلامي والأمة المسلمة.

● فضل الهجرة:

شكّل المهاجرون من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة مع إخوانهم الأنصار نواة الأمة المسلمة، فكان لهم فضل الهجرة التي نقلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة جديدة، مرحلة التمكين في الأرض والانتشار في آفاقها البعيدة، فلا بد من التنويه بفضلهم، وبيان ما أعد الله تعالى لهم من الكرامة يوم القيامة، فقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَلَا يَنْفَكُ عَنْهُمْ اللَّهُ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٥٨).

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ وهم في طريق الهجرة،

فقد كان المشركون يتعرَّضون لهم، ويحاولون صدَّهم وردَّهم عن مقصدهم، أو قتلوا وهم يجاهدون في سبيل الله بعد أن أذن الله تعالى بالقتال - كما مرَّ معنا - .
﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في الجنة .
﴿وَلَا يَكُ اللَّهُ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لأنه سبحانه يرزق من غير حساب، بينما غيره يرزق مما رزقه الله جلَّ شأنه .

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ .

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ وهذا تقرير لمضمون ما تقدم في الآية السابقة، والمراد من المُدخل: الجنة، أو درجات فيها مخصوصة لأولئك المهاجرين .
﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالهم وبما يرضيهم .
﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجل أعداءهم بالعقوبة .

• مواجهة العدوان:

ويستدعي الإذن بالقتال مواجهة العدوان بمثله، ولهذا قال تعالى :

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ .

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ سَمَّى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين صورة، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] .
﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أي: ثم ظلم بالمعاودة إلى عقوبته .
﴿لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ على من بغى عليه وظلمه .
﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ مبالغ في العفو والغفران .
وفي الآية الكريمة حثٌّ على العفو والمغفرة، مع القدرة على العقوبة، إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده^(١) .

(١) تفسير أبي السعود: ٣٠/٤ .

ثم بين الله سبحانه قدرته على نصرة المظلومين بمثال كوني يراه ويشعر به كل الناس من الظالمين والمظلومين، فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٦١).

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى نصرة المظلومين. ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فهو سبحانه قادر على إدخال الليل بالنهار، والنهار بالليل، ومن كان قادراً على المداولة بين الأشياء المتضادة، فهو قادر على نصر المظلومين على ظالمهم. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ لكل المخلوقات لا يخفى عليه منهم خافية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبْدَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبْدَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢).

﴿ذَلِكَ﴾ الاتِّصاف بكمال القدرة والعلم دليل: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ذو الحق، فدينه سبحانه حق، وعبادته حق، ووعد به بنصر المؤمنين حق. ﴿وَأَبْدَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الذي لا يستحق العبادة. ﴿وَأَبْدَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على جميع الأشياء والمخلوقات. ﴿الْكَبِيرُ﴾ ذو العظمة والجلال والكبرياء، فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته؛ فهو العليُّ الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه عَمَّا يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.



الْفَصْلُ الرَّابِعُ

الاصْطِفَاءُ وَالْاِخْتِيَارُ لِلْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾
 ﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَكِيمُ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
 سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا
 بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا نَسَكًَّا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاَدْعُ
 إِلَى رِبِّكَ إِنَّكَ عَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ
 يَخْتَكُم بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ
 يُنَزَّل بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٢١﴾ وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
 تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا
 قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَ الْمَصِيرُ ﴿٢٢﴾ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ
 ضَرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِيعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا
 لَهُ وَإِن يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٢٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ
 حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٤﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ
 إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٦﴾
 يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ
 تُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ
 حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى
وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ .

• الْأَرْضُ الْمُخَضَّرَةُ:

وجاءت الآيات الكريمة في القسم الأخير من سورة الحج تتحدث عن اصطفاء الله تبارك وتعالى للأمة المسلمة والتبعية الجسام التي أنيطت بها، بعد أن بينت لنا الآيات السابقة الأسس الكبرى للمجتمع الإسلامي والأمة المسلمة، وقدم الله لذلك بياناً أتصافه سبحانه بكمال القدرة والعلم، وذلك بلفت أنظارنا إلى بعض الظواهر الكونية المحيطة بنا المسخرة لفائدتنا، فمن تعاقب الليل والنهار، إلى إنزال المطر واخضرار الأرض بالنبات:

﴿الَّذِي تَرَى رَبَّكَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ﴾ ﴿٦٣﴾ .

﴿الَّذِي تَرَى رَبَّكَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو استفهام تقريرى، يبين قدرته سبحانه على إنزال المطر من السماء.

﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي: ذات خضرة، والفاء للتعقيب، تدل على استعجال ظهور النبات إثر نزول المطر، وفعل المضارع (تصبح) يدل على استمرار بقاء الخضرة بعد نزول المطر، كما هو الواقع المشاهد.

وقال بعضهم: ﴿فَتُصْبِحُ﴾ المقصود به صباح ليلة المطر، قال القرطبي رحمته الله: «وقد شاهدتُ هذا بسوس الأقصى - من بلاد المغرب - نزل المطر ليلاً بعد قحط، وأصبحت تلك الأرض الرملية التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف رقيق»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بعباده.

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٩٢/١٢.

﴿حَيْرٌ﴾ بتدبير أمور خلقه .

﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَاِنَّ اِلٰهَهُ الْغَفِيُّ الْحَكِيْمُ﴾ .

﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ﴾ خلقاً ومُلكاً وتديراً .

﴿وَاِنَّ اِلٰهَهُ الْغَفِيُّ﴾ عن كل شيء .

﴿الْحَكِيْمُ﴾ المستحق للحمد لكماله وإحسانه .

• النواميس الكونية:

ومن إحسانه وكرمه أنه سبحانه سَخَّرَ لِلْإِنْسَانِ كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ :

﴿اَلَمْ تَرَ اَنَّ اِلٰهَهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْاَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرٰى فِي الْبَحْرِ بِاَمْرِهٖ وَيُمَسِكُ السَّمَاءَ اَنْ تَقَعَ عَلٰى الْاَرْضِ اِلَّا بِاِذْنِهٖۚ اِنَّ اِلٰهَهُ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيْمٌ﴾ .

﴿اَلَمْ تَرَ اَنَّ اِلٰهَهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْاَرْضِ﴾ فكل ما فيها مذلَّل لكم أيها الناس ومعدُّ

لمنافعكم .

﴿وَالْفَلَكَ﴾ : وسخر لكم أيضاً السفن .

﴿تَجْرٰى فِي الْبَحْرِ بِاَمْرِهٖ﴾ أي : تسير في البحر لمنافعكم ومصالحكم بأمره

سبحانه ومشيتته وتدبيره، فهو سبحانه الذي خلق النواميس التي تسمح بجريان السفن في البحر، ثم هدى الإنسان إلى هذه النواميس ليتمكن من الاستفادة منها .

﴿وَيُمَسِكُ السَّمَاءَ اَنْ تَقَعَ عَلٰى الْاَرْضِ اِلَّا بِاِذْنِهٖۚ﴾ فكلُّ شيء في قبضة قدرته ﷻ

خاضع لمشيئته، فهو سبحانه الذي يُمسك السماء بقدرته فلا تقع على الأرض إلا بإذنه ومشيتته، وما القوانين والנוاميس التي تنظم دورة الفلك إلا من صنع الله ﷻ وتدبيره وحكمته، وهو سبحانه وحده قادر على خرق هذه النواميس

وتعطيلها أو تبديلها، ولهذا قال ﷻ : ﴿اِلَّا بِاِذْنِهٖۚ﴾ أي : بمشيئته، وإن ذلك

لكائن يوم القيامة عندما يبدل الله ﷻ النظم الكونية كلها : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْاَرْضُ غَيْرَ الْاَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيث هيأ أسباب حياتهم على الأرض، ويسّر لهم سبل الانتفاع بما فيها، وأوضح لهم الأدلة الدالة على وجوده وجوده تعالى.

• إحكام واتساق:

والمتمأمل لهذه الآيات الكريمة يرى مدى الإحكام والتناسق بين كلماتها وبين صدر كل آية وذيلها.

فتصدير الآيات بكلمة ﴿ذَلِكَ﴾ وهي تستعمل إلى الإشارة للبعيد والدلالة على تفخيم المُشار إليه، يدل على أن قدرة الله تعالى لا يستعصي عليها شيء مهما كان بعيداً.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١] يتفق تماماً مع تغليب بعض الناس على بعض، ومع نصره سبحانه للمظلومين على الظالمين، وذيل الآية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ يدل على كمال صفاته سبحانه، فهو سميعٌ بصيرٌ ليلاً ونهاراً، لا يؤثر على سمعه وبصره ليل ولا نهار.

ثم أكد هذا المعنى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّكَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فلا يستحق العبادة غيره.

وأما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣] يدل على افتقار الإنسان وحاجته إلى الرزق، فكما هو محتاجٌ إلى العدل والتخلص من الظلم والحيث، فهو محتاج إلى فضل الله ورزقه، ولما كان نزول المطر وخروج النبات أمراً محسوساً ملموساً ابتدأت الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وما أجمل خاتمة الآية، وما أشد اتساقها مع معناها! فاللطيف: هو المحكم للأمور برفق، وهو سبحانه لطيف بأرزاق عباده، خبير بحاجاتهم وافتقارهم إلى الرزق، لطيفٌ بخلق النبات واستخراجه، خبيرٌ بكيفية خلقه، فالأرضُ تصبحُ مخضرةً بكل ما فيها من جمال ونضرة بتدبير اللطيف الخبير.

وهو سبحانه المالك لكل ما في السماوات والأرض، الغني عن كل ما في

السماوات والأرض، فهو يعطي ويرزق كرماً وفضلاً لا يأخذ بدلاً وعوضاً، فهو الغني الذي لا يفتقر إلى أحد، والمستحق للحمد لكماله وإحسانه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

وبعد كل ما تقدّم كرم الله تعالى الإنسان، وجعل له امتيازاً في الأرض على سائر المخلوقات، فكل ما في الأرض مسخّر للإنسان، ومذلّ لفائدته، ولما كان هذا التسخير حقيقة يستشعر بها الإنسان ويلمسها صدر الله الآية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

ويحتاج الإنسان إلى جانب إحساسه بالتكريم والامتياز في الأرض إلى الشعور والإحساس بالأمن فيها، فلا سعادة لمن لا يستشعر الأمن في الأرض التي يسكنها، والبيت الذي يأوي إليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥].

أرأيت عظيم فضل الله عليك أيها الإنسان؟! فلو كنت تسكن بيتاً فيه كل ما يحتاج إليه من أنواع الطعام والأثاث واللباس والزينة إلا أن سقفه ضعيف على وشك السقوط، هل تحسّ بشيء من السعادة والطمأنينة وأنت تعيش تحت هذا السقف المتداعي؟! فاعرف أيّها الإنسان فضل الله عليك، فكل ما أنت فيه من النعم من آثار رحمته ورأفته ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لِرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

والعجيب بعد كل هذا أن أكثر الناس لا يشكرون الله على نعمه وفضله بل يكفرون:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿٦٦﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ وأنتم في بطون أمهاتكم.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عندما تحين آجالكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ كثير الجحود لنعم الله تعالى مع ظهورها وكثرتها.

● المنازعة في الدين:

كانت رسالة النبي ﷺ رسالةً شاملةً لكل الناس، ولما هاجر عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة اتَّسعت دائرة المواجهة بينه عليه الصلاة والسلام وبين الكافرين، فقد كانت قبل الهجرة قاصرةً على مُشركي مكة، فاتسعت بعد الهجرة، وشملت الكافرين من مشركي العرب وغيرهم من أصحاب الديانات السابقة.

ودعا النبي ﷺ أهل هذه الأديان إلى التصديق برسالته، والعمل بشريعته الإسلامية، فأبى أكثرهم، وتمسكوا بأديانهم السابقة، وجادلوا النبي ﷺ في هذا الأمر، فأنزل الله تعالى:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ أي: لكل أمة وضعنا وعيَّنَّا شريعة خاصة.

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ أي: هم عاملون بها لا غيرهم.

﴿فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: أمر الدين، فَإِنَّ تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم شريعة مستقلة لا تتخطاها إلى غيرها يوجبُ على الجميع طاعته عليه الصلاة والسلام وعدم منازعتهم إياه زعماءَ منهم أَنَّ شريعتهم هي ما في التوراة والإنجيل، فَإِنَّ ذلك شريعةٌ لمن مضى قبل نسخه بشريعة القرآن الكريم وبعثة النبي ﷺ، فَإِنَّ هذه الشريعة هي التي عيَّنَها الله تبارك وتعالى لجميع الناس، وأمر النبي ﷺ عليه الصلاة والسلام أن يدعوهم إليها، فكأنه سبحانه نهى كل أمة عن التمسك ببقايا دينهم القديم، وألزمها أن تتحوَّلَ إلى اتباع الرسول ﷺ^(١)، ولذلك قال:

﴿وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: ادْعُ جميع الأمم إلى توحيدهِ وعبادته والتزام الشريعة التي أنزلها عليك.

(١) انظر: روح المعاني: ١٣/١٩٧؛ والتفسير الكبير: ٢٣/٦٥.

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إنك على منهج مستقيم وشريعة قيّمة مستقيمة.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ﴾ في أمر الدين.

﴿فَقُلِ﴾ لهم على سبيل الوعيد والتهديد:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأضاليل والأباطيل ومجازيكم عليها.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

من أمر الدين. وفي الآية كما قال القرطبي رحمته الله: أدب حسن علّمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومراءً ألا يُجاب ولا يُناظر^(١).

• كمال علم الله تعالى:

وتابعت الآيات الكريمة التمهيد للإخبار عن اصطفاء الأمة المسلمة، ببيان كمال علم الله ﷻ بخلقه، وأنه سبحانه محيطٌ بما في السماوات والأرض، فالاصطفاء تم بعلم وحكمة:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾: وهو اللوح المحفوظ، ففي «صحيح مسلم»: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

(١) تفسير القرطبي: ٩٤/١٢.

والمراد أنه سبحانه أظهر في ذلك مقادير الخلائق التي سبق بها علمه الأزلي القديم، ومن جملة هذه المقادير التي قدرها سبحانه أمر الشرائع وأعمارها والعاملين بها.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. ألا ترى أن الله تعالى قال في القرآن الكريم: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٦٦﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٦٧﴾﴾ [البُورُج].

ولا حجة ولا برهان لكل من يخالف دين الله تعالى، ويخرج على شريعته:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ أي: حجة سمعية مُنزَلة من قبل الله سبحانه.

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: وليس لهم أيضاً أي دليل عقلي علمي. وتقديم الدليل السمعي في الذكر، وتسميته بالسلطان يفيد أن له الغلبة والظهور عند معارضة الدليل العقلي له، وقل أن تجد المعارضة والاختلاف بين الأدلة السمعية والأدلة العقلية.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم في الدنيا ويدفع عنهم العذاب يوم القيامة. وكيف يكون لهم نصير وقد عارضوا آيات الله تعالى وما فيها من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على توحيده سبحانه وصدق رسالة نبيه عليه الصلاة والسلام؟!.

﴿وَإِذَا نُتِلَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادِبُونَ يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفَرْتُمْ مِنْ ذَلِكَ أَمْ نَارُ وَعْدِ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَ الْمَصِيرُ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا نُتِلَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ أي: ترى الإنكار والشر والتجهُّم ظاهراً على وجوههم.

﴿يَكَادُونَ يَسْتُوطُونَ﴾ يَهْمُونَ بالبطش من شدة الغيظ .

﴿بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ جهلاً وتعصباً لأباطيل وأضاليل أخذوها تقليداً .

﴿قُلْ﴾ رداً عليهم :

﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم .

﴿يَسِّرْ مِنْ ذَلِكَ﴾ الذي فيكم من الغضب والرغبة في البطش والانتقام .

﴿النَّارَ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ فالنار وما فيها من عذاب ونكال

أشد وأشق من غيظكم وحقدكم على المؤمنين الذين يتلون عليكم آيات الله تعالى .

• كمال قدرته سبحانه:

ثم بينت الآيات كمال قدرة الله سبحانه بهذا المثل الرائع الموجه إلى جميع

الناس على سبيل التحدي لهم ولما يعبدون من دونه سبحانه :

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِيعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا
ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ
وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ الذين تعبدون غير الله تعالى .

﴿ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَجِيعُوا لَهُ﴾ استماع تدبر وتفكر .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي : إن كل

الأصنام والأوثان والأشخاص الذين تعبدونهم من دون الله تعالى لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا وتساندوا على خلقه ، وخلق الذباب مستحيل من قبل غير الله الخالق المصور كخلق الجمل والفيل ، لأنَّ الذباب يحتوي على ذلك السرِّ المعجز سرِّ الحياة ، فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل ، ولكنَّ الأسلوب القرآني المعجز اختار الذباب الصغير الحقير لأن عجز المخلوقات عن خلقه يلقي في الحس الشعور بالضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل^(١) .

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٧/ ١٢٣ .

ثم بَيَّنَّت الآية ما هو أبلغ بالعجز والضعف في قوله تعالى:

﴿إِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي: وإن يأخذ الذبابُ منهم شيئاً لا يقدروا على تخليصه منه، رغم ضعفه، وكان المشركون يَظْلون الأصنام بالطيب والزعفران، ويضعون على رؤوسها العسل، فيأتي الذبابُ فيأكله ويذهبُ به.

وكلُّ عاقل يستمع إلى هذا المثل استماع تدبُّر وتفكُّر لا بدَّ أن يصلَ إلى هذه النتيجة التي قررتها الآية الكريمة:

﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي: ضعف العابدُ والمعبودُ من دون الله تعالى، أو ضعف الذبابُ الطالبُ لما يسلبه، وضعفُ المعبودُ من دون الله تعالى.

ولو حققتَ النظر وجدتَ الصنمَ أضعفَ من الذبابِ بدرجات، وعابده أجهلَ من كل جاهل، وأضلَّ من كل ضالٍّ^(١)؛ لأن الضعفَ يتنافى مع صفة الألوهية التي تستوجب كمال القدرة.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي: ما عرفوا قَدَرَ الله تعالى وعظمته حين عبدوا معه غيره.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فهو سبحانه قادر على خلق المُمَكِّنات كلها، وإفناء الموجودات عن آخرها، غالب على كل الأشياء.

• اصطفاء الرُّسُل:

وجاءت الآيات في ختام سورة الحج بهذا الإعلان:

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ يحملون رسالته سبحانه إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. والاصطفاء: معناه الاختيار والاجتباء.

وكذلك يصطفي سبحانه من الناس رُسُلًا يحملون رسالته إلى الناس،

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٣٤/١٢.

ويبلغونهم ما أنزل الله عليهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَمَكَّ النَّاسَ﴾ أي: ويصطفي من الناس رؤسلاً.

واصطفاء الرسل من الملائكة ومن الناس يدلُّ على أهمية الرسالة، وعظم شأنها، فهي رسالته سبحانه إلى خلقه، وحبَّته البالغة على عباده، كما يدلُّ على فضل المصطفَّين الأخيار من الملائكة والبشر، فلا يكون اصطفاءه سبحانه إلا عن علم كامل وحكمة تامة: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ٢٤].

ولهذا ختم الله سبحانه الآية بقوله:

﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أحاط سمعه وبصره بالأشياء كلها.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم أحوال الرسل مستقبلاً وماضياً، فهو سبحانه عليم بأحوالهم قبل الرسالة وبعدها.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ لا إلى غيره؛ لأنه سبحانه المالك المُدبر.

• اصطفاء الأمة المسلمة:

جاء الإعلان عن اصطفاء الله تعالى للرسل مقدمة وتمهيداً لإعلان آخر وهو اصطفاءه سبحانه لخير الأمم وأفضلها وهي الأمة المسلمة، فقد آن الأوان بعد هجرة النبي ﷺ وتأسيس المجتمع الإسلامي لظهور الأمة المسلمة، أمة التوحيد التي تجمع بين قلوبها كلمة التوحيد، وأمة الإجابة التي لبَّت دعوة إبراهيم عليه السلام بعدما رفع قواعد بيت الله الحرام، ولبَّت أيضاً من بعده دعوة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، فجاءت إلى بيت الله الحرام رمز توحيدها ووحدتها من كل فج عميق تعلن كلمة التوحيد: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شريك لك لَبَّيْكَ)، وأمة الجهاد التي شرع الله لها الجهاد لإعلاء كلمته سبحانه في جنات الأرض، ولهذا جاء النداء الأخير في سورة الحج موجهاً على الخصوص لأبناء هذه الأمة المسلمة بعد أن كانت النداءات في السورة موجهة إلى عامة الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وهكذا فقد رسمت الآيات الكريمة في سورة الحج الطريق المؤدي إلى

ظهور الأمة المسلمة، وبعد أن اتّضحت معالم الطريق، وسار عليه من اختاره الله تعالى واصطفاه من الناس ليكون من هذه الأمة.

ولما كان الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد والتصديق بيوم القيامة وبقدرته سبحانه على بعث الناس من قبورهم لهذا اليوم، ولما كان ذلك مبدأ الطريق وقاعدة الانطلاق جاء النداء للسائرين عليه بأبرز الصفات التي يتّصفون بها؛ وهي صفة الإيمان والتصديق مع القبول والإذعان، وجاء بعد ذلك التكليف بالأركان من صلاة وزكاة وحج وصيام، ومعه الالتزام بسائر الأحكام من الحلال والحرام في مضمون هذا النداء.

وركزت الآيات الكريمة على الصلاة خصوصاً، وعبادة الله وطاعته عموماً، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾  .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي: صلّوا. وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود، لأنهما أعظم أركانها، ويدلّان على غاية الخضوع والتذلّل لله تعالى.

﴿وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بسائر ما تعبّدكم سبحانه به من أداء لبقية الفرائض، وطاعته سبحانه في كل ما أمر به ونهى عنه.

﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ أي: افعلوا كلّ ما فيه خيرٌ لكم ولسائر الناس، فأنتم خيرُ الأمم لأنكم تحملون الخير لكل الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]،

ويكفي أن هذه الأمة تحمل للناس رسالة الإسلام:

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فهي طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

• الصلاة والتكليف بالجهاد:

وقد عودنا الله تعالى أنه إذا أراد اصطفاء أحدٍ من خَلْقِهِ وتكليفه بمهمة

خاصة أن يأمره بالإكثار من الصلاة، ألا ترى كيف خاطبت الملائكة السيدة مريم عندما اختارها الله تعالى لتكون أمًّا لعيسى ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ ٤٢﴾ يَمْرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿[آل عمران].

وتأمل الآيات الكريمة التي تخاطب النبي ﷺ وهو لا يزال في بواكير عهده بالتنزيل الحكيم: ﴿بِأَيُّهَا الْمَرْسَلُ ١﴾ فُرِ إِلَيْكَ إِلَّا قَلِيلًا ٢﴾ نَصْفَهُ أَوْ انْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿[المزمل].

فالاصطفاء تشريف، والتشريف يقتضي التكليف، والصلاة تمتد المكلف بالقوة الروحية التي تمكنه من القيام بأعباء ما كُلف به، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ولهذا جاء التكليف بالجهاد بعد الصلاة بقوله تعالى:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ٧٨﴾ .

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: جاهدوا لأجل الله تعالى أهواءكم وأنفسكم وأعداء دينه وشريعته.

﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ جهاداً خالصاً لله تعالى.

ثم بيّن سبحانه سبب التكليف بالجهاد، وهو الشرف الذي شرفكم الله به عندما اختاركم واجتباكم لتكونوا الأمة المسلمة التي تحمل رسالة الإسلام لجميع الأمم والشعوب، فقال تعالى:

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: اختاركم من بين سائر الأمم ليشرفكم بحمل رسالة الإسلام، قال القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي: اختاركم للذب

عن دينه، والتزام أمره، وهذا تأكيدٌ للأمر بالمجاهدة، أي: وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله تعالى اختاركم له^(١).

وتأتي المعونة من الله على قدر المؤونة، ومن لطف الله تعالى بالامة المسلمة أنه جعل التكليف عليها منوطاً بوسعها، وجعل الدين الإسلامي ميسراً لا حرج فيه ولا مشقة، فقال سبحانه بعد أن ذكر منته على المسلمين بالاجتماع والاختيار، يذكر فضله سبحانه عليهم برفع الحرج وتيسير الدين:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، فلا عذر لكم إن ضعفتُم عن حمل الرسالة وتخاذلتُم في أداء الأمانة.

ثم بين سبحانه أصالة الأمة المسلمة وجذورها القوية المتينة الضاربة في أعماق التاريخ:

﴿يَلَّةَ أَيُّكُمْ إِزْرِهِمْ﴾ أي: تمسكوا بملّة التوحيد المتصلة بالعقيدة التي نادى بها إبراهيم عليه السلام الذي رفع قواعد بيت الله الحرام.

• خير الأمم:

﴿هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إن الله سبحانه سمّاكم بهذا الاسم في الكتب السابقة من قبل نزول القرآن الكريم.

﴿وَفِي هَذَا﴾: وسمّاكم أيضاً بهذا الاسم في القرآن الكريم.

فاعرفوا قدر أنفسكم ومقدار التبعات الجسام الملقاة على عاتقكم، واتركوا الدعوات الجاهلية التي تفرّقكم وتبعدكم عن شرف الدعوة الإسلامية، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَيِّ جَهَنَّمَ» قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم؛ وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التي سمّاكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله» [رواه النسائي في الكبرى (٨٨١٥)].

وقوله: «جثي» جمع جاث، وهو الجالس على ركبتيه.

(١) تفسير القرطبي: ١٠٠/١٢.

وانتسابكم إلى الأمة المسلمة شرفٌ كبيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، إنه يستدعي أن يكرمكم الله تعالى بشهادة الرسول ﷺ عليكم يوم القيامة أنه ﷺ بلغكم الرسالة، وحملكم الأمانة، كما يستدعي شهادتكم على كل الأمم يوم القيامة بأنَّ رُسُلَهُم بلغتهم رسالة ربهم، قال تعالى:

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وهذا دليلٌ على أنكم غدوُلٌ خيار مشهودٌ بعدالتكم عند جميع الأمم، فالجميع معترفون بفضل الأمة المسلمة كما قال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٢].

والوسط: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب داراً، أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصّها الله تعالى بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب^(١).

فاشكروا الله تعالى على نعمة الانتماء إلى خير الأمم، إلى الأمة المسلمة، وقابلوا هذه النعمة العظيمة الجليلة بأداء الصلاة كاملة مستقيمة، وإيتاء الزكاة لمستحقيها من أبناء الأمة المسلمة، والاعتصام بالله بالتوكل عليه والاستعانة به، والتمسك بشريعته.

﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ ناصركم وحافظكم ومتولّي أموركم.

﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ فلا ولي ولا نصير في الحقيقة سواه، فثقوا بالله تعالى في جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة والنصرة إلا منه سبحانه.

وفي الختام: أسأله جلّ وعلا أن يجعلنا من هذه الأمة، وأن يحشرنا يوم القيامة تحت لواء نبيّها وقائدها سيّدنا محمد ﷺ، وأن يسدّد خطانا، ويوفّقنا لما يحبه ويرضاه. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.



تفسير سورة المؤمنون
الإنسان من البداية إلى الخلود
في سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن أعظم الموضوعات التي اهتم بها القرآن الكريم بعد موضوع التوحيد، موضوع حياة الإنسان في الدنيا، وحكمة خلقه ووجوده فيها، وارتباط ذلك بتشريفه وتكليفه ومسؤوليته وحسابه جزائه.

هذه القضية جزء لا يتجزأ عن موضوع العقيدة الأساس، وهو التوحيد، لأنه يؤكد توحيد الله تعالى واتصافه بصفات الكمال في ذاته وفي أفعاله، وتنزّهه تعالى عن كل صفات النقص.

فما خلق الله الإنسان للعبث وللعِب في حياته الدنيوية القصيرة، ثم ينتهي بالموت، ينتزّه الحق سبحانه عن ذلك، ما خلقه إلا للفلاح والبقاء والخلود.

فعلى الإنسان أن يدرك هذه الحقيقة، فيعرف حكمة وجوده، وجوهر حياته، وما يترتب على سلوكه فيها من خلود وبقاء في النعيم أو في الشقاء، فقد

ابتدأ وجود الإنسان وخلوده عندما أخرج من العدم، إنها بداية الرحلة الخالدة التي لا تنتهي بتقدير الله تعالى .

وإنَّ هذه الحقيقة أيضاً أهم قضية في حياة الإنسان، على تَفَهُّمِهَا يتحدَّد سلوكه، وبها يعرف حكمة وجوده وجوهر حياته وطبيعة الطريق الذي يسير عليه، ولهذا كانت أعظم القضايا في التنزيل الحكيم عالجهما في سُورِهِ من جميع جوانبها، وطرحها بأساليب متنوعة، وخصَّ سورة المؤمنون بعرض هذه القضية بأسلوب متفرد متميز، بإبراز طرفي وجود الإنسان، وارتباط ذلك بتكليفه ومسؤوليته .

وقد جاء تفسير هذه السورة بحمد الله في فصل واحد، متفقاً ومنسجماً مع تسلسل آيات السورة، وموضحاً الاتساق والانسجام بين آياتها وموضوعها الأساس .
أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .



تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

اهتمت سورة المؤمنون بإبراز حكمة خلق الإنسان، وبيان أنه لا ينتهي بالموت، إذ ينتقل بالموت من الدنيا إلى البرزخ، الذي يفصله عن الآخرة، ثم يبعثه الله تعالى يوم القيامة للخلود في النعيم أو في الجحيم.

بدأت السورة بتقرير فلاح المؤمنين، وهو بقاؤهم في الخير، وخلودهم في النعيم، فأشارت بذلك إلى أنَّ حكمته تعالى من خلقهم، هي أن يتشرفوا بعبادته وطاعته في الدنيا، ليرحمهم في الآخرة بالخلود في فرايس جنته، وساحات فضله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلْؤُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

فما خلقهم الله تعالى للشقاء والخلود في العذاب، فشقاء المعذِّبين نابع من كسبهم واختيارهم، وقد أبرزت الآيات هذا المعنى في آخر السورة عند خطاب التوبيخ والتقريع الموجَّه للمعذِّبين في جهنم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وأكدته أيضاً آيات السورة عندما تحدثت عن عنايته تعالى بالإنسان ورحمته به، من بداية خلقه في رحم أمه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

وبيان تيسير سبل معيشته في الدنيا، بتسخير المكونات له: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ (٧)

وكما أنعم الله على الإنسان بنعمة الإيجاد والإمداد، أنعم عليه أيضاً بأسباب الهداية إلى طريق الفلاح والخلود في النعيم، وذلك بتوالي الرسائل الإلهية عليه، بواسطة الأنبياء والمرسلين، وهو ما بينته الآيات أيضاً عندما تحدثت عن نبي الله نوح عليه السلام ورسالته، ثم أعقبته بالحديث عن توالي الرسائل الإلهية مع توالي الأجيال البشرية: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٤) .

وركزت آيات السورة من خلال حديثها هذا، على عناد المعاندين، وإعراضهم عن رسالات الله تعالى، وعدم انتفاعهم بوسائل التمكين، التي زوّدهم الله بها، للتمييز بين الخير والشر: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) .

ومع ذلك بقي القوم في غمرة غفلتهم، وسكرة شهواتهم، حتى نزل بهم الموت، حينئذ انتبهوا وزالت عنهم غفلتهم وغمرة شهواتهم: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) .

وهي صحوّة متأخرة لا تنفعهم، لأن الله تعالى قدر عدم الرجوع إلى الوراء، فقد ضيّع القوم حياتهم في العبث واللعب، الذي ما خلقوا من أجله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكبير (١٦) .

تلك هي الخطوط العريضة الرئيسة لموضوع سورة المؤمنون، كما سيظهر لنا - إن شاء الله - عند الحديث عن تفصيله.



تفسير سورة المؤمنون الْإِنْسَانُ مِنَ الْبِدَايَةِ إِلَى الْخُلُودِ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ

المؤمنون هم المفلحون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

• على طريق الفلاح:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

أي: قد نال المؤمنون الفلاح، وفازوا به، أو دخلوا في الفلاح، وساروا على طريقه، لأنَّ الإِفلاح الدخول في الفلاح.
ويطلقُ الفلاحُ في لغة العرب على معنيين:
الأول: الفوز بالمطلوب الأكبر.

والثاني: البقاء السرمدي في الخير واستمرار الوجود، ومنه قول لبيد:
لَوْ أَنَّ حَيًّا مُدْرِكُ الْفَلَاحِ لَنَالَهُ مُلَاعِبُ الرِّمَاحِ

يعني: مدرك البقاء، ومنه بهذا المعنى قولُ كعب بن زهير، أو الأضبط بن قُريع:
لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهَمومِ سَعَةٌ وَالْمَسَا وَالصَّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ
أي: لا بقاءَ مَعَهُ^(١).

ويقال أيضاً في أصلِ الفلاح: الشَّقُّ والقطع، ومنه سُمِّيَ الأكَارُ فَلَاحاً،
لأنَّه شَقَّ الأرضَ بالحرث، فكأنَّ المفلاح قد قطعَ المصاعِبَ حتى نال مطلوبه.
قال القرطبي: وقد يُستعمل في الفوز والبقاء، وهو أصله أيضاً في اللغة^(٢).
فالبقاءُ في الخير والخلود أمنيَّةٌ كُلُّ حي، وقد فاز به المؤمنون، وكانوا
يتطلَّعون إليه ويرجونَه، وهذا ما دلَّت عليه كلمة (قد) فهي تثبت المتوقَّع، وتدلُّ
على ثباته إذا دخلت على الماضي، فتقرِّبه من الحال، ولمَّا كان المؤمنون
متوقعين ذلك من فضل الله، صدرت بها بشارتهم^(٣).

فالفلاحُ قد ثبتَ لهم في الحال، وهم على طريقه، فالآيَةُ حملت البشارة
الكبرى للمؤمنين، ولعلَّ هذا سر الدعوات الكريمة، التي دعا بها النبي ﷺ،
بعد أن أنزل الله عليه هذه الآيات:

روى الإمام أحمد [٣٤/١] والنسائي في الكبرى [٤٥٠/١] والترمذي
[٣١٧٣]: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان إذا نزل على رسولِ الله ﷺ
الوحي، يُسمِعُ عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعةً، فاستقبل القبلة، ورفع يديه
وقال: «اللَّهُمَّ زِدْنَا وَلَا تَنْقُصْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعْظِمْ وَلَا تَحْرِمْنا، وَأَثِرْنَا
وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَارْضَ عَنَّا»، ثم قال: «لقد أنزل عليَّ عشر آيات، من
أقامهنَّ دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١...﴾ حتى ختم العشر.

• الخاشعون في الصلاة:

ثم بينت الآيات الأعمال التي أفلح المؤمنون بسببها، وهي:

(١) انظر: أضواء البيان: ٧٥٧/٥.

(٢) فتح القدير: ٣٧/١.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣٣٢/٤.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

أي: خائفون من الله تعالى، متذللون له.

وأصل الخشوع: السكون والطمأنينة والانخفاض، وجعله بعض العلماء من أفعال القلوب، كالخوف والرغبة، وجعله بعضهم من أفعال الجوارح، كالسكون وترك الالتفات والعبث، ولا شك أنَّ القلب إذا خضع خشعت الجوارح؛ إذ هو أميرٌ عليها، فالخشوع من أعمال القلب يظهر أثره في سكون الجوارح، فالظاهر عنوان الباطن، ولهذا كان النبي ﷺ إذا قامَ إلى الصلاة أقبل على أصحابه فوعظهم قائلاً: «هل ترونَ قِبَلَتِي هاهنا؟ والله ما يخفى عليَّ ركوُعُكم ولا خشوُعُكم، وإنِّي لأراكم من وراء ظهري» [رواه البخاري (٧٤١)].

والخشوع روح الصلاة، يروِّضُ النفس ويهذبها، ويجعلها تتذوَّق لذةً مناجاة الله تعالى وحلاوة ذكره، فتُقْبِل على عبادته وطاعته بهمة ونشاط، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

● المعرضون عن اللغو:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

أي: مبتعدون عن اللغو، ومتجنبون له في جميع الأوقات.

واللغو: الباطلُ واللهو، وكلُّ ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال. والإعراضُ عنه يدلُّ على بُعدهم عنه رأساً وتسبيحاً وميلاً وحضوراً، فإنَّ أصله أن يكون في عرض غير عرضه^(١).

فلا مكان في حياة المؤمن للغو واللهو والعبث؛ لأنَّ ميدان عبوديته لله تعالى وطاعته رحب فسيح، فهو أوسع من حياته مهما امتدت، ولو صرف الإنسان كلَّ حياته في طاعة ربه وعبادته وشكره، فإنه يبقى مقصراً في حق شكر

نعم الله تعالى عليه، وفي القيام بحق عبوديته له ﷻ، كما في قوله سبحانه: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ﴾ [عبس: ٢٣].

فليس في الإسلام لهو وعبث، ويجب أن تكون حياة المسلم حزمًا وعزمًا وجدًّا، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وتصرفات المسلم في حياته كلها موصولة بحكمة وجوده، وهي طاعة الله تعالى، وعمارة الأرض والحياة بعبادته، ولا شك أن جده واجتهاده في طاعة ربه يشغله عن اللهو واللعب، ولهذا لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك، الشاقئين على الأنفس، واللذين هما قاعدتا بناء التكليف^(١).

● الفاعلون للزكاة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

أي: يؤدّون زكاة أموالهم، أو يزكون أنفسهم، ويطهرونها من لوث الكفر والشرك، والعادات القبيحة المذمومة، ولا شك أن تزكية النفس وتطهيرها من أعظم أسباب الفلاح، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

ولفظ ﴿فَاعِلُونَ﴾ يدل على المداومة والاستمرار، بخلاف كلمة: مؤدّون، فتزكية النفس عمل دائم يستمر مع الإنسان طول حياته، ولذلك سمّاه بعضهم بالجهاد الأكبر، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ودل هذا الوصف على أنهم بلغوا الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية، والتجنب عن المحرمات^(٢).

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٣٣.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤/ ٣٣٤.

● الحافظون لفروجهم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾.

أي: ممسكون لعوراتهم وسوءاتهم عما تدعو إليه شهواتهم.
ثم استثنت الآيات السبيل الشرعي لقضاء الشهوة، بقوله تعالى:

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: إلا مع زوجاتهم أو المملوكات لهم ملكاً شرعياً، وهنّ الأسيرات اللواتي أذن ولي الأمر باسترقاقهنّ، فقد أباح الإسلام لمالك الأمة أن يتسرّى بها، بعد أن يستبرئ رحمها بحيضة، وإذا ما حملت منه وولدت أصبحت أمّ وليد، لا يجوز له بيعها، وتصبح حرة بعد وفاته.
﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: لا لوم عليهم في قضاء شهوتهم مع زوجاتهم، أو ما ملكت أيمانهم.

فالإسلام دين التوسط والاعتدال، وما حرّم الله تعالى على الإنسان شيئاً إلا وأحلّ له ما يُغنيه عنه، فقد حرّم الزنى، وشرع الزواج، وحثّ عليه، ففي الحلال ما يُغني عن الحرام، ولهذا أمر تعالى بالوقوف عند حدود الحلال، وحرّم تجاوزها، فقال:

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾.

أي: فمن قصد غير الزوجات والمملوكات، فأولئك هم المتجاوزون للحدود المشروعة، الكاملون في العدوان والمخالفة لأحكام شرع الله تعالى، فهم كما قال نبيّ الله لوط عليه السلام لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء].

ودلت الآية على تحريم قضاء شهوة الجنس عن غير طريق الزواج الشرعي الصحيح وملك اليمين الصحيح.

• الراعون للأمانات والعهود:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾

أي: قائمون بحفظها.

فالراعي: القائم على الشيء بالحفظ والإصلاح، كراعي الغنم. والمراد من الأمانات والعهد العموم، في كُلِّ ما أُؤْتِمِنُوا عليه وعوهدوا، من جهة الله ﷻ، ومن جهة الخلق^(١).

فالإسلام يوجب حفظ الأمانات والوفاء بالعهود، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال أيضاً: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. ولهذا قال في صفات المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ [الرعد: ٢٠].

بينما قال في صفات الكافرين: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]. وقال عليه الصلاة والسلام في صفات المنافقين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» [رواه مسلم (٥٩)].

• المحافظون على صلواتهم:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

أي: يواظبون ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ ويؤدونها في أوقاتها.

وأفاد لفظُ الفعل: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ الاستمرار والتجدد، فالتكليفُ في أداء الصلاة متجددٌ ومتكرر كلما دخل وقتها، والمداومةُ على أداء الصلاة في أوقاتها من أفضل الطاعات وأعظم القربات.

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ: أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاةُ على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «برُّ الوالدين» قال: ثم أي؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ الله» [رواه البخاري (٥٢٧)].

كما أفاد تصديرُ صفات المؤمنين بالخشوع في الصلاة، وختمُها بالمحافظة عليها، تعظيمُ شأن الصلاة، وبيان أهميتها في حياة المؤمنين، ودورها الكبير في فلاحهم وخلودهم في النعيم.

• الوارثون:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠).

أي: أولئك الجامعون لهذه الأوصاف، هم الأحقاء بأن يسموا وُراثاً، دون مَنْ عداهم ممن ورث الأموال والأمتعة الزائلة الفانية، لأن أولئك ورثوا الفلاح، وهو البقاء السرمدي في الخير والنعيم في الجنة.

أو ﴿الْوَارِثُونَ﴾ الذين يرثون منازل أهل النار من الجنة، ويؤيده الحديث الشريف: عند ابن ماجه [٤٣٤١] بسند صحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ مَنَازِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ، وَرَثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ»، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠).

[رواه أيضاً أحمد (١٣٣/١) عن علي رضي الله عنه].

قال القرطبي: يحتمل أن يسمى الحصول على الجنة وراثَةً، من حيث حصولها لهم دون غيرهم، فهو اسم مستعار على الوجهين^(١).

فهي كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ أي: الذين يرثون أعلى الدرجات في الجنة وأفضلها، التي ورد وصفها في قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فاسألوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ قَالَ: وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ - وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

ويطلق الْفِرْدَوْسُ في اللغة، على البستان الذي يجمعُ كل شيء، وقيل: هو الذي فيه العنب^(١).

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبداً، لا يتحولون عنها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف].

وهذا منتهى فلاح المؤمنين وغايته، وهو الوصول إلى دار البقاء السرمدي، والخلود الأبدي، في نعيم لا ينفد ولا يبيد.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» فذلك قوله ﷺ: ﴿وَتُودُّوْنَ أَنْ يَلَكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. [رواه مسلم (٢٨٣٧)]. أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.

البداية والخلود

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَحَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

• البداية:

وبعد أن وصفت الآيات طريق الفلاح والبقاء في النعيم، شرعت في الحديث عن بداية الإنسان وأطوار خلقه الأولى، وكيف أخرجه الله تعالى من العدم، ووضعه على أول طريق الحياة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

أي: خلقناه من خلاصة استخلصت من طين.

فالسلالة: فعالة من السَّلَّ، وهو استخراج الشيء من الشيء، تقول: سللتُ الشعر من العجين، والسيف من الغمد.

والمعنى: خلقنا الإنسان من شيء مستخرج من طين، وهو المني المستخلص من الدم، والدم مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان، والتراب مصدر هذه الأغذية، ومرّ معنا في سورة الحج عند قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [٥] أنه قد ثبت علمياً أنَّ العناصر التي تكون البنية المادية لجسم الإنسان، هي نفس العناصر الأساسية المكونة للتراب.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر حصين، وهو الرحم.

والنطفة: هي البَيضة الملقحة، المختلطة بالحيوان المنوي، الذي أفرزه الرجل، فهي النطفة الأمشاج، التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

فهذه النطفة هي بداية وجود الإنسان، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿[السجدة].

وَرَجِمُ المرأة الذي هو القرار المكين، أحصن مكان في جسمها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٥) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ قَدَرٌ مَّعْلُومٌ ﴿[المرسلات].

• أطوار الخلق:

وبعد أن وصفت الآيات بداية خلق الإنسان، بينت أطوار خلقه، التي يقلبها الله تعالى فيها:

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤).

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي: ثُمَّ حولنا وصيرنا النطفة علقة.

والعلقة في اللغة: قطعة الدم المتخثر الجامد، وكل ما علق أو علق بالشيء، أو دودة في الماء تعلق في حلوق الدواب، وتمتص منها الدم، وكان علماء التفسير يرون أنها قطعة الدم الجامد، لكنَّ المُحدثين من العلماء والأطباء ينصرفون عن هذا المعنى إلى المعنى الآخر للعلقة، المشتقة من العلوق والتعلق، فالعلقة هي البَيضة الملقحة بعد أن تعلق بالرحم، وتكتسب صفة العلوق^(١).

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي: فصيرنا العلقة قطعة لحم صغيرة قدر ما يُمضغ.

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ وهذه العظام تكون الهيكل العظمي الأول للإنسان.

(١) انظر: تفسير سورة الحج، المسمى في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا: (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج).

﴿فَكَسَوْنَا الْوَعظَمَ لَحْمًا﴾ أي: جعلنا للعظام العارية كساء من اللحم، وهي العضلات والأغشية التي تغطي العظام، وقد ثبت علمياً أنَّ الخلايا التي تتكون منها العظام توجد قبل الخلايا التي يتكون منها اللحم^(١).

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أي: خلقاً مابيناً للخلق الأول في الصفات.

وذهب أكثر المفسرين إلى أنَّ المراد من الخلق الآخر نفخ الروح، ولكن العلامة البيضاوي رحمته لم يقصر الآية على هذا المعنى، فقال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ هو صورة البدن أو الروح أو القوى، بنفخه فيه، أو المجموع، و﴿ثُمَّ﴾ لما بين الخلقين من التفاوت^(٢).

ويقرر علماء الطب أنَّه يتمُّ تصويره وتسويته وتعديله، وتنفخ فيه الروح، في هذا الطور، ومنَّ له أدنى إلمام بعلم الأجنة يعرف كيف أنَّ أجهزة الجسم المختلفة تُهدم ويُعاد بناؤها باستمرار، وتتجلى هذه الحقيقة في أجلى صورها في الجنين، ثم تقل نسبياً بعد الولادة، ثم تقل كذلك بعد البلوغ، ولكنها لا تتوقف حتى في الشيخوخة^(٣).

فتصوير الإنسان وتشكيله يتم في داخل الرحم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

والآيات تدل على أن التصوير يتم بعد الخلق، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

فخلق الإنسان يمر بمراحل قدَّرها العليم الخبير، وأشار إليها بقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٣٧٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٣٦/٤.

(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٣٧٤.

ففي الخلق الأول لا تتضح المعالم المميزة لشكل الإنسان، أما في الخلق الآخر فتتضح المعالم، وتظهر الصورة الإنسانية المميزة له، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: تعالى أمره سبحانه في قدرته وعلمه وحكمته، فهو أحسن المصورين والمقدرين.

أو: ﴿فَتَبَارَكَ﴾ تفاعل من البركة، ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أتقن الصانعين^(١).

فهو المستحق للتعظيم والثناء على باهر حكمته وبديع صنعته، الذي صَوَّرَ الإنسان في أحسن صورة وأعدلها وأقومها، كما في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وقد أقسم الله تعالى على تصوير الإنسان في أحسن الصور وأعدل الأشكال، تعظيماً لهذه الظاهرة الدالة على كمال قدرته ورحمته، فقال: ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٣].

ثم أجملت الآيات ذكر المراحل الكبرى، التي يمر بها الإنسان، وهو يسير على طريق الوجود والبقاء:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾

أي: ثم إنكم بعد المرحلة الأولى من وجودكم، لصاترون إلى الموت لا محالة، ولذلك جاء الخبر عنه مؤكداً بعدد من المؤكدات، فهو أمر محتم مقدر لكم، لا خيار لكم فيه ولا إرادة، كأطوار خلقكم التي سبق ذكرها.

ثم تُبعثون بعد انتهاء المرحلة الفاصلة الممتدة بعد الموت إلى الحياة الثانية، والتي ستذكرها آيات السورة باسم البرزخ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٦﴾ .

أي: تخرجون من قبوركم للحساب، وما يترتب عليه من خلود وبقاء في النعيم، أو في الشقاء والعذاب.

الإمداد بأسباب الحياة

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقْدَرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغَ لِلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِكُمْ عَلَيْكُمْ شُعُوبٌ وَمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ .

جاء في السورة بعد بيان الإيجاد: بيان الإمداد، فالإنسان مفتقر دائماً إلى خالقه في وجوده وفي بقائه، وكما أوجده سبحانه، وأخرجه من العدم إلى الوجود، أمده بكل أسباب وجوده وأسباب بقائه، بفضلِهِ وإِحسانِهِ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سماوات، بعضها فوق بعض، وكل سماء طريق إلى السماء التي فوقها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

ومع أن الإنسان خُلِقَ من الأرض، ويعيش عليها، فهو محتاج إلى ما في السماوات من أسباب عيشه، واستمرار وجوده، ولهذا سَخَّرَ له تعالى ما في

السماوات، كما سَخَّرَ له ما في الأرض، قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: وما كنا عن تدبير أمر الخلق مهملين، فنحن نعلم كل ما يحتاجون إليه، وما يصلح لهم، فهو الخلاق العليم الحكيم، يخلق الخلق ويدبر أمره.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أي: أنزلنا من جهة السماء ماء بمقدار معين، حسب ما تعلق به إرادتنا، وسبق به علمنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا له مسكناً ومستقراً في الأرض، لكي يتمكن الناس من الانتفاع به، فالمياه الجوفية التي في باطن الأرض، أصلها من مياه الأمطار.

﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أي: وإنا على إزالته، وحرمانكم من الانتفاع به لقادرون، كما نحن قادرون على إنزاله.

فاعرفوا فضله تعالى عليكم، وشدة افتقاركم إلى رحمته، فلا غنى لكم عن فضله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوًّا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١٩﴾.

أي: أنشأنا لكم بهذا الماء بساتين منها تتفكهون وتأكلون.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِّلْأَكْلِينَ﴾ ﴿٢٠﴾.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ﴾ أي: وأنبتنا لكم بماء المطر أيضاً، شجرة

تخرج من جبل سيناء، وهي شجرة الزيتون، ويبدو أنها أول ما نبتت في جبل الطور، في منطقة سيناء، الواقعة بين فلسطين ومصر، وهي شجرة مباركة، أنبتها الله في أرض مباركة، في المكان الذي كلم الله فيه موسى، ولعلها الشجرة التي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

ووصفها أيضاً بالبركة في قوله الكريم: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُوِّرُّ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ومن بركتها: كثرة منافعها للناس، فهي طعام ودواء، أخرج الترمذي [١٨٥١]: عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: «كُلُوا الزَيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ، فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ».

﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ﴾ أي: تنبت بثمر الزيت، وهو الزيتون الذي يستخرج منه الزيت.

﴿وَصِنِيعَ اللَّكَلَيْنِ﴾ أي: وإدام يأتدم به الآكلون، ففي الزيتون دهن وإدام.

وخص سبحانه هذه الأشجار الثلاثة بالذكر لكثرة منافعها، كما أنه ذكرها في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِقَوْمٍ مُسْتَفْسِدِينَ﴾ أي: وإن لكم في الإبل والبقر والغنم آية وموعظة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: نسقيكم من ألبانها، وإخراج اللبن مما في بطون الأنعام من أخلاط الطعام والعصارات والدماء من أعظم الأدلة الدالة على

﴿تُسْقِيكُمْ مِنْهَا فِي بُطُونِهَا﴾ أي: نسقيكم من ألبانها، وإخراج اللبن مما في بطون الأنعام من أخلاط الطعام والعصارات والدماء من أعظم الأدلة الدالة على

كمال قدرة الخالق العظيم، القائل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ ذُرِّيَّتِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهَا خَالِصَةً لِلَّذِينَ يَشَاءُونَ﴾ [النحل: ٦٦].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: ولكم في الأنعام منافع كثيرة من وجوه متعددة، فصلها تعالى في سورة النحل بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَثَمَلًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٨٠).

وقوله فيها أيضاً: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٥) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٧).

وقوله أيضاً في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مَّاءٍ عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (٦١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (٧٣).

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: وكما تنتفعون بها وهي حية، تنتفعون بها بعد ذبحها، فتأكلون من لحومها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ (٢٢).

أي: وعلى الإبل في البر، وعلى السفن في البحر تُحملون في أسفاركم. فما أعظم فضله تعالى على الإنسان!

الإمداد بأسباب الهداية

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا شَرٌّ مِمَّا كُنتُمُ تَكْفُرُونَ ۖ وَأَن يُغْنِي عَنْكَ اللَّهُ لَئِنْ أَتَاكَ مَلَائِكَةٌ مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَاَتَّبِعُوا بِهِ ۚ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنتُ فِيهِ ۖ فَكَذَّبُوكَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلَ ۖ فَأَعْيَيْنَا بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ ۖ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلَيْنِ فَقُلِ تَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغُورِ ۖ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَنبِئَ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

وكما أمد الله الإنسان بأسباب معيشتة، أمده أيضاً بأسباب هدايته وسعادته، فبين له بواسطة الأنبياء والمرسلين طريق الفلاح والبقاء في الخير والنعيم، وهو ما شرعت الآيات ببيانه، من خلال حديثها عن بعض المرسلين:

• نوح ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي: اعبدوا الله وحده، فلا معبود لكم يستحق العبادة غيره جل وعلا .

ومر معنا في سورتي الأعراف وهود أن جميع الأنبياء والمرسلين قالوا هذه الكلمة، فهي أساس جميع الرسالات الإلهية، إذ هي سبيلُ الفلاح والفوز بالنجاح والبقاء .

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافون عقابه إذا عبدتم غيره، وأعرضتم عن دينه وشرعه .

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: فقال وجهاء قومه ذوو الغنى والترف، الذين سارعوا إلى الكفر به، ومعارضة دعوته؛ قالوا لعامة الناس من قومه:
﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يريد أن يكون له فضل عليكم، حتى يسودكم، وتصبحوا له أتباعاً، فالحسد والخوف على مناصبهم جعلهم يبادرون إلى معارضة دعوته ﷺ.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي: ليكونوا رسلاً.
﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ وهذا يدل على تحجّر عقولهم، وتقليدهم الأعمى لأبائهم.

ثم انتقلوا من اتهامهم له بحب الرئاسة، إلى اتهامهم له بالجنون:

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَضُوا عَلَيْهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

أي: فانتظروا واحتملوه حتى يفيق من جنونه، أو حتى يموت.
واقتصرت الآيات على بيان معارضة قوم نوح لدعوته ﷺ، واتهامهم له بحب الرئاسة والجنون، ولم تذكر ردّ نوح عليهم ومحاورته لهم، كما مر في سورة هود، لأنّ مهمة الآيات هنا بيان فضل الله تعالى على الناس، بتيسير أسباب الهداية والسعادة، كما يسّر لهم أسباب المعيشة والانتفاع، بما خلق لهم وسخر في الكون، ومع ذلك أعرضوا عن عبادته تعالى وطاعته وكذبوا رسله، واتهموهم بأقبح التهم.

وبعد طول معاناة وصبر على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً، دعا نوح إليهم، وتوجه إلى الله تعالى يستنصره عليهم:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ ﴿٢٦﴾

أي: بسبب تكذيبهم وإصرارهم على كفرهم وفجورهم.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿٢٧﴾

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ أي: اصنع السفينة محفوظاً برعايتنا وحمايتنا، على حسب ما نوحى إليك ونعلمك، فقد كان ﷺ يجهل كيفية صنعها، فأوحى إليه الله سبحانه ذلك، وعلمه وأرشده، كما في قوله: ﴿وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي: جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم، ونبع الماء بقوة وغزارة من التنور، وهو تنور الخبز، فقد جعل الله تعالى نبع الماء منه علامة لنوح على وقت نزول العذاب بقومه، مما يدل على كمال قدرته تعالى بإخراجه الماء من موضع وجود النار.

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: أدخل في السفينة، واحمل فيها، من كل أنواع المخلوقات الأرضية البرية زوجين ذكراً وأنثى، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

ولا بد أنه تعالى سخر هذه الأزواج لنوح ﷺ، فجاءته منقادة طائعة، إذ هو سبحانه الأمر والمعين على تنفيذ الأمر، والمعونة تأتي على قدر المؤونة، فلا حاجة بنا إلى الخوض في كيفية الشحن، كما فعل بعض المفسرين.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي: واحمل فيها أهلك أيضاً، من النساء والأولاد، إلا من وجب عليه العذاب منهم بسبب كفره، وهما امرأته

وولده الكافران، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٢) قَالَ سَوِّىْ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعْ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْوُجُوهُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِضِينَ ﴿[هود].

وقال أيضاً: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أي: لا تسألني نجاة الذين كفروا، إنهم مغرقون لا محالة، بسبب إصرارهم على الكفر والظلم.

وشحن ﴿السفينة﴾ كما أمره تعالى، فكانت سبب نجاة نوح والمؤمنين معه، ولهذا أمره تعالى أن يتوجه بالحمد والشكر له وحده:

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٨).

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ أي: إذا تمكنت.

﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ﴾ من المؤمنين على الركوب في السفينة.

﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا﴾ يسر لنا سبيل النجاة.

﴿مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾.

وكما علمه تعالى أن يحمدّه ويشني عليه، علّمه أيضاً أن يسأله أن ييسر له موضعاً صالحاً ينزل فيه بعد انتهاء الطوفان، يتمكن فيه مع مَنْ كان معه في السفينة، من إنعاش الوجود البشري مرة ثانية في الأرض، فالإنسان مفتقر دائماً إلى الله تعالى في معيشتة وهدايته:

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْزُقْنِي مِثْلَ مَبَارَكَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَرْزُقِينَ﴾ (٢٩).

لأنك تحفظنا وترعانا وتبارك لنا.

(١) في ظلال القرآن: ٢٠٦٦/٤.

البشري في الأرض مرة ثانية، وقدَّر تعالى أن يكون نوح الوالد الثاني للبشرية بعد آدم، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

وبدأت البشرية الجديدة حياتها على طريق الحق والفلاح، كما كانت في بدايتها الأولى في عهد آدم ﷺ، فالتوحيد هو الدين الأول الذي كانت عليه البشرية في مبدأ وجودها، والكفر أمر طارئ عليها.

ومن رحمته تعالى أن رسالات الأنبياء بقيت تتوالى على الناس، مع توالي أجيالهم وقرونهم، تبين لهم أسباب الهداية، وتوضَّح لهم معالم طريق الفلاح والنجاح، حتى تمت وخُتِمت برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

أي: قوماً آخرين، فأنحرفوا عن طريق التوحيد والفلاح، إلى طريق الشرك والكفر، ولم تكشف الآيات هوية هؤلاء القوم، إذ المهم أن تظهر الآيات فضله تعالى على الناس، وأنه ما تركهم من غير هادٍ يدعوهم إلى طريق الهداية ويرشدهم إليه.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ﴾.

إنها نفس الكلمة التي قالها نوح ﷺ لقومه.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ونعمَّناهم في الحياة الدنيا بسعة العيش، فعاشوا حياة الترف والبطر. ودلَّ وصف الآية لهم بصفة الترف، على أنه من أسباب الضلال والكفر، وغالباً ما يكون رؤساء الضلال والكفر من الأغنياء المترفين.

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ أي: ما هذا الرسول إلا بشر مثلكم في صفات البشرية. وتقريراً لتمام المماثلة وصفوه بالأكل والشرب.

﴿وَلَيْنَ أَطْعَمَهُ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ (٣٤).

هكذا أعماهم الترف والبطر عن رؤية الحقيقة الواضحة، حتى جعلوا طاعة الرسول واتباعه في عبادة الله تعالى وحده خسارة ونقصاً.

﴿يَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرِجُونَ﴾ (٣٥).

أي: تخرجون من قبوركم أحياء للحساب والجزاء. وهو استفهام إنكاري، يدل على إنكارهم ليوم القيامة واستبعادهم لوقوعه.

﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ (٣٦).

أي: بعيد بعيد ما توعدون.

وأرادوا بهذا الاستبعاد نفية مطلقاً، وأنه في نظرهم لا يكونُ أبداً، فالإنسان في نظرهم ينتهي بالموت، وأنه خُلِقَ ليعيش في هذه الدنيا فقط، يأكل ويشرب ويلهو ويلعب، ويبغي ويظلم، ثم ينتهي بالموت، ولهذا أضافوا قائلين:

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (٣٧).

أي: لا حياة لنا إلا هذه الحياة في الدنيا، يموت الآباء ويحيى الأبناء، وما نحن بمبعوثين بعد الموت.

وهو تكذيب ضمني للرسول المرسل إليهم، أكدّه قولهم:

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٨).

أي: بمصدقين.

فما كان من الرسول ﷺ إلا أن لجأ إلى الله تعالى يستنصر به على هؤلاء المعاندين المكذبين :

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: بعد قليل ليصبحن نادمين على كُفرهم وتكذيبهم.

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، فما عذبهم الله إلا بعدله.
 ﴿فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً﴾ أي: هلكى هامدين كغشاء السيل، وهو ما يحمله السيل من الحشيش والقصب اليابس المتفتت.
 ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بُعْدًا لهم عن رحمته تعالى.

مع الأنبياء والمرسلين

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِجُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا ثَمًّا ﴿٤٤﴾ كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٧﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِلشَّرِيِّينَ مِثْلًا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٨﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٠﴾ وَرَجَعْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٣﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٤﴾﴾

وتكاثر البشر، وانتشروا في الأرض أُممًا وشعوبًا، ومن سنته تعالى في الناس أنه جعل للأمم والأجيال أعماراً وأزماناً لا تتجاوزها، فالحياة في الدنيا

ممر إلى الآخرة، ولا خلود فيها لأحد، وكما قدر سبحانه للأفراد آجالاً، قدر أيضاً للأمم والشعوب آجالاً، وهو ما دلت عليه الآيات الكريمة:

﴿ثُمَّ أَمْسَكْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِزُّونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: لا يتقدمون عن الأجل المقدر لهم ولا يتأخرون عنه.
وكلّما تتابعت الأمم، وتوالت الأجيال، تتابعت رسالات الله تعالى إليها، بواسطة المرسلين:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ أي: يتبع بعضهم بعضاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].
وما من رسول إلا وكذبه قومه وعارضوا دعوته، وكان ذلك سبب هلاكهم:
﴿كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أتبعنا بعضهم بعضاً في الهلاك، فلم يبقَ منهم إلا أخبارهم، يتحدث بها الناس في مجالسهم.
﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وتوقفت الآيات في أثناء هذا العرض التاريخي السريع المجمل، عند الرسولين الأخوين الكريمين موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنهما من المعالم البارزة في تاريخ الرسالات الإلهية:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: أرسلناهما مؤيدين بالمعجزات والحجة الواضحة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ .

أي: امتنعوا عن الإيمان تكبراً وترفعاً.

﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ .

أي: خاضعون متذللون.

أنكروا بهذا القول بشرية الرسولين، وأنكروا أيضاً اختيارهم من بني إسرائيل، الذين كانوا يعانون من ظلم فرعون وقومه، واستعلائهم عليهم.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ .

أهلكهم الله في البحر، وأنجى بني إسرائيل من ظلمهم وبغيهم.
ثم أنزل الله سبحانه التوراة على موسى ﷺ :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ .

أي: لعل بني إسرائيل يهتدون به إلى طريق الفلاح.
وختمت الآيات استعراضها السريع، بذكر عيسى ﷺ وأمه:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ أي: إن الله تعالى جعل عيسى ﷺ وأمه من أعظم الآيات الدالة على كمال قدرته وطلاقة مشيئته جل وعلا، وأنه قادر على الخلق من دون أسباب، فهو خالق الأسباب المسيبات.

﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ إلى مكان من الأرض، مرتفع ومنبسط.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ فيه قرار وماء ظاهر يجري تراه العيون.

واختلفوا في هذا المكان، فقليل: موضع في غوطة دمشق، وقيل: بيت

المقدس، وقيل: الرملة من أرض فلسطين، ولعله المكان الذي ولد فيه عيسى عليه السلام، والذي جعل الله فيه الثمر والماء، الذي قال تعالى فيه في سورة مريم: ﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ١٣﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ١٤ وَهَرَيَّ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ فَسُقِطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ١٥﴾.

• الطعام الحلال والعمل الصالح:

والتفتت الآيات بعد هذا الاستعراض السريع لأهم الرسائل الإلهية، تخاطب جميع المرسلين، كأنهم كانوا مجتمعين في زمن واحد ومكان واحد، عند توجيه هذا الخطاب لهم، مما جعل بعض المفسرين يرى أن المقصود بهذا الخطاب، هو خاتم الأنبياء المرسلين، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وقد يكون المراد الإعلام بأن كل رسول في زمانه نودي بذلك ووصي به، ليعتقد السامع أن أمراً نودي له جميع الرسل ووصوا به، تحقيق أن يؤخذ به ويعمل عليه^(١):

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أي: كلوا من الطيب الحلال، واعمَلوا العمل الصالح، وهو العمل المشروع، فلا يكون العمل صالحاً إلا إذا وافق شرع الله تعالى. والأمر للتكليف، لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: فاحذروا عقابي، والتزموا حدود شرعي في ما كلكم وجميع أعمالكم.

ولا شك أن لتطيب المأكَل والمشرب تأثيراً كبيراً في صلاح العمل وقبوله، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١﴾ [المؤمنون] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣٤٧/٤.

ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذّي بالحرام، فأنتى يستجاب لذلك» [رواه مسلم (١٠١٥)].

ودلت الآية الكريمة على أنّ تكليف الإنسان بالشرائع السماوية لسعادته وإصلاح حياته، لا لإعناته والتضييق عليه، كما أفادت وحدة الرسائل الإلهية، وأنها جميعاً منزلة لرعاية مصالح الناس وهدايتهم إلى طريق الفلاح.

• الاختلاف والكفر:

وطريق الأنبياء والمرسلين واحد، وهو الطريق المؤدي إلى الفلاح والخلود في النعيم، والسائرون عليه أمة واحدة، مهما اختلفت أجناسهم وأعصارهم وأمصارهم:

﴿وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٢).

والدين الواحد أعظم مقومات الأمة الواحدة؛ لأنه يوحد قلوبهم وسلوكهم واتجاههم وطريقهم، يكفي أنهم جميعاً يتجهون بالعبادة والطاعة إلى ربّ واحد، ويلتزمون منهجاً واحداً: ﴿إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وهو ما كان عليه الناس في فجر وجودهم الأول، وفي فجر وجودهم الثاني بعد الطوفان، عندما كانوا سائرين على دين التوحيد، الذي بشر به آدم ونوح وسائر الأنبياء والمرسلين بعدهما، وما تفرق الناس إلا عندما طرأ عليهم الكفر والشرك، فأنحرفوا عن الطريق، وتشعبت بهم الملل الباطلة والنحل الفاسدة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال أيضاً: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهذا ما صرحت به الآيات بعد ذلك بقوله تعالى:

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: تقطعوا أمر دينهم، وجعلوه نحلاً مختلفة، وقطعاً متباينة، فاختلفوا، وتفرقت بهم الطرق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والعجيب أنه تعالى ذكر مثل هذا أيضاً في سورة الأنبياء فقال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ﴾ ﴿٩٣﴾ .

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورون مُعْجَبُونَ بما عندهم من الآراء والأهواء.

* * *

غفلة وغرور

﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا يُنذِرُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٥﴾ سُارِعٌ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴿٥٦﴾ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ .

وإعجابهم وفرحهم بما عندهم من ملل باطلة، نابع من سببين:
السبب الأول: غفلتهم عن الحق وشواهد الساطعة، وبراهينه الواضحة.
وصورت الآيات هذه الغفلة، وهي تخاطب النبي ﷺ، مواسية له ومثبتة، بقوله تعالى:

﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿٥٤﴾ .

﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ أي: دعهم في غفلتهم.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ موعد نزول العذاب بهم.

شَبَّهَ غفلتهم وجهالتهم بالماء الذي يغمر أصحابه، فهم منغمسون في الغفلة، تحيط بهم من جميع جوانبهم.

والأمر لا يفيد الإعراض عن تذكيرهم وتبليغهم، فالنبي ﷺ مأمور بذلك، وإنما جاء على سبيل الوعيد والتهديد لهم، ولهذا الأسلوب نظائر في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ۖ وَأَبْصَرَهُمْ سُوفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصفات].

والسبب الثاني: اغترارهم بما في أيديهم من زينة الدنيا ومتاعها وزخرفها، إذ حسبه إكراماً لهم، بينما هو في الحقيقة ابتلاء واختبار، سقطوا فيه، فأصبح مكرراً بهم واستدرجاً لهم إلى سخط الله تعالى وعذابه:

﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۖ شَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٦).

﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۖ شَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: نعجل لهم في الخيرات؛ إكراماً لهم، لمرضاتنا عنهم.

﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لا يشعرون أن ذلك استدراج لهم ومكر بهم، قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْخَبَرِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم].

وقال أيضاً: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْلَغَهُ رُبُّهُ فَاكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].
فاللذات هيئة على الله تعالى، يعطيها من يحب ومن لا يحب، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

والإكرام الحقيقي هو بالتوفيق إلى الطاعات، والاستقامة على طريق الفلاح، ومن وفقهم الله تعالى للاستقامة على طريق الفلاح، فقد أكرمهم سبحانه أعظم كرامة.

المسارعون إلى الخيرات

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ .

فهم المسارعون الحقيقيون في الخيرات، الذين تدفعهم خشيتهم من ربهم إلى الإسراع في طاعته ومرضاته :

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

أي: حذرون خائفون؛ إجلالاً لربهم وتعظيماً له، بسبب إيمانهم بلقائه يوم القيامة، ووقوفهم بين يديه سبحانه للحساب والجزاء :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

أي: يصدقون بكل ما أخبر تعالى عنه بآياته المنزلة على رسوله. ومن أعظم القضايا التي اشتملت عليها هذه الآيات، يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

فلا يعبدون غيره، ولا يطيعون سواه، وينأون بأنفسهم عن جميع أنواع الشرك الخفية والجلية .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أي: يتقربون إلى الله تعالى بأنواع الطاعات والعبادات .

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ وهم خائفون ألا يتقبلها سبحانه منهم .

﴿أَتَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ لأنهم يوقنون أن مصيرهم إليه تعالى، وهو عليهم بأحوالهم وما تكنه ضمائرهم وقلوبهم .

وهذا يدل على أنهم غير معجبين بأعمالهم، ولا مغترين بها، يهتمون أنفسهم دائماً بالتقصير في طاعة ربهم وشكره على نعمه وإحسانه .

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: قلت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون، ويخافون ألا يُقبلَ منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات» [رواه الترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (١١٩٨) وأحمد (١٥٩/٦)].

فيجب على المؤمن ألا يغتر بعمله، ولا يعجب به، حتى يبقى على حذر ووجل من عذاب الله تعالى، فلا يكون كالكفار المغترين بالدنيا وزخارفها، والمطمئنين إليها، أو يكون من المغترين بأعمالهم المعجبين بها، الذين يشعرون بالأمن من عذاب الله تعالى، كما قال سبحانه فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

فالتصديق بالمسؤولية أمامه تعالى يوم القيامة أمر هام في حياة المؤمن، راسخ في وجدانه، مؤثر في سلوكه، يجعله دائماً راغباً في طاعته تعالى أشد الرغبة، غير زاهد فيها، يستكثر منها ويسارع إليها:

﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْمَخِرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾.

فهم المتسابقون في طريق المكرمات، الواصلون إليها قبل غيرهم، الذين يكرمهم الله تعالى بتعجيل ثوابها لهم في الدنيا، بتوفيقه ومعونته وتيسيره، وفي الآخرة بالخلود في فراديس جنته، فهو سبحانه أسرع بكل خير إليهم منهم إليه، كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يقول

الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم، وإن تقرب عبدي مني شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولةً [رواه مسلم (٢٦٧٥)].

فالحياة في الإسلام ميدان سباق، يتسابق فيه المؤمنون للوصول إلى الفوز برضوانه تعالى، وهو سباق مشروع محمود، أمر به تعالى فقال: ﴿فَأَسْتَبِقُوا﴾ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿[البقرة: ١٤٨].
وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ومن رحمته تعالى أنه جعل المسارعة إلى الخيرات سهلةً ميسورةً، لا حرج فيها ولا مشقة، لأنَّ أساس التكليف فيها قائمٌ على الوسع:

﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما تتسع له طاقتها، فكل ما كلف به المؤمنون في الإسلام لا يخرج عن حدود طاقتهم، بل هو دونها؛ إذ الوسع هو ما تتسع له قدرة الإنسان، وتتسع لأكثر منه، فلا عذر لأحدٍ في التباطؤ والتشاغل عن عبادة الله تعالى وفعل الخيرات، فهو مكلفٌ بها، ومسؤول عنها، وهي مسجلةٌ عليه في صحيفة أعماله.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يبين الحق ويشهد على صاحبه بالصدق.
﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: وهم عند المسؤولية والحساب لا يظلمون.

* * *

الصحة المتأخرة

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿١٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتَرَفِّعِينَ بِالْعَلَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ ﴿١٤﴾ لَا تَحْزَنُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مَعَنَا لَا تُنصَرُونَ ﴿١٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ أَنْكِصُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿١٧﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمُ الْمُنْكَرُوكَ ﴿١٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَانَتْهُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢١﴾﴾

ورجعت الآيات إلى الكفار تبين أحوالهم، بعد أن بينت أحوال المؤمنين:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي: بل قلوب الكفار في غفلة عن الشعور بالمسؤولية، وعن الإيمان بأن أعمالهم تكتب عليهم، وأنهم محاسبون عليها يوم القيامة.

ففي الآية إضرابٌ عمّا قبلها، وهي المرة الثانية في السورة، التي تصف فيها الآيات الكافرين بالغفلة الغامرة، المسيطرة على قلوبهم، والمستوطنة في أعماق نفوسهم، وهذا يجعلهم يصرون على أعمالهم الفاجرة الخبيثة.

﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ أي: ولهم أعمال سيئة غير الغفلة الغامرة لقلوبهم، وهم مستمرُّون عليها، ومنهمكون فيها، مما يدلُّ على أنَّ الفساد قد استشرى وتمكَّن في قلوبهم وأعمالهم، بسبب كفرهم بالله تعالى، وإنكارهم لمسؤوليتهم عن أعمالهم وحياتهم يوم القيامة.

فما أعظم الفرق بين هؤلاء المغمورين بغفلتهم، المنهمكين بشهواتهم، وبين المؤمنين الحذرين الخائفين من ربهم، المسارعين إلى الخيرات،

والمتنافسين في الطاعات والمبررات! فالإيمانُ حين يشرق في القلب، ينير لصاحبه الدرب، ويجعله سائراً عليه في يقظة وحذر وانتباه.

ولا رجاء في يقظة الكفار، ولا أمل في انتباههم وإدراكهم خطورة الطريق التي يسرون عليها، حتى يصلوا إلى نهاية الحياة، حينئذ يستيقظون من غفلتهم، ويتنبهون من سكرتهم، فهم نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

﴿حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْرُوتُ﴾.

أي: يصرخون مستغيثين. فالجُوار مثل الخوار، يقال: جأر الثور يجأر إذا صاح، وجأر الرجل بالدعاء إلى الله تعالى، إذا تضرع بالدعاء^(١).

وخصصت الآية المترفين بالذكر، لأنهم - كما مر معنا - رؤوس الكفر والضلال، وعندما ينزل بهم العذاب، ينزل أيضاً بأتباعهم ومقلديهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وجاءت صحتهم هذه متأخرة، فلا ينتفعون بها، ويقال لهم عندها توبيخاً وتقريعاً:

﴿لَا تَجْعَلُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾.

أي: لا تمنعون منا، ولا ينفعكم جؤاركم.

﴿فَدَكَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ﴾.

﴿فَدَكَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: تُقرأ عليكم، تنبهكم وتحذركم، وتبين لكم خطر الطرق التي تسرون عليها، وتدعوكم إلى السلامة والأمن.

﴿فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ نَنكِصُونَ﴾ أي: تعرضون مدبرين عن سماعها والاستجابة إليها.

والنكوص: الرجوع إلى الوراء، وهو أقبح مشية؛ لأن الذي يرجع ماشياً القهقري لا يرى ما وراءه.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: مستكبرين بالبيت الحرام، وشهرة استكبار مشركي قريش بالبيت الحرام، وافتخارهم بأنهم سدنته وجيرانه، أغنت عن سبق ذكره.

﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي: تسمرون بذكر النبي ﷺ بالقول الفاحش القبيح المهجور.

فالهجر: الكلام المهجور لقبحه، وهجر فلان: إذا أتى بهجر من الكلام عن قصد، وأهجر المريض: إذا أتى بذلك عن غير قصد^(١).

وكان مشركو قريش يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون، وكان عامَّةُ سمرهم يدور حول القرآن الكريم والنبي ﷺ، ووصفهما بأوصاف لا تليقُ بهما.

ولهذا دعتهم الآياتُ إلى تدبر آيات القرآن الكريم، كما ذكَّرتهم بحقيقة الرسول ﷺ:

﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: أفلم يتأملوا معاني القرآن الكريم؟!.

وهي دعوة لهم بأسلوب الاستفهام، ممزوجة بالإنكار والتوبيخ، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَذَّبَرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين، فاستبعدوه، وأعرضوا عنه؟!.

فكلمة ﴿أَمْ﴾ للإضراب، والانتقال من توبيخ إلى توبيخ آخر، فإنزالُ

الكتب، وبعثه الرسل من سنن الله تعالى القديمة المعروفة المشهورة، التي لا تُنكر، والنبى عليه أفضل الصلاة السلام ليس بدعاً من الرسل.
كما أنهم كانوا يعرفونه بشمائله الكريمة الرفيعة، ولهذا تابعت الآيات توبيخهم، بأسلوب الإضراب والانتقال من توبيخ إلى توبيخ، فمواقفهم القبيحة كثيرة، تستدعي زيادة في توبيخهم:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ (٦٩).

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ أي: بالصدق والأمانة والأخلاق الكريمة.
﴿فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ﴾ أي: فكيف ينكرونه ويكذبون رسالته، ويعرضون عن دعوته، وقد عرفوه بما عرف به واشتهر من الأخلاق الكريمة، حتى كانوا يلقبونه بالأمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.
فإنكارهم له ليس بسبب جهلهم به، وإنما بسبب بغيتهم وحسدهم له عليه الصلاة والسلام.

• الحق متبوع لا تابع:

واستمرت الآيات على هذا الأسلوب، توبيخ المشركين، وتدفع عن النبي ﷺ الأوصاف القبيحة التي وصفوه بها، وكانت أحاديثهم تردد وهم يسمرون بجوار بيت الله الحرام:

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرَهُونَ﴾ (٧٠).

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، وهم يعلمون أنه عليه الصلاة السلام أرجحهم عقلاً، وأثقبهم نظراً.
﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرَهُونَ﴾ أي: جاءهم بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل، ومع ذلك فإن أكثرهم يكرهون الحق ولا يتقادون له، لأنه يصادم أهواءهم وشهواتهم.

﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ بَلْ أَيْنَلَّهُمْ بَذَرُهُمْ فَهُمْ
عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ .

﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: لو جاء القرآن الكريم وما فيه من تشريع موافقاً لأهوائهم وشهواتهم لاختلَّ نظام العالم، بسبب قصور عقولهم، وتناقض آرائهم، وتضارب أهوائهم ومصالحهم. فالحق متبوع لا تابع، ومصدره دين الله تعالى وشرعه، وعلى الناس أن يستسلموا لأحكامه، لأنَّ فيه صلاح البلاد والعباد، والإعراض عنه يؤدي إلى الخلل والفوضى والفساد، وما أكثر ما أورثت القوانينُ الوضعية الناس اضطراباً وفساداً وتنازعاً واختلافاً، وكلَّما ابتعد الناس عن دين الله تعالى وشرعه، ازدادوا عناءً وشقاءً وتعاسةً.

فمن الضروري لصلاح العالم واستمرار وجوده، أن يكونَ تشريع الأحكام منوطاً بخالقه ومبدع سننه، حتى يتم التوافق والانسجام بين السنن الكونية، وبين القوانين التشريعية، والله تعالى وحده هو العليم الحكيم بما يصلح عباده ومخلوقاته: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وهذا سرُّ امتياز الشريعة الإلهية على الشرائع الوضعية، فهي شريعة كاملة منسجمة تماماً مع السنن الكونية، ومع أصل الفطرة البشرية التي فطر سبحانه الناس عليها.

وفضلاً عن ذلك، فقد جاء القرآن الكريم بميزة خاصة، خصَّ بها العرب دون غيرهم من الأمم، إذ أنزله سبحانه بلغتهم، على رجل من أوسطهم نسباً، وأكرمهم محتداً، فلماذا يعرضُ المشركون عنه، وفيه عزهم وشرفهم؟! .

﴿بَلْ أَيْنَلَّهُمْ بَذَرُهُمْ﴾ أي: أتيناهم بما فيه شرفهم وعزهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: فهم لا يكرهون الحق ويعرضون عنه فقط، بل يعرضون عما فيه عزُّهم وشرفهم، فما أغباهم وأجهلهم! .

وقد ظلت أمة العرب لا ذكر لها في تاريخ العالم، حتى جاءها الإسلام، وقد ظلّ ذكرها يدوي في آذان القرون طالما ظلت به مستمسكة، وقد تضاعف ذكرها عندما تخلّت عنه، فلم تعد في العير ولا في النفير، ولن يكون لها ذكر إلا أن تفيء إلى عنوانها الكبير^(١).

وبهذا الأسلوب الرائع بلغت الآيات الغاية العظمى في توبيخ وتقريع المعرضين عن دين الله وشرعه، وفي الوقت نفسه أظهرت مزايا الشريعة الإسلامية، وما فيها من خير عام للعباد والبلاد، ومن خير خاص بقوم النبي ﷺ، الذين بادر أكثرهم إلى معارضتها، وحاولوا طمس معالمها.

وبهذا بلغت الآيات أيضاً الغاية العظمى في توبيخهم وتقريعهم، وأظهرت في الوقت نفسه مزايا الرسالة الإسلامية، وما فيها من خير عام للعباد والبلاد، وخير خاص بقوم النبي ﷺ، الذين أنزل الله القرآن الكريم بلغتهم.

* * *

إعراض وعناد

﴿أَمَرْتَهُمْ خُرجاً فخرجَ رِبَكٌ حَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّافِقِينَ﴾ (٧١) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّوكَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٦﴾

ومن مزايا الرسالة الإسلامية أيضاً: أنها رسالة منزهة عن أي غرض دنيوي وكسب مادي، فما جاءت إلا لإصلاح العباد، ودفع الخلل والفساد عن البلاد، فلا

(١) في ظلال القرآن: ٢٤٧٥/٤.

عذرَ لمشركي قريش في الإعراض عنها، ولهذا تابعت الآيات الكريمة توبيخهم، وهي تنزه دعوة النبي عليه الصلاة والسلام عن أي كسب مادي ونفع دنيوي:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ (٧٢).

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي: أم يزعمون أنك تسألهم على أداء الرسالة أجراً ومالاً، ولهذا يعرضون عنك.

﴿فَقَرْجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ أي: فرزقُ ربك وثوابه خيرٌ، لأنه أفضل المعطين في الدنيا والآخرة، فالرزقُ في الحقيقة رزقه، والعطاء عطاؤه، والغنى والفقر بمشيئته تعالى وتديره، وهو القائل: ﴿أَمْ يَسْأَلُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ تَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحَارًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣).

أي: وإنك حقيق بالاتباع، لأنك تدعوهم إلى طريق الفلاح والفوز والنجاح، وهو الصراط المستقيم الذي يوصلهم إلى الخلود في الجنان، كما تقدّم في صدر السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١).

ومع أنه عليه الصلاة والسلام حقيق بالاتباع فقد أعرضوا عنه:

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُّونَ﴾ (٧٤).

أي: عادلون ومنحرفون عن طريق الفلاح، لأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، ويرون أن حياتهم تنتهي بالموت.

وَيَنْتِ الْآيَاتُ أَنَّ سَبَبَ إِعْرَاضِهِمْ، نَابِغٌ مِنْ سُوءِ اخْتِيَارِهِمْ، وَشَدَّةُ تَمَسُّكِهِمْ بِبَاطِلِهِمْ، وَإِعْجَابُهُمْ بِالطَّرْقِ الضَّالَّةِ الْمُنْحَرِفَةِ الَّتِي يَسِيرُونَ عَلَيْهَا:

﴿وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لو أرحمنا عنهم الضر الذي يغلف قلوبهم، ويحجبهم عن رؤية الحق، لتمادوا في ضلالهم وعنادهم، واستمروا على كفرهم وطغيانهم، يترددون متحيرين، دون تمييز بين الحق والباطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فالقوم لا خيرَ فيهم أبداً، ولا يوجد فيهم أدنى استعداد لقبول الحق والإذعان له، ومما يدل على ذلك: أن البلايا والمصائب التي نزلت بهم، لم تنبهم من غفلتهم، ولم تزل قسوة قلوبهم:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: أخذناهم بالمصائب والمحن، كنقص الأموال والأنفس، فما وجدت منهم استكانة وخضوع لله تعالى، وظلوا غافلين عنه لا يعبدونه ولا يدعونه خاشعين متضرعين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[الأنعام]﴾.

ويبقى القوم في غمرة غفلتهم، منمكين بشهواتهم، لا ينتبهون إلا عند نزول الموت وسكراته بهم:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: حتى إذا نزل الموت بآلامه وسكراته فيهم، أو عند رؤيتهم للعذاب

يوم القيامة، إذا هم آيسون من النجاة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

وقوله أيضاً في سياق ما استشهدنا به من آيات سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا دُسُوا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَاهُمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾. فالإبلاس، وهو اليأس والقنوط من النجاة، يسيطر عليهم في الدنيا عند الموت، وفي الآخرة عندما يُساقون إلى جهنم.

* * *

تقرير والزام

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٨٠) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمُعْجُونُونَ﴾ (٨٢) ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٨٣) ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٨٥) ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَكَاتِ السَّجِجِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ﴾ (٨٧) ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٨) ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، وبسبب غفلتهم وعنادهم، لم ينتفعوا بوسائل التمكين التي زودهم الله تعالى بها، والتي تمكّن الإنسان من العلم والمعرفة والتمييز، وهي من أعظم النعم التي تفضل الله بها على الإنسان. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما شكرتم الله تعالى عليها، لأنكم لم تستعملوها في الاستدلال على عظمته ووجوده ووحدانيته، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ

فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولو أنهم استعملوا وسائل التمكين هذه أدنى استعمال، لعرفوا أنهم في قبضة قدرته تعالى وحده، وأن مصيرهم إلى حكمه يوم القيامة.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: هو وحده الذي خلقكم وبشكم في جنات الأرض، فلن يترككم، وإليه وحده تُجمعون يوم القيامة للحساب والجزاء.

فحياتكم وموتكم بيده جل وعلا، والسنن الكونية المحيطة بكم بتقديره وتديره:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

ومع كل هذه الدلائل الظاهرة الواضحة المحيطة بهم، لم يعقلوها ولم يفهموا مدلولها:

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾﴾

أي: بل قال المشركون المعاندون، مثل ما قال الأولون من الأمم السابقة الكافرة المعاندة:

﴿قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبَعُونَا ﴿٨٢﴾﴾

وهو سؤال إنكار، يدل على أنهم أنكروا قدرة الله تعالى على بعثهم بعد موتهم وتفتت أجسامهم.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ .

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل مجيء محمد عليه الصلاة والسلام، ولم يأتنا ما وعدنا به من العذاب.
﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا إلا أكاذيب الأولين المسطورة في كتبهم.

وردَّ الله تعالى عليهم، بأن جعلهم يقرؤون بكمال سلطانه، وتمام قدرته، وأنه وحده الخالق المالك المدبر:

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ .

ولا يخفى ما في السؤال من استهانة بهم، وتعريض بجهلهم، ولهذا أخبر سبحانه بجوابهم قبل أن يجيبوا، فإنَّ بديهية العقل تلزمهم بالاعتراف بأنه تعالى هو الخالق والمالك، فهو تعالى يطوقهم بالحجج من طريق المسلمات العقلية الفطرية، التي لا يمكن إنكارها؛ لأنها ثابتة راسخة في أصل خلقتهم وجبلتهم.
﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والمعرفة.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ .

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: الأرض ومن فيها لله تعالى وحده خلقاً وتديراً.
﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتذكرون أنَّ خالق الأرض وَمَنْ فيها قادرٌ على إعادتها وإعادة من فيها بعد موتهم وتفتتهم؟! .
وتابعت الآيات إلزامهم بأسلوب السؤال التقريري، وانتقلت من الأدنى إلى الأعلى:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ .

أي: مَنْ خالق ومالك ومدبر هذه المكونات الكبيرة، السماوات السبع

والعرش العظيم؟ .. وأَعِيذَ ذَكَرُ الرب تنوياً بشأن العرش، ورفعاً لمحلّه عن أن يكون تبعاً للسموات وجوداً وذكرًا^(١).

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: له وحده خلقاً وملكاً وتديراً، وجاء الجواب ﴿لِلَّهِ﴾ باللام نظراً إلى معنى السؤال، فمن ربه؟ ولمن هو؟ في معنى واحد، وفي قراءة ثانية هنا وما بعدها، جاء الجواب موافقاً للفظ: (سيقولون الله).

﴿قُلْ أَفَلَا نُنْفِقُ﴾ أي: أفلا تنفقون عذابه فلا تشركوا به أحداً، ولا تنكروا قدرته على إعادتكم إلى الحياة بعد الممات.

وتابعت الآيات أسلوب السؤال التقريري الملزم، وانتقلت هذه المرة من الخصوص إلى العموم:

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما ذكر ومما لم يذكر، فملكه تعالى أعظم من السماوات والأرض وما فيهما، وأعظم أيضاً من العرش العظيم، وهو وحده جلّ وعلا المالك لكل شيء، وملكه تام كامل، سلطانه عزيز غالب قاهر، ولهذا جاء التعبير عنه بكلمة ﴿مَلَكُوتُ﴾ إذ هي أبلغ في الدلالة على المعنى من كلمة (ملك)، ولا شك أن زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى، ولهذا ذكرها تعالى في معرض بيان تمام سلطانه على جميع المخلوقات فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو السيد العظيم في ملكه، الذي يجبر، ولا يجار عليه، فله سبحانه الخلق والأمر والملك والحكم، لا معقب لحكمه،

(١) تفسير أبي السعود: ١٤٨/٦.

ولا رادَّ لأمره. وكانت العرب إذا كان السيد فيهم أجار أحداً، لا يُحْفَرُ جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لثلا يفتات عليه^(١).
﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيعترفون ويقرّون بأنه تعالى هو الرب العظيم، الذي له الأمر والحكم، كما أقروا بأنه الخالق المالك.
﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: كيف تُخدعون وتُصرفون عن توحيدهِ وطاعته؟! فيخيّل لكم الحق باطلاً.
تدلُّ كلمة ﴿تُسْحَرُونَ﴾ على مدى الاضطراب والخلل والتخبط في تفكيرهم، كما تدل على شدة القلق والحيرة في نفوسهم.

إثبات التوحيد ونفي الشرك

﴿بَلْ أُنِيتُهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)

وبعد أن أثبتت الآيات، بأسلوبها التقريري الملزم، التوحيد بالدلائل القطعية، نفت نفيّاً قاطعاً جازماً أن يكون لله تعالى ولد أو شريك، وبينت كذب أصحاب هذه الدعاوى الباطلة:

﴿بَلْ أُنِيتُهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

أي: الدين الحق القائم على التوحيد والتكليف والمسؤولية، وإنهم لكاذبون

في إنكارهم لحقيقة التوحيد، ولمسؤوليتهم يوم القيامة، وقدرته تعالى على بعثهم وحسابهم.

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (٩١).

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لأنه منزّه عن الاتصاف بصفات المخلوقات، فهو الواحد الأحد، المنزه عن الصاحبة والولد.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ أي: وما كان معه من إله يشاركه في استحقاق العبادة والطاعة، فهو أيضاً منزّه عن الشريك، وهو سبحانه وحده المعبود بحق. ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، واختل نظام الكون، وما وجد التعاون والتناسق بين سننه.

والمشاهد أن للمكونات كلها، الأرضية والسماوية، نظاماً متناسقاً غاية التناسق والكمال، وهذا ما تؤيده الكشوفات العلمية الحديثة، مما يدل على وحدانية الخالق المدبر جل وعلا، كما في قوله الكريم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله أيضاً: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (٤٦) سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا [الإسراء].

﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: يتنزه الله ويتقدّس عما يصفه المشركون بصفات لا تليق بجلاله وكماله ووحدانيته.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٩٦).

أي: له سبحانه كمال العلم، يعلم ما يغيب عن العباد، وما يظهر لهم، فهو أعلى وأعظم من صفات الشرك التي يصفه بها المشركون.

تذكير وتأديب

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعْدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ .

فالإشراك بالله تعالى أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وهو ذنب لا يغفر لمن مات عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وشؤم الشرك في الدنيا كبير، قد يتعدى بسبب ذلك إلى غير المشركين، ولهذا توجهت الآيات إلى النبي ﷺ تأمره أن يلجأ إلى ربه تعالى، مستعيذاً به أن يصيبه شيء من العذاب الذي ينزله تعالى بالمشركين:

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

أي: إن قدرت لي أن أرى ما وعدت المشركين من العذاب.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ .

أي: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي﴾ قريناً معهم في العذاب، ولا تعذبني بعذابهم. ولهذا كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادةً لي في كل خير، واجعل الموت راحةً لي من كل شر» [رواه مسلم (٢٧٢٠)].

وورد من دعائه أيضاً: «وإذا أردت بقوم فتنه فتوفني إليك غير مفتون» [رواه أحمد (٢٤٣/٥) والترمذي (٣٢٣٥) وصححه].

ولا يخفى ما في الآيات من موعظة قوية مؤثرة في المؤمنين، فإذا كان هذا حال النبي ﷺ، وشدة خوفه من ربه، فكيف ينبغي أن يكون حال المؤمنين؟! أسأل الله تعالى أن يلفظ بنا، ويجنبنا الفتن الظاهرة والخفية.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ (٩٥)

أي: ولو شئنا لأريناك العذاب الذي ننزله بهم، فإننا قادرون على ذلك، لكننا نؤخره عنهم، ونأمرك أن تصبر على أذاهم، وأن تقابله بالصفح والإحسان، لعل ذلك يكون سبباً لهدايتهم.

﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (٩٦)

﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ أي: قابل السيئة بالحسنة، وعامل المسيء بالإحسان، فهو تأديب كريم رفيع، أدب الله به نبيه عليه الصلاة والسلام، وأمره به في سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٢٢).

وكان هذا من أخلاقه الكريمة الشريفة ﷺ، فعَلَّه عليه الصلاة والسلام حتى مع الدُّ أعدائه من مشركي قريش، فعندما فتح مكة، وتمكَّن من الانتقام منهم، عفا عنهم، وقال لهم كلمته المشهورة: «يا معشر قريش، ما ترون أنني فاعلٌ فيكم؟» قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابنٌ أخٍ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(١).

والجدير بالذكر أنه تعالى وصف المؤمنين بهذا الخلق الكريم في معرض الثناء عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ هُمُ عُبْدُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: نحن أعلم بالذي يصفونك به، ويذكرونك به

من السوء، وقد مرَّ معنا حكاية بعض أوصافهم له في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ (٧٠).

ولا شكَّ أنَّ هذا الخلق الكريم، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان، إذا فشا بين الناس، يؤدي إلى المحبة والسلام، ويدفع كثيراً من أسباب الخصام والنزاع، ويفوِّت على الشياطين فرصاً كثيرة لإثارة الفتن والمنازعات بين الناس، ولهذا أضافت الآيات الكريمة تبين السبيل المُنجي من وساوسهم ومكرهم وكيدهم:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (٩٧).

أي: من وساوسهم ونزغاتهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَأِمَّا يَرِغْنَاكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

والهمز في اللغة: النخس، ومنه مهماز الرائض الذي يهمز به الدابة، حثاً لها على المشي.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ (٩٨).

أي: أن يكونوا معي حاضرين، فإنَّهم عند حضورهم يتمكنون من الوسوسة والمكر.

وفي الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللَّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذَى، ثُمَّ لْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدْعُهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعُقْ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَةُ» [رواه مسلم (٢٠٣٣)].

ولهذا يُسنُّ التعوُّذ من الشيطان في كثير من الأمور والحالات، وخاصة عند النوم، روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلماتٍ يقولهنَّ عند النومِ مِنَ الْفَزَعِ: «بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ» فكان

عبد الله بن عمرو يعلمُها من بلغَ من ولده، أن يقولها عندَ نومِهِ، ومَنْ كانَ منهم صغيراً لا يَعْقِلُ أن يحفظَها، كتبَها له فعَلَّقَها في عُنْقِهِ. [رواه أبو داود (٣٨٩٣) والترمذي (٣٥٢٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٦٥) والحاكم (٢٠١٠) وصححه].

والجدير بالذكر أن الشيطان لا تَسَلَّطَ له على النبي ﷺ؛ لأنَّ الله تعالى عصمه من الإنس والجن، وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَلَ به قَربُئُهُ مِنَ الْجِنِّ» قالوا: وإيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: «وإيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أعانني عليه فأسلم، فلا يَأْمُرُني إِلَّا بخيرٍ» [رواه مسلم (٢٨١٤)].

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ بالاستعاذة من الشيطان، تعليم لأمتِهِ ومبالغة في التوقِّي من شر الشيطان ومكره.

* * *

سؤال الرجوع إلى الدنيا

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وبعد أن بينت الآيات مواقف المشركين من دعوة النبي ﷺ عادت مرة ثانية تصف أحوالهم عند الموت بنفس الأسلوب الأول، ففي المرة السابقة قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ وفي هذه المرة قال تعالى أيضاً:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: ردوني إلى الحياة الدنيا.

وكلمة ﴿حَتَّى﴾ هنا، كما هي هناك؛ لبيان غاية لمقدِّرٍ محذوف دلَّ عليه

ما سبق، وتقديره في المرة الأولى: ولا يزال القوم في غمرتهم وغفلتهم وأعمالهم المترفة الفاسدة، حتى نأخذهم بالعذاب، فإذا هم يجأرون. وتقديره هنا: لا يزالون متمسكين بعنادهم وإعراضهم، ووصفهم للنبي ﷺ بما لا يليق به من الأوصاف المذمومة، حتى يأتيهم الموت، فحينئذ يقول كل واحد منهم: ربّ ارجعون. والمراد من مجيء الموت مجيء مقدماته وسكراته.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أي: فيما ضيعت، وهي حياته الدنيا التي ضيعها في غير طاعة الله تعالى، فهي فرصة لا تعوض ولا تتكرر، وقد سبق في علم الله وتعلقت به إرادته ومشيتته، أنه عندما يخرج الإنسان من العدم، ويضعه على طريق الحياة، أن يكون هذا الطريق في اتجاه واحد، لا رجوع فيه إلى الوراء أبداً، وأن يمتد إلى الخلود في الجنة أو في النار. وسؤال الرجعة إلى الدنيا يتكرر منهم أكثر من مرة:

- عند الاحتضار، كما في قوله تعالى هنا، وفي قوله أيضاً: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

- وكذلك عند الحساب في أرض المحشر، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

- ويتكرر أيضاً منهم وهم يعدّون في جهنم، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وسياتي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

﴿كَأَنَّهَا كَلِمَةٌ هَوَّاقَاءُهَا﴾ أي: لا رجعة له أبداً، وسؤاله الرجعة كلمة لا بد أن يقولها في مثل هذا الموقف، بسبب ما يعاين من الهول والفرع. إنها كلمة الموقف الرهيب، لا كلمة الإخلاص المنيب، كلمة تقال في لحظة الضيق، ليس لها في القلب رصيد^(١).

وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: ومن أمامهم حاجز بينهم وبين الرجعة، إلى يوم يبعثون من قبورهم، وهذا الحاجز هو البرزخ الممتد من موتهم إلى يوم بعثهم من قبورهم، وهو إقناط كلي لهم عن الرجوع إلى الدنيا، إذ هي دار الفناء، والله تعالى خلقهم لدار الخلود والبقاء.

* * *

في يوم الخلود

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ (١٠١) ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٤) ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتْلُو عَلَيْنَا فُكْرَكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥) ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٧) ﴿قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ (١٠٨) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءً حَتَّىٰ أَسْوَأَكُمْ ذِكْرَىٰ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (١١٠) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١١).

وماذا يحدث إذا ما انقضى البرزخ، وجاء يوم الخلود؟:

(١) في ظلال القرآن: ٢٤٨٠/٤.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٠١﴾.

أي: إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وبعث الناس من القبور، لا يتساءلون سؤال تواصل، كما كانوا يتساءلون في الدنيا، فلا تنفعهم أنسابهم ولا أرحامهم، ولا يسأل أحد عن أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ آتْرَافٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

ولا تناقض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، فللقِيَامَةِ مواطن، ففي موطن يشتدُّ عليهم الخوف فلا يتساءلون، وفي موطن يفيقون فيتساءلون^(١).

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١٢﴾.

أي: من ثقلت موازينه بالحسنات، فرجحت على سيئاته، أو: من ثقلت موزناته من الأعمال الصالحة، لأنَّ لها قدراً ووزناً عند الله تعالى، فأولئك هم الفائزون بالخلود والبقاء والخير والنعيم، كما في أول آيات السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿١١٣﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: من خفت موازينه بالحسنات، فرجحت عليها سيئاته.

أو: لم يكن معه من الأعمال الصالحة ما يكون له وزن وقدر عند الله تعالى.

﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فأولئك غبنوا أنفسهم، وعرضوها لخسارة لا عوض لها.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ فهم ماكثون أبداً في جهنم، لا يخرجون منها.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٤).

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي: تحرق وجوههم النار.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ وهم فيها عابسون قد بدت أسنانهم، وتقلصت شفاههم، كالرأس المشوي على النار.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾: أن رسول الله ﷺ قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا، حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي السفلى حتى تضرب سرقته» [أخرجها الترمذي (٢٥٨٧) وصححه].

وتخصيص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، وإلا فالنار تحرق جميع أجسامهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].
ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً:

﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَاتِي تُلَىٰ عَلَيَّكُمْ فُكْرًا بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٥).

فما يملكون في الجواب إلا أن يعترفوا بسوء اختيارهم:

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦).

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: سيطرت علينا أعمالنا التي شقينا بها، فصدتنا عن الحق وأبعدتنا عنه. ولا شك أن أعمالهم من كسبهم واختيارهم.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: وكنا بعيدين عن طريق الحق والصراط المستقيم. ولا يخفى ما في كلماتهم من مرارة وندم وخوف.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي: أخرجنا من جهنم.

﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فإن عدنا إلى الكفر والتكذيب، فإننا حينئذٍ متجاوزون الحد في الظلم عريقون فيه.

ولكنهم سألوا أمراً مستحيلاً كما مر معنا في الآية: (١٠٠).

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾.

أي: اسكتوا سكوت هوان في جهنم، وانزجروا انزجار الكلاب، ولا تكلموني في رفع العذاب عنكم، أو لا تتكلمون مطلقاً.

ثم ذكّرهم سبحانه ببعض مواقف عنادهم وظلمهم، التي كانوا عليها في الدنيا؛ ليبين لهم أنهم يستحقون هذا العذاب، وأنه تعالى ما ظلمهم:

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾
﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا﴾ أي: سخرتم منهم واستهزأتم بهم، لأنهم آمنوا بي وسألوني المغفرة والرحمة.

﴿حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمُ ذِكْرِي﴾ أي: من فرط تشاغلكم بالاستهزاء بهم، نسيتم ذكري وأعرضتم عن طاعتي وعبادتي.

﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: تضحكون منهم؛ استهزاء بهم وسخرية، كما

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ﴾ [المطففين].

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: إني جزيتهم وأنعمت عليهم بسبب صبرهم على أذاكم، وثباتهم على إيمانهم، فوزهم بالفلاح والخلود في النعيم. وهذا على قراءة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بالفتح، وأما على قراءة ﴿إِنَّهُمْ﴾ بالكسر، فالمعنى: قد فازوا حيث صبروا^(١).

* * *

الأعمار والخلود

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

ولما كان اغترارهم بالدنيا، وانهماكهم بشهواتها، سبب إعراضهم عن الآخرة وإنكارهم لها، كما مر معنا فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿يَعِدُّكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون]، سألهم تعالى عن مقدار حياتهم التي عاشوها في الدنيا، ليبين لهم أنهم اغتروا بشيء قليل حقير:

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ وكم كان عدد السنين فيها؟
فأجابوا مستقصرين أعمارهم في الدنيا، بالنسبة إلى خلودهم في العذاب،

فالزائل المنتهي مهما طال قصيرٌ جداً بالنسبة للخالد الذي لا ينتهي، فكيف إذا كان خلوداً في العذاب؟! والإنسان عادةً يستطيل أيام المحنة، ويستقصر أيام الرخاء والراحة:

﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ .

أي: فاسأل الحفظة المهتمين بإحصاء الأعمار، فإننا لا ندرى مقدار ما سلف من أعمارنا، بسبب ما نحن فيه من ألم وشقاء وعذاب.

وقولهم: ﴿فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ يدل على شدة ضيقهم وتبرمهم وأساهم. وجاء تقديرهم لأعمارهم في آيات أخرى متفاوتاً، بسبب تفاوت أحوالهم، فعندما يحشرون من قبورهم، يتفاوت تقديرهم ما بين عشرة أيام إلى يوم واحد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١١٦﴾ يَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْئَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٨﴾ [طه].

وكلما اشتد بهم العذاب وتمادى، زاد استقصارهم لأعمارهم، حتى تصبح في نظرهم ساعةً من نهار، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

ويأتي قسمهم هذا تصديقاً لما سبق في الآيات الكريمة، وهي تثبت النبي ﷺ في مواجهة عنادهم، وكما أخبر تعالى في سورة الأحقاف في قوله الكريم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُونَ مَا يوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَّغْ فَبَلَ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١٤﴾ .

صدَّقهم سبحانه على استقصارهم لأعمارهم، ووبَّخهم على اغترارهم بهذه الأعمار القصيرة الحقيرة، وجهلهم بحقيقتها.

تنبيه وتقرير

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ .

والحياة الدنيا - مهما امتدت - ساعة من نهار أو أقل بالنسبة للخلود والبقاء، ويتعالى الله الحكيم العليم أن يخلق الخلق على هذا النظام البديع المحكم، لهذه الأعمار القصيرة الحقيرة الزائلة الفانية، فالإنسان لا ينتهي بالموت. هكذا مهدت الآيات الكريمة لهذا التقرير الحازم الجازم، الذي يواجه الناس بقوة وصراحة وصرامة لا نظير لها:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ .

فكان الآية تقول لهم: انتبهوا أيها اللاهون العابثون المغترون بحياتكم وأعماركم، فحياتكم قصيرة زائلة، ومصيركم ومرجعكم إلى خالقكم، إلى واهب الحياة ومبدع الكائنات.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ .

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزهه وتقدس أن يخلق الملك الحق شيئاً عبثاً ولعباً، فهو الملك الحق الذي لا يزول ملكه، المستحق للعبادة والطاعة. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ وهو رب العرش الكريم، فكيف يعبد ويلهو مالك وخالق العرش الكريم، أعظم المكونات وأكبرها، وقد مر معنا وصفه بالعظمة بجانب ذكره مع السماوات السبع: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

فالعرش كريم لجماله وكماله ولنسبته إلى أكرم الأكرمين، وعظيم لضخامته

وفخامته وسعته، جل جلال خالقه ومبدعه.

ولا بد للملك الحق المستحق وحده للعبادة والطاعة، أن يحاسب عبيده الذين يعبدون غيره:

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (١١٧).

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ أي: لا حجة له ولا برهان بدعوة غيره تعالى، فهي صفة لازمة لكل عبادة باطلة جيء بها للتأكيد، فلا يمكن وجود آلهة غير الله تستحق العبادة، يؤيدها دليل أو برهان، والتدين بما لا دليل عليه ممنوع، فضلاً عما دل الدليل على بطلانه^(١).

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: إنما حسابه وجزاؤه عند ربه في الآخرة، وفي هذا الحساب لا فلاح للكافرين، وهو ما قرره تعالى في ختام هذه السورة الكريمة. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: فلا فلاح للكافرين أبداً، بينما هو مقرر وثابت للمؤمنين، كما سبق في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١)، فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة، الفاتحة التي تقرر الفلاح للمؤمنين، والخاتمة التي تنفيه عن الكافرين.

ثم علمنا جلّ وعلا أن نتوجّه إليه دائماً بسؤال المغفرة والرحمة، لنبقى على طريق الفلاح، فلا غنى لنا عن مغفرته ورحمته جلّ وعلا:

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١١٨).

فرحمته سبحانه تغني عن رحمة غيره، بينما رحمة غيره لا تغني عن رحمته. اللهم آمين، وصلّ وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



(١) انظر: تفسير البضاوي: ٣٦٢/٤.

فهرس الموضوعات

تفسير سورة الكهف

العواصمُ من الفتن في سورة الكهف

- المقدمة ٥
- الفصل الأول: مُقدِّمة في الفتن: تعرّفها، المراد منها، أسبابها، سُبُل الوقاية منها ٧
 - تعريف الفتن ٧
 - المراد من الفتن ٨
 - أسباب الفتن ٩
 - أسباب السلامة من الفتن ١٠
 - باب الفتن ١٥
 - خبير الفتن يتحدّث ١٦
 - هلاك المسلمين بالفتن فيما بينهم ١٨
 - فتنة الدجال ١٩
- الفصل الثاني: سورة الكهف: فضائلها، سبب نزولها، موضوعها، وصلتها ٢١
 - بأسباب السلامة والعصمة من الفتن ٢١
 - فضائل سورة الكهف ٢١
 - سبب نزول السورة ٢٣
 - موضوع سورة الكهف ٢٤
 - الحياة في الدنيا ابتلاء واختبار ٢٦
 - كهف السلامة ٢٧
- الفصل الثالث: قصّة أصحاب الكهف ٣٠
 - مصادر القصة ٣١

- فوائد وحكم ٣٢
- الآيات البينات ٣٣
- صفات أصحاب الكهف ٣٤
- رَبُّطُ الله على قلوبهم ٣٥
- الخروج إلى الكهف ٣٧
- منطق المغرورين ٣٩
- في داخل الكهف ٣٩
- نومهم في الكهف ٤٠
- الحكم لله وحده ٤٢
- من آيات الله سبحانه ٤٣
- الحارس الأمين ٤٤
- البعث من النوم ٤٦
- محاورة بعد النوم ٤٧
- النقود الفضية ٤٨
- إظهار الحقيقة ٤٩
- مسجد على الكهف ٥٠
- تأديب وتعليم ٥١
- تعقيب ٥٣

• الفصل الرابع: قِصَّةُ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ ٥٥

- تمهيد: فتنة الغنى وفتنة الفقر ٥٦
- الغفلة عن ذكر الله ٥٨
- القصة الثانية: رجلان وجنتان ٥٩
- الجنتان ٦٠
- المحاورة ٦١
- عزة الإيمان ٦٢
- حسرة وندم ٦٣
- التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا ٦٥
- زينة الحياة الدنيا ٦٥

- الباقيات الصالحات ٦٧
- مشاهد من يوم القيامة ٦٧
- فتنة الشيطان ٦٩
- سبيل النجاة ٧١
- أمثال القرآن الكريم ٧٢
- أسباب الضلال ٧٣

• الفصل الخامس: قِصَّةُ مُوسَى وَالْحَضِرِ ٧٦

- موقع القصة في سورة الكهف ٧٧
- فتنة العلم ٧٧
- القصة في كتب السُّنَّة النبوية الشريفة ٧٩
- رحلة العجائب، مجمع البحرين ٨٢
- الحوت العجيب ٨٣
- العبد الصالح ٨٤
- موسى أفضل من الخضر ٨٦
- أدب ولطف ٨٧
- الجولة الأولى ٨٩
- الجولة الثانية ٩٠
- الجولة الثالثة ٩١
- كشف الأسرار ٩٢
- تعقيب ٩٥
- العمل بالإلهام غير جائز ٩٥

• الفصل السادس: قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ ٩٩

- فتنة الحكم ٩٩
- ذو القرنين ليس ملكاً من ملوك الفرس ١٠١
- ذو القرنين ليس الإسكندر المقدوني اليوناني ١٠٢
- هل ذو القرنين أحد ملوك اليمن الأولين؟ ١٠٤
- السائلون عن ذي القرنين ١٠٦
- التمكين والأسباب ١٠٧

- رحلات ذي القرنين ١٠٨
- الرحلة الأولى: إلى مغرب الشمس ١٠٨
- الرحلة الثانية: إلى مطلع الشمس ١٠٩
- الرحلة الثالثة: إلى ما بين السدين ١١١
- ما مَكَّنِّي فيه ربي خير ١١٢
- فأعينوني بقوة ١١٣
- بناء السد ١١٤
- هذا رحمة من ربي ١١٥
- سؤالان هَامَّان ١١٦
- «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرِّ قَدْ اقْتَرَبَ» ١١٧
- يأجوج ومأجوج ١١٨
- هل يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد؟ ١٢١
- فتحت يأجوج ومأجوج ١٢٢
- تحقيق في حديث ١٢٣
- موقع السد ١٢٤
- خاتمة السورة: التَّعْقِيبُ الْآخِرُ ١٢٧
- أعين وقلوب ١٢٨
- تهكُّم وإنكار ١٢٩
- كلمات الله تعالى ١٣١

تفسير سورة مريم

التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ

- المقدمة ١٣٣
- الفصل الأول: قِصَّةُ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ١٣٥
- الحروف المقطعة التَّوْرانية ١٣٥
- موضوع سورة مريم ١٣٧
- زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ١٣٧
- الولادة والولد من صفات النقص ١٣٨

- ١٣٩ - ملاحظة هامة
- ١٤٢ - الرب سبحانه والعبد
- ١٤٣ - في محراب مريم
- ١٤٥ - دعاء خفي
- ١٤٦ - من آداب الدعاء
- ١٤٧ - الدعاء بالولد الصالح
- ١٤٨ - ميراث الأنبياء
- ١٤٩ - البشارة بيحيى
- ١٥٠ - تعظيم قدرة الله تعالى
- ١٥٢ - علامة الحمل
- ١٥٣ - يحيى عليه السلام

• الفصل الثاني: قِصَّةُ عِيسَى وَمَرْيَمَ عليهما السلام

- ١٥٦ - المعجزة الكبرى
- ١٥٨ - الاعتزال إلى المشرق
- ١٥٩ - لقاء مع الروح
- ١٦٠ - المحاورة
- ١٦٢ - الحمل والولادة
- ١٦٣ - تمني الموت
- ١٦٤ - رحمة الله تعالى بمريم
- ١٦٦ - المنادي من تحتها
- ١٦٧ - المواجهة
- ١٦٩ - إني عبد الله
- ١٧١ - حقيقة عيسى وأمه
- ١٧٢ - الصراط المستقيم
- ١٧٣ - الاختلاف
- ١٧٥ - يوم الحسرة

• الفصل الثالث: التَّوْحِيدُ وَالتَّنْزِيهُ

- ١٧٨ - ملة التوحيد

- ١٨٠ - الضعفاء المتألهون
- ١٨١ - أدب الولد مع والده
- ١٨٥ - المهاجر الأول
- ١٨٧ - موسى وهارون ﷺ
- ١٨٧ - إسماعيل عليه السلام
- ١٨٩ - صفتان متلازمتان
- ١٩٠ - اتِّباع الشهوات
- ١٩١ - الوعد المآتي
- ١٩٢ - خضوع الملائكة لله تعالى
- ١٩٣ - الإيمان بيوم القيامة والتنزيه
- ١٩٤ - استنكار واستبعاد
- ١٩٥ - الجاثون حول جهنم
- ١٩٧ - القضاء المحتم
- ١٩٩ - سؤال وجواب
- ٢٠١ - سُخرية وجزاء
- ٢٠٢ - الاعتزازُ بغير الله ذلٌّ
- ٢٠٣ - ألعبوبة الشيطان
- ٢٠٤ - نبي الرحمة ﷺ
- ٢٠٦ - عهد عند الرحمن
- ٢٠٧ - القول الثقيل المنكر
- ٢٠٩ - الولد رحمة من الرحمن
- ٢١٢ • الخاتمة

تفسير سورة طه

سَبِيلُ السَّعَادَةِ فِي سُورَةِ طه

- ٢١٥ • المقدمة
- ٢١٧ • تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ
- ٢١٩ • الفصل الأول: عَظَمَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَظَمَةُ مُنْزِلِهِ ﷺ

- ٢١٩ - الحروف المقطعة النورانية
- ٢٢٠ - القرآن سعادة لا شقاء
- ٢٢٢ - سبيل السعادة
- ٢٢٣ - كمال صفاته جلّ وعلا
- ٢٢٥ - كمال أسمائه سبحانه
- ٢٢٧ • الفصل الثاني: قِصَّةُ مُوسَى ﷺ مَعَ فِرْعَوْنَ
- ٢٢٩ - تَمْهيد
- ٢٢٩ - أعظم حوادث القصة
- ٢٢٩ - ضعف وافتقار وحيرة
- ٢٣١ - آنستُ ناراً
- ٢٣٢ - في مقام النداء والنجوى
- ٢٣٣ - معرفة الله تعالى
- ٢٣٤ - عبادته سبحانه
- ٢٣٤ - ذِكْرُهُ سبحانه
- ٢٣٦ - المسؤولية والجزاء
- ٢٣٨ - تحذير
- ٢٣٨ - تأنيس وتسكين
- ٢٣٩ - المعجزة الأولى
- ٢٤٠ - المعجزة الثانية
- ٢٤١ - الرسالة
- ٢٤٢ - سؤال المعونة
- ٢٤٥ - سوابق الفضل الإلهي
- ٢٤٧ - الحب من جنود الله تعالى
- ٢٤٨ - تحريم المراضع
- ٢٤٩ - الابتلاء بالقتل
- ٢٤٩ - موعد وقدر
- ٢٥٠ - عدة الداعية وأسلوبه في الدعوة
- ٢٥٢ - تثبيت وتطمين

- مواجهة الطاغية ٢٥٣
- حوار الإيمان مع الكفر ٢٥٤
- جواب مُفْجَم ٢٥٦
- من دلائل وجوده سبحانه وجوده ٢٥٧
- الزوجية في المخلوقات ٢٥٩
- الإنسان والأرض ٢٦٠
- عناد وجحود ٢٦١
- الاستعداد ورسم الخطط ٢٦٣
- الجولة الأولى ٢٦٥
- الجولة الثانية ٢٦٦
- السجود لله تعالى ٢٦٦
- القمع والإرهاب ٢٦٧
- الإيمان يتحدى الطغيان ٢٦٨
- عاقبة الطغيان ٢٧٠
- تحذير وترغيب ٢٧١
- الفصل الثالث: قِصَّةُ مُوسَى ﷺ مَعَ السَّامِرِيِّ صَاحِبِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ ٢٧٤
- تمهيد ٢٧٥
- قبضة السامري ٢٧٦
- اعتذار كاذب ٢٧٧
- عبادة العجل الذهبي ٢٧٨
- موقف هارون ٢٧٩
- شقاء وطرد وحرمان ٢٨١
- حاملو الأوزار ٢٨٣
- النفخ في الصور ٢٨٤
- نفس الجبال ٢٨٦
- تلبية الدعوة ٢٨٧
- خيبة الظالمين ٢٨٨
- القصة عبرية والتنزيل عربي ٢٩٠

- ٢٩١ - الملك الحق سبحانه
- ٢٩٢ - فضل العلم
- ٢٩٤ • الفصل الرابع: قِصَّةُ آدَمَ ﷺ مَعَ الشَّيْطَانِ
- ٢٩٦ - الأكل من الشجرة
- ٢٩٧ - توبة وهداية
- ٢٩٨ - الشقاء في الدنيا والآخرة
- ٢٩٩ - الجزاء من جنس العمل
- ٣٠٢ • الخاتمة: التَّعْقِيبُ الْأَخِيرُ
- ٣٠٢ - الاتعاظ بالأولين
- ٣٠٣ - الصلاة والرضا
- ٣٠٤ - الرضا والغنى
- ٣٠٧ - الصلاة وطلب الرزق
- ٣٠٨ - القرآن الكريم أعظم المعجزات
- ٣٠٩ - قامت الحجة وأنزل القرآن الكريم

تفسير سورة الأنبياء

كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَأَمَّةُ التَّوْحِيدِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ

- ٣١١ • المقدمة
- ٣١٣ • تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ
- • الفصل الأول: الْمُسْلِمُونَ وَكَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَمَوَاقِفُ الْمُشْرِكِينَ مِنْهَا وَالْأَدِلَّةُ عَلَيْهَا
- ٣١٥ - اقتراب الحساب
- ٣١٦ - والقلوب لاهية
- ٣١٨ - والنفوس مضطربة حائرة
- ٣١٩ - الردود
- ٣٢١ - العرب والقرآن الكريم
- ٣٢٣ - إفناء وإنشاء
- ٣٢٤ -

- سقوط المترفين ٣٢٦
- سؤال الأطلال ٣٢٧
- إيمان اليأس ٣٢٨
- تنزهه سبحانه عن اللعب ٣٢٩
- قذف الحق على الباطل ٣٣٠
- تسبيح وتمجيد ٣٣١
- دليل التوحيد العقلي ٣٣٣
- دليل التوحيد النقلي ٣٣٥
- كلمة التوحيد ٣٣٦
- براءة الأنبياء مما نُسب إليهم ٣٣٧
- من أدلة التوحيد المحسوسة ٣٤٠
- الماء والحياة ٣٤٢
- الجبال أوتاد الأرض ٣٤٤
- السماء سقف الأرض ٣٤٥
- الليل والنهار والشمس والقمر ٣٤٦
- ناموس الموت والحياة ٣٤٦
- الفصل الثاني: حَامِلُو كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَرَوَّادُهَا ٣٤٩
- تمهيد ٣٥١
- الفاتح الخاتم ٣٥٢
- المستعجلون للعذاب ٣٥٣
- مواساة وتثبيت وتحذّر ٣٥٥
- دفع التوهم ٣٥٧
- الإنذار بالقرآن العظيم ٣٥٨
- نفحة عذاب ٣٥٨
- التوراة والقرآن ٣٦٠
- إمام الموحّدين إبراهيم عليه السلام ٣٦١
- تحطيم الأصنام ٣٦٤
- المحاكمة ٣٦٥

- ۳۶۸ - الحكم والتنفيذ
- ۳۶۹ - حسبي الله ونعم الوكيل
- ۳۷۰ - نجات إبراهيم ؑ من النار
- ۳۷۰ - الهجرة إلى الأرض المباركة
- ۳۷۱ - فضل بلاد الشام
- ۳۷۳ - إسحاق ويعقوب ؑ
- ۳۷۴ - لوط ؑ
- ۳۷۵ - نوح ؑ
- ۳۷۶ - داود وسليمان ؑ
- ۳۷۹ - تسبيح الجبال والطير
- ۳۸۰ - تسخير الريح والجن لسليمان ؑ
- ۳۸۱ - أيوب ؑ
- ۳۸۳ - صاحب الحوت يونس ؑ
- ۳۸۶ - زكريا ؑ
- ۳۸۷ - رجاء وخوف
- ۳۸۸ - مريم وابنها عيسى ؑ
- ۳۹۰ - أمة التوحيد
- ۳۹۱ - اختلاف الناس
- ۳۹۳ - بطلان مزاعم التناسخ والتقمص
- ۳۹۴ - يأجوج ومأجوج
- ۳۹۵ - الوعد الحق
- ۳۹۷ - السابقة الحسنى
- ۳۹۸ - الفزع الأكبر
- ۳۹۹ - طي السماوات
- ۴۰۰ - كيفية الحشر
- ۴۰۱ - تمكين الصالحين من الأرض
- ۴۰۳ - البلاغ والرحمة
- ۴۰۶ - لا إله إلا الله محمد رسول الله
- ۴۰۸ - آذنتكم على سواء

٤١٠ الخاتمة -

تفسير سورة الحج الطَّرِيقُ إِلَى الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ

- ٤١١ المقدمة •
- ٤١٥ تمهيد: مَوْضُوع السُّورَةِ •
- ٤١٧ الفصل الأول: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالْيَوْمِ الْآخِرِ •
- ٤١٨ - زُلْزَلَةُ السَّاعَةِ
- ٤١٩ - ذَهُولُ الْمُرْضِعَاتِ وَالْحَامِلَاتِ
- ٤٢١ - أَصْنَافُ الْكُفَّارِ
- ٤٢١ - الصنف الأول من الكفار: المقلِّدون
- ٤٢٣ - تقرير الأدلة
- ٤٢٣ - الإنسان والتراب
- ٤٢٤ - النطفة
- ٤٢٥ - الأربعينات
- ٤٢٦ - العلقة
- ٤٢٧ - المضغة
- ٤٢٨ - تحريم قتل الأجنة المعوقين
- ٤٢٩ - القدر المعلوم
- ٤٣١ - من الأشدَّ إلى أرذل العمر
- ٤٣١ - الزوجية في المخلوقات
- ٤٣٣ - الصنف الثاني من الكفار: المتكبرون
- ٤٣٤ - الصنف الثالث من الكفار: الماديُّون النفعيون
- ٤٣٥ - فِي حِمَى الْإِيمَانِ
- ٤٣٦ - الضلال البعيد
- ٤٣٧ - الفَعَالُ لما يريد
- ٤٣٧ - حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى
- ٤٣٩ - الخضوع والانقياد لله تعالى

- ٤٤٠ - الخصمان
- ٤٤١ - ثياب من نار
- ٤٤٢ - ثياب من حرير
- ٤٤٣ - القول الطيب

• الفصل الثاني: الْبَيْتُ الْحَرَامُ وَفَرِيضَةُ الْحَجِّ ٤٤٥

- ٤٤٦ - الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
- ٤٤٧ - الصَّدُّ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
- ٤٤٩ - الإِلْحَادُ فِي الْحَرَمِ
- ٤٤٩ - الأمة المسلمة والبيت الحرام
- ٤٥٠ - تلبية الدعوة
- ٤٥١ - منافع الحج
- ٤٥٢ - الأيام المعلومات
- ٤٥٣ - من مناسك الحج
- ٤٥٤ - تعظيم حُرُمَاتِ اللَّهِ
- ٤٥٦ - التحذير من الشرك وشهادة الزور
- ٤٥٧ - تعظيم شعائر الله
- ٤٥٨ - التحلل من الإحرام
- ٤٥٩ - الإسلام لله تعالى
- ٤٦٠ - البدن من شعائر الله
- ٤٦١ - التقوى والإحسان

• الفصل الثالث: الْجِهَادُ ٤٦٣

- ٤٦٤ - تَمْهِيدٌ: سُؤَالٌ وَجَوَابٌ
- ٤٦٥ - مشروعية الجهاد
- ٤٦٦ - وعد ووعد
- ٤٦٧ - الإِذْنُ بِالْقِتَالِ
- ٤٦٧ - قاعدة الانطلاق
- ٤٦٩ - الإِخْرَاجُ مِنَ الدِّيَارِ
- ٤٧٠ - من سماحة الإسلام

- ٤٧٠ - بشارة وثناء
- ٤٧١ - نبي الرحمة
- ٤٧٢ - الاعتبار بالآثار
- ٤٧٣ - الأجل المُسمّى
- ٤٧٤ - النبيُّ النذير
- ٤٧٦ - جدال وضلال
- ٤٧٧ - قسوة القلب
- ٤٧٩ - اليوم العقيم
- ٤٨٠ - قصة الغرائق
- ٤٨١ - عصمة النبي ﷺ من الشيطان
- ٤٨٢ - السجود لله تعالى
- ٤٨٤ - اتهام باطل
- ٤٨٥ - أمثلة مردودة
- ٤٨٧ - مصلحة الدعوة
- ٤٨٧ - فضل الهجرة
- ٤٨٨ - مواجهة العدوان

- ٤٩٠ • الفصل الرابع: الاصطفاء والاختيار للأمة المُسلمة
- ٤٩١ - الأرضُ المُحضَّرة
- ٤٩٢ - النواميس الكونية
- ٤٩٣ - إحكام واتِّساق
- ٤٩٥ - المنازعة في الدين
- ٤٩٦ - كمال علم الله تعالى
- ٤٩٨ - كمال قدرته سبحانه
- ٤٩٩ - اصطفاء الرُّسل
- ٥٠٠ - اصطفاء الأمة المسلمة
- ٥٠١ - الصلاة والتكليف بالجهاد
- ٥٠٣ - خير الأمم

تفسير سورة المؤمنون
الْإِنْسَانُ مِنَ الْبِدَايَةِ إِلَى الْخُلُودِ
فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ

- المقدمة ٥٠٥
- تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ ٥٠٧
- تفسير سورة المؤمنون: الْإِنْسَانُ مِنَ الْبِدَايَةِ إِلَى الْخُلُودِ فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ ٥٠٩
- المؤمنون هم المفلحون ٥٠٩
- على طريق الفلاح ٥٠٩
- الخاشعون في الصلاة ٥١٠
- المعرضون عن اللغو ٥١١
- الفاعلون للزكاة ٥١٢
- الحافظون لفروجهم ٥١٣
- الراعون للأمانات والعهود ٥١٤
- المحافظون على صلواتهم ٥١٤
- الوارثون ٥١٥
- البداية والخلود ٥١٧
- البداية ٥١٧
- أطوار الخلق ٥١٨
- الإمدادُ بأسبابِ الحياة ٥٢١
- الإمداد بأسباب الهداية ٥٢٥
- نوح ﷺ ٥٢٥
- التوحيد أولاً ٥٢٩
- مع الأنبياء والمرسلين ٥٣٢
- الطعام الحلال والعمل الصالح ٥٣٥
- الاختلاف والكُفر ٥٣٦
- غفلة وغرور ٥٣٧
- المسارعون إلى الخيرات ٥٣٩
- الصحوة المتأخرة ٥٤٢

- ٥٤٥ - الحق متبوع لا تابع
- ٥٤٧ - إعراض وعناد
- ٥٥٠ - تقرير وإلزام
- ٥٥٤ - إثبات التوحيد ونفي الشرك
- ٥٥٦ - تذكير وتأديب
- ٥٥٩ - سؤال الرجوع إلى الدنيا
- ٥٦١ - في يوم الخلود
- ٥٦٥ - الأعمار والخلود
- ٥٦٧ - تنبيه وتقرير
- ٥٦٩ • فهرس الموضوعات



التفسير الموضوعي لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

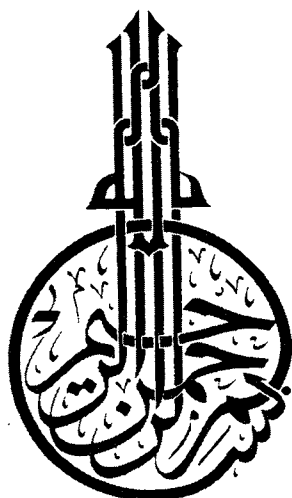
تأليف
عبدحميد محمود طه

المجلد السادس :

ويحتوي على تفسير هذه السور

التور - الفرقان - الشعراء - التمل - القصص
العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة - الأحزاب

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أسَّسَهَا:
مُحَمَّدٌ عِيسَى وَوَلَدُهُ
سَنَةُ ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

تفسير سورة النور التَّشْرِيعُ وَالْهِدَايَةُ فِي سُورَةِ النُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد أصبحت كثير من المجتمعات الإسلامية في أمس الحاجة إلى العودة إلى هُدي الشريعة الإسلامية، بعد أن ذقت مرارة فشل القوانين الوضعية، وقصورها وضعفها، وخاصة في المجال الاجتماعي والأخلاقي، فقد أورثتها القوانين الوضعية خللاً كبيراً في العلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء، وانحلالاً أخلاقياً كبيراً، أدّى إلى تفسخ العلاقات الزوجية، وانهيار كثير من الأسر، وضياع الأنساب، وكثرة المشردين، وازدياد مستوى الجريمة، وهي الآفات الاجتماعية نفسها التي أصيبت بها المجتمعات الغربية.

ولقد اهتمت آيات سورة النور اهتماماً كبيراً بهذا الجانب، وشرع الله تعالى فيها كثيراً من الأحكام، التي تطهّر المجتمع من آفاته، وتزكي نفوس أفرادها، فإذا أحسنوا تطبيق هذه الأحكام، وفّقوا إلى الالتزام الدائم بها.

وتفسير هذه السورة القرآنية المباركة: سورة النور في هذا التفسير لموضوعات السور القرآنية المباركة، قد أوضح هذه الحقيقة، من خلال موضوع

السورة، التي تدور معاني آياتها في فلكه، وهو موضوع التشريع والهداية، وما بينهما من ارتباط وثيق، وحاجة الإنسان الماسة إليهما.

وجاء تفسير السورة بحمد الله تعالى، في فصلين، متفقين مع تسلسل آياتها:

• الفصل الأول: ركّز على الجانب التشريعي وبيان الأحكام.

• الفصل الثاني: ركز على جانب الهداية، وأنها من الله تعالى، وبيّن

أسباب تحصيلها، واستنزال فضله تعالى ورحمته وتوفيقه.

أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين،

كخطوة لهم على الطريق للعودة إلى الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في كل شؤون الحياة. اللهم آمين.

وصلّى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

الإنسان محتاج إلى هداية الله تعالى، ولا غنى له عنها، وهو من دونها يعيش في ظلمات كثيفة، فهو محتاج أولاً إلى هداية البيان وتشريع الأحكام، وخاصة في حياته الاجتماعية، التي تتشابك فيها العلاقات بين أبناء المجتمع، وتشتجر وتتداخل، ويصبحُ الناس في أمسِّ الحاجة إلى الموازين الشرعية الدقيقة، التي تنيرُ لهم الدرب، وتلقي لهم الأضواء، وتبين الحلول الفاصلة للقضايا الشائكة المتداخلة في علاقاتهم الاجتماعية.

هذا هو الموضوع الأساس الأول في سورة النور، الذي قررته في أول آياتها: ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وتضمن هذا الجانب تشريع حدِّ الزنى، وتشريع حدِّ القذف، وتشريع اللعان.

وبعد بيان هذه التشريعات، أُلقت الآيات الأضواء على حادثة الإفك، فأظهرت الحقيقة، وبينت شدة حاجة الناس على بيان العليم الحكيم وهدايته.

ثم أتبع الآيات ذلك ببيان التشريعات الوقائية، التي تحمي المجتمع من آفات وشُرور الفواحش والزنى، فقررت حرمة للبيوت المسكونة، وشرعت الاستئذان قبل دخولها، وأمرت بغضِّ الأبصار، وحفظ العورات، وحرّمت على المرأة التبرج وإظهار الزينة، ثم شرعت الزواج، وحثت عليه، كما نادت بتحريم البغاء، وعملت على سد منافذه وقطع أسبابه.

ثم انتقلت الآيات إلى بيان حاجة الناس إلى هداية ثانية، وهي هداية التوفيق للالتزام بهذه الأحكام وتطبيقها، وهي أيضاً من الله تعالى، فقرّبت هذا

المعنى المجرد بالأمثلة المحسوسة، وفي أثناء ذلك بينت للإنسان الأسباب التي يستنزل بها رحمة الله تعالى ومعونته وتوفيقه.

وعادت الآيات في آخر السورة إلى موضوع التشريع وبيان الأحكام، فألقت أضواءها على تشريعات خاصة، بعضها مستثنى من عموم ما سبق بيانه من أحكام، وبعضها يعد تنمة لها، فجاءت السورة بحق سورة التشريع والهداية، سورة النور.



الفصل الأول التشريع وبيان الأحكام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَتِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَذَرُهَا عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) إِنْ لَدَيْنَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَبَرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مَبْهُتُنْ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ زَعُوفٌ رَجِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴿٢١﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَلَا يَأْتِلُ أَثَرُ الْأَفْضَلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَعْبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٦﴾ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٧﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٣٠﴾ قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣١﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِبِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْقَرَبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ ﴿٣٣﴾ وَلَيْسَتِ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكَسْبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ نَحْصًا لِلْبَغَاةِ

عَرَضَ لَعْنَةُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤﴾ .

• فرض وتفريض:

بدأ الله تعالى سورة النور بوصفها بثلاث صفات؛ تفخيماً لها، وتنبهها على الاعتناء بها، وتنوياً بأهميتها وأهمية ما شرع فيها من أحكام ومبادئ، فقال سبحانه:

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ أي: هذه سورة أنزلناها، كما أنزلنا غيرها من سور القرآن الكريم. وقرئت (سورة) بالنصب بفعل مقدر يفسره ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾، أو على تقدير: اقرأ سورة، أو: دونك سورة^(١).

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: أوجبنا العمل بما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً.

وهذا مما انفردت به هذه السورة، مما يدل على أهمية الأحكام التي شرعت فيها، وضرورة العمل بها، وقد اهتم بها الصحابة رضي الله عنهم كثيراً حتى كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الكوفة: علّموا نساءكم سورة النور^(٢).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يفسرها للحُجاج في عرفات، فقد أخرج الحاكم [٣/٦٠٣]: عن أبي وائل قال: حججتُ أنا وصاحب لي، وابن عباس على الحج، فجعل يقرأ سورة النور ويفسرها، فقال صاحبي: يا سبحان الله! ماذا يخرج من رأس هذا الرجل، ما رأيتُ ولا سمعتُ كلامَ رجلٍ مثله، لو سمعته فارس والروم لأسلمت.

وقرئت بالتشديد: (وَفَرَضْنَاهَا) بمعنى: فصّلناها، ونزّلنا فيها فرائض

(١) تفسير أبي السعود: ١٥٥/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١٥٨/١٢.

مختلفة، فهما قراءتان مشهورتان، وقد قرأ بكل واحدٍ منهما علماء من القراء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيبٌ، وذلك أنَّ الله قد فصلها، وأنزل فيها ضرباً من الأحكام، وأمر فيها ونهى، وفرض على عباده فيها فرائض، ففيها المعنيان كلاهما، التفريض والفرض^(١).

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وأنزلنا في هذه السورة علامات ودلالات على الحق واضحات، فمن تأملها وفكر فيها يجزم أنها من عند الله تعالى، فهي كما قال الإمام الطبري رحمته الله: الحق المبين، تهدي إلى الصراط المستقيم^(٢).

وأفاد تكرير كلمة ﴿أَنزَلْنَا﴾ إبراز كمال العناية بشأنها، وإظهار خطرها، وأهميتها في حياة الأفراد والجماعات، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَّيْنَاهُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨]^(٣).

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تتعظوا بما فيها، وتلتزموا بتشريعاتها، وتقفوا عند حدودها، فمن حقها أن تكونَ على دُكرٍ منكم، بحيث تستحضرونها كلما مسَّت الحاجة إليها.

• تشريع حد الزنى:

أول تشريع شرعه الحق تعالى في هذه السورة تشريع حد الزنى، وأشار تقديم هذا التشريع إلى وجوب المبادرة إلى تطبيقه على الزناة، قمعاً لهذه الجريمة، وتطهيراً للمجتمع من شرورها وعواقبها الوخيمة الذميمة، فإنَّ التراخي عن تطبيق هذا الحد يؤدي - كما هو معلوم من حال المجتمعات الحاضرة - إلى انتشار هذه الجريمة، واستفحال خطرها.

(١) تفسير الطبري: ٥٢/٧.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: روح المعاني: ٧٦/١٨.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ أي: فاضربوا كل واحد من الزانين مئة جلدة.

والجلد: الضربُ على الجلد، وفيه إشارة إلى أنه لا يبالغ بالضرب، ليصل الأذى إلى اللحم والعظم.

والخطابُ لولاية الأمر؛ لأنَّ إقامة الحد من الدين، وهي على جميع أفراد المجتمع، إلا أنهم لا يمكنهم الاجتماع، فينبو الإمام منابهم^(١).

وأجمع العلماء على أنَّ الواجبَ الجلدُ بالسَّوْط، والسوط الذي يجب أن يُجلد به يكون سوطاً بين سوطين، لا شديداً ولا ليناً^(٢).

والجلد حدُّ الزاني البكر، وهو الذي لم يتزوَّج، وأما الزاني المحصن، وهو الذي أحصن نفسه فتزوَّج امرأة في نكاح صحيح ودخل بها، فإنه يُرْجَم، لما ثبت في الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رجلاً من أسلم أتى رسول الله ﷺ فحدثه أنه زنى، فشهد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ فرْجَم، وكان قد أَحْصَنَ. [رواه البخاري (٦٨١٤) ومسلم (١٦٩١)].

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنه قالوا: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فقام رجل فقال: أَنَشِدُكَ اللَّهَ إِلَّا مَا قَضَيْتَ فِينَا بكِتَابِ اللَّهِ، فقام خصمُهُ وكان أفقه منه فقال: اقضِ بَيْنَنَا بكِتَابِ اللَّهِ وَائْذَنْ لِي. قال: «قل». قال: إِنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ عَسِيفاً عَلَى هَذَا، فزنى بامرأته، فافتديتُ منه بمئة شاة وخادم، ثم سألتُ رجلاً من أهل العلم، فأخبروني أنَّ على ابني جلد مئة وتغريب عام، وعلى امرأته الرَّجْم.

فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لأقضينَّ بينكما بكتابِ اللَّهِ جلَّ ذِكْرُهُ، المئةُ

(١) تفسير النسفي: ٣٦٤/٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١٦١/١٢.

شاةٍ والخادمُ ردًّا، وعلى ابنك جَلْدُ مِئَةٍ، وتغريبُ عامٍ، واغْدُ يا أنيسُ على امرأةٍ هذا، فإن اعترفتُ فارْجُمُهَا» فغدا عليها فاعترفت فرجمها. [رواه البخاري (٦٨٢٧)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه: لقد خشيتُ أن يطولَ بالناسِ زمانٌ، حتَّى يقولَ قائلٌ: لا نجدُ الرجمَ في كتابِ الله، فيصلوا بتركِ فريضةٍ أنزلها الله، ألا وإنَّ الرجمَ حقٌّ على مَنْ زنى وقد أحصنَ، إذا قامتِ البينةُ، أو كان الحملُ أو الاعترافُ. [رواه البخاري (٦٨٢٩)].

والمراد من قوله: «أو كان الحمل» أي: وُجِدَتِ المرأةُ الخلية من زوج أو سيد حُبلى، ولم تذكر شبهة ولا إكراه^(١).

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أي: لا تأخذكم في الزانيين رحمة ورقة في طاعة الله وحكمه، فيؤدي بكم ذلك إلى تعطيل الحدود، أو تخفيفها، فإنَّ إقامة الحدود طاعةٌ لله تعالى وعبادة له، لا يجوزُ تعطيلها، ولا التهاون في تطبيقها.

وكأنَّ الآيةَ الكريمةَ تخاطب في هذا الزمن أولئك المنادين بعدم تطبيق الحدود، بدافع الرأفة والرحمة بالزناة، مع أنه تعالى - وهو العليم الحكيم، والبر الرؤوف الرحيم - أعلم بما يصلح للناس، وما يقطع دابر الفساد عن مجتمعهم، ولهذا قال في ختام الآية:

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: فأقيموا حد الزنى ولا تتهاونوا فيه إن كنتم حقاً تؤمنون بالله واليوم الآخر.

ففيها حثٌّ وتهييجٌ على الالتزام بأحكام دين الله وشرعه، وتطبيق ما شرع من العقوبات الزاجرة، وأولها وأهمها حد الزنى.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليحضر إقامة الحد عليهما جماعة من المؤمنين، فلا يُقام الحد على الزانيين سرّاً، بل يُقام جهراً أمام ملاء من الناس، زيادةً في التنكيل بهما، وزجراً لغيرهما عن هذه الجريمة.

وهذا يدلُّ على خطورة جريمة الزنى، وأنَّ لها آثاراً سيئة كبيرة في البنية

الاجتماعية والخلقية والصحية للأمة، فينبغي المسارعة إلى معالجة هذه الآفة الخطيرة وحسبها، وتطهير المجتمع منها.

ومن كمال الشريعة الإسلامية أنها لم تقتصر على تشريع العقوبات الحاسمة الزاجرة لآفة الزنى بعد وقوعها، بل شرعت أيضاً عدداً من التشريعات الوقائية، تحول دون وقوعها، فالوقاية خيرٌ من العلاج، ولا شك أن للزنى أسباباً تؤدي إليه، وقد عملت الشريعة الإسلامية على قطع أسبابه، أشار إلى هذه الأسباب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وهذا ما اتجهت آيات سورة النور إلى بيانه بأسلوب رفيع معجز، أدب فيه العليمُ الحكيمُ المؤمنين بأعلى الآداب وأسمائها، ورباهم تربية حكيمة، طهرت قلوبهم، وهذبت نفوسهم، وصانت ألسنتهم عن لوث الفُحشِ، وبذاءة القول، وهُجر الكلام.

● التنفير من الزنى:

بدأت الآيات أولاً تنفر المؤمنين من الزنى، بتصويره بصورة قبيحة مزرية:

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ أي: الزاني المتصف بالزنى والمصرُّ عليه، لا يليقُ به أن ينكحَ العفيفة المؤمنة، وإنما يليقُ به أن ينكحَ زانيةً فاجرةً مثله، أو مشركة هي أسوأ حالاً منه.

﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: وكذلك الزانية، لا يليقُ أن ينكحها إلا مَنْ هو مثلهما، وهو الزاني، أو مَنْ هو أسوأ حالاً منها وهو المشرك.

وأما المسلم العفيف فَعَيْرُهُ تَأْبَى عليه نكاح الزانية.

وَتَجَنَّبُ الْأَسْوَدَ وَرُودَ مَاءٍ إِذَا كَانَ الْكَلَابُ وَلَغْنَ فِيهِ

فالآية سيقَّت للتنفير من الزنى، وتقبيح حال الزناة، ولا يُشكِّل على هذا صحة نكاحه إياها، وعدم صحة نكاح المشرك^(١).

﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وحُرِّم الزنى على المؤمنين، وخَصَّهم بالذكر لشرفهم. ويحتمل أن يكون التحريم لنكاح الزانية، وعليه فالمراد من التحريم المنع، وجعل نفوسهم تترفع عنه، فلا يليق ذلك بهم.

وقد رُوي في سبب نزول الآية: أن رجلاً يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأةً بغيةً بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقةً له، وواعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجنُّت حتى انتهيتُ إلى ظلِّ حائطٍ من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق فأبصرت سوادَ ظلِّ تحت الحائط، فلمَّا انتهتُ إليَّ عرفتني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هلمَّ فبتْ عندنا الليلة. فقلت: يا عناق حرِّم الله الزنى. فقالت: يا أهلَ الخيام، هذا الرجلُ يحملُ أسراكم. قال: فتبعني ثمانية، فأنتهيتُ إلى غارٍ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي، وبالوا فظل بولهم على رأسي، وأعماهم الله تعالى عني. ثم رجعوا ورجعتُ إلى صاحبي، فحملته حتى قدمتُ المدينة، فأتيتُ النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك، ولم يردَّ عليَّ شيئاً حتى نزل: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثدُ لا تنكِحها» [رواه أبو داود (٣٠٥١) والنسائي (٦٦/٦) والترمذي (٣١٧٧)].

• تشريع حد القذف:

والتراشق بتهمة الزنى يؤدِّي إلى إشاعته في المجتمع، كما يؤدي إلى نشر الخصومات والمنازعات بين أبنائه، ولهذا شرع الله تعالى عقوبة جسديةً وأدبيةً لمن يرمون غيرهم بجريمة الزنى، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَلَجِدُوهُنَّ مَتَّعِينَ جَلْدَةً وَلَا نَقْبِلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ١٥﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: يقذفون المؤمنات العفيفات بالزنى، وعدم التصريح به لدلالة الآية السابقة عليه.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: ثم عجزوا عن إثبات صحة ما قالوا بالبينة، وهي أن يأتوا بأربعة شهداء عدول يشهدون على الزنى.

فسأَن الزنى أخطر من غيره، ولهذا جعلت الشريعة بينة ثبوته أربعة شهداء، بينما القذف بغير الزنى بأن يقول: يا فاسق، يا آكل الربا، يُكتفى فيه بشاهدين، قال تعالى: ﴿وَأَلَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحْشَاءُ مِنْ زُجَّائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥].

وهذا يدل على شدة حرص الشريعة الإسلامية على حماية أعراض الناس، وحماية جو المجتمع من البلبلة والاضطراب، والقلق والريبة، بسبب التراشق بالزنى، فشدت في ثبوت الزنى، وشرطت له أربعة شهود عدول، يشهدون على معاينتهم للجريمة، فإذا ما شهد ثلاثة رُدَّتْ شهادتهم، وعُدُّوا قاذفين، وجُلِدوا حَدَّ القذف، وهو ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة بأنه زنى، وهم أبو بكره نُفَيْعُ بن الحارث، وأخوه نافع، وشبل بن معبد البجلي، فلمَّا جاؤوا لأداء الشهادة، توقَّفَ الشاهد الرابع: زياد بن أبيه، ولم يؤدِّها، فجلدَ عمرُ الثلاثة المذكورين^(١).

وذكر تعالى في الآية النساء مِنْ حَيْثُ إِنَّ رَمِيَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ أَشْنَعُ وَأَنْكِي لِلنَّفُوسِ، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك^(٢).

ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ على أنه لا حَدَّ على من رمى رجلاً أو

(١) تفسير القرطبي: ١٧٨/١٢.

(٢) المرجع السابق: ١٧٢/١٢.

امراً قد ثبت عليهما الزنى سابقاً ببينة أو إقرار، فهو يدل بمفهومه على أن من رمى غير محصنة لا حد عليه، لكن يلزم تعزيره، ولا يُترك عرضُ مَنْ ثبت عليه الزنى مباحاً دون عقوبة رادعة لمن يرميه بالزنى^(١).

﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي: مهما كانت هذه الشهادة، في قذف أو غيره، فرد شهادته جزء من عقوبة القذف، المؤلفة من العقوبة المادية، وهي جلدهُ ثمانين جلدَةً، ومن العقوبة الأدبية المعنوية، وهي ردُّ شهادته وعدم قبولها مدة حياته.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: وأولئك عند الله تعالى فاسقون، خارجون عن طاعته، ومتجاوزون لحدود شريعته.

وهذا تقرير لما قبله، يبين سوء حالهم عند الله ﷻ.

ودلَّ اسم الإشارة ﴿وَأُولَئِكَ﴾ على بُعد منزلتهم في الشر والفساد، أي: أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة، والتجاوز عن الحدود، الكاملون فيه، المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، لا غيرهم من الفسقة^(٢).

وفتحت الآيات بعد هذا التأديب والتهذيب باب التوبة والإنابة للمذنبين من القاذفين، بهذا الأسلوب التربوي الرفيع، الذي يؤدّب المذنبين، ثم يأخذ بأيديهم ليلحقهم بقافلة الصالحين، في ساحات رحمته تعالى ومغفرته:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: إلا الذين تابوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب القبيح، وأصلحوا ما أحدثوا من فساد في المجتمع، بتكذيبهم أنفسهم، واستسلامهم للحد، واستحلالهم من المقدوف.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم.

(١) أضواء البيان: ١٢٣/٦.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٥٨/٦.

وهل تُعَادُ للقاذفين عدالتهم، وتُقبَلُ شهادتهم بعدَ توبتهم، ويرجع الاستثناء في الآية إلى الفسق والنهي عن قبول الشهادة؟ رأى بعض العلماء ذلك، ورأى أنه ليس القاذف بأشدَّ جرماً من الكافر، فحقه إن تاب وأصلح أن تقبلَ شهادته، وإذا قبلَ الله توبته، فلا بدَّ أن تقبلَ شهادته.

وتمسَّك بعضهم بظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وقصر الاستثناء على الجملة الأخيرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لكن إذا زالَ عنهم اسمُ الفسق، فلم لا تقبلَ شهادتهم، وقد ردت بسبب فسقهم؟!^(١).

• تشريع اللعان:

وقد يحدث القذف في داخل الأسرة بين الزوجين، فيقذف الزوج زوجته، وهو أخطر أنواع القذف، وهذا يؤدي إلى انهدام الأسرة، وتقطيع أواصر الأرحام والأنساب، ولهذا شرع له العلميم الحكيم أحكاماً خاصّة، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَتْ أَحَدُهُمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: والذين يقذفون زوجاتهم بالزنى، ولا يستطيعون إثبات ذلك، لعدم توفر أربعة شهداء، ويسبب هذا الأمر للزوج معاناة نفسية كبيرة وحرماً، كما جاء في سبب النزول.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حدٌّ في ظهرك».

فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً، ينطلق يلتمس البينة؟! فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حدٌّ في ظهرك».

فقال هلال: والذي بعثك بالحق إنني لصادق، فليُنزلن الله ما يبرئ ظهري

من الحدِّ، فنزلَ جبريلُ، وأنزلَ عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلالٌ فشهد، والنبي ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمْ كاذِبٌ، فهل منكما تائبٌ؟».

ثم قامت فشهدت، فلمَّا كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلکَّأتُ ونكصتُ حتى ظننا أنها ترجعُ، ثم قالت: لا أفضحُ قومي سائرَ اليوم، فمضت. فقال النبي ﷺ: «أبصروها، فإن جاءت به أكحلَ العينين، سابغُ الأَلَتَيْنِ، خَدَّلَجَ السَّاقَيْنِ، فهو لشريك بن سحماء».

فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتابِ الله لكان لي ولها شأنٌ» [رواه البخاري (٤٧٤٧)].

ودل الحديث على أنَّ نزولَ آياتِ اللعانِ تأخَّرَ عن الآياتِ السابقة، التي شرعت حدَّ القذف، ويبدو أنَّ سببَ النزول تكرر:

فعن سهل بن سعد: أن عويمراً أتى عاصمَ بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً؟ أيقـُتله فتقتلونه؟ أم كيف يصنع؟ سل لي رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فأتى عاصمُ النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله. فكره رسولُ الله ﷺ المسائلَ، وقال لعويمر: إِنَّ رسولَ الله ﷺ كرهَ المسائلَ، قال عويمرُ: والله لا أنتهي حتى أسألَ رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فجاء عويمرُ فقال: يا رسولَ الله، رجلٌ وجدَ مع امرأته رجلاً، أيقـُتله فتقتلونه؟ أم كيف يصنع؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «قد أنزلَ الله القرآنَ فيكَ وفي صاحبَتِكَ» فأمرهما بالملاعنة. [رواه البخاري (٤٧٤٥)].

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: فالواجب أن يشهد الزوج القاذِفُ على زوجته أربعَ شهاداتٍ بالله تعالى أنه صادقٌ فيما رماها به من الزنى.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: والشهادة الخامسةُ أنَّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى.

ودلت الآيةُ على أنَّ اللعانَ واجبٌ على الزوج إذا رمى زوجته بالزنى،

واختلف العلماء في حال امتناع الزوج عن اللعان، فرأى بعضهم أنه يُحَدُّ حَدَّ القذف، وهو ما ذهب إليه الأئمة الثلاثة، خلافاً لأبي حنيفة القائل بأنه يُحْبَسُ حتى يلاعِنَ، أو يكذِّب نفسه فيقام عليه حد القذف^(١).

﴿وَيَذَرُوهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٨) **وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ** (٩)

﴿وَيَذَرُوهَا الْعَذَابَ﴾ أي: يُدْفَعُ عن الزوجة العذاب الدنيوي، وهو الحبس عند بعض العلماء، والحد عند الآخرين.

والأصل اختلافهم في ثبوت الزنى، ووجوب الحد بنكول الزوجة عن اللعان، فذهب أبو حنيفة وأحمد إلى القول بأنه لا حَدَّ عليها بنكولها عن الشهادات، وتحبس أيضاً حتى تلاعن أو تقر، فيقام عليها الحد؛ لأنَّ شهادات الزوج ونكولها هي لا يتحقق بواحد منهما ولا بهما مجتمعين ثبوت الزنى عليها، وذهب الشافعي ومالك ومن وافقهما، إلى أنها تحد بشهاداته ونكولها^(٢).

﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: إن كان زوجها لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى.

﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: إن كان الزوج من الصادقين فيما رماها به من الزنى.

وجعل سبحانه الغضب في جانبها؛ ردعاً لها، لأنَّ النساء يستعملن اللعن كثيراً، كما ورد به الحديث، فربما يجترئن على الإقدام، لكثرة جري اللعن على ألسنتهنَّ، وسقوط أثر وقوعه عن قلوبهن^(٣).

(١) أضواء البيان: ١٣٣/٦.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تفسير النسفي: ٣٧١/٤.

والحديث المشار إليه رواه ابنُ عمرَ رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «يا معشرَ النساءِ تصدَّقْنَ، وأكثرنَ الاستغفارَ، فإنِّي رأيتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النَّارِ».

فقالت امرأةٌ منهن جزلةً (أي: ذاتُ عقلٍ ووقارٍ): وما لنا يا رسول الله أكثرَ أهلِ النارِ؟ قال: «تُكثِرُنَّ اللعْنَ، وتكفُرُنَّ العشيرَ، وما رأيتُ مِنْ ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أغلبَ لذي لبٍّ منكُنَّ».

قالت: يا رسول الله، وما نقصانُ العقلِ والدينِ؟ قال: «أما نقصانُ العقلِ، فشهادةُ امرأتينِ تعدِلُ شهادةَ رجلٍ، فهذا نقصانُ العقلِ، وتمكُّثُ اللياليِ ما تصلي، وتفطرُ في رمضانَ، فهذا نُقصانُ الدِّينِ» [رواه مسلم (٧٩)].

وتجلَّت في هذه الأحكام الشرعية المبينة في الآيات رحمته تعالى بعباده المؤمنين، وحكمته في كل ما شرع لهم، ولهذا قال تعالى في معرض الامتنان عليهم:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: كثير التوبة، يتجاوز عن التائبين بقبول توبتهم، حكيم في كل ما شرع لكم. وحذف جواب (لولا) تعظيماً له، وإشعاراً بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: ولولا تفضُّله تعالى عليكم ورحمته، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيمٌ في جميع أفعاله وأحكامه، لكان ما كان ممَّا لا يحيطُ به نطاقُ البيانِ، ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع ذلك، لوجب على الزوج حد القذف، مع أنَّ الظاهرَ صدقُه، لأنَّه أعرفُ بحال زوجته، وأنه لا يفترى عليها لاشتراكهما في الفضيحة، وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل سبحانه شهادة الزوج موجبةً لحدِّ الزنى على الزوجة، لفات النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبةً لحد القذف عليه لفات النظر له، فآثار التفضُّلِ والرحمةِ غيرُ خافية، أما على الصادق فظاهر، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، ودرء الحدِّ عنه، وتعريضه للتوبة، فما أعظم شأنه، وأوسع رحمته، وأدقَّ حكمته^(١)!

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٠/٦.

إنَّ تشريعَ أحكامِ اللعانِ قد أُنارَ طريقَ الخلاصِ من هذه الأُزمةِ المستَحكمةِ، التي يُمْكِنُ أن يتفاقمَ شرُّها، وينتشرَ ضرُّها في نطاقِ المجتمعِ الكبيرِ خارجِ الأسرةِ.

● حادثة الإفك:

ثم أُلقت آياتُ سورةِ النورِ الضوءَ على أخطرِ مشكلةِ اجتماعيةِ واجهتِ النبيَّ ﷺ في المدينة المنورة، والتي كادتْ آثارُها السلبية الخطيرة أن تزعزعَ وحدةَ المجتمعِ المسلمِ الوليدِ، الذي حرصَ النبيُّ ﷺ على تقويةِ بنائه، ورصِّ صفوفِ أبنائه، فأظهرتِ الحقيقةُ، وبددتِ الشكوكَ، وأعادتِ للمجتمعِ المسلمِ في المدينة المنورة وحدتهِ وصفاءه، بعد أن فضحتِ المنافقين، وكشفتِ كيدهم ومكرهم بالنبيِّ ﷺ وأهله على وجهِ الخصوص، كما أظهرتِ في الوقتِ نفسه خطورةَ القذفِ بالزنى، وخطورةَ ما يؤدي إليه من شقاقٍ ونزاعٍ وإشاعةٍ للفاحشةِ بين أبناءِ المجتمعِ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِفْكِ وَالَّذِي قَوْلُكَ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ أي: إن الذين جاؤوا بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، جماعةٌ منكم.

والعصبة: من ثلاثة إلى عشرة، والمشهور في الروايات الصحيحة: أنهم عبد الله ابن أبي بن سلول، ومسطح بن أثاثه، وحمئة بنت جحش، وحسان بن ثابت^(١).

وأصلُ الإفك من الأفك، وهو القلبُ والصِّرفُ، فهو قول مأفوك عن وجهه، والمرادُ منه ما أُفِكتَ به السيدة عائشة رضي الله عنها.

وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم، من غير أن يكون له أصل^(١).

وسبب نزول هذه الآيات: تبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها من حديث الإفك.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل، ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمْتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأني، أقبلتُ إلى رَحْلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزَعِ ظَفَارٍ قد انقطع، فالتمسْتُ عِقْدي، وحسبني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهْطُ الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هَوْدَجِي، فرحلوه على بعيري الذي كنتُ ركبْتُ، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساءُ إذ ذاك خِفافاً لم يثقلهنَّ اللحمُ، وإنما يأكلنَّ العُلُقَةَ (أي: القليل) من الطعام، فلم يستنكرنَّ القومُ خِفةَ الهودج حين رفعوه، وكنتُ جاريةً حديثة السنَّ، فبعثوا الجملَ وساروا، فوجدتُ عِقْدي بعدما استمرَّ الجيشُ، فَعَجْتُ منازلَهُم، وليس بها داع ولا مجيبُ، فَأَمَمْتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أَنَّهُم سيفقدونني فيرجعون إليَّ.

فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمتُ، وكان صفوانُ بنُ المعطلِ السُّلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأدْلَجَ، فأصبحَ عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبلَ الحجابِ، فاستيقظتُ باسترجاعِهِ حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، والله ما كلَّمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه، حتَّى أناخَ راحلته، فوطئَ على يديها

فركبُها، فانطلقَ يقودُ بي الراحلةَ حتى أتينا الجيشَ بعدما نزلوا موغرين في نحرِ الظهيرة، فهلكَ مَنْ هلكَ، وكان الذي تولَّى الإفكَ عبدُ الله بنُ أبي ابن سَلُول.

فقدمنا المدينةَ، فاشتكيْتُ حينَ قدمتُ شهراً، والناسُ يفيضون في قول أصحابِ الإفكِ، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلك، وهو يُريئني في وجعي أني لا أعرفُ مِنْ رسولِ الله ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرى مِنْهُ حينَ أشتكي، إنَّما يدخلُ عليَّ رسولُ الله ﷺ فيسلمُ ثم يقول: «كَيْفَ تَيْكُم؟» ثم ينصرفُ، فذاك الذي يُريئني ولا أشعرُ بالشرِّ، حتى خرجتُ بعدما نقهْتُ، فخرجتُ معي أُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ الْمَنَاصِعِ، وهو متبرِّزُنا، وكُنَّا لا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبلَ أن تُتخذَ الكُنفُ قريباً من بيوتنا.

فانطلقتُ أنا وأُمُّ مِسْطَحٍ - وهي ابنةُ أبي رهم بن عبد مناف، وأُمُّها بنت صخر بن عامرٍ خالةُ أبي بكر الصديق، وابنها مِسْطَحُ بن أثاثة - فأقبلتُ أنا وأُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ بيتي، وقد فرغنا من شأننا، فَعُثِرْتُ أُمُّ مِسْطَحٍ في مِرْطَها فقالت: تَعَسَ مِسْطَحُ. فقلتُ لها: بئسَ ما قلتِ، أَسَبَّيْنِ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ قالتُ: أي هنتاه، أولم تسمعي ما قال؟ قالتُ: قلتُ: وما قال؟ فأخبرتني بقولِ أهلِ الإفكِ، فازددتُ مرضاً على مرضي.

فلَمَّا رجعتُ إلى بيتي، ودخلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ، تعني سلَّم، ثم قال: «كَيْفَ تَيْكُم؟» فقلتُ: أأُذِنُ لي أن آتي أباي - قالت: وأنا حينئذٍ أريدُ أن أستيقنَ الخبرَ مِنْ قِيلِمَا - قالت: فأذِنَ لي رسولُ الله ﷺ.

فجئتُ أباي، فقلتُ لأمي: يا أُمَّتاه ما يتحدثُ الناسُ؟ قالتُ: يا بنية هُوَني عليكِ، فوالله لقلَّما كانتِ امرأةٌ وضِيئةٌ عندَ رجلٍ يحبُّها، ولها ضرائرُ إلا أكثرنَ عليها، قالتُ: فقلتُ: سبحانَ الله، أو لقد تحدَّثَ الناسُ بهذا؟! قالتُ: فبكيْتُ تلكَ الليلةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لا يرقأُ لي دَمْعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، حَتَّى أَصْبَحْتُ أبكي.

فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ وأسامَةَ بنَ زيدٍ رضي الله عنهما حينَ استلبتُ الوحى، يستأمرهما في فراقِ أهله.

قالت: فأما أسامةُ بنُ زيدٍ فأشارَ على رسولِ الله ﷺ بالذي يعلمُ من براءةِ أهليه، وبالذي يعلمُ لهم في نفسه من الودِّ فقال: يا رسولَ الله هُمُ أهلكَ، وما نعلمُ إلا خيراً. وأما عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: يا رسولَ الله، لم يضيّقِ اللهُ عليكِ، والنساءُ سواها كثيرٌ، وإن تسألِ الجاريةَ تصدقكِ.

قالت: فدعا رسولُ الله ﷺ بَرِيرَةَ، فقال: «أيُّ بريرةُ، هل رأيتِ من شيءٍ يريبُكِ؟» قالت بَرِيرَةُ: لا والذي بعثك بالحقِّ، إن رأيتُ عليها أمراً أغمضه عليها، أكثرَ من أنها جاريةٌ حديثُ السنِّ، تنامُ عن عجينِ أهلها، فتأتي الداجنُ فتأكلهُ.

فقام رسولُ الله ﷺ، فاستعذرَ يومئذٍ من عبدِ الله بنِ أبي ابنِ سلولٍ، فقال رسولُ الله ﷺ وهو على المنبرِ: «يا معشرَ المسلمين، مَنْ يعذرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي^(١)! فوالله ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخلُ على أهلي إلا معي».

فقام سعدُ بنُ مُعاذٍ الأنصاري فقال: يا رسولَ الله، أنا أعذرُك منه، إن كانَ من الأوسِ ضربتُ عنقه، وإن كانَ من إخواننا مِنَ الخزرجِ أمرتُنا ففعلنا أمرَكَ.

قالت: فقام سعدُ بنُ عُبادةَ وهو سيّدُ الخزرجِ - وكان قبلَ ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملتهُ الحميةُ - فقال لسعدٍ: كذبتَ لعمركُ الله، لا تقتله، ولا تقدرُ على قتله.

فقام أُسيّدُ بنُ حُضيرٍ - وهو ابنُ عمِّ سعدِ بنِ مُعاذٍ - فقال لسعدِ بنِ عُبادةَ: كذبتَ لعمركُ الله لنقتله، فإنَّكَ منافقٌ تجادلُ عن المنافقين.

فتساوَرَ الحيّانِ الأوسُ والخزرجُ، حتى همُّوا أن يقتتلوا، ورسولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبرِ، فلم يزل رسولُ الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فمكثتُ يومي ذلك لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ.

قالت: فأصبحَ أبواي عندي وقد بكيتُ ليلتينِ ويوماً، لا أكتحلُ بنومٍ، ولا يرقأ لي دمعٌ، يظنَّانِ أنَّ البكاءَ فلقُ كبدي.

(١) في هذا دليل قاطع على أن أمهات المؤمنين هم أهل بيته خلافاً لما تزعمه الرافضة.

قالت: فبينما هما جالسانِ عندي وأنا أبكي، فاستأذنتُ عليَّ امرأةٌ من الأنصارِ، فأذنتُ لها، فجلستُ تبكي معي.

قالت: فبينما نحنُ على ذلك، دخلَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ، فسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قالت: ولم يجلسْ عندي منذُ قِيلَ ما قِيلَ قبلها، وقد لبثَ شهراً لا يوحى إليه في شأني، قالت: فتشهدَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَ جلسَ، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً فَسِيرْكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ، وَتَوْبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ إِلَى اللهِ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ».

قالت: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتهُ قَلَصَ دَمْعِي، حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. قال: والله ما أدري ما أقولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ. قالت: ما أدري ما أقولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ. قالت: فَقُلْتُ - وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيراً مِنَ الْقُرْآنِ -: إِنِّي وَاللهُ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَقْتُمْ بِهِ، فَلَيْتُنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ - وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ - لَا تَصَدَّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَيْتُنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ - وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ - لَتَصَدَّقَنِي. وَاللهُ مَا أَجْدُ لَكُمْ مِثْلاً إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فَرَاشِي.

قالت: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مَبْرُئِي بِبِرَائَتِي، وَلَكِنْ وَاللهُ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مَنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحِياً يُتْلَى، وَلِشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحَقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يَبْرِئُنِي اللهُ بِهَا.

قالت: فَوَاللهِ مَا رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْخَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنَ الْعَرَقِ، وَهُوَ فِي يَوْمِ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَيْهِ.

قالت: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلُ

كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ ﷻ فَقَدْ بَرَّأكَ» فقالت أُمِّي: قومي إليه. قالت: فقلت: والله لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا الله ﷻ. وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ...﴾ الآيات العشر كلها [١١ - ٢١].

فلَمَّا أنزلَ اللهُ في براءتي قال أبو بكر الصديق ﷺ، وكان ينفقُ على مُسْطَحِ بنِ أثاثه لقربته منه وفقره: والله لا أنفقُ على مُسْطَحِ شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال. فأنزلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] قال أبو بكر: بلى والله، إنِّي أحبُّ أن يغفرَ اللهُ لي. فرجعَ إلى النفقة التي كان ينفقُ عليه. وقال: والله لا أنزعُها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسولُ اللهِ ﷺ يسألُ زينبَ بنتَ جَحْشٍ عن أمري، فقال: «يا زينبُ، ماذا علمتِ أو رأيتِ؟» فقالت: يا رسولَ اللهِ، أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيراً. قالت: وهي كانت تساميني من أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ، فعصمها اللهُ بالورع، وطفقتُ أختها حَمْنَةُ تحاربُ لها، فهلكتُ فيمَن هلك من أصحابِ الإفكِ» [رواه البخاري (٤٧٥٠)].

وبعد أن بين الله تعالى كذب الحديث الذي تحدثوا به عن السيدة عائشة ﷺ، وجَّه سبحانه الخطابُ إلى جميع المسلمين، الذين آلمهم وأحزنهم حديثُ الإفكِ، وفي مقدمتهم النبي ﷺ، والسيدة عائشة، ووالدها الصديق، وصفوان بن المعطل السلمي، يواسيهم بقوله الكريم:

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: لا تحسبوا حديثَ الإفكِ شراً لكم، بل هو خيرٌ لكم، أظهر فيه تعالى كرامتكم عنده، فأنزل هذه الآيات الكريمة، تعظيماً لشأنكم، وإظهاراً لبراءتكم، وتهويل الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن فيكم خيراً، كما أنه سبحانه أثابكم عليه الثواب العظيم، وأدب المؤمنين بأعظم الآداب، وبين لهم ما يجب عليهم أن يتصفوا به من الأقوال والأفعال، في مثل تلك الأحوال.

وأما الذين أذاعوا حديث الإفك :

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي: لكل واحد منهم جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه، مما يدل على تفاوتهم في خوضهم في حديث الإفك.
 ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: والذي تحمّل معظمه، أو: والذي بدأ بإذاعته ونشره بين الناس، له عذاب عظيم في الدنيا والآخرة. وهو رأس المنافقين في المدينة المنورة، عبد الله بن أبي ابن سلول، كما مرّ في حديث سبب النزول.

وفي مرسل سعيد بن جبیر: وقذفها عبد الله بن أبي فقال: ما برئت عائشة من صفوان ولا برئ منها، وخاضَ فيه بعضهم، وبعضهم أعجبه.
 ووقع في «المغازي»: من طريق صالح بن كيسان، عن الزهري، عن عروة قال: أخبرْتُ أنه كان يشاع ويتحدّث به عنده، فيقره ويستمعه، ويستوشيه. [رواه البخاري (٤١٤١)]^(١).

• تأديب وتوبيخ:

ثم أدبَت الآيات المؤمنين، وبَيَّنَّت لهم الموقف الذي ينبغي أن يقفوه عند سماعهم مثل حديث الإفك، بقوله تعالى:

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: كان الواجبُ على المؤمنين والمؤمنات عند سماعهم حديث الإفك، أن يبادروا إلى تكذيبه، ويحسنوا الظن بالذين اتُّهموا به من المؤمنين والمؤمنات، لأنهم كنفس واحدة، كما قال تعالى في سورة الحجرات [١١]: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، فالإيمانُ رَحِمٌ بين المؤمنين، يوجب عليهم ظن الخير ببعضهم، والكفّ عن الطعن فيهم، ومنع الطاعنين عنهم، كما يمنعونهم عن أنفسهم.

﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ردوا ما سمعوا من طعن وافتراء، وقالوا: هذا كذب واضح لا حقيقة له.

ولا يخفى ما في الآية من توبيخ وعتاب لعامة المؤمنين، الذين لم يبادروا إلى ردِّ حديث الإفك وتكذيبه، ولذلك عدل عن الخطاب إلى الغيبة، كما صرَّح بلفظ الإيمان، ليدل على أن الاشتراك فيه، يقتضي ألا يصدَّق مؤمنٌ على أخيه، ولا مؤمنةٌ على أختها قولٌ عائبٍ ولا طاعنٍ، وهذا من الأدب الحسن، الذي قلَّ القائم به والحافظ له^(١).

قال ابن كثير رحمته الله: «هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين، في قصَّة عائشة رضي الله عنها، حين أفاضَ بعضهم في ذلك الكلام السوء، وما ذكر من شأن الإفك. وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهلها وأولى به»^(٢). ولأجل هذا قال العلماء: إنَّ الآية أصلٌ في أن درجة الإيمان، التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلَّها المؤمن، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم، لا يزيلها عنه خبرٌ محتملٌ وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً^(٣).

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾^(١٣).

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: هلاً جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا، فالله تعالى جعل شهادة الشهداء الأربعة هي الفاصل بين الرمي الصادق والكاذب، كما مرَّ عند قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

وكما وصفهم تعالى في الآية السابقة بالفسق، وصفهم هنا بالكذب فقال:

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ أي: فأولئك الخائضون في

(١) تفسير النسفي: ٣٧٨/٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٩١/٢.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٠٣/١٢.

حكم الله وشرعه، هم المتمادون في الكذب، المستحقون لإطلاق اسمه عليهم دون غيرهم.

وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة، وهو صادق في قذفه، لكنّه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانه إنّما ربّ الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا، لا على مقتضى علمه الذي تعلّق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يُبنى على ذلك حكم الآخرة^(١).

ولا شكّ أن الذين قذفوا السيدة عائشة عليها السلام كاذبون في الحقيقة والواقع وفي علمه تعالى وفي شرعه.

وبعد أن بينت الآيات حكمه تعالى بالقاذفين، توجهت إليهم بالخطاب، تبين لهم فضله تعالى عليهم، بامهالهم وعدم معاجلتهم بالعقاب:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: لأصابكم بسبب ما خُضتم فيه من حديث الإفك، عذاب عظيم في الدنيا والآخرة، وهذا الفضل منه تعالى لمن تاب وأناب، ورجع عما اتهم به السيدة عائشة عليها السلام، وأكذب نفسه.

● البهتان العظيم:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّةِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّةِ﴾ أي: يأخذه بعضكم من بعض، يقال: تلقّى القول وتلقّاه وتلقّاه، وقرئ: (تتلقونه) على الأصل، دون حذف التاء.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: وتحدثون به من غير أن تعلموا أنه

حق، فحديثُ الإفك مجردُ قولٍ لا سندَ له، ولهذا قيده بالأفواه، مع أنَّ القول لا يكون إلا بها؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ^(١).
 ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: وتظنونونه سهلاً لا إثمَ فيه، وهو عند الله ذنبٌ عظيم.

فما أعظمَ غَيْرته جَلَّ وعلا على حَرَمِ نبيه عليه الصلاة والسلام!.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: والواجبُ عليكم عندما سمعتم حديثَ الإفك أن تقولوا: ما يصحُّ لنا أن نتكلم بهذا الحديث.
 وهو أدبٌ آخرُ ألزم الله تعالى به المؤمنين، إضافة إلى ما سبق من وجوب إحسان الظن بهم، فالواجب عليهم أن يزجروا أنفسهم عند سماعه عن التكلم فيه، وعليهم أن يقولوا:

﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾: وكلمة ﴿سُبْحَنَكَ﴾ للتعجب من عظمِ القول، إذ الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، أو لتزيه الله أن تكون زوج نبيه ﷺ فاجرة ^(٢).

والبهتان العظيم: الكذب العظيم، عظمه الله تعالى لعظمة المفترى عليه، وهي الصديقة بنت الصديق، السيدة عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين.

﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَعْظُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحرم الله عليكم تحريماً قطعياً دائماً.

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣٧٩/٤.

(٢) تفسير النسفي: ٣٨٠/٤.

﴿أَنْ تَعُوذُوا لِمِثْلِهِ﴾ لمثل هذا الحديث، من القذف أو استماعه.
 ﴿إِنْ كُنْتُمْ حَقًّا﴾
 ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يمنع عن كل فيح.

﴿وَيَبِّينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَيَبِّينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: ينزلها سبحانه عليكم مبينات، تنير لكم الطريق، وتكشف الحقيقة، كما ذكر سبحانه في أول آيات السورة: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.
 ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ أي: علیم بجميع أحوالكم، حكيم في كل ما شرع لكم، وقد علم تعالى براءة السيدة عائشة، وحكم بذلك.
 • التعقيبات:

ظهرت الحقيقة، وتبددت الأراجيف والأكاذيب، بعد أن أنزل الله هذه الآيات الكريمة، التي ألقى النور الكاشف للحقيقة، على هذه الحادثة الخطيرة، فدفعت التهمة، وتوعدت القائلين بها، ودعتهم إلى التوبة والإنابة، ووبّخت السامعين لها، الذين لم يبادروا إلى ردها وتكذيبها، وأدبت أبناء المجتمع بما أدبتهم به من الآداب الرفيعة، القائمة على حُسن الظن بالمؤمنين في مثل هذه الوقائع والأحوال. ثم عقت على ما حدث بقوله سبحانه الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يحبون أن ينتشر الزنى، ويظهر في مجتمع المؤمنين، وذلك بقذف المؤمنين والافتراء عليهم، ونشره وإذاعته بين الناس، فإن ذلك يؤدي إلى انتشار الفواحش والزنى وانحلال الأخلاق؛ ولهذا توعدهم الله تعالى بأشد أنواع الوعيد فقال:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: والله يعلم وجه الحكم في تشديد الوعيد على هؤلاء الكذبة المفترين، إذ يؤدي افتراؤهم إلى إشاعة الفواحش والمنكرات، التي تهدم المجتمع المسلم، وتقوّض أركانه وقواعده من داخله.

وهذا يدل على رحمته تعالى بالمؤمنين، وإحسانه إليهم، وعنايته بطهارة مجتمعهم وسلامته، ولهذا شرع لهم هذه الأحكام، وأدبهم بهذه الآداب، ومنّ عليهم فقال:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

وهو تكرير لمنتته تعالى عليهم فيما شرع لهم، ليتمسكوا بشرعه، ويلتزموا بأحكامه، فهي وحدها التي تزكّي نفوسهم ومجتمعاتهم من الفواحش والمنكرات، ولهذا قال بعدها محذراً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تسلكوا مسالك الشيطان، وتعرضوا عن أحكام دينكم وشريعة ربكم.

وما أكثر مسالك الشيطان، التي تبعد المسلمين عن شريعة ربهم! ولا شك أنّ أحكام القوانين الوضعية، المخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية، هي من مسالك الشيطان التي تؤدي إلى شيوع الفواحش والمنكرات.

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أي: فاحذروا اتباعه، لأنّ دأبه المستمر أن يأمر بالفحشاء والمنكر.

والفحشاء: الأمر المفرط في القبح، ويراد به عادة الزنى.

والمنكر: ما ينكره الشرع من التبرُّج والاختلاط وكشف العورات، المؤدية إلى انتشار الزنى وانحلال الأسر، واختلاط الأنساب، وهو ما ابتليت به أكثر المجتمعات الإسلامية، بسبب إعراضها عن شرع الله تعالى، وتقليدها للأمم الغربية الكافرة، وتطبيقها لقوانينهم الوضعية، التي دأبت على نشر الفساد، وتمكينه في نفوس الناس.

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: ولولا فضل الله عليكم، بفتح باب التوبة لكم، ورحمته بقبولها منكم، ما طهر من دنس إثم الإفك أحد أبداً.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يطهر من يشاء بمحض إرادته جل وعلا. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوال التائبين المستغفرين، ويعلم حقيقة أحوالهم، وما تكنه نفوسهم وصدورهم، وهو حثُّ لهم على الإقبال على التوبة والاستغفار، بعد الإعراض عن اتباع الشيطان، وترك الفواحش والمنكرات.

• فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

ثم أوردت الآيات بعد هذا التعقيب العام، الموجه إلى عامة المسلمين، تعقياً خاصاً بصيغة العموم:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ أي: لا يحلف أولو الفضل منكم في الدين والسعة في المال. من: ائتملى، إذا حلف. أو: لا يقصر، من الأولو.

والمراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه كما سيأتي معنا، وكفى به دليلاً على فضله.

﴿أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لا يحلفوا على ألا يحسنوا إلى المستحقين للإحسان، من الأقارب والمساكين والمهاجرين.

وهي صفاتٌ اجتمعت في موصوف واحد، وهو مسطح بن أثاثه، وكان

مسكيناً مهاجراً، ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما تقدّم في حديث السيدة عائشة عن سبب النزول، حيث قالت: «فلما أنزل الله في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثاثه لقرابته منه وفقره -: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً» [رواه البخاري (٤٧٥٠)].

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي: وليعفوا عما فرط منهم، عندما تحدّثوا بحديث الإفك، وليتجاوزوا عن العقوبة والانتقام منهم.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: فافعلوا بهم ما ترجون أن يفعل الله بكم من الرحمة والمغفرة.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر ويرحم مع كمال قدرته على المؤاخذه، فهو ترغيبٌ عظيمٌ في العفو، ووعدٌ كريمٌ بمقابلته.

ودلّت الآية على فضل أبي بكر رضي الله عنه وشرفه، فقد ذكر تعالى الفضل في معرض المدح بلفظ الجمع، ودل أيضاً على أنّ من حلف على يمينٍ فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خيرٌ، وليكفر عن يمينه، كما ورد في الحديث الشريف^(١).

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ» [رواه مسلم (١٦٥٠)].

• الكفر الغليظ:

وختمت الآيات تعقيباتها على حديث الإفك، بلعنة موجّهة إلى جميع القاذفين الكاذبين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: إن الذين يرمون النساء العفيفات المؤمنات، اللاتي لم يخطر ببالهن شيء مما رُمين به من الفاحشة، مما يدل على كمال نزاهتهن، وأنهن سليمات الصدور، تقيات نقيات عن كل سوء.

ولا شك أن المراد بهذه الأوصاف السيدة عائشة رضي الله عنها، وصيغة الجمع باعتبار أن رميها رمي لسائر أمهات المؤمنين؛ لاشتراكهن في العصمة والنزاهة، والانتساب إلى رسول الله ﷺ، فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات، فجعل رميهن كفراً؛ إبرازاً لكرامتهن على الله ﷻ، وحماية لحمى الرسالة من أن يحوم حولها أحد بسوء، حتى إن ابن عباس رضي الله عنهما جعله أغلظ الذنوب من سائر أفراد الكفر، حين سئل عن هذه الآية فقال: مَنْ أَذْنَبَ ذَنْباً ثُمَّ تَابَ مِنْهُ قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، إِلَّا مَنْ خَاضَ فِي أَمْرِ عَائِشَةَ رضي الله عنها. قال أبو السعود تعليقاً على قول ابن عباس: وهل هو منه ﷺ إلا لتهويل أمر الإفك، والتنبيه على أنه كفرٌ غليظ؟! (١).

قال ابن كثير رحمته الله: «هذا وعيدٌ من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، خرج مخرج الغالب (المؤمنات)، فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة، على أن من سبها بعد هذا، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر معاند للقرآن الكريم» (٢).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لعظم ذنوبهم، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا توبة له، ولو فشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظ مما نزل في إفك عائشة رضي الله عنها (٣).

(١) تفسير أبي السعود: ١٦٦/٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٩٤/٢.

(٣) تفسير البضاوي: ٣٨٣/٤.

وتابعت الآيات وعيدها الشديد، بقوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: بما كانوا يعملون في الدنيا من الإفك والبهتان، فَيُنْطَقُ الله أبعاضهم شاهدة عليهم.

﴿يَوْمَذِ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يَوْمَذِ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم الحق الثابت الذي هم أهله.
﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أي: ويعلمون أنَّ وعد الله ووعيده وحسابه هو العدل الظاهر الذي لا جور فيه.

• براءة وبشارة:

ثم قررت الآيات هذه القاعدة العامة، تأكيداً لبراءة السيدة عائشة رضي الله عنها، وتوطئة للتصريح بها في ختام هذه الآيات الكريمة:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبته أهل النفاق إلى السيدة عائشة رضي الله عنها من كلام، هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم، ولهذا قرر تعالى هذه الحقيقة وصرح بها فقال:

﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: هم بريئون مما يقوله أهل الإفك والعدوان.

ويمكن أن يكون المعنى أيضاً: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وحيث كان رسول الله ﷺ

أَطِيبَ الطَّيْبِينَ، وخيرة الأولين والآخرين، تَبَيَّنَ كَوْنُ الصَّدِيقَةِ ﷺ مِن أَطِيبِ الطَّيْبَاتِ بالضرورة، واتضح بطلانُ ما قِيلَ في حقها، ومآل هذا القول تنزيه الصَّدِيقَةِ أيضاً.

﴿هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم، وهي بشارة عظيمة للسيدة عائشة ﷺ ولأمهات المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْتَنُ مِنْكُمْ لَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا تُوَفَّهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

• تشريع الاستئذان:

وكما قررت الآيات السابقة حرمة أعراض الناس، فصانت أعراضهم، وحفظت كرامتهم، قررت الآيات اللاحقة حرمة البيوت المسكونة، فحرمت دخولها دون استئذان ساكنيها، ومنعت بذلك اختلاط الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن من غير استئذان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٧).

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إنني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحدٌ عليها، لا والدٌ ولا ولدٌ، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجلٌ من أهلي وأنا على تلك الحال. فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾^(١).

قال القرطبي رحمه الله: «لما خصص الله سبحانه بني آدم، الذين كرمهم وفضلهم بالمنازل، وسترهم فيها عن الأبصار، وملأهم الاستمتاع بها على الانفراد،

حجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج، أو يلجوها من غير إذن أربابها، وأدّبهم بما يرجع إلى الستر عليهم؛ لئلا يطلع أحد منهم على عورة»^(١).
﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي: تستأذنوا من يملك الإذن من سكانها.

وأصل معنى الاستئناس: الاستعلام، من أنس الشيء إذا أبصره، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَيْنَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُذًى﴾ [طه: ١٠].

فالمستأنس مستعلمٌ للحال، مستكشفٌ أنه هل يؤذن له.
وقد يكون الاستئناس الذي هو خلافُ الاستيحاش، فالمستأنس مستوحشٌ خائفٌ ألا يؤذن له، فإذا أذن له استأنس.
أو حتى تتعرفوا هل ثمة إنسان، من الإنس^(٢).

وذهب بعضهم إلى أنَّ الاستئناس، إعلامُ أصحاب البيت وإشعارهم بالقدوم عليهم، بأيّ وجه ممكن، كالتنحج والتكلم، واستدلوا بما أخرجه ابن ماجه [٣٧٠٧]: عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام، فما الاستئناس؟ قال: «يتكلم الرجلُ بتسبيحةٍ وتكبيرَةٍ وتحميدةٍ ويتنحجُ، ويؤذنُ أهلَ البيتِ».
قال القرطبي: «وهذا نصٌّ في أن الاستئناس غير الاستئذان»^(٣).

لكنَّ إعلامَ القادم أهل البيت بقدومه لا يعدُّ إذنًا له بالدخولِ عليهم، فلا بد من الاستئذان، لصريح قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

﴿وَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ أي: عند الاستئذان.

فحكمُ الآية أنه لا يُدخَلُ بيتُ الغير، إلا بعد الاستئذان والسلام، سواء

(١) تفسير القرطبي: ٢١٢/١٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣٨٥/٤.

(٣) تفسير القرطبي: ٢١٤/١٢.

كان الباب مغلقاً أم مفتوحاً، لأنَّ الشرعَ قد أغلقه بتحريم الدخول، حتى يفتحه الإذن من أهله^(١).

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: الاستئذان والسلام خيرٌ لكم من الدخول بغتةً من غير إذن، لعلكم تذكرون هذه الأحكام، وتلتزمون بالعمل بها، فإنَّ لها دوراً كبيراً هاماً في تنظيم حياتكم الاجتماعية.

وقد صرَّحت الأحاديثُ الشريفةُ بحكمة الاستئذان وضرورته، فعن سهل بن سعد الساعدي: أَنَّ رجلاً أَطْلَعَ فِي جُحْرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِذْرَى يَحْكُ بِهَا رَأْسَهُ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُنِي لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ، إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ» [رواه مسلم (٢١٥٦)].
والمِذْرَى: آلَةٌ يَسْوَى بِهَا الشَّعْرُ، تَشْبِيهِ الْمُشْطِ.

وعن عطاء بن يسار: أَنَّ رجلاً سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ: «أَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا» فَقَالَ: إِنِّي خَادِمُهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا، أَتَحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عَرْيَانَةً؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَأَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا» [رواه مالك في «موطئه» في باب الاستئذان برقم (٩٠١)].
ومما يدل على أهمية الاستئذان، أَنَّ الآيات الكريمة فَصَّلَتْ أَحْكَامَهُ فِي أَحْوَالِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨).

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ليأذن لكم فلا تدخلوها إلا بإذن منهم، لأن التصرف في ملك الغير لا بدَّ أن يكونَ برضاه.

وإن كان أهلها غيرَ مستعدين لاستقبالكم والإذن لكم فارجعوا:

﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فَأَرْجِعُوا﴾ أي: ولا تخرجوا سكان البيوت، ولا تلهؤوا في الاستئذان، وتطيلوا الوقوف على الأبواب.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له، فليرجع» [رواه مسلم (٢١٥٣)].

وهذا يدل على واقعية أحكام الشريعة الإسلامية، وتقديرها لأحوال الإنسان وظروفه، فقد تمرُّ بالإنسان أحوالٌ في بيته لا تمكّنه من استقبال أحدٍ، وقد يكون قولهم: ﴿اَرْجِعُوا﴾ بلسانٍ حالهم، كأن يجد الزائر على الأبواب إعلاناً بمواعيد الزيارة، أو يشعر بوجود حركة في البيت تدلُّ على انشغال سكانه، وعدم استعدادهم لاستقباله.

﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: الرجوع أطهر وأطيب لكم، لما فيه من سلامة الصدور ودفع الحرج، فليس من المروءة إطالة الوقوف على الأبواب، فإن ذلك يعرضه للريبة والتهمة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فالترموا بهذه الأحكام، فإنكم مسؤولون عنها.

ثم استثنت الآيات من أحكام الاستئذان دخول البيوت التي لم تخصص للسكنى، وإنما هي بمثابة مرافق عامة، يدخلها من له حاجة فيها، كالحوانيت والفنادق، ومحطات السكك الحديدية، وغيرها من الأماكن المعدة لمصالح الناس:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا

تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ أي: فيها منفعة لكم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: والله تعالى يعلم حقيقة مقاصدكم، وهو وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل، قاصداً لفسادٍ أو اطلاعٍ على عوراتٍ، فإنه تعالى شرع أحكام الاستئذان، درءاً لهذه المفاسد.

• وجوب غض الأبصار وحفظ العورات:

ولهذا أضافت الآيات إلى أحكام الاستئذان، أحكاماً عامة شاملة، تندرج فيها آداب الزيارة والاستئذان اندراجاً أولياً، فيها تربية وجدانية نفسية، تقوم على تنمية الإحساس بالمراقبة الإلهية، وجعل الوجدان الداخلي يقظاً حذراً، كابحاً لنزوات النفس وشهواتها:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠)

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: يكفوا أبصارهم عما يحرم عليهم، ويقتصروا على ما يحل لهم.

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ، وتكليفه بتبليغهم الحكم، يدلُّ على أنه متعلق بأمور واقعية جزئية كثيرة الوقوع.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلَا الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلَا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلَا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ» [رواه مسلم (٣٣٨)].

قال النووي: فيه تحريمُ نظرِ الرجلِ إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا ممَّا لا خلاف فيه، وكذا الرجلُ إلى عورة المرأة، والمرأة إلى عورة الرجل، حرامٌ بالإجماع^(١).

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ أي: يحفظوها عن الزنى والفواحش، ويستروها عن لا يحل له النظر إليها.

ودل تقييد غض الأبصار بـ (من) التبعية، دون حفظ الفروج، على وجود

شيء من السعة في النظر، أمّا الزنى فلا رخصة فيه أبداً، فالنظرة الأولى التي لا يمكن الاحتراز عنها، لا مؤاخذه عليها.

وفي الحديث الشريف: عن بُرَيْدَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَلِيٍّ: «يَا عَلِيُّ، لَا تُتَبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الْأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الْآخِرَةُ» [رواه أبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧) وقال: حديث حسن غريب].

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ، فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصْرِي. [رواه مسلم (٢١٥٩)].

فالنظرة الأولى لا تُمْلِكُ، فلا تدخل تحت خطاب التكليف، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصوداً، فلا تكون مكتسبة، فلا يكون مكلفاً بها، فوجب التبعض لذلك، ولم يقل ذلك في الفرج؛ لأنها تُمْلِكُ، ولقد كره الشعبي أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمّه أو أخته، وزمانه خير من زماننا هذا، وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذاتٍ مُحَرَّمَةٍ نظرَ شهوةٍ يرددها^(١).

وأشارت الآية بتقديم غض الأبصار على حفظ الفروج، إلى خطورة النظر المحرّم، وأنه بريدُ الزنى، ورائدُ الفساد، وأكد ذلك الحديث الشريف: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مُحَالَهَ، فَزَنَى الْعَيْنُ النَّظْرَ، وَزَنَى اللِّسَانُ الْمُنْطَقَ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يَصْدُقُ ذَلِكَ كُلُّهُ وَيَكْذِبُهُ» [رواه البخاري (٦٣٤٣)].

وقوله: «أدرك ذلك لا محالة» لا يعني الإيجاب وتجريد الإنسان عن كسبه واختياره، وكلُّ ما كتبه الله على آدمي، فهو قد سبق في علمه تعالى، والإنسان لا يعلم ما كتبه تعالى عليه، وهو مكلف بما أمره تعالى وشرع له، وله في ذلك كسب واختيار يسأله الله عنه، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام في نهاية الحديث: «والنفس تمنى وتشتهي».

﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: الغض من الأبصار وحفظ الفروج أطهر لنفوسهم

ومجتمعاتهم من دنس الفواحش، وآفات الزنى وأضراره الصحية والخلقية والاجتماعية.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم ومقاصدهم، فليكونوا على حذر منه تعالى في جميع تصرفاتهم.

وأظهرت الآيات خطورة هذه الأحكام، وأهميتها في حياة الناس رجالاً ونساء، فكررت الخطاب في حق النساء، مع أنهن يدخلن في الخطاب الأول دخولاً ضمنيّاً:

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ إِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلَ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي: فهنّ في هذا مكلفات كالرجال، بغضّ الأبصار وحفظ الفروج.

• تحريم كشف مواضع الزينة:

ثم شرعت الآيات أحكاماً خاصة بالنساء، كُلِّفْنَ بها لأنهنّ موضع الفتنة، فقالت:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: لا يكشفن ويظهرن ما يتزين به من أنواع الزينة أمام الأجانب عنهن، فالمراد تحريم كشف مواضع الزينة من جسد المرأة.

والزينة حلالٌ للمرأة تلبية لفطرتها، فكل أنثى مولعة بأن تكون جميلة، وأن تبدو جميلة.. والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة الفطرية، ولكنه ينظمها ويضبطها، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد، هو شريك الحياة، يطلع منها

على ما لا يَطَّلُعُ أحد سواه، ويشارك معه في الاطلاع على بعضها المحارم المذكورون في الآية بعدد، ممَّن لا يثيرُ شهواتهم ذلك الاطلاع^(١).

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: إلا ما ظهر منها بنفسه، عند مزاولة المرأة لأمر ضرورية لا بدَّ لها منها، كالخاتم في إصبع اليد، وأطراف الثياب، فإنَّ في سترها حرجاً كبيراً يشق عليها.

واختلف العلماء في الزينة المستثناة ومواضعها، قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: الوجه والكفان، وقال ابن مسعود: هي الثياب، وقال ابن عباس: هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف، فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للرجل الأجنبي النظر إليه للضرورة، مثل تحمُّل الشهادة ونحوه من الضرورات، إذا لم يخف فتنة وشهوة، فإن خاف شيئاً من ذلك غَضَّ البصر^(٢).

ثم أضافت الآية بعد تقرير الحكم، بيان كيفية إخفاء مواضع الزينة، فقالت: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: عليهن أن يرسلن خمرهنَّ على جيوبيهن، سترًا لما يبدو من أعناقهن وصدورهن.

والخُمْرُ: جمع خِمَارٍ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها.

والجُيُوبُ: جمع جَيْبٍ، وهو فتحة الصدر.

وكان النساء في الجاهلية يسدلن خمرهن من خلفهن، فتبدو صدورهنَّ ونحورهنَّ، فأمر الله المؤمنات بمخالفتهم، وإرسال خمرهنَّ على صدورهنَّ لسترها. ووصفت السيدة عائشة رضي الله عنها مبادرة النساء إلى تنفيذ أمر الله تعالى، فقالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهنَّ فاختمرن بها. [رواه البخاري (٤٧٥٨)].

وقولها: (مروطهن) جمع مرط، وهو الإزار.

قولها: (فاختمرن) أي: غطين وجوههنَّ، وصفة ذلك أن تضع الخمار على

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٥١٢.

(٢) تفسير الخازن: ٤/٣٨٩.

رأسها، وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو التقنُّع. وأخرج الحديث النسائي بلفظ: أَخَذَ النِّسَاءُ... (١).

ثم كررت الآيات النهي عن إظهار الزينة، تأكيداً للحكم، وإظهاراً لخطورته وأهميته، وأضافت إليه بيان من يحل للمرأة أن تظهر لهم زينتها:

﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: لأزواجهن، فإنهم المقصودون بالزينة، فللزوج أن ينظر إلى جميع بدن زوجته، ومن السنة أن تزين المرأة لزوجها.

﴿أَوْ آبَائِهِمْ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بُنَاتَهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُنَاتِهِنَّ﴾ فهؤلاء هم المحارم الذين يجوز للمرأة إظهار زينتها أمامهم، لكثرة المخالطة لهم، وقلة توقع الفتنة من قبلهم، فلمهم أن ينظروا منهم ما يبدو عند المهنة والخدمة، وأشارت الآية بسكوتها عن ذكر الأعمام والأخوال، مع أنهم من المحارم، إلى أن الأحوط أن يتسترن عنهم؛ حذراً من أن يصفوهم لأبنائهم (٢).

ونبه القرطبي رحمه الله إلى أمر هام، وهو أن هؤلاء المحارم، وإن سوى الله سبحانه بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر، فلا مريّة أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها، وتختلف مراتب ما يبدي لهم، فيبدي للأب ما لا يجوز إبدائه لولد الزوج (٣).

﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي: المؤمنات، فإن الكوافر لا يتحرجن أن يصفنهن للرجال، فهن في إبداء الزينة كالرجال الأجانب، وإلى هذا ذهب أكثر السلف، وقد منع النبي صلى الله عليه وسلم المرأة أن تصف لزوجها مفاتن غيرها من النساء (٤).

(١) فتح الباري: ٤٩٠/٨.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٧٠/٦.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٣٢/١٢.

(٤) فتح الباري: ٣٣٨/٩.

ففي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبأشِرُ المرأةُ المرأةَ فتنعتها لزوجها، كأنه ينظرُ إليها» [رواه البخاري (٥٢٤٠)].

وذهب بعضهم إلى أن المراد بقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ جميع النساء، واحتجوا بما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة، من دخول بعض الذميات على أمهات المؤمنين، وحملوا قول السلف على الاستحباب، وهذا القول أرفق بالناس اليوم، فإنه لا يكادُ يمكن احتجاب المسلمين عن الكافرات^(١).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي: ملكاً صحيحاً مشروعاً، فالعبد المملوك محرّم على سيده، فلها أن تبدي زينتها له إذا أمنت الفتنة.

وذهب بعضهم إلى أن المراد الإماء المملوكات، أما العبيد فهم كالأجانب، وعلى المرأة أن تستترَ عنهم، ولا شك أن هذا الرأي أحوط.

﴿أَوْ التَّابِعَاتِ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ وهم الشيوخ الطاعنون في السن، الذين فنت شهواتهم، يتبعون النساء، ويدخلون عليهن ليصيبوا من فضل الطعام، لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، فإن صدر من أحدهم ما يدل على تعلّقه بالنساء وميله إليهن، مُنِعَ من الدخول عليهن، كما ورد في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يدخلُ على أزواج النبي ﷺ مُحَنَّتٌ، فكانوا يعدّونه من غيرِ أُولَى الإربة، قال: فدخل النبي ﷺ يوماً وهو عند بعض نسائه، وهو ينعتُ امرأةً، قال: إذا أقبلتُ أقبلتُ بأربع، وإذا أدبرتُ أدبرتُ بثمان، فقال النبي ﷺ: «ألا أرى هذا يَعْرِفُ ما هاهنا، لا يدخلنَّ عليكنَّ» قالت: فحجّبوه. [رواه مسلم (٢١٨١)].

﴿أَوْ الطِّفْلِ الذَّيْبِ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: الأطفال الصغار الذين لم يكشفوا على عورات النساء؛ لعدم بلوغهم حد الشهوة، أما إذا أصبح عندهم ميلٌ إلى النظر إلى عورات النساء، فالواجب حينئذٍ الاحتجابُ عنهم، وهذا

يختلف من طفل إلى طفل، ولهذا جاء التعبير عاماً، يدل على جنس الأطفال، دون تحديد لنوع و سن .

ودل استقراء الآية لهؤلاء الأصناف من الناس، الذين يجوز أن تخالطهم المرأة، وتبدو بزيتها أمامهم، على أنَّ غيرهم من أبناء المجتمع لا يجوزُ أبداً أن ينظروا إلى مواضع زينة المرأة، ولا يجوز لها أيضاً أن تكشف زيتها لهم، وهم ممنوعون من الدخول على النساء مهما كانت قرابتهن منهن؛ لأن الفتنة من جهتهن غير مأمونة، بل قد تكون أكبر وأخطر، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ والدخولُ على النساء» فقال رجلٌ من الأنصار: أفرأيتَ الحمؤ؟ قال: «الحمؤ الموت» [رواه مسلم (٢١٧٢)].

والمراد من الحمؤ: أقارب الزوج، أخوه وأبناء عمه ونحوهم.

ومعنى «الحمؤ الموت»: أنَّ الخوفَ منه أكثر من غيره، والفتنة أكبر؛ لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها، من غير أن ينكرَ عليه أحدٌ، بخلاف الأجنبي، وكذلك قد تتساهلُ المرأةُ بكشف زيتها أمامه، وإبداء مفاتها له، مما يؤدي إلى الفتنة والهلاك في الدين، فجعله عليه الصلاة والسلام كهلاك الموت.

ويجب على المرأة أيضاً أن تتجنبَّ كلَّ أسباب الإثارة، التي تلفت الأنظار إلى مفاتها وزيتها؛ ولهذا مضت الآيةُ تنهى المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة، وتهيج الشهوات الكامنة، قال تعالى:

﴿وَلَا يَصْرِيحْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: ولا يضربن بأرجلهن الأرض؛ فتهتزن خلاخلهن، ويؤدي ذلك إلى تنبيه الرجال ليتأملوا فيهن.

وكان النساء يضعن الخلاخل في أقدامهن، وقد دأب كثيرٌ منهنَّ على استعمالِ العطور والطيوب، ذوات الروائح النفاذة، التي تؤدي إلى جلب أنظار الرجال إليهن، ولهذا منع رسول الله ﷺ المرأة من التطيب إذا أرادت الخروج من بيتها، فقال: «إِذَا شَهِدْتَ إِحْدَاكُنَّ الْعِشَاءَ، فَلَا تَطَيِّبِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ» وفي رواية: «إِذَا شَهِدْتَ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسِّ طَبِيحاً» [رواه مسلم (٤٤٣)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا اسْتَعْظَرَتْ فَمَرَّتْ بِالْمَجْلِسِ كَذَا وَكَذَا» يعني زانية. [رواه أبو داود (٤١٧٣) والترمذي (٢٧٨٦) وقال: حسن صحيح].

ثم تَوَجَّهَ اللهُ تعالى ذيل الآية، بدعوة جميع المؤمنين والمؤمنات إلى التوبة والإنابة، مما يدرّكهم من ضعفٍ أمام ذلك الميل الفطري الغريزي، فقد لا يتمكنون من ضبطه بالضوابط الشرعية، إلا إذا استشعروا رقابة الله تعالى عليهم، ومسؤوليتهم الكاملة أمامه يوم القيامة، ذلك هو الأسلوب الأمثل لتربية النفوس وتهذيبها، وجعلها تلتزم بالأحكام الشرعية، التي توصلها إلى الفلاح في الدنيا، والبقاء في النعيم السرمدي في الآخرة:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: توبوا إلى الله جميعاً رجاءً أن تفلحوا.

أو: توبوا إلى الله جميعاً لأجل أن تفلحوا في الدنيا وتنالوا الفلاح في الآخرة.

ومرَّ معنا أنَّ من صفات المؤمنين المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَفِظُونَ﴾ ٥ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ٦ ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ٧ [المؤمنون].

• الحث على الزواج وتحريم البغاء:

ولمَّا كان الزواج خير وسيلة عملية لمنع الزنى، وبقاء النسل وحفظ الأنساب، شجعت الآيات عليه بقوله تعالى:

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٣٢.

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ﴾ أي: زوّجوا من تَأَيَّم منكم من الرجال والنساء الأحرار، والأيامى: جمع أَيْم، وهو غير المتزوج، ويطلق على الذكر والأنثى.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أي: وزوجوا أيضاً الصالحين من عبيدكم وإمائكم.

فالمزواج حق من حقوق الإنسان، سواء كان حراً أو عبداً، ذكراً أو أنثى، وعلى أولياء الأمر في المجتمع أن يعملوا على تيسير وتسهيل الزواج، وإزاحة العقبات من وجهه مرديه.

ولما كانت العقبة المادية هي المعوق الأول للزواج، حث سبحانه على تجاوزها وعدم اعتبارها عائقاً، فقال:

﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لا ينبغي أن يكون فقر الخاطب أو المخطوبة مانعاً من الزواج، فإن فضله تعالى واسع، وهذا وعدٌ منه تعالى بتوسعة الرزق على مريدي الزواج، وكان كثير من السلف يرون أنَّ الزواج من أسباب سعة الرزق والغنى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: رغبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ^(١).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، يُنجز لكم ما وعدكم من الغنى ^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله» [رواه أحمد (٢/٢٥١) والنسائي (٦/٦١) والترمذي (١٦٥٥) وابن ماجه (٢٥١٨)].

﴿وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: والله غني ذو سعة، عليم بأحوال عباده، وما يصلح لهم.

(١) تفسير الطبري: ٩٨/١٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٠٣/٢.

ثم أرشدت الآيات الذين لم تيسر لهم سبل الزواج إلى الصبر والتعفف حتى يسّر الله سبحانه لهم:

﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ مَحْصَنًا لِنَبْتِغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ليجتهدوا في العفة وقمع الشهوة، حتى يغنيهم الله تعالى من فضله، ويسّر لهم أسباب الزواج.

كما جاء في الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ شباباً، لا نجد شيئاً، فقال لنا رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوّج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء» [رواه البخاري (٥٠٦٦)].

ويكون الاستغفاف أيضاً بغض البصر عن المحرمات، والبعد عن أسباب الإثارة ومواطنها، كما سبق في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

وكما شجعت الآيات على تيسير سبل الزواج لمريديه، شجعت أيضاً على تيسير سبل الحياة الحرة الكريمة للأرقاء الذين يتطلعون إلى الحرية، فشرعت عقد المكاتب بين العبد وسيده، يسمح فيه للعبد بالاكْتِسَاب، حتى يؤدي مبلغاً معيناً لسيده، فيصبح بعده حراً:

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: والذين يريدون الحرية من عبيدكم، فكاتبوهم إن علمتم منهم أمانة وصلاًحاً.

﴿وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ أي: وأعينوهم بإعطائهم من أموال الزكاة، لوفاء ما عليهم من مال المكاتبه، فقد شرع الله تعالى في مصارف الزكاة

سهماً لفك الرقاب، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

ومهدت الآيات بهذا التحريم إلى منع استغلال العبيد والإماء، في نشر الفواحش والزنى في المجتمع، كما كان عليه الحال في الجاهلية، إذ كان بعضهم يُكره الجواري المملوكات على الزنى، ليكسب من وراء ذلك المال، فأَنْزَلَ الله قوله الكريم:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنِ ارْتَدْنَ تَخَصُّصًا﴾ أي: أَرَدْنَ تَعَقُّفًا عن الزنى، وإنَّما قيده بهذا الشرط؛ لأن الإكراه لا يكون إلا مع إرادة التحصن، فأَمَرَ المطيعة بالبغياء لا يسمَّى مكرهاً، ولا أمره إكراهاً، ولأنها نزلت على سبب وقوع النهي على تلك الصفة^(١).

﴿لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: لتطلبوا بذلك عرض الحياة الدنيا، من كسبهن المال.

قال ابن كثير رحمته الله: «كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغياء، طلباً لخواجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم»^(٢).

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أَنَّ جَارِيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ يُقَالُ لَهَا: مُسِيكَةٌ، وَأُخْرَى يُقَالُ لَهَا: أُمَيْمَةٌ، فَكَانَ يَكْرَهُهُمَا عَلَى الزَّانِي، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾. [رواه مسلم (٣٠٢٩)].

(١) تفسير النسفي: ٣٩٥/٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٠٤/٢.

﴿وَمَنْ يَكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: يغفر سبحانه لهم؛ لأنهم مكرهات، لا للمُكرِه، إلا إذا تاب وأناب.

ثم عقب الله تعالى على هذه الأحكام والآداب، بقوله الكريم:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٤).

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ أي: مبينات كل ما تحتاجون إليه من الأحكام والآداب، التي تزكي نفوسكم، وتطهر مجتمعاتكم، فالتزموا بها، ولا تنصرفوا عنها إلى غيرها، فهي أحكام لازمة لكم، مفروضة عليكم، كما قال تعالى في أول آيات السورة: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَبَيِّنُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وأنزلنا إليكم أيضاً قصة عجيبة، من أمثال قصص الذين من قبلكم، والمراد بها براءة السيدة عائشة رضي الله عنها مما رماها به أهل الإفك، أظهر الله براءتها كما أظهر من قبل براءة يوسف عليه السلام، وبراءة مريم، فهذه من أمثال من قبلنا، بينما براءة السيدة عائشة من المثل الذي أنزل إلينا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وأنزلنا موعظة ينتفع بها المتقون، وأفاد تخصيصهم بالذكر مع شمول الموعظة لكل، حث المخاطبين على الاعتناء بالتقوى، والانتظام في سلك المتقين، ببيان أنهم المغتزمون لآثار الآيات، المقتبسون من أنوارها^(١).



الفصل الثاني الهداية

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَحَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ رَيْحُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ فِي يَوْمٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْمُدَوِّ وَالْأَصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ بِهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرْبِّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرًا بِقِيَعِهِ بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءٌ حَقٌّ إِذَا حَكَّهُمْ لَهُ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِندَهُ فَوْقَهُمْ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي تَحْرِ لُجِيِّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ بَسْطَهُمْ لَهُ يَكْدُورُنَّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٌ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾ وَلِلَّهِ الْمَلِكُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٣٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَوِّدُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُرْسِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٣٣﴾ يُقَابِلُ اللَّهُ أَيْلَ وَالنَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٣٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٥﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا عَائِشَةَ مَكِيدَتِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٦﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَبَوَّلُوا مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَكُنْ

لَهُمُ الْغَوْ يُأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُخْرَجُوا قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مِفْتَاحُهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنَّ

الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَعَذَّوْكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَخْتَلِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ .

• النور والهداية:

وبعد أن بينت آيات سورة النور هذه الأحكام، وشرعت ما مرَّ معنا من التشريعات الاجتماعية، وبيَّنت ضرورتها للناس، لتزكية نفوسهم، وتطهير مجتمعاتهم، أضافت بياناً آخر، يحتاج إليه الناس أيضاً، كحاجتهم إلى بيان الأحكام أو أشد، وهو الهداية والتوفيق إلى التزام هذه الأحكام وتطبيقها، على مستوى الأفراد والمجتمعات، فالمعرفة وحدها لا تكفي، ولا بد أن يكون معها انقياد واستسلام والتزام، ولما كانت الهداية من الأمور المعنوية غير المحسوسة، المستمدة من الله تعالى، قرَّبَتْها الآيات إلى الأذهان، فضربت لها هذا المثال الرائع، بقوله تعالى :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ .

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الله منور السماوات والأرض، نورهما بالأنوار الحسية التي خلقها فيهما، كالأنوار الطبيعية المنبعثة من الشمس والنجوم، والأنوار الاصطناعية التي استخرجها الإنسان، بعد أن هداه الله تعالى إلى مصادرها.

ونورهما أيضاً بالأنوار المعنوية، وهي أنوار الوحي والتشريع والعلم والمعرفة، وأنوار الهداية والتوفيق للسير على طريق الوحي والتشريع.

ونورهما أيضاً بالسنن الكونية المبنوثة فيهما، من أصغر الذرات إلى أضخم المجرات، والتي يدبر الله تعالى بها أمر جميع المكونات، فلا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته وقدرته جل وعلا.

قال الإمام الطبري رحمته الله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هادي مَنْ فِي السماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، وبهداه من حيرة الضلالة يعتصمون. وروي عن ابن عباس: أنه قال في تفسير الآية: هادي أهل السماوات والأرض. وقال رحمته الله أيضاً: مدبر السماوات والأرض. وروى عن أنس قال: إِنَّ إِلَهِي يَقُولُ: نوري هُداي^(١).

ولا شك أَنَّ الهداية نور، وَأَنَّ الكفرَ ظلمةٌ، أَكَّدهُ اللهُ ﷻ هذا في آيات كثيرة: منها قوله الكريم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها قوله الكريم: ﴿أَمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّفْسِ الظَّالِمَةِ مِمَّنْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

ومنها أيضاً: ﴿أَوَمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ويؤكدُه أيضاً قوله تعالى الآتي: ﴿وَمَن لَّا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولما كان القرآن الكريم كتابَ تشريع وهداية، سَمَّاهُ اللهُ تعالى نوراً، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

والنبي ﷺ نورٌ أيضاً، لأنه يهدي إلى دين الله تعالى وصراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة].

كما أنه عليه الصلاة والسلام سراج؛ لأنه يبين دين الله تعالى، وينير للناس طريق الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب].

ومهما قلنا في النور المحسوس والمعنوي، فهو حادث مخلوق، كما قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ١].

فهو غير الله تعالى، الذي وصف ذاته المقدسة بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

لكنَّ النورَ اسمٌ من أسماء الله الحسنى، يدل على كماله جل وعلا، وجماله ووحدانيته، فإنَّ النورَ ظاهرٌ بذاته، مظهرٌ لغيره، وأصل الظهور هو الوجود، كما أنَّ أصل الخفاء هو العدم، والله سبحانه موجود بذاته، موجود لما عداه^(١).

ومن دعاء النبي ﷺ وهو يتهجَّد بالليل: «اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد لك مُلْكُ السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض...» [رواه البخاري (١١٢٠)].

وأما المراد من قول رسول الله ﷺ عندما سُئِلَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قال: «نورٌ أَنَّى أَرَاهُ» [رواه مسلم (١٧٨)]، فمعناه: حجابُه النور، فكيف أراه؟!.

وقد ورد هذا المعنى في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا

رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ» [رواه مسلم (١٧٩)].

ومر معنا في مواضع متعددة، أن من أساليب القرآن الكريم في التربية والتهذيب وتقريب المعاني، ضرب الأمثال، وتشبيه الأمور المعنوية غير المحسوسة، بأشياء محسوسة، ولهذا مثل سبحانه لأنوار هدايته المعنوية، بالأنوار المبصرة المحسوسة، الصادرة من مثل ما كانوا يعرفون من مصادر النور والإضاءة، في زمن نزول القرآن الكريم، فقال سبحانه:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْكٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: مثل صفة نور هداية آياته المبينات الكريمة، وأحكام دينه القويمه، كصفة مشكاة فيها مصباح.

والمشكاة: الكوة التي لا منفذ لها إلا من جهة واحدة.

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي: المصباح موضوع في داخل زجاجة؛ لتقوية النور وتصفيته، فمن المعلوم أن الزجاج يصفّي النور، ويزيد في ضيائه ولمعانه؛ ولهذا شبهه سبحانه بالكوكب المتلألئ فقال:

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي: متلألئ، نسبة إلى الدر، وهي الأحجار الكريمة المتألثة.

ويستمد هذا المصباح طاقته من زيت، من أجود أنواع الزيتون:

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُبْرَكٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: تتعرض لأشعة الشمس طول النهار، فهي في أرض ظاهرة لا يحجبها عن الشمس شرق ولا غرب.

ومن المعلوم أن شجر الزيتون كلما كان تعرّضه للشمس أكثر، كان زيتُه أجودَ وأضوأ، ولهذا وصفه تعالى بقوله:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: يكاد يضيء بنفسه من غير نار؛ لشدة صفائه ولمعانه.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: فهو نورٌ مضاعفٌ: نور المصباح، وصفاء الزيت ولمعانه.
وهكذا هدايته ﷺ، هداية مضاعفة متوالية: هداية الفطرة، وهداية الرسل
والكتب، وهداية الدلائل والبراهين والحجج العقلية والنقلية، وهداية التوفيق
والثبوت، وكلها من فضله تعالى وإحسانه.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يوفق سبحانه من يشاء من عباده لنور هدايته،
وهو عليم بأحوالهم.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ويضرب الله الأمثال المحسوسة للمعاني
المجردة، لكي يفهمها الناس وينتفعوا بها.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ولهذا فإن أمثاله تامة محكمة، لا خلل فيها
ولا اضطراب.

• المهتدون:

ولا بدَّ بعد هذا المثال العجيب المتقن المحكم، أن يسأل سائل نفسه: أين
هؤلاء المنتفعون بهذه الأمثال، والمهتدون بما فيها من أنوار؟ وجاء الجواب من
الحكيم العليم:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ (٣٦) رِجَالٌ لَا
لَهُمْ فِيهَا تَحَدُّثٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
وَالْأَبْصَارُ ۖ (٣٧)﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ أي: في مساجد أمر الله تعالى
ببنائها وتعظيمها وذكره فيها، بعبادته وتلاوة آياته.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ (٣٦) رِجَالٌ﴾ أي: يصلي الله تعالى فيها في أول
النهار وآخره رجال.

وأصل التسبيح: تنزيه الله تعالى وتقديسه، ويطلق أيضاً على الدعاء
والصلاة، والمراد هنا: الصلوات المفروضة في أول النهار وآخره.

ورَفَعُ المساجد وتعظيمُها: عبادة الله تعالى فيها، وبتطهيرها من الأنجاس والأقذار، وصيانتها عن الروائح الكريهة والأقوال السيئة، وعن الأمور الدنيوية كالبيع والشراء.

ففي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد، مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ. قال رسول الله ﷺ: «لَا تَزِرُمُوهُ، دَعُوهُ» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لشيءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ ﻋَظِيمٍ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» فأمر رجلاً مِنَ الْقَوْمِ، فجاء بدلو من ماءٍ فشنَّه عليه. [رواه مسلم (٢٨٥)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشِدُ ضَالَةً فِي الْمَسْجِدِ فَلْيَقُلْ: لَا رَدَّهَا اللَّهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لِهَذَا» [رواه مسلم (٥٦٨)].
وعن جابر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ: الثُّومُ - وَقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكَرَّاثَ - فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ» [رواه مسلم (٥٦٤)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدُّورِ، وأن تَنْظَفَ وَتُطَيَّبَ. [رواه أحمد (٢٧٩/٦) وأبو داود (٤٥٥) والترمذي (٥٩٤) وقال: صحيح].

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعارٌ بهمهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمَرَاءَ لِلْمَسَاجِدِ، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وَأَمَّا النِّسَاءُ فَصَلَاتُهُنَّ فِي بَيُوتِهِنَّ أَفْضَلُ لَهُنَّ^(١):

ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ، وَبَيُوتَهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ» [رواه البخاري (٩٠٠) ومسلم (١٣٦)].

﴿لَا تُلْهِمُهُمْ بُحْرَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: لا تشغلهم عن طاعة ربهم وعبادته الأمور الدنيوية والمادية؛ لأنَّ قلوبهم استتارت بنور هدايته تعالى، فطلعت إلى رضوانه وثوابه، ولهذا فإنهم يقدمون طاعته تعالى ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم.

وتخصيصُ التجارة والبيع بالذكر؛ لأنهما أقوى الصوارف التي تصرف الإنسان عن عبادة ربه، وتشغله عن ذكره، أكد ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وقال أيضاً: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أي: يصدقون بيوم القيامة، وما فيه من حساب وجزاء، فهم يخافون من هذا اليوم الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار؛ من شدة أهواله وأفزاعه.

ودلت الآية على أنَّ الإيمان بيوم القيامة، وما فيه من المسؤولية أمام الله تعالى، له أثر كبير في تربية الإنسان وتهذيبه، وجعله يضبط تصرفاته وسلوكه بميزان الأحكام الشرعية، فهي النور التي تضيء له الطريق المستقيم الوسط، الذي يوصله إلى الفوز برضوان الله تعالى، ويحقق له مطالبه الدنيوية المشروعة.

﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أي: هؤلاء الذين استناروا بأنوار هدايته، هم الذين يتقبلُ الله يوم القيامة أعمالهم، فيثيبهم عليها ثواب أحسنِ عملٍ فيها، ويضاعفه لهم بفضلِهِ وإحسانه.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغيرِ عدٍّ وحد، لكمالِ جوده تعالى، وسعةِ فضله وإحسانه.

● الضالون:

هؤلاء هم المهتدون بنور الله تعالى، المنتفعون بآياته، الملتزمون بأحكام شريعته، وأما الضالون المحجوبون عن أنوار هدايته، فإنهم يضربون في بيداء الحياة على غير نور وهدى، دون أن يدركوا حكمة وجودهم، وجوهر حياتهم، يصرفون كل طاقاتهم إلى الدنيا، منهمكين بشهواتها، فهم في عطش دائم متجدد، كلما حاولوا إطفاء سُعار الشهوات المتأجج في نفوسهم، ازداد عطشهم، واشتدَّ سُعارهم، فيزيدون في سعيهم، ويضاعفون جهدهم، فهم طول حياتهم يركضون ويلهثون وراء بَرْقِ خُلْبِ خادع، وسرابٍ كاذبٍ، حتى تنتهي أعمارهم، وتحين آجالهم، ولن تجد مثلاً لواقع هؤلاء الناس أبلغ وأحكم من قوله تعالى فيهم:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي: أعمالهم في الدنيا وسعيهم لها، كسراب في أرض منبسطة مستوية.

والسراب: ما يراه المسافر في الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة، فيظن أنه ماء يسرب، أي: يجري.

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ أي: يظنه الظمآن ماء، فيسعى إليه راكضاً لاهثاً.

﴿حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم يجده شيئاً مما ظنه..

فما أشدَّ حسرته! وما أعظمَ لوعته! ضاعَ سعيه، واشتدَّ عطشه، وخسر عمره، لأنه كان يسعى على غير نور وهدى وبصيرة، وعندما يحين أجله يسقط على طريق الحيرة والضلال، لاهثاً متحسراً متعباً مكدوداً، هذا هو حال الضالين، الذين يضربون في ظلمات الشهوات والأهواء، كما قال تعالى فيهم:

﴿وَأَوَّلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمٍ ﴿٧٨﴾ [الأعراف] لأنهم أعرضوا عن نور شريعة الله تعالى، فأضلَّهم وحرَّمهم من أنوار هدايته ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِّلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، خسروا حياتهم وضاع سعيهم.

وفي نهاية المطاف، لا بد أن يتحملوا أمام الله تعالى مسؤولية حياتهم. ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أي: وجدَ حسابَه ومسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة، ومهما عاش الإنسان في هذه الحياة، فإنَّ مصيره ومآله إلى الله تعالى. ﴿فَوَقَّعْنَاهُ حِسَابَهُ﴾ أي: حاسبه حساباً كاملاً وافياً، وهو الحساب العسير المؤدي إلى الهلاك، كما جاء في الحديث الشريف: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ» [رواه مسلم (٢٨٧٦)].

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: لا يشغله حساب عن حساب.

أو: والله قريب حسابَه، وكل آتٍ قريب.

ثم ساقَت الآيات مثلاً آخر، لبيان شدة الظلمات المعنوية التي تحيطُ بعقول الضالين وقلوبهم، فتحجبهم عن رؤية أنوار الشريعة والهداية:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّيٍّ﴾ أي: في بحر عميق.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ أي: تغطيه أمواج متراكمة، فوقها

سحب سود داكنة، حجبَت النجوم وأنوارها.

﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي: هو يعيشُ في ظلمات داكنة متراكمة، بعضها

فوق بعض، تحجبه عن أي مصدر من مصادر النور.

﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا﴾ أي: فلا يرى أقرب الأشياء منه، حتى أجزاءه وأبعاضه القريبة منه لا يكاد يراها.

إنَّه مثال رائع صادق لحياة وأعمال أولئك الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، فهم يعيشون في حيرة وقلق واضطراب، وظلمة تغلّف عقولهم ونفوسهم، تتقاذفهم أمواج شهواتهم المضطربة في نفوسهم، إنَّ هذا المثال الرائع يبين شدة افتقار الإنسان إلى هداية الله تعالى وأحكام شريعته.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ أي: من لم يهده الله تعالى فلا هادي له، كما قرر ذلك في آيات كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿وَنَقَلِبُ أَفْئِدَتِهِمْ وَأَبْصَرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

• تسبيح المخلوقات:

ووضوح الأدلة وظهورها لا يكفي وحده، فلا غنى للإنسان عن هداية الله تعالى بتوفيقه إلى طاعته، والحق واضح أبلغ لا لبس فيه ولا غموض، ومع ذلك تجد أكثر الناس لا ينقادون للحق، ولا يذعنون له، وما أكثر الأدلة الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته، وهي مبثوثة في كل ذرة من ذرات الوجود، وفي كل خلية من خلايا النفس البشرية، ومع ذلك ترى كثيراً من الناس يكفرون بالله تعالى، ويغفلون عن عبادته وطاعته.

ولتقرير هذه الحقيقة وتأكيدا، اتجهت آيات سورة النور، تعرض بعض هذه الدلائل بأسلوب تقرير يزيدها وضوحاً وظهوراً:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَشْيَاءُ صَافَّتْ كُلُّ قَدِّمٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ألم تعلم أن الله ينزهه ويقدّسه ويمجّده كل مخلوقاته السماوية والأرضية؛ لأنها تدل على كمال خالقها ووحدانيته. وقد يكون المراد حقيقة التسبيح، فلكل مخلوق حاله الذي يسبح الله تعالى

فيه، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ﴾ أي: والطير تسبح الله تعالى وتدعوه، وهي باسطة أجنحتها، طائرة في جو السماء.

ولعل سبب تخصيص الطير بالذكر، وهي تطير في جو السماء؛ لشدة ظهورها ووضوح أصواتها، فالآيات تعرض الأدلة الكونية الظاهرة البارزة.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل مخلوق يسبح بحمد خالقه، ويدعوه بالطريقة التي هداه إليها، مما يدل على أن ما يصدر عن المخلوقات من تسبيح، لا يصدر عنها صدوراً عفويتاً، بل بتعليم الله تعالى وهدايته.

فالإنسان ليس وحده في هذا الوجود، إذ معه وحوله مخلوقات كثيرة متنوعة في طبائعها وأجناسها وصورها، وكلها تسبح الله وتمجده، كما علمها وهداها جل وعلا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعلون من تسبيح ودعاء وخضوع وعبادة.

وكيف لا يكون عليماً بهم، وهو خالقهم ومالكهم، ومصيرهم إلى حكمه ومشيتته جل وعلا؟!:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٤٢).

• جبال في الأرض والسماء:

ولهذا عرضت بعد ذلك أدلة كونية أخرى، أكثر وضوحاً من سابقتها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَنِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيَزَلُّ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (٤٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي: ألم تعلم أن الله يسوق سحباً، وقد أخبرنا تعالى أنه يسوقه بواسطة الرياح، التي تحول بخار الماء إلى طبقات الجو

الباردة، حيث يتكاثر بتقدير الله تعالى ومشيئته، فالرياحُ سببٌ، والله تعالى وحده خالق الأسباب والمسببات، كما قال في سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُفْرِئُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨).

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً بعضه فوق بعض، كما هو معلوم ومشاهد من حال سحب الأمطار.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: ترى المطر يخرج من السحاب نازلاً إلى الأرض.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ أي: وينزل من جهة السماء من كتل مائية كبيرة ضخمة، تشبه الجبال في أشكالها وأحجامها، فيها بردٌ.

ولا يمكن لأحدٍ أن يدرك دقة التعبير القرآني الكريم وموضوعيته، إلا إذا حلَّق في الطائفة فوق كتل السحاب الهائلة، سبحان الله! ما أعظم قدرة الله! لقد رأيتها من الطائفة المحلقة فوق جبال الألب، كتلاً هائلة ذات قمم مرتفعة ووديان سحيقة، تشبه تماماً الكتل الجبلية الكبيرة في الأرض، ولما تجاوزت الطائفة السحاب، وانكشفت القمم العالية لجبال الألب، أدركت التشابه الكبير بين الجبال المائية المحمولة بقدرة الله تعالى في جَوِّ السماء، وبين الجبال الراسية على الأرض، وأدركت أيضاً دقة التعبير القرآني الكريم وإعجازه.

﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ مما يدل على أن إرادته تعالى تامة، نافذة في ذرات الموجودات، فما من قطرة ماءٍ أو حبة بردٍ، تتحرك في جو السماء أو تنزل إلى الأرض، إلا بقدرته تعالى ومشيئته.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ أي: يكاد ضوء برق السحاب يذهب بالأبصار، لشدته وسرعة لمعانه، كما قال سبحانه: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ٤٤.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: يجعلهما يتعاقبان بنظام دقيق ثابت لا يتغير، كما في قوله سبحانه: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَرَ اللَّسَمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَرُ﴾ [الزمر: ٥].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: إن في هذه الظواهر الكونية أدلة قاطعة على وجود الخالق العظيم ووحدانيته، وكمال قدرته وباهر حكمته، لأولي العقول المفكرة المبصرة، وهي البصائر، واستعيرت الأبصار للبصائر بجامع ما بينهما من الإدراك والتمييز.

• الأصل الواحد لدواب الأرض:

ثم أعلنت الآيات حقيقة علمية كبيرة، ما كان أحد يعلمها عند نزول القرآن الكريم، فكشفت عن وحدة الأصل للبنية المادية، لجميع المخلوقات الحية في الأرض:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٤٥.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ أي: الله سبحانه خلق كل المخلوقات الحية التي تدب على الأرض، من ماء.

ولم تحدد الآية ماهية هذا الماء، أهو الماء المعهود، أم هو ماء مخصوص، كما في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ١٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق].

ومن المعلوم أنَّ الماء الدافق هو ماء النطفة، وهو في الحقيقة مستخلص من الأغذية التي يتغذى بها الإنسان، وهي مكونة بتقديره تعالى، بسبب الماء الذي أنزله سبحانه من السحاب، فالآية تؤكد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فَالآيَةُ تَقْرَرُ أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ، مَكُونَةٌ فِي بَنِيَّتِهَا الْمَادِيَةِ الْعَضْوِيَّةِ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، مَعَ أَنَّهَا مُتَعَدِّدَةُ الْأَجْنَاسِ وَالْأَنْوَاعِ وَالْأَشْكَالِ، وَمُخْتَلِفَةٌ اخْتِلَافًا كَبِيرًا فِي الصِّفَاتِ وَالْمَلَكَاتِ وَالطَّبَائِعِ... وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَةِ خَالِقِهَا، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ جَلَّ وَعَلَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي عَالَمِ النَّبَاتِ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَبَّرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ثم لفتت الآياتُ الأنظارَ إلى أوضح جانب من جوانب الاختلافات الكبيرة، الظاهرة والخفية بين هذه المخلوقات، وهو اختلافها في الصور والأشكال:

﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالزواحف.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطيور.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والسباع.

ويدل ذلك أيضاً على كمال قدرته وطلاقة مشيئته جَلَّ وَعَلَا.

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: مما ذكر ومما لم يذكر.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فأدلة وجوده تعالى ووحدانيته، وكَمَالِ قُدْرَتِهِ وطلاقة مشيئته، كثيرة لا تُحصى، وواضحة وقريبة من أبصار الناس وبصائرهم، ومع ذلك فإنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ كَافِرُونَ، مما يدل على أنهم محتاجون إلى هداية من الله تعالى مخصوصة، هي هداية التوفيق، فهداية البيان والتوضيح التي قام بها الأنبياء والمرسلون، لا تكفي وحدها للوصول إلى الإيمان، لا بدَّ أن يكون معها هداية التوفيق من الله تعالى، وهذا ما قرره تعالى في قوله في الآية التالية، معقباً على ما سبق ذكره من أمثال وأحكام وتشريع وأدلة وبراهين:

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٦).

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ أي: موضحات للأحكام والأدلة والبراهين.

وهذه هي الآية الثالثة في السورة، التي قرر تعالى فيها هذا المعنى، ثم ختمها بما يتناسب مع سياق الآيات فقال:

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وينبغي علينا أن نتذكر هنا أنه تعالى عليم حكيم، وهو أعلم حيث يجعل هدايته، كما قال سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٦]. وسيأتي قريباً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

ولهذا فإن على الدعاة إلى الله تعالى إلا ييسوا من هداية الناس إن أعرضوا عنهم في أول الأمر، بل عليهم أن يلحوا في الدعوة، ويكرروا عرضها بأساليب جديدة، لأنهم لا يعلمون متى تدرك هؤلاء الناس رحمة الله تعالى وهدايته.

• المعرضون عن أحكام الشريعة الإسلامية:

إن كثيراً من الناس أحاطت بهم أنوار الهداية من كل جانب، ومع ذلك أعرضوا ولم يهتدوا؛ لأنهم حُرموا من توفيق الله تعالى وهدايته، وأوضح أنموذج واقعي لأمثال هؤلاء الناس: المنافقون، فإن من أبرز صفاتهم أنهم لا ينفقون للحق، ويرفضون تحكيم شريعة الله تعالى، ولا يرضون بأحكامها البينات، إلا إذا كان حكمها في صالحهم:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي: وأطعنا الله والرسول ﷺ في كل ما شرعا من أحكام.

وهي مجرد دعوى، يعلنونها بالسنتهم، يظهر كذبها عندما يدعون إلى تحكيم شريعة الله تعالى.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم

الله تعالى ورسوله ﷺ، من بعد ما صدر عنهم من ادعاء الإيمان بالله وبالرسول ﷺ وإعلان الطاعة لهما، والانقياد لأحكامهما.

﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما أولئك المدّعين للإيمان بالمؤمنين حقاً.

فالآية تنفي عنهم الإيمان نفيّاً قاطعاً، وهي تشير إليهم بإشارة ﴿أَوْلَيْكَ﴾ للإشعار ببعد منزلتهم بالكفر، وعراقتهم فيه، فالإيمان لا يصحّ إلا بالانقياد الكامل ظاهراً وباطناً لأحكام شريعة الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥].

ثم بينت الآيات كيفية إعراضهم عن تحكيم شريعة الله تعالى، بقوله:

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

أي: إذا دعوا إلى تحكيم شريعته تعالى فيما شجر بينهم وبين الناس من خصومات ومنازعات، إذا فريق منهم يرفضون حكمه تعالى وحكم رسوله عليه الصلاة والسلام، إذا كان الحكم ليس لصالحهم.

وأما الفريق الآخر، فإنهم يقبلون بحكم الله ورسوله ﷺ إذا كان لمصلحتهم:

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

أي: منقادين له، راضين به، وانقياد هذا الفريق في الحقيقة، ليس انقياداً لأحكام الشريعة الإسلامية، وإنما هو انقياد لمصالحهم، فالقوم عبيد المصالح والأهواء والشهوات، جعلوها أرباباً من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدَ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ والدَّرْهَمِ والقَطِيفَةِ والخَمِصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ» [رواه البخاري (٢٨٨٦)].
وتساءلت الآيات تساؤلات إنكارية توبيخية، وهي تعرض تحليلاً نفسياً لدخائلهم:

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۖ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۖ﴾ أي: أفي قلوبهم مرضٌ ملازمٌ لها؟ أم عرض لهم شك في دين الله تعالى؟ أم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم؟.

فحالهم لا يخرج عن هذه الصفات الثلاث، متفرقة أو مجتمعة، وهي تدل على كفرهم، ولهذا أضربت الآية عن هذا التقسيم والتحليل، لتقرر نتيجته:

﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: أولئك الكاملون في الظلم، العريقون فيه.

وبهذا التقرير نفت الآيات الظلم عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ. والمؤمنون حقاً هم الذين يسارعون إلى تحكيم شريعته تعالى مدعين مستسلمين:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا الدعوة، وبادرنا إلى الإجابة دون إبطاء ولا تردد.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: أولئك المسارعون إلى تحكيم شريعته تعالى هم الفائزون.

وعليهم حتى يتحقق فلاحهم أن يستقيموا على الطاعة، ويلتزموا بأحكامه تعالى في جميع أحوالهم وأوقاتهم:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٥٢).

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: في الحكم.

﴿وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ﴾ أي: في سلوكه ومعاملاته.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

● طاعة المنافقين:

ثم وجهت الآيات أنوارها إلى مزاعم المنافقين وادعاءاتهم، فكشفتهم وفضحتهم وبينت حقيقتهم:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٥٣).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أقسموا بالله مبالغين في القسم، باذلين فيه أقصى جهدهم، فالمنافقون يحاولون ستر نفاقهم بالإيمان الكاذبة، كما قال ﷺ فيهم: ﴿أَتَخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ أي: لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد، ليخرجنَّ.

﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أي: قل: لا تحلفوا، طاعتكم معروفة معلومة، إنما هي مجرد قول لا فعل معه، فكلما حلفتم كذبتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه شيء من سرائركم.

وهو تعالى فاضحكم ومجازيكم على نفاقكم، إلا إذا صدقتم في إيمانكم، وأطعتم الله تعالى طاعة حقيقية، وتمسكتم بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي : إن تتولوا عن الطاعة فلا تضروا الرسول ﷺ؛ لأنه مسؤول فقط عما كُلِّفَ به من تبليغ الرسالة، وعليكم أنتم مسؤولية الطاعة المستمرة، والخشية والتقوى الدائمة.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي : إن طيعوا الرسول عليه الصلاة والسلام تصيبوا الحقَّ والرشد في طاعته، أو : إن طيعوه توفَّقوا إلى الهدى، فطاعة الرسول ﷺ سبب للفوز بتوفيق الله تعالى وهدايته، كما تقدَّم عند قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور : ٤٦].

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي : إلا التبليغ الواضح.

وقد بَلَّغَ رسول الله ﷺ الرسالة على أكمل وجه وأتمه، وأشهد على ذلك أمته في خطبة حجة الوداع، فقال : «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحَرَمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا : نعم، قال : «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبُ» [رواه البخاري (١٧٤١)].
وإنَّما قال عليه الصلاة والسلام ذلك، لأنَّه كان فرضاً عليه أن يبلِّغ، فأشهد الله على أنَّه أدى ما أوجبه عليه^(١).

● أضواء على مستقبل الأمة المسلمة:

فلاحُ الأمة المسلمة وفوزُها في الدنيا والآخرة، وانتصارُها وتمكينُها في بقاع الأرض، كُلُّ ذلك منوطٌ بطاعتها لربها، وتمسُّكها بسنة رسولها عليه الصلاة والسلام، وتحكيمها لشريعته الإسلامية، قررت ذلك الآيات الكريمة، وهي توجُّهُ أنوارها إلى المستقبل القريب والبعيد للأمة المسلمة، فتكشِفُ سَجَفَ الزمان، وتزيحُ أَسْتَارَ الغيوب عن المستقبل القريب والبعيد، بقول عَلَامِ الغيوب جل وعلا :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى مؤكد بالقسم للنبي ﷺ وأمته، ليجعلهم خلفاء الأرض وحكامها، وأصحاب السلطة والقوة والعزة فيها، كما جعل الذين من قبلهم والمراد من ﴿الْأَرْضِ﴾ الأرض على عمومها وإطلاقها، لقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

وفي الحديث الشريف: عن ثوبان رضي الله عنه: أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى زَوَى لِي الْأَرْضَ، حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمْنِي سَيَلُغُ مَلَكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَ فِي الْأَحْمَرِ وَالْأَبْيَضِ» [رواه مسلم (٢٨٨٩)].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ أي: وليجعلنَّ دينهم ثابتاً قوياً محفوظاً، وهو الإسلام الذي رضيهِ الله تعالى لهم ديناً، كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومعنى تمكين الدين: تطبيق الشريعة الإسلامية، وإقامة العدل بين الناس، والتعاون والتكافل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ أي: وليجعلنهم آمنين أعزاء أقوياء، بعد أن كانوا قلة خائفين من أعدائهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وذكروا في سبب النزول: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مكث عشر سنين خائفاً، يدعو إلى الله سرّاً وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، فمكث بها هو وأصحابه خائفين، يصبحون في السلاح، ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يومٌ نأمنُ فيه ونضعُ عنا السلاح؟ فقال النبي ﷺ: «لَا تُغَيِّرُونَّ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ، مُحْتَبِئًا لَيْسَ فِيهِ حَدِيدَةٌ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...﴾^(١).

وقد أنجز ﷺ وعده، ونصرَ نبيه، وأعزَّ دينه، فعن عدي بن حاتم قال: بينا أنا عندَ النبي ﷺ، إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخرُ فشكا إليه قطع السبل، فقال: «يَا عَدِي، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟». قلتُ: لم أرها، وقد أنبئتُ عنها.

قال: «فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرِيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ - قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دَعَارُ طَيِّئِ الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ؟! - وَلَتُنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كَنُوزُ كِسْرَى». قلتُ: كِسْرَى بن هَرَمَزٍ؟.

قال: «كِسْرَى بن هَرَمَزٍ، وَلَتُنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرِيَنَّ الرَّجُلَ يَخْرُجُ مَلَأً كَفَّهُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ. وَلَيَلْقِيَنَّ اللَّهُ أَحَدَكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجَمَانٌ يَتَرَجَّمُ لَهُ، فَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أُبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيَبْلُغُكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأَفْضَلَ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ».

قال عدي: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

قال عدي: فَرَأَيْتَ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ

إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لتروا ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخْرِجُ مَلَأَ كَفِّهِ» [رواه البخاري (٣٥٩٥)].

﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي: يعبدونني وحدي، فلا يخافون أحداً غيري. أو: يعبدونني وحدي بتحكيم ديني وشريعتي، فلا يرضون غيرها ديناً وشرعة. وكأن قولَه تعالى: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ورد مورد التعليل لاستخلاف المسلمين في الأرض، وإعزاز دينهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: ومن ارتد وأعرض عن الإسلام وشرعه، بعد حصول الموعود به، فأولئك المرتدون هم الفاسقون، الكاملون في الفسق ومجاوزة حدود الإسلام وأحكامه.

وهو تهديد يتضمن التحذير من زوال النعم، وحلول البلايا والنقم، بسبب الإعراض عن طاعة الله تعالى وتحكيم شريعته، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ثم بينت الآيات أسباب الثبات على الإسلام، والوقاية من الفتن، المؤدية إلى مجاوزة أحكام الشريعة الإسلامية:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: افعلوا ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ﴿وَاطِيعُوا الرُّسُولَ﴾ بالتمسك بسنته ﷺ.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بتوفيقكم وهدايتكم، كما تقدم في قوله: ﴿وَأَن تَطِيعُوا تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٤٠].

فإن طاعة الرسول ﷺ خير وسيلة لاستنزال رحمته تعالى وتوفيقه ومعونته،

وسياتي التحذير من مخالفته، وما يؤدي إليه من البلاء والفتن، عند قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].
ثم أكدت الآيات مضمون الوعيد السابق:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٥٧).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تحسبن الذين كفروا معجزين الله تعالى عن إهلاكهم، في أي قطر من أقطار الأرض، فهم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته أينما كانوا.
﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: مأواهم ومصيرهم يوم القيامة إلى النار، وبئس المآل والقرار.

• الاستئذان داخل البيوت:

عادت الآيات في آخر سورة النور، إلى بيان الأحكام والتشريع، فألقت أضواءً جديدةً، وشرعت أحكاماً أخرى للاستئذان داخل البيوت، لأفراد الأسرة، وأشارت الآيات بتأخير هذه الأحكام، إلى الاتفاق والتكامل بينها وبين ما سبق من تشريع وأحكام في صدر السورة، وبينها وبين الهداية، فالتشريع والهداية جانبان متلازمان ومتكاملان، ولا غنى للإنسان عنهما.
وهذه الأحكام مستثناة من عموم ما سبق تقريره وبيانه في تشريع الاستئذان، قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَفَاتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥٨).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾

أي: يجب على المماليك والأطفال الذين لم يصلوا إلى سن البلوغ، أن يستأذنوا عند الدخول عليكم، في ثلاثة أوقات من كل يوم، وهي:

﴿مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ﴾ وهي الأوقات التي يتجرد الإنسان فيها عادة من ثيابه، أو يتخفف من بعضها للنوم والراحة، ولهذا وصفها تعالى بقوله:

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ أي: هي ثلاث أوقات يختل فيها ستر عورتكم، ويمكن أن تنكشف فيها، ويمكن أيضاً أن يكون الزوجان فيها في حال لا يريدان لأحد أن يراهما عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: ليس عليكم ولا عليهم إثم في الدخول بغير استئذان، في غير هذه الأوقات الثلاثة؛ لأنكم جميعاً محتاجون إلى الطواف والتنقل داخل البيت، فتشريع الاستئذان في كل الأوقات يؤدي إلى الحرج، والإسلام دين الرحمة واليسر، لا حرج ولا مشقة في أحكام شريعته.

وتوجيه الآية خطابها إلى المكلفين من الأحرار البالغين، يدل على أنهم مسؤولون عن هذه الأحكام، فعليهم أن يعلموها للخدم والصغار، ويحملوهم على تطبيقها بالتربية والتأديب.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هكذا يبين الله لكم ما تحتاجون من أحكام وتشريعات، وهو سبحانه عليم بمصالح عباده، حكيم في كل ما يشرع لهم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ أي: إذا أصبح الأطفال بالغين.

﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فعليهم أن يستأذنوا عند الدخول

في جميع الأوقات؛ إذا وصلوا إلى سنِّ التكليف، وأصبحوا مكلفين بجميع أحكام البالغين قبلهم، فمرحلة الطفولة تنتهي بالبلوغ، وهي مرحلة العبث واللعب والحركة الدائمة.

واتفق العلماء على أن الصبي إذا احتلم، والبنت إذا حاضت، فقد بلغا، وإذا تأخر احتلام الصبي وحيض البنت، فإنهما يصبحان بالغين حكماً إذا تم لهما من العمر خمس عشرة سنة، عند جمهور العلماء.

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كره تعالى مرة ثانية، تأكيداً لهذه الأحكام، وإظهاراً لأهميتها وضرورتها.

• حجاب العجائز:

واستثنت الآيات أيضاً من وجوب ستر مواضع الزينة، التي سبق بيانها، النساء العجائز:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٠).

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: والعجُز اللواتي ضعفت حركتهن بسبب عجز الشيخوخة والهرم، واللاتي لا يطمع الرجال فيهن، ولا رغبة لهن في النكاح.

وأما مَنْ كانت فيها بقية جمال، وهي محل شهوة، فلا تدخل في حكم الآية^(١).

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: ليس عليهن إثم وذنوب إذا وضعن ثيابهن الظاهرة، كالجلباب والرداء والقناع.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ أي: بشرط ألا يقصدن بوضع هذه الثياب التبرُّج وإظهار الزينة.

والتبرُّجُ: هو التكلفُ لإظهار ما يخفى من مواضع الزينة، يقال: سفينة بارجة: لا غطاء عليها.

﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وخير لهن أن يطلبن العفة بالتستر، وترك وضع شيء من الثياب، فذلك أبعد عن التهمة والريبة، ولكل ساقطة لاقطة.

وإذا كان الاستعفاف بعدم وضع الثياب أحوط في حق العجائز، اللواتي لا زينة لهن، فكيف حال غيرهن من النساء الكواعب والشابات؟! فالفتنة في النساء كبيرة وعظيمة، والواجبُ عليهن دفع مفسدتها بالتستر والتعفف، والبعد عن مخالطة الرجال غير المحارم ما استطعن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما تركت بعدي فتنة هي أضرُّ على الرجال من النساء» [رواه مسلم (٢٧٤٠)].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لأقوالهن، عليم بأحوالهن. ولا يخفى ما فيه من تحذير ووعيد.

• حرمة الأموال في البيوت:

دلت آيات الاستئذان على أنَّ للبيوت حرمةً لا يجوز انتهاكها، ولا تخلو البيوت عادةً من طعام وشراب، فهل تمتد هذه الحرمة إلى الطعام والشراب، فلا يجوز لمن دخل هذه البيوت أن يأكل مما فيها حتى يستأذن من صاحبها؟ هذا ما تكفلت الآية التالية ببيانه وتوضيحه:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: لا إثم على

الأعمى والأعرج والمريض، وهم أصحاب الأعدار الذين يجوز لهم التخلف عن الخروج إلى الجهاد، وكان المجاهدون إذا خرجوا إلى الجهاد، يضعون مفاتيح بيوتهم عند المتخلفين من أصحاب الأعدار، ويأذنون لهم بدخولها وتفقدوها في أثناء غيابهم، فكان هؤلاء يتحرّجون عن الأكل مما يجدون فيها من طعام، فأنزل الله هذه الآية الكريمة، رافعة للحرص عنهم.

ثم أضافت الآية إلى هؤلاء في الحكم الأقارب والأصدقاء:

﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ أي: وكما لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم، كذلك لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت أقاربكم المحارم، وهم الطبقة الأولى من الأقارب الذين يحرم الزواج منهم.

وهذه من الآيات التي استدلل بها الفقهاء، الذين يوجبون نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنهما^(١).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مِّفْتَاحَتُهُ﴾ أي: ولكم أن تأكلوا أيضاً مما ملكتم مفاتيحه، كالوكيل والخازن من دون أجر، فإن كان بأجر فلا يجوز لهما الأكل إلا بإذن صريح من صاحب الطعام.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: ولكم أن تأكلوا من بيوت أصدقائكم، وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسرُّ به من كثير من الأقرباء.

وهذا فيما إذا علم رضا صاحب البيت، بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه، ولذلك خصص هؤلاء بالذكر، لاعتيادهم التبسط فيما بينهم^(٢).

إذ الأصل التحريم والمنع، وللأموال في الإسلام حرمة كحرمة الأنفس

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦١٩/٢.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٩٦/٦.

والأعراض، وقد مرَّ قريباً قول النبي ﷺ: «فإنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام» [رواه البخاري (١٧٤١)].

وفي «صحيح مسلم» [٢٥٦٤]: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كُلُّ المسلم على المسلم حرامٌ: دُمُهُ، وماله، وعِرْضُهُ».

واستطردت الآية إلى بيان بعض الأحكام المناسبة لموضوعها، فرفعت حرج بعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة بينهم:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ أي: لا حرج عليكم في الأكل مجتمعين أو متفرقين، وكان بعض أحياء العرب لا يأكل أحدهم وحده، ولا يأكل إلا مع غيره، فوسَّع الله عليهم، وأذن لهم بالأكل مجتمعين أو متفرقين. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فابدؤوا السلام على أهلها، الذين هم منكم ديناً وقرابة.

أو: بيوتاً فارغةً فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين^(١).

﴿نَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: يكن سلامكم تحية ثابتة مشروعة، شرعها الله تعالى، مباركة الثواب طيبة الأثر.

ففي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنَيَّ إذا دخلت على أهلِكَ فسلم، يكنْ بركةً عليك، وعلى أهل بيتك» [رواه الترمذي (٢٦٩٨) وقال: حسن صحيح غريب].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تتفهمون ما فيها من شرائع وأحكام وحكم، وتعملون بموجبها.

• استئذان الرسول ﷺ وطاعته:

توجَّع الله تعالى خاتمة سورة النور، بتشريع الاستئذان عند الانصراف والقيام

من المجلس، وبين أهميته ودلالته على النظام والانضباط الاجتماعي، واحترام إمام المجلس وولي أمره، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: أمر يجمعهم، فيه مصلحة عامة، كمجالس العلم والشورى.

﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ أي: لم ينصرفوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، أو يستأذنوا نائبه وولي أمر المجلس بعده عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: هم المؤمنون بالله ورسوله ﷺ حقاً.

ففي الآية ثناء كبير على المؤمنين المتمسكين بهذا الخلق الاجتماعي الرفيع، خاصة الصحابة، الذين تأدبوا بهذا الأدب الكريم مع النبي ﷺ، فامتازوا بذلك على المنافقين، الذين كانوا ينصرفون من مجلسه ﷺ دون استئذانه، كما سيأتي.

وفوضت الآية الإذن إلى رأيه عليه الصلاة والسلام، بحسب ما يرى من المصلحة والحكمة:

﴿فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: بعد أن تأذن لهم، وهذا يدل على أن بقاءهم في مجلسه عليه الصلاة والسلام أفضل، وأن انصرافهم عنه فيه شيء من المؤاخذة يستدعي طلب المغفرة.

﴿إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وينبغي أن يكون حال المسلمين كذلك مع أئمتهم ورؤسائهم في الدين والعلم، يظاهرونهم ولا يفرقون عنهم إلا بإذن^(١).

ثم حذرتهم الآيات من مخالفة أمره عليه الصلاة والسلام، والإعراض عن تلبية دعوته:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْ أَدَّاءُ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تقيسوا دعاءه ﷺ إياكم على دعاء بعضهم بعضاً في أمر من الأمور، ومن جملتها المساهلة في تلبية الدعوة، وترك مجلسه من غير استئذان، فشان النبي ﷺ يختلف عن شأن غيره؛ لأن طاعته وتلبية دعوته واجبة عليكم.

ففي الحديث الشريف: عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، وفي رواية: فلم آتِه حتَّى صليتُ، ثم أتيتُه، فقلتُ: يا رسول الله إنِّي كنتُ أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟» ثم قال لي: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلتُ له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» [رواه البخاري (٤٤٧٤)].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى المراد: لا تجعلوا نداءه ﷺ، كنداء بعضهم بعضاً باسمه ورفع الصوت، ولكن بقلبه المعظم: يا رسول الله، يا نبي الله، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت، كما قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

لكن المعنى الأول أعم، ويدخل فيه هذا المعنى ضمناً، ويتفق أكثر مع سياق الآية، ومع قوله تعالى في سباقها.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونُ مِنْكُمْ لَوْ اذَّكَرُوا﴾ أي: يعلم الله الذين يخرجون من مجلسه عليه الصلاة والسلام قليلاً قليلاً، على خفية، يستخفي أحدهم بمن يجلس أمامه، حتى يخرج بلا إذن، وهو وعيد لمخالفي أمره ﷺ، المنصرفين عن مجلسه دون استئذانه، أكده تعالى بعد ذلك بتحذير صريح فقال:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: تصيبهم بسبب مخالفة أمره عليه الصلاة والسلام، محنة وبلاء في الدنيا.

فطاعته ﷺ والتمسك بسنته أماناً للأفراد وللأمة من الفتن والمحن والبلاء، كما دل على ذلك الحديث الشريف: عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيونُ، ووجلت منها القلوبُ، فقال رجلٌ: يا رسول الله، كأن هذه موعظةٌ مودِّعٌ، فماذا تعهدُ إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله تعالى، والسمع والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يَعْشَ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ محدثة بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ» [رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح].

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيَّتْنَا اللَّهُ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقررت آخرُ آياتِ السورة كمالَ علمه تعالى، وتَمَامَ سلطانه، لتؤكد كمالَ تشريعه، ووجوبَ التزام الناس به؛ لأنهم من خلقه وفي ملكه جل وعلا:

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خلقاً وملكاً وعلماً وتدبيراً، فتنويره تعالى للسموات والأرض تنويرٌ محكم متقن، صادر عن علم كامل وإحاطة تامة. ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: في الحال، فأحوالكم وأعمالكم معلومة لله تعالى، فاحذروا مخالفة أمره والإعراض عن شرعه. وأفادت كلمة ﴿قَدْ﴾ تأكيد علمه سبحانه وتحقيقه، ويستلزم ذلك تأكيد ما تتضمن الآية من وعيد وتهديد.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ويوم الحساب والجزاء ينبئهم تعالى بكل ما عملوا، لمحاسبتهم ومجازاتهم، فعليهم أن يلتزموا بأحكام شرعه، وأن يستضيئوا بأنوار هدايته، فهو الطريق الذي يوصلهم إلى السعادة في الدنيا ورضوانه يوم القيامة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأله تعالى أن ينور عقولنا وقلوبنا بأنوار آياته، وأن يكرمنا بهدايته. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



تفسير سورة الفرقان أسباب الضلال في سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن السبب الأول والأساس في شقاء الناس وعنائهم وتعاستهم وآلامهم، منذ فجر وجودهم على هذه الأرض، وحتى العصر الحاضر، أنهم لا ينقادون للحق ولا يرضون به، مع أنهم في قرارة أنفسهم يعرفونه، ويرون معالمه ودلائله، وذلك لأسباب متعددة نابعة من داخل نفوسهم، أهمها:

١ - انسلاخهم عن الشعور بالمسؤولية عن حياتهم أمام خالقهم ومالكهم يوم القيامة.

٢ - جهلهم بحقيقة أنفسهم، ورفعها فوق حدود عبوديتها، مما أدى إلى استكبارهم وطغيانهم، وبغيهم على بعضهم وتحاسدهم.

٣ - انقيادهم لأهوائهم، وضعفهم أمام شهواتهم ونزواتهم.

٤ - تأثرهم بقرناء السوء ودعاة الشر والضلال، وسرعة استجابتهم لهم.

٥ - إغراضهم عن دعوة ربهم سبحانه في القرآن الكريم، الذي تكفل الله تعالى بحفظه، فلا يزال يُتلى عليهم في مختلف عصورهم، غصّاً طرياً ندياً،

فارقاً للحق عن الباطل، يدعوهم إلى الحق، ويبين لهم أدلته وشواهدة، ويحذرهم من طرق الباطل ومزالقه، ويبين عواقبه ومصيره.

ففي سورة الفرقان تصوير لحقيقة الداء الكبير، الذي هو سر شقاء البشرية ومنبع آلامها، وفيها أيضاً وصف للدواء الناجع، الذي يبرئها من أمراضها، وينهي أسقامها، ويخلصها من عنائها وشقائها، ويأخذ بيدها إن تمسكت به إلى ساحل الأمان وبر السلام.

ذلك هو الهدف في تفسير هذه السورة، أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون للناس منارة هدى وإرشاد إلى طريق السلام.

اللهم آمين، اللهم صل على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحق واضح أبلج، تؤيده حجج كثيرة قاطعة، وتدل عليه دلائل كبيرة، وهو قريب من الإنسان في كل عصر ومكان، ولا يحتاج الإنسان لكي يعرفه إلا إلى جهد قليل من النظر، يراه بعد ذلك واضحاً بارزاً، ويسمعه مجلجلاً مدوياً. ومع ذلك يضلُّ عنه أكثر الناس، ويتغافلون عن رؤيته، فالمشكلة إذاً ليست في خفاء الحق وعدم تمكن الناس من رؤيته ومعرفته، فالله تعالى قَرَّبَ الحق إليهم برسله وكتبه، وزوَّدَهم بوسائل التمكين، التي تمكنهم من معرفته، زوَّدَهم بالأفئدة والسمع والأبصار، المشكلة هي في عدم قبولهم للحق ورضاهم به وانقيادهم له.

ولو فتشتَ عن قلوب أكثر المتخاصمين، الواقفين على أبواب المحاكم وفي ساحات القضاء، لوجدتهم في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، ويرون معالمه ودلائله، ولو أنهم انقادوا له لاستراح القضاة، وتوقفت الخصومات؛ فلماذا يعرض الناس عن الحق، وينأون بأنفسهم عنه، وهو واضح بارز؟!.

لقد تكفَّلت سورة الفرقان بالإجابة على هذا السؤال، فكشفت عن أهم أسباب الضلال، وأبرزت صوراً من صور ضلال الضالين، مع بيان بعض شواهد الحق ودلائله، وبيّنت في آخرها صفات المهتدين المنقادين للحق والراضين به، فتمت بذلك المقابلة، واكتملت الصورة البشرية، وجاءت آيات السورة بحق فرقاناً بين الهدى والضلال، وبين المهتدين والضالين.

ولهذا كان نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، وعموم بعثته إلى الناس كافة، من أعظم النعم وأجلها على البشرية وغيرها من العوالم والمكونات.



تفسير سورة الفرقان أسباب الضلال في سورة الفرقان

تفضل واحسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١).

افتتح الله جل وعلا سورة الفرقان، بتمجيد ذاته، وبيان كمال فضله وتمايز إحسانه على خلقه، بتنزيل كتابه الكريم على عبده محمد ﷺ، فقال:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ أي: تزايد خيره تعالى وعطاؤه على كل شيء، فأحسانه لم يزل ولا يزال ثابتاً في ازدياد.

ولم تستعمل كلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ إلا لله وحده، والمستعمل منه الماضي فقط، وهو إما من البركة، وهي كثرة الخير وزيادته، وإما من البركة، لدوام الماء فيها وثباته، ولهذا يقال: برك البعير، إذا جلس على الأرض^(١).

ولعل المعنى الأول أنسب، لقوله: ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ لكثرة ما في القرآن الكريم من خير وبركة، بينما المعنى الثاني أنسب لمثل قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدِيرُ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] لدوام سلطانه تعالى على ملكه وثباته.

والفرقان: مصدر من فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما، سُمِّي به القرآن الكريم لفصله بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وأطلقه تعالى أيضاً على أنوار هدايته في قلوب عباده المتقين، التي يميزون بها بين الحق والباطل، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وأطلقه تعالى أيضاً على يوم غزوة بدر؛ لأنه أعزَّ فيه الإيمان، وأذلَّ فيه الشرك، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَلَجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وما قيل من أن القرآن سُمِّي فرقاناً لكونه نزل مفرقاً، فيه نظر؛ لأنه تعالى أنزل التوراة جملة واحدة، وسماها فرقاناً، فقال: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ مدحٌ للنبي ﷺ، وثناءٌ عليه؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ ءَابِينَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ووصفه تعالى بذلك أيضاً في مقام الدعوة إليه، فقال: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]. . وفي غيرها من المقامات الشريفة للنبي ﷺ.

﴿يَكُونُ لِلْعَلَامِينَ نَذِيرًا﴾ أي: نزل الفرقان على عبده، ليكون لجميع عوالم الجن والإنس نذيراً وبشيراً أيضاً، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦].

واقتصرت الآية هنا على صفة النذارة، وهي الإخبار بما فيه تخويف؛ انسجاماً مع موضوع السورة الأساس، وهو بيان أسباب ضلال الضالين، وعناد المعاندين. ودلت الآية على عموم رسالة النبي ﷺ، للإنس والجن، ولمن عاصره،

ومن يأتي بعده إلى يوم القيامة، وذلك أمر معلوم من الدين بالضرورة، ويكفر منكروه، لكثرة الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ذات الدلالة القطعية عليه. وذهب بعضهم إلى القول بعموم رسالته عليه الصلاة والسلام إلى جميع العالمين؛ لأنَّ العالم ما سوى الله تعالى، فيشمل الملائكة، وفائدة دخولهم تحت دعوته عليه الصلاة والسلام، تشرفهم بمتابعته وإذعانهم لفضله^(١).

* * *

الخلق والتقدير والتدبير

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُءُوهُ فَقَدِيرًا ۖ﴾ (١) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۖ﴾ (٢)

وبعد أن بيَّن تعالى تمام فضله، وكمال إحسانه، أردف يبين كمال سلطانه، وتفرده وحده بالخلق والملك والتقدير، فقال:

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ رُءُوهُ فَقَدِيرًا ۖ﴾ (٢)

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الذي له خاصة دون غيره ملك السماوات والأرض، فهو وحده المتصرف فيهما خلقاً وملكاً وتدبيراً.

ثم نزه تعالى نفسه عن الولد والشريك فقال:

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وهذا ردُّ على زعم النصارى في المسيح ﷺ، وعلى زعم اليهود في عُزَيْر، وعلى زعم بعض مشركي العرب في الملائكة.

﴿وَلَوْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وهذا رد على جميع المشركين من عبدة الأصنام والأوثان، ومن عبدة الشمس والقمر والنار، كالثنوية والمجوس.

ولا شك أن قوله هذا من لوازم ما سبق تقريره في صدر الآية: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وصرح به تعالى إظهاراً لبطلان قول القائلين بتعدد الآلهة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحدث كل مخلوق وأخرجه من العدم، فلا خالق سواه جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿فَقَدَرَهُ قَدِيرًا﴾ أي: خَصَّ كل مخلوق بالخصائص والصفات والأفعال اللائقة به، قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير... وكلما تقدم العلم البشري، وكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبة مفرداته، اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ قَدِيرًا﴾^(١).

وفيه دليل أيضاً على أن كل مخلوق مقصود بذاته، بحسب حكمة الخالق الباهرة، ومشيئته التامة النافذة، كما قال سبحانه: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الذي خلق فسوّى^(٢) والَّذِي قَدَرَ فَهَدَى] [الأعلى].

فالخلق والتقدير والتدبير أعظم الأفعال الدالة على الألوهية، ولهذا قال تعالى:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم؟! فجميع هذه الآلهة المزعومة، عاجزة عن الخلق، وهي مخلوقة حادثة سُبقت بالعدم، وكلُّ ذلك يدلُّ على

عجزها وضعفها وعدم استحقاقها صفة الألوهية، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: لا يقدرُونَ على إماتة الأحياء، وإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم.

هذا هو الفرقانُ بين الإله الحق، وبين غيره من الآلهة المزعومة، فالإله الحقُّ يجبُ أن يكونَ قادراً على جميع ذلك، فما أشدَّ ضلال من يعبد غيره!.

* * *

صور من ضلال الكافرين

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤)
 وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ
 السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُوًّا رَحِيمًا (٦) وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الظَّلَمَ
 وَيَمْنَى فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُنْفَخُ إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ
 تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ
 خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠)﴾.

• ظلم وزور:

ثم شرعت الآيات تحكي بعض ضلالتهم في حق النبي ﷺ، وفي حق القرآن الكريم المنزل عليه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (٤).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أي: قالوا: ما هذا القرآن إلا كذب افتراه محمد، وأعانه عليه قوم آخرون.

وهذا القول من أشنع وأقبح ضلالتهم، فالقرآن الكريم لا يمكن أبداً أن يكون مفترى، إذ هو في نفسه يدل على أنه كلام رب العالمين، الذي قال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

ولهذا قال تعالى يصف قبح قولهم هذا:

﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي: جاؤوا ظلماً عظيماً وكذباً كبيراً؛ لأنهم جعلوا الحق الثابت الواضح إفكاً مفترى من قبل البشر.
ثم بالغوا في ظلمهم وضلالتهم:

﴿وَقَالُوا أَاسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فِيهِ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

أي: وقالوا: القرآن خرافات سطرها السابقون من الأمم، اكتتبها محمد لنفسه، أو طلب من يكتبها له، فهي تُلقَى عليه كل يوم في أوله وآخره.
ولا بد أنهم كانوا في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون في قولهم هذا؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا أَنْزَلْنَاكَ الْمُبْتَطُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].
ولهذا بادرت الآيات إلى الرد عليهم، وإظهار شناعة ضلالتهم، بقوله تعالى:

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم: أنزل القرآن الكريم عالم غيب السماوات والأرض، فقد أخبر فيه عن مغيبات وأسرار لا يعلمها إلا عالم غيب السماوات والأرض، وقد ثبت أن في القرآن الكريم كثيراً من الحقائق العلمية والأخبار التاريخية، التي ما كان أحد يعلمها.

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: إنه تعالى يمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة التي يستحقونها، لمكابرتهم وعنادهم، وجرأتهم على كتابه تعالى، وعلى نبيه ﷺ.

● ضلال وفساد:

ومن ضلالهم وعنادهم، اعتراضهم على بشرية الرسول ﷺ، وتهكمهم به:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ .

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: قالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق مكتسباً وملمساً لمعاشه كما نمشي، فأنى له الفضل علينا بادعاء النبوة؟! .

ومن المعلوم أن دخول الأسواق مباحٌ للتجارة وطلب المعاش، وكان عليه الصلاة والسلام يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله تعالى ودعوته، ويعرض نفسه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق^(١).
﴿لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ أي: هلا أنزل إليه ملكٌ يصدقه ويساعده في رسالته .

﴿أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾ .

﴿أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: فيستغني بهذا الكنز وهذه الجنة، عن الاكتساب وطلب المعاش في الأسواق .

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أي: وقال الظالمون بسبب ضلالهم وشركهم للمؤمنين: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، قد سحر وغلب على عقله . وهذه الأقوال والمقترحات واضحة البطلان، ظاهرة الفساد، تثير العجب من تفوهم بها، لهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تعجبه منها:

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ ﴿٩﴾ .

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ﴾ أي: انظر كيف قالوا في حقك هذه الأقوال العجيبة الشاذة، واخترعوا لك تلك الصفات الغريبة البعيدة عن الواقع. ﴿فَضَلُّوا﴾ أي: عن طريق الاحتجاج بالعقل والمنطق والبرهان.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: فلا يجدون طريقاً إلى الطعن بصحة نبوتك، وصدق رسالتك؛ لأنها تقوم على الحجج والبراهين، التي تحميها من كل جانب، فلم يجد المبتطلون، ولن يجدوا أي منفذ ينفذون بواسطته إلى النيل منها، والطعن بها، فهي في حِرْزٍ قوي حصين.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لك قُصُورًا﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: تزايد وتكاثر إحسانه وفضله عليك، فهو قادرٌ أن يجعل لك في هذه الدنيا خيراً من كل مقترحاتهم، فكما تبارك الذي نزل الفرقان عليك لتكون للعالمين نذيراً، ف كذلك تبارك عليك فضله وإحسانه. ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: إن شاء جعل لك جنات، لا جنة واحدة كما اقترحوا.

﴿وَجَعَلَ لَكَ قُصُورًا﴾ .

فسعة الرزق وحصول الخيرات منوطان بمشيئة الله تعالى وقدرته، وقد عرض تعالى على نبيه ﷺ الدنيا بزخارفها، فأعرض عنها، كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي أمامة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بِطَحَاءِ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، فَإِنْ جَعْتُ تُضَرِّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِنْ شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ» [رواه الترمذي (٢٣٤٧) وقال: حديث حسن].

أسباب الضلال

﴿يَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ۝١٥ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ۝١٦ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝١٨ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمَ مِنْكُمْ نُفْقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۝٢٠ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢١ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝٢٢ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكُكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ۝٢٣ وَقَدْ مَنَّآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۝٢٤ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ۝٢٥ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّعَابِ وَرُزِلَ الْمَلَكُكَةُ تَنْزِيلًا ۝٢٦ أَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ حَاقًّا لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٧ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَنْتَبِئْتَنِي أَتُخَذُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٨ يَنْوَلِّيكَ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ۝٢٩ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ۝٣٠ وَقَالَ الرَّسُولُ يَذَرُكَ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝٣١ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣٢ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝٣٣ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْسِيرًا ۝٣٤ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلَّ سَبِيلًا ۝٣٥ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٣٦ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

فَدَمَرْنَهُمْ نَدِيمًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا صَرَّفْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْغَرْبَةِ أَلَيُّ الْأَمْرِ وَأَوَّلُ يُضْرَبُ شُكْرًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُوكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْمَنَةِ لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَن تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَن أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

● إنكار المسؤولية والجزاء:

وتوقفت الآيات فجأة عن بيان ضلال الكافرين، وانتقلت بأسلوب الإضراب لتبين سبباً هاماً من أسباب ضلالهم، بقوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أي: كذبوا بيوم القيامة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، وهذا هو السبب الأول والأساس في ضلالهم، فالإنسان الذي لا يدرك طبيعة حياته، ولا يتفهم جوهر وجوده، يبقى دائماً حائراً مضطرباً قلقاً تائهاً ضائعاً، شاردًا عن طريق الحق، ولا يستطيع الإنسان أن يتفهم حقيقة حياته الدنيا، إذا لم يؤمن بحياته الثانية يوم القيامة، وما فيها من مسؤولية وحساب وجزاء، فتكذيبهم بالساعة هو سبب ضلالهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: هيأنا لمن كذب بيوم القيامة، وأنكر مسؤوليته عن أعماله، ناراً عظيمة الاشتعال والاستعار.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: إذا كانوا منها بمرأى الناظر البعيد.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: سمعوا لها صوتاً يدلُّ على شدة غضبها وغلليانها.

والغيظ: أشدُّ الغضب، والتغيْظ: إظهار الغيظ، فيكون بصوت مسموع.

وأما الزفير: فهو صوت ترديد النَّفْس حين يتنفخ الصدر منه.

وتدل الآية على أنَّ جهنم يزدادُ تلْهُبُها وتسعُرُها عند رؤيتها للكافرين، فكيف يكونُ حالُها إذا ألقوا فيها؟!

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنَيْنِ﴾ أي: إذا ألقوا في مكان ضيق منها، وهم مع ذلك الضيق مقيّدون بالسلاسل والأغلال إلى بعضهم، وهذا يدلُّ على أنَّها تضيقُ عليهم لتشديد العذاب، فإنَّ الكرب يزدادُ مع الضيق.

﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالهلاك.

فيقال لهم:

﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

فعذابكم دائم متجدد لا ينقطع، فالهلاك اليوم أمنية المتمني، وهو المنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لا يُطاق، ثم هاهم أولاء يسمعون جواب الدعاء، يسمعون تهكُّماً ساخراً مرّاً: ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فهلاكٌ واحدٌ لا يُجدي شيئاً، ولا يكفي شيئاً^(١).

ولما وصلت الآيات إلى هذا الحد في وصف العذاب المرعب المخيف، التفتت

إلى النبي ﷺ، تأمره أن يدعوهم إلى المقارنة بين مصير المعذِّبين ومصير المنعَّمين:

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ .

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ فلفتُ الأنظارَ إلى المقارنة بين المتضادين في الأحوال أسلوبٌ من أساليب القرآن الكريم في الدعوة والتربية. ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا﴾ يصيرون إليه. فالمقاعِدُ محجوزةٌ للقلوب المخلصة المتوجهة إلى الله.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولا ﴿١٦﴾﴾ .

أي: حقيق بأن يُسأل ويُطلب.

● المواجهة الرهيبة:

فالضلال نابعٌ من نفس الإنسان، ومن كسبه واختياره، وليس أمراً مفروضاً عليه من الخارج، وهو وحده الذي يتحملُ تبعة ضلاله، فلا يشاركه أحدٌ في تحملها، حتى ولا الآلهة المزعومة، التي ضلَّ عن الحق من أجلها، وعبدها من دون الله تعالى.

أبرزت الآياتُ هذه الحقيقة، من خلال عرضها لمواجهةٍ ستقع يوم القيامة، بين الضالين من جهة، وبين الآلهة المزعومة التي عبدوها من دون الله تعالى من جهة أخرى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: اذكر يوم القيامة، عندما يجمع الله تعالى المشركين، والآلهة المزعومة التي عبدوها من دونه تعالى، كال المسيح وعُزَيْر والملائكة، وحتى الأصنام والأوثان، فإنه تعالى يجمعها وينطقها في هذه المواجهة الرهيبة.

﴿فَيَقُولُ﴾ أي: الله تعالى مخاطباً المعبودين من دونه:

﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي: أأنتم دعوتهم عبادي هؤلاء إلى عبادتكم، أم هم ضلوا سبيل عبادتي وطاعتي باختيارهم؟.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقال أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَكَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلَ حِثٍّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا].

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تتنزه وتتقدس عن أن يشاركك أحد في استحقاق العبادة والطاعة، فما صحَّ وما استقام لنا أن نتولَّى أحداً غيرك، فكيف يصحُّ لنا أن ندعو غيرنا لكي يتولانا ويعبدنا من دونك؟!.

أو: ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا، ونحن نعبدك وحدك.

﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ أي: جعلتهم يتمتعون هم وآبائهم من قبلهم بأنواع النعم، التي أنعمت بها عليهم، كالأموال والأولاد، وطول الأعمار، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمكوا في الملذات، حتى غفلوا عن ذكرك وشكرك وعبادتك.

انشغل القوم بالنعمة عن المنعم، وهو سبب آخر من أسباب الضلال - سببرزه آيات السورة فيما بعد -.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي: وأصبحوا بسبب انهماكهم في الشهوات، قوماً لا خير فيهم، كالأرض البور المعطلة عن الزرع، فلا خير فيها، وكذلك لا خير في

الإنسان إذا ما أعرض عن طاعة ربه، ولا تتحقق إنسانيته إلا إذا استسلم لله تعالى وحده، وأذعن لأمره وشرعه.
وعقبت الآيات على هذه المواجهة، فالتفتت التفاتة رائعة إلى الضالين، تقيم عليهم الحجة بهذه المواجهة:

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (١٩).

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبتكم معبوداتكم في قولكم: إنهم آلهة.
﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: فلا تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم، ولا نصر أنفسكم.

وفي قراءة ثانية: (فما يستطيعون صرفاً ولا نصراً) أي: فما يستطيعون صرف العذاب عنكم، ولا نصركم وتأييدكم، فالمسؤولية واقعة عليكم، بسبب ظلمكم وضلالكم، النابع من أنفسكم.

ولهذا ختم سبحانه الآية بهذا التقرير الجازم:

﴿وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: من يظلم منكم بعبادة غير الله تعالى، نذقه عذاباً كبيراً، بالخلود في نار جهنم.

• الابتلاء والاختبار:

ثم أضافت الآيات بيان سبب آخر من أسباب الضلال، وقبل أن تصرّح به، ردت اعتراضهم على بشرية النبي ﷺ، بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (٢٠).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: إن جميع المرسلين قبلك كانوا بشراً مثلك، يأكلون الطعام كما تأكل،

ويمشون في الأسواق لتأمين حوائجهم الدنيوية كما تمشي، فلست بدعاً من الأنبياء والمرسلين، فلماذا يعترضون على بشريتك، ويقولون كما تقدم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]؟.

ثم كشفت الآية عن الدافع الحقيقي، الذي جعلهم يعترضون على رسالة النبي ﷺ:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: قدر تعالى بسابق علمه ومشيتته، أن يبتلي الناس بعضهم ببعض، وذلك بما جعل بينهم من تفاوت في الخصائص والصفات والمواهب والمَلَكَات والأرزاق... فقد ابتلى سبحانه الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء، والمرضى بالأصحاء، والخاصة بالعامّة... وكذلك ابتلى الأمم بالأنبياء، والأنبياء بالأمم. وقال سبحانه:

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: أتصبرون على هذا الابتلاء، وترضون بما قدر تعالى لكم، فتفوزوا وتفلقوا، أم لا تصبرون فتضلوا؟!.

فالفقير إذا رضي بما قدر له تعالى، ولم يحسد الغني، فقد فاز، ونجح في الامتحان، وأما إذا حسده، وبغى عليه، فقد ضل وخسر في الامتحان. وفي المقابل، الغني إذا عرف فضل الله تعالى عليه وشكره، وأعان الفقير، ولم يتكبر عليه، فقد فاز، وإلا فقد ضل.

وهذا أيضاً شأن الصحيح مع المريض، والشريف مع الوضيع، والرئيس مع المرؤوس.

وكذلك شأن الأمة مع نبيها، فإذا ما انقادت إليه، وصدقت بدعوته، فقد فازت، وأما إذا حسدته على ما أنعم الله عليه، واعترضت على نبوته ورسالته، فقد ضلت وخسرت.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: كان تعالى ولا يزال عالماً بحقيقة عباده، وما ابتلاهم إلا ليظهر علمه تعالى فيهم، وليعاملهم بعملهم، ويحاسبهم عليه، لا على علمه الأزلي فيهم سبحانه.

ولا تظنَّ أنه تعالى ابتلاهم لكي يضلوا، إنما ابتلاهم تعالى، بما قدَّر بينهم من التفاوت بالأرزاق والمواهب، ليتعاونوا، ويتبادلوا المنافع والخبرات فيما بينهم، وقد صرَّح تعالى بذلك في قوله الكريم: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا وَرَحِمْتُ رِبَكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وليكون أيضاً هذا التفاوت والاختلاف دليلاً على طلاقة مشيئته تعالى، وكمال قدرته، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْمَسِيحَ وَالْوَنُكْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

• الاستكبار والطفيان:

ومن أسباب الضلال أيضاً: التكبر والتجبر ورؤية النفس والاعترار بها، وقد أوردت الآيات هذا السبب، مقترناً مع إنكار الحساب والجزاء، وعدم الشعور بالمسؤولية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا أَي: لا يؤمنون بلقاء الله تعالى يوم القيامة، والوقوف بين يديه للحساب والجزاء.

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا أَي: هلا أنزل علينا الملائكة رسلاً، أو نرى ربنا فيخبرنا بصدق محمد - عليه الصلاة والسلام -.

وهي مقترحات أخرى، ضمتها الآيات إلى ما حكته من مقترحاتهم الفاسدة في أوائل السورة، وسلكت الآيات في هذا مسلك الطبيب الحاذق، الذي يصف

المرض، ثم يبين أسبابه، فبعد أن وصفت الآيات ضلالهم، بينت بواعثه وأسبابه بقوله سبحانه:

﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: استكبروا كبراً في قرارة أنفسهم، وأوصلهم هذا الكبر إلى غاية التجبر والطغيان ومجاوزة الحد. فالتعوا: أشد الكفر، وأفحش الظلم^(١).

فهم لم يجسروا على هذا القول العظيم، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو^(٢).

ثم بينت لهم الآيات متى يرون الملائكة، وتحقق لهم هذه الأمنية:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يرون الملائكة يوم تحين أجالهم، وينزل بهم الموت، وتشخص أبصارهم، فحينئذ يرون ملائكة العذاب رؤية لا بشرى فيها للمجرمين، بل فيها العذاب والألم فوق ما هم فيه من سكرات الموت وآلامه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْهَبْنَاهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وفي قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ إشارة إلى أن الملائكة تنزل بالبشرى على المؤمنين الصالحين عند الموت، وقد صرحت به الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

(١) تفسير القرطبي: ٢٠/١٣.

(٢) تفسير النسفي: ٤٣٧/٤.

﴿وَيَقُولُونَ حَبْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ويقول المجرمون عند رؤية الملائكة: حبراً محجوراً، وهي كلمة استعاذة، تدل على شدة خوفهم من رؤية الملائكة، يلتمسون فيها معاذاً يعيدهم.

وأنى لهم المعاذ، وليس معهم عمل صالح ينفعهم ويلوذون به:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (٢٣).

أي: عمدنا إلى أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، كإغاثة الملهوف، وقرى الضيف، وحفظ الجوار، فأبطلناها بالكلية؛ لأنهم لم يعملوها تقرباً إلى الله تعالى، ورجاء ثوابه، وإنما عملوها بقصد الرياء والسمعة والمفاخرة. والهباء المنثور: ذرات الغبار الصغيرة المتناثرة التي ترى في شعاع الشمس. وبأسلوب المقارنة الذي مر معنا في الآيات، قال تعالى:

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (٢٤).

وهم المؤمنون المتقون، يستقرون يوم القيامة في أقصى ما يكون من الخير والنعيم، فالجنة لهم دار قرار ومقيل واستراحة. وأضافت الآيات رؤية أخرى للملائكة، وهي في يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ (٢٥).

أي: ويرون الملائكة يوم القيامة، عندما تشقق السماء، وتنزل الملائكة منها إلى أرض المحشر نزولاً عجيباً، مثل كتل الغمام.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢٦).

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: الملك الحقيقي في هذا اليوم للرحمن، فلا سلطان لأحد سواه، وفيه ينادي ﷻ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يطوي الله ﷻ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهنَّ بيده اليُمْنَى، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أينَ الجَبَّارونَ؟ أينَ المتكَبِّرونَ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا المَلِكُ، أينَ الجَبَّارونَ؟ أينَ المتكَبِّرونَ؟» [رواه مسلم (٢٧٨٨)].

وذكر سبحانه اسمه (الرحمن) للإيذان بأن اتصافه تعالى في هذا اليوم بغاية الرحمة، لا يهون الخطب على الكفرة؛ لعدم استحقاقهم للرحمة^(١)، ولهذا قال بعده: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: شديداً عليهم لا يُسر فيه.

• مصاحبة الضالين:

ومن أسباب الضلال أيضاً: مصاحبة الضالين وقرناء السوء، ومجالستهم، فمن جالس جانس، والصاحبُ صاحبٌ، وصدق القائل:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْلُ وَسَلٌ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي
وقد بينت الآيات القرآنية التالية، خطورة مصاحبة الضالين، بأسلوب غير مباشر، من خلال وصفها لمشهد من مشاهد العسر والشدة على الكافرين يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ (٢٧)

﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ أي: يوم يعضُ الظالم لنفسه، المشرك بربه، على يديه؛ ندماً وأسفاً، على ما فرط في جنب الله، فأهلك نفسه في طاعة خيله، الذي صده عن سبيل ربه، وهو: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ﴾ في الدنيا.

﴿مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ إلى النجاة من عذاب الله.

قال الإمام الطبري رحمته الله: «قال بعضهم: عَنِ الظَّالِمِ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ؛ لأنه ارتدَّ بعد إسلامه، طلباً منه لرضا أبي بن خلف، ثم روى بسنده أنَّ عُقْبَةَ بْنَ

أبي مُعِيْطٍ وَأَبِي بَن خَلْفَ كَانَا خَلِيْلَيْنِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِمَا صَاحِبِهِ: بَلِّغْنِي أَنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا فَاسْتَمَعْتَ مِنْهُ، وَاللَّهِ لَا أَرْضَى عَنْكَ حَتَّى تَنْفَلَ فِي وَجْهِهِ وَتَكْذِّبَهُ، فَلَمْ يَسْلُطْهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَقُتِلَ عَقَبَةُ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا، وَأَمَّا أَبِي بَن خَلْفٍ فَقَتَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أَحَدٍ فِي الْقِتَالِ»^(١).

﴿يَتَوَلَّيْنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾.

﴿يَتَوَلَّيْنِي﴾ أي: يا ويلتي وهلكتي احضري، فهذا أوانك، قُلِّبَتِ الْيَاءُ أَلْفًا لِلنَّدْبَةِ، فَالرَّجُلُ يَنْدُبُ حَظَّهُ، وَيَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالْهَلَاكِ عَلَى نَفْسِهِ، كَمَا تَقْدَمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَلْفَاؤُا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ أي: ليتني لم أأخذ فلانًا الضال صديقًا وصاحبًا.

وكلمة (فلان) يَكْنَى بِهَا عَنْ كُلِّ اسْمٍ عِلْمٍ، وَأَفَادَ عَدَمَ التَّصْرِيحِ بِاسْمِهِ عَمُومَ الْحُكْمِ عَلَى كُلِّ صَدِيقَيْنِ اجْتَمَعَا عَلَى ضَلَالَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، ففِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَنْقَطَعُ جَمِيعُ الْأَوَاصِرِ وَالصَّلَاتِ الْقَائِمَةِ عَلَى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَنْقَلِبُ نَدْمًا وَحَسْرَاتٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي: لقد أبعدني عن ذكره تعالى وطاعته، بعد أن وصلني وبلغني وتمكنت منه.

وكأنه يحاول الاعتذار وإلقاء المسؤولية على غيره، ولكن هذا لا يخلِّصه منها، ولا ينجِّيه من تبعه كسبه واختياره، فهو الذي أعرض عن دعوة النبي ﷺ، وفتح صدره وقلبه لضلal صديقه، كما أنه لم يحسن اختيار صاحبه.

وقد حذر النبي ﷺ من سوء اختيارِ الصاحب والصديق، فقال: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يَخَالِلُ» [رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨)].
وقال أيضاً: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا» [رواه أبو داود (٤٨٣٢) والترمذي (٢٣٩٥)].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَنَافِعِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يَخْذِيكَ (يعطيك)، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِعُ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» [رواه مسلم (٢٦٢٨)].

ومن مساوئ الصاحبِ الفاسد أيضاً: أنه يخذل صاحبه عند الشدة، ويتخلى عنه، كما يفعل الشيطان باتباعه وأوليائه.

﴿وَكَاثَ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ أي: يصاحبه ويواليه حتى يضلّه ويوصله إلى الهلاك، ثم يتخلى عنه: ﴿كَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر].

• إعراض واعتراض:

ومن أسباب الضلال أيضاً: الإعراض عن سماع القرآن الكريم، وعن تدبر آياته؛ إذ جعل الله فيه أعظم أسباب الهداية، فهو الفرقان بين الهدى والضلال، والحق والباطل، كما قرر تعالى في صدر آيات السورة: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

وقد أدرك مشركو قريش هذه الحقيقة، وعرفوا المدى الكبير لسلطان القرآن الكريم، وهيمته على القلوب والنفوس، ولهذا أعرضوا عنه عناداً، وبذلوا جهدهم ليصرفوا الناس عن سماعه وتدبر آياته، وسجل ﷻ عليهم إعراضهم في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

وهاهي الآيات الكريمة هنا، تحكي شكاية النبي ﷺ هجر قومه لكتاب الله تعالى، وإعراضهم عنه، بهذه الكلمات الخاشعة الضارعة، الدالة على شدة حزنه وأسفه عليه الصلاة والسلام، بسبب إعراض قومه عن دعوته، وهجرهم للقرآن الكريم:

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠).

فعلى المؤمن أن يتعهد القرآن الكريم، تلاوةً وحفظاً وتدبراً، ويداوم على ذلك، فالقرآن الكريم حصنٌ حصينٌ من الضلال، ووقاية كبيرة من نزغات الشيطان ووساوسه وفتنه، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْءِ آذَانِهِمْ وَقُرْهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وبادرت الآيات الكريمة، تعزي النبي ﷺ وتسليه، عما يلقي من إعراض قومه وضلالهم، بقوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (٣١).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا للأنبياء قبلك أعداء من مجرمي أقوامهم، فاصبر كما صبروا.

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ويكفيك أن يكون الله تعالى هادياً لك وناصرًا.

ومن صور ضلالهم المتعلقة بكتاب الله: اعتراضهم على نزوله منجماً ومفرقاً:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٣٢).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: هلاً نزل عليه القرآن دفعة واحدة في وقت واحد، كما نزلت التوراة والإنجيل.

وهو اعتراضٌ مدفوعٌ لا قيمة له؛ لأن إعجاز القرآن الكريم، وما فيه من تحدٍّ لهم، لا يختلف بنزوله جملةً أو مفرداً.

وإن لتفريق نزوله حكماً كثيرة، ذكر الله تعالى بعضها في قوله:

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: كذلك أنزلناه مفرداً تثبتاً لقلبك، في مواجهة ضلال المشركين وعنادهم، فإن توالي نزول وحي الله تعالى عليه ﷺ، يقوي قلبه الشريف، ويجعله يستشعر دائماً عنايته تعالى به وتأنيده له.

﴿وَوَكَّلْنَاهُ تَرْيَلاً﴾ أي: وكذلك أيضاً رتلنا تلاوته، فقرأناه عليك مرتلاً بترسل وثبت.

فحكمة تفريق التنزيل إذاً تثبت فؤاد النبي ﷺ، والترسل في تلاوته عليه، وليست كما زعم كثير من المفسرين، مراعاة جانب النبي ﷺ، حتى يعيه ويحفظه؛ إذ أخبرنا تعالى أنه تكفل بجمعه في قلب النبي ﷺ، فقال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قُرَأْنَهُ فَأَنبِئْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) ﴿[الْقِيَامَةِ]﴾.

وقال أيضاً: ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ثم أضافت الآيات بيان حكمة أخرى لتفريق نزول القرآن الكريم:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (٣٣).

أي: لا يأتونك بشيء يعترضون به على صحة نبوتك، إلا نزل القرآن الكريم يرد اعتراضهم، ويبين الحق أوضح بيان وأفصح، وهذا كما قال ابن كثير رحمه الله: «اعتناء كبير وشرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحاً ومساءً، سفرأ وحضراً، لا كإنزال ما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»^(١).

والجدير بالذكر هنا: أنّ في نزول القرآن الكريم مفرقاً مراعاةً لجانب الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، لكي يتمكنوا من حفظه، وفهم أحكامه، والقيام بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِیَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

• تهديد الضالين ووعيدهم:

ولما وصلت الآيات إلى هذا الحد في بيان ضلالهم، ورد اعتراضاتهم، ارتفع نبضها، وعلا جرسها، وهي تهددهم وتوعددهم، وكأنها تبين بهذا الأسلوب الجديد المرعب المخيف، أنه أمثل أسلوب يعالج عنادهم وضلالهم.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٣٤)

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُسحبون يوم الحشر على وجوههم إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبِكُمَا وَصَمًا مَّاؤِنَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: أولئك مكانهم شر مكان، وسبيلهم أضل سبيل، فقد بلغوا الغاية في الشر والضلال، فلا يُجدي معهم إلا الوعيد والتهديد، شأنهم في هذا كشأن من سبقهم من الأمم المعاندة الضالة.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ (٣٥)

أي: جعلنا هارون مع موسى مساعداً في أداء الرسالة. ومع أنه تعالى أيدهما بالمعجزات الكثيرة الدالة على صدقهما، كذب القوم بها عناداً واستكباراً، وكانت النتيجة:

﴿فَقُلْنَا أَهْبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَذِيرًا﴾ (٣٦)

أي: دمرناهم تدميراً عجبياً عظيماً لا يُدرِك مداه، بعد أن أقمنا عليهم الحجة بالمعجزات الكثيرة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٧﴾ .

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ أي: جعلناهم عبرة وعظة لكل من جاء بعدهم من الناس .

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: وهذه سنتنا في معاملة الظالمين، فقد هيأنا لهم عذاباً أليماً .

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ٣٨﴾ .

أي: ودمرنا أيضاً عاداً وثمود وأصحاب الرس، وهم أصحاب بئر لهم، قتلوا نبيهم، ورموه فيها، فانهارت بهم، وخسف بهم وبديارهم^(١) .

وثمة أمم كثيرة ضالة، دمرها تبارك وتعالى، لم تذكرها الآيات، واكتفت بالإشارة إليها، لا يعلمها إلا الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ رِبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧] .

ولم يهلك الله تعالى هذه الأمم الكثيرة الضالة إلا بعد أن أرسل إليهم الرسل، وألزمهم بالحجج والبراهين والبيانات، وضرب لهم الأمثال:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ ٣٩﴾ .

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ﴾ أي: وضربنا الأمثال المقربة للمعاني، المبينة للحق، لكل أمة من هذه الأمم، ومع ذلك أعرضوا وكذبوا وعاندوا .

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ تَنْذِيرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً عظيماً، كما سبق في قوله: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦] .

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْفَرِيقَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (٤٠).

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا عَلَى الْفَرِيقَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ﴾ أي: ولقد مرّ مشركو قريش على قرية قوم لوط، التي أنزل تعالى عليها مطراً من حجارة، بعد أن جعل عاليها سافلها، وذلك عندما كانوا يسافرون للتجارة في بلاد الشام.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا﴾ أي: فيعتبروا بما حل بأهلها.

فالآيات تدعوهم إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ مُّصِيبَةٌ﴾ (١٣٧) ﴿وَالْيَلِيلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصفات].

وانتقلت الآيات فجأة، من دعوتهم إلى الاعتبار بأحداث التاريخ، إلى تأكيد سبب ضلالهم الأول:

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: إنهم ضلوا ولم يعتبروا، بسبب إنكارهم ليوم الجزاء والحساب، وهو يومُ الخروج والنشور من القبور، وهو تأكيدٌ بنفس الأسلوب الذي سبق في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١] وهذا يظهر لنا شدة الاتفاق والاحتباك بين آيات السورة، في الموضوع والأسلوب.

● عِبَادُ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ:

ومن أسباب الضلال أيضاً: الانهماك بشهوات الدنيا، والانشغال بالأهواء، وسبق معنا الإشارة إلى ذلك، في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَاكَلُوا مِنْهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

وهو من أكبر أسباب الضلال، فما أكثر الذين صرعتهم شهواتهم، واستعبدتهم أهواؤهم ونزواتهم، فصرفتهم عن الحق، وأضلتهم عن الصراط المستقيم، ولهذا لم تكتفِ الآيات بالإشارة السابقة إليه، بل صرّحت به هنا،

وبينت خطره وأثره، بضرب المثل له، ومهدت لذلك بإظهار صورة من صور ضلالهم وعنادهم، وكيف كانوا يواجهون النبي ﷺ ويتعاملون معه:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ .

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ۝٤٢﴾ أي: لا ينظرون إليك إلا نظر المستكبر المستهزئ.

ويضمون إلى نظرات السخرية والاستهزاء الأقوال الجارحة:

﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ أي: يقولون ذلك ازدراءً لرسول الله ﷺ، واعتراضاً على الله تعالى، الذي فضله عليهم، واختاره دونهم لحمل رسالته وأداء أمانته، وهذا يدل على أنهم ما كفروا برسالته ﷺ إلا حسداً وبغياً، كما ذكر تعالى ذلك عنهم بقوله الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۝٤٢﴾ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٣﴾ .

﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۝٤٢﴾ أي: إنه قارب أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا، لولا أن ثبتنا عليها، وتمسكنا بها.

وهذا اعترافٌ منهم بأنه عليه الصلاة والسلام، قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة إلى الحق، وإقامة الحجج والبيّنات، إلى حيث شافوا أن يتركوا دينهم، لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم^(١).

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٣﴾ أي: وسوف يعلمون حين يشاهدون العذاب عند الموت أو يوم القيامة، من هو الضال عن سبيل الحق والهدى.

وهذا رد لقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا﴾ فقد نسبوا الضلال إلى رسول الحق والهدى ﷺ، وحاشاه عن ذلك، فلا يُضِلُّ غيره إلا مَنْ كان ضالًّا في نفسه.

والدليل على أنَّهم هم الضالون في أنفسهم، أنهم اتخذوا أهواءهم وشهواتهم آلهة يطيعونها من دون الله تعالى، ولهذا اتجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تعجبه من شدة ضلالهم، وتعزّيه عن جموحهم واستهزائهم:

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣).

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ أي: أطاع هواه، وجعله إلهه ومعبوده، حتى أصبح لا يسمع حجة، ولا يفهم حقيقة.

﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: لا تكون عليه حفيظًا من الضلال؛ لأنّه لا يسمع دليلاً، ولا يعقل حجة.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٤٤).

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي: هل تظن أنهم يسمعون دعوة الحق، ويتفهمون أدلتها، وهم منصرفون إلى طاعة أهوائهم، منهمكون في تحقيق شهواتهم.

وتأمّل دقة التعبير القرآني وموضوعيته في قوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لأن بعضهم أذعن للحق ودخل في الإسلام.

وهذا الانتقال بأسلوب الإضراب من معنى إلى آخر، أبلغ في الذم والتقييح، ولهذا استعملته الآية لوصفهم بغاية الضلال والعناد.

ثم خطت الآيات خطوةً أخرى بالأسلوب نفسه، لتقرير معنى آخر، أعمق جرحاً، وأكثر ذمّاً:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: ما هم إلا كالبهائم في عدم انتفاعهم بالحجج المنطقية، والبراهين العقلية، بل هم أكثر ضلالاً من

الأنعام، لأنها تعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتهتدي إلى مراعيها ومشاربها، وهي تفعل ما خلقت من أجله، أما هؤلاء فقد خلقوا لعبادة ربهم وطاعته، فأعرضوا عن ذلك، وعطلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم عن أدلة الحق ومؤيداته، وتكَّبوا طريق الهدى، وساروا في طريق الضلال والبور، كما وصفهم تعالى بقوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعَانٌ لَا يُسْمِعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

* * *

أدلة الحق ومؤيداته

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مِّمَّا وَشَقَّيْنَاهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاسِيًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطْعَمُ الْكُفَرِينَ وَجَهَنَّهُمْ بِهِمْ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا مَنَ شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ .

• من شواهد الحق وأدلته:

وقد يقول قائل: ما هي الحجج والبراهين التي أعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها؟. وأقول: إنَّ مؤيدات الحق وأدلته وبراهينه وحججه كثيرة وكبيرة وقريبة، وهي مبثوثة في جميع المكونات، صغيرها وكبيرها، وهاهي الآيات الكريمة تذكرنا ببعضها:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۚ﴾ (٤٥)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي: ألم تنظر إلى الظل، كيف مدَّه ربك.

والمراد به: الظل الممتد قبل طلوع الشمس.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: ولو شاء الله ﷻ لجعل الظل ثابتاً دائماً،

لا يزول ولا تنسخه الشمس.

وهذا يدلُّ على أنَّ كل النظم الكونية والنواميس الفلكية، تجري بمشيئته تعالى وحده وقدرته، فكما أنه الخالق وحده، فالتدبير أيضاً له وحده جل وعلا، فله سبحانه الخلق والتدبير.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: ثم جعلنا الشمس دليلاً على وجود الظل، فلا

يظهر للحس حتى تطلع الشمس، عندئذٍ تظهر ظلال الأشياء، وتتميز عن بعضها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (٤٦)

أي: ثم جعلنا الظل يتقلص ويتناقص شيئاً فشيئاً كلما ارتفعت الشمس،

حتى ينتهي إلى غاية نقصانه عند الزوال، ويسمى ما يبقى منه فيء الزوال.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَيْنَا﴾ دل على أن نقصان الظل يتم بمشيئته تعالى وقدرته

وحده، فلا يشاركه أحد في تدبير أمر هذه الظاهرة الكونية العجيبة المحكمة الدقيقة.

ومن هذه الأدلة أيضاً: تنظيم البيئة المناسبة لحياتكم، وتقسيم الزمان ليلائم

حاجاتكم:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٤٧).

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: وهو تعالى وحده الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه.

﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: راحة لأبدانكم، تنقطع به عن العمل.

﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: جعله ذا نشور، تنتشرون فيه لمعاشكم ومصالحكم. هذه نِعَمٌ جليلة، ضرورية لاستمرار حياة الإنسان ووجوده على هذه الأرض، تدلُّ دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته، وهي أقرب الظواهر الكونية إلى مدارك الإنسان وأحاسيسه، تطوقه من كل جانب، فلا يستطيع الانفكاك عنها، بل ولا غنى له عنها أيضاً، ومع ذلك يغفل أكثر الناس عنها، ويعرضون عن التفكير في مبدعها ومدبرها ﷻ.

وانتقلت الآيات من مد الظلال وقبضها، وتقلب الليل والنهار، وما فيهما من نوم ونشور، إلى إرسال الرياح الحاملة للمطر:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (٤٨).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: وهو سبحانه الذي أرسل الرياح، تبشّرُ بقرب نزول المطر، وهو من رحمته تعالى لعباده.

فقدوم الرياح الحاملة للسحاب، ينبئ عن قرب نزول الأمطار، وعلماء الأرصاد الجوية الذين يرصدون حركة الرياح واتجاهاتها، ويبنون على ذلك توقعاتهم، لا يأتون بأمور مغيبية، وإنما يخبرون بأمور محسوسة مشاهدة، تمكنوا من مشاهدتها بأسباب الرصد التي يستعملونها.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ أي: أنزلنا من السحاب، الذي هو في جهة السماء، ماء طاهراً في نفسه ومطهراً لغيره، وهذا يدل على أنَّ للماء وظيفة أساسية هامة في النظافة والطهارة، فضلاً عن وظائفه الأخرى، في السقيا والخصب والنماء.

﴿لَنُحْيِي بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا وَنُشْفِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِيَّ كَثِيرًا﴾ (٤٩).

﴿لَنُحْيِي بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا﴾ أي: لنحيي به بلداً لا نبات فيه، فالمحيي هو الله تعالى، وماء المطر سبب لإحياء الأرض بالنبات، كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِئَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].
﴿وَنُشْفِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِيَّ كَثِيرًا﴾ أي: ونجعل في ماء المطر سقياً لكثير مما خلق الله تعالى من البشر والأنعام، فما أكثر الذين يعتمدون في شربهم وزراعتهم على مياه الأمطار، والناس محتاجون إليها أينما كانوا، في المدن العامرة أو في البوادي المقفرة.

• القرآن الكريم والدعوة:

هكذا عرضت الآيات الكريمة بعض الشواهد والأدلة على وجوده تعالى، بهذه الصور الرائعة والأساليب البديعة المعجزة، التي تدل على رحمته تعالى بعباده، وإحسانه الواسع إليهم، فقرب إليهم معاني التنزيل الحكيم، بهذا البيان الفائق، والكلم الرائق، لعل صدورهم تنشرح له، ونفوسهم تشوف إليه، وعقولهم تدرك حقائقه، فماذا كانت النتيجة؟:

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآيَ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كَفُورًا﴾ (٥٠).

أي: ولقد كررنا عرض الأدلة والبراهين والحجج القرآنية، بأساليب مختلفة، ليتعظوا، وينتفعوا بها، فأبى أكثر الناس إلا جحوداً لها وتكذيباً، وهذا يدل على شدة وكثافة حُجُبِ الشهوات والأهواء، التي تغلف عقولهم وقلوبهم، فتبعدهم عن الحق، وتبقيهم منغمسين في حماة الضلال، كما سبق في وصفهم ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فماذا يريد الضالون أكثر من ذلك؟! هل يريدون أن نرسل رسولا لكل بلد ولكل مجتمع بشري؟! نحن قادرون على ذلك:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ (٥١).

أي: رسولاً ينذر أهلها، ويحمل عن النبي الخاتم - الذي أرسل للعالمين نذيراً - بعض أعباء التبليغ والندارة.

ولكننا لم نشأ ذلك، وقصرنا الأمر عليك يا محمد - عليه الصلاة والسلام - فجعلناك نذيراً للعالمين، لأننا نعلم أنك حقيق بحمل أعباء الرسالة وتبليغها، فرسالتك تغني عن كل رسالة، بسبب عمومها وشمولها، وقوة أدلتها، وسطوع حججها وبراهينها، ونذارتك تغني عن كل ندارة، لفخامتها وضخامتها، وقوة دويها وصداها في القلوب والنفوس.

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (٥٢).

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فيما يدعونك إليه من الملاينة والمداهنة، وترك تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٨) ودُوا لَوْ تَذْهَبُ فَيَذْهَبُونَ [القلم].

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: جاهدهم بالقرآن الكريم، بقوارعه وزواجه ومواعظه، وأدلته وبراهينه، جهاداً كبيراً عظيماً، جامعاً كل أنواع المجاهدة، وكل أساليبها وأفانينها، بلا كلل ولا ملل ولا فتور.

فما أعظم رسالة النبي الخاتم ﷺ! وما أثقلها! إن هذه الآية الكريمة تبين عمق مدلول الآية الأولى في صدر هذه السورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١).

وتبين أيضاً: أن القرآن الكريم هو أعظم سلاح يتسلح به الداعية إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، ففيه من أساليب الدعوة ما يكفي ويغني كل داعية، مهما كانت ظروف دعوته، وطبيعة الناس الذين يدعوهم، وعلى الدعاة أن يتدبروا آياته، ويفقهوا أساليبه، ويحسنوا اختيار الأسلوب الأمثل، الذي يناسب أحوال الدعوة وأطوار المدعوين، ولا يليق بالدعاة إلى الله تعالى أن يجهلوا أساليب

القرآن الكريم في الدعوة، فيؤدّي بهم ذلك إلى الجمود على أسلوب واحد رغم اختلاف الأحوال والأزمان، وهو مع الأسف نقص كبير يعاني منه كثير من الدعاة في عصرنا الحاضر، وهو من أسباب فشلهم، وضعف مردود دعوتهم.

● الماء والحياة:

وبعد هذه الالتفاتة القصيرة للآيات الكريمة، إلى أهمية رسالة النبي ﷺ، وأهمية التمسك بأساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى، استأنفت الآيات عرض مجموعة جديدة من الأدلة والبراهين، الدالة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٣).

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خلقهما متجاورين متلاصقين. والمراد بالبحرين:

- الماء الحلو: الذي فرّقه الله تعالى بين خلقه، لاحتياجهن إليه، أنهاراً وعيوناً وبُحيرات، في مختلف البقاع والأصقاع.

- والماء المالح: الذي جمعه سبحانه في البحار والمحيطات، لحكم جليلة قدرها العليم الحكيم.

وقد عرف العلماء في العصر الحاضر بعض هذه الحكم، عندما اكتشفوا دور البحار في استمرار التوازن الدقيق في الهواء، والمحافظة على البيئة، ودفع أخطار التلوث، فضلاً عما فيه من موارد غذائية واقتصادية كبيرة للإنسان.

وبين تعالى مراده من البحرين بقوله بعد ذلك:

﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: هذا شديد العذوية، يدفع العطش من فرط عذوبته.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: والثاني مالح شديد الملوحة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: جعل بين الماء العذب والماء المالح حاجزاً، يدل

على كمال قدرته جل وعلا.

﴿وَجِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: وما منعاً يمنع طغيان أحدهما على الآخر، بحيث يبقى الماء العذب محافظاً على عذوبته، والماء المالح محافظاً على درجة ملوحته، مع أنه تعالى قدر لهما أن يلتقيا بشكل دائم مستمر، كما قال سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن].

فأكثر المياه العذبة، سواء منها النابعة من الأرض، أو النازلة من السماء، تذهب في نهاية رحلتها الأرضية إلى البحار، وتلتقي المياه المالحة عند مصبات الأنهار، ثم تنفصل عنها بتقديره تعالى، الذي قدر نواميس الحرارة والتبخر والتكاثف، وتحملها الرياح إلى حيث يشاء الله تعالى أن تنزل مرة ثانية، وهكذا تستمر دورة هذه المياه، فما أعظم مشيئته تعالى النافذة في كل ذرة من ذرات المياه! وما أعظم علمه الذي وسع عدد قطر الأمطار ومكايل البحار! وما أدق وأحكم هذا البرزخ، الذي جعل التوازن بين المياه العذبة والمياه المالحة دائماً ومستمراً، كضرورة لاستمرار الحياة على هذا الأرض!.

فللمياه دور كبير قدره العليم الحكيم لاستمرار الحياة، كما أن لها دوراً أساسياً كبيراً في تكاثر المخلوقات وتوالدها، وتأمل دقة وروعة التعبير القرآني واتساقه مع سباقه:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ وهو ماء النطفة، خلق سبحانه منه إنساناً.

وقد يقول قائل: ماء النطفة يختلف عن مياه الأمطار والبحار!.

نعم، هو يختلف في الصفات والأحوال، ولكنه في الأصل مستمد من الماء المطلق، فماء النطفة يُستخلص من الدماء، التي تستمد قوامها من الغذاء، المتكون من مياه الأمطار الممزوجة بتراب الأرض وأملاحها، فالماء هو الأصل، كما أخبر الحق سبحانه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي: جعله تعالى قسمين: ذكورا ينسب إليهم، وإنثا يصاهر بهن، كما قال سبحانه: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [القيامة: ٣٩].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: وكان ربك ولا يزال قديراً على خلق كل ما يريد مما سبق به علمه وتعلقت به مشيئته.

وعلى الرغم من ظهور هذه الأدلة، الدالة على كمال قدرته تعالى ووحدانيته، وتفرد بالخلق والتدبير، يضل كثير من الناس، فيعبدون غيره جل وعلا:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: يعبدون آلهة لا تنفعهم إذا عبدوها، ولا تضرهم إذا تركوها، فما أجهلهم!

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعيناً ومساعداً للشيطان على معصية الرحمن.

● دعوة كريمة:

ومهمة النبي ﷺ لا تقتصر على النذارة، وإنما هي رحمة وبشارة، ولهذا أضافت الآيات هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: تُبَشِّرُ المؤمنين بفضله تعالى ورحمته، وتنذر الضالين بعذابه وسخطه، فهي مهمة كريمة، هدفها الأول سعادة الإنسان، والأخذ بيده إلى طريق الفلاح، منزهة عن أي غرض دنيوي.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: ما أسألكم على تبليغ الرسالة أي أجر. فهي دعوة منزهة عن أي مقصد مادي أو نفع دنيوي، وإعلام المدعوين

بذلك يقربها إليهم، وهو ما فعله جميع الأنبياء ﷺ، فما من نبي إلا قال لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: إلا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْفِقَ مَالَهُ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تعالى.

وقد يكون المعنى: إلا أن تؤمنوا بالله وتطلبوا رضوانه، فهذا هو الأجر الذي أطلبه منكم، إنه هدايتكم إلى طريق الحق، الذي يوصلكم إلى رضوانه تعالى وجنته.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: توكل في الاستغناء عن أجورهم؛ ومواجهة ضلالهم وعنادهم؛ ودفع شرورهم؛ على الله الحي الذي لا يموت، ولا تتوكل على حي يموت.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: ونزهه عن صفات النقصان، مع الثناء عليه سبحانه بأوصاف الكمال.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أي: لا عليك إن كفروا وضلوا وأعرضوا، فإنه تعالى مطلع على جميع ذنوبهم، ومجازيهم عليها.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ ﴿٥٩﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على الوجه اللائق بكماله وجلاله سبحانه.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ أي: هو الرحمن الذي يجب التوكل عليه.

﴿فَسْأَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ أي: أسأله تعالى وحده، ولا تسأل غيره، فهو المحيط بظواهر الأمور وبواطنها، فإن سألته وجدته خبيراً.

وبعد أن شَدَّتْ الآياتُ من عزم النبي ﷺ للقيام بأعباء الدعوة الثقيلة التي كُلفَ بها، كشفت عن سرِّ اهتمامها وتركيزها على الاسم الكريم: الرحمن، من أسمائه تعالى الحسنى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ١٦﴾ .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: إذا قال لهم الرسول ﷺ: اسجدوا للرحمن بالانقياد له وحده، والاستسلام لأمره.

﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ أي: قالوا بتجاهل ووقاحة: لا نعرفُ الرحمن، كما ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] حين قال له موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وهو عالم بالله ﷻ، كما يؤذن بذلك قول موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَسْجُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] ^(١).

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: أنسجدُ للذي تأمرنا أنت يا محمد؟! .

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفوراً عن الإيمان، وزيادةً في الضلال، إذ تجاهلوا الرحمن الذي فاضت رحمته على جميع المكونات، فكلُّها أثرٌ من آثار رحمته العظمى ﷻ؛ ولهذا شرع للمؤمنين عند سماع أو تلاوة هذه الآية، أن يخالفوا المعاندين الضالين، بالسجود سجدة تلاوة لله رب العالمين.

وعرضت الآياتُ مرةً ثالثة، في مقابل عتوهم واستكبارهم ونفورهم، مجموعة أخرى من الدلائل الدالة على كمال رحمته تعالى وقدرته.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ١٧﴾ .

أي: تزايد خيره وبره، وآثار رحمته، الذي أبدع هذا الكون، فجعلَ في

السماء نجومًا بارزة ظاهرة، وجعل فيها الشمس مصدراً للضوء والحرارة، وجعل فيها قمراً منيراً يعكس ضوء الشمس وينير ظلمة الليل.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿٦٦﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل منهما الآخر، أو اختلافاً في الزيادة والنقصان والنور والظلام.

﴿لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر نعمه تعالى عليه، وأدلة وجوده وفضله ﷺ، ويشكره بطاعته وعبادته وحده.

ف ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُهُمْ إِنَّمَا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: أثماً وكفوراً.

فأسباب الهداية والإيمان قريبة من كل إنسان، وهي واضحة ظاهرة ظهور الشمس والقمر والكواكب النيرات في جو السماء.

ولا يخفى ما في كلمة ﴿أَرَادَ﴾ وتكريرها، من دلالة على أن بواعث الهدى والإيمان نابعة أيضاً من نفس الإنسان، ومن كسبه واختياره، كما مر معنا بالنسبة إلى أسباب الضلال، ولا بد للإنسان مع هذه البواعث، من توفيقه تعالى وهدايته ورحمته.

صفات المؤمنين المهتدين

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿١٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَوَّنًا ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ

سَيَاتِهِمْ حَسَنَتْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَّةً أُغْنِ بِ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُخَوِّتُ الْفُرْقَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقُونَ فِيهَا شِجَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ كُلِّدِك فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾

وبعد أن عرضت السورة صوراً من صور عناد الضالين وجحودهم، وأبرزت إلى جانبها بعض أدلة الحق وشواهد وبراهينه، وكشفت عن بعض أسباب ضلالهم وعنادهم، عرضت في ختام السورة صفات المؤمنين المهتدين، فإذا هي على الضد تماماً من صفات الضالين:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ﴿١٣﴾.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: يمشون بسكينة وتواضع، هينين ليني الجانب، من غير فظاظة ولا استكبار.

وهذا يدل على أنهم يتصفون بصفة التواضع، فإن مشية الإنسان تعكس حقيقة ما تنطوي عليه نفسه من تواضع أو تكبر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وهذه صفتهم مع أنفسهم، وأما صفة تعاملهم مع غيرهم، فتظهر من قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: إذا كلمهم السفهاء بالسوء والسفاهة والجهل، ردوا عليهم بالكلام الحسن الطيب، وأغلقوا على أنفسهم منفذاً من منافذ الضلال، إذ مر معنا أنه تعالى جعل بعض الناس فتنة لبعض: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

فعباد الرحمن صبروا على السفهاء، واحتملوا سفاهتهم وطيشهم، ودفعوا

السيئة بالحسنة، كما قال سبحانه: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾.

أي: يُحيون الليل كلاً أو جزءاً في الصلاة والدعاء، يتقربون إلى ربهم، وهذا يدل على شدة خوفهم وخشيتهم منه تعالى وتعظيمهم له، ولهذا يسألونه أن ينجيهم من عذاب جهنم.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: أبعد عَنَّا عذاب جهنم.

فالقوم يقدرون مسؤوليتهم يوم القيامة، ويدركون حكمة وجودهم وجوهر حياتهم، فهم على الضد تماماً من الضالين، الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية يوم القيامة، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: إن عذاب جهنم كان شراً وهلاكاً لا بد منه.

وهذا يدل على أنهم غير معجبين بأعمالهم، يهتمون أنفسهم بالتقصير في طاعة ربهم، والقيام بأعباء عبوديتهم له ﷻ، فهم محتاجون إلى عفوه ورحمته، مشفقون من عذابه، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (١٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ [المعارج].

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

أي: إن جهنم بُسُت مستقراً ومقاماً.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (١٧)

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي: يسرون في حياتهم المعيشية ونفقاتهم سيرا معتدلاً وسطاً، من غير إسراف وتقتير وتقليل.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي: وكان حالهم في الإنفاق وسطاً وعدلاً بين الإسراف والتقتير، فهم ينفذون وصايا الحق تبارك وتعالى في قوله الكريم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وهذا يدل على أنهم لا يعيشون حياة المرففين المترفين، المنهمكين في الشهوات والأهواء، والذين ضلوا بسبب ذلك، حتى أصبحوا عبيداً لأهوائهم وشهواتهم، كما مر عند قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (١٨)

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: لا يعبدون إلا الله تعالى، ولا يشركون معه غيره، فهم على الضدّ تماماً من الضالين، الذين وصفهم الله تعالى بقوله الكريم: ﴿وَأَخْذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

والذين - كما تقدم أيضاً - رفضوا دعوة النبي ﷺ من أجل آلهتهم المزعومة، وقالوا: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: يحترمون حقوق الناس، فلا يعتدون على حياتهم أو أعراضهم؛ لأنهم يشعرون بالمسؤولية عن ذلك أمام الله تعالى، ويعلمون عظم المسؤولية عن حقوق الآخرين.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: يلق جزاء إثمه يوم القيامة، فهم على الضدّ من عبّاد الأهواء والشهوات، الوالغين بدماء الناس وأعراضهم.

﴿يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ﴾.

أي: يخلد في العذاب ذليلاً، فقد جمع الله تعالى له في هذا العذاب المضاعف، الألم الحسي والمعنوي.

وقد عودنا الله تعالى في كتابه الكريم على أسلوبه التربوي التهذيبي، فلا يبيئ أصحاب هذه المعاصي من رحمته تعالى، لهذا فتح لهم باب التوبة والإنابة، والرجوع إلى الحياة النظيفة الفاضلة، فقال:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ﴾.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: إلا من ترك الكفر والضلال، وآمن بالإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد، وبرسالة النبي ﷺ، وتقرَّب إليه تعالى بالأعمال الصالحة.

﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: فأولئك التائبون يمحو الله تعالى سيئاتهم، ويثبت مكانها الحسنات، بفضلته ورحمته.

وفي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَخُولاً الْجَنَّةِ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا، رَجُلٌ يُوْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: اعْرَضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَكَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، وَكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا» فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. [رواه مسلم (١٩٠)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وأكدت الآيات قبوله تعالى توبة التائبين.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (٧١).

أي: فإن التائب المخلص في توبته يتوب توبة مقبولة، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

ومن صفات عباد الرحمن المهتدين أيضاً: أنهم يعرفون قيمة حياتهم، وأنهم مسؤولون عنها أمام الله تعالى، فلا يضيعونها في الأمور التافهة الرخيصة، كاللهو واللعب والعبث، وشأنهم في هذا على الضد من شأن الضالين، الذين لا يعرفون قيمة حياتهم، وجوهر وجودهم؛ لأنهم سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام ربهم جل وعلا.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (٧٢).

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون مجامع ومشاهد الكذب واللهو واللعب، فحياتهم كلها جد وعزم واجتهاد.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: وإذا مروا بأمثال هذه المجالس والمجامع، مروا معرضين عنها، ولم يلتفتوا إليها، ويهتموا بها، مكرمين أنفسهم عن التلوث بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَهْلِيلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ومن صفاتهم أيضاً: أنهم يقبلون على القرآن الكريم، يتلون آياته ويتدبرون معاني كلماته، بصدور منشرحة، وعقول منفتحة، وقلوب خاشعة، فلا يهجرونه ويعرضون عن سماعه، كما يفعل الضالون المشركون، الذين شكاهم الرسول ﷺ إلى ربه، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

أي: والذين إذا قُرئ عليهم القرآن أو وعظوا بآياته، لم يستقبلوا آيات القرآن بأذان صم، وقلوب عمي، بل أقبلوا عليها مستمعين متدبرين خاشعين، يتعظون بمواعظها، ويتأدّبون بآدابها، ويلتزمون بأحكامها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وفضلاً عن كل ذلك، فهم دعاة خير وصلاح في مجتمعهم، وفي داخل أسرهم، يحرصون على صلاح أزواجهم وأولادهم، ويتوجهون إلى الله تعالى يدعونه ضارعين، يسألونه أن يصلحهم ويصلح أولادهم وأزواجهم:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

إِمَامًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: راحة وسروراً لأعيننا، بتوفيقهم للعمل الصالح والأخلاق الكريمة، فإن المؤمن الصالح تقرأ عينه، ويفيض قلبه سروراً، إذا رأى زوجه وأولاده صالحين مثله، يسرون معه على درب الانقياد والاستسلام لله تعالى وأحكام شريعته.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: واجعلنا أئمة صلاح وهدى، وأسوة خير ورشاد، في داخل أسرنا، وفي محيط مجتمعنا، فإن الدعوة إلى الهدى والصلاح من أعظم القربات والعبادات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

هكذا فرقت آيات سورة الفرقان المهتدين عن الضالين، فأبرزت صفات

الضالين وأعمالهم، ثم بينت صفات المهتدين وأعمالهم، وكما وصفت الآيات مصير الضالين، بينت أيضاً هنا مصير المهتدين، بقوله تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۖ﴾

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات الكريمة، يتفضل الله تعالى عليهم بالدرجة العالية في الجنة، بسبب صبرهم على أعباء ما كُلفوا به من العبادات والطاعات، ومجاهدتهم لأنفسهم.

والغرفة في الأصل: البناء المرتفع العالي، فهي تدل على ارتفاع مكانة سكانه، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ كُفُّوا عُرْفَ مَبْنِيَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي: ويلقون في الجنة التحية والسلام والإكرام والاحترام، كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ﴾

أي: ماكثين فيها أبداً، لا يتحولون عنها، حسنت منظراً، وطابت مقاماً ومستقراً ومنزلاً، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

خاتمة السورة

﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝﴾

وبعد أن فرقت الآيات بين صفات الضالين وصفات المهتدين، في الحال والمآل، خُتِمت السورة بأمر النبي ﷺ، أن يبين للناس جميعاً الضالين والمهتدين، حقيقة كبيرة، وهي أنه تعالى غنيٌّ عن طاعتهم وعبادتهم، وأنه سبحانه ما خلقهم لحاجته إلى عبادتهم:

﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝﴾

﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: ربي غني عنكم، فهو ما خلقكم إلا ليدعوكم إلى عبادته وطاعته، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: فقد كذبتُم أيها الضالون رسلي، الذين أرسلتهم ليدعوكم إلى طاعتي وعبادتي، فضللتم.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون عذابكم أمراً ثابتاً لازماً، بسبب ضلالكم وتكذيبكم.

فالله سبحانه ما خلقنا ليعذبنا، بل خلقنا ليشرفنا بعبادته وطاعته، ويكرمنا بفضله وجنته، والضالون هم الذين عرضوا أنفسهم لسخطه وعذابه، وحرموا أنفسهم من رحمته وإحسانه، فالمسؤولية نابعة من أنفسهم، من كسبهم واختيارهم، وما يترتب عليها من حساب وجزاء واقع على أنفسهم والله سبحانه ما ظلمهم، ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

والحمد لله أولاً وآخراً، أسأله تعالى أن يثبتنا على طريق الهدى والنور، ويجنبنا طرق الضلال ومزالق الشيطان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



تفسير سورة الشعراء العنَادُ والعِقَابُ في سُورَةِ الشُّعْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد على آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ الله تعالى في خلقه سنناً لا تتخلّف، منها معاقبة المعاندين للحق، الجاحدين له، بعد أن يبينه تعالى لهم بأدلته وبراهينه وحججه، وبعد أن يمكنهم أيضاً من الانقياد له، بما أعطاهم من كسب واختيار، وبإمهالهم وتأخير العقاب عنهم، فهو العزيز الرحيم، القوي القادر، غنيّ عن عبادتهم وطاعتهم، ومحسن ومتفضّل عليهم بأسباب الهداية والسعادة.

هذا - فيما أرى - موضوع سورة الشعراء الأساس، الذي دارت في فلكه آياتها المئتان والسبع والعشرون، والتي جاءت قصيرةً قويةً متلاحقة، كأنّها مطارق متتابعة، تهوي على رؤوس المعاندين، لعلها تلين للحق وتذعن له.

• أظهرت الآيات الأولى في السورة، عناد مشركي قريش، وإعراضهم عن المعجزة القرآنية، في مقابل حرص النبي ﷺ على إيمانهم، وشفقته عليهم من عاقبة عنادهم.

• ثم عرضت صوراً من عناد بعض الأمم السالفة، وما أدى إليه من عقاب وهلاك، وعقبت على كل موقف بما قررته في صدر السورة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء﴾.

• وعادت الآيات في آخر السورة إلى عناد مشركي قريش، فبينت شدته بإضافة أدلة جديدة إلى المعجزة القرآنية البيانية، التي جاءت تتناسب مع ما اشتهروا به من قوة العارضة، وفصاحة اللسان، والتمكن من البيان، فأكدت أنها تنزيل رب العالمين، بواسطة أمين الوحي جبريل ﷺ، على النبي الكريم محمد ﷺ.

• ثم دحضت شبهاتهم التي كانوا يسترون بها عنادهم، فبينت استحالة تنزل الشياطين بشيء من آيات القرآن الكريم، واستحالة نزولهم على النبي ﷺ، كما بينت بطلان زعمهم بأنها ضرب من ضروب الشعر، فلم يكن عليه الصلاة والسلام شاعراً، ولم يصدر عنه شيء منه، وحاله عليه الصلاة والسلام ودعوته وأتباعه وأصحابه، لا تتفق أبداً مع حال الشعراء وأتباعهم وما يصدر عنهم.

ثم توجت الآيات كل ذلك بخاتمة فيها وعيد شديد للمعاندین، الذي ظلموا أنفسهم، وظلموا الحقيقة بجحودهم وعنادهم، فعقابهم أمر لازم لا بد منه، ولا ينتهي هذا العقاب عند حدود الدنيا الفانية، بل يمتد إلى ما بعد الموت، حيث الخلود في العذاب: ﴿وَسِعَ الْعَذَابُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. فالعناد يؤدي لا محالة إلى العقاب والخلود في العذاب.

أسأله تعالى أن يجعلنا من الذين ينقادون للحق ويدعون له، وأن يثبتنا على طريقه، وأن يقينا شؤم عناد المعاندین، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



الْفَضِيلُ الْإِزْنُ إِشْفَاقٌ وَإِعْرَاضٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَمَ ١ ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ ٢ ﴾ لَعَلَّكَ بَنِعْ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿ ٣ ﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِيلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاصِيعِينَ ﴿ ٤ ﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْتَهُ مُعْرِضِينَ ﴿ ٥ ﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَنِيهِمْ أَتَيْتُوا مَا كَانُوا يَدَّيْسْتَهُرُونَ ﴿ ٦ ﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَثْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿ ٧ ﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ٨ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٩ ﴾

بدأ الله تعالى سورة الشعراء بالحروف التالية:

﴿ طَسَمَ ١ ﴾ .

سبق الحديث عن هذه الحروف في سور سابقة، ويلاحظ هنا تشابه في فواتح السور الثلاث المتوالية: (الشعراء) و(النمل) و(القصص)، لوجود حرفي الطاء والسين متواليين في فواتحها، حتى إن بعض المفسرين أطلق على هذه السور اسم الطواسين.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴾ .

أي: هذه آيات الكتاب البين إعجازه. أو: المبين للأحكام الشرعية. أو: الفارق بين الحق والباطل، كما سبق في أول سورة الفرقان.

﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

أي: لعلك يا نبي الله قاتل نفسك أسفاً وحسرة، لعدم إيمان قومك بذلك الكتاب المبين.

وأصل البخع: أن يُبْلَغَ بالذبح البخاع، وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حد الذبح.

وكلمة ﴿لَعَلَّكَ﴾ للإشفاق، أي: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من إسلام قومك^(١).

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على إسلام قومه، يتألم من إعراضهم وعنادهم، ويشفق عليهم أن يموتوا على كفرهم وشركهم، فيستحقوا الخلود في العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَاثِرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ثم بين تعالى أنه قادر على إجبارهم على الإيمان وإلجائهم إليه، فقال:

﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (٤)

أي: إن نشأ إجبارهم على الإيمان، نزل عليهم آية، فيظلموا لها منقادين خاضعين، فلا يلوي أحدهم عنقه إباءً وعناداً.

وأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وقد يكون المراد منها رؤساءهم وزعماء الضلال فيهم، أو جماعاتهم، يقال: جاءنا عنق من الناس؛ لفوج منهم^(٢).

(١) تفسير أبي السعود: ٢٣٣/٦.

(٢) تفسير النسفي: ٤٦٣/٤.

والله جل وعلا قادر على إجبارهم على الإيمان، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].
ولكنه تعالى قدّر أن يكون للإنسان اختيار وكسب، وجعلَ هذا الاختيار والكسب أساسَ تكليفه ومسؤوليته وجزائه يوم القيامة.
وأصر القوم باختيارهم وكسبهم على ضلالهم وكفرهم، وأعرضوا عن دعوة الحق المؤيدة بالأدلة البراهين:

﴿وَمَا يَأْنِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحدثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

فكلما جدّد تعالى لهم بوحيه موعظةً وتذكيراً، جدّدوا إعراضاً وعناداً وكفراً، فلقد أنزل الله تعالى عليهم آيات القرآن مفرقة منجمة، تجديداً لتذكيرهم وموعظتهم، وتنبهها إلى ما فيها من أدلة جديدة ملزمة وحجج بالغة، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (٣١) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان].
ومع ذلك أصر القوم على إعراضهم وعنادهم وتكذيبهم:

﴿فَقَدْ كَذَبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: كذبوا بكل الآيات التي أنزلها تعالى عليهم، فسيأتيهم أخبار وعاقبة تكذيبهم واستهزائهم.

وكما أعرض القوم عن الأدلة في الآيات القرآنية الكريمة، أعرضوا أيضاً عن الأدلة الماثلة في المكونات والمخلوقات السماوية والأرضية، وما أكثرها:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ﴾.

أي: أولم ينظروا كم أنبت الله تعالى في الأرض من أصناف كثيرة المنافع، تدل على وحدة خالقها وحكمته ورحمته وإحسانه.

فالكريم: صفة لكل ما يحمد ويرضى، وأصل الكرم في اللغة: الشرف والفضل،
فنخلة كريمة: أي فاضلة كثيرة الثمر، ورجل كريم: شريف فاضل صفوح^(١).

وتشير الآية إلى الزوجية المبنوثة في أصناف النباتات، وهي حقيقة علمية
اكتشفها الإنسان المعاصر، وذكرها تعالى في مواضع متعددة من التنزيل الكريم:
منها قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ومنها قوله ﷻ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ
أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

• العزيز الرحيم:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨)

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إن في كل واحد من تلك الأصناف والأزواج آية
عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وخالقها، وسعة علمه، وتمام حكمته، وعظيم
رحمته وإحسانه، تلزم بالإيمان، ومع ذلك:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما كان أكثر الناس في الحقيقة والواقع
مؤمنين، مما يدل على شدة عنادهم، وغاية ضلالهم وجهلهم، كما قال
سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢) ﴿وَمَا تَنْتَهِهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٤) ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ﴾ (١٥) [يوسف].

فالآية تقرر حقيقة واقعة مشاهدة في كل عصر ومصر، والمراد من الأكثرية
أكثرية الناس مطلقاً، وليس المراد مشركي قريش وحدهم، كما ذهب بعض
المفسرين، وخصوص السبب لا يعني خصوص الحكم، إذا كان اللفظ عاماً.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

أي: إنه جل وعلا الغالب القوي القاهر، القادر على الانتقام منهم، وإنه أيضاً المبالغ في الرحمة، ولذلك يمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة. ففي هذين الاسمين الكريمين من أسمائه الحسنى ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، دلالة على غناه وكمال قدرته وقوته، مع عظيم إحسانه وفضله، وسعة كرمه وجوده، فما خلق سبحانه الخلق إلا بمحض مشيئته واختياره، وما كلفهم بطاعته وعبادته إلا ليرحمهم ويحسن إليهم، فهو غني عن عبادتهم وطاعتهم، وإعراضهم عن طاعته وعبادته، ومعاندتهم لرسله، يحرمهم من فضله تعالى وآثار رحمته، ويعرضهم لسخطه وعذابه وانتقامه.

تلك هي الأفكار الأساس الكبرى، التي تدور آياتُ السورة في فلكها، فلا عجب أن يتكرر تقرير هذه الحقائق، بعد عرض مواقف العناد والعقاب عند الأمم الماضية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشُّعَرَاءِ﴾.

ولا شك أن فيها أيضاً مواساة للنبي ﷺ، وتخفيفاً لأسفه وحزنه على قومه، وشفقته عليهم أن يحل بهم عذابه تعالى وانتقامه، فسنته تعالى لا تتخلف في إهلاك الجاحدين المعاندين، كما أن فيها تأكيداً لصدق رسالته، وصحة نبوته، وأن القرآن الكريم الذي ينزل عليه، إنما هو كلام الله تعالى المعجز، ينزل بأمره تعالى ومشيئته على النبي ﷺ.



الْقِصَّةُ الثَّانِيَّةُ

عِنَادُ بَعْضِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَعِقَابُهُمْ

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٦﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَبْقَوْنَ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٨﴾ وَيَضْبِقَ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقَ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴿١٩﴾ وَهَمُّهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٠﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٢١﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَلَمْ تَرَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَيْفَ مَنَعْنَا مِنْ غَمْرِكَ سَيْنَ ﴿٢٤﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنَا الْفِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٨﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِمَنْ أَتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُودِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ أَوْلَوْا جِثَّتْكَ بَشَرٌ مِثْلِي ﴿٣٦﴾ قَالَ فَأَتَتْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٧﴾ فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٨﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤١﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الدِّينِ حَشِيرِينَ ﴿٤٢﴾ يَا ثَوَلُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٤٤﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٤٥﴾ لَعَلَّنَا نَبْغِ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَاجِرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ هُمْ مُوسَىٰ الْقَوْمَ مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا جَاهِلْمُ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعَرَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَحَنَ الْعَالِمُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَلْفَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٥١﴾ فَأَلْفَىٰ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَمْ قَبْلُ أَنْ أَدْعَاكُمْ لَكُمْ

إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ الْيَتْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا تَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأرجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلَبَتْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَرِيرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُقْبِلُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكَ مُتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ خَاشِعِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا زَكَّاهُ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَأَطْوَادِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلَّاهُمْ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَأَتَى عَلَيْهِمْ نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عِنْهُمْ قُلُوبًا ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَبْصُرُونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُسَيِّئُ ثُمَّ يُعْتِمِدُ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْجَفْنِي بِالْصَّلَاحِ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفُ عَنِّي لِأَنِّي كَانَ مِنْ الصَّالِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَذَرُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا سُنُّونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزَلَّاهُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبَرَزْتُ الْجَهَنَّمَ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُوكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نَبَأَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوتُ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتُمْ

لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنْبُوحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمٌ كَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنِ بَنِي وَيَسْأَلُهُمْ فَتَحَا وَيَحْيَىٰ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَتَجَنَّبُهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْآفَاتِ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَالِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنعَامٍ وَبَنِينَ وَحَنَنٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٣﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٥﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٩﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾ أَتَنْتَكِبُونَ فِي مَا هَلْهَنَّا ءَامِنِينَ ﴿١٤٥﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٦﴾ وَتَنْتَحِبُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٨﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤٩﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٠﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥١﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٥٢﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لِّمَا شَرَبْتُمْ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٥﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٧﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٨﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦١﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٤﴾ قَالُوا لَنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٥﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٦﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٨﴾ إِلَّا

عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧٦﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَحْرِيثَ ﴿١٧٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٨٠﴾ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٨٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٨٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٥﴾ أَتُفَوِّكُم بِالْأَكْثَلِ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨٦﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٩﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٩٠﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا نَسْرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٩١﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩٢﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿١٩٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٩٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩٦﴾

● رسالة موسى وهارون ؑ:

بدأت الآيات عرضها لمواقف العناد من دعوة الأنبياء ؑ، بالحديث عن موقف فرعون، ومعاندته لدعوة موسى ؑ، المؤيدة بالبراهين العقلية والمعجزات الحسية:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾

أي: اذكر إذ نادى ربك موسى، وكلفه أن يذهب إلى القوم الظالمين. ودلت الآية على أنه من الواجب على الداعية أن يذهب بنفسه إلى المدعويين، يأتيهم في بلادهم وبيوتهم ومجتمعاتهم.

وكان النبي ﷺ يفعل ذلك، فقد كان يطوف على القبائل في منازلهم، في الأسواق ومواسم الحج، كما كان يرسل أصحابه إلى بلادهم وديارهم، ويذهب أحياناً بنفسه، كما فعل عندما سافر إلى الطائف ليلبغ ثقيفاً دعوة الله تعالى.

ثم بينت الآيات هوية الظالمين الذين أرسل إليهم موسى ؑ:

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَنْقُونَ﴾ (١١).

أي: ائت قوم فرعون، وقُلْ لهم: اتقوا الله تعالى، بطاعته وعبادته وحده، وترك المعاصي والظلم والفجور.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (١٢).

أي: إني أخاف أن يبادروا إلى تكذبي، فأصاب بضيق الصدر:

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْلُغُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ﴾ (١٣).

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْلُغُ لِسَانِي﴾ أي: ولا أستطيع رد تكذيبهم بسبب ما يعتريني من ضيق الصدر، وبسبب خلل في نطقي وكلامي.

وكان في نطقه ﷺ بعض الخلل والنقص، فسأل الله تعالى أن يزيله عنه، كما سألَهُ أيضاً أن يجعل أخاه هارون مساعداً له في أداء الرسالة.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ﴾ أي: اجعل أخي هارون رسولاً، كما في قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرًى (٣١) وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ تَسْبَحَ كَثِيرًا (٣٣) وَتَذْكُرَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥).

﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (١٤).

﴿وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ﴾ أي: ولقوم فرعون عليّ تبعة ذنب، وهو قتل رجل منهم، ضربه موسى دفاعاً عن رجل مظلوم، فأدى ذلك إلى موته، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي: فأخاف أن يقتلوني لهذا السبب.

وما أراد ﷺ بكلماته هذه إلا إظهار ضعفه، وشدة احتياجه إلى معونة ربه، ليقوم بتبليغ الرسالة على أحسن الوجوه وأكملها. واستجاب سبحانه لدعائه، وأرسل إلى هارون، وأمره بمعاونته وتأييده، وآتاه سؤله:

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾.

أي: اترك هذه الظنون والمخاوف، واذهب أنت وأخوك مؤيداً بالمعجزات، إنا معكم بالمعونة والنصرة، سامعون كل ما يجري بينكما وبين فرعون، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَارَى﴾ [طه: ٤٦].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: إنا أرسلنا إليك من رب العالمين. وأفرد ﴿رَسُولٌ﴾ للدلالة على وحدة رسالتهما، أو لأنه مصدر بمعنى الرسالة، فيستوي بالوصف به المفرد والمثنى والجمع.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

أي: أطلق بني إسرائيل من طغيانك وظلمك، واتركهم أحراراً ليخرجوا معنا من مصر.

وهذا دليل على أن مهمة موسى وهارون هي تبليغ فرعون وقومه دعوة الله تعالى، وتخليص بني إسرائيل من طغيانه وظلمه، كما قال سبحانه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّنْ آتَيْنَاكَ﴾ [طه: ٤٧].

وهذا يدل على أن من مقاصد دعوة الأنبياء الأساس نصره المظلومين، وتخليصهم من طغيان الظالمين وبغيهم وفسادهم، وتدلل أيضاً على أن موسى

أُرْسِلَ إِلَى فرعون وقومه، كما أُرْسِلَ إِلَى بني إسرائيل، وليس صحيحاً قول سيد قطب رحمته: «إنه لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه، ليدعوهم إلى دينه، ويأخذهم بمنهج رسالته، وإنما كان رسولاً إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل، ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب أبو يوسف عليه السلام، فبهت هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم، فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد»^(١).

ولا أدري السبب الذي حملة عليه السلام على حصر رسالة موسى في بني إسرائيل، وتغافله عن الآيات الكثيرة القاطعة بأنه أُرْسِلَ مباشرة إلى فرعون وملئه، منها قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقَالَ لَكَ إِلَّا أَن تَرْكِبَ ۖ وَاهْدِكْ إِلَىٰ رِيكِ فَخَشِيَ﴾ [النازعات].

ومنها قوله سبحانه: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه].

● المحاوره:

وبعد أن بينت الآيات رسالة موسى وهارون عليهما السلام، تجاوزت كثيراً من حلقات القصة وأحداثها، وانتقلت مباشرة إلى وصف مواجهة موسى وهارون للطاغية، وحكاية المحاوره في هذه المواجهة بين الجانبين، فأظهرت بذلك شدة عناد فرعون وقومه، وجحودهم للبراهين الساطعة والحجج القاطعة، التي واجههم بها النبيان الكريمان موسى وهارون عليهما السلام، فبعد أن أدّى موسى لفرعون الرسالة، تغافل عنها فرعون، وأقبل على موسى يميناً عليه بما قدّمه له عندما كان صغيراً ناشئاً في قصره.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۖ﴾.

أي: ألم نعمل على تنشيتك وتربيتك عندما كنت حديث عهد بالولادة، ومكثت تتمتع برعايتنا سنين كثيرة من عمرك.

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٩).

أي: فقابلت نعمتنا عليك بالجحود والكفران، وقتلت رجلاً منا.

﴿قَالَ فَعَلْنَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (٢٠).

أي: قال موسى: فعلتُ ما فعلتُ وأنا حينئذٍ من الضالين البعيدين عن الرسالة والنبوة. أو: كنت من الجاهلين لعاقبة ما فعلت، فما كنتُ أحسبُ أنني قاتله بمجرد وكزة واحدة.

وما أراد ﷺ ضلال أهل الجاهلية وكفرهم، فالأنبياء محفوظون منذ صغرهم من مثل هذا الضلال.

﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٢١).

أي: ففررت خوفاً من ظلمكم وبغيكم، فوهب لي ربي النبوة، وأكرمني بحمل الرسالة، وجعلني من المرسلين.

ثم ردَّ ﷺ مَنَّةَ فرعون عليه بأسلوب التهكم، تقليلاً لشأنها، بالكشف عن سببها، وهو ظلم فرعون وطغيانه، فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (٢٢).

أي: وهذه النعمة التي تمنها عليّ ليست في الحقيقة إلا بسبب استعبادك لبني إسرائيل، عندما أمرت بذبح أبنائهم، واستحياء نسائهم، فلولا ذلك لكفني أهلي، وما ألقوني في اليم، وما وصلتُ إلى قصرِك ونشأتُ فيه.

هكذا بكلّ هذا الثبات والجرأة والثقة، ردَّ موسى ﷺ منة الطاغية الكبير عليه، مما حمله على الانتقال إلى موضوع رسالة موسى، والاعتراض عليها:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣).

أي: ما حقيقة رب العالمين، الذي تدّعي أنه أرسلك.
ورّد عليه موسى ببيان بعض أفعاله تعالى وأثار قدرته، لامتناع معرفة كنه ذاته جل وعلا:

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (٢٤).

أي: إن كنتم موقنين بشيء قط، فربُّ السماوات والأرض وما بينهما أولى وأحق ما توقنون بأنه ربكم.
ودُهِشَ فرعون من قوة جواب موسى وظهور حجته، فالتفت إلى رجال حاشيته المحيطين به، مخاطباً لهم:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٢٥).

وكأنه يطلب منهم إسعافه بجواب يرد به على موسى.
ولكنه ﷺ بادرهم بالكلام، مضيفاً دليلاً آخر بأسلوب التحدي لهم:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٦).

فهو تعالى ربكم ورب آبائكم الأولين شئتم أم أبيتم، فهي حقيقة لا تستطيعون تجاهلها.

ولاحظ فرعون أنَّ موسى ﷺ قد تمكّن من السيطرة على عقول القوم ومشاعرهم، بقوة حججه ووضوح براهينه، فحاول صرفهم عن التفكير في كلمات موسى وأدلتها، فعدل إلى الاستهزاء والسخرية من موسى، واتهامه بالجنون:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (٢٧) .

وسمّاه رسولا تهكّماً واستهزاءً، وفطن موسى إلى مراد فرعون، فأعرض عن الرد المباشر لفريته وسخريته، وأضاف دليلاً آخر ملزماً:

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) .

أي: إن كنتم حقاً من أهل العقل والتفكير والتمييز، علمتم أن ربكم هو رب المشرق والمغرب وما بينهما.

ولا يخفى ما في كلماته ﷺ من التعريض بوصفهم بصفة الجنون، وعدم التعقل والتمييز، إذا أعرضوا عن هذه الأدلة الباهرة القاطعة، والحجج البالغة الملزمة.

• عناد وانقياد:

ولمّا رأى فرعون أنه وحاشيته لا حجة لهم في عقائدهم الفاسدة، لجأ إلى لغة التهديد والوعيد، شأنه في هذا شأن جميع المستبدين المعاندين في كل زمان ومكان:

﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢٩) .

أي: لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني الرهيبة المخيفة، وهذا يدل على غاية عناده وعتوه وطغيانه، فهو لا يريد من موسى أن يتخلّى عن رسالته فقط، بل يريد منه أن يتخذها إلهاً ومعبوداً من دون الله تعالى، وقد كان يدّعي لنفسه صفة الألوهية والربوبية، وقد حكى ذلك عنه تعالى في قوله الكريم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ بِأَيِّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطُلُّ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال ﷺ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٣٠) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٣١﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٣٢﴾

[النازعات].

ولم يأبه موسى لتهديده ووعيده، ورأى أنه قد حان الوقت لمواجهته بالمعجزات الإلهية التي أيده تعالى بها، بعد أن طوقه بحججه العقلية الفكرية:

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٠).

أي: بأمر واضح ظاهر، يدل على صدق رسالتي، وكمال قدرة رب العالمين الذي أرسلني.

وهو تحدّد جديد، لا بدّ لفرعون أن يستجيب له أمام حاشيته وأعوانه:

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٣١).

أي: فيما تقول وتدعي.

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (٣٢).

أي: فإذا هي ثعبان حقيقي ظاهر، ليس فيه تخيل ولا تزوير.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ﴾ (٣٣).

أي: ونزع موسى يده من تحت إبطه بعد أن أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء بياضاً منيراً متألئناً، تجذب إليها أنظار الناظرين.

ولا شك أن فرعون وحاشيته قد بهروا بسلطان المعجزتين، ولكن عنادهم جعلهم يخفون تأثرهم وانفعالهم، ويظهرون غير ما يبطنون، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ لِمَلَأَ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ (٣٤).

أي: قال فرعون لمن حوله: إن موسى لساحر عليم بفن السحر.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (٣٥)

أي: يريد أن يستولي على سلطانكم وملككم في أرضكم بسحره، فماذا تأمرون فيه؟

ولقد وشت كلمات فرعون هذه بشدة انفعاله، وتأثره برؤية المعجزتين، حتى حطّ ذلك من كبريائه وادعائه الألوهية والربوبية، إلى مشاورة أفراد حاشيته، والائتمار بأمرهم، والاستعانة بهم على موسى، وتذكيرهم بخطرهم على مناصبهم ورتبهم وامتيازاتهم، وهو الأسلوب نفسه الذي يلجأ إليه الطغاة المستبدون، فإنهم يبادرون إلى اتهام كل معارض لطغيانهم واستبدادهم بالطمع بالملك والسلطان، والاستئثار به دونهم.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدِّانِ حَاشِرِينَ﴾ (٣٦)

أي: أخر أمرهما، وابعث في المدن رجالاً، يجمعون لك السحرة المهرة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلَيْهِ﴾ (٣٧)

لكي يتحدوا موسى، ويظهروا بطلان سحره.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣٨)

أي: يوم مشهور عندهم، فقد كان يوم عيد وزينة لهم، قال تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وقام رجال حاشية فرعون بحملة دعائية كبيرة لجمع الناس، ودسوا بينهم الدعاة يحثونهم على الاجتماع لتشجيع السحرة:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ (٣٩) ﴿لَعَلَّآ نَنْبِغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَغْلَبِينَ﴾ (٤٠)

وهذا يدل على أنهم نظموا حملة دعائية لإثارة الرأي العام ضد دعوة موسى

﴿٤١﴾، ظناً منهم أن الحق يضيع ويضمحل أمام طوفان الباطل وصراخ رعاة الناس وغوغائهم.

وانتهز السحرة المناسبة ليحققوا لأنفسهم بعض المكاسب المادية، شأنهم في هذا شأن الانتهازين، الذي يتملقون الطغاة المستبدين، لتحقيق مصالحهم:

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَّا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾﴾.

فما كان من فرعون إلا أن أطمعهم بالمال والمراتب، فالطغاة المستبدون لا يجدون من يؤيدهم في صفوف الأمة إلا المنافقين والمداهنين والانتهازين.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

• في ميدان المواجهة:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّقْمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قال لهم ذلك بعد أن قالوا له: ﴿يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

﴿فَالْقَوْا جَاهِلُكُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: قالوا ذلك على جهة التعظيم والقسم باسمه، ولا شك أنه نوع من التزلف له، لينالوا ما وعدهم به من الرتب والمراتب، يقابله فرعون وأمثاله بمزيد من التكبر والانتفاش.

وقد شاع - مع الأسف - في كثير من المجتمعات الإسلامية، مثل هذه الأيمان، مع أن الحلف بغير الله تعالى محرم.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَدْرَكَ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ، وَعَمْرٌ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمِتْ» [رواه مسلم (١٦٤٦)].

وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بالطواغي ولا بابائكم» [رواه مسلم (١٦٤٨)].

والطواغي: تشمل كل من طغى وجاوز القدر المعتاد في الشر.

• ولم يطل زهو فرعون وانتفашه:

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥).

أي: فإذا هي تتحول بتقديره تعالى إلى حية عظيمة، تبتلع بسرعة كل آلات تزويرهم وتمويههم من حبال وعصي.

فما كان من السحرة أمام عظمة المعجزة وقوة برهانها إلا السجود على الأرض لله رب العالمين، معلنين إيمانهم به، وتصديقهم برسالة موسى ﷺ.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ سَاحِرِينَ﴾ (٤٦).

أي: من دون تردد ولا توقف، كأن ملقياً ألقاهم.

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨).

وبهذا دفعوا أي توهم أنهم أرادوا فرعون، فإيمانهم برب العالمين، الذي يدعو موسى وهارون إلى عبادته وطاعته.

وتحوّل زهو فرعون وانتفاشه إلى غضبٍ شديدٍ، صَبَّه على السحرة الساجدين لرب العالمين:

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمِدُ لَاقِطَعَنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَأُصَبِّحَنَّ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩).

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ فالرجل غاضب لكبريائه المجروح، بسبب

مبادرة السحرة إلى الإيمان بالله تعالى، من غير استئذانه.

وليس في قوله دلالة على أنه يمكن أن يأذن لهم، فأمثاله من المغرورين المعاندين لا يُرجى منهم أي خير، ولا يأذنون به.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي: إن موسى هو الذي علمكم السحر، فأنتم متآمرون معه على ذلك.

وأراد فرعون بهذا أن يضل الجماهير عن الحقيقة، لئلا يتأثروا بموقف السحرة، ولهذا اتهمهم بالتآمر مع موسى، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَٰهْلَهَا فُتَّوْا فَعَلْتُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وهو الأسلوب نفسه الذي اعتاد المستبدون اللجوء إليه، لقمع معارضي ظلمهم واستبدادهم.

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون وبال تأمركم.

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُنْجِلُكُمْ مِنْ خِلَافِ وَأَصْلَبَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأقطعن اليد اليمنى والرجل اليسرى، ولأصلبكن على جذوع النخل.

ولم يتأثر السحرة بتهديد فرعون، بعد أن أشرقت في قلوبهم جذوة الإيمان، وتذوّقت نفوسهم لذته وحلاوته، فردوا عليه بثبات واستعلاء:

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾

أي: لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا فيه نفع عظيم، بما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم.

أو: لا ضيرَ علينا فيما تتوعدنا به من القتل، إنه لا بد لنا من الانقلاب إلى ربنا بأي سبب من أسباب الموت^(١).

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: أول المصدقين برسالة موسى عليه السلام، فالسبق إلى الخير فضيلة كبيرة،

أكرم الله تعالى بها السحرة، ببركة صدقهم وإخلاصهم وانقيادهم للحق، عندما رأوا أدلته وبراهينه.

• عقاب المعاندين:

وبعد أن أظهرت الآيات عناد فرعون وقومه، بجانب انقياد السحرة للحق وإذعانهم له، طوت الآيات صفحات كثيرة من قصة موسى وفرعون، فصلتها في سورة الأعراف، وانتقلت مباشرة إلى بيان عاقبة العناد والطغيان، والعذاب الذي أنزله تعالى بهم:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ (٥٢).

أي: اخرج بهم ليلاً، إن فرعون سيتبعكم بجنوده.
وحدث ما أخبر تعالى، فلما علم فرعون بخروج موسى مع بني إسرائيل، استنفر جنوده وجمع جيوشه:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٥٣).

أي: أرسل الجامعين للجنود، وخطب فيهم قائلاً:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ (٥٤).

أي: إن بني إسرائيل لطائفة قليلة، بالنسبة لما عنده من جيوش وجنود.

﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا أَغَايُطُونَ﴾ (٥٥).

أي: إنهم فعلوا ما أغضبنا عليهم.

﴿وَلِنَا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ﴾ (٥٦).

أي: وإن من عادتنا الحذر واليقظ، واستعمال القوة في مثل هذه الأحوال.

وعقبت الآيات على تصرفات فرعون وكلماته، بقوله تعالى:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾

أي: بهذا جعلناهم يخرجون من قصورهم وبساتينهم وأموالهم، وجميع ما كانوا عليه من مظاهر سرفهم وترفهم.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٥٩﴾

أي: جعلناهم المالكين لها بعدهم، كما قال سبحانه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۖ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنَ ۝٦٠﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿[الدخان].

فهو سبحانه مالك الملك، ينزعه ممن يشاء، ويعطيه من يشاء، وكل تحول وتغير يتم بإرادته تعالى وسابق علمه.

ثم فصلت الآيات تتابع الأحداث:

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۝٦١﴾

أي: عند شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ ۝٦٢﴾

أي: لما اقترب الجمعان من بعضهما، وأصبح كل جمع على مرأى من الآخر، غلب على بني إسرائيل الخوف والوهن، وقالوا: إِنَّا واقعون لا محالة في قبضة فرعون وجنوده، فالبحر أمامنا وهم خلفنا.

ولكنَّ موسى ﷺ زجرهم عن مثل هذه الكلمات، الدالة على الخوف والجبن واليأس:

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (٦٢).

أي: قال موسى: انزجروا عن ذلك وارثدعوا، فإنهم لا يدركونكم، لأنه تعالى معي ينصرتني ويهديني إلى طريق السلامة.

ويلاحظ أنه ﷺ لم يقل: إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر عندما كانا في الغار، ولعلَّ السبب: أَنَّ موسى ﷺ كان يعلم حقيقة ما تنطوي عليه قلوب كثير من بني إسرائيل من النوايا السيئة، وسوء الظن بالله تعالى، التي أظهرتها بعد ذلك الأحداث اللاحقة، كعبادتهم العجل، وتخاذلهم عن تنفيذ أمر موسى بالجهاد.

وجاء الفرج من الله تعالى في اللحظة الحاسمة الحرجة:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (٦٣).

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أي: أمرنا موسى بواسطة الوحي أن يضرب البحر بعصاه.

﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: فضربه فانشق عن طريق يابس، وأصبح الماء على جانبيه كالجبل المنيف الراسخ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

وفي الآية حذف فيه إشارة إلى سرعة امتثاله ﷺ، وسرعة ترتب الانفلاق على الضرب، وإنما أمر ﷺ بالضرب فضرِب، وترتب الانفلاق عليه، إعظاماً لموسى ﷺ، بجعل هذه المعجزة العظيمة مترتبة على فعله، ولو شاء الله لفلقه من دون ضربه بالعصا^(١).

وقد تم مراده تعالى بإهلاك الطاغية وجيوشه، ونجاة موسى وبني إسرائيل:

﴿وَأَرْلَفْنَا نَمَ الْآخِرِينَ ٦٤﴾ .

أي: قربنا فرعون وجنوده من بني إسرائيل، حتى دخلوا وراءهم.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٥﴾ .

أي: أنجيناهم من الهلاك في أيدي أعدائهم، ومن الغرق في البحر.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ٦٦﴾ .

أي: أغرقناهم بإطباق البحر عليهم، كما قال سبحانه: ﴿فَأَنْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وقال أيضاً: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

واكتفت الآيات بهذا المقدار من قصة موسى، وعقبت عليها بقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٧﴾ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إن في هذه القصة العجيبة برهاناً واضحاً، يدل على كمال قدرة الله تعالى وتمام مشيئته، توجب الإيمان به، وتلزم بتصديق دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا يدل على شدة عنادهم وقسوة قلوبهم.

﴿وَلَنْ رَبِّكَ لَهْوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦٨﴾ .

أي: وإن ربك لهو القاهر القادر على إهلاكهم، كما أهلك فرعون وجنوده، وهو رحيم، ولهذا يؤخر عقابهم لعلمهم ينقادون للإيمان ويدخلون في الإسلام.

● انقياد إبراهيم لله رب العالمين:

لم تلتزم الآيات في سورة الشعراء، بالتسلسل التاريخي؛ حيث عرضت أولاً مواقف العناد والعقاب في قصة موسى وفرعون، مع أنها متأخرة عن غيرها، ثم ثنّت بعرض قصة إبراهيم عليه السلام، مع أبيه وقومه، وأبرزت فيها استسلامه، وانقياده لله رب العالمين، في مقابل عناد أبيه وقومه، مع أنّ هذه القصة متقدمة في الزمن كثيراً عن عصر موسى عليه السلام.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٩)

أي: اتل يا محمد على المعاندين من مشركي مكة، نبأ نبي الله إبراهيم.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٧٠)

وسأله عليه السلام لم يكن سؤال استعلام، وإنما سؤال استنكار لعبادتهم معبودات لا تستحق العبادة.

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظِلُّ لَهَا مِنْكُمْ عَنكِينَ﴾ (٧١)

أي: فنظّل مقيمين على عبادتها. ولا شك أنهم قالوا ذلك افتخاراً وتبجحاً. وقابل إبراهيم عليه السلام تبجحهم وافتخارهم بعبادة الأصنام بالهجوم عليها، وإظهار عجزها، وعدم استحقاقها للعبادة:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣)﴾

وبهذا حصرهم عليه السلام بقوة حججه، وأظهر لهم عجز معبوداتهم. فأضربوا عن إجابته إلى التصريح بأنهم يقلدون آباءهم في عبادتها:

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٤).

فلا حجة لهم إلا تقليد آبائهم تقليداً أعمى .
ووجد ﷺ في جوابهم هذا فرصته المناسبة ليعلن براءته من جميع معبوداتهم، لعلهم يقتدون به، بعد أن أظهر لهم عجزها وعدم استحقاقها للعبادة:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٧).

أي: فكل معبوداتكم عدو لي، لكن رب العالمين هو معبودي الذي يستحق العبادة.

وأراد إبراهيم ﷺ بهذا الاستثناء أن يذكرهم بالمعبود الحقيقي، وأن يشد أفكارهم وعقولهم إليه.

ثم تابع ﷺ كلامه، مبيناً فضله تعالى، وإحسانه عليه، وشدة افتقاره ﷺ إلى هذا الفضل والإحسان:

﴿وَالَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨).

فهو يهدي كل مخلوق لما خُلق له من أمور المعاش والمعاد، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣].

فهدايته تعالى مدرجة من مبدأ إيجاده للمخلوق، إلى منتهى أجله، مبدؤها بالنسبة للإنسان هداية الجنين إلى امتصاص غذائه من دم الرحم، ومنتهائها الهداية إلى طريق الجنة والنعيم^(١).

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩).

أي: هو سبحانه الذي يمدني بأسباب الحياة من طعام وشراب.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠)

أي: هو وحده الذي يبرئني من مرضي ويعافيني.

وبلغ ﷺ في هذه الكلمات غاية الأدب مع الله تعالى، فنسب المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، مع أن كل شيء بمشيئته تعالى وإرادته.

والإنسان يتسبب بسوء كسبه واختياره بخلق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فالشر منا تسبباً، ومن الله خلقاً وإيجاداً، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِّنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وتابع ﷺ إظهار شدة افتقاره إلى الله تعالى، وإعلان استسلامه له جل وعلا:

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١)

أي: بيده تعالى موتي وحياتي، وهو وحده القادر على الإمامة والإحياء، وبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وأكد ﷺ هذه الحقيقة بقوله بعد ذلك:

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٨٢)

أي: وهو الذي أرجو مغفرته يوم الحساب والجزاء.

واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم، وهضم لأنفسهم، وتعليم للأمم في طلب المغفرة^(١).

وأكد ﷺ شدة افتقاره واحتياجه لربه، بأن توجه إليه يدعوه بضراعة وخشوع:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ (٨٣).

أي: هب لي حكمة وحُسن فهم وتمييز، ووفقي لأسير على طريق الصالحين، لأكون يوم القيامة معهم.

وهذا تعريض بقومه، الذين عَظَّلُوا مداركهم وعقولهم، وقلدوا آباءهم تقليداً أعمى، وساروا وراءهم على طريق الضلال.

﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٨٤).

أي: اجعل لي ثناءً حسناً، وذكرًا جميلاً، في الأعقاب والأجيال المتوالية بعدي، وذلك بتوفيقي للأعمال الحسنة، التي تبقى آثارها ومنافعها ماثلةً في ذاكرة الأمم والشعوب.

ولا تزال أعمال إبراهيم عليه السلام الخالدة معالم حق وهدى بين الأمم والشعوب، ومن أبرزها دعوة التوحيد، ورفع قواعد بيت الله الحرام، وقصة الذبح والفداء، قال تعالى تعقيباً على قصة الذبح والفداء: ﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨) سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ [الصفافات].

﴿وَلَجْعَلَنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ (٨٥).

أي: أدخلني برحمتك جنة النعيم.

وهذا يدل على أنه عليه السلام يستقلُّ عمله في طاعة ربه، ويرى أنه لا يدخلُ الجنة بعمله، إنما يدخلُها بفضلِ تعالى ورحمته، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «سَدُّوا وَقَارِبُوا وَأَبْشُرُوا، فَإِنَّهُ لَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله مِنهُ برحمَةٍ، واعلموا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهُ، وَإِنْ قَلَّ» [رواه مسلم (٢٨١٨)].

﴿وَأَغْفِرْ لَأَيِّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦)﴾.

أي: بهدأيته إلى الإيمان، وهذا قبل أن يعلم إصراره على الكفر حتى الموت، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَلَا تَخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)﴾.

أي: أجزني يوم القيامة من العار والفضيحة، عندما يحشر أبي في زمرة المعاندين الضالين.

وفي الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يلقى إبراهيمُ أباهَ آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وجهِ آزرَ قترَةٌ وغبرةٌ، فيقولُ له إبراهيمُ: ألمَ أقلُّ لك: لا تعصني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعصيك، فيقولُ إبراهيمُ: يا ربَّ إِنَّكَ وعدتني ألا تخزيني يومَ يبعثون، فأَيُّ خزيٍ أخزي من أبي الأبعد؟ فيقولُ اللهُ تعالى: إِنِّي حرمتُ الجنةَ على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رجلِكَ؟ فينظرُ، فإذا هو بذبيحٍ متلَطِّخٍ، فيؤخذُ بقوائمه فيلقى في النارِ» [رواه البخاري (٣٣٥٠)] والذبيح: ذكر الضباع إذا كان كثير الشعر.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨)﴾.

أي: يومَ القيامةِ لا ينتفع الإنسان بمال ولا أولاد.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾.

أي: إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من الكفر. ويلاحظ أنَّ دعوات إبراهيمَ ﷺ خاليةٌ من طلب أي عَرَضٍ من أعراض هذه الأرض، إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى، تحركه مشاعر أصفى، ودعاء القلب

الذي عرف الله، فأصبح يحتقر ما عداه، والذي ذاق فهو يطلب المزيد، والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد^(١).

• تخصم أهل النار:

وانتقلت الآيات مباشرة إلى يوم القيامة، بعد حكاية دعوات إبراهيم الخاشعة الضارعة، التي دلّت على استسلامه لله تعالى، وانقياده الكامل له، فبينت مصير المعاندين وعقابهم، في مقابل مصير المتقين:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٩٠).

أي: قُرِّبَتِ الجنة للمتقين تكريماً لهم، فقد أسلموا لله تعالى، وانقادوا لأمره، فأكرمهم تعالى بتقريب الجنة وما فيها من النعيم، تأتي منقادة لهم، حتى تصبح قريبة منهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

﴿وَوُزِنَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (٩١).

أي: أُظْهِرَتِ الجحيم للضالين، الذين عاندوا أدلة الحق، وساروا في طريق الغواية والضلالة.

وكشف لهم عما فيها من أنواع العذاب، قبل أن يساقوا إليها، ويقال لهم توبيخاً وتبكيّاً، وهم يسحبون إليها:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَنَّى مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٩٢) ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٩٣).

أي: هل يمنعون العذاب عنكم، أو يمنعونه عن أنفسهم، فالجميع يحشرون إلى جهنم، العباد والمعبودات من طواغيت الكفر والشرك والأوثان والأصنام، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٩٨) لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

﴿فَكُبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ٩٤﴾ .

أي: فكبوا وطرحوا جميعاً في نار جهنم، زعماء الضلال والكفر، ومن سار وراءهم من الضالين.
والكبيكة: تكرير الكبّ، كأنَّ مَنْ أُلقي فيها ينكبُّ مرةً بعد أخرى، حتى يستقرَّ في قعرها^(١).

﴿وَجُودُوا إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ ٩٥﴾ .

أي: وكبكب معهم أيضاً أعوانُ إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦﴾ .

أي: قال الضالون المعاندون، وهم يختصمون في النار مع معبوداتهم ورؤساء شركهم وضلالهم:

﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٩٧﴾ إِذْ سَوَّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ .

أي: والله إنّنا كنا في ضلال واضح ظاهر، عندما سويناكم في استحقاق الطاعة والعبادة رب العالمين.
ويدل قولهم هذا على شدة حسرتهم وندامتهم، فهم يعترفون متحسرين بانهماكهم في الضلال ومعاندتهم للحق.

﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ٩٩﴾ .

أي: ما دعانا إلى الضلال إلا المجرمون العريقون بالإجرام والظلم والضلال.

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١١٥﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ .

أي: يشفعون لنا كما للمؤمنين الذين ينتفعون بشفاعَةِ الشافعين، من الأنبياء والصالحين، وليس لنا أيضاً صديقٌ قريبٌ، ننتفع بصداقته وقرابته.
وكأنَّهم عندما يقولون هذه الكلمات، يتلفتون حولهم بأبصارهم الزائغة، وقلوبهم الواجفة المتحسرة، فلا يجدون إلا العذاب والنكال محيطاً بهم، وأنَّى لهم ذلك بعد أن تقطعت الأسباب بينهم، كما قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾﴾ .

أي: يا ليت لنا رجعة إلى الدنيا لنستدرك ما فاتنا من الإيمان.
وتتركنا الآيات مع حشرات أهل النار الحارة، وأمانيتهم المستحيلة، لنذكرنا بالتعقيب الأول في السورة:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ .

فما أشد عناد الجاحدين، وما أقسى قلوبهم، وما أعظم رحمة الله تعالى بنا وفضله علينا.

• عناد قوم نوح وعقابهم:

وأوغلت الآيات في أعماق التاريخ البعيدة، إلى زمن قوم نوح عليه السلام، فحكّت لنا جزءاً من محاورته مع قومه، كشفت من خلالها عنادهم، ثم أجملت بعد ذلك عقابهم:

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ .

أي: كذبوا كلّ المرسلين، عندما كذبوا رسولهم نوحاً عليه السلام، لأن رسالتهم واحدة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: ألا تتقون الله تعالى بعبادته وحده، وترك عبادة الأصنام.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

أمينٌ على وحي الله تعالى، ومعروفٌ بينكم بالأمانة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾﴾.

أي: أطيعوني فيما أدعوكم إليه.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

فدعوة الأنبياء خالصة لله تعالى، منزهة عن أي نفع مادي، وهو ما يجبُ على الدعاة أن يبادروا إلى إعلانه، وتحقيقه في سلوكهم، حتى لا يُتهموا بمقاصدهم، فإنَّ ذلك يعوق الناس عن قبول دعوتهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾﴾.

كرر طلبه، وألحَّ فيه، إشارةً إلى أنَّ صدقه وأمانته يستدعيان متابعتَه والاستجابة لدعوته، كذلك تنزهه عن تحقيق المكاسب الدنيوية، يستدعي أيضاً طاعته والاستجابة لدعوته.

ومع ذلك أعرض قومه عن دعوته عناداً واستكباراً:

﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

أي: كيف نؤمن لك، وقد اتبعك السفلة والضعفاء؟!.

وهذا من سخافة عقولهم، وقصورِ رأيهم، إذ جعلوا مبادرة الفقراء إلى اتباع

نوح مانعاً لهم عن اتباع الحق والانقياد له، وأشاروا بذلك إلى أن اتباع الفقراء لنوح لم يكن عن نظرٍ وبصيرة، وإنما هو لتوقع مال ورفعة، دل على ذلك حكاية قولهم مفصلاً في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ أَلَمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

ولهذا رد ﷺ عليهم:

﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما علمي بحقيقة إخلاصهم في عملهم، فهذا ليس من شأني. والله تعالى هو الذي يعلم حقيقة أعمالهم، وهو الذي يحاسبهم عليها:

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

أي: ليتكم تدركون هذه الحقيقة وتشعرون بها.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٤) ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١١٥)

وكأنه ﷺ يقول لهم: لا أبالي بكم، ولا بإعراضكم، فلن أطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم، فمهمتي أن أذكركم وأحذركم. وعاند القوم أدلة الحق التي طوقهم بها ﷺ، ولجؤوا إلى لغة الوعيد والتهديد كما فعل غيرهم من المعاندين:

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

أي: من المقتولين رجماً بالحجارة.

فما كان منه ﷺ، بعد أن دعاهم زمناً طويلاً، إلا أن توجه إلى الله تعالى يستنصره عليهم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: فاحكم بيني وبينهم حكماً يؤدي إلى إهلاكهم، ونجني مع المؤمنين من شؤم عنادهم وإعراضهم.

﴿فَانَجِّنْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: في السفينة المملوءة بأزواج المخلوقات، التي أمره تعالى بحملها.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

أي: أغرقنا الباقين على الأرض، الذين لم يحملوا في السفينة. وتركنا الآيات مع صورة الهالكين بين أمواج الطوفان العاتية، لتعقب على عنادهم واستحقاقهم لما أنزل الله فيهم من عقاب:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

فما أكثر شواهد الحق ومؤيداته، الماثلة في صفحات المكونات القريبة والبعيدة، وفي صفحات تاريخ الوجود البشري البعيد والقريب، ومع ذلك يعرض أكثر الناس عن الحق معاندين.

• عناد عاد وعقابهم:

ثم اختارت الآيات من قصة نبي الله هود مع قومه عاد جزءاً من محاورته معهم، وهو يدعوهم إلى الله تعالى، أظهرت من خلاله النعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليهم، وركزت على التمكين المادي الذي كانوا عليه، وسعة أموالهم وكثرة أرزاقهم، وبينت كيف قابلو كل ذلك بالاستكبار والطغيان والعناد:

﴿كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفِقُ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَانْقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

والتشابه ظاهرٌ بين دعوتي النبيين الكريمين نوح وهود عليهما السلام، وهي الدعوة

التي دعا إليها جميع الأنبياء، وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع، لاختلاف أزمته وعصورهم، كما أنهم جميعاً منزّهون عن المطامع الدنيوية بالكلية^(١).

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾

أي: أتبنون بكل مكان مرتفع بناءً كبيراً، لمجرد العبث والفخر؟! ويبدو أنهم كانوا بسبب كثرة ترفهم وبطهرهم، يشيدون في الأماكن المرتفعة أبنيةً ومجسماتٍ لا فائدة منها، سوى الإشارة إلى قوتهم، كما يفعل في عصرنا الحاضر كثيرٌ من الحكام المستبدّين، تراهم يملؤون الساحات الكبيرة والأماكن المرتفعة، بالمجسمات والتماثيل، إرضاءً لغرورهم، وتخليداً كما يزعمون لذكورهم، ينفقون عليها نفقات باهظة، ويتركون شعوبهم تعاني من الأزمات الاقتصادية الخانقة، والفقر المدقع.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾

أي: وتتخذون المخازن الكبيرة، المملوءة بالأموال والطعام والمياه، كأنكم باقون أبداً، لن تموتوا.

وهذا يدل على شدة تعلّقهم بالدنيا، وانهماكهم بشهواتها.

روي: أَنَّ أَبَا الدرداء رضي الله عنه، لَمَّا رَأَى مَا أَحْدَثَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْغُوطَةِ مِنَ الْبِنَانِ وَنَصَبِ الشُّجَرِ، قَامَ فِي مَسْجِدِهِمْ فَنَادَى: يَا أَهْلَ دِمَشْقَ. فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، فَحَمْدُ اللَّهِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَسْتَحْيُونَ، تَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَتَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَتَأْمَلُونَ مَا لَا تَدْرِكُونَ، إِنَّهُ قَدْ كَانَتْ قَبْلَكُمْ قُرُونٌ، يَجْمَعُونَ فَيُوعُونَ، وَيَبْنُونَ فَيُوثِقُونَ، وَيَأْمَلُونَ فَيُطِيلُونَ، فَأَصْبَحَ أَمْلُهُمْ غُرُوراً، وَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُوراً، وَأَصْبَحَتْ مَسَاكِنُهُمْ قُبُوراً، أَلَا إِنَّ عَاداً مَلَكَتْ مَا بَيْنَ عَدْنَ وَعُثْمَانَ خَيْلاً وَرِكَاباً، فَمَنْ يَشْتَرِي مَنِّي مِيرَاثَ عَادٍ بِدَرَاهِمِينَ؟! ^(٢).

(١) تفسير أبي السعود ٢٥٦/٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٥٤/٢.

ولعلَّه ﷺ أنكرَ على المسلمين ما أحدثوا من البنیان ونصب الشجر، لانشغالهم به عن طاعته تعالى، وخشية الانصراف عن الجهاد في سبيله، وإلا فهو أمرٌ مشروع وجائز، بل مندوبٌ ومستحبٌ، إذا قصد فاعله مساعدة الناس والحيوان، وإشاعة الخير، تقرباً من الله تعالى.

ففي الحديث الشريف: عن جابر ﷺ، قال: دخل النبي ﷺ على أمِّ مُبَشَّر الأنصارية في نخلٍ لها، فقال لها النبي ﷺ: «مَنْ غرسَ هذا النخلَ، أمسلمٌ أم كافرٌ؟» فقالت: بل مسلمٌ، فقال: «لا يغرُسُ مسلمٌ غرساً ولا يزرعُ زرعاً، فيأكلُ منه إنسانٌ ولا دابةٌ ولا شيءٌ، إلا كانت له صدقةٌ» [رواه مسلم (١٥٥٢)].

والجدير بالذكر أنَّ الإمامَ أحمدَ روى في «مسنده» [٤٤٤/٦] بإسناد حسن: أنَّ رجلاً مرَّ بأبي الدرداء وهو يغرُسُ غرساً بدمشق، فقال له: أنفعلُ هذا وأنتَ صاحبُ رسولِ الله ﷺ؟ قال: لا تعجلُ عليَّ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ غرسَ غرساً؛ لم يأكلُ مِنْهُ آدميٌ ولا خَلْقٌ من خَلْقِ الله، إلا كانَ لَهُ بِهِ صدقةٌ».

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٣٠).

أي: بطشتم بطشاً قوياً شديداً، من غير رحمة ولا تسامح، مما يدل على غلظتهم وقسوتهم وجبروتهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۖ أَمَدَّكُمْ بِاتَّعْمِرِ وَبَيْنَ ۖ وَجَنَّتِ وَعُيُونِ ۖ﴾ (١٣١).

وهذا يدل على أن بلادهم جنوب أرض العرب كانت بلاداً غنية خصبة.

﴿إِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣٥).

وهذا يدل على أنه ﷺ كان يشفق عليهم، ويخشى نزول العذاب بهم. ولكنَّ القوم قابلوا شفقتهم بالعناد والجحود:

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَّعْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٣٦).

أي: فإننا لن نترك ما نحن عليه. فقلوبهم قاسية لا تلين، ولا تهتز لموعظة النبي الكريم.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٧).

أي: ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة آبائنا الأولين، ونحنُ بهم مقتدون.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٣٨) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ (١٣٩) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٠).

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (١٣٨) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ (١٣٩) أي: أهلكناهم بسبب تكذيبهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٣٨) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (١٣٩) ﴿تَنَزَّعُ النَّاسُ ظَنَّنَهُمْ أَعْمَارًا لِّخَلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (١٤٠) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر].
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ من الآيات الكثيرة البارزة في صفحات التاريخ البشري، الدالة على كمال قدرته تعالى ورحمته، ومع ذلك:
﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٤١).

● عناد ثمود وعقابهم:

وكررت الآيات للمرة الثالثة، المقدمة نفسها التي ذكرتها عندما تحدثت عن قوم نوح وقوم هود في بداية بيان عناد ثمود وعقابهم:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٤٢) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١٤٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ (١٤٤) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٥).

ثم أضافت الآيات من كلام صالح لقومه، وهو يدعوهم إلى الله تعالى،

وَيَذْكُرُهُمْ بِيَعْضِ نِعْمِهِ عَلَيْهِمْ ، وَيَخَوْفُهُمْ مِنْ زَوَالِ هَذِهِ النِّعَمِ عَنْهُمْ :

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّآءَ آمِنِينَ﴾ .

وهو سؤال استنكار ، معناه : لا تتركون في هذا النعيم آمنين مطمئنين ، من غير تكليف بطاعة المنعم وعبادته ، فالله سبحانه العليم الحكيم ما خلقكم لمجرد المتاع واللهو .

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ .

أي : ثمرها الذي يطلع منها لطيف لين ناضج .

﴿وَنَجَّاتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ تَذْهَبُ ﴿١٤٩﴾﴾ .

أي : بنشاط وحذق وإتقان .

وهذا يدل على سعة عيشهم ، وكثرة مزارعهم ، وامتداد عمرانهم ، ولا تزال آثاره باقية حتى العصر الحاضر .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ .

فالسرف والترف يؤديان إلى نشر الفساد في الأرض ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْآ أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦] .

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ .

أي : المخدوعين المصابين بخلل واضطراب في عقولهم .

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾

أي : فائتِ بمعجزة تدل على صدق رسالتك وصحة نبوتك .

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ .

أي: هذه ناقة معجزة في خلقها، فقد خلقها سبحانه من صخرة أمام أعينهم، وهي معجزة أيضاً في شربها ولبنها، فقد كانت تشرب ماء البئر كله، وتعطيهم لبناً يكفي جميع قبيلة ثمود، ولهذا كانت تشرب الماء يوماً، وتركه لهم في اليوم الثاني، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَبَّهُمْ وَأَصْطَرِحَ ﴿١٥٧﴾ وَبَيَّتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [القمر].

وأوصاهم نبيهم صالح عليه السلام، ألا يتعرضوا لهذه الناقة بشيء من الأذى فقال:

﴿وَلَا تَسْهَوْا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ .

ومع ظهور المعجزة وقوة دلالتها، لم يذعنوا للحق، وقتلوا الناقة المعجزة عناداً وجحوداً.

﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ .

أي: نادمين على قتلها خوفاً من حلول العذاب لا ندم توبة.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ .

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهو الذي ذكره تعالى في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ ﴿١٥٩﴾﴾ [القمر: ٣١].

وقوله عليه السلام: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جِثِيمًا﴾ [هود: ٦٧].

وكررت الآيات تعقيها على عناد ثمود وهلاكهم:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ .

هكذا شأن أكثر الناس، يجحدون الحق معاندين، مع كثرة شواهدة ومؤيداته.

• عناد قوم لوط وعقابهم:

وأما قوم لوط فأضافوا إلى عنادهم الشذوذ والانحراف عن سنن الفطرة الإنسانية في علاقاتهم الجنسية، وهو ما أبرزته الآيات في دعوة نبي الله لوط ﷺ، فالأنبياء يسعون إلى مقاومة الفساد في شتى صورته وأشكاله، ودفع الآفات الخبيثة عن أبناء المجتمع، وردهم إلى صفاء الفطرة التي خلقهم الله تعالى عليها:

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ بَيْنِ قَوْمِكُمْ فَتُؤْتُوا مَالَكُم بِطَيِّبٍ مِّنْ بَنَاتِكُمُ الصَّافِيَّاتِ ﴿١٦٤﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦٥﴾﴾

وأضاف ﷺ بعد هذه المقدمة، التي ذكرها سلفه من الأنبياء، يستنكر شذوذهم في علاقاتهم الجنسية:

﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾

أي: أنتم مختصون بشيوع هذه الفاحشة من بين سائر الناس.
ويبدو أنهم هم الذين استحدثوها.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لَّئِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

أي: وتتركون ما أحلَّ الله لكم من نسائكم، بل أنتم في هذا متجاوزون حدود الفطرة الإنسانية السوية.

وقابل القوم موعظة نبيهم بتهديده بالطرده والتشريد عن بيته وبلده:

﴿قَالُوا لَيْنَ لَّمْ تَنْهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

كما قال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّطْهَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل: ٥٦].

ولم يجد ﷺ في مواجهة عنادهم، إلا أن يعلن براءته من عملهم، ويتوجه إلى الله تعالى يسأله النجاة من شؤمه وعذابه:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ۖ﴾ (١٦٨)

أي: المبغضين له غاية البغض.

﴿رَبِّ يَحْيَىٰ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۖ فَجِئْتُهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۖ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ ۖ﴾ (١٦٩)

أي: إلا امرأته بقيت مع الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ۖ﴾ (١٧٠)

أي: أهلكناهم بقلب بلادهم وتنكيسها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]. وهو المطر الذي قال عنه الله تعالى هنا:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ۖ﴾ (١٧١)

أي: فبئس المطر الذي أنزل عليهم. وعقبت الآيات على عناد قوم لوط وعقابهم، كما عقبته على من سبقهم من الأمم الهالكة:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۖ﴾ (١٧٢)

ففي عقابهم وإهلاكهم آية عظيمة داعية إلى الاعتبار والاتعاظ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمُتْرُونٌ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ۖ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات]. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّعِينَ ۖ وَإِنَّهَا لِسَبِيلٌ مُّقِيمٌ ۖ﴾ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ [الحجر].

ولا تزال آثار غضب الله تعالى عليهم باقية حتى عصرنا الحاضر، في ما يسمى البحر الميت أو بحيرة لوط من أرض فلسطين، ومع ذلك لم يتعظ أكثر الناس ولم يعتبروا بما حدث.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٧٥)

● عناد أصحاب الأيكة وعقابهم:

ختمت الآيات جولاتها التاريخية مع بعض الأمم المعاندة للحق، بالحديث عن أمة مدين، قوم نبي الله شعيب عليه السلام:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦)

أي: كذب أصحاب الشجرة الكبيرة، ذات الأغصان الكثيرة الملتفة، المرسلين. ويبدو أنهم كانوا يعبدون هذا الشجرة الكبيرة، ولهذا نسبوا إليها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٧٧)

أي: قال لهم نبي الله شعيب: ألا تتقونه تعالى بعبادته وحده.

وهم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هاهنا: أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، فقطع نسب الأخوة بينهم، للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً^(١).

ورأى بعض المفسرين أن نبي الله شعيب أرسل إلى أمتين، هما: أهل مدين، وأصحاب الأيكة، لكن رأي ابن كثير هو الأوجه، ويؤكد قوله تعالى عن قوم لوط وأصحاب الأيكة: ﴿وَلَا تَهْمَا لِيَأْمُرَ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ٧٩] أي: إنهما على طريق واضح، هو طريق القوافل الممتد بين الحجاز وبلاد الشام، والذي

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٥٧/٢.

يمرُّ أولاً ببلاد مدين، ثم يتجه إلى الشمال مارّاً بفلسطين، كما أنَّ الآيات وصفتهم بالصفاتِ نفسها التي ذكرت لأهل مدين، وهي التلاعب بالمكاييل والموازين، وقطع الطريق، ونشر الفساد، كما سيأتي.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

أي: أتموا الكيل ولا تكونوا من المنقصين لحقوق الناس.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

أي: زنوا بالميزان السوي العدل.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

أي: لا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم، ولا تنشروا الفساد في الأرض، بالإغارة على الناس، وقطع الطريق عليهم، كما قال سبحانه في سورة هود: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَيَّرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْشَطُونَ ﴿١٨٤﴾ وَيَقَوْمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

وتابع ﷺ دعوته الإصلاحية في قومه ومجتمعه، والتأكيد على تقوى الله تعالى وعبادته وحده، فإنها أساس كل صلاح:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٦﴾﴾.

أي: اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الأمم السابقة.

وسُمُّوا جبلةً، لأنهم جُبلوا وُخِّلِقوا على الخصائص والطبائع، التي خصَّهم

الخالق جل وعلا بها، يقال: جُبِلَ فلان على كذا، أي: خُلِقَ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٩].

ولكنَّ القوم عاندوا الحق، ولم يذعنوا لدعوة الإصلاح، وردوا على نبيهم بوقاحة واستهتار:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٥).

أي: من المخدوعين، الذين سُحِرُوا حتى أصيبوا بخلل واضطراب في عقولهم.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٨٦).

أي: وإنا نظنك من الكاذبين في ادعاء النبوة. ثم تمادوا في عنادهم، فسألوه متحدين أن ينزل عليهم العذاب:

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧).

أي: أسقط علينا قطعاً من السماء، إن كنت من الصادقين فيما تدعيه.

فعنادهم عنادٌ جحودٍ واستكبارٍ، لا عنادٌ جهلٍ وغباء، وهو كعناد مشركي مكة، عندما سألوا الله تعالى قائلين: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقابل ﷺ عنادهم واستكبارهم، باللجوء إلى الله تعالى، ليقضي بأمره فيهم:

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨٨).

أي: من الكفر والمعاصي، وبما تستحقون من العقاب والعذاب.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٨٩).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ أي: تمادوا في تكذيبهم وعنادهم، فأخذهم عذاب اليوم الذي أهلكهم الله فيه.

وَدَلَّتِ الْآيَاتُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى أَنزَلَ بِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ عَذَابٍ وَاحِدٍ، كَمَا فَعَلَ بِقَوْمِ لُوطَ، الَّذِينَ أَهْلَكَهُم بِالصَّيْحَةِ، وَأَمْطَرَ عَلَيْهِمُ الْحِجَارَةَ، وَقَلَبَ الْأَرْضَ بِهِمْ، كَذَلِكَ فَعَلَ بِهِؤُلَاءِ، أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ سَحَابَةً أَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نَاراً، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ أَيْضاً الصَّيْحَةَ الشَّدِيدَةَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمًا﴾ [هود: ٩٤].

﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عظيم في شدته وهوله.

عَظُمَتِ الْآيَاتُ عِقَابَهُمْ، فَجَاءَ مَنَاسِباً لِّمَا سَبَقَ مِنْ عِنَادِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ.

ومع كل هذه القصص، وما فيها من عظات وعبر، فإن الناس هم الناس، لا يزال أكثرهم مصرين على عنادهم واستكبارهم:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

كما أخبر تعالى عنهم في أول السورة بقوله الكريم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ (١٩٠) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَتَّبَعُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء].

وَأَتَتْهُمْ الْأَنْبَاءُ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِمُ الْعِبَرُ وَالْمَوَاعِظُ، وَطَوَّقَتْهُمْ الدَّلَائِلُ وَالْبَرَاهِينُ، وَلَا زَالَتْ تَتَوَالَى عَلَى الْأَجْيَالِ الْبَشَرِيَّةِ، فَإِنَّ آيَاتِ التَّنْزِيلِ الْحَكِيمِ مُحْفُوظَةٌ بِحِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا تَزَالُ تُتْلَى عَلَى مَسَامِعِ النَّاسِ، غُضَّةً طَرِيقَةً نَقِيَّةً، كَأَنَّهَا أَنْزَلَتْ السَّاعَةَ، وَيَرَى النَّاسُ كُلَّ يَوْمٍ فِيهَا عِلْماً مِنْ أَعْلَامِ إِعْجَازِهَا، وَمُؤَيِّداً مِنْ مُؤَيِّدَاتِ صَدَقِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَزَالُ أَكْثَرُهُمْ مُعْرِضِينَ عَنْهَا، مُغْتَرِبِينَ بِفَسْحَةِ الْأَجْلِ الَّتِي مَتَعَهُمْ بِهَا الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

دَعْوَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعِنَادُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَهِمْ عَلَمَتَانِ إِذْ يَسْتَدْعِيهِ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ رَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا مَا مُنْذَرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ .

• تنزيل القرآن الكريم:

ما إن انتهت الآيات من عرضها لبعض مواقف العناد، عند الأمم السالفة، حتى التفتت تتحدث عن القرآن الكريم، تؤكد صدقه وصحة تنزيله من رب العالمين على النبي ﷺ، وتظهر في الوقت نفسه عناد مشركي قريش، وإعراضهم عن الإذعان له، والانقياد لدعوته.

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ .

أي: وإن القرآن الكريم، منزل من رب العالمين، بأمره ومشيته جل وعلا.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ .

أي: نزل به جبريل الأمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].
فالروح الأمين هو جبريل عليه السلام، أمين الله على وحيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩٤﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿١٩٥﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير].

﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ .

أي: نزل به على قلبك يا محمد مباشرة، لتكون من الرسل المنذرين.
وإنزال القرآن الكريم على قلبه الشريف مباشرة، يؤكد كمال تلقيه له، وأن القرآن كان يثبت في قلبه الشريف، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام عندما سأله الحارث بن هشام رضي الله عنه: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول» [رواه البخاري (٢)].

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ .

أي: أنزل تعالى القرآن الكريم بلسان عربي فصيح واضح، فلا عذر لمشركي العرب على وجه الخصوص في جحوده وتكذيبه، ومعاذة دعوته.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ .

أي: وفضلاً عن ذلك، فإن ذكره والتنويه به موجود في جميع كتب الأنبياء السابقين.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ .

أي: أولم يكن تصديق علماء بني إسرائيل وشهادتهم له، دليلاً لمشركي

قريش على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته.

قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود، يسألونهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإننا لنجد في التوراة نعتة وصفته.

وعلى هذا فالمراد بعلماء بني إسرائيل، كل مَنْ كان له علم بكتبهم، أسلم أم لم يسلم، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين، لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب^(١).

ورأى بعضهم أن المراد بعلماء بني إسرائيل، مَنْ أسلم منهم، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة، لكن مكية الآيات ترجح الرأي الأول.

• عناد مشركي قريش:

هكذا طوقتهم الآيات بالحجج القاطعة والأدلة الواضحة، ثم دمغتهم بطابع الجحود والعناد بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾

أي: لو نزلنا القرآن الكريم على أعجمي لا يحسن العربية، فقرأه عليهم قراءة صحيحة معجزة خارقة للعادة، ما آمنوا به، وهذا يدل على شدة عنادهم وجحودهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَلَكَّمْهُمُ الْتَوَكُّ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام].

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾

أي: بهذا العناد والجحود أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة، من الكفر به والتكذيب له، وضعناه في قلوبهم^(١).
وقد يكون المعنى المراد: كذلك أدخلنا تكذيب القرآن والجحود به في قلوب المجرمين.

ولكنَّ المعنى الأول أوجه، وأكثر انسجاماً مع سباق الآيات وسياقها، وليس فيه تشييت للضمائر، فالآيات تركّز على إبراز عناد مشركي قريش، وشدة معارضتهم لدعوة القرآن الكريم.

• التهديد بالعقاب:

وسنة الله في عباده لا تتخلف، فبعد أن أظهرت الآيات عنادهم، أخذت تتوعدهم بالعقاب:

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾

أي: لا يؤمنون بالقرآن الكريم حتى ينزل بهم العذاب الأليم، وإيمانهم هذا غير مقبول؛ لأنه إيمان الإلجاء واليأس، كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق.

﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

أي: فيأتيهم العذاب فجأة وهم في حال غفلة، منهمكون في شهواتهم وأهوائهم.

﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

أي: يتمنون وقتئذ أن يؤخر العذاب عنهم قليلاً، ليستدركوا ما فاتهم من طاعة الله تعالى.

﴿أَفِعْذَابَنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٢٠٤).

وهو استفهام إنكار وتهديد، فإنهم كانوا قبل نزوله يستعجلونه، ويقولون - كما مر - لنبئهم: ﴿فَأَسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴿٢٠٧﴾.

أي: أخبرني إن جعلناهم يتمتعون في الحياة الدنيا عدداً من السنين، ثم جاءهم العذاب والهلاك، فهل ينفعهم ما مضى من متاع، فإن لحظة واحدة من العذاب تُنسي الإنسان متاع عمر كامل.

كما جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُضَبَّعُ فِي النَّارِ صَبْغَةً (أي: يُغَمَّسُ غَمْسَةً) ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشدِّ الناس بُؤْساً فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُضَبَّعُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فيُقالُ له: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْساً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ» [رواه مسلم (٢٨٠٧)].

ففي الآيات موعظةٌ بليغةٌ لمن له قلب، روي عن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن البصري في الطواف، وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عِظْنِي. فلم يزد عن تلاوة هذه الآيات، فقال له ميمون: لقد وعظت فأبلغت^(١).

فمهما عاش الإنسان ممتعاً بالسلطان والأموال والأولاد، وزخارف الدنيا وزينتها، فإن الموت نازل به، وقاطعه عن كل ما هو فيه، وحينئذ تكون حسرته أعظم، وخسارته أكبر.

ثم أخبر تعالى عن عدله في خلقه، وأنه ما أنزل عقابه في الأمم الهالكة إلا بعد الإعذار والإنذار، ببعثة الرسل وإنزال الكتب وإقامة الحجج فقال:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا مَا مُنْذِرُونَا ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾ .

أي: أرسلنا الرسل إليهم مذكرين بما أوجب سبحانه عليهم، وبمسؤوليتهم عن حياتهم، فما خلقهم تعالى للعب والعبث، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [الفصص: ٥٩].



الْفَضِيلُ الرَّابِعُ

دَحْضُ شُبُهَاتِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُونَ ٢١٢﴾ فَلَا نَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ٢١٣﴾ وَأَنْدِرُ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ٢١٤﴾ وَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنَكَ هِينَ نَقُومُ ٢١٨﴾ وَتَقَابُكُ فِي السَّجْدِينَ ٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٢٢٠﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ٢٢١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَقَالٍ ثَمِيرٌ ٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ .

● حفظ القرآن عند تنزيله:

وكما أكدت الآيات أنَّ القرآن الكريم تنزيلُ ربِّ العالمين، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، نفت نزول الشياطين به، وردَّتْ مزاعم مشركي قريش أنَّ لمحمد عليه الصلاة والسلام تابِعاً من الجن، يخبره كما تخبر الكهنة، وأنَّ القرآن مما ألقاه إليه^(١)، قال تعالى ينفي ذلك نفياً صريحاً قاطعاً:

﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ٢١٠﴾ .

بل هو تنزيلُ الحكيم الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٣١١﴾ .

بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ استحالةَ تنزل الشياطين بالقرآن الكريم من ثلاثة أوجه:
أولها: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ أي: وما يصحُّ وما يستقيم لهم النزول بالقرآن الكريم؛ لأنَّ سجايهم الفساد، وإضلال العباد، بينما القرآن نور وهدى، وبرهان عظيم، فينه وبين الشياطين منافاة عظيمة^(١).

وثانيهما: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ولا يستطيعون أيضاً أن يأتوا بمثل سورة منه؛ لأنه كلامُ الله المعجز، الذي عجزت الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَعْتِ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

فهو كلام الحق تعالى، ويستحيل أن يكون مختلفاً ومفترى، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

والوجه الثالث: لاستحالة تنزل الشياطين بالقرآن الكريم:

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعُزُولُونَ﴾ ﴿٣١٢﴾ .

أي: إن الشياطين عن استماع الوحي لمحجوبون وممنوعون، فهم في معزل عن استماع القرآن^(٢).

وهم معزولون أيضاً عن النبي ﷺ، فلا يدنون منه، وخاصة عند نزول الوحي عليه، بسبب الملائكة المحيطة به عند التنزيل، قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ فَلَا يُطِئُهَا عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٣١٢﴾ إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن].
فالقرآن الكريم محفوظ في السماء، في اللوح المحفوظ، ومحفوظ عند نزوله

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٦٠.

(٢) المرجع السابق نفسه.

بواسطة أمين الوحي جبريل والملائكة المحيطة به، كما أنه تعالى تكفل بحفظه في الأرض من التغيير والتبديل، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

• تلقي القرآن وتبليغه:

ثم بينت الآيات أن النبي ﷺ أيضاً لا كسب له ولا اختيار في نزول القرآن الكريم عليه، وإنما عليه فقط واجب التلقي والتبليغ، فوجهت إليه ﷺ هذا الخطاب الحازم الجازم:

﴿فَلَا تَنْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهَاهَا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ .

أي: أخلص في التوحيد، فالشرك أمرٌ خطير وكبير، يُنهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فكيف بمن عداه، وهذا يؤكد نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، وأنه لا دخل له فيه سوى التلقي، فلا يعقل أبداً أن يخاطب الإنسان نفسه بمثل هذا الخطاب، ويتوعدها بمثل هذا الوعيد الشديد.

وقد تكرر مثل هذا المعنى في عدد من الآيات الكريمة:

- منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢١٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر].

- ومنها قوله سبحانه: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

ويؤكد كل ذلك: أن نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، بأمره تعالى ومشيتته وحده، ولا دخل لأحد فيه، وأن النبي ﷺ ليس له إلا التلقي والتبليغ، وهذا ما أمرته الآيات به:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ .

أي: ابدأ بإنذار الذين هم أكثر قرباً إليك من غيرهم.

والعشيرة: رهط الرجل الأدنُون، أو أهل الرجل الذين يتكثّر بهم، أي: يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، وهو العشرة^(١).

ودلّت الآية على الاهتمام بالأقارب، والبداءة بدعوتهم، فعلى الداعية أن يبدأ بدعوة من يليه من الأقارب والجيران، ثم من بعدهم، فإذا بلغت الدعوة، انتشرت منهم إلى غيرهم، وإلا كانوا حجة للآخرين في الامتناع عن قبولها.

وقد بادر رسول الله ﷺ إلى القيام بما أمر به، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي...» لبطن قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً، لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. [رواه البخاري (٤٧٧٠)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ، حين أنزل الله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سأليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً» [رواه البخاري (٤٧٧١)].

قال القرطبي رحمه الله: «في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب، لا ينفع مع البعد في الأسباب، ودليل على جواز صلة المؤمن بالكافر، وإرشاده ونصيحته»^(٢).

(١) روح المعاني: ١٣٤/١٩.

(٢) تفسير القرطبي: ١٤٤/١٣.

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١٥﴾ .

أي: أَلن جانبك وتواضع للمؤمنين، فإنهم بسبب إيمانهم أهل للمودة والتكريم. والتواضع من أخلاقه الكريمة عليه الصلاة والسلام، وشمائله الشريفة، وأمره تعالى أن يخص المؤمنين بمزيد من التواضع، بياناً لكرامتهم عنده تعالى، وعند رسوله ﷺ، وإظهاراً لتمييزهم بالإيمان على الكافرين، فكرامة الإيمان والدين، فوق كرامة ووجاهة الأحساب والأنساب والأموال، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ولقد كان لأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام الكريمة أثر كبير في نشر دعوته بين الناس وإقبالهم عليه، وخاصة خلق التواضع، ولهذا قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ لَوْلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾ .

أي: إن عصاك قومك وعشيرتك، وأعرضوا عن قبول دعوتك، فأعلن براءتك من كفرهم وفجورهم.

وكان الآيات تقول للنبي ﷺ: أنذر قومك، فإن اتبعوك، وأطاعوك، فاخفض جناحك لهم، وإن عصوك، ولم يتبعوك، فتبرأ منهم، ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره^(١).

وتابعت الآيات ترشد النبي ﷺ إلى الأسلوب الأمثل في الدعوة، وتشد من أزره، وتقوي من عزيمته:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧).

أي: لا تتوكل على قرابة وعشيرة، بل توكل على العزيز الرحيم وحده، القادر على قهر أعدائه، ونصر أوليائه، فهو الذي يكفيك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم.

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨).

أي: يراك في جوف الليل حين تقوم إلى صلاة التهجد منفرداً.

﴿وَتَقَبَّلَكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾ (٢١٩).

أي: ويراك أيضاً حين تصلي مع أصحابك، أو حين تُبَلِّغهم دعوة الله تعالى، وتُعلِّمهم أحكام دينه.

ووصفهم بالساجدين للثناء عليهم، وبيان مكانتهم عند الله تعالى، فإنَّ حالة السجود أقرب أحوال العبد إليه تعالى، وتدل على غاية الخضوع له والاستسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاء» [رواه مسلم (٤٨٢)].

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٢٠).

• تمحيص الحقيقة ودفع أباطيل:

وكما بينت الآيات استحالة تنزُّل الشياطين بشيء من القرآن الكريم، أضافت هنا استحالة تنزُّلهم على النبي ﷺ؛ لأنهم لا ينزلون إلا على من يلائمهم ويشاكلهم في الصفات، فبينهم وبين رسول الله ﷺ منافاة كبيرة؛ لأن الله تعالى جبله على أكرم الصفات، وأعظم الأخلاق، ولهذا قرر تعالى هذه الحقيقة بأسلوب تقريری، يفيد القطع والجزم، فقال:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾.

أي: تنزل على كل كذاب كثير الإثم، كالكهان والمنتبئة الكذابين.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

أي: يلقون السمع إلى الشياطين، ليتلقوا منهم ظنوناً وأوهاماً وتخيلات، وأكثرهم كاذبون فيما يلقونه إلى أوليائهم، لكثرة ما يضمُّون إليه من أكاذيب وافتراءات.

كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنَحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: لِلَّذِي قَالَ الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيَلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يَلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يَلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرَبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيَهَا، وَرَبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرَكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِثْلَ كَذِبَةٍ، فَيَقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا، فَيَصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ» [رواه البخاري (٤٨٠٠)].

وقد يكون المراد: وأكثرهم كاذبون فيما يقولونه من الأقاويل، فالأكثريَّة باعتبار أقوالهم، على معنى أَنَّ هَؤُلَاءِ قَلَّمَا يَصْدُقُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ، وَإِنَّمَا هُمْ فِي أَكْثَرِهَا كَاذِبُونَ، وَعَلَى هَذَا لَيْسَ مَعْنَى الْأَفَّاكِ مِنْ لَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالْإِفْكِ، حَتَّى يَمْتَنَعَ مِنْهُ الصَّدَقُ، بَلْ مِنْ يَكْثُرُ الْإِفْكِ، فَلَا يَنْفِيهِ أَنْ يَصْدُقَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ^(١).

ثم أضافت الآيات تنزيه النبي ﷺ عن قول الشعر، وأبطلت مزاعم المشركين، أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مِنْ قَبِيلِ الشَّعْرِ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ .

أي: يتبعهم السفهاء الضالون، فالغاوي لا يتبعه إلا غاوٍ مثله، وأصحاب النبي ﷺ ليسوا كذلك.

ففي الآية إشارة إلى فضل أصحابه عليه الصلاة والسلام، وكريم أخلاقهم، وحسن سجاياهم، ودلت أيضاً على أن النبي ﷺ ليس شاعراً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُٗٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَآهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَّهيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ .

أي: ألم تر أن الشعراء حائرون، وعن طريق الحق حائدون. فالهائم: الذاهب على وجهه، لا مقصد له^(١).

وهو تمثيلٌ لذهابهم في كل شعبٍ من القول، واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره، وأبخلهم على حاتم^(٢).

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ .

أي: وأن أفعالهم تنافي أقوالهم، فهم يمدحون الجود والكرم والشجاعة ولا يفعلونها، ويهجون الناس بأدنى شيء يصدر عنهم.

ففي الآية وصفٌ لهم بالكذب والخلف في الوعد، بينما كان النبي ﷺ يتَّصف بأعلى الأخلاق وأكرمها، حاز جميع الكمالات الخلقية ودعا إليها، وشهد الله له بذلك بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

(١) تفسير الخازن: ٤/ ٤٩٨.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٤٩٨.

ومع أنه ﷺ كان أفصح الناس، وآتاه الله تعالى جوامع الكلم، ما كان شاعراً، وما صدر عنه شيء من الشعر، ولكنّه استنشدّه واستشهد به أحياناً، وحسّن حسنه، وقبّح قبيحه، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةً» [رواه البخاري (٦١٤٥)].

وعن الأسود بن قيس قال: سمعتُ جندباً يقول: بينما النبي ﷺ يمشي، إذ أصابه حجرٌ، فعرّس قدميّه إصبعه، فقال: «هل أنت إلا إصبعٌ دميّت، وفي سبيلِ الله ما لقيت» [رواه البخاري (٦١٤٦)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعرُ كلمةٌ لبيدٍ: ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ، وكاد أُميّةٌ بنُ أبي الصلتِ أن يسلمَ» [رواه البخاري (٦١٤٧)].

ثم استثنت الآيات الشعراء المؤمنين الصالحين، الذين يوجهون شعرهم إلى ذكر الله والدعوة إليه، والانتصار للحق والذب عنه، فقال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧).

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ أي: انتصروا من المشركين، من بعد ما اعتدوا عليهم، وبدؤوا بهجائهم، كحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك رضي الله عنه، فقد صحَّ أن النبي ﷺ قال لحسان: «اهْجِهِمْ - أو قال: هاجِهم - وجبريلُ معك» [رواه البخاري (٦١٥٣)].

وأنه قال له أيضاً: «يا حسان، أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيدِه بروح القدس» [رواه البخاري (٦١٥٢)].

أما قوله عليه الصلاة والسلام: «لأن يمتلئ جوفُ أحدكم قَيْحاً، خَيْرٌ له مِنْ أن يمتلئ شِعْراً» [رواه البخاري (٦١٥٤)]؛ فمحمول على مَنْ يمتلئ قلبه من الشعر، حتى يغلب عليه، فيشغله عن القرآن، وعن ذكر الله.

فأما إن كان القرآن والعلم الغالبين عليه، فليس جوفه ممتلئاً من الشعر، ولهذا أورد الإمام البخاريُّ هذا الحديثَ بعد أن ترجمَ له بقوله: بابُ ما يكره أن يكونَ الغالبُ على الإنسانِ الشعرُ، حتى يصدَّه عن ذكر الله والعلم والقرآن. ويؤيد ذلك وصف الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ فدلَّ هذا الوصف على أنَّ الشعر لم يشغلهم عن ذكر الله تعالى. وختم الله تعالى آيات سورة الشعراء، بهذا الوعيد الشديد لكل ظالم ومعاند للحق، فقال:

﴿وَسِعَ الْعَذَابُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُنْقَلَبٍ يَقْلِبُونَ﴾ أي: وسيعلمون أي مرجع سيرجعون إليه بعد الموت، فلا طمع للظالمين بالنجاة من عذاب الله تعالى وعقابه، وسيعلمون أنَّه ليس لهم وجه من وجوه النجاة والانفلات، وأنَّه تعالى ما خلقهم ليظلموا أنفسهم، ويظلموا غيرهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وجاء ختمُ السورة بهذا التهديد والوعيد، يضيفُ إلى عقاب الظالمين في الدنيا، بإهلاكهم وتدميرهم، عذاب الله الذي لا ينقطع عنهم يوم القيامة، فالأمرُ خطيرٌ، والمسؤوليةُ جسيمةٌ وكبيرةٌ، والويل للذين يسلخون أنفسهم عن الشعور بهذه المسؤولية، ويعيشون حياة اللعب والعبث والظلم. والحمد لله أولاً وآخراً.



تفسير سورة النمل المُعْجَزَةُ وَالْإِعْجَازُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَلَّصَاتِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَبْقَى لَهُمُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي الْأَرْضِ، وحفظه سبحانه بمشيئته وقدرته، فلا تلحقه زيادة، ولا يعتريه نقصان، ولا يطرأ عليه تغييرٌ أو تبديل، فهو محفوظٌ بحفظ الله تعالى في السطور والصدور مهما تقلّبت عليه الأزمان: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وهو حجة الله سبحانه البالغة على الناس جميعاً، كما أنه حجة المسلمين الكبرى على صحة دينهم، وصدق نبيهم محمد ﷺ، وهو عصمتهم من الزلل، وأمانٌ لهم من الزَّيْغ والانحراف، يتلونه فيسعدون بأنواره، ويتدبرون آياته، فتتكشّف لهم أسرارها، لا تنتهي معانيه، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنحصرُ معجزاته بعددٌ، ولا يقفُ إعجازه عند حدٍّ.

وهذا التفسير يتناول معاني آيات سورة من سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، هي (سورة النمل) من خلال موضوعها الأساس الذي تدورُ في فلكه آيات السورة كُلُّهَا،

وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقتُ إلى إظهار اتّساق آيات القرآن الكريم فيما بينها، وهو وجهٌ من وجوه إعجازه، من خلال ما أراه من موضوع أساسي للسورة الكريمة، بأسلوب علمي وعملي.

وأنا أسأل الله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجنبني الزلل والخطأ، كما أسأله عزّ شأنه أن يهديني فيه إلى طريق الرشاد والسداد.

اللهم آمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



تمهيد (١)

في بيانِ الْمُعْجَزَةِ وَالْإِعْجَازِ وَبَعْضِ مُعْجَزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ الْحَسْبِيَّةِ

لا بدّ لنا قبل الحديث عن موضوع (سورة النمل) من أن نتحدّث عن معنى كلمتين لهما علاقة وثيقة بموضوع السورة؛ هما: المعجزة والإعجاز.

● المعجزة:

المعجزة: هي كل أمر خارق للعادة، مقرون بدعوى النبوة، وسُمِّي مثل هذا الأمر معجزةً لعجز الخلق عن فعله، والقيام بعمل يماثله، لأنه خارق للعادة، أي: مخالف للقوانين والنواميس الكونية التي أَلْفَهَا النَّاسُ، واعتادوا العيش في ظلّها، مثل: انقلاب العصا إلى حيّة، وخلق ناقة من الصخرة، وانشقاق القمر، وانفلاق البحر بضربة عصاً، ونبع الماء من الأصابع وغيرها.

ولا تسمّى مثلُ هذه الأمور معجزاتٍ إلا إذا خلقها الله سبحانه على يد من يدّعي أنه نبيّ، وهي في هذه الحالة تدلُّ على صدقه في ادّعاء النبوة، وتقوم مقام قول الله سبحانه: صدق عبدي فيما يقول. لأن مثل هذه الأعمال الخارقة لعادة الناس، وما يحيط بهم من قوانين ونواميس لا يعطيها الله سبحانه إلا لمن اختاره واصطفاه لمقام النبوة، وكلّفه بحمل رسالةٍ يبلّغها للناس، ويدعوهم للإيمان بها، فلا يُعَقَّلُ أن يؤيد الله تعالى من يدّعي النبوة كاذباً، وحاشاه سبحانه أن يؤيد كاذباً، فكيف يؤيد من يكذب عليه سبحانه؟!.

وما بعث الله من نبيٍّ ولا أرسل من رسولٍ إلا وأيده بمؤيدات تدل على صدق نبوته وصحة رسالته، وأنزل معه بيّنات واضحات تكون له حجةً على مَنْ

بُعِثَ فِيهِمْ، وَأُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، بحيث لا يبقى لهم عذر في تكذيبه والإعراض عن التصديق برسالته، والإيمان بدعوته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِيْنَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

والآيات البينات: هي الحجج والدلائل الواضحات القاطعات، كما قال ابن كثير رحمته الله في تفسيره.

وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإن كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» [رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢)].

• الكرامة والاستدراج:

وقد يخلق الله سبحانه أحياناً خوارق العادات على يد غير مدعي النبوة، فإن كان هذا الإنسان صالحاً، كان ذلك إكراماً من الله سبحانه لهذا الإنسان الصالح، ويسمى الأمر الخارق في مثل هذه الحالة كرامة، وتُجمَع على كرامات، لأنها دليل مادي يدل على إكرام الله سبحانه لمن خلق الله على يديه الأمر الخارق للعادة بسبب صلاحه وتقواه.

وأما إن كان غير صالح، كأن كان فاسقاً أو كافراً، فالأمر الخارق للعادة كيدٌ واستدراجٌ من الله سبحانه لهذا الذي أجري على يديه بعض خوارق العادات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف].

فلا يُعرف صلاح الرجل وتقواه وموالاته لله سبحانه بما يُجري الله تعالى على يديه من خوارق العادات، لأنه ﷻ يجريها على يد الصالح والطالح؛ فقد جاء في الأحاديث الصحيحة: أن الدجال عندما يظهر في آخر الزمان قبل قيام الساعة يُجري الله على يديه كثيراً من خوارق العادات، حتى إن كثيراً من الناس

يُفْتَنُونَ بِهِ، وَلَا يَنْجُو مِنْ فِتْنَتِهِ إِلَّا قَلَّةٌ مِنَ النَّاسِ. [انظر: حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في صحيح مسلم رقم (٢٩٣٧)].

فالإنسان الصالح يُعرف بتمسكه بالكتاب والسُّنة، واستقامته على أمر الله سبحانه، وتطبيقه لسنة النبي ﷺ، فقد وصف الله سبحانه في التنزيل الحكيم أولياءه بصفيتين، هما: الإيمان والتقوى، فقال ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس].

ومما اشتهر على ألسنة العلماء قولهم: «لو رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطيئ في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الكتاب والسُّنة».

والفرق بين الكرامة والاستدراج يظهر في صاحبيهما، فصاحب الكرامة لا يستأنس بها، بل عند ظهور الكرامة يصيرُ خوفه من الله تعالى أشدَّ، وحذره من قهر الله أقوى، لأنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج، ولهذا ترى الصالحين حقاً يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء.

وأما صاحب الاستدراج، فإنه يستأنس بما يظهر على يديه من الخوارق، ويظنُّ أنه يستحق ذلك، فيحتقر غيره، ويتكبر عليه، ولا يخاف سوء العاقبة، لما يحصل له من الأمن من مكر الله والانقطاع عن الله.

فأعظم علامات الولاية والصلاح الاستقامة على أمر الله سبحانه، فمن وفقه الله سبحانه للاستقامة على أمره والتمسك بسنة نبيه ﷺ فقد أكرمه أعظم كرامة، ولهذا قالوا: «الاستقامة عينُ الكرامة» ومصدق ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

● قدرة الله على خرق النواميس الكونية:

وفي خرق الله سبحانه للنواميس والقوانين الكونية بخلقه لخوارق العادات من معجزات وكرامات وغيرها، دلالاتٌ كبيرةٌ وعظيمةٌ على قدرته سبحانه، فإن وجود هذه النواميس والقوانين التي ألفت الناس الحياة في ظلها ليس لازماً ولا واجباً،

وإنَّ خلقها وإيجادها ليس قهراً ولا جبراً، بل خلقها الله سبحانه بمحض إرادته ومشئته، وهو سبحانه قادر على إيجاد الخلق من دونها، أو مع نواميس وقوانين أخرى تخالف النواميس الكونية التي اعتاد الناس عليها، فقد اعتاد الناس على رؤية النار تحرق الأشياء التي تلامسها، ولكنه سبحانه خرق هذا الناموس عندما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وهذا يدل على أنَّ النار لا تحرق بنفسها إلا إذا خلق الله سبحانه الإحراق فيها، وكذلك اعتاد الناس على أن الأنثى لا تلد حتى يلقيها الذكر، وخرق الله هذا الناموس الكوني بخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب، وخلق آدم بلا أم ولا أب: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وهكذا بين الله سبحانه لنا بخلق خوارق العادات عظيم قدرته وبديع صنعته، كما بين لنا أنه سبحانه وحده الخالق لهذا الكون والمدير لأموره، فلا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته وقدرته، وإنَّ خلق هذه النواميس والقوانين وجعلها أسباباً لغيرها من المسببات ليس لازماً، فلا تأثير للأسباب بمسبباتها إلا بقدرته سبحانه ومشئته، فارتباط الأسباب بمسبباتها ارتباط وجودي فقط، فالله سبحانه عودنا على خلق المسببات عندما توجد بقدرته ومشئته أسبابها، وهو سبحانه قادر على خلق الخلق دون ما تعود الناس رؤيته من أسبابها: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

• عجز الإنسان عن خرق النواميس الكونية:

وإنَّ عجزَ الناس عن خرق النواميس والقوانين الكونية لهذه الحياة وقدرته سبحانه على خرقها، يجعل الناس يستشعرون فقرهم واحتياجهم إليه سبحانه، فمن النواميس الكونية التي تتصل بالإنسان وحياته أنه سبحانه يخلق الإنسان في أول أمره ضعيفاً في غاية الضعف، ثم يمدّه بأسباب الحياة حتى يصبح قوياً، ثم بعد ذلك يردّه إلى الضعف والموت، فهل رأيت إنساناً يستطيع أن يخرق هذا الناموس الكوني مهما أوتي من أسباب القوة والعلم؟ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفِ قُوَّةٍ ثَمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ
الْقَدِيرُ ﴿[الروم: ٥٤].

وانظر إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام كيف أقام الحجة على إنسان مغرور متكبر متجبر بسبب ما كان يملك من أسباب الملك والغنى والقوة، حتى ادعى لنفسه القدرة على التصرف بالحياة والموت، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن تحداه أن يغير ناموساً من نواميس الحياة في هذا الكون، فعرفه بهذا التحدي مقدار ضعفه، وبيّن له ضالّة حججه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْطِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

• الإعجاز:

الإعجاز: إثبات العجز، وعدم القدرة، فالعجز ضد القدرة، والإعجاز يثبت قدرة المُعْجِز، والمراد من الإعجاز في القرآن الكريم إثبات عجز الخلق عن معارضة القرآن الكريم، وإظهار قدرة المعجز، وهو الله ﷻ، الذي أنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ، وبهذا تقوم الحجة على المعارضين لدعوة النبي ﷺ، ويكون القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الكبرى، التي تدل على صحة نبوته، وصدق رسالته عليه الصلاة والسلام.

وقد تحدّى القرآن الكريم الإنسَ والجنَّ تحدياً يظهر عجزهم عن معارضته مجتمعين، فما بالك إذا كانوا متفرقين، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

وليس صحيحاً قول من يقول: إنّ التحدي إنّما وقع على الإنس دون الجن، لأنّ الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه، وإنما ذكروا في آية التحدي تعظيماً لإعجاز القرآن، والمعنى: أنه لو فرض اجتماع الإنس والجن لعجزوا عن المعارضة، ولعلّ صاحب هذا القول قد نسي أنّ في الجن من يتكلّم العربية وينطق بها، ويعرف أساليبها كالإنس، والدليل على ذلك

أَنَّ فَرِيقًا مِنَ الْجِنِّ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَنْصَتُوا لَهُ، وَأَعْجَبُوا بِهِ، وَتَأَثَّرُوا عِنْدَ سَمَاعِهِ، وَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١]. إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَهِدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحَافُ بِحَسًّا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ ۖ قَالُوا يَبْقَوْنَ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فالتحدي في القرآن الكريم موجه للإنس والجن عموماً، وإذا أظهر التحدي عجز العرب عن معارضته - وهم أهل اللسان والفصاحة والبيان، وفيهم فرسان الفصاحة من شعراء وخطباء وحكماء - فغيرهم من الأمم الأعجمية أعجز.

ووجوه الإعجاز القرآني ليست قاصرة على إعجازه البياني في بلاغته وفصاحته ونظمه البديع وجرسه، إنما للإعجاز القرآني وجوه كثيرة هي دائماً في ازدياد واضطراد مع توالي العصور وكرّ الدهور، ففي كل عصر ينكشف وجه جديد لإعجاز القرآن الكريم، ويظهر للناس علمٌ جديد من أعلام صدق معجزة النبي ﷺ وصحة رسالته، وهذا يؤكد خلود المعجزة القرآنية الكريمة، وأنها باقية أبداً تتحدّى الإنس والجن في كل عصر ومصر.

● الحد الأدنى المعجز من القرآن الكريم:

وأسلوب القرآن الكريم في تحدّي المعارضين له يدل على شدة عجزهم، وضعفهم عن معارضته، ويبين المقدار المعجز من القرآن الكريم، فقد تحداهم أولاً بأن يأتوا بمثله، كما مرّ معنا في آية تحدّي الإنس والجن، وذكر هذا التحدي في قوله ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿[الطور: ٣٣].

ولمّا ظهر عجزهم عن معارضته بهذا المقدار تحدّاهم بمقدار جزء منه فقال

تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿٢٣﴾ فَاِلَآءِمْ يَسْتَجِیْبُوْا لَكُمْ فَاَعْلَمُوْا اَنَّمَا اُنْزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ وَاَنْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَهَلْ اَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ﴾ [هود].

ولما ظهر عجزهم وضعفهم عن معارضته أيضاً تنزل في تحديهم إلى مقدار سورة من سور القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ اَنْ يُّفْتَرٰى مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلٰكِنْ نَّصٰدِقٌ اَلَّذِیْ بَیْنَ يَدَیْهِ وَتَفْصِیْلُ الْكِتٰبِ لَا رَیْبَ فِیْهِ مِنْ رَّبِّ الْعٰلَمِیْنَ ﴿٢٧﴾ اَمْ یَقُوْلُوْنَ اَفْتَرٰىهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾ [یونس].

والجدير بالذكر أنَّ آیات التحدي كلها جاءت في السور المكية، ثم جاء التأكيد على قيام التحدي وبقائه بمقدار سورة واحدة في سورة مدنية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَیْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلٰی عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوْا وَلَنْ تَفْعَلُوْا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِیْ وُفُوْدُهَا النَّاسُ وَالْجَارَةُ اُعِدَّتْ لِلْكَافِرِیْنَ﴾ [البقرة].

ومع هذا التحدي جاء الإخبار عن عجزهم حاضراً ومستقبلاً، وهذا يؤكد أنَّ القرآن كلام الله سبحانه، فمثل هذه الثقة الحازمة الجازمة في الإخبار عن عجزهم أبداً مهما تقلبت الأيام، وتطاولت الأزمان، وامتد عمر الإنسان، وتشعبت علومه، وازدادت معارفه وفنونه، دليل قاطع على أنه كلام الله، وأن الإنسان سيبقى عاجزاً عن معارضة سورة واحدة من سور القرآن الكريم، فلا قدرة لبشرٍ على مثل هذا، لأنه كلام الله العليم الحكيم الخبير سبحانه.

وأقصر سور القرآن الكريم: سورة الكوثر، وسورة العصر، فالحد الأدنى المعجز من القرآن الكريم مقداره سورة الكوثر أو سورة العصر، ورحم الله الإمام الشافعي القائل: «لو تدبر الناس سورة العصر لكفتهم».

● من وجوه إعجاز القرآن الكريم:

وإعجاز القرآن الكريم ليس قاصراً على بلاغة كلامه، وفصاحة بيانه، ونظمه البديع، وأسلوبه الرفيع، وتناسق آياته وسوره، وتراكيبه وألفاظه وحروفه، وعذوبة

جرسه في الآذان، وإنما هو معجز في معانيه التي لا تنتهي، فلم يشبع منه العلماء حتى الآن، بل هو دائماً يانع طيب لا يخلق على كثرة الرد، ولا تحدُّ معانيه بحد. وهو معجز أيضاً في إخباره عن المغيبات الماضية والمستقبلية، وما أكثرها فيه، وفي سمو تشريعه وقوة حججه وبراهينه.

وهو معجز أيضاً في إشاراتهِ العلمية التي يكتشف العلماء كل يوم دليلاً يثبت صحتها، ولا يزال الإنسان يزداد يقيناً بأنَّ القرآن كلامُ الله لما يرى فيه من الحقائق العلمية الباهرة والدرر اليقينية الآسرة.

وإنه معجز في تكامل موضوعاته وتناسقها رغم كثرتها وكثرة فروعها، فلا ترى أيَّ تعارض بين آياته وسوره وموضوعاته ومعانيه، والله سبحانه يدعو الخلق أن يتدبروا معاني القرآن الكريم ويتفحصوها ويتأملوا فيها، كأنه سبحانه يتحدثهم أن يجدوا فيها أدنى تعارض، أو يلمسوا في مبانيه وتراكيبه أي انحطاط عن مرتبته العالية في البلاغة والفصاحة، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فهو كما وصفه الله تبارك وتعالى: ﴿الرَّكَتُوبُ أَهَكَمَتْ عَيْنُهُمْ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وإنه لمعجز أيضاً في نزوله على رسول الله ﷺ منجماً، ومقسماً بحسب وقائع النزول وأسبابها ومناسباتها، ثم في تألف آياته وسوره بعد ذلك، وانسجامها فيما بينها.

كما أنه معجز في تناسق وتلاؤم مبانيه وتراكيبه مع معانيه، بحيث يدهش قارئه، ويجذب سامعه، ويبهر متدبر آياته ومتفحص كلماته.

• من معجزات النبي ﷺ الحسية:

وليس القرآن الكريم هو وحده المعجزة التي أيد الله سبحانه بها النبي ﷺ،

فقد أجرى الله سبحانه على يد النبي ﷺ معجزات حسية كثيرة أكثر مما أعطى غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

- ولئن حوّل الله سبحانه لموسى العصا إلى ثعبان، فقد حوّل الله لنبينا ﷺ كثيراً من الجمادات إلى مخلوقات ناطقة، كَلَمَتِ النبي ﷺ، وشهدت له بالنبوة والرسالة، كالحجر الذي كان يسلم على النبي ﷺ.

أخرج الترمذي [٣٦٢٦]: عن عليّ رضي الله عنه قال: كنتُ مع رسولِ الله ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجرٌ ولا جبلٌ إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله.

وفي «صحيح مسلم» [٢٢٧٧]: أن رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ بِمَكَّةَ حَجْرًا كَانَ يَسْلُمُ عَلَيَّ لِبَالِي بُعِثْتُ، إِنِّي لِأَعْرِفُهُ الْآنَ».

- والحصي الذي سبّح وهو في يديه عليه الصلاة والسلام وأيدي بعض أصحابه، والطعام الذي أسمع الله سبحانه تسبيحه الصحابة وهم يأكلونه مع النبي ﷺ.

- أخرج البخاري [٣٥٧٩] والترمذي [٣٦٣٣] والنسائي [٧٧]: عن ابن مسعود رضي الله عنه: كنّا مع النبيّ ﷺ في سفرٍ، فقلّ الماء، فقال: «اطلبوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ» فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدخل النبيّ ﷺ يده فيه، ثم قال: «حَيَّ عَلَى الطَّهْوَرِ الْمُبَارِكِ، والبركة من الله تعالى» فلقد رأيتُ الماءَ ينبعُ مِنْ بين أصابعه. ولقد كنّا نسمعُ تسبيحَ الطعامِ وهو يؤكلُ. [رواه البخاري (٣٥٧٩)].

وقد رُوي هذا الحديث عن عدد كبير من الصحابة.

- وجذعُ النخلة الذي حنَّ إلى النبيّ ﷺ، وكان ﷺ يخطبُ إليه، فتحوّل عنه إلى المنبر، الذي صُنِعَ من أجله، فحنَّ الجذعُ إلى النبيّ ﷺ بصوتٍ سمعه كلُّ مَنْ في المسجد. [رواه الترمذي (٣٦٢٧) وابن ماجه (١٤١٥)].

- وكالشجرة التي جاءت تشقُّ الأرضَ بعروقها إلى النبي ﷺ لتشهد له بالنبوة، كما جاء في «صحيح مسلم» [٤٥٠].

- ولئن شقَّ الله سبحانه لموسى عليه السلام البحرَ، فقد شقَّ الله لنبينا ﷺ القمرَ إلى

فَلَقَّتَيْنِ. كما شقَّ له الفضاء، وفتح له أبواب السماء، ورفعته فوق السماوات، وأدخله الجنة، وأراه النار، وكل ذلك جاء في صحيح الأخبار والآثار. [انظر: حديث الشفاعة في البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤)].

وقد بلغ أكثرها مبلغ التواتر الذي يفيد العلم القطعي بوقوعها، كما أنَّ بعضها ذكره القرآن الكريم صراحة، مثل: معجزة انشقاق القمر، ومعجزة الإسراء، وبعضها أشارت إليه الآيات الكريمة إشارة، مثل: معجزة المعراج إلى ما فوق السماوات العلى في الآيات الأولى من سورة النجم.

- ولئن أنبع الله سبحانه لموسى الماء من الحجر، وهو معدنه، فقد أنبع الله سبحانه لنبينا ﷺ الماء من بين أصابعه الشريفة، حتى شرب كل من كان معه، وتوضؤوا، وملؤوا أسقيتهم وأوعيتهم.

- وما أكثر المغيبات المستقبلية التي أطلع الله النبي ﷺ عليها، وقد أخبر عنها ﷺ، ووقع كثيرٌ منها، كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

أخرج البخاري [٣٥٩٥]: عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة (الفقر)، ثم أتاه آخرٌ فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عديُّ هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبت عنها، فقال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة (المرأة المسافرة) تترجل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله - قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَا طيئ الذين سَعَرُوا البلاد - ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهبٍ أو فضة يطلب من يقبله فلا يجد أحداً يقبله منه».

قال عدي: فرأيت الظعينة تترجل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم ﷺ، يخرج الرجل ملء كفه ذهباً أو فضة فلا يجد من يقبله.

وقد وقع هذا في خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وإن تتابع الزمان ليزيدنا إيماناً بصحة نبوته وصدق رسالته عليه وآله الصلاة والسلام في كل ما جاء به وأخبر عنه.

ولعلّ من أشهر المغيبات التي أخبر عنها ﷺ قتال المسلمين لليهود، فقد صحّ الحديث عنها، وهو في البخاري [٢٩٢٦] ومسلم [٢٩٢٢] وغيرهما من كتب السنن، وهي في العصر الحاضر حقيقةً يستشعرها كل المسلمين.

وإنّ كل هذه المعجزات انتهت بوفاته عليه الصلاة والسلام، وبقي القرآن الكريم بعده عليه الصلاة والسلام حجةً ناطقةً في فم الزمن، تشهد بصدق نبوته عليه الصلاة والسلام، وصحة رسالته، كما تشهد بخلودها وبقائها، وأنها الدين التي تعبّد الله به الخلق إلى قيام الساعة، لا يقبل الله من أحد ديناً آخر غير دين الإسلام وشرعية القرآن.



تمهيد (٢)

سُورَةُ النَّملِ

وَالْحِكْمَةُ مِنْ تَسْمِيَّتِهَا بِهَذَا الْاسْمِ

لم تُسمَّ السورة بهذا الاسم لمجرد أن ذكر النمل في آية من آياتها، وهي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّملُ ادْخُلُوا مِنكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فقد ذكر الله سبحانه في السورة أسماء متعددة لبعض مخلوقاته من الجن والإنس والطيور، فلا بد أن يكون اختيار اسم النمل لهذه السورة لحكم كثيرة، لا يعلمها على الحقيقة إلا الله سبحانه، وهو سبحانه أعلم بمراده، وأسرار كتابه، ولعل من هذه الحكم أن المتأمل للنمل يجد فيه دلائل كثيرة تدل على وجود الله سبحانه، وتبين عظيم قدرته، وباهر حكمته، وبديع صنعته.

● هذا خلق الله:

إن أي دارس للنمل وأنواعه، وطرق معيشته، والخصائص الكثيرة والكبيرة التي جعلها الله سبحانه في هذه الحشرة الصغيرة، يقف مذهوئاً حائراً أمام قدرة الخالق العظيم وحكمته الكبيرة، إن هداية الله سبحانه النمل إلى بناء حياته الاجتماعية على أساس وطيد دقيق من التضامن والتعاون والتخصص يملأ قلب الإنسان خشوعاً وخضوعاً أمام قدرة الله الخالق الباري سبحانه، وعظيم حكمته، وبديع صنعته: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١].

ولكي نكون موضوعيين وواقعيين علينا أن نرجع إلى المختصين والدارسين للنمل وخصائصه، لنقف على نتائج دراستهم وبحوثهم في هذا المجال.

تحدّث محمد فريد وجدي في كتابه «دائرة معارف القرن العشرين» عن النمل فقال: «النمل لقيام أموره على الاجتماع والتضامن لا يعيش إلا في قرى صغيرة، وإن أعمال النمل تدلّ على أنها متمتعة بدرجة رفيعة من العقل، وبغرائز عظيمة للاجتماع والتضامن في الحياة، ويرجّح أنّ لها لغة خاصة تتفاهم بها، وهو ما لم يشاهد مثله لغيرها من الحيوانات».

وأفاض الشيخ العلامة طنطاوي جوهري رحمته الله في الحديث عن النمل وصفاته ومزاياه، ونقل في تفسيره «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» كثيراً من ملاحظات العلماء حول النمل، والوقائع والقصص المشاهدة في عالم النمل حتى أصبح ما كتبه في تفسير سورة النمل يعدّ شيئاً يسيراً بجانب ما كتبه عن صفات النمل وخصائصه، وفيما يلي بعض ما ذكر عن النمل.

• تخزين الطعام:

ومن حكمة النمل أنّ الحبوب المخزونة عندها إذا أصيبت بماء المطر تنسرها أيام الصحو، وأنها تقطع حبة القمح نصفين، حتى لا تنبت، وتقشر حبات الشعير والبقلاء والعدس لكي لا تنبت، وتقطع حبة الكزبرة أربع قطع، لأنها إذا قطعت قطعتين نبتت، بخلاف القمح، فكيف عرف النمل جميع هذا؟!.

• عمل النملة في يوم:

قضى أحد العلماء طول حياته في النظر في حال هذه الكائنات الصغيرة، فشاهد نملةً تشتغل طول يومها، فحسب ما حفرته وبنته في ذلك اليوم ونسبته إلى جسمها وإلى شغل الإنسان وجسمه، فوجد أنها لو كانت رجلاً مشغلاً هذا الشغل لحفر خليجين كلٌّ منهما طوله اثنان وسبعون قدماً وعمقه أربعة إلى خمسة أقدام، وصنع طيناً وجعله آجرًا، وبنى به أربعة حيطان على جوانب الخليجين ارتفاع كل منها قدمين إلى ثلاثة، وبُسمك مقداره خمس عشرة بوصة.

• أكبر مدن النمل:

وفي جبال بنسلفانية إحدى الولايات المتحدة الأمريكية أكبر مدن النمل في

العالم، ومعظمها مبنية تحت الأرض، وأكبرها يشغل ثلاثين فداناً حفرت فيها منازل النمل تتخللها الشوارع والمعابر والطرق، وكل نملة تعرف طريقها إلى بيتها بإحساس غريب.

وتشتمل كل قرية من قرى النمل على الطبقات التالية:

- ١ - باب التهوية.
- ٢ - مكان الحرس لمنع دخول الغريب.
- ٣ - أول طبقة لراحة العاملات في الصيف.
- ٤ - مخزن ادخار الأقوات.
- ٥ - مكان تناول الطعام.
- ٦ - ثكنة الجنود.
- ٧ - الغرف الملوكية حيث تبيض ملكة النمل.
- ٨ - إصطبل لبقر النمل وعلفه.
- ٩ - إصطبل آخر لحلب البقر.
- ١٠ - مكان تفقيس البيض.
- ١١ - مكان تربية صغار النمل.
- ١٢ - مشى النمل، وفي يمينه جبانة لدفن من يموت.
- ١٣ - مشى الملكة.

• من معارك النمل:

جاء في الجرائد المصرية يوم (٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦م) العنوان التالي:
(حرب بين قبيلتين من النمل):

في الشهر الفائت جرت معركة هائلة بين قبيلتين من النمل في حديقة الحيوانات في لندن، اشترك فيها نحو ألف نملة من الجانبين، ودامت أربعة أيام، وانتهت بمئات القتلى والجرحى. وذكر صاحب المقال أنَّ سبب المعركة: أنَّ نملة دخلت في قرية مجاورة لقريتها، فأخذها الحرس فأسروها وقتلوها،

فأرسلت القرية المجاورة قبل الهجوم عشرَ نملاتٍ لاستطلاع الطريق، حتى لا يفاجأَ بوجود الكمائن، ثم بعد أن رجعنَ إلى قريتهنَّ بدأ الهجوم، واستمر القتال أربعة أيام لم يتوقف خلالها سوى بضع ساعات، كهدنة بين الطرفين، وانتهت المعركة بانتصار القبيلة المهاجمة، واحتلالها للقرية المجاورة، وقتل وأسر كل النمل الذي فيها^(١).

• أنواع النمل ووسائل التعارف بينهم:

وذكرت «مجلة المعرفة»: أنَّ هناك حوالي ثمانية آلاف نوع من النمل، ومن المؤكد أن النمل هو أكثر الحشرات المعروفة ذكاء، إذ توجد لديه بعضُ القدرة على التعلم، ويعيشُ النمل في مجتمعات كبيرة تشبه إلى حدٍّ ما البلاد أو المدن التي يقطنها الإنسان، وتعيش جميعُ أنواع النمل بهذه الطريقة، ويشاركها في هذا بعض أنواع النحل والزنابير، وتتميز النملة بوجود جهاز عصبي متميز، مكوّن من عقد مخية في الرأس، وقد ساعد هذا أن يكون مسلكها واضح الذكاء والتعقيد، وتعتبر اللوامس أو قرون الاستشعار أكثر الأعضاء الحسية للنملة أهمية، وهي أعضاء مركبة خاصة للشم واللمس، فعندما يتقابل عدد من أفراد النمل يتفحص كل منها الآخر من خلال تلامس قرون الاستشعار، ونحن لا نعلمُ كثيراً عن القدرة السمعية للنمل، ومع هذا يمكنها التعرف على الذبذبات.

• ماشية النمل:

ونلاحظ قيام الشُعْالة من النمل بأعمال غاية في التخصص بطرق المعيشة الخاصة التي تحياها، فهناك نملٌ يمارسُ الزراعة، ويزرع المحاصيل، ويربي الماشية، وماشيةُ النمل نوع من الحشرات الصغيرة السوداء التي تعيش ملتصقة على أغصان الأشجار، إنَّ النمل يقوم على تربية هذه الحشرات، ويحملها شتاءً إلى مساكنه ويغذيها، ويحملها في الفصول الأخرى إلى الأشجار لتتغذى وتنمو وتفرز مادة حلوة يحبها النمل ويتغذى بها، وإذا أرادت النملةُ من حشرة من هذه

(١) انظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم.

الحشرات أن تفرز لها هذه المادة الحلوة ضربتها ضربات خاصة، فتستجيب لها، وتفرز لها ما تريد، ولم يستطع أحد العلماء أن يجعل هذه الحشرة تفرز هذه المادة بضربها بواسطة شعيرات تشبه لوامس النمل.

كما يوجد في النمل مَنْ يختزن الطعام، ومنه من يقوم بأعمال هندسية غاية في البراعة والذكاء؛ وإن مساكن النمل وطريقة بنائها لتدل على ذلك، وقد شوهد في إفريقية نملٌ يصنع جسوراً لعبور السواقي والموانع المائية.

وللنمل نزعة عدوانية، فهو يميل إلى القتال مع أمثاله من النمل، فقد لوحظ أنه يشتبك في الحروب، ويستعبد أنواعاً من النمل، يأخذها أسرى، ويكلفها بالعمل بدلاً منها، ويكاد يكون النمل في حرب مستمرة مع أفراد العشائر الأخرى، ويتعرف أفراد العشيرة الواحدة على بعضهم من خلال رائحة عُشِيَّة مميزة، وقد سبق وصف معركة من معاركه^(١).

• سيريكم آياته فتعرفونها:

ليس عجباً بعد كل هذا أن يسمي الله سبحانه سورة من سور التنزيل الحكيم باسم النمل، لما جعل الله فيه من دلائل القدرة، وياهر الحكمة، وبديع الصنعة، مع العلم أن الإنسان لا يزال في أول دروب العلم والمعرفة، وما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، وأن سورة النمل قد ختمها الله بقوله الكريم: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ أَيْنِيهِ فَعَرَفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

ترى هل رأى الإنسان بعض آيات الله في هذه الحشرة الصغيرة التي سمي الله سورة كاملة باسمها؟!.



تمهيد (٣) مَوْضُوعُ سُورَةِ النَّملِ

نزلت سورة النمل عندما كان رسول الله ﷺ في مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة، فموضوعها كسائر السور المكية يتناول العقيدة، وما يتصل بها من موضوعات الإيمان بالله سبحانه ودلائل وجوده ووحدانيته، والإيمان باليوم الآخر، وتقرير مسؤولية الإنسان المكلف عن أعماله، والرد على المشركين، وبيان بطلان عقائدهم الفاسدة.

إلا أنَّ السورة تركز على المعجزة الكبرى التي أيد الله سبحانه بها النبي ﷺ، وهي القرآن الكريم وما فيه من إعجاز، ولهذا ابتدأ الله تعالى آيات سورة النمل بقوله الكريم: ﴿طَسَّ تَلَكَّ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾.

وأكدت بعد ذلك آيات السورة أن القرآن الكريم أنزل على الرسول ﷺ من الله سبحانه، وأنه عليه الصلاة والسلام يتلقاه من الله العليم الحكيم الذي قال في سورة النمل: ﴿وَلَنَّاكَ لَتَلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾.

• انسجام واتفاق:

وبهذا جاءت فواتح سورة النمل منسجمة ومتسقة مع ما قرره الله تبارك وتعالى في خواتيم سورة الشعراء التي قبلها: ﴿وَلَنَّاكَ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ۝﴾.

كما جاءت فواتح سورة النمل منسجمة ومؤلفة مع ما جاء في خواتيمها من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ

أَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أِهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴿٩٢﴾

• من معجزات الأنبياء:

وذكرت السورة بعض المعجزات التي أيد الله سبحانه بها بعض الأنبياء والمرسلين على سبيل المقارنة بينها وبين المعجزة القرآنية الخالدة، فذكرت أن الله سبحانه أيد موسى ﷺ بالعصا، التي تتحول بقدرة الله ومشيئته إلى حية، واليد التي تخرج من جيب موسى بيضاء من غير سوء، كما أشارت إلى بقية المعجزات التسع التي أعطاها الله ﷻ لنبيه موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعِيبُ يَمْوَسِى لَّا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [النمل].

كما ذكرت بعض ما أعطى الله سبحانه نبيه سليمان ﷺ من خوارق العادات: كتسخير الجن له، وتعليمه منطق الطير، وإسماعه حديث النمل، وغير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله سبحانه.

ثم تحدثت السورة عن آثار هذه المعجزات في الناس الذين شاهدوها، فأكثرهم جحدوها وأنكروها، مع علمهم وتيقنهم بأنها من الله سبحانه، كما فعل فرعون وجنوده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٩٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [النمل].

وبعض الناس انقاد للحق وأذعن له، فأمن وأسلم لله سبحانه لما رأى المعجزة، رغم ما كان عليه من القوة والملك والعزة والغنى، كملكة سبأ.

• الإعجاز العلمي في سورة النمل:

وقد بينتُ فيما سبق أن أوجه إعجاز القرآن الكريم كثيرة، ولا يزال العلماء والدارسون للقرآن الكريم يكتشفون كل يوم وجهاً جديداً من أوجه إعجاز القرآن الكريم، إلا أن سورة النمل ركزت فيما يبدو لي على الإعجاز العلمي، ولقد

لاحظ سيد قطب رحمه الله هذا أيضاً، فقال عندما تحدث عن سورة النمل: «والتركيز في هذه سورة على العلم، علم الله المطلق بالظاهر والباطن، وعلمه بالغيب خاصة، وآياته الكونية التي يكشفها للناس، والعلم الذي وهبه لداود وسليمان، وتعليم سليمان منطق الطير، وتنويهه بهذا التعليم، ومن ثمَّ يجيء في مقدمة السورة: ﴿وَلَيْكَ لِلْفِرْعَانِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

ويجيء التعقيب: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (١٥) بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل].

ويجيء في الختام: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

ويجيء في قصة سليمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

وفي قول سليمان: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

وفي قول الهدهد: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

وعندما يريد سليمان استحضر عرش الملكة لا يقدر على إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن، إنما يقدر على هذه: ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل: ٣٩] (١).

• القرآن وتاريخ بني إسرائيل:

وأضيف إلى ما ذكره سيد رحمه الله ما في السورة من أخبار ماضية تتعلق بجزء هام من تاريخ بني إسرائيل، إذ يكشف القرآن الكريم عن كثير من الحقائق التاريخية التي

يجهلها أو يتجاهلها كثير من علمائهم وأحبارهم، ولهذا جاء قوله ﷺ في سورة النمل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٧٦).

فالقرآن الكريم يعدُّ بحق أوثق المصادر العلمية لتاريخ بني إسرائيل، وقد حاول بعض أعداء الإسلام أن يشكك في صحة أخبار سورة النمل عن بني إسرائيل، محتجين بأن هذه الأخبار لم تذكر في الأسفار التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر.

إلا أن اليهود الذين كانوا يعيشون في زمن نزول القرآن الكريم، وفي أماكن نزوله، لم يثبت عنهم لا في القرآن الكريم ولا في صحيح الأخبار أنهم أنكروا شيئاً مما جاء عنهم، وعن أخبار أنبيائهم وأجدادهم في القرآن الكريم، وقد كانوا أشدَّ الناس عداوةً للنبي ﷺ وللإسلام وللمسلمين، مكروا بالنبي عليه الصلاة والسلام عدة مرات ليقتلوه، ونقضوا عهودهم معه، وحاربوه، وألبوا قبائل المشركين عليه، فلو وجدوا في القرآن الكريم شيئاً يستطيعون معارضته وردَّه لفعلوا، لكن حقائق القرآن الكريم تحدَّتْهم ودمغتهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وجعلتهم بعض الآيات الكريمة شهوداً على صحة ما في القرآن الكريم، وطالبتهم بأداء شهادتهم، لأنهم أعرف الناس بصدق النبي ﷺ وصحة ما أنزل الله عليه من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ﴾ (٧٠) يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُّونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[آل عمران: ٩٩].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ يَتَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبْعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

● أخبار سليمان في الأسفار:

وقد جاء في بعض الأسفار المتداولة بين اليهود في العصر الحاضر ما يفيد أن كثيراً من أخبار سليمان عليه السلام كانت موجودة مكتوبة في الأسفار القديمة، قال الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه «التفسير الحديث»: «لقد ورد في الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأوّل خبر زيارة ملكة سبأ لسليمان عليه السلام وتنويعها بما

أوتي من حكمة، وتقديمها هدايا عظيمة إليه، أما ما عدا ذلك فلم يرد في أسفار العهد القديم المتداولة، وقد وجدَ المغرضون في ذلك فرصةً للقول باختراع ما جاء في الآيات من سور عليها طابع الإعجاز، وخرق العادة والنواميس، وبقطع النظر عن كون هذا داخلياً في نطاق قدرة الله تعالى، فإننا نقول من قبيل المساجلة: إنه ليس هناك ضرورةٌ فنية للاختراع، وإنَّ السياق القرآني يبقى مستقيماً من دون الزوائد لو لم تكن مستندة إلى أصل، ونحن نعتقد أنها كانت واردة في أسفار وقراطيس متداولة بأيدي اليهود في زمن النبي ﷺ ثم ضاعت، ولقد جاء في الإصحاح التاسع من سفر أخبار الأيام الثاني المتداول اليوم هذه الجملة: «وبقية أخبار سليمان الأولى والأخيرة مكتوبة في أخبار ناثان النبي ونبوة أحيا الشيلوني وعَدُوُّ الرائي» وهذه الأسفار ليست من الأسفار المتداولة اليوم»^(١).

تلك هي أهم الأفكار والموضوعات التي ذكرت في سورة النمل، ولا يخفى على المتأمل فيها أنها جميعاً تدور في فلك موضوع أساس واحد، وهو موضوع المعجزات وبيان موقف الناس منها، وإن القرآن الكريم بما فيه من إعجاز أكبر هذه المعجزات وأعظمها.



(١) انظر: التفسير الحديث، ص ١٦١، ط. البابي الحلبي.

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

الْحُرُوفُ الْمُقْطَعَةُ وَإِعْجَازُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا هُمْ أََعْمَلُكُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَلَئِكَ نُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ .

افتتح الله سورة النمل بقوله الكريم:

﴿طسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أشبهت افتتاحية سورة النمل افتتاحية سورة الشعراء التي قبلها، وافتتاحية سورة القصص التي بعدها، فكلا السورتين - الشعراء والقصص - افتتحهما الله بقوله الكريم: ﴿طسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ .

ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في معاني الحروف المقطعة، وكثرة هذه الأقوال تدل على حقيقة هامة، هي أن الإنسان مهما تدبر كلمات الله في القرآن فلن يقف على كل أسرارها، ولن يحيط بمعانيها، ولهذا ذهب كثير من علماء التفسير إلى القول بأن معاني هذه الحروف مما أستاثر الله سبحانه بها، فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها .

وأما الذين فسروها فأكثرهم رأى أنها ذُكرت بياناً لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنَّ القرآن مركبٌ من هذه الحروف التي يتخاطبون بها .

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير في تفسيره، فبعد أن ذكره وذكر العلماء

الذين ذهبوا إليه، قال ﷻ: «ولهذا كلُّ سورةٍ افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يُذكرَ فيها انتصارٌ للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلومٌ بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل: ﴿الْمَ ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة] . . . وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر».

ولو أمعنا النظر كما قال ابن كثير في فواتح الشعراء والنمل والقصص، لانتصرنا أيضاً لهذا القول، وتأكدنا من قوته ووجاهته، وأنَّ هذه الحروف جاءت بياناً لإعجاز القرآن الكريم، وكررت في أوائل تسع وعشرين سورة ليكون أبلغ في التحدي، كما كررت قصص كثيرة، وكما كرر التحدي الصريح في عدة آيات، والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقد اعترض بعضهم على استقراء ابن كثير بأنَّ هناك ثلاث سور افتتحت بالحروف المقطعة، ولم يذكر فيها الانتصار للقرآن وهي: سورة مريم، وسورة العنكبوت، وسورة القلم، إلا أنَّ هذا الاعتراض يسقط إذا تأملنا كل آيات هذه السور، ففي بعض آيات هذه السور ذكر للقرآن الكريم، وتأکید على كونه كلام الله كقوله في سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزُقُهُ يَلْسَانُكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ۝﴾.

وفي سورة العنكبوت [٥١]: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۝﴾.

وفي سورة القلم: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝﴾.



الفصل الثاني

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْمُعْجَزَاتُ التَّسْعُ

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنيْ ءَاسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنهَا يَحْيَىٰ أَوْ ءَاتِيَكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقَى عَصَاهُ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرًّا وَلَهُ يَعْقَبُ يَمْوَسَّى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسًّا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَمُورٌ رَّجِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِزَّاءٍ سُوَّىٰ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَافِرُونَ فَاسْقِيهِمْ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَسَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

• رسالة موسى عليه السلام:

بدأت رسالة موسى عليه السلام عند رجوعه من مدين على النحو الذي ذكره ﷺ

بقوله:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنيْ ءَاسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنهَا يَحْيَىٰ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

وأيد الله سبحانه موسى عليه السلام بتسعة معجزات تدل على صدق رسالته وصحة نبوته، وهي: اليد، والعصا، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وقد ذكر الله سبحانه منها في سورة النمل: معجزة اليد، ومعجزة العصا في

قوله ﷻ:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بِسُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَتَخْرِجْ يَبَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

وأشار إليها سبحانه أيضاً في سورة الإسراء في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنَى إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾.

وذكرها سبحانه مفصلة في سورة الأعراف فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

وموقف فرعون وقومه واضح من خلال هذه الآيات الكريمات، فقد كانوا معاندين للحق، ومصرّين على الباطل، مع أنهم في قرارة قلوبهم يعلمون علماً يقينياً صدق موسى ﷺ، لأنّ هذه المعجزات التي أيده الله بها لا يقدر عليها أحد غير الله سبحانه.

وقد وصف الله ﷻ موقف العناد والمكابرة هذا في آيتين من آيات سورة النمل، وبين في هاتين الآيتين أيضاً قوة هذه المعجزات ووضوحها، والأسباب التي جعلتهم يجحدونها مع تيقنهم أنها من الله سبحانه، كما بيّن النتائج الوخيمة التي أعقبت موقف الجحود والمكابرة لتلك المعجزات، جاء كل ذلك بأسلوب قرآني معجز في قوله ﷻ:

﴿فَمَا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدِّثُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وتأمل قوله تعالى في وصف هذه المعجزات: ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بيّنة واضحة، فهي اسم فاعل جاء في صيغة المفعول إشعاراً بقوة وضوح المعجزات، فهي لشدة وضوحها وظهورها تكاد تبصر نفسها^(١).

ولهذا استيقنتها أنفسهم، وعرفت أنها الحق لا شبهة فيها، فالحق واضح بيّن في كل زمان ومكان، ولا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه، بل إنهم يعرفونه ويستيقنونه في قرارة نفوسهم، ولا يحملهم على جحوده إلا شعورهم وإحساسهم أنه خطر على مصالحهم وأطماعهم ومغانمهم، فألستهم التي قالت: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ تخالف ما استقر في نفوسهم.

وكذلك كان موقف كبار المشركين من قريش عندما يسمعون آيات التنزيل الحكيم من فم النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، كانوا يستيقنون أنه الحق، وأنه كلام الله الذي يعلو ولا يُعلَى عليه، ولكنهم يجحدونه إبقاءً على عقائدهم الفاسدة لما فيها من أوضاع تسندهم ومغانم تتوافد عليهم.

وانظر وتأمل في ختام الآية روعة الإعجاز والبيان في الالتفات إلى خطاب النبي ﷺ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾، وعاقبة فرعون وقومه معروفة كشف عنها القرآن الكريم في مواضع أخرى، وجاءت الإشارة إليها هنا بأسلوب الالتفات إلى النبي ﷺ تهديداً ووعيداً للجاحدين والمكابرين من قومه قبل أن ينزل بهم من العذاب والهلاك مثلما نزل بفرعون وقومه، وتسلياً وتثبيتاً للنبي ﷺ، وهو يواجه عنت الجاحدين والمكابرين.



أَعَزَّةَ أَهْلِهَا أَوَّلَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالِي فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٢٦﴾ أَنْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّبَنَّهُمْ بِجُودِ لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَخُرِجَتْهُمْ مِنْهَا أَوَّلَةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَبْنَؤُنَا الْمَلَأُوا إِلَيْكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْخَيْنِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ نَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ نَكَرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾

• النبوة والعلم:

النبوة نوعٌ من أنواع العلم، إلا أنَّ النبوة علمٌ غيرٌ مُكتسب، إنها علمٌ لدني - من لدن الله - يتفضل الله سبحانه به على من يشاء من عباده المُصْطَفَيْن لمقام النبوة الرفيع.

ولا يقتصر علمُ النبوة على شؤون الدين من عقيدة وعبادة وتشريع وأخلاق، بل يتعدَّها إلى علومٍ أخرى تتصل بكثير من حقائق الكون وأسرار الحياة، يكشفها الله سبحانه لأنبيائه دون اكتساب منهم ومعاناة لأسباب تحصيلها، فتكون هذه العلوم معجزةً لهم، وأدلةً من دلائل صدقهم، لأنَّ مثل هذه العلوم والمعارف لم تكن موجودة في زمن النبي ﷺ الذي علَّمه الله سبحانه إياها، وقد تكون علومًا عزيزة المنال حتى لمن يطلبها، وببذل جهده من أجل اكتسابها وتحصيلها، فمعرفة النبي ﷺ بها لا بدَّ أن تكون من أدلة صدقه ومؤيدات نبوته.

● علوم داود وسليمان ﷺ:

لقد أعطى الله سبحانه داود وسليمان ﷺ كثيراً من العلوم إلى جانب علوم الدين، وهما نبيان كريمان أكرمهما الله بهذه العلوم إظهاراً لفضلهما وتأيداً لنبوتهما، قال تعالى في سورة النمل:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٥]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ ولم تبين الآية الكريمة ماهية هذا العلم ونوعه، فقله سبحانه: ﴿عِلْمًا﴾ بالتثنية إما أن يدل على النوع، أي: نوعاً من أنواع العلم، أو يدل على التعظيم لهذا الاسم، أي: علماً عظيماً. وتصدير الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ باللام الموطئة للقسم، ونون التعظيم في ﴿آتَيْنَا﴾ للدلالة على عظمة المعطي المتفضل ﷺ، وهذا يدل على أن الله سبحانه أعطى داود وسليمان علماً عظيماً وكبيراً، استقبلاه بحمد الله سبحانه وشكره على ما أعطاهما.

﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفه بالواو، إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة نعمة الله عليهما بالعلم، فالواو تدل على فعل محذوف مقدر، كأنه قال: ففعلاً شكراً له ما فعلاً، وقالوا: الحمد لله، فتأمل الإعجاز البياني الباهر في حرف واحد من حروف الآية الكريمة، وما يحمل هذا الحرف من معانٍ كبيرة وعظيمة.

وفي الآية دليلٌ على فضل العلم وشرف أهله، حيث شكر داود وسليمان الله سبحانه على العلم، وجعلاه أساس الفضل، فعلى العالم أن يحمداً الله سبحانه على ما آتاه من فضله، وأن يتواضع بأن يعتقد أنه وإن فُضِّلَ على كثير من العباد، فقد فُضِّلَ الله سبحانه عليه كثيراً، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ولهذا أمر الله نبينا ﷺ أن يسأل ربه الزيادة في العلم بقوله الكريم: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

● داود ﷺ (النبوة والملك):

جمع الله سبحانه لداود ﷺ النبوة والملك، فقد كان ملكاً نبياً، كما تفضل الله سبحانه عليه بما شاء من العلم الذي خصّه به، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٥) فَهَزَمُوهُمْ يَأْذِبِ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿[البقرة].

كما أن الله سبحانه أنزل على نبيه داود الزبور، وهو من الكتب السماوية التي أنزلها الله سبحانه على بعض رسله، قال ﷺ: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ومن العلوم التي تفضل الله سبحانه بها على داود ﷺ تسبيح الجبال والطيور معه، فكان ﷺ إذا سَبَّحَ الله سبحانه رَدَّدَتِ الجبال والطيور تسبيحه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَعَيْنَتْهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿[ص].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آوِيَّ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّالَةَ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقوله ﷺ: ﴿يَجْعَالُ آوِيَّ﴾ أي: رجعي وكرري، لأن الأوب: الرجوع^(١). وتأمل فخامة النظم القرآني وجماله، كان الأصل أن يقول: ولقد آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال والطيور، إلا أن سياق الآيات التفت إلى خطاب الجبال والطيور، فأنزلها منزلة العقلاء المخاطبين المكلفين، ليستشعر القارئ عظمة الله سبحانه، وتمام مشيئته وإرادته النافذة في جميع المخلوقات، فالجبال والطيور منقادة لمشيئته سبحانه، نافذ فيها أمره وسلطانه، ﷻ.

(١) انظر: حاشية الشهاب على البيضاوي.

● الحديد اللين:

ومن العلوم التي تفضل الله سبحانه بها على نبيه داود عليه السلام علم صناعة الدروع، التي يلبسها المتحاربون لحماية أجسامهم من ضربات وطعنات أعدائهم أثناء الحرب والقتال، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ومن المعلوم أنَّ الاستفادة من العلم لا يستطيع الإنسان تحصيلها إلا إذا تمكن من استثمار العلم وملك القدرة على ذلك، فعلم صناعة الدروع لا يفيد شيئاً من دون قوة وقدرة تمكن صاحب هذا العلم من استثماره والاستفادة منه، ولهذا أعطى الله ﷻ داود عليه السلام قوة عضلية كبيرة، تمكن بواسطتها من الاستفادة من تعليم الله له صنعة الدروع، وبهذه القوة العضلية أصبح الحديد ليناً لداود عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ﴾ [١٧] ﴿إِنْ أَعْمَلَ سَفِهْتِ وَقَدَّرِ فِي السَّرِّ﴾ [سبأ].

فالحديد في يده عليه السلام كالشمع يصنعه كيف يشاء من غير نار ولا طرْق، وهذا يدل على قوته العضلية الكبيرة التي أنعم الله عليه بها، فقد وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

وقوله: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوة، فالأيد القوة، والأيدي القوى، وهي محتملة لأن تكون قوة في الجسم أو قوة في الدين، ويرجع بعض المفسرين أنَّ المراد قوة الدين، واحتجوا بقوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى مرضاة الله تعالى.

وقد عُرِفَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وهذا الصيام أشق أنواع الصيام على النفس، كما عُرِفَ عنه أنه كان ينام نصف الليل، ثم يقوم ثلثه، ثم ينام سدسه الأخير، وفي هذا القيام ما فيه من شدة ومشقة، قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الصَّيَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطِرُ يَوْمًا» [رواه البخاري (٣٤٢٠) ومسلم (١١٥٩/١٩٢)].

ولا مانع من حمل الآية على الإطلاق وأنه سبحانه أكرم داود بقوة الدين وقوة البدن، قال ابن كثير: ﴿الْأَيْدِ﴾ القوة في العلم والعمل.

وكان ﷺ يستعمل قوته البدنية في جهاد أعداء الله، وقد تمكن أثناء الجهاد من قتل الطاغية المتكبر جالوت الذي اشتهر بقوة جسده وشدة بأسه، وكان ذلك سبب وصول داود للملك، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكان داود ﷺ يصنع الدروع من الحديد، ويبيعها، وينفق على نفسه وعياله من عمل يده، فما كان ﷺ يمدُّ يده إلى مال الأمة، مع أنه كان من أغنى الملوك وأقواهم، قال عليه الصلاة والسلام: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكَلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» [رواه البخاري (٢٠٧٢)].

فعل ذلك ﷺ تواضعاً لله وشكراً له على ما أعطاه وأولاه من نعمة العلم في الدين والدنيا، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

• بين صورتين:

لقد كان داود ﷺ مثلاً طيباً للحاكم الصالح في عدله وحكمته، وجهاده وشجاعته، وعلمه وعمله، وتواضعه وعبادته، تلك هي الصورة الكريمة الوضيئة التي رسمتها نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لنبي الله داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

أما صورته عند بني إسرائيل فصورة قاتمة مظلمة، فهو في نظرهم رجل قاسٍ غليظ القلب، يحب الشهوات، ويتطلع إلى حرمات الناس، فإذا رأى امرأة أعجبه حسننها أمر جنده بإرسالها إلى فراشه، وبعد أن يقضي وطره منها وتحمل المرأة منه، يعمل على قتل زوجها، ليضمها إلى نسائه وزوجاته، وزعموا أن نبي الله سليمان وُلد من هذه المرأة^(١).

إنَّ حديث التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر عن داود ﷺ فيه

(١) انظر: كتاب: دراسات تاريخية من القرآن الكريم؛ وكتاب: قصص الأنبياء.

تناقض واضح، مما يدل دلالة قاطعة على تبديل وتغيير في نصوص التوراة، فهو فيها حامل سلاح ملك اليهود شاؤول، الذي ذكر في القرآن الكريم باسم طالوت، وهو حارسه وقاتل عدو اليهود الأكبر جالوت الجبار.

كما أنه يعمل في بلاط شاؤول مغنياً، لأنه كان يجيدُ الضرب على القيثارة، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، وهو أيضاً زوج ابنة شاؤول، وصديق وحبيب ابنه يوناثان، وتصوره نصوص التوراة في الوقت نفسه أنه أكبر أعداء شاؤول، حتى إنه ينضم إلى الفلسطينيين أعداء بني إسرائيل، ويقاومهم قومه من اليهود وملكهم شاؤول، كما أنه في التوراة رجل غليظ القلب، ويقتل الأسرى جملةً، يأمر بحرق المغلوبين من أعدائه، وسلخ جلودهم، ونشرهم بالمنشار، ولكنه في الوقت نفسه كان يعفو عن أعدائه^(١).

وحين يطلب منه شاؤول مئة غلفة^(٢) من الفلسطينيين مهرأ لابنته ميكال؛ يقتل داود مئتي رجل من الفلسطينيين، ويقدم غلفهم مهرأ لابنة شاؤول هذه^(٣).

تلك هي صورة داود ﷺ عند بني إسرائيل، فأين هذه الصورة المظلمة من الصورة الوضيئة الكريمة التي رسمتها نصوص القرآن والسنة، والتي تليق بنبي كريم اصطفاه الله واجتباها؟! والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يصطفي لها إلا أكرم الناس خلقاً وأطهرهم نفساً.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كَانَ مِنْ دَعَاءِ دَاوُدَ عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحَبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يَبْلُغُنِي حُبَّكَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَهْلِي، وَمَالِي، وَمِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ».

وكان النبي ﷺ إذا ذكر داود تحدث عنه بقوله: «كَانَ أَعْبَدَ الْبَشَرِ» [رواه

الترمذي (٣٤٨٥)].

(١) انظر: دراسات تاريخية عن صموئيل الثاني.

(٢) الغلفة: قطعة الجلد فوق الذكر التي تُزال عند الختان.

(٣) دراسات تاريخية.

● سليمان عليه السلام :

انتقل الملكُ بعد موت داود عليه السلام إلى ولده سليمان عليه السلام، وأكرمه الله سبحانه بالنبوة، كما أكرم والده من قبل، فكان عليه السلام نبياً ملكاً، قال عليه السلام في سورة النمل :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُودَ وَقَالَ إِنِّي أَخَاتِيهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (١٦) .

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُودَ﴾ أي : أكرمه الله سبحانه بالنبوة والملك كما أكرم والده من قبل، وهذا معنى وراثة سليمان داود، فالأنبياء عليهم السلام لا يورثون، قال رسول الله ﷺ : « لا نُورث ما تركناه صدقة » [رواه البخاري (٤٠٣٤) ومسلم (١٧٥٩)] .

وليس من الضروري أن يكون أولادُ الأنبياء مثل آبائهم، فالنبوة لا تُنال بالوراثة، لكن هي محض فضل من الله سبحانه .

وقد أعطى الله سبحانه سليمان عليه السلام كثيراً من المعجزات العلمية، فخصه بكثير من العلوم الدنيوية التي لا يمكن تحصيلها بمعاناة الأسباب، وسخر له سبحانه من القوى والطاقات الكبيرة ما لا يمكن لأحد من البشر أن يصل إليها، وأصبح ملكُ سليمان ملكاً عظيماً في الأرض بسبب ما وهب الله له من العلوم وما أعطاه وسخر له من القوى والطاقات، فلم يصل إلى مثل ملكه أحد قبله ولا بعده استجابةً لدعوته عليه السلام عندما سأل الله سبحانه قائلاً : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص : ٣٥] .

ولم يسأل سليمان عليه السلام هذا الملك للتفاخر به والتباهي، فهو من بيت نبوة ومُلك، وهو يعلم أنَّ الدنيا فانية وزائلة، ولهذا سأل الله سبحانه أولاً المغفرة، ثم أتبعها بسؤال المُلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ليكون معجزة له يستعين به في أمر الدعوة إلى الله سبحانه، وفي قصته عليه السلام مع ملكة سبأ التي قصَّها الله علينا في سورة النمل (٢٣ - ٤٤) ما يؤكِّد هذه الحقيقة .

وقد استجاب الله سبحانه لدعوة نبيه سليمان فأعطاه ملكاً ما أعطى مثله أحداً بعده، قال ﷺ: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ (٣٧) وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿[ص.]﴾.

ولقد سخر الله سبحانه لسليمان الريح العاصفة تَأْتِمُرُ بِأَمْرِهِ، ويوجهها بمشيئته رخيَّةً لينَّةً حيث يريد، وأخضع له مَرَدَّةَ الْجِنِّ والشیاطين، يَأْتِمِرُونَ بِأَمْرِهِ، ويعملون له ما يشاء من الأعمال الكبيرة والمنشآت الضخمة الهائلة، وهذا يدل على أَنَّ الله سبحانه مَكَّنَ سليمان ﷺ من طاقات كبيرة هائلة، وسلَّطه على قوَى خفية جبارة لم يسلط عليها أحداً غيره، معجزة له ﷺ وبرهاناً على صحة نبوته وصدقه، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْنُ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَرُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ إِجْفَانٍ كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿[سبأ.]﴾.

• الإنسان والشكر:

لقد عمل نبي الله سليمان كما أمره الله سبحانه، فكان كل عمله شكراً لربه، وتمكيناً لدينه في الأرض، ونشراً لعبادته بين الناس، فلم يُسَخِّرْ هذه القدرات والقوى الهائلة التي أقدره الله عليها للاستبداد والظلم، والمفاخرة والمباهاة، كما هو شأن أكثر الناس عندما يغنيهم الله من فضله، ويعطيهم من كنوز جوده وكرمه.

وما تفعله المجتمعات الغربية المعاصرة اليوم من ظلم وبغي، وطغيان واستبداد، وترف وسرف، وتسلب على الشعوب الضعيفة وإذلالها، وتسخيرها لمآرب المجتمعات الغربية ومصالحها: خير شاهد واقعي لصدق قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿[سبأ: ١٣].﴾

هل شكر الإنسان المعاصرُ الله سبحانه على ما أعطاه وأولاه عندما هداه إلى بعض أسباب القوة، ووضع يده على مفاتيح كنوز الخير والجود التي خلقها الله في هذه الأرض؟!.

هل استعمل الإنسان نعمة الله سبحانه في شكره وعبادته، فساعد الضعفاء من عباده؟ أم استعملها في التسلط والظلم والبغي، ووجهها إلى الحرب والقتل والتدمير، حتى أصبح أكثر الناس في ظل حضارة المتسلطين والباغين غير آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وأصبحت رؤوس وقلوب أكثر الناس مخازن للخوف والقلق والاضطراب؟.

إنَّ عدمَ شعور الإنسان المعاصر بالأمن والطمأنينة في العصر الحاضر أكبر المشكلات التي تواجه الإنسان، فهو دائماً في خوف وقلق واضطراب، وما أكثر الضاربين في جنبات الأرض بحثاً عن هذين المطلبين الهامَّين في حياة الإنسان: الأمن والطعام!.

وبينما ينفقون على السلاح ووسائل التدمير والتخريب خمسمئة ألف مليار دولار سنوياً يموت ثلاثون ألف طفل كل يوم بسبب الجوع^(١)، في ظلِّ حضارة الإنسان المعاصر التي بُنيت على العلم المجرد عن الإيمان، فقد كان هذا العلم في أغلب حالاته بعيداً عن الله سبحانه.

لقد كان سليمان عليه السلام نبياً ملكاً متواضعاً لله سبحانه، شاكراً له على نعمه وفضله، يتحدث دائماً عن فضل الله عليه، ويقول كما ذكر الله في سورة النمل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْ مَنَاقِبِ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٦﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ ارْزُقْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٩﴾.

• منطق الطير:

ومن العلوم المعجزة التي منَّ الله سبحانه بها على نبيه سليمان عليه السلام علم منطق الطير، فكان عليه السلام يحاور الطيور وتحاوره، ويكلمها وتكلمه، وهو لا شك أمر خارق للعادة، وللمعجزة فيه وجهان:

١ - تكليمه عليه السلام للطير، وفهم الطير لكلامه.

(١) من منشورات الصحف بمناسبة يوم الجوع العالمي، لعام ١٩٨٤م.

٢ - وتكليم الطير له ، وفهمه لمنطق الطير وكلامه .

ومنطق الطير كلامه ، وفيه دليلٌ على أنَّ للطيور لغةً خاصة تتخاطبُ بها ، علَّم الله هذه اللغة سليمان ﷺ ، وأظهرها سليمان للناس تحدثاً بنعمة الله سبحانه عليه ، وإظهاراً للمعجزة التي خصَّه الله سبحانه بها ، ولهذا قدَّمها في الذكر عندما قال :

﴿وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنْ أَنْطَقِ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : أعطاه الله سبحانه كلَّ شيء تدعو إليه الحاجة كالنبوة والعلم والحكمة والمال وتسخير الجن والطيور والريح . وجاء سليمان بنون العظمة التي أراد بها نفسه ، لأنه كان مطاعاً مسموع الكلمة ، فلم يأت بها تكبراً ولا تجبراً وتعظيماً لنفسه ، ولهذا ختم كلامه بما يدل على تواضعه لله سبحانه وبيان فضله عليه فقال :

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ .

ويهتم كثيرٌ من الباحثين اليوم بلغات الحيوانات والطيور والحشرات كالنمل والنحل ، وقد لاحظ الدارسون من العلماء لأحوال الطيور والحيوانات أنَّ أصواتها تتكيَّف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها ، فمَوَاءُ الهرة المحبوسة مثلاً يختلف عن موائها عندما تطلب الطعام والماء ، فلكلِّ صوتٍ كفياتٌ ونبراتٌ ليست في الصوت الآخر ، وقد كشف عالمُ ألمانيٍّ منذ حوالي خمسين عاماً بعد ملاحظات دقيقة وصبر طويل أنَّ الطيور لا تصدحُ وتغني فقط ، لكنَّها تتكلَّم ، ولها مثل البشر لهجات خاصة ، مثال ذلك : أنَّ الشحرور النمساوي لا يفهم لهجة الشحرور البافاري ، والشحرور الفرنسي لا يفهم لهجة الشحرور الإنكليزي^(١) .

والعجيبُ أنَّ بعضَ الناس يقلِّدون لغة الطيور ، ويجعلونها لغة التفاهم في ما بينهم أحياناً ، ففي منطقة جزر الكناري الجبلية يتحدَّث الناسُ فيما بينهم بلغة تشبه لغة الطيور ، ويتفاهمون عبر مسافات طويلة تفصل بينهم بالصفير الذي يشبه

(١) نُشر هذا الخبر في «جريدة الأهرام» في عدد يوم الأحد الموافق ٤ شباط سنة ١٩١٧م ، كما في «قصص الأنبياء» للنجار .

صغير الطيور لبعضها، وبعض الصيادين في موريتانيا يعتمدون في صيدهم على الدلفين، فيضربون الماء ضربات خاصة بأصوات يستجلبون بها الدلفين، ليسوق إلى شباكهم سمك التيمالوس^(١).

لقد جعل الله سبحانه لكل أمة من الأمم لغة تفاهم بين أفرادها.. وكان اختلاف اللغات واللهجات تابعاً لاختلاف وتنوع الأمم والشعوب والأجناس، وهذا الاختلاف والتنوع في الأمم والشعوب والأجناس واللغات واللهجات مظهراً من مظاهر قدرة الخالق العظيم ﷻ، ومن أدلة وجوده سبحانه، قال ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وجعل الله ﷻ الطيور والحيوانات والحشرات أمماً، ولكل أمة خصائصها التي تتميز بها عن غيرها من الأمم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فلا بد أن تكون لكل أمة من هذه الأمم روابط معينة تحيا بها، ووسائل تفاهم فيما بينها، وهو أمرٌ مشاهدٌ في حياة كثير من الحيوانات والطيور والحشرات، ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها والكشف عن وسائل التفاهم فيما بينها عن طريق البحث والمراقبة والمقارنة، ويجب التنبيه إلى أن ما يتوصل إليه بعض العلماء في هذا المجال يختلف اختلافاً كبيراً عن علم منطق الطير الذي علّمه الله سبحانه سليمان، فعلم العلماء يبقى حبيس الظن والحدس معتمداً على المراقبة والمقارنة، ولا يرقى إلى العلم اللدني القطعي الخارق لمألوف البشر الذي تفضّل به العليم الخبير على عبده ونبيه سليمان ﷺ.

وقد أحسن سيد قطب رحمه الله في تفسيره «في ظلال القرآن» عندما قال: «أحبُّ أن يتأكد هذا المعنى ويتّضح، لأنَّ بعض المفسرين المحدثين ممَّن تبهرهم انتصارات العلم الحديث، يحاولون تفسير ما قصّه القرآن عن سليمان ﷺ في

(١) نُشر هذا في برنامج علمي يدعى «أسرار البحار» عرضه رائي المملكة العربية السعودية.

هذا الشأن بأنه نوعٌ من إدراك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة، وهذا إخراجٌ للخارقة عن طبيعتها، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل.

وإنه لأيسرٌ وأهونُ شيءٍ على الله أن يعلم عبداً من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات هبةً لدنيةٍ منه بلا محاولة ولا اجتهداد، وإن هي إلا إزاحةٌ لحاجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع وهو خالق هذه الأنواع^(١).

ومن قبل سليمان عليه السلام علم الله سبحانه آدم عليه السلام كل الأسماء لكل الأشياء في كل اللغات، إظهاراً لعظيم قدرته سبحانه وفضله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢١) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢٢) قَالَ يَتْلُوهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ [البقرة].

وإن في محاولات العلماء اليوم لمعرفة لغات الحيوانات والطير والحشرات، واجتهادهم في الكشف عن وسائل التفاهم فيما بينهم، تصديقاً لما قرره الله سبحانه في كتابه الكريم، وإظهاراً لوجه من وجوه إعجازه العلمي، يزد المؤمن إيماناً بصدق كلام الله تعالى وصحة رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيحمدون الله سبحانه على ما تفضل به عليهم وعلى الناس جميعاً بحفظ القرآن الكريم، وإبقاء آياته في الأرض أعلاماً للإسلام، وشواهد حق تبقى على الدوام، فله سبحانه الحمد أولاً وآخرأ، كما أخبر في آخر سورة النمل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣).

• جنود سليمان:

وفي جنود سليمان معجزات كبيرة خارقة للعادة، أخضع الله سبحانه له الجن ليكونوا من جنوده، وسخر له الطير ليكونوا في عداد جيشه كما قال تعالى:

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٩/١٣٨.

﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (١٧).

وإن كلمة ﴿حِشْرَ﴾ تدل على كثرة جنوده وقوتهم وكثرة عددهم، ومع هذا فالذي يبدو لنا أن الله سبحانه سخر لسليمان طائفة من الجن، وطائفة من الطير، كما سخر له طائفة من الإنس، لأن ملك سليمان كما يذكر المؤرخون لم يمتد إلى جميع الأرض، فقد كان ممتداً في حدود بلاد الشام إلى صنعاء والفرات، ويؤكد هذا قوله تعالى في سورة سبأ [١٢]: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وكلمة ﴿مِنَ﴾ تدل على التبعية، فكما أن جميع الإنس لم يكونوا في عداد جيش سليمان، كذلك لم يكن جميع الجن والطير في عداد جيشه، ولو كان جميع الطيور في عداد جيشه لما استطاع معرفة غياب واحد من الطير وهو الهدهد، عندما تفقد سليمان الطير كما حكى الله عنه في سورة النمل: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاكِينَ﴾ (٢٠)، مما يدل على أن هدهداً خاصاً من أمة الهداهد كان في عداد جيش سليمان، ومهما قللنا في عدد المسخرين لسليمان من الجن والطير، وحشرهم في عداد جيشه، فإن تسخيرهم له أمر خارق للعادة ومعجزات كبيرة تفضل الله سبحانه بها على نبيه سليمان ﷺ.

وقول الله سبحانه في وصف جنود سليمان: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وتفقد سليمان للطير يدل على أنه كان ضابطاً شؤون جنوده رغم كثرة عددهم، وتنوع أجناسهم واختلافهم، لأن معنى ﴿يُوزَعُونَ﴾ يكفون ويؤمنون من الفوضى والاختلاف، فلكل طائفة منهم وازع يزعمهم، ويكفهم ويضبطهم، وسليمان ﷺ يسيطر عليهم جميعاً، ويراقبهم ويتفقدهم، والآية الكريمة: ﴿وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وتدل على أن جيش سليمان كان يتصف بالقوة والنظام، كما يدل على أنه ﷺ كان يتصف بكمال اليقظة والحزم في قيادته لمثل هذا الجيش الذي ما عُرف مثله بين الجيوش على مدى الدهور والأزمان.

• الموكب العظيم:

ويسير سليمان ﷺ على رأس جنوده في موكبه العظيم، ويسير في ركابه الجن والإنس والطير، ويظهر هذا من قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَّأَ عَلَىٰ وَادِ التَّمْلِيزِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٨﴾

ويظهر من قوله تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَّأَ عَلَىٰ وَادِ التَّمْلِيزِ﴾ أَنَّ سليمان وجنوده كانوا يسيرون على الأرض، ويستعملون في سفرهم وسيرهم وسائل الانتقال المعروفة لدى الإنسان في ذلك الزمان، إلا أنه لا بدَّ أن تكونَ هذه الوسائلُ أضخمَ وأفخمَ من غيرها، لتتناسب مع قوة جيش سليمان، ومع الإمكانات الصناعية الضخمة والقوى الهائلة التي أنعم الله بها على سليمان عندما سَخَّرَ له الجن يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وتمائيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات.

والمحارب: أماكن للعبادة، والتماثيل: الصورُ المجسَّمة للأشياء، وليس فيه دليل على جواز صنع التماثيل والمجسَّمات للمخلوقات الحية في شرعنا الإسلامي، لأنه يمكن أن تكون التماثيل والمجسَّمات لغير المخلوقات الحية، وعلى كلِّ فهو شرع من قبلنا، والشرعية الإسلامية تنهى عن صنع التماثيل والمجسَّمات والصور للمخلوقات الحية، ثبت النهي في عدة أحاديث نبوية شريفة صريحة وصحيحة:

منها: ما رواه مسلم في «صحيحه» [٢١٠٩]: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَصُورُونَ».

وقال أيضاً [٢١١٠]: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُفِّفَ أَنْ يَنْفَعَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِعٍ».

وقال أيضاً [٢١٠٨]: «الَّذِينَ يَصْنَعُونَ الصُّوَرَ يَعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ».

وأما الجفان والجواب والقدور الراسيات: فهي أواني الطعام والشراب الكبيرة الضخمة التي كان سليمان يستعملها لإطعام جيشه الكبير العدد والمتنوع في الأجناس.

ويؤكد أن سليمان وجنوده كانوا يسافرون سائرين على الأرض، لا طائرين فوق متن الريح في الجو، ما عُرف عنه ﷺ من محبته للخيل، وعنايته بها، لأنها عدّة الجهاد التي يعتمد عليها في الحرب، وبلغ من عنايته بها وشغفه بها، أنه كان يستعرضها ويمسحُ بيده سوقها وأعناقها، جاء هذا في قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِّضَ عَلَيْهِ بِالْعَنِيِّ الصَّفِيفَتُ الْخِيَادُ﴾ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رَدُّهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ [ص].

• هل استعمل سليمان بساط الريح؟

وقصة بساط الريح الذي ذكره كثير من المفسرين، وأن سليمان ﷺ كان يستعمله في أسفاره ورحلاته ليس له ذكر في القرآن الكريم، ولا في أي أثر صحيح، والمذكور في القرآن الكريم أن الله سبحانه سخر الريح لسليمان، وجاء وصفها في سورة الأنبياء بأنها ريح عاصفة، وبأنها تجري بأمر سليمان ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ (٨١).

بينما جاء وصفها في سورة ص بأنها تجري رُخاء، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (٣٦).

فهل كان تسخير الريح لسليمان أنها تتحول بأمر سليمان ومشيتته من ريح عاصفة مدمرة إلى ريح رخية طيبة، تبشر بقدوم الخيرات ونزول البركات وتدفع السفن الجاريات في أعماق البحار؟ وهذا من أعظم فوائد الرياح الرخية، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

ولا بدّ أنه كان لسليمان ﷺ أسطول بحري من السفن، فمملكته تطل على سواحل طويلة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وقد عرف عن أهل هذه البلاد قديماً تمرّسهم بركوب البحر، وخبرتهم في بناء السفن.

وقد نبّه علماء التفسير إلى الاختلاف في وصف الريح المسخرة لسليمان

ففي سورة الأنبياء وصفت أنها عاصفة، وفي سورة ص وصفت أنها تجري بأمره رُخاء، والعاصفة غير التي تجري رخاءً، وقد أجابوا للتوفيق بينهما بجوابين: أولهما: أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخية في بعضها الآخر، بحسب الحاجة.

الثاني: أنها رُخاء في نفسها، وعاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد^(١).

إلا أن هاتين الإجابتين لا تنسجمان مع وصف الله سبحانه للريح العاصف بأنها الريح المهلكة المدمرة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرَحْتُمْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ومع هذا فنحن لا ننكر إمكانية وجود بسات الرياح وجلس سليمان عليه مع حاشيته وجنوده، وحمل الريح له إلى حيث يريد، فالله سبحانه قادرٌ على كل شيء، ونحن نشاهد كيف تمكّن الإنسان في العصر الحاضر من ركوب الطائرات بسبب ما فتح الله عليه من أنواع العلوم والمعارف في مجالات الطيران وعلوم الفضاء، ولكن ذلك لم يثبت بنص من القرآن والسنة، والنص القرآني يقرر كما مرّ معنا تسخير الريح وهي عاصفة لسليمان تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها، وهي في الغالب بلاد الشام، لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة إبراهيم عليه السلام.

إنّ تسخير الريح لنبي الله سليمان عليه السلام وتحويلها من ريح عاصفة مدمرة إلى رياح رخية طيبة معجزة كبرى، وآية عظيمة، خارقة للعادة، صحيح أن الإنسان استفاد قديماً من قوة الرياح في تسيير السفن في البحر، واستفاد حديثاً من قوة الهواء في تطهير الطائرات؛ إلا أنه لم يستطع أن يُخضع الرياح لمشيئته، وأن يجعلها تتوجه حسب إرادته، بل إن الإنسان ليعجز عن حماية نفسه من سطوة الريح العاصفة وتدميرها، ولا يزال يعاني ما يعاني من أعاصيرها المدمرة، وفي

(١) انظر: أضواء البيان: ٦٧٦/٤.

كلُّ يومٍ تطالعنا الأخبار عن الفواجع والنكبات التي تتركها الأعاصير المدمرة في كل بلد تمر عليه .

• كلام النمل:

إنَّ قوله تبارك وتعالى :

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأْتِيهَا النَّمْلُ آخِلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

يثبت وجود لغة للنمل يتخاطبون بها فيما بينهم .

وسبق أن ذكرت في بداية تفسير هذه السورة أنَّ النمل يعيش في مجتمعات كبيرة ومنظمة، تفوق في نظامها ودقتها النظام الاجتماعي لكثير من المجتمعات البشرية، فلا بدَّ أن يكون لأفراد المجتمع لغة تفاهم وتعارف فيما بينهم، والنص القرآني الكريم يؤكد وجود لغة التفاهم هذه في كلام النملة، فالقول بأنَّ النمل يتعارفون فيما بينهم باللوامس الطويلة التي خلقها الله في أجسامهم، أو برائحة عُشِّيَّة خاصة، يتعارض مع ما ذكر في القرآن الكريم من كلام النملة الذي سمعه نبيُّ الله سليمان بقدرة الله سبحانه .

إنَّ سماعَ كلامِ النملة معجزةٌ لسليمان ﷺ قابلها بالتبسم من قولها، وبالاعتراف بفضل الله عليه وبشكره والضرعة إليه سبحانه:

﴿فَنَبَسَّ صَاحِجًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

وقوله ﷺ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ معناه: اجمعني كلي واجمع طاقاتي كلها أولها على آخرها، وهو المدلول اللغوي لكلمة ﴿أَوْزِعْنِي﴾ لتكون كلها في شكر نعمتك^(١).

وهذا التعبير يؤكد أن سماع سليمان لكلام النملة قد مسَّ قلبه، وهز

(١) انظر: في ظلال القرآن.

وجدانه، وهو يعيش حقيقة المعجزة الكبرى التي أكرمها الله سبحانه بها عندما أسمعها كلام النملة.

وقد أثبت العلم حديثاً - كما سبق وذكرْتُ - أَنَّ النملَ يمكنه أن يتعرف على بعض الذبذبات، فلماذا لا تكونُ هذه الذبذبات هي الذبذبات الصوتية الناتجة عن كلام النمل، وَأَنَّ الله سبحانه أقدرَ سليمان على أن يسمع هذه الذبذبات ويفهم مضمون كلام النمل فيها.

• حكمة نملة:

ونقف عند سماع سليمان ﷺ لكلام النملة أمام عددٍ من المعجزات الكبيرة: أولها: معجزةُ سماع سليمان كلام النملة.

وثانيها: إدراكُ النملة أَنَّ السائرين في وادي النمل هم سليمان وجنوده.

وثالثها: ما تضمَّنه كلام النملة من الحكمة والتعقل والتبصُّر بعواقب الأمور.

ورابعها: معرفةُ النملة لسليمان، وأَنَّهُ نبيُّ كريمٌ، لا يقصدُ أحداً بالأذى،

حتى لو كان نملةً صغيرةً، ولهذا قالت: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنَّ كل معجزة من هذه المعجزات أكبرُ من سابقتها:

فالمعجزة الأولى: ممَّا علمه الله سبحانه لسليمان، وهو إنسانٌ ونبي قابلٌ

للعلم والمعرفة.

وأما المعجزة الثانية: فهي في تعليم الله سبحانه لهذه الحشرة الصغيرة

ما علمها، حتى أدركت أَنَّ القادمين هم سليمان وجنوده.

وأما المعجزة الثالثة: فما تضمَّنه كلامُ النملة من حكمة وتعقل وتبصر

وتقدير للنتائج، ممَّا لا نرى مثله عند كثير من الناس، الذين زودهم الله سبحانه

بوسائل الإدراك من عقل وسمع وبصر، وممكنهم من التعلم والتفكير والاعتبار،

ولكنهم مع الأسف لم يعتبروا ولم يتفكروا.

أدركت النملة الخطر، وعرفت مصدره، كما أدركت أَنَّهُ لا يمكن لمثل

النمل أن يتصدَّى لهذا الخطر ويواجهه، وعرفتُ أنَّ خيرَ وسيلةٍ للنجاة والسلامة عدمُ مواجهته، والانسحاب من وجهه إلى مكان آمن حتى يزولَ، ولهذا أمرت النملُ أن يدخلوا مساكنهم، وهكذا تمكنت هذه النملةُ بحكمتها وتبصُّرها بعواقب الأمور أن تنقذَ نفسها وأمتها من الخطر.

إنها عرفت حدود إمكاناتها، كما عرفت مدى الخطر الذي يواجهها، فوقفت عند حدها، رغم النزعة العدوانية القتالية المعروفة لدى النمل، ورحم الله امرأً عرف حدَّه كما عرفته هذه النملة الحكيمة، وعرف مدى القوة التي يواجهها كما عرفت هذه النملة الحكيمة، واتخذ قراره بحزم وقوة ووضوح وسرعة كما فعلت هذه النملة الحكيمة، ولقد جاء قرارها في وقته المناسب حكيماً وسريعاً، فدرأت به المخاطر عن مجتمعها وأمتها.

فمتى يكون لنا حكمةُ هذه النملة؟ متى نتدبر آيات الله سبحانه في كتابه الكريم حق التدبُّر، وندرك عمق ما فيها من حكم وأحكام تأخذ بأيدينا إن أحسنَّا تطبيقها إلى الأمن والعزة والسلام؟ متى نعرف حقيقة ما يدور حولنا، وحجم القوى الخفية التي تتصارع من حولنا، وتكالب علينا، ونعرف حجمنا بالنسبة لها، فلا نغتر ولا نجهل؟!.

وإنَّها لنملةٌ مخلصَةٌ لأمتها ولأبناء مجتمعها، فلم تبادر إلى تأمين نفسها والانسحاب من وجه الخطر دون أمتها وإخوتها، بل وقفت في وجه الخطر تنصِّحهم، وتبين لهم طريق السلامة وأسباب تحصيل العافية.

● هدهد سليمان:

اتصف النبي الملك سليمان ﷺ بصفات اليقظة والدقة والحزم في إدارة شؤون مملكته، فهو يتفقد جنده، ولا يغفل عن جندي واحد منهم رغم كثرة عددهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم:

﴿وَقَفَّذَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الْهَذُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

ولما لم ير الهدد تساءل قائلاً: ﴿مَالِيَ لَا أَرَى الْهَذُودَ؟!﴾ وهو يظنُّ أنَّ

الهدهد حاضراً، ولكنه لا يراه بسبب ساتر أو غيره، ولما تبين أنه غائب أضرب عن كلامه الأول، وقرر أنه من الغائبين، ولا بد من الحزم في مثل هذه الحالة حتى لا تكون سابقة سيئة لغيره من الجنود، ومن ثم أعلن سليمان أنه سيعاقبه عقاباً شديداً:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ (٢١).

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾، ولا بد أيضاً في مثل هذه الحالة أن تظهر صفة النبي الملك العادل عند سليمان عليه السلام، فهو ليس ملكاً جباراً في الأرض، ولم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائياً، ولهذا ختم تهديده بقوله:

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بحجة واضحة قوية تبرر سبب غيابه، وتبين عذره في ذلك.

ولم ينتظر سليمان طويلاً حتى جاء الهدهد الذي كان يعرف حزم الملك وشدته، فبدأ حديثه بمفاجأة كبيرة، أظهر فيها سبباً وجيهاً لغيابه:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ يَبْلُغُ يَقِينٍ﴾ (٢٢)
 وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)
 أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦).

والمتمامل لكلام الهدهد يجد نفسه أمام هدهدٍ أريبٍ عجيبٍ، صاحب إدراك وفهم وإيمان، فهو يدرك أن هذه ملكة، وأن من حولها رعية لها، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويعرف أن السجود لا ينبغي إلا لله، الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، وأنه سبحانه هو رب العرش العظيم!

● الإدراك عند الحيوان:

فهل لجميع الطيور والهداهد مثل هذا الإدراك والفهم والإيمان؟ أم أن هدهد سليمان هدهدٌ خاص آتاه الله سبحانه هذا الإدراك الخاص على سبيل المعجزة الخارقة للعادة تكريماً لنبه سليمان ﷺ؟.

ذهب سيد قطب رحمه الله إلى أن هدهد سليمان قد وهب إدراكاً خاصاً، لا يرقى إليه إدراك سائر الهداهد والطيور بصفة عامة، ولا بد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التي سُخِّرَتْ لسليمان، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور، فإن نوع الإدراك الذي ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس^(١).

لكنني لا أرى مانعاً أن يكون إدراك هدهد سليمان هذا ومعرفته بالله سبحانه وإنكاره على من يعبد غير الله عامّاً عند جميع الهداهد والطيور، ولا أرى ثمة دليلاً يخص هدهد سليمان بهذا الإدراك، وهذه المعرفة، وينفيهما عن بقية أفراد جنسه ونوعه، صحيح أن إدراك الطير والحيوان لا يصل في كثير من الأمور إلى مستوى إدراك الإنسان، لكنه في أمر معرفة الخالق العظيم سبحانه قد يصل إلى مستوى الإنسان، بل قد يفوقه في بعض الأحيان، فإننا نشاهد أكثر الناس مع ما لديهم من ذكاء وإدراك رفيع المستوى، يعرضون عن الله سبحانه، فلا يؤمنون به الإيمان الحق، ولا يعبدونه العبادة الصحيحة، وينحطون بذلك إلى رتبة أدنى وأحط من مراتب الطير والحيوان، وتصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۖ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان].

وقد مرّ معنا من قريب حديث النملة، وإدراكها وحكمتها، فقد رأينا كيف عرفت هذه الحشرة الصغيرة أن القادمين هم سليمان وجنوده، وأن ما يمكن أن

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٩/١٤٥.

يصيبهم منهم ليس مقصوداً، لأنَّ سليمان نبِيٌّ معصوم، فلا يقصد أي مخلوق بضرر أو ظلم ولو كان نملة صغيرة، ولهذا قالت كما مرَّ معنا: ﴿لَا يَخْطُبُكُمْ سُلَيْمَنُ وَخُذُوهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فهل كان هذا الإدراك خاصاً بهذه النملة، أم أنه إدراك عام يشترك فيه جميع أفراد نوعها وجنسها من النمل؟.

• التسبيح بحمد الله:

لقد أثبتت النصوص القرآنية الكريمة أنَّ جميع المخلوقات تسبِّح بحمدٍ خالقها وتمجده، ولكنَّ الإنسان محجوبٌ عن سماع هذا التسبيح والتمجيد، كي يكون إيمان المؤمنين من الناس إيماناً بالغيب، قائماً على تصديق الخبر الصادق، الذي جاء به الرسل والأنبياء ﷺ، قال تعالى: ﴿نُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر ربنا سبحانه في القرآن الكريم أنَّ للطيور صلاتها الخاصة بها إلى جانب تسبيحها وتمجيدها لخالقها العظيم ﷻ، فقال جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَطْيَارُ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وجاء في كثير من الأحاديث الصحيحة: أنَّ بعضَ الجمادات من أحجار وجمال وأشجارٍ كانت تسلِّمُ على رسولِ الله ﷺ، فعن عليٍّ رضي الله عنه قال: «كنتُ مع رسولِ الله ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجرٌ ولا جبلٌ إلا وهو يقول: السلامُ عليك يا رسول الله» [رواه الترمذي (٣٦٢٦)].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بمكة حجراً كان يسلمُ عليَّ ليالي بُعِثْتُ، إني لأعرفه الآن» [رواه مسلم (٢٢٧٧)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان يَخْطُبُ إلى جذع، فلمَّا اتخذَ المنبرَ، فحنَّ الجذعُ، فأثاء فاحتضنه فسكَنَ، فقال: «لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [أخرجه الترمذي (٣٦٢٧) وابن ماجه (١٤١٥) وله طرق كثيرة عن عدد كبير من الصحابة].

كل ذلك يؤكد لنا أنَّ إدراك هدهد سليمان أنَّ الله وحده سبحانه الذي

يستحق أن يُعبد، وإنكاره على عُبَادِ الشمس مِنْ دُونِ اللَّهِ، ليس إدراكاً خاصاً به، بل يجوزُ أن تشاركه فيه جميعُ الهدهد والطيَر والحيوان، إنها تعرف بالفطرة التي خلقها الله فيها أَنَّ لها خالقاً ورازقاً تتجه إليه بفطرتها، مَسْبُحَةً وممجدة بحمده سبحانه، اقرأ جواب موسى ﷺ لفرعون عندما سأل موسى قائلاً: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴿طه﴾.

وهذه الفطرة هي نفسُ الفطرة التي خلق الله سبحانه الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

لأنهم ينحرفون عن أصل الفطرة التي خُلِقوا عليها بسبب الاختيار والكسب الذي جعله الله في الإنسان ليكون مخلوقاً مكلفاً ومسؤولاً، فكان بهذا الانحراف عن أصل الفطرة وعبادته لغير الله سبحانه إنساناً ظلوماً جهولاً: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]^(١).

• الكتاب الكريم:

وعندما سمع سليمان ﷺ كلام الهدهد وما فيه من التعريض بقصور علم سليمان ومحدوديته مع أنه نبي وملك: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ لم ينزعج من هذا التعريض، ولم يجعله يغضب على الهدهد شأن المعجبين بعلمهم، المغرورين بسلطانهم وملكهم، فهو نبيٌّ موصولُ القلب بالله سبحانه، يعلم أَنَّ الله سبحانه ألهم الهدهد أن يخاطبه بهذا الخطاب، ابتلاءً منه ﷺ، لتتحاقر عنده نفسه، ويتصاغر لديه علمه أمام مخلوقٍ صغيرٍ من مخلوقات الله سبحانه، أحاط علماً بما لم يحيط به سليمان ﷺ، فلا ينبغي لعالمٍ مهما بلغ علمه أن يعجب به، فثمة

(١) انظر: تفسير سورة الأحزاب، المسمى في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

علوم كثيرة يجهلها، وما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، وكثيراً ما تجد عند بعض الحيوانات علماً لا يوجد مثله عند كثير من الناس.

وما أكثر ما تعلّم الإنسان من ملاحظته للحيوان، وفي آيات الله سبحانه في التنزيل الحكيم شواهد عديدة للاعتبار، اقرأ قصة أول جريمة قتل في الأرض عندما قتل إنسان أخاه الإنسان، وقف متحيراً لا يدري ما يصنع بجسد أخيه المقتول، حتى بعث الله غراباً يبحث في الأرض ليعلمه كيف يصنع: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٠) ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوَلِّقُ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِى سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة].

وكان تعليق سليمان عليه السلام على كلام الهدهد أن قال:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٢٧).

ثم كتب عليه السلام كتاباً، وأمر الهدهد أن يذهب به إلى ملكتهم:

﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨).

لقد كان الكتاب كريماً، كما وصفته الملكة لرجال دولتها عندما جمعتهم لتشاورهم في شأنه:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُ إِلَيْكُمْ كَرِيماً إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢٩) ﴿أَلَا تَعْلَمُوْنَ عَلَى وَثْنَيْنِ مُسْلِمِينَ﴾ (٣١).

ولا شك أن الكتاب كريماً لكرم مرسله، أو لكرم مضمونه، أو لهما معاً:

أما كرم مرسله فواضح؛ فلا بد أن تكون ملكة سبأ قد سمعت عن سليمان وقوته وسعة مملكته، ولهذا لما تحدثت عن مرسل الكتاب قالت: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ ولم تزد أكثر من ذلك في التعريف بمرسله، وهذا دليل على أن سليمان

ﷺ كان معروفاً عندها وعند قادتها ووزرائها ومستشاريها، إلا أن معرفتهم له أنه ملك فقط، وما كانوا يعلمون شيئاً عن أمر نبوته ورسالته ودعوته إلى عبادة الله وحده والخضوع لدينه وشرعه.

وأما كرم مضمون الكتاب فقد كان في غاية الوجازة، مع كمال الدلالة على المقصود، لتضمنه معاني كثيرة في ألفاظ قليلة، ولاشماله على البسمة الدالة على الخالق العظيم سبحانه وعلى صفاته، كما أن فيه أيضاً النهي عن الترفع والتكبر، الذي يصرف الإنسان عن معرفة الحقيقة والانقياد لها، والأمر بالإسلام والاستسلام لله رب العالمين، إنها دعوة النبوة وأكرم بها من دعوة، لا دعوة الملك والسلطنة والسيطرة.

• الهدية الرشوة:

استشارت الملكة رجال دولتها في أمر كتاب سليمان ﷺ :

﴿قَالَتْ يَتَايَأُ آلَ الْمَلِكِ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ۖ﴾ (٣٢)

وبعد أن سمعت رأيهم وقولهم:

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّ شَيْءٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۖ﴾ (٣٣)

قررت أن ترسل إلى سليمان هدية ثمينة:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآهَ أَهْلَهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۚ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۖ﴾ (٣٤)

وظهر في قرارها دهاء المرأة وكيدها واحتياها، فقد أرادت أن تحقق بهذه الهدية عدّة مآرب: فيها تتعرف على مدى صدق سليمان في دعوته إلى عبادة الواحد الأحد الرحمن الرحيم، كما أرادت أن تصانعه وتداهنه وتشتري بهذه

الهدية مودته وصداقته، وتبعد خطره عن مملكته وبلادها، فقد سبق أن: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]. ولكن كيدها لم ينجح، ومكرها لم يفلح، فقد رجع رسلها بهديتها خائبين، وهم يحملون مع الهدية تهديد سليمان ووعيده:

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَتَجْعَلُ الْيَوْمَ لَنَا بُيُوتَهُمْ بِجُودٍ لَا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُفْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

إنها إذن دعوة النبوة المنزهة عن كل أغراض الدنيا، المستعلية على أموال الأرض وكنوزها، المبرأة من شهوات النفس وميولها، المخلصة والخالصة لله سبحانه، فلا دور للمال في مجال النبوة، ولا عمل له معها، ولهذا قال نبي الله سليمان لرسول الملكة ومن معه من حاملي الهدية: ﴿أُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

فالذين يفرحون بالهدية هم طلاب الدنيا وعبيد الدرهم والدينار، أولئك الذين ينشغلون بالنعمة عن المنعم، أما الأنبياء ﷺ ومن سار على طريقهم، واقتفى آثارهم، فقلوبهم متعلقة بالمنعم، بالله سبحانه؛ وإذا وصلتهم نعمة منه سبحانه كان فرحهم بالمنعم لا بالنعمة، وجعلوا من النعمة وسيلةً يتقربون بها إلى الله سبحانه عبادةً وشكرًا.

وقد يقال: أليس من شأن الأنبياء أن يقبلوا الهدية؟ فقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقبل الهدية ويكافئ عليها.

وأقول: الأنبياء ﷺ يقبلون الهدايا إذا كانت هدايا، أما إذا كانت رشاوى، فهم صلوات الله وسلامه عليهم أبعد الناس عنها، وأطهر الناس منها، وكان نبينا ﷺ يقبل الهدية، ويأكل منها، ويكافئ عليها، كما ذكرت عائشة رضي الله عنها فقد قالت: كان رسول الله ﷺ يَقْبَلُ الهدية، ويثيبُ عليها. [رواه البخاري (٢٥٢٨)].

وكان ﷺ يقول: «تهادُوا، إِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ» [رواه الترمذي (٢١٣٠)] وقوله: «وحر الصدر» أي: غشه ووساوسه.

ولكنه ﷺ في الوقت نفسه كان يحذّر من الرشوة التي تسمّى زوراً وكذباً هدية ويقول: «خُذُوا الْعَطَاءَ مَا دَامَ عَطَاءً، فَإِذَا صَارَ رَشْوَةً عَلَى الدِّينِ فَلَا تَأْخُذُوهُ» [رواه الطبراني من حديث معاذٍ رضي الله عنه].

وكان رسول الله ﷺ يرى أيضاً أَنَّ الهدايا التي تقدّم لأصحاب المراتب والمناصب من أجل ما هُمْ فيه من الرتبة والمنصب رشاً، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «هَدَايَا الْعُمَمَالِ غُلُولٌ» [رواه أحمد في المسند (٤٢٥/٥)].

ولَمَّا استعمل النبي ﷺ رجلاً ليجمع مال الصدقة، وجاء الرجلُ بالمالِ، فدفعه إلى النبي ﷺ فقال: هذا لكم، وهذا أُهْدِي لي، قام رسولُ الله ﷺ على المنبرِ، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بالُ عاملٍ أبعثُهُ فيقولُ: هذا لَكُمْ، وهذا أُهْدِي لِي ! أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ، أَوْ فِي بَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى يَنْظَرَ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَنَالُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى عُنُقِهِ، بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةٌ لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةٌ تَيْعَرُ (تصيح)» ثم رفع يديه حتى رأينا عَفْرَتِي إِبْطِيه (بياض إبطيه) ثم قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ» مرتين. [رواه البخاري (٧١٩٧) ومسلم (١٨٣٢)].

● عرش بلقيس:

لما رأت الملكة بلقيس هداياها تعودُ إليها، وسمعت تهديدَ سليمان ووعيده، عرفت أنها لا طاقة لها بمحاربته، ولا قوة لها على مدافعته، فقوتها على شدتها وبأسها لا تكافئ قوته، فقررت أن تذهب إليه كما أمرها طائفة صاغرة.

وأراد سليمان عليه السلام أن يظهر لملكة سبأ ما سَخَّرَ الله سبحانه له من القوى، وما وهب له من الملك، لتعلم صدق دعوته، وصحة نبوته، فتسلم لله تعالى، وتدخل في دينه، فجمع كبار رجال مملكته وقادة جنده ووزاء وقال لهم:

﴿قَالَ بَنَّايَا الْمَلَأُوا لَكُمْ بِعَرْشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُ مُسْلِمِينَ﴾ (٣٨) قَالَ عَفْرِيْتُ مَنْ لَجِنَ أَنَا وَإِنَّا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ .

وكلمة (عفريت) تعني الذي يغلب مَنْ يصارعه، ويعفّره بالتراب، أي: يمرغه بالتراب، فهي لا تختصّ بالجن، ولهذا بيّن القرآن الكريم أنه عفریت من الجن .
وقوله: ﴿أَنَا وَإِنَّا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي: قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. وكان سليمان عليه السلام يجلس لتدبير شؤون مملكته إلى نصف النهار. ويبدو أن سليمان عليه السلام أستبطأ إتيان العرش بهذه المدة التي عرضها عفریت الجن، وعندئذ:

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا وَإِنَّا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ﴾ (٤٠) .

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا وَإِنَّا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ والمعنى: أنك ترسلُ نظرك نحو شيءٍ فقبل أن تردّه إليك أحضر عرشها بين يديك .
وهذا غاية في السرعة، لأن ردّ الطرف مثل لمح البصر في السرعة، ولهذا أخبر الله سبحانه عن إتيان العرش بعد انتهاء كلامه مباشرة دون أن يكون ثمة أدنى فاصل زمني، فقال تعالى بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ﴾ .

تُرى مَنْ هذا الذي عنده علم من الكتاب، والذي أقدره الله سبحانه على هذا الأمر الخارق المعجز؟ .

لم تكشف الآيات هويته، ولم تذكر اسمه، إلا أنّ الآيات دلّت على أنه من حاشية سليمان عليه السلام، فهو من الملأ الذين خاطبهم سليمان عندما قال: ﴿يَتَأْتِيَا

أَلَمَلُوا أَتَكُمْ يَأْتِيَنِ عَرْشَهَا ﴿النمل: ٣٨﴾، وكان فيهم من الإنس والجن والطير كما سبق بيانه في الحديث عن جنود سليمان، وهو حتماً ليس من الجن، لأنه لو كان منهم لبيته الآيات، كما بينت حال العفريت، كما أن وصف الله سبحانه له بأنه عنده علم من الكتاب يخرج من دائرة الطير، فلا بدّ إذن أن يكون من الإنس.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه سليمان نفسه، وجاء وصف الله سبحانه له: ﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ للدلالة على شرف العلم، ويقول أصحاب هذا الرأي: إن صيغة الخطاب في قوله: ﴿أَنَا إِلَٰهُكَ﴾ لا ترده، لأنه من كلام سليمان للعفريت، لكنه قول لا يخلو من تكلف، لأن سياق الآيات يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب غير سليمان ﷺ، إنه كما قال سيد قطب رحمه الله: «رجل مؤمن على اتصال بالله، موهوب سرّاً من الله؛ يستمد منه القوة الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد»^(١).

• الخصوصية لا تقتضي الأفضلية:

ولا يقال: كيف يخلق الله سبحانه هذا الخارق الكبير المعجز على يد رجل من حاشية سليمان ﷺ ولا يخلقه على يد سليمان نفسه؟!.

لأننا نقول: الخصوصية لا تقتضي الأفضلية، فالله سبحانه يخص من يشاء بما يشاء ولما يشاء قال ﷻ: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثم إن خلق هذا الأمر المعجز الخارق على يد رجل من حاشية سليمان، أجراه الله وخلقه من أجل سليمان وبطلب منه، فهو وإن كان كرامة لهذا الرجل فهو في الحقيقة معجزة للنبي سليمان ﷺ، ولهذا لما حدثت المعجزة ورأى العرش مستقراً عنده قال ﷻ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌ كَرِيمٌ﴾ وهذا دليل على أن سليمان ﷺ عرف أنه هو المقصود بهذه المعجزة الكبرى والنعمة العظمى، فانتفض قلبه أمام عظمة

المنعم الذي تفضّل عليه بهذه النعمة، واهتزت مشاعره وهو يستشعر أن النعمة على هذا النحو المعجز ابتلاء كبير ومخيف، ويحتاج إلى الإقرار بفضل المنعم وبشكره على ما أنعم حتى يستطيع اجتياز الابتلاء بنجاح.

● فلما رآه مستقراً عنده:

لقد أثبت العلم الحديث إمكانية تحويل الأجسام المادية إلى قوة و طاقة إشعاعية، وذلك بتفتيت ذراتها، كما أثبت أيضاً إمكانية إعادتها إلى حالتها المادية السابقة، فهل تمّ نقل عرش بلقيس بهذه الوسيلة؟! وهل تمّ تحويل العرش بقدرة الله تعالى إلى طاقة إشعاعية بتفتيت ذراته، ونُقل بسرعة الضوء التي تبلغ (١٨٠) ألف ميل في الثانية، ثم أُعيد إلى صورته المادية المحسوسة؟ وهل كلمة (مستقراً) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ﴾ تشير إلى ذلك؟.

لقد رأى بعض المفسرين القدامى أن كلمة (مستقراً) زائدة واجبة الحذف عند النحاة يغني عنها كلمة (عنده)، ولهذا فسروا معنى كلمة (مستقراً) بكلمة: حاصلًا، أو بكلمة: ساكنًا غير متحرك^(١).

وعلى كلٍّ لا نستطيع الجزم بالطريقة التي تمّ بها إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في زمن يسير أقل من زمن ارتداد الطرف، ولا يسعنا إلا أن نقول: إنه أمر معجز خارق للعادة، أجراه الله تبارك وتعالى الذي: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وإن ما يتوصل إليه الإنسان من الحقائق العلمية يجعلنا نزداد يقيناً بصدق آيات الله، ومرة أخرى أذكّر القارئ بقول الله سبحانه في آخر سورة النمل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٣).

● تنكير العرش:

وأراد سليمان ﷺ أن يختبر ذكاء الملكة بعد إحضار عرشها، فأمر بتغيير معالم العرش ليرى مدى فراستها وفطنتها:

(١) انظر: حاشية الشهاب على البضاوي.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤١).

ولا شك أن رؤية الملكة لعرشها عند سليمان مفاجأة ضخمة لها، لا تخطر على بالها، فعرشها في قصرها في عاصمة ملكها، وعليه أقالها وحراسها، فكيف جاء به؟! ومن الذي جاء به؟! ولكنه عرشها رغم التغير والتنكير!.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ (٤٢).

وكان جوابها لما عرض عليها العرش وسئلت: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ دليلاً على شدة ذكائها، وسرعة بديحتها، وقوة فراستها؛ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولم تقل: هو، لاحتمال أن يكون مثله لا عينه، فأنت بكلمة (كأن) التي تدل على غلبة الظن لجواز أن يكون عرشها، مع قيام الشك في أن يكون عرشاً آخر غير عرشها، ثم بينت أنها عرفت صحة نبوة سليمان قبل معجزة إحضار العرش فقالت: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

ولكن الذي صدها عن الإسلام وقبولها دعوة سليمان ﷺ في أول الأمر، عبادتها لغير الله سبحانه، أو كونها نشأت بين قوم كافرين:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٤٣).

• خضوع وانقياد:

ومعرفة المعجزة والعلم بصدق النبي لا يكفي للإيمان، فلا بدَّ مع المعرفة والعلم من الإذعان والخضوع والانقياد لله تبارك وتعالى، والمظهر العلمي للإذعان والخضوع لله سبحانه عبادته وحده، والانقياد لأمره وشرعه، ولهذا أعدَّ سليمان ﷺ مفاجأة أخرى للملكة تحملها على الانقياد والخضوع والاستسلام، فأمر ببناء قصر من زجاج، وأجرى الماء تحته، بحيث يظهر للرائي كأنه لجة، ودعا الملكة إلى هذا القصر:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٤﴾ .

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ﴾ ، عندها أعلنت إسلامها وإيمانها واستسلامها المطلق لله سبحانه، وتصديقها بنبوّة سليمان ﷺ ، كما أقرت بأنها ظالمة لنفسها بسبب كفرها :
 ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهكذا كان إسلامها وخضوعها لله رب العالمين لا لسليمان ﷺ ، وقد جعلها إسلامها لله وخضوعها له في صف واحد مع سليمان ، فالإسلام يجعل المغلوبين في صف الغالبين حتى يصبح الغالب والمغلوب أخوين في الله ، متساويين أمام شرع الله رب العالمين .

آمنت ملكة سبأ ، وأسلمت لله سبحانه بعد أن أراها سليمان ﷺ بعض ما آتاه الله سبحانه من البينات الواضحات ، والدلائل القاطعات ، التي تدل على صدق نبوته ، وصحة رسالته ، فظهر بذلك أنها كانت تريد الحق وتنقاد له ، مع ما كانت عليه من أبهة الملوك وقوة السلطان .



الْفَصْلُ الرَّابِعُ
الْحَقُّ وَالْإِنْسَانُ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَحَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِالْأَيِّتَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعُوا بَنِيكُمْ وَمِمَّنْ مَعَكُمْ قَالَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ عِندَ اللَّهِ نَلَّ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَيْتٌ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُّكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَخْيَسْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُورُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُم مِّنْ ذُنُوبٍ أَلَّا تَأْتُوا الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَتْ حَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْبَيْنَهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَّرَهَا مِنَ الْغَدِيرِ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ حَيٌّ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

والانقياد للحق والإذعان له بعد معرفته من السمات الطيبة والخصال المحمودة التي لا يتصف بها إلا الصفوة الممتازة من الناس، ولهذا ترى أكثر الناس كافرين كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وذلك لأنهم لا ينقادون للحق، ولا يقبلون به، على الرغم من وضوح دلائله، وظهور معالمه، فمعرفة الحق ليست مشكلة الإنسان، فالحق واضح ظاهر في كل زمان ومكان، ولكن المشكلة الكبرى للإنسان أنه يضعف أمام أهواء نفسه وشهواته، فينقاد لها، ويستسلم لأمرها، ويعرض عن الحق، ويصد عنه:

إما عناداً وتكبراً وتجبراً، كما هو حال ثمود قوم صالح الذين أراهم الله الآية الواضحة المبصرة، فلم ينقادوا للحق، بل ازدادوا عتواً وتكبراً، وقتلوا الناقة المعجزة، ثم ائتمروا بنبي الله صالح وحاولوا قتله، ولكن الله ﷻ أبطل مكرمهم وأحبط كيدهم وأهلكهم بصيحة واحدة، كما أخبر سبحانه في سورة النمل فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِمَ يُعْبَدُونَ بِأَلْسِنَتِهِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ قَالُوا أَطِيعُوا بَكَّ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَاعْتَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨﴾ قَالُوا نَقَاسِمُوكَ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّكَ وَأَهْلَكَ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّكَ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥٢﴾ وَأَنبِئْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُ ٥٣﴾ .

وإما ينصرفون عن الحق بسبب استيلاء الشهوة على قلوبهم، وسيطرتها على نفوسهم، فلا يبصرون إلا من منظر الشهوة التي أعمت أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحق ومعرفة الحقيقة، فكيف ينقادون للحق وقد سيطرت عليهم شهواتهم، وغلبت على قلوبهم أهواؤهم ونزواتهم! وإذا ما ذكَّروهم نبيهم بالحق، ودعاهم إلى الإذعان له، وقبَّح لهم حالهم، وقال لهم كما كان نبي الله لوط عليه السلام يقول لقومه الذين غلبت على قلوبهم شهواتهم وأهواؤهم:

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ٥٤﴾ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُولٍ ٥٥﴾ .

فكان جوابهم كما قال الله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْظَهُرُونَ﴾ (٥٦).

• اختلال القيم وانعكاس الموازين:

لقد اختلت القيم عندهم، وانعكست الموازين الأخلاقية لديهم، حتى أصبح الشذوذ عن الفطرة أصلاً عندهم، وقيمة أخلاقية شائعة بينهم، وأصبح المتمسكون بأصل الفطرة أناساً منبوذين ومحتقرين ومطاردين في مثل هذا المجتمع الفاسد، فكانت النتيجة أن أهلكهم الله سبحانه بعد أن نجى لوطاً والقلّة القليلة المؤمنة:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَايِرِ﴾ (٥٧) ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ (٥٨).

• وأمطرت أحجاراً:

ولا تحسبنّ المطر الذي أهلكهم الله به مطراً معهوداً، بل كان مطراً من حجارة يتناسب مع الحالة الشاذة غير المعهودة، ومع القلوب القاسية المنتكسة إلى درك الشهوات الشاذة، ولقد أخطأ سيد قطب رحمه الله في فهم هذه الآية عندما رأى أنّ المراد منها هو المطر المعهود، فقد وصف ﷺ هذا المطر في عدة مواضع في كتابه الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْهُودٍ﴾ (٨٢) ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ (٨٣) [هود]. ومنها قوله تعالى أيضاً: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وحاشا لكلام الله أن يتعارض أو يختلف.

• الصالحون في الناس قليل:

كان قوم صالح وقوم لوط المثل الفاسد للذين لا ينقادون للحق،

ولا يذعنون له، بينما كانت ملكة سبأ المثل الصالح الطيب للإنسان الذي يقبل بالحق، ويذعن له، عندما يستبين له، ويتعرف عليه، ومثال هذا الإنسان كان فرداً واحداً هو هذه المرأة الملكة التي أوتيت من كل شيء من أسباب الملك والسلطان وذات العرش العظيم، بينما جاء مثال الإنسان الذي لا يرضى بالحق ولا يذعن له في أمتين كبيرتين من الأمم التي بلغت الغاية في العناد والفساد.

وبهذا بين الله لنا أنَّ الذين يرضون بالحق وينقادون له في الناس قليل، بل وقليل جداً، وهذا هو الواقع المشاهد بين الناس في كل زمان ومكان، وخاصة في العصور المتأخرة القريبة من يوم القيامة عندما تغلب الأمم المفسدة، وصدق رسول الله ﷺ الذي قال: «يقول الله ﷻ: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، قال: يقول: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ. قال: وما بَعَثَ النَّارِ؟ قال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ. قال: فذاك حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ...» [رواه البخاري (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢)].

وجاء في حديث آخر أنه ﷺ قال: «ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثورٍ أسود، أو كشعرة سوداء في ثورٍ أبيض» [رواه مسلم (٢٢٢)]. وصدق الله سبحانه: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

• حمد وسلام:

فالحمد لله الذي يهلك المعاندين المستكبرين والمفسدين مع كثرتهم، وسلام على عباده المصطفين الأخيار، الذين ينقادون للحق، ويذعنون له عندما يبصرون أعلامه، وتشرق عليهم أنواره:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ ذكر جمهور المفسرين أنَّ

المراد من قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَىٰ عِبَادِي الَّذِينَ أَصْطَفَيْتَ﴾ الرسل والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام.

وذهب بعضهم إلى أن المراد منهم أصحاب محمد ﷺ، وقد أخرج ابن أبي شيبه والبخاري وابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه. وقد ذهب إلى هذا الرأي، لأنه يتناسب مع موضوع السورة أكثر من الرأي الأول، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

فأصحاب محمد ﷺ هم الصفوة الممتازة من البشر بعد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، الذين صدّقوا برسالة الإسلام، وآمنوا بالنبى عليه الصلاة والسلام، ولم يروا عصا موسى التي تتحوّل بإذن الله إلى ثعبان، ولا ناقة صالح التي كانت أوضح برهان، ولا نار إبراهيم التي جعلها الله سبحانه برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، سمعوا فقط آيات التنزيل الحكيم يتلوها النبى الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فاقشعرت من عظمتها جلودهم، ثم لانت لها نفوسهم، وذلت وخضعت قلوبهم: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كُنَّا مُتَشَدِّدًا مَتَانِي نَفْسُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

أولئك هم الصديقون الذين بادروا إلى التصديق برسالة الإسلام عندما قرعت أسماعهم وقلوبهم آيات القرآن الكريم والتنزيل الحكيم، فاكتفوا بها عن كل معجزة لأنهم رأوها أعظم معجزة وأكبر بينة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فلم يسألوا رسولهم ﷺ معجزة ثانية بعد أن سمعوا القرآن الكريم، كما فعل من كان من قبلهم من أتباع الأنبياء السابقين: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

وكلما أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ آية أو سورة ازدادوا إيماناً مع إيمانهم وتصديقاً مع تصديقهم: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ

إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿التوبة﴾.

• الصَّدِيقُ الْأَوَّلُ:

وكان الصَّدِيقُ الْأَوَّلُ فيهم أبا بكر رضي الله عنه، لأنه كان أسرعهم، وأكثرهم تصديقاً، كما قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر، فإنَّ له عندنا يداً يكافيه الله تعالى بها يومُ القيامة. وما نفعتني مالٌ أحدٍ قط ما نفعتني مالٌ أبي بكر، وما عرضتُ الإسلامَ على أحدٍ إلا كانت له كِبُوَّةٌ إلا أبا بكر، فإنَّه لم يتلعتُم (يتردد)، ولو كنتُ متخذاً خليلاً لا تأخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإنَّ صاحبكم خليلُ الله تعالى» [رواه الترمذي (٣٦٦٢)].

فالحمد لله سبحانه الذي أنزل القرآن، وسلام على عباده الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، الذين بادروا إلى الإيمان بالقرآن، ورأوا به أعظم برهان، وأكمل بيان، سلام عليهم من السلام الذي شرفهم بالإسلام، ويدخلهم يوم القيامة برحمته وفضله دار السلام، اللهم اجعلنا من التابعين لهم بإحسان.

ختم الله سبحانه آية الثناء على ذاته المقدسة والسلام على عباده المصطفين الأخيار بالحديث عن المشركين الأشرار، فقال جلَّ شأنه:

﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهامٌ جمع الله سبحانه فيه بين التقرير والاستنكار، قرر الله فيه أنه سبحانه وحده المعبود بحق، لأنه سبحانه مبدأ كل خير ومصدره، واستنكر أن يكون له سبحانه شريك، وتهكَّم بحال المشركين لأنهم أشركوا معه سبحانه غيره.



الْفَضِيلُ الْخَامِسُ

العالمُ المُشاهدُ المنظورُ في الآياتِ الخمسِ

● الآيات الخمس:

بعد هذا الاستفهام المعجز الذي بلغ الغاية في الإيجاز والإعجاز ذكر الله سبحانه في سورة النمل خمس آيات كريمات جاءت متسقة ومتفقة مع ما سبقها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، وهذه الآيات هي :

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلَّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٥﴾﴾ .

والمتمأمل لهذه الآيات يجدها متفقة بطبيعة موضوعاتها، فكلُّها تعرض بعض الأدلة والبراهين الدالة على وحدانية الله سبحانه، وأنه وحده الخالق والمدير لشؤون الخلق، فلا يستحق العبادة سواه، كما تذكّر الإنسان ببعض المظاهر التي تدل على عظيم قدرته سبحانه وبديع صنعته، وباهر حكمته، وتبيّن في الوقت نفسه فضل الله سبحانه على الإنسان بذكر بعض ما منَّ عليه من جلائل النعم.

كما أنَّ هذه الآيات الخمس تتفق بأسلوب العرض، فقد استعملت كلها أسلوب الاستفهام التقريري المنسجم مع ما سبقها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وفي هذا الأسلوب ما فيه من تأكيد للحقيقة وجزم بها، وقد استعملت الآيات كلها أداة استفهام واحدة ﴿أَمَّنْ﴾ كأنها تشير بذلك إلى هدفها الواحد المشترك، وهو تقرير وحدة الخالق سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكُونَ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوِيٍّ وَالْبَحْرِ﴾ ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

وجاء في الآيات كلها الاستفهام الإنكاري ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ؟﴾ ليربط الآيات كلها بموضوعها الأساس الواحد، وهو تقرير أنَّ الإله واحد، وليربطها جميعاً مع ما سبقها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقد أعطى كل ذلك الآيات الخمس إيقاعاً وجرساً خاصاً في الأذان والقلوب.

• تقرير وبرهان:

ويلاحظ المتدبرُّ لخواتيم هذه الآيات الخمس أنها ختمت بتراكيب وجمل مختلفة في مبانيها وألفاظها: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إلا أنها جميعها متفقة مع الموضوع الأساس للآيات، وهو موضوع التوحيد، كما أنَّ هذه النهايات منسجمة فيما بينها انسجاماً رائعاً معجزاً، فكل آية ختمت بخاتمة بحيث تكون تقريراً وبرهاناً لخاتمة الآية التي قبلها، فقد جاء قوله تعالى في خاتمة الآية الأولى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ ببيان سبب شرك المشركين الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فإذا ما سأل أحد: لماذا أشرك المشركون؟

كان الجواب: لأنهم قوم يعدلون عن عبادة الله سبحانه إلى عبادة غيره، أو لأنهم يعدلون مع الله سبحانه غيره من المخلوقات، بوصفها بصفة من صفات الله

لا يتصف بها أحد غيره، أو بأن ينسبوا إلى هذه المخلوقات بعض الأفعال التي لا يقدر عليها إلا الله .

ولماذا يعدلون عن عبادة الله أو يعدلون مع الله غيره؟ .

الجواب في خاتمة الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ تأمل دقة التعبير القرآني ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لأنَّ بعضَهُم قد يضلُّ عن علم، ويكفر جحوداً واستكباراً .

ولماذا لا يعلمون حقائق التوحيد، وأدلته وبراهينه كثيرة وواضحة وقريبة؟! .

الجواب في خاتمة الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿فَلَيْلًا نَذْكُرُونَ﴾، فالقوم لم يستعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم التي تمكنهم من معرفة وحدانية الخالق سبحانه، ولهذا لم يتذكروا .

• هاتوا برهانكم:

إن جهل الإنسان بوحدانية الخالق سبحانه ليس عذراً مقبولاً يوم القيامة يخلّصه من مسؤوليته أمام ربه وخالقه عن شركه وكفره به، لأنه سبحانه أعطى كل إنسان مكلف وسائل التمكين التي تمكنه من معرفة وحدانية خالقه ورازقه، وهي: العقل، والسمع، والبصر، التي كثيراً ما ذُكرت في آيات القرآن الكريم مجتمعة في معرض امتنان الله على الإنسان بها، فتعطيل الإنسان لهذه الوسائل، وعدم تفكيره ونظره فيما حوله من أدلة كثيرة وقريبة تبين له وحدانية خالقه سبحانه، يجعله مسؤولاً يوم القيامة عن شركه وكفره .

إنك تجد عند أكثر المشركين قناعة كاملة بصحة العقائد الفاسدة الضالة التي يؤمنون بها، ولقد تكوّنت هذه القناعة لديهم نتيجة تأثرهم الطويل بالبيئة الفاسدة المحيطة بهم أو بنوعية الثقافات المنحرفة التي تقدّم لهم، وهذه القناعة تقف حاجزاً يحجزهم عن عقيدة التوحيد الحقّة، وعن الإسلام والاستسلام لله سبحانه وحده، ولو أنّهم أعملوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولو شيئاً قليلاً، لعرفوا فساد ما هم عليه من عقائد متعارضة ومتناقضة فيما بينهم وغير متفقة مع بدهيات العقل ونوازع

الفطرة السليمة التي فطرهم الله سبحانه عليها، فلا عذر لهم بجهلهم الناتج عن قصورهم في استعمال عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، لا عذر لهم وقد قصرُوا استعمالَ مواهبهم وملكاتهم الفكرية على تحقيق مطالبهم الجسدية، فانصرفوا بذلك عن أعظم الحقائق وأهمها التي تتصل بوجودهم ومصيرهم، وصدق الله سبحانه القائل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قد يُعَذَّرُ الإنسان الذي يعيش في بلد كافر بجهله ببعض فروع الشريعة حتى يتعلمها، أو تُتاح له فرصة تعلمها بانتقاله إلى بلد مسلم، أما جهله بأصل العقيدة القائمة على توحيد الخالق، فلا يعذر الإنسان به ما دام يملك أهلية التفكير والنظر ومعرفة الحقيقة.

فالخالق واحد أحد، وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة والخضوع والإذعان، ويتنزه عن كل مظاهر الشرك مهما كان لونها أو شكلها، ولهذا خُتِمت الآية الرابعة بقوله جلَّ شأنه: ﴿تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]. وليس ثمة أدنى دليل يسندُ عقائد الشرك والكفر بالله وحده، الأدلة العلمية والبراهين القطعية تشهدُ كُلُّها للتوحيد، وهي تتحدَّى المشركين في كل زمان ومكان، وتقول لهم كما جاء في خاتمة الآية الخامسة: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

ونجد هذا الإحكام المعجز والتناسق الباهر أيضاً بين كلمات وجمل الآية الواحدة، فلو تأملنا كل آية على حدة لوجدنا فيها إحكاماً مدهشاً، واتساقاً كاملاً بين صدرها وذيلها، ففي الآية الأولى [٦٠] عرض الله سبحانه بعض الأدلة الدالة على وجوده ووحدانيته، فهو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء، فأنبث به حدائق ذات بهجة، وعدل بقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ من الغيبة إلى التكلم ليؤكد اختصاص الفعل به سبحانه، فلا يقدر عليه غيره، ﴿مَا كَانَتْ لَكُمُ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ فكيف تشركون مع الله إلهاً آخر ﴿أَلَمْ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ؟!﴾.

ومع وضوح هذه الأدلة وقوتها فالقوم يعدلون مع الله غيره، فيعبدون غيره

سبحانه، ويجعلون له شريكاً بوصفه بصفة من صفات الله التي لا يتصف بها أحد غير الله، أو ينسبون له فعلاً من أفعال الله التي لا يقدر عليها غيره سبحانه، لأنه وحده الخالق والمدبر.

• الأرض والإنسان:

وبَيَّنَّ الله سبحانه في الآية الثانية [٦١] بعض الأدلة الأرضية القريبة من الإنسان والتي تتوقف على وجودها حياة الإنسان واستمرارها على الأرض، فهو سبحانه الذي جعل الأرض قراراً ليتمكن الإنسان من العيش عليها، فجعلها مكاناً صالحاً لاستقرار الإنسان، ولقد سَبَّرَ الإنسان في العصر الحاضر أحوال كثير من الأجرام والنجوم القريبة من الأرض والبعيدة عنها بواسطة المركبات الفضائية والأقمار الصناعية وما اكتشف من آلات حديثة، فعرف نتيجة ذلك استحالة حياته على غير الأرض، بسبب عدم توفر أدنى أسباب الحياة الإنسانية في هذه النجوم والأجرام، فبعضها لا يزال كتلةً ناريةً ملتهبة، وبعضها الآخر يسير في فضاء لا هواء فيه ولا ماء، وبعضها تغلفه وتحيط به أطواق الجليد وجبال البرد، وبعضها لا يزال رتقاً لا تمطر سماؤه، ولا تنبت أرضه.

وهذه المعرفة جعلت الإنسان يتمسك بجرم الأرض أكثر من ذي قبل، ويدرك شدة حاجته إليها، واستحالة عيشه على غيرها، وظهر بذلك عمق معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

كما ظهرت حكمة تكرار هذا المعنى في آيات كثيرة في معرض بيان فضل الله على الإنسان كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله أيضاً: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

[الأعراف: ١٠].

مرة أخرى أذكر القارئ الكريم بقوله تعالى آخر سورة النمل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

سَيُكْرِمُهُ إِنِّيهِ فَعَرَفُونَهَا وَمَا رَأَيْكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

● حاجز بين البحرين:

كما بيّن الله تعالى في هذه الآية [٦١] أنه جعل في الأرض الأنهار الموزعة في جنباتها ونواحيها، وهي تحمل للإنسان ما تحمل من أسباب الخير والخصب والحياة.

وأشارت الآية بعد ذلك إلى ما للجبال الرواسي من دور كبير في توازن الأرض، واستقرارها بجانب الأنهار الجارية المتفجرة من سفوحها.

ثم ذكرت الآية أنّ الله تبارك وتعالى جعل في الأرض بحرين من الماء، وأنه سبحانه بقدرته وحكمته جعل بين هذين البحرين حاجزاً: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾.

والبحران هما: الماء العذب، والماء الملح، لأنه سبحانه قال في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتُسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَبَنًا مِّنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

فما أعظم قدرة الله سبحانه الذي فصل بين الماء العذب في الأنهار، وبين الماء المالح في البحار! - مع أنهما يختلطان ويمتزجان - إذ من المعروف أن معظم الأنهار تصب في البحار، ومع ذلك يبقى ماء الأنهار عذباً فراتاً سائغاً شرابه، ويبقى ماء البحار ملحاً أجاجاً، فلا يطغى ماء الأنهار العذب على ماء البحار الملح، ولا يؤثر أيضاً على نسبة ملوحته مع أنه يختلط به، وكذلك لا تطغى مياه البحار المالحة على المياه العذبة، ولا تؤثر في عذوبتها.

وقد أصبح من الثابت علمياً أن استمرار الحياة على الأرض متوقف على بقاء واستمرار وجود هذا الحاجز الذي أقامه الله سبحانه بين البحرين، فلو فقدت مياه البحر ملوحتها، أو فقدت المياه العذبة عذوبتها، لاختل نظام الحياة

على وجه الأرض، وتعذرت الحياة عليها، فثمة توازن دقيق أقامته القدرة الإلهية في الأرض بين المياه العذبة والمياه المالحة، وجعلته المشيئة الإلهية والحكمة الربانية سبباً من أسباب استمرار الحياة على الأرض وضرورة من ضرورات العيش عليها، وإن أخشى ما يخشاه أنصار المحافظة على البيئة من أخطار التلوث أن يؤدي التلوث الناتج عن سوء استعمال الإنسان المعاصر لما استحدثه من وسائل حديثة إلى اختلال التوازن الدقيق الذي جعله الله سبحانه في الأرض. إن الإنسان لا يرى الحاجز الذي أقامته القدرة الإلهية بين البحرين، ولكنه يحس بوجوده، ويستشعر آثاره في كل قطرة ماء عذبة ومالحة، فما أعظم نعم الله سبحانه على الإنسان؟! وإن هذا البرزخ من أكبر الأدلة الدالة على عظمة الله وكمال قدرته وعلمه وحكمته، كما أنه من أكبر الأدلة الدالة على وحدانيته سبحانه، فلا عجب أن يذكره الله سبحانه في عدة مواضع من التنزيل الحكيم تنوياً بفضل العظيم على الإنسان، ودليلاً من أدلة وجوده سبحانه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْقَاَنِ فِي تَبَعٍ ۚ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمَا نَجْفٌ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرحمن: ٢٠].

• التفكير والتذكر:

وبعد أن ختم الله تعالى الآية الثانية [٦١] بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يبين في الآية الثالثة [٦٢] سبب جهلهم بسبب قلة تذكركم، والتذكر لا يكون إلا بالتفكير، فالقوم لا يتذكرون، لأنهم أعرضوا عن كل شيء يذكرهم بالله سبحانه، فلا يذكرونه إلا إذا استشعروا ضعفهم، واضطربهم البلاء والضعف والافتقار إلى اللجوء إليه سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٦٢].

فعندما يستشعر الإنسان الصحة والقوة والغنى يتعد عن الله، وينسى فضله عليه، ولا يذكره إلا عندما يشعر بضعفه وفقره إليه سبحانه.

وقد واجهنا الله تعالى بهذه الحقيقة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وضرب الأمثلة العلمية لتقريب هذه الحقيقة إلينا، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَيْنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا أَجْنَحَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنِّي أَمْرَجْتُكُمْ فَنَجَّيْتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس].

• أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر:

وذَكَرَ الله الإنسان في الآية الرابعة [٦٣] ببعض حالات البلاء والضعف التي تضطره إلى اللجوء إلى الله سبحانه، كأن يتعرض إلى خطر الضياع في أعماق البحر أو البر، أو يتعرض لخطر الجذب والجوع في حال انقطاع الأمطار: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

وفي هذه الحالات ينسى كثير من الناس فضل الله عليهم في هدايتهم إلى أسباب السلامة والنجاة عندما يضلون في أعماق البر والبحر، فينسبون الهداية إلى غيره ﷺ من مخلوقاته التي خلقها، وينسون فضل الخالق، فبعضهم يرد فضل الهداية إلى النجوم، وبعضهم يردها إلى الآلات المستحدثة، وكل ذلك من مظاهر الشرك بالله سبحانه، الذي خلق النجوم ليهتدي بها الإنسان في البر والبحر، والذي أبدع النواميس والقوانين التي تمكن الإنسان بواسطتها من صنع أسباب وآلات الهداية المختلفة، فالفضل لله سبحانه أولاً وآخراً، كما أن بعضهم ينسى فضل الله عليه بإنزال المطر، فينسب إنزاله إلى الأنواء، وتغير اتجاه الرياح، مع أنه سبحانه هو الذي يصرف الرياح، ويخلق الأنواء، فلا تنزل قطرة ماء إلا بمشيئته وقدرته، ولهذا ختم الله تبارك وتعالى هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وجاء في الحديث القدسي الذي رواه زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء (المطر) كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله

أَعْلَمُ، قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكُوكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرْنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ» [رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١)].

وفي الآية الخامسة [٦٤] يتحدثُ الله تبارك وتعالى المشركين فيطالبهم بدليل واحد يدل على صدقهم في كفرهم وشركهم، بعد أن يذكرهم بأنه سبحانه قادر على بدء الخلق وإعادته مرة ثانية بعد الموت، وأنه سبحانه وحده الذي يرزقهم من السماء والأرض: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

• تنبيه:

وأختم الحديث عن هذه الآيات الخمس بتنبيه القارئ الكريم إلى دقة كلمات الآيات، وشدة تلاؤمها وانسجامها مع معانيها.

فقد خصَّص الله تبارك وتعالى الآية الأولى والثانية للحديث عن خلق الكون وتهيئته لحياة الإنسان، وقد تمَّ الخلق، واكتمل الإعداد، فجاء التعبير عن هذا المعنى في الآيتين بصيغة الفعل الماضي: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾، ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَرَاقًا﴾، ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

بينما جاءت الآيات الثلاث الأخيرة لتتحدث عن فضل الله سبحانه المستمر على الإنسان بإمداده بأسباب استمرار حياته، ووجوده على الأرض، والإمداد كان ولا يزال، ولَمَّا ينقطع بعدُ أو يتوقف، فانقطاعه أو توقفه يؤدي إلى انقطاع وتوقف حياة الإنسان على الأرض، فجاء الحديث عن هذا المعنى المتجدد والمستمر بصيغة توافق حال التجدد والاستمرار، وهي صيغة الفعل المضارع: ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾، ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، ﴿يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَرًا وَالْبَحْرِ﴾، ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾، ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾.

وبدء الخلق وإعادته كان ولا يزال متجدداً ومستمراً في بنية الإنسان الجسدية، وفي عالم النبات المحيط بالإنسان في كل مكان.



الفصل السادس عالم الغيب المستور

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلَدُ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءُ لَمْخْرُجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُوا مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَخَشِرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَوَجًا مِّمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آدَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالشَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَجَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَخِيرٍ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَنْ جَاءَ

ضلَّ علمهم وغاب في الآخرة، فليس لهم فيها علم، لأن معرفة وقت قيام الساعة مما استأثر الله سبحانه به، ولهذا صُدِّرت الآية بحرف الإضراب (بل) ثم صُدِّرت به الجملة الثانية في الآية ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ لتبين تناقضهم وتعارضهم، فهم لا يؤمنون بيوم القيامة، ويشكون في وقوعها، فلماذا يسألون عن وقتها؟! ثم جاءت بحرف الإضراب مرة ثالثة ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ وعمون: جمع عم، وهو مَنْ كان أعمى القلب، والمراد بيان جهلهم بيوم القيامة على وجه لا يهتدون إلى شيء من دلائلها، لانصرافهم التام إلى الاستغراق في شؤون الدنيا، وتحقيق شهواتهم وأهوائهم فيها، كما مر معنا في قوله ﷺ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِثُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ٢٠ وَنَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿[القيامة].

• مكابرة وعناد:

وقد عانى رسول الله ﷺ معاناة شديدة وكبيرة من أجل تقرير قضية البعث والجزاء وتقريبها إلى قلوب الناس وأفكارهم، ليصدقوا بها، ويؤمنوا بحتمية حدوثها ووقوعها، فعندما كان ﷺ يحدثُ المشركين عن يوم القيامة، وما سيكون فيه، ويدعوهم إلى الإيمان به، والإذعان بحقائقه، كان المشركون يزدادون غلظة إلى غلظتهم، وخشونة إلى خشونتهم، فيغلظون للنبي ﷺ القول، ويردون عليه بعناد ومكابرة وخشونة وجفوة، وقد تبلَّدت أحاسيسهم الفكرية، وتسعَّرت أحقادهم النفسية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَيْتًا لَمُخْرَجُونَ﴾ ٦٧ ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٦٨ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٦٩ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ٧٠.

ويطالبون النبي ﷺ أن يأتيهم بهذا الذي يعدهم به:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

وهم غافلون عن فضل الله عليهم بتأخير العقاب عنهم لعل رحمة الله أن تدرکہم فتلين قلوبهم وتنقاد وتدعن الله رب العالمين .

﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنْ رَبُّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ .

● تثبت ومواساة:

وعندما تحدث الآيات الكريمات عن موضوعات يوم القيامة، وتصور عناد المشركين ومكابرتهم، تلتفت الآيات التفاتات رائعة لطيفة ورقيقة بأسلوب معجز مدهش إلى النبي ﷺ، تثبته في وجه عنادهم ومكابرتهم، وتواسيه بسبب ما يلقي منهم:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ .

ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

لقد صُمَّتْ آذانهم عن سماع الحق، وعميت بصائرهم عن إدراك الحقيقة، حتى كان شأنهم شأن الموتى، فكيف يسمعون كلام النبي ﷺ سماع إجابية، وإن ذلك يظهر فضل الذين استجابوا لدعوة رسول الله ﷺ وآمنوا بآيات الله تبارك وتعالى، وانقادوا لدينه وشرعه، فهم بهذا مسلمون، وهم الذين تفضل الله عليهم بالسلام، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩] .

وإنَّ القارئ الكريم للآيات التي تثبت النبي ﷺ وتواسيه لا يستشعر عند قراءتها أي تغير في الموضوع، ولا يظن إلى أي استطراد وخروج عنه، بل إنه على العكس يستشعر عند قراءته لهذه الآيات الكريمات المخصوصات بخطاب النبي ﷺ أنها جزء من الموضوع، وضرورة من ضروراته، وكل ذلك بسبب الأسلوب المعجز المدهش الذي تفرَّد به كلام الله تبارك وتعالى.

• أشراف يوم القيامة:

إنَّ وقت قيام الساعة مما استأثر الله بعلمه، فلم يُطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا، فهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه، والذي ذكره الله في آية سورة النمل التي سبق ذكرها ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [٤٥].

فقد انتهى علم وقت الساعة إلى الله وحده: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [٤٦] ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ [٤٦] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ [٤٦] ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَحْشَاهَا﴾ [النازعات].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [١٦] [الأحزاب].

لكنَّه سبحانه جعل ليوم القيامة ووقت الساعة أشرافاً وعلامات تتقدم عليها كما قال عزَّ شأنه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْثَةٌ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن كثير من علامات الساعة وأشرافها، ووقعت أكثر علاماتها الصغرى تماماً كما أخبر ﷺ، إلا أنَّ علاماتها الكبرى التي تكون بين يدي الساعة وقريباً منها لم يقع شيء منها بعد.

وقد جاء ذكر بعض علامات الساعة الكبرى في القرآن الكريم، تارةً تصريحاً، وتارةً أخرى إشارة وتلمييحاً، وفي سورة النمل جاء ذكر إحدى

علامات الساعة تصريحاً؛ وذلك في سياق الآيات التي تتحدث عن عالم الغيب المستور، قال تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَاهُمُ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

● إغلاق باب التوبة:

إنَّ علامات الساعة الكبرى أحداثٌ كبيرة وعظيمة وخارقة لعادات الناس ونواميس الكون في الحياة الدنيا، لأنها تأتي مقدَّمةً لأعظم الأحداث الكونية وأشدّها هولاً، ألا وهو قيامُ الساعة، فعندما تقوم الساعةُ تتغيَّر النظم والنواميس الكونية كلها، الأرضية والسماوية، فالسماواتُ تتشقق وتطوى، والنجوم تنكدر، وتزول عن مواقعها، والأرض تتغير معالمها، فتُنسف جبالها، وتمتلئ وديانها ووهادها، والشمس تُكوِّر أشعتها، ويزول ضوءها، ومبدأ هذا التغير الكلي لجميع النظم الكونية يكون في حدوث علامات الساعة الكبرى، إنَّ هذه العلامات تغير جزئي في النظم والنواميس الكونية، يؤذن بقرب حدوث التغير الكلي للنظم والنواميس الكونية.

وعندما يقع الخلل في النظم والنواميس الكونية، ويحدث التغير الجزئي، وتقع العلامات الكبرى ليوم القيامة، ينكشف الغيب المستور لجميع الناس، فيسارع الكفار والمشركون إلى التصديق والإذعان والإيمان، ولكنَّ إيمانهم هذا جاء متأخراً عن وقته، فلا يقبله الله سبحانه، لأنه سبحانه قدر بحكمته ومشيئته أن يغلق باب التوبة والإيمان عندما يبدأ الغيب المستور في الانكشاف والظهور، لأنَّ إيمان الناس في ذلك الوقت سيُبنى على الأمور المكشوفة المشاهدة، وهو غير مقبول عند الله، لأنه يشبه إيمان الجاحدين والمكابرين يوم القيامة عندما يعرضون على النار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلِنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧٧] بَلْ بَدَأْتُمْ كَانُوا يَعْتَمِدُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [الأنعام].

وقد جاء التصريح بعدم قبول إيمان من يؤمن بهذا الوقت في قوله تعالى: ﴿هَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وما ذكر في أول الآية سيكون يوم القيامة، وما ذكر بعد ذلك سيكون من علامات القيامة الكبرى وبين يديها، قال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى متوعداً للكافرين والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وذلك كائن يوم القيامة، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وذلك كائن قبل يوم القيامة من أمارات الساعة وأشراطها، حين يرون شيئاً من أشراط الساعة، كما قال البخاري [٤٦٣٥] في تفسير الآية: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت؛ ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» ثم قرأ هذه الآية.

وجاء في الحديث الشريف أيضاً: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» [رواه مسلم (٢٧٥٩)].

● دابة الأرض:

إن خروج الشمس من مغربها آية كبرى من آيات الله سبحانه تدل على عظيم قدرته، كما تدل على أن هذه النواميس والقوانين الكونية ليست أمراً لازماً ومحتملاً، فالله سبحانه الذي جعلها في هذا الكون قادر على إبطالها ومخالفتها، وتدلل هذه الآية أيضاً على صحة رسالة النبي ﷺ وصدقه في كل ما أخبر عنه، وهي آية صامته تأتي بعدها في اليوم نفسه - والناس لما يفيقوا بعد من دهشتهم وحيرتهم وخوفهم، وهم يشاهدون أمراً جسيماً عظيماً - الآية الناطقة، تلك هي دابة الأرض التي تكلم الناس بأفصح لسان، وأكمل بيان، لتكشف لهم ما يخفونه في قرارة نفوسهم، وخبيثة ضمائرهم وصدورهم، فتجلو وجه المؤمن وتقول له: أنت مؤمن، وتطبع على وجه الكافر بخاتم الكفر وتقول له: أنت كافر، حتى إن الناس ينادي بعضهم بعضاً بصفة الإيمان وبصفة الكفر، وهي الدابة التي أخبر الله سبحانه عنها في آية سورة النمل التي ذكرتها سابقاً: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢).

والمراد من قوله: ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ﴾ وجب القول، والقول: الكلام المقول، أطلق المصدر على المفعول، وهو ما نطق به القرآن الكريم من أمر يوم القيامة وما فيها، وجواب الشرط ﴿أَخْرَجَاهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

وقد أخبر النبي ﷺ عن دابة الأرض في عِدَّةِ أحاديث:

منها ما أخرجه مسلم في «صحيحه» [٢٩٤١]: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: حفظتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حديثاً لم أنسه بعدُ، سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجاً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضَحَى، أَثِمَهُمَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْآخِرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيباً».

ولعلَّ مرادَ النبي ﷺ أن أول الآيات الكبرى التي يبدأ بها التغير والخلل في النظم والنواميس الكونية هي خروج الشمس من مغربها، ودابة الأرض، ولا شك أنهما من الآيات العظمى، وسيراهما الناس ويعرفونهما، كما قال جلَّ وعلا في آخر آيات سورة النمل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِفَعْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٦٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرجُ دابةُ الأرض، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان، فتجלו وجهَ المؤمنِ بالخاتم، وتخطمُ أنفَ الكافرِ بالعصا، حتى يجتمعَ الناسُ على الخوانِ ويُعرفَ المؤمنُ من الكافرِ» [رواه الترمذي (٣١٨٧) وابن ماجه (٤٠٦٦) وغيرهما].

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أطلعَ النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكرُ، فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نتذاكرُ الساعةَ، قال: «إِنَّهَا لَنُتَقَوَّمَ حَتَّى تَكُونَ قَبْلَهَا عَشْرُ آيَاتٍ، فذكر: الدخانَ، والدجالَ، والدابةَ، وطلوعَ الشمسِ من مغربِها، ونزولَ عيسى ابن مريم، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثة خسوفٍ: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تخرجُ من اليمنِ، تطردُ الناسَ إلى محشرهم» [رواه مسلم (٢٩٠١)].

والجدير بالذكر هنا أنَّ بعضَ الكُتَّابِ المعاصرين ذهبوا إلى تأويل كلمة (دابة) الواردة في هذه النصوص، وصرفوها عن معناها الحقيقي إلى معانٍ بعيدة غير مرادة ولا محتملة، فقالوا: المقصود بالدابة هذه بعض المخترعات التي

توصّل إليها الإنسان حديثاً كالصواريخ والأقمار الصناعية أو أجهزة التسجيل الصوتية وأجهزة الرائي والتصوير!.

وقد سبق لسيدي الشيخ محمد الحامد رحمته أن ردّ مثل هذه التأويلات، فكتب ردّاً على أصحابها فقال: «أما أنّ الدابة التي ذكر القرآن خروجها قرب قيام الساعة هي هذه الصواريخ والأقمار، فأمرٌ لا يسلمُ لقائله، ذلك أن الحقيقة الشرعية لا تُترك إلى المجاز إلا لصارف يقيني قطعي، يضطر الناظر فيها إلى التأويل، وما لم يوجد هذا الصارف فالحقيقة هي المعتمدة، وهي المأخوذ بها في الفهم، ولا يصحّ العدول عنها، وإلا لبطلت المعاني الشرعية الحقيقية بالمجازات، وهذا معناه إلغاء النصوص بالجملة.

والدابة في لغة العرب: هي الحيوان الذي يدبّ على قوائمه، وهذا الاصطلاح العرفي الحقيقي، تضمحل أمامه التأويلات الأخرى، ويستحيل أن تفوت النبيّ وأصحابه وتابعيهم عليه وعليهم الصلاة والسلام ما ليست حقيقة من الفهم، أو أن يفهموا الآيات خطأ، أو أن يتصوروا منها غلطاً»^(١).

● مشاهد من يوم القيامة:

وعرضت آيات سورة النمل في ختام السورة بعض مشاهد يوم القيامة، ففيه يجمع الله سبحانه المكذبين بآياته أفواجاً، ويساقون إلى الحساب، ليواجهوا جريمتهم الكبرى، وهي مسارعتهم إلى تكذيب آيات الله سبحانه قبل أن يتأملوا فيها، ويتدبروا معانيها، ويحيطوا بها علماً، ليروا ما فيها من دلائل قدرة الله وعظمته:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ أَكْذَبْتَهُمْ بِآيَاتِنَا وَلَمْ يُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وكيف ينطقون وقد قامت حجة الله البالغة عليهم، فقد جحدوا كل آياته وأدلة وحدانيته وقدرته؟!.

(١) ردود على أباطيل، للشيخ محمد الحامد رحمته، ص ١٤٥.

ولعلّ من أكثر هذه الآيات وضوحاً ومن أعظمها دلالة آية الليل والنهار، وما فيها من نظام محكم ظاهرٍ يستطيع كل إنسان بأدنى نظر وأقل تفكير وتأمل أن يستدلّ به على وحدانية الخالق سبحانه:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦).

ويوم القيامة هو يوم الفزع الأكبر، وخاصة عندما ينفخ في الصور، وتسيرُ الجبال، وتُزالُ عن مواقعها، حتى إنّ الناظر إليها يحسبها لصلابتها وضخامتها ثابتة جامدة، وهي في الحقيقة تسيرُ سيرَ السحاب في جو السماء:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوُهُ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدةً وَهِيَ تَمُورُ مَرَّ السَّحَابِ صُنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَكَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨).

ولا يستشعر الأمن من الفزع الأكبر في هذا اليوم إلا مَنْ كان مؤمناً صالحاً، عاملاً بالطاعات مجتنباً المعاصي والسيئات:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٩).

ذلك هو ميزان الفضل الإلهي الذي قال الله عنه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وأما ميزان العدل الإلهي فهو للمشركين والكافرين:

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٠).

وهو الذي قال الله ﷻ عنه أيضاً: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].



الْخَاتِمَةُ

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

وعندما يصل الحديث إلى ميزان الفضل والعدل الإلهي تتجه الآيات الكريمة لتتكلم على لسان رسول الله ﷺ كأنه عليه الصلاة والسلام أمر أن يقول لهم ذلك بعدما بين المبدأ والمعاد وشرح أحوال يوم القيامة، إشعاراً بأنه عليه الصلاة والسلام قد أتم الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وما عليه بعد ذلك إلا أن يستغرق في عبادة ربه:

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ .

وما دام رسول الله ﷺ أمر بعبادة الله تبارك وتعالى الذي حرّم مكة وشرفها وعظّمها، والذي له كل شيء خلقاً وملكاً وتديراً، فغير النبي ﷺ أولى أن يكون مأموراً بهذا، فكل المكلفين مخاطبون بما أمر به رسول الله ﷺ، وكلهم مأمورون بعبادة الله، والمواظبة على تلاوة القرآن الكريم، مع تدبر آياته، وتأمل معانيه، حتى تنكشف لهم حقائقه، وتظهر لهم أدلة صدق رسول الله ﷺ، فالتكليف بعبادة الله تبارك وتعالى والإذعان لدينه وشرعه لا يسقط عن أحد من

الناس، فهم مكلفون بعبادة الله وطاعته حتى ينزل بهم الموت، ومخاطبون بما خوطب به ﷺ.

والقول بسقوط التكليف عن بعض الناس لعلو مكائنتهم وسمو منزلتهم زندقه وكفر.

والقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، منذ أن بدأ نزوله على النبي ﷺ في البلد الحرام، وسيبقى أيضاً معجزة خالدة لدين الإسلام على الدوام، يؤيد صدقه، ويحفظ أصوله، يهدي إليه الحائرين، ويستضيء بنوره السائرون على درب أكرم النبيين وخاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فلا عجب أن يكون التركيز في ختام سورة النمل على تلاوة القرآن الكريم ﴿وَأَن تَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢] لأنها سورة المعجزة والإعجاز.

ولا عجب أن يكون النبي ﷺ أول المخاطبين المكلفين بتلاوة القرآن الكريم، مع أن قلبه الشريف كان أول مصحف للقرآن الكريم في الأرض ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [٩٣] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٤﴾ لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء].

ومن فمه الشريف ﷺ سمع الناس القرآن الكريم، وتلقوا رسالة رب العالمين، ومع كل هذا أمر ﷺ بتلاوة القرآن الكريم، لأنه المعجزة الكبرى التي أيده الله سبحانه بها.

اقرأ يا أخي المسلم القرآن الكريم، وتدبر آياته، فهو معجزة لنبيك ﷺ كبرى، وكرامة لك عظيمة، أكرمك الله سبحانه بها، اتل القرآن الكريم دائماً لتفوز بالكرامة في يوم القيامة.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٣].

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وأصحابه، وعباده المصطفين الأخيار وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله أولاً وآخراً.



تفسير سورة القصص عَاقِبَةُ الطُّغْيَانِ وَالْفَسَادِ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَهْيِيدٌ

مَوْضُوعُ السُّورَةِ

أبرزت سورة القصص من خلال القصتين اللتين عرضتهما - قصة موسى وفرعون، وقصة قارون - ضرورة الرسالات الإلهية لتصحيح المسيرة البشرية، كلما انحرفت عن الحق، وتسلبت عليها الطغاة والمستبدون.

فالله سبحانه برحمته وحكمته، لا يترك المجتمعات البشرية، رازحة تحت وطأة وتسلب الظالمين، إنه تعالى يُملي لهم، ثم ينزل بهم عقابه، وأليم عذابه، ذلك هو الموضوع الأساس لسورة القصص، المقرر في صدر السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُلْبِغُ أَتْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ١٠ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ١١﴾.

وفي قوله الكريم في آخر السورة: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ لِمَن كَانَ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ٨٧﴾.

وقوله تعالى بعد ذلك في الآية الكريمة التي أنزلها على النبي ﷺ وهو في

طريق الهجرة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ قُلْ بَيِّنَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص].

لقد انحرفت المجتمعات البشرية المعاصرة انحرافاً كبيراً عن الحق، وتسَلَّطَ على كثير منها الطغاة المستبدون، وتحكَّم بخيراتهم وأرزاقهم حفنة قليلة من أصحاب الثروات الكبيرة الجشعين، من أمثال فرعون وقارون، وآن لها أن تصحَّح مسيرتها، وترجع إلى شريعة ربها، شريعة العدل والرحمة والسلام والإسلام، آن لها أن تتدبَّر آيات سورة القصص، وتأخذ بما فيها من دُروس وعِبَر، لتقودها بإذن الله إلى بَرِّ الأمان وساحل السلام، وتخلِّصها من آلامها وعنائها.

اللَّهُمَّ هَيِّئْ للمستضعفين من عبادك من أمرهم رشداً، ومَكِّنْ لهم دينهم الذي ارتضيته لهم، اللهم آمين.

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان.



الْقَصَصُ الْأَوَّلُ

قِصَّةُ مُوسَى   مَعَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ   تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ   نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ   إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ   وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكِ اسْتَضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ   وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَخَوْدَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْدُرُونَ   وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَفَتِ عَلَيْهِ فَالْقَبِيلَ فِي الْبَيْتِ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ   فَالْقَطْعَةُ   أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَ وَخَوْدَهُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ   وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ   وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَدَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ   وَقَالَتِ لِأُخْتَيْهِ قُصِيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ   وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاصِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَيْتٍ يَكْفُلُوهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ   فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أَبِيهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ   وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ   وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِهُ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَصَى عَلَيْهِ قَالِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ   قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ

الْغَفُورِ الرَّحِيمِ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَعَصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصِرُّهُ قَالَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالِ يَتُومَسُ أَنْ يُرِيدَ أَنْ تَقْتُلِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَتُومَسُ إِنَّكَ أَلَمَّا يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِغَتْلِكَ فَاتَّخِذْ إِلَيَّ مِنْ النَّصِيحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا شَيْءَ حَتَّى يُضْذَرَ الرَّكْعَاءُ وَأُبْنَا شَبْعَ كَبِيرٍ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَنَادَتْهُ إِحْدَاهُمَا بِهَيْبَةٍ عَلَى أَسْتَحْيَا قَالَتْ إِنَّكِ آتِي بِدَعْوِكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاءُ خَيْرٌ مِنْ اسْتِجْرَاءِ الْقَوْمِ الْأَمِينِ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكْحَلَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمْنِي حِجْجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَيَسَّاءُ أَتَمَّا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا أَنْذَهَا نُورٌ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَتُومَسَ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْزِعًا كَانَهَا جَانٌّ وَلَى مُدَبِّرًا لَمْ يَعْقِبْ يَتُومَسَ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣٢﴾ أَسْأَلُكَ بِذَلِكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٤﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٥﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَمَا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا

الْعَلِيلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُقَرَّرٌ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يَكْفُرُونَ ﴿٣٧﴾ فَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُوا صُحُفًا مَّا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَدُنَّ عَلَى الْخَطِيمِ فَأَتَّخِذُ فِي صِرْحَا لَكُمِ أَطْلُغَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُودُهُ فِي الْأَرْضِ يَغْيِرُ الْحَقَّ وَطُغُوا أَنَّهُمْ إِلَاسًا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْطَرَّ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْتُولِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى نَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

● منة الله الكبرى على المستضعفين:

بدأ سبحانه سورة القصص كما بدأ سورة الشعراء، بقوله:

﴿طسّر ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾

وهو ثناء على آيات القرآن الكريم الظاهر إعجازه، أتبعه تعالى بمخاطبة النبي الكريم ﷺ:

﴿تَتْلُوَ عَلَيْهِ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: نقرأ عليك في هذه السورة خبراً حقيقياً واقعياً، عن قصة موسى وفرعون، يعتبر به المؤمنون وينتفعون.

وقد ذكر تعالى في سورة القصص أحداثاً ووقائع من قصة موسى وفرعون، لم تُذكر في غيرها من السور:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر التي كانت تحت سلطانه .
 ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً، يفرق بينهم في المعاملة، يُكرم بعضهم، ويظلم الآخرين .

﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ وهذه الطائفة هم بنو إسرائيل، يعمل على إضعافهم وإذلالهم وقهرهم، بتذبيح أبنائهم، واستحياء نساءهم .
 ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: العريقين في الإفساد وظلم العباد، الراسخين فيه .
 ولكنَّ الله تعالى رحيمٌ بعباده، قدَّرَ سابق علمه ومشيتته ألا يستمرَّ طغيانُ الجبارة المستبدين وفسادهم، فلا بدَّ أن يقصمهم، ويخلص الناس من طغيانهم وظلمهم .

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ .

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ونريد أن نتفضَّل بمنتنا الكبرى على الشعوب الضعيفة المظلومة، فنخلصهم من ظلم الظالمين، واستبداد المستبدين . فهذا من نعمه تعالى الكبرى .

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: ونجعلهم ملوكاً وحكاماً، بعد أن كانوا محكومين مقهورين .

فالأيامُ دُولٌ بين الناس، والمسيرة البشرية لا تستمرُّ على طريقة واحدة، والله تعالى هو مالك الملك، يؤتیه من يشاء، وينزعه ممن يشاء: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦] .

والأيامُ دُولٌ، يوم لك ويوم عليك، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ كَرْحٌ فَقَدْ

مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَائُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [آل عمران: ١٤٠].

ورحم الله أبا الفتح البستي القائل:

هِيَ الْآيَاتُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولٌ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ أَي: ونجعلهم الوارثين لسلطان فرعون وملكه، كما
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾
[الأنبياء: ١٠٥].

﴿وَنُفِخَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ونجعل لهم القوة والغلبة في الأرض التي كان
يحكمها الطاغية المستبد.

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: ونري فرعون ووزيره الأول
هامان، وجنودهما، من المظلومين المقهورين.

﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ما كانوا يخافون حدوثه، ويجتهدون في دفعه، من
أن هلاكهم وانتهاء سلطانهم سيكون على يد مولود من بني إسرائيل.

فلا ينفع حذرٌ من قَدَرٍ، وإرادته تعالى هي النافذة الغالبة، وما نفعهم مكرهم
وكيدهم، وتذبيحهم أطفال بني إسرائيل، فهو تعالى الفَعَّال لما يريد، فقدّر أن
يبعث رسولاً يَصْحَحُ ببعثته مسيرة البشرية، ويخلصها من الظلم والفساد، ويأخذ
بيدها إلى طريق العدل والرشاد.

إن بعثة الأنبياء والمرسلين أمرٌ ضروري للبشرية، ومن دونها تضل وتتيه في
بيداء الظلم والقهر والاستبداد.

ودلت الآية على تحريم مساعدة الظالمين، والدخول عليهم، والميل إليهم،
كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وفي الحديث الشريف: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدِي أُمَرَاءٌ، فَمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَصَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بِوَارِدٍ عَلَيَّ الْحَوْضُ» [رواه الترمذي (٢٢٥٩) وقال: غريب صحيح].

والظلم لا يُرفع بمثله، إنما يُرفع بالعدل والحق، ولا حق ولا عدل إلا في شريعته تعالى.

• صندوق في اليم:

وقدّر الله تعالى لأحداث هذه الحياة أسباباً، وجعلها مرتبطةً بنظم ونواميس تعلّقت بها إرادته، وسبق بها علمه، يدبر بها أمر مخلوقاته، مع قدرته تعالى على خلق المسببات من غير أسباب، كما تقدم في موضوع سورة الرعد^(١).
وجعل سبحانه في دعوة الأنبياء والمرسلين ﷺ الأسباب المؤدية إلى زلزلة عروش المستبدين، وإزاحة سلطانهم عن صدور المستضعفين والمضطهدين، ولهذا قال تعالى بعد أن أعلن عن إرادته في إهلاك فرعون وجنوده:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْنَا ۖ وَجَعَلْنَاهُ مِن الْمُرْسَلِينَ ۝﴾

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ هكذا بدأ تعالى القصة من أولها، فبين لنا كيف تجري الأسباب بمشيئته، وتتابع الأحداث بقدرته، حتى يتم مراده جل وعلا، وتحقق مقدراته.

وضعت أم موسى ولدها في جو مكروب خانق، يخيم عليه الظلم والطغيان، فطغى على فرحتها بوليدها خوفها عليه من سكاكين الذبّاحين، فتحيرت، ولم تدر ما تصنع، وكيف تتصرف؟!.

(١) انظر: تفسير سورة الرعد، أو (الأسباب والمسببات في سورة الرعد) كما هو اسمه في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

ويبدو أن الحيرة أذهلتها عن إرضاعه، فأدركتها ألطف الحق ورحماته في ساعتها العصبية هذه، فأوحى تعالى إليها بإلهام أو بملك من ملائكته هتف بها: ضميه إلى صدرك وأرضعيه.

﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَاتَّقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أي: فإذا أحسست بالخطر عليه فألقيه في البحر، والمراد نهر النيل الكبير.

وقد فصلت الآيات في سورة طه كيفية إلقاءه، بقوله تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (٣٩).

وأيُّ أمٍ يطاوعها قلبها على إلقاء وليدها في البحر، كيف تنزعه من حضنها، وتنزع ثديها من فمه لتلقيه في اليم؟!.

وثبتتها الحق سبحانه، فأوحى إليها يطمئننها عليه، ويبشرها بسلامته، ويكشف لها عن مكانته التي قدرها لهذا الوليد:

﴿وَلَا تَخَافِي﴾ أي: لا تخافي عليه من المخاطر، فهو في رعايتنا.

﴿وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ ولا تحزني على فراقه، فلن يطول فراقك له، وسنرده قريباً إليك.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ونجعل له زمرة المرسلين.

وحملت المياه الصندوق، وألقته الأمواج على ساحل قصر فرعون:

﴿فَالْقَظَةُءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَانِ وَهَمَزَانِهَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (٨).

﴿فَالْقَظَةُءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ هكذا هيأ الله تعالى الأسباب ليلقط آل فرعون موسى.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ويصير بعد ذلك عدوًّا لهم، وسبباً لغمهم

وحزنهم وزوال سلطانهم وعزهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَخُونَهُمَا كَانُوا خَطِيعِينَ﴾ أي: كانوا آثمين مذنبين، عاقبهم الله تعالى، فجعلهم يرثون عدوهم، ومن قُدِّرَ أن يكون سبب هلاكهم. ولما حملوه إلى فرعون أمر بقتله، ولكن الله تعالى حماه بالحب، فألقى محبته في قلب امرأة فرعون، كما مر معنا في قوله: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]. ويبدو أنها كانت محرومة من الولد، فَسُرَّتْ بموسى وأحبته:

﴿وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَّا أَوْ نَنفَعَهُ وَكَذَٰلِكَ وَهُمَ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩).

﴿وَقَالَتْ أَمْرَأْتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ أي: هو قرة عين لي ولك. قالت ذلك استرضاء لفرعون، وهي تعلم أن فرعون ما أحبه، ولا قرَّت عينه به، بل أمر بقتله، ولهذا أضافت قائلة بلهجة الاستعطاف والرجاء: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَّا أَوْ نَنفَعَهُ وَكَذَٰلِكَ﴾ وهذا يدل على صدق فراستها؛ إذ توسمت فيه علامات النجاة، ومخايل اليُمْن، وقد نفعاها الله تعالى به بعد ذلك، فصَدَّقَتْ برسالته، وآمنت بدعوته، وجعلها تعالى مثلاً طيباً للنساء المؤمنات الطيبات الصالحات، فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحریم: ١١].

واستجاب فرعون لرجائها، فأمر أن يُرَبَّى في قصره، وأن ينشأ في رعاية زوجته. وهكذا تربى موسى في قصر فرعون، ونشأ بين أعوانه وحشمه وخدمه، فالكل يسعى في خدمته، ويسارع إلى تأمين حاجته. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه سبب إهلاكهم وعذابهم عندما يُعرضون عن دعوته، ويستكبرون عن الإذعان لرسالته.

● في قصر فرعون:

وتناقل الناس خبر الصندوق والوليد الذي فيه، ووصلت أخباره إلى مسامع أم موسى، فازداد خوفها عليه، ألقته في اليم لتبعده عنهم، وإذا به يقع بين أيديهم:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَىٰ فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لِتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوسَىٰ فَرِحًا﴾ أي: أصبح قلبها خالياً من العقل، إلا من ذكر موسى وخوفها عليه، طار عقلها من فرط القلق والهَمِّ، وسيطرت عليها مشاعرُ الأمومةِ الثائرة في صدرها.

﴿إِنْ كَادَتْ لِتُبْدَىٰ بِهِ﴾ حتى كادت أن تظهر أمره، وتصيح: هو ابني وأنا أمه.

﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ولكن رحمة الله تعالى أدركتها، فربط سبحانه على قلبها وثبتها.

﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدقين بوعده: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وحتى لا يُفْتَضَحَ أمرها، ولا تنم عنها ملامح وجهها، كلَّفت أخته أن تتبع أثره لتعلم خبره:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فقصّت أخته أثره، وراقبته من بعيد، أو نظرت إليه متظاهرةً بعدم الاهتمام به، فلم يشعروا بأمرها ولم يعرفوا ويكتشفوا حقيقتها.

والتمس القوم لموسى مرضعاً بين نساء القصر، فأبى، فطلبوا له المراضع من خارجه، وأسرعَت النساءُ المراضعُ إلى القصر، فكانت كل واحدةٍ منهنّ تضمُّ موسى إلى صدرها، وتلقمه ثديها، فيأباه، ويعرض عنه صارخاً باكياً، ومن المعلوم أنَّ الطفل الرضيعَ يقبل أي ثدي، ولو كان اصطناعياً عندما يشتدُّ به الجوع، ولكنَّ موسى - بمشيئة الله تعالى النافذة في ذرات الموجودات - أعرض عن كل المراضع:

﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ (١٢).

﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: منعناه من قبول المراضع من قبل أن نرده إلى أمه، فالتحريم تحريم منع لا تحريم شرع، فكان لا يقبل ثدي مرضع، حتى أهمهم ذلك^(١).

وتسللت أخته إلى داخل القصر بين المراضع:

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي: يضمنون لكم إرضاعه والعناية به.

﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ أي: لا يقصرون في خدمته ورعايته.

وسكتت الآيات عن تفصيل ما حدث بعد ذلك، وأخبرت بالنتيجة:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣).

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ أي: فأرجعناه إلى أمه.

﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ كي تسر عينها.

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ ويذهب حزنها.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ولتعلم أن وعده تعالى حق لا خُلْفَ فيه.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ الأحداث تجري بمشيئته تعالى وقدرته، وأنه سبحانه وحده مدبر الأسباب والمسببات.

ومرت الأعوام على موسى، وهو يتقلب بين حجر أمه وقصر فرعون، ترعاه في الحقيقة عناية الله تعالى، وتكلؤه عينه، وشبَّ ونما، وآتاه الله تعالى كمال الخلق والخلق:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ أي: ولما بلغ سن الشباب والرجولة، واكتملت بنيته الجسدية.

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ آتاه الله تعالى أيضاً الكمال في نفسه وفكره فأصبح قوياً في جسده وعقله.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وهذا الذي تفضل الله تعالى به على موسى من العناية والرعاية والنجاة من المخاطر، يتفضل به أيضاً على كل من يحسن في عبادته وطاقته.

• مع المظلوم الأحمق:

نشأ موسى في قصر فرعون، وشاهد صور الظلم والطغيان تجري أمامه، وكان يسمع عندما يذهب إلى أمه أنات المظلومين، وشكايات المضطهدين، فتثور ثائرته، وتضطرب في صدره مشاعر السخط، فنفسه نفس نبئ كريم، تنفعل وتتأثر مما تسمع وتشاهد، خاصة وأن الظلم والطغيان موجّه بشكل رئيس إلى قومه.

وما كان ﷺ يجد متنفساً لمشاعره الثائرة، كان عليه أن يكتبها، ويبقيها حبيسة في صدره وبين ضلوعه، وأورثه هذا حدة في طبعه، وقوة في عواطفه ومشاعره، ودل قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ على أنه تعالى حفظ موسى من التأثير بحياة القصور، وأجوائها المترفة الفاسدة.

ولقد أخطأ سيد قطب رحمه الله، عندما قال: «فساءت القدرة التي تنقل خطا موسى ﷺ، أن تخفض ما اعتادته نفسه من تلك الحياة، وأن تزج به في مجتمع الرعاة، وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون راعي غنم، يجد القوات والمأوى، بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع، وأن ينزع من روحه روح الاشتمزاز من الفقر والفقراء، وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم، وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم وورثاة هيئتهم»^(١).

وكانه ﷺ عندما كتب هذه الكلمات، لم يتدبر مدلول قوله تعالى: ﴿ءَايَنُّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقوله أيضاً في سورة طه: ﴿وَلِئَصْنَعِ عَلَى عَيْنِ﴾ (٣٦)، ولم يستشعر نبيل عواطف موسى، عندما سارع إلى نصرة المظلوم، فقد وجد ﷺ في أحد الأيام متنفساً لمشاعره الثائرة المكبوتة، فخرج من منطقة القصور:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ أَلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٥).

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: في وقت القائلة عندما تخلو الشوارع بسبب الحر الشديد.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أحدهما من شيعته المقهورة المظلومة، والآخر من قوم فرعون المعتدين الظالمين. وكان الإسرائيلي المقهور المظلوم يتلفت حوله، باحثاً عما يستغيث به، ويخلصه من ظالمه، ولما رأى موسى صرخ مستغيثاً به: ﴿فَاسْتَغْنَتْهُ أَلَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

ولم يستطع موسى ﷺ أن يتجاهل صرخات المظلوم المقهور، فانفجرت براكين الغضب المحبوسة في صدره، وأقبل على الرجل الظالم: ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: ضربه بجُمع كفه، فقتله، غير قاصد قتله. وندم ﷺ عندما رأى الرجل ممدداً بين يديه قد فارق الحياة. ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من تزيينه وتسويله. ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: إنه ظاهر العداوة والإضلال. ثم توجه إلى الله تعالى تائباً مستغفراً:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ أي: ظلمت نفسي بالمبادرة إلى وكزه

وترك الثبث والتأني .

فالقتلُ كانَ خطأً، والخطأُ لا يخلو من المؤاخذهِ والذنبِ؛ لكونه وقعَ بسببِ تركِ الثبثِ والتأني، مع أنه كان لنصرةِ المظلوم، ويمكن أن يصدرَ مثل هذا عن الأنبياء ﷺ، قبل أن يكرمهم الله تعالى بالنبوة، ويشرفهم بعصمتها .

أو ظلم نفسه - كما قال سيد قطب رحمه الله - لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان، والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها، حيث لا تُجدي تلك الاشتباكات الفردية الجانبية في تغيير الأوضاع، كما كفَّ الله المسلمين في مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان^(١) .

﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

وعرف موسى ﷺ نتيجة ما حدث، أن الله قد أنعم عليه بقوة كبيرة في جسده، فشكره على هذه النعمة، وعاهده ألا يستعملها في مساعدة المجرمين الظالمين :

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ .

أي: بحق إنعامك عليّ، فلن أكون معيناً للمجرمين على إجرامهم وطغيانهم، وسأستعمل هذه النعمة في مساعدة أوليائك لا أعدائك .
وخشي ﷺ أن يُفتضح أمره، ويعلم جنود فرعون بأنه هو القاتل :

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ .

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: صار يمشي في المدينة خائفاً حذراً، يراقب كل ما يجري حوله، كأنه يتوقع الشر والأذى .

﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي: فوجئ بالإسرائيلي الذي استنصره

بالأمس، يستنصر به مرة ثانية، ويطلب مساعدته في خصومة ثانية له مع رجل فرعوني آخر.

فأقبل عليه موسى مؤنباً وموبخاً:

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي: إنك ظاهر الغواية، لا تتصرف بحكمة، ولا تحسن التصرف والتدبر.

ومع ذلك أراد موسى أن يساعده، ويخلصه من ظالمه الفرعوني، لأنه عاهد الله من قبل ألا يكون ظهيراً للمجرمين:

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلِيكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٩).

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي: ولما أن أراد أن يضرب الرجل الفرعوني المعادي لهما، ظنَّ الإسرائيليُّ بسبب ما سمع من توبيخ موسى له وتأنيبه أنه يريد أن يبطش به.

﴿قَالَ يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ نَقْتُلِيكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ وهكذا كشف هذا الإسرائيليُّ أمرَ موسى ﷺ بحماقته وطيشه، وسمع الفرعونيُّ كلماته، فترك مكان الخصومة، وانسل مسرعاً إلى الجند الموكلين بالبحث عن القاتل.

ولم يكتفِ هذا الأحقق الطائش بما قال، بل أخذ يعظُ موسى ﷺ، ويعرضُ بلمومه وتأنيبه له:

﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما تريد بعملك هذا إلا الظهور بمظهر المتكبر المتجبر بين الناس.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وما تريد أن تكون من المتواضعين المصلحين.

هكذا لبس الإسرائيليُّ الأحقق لباسَ النِّسَّاك الوعَّاظ، واتهم موسى ﷺ بحب الرياء والسمعة والتكبر والتجبر، بدل أن يشكره على مساعدته، وتخليصه

من عدوه. ودلت الآيات على أن قتل بعض أعوان الظلمة أمرٌ غير محمود، يؤدي إلى زيادة ظلمهم، واستفحال شرهم.

● لقاء على ماء مدين:

أدرك موسى ﷺ أنه أصبح في خطر، وأن جنود فرعون يلاحقونه ويبحثون عنه، وأن زوجة فرعون التي خلصته من الذبح عندما كان صغيراً، لن تستطيع هذه المرة مساعدته، فأخذ يفكر في وسيلة للنجاة، وقطع عليه تفكيره صوت رجلٍ مقبلٍ بسرعة نحوه:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ ويبدو أنه رجل من آل فرعون المقربين منه، كان يخفي في نفسه كره فرعون، لما يرى من ظلمه وطغيانه، وذكر بعض المفسرين أنه مؤمن آل فرعون، الذي كان يكتُم إيمانه، ودل مجيئه من أقصى المدينة على أنه كان متلهفاً على رؤية موسى، فانطلق باحثاً عنه من أقصى أطرافها.

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: إن كبار رجال الدولة يتشاورون فيما بينهم ليقتلوك.

﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: اخرج قبل أن يظفروا بك؛ إني لك من المخلصين فيما أشير عليك به.

وأحسن موسى بإخلاص الرجل وصدقه، فأخذ بنصيحته، وبادر إلى الخروج من أرض مصر، من غير زادٍ ولا دليل:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: خرج منها حذراً يتلفت خلفه خوفاً من لحوق الطالبيين، سائلاً ربه ﷻ أن ينجيه من القوم الظالمين.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ٢٢﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ توجه إلى مدين، أقرب بلد من مصر، لا تخضع لسلطان فرعون، توجه إليها، وهو لا يعرف الطريق القاصد:

﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: أرجو أن يهديني ربي إلى الطريق القاصد الصحيح.

ونفعه حُسْنُ ظنه بالله تعالى، فهداه، وتولاه برعايته، وأحاطه بعنايته، حتى وصل مدين، وصلها مجهوداً مكثوراً، يعاني ظمأً وجوعاً، فقصد ماءها:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ فوجئ ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾ عندما ورد ماء مدين بمنظر يتنافى مع مروءته وشهامته وأخلاقه الكريمة، أثار مشاعره فنسي ظمأه وجوعه.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: رأى جماعة كبيرة من الرعاة يسقون مواشيهم، بينما تقف امرأتان في مكان منعزل مع قطع من الغنم، وهما تحبسان الغنم العطشى عن التقدم نحو الماء، فدنا منهما ﴿عَلَيْهِمَا السَّلَام﴾ وسألهما متعجباً:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما؟ لماذا لا تباشران السقي وتنصرفان؟.

والخطب: الأمرُ الخطيرُ الجَلَلُ، فوقوف المرأتين بهذا الشكل تنتظران أمر خطير في نظر موسى ﴿عَلَيْهِ السَّلَام﴾، يتنافى مع الشهامه والمروءة.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: لا نستطيع أن نسقي لأننا لا نخالط الرجال، ولا قدرة لنا على مزاحمتهم، فنحن ننتظر حتى ينتهي الرعاة، ويرجعوا بأغنامهم عن الماء.

ثم كشفنا له عن السبب الملجئ لهما للقيام بعمل هو من أعمال الرجال:
﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: كبير في السن، غلب عليه ضعف الشيخوخة،
فلا يستطيع أن يباشر أمر مواشيه بنفسه.

ورأى أكثر المفسرين أن هذا الرجل هو نبي الله شعيب، الذي أُرْسِلَ إلى
أهل مدين، لكنَّ عصر موسى متأخَّر عن عصر شعيب، فقد أشارت إحدى
الآيات القرآنية إلى أنه كان قريباً من عصر إبراهيم ولوط عليهما السلام، ففيها حكى الله
من كلام نبي الله شعيب وهو يعظ قومه: ﴿يَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ
مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

ولهذا نقل ابن كثير رحمته الله عن بعض المفسرين أن شعيباً كان قبل موسى عليه السلام
بمدة طويلة^(١).

ثم لو كان هذا الرجل نبي الله شعيباً حقاً، لعرف الرعاة فضله، وأسرعوا
إلى سقاية غنمه؛ لأنهم لا بد أن يكونوا من البقية المؤمنة الصالحة، التي نجاها
الله من العذاب معه.

ولا حاجة بنا إلى التكلف في معرفة اسم الرجل وهويته، والأولى أن نقول
كما قال ابن جرير الطبري: «وهذا ممَّا لا يدركُ علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك
تجب حجته»^(٢).

ودلت الآيات على أنه كان رجلاً كريماً صالحاً، ألجأته الضرورة إلى
إخراج ابنتيه لكي تعملًا خارج البيت في رعاية غنمه وسقيها، وهذا أمر في نفسه
ليس بمحظور، والدين لا يأباه، وأمَّا المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة^(٣).

وبادر موسى عليه السلام، رغم ما به من تعب وجوع، إلى مساعدتهما:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٠/٣.

(٢) جامع البيان: ٤٠/٢٠.

(٣) تفسير النسفي: ٥٥٨/٤.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤).

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أي: ثم انصرف ليستريح في الظل، مما يدل على أنه سقى لهما في حر الشمس، ولما أحسَّ بشدة الجوع، توجه إلى الله تعالى داعياً.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إنني محتاج إلى أي شيء قلَّ أو كثر، تنزله إليَّ من خزائن كرمك ورحمتك.

وتصريحه بشدة افتقاره إلى معونة ربه، أدبٌ من آداب الدعاء، اتصف به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ودل دعاؤه على أنه كان محتاجاً إلى أي شيء يسد به ريقه.

• الراعي القوي الأمين:

ويبدو أنه لم يطل به المقام والانتظار، فبعد أن عادت الفتاتان إلى أبيهما، تعجَّب من عودتهما مبكرتين على خلاف عادتتهما، فسألهما عن السبب، فأخبرته خبر موسى، وسقيه لهما، فأرسل إحداهما تدعوه:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥).

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أي: جاءته مستحيية في مشيتها وفي مجيئها إليه، من غير تبدُّلٍ ولا تبرُّج.

والحياء من أنبل أخلاق المرأة، يدل على شرف معدنها، وطهارة أخلاقها، ورغم حيائها لم تضطرب، ولم تتلجلج عندما كلمته، مما يدل على ثقتها بطهارتها واستقامتها.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: إن أبي يدعوك ليكافئك على سقيك لنا.

فمكافأة صاحب المعروف من الأخلاق الكريمة، والخصال الحميدة، ولهذا حث عليها النبي ﷺ؛ فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ استَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِذْهُ، وَمَنْ سَأَلَكَمُ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرْهُ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ، حَتَّى تَعْلَمُوا أَنَّ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» [رواه أبو داود (١٦٧٢) والنسائي (٨٢/٥) واللفظ له].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» [رواه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤) وصححه].

ويلاحظ أنها أسندت الدعوة إلى أبيها، وعللتها بالجزاء؛ لثلاثي يومهم كلامها ربية، وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى^(١).

وقبل الدعوة؛ لأنها دعوة رجل كريم، وهو في أمس الحاجة إليها. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أي: لما أخبره موسى بقصته وما حدث له، بادر الرجل إلى تسكينه وتطمينه.

﴿قَالَ لَا تَخَفْ فَبَوَّاتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فلا سلطان لفرعون وملئه على أرض مدين.

واقترحت إحدى الفتاتين على أبيها أن يستأجر موسى للعمل عنده في رعاية الغنم، وأيدت اقتراحها فشهدت بقوة موسى وأمانته:

﴿قَالَتِ إِحْدَاهُمَا يَتَّابِتُ اسْتَعْرِجُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعَارْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

قالت ذلك من غير تلثم ولا اضطراب؛ لأنها فيما يبدو كانت تعلم أن أباها يبحث عن أجير يثق بأمانته، وحفظه وقوته.

ودل قولها على راحة عقلها، فأفضل ما ينبغي أن يتصف به العامل المستأجر: القدرة على أداء العمل المستأجر له، والأمانة التي تحمله على الإخلاص في عمله، وحفظ ما يؤتمن عليه من مال رب العمل.

كما دل قولها أيضاً على سرعة فطانتها، وقوة ملاحظتها، وحُسن فراستها، فقد عرفت قوته ﷺ عندما سقى لهما بمفرده، مع أنه كان في غاية الإجهاد والجوع، وعرفت أمانته ومروءته عندما لاحظت عفته، فقد سار معها إلى بيت أبيها من غير أن يرفع طَرْفَهُ إليها، وهو أمرٌ على خلاف ما هو معهود من الرجال، عندما يلقون النساء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أفرسُ الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرَّس في عمر، وصاحبُ يوسف حين قال: أكرمي مثواه، وصاحبةُ موسى حين قالت: يا أبتِ استأجره إنَّ خيرَ من استأجرت القوي الأمين»^(١).

وأُعجِبَ الرجل الصالح بمشورة ابنته ورأيها، فأخذ به، وعرض على موسى العمل عنده، وعرض عليه أيضاً أن يزوجه إحدى ابنتيه، مما يدل على ثقة الرجل بابنته وصلاحها، وثقته أيضاً بموسى.

ودلَّت الآية على جواز الأخذ برأي المرأة، ولو كانت فتاةً في ريعان شبابها، وربيع حياتها، فقد تَفَطَّنُ المرأةُ إلى ما لا يَفْطِنُ له الرجل، وقد يجعل الله في رأيها خيراً كثيراً، أو يدفع به شراً خطيراً، ولهذا كان رسول الله ﷺ يستشير أحياناً أمهات المؤمنين، ويأخذ برأيهنَّ فيما يعرضُ له، فعندما أراد عليه الصلاة والسلام أن ينصرف من الحديبية مع أصحابه، أمرهم أن يذبحوا هديهم، ويتحللوا من إحرامهم، للعودة إلى المدينة، ولكنَّ عواطف الصحابة الثائرة في ذلك الوقت غلبت عليهم، فلم يبادروا إلى تنفيذ أمره عليه الصلاة والسلام، فما قام منهم رجلٌ، فدخل على أمِّ سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا نبيَّ الله أتحبُّ ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمةً، حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حالِقَكَ فيحلقَكَ.

فخرج عليه الصلاة والسلام فلم يكلم أحداً منهم حتى فعلَ ذلك، نحر

بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قاموا فنحروا، وجعلَ بعضهم يحلِقُ بعضاً، حتى كَادَ بعضهم يقتلُ بعضاً غَمًّا. [رواه البخاري (٢٧٣١)].

قال ابن حجر رحمته الله: «وفيه فضلُ المشورة، وأنَّ الفعلَ إذا انضمَّ إلى القول كان أبلغ من القول المجرد، وجواز مشاورة المرأة الفاضلة، وفضل أم سلمة، ووفور عقلها، حتى قال إمامُ الحرمين: لا نعلم امرأةً أشارت برأي فأصابت إلا أم سلمة. كذا قال. وقد استدرك بعضهم عليه بنتُ شبيبٍ في أمر موسى»^(١).

• العمل والزواج:

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هُنْتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هُنْتَيْنِ﴾ أي: أريد أن أزوجك إحدى ابنتي

هاتين.

﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ﴾ على أن تكون لي أجيراً ثمانين سنين.

وقوله: ﴿هُنْتَيْنِ﴾ يدل على أن له غيرهما، وقوله عَرَضُ لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً لَعَيَّنَ المعقودَ عليها له؛ لأنَّ العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع، إذا قال: بعثك أحد عبدي هذين بثمان كذا، فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح^(٢).

ويبدو أنه أراد أن يزوجه البنت التي أرسلها لدعوته، وهي التي اقترحت على أبيها أن يستأجره.

ودلت الآية على جواز عرض الرجل ابنته أو أخته على أهل الخير، وقد جعل الإمام البخاريُّ هذا باباً في «صحيحه»، روى فيه بسنده: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تَأَيَّمَتْ حفصةُ بنتُ عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان

(١) فتح الباري: ٣٤٧/٥.

(٢) تفسير القرطبي: ٢٧٢/١٣.

من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال عمر: أتيتُ عثمانَ بنَ عفَّانَ فعرضتُ عليه حفصةً، فقال: سأنظرُ في أمري، فلبثتُ ليلتي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي ألا أتزوِّجَ يومي هذا. قال عمر: فلقيتُ أبا بكرٍ الصديقَ فقلتُ: إن شئتَ زوجتُكَ حفصةَ بنتَ عمرَ، فصمتَ أبو بكرٍ، فلم يرجعْ إليَّ شيئاً، وكنتُ أوجدُ عليه منِّي على عثمانَ، فلبثتُ ليلتي، ثم خطبها رسولُ الله ﷺ، فأنكحْتُها إيَّاه. [رواه البخاري (٥١٢٢)].

﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: إن أتممت في العمل عشر سنين فذلك فضلٌ منك، وليس واجباً عليك.

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُشَقَّ عَلَيْكَ﴾ بالزامك أبعد الأجلين، أو بتكليفك عملاً يشق عليك القيام به.

﴿سَجَدْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: في حسن المعاملة والوفاء بالعقد.

وهذا من الأخلاق الكريمة التي حضَّ الإسلامُ عليها، وأمر النبي ﷺ أربابَ العمل أن يحسنوا معاملة مَنْ يعملُ عندهم.

ففي الحديث الشريف: قال عليه الصلاة والسلام: «إخوانُكم خَوَلُكم، جعلهم الله تحتَ أيديكم، فمن كان أخوه تحتَ يده فليطعمه مما يأكلُ، وليلبسه مما يلبسُ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» [رواه البخاري (٣٠)].

وقبلَ موسى عرضَ الرجلِ الصالح، فقد يسَّرَ الله له في هذا العرض الأمنَ والمأوى والعملَ الكريمَ، والسكنَ النفسِيَّ إلى زوجةٍ صالحةٍ، وكل ذلك من فضله تعالى عليه.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ فَضَيْتَ فَلَا عُدْوَةَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي عرضته عليَّ قائمٌ بيننا، لا يخرجُ عنه واحدٌ منا، فكل طرفٍ يؤدِّي ما عليه.

﴿أَيُّمًا الْأَجَلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ﴾ أي: فلا حرج عليّ، ولا مشقة في الثماني أو العشر.

﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ شاهد وحافظ.

وهذا الذي جرى بينهما لم يكن سوى اتفاق على إنشاء عقد النكاح وعقد الإجارة فهو عرض لا عقد، وقد سكت الآيات عن تعيين المنكوحه، وبيان مقدار المهر والأجرة، كما سكت عن تفصيل ما حدث لموسى بعد ذلك في مدين، فإن من عادة القرآن الكريم ألا يهتم بذكر دقائق التفاصيل، التي لا يترتب على ذكرها عبرة.

● النداء والرسالة:

وانتقلت الآيات مباشرة تصف ما حدث لموسى ﷺ، وهو في طريق عودته إلى مصر:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ ءَاسَىٰ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَاسِسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أي: لما أمضى الأجل الأوفى، وهو عشر سنين.

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ عائداً إلى مصر.

فعن سعيد بن جبيرة قال: قال يهودي بالكوفة وأنا أتجهز للحج: أخبرني أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حبر العرب - يعني ابن عباس - فسألته عن ذلك، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إنَّ النبي إذا وعد لم يُخلف^(١).

وفي طريق العودة أكرمه الله تعالى بالنبوة، وكلّفه بحمل الرسالة:

﴿ءَاسَىٰ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَاسِسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ

أَوْ جَذَوْفٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٠﴾ أي: لعلِّي آتيكم بخبر عن الطريق، أو آتيكم بقطعة حطبٍ ملتَهية تستدفئون بنارها.

ودلّت كلماته على أنه قد ضلَّ عن الطريق في الصحراء في ليلة باردة.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِّن شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوِسَ
إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِّن شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ أي: لما أتى النار أتاه النداء الإلهي من شاطئ الواد الأيمن بالنسبة له ﷺ، في بقعة من الأرض مباركة، فيها شجرة تحيط بها النار.

وهذا الوادي هو وادي طوى، الذي يقع في الجانب الغربي من جبل الطور، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

﴿أَن يَمْوِسَ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا هو مضمون النداء الإلهي الذي نودي به موسى ﷺ، أجملته الآية هنا، وسبق تفصيله في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه].

﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْزِعًا كَأَنهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ
إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَأَن أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْزِعًا كَأَنهَا جَانٌّ﴾ أي: تتحرك حركة سريعة كأنها من الجن، بعد أن حولها تعالى إلى حية ضخمة.

﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولَّى موسى منهزماً، ولم يلتفت، حتى ناداه الحق تعالى:

﴿يَمْوِسَ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أي: إنك من الرسل الآمنين، كما

سبق في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرًّا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ﴾ [النمل: ١٠].

فرجع ﷺ فأمسكها فعادت عصا كما كانت. ثم أراه الله تعالى معجزة ثانية:

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (٣٢).

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي: أدخل يدك في فتحة ثوبك من جهة الصدر، تخرج بيضاء تتلأأ من غير عيب.

ثم أمره تعالى بالتجلد والثبات والاستعداد لتحمل أعباء الرسالة:

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي: من الخوف والاضطراب الذي أصابك من رؤية معجزة العصا.

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: فهذا الذي رأيت برهانان أيدك الله بهما، يدلان على صدق رسالتك إلى فرعون وملئه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ إنهم كانوا متجاوزين الحدود في ظلمهم وطيغانيهم.

عرف موسى ﷺ طبيعة المهمة الثقيلة التي كلفه الحق بها، فأراد أن يستزيد من تأييده تعالى، فأظهر ضعفه، وشدة افتقاره إلى معونة ربه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ (٣٣).

أي: أخاف أن يقتلوني قبل أن أبلغهم الرسالة، وقد مر معنا وصف حادثة القتل وظروفها.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤).

أي: أرسله معي معيناً ومساعداً في تصديق رسالتي وتقوية حجتي.

واستجاب الله تعالى دعوته، وآتاه سُؤْلُهُ، وتفضّل عليه بأكثر مما سأل، وبشره بالنصر والغلبة:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنقويك بأخيك، فشُدُّ العضد تمثيل؛ لأن قوة اليد بالعضد، وهو العظم الواقع بين الكتف والمرفق، يقال في دعاء الخير: شدَّ الله عضدك. وفي ضده: قَتَّ الله في عضدك.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا﴾ أي: ونجعل لكما هيبة في قلوب الأعداء، فلا يصلون إليكما بقتل أو سوء، بسبب آياتنا ومعجزاتنا التي نؤيدكما بها.

﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ أي: الغالبون لفرعون وملئه وجنوده، والمتصرون عليهم.

● الطاغية المتأله وعاقبتها:

سكتت الآيات عن تفصيل المواجهة بين النبيين الكريمين من جهة، وبين فرعون وملئه من جهة أخرى، فقد أوردت تفصيلها في سور سابقة، كسورتي طه والشعراء، واقتصرت هنا على بيان غرور فرعون واستبداده، وكيف أنزل الله به العذاب فأهلكه مع جنوده:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبْتَغِي قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبْتَغِي قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: مخلق مكذوب. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾، وكذبوا بقولهم هذا، فالله سبحانه أرسل رسله إلى جميع الأمم، وأخبار نبي الله يوسف، الذي كان يعيش بينهم،

لا يزالون يتناقلونها، وقد ذكّرهم بها مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١٧).

أي: ربي أعلم بمن بعثه بالهدى نبياً، ووعده حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، ولو كنْتُ كما تزعمون ساحراً مفترياً، ما أرسلني؛ لأنه عليم حكيم، لا يفلح عنده الظالمون.

وحمى الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام من بطش فرعون وطغيانه - كما وعده - فلم يجروا فرعون على توجيه أي أذى لهما، ولم يتمكن هو وجنوده وأعداؤه من اختراق سلطان الله تعالى، الذي جعله لهما، وما كان منه - ليستر شعوره بضعفه وعجزه - إلا التظاهر أمام أعداؤه وجنوده بمزيد من الاستكبار والطغيان، فادّعى لنفسه صفة الألوهية، وكلفهم بناء الصروح العالية الكبيرة، التي ظنَّ أنها تبهرُ عامة الناس وتدهشهم، وتجعلهم يصدقون ادعائه، ويشعرون بالخوف والرهبة من قوته وبطشه، وهو شأن الفراعنة المستبدين في كل مكان وزمان، يرهقون شعوبهم بإقامة الصروح الكبيرة الضخمة، التي لا تحتاج إليها الأمة، والتي تستهلك طاقتها، وتستنزف خيراتها؛ إرضاء لغرورهم وتكبرهم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٨).

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ هكذا ادعى لنفسه صفة الألوهية، ونفاها عن غيره، وهذا يدل على استكباره وغروره أولاً، ويدل

ثانياً على استخفافه لعقول قومه، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ^٤ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولا بد أن فرعون يعلم في قرارة نفسه أنه يكذب على قومه، وأن كثيراً منهم لا يصدقونه، فأراد التظاهر أمامهم بمظهر الباحث عن الحقيقة، فأصدر أمره إلى وزيره الأول هامان، لينشئ له صرحاً كبيراً مرتفعاً، يصعد فيه باحثاً عن الإله الذي يدعو إليه موسى.

﴿فَأَوْفَىٰ لِي بِهِمَّنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ أي: اصنع الآجر من الطين المشوي في النار، وابن لي صرحاً. والصرح: هو البناء المكشوف العالي، من: صرح الشيء إذا ظهر، ويطلق على القصر الكبير، كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٣].

﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَأَسْتَكْبَرَهُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: وهم لا يستحقون الاستكبار، فالاستكبار بالحق لله تعالى وحده، فهو المتكبر في الحقيقة، وكل مستكبر سواه استكباره بغير الحق^(١)، قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الباقية: ٣٧].

ومن أسمائه الحسنى: المتكبر، أي: العظيم ذو الكبرياء، المتعالي عن صفات الخلق، أو المتكبر على الطغاة المتكبرين من خلقه.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَهًا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: للحساب والجزاء، وهذا يدل على أن انسلاخ الإنسان عن الشعور بمسؤوليته أمام الله تعالى، يؤدي إلى طغيانه وفساده وضلاله، كما تقدم تفصيل ذلك في سورة الفرقان.

ثم أجملت الآيات بيان عاقبة الاستكبار والاستبداد والطغيان:

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ۝٤٠﴾

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي: ألقيناهم في البحر وأغرقناهم فيه.
والنبدُ: إلقاء الشيء الحقيق وطرحه، لقلة الاعتداد به، وفيه فخامة وتعظيم
لشأن الآخذ، واستحقار للمأخوذ^(١)، فما أهونهم على الله تعالى!
هكذا باختصار حاسم: أخذ شديد، ونبد في اليم كما تُبذ الحصاة، أو كما
يُرمى الحجر في اليم الذي ألقى في مثله موسى الطفل الرضيع، فكان مأمناً
وملجأً له، بينما جعله الله هلاكاً وعذاباً للطاغية وأعوانه وجنوده.
﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: انظر نظر المعبر، ويُنْه للناس
ليعتبروا ويتعظوا.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ ۝٤١﴾

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾ أي: وجعلنا فرعون وكبار أعوانه
وحاشيته، رؤساء ضلال وقادة كفر، يضلون الناس ويوصلونهم إلى النار، كما
قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَّسَّ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾
[هود: ٩٨].

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ﴾ أي: لا يمنعون من العذاب.

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: لعنة تلازمهم، فكلما ذكرهم الناس،
تذكروا ظلمهم وبغيهم فلعنوهم.
﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من الذين يقبحُ الله وجوههم ويسودها.

هكذا كانت عاقبة الطاغية المتجبر المتأله، أما نبي الله موسى عليه السلام، فقد تابعت عليه رحمة الحق جل وعلا، وتوالت عليه أفضاله ونعمه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٣).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة التي نزلها الله عليه مكتوبة في الألواح.
 ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: من بعد ما أهلكنا المكذبين من الأمم والأجيال السابقة، تبصّر الناس بالحق، وتميزه عن الباطل.
 ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: وجعلنا فيها أسباب الهداية ونزول الرحمة، لعلهم ينتفعون بها، ويتعظون بأحكامها.

وهذا يدل على حاجة المؤمنين الناجين من الهلاك إلى التشريع الإلهي؛ لينبوا حياتهم على أساسه القوي المتين، ويسيروا على ضوء منهجه المستقيم، فلا يكفي التخلص من الطغاة الظلمة، لا بد أيضاً أن يتخلصوا من قوانينهم الجائرة الفاسدة، والشرعية الإلهية هي وحدها التي تأخذ بيد البشرية، لتعمر الأرض بالعدل والحق، وهي وحدها التي تصحح المسيرة البشرية، بعد أن انحرفت على يد الطغاة والظلمة إلى سبل الهلاك والدمار.



الْفَصْلُ الثَّانِي

التَّعْقِيبَاتُ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
وَفِرْعَوْنَ وَمَلَيْهِ

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٤٤) ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَّاعُولًا عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْأُطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَةً مِّنْ رَبِّكَ لِتُدْخِلَ قومًا مَّا آتٰهُم مِّنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ يَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُوبَ مِنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٩) ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٥٠) ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢) ﴿وَإِذَا بَلَغَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (٥٣) ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَعْرَهُم مَّرَاتٍ يَمَّا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَفَعْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٥٤) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِيَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٥٥) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُحْطَفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْعَلْ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَمِنْكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَعْدِهَا إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (٥٨) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا

عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُرْسِلْتُ مِن شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّنَعْنَاهُ مَنَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا أَغْوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَجِئْتُمُ بِالْأَنْبَاءِ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَيَأْتِيهِ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِأَلَّا يَدْعُوا شُرَكَاءَهُمْ فَادْعُوا شُرَكَاءَهُمْ فَزَادُوا كُفْرَهُمْ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٦٨﴾ وَلِلَّهِ يَوْمَئِذٍ سُدُورُهُمْ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحُكْمُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيئًا أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَلِيلًا فَتَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَاتُوا بِرُءُسِهِمْ فَعَلِمُوا أَنَّنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

• ضرورة البعثة المحمدية:

شرعت الآيات بالتعقيبات بعد أن ختمت قصة موسى وفرعون، وبيان الدروس والعبر المستفادة منها، وجاء أول تعقيب بيِّن صدق النبي ﷺ، وصحة رسالته، من خلال توجيه الخطاب إليه مباشرة:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ .

أي: ما كنت بالجانب الغربي من جبل الطور عندما أوحينا إلى موسى،

وما كنت أيضاً من الشاهدين؛ فتشاهد ما جرى لموسى، وكيف ناداه الله تعالى، وكلفه بحمل الرسالة.

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ؕ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ؕ﴾ (٤٥)

﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: ولكننا أنشأنا أجيالاً بعد موسى، مرَّ عليهم زمن طويل، اندرست في أثنائه الشريعة الإلهية، وتغيَّرت أحكامها، وابتعد الناس عن ذكر الله وطاعته، واحتاجوا إلى رسولٍ يدعوهم إلى الله تعالى، ويصحح مسيرتهم، فأوحينا إليك، وأعلمناك ببعض قصص الأنبياء وأخبارهم، ومنها قصة موسى عليه السلام.

فكأنه سبحانه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكننا أوحيناه إليك، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة، ودل به على المسبب اختصاراً، فإذا هذا الاستدراك شبيه ما سيأتي بعده، وهذا تنبيه على المعجز، كأنه قال: إن في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة، ولا تعلم من أهله، دلالة ظاهرة على نبوتك^(١).

﴿وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ؕ إِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَابِتًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ؕ﴾ أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين ورسولاً إليهم، تتلو عليهم آيات الكتاب، ولكننا كما كنا مرسلين في كلِّ زمانٍ رسولاً، أرسلناك للناس كافة عندما أصبحوا في أمس الحاجة إلى رسالتك.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤٦)

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: عندما نادينا موسى.

﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أرسلناك للرحمة، فالله تعالى أراد رحمة عباده فأرسلك إليهم، كما في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

فهذه الاستدراكات الثلاثة المتوالية في الآيات، اتجهت كلها لتأكيد صدق رسالة النبي ﷺ، وحاجة الناس إليها:

﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أتاهم من نبي قبلك منذ زمن عيسى، لعلهم يتعظون ويهتدون.

فمن المعلوم أن رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت بعد فترة انقطاع وتوقف للوحي، دامت زهاء ستة قرون، ضلّت في خلالها البشرية ضلالاً كبيراً، قال تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَذِّبُ فَدَّ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

فببعثته ﷺ انقطعت الأعذار، وأقيمت الحجج على الناس، فإذا ما أنزل الله بهم عقوبة ونقمة بسبب ضلالهم وكفرهم، لا يستطيعون الاحتجاج والاعتذار بجهلهم للحق، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

أي: هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل أن تعذبنا على كفرنا، يبلغنا آياتك فتتبعها ونكون من المصدقين بها.

ف ﴿لَوْلَا﴾ الأولى امتناعية، والثانية تحضيضية واقعة في سياقها، والمعنى: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ما أرسلناك، إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجة عليهم^(١).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْرُجَ﴾ [طه: ١٣٤].

• تَعَنَّتْ وَعَنَادَ:

وبعد أن أكدت الآيات صدق النبي ﷺ، وضرورة بعثته، وحاجة الناس إلى رسالته، أظهرت عناد المعاندين لرسالته وبعثته بقوله سبحانه:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ مِّنْ هَٰؤُلَاءِ شَرِيعَةٌ﴾ [٤٨].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أي: فلما بُعِثَ محمد عليه الصلاة والسلام، قال المعاندون: هلا أُوتي من المعجزات ﴿مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ كالعصا واليد البيضاء.

وردَّ الله تعالى عليهم فقال:

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: أولم يكفر هؤلاء المعاندون المقترحون للمعجزات بما أُعطي موسى من قبل؟!.

ولا شك أن الذين اقترحوا المعجزات هم كفار مكة، والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا في زمانه، إلا أنه تعالى جعلهم كالشيء الواحد؛ لأنهم في الكفر والتعنّت كالشيء الواحد، وقد يكون المراد كفار قريش، إذ كانوا منكرين لجميع النبوات، ولا غرض لهم من طلب المعجزات إلا التعنّت والعناد^(١).

﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: قال الجاحدون لرسالتي موسى ومحمد ﷺ: هما سحران تعاونتا بتصديق أحدهما الآخر. وقرئ: (ساحران تظاهرا).

﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ مِّنْ هَٰؤُلَاءِ شَرِيعَةٌ﴾ أي: بكل منهما كافرون.

وردَّ الله تعالى عليهم بأسلوب التحدي الذي يتناسب مع عنادهم وتعتهم، فقال:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَنِيعَهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: إن كنتم صادقين في ادعائكم أنهما ساحران.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْلُوهٗ قَرِاطِيسَ بُدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٥١﴾﴾ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا [الأنعام].

وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب، أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء، فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، وهو القرآن الكريم، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام^(١).

وعجزوا عن الاستجابة للتحدي الذي لا يزال قائماً، ولا يزال المعاندون لرسالة القرآن الكريم عاجزين أيضاً عن تحديه، وسجّل الله تعالى عجزهم، وكشف معه سبب عنادهم وتعتهم فقال:

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فأهواؤهم شهواتهم، وهي التي تقودهم إلى سبل الضلالة، وتجعلهم يعاندون الحق ويعرضون عنه. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: ولا أضل ممن اتبع هواه، وانهمك بشهواته، معرضاً عن دلائل الهدى التي أنزلها الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم في اتباع أهوائهم، وأعرضوا عن الآيات الهادية إلى الحق المبين.

فضلالهم نابعٌ من أنفسهم، ومن اختيارهم وكسبهم، لا من غموض في الرسالة، أو قصور في التبليغ، فلقد وصلتهم رسالته تعالى، وهي ظاهرة مفصلة في أدلتها وأحكامها:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ﴿٥١﴾.

أي: وصلنا لهم آيات القرآن الكريم، وبلغتهم متابعة متواصلة، في وعدها ووعيدها، وحججها وبراهينها، لعلهم يتعظون بها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩].

• المؤمنون من أهل الكتاب:

ولا تخلو البشرية في أجيالها المختلفة، من عناصر خيرة كريمة، تنقاد للحق وتذعن له، أولئك الذين يعمرون الأرض بطاعة الله تعالى وعبادته، ويحققون حكمته في خلق المكونات، وإبداع الموجودات، وقد تحدثت الآيات عن هؤلاء المؤمنين، أتباع الأنبياء والمرسلين:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلَسْنا بِكُتُبٍ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾.

أي: هم بالقرآن يصدّقون، فهم الصالحون من بقايا أهل الكتاب، الذين ظلوا متمسكين بتعاليم الأنبياء السابقين، فلم يغيّروا، ولم يبدلوا، وبادروا عند بعثة النبي ﷺ إلى تصديقه والإيمان به، كالنجاشي ومن أسلم معه من نصارى الحبشة، وعبد الله بن سلام، وزيد بن سعة، من أحبار يهود المدينة، وسلمان الفارسي.

﴿وَإِذَا يُنَالِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: إنا كنا من قبل نزول القرآن مسلمين لله تعالى، ننتظر بعثة خاتم الأنبياء، الذي بشر به جميع الأنبياء والمرسلين.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: أولئك الموصوفون بهذه الصفات، يؤتون أجرهم مرتين، بسبب ثباتهم على الإيمان الصحيح، مرةً على إيمانهم بكتابهم، ومرةً على إيمانهم بالقرآن الكريم.

وفي الحديث: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ فَاَمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَةٌ فَغَذاها فَأَحْسَنَ غَذاها، ثُمَّ أَدَبَها فَأَحْسَنَ أَدَبَها، ثُمَّ أَعْتَقَها وَتَزَوَّجَها، فَلَهُ أَجْرَانِ» [رواه مسلم (١٥٤)].

ومن الصفات الكريمة التي يتصفون بها:

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: ويعفون عن المسيء إليهم، ويقابلون إساءته بالإحسان.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: في مختلف وجوه الخير والبر المشروعة.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: فهم لا يخالطون أهل الباطل واللهو والعبث، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي: قالوا لمن يكلمهم

كلاماً قبيحاً كلاماً حسناً طيباً، يدل على المسامحة والمشاركة والإعراض عن مخالطة الجاهلين.

ورأى بعضهم أن هذه الآيات نزلت في وفد من نصارى الحبشة، قدموا على النبي عليه الصلاة والسلام في مكة، فسمعوا القرآن الكريم منه، واستجابوا لله، وآمنوا به، فلمّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام ونفرٌ معه، فقالوا لهم: خيَّبكم الله من ركبٍ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئنّ مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نرى ركباً أحقّ منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه^(١).

• هداية التوفيق وهداية البيان:

ومن المعلوم أن أشدّ الناس عناداً لدعوته عليه الصلاة والسلام وإعراضاً عنها، كانوا من قبيلته وعشيرته في مكة المكرمة، وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً حرصاً شديداً على هدايتهم، يتألم من إعراضهم، ويأسف لعنادهم، فأنزل سبحانه عليه:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦).

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: إنك لا تهدي هداية التوفيق إلى الإسلام من أحببت من الناس، أو من أحببت هدايته، ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام يحبُّ هداية الناس جميعاً، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: من يشاء هدايته، فيشرح صدره للإسلام، ويوفقه للدخول فيه.

فهداية البيان والتبليغ للنبي ﷺ، وأما هداية التوفيق فللله تعالى، ومنوطة

بمشيئته، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فلا منافاة بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] لأنّ التي نفاها هداية التوفيق وشرح الصدر، والتي أثبتتها هداية الدعوة والبيان^(١).

والله سبحانه عليم حكيم، يعلم أين يجعل هدايته وتوفيقه، ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: المستعدين للهداية، وسبق أن مر معنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

واتفقت الروايات على أنّ هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نزلت في أبي طالب عمّ رسول الله ﷺ، قال ابن حجر رحمه الله: «لم تختلف النقلة في أنّها نزلت في أبي طالب»^(٢).

فعن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لا إله إلا الله، كلمة أحاجّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال رسول الله ﷺ: «لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عَنْكَ» فأنزل الله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. [رواه البخاري (٤٧٧٢)].

وعن أبي هريرة رحمه الله: أن رسول الله ﷺ قال لعمة: «قُلْ: لا إله إلا الله،

(١) غرائب القرآن: ٥٨/٢٠.

(٢) فتح الباري: ٥٠٦/٨.

أشهدُ لك بها يومَ القيامةِ» قال: لولا أن تعيّرني قريشٌ، يقولون: إنّما حمّله على ذلك الجزعُ، لأقررتُ بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾. [رواه مسلم (٢٥)].

• شبهة مردودة:

ومن الشبهات التي كان مشركو مكة يتشبثون بها سترًا لعنادهم وتعنتهم ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله:

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهَدْيِ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ نَمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهَدْيِ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: إن اتبعناك نخرج من أرضنا، ونشرد عن بلدنا؛ لأن العرب تغزونا وتتألب علينا.

وهذه الشبهة يرددها في العصر الحاضر أيضاً المعارضون لتطبيق الشريعة الإسلامية، فهم يخافون من غضب الدول الكافرة عليهم، ومقاطعتهم اقتصادياً، ومنع المساعدات وما يسمونه التقنية الحديثة عنهم، مع أنهم في الحقيقة يحتاجون إلينا أكثر مما نحتاج إليهم، يحتاجون إلى المعادن والكنوز التي جعلها الله في بلادنا، كما يحتاجون إلى تصريف بضائعهم في أسواقنا، ولكنه الخور والعجز والتقليد الأعمى لهم، وقد رد سبحانه عليهم بتذكيرهم بفضله، وأن الأمن والرزق والقوة كلها منوطة بمشيئته تعالى وقدرته:

﴿أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ نَمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ أي: ألم نجعلهم يسكنون في حرم الله الآمن، الذي تجلب إليه الأطعمة والبضائع من كل أرض وبلد؟! وكل ذلك بتيسير الله تعالى لتكون رزقاً لهم، فقد كان العرب في الجاهلية يغزو بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، بينما كان أهل مكة يعيشون آمنين بجوار بيت الله الحرام، يتمتعون بالرزق الوفير، والمال الكثير، الذي تدره عليهم تجارتهم في أسواق الحرم الآمنة.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكن أكثرهم جهلة، لا يتفطنون لفضله تعالى عليهم، فكأنه تعالى يقول لهم: أفيقل أن أمنع عنكم الأمن والرزق إن عبدتموني وأطعتموني، وأنا أومنكم وأرزقكم وأنتم مشركون بي؛ لأنكم تقيمون في جوار بيتي؟! وهو المعنى الذي ذكرهم به مباشرة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ٥٢ أَلَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿قريش﴾.

وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَأْمِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَ الْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

واستمرار تمتعهم بالأمن والرزق، منوطٌ بشكرهم لله تعالى وعبادته وحده، لا بكفرهم وفجورهم، وما أكثر الشواهد والوقائع المؤكدة لهذه الحقيقة، وهو ما ذكرتهم بها الآية الكريمة:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بِطَرَتِ مَعِيشَتَهَا فَنَلَّكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُشْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ٥٨.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ بِطَرَتِ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: ما أكثر الأمم التي كانت تتمتع بالأمن والرزق، كفرت بنعم الله تعالى عليها، وطغت وبغت، فدمرها الله تعالى.

﴿فَنَلَّكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُشْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وهذه مساكنهم لا تزال آثارها باقية، لم يسكنها أحد بعدهم، إلا المارة والمسافرون.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: فلم يتركوا بعدهم وارثاً يرث ديارهم وأموالهم، مما يدلُّ على أن الله أنزل بهم عذاباً استأصلهم وقطع دابرهم.

● أعقل الناس:

ومن سننه سبحانه في خلقه، ألا يهلك أمة حتى يرسل إليها رسولا، يدعوها إلى طاعته، ويحذرها من نقمته، كما أرسل موسى إلى فرعون وقومه:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يُلَوِّا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ (٥٩).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يُلَوِّا عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾ أي: حتى يبعث رسولا في المدينة المركزية التي تتصل بها المدن الأخرى وترجع إليها. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ أي: مستحقون للإهلاك بسبب ظلمهم وطغيانهم وإعراضهم عن دعوة رسولهم.

وتدل الآية على عموم رسالة نبينا ﷺ، الذي بعث في أم القرى مكة المكرمة، التي هي أم جميع القرى ومركزها، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

فهي بلد الله الحرام، سرة الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها تقع في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية^(١).

ثم توجهت الآيات تخاطب المعرضين عن رسالة النبي ﷺ مباشرة، تزهدهم بالدنيا، وتبين لهم حقارتها، بالنسبة لما أعد الله تعالى للمستجييين لدعوته من النعيم المقيم:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٠).

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا﴾ أي: وما أُوتِيتُمْ من أي شيء دنيوي فهو حقير زائل، تتمتعون به، وتزينون بزيئته زمناً يسيراً.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: وما عنده تعالى في الآخرة من أنواع

(١) انظر: (بصائر الحق في سورة الأنعام) وهو ما سُمِّي به تفسير سورة الأنعام في تفسيرنا الموضوعي هذا.

النعيم خيراً في نفسه؛ لأنّه خالص من أي كدر، وهو أبقي لا يزول ولا يفنى، أفلا تعقلون؟.

ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال: مَنْ أوصى بثلث ماله لأعقل الناس، صُرف إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى؛ لأنّ أعقل الناس مَنْ أعطى القليل، وأخذ الكثير^(١).

وأضافت الآيات بعد هذه المقارنة بين الأشياء مقارنةً أخرى بين الأشخاص:

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَئِيهِ كَمَا مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾^(٦١).

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً﴾ أي: وعدناه الجنة ونعيمها؛ بسبب إيمانه وصلاحه. ﴿فَهُوَ لَئِيهِ﴾ أي: فهو مدركه لا محالة؛ لاستحالة الخلف في وعده تعالى، ولهذا جيء بالجملة الاسمية المفيدة لتحقيقه البتة، وعطفت بالفاء المنبئة عن السببية^(٢).

﴿كَمَا مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أي: كمن متعناه المتاع الدنيوي الحقير الزائل، المشوب بالمنغصات والأكدار، ثم نجعله يوم القيامة من المحضرين في العذاب.

وفي كلمة ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾ ما يشعر بالإكراه والإلزام، ولهذا كرر في عدد من الآيات بالنسبة للمعذبين في جهنم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصفات: ٥٧].

وقوله سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصفات: ١٢٧].

• براءة وحسرة:

وعندما يُحضرون في العذاب، يقرعون ويوبّخون بنداءات توجّه إليهم:

(١) التفسير الكبير: ٧/٢٥.

(٢) روح المعاني: ٩٩/٢٠.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

أي: الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الألوهية واستحقاق الطاعة والعبادة. ويسارع رؤساء الكفر والضلال إلى الجواب؛ لتفطنهم إلى أن السؤال عنهم:

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: تحقق عليهم القول باستحقاق العذاب، وتحقق مؤداه وثبت.

﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي: هؤلاء الذين دعوناهم إلى الضلال وزيناه لهم. ﴿أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: أضللناهم باختيارهم وكسبهم، كما ضللنا نحن باختيارنا وكسبنا، فما أجبرناهم وما قهرناهم.

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: مما اختاروه من الضلال والكفر.

﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي: ما كانوا في الحقيقة يعبدوننا ويطيعوننا، إنما كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم.

هكذا يعلن رؤساء الضلال والكفر يوم القيامة براءتهم من أتباعهم، ويلقون بالتبعة عليهم، فيزداد الأتباع حسرة وألماً.

وهذا ما يفعله الشيطان رأس رؤساء الضلال والكفر أيضاً، عندما يخطب في أهل النار: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويتكرر نداء التقرير والتبكي كلما زيد في عذابهم، وصب عليهم لون جديد من ألوان العذاب:

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ﴾ أي: فدعوههم مرة ثانية رغم ما سمعوا من براءة الشركاء منهم، فالقوم في حيرة وذ هول من شدة العذاب.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لانشغالهم بعذابهم وآلامهم، وعندئذ يرجعون إلى أنفسهم لائمين متحسرين، وهم يرون العذاب يصب عليهم.

﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: يا ليتهم كانوا في الدنيا يهتدون، فما أشد حسرتهم! حقاً إنَّ يوم القيامة هو يوم الحسرة والندامة.

ويتكرر نداء التوبيخ والتقريع مرة ثالثة، ويسألون في هذه المرة عن دعوة المرسلين وموقفهم منها:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ .

أي: خفيت عليهم الأخبار من الهول والفرع، فلم يتمكنوا من استحضارها وتذكرها، أو صارت الأنباء كالعمى عليهم، لا تهتدي إليهم.

وأصله: فعموا عن الأنباء، لكنه عكس مبالغة، ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج، فإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره^(١).

فلا يسأل بعضهم بعضاً؛ لأنهم متساوون في الذهول والحيرة والعجز عن الجواب.

ولما فرغت الآيات من تهديد الكفار ووعيدهم، ألحقت به ذكر المؤمنين التائبين؛ لتتم المقابلة والمقارنة:

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: فعسى أن يفوز بالفلاح والخلود في جنات النعيم.
ومر معنا أن (عسى) من الكريم، تفيد التحقيق، ففي الآية بشارة كبيرة للمؤمنين، وحث على التوبة والإنابة والعمل الصالح.
● طلاقة مشيئته تعالى وكمالها:

ثم أخبرت الآيات عن كمال إرادته ﷻ وطلاقة مشيئته:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: وربك يخلق ما يشاء خلقه باختياره، فلا يخلق شيئاً بغير اختيار، لإرادته جل وعلا طليقة.
﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً، وله الخيرة عليهم. فالخيرة بمعنى التخير، كالطيرة بمعنى التطير، ولم يدخل العاطف في ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ لأنه بيان لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ إذ المعنى: أن الخيرة لله، وهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه^(١).

فما عليهم إلا الرضا بحكمه القُدري، والإذعان لأمره التشريعي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولا شك أن الخير فيما يختاره الله تعالى، فهو العليم الحكيم، يدبر أمر مخلوقاته على أكمل الوجوه وأدق الحكم، وقد أكدت هذه الآية ما سبق تقريره ضمناً في أول السورة: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

فلقد تمت إرادته تعالى، وتحققت مشيئته بإهلاك فرعون، وإزاحته عن سلطانه عندما تعلقت إرادته بذلك.

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: يتنزه عن أن يكون لأحد عليه اختياراً أو اعتراض، ويتعالى عن شرك المشركين، وتأله الطغاة المستبدين.

وأفادت الآية أنَّ على العبد أن يردَّ الأمور كلها إلى الله، ويتبرأ من كل حول وقوة، ويسأل ربه التوفيق والسداد في جميع أموره.

ولهذا علَّم النبي ﷺ أصحابه الاستخارة، ففي الحديث: عن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إِذَا هُمْ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدِرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدِرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ» قال: «وَيَسْمِي حَاجَتَهُ» [رواه البخاري (٦٣٨٢)].

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

أي: يعلم ما تخفي صدورهم من خواطر وأفكار وما يظهرون، فله تعالى كمال العلم، وله تعالى الاختيار لكمال علمه وقدرته، وليس لهم أن يختاروا عليه؛ لضعفهم وجهلهم.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي: وهو الله المستحق

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أي: وهو الله المستحق

للعبادَة وحده، وله الحمد في الدنيا والآخرة؛ لأنه هو الفاعل والمختار، المتصف بصفات الكمال والجلال، المستحق للحمد الدائم المستمر أزلاً وأبداً.

﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: وله أيضاً القضاء النافذ في كل شيء، فهو الفَعَّال لما يريد، مشيئته تامة نافذة في ذرات الموجودات، وله الأمر والتشريع، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال أيضاً: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإلى حكمه وقضائه ترجعون يوم البعث والنشور.

• من آثار رحمته تعالى:

ثم عرضت الآيات ظاهرةً كونية، تدلُّ على كمال قدرته تعالى، وتتمام حكمته، وطلاقة إرادته، وتدلل أيضاً على شدة حاجة العباد إلى فضله تعالى ورحمته، وشدة افتقارهم إلى تدبيره واختياره، ولهذا سلكت أسلوب الاستفهام التقريري:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: أخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائماً إلى يوم القيامة.

﴿مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: سماع فهم واتعاظ وتذكر. فالذي أبدع وأحكم نواميس تقلب الليل والنهار، قادر على تغييرها، وجعلها ليلاً دائماً، كما أنه قادر على جعلها نهاراً دائماً أيضاً، فأرادته جل وعلا طليقة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢).

أي: أفلا تبصرون ما أنتم عليه من ضلال وجحود، فتستندركوا ما يجب

عليكم استدراكه، وتبادروا إلى التصديق والإذعان.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾.

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لتناموا في الليل، ولتبتغوا من فضله تعالى في النهار.

﴿وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تدركون أنَّ هذه النواميس الكونية، أثر من آثار رحمته تعالى بكم، فتشكرونه تعالى على نعمه وإحسانه، وتقبلون على طاعته وعبادته وحده.

وتنقلهم الآيات فجأةً من تخيلٍ هول اضطراب النواميس الكونية في الدنيا، وما يحلُّ بهم لو استمرَّ الليلُ بظلامه، أو النهار بضياءه، إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة:

﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٧٤﴾.

وهي المرة الرابعة التي تحكي الآيات فيها مثلَ هذا النداء، فالإشراك بالله أخطر أنواع الكفر والجحود.

وأضافت الآيات إلى هذا النداء هنا، شهادة كل نبيٍّ على أمته يوم القيامة بأنه بلغها الرسالة، وأقام عليها الحجة:

﴿وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾.

﴿وَزَعَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: نبيًّا يشهد على أمته، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم عليه من طغيان وشرك وفساد.

﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: فعلموا حينئذٍ أنَّ الحقَّ

لله وحده، فهو سبحانه الحق، ودينه دين الحق، وغاب عنهم ما كانوا يفترون في الدنيا من الضلال والكذب.

وبهذا التقرير الصريح، ختمت الآيات تعقيباتها على قصة موسى وفرعون، ولا يخفى على القارئ شدة تناسقها، مع الدعوى الكبيرة في ضلالها، الصادرة عن فرعون وجنوده، والتي كانت أساس علوه وطغيانه واستكباره، حتى من الله تعالى على المستضعفين المظلومين بموسى وأخيه هارون عليهما السلام، مما يدل على أن رسالات الأنبياء، كانت ولا تزال كهف البشرية، الذي يحميها من ظلم الظالمين واستبداد المستبدين، وطغيان الفراعنة المتألهين.



الفصل الثالث قِصَّةُ قَارُونَ

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآيَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاحِمَهُ لَسَتْ بِأَلْعَصَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤُبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا لَنَا مِنْ مِثْلِ مَا آتَاكَ قَرُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْصَّادِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

• كنوز قارون:

ولما فرغت الآيات من التعقيبات على قصة موسى وفرعون، باشرت عرض قصة أخرى لنوع آخر من الطغيان، وهو طغيان المال وما يؤدي إليه من ظلم وفساد واستبداد.

وقعت أحداث هذه القصة في المجتمع الإسرائيلي، على عهد موسى ﷺ، فقد ذكر تعالى قارون مع فرعون في آية واحدة، فقال سبحانه: ﴿وَقَرْنُوكَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَكَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً﴾ [العنكبوت: ٣٩].

فبين القصتين اتصالاً وثيقاً في الزمان والمكان، وبينهما أيضاً تقارب وتشابه في الموضوع وكثير من الأفكار.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٦).

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: ظلمهم واستطال عليهم، وبغى الأقارب بعضهم على بعض كثير الوقوع، وينشأ أكثره من الحسد، وكلمة البغي شديدة الصلة بالحسد.

أخرج ابن أبي حاتم بإسناد صحيح: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان موسى يقول لبني إسرائيل: إن الله يأمركم بكذا، حتى دخل عليهم في أموالهم، فشق ذلك على قارون، فقال لبني إسرائيل: إن موسى يقول: من زنى رُجم، فتعالوا نجعل لبغي شيئاً، حتى تقول: إن موسى فعل بها، فيرجم فنستريح منه. ففعلوا ذلك، فلما خطبهم موسى قالوا له: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، فقالوا: فقد زينت! فجزع، فأرسلوا إلى المرأة، فلما جاءت عظم عليها موسى، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل إلا صدقت، فأقرت بالحق، فخر موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه: إني أمرت الأرض أن تطيعك، فأمرها بما شئت، فأمرها فحسفت بقارون ومن معه^(١).

ويبدو أن قارون حسد موسى وهارون رضي الله عنهما على منزلتهما الرفيعة في بني إسرائيل، فكان يتمنى أن تكون له هذه المنزلة، واستعان بأمواله الطائلة لتحقيق

هذه الأمنية، فأحاط نفسه بالخدم والحشم، واتخذ أنواع الزينة الفاخرة الكثيرة، ليدير أعناق الناس إليه، ويصبح محط أنظارهم، وموضع إعجابهم وتقديرهم، ولا شك أن كثرة الأموال تدفع أصحابها إلى طلب الوجاهة والظهور في مجتمعاتهم، وقد أعطى الله قارون أموالاً كثيرة، حتى قال في بيان كثرتها:

﴿وَأَيُّنْتُهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ أي: وأعطيناه من الأموال المدخرة ما إن مفاتيحها لتثقل الجماعة الأقوياء من الرجال، وهذا يدل على كثرة هذه الأموال وتنوعها.

• الوسيلة والغاية:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ أي: اذكر إذ قال لقارون الناصحون من قومه، ولا شك أنهم موسى وهارون، ومن معهما من أهل الصلاح والتقوى في المجتمع الإسرائيلي.

﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح فرح البطر والكبر، فرح الذي يستخفه المال فيجعله يتكبر على عباد الله، إن الله لا يحب المتكبرين البطرين، فلا يفرح بالدنيا إلا من اغتر بزخارفها وزينتها، ورضي بها واطمأن إليها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غِفْلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ إِلَّا مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس].

وعدم محبته تعالى كافٍ في الزجر عما نهى عنه، فالفرح بالدنيا مذموم شرعاً ما دام يبعُد الإنسان عن الله تعالى، ويشغله عن ذكره وطاعته.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧).

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: اطلب بما أعطاك الله، الفوز في الدار الآخرة.

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: ولا تترك نصيبك من الدنيا، الذي أحله الله تعالى، من المآكل والمشارب والملابس، وسائر أنواع المتاع الحلال،

فالدنيا مزرعة الآخرة، وممر إليها، ولهذا أحل الله تعالى للإنسان أن يتمتع بها كوسيلة إلى الآخرة، فهي ليست مقصودة بذاتها، كما قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرْضِكَ، ومن حياتك لموتك. [رواه البخاري (٦٤١٦)].

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: وأحسن في عبادة ربك وطاعته، كما أحسن إليك بما أعطاك وأنعم عليك، وذلك بأن تقرر بفضلله، وتشكره على إحسانه، وتحسن به على عباده.

﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تقصد نشر الفساد في الأرض، وتستعمل المال في غير طاعة الله تعالى، فالمال من أخطر وسائل الفساد والإفساد إذا ما أسيء استعماله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يمقتهم ويبغضهم.

هكذا رسمت الآيات لأصحاب الأموال المنهَج القويم الذي يجب عليهم أن يلتزموا به، فالمال في الحقيقة مال الله تعالى، وعليهم أن يستعملوه في طاعته، ضمن الحدود التي شرعها لهم، والتي تكفلت ببيان وظيفته الأساس، كوسيلة لاستمرار الحياة وعمرانها، وإن أي مجاوزة للحدود المشروعة، يخرج المال عن وظيفته الأساس، ويجعله وسيلة هدم للحياة وإفساد لها.

• غرور واستكبار:

ويبدو أن كثرة المال أعمت قارون عن رؤية الحقيقة، والاعتراف بفضل الله تعالى عليه:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ فَدَّ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال: إنما أعطيت هذا المال على علم عندي بطرق اكتسابه وتنميته واستثماره.

وكان قوله هذا جاء ردّاً على قول الناصحين: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] فلم يعترف بأنّ الله تعالى فضلاً عليه في تحصيل هذا المال، مما يدل على شدة غروره واستكباره.

ولم يكن قارونُ بدعاً في هذا بين أصحاب الأموال والثروات الكبيرة، فأكثرهم ينسَوْنَ فضل الله تعالى عليهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا ثَمَّ إِذَا حَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلَىٰ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وما دامت نظرته إلى ما عنده من أموال هكذا، فهو يرى أنه غير ملزم بأي منهج يقيد حرية تصرفه بماله، فلا يحق لأحد أن يملّي عليه كيف يتصرف بماله، وهي الفكرة نفسها التي تغلب على عقول كثير من أصحاب الأموال في عصرنا الحاضر، فقارون نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس من يظنّ أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثمّ فهو غير مسؤول عما يُنفق وما يُمسك، غير مُحاسب عما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حساباً، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه^(١).

وقد يكون مراد قارون من قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أنّه يرى لنفسه سابقة استحقاق لهذا المال، وأن الله ما أعطاه هذا المال إلا لعلمه باستحقاقه.

وغفل عن الحقيقة الكبيرة، وهي أنّه عبدُ الله تعالى، وأنه ليس لأحد من عبيده سبحانه سابقة استحقاق عليه، وأن كل نعمة ينعم بها الله سبحانه على أحد من خلقه، إنّما هي بمحض مشيئته وفضله وإحسانه، فسعة المال وكثرته ليست دليل الفضل؛ لأنه تعالى يعطي الدنيا لمن يحبّ ولمن لا يحبّ، كما قال: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنَا وَهُنَا مِن عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقال أيضاً يرد على المغرورين من أمثال قارون: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَنَبِينٍ﴾ ﴿سَارِعُ هُم فِي الْخَيْرَاتِ بَلَىٰ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون].

ورَدَّ اللهُ تعالى عليه هنا بتذكيره بهوانه وضعفه وعجزه، وأنَّه مهما ملك من الأموال فهو في قبضة قدرته تعالى ومشيتته.

﴿وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ وهو سؤال تعجيب وتوبيخ، بسبب اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه أنه تعالى أهلك من الأمم السابقة من هم أقوى منه وأكثر مالا.

﴿وَلَا يَسْتَلْ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لأنه تعالى يأخذهم بغتة، قبل أن يسألهم عن ذنوبهم، لهوانهم عليه، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَعْجُبُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

وقد يكون المعنى المراد نفي السؤال في الآخرة، إذ يُساقون إلى العذاب في جهنم من غير سؤال، لكثرة ذنوبهم وجرائمهم، يُعرفون بسيماهم، من اسوداد الوجوه، وزرقة العيون، قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

أو لا يُسألون يوم القيامة سؤال استعلام، فالله عليم بأحوالهم.

ومهما قيل في معنى الآية، فهي لا تتعارض مع الآيات المخبرة عن السؤال يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَفَقُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

وقوله أيضاً: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

فقد يكون المراد منه سؤال التوبيخ والتقريع، أو يكون نفي السؤال وإثباته في موقفين، والمواقف يوم القيامة كثيرة، واليوم طويل، فلا تناقض^(١).

• موكب قارون:

وبينما كان الرجل في أعلى درجات غروره واستكباره، بين خدمه وحشمه وفي زينته، أنزل الله تعالى به عذابه:

(١) روح المعاني: ١٢١/٢٠.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٩).

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي: خرج على قومه بموكب كبير حافل، تحيط به بهارُج الدنيا وزخارفها، من خدم، وحشم، ومراكب فارهة، وثياب فاخرة، وحلي ورايات وزينات.

ومن الطبيعي أن يتجمع عامة الناس ليشاهدوا مثل هذا الموكب، ولا بد أن يتمنى كثير منهم أن يكون لهم مثل ما عند قارون، من متاع وأموال وزينة، ولهذا أرشدنا النبي ﷺ في مثل هذه الأحوال، فقال: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ مِمَّنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ» [رواه البخاري (٦٤٩٠) ومسلم (٢٩٦٣)].

وزاد مسلم: «وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ».

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: قال الذين همَّهم في الحياة الدنيا وزينتها:

﴿يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: إنه ذو نصيبٍ في الدنيا كبير، فهو رجل محظوظ.

هذه هي أمنيَّة المتعلِّقين بالدنيا، الذين قصرُوا همهم عليها، فلم ينظروا إلى ما وراءها، وهي المقولة نفسُها التي يردد أمثالها في عصرنا الحاضر المبهورون بزيينة الحضارة المادية الغربية.

وأما القلَّة الصالحة المؤمنة، فلم ينظروا إلى زينة قارون، ولم يأبهوا بها، ولكنَّهم عندما سمعوا مقالة المفتونين بها، توجَّهوا إلى وعظهم، وتصحيح نظرهم، وبيان حقيقة ما عند قارون في نظر الإنسان المؤمن:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (٨٠).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: علموا حقيقة الحياة الدنيا والآخرة، وأنّ الدنيا مطية إلى الآخرة، وأنها دار اختبار وابتلاء، وليست دار نعيم وبقاء، وهذه حقيقة لا يعلمها إلا المؤمنون الصالحون:

﴿وَيَلَكُمْ﴾ وهي كلمة دعاء بالهلاك، ثم شاع استعمالها للزجر.

﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: لا تتمنوا أن يكون لكم مثل ما لقارون، فثواب الله في الآخرة للمؤمن الصالح خير مما تتمنونه، فهذا عَرَضٌ زائل، لا يخلو من كدر وهمّ وعناء، ويعرّض صاحبه لمسؤولية جسيمة يوم القيامة، فهو مسؤول عن اكتسابه وإنفاقه.

ففي الحديث الشريف: عن أبي بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ» [رواه الترمذي (٢٤١٧) وقال: حسن صحيح].

﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ أي: ولا ينال ثواب الله وما يؤدي إليه من الوصول إلى المرتبة الرفيعة في الجنة إلا الصابرون على الطاعات وترك الشهوات.

● هلاك قارون:

وأكدت الآيات صدق مقولة أهل العلم، فبادرت بعدها مباشرة إلى الحديث عن إهلاك الله تعالى لقارون وأمواله وزينته، أنزل الله عليه العذاب، وهو في موكبهِ أمام الناس، وصُدِّرَ الكلامُ بحرف الفاء التي أفادت العطف على جملة ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [القصص: ٧٩]، وأفادت أيضاً التعقيب:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١).

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ أي: جعلنا الأرض تغور به وبداره، حتى انطبقت عليهم.

هكذا في زمن يسير أهلك الله قارون، وغاب في طيات الأرض هو وأمواله وزينته.

والجدير بالذكر أنه جاء في الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ، إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» [رواه مسلم (٢٠٨٨)].

ترى هل هو قارون الذي تحدّثت عنه الآيات؟ أم هو رجل آخر؟ الله سبحانه أعلم، لكن الآيات الكريمة والحديث الشريف دلت دلالة واضحة على أَنَّ الذي يمشي مشية المختال المتكبر، وهو معجب بثيابه وزينته، يمكن أن يخسف الله به الأرض، والجزاء من جنس العمل.

ولا بدّ أن قارون عندما شعر بأن الأرض تغور تحت قدميه، أخذ يصيح ويستغيث، ويتوسل إلى الناس، ليبادروا إلى مساعدته ونجده، ولا بد أنه أطمعهم بأمواله وكنوزه، وعرضها عليهم في مقابل معونته، ولكن أحداً لم يستجب له، ولم يجروا على الاقتراب منه، حتى أعوانه وخدمه وحشمه تخلّوا عنه خشية أن يغيبوا معه في طيات الأرض، وهذا ما أفادته الآية الكريمة، في أوّل تعقيب لها على هلاك قارون:

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: ما كان له من جماعة يمنعون عنه عذاب الله تعالى، وما كان بنفسه من الممتنعين.

وهكذا رأى الناس درساً بليغاً عملياً، وموعظة كبيرة مؤثرة، في هلاك قارون وأمواله، وخاصةً للذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما كان له من مال، فقد ظهرت لهم الحقيقة كاملة، وهي أَنَّ الرزق بيد الله تعالى، وأن سعته وقلته

بمشيئته وحده، وأن كثرة الرزق ليست دليل الفضل عنده تعالى، وأن قلته ليست دليل الهوان عليه تعالى، وأن القوة الحقيقية للإنسان ليست بكثرة ماله، إنما قوته الحقيقية بإيمانه بالله تعالى، ولقد رأينا منذ عهد قريب كيف انهارت القوة المادية الكبيرة التي أقامها الشيوعيون في جزء كبير من الأرض.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي: صار الذي تمنوا مكانه قارون منذ زمن قريب، يعترفون بخطئهم.

﴿يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: ييسط سبحانه الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء.

وكلمة (وي) تدل على التندّم والتعجب، يستعملها النادم لإظهار ندامته، والمتعجب لإظهار تعجبه.

﴿لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا﴾ وفي قراءة (لَخَسِفَ بَنَّا) أي: لولا أنه تعالى أنعم علينا بالسلامة والعافية، لخسف بنا كما خسف بقارون؛ لأننا تمنينا أن نكون مثله.

﴿وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا يفلح الجاحدون نعم الله تعالى عليهم، فالبغي عاقبته وخيمة في الأفراد والجماعات.

● الحقيقة الكبرى:

ثم قررت الآيات في ختام السورة، الحقيقة الكبرى التي برزت من قصة موسى مع فرعون، وقصة قارون مع كنوزه:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ فالدار الآخرة

هي المقصودة بذاتها، وهي الهدف الأساس، أما الدنيا فهي وسيلة إليها، فهي زائلة ومنتھية.

ولقد جعل الله الدار الآخرة للذين لا يريدون علواً في الدنيا ولا فساداً، فالله ما خلق الخلق ليظلم بعضهم بعضاً، وينشروا الفساد في البلاد وبين العباد، فالله العليم الحكيم أعلى وأجل من ذلك، فلم يخلق الخلق عبثاً وباطلاً ولعباً، ولهذا جعل الفوز بالحياة الآخرة المقصودة بذاتها مرتبطاً بما يريده الإنسان في حياته الأرضية الأولى، فكل من أراد العلو والاستكبار والطغيان، والانحراف عن أصل الحكمة التي خلق من أجلها، لا فوز له في الحياة الآخرة، فلا فوز لفرعون وأمثاله من الطغاة المستبدين؛ لأنه كما مر معنا في أول السورة [٤]: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، ولا فوز أيضاً لقارون وأمثاله، من أصحاب الكنوز المكدسة في بيوت الربا؛ لأنه بغى بأمواله على الناس، ونشر فيها الفساد.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والعاقبة الطيبة المحمودة في الدارين، للذين يخشون الله تعالى، ويلتزمون بشريعته وأحكام دينه.

ويُظهرُ الله تعالى في الدار الآخرة عدله وفضله؛ أما فضله:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي: فله خير منها في ذاتها وفي وصفها وفي قدرها. وأما عدله تعالى:

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا مثل ما كانوا يعملون في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ

الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله ﻋﻨﺪﻩ عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة» [رواه مسلم (١٣١)].



الْخَاتَمَةُ

الْغَايَةُ وَالْأَمَلُ

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي صُلْبٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

وتوجت الآيات خاتمة السورة بمخاطبة النبي ﷺ، تبشره بالظهور على أعدائه، وعودته إلى مكة المكرمة منتصراً مظفراً:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي صُلْبٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾

وقد ذكر بعض المفسرين أنَّ هذه الآية نزلت على النبي ﷺ بعد خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة، روى ابن كثير عن الضحَّاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجُحْفَةَ، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾^(١).

وفي «صحيح البخاري» [٤٧٧٣]: أن ابن عباس قال: ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى مكة.

فَالْآيَةُ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ مَغْلُوبٌ مُهَاجِرٌ مِنْ بَلَدِهِ، تَبَشِّرُهُ بِالْعُودَةِ إِلَيْهَا عَزِيزاً مُنْتَصِراً، فَلَنْ يَتْرَكَ اللَّهُ تَعَالَى مُشْرِكِي مَكَّةَ فِي بَغْيِهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، وَكَمَا مَنْ تَعَالَى عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي عَهْدِ مُوسَى ﷺ، وَخَلَّصَهُمْ مِنْ ظَلَمِ فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ، كَذَلِكَ سَيَمُنُّ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَخْلُصَهُمْ مِنْ ظَلَمِ الطُّغَاةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ، وَبِهَذَا يَظْهَرُ لَنَا الْإِتْسَاقُ وَالْإِحْتِبَاكُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي صَدْرِ السُّورَةِ: ﴿وَرُئِدَ أَنْ تُمْنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، وَبَيْنَ قَوْلِهِ فِي خَتَامِهَا [٨٥]:

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٍ﴾ أَي: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَكَ إِرَادَةُ وَكَسْبُ وَاخْتِيَارُ فِي نَزْوَلِهِ، لِرَادِّكَ إِلَى بَلَدِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ، عَزِيزاً مُنْتَصِراً، فَمَكَّةُ الْمَكْرَمَةِ هِيَ الْمَعَادُ، الَّتِي اعْتَادَهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَأَلْفَهَا وَاشْتَقَّ الْعُودَةَ إِلَيْهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْبَشَارَةَ تَخَفَّفُ مِنْ مَعَانَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ فِي طَرِيقِ هَجْرَتِهِ، وَتَقْوِي عَزْمِهِ وَتَصْمِيمِهِ عَلَى مُتَابَعَةِ الدَّعْوَةِ.

وَالْتَغْيِيرُ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ، مَبْنِي عَلَى عِلْمِهِ الْكَامِلِ وَحُكْمَتِهِ التَّامَةِ:

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الَّذِي جَاءَ بِالْهُدَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَاخْتَارَكَ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ إِلَى النَّاسِ، مِنْ غَيْرِ تَوَقُّعٍ مِنْكَ وَتَطَلُّعٍ إِلَى أَنْ تَكُونَ نَبِيًّا وَرَسُولاً:

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً
لِلْكَافِرِينَ﴾ (٨٦).

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَي: وَلَكِنْ اللَّهُ أَلْفَاهُ إِلَيْكَ، لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَرْحَمَ بِكَ عِبَادَهُ، وَيَخْلُصَهُمْ مِنْ ظَلَمِ الظَّالِمِينَ وَفَسَادِ الْمُفْسِدِينَ، وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: فلا تكونن مُعيناً للكافرين، فقد أرسلت حرباً عليهم لا معيناً لهم.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧).

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي: لا تمنعك الموانع والعقبات عن تبليغ آيات الله تعالى المنزلة عليك، فعليك أن تتجاوز جميع العقبات والموانع التي تواجهك، فطريق الدعوة مليء بالصعاب والأشواق.

﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: استمر في طريق الدعوة، ودُم عليه، وادع إلى طاعة ربك وحده، واحذر أن تكون من المشركين، فخطرهم كبير، ومكرهم شديد، ولا ينجيك منه إلا الثبات على طريق الدعوة لله تعالى، والإخلاص له وحده.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨).

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: اجعل دعوتك خالصة لله تعالى وحده، فلا يستحق العبادة والطاعة إلا هو.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: كل شيء مصيره ومآله إلى الزوال والهلاك، سواء كان من الطغاة المستبدين، أو من غيرهم، فلا يبقى إلا الحي القيوم، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: له جل وعلا القضاء النافذ في جميع المكوّنات، وإليه يوم القيامة ترجعون للمسؤولية والجزاء.

هكذا ختم الله تعالى آيات سورة القصص بهذه الوصايا الخالدة، الموجهة مباشرة للنبي ﷺ، تثبته على طريق الدعوة، فهي الكفيلة بإزاحة الطغاة

والمستبدين، وهي وحدها التي يزلزل الله بها عروشهم، وبها يزيلُ فسادهم وإفسادهم، ويخلص الناس من ظلمهم وبغيهم، وما على الدعاة إلا أن يقتدوا برسول الله ﷺ، ويستمروا في طريق الدعوة إلى الله تعالى وحده، دون يأس أو كلل أو فتور، فهي الغاية والأمل.

ومهما كانت العقبات التي يقيمها في وجوههم الطغاة والمستبدون كبيرة، فالعاقبة للمتقين، وعليهم أن يتذكروا دائماً قوله تعالى: ﴿وَرُبُّدُّ أَنْ تُكَنَّ عَلَى الدِّينِ أَسْتَضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



تفسير سورة العنكبوت الْإِنْبَاءُ وَالْوَلَاءُ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَاتِلَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلم يخلق الله تعالى المكونات عبثاً ولعباً وباطلاً، بل خلقها لحكمة، فقدّر أن تكون الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأن تكون الآخرة دار حساب وجزاء، وجعل سبحانه الابتلاء بالتكليف والمسؤولية، ويتوقف نجاح المكلفين على مدى التزامهم بالتكاليف الشرعية، وولائهم لخالقهم جل وعلا.

وإنّ اختلاف الناس في الاختيار والالتزام، يبعث بينهم اختلافاً وصراعاً، يؤدي إلى ظهور أشكال وصور أخرى للابتلاء في الحياة الدنيا.

• ويتحمّل الأنبياء ﷺ والصالحون من المؤمنين أكبر قسط من مشقات الابتلاء، وهو ما أبرزته آيات سورة العنكبوت في أولها: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣).

• كما أبرزت بعد ذلك شدة معاناة بعض الأنبياء ﷺ، وهم يقومون بواجبهم في تبليغ رسالة ربهم.

• والفائزون في الابتلاء، هم الثابتون على ولائهم لله تعالى وحده، والمخلصون بطاعته وعبادته، أولئك الذين يسدّدهم الله تعالى ويوفّقهم، ويهديهم السبل الموصلة إلى رحمته وفضله، والفوز بجنّته: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت].

• أما الخاسرون في الابتلاء، فهم المُعْرِضُونَ عن رسالة ربهم، الجاحدون لفضله وإحسانه، الموالون لغيره تعالى، فشأنهم في هذا كشأن العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت].

تلك هي الأفكار الأساس في سورة العنكبوت، وهي تتجه جميعاً إلى إبراز الحياة الدنيا وجوهرها، من خلال ما فيها من ابتلاء وولاء.

ماذا يبقى للإنسان في حياته إذا ما جعل ولاءه لغير خالقه ورازقه، وسلخ نفسه عن الشعور بالمسؤولية أمامه يوم القيامة؟! ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت].



الْفُضِيلَةُ الْإِزْنُ

ابْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَاؤُهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ حُطَّتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ حُطَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٣﴾

• ابتلاء المؤمنين:

﴿الْم ١﴾

سبق الحديث على الفواتح الحرفية لبعض السور القرآنية.

﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢)

أي: أظنَّ الناس أن يتركوا أن يقولوا: آمنا. من غير ابتلاء واختبار. والاستفهام للإنكار، ويفيدُ في الوقتِ نفسه تقرير الابتلاء للمؤمنين، فالإيمانُ ليس مجردَ دعوى يدَّعيها الإنسان، فهو انقيادٌ وإذعانٌ لله تعالى، يظهر أثرُ ذلك الانقياد بالقيام بالتكاليف الشرعية التي شرعها الحق سبحانه؛ فالإيمانُ حقيقةٌ ذاتُ تكاليف، وأمانةٌ ذاتُ أعباء، وجهادٌ يحتاجُ إلى صبر، وجهدٌ يحتاج إلى احتمال^(١). ويبدو أن فواتح سورة العنكبوت، نزلت على النبي ﷺ، تثبيتاً للصحابة ﷺ، عندما كانوا يتعرضون لأشدَّ أنواع أذى المشركين في مكة المكرمة، حتى إنَّ بعضهم كان يأتي إلى النبي ﷺ يشكو إليه ما يلقي من المشركين. فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسدٌ بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال ﷺ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمَنْشَارِ، فَيَوْضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيَمْشُطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهُ لَيَتِمَنَّ هَذَا الْأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوْ الذُّبَّ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» [رواه البخاري (٣٦١٢)].

• التمييز بين الخبيث والطيب:

والابتلاء سنة قديمة من سنن الله تعالى، جارية بمشيئته على جميع الناس، ولهذا قال تعالى بأسلوب التقرير والتأكيد:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣)

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: ابتلينا الأمم السابقة.

﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: ابتليناهم لنبين المخلصين من المنافقين، ونميز الصادقين عن الكاذبين.

فمن شكر في أيام الرخاء، وصبر في أيام البلاء، فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء، وجزع في أيام البلاء، فهو من الكاذبين^(١).

فالابتلاء تمحيص للمؤمنين، وله سبحانه كمال العلم، يعلم ما كان وما يكون، ولا يحاسب الناس على حسب ما سبق به علمه، بل يحاسبهم على حسب أعمالهم الصادرة عنهم، وكما علم سبحانه صدق الصادقين، وكذب الكاذبين قبل وقوعه، علمه أيضاً واقعاً كائناً عند حدوثه، فالتجذد في المعلوم لا في العلم، ولهذا قال بعضهم: فليعلمنه علماً شهودياً، كما كان يعلم ذلك علماً غيبياً^(٢).

وقد أكد سبحانه هذا المعنى في آيات كثيرة:

منها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾

[محمد: ٣١].

ومنها قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وكما أنه سبحانه لا يترك المؤمنين دون ابتلاء واختبار، كذلك لا يترك الكافرين دون جزاء وعقاب، وهذا ما قررته الآيات بالأسلوب السابق أيضاً، وهو أسلوب الاستفهام الإنكاري، وصدّره هنا بحرف الإضراب (أم) ليدل على أنّ هذا الحساب أبطل من الأول^(٣).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُوا﴾ أي: أظن الذين يعملون السيئات

(١) تفسير النسفي: ٣/٥.

(٢) نظم الدرر: ٣٩٠/١٤.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤/٥.

- كالكفر والمعاصي - أن يفوتونا، ويفلتوا من حسابنا وجزائنا؟!.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بشئ ما يحكمون ويظنون، فلا فوات لهم من عذاب الله تعالى، والجميع في قبضة قدرته ﷻ، وتحت قهر مشيئته، في الحياة وبعد الممات، المسؤولية وما يترتب عليها من حساب وجزاء، أمر مقدر كائن لا محالة.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾ أي: من كان يؤمن بيوم القيامة، ويرجو ثواب الله ورحمته في هذا اليوم.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ أي: فإن الوقت المقدر للقاءه لآتٍ وقادم، وإذا كان وقت اللقاء آتياً، كان اللقاء كائناً لا محالة، فعلى الإنسان أن يبادر إلى ما يحقق أمله، ويصدق رجاءه، فيصبر على ابتلائه سبحانه، ويرضى بقضائه، ويتمسك بعبادته وطاعته.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: وهو سبحانه السميع لأقوال الصادقين والكاذبين، العليم بنياتهم وطوياتهم وحقيقة أعمالهم.

● التحذير من العُجب والغرور:

﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى، فحملها على القيام بالعبادات، وكفها عن الشهوات، فإن جهاده في الحقيقة من أجل نفسه؛ لأنَّ منفعتَه ترجع إليها، وفائدته تعود عليها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إنه تعالى غني عن طاعتهم وجهادهم، فلا تنفعه طاعتهم، ولا يضره كفرهم ومعاصيهم، وما كلَّفهم بعبادته وطاعته إلا رحمة بهم، فإنَّ صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، في طاعة ربهم، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجنَّة: ١٥].

فلا ينبغي لأحد أن يغترَّ بعمله، ويعجب به، ويمنَّ به على الله تعالى، فالفضل له أولاً وآخراً، وله الحمد بدءاً وختاماً، ولقد قال تعالى لخيرته من خلقه، سيد العباد والمجاهدين، سيدنا محمد ﷺ، في بواكير ما أنزل عليه: ﴿وَلَا تَمَنَّيَنَّ تَسْكَرُ﴾ [المدثر: ٦].

وفي الحديث القدسي الشريف: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [رواه مسلم (٢٥٧٧)].

ولا ينبغي للإنسان المعافى أيضاً أن يتمنى البلاء، فقد يكون ذلك بسبب اغتراره بنفسه، وإعجابه بعمله، وهو لا يعلم ما يؤول إليه أمره، وقد يضعف عند نزول البلاء ولا يصبر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه مؤدباً ومرشداً: «لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» [رواه البخاري (٣٠٢٥)].

قال ابن بطال: حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إليه الأمر، وهو نظير سؤال العافية من الفتن، وقد قال الصديق ﷺ: «لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر. وقال غيره: إنما نهى عن تمنى لقاء العدو، لما فيه من صورة الإعجاب، والاتكال على النفوس، والوثوق بالقوة، وقلة الاهتمام بالعدو»^(١).

وكثيراً ما رغب النبي ﷺ في سؤال العافية، فعن أنس ﷺ: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الدعاء أفضل؟ قال: «سَلْ رَبَّكَ العافية والمعافاة في الدنيا والآخرة» ثم أتاه في اليوم الثاني فقال: يا رسول الله أي الدعاء أفضل؟ فقال له مثل ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث، فقال له مثل ذلك،

قال: «فإذا أُعْطِيَتِ العافيةُ في الدنيا، وأُعْطِيَتْهَا في الآخرة فقد أفلحت» [رواه الترمذي (٣٥١٢) وقال: حديث حسن].

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوذ من كثير من أنواع البلاء، فعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَالْهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغَنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ» [رواه البخاري (٦٣٦٨)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النَّبِيُّ ﷺ يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. [رواه البخاري (٦٣٤٧)].

ويمتدُّ فضله تعالى على عباده من الدنيا إلى الآخرة، فكما وفقهم في الدنيا إلى طاعته، وأعانهم على عبادته، يتفضل عليهم في الآخرة، فيتجاوز عن سيئاتهم، ويضاعف ثواب حسناتهم:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧)

أي: لنجزينهم جزاء أحسن أعمالهم.

● الابتلاء بمعارضة الوالدين:

وقد يُبتلى الإنسان ويختبر بأحب الناس إليه وأقربهم منه، فماذا يفعل؟ وكيف يتصرف لكي ينجح في مثل هذا الاختبار؟

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرَجِعِكُم فَأُنَظِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨)

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: وصيناه بوالديه إيصاء حسناً، فأمرناه برعايتهما وبرهما والإحسان إليهما، ولو كانا كافرين، فالإسلام دين التواصل والتراحم والوفاء.

وفي الحديث الشريف: عن أسماء رضي الله عنها قالت: قَدِمْتُ أُمِّي وهي مشركة - في عهد قريش ومُدَّتْهم إذ عاهدوا النبي ﷺ - مع أبيها، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبة، قال: «نعم، صِلِي أُمَّكَ» [رواه البخاري (٥٩٧٩)].

﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: إن طلبا منك طلباً لازماً أن تشرك بي إلهاً، لا علم لك أنه إله يستحق العبادة، فلا تطعهما، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ودلَّت الآية على أَنَّ الشرك بالله تعالى يتنافى مع العلم، وأنَّ طلب الوالدين من ولدهما الشرك لا يستند إلا للتقليد الأعمى، فهما يحصران على أن يقلدَهما ولدهما تقليداً أعمى، من غير تفكر واستبصار.

وإذا لم تجز طاعة الأبوين في هذا المطلب، مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرد الطلب من دون مجاهدة منهما أولى، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه، فلا طاعة لهما فيما هو معصية لله ^(١).

وقد روي في سبب نزول هذه الآية: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنه نزلت فيه آيات من القرآن، قال: حلفت أم سعدٍ ألا تكلِّمه أبداً، حتى يكفُرَ بدينه، ولا تأكلَ ولا تشربَ، قالت: زعمت أَنَّ الله وصَّاك بوالديك وأنا أمُّك، وأنا آمرُك بهذا، قال: مكثت ثلاثاً حتَّى غُشيَ عليها من الجهدِ، فقام ابنٌ لها يقالُ لَهُ: عُمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعدٍ، فأنزل الله ﷻ في القرآن هذه الآية. [رواه مسلم (١٧٤٨)].

وزادت رواية ثانية: أَنَّ سعداً قال لأمه: يا أمَّاه، لو كانت لك مئة نفسٍ، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي، وإن شئت فلا تأكلي. فلمَّا رأَتْ ذلك أكلت ^(٢).

وأنزل الله فيه أيضاً: ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾

(١) فتح القدير: ١٩٣/٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٣٢٨/١٣.

وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿لَقمان: ١٥﴾.

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فأجازيكم على أعمالكم.

وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهم على الشرك، وحث على الثبات والاستقامة في الدين^(١).

وأتبع سبحانه الوعيد بالترغيب فقال:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

أي: لندخلهم يوم القيامة في جملة الصالحين، أو: مع الصالحين لا مع آبائهم المشركين.

وهذه أمنيّة الأنبياء والأولياء، قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

• المذبذبون بين الإيمان والكفر:

ثم عرضت الآيات أنموذجاً لضعاف الإيمان، وبينت كيف ينتكسون إلى الكفر، إذا ما ابتلوا وامتحنوا بتسلط عدوهم عليهم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: وبعض الناس من يعلن بلسانه فقط كلمة الإيمان، من غير أن ينشرح لها صدره، فهو كالأعراب الذين قال الله فيهم:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿فَإِذَا أُذِي فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: فإذا عذب بسبب إعلانه الإيمان بالله، لم يحتمل الأذى، وجزع منه، ولم يصبر عليه، وجعل عذاب ما يصيبه من أذى الكفار، كعذاب الله يوم القيامة في النار، فكفر ورجع مرتدًا.

﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: وإذا ما نصر الله تعالى المؤمنين، وأعز دينهم، عاد أولئك المرتدون إلى الإيمان، وقالوا للمؤمنين: إنا كنا مؤمنين معكم، فاجعلوا لنا نصيباً في الغنيمة، وأشركونا في السلطان والدولة، والرتب والمراتب.

ورد عليهم سبحانه مكذباً لهم بقوله:

﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ أي: هو عليم بما في صدور العالمين من إيمان أو نفاق.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

وهو تأكيد لما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

• حاملو الأوزار:

ولم يقتصر الكفار وهم يفتنون المؤمنين عن دينهم على أسلوب التعذيب والأذى، بل أضافوا إليه أساليب الترغيب والاحتيايل والمراوغة، وهو ما حكاه تعالى عنهم بقوله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ أي: سيروا

معنا في طريق الشرك والكفر، ونحن نتحمل عنكم آثام ذنوبكم، إن كان ثمة حساب وجزاء كما تقولون.

ويدل هذا على اغترارهم بأنفسهم، وجهلهم بحقيقة الحساب والجزاء يوم القيامة، فالمسؤولية في هذا اليوم شخصية، وكل أحد يحمل أوزاره الخاصة به، وقد بين تعالى هذا المبدأ الأساس في الحساب والجزاء الأخروي بآيات كثيرة: منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

والى جانب هذا المبدأ، فالعذاب في هذا اليوم شديد، حتى يتمنى الإنسان النجاة منه، ولو على حساب أحب الناس إليه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ الْمُجْرَمِ لَوْ يَقْدِرُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنَهُ ۖ وَصَحْبَيْهِ ۚ وَآخِيهِ﴾ [المعارج].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۖ وَصَحْبَيْهِ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

فما أجهل هؤلاء القائلين هذه المقولة، وما أعظم غرورهم! وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: لكاذبون في مقاتلهم هذه؛ لأنها تخالف الحقيقة مخالفة كاملة.

نعم سيتحملون أوزاراً إضافية فوق أوزار كفرهم وفجورهم، وهذه الأوزار الإضافية ليست أوزار أحد من الناس، بل هي أوزار نشرهم للكفر والضلال:

﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لأنهم كانوا رؤساء كفر ودعاة ضلال،

فهم الذين قال الله عنهم في سورة النحل: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾.

وقد بين النبي ﷺ ذلك بقوله: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

﴿وَلْيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من أمثال هذه الأباطيل والأضاليل، وهو سؤال تقريع وتوبيخ، لا سؤال استعلام؛ لأنه تعالى علّم بأقوالهم وأفعالهم.



الفصل الثاني

ابْتِلَاءُ الْأَنْبِيَاءِ وَوَلَاؤُهُمْ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّقُوا اللَّهَ عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَّيُلَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿فَأَمَّن لَّهُ لُوطٌ﴾ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُم لَأَتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَقْتُكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُم لَأَتُوبَ الرِّجَالُ وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا أَيْدِيَنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ

كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرِّيًّا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْرًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿٣٦﴾

ويتفاوت الابتلاء بحسب تفاوت مراتب المؤمنين، ولهذا كان ابتلاء الأنبياء أعظم من غيرهم، ففي الحديث الشريف: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء»، ثم الأمثل فالأمثل» [أخرجه النسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، والترمذي (٢٣٩٨) وصححه، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي (٢٨١٧)، انظر: فتح الباري: ١٠/١١١].

وقد بينت الآيات هذه الحقيقة من خلال عرضها السريع، لمحّن بعض الأنبياء، وشدة معاناتهم، وهم يقومون بأعباء الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته.

• ابتلاء نوح عليه السلام:

وكان ابتلاء نوح عليه السلام أطول ابتلاء، إذ استمرَّ يعاني من أذى قومه، وهو يدعوهم إلى الله، ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ وتحمل عليه السلام أذى قومه وغلظتهم طول هذه المدة، حتى جاء نصر الله تعالى، وأهلك قومه بالطوفان. ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: وهم مصرّون على كفرهم وظلمهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ أي: أنجينا من الغرق مع المؤمنين الذين حملهم معه في السفينة - وقد تقدّم بيان ذلك في سور سابقة، كسورتي هود والمؤمنون - .
﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: وجعلنا حادثة الطوفان الذي عمّ الأرض كلها، ونجاة أصحاب السفينة عبرةً كبيرةً، وموعظة جليلة لجميع العالمين.

• ابتلاء إبراهيم عليه السلام:

وكان ابتلاء إبراهيم عليه السلام قاسياً وشديداً أيضاً، فبعد أن دعا قومه إلى عبادة الله الواحد، وجاهد بأقصى ما يستطيع من أجل إنقاذهم من عبادة الأصنام، والعقائد الباطلة الفاسدة، ما لقي منهم إلا العناد والكفران، وإلقائه في النيران:

﴿وَإِذْ هَبَّ شَرْكَائِهِمْ فَأَنذَرْنَاهُ يَوْمَئِذٍ أَن يَمْلِكُ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ مُّشْرِكُهُمْ أَسْفَافُ الْمَذِينِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: اعبدوا الله وحده، واتقوا أن تشركوا به شيئاً، فهذا خير لكم من عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، إن كنتم حقاً من أهل العلم والفهم والتمييز.
ثم بين لهم عليه السلام بعد هذه الدعوة الصريحة، بطلان عقائدهم ومعبوداتهم، فقال:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي: ما تعبدون من دونه تعالى إلا مجرد أوثان، هي في الحقيقة والواقع تماثيل مصنوعة بأيديكم.
فالأوثان: هي الأصنام، وبعضهم قال: هي الأصنام المصنوعة من جص أو حجارة^(١).

ولا يخفى ما في أسلوب كلامه عليه السلام من تحقير أصنامهم وتهوين شأنها.

﴿وَتَخْلُقُونَ اِفْكَاً﴾ أي: وتصوّرون بأيديكم شيئاً مصروفاً عن وجهه وحقيقته، وتكذبون كذباً بتسميتها آلهة.

أو: وتصنعون كذباً، فهي عين الكذب وحقيقته، قال بعضهم: الأظهر كون ﴿اِفْكَاً﴾ مفعول به؛ والمراد به نفس الأوثان، وجعلها كذباً مبالغة، والإفك هو المأفوك المصروف عما هو عليه، وإطلاقه على الأوثان؛ لأنها مصنوعة، وهم يجعلونها صانعاً^(١).

ويؤيده قراءة (تُخْلِقُونَ) بالتشديد، للتكثير، من: خلق، وقراءة (تَخْلُقُونَ) من: تخلق، بمعنى تكذب وتخرّص^(٢).

وكلّها تفيد تشنيع كذبهم، والمبالغة في تقييح عبادتهم للأصنام.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي: اطلبوا الرزق من الله تعالى، لا من هذه الأصنام، التي لا تملك لكم رزقاً، ولا تجلب لكم نفعاً، ولا تدفع عنكم ضرراً.

قال ذلك ﷺ لأنه يعلم أنّ قومه كانوا يعتقدون أنّ عبادة الأصنام تجلب لهم الرزق، وتدفع عنهم الضرر؛ ولهذا عمد إلى تفسير أصنامهم، كما تقدم في سورة الأنبياء؛ ليبين لهم عجزها عن جلب نفع أو دفع ضرر: ﴿فَقَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (١٦) ﴿أَفَلَا تَكْذِبُونَ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٧).

﴿وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: اجعلوا عبادتكم وشكركم له سبحانه وحده، فإنه هو الذي يرزقكم، وأنتم راجعون إليه يوم القيامة، ومسؤولون عن أعمالكم.

وقابلوا دعوته بالإعراض، وحكموا عليه بالتحريق بالنار، فما كان منه ﷺ إلا أن قابل تهديدهم بتهديد أكبر، ووعد أعظم، مذكراً لهم بمصير الأمم المكذبة قبلهم:

(١) روح المعاني: ١٤٤/٢٠.

(٢) تفسير القرطبي: ٣٢٥/١٣.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ الْمَيْتِ﴾.

﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فأهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم، وإعراضهم عن دعوة رسلهم.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ الْمَيْتِ﴾ أي: ما على الرسول إلا واجب البلاغ الواضح، الذي لا شك فيه، وقد بلغتكم الرسالة، وأقمت عليكم الحجة.

• النشاطان:

ويبدو أن الآيات توقفت عن حكاية كلام إبراهيم ﷺ واستأنفت كلاماً مسوقاً من جهته تعالى، يبيّن فيه كمال قدرته، ويردّ فيه على منكري البعث يوم القيامة، من كفّار قريش، الذين كذبوا النبي ﷺ، ومن قوم إبراهيم، الذين كذبوا إبراهيم ﷺ.

ويحتمل أن تكون الآيات تحكي تنمّة كلام إبراهيم، ويقوّي هذا الاحتمال قراءة صيغة الخطاب: ﴿تَرَوُا﴾:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ أي: أولم يعلموا كيف بدأ الله الخلق، وأخرجه من العدم، فكلّ المخلوقات مسبوقة بالعدم، ثم أوجدها الله تعالى.

والاستفهام للإنكار والتقرير في آن واحد، ينكر عليهم تكذيبهم، ويقرر حقيقة مسلّمة واقعة لا شك فيها، فكأنه يقول لهم: قد رأيتم ذلك وعلمتموه.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: ثم هو قادر على إعادته، فمن خلق المخلوقات وأخرجها من العدم، قادرٌ على إعادتها مرة ثانية بعد موتها وفنائها.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ليس معطوفاً على ﴿يُبْدِئُ﴾، والرؤية ليست واقعة عليه، وإنّما هو كلام مستأنف، يقرر قدرته تعالى على الإعادة بعد الموت، ولا شك أنه أمر منطقي مُسلّم، أكده تعالى بعد ذلك بقوله:

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن إعادة الخلق أمر يسير على الله، كما كان بدء الخلق أمراً يسيراً عليه.

وقضية الإيمان يوم القيامة، من أكبر القضايا التي اهتم بها القرآن الكريم؛ لاتصالها الوثيق بكماله تعالى وحكمته، وتامام مشيئته وقدرته وعلمه، ولهذا ذُكرت في سور كثيرة، وأتبع الآيات الأسلوب العقلاني المنطقي نفسه في ردّها على مُنكري هذا اليوم، وسيأتي في السور القادمة إن شاء الله، ما يؤكد ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم أمرت الآيات النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول لمنكري يوم القيامة متحدّياً:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي: انظروا فيها نظر المتفكر المُتدبّر، وتأملوا الأطوار التي تمرُّ بها من بداية وجودها، لتدركوا عظمة مكوّنها، وقدره مدبّرها ﷻ، وأنه قادر على إنشائها مرة ثانية بعد موتها وفنائها. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: بعد النشأة الأولى التي تشاهدونها.

وفي التصريح بلفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ إشارة إلى أنه وحده القادر على هذه النشأة، فلا يقدر عليها غيره، وأفاد التعبير عن الإعادة بالنشأة، على أنهما نشأتان لا فرق بينهما، فكلاهما اختراع وإيجاد، وهما شأنٌ واحدٌ من شؤونه تعالى، لا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية^(١)، وهما اللتان يقرُّ بهما المعذبون في النار يوم القيامة، وهم يسألون الله الخروج منها: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَاكَ وَاحِدِينَ وَنُخْرِجُكَ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وكما أنه تعالى يتصف بكمال القدرة، فهو يتصف أيضاً بطلاقة المشيئة وتمام الإرادة، فهو الفعال لما يريد:

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ .

﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعدله تعالى؛ لأنه عليم حكيم .

﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بفضلته تعالى؛ لأنه رحيم كريم .

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: وإليه سبحانه وحده، لا إلى غيره، تردون .

وأفادت الآية أن التعذيب والرحمة قد يكونان عاجلين، وكأنه قال: وإن تأخر ثوابكم وعقابكم فإن إلينا إيابكم، فهما مُدْخِرَان لَكُمْ، فلا تظنوا فواتهما .

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: ولا خروج لكم من قبضة قدرته تعالى، في أي مكان كنتم، في الأرض أو في السماء .

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وما لكم غير الله ولي يتولاكم، ولا نصير ينصركم، فاجعلوا ولاءكم لله وحده، وفرّوا إليه، والجهّوا إلى ظلّه وجواره، فلا ظلّ إلا ظلّه، ولا أمن إلا في حماه وجواره .

وبهذا تكون الآيات قد بدأت تتحدّث عن الولاء، إلى جانب ما سبق من حديثها عن الابتلاء، ولا شك أن المبتلى يستشعر ضعفه وحاجته إلى مولى يواليه ويلجأ إليه، ويستنصر به، والمؤمن يلجأ إلى الله، يتولاه ويدعوه ويتوكل عليه .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَاسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَاسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ أي: في يوم القيامة،

لأنهم محجوبون عنها، محرومون منها؛ لأنهم جعلوا ولاءهم لغير الله تعالى.

وهي رحمة عظيمة، عَظَّمَهَا الحق، فأضافها إلى ذاته المقدسة، والكافر لا يوصف باليأس من رحمته في الدنيا؛ لأنه لا رجاء له، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق^(١).

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولهم أيضاً مع اليأس من رحمته تعالى، عذاب أليم مستمر، لا أمل لهم بالنجاة منه.

• نجاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

وعادت الآيات إلى الحديث عن ابتلاء إبراهيم عليه السلام، فوصفت لنا كيف أدركته رحمة الله تعالى وَحَقَّتْ به ألطافه، وهو في قمة المحنة والابتلاء؛ لأنه جعل ولاءه لله وحده، والله سبحانه لا يتخلى عن أصفياه وأوليائه، ولا يخذلهم:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٤)

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أي: ما كان جواب قومه على حججه وبراهينه القاطعة الملزمة، إلا أن قال بعضهم لبعض: اقتلوه أو حرقوه، فقد عرفوا قوة حججه، وشعروا بخطره على عقائدهم وضلالاتهم، حتى إنهم أقروا له بذلك، واعترفوا أمامه بظلمهم لأنفسهم بعبادة غير الله تعالى، كما تقدم في سورة الأنبياء: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٤).

﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ أي: بعد أن ألحقه فيها، فما أصاب إبراهيم عليه السلام شيء من حرها، بل كانت برداً وسلاماً عليه، كما تقدم تفصيل ذلك في سورة الأنبياء، عند قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢٤) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٢٥).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار دروساً وعبراً عجيبة ظاهرة، تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى صدق إبراهيم عليه السلام، وموالاته لربه، وأنه تعالى لا يتخلَّى عن من يلجأ إليه ويواليه، وخصَّ المؤمنين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بهذه الآيات، المستفيدون بما فيها من عبر ودروس وعظات.

• الغربة في الوطن:

وظلَّ قومُ إبراهيم متمسكين بعقائدهم الفاسدة، موالين لأصنامهم وأوثانهم، عاكفين على عبادتها، رغم وضوح المعجزة وقوة دلالتها، ولا شك أنه ابتلاء آخر ابتلي به إبراهيم عليه السلام، ومحنة ثانية امتحن بها، جعلته يشعر بالغربة، وهو في وطنه، وبين أهله وقومه، فأبى صلةً تربطه بهم، وهم يوالون الأصنام والأوثان، بينما هو يوالي الرحمن، وأبى خيرٍ يرجى من مثل هذا المجتمع الوثني الفاسد، وكيف يعيش بينهم بعد أن ألقوه في نار عظيمة، ساهموا كلهم في جمع حطبها وإذكاء لهبها!؟.

وقرر عليه السلام أن يهجر أهله وقومه ووطنه، لعلَّ الله تعالى أن يهديه إلى أرض يستأنس فيها بعبادة ربه، ويعمرها بطاعته، وقبل أن يباشر الرحيل، وجَّه إلى قومه كلماته الأخيرة، أودعَ فيها كلَّ ما يحمل في نفسه وقلبه من مرارة غربته بينهم، كما أعلن فيها براءته من شركهم وكفرهم:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَأُولَٰئِكَ التَّارُومَالُكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ (٢٥).

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما واليتم هذه الأوثان، وعبدتم هذه الأصنام، لتتوادوا فيما بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقكم عليها.

أو: إِنَّ مودة بعضكم بعضاً هي التي دعتمكم إلى اتخاذها، بأن رأيتم بعض من تودونه اتخاذها، فاتخذتموها موافقة له لمودتكم إياه^(١).

فأصنامكم هذه ليست إلا رموزاً، تتعصبون لها تعصباً عاطفياً أعمى، لا يستند إلى دليل وبرهان، فهي لا تستحق أن تُعبدَ وتُعظَّم وتُوالى، وهذه ظاهرة لا تزال - مع الأسف - موجودة عند كثير من الأمم والشعوب.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: وفي يوم القيامة تتغير الأحوال، وتنقطع بينكم الصلات، وتنقلب المودة إلى بغض وعداء؛ لأنها قامت على أساس فاسد باطل، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿وَمَا وَنَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ أي: وما واكم النار أبداً، وما لكم أولياء ينجونكم منها، كما نجاني ربي من النار التي ألقيتموني فيها.

• الأنس في الهجرة:

﴿فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿فَأَمَّا لَهُ لُوطٌ﴾ أي: صدق إبراهيم ﷺ لوط.

وكانه تعالى بهذا الخبر أراد أن يبين لنا شدة فساد هذا المجتمع، فلم يستجب لدعوة إبراهيم إلا رجلاً واحداً فقط، فما أشدَّ غربته ﷺ، وهو في وطنه وبين أهله وقومه! وهذا ما جعله يعزم على الرحيل والهجرة.

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: إني مهاجر إلى حيث أعبد ربي بحرية، وأستأنس بطاعته، فلا أستوحشُ برؤية أصنامكم وأوثانكم، ولا أعاني من أذاكم. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: إنه هو الغالب الذي يمنعني ويحميني،

الحكيم فيما يهديني إليه ويختاره لي، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩].

وهذه تعالى إلى أرض الشام المباركة، فخرج مهاجراً إليها مع لوط عليه السلام، وحط رحاله فيها، كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وأنسه سبحانه في غربته، ورزقه الذرية الطيبة الصالحة، بعد أن تقدّم به العمر:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فعاش حتى قرت عينه برؤية حفيده يعقوب بن إسحاق، كما وهب له سبحانه إسماعيل أيضاً، من هاجر المصرية، ويبدو أنّ الآيات سكنت عن ذكره هنا؛ لأنّه عاش مع أمه هاجر منذ كان رضيعاً في أرض الحرم، بعيداً عن إبراهيم عليه السلام، فما استأنس إبراهيم في العيش معه، كما استأنس بإسحاق ويعقوب، وقد تقدّم ذكر خبره في سورة البقرة.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي: جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم شرف النبوة، وحمل رسالة الكتب المنزلة، فما نبأ الله تعالى نبياً بعده إلا من ذريته، ولا أنزل كتاباً إلا عليهم، فهو أصل شجرة الأنبياء بعده، وهذا من تكريم الله له ﷺ، ومن آثار ولايته إياه فهو يتولى الصالحين.

﴿وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: جمعنا له خيري الدنيا والآخرة، فأتاه الله في الدنيا الرزق الواسع الهنيء، والمنزل الرحب والمورد العذب، والزوجة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحد يحبّه ويتولّاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه^(١).

وكل ذلك بسبب صبره ﷺ على الابتلاء والمحنة، وإخلاصه في عبادة الله والدعوة إلى توحيده وموالاته.

• ابتلاء لوط ﷺ :

أرسل الله لوطاً ﷺ إلى مجتمع فاسد، انتشرت فيه آفات اجتماعية خطيرة، أبرزها وأخطرها الشذوذ الجنسي، وكان على لوط ﷺ أن يواجه هذه الآفات ويسعى إلى تطهير المجتمع منها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٨)

أي: إنكم لتأتون الفعلة المتناهية في القبح؛ وهي تتنافى مع أصل الفطرة الإنسانية، فما كانت منتشرة بين الناس، ويبدو أن قوم لوط هم الذين ابتدعوها، وانتشرت فيهم مع آفات أخرى، نبّه ﷺ عليها بقوله:

﴿أَيُّنْكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ (٢٩)

﴿أَيُّنْكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ أي: كيف تأتون الرجال، وتقطعون السبيل على المسافرين، وتفعلون المنكرات في مجلسكم الجامع الذي تجتمعون فيه؟!.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ أي: فما كان جواب قومه إلا أن قالوا بعناد ووقاحة: اتئنا بعذاب الله الذي تتوعدنا به، وكان ﷺ قد حذّره من عذاب الله تعالى وسطوته وانتقامه.

وقد أجملت الآيات هنا الحديث عن الحوار الذي قام بين لوط وبين قومه، وأبرزت استنصاره بالله، للدلالة على شدة معاناته منهم:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٣٠).

أي: انصُرني على القوم الذين بلغوا الغاية في الفساد، حتى أصبحوا عريقين فيه، لا يُرجى صلاحهم.

واستجاب الله تعالى لدعوة لوط عليه السلام، وأرسل ملائكةً لتُنزل العذاب عليهم، وأمرهم تعالى أن يذهبوا أولاً إلى إبراهيم يبشرونه بالولد، ويخبرونه بالمهمة التي كلفوا بها:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١).

وهي بلدة سدُوم، التي أرسل إليها لوط.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ﴾ (٣٢).

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي: قال إبراهيم عليه السلام: إِنَّ فِيهَا لُوطًا فكيف تهلكونها؟! وهذا يدل على أن وجود الصالح بين القوم الفاسدين، يدفع عنهم البلاء ويؤخر العذاب.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها كانت مثلهم في الكفر والظلم.

وازدادت معاناة نبي الله لوط من فساد قومه، عندما جاءه الملائكة بهيئة شبان حسان، فخاف عليهم من فجور قومه وشذوذهم، قبل أن يعرفهم:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَاءَ بِهِمْ مُضَافٌ إِلَيْهِمْ دَرَعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيبِ﴾ (٣٣).

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَاءَ بِهِمْ مُضَافٌ إِلَيْهِمْ دَرَعًا﴾ أي: اعتراه الهم

والحزن، وضاق ذرعه بشأن حمايتهم من شرور قومه .

ويراد بالذرع المقدرة والطاقة؛ وذلك لأنَّ طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع .

وقد فصلت الآيات ما أجملته هنا في عدة مواضع؛ منها قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوِرْ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۖ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ۖ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنِي شَدِيدٌ ۖ (٨٠)﴾ [هود] .

ومنها قوله سبحانه في سورة الحجر: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۖ (٧٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۖ (٧٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۖ (٧٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۖ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۖ (٧١) لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَغَفِيلٌ لِمَن سَكَرْنَاهُمْ بِعَمَلِهِمْ ۖ (٧٢)﴾ .

وعندما اشتد الأمر على لوط عليه السلام، وبلغ الغاية في الضيق والكرب، كشف الملائكة أمرهم له :

﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنْهُ الْغَيْرَةُ ۖ﴾ .

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۖ (٢٤)﴾ .

أي: منزلون عليهم عذاباً من السماء، بسبب فسقهم وخروجهم على سنن الفطرة، وهو مطر الحجارة الذي ذكره الله تعالى بقوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَائِغًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ۖ (٨١)﴾ .

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۖ (٣٥)﴾ .

أي: ولقد تركنا من هذه القصة عبرة واضحة لمن يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، ولا يزال موضعها إلى الآن في أرض منخفضة، تسمى: البحر الميت، أو بحيرة لوط .



الفصل الثالث

الْفَائِزُونَ وَالْخَاسِرُونَ فِي الْإِبْتِلَاءِ وَالْوَلَاءِ

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْمَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادَا وَنَحْمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُتِرُوا وَفِرْعَوْنُ وَهَامَنْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مِثْلَ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَرَ الْعَبُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتَى مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْعَوْنَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تَجْعَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِآئِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَاللَّهُمَّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَقُولُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابِ الْقُضُلُوتُ وَلَا هُوَ عَائِتٌ يُغْنِي عَنْهُ الْعِلْمُ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَاتٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَاسْتَغْلِبُواكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لِمَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ يَقُولُ ذُوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ بِنِعَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَجَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّا كَافُّونَ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَيْبٌ وَلِئِنْ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَهِيَ الْخَيْرُ لِهِيَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنَحْفَظُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ❀

● إهلاك المستكبرين:

وانتقلت الآيات إلى التذكير السريع بنبي الله شعيب عليه السلام ، وما ابتلي به من عناد قومه وتكذيبهم وفسادهم :

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ ❀

أي: لا تعملوا على نشر الفساد في الأرض، وكانوا أهل طمع وجشع، انتشر بينهم الغش والتلاعب بالمقاييس والمكاييل، وقطع الطريق على المسافرين.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٣٧)

أي: أخذتهم الصيحة الشديدة التي زلزلتهم، فأصبحوا في دورهم وبيوتهم باركين على ركبهم ميتين.

وهكذا كما قدر تعالى الابتلاء والاختبار للمؤمنين، قدر الجزاء والهلاك للكافرين، كما تقدم في صدر السورة، وقد أكدته هذه الآيات وما بعدها وهي تذكرنا تذكيراً سريعاً مجملاً ببعض الأمم الهالكة، ورؤوس الضلال والكفر فيها، وبصنوف العقاب والعذاب الذي أنزله الله عليهم:

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْتُ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (٣٨)

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ﴾ أي: وأهلكنا عاداً وثمود، ولا تزال آثار هلاكهم ظاهرة في أطلال مساكنهم، في الشمال من أرض العرب وفي جنوبها.

﴿وَزَيْتُ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: حجب إليهم الشيطان الكفر والمعاصي، فأبعدهم عن سبيل الحق الذي دعاهم إليه أنبياءهم، وفعلوا ذلك باختيارهم وكسبهم، فقد كانوا متمكنين من النظر والتفكير والاستبصار:

﴿وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ﴾ (٣٩)

﴿وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ﴾ أي: وأهلكنا قارون الذي تكبر وطغى بسبب كثرة ماله، كما مرَّ في سورة القصص، وأهلكنا أيضاً فرعون ووزيره هامان.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ أي: قابلوا رسالة موسى ﷺ ومعجزاته بالاستكبار والطغيان، وما كانوا رغم قوتهم وسلطانهم فائتين ناجين من عذاب الله تعالى.

﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: عاقبناه بجنايته وجريمته.

﴿فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ كقوم لوط، الذين أمطر الله عليهم بالحجارة، وعاد الذين أرسل الله عليهم الريح الشديدة، تحصبهم بالحجارة، والعرب تسمي الريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد حاصباً^(١).

﴿وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كثمود قوم صالح، ومدين قوم شعيب.

﴿وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كفارون الذي خسف الله به وبداره الأرض.

﴿وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح، وفرعون وجنوده.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بسبب إصرارهم

على الكفر والفساد والطغيان.

● بيت العنكبوت:

مهَّد الله بهذا العرض السريع لبعض المعذبين الهالكين من الأمم السالفة،

لهذا المثال الرائع، الذي سُميت السورة كلها باسمه، لمثل بيت العنكبوت.

فقد اعتمد هؤلاء الظلمة من الأمم والأفراد على غير الله تعالى، اعتمدوا

على أوثانهم وأصنامهم، وعلى جنودهم وأعوانهم، وعلى أموالهم، فجعلوا

ولاءهم لها، وظنُّوا أنها تحميهم وتمنعهم، فخاب ظنُّهم، وانقطع رجاؤهم، فلم

يفلتوا من عذاب الله تعالى، ولم تمنعهم أوثانهم وجنودهم وأموالهم من بأسه تعالى وانتقامه، فكان مثلهم كما قال الحق جل وعلا:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: اتخذوا غير الله أنصاراً يتصرفون بهم ويعتمدون عليهم.

﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي: كمثال هذه الحشرة الصغيرة الضعيفة، اتخذت بيتاً لتحتمي به وتأوي إليه.

فما أهونهم على الله تعالى، فهم لا يزيدون عن مقدار حشرة صغيرة، رغم ما كانوا عليه من قوة التمكن والسلطان والطغيان، وما أضعف الأولياء الذين امتنعوا بهم واعتمدوا عليهم!

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وإن أضعف البيوت هو بيت العنكبوت، فبيتها في غاية الضعف؛ لا يمنعها ولا يحميها، بل يصير سبباً لهلاكها؛ إذ يبادر الناس عادة إلى تنظيف بيوتهم منها عند مشاهدتهم لبيوت العنكبوت.

وكذلك حال هؤلاء الذين لجؤوا إلى غير الله تعالى، فما أجهلهم! لم يعلموا ضعف وعجز أوليائهم مع أنه بين ظاهر، ولم يعلموا أيضاً أن امتناعهم بغيره تعالى يعرضهم لبأسه وانتقامه، لقد أتى القوم من قبل أوليائهم العجز وبيوتهم الواهنة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَنْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إن الله يعلم أن أولياءهم

الذين يعتمدون عليهم، ويستنصرون بهم، ليسوا شيئاً يُعْبَأُ به، فهو تأكيد لجهلهم، وتحقير لأوليائهم، ولهذا جاءت الآية بصيغة الخبر المؤكد، المقرر لصحة المثل المضروب.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: وهو تعالى القادر القاهر الذي لا يُغلب، الحكيم في أفعاله وأقواله.

﴿وَيْلٌكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

﴿وَيْلٌكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: وهذا المثل ونظائره من الأمثال المحكمة المتقنة في القرآن الكريم، يضربها الله بفضله ورحمته للناس، ليقرب لهم المعاني، لعلهم يعقلونها ويتفعلون بما فيها.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي: وما يتفهمها ويتفعل بما فيها إلا أصحاب العلم والفهم.

وهو تعريض بجهل مشركي قريش، الذين اعترضوا على ضرب الأمثال بالذباب والبعوض والعنكبوت، وأعرضوا عن تدبرها وفهم معانيها، فهم الذين يتحسرون يوم القيامة على ما فاتهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فالمثل وسيلة إلى تقريب المعاني الدقيقة، فلا يعقله إلا العالم، لافتقار المثل في إدراك صحته وحسن موقعه إلى أمور سابقة ولاحقة، يُعرف بها تناسب مورده ومضربه وفائدة إيراد^(١).

وفي الآية دليل على فضل العلم وأمله، وهم الذين عقلوا عن الله تعالى، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» [رواه البخاري (٢٠)].

● الابتلاء بالتكليف:

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٤٤.

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: خلقهما تعالى محققاً بحكمة، ولم يخلقهما باطلاً، فلا بد من الابتلاء بالتكليف، لتظهر حكمته تعالى في خلقه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن في خلق السماوات والأرض بإحكام وإتقان، دليلاً على حكمته تعالى الباهرة.

وخصَّ المؤمنون بالذكر؛ لأنهم المصدقون بكمال قدرته، وياهر حكمته، ويدركون جوهر وجودهم، وحكمة خلقهم، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيْكُمْ وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

بينما الكفار تختلف نظرتهم إلى الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

إن ابتلاء الإنسان بالتكليف وشعوره بالمسؤولية، وما يترتب على ذلك من حساب وجزاء، يجعل الإنسان المؤمن يدرك قيمة حياته وجوهر وجوده، ويقبل على طاعة ربه وعبادته بعزم وحزم، غير غافل ولا لاه ولا لاعب، ولهذا توجَّهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تأمره بالقيام بما كلفه الله تعالى من تبليغ كتابه وعبادته وذكره، تحقيقاً لحكمته سبحانه في خلقه:

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ٤٥.

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: اتلوه تلاوة تتقرب بها إلى الله تعالى، وتبلغه للناس، وتبين لهم ما فيه من تكليف.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أي: اقم الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﷻ أي: دُم على

إقامة الصلاة؛ فإن للصلاة المستقيمة الكاملة دوراً كبيراً في استقامة سلوك المصلي، فهي تقمع النفس وتزجرها عن فعل الفواحش والمنكرات؛ لأنها تذكر المصلي بربه، وتربي في نفسه الشعور بمراقبته وخشيته جل وعلا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وقال ﷺ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

فالصلاة بنفسها لا تنهى عن الفواحش والمنكرات، ولكنها سبب الانتهاء؛ لأنها تتضمن صنوف العبادة، من التكبير، والتسبيح، وتلاوة القرآن، والركوع، والسجود، فكأنها تقول للمصلي: لا تفعل الفواحش والمنكرات، وأطع ربك الذي تقف بين يديه خاشعاً تناجيه وتدعوه.

وبهذا ينحل الإشكال المشهور، وهو أننا نرى أناساً كثيرين، من المرتكبين للفحشاء والمنكر، يصلون ولا ينتهون عن ذلك، فإن نهى إياهم عن الفحشاء والمنكر لا يستلزم انتهاءهم، ألا ترى أن الله تعالى ينهى عن ذلك أيضاً، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] والناس لا ينتهون^(١)، وذلك بسبب ضعفهم أمام شهواتهم، وغفلتهم عن ربهم.

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولذكر الله عند التعرض لفعل الفواحش والمنكرات، والخشية من حسابه وعقابه، أكبر في زجر الإنسان ونهيه عن مقارفة الفواحش والمنكرات، من نهى الصلاة وزجرها، فذكره تعالى في هذه المواطن، التي يكون الإنسان في أثنائها في غاية الغفلة عن ربه، دليل على الفوز والنجاح والخروج من الابتلاء سالماً معافى.

ولا شك أن ذكره تعالى في مثل هذه المواطن، يحفظ الذاكر من لوث المعصية، ودنس الخطيئة، كما عصم يوسف ﷺ، فخرج من محنته مع امرأة

العزیز طاهر القلب والنفس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهٖۙ كَذٰلِكَ لِیَصْرِفَ عَنْهٗ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَۙ اِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُحْلَصِیْنَ﴾ [یوسف: ٢٤].

وهو الذي يؤدي أيضاً إلى الفوز برضوانه تعالى وجنته: ﴿وَاَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهٖۙ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوٰیۙ﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوٰیۙ [النازعات].

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهٖۙ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال عليه الصلاة والسلام، في حديث السبعة الذين يظلمهم الله تعالى في ظله: «ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخافُ الله» [رواه البخاري (١٤٢٣)].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: ما تصنعون من خير وشر، ففيها حث على الإكثار من ذكره تعالى، وعلى الشعور الدائم بمراقبته.

فالآية تدلنا على أعظم وسيلة نستعين بها للنجاح فيما نواجه من بلاء ومحن، وهي ذكره سبحانه، الذي أمرنا بالإكثار منه في آيات كثيرة، فمن كان ذاكراً لله تعالى، كان الله معه يؤيده ويسدده: ﴿فَاذْكُرُوْٓا۟ اِذْ كُنْتُمْ اَوْشَکُۢمۡۙ وَاشْكُرُوْا۟ لِيۙ وَلَا تَكْفُرُوْٓا۟﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث القدسي الشريف: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه، وإن اقترب إلي شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربْتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولاً» [رواه مسلم (٢٦٧٥)].

● الابتلاء بأهل الكتاب:

ابتليت الأمة المسلمة منذ فجر وجودها بالمواجهة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما تقدّم في موضوع سورة آل عمران، وها هي الآيات في سورة العنكبوت تبين للمسلمين أحسن الطرق التي ينبغي عليهم التزامها في مواجهتهم لأهل الكتاب:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٦).

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إلا بأحسن طرق المجادلة، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشغبة بالنصح، بأسلوب لا يدل على الضعف، ولا يؤدي إلى الظهور بمظهر الذلة، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي: إلا الذي أفرطوا في الفساد، وكانت لهم قوة وشوكة، فهؤلاء أمرنا بجهادهم وقتالهم، حتى يخضعوا لأحكام دين الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

﴿وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي: قولوا لهم ذلك في أثناء المجادلة، إظهاراً لامتيازكم عليهم، فأنتم تؤمنون بكل الكتب المنزلة، وهم لا يؤمنون بكتابكم.

﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: وقولوا لهم أيضاً: ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾، ونحن الخاضعون له المستسلمون لدينه.

وهذا تعريض بهم؛ لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، كما قال سبحانه: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ ءَانَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: وكما أنزلنا إليهم الكتاب، أنزلنا إليك

الكتاب، وهو القرآن الكريم.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلَيْسَ لَهُمْ الْكِتَابُ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: كانوا يصدقون به قبل نزوله؛ لأن الله تعالى قد بشر به في الكتب السابقة، حتى كان أهل الكتاب من اليهود في المدينة المنورة، يستنصرون به على أعدائهم، كما تقدم في سورة البقرة، عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩).

﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: ومن أهل مكة من يؤمن به أيضاً، بعد أن دعاهم الرسول ﷺ إلى الإيمان به.

ويمكن أن يكون المراد بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين أسلموا وصدقوا برسالة النبي ﷺ.

﴿وَمَا يَحْجِدُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: وما ينكر آياتنا مع ظهورها وارتفاع شأنها، إلا المتوغلون في الكفر المصرون عليه.

ومن المعلوم أن الجحود يكون بعد المعرفة، وهذا يدل على أنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن آيات القرآن الكريم هي كلام الله المنزل على رسوله ﷺ، فشأنهم في هذا كشأن فرعون وملئه الذين جحدوا معجزات موسى ﷺ مع ظهورها ووضوحها، كما قال تعالى: ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَفْتِهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

• حفظ القرآن الكريم:

ومن أدلة صدقه عليه الصلاة والسلام وصحة رسالته، وأن القرآن الكريم منزل عليه، أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨).

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: ما كنت قبل تنزيل القرآن عليك، تتلو أي كتاب.

﴿وَلَا تَخْطُءُ بِيَمِينِكَ﴾ أي: وما كنت أيضاً قادراً على أن تخطه بيمينك.
 ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت ممن يقدر على التلاوة، والخط،
 لارتاب بصدق نبوتك وصحة رسالتك المبطلون، وقالوا: لعله اقتبسه وأخذه من
 كتب الأوائل.

هكذا قطع الله تعالى الطريق على المبطلين، ورد شبهاتهم قبل حدوثها،
 وهذا يؤكد أن القرآن كلام العليم الخبير جل وعلا.

وقد أثاروا مثل هذه الشبهات، مع علمهم أنه عليه الصلاة والسلام كان
 أمياً، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ
 بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنَتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ بَيِّنَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنَتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: بل القرآن الكريم آيات
 واضحات، يحملها العلماء والحفاظ في صدورهم، فهو غير مقتبس من كتاب،
 ولا يقدر أحد على تحريفه، وهي ميزة خص الله تعالى بها القرآن الكريم على
 سائر الكتب المنزلة، فيسر تلاوة آياته وحفظها وتدبر معانيها، كما قال سبحانه:
 ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وفي الحديث القدسي الشريف: «إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيكَ وَأَبْتَلِي بِكَ، وَأَنْزَلْتُ
 عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَان» [رواه مسلم (٢٨٦٥)].
 وقوله: «لا يغسله الماء» معناه: محفوظ في الصدور، لا يتطرق إليه شيء
 من الزيادة والنقص، بل يبقى على مر الأزمان.

فهو محفوظ في الصدور، يسر على الألسنة، مهيم على القلوب، معجز لفظاً
 ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة وصف هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم»^(١).
 والجدير بالذكر أن الله تعالى حفظه أيضاً في السطور، فقد اتخذ النبي ﷺ

كُتَابًا لِلوحي، يكتبون له ما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم في مجلس نزولها، بإملاء النبي ﷺ، وقد جمعت هذه النسخة التي كتبها كُتَّاب الوحي، بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بزمان قريب، في عهد خليفته الصديق، ومنها نُسخَت المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه.

فلا عذر لأحد في الإعراض عنه، وإنكار حقائقه، فهو كتاب الله، مؤيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة، ولهذا قرر تعالى في ختام هذه الآية:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ أي: الظالمون لأنفسهم، بإبعادها عن الحقيقة، وحرمانها من الهداية، وهو تقبيحٌ لحالهم، وتأکید لما سبق من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

● المعجزة الخالدة:

ثم ذكر الله تعالى بعضاً من صور ظلمهم وجحودهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: هلاً أنزل على محمد ﷺ معجزات من ربه، كنانة صالح وعصا موسى.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: قل لهؤلاء الجاحدين: إنما المعجزات تنزل بمشيئته تعالى وحده، فلا علاقة لأحد بذلك.

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فلا شأن لي بإنزال المعجزات، إنما شأني محصورٌ بالإنذار، وتبليغ الآيات وتوضيحها.

وقد أجملت الآية هنا ما سبق تفصيله من مقترحاتهم في سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ أو تكون لك جنةٌ من نحيلٍ وعنبرٍ فنفجر الأنهرَ خللاً لها نفجيراً ﴿٩١﴾ أو تسقط السماءَ كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي

يَا اللَّهُ وَالْمَلَكَةَ قَيْلاً ﴿٥١﴾ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرْفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى نُنْزَلَ عَلَيْكَ كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٥٢﴾ .

ورد سبحانه عليهم أيضاً بأنه أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام أعظم المعجزات، وأوضح الآيات، التي تكفي وتغني عن كل معجزة مقترحة:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنزلنا القرآن الكريم يتلى عليهم بشكل دائم، تتحدّاهم آياته، وهي تفرع أسماعهم، وتزلزل وجدانهم، وهي باقية لا تزول، بخلاف المعجزات التي يقترحونها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في هذه المعجزة القرآنية الباقية رحمة من الله تعالى عظيمة، وموعظة جليلة، ينتفع بها المؤمنون؛ لأنها تهديهم إلى أقوم المناهج والشرائع.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: قل لهم: يكفي أن يشهد بصدق رسالتي وصحة نبوتي الله ﷻ، ويشهد عليهم بالتكذيب والجحود.

فكما أن المعجزة القرآنية تكفي عن كل معجزة مقترحة، فإن شهادة الله تعالى تكفي عن غيرها، لكمال علمه جل وعلا:

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يخفى عليه شأني وشأنكم.

ولقد شهد الله تعالى في عددٍ من الآيات بصدق النبي ﷺ، منها قوله سبحانه: ﴿لَٰكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وفي مقابل شهادته تعالى بصدق رسوله عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، يشهد بأن كل مخالف له كافر مبطل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: خاسرون الخسارة الحقيقية التي لا عوض لها.

• المستعجلون للعذاب:

ومن صور جحودهم وظلمهم استعجالهم لنزول العذاب عليهم:

﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٣).

﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك بنزول العذاب الذي تتوعدهم به استعجالاً يدل على استهزائهم وتكذيبهم وتعجيزهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨) [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

لكنَّ عذابهم منوطٌ بمشيئته تعالى لا بمشيئتهم، فلا يأتيهم إلا في الأجل المسمى، الذي سبق به علمه تعالى وتعلقت به مشيئته.

﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وليأتينهم فجأة عند حلول أجله المسمى، وهم في غاية الغفلة عنه، والشعور بالأمن منه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (٩٧) ﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف].

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤).

وكرره تعالى تعجباً من شدة عنادهم وجحودهم، أو من شدة جهلهم وغفلتهم، فكيف يستعجلون العذاب وهو قريبٌ منهم، محيطٌ بهم؟! فلا يفصلهم عن عذاب جهنم إلا آجالٌ قريبةٌ وحياةٌ قصيرة، توشك على الانتهاء.

ويمكن أن يكون هذا تنزيلاً لحال السبب منزلة المسبب، فإنَّ الكفر والمعاصي الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم^(١).

أو هو على طريقة القرآن في التصوير في استحضار المستقبل كأنه مشهود، ليوقع في الحس رهبة، ويزيد استعجالهم للعذاب نكارة^(٢).
ثم تعرض لهم الآيات صورة واقعية من صور إحاطة عذاب جهنم بهم:

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٥)

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وإذا كان العذاب يغطيهم من فوقهم ومن تحتهم، فلا بد أن يكون محيطاً بهم عن أيانهم وشمالهم.
﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويقال لهم تبكيئاً وتقريعاً: ذوقوا جزاء جحودكم وعنادكم في الدنيا.

• مواساة الغرباء:

إنَّ من أشدَّ ما يُبتلى به المؤمنون بسبب إيمانهم، إكراههم على ترك ديارهم، والنزوح عن أوطانهم، والتضييق عليهم في أرزاقهم، ومحاربتهم في أقواتهم، ولهذا اتجهت الآيات في آخر السورة تحثُّ المؤمنين على مواجهة هذا الابتلاء، واحتماله بصبر وثبات، معتمدين على الله تعالى، الذي جعلوا ولاءهم له وحده.
بدأت الآيات تثبُّت المؤمنين، وتصبرهم على احتمال هذا النوع من الابتلاء بهذا النداء العلوي الكريم:

﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ (٥٦)

وفي هذا النداء ما فيه من تشريف وتكريم للمؤمنين، ومواساة لهم في غربتهم، وتخفيف كربتهم.

(١) تفسير أبي السعود: ٤٥/٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٧٤٨/٥.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٥٧).

وفي الآية إشارة أيضاً إلى خطر الموت وأسبابه، التي يتعرضون لها في الطريق، وقد كان المشركون من أهل مكة يقطعون على المهاجرين طريق هجرتهم، فالآية تشجعهم على الهجرة؛ لأنَّ الموت أمرٌ محتم ومقدَّر، ولا ينبغي أن يعوقهم الخوف من الموت عن الهجرة بدينهم، كما قال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

هكذا وعد الله المهاجرين في سبيله، بالسعة في الدنيا والجنة في الآخرة، ولهذا قال بعد ذلك يصف بعض ما أعد لهم من نعيم في الجنة؛ لكي تتعلق بها نفوسهم، وتهفو إليها قلوبهم، فينصرفوا عن الحنين إلى أوطانهم، وينسوا مشاعر الحزن ومرارة الاغتراب:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾ (٥٨).

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: لننزلهم المنازل العالية في الجنة.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾ أي: العاملين بطاعته تعالى، والمخلصين في عبادته.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٥٩).

أي: الذين صبروا على ما أصابهم في سبيله من بلايا ومحن، وغربة عن الوطن، فهم يعتمدون على الله وحده، يلتمسون منه الثبوت والمعونة.

وأعداء الإسلام كانوا ولا يزالون يحاربون المسلمين في أرزاقهم، ويضيِّقون عليهم سبل الكسب، ويمنعون عنهم أقوات عيالهم وأطفالهم، كما فعل مشركو مكة عندما قاطعوا النبي ﷺ والمسلمين، المقاطعة الظالمة التي

استمرت ثلاث سنوات، ولا شك أن ذلك من أقسى أنواع الابتلاء أيضاً، الذي يتعرض له المؤمنون، ولهذا أنزل تعالى عليهم قوله الكريم:

﴿وَكَايْنٍ مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿وَكَايْنٍ مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وكم من دابة تعجز عن تحصيل رزقها، أو عن حمله أو ادخاره، يرزقها الله ﷻ ويرزقكم أيضاً، فييسر لكل مخلوق رزقه الذي يناسبه في أي مكان كان، في البر والبحر، وهو سبحانه القائل: ﴿وَمَا مِّن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

فالحمد لله الذي تكفل بأرزاق عباده، وقدر لكل مخلوق رزقه قبل أن يخلقه، ومهما حاول الكفار والظلمة أن يضيقوا الرزق على المؤمنين، فلن يستطيعوا أن يمنعوا عنهم ما قدر تعالى لهم من الرزق: ﴿وَإِن يَرُدْكَ بِحَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: يسمع أقوالكم، ويعلم أحوالكم، فلا تخافوا من التضيق عليكم بالرزق، ولا تخافوا على معاشكم بالهجرة من أوطانكم.

• الله الخالق الرازق:

وكيف لا يرزقكم الله وهو خالق السماوات والأرض، وبيده مقاليدها وخزائنها:

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي: ولئن سألت المشركين الذين يحاربون المؤمنين في أرزاقهم: من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر؟ ليقولنَّ: الله، فلا سبيل لهم إلى الإنكار والتردد؛ إذ هي الحقيقة الكبرى التي فطرهم الله تعالى عليها، وكل الشواهد الفكرية والحسية تدل عليها وتؤكددها.

﴿فَأَن يُّؤَفَّكُونَ﴾ أي: فكيف يُضَرَفُونَ عن هذه الحقيقة، ويدَّعون أن رزق المؤمنين بأيديهم، فخالق السماوات والأرض هو الذي يرزق مخلوقاته في السماوات والأرض، يبسطه لمن يشاء من عباده، ويضيئه أيضاً على من يشاء:

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٢).

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي: ويضيئه على يشاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو العليم بمن يصلح للغنى من عباده، ومن يصلح للفقر.

ولا شك أن إنزال المطر من أهم مفاتيح الرزق، وهو ظاهرة كونية منوطة بمشيئته تعالى وقدرته:

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٦٣).

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الحمد لله على كماله وفضله وإحسانه، فالخير كله بيده ﷻ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: بل أكثر الناس لا يعقلون هذه الحقيقة، وهي أن الأرزاق بمشيئته تعالى وتدبيره، فترى كل واحد يسعى ليحوز جميع الأرزاق، ويحرم غيره منها.

ودلت الآية على أن العالم إذا لم يعمل بعلمه، انتكس إلى مستوى الجاهل الذي لا يستعمل عقله.

● حقيقة الحياة الدنيا:

ثم صغرت الآيات من أمر الدنيا وحقرتها؛ تزهيداً للمؤمنين بها، فلا تتعلق بها نفوسهم، ولا تشغل بزيتها، بل ترون إلى الآخرة وتسعى إليها:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَلِئِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٤).

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيء يلهى به ويلعب، ثم يضمحل ويزول، فالدنيا إن بقيت لك لن تبقى لها، وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري، الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات، وأما ما كان منها لله فهو للآخرة، وهو الذي يبقى، كما في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿وَلِئِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوانُ﴾ أي: وإن الدار الآخرة لهي الحياة الحقيقية التي لا تنتهي ولا تزول ولا موت فيها.

والحيوان: يطلق على كل شيء حي، وهو أبلغ من الحياة، لما في معنى إعلان من الحركة والاضطراب اللازم للحياة، ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضي للمبالغة^(١).

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان الناس يعلمون هذه الحقيقة، ما أثروا الحياة الدنيا العارضة الزائلة، على الآخرة الباقية.

وقد أكد تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُنْقُونَ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهيجُ فَتَرثُهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

• إنعام وكفران:

ومع أنَّ الحياة الدنيا ضئيلة وحقيقية، فإنَّ كثيراً من الناس يغترون بها،

ويعرضون عن الحق من أجلها، وفي حالة واحدة فقط يتذكرون الحق، ويرجعون إليه، وهي حالة انقطاع رجائهم عن البقاء في الدنيا، وإحساسهم بالخطر:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ﴾ أي: إذا ما ركبوا في السفينة، وهم في حال اغترار بالدنيا وتعلق بزينتها، استمروا على ذلك ما داموا يشعرون بالأمن من الغرق، وأما إذا أحسوا بالخطر وأدركهم الغرق:

﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لجؤوا إلى الله تعالى مخلصين في دعائهم وخضوعهم.

ففي الآية إجمالاً فصله تعالى في عدد من المواضع، كقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِهَمٍ رِيحٍ طَبَّيْهُ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فلما نجاهم من الغرق في البحر إلى البر، عادوا إلى حال الاغترار والجحود والشرك، ولن يدوم حالهم هذا طويلاً؛ لأن حياتهم في الدنيا حقيرة زائلة، ولهذا قال تعالى لهم متوعداً ومهدداً:

﴿لِكُفْرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وشركهم، كما قال سبحانه بعد آية سورة يونس المتقدمة: ﴿فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَتَّعُونَ فِي الْأَرْضِ يَقُولُ الْكَافِرُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ مَتْنَعٌ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا نُفُوسُ الْإِنْسَانِ مَرَجُكُمْ فَتَنْتَهُمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

كان عليهم أن يشكروا الله على نعمة الأمن بعد الخوف، فقد نجاهم من

خطر الغرق في البحر، وأن يدوموا على حال الإخلاص التي كانوا عليها عند الخطر، وهو تعريض بحال مشركي قريش، الذين كانوا يتمتعون بنعمة الأمن في جوار بيت الله الحرام، فقابلوا هذه النعمة بالجحود والكفران، وأعرضوا عن دعوة الرسول ﷺ، ولهذا قال تعالى يذكر المشركين بنعمة الأمن التي تفضل بها عليهم، وبموقفهم الجاحد لفضله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي: فهم يتمتعون بالأمن في جوار حرمة تعالى، بينما يعاني الناس من حولهم من خوف الغزو والسلب والنهب والقتل.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أبعد هذه النعمة الظاهرة يؤمنون بالأصنام والآلهة الباطلة، ويبحدون فضله تعالى عليهم، فيكفرون به ويعرضون عن دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام؟! فما أظلمهم، وهم يقابلون نعمة الله عليهم بالجحود والكفران!:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ أي: لا أظلم ممن كذب على الله، فأشرك في عبادته وطاعته، أو كذب دعوة الحق حين جاءته، بواسطة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

ففي الآية تسفيه لهم حيث لم يتأملوا حقيقة دعوة الرسول ﷺ، بل سارعوا إلى تكذيبه أول ما سمعوه.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ أي: ألا يستوجبون بعملهم هذا الإقامة في جهنم.

فالمثوى: مقامُ الإقامة، والاستفهام لتقرير استحقاقهم للعذاب، فولاؤهم للشیطان والأوثان لا يدفع عنهم عذاب الله تعالى ولا يمنعهم من انتقامه.

• إنعام وإحسان:

أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا أَمْرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُمْ، وَيُسَدِّدُهُمْ، وَيُثَبِّتُهُمْ، مَهْمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْمُحَنُّ، وَيَهْدِيهِمْ سَبْحَانَهُ إِلَى السَّبْلِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ، فَلَا يَضِلُّونَ وَلَا يَزِلُّونَ:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [٦٩].

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: والذين جاهدوا أعداء الله تعالى، وجاهدوا أنفسهم في طاعته، لنهدينهم إلى سبل الخير، بمعونتهم وتوفيقهم وتأييدهم في الدنيا، وإكرامهم بالثواب والمغفرة والرحمة في الآخرة.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وإنَّ الله بجلاله وكماله لمع المحسنين في طاعته وعبادته، معية التأييد والنصرة والمعونة.

ولا يصلُ الإنسان إلى مقام الإحسان إلا إذا استشعر رقابة الله تعالى عليه، فوقف عند أحكام شريعته، كما مرَّ في الحديث النبوي الشريف: «الإحسانُ أنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [رواه مسلم (٨)].

فالله سبحانه مع المحسنين، عندما يمتحنون ويفتنون من أجل دينهم: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَمُرُّوكَ أَنْ يَقُولُوا أَمْنًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

وهو سبحانه معهم أيضاً في غربتهم: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّي أُرْضِي وَسِعَةَ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وهو سبحانه معهم أيضاً عندما يحاربون في أرزاقهم وقوت أطفالهم وعيالهم: ﴿وَكَأَنِّ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فما أجمل هذه الخاتمة لهذه السورة الكريمة! وما أعمق آثارها الندية

الظليلة في قلب الإنسان المؤمن، وهو في كربته وغربته ومحنته، يستشعر من خلالها معونة الله تعالى ومعيته، فيبقى ثابتاً على ولائه له، لا يتزعزع ولا يضطرب، واثقاً بوعدته، ثابتاً على هديه.

أسأله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يأخذ بأيدينا إلى السبل الموصلة إلى فضله ورحمته ورضوانه.

اللهم آمين، اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.





تفسير سورة الروم الإنسان والسنن الكونية في سورة الروم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فقد خلق الله تعالى هذا الكون، وجعله يجري على مقتضى نواميس دقيقة مُحَكَّمة، وُسُنُنٌ إلهية باهرة، تربط بين أجزائه، من أكبر أجرامه إلى أصغر ذراته، فكل الحوادث الأرضية والسمائية تجري على وفق هذه النواميس.

لقد أظهرت آيات سورة الروم هذه الحقيقة، من خلال قوله تعالى في أول السورة، وهو يخبر عن بعض الأحداث الأرضية الكبيرة: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۚ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي صُغُرِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ۚ﴾.

وهذه السنن تدل على وجود الخالق العظيم ووحدانيته، وكمال قدرته وطلاقة مشيئته؛ ولهذا عرضت آيات السورة بعضها على أنها دلائل على وجود الخالق ووحدانيته وكمال قدرته، كما بينت الآيات أن هذه السنن موضوعة لفائدة الإنسان، يمكنه أن يستثمرها ويستفيد منها، فيعرف فضل الله تعالى عليه، والمكانة الممتازة التي أكرمه بها بين هذه المكونات، وإن ذلك يُلقِي عليه تبعات ومسؤوليات أمام خالقه جل وعلا:

- ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠].

- ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣].

ذلك هو موضوع السورة الأساس، ولقد ذهبت السورة فيه شوطاً بعيداً عميقاً، حتى إنها بينت أن استمرار السنن الكونية مرتبط بسلوك الناس، ومتوقف على التزامهم بما شرع الله تعالى لهم، وما يقع من خلل واضطراب وفساد، إنما يقع نتيجة الخلل والفساد في اعتقاد الناس وسلوكهم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

هذا مع وقفات تحليلية عميقة لنفس الإنسان وهو يواجه السنن الكونية والأحداث الأرضية، وهمسات لطيفة في أذن الدعاة، توجههم وترشدتهم وهم ماضون في طريق الدعوة.

أسأله تعالى الثبات والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



تفسير سورة الروم الإنسان والسَّنَنُ الكَوْنِيَّةُ فِي سُورَةِ الرُّومِ

أحداث ومعارك قرب أرض العرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ
سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بَنَصَّرِ اللَّهُ يَنْصُرُ
مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

﴿الْم ١﴾ .

سبق الحديث عن مثل هذه الحروف في أوائل السور السابقة، كالبقرة وآل عمران.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ
الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بَنَصَّرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ .

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي: غَلِبَتِ الدولة الفارسية دولة الروم في
أقرب أرض من شبه الجزيرة العربية، وهي أطراف الشام الجنوبية المتصلة بأرض
العرب، فأرض الشام أقرب أرض إلى شبه الجزيرة العربية، وهي امتداد لها من
الشمال، بينما هي معزولة عما حولها من اليابسة بالبحار من بقية الجهات.

حدث هذا الصراع المسلح بين أكبر دولتين في الأرض في ذلك الوقت، والنبى ﷺ في مكة قبل الهجرة، ولما وصلت أخبار انتصار الفرس على الروم إلى مكة، فرح المشركون به؛ لأن الروم أهل كتاب، بينما الفرس أهل أوثان وعبداء نيران، لكن الله تعالى أخبر في هذه الآية، التي أنزلها بهذه المناسبة، أن هذا النصر لن يدوم للفرس، فقال:

﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ أي: والروم من بعد تغلب الفرس عليهم سيغلبون الفرس في بضع سنين.
والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

ولما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المشركين يقول لهم: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟! فلا تفرحوا، ولا يقرن الله تعالى عينكم، فوالله ليظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أبي بن خلف فقال: كذبت. فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أنت أكذب يا عدو الله، تعال أناحبك (أي: أراهنك) عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت، إلى ثلاث سنين. ففأخبره، فقال ﷺ: «ما هكذا ذكرت، إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايدة في الخطر ومادة في الأجل»... وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة من الهجرة^(١).

وفي خلال هذه السنوات تولى هرقل الحكم في الدولة الرومية، وأعاد تنظيم جيوشها، وهاجم الفرس في جنوب الشام فانتصر عليهم، حدث ذلك في السنة السادسة من الهجرة، في اليوم الذي وقع فيه النبي ﷺ صلح الحديبية، وقيل: في السنة الثانية من الهجرة، في يوم بدر، ففي «سنن الترمذي» [٣١٩٢]:
عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس.

والقول الأول أصح، ففي «صحيح البخاري» [٦]: عن ابن عباس: أن أبا

سفيان أخبره أَنَّ هِرْقَلَ أرسل إليه في ركبٍ من قريشٍ، وكانوا تَجَّاراً بالشام، في المدة التي كان رسولُ الله ﷺ مآءً فيها أبا سفيان وكفَّار قريشٍ، فأتوهم وهم بإيلياء - بيت المقدس .

قال ابن حجر رحمه الله: «وفي الجهادِ عند المؤلف [٢٩٤٠]: أَنَّ هِرْقَلَ لما كشف الله عنه فارس، مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لله . زاد ابن إسحاق عن الزهري: أنه كانت تُبَسِّطُ له البسط، وتوضع عليها الرياحين فيمشي عليها . ونحوه لأحمد [٢٣٧١] من حديث ابن أخ الزهري عن عمه»^(١).

ووصل كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه فيه للإسلام، وهو في بيت المقدس، وكان ذلك سبب دعوته أبا سفيان ومن كان معه من المشركين، لكي يسألهم عن أمر النبي ﷺ.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رسولَ الله ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دحية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر. وكان قيصر لما كشف الله عنه جنود فارس، مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لما أبلاه الله، فلما جاء قيصر كتابُ رسول الله ﷺ، قال حين قرأه: التمسوا لي هاهنا أحداً من قومه، لأسألهم عن رسول الله ﷺ. [رواه البخاري (٢٩٤٠)].

• لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ:

﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: لله الأمرُ من قبل هذه الغلبة ومن بعدها، فهو وحده المدبِّر لكل ما حدث.

أخبر تعالى بانفراده بالقدره، وأنَّ ما في العالم من غلبة وغيرها، إنما هو منه وإرادته وقدرته^(٢).

فالحوادث مهما كانت صغيرة أو كبيرة، لا تحدث إلا بإرادته وقدرته جل

(١) فتح الباري: ٣٤/١.

(٢) المحرر الوجيز: ٤٢٦/١١.

وعلا، كما في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْغَيْبُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقوله سبحانه: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَتْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَتْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾ أي: ويوم ينتصر الروم على الفرس يفرح المؤمنون بتحقيق وعده، الذي أخبر عنه في كتابه، فإن فيه دليلاً على صدق النبي ﷺ، وأن القرآن الكريم كلام الله العليم بما كان وما يكون.

وفي هذا اليوم يفرح المؤمنون أيضاً بما تحقق لهم من فتح ونصر في صلح الحديبية، فقد كان لهذا الصلح أثر كبير في انتشار الإسلام وقوته، وقد أنزل الله تعالى به: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: ينصر من عباده من يشاء نصره، ويخذل من يشاء خذلانه.

فهو تأكيد لما سبق من قوله: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ فمشيئته جل وعلا طليقة تامة، ونافذة في جميع الحادثات والمكونات.

وهو العزيز الغالب على أمره، فأمره هو النافذ في مخلوقاته، وهو أيضاً الرحيم بعباده، فلا يحجب عنهم آثار رحمته وفواضل إحسانه في كل مقدراته وأقضيته.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٢).

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: وعد الله وعداً لا يتخلف، وهو ما أخبر عنه بانتصار الروم على الفرس، فالخبر في معنى الوعد.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ذلك، وهو أنه تعالى لا يخلف وعده.

الغافلون عن حقيقة الحياة

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

وهؤلاء الناس:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يعلمون ما يظهر منها ويطفو على سطحها من زخارفها وزينتها، وما يتصل بمعاشها وطرق اكتساب الأموال فيها. قال الحسن: «بلغ والله من علم أحدهم، أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه، ولا يحسن أن يصلي»^(١).

فعلمهم منحصر في متاع الدنيا الزائل، فهم حذّاق أذكياء في تحصيله. ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: وهم عن الآخرة التي هي غاية الدنيا والمقصودة منها غافلون، فلا تخطر ببالهم، لانشغالهم بمتاع الدنيا وشهواتها، فقد شغلوا بالوسيلة عن الغاية.

وأفادت الجملة الاسمية، وتكرار الضمير (هم) الدلالة على تمكن غفلتهم وشدتها، فالآخرة حلقة في سلسلة النشأة، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة، والذين لا يدركون حكمة النشأة، ولا يدركون ناموس الوجود، يغفلون عن الآخرة، ولا يحسبون حسابها، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجود، لا تتخلف مطلقاً ولا تحيد^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٨٠/١٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٧٥٩/٥.

والآية لا تدلُّ على ذم العلم بالدنيا، كما أفادت كلمات بعض المفسرين، فالعلم بشؤون الدنيا، واستثمار ما فيها مطلوب ومشروع، إنما المذموم هو الانشغال بها وبما فيها عن الآخرة، فإذا ما اتقن الإنسان أمورَ دنياه، وسخرها للتقرب إلى الله تعالى، والنجاة يوم القيامة، فإنه يكون عابداً لله ومأجوراً على عمله، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

• التفكير في الخلوة:

ولكي يتخلَّص الغافلون من غفلتهم، لا بد أن يتفكروا في أنفسهم وفيما حولهم، ليعرفوا أنَّ هذا الكون قد نُسِقَ ورُتِّبَ على أعلى درجات الإتقان والإحكام، وأنَّ هذا التنسيق والإحكام لم يأتِ باطلاً عارياً عن الحكمة، ولهذا توجهت الآيات تدعوهم لإعمال النظر والتفكير، بأسلوب التوبيخ والتقريع، كأنها توقظهم من غفلتهم، وتقول لهم: يا أيها الغافلون انتبهوا واستيقظوا وتفكروا فيما حولكم.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٨﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: خالين مع أنفسهم.

فخلوة الإنسان مع نفسه تعمق فكرته، وتجعله مستغرقاً فيها، وتبعده عن الشواغل الصارفة له عن التفكير، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِئاً وَفَرْدِئاً ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبا: ٤٦].

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: أولم يتفكروا فيعلموا أن الله ما خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً وعبثاً، من غير حكمة وفائدة، إنما خلقهما لحكمة بالغة، وهي قيام المكلفين بطاعته وعبادته،

ولهذا قدر سبحانه لهذه المخلوقات أجلاً مسمى تنتهي إليه ولا تتجاوزه.

فلا بد لكل حادث من نهاية، ولمّا كانت المكونات كلّها حادثة مسبقة بالعدم، فلا بد لها من نهاية تنتهي إليها.

فطبيعة هذا الكون تدلّ على أنّه محكومٌ بسنن دقيقة محكمة، مما يدل على أنّه خلُق بالحق الثابت، الذي لا يضطرب ولا يتزعزع، ومن مقتضيات هذا الحق أن تكون هناك آخرة، يتم فيها الجزاء على العمل^(١).

ومع وضوح هذه الحقيقة وظهورها لكل متفكر ومتأمل، فإن أكثر الناس لا يؤمنون بها:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ لأنهم غافلون لا يتفكرون.

ولو أنّهم استعملوا عقولهم بتجرد لعرفوا حكمة وجودهم وجوهر حياتهم، وأدركوا أنّهم مسؤولون عنها أمام ربهم يوم القيامة، كما تقدم في قوله تعالى:

﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاٰخَتَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فَيَسْمَعُوا وُقُوعَهَا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطَلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران].

* * *

الاعتبار بتاريخ الأمم الهالكة

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمُ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوٰى السَّوْءَ أَن كَذَّبُوا بِآيٰتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١١).

ثم دعته الآيات مرة ثانية بالأسلوب نفسه، إلى الاعتبار بمصائر الأمم الهالكة:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا اللَّهُ يُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: فينظروا نظر المعتبر المتدبر بمصير الأمم الهالكة .

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانوا أشد من مشركي مكة في القوة المادية والغنى .

﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: ومن قوة الأمم السالفة أنهم قلبوا الأرض للزراعة، واستنباط المياه، واستخراج المعادن، وأقاموا المنشآت العمرانية الكبيرة، وبعضها لا تزال أطلالها باقية حتى عصرنا الحاضر، وهذا يدل على أن عمارتهم الأرض أكثر من عمارة المشركين لها في عهد النبي ﷺ .

وقد يكون المراد بالعمارة الإقامة فيها، والمعنى: أقاموا فيها إقامة أكثر زماناً من إقامة هؤلاء بها^(١) .

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: وجاءتهم رسلهم بالمعجزات الدالة على صدق رسالتهم .

فالله تعالى لم يترك الأجيال البشرية المتعاقبة، من غير تكليف ومسئولية؛ لأنه تعالى ما خلق الخلق باطلاً ولا عبثاً، فكذبوا رسلهم، فاستحقوا بحسب سنّته تعالى في خلقه الهلاك والعذاب، فأهلكهم .

﴿فَمَا كَانُوا اللَّهُ يُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: كانوا يظلمون أنفسهم باختيارهم وكسبهم وإعراضهم عن رسالة ربهم .

وهلاكهم في الدنيا ليس هو النهاية:

﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَىٰ ۚ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿ثُمَّ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوْءَىٰ﴾ أي: ثم كانت عاقبتهم بعد إهلاكهم السوأي، وهي عذاب النار يوم القيامة.

والسوأي: تأنيثُ الأسوأ، كما أَنَّ الحسنَى تأنيثُ الأحسن، والقوم أساؤوا العمل في الدنيا، فاستحقوا العاقبة السيئة يوم القيامة فالجزاء من جنس العمل.

وقد بينت الآية كيف أساؤوا العمل في الدنيا:

﴿أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فعاقبتهم السيئة بسبب تكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها. فهو بيان وتقرير لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

السُّنَّةُ الكلية الشاملة

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُحْرَمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُومِضُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

فَخَلَقَ الناس وتكليفهم ومسؤوليتهم وحسابهم وجزاؤهم كل ذلك مرتبط بسنة إلهية قدرها العليم الحكيم، بسابق علمه، ويدبرها وحده بقدرته جل وعلا ومشيتته، فلا يشاركه فيها أحد:

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ .

فهي مراحل متوالية ومرتبطة فيما بينها، فمن يستطيع أن يخرق هذا

الناموس، الذي يحيط بالخلائق من بداية وجودها، إلى جمعها وحشرها للحساب والجزاء؟! أين المعاندون والجاحدون؟! وكيف يكون حالهم يوم القيامة؟!

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (١٢)

أي: يسكتون يائسين وتنقطع جحتم.

فالإبلاس كما قال الراغب: الحزنُ المعترض من شدة اليأس^(١).

ففي هذا اليوم يتبين إفلاسهم، ويتحقق إبلاسهم، وهو سكوتٌ مع تحير، ويأس مع بؤس، لا اليأس الذي هو إحدى الراحةين^(٢).

ومن إبلاسهم أيضاً يأسهم من شركائهم:

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (١٣)

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ أي: يشفعون لهم، ويخلصونهم من العذاب، كما كانوا يزعمون.

﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: وهم في تلك الحالة كافرون بشركائهم؛ لأنهم يؤسوا منهم، وعرفوا حقيقة أمرهم، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقد يكون المعنى: وكانوا بسبب شركائهم كافرين بالله تعالى.

وينقسمُ الناسُ إلى فريقين في يوم الحشر والجزاء:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ﴾ (١٤)

أي: يتفرقون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

(١) روح المعاني: ٢٥/٢١.

(٢) تفسير النيسابوري: ٢٨/٢١.

وأعيد ذكرُ اليوم لتحويل وتفضيع ما يقع فيه، فهو تهويل إثر تهويل، والتفريق لا يقع إلا في جزء منه، بعد وقوع أهوال وأفزاع.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ (١٥).

أي: فهم في أرض ذات أزهار وأنهار، يُسرون سروراً متوالياً لحظة فلحظة، يظهر أثره على وجوههم، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

فسرور أهل الجنة دائم متواصل لا ينقطع عنهم أبداً، ولا في لحظة واحدة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (١٦).

أي: فأولئك في العذاب محضرون على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً، ولا في لحظة واحدة.

وصرّحت الآية بتكذيبهم بالآيات، ولقاء الآخرة، مع أنهما مندرجان في الكفر؛ لبيان ضخامة جرائمهم وقبحها، وبيان استحقاقهم لهذا العذاب.

* * *

تسبيح الله وحمده

﴿قَسَبَحَنَ اللَّهُ حِينَ تُسَوَّرُ وَحِينَ تُصَيِّحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَبَيْنَ نَظَاهِرُونَ (١٨)

وبعد أن بينت الآيات السُّنة الشاملة، التي تنسحب على جميع الخلائق من بداية وجودهم، إلى مصيرهم النهائي، شرعت في الحديث عن بعض السنن الجزئية، التي تنظم حياة المخلوقات في الدنيا، والتي هي أدلة وبراهين على وجوده تعالى ووحدانيته وكماله.

ولمّا كان الزمن وارتباطه بدورة الأفلاك أبرزَ هذه السنن وأشملها وأكثرها دلالةً على وجود الخالق وقدرته وحكمته، بدأت الآياتُ تتحدّث عنه بأسلوب غير مباشر، فقد وجهت حديثها المباشر إلى تنزيه الحقّ تعالى عن أي سوء ونقص، وإلى الثناء عليه لكماله وجلاله:

﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧).

أي: نزهوا الله عما لا يليق به في المساء والصباح.
وجاء الأمر بصيغة الجملة الإنشائية، للمبالغة في الدلالة على استحقاقه جلّ وعلا التسبيح، وصدرت الجملة بالفاء لربط ما قبلها بما بعدها، أو لتجعل ما بعدها متفرّعاً عما قبلها، فكأنه تعالى يقول للمكلفين: إذا أردتم أن تكونوا من الذين هم في روضةٍ يُخبرون، فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (١٨).

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وله الحمد الثابت في السماوات والأرض. وحمده يدل على كماله جلّ وعلا، فعلى المكلفين من أهل السماوات والأرض أن يحمده، فهي جملة خبرية بمعنى الأمر، أفادت تقرير استحقاقه تعالى الحمد، وثباته له، كما مرّ معنا في قوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، فهو غني عن تسبيح المسبحين، وحمد الحامدين، فلو لم يحمده حامد فهو أهل الحمد والثناء على الإطلاق.

وقد أخبر سبحانه في عدد من الآيات أنّ الملائكة كثيراً ما تقرن بين التسبيح والحمد؛ لأن التسبيح تنزيه الحقّ تعالى عن كل نقص، والحمد إثبات الكمال المطلق له ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

﴿وَرَى الْمَلَائِكَةُ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» [رواه البخاري (٧٥٦٣)].

﴿وَعِشَاءً وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: وسبحوه أيضاً في آخر النهار، وحين تدخلون في وقت الظهيرة.

ولعلَّ سرَّ تخصيص هذه الأوقات بالأمر بالتسبيح؛ أنها تدل على قدرته تعالى وحكمته، في نظامها الدقيق وفي إحكامها، فهي تجري بإتقان دون أدنى خلل واضطراب، كما قال تعالى في سورة يس: ﴿وَأَيُّ لَهِمُّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَقَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠).

فهذه الأوقات مبادئ التغير والانعطاف في الزمن، حسب النظام الذي أبدعه العليم الحكيم.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا تسبيحٌ منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة، الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه»^(١).

ورأى بعضهم أنَّ في الآيات إشارةً إلى أوقات الصلوات الخمس المفروضة، التي فيها التسبيح والتحميد، فعن ابن عباس قال: جَمَعَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ مَوَاقِيتَ الصَّلَاةِ: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُسُونَ﴾ قال: المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصِيحُونَ﴾ الفجر، ﴿وَعِشَاءً﴾ العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر^(٢).

* * *

بعض السنن الإلهية في الآفاق والأنفس

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السَّيِّدِ كُمْ وَالْوَيْكَرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

• خلق الأضداد من بعضها:

ومما يدل أيضاً على كمال قدرته تعالى وطلاقة مشيئته، وأن النواميس التي أبدعها لا تقيد مشيئته وقدرته سبحانه أنه:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي: يخلق الشيء من ضده، كإخراج الحيوان والنبات والشجر، من النطفة والحبة والنواة، والعكس أيضاً. وهي ظواهر متجددة بقدرته تعالى، ومبثوثة في كثير من المخلوقات، وتحدث أيضاً في داخل أجسامنا، حيث تتجدد في كل لحظة ملايين الخلايا، تنقسم ثم تموت، ويحيي الله غيرها، وفي كل فترة تتخلق ملايين الحيوانات المنوية داخل أجسامنا، من الدم الذي تمده الأغذية المقطعة والمطبوخة

والممضوغة والمهضومة، وقد ذكر الله تعالى هذه الظاهرة في عدد من الآيات الكريمة كقوله سبحانه: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ شَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوْكَاتِ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿وَنُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: ويحيي الأرض اليابسة الميتة بإنزال المطر عليها، وإخراج النبات الحي منها، كما في قوله الكريم: ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿وَكَذَلِكَ تُخْرِجُون﴾ ومثل هذا الإخراج للنبات من الأرض الميتة، تخرجون يوم القيامة من قبوركم للحساب والجزاء.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: ومن النواميس التي قدرها العليم الحكيم وأبدعها، أنه خلقكم من تراب، وذلك بخلق أبيكم آدم من تراب وخلقكم أيضاً من سلالة مستخلصة من التراب، فالنطف التي هي أصل التكوين العضوي للإنسان، مستخلصة من الدم، المتكوّن من الأطعمة التي يأكلها الإنسان، وكلّها صادرة من التراب، كما تقدّم عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَراغٍ مَكِينٍ ﴿المؤمنون﴾.

والخلق من التراب مظهر من مظاهر إخراج الحي من الميت:

﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ أي: تنتشرون في الأرض، وتتحركون في أغراضكم وأسفاركم.

● لطيفتان:

ودلت كلمة (إذا) في الآية على المفاجأة، فالانتقال من التراب الكثيف

الساكن الهامد إلى البشرية المتميزة بحيويتها ونشاطها وحركتها أمرٌ عجيب مدهشٌ، يدل على كمال قدرة الخالق العظيم جل وعلا.

وقد استدلل أحدُ قدماء علماء التفسير بموقع (إذا) الفجائي هنا، على بطلان نظرية داروين في النشوء والارتقاء، قبل وجود داروين ونظريته بمئات السنين، وهو الإمام المفسر الفخر الرازي، المتوفى سنة (٦٠٤هـ)، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: «وفي الآية لطيفتان:

إحدهما: قوله: ﴿إِذَا﴾ وهي للمفاجأة، يقال: خرجت فإذا أسدٌ بالباب، وهي أن الله تعالى خلقه من ترابٍ بـ (كن) فكان، لا أنه صار معدناً، ثم نباتاً، ثم حيواناً، ثم إنساناً. . . فالله تعالى جعلَ المرتبةَ الأخيرةَ في الشيء البعيد عنها غايةً من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها.

واللطيفة الثانية: قوله: ﴿بَشَرٌ﴾ إشارةً إلى القوة المدركة، لأنَّ البشر بشر لا بحركته، فإن غيره من الحيوانات أيضاً كذلك، يتحرك كالبشر، وليس عنده القوة المدركة التي لدى البشر، وقوله: ﴿تَنْشَرُونَ﴾ إشارة إلى القوة المحركة، وكلاهما من الترابِ عَجِيبٌ^(١).

• المودة والرحمة بين الأزواج:

وانتقلت الآيات من الحديث عن الناموس الإلهي في خلق البشر، إلى الناموس الذي ينظم حياتهم الاجتماعية، ويستمر به وجودهم وتكاثرهم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي: ومن دلائل قدرته وحكمته أن خلقَ لكم أزواجاً منكم، لتألفوها، وتميلوا إليها، وتطمئنوا

بها؛ لأنها جزء منكم، كما مر عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًاؤُا رَيْبِكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

فقد ذكرنا ثَمَّةً أَنَّ الله خلق الأُمَّ الأولى للبشر، من جزء من أجزاء آدم، وأنه عليه الصلاة والسلام بيّن في الحديث الشريف ذلك الجزء بقوله: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عَوْجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرُهَا طَلَاُهَا» [رواه مسلم ١٤٦٨/٥٩].

والزَّوْجُ: في لغة العرب يطلق على الرجل والمرأة، فالرجل يكون منفرداً، فإذا اتخذ امرأة فقد صاراً زوجين، وأصبح كل واحد منهما زوجاً للآخر.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: وجعل بينكم - أيها الأزواج من رجال ونساء - مودة ورحمة، بسبب الزواج الذي يربط بينكم.

فالزَّوْجَانِ يتوآدَّانِ ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة، ولا سبب يوجب التعاطف، ولا شيء أحبُّ إلى أحدهما من الآخر - من غير تراحم بينهما - إلا الزَّوْجَانِ^(١).

ولهذا قالوا: المودة والرحمة بين الأزواج من الله تعالى، بينما التباغض والتنافر من الشيطان.

وذكر تعالى أمرين يفضي أحدهما إلى الآخر، فالمودة تكون أولاً، ثم إنها تُفضي إلى الرحمة، ولهذا فإنَّ الزوجة قد تخرجُ عن محل الشهوة بكبر أو مرض، ويبقى قيام الزوج بها، وبالعكس^(٢).

ولما كانت هذه الأمور لا تدرِكُ إلا بعد إمعان نظر وتأمل، ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعرفون فضله تعالى عليهم، بهذه السنن التي تنظم حياتهم الاجتماعية، ويمتازون بها عن حياة الحيوان.

(١) تفسير الخازن: ٤٠/٥.

(٢) تفسير الرازي: ١١٢/٢٥.

• الاختلاف في الخصائص والصفات:

ومن السنن الإلهية في المخلوقات، التنوع والاختلاف في خصائصها وصفاتها وملكاتهما، وارتباط هذا التفاوت والاختلاف بأصل الخلق ومبدأ التكوين. فالله جلّ وعلا خلق الخلق متفاوتين في الخصائص والصفات من بداية نشأتهم، وكل ما نشاهده من اختلاف في صورهم وألوانهم وأشكالهم أمرٌ فطري ثابتٌ غيرٌ مكتسب، ولهذا أخبر تعالى عنه مقرونًا بخلق السماوات والأرض، فقال:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفَ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفُ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكْرُ﴾ أي: اختلاف لغاتكم وألوان بشرتكم، وهو دليل على كمال قدرة الخالق وطلاقة مشيئته، ودقة حكمته، وعظيم تدبيره.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: العالمين بخصائص الأجناس، وتنوع الصفات، وتعدد المواهب والملكات.

فالتنوع في المخلوقات يدلّ على كمال قدرة الخالق، وباهر حكمته.

وقد ذكر سبحانه هذا المعنى في عدد من آياته، منها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

ومنها قوله سبحانه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَجَوِّدٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْتَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

فكما أنه تعالى قادر على خلق الأشياء من أضدادها، كما سبق في قوله:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩] كذلك هو قادر على خلق الأشياء المختلفة بالصفات والخصائص والأشكال، من أصلٍ واحدٍ ومعدنٍ واحد. ولهذا التنوع حُكْمٌ كثيرة، منها: تيسير التعارف بين المخلوقات، فلو اتفقت الأصواتُ والصورُ وتشاكلت، وكانت ضرباً واحداً، لوقع التجاهل والالتباس، وتعطلت مصالح كثيرة، فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد! وفي ذلك دليل على سعة القدرة وكمال العظمة^(١).

• هكذا تمضي الحياة:

ثم انتقلت الآيات من الحديث عن سُنن الخلق والإبداع، إلى السنن التي تنظم حركة المخلوقات وتقلباتهم وتصرفاتهم، وأبرزها تقسيم حياتهم إلى قسمين: أحدهما: يصرف في النوم والراحة والسكون. وثانيهما: يصرف في طلب المعاش وتحصيل الرزق. ولا شك أن هذا الناموس من النواميس القدرية التي لا يمكن الخروج عليها، ولهذا جاء التعبير عنها بأسلوب الإلزام:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٣٣)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وتشير الآية إلى أن الليل والنهار ظرفان للنوم والاكْتِسَاب، إلا أنَّ الغالب تخصيصُ الليل للنوم والراحة، وتخصيصُ النهار للعمل والاكْتِسَاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (١١) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا [النبا].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون سماع تفهّم واستبصار واستجابة، فإن الحكمة فيه ظاهرة.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٢٤].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته، وعظيم فضله وإحسانه، آيةٌ يريكم فيها البرق وأنتم في حال خوفٍ وطمعٍ، خوفٍ من الصواعق، وطمعٍ في المطر، مما يدل على شدة ضعفكم، وافتقاركم إلى رحمة ربكم.

﴿وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يحيي الأرض اليابسة بالنبات، كما مرَّ عند قوله: ﴿وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم لكي يعرفوا فضله تعالى عليهم، وشدة حاجتهم إليه.

● وهكذا تنتهي:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [٢٥].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته ومشيتته، أن يكون دوام السماء والأرض واستمرار وجودهما منوطاً بقدرة تعالى ومشيتته، فكما أن الإيجاد منه، فالإمداد منه أيضاً، فهو الذي يمدُّ المكونات بأسباب الوجود والبقاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] فهو قيوم السماوات والأرض، وكل النواميس الكونية تجري بمشيئته وقدرته.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: ومن آياته أيضاً إخراجكم من القبور بعد موتكم، بدعوة واحدة، فمشيئته تعالى نافذة فيكم أحياء وأمواتاً، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [٢٣] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].

وقال أيضاً: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَنِينٌ ۖ﴾ ﴿٢٦﴾ .

أي: خاضعون منقادون لنواميسه القدريه وسننه الكونية.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: يعيده بعد فناءه وموته.

﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو أهون عليه بالقياس إلى قدرتك، وإلا فهما عليه سواء ﷻ .

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وله سبحانه الصفة العليا التي لا يَتَّصِفُ بها غيره في السماوات والأرض، وهي كمال الذات والصفات، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: وهو القادر الغالب على كل شيء، والحكيم في كل شيء، تقدست ذاته وتسامت صفاته.

* * *

مثل من الواقع

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقَكُم فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَحَافُونَهُمْ كَهِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ بَلْ أَنتُمْ الَّذِينَ ظَلَمْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مِّنْ أَصْلَ اللَّهِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ .

ثم ضربت الآيات مثلاً مستمداً من واقع حياة الناس، تظهر به بطلان عقيدة الشرك وقبحها:

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: مثلاً منتزعاً من أحوالكم، التي هي أقرب الأمور إليكم، وأعرفها عندكم.

﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: هل ترضون لأنفسكم أن يكون لكم شركاء من بعض عبيدكم وإمائكم، يشاركونكم فيما رزقناكم من أموال وأملاك، فيتصرفون فيها كتصرفكم، من غير فرق بينكم وبينهم، حتى إنكم تخافون أن يستبدوا بالتصرف دونكم، مثل خيفتكم من الأحرار المماثلين لكم؟..

فإذا لم ترضوا هذا لأنفسكم، فكيف ترضون لربِّ الأرباب، ومالك الأحرار والعبيد، أن تجعلوا بعض عبيده شركاء له؟! إنكم تأنفون من ذلك، فكيف ترضونه لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جُرْمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: هكذا نفصل لهم المعاني ونقربها من عقولهم بضرب الأمثال، لعلهم يتفهمونها وينتفعون بها.

وبعد كل هذا البيان والتفصيل، ظل القوم معرضين عن الحق، منتكسين في حماة الضلال، بسبب اتباعهم أهواءهم وانشغالهم بشهواتهم:

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فلم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصلة، والأمثال المضروبة، وظلوا على جهلهم.

﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: لا أحد يقدر على هداية من أضله الله تعالى، وما لهؤلاء الضالين من ناصرين يخلصونهم من تبعات ضلالهم.

* * *

الفطرة والتوحيد

﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ
الَّذِي الْفَتَّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ مَبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ
بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا
فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَهُمْ يَتَمَنَّوْنَ أَنَّهُمْ لَئِنْ كُنَّا
عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ
سَيْئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٦﴾ فَاتَّخَذَ الْفَرِيقَ حَقًّا وَالْمُسْكِينَ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ حَيْرٌ لِلَّذِينَ
يُرِيدُونَ رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا ءَاتَيْنَا مِنْ رَبٍّ لَنُرِيدُوهُ فَلَآ يَرِيدُوا
عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْنَا مِنْ رُزُقٍ يُرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وتوجهت الآيات بعد هذا المثل الرائع، الذي بيّن بطلان عقائد الشرك، إلى النبي عليه الصلاة والسلام، تأمره أن يتمسك بالحق، ويثبت عليه، وتكشف في ثنايا هذا الخطاب ناموساً من نواميسه تعالى في خلقه، وستة من سنته:

﴿فَاقْمْ وَّجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ
الَّذِي الْفَتَّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: تمسك بالدين القائم على التوحيد، ودُم عليه معرضاً عن كل ما يخالفه.

﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: الزموا أصل الخلقة التي خلق الله الناس عليها.

فالفطرة: الخلقة وزناً ومعنى، والمراد القابلية للتوحيد والاستعداد له، فالله خلق الناس قابليين له، غير نابيين عنه، ولا منكرين له، لكونه مجاباً للعقل، مساوفاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر^(١).

كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِهِ أَوْ يَمَجَّسَانِهِ، كَمَا تَنْتُجُ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تَحْسُونُ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟» ثُمَّ يَقُولُ: ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّذِي أَلْفَيْمٌ﴾. [رواه البخاري (٤٧٧٥)].

وقد يكون المراد من الفطرة عقيدة التوحيد نفسها، لا القابلية لها، أي: معرفة الله وتوحيده، وهو الأوجه، ويتسق هذا مع صدر الآية، التي أمرت بالاستقامة على دين التوحيد، وهذه الفطرة من أثر الميثاق الأول، الذي ذكره الله تعالى في قوله الكريم في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وهو معنى حسن صحيح^(٢).

وقد يكون المراد الإخبار عن استحالة تبديل الفطرة نفسها وإزالتها، فالآية

(١) روح المعاني: ٤٠/٢١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٤/٣.

تقرر أنَّ سلامة الفطرة متحققة عند جميع الناس، وعليهم أن يلتزموا بذلك، فمعرفة الله تعالى مركوزة في نفس كل إنسان، ولا عبرة بمكابرة الملاحدة، من الماديين الدهريين، فهم ينكرون حقيقة في أعماق نفوسهم، بسبب غرورهم واستكبارهم، تظهر عندما يُواجهون الموت، ويعاينون أسبابه، كما حدث لفرعون عندما أدركه الغرق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَآمَنْتُ بِهِ نَبُوءًا إِبْرَئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُقَالُ الْفِطْرُ﴾ أي: ذلك الذي أمرت بالاستقامة عليه، هو الدين القيم في نفسه، وهو الدين المستوي الذي لا عوج فيه، الذي تؤيده الأدلة والبراهين، وتقبله الفطر الإنسانية الأصيلة.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أنه الدين القيم؛ بسبب غفلتهم عن أصل الفطرة، وعدم تدبرهم وتفكرهم.

إن انشغال الناس بشهواتهم، واهتمامهم بمصالحهم المادية، وغرورهم واستكبارهم يغطي أصل الفطرة المركوزة في صدورهم، ويدفعها إلى الساحات اللاشعورية في أعماق نفوسهم، حتى إن الكثيرين يجحدونها وينكرون وجودها، فلا يذكرونها إلا عند إحساسهم بالعجز والضعف، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣].

● عودة الغافلين الشاردين:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه تعالى بالتوبة والإخلاص، من: ناب نوبة ونوباً، إذا رجع مرة بعد أخرى.

والرجوع يكون بعد الشرود والغفلة، فكأن الآية تخاطب الغافلين عن الفطرة المركوزة في أعماق نفوسهم، تقول لهم: يا أيها الغافلون انتبهوا، ويا أيها الشاردون عودوا إلى الله تعالى وإلى طاعته وعبادته.

وأفادت صيغة الجمع عموم المخاطبين، ووُجِّه إليه ﷺ في أول الأمر تشريفاً وإظهاراً لخطورة مضمون الخطاب وأهميته.

﴿وَأَنْقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته وترك معصيته، وأقيموا الصلاة التي تذكركم به سبحانه، وتردكم إلى ساحات رحمته وفضله، ولا تكونوا من المشركين الغافلين عن ربهم، أو: ولا تكونوا من المشركين بترك الصلاة، وهذا يدل على أهمية الصلاة، وأن تركها يؤدي إلى الكفر، أو هو الكفر بعينه.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: لا تكونوا من الذين اختلفوا في دينهم فبدلوه وغيروه، فانحرفوا عن أصل الفطرة التي فُطروا عليها، وفي قراءة: (فارقوا دينهم).

وقد حذرنا تعالى من الاختلاف والفرقة في الدين، في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ومنها أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿وَكَانُوا شِيعًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: وصاروا فرقاً وأحزاباً مختلفة، كل فرقة تشابع نحلته الباطلة وتتعصب لها، فهم معجبون بباطلهم ومفتنون به. ثم أكدت الآيات أن التوحيد أمر فطري، يرجع إليه الغافلون عنه والجاحدون له في حال الضر والشقاء:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه تعالى بعد أن كانوا غافلين عنه، شاردين عن ساحات فضله ورحمته.

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: وإذا رحمهم فخلّصهم من الضر، إذا فريق منهم يعودون إلى شركهم وغفلتهم عن ربهم، جاحدين فضله تعالى عليهم. ولهذا قال تعالى يتوعدّهم ويتهدّدهم:

﴿يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٤﴾

أي: ليجحّدوا نعمة الله تعالى عليهم، وليتمتّعوا بالسعة والرخاء، بعد أن نجّاهم الله من الضر، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وجحودهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وليس لكفرهم أي مستند من عقل أو نقل، ولهذا قال تعالى بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣٥﴾

أي: هل أنزلنا عليهم حجة وبرهاناً تؤيد شركهم وتأمرهم به؟!.

ثم بينت الآيات بعض الأحوال والصفات النفسية للإنسان، وكأنها تشير بذلك إلى الدوافع الخفية، التي تجعل أكثرهم غافلين عن الحقيقة الفطرية المركوزة في أعماق نفوسهم:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ﴿٣٦﴾

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ أي: فرحوا بها فرحاً ينسيهم المنعم المتفضّل بها عليهم، فالقوم فرحوا بالنعمة، وأعرضوا عن المنعم.

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: وإن يصيبهم ما يسوءهم

بسبب معاصيهم وفجورهم، إذا هم يصابون باليأس وخيبة الأمل، حتى إن بعضهم يصابون بالأمراض العصبية، والعقد النفسية، وبعضهم قد يُقدم على الانتحار، كما هو مشاهد عند كثير من الناس في المجتمعات المادية الكافرة.

• الاختبار في الرزق:

وهذه العوارض التي تحدث لهم، عندما يصابون بمصيبة، سببها جهلهم بحقيقة الدنيا، وأنها دارٌ ابتلاءٍ واختبارٍ، ولهذا فإنها لا تسيّر على وتيرة واحدة، وإن من السنن الإلهية فيها التغير والتبدل في حياة الناس، وأقرب مثال واقعي على ذلك: التغير والتبدل في أرزاق الناس ومستوى معيشتهم:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع الله الرزق لمن يشاء، ويضيّقه ويقلله لمن يشاء أيضاً.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في ذلك لدلائل تدل المؤمنين على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ففي حال السعة يعرفون فضله تعالى عليهم، ويؤدّون الحقوق الواجبة لأصحابها:

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: يريدون التقرب إلى الله تعالى والفوز برضوانه.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون باختبار النعمة وسعة الرزق.

وكذلك يلتزمون الحدود المشروعة في تنمية أموالهم وتثميرها، ويتجنبون طرق الكسب المحرمة، كالربا:

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوٓا۟ فِي۟ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيٓوٓا۟ عِنْدَ اللَّهِ وَمَآ آتَيْتُم مِّن زَكَاوٰتٍ تُرِيدُونَ
وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٔٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ (٣٩).

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبُّوٓا۟ فِي۟ أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيٓوٓا۟ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: وما قدمتم من أموال ربوية، بقصد تمييزها وتنميتها من أموال الآخرين وحقوقهم، من دون عمل ومشاركة في تحمُّل الخسارة، فلا تريد عند الله تعالى، فهذه الزيادة لا تطيبُ لكم في شرع الله تعالى، ولا يبارك الله في هذه الأموال، ومآلها إلى التلف والهلاك، كما قال سبحانه: ﴿يَمْحُو اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

فالمال الذي يباركه الله تعالى هو المال الحلال المزكى، ولهذا قال سبحانه على سبيل المقارنة:

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاوٰتٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٔٓئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: أولئك ذوو الأضعاف، جمع مضعِف، كالموسِر لذي اليسار.

وعدَلَ عن الخطاب إلى الإخبار، إيماءً إلى أنه لم يُخصَّ به المخاطبون، بل هو عام في جميع المكلفين إلى قيام الساعة، فهو ناموس إلهي شامل. ورأى بعضهم أنه في الهدية، التي يطمع صاحبها بأن يُعطى في مقابلها ما هو أفضل منها، قال ابن عباس: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا﴾ يريد هدية الرجل الشيء، ويرجو أن يثاب أفضل منه، فذلك الذي لا يربو عند الله، ولا يؤجر صاحبه، ولكن لا إثم عليه^(١).

فهي آية نزلت في هبات الثواب، وما جرى مجراها، مما يصنعه الإنسان ليجازي عليه، كالسلام وغيره^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٣٦/١٤.

(٢) تفسير ابن عطية: ٤٦١/١١.

التلوث في البيئة والسلوك

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرَرْتُهُمْ وَلِلَّذِينَ الْفِتْنَةُ مِثْلُ النَّارِ مِمَّا يَبْتِئُومُ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَحْزَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم ذكرتهم الآيات بسنن الله القدرية العامة، التي لا يستطيعون التملص منها، بأسلوب التحدي للمشركين ولآلهتهم:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: سبحانه ونزهوه؛ فإن الشرك لا يليق بكماله وجلاله.

وما خلقكم سبحانه ورزقكم إلا لتعمروا الأرض بعبادته وطاعته، والخلل والفساد لا يحدث إلا عند الإعراض عن تحقيق حكمته تعالى في الخلق، وابتعاد الناس عن الالتزام بأحكامه الشرعية، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الحقيقة في كثير من آيات السورة، وها هي الآن تصرح بها:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي: ظهر الخلل والاضطراب

في بيئة الحياة، وانتشر في البر والبحر؛ بسبب فجور الناس وكفرهم ومعاصيهم، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم.

وقال ابن عطية: «ظهور الفساد فيهما هو ارتفاع البركات، ونزول رزايا، وحدث فتن، وتغلّب عدو كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر»^(١).

وكان الآية الكريمة تبين السبب الأساس للخطر الكبير، الذي تنبّه إليه الناس أخيراً، وهو ما يسمونه تلوث البيئة، وهذا التلوث نتيجة حتمية لتلوث عقائد وأخلاق وسلوكيات أكثر الناس، فالكون مخلوق على أكمل نظام وأحكمه، ومهيأً لحياة الناس على أتم الوجوه، وإنّ من النواميس التي قدّرها العليم الحكيم، أن يكون استمرار الإحكام والإتقان في هذا الكون، منوطاً بصلاح عقائد المكلفين، وبالتزامهم بشريعة ربهم، خالق الكون ومدير أمره.

﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: وإن ظهور الخلل والاضطراب في بيئة الحياة، إنذار من الله تعالى للشاردين عن بابه، والمنصرفين عن شرعه؛ لعلهم يعودون إلى طاعته والتزام أحكام شريعته.

وهذا الناموس سنّة من سننه تعالى في خلقه ماضياً وحاضراً:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾^(٤٢).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: انظروا نظر المتدبر المعبر، وفكروا بسبب هلاكهم ودمارهم:

﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾.

ثم بينت الآيات طريق الخلاص والنجاة من الفساد، وخطر الخلل والاضطراب في بيئة الحياة، فتوجّهت بالخطاب مرة ثانية إلى النبي صلّى الله عليه وآله تأمره

بالثبات على دين الله تعالى، والاستقامة على شريعته، فهو سبيل الخلاص والنجاة من الهلاك في الدنيا والآخرة:

﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (٤٣).

﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ أي: لا يقدر أحد على رده؛ لأنَّ الله قدَّره، وتعلَّقت به إرادته، وهو يوم القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرَّقون، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

والمسؤولية في هذا اليوم شخصية، وكل إنسان يتحمَّلُ تبعات عمله وكسبه واختياره:

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ (٤٤).

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: فعلية وحده وبال كُفْرِهِ.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: لأنفسهم يوطِّئون الطريق إلى الجنة، ويصلون بهذا التمهيد إلى فضله تعالى ورحمته.

﴿لِجَزَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٥).

﴿لِجَزَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالفضل من الله تعالى أولاً وآخرًا.

وخصَّ تعالى المؤمنين بفضله دون غيرهم؛ لأنه لا يحب الكافرين:

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فهم مطرودون من ساحات رحمته وفضله.

* * *

إرسال الرياح والرسل

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتِينَ ﴿٤٩﴾ فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْقُوتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

ثم لفتت الآيات الأنظار إلى بعض الظواهر الكونية، التي تبيّن ارتباط السنن الإلهية بسلوك الناس، ومدى استجابتهم لأمر ربهم، وتصديقهم لرسله:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦)﴾ .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ أي: تبشّر باقتراب نزول المطر، فهي حوامل السحب الممطرة، بحسب الناموس الذي قدّره العليم الحكيم لحركة الرياح، وتوزيع الأمطار على بقاع الأرض، وسيأتي تفصيله قريباً.

وقد اقتصرَت الآية هنا على بيان أنّه من الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى وإحسانه ورحمته، وأنّ له صلةً أيضاً بحركة السفن في البحار، وتيسير أسباب الرزق لكثير من العباد، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالمنافع المترتبة على إرسال الرياح متعددة، فالسفن تجري بمشيئته تعالى، ففي الرياح طاقة كبيرة،

كان الناس يعتمدون عليها في تسيير سفنهم، للتجارة والصيد وغير ذلك من المنافع.

﴿وَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تشكرونه تعالى على هذه النعم الكبيرة.

وشكره تعالى لا يكون إلا باتباع رسله، والتزام شريعته، ولهذا توقفت الآيات عن الحديث عن منافع الرياح المرسلّة، لتتحدّث عن رسالات الرسل، وعن انتقامه تعالى من الذين أعرضوا عن رسالاتهم، فكأنّ الآيات تقول للناس: إن أردتم أن تبقى أسباب الرزق ميسّرة لكم، فتمسكوا برسالات الله تعالى، والتزموا بشريعته، وإلا فإن سنّته تعالى في الأمم السالفة الهالكة ستنسحب عليكم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: جاء المرسلون بالبراهين والدلائل، التي تدل الناس على صدق رسالاتهم، ومع ذلك كذبوهم.

﴿فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا يدل على أنّ للمؤمنين كرامة عند الله تعالى، فإنّ انتقامه من المجرمين لأجل نصر المؤمنين، فما أعظم فضله عليهم!

وبعد بيان العلاقة القوية، بين إرسال الرياح بالخيرات المادية، وإرسال الرسل بالخيرات المعنوية، عادت الآيات تفصّل الناموس الإلهي لحركة الرياح، وما يترتب عليه:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨).

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ فهو سبحانه المرسل الحقيقي للرياح، وما يقال عن تأثير اختلاف الأنواء، واختلاف درجات الحرارة والبرودة، وعلى حركة

الرياح، كُلُّ ذلك أسبابٌ أبدعها العليم الحكيم أيضاً، وهي لا تؤثر بنفسها إلا إذا وافقت قدر الله تعالى، فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات، كما سبق بيان ذلك في موضوع سورة الرعد [١٢ - ١٣].

﴿فَتُنِيرُ سَحَابًا﴾ أي: ترفع سحاباً وتحركه وتسيره.

﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: فينشره في سماء البقاع والبلاد كما يشاء تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِئُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ أي: ويجعله تعالى قطعاً متميزة من بعضها، بكشافتها وبرودتها وشحناتها الكهربائية وألوانها.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: فترى المطر يخرج من خلال السحاب.

﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ أي: إذا هم يفرحون بما يحمل لهم المطر من خير ورزق.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنِ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ﴾

أي: وكانوا من قبل نزول المطر عليهم في حال يأس وقنوط وحزن.

● التغير السريع في أحوال الناس النفسية:

وأفادت (إذا) الفجائية، في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ سرعة تقلب أحوال الناس النفسية، من حال اليأس والحزن إلى حال السرور والرجاء، كما أفاد تكرار الضمير العائد على المطر في قوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مَنِ قَبْلِهِ لَمُبْسِيتٍ﴾ شدة يأس الناس وحزنهم، بسبب تطاول احتباس المطر عنهم.

ولهذا جاء التعقيب على الآثار الطيبة الإيجابية، التي أحدثها نزول المطر، في نفوس العباد وفي حياة البلاد، حيث قال ﷻ:

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي : انظر أيها الإنسان نظر المستبصر المعبر ، لتعرف عظمة الخالق ، وقدرته في إحياء الأرض اليابسة الهامدة .
﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي : إن ذلك لدليل واقعي مشاهد ومتجدد ، يدل على قدرته تعالى على إحياء الموتى يوم القيامة ، وهو سبحانه قادر على كل شيء .

ولا شك أن سرعة قلب مزاج الإنسان ، يدل على افتقاره وضعفه ، ولهذا تابعت الآيات تقرر هذه الحقيقة ، فتصور تحول الإنسان الفجائي المعاكس لما سبق بيانه من تحوله من اليأس والقنوط إلى السرور والرجاء :

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي : ريحاً عقيماً لا يحمل سحباً ، ولا يبشّر بنزول مطر .
﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي : رأوا آثاره المدمرة الصفراء ، أو : رأوه بلون أصفر ، بسبب ما يحمل من غبار وتراب .

﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي : لظلموا من بعد الاستبشار يكفرون بالله ، ويجحدون نعمته وفضله ، وهذا يؤكّد ضعفهم ، ويدل على قلة تثبتهم وصبرهم ، وسرعة تزلزلهم ، كما يدل على عدم تدبّرهم ، وسوء رأيهم ، فإنّ النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله ، ويلتجئوا إليه بالتوبة والاستغفار إذا احتبس القطر عنهم ، ولم ييسوا من رحمته^(١) .

وهذا تأكيد لما تقدم من قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم : ٣٦] .

والجدير بالذكر هنا أن حال المؤمن في مثل هذه التقلبات والأحوال، يختلف عن حال الكافر، فإنه يشكر الله عند النعمة، ويصبر عند المحنة ولا يئس من روح الله، بل يلتجئ إليه داعياً مستغفراً، كما في الحديث الشريف: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراءٌ شكرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صبرَ فكان خيراً له» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

ويلاحظ أن القرآن الكريم يميز بين الرياح والريح، فالتى تحمل المطر وتأتي بالخير رياح، بينما التى تحمل الدمار والخراب ريح، ولعل ذلك بسبب الواقع المشاهد، فالرياحُ الممطرة تأتي رخية لينة على دفعات، بينما الريح المدمرة تأتي دفعة واحدة، على شكل إعصار قوي مدمر.

* * *

موتى القلوب

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أُمَّدَّ إِنَّا ۚ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمْيَ ۚ صَالِحٌ لَهُمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢).

استمرت الآيات في مخاطبة النبي ﷺ؛ تواسيه عما يلقاه من إعراض المشركين وجحودهم:

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ أُمَّدَّ إِنَّا ۚ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمْيَ ۚ﴾.

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ أي: وضحت الحجج يا محمد، لكنهم لآلهم تقليد الأسلاف في الكفر، ماتت عقولهم، وعميت بصائرهم، فلا يتهاى لك إسماعهم وهدايتهم^(١).

فالمراد موتى القلوب بسبب كفرهم، إذ الكفر موتٌ، والإيمان حياةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي: لا تُسمع الدعوة الذين فقدوا حاسة السمع إذا أعرضوا عنك فارين، فإنَّ الأصم المقبل ربما يفهم شيئاً بواسطة الإشارة.

وهذا يدلُّ على شدة إعراضهم عن دعوة النبي ﷺ. وفي قراءة: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالِهِمْ﴾ أي: وما أنت تقدر على هداية الضالين المصريين على ضلالهم، فذلك لله تعالى، يضلُّ مَنْ يشاء، ويهدي مَنْ يشاء. سمَّاهم عمياً، جمع أعمى؛ لفقدهم المقصود الحقيقي من الإبصار، وهو رؤية الشواهد الدالة على الحق، فقد ينتفي الشيء لانتفاء فائدته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أو: لعمى قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: ما تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا، فإنَّ إيمانهم يجعلهم يتدبرون فيها، وينتفعون بها، فهم المنقادون للحق، المستسلمون له.

تذكير وتحذير وتبشير

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثْبِتَا عِيرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَسَّتْهُمُ بَآيَاتُ الَّذِينَ يَقُولُونَ كَمَا مَرُوا إِنْ أَتَتْهُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

● سُنَّةُ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ:

وأخيراً قبل أن تُخْتَمَ سورة الروم، سورة السنن الكونية، ذَكَرَ الله تعالى الناسَ بأسلوب التحدي، بسُنَّةِ القدرية للأطوار الأساس الكبرى في حياتهم:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ أي: خلقكم من نطفة ضعيفة. أو: خلقكم في حال ضعف، فهو تذكير لنا بما كنا عليه في ابتداء خلقنا.

وقال: ﴿مِنْ ضَعْفٍ﴾ ولم يقل: ضعفاء؛ للدلالة على أن الضعف أساسُ أمرنا، فهو كقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] تنزيلاً لما طُبِعَ عليه من الأخلاق منزلة ما طُبِعَ منه.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي: جعل من بعد ضعف الصغر والطفولة، قُوَّةَ الشباب، فهي نعمة من نعمه تعالى، لا يكتسبها الإنسان بجهد، وإنما يتفضل الله بها عليه.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ أي: ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الشيخوخة، وما يصاحبها من الشيب والهرم.

فالتغيير يتناول قوة الناس وبنيتهم، وهو يخضع لناموس قدري لا يستطيع أحد أن يتملص منه، وما أكثر ما بذلوا من جهود للتملص منه، أو لتأخير سريانه فيهم، فما حصلوا إلا على السراب، ضاعت جهودهم، وفشلت أبحاثهم، وكان الأولى بهؤلاء الباحثين عن إكسير الشباب، والراكضين وراء السراب، أن يوجِّهوا جهودهم لاغتنام القوة في طاعته تعالى، وعمارة حياتهم بعبادته، كما في الحديث الشريف: «بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مُطغياً، أو مرضاً مُفسداً، أو هرمًا مُفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال، فشر غائب ينتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمر» [رواه الترمذي (٢٣٠٦) وقال: حديث حسن].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك» [رواه الحاكم (٣٠٦/٤) وصححه].

وإنَّ هذا الناموسَ عامٌّ شاملٌ، يسري حتى على الأنبياء، صفوته تعالى من خلقه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

وهو يتم بمحض مشيئته تعالى وقدرته وسابق علمه، ولهذا قال سبحانه في ختام الآية:

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

● يوم البعث:

ويأتي الموت بعد الضعف والشيبة، وتسري على الإنسان بعد الموت سننٌ جديدةٌ، ونظم مختلفة عن السنن والنظم الدنيوية، إنها سنن البرزخ، الممتد من الموت إلى البعث، عندما يُبعث الخلائق ليوم المسؤولية والجزاء:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ (٥٥).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي: ويوم تقوم الساعة، التي هي عِلْمٌ على يوم القيامة، يقسم المجرمون أنهم ما مكثوا في قبورهم أو في الدنيا، أو فيهما معاً، غير ساعة، وهي قطعة من الزمان قصيرة معروفة، فبين الكلمتين جناس تام مماثل، ولم يقع في القرآن الكريم هذا النوع من الجناس إلا في هذا الموضع^(١).

استقصروا الأزمان الماضية؛ بسبب ما يرون من أهوال وأفزاع يوم القيامة، وما ينتظرهم من العذاب الدائم فيه.

﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك الإفك العجيب، وهو الانصراف عن الحقيقة، كانوا في الدنيا يصرفون عن الحقيقة.

وببادر المؤمنون إلى تذكيرهم بالحقيقة التي صرفوا عنها:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَئِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥٦).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: وقال الذين أعطوا العلم بحقيقة الدنيا، ولم يغترُّوا بها، وهدوا إلى الإيمان: لقد مكثتم مدة طويلة قدرها الله تعالى، وكتبها في لوح المقادير، امتدت إلى يوم البعث من القبور. وجاء وصف المؤمنين بأنهم أوتوا العلم والإيمان متسقاً مع الذين أفكوا عن الحقيقة وصُرفوا عنها، ومقابلاً له، فستان بين الذين عرفوا الحقيقة، فعاشوها اعتقاداً وسلوكاً، وعمَّروا بها دنياهم وآخرتهم، وبين الذين صُرفوا عنها، فعاشوا حياتهم تائهين حائرين في ظلمات الضلالة، وخربوا آخرتهم.

﴿فَهَكَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فهذا أنتم تواجهون يوم البعث حقيقة واقعة، بعد أن كنتم في الدنيا غافلين عنه.

أو: فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا.
ولا يخفى ما في كلام المؤمنين من توبيخ وتقريع للكافرين.

• الجزء من جنس العمل:

لقد انتبه الغافلون من غفلتهم، وحاولوا أن يعتذروا عن تفريطهم وتقصيرهم:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٥٧).

أي: لا ينفعهم في هذا اليوم معذرتهم، ولا يُدعون إلى إرضاء ربهم بالتوبة والطاعة؛ لفوات وقتها.

فالاستعتاب: طلبُ العُتْبَى، وهي الاسم من الإعتاب، وهو إزالة عتب الله تعالى، والمراد به غضبه تعالى عليهم^(١)

يقال: استعتبني فلان فأعتبته، أي: استرضاني فأرضيته.

قال ﷻ: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْأَلُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَتَكُمْ النَّارُ وَمَالُكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ﴾ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَقُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية].

لقد أقام الله عليهم الحجة البالغة في القرآن الكريم؛ ولهذا لا يقبل اعتذارهم، ولا يأذن لهم بالاستعتاب، فما ترك الله أسلوباً من أساليب بيان الحقيقة وتقريبها من أذهانهم إلا ذكره في كتابه الكريم، ومع ذلك أعرضوا عن الحق بعناد وجحود، وتناولوا على أهل العلم الصحيح.

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨).

﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: من كل مثل يدلهم على الحق

ويقربهم لهم، وقد مرَّ في السورة بعض هذه الأمثال، ولكنهم أعرضوا مستكبرين.
﴿وَلَيْنَ جِثَّتْهُمْ نَبَايَةٌ لَّيْقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: ولئن جئتكم
بآية من آيات القرآن الكريم، الناطقة بالحق، ليقولن الذين كفروا للمؤمنين:
ما أنتم إلا مبطلون.

وهذا يدل على شدة عنادهم وعتوهم وقسوة قلوبهم:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩).

أي: هكذا يختم الله على قلوب المصرِّين على جهلهم وكفرهم، والجزاء
من جنس العمل.

• تحذير وتبشير:

ولا شك أنَّ مواجهة مثل هؤلاء المعاندين، ابتلاء من الله تعالى كبير،
لا يمكن القيام به إلا بالثبات والصبر، وهذا ما أمر الله تعالى به النبي ﷺ في
ختام السورة:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٦٠).

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إن وعد الله بنصر دينه وإعزازهِ وإظهاره، حق
لا بد من إنجازه.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يحملنك هؤلاء المعاندون
الجاهلون على الخفة والعجلة، فتصرف تصرفات غير حكيمة ولا موزونة.

ولا شك أنَّ المراد بهذا الخطاب كل داعية إلى الله تعالى، فعليه أن يتَّصف
بالأناة والحذر، فلا تصدر منه أفعال عاطفية، هي ردود فعل انعكاسية على
مواقف العناد والجحود، التي يلقاها من المعارضين لدعوته.

والواجبُ على كلِّ داعية أن يملك نفسه، ويسيطر على عواطفه، فلا يسمح
لأعداء الإسلام أن يجروهم إلى مواقف يندم عليها، ويدفعوه إلى ارتكاب حماقات

خاطئة طائشة، تعودُ عليه وعلى دعوته بالضرر والفشل والعواقب الوخيمة، كما فعلوا مع كثير من الدعاة في العصر الحاضر ولا حول ولا قوة إلا بالله .

على الدعاة إلى الله تعالى أن يحذروا أن يكونوا مثل جنود فرعون وبطانته وحاشيته، الذين عطلوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، فاستخف بهم، وقادهم إلى الهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولا سبيل لكبح العواطف الثائرة وامتلاكها، إلا بالتفقه في دين الله تعالى، وتدبر آياته الكريمة تدبراً صحيحاً، قائماً على منهج علمي متكامل، لا على فهم جزئي مبتور، فالطريق طويل، والنصر آتٍ بإذن الله تعالى، وأعمارُ الأمم والشعوب ليست كأعمار الأفراد: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ كما سبق تقريره في صدر السورة [٤]، فاثبتوا على طريق الدعوة، ولا تستبطثوا نصر الله تعالى، ولا تستبقوا الأحداث، فلكل أجل كتاب، وتأملوا الاتساق العجيب بين قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١) وبين قوله في ختامها: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٢).



تفسير سورة لقمان

الْمُقَابَلَةُ الْحَكِيمَةُ وَالْمُؤَاوَزَةُ الْمُسْتَحِيلَةُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين، وأكمل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فإن نعم الله على الإنسان كثيرة، لا تعدُّ ولا تحصى، وظاهرة وخفية، ومهما بذل الإنسان من جهد للوقوف على مداها، فلا يمكنه ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

والإنسان العاقل الحكيم هو الذي يقرُّ بهذه الحقيقة، ويعترف بعجزه عن شكر نعم الله تعالى عليه.

ولقد تجلَّتْ حكمة لقمان، عندما أدرك هذه الحقيقة، ووجَّه ولده إليها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ حَمِيْدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

فإقرار الإنسان بفضل الله تعالى عليه، واعترافه بتقصيره عن القيام بحق شكر هذه النعم، هو عين الحكمة التي أدركها لقمان، وهي تدل على أنَّ الإنسان العاقل، يمكنه أن يعرف فضل الله عليه، من دون أن يكون نبياً يوحى إليه.

وكم في الناس من يغفلُ عن هذه الحقيقة، ويصرف مداركه وحواسه إلى
لهو الحياة وزخارفها وباطلها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

بل إنَّ في الناس من يجادلُ لإنكار هذه الحقيقة، والتملُّص من مسؤولياتها:
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

تلك هي الأفكار الأساس التي تدور آياتُ السورة في فلكها: إظهارُ فضل
الله على الإنسان، والحكيم في الناس من يقرُّ بفضله، ويعترف بعجزه وقصوره
عن القيام بحق شكره.

أسأل الله تعالى أن يؤتينا الحكمة، وأن يجعلنا من الشاكرين لآلائه
وأفضاله، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



تفسير سورة لقمان
الْمُقَابَلَةُ الْحَكِيمَةُ وَالْمُوازَنَةُ الْمُسْتَحِيلَةُ
في سُورَةِ لُقْمَانَ

الكتاب الحكيم بين المحسنين والمضللين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَئِن مُّسْتَكْبِرًا كَانُوا لَا يَسْمَعُوهَا كَانُوا فِي أَذُنِهِمْ وَقَرَأُوا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ رَواسٍ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

• الكتاب الحكيم:

بدأ تعالى سورة لقمان كما بدأ سورة العنكبوت:

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ

قد سبق الحديث عن هذه الحروف في فواتح عدد من السور، كالبقرة وآل

عمران.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

أي: تلك آيات القرآن المتصف بالحكمة، أو: الناطق بالحكمة، أو: المحكم عن الكذب والافتراء.
ويأتي الحكيم بمعنى الحاكم، وهو تقريرٌ لحقيقة لا شك فيها؛ لأن القرآن الكريم كلام الحكيم العليم.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي: أنزل الله آيات الكتاب الحكيم لهداية المحسنين ورحمتهم.
وفي قراءة: (هدى ورحمة للمحسنين) أي: وهي هدى ورحمة للمحسنين.
والمحسنون: هم الذين أحسنوا القيام بعبادة الله تعالى، كما تقدّم في الحديث الصحيح: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].
ولما أحسنوا في عبادته تعالى وطاعته أكرمهم بالانتفاع بآياته، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].
ثم أبرزت الآيات بعض صفات هؤلاء المحسنين:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي: الذين يؤدون الصلاة مستقيمة تامة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون إيماناً لا ريب فيه بيوم القيامة، وما فيه من حساب وجزاء.
فهذه أشهرُ خصال المحسنين، وهي الأعلام الدالة عليهم، وبهذا أبرزت الآية فضل الصلاة والزكاة والتصدق بيوم القيامة، وفضل الذين يتصفون بها، وأكدت هذا بثنائه تعالى عليهم بقوله:

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: أولئك على طريق الهداية والفلاح، وهو الخلود في النعيم، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

• لهُوَ الحديث والغناء المحرم:

ثم ذكرت الآيات في مقابل المحسنين، الضالين المضلين، المعرضين عن الكتاب الحكيم:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: وبعض الناس يشتري ما يلهي من الحديث الباطل؛ لكي يبعد الناس عن دين الله تعالى، وهو يجهل قبح عمله وعاقبته الوخيمة، ويستهزئ بآيات الكتاب الحكيم. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: أولئك لهم عذاب فيه إهانة وإذلال؛ لأنهم فضّلوا الباطل على الحق، واستهزؤوا بآياته.

ورأى جمهور العلماء أنَّ المراد من لهو الحديث: الغناء المحرم، والاستماع إليه، ولَمَّا سُئِلَ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية قال: الغناء والذي لا إله إلا هو. يردّها ثلاث مرّات. [رواه ابن جرير]. وقال ابن عباس: الغناء وأشباهه. [رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٦)، والبيهقي في سننه^(١)].

قال القرطبي رحمته الله: «هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه، والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ﴾ [النجم: ٦١] قال ابن عباس: هو الغناء بالحميرية، والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفِرِّزُ مَنَ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مجاهد: الغناء والمزامير، وذكره أبو

الفرج ابن الجوزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنخعي، وهذا أعلى ما قيل في هذه الآية^(١).

وعن الحسن: لهو الحديث كل ما شغلك عن عبادة الله تعالى وذكره من السمر والأصاحيك والخرافات والغناء ونحوها.

والاشتراء استعارة لا اختيار لهو الحديث على القرآن واستبداله به، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٦].

واشتهر أن الآية نزلت في النضر بن الحارث، وفي رواية جويبر عن ابن عباس: أن النضر اشترى قينة، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، ويقول: أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد.

وفي «أسباب النزول» للواحدي: عن الكلبي ومقاتل: أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم، فيرويها، ويحدث بها قريشاً، ويقول: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة.

وقيل: إنها نزلت في ابن خطل، اشترى جارية تغني بالنسب (الغزل). ولا يأبى نزولها فيمن ذكر الجمع في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ﴾^(٢) أي: لهم ولأمثالهم، فحكم الآية عامٌ ينسحب على الذين نزلت بهم وعلى أمثالهم، وما أكثرهم في عصرنا الحاضر.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنْ مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ تَرَى أَعْيُنُكَ فِي أَذْنِيهِ وَقَرَّ بَشَرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنْ مُسْتَكْبِرًا كَانَتْ تَرَى أَعْيُنُكَ فِي أَذْنِيهِ وَقَرَّ بَشَرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي: وإذا تلى على أحد هؤلاء آياتنا، أعرض عنها، مبالغاً في إظهار التكبر والنفرة منها، كأن في أذنيه صمماً مانعاً له من السماع، إذ لا يتصور ممن يسمع آيات القرآن الكريم

(١) تفسير القرطبي: ٥٢/١٤.

(٢) روح المعاني: ٦٤/٢١.

الإعراض والاستكبار؛ لأنها تدعو إلى الخشوع والخضوع، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو وعيد شديد، زاد في شدته أسلوب التهكم بذكر البشارة.

ذلك هو مصير المعرضين عن الكتاب الحكيم، المنشغلين بالغناء واللهو والعبث، أما المصدقون به والعاملون بأحكامه، فقد بين تعالى مصيرهم بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

أي: وهو تعالى الغالب، الذي لا مانع يمنع من تحقيق وعده، الحكيم في أقواله وأفعاله.

• هذا خلق الله:

ومن مظاهر حكمته في أفعاله إبداعه للمكونات على هذا النظام المحكم المتقن المتناسق:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۖ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: خلق السماوات مرفوعة بالنسبة للأرض، بغير عمد كما ترونها، فهي مرفوعة بقدرته تعالى بغير أسباب، كما في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: وألقى في الأرض جبلاً شامخاً ثابتة؛ لئلا تضطرب بكم، فباطن الأرض سائل ملتهب، فثبت الله بقدرته وحكمته

قشرتها بالجبال، فهي لها كالأوتاد، وقد مرَّ تفصيل ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَزًا مَسِيلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَبَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: ونشر فيها من كل نوع من أنواع الدواب التي تدب عليها، ويعيش كل نوع في البيئة المناسبة له، مما يدل على الحكمة الباهرة للخالق الحكيم.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: وأنزلنا من جهة السماء ماء، فأنبطنا في الأرض من كل صنف جميل نافع.

ولا يَخْفَى ما في أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم من فصاحة وحكمة، فإنزال الماء، وإخراج النبات ظاهرة كونية، تحدث بمقتضى نوااميس، كما مرَّ في سورة الروم عند قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨).

وهذه النوااميس ليست سوى أسباب، لا تؤثر بنفسها، إلا بمشيئته تعالى وقدرته، فهو وحده الخالق المدبِّر، ولهذا توجَّهت الآيات تتحدى الجاحدين المعاندين قائلة لهم:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١١).

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: ماذا خلقت آلهتكم المزعومة التي تعبدونها من دونه تعالى.

ثم عقَّبت الآية على تحدِّيهم فوراً، بأسلوب الإضراب والانتقال المباشر، لتظهر عجزهم وبطلان عقائدهم.

﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: ظاهر واضح، والظالمون: البعيدون كل البعد عن الحكمة والصواب، الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها المناسبة لها.

لقمان الحكيم

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطَعُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مَنَاقِلَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمِشْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

توحيد الله تعالى رأس الحكمة ولُبُّها، ولا يكون الإنسان حكيماً إذا لم يكن موحّداً، قال الغزالي رحمته الله: من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله، لم يستحق أن يسمى حكيماً^(١).

ويستطيع الإنسان العاقل أن يكون حكيماً موحّداً، ولو لم يكن نبياً أو سامعاً دعوة نبي، فهذا لقمان الحكيم، رجل آتاه الله الحكمة، فكان بحكمته موحّداً لله تعالى وداعياً إلى توحيده:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ (١٢)

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ أي: أعطيناه حُسْنَ الفهم والعلم، أو الإصابة في

القول والعمل، فهي موهبة من الله غير مكتسبة، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد اختلف المفسرون في هوية هذا الرجل الحكيم، وفي زمنه وبلده وصنعتة، ولا حاجة إلى معرفة هذه الأمور والخوض فيها، فالمهم أنه تعالى أعطاه الحكمة، فكان الرجل حكيماً ولم يكن نبياً.

وقد نسبوا إليه كثيراً من الحكم المتداولة، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء، ولا ثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها^(١).

وقد بين سبحانه الحكمة التي أكرمه بها:

﴿إِنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ فشكرُ الله تعالى رأسُ كلِّ عبادةٍ، وجميعُ العبادات والمعتقدات دائرةٌ على شكره تعالى، وما يتفرع عنه.

ولا يكونُ العبد شاكرًا لله تعالى إذا لم يتفه بظاعته وترك معصيته، فحقيقةُ الشكرِ الاعترافُ بنعمة المنعم، وأنه تعالى وحده المنعم المتفضل، واستعمالُ النعمة في طاعته تعالى والثناء عليه وحمده، كما تقدّم في موضوع سورة النحل.

وأول ثمار الشكر أن يوفقَ الله تعالى الشاكر، ويسدده إلى الحق في أقواله وأفعاله، فيكونُ بهذا حكيماً، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأَنْفَال: ٢٩].

ولا شك أن لقمان الحكيم كان صالحاً، فنور الله تعالى بصيرته وقلبه، وسدّده ووقفه، وجعل له فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، وكان بهذا حكيماً.

﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن يشكر الله تعالى على نعمه، فإنما يشكر لأجل نفسه، فهو يريد المزيد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلَكُمْ لَازِدُنَاكُمْ وَلَكُمْ كَفْرٌمُ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

فمنفعة الشكر تعود على الشاكر، والله سبحانه غني عن شكر الشاكرين.

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: ومن جحد فضل الله تعالى، فإنَّ وبال ذلك يعود عليه أيضاً، وقد تقدم في سورة الروم قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نُفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

والله غني عن شكر الشاكرين، حقيق بأن يُحمد؛ وإن لم يحمده أحد، فهو المحمود، وجميع المخلوقات ناطقةً بلسان حالها بحمده، ويستحق الحمد لكمال ذاته وصفاته ﷻ.

• من حكمة لقمان:

ومن حكمة لقمان أنه بدأ بإصلاح ولده، فالرجل الحكيم يهتم بخاصة نفسه قبل العامة، وهذا من صفات الأنبياء، فإنهم يبدؤون بدعوة أهلهم وأولادهم وإصلاحهم، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقد مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] كيف بدأ النبي ﷺ بدعوة أهله وأقربائه وعشيرته.

ومن حكمة لقمان أيضاً: أنه بدأ بإصلاح عقيدة ولده، فهي أهم شيء في الإنسان، وإذا ما صلحت أمكن إصلاح الإنسان عبادة ومعاملة وأخلاقاً، فحذر ولده من الشرك، وبيّن له خطره الشديد، وما يترتب عليه من ظلم وفساد في الاعتقاد والسلوك:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ أي: وهو يذكره ويؤدبه ويرشده.

ولا شك أنَّ الوالدَ يقدّم لولده أفضل ما عنده، ويسعى أن يصب في قلبه حشاشة روحه، وعصارة حكمته وخبرته وتجاربه، قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وهو

يوصي ولده، الذي هو أشفقُّ الناس عليه، وأحبهم إليه، فهو حقيقٌّ أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً^(١).

﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي: لا تشرك بالله أحداً مطلقاً.

و(بني) تصغير ابن، وهو تصغير إشفاق ومحبة.

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه يسوي بين الخالق المنعم، وبين المخلوق

الفقير الذي لا نعمة له أصلاً، يسوي بين من يستحق العباداة، وبين من لا يستحقها، وهذا هو الظلم العظيم، وكل ما يتصف به المخلوق يتنزّه عنه الخالق جل وعلا، ولا يتّصف به، فهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا نزلت:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على أصحاب

رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟! فقال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لِقَمَانُ لابنه: يَا بَنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [رواه مسلم (١٢٤)].

• المقابلة الحكيمة:

توقفت الآيات فجأة عن حكاية وصية لقمان لولده، وانتقلت إلى بيان وصية

الله تعالى للإنسان بوالديه، فهما السببان اللذان أوصل تعالى بواسطتهما للإنسان كثيراً من نعمه وإحسانه عليه، وبهما دفع الله تعالى كثيراً من أسباب الهلاك والضرر عنه، فعلى الإنسان أن يشكر لوالديه ويحسن إليهما، بعد أن يشكر الله تعالى، الذي خلق فيهما الدواعي والبواعث، لكي يكونا سبب وصول نعمه تعالى وإحسانه إلى ولدهما.

تلك هي المقابلة الحكيمة التي برزت من خلال الآيات الكريمة، فالشكر

في الأصل ينبغي أن يكون لله تعالى، والطاعة له سبحانه وحده، وشكر الوالدين يأتي بعد شكر الله تعالى.

وثمة معانٍ لطيفة كثيرة، ستظهر لنا من خلال الحديث عن وصيته تعالى بالوالدين:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ إِلَى الْمَصِيرِ ١٤﴾ .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ﴾ وما أحكم هذه الوصية وما أجملها! وقد سبق الحديث عن معانيها في سورة العنكبوت [٨]، ومع أنَّ موضوع الآيات في الموضوعين واحد، وسبب نزولها أيضاً في الموضوعين واحد - كما ذكر علماء التفسير - لكنَّ الآيات أنزلت في كل موضع بصياغة خاصة، كما أضافت في كل موضع معاني جديدة تتفق مع موضوع السورة، وتتناسب مع موقعها ومكانها بين آياتها.

في سورة العنكبوت [٨] التي دارت آياتها في فلك موضوع الابتلاء والولاء، بادرت الآيات بعد ذكر الوصية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا﴾ إلى الحديث عن ابتلاء الولد المسلم بمعارضة والديه الكافرين: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ .

أما هنا فقد ذكرت الآيات أولاً الوصية مطلقة مفتوحة، ثم بادرت قبل بيان مضمون الوصية إلى إظهار معاناة الأم بولدها:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، فالأنوثة ضعف، ويزداد هذا الضعف بالحمل، وكلما نما الجنين في رحمها وزاد وزنه أثقلها، وزاد من ضعفها ومعاناتها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَبِيحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ويبلغ الضعف ذروته عند المخاض والوضع، ولا تتوقف معاناة الأم بوضعه، بل تنتقل إلى المعاناة والتعب بإرضاعه والاهتمام برعايته ونظافته، ولهذا قال تعالى:

﴿وَفَصَّلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أي: وفطامه من الرضاع في عامين من ولادته.

وفي قراءة: (وفصله في عامين) وهو بيان لأقصى مدة الرضاع، كما قال تعالى: ﴿وَالْوَلَدُ يُرْضَعُ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فالآية تلفت نظر الولد إلى أن عليه أن يزيد من عنايته بأمه، ويقدم شكرها وبرها على شكر والده وبره؛ لأن نعم الله تعالى الواصلة إليه عن طريقها أكثر من النعم الواصلة إليه عن طريق والده، فالواجب أن يكون شكرها مقدماً على شكر الوالد، وبرها أكثر من بره؛ تحقيقاً للموازنة الحكيمة بين النعمة والشكر.

وقد جاء الحديث الشريف يؤكد هذه الموازنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق بحسن صحابتي؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثم من؟ قال: «أُمُّكَ» قال: ثم من؟ قال: «ثُمَّ أَبُوكَ» [رواه البخاري (٥٩٧١)].

ومقتضى الحديث: أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر؛ وذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب في التربية^(١).

• الموازنة المستحيلة:

ثم بينت الآيات مضمون وصيته تعالى:

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ﴾ أي: وصينا الإنسان أن يشكرني أولاً ويشكر والديه، فالشكر له تعالى أولاً؛ لأنه هو المنعم الحقيقي، وشكر الوالدين من شكره سبحانه؛ لأنهما سبب وصول كثير من نعمه تعالى إلى الإنسان.

ودل أمره تعالى بشكر الوالدين على حكمته ورحمته وإحسانه، فهو الخالق الحقيقي والمنعم الحقيقي لكل النعم، وهو الذي خلق في الوالدين الرحمة والحنان والشفقة، التي تحملهما على العناية بولدهما، فالفضل له أولاً وآخرأً، والحمد والشكر له دائماً وأبداً، ومع ذلك أمر تعالى بشكر الوالدين تكريماً

لهما، إذ جعل لهما كسباً واختياراً في كل ما يبذلان من أجل ولدتهما، وقرن تعالى شكرهما بشكره، وكل ذلك يبيّن لنا فضلَه وإحسانه علينا، ويجعلنا نشعر بتقصيرنا عن شكر نعمه، فله حقيقة الشكر، كما له حقيقة النعمة، ولغيره مجازة، كما لغيره مجازُها^(١).

والجدير بالذكر هنا أنَّ الإنسان مهما قدّم لوالديه من إحسان وبر، لا يكافئ ما قدماه له، فلا يمكن تحقيق الموازنة بين ما قدمه الوالدان لولدهما، وما يقدمه الولد لوالديه، مع أنَّ دورهما لا يتعدّى كونهما وسيلتين مذلّين ومسخرين لإيصال بعض نعم الله تعالى علينا.

وإذا كان الحال هكذا مع الوالدين، فكيف يكون مع الله تعالى؟! فمهما أقبلنا على شكره بقلوبنا وجوارحنا وألسنتنا، فنحن مقصّرون في حق شكر نعمة واحدة من نعمه التي لا تُحصى، وإن شكرنا له تعالى يحتاج إلى شكر، فهو الذي هدانا لشكره، واستعملنا في طاعته، فنحن المقصّرون، ونسأله تعالى أن يعفو عن تقصيرنا وضعفنا بمنّه وكرمه، فالموازنة بين النعمة والشكر مستحيلة.

ولا شكَّ أنَّ الشعور بالتقصير متفاوت بين المؤمنين، وكلّما ازداد الإنسان معرفةً برّبّه وفضله وإحسانه، زاد شعوره بتقصيره، فأقبل على الله تعالى تائباً مستغفراً، ولما كان الأنبياء أكثر الناس إيماناً ومعرفةً بالله تعالى، فهم أكثر الناس شعوراً بتقصيرهم عن شكر نعمه، وأعظمهم حياءً منه ﷺ.

وهذا يفسّر لنا كثرة استغفار رسول الله ﷺ وطول قيامه في الليل، وقد تقدّم معنا أنه كان يقوم من الليل حتى ترم قدماه الشريفتان.

وفي الآية إشارةً من جانب آخر، إلى أنَّ إعجاب الإنسان بعبادته وطاعته ذنب كبير، يتنافى مع الشكر الواجب عليه، ويؤدي هذا الذنب الكبير إلى حبوط عمله، وعدم قبوله، وحرمانه من ثوابه يوم القيامة، وهو ما أشارت إليه الآية في ختامها:

﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾، فالصالحون يتّهمون أنفسهم دائماً بالتقصير، فيقبلون على الله

تعالى بالأعمال الصالحة، وهم خائفون ألا يقبلها منهم، وهم يعلمون أنه ليس لأحد سابقة استحقاق على الله تعالى، وأن الفضل له أولاً وآخراً، وبدءاً وختاماً.

• صحبة الوالدين:

وشكره تعالى مطلق غير مقيد، بينما شكر غيره مقيد بطاعته سبحانه، فلا طاعة لأحد في معصيته:

﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ نُمُّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فهو كما مر معنا في سورة العنكبوت [٨]: ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

وأشار قوله هنا: ﴿عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ﴾ إلى أن جهدهما منصب على تكفير ولدتهما، وحمله على الشرك، أمّا في آية العنكبوت ﴿لِتُشْرِكَ بِى﴾ فجاء موافقاً لما قبله ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٥].

وأفاد قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ تحقير كل الشركاء، فهي لا تستحق أن تكون شيئاً معلوماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا دَعَوْتُ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

وزاد تعالى هنا أمره الكريم بحسن صحبتها، ولو كانا مشركين عدوين لله تعالى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صاحبهما في الدنيا بالمعروف، وهو ما يرتضيه الشرع، ويقتضيه الكرم والمروءة.

والآية تحث على صلة الأبوين الكافرين، فما أحكم هذا التشريع! إنه تشريع الإله الحكيم العليم، الذي لم يؤثر على حكمته جحود الجاحدين وصدود المشركين.

ويلاحظ أن الآية قيدت حُسن الصحبة بالدنيا فقط، فإذا ماتا كافرين انقطعت الصحبة بالمعروف، فلا يجوز أن يبرهما بدعاء ولا استغفار، كما تقدم

عند قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّاسِ مِنَ الشَّيْءِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: اتبع أيها الإنسان سبيل المخلصين الموحدين التائبين، وأعرض عن سبيل والديك المشركين.

وقيل: المرادُ بِمَنْ أَنَابَ إِلَيَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فإنَّ سعد بن أبي وقاص، الذي أنزلت الآية بسببه، أسلم بدعوة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ثم رجوعك ورجوع أبويك يوم القيامة إليَّ، فأجازي كلَّ واحدٍ بما صدر عنه من شكر أو كفر.

• توجيه وإرشاد:

ثم عادت الآيات مرَّةً ثانية إلى حكمة لقمان، وهو يوصي ولده:

﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [١٦].

﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي: إن الخصلة من الخير والشر مهما تكن صغيرة وبعيدة وخفية، يأت بها الله، ويجازي عليها، فلا يضيع عن علمه وقدرته تعالى أيُّ شيء، كما قال سبحانه: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

ويدل هذا المثل على حكمة لقمان أيضاً، فَضْرُبُ الأمثالِ الصحيحةِ الموافقة لمقتضى الحال يدلُّ على حكمة قائلها، وقد ضرب لقمان هذا المثل لابنه لكي يبين له كمالَ قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه وحده المستحق للعبادة، ومثَّلَ بحبة الخردل لضآلة العمل وقلته، وكونه في الصخرة لخفائه، وكونه في السماوات أو في الأرض لبُعده، وقال بعد ذلك: ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ ليبين كمال علمه وقدرته سبحانه.

وقد قوّى لقمان - بهذا المثل - في نفس ولده الشعور بمراقبة الله تعالى، كما عرّفه بمسؤوليته الكاملة عن كل أعماله.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَيْرٌ﴾ أي: إن الله لطيف بالإتيان بها، خبير بمستقرها وكنهها وحقيقتها.

وبعد أن بيّن لقمان لولده أصول الاعتقاد الصحيح، أمره أن يقوم بالتكاليف الشرعية، التي تدلّ على صحة اعتقاده، واستسلامه لربه وانقياده، واختار أهمها:

﴿يَبْنِي أَقْرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٧).

﴿يَبْنِي أَقْرَ الصَّلَاةِ﴾ أي: أدّ الصلاة كاملةً مستقيمةً، فهي أهم العبادات وأعظمها تأثيراً في نفس الإنسان وسلوكه وأخلاقه.

وَمِنْ واجبِ الوالد نحو ولده أن يأمره بالصلاة، ويحمله عليها، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع» [رواه أبو داود (٤٩٥) والترمذي (٤٠٧)، وقال: حسن صحيح^(١)].

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: وأمر بكل خير، وأنه عن كل شر.

ولا شك أن تعويد الولد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقوّي شخصيته، ويساعده على مواجهة أعباء الحياة، وتحمل المسؤولية، فاهتمام لقمان بهذا الجانب في إرشاده لولده، من معالم حكمته.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ أي: اصبر على ما أصابك من مكروه، بسبب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووطّن نفسك على مواجهة عقبات الطريق.

﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: إن ذلك من الأمور المقطوع بها، الواجبة في

(١) إذا كان الولد يؤمر بالصلاة وهو ابن سبع، فتعليمه وتعويده الصلاة يتم قبل ذلك.

دين الله، أو: إنّ ذلك من الأمور التي يحتاج القائمون بها إلى عزم وحزم وجد، فلا ينهضُ بها إلا أصحابُ الهمم العالية، كما قال أبو الطيب:

على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وبهذا التوجيه الكريم، عمل لقمان على رفع همة ولده، وشدَّ عزمه، ليتمكن من تحمُّل تكاليف الحياة، وهو في مقتبل عمره وبواكير حياته.

ثم نهاه عن العادات القبيحة، والأخلاق السيئة المذمومة:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨).

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تتكبر على الناس، وتميل وجهك عنهم تكبراً، بل أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً. وقرئ: (تُصاعر) و (تُصعر) وكلها من الصعر، وهو الميل^(١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: لا تمش متبختراً متكبراً مختالاً. ولعلّه قصد بذكر الأرض، المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

أو لعله أراد: لا تمش في الأرض لأجل المرح والبطر، وما يترتب على ذلك من إفساد فيها.

ثم قال معللاً للنهي ومؤكداً له:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: إنّ الله لا يحب المختال المتعظم في نفسه، والفخور المتطاول على الناس بما أنعم الله عليه، فيلزم اجتناب الاتصاف بصفتيهما.

ثم بيّن لقمان لولده كيف ينبغي أن يكون مشيه:

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِّنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩).

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: توسّط فيه، فالقصد هو الاعتدال بين الإسراع

المذهب للبهاء والوقار، وبين الإبطاء الذي يدل على الكسل والضعف والتماوت. وقد قيل: إنَّ عمر رأى رجلاً متماوتاً فقال: لا تمت علينا ديننا، أَمَاتَكَ اللهُ تعالى. ورأى رجلاً مطأطئاً فقال: ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض^(١). وقد يكون المراد من القصد التواضع، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أي: اخفض من صوتك في محل الخطاب والكلام، فإن رفع الصوت من غير حاجة من العادات القبيحة المذمومة.

﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ أي: إن أقبحها وأوحشها لصوت الحمير، وهو النهيق، ومعلوم ما فيه من وحشة ونفرة وقبح.

وقد جاء في الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْجِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِنَّهَا رَأَتْ شَيْطَانًا» [رواه مسلم (٢٧٢٩)].

* * *

جحود وعناد

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

ولما أنهت الآيات حديثها عن موعظة لقمان الحكيم لولده، شرعت تبين استحالة الموازنة بين نعم الله تعالى وبين شكرها، فهي نعم لا تُحصى ولا تُحد، ماثورة في السماوات والأرض، ظاهرة وباطنة:

(١) هامش روح المعاني: ٦١/٢١؛ النهاية في غريب الحديث والأثر: ٨٠٩/٤.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألم تعلموا أيها الناس، أَنَّ الله سَخَّرَ لأجل مصالحكم ومعاشكم جميع المخلوقات والمكونات السماوية والأرضية.

والتسخيرُ جعلُ المسخَّر بحيثُ ينتفعُ به المسخَّرُ له، سواء كان منقاداً له وداخلاً تحت تصرُّفه أم لا^(١).

وقد فصلت لنا آيات أخرى بعض المخلوقات المسخرة لنا، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ السَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم].

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

فكل هذه المخلوقات من أصغر ذراتها إلى أعظم أجرامها محكومة بنواميس إلهية؛ لأجل تحقيق مصالحكم ومنافعكم، فكيف يمكنكم أن تؤذوا حقَّ شكرها، وأنتم لا تستطيعون الإحاطة بها؟! لأن كثيراً منها نِعَمٌ باطنة خفية لا تنالها وسائل الإدراك والتمكين لديكم.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: وأتمَّ سبحانه عليكم نعمه المحسوسة المدركة، ونعمه الخفية التي لا تدركها حواسكم وعقولكم.

فثمة نعم كثيرة ضرورية لحياتنا ووجودنا لا نعلمها، وهذا يدل على عجزنا وضعفنا، وشدة افتقارنا إلى خالقنا وبارئنا، كما يدل على قصورنا عن القيام

بحق شكر نعمه وإحسانه تعالى، ومع ذلك فإن كثيراً منا يجحدُ فضله، وينكر إحسانه، ويجادل في ذلك:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ﴾ أي: يجادل في توحيدهِ واستحقاقهِ للعبادة والشكر، بغير علم مكتسب، وبغير هدى مستمد من نبي مرسل وكتاب منزل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

وقوله بعد ذلك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ﴾ (٨) ثانياً عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ [الحج].

فجدالهم لا يستند إلى عقل ونقل، ولا يصدر عن جدالهم إلا عن تقليد آبائهم تقليداً أعمى، دون أدنى تعقل واستبصار:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فهم يعرضون عن قول الله تعالى المنعم المتفضل، ويأخذون بأفعال آبائهم الجهلة.

﴿أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: أيفعلون ذلك دون تعقل ونظر، حتى ولو كان الشيطان يدعو آبائهم إلى عذاب السعير في جهنم، وهو سؤال تعجيب وتوبيخ وإنكار لحالهم الذي هم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا فِي سَبِيلٍ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

هكذا تبدو المجادلة مستغربة ومستنكرة في جوار النعم السابغة، الظاهرة والخفية، ويبدو الجحود والإنكار بشعاً شنيعاً قبيحاً؛ لأنه لا يستند إلى علم ولا يهتدي بهدى، ولا يستمد من كتاب ينير الطريق ويدل على الحقيقة.

استسلام وإذعان

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهَا إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِدَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

وفي مقابل هذا العناد البشع والجحود القبيح، تظهر الآيات جمال الاستسلام لله تعالى، والإذعان لأحكامه القدريّة والشرعية، وأثره الكريم في الوصول إلى الأمن والسلام:

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢).

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: ومن يجعل عمله خالصاً لله تعالى، وهو متقن له، يؤديه على أكمل الوجوه المشروعة، فقد تعلّق بأوثق أسباب السلامة والنجاة.

وهذا تمثيلٌ لحال المستسلم لله تعالى، الراضي بأحكامه، والمؤدي للتكاليف التي كُلف بها، بحال من أراد أن يصعد جبلاً شاهقاً، فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه؛ ليأمن من التردّي والسقوط، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته. ودلّت الآية على أَنَّ الخطرَ كبيرٌ، ومزالقُ السقوط كثيرةٌ، وأسبابُ النجاة: الالتزامُ بطاعة الله وشكره والتمسك بشرعه.

وقد عودنا الله تعالى في كتابه، أنه كلما بينَ عنادَ المعاندين، وجحودَ الكافرين، التفتَ إلى النبي ﷺ مواسياً ومثبِتاً، فهو المواجه الأول لهم، والذي يتلقى عنادهم وجحودهم:

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ﴾ أي: وَمَنْ جحدَ فضلَ الله عليه، وأعرضَ عن شكره، فإنَّ كفره لا يضرُّك، فلا تحزن عليه.

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿﴾ فلا يخفى على الله شيء من أمرهم.

﴿نُمْنِعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ .

أي: نمنّهم في الدنيا متاعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، ثم نلجئهم إلى عذاب ثقيل لازم، لا يقدرّون على الخلاص منه.

لقد أوقعهم عنادهم وجحودهم، والتقليد الأعمى لأبائهم، في تناقضات عجيبة ومفارقات غريبة:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فهم يقرّون بأنه تعالى هو الخالق المنعم، ومع ذلك يعرضون عن عبادته وطاعته.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: قل الحمد لله على إقرارهم بأنه تعالى هو الخالق، فهو المستحق للحمد والشكر.

أو: قل الحمد لله الذي نجّانا من هذه التناقضات العجيبة، الواقع بها كثير

من الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون بما يلزمهم به إقرارهم من طاعته تعالى وشكره.

* * *

كلمات الله تعالى

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا نَعْتَكُمُ إِلَّا كَفَافٍ وَجِدَّةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم توجهت الآيات بأسلوب تقريرى حازم جازم، إلى بيان كمال ملكه تعالى وقدرته وغناه:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: لله ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وتديباً، فهو الغني عن طاعتهم وشكرهم، المحمود أزلاً وأبداً. وملكه جلّ وعلا أوسع مما في السماوات والأرض، ومقدوراته سبحانه لا تُحصى ولا تُعد، وهي أعظم من السماوات والأرض وما فيهما:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ أي: ولو أن كل شجرة في الأرض صارت أقلاماً.

﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: والبحر المعهود المحيط، تمدُّه من بعد نفاذه سبعة أبحر مثله في السَّعة وكثرة الماء.

والمراد بالسبعة الكثرة، لا خصوص العدد المعروف.

وأفاد نظم الآية جعل البحر المحيط بمنزلة الدواة، وجعل أبحر سبعة مثله مملوءة مداداً، وهي تصبُّ فيه صبّاً لا ينقطع، كما تؤذن به صيغة المضارع ﴿يَمُدُّهُ﴾.

﴿مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ أي: ما تناهت كلمات الله، وفي الكلام حذف إيجاز، دل عليه السياق، وتقديره: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحر ممدودٌ بسبعة أبحر، وكُتِبَتْ بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله تعالى، ما نفدت لعدم تناسيها، ونفدت تلك الأقلام والمداد لتناهيها^(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والمراد بكلماته تعالى كلمات علمه وحكمته جل شأنه، أو المراد مقدوراته سبحانه وكلماته التكوينية، التي دل عليها قوله الكريم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٢٨].

وأفاد ذكر (شجرة) بصيغة المفرد، تفصيل كل شجرة وتقصيها، حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد برت أقلاماً.

وذكرت (الكلمات)، وهي جمع قلة، ولم يذكر الكلم، وهو جمع كثرة؛ فأفاد ذلك أن كلماته تعالى لا تفي بكتابتها البحار، فكيف بكلمته؟!.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: إنه تعالى لا يعجزه شيء، ولا يخرج عن علمه وحكمته شيء.

فاعرفوا فضله عليكم، وأذعنوا لحكمه، وأقروا بعجزكم عن شكره، فما أنتم إلا خلق حقير، وجزء صغير من مخلوقاته ومكوناته، التي يدبر أمرها بكلمة واحدة من كلماته التكوينية جل وعلا:

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٨﴾ .

﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: ما خلقكم أيها الناس، ولا إحياءكم بعد موتكم، وإخراجكم من قبوركم، إلا كخلق وإحياء نفس واحدة، فلا يشغله سبحانه شأن عن شأن، ولا يصعبُ على قدرته كثرة الإيجاد والإعدام، فإنَّ تعلق قدرته بمقدور واحد، كتعلقها بمقدورات كثيرة غير محصورة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فلا يأمر تعالى بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء كما أراد جل وعلا: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿١٢﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: إنه تعالى يسمع كل المسموعات في زمن واحد، ويبصر كل المبصرات في زمن واحد، من غير أن يشغله شيء عن شيء.

الجاريات في الأفلاك والبحار

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ ﴿٣١﴾ وَلِإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ ﴿٣٢﴾

ودورة الفلك التي بلغت الغاية في الدقة والإحكام، والتي تنظم كل شؤون الزمن ووحداته، من أبرز الظواهر الدالة على كمال قدرته تعالى وتمام حكمته:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ألم تر أيها الإنسان أن الله يُدْخِلُ كلاً من الليل والنهار في الآخر، فيتفاوتان زيادة ونقصاناً، بنظام دقيق محكم، وأنه جعل الشمس والقمر يسيران سيراً منتظماً دقيقاً، مستمراً إلى أجل مقدر.

ولا شك أن هذا التنظيم والتسخير لفائدة الإنسان، فهي ظاهرة محسوسة يدركها كل إنسان، ويترتب عليها التسليم لخالقها، ومبدعها، بكمال القدرة والعلم، وهو ما أشارت إليه الآية في ذيلها:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدَّعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: ويدل ذلك دلالة قاطعة ملزمة، على التصديق بأنه تعالى هو الحق الثابت الواجب الوجود.

﴿وَأَنَّ مَا يَدَّعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي: وتدلل أيضاً على بطلان الآلهة المزعومة التي يعبدونها من دونه تعالى.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: وتدلل أيضاً على أنه تعالى هو العلي في صفاته، الكبير في ذاته، فهو أكبر من كل كبير، متعال عن الأشباه والأنداد والشركاء، وعن كل صفات النقص والعجز، ذو الكبرياء في ربوبيته وسلطانه ﷻ.

وأضافت الآيات شاهداً آخر، على كمال قدرته وباهر حكمته، وفيض إنعامه وإحسانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ أي: ألم تر أن السفن تجري في البحر بسبب النواميس والنظم التي أبدعها سبحانه لجريان السفن، ولولا هذه النواميس والأسباب، ما جرت سفينة في بحر.

فالمراد بنعمة الله: إحسانه سبحانه في تهيئة أسباب الجري، فالباء للشيئية. ويمكن أن يراد بنعمته تعالى: المنافع التي تتحقق للإنسان من سير السفن، أي: تجري مصحوبة بنعمته تعالى، فالباء للملابسة والمصاحبة^(١).

﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي: ليرىكم من عجائب قدرته وبدائع حكمته. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في ذلك لآيات لكل مؤمن، كثير الصبر على بلائه، كثير الشكر على نعمائه. وجاء الوصفان مناسبين تماماً لحال المؤمن الراكب في السفينة، فهو لا يخلو عن الصبر والشكر في البلاء والرخاء.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَظُلُلٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ (٣٢)

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَظُلُلٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: إذا علاهم وغطاهم موج هائل مرتفع، كالسحب المرتفعة المتراكمة التي تظلمهم، توجهوا إلى الله تعالى داعين متضرعين بإخلاص، وعادوا إلى فطرتهم التي فطروا عليها، وزال عنهم ما غطاها من الهوى والتقليد.

﴿فَلَمَّا بَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ﴾ أي: فلما نجاهم إلى البر انقسموا قسمين، فمنهم مقتصد بعبادته تعالى وشكره، ومنهم جاحد لفضله وإحسانه.

والمقصد: المتوسط في الإخلاص والشكر، وهي تشير إلى أن الإخلاص الحادّ عند الخوف الشديد، قلّما يبقى للإنسان، كما تشير إلى استحالة الموازنة بين النعمة والشكر.

﴿وَمَا يَجِدُ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي: وما يجحد بآياتنا إلا كل غدارٍ مبالغ في الغدر، كفور مبالغ في كفران نعم الله تعالى.

خاتمة السورة

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُقًا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ عَدًّا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

• الوالد والولد يوم القيامة:

وفي ختام السورة عادت الآيات إلى الحديث عن الوالد والولد يوم القيامة، من خلال خطاب وجهته إلى الناس، تأمرهم فيه بتقوى الله تعالى وخشيته وتعظيمه، فالنواميس الإلهية يوم القيامة تختلف عن نواميس الدنيا؛ في الدنيا ينتفع الولد بنصح والده ووعظه وتأديبه، وينتفع الوالد ببرّ ولده وإحسانه، وأمّا في الآخرة فالأمر يختلف تماماً، والمسؤولية فيه شخصية، ولا يتحمل أحد وزر أحد:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُقًا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾﴾

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُقًا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي: لا يقضي عنه شيئاً من الحقوق، فلا يحمل من سيئاته، ولا يعطيه شيئاً من طاعاته.

والمراد من الولد: الولد الصبي القريب، فهو أقرب الناس إلى الوالد.

﴿وَلَا مَوْلُودُهُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ أي: وكذلك لا يؤدي ولد شيئاً من الحقوق عن والده، مع أنَّ حقَّ الوالد على الولد عظيم، لكن هذا الحق العظيم واجبٌ عليه في الدنيا، ولعلَّ هذا سر تأكيد نفي الجزاء في جانب الولد، أكثر من نفيه في جانب الوالد، فجاءت الأولى فعلية، والثانية اسمية.

﴿إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: إنَّ وعدَ الله في مجيء يوم القيامة، حق لا يتخلف، فالدنيا زائلة صائرة إلى الانتهاء.

﴿فَلَا تَعُرِّنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزينتها وزخارفها، فتشغلنكم عن شكر الله تعالى وطاعته.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: ولا يخدعنكم الشيطان أيضاً، فهو أخبث الغارين.

وأصل الغرور من: غرَّ فلاناً، إذا أصاب غرته وغفلته، ونال منه ما يريد، والغرة بالله: حسن الظنِّ به مع سوء العمل، وهو ما حذَّر منه النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف: «الْكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسُهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ» [رواه ابن ماجه (٤٢٦٠) والترمذي (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن صحيح].

• مفاتيح الغيب:

وختم الله السورة ببيان ما استأثر بعلمه، وما يدل على كمال قدرته، تذكيراً للإنسان بعجزه وضعفه، وقصوره عن شكر نعم الله تعالى عليه، فثمة حدود لا يستطيع مجاوزتها مهما حصل من علوم، وحاز من فنون:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: إنَّ الله وحده عنده علم وقت يوم القيامة،

فلا يعلمه غيره، كما مرَّ معنا في الحديث الصحيح، عندما سأل جبريلُ النبي ﷺ: متى الساعة؟ قال: «ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ» [رواه مسلم (٨)].

﴿وَيُنَزَّلُ الْغَيْثَ﴾ أي: وينزل الغيث في المكان والزمان الذي سبق بهما علمه، وتعلقت بهما مشيئته، كما قال سبحانه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣].

وأفاد الالتفات من الجملة الاسمية إلى الفعلية، الدلالة على التجدد والاستمرار، فظاهرة نزول الغيث المتجددة، تتم بمشيئته تعالى وقدرته، ولم يستطع الإنسان بعد أن اكتشف بعض الأسباب والنواميس المؤدية لنزول الغيث، أن يتحكم بهذه الظاهرة، التي تتوقف عليها كثير من مصالحه وأسباب عيشه ووجوده، ولا تزال كثير من البلاد تعاني من احتباس المطر وقلته، وبلاد أخرى تعاني من كثرته وفيضاناته وسيوله المدمرة.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي: ويعلمُ علماً كاملاً محيطاً بكل ما في الأرحام، وهذا يعني الإحاطة بكلِّ المخلوقات حلاً ومالاً، وما هو كائن منها وما سيكون، وكيف سيكون، وما يتصل بكل فرد منها من خصائص وأطوار، مما يجعل الفكر البشري عاجزاً عن تصويره، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

أضف إلى ذلك ما قررته العلوم الحديثة، بأنَّ كلَّ مخلوق يحمل معه خصائص وموروثات جميع المخلوقات التي ستتفرع عنه وتتناسل منه، فعلمُ ما في الأرحام علمٌ يمتدُّ عبر الزمان، مع تسلسل المخلوقات وتوالدها، إلى نهاية عمر الدنيا، عندما يتوقف التوالد والتكاثر.

وتمكن الإنسان المعاصر بالعلوم الجزئية التي فتح الله بها عليه، من معرفة جنس الجنين، ذكراً أو أنثى، لا يعد من علوم الغيب؛ لأنه علم ذلك بواسطة آلات التصوير والتحاليل المخبرية، التي قربت هذه الحقيقة إليه، فأصبحت مكشوفةً محسوسةً، ولا يزال الإنسان عاجزاً ابتداءً من دون الآلات والتحاليل،

عن معرفة هذه الحقيقة الصغيرة جداً بالنسبة لما في الأرحام من أسرار وعلوم غيبية، لا يحيط بها إلا خالقها وبارئها جَلَّالٌ.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: وما تدري أي نفس مخلوقة ما يصدر عنها في المستقبل من أفعال وأقوال؛ لأنها لا تملك المستقبل.

وما أكثر الذين يعزمون على عمل فلا يدركون زمانه، وإن أدركوا زمانه فلا يملكون أسبابه، وإن أدركوا زمانه وملكوا أسبابه، فكثيراً ما يفعلون غيره، ويستشعرون في داخل أنفسهم الصوارف التي تصرفهم عما عزموا عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٣٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٣٤﴾ [الكهف].

فالإنسان لا يملك إلا اللحظة الحاضرة التي يعيشها؛ لأنه محدود ضعيف لا يدري متى تنتهي حياته وبأي أرض يموت.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وكذلك لا يدري متى يموت، واللحظة التي تنتهي بها حياته الدنيا.

وفائدة العدول عن الإثبات إلى النفي في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ وكذا التعبير بالدراية دون العلم؛ للمبالغة والتعميم؛ إذ الدراية اكتساب علم الشيء بحيلة، فإذا انتفى ذلك عن كل نفس، مع احتيالها لتحصيله، كان عدم اطلاعها على غيره من باب أولى^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بأحوال مخلوقاته، خبير بحقائقها وكنهها. وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ» ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾، وفي رواية: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ» [رواه البخاري (٤٧٧٨)].

ولا شك أنَّ هذه الخمس هي الأصول الكبرى التي تتفرع عنها أكثر المغيبات: فعلم الساعة معناه الإحاطة بعلم الدنيا وزمانها من بدايتها إلى

نهايتها، وتنزيلُ الغيث يعني الإحاطة بأرزاق المخلوقات ومقاديرها وكيفية توزيعها، وعلم ما في الأرحام يعني الإحاطة بكل المخلوقات حالاً ومآلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ أَوْ لَوْحَةٍ أَوْ رَطْبٌ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الله تعالى عنده علم الغيب، ويده الطرق الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، وقد ذكرنا في موضوع سورة الأنعام: أنه يمكن أن يكون معنى مفاتيح الغيب خزائنه، جمع مفتاح وهو المخزن، ويكون المعنى: وعنده خزائن الغيب، ويراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات، فله تعالى كمال العلم وكمال القدرة، ويبقى الإنسان مهما حصّل من علوم، محدوداً عاجزاً ضعيفاً، وتمام حكمته أن يقرّ بفضل الله عليه، بتقصيره عن شكر نعمه، وهو ما دارت آيات السورة في تقريره، ودعت الإنسان إلى الإقرار به.

أسأله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لأفضاله ومننه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، اللهم آمين.

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



تفسير سورة السجدة التَّذْبِيرُ وَالتَّنْزِيلُ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فإنّ الله هو الرّبُّ، أي هو الخالق المالك، الذي يدبّر أمرَ مخلوقاته، فالتدبيرُ له جلّ وعلا وحده، والإحكامُ والإتقانُ في الخلقِ يدلُّ على كمال قدرته، وطلاقة مشيئته، وتمام حكمته: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

ويستدعي الإحكامُ في الخلقِ تنزيلَ الشرائعِ الإلهية، لتنظّم سلوك المكلفين، وتحكم تصرفاتهم، فيتمّ الانسجام والاتساق والتكامل بين الإحكام في الخلق، والانتظام في السلوك والتصرف.

ويؤدي تركُ الخلقِ من دون إلزامهم بتشريع، إلى إحداث الخلل والفوضى والفساد، كما مر في موضوع سورة الروم.

وتدبيره تعالى لأمر المُكُونات ثابت لا يتغيّر ولا يتبدل؛ لأنه منوط بمشيئته تعالى وقدرته، وأمّا التنزيل والتشريع فهو من أمرِ الله تعالى أيضاً، ولكنه منوط باختيار المكلفين وإرادتهم وكسبهم، فمن رضي به، وأعلن بالسجود لله تعالى

انقياده واستسلامه له، فقد نجا وسلم وأمن، ومن أعرض عنه وجحده عوقب وعُذِّب، فلا ينبغي التسوية بين الفريقين، ولا بدَّ من يومٍ يفصلُ الله فيه بينهما.

ذلك هو الموضوع الأساس الذي دارت آيات سورة السجدة في فلكه، وهو موضوع الارتباط بين التدبير والتنزيل، فكما أنَّ التدبير له تعالى، فالتنزيل أيضاً له جل وعلا، وهو من آثار رحمته وفضله على خلقه.



تفسير سورة السجدة التَّذْيِيرُ وَالتَّنْزِيلُ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ

التدبير والتنزيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿الْع ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّغَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ إِشْنَادٌ فَوَمَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

افتتح الله تعالى سورة السجدة بالحروف الثلاثة التي افتتح بها السور السابقة: لقمان والروم والعنكبوت.

﴿الْع ١﴾

وقد تقدّم الكلام عليها في فواتح سور: البقرة وآل عمران ويونس.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١﴾

أي: هذا الكتابُ تنزيلٌ لا شكَّ فيه من رب العالمين.

وقد أجمع القراء على قراءة ﴿تَنْزِيلٌ﴾ بالرفع، مع أنه مصدرٌ يجوز نصبه^(١)، فالجمله اسميةٌ تقرّر تنزيل القرآن الكريم وتؤكدّه، وتبيّن أن تنزيله من رب

العالمين مباشرةً، فهي حقيقةٌ مسلمةٌ لا شكَّ فيها ولا ريب، كما تقدَّم في فاتحة سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

ويلاحظ أن الاسم الكريم (الرب) ذُكر كثيراً في السورة، ومرَّ معنا أن معناه: الخالق والمالك والمربي، الذي يدبِّرُ أمرَ مخلوقاته ويصلحها، ولا شك أن تنزيل القرآن الكريم مظهرٌ من مظاهر تديره تعالى أمرَ مخلوقاته، وإصلاحها وتكميلها. فتنزيل الكتاب بما فيه من تكليف وتشريع، من تدبير رب العالمين أمرَ مخلوقاته، وكما أنه تعالى يمدُّهم بأسباب وجودهم ونمائهم، يمدُّهم أيضاً بأسباب صلاحهم وكمالهم.

فتنزيلُ الكتاب أمرٌ ضروري لا بد منه، أنزله سبحانه بمحض مشيئته، يدل على حكمته سبحانه ورحمته، وأنزل فيه مؤيدات صدقه، بحيث لا يرتاب في تنزيله مرتاب، ومع ذلك أضرب الجاحدون المعاندون عنه مرتابين:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (٣).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: بل يقولون: افتراه.

والمفتري في زعمهم هو المنزل عليه الكتاب، محمد عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن قولهم هذا قولٌ متعنَّتٍ مكابر، أو جاهل عميت منه النواظر، ولهذا أضرب تعالى عن قولهم هذا فقال:

﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: بل القرآن الكريم هو الحق المنزل من ربك، فالحق كله فيه، وهو مصدر كل حق وحقيقة؛ لأنه من ربك، فلا تلتفت إلى شغب المعاندين، وجهل الجاهلين.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أنزله عليك لتنذر به قومك الذين لم يأتهم نذير قبلك منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهذا يدل على شدة الضلال الذي وصلوا إليه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لعلهم يبصرون الحق ويتبعونه، ويتخلصون من ضلالهم.

الخالق المدبر

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤) يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦).

ثم شرعت الآيات تبين أن الله هو رب العالمين، خالقاً وملكاً وتديبياً، بأسلوب التقرير، فهي حقيقة لا ينازع بها عاقل:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَيْعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (٤).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: الله وحده خلق كل المكونات السماوية والأرضية، خلقاً متدرجاً في ستة فترات زمنية. ويدل التدرج بالخلق على طلاقة إرادته سبحانه وكمال مشيئته، فما خلق الخلق مجبراً، ولا فاضت عنه المخلوقات من دون إرادة، كما زعم الضالون من الفلاسفة. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما مر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالاستواء على العرش صفة من صفات كماله وجلاله، تدل على عظمة قدرته، نؤمن بها كما أخبر عنها سبحانه، من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما لكم إذا عرضتم عنه أحد ينصركم ويشفع لكم؛ لأنه هو وحده خالقكم ومالككم ومدير أمركم.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: وكما خلق السماوات والأرض، فإنه يدبر أمرهما، وتدبيره عام شامل لجميع المخلوقات السماوية والأرضية، من أكبر أجرامها إلى أصغر ذراتها.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: ثم يرجع إليه أمر تدبيرها أيضاً في يوم القيامة، فهو وحده يدبر أمر الخلق في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

ولا يتعارض التعبير عن مقدار يوم القيامة بألف سنة، بما ورد أيضاً في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] فالزمن أمر نسبي، يختلف باختلاف الأحوال والأماكن، فالיום الأرضي مثلاً، يختلف عن يوم الأجرام السماوية، ويوم الفرح والسرور أقصر من يوم الهم والحزن.

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم! فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، إنه ليخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا» [رواه أحمد (٧٥/٣) وأبو يعلى (١٣٩٠)]. وقال الشيخ أحمد محمد شاكر محقق المسند: إسناده حسن.

﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾

أي: ذلك الذي يدبر أمر جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة، هو العالم المحيط بها علماً، فلا يغيب عنه شيء منها، العزيز النافذ أمره فيها، فلا ينازعه

أحد، الرحيم بعباده، فلا يحجب عنهم آثار رحمته وفواضل إحسانه، في كل مقدراته وأقضيته.

* * *

الخلق المحكم

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ فَبَلَا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾﴾

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: الذي أتقن وأحكم كل شيء خلقه.

فَخَلَقَ اللهُ تَعَالَى خَلْقًا مَتَقْنًا مُحَكَّمًا، لَا خَلَلَ فِيهِ وَلَا تَفَاوُتَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الملك].

وهذا يدل على كمال قدرته تعالى، وباهر حكمته، وبديع صنعته، فقد وضع كُلَّ مخلوقٍ في موضعه الملائم له، وأعطاه الصفات والخصائص المناسبة للدور المنوط به بين بقية المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه].

ولما كان الإنسان متميزاً في خلقه، وفي دوره المكلف به، خصّه تعالى بالذكر فقال:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾﴾ أي: بدأ خلق الإنسان الأول، آدم ﷺ، من طين. أو: بدأ خلق الإنسان من نطفة مستخلصة من طين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢].

لكنَّ المعنى الأول هو الأوجه هنا؛ لقوله تعالى بعد ذلك :

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿٨﴾

أي: ثم جعل ذريته تتكاثر وتتوالد من ماء قليل، وهو المني، المذكور في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً مِّن مَّيِّ يُمْنٍ﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٩﴾

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أي: ثم كَمَّلَ أعضائه وصورته، كما شاء سبحانه. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ أي: وجعل روحه تتعلَّق ببدنه وتسري فيه، وأضاف تعالى الروحَ إليه إضافة تشريف، وإشعاراً بأنها سرٌّ من الأسرار التي استأثر سبحانه بعلمها.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: وجعل لكم وسائل التمكين، التي تمكنكم من اكتساب المعارف والعلوم، وإدراك الحقائق.

وأفاد التفات الآية من الإخبار إلى الخطاب، بعد نفخ الروح، أنَّ الإنسان يكتَمِلُ خلقه بروحه، وأنَّ وسائل الإدراك والتمييز من أعظم النعم التي أنعم الله بها عليه، ومع ذلك فإن أكثر الناس يجحدون فضله، ويكفرونه ولا يشكرونه، وإن شكروه فإن شكرهم لا يوازي فضله وإحسانه، كما تقدَّم في سورة لقمان، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

جحود وإنكار

﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١١﴾ قُلْ يَنفَعُكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ أِنَّا إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِدَّ الْمُجْرِمُونَ تَاكْسُوهُمُ رَبُّهُمْ رِيبًا أَمْضَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا لَعَمَلٍ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى بَهِيمًا وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾ فَذُوقُوا بِمَا لَسَيْتُمْ لِِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

ومن كفرانهم وجحودهم، إنكارهم يوم القيامة، وغفلتهم عما في الكون من إحكام وإتقان، فكل عاقل يدرك ضرورة التكليف والمسؤولية والحساب والجزاء، ولا يُعَقَّلُ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْخَلْقَ الْمَتَقْنَ الْمُحَكَّم عَارِيًّا عَنْ حِكْمَةِ التَّكْلِيفِ، يَنْتَزِعُهُ اللهُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ عَنْ ذَلِكَ، وَهُوَ الْقَائِلُ: ﴿أَفَحَصِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

إن إنكار يوم القيامة جراءة على الله تعالى، ووصف له بصفات لا تليقُ بكماله وجلاله، ولهذا شددت الآيات النكير عليهم:

﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إذا ضاعت أجزاءنا في تراب الأرض بعد الموت، أنبعث ويجدد خلقنا؟!.

وهو استفهام إنكاري، أنكروا فيه قدرة الله تعالى على إعادتهم بعد الموت، وهو أمرٌ قبيح أضرب عنه تعالى إلى ذكر ما هو أقبح منه وأشنع فقال:

﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ أي: بل هم جاحدون للقاء ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿قُلْ يَنفَعُكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١١).

أي: قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين: إن ملك الموت الموكل بكم يقبض أرواحكم حين تحين آجالكم، ثم بعد الموت تردون إلى الله تعالى، فلا تغيبون بالموت عن علمه، ولا تخرجون عن قبضة قدرته جل وعلا.
ثم وصفت الآيات بعض أحوالهم، عندما يرجعون إلى ربهم يوم القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٢).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ولو ترى المجرمين يطأطئون رؤوسهم خجلاً وحياءً من الله تعالى، قائلين:
﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: أبصرنا الحقيقة التي كنا نجعلها، فارجعنا إلى الدنيا لنستدرك ما فاتنا من العمل الصالح.
وهذا إقرار منهم بأنهم عطلوا أسماعهم وأبصارهم وأفندتهم عن سماع الحق ورؤية حججه وبراهينه.
ثم بين تعالى كمال قدرته وطلاقة مشيئته، فقال:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ أي: رشدًا وتقواها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].
ولكن حكيمته تعالى اقتضت أن تكون الدنيا دار اختبار وتكليف، أساسه اختيار المكلفين.

﴿وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ولكن

ثَبَّتَ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ كَافِرِي الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، الَّذِي يَجْحَدُونَ نِعْمَتِي وَيَكْذِبُونَ رُسُلِي.

ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً:

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ﴾ أي: ذوقوا العذاب بسبب جحودكم يوم القيامة، وترككم العمل له، إنا نترككم اليوم في العذاب، محجوبين عن رحمتنا وفضلنا.

والنسيانُ هنا معناه: الترك والإعراض، والله سبحانه لا ينسى، ولكنه تعالى تهويناً لشأنهم، وتحقيراً لهم يعاملهم معاملة الشيء المنسي المهمل، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ذوقوا العذاب الدائم الذي لا ينتهي، بسبب كفركم وفجوركم.

وكرره تعالى ليبين أنه نتيجة كسبهم واختيارهم، وأنه تعالى ما ظلمهم ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

سجود وإذعان

﴿إِنَّمَا يَوْمُ نَبَأِ الَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ رَّزَاهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

وشتانَ بين هؤلاء الجاحدين لفضل ربهم، وبين الذين عرفوا حقيقة

عبوديتهم لله تعالى، وأدركوا حكمة وجودهم في هذا الكون البديع المحكم، فصدّقوا بآياته، وانقادوا لرسالات رسله، وعَمَرُوا حياتهم بطاعته وعبادته :

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : كلما وعظوا بآيات الله، استجابوا لربهم، وسجدوا لله تعالى من غير تسويف ولا تأخير، معبرين عن انقيادهم لأمره، واستسلامهم لحكمه، مسبحين حامدين .
 إِنَّ السُّجُودَ لله تعالى يدلُّ على غاية التذلل والخضوع له ﷻ، وعندما يضعُ العبدُ وجهه على الأرض ساجداً لله تعالى، يكون في أشدِّ حالات القرب منه جل وعلا، كما قال عليه الصلاة والسلام : «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثَرُوا الدُّعَاءَ» [رواه مسلم (٤٨٢)] .

ولو قدر له أن يعذب في النار بسبب معاصيه، فَإِنَّ النَّارَ لَا تَصِيبُ مَوَاضِعَ السُّجُودِ مِنْ وَجْهِهِ، وقد جاء في الحديث الشريف : «حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ، فَيُخْرِجُونَهُمْ وَيَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَارِ السُّجُودِ، وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ» [رواه البخاري (٨٠٦)] .

فالسُّجُود لله تعالى شرفٌ وعزٌّ للعبد الساجد، يحرم منه الجاحدون المعاندون يوم القيامة، قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَصْرُهُمْ رَهَقَهُمْ ذُلُّهُ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿[القلم]﴾ .

ويمدُّ الله تعالى الساجدَ بطاقةً روحية هائلة، تعينه على القيام بأعباء ما كُلِّفَ به، ولعل ذلك سرُّ قراءة النبي ﷺ سورة السجدة، كل يوم قبل أن ينام، ولا بدَّ معها أن يسجدَ لله تعالى عند تلاوة آيتها، فعن جابر رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ لا ينامُ حَتَّى يَقْرَأَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السجدة، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ . [رواه أحمد (٣/٣٤٠) والترمذي (٢٨٩٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٠٦) والحاكم (٤١٢/٢)] .

وكذلك كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها أيضاً مع ﴿هَذَا آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ في فجر يوم الجمعة. [رواه البخاري (٨٩١)].

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ويسجدون ولا يستكبرون، كما يفعل الجاحد الذي يسمع الآيات، ويعرض عنها مستكبراً، كأنه لم يسمعها، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فُشِرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

• الصلاة في جوف الليل:

ومن شأنهم الدوام على عبادة ربهم، وخاصة في جوف الليل، الناس راقدون في فرشهم؛ بينما هم في محاريبهم سجداً لله تعالى، يناجونه ويدعونه:

﴿نَجَافِي جُؤْبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

﴿نَجَافِي جُؤْبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: تبتعد أجسامهم عن مواضع النوم، لأجل الصلاة في الليل، وهي أفضل النوافل، وأفضلها ما كان بعد النوم في الأسحار، لقوله تعالى: ﴿وَبِالْأَتْعَارِ هُمْ يَسْتَفِرُّونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال له: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ» ثم قرأ: ﴿نَجَافِي جُؤْبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾. [رواه أحمد (٢٣١/٥) والترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣)].

وقال بعضهم: نزلت في انتظار صلاة العشاء، واستدلوا بما في «سنن الترمذي» [٣١٩٧] عن أنس: أنها نزلت في انتظار الصلاة التي تُدعى العَتَمَةُ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل.

وفي قول ثالث: أنها نزلت في التَّنْفُلِ بَيْنَ الْمَغْرَبِ وَالْعِشَاءِ.

وفي قول رابع: أنها نزلت في الرَّجُلِ يَصَلِّيُ الْعِشَاءَ وَالصُّبْحَ بِجَمَاعَةٍ^(١).

والجمهورُ على القول الأول، وهو الأشهر، ويؤكدُه قوله تعالى في الشَّاءِ على المصلِّين في الليل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنْتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وهم يدعون ربهم خوفاً من عذابه، وطمعاً في رحمته.

وأفادت صيغة المضارع ﴿يَدْعُونَ﴾ استمرارهم على الصلاة في جوف الليل، والدعاء خوفاً وطمعاً، ومن شأن المؤمن أن يبقى دائماً بين الخوف من الله تعالى ورجاء رحمته، فلا يأمنُ عذابه، ولا يبيسُ من رحمته، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ (٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿[المعارج].

﴿وَمِمَّا زَكَّاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: وينفقون بعض أموالهم في وجوه الخير المشروعة، فهم يجمعون بين العبادات البدنية والمالية.

● قرة أعين أهل الجنة:

ثم أخبرت الآيات بأسلوب التشويق عن بعض ما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم في الجنة:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧).

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: فلا تعلمُ نفسُ مهما كانت - ولو نفس ملكٍ مُّقْرَّبٍ أو نبي مرسل - ما أُخْفِيَ لهؤلاء مما تقرُّ به أعينهم.

والعينُ تُسرُّ، ويتعلَّقُ بصرها بكل ما هو جميل ونفيس، وعندما ترى هذا الجمال تتعلّق به، ولا تطمح إلى غيره.

وفي إضافة القُرَّة إلى الأعين على الإطلاق، لا إلى أعينهم، تنبيه على أنَّ ما أُخْفِيَ لهم في غاية الحسن والجمال، فكل عين تراه تتعلّق به، ولا تنظر إلى غيره.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلبٍ

بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. [رواه البخاري (٤٧٧٩)].

وعن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يجيء بعدما أُدْخِلَ أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، كيف؟ وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْكٍ مُلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيْتُ رب. فيقول: لك ذلك، ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيْتُ رب! فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك، ولذت عينك، فيقول: رضيْتُ رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أُذن، ولم يخطر على قلب بشر. قال: ومصدقُهُ في كتاب الله ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» [رواه مسلم (١٨٩)].

﴿جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: تفضل الله عليهم بهذا النعيم، جزاء على ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

الماوى والنزل

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

إن إنكارَ يوم القيامة، وما فيه من مسؤولية وحساب وجزاء، معناه التسوية بين الصالح والفساد، والظالم والمظلوم، وهذا يتنافى مع حكمة العليم الحكيم، الذي أحسنَ كُلَّ شيءٍ خلقه.

وإنَّ من إتقان الخلق وإحكامه وضعَ كُلِّ مخلوق في مكانه المناسب له، ولهذا رَدَّتِ الآيات على منكري المسؤولية والحساب بهذا السؤال:

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ أي: لا يكون المؤمن كالفاسيق الخارج على الإيمان، فالإجابة المنطقية الحكيمة:

﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾.

ومن لوازم هذه الإجابة تقرير الحساب والجزاء، وما يترتب عليهما من نعيم وعذاب، النعيم للمؤمنين الصالحين:

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: فلهم المأوى والمسكن الحقيقي الذي لا يتحوَّلُ أهله عنه، ولهذا لا تعد الدنيا مأوى لأهلها؛ لأنهم ظاعنون عنها غير مستقرين فيها.

﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: كرامةً وضيافةً من الله تعالى، أنزلهم في جنات المأوى، بسبب ما كانوا عليه من إيمانٍ وعملٍ صالح.

والنزلُ: ما يُهَيَّأُ للنازل والضيف، والقوم حلُّوا ضيوفاً على الرحمن في دار كرامته ورحمته.

وفي مقابل النعيم للمؤمنين العذاب للخارجين عن الطاعة، المعاندين المستكبرين:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ﴾ أي: النار منزلهم ومسكنهم ومستقرهم القسري الإجباري، فلا خروج لهم منها .

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿[الحج]﴾ .

ويقال لهم تبيكاً وتقريعاً، زيادة في حسرتهم وألمهم: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي: كنتم تكذبون به، وتنكرون الحساب والجزاء والمسؤولية .

لقد كذبوا بهذا العذاب مع أن الله ابتلاهم في الدنيا بمقدماته وبما يدل عليه:

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: والله لنجعلنهم يذوقون العذاب الأقرب قبل العذاب الأكبر؛ لعلهم يرجعون عن عنادهم وتكذيبهم وفجورهم .

والمراد من العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتُها وهمومُها، أو تسليط المؤمنين الصالحين عليهم بالنصر والغلبة، فمن شأنِ الشدائدِ والمِحَنِ أن تَلِينَ النفوسَ، وترققَ القلوبَ، وتبعدَ عنها أسباب الغرور والاستكبار والطغيان، حتى تصبح أكثر استعداداً لقبول الحق والإذعان له .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: لا أظلم ممن يقابل آيات الله بالإعراض والجحود، فعقاب هؤلاء ضرورة لا بد منها .
﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ .

ضرورة يوم الفصل

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُوكَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَرَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْفُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

وانقسام الناس إلى فريقين: فريقٍ متقاضيٍّ للحق ومستسلم له، وفريقٍ جاحدٍ له ومعرض عنه، أمرٌ قديم عند الناس، وظاهرةٌ ظهرت في جميع الأمم، وأوضح مثال على ذلك اختلاف بني إسرائيل وانقسامهم حول رسالة موسى ﷺ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة.

﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ أي: لا تكن في شك من لقاء موسى التوراة وإنزالها عليه.

والخطاب وإن كان موجهاً لنبيينا عليه الصلاة والسلام، فالمراد منه التعريض بالمعرضين عن رسالة التوراة، الذين أنكروا نزولها على موسى ﷺ، مع أن الله تعالى أنزلها عليه مكتوبةً في ألواح، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: وجعلنا في الكتاب المنزل على موسى أسباب هداية بني إسرائيل إلى صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ومع ذلك اختلفوا وافترقوا إلى فريقين، واكتفت الآيات بذكر الفريق الصالح المدعن للحق، فبينت فضله تعالى عليهم؛ بسبب قبولهم للحق وانقيادهم له:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٤).

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي: وجعلنا منهم قادة خيرة وفلاح يقتدى بهم، وهم الأنبياء وأتباعهم، الذين كانوا يدعون الناس إلى طاعة الله تعالى وعبادته وحده، وذلك بسبب صبرهم وثباتهم على الحق.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: يصدقون بها تصديقاً لا ريب فيه.

وهذا الفريق المؤمن لا يمكن أن يتميز من الفريق الجاحد الكافر، إلا يوم الحساب والجزاء، فهو يوم ضروري للفصل بين الفريقين:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥)

أي: إنه تعالى هو الذي يقضي بينهم بعدله يوم القيامة، ويميز المحق من المبطل.

يوم الفتح

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْأَرْضَ فَتَخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (٢٧) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٢٩) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ (٣٠).

وعادت الآيات إلى معارضي رسالة النبي ﷺ، الجاحدين ليوم القيامة، تدعوهم إلى الاعتبار بمصير الأمم السابقة:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ﴾ أي: أو لم نبين لهم في هذا الكتاب المنزل كثرة الأمم الهالكة قبلهم، وهم يمشون في بلادهم ومنازلهم كما قال سبحانه: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ وتعقل، كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨].

ودعتهم الآيات أيضاً إلى تأمل الظواهر الكونية المحيطة بهم، والتي تدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾ أي: إلى الأرض التي لا نبات فيها؛ لأن نباتها جُرْز، أي: قطع وأزيل.

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا يبصرون الأدلة التي تدل على قدرته تعالى على بعثهم وحسابهم وجزائهم، ومع ذلك يعرضون عن هذه الأدلة، ويصرون على إنكار يوم القيامة، ويتساءلون مستهزئين منكبين:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ .

أي: متى يكون الحكم والفصل بين العباد، إن كنتم حقاً صادقين فيما تقولون؟.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٢٩).

أي: لا ينفعهم الإيمان يوم القيامة، ولا يؤخر عنهم العذاب. ويلاحظ أن الجواب هنا جاء متفقاً تماماً مع ما سبق ذكره في السورة عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (١٧).

وخُتِمت السورة بمواساة النبي ﷺ وتثيته، في مواجهة عنادهم واستهزائهم:

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾ (٣٠).

أي: لا تبالِ باستهزائهم وتكذيبهم، وبلغهم دعوة الله، وأقم عليهم حجته البالغة، وانتظر نصره تعالى وتأيبه، فإنه ناصر، وهو لا يخلف الميعاد. إنهم ينتظرون موتك، كما حكى تعالى عنهم ذلك في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبَّ الرَّبِّ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، والحقيقة أنهم ينتظرون يوم هلاكهم وعذابهم، والله سبحانه ما خلق هذا الكون المحكم للمجرمين والمفسدين، إنما خلقه للمؤمنين الصالحين.

أسأله تعالى أن يجعلنا منهم، ويحشرنا يوم القيامة في زمرة، تحت لواء سيد المرسلين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.



تفسير سورة الأحزاب النَّبِيُّ ﷺ وَأَزْوَاجُهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فَإِنَّ شَمَائِلَ نَبِينَا ﷺ وَخَصَائِصَهُ، الَّتِي خَصَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا تَكْرِيماً وَتَشْرِيفاً، كَثِيرَةٌ وَكَبِيرَةٌ، لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْصُرَهَا بَعْدُ، وَلَا أَنْ يَحِيطَ بِهَا فِي كِتَابٍ.

وَثَمَّةٌ جَوَانِبُ كَثِيرَةٌ مِنْ كِمَالَاتِهِ ﷺ، لَمْ يَتَنَاوَلْهَا الْعُلَمَاءُ وَالْمُؤَلِّفُونَ الَّذِينَ تَحَدَّثُوا عَنْ شَمَائِلِهِ، وَالْفَوْاءُ كِتَاباً فِي خَصَائِصِهِ ﷺ، فَلَا يَعْلَمُ عَظِيمَ قَدْرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَقَّ الْعِلْمِ إِلَّا رَبُّهُ ﷻ، الَّذِي أَدَبَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيهِ، وَجَمَّلَهُ بِأَعْلَى الصِّفَاتِ، وَرَفَعَهُ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ، وَخَصَّهَ بِأَسْمَى الْغَايَاتِ، وَشَرَّفَهُ بِأَعْظَمِ أَمَانَةٍ، وَجَمَّلَهُ بِأَكْمَلِ رِسَالَةٍ، وَجَعَلَ - سُبْحَانَهُ - أَخْلَاقَ النَّبِيِّ ﷺ الْعَالِيَةَ وَصِفَاتِهِ الْكَامِلَةَ دَلِيلًا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِ، وَصَحَّةِ نُبُوَّتِهِ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَسْتَوْجِبُ الْإِيمَانَ بِرِسَالَتِهِ، وَتَسْتَلْزِمُ التَّصَدِيقَ بِنُبُوَّتِهِ؛ قَالَ جَلَّ وَعَلَا فِي مَعْرِضِ الْإِنْكَارِ عَلَى الْكَفَّارِ الْمَعْرِضِينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

فَمَا أَحَاطَ بِكِمَالَاتِهِ ﷺ وَخَصَائِصِهِ وَشَمَائِلِهِ إِلَّا كِتَابُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي

قال ﷺ فيه: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وإن في كتاب الله تعالى لسوراً كاملةً، خصص الله سبحانه أكثر آياتها للحديث عن النبي ﷺ، وتكريم الله سبحانه له، وبيان عظيم فضله جل وعلا عليه ﷺ؛ ليعرف الناس قدره عند ربه، فيؤمنوا برسالته، ويتمسكوا بهديه وسنته، ويسعدوا بمحبته في الدنيا والآخرة.

وإن المسلمين في أشد الحاجة إلى معرفة النبي ﷺ من خلال آيات التنزيل الحكيم؛ لأنهم في أشد الحاجة إلى هديه وسنته، ولا خلاص لهم مما يعانون من اختلاف وتمزق وضعف وتفرق، إلا بالعودة إلى سنته، وتطبيق شريعته عليه الصلاة والسلام.

وإن في هذا الكتاب دراسة لبعض ما في سورة الأحزاب من تكريم الله سبحانه لنبيه ﷺ، وبعض ما خصه الله سبحانه من خصائص، وتكريم أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وتأديب الله سبحانه لهن؛ ليكون جديرات بمكانتهن في بيت النبوة، وتشرفهن بزواج النبي ﷺ منهن، رضي الله عنهن وأرضاهن، ولا بد لكل امرأة مسلمة من التأسي بهن رضي الله عنهن، والتأدب بالآداب والأخلاق التي أدبهن الله بها، حتى تكون جديرة بالإسلام، والانتساب إلى خير أمة أخرجها الله للناس، أمة النبي ﷺ.

أسأله تعالى أن يزيدني والمسلمين معرفةً بقدره عليه الصلاة والسلام، ومحبةً له ﷺ، بعد أن أكرمني بالسكنى في مدينته، ويسر لي الصلاة في مسجده الشريف، والسلام عليه ﷺ من قريب.

وأسأله سبحانه أن يحسن ختامنا، فنموت على ملته، ونُحْشَرَ يوم القيامة مع أمته وتحت لوائه، ونرد عليه الحوض، ونشرب منه شربة لا نظماً بعدها أبداً، ونسعد في عرصات القيامة بشفاعته.

اللهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



تمهيد مَوْضُوعُ السُّورَةِ

النبي ﷺ هو الموضوع الأساس لسورة الأحزاب، والمتدبر لسور القرآن الكريم لا بد أن يدرك أن موضوع كل سورة من سور القرآن الكريم، يُذكر في الآيات الأولى منها غالباً، فإذا قرأت الآيات الأولى من سورة الأحزاب، تصلُّ بعون الله تعالى إلى أن شخصية النبي ﷺ، والجانب الاجتماعي من حياته عليه الصلاة والسلام، هو الموضوع الأساس لسورة الأحزاب، وفي فلك هذا الموضوع تدور آيات السورة من أولها إلى آخرها.

بدأت السورة بمخاطبة النبي ﷺ بهذا الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ والجدير بالذكر أن الله سبحانه خاطب النبي ﷺ بهذا الخطاب خمس مرات في سورة الأحزاب في الآيات: (١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩).

ولعل من المناسب أن أضع أمام القارئ الكريم إحصاءً لعدد المرات التي ذكر فيها عليه الصلاة والسلام في سورة الأحزاب:

محمد: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٠).

النبي: ذكر خمس عشرة مرة، في الآيات (١، ٦، ١٣، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٦، ٥٩).

رسول: ذكر ثلاث عشرة مرة، في الآيات (١٢، ٢١، ٢٢، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٤٠، ٥٣، ٥٨، ٦٦، ٧١).

خاتم النبيين: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٠).

شاهد: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٥).

مبشر: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٥).

نذير: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٥).

داع إلى الله: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٦).

سراج منير: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٦).

علماً بأن عدد آياتها ثلاث وسبعون آية، وعدد كلماتها ألف ومئتان وثمانون كلمة، وعدد حروفها خمسة آلاف وسبعمئة وتسعون حرفاً، كما ذكر الخازن في تفسيره.

وقد ركزت السورة على الجانب الاجتماعي من حياته ﷺ، مع أزواجه، وفي بيته، فأجملت أولاً، ثم فصّلت، فعرضت كثيراً من جوانب حياته الشخصية عليه الصلاة والسلام، مما يُعَدُّ من خصائص حياة الإنسان، ولكنه عليه الصلاة والسلام النبي الأسوة الحسنة، والقُدوة الطيبة للمؤمنين كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ﴾. فحياته ﷺ العامة والخاصة لربه ولدينه.

ولهذا كان أزواج النبي ﷺ اللواتي شاركنه حياته الخاصة به عليه الصلاة والسلام، وشاهدنها من قرب، لا يكتمن شيئاً منها، ولا يخفينه، فإذا ما سُئِلَتْ إحداهنَّ عن أي جانب من جوانب حياة النبي ﷺ الشخصية، تجيبُ السائل كائناً من كان، بكلِّ صراحة ووضوح، مما يدلُّ على تقديرهنَّ رضي الله عنهنَّ لمسؤوليتهنَّ؛ فحياتهنَّ مع رسولِ الله ﷺ ليست ملكاً لهن، إنما هي ملكٌ للإسلام والمسلمين، وسأبيِّن في تفسير هذه السورة بعض جوانب حياته ﷺ الاجتماعية، مع ما فيها من التشريف والتكريم، والمنازل الرفيعة التي خصَّه ﷺ بها.



الْفَضْلُ الْأَوَّلُ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾ وَأَتَيْعَ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ②﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ③﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْهِ فِي جُوفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ④﴾ ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَوَلِيِّكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ⑤﴾ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ⑥﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ⑦﴾ لَيْسَتِ الصَّدِيقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ⑧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَخِذْلًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ⑨﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ⑩﴾ هَٰذَا لَكُمُ الْيَوْمَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ حَاكِمُونَ ⑪﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ⑫﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَأْتِلُ الْيَوْمَ يَنْزِلُ الْآخِرُ لَكُمْ فَلَا تَكُونُوا فِي حَقِّ اللَّهِ فَاسِقِينَ ⑬﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِعُونَ الْمَآبُ ⑭﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْثَلِ السَّيْلِ لَمَا نَبَغَ عَلَيْهِمْ وَأَلْهَىٰ لَهُمْ أَهْلُهُمْ أَفَلَا يُفْقَهُونَ ⑮﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ

لَا يُؤْلَوْنَ الْأَذْبَنُ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْرَجِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُوتُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا حَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُوتُ وَتَأْسِرُوتُ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ .

• يا أيها النبي:

بدأت سورة الأحزاب بمخاطبة رب العزة ذي الجلال والإكرام النبي ﷺ

بهذا الخطاب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

ولابد أن أشير قبل كل شيء، إلى ما في نداء الله سبحانه للنبي ﷺ بعنوان

النبوة، مِنْ تَكْرِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُ وَتَشْرِيفِهِ، وَتَنْبِيهِ عَلَى سَمُوِّ مَكَانَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ: يَا مُحَمَّدٌ، كَمَا قَالَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: يَا مُوسَى، يَا عِيسَى، يَا إِبْرَاهِيمَ، يَا آدَمَ... بَلْ كَرَّمَهُ سُبْحَانَهُ، وَنَوَّهَ بِفَضْلِهِ، بِبِنْدَائِهِ بِصِفَةِ النُّبُوَّةِ، الَّتِي كَرَّمَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنْ لَمْ يُوقَعْ اسْمُهُ فِي النَّدَاءِ، فَقَدْ أَوْقَعَهُ فِي الْإِخْبَارِ، فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قُلْتُ: ذَلِكَ لِتَعْلِيمِ النَّاسِ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَلْقِينِ لَهُمْ أَنْ يَسْمُوهُ بِذَلِكَ^(١).

وَهُوَ الْأَدَبُ الَّذِي أَدَّبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا ينادوا النَّبِيَّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا تَكْلِيمَهُ بِاسْمِهِ ﷺ الَّذِي سَمِّيَ بِهِ، بَلْ عَلَيْهِمْ أَنْ ينادوه بِصِفَةِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ الَّتِي شَرَّفَهُ سُبْحَانَهُ بِهَا؛ وَاحْتِرَاماً لَهُ ﷺ وَتَعْظِيماً كَمَا تَقْدُمُ فِي سُورَةِ النُّورِ [٦٣] عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا يَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدٌ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَنَهَاَهُمُ اللَّهُ ﷺ عَنْ ذَلِكَ؛ إِعْظَاماً لِنَبِيِّهِ ﷺ. قَالَ: فَقُولُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٢).

وَلَا يَخْفَى عَلَى الْقَارِئِ الْمَتَدَبِّرِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ، أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ كَلَّفَ النَّبِيَّ ﷺ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ، هِيَ: التَّقْوَى، اتِّبَاعَ الْوَحْيِ، التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ. وَنَهَاَهُ عَنْ أَمْرٍ وَاحِدٍ هُوَ: طَاعَةُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَالْتَكْلِيفُ تَشْرِيفٌ، وَكَلَّمَا كَانَ الْمَكْلَفُ كَبِيراً وَعَظِيماً، كَانَ التَّشْرِيفُ كَبِيراً وَعَظِيماً، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَتَنَبِيِّ:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ نَاتِي الْعَزَائِمُ وَنَاتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَقَدْ كَانَ تَكْلِيفُ النَّبِيِّ ﷺ بِحَمْلِ رِسَالَةِ الْإِسْلَامِ إِلَى جَمِيعِ الْأَنْامِ أَعْظَمُ تَكْلِيفٍ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَا لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ عَظِيمٍ

(١) روح المعاني: ١٤٣/٢١.

(٢) تفسير ابن كثير.

المكانة ورفيع المنزلة، إذ اختاره ربه واصطفاه لحمل أعظم رسالة وأكبر أمانة، قال سبحانه: ﴿إِنَّا سَتَلِفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا نَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

• التقوى والتوكل واتباع الوحي:

ولا شك أن النبي ﷺ أتقى الناس، وأعظمهم توكلًا على الله سبحانه، وأكثرهم اتباعًا لما أنزل تعالى عليه، قال ﷺ للنفر الثلاثة، الذين قال أحدهم: أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: أعتزل النساء، ولا أتزوج أبدًا، وقال الثالث: أصلي الليل ولا أنام: «أما والله إنني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) عن أنس رضي الله عنه].

وفي رواية ثانية للبخاري [٦١٠١] ومسلم [٢٣٥٦] عن عائشة رضي الله عنها: قال: «ما بال أقوام يتزهدون عن الشيء أصنع، فوالله إنني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

وكان عليه الصلاة والسلام متوكلًا على الله سبحانه في جميع أحواله وأعماله، وهذا ظاهر في حياته ﷺ، وخاصة في أثناء الشدائد والصعاب، انظر إلى توكله عليه الصلاة والسلام وثباته وثقته بربه، عندما كان في الغار مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه، والمشركون يحيطون بالغار من كل جانب: ﴿إِلَّا نَحْنُ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان عليه الصلاة والسلام يُخَرِّسُ من قبل بعض أصحابه، حتى أنزل الله تعالى عليه قوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فقال عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس، انصرفوا عني، فقد عصمني الله ﷻ» [رواه الترمذي (٣٠٤٦)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فنزل

رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعَلَّقَ سيفه بغصن من أغصانها، وتفرَّق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رجلاً أَتَانِي وَأَنَا نائمٌ، فأخذَ السيفَ، فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي، والسيفُ في يده صلتاً، فقال: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قلتُ: الله، فشامَ السيفَ (أي: أغمده)، وهاهو ذا جالسٌ» [رواه مسلم (٨٤٣)].

ورسول الله ﷺ أكثرُ الناس تمسكاً بالوحي واتباعاً له، كما قال ﷺ: ﴿وَإِذَا تُنْزِلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِهَذَا آيَاتٍ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي بِنَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وبعدَ هذا لا بدَّ أن يسأل سائل فيقول: ما وجهُ أمرِ النبي ﷺ بالتقوى واتباع الوحي والتوكل، والأمرُ بالشيء لا يكون إلا عند عدم الاشتغال به، فلا يقال للساكت: اسكت، ولا للجالس: اجلس؟!.

وأجاب أكثرُ علماء التفسير عن هذا بأنَّ المراد من الأمر بالتقوى والتوكل على الله واتباع الوحي: الثبات عليها والازدياد منها؛ لأنَّ لهذه المأمورات باباً واسعاً لا يُنال مداه، كما قال العلامة أبو السعود في تفسيره.

وقال النسفي في تفسيره: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: اثبت على تقوى الله، ودم عليه، وازدد منه، فهو بابٌ لا يُدرك مداه.

ذكر الفخر الرازي هذا في تفسيره الكبير، وزاد عليه معنى آخر لطيفاً فقال: المَلِكُ يُتَقَى من عباده على ثلاثة أوجه: بعضهم يخاف من عقابه، وبعضهم يخاف من قطع ثوابه، وثالثٌ يخاف من احتجاجه، والنبي ﷺ لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني، فالأمر بالتقوى يوجبُ استدامةَ الحضور مع الله سبحانه، والنبي ﷺ في كل لحظةٍ يزدادُ علمه ومرتبته، حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة لما هو فيه تركاً للأفضل، فكان له في كُلِّ ساعةٍ تقوى متجددة، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، حَتَّى أَسْتَغْفَرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِثْلَ مَرَّةٍ» [رواه مسلم (٢٧٠٢)] ومعنى «يغان»: يغطي ويغشى.

ولا شك أن للنبي ﷺ في كل وقت تقوى متجددة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يزداد علماً ومعرفة بما يفيضه الله سبحانه عليه، وهو سبحانه الذي علم نبيه ﷺ أن يقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١٤].

وفي زيادة العلم زيادة في الرفعة والمرتبة، كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ويمكن أن نقول أيضاً: إن المراد من أمر النبي ﷺ بالتقوى واتباع الوحي والتوكل، أمته عليه الصلاة والسلام، فالخطاب للنبي ﷺ، والمراد منه أمته.

ذكر هذا الخازن في تفسيره، إلا أنه ذكره بصيغة تدل على أنه يراه قولاً ضعيفاً، حيث قال: ﴿أَتَى اللَّهَ﴾ أي: دم على التقوى، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته.

ولكنني أرى هذا القول وجيهاً وسديداً، ويؤكد قوله سبحانه في ختام الآية الثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فصدر الآية خطاب للنبي ﷺ، وآخرها خطاب لأمته عليه الصلاة والسلام.

ولهذا نظائر كثيرة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿بِأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١].

وقد يقول قائل: ما فائدة توجيه الخطاب للنبي ﷺ إذا كان المراد به أمته؟.

وأقول: إن في ذلك فوائد كثيرة، منها: تشريف النبي ﷺ، وتعريف الناس بأهمية التكليف، فإذا كان النبي ﷺ مأموراً بالتقوى واتباع الوحي والتوكل، وهو إمام المتقين، وسيد المتوكلين، والمبلغ لوحي الله إلى العالمين، فالأمر في حق غيره أكد وأعظم.

وإن الصالحين أكثر إدراكاً لهذه المعاني من غيرهم، إنهم يتذوقونها قبل غيرهم؛ بسبب صفاء قلوبهم، ورقة نفوسهم وشفافية أرواحهم.

أذكر على سبيل المثال: أنني كنت مرة مع سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى في سيارة خارج البلد، وكان مذياع السيارة يبث قراءة قارئ يقرأ من سورة

الإسراء، ولما قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (٧٦) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [الإسراء].

انفجر الشيخ رحمه الله باكياً بكاءً شديداً، ما رأيته يبكي مثله أبداً، وهو يقول: إذا كان حال النبي ﷺ مع الله سبحانه هكذا، فكيف يكون حالنا؟!.

ورحم الله ابن كثير، فقد قال في تفسير هذه الآية: ﴿أَتَى اللَّهَ﴾ هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله ﷺ بهذا فلأن يأتى به مَنْ دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى^(١).

• المحافظة على الأنساب:

ومن التقوى أن ينتسب الإنسان إلى أبيه الحقيقي، فلا يجوز الانتساب إلى غيره، كما لا يجوز أن ينسب الإنسان إلى نفسه غير ولده الحقيقي الصليبي، قال تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (١).

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: كما لم يجعل الله قلبين في جوف رجل، لم يجعل الزوجة المظاهر عنها أمّاً لزوجها، ولم يجعل المتبنّى ولداً لمدّعيه.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي: قولكم للزوجة هي أمّ، وللمتبنّى الدعي هو ابن، مجرد قول تقولونه بأفواهكم، لا حقيقة له في الواقع.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أي: والله يقول القول الثابت المطابق للواقع، ويهديكم إلى سبل الحق والرشاد، وقد بينهما تعالى بقوله:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: انسبوهم إلى آبائهم الحقيقيين، هو أعدل عند الله وفي دينه وشرعه.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. [رواه البخاري (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥)].

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: إن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين، فهم إخوانكم وأولياؤكم في الدين.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ أي: وليس عليكم إثم فيما فعلتموه خطأ قبل ورود النهي عنه.

﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكن الإثم فيما تعمدت قلوبكم، ولهذا قال: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتوبوا مقعده من النار، ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليه» [رواه مسلم (٦١)]. «حار» أي: رجع عليه.

وفي الحديث الشريف أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وضع عن أمتي: الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه» [رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) وابن حبان (٧١٧٥)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كان ولا يزال سبحانه غفوراً رحيمًا، يعفو عن المخطئ، ويقبل توبة المتعمد، بفضلته ورحمته.

• مكانة النبي ﷺ بين المؤمنين:

ثم بينت الآيات المكانة الواجبة للنبي ﷺ عند المؤمنين، بقوله تعالى:

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: النبي أجدر وأحق بالمؤمنين من أنفسهم، في جميع الأمور الدينية والدنيوية.

بهذا التقرير الجازم رفعت هذه الآية النبي ﷺ إلى أرفع منزلة وأعلى مكانة عند المؤمنين، فجعلته بهذه المنزلة أولى بالمؤمنين من أنفسهم في كل الأمور؛ لأنها جاءت مطلقة غير مقيدة.

وقد بين ابن كثير سبب هذه المنزلة الرفيعة التي أنزل الله بها نبيه ﷺ فقال: «علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم»^(١).

قال تعالى في بيان شدة شفقة رسول الله ﷺ على أمته، وعظيم نصحه لهم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فهو منة الله الكبرى على المؤمنين، كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وشفقته عليه الصلاة والسلام على المؤمنين، ورأفته بهم وحرصه على سلامتهم وسعادتهم ليس قاصراً على الحياة الدنيا، بل يمتد إلى ما بعد الموت، إلى يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام: «ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، واقرءوا إن شئتم: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فأیما مؤمنٍ ترك ما لا فليبرئه عصبته من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأني وأنا مولاه» [رواه البخاري (٤٧٨١)].

يقضي النبي ﷺ دينَ مَنْ يموت من أصحابه، ويتولى رعاية أولادهم بعدهم، فما أعظم رحمته بالمؤمنين، وما أشد شفقتهم عليهم!

ينشغل يوم القيامة كل إنسان بنفسه عن جميع الناس، حتى عن أحب الناس إليه، وأقربهم منه، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْكَافِرُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ (٣٦) وَلِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس].

بل يتمنى الإنسان المعذب أن يدفع عن نفسه العذاب بأحب الناس إليه، قال سبحانه: ﴿يَصْرُوهُمْ يُودُّ الْمَجْرُمُ لَوْ يَقْدِرُ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ (١٢) وَأَخِيهِ (١٣) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٤) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٥)﴾ [المعارج].

كل إنسان ينشغل يوم القيامة بنفسه، إلا النبي ﷺ، فإنه يأتي إلى مقام مناجاته لربه ﷻ، فيختر أمام العرش ساجداً لله تعالى، ويفتح الله عليه بأنواع المحامد ما يفتح، ثم يناديه رب العزة: «يا محمد ارفع رأسك، وقُلْ يَسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فيقول: يا رب أمتي» [رواه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) من حديث الشفاعة].

فلا أحد أرحم بالمؤمنين وأشفق عليهم بعد الله سبحانه من رسول الله ﷺ، فهو أرحم بالمؤمن من نفسه التي بين جنبيه، وأشفق على نفس المؤمن من نفسه، فالنبي ﷺ يشفع للمؤمنين، ويسعى لإنقاذهم من غضب الجبار وعذابه وانتقامه، بينما أجزاء الإنسان وأبعاضه تشهد عليه بما فعل في الدنيا من المعاصي والآثام، كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وعندما تشهد على الإنسان أعضاؤه وأجزاءه يتجه إليها صاحبها باللوم والعتاب، تدبر معي قول الله ﷻ في سورة فصلت: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِمَ أَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْ مَعَنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ

ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾ .

فهل رأيت أعجب من هذا الحوار؟! يتحاور الإنسان مع أبعاضه وأعضائه معاتباً وموبخاً، وهو يذوب حسرة وكمداً، بينما رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين، ويسأل الله سبحانه لهم مغفرة ذنوبهم وستر عيوبهم! .

أهواؤنا وشهواتنا تدفعنا في الدنيا إلى النار، وتعرضنا لغضب العزيز الجبار، وأعضاؤنا وأبعاضنا تشهد علينا يوم القيامة، بينما رسول الله ﷺ يدعونا إلى دار السلام، ويشفع لنا يوم القيامة بين يدي الملك العلام، فما أجمل المثل الذي ضربه لنا وله عليه الصلاة والسلام عندما قال: «لنما مثلي ومثلكم كمثّل رجل استوقد ناراً، فلمّا أضاءت ما حوله جعل القراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل يزعهن ويغلبهن، فيقتحن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقحّمون فيها» [رواه البخاري (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤)].

• عموم ولاية النبي ﷺ وشمولها:

ولاية النبي ﷺ على المؤمنين عامة وشاملة، فهي أكمل وأعلى من ولاية الوالد على ولده، والسيد على عبده.

فالوالد لا يستطيع شرعاً أن يزوّج ابنته البالغة من دون رضاها؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تُنكح الأيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن» فقالوا: يا رسول الله فكيف إذن؟ قال: «أن تسكت» [رواه البخاري (٥١٣٦) ومسلم (١٤١٩)].

وقد ردّ رسول الله ﷺ زواج فتاة؛ زوّجها أبوها من دون رضاها، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: أن جارية بكرة أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباه زوّجها وهي كارهة، فخيرها النبي ﷺ. [رواه أبو داود (٢٠٩٦) وابن ماجه (١٨٧٥)].

وهذا يدل على أن ولاية الوالد على ولده قاصرة غير كاملة، أما النبي ﷺ فله أن يزوّج أي فتاة مسلمة ممن يريد عليه الصلاة والسلام، وليس لأحد مهما

كان أن يعترض على أمره ﷺ، حتى الفتاة نفسها لا تملك إلا التسليم لأمره عليه الصلاة والسلام.

وسياتي معنا: أنه لما خطب النبي ﷺ السيدة زينب بنت جحش ابنة عمته، لمولاه زيد بن حارثة كرهت زينب هذا الزواج؛ لأن زيدا كان عبداً ثم أعتقه النبي ﷺ فأنزل الله سبحانه قوله الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهل أتاك خبر زواج جليبيب، الصحابي السيد الشهيد رضي الله تعالى عنه، وكان قصيراً دميماً، فخطب النبي ﷺ له امرأة من الأنصار، فقال أبوها: حتى أستأمر أمها، فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها فقالت: لا ها الله، إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيباً، وقد منعناها من فلان وفلان! وكانت الجارية في سترها تسمع، فقالت: أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضي لكم فأنكحوه. فقالوا: صدقت. فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: إن كنت قد رضيته فقد رضيناه، قال: «إني قد رضيته» فزوجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جليبيب، فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم. قال أنس راوي الحديث: فلقد رأيتهما وإنما لمن أنفق بيت في المدينة. [رواه أحمد (١٣٦/٣) وابن حبان (٤٠٥٩)].

وهذا يؤكد لنا شمول وعموم ولاية النبي ﷺ على المؤمنين، وأنها أعلى وأعظم من ولاية الأبوة، وثمة فارق كبير بين ولاية النبوة وولاية الأبوة، ولما أكرم الله سبحانه أزواج النبي ﷺ بمقام الأمومة على المؤمنين بقوله الكريم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ لم تذكر الآية مقام الأبوة للنبي ﷺ؛ لأنها كرمته عليه الصلاة والسلام بولاية أعظم وأشرف، تلك هي ولاية النبوة على جميع المؤمنين والمؤمنات.

قال العلامة الصاوي: وإذا كان أولى بهم من أنفسهم، فهو أولى بمالهم

وأولادهم وأزواجهم من أنفسهم بالأولى، فحقه ﷺ أعظم من حق السيد على عبده (١)(٢).

• أمهات المؤمنين:

﴿وَأَزْوَاجَهُنَّ أُمَّهُنَّ﴾ أي: وأزواج النبي ﷺ أمهات للمؤمنين، فلهنَّ عند المؤمنين منزلة الأمهات، في وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأما فيما عدا ذلك، فهن كالأجنبيات، فلا يجوزُ النظر إليهن، والخلوة بهن، لما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وكذلك هن كالأجنبيات في الميراث، لقوله تعالى:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: الأقارب أحقُّ بالميراث من المؤمنين والمهاجرين، وكان المسلمون بعد الهجرة يتوارثون في أول الأمر بأخوة الإسلام والهجرة، ثم نُسِخَ ذلك بهذه الآية، ويقوله تعالى أيضاً: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي: إلا إذا أردتم أن تحسنوا إلى مَنْ توالونهم، فيجوز تقديم بعض المال إليهم بواسطة الوصية، بشرط ألا تزيد عن ثلث المال.

(١) الصاوي على الجلالين.

(٢) وقد روي عن أبي بن كعب وابن عباس رضيهما قرأ: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وروي نحوه عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن، وهي قراءة شاذة لأنها تخالف رسم المصحف. وقد روى أبو داود: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد؛ أعلمكم...» الحديث. رواه أبو داود، رقم (٨).

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: كان كل ما ذكر من أولوية النبي ﷺ، وتكريم أزواجه، وتوارث ذوي الأرحام، مثبتاً في اللوح المحفوظ.

• مكانته عليه الصلاة والسلام بين الأنبياء:

ثم أشارت الآيات إلى مكانته عليه الصلاة والسلام بين الأنبياء، بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر إذ أخذنا من النبيين عهدهم بتبليغ الرسالة، وحمل أعباء الدعوة.

وخصت الآية هؤلاء الخمسة بالذكر، مع أنهم من جملة النبيين والمرسلين، تنويهاً بفضلهم، وبياناً لكرامتهم وشرفهم، فهم أصحاب الشرائع المشهورة، وأولو العزم من الرسل.

ولما كان سيدنا محمد ﷺ أفضلهم، قُدِّمَ عليهم، ولولا ذلك لَقُدِّمَ مَنْ قُدِّمَهُ زمانه^(١).

ورأى بعض المفسرين أنَّ الله سبحانه قُدِّمه بالذكر؛ لأنه أكرمهم بالنبوة في عالم الأرواح قبل الأنبياء، فَبِنَبُوَّتِهِ افتتحت النبوات في عالم الأرواح، وبنبوته أيضاً خُتمت في عالم الأجساد والأشباح، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.

وقد استدلوا على ذلك بما روى الترمذي [٣٩٣٦]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» [قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أبو نعيم في الدلائل (٨)]

والبيهقي في الدلائل أيضاً (١٣٠/٢) والحاكم (٦٠٩/٢) وصححه، وقد ذكره الشوكاني في تفسير الآية وقال: وفي الباب أحاديث قد صح بعضها^(١).

قال القرطبي رحمه الله: «وقدم محمداً في الذكر لما روى قتادة، عن الحسن، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] قال: «كنتُ أولهم في الخلق وآخرهم في البعث» وقال مجاهد: هذا في ظهر آدم عليه السلام^(٢).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً عظيم الشأن مؤكداً.

وأفاد تكرير الميثاق بيان أهميته وخطورته، حتى إنه تعالى يسأل الأنبياء يوم القيامة عنه:

﴿لَيْسَ لَكَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿لَيْسَ لَكَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي: لكي يسأل الأنبياء الصادقين عن صدقهم في الوفاء بهذا الميثاق، فالمسؤولية يوم القيامة عامة شاملة، حتى للأنبياء والمرسلين، فإنهم يُسألون عن التبليغ، كما يُسأل غيرهم عن القبول والاستسلام والإذعان، قال ﷺ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

ولاشك أن في تقرير سؤال الأنبياء وعيد شديد لغيرهم؛ ولهذا أتبعه الله بوعد آخر للكافرين برسالة الأنبياء فقال:

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

• غزوة الأحزاب:

برزت في غزوة الأحزاب كثير من السمائل الرفيعة والأخلاق الكريمة للنبي ﷺ - كما سيأتي معنا - وهو في أخرج الأوقات التي مرت على النبي ﷺ في حياته، والشدائد والمحن تظهر حقيقة الرجال، وصفاء معدنهم، ولقد كشفت

(١) فتح القدير: ٢٦٧/٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢٤/١٤.

أحداثُ هذه الغزوة عن المعدن الثمين الكريم للنبي ﷺ، وبادرت الآيات في مستهل حديثها عنها، إلى وصف أهوالها، وأخطارها:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وهم جنود الأحزاب من قريش وبني أسد وغطفان وبني عامر وبني سليم ومن يهود بني النضير، وانضم إليهم بعد ذلك بنو قريظة، فنقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وكان مجموعهم عشرة آلاف في القول المشهور، وفي قول آخر: خمسة عشر ألفاً.

ولما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم، حصّن المدينة بحفر خندق من الجهة الشمالية من المدينة المنورة بين الحرتين، بإشارة من سلمان الفارسي، وجعله بينه وبين جنود الأحزاب، الذين ضربوا الحصارَ على المدينة المنورة، الذي استمرَّ قرابة شهر، ولم تقع حربٌ بين الفريقين سوى الرمي بالنبل والحجارة، واشتد في أثناء ذلك الخوف، وخاصة بعد أن نقض بنو قريظة عهدهم، واتفقوا مع الأحزاب على أن يمكنوهم من دخول المدينة من جهة حصونهم، ولكنَّ الله تعالى لطف بالمؤمنين وثبتهم، وأنزل نصره عليهم:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: أرسلنا على جنود الأحزاب ريحاً، وكانت ريحاً باردة شديدة، قوّضت خيامهم، وأكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وسفّت التراب في وجوههم وعيونهم، وهي الريح التي قال عنها النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ» [رواه البخاري (٤١٠٥)].

﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي: وأرسلنا عليهم أيضاً جنوداً لم تروها، وهم الملائكة الذين بثوا الرعب في قلوب الأحزاب، فأسمعوهم قعقة السلاح والتكبير، فاضطربت خيولهم ونفرت، فتنادوا فيما بينهم: النجاة النجاة، وانهزموا من غير قتال.

وقد وصف حذيفة بن اليمان رضي الله عنه هزيمتهم فقال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقرٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجلٌ يأتيني بخبرِ القوم، جعله الله معي يومَ القيامة؟» فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجلٌ يأتينا بخبرِ القوم، جعله الله معي يومَ القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «ألا رجلٌ يأتينا بخبرِ القوم، جعله الله معي يومَ القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «قُمْ يا حذيفة، فأتينا بخبرِ القوم» فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «اذهب فأتني بخبرِ القوم، ولا تدعهم عليَّ» أي: لا تحركهم عليك، فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً علي، فلما وليتُ من عنده جعلتُ كأنما أمشي في حمام، حتى أتيتهم، فرأيتُ أبا سفيان يُصلي ظهره بالنار (أي: يدفئه)، فوضعتُ سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تدعهم عليَّ» ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيت فأخبرته بخبرِ القوم وفرغت قررتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحتُ، فلما أصبحتُ، قال: «قُمْ، يا نومان» [رواه مسلم (١٧٨٨)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: بصيراً بضعفكم وافتقاركم إلى تأييده ونصره، فأمدكم بالريح والجنود.

● الحصار:

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ .

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي: جاءوكم من الجهة المرتفعة، وهم غطفان ومن تبعهم من أهل نجد.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: وجاءوكم من أسفل الوادي، وهم قريش ومن تبعهم، وهذا يدل على أنهم أحاطوا بالمدينة المنورة من جميع جهاتها.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: وإذا مالت الأبصار، لكثرة ما رأت من عدد جنود الأحزاب وُعددهم.

﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أي: اضطربت القلوب اضطراباً شديداً، وهو تمثيل لشدة الخوف، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا» [رواه أحمد (٣/٣)].

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ أي: وتظنون بالله تعالى الظنون المختلفة، فلقد أحسن المؤمنون الظن بالله، وأنه منجز وعده، وناصرهم ومُعزهم، كما سيأتي عند قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما المنافقون فقد أساءوا الظن بالله تعالى، كما سيأتي عند قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

﴿هَٰذَا لَكِ آيَاتُ الْيَوْمِ وَالْغَدِ﴾

أي: في ذلك الزمن المرعب المخيف، اختبر المؤمنون، وامتحنوا، واضطربوا اضطراباً شديداً. ومحص الله تعالى في هذا الابتلاء المؤمنين، وكشف نفاق المنافقين.

• تشكيك وخذلان:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

أي: ما وعدنا إلا وعداً باطلاً.

وهذا تشكيك للمؤمنين بصدق وعد الله تعالى، ووعد رسوله عليه الصلاة والسلام الذي كان يشد من عزائمهم، ويبشرهم بالنصر القريب، وهم يحفرون الخندق.

ولم يكتفِ المنافقونَ بهذا، بل كانوا يدعون المؤمنين إلى الاستسلام والتخاذل وترك القتال:

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ أي: يا أهل المدينة لا مقام لكم هنا، ولا ثبات في وجه جيوش الأحزاب، فارجعوا إلى بيوتكم.

ويثرب: اسمُ المدينة المنورة، ولا ينبغي تسميتها به، لما أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه: عن البراء بن عازب (رضي الله عنه): أن رسول الله (ﷺ) قال: «من سَمَّى المدينة يثربَ فليستغفر الله تعالى، هي طابئةٌ، هي طابئةٌ» [رواه أحمد (٤/٢٨٥)].

والله يحكي هنا قول المنافقين. وشفعوا قولهم هذا بترك القتال:

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: إِنَّ بيوتنا غير حصينة، معرضة للخطر.

وكذبهم الله تعالى وبين حقيقة مرادهم، فقال:

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: بل هي حصينة، وما أرادوا بالاستئذان إلا الفرار وترك القتال.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا سِيْرًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: لو دخلت جيوش الأحزاب من نواحي المدينة وجوانبها، وطلبوا من المنافقين إعلان كفرهم وردّتهم، لبادروا إلى إجابتهم، وسعوا إليهم دون توقف، وما تأخروا إلا زمناً يسيراً، ريثما يتم السؤال والجواب.

ويدل هذا على ميلهم للكفار وحبّهم للكفر.

وفي قراءة: (لَا تَوَّاهَا) من دون مدٍّ، أي: لسعوا إليها بأنفسهم.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ﴾ أي: عاهدوا الله على الثبات وعدم الفرار، من قبل مجيء الأحزاب. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولاً عن الوفاء به، ومجازى عليه يوم القيامة.

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المتخاذلين عن القتال: لن يحميكم الفرار من الموت أو القتل، فالمقدّر كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إن كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر وفررتم، لم تمتعوا في الدنيا إلا قليلاً، وهي مدة أعماركم^(١).

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: من يرُدُّ عنكم ما قدّر الله لكم من نفع أو ضرر، إذ الأمور كلها بيده سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ولا يجدون غير الله تعالى وليّاً يتولاهم، ونصيراً ينصرهم.

واستمرت الآيات تتوعد المنافقين، وهي تفضح مواقفهم، وتكشف قبائحهم:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّجِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ .

أي: الله يعلم المثبطين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، والقائلين لإخوانهم في النسب من المجاهدين: تعالوا إلينا واتركوا القتال، فإننا نخاف عليكم، وهم لا يحضرون القتال إلا زمنًا قليلًا، للرياء والسمعة، ثم يبادرون إلى الفرار معتذرين بأن بيوتهم عورة.

وكلمة ﴿قَدْ﴾ تأتي للتحقيق أو للتقليل، وهي هنا للتحقيق.

﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝﴾ .

﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: يعوقونكم عن القتال، متظاهرين بالخوف عليكم، وأنهم يضمنون بكم، والحقيقة أنهم يخافون على أنفسهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: فإذا جاء العدو رأيتهم ينظرون إليك نظر الخائف المستجير بك، وأعينهم تدور من شدة اضطرابهم وفزعهم، كالذي حضره الموت، ونزلت به غشاياه وسكراته.

هذا حالهم عند الخطر، وأما عند زواله وانسحاب العدو فحالهم يتغير:

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: بسطوا ألسنتهم الحادة القاسية فيكم، وآذوكم بكلامهم، وخاصة عند قسمة الغنيمة، فهم أجبنُ الناس عند الحرب وأشجعهم عند الغنيمة.

﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أي: على المال، فلا ينفقون منه شيئاً في سبيل الله، ويبالغون في المخاصمة من أجله عند قسمة الغنائم.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: أولئك المتصّفون بهذه الصفات لم يؤمنوا بالإيمان الصحيح، ولهذا أبطل الله أعمالهم التي يعملونها للرياء والسمعة.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: وذلك هين عليه تعالى لهوانهم عليه، فلا يبالى بهم ولا بأعمالهم.

ولمّا انهزم الأحزاب، ورجعوا إلى بلادهم خائبين، ووصلت أخبار هزيمتهم إلى المدينة المنورة، لم يصدّق المنافقون هذه الأخبار، من شدة خوفهم وجبنهم:

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوتُ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوتُ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُوتُ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أي: إن يأت الأحزاب يتمنّى المنافقون أن يكونوا في البادية مع الأعراب بعيدين عن المدينة.

﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وحتى في مثل هذه الأحوال، لو كانوا معكم ما قاتلوا إلا قتلاً قليلاً للسمعة والرياء.

● الأسوة الحسنة:

وبعد أن وصف الله تعالى جوّ الحصار الخانق المرعب، وتخاذل المنافقين عن القتال، وتثبيطهم المجاهدين، وإشاعتهم الأراجيف السيئة، ذكر آية الأسوة برسول الله ﷺ، فجاءت في موقعها هذا نجماً يتألق في قلب الظلام، وأملاً يثبت القلوب المضطربة، ويسكنُ النفوس القلقة، فبركة الأسوة برسول الله ﷺ، ثبت المؤمنون في وجه أعدائهم، وتبعه النصر والتمكين في الأرض، وتغير بعد غزوة الأحزاب ميزانُ الصراع بين الإيمان والكفر، فرجحت كفة الإيمان، وتحول موقف النبي ﷺ والمؤمنون من الدفاع إلى الهجوم، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام حين جلا الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم» [رواه البخاري (٤١١٠)].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٢١).

وقوله سبحانه: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه في نفسه أسوة حسنة، أي: قدوة، وهو المؤتسى به، أي المقتدى به.

وثانيهما: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع، وهي المواساة بنفسه.

وما أكثر ما وصى رسول الله ﷺ بنفسه المؤمنين في غزوة الأحزاب، قال ابن كثير: «هذه الآية أصلٌ كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته، فقال للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾»^(١).

فقد كان رسول الله ﷺ في هذه الأوقات العصيبة مصدر ثقة واطمئنان وأمان للمسلمين، ولقد أحسن سيد قطب في قوله في ظلال هذه الآية الكريمة: «وقد كان رسول الله ﷺ على الرغم من الهول المرعب، والضيق المجهد، مثابة أمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان، وإن دراسة موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم، لمّا يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وتطلب نفسه القدوة الطيبة، ويذكر الله ولا ينساه»^(٢).

رحم الله سيد قطب، لو أن الدعاة إلى الله في زماننا، وقادة الجماعات الإسلامية، تفهّموا مواقفه عليه الصلاة والسلام في غزوة الخندق، واقتدوا به، وترسّموا خطاه، لجنبوا أنفسهم والمسلمين كثيراً من البلاء والمشقة والعنت، ولحققوا للدعوة الإسلامية كثيراً من التقدم والنجاح.

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) في ظلال القرآن.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فلننظر إليه ﷺ في غزوة الأحزاب، ولنتأمل بعض مواقفه فيها :

١ - لما سمع رسولُ الله ﷺ بمسير جيش الأحزاب استشار أصحابه، فأشار عليه سلمانُ الفارسيُّ ﷺ بحفر الخندق، فأعجب عليه الصلاة والسلام برأي سلمان، وأمر بحفر الخندق شمالي المدينة بين الحرتين، وطبّق عليه الصلاة والسلام في هذا مبدأ الشورى ونفّذه.

٢ - شارك رسول الله ﷺ أصحابه بحفر الخندق بنفسه، وتحمل معهم مشقة العمل وشدته، ففي «الصحيحين» [البخاري (٤١٠٦) ومسلم (١٨٠٣)]: عن البراء بن مالك رضي الله عنه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وهو ينقلُ معنا الترابَ، ولقد وارى الترابُ بياضَ بطنه، وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبّت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنةً أبينا
ويرفع بها صوته.

ولنا أن نتصور - كما يقول سيد قطب - هذا الجوّ الذي يعمل فيه المسلمون ورسول الله ﷺ بينهم، يضربُ بالفأس، ويجرف بالمسحاة، ويحمل في المكنل، ويرفع صوته مع المرتجزين، وهم يرفعون أصواتهم بالرجز أثناء العمل، فيشاركهم الترجيع، لنا أن نتصورَ أيّ طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم، وأيّ ينبوع يتفجّر في كيانهم بالرضا والحماسة والثقة والاعتزاز.

٣ - ولقد تمكن الصحابةُ ﷺ من حفر الخندق في وقت قصير، قبل وصول جيش الأحزاب، رغم المصاعب الهائلة التي واجهتهم، ومن أشدها عليهم البرد والجوع، ومن المعروف أنّ البرد والجوع من أكبر المعوقات التي تؤخر العمل، إذ لا يستطيعُ أيُّ عامل يعاني من البرد والجوع الشديدين أن يعمل أبسط الأعمال، فما بالك بأشق الأعمال، من حفر للأرض، وتكسير للصخر، ونقل

للتراب والأحجار، ولكنه رسول الله ﷺ النبي القائد، الذي فجر في قلوبهم شعلة الإيمان، وبث في سواعدهم عزم اليقين، فشقوا الأرض، وقطعوا الصخر، رغم ما بهم من تعب ونصب وبرد وجوع.

عن أنس رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَبِ والجُوع قال:

«اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ» فقالوا مجيبين له:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا [رواه البخاري (٤٠٩٩) ومسلم (١٨٠٥)].

٤ - وكيف لا يعملون، ورسول الله ﷺ أسوتهم وقودتهم، يعمل معهم، ويتحمل شدة البرد وقسوة الجوع أكثر منهم، عن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. [رواه الترمذي (٢٣٧١)].

هكذا كان ﷺ يؤتسى به، ويواسي كل أفراد الأمة بنفسه وبأخلاقه وشمائله.

٥ - لم يؤثر رسول الله ﷺ نفسه بشيء دون أي فرد من أفراد الأمة، حتى بلقمة طعام يسد بها جوعه، فلا يأكل حتى يطعم أصحابه، فلا يبقى فيهم جائع.

فعن جابر رضي الله عنه قال: إنا كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُديَّة (صخرة) شديدة فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبشنا ثلاثة أيام لا ندوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب فعاد كثيباً أهيل (رملاً لا يتماسك) فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ خمصاً (جوعاً) شديداً فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق (أنثى المعز).

فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت

النبي ﷺ فقلتُ : طُعِيمٌ لي ، فقم أنت يا رسول الله ورجلٌ أو رجلان ، قال : «كم هو؟» فذكرتُ له فقال : «كثيرٌ طيبٌ ، قل لها : لا تنزعي البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي» فقال : «يا أهل الخندق ، إن جابراً قد صنع سوراً فجيها بكم» .

فقام المهاجرون والأنصار ، فدخلتُ عليها فقلتُ : ويحك قد جاء النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار ومن معهم . قالت : هل سألَكَ؟ قلتُ : نعم ، قال ﷺ : «ادخلوا ولا تضغطوا» (لا تراحموا) فجعل يكسرُ الخبزَ ، ويجعلُ عليه اللحمَ ، ويخمرُ (يغطي) البرمة والتنورَ إذا أخذَ منه ، ويقربُ إلى أصحابه ، فلم يزل يكسرُ ويغرفُ حتى شبعوا ، وبقيَ منه فقال : «كلي هذا وأهدي ، فإنَّ الناسَ أصابتهم مجاعةٌ» [رواه البخاري (٤١٢٠) ومسلم (٢٠٣٩)] .

٦ - وكان رسول الله ﷺ يبشرهم بالنصر ، وهو في قلب الخندق يضربُ الصخرَ بمعوله ، لا النصر في معركة الأحزاب فقط ، وإنما النصر على أعظم دول الأرض ، على الفرس والروم ، ويخبرهم بأن الإسلامَ سينتشر ويمتد رواقه إلى مشارق الأرض ومغاربها .

قال ابن إسحاق في «السيرة» : وُحِّدْتُ عن سلمان الفارسي رضي الله عنه : أنه قال : ضربتُ في ناحية الخندق ، فغلظت عليَّ صخرةٌ ، ورسولُ الله ﷺ قريبٌ مني ، فلما رأيَ أضربُ ، ورأى شدة المكان عليَّ نزل ، فأخذَ المعولَ من يدي ، فضربَ به ضربةً لمعت تحتَ المعولِ برقَةٌ ، ثم ضربَ به ضربةً أخرى فلمعت تحته برقَةٌ أخرى ، ثم ضربَ الثالثة فلمعت تحته برقَةٌ أخرى ، قلتُ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما هذا الذي رأيتُ لمعَ تحتَ المعولِ وأنت تضرب . . . ؟ قال : «أوقد رأيتَ ذلك يا سلمان؟» قلتُ : نعم ، قال : «أمَّا الأولى فإنَّ الله فتحَ عليَّ بها اليمنَ ، وأمَّا الثانيةُ فإنَّ الله فتحَ عليَّ بها الشامَ والمغربَ ، وأمَّا الثالثةُ فإنَّ الله فتحَ عليَّ بها المشرقَ» [سيرة ابن هشام : ٢/٢١٩] .

وروي عن البراء رضي الله عنه قال : لَمَّا كَانَ حينَ أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق ، عرضتُ لنا في بعض الخندقِ صخرةٌ لا تأخذُ فيها المعاولُ ، فاشتكيَنا ذلك للنبي ﷺ ، فجاء فأخذَ المعولَ فقال : «بسم الله» ثم ضربها فنشر ثلثها ،

وقال: «الله أكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ الشام، والله إنني لأبصرُ قصورهاَ الحمرَ الساعة». ثم ضربَ الثانيةَ فقطع ثلثاً آخر فقال: «الله أكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ فارس، والله إنني لأبصرُ قصرَ المدائنِ الأبيضِ الآن». ثم ضربَ الثالثةَ فقطعَ بقيةَ الحجر فقال: «الله أكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ اليمن، والله إنني لأبصرُ أبوابَ صنعاءَ مِنْ مكاني الساعة» [رواه أحمد (٣٠٣/٤) والنسائي (٤٣/٦ - ٤٤)].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول في زمن عثمان: افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفسُ أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحنوها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله محمداً صلوات الله عليه مفاتيحها قبل ذلك^(١).

ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَأَوْزَكْنَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَبْدُرْهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

فكلُّ فتح في الإسلام حدث بعد وفاة سيدنا رسول الله صلوات الله عليه، أعطي النبي صلوات الله عليه مفاتيحه مِنْ قَبْلُ، حين كان يحفر الأرض، ويضربُ بالمعول في قلب الخندق، وقد بشر به أصحابه، فكان علماً من أعلام صدق نبوته وصحة رسالته صلوات الله عليه.

٧ - وكلُّما تعاظَمَ الخطبُ، واشتدَّ الخوفُ، وازداد الخطر، زادت ثقة النبي صلوات الله عليه بربه، واستبشر بقرب النصر، وبشر أصحابه به.

لَمَّا نَقَضَ بنو قريظة العهد، واتفقوا مع الأحزاب على مساعدتهم في قتال المسلمين، أرسل النبي صلوات الله عليه بعض أصحابه إلى بني قريظة ليكشفوا له حقيقة موقفهم، فرجعوا، وأخبروه بنقض بني قريظة للعهد، فما كان منه صلوات الله عليه إلا أن قال: «الله أكبر، أبشروا يا معشرَ المسلمين»^(٢).

٨ - وعندما وصلت جيوشُ الأحزاب، خرج رسولُ الله صلوات الله عليه والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْع، في ثلاثة آلاف، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالذراري

(١) إنارة الدجى في مغازي خير الورى.

(٢) سيرة ابن هشام.

والنساء فجُعلوا في الآطام، وهي حصون منيعة كانت داخل المدينة، ولما سمع ﷺ بنقض بني قريظة عهدهم وغدرهم، ردّ ثلث الجيش إلى داخل المدينة لحماية النساء والأطفال من بني قريظة، مما دل على حرصه ﷺ على حماية الضعفاء من الأمة، فسلامتهم مقدّمة على سلامة المجاهدين أنفسهم، وعلى المجاهدين أن يكونوا حرماً وحرساً للنساء والأطفال والضعفاء، ولا يجوز لهم أن يتخذوا من النساء والأطفال حُرْزاً يختبئون وراءه، وحصناً يتحصّنون به، فيعرضونهم بهذا العمل لضرب العدو لهم، وفتكه بهم وانتقامه منهم.

٩ - ومع عظيم توكله عليه الصلاة والسلام وثقته بربه ﷺ، فقد قام ﷺ بأعلى أعمال الحيلة العسكرية، التي يقوم بها كل قائد عسكري بعيد النظر: نَظَمَ ﷺ أصحابه، فجعل لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عباد، وعلى الحرس عباد بن بشر رضي الله عنهم أجمعين، وجعل كلمة التعارف بين المسلمين في ليالي الخندق (حم، لا ينصرون) ونشر جنوده حول الخندق من الداخل لحراسته، ومنع جنود الأحزاب من اجتيازه، وخاصة في الأماكن التي يمكن أن يتسلل منها جنود العدو.

وكان ﷺ يشارك أصحابه في الحراسة ليلاً، ويقف في أخطر المواقع، كما كان يتفقد الحرس في الليل بنفسه عليه الصلاة والسلام.

ويجب أن نعلم أنّ النبي ﷺ ليس أسوة حسنة في الفضائل العالية والمناقب الكريمة، التي ظهرت له في غزوة الأحزاب فقط، فنزول آية الأسوة الحسنة بسبب غزوة الأحزاب لا يعني خصوص السبب، إذ من المعلوم أن خصوص السبب لا يعني خصوص الحكم، بل الآية الكريمة تأمرنا أن نقتدي به ﷺ في كل شؤون الحياة، وما من شأن من شؤون الحياة إلا والنبي ﷺ المثل الأعلى والأسوة الحسنة الطيبة فيه، فقد جمع الله تعالى للنبي ﷺ مكارم الأخلاق كلها، حتى إنه سبحانه بعثه عليه الصلاة والسلام ليُتمّم مكارم الأخلاق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [رواه البيهقي في السنن الكبرى: ١٠/١٩١ وفيه ضعف].

فهو ﷺ القدوة الطيبة والأسوة الحسنة، في جميع الفضائل الأخلاقية الكريمة، والآداب الإنسانية الرفيعة، وكيف لا يكون كذلك، وقد أدبه الله سبحانه على عينه، وآواه إلى كنفه ورعايته منذ بداية حياته، وأنزل عليه بعد ذلك قوله الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «أدبني ربي فأحسن تأديبي» [رواه ابن السمعاني من حديث ابن مسعود، وفيه ضعف].

جمع الله تعالى للنبي ﷺ كلَّ الكمالات الأخلاقية التي أنعم بها على الأنبياء والمرسلين، ولهذا أمره سبحانه أن يقتدي بجميع الأنبياء والمرسلين، ليجمع له سبحانه كل الفضائل التي أكرمهم بها، فقال ﷺ في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٤ وَذَكَرْنَا وَيْحَ عِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُصْلِحِينَ ٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ٨٦ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٨٧ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٨٨ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ٨٩ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ٩٠﴾.

هكذا رفع سبحانه هؤلاء الأنبياء والمرسلين بحكمته وعلمه درجات عالية رفيعة، ثم أمر النبي ﷺ أن يقتدي بهم، ليحوز كل مناقبهم وفضائلهم، وليكون بفضل الله سبحانه إمامهم وسيدهم، والقدوة الطيبة والأسوة الحسنة للمؤمنين.

فما أعظم هذه الفضائل! وما أشرف هذه الشمائل! فضائل وشمائل الصفوة المختارة من الخلق، الذين اختارهم الله سبحانه من جميع الأمم والشعوب، في أزمنة وأمكنة مختلفة ومتباعدة، جمعها الله في زمن واحد، ومكان واحد، وإنسان واحد، جعله الله رحمة مهداة منه سبحانه لكل العالمين، ﷺ.

وإن الذين يتأسون به حقيقة، ويستفيدون من أخلاقه وشمائله ﷺ، يتصفون

بصفات خاصة، وهي ثلاث صفات ذكرها سبحانه في آية الأسوة بقوله:

﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

فتأمل كيف قرر سبحانه واجب التأسي برسول الله ﷺ على جميع المؤمنين، بقوله في صدر الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ثم خَصَّصَ بعد هذا التعميم، فبين أن شرف التأسي به عليه الصلاة والسلام، لا يناله إلا مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.

- فقوله سبحانه: ﴿يَرْجُوا اللَّهَ﴾ أي: يرجو ثواب الله، وهذه هي الصفة الأولى للمتأسين برسول الله ﷺ، فهم يتأسون به طلباً لثواب الله سبحانه، لا يطلبون أي منفعة دنيوية، إنما أملهم ورجاؤهم في رحمة الله وفضله وثوابه.

- وقوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: يخشون يوم القيامة، الذي فيه جزاء الأعمال، وهذه الصفة الثانية للمتأسين برسول الله ﷺ، فهم يخشون عذاب الله سبحانه يوم القيامة، ومعنى هذا أنهم يجمعون في قلوبهم بين صفتي الرجاء والخوف، فلا يئسون من رحمة الله، ولا يأمنون من عذابه سبحانه.

وقد صرح سبحانه في الآية بفعل الرجاء لدلالته على الرحمة، وأخفى الفعل الذي يدل على الخوف والخشية، وذكر ما يدل عليه بقوله: ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾؛ لأن الآية تتحدث عن النبي ﷺ نبي الرحمة.

- وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: أكثر من ذكر الله سبحانه في كل أحواله وأوقاته، فلا يغفل عن الله سبحانه أبداً، وهذه الصفة الثالثة للمتأسين برسول الله ﷺ، فالذاكرون الله كثيراً والذاكرات، هم الذين شَرَّفَهم الله سبحانه وأكرمهم بالاقتران برسول الله ﷺ، وقد جاء في سورة الأحزاب بعد ذلك أمر الله سبحانه للمؤمنين بالإكثار من ذكره تعالى، بقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٥١﴾.

● ثبات واستشهاد:

كان ثبات المؤمنين في وجه جيوش الأحزاب، أول ثمار التأسي برسول الله ﷺ:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝﴾ .

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: هذا ما وعدنا الله ورسوله من الاختبار والابتلاء، الذي يأتي بعده النصر، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٤].
﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ظهر صدق وعد الله ورسوله ﷺ.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي: وما زادهم ما رأوا من جند الأحزاب إلا تصديقاً بالله تعالى وتسليماً لأمره، ورضاً بقضائه وقدره.

﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظِرُ وَمَا بَدَلُوا بَدِيلًا ۝﴾ .

﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: من المؤمنين رجال حققوا الصدق فيما عاهدوا الله عليه.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ﴾ أي: فمنهم من وفى بنذره، فثبت مع رسول الله ﷺ، وقاتل حتى استشهد، كحمزة، ومُصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وغيرهم من شهداء أحد، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: عمي الذي سُميتُ به (يعني: أنس بن النضر) لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا، فشقَّ عليه فقال: أولُ مشهدٍ شهدته رسول الله ﷺ غِبْتُ عنه، وإنَّ أُراني الله مشهداً فيما بعدُ مع رسول الله ﷺ، ليراني الله تعالى ما أصنع، قال أنس: فهابَ أن يقولَ غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبلَ سعد بن معاذ، فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ فقال: واهماً لريح الجنة أجده دون أحدٍ. فقاتلهم حتى قُتل، فوُجِدَ في جسده بضع وثمانون، من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيعُ بنتُ النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ

فَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٤﴾ قال أنس: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه. [رواه مسلم (١٩٠٣)].

قوله: (واهاً) كلمة تمنّ وتلهف، والقائل هو أنس بن النضر.
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ أي: ومنهم من ينتظر قضاء نذره، فيموت شهيداً.
وفي وصفهم بالانتظار إشارة إلى كمال اشتياقهم إلى الشهادة.
﴿وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا﴾ أي: وما بدلوا عهدهم وما غيروه، بل ثبتوا عليه راغبين فيه.
ولا يخفى ما في الآية من تعريض بالمنافقين وتخاذلهم، وقد سبق الحديث عنهم قبل آية الأسوة.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٤)

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: قدر الله تعالى ما قدر من قتال وجهاد، ليجزي الصادقين بما صدر عنهم من صدق في العهد، وثباتٍ وتضحية.
﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وليعذب المنافقين بما صدر عنهم من جبنٍ وخذلانٍ وتعويق عن القتال، أو يتوب عليهم إن تابوا عن النفاق وحسنت سرائرهم ونواياهم.
﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

• النصر بلا قتال:

وجاء النصر بلا قتال في غزوة الأحزاب، ببركة الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ وثبات المؤمنين وصدقهم:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (٢٥)

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ أي: ردّ الله عن المدينة المنورة

جيوش الأحزاب خائبين مغتاضين بل بكامل غيظهم، لم يحققوا لأنفسهم أي خير. ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أي: كفاهم سبحانه تحمُّلَ مشقات القتال، بما أرسل من ريح وجنود على جنود الأحزاب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي: كان الله ولا يزال قادراً غالباً.

وتوالت على النبي ﷺ وعلى المؤمنين نِعْمه تعالى، فنقلهم من نصر إلى نصر آخر:

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ﴾ أي: أنزل يهود بني قريظة، الذين أيدوا الأحزاب، ونقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ من حصونهم المنيعه التي تحصَّنوا بها.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: جعل في قلوبهم الخوف، فنزلوا من حصونهم مستسلمين من غير قتال.

ومرَّ معنا أنَّ الرعب جند من جنود الله تعالى، أُيِّدَ به النبي ﷺ في مواطن كثيرة.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم المقاتلون من الرجال.

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم الصغار والنساء.

وفي الحديث: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أصيب سعدٌ يومَ الخندق، فضرب النبي ﷺ خيمَةً في المسجد، ليعودَه من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق، وضعَ السلاحَ واغتسل، فأُتاه جبريلُ عليه السلام وهو ينفضُ رأسَه من الغبار، فقال: قد وضعتَ السلاحَ، والله ما وضعتُه، اخرجْ إليهم. قال النبي ﷺ: «فأين؟» فأشار إلى بني قريظة، فأُتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فردَّ الحكم إلى سعدٍ، قال: فإني أحكمُ فيهم أن تقتلَ المقاتلة، وأن تسبي النساء والذرية، وأن تقسَمَ أموالهم. [رواه البخاري (٤١٢٢)].

وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا سَعْدُ، إِنْ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حَكْمِكَ» قَالَ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تَقْتَلَ مَقَاتِلَتَهُمْ، وَتَسْبِي ذُرَارِيَهُمْ، قَالَ ﷺ: «حَكَمْتُ بِحَكْمِ اللَّهِ» [رواه البخاري (٣٨٠٤)].

﴿وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

﴿وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: وأورثكم مزارعهم وحصونهم ومواشيهم ونقودهم.

﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا﴾ أي: وأورثكم أيضاً في علمه وتقديره أرضاً ما وطئتها أقدامكم من قبل، وهي بلاد فارس والروم، وقيل: كل أرض تفتح على المسلمين، وتظلها راية الإسلام إلى يوم القيامة.

وهي من المبشرات التي بشر الله تعالى بها الأمة المسلمة، إذا ما تمسكت بهدي رسول الله ﷺ واتتست به.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: قادراً على أن يملككم ما يشاء، وقد فعل بما فتح على الأمة المسلمة من فتوح، وهو قادر أيضاً على أن يفتح عليها مرة ثانية إن عادت إلى التمسك بسنته والتأسي به عليه الصلاة والسلام، كما مرَّ من قول أبي هريرة رضي الله عنه: افتتحوها ما بدا لكم، فو الذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتتحنوها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك.



الفصل الثاني

مَعَ أَزْوَاجِهِ ﷺ

يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبُ الْأَزْوَاجِ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّتَهَا فَعَالَيْكُمْ أَمْتَعَكُمُ
 وَأَسْرَحَكُمُ سَرَلًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ
 مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِيهِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعِّفُ لَهَا الْعَذَابَ
 ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلَهُ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا
 أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتُمْ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُمْ فَلَا
 تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَفَرَنْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَبَرَّجْنَ
 تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
 لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ
 مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
 وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِتِينَ وَالصَّابِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ
 فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا
 ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ
 زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى
 زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ لَكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
 وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ
 خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ

أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ
الْنَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٧١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٧٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٧٤﴾ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا
أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٧٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٧٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ
بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٧٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧٨﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ
تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٧٩﴾ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ
إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا ءَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِكَ
وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا
لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ
فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٨٠﴾
﴿٨١﴾ تَرْجَى مِّن نَّشَأٍ مِّنْهُنَّ وَتَقْوَى إِلَيْكَ مِّن نَّشَأٍ وَمِنِ ابْتِغَاءٍ مِّنْ عَزَلٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ
أَدْنَىٰ أَوْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَالَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٨٢﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ
أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّفِيعًا ﴿٨٣﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِن إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا
فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَفْسِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجِي مِّنكُمْ
وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ
ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٨٤﴾ إِنْ تَبَدَّلُوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٨٥﴾
لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا
نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَقْبَيْنَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٨٦﴾ إِنَّ اللَّهَ

وَمَلِكُهُمْ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْجِيَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَنْهُمْ مِنْ جَلَسِهِمْ ذَلِكَ أَذْنُ أَنْ يُعْرِضَ فَلَا يُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْأَمْنَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعُغْرَتِكَ بِهِمْ يُرَىٰ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلَايًا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا آلَسِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

• النبي القائد ﷺ:

تحدثت السورة أولاً عن بعض جوانب شخصية النبي ﷺ العسكرية في ميدان الجهاد، فإذا بنا أمام قائد عسكري أعطاه الله سبحانه كل الصفات العالية الرفيعة للقائد الذي يقود جنوده إلى النصر، في أصعب المواقف وأشدّها حرجاً. قائد لا يستبدُّ برأيه، بل يستشير جنوده، ويأخذُ برأي أحدهم عندما يراه حقاً ومفيداً.

قائد متواضع يشارك جنوده في كل أعمال القتال، من تحصين وحراسة

ومواجهة للعدو، ويتحمل معهم كلَّ مشقات القتال، من برد وجوع وتعب ونصب، كما سبق بيانه.

قائد يبثُ في نفوس جنوده الثقة بنصر الله، فيملأ قلوبهم حماسة، ويشد عزائمهم، ويثبت نفوسهم في مواقف تضطرب فيها القلوب، وتترزل النفوس، حتى تبلغ القلوب الحناجر.

قائد ذي نظر بعيد وتفكير سديد، لا يدعُ فرصة مهما كانت، إلا ويستفيد منها ليهزم أعداءه وينتصر عليهم، حتى إنه لما جاءه نعيم بن مسعود الأشجعي مسلماً، يعرضُ مساعدته على النبي ﷺ، قال له عليه الصلاة والسلام: «إنما أنت فينا رجلٌ واحدٌ، فخذلْ عنا إن استطعت، فإنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ»^(١).

وقوله ﷺ: «الحَرْبُ خَدْعَةٌ» [رواه البخاري (٣٠٣٠)].

قائد قلبه موصولٌ بالله سبحانه، يأخذ بأعلى أسباب الحيلة العسكرية، وفي الوقت نفسه يسألُ الله النصر، متوكلاً عليه سبحانه وحده، فما أكثر ما كان ﷺ يصلي لله في ليالي حصار الأحزاب، يدعو الله سبحانه، ويستمدُّ منه النصر والتأييد، ويعلمُ جنوده الثقة بالله، والتوكل على الله وحده، قائلاً لهم: «قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا» [رواه أحمد (٣/٣)].

قائد جمع بين صفتي الرحمة والحزم، يضع الرحمة في مواضعها وعند من يستحقها، ويضع الحَزْمَ في مواضعه، وعند من يستحقه، بلغ من رحمته عليه الصلاة والسلام أنَّ جندياً من جنوده - وهو حُذيفة بن اليمان - كان قد كلفه ﷺ بمهمة استطلاعية، داخل صفوف العدو في ليلة باردة من ليالي الخندق، وعندما عاد الجنديُّ من مهمته، كان يرتجف من شدة البرد، وكان ﷺ يصلي، فأشفق عليه، ولم ينتظر حتى ينتهي من صلاته، بل أشار إليه أن يدنو منه، فلما دنا منه أسبل عليه الصلاة والسلام عليه شَمْلَتَهُ (عباءته) وتركه نائماً فيها حتى أصبح، وقد تقدم الحديث في ذلك عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

كما بلغ من حزمه عليه الصلاة والسلام، أنه أمر بقتل جميع رجال بين قريظة، الذين نقضوا عهدهم معه ﷺ، وحاولوا الغدر بالمسلمين، وانحازوا للأحزاب المشركين، كما مر معنا عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

• النبي القائد ﷺ خير الأزواج:

ثم انتقلت السورة مباشرة من ميدان الجهاد إلى ميدان الأسرة، لتحدثنا عن خير الأزواج، عن رسول الله ﷺ، الزوج الذي كان يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» [رواه الترمذي (٣٨٩٥) وحسنه].

ويقول أيضاً: «إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنَهُمْ خُلُقاً وَالْطَفْهَمَ بِأَهْلِهِ» [رواه الترمذي (٢٦١٢) وحسنه].

فتكشف لنا آيات السورة كيف كان النبي ﷺ يعامل زوجاته، وتكشف لنا أيضاً عن نصر كبير آخر، حققه النبي ﷺ في حياته الاجتماعية مع زوجاته، نصر لا يقل أهمية عن النصر في معركة الخندق، بل يفوقه أهمية، لأنه جرى في ميدان الجهاد الأكبر، حيث يجاهد الإنسان نفسه وميوله وشهواته.

وما أكثر الأزواج الذين ينهزمون في هذا الميدان، ويسقطون صرعى أهوائهم وشهواتهم، ولهذا تكرر في الآيات القرآنية الكريمة التحذير من الافتتان بالأزواج والأولاد، فإن كثيراً منهم يدفعون الإنسان إلى معصية الله والتعرض لسخطه وغضبه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن].

وقوله أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا وَاللَّهُ وَالرَّسُولُ وَخَوُصُّوْا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنفال].

كل هذه الآيات تدل على خطورة ميدان الأسرة، وشدة الفتنة التي يتعرض

لها الإنسان فيه، ولقد أحرز النبي ﷺ في هذا الميدان نصراً عظيماً كبيراً، تكشف عن مداه آيتا التخيير، إذا أضفنا إليهما بيان أسباب هذا التخيير وزمنه، والنتائج التي ترتبت عليه.

• من القديم والحديث:

و يجدرُ بي بعد أن بينتُ رأيي في هذا الموضوع، أن أعرض للقارئ الكريم آراء بعض أهل العلم، لعله يجد فيها موافقة للصواب أكثر من رأيي، مفوضاً علم الحقيقة لله سبحانه، فهو أعلم بكلامه وأسرار كتابه.

فمن القديم: اعتنى العلامة الفخر الرازي رحمه الله، في تفسيره «مفاتيح الغيب» كثيراً ببيان الصلة بين الآيات والسور، والكشف عن الحكمة لمواقع الآيات في السور، قال عند قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلٌ لَّا زَوْجَكَ...﴾ [٢٨ - ٢٩]: فوجهُ التعليق هو أنَّ مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله.

ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه ﷺ إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنْتَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ١] ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة، وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولهذا قُدمن بالنفقة^(١).

ولكني لا أرى في آيتي التخيير المعنى الذي ذهب إليه الفخر الرازي رحمه الله، فليس فيها استجابة لمطالب أمهات المؤمنين بتوسيع النفقة عليهن، بل هما على العكس جاءتا تخييراً بين الرضا بمعيشتهن مع رسول الله ﷺ، أو طلاقهن إذا تمسكن بمطالبتهن بالتوسع في النفقة.

ومن الحديث: اهتم سيد قطب رحمه الله ببيان مواضع السور، والصلة بين آيات السورة الواحدة في الموضوع، في كتابه: «في ظلال القرآن»، وقد قال رحمه الله في شأن موضوع سورة الأحزاب والصلة بين آياتها: «هذه السورة تتناول قطاعاً حقيقياً من حياة الجماعة المسلمة، في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى، إلى

(١) التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»: ٢٠٦/٢٦.

ما قبل صلح الحديبية، وتصورُ هذه الفترة حياة المسلمين في المدينة تصويراً واقعياً، وهي مزدحمة بالأحداث التي تشير إليها خلال هذه الفترة، والتنظيمات التي أنشأتها وأقرتها في المجتمع الإسلامي الناشئ^(١).

فعلاقة آيتي التخيير بما قبلها من آيات السورة، في موضوع غزوة الأحزاب، علاقة أحداث جمعها زمن واحد، ووقعت في فترة واحدة، في رأي سيد قطب، فهو يرى أنَّ السورة تعالج موضوعات فترة معينة من حياة الجماعة الإسلامية، تمتد من غزوة بدر، إلى ما قبل صلح الحديبية.

لكني أرى سيداً ﷺ لم يوفق إلى الصواب في هذا الموضوع، لأن التخيير ونزول آيته، لم يكن من أحداث هذه الفترة التي حددها، بل كان التخيير بعد هذه الفترة بزمان كبير، فهو من الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة، كما سأبينه إن شاء الله تعالى، فهو بعد الفترة التي حددها سيد قطب لموضوعات سورة الأحزاب، والتي وصفها ﷺ بقوله: «ولهذه الفترة التي تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة، فهي الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة، وفي حياة الدولة، ولم يتم استقرارها بعد، ولا سيطرتها الكاملة، كالذي تم بعد فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا، واستتاب الأمر للدولة الإسلامية والنظام الإسلامي»^(٢).

لكنَّ حادثة التخيير لم تقع في الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة، بل حدثت بعد فتح مكة في الفترة التي استتبَّ الأمر فيها للدولة الإسلامية والنظام الجديد، والدليل على ذلك ما يأتي.

• زمن التخيير:

عندما نزلت آيتا التخيير، كانت أمهات المؤمنين اللواتي أكرمهن الله بزواج النبي ﷺ منهن عنده ﷺ، يعشن معه كلهن، عدا السيدة خديجة رضي الله عنها، التي

(١) في ظلال القرآن.

(٢) المرجع السابق.

توفيت قبل الهجرة. روى ابن كثير عن عكرمة أنه قال: «وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمسٌ من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، و سودة، وأم سلمة - رضي الله عنهن - وكان تحته صفية بنت حيي النضرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين»^(١).

ومن المعلوم أنَّ السيدة ميمونة رضي الله عنها، هي آخر من تزوج رسول الله ﷺ، وقد تزوجها عليه الصلاة والسلام في العام السابع من الهجرة، أثناء عمرة القضاء، وقد اختلف العلماء في حكم زواج المخرم تبعاً لاختلاف الرواية عنه ﷺ عندما تزوج بالسيدة ميمونة، هل كان ﷺ حلالاً أم كان مُحَرِّماً، وصحَّت الرواية عن ابن عباس ابن أخت السيدة ميمونة، أنه ﷺ تزوجها وهو مُحَرَّمٌ، وبنى بها بِسَرَفٍ، وهو موضع يبعد عن مكة ستة أميال، في طريق عودته إلى المدينة، بعد إكمال مناسك العمرة^(٢)، وهذا يدلُّ على أنَّ آيتي التخيير نزلتا بعد العام السابع من الهجرة.

ومما يؤكد أنَّ التخيير كان بعد فتح مكة، حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رواه عنه ابن عباس رضي الله عنه، وإلى القارئ الكريم الحديث بأكمله، لأنه يتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع التخيير، ومعاملة النبي ﷺ لأزواجه رضي الله عنهن:

روى البخاري [٢٤٦٨]: عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمرَ عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَاَّ إِلَى اللَّهِ فَدَّ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] حتى حجَّ عمر، وحججتُ معه، فلما كان ببعض الطريق، عدل عمرُ وعدلتُ معه بالإداوة، فتبرَّزَ ثم أتاني، فسكبتُ على يديه فتوضأ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ، اللتان قال الله تعالى: ﴿إِنْ نُبَاَّ إِلَى اللَّهِ فَدَّ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]؟ فقال عمر: واعجباً

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) انظر كتاب: عبد الله بن عباس، للمؤلف. قلت: وقد توفيت رضي الله عنها بسرف أيضاً ودفنت هناك، وما زال قبرها على يمين القادم إلى مكة المكرمة.

لك يا ابنَ عباس - قال الزهري: كره والله ما سأله عنه، ولم يكتمه - قال: هما عائشة وحفصة.

قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشرَ قريشَ قوماً نغلبُ النساءَ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفقَ نساؤنا يتعلمنَ من نساءهم. قال: وكان منزلي في دار أمية بن يزيدٍ بالعوالي، فغضبتُ يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تنكرُ أن أراجعك، فوالله إن أزواجَ رسولِ الله ﷺ ليراجعنَّ، وتهجره إحداهنَّ اليوم إلى الليل، قال: فانطلقتُ فدخلتُ على حفصة، فقلت: أتراجعينَ رسولَ الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلتُ: وتهجره إحداكنَّ اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلتُ: قد خابَ من فعلَ ذلك منكن وخسر، أفتأمنَ إحداكنَّ أن يغضبَ الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكتُ، لا تراجعني رسولَ الله ﷺ، ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنَّكِ أن كانت جارتكِ هي أوسم (أجمل)، وأحبُّ إلى رسولِ الله ﷺ منك (يريد عائشة).

قال: وكان لي جارٌّ من الأنصار، وكنا نتناوبُ النزولَ على رسولِ الله ﷺ، ينزلُ يوماً، وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدثُ أنَّ غسانَ تنعلُ الخيلَ لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً، ثم أتى عشاءً، فضرب بابي، ثم ناداني فخرجتُ إليه، فقال: حدثَ أمرٌ عظيمٌ، فقلتُ: وما ذاك، أ جاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظمُ من ذلك وأطولُ، طلقَ رسولُ الله ﷺ نساءه، فقلتُ: قد خابت حفصة وخسرتُ، قد كنتُ أظنُّ هذا كائناً.

حتى إذا صليتُ الصبحَ، شددتُ علي ثيابي، ثم نزلتُ، فدخلتُ على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكَنَّ رسولُ الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو ذا معتزلٌ في هذه المَشْرِبةِ، فأتيتُ غلاماً له أسود، فقلتُ: استأذنْ لعمر، فدخلَ الغلامُ ثم خرجَ إليَّ فقال: قد ذكرتُك له فصمت.

فانطلقتُ حتى أتيتُ المنبرَ، فإذا عنده رهطٌ جلوسٌ يبكي بعضهم، فجلستُ عنده قليلاً، ثم غلبني ما أجْدُ، فأتيتُ الغلامَ فقلتُ: استأذنْ لعمر، فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتُك له فصمت.

فخرجتُ فجلستُ إلى المنبر، ثم غلبني ما أجدُ، فأتيتُ الغلام فقلتُ: استأذن لعمر، فدخل، ثم خرج إلي فقال: ذكرتُك له فصمت..

فوليتُ مدبراً، فإذا الغلامُ يدعوني، فقال: ادخل قد أذن لك.

فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئ على رمالٍ حصير، وقد أثر في جنبه، فقلتُ: أطلقتُ يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليّ، وقال: «لا» فقلتُ: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشرَ قريشٍ قوماً نغلبُ النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبتُ على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تنكرُ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهنَّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خابتُ من فعلتُ ذلك منكن وخسرتُ، أفأتمنُّ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ.

فقلتُ: يا رسول الله قد دخلتُ على حفصة فقلت: لا يغرنكِ أن كانت جارتكِ هي أوسم أو أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك. فتبسم أخرى.

فقلت: أستأنسُ يا رسول الله؟ قال: «نعم» فجلستُ فرفعتُ رأسي في البيت، فوالله ما رأيتُ شيئاً في البيت يرُدُّ البصرَ إلا أهبَّ معلقةً، فقلتُ: ادعُ الله يا رسول الله أن يوسِّعَ على أمتك، فقد وسَّعَ على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: «أفي شك أنت يا بن الخطَّاب؟ أولئك قومٌ عَجَلَتْ لهم طيَّابُهم في الحياة الدنيا» [رواه البخاري (٢٤٦٨)].

وقول عمر رضي الله عنه في الحديث: «وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا» يدل على أنَّ آيتي التخيير نزلتا قبل غزوة تبوك، أي: في العام التاسع من الهجرة. وقوله: «أهب» جمع إهاب وهو الجلد الذي لم يدبغ بعد.

● سبب التخيير:

تدل آيتا التخيير نفساهما على سبب نزولهما، إذ كان أزواج النبي ﷺ يشاركنه عليه الصلاة والسلام شدة العيش، وشظف الحياة، التي كان عليه

الصلاة والسلام يحياها، ولما أعزَّ الله نبيه عليه الصلاة والسلام، وأظهر دينه بعد فتح مكة، وكثرت الغنائم، ووسع الله على المسلمين، طلب أزواج النبي ﷺ منه أن يوسَّعَ عليهن في العيش، ولكنه عليه الصلاة والسلام اختار لنفسه ولأزواجه معيشة الكفاف، وبقي محافظاً على معيشته الأولى، التي كان عليها منذ بدأ يدعو إلى الله سبحانه.

وليس اختياره عليه الصلاة والسلام لهذه المعيشة عَجْزاً عن حياة المتاع، فقد عاش عليه الصلاة والسلام حتى دانت أرضُ العرب وأطرافها بالإسلام، وكثرت الغنائم والهدايا والهبات، إنما اختار هذه المعيشة استعلاءً على متاع الدنيا، ورغبة خالصة فيما عند الله، ليكون ذلك علماً من أعلام نبوته، ومؤيداً من مؤيدات صدقه وإخلاصه، فلم تكن دعوته إلا دعوة ربانية خالصة لله سبحانه، مبرأة عن أي حظ من حظوظ الدنيا، ولو كان للنبي ﷺ في دعوته أدنى مطلب دنيوي، لو سَّع في معيشته، واستجاب لطلب أزواجه، ولكنها النبوة في سموها ورفعتها وصفائها.

ولقد كان الأنبياء ﷺ عندما يدعون الناس إلى الله سبحانه، يعلنون للناس في أول الدعوة بصراحة ووضوح، أنهم لا يريدون من هذه الدعوة أجراً مادياً ولا كسباً دنيوياً، إنما يدعون إلى الله ومن الله والله سبحانه:

ولقد قال نوح ﷺ لقومه: ﴿وَيَقْوُوا لَا أَتْلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

وقال هود ﷺ لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧].

وقال صالح ﷺ أيضاً لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥].

ولوط ﷺ قال الكلمة نفسها: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٤].

ونبي الله شعيب ﷺ، قال أيضاً مثل ما قال الأنبياء من قبله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠].

ونبيناً وسيدنا محمد ﷺ، أمره الله سبحانه أن يقول مثل ما قال الأنبياء قبله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٥٧﴾ [الفرقان].

وما أكثر ما أدب الله سبحانه النبي عليه الصلاة والسلام بمثل قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ [الحجر].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَبَاقِي ۝١٣١﴾ وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝ [طه].

أبعد هذا الأدب الرباني الكريم، يمدُّ النبي ﷺ عينيه إلى شيء من متاع الدنيا؟! اللهم لا .

والجدير بالذكر أن الآيات الكريمة التي سبق ذكرها، توجهُ النبي ﷺ توجيهاً كريماً إلى البعد عن فضول العيش وزينة الدنيا، ولا تلزمه بذلك إلزاماً، فليس ثمة مانع شرعي يمنع النبي عليه الصلاة والسلام من التوسُّع في المعيشة، ضمن حدود ما أحل الله سبحانه، وهو القائل: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ [المؤمنون: ٥١].

ولا بد لنا - حتى يظهر لنا سبب مطالبة أمهات المؤمنين النبي ﷺ بأن يوسع عليهن في المعيشة - أن نعرض صوراً من صور المعيشة التي كنَّ عليها معه ﷺ: - أمَّا بيوتهن رضي الله عنهن:

فقد كنَّ يسكنن مع رسول الله ﷺ في حجرات صغيرة، بُنيت من جريد النخل، مستورة أبوابها بمسوح الشعر، مصفوفة تسع حجرات شرقي المسجد وشماله وقبليه، وأبواب الحجرات التسعة شارعة إلى المسجد، قال الحسن البصري رحمه الله: كنتُ أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان، فأتناول سقفها بيدي^(١).

(١) انظر كتاب: عائشة، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

وحينما أمر الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي بهدم الحجرات وضمها إلى المسجد قال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: ليتها تُركت فلم تُهدم، حتى يقتصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله لنيبه عليه السلام، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده^(١).

- وأما أثاث الحجرات:

فقد وصفت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فراش النبي صلى الله عليه وسلم قالت: إنما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه آدمًا حشوه ليف. [رواه مسلم (٢٠٨٢)].

ولما أهدت لها امرأة أنصارية، بعد أن رأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فراشاً حشوه صوف، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فذهبت فأرسلت إليّ بهذا. فقال: «ردّيه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة» [رواه البيهقي].

ولم يكن في حجرة السيدة مصباح تستضيء به، دلّ على ذلك قولها: كنت أنا وم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتهما، قالت: والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح. [رواه البخاري (٥١٣)].

وسبب عدم وجود المصابيح، عدم وجود زيت أو دهن للمصباح، وقد أجابت السيدة عائشة رضي الله عنها من سألها عن ذلك قائلة: لو كان عندنا دهن مصباح لأكلناه. [رواه أحمد (٩٤/٦) والطبراني^(٢)].

- وأما معيشتهم رضي الله عنهم:

فقد وصفتها السيدة عائشة رضي الله عنها لابن أختها عروة فقالت: ابن أختي، إن كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما يوقد في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار. فقال عروة: يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله صلى الله عليه وسلم من ألبانها فيسقينا. [رواه البخاري (٦٤٥٩) ومسلم (٢٩٧٢)].

(١) انظر كتاب: السيدة عائشة، للمؤلف.

(٢) انظر: المرجع السابق، إذا أردت التوسع في هذا الموضوع.

ولما سُئِلْتُ ﷺ: أنهى النبي ﷺ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث؟ قالت: ما فعله إلا في عام جاع الناس فيه، فأراد أن يُطعم الغني الفقير، وإن كنا لنرفعُ الكراعَ فنأكله بعد خمس عشرة. قيل: ما اضطرركم إليه؟ فضحكت وقالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبزٍ بُرٍّ مَادُومٍ ثلاثة أيامٍ حتى لحق بالله. [رواه البخاري (٦٦٨٧)].

ولما توفي رسول الله ﷺ قالت ﷺ: توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلتُ منه حتى طال عليّ، فِكَلْتُهُ ففني. [رواه البخاري (٣٠٩٧)].

ووصفَ خادم النبي عليه الصلاة والسلام أنس بن مالك ﷺ، معيشته عليه الصلاة والسلام فقال: مشيتُ إلى النبي ﷺ بخبزٍ شعير وإهالة سنخة (دهن مذابٍ متغير) ولقد رُهن له درعٌ عند يهودي بعشرين صاعاً من طعامٍ أَخَذَهُ لأهله، ولقد سمعته ذات يوم يقول: «ما أُمسى عند آل محمد صاعٌ من تمرٍ ولا صاع حبٍّ» وإن عنده يومئذٍ لتسع نسوة. [رواه البخاري (٢٠٦٩)].

• الاختيار:

حملت شدة العيش هذه أمهات المؤمنين على أن يسألن رسول الله ﷺ أن يوسع عليهن في النفقة، فغضب عليه الصلاة والسلام منهن، واعتزلهن في مشربةٍ له (غرفة عالية) وأقسم عليه الصلاة والسلام ألا يدخل عليهن شهراً، وفي أثناء ذلك أنزل الله عليه آيتي التخيير، فمكث عليه الصلاة والسلام تسعة وعشرين يوماً، فدخل على السيدة عائشة، فقالت: أليس قد كنت آليتَ شهراً، فعددتُ الأيام تسعاً وعشرين، فقال رسول الله ﷺ: «الشهر تسع وعشرون» أي: هذا الشهر. [رواه مسلم (١٤٧٨)].

قال ابن كثير في تفسير آيتي التخيير: «هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، بأن يخير نساءه، بأن يفارقه فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده، من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى

في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة»^(١).

وروى البخاري [٤٧٨٥]: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخبر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «إني ذاكركُ لكِ أمراً، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرني أبويك» وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله تعالى قال: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ...﴾ إلى تمام الآيتين. فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

وفي رواية: زادت عائشة فقالت: وأسألك ألا تذكر لامرأة من نساءك ما اخترت. فقال ﷺ: «إن الله لم يبعثني معتقاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهنَّ عما اخترت إلا أخبرتها» [رواه مسلم (١٤٧٨) وأحمد (٤٥/٦، ٤٧)]. ومعنى قوله تعالى:

﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُن تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (٢٨)

أي: أعطيكن متعة الطلاق، وأطلقكن طلاقاً لا ضرر فيه.

وبعد اختيارهن - رضي الله تعالى عنهن - الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة، كرمهن الله تبارك وتعالى، وكافأهن على اختيارهن أحسن تكريم وأعظم مكافأة، إذ وصلن بهذا الاختيار إلى مرتبة الإحسان، لقوله تعالى:

﴿وَلِإِن كُنتُن تَرْضَيْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢٩)

وفي ذلك دلالة على أن اختيارهن رسول الله ﷺ، سبب مرضاة الله تعالى والوصول إلى مرتبة الإحسان.

وسوف أتحدث فيما يلي عن ألوان التكريم الإلهي، لهؤلاء السيدات الفضليات.

• تكريم وتاديب:

كرم الله سبحانه أزواج النبي ﷺ - بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة - بتوجيه الخطاب لهن مباشرة في القرآن الكريم، فبعد آية التخيير خاطبهن الله تبارك وتعالى مرتين بقوله الكريم: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي...﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣٢]، بينما كان الخطاب في آيتي التخيير للنبي ﷺ، فقبل الاختيار: ﴿يَأْتِيهَا الَّتِي قُلْ لَا زَوْجَكَ...﴾ وبعد الاختيار: ﴿يَنْسَاءَ الَّتِي...﴾.

أرأيت عظيم فضل الله عليهن، كيف أكرمهن وشرفهن، لأنهن اخترن البقاء مع رسول الله ﷺ؟! فما أكرم رسول الله ﷺ على الله تعالى! وما أعظم مكانته عند الله سبحانه!.

- الخطاب الأول:

﴿يَنْسَاءَ الَّتِي مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحْشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٢١﴾.

لأزواج النبي ﷺ منصبٌ كبير وخطير، إذ هنَّ أمهات المؤمنين، وزوجات خير المرسلين، ويترتبُ على ذلك أنهن رضي الله عنهن يتحملن مسؤوليات جساماً وتبعاتٍ عظيمة، ولهذا تضمَّن النداء الأول من الله تعالى لهن هذا التهديد الخطير، بمضاعفة العذاب ضعفين لمن تأتي منهن بفاحشة مبينة.

والمرادُ من الفاحشة المبينة: النشوز وسوء الخلق، وقال بعضهم: هي الزنى، وحاشا هن رضي الله عنهن عن ذلك، إنما جاء التهديدُ في هذا الخطاب بياناً لخطورة ورفعة المكانة التي أكرمهن الله بها، عندما أصبحن زوجات رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين.

ومهما قيل عن الفاحشة المبينة، فهي شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، مثل قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْطَنَ عَلَيْكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وحاشاه ﷺ عن ذلك. ومن المقرر عند العلماء أن الله ﷻ صان زوجات الأنبياء عن الفاحشة، التي هي الزنى، وقالوا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]: ليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء.

قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتها في الدين. وفي رواية أخرى: قال: خيانتها أنها كانت على غير دينها^(١).

ومضاعفة العذاب إذا أتت بفاحشة مبينة، بسبب ما في الفاحشة المبينة من المفساد، وبسبب إيذاء النبي ﷺ، والإضرار بمنصبه الرفيع، ففي التهديد بمضاعفة العذاب دليل على شرفهن رضي الله عنهن ورفعته مكانتهن، ولهذا كان عقاب الحرة إذا زنت ضعف عقاب الأمة، إظهاراً لشرف الحرة وكرامتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لَلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَّلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ جاء في مقابلة قوله تعالى: ﴿يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ فالعُنفُ بالغرم، ومضاعفة الأجر والثواب منوط بطاعة الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام والعمل الصالح، وليس منوطاً بمنزلتهن العالية، فالتكليف في الإسلام لا يسقط عن أحد أبداً، مهما كانت منزلته رفيعة، وقد سبق وذكرنا أن التكليف تشريفي، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام مكلفاً بالعبادة والطاعة أكثر من سائر المؤمنين، حتى قالوا: إن قيام الليل فرض في حقه عليه الصلاة والسلام، بينما هو سنة في حق غيره، لأنه ﷺ أشرف الخلق وأفضلهم.

إن أمهات المؤمنين إذا أطعن الله ورسوله ﷺ، وعملن العمل الصالح الذي

كلفهن الله به، أكرمهن الله تعالى بمضاعفة الثواب، والرزق الكريم في الجنة، فإنهن رضي الله عنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، وفوق منازل الخلق أجمعين، في الوسيلة التي هي أقرب المنازل إلى العرش العظيم، رضي الله عنهن وأرضاهن.

- الخطاب الثاني:

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٣٢).

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ﴾ بدأ الخطاب الثاني ببيان مكانة أمهات المؤمنين وفضلهن على سائر النساء، لكونهن زوجات النبي ﷺ، فعليهن رضي الله عنهن أن يوفين هذه المكانة حقها، ويقمن بما تفرضه عليهن هذه المكانة الرفيعة التي ليست لأحد غيرهن من سائر نساء العالمين، وفضيلة هذه المكانة لا تتم إلا بالتقوى، ولهذا شرط سبحانه عليهن شرط التقوى، فهن في أعلى المراتب إن اتقين الله سبحانه، وبهذا يظهر فضلهن لا بمجرد اتصالهن برسول الله ﷺ، فالمسألة إذاً ليست مجرد قرابة من النبي ﷺ، بل لا بد من القيام بحق هذه القرابة في ذات أنفسهن وفي سلوكهن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: شرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ.

وقال سيد قطب رحمته الله: «ذلك هو الحق الصارم، الذي يقوم عليه هذا الدين، والذي يقرره رسول الله ﷺ وهو ينادي أهله، ألا يغرم مكانهم من قرابته، فإنه لا يملك لهم من الله شيئاً»^(١).

والحديث الشريف الذي أشار إليه سيد قطب، رواه الإمام مسلم [٢٠٥]:
عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٤) [الشعراء] قام

رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم».

• صوت المرأة:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ ومن التقوى ألا يخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، أي: ألا يكون في نبرات كلامهن ذلك الخضوع اللين، الذي يثير شهوات الرجال، ويحرك غرائزهم، فيطمع فيهن مرضى القلوب. ويدل هذا التحذير على ما في صوت المرأة، حين تليّن كلامها، وترقق صوتهها، وتميّع لهجتها، من إثارة للشهوات، وتهيج للغرائز والنزوات.

وهذا ما جعل كثيراً من الفقهاء يرون أنّ صوت المرأة - إذا كان فيه خضوع في القول وتكسر وتغنّج - فهو عورة، يحرم على المرأة أن تُسمعه الرجال الأجانب عنها.

نقل الفقيه الحنفي ابن عابدين عن أبي العباس القرطبي قوله: ولا يظن من لا فطنة عنده أننا إذا قلنا: صوت المرأة عورة، أنا نريد بذلك كلامها، لأن ذلك ليس بصحيح، فإننا نجيز الكلام مع النساء للأجانب، ومحاورتهن عند الحاجة إلى ذلك، ولا نجيز لهن رفع أصواتهن ولا تمطيطها، ولا تليينها ولا تقطيعها، لما في ذلك من استمالة الرجال إليهن، وتحريك الشهوات منهم، ومن ثم لم يجز أن تؤذن المرأة^(١).

وكذلك لا تلبّي جهراً، ولا تقرأ في الصلاة جهراً، ولهذا منع عليه الصلاة والسلام النساء من التسبيح بالصوت لإعلام الإمام بسهوه إلى التصفيق^(٢).

ففي «صحيح مسلم» [٤٢٢]: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء» وزاد في رواية: «في الصلاة».

وبين الإمام النووي في شرحه «صحيح مسلم» كيفية التصفيق فقال: تضربُ

(١) رد المختار: ٢٧٢/١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

المرأة بطن كفها الأيمن على ظهر كفها الأيسر، ولا تضربُ بطنَ كفٍّ على كفٍّ على وجه اللعب واللهو، فإن فعلت هكذا على وجه اللعب بطلت صلاتها، لمنافاته الصلاة.

وقوله سبحانه: ﴿لَسْتَُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النَّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ يدلُّ على أن المرأة المسلمة، إذا اتقت الله سبحانه، تتميز على سائر النساء بتقواها وخشيتها وطاعتها لربها سبحانه، والخطاب وإن كان لنساء النبي ﷺ، فالنساء المسلمات تبع لهن في ذلك، وكل ما في الخطاب من آدابٍ وأخلاقٍ يهدف إلى إبعاد المرأة المسلمة عن منطقة الخطر، وتجنبها الطرق التي تؤدي بها إلى الوقوع في المعاصي والآثام.

وإنما جاء الخطابُ لنساء النبي ﷺ، لأنهن في مركز القدوة الطيبة والأسوة الحسنة، لما لهن من مكانة في بيت النبوة، فهن أمهات المؤمنين، وعندهن الكثير من الأحكام الشرعية والسنة النبوية التي لا يعلمها غيرهن، وهن معرَّضات للحديث مع الرجال الذين يأتون إلى بيوتهن، يسألونهن عن الوحي والسُّنة، ولهذا أمرهن تعالى أن يكون كلامهن مع الناس جاداً حازماً، لا لغو فيه ولا هزل ولا مزاح، حتى لا يطمع فيهن من في قلبه فسقٌ وفجورٌ، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وكما لا يكون في القول المعروف هزل ولا لغو ولا مزاحٌ، كذلك لا يكون فيه منكر ولا إيذاء.

إنَّ من واجب المرأة المسلمة في هذا العصر أن تتفهَّم أبعاد خطاب الله سبحانه لنساء النبي ﷺ، وأن تعلم أن الله تعالى الذي خلق الرجال والنساء، يعلم ما في صوت المرأة حين تخضع بالقول من إثارة لرغبة الرجال فيها، ويعلم سبحانه أيضاً أنَّ القلوب المريضة التي تثور وتطمع موجودة في كل عهد، وفي كل بيئة، وتجاه كل امرأة، ولو كانت أم المؤمنين وزوجة سيد المرسلين، وأنه لا طهارة من الذنب، ولا تخلص من الرجس، حتى تمتنع الأسبابُ المثيرة من الأساس.

ولقد جاء الخطاب - كما قال سيد قطب رحمه الله - في خير العصور، وفي أظهر

مجتمع عرفه تاريخ البشرية، فكيف بمجتمعنا الحاضر الذي نعيش فيه؟! المجتمع الذي تهيج فيه الفتن، وتثور فيه الشهوات، وترف فيه الأطماع.

كيف بنا في هذا الجو الذي كل شيء فيه يثير الفتنة، ويهيج الشهوة، وينبه الغريزة، ويوقظ السعار الجنسي المحموم؟! النساء فيه يتخشن في نبراتهن، ويتميعن في أصواتهن، ويجمعن كل فتنة الأنثى، وكل هتاف الجنس، وكل سعار الشهوة، ثم يطلقنه في نبرات ونغمات.

إنَّ على المرأة المسلمة أن تضع دائماً في قلبها ووجدانها خطاب الله سبحانه لنساء النبي ﷺ، عندما تتكلم مع الغرباء، سواء كانت في بيتها أو بواسطة الهاتف، أو في السوق، أو في مكان العمل، لتكون حقاً مقتدية بأمهات المؤمنين، وتكون فعلاً ليست كأحد من النساء في مجتمعها وعصرها.

● المرأة والعمل:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٣٣)

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أمرهن الله ﷻ أن يقمن في بيوتهن فلا يخرجن منها إلا للضرورة، فالبيت مملكة المرأة، ولهذا أضاف سبحانه البيوت إليهن، للإشارة إلى هذه الحقيقة فقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

والمرأة لا تشعر بحقيقتها، غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة إلا في بيتها وفي مملكتها، وحتى تتفرغ المرأة لبيتها ورعاية زوجها وأولادها أوجب الله سبحانه النفقة على الزوج، ولم يكلف المرأة بها، حتى يُتاح لها من الجهد والوقت وهُدوء البال ما تشرف به على تربية الأولاد، وتعطي بيت الزوجية عطره وبشاشته ونظافته، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفْسِقْ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الطلاق: ٧].

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «الأمُّ المكدودة بالعمل للكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المستغرقة الطاقة فيه، لا يمكن أن تهب للبيت جوّه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها، وبيوت الموظفين والعاملات ما تزيد على جوّ الفنادق والخانات، وما يشيع فيها من الأرج الذي يشيع في البيت، فحقيقة البيت لا توجد إلا أن توجد فيه امرأة، وأرج البيت لا يفوح إلا أن تطلقه زوجة، وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاه أم، والمرأة أو الزوجة أو الأم التي تقضي وقتها وجهدها وطاقتها الروحية في العمل، لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال و الملل.

وإن خروج المرأة للعمل خارج البيت كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوع بها الناس، وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول، في عصور الانتكاس والشور والضلال»^(١).

إن قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يدل على أن البيت هو الأصل في حياة المرأة، فهو مقرها الذي أمرت أن تقرّ فيه، وخروج المرأة من البيت استثناء طارئ للحاجة والضرورة، قالت عائشة رضي الله عنها: خرجت سودة بنت زمعة ليلاً، فرآها عمر فعرّفها، فقال: إنك يا سودة ما تخفين علينا. فرجعت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له، وهو في حجرتي يتعشى، وإن في يده لعرقا (قطعة عظم عليها شيء من اللحم) فأنزل عليه، فرفع عنه، وهو يقول: «قد أُذِنَ لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ لِحَوَائِجِكُنَّ» [رواه البخاري (٥٢٣٧) ومسلم (٢١٧٠) واللفظ للبخاري].

• تَبَرُّجُ النِّسَاءِ:

وهذا يدل على أن الله سبحانه أباح للنساء أن يخرجن من بيوتهن لقضاء

حوائجهن، إلا أنه سبحانه شرط عليهن أن يخرجن متسترات متعفات غير متبرجات تبرج أهل الجاهلية الأولى، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.

والتبرُّج: التَّكشُّفُ والظهورُ للعيون، ومنه بروجٌ مشيدة، أي: ظاهرة مرتفعة، وبروجُ السماء، لظهورها وارتفاعها، ومنه قولهم: سفينة بارجة، أي: ظاهرة لا غطاء عليها.

فلا يجوز للمرأة أن تظهرَ زينتها، حتى لا يراها الرجال الأجانب عنها، وقد أمرها الله سبحانه بإخفائها، إلا عن زوجها أو الرجال الأقارب منها، الذين يحرمُ عليهم الزواج منها، قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرِّنَّ بَأْرَهُنَّ لِيَعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُؤْتُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فإن أظهرت المرأة شيئاً من زينتها أمام غير هؤلاء الذين ذكروا في الآية السابقة، كانت متبرجة ومخالفة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.

والجاهلية الأولى: هي الجاهلية التي كان عليها الناس قبل الإسلام، ووصف هذه الجاهلية بصفة الأولى فيه إشارة إلى جاهلية أخرى ستحدث بعد الإسلام، قال الشوكاني في «تفسيره»: «يمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع في الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى: ولا تبرجن أيتها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتم عليها، وكان عليها من قبلكن، أي: لا تحدثن بأقوالكن وأفعالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل»^(١).

وقد ذكر المفسرون صوراً لتبرج النساء في الجاهلية الأولى، تبدو محتشمة وساذجة حين تقاس بتبرج النساء في عصرنا هذا، في جاهليتنا الحاضرة.

قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: كان لهن مشية تكسر وتغنج، فهى الله تعالى عن ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: التبرج أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده

ليواري قلائدها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج.

وقال ابن كثير: كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه

شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة أذنها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن.

هذه صور من صور التبرج في الجاهلية الأولى، التي حرّمها الله ونهى عنها،

فأين منها صور التبرج في عصرنا الحاضر، صور النساء الكاسيات العاريات، المائلات المُميلات، الكاشفات عن كل مواضع الفتنة في أجسادهن؟! .

ولقد تحدث النبي ﷺ عن صور التبرج هذه التي ستحدث بعده، ووصفها

ﷺ كأنه رآها رأي عين، ممّا جعل هذا الحديث من أعلام نبوته عليه الصلاة

والسلام، فقال ﷺ: «صَفَّانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ

الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ

كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ (الإبل) المائلة لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها

ليوجدن من مسيرة كذا وكذا» [رواه مسلم (٢١٢٨)].

ومهما تكلمنا - نحن أبناء هذا العصر - في وصف تبرج نساء عصرنا، فلن

نبلغ مبلغ وصف رسول الله ﷺ، الذي آتاه الله جوامع الكلم، وأعلمه الله تبارك

وتعالى عما يحدث بعده من أحداث وفتن حتى قيام الساعة.

إنّ من أوجب واجبات المرأة المسلمة عندما تخرج من بيتها لحوائجها، أن

تتميز عن سائر النساء بمظهرها وعفتها، بملابسها السابغة الساترة لها عن أعين

الفسّاق والفسّاجر، وما أكثرهم في هذا العصر، كما سيأتي عند قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَفِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْنَ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ ذَلِكَ أَذَى أَنْ يُعْرِفَنَّ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

• صلاة المرأة في المسجد:

الصلاة في المسجد من الحوائج الشرعية، يجوز للمرأة الخروج من بيتها لأجلها، بشرط أن تخرج غير متطيبة ولا متزينة، قال عليه الصلاة والسلام: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجنَ وهُنَّ ثَفَالَتٌ» [رواه مسلم (٤٤٢)] أي: غير متطيبات، لأن للرائحة الطيبة من المرأة تأثيراً كبيراً على الرجال.

روي: أن امرأة خرجت على عهد عمر رضي الله عنه متطيبة، فوجد ريحها، فعلاها بالدرة ثم قال: تخرجنَ متطيبات فيجد الرجال ريحكن، وإنما قلوب الرجال عند أنوفهم، اخرجن ثَفَالَتٍ. [رواه عبد الرزاق].

وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسّ طيباً» [رواه مسلم (٤٤٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا العشاء الآخرة» [رواه مسلم (٤٤٤)].

والأفضل للمرأة الصلاة في بيتها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون برؤوحه ربها (رحمة ربها) وهي في قعر بيتها» [رواه الطبراني في الأوسط].

ولما شاهدت عائشة رضي الله عنها ما استحدث النساء بعد رسول الله ﷺ من الزينة والطيب وحسن الثياب، قالت: لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء، لمنعهن المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل. [رواه مسلم (٤٤٥)].

تُرى لو أدركت رضي الله عنها عصرنا الحاضر، ورأت ما قدمت الحضارة الحديثة للنساء من أنواع الزينة والطيب وأشكال الثياب، ورأت تبرج النساء، ماذا كانت قائلة؟! .

ثم قال تعالى:

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: بعد أن نهى الله سبحانه

أُمّهات المؤمنين رضي الله عنهن عن الشر وأسبابه، أمرهن جل وعلا بالخير وأسبابه، أمرهن بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده، وإيتاء الزكاة، وفيها إحسان إلى المخلوقين، ثم أمرهن بطاعة الله ورسوله ﷺ طاعة كاملة مطلقة، ليبين لهن أن التكليف ليس محصوراً في الصلاة والزكاة فقط، بل عليهن طاعة الله ورسوله ﷺ في كل أمر من أمور الحياة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ من قبيل عطف العام على الخاص، لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة طاعة لله ورسوله ﷺ، وجاء ذكرهما أولاً على وجه الخصوص، لأهميتهما ومكانتهما الكبيرة في الإسلام، إذ هما أهم العبادات البدنية والمالية.

ولا شك أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أعظم وسائل تربية النفس وتهذيبها وتزكيتها وتطهيرها، وقد جاءت هذه الأوامر الثلاثة في ختام الخطاب الثاني لنساء النبي ﷺ، ليربط الله سبحانه قلوب أمهات المؤمنين بذكره وعبادته، ويرفع أبصارهن إلى الأفق الوضيء الذي يستمدون منه النور والعون، حتى يستطيعوا القيام بأعباء المكانة الكبيرة التي بوأهن الله إياها، في بيت النبوة الكريم ومقام الأمومة العظيم، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

● أهل البيت:

كل هذه التوجيهات الكريمة التي سبق ذكرها، من أجل طهارة ورفعة أهل البيت، ولا شك أن البيت المراد من الآية الكريمة هو بيت رسول الله ﷺ، وجاء ذكره في الآية من دون وصف ولا إضافة، تكريماً وتشريفاً لرسول الله ﷺ، كأن بيته عليه الصلاة والسلام هو البيت الواحد في هذا العالم، المستحق لهذه الصفة.

وقد جاء ذكر أهل البيت أيضاً في سورة هود، في قوله تعالى وهو يتحدث عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ

أَنْ جَاءَ يَعْجَلُ حَنِيدٌ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْتِلَيْنِي إِلَهُدَّ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أُنَعِّجِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ .

وهذا يدل على أن المراد من أهل البيت، أهل بيت النبوة، الذي تمتد شجرته الكريمة عبر أعماق الزمان، من عهد والد الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ.

ولقد شرف الله سبحانه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وأكرمهن بالانتماء إلى هذا البيت الكريم، عندما تشرفن بالزواج من النبي ﷺ، فالآية نزلت بسببهن، والخطابُ موجهٌ إليهن، وهذا نصٌّ في دخولهن في أهل البيت، لأنهن سبب نزول الآية، وسبب النزول داخلٌ فيها قولاً واحداً، كما قال ابن كثير رحمه الله.

وليس المراد أنهن فقط دون غيرهن أهل البيت، فقد روى مسلم [٢٤٢٤]: عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مرطٌ مُرَحَّلٌ من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ .

● مهبط الوحي:

وختم الله سبحانه الخطاب الثاني لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن بقوله الكريم:

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ .

أي: اعلمن بما ينزل الله على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة، واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس.

وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها أولاهن بهذه النعمة، فإنه لم ينزل على

رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه^(١).

والحديث الذي أشار إليه ابن كثير، روته السيدة عائشة فقالت: كان الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة، فاجتمع صواحيبي إلى أم سلمة فقلن: يا أم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريد عائشة، فمُرِّي رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه ما كان أو حيث ما دار، قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ. قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليّ ذكرت ذلك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: «يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها» [رواه البخاري (٣٧٧٥)].

ولهذا كانت بيوتهن رضي الله عنهن مهابط للوحي، لأن النبي ﷺ كان يدور عليهن، ويقسم لهن، وظلت هذه البيوت مهابط الوحي و منائر الهدى مدى حياته عليه الصلاة والسلام، فلما انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، أصبحت هذه البيوت مثابة للناس، يقصدونها من سائر البلاد، متعلمين مستفتين، أو ملتجئين مستغيثين، فكانت تهدي الحائر، وتعلّم الجاهل، وتحمي الملتجئ، وتنجد المستغيث.

وهذا من حكمة الله سبحانه ولطفه ورحمته بهذه الأمة، أن جعل بيوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن مدارس لنشر العلم والسنة، بقي فيها من أزواج صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام من تعيد سيرته، وتذكر الناس بسنته، على مدى خمسين عاماً بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، كأنّ الوحي لم ينقطع، وكأنّ الناس من أنواره في شمس لا يلمّ بها أفول.

وهذا من حكم وفوائد تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فقد كان لهن رضي الله عنهن دور كبير في حفظ السنة، وتعليمها للناس، ومن أراد التوسع في هذا

الموضوع فليقرأ كتابي عن «السيدة عائشة رضي الله عنها»، أم المؤمنين وعالمة نساء المسلمين»^(١).

• المساواة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء:

ويبدو أن إنزال هذه الآيات الكريمات في أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، جعل بعض نساء المؤمنين يتشوفن إلى أن ينزل الله تعالى فيهن أيضاً قرآناً يُتلى، فعن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن: قد ذكركن الله في القرآن، ولم نذكر بشيء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...﴾^(٢).

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ أي: إن المستسلمين لله تعالى والمستسلمات.

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ والمصدقين بوجوده تعالى ورسالاته والمصدقات.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ والطائعين والطائعات.

﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ والمخلصين في عبادتهم والمخلصات.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ والصابرين على عبادته وطاعته والصابرات.

﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ والمتواضعين لله تعالى والمتواضعات.

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ والمؤدِّين حقوق الله في أموالهم والمؤدِّيات.

﴿وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ﴾ كما شرع سبحانه وفرض.

(١) المطبوع ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدرها دار القلم بدمشق.

(٢) تفسير الطبري: ٨/٢٢.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أي: عن الفجور والفواحش.

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ فلا يغفلون عنه تعالى ﷻ.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: أعد لهم مغفرة لذنوبهم، وأجرًا

عظيمًا في الجنة بفضلِهِ ورحمته.

هكذا أظهرت الآية المساواة التامة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء، وبينت أيضاً أنَّ الفضائل والآداب، التي أدب الله بها أزواج النبي ﷺ، والمكانة الرفيعة التي أكرمهن الله بها، يمكن لعموم المسلمات أن ينلن مثلها، إذا ما تأسَّين بأمّهات المؤمنين، واقتدين بهن، فطريق الفضائل والمكارم مفتوح للجميع في الشريعة الإسلامية.

• زيد وزينب:

عادت الآيات إلى أزواج النبي ﷺ، لتتحدث عن زواجه عليه الصلاة والسلام من أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله عنها، فبينت كيف شَرَّفَ الله النبي ﷺ، وسخَّرَ حياته الخاصة لرفع صرح المجتمع الإسلامي الجديد، وهدم العادات والأعراف الجاهلية السائدة في المجتمع العربي.

وقد سبق أن مهدت الآيات في صدر السورة لهذا الموضوع، عندما حرمت أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه.

خطب رسول الله ﷺ السيدة زينب بنت حجش الأسدية - بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب - لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فاستنكفت عنه وقالت: أنا خيرٌ منه حَسَبًا، فأنزل الله قوله الكريم:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي:

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اختيار، على ما أمر الله به ورسوله ﷺ، فالنبي ﷺ

أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وما يختاره لهم مقدّم على ما يختارونه لأنفسهم، فليس لأيّ مؤمن أو مؤمنة اختياراً فيما أمر الله به، وفيما أمر به رسوله عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ أي: فقد أخطأ خطأً واضحاً، فمخالفة أمر الله تعالى أو أمر رسوله ﷺ، معصية وضلال.

ولما نزلت هذه الآية رضيّت زينبُ يزيدٍ، فتزوجته، وعاشت معه قرابة سنة أو أكثر، إلا أنها كانت تدلّ عليه بحسبها، وكان زيدٌ يشكوها إلى النبي ﷺ فيقول ﷺ له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ» ويخفي عليه الصلاة والسلام في نفسه ما أخبره تعالى به، أنها ستكون زوجة له:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكُنِيَ لَكَ يَوْمَئِذٍ ضَرِيحٌ لِلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: واذكر إذ تقول لزيد، الذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام، وأنعمت عليه بحسن التربية والإعتاق: أمسك عليك زوجك، واتق الله في أمرها، ولا تطلقها.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: وتخفي في نفسك أنها ستكون زوجتك، والله منجزٌ هذا الأمر ومظهره.

فإن قيل: كيف يأمره بالتمسك بها، وقد علم أنّ الفراق لا بدّ منه؟ وهذا تناقض.

قلنا: بل هو صحيح للمقاصد الصحيحة، لإقامة الحجة، ومعرفة العاقبة،

ألا ترى أن الله تعالى يأمرُ العبدَ بالإيمان، وقد علم أنه لا يؤمن، فليس في مخالفة متعلق الأمرٍ لمتعلق العلم ما يمنع من الأمر به عقلاً وحكماً^(١).

فالذي أخفاه في نفسه رسول الله ﷺ هو ما أعلمه الله تعالى أنها ستكون زوجة له، قال ابن حجر رحمه الله: «أخرج ابنُ أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي، فساقها سياقاً واضحاً حسناً، ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجه زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ، ثم أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ بعد أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمره بطلاقها.

وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسه عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيدا.

وعنده من طريق علي بن زيد، عن علي بن الحسين بن علي قال: أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه، قبل أن يتزوجها.

وعقَّب ابن حجر على هذا فقال: ووردت آثارٌ أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري، ونقلها كثيرٌ من المفسرين، لا ينبغي التشاغلُ بها، والذي أوردته منها هو المعتمد، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمرٍ لا يبلغ في الإبطال منه، وهو تزوجُ امرأة الذي يدعى ابناً، ووقوع ذلك من إمام المسلمين، ليكون أدعى لقبولهم^(٢).

﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ أي: وتخاف لوم الناس وتعييرهم إياك أنك تزوجت زوجة ولدك بالتبني، والله أحق أن تخشاه.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ لم يُردَّ به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق، فإنه

(١) تفسير القرطبي: ١٤/١٩١.

(٢) فتح الباري: ٨/٥٢٤.

عليه الصلاة والسلام قد قال: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له» ولكنه لما ذكر الخشية من الناس، ذكر أن الله أحقُّ بالخشية، في عموم الأحوال، وفي جميع الأشياء^(١).

وما ذكره بعضُ المفسرين أنه (عليه الصلاة والسلام) طلب زيدا في داره، فلم يجده، ورأى زينب حاسرة فأعجبته، وأنه أخفى في نفسه حبها، وإرادة تطليق زيدا لها) غير صحيح، وذكر من دون سند، إلا ما رواه الطبري في هذا، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد ضعفه أحمد والدارقطني^(٢).

وهذا إقدام عظيم من قائله، وقلة معرفة بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجن منه ﷺ، وهو زوجها لزيد، فلا يشكُّ في تنزيه النبي ﷺ عن أن يأمر زيدا بإمساكها، وهو يحبُّ تطليقَها إياها، كما ذكر عن جماعة من المفسرين^{(٣)(٤)}.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ أي: لما قضى زيد منها حاجته، ولم يبق له فيها رغبة وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناها، فالله ﷻ هو الذي زوجها من رسول الله ﷺ من دون ولي ولا شهود.

فعن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك» قال أنس: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه، وكانت زينب تفخر على أزواج رسول الله ﷺ تقول: زوّجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات. [رواه البخاري (٥١٢٠)].

وبيّن تعالى الحكمة من ذلك فقال:

﴿لَئِنْ لَا يَكُونْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي:

(١) تفسير الخازن: ١٢١/٥.

(٢) المغني في الضعفاء، للذهبي: ٥٣٧/١.

(٣) تفسير الخازن: ١٢٠/٥.

(٤) انظر كتاب: مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش - دراسة تحليلية، للدكتور زاهر عواض الألمعي.

زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين إثمٌ وضيقٌ إذا تزوجوا زوجات أدعيائهم بالتبني، بعد طلاقهن وانقضاء عدتهن، بخلاف زوجة الولد الصلبي، فإنها لا تحل لأبيه أبداً، لقوله تعالى في آية المحرمات: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كان قضاء الله نافذاً وكائناً لا محالة.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: فيما قسم له أو قدر له من النساء، أو أباح له من الزواج وغيره.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وذلك سنة من سننه تعالى في السابقين من الأنبياء والمرسلين، وقد كان لهم أزواجٌ وسرائرٌ، حتى كان لداود مئة امرأة، ولسليمان ثلاثمئة^(١).

ويؤكد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: وكان أمر الله فيما قدر وحكم قضاء مبرماً لا يعترض عليه.

• خاتم النبيين والمرسلين:

ثم أثنى تعالى على أنبيائه ورسله عموماً، مبيّناً مكانته عليه الصلاة والسلام بينهم، وأنه خاتمهم فلا نبي بعده:

﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

﴿الَّذِينَ يُلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: الأنبياء والمرسلون

هم الذين يبلغون رسالات الله التي كُلِّفُوا بها، ويعظمونه ولا يعظمون غيره.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: حافظاً لأعمال عباده، ومحاسباً عليها، فهو وحده الجدير أن يُخشى ويُعظم.

ولما قال بعضهم: تزوج محمد امرأة ابنه، ردَّ الله تعالى عليهم بقوله الكريم:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: ما كان محمدٌ أباً أحد من رجالكم حتى تحرم عليه امرأته، وأخرج قوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أبناءه عليه الصلاة والسلام، فقد ماتوا صغاراً، كالقاسم والطيب وإبراهيم.

﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: ولكن أكرمه الله تعالى بحمل الرسالة، وختم به النبوة، فلا ينبأ أحدٌ بعده، وعيسى عليه السلام نبي قبله، وينزل بعده حكماً مقسطاً على شريعته عليه الصلاة والسلام، فرسالته عليه الصلاة والسلام خاتمة الرسالات، أرسله بها إلى كل الأجيال والأمم حتى قيام الساعة.

قال ابن كثير: «فهذه الآية نصٌّ أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى، لأن مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوة، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِن قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْبُدُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبْنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبْنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» [رواه البخاري (٣٥٣٥)].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا

محمَّد، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشر الناسُ على قدمي، وأنا العاقِبُ» [رواه البخاري (٣٥٢٢)].

وزاد في رواية عند مسلم [٢٣٥٤]: «الذي ليس بعده نبي».

وقوله: «أنا الحاشِر الذي يحشر الناس على قدمي» يحتمل أن يكون المراد بالقدم الزمان، إشارة إلى أنه ليس بعده نبي ولا شريعة^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الرسالة والنُّبُوَّةَ قد انقطعتُ فلا رسولٌ بعدي ولا نبيٌّ» [رواه أحمد (٢٦٧/٣) والترمذي (٢٢٧٢) وقال: حسن صحيح]. فكلُّ من ادَّعى هذا المقام بعده فهو كذاب أَفَّاكَ دَجَّالٌ ضالٌّ مضلٌّ^(٢).

وقد قامت عقيدة ختم النبوة بحراسة هذا الدين من كذب الدجالين وافتراءاتهم وبدعهم وفتنهم، ولولا عقيدة ختم النبوة لفقد الإنسان ثقته بنفسه، وبقي في ريب دائم، يشخص ببصره إلى السماء ينتظر وحياً جديداً، وبهذا يقعُ فريسة المتنبئين من الدجَّالين، ولهذا كان أخطر شيء في ادِّعاءات المرزا غلام أحمد القادياني محاولة نقض عقيدة ختم النبوة وهدمها، وإشاعة الفوضى والبلبلة في الفكر الإسلامي.

وقد أكد النبي ﷺ أنه لا نبي بعده ولا نبوة، في مناسبات متعددة، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خَلَّفَ رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي».

وفي رواية: «إلا أنه لا نبوة بعدي» [رواه مسلم (٢٤٠٤)].

وقد أدرك الصحابة هذه الحقيقة، وعرفوا عمق المصيبة التي حلت بهم عندما توفي النبي ﷺ، بفوفاته انقطع الوحي، ولن ينزل على أحدٍ بعده أبداً، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه:

(١) فتح الباري: ٥٥٧/٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٠٠/٣.

انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ، فقالت: ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها. [رواه مسلم (٢٤٥٤)].

لقد توفي النبي ﷺ، وختمت النبوات والرسالات، وانقطع الوحي من السماء، فحُرست بذلك الشريعة الإسلامية من دجل الدجالين، وعبث العابثين من أدعياء النبوة، الذين أخبر النبي ﷺ عنهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يقتل فتان، فيكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، ولا تقوم الساعة حتى يُبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله» [رواه البخاري (٣٦٠٩)].

فلا عجب ولا غرابة بعد ذلك أن يسعى الدجالون من أمثال غلام أحمد القادياني، للتسلق وراء هذه النصوص، ومحاولة نقض ختم النبوة، التي حرس الله بها دينه، وخلد شريعته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ وقد علم سبحانه أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ ولا رسول، وأن رسالته عامة باقية إلى قيام الساعة، ولهذا أعلن في التنزيل الحكيم أنه خاتم النبيين.

• الإكثار من ذكر الله وتسبيحه:

ألقي ختم النبوة برسالة الإسلام على المسلمين أعباء ثقيلة جسيمة؛ إن عليهم أن يقوموا بحمل هذه الرسالة والمحافظة عليها، وإيصالها إلى الأجيال البشرية المتتابة، وخير معين لهم على هذه الأعباء، الإكثار من ذكره تعالى، والإقبال على طاعته وعبادته، وهو مضمون الخطاب التالي للمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

أي: اذكروه في كل الأحوال والأوقات، ولا تغفلوا عنه، فإنه تعالى

يذكركم إذا ذكرتموه، ويمدكم بمعونته وتأييده، كما قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال ابن عباس: لم يفرض الله ﷻ على عباده فريضة، إلا جعل لها حداً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإنه لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه^(١).

﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾

أي: نزهوه وقدسوه في الصباح والمساء، فإذا ذكرتموه يجب أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتتزيه.

ويشير ذكر الصباح والمساء إلى المداومة على ذكره وتسبيحه في جميع الأوقات، ويجوز أن يراد بالذكر وإكثاره تكثير الطاعات والعبادات، فإنها من جملة الذكر.

ورأى بعضهم أن في ذكر الصباح والمساء إشارة إلى صلاة الفجر وصلاة العصر، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ نُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي: هو الذي يرحمكم، وملائكته تستغفر لكم وتدعو لكم.

وهذا حث وتهييج لهم على الإكثار من ذكره وعبادته، فكأنه تعالى يقول لهم: هو يرحمكم، وملائكته تستغفر لكم، وأنتم غافلون عنه.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: وبسبب رحمته لكم يخرجكم من ظلمات الكفر والجهل والضلال، إلى نور الإيمان وهدايته.

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: كان سبحانه ولا يزال رحيمًا بالمؤمنين.

وهذا يدل على أن المراد من الصلاة الرحمة، وأن رحمته تعالى بعباده المؤمنين عامة غير مخصوصة بالمؤمنين وقت الوحي، بل هي عامة لجميع المسلمين^(١).

ورحمته العظمى للمؤمنين يوم القيامة:

﴿تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

﴿تَحِيَّاتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أي: تحية المؤمنين يوم يلقونه تعالى سلامٌ يتفضل به عليهم، كما في قوله سبحانه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي: وأعد لهم في الجنة أجرًا كريمًا، سالمًا عن كل مكروه.

والجدير بالذكر أنه تعالى تفضل بالسلام على أم المؤمنين، السيدة خديجة عليها السلام، في الدنيا، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب - الشك من الراوي - فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشّرها ببيت في الجنة من قصبٍ، لا صخب فيه ولا نصب. [رواه البخاري (٣٨٢٠)].

زاد الطبراني في الرواية المذكورة: فقالت: هو السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

والنسائي من حديث أنس قال: قال جبريل لرسول الله ﷺ: إن الله يُقرئ خديجة السلام، فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته^(٢).

(١) تفسير الخازن: ١٢٥/٥.

(٢) فتح الباري: ١٣٥/٧.

• مهمة النبي ﷺ وأثرها:

ورجعت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تبين له طبيعة المهمة التي شرفه الله تعالى بها، وما فيها من خير وصلاح للمؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٤٥﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي: أرسلناك بعظمتنا شاهداً على من بُعثت إليهم، تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم، وتشهد عليهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا يدل على أن الله تعالى أكرم نبيه ﷺ بمقام الشهادة على أمته، وأكرم أيضاً أمته بهذا المقام، ليشهدوا على غيرهم من الأمم، قال سبحانه: ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُدْعَى نوحُ يومَ القيامةِ، فيقولُ: لبيك وسعديك يا ربُّ، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أئانا نذيرٌ، فيقول: مَنْ يشهدُ لك؟ فيقول: محمَّدٌ وأمته، فيشهدون أنَّه قد بلغَ، ويكون الرسولُ عليكم شهيداً» [رواه البخاري (٤٤٨٧)].

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: وأرسلناك مبشراً، تبشر المؤمنين بفضل الله تعالى عليهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يتفضل عليهم سبحانه بالنصر والتمكين، إن تمسكوا بدينهم وأحكام شريعتهم، وفي الآخرة يتفضل عليهم بالمغفرة والرضوان ودخول الجنة.

﴿وَكَذِبًا﴾ أي: وأرسلناك نذيراً، تنذر المعرضين عن دعوتك بغضب الله تعالى وعذابه.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦).

﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: وأرسلناك داعياً إلى الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته، وإلى عبادته وطاعته، بتيسيره سبحانه وتوفيقه، أو بأمره.

وهذه شهادة من الله تعالى رفيعة، تدل على إخلاصه عليه الصلاة والسلام في دعوته، فهي دعوة خالصة لله تعالى، منه وإليه، وهي دعوة أيضاً إلى دار جنته ورضوانه، فلا بد أن تكون بإذن رب الدار.

وتدل الآية على أن الداعي إلى الله سبحانه هو الذي يدعو إلى الله لا إلى نفسه، ويجمع الناس على الله سبحانه، لا على نفسه، فلا يتأثر بكثرة الناس حوله أو قلتهم، لأن قلبه مع الله، لا مع الناس ولا مع نفسه.

﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي: وأرسلناك سراجاً منيراً، تنير طريق الحق، وتبين الحجج والبراهين.

وقد جلا الله تعالى به ظلمات الشرك، واهتدى بهديه الضالون.

وجاء التشبيه بالسراج المنير لا بالشمس، مع أنها أشد إضاءة من السراج، لأن الشمس تغيب في الليل ويذهب نورها، وذلك في جزء من الأرض أما أنواره عليه الصلاة والسلام فلا تغيب.

وقد جمع الله تعالى للنبي ﷺ النور المعنوي والنور الحسي، فنور هدايته عليه الصلاة والسلام أضاء العالمين، وهو النور المعنوي، ونور جماله أجمع عليه كل من رآه وتشرف بالنظر إليه، عليه الصلاة والسلام، قال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه. [رواه الترمذي في الشمائل (١١٧)].

وقال هند بن أبي هالة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلأأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر. [رواه الترمذي في الشمائل (٣٣٤)].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ فِيهَا كُلُّ شَيْءٍ. [رواه أحمد (٢٢١١٣) والترمذي في الشمائل (٣٨٠)].

إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَشَرٌ كَسَائِرِ الْبَشَرِ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ اصْطَفَاهُ وَنَوَّرَهُ خَلْقًا وَخُلُقًا، وَنَوَّرَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ الْعَالَمِينَ.

أما القول بأنه عليه الصلاة والسلام خُلِقَ مِنْ نُورٍ فَغَيْرُ صَحِيحٍ، وَيتنافى مع النصوص القطعية في القرآن الكريم والسُّنَّةُ الشريفة.

﴿وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

وهذا تحقيق لصفة البشارة. ثم قال تعالى له في مواجهة أهل النذارة:

﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾ أي: لا تبالِ بجحودهم وعنادهم وإيذائهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: توكل على الله تعالى فإنه يكفيك، وكفى به حافظاً وناصرًا ومعيناً.

• أحكام خاصة للنبي ﷺ مع أزواجه:

وللنبي ﷺ في تعامله مع أزواجه أحكام خاصة، خصَّه الله تعالى بها، بينها سبحانه في الآيات التالية، ومهَّد لها بيان بعض الأحكام العامة التي كلَّف بها المؤمنين:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعَذُّوهُنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ

عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْدُونَهَا ﴿٥٠﴾ أي: إذا تزوجتم النساء ثم طلقتموهن قبل الدخول بهن، فما لكم عليهن من عدة تستوفون عددها.

والعدة: هي المدة التي تبقى المرأة المطلقة فيها من دون زواج بعد طلاقها، وقد ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُؤْتِيْنَهُنَّ أَهْلُ بَرِيْهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: أعطوهن المتعة، وهي شيء من المال يقدمه المطلق للمرأة، إذا لم يسم لها مهرًا، أما إذا سمى لها مهرًا، فستحق في هذه الحالة نصفه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وعليهم بعد ذلك أن يخلوا سبيلهن بالمعروف، من غير إضرار ولا أذى، ففي الآية إرشاد إلى الأخلاق الكريمة، التي ينبغي أن تعامل بها المرأة المطلقة.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥١﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجْرَهُنَّ﴾ أي: مهورهن.

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأحللنا لك أيضاً الجواري

المملوكات مما فتح الله عليك.

﴿وَبَنَاتِ عَمَتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي:

وأحللنا لك النساء القرشيات، اللاتي هاجرن إلى المدينة المنورة.

﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأحللنا لك امرأة مؤمنة، وهبت نفسها للنبي ﷺ، ليتزوجها من غير مهر، فتتال بذلك شرف الزواج منه عليه الصلاة والسلام، وهو حكم خاص به عليه الصلاة والسلام دون سائر المؤمنين.

وهذا ما أرادت الآية إبرازه، فللنبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من النساء المذكورات ما شاء، بمهر أو بغير مهر، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين، من حقوق لأزواجهم وإمائهم، وقد فرض الله على المؤمنين من شروط العقد وحقوقه، ما لم يفرض عليه ﷺ، تكرمة له وتوسعة عليه.

واللواتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثيرات، ومع ذلك ما تزوج ﷺ منهن، قال ابن عباس: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له. [أخرجه الطبري بإسناد حسن]^(١).

وكذلك أكرمه الله تعالى أيضاً في معاملته لأزواجه، فلم يوجب عليه أن يقسم بينهن كما أوجب على غيره، فقال سبحانه:

﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَاءٍ مِّنْهُنَّ وَتُقْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَّشَاءٍ وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَبْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١﴾.

﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَّشَاءٍ مِّنْهُنَّ وَتُقْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَّشَاءٍ﴾ أي: تؤخر من تشاء من أزواجك، وتترك مضاجعتها، وتضم إليك من تشاء منهن، من غير التفاتٍ إلى نوبةٍ وقسم. ﴿وَمِنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: وإذا أردت أن ترجع إلى مضاجعة من عزلت من أزواجك، فلا حرج عليك في ذلك، والأمر مفوضٌ إلى مشيئتك.

﴿ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَخْزِبَكَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتكَ، أقرب إلى قرة عيونهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً، لأنه حكم من الله تعالى، فتطمئن به نفوسهن، ويذهب التنافس والغيرة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي: والله يعلم ما في الضمائر والخواطر، فاجتهدوا في دفع الخواطر والأفكار السيئة.

ودلت الآية على أن الله تعالى ما كلّف النبي ﷺ أن يقسم بين أزواجه، ومع ذلك كان يقسم بينهن تطوعاً، حتى إنه كان - كما قالت السيدة عائشة - يستأذن في يوم المرأة منا، بعد أن أنزلت هذه الآية: ﴿تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوَىٰ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [رواه البخاري (٤٩٨٩)].

وروي عنها: أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» [رواه أبو داود (٢١٣٤) والنسائي (٦٣/٧) والترمذي (١١٤٠) وابن ماجه (١٩٧١)].

وقوله هذا دليل على عظيم خشيته عليه الصلاة والسلام لله تعالى، ويمكن أن يكون قد قال هذا قبل نزول هذه الآية عليه.

• حرمة أزواج النبي ﷺ وبيوته:

ومن تكريم الله لأمهات المؤمنين، بعد أن اخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة، أنه قصر النبي ﷺ عليهن، وحرّم عليه أن يتزوج غيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، فقال:

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي: من بعد أمهات المؤمنين التسع، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مَنْ أَزْوَاجَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ وذلك بأن تطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى، ولو أعجبك حسنهما.

وفي هذا دليل على أن نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج تسع، كما أن الأربع نصاب أمته^(١).

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: من الإماء، وهذا استثناء من النساء، لأنه لفظ يتناول الحرائر والإماء، فله عليه الصلاة والسلام أن يتسرّى بمن يشاء من الإماء، ومع ذلك ما صح أنه عليه الصلاة والسلام تسرّى إلا بمارية القبطية، التي أهداها له ملك مصر.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾.

والجدير بالذكر أن بعضهم يرى أن المراد من قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدِ﴾ أنه لا يحل له أن يتزوج من أصناف النساء اللواتي لم يذكرن في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿يَأْتِيهَا النَّيْءُ إِنَّا أَلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَاتَتْ أَجُورَهُنَّ...﴾ [الأحزاب: ٥٠] وينسب هذا الرأي إلى أبي بن كعب ومن وافقه، أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات «المسند»، وإلى الثاني ذهب ابن عباس ومن وافقه، وأن ذلك وقع مجازاة لهن على اختيارهن إياه^(٢).

ثم أثبتت الآيات لبيوت النبي ﷺ حرمة مخصوصة، وشرعت أحكاماً تنظم دخول الناس إليها وجلوّسهم فيها، وقد كانت قبل هذه الآية مثابة للناس، وخاصة أصحاب الحاجات والجائعين:

(١) تفسير النسفي: ١٣١/٥. عن عائشة رضي الله عنها أنه «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء» رواه الترمذي (٣٢١٦) والنسائي (٥٦/٦) وأحمد (١٨٦/٦) وله شاهد عند ابن أبي حاتم من حديث أم سلمة (ن).

(٢) فتح الباري: ٥٢٦/٨.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ
إِنَّهُ وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْئِلِينَ لِخَبَرٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ
يُؤْذَى النَّبِيِّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ
وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا
أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ
إِنَّهُ﴾ أي: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ من دون إذن، وإن أذن لكم بالدخول إلى
طعام، فلا تدخلوا قبل نضج الطعام، وتمكثوا فيها تنتظرون نضجه .
وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه، أن ييكر من شاء إلى دار
الدعوة، ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا انتهوا منه جلسوا كذلك، فهي
الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين^(١) .
﴿وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أي: إذا أكلتم فاخرجوا من
البيت وتفرقوا .

﴿وَلَا مُسْتَسْئِلِينَ لِخَبَرٍ﴾ أي: ولا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضهم بخبر بعض .
﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيِّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ أي: إن جلوسكم في بيت
النبي ﷺ يؤذيه، ويضيق عليه وعلى أهله، وهو عليه الصلاة والسلام يستحيي من
إخراجكم، إذ كان أشد الناس حياءً، فلا يحملنكم شدة حياته على الإثقال عليه .
﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ﴾ أي: إن إخراجكم حق لا ينبغي أن يُستحيا منه،
ولهذا أمركم الله بالخروج .

وفي الآية تأديبٌ للثقلاء، والواجب على الضيف ألا يجعل نفسه ثقيلاً، بل
عليه أن يخفف الجلوس .

وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية فقال: أولم رسول الله

ﷺ حين بنى بزینب بنت جحش، فأشبع الناس خبزاً ولحماً، ثم خرج إلى حُجْر أمهات المؤمنين، كما كان يصنع صبيحة بنائه، فيسلم عليهنَّ ويدعو لهن، ويسلمن عليه، ويدعون له، فلما رجع إلى بيته، رأى رجلين جرى بهما الحديث، فلما رآهما رجع عن بيته، فلما رأى الرجلان رسول الله ﷺ رجع عن بيته، وثبا مسرعين، فما أدري أنا أخبرته بخروجهما أم أخبر، فرجع حتى دخل البيت، وأرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. [رواه البخاري (٤٧٩٤)].

ثم أكدت الآية حرمة أمهات المؤمنين، فأوجب على أصحاب الحاجات أن يكلموهن من رواء حجاب، كما حرمت الزواج منهن بعد رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: إذا سألتن نساء النبي ﷺ حاجة، فاسألوهن من وراء ستر، فلا يجوز لأحد أن ينظر إلى إحدى أمهات المؤمنين، متتعبة كانت أو غير متتعبة.

﴿ذَلِكَمُ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: أظهر من الريب والخواطر الخبيثة. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ وهذا تعظيم لحرمتهم، وتأکید لمقام الأمومة الذي شرفهن الله به بقوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فلهن رضي الله عنهن مقام الأمومة في حياته عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته.

﴿إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنباً عظيماً.

وهذا من أعلام تعظيم الله لرسوله ﷺ، وإيجاب حرمة حيّاً وميتاً^(١). وبالغت الآيات في تحذيرهم من هذا الأمر، فلا يجوز لأحد أن يفكر فيه ولا أن يضمه في قلبه:

﴿إِنْ بُدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: فاحذروا أن تحوم خواطركم حول حرم رسول الله ﷺ، فإن الله يعلمها ويجازيكم عليها.

ثم استثنت الآيات محارم أمهات المؤمنين من الرجال وغيرهم، الذين لا يجب عليهن الاحتجاب عنهم:

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥﴾.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي: من العبيد والإماء، أو من الإماء خاصة، كما تقدم في آية سورة النور [٣١] ولم تذكر الآية العم والخال، لأنهما كالوالدين. ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: اتقين الله فيما أمرتن به، فإنه عليمٌ بجميع أحوالكن، وأفاد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب تشديد الأمر بالقوى.

● الصلاة والسلام على النبي ﷺ:

وبعد أن بينت الآيات حرمة أمهات المؤمنين، وحرمة بيوت النبي ﷺ، أكدت ذلك ببيان مكانته عليه الصلاة والسلام عند ربه جل وعلا، وعند ملائكته في الملأ الأعلى، بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أي: إن الله يصلي على النبي، وملائكته يصلون عليه.

وقد جاءت ﴿إِنَّ﴾ في صدر الجملة الاسمية لتدل على التأكيد، وجاءت كلمة ﴿يُصَلُّونَ﴾ لتدل على الدوام والاستمرار.

ومن المعلوم أنَّ صلاة الله على نبيه عليه الصلاة والسلام: رحمته وثنائه عليه، وأنها من الملائكة: دعاء وثناء، وهذا يدل على أن رحمات المولى الكريم تتوالى على النبي ﷺ دون فتور وانقطاع، في حياته وبعد موته، وتكريم الله تعالى له ورفع له لدرجاته مستمر، لا يتوقف ولا ينقطع.

وصلاة الله على نبيه رحمته المقرونة بالتعظيم، ومن الله على غير النبي مطلق الرحمة، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فانظر إلى الفرق بين الصلاتين والفضل بين المقامين^(١).

قال ابن عطية رحمته الله: «هذه الآية شرف الله بها رسوله ﷺ، وذكر منزلته منه، وظهر بها سوء فعل من استصحب من جهته فكرة سوء في أمر زواجه ونحو ذلك»^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا عظموا شأن النبي ﷺ، فأنتم أولى بذلك، وقولوا: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد» [رواه الترمذي (٣٢٢٠)].

وهذا اللفظ يدل على طلب التعظيم لشأنه ﷺ من الله ﷻ لقصور وسع المؤمنين عن أداء حقه ﷺ^(٣).

﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: وسلّموا عليه تسليماً مع الصلاة عليه، أو انقادوا لحكمه، وتمسكوا بسنته، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يَوْمُنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن حجر رحمته الله: «وقد سئلت عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام، وأمر المؤمنين بها وبالسلام. فقلت: يحتمل أن يكون السلام له معنيان: التحية والانقياد، فأمر به المؤمنون لصحتها منهم، والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد، فلم يصف إليهم دفعاً للإيهام، والعلم عند الله»^(٤).

(١) حاشية الصاوي على الجلالين.

(٢) المحرر الوجيز: ١١٠/١٢.

(٣) روح المعاني: ٧٧/٢٢.

(٤) فتح الباري: ٥٣٣/٨.

فكل المؤمنين مكلفون بالصلاة والسلام عليه، سواء كان النبي ﷺ حاضراً أم غائباً، حياً أم ميتاً، لأن الأمر الإلهي بذلك أتى مطلقاً عن أي قيد من القيود. وقد يقول قائل: إذا كان الله سبحانه يصلي على نبيه ﷺ فأَي حاجة إلى صلاة الملائكة والمؤمنين عليه؟.

والجواب: أن الله سبحانه شرع الصلاة على النبي ﷺ إظهاراً لتعظيم الملائكة والمؤمنين له، ولم يشرعها لحاجة النبي ﷺ إليها مع صلاة الله عليه، فهو ﷺ معظَّم ومكرم في الملائكة الأعلى بصلاة الملائكة عليه، ومعظم أيضاً ومكرم في الملائكة الأدنى بصلاة المؤمنين عليه.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية: «المقصود بالآية أن الله ﷻ أخبر عباده بمنزلة نبيه وعبدته في الملائكة الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه»^(١).

وأزيدك في الجواب أمراً آخر، يستدعي منا أن نحمد الله حمداً كثيراً، ونشكره شكراً جزيلاً، لأنه كلَّفنا بالصلاة والسلام على نبيه عليه الصلاة والسلام، ففي ذلك رحمة بنا، إذ ثواب صلاتنا عليه ﷺ يعود علينا، فضلاً منه تعالى، وتكريماً لنبيه عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا» [رواه مسلم (٤٠٨)].

فما أكرم هذا النبي ﷺ على الله! وما أعظم مَنَّة الله علينا به عليه الصلاة والسلام!. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، ويحطُّ عنه بها عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، ورفعَ بها عَشْرَ درجَاتٍ» [رواه أحمد (١٠٢/٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٢ و ٦٣) واللفظ له].

وإذا كنت تحبُّ أن تكون قريباً منه عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، فأكثر من الصلاة عليه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً» [رواه الترمذي (٤٨٤) وابن حبان (٩٠٨)].

وإذا أردت أن يكفيك الله هموم الدنيا، فينشرح صدرك، وتسكن نفسك، ويطمئن قلبك، وأن يضع عنك أثقال أوزارك يوم القيامة، ويغفر لك ذنوبك، ويستر عيوبك، فاجعل ثواب صلاتك له عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث: عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئت» قلت: الربع؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: النصف؟ قال: «ما شئت فإن زدت فهو خير لك» قلت: الثلثين؟ قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: «إذا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك» [رواه الترمذي (٢٤٥٧) وقال: حسن صحيح].

إن صلاتنا على النبي ﷺ تشريف لنا وتكريم، لأننا نفتدي برينا ﷺ في الصلاة عليه وتعظيمه، وفيها أيضاً مكافأة النبي ﷺ على بعض حقوقه علينا، ولا بد لنا عندما نصلي عليه أن نتذكر بعض سوائله الكريمة، ومحاسنه الخلقية والخلقية، فنحيا ولو لفترة من الزمان بقلوبنا وأفكارنا معه عليه الصلاة والسلام. إن الصلاة على النبي ﷺ حبلٌ من نور يصلنا بمهبط الرحمات الإلهية، ومركز الإفاضات الربانية، مهما بُعد بنا الزمان والمكان.

ومن السنة عند الدعاء أن نصلي فيه على النبي ﷺ، لأنها دعاء مقبول قطعاً، والله سبحانه أكرم من أن يقبل بعض الدعاء ويردّ بعضه، قال علي رضي الله عنه: كل دعاء محبوب حتى يُصلّى على محمد ﷺ. [رواه الطبراني موقوفاً، وروي مثله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه].

وعلياً ألا نبخل بالصلاة عليه ﷺ كلما ذكر، فإننا إذا لم نصل عليه نبخل على أنفسنا بالرحمات والبركات والحسنات، التي يتفضل الله بها علينا، وقد روي من طرق كثيرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «البخيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عنده ولم يصلْ عليّ» [رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٦) والترمذي (٣٥٤٦) ابن حبان (٩٠٩)].

وعلياً أن نصلي عليه كلما ذكر، سواء ذكر نطقاً أو كتابة، ولا تكفي إشارة (ص) في الكتابة، لأن الرمز لا يدل على أنك صليت عليه فعلاً.

• التحذير من إيذاء النبي ﷺ:

ثم حذرت الآيات من إيذاء النبي ﷺ، فعظمت ذلك، وقرنته بإيذاء الله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: إن الذين يؤذون رسول الله ﷺ، وذكر اسم الله للتشريف، فكأن أذى رسول الله ﷺ أذى لله تعالى.

وللآية نظائر في كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ومنها قوله سبحانه: ﴿يَخْلِفُوكَ بِإِذْنِ اللَّهِ لَكُمْ لِيُضْوَكَمُ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: طردهم الله من ساحات رحمته وفضله في الدارين، وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً أليماً فيه ذلة ومهانة.

والله ﷻ يغضب لعباده المؤمنين عندما يتعرضون للأذى، بله رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولهذا قال:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا﴾ أي: بغير جناية استحقوا بها الأذى.

﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ أي: فقد احتملوا كذباً عظيماً، وإثماً ظاهراً كبيراً.

• الحجاب للمرأة المسلمة:

بهذه الآيات مهّد الله تعالى لتشريع الحجاب للمرأة المسلمة، عندما تضرطر للخروج من بيتها، كما مهّد تعالى لتطهير المجتمع من آفة خطيرة، منتشرة في

المجتمعات الجاهلية، وهي تعرّض الرجال الفساق للنساء خارج منازلهن، وإسماعهن كلمات مؤذية تخدش الحياء وتخرم المروءة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٥٩﴾

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ أي: يُرخين عليهن جلايبهن، ويغطين بها وجوههن وأعطافهن، يقال: إذا زال الثوب عن وجه المرأة: أذن ثوبك على وجهك^(١).

والجلايب: جمع جلباب، وهو الملاءة أو الملحفة التي تلبسها المرأة فوق ثيابها.

والإدناء: التقريب، يقال: أدناني؛ أي: قربني، وضمن معنى الإرخاء أو السدل، ولذا عُدِّي بـ (على).

قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلايب، ويبدين عيناً واحدة.

وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله ﷻ: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه، وأبرز عينه اليسرى^(٢).

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَّ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: ذلك التستر أولى أن يجعلهن معروفات بالعفة، فلا يتعرض لهن أحد، فإن المرأة إذا كانت ظاهرة التعفف والتستر لم يتعرض لها أحد بالأذى، أما المتبرجة فإنها المطموع فيها من قبل الفساق.

ثم وجهت الآيات الوعيد الشديد إلى أولئك الفساق وأمثالهم:

(١) تفسير النسفي: ١٣٨/٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١١٤/٣.

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠).

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ وهم الذين يروّجون الأخبار الكاذبة في المدينة المنورة، بقصد أذى المؤمنين والمؤمنات، وإحداث الفتن في المجتمع.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لنسلطنك عليهم، ونأمرك بالتضييق عليهم وملاحقتهم، حتى يضطروا إلى ترك المدينة المنورة، فلا يسكنون بجوارك فيها إلا زمناً يسيراً، ريثما يجلون عنها.

وفي الآية تنويه بسكنى المدينة بجوار رسول الله ﷺ، وأن على من أكرمه الله بهذا الجوار أن يتأدب مع رسول الله ﷺ ويتحفظ، وتقديراً لهذه النعمة التي أكرمه الله تعالى بها.

﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا قَتْلًا﴾ (٦١).

أي: تلازمهم لعنة الله في كل مكان، فلا تنفصل عنهم، أينما طُفِرَ بهم أُخِذُوا، وقُتِلُوا أكبر قتل وأقبحه، تطهيراً للمجتمع من شرهم وفسادهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢).

أي: وهذه العقوبة الشديدة سنة قديمة سنّها الله تعالى لكل المفسدين، الذين ينافقون، ويسعون في نشر الفتن والفساد في الأرض، وهي سنة ثابتة مستمرة لا تبدل لها.

• تهديد ووعيد:

وتابعت الآيات تهديدها ووعيدها لهؤلاء الفاسدين المفسدين، بوصف

مشاهد من المعذبين في جهنم يوم القيامة، ومهدت لذلك بتقرير هذا اليوم والرد على منكره:

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿١٣﴾.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أي: يسألك الناس عن وقت قيام الساعة، وكان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عنها جحوداً واستهزاءً، والمنافقون يسألونه إيذاء وإرجافاً، واليهود يسألونه اختباراً، وهم يعلمون أنه لا يعلم وقتها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلم وقتها إلا الله تعالى، كما مر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

فالمنازل الرفيعة العالية التي رفع الله تعالى إليها النبي ﷺ، لم ترحزحه عن مقام عبوديته لربه ومحدوديته، فهو لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: وما يدريك لعلها تقع وتحدث في وقت قريب، عند ذلك يندم الجاحدون، ويصدق المكذبون، ويستيقن المرتابون.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿١٤﴾.

أي: لعنهم وهيا لهم ناراً شديدة التوقد.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٥﴾.

أي: ماكثين فيها أبداً، لا يجدون ولياً يحفظهم، ولا نصيراً يمنع العذاب عنهم.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿١٦﴾.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي: تحرك في النار من جهة إلى جهة لتشوى من كل الجهات، فلا يبقى فيها مكان لا تلفحه النار.

﴿يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي: وهم يقولون متحسرين نادمين:
يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول.

فتمة نارٌ أخرى تتسَّعَّر في قلوبهم ونفوسهم، وهي نار الندامة والحسرة، وخاصة عندما يتذكرون رؤوس الضلال وزعماء الكفر:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾.

أي: أبعادونا عن سبيل الحق والهدى.

﴿رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ ضَعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّمْ لَعْنَا كَبِيرًا﴾.

أي: ضاعف لهم العذاب بسبب ضلالهم وإضلالهم، وشدد اللعنة عليهم.
وعندما وصلت الآيات إلى هذا المدى من التهديد والوعيد، وهيات النفوس والقلوب للانقياد والإذعان، وجهت الخطاب إلى المؤمنين، مرشدة واعظة ومحذرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

أي: لا تكونوا كروءاء الضلال في بني إسرائيل، الذين كانوا يسعون في نشر الأراجيف والأكاذيب عن نبي الله موسى ﷺ، بقصد إيذائه وتشويه سمعته، وقد تقدَّم في سورة القصص أن قارون كان يفعل ذلك، وأنه تعالى ردَّ عن نبيه ﷺ مقالة السوء، وفضح قائلها، وحفظ لموسى ﷺ مكانته ووجاهته، فلا تفعلوا هذا بنبികم عليه الصلاة والسلام، فإنَّ له من الوجاهة والمكانة عند الله، أعظم مما لموسى ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

أي: قولوا الحق الذي فيه الصدق والصواب.

أو: قولاً قاصداً إلى الحق والسداد.

ولعل الآية تشير إلى أن بعضهم خاضوا في موضوع زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة زينب، لمجيئه على خلاف عاداتهم والفهم.

ثم بينت الآيات ما يؤدي إليه قول الحق، من صلاح في الدنيا ومغفرة في الآخرة:

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١).

وهذا الفوز العظيم، هو النجاة من النار، والدخول في الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

• الإنسان والتكليف بالطاعة:

الإقرار بالحق والخضوع له، وطاعة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، في كل أمر ونهي، مسؤولية كبيرة، وأمانة عظيمة، عظمها تعالى، ويبن أهميتها وثقلها، وما يترتب عليها من مسؤولية وجزاء، بقوله:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (٧٢).

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: إنا عرضنا التكليف بطاعة الله ورسوله ﷺ، وما يترتب عليه من مسؤولية وجزاء، على هذه الأجرام الثقيلة الكبيرة، فأبين حمل أمانة التكليف، إشفاقاً وخوفاً من تبعاته ومسؤوليته.

وسمى سبحانه التكليف بالطاعة أمانة، لأنه واجب الأداء، فالتقصير في الطاعة خيانة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ودلّ قوله تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ على أن امتناعهن عن حمل الأمانة، كان

خوفاً وخشية وتعظيماً لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، لا معصية ومخالفة لأمره، مع العلم أن العرض عليهن كان تخييراً لا إلزاماً.

ورأى بعض المفسرين أن المراد في هذه الآية ضَرْبٌ مثل لبيان عِظَم التكاليف، وأن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها، لثقل عليها، لما فيه من مسؤولية وحساب.

وهذا صرفٌ للآية عن ظاهرها لا حاجة إليه، ولا مانع أن نقول بأن في الآية إخباراً عن حقيقة أن الله سبحانه عرض حمل التكليف على هذه الأجرام، بعد أن ركب فيها القوة المدركة والناطقة، فامتنعت تعظيماً لأمره، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشَعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِمُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَفْكُرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَمَحَلُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ أي: التزم الإنسان بحملها، بما له من اختيار وإرادة وكسب، والتي هي أساس التكليف.

﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي: إنه كان كثير الظلم مفرطاً بالجهل.

والمراد من الظلم ظلمه لنفسه بالكفر والمعاصي، والمراد من الجهل حمقه وطيشه، وعدم تقديره لمسؤولية التكليف، وهي صفة الجهالة التي يتصف بها العصاة والفجار، عند اقترافهم للمعاصي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

وهذا دليل على أن المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ بعض الناس الذين لم يقوموا بواجب الطاعة لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام، وهم أكثر الناس، كما صرحت بذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

أما الأنبياء والصالحون، فلا تنسحب الآية عليهم، ولا يوصفون بظلم وجهل.

ثم بين تعالى ما يترتب على التكليف بالطاعة من مسؤولية وجزاء فقال:

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٣﴾

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ أي: ليعذبهم بسبب ظلمهم وجهلهم.

﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: ممّا يصدر عنهم أحياناً من ضعف وفطور وغفلة وتقصير.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: كان سبحانه ولا يزال غفوراً رحيماً. أسأله تعالى أن يوفقنا لطاعته تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأن يرحم ضعفنا، ويغفر لنا تقصيرنا، ويستر عيوبنا وذنوبنا، إنه غفور رحيم. وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.



فهرس الموضوعات

تفسير سورة النور التَّشْرِيعُ وَالْهَدَايَةُ فِي سُورَةِ النُّورِ

- المقدمة ٥
- تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ ٧
- الفصل الأول: التَّشْرِيعُ وَبَيَانُ الْأَحْكَامِ ٩
 - فرض وتفريض ١١
 - تشريع حد الزنى ١٢
 - التنفير من الزنى ١٥
 - تشريع حد القذف ١٦
 - تشريع اللعان ١٩
 - حادثة الإفك ٢٣
 - تأديب وتوبيخ ٢٩
 - البهتان العظيم ٣١
 - التعقيبات ٣٣
 - فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٣٥
 - الكفر الغليظ ٣٦
 - براءة وبشارة ٣٨
 - تشريع الاستئذان ٣٩
 - وجوب غض الأبصار وحفظ العورات ٤٣
 - تحريم كشف مواضع الزينة ٤٥
 - الحث على الزواج وتحريم البغاء ٥٠
- الفصل الثاني: الْهَدَايَةُ ٥٥
 - النور والهداية ٥٧

- المهتدون ٦١
- الضالون ٦٤
- تسبيح المخلوقات ٦٦
- جبال في الأرض والسماء ٦٧
- الأصل الواحد لدواب الأرض ٦٩
- المعرضون عن أحكام الشريعة الإسلامية ٧١
- طاعة المنافقين ٧٤
- أضواء على مستقبل الأمة المسلمة ٧٥
- الاستئذان داخل البيوت ٧٩
- حجاب العجائز ٨١
- حرمة الأموال في البيوت ٨٢
- استئذان الرسول ﷺ وطاعته ٨٤

تفسير سورة الفرقان

أَسْبَابُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ

- المقدمة ٨٩
- تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ ٩١
- تفسير سورة الفرقان: أَسْبَابُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ ٩٢
- تفضل وإحسان ٩٢
- الخلق والتقدير والتدبير ٩٤
- صور من ضلال الكافرين ٩٦
- ظلم وزور ٩٦
- ضلال وفساد ٩٨
- أسباب الضلال ١٠٠
- إنكار المسؤولية والجزاء ١٠١
- المواجهة الرهيبة ١٠٣
- الابتلاء والاختبار ١٠٥
- الاستكبار والطغيان ١٠٧
- مصاحبة الضالين ١١٠
- إعراض واعتراض ١١٢

- تهديد الضالين ووعيدهم ١١٥
- عُبَاد الأهواء والشهوات ١١٧
- أدلة الحق ومؤيداته ١٢٠
- من شواهد الحق وأدلته ١٢١
- القرآن الكريم والدعوة ١٢٣
- الماء والحياة ١٢٥
- دعوة كريمة ١٢٧
- صفات المؤمنين المهتدين ١٣٠
- خاتمة السورة ١٣٨

تفسير سورة الشعراء

الْعِنَادُ وَالْعِقَابُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ

- المقدمة ومَوْضُوعُ السُّورَةِ ١٣٩
- الفصل الأول: إِشْقَاقٌ وَإِعْرَاضٌ ١٤١
- العزيز الرحيم ١٤٤
- الفصل الثاني: عِنَادُ بَعْضِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَعِقَابُهُمْ ١٤٦
- رسالة موسى وهارون ﷺ ١٤٩
- المحاوراة ١٥٢
- عناد وانقياد ١٥٥
- في ميدان المواجهة ١٥٨
- ولم يطل زهو فرعون وانتفاشه ١٥٩
- عقاب المعاندين ١٦١
- انقياد إبراهيم لله رب العالمين ١٦٥
- تخاصم أهل النار ١٧٠
- عناد قوم نوح وعقابهم ١٧٢
- عناد عاد وعقابهم ١٧٥
- عناد ثمود وعقابهم ١٧٨
- عناد قوم لوط وعقابهم ١٨١
- عناد أصحاب الأيكة وعقابهم ١٨٣
- الفصل الثالث: دَعْوَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعِنَادُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ١٨٧

- تنزيل القرآن الكريم ١٨٧
- عناد مشركي قريش ١٨٩
- التهديد بالعقاب ١٩٠
- الفصل الرابع: دَحْضُ شُبُهَاتِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ١٩٣
- حفظ القرآن عند تنزيله ١٩٣
- تلقي القرآن وتبليغه ١٩٥
- تمحيص الحقيقة ودفع أباطيل ١٩٨

تفسير سورة النمل

المُعْجِزَةُ وَالْإِعْجَازُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ

- المقدمة ٢٠٣
- تمهيد (١): فِي بَيَانِ الْمُعْجِزَةِ وَالْإِعْجَازِ وَبَعْضِ مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْحَسِيَّةِ ٢٠٥
- المعجزة ٢٠٥
- الكرامة والاستدراج ٢٠٦
- قدرة الله على خرق النواميس الكونية ٢٠٧
- عجز الإنسان عن خرق النواميس الكونية ٢٠٨
- الإعجاز ٢٠٩
- الحد الأدنى المعجز من القرآن الكريم ٢١٠
- من وجوه إعجاز القرآن الكريم ٢١١
- من معجزات النبي ﷺ الحسية ٢١٢
- تمهيد (٢): سُورَةُ النَّمْلِ وَالْحِكْمَةُ مِنْ تَسْمِيَّتِهَا بِهَذَا الْأِسْمِ ٢١٦
- هذا خلق الله ٢١٦
- تخزين الطعام ٢١٧
- عمل النملة في يوم ٢١٧
- أكبر مدن النمل ٢١٧
- من معارك النمل ٢١٨
- أنواع النمل ووسائل التعارف بينهم ٢١٩
- ماشية النمل ٢١٩
- سيركم آياته فتعرفونها ٢٢٠
- تمهيد (٣): مَوْضُوعُ سُورَةِ النَّمْلِ ٢٢١

- انسجام واتفاق ٢٢١
- من معجزات الأنبياء ٢٢٢
- الإعجاز العلمي في سورة النمل ٢٢٢
- القرآن وتاريخ بني إسرائيل ٢٢٣
- أخبار سليمان في الأسفار ٢٢٤
- الفصل الأول: الحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ وَإِعْجَازُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٢٢٦
- الفصل الثاني: مُوسَى ﷺ وَالْمُعْجَزَاتُ التَّسْعُ ٢٢٨
- رسالة موسى ﷺ ٢٢٨
- الفصل الثالث: النَّبُوءَةُ وَالْعِلْمُ وَالْمُلْكُ (دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ ﷺ) ٢٣١
- النبوة والعلم ٢٣٢
- علوم داود وسليمان ﷺ ٢٣٣
- داود ﷺ (النبوة والملك) ٢٣٤
- الحديد اللين ٢٣٥
- بين صورتين ٢٣٦
- سليمان ﷺ ٢٣٨
- الإنسان والشكر ٢٣٩
- منطق الطير ٢٤٠
- جنود سليمان ٢٤٣
- الموكب العظيم ٢٤٤
- هل استعمل سليمان بساط الريح؟ ٢٤٦
- كلام النمل ٢٤٨
- حكمة نملة ٢٤٩
- هدهد سليمان ٢٥٠
- الإدراك عند الحيوان ٢٥٢
- التسبيح بحمد الله ٢٥٣
- الكتاب الكريم ٢٥٤
- الهدية الرشوة ٢٥٦
- عرش بلقيس ٢٥٨
- الخصوصية لا تقتضي الأفضلية ٢٦٠

- فلما رآه مستقراً عنده ٢٦١
- تنكير العرش ٢٦١
- خضوع وانقياد ٢٦٢
- الفصل الرابع: الحق والإنسان ٢٦٤
- اختلال القيم وانعكاس الموازين ٢٦٦
- وأمطرت أحجاراً ٢٦٦
- الصالحون في الناس قليل ٢٦٦
- حمد وسلام ٢٦٧
- الصديق الأول ٢٦٩
- الفصل الخامس: العالمُ المُشَاهِدُ الْمَنْظُورُ في الآياتِ الْخَمْسِ ٢٧٠
- الآيات الخمس ٢٧٠
- تقرير وبرهان ٢٧١
- هاتوا برهانكم ٢٧٢
- الأرض والإنسان ٢٧٤
- حاجز بين البحرين ٢٧٥
- التفكير والتذكر ٢٧٦
- أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ٢٧٧
- تنبيه ٢٧٨
- الفصل السادس: عالمُ الْغَيْبِ الْمَسْتُور ٢٧٩
- تناقض وتعارض ٢٨٠
- مكابرة وعناد ٢٨١
- تثبت ومواساة ٢٨٢
- أشراط يوم القيامة ٢٨٣
- إغلاق باب التوبة ٢٨٤
- دابة الأرض ٢٨٥
- مشاهد من يوم القيامة ٢٨٧
- الخاتمة ٢٨٩

تفسير سورة القصص

عَاقِبَةُ الطَّغْيَانِ وَالْفَسَادِ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ

- تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ ٢٩١
- الفصل الأول: قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ ٢٩٣
- منة الله الكبرى على المستضعفين ٢٩٥
- صندوق في اليم ٢٩٨
- في قصر فرعون ٣٠٠
- مع المظلوم الأحمق ٣٠٣
- لقاء على ماء مدين ٣٠٧
- الراعي القوي الأمين ٣١٠
- العمل والزواج ٣١٣
- النداء والرسالة ٣١٥
- الطاغية المتأله وعاقبته ٣١٨
- الفصل الثاني: التَّعْقِيبَاتُ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام وَفِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ ٣٢٣
- ضرورة البعثة المحمدية ٣٢٤
- تعنُّتٌ وعناد ٣٢٧
- المؤمنون من أهل الكتاب ٣٢٩
- هداية التوفيق وهداية البيان ٣٣١
- شبهة مردودة ٣٣٣
- أعقل الناس ٣٣٤
- براءة وحسرة ٣٣٦
- طلاقه مشيئته تعالى وكمالها ٣٣٩
- من آثار رحمته تعالى ٣٤١
- الفصل الثالث: قِصَّةُ قَارُونَ ٣٤٤
- كنوز قارون ٣٤٤
- الوسيلة والغاية ٣٤٦
- غرور واستكبار ٣٤٧
- موكب قارون ٣٤٩
- هلاك قارون ٣٥١

- ٣٥٣ - الحقيقة الكبرى
- ٣٥٦ • الخاتمة: الغاية والأمل

تفسير سورة العنكبوت

الابْتِلَاءُ وَالْوَلَاءُ فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ

- ٣٦١ • المقدمة
- ٣٦٣ • الفصل الأول: ابْتِلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَاؤُهُمْ
- ٣٦٣ - ابتلاء المؤمنين
- ٣٦٤ - التمييز بين الخبيث والطيب
- ٣٦٦ - التحذير من العُجْب والغرور
- ٣٦٨ - الابتلاء بمعارضة الوالدين
- ٣٧٠ - المذبذبون بين الإيمان والكفر
- ٣٧١ - حاملو الأوزار
- ٣٧٤ • الفصل الثاني: ابْتِلَاءُ الْأَنْبيَاءِ وَوَلَاؤُهُمْ
- ٣٧٥ - ابتلاء نوح ﷺ
- ٣٧٦ - ابتلاء إبراهيم ﷺ
- ٣٧٨ - المنشأتان
- ٣٨١ - نجاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام
- ٣٨٢ - الغربة في الوطن
- ٣٨٣ - الأُنس في الهجرة
- ٣٨٥ - ابتلاء لوط ﷺ
- ٣٨٨ • الفصل الثالث: الْفَائِزُونَ وَالْخَاسِرُونَ فِي الْإِبْتِلَاءِ وَالْوَلَاءِ
- ٣٨٩ - إهلاك المستكبرين
- ٣٩١ - بيت العنكبوت
- ٣٩٤ - الابتلاء بالتكليف
- ٣٩٦ - الابتلاء بأهل الكتاب
- ٣٩٨ - حفظ القرآن الكريم
- ٤٠٠ - المعجزة الخالدة
- ٤٠٢ - المستعجلون للعذاب
- ٤٠٣ - مواساة الغرباء

- ٤٠٦ الله الخالق الرازق
- ٤٠٧ حقيقة الحياة الدنيا
- ٤٠٨ إنعام وكفران
- ٤١١ إنعام وإحسان

تفسير سورة الروم

الْإِنْسَانُ وَالسُّنُّ الْكَوْنِيَّةُ فِي سُورَةِ الرُّومِ

- ٤١٣ المقدمة
- ٤١٥ تفسير سورة الروم: الإنسان والسُّنُّ الْكَوْنِيَّةُ فِي سُورَةِ الرُّومِ
- ٤١٥ أحداث ومعارك قرب أرض العرب
- ٤١٧ لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ
- ٤١٩ الغافلون عن حقيقة الحياة
- ٤٢٠ التفكير في الخلوة
- ٤٢١ الاعتبار بتاريخ الأمم الهالكة
- ٤٢٣ السُّنَّة الكلية الشاملة
- ٤٢٥ تسبيح الله وحمده
- ٤٢٨ بعض السنن الإلهية في المآفاق والأنفس
- ٤٢٨ خلق الأضداد من بعضها
- ٤٢٩ لطيفتان
- ٤٣٠ المودة والرحمة بين الأزواج
- ٤٣٢ الاختلاف في الخصائص والصفات
- ٤٣٣ هكذا تمضي الحياة
- ٤٣٤ وهكذا تنتهي
- ٤٣٥ مثل من الواقع
- ٤٣٧ الفطرة والتوحيد
- ٤٣٩ عودة الغافلين الشاردين
- ٤٤٢ الاختبار في الرزق
- ٤٤٤ التلوث في البيئة والسلوك
- ٤٤٧ إرسال الرياح والرسل
- ٤٤٩ التغير السريع في أحوال الناس النفسية

- موتى القلوب ٤٥١
- تذكير وتحذير وتبشير ٤٥٣
- سُنَّة الضعف والقوة ٤٥٣
- يوم البعث ٤٥٤
- الجزاء من جنس العمل ٤٥٦
- تحذير وتبشير ٤٥٧

تفسير سورة لقمان

المُقَابَلَةُ الْحَكِيمَةُ وَالْمُوَازَنَةُ الْمُسْتَحِيلَةُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ

- المقدمة ٤٥٩
- تفسير سورة لقمان: الْمُقَابَلَةُ الْحَكِيمَةُ وَالْمُوَازَنَةُ الْمُسْتَحِيلَةُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ . ٤٦١
- الكتاب الحكيم بين المحسنين والمضللين ٤٦١
- الكتاب الحكيم ٤٦١
- لهُوَ الحديث والغناء المحرم ٤٦٣
- هذا خَلَقَ الله ٤٦٥
- لقمان الحكيم ٤٦٧
- من حكمة لقمان ٤٦٩
- المقابلة الحكيمة ٤٧٠
- الموازنة المستحيلة ٤٧٢
- صحبة الوالدين ٤٧٤
- توجيه وإرشاد ٤٧٥
- جحود وعناد ٤٧٨
- استسلام وإذعان ٤٨١
- كلمات الله تعالى ٤٨٣
- الجاريات في الأفلاك والبحار ٤٨٥
- خاتمة السورة ٤٨٨
- الوالد والولد يوم القيامة ٤٨٨
- مفاتيح الغيب ٤٨٩

تفسير سورة السجدة

التَّذْبِيرُ وَالتَّنْزِيلُ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ

- ٤٩٣ المقدمة
- ٤٩٥ تفسير سورة السجدة: التَّذْبِيرُ وَالتَّنْزِيلُ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ
- ٤٩٥ - التذير والتنزيل
- ٤٩٧ - الخالق المدبر
- ٤٩٩ - الخلق المحكم
- ٥٠١ - جحود وإنكار
- ٥٠٣ - سجود وإذعان
- ٥٠٥ - الصلاة في جوف الليل
- ٥٠٦ - قرّة أعين أهل الجنة
- ٥٠٧ - المأوى والنزل
- ٥١٠ - ضرورة يوم الفصل
- ٥١١ - يوم الفتح

تفسير سورة الأحزاب

النَّبِيُّ ﷺ وَأَزْوَاجُهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ

- ٥١٥ المقدمة
- ٥١٧ تمهيد: مَوْضُوعُ السُّورَةِ
- ٥١٩ الفصل الأول: فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ
- ٥٢٠ - يا أيها النبي
- ٥٢٢ - التقوى والتوكل واتباع الوحي
- ٥٢٥ - المحافظة على الأنساب
- ٥٢٦ - مكانة النبي ﷺ بين المؤمنين
- ٥٢٩ - عموم ولاية النبي ﷺ وشمولها
- ٥٣١ - أمهات المؤمنين
- ٥٣٢ - مكانته عليه الصلاة والسلام بين الأنبياء
- ٥٣٣ - غزوة الأحزاب
- ٥٣٥ - الحصار
- ٥٣٦ - تشكيك وخذلان

- ٥٤٠ - الأسوة الحسنة
- ٥٤٨ - ثبات واستشهاد
- ٥٥٠ - النصر بلا قتال
- ٥٥٣ • الفصل الثاني: مَعَ أَزْوَاجِهِ ﷺ
- ٥٥٥ - النبي القائد ﷺ
- ٥٥٧ - النبي القائد ﷺ خير الأزواج
- ٥٥٨ - من القديم والحديث
- ٥٥٩ - زمن التخيير
- ٥٦٢ - سبب التخيير
- ٥٦٦ - الاختيار
- ٥٦٨ - تكريم وتأديب
- ٥٧١ - صوت المرأة
- ٥٧٣ - المرأة والعمل
- ٥٧٤ - تبرُّج النساء
- ٥٧٧ - صلاة المرأة في المسجد
- ٥٧٨ - أهل البيت
- ٥٧٩ - مهبط الوحي
- ٥٨١ - المساواة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء
- ٥٨٢ - زيد وزينب
- ٥٨٦ - خاتم النبيين والمرسلين
- ٥٨٩ - الإكثار من ذكر الله وتسييحه
- ٥٩٢ - مهمة النبي ﷺ وأثرها
- ٥٩٤ - أحكام خاصة للنبي ﷺ مع أزواجه
- ٥٩٧ - حرمة أزواج النبي ﷺ وبيوته
- ٦٠١ - الصلاة والسلام على النبي ﷺ
- ٦٠٥ - التحذير من إيذاء النبي ﷺ
- ٦٠٥ - الحجاب للمرأة المسلمة
- ٦٠٧ - تهديد ووعيد
- ٦١٠ - الإنسان والتكليف بالطاعة
- ٦١٣ • فهرس الموضوعات



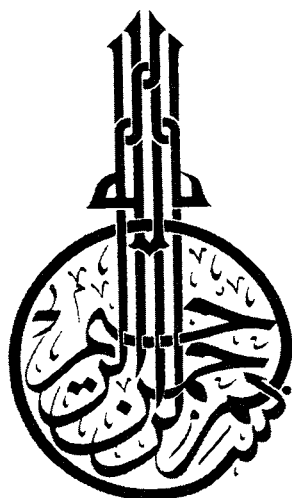
التفسير الموضوعي لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

تأليف
عبد الحميد محمود طه

المجلد السَّابع :

ويحتوي على تفسير هذه السور
سَبَأ - فَاطِر - يَس - الصَّافَّات - ص - الزُّمَر - غَافِر
فُصِّلَت - الشُّورَى - الزُّخْرُف - الدَّخَان - الْحَاشِيَةِ
الْأَحْقَاف - مُحَمَّد - الْفَتْح - الْحُجُرَات - ق

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أَسَّسَهَا:
مَحَمَّدٌ عِزَّى وَوَلَدُهُ
سنة ١٤٢٨ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

تفسير سورة سبأ الرَّسَالَةُ وَالسَّاعَةُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ رسالة الله تعالى إلى عباده؛ ومسؤوليتهم عنها يوم الحساب والجزاء أمران ضروريان لتنظيم وضبط حياة المجتمعات البشرية، ولا يغني الناسَ عنهما التقدمُ العلمي والمادي، فالله العليم الخبير يعلم ما يصلح للناس، ولهذا أرسل إليهم الرسل لهدايتهم إلى صراطه صراط العزيز الحميد.

وضرب سبحانه في آيات السورة مثلاً بمجتمعين بشريّين حكمهما نبيان ملكان بما شرع الله تعالى لهما، وهما: داود وسليمان عليهما السلام. فأدى ذلك بهما إلى أن وسع الله عليهما، وأخضع لهما كثيراً من القوى الظاهرة والخفية.

ثم ذكرت آيات السورة بعد ذلك على سبيل المقارنة مجتمعاً بشريّاً ثالثاً في سبأ، كانوا في سَعَةِ ورَعَدٍ في العيش، فأعرضوا عن رسالة رسل ربهم، فأسرع فيهم الفساد، وانتهى بهم الأمر إلى الضياع والتمزق، حتى أصبحوا أحاديث تُروى بين الناس.

ولا خلاص للمجتمعات البشرية بعد بعثة النبي الخاتم المرسل للناس كافة ﷺ إلا إذا التزمت بمنهج رسالته، وتمسكت بأحكام شريعته، فرسالته رسالة الحق، أنزلها عَلَامُ الغيوب، لا غنى للبشرية عنها، وإن لم يبادروا إليها فسيكون مصيرهم كمصير سبأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَكِّ مُرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤].



تفسير سورة سبأ الرَّسَالَةُ وَالسَّاعَةُ فِي سُورَةِ سَبَأَ

الحكيم الخبير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝﴾

افتتح الله سورة سبأ بالثناء على نفسه لكمال ملكه وسلطانه في الدنيا والآخرة، فهو سبحانه المتصف بصفات الكمال التي لا يتصف بها أحد غيره، فقال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝﴾

أي: وهو الحكيم الذي أحكم أمور المخلوقات في الدنيا والآخرة، والخبير ببواطن الأشياء وحقيقتها فيضعها في مواضعها الصحيحة اللائقة بها، وهو يستحق الحمد أيضاً لأنه منعم متفضل، فهو منعم على وجه الحكمة والصواب. وكما أن سلطانه تعالى شامل كل المكونات فعلمه أيضاً محيط بها لا يغيب عنه شيء منها:

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝﴾

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: يعلم كل ما يدخل في الأرض ويغيب

في طيات ثراها، كماء الأمطار، وأجساد الأموات، وبذور النبات، ويعلم ما يخرج منها من نبات وحيوان ومياه ومعادن.

﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ أي: ويعلم أيضاً كل ما ينزل من جهة السماء من أمطار وأرزاق وملائكة، وما يصعد في جو السماء كالملائكة والأبخرة والأدخنة وأعمال العباد، فعلمه سبحانه وسع كل المخلوقات المتحركة والساكنة من أعماق الأرض إلى آفاق السماء.

فكم من قطرة بخار صاعدة من بحر، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم، وكم وكم مما لا يعلمه سواه؟! وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة، ولو قضاوا الأعمار الطوال في العد والإحصاء؟! وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر، فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب بشر وهو مع هذا يستر ويغفر^(١).

﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ يرحم عباده المقصرين في طاعته، ويغفر لهم، وفيه إشارة إلى أنهم مهما شكروه فإنهم مقصرون في حق شكره.

* * *

العلم والساعة

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْرَبُ عَنْهُ مُثْقَلُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْعَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

هذا الإله العظيم المتصف بكمال القدرة والعلم، وتمام الحكمة وطلاقة المشيئة، لا يمكن أن يخلق هذه المخلوقات العظيمة سدًى وعبثاً من غير حكمة تدل على كماله ووحدانيته، ولهذا فإن الرسالة والساعة من الأمور اللازمة الدالة على أنه حكيم عليم:

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٥/٢٨٩٢.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قالوا ذلك جحوداً لرسالة النبي ﷺ، وإنكاراً للقضية الكبرى التي أخبرهم بها وطالبهم بالإذعان لها؛ وهي التصديق بيوم القيامة؛ وما فيه من جزاء وحساب.

فجاء الرد عليهم حاسماً جازماً مستعملاً كلمة: (بلى) الدالة على إبطال نفي المشركين ليوم القيامة، ومؤكداً بالقسم باسم من أسماء الله المقدسة، الدالة على أنه وحده الخالق المدبر لأمر مخلوقاته، وجاء مع القسم اللام المؤكدة الواقعة في جوابه والنون الثقيلة المؤكدة:

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

واختارت الآية من صفاته المقدسة كمال علمه، لبيان الارتباط بين كمال العلم ويوم المسؤولية والجزاء:

﴿عِلْمِ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو عالم الغيب المغيب عنكم، لا يبعد عن علمه أصغر ذرة في أي مكان كانت من السماوات والأرض.

﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: ولا يبعد عن علمه أيضاً ما هو أصغر من الذرة، وما هو أكبر منها، وكلها مكتوبة أيضاً في كتاب مبين، وهو لوح القدر، فالعلم ثابت لله تعالى بكل معلوم، فهو كقوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأشار قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ﴾ إلى حقيقة علمية، وهي أن في الذرة جزيئات صغيرة، وهذه الحقيقة ما كانت معروفة عند نزول القرآن الكريم.

الصراع بين الحق والباطل

﴿لِيَحْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ⑤ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَرَبِ الْحَمِيدِ ⑥﴾.

ثم بينت الآيات الحكمة من إثبات يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وحساب وجزاء:

﴿لِيَحْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④﴾.

أي: أولئك المتصفون بالإيمان والعمل الصالح لهم مغفرة لما فرط منهم من تقصير، ولهم رزق في الجنة طيب لا تعب فيه ولا انقطاع.
وأما مصير الفريق الآخر الذين جحدوا الساعة وكفروا بالرسالة:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ⑤﴾.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي: والذين سعوا في آياتنا المنزلة، وصد الناس عنها، ظانين أنهم يعجزون الله، ويفلتون من قبضة قدرته.
وفي قراءة: (مُعْجِزِينَ) أي: مثبطين عن الإيمان ومعوقين عنه.
ودلت كلمة (سعوا) على شدة عنادهم وتكذيبهم، وأنهم بذلوا جهداً كبيراً في الصّدّ عن آيات الله، ولهذا فهم يستحقون أسوأ العذاب:
﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

ولا يتوقف الصراع بين الحق والباطل؛ فهو مستمر ما دامت الحياة مستمرة، ويقف في مواجهة الساعين في إبطال آيات الله وإطفاء نورها، الفريق المؤمن في ميدان المواجهة ثابتاً قوياً:

﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان، أو الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب.

﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ فهم يرون أن القرآن الكريم المنزل إليك من ربك هو الحق الثابت، وأن كل ما يخالفه ضلال.

﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: ويهدي إلى منهج الحق الذي شرعه الإله الغالب في سلطانه، المحمود في كل شؤنه، ووصفهم بأنهم الذين أوتوا العلم، فيه تعريض بالكافرين الجاحدين ليوم القيامة، بأنهم المتصفون بالجهل والغفلة والعناد.

جهل وعناد

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾
أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا
إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقُطْ عَلَيْهِمْ
كَسَفًا مِنْ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَدُوٍّ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

ومن صور جهلهم وعنادهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ وهو محمد ﷺ.

﴿يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هكذا جعلهم جهلهم

وعنادهم يتعجبون أشد العجب مما أخبرهم به ﷺ، وهو أنهم سيبعثون بعد الموت للحساب والجزاء، وأن أجسادهم التي تفرقت وتمزقت وصارت تراباً ستخلق بقدرة تعالى من جديد.

﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝﴾

﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ۝﴾ أي: أهو مفترٍ على الله كذباً أم به جنون؟!.

وبادر سبحانه يرد على جهلهم وعنادهم بقوله:

﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝﴾ أي: ليس فيه شيء من الافتراء والجنون، فهو أصدق الناس وأعقلهم، ولهذا أضربت الآية عن قولهم وكذبتهم، وبينت أن الأمر ليس كما قالوا، بل إن أصحاب هذا القول في العذاب والضلال البعيد، والمراد من العذاب إما عذاب الآخرة لأن مصيرهم إليه، أو عذاب الدنيا بسبب مكابرتهم للحق، ومحاولة إطفاء نور الله وهو يتم^(١).

وكذلك بسبب ما يعانون من حيرة وقلق لبعدهم عن الحق، وتخطيهم في الضلال البعيد، فالذي يعيش بلا عقيدة بالآخرة، يعيش في عذاب نفسي، لا أمل له ولا رجاء في نصفه ولا عدل ولا جزاء ولا عوض عما يلقاه في الحياة، وفي الحياة مواقف وابتلاءات لا يقوى الإنسان على مواجهتها إلا وفي نفسه رجاء الآخرة^(٢).

وهذا يبين ضرورة الرسالة وشدة حاجة الناس إلى الشعور بالمسؤولية والجزاء في يوم الحساب.

ثم ذكرتهم الآيات بأسلوب الاستفهام الإنكاري ببعض ما يحيط بهم من الظواهر الكونية الدالة على كمال قدرة الله تعالى لكي يشعروا أمامها بضآلتهم وحقارتهم وهوانهم:

(١) انظر: المحرر الوجيز: ١٢/١٢٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/٢٨٩٥.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنِ خُسْفٍ بِهِمْ الْأَرْضِ
أَوْ تُسْقَطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنِ خُسْفٍ بِهِمْ الْأَرْضِ
أَوْ تُسْقَطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: أعموا فلم ينظروا إلى ما يحيط بهم من كل
جانب، ولم يبق من أسباب وقوعه إلا تعلّق مشيئته تعالى به، فالله قادر على أن
يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم قطعاً هائلة من السماء.

ويدل هذا التهديد الشديد على تهويل ما اجترؤوا عليه من تكذيب آيات الله
تعالى، واستعظام ما قالوا في حقّه عليه الصلاة والسلام، وأنه من العظام
الموجبة لنزول أشد أنواع العذاب بهم^(١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إن في ذلك دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى،
وأن البعث بعد الموت لا يعجزه.

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ لكل عبد راجع إليه تعالى متأمل في آيات قدرته.

صانع الدروع

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنْجِبَالُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّاسُ لَهُ الْخُذِيدُ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّغَتِ
وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صُلْحًا إِيَّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم عرضت الآيات نماذج إنسانية أظهرت من خلالها المواقف الطيبة التي
ينبغي أن يتصف بها الناس، عندما يتفَضَّل عليهم الحق جل وعلا بنعمه وفواضل
إحسانه وجوده.

واختارت الآيات نبين كريمين تَفَضَّل عليهما سبحانه بنعم دنيوية كثيرة،

مَكُنْتُ لهُمَا فِي الْأَرْضِ، وَوَضَعْتُ أَيْدِيَهُمَا عَلَى بَعْضِ أَنْوَاعِ الْقُوَّةِ الْمَادِيَةِ فِيهَا؛ هَذَانِ النَّبِيَانِ الْكَرِيمَانِ هُمَا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ ﷺ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ الْخَدِيدُ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتينا داود بسبب حسن إنباته إلى ربه نعمة وإحساناً زيادة على ما أعطي غيره من الأنبياء، والخصوصية لا تقتضي الأفضلية، وقد يكون في المفضل ما ليس في غيره. ثم بينت الآيات ما أعطي داود ﷺ:

﴿يَجَالُ أَوْبَى مَعَهُ﴾ أي: وقلنا: يا جبال سبّحي معه، فكان ﷺ إذا سبّح سبّحت الجبال مثل تسبيحه بصوت يُسمع منها، والله قادر على ذلك، وهو القائل: ﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا سُبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والجدير بالذكر أنّ الحصى سبّح في كف نبينا عليه الصلاة والسلام، قال ابن جرير رحمه الله: وقد اشتهر تسبيح الحصى في يده، ففي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: تناول رسول الله ﷺ سبع حصيات فسبّحن في يده حتى سمعتُ لهنّ حنيناً، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبّحن، ثم وضعهن في يد عمر فسبّحن، ثم وضعهن في يد عثمان فسبّحن. [أخرجه البزار والطبراني في «الأوسط»].

وروى البخاري [٣٥٧٩]: من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ولقد كُنَّا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

﴿وَالطَّيْرُ﴾ أي: وسخرنا له الطير تسبّح معه، وفي قراءة: (والطير) بالرفع على أنه معطوف على الجبال باعتبار لفظه وحركته.

والأصل: ولقد آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال والطير، فبدل به هذا النظم لما فيه من الفخامة والدلالة على عظمة شأنه تعالى وكبرياء سلطانه، ونفاذ مشيئته في كل المخلوقات، فما من حيوان وجمادٍ إلا وهو متقاد لمشيئته جل وعلا.

ومن المعلوم أن داود ﷺ كان حسن الصوت حتى إنَّ النبي ﷺ قال لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما سمعه يقرأ القرآن: «يا أبا موسى، لقد أُوتيت

مزماراً من مزامير آل داود» [رواه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣)].

قال الخطابي: أراد داود نفسه، لأنه لم ينقل أن أحداً من أولاد داود أو أقاربه أعطي من حُسن الصوت ما أعطي^(١).

﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ أي: جعلنا الحديد في يده ﷺ ليناً كالشمع أو العجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة، وكان ﷺ يعمل من الحديد دروعاً يبيعها، وينفق على نفسه منها.

وفي الحديث الشريف: قال ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطُّ خَيْراً مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ ﷺ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ» [رواه البخاري (٢٠٧٢)].

وفي الحديث فضل العمل باليد وتقدير ما يباشره الشخص بنفسه على ما يباشره بغيره، والحكمة في تخصيص داود بالذكر أن اقتصراره في أكله على ما يعمل به يده لم يكن من الحاجة، لأنه كان خليفة في الأرض ابتغى الأكل من طريق الأفضل^(٢).
وبيّن له سبحانه وجه الاستفادة من إلانة الحديد، فعلمه صناعة الدروع:

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدَرٍ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَليحاً إِيَّيَّ مَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١).

﴿أَنْ أَعْمَلَ سَبِغَتٍ وَقَدَرٍ فِي السَّرْدِ﴾ أي: اعمل دروعاً واسعة، وضيق في نسجها، لتكون لينة ناعمة، فداود ﷺ أول من صنع الدروع المنسوجة من خيوط الحديد، وكانت قبله تُصنع من صفائح الحديد، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ويبدو أن أهل داود ﷺ اقتبسوا منه صناعة الدروع، فاتجهت الآية تأمرهم بالإخلاص في العمل وإتقانه وإحسانه:

﴿وَأَعْمَلُوا صَليحاً إِيَّيَّ مَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: اجعلوا عملكم كله صالحاً خالصاً لله تعالى، فإني بصير به ومجازيكم عليه.

* * *

(١) فتح الباري: ٩٢/٩.

(٢) المرجع السابق: ٣٠٦/٤.

النعمة والشكر

﴿وَلِسْلَيْمَنَ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذِ رَّبِّهِ وَمَن يَرِغْ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَصَبْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَعْيِهِ فَلََمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

وانتقلت الآيات من الحديث عن فضل الله تعالى على نبيه داود إلى الحديث عن فضله تعالى على نبيه سليمان:

﴿وَلِسْلَيْمَنَ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذِ رَّبِّهِ وَمَن يَرِغْ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَلِسْلَيْمَنَ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ﴾ أي: وسخرنا لسليمان الريح تجري في أول النهار إلى منتصفه مسيرة شهر، وتجري من منتصفه إلى آخره مسيرة شهر، كما مر معنا في سورة النمل (١٥ - ٤٤).

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: وأذننا له معدن النحاس، وسماه عين القطر باسم ما آل إليه، وهذا يدل على أنه تعالى جعل معدن النحاس يسيل في الأرض كما يسيل الماء، فكما ألان سبحانه لداود الحديد أذاب لسليمان النحاس.

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِذِ رَّبِّهِ﴾ أي: وسخرنا لسليمان من الجن من يعملون أمامه وتحت مراقبته بأمره تعالى.

﴿وَمَن يَرِغْ مِنْهُمْ عَن أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: ومن يعدل منهم عن أمرنا الذي أمرناه به، وهو طاعة سليمان، نذقه من عذاب النار يوم القيامة. وقرئ (يُزْغ) أي: يصرف نفسه أو غيره.

ثم ذكرت الآيات الأبنية الكبيرة والإنشاءات العظيمة التي كان سليمان يكلفهم بإقامتها:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (١٣).

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي: يعملون لسليمان ما يشاء من مساجد، أو الأبنية الكبيرة المرتفعة، وتمثيل لبعض المخلوقات غير الحية، أو للمخلوقات الحية، فلعله كان جائزاً في شريعتهم، أما في شريعتنا الإسلامية فهو حرام، كما يعملون له أيضاً الحِفَان، وهي صحاف الطعام الكبيرة، جمع جفنة، وهي تشبه الجوابي، وهي الحياض العظام التي يُجَبى فيها الماء ويجمع، وإذا كانت الحِفَان هكذا فكيف تكون قدورها التي يطبخ فيها؟!:

﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ أي: يعملون له قدوراً ثابتات لضخامتها، وهذا يدل على كرمه ﷺ وكثرة إطعامه الطعام.

﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي: اعملوا يا آل داود لأجل شكر الله تعالى، أو اعملوا شاكرين الله تعالى، وذلك بأن تجعلوا عملكم خالصاً لله، وأنتم منقادون له مَقْرُون بفضله.

وروي: أن داود ﷺ قال: كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم عليّ ثم ترزقني على النعمة الشكر، فالنعمة منك والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟! فقال جل وعلا: يا داود الآن عرفتنى حق معرفتي^(١).

ومر معنا قول سليمان ﷺ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَ شْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وظاهر الآية أن الشكر بعمل الأبدان دون الاختصار على عمل اللسان، ولهذا كان نبينا ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع

هذا يا رسول الله وقد غفرَ الله لك ما تقدمَ من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً» [رواه البخاري (٤٨٣٧)].

قال ابن حجر: وفي الحديث أنَّ الشكر يكون بالعمل كما يكون باللسان، كما قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ أي: قليلٌ من عبادي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يؤدي حقه، لأنَّ التوفيق للشكر يستدعي شكراً آخر، ولذلك قيل: الشكورُ من يرى عجزه عن الشكر^(١).

وتوالت نعم الله على نبيه سليمان عليه السلام لأنه كان عبداً شكوراً، حتى انتهاء أجله، وبعضها استمر إلى ما بعد وفاته، فبقي الجنُّ يعملون بين يديه وهم لا يعلمون بموته:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَ لِالْجِنِّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ أي: لما أوقعنا على سليمان الموت - ويبدو أنه كان معتكفاً للعبادة، فلا يدخل عليه أحد ما دام في محرابه - ما دلَّ الجن على موته إلا دابة الأرض، وهي الأرضة التي تأكل الخشب، آكلة عصاه التي كان يتوكأ عليها.

﴿فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَ لِالْجِنِّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي: فلما سقط على الأرض علمت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا موته حين وقوعه، ولم يلبثوا بعد موته يعانون مشقة العمل المهين.

* * *

سِيلُ الْعَرِمِ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا فُرُى ظَهْرَهُ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيًَّ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فَأَتَجَعَلُهُمْ إِلَّا فَزِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

وانتقلت الآيات من بيان حال الشاكرين لنعمه تعالى إلى الحديث عن حال الكافرين المعرضين عن شكره والاعتراف بفضلِهِ وإحسانه:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ وسبأ: اسم رجل تنتمي إليه أكثر قبائل اليمن، ففي الحديث: عن فروة بن مسيك المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله؛ ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأذن لي في قتالهم وأمرني، فلما خرجت من عنده سأل عني: «ما فعل الغطيفي؟» فأخبرني أني قد سرت، فأرسل في أثري، فردني، فأتيته وهو في نفر من أصحابه، فقال: «ادع القوم، فمن أسلم منهم فاقبل منه، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحديث إليك» قال: وأنزل في سبأ ما أنزل، فقال رجل: يا رسول الله وما سبأ؟ أأرض أم امرأة؟ فقال ﷺ: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب،

فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار» فقال رجل: يا رسول الله وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة» [رواه أحمد (٢٤٣٠٧) والترمذي (٣٢٢٢) وحسنه].

وُقرئ ممنوعاً من الصرف باعتباره اسماً للقبيلة فيه العلمية والتأنيث. والمسكن محل السكنى، وهو كالدار يطلق على المأوى للجميع وإن كان قطراً واسعاً. وقرأ الجمهور: (مساكنهم) جمعاً أي: مواضع سكنائهم. وقوله: (آية) أي علامة دالة على كمال قدرته تعالى، وعظيم فضله وإحسانه وإنعامه ووجوب شكره.

﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: مجموعتان من البساتين تحيط ببلادهم عن يمينها وشمالها، وكل مجموعة لكثرة ظلالها وتقارب أشجارها كأنها جنة واحدة، وقرئ بالنصب: (جنتين) على المدح.

﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي: قيل لهم إما على لسان أنبيائهم أو بلسان حال الواقع الذي كانوا عليه: كلوا من رزق ربكم الذي أنعم به عليكم. ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ بالإقرار بفضله وطاعته وعبادته وحده.

﴿بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ أي: هذه البلدة التي يسر الله لكم فيها السكنى والرزق بلدة طيبة لطيب أرضها وهوائها وكثرة أرزاقها، وربكم الذي أنعم عليكم بها رب غفور يغفر للمقصرين في شكر نعمه سبحانه.

﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ (١٦).

﴿فَاعْرِضُوا فَاَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي: أعرضوا عن شكر الله تعالى، والتصرف المحمود فيما أنعم به عليهم، فسلبهم الله تعالى الرخاء الجميل الطيب الذي عاشوا فيه، وأرسل عليهم السيل الجارف، الذي سُمي سَيْلَ الْعَرِمِ، لأنه يحمل العرم في طريقه، وهي الحجارة لشدة تدفقه، فحطّم السد، وانساحت

مياهه على البساتين والجنان فدمرتها وأغرقتها، كما مر معنا، ثم قال تعالى يصف بعض ما ترتب على ذلك:

﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: بدلناهم بجنتيهم اللتين كانتا لهم جنتين خاليتين من الخيرات، وقد وصفهما الله تعالى بأنهما ذواتا أكلٍ خَمْطٍ، أي: شجر ذي شوكٍ مُرٍّ، ورائحة كريهة، وأما الأثل فهو نوعٌ من الشجر ذو شوكٍ كثيرٍ أيضاً، وقليل من السدرِ ذي الثمر. ثم أكد سبحانه كفرهم بنعمه الكثيرة عليهم فقال:

﴿ذَلِكَ جَزَائُهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ﴾ (٧).

أي: لا نجازي إلا شديد الكفر بنعم الله تعالى عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ لَمَّا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ شُكْرُهُمْ لَأَرْيَدَنَّكُمْ وَلَمَّا كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]. ويشبه موقفهم هذا موقف كثير من الأمم في عصرنا الحاضر، التي جحدت فضل الله تعالى عليها، وكفرت بنعمه. وقد يتساءل بعضهم: لكننا نرى بعض الأمم رغم كفرها وفجورها يمدّها الله تعالى!

فأقول: هذا استدراجٌ منه سبحانه لهذه الأمم ليزدادوا إثماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٧) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف]. ومر معنا في مناسبات كثيرة أن أعمار الأمم والشعوب ليست كأعمار الأفراد. ثم ذكر الله تعالى صورة من نعمه العظيمة عليهم، وما قابلوها من الجحود والكفران فقال:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمَأْمَئِينَ﴾ (١٨).

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً﴾ أي: بينة واضحة، فقد كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى واضحة متواصلة.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلناه بحسب ما يحتاج المسافرون إليه.
 ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: ومع تقارب مراحل سفرهم، فإنَّ الأمن حاصلٌ لهم في هذا السفر، سواء كان في الليل أو النهار.
 ولكن القوم سئمو النعمة، ولم يصبروا على العافية، وسألوا البلاء، وتمنَّوا طول الأسفار، والتباعد بين الديار:

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (١٩)

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ وهذه قراءة العامة، وقرأ ابن عامر: (ربنا بعد) ومعناها واحد، وقرأ يعقوب: (ربنا باعد) بفتح العين والdal على الخبر، كأنه تعالى قال: قربنا لهم أسفارهم فقالوا أشراً وبطراً: لقد بوعدت علينا أسفارنا^(١)، فالقوم جحدوا فضله تعالى عليهم.

﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: وجعلناهم يُتَحَدَّثُ بأخبارهم، وفرقناهم في البلاد كل تفريق، قال الشعبي: لحق الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، وأزد بعمان، وخزاعة بتهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، أي: مذاهب سبأ وطرقها^(٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكل من هو كثير الصبر والشكر، فهو صبار عن المعاصي، شكور للنعم، فهو المتمتع بالآيات والمواعظ.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠)

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي: حقق إبليس عليهم ظنه، أو وجده صادقاً، وقرئ بالتخفيف: (صدق) أي: صدق في ظنه.

(١) تفسير القرطبي: ٢٩١/١٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

﴿فَاتَّبِعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اتبعه أهل سبأ.

ويمكن أن يكون المراد بني آدم، إلا فريقاً هم المؤمنون لم يتبعوه، فالإيمان عصمهم من اتباع الشيطان والوقوع في شرك إضلاله وإغوائه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ﴾ أي: وما كان لإبليس على الذين صدق ظنه فيهم تسلط وقهر وإجبار.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ﴾ ولكن ابتليناهم بوسوسته لنميز بين المؤمن بالآخرة ومن لا يؤمن بها.

فالشؤون كلها منكشفة لعلم الله تعالى أزلاً وأبدأً، فالعلم هنا محمول على التمييز والإظهار.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ﴾ أي: رقيب أو حافظ، لا يعزب شيء عن علمه جل وعلا كما سبق في صدر السورة.

المخلق والأمر والتدبير

﴿قُلْ أَدْعُوا إِلَيْكَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِثْمٌ مِّن ظَهِيرٍ﴾ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَدْرَكَ لَهُ حَقٌّ إِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢٣)

وأمرت الآيات النبي ﷺ تأكيداً لهذه الحقيقة أن يقول للمشركين بأسلوب التحدي والتوبيخ:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢).

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: زعمتموهم آلهة من دون الله، ادعوهما لما ينزل بكم من نوازل لكي يجلبوا لكم نفعاً، أو يدفعوا عنكم ضرراً. ثم أجاب عنهم الجواب المتعين الظاهر الذي لا يقبل المكابرة والمجادلة فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فهم لا يملكون شيئاً مهما كان صغيراً في السماوات ولا في الأرض. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ﴾ أي: وليس لهم أيضاً شركة مع الله تعالى في تدبير أمرهما، فهو ﷻ وحده المتفرد في الخلق والتدبير.

﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي: وما له سبحانه من معين يعينه على تدبير أمر مخلوقاته كما قال جل وعلا: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فالخلق والأمر والتدبير لله وحده في الدنيا، وله أيضاً في الآخرة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢٣).

﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ﴾ أي: إلا لمن أذن الله له أن يشفع. وقرئ: (أذن له) بضم الهمزة.

ثم وصفت الآية هول الموقف وشدة ما يعترى الشافعين والمشفوع لهم: ﴿حَقٌّ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفرع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٤).

ودلت كلمة (حتى) على أنَّ ثمة انتظاراً للإذن وتوقفاً وفرعاً من الراجين للشفاعة والشفعاء، هل يؤذن لهم أم لا يؤذن لهم^(١).

وقرأ ابن عامر ويعقوب: (فَرَعَ) على البناء للفاعل.

سأل بعضهم بعضاً:

﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ أي: في الشفاعة.

﴿قَالُوا الْحَقُّ﴾ قالوا: قال القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

وقرئ بالرفع؛ أي: مقولة الحق^(٢).

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: وهو ذو العلو والكبرياء فلا يتكلم أحدٌ إلا بأذنه.

واستمرت الآيات تقرر كمال الحق سبحانه واستحقاقه وحده للعبادة، وأن شؤون التدبير كلها منوطة بمشيئته وقدرته.

* * *

الجدل المنصف

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَعْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو تأكيد لما سبق تقريره من كون

(١) تفسير النسفي: ٤/١٦٠.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤/١٦٠.

آلتهم لا تملك مثقال ذرة من السموات والأرض، أمر رسول الله ﷺ أن يوجهه إليهم متحدياً وموبخاً؛ أي: من يخلق لكم هذه الأرزاق النازلة من جهة السماء والخارجة من الأرض؟.

﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وهو الجواب المتعين لهذا السؤال، والقوم مقرؤون به في قرارة نفوسهم.

﴿وَلِئَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وهو كلام في غاية الإنصاف جاء بعد ما تقدم من التقرير البليغ الدال دلالة ظاهرة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، وهو أبلغ من التصريح، لأنه في صورة الإنصاف المسكت للخصم.

وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال، لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد، يركضه حيث يشاء، والضال كأنه ينغمس في ظلام، لا يرى أين يتوجه^(١).

والجدل على هذا النحو المذهب أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين عن الإذعان والاستسلام، وهو في غاية الإنصاف والاعتدال والأدب في الجدل القرآني، يوجه الرسول ﷺ ليقول للمشركين: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يترك تحديد المهتدي منهم والضال إلى التدبر والتفكر من غير أن تغشى عليه العزة بالإثم والعصية العمياء، فالنبي عليه الصلاة والسلام هادٍ ومعلم يبتغي هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم^(٢).

وتابعت الآيات تبين للنبي عليه الصلاة والسلام أفضل أساليب الجدل المنصف والمفحم للخصم:

(١) تفسير النسفي: ١٦١/٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٢٩٠/٥.

﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٥).

وهذا أيضاً أدخل في الإنصاف من الأول، وأبلغ حيث أسند الإجماع إلى أنفسهم، وهو مزجور عنه محذور، وأسند العمل إلى المخاطبين، وهو مأمور به مشكور. ولا بد بعد هذا أن يستبين الحق ويظهر:

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٦).

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يجمع ربنا بيننا يوم القيامة، ثم يحكم بيننا بلا جور ولا ظلم. ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: وهو الحاكم العليم بالحكم والحق.

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧).

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ بأي صفة ألحقتهم بالله في استحقاق العبادة.

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر وتنبيه، فالقياس باطل وفاسد، ولا يشاركه أحد في استحقاق العبادة.

﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بل هو الله المتصف وحده باستحقاق العبادة وكمال القدرة وتمام الحكمة.

الرسول البشير النذير

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِكَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آغْنَاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وبعد أن قررت الآيات عقيدة التوحيد بكل هذا الوضوح والإلزام، وهي أساس رسالة الرسول ﷺ، التفتت إلى النبي ﷺ تؤكد صدق رسالته، وتبين ما امتازت به عن غيرها من رسائل الأنبياء والمرسلين.

وكان الآيات أرادت إظهار المنزلة الرفيعة للنبي ﷺ، ورد الأقوال القبيحة التي صدرت عن المشركين في حقه عليه الصلاة والسلام، والتي حكمتها السورة عنهم في صدرها؛ وهي قولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَئِكُمُ إِذَا مَرِقْتُمْ كُلٌّ مُمْرِقٌ لِنَافِي خَلْقٍ جَسَدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ].

فهذا الرجل الذي قال الكافرون فيه هذا القول هو صفوة الله تعالى من خلقه، المرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وجهل الجاهلين لا يغير هذه الحقيقة ولو كانوا أكثر الناس:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنك الرسول البشير النذير الذي أرسل إلى الناس كافة عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأحمرهم، وهذه من خصائصه التي

خصه الله بها عليه الصلاة والسلام.

ففي الحديث الشريف: قال الرسول ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَبِيبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَايْمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّغْبِ بَيْنَ يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ» [رواه مسلم (٥٢١)].

وبعد أن بينت الآيات صدق الرسول ﷺ، وما خصَّه الله تعالى من خصائص، عادت إلى بيان صورٍ من عناد المشركين وجحودهم، ومنها إنكار يوم الحساب والجزاء وتساؤلهم قائلين:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾

ويأتي الجواب على هذا التساؤل متلبساً بالتهديد والوعيد، مطابقاً لما قصده من التعنت والإنكار:

﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

أي: لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال، ولا التقدم إليه بالاستعجال. وأظهرت الآيات هنا الارتباط الوثيق بين دعوة الأنبياء والرسول وتقدير المسؤولية والحساب، وهي أساس دعوة جميع المرسلين عليهم الصلاة والسلام، وهو ما دفع المشركين الذين عارضوا دعوة النبي عليه الصلاة والسلام إلى إنكار جميع الرسالات:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣١﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وما إن فرغت

الآية من حكاية قولهم الذي يدل على شدة عنادهم وجحودهم، حتى انتقلت مباشرة إلى وصف أحوالهم يوم القيامة، وهي تخاطب النبي عليه الصلاة والسلام وتثبتته في مواجهة عنادهم وجحودهم، فيوم القيامة أمرٌ ضروري لا يجحده إلا المعاندون:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: محبوبون عند ربهم.

﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أي: يردُّ بعضهم على بعض، ويجيب بعضهم بعضاً، بعد أن كانوا في الدنيا متحابين متعاونين.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: يقول الأتباع للزعماء والرؤساء: لولا إضلالكم وصدُّكم إيانا عن الإيمان لكنا مؤمنين.

ويردُّ عليهم الزعماء والرؤساء بأسلوب الإنكار والتفريع:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾ (٣٢).

أي: بل دخلتم الكفر باختياركم وأجرمتكم بنظر منكم.

ولكن الأتباع يصرون على تحميل رؤسائهم تبعة ضلالهم بتذكيرهم بمكرهم الشديد المستمر في الليل والنهار:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْأَيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: بل كفرنا بسبب مكركم الدؤوب المستمر في الليل والنهار، فما كان الإجراء من جهتنا، بل من جهة مكركم وكيدكم في الليل والنهار. ولما رأوا العذاب الذي ينتظرهم أخفى كل فريق ما اعتراه من مشاعر

الأسف والندم عن الفريق الآخر، فهي - كما قال سيد قطب رحمه الله - حالة الكمد الذي يدفن الكلمات في الصدور، فلا تنفّوه بها الألسنة، ولا تتحرك بها الشفاه: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ ويمكن أن يكون المعنى: أظهروا الندامة لما رأوا العذاب بسبب شدتها، فلم يستطيعوا إخفاءها، فإن كلمة (أسروا) من الأضداد تصلح للإثبات وللإسلب^(١).

﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَظَ فِي أَغْنَايِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: وجعلنا قيود الحديد في أعناق الكافرين من أتباع ومتبوعين.
وهذا تقرير لمسؤوليتهم سواء كانوا أتباعاً أو متبوعين.

* * *

تصحيح القيم وتعديل الموازين

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٤) ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣٥) ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّقَّ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ حِزَابٌ يَّصْعَقُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ (٣٨) ﴿قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّقَّ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُكُلَا إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعِدُّونَ﴾ (٤٠) ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَإِشْنَا مِنْ دُوبِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعِدُّونَ الْجَنَّةَ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾ (٤١) ﴿قَالُوا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ نِعَاضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَقُولِ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا دُفَعُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٢)

ولا شك أن مسؤولية رؤساء الضلال وقادة الكفر أكبر، بسبب ما كانوا عليه من ترفٍ وفجورٍ، ومسارعتههم إلى معارضة دعوة الأنبياء والمرسلين، وهو

ما قررته الآيات الكريمة في معرض مواساتها للنبي ﷺ عما يلقاه من عناد رؤوس الشرك والكفر في قومه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ .

فسبب مسارعتهم إلى الكفر اغترارهم بما هم فيه من ثراء وقوة، فإن انغماسهم في حياة الترف والفجور طمس بصائرهم، فعكس القيم والموازن في نظرهم، حتى ظنوا أن غناهم وترفعهم ينجيهم من المسؤولية والجزاء:

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ .

أي: وما نحن بمعذبين يوم القيامة إن كان هذا اليوم حقاً. هكذا أدخل الترف والفجور الخلل على تفكيرهم، وهذا يبين لنا ضرورة إرسال الرسل لإعادة الموازين المختلة إلى وضعها الصحيح، فالناس لا يتفاضلون بأرزاقهم إنما يتفاضلون بأعمالهم:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق، وهو ضد (يبسط). وفي قراءة: (يقدر) بالتشديد. فلا يدل بسط الرزق على رضا الله تعالى، ولا يدل التضيق على سخطه أيضاً.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون هذه الحقائق، فهم محتاجون إلى رسالة الرسل ليضعوا لهم الأمور في مواضعها الصحيحة، ويواجهوهم بالحقائق الواضحة بلا لبس ولا غموض:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ أَضْعَافٌ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ فهي قيم زائلة وزائفة لا تقربكم

عند الله .

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي: فأولئك الذين يلتزمون طريق الإيمان والعمل الصالح لهم المكانة الرفيعة عند الله ولهم جزاء الضعف يوم القيامة، وهو اسم جنس؛ أي: لهم التضعيف، بعضهم يُجازى إلى عشرة، وبعضهم يصل جزاؤه بفضل الله إلى سبعمئة، كما قال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ولهم مع هذا الثواب الكبير أيضاً الأمن والطمأنينة في الدرجات العاليات في الجنة:

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾.

وأما المسرفون المترفون الذين يسارعون إلى معارضة دعوة المرسلين:

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي: يسعون في إبطال آياتنا ظانين أنهم يفوتونا. ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وهم الذين سبق ذكرهم في صدر السورة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ﴾. إن موضوع اختلاف الناس في الأرزاق قد أحدث في المجتمعات البشرية خللاً كبيراً في المعاملات والأخلاق، ولهذا اهتمت الآيات ببيان حقيقته، وأنه منوط بمشيئة الله وحكمته:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ فكما يحدث التفاوت في الرزق بين الأشخاص، يقع أحياناً للشخص الواحد باختلاف الأحوال والأوقات، والله تعالى كما يوسع الرزق ويضيقه على الأشخاص، يوسعه أحياناً

بالنسبة للشخص الواحد، ويضيقه عليه، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين، وما سبق في شخصين أو أكثر فلا تكرير^(١).

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ أي: ما أنفقتم من شيء في سبيل الله فهو يعوضه عاجلاً أو آجلاً.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ أي: وهو سبحانه خير من يُعطي ويرزق، فكل من يرزق غيره من سلطان أو رب أسرة فإنما يرزقه من رزق الله تعالى.

هكذا أظهرت الآيات ضرورة الرسالات الإلهية للمجتمعات البشرية، فمن دونها تختل القيم، وتنعكس الموازين، ويسري الخلل والاضطراب إلى حياة الناس، وكل هذه القيم تدور في فلك العقيدة الصحيحة، وتتفرع عنها، ولهذا كانت قضية التوحيد أهم القضايا التي نادى بها المرسلون عليهم الصلاة والسلام، وكل خلل واضطراب في حياة الناس مرده إلى انحراف الناس عن هذه العقيدة.

ومن مظاهر الشرك التي أحدثت الخلل والفساد في حياة المجتمعات البشرية قبل الإسلام، تقديس الملائكة، والتوجه إليهم بالعبادة، إذ عبد بعض مشركي العرب الملائكة طمعاً في شفاعتهم، وهو ما اهتمت الآيات الكريمة في السورة ببيان بطلانه:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

وهو استفهام تقرير وتبكي لمن عبدوا الملائكة.

وفي قراءة: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ﴾ بالنون فيهما.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ أي: نحن نتولاك ولا نتولاهم، فبينوا

بهذه الموالاة براءتهم من الرضا بعبادة المشركين لهم، فمن كان موالياً لله تعالى وحده فهو بريء من كل مظاهر الشرك وأنواعه.

﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: بل كانوا يعبدون الشياطين؛ حيث أطاعوهم وتأثروا بوساوسهم وإغوائهم.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٢).

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: ففي هذا اليوم لا يملك أحدٌ منفعة ولا مضرة لأحد، إذ الأمر يوم القيامة لله تعالى وحده.

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: ونقول للذين وضعوا عبادتهم وطاعتهم في غير موضعها: ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون.

حيرة واضطراب

﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا ءَانِيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُوهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَانِيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

فلا سبيل لتصحيح مسيرة البشر على هذه الأرض إلا بعودتهم إلى الرسالات الإلهية، التي ختمها تعالى برسالة النبي عليه الصلاة والسلام، فمن دونها يقع الاضطراب، ويعم الشقاء، ولقد اهتمت آيات السورة بإبراز هذا المعنى من خلال حديثها عن مواقف المعارضين لدعوته عليه الصلاة والسلام، فعندما كان يتلو عليهم آيات التنزيل الحكيم، كانوا يشيرون إليه قائلين:

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَتَنَتَّى قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَتَنَتَّى قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤَكُمْ﴾
أي: يريد أن يصرفكم عما كان يعبد آباؤكم.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: عن القرآن الكريم.

﴿مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى﴾ أي: ما هذا إلا كذب مختلق.

ثم أنكروا أمر النبوة كله ووصفوه بأنه سحر:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: قالوا ذلك من غير تدبر ولا تأمل.

وأظهرت الآية ما في أقوالهم من تناقضٍ وتهافتٍ من خلال تكرير فعل القول، مما يدل على حيرتهم واضطراب مواقفهم، فليس لهم أي دليل سمعي أو عقلي يؤيدهم:

﴿وَمَا ءَايَتُنَّهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿وَمَا ءَايَتُنَّهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: ما أعطيناهم كتباً يحتاجون بها على صحة شركهم وكفرهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي: وما أرسلنا إليهم قبلك نذيراً يدعوهم إلى الشرك، ويتوعددهم على تركه.

ثم توعددهم سبحانه بسنة من سننه في إهلاك الأمم المكذبة قبلهم:

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَتْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَتْنَاهُمْ﴾ أي: ما بلغ مشركو مكة

معشار ما آتينا المكذبين قبلهم من طول الأعمار، وقوة الأجسام، وكثرة الأموال، ولقد أهلكهم الله لما كذبوا الرسل، وهي سُنَّة من سننه الماضية في الأمم قبلهم.

﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان إنكاري عليهم بتدميرهم وإهلاكهم، فليحذر هؤلاء المعارضون لدعوة الرسول ﷺ أن يكون مصيرهم مثل هذا المصير.

وأفاد جعل التدمير إنكاراً، وتنزيل الفعل منزلة القول، تشديداً في الوعيد ومبالغة فيه.

ويمكن أن يكون المراد من قوله: ﴿وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ما بلغ الذين من قبلهم معشار ما آتينا قوم محمد ﷺ من البيان والبرهان، وذلك لأن الكتاب الذي أنزل عليه أكمل من سائر الكتب وأوضح، ومحمد عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الرسل وأنصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، ثم إن المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل، أنكر عليهم، فكيف لا ينكر على من كذبوا بأفصح الرسل وأوضح السبل^(١).

* * *

دعوة إلى التفكير الهادئ

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفُرَدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ حِجَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ آخِرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ آخِرَىٰ إِلَّا
عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢٧﴾﴾

ومرة ثانية دعتهم الآيات إلى التفكير بإنصاف وروية وموضوعية في أمر النبي عليه الصلاة والسلام، لكي يعرفوا حقيقته، ويتبينوا صدقه:

(١) تفسير الرازي «مفاتيح الغيب»: ٢٦٨/٢٦.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرَدَىٰ ثُمَّ تَنَفَّكُورُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَحْدَةٍ﴾ أي: إنما أدعوكم لخصلة واحدة، إن فعلتموها أصبتم الحق، وتخلصتم من الباطل، وهي:

﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفَرَدَىٰ﴾ أي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً لا لحماية ولا لعصبية، بل لطلب الحق، متفرقين اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، فإن الاجتماع والازدحام يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من رؤية الحقيقة، إذ يقل معه الإنصاف، ويثير دواعي التعصب، أما التفكير الهادي المتزن بانفراد أو بحضور شخص واحد فقط، فإنه يساعد على معرفة الحقيقة، والإذعان لها، فإن الإنسان شديد التأثير بما يحيط به، وكثيراً ما يقع في شرك ما حوله من أضاليل وأباطيل.

﴿ثُمَّ تَنَفَّكُورُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: ثم تتفكروا بإخلاص وتجرد، فتعلموا حقيقة محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه نبي نذير صادق، لا جنون فيه كما زعموا.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ما هو إلا نذير صادق يحذركم من عذاب شديد إن لم تؤمنوا به و تصدقوا برسالته.

وأنه أيضاً منزه عن أي نفع دنيوي وكسب مادي، فدعوته خالصة لله تعالى، ولا شك أن هذا من أدلة صدقه، ولهذا أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفي مسألة الأجر من الأساس، كما تقول: ما لي في هذا فهو لك، أي ليس لي فيه شيء.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: وهو رقيب وحافظ على كل

شيء ويعلم أنني لا أطلب الأجر منكم، بل أطلبه من الله الذي أرسلني، ومن طلب أجره من الله زهد بما عند الناس.

* * *

جاء الحق وزهق الباطل

﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ ۝٤٨ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾.

﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ ۝٤٨﴾.

﴿قُلْ إِنْ رَّبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يلقي الحق على من يشاء من عباده ليزهق به الباطل فيبطله ويدمغه، فمن يقف للحق الذي يقذف به الله تعالى؟!.

وهذا وعدٌ بإظهار الإسلام وتمكينه وتأييده ونصره، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿عَلَمُ الْغُيُوبِ﴾ أي: المحيط علمه بجميع الغيوب، وهو جمع غيب، وهو الذي غاب وخفي خفاء كبيراً، فالله سبحانه لا يخفى عليه شيء، وهو يقذف عن علم، ولا يخفى عليه هدف، أو هو تعالى يعلم عواقب الأمور، ومراتب الاستحقاق، فيعطي على حسب ذلك.

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾.

أي: قل جاء الحق، وزهق الباطل بمجيئه واضمحله، فلا قدرة له على مواجهة الحق.

ولنتذكر أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام لما أُمِرَ أن يقول لهم هذا، كان في أوج مواجهته للشرك والمشركين، فكم في هذه الآية من تثبيت له عليه الصلاة

والسلام وتأيد وتبشير، ولقد تحقق ذلك لما دخل عليه الصلاة والسلام المسجد الحرام يوم فتح مكة، وكانت الأصنام منصوبة حول الكعبة، وجعل يطعن الصنم منها ويقرأ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩] فتتكس الأصنام وتتحطم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة^(١).

وصدق ابن مسعود رضي الله عنه، فمنذ جاء القرآن الكريم استقر منهج الحق واتضح، ومهما يقع من غلبة مادية للباطل في بعض الأحوال والظروف، فهي ليست غلبة على الحق، إنما هي غلبة على المتممين إلى الحق، وهي موقوتة زائلة^(٢).

فالحق واضح أبلج، ولا عذر لمن ضل عنه، وضلاله نابع من نفسه:

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رِيتُ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ (٥٠).

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي﴾ أي: إن وبال ضلالي على نفسي، لأن أسباب الضلال نابعة منها.

﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رِيتُ﴾ أي: وإن وفقت إلى معرفة الحق واتباعه، فبتسديد من الله تعالى وتوفيقه.

وهذا يدل على كثرة أسباب الضلال وقوتها، وشدة تأثيرها على الإنسان، كما تدل على شدة حاجة الإنسان إلى وحي الله تعالى وإرسال الرسل، فلا يستغني الإنسان بحال من الأحوال عن رسالة المرسلين.

﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يسمع أقوال المهتدين والضالين، ويعلم أحوالهم وشدة حاجتهم إلى وحيه ورسالة رسله.

إيمان البأس

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّزِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

وفي ختام السورة توجهت الآيات بهذا الخطاب، ذي الأسلوب المتميز إلى النبي ﷺ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا فَوْتَ﴾ أي: ولو ترى يا حامل الرسالة فزعهم عند خروجهم من قبورهم لرأيت أمراً عظيماً وهولاً فظيماً، فلا مهرب لهم منه ولا نجاة. وحذف جواب (لو) تعظيماً له.

وقد أكدت الآية مضمون ما سبق في أول السورة: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ فحيث ما كانوا فإنهم من الله قريب، فلا نجاة لهم من قبضة قدرته جل وعلا.

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ ءَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ﴾ أي: آما بالحق الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، وهو إيمان اليأس أو البأس الذي جاء في غير أوانه، فلا يقبله الله منهم.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: وكيف يتناولون الإيمان وهم بعيدون عنه؟! فقد كان الإيمان في الدنيا قريباً منهم فأعرضوا عنه وكفروا به.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

فحالهم كحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد، فلا شك أن رميته غير موفقة ولا مسددة، ولن تصيب هدفها.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ أي: حيل بينهم وبين ما يشتهون من الرجوع إلى الدنيا، كما فعل بأفعالهم ونظرائهم من كفار الأمم السالفة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: كانوا في شك قوي من أمر الرسول ﷺ ومن يوم الحساب والجزاء، وهامهم اليوم في يقين بعد هذا الشك المريب.

وكان الآية أشارت إلى ما صدر منهم من أقوال سبقت في أول السورة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ...﴾ [سبأ: ٣]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ لَنِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].



تفسير سورة فاطر
الاختلاف في المخلوقات، ووحدۃ الخالق
في سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمِ
وَمَوْضُوعِ السُّورَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه من الأدلة الدالة على كمال قدرته تعالى؛ وطلاقة مشيئته، الاختلاف في أشكال المخلوقات وأجناسها وأنواعها وألوانها وخصائصها... إلخ، مع ما بينها من تعاون واتصال، وما يحكمها من سنن كونية، ويستوي في ذلك الاختلاف في المخلوقات الخفية كالملائكة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنَحٍ مثنًى وثلاث وربعم يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ [فاطر: ١]. والمخلوقات الظاهرة كالأحياء الذين يعيشون على الأرض: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الآية [فاطر: ١١].

وكالبحار العذبة والمالحة: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ الآية [فاطر: ١٢].

وكالاختلاف في الليل والنهار: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ الآية [فاطر: ١٣].

وكالاختلاف في الثمار والجبال والدواب: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ١٣].

ومهما تنوعت أشكال المخلوقات، واختلفت أجناسها وألوانها، فكلُّها فقيرة إلى الله تعالى في إيجادها وإمدادها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذَا مَسَّكُهُمَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فسبحان الذي خلق الخلق على ما أراد للدلالة على كمال قدرته، وطلاقة مشيئته، وباهر حكمته.

وتظهر ظاهرة الاختلاف أيضاً عند المكلفين لتدل على أن لهم اختياراً وكسباً، وهو أساس مسؤوليتهم يوم الحساب والجزاء: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقدّر سبحانه بحكمته ورحمته تأخيرهم إلى أجل مسمى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

تلك هي الأفكار الأساس لموضوع السورة الذي يؤكد وحدة الخالق وكمال قدرته وطلاقة مشيئته وباهر حكمته.

أسأله تعالى أن ينور قلوبنا بنور معرفته وأن يغفر لنا ذنوبنا، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



تفسير سورة فاطر الاختلاف في المخلوقات، ووَحْدَةُ الخَالِقِ في سُورَةِ فَاطِرٍ

الاختلاف في أجنحة الملائكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبُّكَ يَرِيدُ فِي
الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ
فَلَا مَرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

بدأت سورة فاطر (وتسمى أيضاً سورة الملائكة) كما بدأت سورة سبأ بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ وهي السورة الخامسة التي لها البداية نفسها.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبُّكَ يَرِيدُ فِي
الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: موجد السماوات والأرض على غير مثال سبق.

فالفطر: الإبداع، أخرج عبد بن حميد والبيهقي في «شعب الإيمان» وغيرهما: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض،

حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يعني ابتدأتها^(١).

﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ أي: جاعل الملائكة وسائط يبلغون الرسالة إلى أنبيائه. أو: جاعلهم وسائط يوصلون إلى خلقه آثار قدرته.

﴿أُولَىٰ أجنحةٍ مثنًى وثَلثَ وربَّعٌ﴾ أي: ذوي أجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، بالمعنى المعروف للجنح عند العرب، بيد أننا لا نعرف حقيقته وكيفيته، فما ذكر في الآية يدل على الكثرة والتفاوت.

وقد أخرج البخاري [٤٨٥٦] ومسلم [١٧٤] والترمذي [٣٢٧٧]: عن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم]: رأى جبريل له ستمئة جناح.

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد سبحانه في أي خلق كان كل ما يشاء أن يزيده، فاختلف الملائكة في عدد الأجنحة منوط بمشيئته تعالى. ولهذا قرر في ختام الآية شمول قدرته لجميع الأشياء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم بين سبحانه كمال قدرته، وطلاقة مشيئته، في جميع المخلوقات الظاهرة والخفية، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، واختلاف جميع المخلوقات في الخصائص والصفات منوط بمشيئته وحده وحكمته:

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: ما يُطلق ويُرسل من رحمته فلا أحد يقدر على منعها وإمساكها.

والفتح: كناية عن العطاء، يدل على أن الرحمة من أنفس الخزائن وأعزها، وأفاد تنكير (رحمة) العموم، أي: أيُّ رحمة كانت من صحّة ورزق وعلم وحكمة إلى غير ذلك مما لا يحاط به، حتى إن عروة بن الزبير كان يقول في ركوب المحمل: هي والله رحمة فتحت للناس. وماذا يقول ﷻ لو أدرك زماننا ورأى السيارات والطائرات وغيرها من وسائل النقل الحديثة، فما أعظم رحمة الله تعالى بنا!.

وذكر بعضهم أن المطر والتوبة من الرحمة، والمراد التمثيل، فإن رحمته تعالى لا تُعد ولا تُحصى، ونعمه من آثار رحمته، وهي كما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: وأي شيء يمسكه تعالى فلا أحد يقدر على إرساله من بعد منعه وإمساكه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور، والذي يفعل كل ما يفعل حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وفي الآية دعوة إلى الانقطاع التام إلى الله تعالى، والإعراض عمّا سواه ﷻ، وإراحة البال عن التخيّلات الموجبة للتهوّيش وسهر الليالي.

وقد أخرج ابن المنذر: عن ابن عبد قيس، قال: أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا قرأتهنَّ، فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي:

- ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

- ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾

[يونس: ١٠٧].

- ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] ^(١).

تحذير وتثبيت

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَصِلْ أَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَكُنْ لَهُ حَسْرَةٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْفِنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

ثم توجهت الآيات تنادي كل الناس، مذكرة لهم بنعمه تعالى التي لا تحصى، داعية لهم إلى توحيدهِ وإفراده بالعبادة، فكما أنه تعالى المستقل بالإيجاد والإمداد والخلق والتدبير، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: راعوها و احفظوها بمعرفة حقها، وحقها تخصيص العبادة والطاعة بمولاها وخالقها.

﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؟! أي: لا خالق إلا الله تعالى

يرزقكم بما ينزل عليكم من جهة السماء كالمطر، وما يخرج لكم من الأرض كالنبات.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْكُوتُ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو جل وعلا، فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك بعد هذا البيان ووضوح هذا البرهان. والقوم لم ينصرفوا عن عبادة الله إلا عناداً وجحوداً، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تواسيه عمّا يلقي من عنادهم وجحودهم:

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

أي: لك أسوة فيمن سلف قبلك من الرسل، فقد جاؤوا أقوامهم بالبينات، ودعوههم إلى التوحيد، فكذبوهم، وأعرضوا عنهم، وسيجزئهم الله على تكذيبهم أوفر الجزاء وأعدله، لأن مرجع الأمور كلها إلى حكمه ومشئته. وتنكير ﴿رُسُلٌ﴾ للتعظيم والتكثير الموجبين لمزيد التسلية والحث على التآسي والصبر على ما أصابه عليه الصلاة والسلام من قومه. ثم حذرت الآيات الناس من الاغترار بالدنيا، والتأثر بوساوس الشيطان:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرِتُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرِتُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ أي: إن وعد الله في الحساب والجزاء حق، فلا تخدعنكم الدنيا بلذتها وما فيها عن عمل الآخرة والسعي لها. ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: ولا يخدعنكم الشيطان بعفو الله تعالى ومغفرته، فيصرفكم عن طاعته وعبادته، فإنه يمنيكم الأمانى الكاذبة فاحذروه على دينكم.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: عاملوه معاملة العدو، وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم وأعمالكم.

﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي : إنما يدعو أشياعه وأولياءه ليكونوا من المعذَّبين معه في جهنم .

ثم بيَّنت الآيات أن الأمر كله مبني على الإيمان وتركه ، وليس مبنياً على وسوس الشيطان و نزغاته ، فليس للشيطان تسلط إكراه على أحد :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٧) .

وتساءلت الآيات تقريراً لهذا المعنى وتأكيذاً له :

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّهُ بُخْلٌ مُنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨) .

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ أي : أفمن زين له سوء عمله بتغلب هواه على عقله ، فرأى الباطل حقاً ، والقيح حسناً ، كمن لم يُزَيَّنْ له ، بل وفق إلى معرفة الحق واتباعه ؟ وحذف الجواب لدلالة سياق الكلام عليه .

﴿فَإِنْ أَلَّهُ بُخْلٌ مُنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي : فإن الله يضل من يشاء ممن علم استحقاقه للإضلال ، ويهدي من يشاء ممن علم أنه أهل للهداية ، وقد أكد تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها قوله سبحانه : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] .

ومنها أيضاً : ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] .

فالله عليم بأحوال خلقه ، وشأن الإضلال والهداية منوط بمشيئته تعالى .

﴿فَلَا نَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ﴾ أي : لا تغتم ولا تحزن بسبب إصرارهم على الكفر ، فإن أمر الهداية والإضلال لله تعالى وحده ، وهو القائل : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] .

والآية تشير إلى حالة يعاني منها الدعاة كلما أخلصوا في دعوتهم ، وأدركوا قيمتها وجمالها وما فيها من الخير ، ورأوا الناس في الوقت ذاته يصدُّون عنها

ويعرضون، ولا يرون ما فيها من الخير والجمال، ولا يستمتعون بما فيها من الحق والكمال، فعلى الدعاة أن يدركوا هذه الحقيقة التي واسى بها الله سبحانه رسوله ﷺ، فيبلغوا دعوتهم باذلين فيها أقصى الجهد، ثم لا يأسوا بعد ذلك على من لم يقدر له الله الصلاح والفلاح.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم على سوء عملهم وكسبهم.

ثم وصفت الآيات صورة من الصور البديعة الدالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وتدبير أمر مخلوقاته:

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّورُ ٩﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: الله هو الذي يرسل الرياح، فتحمل السحاب، وتسوقه وتجيء به، ودل اختلاف الأفعال على استمرار حدوث الظاهرة. ﴿فَسَقَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: أحيينا بالمطر النازل الأرض التي كانت يابسة هامدة، وعدل بالأفعال عن لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم للدلالة على اختصاص هذه الأفعال بقدرته تعالى. ﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ أي: مثل إحياء الأرض الموات نشور الأموات وبعثهم من قبورهم ليوم الحساب والجزاء.

العزة لله تعالى

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَوْمٌ ١٠﴾.

وبعد أن عرضت الآيات هذه الصور البديعة الدالة على كمال قدرته تعالى

وباهر حكمته، رسمت لذوي الأقدار الرفيعة والهمم العالية الذين تتطلع نفوسهم إلى القوة والمنعة، طريق الوصول إلى ذلك:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ ۖ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يريد الشرف والمنعة فإن العزة كلها مختصة بالله سبحانه، فليطلبها منه، فمن طلبها من الله بصدق وافتقار وخضوع وجدها عنده غير ممنوعة ولا محجوبة، كما قال النبي ﷺ: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» [رواه مسلم (٢٥٨٨)].

ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده، وقد ذكر سبحانه قوماً طلبوا العزة من سواه فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَخَذُونَ الْكُفْرَيْنَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

فأنبأك نبأً صريحاً لا إشكال فيه أن العزة له، يعزُّبها من يشاء، ويذل من يشاء^(١). ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فمن اعتر بالله أعزّه الله، ومن اعتر بغيره أذله، ففي الآية دعوة إلى طاعته تعالى وعبادته وحده، فمن كان يريد العزة فليطلبها من الله بطاعته، وهو ما بيّنه بعد ذلك بقوله:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فالكلم الطيب: التوحيد، والعمل الصالح هو العمل الموافق لشرعه تعالى، وصعودهما إليه مجازٌ عن قبوله إياهما، والضمير المقدر في (يرفعه) يعود على الكلم الطيب، فإن العمل لا يقبل إلا بالتوحيد^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٣٢٨/١٤.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي: ١٧٨/٥.

فالتوحيد هو الأصل، والعمل فرع عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم].

وأما العمل السيئ المخالف لدين الله فلا يؤدي بصاحبه إلا إلى الذل والهوان:

﴿وَالَّذِينَ يَمَكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورِثُ﴾ أي: وعملهم ضائع هالك.

الحياة أنفاس

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

ثم أكدت الآيات أن العزة لله تعالى ببيان كمال قدرته وعلمه وطلاقة مشيئته في داخل النفس البشرية وفي كيفية خلقها والأطوار المقدرة لها في حياتها، والاختلاف في الأصناف والهيئات والأعمال:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: والله خلقكم ابتداءً من تراب في ضمن خلق آدم منه. أو: خلق أجسادكم من تراب، فالمني يستخلص من الدم، وهو مستمد من الأغذية التي يتناولها الإنسان وهو من التراب.

ولعل المعنى الثاني هو الأظهر كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلقناكم من نطفة، وهو الماء القليل كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ بَيْنَتَيْنِ﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: ثم جعلكم أصنافاً ذكراً وإناثاً.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فأحوال الأجنة في بطون أمهاتها معلومة لله تعالى من بداية تكوينها إلى ولادتها كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

والنص مطلق يتجاوز إناث الإنسان إلى إناث الحيوان والطيور والأسماك والزواحف والحشرات وسواها مما نعلمه ولا نعلمه... وتصوير علم الله المطلق على هذا النحو العجيب ليس من طبيعة الذهن البشري أن يتجه إليه لا في التصوير ولا في التعبير، فهو بذاته دليل على أن الله هو منزل هذا القرآن^(١).

﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: وما يمدُّ في عمر أحدٍ، وسمي معمرًا باعتبار ما يؤول إليه، ولا يذهب من عمره بما يمرُّ منه وينقضي إلا في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، أو الصحيفة التي تكتبها الملائكة، والتي ذكرت في الحديث الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ: «يدخل الملكُ على النطفة بعدما تستقرُّ في الرحمِ بأربعين أو خمس وأربعين ليلةً، فيقول: يا ربَّ أشقيِّ أم سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أيُّ ربِّي أذكرُّ أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتبُ عمله وأثره وأجله ورزقه، ثم تُطوى الصحف، فلا يزادُ فيها ولا يُنقصُ» [رواه مسلم (٢٦٤٤)].

فحياة كل مخلوق محدودة ومقدَّرة وهي في نقص كما قال القائل:

حياتُكَ أنفاسٌ تُعدُّ فكلَّما مَضَى نَفْسٌ مِنْهَا نَقَصَتْ بِهِ جُزْءًا

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن كل ما سبق ذكره في الآية من خلق وتدبير يسيرٌ على الله جل شأنه.

* * *

البحران عذب ومالح

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِبَنُغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُبَشِّرُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾

ثم أضافت الآيات بيان بعض الظواهر الكونية الآفاقية الدالة أيضاً على كمال قدرته تعالى وحكمته وطلاقة مشيئته، مع ما فيها من اختلاف:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِبَنُغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: وما يستوي البحرين المالح و العذب في الخصائص والصفات؛ أحدهما شديد العذوبة، يكسر العطش، ويسهل شرايه، فيجري في حلوق الشاربين بيسر وسهولة. والثاني شديد الملوحة، ومع ذلك ففيهما منافع كثيرة للناس.

﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان، ومن المعروف أن اللؤلؤ يستخرج من البحار قرب مصبات الأنهار، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

ومن المعلوم أن المياه العذبة تنصب في البحار المالحة فيكون الإخراج منهما جميعاً.

ومن منافعهما أيضاً الملاحة البحرية :

﴿وَرَزَىٰ الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرٌ لِّبَنَافُثٍ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وترى السفن تشق الماء بسيرها فيه طلباً للرزق كالتيجارة والصيد.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على هذه النعم بطاعته وعبادته والاعتراف بفضلها.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل حسب نظام دقيق بديع يدل على كمال قدرته وحكمته.

فالاختلاف في الليل والنهار والشمس والقمر من الظواهر الكونية المشاهدة.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وسخّر لفائدتكم الشمس والقمر يجريان حسب نظام دقيق محكم إلى وقت معلوم، يدل على وحدة الخالق المبدع وكمال حكمته وسلطانه.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: خالق ومدبر هذه المكونات هو الله، له وحده الملك.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي: والآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله ما يملكون شيئاً ولو كان مقدار قطمير: وهو الغشاء الرقيق الذي يحيط بنواة التمر.

وهي أيضاً عاجزة لا تجلب نفعا ولا ضرراً:

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لكونهم حجارة جامدة.

أو: لا يسمعه سماع إجابة لعجزهم، ولهذا قال بعد ذلك:
﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لعدم قدرتهم وعجزهم.

أو: لو سمعوا لم ينفعوكم، وقيل: لو جعلنا لهم عقولاً وحياة فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم، ولما استجابوا لكم على الكفر^(١).
﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منه ويقرؤون ببطلانه.
﴿وَلَا يَنْتَفِكُ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: الخير هو الذي يخبر بحقيقة الأمر، والله هو العليم الخبير.

* * *

الفقراء إلى الله تعالى

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٧)

وبعد أن قررت الآيات هذه الحقيقة، وهي أن الخلق والتدبير لله تعالى وحده، وجهت مرة ثانية نداءها إلى الناس جميعاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥).

أي: أنتم محتاجون إلى الله في كل شيء والله هو الغني على الإطلاق، فلا تضره معصيتكم، ولا تنفعه طاعتكم، وهو المنعم المتفضل المحمود على إحسانه ونعمه.

وتعريف ﴿الْفُقَرَاءُ﴾ للمبالغة في فقرهم، فإنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء، أو إن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٣٣٦/١٤.

(٢) تفسير البيضاوي: ١٨١/٥.

فالإنسان أشد المخلوقات افتقاراً إلى الله ﷻ، ألا ترى إلى طول طفولته وكثرة احتياجاته وتشابكها وتعقدها.

ومما يؤكد كمال غناه ﷻ أنه غني أيضاً عن وجودهم:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٦).

فوجودهم غير لازم، بل هو منوط بمشيئته، فوجودكم لا ينفعه، وعدمكم لا يضره، كما قال هود عليه السلام لقومه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ﴾ [هود: ٥٧].

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (١٧).

أي: ممتنع، فلا يصعب عليه سبحانه، فإن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن؛ فيكون.

إن الناس بحاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة في معرض دعوتهم إلى الإيمان بالله، ليعرفوا فضله عليهم، وهم أيضاً بحاجة إلى تذكيرهم بهذه الحقيقة، حتى لا يغتروا بأنفسهم وحياتهم، فالغرور من أكبر أسباب الضلال الذي حذرتهم الآيات الكريمة منه في صدر السورة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٥).

وبهذا يظهر لنا التناسق والاحتباك بين هذين النداءين الموجهين للناس في السورة.

المسؤولية الشخصية والاختلاف فيها

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَرَكَنَّ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

وهم أيضاً محتاجون - دفعاً للغرور عن أنفسهم - إلى تذكيرهم بمسؤوليتهم الشخصية يوم القيامة عن أعمالهم وكسبهم، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَرَكَنَّ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، فالنفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها، لا وزر غيرها، فكل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها، متحيرة في أمرها.

﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ويوم القيامة إن تدع نفس مثقلة بذنوبها غيرها ليحمل عنها شيئاً من ذنوبها، لا يستجيب لدعوتها أحدٌ، ولو كان المدعو أقرب الناس إليها، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٥﴾ وَصَخْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَخْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْفَىٰ﴾ [المعارج].

وهذا لا يتنافى مع ما مر معنا في سورة العنكبوت [١٣]: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، فإنه في رؤوس الضلال وقادته الضالين المضلين، فإنهم يحملون آثام ضلالهم وإضلالهم.

وأشارت الآية إلى أن أحداً لا يحمل عن أحد شيئاً ابتداءً، ولا بعد السؤال يوم القيامة، وفي هذا تأكيد لثقل المسؤولية وأنها شخصية فردية، وأنهم مختلفون في مقدارها حسب اختلافهم في أعمالهم وسلوكهم.

ومع ذلك أعرض المعاندون عن دعوة القرآن الكريم، ولم تقشعر منه جلودهم، وترق له قلوبهم، فما أشد قسوتها! وما أعظم الفرق بين هؤلاء المعاندين المعرضين، وبين المؤمنين الخاشعين الذين اتجهت الآية إلى الثناء عليهم وهي تخاطب النبي ﷺ وكأنها تواسيه بهم عن إعراض المعاندين الجاحدين! فقد كان النبي ﷺ يتأثر من جحودهم وإعراضهم حتى قال الله له كما مرَّ معنا في السورة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [فاطر: ٨].

فإن أعرض هؤلاء عنك فثمة من يستجيب لك من المؤمنين الخاشعين:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: إنما يتعظ بهذه المواعظ والزواجر وينتفع بها الذين يخشون ربهم في خلوتهم، حيث لا يراهم أحد إلا الله تعالى، وهذا يدل على صدق إيمانهم وإخلاصهم، أو يخشون ربهم ولم يروه، لعلمهم أنه تعالى يراهم، وهذا يدل على وصولهم إلى مقام الإحسان، كما قال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].

وقد أثنى سبحانه عليهم في آيات كثيرة منها قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَشَرُّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ ذكر هذين المعنيين في صنفين من أصناف المؤمنين الذين يكونون يوم القيامة آمنين من أهواله في قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله... ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [رواه مسلم (١٠٣١)].

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوا الصلاة على الوجه المستقيم كما ينبغي، وجعلوها مناراً منصوباً، وعلماء مرفوعاً، لأنها عمود الدين.

وأشار اختلاف صيغة الفعلين (يخشون) و(أقاموا) إلى استمرارهم وبقائهم في كل أوقاتهم على خشية الله تعالى وتعظيمه ومراقبته، وإقامة الصلاة في أوقاتها، وأما خشيته تعالى ومراقبته ففي جميع الأوقات والأحوال.

وعادت الآيات تؤكد كمال غنى الله تعالى وأنه لا تنفعه طاعتهم فقالت:

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: ومن تطهّر بفعل الطاعات وترك المعاصي فإنما يتزكى لنفع نفسه، فهو المنتفع بعبادة ربه وطاعته، والله غني عن طاعته وعبادته، لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة، كما جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [رواه مسلم (٢٥٧٧)].

﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إلى الله المرجع يوم القيامة فيثيبهم على تزكية نفوسهم، فنفعها عائد عليهم في الدنيا والآخرة.

ودلت الآية على أن خشية الله تعالى في السر والعلن، وإقام الصلاة، من أعظم أسباب تزكية النفس وتطهيرها من دنس المعاصي والآثام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الاختلاف في السلوك والمصير

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴿٢٥﴾ وَبِالْكِتَابِ الْأُمِيرِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ أَحَدَثُوا الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْوِيرُ ﴿٢٧﴾﴾

وعادت الآيات مرة ثانية إلى مواساة النبي ﷺ عما يلقي من عناد المشركين وجحودهم، فذكرت مثالين يشيران أيضاً إلى التفاوت والاختلاف بين الناس في السلوك والمصير:

- المثال الأول:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾

أي: وما يستوي الأعمى عن رؤية بصائر الحق وأدلته الواضحة، والمؤمن الذي أبصر الحق، ورأى أدلته وبراهينه.

﴿وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾﴾

أي: ولا تستوي أيضاً ظلمات الكفر وما فيه من شهوات وأهواء، ونور الإيمان ببراهينه الساطعة وحججه الواضحة.

﴿وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾﴾

أي: ولا يستوي الثواب ولا العقاب.
و(الظل) الثواب في ظلال الجنة، و(الحرور): العقاب في النار.

فإذا اختلفت البدايات اختلفت النهايات، والتسوية بين المتفاضلات مصادم للحق، وهي ظلم وجور.

ويلاحظ الترتيب والاتفاق في الآيات بين الألفاظ والمعاني، فالكافر يعرض عن دعوة الرسول ﷺ كأنه أعمى لا يراها، بينما المؤمن يُقبل عليها لرؤيته لها، ويكون حال الكافر كحال من يتخبط في الظلمات، ويسير على غير هدى، بينما يكون حال المؤمن حال من يرى النور، فلا يضل عن الطريق، ومصير كل منهما إما الثواب وإما العقاب؛ وهما الظل و الحرور.

- والمثال الثاني:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۖ﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ أي: وما يستوي المؤمنون والكافرون، فالأحياء هم المؤمنون الذين أحيا الله قلوبهم بنور الإيمان، والأموات هم الكافرون الذين لم تسر في قلوبهم حياة الإيمان، ولم تذوق حلاوته، فالإيمان حياة للقلوب، والكفر موت لها كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: إن الله يسمع دعوتك من يشاء سماع إجابة، فينتفع بما يسمع، ويستجيب لها، وما أنت بمسمع سماع إجابة الأموات في القبور كما قال تعالى: ﴿فَأَنكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الضُّمَمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (٥١) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِنَّ إِن تَسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْمِعُونَ﴾ [الروم].

فالمراد سماع الإجابة، فلا يتعارض ما في هذه الآية الكريمة مع ما ثبت عن النبي ﷺ أن الأموات يسمعون.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم،

فقام عليهم، فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبوا^(١) وقد جُيِّفُوا؟ قال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ما أنتم أسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا» [رواه مسلم (٢٨٧٤)].

فالله سبحانه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه، فيهدي من يشاء هدايته، ويخذل من يشاء إضلاله، وأما أنت فخفي عليك أمرهم، فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

أي: ما أنت إلا نذير، فلا تحزن بسبب إعراضهم وعنادهم، فامض في تبليغ الرسالة مبشراً المؤمنين، ومنذراً المعرضين، فإنك على الحق الذي سار عليه جميع المرسلين.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

أي: وما من أمة إلا مضى فيها نذير، ومع أن هؤلاء المرسلين قد أيدهم الله تعالى بالمعجزات الدالة على صدقهم، فقد كذبتهم أممهم، وأعرضوا عن دعوتهم، كما كذبك قومك، وعاندوا دعوتك، لا بسبب تقصير الرسل، ولا نقص في الدليل، فلا تبال بهم وبتكذيبهم.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

أي: جاءتهم رسلهم بالبينات الواضحة الدالة على صدقهم وبالصحف المنزلة

(١) وقوله: (يسمعوا، يجيبوا) من غير نون، هكذا وجدت في عامة النسخ المعتمدة؛ وهي لغة صحيحة وإن كانت قليلة الاستعمال.

عليهم كصحف إبراهيم، وبالكتاب المبين للشرائع والأحكام كالنوراة والإنجيل.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٢٦﴾

أي: ثم عاقبت الذين كفروا فكيف كان إنكاري عليهم وتعذيبي لهم؟! وفي قراءة: (فكيف كان نكيري) في الوصل دون الوقوف عند ورش، وأثبتها يعقوب في الحاليين^(١).

* * *

الاختلاف في ألوان المكونات وجمالها

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

ومن دلائل الحق التي أبصرها المؤمنون، وعميت عنها أبصار الكافرين، صور الجمال والانسجام والاتساق الماثوثة في المكونات مع ما بينها من اختلاف في الألوان:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ وهي مع اختلاف ألوانها في غاية الانسجام والجمال.

﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ ومن الجبال طرائق وشعاب بيض وحمرة مختلف ألوانها .

والجدد: جمع جدة بالضم وهي الطريقة، وقيل: الجدد: القطع، مأخوذة من جددت الشيء إذا قطعته، فيكون المعنى: ومن الجبال قطع مختلف ألوانها .
﴿وَعَرَابِدٌ سَوْدٌ﴾ أي: ومن الجبال أيضاً غرايب سود .

والغريب: هو الذي أبعد في السواد، وأغرب فيه، وهو تأكيد للأسود، وكان من حق التأكيد أن يتبع المؤكد كقولك: أصفر فاقع، إلا أنه أضمر المؤكد قبله، والذي بعده تفسير للمضمر، وإنما يفعل ذلك لزيادة التوكيد؛ حيث يدل على المعنى الواحد من طريقي الإظهار والإضمار جميعاً^(١) .

ولا شك أن جمال المخلوقات يدل على وجود خالقها، وكمال حكمته ومشيتته لما فيه من دلالة على الإبداع والإحكام، وكثيراً ما نرى الآيات الكريمة تنبهنا إلى ظاهرة الجمال الماثلة في المكونات كدليل على وجوده سبحانه ونعمته وفضله، كقوله سبحانه: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولكم فيها جمال حيث تريحون وحين ترحون ﴿[النحل] .

ولهذا قال أيضاً:

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعَلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أي: كاختلاف الشمار والجبال، فقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ من تمام الكلام والوقوف عليه حسن بإجماع أهل الأداء^(٢) .

وبعضهم رأى أن كلمة (كذلك) تشير إلى اختلاف أحوال العباد في

(١) تفسير النسفي: ١١٥/٥ .

(٢) روح المعاني: ١٩١/٢٢ .

الخشية، فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جرير: أنه قال في الآية: كما اختلفت هذه الأنعام يختلف الناس في خشية الله تعالى كذلك. لكن الألوسي في «روح المعاني» قال بعد ذلك: هذا عندي ضعيف، والأظهر ما عليه الجمهور^(١).

ولكنني أرى أن هذا الرأي يتفق مع الحقيقة والواقع أكثر؛ فالناس في خشية الله تعالى متفاوتون كما سيأتي.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أي: إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به ﷺ، وبما يليق بصفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشي والعلم بشؤونه، فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى له ﷺ، فكأن الآية تكملة لقوله تعالى السابق: ﴿إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] تبين من يخشاه ﷺ من الناس^(٢).

و﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، فأفادت انتفاء العلم عمن لا يخشى الله.

وفي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ كان يقول: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا» [رواه البخاري (٢٠)].

وأفاد تقديم المفعول بيان الخاشعين، والإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، ولو أحر لكان المقصود بيان المخشي والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره كما في قوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

والمقام لا يقتضيه، بل يقتضي الأول، لكونه تعريضاً بالمنذرين المصرين على الكفر، وأنهم جهلاء بالله تعالى وبصفاته، ولذلك لا يخشون الله تعالى، ولا يخافون عقابه^(٣).

ويمكن أن تنسحب الآية أيضاً على العلماء ببعض ما في الكون من نظم ونواميس، فإن التفكير فيها بتجرد وإخلاص يملأ القلب خشية من الله تعالى

(١) المرجع السابق: ١٩٦/٢٢.

(٢) تفسير أبي مسعود: ١٥١/٤.

(٣) روح المعاني: ١٩١/٢٢.

الذي أبدعها وأحكمها، وقد حثتنا آيات كثيرة على التفكير والنظر في أسرار المكنونات لكي نعرف قدرته وعظمته ﷻ، ويكفي أن نذكر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾ [آل عمران].

ورحم الله سيد قطب الذي شبه المخلوقات بكتاب كوني جميل، كلما قرأ الإنسان فيه ازداد خشية الله تعالى وتعظيماً فقال: «وهذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات، العجيب التكوين والتلون، يفتحه القرآن، ويقلب صفحاته ويقول: إن العلماء الذين يتلونهم ويدرسونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله.. يعرفونه بآثار صنعته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه»^(١).

وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ: إِنَّمَا يَخَافُنِي مِنْ خَلْقِي مَنْ عِلْمَ جَبْرُوتِي وَعِزَّتِي وَسُلْطَانِي^(٢).

ولا شك أن رؤية أسرار الملكوت تملأ القلب خشية الله تعالى الذي أبدعها وأحكمها، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» [رواه مسلم (٢٣٥٩)].

وفي الحديث الشريف أيضاً: عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ أَنْ تَعْطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلِكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتُهُ لِلَّهِ سَاجِداً، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصَّعِدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تَعْصُدُ» [رواه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠)]. وقال الترمذي واللفظ له: هذا حديث حسن غريب. وأصله في الصحيحين مختصراً. وقوله: «أطت»: صوتت من ثقل ما تحمل.

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٢٩٤٣/٥.

(٢) تفسير الخازن: ١٥٨/٥.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي: إنه عَلِيمٌ أحق أن يُخشى، لأنه عزيز، وأحق أن يُرجى، لأنه غفور.

التجارة الرابعة

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (٢٩) لِيُؤْفِقَهُمُ أَحْوَرَهُمْ وَيَرْبِدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠).

ولا بد أن تظهر آثار خشيته تعالى في سلوك أصحابها، ومن أهم آثارها العملية ما ذكره سبحانه في معرض الثناء عليهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (٢٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أي: يداومون على قراءة القرآن الكريم، ويتبعون آياته علماً وعملاً.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: وتقربوا إلى الله بالعبادات البدنية كإقامة الصلاة، والعبادات المالية بإنفاق المال في الوجوه المشروعة سراً وعلانية، فهم ينفقون كيف ما اتفق، سراً وعلانية من غير قصد إليهما.

وفي كون الإنفاق مما رزقوا إشارة إلى أنهم لم يسرفوا في الإنفاق، وكونه جاء في معرض المدح مشعر بأنهم تحروا الحلال الطيب^(١).

(١) روح المعاني: ١٩٢/٢٢.

﴿يَرْجُونَ خَيْرًا لَّنْ تَكُونَ﴾ أي: يرجون تجارة لن تكسد ولن تخسر فهي تجارة رابحة مع الله. والرجاء: توقع حصول الثواب.

وفي إخباره تعالى عنهم بذلك إشارة إلى أنهم يتقربون إليه تعالى بأنواع الطاعات، وهم خائفون ألا تقبل منهم، وهي من صفات الصالحين الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٢١) أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿[المؤمنون].

ثم بين سبحانه مدى ربح تجارتهم بما يتفضل عليهم من الأجر الكامل والفضل العظيم فقال:

﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٢).

أي: ليعطيهم سبحانه أجورهم كاملة، ويزيدهم من فضله، فيغفر تقصيرهم في طاعته، ويتقبل عملهم القليل، ويجازيهم عليه الثواب الجزيل.

العباد المضطَّقون

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٣) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُؤْتِي اللَّهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَصْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٤﴾

والاختلاف في خشيته تعالى يؤدي إلى الاختلاف في طاعته وعبادته، وهو ما أبرزته آيات السورة، بعد أن مهدت له ببيان ما تفضل الله به على الأمة المسلمة بنعمة الاصطفاء والتكريم، لتحمل رسالة القرآن الكريم المنزلة على خاتم المرسلين:

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٣١).

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فالقرآن الكريم الذي نزل به الوحي على الرسول الكريم ﷺ هو الحق المصدق لما تقدمه من الكتب الإلهية وكل ما يخالفه باطل.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أي: إن الله تعالى عالم بالبواطن والظواهر، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح إليك مثل هذا الكتاب المعجز الشاهد والحاكم على جميع ما تقدمه من كتب، فهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولا يخفى ما في الآية من إشادة بالرسول ﷺ وتكريمه، فهو العلم الفرد المصطفى من بين سائر الخلق، لحمل رسالة الحق إلى جميع المكلفين من الخلق. وكما اصطفى الله الرسول ﷺ لتلقي رسالة القرآن الكريم وحملها إلى الناس، اصطفى سبحانه أيضاً أمته لتحمل رسالة القرآن من بعده فقال:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٢).

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: ثم أورثنا القرآن الكريم الأمة المسلمة التي اختارها الله تعالى من بين سائر الأمم، فجعلها أمة سيد الرسل ﷺ، وخصّها بحمل أكرم الرسالات وأكملها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ إِتْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

بيّن سبحانه أنه قدّر وحكم أن تحمل الأمة المسلمة رسالة القرآن الكريم

عن نبيها ﷺ لأنه خاتم النبيين والمرسلين، فتورث الكتاب لم يكن إلا لأمة محمد ﷺ، والأوائل لم يورثوه. و﴿أَصْطَفَيْنَا﴾ اخترنا وفضلنا^(١).

• التفاضل في حمل رسالة الإسلام:

يَبَيِّنُ سبحانه أنهم في حمل هذه الرسالة والقيام بتكاليفها متفاضلون ومختلفون:
﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أي: منهم ظالم لنفسه بتقصيره في حمل رسالة القرآن والعمل بها، فقد ظلم نفسه، وحرمها من شرف حمل رسالة القرآن الكريم والعمل بتكاليفها.

﴿وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: ومنهم متوسط، يعمل تارة لدينه وطاعة ربه، وينشغل تارة أخرى في العمل لشهواته ودنياه.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ﴾ أي: ومنهم متقدم على غيره في طريق الخيرات والأعمال الصالحات بتوفيق الله تعالى و تيسيره، فيصرف كل ما أوتي من وقت وجهد في طاعة ربه، وخدمة دينه، ونشر رسالته.

فالأقسام الثلاثة - كما قال ابن كثير - في هذه الأمة، والعلماء أغبظ الناس بهذه النعمة، وأولى الناس بهذه الرحمة؛ فإنهم كما روى كثير بن قيس قال: «قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو بدمشق فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: حديثٌ بلغني أنك تحدثت به عن رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا، قال: أما قدمت لحاجة؟ قال: لا، قال: أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم، قال رضي الله عنه: فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًا لِّطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ لِّلْعَالَمِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّىٰ الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالَمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ

لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافرٍ»
[رواه أبو داود (٣٦٤١ و ٣٦٤٢) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حبان (٨٨)].

وتشير كلمة (سابق) إلى صدق مشاعره وإخلاصه، وبذله أقصى ما يستطيع
في تحصيل الخيرات والفوز بالدرجات كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَيْقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي قوله: ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ تنبيه على عزة الرتبة، وصعوبة التحقق بها، إلا لمن
وفقه الله تعالى ويسرها عليه، فلا يستغني أرباب السلوك السائرون على طريق
الحق عن معونته تعالى وتيسيره، وعليهم دائماً أن يتوجهوا إليه خاشعين ضارعين،
يطلبون منه التوفيق والتسديد والثبات على الطريق كما في قوله الذي نردده في كل
صلاة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ⑤ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ [الفاتحة].

ومن الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ بعد كل صلاة: «اللهم أعني على ذكرك
وشكرك وحسن عبادتك» [رواه أبو داود (١٥٢٢) والنسائي (٥٣/٣) وابن حبان (٢٣٤٥)].
﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: ذلك الاصطفاء لتوريث الكتاب وحمل
رسالة الإسلام فضل كبير من الله تعالى عليهم من غير سابقة استحقاق.

دار المقامة

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ③ وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ④ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ
فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ⑤

وكما تفضل سبحانه عليهم في الدنيا بالهداية والاصطفاء ليكونوا من حملة
الرسالة الإسلامية، يتفضل عليهم أيضاً يوم القيامة بالمغفرة ودخول الجنة:

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ وقرئ: ﴿جَنَّتٍ﴾ بالنصب على الاشتغال، وفي تقديم جنات عدن وبناء الكلام عليها إيذان للاهتمام بها أكثر، فإن نظر السامع على المدخول فيه لا على نفس الدخول^(١).

بينما قال في سورة الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾ .

ثم فصلت الآيات بعض أنواع النعيم في الجنة إظهاراً لفضله تعالى عليهم: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي: يزيّنون في الجنة بأساور الذهب واللؤلؤ، أو من ذهب مرصع باللؤلؤ، ونُصب عطفاً على محل (من أساور)، وقرئ (لؤلؤ) عطف على ذهب.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي: ولباسهم من حرير الجنة كما في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَوِّنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمٌ أَثْوَابٌ وَحَسَنَتٌ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ .

أي: الحمد لله الذي أذهب عنا وأراحنا مما كنّا نخاف ونحذر من هموم الدنيا والآخرة، إن ربنا يغفر الكثير، ويُعطي الجزيل على العمل اليسير، وهو اعتراف منهم بتقصيرهم، وإقرار بفضله تعالى عليهم.

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: الذي أنزلنا الجنة دار الإقامة الدائمة بفضله لا بأعمالنا، كما جاء في الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» فقل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني ربي برحمة» وفي رواية: «وفضل» [رواه مسلم (١٨١٦)].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا يصيبنا فيها تعب ولا عناء، ولا يصيبنا فيها ما يتبعه من إعياء وفطور.

فالمراد نفي التعب الجسماني والنفساني، فلا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم، بل صاروا في راحة دائمة مستمرة.

* * *

الإعذار في الأعمار

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوهَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ مَا كُفِّرُوا وَلَا يَرِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ۝٣٩﴾

وكما عودنا الله في القرآن الكريم انتقلت الآيات من وصف حال المنعمين في الجنة إلى وصف حال المعذبين في النار، فهو أسلوب رفيع من أساليب التربية والتهديب في التنزيل الحكيم:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوهَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝٣٦﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُوهَا﴾ أي: لا يحكم عليهم بموت فيستريحوا من عذاب جهنم، فهم من شدة العذاب يتمنون الموت

ويطلبونه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿وَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل هم في زيادة مستمرة من العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ أي: مثل هذا الجزاء نجزي كل مبالغ في الكفر مصرّ عليه حتى الموت، أو نجزي كل مبالغ بكفران النعم لا جزاء أخف وأدنى منه.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (٣٧).

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: وهم يصرخون مستغيثين بجهد ومشقة، وهذا يدل على كثرة صراخهم حتى تعبوا فصاروا يعانون ويتألمون منه ويقولون: ربنا أخرجنا من النار لتتلافى ما فاتنا من العمل الصالح. ويأتي الجواب باستفهام فيه توبيخ وتقرير وإفحام:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾ أي: أولم نمهلكم حتى عشتم في الدنيا أعماراً يمكنكم فيها التفكير والتذكر والإيمان والعمل الصالح.

فالعمر حجة على صاحبه، وهو مسؤول عنه، وهو يتناول كل عمر يتمكن فيه المكلف من التفكير والتذكر مهما كان قصيراً، إلا أنَّ الحجة عليه أعظم، والتوبيخ في حقه أشد في العمر المتناول.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئٍ آخرَ أجله حتى بلغه ستين سنة» [رواه البخاري (٦٤١٩)].

المعنى: أنه لم يبق له اعتذار، كأن يقول: لو مُدَّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال: أعذر إليه: إذا بلغه أقصى الغاية في العذر، ومكَّنه منه^(١).

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي: وجاءكم الرسول ﷺ فأقام عليكم الحجة، وبيَّن

لكم طريق الهدى، وحذركم من الضلال، وقد يكون المراد جنس النذير، وهم الأنبياء ﷺ فكل نبي نذير أمته، ويؤيده أنه قُرئ ﴿النَّذْرُ﴾ جمعاً.

﴿فَذَوْقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير يمنعهم من العذاب. والمراد بالظلم: الضلال والكفر والشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

فلا يخفى عليه سبحانه شيء في السماوات والأرض، ويعلم ما تخفي الصدور، وما تنطوي عليه الضمائر، فهو سبحانه يعلم إصرار الكفار على كفرهم أبداً مهما عاشوا، ولهذا قدر خلودهم في العذاب، ويعلم سبحانه أيضاً أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر والعناد كما في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ثم بينت الآيات في مقابل هذا العذاب الشديد شناعة الكفر وشدة قبحه، وأن الناس مسؤولون عنه في جميع أجيالهم:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: الله جعلكم أجيالاً، يخلف بعضكم بعضاً في الأرض، وملّكم خيراتها، فمن جحد فضله تعالى فعليه وبال كفره لا على غيره، كما مرَّ معنا عند قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨].

فلا يتحمل أحد أوزار أسلافه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَمٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بُغْضاً أو أشد البُغْض والاحتقار، ومع زيادة البغض تزيد خسارتهم.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: إلا خسراناً وهلاكاً.

وأفاد التكرير في الآية بيان شدة قبح الكفر، ووجوب الحذر منه واجتنابه، فكل واحد من الأمرين - المقت والخسارة - يكفي للحذر منه، فكيف إذا ترتب عليه كلا الأمرين؟! وفي الآية إشارة لما سبق تقريره من كمال غنى الله تعالى، وأن كفر الكافرين لا يضره جل وعلا، فلا يعود وبال كفرهم إلا على أنفسهم.

* * *

الإيجاد والإمداد من الله وحده

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِذَا مَسَّكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤٢﴾

ثم شئت الآيات حملة ثانية على المشركين وشركائهم بعد أن بينت قبح الكفر وعواقبه الوخيمة، وأمرت النبي ﷺ أن يقوم بها:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٤١﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أخبروني عن شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله تعالى، أروني أي جزء خلقوا من الأرض؟ الأرض الممتلئة بالأجناس والأنواع والألوان التي سبق عرضها في الآيات! .

ولا يخفى ما في السؤال من تحدٍ لهم ولآلهتهم، وتقرير لعجزها وضعفها.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: أم لهم شركة مع الله سبحانه في خلق السماوات، وهذا أعظم استحالة من الأول، فمن عجز عن خلق جزء من الأرض فهو عن خلق جزء من السماوات أعجز.

﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: أم آتيناهم كتاباً ينطق بأننا جعلناهم شركاء، فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب، وفي قراءة: (على بينات) فيكون إيمانهم إلى أن الشرك خطير لا بد فيه من تعاضد الدلائل^(١).

فالشرك لا يستند إلى أي دليل عقلي أو نقلي، ثم كشفت الآية بأسلوب الإضراب سبب ضلالهم وشركهم.

﴿بَلْ إِنْ يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ما حملهم على الشرك إلا تغيير الشيطان ورؤساء الضلال الذي سبق التحذير منه في صدر السورة عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

وكما أنه سبحانه وحده الخالق والمدبر لأمر المكونات كلها، فهو وحده الذي يُمِدُّها بالوجود والبقاء، فهو قيوم السماوات والأرض جَلَّ جَلَلُهُ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي: إن الله يمنع السماوات والأرض من أن تزولا، بقاء المخلوقات كلها، واستمرار وجودها منوط بمشيئته وقدرته جَلَّ جَلَلُهُ، فهو وحده قيوم السماوات والأرض كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أي: ولئن قدر زوالهما ما أمسكهما أحد غيره.

وفي كلمة ﴿يُمْسِكُ﴾ إشارة إلى أثر الشرك الكبير الخطير على بقاء

المكونات واستمرار وجودها كما في قوله سبحانه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم].

فإنه تعالى ما أبدع هذه المخلوقات إلا ليعمرها المكلفون بطاعته وعبادته، وعندما لا يبقى أحد في الأرض يعبده ويذكره يقيم الله الساعة، كما في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله» [رواه مسلم (١٤٨)].

فالإيجاد والإمداد من الله تعالى، ويتوالى عطاء الله على مخلوقاته ببركة من يعبده ويذكره.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فلولا حلمه وغفرانه لزالَت السماوات والأرض.

* * *

اختلاف المواقف

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ﴾ (٢٦) أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ﴾ (٤٢) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۚ﴾ (٤٤) وَلَوْ يَوَاحِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ وَلَا كُنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَاتَتْ اللَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۚ﴾ (٤٥).

ومن المفارقات العجيبة أن مشركي العرب كانوا قبل بعثة النبي ﷺ ينتقدون أهل الكتاب بسبب تكذيبهم لرسولهم، واختلافهم فيما بينهم، ويقولون: لو أتانا رسول كما أتاهم ل نكونن أهدى منهم، فلما أرسل الله إليهم خاتم رسله ﷺ كفروا به، وكذبوه، وقد ذكَّروهم الله تعالى بتغير مواقفهم فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢﴾ .

أي: حلفوا بالله واجتهدوا في تأكيد أيمانهم لئن جاءهم نذير كما جاء الأمم قبلهم ليكونن أهدى منهم، فلما جاءهم محمد ﷺ ما زادهم إنذاره إلا تباعدًا عن الحق ونفوراً منه .

والجدير بالذكر أن الله سجّل عليهم هذا التغير والتناقض في المواقف في سورة الصافات وهو قوله: ﴿وَأَن كَانُوا يَقُولُونَ ۝٤١ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ۝٤٢ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٣ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٤٤﴾ .

ثم بيّن تعالى سبب ضلالهم وتغير مواقفهم فقال:

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن نَّجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۝٤٣﴾ .

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ أي: كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام لأجل الاستكبار في الأرض والمكر السيئ به عليه الصلاة والسلام، فالكبر والحسد أبرز أسباب ضلالهم وعنادهم .

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي: لا يحل ولا يحيط العمل القبيح إلا بأهله، كما ورد في المثل: من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيها منكبًّا .

فالأمور بعواقبها، والله تعالى يمهل ولا يهمل، ووراء الدنيا الآخرة: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] .

ومن مكر في غيره، ونفذ فيه المكر عاجلاً؛ ففي الظاهر هو الفائز، وفي الحقيقة الماكر هو الهالك .

وفي قوله: ﴿بِأَهْلِهِ﴾ دون أن يقول: إلا بالماكر؛ إشارة إلى أن من رضي

بالمكر وأعان عليه يندرج في زمرة أهل المكر^(١). أسأله تعالى أن يدفع عنا مكر الماكرين.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾
أي: ما ينتظرون إلا سنَّته تعالى بإهلاك المكذبين لرسولهم، وهي سنَّة ثابتة، لا يغيرها ولا يحولها عن أوقاتها.

فالأمور لا تمضي في الناس جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول، والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا إلى الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصلية، محصورة بين فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان^(٢).

وحتى يتأكدوا من هذه الحقيقة بأنفسهم دعتهم الآيات إلى الاعتبار بمصائر الأجيال قبلهم:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾^(٤٤).

فقد كان في الأمم قبل أهل مكة أكثر منهم قوة في العدد، فلم يمتنعوا من عذاب الله تعالى عندما نزل بهم، فلا يعجزه شيء في السماوات والأرض، إنه ^{عَلِيمٌ} كان ولا يزال عليمًا بجميع المكونات وقادراً عليها.

وتأخير عقاب المكذبين لا يعني تغييراً في سنَّته تعالى أو تحويلاً، فهو سبحانه حلیم غفور، والخلق والتدبير منوطان أبداً بمشيئته جل وعلا، ولهذا ختم السورة بتقرير هذه الحقيقة فقال:

(١) تفسير النيسابوري: ١١٠/٤.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٩٥٠/٥.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۝٤٥﴾ .

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: ولو يؤاخذ الله الناس بما يقتربون من المعاصي والآثام ما ترك على ظهر الأرض أحداً يدب عليها، فشؤم الكفر والفجور يعمُ وينتشر، كما قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝١٦١﴾ .

وقال هنا أيضاً:

﴿وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي: ولكن يؤخرهم ليوم الحساب أو إلى الأجل المقدر لإهلاكهم، فإذا جاء يوم الحساب فإن الله يجازي كل مكلف عن عمله كما سبق معنا عند قوله: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَذَرَّ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] .

وبهذا البيان الذي بين الله فيه أن الخلق وتدبير أمر المخلوقات من أصغرها إلى أكبرها يتم بمشيئته تعالى وحده، فجميعهم في قبضة قدرته جل وعلا، وتحت قهر مشيئته، سواء في ذلك المخلوقات الظاهرة والخفية؛ حَتَمَ الله تعالى آيات السورة.



تفسير سورة يس مَرَقَاةُ الْوُصُولِ فِي سُورَةِ يَسْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: أقسم الله تعالى في صدر سورة يس بالقرآن الحكيم تأكيداً لصحة وصدق رسالة النبي ﷺ وحاجة الناس الشديدة إليها، فهي مرقاة الوصول إلى الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، ومهما أعرض عنها المعرضون المعاندون فثمة مَنْ يستجيب لها: ﴿إِنَّمَا نُذِرُ مَنْ أَتْبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

إن خطوات المستجيبين على طريق الوصول مكتوبة مأجورة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتُوتَ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

لقد أرسل الله تعالى ثلاثة مرسلين إلى مدينة واحدة فأعرض أهلها عنهم، ولم يستجب لهم إلا رجلٌ واحدٌ، وأرسل خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة في جميع الأقطار والأجيال، فاستجاب لدعوته المؤيدة بالأدلة

والآيات الواصلون الفائزون من أصحاب الجنة الذين يقال لهم يوم القيامة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وأعرض عنه المعاندون من أتباع الشيطان وعُبداه الذين يُقال لهم يوم القيامة: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

أولئك الذين لم ينتفعوا بالدلائل والآيات البينات، فكانت قلوبهم ميتة لا حياة فيها: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

أسأله سبحانه أن يثبتنا على صراط رسوله المستقيم، وأن يجعلنا من الواصلين الفائزين: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].
اللهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.



تفسير سورة يس تَرْقَاءُ الْوُضُولِ فِي سُورَةِ يَسْ

الرسول والساعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَسْ ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ
الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ .

﴿يَسْ ١﴾ .

حرفان من الحروف المقطعة النورانية، وقد تقدّم القول في هذه الحروف فيما سلف، ويشير ما بعدها إلى أنّ فيها خطاباً للنبي ﷺ، وقد ذكر القرطبي عند تفسيره ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] أنّ بعضهم قال في تفسيره ﴿يَسْ﴾: يا محمد، ثم قال: وهذا القول يبطل من وجوه كثيرة، أحدها: أنّ سياق الكلام في آل ياسين كما هي في قصّة إبراهيم ونوح وموسى وهارون، وأنّ التسليم راجع عليهم، ولا معنى للخروج عن مقصود الكلام...

فإنّ ﴿يَسْ﴾ و﴿حَم﴾ و﴿الْم﴾ ونحو ذلك، القول فيها واحد، إنّما هي حروف مقطعة... وأيضاً فإنّ ﴿يَسْ﴾ جاءت التلاوة فيها بالسكون والوقف، ولو كان اسماً للنبي ﷺ لقال: (يسن) بالضم، كما قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

ويوحى ما للحرفين من جرسٍ ناعم خفيف رقة الخطاب ولطفه وأنسه.

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾

وهو قَسَمٌ مِنَ اللَّهِ تعالى بالقرآن الحكيم المتضمن للحكمة، والمتصف بها، والناطق أيضاً لها.

أو: قَسَمٌ بالقرآن المحكم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿الرَّكَتُوبُ أَهَكَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

ولا شك أن القسم بالقرآن؛ ووصفه بالحكيم؛ فيه تنويه بشأن الرسول ﷺ المقسم من أجله على أكمل وجه، دل على ذلك قوله تعالى في جواب القسم:

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

أي: إنك يا محمد لمن المرسلين الذين اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته، وقد أكد تعالى في هذا القسم صدق رسالته عليه الصلاة والسلام، وردَّ على منكريها الذين سبق في سورة فاطر بيان نفورهم وعنادهم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١)، ولم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له^(١).

وفي تخصيص القرآن بالإقسام به أولاً؛ وبوصفه بالحكيم ثانياً؛ تنويه بشأنه؛ وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته ﷺ من حيث نظمه المعجز المنطوي على بدائع الحكم، يشهد به من هذه الحيثية أيضاً^(٢).

والجدير بالذكر أن الله نصَّ على اتصافه عليه الصلاة والسلام بصفة الرسالة مع التصريح باسمه في عدد من الآيات؛ منها: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الآية [الفتح: ٢٩]. ومنها أيضاً قوله: ﴿وَأَمَّاؤُا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

(١) تفسير القرطبي: ٥/١٥.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٥٨/٤.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

أي: إنك لمن المرسلين على منهج قويم ودين مستقيم؛ وهو دين الإسلام الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين، كما أنه مرقاة الوصول إلى جنة الله تعالى ورضوانه، فهو الصراط المستقيم الذي عَلَّمَنَا رَبُّنَا أَنْ نَسْأَلَهُ أَنْ يَثْبِتَنَا عَلَيْهِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾

أي: هذا القرآن تنزيل العزيز في ملكه، الرحيم في خلقه. وقرئ: (تنزيل) بالنصب على المدح، أو على المصدرية للفعل المحذوف، وأياً كان فهو مصدرٌ بمعنى المفعول، عبَّرَ به عن القرآن بياناً لكمال عراقة في كونه منزلاً من عند الله ﷻ، وفي تخصيص الاسمين الكريمين الْمُعْرَبَيْنِ عن الغلبة التامة والرأفة العامة حَثٌّ على الإيمان به ترهيباً وترغيباً، وإشعاراً بأنه تنزيل ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]^(١).

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي: لتنذر قوماً - وهم العرب كما قال ابن كثير ﷺ - ما أنذر آبائهم الأذنون، وإلا فالأبعدون قد أنذرهم إسماعيل عليه السلام، وبلغهم شريعة إبراهيم عليه السلام.

وليس في الآية أن النذارة للعرب خاصة، فالبشارة والنذارة عامة في رسالته عليه الصلاة والسلام كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

ويمكن أن تنسحب الآية على اليهود والنصارى أيضاً لأنّ آباءهم القريبين من زمن بعثته عليه الصلاة والسلام لم يندروا بعدما ضلوا، فجميع الأمم كانوا في أمس الحاجة لبعثته عليه الصلاة والسلام.

﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: فهم غافلون عن يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وجزاء، وغافلون أيضاً عن دعوة التوحيد والصراط المستقيم.

وهذه الغفلة تفسد القلوب وتعطلها، فالقلب الغافل قلبٌ معطل عن وظيفته، معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة، ومن ثمّ كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضت الأجيال دون أن يندرهم منذر أو ينبههم منه^(١).

* * *

عناد وجحود

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَغْلَلاً فَهُمْ إِلَى الْآذِقَانِ
فَهُمْ مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)
وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠).

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٧).

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: والله لقد ثبت وتحقق عليهم قوله تعالى الذي قال للشيطان: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] لا بطريق الإكراه والإكراه، بل بسبب إصرارهم على الكفر والإنكار، وإعراضهم عن التذكير والإنذار.

فثبوت القول عليهم بسبب إصرارهم على الكفر، وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان، ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بسبب إصرارهم على الكفر، وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان، وجحودهم وعنادهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس].

ثم مثلت الآيات لإصرارهم على الكفر وتصميمهم عليه بما يلي:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾.

أي: إنا جعلنا في أعناقهم أغللاً ثقلاً غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان، فلا يتمكنون معها من طأطأة رؤوسهم أو تحريكها، فهم مرفوعو الرؤوس لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يبطأطون رؤوسهم له.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾.

أي: وجعلناهم محصورين بين سدين هائلين، فغطينا بهما أبصارهم فأصبحوا لا يبصرون شيئاً.

وفي قراءة: (سُدًّا) بضم السين وهو لغة فيه.

وهذا تمثيل لحال من استبدت بهم شهواتهم، وغلبت عليهم أهواؤهم، فحُجبوا بها عن رؤية الحق ودلائله، والاستضاءة بأنواره، والانتفاع ببراهينه، فأدّى بهم هذا إلى الإصرار على الكفر، والتمادي فيه، حتى وصلوا إلى قمة هرم الجحود والعناد.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾.

فإنذارك وعدمه متساويان عندهم بسبب عنادهم وجحودهم، كما في قوله

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة].

ويتضمن توجيه الخطاب للنبي ﷺ تسليته ومواساته عن عنادهم وجحودهم.

التمسك بالقرآن وخشية الرحمن

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

وفي مقابل المعاندين الجاحدين ذكرت الآيات المتأثرين بإنذاره عليه الصلاة والسلام، والمستجيبين لدعوته، فالباطل مهما أُرعدَ وأزبدَ لا يطمس معالم الخير، فالخير باقٍ في الناس، لا ينقطع ولا ينتهي، ورسالة الإسلام تقويّه، وتمده بأسباب البقاء والنماء، واستمرت الآيات الكريمة توجه الخطاب للنبي ﷺ:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك من تمسك بالقرآن الكريم، والتزم بأحكامه، وخاف الرحمن، وعظمه في السر والعلن، ممّا يدلُّ على صدقه وإخلاصه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وفي ذكر الخشية مع تعقيبه باسم الرحمن إشارة إلى أن قهره تعالى مقرون بلطفه، فإنه رحيم غفار، كما أنه منتقم قهار.

فالتمسك بالقرآن، وخشية الرحمن في السر والعلن، هما مرقاة الوصول للفوز بالجنة والرضوان، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: فكما أنذرت المعاندين يا محمد، فبشِّر المؤمنين بعفوه تعالى عن تقصيرهم، وبأجر كريم على خشيتهم الرحمن، وخوفهم منه، وتعظيمهم له في السر والعلن، بشرهم بالوصول إلى الجنة والرضوان، وما أجملها من بشارة حملها الرسول الكريم إلى المؤمنين من ربهم الغفور الرحيم، تثبيتاً لهم على الطريق، ليكونوا بفضلته تعالى من الواصلين.

ويحقق تعالى مضمون هذه البشارة لهم يوم إحياء الموتى، وبعثهم من القبور، وهو ما أكدته الآيات بأسلوب الخبر المؤكد المعظم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١٢)

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ أي: إنا نحن القادرون على إحياء الموتى يوم القيامة.

وفي ضمير العظمة إشارة إلى جلاله إحياء الموتى، وإحياء الموتى عمل عظيم، لا يقدر عليه غيرنا، وقد احتجَّ به إبراهيم عليه السلام على الطاغية الذي حاجَّه في ربه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨].

وفيه إشارة إلى أنه تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار، الذين ماتت قلوبهم بالضلال، بهدايتهم إلى الحق، فالإيمانُ حياةُ القلوب، والكفر موت لها، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ أي: ونكتب ما عملوا في حياتهم من خير، وما تركوا بعد موتهم من أثر حسن.

ففي الحديث الشريف: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ...» [رواه مسلم (١٠١٧)].

فيدخل فيه كل علم علّموه، أو كتاب ألّفوه، أو حبيس وقفوه... إلخ، وغير ذلك من وجوه الخير والبر.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أي: وأحصينا كل شيء من خير أو شر في أصل عظيم الشأن، يؤتم به ويتبع ولا يخالف، وهو اللوح المحفوظ، وقد يراؤ به كتاب أعمالهم الذي قال تعالى فيه: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وفي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم: «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: «يا بني سلمة دياركم تُكْتَبُ آثاركم، دياركم تُكْتَبُ آثاركم» [رواه مسلم (٦٦٥)].

ومعناه: الزموا دياركم فإنكم إذا لزمتموها كتبت آثاركم وخطاكم الكثيرة إلى المسجد.

* * *

أصحاب القرية

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا شُرٌّ مِثْلَنَا وَمَا أُنرِلُ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكِيدُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: اضرب يا محمد مثلاً للمشركين المعاندين في إصرارهم وإعراضهم عن الصراط المستقيم أصحاب القرية عندما جاءها المرسلون.

أو: اجعل أصحاب القرية مثلاً للمشركين في عنادهم وإصرارهم على الكفر، وتكون القصة بهذا المعنى مسوقةً لمواساة النبي ﷺ عما يلقي من عناد قومه وإصرارهم على الشرك.

والعجيبُ أنَّ كثيراً من المفسرين ذكر أنَّ هذه القرية هي أنطاكية في شمال بلاد الشام، وأنَّ الرسولينِ هما من الحواريين أرسلهم عيسى ﷺ وهما شمعون ويوحنا، وأنَّ الثالث الذي انضمَّ إليهما بعد ذلك هو بولس والذي كان اسمه شاول. وقد تأثروا بالمصادر النصرانية التي تذكر أنَّ مرقس صاحب الإنجيل اسمه يوحنا، وأنه لازم خاله برنابا وبولس في رحلتهم إلى أنطاكية، وتبشيرهما بالمسيحية فيها^(١).

وقد رد ذلك ابنُ كثير في «تفسيره» وقال: وفي ذلك نظرٌ من وجوه: أولها: أنَّ ظاهر القصة يدلُّ على أنَّ هؤلاء كانوا رسلَ الله ﷻ لا من جهة المسيح ﷺ.

ثانياً: أنَّ أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانت أولَ مدينةٍ آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع اللاتي فيهن بطارقة. ثالثاً: أنَّ قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكرَ غيرُ واحدٍ من السلف أنَّ الله تبارك وتعالى بعد إنزال التوراة لم يهلك أمةً من الأمم عن آخرهم بعذابٍ يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين. فعلى هذا يتبيَّن أنَّ هذه القرية المذكورة في القرآن غير أنطاكية، فإنَّ هذه لم يُعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولا قبل ذلك.

• تكذيب المرسلين:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾.

أي: إذ أرسلنا إلى القرية رسولين فكذبوهما فقويتهما برسول ثالث. وفي قراءة: (فعزَّزنا) بالتخفيف. فقالوا لأهل القرية: إنا إليكم مرسلون.

(١) انظر كتاب: محاضرات في النصرانية.

واستمرَّ أصحابُ القرية على عنادهم وإصرارهم على الكفر، وكذبوا المرسلين الثلاثة، كما فعل مشركو مكة، الذين استمروا على عنادهم وجحودهم للبينات الواضحات، التي أيدَّ الله تعالى بها النبي ﷺ، وهي آيات التنزيل الحكيم التي كانت تنزل على النبي ﷺ تعززه وتسليّه، وتشهدُ بصحة رسالته وصدق نبوته.

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ١٥.

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: قال أصحاب القرية للمرسلين الثلاثة: ما أنتم إلا بشر مث لنا، فلا مزية لكم علينا توجب اختصاصكم بما تدعونه. فالحسد هو الذي حمل أصحاب القرية على تكذيب المرسلين، ووجد رسالتهم قائلين:

﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: وما أنزل الرحمن من شيء، وما أنتم بدعواكم الرسالة إلا كاذبون.

ويدل ظاهرُ كلامهم على إقرارهم بالربوبية، لكنهم ينكرون الرسالة كما كان مشركو مكة، الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يَقُولُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

فما كان من المرسلين إلا أن أكدوا صدق رسالتهم:

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ١٦ ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ١٧.

استشهد المرسلون على صدقهم بعلم الله، وهو يجري مجرى القسم في التأكيد، فزادوا اللام المؤكدة، فكأنهم قالوا: إن تكذيبكم لا يؤثر على صدق رسالتنا، فربنا يعلم صدقنا، ولن يمنعنا تكذيبكم من التبليغ الواجب علينا للرسالة الواضحة.

المتشائمون من دعوة المرسلين

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿١٩﴾ .

وعندما رأى أصحاب القرية المعاندون ثقة المرسلين بصدق رسالتهم وتصميمهم على تبليغها؛ لجؤوا إلى التهديد والوعيد، ومهدوا له باتهام الرسل بتهمة باطلة:

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: إننا تشاءمنا بكم، ولم نر خيراً على وجوهكم.

وهو ديدن المعاندين الجاحدين في كل زمان ومكان، يتفعلون بما يوافق أهواءهم وشهواتهم، ويتشاءمون بما لا يوافقها، حكاه الله تعالى عن المعارضين لدعوة المرسلين كفرعون وقومه: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وحكاه تعالى أيضاً من أقوال أعداء نبينا عليه الصلاة والسلام من اليهود والمنافقين: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لئن لم تتركوا دعوتكم هذه لنرجمنكم بالحجارة حتى الموت، وليصيبنكم منا عذاب أليم.

لكن الرسل ﷺ لم يتأثروا بوعيدهم وتهديدهم، وردوا عليهم بثقة وثبات وشجاعة:

﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي: شؤمكم منكم، بسبب كفركم وتكذيبكم .

وأضافوا مستنكرين تهديدهم ووعيدهم:

﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي: إن ذكرتم ودعيتم إلى ما فيه سعادتكم تطيرون أو

تتوعدون؟! وقرئت بهمزتين: الأولى همزة استفهام، والثانية همزة إن الشرطية، حققها الكوفيون وابن عامر، وسهّلها باقي السبعة^(١).

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم، متمادون في

غيكم، حيث تشاءمون بما هو سبب سعادتكم.

واستعمل الرسل أسلوب الإضراب والانتقال ليسيئوا لأصحاب القرية أنهم

على عكس ما يقتضيه النظر الصحيح.

* * *

الناصح في الحياة وبعد الممات

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَؤُاْ أَعْرَآ

وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً إِنْ

يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّهُ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

إِنِّي آمَسْتُ رِبِّيَكُمْ فَاسْمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي

رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ويبدو أن أصحاب القرية هموا بقتل الرسل، وتنفيذ وعيدهم، فجاءهم رجلٌ

من أطراف المدينة يسعى لنصرة المرسلين والدفاع عنهم:

(١) روح المعاني: ٢٢٤/٢٢.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ٢٠.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ أي: يعدو ويسرع في مشيه، حرصاً على نصح قومه، ونصر الرسل، والدفاع عنهم.

ويلاحظ تقديم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقدم إظهاراً لفضله، فقد هداه الله تعالى مع بُعده عنهم، ولهذا عبّر بالمدينة هنا إشارة إلى سَعَتِهَا، وأنَّ الرجلَ بذلَّ جهداً كبيراً في سعيه، ولا شكَّ أنَّ الله تعالى كتب آثاره الكثيرة هذه، وهو يسعى إلى الوصول للفوز بالرضوان والجنان، ودلَّ هذا على أنَّ الرسل ما قَصَّروا في التبليغ والإنذار حتى وصل خبرهم إلى القريب والبعيد، والظاهر أنَّ الرجلَ لم يكن ذا جاه أو سلطان، ولم يكن في عزَّة من قومه، أو منعة في عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضميره دفعته وجاءت به من أقصى المدينة إلى أقصاها لكي ينصح قومه ويقول لهم بلغة الناصح المشفق:

﴿قَالَ يَنْفَوْرُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: اتبعوا المرسلين بتصديقهم، والإيمان بالله تعالى وحده وعبادته.

ثم كرَّر نصيحته فبيَّن صدق المرسلين وإخلاصهم، وكيف أنهم نزَّهوا دعوتهم عن أي غرض دنيوي مادي، فلم يسألوا عليها أجراً:

﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ٢١.

أي: وهم على هدى من الله تعالى.

ثم تَلَطَّفَ في إرشاد قومه ودعوتهم، وأراهم أنَّه اختارَ لهم مثل ما اختار لنفسه، وذكَّرهم في الوقت نفسه بأسلوب التعريض بمسؤوليتهم عن أعمالهم أمام الله تعالى يوم القيامة فقال:

﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٢٢.

أي: وما لي لا أعبد الذي خلقتني من العدم، وإلى حكمه المرجع يوم القيامة.

واستمرَّ على التَّلَطُّفِ في دعوتهم وإرشادهم مع شيءٍ من الإنكار والتقريع
لتركهم عبادة خالقهم، وعبادة آلهة لا تضر ولا تنفع:

﴿ءَاتَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ يَضِرَّ لَّا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا
يُنْفَعُونَ﴾ (٢٣).

أي: لا تدفع عني شفاعتهم شيئاً من المكروه، ولا يستطيعون إنقاذي منه.

﴿إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٤).

أي: إني إذا عبدتُ غيرَ الله الخالق القادر لفي ضلال واضح ظاهر،
لا يخفى على أحد.

ثم نَزَّهَ نَفْسَهُ عن مثل هذا الضلال، وأعلنَ إيمانه، وصدعَ بالحقِّ في وجوه
قومه بأسلوب المتحدي لهم:

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (٢٥).

أي: إني آمنتُ بربكم الذي هو خالقكم ومالك أمركم شئتم أم أبيتم، فاسمعوا
قولي، فإنِّي لا أبالي بما يكون منكم.

ولم يستجب لدعوة الرسل الثلاثة سوى رجل واحد من هذه المدينة هو
هذا، فما أشدَّ جحودهم! ويظهر أنَّ قومه هددوه، وتوعده بالقتل، كما فعلوا
بالرسل، فأخبرهم أنه لا يبالي بوعيدهم وتهديدهم، فنقذوا تهديدهم، وقتلوه،
وكتموا أنفاسه، وحبسوا كلمة الحق التي كان يصرخ بها في وجوههم، ولم
تصف الآيات كيفية قتله، ويبدو أنهم قتلوه رمياً بالحجارة، وهي الوسيلة التي
توعَّدوا فيها المرسلين عندما قالوا: ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨] دل على قتله قوله تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ أي: ادخلها دخول الشهداء الأبرار، وصل الرجلُ وربَّ الكعبة، ودخل الجنة، وفاز بالرضوان.

وحكت لنا الآياتُ أقواله عندما أكرمه الله بنعيم الجنة، فظهر لنا من خلالها صفاء نفسه ونبل أخلاقه:

﴿قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى الرجلُ وهو في الجنة أن يعلمَ قومه بحاله، وأنه تعالى غفر له، وأكرمه بالجنة والفوز بالرضوان لكي يؤمنوا ويفوزوا بمثل ما فاز من المغفرة والكرامة.

نصح الرجلُ قومه حياً وميتاً كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، نصح قومه في حياته عندما قال لهم: ﴿يَقُولُوا أَتَعْبُوهَا لَمَّا كُنْتُمْ فِيهَا أُمَمًا دُونَ هَذِهِ﴾ [يسر: ٢٠]، وبعد مماته في قوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

هكذا أصبح الرجلُ من الواصلين، وفاز بما سبق ذكره في البشارة: ﴿بَشِيرًا مِّنْ مَّغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يسر: ١١].

* * *

حسرة على العباد

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِلَّا كُلُّ لَمَّا حَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وانتقم الله من قومه الذين كذبوا رسله، وقتلوا ولياً من أوليائه:

﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨).

أي: ما أنزلنا لإهلاكهم ملائكة من السماء، وما صحَّ في حكمتنا ذلك. فأمرو هلاكهم يسيراً، لا يحتاج لإنزال ملائكة من السماء، من هنا يظهر فضلُ نبينا ﷺ على غيره، فقد أنزل الله لأجله جنوداً من السماء يوم بدر والخندق وحنين، وما أنزلها لغيره^(١).

قال القرطبي رحمه الله: «وكانه أشار بقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا﴾ و﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ إلى أنَّ إنزال الجنود من عظام الأمور، التي لا يؤهل لها إلا مثلك، وما كنا نفعل لغيرك، فقد فضّل الله محمداً ﷺ بكل شيء على سائر الأنبياء وأولي العزم من الرسل، وأولاه من أسباب الكرامة والإعزاز ما لم يوله أحداً، فمن ذلك أنه أنزل له الجنود من السماء»^(٢).

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾ (٢٩).

أي: ما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة فإذا هم ميتون لا حراك بهم. وكان أول تعقيب على القصة بقوله تعالى:

﴿يَحْزَنُوا عَلَىٰ الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٣٠).

أي: يا حسرة تعالي فهذا وقتُ حضورك، وهي شدة الغم والندم. والفائدة من ندائها تنبيه القارئ أو المستمع إلى أنَّ هذه الحالة تقتضي الحسرة، فالقومُ جديرون بأن يتحسّر عليهم كل من عرف خبرهم، وقرأ قصّتهم، لتعظيم ما جنّوه على أنفسهم حين كذبوا الرسل واستهزؤوا بهم. أو يا حسرة العباد على أنفسهم كيف كذبوا رسل الله واستهزؤوا بهم!.

(١) تفسير النيسابوري: ١٣/٢٣.

(٢) تفسير القرطبي: ٢١/١٥.

ووجهت الآيات في التعقيب الثاني على القصة سؤالاً للمشركين المكذبين للرسول ﷺ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾

أي: ألم يعلموا كثرة إهلاكنا لأجيال قبلهم، وأن هؤلاء الهالكين غير راجعين إليهم.

فالآية تدعوهم إلى الاتعاظ بالأمم الهالكة قبلهم، المكذبين للرسول، الذين أهلكوا إهلاكاً لا رجعة بعده إلى الدنيا، وإنما رجوعهم كلهم إلى المحشر يوم القيامة.

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ما كلهم إلا مجموعون لدينا، محضرون للحساب والجزاء.
فـ (إن) نافية، وتنوين (كل) عوض عن المضاف إليه، و(لما) بمعنى إلا، و(جميع) فاعيل بمعنى مفعول^(١).

* * *

دلائل ونعم

﴿وَأَيُّ قَوْمٍ أَلْأَرْضُ الْمِيْتَةُ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

ثم ذكّرتهم الآيات ببعض البراهين الدالة على وحدانيته تعالى وكمال قدرته

على بعثهم للجزاء والحساب، وهي في الوقت نفسه نِعَمٌ تَفْضَّلَ سبحانه بها عليهم، كما أنها علامات يهتدي بها السائرون على طريق الوصول إلى رحمته ورضوانه:

﴿وَأَيُّهُ لَمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: آيةٌ تدلُّهم على قدرته تعالى وفضله، الأرض اليابسة أحيها الله بالمطر، وأخرج منها حَبًّا كالحنطة والشعير والأرز فمنه يأكلون، وأفاد تقديم الجار والمجرور (منه) أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وجعلنا في الأرض بساتين من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها أيضاً عيون الماء.

فما أعظم هذه النعم التي تدلُّ على وجوده تعالى وجوده، فالأرض نعمة، لأنها ممهدة لحياتهم، وإحيائها بالمطر نعمة ثانية، وإخراج الحب منها نعمة ثالثة، وجعل الجنات فيها نعمة رابعة، ثم تفجير العيون فيها نعمة خامسة، ولهذا قال سبحانه ممتناً عليهم بنعمه ومطالباً لهم بشكر هذه النعم:

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ليأكلوا مما خلق الله من الثمر، ومما يتخذون منه بأيديهم كالعصير والدبس، أفلا يشكرون الله على نعمه بعبادته وحده، واتباع رسوله ﷺ، ففيه استبطاء لشكرهم وحث لهم عليه.

وقد تكون (ما) نافيةً، فيكون المعنى المراد أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم، ويؤيد المعنى الثاني قراءة: (وما عملت أيديهم) بلا هاء^(١).

ثم نَزَّهَ ﷻ ذاته عن كلِّ ما لا يليقُ به من صفات النقص، وذكر بعد ذلك مع التنزيه أدلة أخرى تدل على كمال قدرته وباهر حكمته:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

أي: سبحان الله خالق الأصناف كلها من النبات والإنسان والحيوان ومما لا يعلمون.

والزوج: الصنف، سمَّاه الله زوجاً، لأنَّ له زوجاً آخر يقابله من جنسه، فالزوجية ماثوثة في الإنسان والحيوان والنبات، ومثلها أيضاً زوجية السالب والموجب الموجدة في أعماق الذرة، فهي حقيقة علمية مشاهدة في أصناف جميع المخلوقات، أكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

و(سبحان) علمٌ على التسبيح، الذي هو التباعد عن السوء اعتقاداً وقولاً، أي: تنزَّهَ جلَّ وعلا عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلاله ووحدانيته، فالجملة على هذا إخبارٌ منه تعالى بتنزُّهه وبرأته عن كلِّ ما لا يليقُ به من صفات النقص، أو هو حكمٌ منه ﷻ بذلك، وتلقينٌ للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوه ولا يخلُّوا به، ولا يغفلوا عنه، فإنَّه من أسباب وصولهم إلى رحمته تعالى ورضوانه.

وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها وفي موضعها، وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود، حقيقة وحدة الخلق، ووحدة القاعدة والتكوين، فقد خلق الله الأحياء أزواجاً، النبات فيها كالإنسان، ومثل ذلك غيرهما، وإنَّ هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة لهذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله^(١).

المستقر الزماني والمكاني للشمس

﴿وَأَيَّاهُمْ إِلَيْهِ يَسْلَخُونَ مِنْهُ النَّهَارَ إِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

ولما فرغت الآيات من الاستدلال بالمكان شرعت في الاستدلال بالزمان،
وبيان الأحكام الدقيق في نواമسه ونظمه:

﴿وَأَيَّاهُمْ إِلَيْهِ يَسْلَخُونَ مِنْهُ النَّهَارَ إِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ننزع منه النهار ونزيله، فإذا هم داخلون في الظلام، فالأصل الظلمة،
ونور النهار طارئٌ عليها، فإذا غربت الشمس عادت الظلمة، فالمسلوخُ منه
يكون قبل المسلوخ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في موضع آخر: ﴿يُعْثِي آلِيلَ
النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: يغطي الليل بالنهار.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي: الشمس تسيرُ إلى منتهى سيرها المقدر
لها وهو يوم القيامة، عندما تتغير النظم الكونية والنواميس الفلكية، فيبطل
سيرها، وتسكن حركتها، وتكور كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].
وهذا هو مستقرُّها الزماني - كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ - فالشمس لا تزال تطلع
وتغيب بقدرته تعالى ومشيتته حتى يوم القيامة.

وأما ما وردَ في الحديث الشريف: عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنتُ مع النبي
ﷺ في المسجدِ عندَ غروبِ الشمسِ فقال: «يا أبا ذر أتدري أينَ تغربُ
الشمسُ؟» قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنَّها تذهبُ حتَّى تسجدَ تحتَ

العرش، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [رواه البخاري (٤٨٠٢)].

فلعل المراد منه فلکها الذي تسير فيه، وهو مستقرها المكاني، وهي أينما كانت تحت العرش هي جميع المخلوقات، إذ العرش أعظم منها، فلا غرابة فيما جاء في الحديث الشريف من سجود الشمس تحت العرش، واستئذانها، وسجودها تحت العرش لا يقتضي خروجها عن فلکها.

ورأى بعضهم أن في الحديث الشريف إشارة إلى استمرارها مسخرةً بأمره تعالى لما خلقت له، المعبر عنه بالسجود والاستئذان كل يوم^(١).

ويستأنس لهذا الرأي بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] فقد فسّر بعضهم سجود هذه المخلوقات بخضوعها لما أَرَادَ الله منها.

ومهما قيل في معنى الآية فهي تدلُّ دلالة واضحة على أنَّ للشمس حركة، فهي غير ثابتة، وأنَّ حركتها محكمة دقيقة حسب نظام كوني محكم يدل على كمال قدرته تعالى وعلمه وحكمته، ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: ذلك النظام المحكم تقدير الإله الغالب بقدرته على كل شيء، والعليم بكل شيء ﷻ، كما قال في سورة الأنعام: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٩٦).

وكان علماء الفلك إلى عهد قريب يظنون أنَّ الشمس ثابتة لا تتحرك، لكن عرف أخيراً - كما جاء في الظلال - أنها ليست مستقرة في مكانها، إنما هي تجري فعلاً، تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة، حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية^(٢).

(١) قرة العينين على تفسير الجلالين.

(٢) الظلال: ٢٩٦٨/٥.

منازل القمر

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أي: قدرنا له المنازل.

ومعنى قدر: صير، فالمراد صيرنا سيره منازل، وهي جمع منزل، وهي المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة^(١)، ويستدل بهذه المنازل على مضي الشهور القمرية، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

يطلع في أول ليلة من الشهر ضياءً قليلاً من النور، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية، ويرتفع منزلةً، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً، وإن كان مقتبساً من الشمس، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم^(٢).

﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي: حتى يصير في آخر منازلها مثل عود عنقود النخيل القديم الذي عليه الثمر، فإنه إذا تقادم عهده يرق ويتقوس ويصغر، وهي أوجه التشبيه.

وفي كلمة (قدرناه) إشارة إلى دقة النظام وإحكامه، وهو ما صرحت به الآية بعد ذلك بقوله سبحانه:

(١) روح المعاني: ١٦/٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير للآية.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ أي: لا يصح ولا يستقيم للشمس أن تؤثر على سير القمر في منازلها، أو تجتمع به، فلكل من الشمس والقمر نظام دقيق محكم لا يلحقه أي خلل أو اضطراب، وهذا النظام مستمر بتقدير العزيز العليم إلى قيام الساعة، عندما يختل النظام ويتغير، ويجمع الله بين الشمس والقمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩].

ولعلّه تعالى لم يقل: ولا القمر سابق الشمس، لأن القمر جرم صغير تابع للأرض، ويستمدُّ نوره من الشمس.

﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فهما يتعاقبان بحساب معلوم، فلا يجيء أحدهما قبل وقته المحدد له.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: وكلهم في فلكٍ يسيرون.

فالتنوين في (كل) عوض عن المضاف إليه، والضمير للشمس والقمر. أي: وكل واحد من الشمس والقمر، إذ هما المذكوران صريحاً. وبعضهم أرجع الضمير إلى النجوم والكواكب، فكلها لها أفلاك تسير عليها، والله أعلم.

السابحات في البحر والبر

﴿وَأَيُّ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَسْحُونِ﴾ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقْدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

وكما تسبح النجوم في جو السماء بقدرته تسبح السفن في البحار بقدرته تعالى أيضاً، فهي من الآيات الدالة على فضله وإحسانه وكمال قدرته:

﴿وَأَيُّهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ .

أي: المملوء، والذرية: الأولاد، وفي قراءة: (ذرياتهم) وتخصيصهم بالذكر لضعفهم، فالنعمة فيهم أظهر.

﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: وخلقنا لهم من مثله ما يركبون عليه في البر كالإبل، فإنها سفائن البر. وقد قرن تعالى بينهما في عدد من الآيات منها: ﴿وَأَن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكَّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْشِي بِطُغْيَانٍ لَّكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ لُحُوتُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون]. ومنها أيضاً: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الزخرف: ١٢].

﴿وَأَن نَّشَأُ نَغْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

أي: وإن نشأ إغراقهم في الماء نغرقهم والسفن التي تحملهم، فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق، ولا هم ينقذون من الموت والهلاك، فالأمر منوط بمشيئته تعالى، والسفن أسباب السلامة، والله سبحانه خالق الأسباب والمسببات، وما أكثر السفن التي أغرقها تعالى بمن فيها، مع أنها مزودة بكل ما توصل إليه الإنسان من أسباب السلامة والوقاية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٢﴾﴾ إن بشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور ﴿٢٣﴾﴾ أو يؤيقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴿الشورى﴾.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

أي: ولا نجاة لهم إلا أن يرحمهم الله ويمتعمهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم.

عناد وإعراض

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ومع كل هذه الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وصدق النبي عليه الصلاة والسلام في دعوته، عاندوا وأعرضوا، دل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: اتقوا ما تقدم من ذنوبكم بتركها والتوبة عنها، وما تأخر مما أنتم تعملون، لعل الله تعالى يرحمكم؛ أعرضوا وأصروا على ذنوبهم، وحذف الجواب لدلالة ما بعده عليه:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

فدأب القوم العناد والإعراض عن كل آية وموعظة. ومن صور عنادهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أنفقوا على الفقراء.

﴿قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

مُيِّنٌ ﴿٤٨﴾ أَي: أنرزق من لو يشاء الله رزقه؟! ما أنتم باتباعكم محمداً إلا في ضلال بين واضح.

ويتمسك بقولهم هذا البخلاء، يقولون: لا نعطي من حرمه الله، وهو قول باطل فاسد، لأنه تعالى أغنى بعض خلقه، وأفقر بعضهم ابتلاء، كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله: (أنطعم) دون قوله: أنفق، إظهار لغاية خستهم، فإن الإطعام أدون من الإنفاق.

ومن صور عنادهم أيضاً إصرارهم على إنكار يوم القيامة الذي سبق تأكيده في عدة مواضع من آيات السورة:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨).

أي: إن كنتم صادقين فيما تقولون عن يوم القيامة، والخطاب موجه للرسول ﷺ والمؤمنين. ويأتي الرد على إنكارهم قوياً عنيماً:

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ (٤٩).

أي: ما ينتظرون إلا صيحة واحدة تصعقهم وهم يتخاصمون ويتحاورون في أسواقهم ومتاجرهم، لا يخطر أمرها ببالهم.

والمراد من الصيحة نفخة الصعق الأولى، التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فالساعة تأتيهم وهم أغفل ما كانوا عنها مستغرقين في شؤون الدنيا، كما في الحديث الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يبتاعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل

بلبنٍ لفتحته، فلا يَطْعُمُهُ، ولتقومَنَّ الساعةُ وهو يليطُ حوضَهُ، فلا يسقي فيه، ولتقومَنَّ الساعةُ، وقد رفعَ أكلتَهُ إلى فيه، فلا يطعمُها» [رواه البخاري (٧١٢١)].

وأصل (يخصِّمون): يختصمون، سكنت التاء، وأدغمت في الصاد، وكسرت الخاء لالتقاء الساكنين، وفي قراءة بفتح الخاء: (يخصِّمون) بإدغام التاء في الصاد ونقل حركتها وهي الفتحة إلى الخاء.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٥١).

أي: لا يقدرون على الإيصاء ولا الرجوع إلى أهلهم وبيوتهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

وفي قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ - دون أن يقول: فلا يوصون - مبالغة، لأنَّ مَنْ لا يوصي قد يستطيعها، وكذلك في تنكير (توصية) الدال على التقليل، وكذا في نفس (التوصية) لأنها بالقول، والقولُ يوجدُ أسرع من الفعل، وقد تحصل التوصية بالإشارة، فالعاجزُ عنها عاجز عن غيرها^(١).

النفخ في الصور والبعث من القبور

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مِنْ بَعْثِنَا مِنْ مَّوَدَّنَا﴾ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١).

ونفخ في الصور نفخة البعث، أو صيحة البعث كما سيأتي، فإذا هم من

القبور يُسرعون إلى أرض المحشر، تنفيذاً لأمر ربهم، كما قال تعالى في سورة الماعج: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَانَتْهُمْ إِلَى نَصَبٍ يُوفُونَ﴾ (٤٣).

ويدل تأثير النفختين في أمرين متضادين: الإماتة والإحياء، على كمال قدرته تعالى، ونفاذ مشيئته، فهو الخالق الحقيقي، ولا تأثير للأسباب إلا إذا وافقت مشيئته سبحانه، كما مر معنا في موضوع سورة الرعد.

والصُّورُ في اللغة: الآلة المعروفة على هيئة القرن، ينفخ فيه، وأما حقيقته وكيفيته فلا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢).

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أي قالوا: يا هلاكنا من أخرجنا من قبورنا، فهم يدعون على أنفسهم بالهلاك عندما يرون هول الخروج من القبور.

ويزداد دعاؤهم على أنفسهم بالهلاك إذا ألقوا في جهنم، وذاقوا ألوان العذاب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (١٢) لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان].

والمرقد: المضجع، مكان النوم.

وقد أشكل على بعض المفسرين قولهم هذا مع أنهم كانوا معذبين في قبورهم، وأجاب بعضهم بأن عذاب القبر يرفع عنهم بين النفختين؛ الصعق والبعث. وبعضهم رأى أن قولهم هذا يدل على اختلاط في عقولهم عند خروجهم من بطن الأرض، حتى ظنوا أنهم كانوا نياماً في بطنها. وبعضهم قال: إِنَّ الْكَفَّارَ إِذَا عَايَنُوا جَهَنَّمَ وَمَا فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، صَارَ مَا عَذَّبُوا بِهِ فِي قُبُورِهِمْ إِلَى جَنْبِ عَذَابِهَا كَالنَّوْمِ.

وإني أرى أنه لا وجه لهذا الإشكال، لأن قولهم: ﴿يَوَيْلَنَا﴾ يدل على أنهم شعروا أن ما يستقبلون من أهوال يوم القيامة أشد من عذاب البرزخ في القبور، فهو يوم الفرع الأكبر كما وصفه سبحانه في قوله: ﴿لَا يَخْزُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾

[الأنبياء: ١٠٣]، وهم يدركون شدته وعسره عند خروجهم من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى اللَّعْنِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

فهم يواجهون الحقيقة التي كذبوا بها عندما أخبرهم الرسل عنها في الدنيا، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، وأتاهم الجواب من داخل نفوسهم الممتلئة بالحسرة والندم:

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وتدل كلماتهم هذه على أَنَّ الحسرة تملأ قلوبهم حزناً وأسفاً، وهي التي سبق ذكرها في قوله تعالى: ﴿يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠] فهذا أو أن الحسرة قد حضر، حسرتهم على أنفسهم لا حسرة العباد عليهم.

وصدق المرسلون، وصدق إمامهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ الذي أقسم الله في أول السورة بالقرآن الحكيم إنه لمن المرسلين.

ولا شك أَنَّ المرسلين إلى القرية التي سبق ذكرها قد صدقوا أيضاً، ولا بدَّ أن يعترف أصحاب القرية يوم القيامة بصدقهم، ويتحسرون على ما فاتهم من تصديقهم، ويندمون أشد الندم على تكذيبهم.

والجدير بالذكر أَنَّ أقوال المفسرين تعددت في قائل هذا القول، فأسنده بعضهم إلى الله ﷻ، وبعضهم أسنده إلى الملائكة، وآخرون أسندوه إلى المؤمنين، ورأى بعضهم أَنَّ الكفار هم الذين قالوا هذا القول، وهو في رأي أنسب الأقوال، وآثروا اسم الرحمن طمعاً في أن يرحمهم، وهيهات؛ ليس لكافر يومئذ نصيب في رحمته تعالى.

* * *

الوصول إلى دار السلام

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ ﴿٥٦﴾ هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلِّمٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: محضرون في أرض المحشر للحساب والجزاء.

وهذا يدل على كمال قدرته تعالى، فكما أهلكهم بصيحة واحدة - كما مرَّ معنا - فإنه يجمعهم بصيحة واحدة أيضاً، وهي صيحة البعث من القبور، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].
ثم بيّن سبحانه ما يكون في هذا اليوم:

﴿فَأَلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

فلا يكون في هذا اليوم ظلمٌ أبداً، ولا تُجزى كلُّ نفسٍ إلا بحسب عملها بعدله تعالى.

ووصفت الآيات أحوال المنعمين الواصلين إلى مستقر رحمته ورضوانه:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أي: إنهم مشغولون بما أكرمهم الله تعالى به من أنواع النعيم في الجنة.
وفي قراءة: (في شُغْلٍ) بضمة وسكون، وتنكير شغل وإبهامه تنبيه أنه أعلى ما تحيط به الأفهام، ويعرب عن كنهه الكلام.

وَالْفَكْهَةُ: المتنعّم المتلذّذ، ومنه الفاكهة لأنها مما يُتَلذَّذ به، وكذا الفاكهة^(١).

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: هم وأزواجهم في ظلال أشجار الجنة على السرر متكئون.

﴿هُمْ فِيهَا فَكْهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولهم ما يتمنون أو ما يطلبون، فالله سبحانه يكرمهم بكل ما تشتهي أنفسهم من أنواع النعيم. ويكرمهم ويتفضل عليهم أيضاً بالسلام:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: لهم سلام يقال لهم من رب رحيم.

لقد وصل القوم إلى دار السلام، وأكرمهم ربهم الرحيم بالسلام: ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

هكذا بينت الآيات حال الواصلين الفائزين بالجنة والرضوان والسلام.

* * *

(١) انظر: تفسير البضاوي وتفسير النسفي: ٢١٤/٥.

المعرضون عن الصراط المستقيم

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَصَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

ثم بيّنت الآيات في المقابل حال المجرمين المحرومين:

﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَنهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: اعتزلوا عن كل خير وانفردوا عن المؤمنين.

ثم حكّت الآيات ما يقال لهم توبيخاً وتقريعاً لتزيد في حسرتهم وندمهم:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: ألم آمركم وأوصيكم يا بني آدم ألا تطيعوا الشيطان، فإنّ عداوته لكم ظاهرة، فلا يدعوكم إلا لما فيه شقاؤكم وتعاستكم.

فطاعة الشيطان عبادة له من دون الله، فمن أطاع غير الله فكأنما اتخذه معبوداً من دونه، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ رُؤَسَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿وَأِنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

أي: وأمرتكم بعبادتي وطاعتي وحدي، وهو الصراط المستقيم الموصل

إلى رحمتي ورضواني، والذي دعا إليه المرسلون جميعاً، أقسم تعالى في صدر السورة أن سيدنا محمداً ﷺ سار عليه ودعا إليه.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٢)

أي: والله لقد أضل منكم خلقاً كثيراً، فلم تنتفعوا بعقولكم، وتدركوا ما يريد الشيطان منكم.

والجِبِلُّ: الخلق والجماعة العظيمة، أُطلقَ عليهم تشبيهاً بالجبل في العظم. وقرئ: (جُبَلًا) بضم الجيم وإسكان الباء، كما قرئ بضميتين (جُبَلًا) مع تخفيف اللام^(١).

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٦٣)

أي: هذه التي ترونها جهنم التي وعدتم بدخولها على ألسنة المرسلين.

﴿أَضَلَّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٦٤)

أي: قاسوا حرها، وصيروا وقوداً لها بسبب إصراركم على الكفر وعنادكم، ولا يخفى ما في الأمر من تحقير وإهانة.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٦٥)

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: نمنعهم عن الكلام.

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يُنطِقُهَا الله تعالى الذي أنطق كل شيء، لتشهد على أصحابها بما عملوا من المعاصي والآثام في الدنيا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ [فصلت].

فيومُ القيامة يومٌ طويل، يُنطق الله تعالى فيه ألسنتهم، وتارة يمنعون عن الكلام، وتنطق أيديهم وأرجلهم وجوارحهم.

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: «هل تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «مِنْ مَخَاطِبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ! أَلَمْ تُجَرِّنِي مِنَ الظُّلُمِ؟ يَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَاءَ، فَيُخَيَّمُ عَلَى فِيهِ، فَيَقَالُ لَأَرْكَانِهِ: انْطَقِي، فَتَنْطَقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يَخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنَكُنَّ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ» [رواه مسلم (٢٩٦٩)].

* * *

التنكيس في الخلق

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُصِيًا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ تُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾.

ثم ذكّرتهم الآيات بشدة ضعفهم، وأنهم مفتقرون إلى الله تعالى في جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: ولو نشاء أن نطمس على أعينهم، فأعميناها لفعلنا، فإننا قادرون على ذلك.

والطمسُ في اللغة: تغطيةُ شق العين فتصبح ممسوحةً، ومفعول المشيئة محذوف للدلالة على أنه مضمون الوقوع.

﴿فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ فَإِنَّ يُبْصِرُونَ﴾ أي: فبادروا إلى الطريق، فكيف يبصرون وقد أعمينا أعينهم.

ونصب (الصراط) بنزع الخافض، وفيه إشارة إلى أن شأن الهداية والضلال منوطٌ بمشيئته تعالى، فكأنه تعالى يقول: ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى، وتركناهم عمياً يترددون، فكيف يبصرون الطريق حينئذ؟! (١).

وقد سبق التمثيل لمثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلًا فَمَهَى إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس].

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٧).

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتَتِهِمْ﴾ أي: ولو نشاء لأبطلنا قواهم بحيث يجمدون في مكانهم، ويصبحون كالحجارة. وفي قراءة: (مكاناتهم).

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: فلا يستطيعون الحركة ذهاباً وإياباً. فهم بكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء أن يفعلَ بهم ذلك، ولكننا لم نفعل لشمول الرحمة لهم، واقتضاء الحكمة إمهالهم (٢).

وأقرب مثال واقعي ملموس على قدرته تعالى على طمس أعينهم وإبطال قواهم، ما يحدثه الله من تغير في بُنيَتهم:

﴿وَمَنْ تَعَمَّرَهُ نَكَسْنَاهُ فِي خَلْقِهِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٨).

أي: ومن نمد في عمره نرده على عكس ما كان من القوة إلى الضعف،

(١) تفسير الخازن: ٢١٨/٥.

(٢) تفسير البضاوي: ٢١٨/٥.

أفلا يعقلون هذه الحقيقة، ويعلمون أن الله قادر على ذلك؟! قال تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

القرآن والشعر

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦٩) ﴿لِيُذَكِّرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٧٠)

وعادت الآيات إلى القرآن الحكيم الذي أقسم الله به في صدر السورة، عادت تنوّه به، وتذكّر المعاندين بدلائل الإعجاز في نظمه البديع المتميز:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (٦٩).

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: ما علّمنا رسولنا الشعر، وما هو من طبعه، ولا يسهل له إن أراد نظمه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

وما جرى على لسانه عليه الصلاة والسلام أحياناً من كلمات موزونة شبيهة بالشعر لا يعدّ شعراً، بل صدر منه عليه الصلاة والسلام على السليقة من غير تكلف ولا التفات إلى أنه جاء موزوناً، فمثله يجري في كلام الناس كثيراً، ولا يسمّيه أحد شعراً، كقوله عليه الصلاة والسلام يوم حنين [البخاري (٤٣٣٦)]:

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

وقوله ﷺ أيضاً عندما كان يمشي فأصابه حجر فعثر، فدميت إصبعه فقال

[البخاري (٦١٤٦)]:

«هَلْ أَنْتِ إِلَّا إصْبَعٌ دُمِيتَ وفي سبيل الله ما لقيت»

فسجيته عليه الصلاة والسلام تأبى الشعرَ، وهي من صفات كماله، لأنها دليلُ صدقِ رسالته، وصحة نبوته كأُمّيته، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فالقرآن الكريم ليس شعراً ولا يشبه الشعر، ولا يشبه كلاماً قبله ولا كلاماً بعده: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما هو إلا عظة تُذَكَّرُ بالله ﷻ، وقرآن بين واضح، يبين الله فيه طريق الوصول إلى جنته ورضوانه.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: لينذر الرسول عليه الصلاة والسلام مَنْ كان حياً بالإيمان، وفي قراءة: (لتنذر)، فإنما ينتفع بنذارته مَنْ هو حي القلب مستنير البصيرة.

وقد مر معنا في مواضع كثيرة تقرير هذه الحقيقة قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠].

وسبق معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [يس: ١٢]: أنها تشير إلى هذا المعنى، وأنها تؤكد ما قرره تعالى في صدر السورة بقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١] فالتمسك بالقرآن الكريم وخشية الرحمن بالسر والعلن مرقاة الوصول إلى مستقر رحمته والفوز برضوانه.

﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: ولتقوم الحجة على الكافرين مستحقي العذاب، أو ليثبت عليهم قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

ولقد سبق أيضاً هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

تسخير الأنعام

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

ثم ذُكِرَتِ الْآيَاتُ المعاندين الجاحدين بخلق الأنعام وتسخيرها لهم، ولا شكَّ أَنَّ نِعَمَ الله كثيرة، ولكنها اختارت التذكير بنعمة الأنعام تفصيلاً لما سبق ذكره إجمالاً في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: ألم يعلموا أَنَّا تولينا خلقَ الأنعام لهم من غير إعانة أحد، وجعلناها مالكين لها، يتصرفون بها تصرف المالك.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: وجعلناها مسخرةً مذلةً لهم، فلولا أَنه تعالى جعلها مُسَخَّرَةً لهم ما تمكَّنوا من الانتفاع بها كما في قوله سبحانه: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، فلو جاء صغير إلى بعير لأناخه، ولو شاء لأقامه، وسار معه منقاداً ذليلاً:

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وهو بيان لبعض أوجه الانتفاع منها، فصَّله تعالى في مواضع كقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا

لَكُمْ فِيهَا رِزْقٌ وَمَنْعُفٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ [النحل].

وفي قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ حث لهم على الشكر، واستبطاء له، فعليهم المسارعة إلى الشكر بطاعته تعالى قبل أن يفوتهم، ويتحسروا عليه.

* * *

إحياء العظام البالية

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٥) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسْرَتُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنآ خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْجِ الْعَظْمُ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ بِحَبِيبِهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

ومع ذلك أعرض المعاندون عن الشكر، ووضعوا الشرك مكان الشكر فما أظلمهم!

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٧٥).

أي: عبدوا آلهة من دون الله تعالى رجاء أن ينصروهم في أوقات الأزمات والشدائد!

والأمر على الضد مما يرجون، لأن هذه الآلهة المزعومة عاجزة ضعيفة، لا تستطيع حماية نفسها، فضلاً عن حماية غيرها:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ (٧٥).

أي: لا تقدر الأصنام على نصر المشركين، بل المشركون جندٌ حاضرون

حولها، يحفظونها وينصرونها، فهي عاجزة عن حفظ نفسها بله غيرها، ففاقد الشيء لا يعطيه.

ثم التفتت الآيات التفاتة رائعة، لها نظائر كثيرة في التنزيل الحكيم، إلى رسول الله ﷺ تواسيه عما يلقي من شدة عنادهم وجحودهم وإعراضهم عن الأدلة القاطعة الدالة على صحة نبوته وصدق رسالته:

﴿فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٦).

أي: إنا نعلم كل ما يصدر عنهم من كيد خفي، وفجور جلي، فنحبط كيدهم، ونرد مكرهم.

ووقعت هذه الالتفاتة في موقعها المحكم من آيات السورة، إذ جاءت تعقيباً على ما سبقها، وتمهيداً لسياقها، ثبتت به النبي ﷺ في وجه وقاحة بعض المشركين، وجراتهم عليه:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧).

أي: أما علم الإنسان أننا خلقناه من ماء قليل ضعيف مهين، فإذا هو بين الخصومة، يتصدى لمخاصمة ربه، ويتجراً على رسوله ﷺ، وينكر قدرتنا على إحياء الأموات بعد تفرق عظامهم.

فالآية تذكر الإنسان المخاصم المجادل المعاند، الذي أنكر قدرة الله تعالى على بعث الأموات من قبورهم يوم القيامة، تذكره بأصله الضعيف المهين كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۖ﴾ (٧٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿[الطارق].

والأعجب من ذلك أن يكون خصامه في ألزم وصف له، وألصقه به، وهو كونه منشأ من موات، وهو ينكر إعادة إنشائه من موات، وهو غاية المكابرة.

نزلت هذه الآية في أبي بن خلف الجُمحي من رؤوس المشركين في مكة،

خاصم النبي ﷺ في إنكار البعث، وأتاه بعظم قد رمَّ وبلي، ففتَّه بيده، وقال: أترى يحيي الله هذا بعد ما رمَّ؟ فقال النبي ﷺ: «نعم، وبيعتك ويدخلك النار». فأنزل الله تعالى هذه الآيات. [رواه الطبري (٣٠/٢٣) والحاكم (٤٢٩/٢) وصححه ووافقه الذهبي]^(١).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي: وضرب لنا مثلاً في إنكار قدرتنا على بعث الأموات بالعظم البالي، ونسي أننا خلقناه من العدم إلى الوجود، ففي نفسه من دلائل القدرة ما هو أعظم مما استبعده وجحد.

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: قال مستنكراً مستبعداً: مَنْ يحيي العظام وهي بالية؟!.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩).

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فمن قدير على الخلق أول مرة قادر على إعادته مرة ثانية، وهو أمرٌ منطقي وبدهي، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وسِعَ علمه كلَّ شيء، فهو يعلم العظام المتفرقة في باطن الأرض أين ذهبت أجزاؤها، وأين استقرَّت ذراتها، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ﴾ [ق: ٤].

ويعلم الله أيضاً الأجزاء الأصلية من الأجزاء الدخيلة، ويجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع وبطون السباع، وفي الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ الْمَوْتُ لَمَّا أَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَىٰ أَهْلَهُ: إِذَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حُطْبًا

كثيراً، فأحرقوني، ثم اسحققوني، ثم ذروني في يوم عاصفٍ، فجمعهُ اللهُ ﴿٣٤٧٨﴾ فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته [رواه البخاري (٣٤٧٨)].

خلق الضد من الضد

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ﴾ ﴿٨٠﴾

أي: الذي أنبت الشجر الأخضر بالماء، ثم جعله حطباً يابساً توقدون منه النار، كذلك هو قادرٌ على إعادة الغضاضة والطراوة إلى ما كان غضاً طرياً في الحياة، فيبس وبلي بعد الممات، فالله قادر على إخراج الضد من الضد.
ثم ذكر تعالى ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨١﴾

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾ أي: قل: بلى هو قادر على ذلك.

وهو جوابٌ آخرٌ بدهي ومنطقي أيضاً ولازم وملزم، فإن خالق هذا الكون العظيم قادرٌ على خلق أمثالهم من المخلوقات الصغيرة الضعيفة أو الكبيرة القوية مهما كانت: سماءً أو أرضاً، ذرة أو نملة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: وهو الذي يخلق خلقاً بعد خلق، العليم بجميع ما خلق، فمن اتصف بكمال القدرة والعلم لا يعجزه شيء من الممكنات. ومما يدل على كمال قدرته جل وعلا أنه لا يحتاج إلى أسباب ووسائل ومقدمات لما يريد إحداثه وتكوينه:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٢﴾.

أي: فيحدث ويوجد من غير امتناع أو توقف، فجميع المكونات بتخليقه وتكوينه مهما كانت صغيرة أو كبيرة، ووجودها متوقف على إرادته سبحانه بإيجادها، وقدرته هي المؤثرة في مراده جل وعلا.

وتدل الآية أيضاً على سرعة الإيجاد وحدوث المراد، فهو يأمر أمراً واحداً لا يحتاج إلى تكرار أو تأكيد كما مر معنا في آيات الصيحات، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وكما انطلقت التسيبة الأولى في أوانها وفي موضعها، تنطلق التسيبة الثانية أيضاً في أوانها وفي موضعها تتوج خاتمة السورة:

﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾.

﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تنزيه له عما ضربوا له من الأمثال، وهو مالك كل شيء، والمتصرف فيه، فكل شيء منوط بمشيئته، وفي قبضة قدرته جل وعلا، ومع التنزيه تعجب مما قالوا في شأنه ﷻ.

والفاء في قوله: ﴿فَسُبْحَنَ﴾ جزائية، أي: إذا علم ذلك الذي سبق تقريره في الآية السابقة فسبحان، أو سببية، لأن ما قيل سبب لتنزيهه سبحانه.

والملكوٓتُ: مبالغةٌ في الملك، كالرحموت والرهبوت، فهو الملك التام^(١).
﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإليه تُرجعون بعد الموت لا إلى غيره.
وهو وعدٌ للمتمسكين بالصراط المستقيم، المتبعين آثار الرسول الكريم عليه
أفضل الصلاة وأتم التسليم، ووعيد للمعرضين الجاحدين.
نسأله تعالى أن يثبتنا على الطريق المستقيم، ويجعلنا من الواصلين إلى
مستقرِّ رحمته، والفائزين برضوانه.



تفسير سورة الصافات مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ مقام العبودية لله تعالى من أعلى المقامات وأشرفها، يستدعي غاية الخضوع والتذلل لله وحده، مع غاية المحبة له ﷺ، اتصف به، وحقيقته الصفة الممتازة من الأنبياء والمرسلين، ومن صدّقهم واستجاب لدعوتهم من المؤمنين.

وقد أبرزت الآيات في سورة الصافات هذا المعنى، وأكدته سبحانه في صدر السورة، فأقسم بجماعات من عباده أنّه وحده المستحق للعبادة: ﴿وَالصَّفَاتِ صَفًا ۝١ فَالزَّجَرِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّائِبِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾.

ثم قارنت الآيات بين مصير المعرضين عن عبادته يوم القيامة، ومصير المتقادين لطاعته.

ثم عرضت نماذج لبعض مواقف عباد الله المخلصين، بدأت بنوح ﷺ، وتوقفت عند إبراهيم وولده إسماعيل ﷺ، وأبرزت المستوى الرفيع لمقام العبودية الذي حققه هذان النبيان الكريمان في قصة الذبح والفداء. ثم ذكرت

الآياتُ موسى وهارون وإلياس ولوطاً ويونس عليهم السلام ، وأثنت على تحقيقهم عبوديتهم لله تعالى .
 وختمت ذلك بالتنويه بالملائكة وإخلاصهم في عبادتهم لله ، وبراءتهم ممن عبدوهم من دونه تعالى .
 وخُتِمت السورة بالبشارة بتأييد الله تعالى ونصره لرسوله ﷺ والمؤمنين ، وتنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليقُ بجلاله وكماله ، مع السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .



الفصل الأول

مَقَامُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًا ١﴾ فَالزَّجَرَتِ ذَرْأًا ٢﴾ قَالَتِ لَيْتَ ذَكَرُ ٣﴾ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوِجَدُ ٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ٥﴾ إِنَّا زَيْنَا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا بَرْنَةِ الْكَوْكَبِ ٦﴾ وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
مَّارِدٍ ٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ٨﴾ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٩﴾ إِلَّا
مَنْ خِطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ ١٠﴾ فَاسْتَفْنِهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا حَقَّقْنَاهُمْ مِنْ
طِينٍ لَازِبٍ ١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ١٤﴾
وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ١٥﴾ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ١٦﴾ أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ١٧﴾
قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ١٩﴾ وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الَّذِينَ
هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزَوَّجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ٢١﴾
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ٢٢﴾ وَقَفَّوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ ٢٣﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ٢٤﴾ بَلْ هُمْ
الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ٢٥﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٢٦﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ٢٧﴾ قَالُوا
بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٢٨﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ٢٩﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا
إِنَّا لَذَائِقُونَ ٣٠﴾ فَأَعَوَيْنَاكُمُ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ ٣١﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ٣٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ
بِالْمُجْرِمِينَ ٣٣﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٤﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا
لِسَاعَةٍ نَجُودُكُمْ ٣٥﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ٣٦﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ٣٧﴾ وَمَا تَجَزُونَ
إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ٣٩﴾ أُولَئِكَ هُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ٤٠﴾ فَوَكَهَهُمْ مُمْكِرُونَ
٤١﴾ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ٤٢﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ٤٣﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ٤٤﴾ بِيَضَاءٍ لَذِيٍّ
لِلشَّرِبِينَ ٤٥﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ ٤٦﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ٤٧﴾ كَأَنَّهُنَّ

بِضٍّ مَكُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِيبٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ
 أَتَيْتُكَ بِلَبَنِ الْمَصَدِيقِ ﴿٥٢﴾ أَوْ دَا مِنْ دَا وَكُنَّا تَرَاكَا وَعِظْنَا بِوَا لَمَذِيقُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطْلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَطْلَعَ
 قَرَاءَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا بَعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْصَرِينَ ﴿٥٧﴾
 أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَئِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْنَتَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْفَوْرُ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ لِيُشِلَّ
 هَذَا فَلْيَعْمَلَ الْعَمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ تُرَلَا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾
 إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُئُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا كُفُونَ مِنْهَا
 فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُظُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حِمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرِجَهُمْ لِأَيُّ الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾
 لِيَتَنَبَّهُ الْقَوَاءُ مِمَّا سَالَيْنَ ﴿٦٩﴾ وَهُمْ عَلَىٰ عَائِزِهِمْ مُّهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَىٰ ﴿٧١﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِيرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
 الْمُخْطَصِينَ ﴿٧٤﴾

● المصطفون للعبادة:

أكد الله تعالى في صدر سورة الصافات أنه وحده المستحق للعبادة، فأقسم
 بجماعات من عباده الذين اصطفاهم لعبادته، وشرفهم بطاعته، أنه وحده
 المعبود، فقال:

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۚ ١﴾ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۚ ٢﴾ فَالْثَّالِثَاتِ ذِكْرًا ۚ ٣﴾ .

والمراد من الصافات: الجماعات التي اصطفاهما سبحانه لعبادته من
 الملائكة ومن غيرهم، فهو قَسَمٌ بالذين حققوا عبوديتهم لله تعالى بطاعته وحده
 وعبادته، والمراد من القسم التنويه بالمقسم به وتعظيمه.

والزاجرات: الجماعات الزاجرون عن ارتكاب المعاصي بأقوالهم
 وأفعالهم، فإنَّ ارتكاب المعاصي خروجٌ على معنى العبودية.

والتاليات ذكرًا: الجماعات التالية لآيات الله تعالى تعبدًا وتعليمًا.

وقد تجتمع هذه الصفات في بعض الأشخاص، وقد تفترق، ولعل الترتيب

على سبيل الترقى، فالاصطفافُ للعبادة كمالاً، والزجر عن ارتكاب المعاصي أكمل، وتلاوة آياتِ الله تعالى للعبادة والتعليم أكمل وأكمل.

وقد يكونُ المرادُ جماعات الملائكة على وجه الخصوص، ويقويه قوله تعالى حكاية عنهم في آخر السورة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

جواب القسم، وفائدته تعظيمُ المقسم به، وهم المتصفون بعبادته تعالى، وتأكيده المقسم عليه، وهو استحقاقه العبادة وحده جل وعلا.

ونبه سبحانه بهذا القسم على أنَّ هذه المخلوقات شَرُفَتْ بعبادته، وكملت بطاعته، وله تعالى أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، تعظيماً لها وتشريفاً، وليس لنا أن نقسمَ بغيره ﷻ.

ثم بيَّن سبحانه وجه استحقاقه العبادة وحده فقال:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿١٦٨﴾﴾.

فهو وحده خالق ومالك ومدير أمر السماوات والأرض وما بينهما.

وإعادة ذكر (رب) مع المشارق لغاية ظهور آثار الربوبية فيها، وتجدها كل يوم، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدالاتها عليه كقوله: ﴿سَرَّيْلَ نَقِيكُمْ أَلْحَرَ﴾ [النحل: ٨١].

وصرح بها في قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

وأراد بقوله في سورة الرحمن: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ مغرب ومشرق الشمس والقمر في الشتاء والصيف.

• زينة وحرس:

﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿١٧٨﴾﴾.

أي: إِنَّا زينا أقرب السماوات من الأرض بزينةٍ بديعةٍ عجيبةٍ هي الكواكب،

وهي زينة للسماء، تبدو كأنها على سطحها، فالكواكب بدل من الزينة، ويجوز أن تكون عطف بيان، وقرأ الأكثرون (بزينة الكواكب) بالإضافة على أنها بيانية، فالزينة مبهمّة صادقة على كل ما يزين به، فتقع الكواكب بياناً لها.

والزينة في الكواكب نفسها ومواقعها من بعضها، وفي أنوارها أيضاً، فإنّها تبدو لأهل الأرض كجواهر مشرقة متألّئة بأشكال مختلفة على سطح أزرق، فضلاً عن ذلك فهي بمثابة مصابيح مضيئة لأهل الأرض.

والسماء وتناثر الكواكب فيها أجمل مشهد تقع عليه العين ولا تملّ طول النظر إليها، وكل نجمة توصوص بضوئها، وكل كوكب يوصوص بنوره، وكأنّه عينٌ مُحبّة تخالسك النظر، فإذا أنت حدّقت فيها أغمضت وتوارث، وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولمعت^(١).

ولهذه الكواكب وظيفة أخرى تؤديها:

﴿وَحَفَظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾

فهو معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قال: إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظاً لها من كل شيطان مارد، وهو المتمرد الخارج عن الطاعة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَةً لِلنَّظِيرِينَ ۝١١﴾ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿[الحجر].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

ودلت الآية دلالة قاطعة على أن حقيقة السماء مغايرة لحقيقة النجوم والكواكب، كما دلت آيات كثيرة على هذه المغايرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾ ١ وَإِذَا الْكُوكُوبُ أُنثرت ﴿[الانفطار].

ولا شك أن الزينة غير المزين.

﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ ٨.

أي: لثلاث يسمعون إلى الملاء الأعلى، ويُرمون من كل ناحية يصعدون إليها.
والملاء الأعلى: هم الملائكة ﷺ سكان السماوات. وقرئ: (لا يسمعون)
بالتخفيف.

فكما جعل سبحانه الكواكب زينة السماء الدنيا جعلها أيضاً مراكز لحراسة
السماء وحفظها من الشياطين، حكى سبحانه ذلك صراحة على لسان الجن في
قوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَ ثَرَسٍ شَدِيدٍ وَشُهْبًا﴾ ٨ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا
مَقْعِدَ لِّلْمَسْمُوعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَحْدُ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن].

ودلت هذه الآيات على أن السماء ما كانت محروسة قبل بعثة النبي ﷺ
ونزول القرآن الكريم، فقد كان بعض الجن والشياطين يصعدون إلى السماء،
ويسترقون السمع من الملائكة، ويبدو أنهم كانوا يصعدون في جو السماء
وجهتها؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ - وهو السحاب - فتذكرُ الأمر
قُضِيَ فِي السَّمَاءِ، فتسترقُّ الشياطينُ السمعَ فتسمعه، فتوحيه إلى الكُهَّانِ،
فيكذبون مع الكلمة مئة كذبةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» [رواه البخاري (٢٢١٠)].

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ٩.

أي: ويقذفون للدحور، وهو الطرد والإبعاد، ولهم في الآخرة عذاب دائم
لا ينقطع.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ١٠.

أي: إلا من اختلس وأخذ بخفة وسرعة شيئاً من كلام الملائكة، فتبعه

ولحقه شهاب ثاقب مضيء، كأنه يثقب الظلام بضوئه، كما في قوله تعالى: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣].

وهو في الأصل الشعلة الساطعة من النار؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي عَاسَتْ نَارًا سَاطِعَةً مِّنْهَا يَحْزِرُ أَوْ عَاقِبَكُمْ بُشَابٍ مِّنْ لَّعَلِّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

ويطلق أيضاً على الكوكب المضيء اللامع، وعلى بعض الأجزاء الصغيرة الملتهبة المنفصلة عن بعض الكواكب.

ومن الثابت علمياً: أن بعض النجوم القريبة من الشمس ذات حرارة عالية ملتهبة، وما ينفصل عنها من أجزاء ملتهب مثلها، وتزداد التهاباً وحرارة عندما تصل إلى جو الأرض وتحتك بهوائها.

• الطين اللازب:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ أي: فاستخبرهم واسألهم سؤال التوبيخ والتبكيت: أهما أقوى خلقاً، وأمتن بنية أَمْنْ خلقنا من السماوات والأرض وما بينهما؟! وقد يكون المراد: أهما أصعب خلقاً وأشق إيجاداً...؟!.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: إنا خلقناهم بخلق أبيهم آدم من طين لاصق أو لازم، يلتصق بعضه ببعض.

وهو شهادة عليهم بالضعف، لأن ما يُصنع من الطين لا يتصف بالصلابة والقوة، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ينكرون البعث وهم يشاهدون من الظواهر في الخلق ما هو أعظم مما ينكرون، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فلماذا يعبدون غيره تعالى، ويجعلون عبادتهم وخضوعهم لآلهة مزعومة عاجزة لا تستحق العبادة...؟!.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: بل عجبْتَ يا محمَّد من تكذيب المشركين وعنادهم، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَأْنَا لِفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وَقُرِئَ بالضم: (عَجِبْتُ) على إسناد التعجب لله تعالى، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، وليس هو كالتعجب من الآدميين، إذ هو بهذا المعنى لا يجوز على الله تعالى.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

أي: وإذا وعظوا بشيء لا يتعظون، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وتحجّر عقولهم، وقلة تفكيرهم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: وإذا رأوا معجزة يستدعي بعضهم بعضاً ليسخروا منها، أو: يبالغون في السخرية.

﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: ما هذا الذي نراه إلا سحر بين واضح.

فالحاصل أنهم لا تفيد معهم البراهين الضرورية، ولا المقدمات الوعظية، ولا المعجزات الدالة على صدق ما تخبرهم به من أمر بعثهم من قبورهم للحساب والجزاء، ويصرُّون على قولهم:

﴿لَآءَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا أَلَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

أي: الأقدمون، فبعثهم كما يتصورون أبعد وأبطل لبعد زمانهم. وقرئ بتسكين الواو: (أو أبائنا) على معنى التردد.

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

قل: نعم تُبعثون وأنتم صاغرون أذلاء. واكتفى بهذا الجواب الحاسم لما سبق من الأدلة الدالة على وقوعه. ثم بين تعالى سهولة بعثهم، وأنه ليس أمراً صعباً عليه فقال:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

والزجرة: الصيحة، من زجر الراعي غنمه إذا صاح بها، والمراد بها نفخة البعث الثانية في الصور، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

فصيحة واحدة تكفي لبعثهم وإخراجهم من قبورهم أحياء ينظرون.

• السوق إلى أرض المحشر:

﴿وَقَالُوا يَوَلَّلْنَا هَذَا يَوْمَ الْآلِينِ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: وقال المبعوثون المنكرون ليوم القيامة: يا ويلنا هذا يوم الحساب والجزاء. ثم أضافوا إلى إقرارهم واعترافهم كلمات يوبّخ فيها بعضهم بعضاً:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

ويأتي الأمر الإلهي بعد بعثهم من قبورهم بسوقهم إلى أرض المحشر:

﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾

﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: وأشباههم وأمثالهم فكل طائفة مع مثلها.

أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والحاكم وصححه: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قال: أزواجهم: أمثالهم الذين هم مثلهم، يُحْشَرُ أصحابُ الربا مع أصحاب الربا، وأصحابُ الزنى مع أصحاب الزنى، وأصحابُ الخمر مع أصحاب الخمر.

وأصلُ الزوج: المقارن، كزوجي النعل، فأطلق على لازمه، وهو المماثل.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾ أي: واحشروا معهم الشياطين التي زينت لهم عبادة غير الله تعالى كما في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصْذُوبُهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنسُ الْقُرَيْشُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿الزخرف﴾.

أو احشروا معهم أصنامهم وأوثانهم زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (٣٨) لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿الأنبياء﴾.

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: فعرفوهم طريق النار وأروهم إياه، والتعبير بالصراط والهداية للتهكم بهم.

﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (٢٤).

أي: مسؤولون عن عقائدهم وأعمالهم كما قال تعالى: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿الحجر﴾.

وهو سؤال توبيخ وتقريع، لا سؤال استعلام، فلا يسألهم هل عملتم كذا وكذا، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ فلا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩].

أو نقول: يوم القيامة يوم طويل فهذا في حال، وثُمَّ في حال آخر، كما قال ابن كثير رحمته الله، وقد يكون المراد من السؤال قوله تعالى المذكور بعد ذلك:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ (٢٥).

أي: لماذا لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم تقولون في الدنيا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ [القمر: ٤٤].

﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (٢٦).

أي: بل أسلم بعضهم بعضاً وخذله، وطلب كل واحد منهم سلامة نفسه.
أو: بل هم اليوم مذعنون منقادون لعجزهم، وانسداد الحيل عليهم.
وأصل الاستسلام طلب السلامة، والانقياد من لوازمه عرفاً، ولهذا استعمل فيه.

• لوم وعتاب:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٧).

أي: يسأل بعضهم بعضاً سؤال لوم وتقريع وخصام.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ (٢٨).

أي: قال الأتباع لرؤسائهم في الكفر والضلال: إنكم كنتم تصدوننا وتمنعوننا عن الخير، وهو الإيمان بما يجب الإيمان به.

ويمكن أن يكون المراد من اليمين القوة والقهر، فإنها موصوفة بالقوة، وبها يقع البطش، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿فَرَأَوْهُمُ صَرَبًا يَلْعِينُ﴾ [الصافات: ٩٣].

والمعنى: إنكم كنتم تحملوننا على الكفر والضلال وتكرهوننا عليه، ويؤيد هذا المعنى قول الرؤساء لهم:

﴿قَالُوا بَلْ لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٩).

أي: بل أياكم الإيمان باختياركم غير مكرهين ولا ملجئين.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيْنَ﴾ (٣٠).

أي: وما كان لنا عليكم من تسلط نجبركم به على الكفر والضلال، بل كنتم قوماً ضالين باختياركم وكسبكم، وهو كقول إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰلِقُونَ﴾ (٣١).

أي: وجب علينا جميعاً قول ربنا إنا لمعذبون بالنار لعلمه بحالنا وإصرارنا على الكفر والطغيان، وغاية ما فعلنا بكم أن دعوناكم إلى الضلال لتكونوا أمثالنا فيه.

﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا عَلَاوْنَ﴾ (٣٢).

أي: فأضللناكم إنا كنا ضالين.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٣).

أي: فإنَّ الأتباع والمتبوعين في العذاب مشتركون كما كانوا في الضلال مشتركين.

• المنسلخون عن العبودية:

وهو أمر عام قدره تعالى على جميع المجرمين الذين سلخوا أنفسهم عن العبودية لله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٤)

سواء كانوا رؤساء أو مرؤوسين .

ثم بيّنت الآيات أن أعظم جرائمهم استكبارهم عن عبادة الله تعالى :

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥)

أي: يستكبرون عن الإذعان لها والإقرار بعبوديتهم لله ﷻ .

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَكُمْ إِنَّا لَنَكْفُرُ بِكُمْ﴾ (٣٦)

وأرادوا به النبي ﷺ . وقد جمعوا بقولهم هذا بين إنكار الوحداية وإنكار الرسالة، وردّ تعالى عليهم بقوله :

﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٣٧)

فالتوحيد الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام هو الحق الثابت المؤيد بالبراهين والذي دعا إليه جميع المرسلين .

وبعد أن ردّت عليهم الآيات التفتت تخاطبهم بقوله تعالى الدال على شدة غضبه عليهم :

﴿إِنَّكُمْ لَذَاقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ (٣٨)

بسبب الشرك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿وَمَا تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٩)

أي: وما تحزون إلا بمثل ما عملتم .

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤١).

أي: الذين أخلصهم الله لعبادته، فلا يذوقون العذاب الأليم، بل يغفر الله سيئاتهم، ويعفو عنهم، ويدخلهم بفضل الجنة.

وقرئت بالكسر: (المخلصين) أي: الذين حققوا معنى عبوديتهم لله، فأطاعوه وحده، وأخلصوا في عبادته.

• الرزق المعلوم:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ (٤٢).

أي: معلوم الصفة من طيب طعم، ولذة، ورائحة، وحسن منظر.

أو: معلوم أنه من رزق الجنة فلا يوجد في غيرها.

﴿فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ (٤٣).

أي: ورزقهم فواكه يتلذذ بها ولا يتقوت، لأنهم مستغنون عن القوت، وهم مكرمون في تناوله، يصل إليهم من غير تعب وسؤال.

ثم وصفت الآيات مجالسهم ومشاربهم بعد وصف طعامهم:

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٤٤).

أي: في جنات ليس فيها إلا النعيم.

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (٤٥).

فلا ينظر بعضهم إلى قفا بعض.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: خارج من العيون، وهو صفة خمر الجنة، لأنه يجري في أنهار، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿يُضَاءُ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: يضاء صافية نقية يلتذ بها الشاربون، أو يشتهيها الشاربون.

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: ليس فيها غائلة تغتال عقولهم، وتؤدي أبدانهم، كما في خمر الدنيا، ولا هم منها يسكرون، فلا يوجد في خمر الجنة ما يوجد من الفساد في خمر الدنيا كالسكر وذهاب العقل وصداع الرأس والأسقام التي تسببها للأبدان. ثم وصفت الآيات أزواجهم في الجنة:

﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَتُ الْأُفُفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وعندهم نساء عفيفات حيّات، لا ينظرن إلى غير أزواجهن حياء، حسان الأعين مع رقة ولطف وعفة ونعومة.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: في صفاء البيض المصون المستور، فلم تمسه الأيدي، ولم يصبه الغبار.

• ذكريات ومسامرات:

ثم وصفت الآيات أحاديث أهل الجنة ومسامراتهم في مقابل ما سبق من حكاية تخاصم أهل النار:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠)﴾ .

أي: يتساءلون عما جرى لهم في الدنيا، وما أحلى الذكريات عند رفاهية الحال وفراغ البال.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١)﴾ .

أي: كان لي في الدنيا مقارن أو مصاحب أو مجالس، ينكر البعث والحساب والجزاء.

﴿يَقُولُ أَأَنَّى لَكَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢)﴾ .

أي: يقول موبخاً لي على الإيمان بيوم القيامة والتصديق بالبعث:

﴿أَءَدَا مِنَّا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظْلًا أَءَنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣)﴾ .

أي: لمجزيون ومحاسبون، وهو استفهام إنكاري.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ (٥٤)﴾ .

قال المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة: هل أنتم مشرفون على النار؟! .

﴿فَأُطِّلَعَ قَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ (٥٥)﴾ .

أي: فأشرف على أهل النار فرأى قرينه في وسطها.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦)﴾ .

أي: قال المؤمن المنعم لقرينه المعذب: والله لكدت أن تهلكني، (إن)

مخففة من الثقيلة، وهي تدخلُ على (كادَ)، كما تدخل على (كانَ)، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: ولولا نعمة ربي علي بالهداية والتثيت لكنتُ من المحضرين معك في العذاب.

ويتابع المؤمنُ كلامه يتحدثُ بنعمة الله عليه على مسمع من قرينه ليكون توبيخاً له:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: نحن مخلّدون منعمون، فما نحن بميتين إلا الموتة الأولى التي كانت في الدنيا، وما نحن أيضاً بمعذّبين.

وبعد أن فرغت الآيات من وصف نعيم أهل الجنة ومسامراتهم وذكرياتهم عقّبت عليه بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

وهو النجاة من النار، والفوز بالجنة والرضوان.

﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: للوصول إلى هذا الفوز يجب أن يعمل العاملون، لا من أجل حطام الدنيا الزائلة.

فالتنافس والتسابق على طريق الجنة أمرٌ محمودٌ، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

أما التنافس من أجل حطام الدنيا الزائلة فأمرٌ مذموم، لأنه يؤدي إلى الحرمان من هذا النعيم، وإلى مقاساة أنواع العذاب في الجحيم.

• شجرة الزقوم:

ومن هذا العذاب الأكل من شجرة الزقوم:

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقْوِمِ﴾ (٦٢).

أي: أذلك الرزق المعلوم في الجنة خيرٌ رزقاً أم شجرة الزقوم. والنزل: ما يقدم للنازل بالمكان من الرزق. وشجرة الزقوم: مشتقة من التزقم، وهو البلع على جهدٍ لكراحتها وندرتها، يأكل منها أهل النار، وهي طعامهم كما سيأتي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (٦٣).

أي: إنا جعلناها محنة وعذاباً للظالمين في الدنيا والآخرة، وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار ولا تحترق؟! وبهذا كانت اختباراً وامتحاناً للناس لإظهار مَنْ يصدق منهم ومن يكذب، وهي عذابٌ لهم في الآخرة، لأنها طعامهم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ (٦٤).

أي: تنبت في قعر جهنم.

﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ (٦٥).

أي: ثمرها الذي يطلع منها كأنه في القبح رؤوس الشياطين، وهو تشبيه

تخييلي، شبه ثمرها بالشياطين لقبحهم عند الناس، والعرب إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنه رأس شيطان.

﴿فَأَنَّهُمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٦٦).

أي: إن الظالمين لآكلون من شجرة الزقوم حتى تمتلئ بطونهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (٦٧).

أي: ثم إنهم يشربون الحميم على الزقوم كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَتِيهَا الصَّالُونَ الْمَكْذِبُونَ﴾ (٥١) ﴿لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ﴾ (٥٦) ﴿فَالثَّوْنُ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ (٥٦) ﴿فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٦٨).

أي: ثم إن مرجعهم بعد هذا العذاب إلى نارٍ تتأجج، وجحيمٍ تتوقد، وسعيرٍ تتوهج.

ويبدو أنهم يساقون إلى الحميم كما تساق الإبل إلى الماء، ثم يردُّون إلى وسط الجحيم، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آِنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

فإن في جهنم مواضع كثيرة أعدَّ الله لهم في كلِّ موضع لونا من العذاب. ثم بيَّن تعالى سبب استحقاقهم لهذا العذاب الأليم فقال:

﴿إِنَّهُمْ أَفْوَءَاءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ (٦٩) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آَثَرِهِمْ مُّرْعَوْنَ﴾ (٧٠).

أي: وجدوا آباءهم ضالين، فساروا على طرقهم من غير تدبُّر ونظر.

والإهراع: الإسراع الشديد، وفي بناء الفعل للمفعول إشارة إلى مزيد رغبتهم في الإسراع على آثار آبائهم من غير توقُّف وتفكير، فالقوم قلَّدوا آباءهم، وعطلوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولو لم يكن في ذم التقليد الأعمى إلا هذه الآية لكفى.

والتقليد الأعمى من أعظم أسباب الضلال، وأكثرها شيوعاً وذيوعاً بين الأمم:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٧١).

أي: بسبب التقليد الأعمى، وتعطيل وسائل النظر والتفكير.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٧٢).

يبيّنون لهم عاقبة الضلال، ويحذرونهم من سطوة الله وانتقامه.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (٧٣).

أي: انظر كيف أهلكناهم، فكانت عاقبتهم في غاية الشدة والفظاعة.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٧٤).

أي: إلا الذين آمنوا وأخلصهم الله لعبادته وطاعته.

أو: إلا الذين آمنوا وأخلصوا في تحقيق عبوديتهم لله (على القراءة بكسر اللام)، نجوا من العذاب، الذي أنزله الله بالمكذبين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ لكن المقصود به قومه، فلا بد أن يكونوا قد سمعوا أخبار الأمم السابقة ورأوا آثارهم.



الفصل الثاني

بَعْضُ مَوَاقِفِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَبَيَّعْنَاهُ وَاهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) وَإِنِّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَفَبِكُلِّ عِلَةٍ غُلَّظْتُمْ (٨٦) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَى عِلَمٍ مَخْلُوفٍ (٨٧) فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا يَأْتِينَ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِيضُونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَتَسَرَّنَاهُ فِغْلًا خَلِيمًا (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ آيَاتِكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢) قَالَ يَتَأْتِيَ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٣) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٤) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَتَاطَبِرْهُمَا (١٠٥) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٦) إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُئِينُ (١٠٧) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٩) سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١١٠) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١١) إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) وَتَسَرَّنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ (١١٣) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَعِصِيٌّ (١١٤) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٥) وَبَيَّعْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٦) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٧) وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٨) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٩) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١٢٠) سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢١) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢٢) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٣) وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٤) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا نَنْفُوعُ (١٢٥)

أَنْدَعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْأَوَّلِيك ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْتَهُمْ
لَمُحْصَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُحْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنْ لَوْطَا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُفَرِّقُهُمْ مُصِيبِينَ
﴿١٣٧﴾ وَيَأْتِلُ أَفْعَالًا تَقْلُوبًا ﴿١٣٨﴾ وَإِنْ يُؤْسَسْ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ بَقِيَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَصَمَ الْخُوفُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾
لَلَبِثَ فِي ظُبِّيهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّدْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْنَيْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ
بَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدٍ ذِكْرًا ﴿١٤٧﴾ فَتَأَمَّلُوا مَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾

• الإيمان والعبودية:

ثم شرعت الآيات تفصّل ما أجملت في سياقها، وتعرض بعض أخبار
الكَمَل من الأنبياء والمرسلين، الذين حققوا عبوديتهم لله جلّ وعلا في أسمى
صورها، فكانوا الأسوة الطيبة الصالحة في جميع ميادين الخير.

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: ولقد دعانا نوح فأجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه.
والتقدير: فوالله لنعم المجيبون نحن، فحُذِفَ منه ما حُذِفَ لقيام ما يدل
عليه، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾

أي: ونجّيناه وأهله من الغم الشديد، وهو التكذيب والأذى الذي استمر
ألف سنة إلا خمسين عاماً كما مرّ معنا عند قوله: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ
عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

والمراد بـ (أهله): المؤمنون، أما امرأته وولده الكافر فكانوا من المغرّقين،

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

وقال أيضاً: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَكَّنْ لِيَ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (٧٧).

فهو الوالد الثاني للبشرية بعد آدم ﷺ.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٧٨).

أي: أبقينا له ثناءً حسناً، وذكراً طيباً، فيمن أتى بعده من الأمم، فلا يذكر إلا بخير.

﴿سَلَّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ (٧٩).

أي: سلامٌ على نوح في كل العالمين كعالم الملائكة وعالم الإنس وعالم الجن. و(سلام) نكرة جاز الابتداء به لما فيه من معنى الدعاء.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٨٠).

أي: هذا الذي أكرمناه به مجازاة على إحسانه في تحقيق عبوديته لربه، وتبليغ رسالته، وصبره على أذى قومه كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨١).

أي: إنه من الذين حققوا عبوديتهم لله تعالى حتى استحقوا أن يشرفوا

بالإضافة إلى ذاته بهذه الصفة، صفة العبودية.

وهي شهادة من الله تعالى في معرض الثناء على نوح عليه السلام، دلت على علو مرتبتي الإيمان والعبودية، وأنهما من أعظم صفات المدح والتكريم.

﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ (٨٢)﴾ .

أي: أعرقنا المعاندين المكذبين الذين سلخوا أنفسهم عن مقام عبوديتهم لله تعالى.

ثم انتقلت الآيات إلى الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)﴾ .

أي: إن إبراهيم من شيعة نوح عليه السلام، ونجّاه الله تعالى من الحرق، كما نجّاه نوحاً من الغرق، وجعله والد جميع الأنبياء والمرسلين الذين بعثوا بعده.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾ .

أي: أخلص الله قلبه، وأقبل على عبادته وحده، فلم يكن في قلبه شيء من العلائق الدنيوية، كما سيأتي بيان ذلك في قصة الذبح والفداء [الآيات: ١٠٢ - ١١١].

• تكسير الأصنام:

﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥)﴾ .

وهو استفهام إنكار وتوبيخ، أتبعه باستفهام توبيخي آخر:

﴿أَيُّكُمْ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ يُرِيدُونَ (٨٦)﴾ .

أي: تأفكون إفكاً، وتعبدون آلهة سوى الله تعالى. والإفك: أسوأ الكذب، وأفاد تقديمه تقرير أنهم على باطل، وأن أمرهم مبني على الإفك.

﴿فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٧).

أي: ما ظنكم أنه فاعل بكم وقد عبدتم غيره.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨).

أي: نظر في النجوم نظر المتفكر في قدرة الله الذي خلقها وأبدعها.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩).

أي: إني مريض القلب من عبادتكم غير الله تعالى.
فظن قومه أنه مريض حقاً:

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ (٩٠).

أي: فتركوه، وانصرفوا عنه إلى عيد لهم خارج البلد.
وبهذا تمكّن ﷺ من الانفراد بأصنامهم لكي يحطمها، ويحقق قسمه الذي صدر منه عندما قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

﴿فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١).

أي: ذهب إليها سراً وقال مستهزئاً: ألا تأكلون؟! ويبدو أن قومه تركوا عندها طعاماً يرجون بركتها فيه.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِفُونَ﴾ (٩٢).

وهو سؤال المتعجب من عبادة قومه لهذه الأصنام العاجزة عن الكلام.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٩٣).

أي: مال عليهم ضارباً شديداً بيمينه حتى كسرها، وجعلها قطعاً كما

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ (٩٤).

أي: أقبل قومه إليه يسرعون بعد أن رجعوا إلى أصنامهم ورأوها مكسرةً محطمةً. وفي قراءة: (يزفون) أي يدفع بعضهم بعضاً.

﴿قَالَ اتَّبِعُونِ مَا نُنْحِثُونَ﴾ (٩٥).

أي: اتبعون ما تنحتون من الأصنام بأيديكم؟! وهو سؤال إنكار وتوبيخ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦).

أي: وتعرضون عن خالقكم وخالق أعمالكم.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٩٧).

أي: ابنوا له بيانا مشرفاً على النار التي أوقدوها فألقوه فيها.

ولم يتزعزع ﷺ، ولم يضطرب، بل بقي رابط الجأش، ثابت القلب، ولم تؤثر فيه ألسنة النيران المتصاعدة في جو السماء، ولا صرخات الجماهير المزدحمة حوله، وكان ﷺ يردّد بقلبه ولسانه: حسبي الله ونعم الوكيل.

ففي «صحيح البخاري» [٤٥٦٣] عن ابن عباس ؓ: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم ؑ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٩٨).

أي: أرادوا به شراً فأبطله الله، وجعلهم المقهورين، وسلّمه الله من شرهم

وكيدهم، فجعل النار برداً وسلاماً عليه كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَبْنَؤُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ومع وضوح المعجزة الدالة على صدق إبراهيم؛ وصحة دعوته؛ أصرَّ قومه على عنادهم وكفرهم، فأهلكهم الله بعد أن أمر إبراهيم بالهجرة إلى بلاد الشام.

• الهجرة إلى بلاد الشام:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩).

أي: إنني ذاهبٌ إلى حيث أمرني ربِّي سيرشدني إلى مقصدي، ويوفِّقني في مذهبي.

وهذا يدل على ثقته ﷺ بربه، وتوكله عليه، وتوجَّه ﷺ إلى الأرض المباركة كما قال تعالى: ﴿وَنَجِّنُهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وسأل الله تعالى في طريق الهجرة أن يرزقه الولد الصالح، لكي يكون معيناً له في الدعوة، ويؤنسه في الغربة:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠) ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١).

أي: فاستجاب الله دعاءه، وبشَّره بغلام حلیم.

ولنا أن تصوّر فرحة إبراهيم المهاجر الغريب بهذا الغلام الذي وصفه ربُّه بأنه غلام حلیم، وسرى آثار حلمه في قصّة الذبح والفداء، وسيكشف لنا سرَّ وصفِ الله تعالى له بهذه الصفة، وقيل: ما نعتَ الله نبيّاً بالحلم لعزّة وجوده غير إبراهيم وابنه ﷺ، وحالهما المذكورة بعدُ تشهد له.

وهذا الغلامُ الحلیم هو إسماعيل ﷺ، فهو الذبيح. أما إسحاق فقد بشَّر به بعد ذلك، قال الله بعد قصة الذبح: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

قال الأصمعي رحمه الله: سألتُ أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح أإسحاق كان أم

إسماعيل؟ فقال: يا أصمعي أين ذهب عقلك؟! متى كان إسحاق بمكة؟! وإنما كان إسماعيل، وهو الذي بنى البيت مع أبيه.

وأيضاً فإن الله تعالى قال في سورة هود: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فكيف يأمره بذبح إسحاق وقد وعده بأن يرى ولد وعده بولد؟! (١).

• رؤيا الأنبياء:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قَالَ يَتَأَتَّىٰ
أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠١﴾

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: لما كبر وترعرع، وصار يَقْدِرُ على المشي مع أبيه في حوائجه، وبهذا السنَّ يزدادُ تعلق الوالد بولده.

﴿قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ وفي قراءة: (يا بني) بكسر الياء، يحتمل أنه رأى ذلك أو رأى ما هو تعبيره، ولم يقل: (رأيت) لأنه رأى مرة بعد مرة.

ورؤيا الأنبياء وحي كالوحي في الیقظة، فإن الأنبياء ﷺ تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، كما في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك ﷺ: «جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم... والنبی ﷺ نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء، تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم» [رواه البخاري (٣٥٧٠)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان النبي ﷺ يزيّد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربع ركعات، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم أربعاً، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟ قال: «تنام عيني ولا ينام قلبي» [رواه البخاري (٣٥٦٩)].

ولا شك أن التكليف بالذبح بواسطة الوحي في أثناء النوم أكمل في

الابتلاء من التكليف به في اليقظة، أظهر الله تعالى به المزيد من فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام في قصة الذبح والفداء، واستسلامهما وإذعانهما للتكليف الإلهي.

قال البيضاوي رحمته الله: «ولعلَّ الأمرَ به في المنام دون اليقظة، لتكون مبادرتهما إلى الامتثال أدلَّ على كمال الانقياد والإخلاص»^(١).

فهذا التكليف وحي، ولا يصح أن نقول عنه: إنه إشارة ومجرد إشارة فقط، كما قال سيد قطب رحمته الله في «الظلال»: نعم إنها إشارة مجرد إشارة، وليست وحيًا صريحًا، ولا أمرًا مباشرًا، ولكنها إشارة من ربه، وهذا يكفي ليلبي ويستجيب دون أن يعترض ودون أن يسأل ربه: لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد. ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرْوِي﴾ أي: ما تريك نفسك من الرأي.

وفي قراءة: (ماذا تري) بضم التاء وكسر الراء، أي: ماذا تبدي من رأيك. وواضح أن إبراهيم عليه السلام لم يشاور إسماعيل ليرجع إلى رأيه، وإنما شاوره ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى، وليعلم صبره على أمر الله، وعزمه على طاعته، أو لتقر عينه بما يرى من طاعة ابنه واستسلامه لأمر الله. ودلت هذه المشورة أيضاً على ثقته عليه السلام بولده، وحسن ظنه به، وأنه سيكون عوناً له على تنفيذ أمر الله تعالى، وتحقق ما كان يرجوه إبراهيم من ولده عليهما الصلاة والسلام.

﴿قَالَ يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: افعل ما أُمِرَ به.

ودلَّ قوله هذا على علو مداركه عليه الصلاة والسلام، وهو لا يزال في بواكير عمره، فقد أدرك أن رؤيا الأنبياء وحي، وأن رؤيا والده أمر إلهي، فحثه على تنفيذه مع أن والده أعلمه بالأمر بأسلوب الاستشارة.

ولما كان خطاب الوالد ﴿يَبْنَى﴾ بأسلوب الترخيم كان خطاب الولد ﴿يَتَابَتِ﴾ بأسلوب التوقير والتعظيم. وفي قوله:

﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ما فيه من التواضع والاستسلام لأمر الله تعالى، وفيه أيضاً عزاءً لأبيه على الصبر، لما يعلم من شفقتة عليه مع عظم البلاء، حيث أشار إلى أن الله تعالى عبداً صابرين^(١).

• الاستسلام وتصديق الرؤيا:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾

أي: فلما استسلما لأمر الله تعالى وانقادا وخضعا له، وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أسلم ابنه، وإسماعيل سلم نفسه، فحققا بذلك كمال العبودية لله ﷻ، وأضجعه على جبينه على الأرض.

وأصل التل: الرمي على التراب، وهو التراب المجتمع. والجبين: جانب الجبهة.

﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا﴾ أي: قد حققت ما أمرناك به في الرؤيا، وحصل المقصود منها، وأظهرت كمال الاستسلام والانقياد لأمر الله تعالى.

فإن قيل: كيف صدق الرؤيا وكان قد رأى الذبح ولم يذبح، وإنما كان تصديقها لو حصل الذبح؟.

قلت: جعله مصدقاً، لأنه بذل وسعه ومجهوده، وأتى بما أمكنه، وفعل ما يفعله الذابح، فقد حصل المطلوب، وهو إسلامهما لأمر الله تعالى، وانقيادهما لذلك، فلذلك قال له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا﴾.

وجواب ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ محذوف تعظيماً له، ليذهب الخيال في تقديره كل مذهب، إذ صدق إبراهيم الرؤيا، وكان ما كان مما ينطق به العيان، ولا يحيط

به البيان من استثناهما بما أنعم الله عليهما من دفع البلاء، وبما اكتسبا في تضاعيف ذلك من الثواب والثناء، وقد أشير إلى جميع ذلك بقوله:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نَصْرِفُ عَمَّنْ أَحْسَنَ طَاعَتَنَا وعبادتنا المكاره والشدائد، ونجعلُ لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كما قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق: ٢].

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾.

أي: إِنَّ هذا لهو الاختبار البين الواضح، الذي يتميز فيه المخلصون عن غيرهم، أو المحنة الشديدة الظاهرة الشدة التي اجتازها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بنجاح.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: وفديناه بحيوان عظيم القدر، يُذْبَحُ بدله، وهو - كما ذكر المفسرون - كبش أبيض أقرن.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

أي: وتركنا لإبراهيم ثناءً حسناً فيمن يأتي بعده، فما مِنْ أمةٍ إِلَّا تصلي عليه وتحبه قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

والجدير بالذكر أَنَّ مناسك الحج التي تؤدَّى في منى قد شرعت بعد حادثة الذبح والفداء، قال ابن عباس رضي الله عنه: لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ بذبح ابنه عرضَ له الشيطانُ عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصياتٍ حتَّى ذهبَ، ثم عرضَ له عند الجمرة

الوسطى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الأخرى، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم مضى إبراهيم لأمر الله تعالى^(١).

وشرعت أيضاً الأضاحي في أيام النحر والتشريق، وهي أيام منى، وأنزل الله فيها قوله الكريم: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقَوِيُّ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾

وهذا السلام نعمة أخرى من نعم الله التي تفضل بها على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

وهو إشارة إلى إبقاء ذكره الجميل والسلام عليه، بينما قوله السابق: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥] أي: نصرف المكاره عن من أحسن طاعتنا وتحقق بالعبودية لنا، فلا تكرر، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: إنه من الذين حققوا صفة العبودية لنا بأسمى صورها.

● النبي العبد:

والجدير بالذكر أن نبينا محمداً ﷺ قد تحقق بكمال العبودية لله، فوصفه ربه سبحانه بصفة العبودية في عدد من الآيات الكريمة، وهو في أعلى المقامات، ففي مقام الإسراء قال تعالى فيه: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١١﴾ [الإسراء: ١].

وفي يوم بدر أنزل الله تعالى فيه أيضاً: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسَهُ. وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْأَجْمَعُونَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفي مقام تبثله وعبادته قال تعالى فيه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن: ١٩].

فهو عليه الصلاة والسلام المتفرّد بكمال العبودية لله تعالى، الذي اختار أن يكون نبياً عبداً على أن يكون نبياً ملكاً، ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك، وإن حجزته لتساوي الكعبة (أي: وسطه) فقال: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ويقولُ لك: إِنَّ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلَكًا، فنظرتُ إلى جبريل عليه السلام، فأشارَ إليَّ أَنْ صَعَّ نَفْسَكَ فَقُلْتُ: نَبِيًّا عَبْدًا» [قال في «كنز العمال» (٣٢٠٢٨): رواه ابن سعد والطبراني في الكبير وابن عساکر].

وفي رواية ابن عباس: فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فأشارَ جبريلُ بيده أَنْ تواضع، فَقُلْتُ: «نَبِيًّا عَبْدًا» [رواه ابن عساکر].

قالت عائشة: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكلُ متكئاً يقول: «أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ» [أخرجه أحمد في الزهد، والبيهقي في الشعب، وأبو يعلى والبغوي وابن سعد وأبو الشيخ].

قال القاضي عياض رحمته الله: «وأما تواضعه ﷺ على علو منصبه ورفعة تبثله فهو أشدُّ الناس تواضعاً وأقلهم كبراً، وحسبك أنه خيّر بين أن يكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فاختر أن يكون نبياً عبداً، فقال له إسماعيل عند ذلك: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ بِمَا تَوَاضَعْتَ لَهُ أَنْكَ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وأول شافع»^(١).

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ص ١٧٣.

وعَلَّقَ القاري في الشرح على قوله: (وَأَقْلَهُمْ كِبَرًا): كذا في الأصول المصححة، ولعلَّه أراد بأنَّه كان يتكَبَّرَ أحياناً لظهور كبرياء الله ﷻ فيه بالنسبة إلى بعض المتكبرين، لما ورد من أنَّ التكبر على المتكبر صدقة، وفي أصل الدلجي: وأعدمهم كبراً.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

أي: وبشرنا إبراهيم بإسحاق، وأنه سيكون نبياً من الصالحين.

ولا شك أنَّ وَقَعَ البشارة على قلب إبراهيم أعظمُ عندما يعلمُ أنَّ ولده سيكون نبياً من الصالحين، وهذا يؤكِّدُ أنَّ الذبيحَ إسماعيلُ، فإنَّه وُصِفَ بقصة الذبح بأنه غلام حليم، وقال تعالى بعد ذلك تعقيباً على القصة: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ولمَّا حملت الملائكةُ البشارةَ إلى إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا بُشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

فإسماعيل وصف بالحلم، وهو مناسبٌ للمقام، كما وصف أيضاً بالصبر وصدق الوعد في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

وهذه الصفاتُ توافقُ ما اتَّصَفَ به في قصة الفداء والذبح وقوله لأبيه: ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

أي: أفضنا عليهما خيرات الدين والدنيا، وجعلنا من ذريتهما من يحسن تحقيق عبوديته لله تعالى، ومنهم من يظلم نفسه بالكفر والمعاصي ظلاماً ظاهراً

كما قال الله لإبراهيم عندما سأل الإمامة لذريته: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وفي ذلك دليل على أنَّ النسب لا أثر له في الهدى والضلال، وأنَّ الظلم في الأعقاب لا يعودُ على الأصل بنقيصة وعيب^(١).

ولهذا قال النبي ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: «يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف! لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب! لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفيئة عمّة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» [رواه البخاري (٤٧٧١)].

• المنة على موسى وهارون:

وتحولت الآيات بعد أن فرغت من قصة الذبح والفداء إلى ذكر نبين كريمين تحققّا بكمال العبودية لله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾

أي: أنعمنا عليهما بنعم كثيرة، منها:

﴿وَبَجَّعْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾

وهو ظلم فرعون وطغيانه.

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾

أي: كانوا هم الغالبين لفرعون وجنوده.

(١) روح المعاني: ١٣٣/٢٣.

﴿وَأَيْنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾

أي: المستنير أو البليغ في بيانه، وهو التوراة.

﴿وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾

أي: بينا لهما طريق الوصول إلى الحق والفوز برضوان الله تعالى.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴿١١٩﴾﴾

أي: جعلنا لهما ثناءً حسناً فيمن يأتي بعدهما.

﴿سَلِّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾

أي: الذين أحسنوا في تحقيق عبوديتهم لله تعالى وطاعته، ولهذا شهد الله لهما بأنهما من عباده المؤمنين فقال:

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

• سلام على إيل ياسين:

ثم أضافت الآيات ذكر إيلياس عليه السلام:

﴿وَإِنَّ إِيلَاسَ لِمَنْ أَرْسَلْنَا ﴿١٢٣﴾﴾

وقد تعددت أقوال المفسرين في قومه الذين أرسل إليهم وفي زمن إرساله، والأولى الاكتفاء بما ذكر القرآن الكريم، فهو من المرسلين، ذكره تعالى هنا، وذكره أيضاً في قوله: ﴿وَرَكِبْنَا فِي الْغَمِّ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسُ كُلٌّ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

وستأتي معنا الإشارة إلى البلد الذي أرسل إليه، والأرجح أن يكون النبي المعروف في العهد القديم باسم إيلياء، وقد أرسل إلى قوم في سورية من بلاد

الشام، كانوا يعبدون صنماً يسمونه بعلاً، ولا تزال آثار هذه العبادة قائمة في مدينة بعلبك.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا نُنْفِونَ﴾ (١٢٤).

أي: ألا تخافون الله فتطيعوه وتعبدوه وحده.

﴿أَنْدَعُونَ بَعْلًا وَّنَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (١٢٥).

أي: أتعبدون بعلاً، وتعرضون عن عبادة الله أعظم الخالقين؟!.

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَأَبَايُكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢٦).

قرئ بالنصب على البدل من (أحسن) وبالرفع على الابتداء. و(بعل) اسم صنمهم، ويبدو أن مدينة بعلبك سُميت به، وهي مدينة عامرة تقع في سهل البقاع من لبنان في بلاد الشام، فيها قلعة مشهورة بآثارها القديمة الرومانية، وفيها أيضاً آثار إسلامية كثيرة، واسم بعلبك مركب تركيباً مزجياً من (بعل) اسم الصنم و(بك) اسم رجل كان ملكاً فيها^(١).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُم مُّحَضَّرُونَ﴾ (١٢٧).

أي: إنهم لمُحَضَّرُونَ في العذاب، وأطلقت لأنها مخصوصة بالعذاب كما سبق معنا في قوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١٢٨).

أي: الذين أخلصهم الله لعبادته وطاعته.

(١) الصحيح أن (بك) تعني بيت العبادة، ومنه سُميت مكة أو بكة، أي: بيت العبادة، أي مسجد، فبعلبك بيت عبادة الإله بعل (ن).

وقرئت بالكسر (المخلصين) أي: الذين أخلصوا في عبادة الله وحده، وتحققوا بمقام العبودية له. والاستثناء من الواو في (المحضرون).

﴿وَتَرْكُنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (١٢٩).

أي: تركنا له ذكراً حسناً في الآخرين كما ترك للأنبيا السابق ذكرهم.

﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ﴾ (١٣٠).

أي: سلام على إياس وقومه المؤمنين.

ومع السلام ثناء وشهادة من الله تعالى بأنه من المحسنين الذين حققوا مرتبة الإحسان في عبادة الله تعالى، التي ذكرها النبي ﷺ في قوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)]:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾.

• المنة على لوط:

ثم مرّت الآيات سريعاً على ذكر نبي الله لوط، وما أنزل الله بقومه من العذاب:

﴿وَلَوْ لُوطًا لِّمَن الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَآهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَايِينَ ﴿١٣٥﴾.

وهي امرأته، التي بقيت مع المعذبين بسبب كفرها.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ (١٣٦).

أي: ثم أهلكنا الآخرين.

ثم توجّهت الآيات تخاطب قوم النبي ﷺ داعية لهم إلى الاتعاظ والاعتبار بآثار الهالكين التي يمرّون عليها في أسفارهم:

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَمْلِكُوا صَبْرًا ۖ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنَّا لَأَقْلُنَّ عُنُقَهُمْ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا أَمْرًا ۖ إِنَّا نَحْنُ مُخَبِّرُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصْلِحُنَّ لَهُمْ نَصْرًا ۚ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنَّا لَأَقْلُنَّ عُنُقَهُمْ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا أَمْرًا ۖ إِنَّا نَحْنُ مُخَبِّرُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصْلِحُنَّ لَهُمْ نَصْرًا ۚ﴾

• صاحب الحوت:

وتوقفت الآيات عند ذكر نبي الله يونس عليه السلام لتبرز قصته الفريدة العجيبة:

﴿وَإِنْ يَوُسَّىٰ لَيَمْسَسَنَّكَ الْمَسْجِدَ ۖ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنَّا لَأَقْلُنَّ عُنُقَهُمْ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا أَمْرًا ۖ إِنَّا نَحْنُ مُخَبِّرُونَ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصْلِحُنَّ لَهُمْ نَصْرًا ۚ﴾

أي: إذ هرب وترك قومه قبل أن يأذن له ربُّه، وركب سفينة مملوءة.

ويطلق الإبقاء في الأصل على الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه؛ حَسُنَ إطلاقه عليه.

ومر معنا ذكره في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا القول أولى مما نقله القرطبي عن الحكيم الترمذي: أسماه أبقاً، لأنه أبق عن العبودية، وإنما العبودية ترك الهوى، وبذل النفس عند أمور الله.

فيونس رسول كريم لا يليق أن نقول عنه: (أبق عن العبودية) وكل ما فعله أنه ترك قومه مغاضباً منهم، لأنهم لم يستجيبوا لدعوته قبل أن يأذن له ربُّه، وهو الأنسب بحال الأنبياء عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْشُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

وحتى لا يسيء أحد الظن بيونس عليه السلام، ويصفه بما لا يليق بحال الأنبياء عليه السلام قال رسول الله ﷺ: «لا تقولن أحدكم: إني خير من يونس» [رواه البخاري (٣٤١٢)].

قال ابن حجر رحمه الله: «إنما قال ﷺ ذلك تواضعاً إن كان قاله بعد أن أعلم أنه أفضل الخلق، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال، وقيل: خصَّ يونس

بالذكر لِمَا يُخْشَى عَلَى مَنْ سَمِعَ قصته أن يقع في نفسه تنقيصٌ له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة^(١).

ويبدو أنَّ السفينة أوشكت على الغرق لكثرة مَنْ فيها كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿الْفَلَائِكُ الْمَشْحُونُ﴾ فأرادوا تخفيف حملتها، فاقترعوا على مَنْ يرمونه في البحر، فخرجت القرعة على يونس عليه السلام:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾^(١٤١)

أي: فكان من المغلوبين في القرعة.

• القرعة في الإسلام:

والاقتراع على إلقاء آدمي في البحر لا يجوز، إنما تجري عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته، وعليهم أن يصبروا على قضاء الله تعالى، وهي مشروعة في الإسلام لقطع النزاع بين أصحاب الحقوق المتساوية، كالسفر بإحدى الزوجات، وتعيين أصحاب الحصص في القسمة بين الشركاء، أو بين المستحقين في قسمة الميراث.

وقد بَوَّب الإمام البخاري في «صحيحه» في [٥٢] كتاب الشهادات فقال: [٣٠] بَابُ الْقُرْعَةِ فِي الْمَشْكَلَاتِ، ثم أخرج عدداً من الأحاديث الشريفة:

منها قوله عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْمُذْهِبِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا، وَبَعْضُهُمْ فِي أَعْلَاهَا...» الحديث [٢٦٨٦].

ومنها قول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا أرادَ سفرًا أقرَعَ بين نسائه، فَأَيَّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ... الحديث [٢٦٨٨].

ومنها أيضاً قوله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ لَمْ

يجدوا إلا أن يَسْتَهْمُوا عليه، لاسْتَهْمُوا» [٢٦٨٩]. انظر أحاديث الباب في البخاري.

﴿وَالنَّمَمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [١٤٢].

أي: فابتلعه الحوت وهو آتٍ بما يُلام عليه، فلَمَّا أتى بما يستحق اللوم عليه صار ذا لوم.

والذي أتاها - كما مر معنا - أنه ترك قومَه مغاضباً لهم، قبل أن يأذن له ربُّه بتركهم، ونظراً لعلَّو مقامه تعرَّضَ للوم والمؤاخذه من الله تعالى، وحسنات الأبرار سيئات المقرِّين.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [١٤٣].

أي: لولا أنه كان من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، ومنه ما حكاه الله عنه وهو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] كما مرَّ معنا من قبل.

﴿لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [١٤٤].

أي: لبقني في بطن الحوت إلى يوم القيامة، فيكون بطنُ الحوت قبراً له. وفيه حَتٌّْ على الإكثار من ذكر الله تعالى، وتعظيم شأنه، ومنَّ أقبَلَ عليه في السَّراء أخذ بيده عند الضراء كما في الحديث الشريف: «تعرَّفَ على الله في الرخاء يعرفك في الشدة» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦)].

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [١٤٥].

أي: فطرحناه في أرض لا نبات فيها ولا شجر، على ساحل البحر، وهو عليل ضعيف مما أصابه في بطن الحوت.

وفي هذا إشارة إلى أنَّ مدة لبثه في بطن الحوت كانت مديدة.

وأضاف سبحانه النبذ إلى نفسه، وإن كان الحوت هو النابذ، لأنه نبذه بأمره تعالى وقدرته ومشيتته، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقال تعالى أيضاً: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩].

ففيها أنَّ الله ﷻ أخبر أنه نبذه بالعراء وهو غير مذموم، ولولا رحمته به لنبذ بالعراء وهو مذموم^(١).

● شجرة اليقطين:

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقِطِينَ﴾ (٢١).

وهو القرع المعروف، ويسمى الدُّبَّاء، وكان النبي ﷺ يحبُّه.

ففي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ خِيَّاطاً دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَطْعَامٍ صَنَعَهُ، قَالَ أَنَسُ: فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَتَّبِعُ الدَّبَّاءَ مِنْ حَوَالِي الْقَصْعَةِ، فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدَّبَّاءَ مِنْ يَوْمَئِذٍ. [رواه البخاري (٢٠٩٢)].

وأخرجه مسلم من هذا الوجه [٢٠٤١] بلفظ: كان يعجبه القرع.

وللنسائي في الكبرى [٦٦٣٠]: كان يحب القرع ويقول: «إنها شجرة أخي يونس».

ولا بدَّ أن يكون للقرع فوائد كثيرة، وذكروا من فوائده سرعة نباته، وتظليل ورقه ونعومته، وأنه لا يقربها الدُّباب، وجودة تغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً، كما ذكروا أنَّ ورق القرع نافع لمن انسلخ جلده.

واستشكل بعضهم أنَّ الشجر ما كان على ساق، بينما الدَّبَّاء لا ساق له، والجواب أنه يحتمل أنَّ الله سبحانه أنبتها على ساق لتظله خرقاً للعادة، أو

يقال: هذا تخصيصُ العامة، وعند العرب كل شيء له جذر فهو شجر، ويشهد له قول أفصح الفصحاء عليه السلام: «شجرة الثوم» والحديث المشار إليه أخرجه البخاري [٨٥٣] عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال في غزوة خيبر: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - يَعْنِي: الثُّومَ - فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا».

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾

أي: بل يزيدون.

والمراد وصفهم بالكثرة، وأنهم ليسوا أنقص من ذلك، بل أزيد، ومثله قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿فَأَمْنُوا بِرِسَالَتِهِمْ إِلَى حِينٍ﴾

أي: صدّقوا برسالة يونس عليه السلام، فكشف الله عنهم العذاب، ومَتَّعَهُم بالحياة إلى أن تحينَ آجالُهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِينُهُ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

الْمَلَائِكَةُ وَعِبَادَتُهُمْ وَإِخْلَاصُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى

﴿فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ السُّوَبُ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾
 أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهَمْ يَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَلَهُمْ لَكِدُونُ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَقَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَسِينِ ﴿١٥٣﴾
 مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾
 وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسًّا وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِتْمَهُمْ لِمُحْصَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سَخَّرَ اللَّهُ عَنْهَا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا
 عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَاتَّكُمُ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَعَيْنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾
 وَمَا مِمَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾
 أَنَّنَا عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُمَا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكُفُّوا بِهِ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

● القسمة الباطلة:

وبعد هذه الوقفة عند نبي الله ﷺ عادت الآيات للمرة الثانية تأمر النبي ﷺ أن يسأل المشركين سؤال التوبيخ والتبكيت:

﴿فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ السُّوَبُ ﴿١٤٩﴾﴾

وهو سؤال إنكار لما كان بعض مشركي العرب يقولونه عن الملائكة بأنهم بنات الله، حتى إنهم أطلقوا على بعض أصنامهم أسماء الإناث؛ قال تعالى في سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٦٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿١٧٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿١٧١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿١٧٢﴾﴾.

فهي قسمةٌ باطلةٌ بَيَّنَّ سبحانه بطلانها في عدد من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

فكيف جعلوا لله تعالى البنات وقالوا: الملائكة بناتُ الله، مع أنهم كانوا يكرهون البنات كرهاً شديداً، بينما جعلوا لأنفسهم الذكور؟! وبهذا زادوا على الشرك ضلالات كثيرة وكبيرة، فقد وصفوا الله بصفات لا تليقُ بكماله وجلاله، فإنَّ الولد والولادة من صفات المخلوقات الفانية، وفضَّلوا أنفسهم عليه تعالى فجعلوا أضعفَ الصنفين له، وأقواهما لهم، واستهانوا أيضاً بالملائكة، ووصفوهم بالأنوثة، وهي صفات الضعفاء، ولهذا شدَّد تعالى الإنكار عليهم فقال:

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ (١٥٠).

أي: وهم حاضرون عندما خلق الله الملائكة إناثاً، فالأنوثة لا تُعَلَّمُ إلا بالمشاهدة.

ولا يخفى ما في الآية من استهزاء بهم لفرط جهلهم وغبائهم، ثم حكمت الآياتُ عليهم بالكذب، وبيَّنت أنه صادرٌ عن صفة عريقة فيهم؛ وهي الإفك الذي هو أشد الكذب:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

وقرئ: (ولَدَ الله) بالإضافة، ورفع (ولد) على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: ليقولون: الملائكة ولَدَ الله!.

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٣).

وهو استفهام إنكاري، المراد منه إثبات إفكهم، وتأكيدهم كذبهم. والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء، وفي قراءة: (اصطفى) بكسر الهمزة على تقدير حذف أداة الاستفهام.

ثم التفتت الآيات تخاطبهم وتوبخهم:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (١٥٤).

أي: كيف تحكمون بهذا الحكم الباطل الذي تقضي ببطلانه بدهاة العقول؟!.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٥).

أي: أفلا تتذكرون أنه تعالى منزّه عن اتخاذ الولد، فإنه أمرٌ في غاية الوضوح يتذكره كل ذكي وغبي.

وبعد أن وبّختهم الآيات هذا التوبيخ الشديد، وجرّدتهم من أي دليل عقلي انتقلت بأسلوب الإضراب والتحدي لتبيّن أنّ قولهم الباطل هذا لا يستند إلى أي دليل سمعي أيضاً:

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥٦) فَأَتُوا بِكُنُوزِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾

أي: هل لكم برهان واضح منزل عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله سبحانه، فأتوا بكتابٍ يشهد لكم إن كنتم صادقين.

وواضح أنّ الأمر للتعجيز، وأنّ إضافة الكتاب إليهم للتهكم بهم. ودلّت الآيات على السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم، والاستبعاد الشديد لأباطيلهم، وتسفيه أحلامهم وتجهيلهم.

• من نزغات الشياطين:

ثم كشفت الآيات مصدر هذه الضلالات والأباطيل، فبيّنت أنها من نزغات الشياطين ووساوسهم:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ (١٥٨) وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ أي: وجعلوا بينه تعالى وبين الشياطين مناسبة،

فأشركوهم مع الله تعالى في استحقاق العباد، وأطاعوهم فيما وسوسوا في صدورهم من أمثال هذه الأباطيل والضلالات، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ].

وطاعتهم للشياطين عبادة لهم، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ أَعْبُدْتَنِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس].

والمراد من الجن: الشياطين، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: لمحضرون في العذاب يوم القيامة، ولو كانوا يستحقون العباد ما عذبهم ربهم، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَخُنُودٌ أَيْمُونٌ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سُورِكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

أي: يتنزه الله عن كل وصف لا يليق بكماله وجلاله ووحدانيته.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

أي: إلا عباد الله المخلصين من الجن لا يحضرون العذاب.

فالجنُّ المؤمنون الذين أخلصوا في تحقيق عبوديتهم لله تعالى ناجون من العذاب، وكما أنَّ في عالم الجن الكفرة والمردة والشياطين، ففيهم أيضاً المؤمنون الصالحون، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿٩٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن].

• براءة الملائكة ومقامهم في العباد:

ثم وجهت الآيات خطابها إلى الكفار من الإنس والجن، تبين لهم كمال قدرته تعالى ومشيتته وعلمه:

﴿فَإِنَّكَ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ .

أي: إنكم أيها الكفار من الجن والإنس لا تستطيعون أن تضلوا أحداً إلا أصحاب النار، الذين سبق في علمه تعالى أنهم بسوء أعمالهم يستوجبون العذاب فيها، يقال: فتن فلان على فلان امرأته؛ أي: أفسدها عليه.

قال عمر بن عبد العزيز رحمته الله: لو أراد الله ألا يُعصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطيئة، وإن في ذلك لعلماً في كتاب الله ﷻ عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ثم قرأ: ﴿فَإِنَّكَ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾﴾ إلا من كتب الله ﷻ عليه أن يصلي الجحيم، وقال: فصلت هذه الآية بين الناس. وفيها من المعاني: أن الشياطين لا يصلون إلى إضلال أحدٍ إلا مَنْ كتب الله عليه أنه لا يهتدي، ولو علم الله ﷻ أنه يهتدي لحال بينه وبينهم ^(١).

ثم أعلنت الآيات براءة الملائكة مما وصفهم به الضالون المضلون، وإعلانهم عبوديتهم لله ﷻ، وتزيهه عن كل ما لا يليق بكماله ووحدانيته:

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ .

أي: وما منا مَلَكٌ إلا له مكان معلوم في العبادة لا يتجاوزه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أظن السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ومَلَكٌ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصُّعَدَاتِ تجأرون إلى الله تعالى» [رواه الترمذي (٢٣١٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجه (٤١٩٠) وهو في الصحيحين مختصراً].

وكانهم يقولون: وكيف نكون مناسبين لرب العزة وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكل منا مقام معلوم من الطاعة لا يستطيع أن يزل عنه ظفراً، خشوعاً لعظمته^(١).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾

أي: نحن الصافون للعبادة والطاعة.

وفي الحديث الشريف: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأولى، ويتراصون في الصف» [رواه مسلم (٤٣٠)].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

أي: وإننا نحن المصلون، أو المنزهون الله عما وصفه به المشركون. والمراد أنهم يخبرون بأنهم يعبدون الله بالتسبيح والصلاة، وليسوا معبودين، ولا بنات الله، كما زعم المشركون وشياطينهم. وفي (إننا) واللام وتوسط ضمير الفصل (نحن)، تأكيد وتخصيص بأنهم المواظبون على العبادة والتسبيح من غير فترة دون غيرهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٦٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء].

ثم أبرزت الآيات بعض المفارقات والتناقضات في مواقف المشركين:

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾

أي: كان المشركون يقولون قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام: لو أن عندنا كتاباً مثل كتب الأولين لأخلصنا العبادة لله، وما خالفنا كما خالف الأولون.

﴿فَكْفُرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٠).

أي: فلما بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ، ودعاهم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده كفروا به، وأعرضوا عن دعوته، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وإعراضهم. وهذا التناقض في مواقف المشركين سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].



الْفَضْلُ الْإِبْرَاقِ

بَشَائِرُ النَّصْرِ وَالتَّائِيْدِ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ

• وجاءت البشائر:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَنَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُوكَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَلَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

ثم حملت الآيات البشائر لعباد الله المخلصين بالنصر والتأييد على الذين سلخوا أنفسهم عن مقام العبودية لله رب العالمين:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾

أي: سبق وعدنا لهم بالنصر والتأييد، كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ لَأَقْوَىٰ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

ورأى بعض المفسرين أنَّ المراد بقوله سبحانه: (كلمتنا) هو المذكور في قوله بعد ذلك:

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

فهو تفسير أو بدل من (كلمتنا) والمراد بالجند أتباع المرسلين، وأضافهم

تعالى إليه تشريفاً لهم وتكريماً، فطاعتهم للمرسلين طاعة لله تعالى القائل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠].

وما أعزَّ إنسانُ نفسه بمثل تحقُّقه بالعبودية لله تعالى واستسلامه لأمره، والتزامه بشرعه، وما أذلَّ إنسانُ نفسه إلا بمعصية الله، والانسلاخ عن تحقيق عبوديته له، وصدق الله تعالى القائل: ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

والقائل أيضاً: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].
ثم خَصَّتْ الآياتُ النَّبِيَّ ﷺ بالبشارات تثبته بها وتوعد أعداءه:

﴿فَنُؤَلِّهِمْ هَهُنَ الْيَوْمَ﴾ (١٧٤)

أي: أعرضُ عنهم واصبر حتى يحينَ وقت قتالهم، فإنَّ الله ناصرُك عليهم.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ هَهُنَ الْيَوْمَ﴾ (١٧٥)

أي: وأبصر ما يصيبهم يومئذ من الهزيمة والقتل فسوف يبصرون ذلك.
والمراد بالأمر (أبصرهم) الدلالة على أن ذلك قريب كأنه قدامه، و(سوف) للوعيد لا للتبديد^(١).

ولمَّا سمعَ المشركون هذا الوعيدَ الشديدَ المؤكد تساءلوا عنه منكبين ومستعجلين له! فنزلت:

﴿أَفَعَدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (١٧٦)

وهو استفهامٌ توبيخ وتجهيل.

وإضافة العذاب إلى الله ﷻ بضمير العظمة يفيد هول هذا العذاب وشدته .

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ (١٧٧)

أي: فإذا نزل العذاب بفنائهم بغتة فبئس صباح الكافرين الذين أنذروا به .
والصباح: مستعارٌ من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب، وكانت عاداتهم أن يُغيروا صباحاً فسميت الغارة صباحاً؛ وإن وقعت في وقت آخر .
وفي الحديث: عن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ أتى خيرَ ليلاً، وكان إذا أتى قومًا بليلٍ لم يقرّبهم حتّى يصبَحَ، فلمّا أصبحَ، خرجت اليهودُ بمساحيهم ومكاتيلهم، فلمّا رأوه قالوا: محمّدٌ والله، محمّدٌ والخميس . فقال النبي ﷺ: «خربت خيرٌ، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ، فسَاءَ صباحُ المُنْذَرِينَ» .
وفي رواية ثانية: قال: «اللهُ أكبرُ خربتُ خيرٌ» [رواه البخاري (٤١٩٧)] .
ثم أضافت الآيات تأكيداً جديداً زيادة في تثبيته عليه الصلاة والسلام ومواساته عما يلقي منهم :

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (١٧٨) ﴿وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ﴾ (١٧٩)

ويلاحظ الإطلاق في: ﴿وَأَبْصَرَ﴾ بعد التقييد ﴿وَأَبْصَرُهُمْ﴾ [الصفات: ١٧٥]؛ للإشعار بأنه يبصر ما لا يحيط به الوصف من أصناف المسرة، وأنهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من أنواع المساءة . أو: الأول لعذاب الدنيا، والثاني لعذاب الآخرة .

• تسبيح وسلام وحمد:

وفي الختام تَوَجَّ الله السورة بآيات التسبيح والسلام والحمد:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠)

وسبحان - كما مرّ معنا - علّم للتسبيح الذي هو التبعيد عن كل نقص اعتقاداً

وعملاً، وهو إخبارٌ بتنزُّهه تعالى عن كلِّ ما لا يليقُ به، وهو أيضاً حُكْمٌ فيه تكليفٌ؛ أي: قولوا: سبحان ربك.

وأضيفَ التسييحُ هنا إلى اسم من أسمائه الحسنَى، وهو (الرب) المضاف إلى ضمير المخاطب، وهو سيدنا رسول الله ﷺ، وفي هذا تشریفٌ له عليه الصلاة والسلام، وتنويه بمكانته الرفيعة، فالله هو الرب، وأنت يا محمد المربوب.

وأضيفَ الربُّ مرةً ثانيةً إلى العزة، لأنَّ العزةَ منوطةٌ بمشيئته تعالى وقدرته، يعزُّ بها من يشاء، ويذل من يشاء، كما سبق معنا عند قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ [فاطر: ١٠].

فكأنه سبحانه قال: سبحان مَنْ هو مربيك ومكملك ومعزُّك عمّا قاله المشركون فيه مما سبق ذكره في السورة.

والعزَّةُ يحتمل أن تكون صفةً ذاتٍ، بمعنى القدرة والعظمة، وأن تكونَ صفةً فعلٍ، بمعنى القهر لمخلوقاته والغلبة لهم، ولذلك صحت إضافة اسمه إليها.

﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٨١)

أي: سلامٌ على جميع المرسلين، وهو تعميمٌ بعد تخصيص السلام ببعض المرسلين، كما سبق في قوله:

﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩].

﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩].

﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٨٢)

على كماله وجلاله وإحسانه، وإرسال رسله، وإظهار دينه، وإعزاز عباده. نسأل الله سبحانه أن يجعلنا منهم.



تفسير سورة ص الْقُرْآنُ وَالْمَغِيبَاتُ فِي سُورَةِ ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَلَّدُ
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد اهتمّت سورة ص بإبراز وجهٍ من وجوه إعجاز القرآن الكريم الدالة على أنّه كلام الله تعالى:

• إذ لفتت الأنظار إلى أخبار الغيب المذكورة فيه، فهو من هذه الناحية ذكر، ﴿وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] ومع ذلك أعرض المعاندون عنه، وكذبوا الرسل، كما كذبت قبلهم الأمم الكافرة المعاندة.

• ثم عرضت الآيات بعض الوقائع المغيبة من أخبار بعض الأنبياء الخاصة بهم:

- داود عليه السلام، وهو في معتكفه مع الخصم الذين تسوروا محرابه.
- وسليمان عليه السلام وحبه للخيل والنساء، وتسخير الشياطين له.
- وأيوب عليه السلام وصبره على البلاء، وكفارة يمينه التي صدرت منه بشأن من شؤون زوجه.

- ثم عرضت بعض أخبار الملائ الأعلى، وما حدث بينهم من حوار عند خلق آدم ﷺ، لتقرر أنَّ القرآن الكريم نبأ عظيم، ومع ذلك فهم عنه معرضون.

• ثم لتشير في آخر السورة إلى المغيبات المستقبلية التي قدر الله حدوثها، والتي أشارت إليها آيات كثيرة في مواضع متعددة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (AV) وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿ص﴾.



﴿وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ الواو للقسم لا للعطف كما هو ظاهر، والذكر: الشرف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله أيضاً: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]. أو لأنه يذكر بالله تعالى كما في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أو لما ذكر فيه من تشريع وأحكام ومواعظ وزواجر تنبه الغافلين، وترد الشاردين إلى الصراط المستقيم، مع أخبار مستقبله ومغيبات ماضية. وانتقلت الآيات بأسلوب الإضراب من القسم والمقسم به إلى الحديث عن جحود المشركين وإعراضهم عن رسالة النبي ﷺ:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

أي: بل الذين كفروا في تكبر عن الإذعان للحق ومخالفة له، فما كفروا به إلا استكباراً، والمراد بالعزة ما يظهرونه من استكبار، لا العزة الحقيقية التي ذكرها تعالى في قوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وأصل معنى الشقاق: المخالفة، وكونك في شق غير صاحبك، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وكأن الآيات في صدر السورة تتجه إلى مواساة النبي عليه الصلاة والسلام عمّا يلقي من عناد قومه وإعراضهم، وتقول له: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) ما أنت يا محمد مقصراً في تبليغ الذين كفروا وتذكيرهم، بل هم مقصرون لعدم اتباعك، والاعتراف بصدق رسالتك.

وفي ذلك ما فيه من تعظيم النبي ﷺ، وتنويه بجهوده التي يبذلها في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة.

فكفرهم كفر جحود وعناد، ولهذا اتجهت الآيات بعد هذا الاستفتاح تتوعدهم بسبب استكبارهم وشقاقهم.

• الذنب الكبير:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينَ مَنَاصٍ ۖ﴾

أي: كم أهلكنا من الأمم الخالية قبلهم، فاستغاثوا حين نزول العذاب وحلول الانتقام، والحال أن ليس الحين حين مناص، أي: نجاة، من ناصه: أي فاته، ف (لا) هي المشبهة بـ (ليس) زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، والأكثر حذف اسمها. ثم ذكرت الآيات بعض أباطيلهم وأضاليلهم المتفرعة عن استكبارهم وشقاقهم:

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۖ﴾

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: وعجبوا أن جاءهم رسول من جنسهم، فعُدُّوا ذلك أمراً عجباً أنكروه أشد الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: قال الكافرون العريقون في الكفر: هذا ساحر كذاب، ووضع الاسم الظاهر: (الكافرون) موضع الضمير غضباً عليهم، وذمّاً لهم، وإشعاراً بأن كفرهم جرّأهم على هذا القول، فهو ذنب كبير، لا يقدم عليه إلا الكافرون المتوغلون في الكفر، المنهمكون في الضلال، إذ لا كفر أبلغ من أن يسمّوا من صدّقه الله كاذباً ساحراً، وتعجبوا من التوحيد، وهو الحقُّ الأبلج، ولم يتعجّبوا من الكفر وهو باطل لجلج^(١).

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٢٦٢/٥.

﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

أي: إن هذا الذي يدعو إليه محمد في غاية العجب، وهو عبادة إله واحد، وفي قراءة (عُجَاب).

ودلت الآية على شدة تمسكهم بالشرك، الذي تلقَّوه عن آبائهم، وتشربته قلوبهم، فلمَّا دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى خلعه من قلوبهم، أعظموا ذلك وتعجَّبوا. أخرج أحمد [٢٠٠٨]، وابن أبي شيبة، والترمذي [٣٢٣٢] وصححه، والنسائي [٤٥٦] وغيرهم: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا مرضَ أبو طالب دخل عليه رهطٌ من قريش منهم أبو جهل فقالوا: إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ يَشْتُمُ آلَهُنَا، ويفعلُ، ويقولُ ويقولُ، فلو بعثتُ إليه فنهيتَه.

فبعثَ إليه فجاءَ النبيُّ ﷺ فدخلَ البيتَ، وبينهم وبينَ أبي طالبٍ قدرُ مجلسٍ، فخشى أبو جهلُ أنْ جلسَ إلى أبي طالبٍ أن يكونَ أرقَّ عليه، فوثبَ فجلسَ في ذلك المجلسِ، فلم يجدْ رسولُ الله ﷺ مجلساً قُرْبَ عمِّه، فجلسَ عند البابِ، فقال له أبو طالب: أي ابن أخِي ما بالُ قومِكَ يشكونك، يزعمون أنَّكَ تشتمُ آلَهُنَّ وتقول وتقول؟! قال: وأكثرَ عليه من القولِ.

وتكلَّم رسولُ الله ﷺ فقال: «يا عمُّ إنِّي أريدُهم على كلمةٍ واحدةٍ يقولونها، يدينُ لهم بها العربُ، وتؤدِّي إليهم بها العجمُ الجزية».

ففرحوا لكلمته، ولقوله. فقال القوم: ما هي وأبيك؟ لنعطينها وعشراً. قال: «لا إله إلا الله». فقاموا فزعين، ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

وفي رواية: أنهم قالوا: سلنا غيرَ هذا. فقال عليه الصلاة والسلام: «لو جئتموني بالشمسِ حتى تضعوها في يدي ما سألتُكم غيرها». فغضبوا وقاموا غضاباً وقالوا: والله لنشتمنَّك وإلهك الذي يأمرُك بهذا^(١).

(١) روح المعاني: ١٦٦/٢٣، وقال الشيخ أحمد محمد شاكر مصحح المسند: إسناده صحيح.

وفي رواية: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا عَمَّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ؛ مَا تَرَكْتُهُ»^(١).

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

أي: خرجوا من مجلس أبي طالب يقول بعضهم لبعض: استمروا على دينكم، ولا تستجيبوا لدعوة محمد، فهو أمرٌ يرادُ بنا، لا ينفعُ فيه إلا الصبر والثبات.

أو: إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَظِيمٌ يريدُ محمد إمضاءه وتنفيذه من غير صارف يلويه، ولا عاطف يُثنيه، فلا أمل في صرفه عنه، وهذا المعنى أوجه لما اشتهر من ثباته عليه الصلاة والسلام.

• حسد وتكذيب:

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾.

أي: ما سمعنا بهذا الذي يدعو إليه محمد في الملة الآخرة، وهي النصرانية فما هو إلا كذب.

وهذا يدلُّ على أَنَّ البشرية كانت عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام في أمسِّ الحاجة إليها، فقد اندرست معالم التوحيد تماماً وانطمست، وعمت ظلمات الجاهلية وانتشرت، بسبب انقطاع الوحي الإلهي لفترة امتدت من عهد عيسى عليه السلام إلى بعثة نبينا الخاتم ﷺ، ودامت زهاء ستة قرون، وهي الفترة التي قال الله فيها: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩].

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٤٠، صرح ابن إسحاق بالسماع، وسنده منقطع، فالحديث ضعيف.

ثم بيّنت الآيات حقيقة البواعث التي دفعتهم إلى اتهام النبي ﷺ بالكذب والسحر:

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (٨).

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: كيف أنزل عليه الذكر، وهو دوننا في الوجاهة والغنى؟!.

وهذا يدل على أنَّ الحسدَ هو الذي جعلهم يُعرضون عن دعوته عليه الصلاة والسلام، ويتقوّلون عليه الكذب والبهتان، كما حكى الله عنهم في سورة الزخرف حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣٦).

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي: بل هم في شك من القرآن المنزل على رسولي، والمؤيد بالحجج والبراهين، ولم يذوقوا عذابي بعد، فإذا ذاقوه زال عنهم الشك والحسد.

فالقوة هي أنسب وسيلة لدرء حسد الحاسدين، وردّ عناد المعاندين، وقمع جحود الجاحدين، لأن أمثال هؤلاء لا ينقادون إلى الحق بالدليل والبرهان.



الفصل الثاني

بَعْضُ الْوَقَائِعِ الْغَيْبِيَّةِ مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ

﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ ثُلُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَزْنُقُوا ﴿١٠﴾ فِي الْأَسْبَابِ ﴿١١﴾ جُدُّ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْرَابِ ﴿١٢﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٣﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ الْأَحْرَابِ ﴿١٤﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَطًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٨﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٩﴾ وَالطُّلُوعِ مُحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّدْنَا الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢١﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَسْوُ الْخَصَمِ إِذْ سُورُوا مِنَ الْحَرَابِ ﴿٢٢﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَحْفَظْ خَصَمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءٍ الصِّرَاطِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَرِّ بِالنَّجَاتِ ﴿٢٤﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِلَيَّ نِعَاجِهِ وَإِنْ كَبِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لِبَنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٥﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٦﴾ يَدْعَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ طَرُفٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٨﴾ أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٩﴾ كَذَّبَ أَتْلُفَتُهُ إِلَيْكَ مُزَكِّ لِيَدْعُوا بِآيَتِهِ وَلِيَسْتَدْكُرُوا أُولَ الْأَنْبِيَاءِ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعُشِيِّ الصِّفَتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي

أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٦﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْقَاقِ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغِي لِي أَحَدٌ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٢٩﴾ فَخَرَّ لَهُ الرِّيحُ تَحْرِي بَأَمْرِهِ رُخَاءً حَتَّى أَصَابَ ﴿٣٠﴾ وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٣١﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْغَادِ ﴿٣٢﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنِ أَوْ امْكُتْ بِعَبْرٍ حِصَابٍ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّ لَهُمْ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٣٤﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَيْ مَسَى الشَّيْطَانُ بِضَيْبٍ وَعَدَابٍ ﴿٣٥﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا غُصْلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٣٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٣٧﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ صِغْراً فَأَصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْسَبْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٨﴾ وَادْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٣٩﴾ إِنَّا اخْتَصَمْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ ﴿٤٠﴾ وَلَهُمْ عِنْدَنَا لَبَنٌ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤١﴾ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَدَا الْكَافِلَ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٢﴾

• تائيس و تثبيت:

ثم ردت الآيات اعتراضهم على اصطفاء النبي عليه الصلاة والسلام لمقام الرسالة دونهم بقوله تعالى:

﴿أَمْرٌ عَنْهُمْ خِزَانٌ رَحْمَةً رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾.

أي: ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يتصرفوا بها، وإنما مالكها العزيز الذي لا يُغْلَبُ، والوهاب كثير المواهب، المصيبُ بها مواقعها. وفي إضافة الربِّ إلى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالة على شرفه ورفعته.

﴿أَمْرٌ لَهُمْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾﴾.

فكما أنهم لا يملكون شيئاً من خزائن رحمته تعالى، لا يملكون أيضاً شيئاً من مخلوقاته السماوية والأرضية، فإن ادَّعوا شيئاً من ذلك فليصعدوا إلى السماوات، وليمنعوا الملائكة من النزول بالوحي على محمد عليه الصلاة والسلام.

ولا يخفى ما في الآيات من تهكُّم مُرَّ بهم بسبب اعتراضهم على اصطفاء النبي ﷺ لمقام النبوة والرسالة.

ثم بعد هذا التهكم المربَّنت الآيات حكمه تعالى بهم:

﴿جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾.

أي: هم جند ما مقموع ذليل من الكفار المتحزبين على الرسل، فلا تبال بتكذبيهم وشقاقهم.

ففي الآية تأنيسٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، وتثبيتٌ له في مواجهتهم، وفيها أيضاً وعد من الله تعالى بأنه سينصره عليهم.

وجيء بـ (ما) للتقليل والتحقير، فهم قلة حقيرة عند الله تعالى كذبوا رسله، مع أنهم أمم كثيرة أجملت الآيات الإشارة إليهم بقوله تعالى:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢﴾.

أي: وفرعون ذو الجموع الكثيرة من الجنود الذين كانوا يثبتون ملكه.

﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ۝١٣﴾.

﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ أي: وأصحاب الشجرة الكبيرة، وهم قوم شعيب، الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝١٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُ [الشعراء].

﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ أي: أولئك الذين تحزَّبوا على الأنبياء، المكذبون المهزومون.

﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾.

أي: فوجب عقابهم بسبب تكذيب الرسل.

﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۝١٥﴾

أي: وما ينتظر قومك الذين كذبوك إلا صيحة واحدة تهلكهم، ما لها من توقف مقدار فواق، وهو ما بين حلبي الحالب، وتقرأ بالفتح والضم.
والمعنى: أن تلك الصيحة إذا جاءت لم تُردِّ ولم تُصَرَفْ، وهي ممتدة لا تقطع فيها.

ومع هذا الوعيد الشديد قالوا استهزاء واستبعاداً:

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝١٦﴾

أي: عجل لنا قسطنا من العذاب الذي تتوعدنا به قبل يوم الحساب.
وأصل القط: القسط من الشيء، لأنه قطعة منه، وهذا يدل أنهم بلغوا الغاية القصوى في العناد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِّنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَةً مِّنْ سَمَوَاتِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢].
وقد أظهرت الآية عنادهم من ثلاث نقاط:

أولها: أنكروا التوحيد بقولهم: ﴿أَجْعَلِ آلَهُآ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥].
ثانيها: حسدوا النبي ﷺ، وأنكروا رسالته بقولهم: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا آيَةً مِّنْ سَمَوَاتِكَ﴾ [ص: ٨].

والثالثة: أنكروا المعاد، وقالوا مستهزئين: ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.
وهذه النقاط الثلاث هي المحاور الأساس في دعوته عليه الصلاة والسلام، ولهذا التفتت الآيات تصبّره وتثبتته وتعهده بالظفر والنصر، وتقصُّ عليه أخباراً غائبة لا يعلمها إلا الله.

• داود عليه السلام وتسبيح الجبال والطير:

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝١٧﴾

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوة في العبادة والعمل،

ومنه رجل أيد: أي قوي، فالأنبياء هم رؤاد الأمم والشعوب، وقادتها إلى كل خير وبر.

وقد أثنى النبي عليه الصلاة والسلام على داود بقوله: «أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داود، كان يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، كان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثلثه، وينام سدسه» [رواه البخاري (٣٤٢٠)].

ومرَّ معنا أنه كان يأكل مِنْ عمل يده عند قوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرِّ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١].

وذكرنا ثمة قول النبي ﷺ: «ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطَّ خيراً من أن يأكلَ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ، وإنَّ نبيَّ الله داودَ كان يأكلُ مِنْ عَمَلٍ يَدِهِ» [رواه البخاري (٢٠٧٢)].

وقوله: ﴿عَبَدْنَا﴾ فيه إظهار لشرفه ﷺ؛ فهذه الإضافة دلت على أنه حقَّق معنى العبودية لله تعالى.

﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: إنه رجَّاع إلى الحق وإلى مرضاة الله، وهذا تعليل لقوته ﷺ في الدين، فكان رجَّاعاً إلى طاعة الله ورضاه في كل أمر، فهو أهلٌّ لأن يقتدى به.

﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسِخِّنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾.

أي: إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ تَسْبِيحُ مَعَهُ إِذَا سَبَّحَ فِي طَرْفِي النَّهَارِ، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوِيَّ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾.

أي: وسَخَرْنَا الطَّيْرَ مَجْمُوعَةً إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وكل واحد من الجبال والطير لأجل تسييح داود يسبح. وقرئ: (والطيرُ محشورة) بالابتداء والخبر.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ (٢٠).

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: قوينا ملكه بالعدل، فجعلناه أساس ملكه، والدليل على ذلك قوله تعالى بعده مباشرة:

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ أي: وأعطيناه الإصالة في القول والعمل، والفصل في القضاء بين المتخاصمين، أو البيان الفاصل بين الحق والباطل. وعن علي بن أبي طالب عليه السلام: «هو البيّنة على المدّعي واليمين على من أنكر»^(١).

وقول عليّ هو حديث شريف، ولفظه في البخاري [٢٦٦٨]: عن ابن مَلِيكَةَ قال: كتب ابنُ عباس رضي الله عنهما إليّ: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله قَضَى بِالْيَمِينِ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ. وقد أخرجه الطبراني: من رواية سفيان، عن نافع، عن ابن عمر بلفظ: «الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ» وهذه الزيادة ليست في «الصحيحين» وإسنادها حسن^(٢).

● قصة ابتلاء داود عليه السلام:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سَارُوا بِالْمِحْرَابِ﴾ (٢١).

أي: وهل أتاك خبرُ الخصمِ إذْ صعدوا وعلّوا سور المحراب. فهو من الأمور الغيبية الخاصة بـداود عليه السلام، لا علمَ لنا بنبينا صلى الله عليه وآله بها، وأفاد الاستفهامُ التشويقَ والتعجيبَ. والخصمُ والخصماءُ: يقع على الواحد والجمع، لأنه مصدر. والسور: الحائِطُ المرتفع. والمحراب: مكان العبادة.

(١) تفسير القرطبي: ١٦٢/١٥.

(٢) فتح الباري: ٢٨٣/٥.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝﴾ .

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لأنهم دخلوا عليه في محرابه بغير إذنه .
 ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: نحن خصمان تعدى وظلم بعضنا بعضاً جثناك لتقضي بيننا .
 ﴿فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: ولا تجر في حكمك، من الشطط: وهو مجاوزة الحد وتخطي الحق .
 ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ أي: وأرشدنا إلى وسط طريق الحق، بزجر الباغي عن الجور، وإرشاده إلى منهج الحق .

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝﴾ .

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: إن هذا أخي في النسب له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، وهي أنثى الضأن، وقد يكتن بها عن المرأة .
 ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: اجعلني كافلاً وملئنيها، وغلبني في مخاطبته إياي، فإنه كان أقدر على الاحتجاج مني .

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجِكَ إِلَى نَعِجَةٍ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝﴾ .

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجِكَ إِلَى نَعِجَةٍ﴾ أي: قال داود ﷺ: لقد ظلمك بضمّ نعتك إلى نعاجه .

ويقال: إن هذه كانت خطيئة داود ﷺ، لأنه قال ذلك من غير تثبت بينة،

ولا إقرارٍ مِنَ الخصم، ويقوِّي هذا الرأي قوله تعالى بعد ذلك: ﴿يَنذَرُ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].

وقد جاءت أخبارٌ وقصصٌ في أمر داود ﷺ، أكثرُها لا يصحُّ، ولا يتَّصلُ إسناده، ولا ينبغي أن يجترأ على مثلها إلا بعد المعرفة بصحتها، وأصحُّ ما روي في ذلك ما رواه مسروق عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما زاد داود ﷺ على أن قال: (أكفليتها) أي: انزل لي عنها، والمعنى: أن داود سأل أوربا (زوج المرأة التي زعموا أن قلب داود مال إليها) أن يطلق امرأته، فنبهه الله ﷻ على ذلك وعاتبه، وأمّا غير هذا فلا ينبغي الاجتراء عليه^(١).

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الظَّالِمِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: وإن كثيراً من الشركاء الذين خلطوا أموالهم ليتعدى بعضهم على بعض.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي: وهم قليل، و(ما) للإبهام والتعجيب من قلتهم، فهم الذين يتحامون عن البغي والعدوان.

﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّهَا فَتْنَةٌ﴾ أي: علم داود أنّما ابتليناه بالحكومة هل يتنبّه لها؟ وتنبّه ﷺ، وعلم أنّ الله أراد أن يبيّن له أنه لا يليقُ بمقام النبوة أن يصدر منه ما صدر مما سبق ذكره.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: سأل ربه المغفرة، وسقط على وجهه ساجداً لله تعالى، ورجع إليه تائباً، ودلّ ذلك على شدة خشيته لله تعالى وتعظيمه له ﷻ.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّغَابٍ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾ أي: فغفرنا له ما استغفر منه.

وحتى لا يسيء أحد الظنّ بنبيِّ كريم قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ أي: إِنَّ له عندنا مكانة عالية وحسن مرجع ومصير؛ وهو الجنة.

وليس في هذه الألفاظ: (فاستغفر ربه، وأتاب، فغفرنا له ذلك) ما يدلُّ على صدور الذنب منه، وذلك لأنَّ مقام النبوة أشرفُ المقامات وأعلاها، فيطالبُ الأنبياءُ بأكمل الأخلاق والأوصاف وأسنائها، فإذا نزلوا من ذلك إلى طبع البشرية عاتبهم الله تعالى على ذلك وغفر لهم، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين^(١).

وأقصى ما في هذه القصة الإشعارُ بأنَّه ﷺ ودَّ أن يكون له ما لغيره، وكان له أمثاله، فنَّبه الله بهذه القصة فاستغفر وأتاب^(٢).

ورأى بعضهم أنها خصومةٌ حقيقيةٌ كما أشرتُ إلى ذلك سابقاً.

واختلف العلماء في سجدة ص هل هي من عزائم السجود؟ فمذهب الشافعي أنها ليست من عزائم سجود التلاوة؛ قال: لأنها توبةٌ نبيّ، فلا توجبُ سجدة التلاوة. وقال أبو حنيفة: هي من عزائم سجود التلاوة. وعن أحمد روايتان، وقد ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ سجدَ فيها^(٣).

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضيهما الله تعالى عنهما قال: ليس ص من عزائم السجود، ورأيتُ النبيَّ ﷺ يسجدُ فيها. [رواه البخاري (٣٤٢٢)].

• الخلافة والحكم بالحق:

ثم أخبرت الآيات في تعقيها الأول على قصة ابتلاء داود عليه السلام بالنداء الذي أوحاه الله إليه وخاطبه به:

(١) تفسير الخازن: ٢٧٣/٥.

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٧٥/٥.

(٣) تفسير الخازن: ٢٧٤/٥.

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ أي: آتيناك فيها الحكم بين أهلها كما في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَيْنَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] فجمع الله له النبوة والملك .

وحقيقة الخلافة عن الله سبحانه ممتنعة، لأنها في حقٍّ مَنْ يَصْحُ عليه الغيبة، والله منزَّه عن ذلك جلَّ وعلا، وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فالمراد منها بيان مكانة الإنسان وتشريفه وتكريمه .

ولا يقال: (خليفة الله) إلا لرسوله ﷺ، وأما الخلفاء فكلُّ واحدٍ منهم خليفة للذي قبله، وما يجيء بالشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوُّز وغلو... ألا ترى أنَّ الصحابة رضي الله عنهم حرَّروا هذا المعنى، فقالوا لأبي بكر الصديق: خليفة رسول الله، فبهذا كان يُدعى مدته، فلمَّا ولي عمرُ بن الخطاب قالوا: يا خليفة خليفة رسول الله، فطال الأمر، ورأوا أنه في المستقبل سيطول أكثر، فدعوه: أمير المؤمنين، وقصر هذا الاسم على الخلفاء^(١) .

﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ وهو الذي شرعه تعالى، وحكمه لا يكون إلا بالحق، وهو خلاف الباطل، قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨] .

ودلَّت الآية على ضرورة إقامة حاكم للناس يحكم بينهم بالحق، كما دلَّت على أن سبب الظلم والجور اتباع الحكَّام لأهوائهم، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ولا تتبع ما تهوى النفس في قضائك، أو لا تمل مع ما تشتهي إذا خالف أمر الله فيبعدك عن دينه وصراطه المستقيم .

وأيد هذا النهي ما قيل: إِنَّ ذَنْبَهُ ﷻ المبادرة إلى تصديق المدَّعي وتظليم الآخر قبل مساءلته، لا الميل إلى امرأة أوريا، فكأنه قيل: ولا تتبع الهوى في الحكم كما اتبعته أولاً، وفيه أَنَّ اتباع الهوى وحكمه بغير ما شرع الله تعالى له غيرُ مناسبٍ لمقامه، لا سيما وقد أخبر الله تعالى قبل الإخبار بمسألة المتحاكمين أنه آتاه الحُكْمَ وفصلَ الخطاب، فليس هذا إلا إرشاداً لما يقتضيه منصبُ الخلافة، وتنبهاً لمن هو دونه ﷻ^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصْلَوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا سَأَوْا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ وهذا الوعيد الشديد يدل على خطورة الضلال واتباع الهوى، وأنه يؤدي إلى الغفلة عن يوم الحساب والجزاء.

• ضرورة الحساب والجزاء:

فشعور الإنسان بمسؤوليته عن أعماله يوم القيامة يَحْمِلُهُ على الالتزام بالعدل، ويزجره عن الظلم، فهو إذن أمرٌ ضروري لتنظيم الحياة الاجتماعية بين الناس، وجعلها تقوم على التعاون والعدل ممَّا يدل على حكمة الخالق سبحانه، فالله ما خلق الحياة الدنيا عبثاً وباطلاً، وهو ما أكدته الآيات بقوله سبحانه بعد ذلك:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﷻ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أي: خلقاً باطلاً لا حكمة فيه.

أو: ما خلقناها للباطل الذي هو اتباع الهوى والميل إلى اللعب والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﷻ﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الدخان].

﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ذلك ظن الذين ينكرون يوم القيامة، فإنَّ إنكارهم إنكاراً لحكمة الخالق جل وعلا.

أما المؤمنون المتفكرون في قدرة الله تعالى وباهر حكمته في خلقه فإنهم

يُؤْمِنُونَ بِهَا، قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أي: فهلاك لهم من النار بسبب إنكارهم يوم الحساب والجزاء.

(ويل) كلمة للتقبيح على المخاطب فعله، وأما ما ورد (ويل) واد في جهنم، فلم يُرو أنه معناه في اللغة، وإنما أراد مَنْ قال الله ذلك فيه فقد استحقَّ مقرأً من النار^(١).

وأكد الحديث الشريف أنها لتقبيح فعل المخاطب، فعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة، فقال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها وتلك» [رواه البخاري (٦١٥٩)].

ثم بيّنت الآيات أن يوم الحساب ضروري أيضاً للتمييز بين المصلحين والمفسدين في المصير والجزاء:

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إن عدم البعث للحساب والجزاء يقتضي التسوية بين الفريقين المتفاضلين، بين المؤمنين والكفرة المفسدين، وهو محال، والاستفهام للإنكار يقتضي نفى التسوية بين الفريقين لتقرير البعث والجزاء وتأكيده.

﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ وهو انتقال وإضرابٌ إلى إثبات يوم البعث لإنكار محال آخر أظهر من الأول، وهو استحالة التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة، فلا يُعقلُ أبداً أن يكون مصيرهما واحداً، وهو الموت، لا بد إذن من بعث بعد الموت، وحساب وجزاء، يُثاب فيه المطيع، ويُعاقب الفاجر.

وقد أكد ﷺ هذا المعنى في مواضع كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿أَفَجَعَلَ الْمَسِيكِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم].

ومنها أيضاً قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

• التدبر في آيات القرآن الكريم:

ولا شك أن إخبار الآيات بالخطاب الذي وجهه الحق إلى داود ﷺ، وأمره فيه أمراً لازماً صريحاً بأن يحكم بين الناس بالحق، وحذره فيه من اتباع الهوى المؤدي إلى الجور والظلم، لا شك أنه موجه في الحقيقة إلى جميع القضاة والحكام، وما أخبر الله به إلا ليعتبر به أمثالهم، فهم محتاجون إليه أكثر من نبي الله داود، الذي أكرمه الله بعصمة النبوة من الزلل والخطأ، ولا ضمانه للقضاة والحكام من الجور والظلم، إلا إذا التزموا بأحكام دين الله وشريعته المستمدة من الكتاب المنزل على خاتم أنبيائه ورسله، مع الشعور برقابة الله عليهم، ومسؤوليتهم عن أعمالهم يوم الحساب والجزاء، فهذا خير ضمان لإقامة العدل، وعدم الجور والظلم، ولهذا قال تعالى في تعقيبه الثاني على قصة ابتلاء داود ﷺ يقرر هذه الحقيقة ويؤكددها:

﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩).

﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ أي: هو كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن الكريم، الذي أقسم به تعالى في أول السورة: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) وهو كتاب مبارك كثير المنافع والفوائد في الدين والدنيا.

﴿لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: ليتفكر الناس في آياته، فيعرفوا ما يُدبر ويتبع ظاهرها من حكم وأحكام وشرائع ومواعظ وعبر وأخبار ينتفع بها أصحاب الأبواب، وهي العقول الزاكية الطيبة المريدة للحق، وما زيادة الظلم

والجور والإجرام في المجتمعات البشرية المعاصرة إلا نتيجة ابتعادها عن شريعة الله، وانسلاخها عن الشعور برقابته والمسؤولية أمامه يوم الحساب والجزاء.

فالتفكر في آيات التنزيل الحكيم أمرٌ مطلوب، أكدّه سبحانه في قوله في سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٢٤).

وما أكدّه سبحانه وحثّ عليه إلا ليتبين الناس صدقه، وأنه كلام الله يدل على صحة نبوة رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

فالتدبر في آيات الكتاب يدل على أنه كلام الله، وما فيه من أخبار عن مغيبات ما كان ﷺ يعلمها، دليل على أنه وحى من الله، ليس للنبي ﷺ فيه إلا التلقي والتبليغ، وأكد سبحانه أيضاً وحثّ على تدبر آياته، والتفكير بها لمعرفة ما فيها من تكاليف وأحكام وشرائع وتطبيقاتها، قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما تدبره بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده، حتى إنّ أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل^(١).

• خيل سليمان عليه السلام:

ثم ذكرت الآيات بعد ما ذكرت من أخبار داود عليه السلام بعض أخبار ابنه سليمان عليه السلام، وهو أيضاً نبي كريم، جمع الله له النبوة والمُلْك، وأثنى عليه بقوله:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣٠).

أي: نعم العبد سليمان تحقق بوصف العبودية لله تعالى، فهو أَوَّابٌ رجّاع إلى الحق، وإلى مرضاة ربه.

ومرّ معنا أنه تعالى أثنى على أبيه داود بمثل هذا الشناء، فسليمان سار على طريقة أبيه، وتمسك بطاعة الله تعالى، وأقام الحق والعدل بين الناس.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٠٢.

﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّفْفَنَتُ الْجَيَادُ﴾ (٣١).

أي: إذ عرض على سليمان بعد الظهر الخيل الصافنات الجياد.

والصافنات: القوائم على ثلاث قوائم، بينما تجعل الرابعة على طرف حافرها. والجياد: جمع جواد الذي يجود بالركض، وصفها سبحانه بوصفين محمودين في الخيل واقفة وجارية.

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (٣٢).

أي: إني ألزمت قلبي حُبَّ الخير عن أمر ربي، فكان يقول هذه الكلمات حتى غابت الخيلُ عنه، واحتجبت عن عينه، وأراد أن هذه المحبة الشديدة للخيل إنما حصلت عن ذكر الله وأمره، لا عن الشهوة والهوى، لأن الخيل عدة الجهاد في سبيل الله.

والخير في الأصل: المال الكثير، والمراد به الخيل هنا لتعلق الخير بها، وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيرُ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة» [رواه البخاري (٢٨٤٩)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البركةُ في نواصي الخيل» [رواه البخاري (٢٨٥١)].

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ (٣٣).

أي: قال سليمان: ردوا عليَّ الخيل، فجعل يمسحُ بيده أعناقها وسوقها تكريماً لها وتشريفاً، لأنها عدة الجهاد.

وهذا المعنى ذكره الإمام البخاري في «صحيحه» كتاب التفسير (٣٨) سورة ص، فقد قال عند ذكر الآية: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ يمسحُ أعراف الخيل

وعراقبيها، قال ابن حجر: هو قولُ ابن عباس، أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه، وزاد في آخره: حبًّا لها^{(١)(٢)}.

وإلى هذا المعنى ذهب الرازي في تفسير الآية، ورجَّحه على ما ذهب إليه جمهور المفسرين، أنه ﷺ قطع سوقها وأعناقها بالسيف لما فاتته صلاة العصر بسبب انشغاله بها، وفَسَّرُوا: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ بغياب الشمس.

ونقل القرطبي في تفسيره عن الزهري وابن كيسان: كان يمسحُ سوقها وأعناقها، ويكشفُ الغبارَ عنها حبًّا لها. وقاله الحسن وقتادة وابن عباس.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ رَوَى وهو يمسحُ فرسه بردائه، وقال: «إني عوبْتُ الليلةَ في الخيلِ» [أخرجه في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد مرسلًا، وهو في غير «الموطأ» مسندٌ متصل عن مالك عن يحيى بن سعيد عن أنس]^(٣).

وهذا المعنى أولى من المعنى الذي ذهب إليه جمهور المفسرين، فهو ينسجم مع سياق الآية التي أثنت على نبيِّ الله سليمان ﷺ، وأما ابتلاؤه ﷺ فقد أخبر الله عنه بعد ذلك في قوله الكريم:

● قصة ابتلاء سليمان ﷺ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

أي: ولقد ابتلينا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا، ثم رجع سليمان إلى الله تعالى تائبًا.

وسبب فتنته كما ذكر المحققون هو ما ورد في الحديث الصحيح: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأةَ تحمِلُ كلُّ امرأةٍ فارساً يجاهدُ في سبيلِ الله، فقال له صاحبه: إن

(١) فتح الباري: ٤٥٩/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ١٥/١٩٦.

(٣) المرجع السابق نفسه.

شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه». فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله» [رواه البخاري (٣٤٢٤)].

• تنبيه وتحذير:

وأما ما يُروى من حديث الخاتم والشیطان وعبادة الوثن في بيت سليمان ﷺ، فمن أباطيل اليهود.

وفسر رواة هذه الأباطيل قوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّه جَسَداً﴾ شيطانا يقال له: آصف، قال له سليمان: كيف تفتن الناس؟ قال: أرني خاتمك أخبرك، فأعطاه، فنبذه في البحر، فذهب ملك سليمان، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان، فلم يقربهن، فأنكرته أم سليمان، وكان سليمان يستطعم، ويعرفهم بنفسه فيكذبونه، حتى أعطته امرأة حوتا فطيّب بطنه، فوجد خاتمه في بطنه، فردّ الله إليه ملكه، وفرّ آصف فدخل البحر، وذكرت روايات أخرى متعددة اسم هذا الشيطان!.

قال القاضي عياض وغيره من المحققين: لا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به، وتسليطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه، وإن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الله الأنبياء من مثل هذا^(١).

وقال أبو حيان وغيره: إن هذه المقالة من وضع اليهود والزنادقة، ولا ينبغي لعاقل أن يعتقّد صحة ما فيها، وكيف يجوز تمثل الشيطان بصورة نبي حتى يلتبس أمره بين الناس؟!^(٢).

• ملك سليمان ﷺ:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٢٥)

أي: هب لي ملكاً لا يكون لأحد من بعدي مثله، إِنَّكَ أَنْتَ الْمَعْطِي ما تشاء لمن تشاء.

(١) تفسير الخازن: ٢٨٣/٥.

(٢) روح المعاني: ١٩٩/٢٣.

وجاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجَنِّ تَفَلَّتَ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأُمْكِنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، فَأَخَذَتْهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سُوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كَلِّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، فَרَدَّدَتْهُ خَاسِتًا» [رواه البخاري (٣٤٢٣)].

والجدير بالذكر أنَّ سليمان عليه السلام ما سأل هذا المُلْكَ للتفاخر به في الدنيا، وإنَّما سألَه لِيَكُونَ مَعْجَزَةً لَهُ فِي نُبُوته ورسالته، وَيَسْخَرُهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ مَرَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ فِي دَعْوَةِ بَلْقِيسَ مَلِكَةِ سَبَأَ وَقَوْمِهَا لِلْإِسْلَامِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

واستجابَ اللهُ دَعْوَتَهُ، وَأَخْبَرْتَنَا الْآيَاتُ أَنَّهُ تَعَالَى سَخَّرَ لَهُ طَاقَاتٍ كَبِيرَةً هَائِلَةً، وَسَلَّطَهُ عَلَى مَخْلُوقَاتٍ خَفِيَّةٍ غَائِبَةٍ عَنَّا، لَمْ يَسَلِّطْ عَلَيْهَا أَحَدٌ غَيْرَهُ:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦)﴾ .

أي: ذللنا له الريح تجري بأمره ليناً طيبة حيث أراد.

ويبدو من خلال الآيات الكريمة التي أخبرت عن هذا أنَّ تسخيرَ الريح لسليمان بتحويلها من ريح عاصفة مدمرة إلى ريح طيبة لينّة، فقد قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ (٨١)﴾ .

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ (٢٧)﴾ .

وسَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطِينَ أَيْضًا، يَبْنُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ، وَيَسْتَخْرِجُونَ لَهُ اللَّالِئَ مِنْ أَعْمَاقِ الْبَحَارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِيِبٍ وَتَمَثَّلَ وَجْهَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُّوا رَاسِيَ تَ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَأَخْرَيْنَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨)﴾ .

أي: وسخرنا له آخرين من الجن، وهم مردة الشياطين، مشدودين في القيود، ويبدو أنه ﷺ سُلِّطَ عليهم، حتى كان يقرن المتمردين منهم بعضهم مع بعض بالسلاسل والقيود تأديباً لهم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَسْلِمْنَا مِنْ رِيحٍ غُذُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَّاحُهاَ شَهْرٌ وَأَسْلَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنْ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَنْزَغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذْقُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].
وقوله أيضاً: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفْضُوكَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِيظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)﴾ .

أي: قلنا له: هذا عطاؤنا، فأعطِ من شئت، وامنع من شئت، فلا حرج عليك ولا حساب فيما أعطيت أو منعت.
وحقق سليمان ﷺ عبوديته لله في كل ما أنعم عليه وأعطاه، فكان شاكراً له ﷺ، وسخر نعمه عليه في طاعته وعبادته، وقد ذكر ﷺ في سورة النمل أنه ﷺ كان يقول: ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٩).
ولهذا عَقَّبَتِ الآياتُ بالإخبار بأنه تعالى أثنى عليه كما أثنى على والده داود فقال:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ (٤٠)﴾ .

أي: وإنَّ له عندنا مكانة رفيعة، وحسن مصير ومرجع يوم القيامة، فسليمان ﷺ نبي كريم، ما سأل الله هذا الملك حرصاً على الدنيا، وافتخاراً بها، بل كان ذلك بإِذْنِ له من الله، وكان أيضاً معجزةً له، خصَّه الله بها للدلالة على صدق نبوته، كما خصَّ غيره من الأنبياء بالمعجزات الحسية التي أجزاها على

أيديهم، ولا شك أن هذا الثناء فيه شهادة من الله تعالى، بأن سليمان عليه السلام تحقق بصفة العبودية لله تعالى في حال الرخاء والسراء.

● قصة ابتلاء أيوب عليه السلام:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ﴾ (٤١).

أي: واذكروا محمداً - ﷺ - نبي الله أيوب عليه السلام الذي حقق عبوديته لنا في الضراء، فنادى ربه متضرعاً داعياً: أني مسني الشيطان بضر في جسدي وألم في نفسي. وقد ابتلي عليه السلام بمرض في جسده، كما ابتلي بفقد ماله وأولاده. وينبغي التنبيه هنا إلى أن المرض الذي ابتلي به لم يكن منفراً ومستقذراً، بحيث يجعل الناس ينفرون عنه، كما ذكر في بعض كتب التفسير. قال أهل التحقيق: إنه لا يجوز أن يكون بصفة يستقذره الناس عليها، لأن في ذلك تنفيراً، فأما الفقر والمرض وذهاب الأهل فيجوز أن يمتحنه الله بذلك، فيجوز على الأنبياء كل عَرَضٍ بشري ليس محرماً ولا مكروهاً ولا مباحاً مزيئاً ولا مزماً ولا مما تعافه الأنفس ولا مما يؤدي إلى النفرة والاستقذار^(١).

وفي قراءة: (بَنَصْبٍ) بفتح النون، وبفتحتين: (بَنَصْبٍ) وبضميتين: (بَنُصْبٍ) وكلُّها بمعنى المشقة، وهو الضر الذي ذكره سبحانه في قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ يدل على أدبه مع الله تعالى، فلم ينسب إلى الله تعالى ما أصابه من ضر، مع أنه يعلم أن الأفعال كلها خيرها وشرها خالقها هو الله، لا شريك له في خلقه، فهو سبحانه خالق كل شيء، كما ذكر في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

لكن الشر لا ينسب إليه سبحانه ذكراً، وإن كان موجوداً منه خلقاً، أدباً

أَدَبْنَا بِهِ، وَتَحْمِيداً عَلَّمْنَاهُ، وَكَانَ مِنْ ذِكْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ لِرَبِّهِ قَوْلُهُ: «وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» [رواه مسلم (٧٧١)].

ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وقال الفتى لموسى الكليم: ﴿وَمَا أَسْنِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]^(١).

وفي كتب التفسير روايات متعددة لسبب ابتلاء أيوب عليه السلام، منها أنه أُعْجِبَ بكثرة ماله، أو استغاثه مظلوم فلم يغثه، أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر، فداهنه من أجلها، أو ذبح شاةً وأكلها وجارُه جائع، أو رأى منكراً فسكت عنه.

ولا شك أن تعدد مثل هذه الروايات واختلافها يدل على عدم صحتها، كما أنها لا تليق بما عُرفَ من أخلاق الأنبياء، فهم معصومون بعصمة النبوة، ولا سلطان للشيطان عليهم، وقد سبق تقرير هذا في قصة ابتلاء سليمان عليه السلام.

وقول أيوب: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ﴾ يدل على أدبه مع الله، وهو سبحانه خالق كل شيء، والشر لا يدخل في شيء من صفاته تعالى، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى، وكل أفعاله سبحانه خيرٌ ومحض العدل والحكمة، وإنما يكون شراً بالنسبة للمخلوقين، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه.

وإنَّ ابتلاء الله تعالى لنبهه أيوب خيرٌ محضٌ، ليظهر سبحانه صبره، ويرفع درجاته، وقد ابتلى الله سبحانه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في قصة الذبح والفداء، فأظهر فضلهما واستسلامهما له ﷺ، ومرّ معنا قوله تعالى في التعقيب على قصة الذبح والفداء: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

• الفرج من الله تعالى بعد الشدة والبلاء:

وأخبرتنا الآيات أن الله استجاب دعاء أيوب عليه السلام وأوحى إليه يرشده ويدله على سبيل الشفاء:

﴿اَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٤٢)

أي: اضرب برجلك الأرض، فضربها، فنبتت عين ماء، فأمره سبحانه أن يغتسل به ويشرب منه، فبرأ بإذنه تعالى.
وأخبرنا سبحانه أنه أيضاً رد له أهله وبارك له فيهم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِهْلَكَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (٤٣)

فجمعهم عليه بعد تفرقهم، أو أحياهم بعد موتهم، وبارك له فيهم، حتى صاروا ضِعْفَ ما كانوا قبل الابتلاء.

وكل ذلك فعله سبحانه على سبيل التفضل والرحمة، لا على سبيل اللزوم والوجوب، وفعله أيضاً تذكيراً لأولي الألباب، لينتظروا الفرج من الله تعالى، بالصبر والرضا وباللجوء إليه وحده فيما ينزل بهم.

ففي قصة أيوب عليه السلام موعظة كبيرة لذوي العقول والبصائر.

وردَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أيوب ماله وزاده من فضله، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بينما أيوب يغتسل غريباً خراً عليه رجل جراد (أي: جماعة جراد) مِنْ ذهبٍ، فجعل يحثني في ثوبه، فنادى ربُّهُ: يا أيوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنِيْكَ عَمَّا تَرَى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك» [رواه البخاري (٣٣٩١)].

قال ابن حجر رحمه الله: وأصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير [١٦٧/٢٣] وصححه ابن حبان [٢٨٩٨] والحاكم [٥٨١/٢]: من طريق نافع بن زيد، عن عقيل، عن الزهري، عن أنس رضي الله عنه: «أنَّ أيوب عليه السلام ابتلي، فلبث في البلاء ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، فكانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما للآخر: لقد أذنبَ أيوبُ ذنباً عظيماً، وإلا لكُشِفَ عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب، فحزن، ودعا الله حينئذٍ فخرج لحاجته، وأمسكت امرأته بيده، فلما فرغَ أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن

اركض برجلك، فضرَبَ برجله الأرض، فنبعثُ عينٌ، فاغتسلَ منها، فرجعَ صحيحاً، فجاءتِ امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيوب، فقال: إني أنا هو، وكان له أندران: أحدهما للقمح، والآخرُ للشعير، فبعثَ الله سحابةً فأفرغت في أندرِ القمحِ الذهبَ حتى فاضَ، وفي أندرِ الشعيرِ الفضةَ حتى فاضَ^(١). قوله: «الأندر» هو مكان جمع القمح والشعير.

ويبدو أن أيوب عليه السلام أقسمَ في أثناء ابتلائه أن يضربَ امرأته مئةَ ضربةٍ لأمر ما بدرَ منها، ما كان عليه راضياً عنه، فيسرَّ الله عليه سبيل البرِّ بيمينه، رحمةً بزوجه التي صبرت معه:

﴿وَحُذِّبِيكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبِيهِ وَلَا تَحْنَثِي إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَحُذِّبِيكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبِيهِ وَلَا تَحْنَثِي﴾ أي: خذ بيدك حزمةً من الحشيش، فاضرب به، ولا تحنث في يمينك، فإنَّ البر يتحقق به. يقال: حنث في اليمين يحنث؛ إذا لم يبرِّ بها.

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ أي: فيما أصابه من بلاء، وطلب الشفاء من الله تعالى، وتمنَّى العافية لا يخلُ بالصبر، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَاعْلَمُوا مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ نعم العبدُ أيوب تحقق بصفة العبودية، وهو رجَّاعٌ إلى الحق تواب.

وسئل سفيان عن عبيد بن ابتلي أحدهما فصبر، وأُنعمَ على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء، لأنَّ الله تعالى أثنى على عبيد أحدهما صابر، والآخر شاكِر، ثناءً واحداً فقال في وصف أيوب: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] وقال في وصف سليمان: ﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]^(٢).

(١) فتح الباري: ٤٢١/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ٢١٥/١٥.

واختلف العلماء في هذا الحكم هل هو خاصٌّ بأيوب أو هو عام؟ ذهب الشافعي وأبو حنيفة وزُفر إلى أنَّ مَنْ فعل ذلك فقد برَّ في يمينه، وخالف مالكٌ ورآه خاصاً بأيوب^(١).

• المصطفون الأخيار:

ثم أجملت الآيات خبرَ جماعتين من الأنبياء ﷺ، قالت في الأولى منهما:

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ ۖ﴾.

أي: أولي القوة في طاعة الله وعبادته، وأولي البصيرة في الدين أو المعرفة بالله تعالى.

ومرَّ معنا أنَّه كلما ازداد العبدُ معرفةً بربه ازدادَ خشيةً له، وتحققاً بطاعته وعبادته، ولهذا قال بعضهم: للإنسان قوتان: علمية وعملية، وأشرفُ ما يصدرُ عن القوة العلمية معرفةُ الله تعالى، وأشرفُ ما يصدرُ عن القوة العملية طاعته وعبادته، فعبرَ سبحانه عن هاتين القوتين بالأيدي والأبصار^(٢). أكرمهم الله بالعمل الصالح والعلم النافع.

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۖ﴾.

أي: إنا جعلناهم لنا خالصين بخصلة خالصة هي ذكرى الدار الآخرة، فليس لهم ذكرى غيرها، أو نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصناهم بحب الآخرة وذكرها؛ فهمهم ذكرى الدار الآخرة وحدها، وقيل: ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا، فلا يُذكر غيرهم في الدنيا بمثل ما يُذكرون به، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

(١) روح المعاني: ٢٣/٢٠٩.

(٢) تفسير الخازن: ٥/٢٨٧.

وفي قراءة: (بخالصة ذكرى الدار) على الإضافة، من إضافة الشيء إلى ما بيّنه.

ففي الآية تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية، وعلو الرتبة في العلم والعمل، فمطمح أنظارهم، ومحط أفكارهم في كل ما يأتون ويدرون حب الله ﷻ، والفوز ببلقائه في الدار الآخرة، فقد نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها، ليس لهم هم غيرها. وأشعر إطلاق الدار في الآية بأن الدار الآخرة هي الدار الحقيقية، وإنما الدنيا معبر وممر.

﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِرِ ٤٧﴾.

أي: إنهم من الذين اصطفيناهم، وصفيناهم من الأدناس والأقذار، واخترناهم لمقام النبوة والرسالة. ثم أئنت الآيات على المجموعة الثانية من الأنبياء بمثل ما أئنت على الأولى:

﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْآخِرِ ٤٨﴾.

أي: وكل واحد من هؤلاء أيضاً من الذين اختارهم الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ٨٥﴾ وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴿[الأنبياء]﴾.



الْفُضَيْلُ الثَّالِثُ

مِنْ أَحْبَارِ غَيْبِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْحَةً لِّهِنَّ الْأَنْبُوتِ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَرْبَاءُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمٍ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرْزُقُنَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ﴿٥٤﴾ هَذَا وَإِلَى الطَّلَافِينَ لَشَرٌّ مِّنَ مَكَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسَّ الْيَهُادُ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَأَ بِهِمْ لِيَوْمِهِمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْجَأٌ بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُ لَنَا فَنَسَّ الْفَرَارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ اتَّخَذْتَهُمْ سَحَرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْفَقِيرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآثٍ ﴿٤٩﴾﴾

أي: هذا ذكر جميل في الدنيا، وإن للمتقين لحسن مرجع ومنقلب في الآخرة، فهم يذكرون في الدنيا بالجميل، ويرجعون في الآخرة إلى فضل رب جليل، وهو:

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾ .

أي: جنات الإقامة الدائمة، وأبوابها فتحت تكريماً لهم. وقرئنا مرفوعتين على الابتداء والخبر.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَنَكِهِمْ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾﴾ .

أي: وشراب كثير، فحذف اكتفاءً بالأول.

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَرْبَاءُ ﴿٥٢﴾﴾

أي: وعندهم نساء قاصرات الطرف على أزواجهن، مستويات الأسنان والشباب، وسمين: أتراب، لأن التراب مسهن في وقت واحد.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾

أي: لأجل يوم الحساب. وفي قراءة: (يوعدون).

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

أي: ما له انقطاع، بل هو دائم كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَارٌ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وتأكيداً لما سبق تقريره في الحديث عن التفرقة بين الصالحين والفجار الذي سبق في قوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] أضافت الآيات الإخبار عن مصير الكفار الفجار.

• الإخبار عن تخاصم أهل النار:

﴿هَذَا وَابْتَ لِلطَّغْيَيْنِ لَشْرَ مَقَابِ﴾ (٥٥).

أي: هذا الذي سبق ذكره للمؤمنين الصالحين، وإن للطاغين الذين طغوا على الله، وكذبوا رسله لشراً مرجع يرجعون إليه:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسَّ الْمَهَادِ﴾ (٥٦).

أي: جهنم يدخلونها ويقاسون حرَّها فبئس الفراش، شبه ما تحتهم من النار بالمهاد الذي يفترشه النائم.

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ﴾ (٥٧).

أي: هذا حميمٌ وعساقٌ فليذوقوه.

والحميم: الماء الحار. والعساق: الصديد الذي يسيل من جلود المعدَّين في النار، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ، وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم].

﴿وَأَخْرَجَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ (٥٨).

أي: ولهم أصناف أخرى من العذاب مثل ما ذكر في الشدة والفضاعة. وَيُسَاقُ الْمَعَذَّبُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أَفْوَاجاً وزمراً - كما مرَّ معنا - وَيُلْقَىٰ فِيهَا أَوْلاً رُؤْسَاءُ الضلال والكفر، ثم يلحق بهم أتباعهم، ويقول خزنة النار لرؤساء الضلال والكفر عندما يُلْقَىٰ فيها الأتباع:

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخل معكم .

والاقتحام: الدخول في الشيء بشدة، إذ تضيق عليهم زيادة في عذابهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] .

فيقول رؤساء الكفر والضلال:

﴿لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ أي: لا رحبت بهم الدار، بل ضاقت، لأنهم معذبون معنا فيها. فيردُّ عليهم الأتباع:

﴿قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾

أي: أنتم قدَّمتم العذابَ لنا، وأوقعتمونا فيه، عندما دعوتمونا إلى الضلال وزينتموه في أعيننا، فبئس المقر جهنم الذي أوصلتمونا إليه .

ثم أضافوا قائلين والحسرة تحرق قلوبهم:

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾ .

أي: زدْهم عذاب مضاعفًا في النار، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبْتُمْ وَلَا تُجِيبُهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُكُمْ فَخَاتَبَهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] .

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾ .

أي: وقال الطاغون: ما لنا لا نرى رجالاً كنَّا في الدنيا نعدُّهم من الأراذل؟! يعنون بذلك فقراء المؤمنين، الذي كانوا يسخرون منهم .

﴿أَتَخَذْتَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ أَزَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ .

قالوا ذلك حيث لم يروهم معهم إنكاراً على أنفسهم، وتأنيباً لها، لأنهم سخروا منهم، وحَقَّرُوهم، حتى زَاغَتْ عنهم أبصارهم تحقيراً لهم. والهمزة للاستفهام، سقطت لأجلها همزة الوصل، وفي قراءة: (اتخذناهم) بغير همزة، و(أم) للإضراب، كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسجار إلى ما هو أشد منه وهو الاحتقار، وميل الأنظار عنهم، وقرأ بعضهم: (سُخْرِيًّا) بضم السين، ومعناه من السخرة والاستخدام.

﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ .

أي: إِنَّ الذي حُكِيَ عنهم لَحَقٌّ لا بدَّ من تحقق وقوعه في المستقبل. (تخاصم أهل النار) بدل من (حق)، أو خبر لمبتدأ محذوف، وقرئ بالنصب على البديل من (ذلك)، وسمي التقاويل بين أهل النار تخاصماً لاشتماله على ذلك.

• القرآن والنبا العظيم:

هذه الأخبار المغيَّبة تدلُّ على صدق النبي ﷺ، وصحة دعوته، ولهذا أمره الله تعالى أن يردَّ على المشركين الذين قالوا عنه ساحرٌ كذاب، وتعجبوا من دعوة التوحيد التي يدعو إليها، كما سبق في صدر السورة:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

أي: إِنَّمَا أَنَا رسولٌ مُنْذِرٌ، لا ساحر كذاب، وما من إله يستحق العبادة إلا الله الذي لا يقبل الشراكة والكثرة في ذلك، والقَهَّار لكل شيء سواه. وفي هذا الجواب من الحُسْنِ ما فيه، فَإِنَّ كُلَّ واحد من وصفي الرسالة والإنذار ينافي كل واحد من وصفي السحر والكذب.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (٦٦).

أي: هو خالق ومالك ومربي جميع المكونات السماوية والأرضية، العزيز الذي لا يُغْلَبُ، والغفار الذي يغفر ما يشاء لمن يشاء.
ولا يخفى ما في هذه النعوت من تقرير لدعوة التوحيد مع الوعيد للمشركين ووعد بالمغفرة للموحدين.

﴿قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٍ﴾ (٦٧) ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ (٦٨).

أي: قل: القرآن ذو الذكر الذي أقسم الله به في صدر السورة هو نبأ عظيم، لأنه منزلٌ من الواحد القهار، العزيز الغفار، أنتم عنه معرضون مع عظمتها الموجبة لحسن تلقيه وقبوله، فهو توبيخٌ على سوء صنيعهم وجهلهم بجلالة القرآن الكريم وعظمتها.

لقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشاً في مكة، والعرب في الجزيرة، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان، ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها^(١).

وما فيه من أخبار مغيبة عنا تدل على أنه منزل من الله ﷻ، ولهذا أضافت الآيات ذكر أخبار بعض ما حدث في الملائ الأعلى:

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٦٩).

أي: ما كان لي فيما سبق علم في حال الملائ الأعلى وقت اختصاصهم.
والمراد بالملائ الأعلى الملائكة، وما جرى بينهم عندما خلق الله آدم، ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام ما علم ذلك إلا بالوحي، فهو نذير مبين:

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٧١).

أي: ما يوحى إليّ من أخبار الغيب إلا لأنني نذير مبين، فإن كونه عليه الصلاة والسلام نذيراً مبيناً من دواعي الوحي إليه.

• من أخبار الملائكة الأعلی:

وكما أخبره تعالى عمّا يحدث من تخاصم بين أهل النار يوم القيامة، أوحى إليه أيضاً ما كان من تقاؤل وتجاوز بين الملائكة عند خلق آدم عليه السلام.

ولهذا شرعت الآيات تفصّل ذلك تأكيداً لصحة نبوّته عليه الصلاة والسلام، وأن القرآن الكريم وحيّ أنزله سبحانه عليه:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (٧١).

والمراد به آدم عليه السلام، وسُمّي بشراً، لأنه جسم كثيف مخلوق من طين يُباشر ويُلَاقى، أو لأنّه بادي البشرة، ظاهر الجلد، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١].

وقال أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلَٰصِلٍ مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

فالتراب إذا بُلّ بالماء يصير طيناً، فإذا أنتن يصير حمأً مسنوناً، فإذا يبس يصير صلصالاً كالنفخار، ومرّ معنا أنّ علم التحليل الكيميائي أثبت أن بُنية الإنسان المادية مكونة من عناصر التراب.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سٰٓجِدِينَ﴾ (٧٢).

أي: فإذا أتممت خلقته، وأحييته بنفخ الروح فيه، فقعوا له ساجدين تحية وتكريماً.

فقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ إضافةً لخلقٍ إلى خالق، فالروح خلق من خلقه سبحانه،

أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: (بَيْتُ اللَّهِ) و(نَاقَةُ اللَّهِ)، فهو - كما مرّ معنا - خالقُ كلِّ شيءٍ، وربُّ كلِّ شيءٍ.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٣).

أي: سجدوا كلهم معاً بحيث لم يتأخر أحد منهم عن أحد.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٤).

أي: أبى إبليس أن يسجد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿قَالَ يَبْنَيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٥).

﴿قَالَ يَبْنَيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ أي: لما خلقتك بنفسي بلا واسطة أب وأم.

وهو سؤالٌ توبيخٍ وإنكارٍ، وترتيبُ الإنكارِ على خلقِ الله تعالى آدمَ بيديه أفادَ تأكيدَ الإنكارِ وتشديدَ التوبيخِ، كأنه قال: ما منعك أن تكرّمَ بالسجودِ مَنْ هو أهلٌ للتكريم، لكونه المخلوقُ الذي خلقتَه بيدي.

وفي حديثٍ محاجةِ آدمَ وموسى ﷺ ما يدل على أنَّ المخلوقيةَ بها وصفٌ تعظيمٌ؛ حيث قال موسى: «أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِيَدِهِ» [رواه مسلم (٢٦٥٢)]. وكذلك في حديث الشفاعة: «أَنَّ أَهْلَ الْمَوْقِفِ يَأْتُونَ آدَمَ وَيَقُولُونَ: «أَنْتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِيَدِهِ» [رواه البخاري (٦٥٦٥)].

وفي هذه الآية إثباتُ اليدين لله سبحانه على الوجه اللائق بجلاله وكماله، قال ابن بطّال: وهما صفتان من صفات ذاته، وليستا بجارحتين، خلافاً للمشبهة من المثبتة، وللجهمية من المعطلة^(١).

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ أي: أستكبرت عن السجود من غير استحقاق؟ أم كنت مستحقاً للعلو؟ وقد يكون المعنى: أحدث لك الاستكبار؟ أم لم تنزل منذ كنت من المستكبرين؟ ولا شك أنه تعالى يعلم حقيقة إبليس، وسؤاله له سؤال توبيخ وتقريع.

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (٧٦).

وقول إبليس هذا يدل على أنه رأى لنفسه فضلاً على آدم بأصله، مع أن الفضل لا يكون بالأصل، وإنما بطاعته تعالى، وامتنال أمره، فاستحق بسبب تكبره طرده ولعنته:

﴿قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧).

أي: فأخرج من الجنة، أو من زمرة الملائكة، فإنك مرجوم مطرود من كل خير وكرامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٧٨).

فلعنة الله تلازمه إلى يوم الحساب والجزاء، والمراد دوائها من غير انقطاع، فجعل يوم الدين غاية لها، لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (٧٩).

أي: أمهلني إلى يوم يبعثون من القبور، وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾.

وهو وقت النفخة الأولى، التي يُصْعَقُ فيها من في السموات والأرض.

﴿قَالَ فِعْرَ نِكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ .

أقسم بعزة الله تعالى أنه سيضلُّهم أجمعين إلا الذين يتحققون بحقيقة العبودية لله ، ويخلصون قلوبهم له ﷻ ، وهذا يدل على شدة ثقة الشيطان بنفسه ، وقوة مكره .

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

أي : أنا الحقُّ ، ولا أقول إلا الحق : لأملأَنَّ جهنم من التابعين للشيطان ، والمتبوعين أجمعين .
وفي قراءة : (قال فالحق) بنصبه على الإغراء ، أي : فاتبعوا الحق .
• الله أعلم :

وبهذا أثبتت الآيات صدق النبي ﷺ ، وأن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله عليه الصلاة والسلام ، فأخباره كلُّها حق وصدق ، لأنها تنزيل عالم الغيب والشهادة ، ولهذا توجَّهت آياتُ السورة في ختامها تخاطبُ النبي ﷺ أن يبيِّن لهم براءة دعوته من أي مطلب مادي ودنيوي أيضاً ، كما بيَّنت الآياتُ صدقه في تلقي الوحي وتبليغه ، فكل ذلك من أدلة صدقه وصحة رسالته :

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ .

أي : وما أنا من المتصنِّعين ، فما عرفتموني قط متصنِّعاً ولا مدَّعيّاً ما ليس عندي حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن .

وكان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : يا أيها الناس مَنْ علم شيئاً فليقل به ، وَمَنْ لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ : اللهُ أعلم ، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ . [رواه البخاري (٤٨٠٩)] .

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

أي: ما القرآن إلا ذكرٌ للعالمين، فالضمير: (هو) عائد على القرآن الكريم، الذي صرّحت به السورة في أول آياتها: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ فالذكر الذي فيه ذكر للعالمين، فرسالة القرآن الكريم عامة شاملة للعالمين.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾

أي: ولتعلمنَّ الآثارَ الطيبة والأحداث الخطيرة المترتبة على هذا النبأ العظيم بعد حين، وعندئذٍ تظهر لكم حقيقة صدقه. فهو كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَلٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧] أي: لكل خبر في القرآن الكريم حقيقة يؤول إليها، ومنتهى ينتهي إليه، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وسوف تعلمون صحة هذا الخبر وتحققه. وكقوله أيضاً: ﴿سَرُّيْهِمْ ءِإِتَيْنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولم يمرَّ وقتٌ طويل على نزول هذه الآية الكريمة حتى شهدت البشرية أعظم وأعَمَقَ تحوّلٍ في تاريخها الفكري والسياسي والتشريعي، ولا يزال العلمُ يكتشفُ كلَّ يوم كثيراً من الحقائق العلمية، التي ورد الخبر فيها في بعض آيات الذكر الحكيم إشارةً أو تصريحاً، فيزيدنا تصديقاً بصدق رسول الله ﷺ؛ وعلماً بأن القرآن الكريم كلام الله، الذي يعلم السر وأخفى.

ورحم الله سيد قطب عندما قال: ولقد أنشأ من القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنُظُم في هذه الأرض كلها، وفي أجيال البشرية جميعها، ما لم يكن العرب يتصوّرونه، ولو في الخيال، وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغيّر وجه الأرض، ويوجّه سير التاريخ، ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة، ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها.

أسأله تعالى أن ينور قلوبنا بأنوار الذكر الحكيم.





تفسير سورة الزمر الهُدَى وَالضَّلَالُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْمُقَدِّمَةُ
وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله،
وعلى آله وأصحابه والتابعين.

وبعد: فقد دارت آياتُ سورة الزُّمَرِ فلك الهدى والضلال، فأظهرت في
صدرها أنَّ الإخلاصَ في العبادة والطاعة يؤدي إلى الثبات على طريق الهدى،
وأما الجحودُ والتكذيبُ فيؤديان إلى الخذلان والضلال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وبعد أن عرّفت الآياتُ بعض دلائل الهدى وبراهينه في الآفاق والأنفس،
بيّنت كمالَ غنى الله تعالى، وقرّرت مسؤولية كل إنسان عن عمله، ثم حثت
بأسلوبٍ غير مباشر على الاستكثار من العبادات ونوافل الطاعات لما لها من
تأثير في الثبات على طريق الهداية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيتُ عَائَةً أَلَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ...﴾ [الزمر: ٩].

ثم أمرت بالتقوى، لما لها من تأثير أيضاً في الثبات على طريق الهداية،

ونَوَّهت بمكانة النبي ﷺ، وإخلاصه في طاعة ربه، واستسلامه لأمره، لكي يكونَ الأسوة الطيبة للمؤمنين، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ثم توعدت المعرضين عن أسباب الهداية، أصحاب القلوب القاسية، الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله وآياته.

ووجهت المؤمنين إلى الثقة بالله ونصره وتأيدته، وبينت أنَّ شأن الهدى والضلال منوطٌ بمشيئته ﷻ: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأُفٍ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَكَأُفٌ مِنْ مُضِلٍّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧].

ومع ذلك فإنَّ للناس كسباً واختياراً في الهدى والضلال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ﴾ [الزمر: ٤١].

وتأكيداً لهذا المعنى دعتهم الآيات إلى التوبة والإنابة مهما أسرفوا في الفجور والمعاصي: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۖ﴾ [الزمر: ٥٣].

وخُتِمت السورة ببيان مصير زمر الضالين وزمر المهتدين، أسأله سبحانه أن يثبتنا على طريق الهداية.



تفسير سورة الزُّمَرِ الهُدَى والضَّلَالُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ

الإخلاص في العبادة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة الزُّمَرِ بالتنويه بشأن القرآن الكريم، وأنه الكتاب المنزَّل على النبيِّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم فقال:

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

أي: هذا الكتاب تنزيلٌ من الله لا من غيره، العزيز في سلطانه، الحكيم في تدبيره، فما أنزله إلا بمحض مشيئته، ومقتضى حكمته ﷻ.

وفي قوله: (تنزيل) إشارة إلى كيفية نزوله، فقد نزل منجماً على رسول الله ﷺ، وما نزل دفعة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وفي وصف الكتاب بأنه تنزيلُ العزيز الحكيم تعظيمٌ لشأنه، وأنه واجبُ الاتباع، لأنه من الله العزيز الحكيم، والنبي عليه الصلاة والسلام أول المكلفين

باتباعه والتزام أحكامه، ولهذا توجَّهت الآيات تخاطبه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي : ملتبساً بالحق، أو لإثبات الحق كما في قوله تعالى : ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء : ١٠٥] . فكل ما فيه حق وصدق ثابت بالبرهان العقلي والدليل الحسي، موجب للعمل به. فأول ما يترتب على تنزيله أن تعمل به :

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي : فاعبد الله عبادة خالصة له حسبما أنزل إليك فيه، فأنت أول المكلفين باتباع هذا الكتاب، وتطبيق أحكامه، وهذا يدل على أَنَّ النبي ﷺ ما كان له اختيار وكسب في نزول الوحي عليه، فهو ليس إلا متلقياً لما أنزل عليه ومكلفاً بما فيه .

ثم قررت الآيات ما سبق وأكدته بقوله تعالى :

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ .

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي : الله وحده الذي يجب اختصاصه بالدين الخالص، والعبادة والطاعة يجب أن تكون لله وحده، لأنه المتفرد بصفات الألوهية، واستحقاق العبادة، فلا يقبل منها إلا ما كان خالصاً له وحده، كما سيأتي في قوله سبحانه : ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر : ١١] .

وقوله أيضاً : ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر : ١٤] .

وكل عبادة لا تكون لله تعالى وحده مردودةً على أصحابها غير مقبولة، ولو قصدوا التقرب بها إليه تعالى .

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى وعبدوا غيره قائلين: ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله تقرباً، فإن عبادتهم مردودة عليهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إن الله يفصل بينهم يوم القيامة، فيقبل عبادة المخلصين الموحدين، ويرد عبادة الآخرين ويعاقبهم عليها.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يوفق المصيرين على الكذب والكفر، بل يخذلهم، ويذرهم منتكسين في حمأة الضلالة، محتجبين عن أنوار الهداية، فالإخلاص في العبادة من أعظم أسباب الثبات على الحق والهداية.

* * *

كروية الأرض

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ أَتِلٌ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ الظُّلُمَاتُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٢﴾﴾

ثم نزهت الآيات الله تعالى عن الشريك والولد:

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١﴾﴾

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لو أراد الله أن يتخذ ولداً كما زعم المشركون لاختار ممّا يخلق ما يشاء، فإنّ اتخاذ الولد ممتنع في حقه سبحانه ومستحيل، لأن كل ما سواه مخلوق، والممكن هو الاصطفاء.

وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته كالملائكة والأنبياء، وأمّا اتخاذ الولد فمستحيل في حقه تعالى، ولهذا نزهه سبحانه نفسه عن ذلك بقوله:

﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: يتنزه عن اتخاذ الولد، فهو أعظم وأجل من ذلك، ولا يليق اتخاذ الولد بجلاله وكماله ووحدانيته، فهو الله الواحد في ملكه وسلطانه، الغالب على خلقه، وجميعهم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته ﷻ، كما سيأتي معنا في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].
والدليل على أنه واحد قهار مبثوث في مكوناته ومخلوقاته:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ أَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى أَيْلَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: خلقهما وما فيهما من المكنونات ملتبسة بالحق والصواب، مشتملة على الحُكْم والمصالح، فما خلقهما عبثاً ولا باطلاً، وكما خلقهما سبحانه فهو يدبر أمرهما.

﴿يَكُوِّرُ أَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى أَيْلَ﴾ أي: يغشي كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لفّ اللباس على اللباس، كما في قوله سبحانه: ﴿يُغَشِّي أَيْلَ النَّهَارِ يَطْبُئُهُ حَيْثُ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

وأشار سبحانه هنا إلى حقيقة علمية دقيقة وهي كروية الأرض، إذ هي محلُّ التكوير، فهو تعبيرٌ عجيبٌ - كما قال سيد قطب رحمه الله - يقسر الناظر قسراً على الالتفاتِ إلى ما كُشِفَ حديثاً عن كروية الأرض.

ودلّت صيغة المضارع (يكور) على التجدد والاستمرار، فاستمرار هذا النظام الكوني الدقيق منوط بمشيئته تعالى وقدرته.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة عندما تتغيّر بتقديره تعالى النُظُم الكونية الدنيوية، كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي: تنبّهوا، فإن خالق السموات والأرض ومدبّر

ما فيهما من ظواهر كونية، هو العزيز الغالب على كل شيء، والغفار الساتر
لذنوب عباده برحمته، فكما أنه تعالى واحد قهار؛ فهو عزيز غفار.

* * *

الأزواج الثمانية والظلمات الثلاث

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي
بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَإَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

وتابعت الآيات تبين جانباً آخر من الأدلة الدالة على أن الله واحد قهار
وعزيز غفار:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ
فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَإَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فخلقكم من نفس واحدة آية،
وجعل زوجها منها آية أخرى.

وعطف الثانية على الأولى بـ (ثم) دلّ على مباينتها لها، وتراخيها عنها،
قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

فالمراة تلتقي مع الرجل في عموم الخصائص البشرية، مما يدل على وحدة
خالق هذا الكائن البشري، وهذه الظاهرة موجودة أيضاً في الأنعام، وهذا يدل
أيضاً على وحدانية خالقها، فخالق الإنسان والأنعام خالق واحد، وهو خالق
جميع الأحياء.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَخًا وَمِن تَحْتِهَا أَنهَارٌ مِّمَّا يَبْرِئُ السَّيِّئِينَ وَأَمَّا أَنهَارُ الْغَايَةِ فَسَاحًا لِّالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١)
 والمعز، المصرح بها في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ آلَكَرْبَ بِآيَاتٍ بَاطِنَةٍ لَّا يُخَالِفُ النَّبِيُّ أَمَّا الَّذِي يَنفَعُ الْغَايَةَ﴾ (٢)
 نَبُوءِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِينَ حَرَّمَ

أَمِ الْإِنسَانِ أَمَّْا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنْسَانِ﴾ (٣) .
 والمراد من الإنزال الإحداث والإنشاء، فإنها من أفضيته سبحانه وأقداره
 التي كتبها في اللوح المحفوظ، أو أحدثها لكم بأسباب نازلة من السماء
 كالأمطار وأشعة الشمس.

ثم لفت الآية أنظارهم إلى كيفية خلقهم في بطون أمهاتهم، ليستيقنوا
 بوحدانية الخالق وكمال قدرته، وأنهم في جميع أحوالهم وتقلباتهم في قبضة
 قدرته سبحانه:

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (٤) أي: يخلقكم الله
 في بطون أمهاتكم خلقاً متدرجاً في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم،
 وظلمة المشيمة.

ولا بد أن خلقهم في هذه الظلمات فيه حكمة تدل على رحمته تعالى
 ولطفه، ولعل منها حماية هذا المخلوق الضعيف من مؤثرات خارجية مضرّة
 ومشوّهة، فالأشعة السينية مثلاً مضرّة ومشوّهة، ولا يستبعد وجود أنواع أخرى
 من الأشعة حولنا تضرّ الجنين وتؤذيه، وهو في مراحل الخلق الأولى^(١).

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَان تَصَرَّفُونَ﴾ (٥) أي: ذلكم الإله العظيم
 الذي هذه أفعاله، له الملك المطلق في الدنيا والآخرة، فلا معبود بحق إلا هو،
 فكيف تصرفون عن عبادته وشكره، وتضلون عن توحيده، مع توفر موجبات
 الهداية، وانتفاء ما يصرفكم عنها؟!.

الإرادة والرضا

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُبِيتًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

ثم بيّنت الآيات كمال غنى الله تعالى ، وأنه ما كلّفهم بعبادته ليجرّ إلى نفسه نفعاً ، أو يدفع ضرراً :

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ .

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ﴾ على الإطلاق .

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لاستضرارهم بالكفر ، رحمة بهم ، فالكفر سبب شقائهم في الدنيا والآخرة .

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سبب فلاحكم وفوزكم .

وَقُرئ بِإِشْبَاعِ ضَمَّةِ الْهَاءِ (يرضه) ، فكفر الكافر غير مرضي لله تعالى ، وإن كان بإرادته ، فالإرادة غير الرضا ، قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته : فالإرادة غير العلم ، وغير الرضا ، قال في «الجوهرة» :

وقدرة إرادة وغايـِـرث أمراً وعِلْماً والرّضا كَمَا ثَبَتَ (١) ونحن مكلّفون بأن تكون أعمالنا وأقوالنا موافقةً لأمره سبحانه وشرعه ، لا لإرادته ، فهي غيبٌ عنا ، لا نعلمها حتى يقع مراده سبحانه ، أما أمره فقد

أعلمنا به بواسطة أنبيائه وكتبه ، ولهذا قال سبحانه في معرض الردّ على المحتجين بالقدر : ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا خُرُوصٌ ﴿١٢٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام].

وقال أيضاً : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٨].

وتأكيداً لهذا المعنى قرّر تعالى مسؤولية الإنسان الشخصية عن أعماله فقال :

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي : فلا يسري كفر الكافر إلى غيره ، وما فعله الآباء لا يتحمّله الأبناء ، كما سبق في قوله سبحانه : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكْنَا فَاِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر : ١٨].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي : إن مرجعكم إلى الله يوم الحساب فينبئ كل واحد منكم بما عمل في الدنيا لكي يجازيه عليها ، إنه عليم بمضمّرات القلوب بله الأعمال الظاهرة .

وقدّر تعالى أن يمرّ الإنسان في أثناء حياته بأحوال مختلفة من الرخاء والشدة والعسر واليسر ، لعله يهتدي ويعتبر ، وينتبه من غفلته ، ومع ذلك يبقى أكثر الناس مصريّن على كفرهم وضلالهم ، معرضين عن طاعة ربهم :

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي : دعا ربّه راجعاً إليه ، مستشعراً ضعفه وافتقاره إليه ، وهو يسأله كشف ما نزل به من ضرر .

﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسَىٰ مَا كَانَ يُدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : ثم إذا أعطاه وملّكه

نعمة من فضله ورحمته نسي ربه الذي كان يدعو من قبل ليكشف عنه الضر،
وانشغل بالنعمة عن شكر المنعم.

فهو في حال الشدة يلجأ إلى الله تعالى، ويستغيث به وحده، وفي حال
الرخاء ينسى ربه، ويغفل عن عبادته وطاعته، وهذا حال أكثر الناس، وقد قرره
تعالى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا
أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن دَعُونَ إِلَّا إِنَّا هَلُمَّ لَكُمْ إِلَى الْبَرِّ
أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أُنَادًا لِّبُضْلٍ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: وجعل لله شركاء في العبادة ليزداد
ضلالاً، ويثبت عليه، فالضلال مقارن للجعل المذكور، واللام العاقبة، كما
في قوله تعالى: ﴿فَاللَّفْطَةُ هَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].
وفي قراءة: (بضل) بفتح الياء.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِّنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: قل تهديداً لذلك المصير على
الضلال: تمتع بكفرك تمتعاً قليلاً، إن مصيرك إلى النار.

الخوف والرجاء

﴿أَمَنَ هُوَ فَنِيْتُ ءَانَاءِ آلِيلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ﴾ (٩)

وتؤثر العبادات ونوافل الطاعات بتثبيت صاحبها على طريق الهداية، ولهذا
قال تعالى يبين فضل الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى في الأسحار:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ۝٩﴾ .

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ فالمطيع لا يكون كالعاصي، وحال المؤمن ليس كحال الكافر الذي سبق ذكره.

وقرئ (أَمَّنْ) بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على (من)، وبالتشديد على إدخال (أم) على (من). وهي مبتدأ خبره محذوف، وتقديره: أَمَّنْ هو قانت كغيره، أي: أَمَّنْ هو مطيع كمن هو عاص.

وَأَنَاءَ اللَّيْلِ: ساعاته وأوقاته. ودلت الآية على ترجيح قيام الليل على النهار، فالنوافل في الليل أفضل من نوافل النهار، لأن الليل أستر، فيكون أبعد عن الرياء، والقيام فيه أشق على النفس.

﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أي: يقوم إلى الصلاة وهو يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه.

فالواجب أن يكون المؤمن بين الخوف والرجاء، يرجو رحمة ربه لا عمله، ويحذر عقابه لتقصيره في عمله، وينبغي ألا يجاوز أحدهما حده، فالرجاء إذا جاوز حده يصير أماناً، وقد حذر الله تعالى منه بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والخوف إذا جاوز أيضاً حده يصير يأساً، وهو مذموم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ويلاحظ أنه قال في مقام الخوف: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ فلم يضيف الحذر إليه تعالى، وقال في مقام الرجاء: ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأولى أن ينسب إلى الله تعالى^(١).

وورد مثل هذا في الحديث الشريف: فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ

ﷺ دخلَ على شابٍّ وهو في الموتِ، فقال: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قال: والله يا رسولَ الله إنِّي أرجو الله، وإنِّي أخافُ ذنوبي، فقال رسولُ الله ﷺ: «ولا يجتمعانِ في قلبٍ عبدٍ في مثلِ هذا الموطنِ إلا أعطاهُ الله ما يرجو، وآمنَهُ ممَّا يخافُ» [أخرجه ابن ماجه (٤٢٦١) والترمذي (٩٨٣) وقال: حديث حسن غريب].

قال ابن حجر رحمه الله: «وهذا كله متفقٌ على استحبابه في حالة الصحة، وقيل: الأولى أن يكون الخوفُ في الصحَّة أكثر، وفي المرض عكسه، وأما عند الإشرافِ على الموت فاستحبَّ قومٌ الاقتصار على الرجاء، لما يتضمَّن من الافتقارِ إلى الله تعالى، ولأنَّ المحذورَ من ترك الخوف قد تعدَّر، فيتعيَّن حسنُ الظن بالله برجاء عفوه ومغفرته»^(١).

وفي الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني» [رواه البخاري (٧٤٠٥)].

ويؤيده ما رواه مسلم [٢٨٧٧]: من حديث جابر رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ بالله».

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فكما لا يستوي العالمون والجاهلون لا يستوي القانتون ولا العاصون، فالتسوية بين المتفاضلين تصادمُ الحقَّ والعدل كما سبق عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾^(١٩) وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ^(٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ^(٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ^(٢٢) [فاطر].

فالذين يعلمون الحق، ويعملون به، ويقومون بالليل قانتين لله رُغماً وسجداً، لا يستون مع الذين لا يعلمون، ويعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم. ﴿إِنَّمَا يَذَكِّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يتَّعظ ويهتدي بهذه البيانات الواضحات أصحاب العقول الصافية. وفي قراءة: (يذكر) بالإدغام.

وهو كلام مستقل غير داخل في الكلام المخاطب به النبي ﷺ، فيه إشارة

إلى أن التفاوت العظيم بين العالم والجاهل لا يعرفه إلا أصحاب العقول المستنيرة، كما قيل: إنَّما يعرفُ ذا الفضل من الناس ذووه.

التقوى والإحسان

﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

ومن أسباب الهداية والثبات على الحق تقوى الله تعالى، باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وهو ما تضمَّنه النداء الأول في السورة للمؤمنين:

﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ أي: قل لهم قولي هذا بعينه.

فإنَّ تبليغَ عينِ أمرِ الله تعالى أدعى إلى الامتثال له، كما أنه يدل على أهمية المأمور به وخطورته، وهو خطابٌ فيه تلطُّفٌ وتحبُّبٌ للمؤمنين، وإن كانت الإضافة في قوله: (يا عبادي) للتشريف، فقوله: (الذين آمنوا) صفة توضيح^(١)، وإن كانت للتخصيص فهي صفة مميزة، وسيأتي ما يرجح التخصيص.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا طاعة الله في الدنيا حسنة عظيمة في الآخرة، وقيل: حسنة في الدنيا وهي الصحة والعافية.

ولا يتحقق الإحسان إلا بالإخلاص الذي أمرت به الآيات في صدر

السورة، وهو الذي وصفه الرسول ﷺ حين سُئِلَ عن الإحسان بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].

ودلت الآية على التلازم بين الإحسان والتقوى، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ فلا عذر للمفترطين في الإحسان والتقوى، فمن تعسر عليه في وطنه فليهاجر إلى غيره، فإن أرض الله واسعة، كما قال تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وقد سبق تفصيل موضوع الهجرة وحكمها في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَكُ ظَالِمِينَ انْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧).

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: إنما يوفى الصابرون الذين صبروا على الهجرة ومفارقة الأوطان أجراً بغير حساب عليه.
أو: بغير حد وعد، بل يُعرف لهم غراً، ويصب عليهم صباً.

أول المسلمين

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَيِينُ ﴿١٥﴾﴾.

إن تحقيق العبودية لله تعالى وحده روح الرسالات الإلهية وزبدتها، كُلف بها المرسلون أولاً ليكونوا الأسوة الصالحة، والقُدوة الحسنة، لمن أرسلوا إليهم، ولهذا أمر الرسول ﷺ أن يعلن ذلك وهو يدعو الناس إلى عبادته تعالى وحده:

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ﴾ (١١)

أي: مخلصاً له الدين عن كل ما ينافيه من شرك ورياء.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ﴾ (١٢)

أي: وأمرت بذلك لأجل أن أكون سابق المسلمين وقدوتهم في الدنيا والآخرة. فكما أمر عليه الصلاة والسلام بالإخلاص في العبادة، أمر أيضاً أن يكون له السبق والتقدم فيها.

فعلى الداعية إلى الله أن يوافق فعله قوله، وأن يدعو نفسه أولاً إلى ما يدعو إليه غيره، حتى يكون قدوتهم قولاً وفعلًا، وعليه أن يعلن ذلك بقصد حثهم وتشجيعهم على الاقتداء به.

وأمر عليه الصلاة والسلام أيضاً أن يعلن خوفه من الله تعالى إن عصاه، تأكيداً لعبوديته لله ﷻ:

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ﴾ (١٣)

وهو يوم القيامة، وُصف بالعظمة لعظم ما فيه من حساب وجزاء. وهو أسلوب رفيع في الوعظ والزجر عن مقارفة المعاصي، والابتعاد عن طرق الضلال، فالنبي عليه الصلاة والسلام على جلالة قدره ورفعة منصبه، على هذه الدرجة العالية من خشية الله ومحاسبته لنفسه، فكيف ينبغي أن يكون حالنا نحن مع الله تعالى؟!.

ومرة ثانية أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يعلن إخلاص عبوديته لله وتحققه بها عملاً واستسلاماً وانقياداً على أبلغ وجه وأكمل، ففي المرة الأولى أخبر ﷺ بأنه مأمور بذلك، وفي هذه المرة أمر بالإخبار بمبادرته إلى تنفيذ الأمر وتحقيقه:

﴿قُلِ اللَّهُ أَغْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ ﴿١٤﴾ .

فلا أعبدُ سواه، وهذا مقامي الذي شَرَّفني الله به. أما أنتم :

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ فإنكم تحرمون أنفسكم من شرف عبادته وطاعته. وواضح أنه أمرٌ توبيخٍ ووعيدٍ، بينَ لهم بعد ذلك ما يترتب عليه من حرمان وخسران :

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي : إنَّ الكاملين في الخسران الذين خسروا أنفسهم بعبادة غيره تعالى، وخسروا أيضاً أهلهم يوم القيامة بإبعادهم عنهم وحرمانهم منهم، فالإنسان يستشعر ذاته، ويدرك هويته وحقيقته عندما يوجه نفسه إلى عبادة ربه ومالك أمره، بينما يستشعر الحيرة والقلق والضلال عندما يوجه نفسه إلى عبادة غيره جل وعلا. ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ فلا خسران أعظم من خسارة النفس والأهل معاً.

* * *

موعظة وبشارة

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رَهْمَ لَهُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مُّبِينَةٌ تَجْرِي مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ .

ولهم مع الخسران أيضاً العذاب الأليم في أطباق النيران :

والطاغوت: المبالغ بالطغيان، حتى بلغ أقصى غاية فيه، وهو الداعي إلى عبادة غير الله تعالى كالشيطان ورؤوس الضلال.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ أي: احمل البشرى إلى عبادي، الذين يميزون بين الهدى والضلال، وبين الحق والباطل، فيتبعون الهدى، ويعرضون عن الضلال، ويتمسكون بالحق، ويرفضون الباطل.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: أولئك الذين هداهم الله لدينه، ووفقهم للتمسك بشريعته، فهم المنتفعون بعقولهم على أحسن الوجوه وأكملها.

وفيه دلالة على أن الهداية تحصل بتوفيق الله تعالى، واستعداد النفس وقبولها لها.

وهداية التوفيق منوطة بالله تعالى وحده، لا يملكها أحد سواه، ومهما اجتهد النبي عليه الصلاة والسلام في هدايتهم وإنقاذهم من النار، فلا يهدي إلا من تعلقت مشيئته تعالى بهدايته:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

فلست تملك أمر الناس، ولا تقدر على إنقاذ من استحق العذاب في النار. وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يبذل جهداً كبيراً في دعوتهم، ويحرص حرصاً شديداً على هدايتهم وإنقاذهم من النار. ثم ذكرت الآيات في مقابل ما لأهل العذاب من ظلل من النار بعض ما أعد الله لأهل الجنة من النعيم، بأسلوب الاستدراك:

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لهم منازل رفيعة، وفوقها منازل أرفع منها تجري الأنهار من تحتها، وعداً لا يخلفه الله تعالى.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأَفَقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ، لَتَفَاضِلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

التحذير من الاغترار بالدنيا

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

ولما كان الاغترار بالدنيا من أقوى أسباب الضلال، مع أنها قصيرة حقيرة سريعة الزوال، مثل لها سبحانه بالمثل الآتي تحذيراً من الاغترار بها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنزل من جهة السماء ماء هو ماء المطر، فجعل منه الينابيع في الأرض.
 ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ من خضرة وحمرة وصفرة، أو مختلفاً أصنافه من بُرٍّ وشعير وعدس وغير ذلك.
 ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا﴾ أي: ييبس فتراه بعد خضرته ونضرتة مصفراً يابساً، ثم يجعله فتاتاً متكسراً.
 ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: إن في ذلك المثل الذي ضربه الله تعالى للحياة الدنيا، لموعظةً بليغةً يهتدي بها أصحاب العقول المستنيرة.

والجدير بالذكر أنَّ ضرب هذا المثل قد ذكر في مواضع متعددة من التنزيل الحكيم، منها: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنِدًا﴾ [الكهف: ٤٥].
فالدنيا هكذا لا تدوم نضارتها، ولا يدوم حسننها، والعاقِلُ الذي لا يغتر بها، ولا يضل بسببها.

* * *

التحذير من قسوة القلب

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٢)

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٓ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢٢).

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٓ﴾ أي: أفمن وسَّعَ الله صدره، وجعله مستعداً لقبول الحق، فهو على بصيرة وهداية من ربه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ، يُغْلِقْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرْمًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

والجواب محذوف دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: مَنْ تَرَكَ ذِكْرَ اللَّهِ والإعراض عنه، أو من أجل ذكره، فإنَّ في الناس من يقسو قلبه عند ذكره سبحانه، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].
وقوله أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِّرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقد قصَّ الله علينا في سورة البقرة كيف قست قلوبُ بني إسرائيل، ولم يتأثروا بالمعجزات الكبيرة التي أجراها سبحانه أمامهم على يد موسى ﷺ فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلْنَا نَهْرٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشْقَى فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ .

فقسوة القلب تحجبه عن أنوار الهداية، كما في الحديث الشريف: عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عوداً عوداً، فأَيُّ قلبٍ أُشْرِبَهَا نَكَتٌ فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلبٍ أنكرها نكتٌ فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكويز مُجَحَّياً، لا يعرفُ معروفاً، ولا ينكرُ منكراً، إلا ما أُشْرِبَ من هواه» [رواه مسلم (١٤٤)].

هكذا حال أصحاب القلوب القاسية المظلمة، يعرضون عن الهدى وينفرون من ذكر الله، ولهذا وصفهم الله بقوله:

﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

قشعريرة وطمأنينة

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابَى نَقَشَهُ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي صُحُفٍ يَبْلُغُ مِثْقَالَ رَنْدٍ وَإِنَّهُ يُخَوِّتُ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنِ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

أما الذين شرح الله صدورهم للإسلام واستنارت بأنوار هدايته، فحالهم مع آيات التنزيل الحكيم يختلف عن حال أولئك، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ﴾ (٢٣)

﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: نزل الله القرآن الكريم يشبه بعضه بعضاً في الحسن، ويصدق بعضه بعضاً، يكرر فيه الوعد والوعيد، والحكم والأحكام، والأوامر والنواهي.

أو: يُثَنَّى في التلاوة فلا يُملُّ، تأخذ الذين يخشون ربهم قشعريرة عند سماعه، بسبب ما يعترهم من الوجَل والخوف، وما يصيب قلوبهم من أسباب الهداية واليقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله، فإذا ذكرت آيات الوعيد والعذاب اقشعرت جلود الخائفين من الله، وإذا ذكرت آيات الوعد والرحمة لانت جلودهم، وسكنت قلوبهم، فهم بين الخوف والرجاء، كما مر معنا عند قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: ذلك القرآن الذي هو أحسن الحديث هدى الله، يهدي به الله من يشاء هدايته، فيشرح صدره لقبول الهداية، ولا شك أنه سبحانه أعلم أين يجعل هدايته، وهو القائل: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]. ومر معنا في أول السورة قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ أي: ومن يجعل قلبه قاسياً معرضاً عن الحق فما له من هادٍ يهديه، فشان الهداية منوط بمشيئته تعالى وحده وسابق علمه ورحمته.

اتقاء العذاب بالوجوه

﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاَدَّاهُمُ اللَّهُ الْخُرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْثَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وكما أنَّ أحوال المهتدين تختلف عن أحوال الضالين في الحال، كذلك أحوالهم تختلف في المصير والمآل:

﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: أفمن بقي نفسه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه من العذاب السيئ الشديد، كمن هو آمن لا يصيبه مكروه. وحذف الجواب لدلالة ما بعده عليه، كما سبق معنا مثله.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: ويقال يوم القيامة للظالمين: ذوقوا وبال ما كنتم تكسبون في الدنيا من كفر وفجور.

فلقد أصرَّ القوم على كفرهم وفجورهم، ولم يعتبروا بما أصاب الأمام الهالكة قبلهم:

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: أتاهم العذاب من حيث لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منه، أو أتاهم العذاب وهم غافلون آمنون.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْحَزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

أي: أذاقهم الله الذل والهوان والقتل والسبي في الحياة الدنيا، وعذاب الآخرة أكبر من عذاب الدنيا، لو كانوا يعلمون لآمنوا واتعظوا به.

* * *

أمثال القرآن

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّمُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّصُونَ ﴿٣١﴾﴾ .

وكما أعرضوا عن الاعتاظ بالأمم السالفة قبلهم، أعرضوا أيضاً عن الانتفاع بأمثال القرآن ومواعظه وحكمه وأحكامه.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: ضربنا لهم في القرآن من كل مثل يحتاج إليه الناظر في أمور دينه لكي يتعظوا به ويهتدوا، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: أنزله تعالى قرآنًا عربيًّا مستقيمًا بريئًا من التناقض والاختلاف، لعلهم يتقون الكفر والتكذيب، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

ومن أمثلة القرآن الكريم المحكمة قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشرك والموحد.

﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: ضرب الله مثلاً للمشرك والموحد، رجلاً فيه شركاء متنازعون مختلفون، يدّعي كل واحد من معبوديه عبوديته، ورجلاً خالصاً لواحدٍ ليس لغيره عليه سبيل. وقرئ: (سالمًا).

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستويان صفةً وحالاً، والمراد: هل تستوي صفتاهما وحالهما، واقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس، والمعنى: لا يستويان في الحال والصفة.

ومثّل الكافر ومعبوديه بعبدٍ اشترك فيه شركاء بينهم تنازع واختلاف، وكل واحد منهم يدّعي أنه عبده، فهم يتجادبون، ويتعاورونه في مهن شتى، وهو متحير، لا يدري أيهم يرضي بخدمته! وعلى أيهم يعتمد في حاجاته! وممن يطلب رزقه! فَهَمُّهُ شِعَاعٌ، وقلبه أوزاعٌ. والمؤمن عبدٌ لسيّد واحد، فَهَمُّهُ واحدٌ، وقلبه مجتمع^(١).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الحمد لله على كماله وجلاله ووحدانيته. أو: الحمد لله على ظهور الدلائل والبيّنات الدالة على وحدانيته، بل أكثرهم لا يعلمون أنه وحده المستحق للعبادة، فهم من فرط جهلهم يشركون به غيره.

وفيه تنبيه للموحدين على نعمة التوحيد، عليهم أن يحمّدوا الله عليها. ولما ظلّ المشركون مصرّين على ضلالهم، ولم ينتفعوا بضرب الأمثال، وإقامة الحجج والبراهين، سلكت الآيات أسلوباً جديداً تنوَّعدهم فيه بالموت،

وما سيلقون بعده من حساب وجزاء :

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَمِيتٌ ﴿٣٠﴾﴾

أي : إنكم جميعاً بصدد الموت وفي عداد الموتى .

وكان المشركون من قريش ينتظرون موت رسول الله ﷺ ، ظانين أن دعوته إلى التوحيد تنتهي بموته ، كما في قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَّيْنَاهُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور : ٣٠] .

ولهذا توجهت الآيات تخاطبُ النبي ﷺ ، وتحبرُهُ بأنه سيموتُ ، وأن معارضي دعوته سيموتون أيضاً ، كما في قوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ فَتْنَةً وَلِيُنَازِلَ تَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُمُونَ ﴿٣١﴾﴾

فثقيم حينئذِ الحجة عليهم بأنك بلغتهم رسالة التوحيد ، وتلوت عليهم آيات التنزيل الحكيم العربي المبين ، بكل ما فيه من حكم وأمثال وحجج وبراهين ، والقوم قد لجوا في الضلال والعناد بسبب قسوة قلوبهم .

* * *

الحكم والكفاية

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ ۖ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ حَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٣﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَحْزِرَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ويصدر عليهم أحكم الحاكمين حكمه العادل ، ويمهّد له بيان ما يستوجبه :

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٣٢).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ﴾ أي: لا أظلم من هؤلاء الذين كذبوا على الله، فنسبوا إليه الشريك والولد، وكذبوا بدعوة التوحيد التي هي عينُ الحقِّ، ونفسُ الصِّدقِ، عندما جاءتهم من غير تدبيرٍ ولا تأملٍ، فجمعوا بين طرفي الضلال: كذبوا على الله، وكذبوا رسول الله ﷺ.

ثم بيَّن سبحانه حكمه فيهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري المنفي مبالغة في الإثبات فقال:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؟ أي: أليست جهنم كافيةً للكافرين مأوى؟ ففيها عقوبة كافية لكفرهم وتكذيبهم، فالكفاية مفهومة من السياق لقوله تعالى بعدها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۗ﴾ [الزمر: ٣٦].

ويحكم الله بالمقابل على أهل الهدى والصِّدق بفضلِهِ ورحمته:

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣).

وهو رسول الله ﷺ ومن تبعه من المؤمنين.

فالصِّدق هو دعوة التوحيد ودين الإسلام، والمتصفون بالصِّدق والتصديق هم المتقون الواصلون إلى مرتبة التقوى، وهي من أعظم المراتب وأرفع الرغائب، ولا شكَّ أنَّ مراتب التقوى متفاوتة، ورسول الله ﷺ في أعلاها، وقد ذكرنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٨٢] قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بالله أنا».

﴿هُم مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤).

أي: لهم كل ما يشاؤون عند ربهم في الجنة، ومهما طلبوا وجدوا، تفضَّل

الله عليهم به بسبب إحسانهم في عبادته وطاعته، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن].

ولما اشتهر أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالمبادرة إلى تصديق النبي ﷺ، ذهب بعض المفسرين إلى أنه هو الذي صدّق به، ونقل عن بعضهم أنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والأولى حمل الآية على العموم، فهي تنسحب على جميع المؤمنين الذين يقولون الحق ويعملون به.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٣٥].

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ليغفره ويستره عليهم، وخصّ الأسوأ للمبالغة، فإنه إذا كُفِّرَ كان غيره أولى بذلك.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ويعطيهم ثواب أعمالهم بما يعادل أحسنها، فضلاً منه تعالى بزيادة أجورهم، كما في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَنْقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

* * *

أمان وضمان

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ [٣٧].

ومن صور إصرارهم على الضلال أنهم كانوا يخوفون رسول الله ﷺ بقوتهم وآلهتهم، عندما كان يسفه أحلامهم، ويعيب آلهتهم، فأنزل الله تنبيهاً للنبي ﷺ ورداً عليهم:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾  هَادٍ

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: الله كافٍ عبده - وهو النبي ﷺ - وعيد المشركين وكيدهم.

وفي قراءة: (عباده) ويكون المعنى: إن الله يكفي المؤمنين شرَّ أعدائهم، وبالأولى أن يكفي نبيه وخيرته من خلقه ﷺ شرَّ أعدائه ومكرهم، وقد أكَّد سبحانه هذا المعنى في عدد من الآيات، منها: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

وتخويفهم النبي ﷺ بالأوثان التي لا تضر ولا تنفع، يدل على شدة ضلالهم وجهلهم، وأنه تعالى لا يهديهم إلى أي خير ورشاد.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وقد سبق معنا مثل هذا التعقيب في سياق ما أنزل الله في القرآن الكريم وإعراض المشركين عنه عند قوله: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وهو أيضاً تأكيد لما ذكر في صدر السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وهذا يظهر لنا الاتفاق والاتساق بين آيات السورة التي تدور في فلك الهدى والضلال.

وفي المقابل:

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ 

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ أي: من يوفقه الله للهداية فلا يصرفه عنها أحد، فلا غالب له جل وعلا، ولا رادٌّ لإرادته ولا معقب لحكمه.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أي: الله عزيزٌ غالبٌ ينتقمُ من أعدائه لأنبيائه وأوليائه.

ويلاحظ إظهار الاسم الجليل (الله) في موضع الإضمار لتأكيد مضمون الكلام، وزيادة الشعور بالمهابة، كما يلاحظ دخول همزة الاستفهام على كلمة النفي (ليس) وهو الاستفهام الإنكاري المنفي الذي يفيد التأكيد، والذي سبق ذكره أيضاً في قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، وقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

فالذين هداهم الله لا مضل لهم، وكيف يضلُّون بعد أن شرح صدورهم للإسلام، ونور قلوبهم بأنوار تنزيله، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وهم الذين يخشون ربهم، فتتشعر جلودهم من خشيته، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، وما دام حالهم مع التنزيل الحكيم هكذا، فهم في أمانٍ من الضلال، لأنهم متمسكون بهدى الله الذي يهدي به من يشاء.

* * *

حسبي الله

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَتَّقُوا اللَّهَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٠﴾﴾

والعجيب أن المشركين ضلُّوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فهي الفطرة التي فطرهم سبحانه عليها.

وأمر ﷺ أن يقابل إقرارهم هذا بتوبيخهم على عبادة غير الخالق:

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾ فهي آلهة ضعيفة عاجزة لا تكشف ضرراً ولا تمنع خيراً، فالضر والنفع منوط بمشيئة الخالق سبحانه وقدرته، فهو المستحق وحده للعبادة.

وتتضمن الآية رداً على تخويف المشركين للنبي عليه الصلاة والسلام من آلهتهم:

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: قل: كافيني الله كل أموري من جلب خير أو دفع شر، عليه وحده يتوكل المتوكلون.

ومن آثار توكله عليه الصلاة والسلام على الله، ثباته على طريق الدعوة، واستمراره في مواجهة المشركين وتحديهم وتهديدهم:

﴿قُلْ يَلْقَؤُمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قُلْ يَلْقَؤُمْ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ﴾ أي: اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة والمكر، أو على طريقتكم، أو على حسب تمكنكم واستطاعتكم فإني لا أبالي، إني عامل فيما أمرت به، ولن أتوقف وأتردد.

وقرئ: (على مكاناتكم).

ولا يخفى ما في كلامه عليه الصلاة والسلام من ثقة ورباطة جأش وشجاعة، أكد ذلك قوله:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: فسوف تعلمون وبال ذلك، وهو عذاب يذله في الدنيا، وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع في نار جهنم.

* * *

النوم والموت

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيدٍ ﴿٤٦﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبُ الْأَوَّلَىٰ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

فطريق الحق واضح مؤيد بالأدلة والبراهين، ولا عذر لأحد في الإعراض عنه، وكلُّ مسؤول عن كسبه واختياره:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: إنا أنزلنا عليك الكتاب لخير الناس، وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فمن اختار الهدى فإنما ينفع نفسه، ومن اختار الضلال فإن وبال ضلاله يعود على نفسه.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: وما وكلت عليهم فتجبرهم على الهدى، كما قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١) ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢) ﴿[الغاشية]. وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يحرص حرصاً شديداً على هدايتهم.

والوكيل الحقيقي عليهم هو الله وحده، الذي يملك شؤونهم كلها في الحياة والموت، وفي اليقظة والنوم:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ إِلَيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤٢).

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي: الله يقبض الأنفس عند انقضاء أجلها، وهو موت الأجساد، ويقبض الأنفس التي لم تمت حين النوم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿فِيمَسِكُ إِلَيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ويمنع التي قضى عليها الموت أن تعود إلى جسدها، ويرسل الأخرى النائمة إلى حين انتهاء حياتها في أجلها المعلوم المقدّر لموتها، فذكر الوفايتين: الصغرى في النوم، والكبرى عند الموت.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إن في ذلك لدلائل وبراهين تدل على أن شؤون مخلوقاته كلها في قبضة قدرته تعالى ومشئته.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليأخذ داخلته إزاره، فلينفذ بها فراشه، وليسّم الله، فإنه لا يعلم ما خلفه بعده على فراشه، فإذا أراد أن يضطجع فليضطجع على شقه الأيمن، وليقل: سبحانك ربّي، بك وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» [رواه مسلم (٢٧١٤)].

وكما كان المشركون يخوفون الرسول عليه الصلاة والسلام بالهتهم، كانوا يعتقدون أيضاً أنها تشفع لهم عند الله :

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

أي: بل اتخذوا من دون الله شفعاء، قل: كيف يشفعون وهم على هذه الصفة، لا يقدرون على شيء ولا يعقلون؟! .

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

أي: الله هو مالك الشفاعة، فلا يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه، لأن له ملك السماوات والأرض، وإليه المرجع والمصير .

يا فاطر السماوات والأرض

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

ومن صور ضلالهم أيضاً شدة افتتانهم بالأصنام وسوء أدبهم مع الله تعالى :

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

أي: إذا ذكر الله وحده انقبضت ونفرت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة،

وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ آلَهُتُهُمْ وَأَوْثَانُهُمْ ظَهَرَ فِي وُجُوهِهِمُ الْبُشْرُ وَالسُّرُورُ، فَهَمَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرْتُ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنِّي أَذْبَرُهُمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

مما يدل على شدة ضلالهم وقسوة قلوبهم، كما سبق عند قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْفَسَاقَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وما على الإنسان المؤمن وهو يواجه هذه المواقف القبيحة الصعبة إلا أن يتوجه إلى الله تعالى بضراعة وخشوع:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٤٦).

أي: أنت وحدك القادر على الحكم بيني وبينهم، فإني تحيرت في أمرهم وعنادهم وقسوة قلوبهم.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة أم المؤمنين: بأي شيء كان النبي ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [رواه مسلم (٧٧٠)].

ولعل هذا سرُّ قراءة النبي عليه الصلاة والسلام هذه السورة عندما كان يأوي إلى مضجعه.

وجاء الجواب على هذا الدعاء الضارع الخاشع، يبين ما أعد الله لهم من العذاب الشديد يوم القيامة:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

الْقِيَمَةَ ﴿٤٧﴾ أي: لو أنَّ لهم جميع ما في الدنيا من الأموال والكنوز ومعه مثله، لجعلوه فدية لهم من عذاب يوم القيامة.

وهو وعيدٌ شديدٌ وإقناطٌ لهم من النجاة من العذاب، فقد علَّقه على شيء مستحيل الوقوع، ولو حدث هذا المستحيل ما تقبله سبحانه منهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿وَبَدَأَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من أنواع العذاب ما لم يكن في حسابهم، وكل ذلك نتيجة كسبهم وضلالهم:

﴿وَبَدَأَهُم سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٤٨).

أي: وظهر لهم سيئات عندما تُعرض صحائف أعمالهم عليهم.
أو: بدا لهم عاقبة ما كسبوا، وأحاط بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون.

الفتنة بالمال

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْوَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢)

ومن صور ضلالهم العجيبة أنَّ هؤلاء الذين يشتمنون عند ذكره تعالى، يلجئون إليه عندما تحيط بهم الأخطار، ولا يذكرون أصنامهم وآلهتهم التي يستبشرون بذكرها:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩).

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: لجأ إلينا لنكشف عنه الضر، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨] وقد ذكره سبحانه ثمة ليبين حال الإنسان، وكيف تتغير أحواله ومواقفه، وذكره هنا في معرض الرد على نفورهم واشمئزازهم عند ذكره سبحانه.

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: إذا أعطيناه نعمة منا تفضلاً وإحساناً قال: إنما أوتيته على علم مني بوجوه كسبه، ونسي فضله تعالى عليه.

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: بل هو اختبار وامتحان له، أيشكر أم يكفر؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك.

﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٠).

أي: قد قال مثل هذه الكلمة من قبلهم، مثل: قارون؛ فقد حكى الله عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الفصل: ٧٨].

فما نفعهم ما كانوا يكسبون عندما أنزل الله بهم العذاب:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٥١).

أي: فأصابهم جزاء ما كسبوا، والذين ظلموا من المشركين المعارضين لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام سيصيبهم أيضاً جزاء ما كسبوا، وما هم بناجين.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٢).

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: أولم يعلموا أن الرزق بيد الله تعالى يبسطه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء؟! .
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بأن الحوادث كلها من الله، وأنه لا قابض ولا باسط إلا هو جل وعلا.

* * *

التوبة والمغفرة

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣).

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣).

وقبل أن تُختم السورة أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يبلغهم نداء ربهم الثاني، وقد مر معنا أن النداء الأول وَجَّهَ للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُورُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]، أما النداء الثاني هذا فقد وَجَّهَ للمسرفين: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي قل: يا عبادي الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالإسراف في المعاصي، والإصرار على الكفر، لا تيأسوا من رحمة الله، إِنَّ الله يغفرُ جميعَ ذنوب المؤمنين التائبين.

ولا يخفى ما في النداء من تلطف بالمخاطبين، وترغيب لهم بالاستجابة،

ففيه دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة - كما قال ابن كثير رحمته - وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها، ورجع عنها، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه المغفرة على غير توبة، لأنَّ الشرك لا يُغْفَرُ لمن لم يتب منه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ورأى بعضهم أنَّ الآية تنادي المؤمنين على وجه الخصوص، لأنَّ إضافة العباد مخصصة بالمؤمنين على ما هو عُرف القرآن الكريم، والمراد الإسراف بالمعاصي. لكنَّ سياق الآيات كما سيأتي يدل على العموم، ويؤكد ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول الآية: أنَّ ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إِنَّ الذي تقول وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تخبرنا أنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَارَةً، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. [رواه البخاري (٤٨١٠)].

ولم يشترط بعضهم لمغفرة الذنوب التوبة، أخذاً بإطلاق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ والتقيد بالتوبة خلاف الظاهر، لكنَّ هذا الإطلاق مقيد بعدد من الآيات؛ منها قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَغْفَارٍ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. وقوله أيضاً: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

والأولى أنَّ مَنْ تَابَ وصَحَّتْ توبته غُفِرَتْ ذنوبه. وَمَنْ مات قبل أن يتوب فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه، ثم يُدخله الجنة بفضلِهِ ورحمته، فالتوبة واجبة على كل أحد، وخوف العقاب مطلوب، فلعلَّ الله يغفر مطلقاً، ولعلَّه يعذب ثم يغفر بعد ذلك^(١).

وقال ابن حجر رحمته: «واستدلَّ بعموم هذه الآية على غفران جميع الذنوب

كبيرها وصغيرها، سواءً تعلّقت بحق الآدميين أم لا، والمشهور عند أهل السُّنة أنَّ الذنوب كُلَّها تُغْفَرُ بالتوبة، وأنها تغفر لمن شاء الله، ولو مات على غير توبة، لكنَّ حقوق الآدميين إذا تاب صاحبُها من العود إلى شيء من ذلك، تنفعه التوبة من العود، وأما خصوص ما وقع منه فلا بدَّ من رده لصاحبه، أو محالته منه، نعم في سعة فضل الله ما يمكن أن يعوِّض صاحبَ الحق عن حقِّه، ولا يعذب العاصي بذلك»^(١).

﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يغفر ذنوب عباده ويرحمهم.

فلا يقنطنَ عبدٌ من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت، فإنَّ باب الرحمة والتوبة واسع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيُغْفَرُ لهم» [رواه مسلم (٢٧٤٩)].

ويؤيده أيضاً حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعين نفساً، فسألَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ، فذُلَّ على راهبٍ، فأتاه، فقال: إنه قتلَ تسعةً وتسعين نفساً، فهل له مِن توبةٍ؟ فقال: لا. فقتله، فكمَّلَ به مئةً. ثم سألَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ، فذُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنه قتلَ مئةَ نفسٍ، فهل له مِن توبةٍ؟ فقال: نعم، ومن يحولُ بينه وبينَ التوبة؟ انطلق إلى أرضٍ كذا وكذا، فإنَّ فيها أناساً يعبدون الله، فاعبدِ الله معهم، ولا ترجعْ إلى أرضِكَ، فإنَّها أرضٌ سوءٌ. فانطلقَ حتَّى إذا نصَّفَ الطريقَ أتاه الموت، فاختمت فيه ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ، فقالت ملائكةُ الرحمةِ: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكةُ العذابِ: إنه لم يعمل خيراً قط. فاتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بينَ

الأَرْضَيْنِ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوه، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» [رواه مسلم (٢٧٦٦)].

* * *

تذكير وتحذير

﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَنبِئُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْئَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جُنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: ارجعوا إلى ربكم بالإعراض عن الكفر والمعاصي والندم عليها.

فالإنابة: الرجوع إلى الله بالإخلاص، أو الانقطاع إليه وحده بالعبادة، وهو ما خُوطب به النبي ﷺ في أول السورة ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]. وما وصف به المؤمنون في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَمِيزَ عِبَادُ﴾ [الزمر: ١٧].

قال القشيري رحمه الله: «الإنابة: الرجوع بالكلية، والفرق بين الإنابة والتوبة: أن التائب يرجع من خوف العقوبة، والمنيب يرجع استحياء لكرمه تعالى»^(١).

﴿وَأَسْلَمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ﴾ أي: وأطيعوه،

واستسلموا لأحكامه الشرعية والقدرية، من قبل أن يأتيكم العذاب، ثم لا تمنعون منه إن لم ترجعوا إلى ربكم.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، وهو القرآن - وكله حسن - بفعل الطاعات، واجتناب المعاصي، من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم غافلون عنه، وهو أشد أنواع العذاب، لأنه يأتي فجأة من غير توقع ولا انتظار. ومن دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك» [رواه مسلم (٢٧٣٩)].

وقد يكون المراد من قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هو نفس ما خطب به موسى عليه السلام عندما أنزلت عليه التوراة، بقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] أي: بعزائمها وواجباتها، ولا يتبعوها رخصها، فيعملوا بها فقط، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون في شرائعه المنزلة رخص لبعض الحالات الضرورية، فلا ينبغي العمل بالرخص فقط وترك الواجبات والعزائم.

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾.

أي: حتى لا تندموا وتقول كل نفس منكم: يا حسرتي احضري، فهذا أوانك على تفريطي وتقصيري في جانب الله وحقه وطاعته، أو قربه وذكره، وإن كنت لمن المستهزئين بدينه وأهله.

ونكرت (نفس) للتكثير، وأصل (يا حسرتي) يا حسرتا، فأبدل من الياء ألف الندبة، ومحل (وإن كنت) النصب على الحال، أي: فرطت وأنا ساخر، قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها.

وقال إبراهيم التيمي: مِنَ الحسراتِ يومَ القيامة أن يرى الرجلُ ماله الذي آتاه الله في الدنيا، يومَ القيامة في ميزان غيره، قد ورثه، وعمل فيه بالحق، وكان له أجره، وعلى الآخر وزره، ومن الحسرات أن يرى الرجلُ عبده الذي حوَّله الله إياه في الدنيا أقربَ منزلةً من الله ﷻ، أو يرى رجلاً يعرفه أعمى في الدنيا قد أبصر يومَ القيامة وعمي هو^(١).

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥٧﴾

أي: أو تقول لو أنَّ الله وفقني إلى الهداية لكنتُ من المتقين، مع أنَّ أسباب الهداية كانت ميسرة له.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٨﴾

أي: لو أنَّ لي رجوعاً إلى الحياة الدنيا فأكون من المحسنين في عبادة الله وطاعته.

هكذا أخبر العليم الخبير ما العباد قائلون يومَ القيامة قبل أن يقولوه.

* * *

طريق الفوز والفلاح

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَآءٌ يُغَيِّرُ فِكْرَكُمْ ۖ جِئَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَالِ نِعَمِهِمْ لَا يَمْسُهُمْ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولما أنهى سبحانه حكاية أقوالهم ذكر جواب ما يقتضي الجواب منها، وهو قولهم: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧] فقال:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٥٩﴾ .

أي : بلى قد بين لك طريق الهدى ، وكنت بحيث لو أردت أن تؤمن أمكنك أن تؤمن ، عندما جاءتلك آياتي ، فكذبت بها ، وتكبرت عن الإيمان ، وكنت من الكافرين ، فأنت الجاني على نفسك لإعراضك عن طريق الهدى واختيارك طرق الضلال .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ .

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ لما ينالهم من شدة ، وما يغشاها من ظلمة ، كما قال سبحانه : ﴿وَوُجُوهُ يُؤْمِدُ عَلَيْهَا غَبَرٌ ٤٠ تَرَهَقَهَا فَزْرَةٌ ٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس] .

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي : مأوى للمتكبرين عن الإيمان ، وهو إشارة إلى قوله السابق : ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر : ٥٩] .

وينجي الله الذين اختاروا طريق الهداية بفضله :

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٦١﴾ .

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي : وينجيهم الله بسبب سلوكهم طريق الفوز والفلاح ، يقال : فاز بكذا إذا أفلح به ، وظفر بمراذه .

أو : وينجيهم متلبسين بفوزهم ومطلوبهم . وقرئ : (بمفازاتهم) .

وإذا قيل : وما مفازتهم ؟ فيقال هي :

﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي : لا يصيبهم مكروه يسوءهم ، ولا يحزنهم

الفرع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فرع ، سالمون من كل سوء ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا

أَشْهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ ﴿١٢٦﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿[الأنبياء]﴾.

وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿١٢٧﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر].

الخسران المبين

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَفَعَيِّرُ اللَّهَ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤﴾ بَلِ اللَّهُ فَاغْبِثْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٥﴾﴾

ثم بين تعالى أنه هو الخالق المالك لكل شيء، ومدبر كل شيء من خير أو شر، وهدي أو ضلال، لكن لا بالجبر والإكراه، بل بالكسب والاختيار ومباشرة الأسباب، فقال:

﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١﴾﴾.

أي: الله خالق الأشياء كلها، وهو ربها المتصرف فيها وحافظها.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له مفاتيح السموات والأرض، أو: له خزائن السموات والأرض، والمعنى المراد على كلا القولين: أن أزمنة الأمور بيده تعالى وحده، فهو خالق الأسباب والمسببات، والسنن الإلهية مظهر من مظاهر جوده الإلهي وفضله الصمداني، جعلها بمثابة مفاتيح خزائن كرمه في يد

المحتاجين إليها، فما استفتحوا فُتح لهم، ومن لم يفعل فلا يلومنَّ إلا نفسه، وفي هذا تمييز للعامل عن الخامل، وللمُجدِّ العالم عن الكسول الجاهل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: والذين كفروا بآيات الله التكوينية المنصوبة في الآفاق والأنفس، وبآياته المنزلة في القرآن، هم الخاسرون خسراناً لا تلافي له، كما سبق معنا في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ثم أمر النبي عليه الصلاة والسلام بعد هذا البيان الملزم القاطع في حججه أن يقول لهم موبخاً ومنكراً:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

أي: أغير الله تأمروني أن أعبد أيها الحمقى السفهاء الطائشون، أو أيها الأغبياء. وفي قراءة: (تأمروني)، (أعبد).

ويبدو أنَّ المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ليعبدوا معه إلهه، فنزلت هذه الآية، ونزل إقناطاً للمشركين، وإظهاراً لذلِّ العبودية أمام عزِّ الربوبية:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وهو كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، وتشبيتهم في مواجهة المشركين، وبيان قبح الشرك، وكونه ينهى عنه الرسل المعصومون عنه، فكيف بمن عداهم؟! (١).

ولا يخفى ما في الآية من تكريم للنبي عليه الصلاة والسلام بإفراده بالخطاب، وتقديمه بالذكر على جميع المرسلين، مع أنه عليه الصلاة والسلام خاتمهم. والإحباط: الإبطال والإفساد، فمن ارتدَّ لم تنفعه طاعته السابقة.

ودلت الآية على أنَّ الردة تحبط العمل السابق عليها مطلقاً، وعلى المرتد بعد الرجوع إلى الإسلام قضاء العبادات التي يدرِك أسبابها كالحجَّ والصلاة التي ارتد في وقتها، وعليه أيضاً تجديد عقد نكاحه إذ تبيَّن منه زوجته، وينفسخ عقد نكاحه بالردة، وهو مذهب الحنفية، وشرط بعضهم لبطلان العمل بالردة، الوفاة على الكفر، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] حملاً للمطلق على المقيد، وهو مذهب الشافعي.

﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

أي: كن من الشاكرين لله تعالى على ما تفضل به عليك.
ولا شك أنَّ فضله تعالى عظيم على النبي ﷺ كما في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ولهذا كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى ترم قدماه - كما مر معنا - .
ودلت الآية على أنَّ عبادة الله تعالى وحده بإخلاص؛ مِنْ شُكْرِه تعالى، وهو ما سبق تقريره في أول السورة بقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] فتأمل الانسجام والاحتباك بين آيات السورة.

* * *

وما قدرُوا الله حق قدره

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ (٦٧).

ولو أن هؤلاء الضالّين المشركين عرفوا عظمة الله حق المعرفة، ما جعلوا له شريكاً، وما وصفوه بصفات لا تليق بجلاله وكماله :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرَكُونَ﴾ (٦٧).

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي : وما عظموا الله حق عظّمته عندما دعوا إلى عبادة غيره، وهو العظيم القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء، وكل المكونات في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته جلّ جلاله .

قال ابن كثير رحمه الله : فَمَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِذَلِكَ فَلَمْ يَقْدِرِ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

منها : ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال : «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟» [رواه البخاري (٧٣٨٢)].

ومنها : أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ قال : يا محمد، إنَّ الله يمسِكُ السماواتِ على إصبعٍ، والأرضينَ على إصبعٍ، والجبالَ على إصبعٍ، والشجرَ

على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا المَلِكُ، فضحك رسولُ الله ﷺ ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. [رواه البخاري (٧٤١٤)].

قال ابن بطال: وحاصل الخبر أنه ذكر المخلوقات، وأخبر عن قدرة الله على جميعها، فضحك النبي ﷺ تصديقاً له، وتعجباً من كونه يستعظم ذلك في قدرة الله تعالى، وأن ذلك ليس في جنب ما يقدر عليه بعظيم، ولذلك قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، ولا يحمل ذكر الأصابع على الجارحة، بل يحمل على أنه صفة من صفات الذات لا تكيف ولا تحد^(١).

﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: ما أعظم وما أجل من هذه قدرته عما يشركون! يتنزه ويتقدس عن كل مظاهر الشرك، فكل ما يشركونه معه ﷻ أرضياً كان أم سماوياً مهووراً تحت سلطان قدرته ومشيئته ﷻ.

* * *

في عرصات القيامة

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم وصفت الآيات يوم القيامة، وبيّنت ما يحدث فيه، تمهيداً للحديث عن مصير كل من الضالّين والمهتدين:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: ونفخ

في الصور نفخة الصعق، وهي النفخة الأولى، فمات مَنْ في السموات ومن في الأرض من الأحياء إلا من شاء الله.

والصور في الأصل: هو الآلة المعروفة على هيئة القرن، ونحن نؤمن بحقيقته المذكورة في الآيات، ونفوض كيفيته إلى علام الغيوب جل شأنه، والمشهور أن النافخ فيه ملكٌ واحدٌ، وأنه إسرافيل عليه السلام، بل حكى القرطبي الإجماع عليه^(١).

قال ابن حجر رحمته الله: والصور إنما هو قرنٌ كما جاء في الأحاديث المرفوعة، وقد وقع في قصة بدء الأذان بلفظ البوق والقرن في الآلة التي يستعملها اليهود للأذان...

وأخرج أبو داود [٤٧٤٢]، والترمذي [٢٤٣٠] وحسنه، والنسائي في الكبرى [١١٤٥٦]، وصححه ابن حبان [٧٢٦٨]، والحاكم [٥٠٥/٢]: من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما الصور؟ قال: «قَرْنٌ يَنْفُخُ فِيهِ».

وأخرج الترمذي [٢٤٣١] أيضاً وحسنه: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ تَقَمَّ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ؟!»^(٢).

واختلف في المستثنى: من هم؟ قيل: هم الشهداء، وقيل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وقيل: رضوان خازن الجنان والحدور، وملك خازن النار والزبانية، وقيل: يموت مَنْ في السموات والأرض إلا من سبق موته، لأنهم قد ماتوا، وهذا نظير قوله سبحانه: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦].

والأولى تفويض علم ذلك إلى الله تعالى، إذ لم يرد في التعيين خبرٌ صحيحٌ،

(١) روح المعاني: ٢٧/٢٤.

(٢) فتح الباري: ٣٦٨/١١.

وما ورد في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استبَّ رجلٌ من المسلمين ورجلٌ من اليهود، فقال المُسلمُ: والذي اصطفى محمداً صلّى الله عليه وآله على العالمين، فقال اليهوديُّ: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلمُ عند ذاك يده فلطم اليهوديَّ، فذهب اليهوديُّ إلى النبي صلّى الله عليه وآله فأخبره، فقال: «لا تخيروني على موسى، فإنَّ الناسَ يُصعقونَ، فأكونُ أوَّلَ من يَفِيقُ، فإذا موسى باطشٌ بجانبِ العرشِ، فلا أدري أكانَ فيمَن صُعِقَ فأفاقَ قبلي، أو كانَ ممَّن استثنى الله؟» [رواه البخاري (٣٤٠٨)؛ فحملها بعضُ العلماء على أنها صعقةُ فرع بعدَ البعثِ حين تنشقُّ السماءُ والأرضُ، فهي غشية تحصل للناس في الموقف^(١)].

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي: ثم نفخ فيه نفخة أخرى، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون حولهم، وهذا يدلُّ على أنهم بُعثوا من قبورهم أحياء حياةً كاملةً كما كانوا في الدنيا.

ودلَّت كلمة (ثم) على التراخي الزمني بين النفختين، وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «ما بينَ النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيتُ. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيتُ، «ويبلى كُلُّ شيءٍ من الإنسانِ إِلَّا عُجْبُ ذَنْبِهِ، فيه يَرَكَّبُ الْخَلْقُ» [رواه البخاري (٤٨١٤)].

وقوله: (أبيتُ) أي: امتنعتُ عن القول بتعيين ذلك، لأنه ليس عندي في ذلك توقيفٌ.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٩﴾.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت الأرض يوم القيامة عندما يتجلَّى الحقُّ لفصل القضاء.

أو: أضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده، فالظلم ظلمات، والعدل نور.

قال القرطبي رحمه الله: «وقد ضلَّ قوم هاهنا، فتوهموا أنَّ الله ﷻ من جنس النور - الضياء المحسوس - وهو متعالٍ عن مشابهة المحسوسات، بل هو منورُ السموات والأرض، فمنه كلُّ نور خلقاً وإنشاء»^(١).

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: وضع كتاب الأعمال بيد صاحبه، إما يمينه، أو شماله، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِي﴾ [الحاقة: ١٩]. وقال أيضاً: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْبِثْ لِي أُوْتِ كِتَابِي﴾ [الحاقة: ٢٥]. وجاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴿أي: وجيء بالنبيين ليُسألوا عن التبليغ، والشهداء من الكرام الكاتبين ليشهدوا، وكذلك أمة محمد عليه الصلاة والسلام، والجوارح التي يُنطقها الله، والأرض التي تحدت أخبارها.﴾ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿أي: وقضي بين العباد بالعدل، وهم لا يظلمون، فالحاكم هو الله المنزه عن الظلم، ولا يُتصور في حقه ﷻ.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٧٠﴾

أي: أعطيت كل نفس جزاء عملها كاملاً بحسب علمه سبحانه، الذي وسع كل شيء.

* * *

زمر الضالين وزمر المهتدين

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا قَسَّيَتْ قُلُوبُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُيِّمَ بِهِنَّ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

ثم بينت الآيات توفية الجزاء بقوله تعالى :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ .

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي : سيقوا إلى جهنم أفواجاً أفواجاً ، بعضها إثر بعض ، على حسب دركاتهم في جهنم ، وشدة ضلالهم وإضلالهم ، فرؤساء الضلال يساقون إلى جهنم قبل أتباعهم ، قال تعالى عن فرعون : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود : ٩٨] .

ويساقون إليها بشدة وعنف كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور : ١٣] أي : يدفعون إليها دفعاً شديداً على وجوههم .

كما قال سبحانه : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبَكَاءُ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء : ٩٧] .

﴿حَقَّقَ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: فتحت أبوابها السبعة بمجرد وصولهم إليها تعجيلاً لعذابهم، قال سبحانه: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ أي: قال لهم خزنة جهنم الغلاظ الشداد تقريعاً وتوبيخاً، وقد وصفهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: ألم يأتكم رسل من جنسكم يبلغونكم رسالة الله تعالى، ويحذرونكم من المسؤولية والجزاء في يومكم هذا، والمعنى: أن أسباب الهداية قدّمت لكم، وحجته تعالى البالغة قامت عليكم، فلا عذر لكم.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: قالوا: قد أتانا الرسل، وأقاموا علينا الحجج والبراهين، ولكن وجبت علينا كلمة الله بسوء أعمالنا واختيارنا، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

وكلمة العذاب هي كلمته سبحانه بتعذيبهم بعدله، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٧).

أي: بشئ مَثْوًى المتكبرين جهنم. وأبهم القائل لتحويل ما يقال لهم.

ثم بيّن تعالى حال السعداء المهتدين، وما يتفصّل عليهم من نعيم وتكریم:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وهم الذين لبّوا نداء ربهم الذي سبق في السورة: ﴿قُلْ يِعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]، سيقوا إلى الجنة جماعات وأفواجاً: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع مَنْ يناسبهم، الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والعلماء مع أقرانهم، والشهداء مع بعضهم.

والجدير بالذكر أنَّ نبينا عليه الصلاة والسلام أول من يدخل الجنة: ففي الحديث: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتَحُ، فيقولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فيقولُ: بَكَ أَمَرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» [رواه مسلم (١٩٧)].

وأول الناس دخولاً الجنة من أمته عليه الصلاة والسلام مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِم، الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله: «هم الذين لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتُمُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» [رواه البخاري (٥٧٠٥)].

وقد وصفهم رسول الله ﷺ في حديث آخر فقال: «أولُ زمرة تلجُ الجنةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا، أَنِيتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمْ مِنَ الْأَلْوَةِ، وَرَشْحُهُمْ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخٌّ سَاقِيَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يَسْبَحُونَ اللَّهَ بَكْرَةً وَعَشِيًّا» [رواه مسلم (٢٨٣٤)].

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: وفتحت أبوابها الثمانية.

ففي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحَسِّنُ وُضوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، مُقْبِلًا عَلَيْهِمَا بقلبه ووجهه إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ» فقلت - القائل عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ -: مَا أَجُودَ هَذِهِ! فقال عمر رضي الله عنه: التي

قبلها أجود، قال: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيَبْلُغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ ورسوله إِلَّا قُتِحَتْ له أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» [رواه مسلم (٢٣٤)].

ودلَّ حرف الواو في قوله: (وَفُتِحَتْ) على أَنَّ الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله تعالى، والتقدير: حتى إذا جاؤوها وأبوابها مفتحة، بدليل قوله سبحانه: ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]. وحذفت الواو في قصة أهل النار، لأنهم وقفوا على النار، وفتحت بعد وقوفهم إذلالاً لهم وترويعاً، وقيل: دلَّت الواو على حذف جواب (إذا) ليذهب الخيال كل مذهب في تقديره، فإذا جاؤوها سعدوا وطابوا وفرحوا.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أي: طاب لكم المقام، وطاب سعيكم جزاؤكم، أو طهرتم من دنس المعاصي.

وقد جاء في الأدلة القطعية أَنَّ الله تعالى يطهر نفوس أهل الجنة من أسباب النقص والحسد، فلا يتحاسدون في الجنة، مع ما بين منازلهم ودرجاتهم من تفاضل كبير، قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وفي الحديث الشريف: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» [رواه البخاري (١٩٤)].

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٤).

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أي: الحمد لله الذي أنجز لنا

ما وعدنا في الدنيا على السنة رسله الكرام، كما علمهم أن يدعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا
وَأَننَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبُوءًا مِّنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: وأورثنا أرض الجنة نتصرف
فيها تصرف الوارث، وننزل فيها حيث نشاء، فيكون لكل واحد جنة لا توصف
سعةً وزيادةً على الحاجة، فيتخذ مقرّاً من جنته حيث يشاء.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ أي: نعم ثواب العاملين في الدنيا الجنة يوم القيامة.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِّنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٥).

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِّنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: وترى الملائكة
مُحْدِقِينَ بالعرش، محيطين بجوانبه، قائلين: سبحان الله والحمد لله، أو قائلين:
سبحان الله وبحمده، أي: يسبحون الله متلبسين بحمده من أجل كماله وتوفيقه
وإنعامه، والمعنى: ذاكرين له بوصفي جلاله وإكرامه تلذذاً بذكره، وفيه إشعارٌ
بأنّ منتهى درجات العليين، وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في ذكر الله ﷻ^(١).

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: قُضِيَ بين المهتدين والضالّين بالحق.

﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والقائلون هم أهل الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ
الْنَعِيمِ ۝ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأُخْرَىٰ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [يونس].

أسأله جل وعلا أن يجعلنا منهم، وأن يثبتنا على طريق الهدى.





التَّزْكِيَّةُ وَالتَّزْيِيَّةُ فِي الْحَوَامِيْمِ



- الدعاء والتفويض في سورة غافر.
- القرآن والتزكية في سورة فصلت.
- الوحي والشرعة في سورة الشورى.
- القدوة والمثل في سورة الزخرف.
- إنذار وانتقام في سورة الدخان.
- استسلام وإذعان في سورة الجاثية.
- الدعوة والاستجابة في سورة الأحقاف.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مُقَدِّمَةٌ

في الموضوع الأساس لسور الحواميم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين:

وبعد: فإن من مقاصد القرآن الكريم الكبرى تزكية النفوس، وتنقيتها من رجس الكفر والفجور، وتربيتها وتنمية نوازع الخير والصلاح فيها، حتى تستقيم على طاعة الله تعالى عقيدة وسلوكاً.

هذا هو الموضوع الأساس الذي دارت في فلكه آيات سور الحواميم، إلا أن كل سورة سلكت مسلكاً معيناً لتحقيق هذا المطلب الرفيع:

- ف (سورة غافر) بينت أهمية الدعاء والتفويض.
- و (سورة فصلت) بينت دور القرآن الكريم وأثره في تهذيب النفوس وتربيتها.
- و (سورة الشورى) أبرزت دور الشريعة والوحي في هذا المجال.
- بينما ركزت آيات (سورة الزخرف) على دور القدوة والمثل، وبينت ما لهما من أثر كبير في تهذيب النفوس، وصقل القلوب، وتقويم السلوك.
- وأما (سورة الدخان) فاتجهت إلى بيان دور الإنذار والتهديد بالانتقام في تحقيق هذا المطلب.

- وأبرزت (سورة الجاثية) أهمية الاستسلام والإذعان، والرضا بأحكام التنزيل الحكيم في إصلاح النفوس وتربيتها.

- وأخيراً أبرزت (سورة الأحقاف) دور دعوة الحق والاستجابة لها في هذا السبيل. أسأله تعالى أن يهذب نفوسنا، وينقي قلوبنا، ويرزقنا الاستقامة والثبات على دينه وأحكام شريعته.

تفسير سورة غافر الدُّعَاءُ وَالتَّقْوِيضُ فِي سُورَةِ غَافِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تعظيم واجلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾

بدأ الله تعالى سورة غافر بقوله:

﴿حَمْدٌ﴾ ﴿١﴾ .

حرفان من الحروف النورانية المقطعة، تقدّم الكلام فيها في فواتح عدد من السور: كالبقرة وآل عمران.
وثُقِرَ بتفخيم الألف وتسكين الميم، وقُرِئت أيضاً بإمالة الألف.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٢﴾ .

أي: هذا الكتابُ تنزيلٌ من الله لا من غيره، العزيز الغالب في سلطانه، فلا

يُمْتَنَعُ عَلَيْهِ مَقْدُورٌ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِ مَخْلُوقَاتِهِ، فَمَا أَنْزَلَهُ إِلَّا بِمَحْضِ مَشِئَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَعَلِمَهُ بِحَاجَةِ الْمَكْلُوفِينَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ إِلَى أَحْكَامِهِ وَشَرِيعَتِهِ.

فَهَذَا الْكِتَابُ وَاجِبُ الْإِتْبَاعِ، لِأَنَّهُ تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَلِأَنَّهُ أَيْضاً تَنْزِيلُ:

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٣).

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ﴾ أي: يغفر ما سلف من ذنوب المذنبين، ويقبل توبة التائبين، شديد عقابه للجائنين المعاندين، ذي الفضل والنعم أو ذي الغنى والسعة.

ويجوز أن يكون ﴿التَّوْبِ﴾ مصدر تَاب يتوب توباً، ويحتمل أن يكون جمع توبة. و﴿الطَّلَوِّ﴾ الإنعام والفضل، يقال: اللهم طل علينا، أي: أنعم وتفضل، أو الغنى والسعة كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً﴾ [النساء: ٢٥]، أو المَنْ، يقال: طال عليه وتطوّل إذا امتنَّ عليه^(١).

وأفاد توسيط الواو بين الأوليين الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة، فالمذنبُ التائبُ بين رحمتين، بين أن يقبل الله توبته، فيكتبها له طاعةً من الطاعات، وبين أن يجعلها محاءً للذنوب، كأن لم يذنب.

ودلت الآية على رجحان صفات الرحمة على صفة العذاب، جاء رجلٌ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إني قتلْتُ فهل لي من توبة؟ فقرأ عمر رضي الله عنه هذه الآية وقال: اعمل ولا تيأس.

وعن يزيد بن الأصم قال: كان رجلٌ من أهل الشام ذو بأسٍ، وكان يفدُ إلى عمر رضي الله عنه، ففقد عمرُ فقال: ما فعل فلانُ ابنُ فلانٍ؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين تتابع في هذا الشراب. فدعا عمرُ كاتبه فقال: اكتب: مِنْ عَمْرِ بْنِ

الخطاب إلى فلان ابن فلان سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكُم أن يُقبلَ بقلبه، ويتوبَ الله عليه. فلما بلغ الرجلُ كتابَ عمر، جعل يقرؤه ويردّده ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذّرني عقوبته، ووعدني أن يغفرَ لي. فلم يزل يرددُها على نفسه، ثم بكى، ثم نزَع فأحسنَ النزَع، ولمّا بلغ عمرُ خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتمُ أخاً لكم زلَّ زلةً فسدّدوه، ووثّقوه، وادعوا الله له أن يتوبَ عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه^(١).

وهذا يدل على أن الآية تحثُّ على الاتعاظ والتوبة.

والموصوف بهذه الصفات العالية والكمالات الرفيعة هو الإله المعبود حقاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ فلا معبودَ بحقِّ سواه، وإلى حكمه وأمره المرجعُ والمصير يوم القيامة، فهو غافرُ الذنب فضلاً، قابلُ التوبِ وعداً، شديدُ العقابِ عدلاً، لا إله إلا هو إليه المصيرُ فرداً.

فالآية تقوّي في النفس شعورَ المهابة والإجلال والتعظيم لله ﷻ، وتذكّرنا ببعض صفاته تعالى المهدّبة للنفوس والمصفّية للقلوب، إنها تبين لنا من خلالها صلّتنا بالله تعالى، فنعرّف كيف نعاملُه بمراقبةٍ وخشوعٍ وأملٍ ورجاءٍ ونحن نرجو رحمته، ونخشى عذابه، إنّه أسلوبٌ رفيع في تربية النفوس وتهذيبها.

* * *

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٣٥/٣.

المجادلون بالباطل

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۚ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۚ﴾ (٥) وَكَذَلِكَ حَقَّتْ لِمَنْ رَزَاكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ ﴿٦﴾ .

ثم بينت الآيات حكمه تعالى في المجادلين بآيات الكتاب الذي نزل به العزيز العليم:

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۚ﴾ .

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يخاصم ويحاجج في دفع آيات الله وتكذيبها وإنكارها إلا الذين كفروا، فهم وحدهم المجادلون بالباطل في آيات الله، بينما يسلم بها كل من في الوجود، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

فالوجود كله مقتنع بآيات الله الشاهدة بوحدانيته وكماله، وما يشذ عن كل ما في الوجود إلا الذين كفروا.

فالجidal المذموم هو الجidal بالباطل، وأما الجidal فيها لإيضاح ملتبسها، وحل مشكلها، واستنباط معانيها؛ فجidal محمود مطلوب^(١).

ثم توجهت الآية إلى النبي ﷺ تخاطبه وتواسيه عن جدالهم بالباطل وعنادهم: ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ أي: فلا يغرك إهمالهم وتصرفهم في البلاد مع كفرهم، فإن عاقبتهم إلى الهلاك، فهو كقوله تعالى: ﴿لَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ۚ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

(١) تفسير القرطبي: ٢٩٢/١٥.

فمهما تصرّفوا وتقلّبوا واستمتعوا، فما آلهم إلى الهلاك والخسران، وحالهم كحال الأمم الهالكة قبلهم:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: كذبت قبلهم قوم نوح والأمم الذين تحزّبوا على الرسل وعادوهم بعد قوم نوح، كعاد وثمود، الذين قال الله فيهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَافِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ [ص].

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: وأرادت كل أمة من هذه الأمم المكذبة أن يتمكنوا من رسولهم فيعذبوه ويهلكوه.

والأخذ: الأسر، والعرب تسمي الأسير الأخيد، لأنه مأسور للقتل.

﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: جادلوا بالباطل ليزيلوا به الحقّ الثابت، ومنه مكان دحض: أي مزلة، لا تستقر عليه الأقدام.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فأخذتهم بالعذاب، وأنزلت بهم العقاب، فكيف كان عقابي؟! ألم يكن مهلكاً مستأصلاً؟!

وهو سؤال تقرير فيه معنى التعجيب والتهويل، والجزاء من جنس العمل، فالقوم أرادوا أخذ الرسل فأخذتهم بالعقاب، وأنزلت بهم أشدّ العذاب.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٦﴾

أي: وكما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب، وجب أيضاً عذابهم في الآخرة بالنار.

وقد يكون المراد تهديد مشرقي قريش، ويكون المعنى: وكما وجب إهلاك

الأمم السابقة المكذبة لرسُلها ، وكذلك وجب إهلاك هؤلاء لعلة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار .

ثناء ودعاء

﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

ثم أبرزت الآيات فضل المؤمنين التائبين ، ومكانتهم عند الملائكة المقربين ، وأنهم ليسوا وحدهم في الساحة ، فالملائكة المقربون تؤدبهم وتدعو لهم ، ولا شك أن لدعاء الملائكة تأثيراً روحياً في تهذيب نفوس المؤمنين وصقل قلوبهم :

﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي : يقرنون بين تسبيح الله الدال على تنزيهه عن الاتصاف بصفات النقص ، والتحميد الدال على إثبات صفات الكمال والإحسان له ﷻ .

ولا شك أن تخصيص حملة العرش ومن حوله بالذكر يدل على فضلهم ، ومكانتهم في الملأ الأعلى ، فهم يداومون على التسبيح والحمد كما مر معنا عند قوله تعالى في آخر سورة الزمر : ﴿وَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ جِسْمٌ خَلَقَهُ اللَّهُ، وَأَمْرٌ مَلَائِكَتُهُ بِحَمَلِهِ، وَتَعَبُّدُهُمْ بِتَعْظِيمِهِ وَالطَّوَافُ بِهِ، كَمَا خُلِقَ فِي الْأَرْضِ بَيْتًا، وَأَمْرٌ بِنِي آدَمَ بِالطَّوَافِ بِهِ، وَاسْتِقْبَالُهُ فِي الصَّلَاةِ^(١).

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: ويؤمنون بالله الإيمان اللائق بجلاله وكماله ووحدانيته. ويدل التسييح بحمده على الإيمان به، وصرحت الآية به إظهاراً لفضله، وترغيباً فيه، وإشعاراً بعلّة دعائهم للمؤمنين، فإن المشاركة في الإيمان تستدعي النصيح والشفقة، ومن سجايا الملائكة: أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا دَعَا لِأَخِيهِ أُمَّنُوا عَلَى دَعَائِهِ، ففي «صحيح مسلم» [٢/٢٠٩٤]: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ الرسولَ ﷺ يقولُ: «مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ». ولعلّه سبحانه محتجّبٌ عن الملائكة بحجب جلاله وكماله فوصفهم بالإيمان به^(٢).

﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ويسألونه تعالى المغفرة للمؤمنين يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمته وعلمك كل شيء، ونصب: (رحمةً وعلمًا) على التمييز، وحول عن الفاعل للمبالغة في وصفه تعالى بالرحمة والعلم، حتى جُعِلَتْ ذاته سبحانه كأنها عين الرحمة والعلم، وأشارت الآية إلى أدبٍ من آداب الدعاء، وهو تقديمُ الثناء على الدعاء. ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: فاغفر للذين علمت توبتهم، واتبعوا صراطك، واحفظهم من عذاب الجحيم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ أي: أدخلهم جنات الإقامة الدائمة

(١) فتح الباري: ١٣/٤٠٥.

(٢) تفسير الخازن: ٥/٣٤٠.

التي وعدتهم إياها . وقرئ: (جنة عدن) .

﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: وأدخل معهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وأولادهم ليتّم سرورهم، ويزيد حبورهم، فالحمد سبحانه بفضلِهِ يُلحِقُ المقصّرين من المؤمنين بالسابقين تكملةً لهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَابْتَغَوْا ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] .

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: إنك أنت الغالبُ على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله .

﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٩ .

أي: وجنبهم المعاصي في الدنيا بحفظهم عن ارتكابها، ومن تجنبه السيئات في الدنيا فقد رحمته في الآخرة، وذلك هو الفوز العظيم، الذي لا مطمع وراءه لطامع .

فللدعاء تأثيرٌ كبيرٌ في تربية النفوس وتصفيتها وتهذيبها، فما أكرم المؤمنين على الله! ينامون على فرشهم والملائكة المقربون تستغفر لهم .

مقت ويأس

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْأَلُونَ لِمَ قَضَى اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ١٠ ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَا أَتْلُفَيْنِ فَأَعْرَفْنَا بِدُثُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ١١ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَسَّلْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ ١٢ .

وفي مقابل هذه المكانة العالية للمؤمنين عَقِبَتِ الآيات بيان المكانة القبيحة

للكافرين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (١٠).

أي: يقال للكافرين: لمقت الله إياكم في الدنيا عندما دُعيتم إلى الإيمان فأعرضتم وكفرتم أكبر من مقت بعضكم بعضاً يوم القيامة.

والمقت: أشد الغضب، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْنًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

ومن المعلوم أن الكفار يوم القيامة يمقت بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً كما مر معنا في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ويمكن أن يكون المعنى أيضاً: لمقت الله لكم في الدنيا أشد من مقتكم أنفسكم الأثمارة بالسوء والكفر، فالكفار يمقتون أنفسهم، ولا يرتاحون إلى العقائد الباطلة المخالفة لما تقتضيه العقول السليمة.

﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأَحْيَيْتَنَا أَتُتَبِّحُنَا فَاَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١١).

أي: إن قدرتك يا ربنا عظيمة، فإنك قد أحيتنا بعدما كنا أمواتاً في بدء خلقنا، ثم أمتنا عند انتهاء آجالنا، ثم أحيتنا يوم القيامة، فاعترفنا بذنوبنا، فهل إلى خروج من النار من سبيلٍ كيف ما كان.

ولا يخفى ما في كلامهم من استبعاد خروجهم، واستشعارهم اليأس منه، وما قالوه إلا تحيراً أو تعللاً، وكان عليهم أن يتذكروا هذا في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ولهذا أجيب بتذكيرهم بسبب ما أوصلهم إلى العذاب وأنه كان باختيارهم

وكسبهم:

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١٣).

﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ أي: ذلكم العذاب بسبب أنه إذا عبد الله وحده في الدنيا كفرتم بتوحيده وعبادته، وإن يشرك به تُصدّقوا ذلك الشرك.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ أي: فالحكم لله وحده المستحق للعبادة، الذي لا أعلى منه ولا أكبر منه ﷻ، وقد حكم أن لا مغفرة للمشرك ولا خروج له من النار، فلا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه سبحانه.

* * *

الإخلاص في العبادة والدعاء

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ (١٤).
﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١٥).

وتابعت الآيات تربّي في النفس شعورَ الإجلال والتعظيم لله رب العالمين، وتدعو إلى الإخلاص في عبادته ودعائه:

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ (١٤).

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ﴾ أي: هو الذي يظهر لكم آياته الدالة على أن الحكم له وحده، وأنه هو المستحق وحده للعبادة والطاعة.

أو: هو الذي يريكم آياته وعجائب مصنوعاته الدالة على كمال قدرته، وأنه سبحانه العلي الكبير لتعملوا بموجبها، فتوحده وتعبده.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: ينزل لكم من جهة السماء مطراً هو سبب الرزق، ودلت صيغة المضارع في الفعلين على تجدد الإراءة واستمرار التنزيل.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: وما ينتفع بتلك الآيات الباهرة ويتعظ بها إلا مَنْ يرجع إلى طاعته تعالى وعبادته، فعليكم أن تدعوا لأمره، وتنقادوا لحكمه، وتقبلوا على طاعته:

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

أي: فأخلصوا في عبادة الله وطاعته ودعائه، وخالفوا المشركين، ولو كرهوا ذلك وغازطهم إخلاصكم، دعوهم يموتوا بغيظهم وحسرتهم.

يوم التلاقي والآفة

﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾

﴿يَوْمَ هُمْ تَبْرَأُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) الْيَوْمَ تُخْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا سَفِيعٌ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّبُهُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاخْتَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢)

فهو سبحانه المستحق لأن تتوجهوا إليه بالدعاء والعبادة بخشوع وخضوع لأنه:

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ (١٥).

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: رفيع الصفات، فلا أرفع قدراً منه، خالقُ العرش ومالكه، وهو أعظمُ المكوّنات والمخلوقات، فمالكُ العرش مالكُ لجميع المخلوقات، وسلطانه ثابتٌ على جميع المكوّنات، فكلُّهم في قبضة قدرته ﷻ وتحت قهر مشيئته.

فقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ خبران يدلان على علو صمديته من حيث المعقول والمحسوس الدال على تفرّده في الألوهية، فإنَّ من ارتفعت درجاتُ كماله بحيث لا يظهرُ دونها كمال، وكان العرش الذي هو أصل العالم الجسماني في قبضة قدرته لا يصح أن يشرك به^(١).

فهو المرتفعُ بعظمته في صفات جلاله وكماله ووحدانيته، المستغني عن كل ما سواه، وكلُّ الخلق فقراءٌ إليه، ويمكن أن يكون في قوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ إشارة إلى أنَّه لا يفوزُ برضوانه إلا من علا في معارج العبادات ومدارج الكمالات. وتخصيص العرش بالذكر لأنه كما قلنا أعظم المكوّنات، ففيه تنبيه على كمال قدرة خالقه.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يلقي الوحي الذي تحيا به القلوب بأمره ومشيئته على مَنْ يختارُ من عباده، كما في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

فالروحُ هو الوحي، وسَمَّاهُ روحاً لأنَّ به حياة القلوب من موت الكفر والجهل، وهو في الأصل إعلامٌ خفي سريع يقع بين جانبيين: الأول علوي

ملقي، والثاني جانبٌ ضعيفٌ متلقي، يحدث بمشيئته تعالى وحده من غير اكتسابٍ ولا اجتلابٍ.

﴿لِنُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أي: لينذر النبي الموحى إليه يوم التلاق، وقرئ: (لتنذر)، وهو يوم القيامة حيث تتلاقى فيه الأرواح والأجساد، وأهل السماء والأرض، والمرء وعمله، والظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول... إلخ.

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: يوم هم خارجون من قبورهم، لا يخفى على الله شيءٌ من أحوالهم وأعمالهم، وحينئذٍ ينادي المنادي: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟... فيجيبه أهل المحشر:

﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ولا شك أن حقيقة الحال ناطقةٌ بذلك أبداً، وإعلانه يوم القيامة لزوال الأسباب فيه، وتوقف الوسائط، واختصاص جميع الأفعال بقدرته تعالى مباشرة. ومن نتائج هذا الإعلان والتقرير:

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ أي: تُجزى كل نفس في هذا اليوم خيراً إن كسبت خيراً، وشرّاً إن كسبت شرّاً، فلا يقع ظلم في هذا اليوم في وجه من الوجوه، لأنَّ الحكم والمُلْك فيه للواحد القهار، فلا تترك نفس واحدة من دون جزاء، فعلمه سبحانه وسِعَهم وقدرته أحاطت بهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يشغله حسابُ أحدٍ عن أحدٍ، ولا شأنٌ عن شأنٍ، يحاسبُ الخلقَ كلَّهم في وقتٍ واحدٍ وهو أسرع الحاسبين.

فالتذكيرُ بيوم القيامة من أنجح وسائل التربية والتهذيب، ولهذا تابعت الآيات الحديث عنها:

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمٍ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (١٨)

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة، وسُمِّيت بذلك لأنها قريبة، فكل ما هو آتٍ قريبٌ، يقال: أزفَ الترحُّلُ، أي: قُرْبُ، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَزَفَتْ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي: قربت الساعة.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمٍ﴾ أي: عندما تزول القلوب عن أماكنها من شدة الخوف حتى تصل إلى الحناجر كاظمين عليها، أي: ممسكين عليها، حتى لا تخرج مع أنفاسهم.

ففيه مبالغة عظيمة، وكناية عن شدة الخوف، وفرط الألم، فقد انسدت عليهم مجاري أنفاسهم، وأخذ الألم بجميع إحساسهم.

﴿مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ما للظالمين من قريبٍ مشفقٍ ينفع، ولا شفيعٍ يشفع.

والشعورُ بكمال علمه تعالى ومراقبته الدائمة يرَبِّي أيضاً النفوس، ويهذبها ويبعدها عن المعاصي والآثام:

﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩)

أي: يعلم سبحانه خيانة الأعين ومسارقتها النظر المحرَّم، كالنظرة الثانية إلى ما لا يحل، كأن ينظر الرجلُ إلى المرأة، فإذا رآه أصحابه غَضَّ بصره، فإذا غفل عنه أصحابه عاد إلى مسارقة النظر، ويعلمُ أيضاً ما تُخفي الصدور ومضمرات النفوس وهواجسها وخواطرها، ولهذا فقضاؤه سبحانه حق وعدل:

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾ (٢٠).

أي: والله يقضي بالحق، والآلهة المزعومة التي يعبدونها من دونه لا تقضي بشيء، لأنها عاجزة لا تعلم شيئاً، ولا تقدر على شيء، إن الله هو الذي يسمع أقوالهم ويبصر أحوالهم.
ونظراً لاعتبار في تاريخ الأمم الماضية يساعداً أيضاً في تربية النفوس، وتصفية القلوب:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ (٢١).

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كانت هذه الأمم الهالكة أشد من المشركين المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ. وفي قراءة: (أشد منكم).
﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي: أهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وما كان لهم واقٍ من الله تعالى يحميهم، ويمنع عنهم عذابه أبداً، وأفادت (كان) الاستمرار.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ (٢٢).

أي: أهلكهم الله، لأن رسلهم لما جاءتهم بالمعجزات الدالة على صدقهم كفروا بها، فأهلكهم الله إنه قوي لا يغلبه شيء، شديد العقاب، فكل عقاب دون عقابه سبحانه.

مؤمن آل فرعون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُوءَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رِبِّي إِنَّهُ لَأَنذِرُكَ وَيُخَوِّدُكَ وَأَن تَكُونَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُكِيدٍ لَا يَأْتِيَنَّ بِكُمْ يَتِيمٌ فَتَارِكٌ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعْتَدُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِقٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ الْمَلَائِكَةُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّكُمْ مِنْ ثَأْنِ اللَّهِ إِنْ جَاءَ أَتَاهُمْ نَارُ السَّمُومِ إِذْ لَا إِلَهَ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَتَاكُمْ إِلَّا سَيْلٌ أُرْسِلَ عَلَيْهِ ﴿٢٩﴾﴾

وبمناسبة دعوة الآيات إلى الاعتبار بأحداث الأمم الهالكة، أوردت حلقةً جديدةً من قصة موسى مع فرعون وقومه لم تُذكر إلا في هذه السورة، وهي قصة مؤمن آل فرعون الذي صدّق برسالة موسى ﷺ، ودافع عنه، ودعا قومه إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم، ومهدت الآيات لهذه القصة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾

أي: أرسلنا موسى مؤيداً بالمعجزات والحجج الواضحة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُوءَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

أي: إلى رؤساء الكفر والضلال: فرعون ووزيره هامان، وإلى قارون، فكذبوا موسى، وقالوا: ساحر كذاب.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝٢٥﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي: فلما جاءهم موسى بالحق الثابت من عندنا كفروا به، وقالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه، واتركوا نساءهم للخدمة، أو ليصدّوهم عن دعوة موسى، وكان فرعون قد أمسك عن قتل من آمن بدعوة موسى من بني إسرائيل، فأعاده كما كان.

﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما مكر فرعون ومن معه إلا في ضياع، فما دفع عنهم قضاء الله وعذابه. وبعد تردد قرر فرعون قتل موسى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝٢٦﴾ .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ ويبدو أنه كان خائفاً من أن يدعو موسى عليه.

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان، يتهمون معارضيههم بإفساد الدين والدنيا، فهي كلمة كل طاغية مفسد في حق كل داعية مصلح. وقرئ: (وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) بالواو ويفتح الياء ورفع (الفساد).

ولجأ موسى إلى الله مستعيذاً به من مكر فرعون وشره لَمَّا عَلِمَ بقراره:

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ۝٢٧﴾ .

أعلن ﷺ ذلك حثاً لقومه على الاقتداء به في اللجوء إلى الله، والتوكل

عليه، ولم يسم فرعون، بل وصفه بوصف يعمّه وأمثاله من الطغاة المتكبرين، تحقيراً له، واستهانةً بأمره، ومن اجتمع فيه التكبر عن الحق والتكذيب بيوم الحساب، فقد استكمل أقبح الصفات، فلا يتورّع عن أي جريمة مهما عظمت، ولا تنجع فيه أي وسيلة من وسائل التربية والتهذيب.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ﴾ أي: يُخفي إيمانه، ويبدو أنه كان من حاشية فرعون المقرّبين، له وجاهة وحظوة وسطوة، وفرعون لا يعلن مثل هذا القرار الخطير إلا بين الصفوة المختارة من رجال حكمه وأعوانه، آمن الرجل بموسى، وأخفى إيمانه، فلم يظهره حتى رأى فرعون عازماً على قتل موسى:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: أتقصّدون قتل رجلٍ لأنه يقول: ربي الله، مع أنّه جاءكم بالبينات من ربكم.

وهو سؤال إنكار أنكر فيه عزمهم على قتل موسى ﷺ، ونصّب نفسه مدافعاً عنه، وهو يعلم ما يترتب على ذلك من خطر كبير عليه.

وتابع الرجل دفاعه عن موسى مؤيداً كلامه بالحجج العقلية المنطقية:

﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي: فهو يتحمّل وبال كذبه إن كان كاذباً، وإن كان صادقاً يصبكم بعض ما يعدكم به إن لم يصبكم كله إن تعرضتم له بسوء.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ فلو كان مسرفاً كذاباً خذله الله، وما هداه، وما أيده بتلك المعجزات، أو أهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله.

والجدير بالذكر هنا أن أبا بكر ﷺ قال مثل ذلك دفاعاً عن رسول الله ﷺ، ففي الحديث: عن عروة بن الزبير قال: سألت عبد الله بن عمرو بن

العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبه بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ فقال: ﴿أَنْقَتُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾. [رواه البخاري (٣٨٥٦)].

قال ابن حجر رحمه الله: «ولقصة أبي بكر هذه شاهد من قصة علي، أخرجه البرار: من رواية محمد بن علي، عن أبيه: أنه خطب فقال: مَنْ أشجع الناس؟ فقالوا: أنت. قال: أما إنني ما بارزني أحدٌ إلا أنصفتُ منه، ولكنه أبو بكر، لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ أخذته قريشٌ، فهذا يَجْؤُهُ، وهذا يتلقاه، ويقولون له: أنت تجعلُ الآلهةَ إلهاً واحداً؟! فوالله ما دنا منا أحدٌ إلا أبو بكر يضربُ هذا، ويدفع هذا، ويقول: ويلكم أقتلون رجلاً أن يقول: ربِّي الله؟! ثم بكى علي؛ ثم قال: أنشدكم الله أمؤمن آلِ فرعونَ أفضلُ أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال علي: والله لساعة من أبي بكر خيرٌ منه، ذاك رجل يكتُمُ إيمانه، وهذا يعلنُ بإيمانه»^(١).

﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي: لكم اليوم الملك عالين غالبين في أرض مصر، فلا أحد يمنعنا من عذاب الله إن جاءنا. أدرج الرجل نفسه معهم، لأنه كان منهم؛ تطيباً لقلوبهم، وإظهاراً لإخلاصه في نصحتهم، لكي يتأثروا به. ولكن فرعون أصر على طغيانه وعنده، وقابل نصح الرجل المؤمن بمزيد من العناد والاستكبار:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وبلغ بهذا القول الغاية في الاستبداد والعناد، فالرأي ما يراه هو، لا ما يراه غيره، وما يُبين لهم برأيه إلا سبيل الصواب والرشاد، هكذا بلغ به العناد والاستبداد إلى أن يدعي

لنفسه العصمة من الخطأ والزلل، وأنه لا يرى إلا الخير والصواب، وهو حال الطغاة المستبدين في كل زمان ومكان.

* * *

عاقبة التكذيب والعناد

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْآخِرَاتِ ٢٩﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ٣٠﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ٣١﴾ يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ٣٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ٣٣﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَذَبَ مَقْنًا عِندَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَوْا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ٣٥﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّاهُ عَمَلِهِ وَضَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كِيدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ٣٦﴾.

ولم يبال الرجل المؤمن بطغيان فرعون وغروره، بل ردَّ عليه بأسلوب غير مباشر، وهو يعظ قومه، ويبين لهم عاقبة التكذيب والعناد:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْآخِرَاتِ ٢٩﴾.

أي: إني أخاف أن ينزل بكم مثل ما نزل بالأمم المكذبة قبلكم:

﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ٣٠﴾.

أي: مثل جزاء ما كان عليه قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، والله

ما عاقبهم إلا بذنوبهم، وإعراضهم عن عبادته وطاعته، فهي دعوة لقومه لكي يعتبروا بأحوال المكذبين قبلهم، وتخويف لهم من عذاب الدنيا. ثم أضاف تخويفهم من عذاب الآخرة:

﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾

أي: يوم الاستغاثة والصياح؛ حيث ينادي المعذبون على أنفسهم بالويل والثبور، أو: ينادي بعضهم بعضاً فينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وقال قبل ذلك أيضاً: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وقرئ بتشديد الدال؛ أي: يوم يند بعضهم عن بعض كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ وَصَنْبِغِهِ وَنِجْهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

أو: يوم التنافر، من نَدَّ البعير إذا هرب ونفر، وذلك إذا سمعوا نفير النار ندُّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً عليه، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَمْعَشَرُ الْحَيْنُ وَالْإِنْسُ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

ويقوي هذا المعنى قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾

﴿يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: يوم تولون عن موقف الحساب فارّين، ما لكم من عذاب الله مانع ودافع.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ وهو ردُّ على ما ادعاه فرعون عندما قال: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فمن أضله الله فلا يستطيع أحد أن يهديه.

ثم بيّن لهم أن سبب ضلالهم نابعٌ من داخل أنفسهم، من كسبهم واختيارهم، بتذكيرهم بمواقف آبائهم من دعوة نبي الله يوسف عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: ولقد جاءكم يوسف بالحجج الواضحة الدالة على صدقه، ومع ذلك أعرضتم عنه، وكنتم في شك مما جاءكم به، حتى إذا مات كذبتُم رسالة مَنْ بعده كما كذبتُم رسالته، ولهذا أضلَّكم الله.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ أي: هكذا يضل الله مَنْ هو مسرفٌ في عصيانه، شاكٌّ في دعوة المرسلين المؤيدة بالحجج والبراهين.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أي: وهؤلاء المسرفون المرتابون يجادلون لردِّ آيات الله بغير حجة ولا برهان، كما سبق معنا في أول السورة: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرَزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي اللَّيْلِ﴾ [غافر: ٤].

وقوله ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿كِبَرُ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: كبر جدالهم مقتاً عند الله وعند المؤمنين.

والمقت - كما مر معنا - : أشد الغضب، ومقت الله تعالى لهم : طبعه على قلوبهم، وإضلالهم وإنزال العذاب بهم .

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أي : كذلك يختم الله على قلب كل متكبر جبار، فلا يعقل رشاداً، ولا يقبل هدى .

فضلالهم نابع من قلوبهم، بسبب إسرافهم وتكبرهم، ويبدو أن هذا التقرير تعقيب من الله تعالى على ما حكاه سبحانه من كلام الرجل المؤمن، ولهذا ذكرت الآيات بعده مثلاً من تكبر فرعون وتجبره وضلاله وإسرافه :

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنِي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنِي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ أي : لعلني أصل بواسطته إلى الطرق المؤدية إلى السماوات، وهذا يدل على جهله بالله سبحانه، وشدة غروره وضلاله .

أو : لعله كما رأى سيد قطب رحمته الله : أراد أن يمؤه ويحاور ويداور كي لا يواجه الحق جهره، ولا يعترف بدعوة الوحداية التي تهز عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه .

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ وبلغ - لعنه الله - بذلك غاية الجهل والضلال، ولعله أراد ببناء هذا الصرح العالي أن يمؤه على الناس، ويشغلهم عن دعوة موسى، ويوهمهم أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه السلام، وهو حال الطغاة المستبدين، يأمرون بإقامة المنشآت المادية الكبيرة لينشغل الناس بها عن ظلمهم واستبدادهم، قال تعالى في سورة القصص : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّمُوا أَمْلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الْطِينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ .

ثم بيّن تعالى عاقبة ضلاله واستكباره فقال :

﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾
أي : إلا في خسارٍ وهلاكٍ بسبب سوء عمله وابتعاده عن سبيل الحق والهدى .

* * *

ثبات وتفويض

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُخَذِّلُهَا إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ دَكْرٍ أَوْ أَُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيمِ الْفَقِيرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لِيَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

وعادت الآيات إلى الرجل المؤمن تحكي لنا كلماته الأخيرة التي نصح بها قومه :

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾

أي : اتبعونِ أهدكم إلى طريق الحق والرشاد. وفي كلماته تعريضٌ بفرعون وطريقه، فاتباعهم لفرعون لا يوصلهم إلا إلى الفساد والضلال .

﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

أي : إن هذه الحياة الدنيا - التي من أجلها تتبعون فرعون - حقيرةٌ قليلةٌ سريعةُ الزوال، وأمّا الآخرةُ فهي دارُ الاستقرارِ والخلودِ إمّا في النعيم أو في الجحيم .

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ .

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: من عمل في الدنيا سيئة فلا يُجْزَى في الآخرة إلا بمثلها بعدله سبحانه .

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير حدٍّ وعدٍّ بفضلِهِ سبحانه .

ويبدو أن بعض حاشية فرعون استنكر موقف الرجل وإيمانه، ومعارضته لفرعون، فطلبوا منه العودة إلى طاعة فرعون، والاعتذار منه، فردَّ عليهم الرجل المؤمن مستنكراً موقفهم متأبياً ثابتاً على دعوة الحق :

﴿وَلَقَوْمٌ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ۝٤١﴾ .

أي: أخبروني كيف أدعوكم إلى الخير والسلامة وتدعونني في المقابل إلى الهلاك والعذاب؟! .

﴿تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۝٤٢﴾ .

أي: أنتم تدعونني لأكفر بالله، وأجعل له شريكاً على جهلٍ بلا دليل، فالعقيدة لا بد لها من دليلٍ يوجب العلم بها، وأنا أدعوكم إلى الإيمان بالله الغالب على كل شيء، والغفار لجميع الذنوب .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝٤٣﴾ .

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: حقاً أن ما تدعونني إليه لا يجيب داعيه لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه مخلوق

تعالى ونصره، ونجّاه من مكرهم وكيدهم كما نجّى موسى ﷺ:

﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: وقاه الله ما أرادوا به من الشر، ونزل بفرعون وآله وجنوده أسوأ العذاب:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ .

أي: يُعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا، في أول النهار وآخره ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لخزنة جهنم: أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب. وفي قراءة: (أدخلوا آل فرعون) أي: يقال لهم: ادخلوا يا آل فرعون أشدَّ العذاب.

وهذه الآية دليل على عذاب القبر كما قال العلماء، فقد بَوَّب الإمام البخاري في «صحيحه» فقال: [٨٦] باب ما جاء في عذاب القبر، وذكر هذه الآية، وأوردَ عدداً من الأحاديث؛ منها:

[١٣٧٢] عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا، فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ، فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذُكَ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَسَأَلَتْ عَائِشَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَقَالَ: «نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ» قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. زَادَ فِي رِوَايَةِ: «عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ».

وذكر البخاري في [٨٠] كتاب الدعوات أيضاً: [٣٧] باب التعوذ من عذاب القبر، ثم أخرج بسنده:

[٦٣٦٤] عن موسى بن عقبة قال: سمعتُ أُمَّ خَالِدِ بِنْتَ خَالِدٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ.

[٦٣٦٥] وعن مصعب بن سعد قال: كان سعدُ يأمرُ بخمسةٍ ويذكرهنَّ عن

النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِهِنَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

ثم وصفت الآيات في تعقيبها الأول على قصة مؤمن آل فرعون أحوالهم وهم يقاسون أشد العذاب في النار:

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ (٤٧).

أي: وإذ يتخاصمون في النار، فيقول الضعفاء كالجنود والخدم لرؤسائهم كفرعون وهامان: إنا كنا أتباعاً لكم في الدنيا، فهل أنتم دافعون عنا شيئاً عن عذاب النار؟.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِذْ قَالَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ﴾ (٤٨).

أي: قالوا: نحن وأنتم في النار؛ فكيف ندفع عنكم شيئاً من عذابها؟! لو قدرنا لدفعناه عن أنفسنا، إن الله قد حكم حكماً لا يتغير ولا يتبدل، فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

ولما ضاقت بهم الحيل توجهوا جميعاً لخزنة جهنم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ۖ﴾ (٤٩).

أي: يخفف عنا مقدار يوم من العذاب. فيجيئهم خزنة جهنم موبّخين:

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۖ﴾ (٥٠).

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: أوما قامت عليكم الحجج

في الدنيا على السنة الرسل، فضيَّعتم أوقات الدعاء، وأعرضتم عن فرص الإجابة؟! .

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي: أتونا بها فكذبناهم. فردَّ عليهم خزنة النار:

﴿قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعُوتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: إذا كان الأمر كذلك

فادعوا أنتم، وما دعاء الكافرين إلا في ضياع وبطلان.

وواضح أنَّ خزنة النار ما أرادوا إطماعهم في الدعاء، بل أرادوا إقناطهم

منه، فبينوا لهم أن دعاءهم غير مستجاب.

تأييد وتثبيت

هَٰذَا لَنُصْطِرَّ زُلْفًا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الْقُلُوبِينَ مَعُونَتُهُمْ وَلَا هُمْ مِنَ النَّفْعَةِ وَلَهُمْ سَوْءُ الْمَذَارِ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهَيْكَلُ وَأَوْثَرْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٣﴾ فَذَكَرْنِي لِأَوَّلِ الْأَلْسِنِ ﴿٤﴾ فَأَصْبَحَ بِكَ وَعْدُ اللَّهِ حَقًّا وَاسْتَفْهِمُوا لِذَلِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِكْرَامِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُخَدِّلُونَ فِي عَائِيكَ اللَّهُ بِعَمْرِ سُلْطَانِ أَنْهَمُ يَدِي سُلْطَانَهُمْ إِلَّا كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَّبِعُونَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرُ مِنِّ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْكُفْرُ فَلْيَا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩﴾

ثم بيَّن تعالى في تعقيبه الثاني على قصَّة مؤمن آل فرعون أنَّ تأييده لرسله والمؤمنين سنَّة من سننه الكونية القَدَرِيَّة الثابتة، فقد حمى موسى ﷺ وأيَّده، ونجَّى مؤمن آل فرعون من مكرهم وكيدهم.

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١﴾

ينصرهم سبحانه في الحياة الدنيا بالحجة والبرهان، وينتقم من أعدائهم بإهلاكهم، وينصرهم يوم القيامة بفوزهم بالرضوان والجنان، وتعذيب أعدائهم بالنيران، ولا يخلُ بهذا الوعد الكريم ما يكون أحياناً لأعدائهم من تسلُّط عليهم امتحاناً لهم، إذ العبرة بالعواقب، وقد يكون السبب ابتعاد المسلمين عن أحكام دينهم، وانتشار المعاصي بينهم.

والأشهاد: جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، والمراد بهم من يقوم يوم القيامة بالشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٥٢﴾

أي: لا يقبل من الظالمين عُذر يوم القيامة، ولهم الإبعاد والحرمان من الرحمة، ولهم سوء الدار الآخرة؛ وهو عذاب جهنم.

ومن تأييده تعالى لرسوله موسى ﷺ والمؤمنين معه ما أعطاه من المعجزات وما أنزل عليه من الشرائع والآيات:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ٥٣﴾

أي: ولقد آتينا موسى أسباب الهداية بما أجرى سبحانه على يديه من معجزات، وأنزل عليه التوراة، وتركها بعده لبني إسرائيل:

﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ٥٤﴾

أي: لأجل الإرشاد وتذكرة ذوي العقول المستتيرة المبصرة.
ولا شك أن ما أتى الله نبينا محمداً خاتماً أنبيائه ورسله ﷺ أعظم مما أتى موسى ﷺ وقومه، وما قصَّ الله قصة مؤمن آل فرعون إلا تثبيتاً للنبي ﷺ،

ومواساةً له عما يلقي من أذى المشركين من قومه، ولهذا توجَّهت الآياتُ تخاطبُهُ عليه الصلاة والسلام، وتأمِّره بالصبر مع الإكثار من الاستغفار والتسبيح:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝٥٥﴾.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إن وعد الله حق ثابت لا يتخلف بنصر رسله والمؤمنين.

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ أي: لذنبك الذي تراه ذنباً.

وكان عليه الصلاة والسلام يرى نفسه مقصراً في حق شكر ما أنعم الله عليه، وهو تهيجٌ للأمة أيضاً على التوبة والاستغفار.

فقد أخرج النسائي في الكبرى [١٠٢٠٧]: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ جمع الناس فقال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإنِّي أتوبُ إليه في اليوم مئة مرة».

وأخرجه البخاري [٦٣٠٧] بلفظ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «والله إنِّي لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ مِنْ سبعينَ مرةً».

ومن حديث الأغر المزني عند مسلم [٢٧٠٢] بلفظ: «إنَّه ليغانُ على قلبي، وإنِّي لأستغفرُ الله كلَّ يومٍ مئة مرةً».

قال عياض: المراد بالغَيْنِ فتراتٌ عن الذكر، الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمرٍ ما عدَّ ذلك ذنباً، فاستغفر منه. وقيل: هو شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس، وقيل: هو السكينة التي تغشى قلبه، والاستغفار لإظهار العبودية لله، والشكر لما أولاه، وقيل: هي حالة خشية وإعظام، والاستغفار شكرها، ومن ثم قال المحاسبي: خوفُ المقرين خوفُ إجلالٍ وإعظامٍ^(١).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ أي: وداوم على التسبيح متلبساً بحمده

تعالى، وقيل: صلَّ الله تعالى في آخر النهار وأوله، وهي الصلاة التي كانت في أوَّل الأمر قبل أن تفرض الصلوات الخمس.

ثم كشفت الآيات للنبي عليه الصلاة والسلام سبب ضلال المشركين وعنادهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ يَخْتَرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي ضُؤْرِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٥٦﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ يَخْتَرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي ضُؤْرِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ﴾ أي: إن الذين يجادلون في آيات الله بغير دليل وبرهان، ما في قلوبهم إلا تكبر عن الحق، مع ظهوره، أو إلا إرادة الرئاسة والتقدم، أو إلا إرادة أن تكون لهم النبوة دونك حسداً وبغياً، ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، وهو ما أرادوه من الرئاسة أو النبوة، أو ما أرادوا من إبطال الحق وإطفاء نوره.

﴿فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي: فالتجئ إلى الله من كيد الحساد، وبغي البغاة، إنه يسمع أقوالكم، ويبصر أفعالكم، فالآية تحت على الاستعاذة بالله، واللجوء إليه بالدعاء والعبادة وكثرة الاستغفار والتسبيح والتحميد.

ثم بيَّن سبحانه صورة من صور تعنت المشركين وجدالهم في قضية من أعظم قضايا الإيمان؛ وهي إنكارهم للبعث من القبور يوم القيامة:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ .

أي: لا يعلمون هذه الحقيقة لقصورهم في النظر والتفكير، وشدة غفلتهم، واتباعهم لشهواتهم، فهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فيوم الحساب والجزاء أمرٌ ضروري لا بدّ منه للتمييز بين المتفاضلين:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ أي: ما يستوي عند الله تعالى الغافل عن آياته الجاحد لها، والبصير المستدل بها على وحدانيته وصدق رسوله ﷺ، ولا يستوي أيضاً المحسن بالإيمان والعمل الصالح والمسيء، فلا بدّ إذن من يوم يميّز فيه الحق تعالى بين الفريقين.

وزيادة (لا) في (المسيء) لإبراز المقصود، وهو نفي مساواته للمحسن، فهو كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمْتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعُ مَن فِي الْقُبُورِ (٢٢).

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكر أقلّ تذكر، وفي قراءة: (يتذكرون). فمن يتذكر ويهتدي قليل بالنسبة للكافرين، وهو ما أكدته الآية التالية:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٩).

أي: لا يصدقون بها لعدم تذكرهم واتعاضهم.

* * *

الدعاء والعبادة

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (٦٠).

إن للدعاء والعبادة دوراً كبيراً في تربية النفوس وتهذيبها وتثبيتها على الحق، وهو ما قررته الآيات في تعقيبها الثالث على قصة مؤمن آل فرعون:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: اعبدوني وحدي أُجِبْكُمْ وأغفر لكم، أو: سلوني أُعْطِكم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين ذليلين. ودلت الآية على أن الدعاء عبادة لله تعالى، وجاء في الحديث الشريف: عن النعمان بن البشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾. [رواه أبو داود (١٤٧٩) والنسائي (١١٤٠٠) والترمذي (٣٣٧٢) وصححه وابن ماجه (٣٨٢٨)].

ويؤيده ما أخرجه الترمذي [٣٣٧١]: من حديث أنس رفعه: «الدُّعَاءُ مُخَّ الْعِبَادَةِ». وقد تواردت الآثار عن النبي ﷺ في الترغيب في الدعاء والحث عليه، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه - رفعه -: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ» [أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) وابن ماجه (٣٨٢٩) وصححه ابن حبان (٨٦٧) والحاكم (٤٩٠/١)].

قال الشيخ تقي الدين السبكي: «الأولى حملُ الدعاء في الآية على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك: ﴿عَنْ عِبَادِي﴾ فوجه الربط أَنَّ الدعاء أَخْصَصُ مِنَ الْعِبَادَةِ، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وعلى هذا فالوعيدُ إِنَّمَا هو في حق من ترك الدعاء استكباراً، ومن فعل ذلك كفر... فالدُّعَاءُ هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شَرَعَتِ الْعِبَادَةُ إِلَّا لِلْخُضُوعِ لِلْبَارِي، وإظهار الافتقار إليه، ولذلك عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع (عبادتي) موضع: دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصَّغَارَ والهوان»^(١).

والآية ظاهرة في ترجيح الدعاء على التفويض كما قال مؤمن آل فرعون:
﴿وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤].

ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام كثير الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى في وقت الشدائد، روى البخاري [٣٩٥٣]: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تُعبد»، فأخذ أبو بكر بيده فقال: حَسْبُكَ، فخرج ﷺ وهو يقول: ﴿سَيُهْرَمُ لَجَمْعٌ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].
وزاد مسلم في روايته [١٧٦٣]: فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، وألقاه على منكبه، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز ما وعدك^(١).

وقوله: (أستجب) جزم في جواب الأمر، أي: إن تدعوني أستجب لكم، والاستجابة منوطة بمشيئته تعالى القائل: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وهي تتنوع أيضاً، فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعوضه، وقد ورد في ذلك حديث صحيح أخرجه الترمذي [٣٥٧٣] والحاكم [٤٩٣/١]: من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه - رفعه -: «ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إيّاها، أو صرف عنه من السوء مثلاً».

ولأحمد [٤٤٨/٢]: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «إمّا أن يعجلها له، وإمّا أن يذخرها له».

وله [١٨/٣]: في حديث أبي سعيد رضي الله عنه - رفعه -: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن يعجل له دعوته، وإمّا أن يذخرها له في الآخرة، وإمّا أن يصرف عنه من السوء مثلاً» قالوا: إذاً نكثر. قال: «الله أكثر»^(٢).

(١) فتح الباري: ٢٧٩/٧.

(٢) المرجع السابق: ٩٦/١١.

فالله تعالى أكرم الأكرمين لا يرد السائلين خائبين، فما أوقفهم على باب فضله وكرمه وألهمهم الدعاء إلا ليعطيهم ويتفضل عليهم، ورحم الله القائل:

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ مِنْ جُودِ كَفِّكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلْبَا

فضل وإحسان

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَىٰ تُؤَفَّكَونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِي كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَحَدِّثُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَعُوهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الَّذِي أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُبَشِّرُ أَنْ أَغْنِيََ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْيَقِينُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَسْلُمُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلِ وَلْيَلْبِغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

ثم ذُكِرَتِ الْآيَاتُ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ عِبَادَتِهِ تَعَالَىٰ وَدَعَائِهِ؛ بِيَعُضِ نِعْمَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْهِمْ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ فَقْرِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَلَا، فَبَيَّنَّ أَوَّلًا فَضْلَهُ عَلَيْهِمْ بِتَنْظِيمِ الزَّمَانِ:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: الله جعل لكم

الليل مظلماً هادئاً، تضعف فيه الحركات، وتهدأ الحواس، لتستريح فيه، وجعل النهار مضيئاً، معيناً على الانتشار والحركة، معيناً على الاكتساب وقضاء الحوائج، فالإنسان يحتاجُ إلى ظلمة الليل وسكونه، كما يحتاج إلى ضوء النهار وحركته، فهما مِنْ نعم الله الكبرى عليه، ذكرهما سبحانه في عدد من الآيات:

منها: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِأَسَآءِ النَّوْمِ سُبَّانًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

ومنها أيضاً: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: إن الله لذو فضل عظيم على الناس لا يدانيه فضل، ونكره لتفخيمه وتعظيمه، ومع ذلك فإنَّ أكثر الناس لا يشكرون الله على فضله، ويُعرضون عن عبادته وشكره.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَ تُؤْفَكُونَ﴾

أي: ذلك الله المربِّي لكم والمحسن إليكم لا رب لكم سواه، خالق كل شيء، لا معبود بحق إلا هو، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟! فهو سبحانه الجامع لهذه الأوصاف كلها التي جاءت مترادفة تقرر الصفة السابقة منها اللاحقة.

ثم بينت الآيات أنَّ سبب إفكهم هو إعراضهم عن التأمل والتفكير في آياته تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

أي: فكل من جحد بآيات الله وأعرض عنها أفك كما أفكوا، فعُوقِبَ بمسخ القلب وسوء الفهم.

ثم بينت الآيات فضله تعالى على الناس في المكان المناسب لمعيشتهم، وبتحسين صورهم وهيئاتهم، وبالرزق الطيب المناسب لهم:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الله الذي جعل لكم الأرض مستقرًا لكم، وجعل السماء سقفاً مرفوعاً، وصوّركم بصور حسنة، منتصبي القامة، متناسبي الأعضاء، مستعدين لمزاولة الصنائع واكتساب المهارات، ورزقكم من الطعام النافع المستلذ.

﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ذلكم الله المربي لكم، فكل ما سواه مربوبٌ له سبحانه، فتزايد خيره وعطاؤه على العالمين، فهو مربي العالمين بخيره وفضله وإحسانه ﷻ، والكل مفتقرٌ إليه في وجوده وحياته وسائر أحواله، فلو قطع فيضُه عنهم لانعدموا بالكلية، وأما الحيُّ بذاته المستغني عن غيره فهو الله تعالى:

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ .

أي: هو المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية، فلا يوصف بالحياة الكاملة إلا هو، فلا معبود بحق إلا هو سبحانه، فادعوه، وأقبلوا على عبادته بإخلاص، واحمدوه على كماله وجلاله وإحسانه قائلين: الحمد لله رب العالمين.

وتوقفت الآيات عن بيان بعض نعمه الجليلة لتخاطب النبي ﷺ أمرة له أن يعلن كمال عبوديته لله واستسلامه لأمره الشرعي والقدري لكي يقتدي الناس به، فللقدوة الحسنة تأثيرها الكبير في التربية والتهذيب.

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

أي: قل لهم: إني نهيتُ أن أعبد الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لَمَّا

أنزل الله علي الآيات، فإنها مؤيدة للأدلة العقلية، ومنبهة عليها، وأمرت بالاستسلام الكامل لله رب العالمين، الذي خلقكم ورباكم في جميع أطوار حياتكم.

ثم عادت الآيات بعد هذا الإعلان تبين كمال قدرة الله في خلق الإنسان خلقاً متدرجاً:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أي: هو الذي بدأ خلقكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم يخرجكم أطفالاً ضعافاً لا تملكون شيئاً ولا تعلمون شيئاً، واقتصر على الواحد (طفلاً) لإرادة الجنس، أو كل واحد منكم طفلاً، ثم يبيكم، ويدرجكم في مدارج التربية، لتبلغوا سنَّ القوة والشباب، ثم يهبطكم، ويضعفكم، لتكونوا في سن الضعف والشيخوخة، وهذا التدرُّج سنة من سننه القدريّة، لا تستطيعون تغييرها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّقُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: ومنكم من يميتُه الله من قبل بلوغ الأشد أو الشيخوخة، ومنكم من يقيه في الحياة إلى أجل مسمى، وكل ذلك بتقديره تعالى، لعلكم تعقلون ما في ذلك من حجب وعبر تدلُّكم على كمال قدرته وفضله، وأنكم دائماً في قبضة قدرته تعالى وتحت قهر مشيئته في جميع أحوالكم وأطواركم.

ومن صفات فعله سبحانه الدالة على كمال قدرته أنه وحده الذي يحيي ويميت دون أسباب ووسائل وآلات:

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٦٨).

أي: هو الذي يحيي الأموات، ويميت الأحياء، أو هو الذي يفعل الإحياء والإماتة، وإذا أراد أمراً من الأمور كالإحياء والإماتة فإنما يقول له: كن، فيحدث، ويوجد من غير امتناع أو توقف، فهو سبحانه يأمر أمراً واحداً لا يحتاج إلى وسائل ووسائط، بينما أفعال الخلق لا تخلو من الغرض والعرض، والمباشرة والمعالجة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وتعقل هذه الحقيقة وفهمها يهذب النفس، ويصقل القلب، فيشرح عند سماع آيات الله، وينتفع بالدلائل الكثيرة الماثلة في المكونات، وعدم تعقلها وفهمها يؤدي إلى الغرور والاستكبار: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِيمَ فِي رَيْبِهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

* * *

مصير المعرضين عن عبادة الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرُّوا ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذْ الْأَغْطُلُ فِي أَغْطِفِهِمْ وَالسَّلِيلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيرِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

فمثل هؤلاء لا ينفع معهم إلا أسلوب التهديد والوعيد، وهو ما اتجهت

الآيات إليه بعد أن مهّدت له بقوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَمْجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ﴾ (٦٩).

أي : كيف يُصْرَفُونَ عنها؟ مع أنها واضحة ظاهرة، لا غموض فيها ولا خفاء.

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠).

أي : الذين كذبوا بالقرآن الواضح إعجازه وبيانه، وكذبوا أيضاً بكل الرسالات الإلهية، فسوف يعلمون وبال تكذيبهم وعاقبته، فتكذيبهم بالقرآن الكريم تكذيبٌ بكلِّ الرسالات الإلهية.

﴿إِذَا الْأَعْغَلَ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٧٢).

أي : إذ قيود الحديد والسلاسل في أعناقهم يُجَرُونَ بعنف على وجوههم في الحميم المتناهي في حرارته، ثم في النار يُطرحون، فيكونون وقوداً لها، يقال : سَجَرْتُ التنورَ : أوقدته، وسَجَرْتُهُ : ملأته، ويؤيده قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

والمراد أنهم يعذبون بأنواع العذاب، وينقلون من نوع إلى نوع آخر، دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (٧٣) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَمِيمِ﴾ [الصافات]. وقوله أيضاً : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. ومع هذا العذاب أيضاً يقال لهم تقريباً وتوبيخاً :

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٤) ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (٧٥).

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٤) ﴿مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي : غابوا عنا، أو ضاعوا عنا، ونحن في أمسِّ الحاجة إليهم . ثم يستدركون قائلين :

﴿بَلْ لَّمْ تَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أي: بل تبين لنا اليوم أننا لم نكن نعبد شيئاً يُعبد به، كما يقال: حسبته شيئاً فلم يكن.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كذلك يبعد الله الكافرين عن الحق، والصواب بسبب سوء اختيارهم وكسبهم وتكبرهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (٧٥)

أي: ذلكم بما كنتم تبطرون وتتكبرون في الأرض ظالمين باغين، وبما كنتم تختالون وتفرحون.

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٦)

أي: فبئس مأوى المتكبرين عن الإيمان بالله وعبادته.

الثبات على طريق الدعوة والتبليغ

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَحِصِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨)

وعادت الآيات مرة ثانية في السورة تأمر النبي ﷺ بالصبر، وثبته في وجه عنادهم وإعراضهم، وتأمره أن يستمر في تبليغهم وإقامة الحجة عليهم:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧)

أي: إن وعد الله بإهلاكهم حق لا بد منه، فإما نريدك بعض الذي نعدهم، أو

نتوفينك قبل أن يحل بهم، فإلينا يُرجعون يوم القيامة، فنجازيهم أشدَّ الجزاء، فما عليك إلا أن تسير في طريق الدعوة والتبليغ دونَ نظرٍ للنتائج.

إنه أدبٌ كريمٌ - كما قال سيد قطب رحمه الله - يأخذ الله به أصحاب هذه الدعوة في شخص رسوله الكريم ﷺ، إنه يعلمهم كيف يكون الإخلاص المبرأ عن أي شائبة، ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله في كل حين، فهذا هو حزام النجاة في خضمِّ الرغائب التي تبدو بريئة في أول الأمر، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم.

وله عليه الصلاة والسلام في هذا أسوة في جميع المرسلين قبله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٧٨).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فلا يعلم عددهم إلا الله تعالى، والذين لم يخبر عنهم القرآن أكثر من الذين أخبر عنهم، قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٦٤) رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا [النساء].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما صحَّ وما استقام لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بمشيئة الله تعالى، فالأمر منوطٌ بمشيئته سبحانه وحده.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: فإذا جاء أمر الله بعذاب المكذبين، حكم بالحق بنجاة المؤمنين، وإهلاك المصيرين على الباطل.

إيمان اليأس

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَبَرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَفْعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ثم وصفت الآيات في آخر السورة أحوال المعرضين عن طاعة الله وعبادته عند نزول العذاب بهم، وبيّنت أن إيمانهم في ذلك الوقت جاء متأخراً فلا يقبله الله، ومهدت لذلك بتذكيرهم بمجموعة أخرى من نعم الله عليهم، وكأنها تقول لهم: كان عليكم أن تؤمنوا بالله وتعبدوه عندما كنتم تتمتعون بهذه النعم:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: الله هو الذي خلق الأنعام لأجلكم ولمصلحتكم لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها، كما مر معنا في مواضع كثيرة؛ منها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: ولكم فيها منافع آخر غير الركوب والأكل، ولتبلغوا عليها حاجة

تستثقلونها، وهي حمل أثقالكم من بلد إلى بلد، وعليها وعلى السفن تُحْمَلُونَ، وقد مرَّ معنا أنه تعالى قد فَصَّلَ منافع الأنعام في سورة النحل في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَىٰ حِينٍ﴾ (٨٠).

وعقَّب سبحانه على تذكيرهم بهذه النعم بأسلوب التعجيب من إعراضهم عن عبادته وشكره:

﴿وَيُزَيِّكُمُ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٨١).

أي: وهكذا يبيِّن لكم سبحانه الأدلة الدالة على كمال قدرته وفضله ورحمته، فأَيُّ آية من تلك الآيات تنكرون؟! إنها في غاية الظهور والوضوح بحيث لا يقدم على إنكارها إنسان عاقل.

ثم ذكَّرتهم الآيات أيضاً بإعراضهم عن النظر والاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فينظروا نظر مستبصر معتبر.

﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: كانوا أكثر عدداً وعدة وآثاراً في الأرض، فآثارهم لا تزال باقية بعدهم، فأَيُّ شيء نفعهم ما كانوا عليه من قوة وتمكين؟!.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِءَ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٨٣).

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ أي: أعجبوا بما

عندهم من العلم، واستحققوا علم الرسل واستهزؤوا به.

والمراد بالعلم عقائدهم الباطلة، أو علمهم بأحوال الدنيا، وسمّاه علماء تهكّماً بهم، فهو في الحقيقة جهل، فالتقوم أعجبوا بما عندهم، والعُجب من أعظم معوّقات التربية والهداية، والعلمُ بغير إيمان فتنة، يُعمي ويُطغي، كما هو حال كثير من الناس في وقتنا الحاضر.

﴿وَحَافٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ونزل بهم جزاء جهلهم واستهزائهم، ويزول عنهم عجبهم وغرورهم عند نزول العذاب:

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤)

أي: وتبرأنا مما كنا عليه من الشرك والكفر، وجاء إيمانهم متأخراً عن وقته، فهو إيمان اليأس والبأس الذي لا يقبله الله ولا ينفعهم به:

﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٥)

﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ أي: وعدم انتفاعهم بإيمان اليأس سنة من سننه تعالى في الأمم السابقة، كما مرّ معنا في شأن إيمان فرعون عندما أدركه الغرق: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ءَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [يونس].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: وظهر في ذلك الوقت خسران الكافرين، فهم خاسرون في كل وقت، ولكن خسارتهم تتبين عند معابنتهم العذاب. أسأله تعالى الثبات على الإيمان، وأن يعيننا على طاعته وعبادته.



تفسير سورة فصلت الْقُرْآنَ وَالتَّزْكِيَةَ فِي سُورَةِ فَصَّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
التنزيل العربي المفصل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴿ كُنْتُ فَصَّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣﴾
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي
ءَاذَانِنَا وَقَدْ أُنْزِلَ مِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمَلْ إِنَّا نَحْنُ غَمْلُونَ ٥﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ
أَتَمَّ إِلَهُكُمْ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ٦﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٧﴾

﴿حَمْدٌ ١﴾ .

هكذا بدأ الله ثانية الحواميم كما بدأ الأولى، ثم أورد سبحانه في صدر
السورة بعض الصفات العالية الكريمة للقرآن الكريم:

﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴾ .

أي: القرآن تنزيلٌ من الرحمن الرحيم، وتنزيله من أعظم النعم التي تفضل بها
سبحانه على خلقه، ولهذا أضيف التنزيل إلى الاسمين الكريمين: الرحمن الرحيم.

﴿كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ﴾ أي: هو كتاب بُيِّنَتْ ومُيِّزَتْ آياته، وجُعِلَتْ معاني مختلفة، فيها كل ما يحتاج إليه الناس في دينهم، وتربية نفوسهم وتهذيبها، من أحكام وحكم، وأمثال ومواعظ، وترغيب وترهيب، وقصص، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: أعني أو أمدح قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون ما فيه من دلائل الإعجاز الدالة على أنه تنزيل من الرحمن الرحيم، فلا عذر لهم في الإعراض عنه لأنه نزل بلغتهم.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً للمؤمنين به، ونذيراً للمعرضين عنه، ومع ذلك: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أعرض أكثرهم عن تدبره وقبوله والإيمان به، فهم لا يسمعون سماع تفكير وانقياد وإذعان وتصديق. فهم من أهل الجهل لا من أهل العلم؛ ولهذا حكى ﷺ بعض أقوالهم للنبي عليه الصلاة والسلام عندما يبلغهم آياته:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴿٥﴾﴾ .

أي: قال المعرضون عن القرآن للنبي عليه الصلاة والسلام بوقاحة وعناد: قلوبنا في أغشية كثيفة محجوبة عما ندعوننا إليه، وفي آذاننا صمم؛ فهي لا تسمع دعوتك، وبيننا وبينك حجاب يمنعنا عن اتباعك، فاعمل على دينك وفي إبطال أمرنا، إننا عاملون على ديننا وفي إبطال أمرك.

وأمر عليه الصلاة والسلام أن يردَّ على هؤلاء المعاندين بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۚ﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ أي: قل: إنما أنا بشر مثلكم، لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجابٌ، يُلقى إليّ بواسطة الوحي أن معبودكم الذي يستحق العبادة واحد.

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: فسيروا على صراطه المستقيم، ملتزمين بطاعته، ومداومين على تربية نفوسكم وتقويمها، وإصلاح سلوكها، واسألوه المغفرة عما كنتم عليه من الشرك والفجور.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وويل للمصرين على الشرك، وهي كلمة للتقبيح على المخاطب فعله، وأما ما ورد: وإِ في جهنم، فلم يرد أنه معناه في اللغة، وإنما أراد مَنْ قال الله ذلك فيه فقد استحق مقرأً من النار.

ومما يدل على أنها لتقبيح فعل المخاطب ما ورد في الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رأى رجلاً يسوقُ بَدَنَةً فقال: «ارْكَبْهَا» قال: إنها بدنة، قال: «ارْكَبْهَا» قال: إنها بدنة، قال: «ارْكَبْهَا وَيْلَكَ» [رواه البخاري (٦١٥٩)].

أهم وسائل التزكية

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٧﴾

أي: الذين لا يزكُّون أنفسهم، ولا يربونها بتطهيرها من العقائد الباطلة

والعادات السيئة، وهم أيضاً ينكرون الحساب والجزاء يوم القيامة.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «والمراد من الزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك: طهارة النفس من الشرك، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه واستعماله في الطاعات».

وسميت أيضاً زكاة المال بهذا الاسم، لأنها تطهر النفس من الشح والبخل والأنانية وحب الذات، فللزكاة صلة وثيقة بتزكية النفس وتهذيبها، وأشارت الآية إلى أن التوحيد والتصديق بيوم القيامة هي أهم وسائل تزكية النفس وتهذيبها، وتقويم اعوجاجها، وإصلاح سلوكها، كما قال الله تعالى لموسى ﷺ عندما أرسله إلى فرعون: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَكُ ۚ وَاهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات].

وفي الحديث الصحيح: عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ» [رواه مسلم (٣٨)].

وتأكيداً لكون القرآن الكريم بشيراً ونذيراً، جاء بعد إنذار المشركين تبشير المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۖ﴾ (٨)

أي: غير مقطوع ولا منقوص ولا محسوب.

وقيل: نزلت هذه الآية في المرضى والزمى والهرمى إذا عجزوا عن العمل والطاعة، يكتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملون فيه.

ويؤيد هذا المعنى الحديث الشريف: فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا» [رواه البخاري (٢٩٩٦)].

الخلق المتدرج

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩
وَجَعَلَ فِيهَا رِزْقًا مِنْ فَوْقِهَا وَبِزَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُسَائِلِينَ ١٠ ثُمَّ أَسْتَوَى
إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحَفَظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ١٢﴾

ثم بينت الآيات بأسلوب الإنكار والتعجيب قبح جريمة الكافرين بآيات القرآن الكريم وشناعة إعراضهم عن التصديق به، مع ظهور الأدلة المعجزة القاطعة على ذلك، فتحدثت عن خلقه تعالى للمكونات خلقاً متدرجاً، وإحداثه سبحانه الأرض والسماوات، وأبرزت أهمية هذا الحديث بتلقيه النبي عليه الصلاة والسلام، وتكليفه أن يخبرهم به، وأكدت بهذا أن القرآن الكريم تنزيل الرحمن الرحيم على النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، ليس له فيه إلا التلقي والتبليغ:

﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٩﴾

أي: كيف تكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين أو في نوبتين، وتجعلون له أمثالاً ونظراء وأكفءاء، ذلك الذي خلق الأرض في يومين هو رب العالمين أولاً وأبداً، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالقية ولا مخلوق، لأنه على كل شيء قدير.

وأريد باليوم هنا الوقت مطلقاً، لأن اليوم المتعارف لا يتصور وجوده قبل خلق الشمس، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف، ويحتمل أن يكون أقل من ذلك أو أكثر، فالظاهر أن اليومين ظرفان لخلق

الأرض، وقد سبق بيان هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴾ الآية [هود: ٧].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّالِينَ﴾

أي: جعل فيها جبلاً ثابتة مرتفعة عليها، وأكثر خيرها، وقَدَّرَ فيها أرزاق أهلها، فعَيَّن لكل نوع ما يصلحُه، ويعيشُ فيه، وبيَّن كميتها وأقدارها لمن سيعيش عليها من أهلها في تمتة أربعة أيام، لأجل السائلين المحتاجين لهذه الأقوات والأرزاق.

فالمراد السؤال بلسان الحال والافتقار كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَاسٍ لِّتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ودلَّت كلمة (قَدَّرَ) على أنَّ كل شيء موزونٌ بميزان الحكمة والعلم، وما من شيء في الكون إلا والله قَادِرٌ على جعله أضعافاً مضاعفة، إلا أن العناية الربانية اقتضت ألا تبرز من خزائن الجود الرباني إلا ما تحدُّه الحكمة، ويقتضيه العلم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. وقوله: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ ولم يقل في يومين؛ للإشعار باتصالهما باليومين الأولين.

وفي الآية ردُّ عمَّا يُشاع في العصر الحاضر عن عجز الموارد الأرضية عن سد حاجات الأعداد المتزايدة من البشر، ويتغافلون عن الموارد الكبيرة التي استهلكوها في صنع وسائل التدمير، وهاهم اليوم ينفقون على تدميرها نفقات باهظة، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنَّ رِزْقًا لَّكُمْ وَإِيَّائِكُمْ إِنَّ فَلَهُمْ حَسَافَتُكَ إِذْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ﴾ [الإسراء: ٣١].

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي: ثم عمد وقصد إلى خلق السماء وهي في حالتها الغازية، أو ما يسمونه في العصر الحاضر: السديمية.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أي: قال للسماء والأرض: انقادا واخضعي لأمري ومشيتي شئتما ذلك أو أبيئتما، قالتا: أتينا منكادين لأمرك ومشيتك.

وقد يكون المراد التمثيل لكمال مشيئته تعالى، ونفاذها في ذرات الموجودات كلها منذ بدء خلقها.

وفي الآية ردُّ على ما قاله بعضُ فلاسفة الإغريق القدماء أمينوس وأفلاطون ومن أتى بعدهما أنَّ المكونات وُجِدَتْ بواسطة الفيض الإلهي دون إرادة، إذ فاض عن الإله العقل، ثم فاض عنه الروح، أو ما يسمونه بالهولي، وهي عقيدة التثليث التي دخلت بعد ذلك إلى النصرانية، وحرَّفتها عن التوحيد الذي كانت عليه، بقرار مجامعها المسكونية، وأولها وأخطرها مجمع نيقية الذي انعقد في (٣٢٥م).

فالإخبارُ في الآية عن الخلق المتدرج دليلٌ على طلاقة إرادته تعالى وكمالها، فهو سبحانه قادر على خلق المكونات كلها دفعة واحدة كما مرَّ معنا عند قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٢).

﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: فخلقهن في يومين، فتم خلق الجميع في ستة أيام، كما أخبر في عدد من الآيات؛ منها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

ومنها أيضاً: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَشَلَّ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: أوحى إلى سكان كل سماء ما أمرهم به، وكلفهم ما يليق بهم من التكليف.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أي: زيننا السماء

الدنيا بالكواكب، وحفظناها بها من استماع الشياطين كما سبق معنا عند قوله: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكَبِ ۖ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات].

ذلك الخلق والتنظيم وتقدير الغالب في ملكه، العليم بأحوال خلقه، فلا يقدر عليه إلا الله الغالب على كل شيء، والعليم بكل شيء.

ودلت الآيات على أَنَّ خلق الأرض قبل خلق السماوات كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

ثم دحاها بعد ذلك كما في قوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۚ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات] فالدَّحُوْ غيرُ الخلق، وهو مدها وبسطها أو إخراج مائها ومرعاها.

* * *

صاعقة عاد وثمود

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۚ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ ۚ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۚ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْدِثُونَ ۚ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۚ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۚ وَبَيْنَمَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ۚ﴾

ومن أساليب القرآن في التربية والتهذيب: التعقيب على تقرير الحقائق العلمية بإثارة وجدانية تحذّر من عواقب الإعراض عن هذه الحقائق، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾﴾

أي: فإن أعرض المشركون بعد هذا البيان عن الإيمان، فقل: أنذرتكم هلاكاً مثل هلاك عادٍ وثمود، يأتيكم قوياً شديداً كالصاعقة في قوتها وشدها. والجدير بالذكر أنه جاء في بعض الأخبار: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآيات على عتبة بن ربيعة من كبار مشركي قريش، فلما بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه عليه الصلاة والسلام فناشده الرحم أن يكف.

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: إذ جاءتهم الرسل من جميع جوانبهم، واجتهدوا في دعوتهم لعبادة الله وحده. ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: قالوا للرسول: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، فإننا بما أرسلتم به كافرون لأنكم بشر مثلنا. ثم فصلت الآيات جناية كل أمة وعذابها الذي أهلك به:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: استعلوا في الأرض بغير استحقاق، فتكبروا، وطغوا، وقالوا اغتراراً بشوكتهم: من أشد منا قوة؟! أي: لا أحد أقوى منا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أولم يعلموا أن الله الذي خلقهم هو أقوى منهم، فهو القادر على كل شيء، ﷻ.

﴿وَكَاُنُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: كانوا ينكرون الآيات التي أيد الله بها رسولهم مع علمهم أنها حق.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٦).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فأرسلنا عليهم ريحاً شديدة باردة في أيام نكدات مشؤومات ذات نحس، لنذيقهم عذاب الذل والهوان في مقابل طغيانهم واستكبارهم؛ قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَحْنِينَةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُخْلِ حَارِبُونَ﴾ [الحاقة: ٧].
﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: وللعذاب الآخرة أشد إهانة وإذلاً، وهم لا يُمْنعون منه ولا يُدفع عنهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٧).

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: وأما ثمود فبيننا لهم سبيل الهدى، فأثروا الكفر والضلالة على الهدى والرشاد.
﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: فنزلت بهم وأهلكتهم صاعقة العذاب ذي الهوان والإذلال بسبب سوء كسبهم واختيارهم.

﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٨).

أي: ونجينا المؤمنين الطائعين مع نبيهم صالح من هذه الصاعقة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا مِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

الجوارح الناطقة

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالَُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصْغِحُوا فَأَصْحَبْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم عرضت الآيات صورةً عجيبةً مرعبة من صور عذابهم يوم القيامة، تترك في نفس المتدبر لها آثاراً قوية مربية ومزكية:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: ويوم القيامة يساق أعداء الله إلى النار، فهم يدفعون بقوة وشدة.
أو: يحبس أولهم حتى يلحق بهم آخرهم كالقطيع الكبير، وهذا يدل على كثرتهم.

وفي قراءة: (نحشروا أعداء الله) ووصفهم بأنهم أعداء الله ذمًا لهم سبب عذابهم وهوانهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: بما كانوا يعملون في الدنيا من فنون الكفر والمعاصي.
وتخصيص السمع والأبصار بالشهادة، لأنها وسائل الإدراك الأساسية، وينضم إليها الأيدي والأرجل، أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويتكلمون مع أجزائهم وأبعاضهم مستنكرين شهادتها عليهم:

﴿وَقَالُوا لِمَ جُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا لِمَ جُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ ويبدو أن تخصيص الجلود بالكلام لكونها موضع الإحساس والألم، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: ما نطقنا باختيارنا، بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، فلا يمتنع شيء على قدرته ونفاذ مشيئته.

ولا حاجة إلى تقييد الإطلاق بكل شيء حي، كما فعله بعض المفسرين كاليضاوي والنسفي، فكل المخلوقات تنطق بتسبيح الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ومر معنا أن الجبال والطير كانت تسبح مع داود عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿بِجِبَالٍ أَوْيَ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالْأَنْعَامُ وَالْحَيْدُودُ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: ومن قدير على خلقكم أول مرة، وأعادكم إلى حسابه وجزائه في هذا اليوم، لا يعجز عن إنطاق جوارحكم لتشهد عليكم.

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «مِنْ مَخَاطِبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ يَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَاءَ، فَيَخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيَقَالُ لَأَرْكَانِهِ: انْطَقِي، فَتَنْطَقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُخْقًا فَعَنْكَرْنَا كُنْتُ أَنْاضِلُ» [رواه مسلم (٢٩٦٩)].

ثم يقال لهم بعد شهادة جوارحهم عليهم تبيكياً وتقريراً:

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: ما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم، فما استترتم عنها بسبب غفلتكم وجهلكم وجحودكم ليوم الحساب والجزاء.

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا؛ فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآية. [رواه البخاري (٤٨١٧)].

﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم الخفية، ولهذا اجتأرتكم على الكفر والفجور، فالشعورُ بمراقبة الله تعالى يربِّي الإنسان، ويزكي قلبه، ويهذب نفسه، ويحجزه عن المعاصي والآثام، قال تعالى: ﴿أَتَلُمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومرَّ معنا في الحديث الصحيح: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...» إلى أن قال النبي ﷺ: «ورجلٌ دعت امرأته ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين».

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

أي: وظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون أهلككم، فقد جرَّأكم على الكفر والمعاصي فأصبحتم بسببه من الخاسرين.

ولا شكَّ أن ظنهم هذا يكفي وحده لكفرهم وخسرانهم، وتنسحب الآية على أصحاب المعاصي من المؤمنين، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يُدمنون المعاصي، ولا يتوبون منها، ويتكلمون على المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس^(١).

وأما الحديث الشريف في «صحيح مسلم» [٢٨٧٧]: عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث قال: «لا يموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ باللهِ الظنَّ» فمحمولٌ على التحذير من القنوط، وعلى الرجاء عند الخاتمة.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَصِينَ﴾ ﴿١٤﴾

أي: فإن يصبروا فالنارُ مسكن دائم لهم، وإن يسترضوا ويسألوا أن يُرضوا ربهم، ويبدوا أعذاراً فما هم فاعلون.

والمعتب: المقبول عتابه. والمستعتب: الجزع الخائف.

قِرَاءَةُ السُّوءِ

﴿وَقِيصًا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَسُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْحَيِّ وَالْأَنَسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

ثم بينت الآيات تأثير قرناء السوء وخطرهم على تربية النفس وتزكيتها وحجبها عن أسباب الهداية:

(١) تفسير القرطبي: ٣٥٣/١٥.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: هيأنا لهم وأتحنا لهم أخداناً وأصحاباً فحسّنوا لهم أعمالهم القبيحة الماضية والحاضرة، فأصروا عليها كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٦١) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

وكما يكون القرناء من الإنس يكونون من الجن أيضاً، دل على ذلك الحديث الشريف: فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَكُلَّ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ» قالوا: وإيّاكَ يا رسول الله ﷺ؟ قال: «وإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ، فَلَا يَأْمُرَنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» [رواه مسلم (٢١٦٧)].

وفي رواية ثانية: «وقرينه من الملائكة» [رواه مسلم (٢١٦٨)].

وجاء أيضاً في الحديث الشريف: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بَابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِعَادُ بِالْشَّرِّ، وَتَكْذِيبُ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلِكِ فإِعَادُ بِالْخَيْرِ، وَتَصَدِيقُ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الْآخِرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ» [رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي في الكبرى (١٠٩٨٥) وابن حبان (٩٩٣)].

واللّمة: من الإلمام، وهو القرب، والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أي: حق عليهم القول بدخول النار بسبب إصرارهم على الكفر، وسوء اختيارهم، مع أُمم كثيرة قبلهم من الجن والإنس، صاروا مثلهم في الخسران. ثم بيّنت الآيات كيف كانوا يتواصون بالإعراض عن أسباب الهداية، ولا شك أن هذا من لَمَّة قرناء السوء:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (٦٦).

أي: وقال الذين كفروا: لا تسمعوا للقرآن وعارضوه برفع الأصوات والتصفيق والصفير، حتى تغلبوا على قراءته.

وهذا يدل على أنهم يستشعرون في قرارة أنفسهم بأن للقرآن سلطاناً وتأثيراً قوياً على قلوبهم، ولهذا كانوا يتواصون بالإعراض عنه، والتشويش على قارئه، ويوصون أيضاً القادمين إلى مكة بذلك، قال ابن إسحاق في «السيرة»^(١):

وجعلت قريش يحذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب، وكان الطفيل بن عمرو الدؤسي يحدث أنه قدم مكة، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له: لا نكلمن محمدًا، ولا تسمعن منه شيئاً، قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني الكرسف (القطن). ولكن الله تبارك وتعالى قدر له أن يسمع النبي ﷺ؛ وكان ذلك سبب إسلامه ﷺ.

* * *

تهديد أعداء الله بعذاب النار

﴿فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٦٧) ذَلِكَ حَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ حَزَاءُ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الذَّنْبَ أَضْلَانَا مِنَ الْيُسْرِ وَالْإِسْرِ جَعَلَهُمَا نَحْتًا أَقْدَامًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٦٩).

ثم توعدت الآيات المعرضين عن القرآن بأشد أنواع العذاب:

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢٢/٢.

﴿فَلَنَذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧).

أي: ولنعاقبهم أعظم عقوبة على أسوأ أعمالهم، وهو الإعراض عن دعوة القرآن الكريم، وصد الناس عنها.

ويدل هذا الوعيد الشديد المُرْعِبُ المؤكَّد على أنَّ الإعراض عن دعوة القرآن جريمة كبيرة من أعظم الجرائم، فهو تنزيل الرحمن الرحيم، وهؤلاء المجرمون يَسْعَوْنَ في إطفاء نوره وحرمان الناس من أعظم آثار رحمته تعالى على عباده، ولهذا وصفتهم الآيات مرة ثانية بأنهم أعداء الله، وبينت جزاءهم ومكانه ووقته:

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ﴾ (٢٨).

فالجزاء النار، والمكان جهنم، والوقت الخلود فيها أبداً، فهي بعينها دارُ إقامتهم، يُجْزَوْنَ فيها جزاءً مناسباً لجريمتهم الكبرى، وهو جحود آيات القرآن الكريم والصد عنها.

ويتذكَّرون وهم يتقلبون في عذاب النار قرناءهم وأصحابهم من الجن والإنس، الذين زينوا لهم الضلال:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا حَتَّ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ (٢٩).

أي: أرنا فريقَي رؤوس الضلال من الجن والإنس، اللذين زينوا لنا الضلال حتى نشفي منهم، فجعلهم تحت أقدامنا، وندوسهم بها انتقاماً. وهذا يدل على شدة حسرتهم وحقدهم.

تبشير أولياء الله بالجنة

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزَلُّ مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

وحملت الآيات في مقابل الوعيد الشديد لأعداء الله البشائر لأحبابه وأوليائه، وأظهرت في ثنايا هذه البشائر الأساس الأول في تزكية النفس وتربيتها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَرَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي: إن الذين قالوا: خالقنا ومربينا الله، قالوا ذلك اعترافاً بربوبيته سبحانه، وإقراراً بوحدانيته، ثم ثبتوا عليه متمسكين به حتى الموت، فعملوا على مقتضى إقرارهم، والتزموا بأحكام دينه وشريعته.

فمن اعترف أنه ﷻ مالكة، ومدبر أمره ومربيه، وأنه عبدٌ مربوب بين يدي مولاه، فالثبات على مقتضاه أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطاه^(١).

و(ثم) هنا للتراخي الرتبي، فإن الاستقامة على دين الله تعالى أصعب من الإقرار؛ لأنها تستدعي مجاهدة دائمة للنفس، ومراقبة مستمرة لها، وهذا هو الجهاد الأكبر. وقد تكون للتراخي الزمني أيضاً لبيان الاستمرار على مقتضاها في جميع الأوقات.

ودلت الآية على أن أساس تزكية النفس وتربيتها، يبدأ بإذعانها وإقرارها

بعبوديتها لله ﷻ، وعليها أن تستمرَّ على هذه الحقيقة، وتمسك بها في جميع أحوالها وتقلُّباتها، في عُسرها ويُسرِّها، ومكرها ومنشطها، قال أهل التحقيق: كمالُ الإنسان أن يعرف الحق لذاته لأجل العمل به، ورأس المعرفة اليقينية معرفة الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، ورأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيماً في الوسط، غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط^(١).

﴿تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾
أي: تدنو منهم الملائكة، وتبثُّ في نفوسهم ما يشرح صدورهم ويثبتهم، ويدفع عنهم الخوفَ والحزنَ.

فكما قبض الله قرناء السوء من شياطين الإنس والجن للكفار والفجار، يزينون لهم أعمالهم القبيحة، جعلَ الملائكة تدنو من أوليائه، تثبتهم في الأوقات الحرجة، إنها مساعِدةُ إلهية خاصة بالصالحين، تثبت أقدامهم على الحق، وتقوي تمسكهم به، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وهذه المعونة لا تؤثر على اختيارهم الحر ولكنها تسنده وتقويه.

وتتنزل عليهم الملائكة قائلين: لا تخافوا ممَّا تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم في الدنيا، وأبشروا بالجنة التي وعدتم بها. فيبشرونهم بذهاب الشرِّ، وحصول الخير.

واختلفَ المفسِّرون في وقت هذا التنزل على أقوال: عند الموت، أو في القبر، أو عند البعث، وقد يتكرر التنزل في جميع هذه المواطن، وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وقد استحسَّنه ابن كثير في تفسيره للآية.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٣١).

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نحن أنصاركم وأحباءكم، نلهمكم الحق، ونحملكم على الخير في الدنيا، كما مر معنا، ولا نفارقكم في الآخرة أيضاً حتى تصلوا إلى الجنة.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: ولكم في الجنة كل ما تشتهي أنفسكم من النعيم، ولكم فيها أيضاً كل ما تتمنونه وتسالونه، وهو أعم من الأول.

﴿نَزَّلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (٣٢).

أي: ثبت لكم ذلك وتقرر تكريماً من رب غفور رحيم، أدخلكم دار كرامته ورحمته. والنزول: الضيافة التي تقدم للضيف حين نزوله.

* * *

الدعوة والداعي

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣).

والاستقامة عين الكرامة، فهي أفضل كرامة يُكرمُ بها الله تعالى أوليائه. وظهرت استقامتهم في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم من خلال الآيات الآتية:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: لا أحد أحسن ممن دعا إلى دين الله وطاعته قولاً وعملاً.

﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، والراضين بقضائه وقدره.

قال ذلك تحدثاً بنعمة الله عليه، وإعلاناً لاستسلامه لله وحده، فنفعه لنفسه ولغيره، وكلمة الدعوة إذا اقترنت بالعمل الصالح والاستسلام الكامل لله هي أصدق كلمة وأفضلها.

ولا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو أول وأفضل من اتصف بهذه الصفات، ولهذا قال كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية كابن سيرين والسدي والحسن: هو رسول الله ﷺ. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسول الله، هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه^(١).

ويؤيده قول السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ: إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ. [رواه مسلم (٧٤٦)].

ففي الآية بهذا المعنى تعريض وتوبيخ للذين كانوا يتواصون بالإعراض عن استماع القرآن الكريم، والتشويش على النبي عليه الصلاة والسلام، عندما كان يدعوهم إلى الله، ويتلو عليهم آياته، كما سبق عند قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وبهذا يظهر الانسجام والاحتباك بين آيات السورة، ولا مانع أن نقول: إنها تنسحب أيضاً على كل مؤمن متصف بهذه الصفات.

* * *

ادفع بالتي هي أحسن

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَرَعَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم رَغِبْتَ الآياتِ الرسولَ الكريمَ عليه الصلاة والسلام بالصبر على أذى المشركين ولغوهم عند تلاوة القرآن الكريم، وبمقابلة إساءتهم بالإحسان:

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: إنَّ الحسنَةَ والسيئةَ متفاضلتان في نفسيهما، ومع ذلك قابلِ السيئةَ بالحسنة، وأَحْسِنُ إلى مَنْ أَسَاءَ إليك، وادفعْ بحلمِكَ جهلَ مَنْ يجهلُ عليك.

وهو خلق رفيع أدب الله به النبي ﷺ في عدد من الآيات، منها قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وهكذا كانت أخلاقه ﷺ في القرآن، وهي أخلاقه التي نُعِتَ بها في التوراة، ففي الحديث الشريف: عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قلتُ: أخبرني عن صفةِ رسولِ الله ﷺ في التوراة، قال: أَجَلُ والله، إِنَّهُ لموصوفٌ في التوراة ببعض صفتهِ بالقرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وجرزاً للأُميين، أنتَ عبدي ورسولي، سميتُكَ المتوكلاً، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخابٍ في الأسواق، ولا يدفعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيمَ به الملةَ العوجاء بأن

يقولوا: لا إله إلا الله، وَيَفْتَحْ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا. [رواه البخاري (٤٨٣٨)].

وروى ابن إسحاق بإسناد حسن: عن صفية بنت شيبة: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصلاة والسلام يوم فتح مكة قال لجموع المشركين من قريش عند الكعبة: «يا معشر قريش ما ترون أَنِّي فاعِلٌ فيكم؟» قالوا: خيراً، أَخْ كريمٌ، وابنُ أَخْ كريمٍ، قال: «اذهبوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمدُ مُرْ لي مِنْ مالِ الله الذي عِنْدَكَ، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فَضَحِكَ، ثم أمر له بعطاء. [رواه مسلم (١٠٥٧)].

وجاء زيد بن سعدة قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إِنَّكُمْ يا بني عبد المطلب مُظْلٌ، فانتهره عُمَرُ، وشدَّ له في القول، والنبي ﷺ يتبسم، فقال رسول الله ﷺ: «أنا وهو كُنَّا إلى غير هذا مِنْكَ أحوَجَ يا عمر، تأمرني بِحُسْنِ القضاء، وتأمرُّهُ بِحُسْنِ التقاضي» ثم قال: «لقد بقي من أَجَلِهِ ثلاثٌ» وأمر عمر أن يقضيه ماله، ويزيده عشرين صاعاً لما رَوَّعه، فكان سبب إسلامه. [أخرجه ابن حبان (٢١٠٥) والطبراني].

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: إذا فعلت ذلك صار عدوك صديقاً قريباً، وقد صار الطلقاء من أهل مكة أصحاباً للنبي عليه الصلاة والسلام بعد أن كانوا أعداء.

ويقتضي هذا الخلقُ معاناةً شديدةً من صاحبه، فعليه أن يجاهد نفسه، ويقمع شهوة الانتقام المركوزة فيها، كما جاء في الحديث الصحيح: «ليس

الشديد بالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» [رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩)] ولهذا قال تعالى :

﴿وَمَا يُقْلَقْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلَقْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿وَمَا يُقْلَقْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فكظموا غيظهم، واحتملوا الأذى، وانتصروا على أنفسهم.

والذين ارتفعوا إلى هذا المقام العالي قليل، أشار إليهم الله تعالى بقوله :

﴿وَمَا يُقْلَقْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي : ذو نصيب وافر من الخير.

وقال بعضهم : الحظ العظيم : الجنة، ويؤيده قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران].

وقال النبي ﷺ : «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفَعَهُ؛ دَعَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يَخْبِرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ» [رواه أبو داود (٤٧٧٧) والترمذي (٢٠٢١) وحسنه].

ومن المعلوم أَنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَغْلُ حَالَ الْغَضَبِ لِيُزَيِّنَ لِمَا يَصَاحِبُهُ ارْتِكَابَ أَعْمَالٍ يَنْدُمُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ، ولهذا بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ أَفْضَلَ وَسِيلَةَ نِقَاطٍ فِيهَا نَزْغَاتِ الشَّيْطَانِ وَوَسَاوِسِهِ :

﴿وَمَا يَزْعَمَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٦﴾ .

أي : وإن حاول الشيطان أن يصرفك عن الدفع بالتي هي أحسن فاستعذ بالله من شره، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ لِدَعَائِكَ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِكَ .

وَالنَّزْغُ : شِبْهُ النَخْسِ، شُبَّهَ بِهِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ بَوَسْوَسَتَهُ كَأَنَّهُ يَنْخَسُهُ، وَيُدْفَعُهُ إِلَى مَا لَا يَنْبَغِي عَمَلُهُ .

سجود وتسبيح

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَسَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

ثم بينت الآيات للدعاة أفضل أسلوب في عرض قضايا الإيمان ودعوة الناس إليها، وأول هذه القضايا وأهمها توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أي: ومن علاماته الواضحة القاطعة الدالة على كمال قدرته، وأنه سبحانه وحده المستحق للعبادة والطاعة: الليل والنهار، والشمس والقمر، فإن لهذه المخلوقات نظاماً دقيقاً بديعاً مُحْكَمًا يدل على أنها مخلوقة مسخرة لأمر خالقها ومشيتته، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن السجود أقصى مراتب الخضوع، فلا بد من تخصيصه لمن يستحقه، وهو الخالق جل وعلا الغني عن سجودهم وخضوعهم.

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (٣٨)

فإن امتنعوا عن السجود له والخضوع لأمره، فليعلموا أن عنده مخلوقات أعظم منهم منقادة لأمره، ينزهونه ويقدسونه دائماً لا يملون، ولا يتوقفون عن طاعته وعبادته.

وهذه الآية آية سجدة بلا خلاف، واختلفوا في موضع السجود منها، فقال مالك: موضعه ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ لأنه متصل بالأمر، وكان علي وابن مسعود وغيرهما يسجدون عنده.

وقال ابن وهب والشافعي: موضعه ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ لأنه تمام الكلام وغاية العبادة والامثال، وبه قال أبو حنيفة، وكان ابن عباس يسجد عنده^(١).

وتأتي بعد قضية التوحيد وعبادته سبحانه وطاعته قضية الإيمان بيوم الحساب والجزاء والبعث من القبور، وأقرب مثال واقعي يدل عليه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩)

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: يابسة هامدة لا حياة فيها.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: تحرّكت بالنبات، ونمت وسرت الحياة فيها.

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الذي أحيا الأرض اليابسة قادرٌ على إحياء الموتى، وبعثهم منها، فهو قادر على فعل ما يريد، ومحيط بكل الكائنات، لا يعزب عن علمه شيء منها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أي: إن الذين يميلون عن الصراط المستقيم الذي بيّناه في آياتنا بالإعراض عنها، والتشويش على قارئها، لا يخفون علينا، فسنجازيهم على ذلك.

والإلحاد: الميل والعدول، ومنه اللحد في القبر، ويقال: ألحد في دين الله، أي: حاد عنه وعدل.

﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وهو سؤال تقرير يبين الاختلاف بين مصير المؤمنين ومصير الملحدين، فالملحدون في الآيات يُلْقَوْنَ في النار، والمؤمنون بها آمنون يوم القيامة، وبناءً على ذلك:

﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهو أمر تهديد ووعد يرد قولهم الذي حكاه عنهم في أول السورة: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ [فصلت: ٥].

فالإعراض عن القرآن الكريم والإلحاد فيه أمر قبيح في غاية القبح والشناعة يستوجب أشد أنواع الوعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم قبل أن يتأملوا فيه، ويتدبروا آياته، بل بادروا إلى تكذيبه دون تأمل وتفكير.

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أي: وإن القرآن لا نظير له، ولا تتأتى معارضته، ولا يتطرق إليه الباطل من أي جهة من الجهات أو بوجه من الوجوه، لأنه تنزيلٌ من حكيمٍ في أقواله وأفعاله، محمودٍ في تشريعه وتنزيله.

وكان رسول الله ﷺ يتألم من إعراضهم عن القرآن الكريم، ولهذا التفتت الآيات إليه تواسيه وتثبته:

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي: ما يقال لك إلا مثل ما قد قيل للرسول من قبلك، إذ كذبتهم أقوامهم مثل ما كذبت قومك، فلا تبتئس بما تلقى منهم، وامض في دعوتهم.

إنه وحي واحد، ورسالة واحدة، وعقيدة واحدة، وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية، وتكذيب واحد، واعتراضات واحدة، فأبى شعور بالأنس والقوة والصبر والتصميم توحيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة السالكين في طريقها^(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لذو مغفرة للتائبين وذو عقاب أليم للمصرين المعاندين.

* * *

الهدى والشفاء في القرآن

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

ومن رحمته تعالى بهم أنه جعل القرآن عربياً معجزاً حتى لا يعترضوا عليه، ومع ذلك أعرضوا عنه وألحدوا في آياته:

(١) في ظلال القرآن: ٣/٢٧.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝١١﴾ .

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ﴾ أي: ولو أنزلناه بلغة العجم لقالوا معترضين: لولا بُيِّنَتْ آياته، أكلام أعجمي ومرسل إليه عربي؟! وهو استفهام إنكار.

والأعجم: الذي لا يفصح؛ من العرب كان أو من العجم. والعجمي: غير العربي، فصيحاً كان أو غير فصيح. وقرئ بهمزة واحدة ممدودة للاستفهام (أعجمي) وبهمزتين للإنكار (أعجمي).

وسبق معنا في صدر السورة أن آيات القرآن الكريم مفصلة تفصيلاً شافياً وافياً بلسان عربي مبين، فالإعجاز فيه ظاهر ثابت، وعجزهم عن معارضته دليل واضح على أنه من عند الله العزيز الحكيم، ولهذا أمر عليه الصلاة والسلام أن يرد على تكذيبهم وإعراضهم:

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ﴾ أي: القرآن للمؤمنين هدى إلى الحق، يرشدهم إليه، ويدلهم عليه، وهو أيضاً شفاء لما في الصدور من الشك والشبهات، فهو يدفع عن القلوب كل شك وشبهة، كما أن الله تعالى جعل فيه شفاءً من الأوجاع والأسقام المعنوية والحسية، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

فحال القرآن مع المؤمنين هدى شفاء. وأما مع المكذبين الملحدين:

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ أي: في آذانهم صمم، فلا يسمعون سماع إجابة وهداية، ويتواصون في التشويش على قارئه، ولا يهتمون بهديه، ولا يرون بصائر، وجيء بـ (على) للدلالة على استيلاء العمى عليهم.

﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهو تمثيلٌ لعدم فهمهم وانتفاعهم بآياته بمن يُنادى من مكان بعيد، فهو يسمع الصوت، ولا يفهم المراد منه، وهو سبب إعراضهم كما ذكر سبحانه في أول السورة: ﴿فَاعْرِضْ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

* * *

المسؤولية والجزاء

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَنْ عَمِلَ ضَلْعًا فَلَنْفَسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آتَيْنَ شُرَكَاءِي قَالُوا ءَاذَنْكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم بيّن تعالى على وجه التسلية لرسول الله ﷺ أن الاختلاف في شأن الكتب الإلهية، وإعراض المعاندين عنها أمرٌ قديمٌ عند جميع الأمم، فقد اختلف بنو إسرائيل في الكتاب الذي أنزل على موسى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير عذاب المكذبين، لأهلكهم كما فعل بالأمم السابقة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإنهم يستحقون ذلك، لأنهم في شك من القرآن موجب للريبة، مع كثرة الدلائل القاطعة على صدقه.

فإعراضهم عن القرآن الكريم عرّضهم للعذاب والهلاك، فهم الظالمون أنفسهم، والله سبحانه منزّه عن الظلم:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: من عمل صالحاً فنفعه لنفسه لا لغيره.

﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ومن أساء فضرره على نفسه لا على غيره.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا يعذب غير المسيء، وهو أيضاً حكيمٌ مالكٌ، يتصرف في ملكه كما يريد، فالظلم لا يصدر عنه ﷻ، ولا يليقُ بكماله، فهو غنيٌّ عن طاعة عباده، من أطاعه أثابه بفضله، ومن عصاه عاقبه بعدله، وكلُّ شيءٍ يردُّ إلى علمه، ويجري بمشيئته وقدرته:

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ۖ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ (٤٧).

﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: علم وقتها فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي: وكما

يُردُّ إليه علم الساعة يُردُّ إليه علم الثمار والنتاج.

وأكمامها: أوعيتها، جمع كَمٍّ بالكسر، وهو وعاء الثمرة.

فلا يحدث شيء إلا مقرون بعلمه سبحانه، واقع حسب مشيئته وإرادته.

والساعة غيبٌ في ضمير المستقبل المجهول، والثمارُ في أكمامها سرٌّ غير منظور، والحمل في الأرحام غيبٌ أيضاً مستور، وكلها في علم الله، وفي قبضة قدرته ومشيئته، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

ويُقرُّ المعاندون المعرضون بهذه الحقيقة يوم القيامة عندما يقال لهم تقرّباً وتوبيخاً:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: قالوا: أسمعناك وأعلمناك ما منا أحد يشهد بأن لك شريكاً.

﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُم مِّن نَّجِيصٍ﴾.

أي: وغاب عنهم ما كانوا يعبدون في الدنيا من الآلهة المزعومة، وأيقنوا وعلموا أنه لا مهرب لهم من المسؤولية والجزاء.

* * *

معالم من الشخصية البشرية

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنسَانُ مِّن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَعْتُوسُ قَنُوطٌ﴾ (٤٩) وَلَئِن أَدَقَّتْهُ رَحْمَةٌ مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّىَّ إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أُنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَّسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)﴾

ثم غاصت الآيات في أعماق النفس البشرية تبين بعض خصائصها وصفاتها، وتبرز الصفات المؤثرة في مواقفها وسلوكها، وتظهر من خلال هذه الصفات بعض معالم الشخصية البشرية ومواطن الضعف فيها، وحاجتها الشديدة إلى التزكية والتربية، فلا يستقيم سلوك النفس البشرية من دون تزكية وتربية وإرشاد، فهي بحاجة إلى مرشد يرشدها، ومؤدب يؤدبها، ومربٍّ يأخذ على يديها، وينمّي فيها نوازع الخير، ويبعدها عن مزالق الشر.

وهذه هي المهمة الأساسية للمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فهم المرشدون المربون الذين لا تستغني البشرية عن إرشادهم وتهذيبهم وتأديبهم، ومن دونهم تضيع وتضل وتنزلق في مهاوي الشقاء والضيايع:

﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقْ قَنُوطٌ﴾ (٤٩)

أي: لا يمل الإنسان من طلب المال والصحة ورغد العيش، وإن أصابه العسر والضيق أو الشدة والبلاء، فهو يؤوس قنوط من فضل الله تعالى ورحمته. فالْيُؤُوسُ: اليأس الذي انقطع رجاؤه من الخير، وهي من صفات القلب. والقنوط: الذي يظهر عليه أثر اليأس في جسده فيتضاءل وينكسر. ثم وصفت الآيات كيف يصيِّح هذا الإنسان عندما تتغير أحواله، ويأتيه اليسر بعد العسر:

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنِيبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُدِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٠).

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أي: ولئن آتيناه خيراً وعافية من بعد ما أصابه من شدة وبلاء، قال: هذا لي، حصلت عليه بعلمي وعلمي، فلا فضل لأحد علي.

مع أن في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إشارة إلى أن ما آتاه الله من خير هو نعمة تفضل الله بها عليه، دون أن تكون له سابقة استحقاق لهذا الخير، وليس له أيضاً أي تسبب في استجلابه، فهو محض فضل تفضل به سبحانه عليه، ومع ذلك صدر عنه كل هذا الغرور والاستكبار، وأضاف إليه أيضاً إنكار يوم الحساب والجزاء:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: وعلى تقدير قيامها إن لي عنده للحالة الحسنى من الكرامة.

والتأكيد بالقسم هنا ليس لقيام الساعة، بل لكونه يرى أنه مجزي بالحسنى فيها إن قامت، فكما هو مستحق لنعم الدنيا مستحق كذلك لنعم الآخرة. وردَّ تعالى على مثل هذا المغرور المختال، بأنه سيبيِّن له حقيقة عمله الذي يجعله مستحقاً للإهانة لا للكرامة وللعذاب الشديد يوم القيامة، فقال:

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: من عذاب شديد وهو عذاب جهنم.

هكذا حال الإنسان إذا كان بمعزل عن إرشاد المرشدين وتزكية المرسلين، استكبار وطغيان في حال الرخاء والنعمة:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١).

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ﴾ أي: أعرض عن طاعة المنعم وشكره، وتعظم في نفسه، وتكبر وترفع عن الانقياد للحق، فطغى على عباد الله تعالى، وتجبّر وظلم.

وأما حاله في العسر والبلاء فيأس وعجز وهلع:

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: وإذا مسه الشر يكثر الشكوى، ويظهر البلوى، ويبالغ في المسكنة والمسألة، فهو حريص على الجمع، شديد الجزع عند الفقد.

* * *

شقاء المعرضين عن القرآن

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٢ سُرِّيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (٥٢-٥٣).

وعادت الآيات في آخر السورة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، تأمره أن يسأل المعرضين عن القرآن سؤال تقرير وإلزام، يبين لهم من خلال هذا السؤال شدة حاجتهم إلى القرآن، وضخامة جنايتهم على أنفسهم بإعراضهم عنه:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ﴾ (٥٢).

أي: لا أضلُّ ولا أشقى منكم بسبب كفركم برسالة القرآن.
وقريباً سترون آثاره في الآفاق وفي أنفسكم حتى يظهر لكم أنه الحق:

﴿سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٥٣).

﴿سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: سيريهم الله تعالى آياته.
والالتفات من الخطاب إلى الغيبة لتأكيد ثبوت الإراءة.

والآيات: هي العلامات والدلائل التي تدل على أن القرآن هو الحق، أنزله
الحق بالحق، قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
[الإسراء: ١٠٥].

قد سبق ذكر مثل هذه الآية أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ
فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

كما سبقت الإشارة إليها بقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨].

والمراد من الآفاق: أقطار السماء والأرض وما فيها من شمس وقمر
وكواكب وجبال ورياح، كالذي سبق ذكره في الآيات:

- ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

- ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩].

والمراد من قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ ما فيها من لطيف الصنعة وبديع الحكمة،

كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

فعجائب صنعته وبدائع حكمته لا حدود لها، وكلما تفكَّر بها الإنسان ازداد

معرفة بالله وتعظيماً له، كما سبق عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

إنه وعد الله لعباده أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ومن خفايا أنفسهم على السواء، وعدهم أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق؛ هذا الدين، وهذا الكتاب، وهذا المنهج، ومن أصدق من الله حديثاً؟! ولقد صدقهم الله وعده، فكشف لهم عن آياته في الآفاق وفي أنفسهم، وما يزال يكشف لهم في كل يومٍ عن جديد، وما يزال الإنسان في الطريق، ووعد الله ما يزال قائماً.

﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أي: حتى يتبين لهم أن الله جلَّ منزله القرآن هو الحق من كل وجه، ذاتاً وصفةً، وقولاً وفعلًا، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، كان ولا شيء معه، وهو سبحانه الآن على ما عليه كان.

وإذا تبين لهم حقيقة عز شأنه من كل وجه، يلزم ثبوت القرآن وحقيقته، وكونه تنزيل الرحمن الرحيم على رسوله النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد.

وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبِّكَ﴾ مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، إشعار بأنه هو والمؤمنون هم الذين يكفيهم شهود الله على كل شيء دليلاً. وأما الكافرون فهم في مرية من لقاء ربهم، فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كل شيء شهيد:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ (٥٤)

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ أي: في شك عظيم من لقاء ربهم يوم القيامة. ﴿أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ فمن أحاط بكل شيء علماً وقدرة، لم يتخلف شيء عن شهوده، فهو على كل شيء شهيد.

تفسير سورة الشورى الوحي والسريّة في سورة الشورى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حقيقة الوحي ومصدره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿حَمَّ ١﴾ عَسَقَ ٢ ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣﴾ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٤ ﴿

بدأت سورة الشورى ثلاثة الحواميم بقوله تعالى:

﴿حَمَّ ١﴾

وهما حرفان من الحروف النورانية المقطعة. وخُصَّت هذه السورة بزيادة في
هذه الحروف:

﴿عَسَقَ ٢﴾

وتدل زيادة المبنى على زيادة في المعنى، والله سبحانه أعلم بالمعنى المراد
منها، ويلاحظ أنّ هذه الحروف الخمسة رُسمت منفصلة بآيتين، ولم ترسم

متصلةً كسورة مريم التي ابتدئت بخمسة حروف أيضاً: ﴿كَهَيَّعَ ۝١﴾، ولعلَّ السبب أن تكون فاتحة السورة مثل غيرها من الحواميم.

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾.

أي: الله العزيز الحكيم يوحى إليك كما أوحى إلى الذين من قبلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَاللَّيْنِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَشُلَيْمَانَ وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

فمصدر الوحي واحد، والموحي هو الله ﷻ.

والأصل في معنى الوحي: الإعلام الخفي السريع، وهو يتم بين طرفين: أولهما: الطرف العلوي الموحي أو الملقى.

وثانيهما: الطرف الموحي إليه أو المتلقي، وهذا الطرف لا يملك إلا التلقي.

فالوحي لا يتم ولا يقع إلا بمحض فضله تعالى ومشيئته، فهو العزيز في ملكه وسلطانه، الحكيم في أمره وقضائه، ولا يكون الوحي بالاكْتِسَابِ والاستجلاب من طرف المتلقي، فالنبوة لا تُكْتَسَبُ ولا تُسْتَجْلَبُ، قال تعالى: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وقال صاحب «جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ» الشيخ إبراهيم اللقاني:

ولم تكن نبوة مُكْتَسَبَةً ولو رَقِيَ فِي الْخَيْرِ أَعْلَى عَقْبِهِ

وفي قراءة: (يُوحَى) على البناء للمفعول على أن (كذلك) مبتدأ، (يوحي) خبره، و(الله) فاعل لجواب تقديره: من يوحى؟ ويكون الغرض من الإخبار إثبات

اتصافه تعالى بأنه من شأنه الوحي، لا إثبات أنه موحٍ، فالإيحاء مسلّم معلوم^(١).

ثم أكّد سبحانه كمال ملكه وعظمة سلطانه بقوله:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

أي: له وحده كل ما في السماوات والأرض خلقاً ومِلكاً وتدبيراً، وهو العلي العظيم في عزّه وجلاله، فهو أعلى من كل شيء وأعظم من كل شيء.

* * *

تسبيح واستغفار

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

ومن عظمتهم ﷻ:

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أي: تكاد السماوات يتشققن من عظمة الله تعالى من جهتهنّ الفوقانية، لأنّ أعظم الآيات والمخلوقات كالعرش والكرسي والملائكة من تلك الجهة، فهي أدلّ على العظمة، ولذا كانت قبلة الدعاء، ويتفطرن من تحتهنّ بالطريق الأولى.

وقيل: يتفطرن من دعاء الشريك والولد، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا﴾ (١١) أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿[مريم].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: والملائكة ينزهونه تعالى عما لا يليق به، متلبسين بحمده، ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ [غافر: ٧].

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يقبل استغفارهم، ويزيدهم من فضله ورحمته.

* * *

الوحي والقرآن

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَلِنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾

ثم وَجَّهَت الآيات الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تواسيه عما يلقي من عناد المشركين وإعراضهم، وفي الوقت نفسه تنوعد المعرضين المعاندين:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝١﴾.

أي: والذين جعلوا لله شركاء وأنداداً فأعرضوا عن دعوتك، الله رقيب على أحوالهم وأعمالهم، فيجازيهم عليها، وما أنت بموكل بهم، ولا كفيل تؤخذ بهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَلِنُذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧﴾.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًّا واضحاً جليًّا، لتنذر أهل مكة ومن حولها من سائر أقطار الأرض كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

والمراد بأَم القرى: مكة المكرمة، سُميت بذلك لما روي أنه دُحيت الدنيا من تحتها، والأَم تقال لكل ما كان أصلاً لشيء^(١).

ويؤيد ذلك ما مرَّ معنا في سورة الأنعام عند تفسير الآية السالفة الذكر بأن مكة المكرمة هي سُرَّة الأرض ومركزها، وقد ثبت علمياً أنها واقعة في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية.

﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ أي: وتنذر يوم القيامة الذي تُجْمَع فيه الخلائق، وهذا الجمع كائن لا شك فيه، وبعد الجمع يتفرقون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

* * *

الله هو الولي

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٨) أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ كُمِ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠).

ثم بيّن تعالى كمال قدرته وطلاقة مشيئته فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٨).

أي: ولو شاء الله لجعل الناس أمةً واحدةً مهتدين أو ضالّين، ولكن يُدْخِلُ تعالى في رحمته مَنْ يَشَاءُ أن يدخله فيها، ويدخل مَنْ يَشَاءُ أن يدخله في عذابه. فالله بمشيئته وحكمته بنى أمر المكلّفين على ما يختارون، فيدخل المؤمنين في

رحمته، ويذر المصيرين على الظلم والشرك في ضلالهم وكفرهم، ويكون مصيرهم يوم القيامة إلى السعير، من غير ولي يلي أمرهم، ولا نصير يخلصهم من العذاب. ثم أكدت الآيات انتفاء وجود ولي أو نصير للظالمين يوم القيامة:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أي: دع الاهتمام بشأنهم، واقطع الطمع في إيمانهم، أليسوا الذين اتخذوا من دون الله أولياء؟! وهو سبحانه الولي بحق، لا ولي بحق سواه.

ف (أَمْ) للإضراب بمعنى (بل) أفادت الانتقال من بيان ما قبلها إلى بيان ما بعدها، وأنكرت موالة غير الله، ونفته بأبلغ الوجوه.

ثم ختم الله الآية ببيان الدليل على أنه الحقيق بالولاية فقال: ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن كان بهذه الصفة فهو الحقيق أن يتخذ ولياً، ومن لم يتصف بهذه الصفة فلا يكون ولياً. وتستوجب ولاية الله تعالى الانقياد والإذعان لأمره وحكمه:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: وما اختلفتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيها إلى شريعة الله، ولا تؤثروا على تحكيم شريعته غيرها، كما في قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: ذلكم الحاكم العظيم الشأن هو مالكي ومتولي أمري، عليه توكلت في كل أموري لا على غيره، إليه أرجع في كل ما يعرض لي من معضلات الأمور لا إلى غيره.

تنزيه وإثبات

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وهذا الحاكم العظيم هو خالق السماوات والأرض على غير مثال سبق.

﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: جعل سبحانه للناس والأنعام أزواجاً يكون بينهم فيه التوالد والتكاثر.

يذروكم: يكثركم، من الذرء: وهو البث والتكثير، فكل المخلوقات تتكاثر وتتوالد بواسطة التزاوج بينها.

أما الله سبحانه فهو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، ولهذا نفى ﷻ مشابهة شيء من المخلوقات له فقال:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فلا يماثله شيء في كل وجه، ويدخل في ذلك نفى أن يكون مثله سبحانه شيء يزاوجه ﷻ.

والمراد من (مثله) ذاته تعالى، وقد ذكر ابن قتيبة: أن العرب تقيم المثل مقام النفس فتقول: «مثلك لا يبخل»، وهي تريد أنت لا تبخل، على سبيل الكناية.

وقيل: إن مثلاً بمعنى الصفة، والمعنى: ليس كصفته تعالى صفة، تنبيهاً أنه تعالى وإن وُصف بكثير مما يوصف به البشر، فليست تلك الصفات له ﷻ حسب ما يستعمل في البشر.

والمثل أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة - كما قال الراغب الأصفهاني - وذلك أَنَّ النَّدَّ يقال لما يشارك في الجوهر فقط، والشَّبُّ لما يشارك في الكيفية فقط، والمساوي لما يشارك في الكمية فقط، والشكل لما يشارك في القدر والمساحة فقط، والمثل عام في جميع ذلك، ولهذا لما أراد الله تعالى نفي الشبه من كل وجه خصَّه سبحانه بالذكر^(١).

فليس له سبحانه مماثل في ذاته وصفاته، فلا يسد مسد ذاته تعالى ذات، ولا مسد صفاته تعالى صفة، كما أَنَّ أفعاله سبحانه لا يقدر غيره عليها، فهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لكل ما يُسمع ويُبصر، وكأنه سبحانه ذكرهما لثلاثا يتوهم أَنَّهُ تعالى لا صفة له، كما لا مثل له، فله الصفات الثلاثة بجلاله وكماله ﷻ، فأول الآية تنزيه، وآخرها إثبات، والتوحيد إثبات ذاتٍ غير مشبهة للذوات، ولا معطلة من الصفات، ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلا من جهة موافقة اللفظ، وجلَّت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة، كما استحال أن يكون للذات المحدثَة صفة قديمة. وهذا كله مذهب أهل الحقَّ والسُّنة والجماعة ﷺ^(٢).

ثم بينت الآيات أَنَّهُ تعالى واحدٌ في أفعاله لا يقدر عليها غيره بقوله سبحانه :

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي: له سبحانه خزائن السماوات والأرض، أو له مفاتيح السماوات والأرض، والذي يملك المفاتيح يملك الخزائن، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيِّقه على من يشاء، حسب ما سبق به علمه الذي وسع كل شيء.

(١) روح المعاني: ١٨/٢٥.

(٢) تفسير القرطبي: ٩/١٦.

الحاكمية والتشريع لله وحده

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٢)

ثم بينت الآيات نتيجة ما سبق تقريره، أن الحاكمية والتشريع لله تعالى وحده، فلا يجوز الخروج عليها ومخالفتها:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٢).

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ والخطاب في الآية للأمة المسلمة، ومعناه: شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً، ومن بعده من أصحاب الشرائع، وأولي العزم من الرسل.

وإقامة الدين الذي شرعه الله هو توحيدُه وطاعته والإيمانُ بكتبه ورسله ويوم الحساب والجزاء، فاجعلوه قائماً دائماً مستمراً من غير خلافٍ فيه.

والمراد بإيحاؤه إليه عليه الصلاة والسلام، ما ذكر في صدر سورة الشورى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣)، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية، لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة في (أوحينا) لإظهار كمال الاعتناء بما أوحى إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك إشعار بأن شريعته ﷺ هي الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء،

وذلك هو السر في تقديم الذي أوحى إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده، مع تقدّمهم عليه زماناً، وتقديم توصية نوح لبيان كون المشروع لهم ديناً قديماً .
ومعنى (شرع): نهج وأوضح وبين المسالك، وشرع لهم يشرع شرعاً، أي سنّه (١).

وما أراد تفاصيل الشرائع، فإنها مختلفة متفاوتة لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ إنما أراد أصول الشرائع التي يجمعها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].
﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: عظم على المشركين وشقّ عليهم ما تدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته والتزام شريعته، فلا تبال بعنادهم وإعراضهم .
﴿اللَّهُ يَبْتَغِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أي: الله سبحانه يصطفي من يشاء فيوفقه، ويرشد من يقبل عليه، ويتمسك بشريعته، وهذا يدلّ على أنّ بعض المعرضين عن رسالته ﷺ سيستجيب للدعوة، ويصبح من المصدقين بالرسالة.

* * *

الدعوة إلى الحق والاستقامة عليها

﴿وَمَا نَرْفُقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ نَعْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَهْلِ مُدْيَنَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِثْرٌ ۖ فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تُلَيعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ عَاسَتْ بِمَا أَرَكُمُ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَآ أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمُ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝١٥﴾ وَالَّذِينَ يُخَاحِشُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ مُخَنِّمٌ دَاجِضُهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦﴾.

ثم بين سبحانه سبب إعراضهم عن دعوته عليه الصلاة والسلام،

واستعظامهم لها ، فقال :

﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْبٍ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿وَمَا نَفَرَقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ أي : إنما كان اختلافهم بعد بلوغ الحق إليهم ، وقيام الحجّة عليهم ، وما حملهم عليه إلا البغي والحسد .
 ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي : ولولا أنه تعالى قدر تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لأهلك الله المبطلين الذين اختلفوا لعظم ما اختلفوا ، فبعثه ﷺ بعثة رحمة كما مر معنا عند قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْبٍ﴾ أي : وإن أهل الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ ، لفي شك أيضاً من دعوته ، مدخل في الريبة والقلق .
 فمخالفة الحق ومعاندته لم تصدر عن المشركين من أهل مكة فقط ، إنما صدرت أيضاً عن أهل الكتاب .

﴿فَلِذَلِكَ فَادُعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿فَلِذَلِكَ فَادُعُ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي : فلأجل ذلك التفرق والإعراض عن الحق فادعُ إلى الائتلاف والاجتماع على دعوة الحق ، واثبت عليها كما أمرك الله ، فإن الثبات عليها أفضل وسيلة لتزكية النفوس وتهذيبها وجمعها على الحق ، ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة ، ولا تنظر إليها ، فإنها سبب الفقرة والاختلاف .

وفي الآية إشارة إلى أن البشرية قد آلت إلى فوضى واضطراب ، وأنها

أصبحت بحاجة إلى قيادة راشدة، وقد انتدب النبي ﷺ لهذه القيادة، وأنيطت به وبأتمته من بعده هذه المهمة.

﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: وقل لهؤلاء المخالفين: آمنتُ بكل كتاب أنزله الله، وأمرتُ بتبليغكم شريعة الله وأحكامه لإقامة العدل بينكم، فلا يكون العدل إلا في ظل شريعة الله.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: الله ربنا وربكم، وكل واحد منا مسؤول أمامه عن عمله، وبهذا يظهر الحق، ولا يبقى للجحود والإعراض مجال سوى المكابرة والعناد.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: الله يجمع بيننا يوم القيامة، وإليه المعاد لفصل القضاء.

ومع وضوح الحق المؤيد بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، ظل المعاندون يصدون المؤمنين عنه، ولهذا قال تعالى يتوعدهم:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِمْهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: والذين يجادلون المؤمنين المستجيبين لدعوة الرسول ﷺ ليصدوهم عن طريق الهدى؛ حجتهم زائلة باطلة عند الله تعالى، وعليهم غضب من الله، ولهم عذاب شديد يوم القيامة.

الشرعة الإلهية والعدل

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٨﴾﴾ .

ثم بيّن سبحانه فضله على الناس، بما أنزل عليهم بواسطة الوحي من الكتب والشرائع لإقامة العدل بينهم :

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿٧﴾﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ أي : الله الذي أنزل الكتب متلبسة بالصدق والحق، مشتملة على الدلائل والبراهين، وأنزل الشريعة التي توزن بها الحقوق، وتقيم العدل بين الناس، قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] .

فلا يتحقق العدل إلا في ظل الشريعة الإلهية، ولا يقع الجور والظلم إلا عند الانحراف عنها، كما قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن] .

وتقرير يوم القيامة وشعور الإنسان بمسؤوليته عن التزام شريعة الله، يحمله على التزام هذه الشريعة والرضا بأحكامها، ولهذا أخبرت الآيات بتحقيق ووقوع الساعة فقالت :

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ أي : وما يدريك أيها الإنسان لعل وقت الساعة والجزاء قريب .

فاتبع الكتاب، واعمل بالشرعة الإلهية قبل أن يفاجئك يوم الحساب والجزاء، التي توزن فيه أعمالك، وتوفى جزاءك كما في قوله تعالى : ﴿وَوَضَعُ

الْمُؤَيَّنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿[الأنبياء: ٤٧].

وقال: (قريب) ولم يقل: قريبة، لأن تأنيثها غير حقيقي كما في قوله: ﴿إِنَّ رَحِمْتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ودلت الآية على أنَّ الشعور بالمسؤولية والجزاء، يهذب النفوس ويجعلها تدعن للحق، وتتمسك بالعدل، كما ينأى بها عن الجور والطغيان، ولهذا يكذب بها الطغاة الظالمون:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أي: يستعجلون وقوعها استهزاء، ظناً منهم أنها غير واقعة.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ وأما المؤمنون فإنهم خائفون منها، ويعلمون أنها آتية لا شك فيها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج].

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ألا إن الذين يشكون في يوم القيامة ويخاصمون فيه لفي ضلال بعيد عن الحق.

* * *

الله لطيف بعباده

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

إن تقرير الساعة وما فيها من مسؤولية وجزاء، مظهر من مظاهر لطفه سبحانه بعباده، ففيها خيرٌ كثيرٌ للعباد، كما أنها تدل على رحمته تعالى وحكمته:

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩).

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ أي: لطيف بهم في تكليفهم وتقدير مسؤوليتهم ومحاسبتهم، فهو سبحانه بارٌّ بهم، ورفيق بهم، يقبل منهم القليل، ويعطيهم الجزيل، ويربِّيهم بصنوف من البر لا تبلغها الأفهام، ومن تربيتهم تقرير مسؤوليتهم يوم الحساب والجزاء.

ولطيف بهم أيضاً في إيصال المنافع وصرف البلاء، ومن لطفه سبحانه بهم أنه يمدهم بأسباب العيش والبقاء:

﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يرزق من يشاء كما يشاء، فيخص كل واحد من عباده بنوع من البر حسب ما تقتضيه حكمته، ويحرِّم من يشاء.

وفي تفضيل قوم على قوم بالرزق حكم كثيرة، بيَّنها تعالى في قوله: ﴿وَنَحْنُ قَسَمًا لِّبَنِيهِمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ أي: وهو القادر على كل ما يشاء، المنيع الغالب الذي لا يُغلب.

ولله سبحانه أُلطافٌ خاصةٌ بأهل طاعته، يوفقههم ويسددهم ويبارك لهم:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢٠).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي: من كان يريد ثواب الآخرة نَزِدْ له في ثوابه أضعافاً كثيرة، ونيسر له سُبُلَ الخيرات والطاعات، فالدنيا مزرعة الآخرة. ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ أي: ومن كان يريد الدنيا ومتاعها نُؤْتِهِ ما قَدَّرَ له منها، وقُسِمَ له فيها، لا كل ما يريده، وليس له في الآخرة نصيب، لأنه لم يعمل لها؛ قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا شَاءَ لِمَنْ تُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء].

ولا يكون عمل الآخرة إلا في تطبيق شريعة الله، ولهذا توعَّدت الآياتُ الذين لا يطبقونها، ولا يلتزمون بها، بل يحتكمون إلى الشرائع الوضعية التي وضعها شياطين الجن والإنس:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ وفي الكلام إضمار تقديره: أيقبلون ما شرع الله من الدين؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم شرائع تخالف دين الله وشريعته؟ فتشريع أحكام تخالف شرع الله وتفضيلها عليه شرك وكفر، لأنَّ الحاكمية وحق التشريع لله وحده، الذي له الخلق والأمر، كما مرَّ معنا في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

ولهذا وصفت الآية المستحدثين للشرائع الوضعية بالشركاء، وجعلت طاعتهم فيما شرعوا واستحدثوا مظهراً من مظاهر الشرك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ولولا أنه تعالى قَدَّرَ أن يكون الفصل بين الناس يوم القيامة، لعَجَّلَ عقوبتهم في الدنيا، ولقد أعدَّ لهم يوم القيامة عذاباً أليماً، فمخالفة شرع الله شرك وظلم:

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢).

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: وتراهم يوم القيامة خائفين وجلين من شركهم وظلمهم، وببالة واقع بهم، أشفقوا أم لم يشفقوا.

وأما المؤمنون العاملون بأحكام دينه وشريعته:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يتعممون في رياض الجنات، لهم ما يشاؤون عند ربهم من أنواع الكرامة والنعيم، إنه الفضل الكبير الذي يتفضل الله به عليهم يوم القيامة، وهي بشارة تحملها الآيات إليهم تهيئة لهم على دين الله وشريعته.

* * *

مودعة آل البيت

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ النَّطْلَ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ يَكَلِّمُ مَن يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٤).

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٢٣).

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهي بشارة من الله حملها

النبي الكريم ﷺ، وبلغها مبرأة عن أي حظ دنيوي ونفع مادي له ولأهل بيته عليه الصلاة والسلام، أمر عليه الصلاة والسلام أن يعلنها كما أعلنها سائر الأنبياء والمرسلين قبله، كما سبق معنا في قوله تعالى على لسان جميع المرسلين: ﴿يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ أي: لا أسألكم على هذا البلاغ مالا، وإنما أطلب أن تزدوني أبلغ رسالة ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة.

أو: لا أسألكم عليه أجراً قط، ولكن أسألكم أن تؤدوني بسبب قرابتي فيكم، ويؤيده: أن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ فقال سعيد بن جبیر: قربي آل محمد ﷺ، فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة. [رواه البخاري (٤٨١٨)].

قال ابن حجر رحمه الله: «والمعنى: إلا أن تؤدوني لقرابتي فتحفظوني، والخطاب لقريش خاصة، والقربى: قرابة العصوبة والرحم، فكأنه قال: احفظوني للقرابة إن لم تتبعوني للنبوة. فسعيد بن جبیر ومن وافقه كعلي بن الحسين والسدي وعمرو بن شعيب - فيما أخرجه الطبري عنهم - حملوا الآية على أمر المخاطبين بأن يوادوا أقارب النبي ﷺ، وابن عباس حملها على أن يوادوا النبي ﷺ من أجل القرابة التي بينه وبينهم»^(١).

والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به خبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري [٤٨١٨].

ولا ننكر الوصية بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً^(٢).

(١) فتح الباري: ٥٦٤/٨.

(٢) تفسير ابن كثير للآية.

وقال الحسن وقتادة: والمعنى إلا أن يتوددوا إلى الله ﷻ ويتقربوا إليه بطاعته، فالقربى بمعنى القرية كزلفى والزلفة، قال القرطبي ﷻ بعد حكاية هذا القول: وقول الحسن حسنٌ، ويدل على صحته الحديث المسند عن رسول الله ﷺ، عن ابن عباس: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى مَا أُنَبِّئُكُمْ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى أَجْرًا، إِلَّا أَنْ تَوَادُّوا اللَّهَ ﷻ، وَتَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، وَكَذَا قَالَتِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ قَبْلَهُ: (إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ) ^(١).

وبعد أن برأت الآياتُ النَّبِيَّ ﷺ وقربته عن أي حظ من حظوظ الدنيا، حثت المؤمنين بأسلوب غير مباشر على الاستكثار من الطاعات والحسنات بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ أي: ومن يكتسب حسنةً نضاعفها له، وأصلُ القَرَفِ الكسبُ. يقال: فلانٌ يقرِفُ لعياله، أي: يكسب ^(٢).

ولا شك أنَّ منها مودةُ آل بيته ﷺ، حتى جعل بعض المفسرين الآية في محبة آل البيت، قال البيضاوي ﷻ: ومن يكتسب طاعةً؛ سيِّما حبَّ آل الرسول ﷺ ^(٣).

وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ ومودته لهم، فقد صحَّ عنه أنه كان يقول: والذي نفسي بيده لقرابةُ رسولِ الله ﷺ أحبُّ إليَّ أنْ أصلَ من قرابتي.

ونقل النسفي عن السدي: أنَّها المودةُ في آل الرسول ﷺ، نزلت في أبي بكر ﷺ، والظاهرُ العمومُ في أيِّ حسنةٍ كانت، إلا أنها تتناول المودةَ تناولاً أولياً بذكرها عقب ذكر المودة في القربى ^(٤).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي: غفور للذنوب شكور للحسنات.

ودلَّت الآية على أنَّ المؤمنين مكلفون بمودة آل البيت، فقد أخرج مسلم

(١) تفسير القرطبي: ٢٣/١٦.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تفسير البيضاوي: ٤٠٨/٥.

(٤) تفسير النسفي: ٤٠٨/٥.

[٢٤٠٨]: عن زيد بن أرقم رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «أذكركم الله تعالى في أهل بيتي».

وأخرج الترمذي [٣٧٩٠] وحسنه، والطبراني والحاكم [١٥٠/٣]: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: «أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله تعالى، وأحبوا أهل بيتي لحبي».. والأخبار في هذا كثيرة لا تحصى^(١).

وكما برأت الآيات دعوته عليه الصلاة والسلام عن أي حظ من حظوظ الدنيا، برأت شخصه الكريم أن يكون له أدنى تكلف في اكتساب الوحي واجتلابه، كما مر معنا قريباً عند الحديث عن ظاهرة الوحي، وسيأتي معنا في آخر السورة أنه عليه الصلاة والسلام ما كان قبل البعثة ينتظر الوحي عليه، قررت الآيات هذه الحقيقة في معرض الرد على مزاعم المشركين الباطلة وأكاذيبهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتٍ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ بِكَلِمَاتٍ﴾ أي: بل يقولون: افترى محمد على الله كذباً بدعوى النبوة أو القرآن؟! والهمزة للإنكار التوبيخي، و(بل) للإضراب من غير إبطال المعنى، والمراد منه: كيف ينسبون مثل هذا إلى النبي ﷺ؟! ولو أنه فعله لمنعه الله من ذلك قطعاً، فلو كان افتراءً عليه، لشاء عدم صدوره عنك، فيختم على قلبك، فلا يخطر ببالك معنى من معانيه، ولا تنطق بحرف من حروفه، فمن شأنه تعالى أنه يمحو الباطل، ويثبت الحق، فلو كان افتراءً كما زعموا لمحقه الله ودفعه، ولمّا لم يفعل ذلك، بل أبقاه متتابعاً عليك، تبين أنه من عنده تعالى.

﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: إنه سبحانه عليم بما في صدرك وصدورهم،

فِيُجْرِي الْأَمْرَ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، فَيَمْحُو بَاطِلَهُمْ، وَيُؤَيِّدُ نَبِيَّهُ، وَيُظْهِرُ دِينَهُ، وَيُعْلِي كَلِمَتَهُ.

حاجة العباد إلى الرزق والشرعية الإلهية

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدٍ مَّا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَاكِئَةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ثم بينت الآيات أنّ من لطفه تعالى بعباده المؤمنين أنه يقبل توبتهم، فهي تحثهم على تصفية قلوبهم، وتركية نفوسهم، بالاستكثار من الطاعات، وهجر السيئات، والثبات على التمسك بأحكام شريعته:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

فتوبوا إلى الله، وأعرضوا عن السيئات، واعلموا أنه تعالى يعلم ما تفعلون. والتوبة: الرجوع عن المعاصي بالندم عليها، والعزم على ألا يعود إليها أبداً، ففي الآية دعوة للمؤمنين لتمحيص التوبة، وجعلها خالصة لله تعالى، لأنه تعالى عليم بذات الصدور.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ﴾ أي: ويستجيب سبحانه

للتائبين المخلصين، ويزيدهم على ما سألوا من فضله الواسع، فحذفت اللام كما في قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مِنْكَ يَمْلِكُونَ﴾ [المطففين: ٣] أي: كالوا لهم.

قال تعالى يبين فضله على التائبين المخلصين في التوبة: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَجْزِي اللَّهُ سِعَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقد يكون المعنى الإخبار عن استجابة المؤمنين لدعوة ربهم، وثباتهم على دينه وأحكام شريعته، وتكون الجملة معطوفة على مجموع قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: فالمؤمنون يستجيبيون، والكافرون يُعرضون، ولهم في مقابل ذلك عذاب شديد.

ثم بينت الآيات حكمته تعالى ورحمته في توزيع الأرزاق بين عباده، كدليل على شدة حاجتهم إلى دينه وأحكام شريعته، كحاجتهم وافتقارهم إلى رزقه وفضله:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

أي: ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض وتكبروا وأفسدوا، وعلا بعضهم على بعض، ولهذا قدر سبحانه أن ينزل الرزق عليهم بقدر معين حسب ما تعلقت به مشيئته، إنه خبيرٌ بأحوالهم، بصيرٌ بشؤونهم، فعليهم أن يلتزموا بأحكام دينه وشريعته، فلا غنى لهم عنها، ولا تستقيم حياتهم من دونها. ويؤكد هذا المعنى أنه تعالى ينزل عليهم الرزق حين تشتد حاجتهم إليه:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

أي: وينشر سبحانه بركات الغيث ومنافعه في السهول والجبال والوديان، فهو الذي يتولى عباده بالإحسان، ويستحق الحمد على ذلك لا غيره، فلا غنى لعباده عن إحسانه، كما أنهم لا غنى لهم عن طاعته والتزام شريعته.

وها هي دلائل جوده ووجوده سبحانه مبثوثة في كل زمان، تذكرهم بافتقارهم إليه وحاجتهم إلى عبادته وشريعته :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝﴾ (٢٩).

أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته وعظيم إحسانه خَلْقُ السماوات والأرض، وما نشر فيهما من دابة، وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات المتفرقين في أقطار السماوات والأرض، ومع هذا كله فإنه تعالى قادر على جمعهم عندما تتعلق به مشيئته.

* * *

الذنوب والمصائب

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۝﴾ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْمَوَارِ فِي الْخَرِّ كَالْأَعْلَاقِ ۝ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلَنَّ رَوَاكِدٌ عَلَى ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ (٣٣) أَوْ يُوقِعَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ۝ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُخْدِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ ۝ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنِعْ أَلْحِيوهُ الدُّبَابَ وَمَا عَدَّ اللَّهُ حَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ (٣٦)﴾

وعادت الآيات تذكرهم بضرورة التوبة، وتحثهم عليها، وتبين لهم ما يترتب عليها من خير كبير، فذنوبهم هي سبب مصائبهم:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۝﴾ (٣٠).

أي: فما سُلط على العبد من يؤذيه إلا بسبب ذنب يعلمه أو لا يعلمه، فليس للعبد إذا أصيب بمصيبة - كما لو بغى عليه أحد، أو أصيب بنفسه وماله -

شيء أنفع له من التوبة والإنابة والاشتغال بتنقية نفسه من آثار المعاصي، وعفوه سبحانه عما بقي أكثر وأعظم.

ومر معنا أن الله تبارك وتعالى قال لأصحاب النبي ﷺ بعد مصابهم في غزوة أحد: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وعفوه تعالى منوط بمشيئته، غير متوقف على التوبة:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٣١).

فأنتم دائماً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، وما لكم من دونه ولي يتولاكم، ولا ناصر ينصركم، فلا قدرة لكم أن تعجزوه سبحانه في بر أو بحر.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢).

أي: ومن علاماته الدالة على كمال قدرته السفن الجارية في البحر، كأنها من ضخامتها أعلام، وهي الجبال. ومع ذلك فإن هذه السفن لا تمنعكم من نفاذ مشيئته تعالى، فهو سبحانه قادر على تعطيلها أو إغراقها:

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣٣).

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ أي: إن يشأ يجعل الريح التي تسيرها ساكنة، فتبقى هذه السفن ثوابت على ظهر البحر غير جاريات.

فالريح من الطاقات المسخرة لكم، لا تنتفعون بها إلا بأمره سبحانه ومشيئته، ويقاس عليها كل القوى والطاقات التي سخرها الله تعالى للناس، فانتفاعهم بها منوط بمشيئته وقدرته.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في ذلك لبراهين ودلائل لكل مؤمن متفكر في آلاء الله، يشكره في الرخاء، ويصبر في الضراء.

﴿أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤).

أو يرسلها ريحاً عاصفة تغرق هذه السفن بذنوب أصحابها، ويعفو عن كثير من ذنوبهم، فلا يجازيهم عليها. وهذا تأكيد لما سبق تقريره من كمال قدرته تعالى وطلاقة مشيئته وعظيم إحسانه.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ (٣٥).

أي: ولكي يعلم الذين يجادلون في آيات الله أنه لا مهرب لهم ولا فرار من أقداره تعالى.

وقرئ بالجزم عطفاً على (يعفُ) فيكون المعنى: أو يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير آخرين.

ثم زهدتهم الآيات بما في الدنيا من متاع زائل، حتى لا ينشغلوا بها عن العمل للأخرة:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦).

فالمؤمن والكافر يستويان في متاع الدنيا، فإذا صارا إلى الله تعالى كان ما عنده من الثواب خيراً وأبقى للمؤمن المتوكل عليه.

ولمَّا ضمنت (ما) الأولى معنى الشرط؛ جاءت الفاء في جوابها بخلاف الثانية.

الأسس الشرعية للمجتمع الإسلامي

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَوْا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَعْرِضْ عَنْهُ عَلَى اللَّهِ إِلَهُ إِيَّاهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾.

مَهَّد الله تعالى في الآية السابقة لبيان أهم القواعد الشرعية التي يجب أن تقوم عليها البنية الأساس للمجتمع الإسلامي، فاستبعد فيها قيام الحياة الاجتماعية الإسلامية على أساس المقياس المادي، ثم بيَّن تعالى أهم القواعد الشرعية التي يجب أن تحكم علاقات الأفراد في ظل المجتمع الإسلامي، وجاء بيان هذه القواعد في معرض مدح مجتمع الصحابة الأول الذين التزموا بها:

﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: والذين يَحْتَبُونَ كبائر الذنوب كالشرك والزنى، ويكْظُمُونَ الغيظَ إذا غضبوا، ويحلمون، فسجيتهم تقتضي الاستقامة على أمر الله، والصفح والعفو عن الناس.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: استجابوا لدعوة ربهم، واتبعوا رسوله ﷺ، ورفعوا منار الصلاة، التي هي عماد الدين.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: وشأنهم قائم على الشورى في ما يتشاور فيه، فلا يستبدون بالرأي، فالشورى ألفة للجماعة، ومنارٌ للعقول، وسببٌ للصواب، كما

مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: وينفقون جزءاً من أموالهم في وجوه الخير ومساعدة المحتاجين.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾.

أي: يتقمون ممن بغى عليهم ضمن الحدود المشروعة، فلا يعتدون، ففيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، وليسوا بالعاجزين ولا الأذلين، بل يقدرّون على الانتقام ممن بغى عليهم.

وهم مع هذا إذا قدرّوا عفواً، فالعفو عند القدرة درجة عالية في الإحسان:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ فالأولى سيئة حقيقية، والثانية ليست سيئة، والمقابلة للازدواج فقط.

أو: لأنها تسوء مَنْ تنزلُ به، وفيه إشارة إلى أن الانتصار والانتقام محمودٌ بشرط رعاية المماثلة.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فمن عفا عمن ظلمه، وأصلح بالعفو ما بينه وبين ظالمه، فتوابه على الله، إنه تعالى لا يحب البادئين بالظلم، والمجاوزين حدَّ العدل بالانتصار، إنها عِدَّةٌ مبهمّة تدل على عظم الثواب الموعود به.

﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ﴾.

أي: ومن أخذ حقّه بعدما ظلم لا مؤاخذه عليهم ولا معاتبة.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢).

أي: إنما المؤاخذه والمسؤولية على الذين يبتدئون بالظلم، ويتكبرون في الأرض، أولئك لهم عذابٌ أليمٌ على ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣).

أي: ولمن صبر على الظلم والأذى وغفر ولم ينتصر مع قدرته عليه، إن ذلك الصبر من الأمور المشروعة المندوبة، فالعفو مندوبٌ إليه. ثم قد ينعكس الأمر في بعض الأحوال، فيصبح ترك العفو مندوباً إليه، وذلك إذا احتيج إلى كَفِّ زيادة البغي وقطع مادة الأذى^(١).

* * *

العذاب المقيم

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُوا هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٤) ﴿وَتَرْتَهُمْ يَبْعَثُونَ عَلَيْهَا حَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ (٤٥) ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ (٤٦) ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلَاجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكَيرٍ﴾ (٤٧) ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُوا وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِن نُضِمْهُمْ سَبِيلَةً بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ (٤٨) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكُورَ﴾ (٤٩) ﴿أَوْ بُرُوحَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنشَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (٥٠).

ومن أساليب القرآن الكريم في تهذيب النفوس وتربيتها، أن يعقّب على

آيات الأحكام بذكر شيءٍ من التهديد أو الترغيب، ليحمل النفوس على التمسك بها وتطبيقها:

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ٤٤﴾.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: ما له من ناصر يتولاه، ويبين له مثل هذه الأحكام، ويوفقه للعمل بها، من بعد إعراض الله تعالى عنه وخذلانه. ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: وعندما يرى الظالمون العذاب يقولون: هل نردُّ إلى الدنيا حتى نؤمن ونعمل بهذه القواعد والأحكام؟ ولا شك أن سؤالهم هذا يدل على شدة حسرتهم وندمهم.

﴿وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ٤٥﴾.

﴿وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أي: وتراهم يعرضون على النار متذللين، يسارقون النظر إليها من شدة الخوف. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ويقول المؤمنون حين يرونهم على تلك الحال: إن المتصفين بحقيقة الخسران هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: في عذاب دائم لا ينقطع، فلا رجوع لهم إلى الدنيا أبداً.

﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ٤٦﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: وما كان لهم من أولياء يرفعون عنهم عذاب الله حسب ما كانوا يرجون.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى النجاة، فقد سُدَّتْ عليهم كل طرق النجاة، وهو تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدَهُ﴾ [الشورى: ٤٤].

وبهذه الإثارة الوجدانية العنيفة هيأت الآيات القلوب والنفوس لتستجيب لدعوة الحق وتذعن لها:

﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: استجيبوا لربكم قبل أن يأتي يوم لا يرده الله بعد أن تعلقت به مشيئته. أو: من قبل أن يأتي من الله يوم لا يمكن رده، ما لكم في هذا اليوم مفراً تلتجئون إليه، ولا تقدر أن تنكروا شيئاً مما اقترفتموه، لأنه مدوّن في صحائف أعمالكم، وتشهد عليه جوارحكم.

ومع هذه الإثارة الوجدانية القوية والدعوة الحارة الملحة، أعرض بعضهم عن الاستجابة لها، فوجهت الآيات الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تواسيه عن إعراضهم:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَلَعُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فََرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا أَلْبَعُ﴾ أي: فإن أعرضوا عن الإجابة فما أرسلناك عليهم رقيباً، ما عليك إلا تبليغ الرسالة، وقد فعلت.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فََرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: ومن شأن الإنسان أنا إذا أنعمنا عليه فرح بالنعمة فرح البطر، فتكبر وتجبّر وأعرض عن شكر المنعم، وإن أصابته سيئة بسبب ما قدّمت يده، فإنه كثير الجحود، يجحد ما تقدم من النعم، ولا يذكر إلا الحال الراهنة

التي هو فيها، فيذكر البلية ويستعظمها، ولا ينظر في سببها، مع أنها بسبب ما قدمت يداها من المعاصي والآثام كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وهذا شأن غير المؤمنين، أمّا أمر المؤمنين فيختلف، قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

وتأمل دقة أسلوب القرآن الكريم في إضافة النعمة إلى الله تعالى، وفي إضافة الشرّ والسوء إلى سببه ومن قام به، فالله سبحانه يتنزّه عن الشر، ويستحيل صدور الشر من الغني الحكيم الحميد، مع أنه جل وعلا خالق كل شيء، فالشرّ خيرٌ وحكمة من جهة تعلّق فعل الرب به وتكوينه، وشرٌّ من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه.

وتأكيداً لهذه الحقيقة قررت الآيات طلاقة مشيئته تعالى وكمال سلطانه في مخلوقاته:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ
الذُّكُورَ ٤٩﴾.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لله ملك السماوات والأرض خلقاً وتديراً، يتصرّف فيهما كما يشاء دون أن يعترض عليه أحد في خلقه وتديره. ومن تديره سبحانه:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أي: يهب لمن يشاء من عباده ما يشاء من الأولاد، فيخصّ بعضهم بالإناث وبعضهم بالذكور.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٥٠﴾.

أو يجمع لبعضهم الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيماً فلا يولد له، إنه

أقسام الوحي

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾

وفي ختام السورة بينت الآيات أقسام الوحي، وألقت الضوء على هذه الظاهرة التي سبق ذكرها في أول السورة:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٣].

وفي قوله أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُبَيِّنَ لَكَ أَمْ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [٧].

وفي قوله أيضاً: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [١٣].

فحصرت في ثلاثة أقسام:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١﴾.

١ - ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي: ما صحَّ لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا وحيًا، فيلقي في قلبه ما يريد إعلامه به.

قال ابن كثير: هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا، فتارة يقذف في روع النبي ﷺ وحيًا لا يتمارى فيه أنه من الله ﷻ، كما جاء في «صحيح

ابن حبان [٣٢٢٨]: عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ».

٢ - ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ أو يسمعه كلامه القديم من غير رؤية، كما كلم موسى ﷺ، ولما سأل الرؤية مع التكليم مُنِعَ منها، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَلَّتِنَا وَلَكَّمْهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ الآية [الأعراف: ١٤٣].

وما ورد في الحديث الصحيح: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا» [رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠)] فهذا في عالم البرزخ، فقد قِيلَ والد جابر يومَ أحد، والآية في دار الدنيا.

٣ - ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ أو يرسل ملكاً فيوحي ذلك الملك إلى المرسل إليه من البشر بأمره تعالى ما يشاء أن يوحيه، وهذا الملك هو جبريل عليه السلام.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ أي: إنه تعالى أعلى من كل شيء، حكيم في أمره وقضائه. ثم تحدثت الآيات عن نزول الوحي على النبي ﷺ:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢).

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: وبمثل هذا الوحي البديع أوحينا إليك روحاً من أمرنا، وهو القرآن الكريم.

وسمَّاه (روحاً) لأن فيه حياةً من موت الجهل والكفر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فالقرآن حياة القلوب وربيعها، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا

زَرَعَ الْقُرْآنُ فِي قُلُوبِكُمْ؟ فَإِنَّ الْقُرْآنَ رَبِيعُ الْقُلُوبِ، كَمَا أَنَّ الْغَيْثَ رَبِيعُ الْأَرْضِ^(١).

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا أَلِيْمُنُ﴾ أي: ما كنتَ يا محمد تعلم قبل نزول الوحي عليك معالم الإيمان وشرائعه التي لا تُعرف إلا بالوحي. فما علمَ النبي عليه الصلاة والسلام أنه نبيٌّ مرسلٌ إلا بالوحي، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

ولم يكن ﷺ متعبداً بشريعة أحد من الأنبياء قبله، بل شريعته مستقلةٌ بنفسها، مفتوحة من عند الله، وكان عليه الصلاة والسلام يؤمن بالله ﷻ، فلم يسجدَ لصنم أبداً.

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: ولكن جعلنا القرآن نوراً نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة].

﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: وإنك لتدعو إلى صراط مستقيم، وهو دين الإسلام وشريعة القرآن، فهدايته عليه الصلاة والسلام هداية بيان ودعوة.

﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ﴿٥٣﴾.

﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وإنك لتدعو إلى صراط الله الذي له ملك السموات والأرض خلقاً وتديراً.

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: إلى حكمه تعالى وأمره ترجعُ أمورُ مخلوقاته، فالتزموا بدينه، وتمسكوا بشريعته، فإن مصيركم إليه جل وعلا.



تفسير سورة الزخرف

الْقُدُوءُ وَالْمَثَلُ فِي سُورَةِ الزُّخْرَفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تعظيم القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُنْثَى الْكِتَابِ لَدَيْمًا لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَصْرَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ﴿٥﴾

بدأ سبحانه سورة الزخرف رابعة الحواميم كما بدأ أخواتها ومثيلاتها بقوله :

﴿حَمَّ ١﴾ .

وقد سبق الكلام عليها في فواتح السور السابقة.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢﴾ .

وهو قسم بالقرآن الكريم المكتوب في اللوح المحفوظ - كما سيأتي - الذي أبان الصراط المستقيم ، وبين كل ما تحتاج إليه الأمة من الأحكام والشرائع .

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٣).

أي: إنا صيرناه قرآنًا عربيًّا لكي تفهموا معانيه، وتتفهموا بما فيه.
ويلاحظ التناسب بين القسم والمقسم عليه، وهو من الإيمان الحسنة البديعة، فلا شيء أعلى منه فيقسم به، ولا أهم من وصفه فيقسم عليه.
والجعلُ بمعنى التصييرُ المعدَّى لمفعولين لا بمعنى الخلق المعدَّى لمفعول واحد، إذ الكلامُ مسوق لإثبات كونه قرآنًا عربيًّا مفضلًا واردًا على أساليبهم، لا يعسر عليهم فهم ما فيه، ودرك كونه معجزاً، كما يؤذن به قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ (٤).

أي: وإنه في اللوح المحفوظ عندنا لرفيع الشأن، ذو حكمة بالغة.
أو: محكم ثابت لا يُنسخ، أو حاكم على غيره من الكتب، قال تعالى:
﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (١١) ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج].
وقال أيضاً: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (٧٨) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٧٩) [الواقعة].

وقال أيضاً: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ نَذِرٌ﴾ (١١) ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢) ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ (١٣) ﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤) ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥) ﴿كَرَامٍ بَرَزُوا﴾ [عبس].

قال ابن كثير رحمته الله: ولهذا استنبط العلماء من هاتين الآيتين أنَّ المحدث لا يمسُّ المصحف، لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن في الملاء الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم والانقياد له بالقبول والتسليم.
وبعد أن بينت الآيات علو شأن القرآن العظيم، وأنَّ الله أنزله لكي يؤمنوا به ويعملوا بموجبه، أنكرت أن يكون الأمر بخلافه:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ ٥.

أي: أفنحيه ونبعده عنكم لأنكم كنتم منهمكين في الإسراف، مصرين عليه؟! .
فالحكمة تقتضي إنزال القرآن عليهم، ومتابعة تذكيرهم به، ولو أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه، قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رُفِعَ حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله ﷻ عاد بعائده وكرمه ورحمته فكرره عليهم عشرين سنة^(١).
وقول قتادة لطيف المعنى جداً - كما قال ابن كثير - فالله جل وعلا من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهتدي به من قَدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.
وفي قراءة: (إن كنتم) بالكسر على أن الجملة شرطية، وما قبلها دل على جواب الشرط، والمعنى: لا نفعل ذلك.

* * *

المسرفون في الجهل والضلالة

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۖ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۖ فَاهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ تَطَشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۚ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۚ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۚ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْزَلْنَا بِهِ بَلَدَةً مِثْنًا ۚ كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ۚ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكُونَ ۚ لَئِنْ سَأَلْتُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ تَذْكُرُوا يَعْمَهُ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۚ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُسْقِلُونَ ۚ﴾ ١٤.

فإسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾.

أي: أرسلنا كثيراً من الأنبياء في الأمم السابقة.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وهي حكاية حال ماضية مستمرة، فيها تسلية لرسول الله ﷺ من استهزاء قومه.

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أي: فأهلكنا أشد من قوم النبي ﷺ بطشاً، وسَلَف في القرآن في مواضع كثيرة ذكر قصصهم وحالهم التي من حقها أن تسير مسير المثل، كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦].

ومن إفراطهم في الجهالة ومجاوزتهم الحد في الضلالة أنهم يعبدون غيره تعالى، مع إقرارهم واعترافهم بأنه الخالق:

﴿وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

ولهذا ذكرتهم الآيات ببعض نعمه سبحانه عليهم، الدالة على كمال قدرته وعلمه، وأنه وحده المستحق للعبادة والطاعة:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: الذي جعل لكم الأرض مكاناً ممهّداً لحياتكم وعيشكم - وفي قراءة: (مهاداً) - وجعل لكم فيها طرقاً تسلكونها في أسفاركم، لكي تهتدوا إلى مقاصدكم، وتستدلوا أيضاً بمقدوراته على قدرته.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾ أي: والذي نزل من السماء ماءً بمقدار معين، حسبما تعلقت مشيئته، فأحيينا بذلك الماء بلدة لا نبات فيها، وفي قراءة: (ميتاً) بالتشديد.

وتنكير (ميتاً) لأن البلدة في معنى البلد والمكان، والالتفات في (أنشَرْنَا) بنون العظمة لإظهار كمال القدرة في إحياء الأرض اليابسة.

﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: كذلك تبعثون من قبوركم أحياء كقوله في موضع آخر: ﴿كَذَلِكَ الشُّورُ﴾ [فاطر: ٩].

وقوله أيضاً: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: والذي خلق أصناف المخلوقات كلها، فمع كثرة أصناف المخلوقات، فإنَّ خالقها واحدٌ، وكل ما سوى الله مخلوق، لأنه زوجٌ له مقابل، والفرد المنزّه عن المقابل هو الله ﷻ كما مرَّ معنا عند قوله سبحانه: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: وجعل لكم ما تركبونه في البر والبحر، فغلب المتعدّي بنفسه على المتعدّي بغيره، يقال: ركبْتُ الدابة، وركبْتُ في السفينة، والمراد من الأنعام الإبل خاصة، فالبقر لا تُركبُ، وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «بينما رجلٌ راكبٌ على بقرةٍ التفتت إليه فقالت: لِمَ أُخْلِقُ لهذا، خُلِقْتُ للحرثِ»، قال: آمَنْتُ به أنا وأبو بكر وعمر، وأخذ الذئبُ شاةً فتبعها الراعي، فقال له الذئبُ: مَنْ لها يومَ السَّبْعِ يومٍ لا راعي لها غيري؟ قال: آمَنْتُ به أنا وأبو بكر وعمر». قال أبو سلمة: وما هما يومئذٍ في القوم. [رواه البخاري (٢٣٢٤)].

﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (١٣).

﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لتستقروا على ظهوره، ثم تذكروا نعمة ربكم بقلوبكم معترفين بها، ثم تحمدوه عليها بالستكم.

﴿وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: سبحان الذي ذلّله وجعله منقاداً لنا، وما كنا له مطيقين، فالله سبحانه هو الذي سخّره وضبطه لنا وليس لنا من القوة ما نسخره ونضبطه بها.

﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ (١٤).

أي: وإنا إلى ربنا لراجعون.

فعلى الإنسان أن يتأمل الحالة التي هو فيها، ويعتبر بما فيها، فالسفر في الدنيا يذكّره بالسفر إلى الآخرة.

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ بَعِيرِهِ خَارِجاً إِلَىٰ سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ» وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ وَزَادَ فِيهِنَّ: «أَيُّونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ، لِرَبَّنَا حَامِدُونَ» [رواه مسلم (١٣٤٢)].

القسمه الباطلة

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا حَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم أظهرت الآيات تناقض أقوالهم؛ حيث اعترفوا أولاً أن الله خالق السماوات والأرض، ثم نسبوا إليه الولد، ووصفوه سبحانه بصفات المخلوقين:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ فقالوا: الملائكة بناتُ الله، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ووصفت الآية الولد بالجزء، لأنه بضعة ممن وُلد منه أو ولد له، وهو مستحيل على الله تعالى، الذي لا يوصف بالانقسام مطلقاً، إذ الانقسام والتركيب من صفات المخلوقات، والله يتنزه عن ذلك.

وقيل: الجزء اسم للنساء، يقال: أجزأت المرأة إذا ولدت أنثى، ووجه بعضهم ذلك بأن حواء خلقت من جزء آدم ﷺ^(١). وفي قراءة: (جُزْءاً) بضمين.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ أي: إن الإنسان الذي يقول هذا القول ظاهرُ الكفر، مبالغ فيه، فهو يجحد نعم الله تعالى عليه، ويصف الله تعالى بصفات لا تليقُ بكماله وغناه.

ولهذا وجهت الآيات الخطاب إلى أصحاب هذا القول توبخهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ ﴿١٦﴾

أي: اتَّخذ ربكم لنفسه البنات وأخلصكم بالبنيين؟! فكيف اختار لنفسه المنزلة الأدنى، ولكم الأعلى، فهي قسمة باطلة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ﴿١٧﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴿[النجم].

فما أجهلهم! لم يقنعوا بأن جعلوا لله تعالى جزءاً حتى جعلوا هذا الجزء من أبغض الأشياء إليهم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾

أي: إذا بُشِّرَ أحدهم بالجنس الذي جعله للرحمن شبهاً، فالولد لا بد أن يشبه الوالد، صار وجهه أسوداً، واربداً غيظاً، وهو مملوء القلب من الكرب والكآبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿[النحل: ٥٨].

﴿أَوْ مَن يُنْسَوْنَ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ﴿١٨﴾

أو من يُرَبَّى ويشبُّ في الزينة، وهو في المجادلة والإدلاء بالحجة ضعيف؟ فلا يضاف إلى الله من هذا وصفه، ولعلَّ سبب ضعف المرأة في الجدال شدة حيائها. وقرئ: (يُنْشَأُ) بفتح الياء وإسكان النون، أي: ينمو وينبت. وفيه دلالة على إباحة الحلي للنساء، والإجماع منعقد عليه، والأخبار فيه لا تحصى^(١).

والآية ظاهرة في أنَّ النشوء في الزينة والنعموة من المعايب والمذامم بالنسبة للرجال، لأنه مِنْ صفات ربَّاتِ الحِجَال، فعلى الرجال أن يجتنبوا ذلك: وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين مِنَ الرجال بالنساء، والمتشبهاتِ مِنَ النساءِ بالرجال» [رواه البخاري (٥٨٨٥)].

وتأكيداً للتناقض في أقوالهم الباطلة قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾؟! أي: أحضروا خلق الله إياهم فشاهدوهم إنثاء؟! فإن ذلك لا يُعلم إلا بالمشاهدة كما قال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾؟! [الصفات: ١٥٠]. وفي قراءة: (أُشْهَدُوا) بهمزة داخلية على الفعل الرباعي المبني للمفعول، وفي قراءة أيضاً: (أَوْشْهَدُوا) بهمزة استفهام داخلية على همزة مضمومة مسهلة. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ أي: ستسجلُ عليهم شهادتهم، ويُسألون عنها يوم القيامة. وفي قراءة: (سنكتب شهادتهم).

* * *

التقليد الأعمى والترف

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنُنشَأُ مِنْ تَحْتَالٍ مَنْ يَتَّبِعُ آلِهَتَهُمْ بِهِمْ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِآهَدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم أضافت الآيات حكاية قول آخر من أقوالهم المتناقضة الدالة على شدة جهلهم وضلالهم:

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أي: لو شاء الله منا ترك عبادة الأصنام لمنعنا عن عبادتها، ولكن شاء منا عبادة الأصنام. فردّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: إن هم إلا يكذبون، فقولهم هذا لا يدل عليه دليل، بل هو محض الكذب، ومشيتته تعالى غير رضاه، كما سبق بيان ذلك عند قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ الآية [الزمر: ٧].

فعبادة الأصنام كفر، وهي باختيارهم وكسبهم، والله سبحانه لا يرضى بها، ولا أمرهم بها أيضاً، وهم مكلفون بأن تكون أعمالهم موافقة لأمره وشرعه لا لإرادته، إذ إرادته غيب عنهم، لا علم لهم بها، حتى يقع مراده سبحانه، ولهذا قال في الرد عليهم: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فلا حجة لهم من جهة العقل ولا من جهة السماع والنقل أيضاً.

﴿أَمْ أَنَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: هل آتيناهم كتاباً من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله فهم يأخذون بما فيه؟! .

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

فالقوم لم يأتوا بحجة عقلية أو عقلية، بل اعترفوا أنهم يقلدون آبائهم، وأنهم مهتدون بتقليدهم.

والأمة: الطريقة التي تؤم وتقصّد، من الأمّ وهو القصد^(١).

ثم كشفت الآية للنبي ﷺ على وجه التسلية والمواساة أن تقليد الآباء داء قديم منتشر على وجه الخصوص بين الأغنياء المترفين:

﴿وكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

وتخصيص المترفين بالذكر يشعر بأن التمتع وحب البطالة صرفهم عن النظر والتفكير إلى التقليد الأعمى، ودفعهم إلى المبادرة لإعلان كفرهم ومعارضتهم دعوة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ لَآتَيْنَاكُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: قال كل نذير لأمته: أنتقدون بآبائكم ولو جئتكم بدين أهدى مما وجدتم عليه آبائكم؟! وفي قراءة: (قُل) ويكون حكاية قول ماض أوحى إلى كل نذير.

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي: إنا ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهلى.

فالتقليد الأعمى أكبر العقبات والمعوقات القائمة في وجه كل دعوة إلى الإصلاح ومقاومة الفساد والظلم، والترف يقوّي نزعة التقليد الأعمى.

﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (٢٥).

فلا تكثرث بتكذيب قومك، فإن الله سوف ينتقم منهم إن أصروا على كفرهم وتكذيبهم.

* * *

براءة إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

واذكر يا محمد للمشركين من قومك قصة إبراهيم عليه السلام، وكيف تبرأ من ضلال أبيه وقومه، وخرج على عاداتهم البالية، ومعتقدات آبائهم الباطلة، وتمسك بالحق المؤيد بالدليل والبرهان، اذكره لهم لكي يقلدوه إن كانوا حقاً يريدون تقليد آبائهم، فإنه أشرفهم وأشهرهم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنني بريء من عبادتكم، لكن الذي خلقتني فإنه سوف يشيني على الهداية. فالاستثناء منقطع، وكأنه عليه السلام أراد أن يبين لهم بهذا الاستثناء أنه لا يستحق

العبادة إلا الخالق، وأن يشد أفكارهم إليه، كما مر معنا من أقواله: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٥) ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ (٧٦) ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء].

أو: إنني بريء من معبوداتكم إلا الذي فطرني، والاستثناء على هذا المعنى متصل، ولعل قومهم كانوا يعبدون الله والأوثان، لكن هذا المعنى فيه إيهام التسوية بين الله سبحانه وبين غيره جل وعلا.

أو: إنني بريء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، وتكون (ما) موصوفة.

و(براء) مصدر وُصف ﴿بِالْبَرَاءَةِ﴾ به نفسه مبالغة، ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدد، والمذكر والمؤنث، فلا يُثنى ولا يُجمع ولا يُؤنث. وقرئ: (بريء) و(براء) مثل كريم وكرام.

والجدير بالذكر أنَّ براءة إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه ذكرها الله تعالى في مواضع عديدة، ليتأسى به المؤمنون، وتكون قدوة لهم، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ومنها أيضاً: ﴿فَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْغَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

وأشار إليها سبحانه أيضاً في قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ولم يكتفِ عليه السلام بإعلان براءته من قومه من أجل دعوة التوحيد، بل أوصى بها أولاده وذريته ليبقى فيهم من يوحّد الله، ويدعو إلى عبادته وحده:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٨).

أي: وجعل إبراهيم كلمة التوحيد - وهي: لا إله إلا الله - باقية في ذريته،

فبقي فيهم من يوحّد الله ويدعو إلى عبادته وحده، لعلّ المشركين منهم يرجعون عن شركهم بدعاء الموحدين، فقد اهتم ﷺ بغرسها في نفوس أبنائه، ووصّاهم بها، قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

فأكرمه الله تعالى بأن جعله إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقد انتهت هذه الكلمة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ببركة الدعوات الخاشعات التي رفعها إبراهيم وولده إسماعيل إلى الله تعالى وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ورسول الله ﷺ أوسط قريش نسباً، يمتدُّ نسبه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث الشريف: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مَنْ وَلَدَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» [رواه مسلم (٢٢٧٦)].

وأخرجه الترمذي في سننه [٣٦٠٥] بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ...» وقال: هذا حديث صحيح.

قال القاضي عياض رحمه الله: «وَأَمَّا شَرَفُ نَسَبِهِ؛ وَكَرَمُ بَلَدِهِ وَمَنْشَأُهُ؛ فَمِمَّا لَا يَحْتَاجُ إِلَى إِقَامَةِ دَلِيلٍ عَلَيْهِ، وَلَا بَيَانَ مُشْكَلٍ وَلَا خَفِيٍّ مِنْهُ، فَإِنَّهُ نَخْبَةٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَسُلَالَةُ قُرَيْشٍ وَصَمِيمِهَا، وَأَشْرَفُ الْعَرَبِ وَأَعَزُّهُمْ نَفْراً مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَمِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَكْرَمَ بِلَادِ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى عِبَادِهِ»^(١).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ (٢٩).

أي: بل متعتُ أهل مكة وهم من ذرية إبراهيم بالمد في العمر والنعمة، فاغثروا بالمهلة، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد، حتى جاءهم القرآن الكريم ومحمدٌ عليه الصلاة والسلام يبيِّن لهم الأحكام، ويدعوهم إلى كلمة الحق والإيمان، ولكنهم أعرضوا وكذبوا.

* * *

إعراض واعتراض

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْصًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٣٢).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ (٣٠).

أي: ولمَّا جاءهم رسولُ الله ﷺ بدعوة الحق، وصفوه بالسحر، وأعرضوا عن اتباعه، واعترضوا على إنزال الرسالة عليه:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (٣١).

أي: لولا نُزِّلَ القرآن على رجل من أغنياء ووجهاء مكة أو الطائف. وهذا يدل على أنهم لم يعرفوا للنبي ﷺ منزلته، وما رأوه أهلاً لحمل الرسالة، فالرسالة منصبٌ عظيمٌ، لا تليقُ إلا بعظيم. ولم يعلموا أنها رتبة عظيمة

روحانية تستدعي عظم النفس في التحلي بالفضائل والكمالات القدسية، لا التزخرف بالزخارف الدنيوية^(١).

ورد الله على اعتراضهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري بكل ما فيه من تجهيل وتعجيب فقال:

﴿أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرًا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَهَرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟! أي: ليس الأمر مردوداً إليهم، بل إلى الله العزيز الحكيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه - كما قال ابن كثير رحمته - لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: نحن أوقعنا التفاوت بين العباد في الرزق، فأفقرنا قوماً، وأغنينا قوماً، وهم عاجزون عن الاعتراض عليه، فكيف يعترضون على تخصيص بعض عبادنا بالنبوة والرسالة وشأنها أعظم وأخطر من شؤون الدنيا؟!.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرًا﴾ أي: وخالفنا بينهم أيضاً في الملكات والمواهب والصفات، ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال، ويحتاج بعضهم إلى بعض، فيكون التعاون والتآلف. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ والنبوة وما تؤدي إليه خير مما يجمعون من حطام هذه الدنيا الفانية.

الزينة والمتاع

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ (٣٤) ﴿وَزُخْرَفٌ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥)

ثم بين تعالى حقارة الدنيا التي عدّها الكافرون مقياس التفاضل:

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣).

أي: لولا أن يجتمع الناس على الكفر لأجل المال لجعلنا لبيوت الكافرين سُقْفًا من فضة، وسلالم من فضة أيضاً عليها يصعدون.
وفي قراءة: (سُقْفًا) بفتح السين وإسكان القاف على الواحد، ويراد به الجمعُ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابٌ وَسُرُرٌ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ (٣٤).

أي: ولجعلنا أيضاً أبواب بيوتهم والأسرة التي ينامون عليها من الفضة.

﴿وَزُخْرَفٌ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣٥).

﴿وَزُخْرَفٌ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ولجعلنا لهم زينة من كل شيء يتزين فيه، ويتمتع فيه في الدنيا الزائلة الفانية، أو هو الذهب كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتُّ مِّن زُخْرَفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وَقُرِئَتْ (لما) بالتشديد والتخفيف، والمعنى: وكل ذلك هو متاع الحياة الدنيا.
﴿وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فلا يشاركهم فيها غيرهم.

فالدنيا هينة على الله تعالى يعطيها من يحب ومن لا يحب، كما قال: ﴿كَلَّا تَمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].
وقال النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء» [رواه ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: حديث حسن صحيح].

* * *

القدوة السيئة

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمُشْرِفَيْنِ فَيَسَّ الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَفْعَلَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتَكْمُرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي صَلَاحٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم كشفت الآيات سبب انصرافهم عن القدوة الحسنة إلى القدوة السيئة بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ومن يعرض عن ذكر الرحمن ويتعامى عنه ويتغافل، وهو القرآن الكريم، نضم إليه شيطاناً نسلطه عليه، يُغويه ويُضله، ولا يفارقه. وفي قراءة: (يقبض).
وفي الآية إشارة إلى أن المداومة على قراءة القرآن الكريم وذكر الله تعالى باسم من أسمائه الحسنی تبعيد الشيطان.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: وإن الشياطين ليصدون الغافلين عن سبيل الهدى، وفي الوقت نفسه

يَحْسِبُونَ أَنفُسَهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى الْهُدَى، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وكما كان الشياطينُ مقارنين لهم في الدنيا، فهم يقرنون معهم في الآخرة:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ﴾ (٣٨).

أي: حتى إذا جاءنا يوم القيامة قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس القرين أنت.

وفي قراءة: (حتى إذا جاءنا) على التثنية، والمراد: الكافر وقرينه.

وقوله: ﴿الْمَشْرِقَيْنِ﴾ تغليبٌ لاسم أحدهما على الآخر، كما يقال للشمس والقمر: القمران. ولأبي بكر وعمر: العمران. وللتمر والماء: الأسودان. وهذا التمني لا ينفعه ويقال له:

﴿وَلَن يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩).

أي: لن ينفعكم هذا التمني إذ ثبت وصحَّ أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا بإعراضكم عن ذكر الرحمن، فأنتم مشتركون في العذاب، كما كنتم مشتركين في الكفر.

أو: لن ينفعكم اشتراككم في العذاب، لأنَّ لكل واحد نصيبه الأوفر منه، ويقويه قراءة: (أنكم).

لقد أدى بهم إعراضهم عن ذكر الرحمن، واتباعهم القدوة السيئة إلى الاستغراق في الكفر والإفراط في الضلال حتى قال تعالى لنبهه عليه الصلاة والسلام مسلماً ومواسياً:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠).

فلا قدرة لك على هدايتهم مهما بالغت في دعوتهم، لأنهم أعرضوا عن

سماع الحق ورؤية أدلته، فصاروا كالصم الذين لا يسمعون، والعمي الذين لا يبصرون، فلا خلل ولا نقص في الداعي، إنما الخلل والنقص في المعرضين عن الدعوة فلا بد من الانتقام منهم:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٤١).

أي: فإن قبضناك قبل أن ترى عذابهم فإننا منهم منتقمون لا محالة في الدنيا.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢).

أو نرينك العذاب الذي وعدناهم، فإنهم في قبضة قدرتنا، وتحت قهر مشيئتنا، لا فرار لهم ولا نجاة.

ولقد أراه عليه الصلاة والسلام ذلك يوم بدر، وأقر عينه وعيون المؤمنين بالانتقام من رؤوس الكفر والضلال.

الثبات على الصراط المستقيم

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعَدُّونَ ﴿٤٥﴾.

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يستمروا على طريق الدعوة، ويثبتوا عليه دون انتظارٍ للنتائج، المهم في الدعوة الاستمرار والثبات حتى تكون دعوتهم خالصة لله تعالى، ولهذا قال الله تعالى لنبيه ﷺ إمام الدعوة:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣).

أي: تمسك بالذي أوحى إليك في القرآن من الأحكام والشرائع، إنك على

دينٍ قويم، ومنهج مستقيم، لا يزيغ عنه إلا ضالٌّ هالك.

﴿وإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمُكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤)

أي: وإنه لشرف عظيم لك ولقومك وهم العرب الذين أنزل القرآن بلغتهم.
أو: لشرف لك ولأمتك وهم المؤمنون، وسوف تُسألون يوم القيامة عن قيامكم بحقه، وتعظيمكم له، وعن شكركم هذه النعمة.

فالقرآن نزل بلغة العرب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لغتهم حتى يقفوا على معانيه، فَشَرَّفَ العربُ بذلك على سائر الناس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

أو إنه لتذكيرٌ لك ولقومك، ويبيِّن ما بكم حاجة إليه من الأحكام والشرائع، وسوف تُسألون عن العمل به، فهو شرفٌ لكلِّ مَنْ عمل به - كما قال القرطبي رحمه الله - سواءً كان من العرب أم من غيرهم.

وتابعت الآيات تؤكِّد صدق دعوته عليه الصلاة والسلام:

﴿وَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يَعْْبُدُونَ﴾ (٤٥)

فجميع الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن عبادة غيره، فالمراد من السؤال التقرير للمشركين أنهم على الباطل، وأنه لم يأت رسولٌ بعبادة غير الله تعالى، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

[النحل: ٣٦].

السلف والمثل

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا بَيِّنَاتُ السَّاحِرِ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوُا آلِيَّ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

ثم بين سبحانه أن فرعون وقومه كانوا سلفاً لمشركي قريش، فقد اعترضوا أيضاً على اصطفاء موسى ﷺ لمقام النبوة والرسالة بسبب فقره وقلة ما في يده من متاع الدنيا، كما اعترض مشركو مكة على اصطفاء الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام لمقام النبوة والرسالة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ولقد أرسلنا موسى ﷺ مؤيداً بالمعجزات إلى فرعون ومن حوله من وجهاء قومه، فقال: إني رسول رب العالمين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: استهزؤوا منها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها، وكذبوا موسى ﷺ، وأعرضوا عن دعوته.

فتتابعت عليهم المعجزات تصديقاً لموسى ﷺ، وفي بعضها شيء من العذاب تحذيراً لهم:

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: وما نريهم من معجزة إلا وهي مختصة بنوع خاص من الإعجاز، يميّزها عن غيرها، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون عن عنادهم وكفرهم، كالسنين والطوفان والجراد وغيرها كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْتٍ مُفْضَلَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].
وكلّما وقع بهم العذاب لجؤوا إلى موسى يسألونه أن يدعو ربه، ليكشف العذاب عنهم:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: يا أيها الساحر ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب بما أخبرتنا عن عهده إليك أننا إن آمنا كشف عنا العذاب، إننا لمؤمنون.
ويبدو أنهم نادوه بهذا النداء تعظيماً وتوقيراً، فللساحر عندهم مكانة رفيعة، وقد ذكر سبحانه في موضع آخر أنهم نادوه باسمه: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

وهذا يدل على أنهم نادوه باسمه، وقرنوا معه وصفه بصفة الساحر، فدعا موسى ربه، فكشف العذاب عنهم، مع علمه سبحانه أنهم لم يؤمنوا، كشفه عنهم إمعاناً لهم إلى الوقت الذي قدره بسابق علمه ومشئته لإهلاكهم:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: ينقضون عهدهم، ويصرون على كفرهم.

ثم بينت الآيات سبب إصرارهم وعنادهم:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوِيَّ الْيَسَّ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

فهو مغترَّب بما عنده من متاع الدنيا وزخارفها، فتساءلَ مختلاً متكبراً: أليس لي ملكُ مصرَ وأنهارها المتفرعة عن النيل، تجري تحت قصوري، وتروي جناني وبساتيني، أفلا تبصرون ذلك؟! .

فهذا في نظره يدل على أنه المستحق للطاعة والمتابعة دون نبي الله موسى، ولهذا أضاف قائلاً معرضاً بموسى عليه السلام:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ .

أي: بل أنا خير من هذا الذي هو ضعيف فقير، ولا يبين الكلام. قال ذلك افتراء على موسى عليه السلام، وتنقيصاً له، إذ كان في لسانه خلل يسيرٌ في النطق أبرأه سبحانه منه كما سبق لنا عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٥٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٥٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِّسَانِي ﴿٥٧﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿٥٨﴾﴾ [طه].

فاستجاب الله له فقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦].

فالفضلُ في نظر فرعون منوطٌ بما في يد الإنسان من متاع الدنيا وزينتها وزخرفها، ولهذا أضاف قائلاً:

﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي: هلا ألقى عليه أساور من ذهب إن كان صادقاً، فالذهبُ في نظر فرعون هو سبب الرياسة والتقدم، كما هو في نظر مشركي مكة عندما اعترضوا على رسالة النبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ﴾ أي: مقترنين بموسى محيطين به كما تحيط حاشية الملوك بهم تفخيماً لهم وتعظيماً.

﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾.

أي: فحمل فرعون قومه على الخفة والعجلة والطيش بما عنده من زينة الدنيا وزخارفها، فسارعوا إلى تقليده وطاعته؛ إنهم كانوا خارجين عن طاعة الله، ولذلك أطاعوا ذلك الفاسق كما يقال في الأمثال السائدة: إِنَّ الطيورَ على أشكالها تقع.

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: فلما اشتد غضبنا عليهم بسبب إفراطهم في الكذب والفسوق انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين.

وروى الإمام أحمد [١٤٥/٤]: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه: أَنَّ الرَسُولَ ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ لَهُ» ثم تلا ﷻ: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

فهو كقوله تعالى: ﴿سَتَنْدِرْجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «وجدت النعمة مع الغفلة»^(١).

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾.

أي: جعلناهم قدوة للكفار الذين يأتون بعدهم في استحقاق العذاب، وعظة وعبرة للناس بعدهم.

ويجوز أن يُراد بالمثل القصة العجيبة التي تسير مسير الأمثال، ومعنى

كونهم مثلاً أن يقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

* * *

الخصومة بالباطل

﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۖ وَقَالُوا يَا إِلَهُتُنَا حَيْرٌ أَمْرٌ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٥٧)

وبمناسبة ذكر المثل أظهرت الآيات شدة عناد مشركي قريش وجدلهم الباطل في عيسى ابن مريم عليه السلام، فقد جعل الله تعالى خلقه من أمه التي لم يمسسها بشر مثلاً على كمال قدرته تعالى، وأن الأسباب ليست هي المؤثرة، إنما الخالق والمؤثر هو الله القادر على الخلق بسبب ومن غير سبب:

﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۖ﴾ (٥٧)

أي: يعرضون، وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهاً، كما اتخذت النصراني عيسى ابن مريم إلهاً، قاله قتادة، ونحوه عن مجاهد قال: إن قريشاً قالوا: إن محمداً يريد أن نعبد كما عبد قوم عيسى عيسى، فأنزل الله هذه الآية.

وقد أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش إنه ليس أحد يُعبد من دون الله فيه خير» قالوا: ألسنت تزعمن أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً، وقد عبده النصراني، فإن كنت صادقاً فإنه كآلهم. فأنزل الله الآية. [رواه أحمد (٣١٧/١)].

﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمْ خَيْرَ أَمْرٍ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمْ خَيْرَ أَمْرٍ هُوَ﴾ أي: ألهتنا خير أم عيسى؟ .

وقال قتادة: ﴿أَمْرٍ هُوَ﴾ يعنون محمداً ﷺ، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿ألهتنا خير أم هذا﴾ وهو يقوي قول قتادة، ويقويه أيضاً قوله تعالى بعد ذلك مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام:

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلا إرادة الجدل، وهو شدة الخصومة بالباطل، والمجادل هو المخاصم، الذي لا يرغب في الحق، ولا يرضى به، ولهذا قال تعالى في وصفهم:

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: هم شديداً الخصومة بالباطل .

وفي الحديث الشريف: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعدَ هدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ . [رواه الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حسن غريب] .

* * *

عيسى عليه السلام والمثل

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مَكَرَ مَلَكِكَةٍ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَوَلِّمٌ لِّلْسَاعَةِ فَلَا تَمَثَّرُ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ .

وبينت الآيات حقيقة عيسى عليه السلام بقوله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ٥٩﴾ .

أي: ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وجعله مثلاً لبني إسرائيل يستدلون به على كمال قدرة الله تعالى.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ٦٠﴾ .

ومن كمال قدرته تعالى أنه لو شاء لخلق منكم يا رجالاً ملائكة يخلفونكم في الأرض، فحال عيسى عليه السلام - وإن كانت عجيبة - فالله تعالى قادر على ما هو أعجب من ذلك.

وفي الآية إبطالاً أيضاً لقولهم عن الملائكة بأنهم بنات الله كما مر معنا، فالملائكة ذوات ممكنة مخلوقة، خلقها سبحانه ابتداءً من دون توليد، وهو سبحانه قادر على أن يخلقهم بالتوالد كما خلق غيرهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ رَبِّهَا وَاتَّبِعُونْ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٦١﴾ .

أي: وإن عيسى عليه السلام بخلقه بغير أب دليل على قدرة الله على بعث الناس يوم القيامة، فلا تشكّن بها، واتبعوني فيما أخبركم به وأدعوكم إليه، فهو الصراط المستقيم الذي لا يضلّ سالكه، ولا يزيغ عنه إلا هالك.

أو إن عيسى ممّا يُعلم به مجيء الساعة، لأنّ نزوله من علاماتها الكبرى، فيعلم به دنوّها، ويؤيده قراءة: (وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ) والعلم هو العلامة، كما تؤيده الأحاديث الصحيحة الكثيرة، حتى قال ابن كثير رحمه الله: وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً.

وقد بوّب الإمام البخاري في «صحيحه» باباً خاصاً في: [٦٠] كتاب أحاديث الأنبياء، فقال: [٤٩] باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وأخرج فيه [٣٤٤٨]: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي

بيده، لبوشكنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعَ الْحَرْبَ، وَيَضَعَ الْجَزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ، حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا» [النساء: ١٥٩].

قال ابن حجر رحمته الله: وهذا مصيرٌ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ إِلَى أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: (لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) وَقَوْلِهِ: (قَبْلَ مَوْتِهِ) يَعُودُ عَلَى عَيْسَى، أَيْ: إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِعَيْسَى قَبْلَ مَوْتِ عَيْسَى، وَبِهَذَا جَزَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي مَا رَوَاهُ ابْنُ جُرَيْرٍ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ. وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عَيْسَى، وَاللَّهُ إِنَّهُ الْآنَ لَحَيٌّ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ آمَنُوا بِهِ أَجْمَعُونَ، وَنَقَلَهُ عَنْ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَرَجَّحَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ وَغَيْرُهُ.

قال العلماء: الْحِكْمَةُ فِي نَزُولِ عَيْسَى دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الرَّدَّ عَلَى الْيَهُودِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى كَذِبَهُمْ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَقْتُلُهُمْ، أَوْ نَزُولُهُ لَدُنْهُ أَجَلُهُ لِيُدْفَنَ فِي الْأَرْضِ، إِذْ لَيْسَ لِمَخْلُوقٍ مِنَ التُّرَابِ أَنْ يَمُوتَ فِي غَيْرِهَا، فَيُؤَافِقُ خُرُوجَ الدَّجَالِ فَيَقْتُلُهُ^(١).

وقد أيدت الأحاديثُ الصحيحةُ الكثيرةُ: أَنَّ عَيْسَى يَقْتُلُ الدَّجَالَ، مِنْهَا: حَدِيثُ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً، فَخَفَضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «غَيْرَ الدَّجَالِ أَخُوفَنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجَ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُكُمْ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجَ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَاْمُرُوا حَاجِبَكُمْ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَائِفَةٌ، كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُطَيْنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ...» فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ

دمشق، بين مهرودتين، واضعاً كَفِّه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجد ریح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بابٌ لدٌ فيقتله...» [رواه مسلم (٢٩٣٧)].

وكما أمرت الآياتُ باتباعه عليه الصلاة والسلام حذرت بعد ذلك من اتباع الشيطان:

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٢).

أي: ولا يصدنكم الشيطان عن اتباعي، فإنه عدوٌ لكم ظاهرُ العداوة، فلا تكونوا مثل بني إسرائيل في مخالفتهم لعيسى عليه السلام.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٦٣).

أي: ولما جاء عيسى بالمعجزات الدالة على صدقه قال لبني إسرائيل: قد جئتكم بالشرعة المحكمة، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة، فاتقوا الله بعبادته وحده، والتزام الشرعة التي كلفكم بها، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه.

ثم أعلن عليه السلام أنه يدعو إلى دين التوحيد الذي هو الصراط المستقيم:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٦٤).

أي: إني مخلوق مربوب لله تعالى، كما أنكم مخلوقون مربوبون له سبحانه، فهو وحده المستحق للعبادة، وهذا هو الصراط المستقيم، الذي لا يضلُّ سالكه.

ومع وضوح دعوته ﷺ، وكثرة المعجزات الدالة عليها؛ انقسموا إلى فرقي وأحزاب، ووقع الاختلاف بينهم:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾.

أي: اختلف الأحزاب من بين من بُعث عيسى إليهم، فويل للذين كفروا وأشركوا من عذاب يوم القيامة، فهو كما قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧].

* * *

رحم الإيمان والتقوى

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦﴾ الْأَحْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ يَنْعَادُوا لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَخْرَبُونَ ٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَلَذَّةٌ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٧١﴾ وَلِلَّهِ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْصَدْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٣﴾.

وهذا اليوم آتٍ لا ريب فيه، وكلُّ آتٍ قريبٌ، فلماذا لا يبادر مشركو مكة إلى الإيمان؟!.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦﴾.

أي: ما ينتظرون إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها. ويومئذٍ تنقطع بينهم كلُّ العلاقات المادية التي كانت في الدنيا، وتنقلب إلى عداوة وبغضاء وآلام وحسرات:

﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧).

﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: المتحابون في الأمور الدنيوية والمصالح المادية يعادي يوم القيامة بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، كما أخبرنا ربنا في آيات كثيرة؛ منها: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فالذين أحبوا فرعون وأطاعوه، واتبعوه لمناصبه وذهب، يلعنونه ويعادونه يوم القيامة، وكذلك المشركون الذين تعلقت أبصارهم بعظماء مكة والطائف، وأعرضوا من أجلهم عن النبي ﷺ.

﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أحباب وأصحاب في الدنيا والآخرة، ولا تنقطع خلتهم وصدقاتهم بالموت، فَرَحِمُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى أَقْوَى مِنَ الْمَوْتِ، يُكْرِمُهُمُ اللهُ تعالى يوم الفزع الأكبر ويناديهم قائلاً:

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (١٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (١٩).

ووصفه تعالى لهم بصفة الإيمان به والاستسلام لأحكام دينه وشريعته؛ جاء تعليلاً لهذه الكرامة العظيمة التي يتفضل بها عليهم. وفي قراءة: (يا عبادي).

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠).

أي: ادخلوا الجنة أنتم وقرناؤكم من المؤمنين تُسَرُّون وتكرمون. أو أنتم وأزواجكم المسلمات. والمعنى الأول ينسجم مع قوله السابق: ﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٧١).

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: وأكواب من ذهب أيضاً، تارة يطاف عليهم بصحاف وأكواب من ذهب، وتارة من فضة، لقوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (١٥) قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾.

وكأن ذكر صحاف الذهب هنا أمرٌ مقصود تعريضاً بالمترفين في الدنيا، الذين أعمى بريقُ ذهبها أبصارهم عن رؤية دلائل الحق، فأعرضوا عن اتباعه، وباعوا دينهم بعرضٍ قليل زائل، كما سبق معنا عند قول فرعون: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣]. فأين ذهب الدنيا وزخرفها من ذهب الجنة ونعيمها؟!.

ويؤيد ذلك أنَّ الإسلام حَرَّمَ استعمال آنية الذهب والفضة، فإنَّ استعمالها من مظاهر الترف.

وفي الحديث الشريف: عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تلبسُوا الحريرَ، ولا الديباجَ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنَّها لهم في الدنيا، ولنا في الآخرة» [رواه البخاري (٥٤٢٦)].

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَإِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ» [رواه مسلم (٢٠٦٥)].

﴿وَفِيهَا مَّا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ أي: وفي الجنة كل ما تشتهيه الأنفس، وتستلذه الأعين، فتسرُّ بمشاهدته.

وبعد هذا الخبر توجه الآيات الخطاب إلى أهل الجنة تشريفاً وتكريماً بقوله تعالى:

﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكنون أبداً.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وفي إشارته سبحانه إلى الجنة بـ (تلك) دلالة على أنها مطلوبة يسعى إليها طلابها، بينما أشار إلى جهنم بـ (هذه) تقريباً لها، وتخويفاً منها، وفي قراءة: (تستهي الأنفس)، (ورثتموها).

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: تأكلون بعضها، فنعيم الجنة لا ينتهي، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا كَثِيرٌ ﴿٧٣﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة].

* * *

نداء المجرمين في جهنم

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَسَاوِينَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَرِّقُهُمْ فِيهِ مُنْسَوْنَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا بِمَلَائِكَةٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ قَالَ إِنْ كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَمْرًا فَإِنَّا مُتَرَمِّضُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ تَسْمَعُونَ آتَانَا لَا تَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

فما قيمة متاع الدنيا الزائل بجانب نعيم الجنة الباقي الذي لا ينقص ولا يبديد؟! وما أعظم الفرق بين ذلك النعيم الخالد وبين متاع الدنيا الزائل الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزخرف]! بينما هي شر للمجرمين الغارقين بالإجرام والكفر:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

أي: لا يخففُ العذابُ عنهم، وهم فيه آيسون من الرحمة والنجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ .

أي: فما عذبهم سبحانه هذا العذاب إلا بعدله، فهم الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم وكسبهم، ويدفعهم بأسهم من النجاة إلى سؤال الموت:

﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ .

أي: ونادوا مالكا خازن جهنم: لئِمِثْنَا رَبُّكَ فَيُرِحْنَا مِنَ الْعَذَابِ. فيجيبهم بعد زمن طويل: إِنَّكُمْ مَقِيمُونَ فِي الْعَذَابِ، فلا خلاصَ لكم منه. ثم ذكَّره موبخاً بأن سبب شقائهم هذا كان بكسبهم واختيارهم:

﴿لَقَدْ حَسَنَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ .

أي: لقد بيَّنا لكم الحق، ووضحناه بالأدلة والبراهين، ولكنَّ أكثركم أعرض عنه، لأنكم تكرهون الحق ولا تُدْعِنون له. وبعضهم ما كان يكره الحق، ولكنه كفر تقليداً.

ويبدو كما مرَّ معنا أن أهل النار تتعدد نداءاتهم واستغاثاتهم فهم يستغيثون أولاً بخزنة النار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٧٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر].

فلما يسوا منهم نادوا مالكا، فلما يسوا منه نادوا ربَّ العزة والجلال: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٨١﴾﴾ [فاطر: ٣٧].

وبينت الآيات أنهم يستحقون هذا العذاب لكثرة جرائمهم، فهم لم يكتفوا بالإعراض عن رسالة النبي ﷺ والاعتراض على اختياره لحمل الرسالة، بل أضافوا إلى ذلك أنهم مكروا به عليه الصلاة والسلام، واثمروا فيما بينهم للتخلص منه، فأنزل الله تعالى يتوعدهم على ذلك بقوله:

﴿أَمْ أَمْرُؤَا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ (٧٩).

أي: أم أحكموا كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ، فإننا مبرمون كيدنا في إحباط مكرهم، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) و﴿وَإَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦) فَيَهْلُ الْكَافِرِينَ أَنَّهُمْ رُؤِيًا﴾ [الطارق].

وقوله أيضاً: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

والإبرام: الإحكام، وأبرمت الشيء: أحكمته.

وكان المشركون يتناجون سراً في ناديهم، وهم يأترون برسول الله ﷺ، فأنزل الله يتوعدهم ويفضحهم:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٨٠).

أي: أيحسبون أنا لا نسمع ما تكلموا به سراً، بلى نحن نسمع حديثهم، ورسُلنا من الملائكة أيضاً يسمعون ويكتبون.

توحيد وتنزيه

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ (٨١) سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَدَرَهُمْ بَحْصُوا وَيَلْعَنُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

وعادت الآيات بعد هذا الوعيد والتهديد والإثارة العاطفية الوجدانية إلى الأسلوب العقلي المنطقي لتذكّر المشركين بوحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الاتصاف بالولادة والولد، وبهذا تردّ على مزاعم المشركين الباطلة بأن الملائكة بناتُ الله، وتردّ أيضاً على الذين وصفوا عيسى عليه السلام بأنه ابن الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ (٨١).

أي: فأنا أول الخاضعين له، والمعظمين له.

فإن النبي ﷺ هو أعلم بالله، وبما يصحّ له، وما لا يصح، وأولى بتعظيم ما يجب تعظيمه، وهو كلام وارد على سبيل الفرض، المراد منه نفي الولد، ونقض كل شبهة يتعلّق بها المخالف، كما قال سعيد بن جبير للحجاج حين قال له: والله لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى، قال سعيد: لو عرفتُ أنّ ذلك إليك ما عبدتُ إلهاً غيرك^(١).

فإنكار الولد وتنزيهه تعالى عنه ليس لعنادٍ ومراءٍ، بل لتقرير الحق: وهو أن الله سبحانه منزّه عن الولد:

﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢).

فربُّ هذه المكونات العظيمة يتنزه عن الولد، وعن كل صفة لا تليق بوحدانيته وجلاله وكماله، وما أقوال المشركين إلا أقوال باطلة، هي محض الجهل واتباع الهوى والتقليد الأعمى، فلا تبال بهم:

﴿فَذَرَهُمْ خَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٨٣).

أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا بدنياهم بما فيها من زخرف ومتاع حتى يلاقوا يوم الحساب والجزاء.

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٤).

أي: والله هو المستحق أن يُعبدَ في السماء وفي الأرض، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله، العليم بما كان ويكون.

واتصافه سبحانه بكمال الحكمة والعلم دليل على استحقاقه العبادة وحده، فالآية تنفي الآلهة المزعومة السماوية والأرضية، وتؤكد على ألوهيته وحده ﷻ كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٥).

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: تزايد خيره سبحانه وعطاؤه على كل شيء، فأحسانه لم يزل ولا يزال ثابتاً في ازدياد، فأين عطاء فرعون وأمثاله من عطاء الله تعالى مالك السماوات والأرض وما بينهما؟!.

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وعنده وحده علم الساعة، فلا يعلم وقتها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فالجميع مربوبون لجلاله، منقادون لمشيئته، وإليه مرجعهم يوم الحساب والجزاء، وهذا يؤكد كمال علمه وحكمته سبحانه. وقرئ: ﴿يَرْجَعُونَ﴾ على الغيبة.

ثم أكدت الآيات كمال ملكه وسلطانه سبحانه في الدنيا والآخرة:

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٦).

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ﴾ أي: ولا يملك الذين يعبدون من دونه تعالى الشفاعة كما زعم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله.

﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: إلا من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه يشفع بإذنه تعالى، فالاستثناء متصل إن أريد بالموصول كل من عبد من دون الله لاندراج الملائكة والمسيح فيه، ومنفصل إن خصص بالأصنام.

وفي الآية إشارة إلى أن الإيمان ينبغي أن يبنى على شيء من النظر والتفكير لا على مجرد التقليد.

وكما أخبرت الآيات في صدر السورة عن إقرارهم بأن الله خالق السماوات والأرض، أخبرت في آخرها عن إقرارهم بأنه تعالى هو خالقهم أيضاً، فالخالق واحد وهو المستحق للعبادة:

﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧).

أي: فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بأنه وحده الخالق.

فبناء الإيمان على شيء من النظر والتفكير أمرٌ ميسور، تؤيده الفطرة، وتقويه الشواهد الكثيرة الآفاقية والنفسية.

صفح وسلام

﴿وَقِيلَ يَا أُولَئِكَ لَئِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

فكفرهم في الحقيقة كفر عناد وجحود، وتقليد أعمى للعقائد الباطلة المتوارثة، حتى شكى النبي ﷺ إلى ربه من ذلك:

﴿وَقِيلَ يَا أُولَئِكَ لَئِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: وقال محمد: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

وقرئ: (قيله) بالجر، أي: وعنده علم الساعة وعلم قيله، وبالنصب عطفًا على محل الساعة، أي: ويعلم قيله، والقليل والقول والقال والمقال واحد، ويجوز أن يكون الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، وجواب القسم: ﴿لَئِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والكلام خارج مخرج التحسر والتحزن والتشكي من عدم إيمانهم^(١).

ولهذا جاءت الآية الأخيرة في السورة تواسي النبي عليه الصلاة والسلام وهي تخاطبه:

﴿فَأَصْحَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: أعرض عنهم، ولا تبال بعنادهم وجحودهم، وقل قولاً فيه مسالمة لهم، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وعنادهم.

ففي الآية توجيه لطيف للنبي ﷺ لكي يحتمل أذاهم، ويصبر على إعراضهم، ولا يدعو عليهم، فهو ﷺ نبي الرحمة، يربي النفوس ويهذبها بحلمه

(١) روح المعاني: ١٠٨/٢٥.

وأناته وصبره، وما ذكره بعض المفسرين من أن المعنى المراد: أعرض عن دعواهم آيساً من إيمانهم^(١)، لا أراه هو المعنى المراد، فهو يصادم مهمة النبي عليه الصلاة والسلام المكلف بها، وهي الدعوة إلى الله تعالى، والصبر على كل المعوقات التي تواجهه، كما أنه لا يتفق مع ما سبق ذكره في صدر السورة عند قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

وقد ذكرنا ثمة أن الحكمة تقتضي إنزال القرآن الكريم عليهم، ومتابعة تذكيرهم به، ولو أعرضوا عنه، ولم يلتفتوا إليه.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ عن المشركين. ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم، واصفح عنهم فعلاً وقولاً.

فهو أفضل الأساليب في الدعوة إلى الله تعالى، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ومر معنا أنه عليه الصلاة والسلام بصبره ومصابرته وحلمه قد نجح نجاحاً باهراً بعد ذلك في تربية نفوس المشركين القاسية، وتهذيب طباعهم الخشنة، حتى أذعن أكثرهم إلى الإسلام، ودخلوا فيه طائعين مستسلمين.

فعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يأخذوا من هذه الآيات ومن سننّه عليه الصلاة والسلام العبر والعظات في الدعوة إلى الله تعالى، عليهم ألا يئسوا من هداية المدعويين، وأن يكرروا عرضها بأساليب متنوعة، فالقلوب بيده سبحانه، ولا يدري الداعية متى يفتح الله تعالى برحمته هذه القلوب المغلقة بأنوار هدايته. أسأله تعالى أن ينور قلوبنا بأنوار الكتاب المبين، تنزيل الحكيم العليم.

(١) انظر: تفسير البضاوي وتفسير النسفي للآية.

تفسير سورة الدخان إِنذَارٌ وَإِنقَامٌ فِي سُورَةِ الدَّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الليلة المباركة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِنْ عِدْنًا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

بدأ سبحانه سورة الدخان خامسة الحواميم في القرآن الكريم بقوله :

﴿حَمْدٌ ۝١﴾ .

ثم أقسم بالقرآن الكريم فقال :

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ .

أي : والكتاب الذي بيّن الله به كلّ ما يحتاج إليه المكلفون من الحكم والأحكام والشرائع في أمر دينهم .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ (٣).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي: إنا أنزلنا القرآن في ليلة مباركة؛ وهي ليلة القدر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

وهي في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٥].

ومن المعلوم: أنَّ القرآن الكريم نُزِّلَ على النبي ﷺ مفراً، أكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَوْقَهُ لِنُقْرَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكٍّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

ومر معنا في تفسير آيات الصوم في سورة البقرة [١٨٣ - ١٨٥]: أنَّ ابن عباس لما سئل عن ذلك قال: «إنَّه أنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام». وهو رأي جمهور العلماء.

وذهب بعضهم إلى أنه ابتدئ نزوله في شهر رمضان، وهو رأي الشعبي من علماء التابعين.

وأشار ابن حجر رحمه الله إلى التوفيق بين القولين بأنَّ نزوله إلى السماء الدنيا، وابتداء نزوله على النبي ﷺ كان في شهر رمضان، في تعليقه على قول ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

قال ابن حجر: وفيه إشارة إلى أنَّ ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان، لأنَّ نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان، كما ثبت من حديث ابن عباس، وكان جبريل يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين كما ثبت في

الصحيح [٦٦] كتاب فضائل القرآن، (٧) باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ عن فاطمة رضي الله عنها.

والمباركة: الكثيرة الخير، لنزول القرآن فيها، ونزول الملائكة، ومضاعفة ثواب العبادة، فهي خيرٌ من ألف شهر، ليس فيها ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

ثم بين تعالى أن من مقتضى إنزال القرآن الكريم حكمة الإنذار، وهو التحذير من العقاب: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

أي: في تلك الليلة المباركة يُكْتَبُ ويفضَّلُ ويبيِّنُ كلُّ أمرٍ محكم، لا يبدل ولا يغير، أو كل أمر ذي حكمة، وإن كون هذه الليلة مفرق الأمور ذات الحكمة يستدعي أن ينزل فيها القرآن الكريم الحكيم المحكم كما قال تعالى: ﴿كُنْتُ أَهْكُمْتُ إِيْنَكُمْ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّي حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

قال ابن عباس: يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة، ورزق ومطر، حتى الحج، يقال: يحج فلان، ويحج فلان. وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق، وقد وقع اسمه في الموتى.

ذكر ذلك القرطبي في «تفسيره» وقال بعده: «وهذه الإبانة لأحكام السنة إنما هي للملائكة الموكلين بأسباب الخلق»^(١).

وإنزال القرآن الكريم من أعظم الأحداث التي مرَّت على البشرية، عظَّمه سبحانه وفخَّمه بقوله:

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: أمراً أنزلناه على مقتضى علمنا وحكمتنا وتدبيرنا، وهو تفخيمٌ بعد تفخيم للقرآن الكريم.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: إنا كنا مرسلين محمداً ﷺ رحمة من ربك بخلقه، إنه هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم، يعلم شدة حاجتهم إلى رسالة الإسلام، وإنزال القرآن، وبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾.

أي: إن كنتم موقنين أنه مالك السماوات والأرض وما بينهما، ومدبر أمرهم، فعليكم أن تؤمنوا بالرسول ﷺ الذي أرسله إليكم.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

أي: لا معبود بحق إلا هو، بيده الحياة والموت، فهو ربكم ورب آبائكم الأولين شئتم أم أبيتم، وقرئ بالجر بدلاً من ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾.

فكما يرَبِّي سبحانه السماوات والأرض وما بينهما، ويدبر أمرهم، يرَبِّي النفوس المؤمنة، ويهذب القلوب المستنيرة، بهدي التنزيل الحكيم، فالقلوب تحيا بالاستجابة لهديه، والاستسلام لشرعه، وتموت بإعراضها عنه كما قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

دخان من السماء

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ولهذا وصف سبحانه أصحاب القلوب الميتة القاسية المعرضة عن هدي التنزيل الحكيم فقال:

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾.

أي: جاءهم الحق المؤيد بالأدلة والبراهين، وهم يشكون فيه لاعبين غافلين، لا يكلفون أنفسهم عناء النظر فيه، مع أنه أمر خطير وكبير، ولهذا توعدّهم بقوله:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فانتظر لهم يوم تأتي السماء بجذب ومجاعة، حتى يروا ما بينهم وبين السماء كهيئة الدخان.

ومن المعلوم أنه في سنوات القحط والجفاف يكثر الغبار، ويتكدّر الهواء، لقلة الأمطار المسكّنة له، وموت النباتات الممسكة للتربة.

﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: يحيط بالناس اللاعبين الغافلين قائلًا لهم بلسان حاله: هذا عذاب أليم، فانتبهوا من غفلتكم، وتوقفوا عن لهوكم ولعبكم واستهزائكم، فإنّ الأمر جدّ خطير وكبير.

ويبدو أن القوم أحسوا بالخطر، فانتبهوا من غفلتهم، وقالوا:

﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ (١٢).

أي: إنا مؤمنون إن كشفت العذاب عنا.

وفي الحديث الشريف: عن مسروق تلميذ ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ يحدث في كِنْدَةٍ فقال: يجيءُ دخانٌ يومَ القيامةِ فيأخذُ بأسماعِ المنافقينَ وأبصارِهِمْ، ويأخذُ المؤمنَ كهيةِ الزكام، ففرعنا، فأثبُت ابنُ مسعودٍ، وكان متكئاً فغضبَ فجلسَ فقال: مَنْ عَلِمَ فليقل، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فليقل: الله أعلم، إِنَّ اللهَ قال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا دعا قريشاً كَذَّبوه، واستعصوا عليه، فقال: «اللَّهُمَّ أعني عليهم بسبعِ كسبِ يوسفٍ» فأصابتهم سَنَةٌ حَصَّتْ (أذهبت) كلَّ شيءٍ، حتى كانوا يأكلون الميتة، وكان يقومُ أحدهم فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان من الجهد والجوع.

وفي رواية: حتى أكلوا الجلودَ والميتةَ، وجعل يخرجُ من الأرضِ كهيةِ الدخانِ، فأتاه أبو سفيان فقال: أيُّ محمد، إِنَّ قومَكَ قد هلكوا، فادعُ الله أن يكشفَ عنهم. فدعا ثم قال: «تعودوا بعد هذا». ثم قرأ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ (١) يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (٢) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ (٣) أَفَنُكْفَرُ عَادِيُونَ﴾ [الدخان]. قال عبد الله: أفيكشف عنهم العذاب يومَ القيامة؟ [رواه البخاري (٤٨٢٤)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خمسٌ قد مضين: «الزَّامُ، والرومُ، والبطشَةُ، والقمرُ، والدخانُ» [رواه البخاري (٤٨٢٥)].

قال ابن حجر: «ولا تدافع بين الروایتين، لأنه يُحمل على أنه كان مبدؤه من الأرض، ومنتهاه ما بين السماء والأرض».

وقيل: هو دخان يجيءُ قَبْلَ قيام الساعة، ولم يأتِ بعدُ، ويؤيد هذا القول الحديث الشريف: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: كان النبي ﷺ في غرفةٍ، ونحنُ أسفل منه، فاطلعَ علينا، فقال: «ما تذكرون؟» قلنا: الساعة، قال: «إِنَّ

الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خَسَفَ في المَشْرِقِ، وَخَسَفَ في المَغْرِبِ، وَخَسَفَ في جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، وبأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، وناز تخرج من قعر عدن ترحل الناس». وفي رواية ثانية: «العاشرة نزول عيسى ابن مريم» [رواه مسلم (٢٩٠١)]. ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين الآثار.

* * *

البطشة الكبرى

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَطُشُ الْطَّشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

وَعَلِمَ سبحانه أنهم كاذبون في قولهم: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢] كما سيأتي معنا، فردَّ عليهم قائلاً:

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: كيف يتذكرون ويتعظون بما أصابهم والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكُّر والاتعاظ ما هو أعظم منه عندما جاءهم الرسول ﷺ بالآيات البينات فلم يتذكروا وأعرضوا عنه:

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

وأضافوا إلى عنادهم وإعراضهم افتراءهم على النبي ﷺ وقولهم عنه: معلَّم مجنون، أي: قالوا تارة: يعلمه بشر، وأخرى: مجنون، فلا يُتوقع من مثل هؤلاء المعاندين أن تلين قلوبهم، وتتهذَّب نفوسهم، وما رفع الله العذاب عنهم إلا إكراماً للنبي ﷺ نبي الرحمة.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ (١٥).

أي: إنا نكشف العذاب عنكم زماناً طويلاً، وإنكم تعودون إثر كشفه إلى ما كنتم عليه من الكفر والطغيان.
وصيغة الفاعل في الفعلين دلاً على تحققهما، وقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبي ﷺ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من كفر وطغيان.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ (١٦).

أي: إنا ننتقم منهم يوم نبطش البطشة الكبرى.
والبطش: العنف والسطوة، والأخذ الشديد والبأس، والمراد من يوم البطشة: يوم غزوة بدر كما مرَّ معنا عن ابن مسعود رضي الله عنه، وأخرجه عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وهو قول مجاهد والحسن وأبي العالية وسعيد بن جبيرة ومحمد بن سيرين وقتادة.
وقيل: هو يوم القيامة، فقد أخرج ابن جرير وعبد بن حُمَيْد بسند صحيح: عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة^(١).

* * *

إهلاك المجرمين

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٩﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ ﴿١١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ ﴿١٣﴾ وَاتْرِكِ الْبَحَرَ رَهْوَإِ إِنَّهُمْ خُذٌ مُّعْرِفُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ثم أخبرت الآيات أن الانتقام من المجرمين المصرين على الكفر والطغيان سنّة من سننه تعالى التي لا تتبدل، أجراها سبحانه على فرعون وقومه بسبب إعراضهم عن دعوة موسى وطغيانهم وظلمهم:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: امتحنا قوم فرعون قبل قوم النبي ﷺ، وجاءهم رسول كريم هو موسى عليه السلام.

﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾﴾.

أي: قال لهم: أرسلوا معي بني إسرائيل، وكفوا عن ظلمهم، إني لكم رسول من الله، أمين على الرسالة.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٩﴾﴾.

أي: ولا تتكبروا على الله بالاستهانة برسوله، والإعراض عن رسالته، إني آتيكم بحجة واضحة تدل على صحة نبوتي وصدق رسالتي.

﴿وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: وإني اعتصمت واحتميت بربكم أن تقتلوني.

وفي قراءة: (عُثْ) بالإدغام.

ومرَّ معنا أن فرعون عزم على قتل موسى، وأنه ﷺ التجأ إلى الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢١﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر].

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِ﴾.

أي: وإن لم تؤمنوا برسالتي فاتركوني، ولا تتعرضوا لي بسوء. ومع هذا التلطف في الدعوة أصرَّ فرعون وقومُه على إجرامهم وطغيانهم، فدعا عليهم موسى ﷺ:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ فَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾.

أي: عريقون بالإجرام والفساد.

وما دعا ﷺ عليهم إلا بعد أن يئس من إيمانهم وتهذيب نفوسهم، فقد أجرى الله على يديه عدداً من المعجزات الباهرة فلم ينتفعوا بها، وأعرضوا عنها، ولما حان الأجل المسمى في علمه تعالى للانتقام منهم أوحى الله إليه:

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾.

أي: إن كان الأمر كما تقول فأسرِ بني إسرائيل ليلاً، إن فرعون وجنوده يتبعونكم إذا علموا بخروجكم. وفي قراءة: (فأسر) بوصل الهمزة من سرى.

﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾.

أي: اترك البحر مفتوحاً ساكناً على هيئته بعد أن تجاوزه مع بني إسرائيل، إنهم جند مغرقون.

ويبدو أنَّ موسى ﷺ بعد أن تجاوزَ البحرَ بمن معه أراد أن يضرب البحر كما ضربه أولاً فينغلق كي لا يتبعه فرعون وجنوده، فأمره الله أن يتركه مفتوحاً ساكناً على هيئته، ليدخله فرعون وجنوده، فلما دخلوا فيه أطبقه سبحانه عليهم، فأهلكهم وأغرقهم، وبهذا تمت كلمته تعالى، وتحققت مشيئته بإهلاكهم من خلال الأسباب الظاهرة التي قدرها بسابق علمه ومشيئته.

* * *

بكاء السماء والأرض

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُطْرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم أخبر تعالى عن حقارتهم وهوانهم وقلة شأنهم مع ما كانوا عليه من الغنى والنعيم:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ما أكثر الحقائق والعيون والمزارع والمنازل المزيّنة التي تركوها، وكانوا فيها متنعمين، يستمتعون بكل ما فيها. وقرئ: (فكهين).

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

أي: كذلك كان أمرهم ومصيرهم، وأورثناها قوماً آخرين، وهم بنو إسرائيل، فقد مكّنهم الله من التصرف فيها كما في قوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء].

لكنهم لم يرجعوا إليها، بل توجهوا إلى الأرض المباركة في بلاد الشام، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا

فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَمَّا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَتْ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ .

أي: هلك فرعون وقومه وبادوا، فلم يبال بهلاكهم أحد من أهل السماء والأرض، وما كانوا مهملين ومؤخرين إلى وقت آخر.

وفي الآية إشارة إلى أن الأرض والسماء تتأثران بموت الصالحين الذين يعمرنهما بطاعة الله وعبادته، يؤيده قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة].

وفي الحديث: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُّؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ بَابَانِ: بَابٌ يَصْعَدُ مِنْهُ عَمَلُهُ، وَبَابٌ يَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، فَإِذَا مَاتَ بَكَى عَلَيْهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾» [رواه الترمذي (٣٢٥٥)].

وفي تفسير ابن كثير للآية عن مجاهد: ما مات مؤمن إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، فقيل: أو تبكي؟ فقال: وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود، وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسيحه فيها دوي كدوي النحل.

ورحم الله سيد قطب عندما قال في تعقيبه على هذه الآية: ولو أحس الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إحياء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله، ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه، مقطوعين عنه، لا تربطهم به آصرة، وقد قطعوا آصرة الإيمان.

إسراف وطغيان

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَيْنَاهُمْ مِنَ الْأَيَّاتِ مَا فِيهِ نَكْتًا مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنشَأُوا بَابًا نَايَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمٌ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

هكذا نجّى الله بني إسرائيل، وانتقم من فرعون وقومه بسبب إسرافهم وطغيانهم، وقال معقباً على ذلك:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾.

وهو ظلم فرعون واستعباده بني إسرائيل، وقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: إنه كان متكبراً مبالغاً في الإسراف، جعلته الآية نفس العذاب لمبالغته فيه وشدة طغيانه.

﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ولقد اخترنا بني إسرائيل على عالمي زمانهم، ونحن عالمون بحقيقتهم.

﴿وَأَلَيْنَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ۖ﴾ (٣٣)

وأعطيناهم من عظام المعجزات الحسية التي لم نعطي مثلها غيرهم ابتلاء واختباراً، لنظهر عملهم، ونبين للناس أمرهم.
مهَّد الله بهذا التعقيب للحديث عن كفار مكة وإعراضهم عن دعوة الرسول ﷺ، وإنكارهم يوم الحساب والجزاء:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۖ إِنَّا هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ۚ﴾ (٣٥)
﴿فَأَنفُتُوا يَا بَنِيَّ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۚ﴾ (٣٦)

أي: إن كفار قريش ليقولون: ما النهاية إلا في الموتة الأولى، وما نحن بمبعوثين بعدها، فابعثوا آبائنا إن كنتم صادقين فيما تقولون من قيام الساعة.
وكلامهم هذا موجهٌ إلى الرسول ﷺ والمؤمنين.
وردَّ تعالى عليهم مهتداً متوعداً، فمثل هؤلاء المعاندين لا تناسبهم إلا لغة الوعيد والتهديد:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۚ﴾ (٣٧)

أي: أكفار قريش أقوى أم قوم تُبَّع الذي ملكوا الممالك شرقاً وغرباً، والذين من قبلهم من الأمم القوية؟! أهلكناهم لأنهم كانوا مجرمين.
ويمكن أن يكون تُبَّع هو ذو القرنين الذي ذكر في سورة الكهف، فهو رجل صالح مؤمن، ولهذا ذمَّ سبحانه قومه ولم يذمه.
أخرج الحاكم [٤٥٠/٢] وصححه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان تُبَّع رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه.

كما أخرج أحمد [٣٤٠/٥] والطبراني [٢٩٦/١١] وابن أبي حاتم: عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبَّعاً، فإنه كان قد أسلم».

ثم نفت الآيات نفياً قاطعاً أن يكون سبحانه قد خلق الخلق عارياً عن الحكمة:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٣٨﴾﴾ .

أي: عابثين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ .

أي: ما خلقناهما إلا بسبب الحق وهو الإيمان والطاعة والعبادة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فالمؤمنون الذين يعمرون الأرض بطاعة الله، هم الذين يعلمون حكمة خلقهم، ويقولون كما مر معنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ففي يوم الحساب والجزاء يظهر تعالى حكمته في خلقه، ولهذا أكدته الآيات بقوله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ .

أي: إن يوم الفصل بين الحق والباطل موعدهم أجمعين.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

أي: يوم لا يدفع ولا ينفع صاحب عن صاحبه شيئاً، ولا هم يُمنعون من العذاب.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: لا ينفع يومئذٍ إلا رحمة الله، المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه.

الزقوم والحميم

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْآثِمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ حُدُودُهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُودُوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم عرضت الآيات صوراً مرعبة من صور انتقامه تعالى من الطغاة المجرمين يوم القيامة:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْآثِمِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: المبالغ في الإثم، المصّر عليه.
وذكر كثير من المفسرين أنه أبو جهل، ولا شك أنها تنسحب على أمثاله أيضاً.

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: كالماء الحار عندما يشتد غليانه، أو كدردى الزيت الأسود، وهو عكره، سُمِّي مُهْلاً، لأنه يُمهل في النار ويترك.
وفي قراءة: (تغلي في البطن) أي: شجرة الزقوم تغلي في البطن.

﴿كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: تغلي كما يغلي الحميم.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ قرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ثم قال رسول الله ﷺ: «لو أن قطرةً من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن تكون طعامه» [رواه الترمذي (٢٥٨٥) وقال: حسن صحيح].

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: ويقال لخزنة جهنم: جرّوه واسحبوه بعنف إلى وسط الجحيم. وفي قراءة: (فاعتلوه) بالضم.

﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾.

والمصبوب هو الحميم لا عذابه، إلا أنه إذا صُبَّ عليه الحميم فقد صَبَّ عليه عذابه، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج].
ويقال له استهزاء وتقريعاً وتهكماً على ما كان يزعمه:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: ذق لأنك كنت تزعم العزة والكرم عند قومك في الدنيا.
وهذا استهزاء به، وتقريع له، ومعناه: إِنَّكَ أَنْتَ الذليل المُهان.
وفي قراءة الكسائي: (أُنْكَ) بالفتح.

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: تشكّون وتمارون فيه، كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور].

أمن ونعيم

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ زُوجْنَاَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَنَكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَصَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمَطْمُئِنِّ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْئِيهِ لِسَانُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْقُبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

وعرضت الآيات في المقابل صوراً من صور إنعامه تعالى على عباده المتقين :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾

أي : في مكان أمين يأمنون فيه من أي مكروه . وفي قراءة : (مقام) بضم الميم .

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾

أي : يقيمون في جنات وعيون ، لا تنقطع ولا تبيد ، ولا يتركونها كما ترك فرعون وقومه جنَّاتهم وعيونهم .

﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أي : متواجهين ، لا يرى بعضهم ظهور بعض ، فيزداد أنسهم ببعضهم .
ومرَّ معنا أن السندس : ما رقَّ من الديباج ، والاستبرق : ما غلظ منه .

﴿كَذَلِكَ زُوجْنَاَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

أي : وكما أدخلناهم الجنة زوجناهم بحور عين .
والحور : جمع حوراء ، وهي البيضاء الحسناء ، التي يحار الطرف في

حُسْنَهَا، أو لِحُور عَيْنِيهَا، وهو شِدَّةُ الْبَيَاضِ وَالسَّوَادِ. وَالْعَيْنُ: جَمْعُ عَيْنَاءٍ، وَهِيَ الْوَاسِعَةُ الْعَيْنِينَ.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَكَهَةٍ آمِنِينَ﴾.

أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه وهم آمنون من كل سوء، فالأمن يظللهم في كل شيء، في مطاعمهم ومشاربهم وملابسهم ومجالسهم، فلا خوف يعكر عليهم صفاءهم ويشغل بالهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي: لا يذوقون في الجنة الموت سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، فالاستثناء يؤكد النفي، فلا يذوقون فيها الموت أبداً، فهم آمنون منه.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حُزناً إلى حُزْنهم» [رواه البخاري (٦٥٤٨)].

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْخَوْا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبَوْا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا» [رواه مسلم (٢٨٣٧)].

﴿وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: ووقاهم سبحانه مع هذا النعيم عذاب الجحيم.

وهذا الأمنُ والنعيمُ والوقايةُ من عذاب الجحيم، كُلُّهُ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ سَابِقَةٍ اسْتَحَقَّاقٍ:

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٥٧).

لأنه وقاية من المكاره، وفوز بالمطلوب.
 وقرئ: (فضلٌ من ربك) بالرفع، أي: ذلك فضل من ربك.
 وفي ختام السورة ختمت الآيات بتذكير النبي ﷺ بدور القرآن الكريم وأهميته في تهذيب نفوسهم وتقويم اعوجاجهم:

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨).

أي: إنما يسرناه بلسانك ولغتك كي يفهموه، ويعملوا بموجه.
 فاستمسك به، ودُم على تذكيرهم بآياته، لعل قلوبهم تنتفع بهديه، وتستنيرُ بنوره، وإلا فانتظر ما يحل بهم:

﴿فَأَرْزُقْهُمْ مِّنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٥٩).

إنهم منتظرون ما يحلُّ بك.
 ولا يخفى ما في الآية من تهديد ووعيد، بالانتقام منهم إن أصرُّوا على كفرهم وعنادهم.. وقد فعل سبحانه ذلك في يوم بدر، يوم البطشة الكبرى.
 والحمد لله رب العالمين.

* * *

تفسير سورة الجاثية استِسْلَامٌ وَإِدْعَانٌ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مدارج الكمال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَأَخْلَفَ الْبَلَّ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥﴾

بدأ سبحانه سورة الجاثية سادسة الحواميم كما بدأ غيرها من الحواميم فقال :

﴿حَمْدٌ﴾ .

ثم نوّه تعالى بشأن القرآن الكريم :

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ .

فهو الكتاب المنزل من الله العزيز الحكيم على النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

ثم لفتت الآيات الأنظار إلى الدلائل والبراهين الدالة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته، والمبثوثة في جميع المكونات الآفاقية والنفسية، وكلها تدعو إلى الإذعان لحكمه والاستسلام لأمره:

﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾.

أي: وفي خلقكم في أطوار مختلفة، وفي ما ينشره ويفرّقه من دابة، آيات لقوم يوقنون بوجود الله ووحدانيته.

﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

فالمنصفون من الناس إذا نظروا في السماوات والأرض نظراً صحيحاً موضوعياً علموا أنها حادثة مخلوقة لا بدّ لها من خالق، فأمنوا به، فإذا نظروا في خلق أنفسهم، وتنقلها من حالٍ إلى حالٍ، وفي خلق ما ظهر على الأرض من أصناف الحيوان، ازدادوا إيماناً بوجود الخالق، وأيقنوا بكمال قدرته، وباهر حكمته، فإذا نظروا في سائر الحوادث المتجددة، كاختلاف الليل والنهار، ونزول الأمطار، وتصريف الرياح شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، عقلوا هذه الحوادث، واستحكم علمهم بأنّ مدبرها ومحدثها إله واحد، وعُدّوا بذلك من العقلاء أولي الألباب الذين أحسنوا الانتفاع بعقولهم.

هكذا يرتقي الإنسان في مدارج الكمال، وينتقل من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، فالإنسان يشرف بمعرفة الله تعالى، ويكمل بالإيمان به ﷻ، وكلما ازداد الإنسان معرفةً بربه، ازداد خشيةً له وتعظيماً، فكان الآيات تبين أفضل الطرق في تربية النفس وتهذيبها وتكميلها، ولهذا قال تعالى منوهاً بما فيها:

﴿وَلَا آيَاتُ اللَّهِ تَنْلَوُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَآئٍ حَديثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾.

أي: تلك آيات دلائله التي تدل عليه سبحانه، نتلوها عليك بالحق الثابت

المؤيد بالدليل والبرهان، فإذا أعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها، فلن يؤمنوا بغيرها، ففيها البراهين القاطعة والحجج الساطعة التي لا توجد في غيرها.

سبيل الهدى والفلاح

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ ۝٩ مِّن رَّأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۖ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۖ ۝١١ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْزِيَ الْفُلْكَ فِيهِ بِأَمْوَالِكُمْ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۖ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۖ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۖ ۝١٣ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۖ ۝١٤ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۖ ۝١٥﴾

فمن لم ينتفع بها ولم يستجب إلى لغة المنطق والعقل؛ لا تناسبه إلا لغة الوعيد والتهديد:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ﴾

وويل: كلمة تهديد ووعيد، تقال لمن يريد الله تعذيبه، كما مر معنا.
والأفاك: الكذاب المبالغ في الكذب.
والأثيم: مرتكب المعاصي والآثام الكثيرة.

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۖ﴾

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: يسمع آيات القرآن الكريم تُقرأ عليه، ومع ذلك يتمادى في كفره، متعاضماً في نفسه، كأنه

ما سمعها، فسماع القرآن الكريم كافٍ شافٍ، يكفي مريد الحق ليعرفه، ويدعن له، فلا حجة للمعرض عنه.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ على إصراره على الباطل، وإعراضه عن الحق.
ولا يخفى ما في الوعيد بلفظ البشارة من تهكُّم مرير بهذا الأفاك الأثيم.
إنَّ إعراضه عن الحق أدى به إلى انحطاطه، وتسفيهه إلى حدِّ الاستهزاء
بآيات القرآن عندما يسمعها ويعلم أنها منها:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة لهم عذاب يهينهم ويدلُّهم.

﴿مَنْ زَارَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿مَنْ زَارَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم ومآلهم إلى جهنم.

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا يدفع عنهم شيئاً من عذاب جهنم ما كسبوا من الأموال والأولاد، ولا ما عبدوا من دون الله من آلهة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولا نجاة لهم من العذاب العظيم إلا إذا تمسكوا بهدي القرآن الكريم.

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾.

﴿هَذَا هُدًى﴾ فهو سبيل الهداية والفلاح لا فلاح بغيره، فكانه عين الهدى.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ﴾ أي: والذين أعرضوا عنه وكفروا بآياته لهم أشد العذاب.

ومن الآيات المؤدية إلى سبيل الهدى والفلاح الدالة على كمال فضل الله وإحسانه :

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ أي : لتجري السفن فيه بمشيئته وقدرته كما في قوله سبحانه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٧﴾﴾ إِنَّ يَسَاءَ يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿[الشورى]﴾ .

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي : ولعلكم تشكرونه سبحانه على هذه النعم فتتبعون سبيل الهدى والفلاح .

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ فكل ما في السماوات والأرض مسخر لمنافعكم بمشيئته تعالى وقدرته ، فهو وحده المحسن المتفضل الخالق المدبر ، وكلُّ شيء في هذا الوجود من الله وإليه ، فهو مُنشِئُه ومدبِّرُه ، ولا يحدث شيء من دون محدث أحدثه وخالق خلقه .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعرفون فضله تعالى عليهم والمكانة العالية الرفيعة التي رفعهم إليها .

وعليهم أن يقابلوا إحسانه وفضله سبحانه بالإحسان إلى عباده :

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أي : يعفوا ويتجاوزوا عن الذين لا يرجون ثواب الله ، أو لا يخافون بأس الله ونقمته ، فهو توجيه كريم للمؤمنين ، وتبئيت لهم في مواجهة أذى الكافرين وظلمهم وبغيهم ، فإنَّ الله سبحانه سينتقم منهم ، وعلى المؤمنين أن يكلوا أمرهم إليه .

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فالله هو الذي يجزيهم بما كانوا يكسبون من خير أو شر، فلكل أجل عنده كتاب، والله لا يعجل لعجلة عباده، وكل إنسان مسؤول عن عمله:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥﴾

فلكل نفس ثواب عملها الصالح، وعليها عقاب عملها السيئ، ثم إلى ربكم ترجعون، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

* * *

اعتبار واستبصار

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾
 ﴿وَأَيَّبْنَاهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا أَخْلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنَهْيِهِ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٧﴾ ثُمَّ حَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا نَصْرُكَ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

وبنو إسرائيل أقرب مثال واقعي من تاريخ الأمم يُذكر للاعتبار والاستبصار، فهم من الأمم التي تفضل الله عليهم بنعم كثيرة، وبوأهم بين الأمم والشعوب مكانة رفيعة، فقابلوا نعم الله عليهم بالجحود والكفران:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أنزل الله عليهم التوراة، ومكن لهم في الأرض، واختار منهم كثيراً من الأنبياء.

﴿وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: وفضلناهم بما آتيناهم على عالمي زمانهم.

﴿وَعَايَنَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٧).

﴿وَعَايَنَهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أي: وأعطيناهم معجزات واضحة أجراها سبحانه على أيدي رسله تبين لهم الحق وترشدهم إليه.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فما وقع الخلاف بينهم إلا من بعد ما جاءهم ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم، وإنما اختلفوا لتحاسد بينهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: إن ربك يفصل بينهم يوم الحساب والجزاء فيما وقع بينهم من اختلاف.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨).

ثم جعلناك يا محمد بعد اختلاف أهل الكتاب على شريعة عظيمة من أمر الدين، فتمسك بها، ولا تتبع أهواء الجهال النابعة من شهواتهم.

﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٩).

﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن اتبعتمهم. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فلا يوالِيهم، ولا يتبع أهواءهم إلا من كان مثلهم.

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأنت قدوتهم وإمامهم، فذم على ولاية الله، وأعرض عما سواه، وذلك باتباع القرآن الكريم، فهو سبيل الهدى والفلاح.

﴿هَذَا بَصِيرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

أي: هذا القرآن يبصِّرُ الناسَ طريقَ الفلاح والنجاح، فإنَّ ما فيه من معالم الدين وأحكام الشريعة بمنزلة البصائر لقلوب الموقنين، يهديهم الله به من الضلالة ويرحمهم.

التمييز بين المتفاضلين

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾

فلا بدَّ أن يمتازوا عن غيرهم بسلوكهم وأعمالهم وأخلاقهم، وكما اختلفوا في الحال لا بد أن يختلفوا في المصير والمآل:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٢١﴾

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيُهُمْ وَمَمَائِهِمْ﴾ أي: أيظن الذين اكتسبوا المعاصي والكفر أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات؟! لا، فالمؤمن مؤمن في الدنيا والآخرة، والكافر كافر في الدنيا والآخرة، وشتان ما بينهما في الحال والمآل، ولا يعقل أن يسوي الله بين المتفاضلين، وهو الحَكَمُ العدل ﷻ.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي ساء حكمهم هذا، وهو الحُكْم بالتساوي بين المؤمنين والكافرين.

وفي قراءة: (سواءٌ محياهم ومماتهم) برفع (سواء) على أنه خبر مقدم، وما بعده مبتدأ.

وكيف يسوي سبحانه بينهم، وقد خلق السماوات والأرض على أساس الحق والعدل؟! فالحق أصيل في بناء الكون، وما أنزل الله الميزان والشرعة وقرر الحساب والجزاء إلا لحماية هذا الحق:

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ والحق يستدعي انتصار المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن.

وإذا لم يتحقق هذا في الحياة الدنيا لا بد أن يتحقق في الآخرة، فتُجْزَى كل نفس بما كسبت:

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

* * *

التحذير من اتباع الهوى

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وعادت الآيات إلى التحذير من اتباع الهوى، وبيان ما يؤدي إليه من إغراض عن الحق وانهماك في الضلال:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾؟! أي: أنظرت إلى من ترك متابعة الهدى إلى

مطاوعة الهوى، فهو يعبد هواه، فلا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه، فالسؤال فيه تعجيب من حاله.

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: خذله الله، وهو عالم بضلاله وفساد جوهره.

﴿وَوَخَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً﴾ فلا يقبل موعظة، ولا يعتقد حقاً، ولا يبصر هدىً، فالشر في متابعة الهوى، والخير في مخالفته.

﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يهديه أحد بعد أن أضله الله، أفلا تذكرون هذه الحقيقة، وتتعظون بها، فالحوادث كلها لا تحدث إلا بمشيئته تعالى وقدرته حتى الهدى والضلال، وقرئ بالتخفيف والتشديد (تذكرون، تذكرون).

* * *

الرد على الدهرية

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (١٤) وَإِنَّا نَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوا زَيْنَابًا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحِبُّكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنْكُمْ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ ﴿١٧﴾ .

ومن صور ضلالهم وأتباعهم لأهوائهم أنهم يضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان، وينكرون وجود الخالق المحيي والمميت:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (١٤).

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: وقالوا: ما الحياة

إلا الحياة الدنيا التي نحن فيها، نموت ونحيا فيها، ولا حياة بعدها، وما يهلكنا إلا مرور الزمان.

﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: وما يقولون ذلك من علم، إن هم إلا يتوهمون ويتخيلون.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: يُوْذِنُنِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» كذا أخرجه البخاري في «صحيحه» [٤٨٢٦].

وأخرجه الطبري بهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: إِنَّمَا يَهْلِكُنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، هُوَ الَّذِي يَمِيتُنَا وَيُحْيِينَا، فَقَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا...﴾ الآية قال: فيسبون الدهر»^(١).

وسبق معنا في سورة البقرة مناظرة إبراهيم عليه السلام لأمثال هؤلاء المغرورين المخدوعين في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْتَبِرُ قَالَ أَنَا أَخِي وَأُمِّيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَلْيَكُ اللَّهُ بِأَقْسَمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾^(٢).

ويضيفون إلى كفرهم هذا جحود يوم القيامة محتجّين بحجج باطلة واهية:

﴿وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ءَايَتُنَا بِآيَةٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَنُؤَوْنَ بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣).

أي: وإذا قرئت عليهم آيات القرآن الناطقة بالحق أعرضوا عنها محتجّين بما لا يصلح أن يكون حجة، وهو قولهم: ﴿أَتَنُؤَوْنَ بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأننا نُبعث بعد الموت.

وقرئ برفع: (حجّتهم) على أنها اسم كان، ويكون المعنى: ما كان حجّتهم شيئاً من الأشياء، إلا هذا القول الباطل، أما القول الحق المؤيد بالدليل والبرهان فهو ما أمر النبي ﷺ أن يردّ به عليهم:

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦).

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ أي: الله يحييكم ابتداءً، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، لا كما زعمتم أنكم تحيون وتموتون بمجرد مرور الزمان والدهر، فالإحياء والإماتة حوادث لا بد لها من محدث مختار، قدرها بمشيئته وسابق علمه.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك في جمعكم، فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة، والحكمة تقتضي الحساب والجزاء، والإتيان بآبائكم قبل هذا اليوم لا حكمة فيه، ولهذا قدر سبحانه امتناع وقوعه.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهلهم وقصورهم في التفكير والنظر، فالنقص والخلل فيهم، بسبب انهماكهم في شهواتهم، وتغلب أهوائهم عليهم، فالحق واضح أبلج، مؤيد بالحجج الناطقة والبراهين الساطعة.

ثم قررت الآيات كمال سلطان الله تعالى في ملكه، وأنه وحده المتصرف والمؤثر فيه، فلا تأثير للزمان والدهر، والحوادث لا بد لها من محدث، والزمان ليس إلا ظرفاً لها لا تأثير له بها:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٧).

فسلطانه تعالى مطلق لا حدود له في الدنيا والآخرة، وفي هذا اليوم يخسر المبطلون، الذين ينسبون الحوادث إلى الدهر.

* * *

من مشاهد يوم القيامة

﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ تُنْقَلُ عَلَيْهِمْ فَاشْتَكَرْتُمْ وَأَنْتُمْ قَوْمًا تُحَرِّمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْكَوُكُمْ كَمَا نَسَكَّوْا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ بِأَنْكُمْ أَنْتُمْ ءَابَتِ اللَّهُ هُرُورًا وَعَرَّكْتُمْ لِحِيوَةِ الدُّنْيَا فَأَلِيقَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وعرضت الآيات تعظيماً لشأن هذا اليوم - يوم القيامة - وتهويلاً له مشهداً

من مشاهدته:

﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾ أي: باركة على الركب، ممّا يدل على شدة خوفهم

وغاية خضوعهم وذلّتهم.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: تُدعى إلى كتاب أعمالها للحساب

والجزاء، ويقال لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا من خير أو شر.

﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: هذا كتابنا يشهد عليكم بما عملتم شهادة حق، لا زيادة فيها

ولا نقصان، إنا كنا نأمر الملائكة الكرام أن تكتب ما كنتم تعملون.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٣٠)

أي: فيدخلهم الله في رحمته الموصلة إلى جنته، فيفوزون الفوز الواضح الخالص عن الشوائب والأكدار.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (٣١)

وأما الذين كفروا فيقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن الإيمان بها، فكنتم قوماً عادتْهم الإِجرام، أو عريقين في الإِجرام؟! ومن إجرامكم إنكاركم يوم القيامة:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ (٣٢)

أي: قلتم استبعاداً لها واستغراباً: إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين بوقوعها.

وكان هؤلاء فريق آخر غير الدهرية المنكرين وجود الخالق ﷻ.

﴿وَبَدَأْتُمْ سَبَاتًا مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٣)

أي: ظهر لهم عقوبات أعمالهم عندما عاينوا قبحها، وعرفوها، ونزل بهم جزاء استهزائهم. ولما كان الجزاء من جنس العمل يقال لهم:

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ﴾ (٣٤)

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: نترككم في العذاب كما تركتم في الدنيا الإيمان بهذا اليوم، فلم تبالوا به، وتركتم الاستعداد له. ﴿وَمَأْوُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرِينَ﴾ يخلصونكم منها.

﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۖ وَغَرَضَكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ (٣٥).

﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ أي: ذلكم العذاب بسبب إعراضكم عن الدلائل التي تهذب نفوسكم، وترشدكم إلى الحق، فلم تحفلوا بها، ولم تقبلوا عليها، وأقبلتم على الدنيا مغترين بها: ﴿وَوَغَرَضَكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ﴾ أي: ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم لفوات أوانه.

* * *

الحمد والكبرياء لله تعالى

﴿قُلْ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦) ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧).

وختمت آيات السورة بإعلان الحمد لله، وفيه - كما مر معنا - إقرار بكمال ذاته وصفاته وإحسانه، وإذعان وانقياد لآياته وأحكامه:

﴿قُلْ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦).

فكل شيء مربوب لله تعالى، فهو خلق من خلقه، وتحت قهر تصرفه ومشيئته.

﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٧).

﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وله العظمة والجلال، والقدرة والكمال في كل المكونات، إذ هي أثر من آثار قدرته وصنعتة، وباهر حكمته، فعظموه، ومجدوه، وأذعنوا لأحكام دينه وشرعه في تنزيله تنزيل الحكيم:

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: وهو العزيز الذي لا يُغْلَبُ، الحكيمُ في كل ما قضى وقَدَّر، فالكبرياءُ صفةٌ من صفات كماله وجماله، لا يشاركه فيها أحد، ولا تليقُ بغيره ﷻ.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالَا: قال رسول الله ﷺ: «العزُّ إزارُهُ، والكبرياءُ رداؤُهُ، فمن يَنَازِعَنِي عَذْبَتَهُ» [رواه مسلم (٢٦٢٠)].

والضمير في (إزاره، ورداؤه) يعود إلى الله تعالى للعلم به، وهذا وعيدٌ شديدٌ في الكبر، وتسميته إزار ورداء مجازٌ، واستعارة حسنة، كما تقول العرب: فلان شعاره الزهد، ودثاره التقوى، لا يريدون الثوب الذي هو شعار أو دثار، بل معناه: صفته كذا.

اللهم اجعلنا ممن يعظّمُك ويمجّدُك، ويدعُن لأحكام دينك وشرعك يا رب العالمين، والحمد لله ربّ العالمين.



تفسير سورة الأحقاف الدَّعْوَةُ وَالاسْتِجَابَةُ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
دعوة الحق ودعوة الباطل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ﴾ تَزِيلُ الْكَتِبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَحَلَّ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَثْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَذَرُهُمْ عَلَىٰ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَصْلٌ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

بدأ سبحانه سورة الأحقاف سابعة الحواميم كما بدأ سورة الجاثية قبلها فقال :

﴿حَمْدٌ﴾ تَزِيلُ الْكَتِبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ .

ثم بيّن سبحانه أنَّ الحقَّ أصلٌ أصيلٌ في خلق هذا الكون، ولذا قدّر له أجلاً مسمى ينتهي إليه؛ هو يوم الحساب والجزاء :

﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ (٣).

فلا يؤمنون به، ولا يستعدون له.

فأمريت الآيات النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم توبيخاً وتقريعاً:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: أخبروني عن حال آلهتكم التي تعبدونها من دون الله أي شيء خلقوا من الأرض؟! أم لهم شركة مع الله في خلق السماوات تستحق من أجلها العبادة؟!.

﴿أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: انتوني بكتاب من قبل هذا القرآن، أو بقية من علم يؤثر عن الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة إن كنتم صادقين في دعواكم.

فالدعوة لا تصح من غير دليل عقلي أو سمعي، وحيث لم يقم عليها دليل فهي دعوى باطلة، ولهذا حكمت الآيات على أصحابها بالضلال:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (٥).

أي: لا أضل ممن يدعو آلهة من دون الله لا تسمع ولا تجيب ما دامت الدنيا، وهم أيضاً عن دعاء المشركين غافلون، لا يشعرون ولا يدرون، وكذلك لا تجيب أيضاً في الآخرة، فما بعد هذه الغاية يوافق ما قبلها ويزيد عليها:

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ .

أي: وإذا حُشِرَ الناس يوم القيامة كان المعبودون أعداءً للعابدين، ويتبرأ المعبودون أيضاً من عبادة الكافرين إياهم، كما يتبرأ إبليس عندما يقول لأهل النار: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ردود على أباطيل

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِّي افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَذِبٌ بَيِّنٌ وَنَسْتَكُفُّهُ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ أَرْسَلْتُ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِّي أَنبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ .

ثم انتقلت الآيات إلى حكاية ما هو أشنع وأقبح من إعراضهم، فالمشركون لم يعرضوا فقط عن دعوة النبي ﷺ، بل اتهموه بالسحر والكذب:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات في بيان ما يلزم بيانه.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بادر الذين كفروا أول سماع الحق من غير تفكير وتأمل إلى وصفه بأنه سحر مبين.

ثم أضافوا إليه قولاً أقبح من القول الأول، وهو اتهام الرسول ﷺ بالافتراء والكذب على الله تعالى، ولهذا حكته الآيات بأسلوب الانتقال والإضراب المتضمن الإنكار والتوبيخ:

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ .

﴿أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أمر رسول الله ﷺ أن يرُدَّ عليهم معلناً ضعفه وخوفه من الله تعالى: فَإِنْ كُنْتُ مُفْتَرِيًّا كَمَا تَقُولُونَ فَلَا تَمْنَعُونَ عَنِّي شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى .

وكيف أجترأ وأعرض نفسي لعقابه وانتقامه وهو العليم بكل شيء: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: هو أعلم بما تخوضون فيه من الطعن في آياته ووصفها بالسحر والافتراء.

﴿كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: تكفيني شهادته تعالى، فهو يشهد لي بالصدق والبلاغ، ويشهد عليكم بالكذب والإنكار، ومع ذلك فإنكم إن آمنتُمْ يغفر ما سلف منكم ويرحمكم.

ولا شك أن شهادة الله العليم الخبير أعظم شهادة، قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء].
وتابعت الآيات تردُّ على أباطيلهم وضلالاتهم:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾﴾ .

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لست أول رسول أرسل، فقد جاءت الرسل من قبلي، فلماذا تكذبونني، وتستكبرون بعثتي إليكم؟! .

والبدع: بمعنى البديع، كالخِلْ بمعنى الخليل، وهو ما لا مثل له.
﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي: ولا أعلم الغيب، فلا أدري ما قدر الله لي ولكم في الدنيا، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والقول بأنَّ المراد: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم يوم القيامة، وأنه نُسخَ بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] غيرُ صحيح، لأنه خبرٌ، والنسخُ لا يكونُ في الأخبار، ولم يزل رسول الله ﷺ من أول مبعثه إلى مماته يخبر أنَّ من مات على الكفر مخلَّدٌ في النار، ومن مات على الإيمانِ واتبعه وأطاعه فهو في الجنة^(١).

وأما ما ورد في الحديث الشريف الذي ترويه أم العلاء الأنصارية: أنها قالت عندما توفي عثمانُ بنُ مظعونٍ: رَحِمَهُ اللهُ عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمَكَ اللهُ، فقال لها النبي ﷺ: «وما يدريك أنَّ اللهَ أَكْرَمَهُ؟» فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسولَ اللهِ، فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا عثمانُ فقد جاءَهُ اللهُ اليقينُ، وإنِّي لأرجو له الخيرَ، والله ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يُفْعَلُ به». قالت: فوالله لا أزكي أحداً بعده أبداً، وأحزنني ذلك، فَنِمْتُ فَأُريْتُ لعثمانَ عيناً تجري، فجئتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فأخبرته فقال: «ذلكَ عملُهُ» [رواه البخاري (٢٦٨٧)].

وفي رواية ثانية بلفظ: «والله ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يُفْعَلُ بي» [رواه البخاري (١٢٤٣)].

فمحمول هذا القول على شدة تواضعه عليه الصلاة والسلام، وإرشاد للمؤمنين كي لا يتألوا على الله تعالى.

﴿إِنْ أَنْعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي، وما أنا إلا نذير بين الإنذار، أحذركم من عقاب الله تعالى.

* * *

شاهد من بني إسرائيل

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠).

وكما شهد الله على صدق النبي عليه الصلاة والسلام وصحة رسالته شهد له أيضاً المؤمنون العلماء من أهل الكتاب:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: أخبروني إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، وهي التوراة، فإن ما في القرآن من التوحيد والوعيد والوعيد يطابق ما في التوراة، فآمن الشاهد، بينما استكبرتم عن الإيمان، وأعرضتم عنه.

أو: شهدت بصدقه وصحّته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي، فبشّرت به، وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي: إن ذكره والتنويه به في جميع كتب الأنبياء السابقين.

وجواب الشرط محذوف تقديره: أستم أضلّ الناس وأظلمهم، دل عليه قوله تعالى في ختام الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالإعراض عن دعوة الحق.

والشاهد هو عبد الله بن سلام رضي الله عنه عند جمهور المفسرين، ويؤيده الحديث

الشریف: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: ما سمعتُ النبي ﷺ يقول لأحدٍ يمشي على الأرض: إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، قال: وفيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدْ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ [رواه البخاري (٣٨١٢)].

أو: كل من أسلم من أحبار أهل الكتاب كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣].

فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم بنبيكم وكتابكم.

قال ابن كثير في تفسير الآية بعد أن عَزَى هذا القول إلى مسروقٍ من علماء التابعين: وهذا يعمُّ عبد الله بن سلام وغيره، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ءَ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [الفصص: ٥٣].

وقال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ الآية [الإسراء: ١٠٧].

* * *

كبر وجهل

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [١١]

ثم بينت الآيات أن الكبر هو سبب إعراضهم عن دعوة الحق:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [١١]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: قالوا لأجل المؤمنين

وفي شأنهم: لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء.

يعنون بلالاً وعماراً وصُهيباً وخباباً رضي الله عنهم وأشباههم من المؤمنين الضعفاء

الفقراء والعبيد والإماء، فإنَّ معالي الأمور في زعمهم لا ينالها الفقراء والضعفاء، وأخطؤوا في ذلك خطأً فاحشاً، فالتفاوت في الأرزاق والمواهب امتحانٌ واختبارٌ، سقطوا فيه كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]!؟.

ومرَّ معنا أن قوم نوح قبلهم قالوا مثل ذلك: ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِكُلَادِيٍّ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].
وأن نوحاً عليه السلام ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١].

وأضافت الآية تبين موقفهم من القرآن الكريم، وتحكي قولهم الذي يرددونه كلما نزل منه نجم، فمن المعلوم أنَّ القرآن نزل منجماً على النبي ﷺ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسْكُوتُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيرٌ﴾ أي: وظهر عنادهم واستكبارهم وجهلهم أيضاً بالإعراض عن هدي القرآن الكريم، وسيقولون كلما سمعوا شيئاً منه: هذا كذب قديم، كقولهم عنه: ﴿أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧].

وهو الكبر الذي وصفه النبي ﷺ في الحديث الشريف: فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مَنْ كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبَرٍ» قال رجلٌ: إنَّ الرجلَ يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنةً. قال: «إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكِبَرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» [رواه مسلم (٨٩)].

وبطر الحق: دفعه وإنكاره تكبراً. وغمط الناس: احتقارهم. فالكبر منعهم من الإذعان للحق والاستسلام له، وهو الجهل والسفه، فمن جهل شيئاً عاداه وأعرض عنه.

دعوة القرآن ودعوة التوراة

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرِيسٍ لِّمُنْذِرٍ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هَلِّيلِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم صرّحت الآيات بما أشارت إليه في السابق من المماثلة بين التوراة والقرآن :

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرِيسٍ لِّمُنْذِرٍ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي : ومن قبل القرآن الكريم أنزل الله التوراة إماماً وقُدوةً، يؤتم بها في دين الله وشريعته، ورحمة لمن آمن بها وعمل بما فيها .
والمماثلة ليست في كلّ الجوانب، إنما المماثلة بين القرآن والتوراة في أصل الاعتقاد، وكون كل منهما المرجع الأساس الأول للتكاليف والأحكام التي شرعها الله تعالى، فالتوراة كانت المرجع الأساس الأول لبني إسرائيل قبل نزول القرآن الكريم، الذي جعله الله تعالى المرجع الأساس الأول للشرعية الإسلامية، وهي الشريعة التي تعبد بها الإنس والجن إلى قيام الساعة .

ويبدو أن سكوت الآيات هنا عن ذكر الإنجيل، لأنه تعالى أنزله أيضاً على بني إسرائيل، يدعوهم فيه إلى التمسك بشريعة التوراة، فعيسى ﷺ لم يأت بشريعة جديدة ناسخة لشرعية التوراة، إنّما عدّل بعض أحكامها كما مرّ معنا في قوله تعالى على لسان عيسى ﷺ : ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران : ٥] .

ولهذا فإنّ النصارى يقدّسون الأسفار التي يقدسها اليهود، ويسمونها : العهد القديم، رغم ما بينهم وبين اليهود من خلاف كبير في الاعتقاد، وقد

استغل اليهود تقديس النصارى للعهد القديم لكسب تأييد الدول النصرانية لإقامة دولتهم في فلسطين.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيٍّ لِّتُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وهذا القرآن كتاب مصدق للكتب التي أنزلها الله قبله، أنزله عربياً فصيحاً بيّناً واضحاً لينذر الرسول ﷺ به الكافرين، ويبشر المحسنين، وفي قراءة: ﴿لِّتُنْذِرَ﴾ بقاء الخطاب للرسول ﷺ.

فالآية تعظم شأن القرآن الكريم، وتردُّ على المشركين قولهم: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]؛ فكيف يكون إفكاً وهو الكتاب الذي صدق كتاب موسى الذي كان للمؤمنين من أهل الكتاب إماماً ورحمة، وقد أنزله الله تعالى باللسان العربي المبين، فمؤيدات صدق دعوة القرآن الكريم في القرآن نفسه وهي واضحة بيّنة. ثم بينت الآيات بُشْرَى للمحسنين بعد أن بينت إنذاره للكافرين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أي: إنّ الذين جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم، والاستقامة في أمور الدين التي هي منتهى العمل، فلا خوف عليهم من لحوق مكروه، ولا هم يحزنون من فوات محبوب، فالمراد ببيان دوام نفي الحزن^(١)، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فلا تتحقق الاستقامة إلا بالدوام على الطاعة، واستمرار الشعور بمراقبة الله تعالى، وهو مقام الإحسان الذي بيّنه النبي ﷺ في قوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه مسلم (٨)].

و(ثم) للتراخي الرتبي أو للزماني، وهي تفيّد الاستمرار على الاستقامة في جميع الأوقات.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة أصحاب الجنة، جوزوا جزاءً بما كانوا يعملون في الدنيا باتباع دعوة الحق، والتزام أحكامها.

* * *

المستجيبون لدعوة الحق

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ تَنْقَلِبُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَرُ عَنْ سِعَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

وعودنا سبحانه في التنزيل الحكيم على ضرب الأمثال الواقعية المحكمة،
فعرضت الآيات على سبيل المقارنة نموذجين بشريين لإنسانين:
أولهما: المتمسك بدعوة الحق والمذعن لها في جميع مراحل حياته:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي: وصينا الإنسان بأن يحسن بوالديه إحساناً، وقرئ: (حُسْنًا) أي: فعلاً ذا حُسن، كأنه في ذاته عَيْنُ الْحُسْنِ لكثرة حُسنه، وقرئ: ﴿حَسَنًا﴾ أي: إيصاءً حَسَنًا، وقرئ أيضاً: (حُسْنًا).

ثم أبرزت الآية شدة معاناة الأم في حمل ولدها وإرضاعه:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: حملاً ذا كره، ووضعاً ذا كره، وقرئ بفتح الكاف، ومعناها واحد وهو المشقة.

﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ أي: ومدة حمليه إلى أن ينفصل من الرضاع ثلاثون شهراً، فالمراد من الفصال: الرضاع التام المنتهي بالفطام.

فدلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لقوله تعالى: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤].

ولعل تصدير الآية بتذكير الإنسان بفضل والديه عليه، لكي يعلم فضل الله عليه بالأولى، فيقبل على عبادته وطاعته والاستقامة على شريعته.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: حتى إذا بلغ نهاية قوته، وغاية شبابه، وهو سن الأربعين، قال: رب ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي، وأن أعمل صالحاً ترضاه.

أو: رغبني ووفقني، من: أوزعته بكذا؛ أي: جعلته مولعاً به، راغباً في تحصيله^(١).

والمراد نعمة الدين وغيرها، ولا يكون العمل صالحاً مقبولاً عند الله إلا إذا كان خالصاً له وحده، موافقاً لشرعه، فكأنه يقول: اجعل عملي على وفق رضاك.

وتشير الآية إلى أن العيش في رعاية والدين مسلمين نعمة من نعم الله تعالى على الإنسان، لما لهما من تأثير قوي في تربية ولدهما تربيةً صالحةً أو فاسدة، كما مرَّ معنا في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودًا، أَوْ نَصْرَانِيَّةً، أَوْ يَمَجَّسَانِيَّةً، كَمَا تَتَّجُ الْبَيْهَمَةُ بِهَيْمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تَحْسُونَهَا فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» [رواه البخاري (٤٧٧٥)].

﴿وَأَصْلَحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: اجعل ذريتي صالحين، أو اجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم، ولهذا عُذِّي بـ (في)، فالوالد الصالح يهتَمُّ بصلاح ذريته، وسلامة عقيدتهم ودينهم، وهو حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنبِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وكذلك مر معنا أن من دعاء عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْقِبَةٍ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

ولا تفر عين الوالد الصالح بولده إلا إذا كان مثله في الصلاح والاستقامة. ﴿إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: إني تبت إليك عما لا ترضاه، وإني من المستسلمين لأمرك، المتقادين لشريعتك.

وهكذا تلتقي في هذا النموذج أصرة النسب مع أصرة الدين، ولذلك أشارت الآية إليهم جميعاً بقوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبْلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: نتقبل عنهم الحسنات، ونثيبهم عليها أحسن ما يقتضي الثواب من الطاعات، ونتجاوز عن سيئاتهم فنغفرها ونصفح عنها.

وفي قراءة: (يُتَقَبَّلُ) و(يُتَجَاوَزُ)، و(أَحْسَنُ) على أنه نائب فاعل، وقرئ أيضاً: (يُتَقَبَّلُ) و(يُتَجَاوَزُ) مبنيين للفاعل.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: كائنين مع أصحاب الجنة تحقيقاً للوعد الصادق على ألسنة الرسل في الدنيا.

المعرضون عن دعوة الحق

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَايِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبْيَعَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَنَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُحْرَقُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعِيرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثانيهما: نموذج الإنسان الجاحد المعرض عن دعوة الحق، حيث تفترق أسرة النسب عن أسرة الدين:

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَايِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَفِ لَكُمْ أَعْدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أي: والذي قال لوالديه عند دعوتهما له إلى الإيمان: أف لكم، أعدائي أن أبعث من القبر بعد الموت، وقد مضت أجيال من قبلي، ولم يخرج منها أحد؟! والمراد من قوله: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ إظهارُ التضجر من دعوتهما له إلى الإيمان، إذ هو صوت يصدر عن المرء عند تضجره.

وقرئ: (أف) بالفتح والكسر بغير تنوين، وبالحركات الثلاث مع التنوين. وقد مر معنا أن الله تعالى نهى الولد أن يقول لوالديه مثل هذه الكلمة فقال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَمْأَا فِي وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَايِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: والوالدان يستعظمان قول ولدهما، ويسألان الله الغوث والمعونة من قبحه وشناعته، ويقولان له: ويلك آمن وصدق بيوم الجزاء والحساب، فهو وعد حق من الله تعالى.

ومر معنا: أن كلمة (وَيْلٌ) تقال لمن أراد الله تعذيبه، والمراد منها هنا حث الولد وتحريضه على الإيمان، وهي تدل على شدة حرص الوالدين على هداية ولدهما وإنقاذه من هاوية الكفر والضلال، ولكن الولد العاق يصّر على عناده وكفره.

﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي تدعوانني إلى التصديق به إلا حكايات الأولين الباطلة المسطورة في كتبهم.

فالآية تصف ولداً كافراً فاجراً عاقاً لوالديه.

وما روي: أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه قبل إسلامه؛ غير صحيح، ردته السيدة عائشة رضي الله عنها وكذّبتها، ففي الحديث: أن مروان بن الحكم لما كان على الحجاز استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَدِيهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري. [رواه البخاري (٤٨٢٧)].

قال ابن حجر رحمته الله: «والعجب مما أورده الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقد تعقّب الزجاج فقال: الصحيح أنها نزلت في الكافر العاق، وإلا فعبد الرحمن قد أسلم فحسن إسلامه، وصار من خيار المسلمين»^(١).

كما أن قوله تعالى بعد ذلك لا يناسب عبد الرحمن:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ (١٨)

أي: أولئك الجاحدون يوم القيامة وجب عليهم قوله تعالى لإبليس ومن تبعه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

من حقّ عليه القول هو من أعلم الله تعالى أنه لا يُسَلِّمُ أبداً، وأنه من القوم الخاسرين، الذين ضيعوا حياتهم وفطرتهم باتباع الشيطان.

وفي قراءة: (أنهم) بفتح الهمزة على تقدير (لأنهم).

ومن المعلوم: أن عبد الرحمن بن أبي بكر قد أسلم، وكان من أفاضل الصحابة، فهذا التعقيب يدل على أن الآيات عرضت أنموذجاً بشرياً يتكرر دائماً، وما أرادت إنساناً معيناً.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٩).

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: ولكل واحد من الفريقين يوم القيامة مراتب ومنازل من جزاء ما عملوا من خير وشر.

﴿وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: وليوفيهم جزاء أعمالهم وهم لا يُظلمون بنقص ثواب وزيادة عقاب. وفي قراءة: (ولنوفيهم) بالنون.

ثم بينت الآيات من خلال عرضها لمشهد من مشاهد يوم القيامة أن سبب تكذيبهم بهذا اليوم انشغالهم بشهوات الدنيا:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدَّبْتُمْ طِيبِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (٢٠).

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ إما بعرضها عليهم، وكشف ما فيها من العذاب لهم، أو بتعذيبهم فيها، ويقال لهم حينئذ تقريعاً وتوبيخاً:

﴿أَدَّبْتُمْ طِيبِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أي: تمتعتم بالطيبات في الدنيا، واتبعتم الشهوات واللذات، فانشغلتم بها عن الاستعداد للآخرة.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: فالיום تُجزون عذاب الخزي والفضيحة بما كنتم تستعلون في الأرض بغير استحقاق، وبما كنتم تخرجون عن طاعة الله تعالى.

ولما وبَّخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات أثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا رجاء ثواب الآخرة، ومراً معنا وصف لمعيشة النبي ﷺ عند تفسير آيتي التخيير في سورة الأحزاب [٢٨ - ٢٩]، وقوله عليه الصلاة والسلام لعمر رضي الله عنه: «أولئك قومٌ عَجَلَتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» [رواه البخاري (٢٤٦٨)].

* * *

دعوة هود عليه السلام

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُيُوتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّكَ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْكُمْ عِدَّ اللَّهِ وَأَتْلُفُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وَلَكِنِّي أَرَىكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ٢٣ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطْرُنًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْحَوْا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَحْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ٢٥ وَلَقَدْ مَكَنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنْتُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٢٦ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا آلَاتِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢٧ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٢٨﴾.

وانتقلت الآيات من إنذار الوالدين الصالحين ولدهما العاق الكافر، إلى إنذار نبي من الأنبياء أمته، واختارت نبي الله هوداً عليه السلام وإنذاره أمته الذين استكبروا في الأرض، وتمتعوا بالطيبات في الدنيا، واتبعوا الشهوات:

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الْبُيُوتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٢١﴾.

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ أي: واذكر يا محمد للمعرضين عن

دعوتك هوداً ﷺ عندما أنذر قومه بالأحقاف، وهي منازل قومه جنوب أرض العرب في حضرموت وما حولها.

﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْأَنْذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: مضت الرسل من قبل هود ومن بعده، أو أرسلت الرسل إلى مَنْ حول بلاده، فلم يكن ﷺ يدعياً من الرسل، وقال لقومه كما قال غيره:

﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولكنهم أعرضوا عن دعوته:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّكِفَ عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعُدُّنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٢).

أي: قالوا: أجيئنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟! فأتنا بما تعدنا من العذاب العظيم، إن كنت من الصادقين في وعدك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٢٣).

قال: إنما العلم بوقت مجيء العذاب عند الله لا عندي، وأبليغكم ما أرسلت به، فما على الرسول إلا البلاغ، ولكني أراكم قوماً تجهلون أن الرسل بُعثوا منذرين مبليغي لا معزيين مقترحين.

أو: تجهلون قدر العذاب الذي ينزل بكم وطبيعته.

ويؤيد المعنى الثاني قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٤).

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: رأوا سحاباً عارضاً

في أفق السماء، متوجّهاً إلى أوديتهم، قالوا: هذا عارضٌ يأتينا بالمطر، ويبدو أن المَطرَ قد حُسِّنَ عنهم، فأصيبوا بالقحط والجفاف.

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: بل هو ريح فيها عذاب أليم وهو العذاب الذي استعجلتم به.

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: تهلك كل شيء بمشيئة ربها، فكل شيء منوط بمشيئته تعالى.

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ أي: فأصبح لا يرى الناظر إليهم إلا مساكنهم، فلم يبق منهم الريح إلا الآثار والمساكن المعطلة الخاوية.

وفي قراءة: (لا ترى إلا مساكنهم) بالتاء ونصب المساكن، قال تعالى: ﴿فَكَأَنِّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُوءُ مَعْطَلَةٌ وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما أدري كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا آودَيْنَهُمْ﴾» [رواه البخاري (٣٢٠٥)].

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالدَّبُورِ» [رواه البخاري (٣٢٠٦)].

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الفظيع نجزي المجرمين.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: ولقد مكناهم فيما لم نمكنكم فيه يا أهل مكة من قوة الأبدان، وطول الأعمار، وكثرة الأموال، فقد كانوا أكثر

منكم أموالاً، وأشد قوة وآثاراً كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعًا﴾ [مريم: ٧٤].

وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّيَهُمُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ وهي وسائل التمكين التي تمكنهم من معرفة خالقهم ليشكروه ويعبدوه.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: فما انتفعوا بها، ولا دفعت عنهم عذاب الله عندما نزل بهم، لأنهم كانوا يجحدون بآيات الله، وينكرون الدلائل التي تدلهم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحِجَّتِهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَخَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ونزل بهم جزاء استهزائهم وتكذيبهم لأنبيائهم.

وزادت الآيات في تهديدهم ووعيدهم فخصّصت بعد تعميم:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٧).

أي: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى - يا أهل مكة - وكررنا تذكيرهم بالآيات والحجج والمواعظ لعلهم يرجعون عن الطغيان إلى الإيمان، ولكنهم أصرّوا على طغيانهم وكفّروهم فأهلكناهم.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا

كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ (٧٨).

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَهَةً﴾ أي: فهلاً نصرهم وخلّصهم

من العذاب الذين اتخذوهم آلهة يتقربون بعبادتهم إلى الله؟! فقد كان المشركون يقولون عن عبادتهم الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

ولا يخفى ما في الآية من تهكم مرير بهم.

﴿بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكْ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي: غابوا عنهم وهم أحوج ما يكونون إلى نصرهم.

وهذا نتيجة شركهم، وأثر افتراءهم على الله، فهم الجنة على أنفسهم.

الجن المستجيبون لدعوة الحق

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَصَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَيْجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

وكما زادت الآيات في عيد أهل مكة وتهديدهم، زادت في تعريضها بهم عندما تحدثت عن الجن الذين استجابوا لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتأثروا بسماع القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَصَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي: اذكر لقومك المعرضين عن دعوتك خبر النفر من الجن الذين وجهناهم إليك ليستمعوا القرآن، لعلمهم ينتبهون لجهلهم وغلطهم، وقُبِح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه،

حيث إنهم كفروا به وهم أهل اللسان الذي نزل به، ومن جنس الرسول الذي جاء به، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله، وآمنوا به، وليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله.

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾ أي: فلما حضروا تلاوته قال بعضهم لبعض: استمعوا لنسمعه، وفيه إشارة إلى وجوب الإنصات لاستماع القرآن حين تلاوته كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويبدو أنه ﷺ لم يعلم بهم حتى أنطق الله شجرة أعلمته بوجودهم، ففي «صحيح البخاري» [٣٨٥٩]: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه أذنته بهم شجرة.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي: فلما أتم وفرغ من تلاوته تفرقوا وذهبوا إلى قومهم ينذرونهم ويبلغونهم دعوة الإسلام.

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قال: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة، وهو عامد إلى سوق عُكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، تسمّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۚ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١]، وأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ۚ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ ۚ﴾ [رواه البخاري (٤٩٢١)].

ودلت رواية ابن عباس هذه على أن الجن استمعوا قراءته ﷺ، ثم رجعوا إلى قومهم.

ودلت رواية ابن مسعود رضي الله عنه أنهم وردوا إليه أرسالاً فوجاً بعد فوج، ففي

الحديث: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه سُئِلَ: هل شهد أحدٌ منكم مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ الجنِّ؟ قال: لا، ولكن كُنَّا مع رسولِ الله ﷺ ذاتَ ليلةٍ، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا: استظير أو اغتيل، فبتنا بشرَّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلَمَّا أصبحنا إذا هو جاء من قِبَلِ حِراءَ، فقلنا: يا رسولَ الله فقدناكَ فطلبناكَ، فبتنا بشرَّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ! فقال ﷺ: «أنا نبي داعي الجنِّ فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارَهُم، وأثارَ نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لِحِمَاءٍ، وكلُّ بَعْرَةٍ عُلِفَتْ لدوابكم، فلا تستنجوا بهما، فَإِنَّهُمَا طَعَامٌ لِإِخوانكم» [رواه مسلم (١٥)].

فهؤلاء المنذرون هم رسلُ الجنِّ الذين بَلَّغُوا قومَهُم ما سمعوه من الرسول ﷺ.

﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣٠)

﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: أنزل بشريعة كاملة من بعد موسى، فقد كان عيسى عليه السلام مأموراً بالعمل بمعظم ما في التوراة كما مرَّ معنا.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذا الكتاب أنزل مُصَدِّقاً للكتب السابقة قبله، ويهدي إلى العقيدة الصحيحة، والشريعة المستقيمة، فخير القرآن صدق، وتكليفه عدل.

﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣١)

﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ أي: أجيبوا رسول الله ﷺ، وصدقوا بصحة دعوته ورسالته، فهو الداعي إلى الله كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٣٩) وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿[الأحزاب]﴾.

وهذا يدل على عموم دعوته ﷺ للإنس والجن، وأنه ﷺ قد بَلَّغَ دعوته الجن، كما بلغها الإنس.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزِّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم التي سلفت منكم قبل الإسلام، ويقيكم من عذاب جهنم الأليم.

فمؤمنو الجن - كما قال ابن كثير رحمته - يدخلون الجنة كمؤمني الإنس، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَن حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فقد امتنَّ تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، ولم يرد نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمني الجن لا يدخلون الجنة، وإن أُجبروا من النار، ولو صح لقلنا به.

ويؤيده عموم قوله تعالى السابق: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]؛ لأنه قال قبلها: ﴿يَمَعَّشَرَ الْبَيْنَ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَّا أُنزِلَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

﴿وَمَن لَّا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

﴿وَمَن لَّا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا نجاة له من الله، ولا مهرب، فهو في قبضة قدرته تعالى، وتحت قهر مشيئته في أي مكان وزمان، كما ذكر سبحانه من قول الجن: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَكَ كَيْفَ تَفْعَلُ﴾ [الجن: ١٢].

﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أي: وليس له أنصار يمنعونه من الله، فكما لا نجاة له بنفسه لا نجاة له بغيره.

﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: أولئك الذين لم يجيبوا داعي الله في ضلال مبين، فالإعراض عن الحق يوقع في الضلال، وليس بعد الحق إلا الضلال.

موعظة بليغة

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَر أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَ يَهْلِك إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وكما بدأ سبحانه السورة ببيان كمال قدرته في إيجاد المخلوقات، ختمها بتقرير كمال قدرته على إعادتهم بعد الموت في الأجل المسمى الذي سبق به علمه وتعلقت به مشيئته، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُ﴾ أي: ولم يتعب بخلقهم وإبداعهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

فهو تقرير لكمال قدرته جل وعلا أبداً، وأنها لا تنقص ولا تتغير بالإيجاد أبد الآباد.

﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على كل شيء من البعث وغيره.

ثم وصفت الآيات حال المعرضين عن دعوة الحق يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، ويقال لهم تقريراً وتوبيخاً:

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾؟! أي: أليس هذا العذاب هو الحق الذي حذرکم الرسول ﷺ منه، ودعاکم إلى التصديق به؟!.

ولا يملكون حينئذٍ إلا الاعتراف المشوب بالأسف والندم:
﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ثم توجهت الآيات إلى الرسول الداعي ﷺ تثبته على طريق الدعوة، وتواسيه عما يلقي من إغراض المعرضين عنها:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فُهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢٥).

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: أولو الشدة والثبات من الرسل.

وهي صفة جميع الرسل، أو صفة أصحاب الشرائع المشهورة الذين ذكرهم سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].
﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ بنزول العذاب.

وهو تثبیت له ﷺ، فما كان ﷺ يستعجل تعذيبهم، بل كان يستعجل هدايتهم، وقد يكون المراد: لا تستعجل تعذيب المستهزئين منهم المصيرين على الكفر والتكذيب الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ أي: عندما يرون العذاب يشعرون كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا وقتاً قصيراً من شدة العذاب وطول مدته.

﴿بَلَّغَ فُهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: هذا الذي دُعيتم إليه ووعظتم به فيه غاية الموعظة، فهو موعظة بليغة كافية شافية، فلا يهلك بعذاب الله إلا المعرضون عنه، الخارجون عن الاعتاض به، والعمل بموجبه، فالحجة قائمة عليهم بدعوة الرسول ﷺ، ولا عذر لمن بلغته الدعوة بالإغراض عنها.



تفسير سورة مُحَمَّد الْحَرْبُ وَالسَّلَامُ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
المقارنة بين المؤمنين والكافرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾

بدأ سبحانه السورة ببيان أحوال المسلمين والكافرين:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝١﴾

أي: الذين كفروا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام، أو صدوا غيرهم عنه؛ أبطل أعمالهم، وأحبطها، وحكم بطلانها.

والمراد أعمال البر: كإطعام الطعام، وصلة الأرحام، وإجارة المستجير، وفك الأسير، ونحو ذلك، لأنها كانت لغيره تعالى، كما قال: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أو: أبطل ما عملوه من الكيد والمكر بالنبِيِّ ﷺ والمسلمين؛ أبطلها سبحانه، وجعل الدائرة تدور عليهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ (٢).

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ وهو القرآن الكريم، خصّه بالذكر تعظيماً لشأنه، وتنبيهاً إلى أنه لا يتم الإيمان إلا به، فهو من قبيل عطف الخاص على العام، ثم أكد هذا المعنى فقال:

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فهو ناسخ للأديان كلها، ولا يردُّ عليه نسخ، فهي جملة معترضة تفيد حصر الحق فيه.

﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: سترها وأزالها، ولم يؤاخذهم بها، وأصلح حالهم في الدنيا بالتوفيق والتأييد.

فالبال: الحال والشأن، وكل ما له خطر، ولذلك يقال: ما باليتُ بكذا، أي: ما اكرثتُ به.

والتعبير يلقي ظلالَ الطمأنينة والراحة والثقة والرضا والسلام، ومتى صلح البال استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب.

﴿ذَلِكَ يَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٣).

﴿ذَلِكَ يَأْنِ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: ذلك الإضلالُ للكافرين، وإصلاحُ البال للمؤمنين، بسبب اتباع الكافرين الباطل، واتباع المؤمنين الحق في القرآن الكريم.

ففي الآية توضيحٌ بأسلوب اللف والنشر، وهو من محاسن الكلام، أشار سبحانه إلى حسنه بقوله:

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي: مثل ذلك البيان البديع يبين الله للناس أحوال الفريقين المؤمنين والكافرين في الحال والمآل، والجارية مجرى الأمثال، وهي اتباع المؤمنين الحق وفوزهم وفلاحهم، واتباع الكافرين الباطل وخيبتهم وخسرانهم.

أحكام في القتال والأسر

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا يَدًّا حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَّ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِّسَأَلُوا بِعَصَافِكُمْ يُعْصُوا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَبْهَتُهُمْ وَيُضْلِعُهُم بَٰلَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَضُرُّوا اللَّهَ يَضُرِّكُمْ وَيَبَيَّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾.

ومهدت الآيات بهذا البيان البديع لتشريع أحكام ضرورية في قتال الكفار ومعاملة الأسرى:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا يَدًّا حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرَّ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِّسَأَلُوا بِعَصَافِكُمْ يُعْصُوا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أي: فإذا كان الأمر كذلك، ولقيتم الذين كفروا في ميادين القتال، فاضربوا رقابهم ضرباً.

وحَصَّ الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها، والمراد: اقتلوهم.

وفي ضرب الرقاب إشارة إلى الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل، قال

تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْطَىٰ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحریم: ٩].

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَّخِذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي: حتى إذا أكثرتم فيهم القتل وقهرتموهم وأضعفتموهم فأسروهم.

فالإِثْخَانُ: مأخوذ من الثخين وهو الغليظ، والمراد شِدَّةُ التَّقْيِيلِ، حتى تتحطم قوة العدو، فلا يقدر على هجوم أو دفاع.

فما دام العدو قوياً فعلى المجاهدين أن يجعلوا تحطيم قوته، ودفع خطره، هدفهم الأول، وألاً ينشغلوا بأسر جنوده، فإنَّ ذلك يؤدي إلى صرف جزء من قوتهم إلى جمع الأسرى وحراستهم، في وقت يحتاجون فيه إلى صرف كل قوتهم وحشد طاقتهم لإضعاف العدو، وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُخْرِجَ فِي الْأَرْضِ تَرْيَدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

والوِثَاقُ: بالفتح والكسر اسم ما يوثق به، والمعنى: فشدوا وثاق الأسرى حتى لا يفلتوا منكم.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ أي: بعد الأسر إمَّا أن تمنوا عليهم منًّا بإطلاقهم بغير عَوْضٍ، وإمَّا أن تفادوهم فداءً، بأن يفادى بأسراهم أسرى المسلمين، أو بأخذ المال منهم.

وقد رواه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، وهو قول صاحبيه، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره لثلاث عودوا حرباً على المسلمين، فحكم الآية منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وعن مجاهد: ليس اليوم من ولا فداءً، إنما هو الإسلام أو ضرب العنق^(١).
 وذهب أكثر العلماء إلى أنَّ الآية محكمة، والإمام مخير في الرجال البالغين من الكفار إذا أسروا بين أن يقتلهم، أو يسترقهم، أو يمنَّ عليهم فيطلقهم بلا عوض، أو يفاديهم بالمال أو بأسارى المسلمين. وإليه ذهب ابن عمر، وبه قال الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء، قال ابن عباس: لما كثر المسلمون

واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى: ﴿فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَمِمَّا فَدَاءَ﴾ هذا القول هو الصحيح، عمل به الرسول ﷺ والخلفاء بعده^(١).

واختار هذا القول القرطبي واستحسنه، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ إذا جاز أن يقع التعدد، فإذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمن على ما فيه الصلاح للمسلمين.

قال ابن عطية: «وإمام المسلمين يخير في أسراه في خمسة أوجه: القتل، أو الاسترقاق، أو ضرب الجزية، أو المن، أو الفداء، ويترجح النظر في كل أسير بحسب حاله من أذية المسلمين أو ضد ذلك»^(٢).

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي: حتى تنتهي الحرب.

وأوزار الحرب: آلتها كالسلاح والمؤن والذخائر التي لا تقوم الحرب إلا بها، وأسند وضعها إليها إسناداً مجازياً، وهو في الحقيقة لأهلها.

واختلفوا في الغاية التي عندها تضع الحرب أوزارها، قال قتادة: حتى يُسَلِّمَ الجميع، فتضع الحرب أوزارها، وقال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم ﷺ، وقال آخرون: حتى لا تبقى للمشركين شوكة، بأن تغلبوهم فيسلموا أو يستسلموا، وظاهر اللفظة أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً^(٣).

وقد يكون المراد هو ما ذكر تعالى في قوله: ﴿وَقَلِيلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفُّهُ لَكَ﴾ [الأنفال: ٢٩]. ومر معنا في تفسيرها: أن المراد: قاتلوا الكفار حتى لا يبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم. وسيأتي مزيد تفصيل للموضوع عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَهِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥].

(١) تفسير الخازن: ٤٨٩/٥.

(٢) المحرر الوجيز: ٣٨٦/١٣.

(٣) المرجع السابق نفسه.

• الحكمة من تشريع القتال:

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبَلَّوْا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: افعلوا ذلك، ولو يشاء الله لأهلكهم بغير قتال، وكفاكم أمرهم، ولكن أمركم بالقتال ليختبر المؤمنين بالكافرين، والكافرين بالمؤمنين، تمحيصاً للمؤمنين، وإهلاكاً للكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤) وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿آل عمران﴾.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: فلن يضيعها.

وفي قراءة: (قاتلوا) أي: جاهدوا.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (٥).

أي: يثبتهم على طريق الهداية، ويحققها لهم، ويصلح حالهم.

فالعمل الصالح يثبت صاحبه على الإيمان، ويحفظه من فتن الضلال، ولا شك أن الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال الصالحة المؤدية إلى فضله تعالى ورحمته في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، وحياة الشهداء حياة برزخية خاصة، يتعهدا الله في الملاء الأعلى، ويزيدها هدى وضياء وإشراقاً.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ (٦).

أي: يبينها لهم حتى يعرف أحدهم منزله في الجنة من غير استدلال.

كما في الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونُقوا أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا» [رواه البخاري (٦٥٣٥)].

ثم مهّد تعالى بهذه الآيات المشوّقة المثبتة لينادي المؤمنين ويكلّفهم بنصرة دينه وحماية شريعته:

﴿بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ٧.

أي: يثبت أقدامكم على طريق الحق والهدى، فالآية تؤكد مضمون قوله تعالى السابق: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥]، والجزء من جنس العمل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].
أو: يثبت أقدامكم عند قتال العدو، أو يثبتها يوم القيامة على الصراط.

* * *

الإعراض عن شريعة الله

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأْ لَهُمْ وَاضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ٨ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ ٩ ﴿أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِقَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ ١٠.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأْ لَهُمْ وَاضَلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ ٨.

أي: فهلاكاً لهم وخيبة وشقوة، وأبطل أعمالهم، لأنها في طاعة الشيطان. فالمعنى المراد من قوله: (فتعسّأ لهم) عكس تثبيت أقدام المؤمنين، نصب على المصدر على سبيل الدعاء.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَبُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ ٩.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ﴾ ٩: ذلك التعسُّ والإضلال بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله في القرآن الكريم، وأعرضوا عن أحكام دينه وشريعته. وهو ما نشاهده في عصرنا الحاضر من الواقع الأليم الذي انتكست إليه

المجتمعات الإسلامية نتيجة إعراضها عن تحكيم شريعة الله ، وإقبالها على تحكيم الشرائع الوضعية ، التي أوصلتها إلى الذلة والفرقة والضلال ، وإلى الشقاء والتعاسة .
﴿فَاحْطَ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي : أبطلها وجعلها ضائعة خاسرة ، فإحباط الأعمال من لوازم الكفر والإعراض عن دين الله وشريعته .

ثم التفتت الآيات التفاتة قوية إلى مصارع الأمم الهالكة ، تذكر المعرضين عن دين الله بها ، وتحذرهم من مثلها :

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ﴿١٠﴾﴾ .

أي : أفعدوا في أماكنهم فلم يسيروا في الأرض فينظروا آثار الأمم الهالكة المكذبة؟! فإن آثارهم تُنبئ عن أخبارهم ، دمر الله عليهم ديارهم ، فخرّب بيوتهم فوق رؤوسهم ، وأهلك أهلهم وأموالهم ، وللكافرين المعرضين عن دين الله وشريعته أمثال عاقبتهم وتدميرهم .

* * *

الله مولى المؤمنين

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَغِطُوا الصَّلَاحَاتِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَأَكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا بَاقِيَهُمْ﴾ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذه العقوبة للكافرين ، لأن الله مولى الذين

آمنوا، يؤيدهم، وينصرهم على أعدائهم في الدنيا، إن أحسنوا التمسك بدين الله وأحكام شريعته.

﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي: لا مولى لهم ينصرهم ويدفع عنهم العقاب والعذاب.

فالمولى هنا بمعنى الناصر، وأما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢] فمعناه الرب والمالك، والله رب كل شيء ومليكه، ومن ولايته تعالى للمؤمنين في الآخرة أن يكرمهم بالنعيم المقيم في جنات الخلد:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، ويحرم المعرضين من هذا النعيم بسبب انشغالهم بمتاع الدنيا الزائل.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَمُ﴾ فلا همّة لهم إلا بطونهم وشهواتهم، لاهون بها، غافلون عما يُراد بهم، ولهذا شبههم بالأنعام، وهو تشبيه يُبعدُهم عن كل سمات الإنسان ومعالمه، ويُلقِي عليهم ظلال الأكل الحيواني الشره، والمتاع الحيواني الغليظ.

﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي: والنار مثواهم ومستقرهم.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان لا يأكلُ حتَّى يؤتى بمسكين يأكلُ معه، قال مولاه نافع: فأدخلتُ رجلاً يأكلُ معه، فأكلَ كثيراً فقال: يا نافع لا تدخل هذا عليّ، فإني سمعتُ النبي ﷺ يقول: «المؤمنُ يأكلُ في معي واحدٍ، والكافرُ يأكلُ في سبعة أمعاء» [رواه البخاري (٥٣٩٣)].

قال ابن حجر رحمته الله: «اختلف في معنى الحديث؛ فقيل: ليس المرادُ به ظاهره، وإنَّما هو مثلُ ضَرْبٍ للمؤمن وزهده في الدنيا، والكافر وحرصه عليها، وقيل: المعنى: إنَّ المؤمنَ يأكلُ الحلالَ، والكافرُ يأكلُ الحرام، وقيل: المرادُ

حَضُّ الْمُؤْمِنِ عَلَى قِلَّةِ الْأَكْلِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ كَثْرَةَ الْأَكْلِ صِفَةُ الْكَافِرِ، وَلَيْسَتْ حَقِيقَةُ الْعَدَدِ مُرَادَةً، فَتَخْصِيصُ السَّبْعَةِ لِلْمَبَالِغَةِ فِي التَّكْثِيرِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا اطْرَاذُهُ فِي حَقِّ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، فَقَدْ يَكُونُ فِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَأْكُلُ كَثِيرًا إِمَّا بِحَسَبِ الْعَادَةِ وَإِمَّا لِعَارِضٍ يَعْضُ لَهُ^(١).

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾

أي: وكم من قرية هي أشد قوة من مكة التي كان أهلها سبب خروجك، أهلكناهم، فلم يجدوا ناصراً ينصرهم ويمنع عنهم العذاب.

* * *

أنهار الجنة وحميم النار

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتِيَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ﴾ مَثَلُ الْحَسَةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ حَمَرٍ لَّدَوٍّ لِلشَّرِبِ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۖ﴾

ثم عادت الآيات إلى أسلوب المقارنة بين فريقَي المؤمنين والكافرين، فبيّنت من خلالها السبب الرئيس الأول الذي أدى بكل فريق منهما إلى أحواله التي هو عليها:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَتِيَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ﴾

أي: أفمن كان مستقراً على حجة ظاهرة من ربه، متمسكاً بها، وهو القرآن

(١) فتح الباري: ٥٣٦/٩.

الكريم، كمن زَيَّنَ له سوء عمله من الكفر والمعاصي، واتبعوا بسبب ذلك التزين أهواءهم الزائغة.

فلا يعقل أن يكون هذان الفريقان المتفاضلان متساويين عند الله، وكما كانا مختلفين في الاعتقاد والسلوك لا بد أن يكونا مختلفين في المآل والمصير، فإن من المكابرة التسوية بين المتمسك بالبينه والتابع للهوى، فهو كمن يسوي بين الجنة والنار، وشتان ما بينهما.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ (١٥).

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ أي: مثل الجنة التي وعد المتقون مثل عجيب، وشيء عظيم، فيها أنهار من ماء غير متغير ولا متن، وأنهار من لبن، لم يتغير طعمه، كما تتغير ألبان الدنيا، وأنهار من خمر، يلتذُّ بها الشاربون، ولا يكون معها ذهاب عقل وصداع وأسقام كخمر الدنيا، وأنهار من عسل مصفى، ليس فيه شمع وشوائب كعسل الدنيا.

وهذا يدل على أن أشربة الجنة كثيرة ومتنوعة، وكلها تتفجر من الفردوس في الجنة، فقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدُوسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفْجَرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ» وفي رواية: «وفوقه عرش الرحمن» [رواه البخاري (٢٧٩٠)].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: لهم في الجنة من كل أنواع الثمرات.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ولهم مع هذا النعيم مغفرة عظيمة من ربهم، فلا حساب عليهم ولا عقاب في الجنة.

أو: هي مجاز عن إحلال رضوانه تعالى عليهم كما في الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يدك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى - يا ربنا - وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربنا، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [رواه مسلم ٢٨٢٩].

﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ أي: أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد في النار. ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ أي: وسقوا ماءً حاراً شديد الغليان فقطع من فرط حرارته أمعاءهم.

* * *

المرض الروحاني والدواء الإلهي

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ هُمْ رَادُّوا رَأْسَهُمْ هَٰؤُلَاءِ ۖ وَأَنَّهُمْ يَقُولُهُمْ ۖ﴾ (١٧).

ثم عرضت الآيات بعض أصناف الناس الذين اتبعوا أهواءهم، وشغلوا بها عن استماع الحق والانتفاع به من رسول الله ﷺ:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ (١٨).

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا﴾ وهم المنافقون؛ كانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ، فيسمعون كلامه، ولا يعونه،

تهاوناً منهم وتغافلاً، حتى إذا خرجوا من مجلسه ﷺ قالوا للصحابة على طريقة الاستهزاء: ماذا قال آنفاً؟ أي: الآن، والمرادُ منه الساعة التي هي أقرب الأوقات إلى المتكلم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أولئك الذين ختم الله على قلوبهم بسبب إعراضهم وتغافلهم، ولهذا لم يؤمنوا، ولم ينتفعوا بما سمعوا من رسول الله ﷺ، ولما تركوا اتباع الحق اتبعوا أهواءهم، وأما الله قلوبهم، فلم تَفْهَم ولم تَعْقِل.

واستمرت الآيات على أسلوب المقارنة:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧)

أي: والمؤمنون الذين اهتدوا بآيات الله زادهم الله بصيرة وعلماً، وشرح صدورهم لكلام رسوله ﷺ، ووفّقهم للعمل به، وأعانهم عليه، أو أعطاهم ثواب تقواهم، أو بيّن لهم ما يتقون، وفي إسناد التقوى إليه تعالى وإسناد الهوى إليهم إشارة إلى الأدب مع الله تعالى، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

وتلويح أن متابعة الهوى مرض روحاني، وملازمة التقوى دواء إلهي^(١).
ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].
وقوله أيضاً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

* * *

أشراط الساعة

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهَا﴾

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهَا﴾

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: لم يبقَ من الأمور الموجبة للتذكر والاتعاظ أمرٌ مترقب سوى إتيان نفس الساعة، إذ قد جاء أشراتها وهم غافلون عنها.

ففي الآية وعيدٌ وتهديدٌ للكافرين والمنافقين، فالساعة تأتيتهم بغتةً، وهم لا يزالون على كفرهم ونفاقهم، وسُميت القيامةُ ساعةً لسرعة قيامها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمالِ سبعاً، فهل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مُفْسِداً، أو هَرَمًا مُفْنِداً، أو موتاً مُجْهِزاً، أو الدَّجَالَ فشرُّ غائبٍ يُنْتَظَرُ، أو الساعةُ والساعةُ أدهى وأمرُّ» [رواه الترمذي (٢٣٠٧)].

وأشراطها: علاماتها وأماراتها مما ورد في القرآن الكريم أو فيما أخبر عنه ﷺ، قال تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْقَى الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شَقَّ الْقَمَرُ وَنَحْنُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بِمَنَى، فقال: «اشهدوا» [رواه البخاري (٣٦٣٦)].

وبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة، لأنه خاتم الرسل، أكمل الله تعالى به الدين، وأقام به الحجة على العالمين، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» قال: وضمَّ السبابةَ والوسطى. [رواه مسلم (٢٩٥١)].

ومن أشراط الساعة التي أخبر عنها النبي ﷺ: ما جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلَ فِتْنَانِ

عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يُبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتنة، ويكثر الهرج، وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال، فيفيض، حتى يهمل رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي به، وحتى يتناول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته، فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» [رواه البخاري (٧١٢١)].

قال البيهقي وغيره: الأشراف منها صغار، وقد مضى أكثرها، ومنها كبار ستأتي. وعلق ابن حجر على ما ذكر من قول البيهقي فقال: وهي - أي الكبار - التي تضمنها حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم [٢٠٩١]؛ وهي: «الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها كالحامل المتيم، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، والريح التي تهب بعد موت عيسى فتقبض أرواح المؤمنين»^(١).

﴿فَإِنَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: فمن أين لهم التذكر والاتعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة، ولو تذكروا فإنه لا ينفعهم في ذلك الوقت، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّهُ لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣].

استغفار النبي عليه الصلاة والسلام

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ ﴿١٩﴾ .

ثم عظمت الآيات شأن الساعة، فوجهت الخطاب إلى النبي عليه الصلاة والسلام تأمره بكثرة الاستغفار:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: فإذا جاءت الساعة فاعلم أنه لا ملجأ ولا منجى ولا مفرع عند قيامها إلا إلى الله، الذي لا إله إلا هو، أو دُم على ما أنت عليه من العلم، أو ازدد علماً إلى علمك، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤] فالعلم بالله تعالى وكماله وغناه لا حدود له. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ الذي تراه ذنباً، وهو شعورك بالتقصير في شكر نعمه تعالى المتوالية عليك.

ومر معنا في الحديث الشريف: عن المغيرة رضي الله عنه قال: إن كان النبي ﷺ ليقوم - أو ليصلي - حتى ترم قدماه - أو ساقاه - فيقال له، فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [رواه البخاري (١١٣٠)].

قال العلماء: إنما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في عبادته ليؤدوا بعض شكره، مع أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد^(١).

وقد يكون طلبه ﷺ المغفرة إجلالاً وتعظيماً لربه، وعلى سبيل التواضع والهضم لنفسه، أو على سبيل التعليم لأمته لتقتدي به.

وقد يكون سبب استغفاره ﷺ أنه لما كان ينشغل بالنظر في أمور المسلمين ومصالحهم حتى يرى أنه قد شغل بذلك - وإن كان من أعظم طاعة وأشرف عبادة - عن أرفع مقام مما هو فيه، وهو التفرد بربه ﷻ، وصفاء وقته معه، وخلوص همه من كل شيء سواه^(١).

ولعله المعنى المراد من قوله ﷺ: «إِنَّهُ لِيَغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةً مَرَّةً» [رواه مسلم (٢٧٠٢)].

و(الغين) هو الغيم الرقيق، والمرادُ به هنا ما يتغشى القلب، فكان هذا الشغل والهم يغشى قلبه الشريف ﷺ، ويغطيه عن غيره، فيستغفر الله منه. حكاه الشيخ النووي عن القاضي عياض.

وقال الغزالي في «الإحياء»: «كَانَ ﷺ دَائِمَ التَّرَقُّيِّ، فَإِذَا ارْتَقَى إِلَى حَالٍ رَأَى مَا قَبْلَهَا دُونَهَا فَاسْتَغْفَرَ مِنَ الْحَالَةِ السَّابِقَةِ»^(٢).

وقد يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام من ذنوب أمته، فهو كالشفاعة لهم، ويقوِّيه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: استغفر لذنوبهم بالدعاء لهم.

وفي إعادة حرف الجر وحذف المضاف إشعارٌ بفرط احتياجهم إلى استغفار الرسول ﷺ، وكثرة ذنوبهم، فإنَّها جنسٌ آخرٌ تغاير ذنبه ﷺ.

وأشارت الآية إلى أنَّ العلم قبل العمل، فالعمل تابع للعلم، فهو الأول وهو الأمير على العمل.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي: والله يعلم تصرفاتكم وأحوالكم في الدنيا ومصيركم إلى الجنة أو إلى النار يوم القيامة.

(١) تفسير الخازن: ٥٠٧/٥.

(٢) فتح الباري: ١١/١٠٢.

فهو سبحانه محيط بكل أعمالكم وحركاتكم وسكناتكم فاحذروه وراقبوه، وعظّموا أمره واستغفروه، فالدنيا زائلة قصيرة، والآخرة باقية خالدة، وطاعته تعالى والجهاد في سبيله خير لكم في الدارين.

المتقاعسون عن القتال

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ حِزْبًا لَّهُمْ﴾ (٦١)

وبعد أن زهدتهم الآيات في الدنيا بينت جُبن المنافقين وتقاعسهم عن تنفيذ أمر الله تعالى، وخاصة عندما يؤمرون بالجهاد:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ (٦١).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ أي: هلاً نزلت سورة نؤمر فيها بالجهاد. فالمؤمنون حريصون على الجهاد، وأما المنافقون فشأنهم مختلف: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي: أنزلت سورة لم تُنسخ، أمروا فيها بالقتال، أو سورة محكمة لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال. وفي قراءة: (نُزِّلَتْ سُورَةٌ) بالبناء للفاعل.

﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي: رأيت المنافقين تشخص أبصارهم جنناً وهلعاً، كمن أصابته غشية الموت. ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ وهو وعيد وتهديد من الولي وهو القرب، ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم الموت، أو يؤول إليه أمرهم.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: طاعة وقول معروف أفضل وأحسن من ترك امتثال أمر الله تعالى .

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: فإذا جد الجد، وكلفوا بالقتال، فلو صدقوا الله، وبادروا إلى تنفيذ أمره، لكان الصدق خيراً لهم من كراهة الجهاد والتقايس عنه .

* * *

المفسدون في الأرض وقاطعو الأرحام

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاءَاتِ أَرَأَيْتُمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ ﴿٢٤﴾

ثم وجهت الآيات الخطاب إليهم لتأكيد توبيخهم وتشديد تقييدهم:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ .

أي: هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس، وتأمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض، وتقطعوا أرحامكم، تناحراً على الملك، وتهالكاً على الدنيا، فإن موقفكم من الجهاد - وهو وسيلة كل خير وصلاح، ودفع كل شر وفساد - يدل على ذلك .

وقد يكون المراد من (توليتم) أعرضتم، ويكون المعنى: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن، وفارقتم أحكامه، أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء، وأخذ الرشاً . وفي قراءة: (إن تُؤلَّيْتُمْ) بضم التاء والواو وكسر اللام، أي: تولاكم حكاماً ظلمة، خرجتم معهم، وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم .

وهذا يدل على ضعفهم في الدين، وحرصهم على الدنيا، فهم أحقاء أن يتوقع ذلك منهم كل من عرف حالهم.

ودلت الآية على حرمة قطع الأرحام، وهي - كما قال القرطبي في تفسيره - نوعان؛ عامة، وخاصة:

فالرحم العامة: رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله، ونصرتهم، والنصيحة لهم، وترك مضاربتهم...

وأما الرحم الخاصة: وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم حقوق خاصة وزيادة، كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتؤكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزامنت الحقوق بُدئ بالأقرب فالأقرب.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الرحم التي تجبُّ صلَّتها هي كلُّ رحم محرم^(١).

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله الخلق، فلمَّا فرغَ منه قامتِ الرحمُ، فأخذتْ بحقو الرحمن، فقال لها: مَهْ، قالت: هذا مقامُ العائذِ بك من القطيعة، قال: ألا ترصين أن أصلَ مَنْ وصلك، وأقطعَ مَنْ قطعك؟ قالت: بلى يا ربَّ، قال: فذاك» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [رواه البخاري (٤٨٣٠)].

قوله: «قامت الرحم» يحتمل أن يكون على الحقيقة، والأعراض يجوز أن تتجسَّد وتكلَّم بإذن الله، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة، والمراد تعظيم شأنها، وفضل واصلها، وإثم قاطعها.

وقال عياض: الحقو: معقد الإزار، وهو الموضع الذي يُستجار به ويحترَّم به على عادة العرب، لأنه من أحق ما يحامى عنه ويدفع، كما قالوا: نمنعه مما نمنع منه أُرْزنا، فاستعير ذلك مجازاً للرحم، لاستعاذتها بالله من القطيعة.

وقد يطلق الحقو على الإزار نفسه، كما في حديث أم عطية: «فأعطاها

حقوه فقال: «أشعرَناها إِيَّاهُ» يعني إزاره، وهو المراد هنا، وهو الذي جرت العادة بالتمسك به عند الإلحاح في الاستجارة والطلب، والمعنى على هذا صحيح مع اعتقاد تنزيه الله عن الجارحة^(١).

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أَنَّ رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال ﷺ: «تعبُدُ اللهَ لا تشركُ به شيئاً، وتقيمُ الصلاةَ، وتؤتي الزكاةَ، وتصلُّ الرحمَ» [رواه البخاري (٥٩٨٣)].

والأحاديث في فضل صلة الرحم كثيرة، كما أنها أيضاً كثيرة في التحذير من قطعها. يكفي أن نذكرَ منها ما رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه: أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «لا يدخلُ الجنةَ قاطِعٌ» [رواه البخاري (٥٩٨٤)].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾.

أي: أولئك المخاطبون الذين أبعدهم الله من رحمته فأصمَّهم عن استماع الحق لسوء اختيارهم، وإعراضهم عنه، وأعمى أبصارهم عن رؤية دلائل الحق والانتفاع بها.

ولا شك أن لعنة الله التي ذكرت في الآية أدت بهم إلى قسوة قلوبهم وحرمانها من هدي القرآن الكريم، ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم تغافلهم وإعراضهم عن تدبر آياته:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

أي: ألا يتأملون ويتصفَّحون القرآن ليتنفَّعوا بما فيه من مواعظ وزواجر؟ أم على قلوبهم أقفال، فلا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر؟!.

وأضيفت الأقفال إلى القلوب للدلالة على أنها أقفال مناسبة لها مختصة

بها، لا تجانس الأقفال المعهودة، وهي أفعال الكفر والختم والطبع، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

الردة والنفاق

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۚ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قُلُوبَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَجْرَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ﴾ (٣٤).

كما أدت لعنة الله بهم أيضاً إلى الارتداد عن الإسلام وموالة الشيطان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۚ﴾ (٢٥)

أي: إن الذين رجعوا إلى الكفر من بعد ما تبين لهم الهدى بالأدلة الظاهرة، الشيطان سهّل لهم، وحسّن لهم ذلك، ومدّ لهم في الأمانى والآمال.

وفي قراءة: (وأَملي لهم) على صيغة المتكلم، أي: الشيطان يغويهم، وأنا أنظرهم وأمهلهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢٦).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: ذلك الارتداد والرجوع إلى الكفر بسبب أنهم قالوا لليهود الكارهين لنزول القرآن: سنطيعكم في بعض الأمر، وهو ما ذكره سبحانه عنهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكُمُ الْكَذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم، أي: نطيعكم في هذا الجانب، أمّا إعلان الكفر والخروج من الإسلام، فلا نطيعكم فيه، لما كان لهم في إظهار الإسلام من المنافع الدنيوية.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي: والله يعلم إخفاء ما قالوه لليهود، وفي قراءة: (أسرارهم) ومنها هذا الذي أظهره سبحانه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ﴾ (٢٧).

أي: فكيف يعملون ويحتالون إذا توفتهم الملائكة عند الموت، يضربون وجوههم وأدبارهم؛ هل يستطيعون حينئذٍ أن يقاتلوا ملائكة الموت، ويمنعون أنفسهم منه؟!.

ودلت الآيات على أن اليهود كرهوا نزول القرآن الكريم على الرسول ﷺ، وأن المنافقين أولياء لهم، كما دلت على حالهم عند الموت، ووصفته بأفزع وأهول الأحوال، وكأنها تردُّ على المنافقين ما قالوه لليهود، فإنهم يخافون من الموت، ويجنبون عن القتال لأجله، فكيف يتقون ضرب الوجوه والأدبار عند نزوله بهم.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا يُتوفى أحدٌ على معصيةٍ إلا تضربُ الملائكةُ في وجهه وفي دبره.

فالكلامُ في نظره على الحقيقة، ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر، وما ذلك إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ^(١).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (٢٨).

أي: ذلك المصير الأليم والتوفي الهائل بسبب أنهم اتبعوا ما عرَّضهم لسخط الله، وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم التي عملوها حال إيمانهم.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ (٢٩).

أي: أحسب المنافقون الذين وصفتهم الآيات أن الله لن يفضحهم ويظهر ما في قلوبهم من حقد وعداوة لرسول الله ﷺ والمسلمين؟! فامرهم هذا أمرٌ خطير لا ينبغي السكوت عليه.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٠).

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ والله قادر على كشفهم وإظهار حقيقتهم لرسوله ﷺ، ولهذا قال سبحانه له: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم، فعرفتهم بعلامتهم التي تعرفهم بها، ففيه إشارةٌ إلى قوة ذلك التعريف الذي لا يقع معه اشتباه.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: ولتعرفنهم من فحوى كلامهم ومقصده.

وهذا يدل على أنهم ما كانوا يقدرّون على كتمان ما في أنفسهم، وهو جوابُ قسمٍ محذوف، فلم يتكلم بعد نزول هذه الآية منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فلا يخفى عليه شيء منها.

ثم بينت الآيات أن من حكمته تعالى في تشريع الجهاد كشف المنافقين وفضحهم، وتمييز المؤمنين عنهم.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (٣١).

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ﴾ أي: ولنبلونكم بالقتال إعلماً لا استعلاماً حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين عليه.

فالمراد من قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ أي: على الوجود والظهور، فالله تعالى عالمٌ بجميع الأشياء قبل وجودها، وقدّر سبحانه ألا يعاملنا بحسب سابق علمه فينا، بل بأعمالنا التي نكتسبها باختيارنا، فهو العلم الذي يقع به الجزاء، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾. وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران].

﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهرها ونكشفها.

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبلنا، فإنَّك إن بَلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا.

ثم توعدت الآيات اليهود الذين كانوا يمالئون المنافقين ويصدون الناس عن اتباع الرسول ﷺ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ (٣٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: وعادوا الرسول ﷺ من بعد ما شاهدوا من نعوته عليه الصلاة والسلام في التوراة، وما أنزل عليه من الآيات.

﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: لن يضرّوا رسول الله ﷺ شيئاً بمشاقته وعداوته، وسيحبط مكائدهم التي نصبوها له عليه الصلاة والسلام، ولا يخفى ما في الآية من تعظيم لشأن رسول الله ﷺ، فمعاداته معادة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

ثم توجهت الآيات تخاطب المؤمنين تحذّره من الوقوع في حبائل اليهود ومكرهم، وترك طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام والإعراض عن أحكام شريعته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣).

كما أبطل المنافقون أعمالهم بموالاته أعداء الإسلام. فالردة تحبط جميع الأعمال الصالحة، وأما الرياء والعجب والمن والأذى فتبطل ثواب الصدقات، واحتج بعض العلماء كمالك وأبي حنيفة بالآية على وجوب إتمام ما شرع من نوافل الأعمال، فأوجبوا إتمامه وقضائه إذا أبطل. فاثبتوا على الإيمان، وتمسّكوا بالإسلام، حتى ينزل بكم نازل الموت، فالذين يموتون على الكفر لا يغفر الله لهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤).

* * *

السلام والاستعداد

﴿فَلَا تَهِنُوا وَادْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ۖ ﴿٢٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ الْوَلَدُ تُؤْمِنُوا وَتَنْفِقُوا يُوَفِّكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۖ ﴿٢٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَخَرِّجُوا حَتَّىٰ أَصْغَفَكُمْ ۖ ﴿٢٧﴾ هَٰذَا نَتَذَكَّرُ هَٰؤُلَاءِ نَذَرُوا لِيُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِمَّا مَن يَبْخُلُ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَحْمِلْ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۖ ﴿٢٨﴾﴾

وبعد التحذير من الردة ثبتتهم الآيات في مواجهة الكفار:

﴿فَلَا تَهِنُوا وَادْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ۖ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَادْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ أي: فلا تضعفوا وتدعوا الكفار إلى الصلح خوراً وجبناً، وأنتم في حال علو وتفوق على عدوكم، فالإسلام دين السلام لا دين الاستسلام، فإن كونهم الأعلون، وكونه تعالى ناصرهم من موجبات الثبات، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وفي قراءة: ﴿السَّلم﴾ بالكسر.

ولا تتعارض الآية مع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

فالآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال، فلا تجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين^(١).

ومرّ معنا في الحديث عن آية سورة الأنفال أنه يجوز لولي أمر المسلمين أن يصالح الأعداء ويسالمهم إذا رأى في ذلك مصلحة للمسلمين، وسيأتي معنا في

سورة الفتح أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَالِحٌ قَرِيشاً صُلِحَ الْحَدِيثِيَّةُ، وَكَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، حَتَّى سَمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فَتْحاً بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

فَأَمَرَ الصُّلْحَ وَالْحَرْبَ مَنْوُطَ بَرَأْيٍ وَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ بِحَتْمٍ أَنْ يِقَاتِلَ الْكُفَّارَ أَبَدًا أَوْ يَجَانِبُوا إِلَى الْهَدْنَةِ أَبَدًا، وَلَا تَعْنِي مَصَالِحَةُ الْأَعْدَاءِ تَرْكُ الْإِسْتِعْدَادِ، فإِعْدَادُ الْقُوَّةِ أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَرْكَوَ أَعْمَالَكُمْ﴾ أَي: وَاللَّهُ مَعَكُمْ بِالنَّصْرِ وَالتَّيْيِيدِ، وَلَنْ يَنْقُصَكُمْ أَجْرُ أَعْمَالِكُمْ وَجِهَادِكُمْ.

ثُمَّ زَهَّدَتْهُمْ الْآيَاتُ بِالْدُنْيَا، حَتَّى لَا تُؤَدِّي مَسَالِمَةُ الْعَدُوِّ إِلَى تَعْلُقِهِمْ بِهَا، وَانْشَغَالِهِمْ بِهَا عَنْ طَلَبِ الْآخِرَةِ، كَمَا حَثَّتْهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِإِعْدَادِ الْقُوَّةِ وَالْإِسْتِعْدَادِ.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ ﴿٣٦﴾.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أَي: بَاطِلٌ وَغُرُورٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ.

وَاللَّعِبُ: مَا يَشْغُلُ الْإِنْسَانَ، وَلَيْسَ فِيهِ مَنَفْعَةٌ فِي الْحَالِ وَفِي الْمَالِ، وَإِنْ شَغَلَهُ عَنْ مَهْمَةٍ نَفْسِهِ فَهُوَ اللَّهْوُ.

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أَي: إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ لِيَرْجِعَ ثَوَابُهُ عَلَيْكُمْ فَهُوَ سَبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْكُمْ.

﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْلُكُمْ أَوْ يُخْرِجُ أَضْعَفُكُمْ﴾ ﴿٣٧﴾.

أَي: إِنْ يَسْأَلُكُمُوهَا، وَيَبَالِغُ فِي الْمَسْأَلَةِ، تَبَخَّلُوا بِهَا، وَيُظْهِرُ بَغْضَكُمْ وَعَدَاوتَكُمْ، فَالْبَخْلُ يُخْرِجُ الْأَضْغَانَ.

﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤِلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (٣٨)

﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤِلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: أنتم أيها المخاطبون تدعون لتنفقوا جزءاً من أموالكم في سبيل الله كالجهاد والزكاة وغيرهما.

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أي: فمنكم من يبخل، ويمتنع عن الإنفاق، ويعود ضرر بخله على نفسه، والبخل يتضمن معنى الإمساك ولهذا عُدي بـ (عن).

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ فما يأمركم به لمنفعتكم، فهو غني عن عبادتكم، وأنتم المحتاجون إليه سبحانه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: وإن تعرضوا عن حمل الرسالة، والقيام بتكاليفها، يخلف عليها قوماً آخرين كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رَّبِّدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي: لا يكونوا أمثالكم في التولي عن الإيمان والتقوى، بل يكونون راغبين فيها.

وجاء في الحديث الشريف الذي أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير والترمذي، وهو حديث صحيح على شرط مسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا...﴾ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ولا يكونون أمثالنا؟ فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: «هذا وقومهم، والذي نفسي بيده، لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس».

ويقويه ما في «الصحيحين» [البخاري (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦)]: من حديث

أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة [٣]: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قلت: مَنْ هم يا رسول الله؟ فلم يرجعه حتى سألت ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، وضع رسول الله ﷺ يده على سلمان، ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجالٌ - أو رجلٌ - من هؤلاء».

قال ابن حجر رحمته الله: «وقع في بعض طرقه عند أحمد بلفظ: «لو كان العلم عند الثريا». وفي بعض الطرق عند أبي نعيم أنَّ ذلك كان عند نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، ويحتمل أن يكون ذلك صدر عند نزول كل من الآيتين»^(١).



تفسير سورة الفتح بَسَائِرِ النَّصْرِ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الفتح الأعظم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ بِعَمَلِكَ وَهَدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ وَيُصْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۖ﴾

حملت سورة الفتح في مستهلها البشائر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه :

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ﴾

أي: مكناك ونصرناك نصراً بيناً ظاهراً مفرقاً بين الحق والباطل بغير قتال، أو بقتال، أو: إنا قضينا وحكمنا لك فتحاً مبيناً ظاهراً.

والمراد به صلح الحديبية حين صدّه المشركون في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يأتي من قابل، فأجابهم ﷺ إلى ذلك على كُروه من جماعة من الصحابة، منهم: عمر بن

الخطاب ﷺ، فلما نحرَ هديه حيثُ أُخْصِرَ، ورجع، أنزل الله ﷻ هذه السورة، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما آل إليه من المصلحة.

عن البراء ﷺ قال: تعدُّون أُنْتُمْ الفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وقد كان فتحُ مَكَّةَ فتحاً، ونحن نعدُّ الفَتْحَ بَيْعَةَ الرضوان يومَ الحديبية، كنا مع النبي ﷺ أربع عشرة مئةً، والحديبيةُ بئرٌ، فنزحناها، فلم نترك فيها قطرةً، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأناها، فجلسَ على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ، ثم مضى ودعا، ثم صبَّه فيها، فتركناها غيرَ بعيدٍ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا وركابنا. [رواه البخاري (٤١٥٠)].

قال ابن حجر: «المراد بالفتح هنا الحديبيةُ، لأنها كانت مبدأ الفتح المبين على المسلمين، لما ترتب على الصلح الذي وقَّع من الأمن ورفع الحرب، وتمكَّنَ مَنْ يخشى الدخول في الإسلام والوصول إلى المدينة من ذلك، كما وقع لخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما، ثم تبعت الأسبابُ بعضها بعضاً إلى أن كملَ الفَتْحُ، وقد ذكر ابن إسحاق في «المغازي» عن الزهري قال: لم يكن في الإسلام فتحٌ قبل فتح الحديبية أعظمَ منه، إنما كان الكفر حيث القتال، فلما أمن الناسُ كلهم، كلَّم بعضهم بعضاً، وتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكن أحدٌ في الإسلام يعقل شيئاً إلا بادر إلى الدخول فيه، فلقد دخل في تلك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»^(١).

وذهب جماعة إلى أنه فتح مكة، وهو كما في «زاد المعاد» الفتح الأعظم، الذي أعزَّ الله تعالى به دينه، واستنقذ به بلده، وطهر حرمه، واستبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس بعده في دين الله ﷻ أفواجاً، وأشرق وجه الدهر ضياءً وابتهاجاً، وكان سنة ثمانٍ^(٢).

وقال مجاهد والعوفي: هو فتح خيبر، والأول أكثر، وخيبر إنما كانت وعداً وعدوه على ما يأتي بيانه^(٣).

(١) فتح الباري: ٤٤١/٧.

(٢) روح المعاني: ٨٦/٢٦.

(٣) تفسير القرطبي: ٢٦١/١٦.

وقيل: هو فتح فارس والروم وسائر بلاد الإسلام التي يفتحها الله ﷻ له .
ثم بينت الآيات ما جمع الله للنبي ﷺ بالفتح من غايات كريمة ومقاصد رفيعة:

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتَبَّرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٢﴾

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي: ليغفر لك الله كل ما تراه ذنباً كما مرّ معنا في قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

فبالفتح تحققت المساعي الطيبة المباركة، التي بذلها النبي ﷺ فأقر الله عينه به .
قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين».

﴿وَيَتَبَّرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وبما أفاضه سبحانه على نبيه من النعم الدينية والدينية حتى خضع له وتذلل من كان يتكبر عليه .

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة الحجة .

ولهذا بادر ﷺ بعد صلح الحديبية إلى إرسال الرسائل إلى ملوك الأرض يدعوهم فيها إلى الإسلام، ففي الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَتَبَ إِلَى كَسْرَى وَإِلَى قَبْصَرٍ وَإِلَى النُّجَاشِيِّ وَإِلَى كُلِّ جَبَّارٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ بِالنُّجَاشِيِّ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ». [رواه مسلم (١٧٧٤)].

فكانه قال: ويهدي بك صراطاً مستقيماً، أو يثبتك على الهدى .

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٣﴾

أي: نصراً غالباً منيعاً لا يتبعه ذل، أو يعزُّ وجود مثل هذا النصر .
وإظهار الاسم الجليل مع النصر لإظهار كمال العناية بشأنه، وفيه إشارة إلى

أنه لا يكون إلا من عند الله تعالى، ولهذا قال النبي ﷺ لما أنزلت عليه هذه الآية: «لقد أنزلت عليّ آية هي أحبُّ إليّ من الدنيا جميعاً» [رواه مسلم (١٧٨٦)].

* * *

جنود الله

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْرًا عَظِيمًا ۝﴾.

ثم بينت الآيات بعد هذا التعظيم والتشريف للنبي عليه الصلاة والسلام ما أفاض سبحانه على أصحابه من بداية الفتح:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ أي: الله أنزل الطمأنينة والثبات في قلوبهم ليزدادوا يقيناً منضماً إلى يقينهم.

ولعله مثل الطمأنينة التي سألها إبراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

أكرم الله بمثلها أصحاب النبي ﷺ، فأراهم تحقق ما وعدهم من النصر والفتح، وتيسير الأمن بعد الخوف.

والمراد من إنزال السكينة خَلْقُهَا وإيجادُها، وفي التعبير بالإنزال إيماءٌ إلى علو شأنها، قال الراغب: «إنزال الله تعالى نعمته على عبده إعطاؤه تعالى إياها»^(١).

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا يعلمُ جنودَه سبحانه إلا هو، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

ومرَّ معنا أنَّ الرعب جندي من جنوده تعالى حمى به أصحاب الكهف، وسخره للنبي ﷺ ونصره به، وكذلك الحُبُّ جندي من جنوده تعالى حمى به نبيه موسى ﷺ فقال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَّةَ مَنَى﴾ [طه: ٣٩]، وكذلك السكينةُ من جنوده سبحانه، أنزلها في قلوب الصحابة، فإن من لوازمها ثبات الأقدام عند اللقاء في الحروب، فكان ذلك من أسباب النصر.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بجنوده وأحوال مخلوقاته حكيماً في تقديره وتدييره.

• زيادة الإيمان ونقصانه:

واحتجَّ بالآية القائلون بزيادة الإيمان ونقصه، وهم جمهور الأشاعرة والفقهاء والمحدثون والمعتزلة، ونقل ذلك عن الشافعي ومالك، قال البخاري: لقيتُ أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيتُ أحداً منهم يختلف في أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ، يزيدُ وينقصُ.

وقال النووي ومحققون من علماء الكلام: إنَّ الإيمانَ بمعنى التصديق القلبي يزيد وينقص أيضاً بكثرة النظر، ووضوح الأدلة، وعدم ذلك، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم...

وقال جماعة من العلماء أعظمهم الإمام أبو حنيفة، وتبعه أصحابه وكثير من المتكلمين: الإيمانُ لا يزيدُ ولا ينقص. واختاره إمام الحرمين، واحتجُّوا بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان، وهذا لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان، والزيادة في الآية بحسب الدوام والثبات، وكثرة الزمان والأوقات، أو ثمرته

وإشراق نوره في القلب، فإنَّ نور الإيمان يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي^(١).
والجدير بالذكر أنَّ الإمام البخاري بَوَّبَ في صحيحه باباً خاصاً في زيادة الإيمان ونقصانه فقال: [٣٣] باب زيادة الإيمان ونقصانه، وقول الله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المائدة: ٣١]، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص.
ثم أورد رحمته حديث أنس رضي الله عنه: [٤٤] عن النبي ﷺ قال: «يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ».
ثم ذكر تعليقاً رواه أخرى [٤٤] للحديث بلفظ: «من إيمانٍ» مكان «من خيرٍ»^(٢).
ثم بيَّن سبحانه فضله على المؤمنين يوم القيامة:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾
وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ .

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: ليغطي سيئاتهم ولا يظهرها.
وقدمت الآية إدخال الجنة على التكفير مع أنَّ تكفير السيئات قبل دخول الجنة، مسارعة إلى بيان المطلب الأعلى، وهو دخول الجنة. فالآيات حملت البشائر فبدأت بأعلاها وأعظمها.
﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: وكان ذلك في علم الله فوزاً عظيماً، لأنه منتهى ما تطمحُ إليه قلوبُ المؤمنين والمؤمنات.

* * *

(١) روح المعاني: ٩٣/٢٦.

(٢) فتح الباري: ١٠٣/١.

دائرة السوء

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

وفي مقابل ما حملت الآيات من البشائر للمؤمنين والمؤمنات، حملت التهديد والوعيد للمنافقين والمشركين والمشركات:

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السُّوءِ﴾ أي: ظن الأمر السوء أنه تعالى لا ينصرُ رسوله ﷺ والمؤمنين الذي سيأتي معنا عند قوله سبحانه: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السُّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

وسوء الظن بالله تعالى كفرٌ، لما فيه من تكذيب لله سبحانه، واتهام له ﷻ في حكمه، فهو ظن مُرَدٍّ ومهلك، قال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ﴾ [فصلت: ٢٣].

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ أي: عليهم دائرة ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، فهو دائر عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وفي قراءة: (دائرة السُّوء) بالضم، وهما لغتان، غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد دمه، والمضموم جرى مجرى الشر الذي هو نقيض الخير، وكلاهما في الأصل مصدر^(١).

﴿وَعَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: وساءت جهنم منقلباً، هكذا توعدتهم الآية بالشر في الدنيا وإبعادهم عن رحمته تعالى، وبالعذاب الشديد في الآخرة.

وأكد سبحانه قدرته على الانتقام من أعداء رسوله ﷺ ودينه، قال:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾.

ففي جنود السماوات والأرض مَنْ هو للرحمة وتثبيت المؤمنين، وفيهم أيضاً مَنْ هو للعذاب.

وعلم الله ضعف المؤمنين، فناسب أن تكون خاتمة الآية الأولى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ولما بالغ في وصف تعذيب الكافر والمنافق وشدته ناسب أن تكون خاتمة الآية الثانية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾.

البيعة على الموت

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) لَتُؤْمِسُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ بِاللَّهِ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوْتِيهِ أَمْرًا عَظِيمًا (١٠).

وعادت الآيات مرة ثانية تخاطب النبي ﷺ وهي تمجده وتعظمه، وتبين وجوب تعظيمه واتباعه وطاعته على المؤمنين:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: شاهداً على أمتك يوم القيامة، ومبشراً المؤمنين بفضل الله ورحمته، ومنذراً المعرضين بعذابه وسخطه.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٩.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: لتؤمنوا بالله ورسوله ﷺ، وتعظموا الرسول ﷺ بنصره وتقويته، ومنعه من أعدائه، وتحترموه، وتعرفوا فضله ومكانته، فالضمير فيهما للنبي ﷺ، وهنا وقف تام، ويمكن أن يكون الضمير فيهما لله تعالى، فلا وقف ولا تشتيت للضمائر، ويكون المعنى: وتعزروه سبحانه بنصر دينه ورسوله، وتوقروه بتعظيمه ﷺ.

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: وتنزهوا الله في أول النهار وآخره، أو تصلوا لله تعالى وفيها التسبيح، وفي قراءة: (ليؤمنوا، ويعزروه، ويوقروه، ويسبحوه) بالياء.

وتعظيم النبي ﷺ واحترامه تعظيم لله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ١٠.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أي: إن الذين يبايعونك يا محمد يوم الحديبية على الموت في نصرتك، أو على أن لا يفروا إنما يبايعون الله، لأنهم يقصدون طاعته كما قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ [النساء: ٨٠].

وكان السبب في البيعة: أن النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يبعث رجلاً إلى قريش، يبلغهم ما جاء له، فدعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إنني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من عدي بن كعب أحدٌ يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمة، فخرج

عثمانُ إلى مكة، فبلغ رسالة رسول الله ﷺ، فقالوا له: إن شئت أن تطوف في البيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

واحتمسته قريشٌ عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمانَ بنَ عفان قد قُتل، فقال ﷺ: «لا نبرحُ حتى نناجزَ القوم» فدعا الناسَ إلى البيعة، فكانت بيعةُ الرضوان تحت الشجرة^(١).

وفي الحديث الشريف: أن رجلاً من أهل مصر سأل ابنَ عمر رضي الله عنهما قال: إنني سائلك عن شيءٍ فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمانَ فرَّ يومَ أُحُدٍ؟ قال: نعم. فقال: تعلم أنه تغيبَ عن بدرٍ، ولم يشهدْها؟ قال: نعم. قال الرجلُ: هل تعلم أنه تغيبَ عن بيعةِ الرضوانِ فلم يشهدْها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر. قال ابنُ عمر: تعال أبين لك: أمّا فراره يومَ أُحُدٍ فأشهدُ أن الله عفا عنه وغفرَ له، وأمّا تغيبه عن بدرٍ، فإنه كانت تحته بنتُ رسول الله ﷺ، وكانت مريضةً، فقال له رسول الله ﷺ: «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهدَ بدرًا وسهمه». وأمّا تغيبه عن بيعةِ الرضوانِ فلو كان أحدٌ أعزَّ بطنٍ مكةَ من عثمانَ لبعثه مكانه، فبعث رسول الله ﷺ عثمانَ، وكانت بيعةُ الرضوانِ بعدما ذهبَ عثمانُ إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يدُ عثمانَ» فضربَ بها على يده، فقال: «هذه لعثمان» فقال له ابنُ عمر: اذهب بها الآن معك. [رواه البخاري (٣٦٩٩)].

ففي الآية تعظيم لشأن هذه البيعة أكده سبحانه بقوله بعد ذلك:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عقد الميثاق مع الرسول ﷺ كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما.

أو هو حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايعُ بواسطة رسوله ﷺ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرَّبُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ

وَيَقْنُلُوا وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

واليد في حق الله تعالى صفة من صفات ذاته ليست جارحة، ومذهب السلف السكوت عن التأويل، وإمرار آيات الصفات كما جاءت، وتفسيرها قراءتها والإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: فمن نقض عهده فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ومن وفى بما عاهد عليه الله في البيعة فميسوته أجر عظيم يوم القيامة.

وضم هاء (عليه) حفص في قراءته، وفي قراءة: (فميسوته) بالنون. ولما سئل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: على أي شيء كنتم تباعون يومئذ؟ قال: على الموت. [رواه البخاري (٢٩٦٠)].

وقال بعضهم: بايعهم على ألا يفرّوا. ولا تنافي بينهما لاحتمال أن يكون ذلك في مقامين، أو أحدهما يستلزم الآخر.

أعذار المتخلفين

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَرَبِّكَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا السَّوْءَ وَكُنتُمْ قَوْمًا نَوْرًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

ثم عرضت الآيات للذين حرموا أنفسهم من هذا الأجر العظيم، وتخلفوا عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجوا معه، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمراً، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب، فتناقل عنه كثير منهم، واعتلوا بالشغل فأنزل الله فيهم:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾ .

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ أي: سيقولون لك إذا رجعت إليهم من عمرتك: شغلتنا أموالنا وأهلونا، فاستغفر لنا بسبب تخلفنا. قالوا ذلك على وجه التقية والمصانعة، فكذبهم سبحانه: ﴿يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فهم كاذبون في طلب الاستغفار، لا يبالون أستغفر لهم النبي ﷺ أم لا.

ولهذا أمر عليه الصلاة والسلام أن يتوعدهم بدل أن يستغفر لهم:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا أحد يمنع عنكم ما قدره الله لكم من ضرر أو نفع.

وذلك أنهم ظنوا أن تخلفهم عن النبي ﷺ يدفع عنهم الضرر، أو يجلب لهم النفع بالسلامة من مخاطر الخروج معه، وفي قراءة: (ضَرًّا) بضم الصاد، ومعناه: سوء الحال.

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: ليس الأمر كما تقولون، بل كان الله خبيراً بحقيقة تخلفكم ومجازيكم عليه.
ثم فضحهم سبحانه وبين سبب تخلفهم:

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُتْ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي: بل ظننتم أن لن يرجع الرسول ﷺ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، بأن يستأصلهم المشركون بالمرة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم.
﴿وَزُتْ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وحسن هذا الظن في قلوبكم، وانشرحت له صدوركم وعلمتم به.

﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي: وظننتم أن الله سبحانه لا ينصر رسوله ﷺ، وصرتم بسبب ذلك الظن الفاسد قوماً بائرين هالكين لا خير فيكم.
ثم دعتهم الآيات بأسلوب غير مباشر إلى الإيمان الصادق قبل أن ينزل بهم العذاب:

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

وهي نار جهنم، ونكرها تهويلاً لها.

ثم أخبر تعالى عن كمال ملكه وسلطانه وطلاقة مشيئته:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾ .

ولا يغفر سبحانه إلا لمن تقتضي الحكمة أن يغفر له ممن يؤمن بالله ورسوله ﷺ بصدق وإخلاص .

عقوبة المتخلفين

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُحَلِّينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتُي تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ بِعَدَابِ اللَّهِ أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ .

وكما بينت الآيات جبن المتخلفين وتأقلهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ بينت أيضاً طمعهم الشديد، وتعلق قلوبهم بالمنافع الدنيوية والمكاسب المادية :

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ .

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي : سيقول لك المخلفون المذكورون عند انطلاقكم إلى مغامير خيبر لتأخذوها حسبما وعدكم الله إياها : دعونا نخرج معكم، ونشارككم في المغامير .

وهذا يدل على أنهم كانوا يرون ضعف العدو، ويتحققون النصر، فقد جاء في الأخبار الصحيحة: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ أَهْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ أَنْ يَعْوِضَهُمْ عَنْ مَغْنَمِ مَكَّةَ مَغْنَمَ خَيْبَرَ^(١).

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ بأن يشاركوا بالغنائم التي خصها الله بأهل الحديبية، فإنه عليه الصلاة والسلام رجَعَ من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، وأقام بالمدينة بقيتها، ثم غزا خيبر في أوائل سنة سبع بمن شهد الحديبية ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة فخصّها بهم، ولا ينافي هذا إعطاؤه عليه الصلاة والسلام بعض مهاجري الحبشة القادمين مع جعفر، وبعض الدوسيين والأشعريين، وهم أصحاب السفينة، فلعلّه كان برضا الغانمين، أو أعطاهم من الخمس الذي هو حقه عليه الصلاة والسلام، فكلام الله وعده بتلك الغنائم لأهل الحديبية، وفي قراءة: (كلم الله).

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي عن الاتباع للمبالغة.

﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل تهيتكم للخروج إلى خيبر.

﴿فَسَيُقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا﴾ أي: لم يأمركم الله بذلك، بل تحسدونا أن نشارككم بالغنيمة، وقرئ: (بل تحسدونا) بكسر السين.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: بل كانوا لا يفهمون إلا فهماً قليلاً، وهو فهمهم لأمر الدنيا، وهو رد لقولهم الباطل في المؤمنين، ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد، وهو الجهل المفرط، وسوء الفهم في أمور الدين.

إنَّ منع المتخلفين عن المشاركة في فتح خيبر كان عقوبة مؤقتة لهم بسبب تخلفهم عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الحديبية، ولهذا أمر ﷺ أن يخبرهم بأنَّ بابَ الجهاد مفتوحٌ لهم، وأنه يمكنهم أن يتلافوا ما سلف من تقاعس وتثاقل:

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦).

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي: ستدعون إلى قوم أولي قوة شديدة تقاتلونهم حتى يسلموا فيدخلوا بالإسلام، أو ينقادوا ويستسلموا لأحكامه بإعطاء الجزية.

واختلفوا في تعيين هؤلاء القوم، وتعددت آراؤهم: ثقيف وهوازن، أهل الردة، الروم والفرس، المغول والتر، ولا مانع من حمل الآية على جميع أعداء الإسلام، وفطن القرطبي في تفسيرها إلى لطيفة في الآية فقال: في هذه الآية دليل على صحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لأن أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم.

لكن من المعلوم أن قتال فارس والروم بدأ في عهد أبي بكر، واستمر في عهد عمر وعثمان رضي الله عنهم.

﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: إن تتولوا عن الاستجابة لدعوة الجهاد كما توليتم من قبل عن الخروج إلى الحديبية يعذبكم عذاباً أليماً. ثم استنتت الآيات أصحاب الأعدار من الوعيد على التخلف:

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧).

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ أي: لا تكليف عليهم ولا مسؤولية في التخلف عن القتال، فإن مدار التكليف على الاستطاعة، فهذه الأعذار ظاهرة في ترك الجهاد، ويلحق بها أمثالها، كما يلحق بها الفقر الذي لا يمكن صاحبه من الخروج إلى الجهاد، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ

وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُوتُ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ [التوبة: ٩١].

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: ومن يعرض عن الطاعة، ويستمر على الكفر والنفاق يعذبه عذاباً أليماً. وفي قراءة: (ندخله، نعذبه) بالنون.

* * *

بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ .

وبعد أن عظمَت الآياتُ شأنَ البيعة في الحديبية، ونددت بالمتخلفين عن الخروج إليها، بيَّنت فضلَ الذين استجابوا للرسول ﷺ وخرجوا معه وبايعوه، فأخبر تعالى عن رضاه عنهم:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ .

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ وفي الحديث الشريف: عن جابر رضي الله عنه قال: قال لنا رسولُ الله ﷺ يومَ الحديبية: «أنتم خيرُ أهلِ الأرض» وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنْتُ أبصرُ اليومَ لأريتكم مكانَ الشجرة. [رواه البخاري (٤١٥٤)].

قال ابن حجر: هذا صريحٌ في فضل أصحاب الشجرة، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعة بمكة وبالمدينة وبغيرهما. وعند مسلم [٢٤٩٥]: من حديث جابر مرفوعاً: «لا يدخلُ النارَ مَنْ شَهِدَ بَدْراً والحديبية». وروى مسلم

[٢٤٩٦] أيضاً: من حديث أم مبشر: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يدخل النار أحدٌ من أصحاب الشجرة»^(١).

ويبدو أن الله تعالى قدّر أن يخفى عليهم أمر تعيين مكانها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رجعنا من العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها. [رواه البخاري (٢٩٥٨)].

وعن سعيد بن المسيب قال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلمّا خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها. [رواه البخاري (٤١٦٣)].

قال ابن حجر: وجدت عند ابن سعد بإسناد صحيح: عن نافع: أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة، فيصلّون عندها، فتوعدهم، ثم أمر بقطعها فقطعت^(٢). ولعلّهم فعلوا ذلك بشجرة ظناً منهم أنها شجرة البيعة.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فعلم سبحانه ما في قلوبهم من الصدق والإخلاص عند مبايعتهم، فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن وسكون النفس، وأثابهم فتحاً قريباً، هو فتح خيبر بعد انصرافهم من الحديبية. ففي الآية شهادة عظيمة من الله تعالى بإخلاص أصحاب بيعة الرضوان، مما يدل على فضلهم ﷺ كما مرّ معنا.

﴿وَمَعَانِهِ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

﴿وَمَعَانِهِ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ من أموال خيبر، وكانت ذات غنى بالأموال والمزارع والنخيل، وفي قراءة: (تأخذونها) بالناء والالتفات بالخطاب لتشريفهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي: كان الله ولا يزال منيعاً لا يغلب، حكيماً في ما يحكم ويقدر.

* * *

(١) فتح الباري: ٤٤٣/٧.

(٢) المرجع السابق: ٤٤٨/٧.

مقدمة الفتوح وتوالي البشائر

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدُرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْنَاكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذَى ثُمَّ لَا يُجِدُونَ لِيُنَا وَلَا بَصِيرًا ٢٢﴾
سُنةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣﴾

وكانت غنائم خيبر مقدمة لمغانم كثيرة متوالية مع امتداد الفتوح وتوالي النصر:

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ. وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ
آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٠﴾.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: فَعَجَّلَ لَكُمْ غَنِيْمَةً خَيْرَ.

ففي الآية إشارة إلى كثرة الفتوحات والغنائم التي يكرمهم الله تعالى بها في المستقبل، فغنيمة خيبر في جنب ما وعدهم الله به من الغنائم كالقليل من الكثير.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي: وكفَّ أيدي حلفاء أهل خيبر من بني أسد وغطفان حين هموا بنصرتهم، فقذف الله تعالى في قلوبهم الرعب فنكصوا، أو كفَّ أيدي مشركي قريش عنكم بالصلح.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون هذه الأحداث أمانة للمؤمنين، يعرفون بها فضله تعالى عليهم، وصدق رسوله ﷺ في كل ما أخبرهم به.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ بالتوفيق والتثبيت.

واستمرت الآيات تحمل البشائر بالنصر والفتح للنبي عليه الصلاة والسلام

ولأصحابه:

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: وعجل لكم مغنم أخرى، وهي مغنم هوازن في غزوة حنين، لم تقدرُوا عليها في أول الأمر عندما حدث ما حدث من الفرار، قد أظهركم الله عليها، وقدرها لكم، أو حفظها لكم، ومنعها من غيركم.

وقد يكون المعنى: وعدكم الله فتح بلاد أخرى لم تقدرُوا عليها بعد، وهي بلاد فارس والروم وكل فتح يفتحه المسلمون إلى آخر الزمان، فهي كقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيُدْخِلُهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، وقال هنا أيضاً:

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فقد رتبه سبحانه تامة لا تختص بشيء دون شيء. ومن الدلائل التي تدل على كمال قدرته جل وعلا:

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثُ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝﴾

أي: ولو قاتلكم مشركو مكة، ولم يصالحوها لانهمزوا، ثم لا يجدون لهم ناصراً ولا مساعداً لأن الله خذلهم.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝﴾

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: سنة الله في نصر أنبيائه وأوليائه سنة قديمة، ونصبت على المصدر، أو كسنة الله، وهي الطريقة والسيرة. ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ولا يستطيع أحد تغيير سنته تعالى.

محل الهدى

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾ هُمُ الَّذِيكَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَافُوهُمْ فَيَنْصَبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَبَّلُوا الْعَذَابَ الَّذِيكَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾.

شرعت الآيات بعد ذلك تصف بعض ما حدث في الحديبية، وتبين فضله تعالى على المؤمنين:

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وهو الذي كف أيدي أهل مكة عنكم وأيديكم عنهم في داخل مكة، فبعض الحديبية من مكة، من بعد أن مكنكم منهم.

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من جبل التنعيم، متسلحين يريدون غرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم سلماً فاستحياهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. [رواه مسلم (١٨٠٨)].

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: فيجازيكم عليه. وفي قراءة: (بما يعملون) بالياء، فيكون تهديداً للكفار.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ عَنْهُمْ وَلَوْ تَبَوَّاهُمْ وَتَحَلَّفُوا لَبِغْتُمْ فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ﴾ أي: هم الذين كفروا ومنعوكم أن تصلوا إلى المسجد الحرام وتطوفوا به، وصدُّوا الهدْيَ وهو محبوسٌ مِنْ أَنْ يَبْلُغَ مكانه الذي يحلُّ فيه نحره، وهو أرض الحرم، أو محلها المعهود الذي هو مِنَى.

والهدْي: ما يُهْدَى إلى الكعبة من الأنعام.

والمَحِلُّ بالكسر: غاية الشيء، وبالفتح الموضع الذي يحله الناس.

وقد استدل أبو حنيفة رحمته الله بالآية على أَنَّ المحصر مَحِلُّ هديه الحرم، وقال غيره: يذبح المحصر الهدْي حيث يَحِلُّ من إحرامه، وقد سبق تفصيلُ المسألة عند قوله تعالى: ﴿وَأَمِنُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩].

• حرمة المؤمنين والمؤمنات:

﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ عَنْهُمْ وَلَوْ تَبَوَّاهُمْ وَتَحَلَّفُوا لَبِغْتُمْ فِي مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾ أي: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعرفوهم بأعيانهم، أن توقعوا بهم وتهلكوهم فتصيبكم من جهتهم مشقة ومكروه، وأنتم غير عالمين بهم.

وجواب (لولا) محذوف، لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم، فيصيبكم بذلك مكروه، لما كَفَّ أيديكم عنهم.

وكانوا - على ما أخرج أبو نعيم بسند جيد وغيره عن أبي جمعة بن جندب - تسعة نفر، سبعة رجال وهو منهم، وامرأتين^(١).

(١) روح المعاني: ١١٣/٢٦.

ودل قوله: ﴿بَعِيرٍ عَلِيمٍ﴾ على فضل الصحابة، فقد أخبر عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية، والعصمة عن التعدي، حتى لو أنهم أصابوا أحداً من ذلك لكان عن غير قصد.

﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: لم يأذن لكم في قتال المشركين ليُسلم منهم من قدر له الإسلام.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذبنا الذين كفروا عذاباً أليماً بقتلهم وأسرهم.

ففي هذه الآية دليل على مراعاة الكافر في حرمة المؤمن، إذ لا يمكن أذية الكافر إلا بأذية المؤمن، قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرايت لو أن قوماً من المشركين في حصن من حصونهم، حصرهم أهل الإسلام وفيهم من المسلمين أسارى في أيديهم، أيحرق هذا الحصن أم لا؟ قال: سمعتُ مالكاً وسئل عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم النار ومعهم الأسارى في مراكبهم؟ فقال مالك: لا أرى ذلك، لقوله تعالى لأهل مكة: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وكذلك لو تترس كافر بمسلم لم يجز رميه...

قلت: قد يجوز قتل الترس ولا يكون فيه اختلاف إن شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحة ضرورية كلية قطعياً، فمعنى كونها ضرورية: أنها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس، ومعنى أنها كلية: أنها قاطعة لكل الأمة حتى يحصل من قتل الترس مصلحة كل المسلمين، فإن لم يفعل قتل الكفار الترس، واستولوا على كل الأمة، ومعنى كونها قطعياً: أن تلك المصلحة حاصلة من قتل الترس قطعاً^(١).

* * *

حمية الجاهلية وكلمة التقوى

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ أي: إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الأنفة والغضب، وذلك حين صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن البيت، ولم يقرّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وأنكروا أن يكون محمدٌ رسول الله ﷺ، وهي حمية الجاهلية التي تمنع الإذعان للحق.

ففي حديث صلح الحديبية: أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم» فقال سهيل: هاتِ اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتب فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أمّا الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ الله» فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنّك رسول الله ما صدّدناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «والله إنني لرسولُ الله وإن كذبتُموني، اكتب: محمد بن عبد الله...» فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلّوا بيننا وبين البيت، فنطوف به» فقال سهيل: والله لا تتحدّث العربُ أنّا أخذنا ضغطةً، ولكن ذلك من العام

المقبل... وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله، ولم يقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينه وبين البيت. [رواه البخاري (٢٧٣٢)].

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فأنزل الله عليهم الثبات والوقار، فتوقروا وحلموا، فلم يدخلهم شيء من حمية الجاهلية كما حدث للمشركين.

﴿وَأَزَلَّهُمْ كَلِمَةُ الْقَوَى﴾ أي: جعلهم يتمسكون بكلمة التقوى، وهي: لا إله إلا الله، التي يتقى بها الشرك، فهي رأس كل تقوى، ومنها طاعة رسول الله ﷺ.

ففي حديث الصلح: أن النبي ﷺ لما فرغ من قضية الكتاب قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجلٌ حتى قال ذلك ثلاث مرّات، فلما لم يقم منهم أحدٌ دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَهُ، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا قاموا ونحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أي: وكانوا أحق بها من غيرهم، والمستأهلين لها، وهذا ثناء آخر على الصحابة الذين شهدوا الحديبية من ربهم إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل الله على قلوبهم من سكينه، وما جعل فيها من تقوى، وهو تكريمٌ بعد تكريم صادرٍ عن علم وتقدير.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم من يستحق الخير ممن لا يستحقه.

الرؤيا الصادقة

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ .

عادت الآيات بعد أن فرغت من وصف ما حدث بالحديبية إلى بداية الأحداث تبين السبب المباشر لها :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُخْلِفِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي : صدق الله رسوله ﷺ في رؤياه، وأراه الرؤيا الصادقة .
ومر معنا أن رؤيا الأنبياء وحي، وكان رسول الله ﷺ قد رأى بالمنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة .
وفي حديث الصلح : أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : أوليس كنتَ تحدِّثنا أنا سنأتي البيتَ فنطوفُ به؟ قال : «بلى، فأخبرتُكَ أَنَّا نأتيه العام؟» قال : قلتُ : لا . قال : «فإنَّكَ أتبه ومطوفٌ به» .

فقوله : ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي : صدقاً متلبساً بالحق، فما رآه رسول الله ﷺ كائنٌ لا محالة في الوقت المقدر له وهو العام القابل .

وقوله : ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليماً لعباده الأدب، ولتحقيق الخبر وتوكيده .

وقوله : ﴿ءَامِينَ﴾ أثبت لهم الأمن وهم يؤدُّون مناسك العمرة، حتى ينتهوا منها بحلق رؤوسهم، وتقصيرها عند الإحلال .

وفي الحديث: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ارحم المحلّقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «اللهم ارحم المحلّقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين» [رواه البخاري (١٧٢٧)].

﴿لَا تَخَافُوبْتَ﴾ فلا يخافون من عدوّهم وهم في داخل بلده.
﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: فعلم سبحانه أن الصلاح كان في الصلح وتأخير دخول مكة.

﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: فجعل من دون دخول مكة فتحاً قريباً، هو فتح خيبر، أو صلح الحديبية، يستأنس به المؤمنون، حتى يتيسّر الموعد، وتحقق رؤيا رسول الله ﷺ.
وفُتِحَتْ خيبر، ودخل النبي ﷺ وأصحابه مكة معتمرين آمنين، وفُتِحَتْ بعد ذلك مكة، وتوالت الفتوح، وأظهر الله تعالى دينه على كل دين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٢٨).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ليُعْلِيه على جميع الأديان وينسخها به، فلا يقبل الله تعالى غير الإسلام ديناً.
﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صدق رسوله ﷺ، وأن ما وعده به كائن، وكيف لا يشهد الله له بالصدق وهو رسوله ﷺ.

* * *

جند النصر والفتح

﴿ثُمَّ حَمَدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُسَجِّدًا يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ أَخْرَجَ سَطْحَهُ فَتَارَازَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

﴿ثُمَّ حَمَدُ رَسُولِ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُسَجِّدًا يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ أَخْرَجَ سَطْحَهُ فَتَارَازَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿ثُمَّ حَمَدُ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فالذي أرسله ليظهره على الدين كله هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فهو الرسول المرسل بالهدى ودين الحق. وقرئ: (رسول) بالنصب على الفتح.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ والمراد بهم الذين شهدوا الحديبية، أو جميع أصحابه عليه الصلاة والسلام ورضي الله عنهم، فهم في غلظة وشدة على أعداء الإسلام، ورحمة ورقية على المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿أَذَلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ثم وصفهم سبحانه بكثرة الصلاة، وهي أفضل الأعمال، وشهد لهم بالإخلاص فيها:

﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُسَجِّدًا يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي:

تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين يبتغون ثواباً ورضاً من الله، وإن آثار الصلاة من خشوع وتواضع وسمت حسن ونظافة ووضاء بادية عليهم، فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نيّاتهم، وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمّتهم وهديهم. ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي: ذلك الوصف العجيب الشأن الذي ذكر صفتهم في التوراة.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ أي: وصفتهم في الإنجيل كزرع أخرج فراخه وأولاده فقواه وأعانه حتى قوي وغلظ واشتد، وقام على عوده، الذي يحمله ويقوم عليه.

وهو مثل ضربه الله لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مكتوب في الإنجيل أنهم يكونون قليلاً، ثم يزدادون ويكثرون.

قال ابن كثير: هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة.

﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب الزراع بكثافته وقوته وحسن منظره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي: إنما قوّاهم وكثّرتهم ليعيظ بهم الكفار.

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمته الله تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم لأنهم يغيظونهم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: وعد الله الصحابة مغفرةً وأجراً عظيماً، فقلوه: (منهم) لبيان الجنس لا للتبعض، فلهم كلهم الفضل والسبق والكمال.

فالآية تدل على فضل الصحابة رضوان الله عليهم، وترد على كل من يكرههم وينتقدهم، فلا يجوز الطعن عليهم، أو التعرض لهم بسوء، كما لا يجوز

أن يضمّر في قلبه بغضاً لأحد منهم، فمن انتقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد ردّ على الله ربّ العالمين، وأبطل شرائع المسلمين.

قال القرطبي: فالصحابَةُ كُلُّهُمْ عدوٌّ أولياء الله تعالى وأصفياءه وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، هذا مذهبُ أهل السُّنَّة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة.



تفسير سورة الحجرات أَخْلَاقٌ وَمَبَادِيٌّ فِي سُورَةِ الْحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تأديب وتحذير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَالْقَوْلُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ ۚ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْطَأَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِدَّ رَسُولِ اللَّهِ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفَقَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۖ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة الحجرات بنداؤه وجهه للمؤمنين، أدبهم فيه بأدب كريمة، يجب عليهم أن يتحلوا بها في معاملة رسول الله ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَالْقَوْلُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تسرعوا بقول أو فعل قبل أن يقوله رسول الله ﷺ وقبل أن يفعله.

وفيه إشارة إلى احترام رسول الله، والانقياد لأوامره ونواهيه، وذكر (الله) تعظيماً له، وإشعاراً بأنه من الله بمكانٍ يوجبُ إجلاله.

وقرئت: (لا تَقْدَمُوا) بفتح التاء والdal من التقدم، و(لا تُقَدِّمُوا) بضم التاء وكسر dal من التقديم.

قال القرطبي: كان في العرب جَفَاءً وسوء أدبٍ في خطاب النبي ﷺ، فأنزل الله السورة يعلمهم فيها مكارم الأخلاق ورعاية الآداب.

وقال ابن كثير: هذه آيات أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون بها الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام.

﴿وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واتقوا الله في كل ما أمركم به إنه سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم.

ثم حذَّره ﷻ ونهاهم عن رفع الصوت بحضرة رسول الله ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أي: لا تجعلوا كلامكم مرتفعاً على كلام النبي عليه الصلاة والسلام، لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام وترك الاحترام.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: ولا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم.

أو: لا تخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضكم بعضاً، وخاطبوه بالنبي أو الرسول كما خاطبه ربُّ العزة والجلال، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

فلم ينهوا عن الجهر مطلقاً حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه فيما بينهم، وهو الخالي عن مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها^(١).

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم، أو مخافة أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون بذلك.

قال ابن كثير: أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري.

وقال القرطبي: وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره ﷺ، وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفاً لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي: حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمة حيّاً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثلاً كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به^(١).

وفي الوعيد بحبوط العمل ولو بغير قصد المخالفة دليل على خطورة ما نُهوا عنه، ولهذا خاف الصحابة ﷺ خوفاً شديداً، حتى إن بعضهم اعتزل مجلسه عليه الصلاة والسلام، وبعضهم كان يكلمه سراً.

فعن أنس بن مالك ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِساً فِي بَيْتِهِ مِنْكُسّاً رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَاتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ: «اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» [رواه البخاري (٤٨٤٦)].

وعن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيَّرانِ أن يهلكا، أبو بكر وعمر ﷺ، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركبُ بني تميم، فأشارَ أحدهما بالأقرع بن حابس، وأشار الآخرُ برجل آخر، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ الآية^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٣٠٧/١٦.

(٢) روح المعاني: ١٣٩/٢٦.

ثم أثنت الآيات على الذين يتخلّقون بهذه الأخلاق:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ .

أي: أولئك الذين طهّر الله قلوبهم من كل قبيح وشرحها للتقوى فأخلصها لها، وفي التصريح بجزائهم تعريض بسوء حال من ليس مثلهم.

المنادون من وراء الحجرات

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ فَاسِقٌ يَلْعَنُ فَيَتَبَيَّنُوا أَن يَصْدُوبُوا قَوْمًا بِهِمْ لَقَدْ فُتِنُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِينَ ﴿٦﴾﴾ .

وهم الذين نادوا رسول الله ﷺ من خارج الحجرات، قال تعالى فيهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ .

فلو كان لهم عقل لما فعلوا هذا الفعل القبيح الدال على سوء الأدب مع رسول الله ﷺ. وكانوا من جفاة الأعراب، الغالب عليهم الجهل، والحكم على الأكثر دون الكل بذلك، لأن منهم من لم يقصد ترك الأدب بل نادى لأمر ما.

والحجرات: بيوت نساءه أمهات المؤمنين، وكانت تسعاً، لكل واحدة منهن حُجرة، وكانت - كما أخرج ابن سعد عن عطاء الخراساني - من جريد النخل، على أبوابها المسوح من شعر أسود.

وأخرج البخاري في الأدب، وابن أبي الدنيا والبيهقي: عن داود بن قيس

قال: رأيتُ الحجراتِ من جريدِ النخلِ مغشى من خارجٍ بمسوحِ الشعرِ، وأظنُّ عرضَ البيت من بابِ الحُجرةِ ستة أو سبعة أذرع. . .

وأخرجوا عن الحسن: أنه قال: كنتُ أدخلُ بيوتَ أزواجِ النبي ﷺ في خلافةِ عثمانَ بنِ عفان، فأتناولُ سقفها بيدي، وقد أُدخلتُ في عهدِ الوليد بن عبد الملك بأمره في مسجدِ الرسول عليه الصلاة والسلام، وبكى الناس لذلك، وقال سعيد بن المسيَّب يومئذٍ: والله لوددتُ أنهم تركوها على حالها، لينشأ أناس من أهل المدينة، ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسولُ الله ﷺ في حياته، فيكونُ ذلك ممَّا يزهّد الناس في التكاثر والتفاخر^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: ولو تحقق صبرهم وانتظارهم لكان الصبرُ المذكور خيراً لهم من الاستعجال، لما فيه من رعاية حسن الأدب مع الرسول ﷺ، والله واسعُ المغفرة والرحمة، يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا وأصلحوا فالتزموا هذه الآداب مع رسول الله ﷺ.

ثم أضافت الآياتُ تبينَ عاقبة الاستعجال وترك الثاني والثبت:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَتَذِمِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: فتوقفوا فيه، وتحققوا من صحته، ولا تعتمدوا قولَ الفاسق، لأنَّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه.

والفاسق: الخارج عن حدود الشرع، وفي تنكير الفاسق والنبأ تعميم

للفساق والأنباء، ودلت الآية على جواز قبول خبر العدل الواحد، لأننا لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق.

وفي قراءة: (فتثبتوا) أي: فتوقفوا إلى أن يتبين لكم الحال.

﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ أي: كيلا تصيبوا قوماً جاهلين حالهم وحقيقة أمرهم فتصبحوا على ما فعلتم من إصابتكم بالخطأ نادمين على العجلة وترك التأني.

وأجمعوا أنها نزلت في الوليد بن عقبة، وقد بعثه رسول الله ﷺ مصدقاً إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فبعث خالد بن الوليد فوجدهم يصلون، فسلموا إليه الصدقات ورجع.

[رواه أحمد في المسند برقم (١٥٣٧)].

* * *

الراشدون

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَصَلَّاءُ لِلَّهِ وَيَعْمَلُهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ﴾ أي: فاتقوا الله ولا تكذبوا، فإن فيكم رسول الله ﷺ يخبره الله ويعرفه حالكم فتفتضحوا،

فارجعوا إليه، واطلبوا رأيه، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، فلو أطاعكم في كثير مما تخبرونه به لوقعتم في العنت، وهو الجهد والهلاك.
وهذا يدل على أن بعضهم أشار على الرسول ﷺ بالإيقاع ببني المصطلق.
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنْ وَرَيْتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حبه إلى نفوسكم، وحسنه في قلوبكم.

وهو استدراك يبين عذرهم، فهم من فرط حبهم للإيمان أشاروا على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإيقاع ببني المصطلق.
﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانُ﴾ أي: وبغض إليكم الكفر والكذب وجميع المعاصي، وهذا التدرج لبيان كمال النعمة.
﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين أصابوا طريق الحق ولم يميلوا عن الاستقامة والرشد.

﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

أي: فعل ذلك بكم فضلاً منه ونعمة عليكم، والله عليم بمن يستحق الهداية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.
أخرج الترمذي [٣٢٦٩] وصححه: عن أبي نضرة قال: قرأ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه هذه الآية فقال: هذا نبيكم ﷺ يوحى إليه، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا، فكيف بكم اليوم؟!.

مبدأ الإصلاح بين المتخاصمين

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَمْلِكُوا إِلَيْهِمَا كَافَّةً ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُ الْأَمْرِ وَإِنَّ اللَّهَ فَاعٍ ۚ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

ومما شرعه سبحانه عند حدوث الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين الإصلاح بينهما :

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَمْلِكُوا إِلَيْهِمَا كَافَّةً ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُ الْأَمْرِ وَإِنَّ اللَّهَ فَاعٍ ۚ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي : إن طائفتان من المؤمنين قتلتا؛ فأصلحوا بينهما بالنصح والموعظة والدعوة إلى حكم الله .
﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَتَمْلِكُوا إِلَيْهِمَا كَافَّةً ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُ الْأَمْرِ﴾ أي : فإن تعدت إحداهما على الأخرى ، وأبت الاستجابة إلى حكم الله ؛ فقاتلتا التي تبغي حتى ترجع إلى حكم الله وأمره وشرعه .

﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ أي : بالإنصاف القائم على العدل ، وقيد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف والجور ، لكونه بعد المقاتلة .

وفي الحديث : عن جابر رضي الله عنه قال : اقتتل غلامان ، غلام من المهاجرين ، وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجري : يا للمهاجرين ، ونادى الأنصاري : يا للأنصار ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : « ما هذا ؟! دعوى أهل الجاهلية ؟! » قالوا : لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع (ضرب) أحدهما الآخر . قال : « فلا بأسَ ولنصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينبهه ، فإنه له نصرٌ ، وإن كان مظلوماً فلينبهه » [رواه مسلم (٢٥٨٤)] .

﴿وَأَقْسَطُوا لِنَّ اللَّهِ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: واعدلوا في كل الأمور إنَّ الله يحب العادلين.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمَقْسُطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وروي في سبب نزولها: عن أنس رضي الله عنه، قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيتَ عبدَ الله بن أبي، فانطلقَ النبي ﷺ وركبَ حماراً، فانطلقَ المسلمون يمشون معه، وهي أرضٌ سبخةٌ، فلَمَّا أتاه النبي ﷺ قال: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحاً مِنْكَ، فغَضِبَ لعبدِ الله رجُلٌ من قومه، فشتمه، فغَضِبَ لكلِّ واحدٍ منهما أصحابه، فكان بينهما ضربٌ بالجريدِ والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١).

والجديرُ بالذكر: أنَّ العلماء حذَّروا من سبِّ الصحابة وانتقادهم بسبب ما شجر بينهم بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، قال القرطبي رحمه الله: «لا يجوزُ أن ينسبَ إلى أحدٍ من الصحابة خطأً مقطوعاً به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا الله ﷻ، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبَّدنا بالكفِّ عما شجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحرمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم، وأنَّ الله غفرَ لهم وأخبرَ بالرضا عنهم»^(٢).

ثم أكد سبحانه مبدأ الأمر بالإصلاح، بتقرير مبدأ هام يقوم عليه المجتمع الإسلامي:

(١) تفسير القرطبي: ٣٢١/١٦.

(٢) المرجع السابق: ٣٢٣/١٦.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: إنهم منتسبون إلى أصل واحد، ورحم واحد، وهو الإيمان، وهو يوجب الإصلاح بينهم. وفي هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغي لا يزيل اسم الإيمان، لأن الله تعالى سمّاهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغيين.

ولما سُئِلَ علي بن أبي طالب عليه السلام عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ قال: لا، من الشرك فُرُوا، فقيل: منافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل له: فما حالهم، قال: إخواننا بَعَوْا علينا.

وقد أكد النبي صلى الله عليه وآله مبدأ الأخوة بين المؤمنين في أحاديث كثيرة؛ منها: قوله صلى الله عليه وآله: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه مسلم (٢٥٨٠)].

ومنها أيضاً: قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» [رواه مسلم (٢٥٨٥)].

ومنها أيضاً: قوله عليه الصلاة والسلام: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى» [رواه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦)].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالتقوى تحملكم على التواصل والتراحم وتحقيق مبدأ الأخوة بينكم، وتجعلكم ترجون رحمة الله.

تحريم أسباب الخصام

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم حرم سبحانه كل ما يؤدي إلى الاختلاف والخصام بين المؤمنين فنهى عنها بقوله:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: عسى أن يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين، فهو تعليل للنهي، ولما كان الخبر مختصاً بالرجال أكد النهي بالنسبة للنساء، وأفردهن بالذكر لأن السخرية منهن أكثر.

﴿وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ أي: ولا يسخر نساء من نساء عسى أن تكون المسخورات منهن خيراً من الساخرات، فالله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [رواه مسلم].

وقال أيضاً: «رُبَّ أَشْعَثٍ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَةٍ» [رواه مسلم (٢٦٢٢)].

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: ولا يعب بعضكم بعضاً، فإن المؤمنين كنفس

واحدة. أو: لا تفعلوا ما تُلمزون به، فإنَّ من فعل ما يستحق به اللمز فقد لُمز نفسه. والأول أوجه كقوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] وهو الذي يزدرى النَّاسَ ويتقصهم، وبنه على معايهم.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يدعوا بعضكم بعضاً باللقب، وخصَّ عُرْفاً بما يكرهه الشخص من الألقاب، قال النووي رحمته الله: اتفق العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره، سواء كان صفةً له أو لأبيه أو لأمه أو لغيرهما.

﴿يَسَّ الْأَسْمُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بئس الاسم أن تقولوا له: يا يهودي أو يا نصراني بعدما أسلم، أو يا منافق بعدما تاب، أو من فعل ما نهى عنه من السخرية واللمز فهو فاسق، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا اسم الفسوق.

فالمبدأ الذي تقرره الآية أنَّ كلَّ مَنْ لَقَّبَ أخاه بلقبٍ يكرهه أو سَخِرَ منه فهو فاسق، وذلك لا يجوز، أكد هذا المبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرٌ؛ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا» [رواه البخاري (٦١٠٣)].

ويُستثنى من ذلك ما يراؤ به الصفة والتعريف، لا العيب مثل: حميد الطويل، وسليمان الأعمش، وكان في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجل في يديه طول يدعوه ذا الديدن.

ثم ختم الله الآية بوعيد المصريين على هذه المعاصي:

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب، ووضع العصيان موضع الطاعة.

تحريم ظن السوء وما يؤدي إليه

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي: تباعدوا منه .

فالآية أمرت باجتناب بعض الظن، والمراد منه ظن السوء، ووصفته بالكثرة، وأشارت إلى خطورته، فأمرت باجتناب الكثير منه ليقع التحرز عن القليل. والظن: عبارة عما تركز إليه النفس، ويميل إليه القلب.

وسوء الظن حرام كسوء القول، فكما يحرم أن تحدث غيرك بمساوئ الناس يحرم أن تحدث نفسك بمساوئ غيرك، ويُستثنى من ذلك الخواطر والهواجس، وما لا تستطيع دفعه عن نفسك.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» [رواه البخاري (٦٠٦٤)].

وقال القرطبي: المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها.

وأما ما ورد في الحديث: عن النبي ﷺ: «ما أظنُّ فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً» فكان لرجلين من المنافقين، ومثل هذا ليس من الظن المنهي عنه، لأنه في مقام التحذير من مثل من كان حاله كحال الرجلين، والنهي إنما هو عن

ظن السوء بالمسلم السالم في دينه وعرضه، وقد قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إنا كنا إذا فقدنا الرجل في عشاء الآخرة أسأنا به الظنَّ»^(١).

فعلى المسلم أن يتحفظَ، وأن يجتنب أماكن الشبهات، وما يعرضه لسوء الظن، ويحرص على سلامة دينه وعرضه.

ويؤدي سوء الظن إلى التجسس؛ ولهذا قال تعالى بعد أن نهى عن سوء الظن:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: ولا تبحثوا على عيوب الناس ومعايهم، وتطلعوا على ما ستر الله منها، وذلك أنَّ الشخص يقعُ له خاطِرُ التهمة، فيريد أن يتحقق، فيتجسس، ويبحث، ويستمع، فنُهي عن ذلك.

وسبق معنا في الحديث السابق: قوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا».

وفي «المعجم الكبير» للطبراني: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا ظننتَ فلا تحقِّقْ، وإذا حسدتَ فاستغفر، وإذا تطيَّرتَ فامضِ».

• تحريم الغيبة:

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: ولا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيبته.

فالغيبة: ذكرُ العيب في ظهر الغيب، ويدخل فيها الرمز والإشارة ونحوهما والتعريض، كأن يمشي مثل مشيته، أو يغمز بعينه عند ذكره، أو يقول عند ذكره: الحمد لله الذي عافانا.

وفي الحديث الشريف: أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «أندرونَ ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يكره» قيل: أفرأيتَ إذا كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فيه فقد بهتَه» [رواه مسلم (٢٥٨٩)].

فالإسلام يحرص على صيانة عرض المسلم غاية الصيانة لتقدم النهي عن

الخوض فيه بالظن، فإن قال الظانُّ: أبحثُ لأتحقق. قيل له: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. فإن قال: تحققتُ من غير تجسس. قيل له: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

والجدير بالذكر: أنَّ المستمع لا يخرجُ عن إثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه، فإن خاف فبقلمه، فإن كان قادراً على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر يلزمه، وإن اغتاب الفاسق ليحذّر منه الناس يُثاب عليه، لأنه من النهي عن المنكر، ولا إثم عليه، ولو ذكر مساوئ أخيه على وجه الاهتمام لا يكون غيبة، إنما الغيبة أن يذكره على وجه الغضب، وله أن يذكر ما يعرف لمثل مشورة في نكاح، وسفر، وشركة، ومجاورة، وإيداع، ونحوها على قصد النصح^(١).

وقد تكون الغيبة واجبة كجرح المجروحين والشهود، وبيان العيب للمشتري، قال العلماء: تباح الغيبة في كلِّ غرضٍ صحيحٍ شرعاً، حيث تعيّن طريقاً إلى الوصول إليه بها، كالظلم والاستعانة على تغيير المنكر والاستفتاء والمحكمة والتحذير من الشر^(٢).

ثم مثّلت الآية لما يناله المغتاب من عرض الذي يغتابه بأفحش صورة وأقبحها: ﴿أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فكما تكره أن تأكل لحم أخيك ميتاً فعليك أن تكره لحمه وهو حي، فعرض الإنسان كلحمه ودمه، والإنسان يتألم قلبه إذا ذُكر بسوء كما يتألم جسده إذا أكل لحمه.

روى أبو داود [٤٨٧٨]: من حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وَجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لَحْمَ النَّاسِ، وَيَقْعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ».

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أي: واتقوا الله باجتناب ما نهيتكم عنه، والندم على ما صدر منكم، فإنه سبحانه يقبل توبتكم ويرحمكم.

(١) الهدية العلائية، ص ٢٥٧.

(٢) فتح الباري: ١٠/٤٧٢.

فعلى المغتاب أن يقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود، وأن يتحلل من الذي اغتابه إذا علم أنه لا يتأذى، أو يثني عليه في المجالس التي اغتابه فيها.

المساواة في الأصل والتفاضل بالتقوى

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

ثم قرر سبحانه مبدأ الأخوة الإنسانية الداعية إلى التعاون والائتلاف، والمانعة من الاختلاف والاختصام والسخرية واللمز والاعتياب:

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ أي: خلقناكم من أصل واحد هما آدم وحواء، وحواء خلقت كما سبق معنا من آدم، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ وقرئت: (لتتعارفوا) بتاءين على الأصل. أي: وجعلناكم جموعاً عظيمة وقبائل متفرعة عن هذه الجموع ليعرف بعضكم بعضاً بنسبه، لا للتفاخر بالأباء والقبائل، ولهذا قال تعالى بعد تقرير هذا المبدأ:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، ولما سئل النبي ﷺ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قال: «أَتْقَاهُمْ» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يَوْسُفُ بْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَعَنْ مُعَادِنِ

العرب تسألونني؟ الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» [رواه البخاري (٣٨٣)].

وفي صحيحه ابن خزيمة وابن حبان [٣٢٧٠] وتفسير ابن مردويه: عن ابن عمر قال: خطب النبي ﷺ يوم الفتح فقال: «أما بعد يا أيها الناس، فإن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها، يا أيها الناس، الناس رجلان: مؤمنٌ تقِيّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هينٌ على الله» ثم تلى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى...﴾.

وروى أحمد وابن أبي حاتم: من طريق أبي نضرة: حدثني مَنْ شهد خطبة النبي ﷺ بمنى وهو على بعيرٍ يقول: «يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، خيركم عند الله أتقاكم»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: إن الله عليم بكم وبأعمالكم، خبير بباطن أحوالكم. ودلت الآية على تحريم دعوى الجاهلية، والافتخار بالأنساب، أكد ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «ليس منّا من صرَبَ الخدودَ، وشقَّ الجيوبَ، ودعا بدعوى الجاهلية» [رواه البخاري (١٢٩٧)].

وقال ﷺ أيضاً: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وفارق الجماعة فمات، مات ميتةً جاهليةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِيَةٍ يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أو يدعو إلى عصبَةٍ، أو ينصرُ عصبَةً، فَقُتِلَ فَقَتَلَتْهُ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمِّي يَضْرِبُ بَرَّهَا وفاجرَها، ولا يتحاشى مِنْ مؤمنِها، ولا يفِي لذي عهدٍ عهدَه، فليس منِّي ولستُ منه» [رواه مسلم (١٨٤٨)].

والمعنى: يغضب ويقاتل ويدعو غيره لا لنصرة الدين والحق، بل لمحض التعصب لقومه ولهواه، كما كان أهل الجاهلية.

وهكذا تتوارى جميعُ أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وترخص

جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون، وهو هذا المبدأ الذي قرره الإسلام، مبدأ الأصل الإنساني الواحد، والدين الواحد، الذي أساسه عبادة الله الواحد.

* * *

الإيمان والإسلام

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُوْمِنُوْنَ وَلَكِنْ قُوْلُوْا اَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْاِيْمَانُ فِيْ قُلُوْبِكُمْ ۖ وَاِنْ تُطِيعُوْا اِلٰهَ وَرَسُوْلَهُ لَا يَلِكُمْ مِنْ اَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ ۚ اِنَّ اِلٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿١٤﴾ اِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا بِاِلٰهِ وَرَسُوْلِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوْا وَجْهَهُدُوْا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ فِيْ سَبِيْلِ اِلٰهِ اُولٰٓئِكَ هُمُ الصّٰدِقُوْنَ ﴿١٥﴾ قُلْ اَتَعْلَمُوْنَ اِلٰهَ يَدِيْنَكُمْ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴿١٦﴾ يٰمُنُوْنَ عَلَيَكُمْ اَنْ اَسْلَمُوْا قُلْ لَا تَمْنُوْا عَلٰٓى اِسْلَامِكُمْ ۚ بَلِ اِلٰهُ يَمْنُ عَلَيَكُمْ اَنْ هَدٰكُمْ لِلْاِيْمَانِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿١٧﴾ اِنَّ اِلٰهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاللّٰهُ نَصِيْرٌ يِّمَّا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٨﴾﴾

ثم بين تعالى أن أساس التقوى التي يتفاضل فيها الناس - وهو الإيمان بالله وحده - موضعه في القلب:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُوْمِنُوْنَ وَلَكِنْ قُوْلُوْا اَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْاِيْمَانُ فِيْ قُلُوْبِكُمْ ۖ وَاِنْ تُطِيعُوْا اِلٰهَ وَرَسُوْلَهُ لَا يَلِكُمْ مِنْ اَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ ۚ اِنَّ اِلٰهَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِّمَ تُوْمِنُوْنَ وَلَكِنْ قُوْلُوْا اَسْلَمْنَا﴾ أي: قال بعض الأعراب، وهم بنو أسد، قدموا المدينة، فأظهروا الإسلام طمعاً في الصدقة. فالإيمان هو التصديق، والإسلام الدخول في الإسلام بإظهار الشهادتين وترك محاربة المسلمين.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْاِيْمَانُ فِيْ قُلُوْبِكُمْ﴾ أي: لم تواطئ قلوبكم ألسنتكم بعد، فالإقرار باللسان من غير موافقة القلب إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان،

وهذا من حيث اللغة، وأما في الشرع فالإيمان والإسلام واحد، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات].

وفي قوله: (لَمَّا) إشارة إلى توقع دخول الإيمان في قلوبهم.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: وإن تخلصوا في طاعة الله ورسوله ﷺ لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، وفي قراءة: (لا يآلتكم) بمعنى ينقصكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر ما فرط من تقصيركم ويرحمكم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: ثم لم يشكوا، ولم تحدث لهم ريبة. و(ثم) للتراخي الزمني، أفادت الثبات والدوام والاستمرار.

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعة الله.

والمجاهدة بالأموال والأنفس تنسحب على كل العبادات المالية والبدنية.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا بادعاء الإيمان.

ويبدو أنه لما نزلت هذه الآية جاؤوا وحلفوا أنهم مخلصون فأنزل الله:

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: أتخبرون الله بتصديق قلوبكم؟!.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو سبحانه يعلم

المنافقين والمخلصين الصادقين.

﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

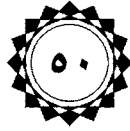
﴿يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ وهو قولهم: أسلمنا ولم نحاربك. يُمْنُونَ بذلك على رسول الله ﷺ.

﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي: لا تمنوا عليّ بإسلامكم، فَنُصِبَ بَنزِعِ الْخَافِضِ .
 ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمان .
 وفي سياق الآية لطف، وهو أنهم لما سموا ما صدر عنهم إيماناً ومنوا به، نفى أنه إيمان وسمّاه إسلاماً، بأن قال: يمنون عليك بما هو في الحقيقة إسلام، وليس بجدير أن يُمْنُ به عليك، بل لو صحَّ ادعاؤهم الإيمانَ فَلِلَّهِ الْمِنَّةُ عليهم بالهداية لا لهم^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم. وفي قراءة: (يعملون) بالياء .
 والحمد لله رب العالمين .





تفسير سورة ق البصيرة والموعظة في سورة ق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الأمر العجيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ يَجْعَلُ اللَّهُ أُولَٰئِكَ لَئِيْلًا مُّذِرًّا مُّزْمِرًا ۝٢﴾
﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ يَجْعَلُ اللَّهُ أُولَٰئِكَ لَئِيْلًا مُّذِرًّا مُّزْمِرًا ۝٢﴾

بدأ الله تعالى السورة بقوله:

﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾

﴿قَ﴾ وهو حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل بعض السور؛ مثل قوله تعالى: (صَ)، (نَ). وقد سبق الكلام عليها في أول سورة البقرة، وسورة (قَ) هي السورة الثانية المبدوءة بحرف واحد، سُميت باسم الحرف الذي افتتحت به، كما سميت (سورة صَ) باسم الحرف الذي افتتحت به.

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ وهو قسم بالقرآن ذي المجد والشرف، ووصف القرآن به لكثرة ما يتضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية، أو لأنه كلامُ المجيد، فهو وصف بصفة قائله، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٦٦ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج].

وجواب القسم محذوف، يشعر به الكلام، وهو إثبات صدق نبوته ﷺ، وإثبات المعاد والجزاء والحساب، وله نظائر في أقسام القرآن، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ (١) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١].

﴿بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (٢).

﴿بَلِ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: إنا أنزلناه لتنذر به الناس، فلم يؤمنوا به، بل تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر.

و(بل) للإضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وهو الأمر الذي يُتَعَجَّبُ منه، ولم يقل: (فقالوا)، بل قُبِحَ حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، وليس هذا بعجيب، وإنما الأمر العجيب إنكارهم وعنادهم.

﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٣).

أي: أئذا متنا وصرنا تراباً كيف يمكن أن نرجع إلى هذه البنية والتركيب؟! ذلك رجعٌ بعيدٌ الوقوع.

فإنكارهم العودة إلى الحياة بعد الموت هو الأمر العجيب حقاً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ ذَا كُنَّا تُرَابًا ءَلَمْ نَأْتِ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]. وفي قراءة: (إذا متنا) بهمزة واحدة، ويكون استفهاماً حُذفت منه الهمزة.

الكتاب الحفيظ

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿١﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾﴾

ورد سبحانه عليهم قائلاً :

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿١﴾﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي : ما تأكل الأرض من أجسادهم .

فمن علم علمه ولطف حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى ، وتأكل من لحومهم وعظامهم في كل لحظة من الزمن المتطاوّل الذي تنفتحت فيه أجسادهم وتبلى ، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟! فأحوال أبدانهم بعد الموت معلومة لله تعالى ، يعلم أين ذهبت ، وإلى أين صارت ، قال تعالى : ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٥﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مِمَّنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء] .

وهذا يدلُّ على كمال علمه سبحانه ، فهو عليمٌ بتفاصيل الأشياء كليّاتها وجزئياتها على أتم وجه ، وإذا حدث تداخل بين الأجساد بعد الموت ، فإنه سبحانه يميّز بينها بكمال علمه وقدرته ، فهو يعلم الأصل من الدخيل .

والجدير بالذكر أنَّ عَجَبَ الذَّنْبِ لا يبلى ، وهو العظمُ اللطيفُ الذي في أسفل الصلب ، وهو رأسُ العُصْصِ ، ويقال له : (عجم) بالميم ، وهو الذي يبقى من جسم الإنسان ليعاد تركيب الخلق عليه .

وفي الحديث الشريف : عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ ، مِنْهُ خُلِقَ ، وَفِيهِ يُرْكَبُ» [رواه مسلم (٢٩٥٥)] .

﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ﴾ أي: عندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ومقاديرها، أثبت الله فيه كل ما يكون، وهذا الكتاب محفوظ أيضاً من التغيير، وهو تأكيد لكمال علمه تعالى بها بثبوتها في اللوح المحفوظ.

ثم وصف سبحانه حقيقة حال المعرضين عن الحق المنكرين بعث الأجساد بعد التفتت والبلى فقال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾.

أي: فهم في أمر مضطرب قلق حائر.

فالحق ثابت قوي راسخ، فمن تجاوزه زلّت قدمه، وفقد الثبات والاستقرار والطمأنينة والسكينة، التي يشعر بها المؤمنون، فتتقاذفه أمواج الباطل، وتقلقه الشكوك، وتتأرجح مواقفه، وتتغير كما تتغير أهواؤه وأمزجته.

* * *

النظر إلى السماء

﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَاسَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

وقوة الحق وثباته بسبب قيامه على النظر والتفكير والدليل والبرهان، وهو ما دعته الآيات إليه وحثهم عليه:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَاسَّهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾.

﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: أغفلوا أو أعموا فلم ينظروا إلى السماء فوقهم؟!.

ويبدو - والله أعلم - أنَّ المراد النظر إلى جهة السماء، وقوله: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يشير إلى ذلك، وظواهر الآيات ناطقة بأنَّ السماء مرئية، وجمهور العلماء

يقررون ذلك وهم معذورون، ورحم الله العلامة الألوسي عندما قال: «وأنت تعلم أن الأصحاب مع الظواهر حتى يظهر دليل على امتناع ما يدل عليه، وحينئذ يؤولونها»^(١).

وقد أثبت العلماء في العصر الحاضر أن المسافات بين النجوم هائلة، تقاس بالسنين الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة، ومن المعلوم أن سرعة الضوء في الثانية الواحدة مئة وستة وثمانون ألف ميل، وثمة نجوم تبعد عن الأرض مئات السنين الضوئية كما يقول العلماء، فالفضاء الممتد من الأرض إلى السماء الدنيا أوسع بكثير مما كان يظن قديماً، فالأرض جسم صغير يسبح في الفضاء بين مجموعة كبيرة من الأجرام، وقد يكون حجم الأرض بالنسبة لها كحبة رمل، فالأرض الجرم الثالث من المجموعة الشمسية من مجرة درب التبانة، ويقرر علماء الفلك أن في هذه المجرة ما يقرب من ألف مليون نجم.

وهذا يزيدنا معرفة بعظمة خالقه ومبدعه ﷻ، ولا يعني ذلك أن السماء هي هذه الكواكب والأجرام العلوية السابحة في الفضاء، فهذه الأجرام كلها دون السماء الدنيا، فللسماء حقيقتها المستقلة، وهي بناء متماسك له أبواب؛ وهي سبع سماوات بعضها فوق بعض، كما صرحت بذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ذات الدلالة القطعية.

﴿كَيْفَ بَيَّنَّهَا وَزَيَّنَّهَا﴾ أي: كيف رفعناها وأحكمناها وزيناها بالكواكب والنجوم اللامعة المضيئة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكُوكَبِ﴾ [الصفات: ٦].

﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ أي: وما لها من فتوق وشقوق، والمراد أنها سليمة من العيوب، لا فتق فيها، ولا صدع ولا خلل^(٢)، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَاتَّجِعَ الْبَصَرُ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ﴾ [الملك: ٣].

(١) روح المعاني: ١٧٥/٢٦.

(٢) تفسير النسفي: ٦١/٦.

فالبناء محكم متقن لا خلل فيه ولا عيب، وهذا يزيدنا يقيناً بكمال قدرته تعالى وباهر حكمته.

التبصرة والذكرى

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَدَكَّرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَمَّا طَلَّغُ نَصِيدٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطانها وجعلناها ممتدة منبسطة بالنسبة إليكم، وهذا لا ينافي كرويتها بالنسبة لضخامة حجمها.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض من كل صنف حسن بهيج يسر الناظرين إليه، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَرَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿تَبَصَّرَةٌ وَدَكَّرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً لكل عبد راجع إلى ربه.

فالتفكير في بدائع صنعه سبحانه يرد الشاردين الحائرين إلى الحق إذا تطلّعوا إليه، وأخلصوا في طلبه، فبين العلم والإيمان آصرة قوية ينشغل عنها أكثر العلماء العاملين في مراكز البحوث، لأن تفكيرهم متجه إلى استثمار كل حقيقة

علمية يتوصلون إليها لتحقيق السيطرة والمكاسب المادية، وبهذا تنقطع هذه الأصرة، وتنطمس في عقولهم وقلوبهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ودلت الآيات على أن آفاق التفكير والنظر في الإسلام واسعة شاملة كل ما يستطيع الإنسان النظر إليه والتفكير فيه، ابتداءً من نفسه وتكوينه، إلى الأرض التي يعيش عليها، ثم إلى الفضاء الواسع الممتد حوله بكل ما فيه من أجرام وكواكب ونجوم، فإن كان مؤمناً فإنه لن يجد في هذه المكونات إلا ما يقوي إيمانه بربه، ويزيده تعظيماً له سبحانه وخشية منه، وإن كان مرتاباً كافراً فإن نظره وتفكيره يرده إلى ربه، وإلى أصل فطرته التي فطره جل وعلا عليها.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا﴾ أي: نزلنا من السحاب الذي هو في جهة السماء ماءً كثير المنافع وهو ماء المطر.

﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي: حب الزرع الذي من شأنه أن يُحصد كالقمح والشعير.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾.

أي: وأنبتنا النخل الطوال أو الحوامل، لها ثمر يطلع ويظهر، متراكب بعضه على بعض.

المخرج من القبور

﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١١) كَذَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرِّيسِ وَنَمُوذُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَلِخَوْنِ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُجِّ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ حَقَّ وَعِيدٍ (١٤) أَمَعِينَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَمَسٍ مِّنْ حَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥).

﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (١١).

﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: جعلنا ذلك رزقاً للعباد.

وفي تقديم الآيات للاستبصار والتذكر على الرزق إشارة إلى أهميتهما، وأنهما مقدّمان على المنافع المادية، ولكنَّ شأنَ أكثر الباحثين في العصر الحاضر الاهتمامُ بالانتفاع، والتغافلُ عن الاستبصار والتذكر.

﴿وَأَحْيَا بِهِ بَلَدَةً مِّثْنًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ أي: وأحيينا بالمطر أرضاً يابسة لا نبات فيها، فصارت تهتزُّ وتنمو بعدما كانت جامدة هامدة، كذلك خروجُ الناسِ وبعثهم من القبور.

وتذكير ﴿مِّثْنًا﴾ لأنَّ المراد البلدُ والمكانُ، وقرئ (مِثْنًا) بالتشديد.

وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء، وعن حياة الموتى بالخروج، تفخيمٌ لشأنِ الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، فكأنه سبحانه يقول لمنكري البعث: إِنَّهُ لَأَمْرٌ هَيِّنٌ سَهْلُ التَّحْقِيقِ وَالْوُقُوعِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنْجَىٰ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله أيضاً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُنْجَىٰ الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ثم بيّنت الآيات أنَّ جميع الأنبياء السابقين دعوا إلى التصديق بأمر البعث ويوم الحساب والجزاء، وأنَّ جميع الأمم التي أرسلوا إليها قد أنكروه واستبعدوه:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١١﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٢﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴿١٣﴾ وَقَوْمُ ثُعُبٍ كُلٌّ كَذَبَ الرُّسُلَ فَنَفَّيْنَاهُمْ نَجَافًا ﴿١٤﴾﴾ .

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١١﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٢﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴿١٣﴾ وَقَوْمُ ثُعُبٍ﴾ وقد سبق الحديث عن هؤلاء الأقسام في عدد من السور.

﴿كُلٌّ كَذَبَ الرُّسُلَ فَنَفَّيْنَاهُمْ نَجَافًا﴾ أي: كل هؤلاء المذكورين كذبوا الرسل، ومن كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل، فوجب عليهم وعيدي وعذابي .
وتساءلت الآيات بعد هذا البيان مقررة حقيقة البعث ومنكرة على المكذبين به :

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي: أفعجزنا حين خلقناهم أول مرة حتى نعجز عن إعادتهم؟! والعي بالأمر: العجز عنه، فابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل منه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بل هم في خلط وشبهة من خلق مستأنف، فهم تركوا الاستدلال الصحيح، ووقعوا في خلط وشبهة وحيرة.

الرقابة الإلهية

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ فَنَسُوهُ وَخَسَّ إِلَيْهِ مِن جَلِّ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتْلَى التَّتْلِفَاتِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ .

ثم أخبرت الآيات الإنسان أنَّ الله تعالى ما أهمله بعد خلقه، بل هو تحت

رقيبته الإلهية، وأن جميع أقواله وأعماله معلومة لله جل وعلا، وأنه سبحانه خصص له أيضاً ملائكة تسجل له جميع أقواله وأفعاله :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي : ونعلم ما حدثته به نفسه، وما يختلج في سره وضميره من خواطر وهواجس .

والوسوسة في الأصل : حديث النفس، وقد جاء في الحديث الشريف : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأُمْتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ» [رواه مسلم (١٢٧)] .

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أي : وملائكتنا أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه .

أو : ونحن أعلم بحاله ممن كان أقرب إليه من حبل الوريد، لأنَّ القرب من الشيء في العادة سبب العلم به وبأحواله .

وحبل الوريد : هو العرق الممتد في صفحة العنق يمثل به للقرْب، وهما عرقان . والمعنى الأول أقوى، وهو ما ذكره ابن كثير في معنى الآية، ثم قال بعده : ومن تأوله على العلم فإنما فرّ لثلا يلزَم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس، واللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ﴾ [الواقعة : ٨٥] يعني : ملائكته .

ويؤيده أيضاً قوله تعالى بعد ذلك :

﴿إِذْ يُلْقَى الْمُلَاقِيَانِ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ .

أي : إذ يلتقي الملكان اللذان يكتبان عمل الإنسان وأقواله، وأحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله .

والتلقي: التلقن بالحفظ والكتابة. والمراد بالقعيد هنا: الملازم الثابت لا ضدَّ القائم، فهما ملازمان للإنسان، يرصدان أعماله وأقواله، فالله أعلم بحال الإنسان من كل قريب حين يتلقى المتلقيان الحفيضان ما يتلفظ به:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨).

أي: ما يتكلم من كلمة إلا عنده ملك حافظ حاضر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠) ﴿كَرَامًا كَثِيرِينَ﴾ (١١) ﴿يَعْمُونَ مَا نَقْعُلُونَ﴾ [الانفطار].

* * *

سَكَرَاتِ الْمَوْتِ

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (٢٠) ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢١)

ثم كشفت الآيات للإنسان بأسلوب المواجهة والتحدي حقيقة ما ينتظره عندما يحين أجله وتنتهي حياته في الدنيا:

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩).

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي: وجاءت غمرة الموت وشدته التي تغشى الإنسان عند الموت بحقيقة الموت، أو بالحق من أمر الآخرة، فبينت للإنسان ما لم يكن بيناً من أمر الآخرة الذي كان يشك فيه.

ودلت الآية على أن للموت سكرات، وقد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «أنَّ النَّبِيَّ ﷺ عندما توفي جعلَ يُدْخِلُ يديه في ركوة ماءٍ، فيمسحُ بهما وجهه يقول: «لا إله إلا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» ثم نصب يده، فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده. [رواه البخاري (٤٤٤٩)].

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ نَحِيدٌ﴾ أي: ذلك الحق ما كنتَ منه تميل وتنفر، قد حلَّ بك ونزل بساحتك فلا تقدر على الفرار منه.

والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغَ منه، أو يبعد شبحه عن خاطره، ولكن أنَّى له ذلك والموت طالِبٌ لا يَمَلُّ الطلب، ولا يبطئ الخطأ، ولا يخلف الميعاد^(١).

وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وجاء التعبير بصيغة الماضي هنا وفي ما بعده لتحقيق الوقوع وتأكيده. وانتقلت الآيات من الموت وسكراته إلى يوم القيامة وأهواله، فهو اليوم الذي كان المشركون ينكرونه ويستبعدون وقوعه:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾.

أي: ذلك اليوم الذي يتحقق فيه الوعيد بالسؤال والجزاء.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

أي: وجاءت كل نفس إلى أرض المحشر معها ملك يسوقها، وشهيد يشهد عليها، ويبدو أنهما الملكان المتلقيان اللذان سبق ذكرهما.

وقال بعضهم: السائق ملك، والشهيد النبي المرسل إلى هذا الإنسان.

أو: السائق ملك، والشهيد العمل الذي يشهد على صاحبه.

وقيل: السائق والشهيد ملك واحد، والعطف للمغايرة.

وقيل: السائق والشهيد اسما جنس للملائكة، فالسائق الملائكة الموكلون

بذلك، والشهيد الحفظة.

غطاء الغفلة

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَأْتِيهِ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَبِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَتَاعٌ لِلْعَذَابِ مُّعَذِّبٌ مَُّرِيبٌ ﴿٢٥﴾ الَّذِي حَقَلَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْضَعُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمِرٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ .

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢) .

أي: يقال للكافر المنكر يوم القيامة: لقد كنت في غفلة من هذا الذي تعابنه، فأزلنا غفلتك بما تشاهده وتبصره.

فجعلت الغفلة كأنها غطاء وغشاوة على عينيه، فما كان يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة انتبه من غفلته وتيقظ، فعرف الحقيقة وأبصرها.

وتنكير الغفلة وجعله فيها يدل على أنها غفلة تامة، والمراد منها الانهماك في المحسوسات والشهوات، وقصر النظر عليها كما ذكرنا عند قوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

فالانهماك في الدنيا وشهواتها ومنافعها الدنيوية هو الذي جعلهم يغفلون عن أمور الآخرة وقطع الآصرة بينهم وبين التصديق بها.

﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: قوي نافذ ترى ما كان محجوباً عنك في الدنيا، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَاتَّخِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقد يكون المعنى المراد: فبصر قلبك وبصيرتك اليوم قوية نافذة، ويقوي هذا المعنى أن الكفار يحشرون يوم القيامة عمي الأعين، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبِكُمَا وَصُفًّا مَا وَنَّهْتُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَضَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَأَيُّنَا فَنَسِينَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿طه﴾.

ويمكن القول بأن يوم القيامة يوم طويل، يُحشر الكافر في أول الأمر وبصره حديد، ثم يعمى بعد ذلك.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ ﴿١٢٣﴾.

أي: وقال الملك الموكل بسوقه: هذا ما كلفتني به قد أحضرته.
فيقول الله تعالى:

﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِدٍ﴾ ﴿١٢٤﴾.

أي: كل كفار معاند للحق، جاحد له، ويبدو أنه خطاب للسائق والشاهد، أو خطاب للسائق بلفظ الاثنين، وهو من كلام العرب الفصيح.

﴿مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ ﴿١٢٥﴾.

أي: كثير المنع للخير، ظالم، شك في الله تعالى أو في يوم الجزاء والحساب.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ ﴿١٢٦﴾.

وهو تكرير لتأكيد الأمر السابق جاء بعد وصفه بتلك الأوصاف التي تبين استحقيقه للعذاب في جهنم.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿١٢٧﴾.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: شيطانه الذي قُبِضَ لهذا الكافر في الدنيا، كما سبق ذكره

عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿[الزخرف]

فقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف، وأخليت عن الواو دون الأولى، لأن الأولى عطف على ما قبلها، للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها، واستؤنفت هنا لأنها جواب لمحذوف.

ويبدو أن الكافر حين يوافي العذاب يقول: ربنا أطعاني شيطاني، فيقول شيطانه ردًا عليه:

﴿رَبَّنَا مَا أَطَعْنَاهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ما أوقعته في الطغيان، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى، فهو كقول الشيطان يوم القيامة للمعذَّبين في النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ (٣٨).

أي: قال تعالى: لا تختصموا في موقف الحساب، فإنه لا فائدة فيه، وقد قدَّمتُ إليكم إنذاري على ألسن رجلي، فما تركتُ لكم حجة.

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٣٩).

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي: لا تبديل لوعيدي بتعذيب المعرضين عن عبادتي المكذَّبين رسلي.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فأعذب من لا يستحق العذاب، فهو سبحانه يتنزّه عن الظلم، ويستحيل صدوره منه، وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى.

يوم المزيد

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٣٠﴾ وَأَرْسَلَتْ الْجَنَّةُ الْمُنْفِقِينَ عَبْرَ بَعِيدٍ ٣١ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ٣٢ مَنْ حَسَى الرَّحْمَنُ بِالْعَيْبِ وَجَاءَهُ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ٣٣ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ٣٤ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْهَا مَزِيدٌ ٣٥﴾ .

وقد أعدَّ سبحانه جهنم لتحقيق وعيده، وقال يصف سعتها بأسلوب الترهيب والوعيد:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٣٠﴾ .

وهذا يدل على شدة غضب جهنم وتشبها بالكفار والفجار.
وفي قراءة: (يوم يقول) بالياء .

وفي الحديث الشريف: عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة» [رواه مسلم (٢٨٤٨)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أَوْتَرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضِعْفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رَجُلَهُ فَنَقُولُ: قَطْ، قَطْ، قَطْ - أَي: حَسْبِي حَسْبِي - فَهَذَا كَمَا تَمْتَلِئُ، وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلَمُ اللَّهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْشِئُ لَهَا خَلْقًا» [رواه البخاري (٤٨٥٠)].

قال ابن حجر رحمته الله: «وَاخْتُلِفَ في المراد من الْقَدَم، فطريقة السلف في هذا وغيره مشهورة، وهو أن تُمرَّ كما جاءت، ولا يتعرَّض لتأويله، بل نعتقد استحالة ما يوهِّم النقص على الله، وخاض كثير من أهل العلم في تأويل ذلك، فقال بعضهم: المراد إذلال جهنم، فإنَّها إذا بالغت في الطغيان وطلب المزيد أذلَّها الله، ووضعها تحت القدم، وليس المراد حقيقة القدم، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء في ضرب الأمثال، ولا تريد أعيانها، كقولهم: (رَغَمَ أَنْفُهُ) و(أَسْقَطَ في يده)»^(١). وثمة أقوال أخرى ذكرها بعد هذا القول لا حاجة إلى ذكرها.

ولما فرغت الآيات من وصف أحوال المعذبين في جهنم ذكرت أحوال المنعمين في الجنة، وأبرزت من خلالها بعض صفاتهم وأعمالهم:

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١)

أي: قُرِبَت الجنة للمتقين بحيث يشاهدونها، ويرون ما فيها من النعيم. وفي تقريب الجنة للمتقين تكريم عظيم لهم.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ (٣٢)

ويقال لهم: هذا الجزاء الذي وعدتم به في الدنيا لكل رجَّاع إلى الله تعالى، حافظ لأوامره، فهو كثير التوبة والاستغفار، لا يصرُّ على الذنب، بل يبادر إلى الاستغفار والتوبة كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي: وقَّاف عند حدود الله تعالى حافظ لها.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (٣٣)

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من خشي الرحمن فأطاعه ولم يره، أو خافه في

الخلوة بحيث لا يراه أحدٌ كما جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: «ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضت عيناه» [رواه البخاري (١٤٢٣)].

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: وجاء بقلب مقبل على الله، راجع إليه، مستبصر بدلائله، منتفع بمواعظه، كما مرَّ معنا عند قوله: ﴿تَبَصَّرَ وَذَكَرَ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (٢٤)

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ ويقال لهم: ادخلوا الجنة بسلام من الله وملائكته: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

أو: سالمين من العذاب والهموم، آمنين من زوال النعم.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ في الجنة فلا موت بعده.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢٥)

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: لهم ما يشتهون في الجنة، فمهما اختاروا وجدوا من أي نوع من أنواع النعيم.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أي: ولدنا مزيد من النعم لا تخطر ببالهم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقد يكونُ المزيدُ لذة النظر إلى الله سبحانه ورؤيته بلا كيف كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

بصائر ومواعظ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤْبٍ ﴿٣٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾

ثم عادت الآيات إلى تذكير المعاندين الجاحدين بمواعظها البليغة :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ (٣٦) .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي : كثيراً ما أهلكنا قبل كفار مكة من قرن، كقوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد... الذين سبق ذكرهم في آيات السورة؛ هم أشد قوة وسطوة من كفار مكة.

﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي : ساروا وتقلبوا في البلاد، وسلكوا كل طريق، فلم يجدوا لهم مهرباً من أمر الله أو من الموت .
وفي قراءة: (فَنَقَّبُوا) على صيغة الأمر، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتحدي، وإظهار عجز المعاندين المعرضين .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) .

أي : إن ما ذكر في السورة لتذكيرة وعظة لمن كان له قلب واع يدرك الحقائق، ويستفيع بالمواعظ . أو أصغى لما يتلى عليه وهو حاضر غير غافل، فهما فريقان: فريق له قلب يفقهه، وفريق يسمع ويصغي ليتفيع ويتذكر .
ففي آيات السورة كثير من البصائر والمواعظ، ولعل ذلك سر قراءة النبي ﷺ بها في المجامع الكبار كالعيد والجمع .

وكما بين تعالى في معرض الرد على منكري البعث كمال علمه بقوله: ﴿تَدَّ عَلَمَنَا مَا نَفْخُ الْأَرْضِ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤] بين أيضاً كمال قدرته ﷻ فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨).

أي: خلقنا هذه المكونات العظيمة خلقاً متدرجاً في ستة أوقات، وما أصابنا بذلك من تعب ولا نصب ولا إعياء، وقد مر معنا تفصيل ذلك في عدد من الآيات.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (٣٩).

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر يا محمد على ما يقول المشركون في شأن البعث الذي سبق ذكره في صدر السورة: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ونزّهه تعالى عن العجز وعن وقوع الخُلُفِ في أخباره، ومن جملتها الإخبار عن بعثهم يوم القيامة، حامداً له تعالى على كماله وإنعامه قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

والمراد: صلّ في هذين الوقتين، وكانت الصلاة المفروضة قبل أن تفرض الصلوات الخمس قبل طلوع الشمس وقبل الغروب في وقت العصر.

وفي الحديث: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوساً لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: «إِنَّكُمْ سترون ربَّكم كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا» ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾. [رواه البخاري (٤٨٥١)].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبَرْ السُّجُودِ﴾ (٤٠).

أي: وسبّحه بعض الليل وأعقاب الصلوات. وعن مجاهد: قال ابن عباس: أمره أن يسبّح في أدبار الصلوات كلها. [رواه البخاري (٤٨٥٢)].

وفي قراءة: (وادبار السجود) بكسر الهمزة على المصدر، والمعنى وقت انقضاء السجود.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمَدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ

وتسعون، وقال تمام المئة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غُفِرَتْ خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر» [رواه مسلم (٥٩٧)].

فللصلاة دور كبير في تثبيت الداعية على طريق الدعوة، والتغلب على ما يلقى من مصاعب وشدائد، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى، كما أخرج أبو داود من حديث حذيفة [١٣١٩]، ومرَّ معنا قوله تعالى:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

* * *

صيحة الحق

﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهم وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَارِثٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾

أي: وانتظر يوم ينادي المنادي من مكان قريب بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء. والمراد: نفخة البعث من القبور التي سبق ذكرها عند قوله تعالى:

﴿ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا مُبْطَرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أو: استمع بما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفيه تعظيم وتهويل للمخبر به، ويؤيده قراءة الوقف على: (واستمع).

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

أي: يوم يسمعون الصيحة المذكورة المحققة، أو الصيحة المتلبسة بالحق؛ وهي صيحة البعث من القبور، ذلك اليوم يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (٤٣).

أي: إنا نحن نحْيي ونُمِيتُ لا يشاركنا أحد في ذلك، وإلينا الرجوع إلى الجزاء والحساب يوم القيامة لا إلى غيرنا.

﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٤٤).

﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي: يوم تشقق الأرض عنهم مسرعين إلى أرض المحشر.

وقرئ: (تَشَقُّق) بتشديد الشين، و(تَشَقُّق) على البناء للمفعول، و(تشقق).

﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: ذلك حشر علينا هَيِّن.

وفي ختام السورة قال تعالى تسليّةً لرسوله ﷺ عما يلقي من عنادهم وإعراضهم، وتهديداً لهم:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي: وما أنت عليهم بمتسلط تجبرهم

على الإيمان، إنما بعثت مذكراً كما في قوله سبحانه: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٦١) لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ [الغاشية].

﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: عِظْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِي.

وَقُرِئَتْ (وعيدي) بإثبات الياء في الوقف والوصل، وأثبتها بعضهم في الوصل دون الوقف.

فالقرآن الكريم تبصرةً وعظةً، فيه الحجة البالغة والموعظة البليغة. ونحن

نقول مع قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك.

فهرس الموضوعات

تفسير سورة سبأ الرّسالة والسّاعة في سورة سبأ

- المقدمة ومؤصّوع السّورة ٥
- تفسير سورة سبأ: الرّسالة والسّاعة في سورة سبأ ٧
- الحكيم الخبير ٧
- العلم والسّاعة ٨
- الصراع بين الحق والباطل ١٠
- جهل وعناد ١١
- صانع الدروع ١٣
- النعمة والشكر ١٦
- سيل العرم ١٩
- الخلق والأمر والتدبير ٢٣
- الجدل المنصف ٢٥
- الرسول البشير النذير ٢٨
- تصحيح القيم وتعديل الموازين ٣١
- حيرة واضطراب ٣٥
- دعوة إلى التفكير الهادئ ٣٧
- جاء الحق وزهق الباطل ٣٩
- إيمان البأس ٤١

تفسير سورة فاطر
الاختلاف في المخلوقات، ووحدۃ الخالق
في سورة فاطر

- المقدمة ومَوْضُوعُ السُّورَةِ ٤٣
- تفسير سورة فاطر: الاختلاف في المخلوقات، ووحدۃ الخالق في سورة فاطر ٤٥
- الاختلاف في أجنحة الملائكة ٤٥
- تحذير وتثبيت ٤٨
- العزة لله تعالى ٥١
- الحياة أنفاس ٥٣
- البحران عذب ومالح ٥٥
- الفقراء إلى الله تعالى ٥٧
- المسؤولية الشخصية والاختلاف فيها ٥٩
- الاختلاف في السلوك والمصير ٦٢
- الاختلاف في ألوان المكونات وجمالها ٦٥
- التجارة الرابعة ٦٩
- العباد المصطفون ٧٠
- التفاضل في حمل رسالة الإسلام ٧٢
- دار المقامة ٧٣
- الإعذار في الأعمار ٧٥
- الإيجاد والإمداد من الله وحده ٧٨
- اختلاف المواقف ٨٠

تفسير سورة يس
مَرَقَاةُ الْوُصُولِ فِي سُورَةِ يَسْ

- المقدمة ومَوْضُوعُ السُّورَةِ ٨٥
- تفسير سورة يس: مَرَقَاةُ الْوُصُولِ فِي سُورَةِ يَسْ ٨٧
- الرسول والساعة ٨٧
- عناد وجحود ٩٠

- التمسك بالقرآن وخشية الرحمن ٩٢
- أصحاب القرية ٩٤
- تكذيب المرسلين ٩٥
- المتشائمون من دعوة المرسلين ٩٧
- الناصح في الحياة وبعد الممات ٩٨
- حسرة على العباد ١٠١
- دلائل ونعم ١٠٣
- المستقر الزماني والمكاني للشمس ١٠٦
- منازل القمر ١٠٨
- السابحات في البحر والبر ١٠٩
- عناد وإعراض ١١١
- النفخ في الصور والبعث من القبور ١١٣
- الوصول إلى دار السلام ١١٦
- المعرضون عن الصراط المستقيم ١١٨
- التنكيس في الخلق ١٢٠
- القرآن والشعر ١٢٢
- تسخير الأنعام ١٢٤
- إحياء العظام البالية ١٢٥
- خلق الضد من الضد ١٢٨

تفسير سورة الصافات

مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ فِي سُورَةِ الصَّافَاتِ

- المقدمة ومَوْضُوعُ السُّورَةِ ١٣١
- الفصل الأول: مَقَامُ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى ١٣٣
- المصطفون للعبادة ١٣٤
- زينة وحرس ١٣٥
- الطين اللازب ١٣٨
- السوق إلى أرض المحشر ١٤٠
- لوم وعتاب ١٤٢

- ١٤٣ المنسلخون عن العبودية
- ١٤٥ الرزق المعلوم
- ١٤٦ ذكريات ومسامرات
- ١٤٩ شجرة الزقوم
- ١٥٢ • الفصل الثاني: بَعْضُ مَوَاقِفِ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ
- ١٥٣ - الإيمان والعبودية
- ١٥٥ - تكسير الأصنام
- ١٥٨ - الهجرة إلى بلاد الشام
- ١٥٩ - رؤيا الأنبياء
- ١٦١ - الاستسلام وتصديق الرؤيا
- ١٦٣ - النبي العبد
- ١٦٦ - المِنَّةُ على موسى وهارون
- ١٦٧ - سلام على إل ياسين
- ١٦٩ - المنة على لوط
- ١٧٠ - صاحب الحوت
- ١٧١ - القرعة في الإسلام
- ١٧٣ - شجرة اليقطين
- ١٧٥ • الفصل الثالث: الْمَلَائِكَةُ وَعِبَادَتُهُمْ وَإِخْلَاصُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى
- ١٧٥ - القسمة الباطلة
- ١٧٧ - من نزغات الشياطين
- ١٧٨ - براءة الملائكة ومقامهم في العبادة
- ١٨٢ • الفصل الرابع: بَشَائِرُ النَّصْرِ وَالتَّائِيْدُ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ
- ١٨٢ - وجاءت البشائر
- ١٨٤ - تسبيح وسلام وحمد

تفسير سورة ص

الْقُرْآنُ وَالْمُغَيَّبَاتُ فِي سُورَةِ ص

- ١٨٧ • المقدمة وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ
- ١٨٩ • الفصل الأول: الإِخْبَارُ بِالْغَيْبِ وَجَهٌ مِنْ وَجُوهِ الإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ

- ١٨٩ - تبليغ واستكبار
- ١٩١ - الذنب الكبير
- ١٩٣ - حسد وتكذيب
- ١٩٥ • الفصل الثاني: بَعْضُ الْوَقَائِعِ الْغَيْبِيَّةِ مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ
- ١٩٦ - تأنيس وتثبیت
- ١٩٨ - داوُد ﷺ وتسبيح الجبال والطير
- ٢٠٠ - قصة ابتلاء داود ﷺ
- ٢٠٣ - الخلافة والحكم بالحق
- ٢٠٥ - ضرورة الحساب والجزاء
- ٢٠٧ - التدبر في آيات القرآن الكريم
- ٢٠٨ - خيل سليمان ﷺ
- ٢١٠ - قصة ابتلاء سليمان ﷺ
- ٢١١ - تنبيه وتحذير
- ٢١١ - ملك سليمان ﷺ
- ٢١٤ - قصة ابتلاء أيوب ﷺ
- ٢١٥ - الفرج من الله تعالى بعد الشدة والبلاء
- ٢١٨ - المصطفون الأخيار
- ٢٢٠ • الفصل الثالث: مِنْ أَخْبَارِ غَيْبِ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ
- ٢٢٢ - الإخبار عن تخاصم أهل النار
- ٢٢٤ - القرآن والنبأ العظيم
- ٢٢٦ - من أخبار الملائكة الأعلى
- ٢٢٩ - الله أعلم

تفسير سورة الزمر

الهُدَى وَالضَّلَالُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ

- ٢٣١ • المقدمة وَمَوْضُوعُ السُّورَةِ
- ٢٣٣ • تفسير سورة الزمر: الْهُدَى وَالضَّلَالُ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ
- ٢٣٣ - الإخلاص في العبادة
- ٢٣٥ - كروية الأرض

- ٢٣٧ - الأزواج الثمانية والظلمات الثلاث
- ٢٣٩ - الإرادة والرضا
- ٢٤١ - الخوف والرجاء
- ٢٤٤ - التقوى والإحسان
- ٢٤٥ - أول المسلمين
- ٢٤٧ - موعظة وبشارة
- ٢٥٠ - التحذير من الاغترار بالدنيا
- ٢٥١ - التحذير من قسوة القلب
- ٢٥٢ - قشعريرة وطمأنينة
- ٢٥٤ - اتقاء العذاب بالوجوه
- ٢٥٥ - أمثال القرآن
- ٢٥٧ - الحُكْم والكفاية
- ٢٥٩ - أمان وضمنان
- ٢٦١ - حسي الله
- ٢٦٣ - النوم والموت
- ٢٦٥ - يا فاطر السماوات والأرض
- ٢٦٧ - الفتنة بالمال
- ٢٦٩ - التوبة والمغفرة
- ٢٧٢ - تذكير وتحذير
- ٢٧٤ - طريق الفوز والفلاح
- ٢٧٦ - الخسران المبين
- ٢٧٩ - وما قدروا الله حق قدره
- ٢٨٠ - في عرصات القيامة
- ٢٨٤ - زمر الضالين وزمر المهتدين

التَرْكِيبَةُ وَالتَّزْيِينَةُ فِي الْحَوَامِيِمِ

- ٢٩٠ • مقدمة في المَوْضُوعِ الْأَسَاسِ لِسُورِ الْحَوَامِيِمِ

تفسير سورة غافر

الدُّعَاءُ وَالتَّقْوِيضُ فِي سُورَةِ غَافِرٍ

- تعظيم وإجلال ٢٩١
- المجادلون بالباطل ٢٩٤
- ثناء ودعاء ٢٩٦
- مقت ويأس ٢٩٨
- الإخلاص في العبادة والدعاء ٣٠٠
- يوم التلاقي والآزفة ٣٠١
- مؤمن آل فرعون ٣٠٦
- عاقبة التكذيب والعناد ٣١٠
- ثبات وتقويض ٣١٤
- من عذاب القبر إلى عذاب النار ٣١٦
- تأييد وتثبيت ٣١٩
- الدعاء والعبادة ٣٢٣
- فضل وإحسان ٣٢٦
- مصير المعرضين عن عبادة الله ٣٣٠
- الثبات على طريق الدعوة والتبليغ ٣٣٢
- إيمان اليأس ٣٣٤

تفسير سورة فصلت

الْقُرْآنُ وَالتَّزْكِيَةُ فِي سُورَةِ فَصَلَتْ

- التنزيل العربي المفصل ٣٣٧
- أهم وسائل التزكية ٣٣٩
- الخلق المتدرج ٣٤١
- صاعقة عاد وثمود ٣٤٤
- الجوارح الناطقة ٣٤٧
- قُرْءاء السوء ٣٥٠
- تهديد أعداء الله بعذاب النار ٣٥٢

- تبشير أولياء الله بالجنة ٣٥٤
- الدعوة والداعي ٣٥٦
- ادفع بالتي هي أحسن ٣٥٨
- سجود وتسبيح ٣٦١
- الهدى والشفاء في القرآن ٣٦٤
- المسؤولية والجزاء ٣٦٦
- معالم من الشخصية البشرية ٣٦٨
- شقاء المعرضين عن القرآن ٣٧٠

تفسير سورة الشورى

الْوَحْيُ وَالشَّرِيعَةُ فِي سُورَةِ الشُّورَى

- حقيقة الوحي ومصدره ٣٧٣
- تسبيح واستغفار ٣٧٥
- الوحي والقرآن ٣٧٦
- الله هو الولي ٣٧٧
- تنزيه وإثبات ٣٧٩
- الحاكمية والتشريع لله وحده ٣٨١
- الدعوة إلى الحق والاستقامة عليها ٣٨٢
- الشريعة الإلهية والعدل ٣٨٥
- الله لطيف بعباده ٣٨٧
- مودة آل البيت ٣٨٩
- حاجة العباد إلى الرزق والشريعة الإلهية ٣٩٣
- الذنوب والمصائب ٣٩٥
- الأسس الشرعية للمجتمع الإسلامي ٣٩٨
- العذاب المقيم ٤٠٠
- أقسام الوحي ٤٠٤

تفسير سورة الزخرف

الْقُدْوَةُ وَالْمَثَلُ فِي سُورَةِ الزُّخْرَفِ

- ٤٠٧ - تعظيم القرآن الكريم
- ٤٠٩ - المسرفون في الجهل والضلالة
- ٤١٣ - القسمة الباطلة
- ٤١٦ - التقليد الأعمى والترف
- ٤١٨ - براءة إبراهيم عليه السلام
- ٤٢١ - إعراض واعتراض
- ٤٢٣ - الزينة والمتاع
- ٤٢٤ - القدوة السيئة
- ٤٢٦ - الثبات على الصراط المستقيم
- ٤٢٨ - السلف والمثل
- ٤٣٢ - الخصومة بالباطل
- ٤٣٣ - عيسى عليه السلام والمثل
- ٤٣٧ - رحم الإيمان والتقوى
- ٤٤٠ - نداء المجرمين في جهنم
- ٤٤٣ - توحيد وتنزيه
- ٤٤٦ - صفح وسلام

تفسير سورة الدخان

إِنْدَارٌ وَانْتِقَامٌ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ

- ٤٤٩ - الليلة المباركة
- ٤٥٣ - دخان من السماء
- ٤٥٥ - البطشة الكبرى
- ٤٥٧ - إهلاك المجرمين
- ٤٥٩ - بكاء السماء والأرض
- ٤٦١ - إسراف وطغيان
- ٤٦٤ - الزقوم والحميم

- ٤٦٦ - أمن ونعيم

تفسير سورة الجاثية

اِسْتِسْلَامٌ وَاِذْعَانٌ فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ

- ٤٦٩ - مدارج الكمال
- ٤٧١ - سبيل الهدى والفلاح
- ٤٧٤ - اعتبار واستبصار
- ٤٧٦ - التمييز بين المتفاضلين
- ٤٧٧ - التحذير من اتباع الهوى
- ٤٧٨ - الرد على الدهرية
- ٤٨١ - من مشاهد يوم القيامة
- ٤٨٣ - الحمد والكبرياء لله تعالى

تفسير سورة الأحقاف

الدَّعْوَةُ وَالِاسْتِجَابَةُ فِي سُورَةِ الْاَحْقَافِ

- ٤٨٥ - دعوة الحق ودعوة الباطل
- ٤٨٧ - ردود على أباطيل
- ٤٩٠ - شاهد من بني إسرائيل
- ٤٩١ - كبر وجهل
- ٤٩٣ - دعوة القرآن ودعوة التوراة
- ٤٩٥ - المستجيبون لدعوة الحق
- ٤٩٨ - المعرضون عن دعوة الحق
- ٥٠١ - دعوة هود عليه السلام
- ٥٠٥ - الجن المستجيبون لدعوة الحق
- ٥٠٩ - موعظة بليغة

تفسير سورة محمد

الْحَرْبُ وَالسَّلَامُ فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ

- ٥١١ - المقارنة بين المؤمنين والكافرين

- ٥١٣ أحكام في القتال والأسر
- ٥١٦ الحكمة من تشريع القتال
- ٥١٧ الإعراض عن شريعة الله
- ٥١٨ الله مولى المؤمنين
- ٥٢٠ أنهار الجنة وحميم النار
- ٥٢٢ المرض الروحاني والدواء الإلهي
- ٥٢٤ أشراط الساعة
- ٥٢٦ استغفار النبي عليه الصلاة والسلام
- ٥٢٨ المتقاعسون عن القتال
- ٥٢٩ المفسدون في الأرض وقاطعو الأرحام
- ٥٣٢ الردة والنفاق
- ٥٣٧ السلام والاستعداد

تفسير سورة الفتح

بَشَائِرُ النَّصْرِ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ

- ٥٤١ الفتح الأعظم
- ٥٤٤ جنود الله
- ٥٤٥ زيادة الإيمان ونقصانه
- ٥٤٧ دائرة السوء
- ٥٤٨ البيعة على الموت
- ٥٥٢ أعذار المتخلفين
- ٥٥٤ عقوبة المتخلفين
- ٥٥٧ بَيْعَةُ الرضوان
- ٥٥٩ مقدمة الفتوح وتوالي البشائر
- ٥٦١ محل الهدى
- ٥٦٢ حرمة المؤمنين والمؤمنات
- ٥٦٤ حمية الجاهلية وكلمة التقوى
- ٥٦٦ الرؤيا الصادقة
- ٥٦٨ جند النصر والفتح

تفسير سورة الحجرات

أَخْلَاقٌ وَمَبَادِئُ فِي سُورَةِ الْحُجُرَاتِ

- ٥٧١ تأديب وتحذير
- ٥٧٤ المناذون من وراء الحجرات
- ٥٧٦ الراشدون
- ٥٧٨ مبدأ الإصلاح بين المتخاصمين
- ٥٨١ تحريم أسباب الخصام
- ٥٨٣ تحريم ظن السوء وما يؤدي إليه
- ٥٨٤ تحريم الغيبة
- ٥٨٦ المساواة في الأصل والتفاضل بالتقوى
- ٥٨٨ الإيمان والإسلام

تفسير سورة ق

الْبَصِيرَةُ وَالْمَوْعِظَةُ فِي سُورَةِ ق

- ٥٩١ الأمر العجيب
- ٥٩٣ الكتاب الحفيظ
- ٥٩٤ النظر إلى السماء
- ٥٩٦ التبصرة والذكرى
- ٥٩٨ الخروج من القبور
- ٥٩٩ الرقابة الإلهية
- ٦٠١ سكرات الموت
- ٦٠٣ غطاء الغفلة
- ٦٠٦ يوم المزيد
- ٦٠٩ بصائر ومواظ
- ٦١١ صيحة الحق
- ٦١٣ فهرس الموضوعات



التفسير الموضوعي لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

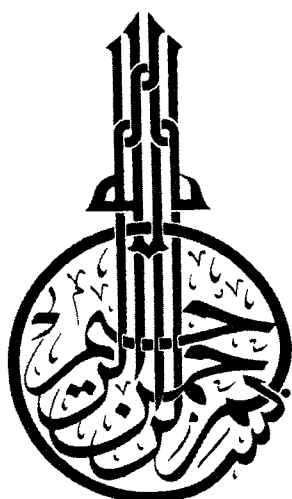
تأليف
عبد الحميد محمود طه

المجلد الثامن :

ويحتوي على تفسير

جُزْءُ الذَّارِيَاتِ - جُزْءُ قَدْ سَمِعَ - جُزْءُ تَبَارَكَ - جُزْءُ عَمَّ

دار القلم
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أسَّسَهَا:
محمَّد بن عبد الوَّهَّاب
سنة ١٢٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245



تفسير سورة الذاريات العِبَادَةُ وَالرِّزْقُ فِي سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مقسّمات الرزق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَّتِ ذُرُوءًا ۝١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ۝٢﴾ فَالْحَرِيَّتِ يُسْرًا ۝٣﴾ فَالْمَقْسَمِتِ أَمْرًا ۝٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ وَإِنَّ الْيَبْنَ لَوَقْعٌ ۝٦﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الذاريات بالأقسام التالية :

﴿وَالذَّارِيَّتِ ذُرُوءًا ۝١﴾ .

أي : والرياح التي تذرّو وتفرّق ، قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنِدًا﴾ [الكهف : ٤٥] .

وقرئت : (والذاريات ذُرُوءًا) بإدغام التاء في الذال .

﴿فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ۝٢﴾ .

أي : فالحاملات حملاً ، وهي السحب الحاملة للمطر .

﴿فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا ۝٣﴾ .

أي: فالسفنُ الجاريةُ في البحر جرياً سهلاً .
وقال بعضهم: ﴿فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا﴾ هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، فالرياح فوقها السحاب، وفوق السحاب النجوم، وفوق كل ذلك الملائكة التي تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية .
والمعنى الأول أولى .

﴿فَالْمُقَسَّمِ أَمْرًا ۝٤﴾ .

أي: فالملائكةُ التي تقسمُ الأمور من الأمطار والأرزاق كما أمروا به .
أقسم الله بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على عجب صنعته، وكمال قدرته، ويجوز أن يكون القسمُ بالرياح لا غير، فهي التي تنشئ السحاب وتسيره، ثم تحمله وتقلُّه، ثم تجري به جرياً سهلاً، ثم تقسم الأمطار، ومع تقسيم الأمطار تقسم الأرزاق، فالفاء لترتيب الأفعال والصفات .
وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الْبَيْنَ لَوُفْعٌ ۝٦﴾ .

أي: إِنَّمَا تُوْعَدُونَ من الثواب والعقاب يوم القيامة لوعد صادق، وَإِنَّ الحسابَ والجزاء لكائنٌ لا محالة .
أو: إِنَّمَا تُوْعَدُونَ من رزق لوعد صادق مؤكد الوقوع .
وفي القسم بهذه الأمور إشارةٌ إلى تحقق مضمون المقسم عليه، فَمَنْ قَدَّرَ عليها فهو قادر على غيرها .

القول المضطرب

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۖ إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۙ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِزَافُكَ ۙ قُلِ الْحَرِصُونَ ۙ﴾ (٧) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمَرِهِ سَاهُونَ ۖ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ۙ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ۙ﴾ (٨) ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۙ﴾ (٩)

ثم أقسم الله تعالى قسماً آخر فقال:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۙ﴾

أي: ذات الطرائق؛ وهي الأفلاك التي تسير عليها الكواكب والنجوم.

أو: ذات الخلق المستوي المتقن، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

ومنه يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه: حبك الثوب يحبكه حبكاً، قال ابن الأعرابي: كلُّ شيء أحكمته وأحسن عملهُ فقد احتبكتهُ.

أو: والسماء التي حبكت بالنجوم وزيّنت بها^(١).

﴿إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۙ﴾

أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مضطرب متناقض لا يلتئم ولا يجتمع؛ وهو قولهم في حقه عليه الصلاة والسلام، تارة شاعر، وأخرى ساحر، وأخرى مجنون.

﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ .

أي: يُصرف عن القرآن مَنْ صُرِفَ، فلا صُرِفَ أقطع منه وأشد، فأقوالهم المضطربة لا يقبلها إلا مَنْ هو ضالٌّ في نفسه، لا فهم له ولا عقل .
وكان مشركو مكة يستقبلون القادمين إليها ليصدّوهم عن الإيمان، ويصرفوهم عن استماع القرآن .

﴿قُلِ الْخَرَصُونَ﴾ .

أي: لُعِنَ الكذّابون من أصحاب القول المختلف .
وأصله الدعاء بالقتل والهلاك أجري مجرى اللعن . ومعنى الخرص: الظنُّ والتخمين، وأُطلق على الكذب لأنه في الغالب يكون منشأ له .

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍءٍ سَاهُونَ﴾ .

الذين هم في غفلة وجهالة عظيمة تغمرهم، لاهون غافلون عما أمروا به وخلقوا من أجله .

﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

أي: متى وقوع يوم الجزاء؟! .
وسؤالهم للاستهزاء والاستعجال لا للاستعلام .
وجاء الجواب على استهزائهم يتوعددهم ويتهدهدهم:

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ .

أي: يحرقون ويعذبون، وأصل الفتن إذابة المعدن الثمين لاختباره وإظهار غشّه، ثم استعمل في الإحراق والتعذيب ونحو ذلك .
ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:

﴿ذُوقُوا فَنَتَكُمُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِءَ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: ذوقوا عذابكم هذا الذي كنتم تستعجلون به مستهزئين .

المستغفرون بالأسحار

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَأَخِذِينَ مَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَاسْتَعَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

وتحوَّلَتِ الآياتُ من الحديث عن اللاهين العابثين إلى الحديث عن المتقين العابدين:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: بين جنات وعيون جارية لا تغيب عن أبصارهم .

﴿ءَأَخِذِينَ مَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿ءَأَخِذِينَ مَا ءَانَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: راضين بما أعطاهم ربهم .

فكل ما تفضَّل به عليهم ربُّهم حسن مرضي، مُتَلَقَّى بالقبول والسرور، بينما كثير من الناس لا يرضون بما آتاهم ربهم من الرزق وبما يسَّره لهم .

﴿إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: إنهم كانوا في الدنيا قد أحسنوا طاعة ربهم، فتقبَّلها منهم، وأثابهم عليها أحسن الثواب .

ثم بينت الآياتُ في معرض الثناء عليهم بعض أعمالهم الحسنة، فأبرزت منها عبادتهم بالليل واستغفارهم بالأسحار:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل.
أو: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً، أو: كان هجوعهم في الليل قليلاً.
والمراد بيان قلة نومهم وهجوعهم، وكثرة صلاتهم وعبادتهم.
وقد يكون المراد بيان حرصهم على قيام الليل، فقلَّ أن تمرَّ عليهم ليلة لا يصلون فيها لله ﷻ.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: ويدأومون على الاستغفار بالأسحار، لأنهم يستشعرون تقصيرهم في العبادة.

فالآية تشير إلى مزيد خشيتهم من عذاب الله، وعدم اغترارهم بعبادتهم.
والسَّحَر: السدس الأخير من الليل، ودلت الآية على فضل الاستغفار فيه،
قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

الأسباب السماوية للرزق

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

أي: وفي أموالهم نصيب وافر أوجبوه على أنفسهم قبل أن يوجبه الله عليهم
بفريضة الزكاة، للسائل الذي يسأل، وللمحروم المتعفف عن المسألة، فيكون
محروماً من قبل نفسه حين لم يسأل، ومن قبل الناس إذ لا يعطونه ولا يفتنون له.

فالقوم جمعوا بين العبادة البدنية والمالية، وعلموا أَنَّ الله سخر بعض الناس لبعض، فجعل رزق بعضهم على بعض، وأضافوا إليها أيضاً النظر والتفكير في بدائع المخلوقات:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: وفي الأرض علامات وبراهين تدلُّهم على وجود الله ووحدانيته، وكمال علمه وقدرته، وطلاقة مشيئته، وفراط رحمته.
فنظرة اليقين هي التي تحيي القلب فيرى ويدرك، وتحيي مشاهد الأرض فتتطرق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحديثه عما وراءها من تدبير وإبداع.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: وفي ذواتكم آيات كثيرة لا تُحصى أفلا تنظرون فيها نظر المتفكر المتعظ؟!.. فالآية تعنّف المعرضين عن التفكير والنظر.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: وفي السماء أسباب رزقكم من سحب ومطر، وما توعدون من ثواب وعقاب، فكله مقدر مكتوب في السماء.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فوربّ السماء والأرض إن ما سبق ذكره في السورة لحق مثل نطقكم، فكما أنه لا شك أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكُّوا في تحقيق ذلك، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع، فكل ما أخبر سبحانه عنه من أمر القيامة والبعث والجزاء وتوزيع الأرزاق، كائن لا محالة، وحق لا مرية فيه.
وفي قراءة: (مثل) بالرفع صفة لحق.

وخصّ النطق من بين سائر الحواس لأن غيره من الحواس يدخله التشبيه.

ضيف إبراهيم

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَكُمُ الْغَيْمِ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَرٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ تُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَحْقُقُونَ أَلْعَذَابَ الْأَلِيمِ ﴿٣٧﴾﴾.

وتأكيداً لصديق الوعد والوعيد المذكور في صدر السورة عند قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥] ذكرت الآيات أمثلة واقعية من تاريخ الأمم الهالكة المكذبة:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: هل أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟
 وهم الملائكة الذين أتوا إلى إبراهيم في صورة الضيف، فأضافهم ﷺ، وهو يظن أنهم ضيف، وقام بإكرامهم وخدمهم بنفسه.
 وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ بصيغة الاستفهام تفخيم لشأن الحديث، وتنبيه على أنه ما علمه إلا من طريق الوحي.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: إذ دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلم

عليك سلاماً، فرد إبراهيم قائلاً: عليكم سلام، عدل به إلى الرفع بالابتداء
للقصد إلى الثبات والدوام، فكانت تحيته أحسن من تحيتهم.

وقرئاً مرفوعين، وقرئ: (فقالوا سلام) (قال سلاماً) والمعنى واحد.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: قال إبراهيم في نفسه: قومٌ منكرون، لأنهم ليسوا ممن
عهدهم من الناس. أو: لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾.

فذهب إلى أهله في خفية وسرعة فجاء بعجل سمين مشوي.

فإنَّ من أدب المضيف أن يبادر بتقديم القرى، قال تعالى: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ
بِعِجْلٍ حَنِينٍ﴾ [هود: ٦٩].

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

فوضعه بين أيديهم، وحثهم بأدب ولطف على الأكل.

ولما رأى أيديهم ممسكة عن طعامه، أضمر في نفسه خوفاً، لأن من لم
يأكل طعامك لا يحفظ ذمامك:

﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

وهو إسحاق عليه السلام.

ولما سمعت امرأته سارة البشارة دنت منهم صائحة متعجبة:

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ﴾ أي: في صيحة من الصرير.

﴿فَصَكَتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمت وجهها متعجبة.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عقيم، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يُونُثَىٰ ۚ أَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

أي: هكذا قال ربك، فنحن لا نقوله من تلقاء أنفسنا، إنه هو الحكيم العليم. ولما علم إبراهيم أنهم ملائكة وهم لا ينزلون إلا لأمر عظيم؛ سألهم عنه:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾.

أي: فما الشأن الخطير الذي أرسلتم لأجله؟.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

هم قوم لوط.

﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ جِبَارَةً مِّن طِينٍ﴾.

أي: من طين متحجر.

﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: معلّمة في ملك الله وسلطانه للمتجاوزين الحد في الفجور والعصيان. وانتقلت الآيات من بيت إبراهيم إلى قوم لوط تصف بإجمالٍ ما أنزل الله بهم من العذاب والنكال:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

وهم أهل بيت لوط ﷺ إلا امرأته، فإنها كانت كافرة. وفيه دليلٌ على جواز إطلاق العام على الخاص، فإنَّ الإسلام أعمُّ من الإيمان.

﴿وَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٣٧).

أي: تركنا فيها علامة دالة على ما أصابهم من العذاب يعتبر بها الذين يخافون من العذاب الأليم؛ ولا تزال قائمة حتى الآن في ما يسمى بالبحر الميت أو بحيرة لوط.

عبر وعظات

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرْكَيْهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٣٩) ﴿فَأَحَدْنَاهُ جُودَهُ ۖ فَنَدَّٰهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٤٠) ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) ﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ﴾ (٤٢) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٣) ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَحَدْنَاهُمْ الصَّاعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٤) ﴿مَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ﴾ (٤٥) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٤٦).

ثم أشارت الآيات إلى العبر والعظات في ما حل ببعض المعذنين من الأمم السالفة:

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨).

أي: وجعلنا في قصة موسى موعظةً وعبرةً عندما أرسلناه إلى فرعون بحجة واضحة ومعجزة ظاهرة.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرْكَيْهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (٣٩).

أي: فأعرض فرعون بجمعه وجنوده الذين يركن إليهم، ووصف موسى بأنه ساحر أو مجنون.

﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَبَدَنَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٤٠).

أي: فأخذنا فرعونَ وجنودَه فطرحناهم في البحر، وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والعناد.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١).

التي لا خير فيها.

﴿مَا نَذُرْ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَارِمٍ﴾ (٤٢).

أي: ما ترك من شيء مرّت عليه إلا جعلته هالكاً بالياً.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٣).

وذلك أنهم لما عقروا الناقة المعجزة قال لهم نبيُّهم صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٤).

فاستكبروا عن طاعة ربهم، فأخذهم العذاب والهلاك وهم يرونه وينظرون إليه.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ (٤٥).

أي: فأصبحوا هامدين، لا حراك بهم، وما كانوا ممتنعين منه.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٤٦).

أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء المذكورين، إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة ربهم. وقرئ (من قبل) بالجر.

الفرار إلى الله

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَاقْرَءُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ بِحُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَصَّوْنَ بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى لِنَفْعِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

وبعد بيان العبر والعظات أبرزت الآيات كمال قدرة الله في خلق المكونات :

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: والسماء بنيناها بقوة وقدرة، وإنا لذو سعة أغنياء قادرين على خلقها وخلق غيرها، لا يمتنع علينا شيء نريده .

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

والأرض بسطناها لكم فنعم الماهدون نحن .

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

أن الخالق فردٌ وترٌ، ليس كمثله شيء، فالزوجية ماثوثة في كل المخلوقات كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦] .

وبهذا البيان مهدت الآيات لأمره تعالى للرسول ﷺ بأن يأمرهم باللجوء إليه سبحانه وإلى عبادته وطاعته :

﴿فَقْرَءُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

أي: فالجؤوا إلى عبادة الله وتوحيده والاعتصام به، إني لكم منه نذير بين الإنذار .

وتعليله بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى، لا من تلقاء نفسه، وعد كريم بنجاتهم من العقاب وفوزهم بالثواب.

فالفرار بالحقيقة من الله إلى الله، من سخطه إلى مرضاته، ومن عقوبته إلى معافاته، كما في الحديث الشريف: عن عائشة ؓ قالت: فقدته ﷺ من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه، وهو ساجد يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» [رواه الترمذي (٣٥٦٦) وأبو داود (١٤٢٧)].

ثم بينت الآيات أن الفرار الحقيقي لا يكون إلا بإخلاص العبادة لله وحده:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

فالإنذار الأول متصل بالأمر، والثاني متصل بالنهي، والغرض من كل ذلك الحث على دوام العبادة والطاعة، والتحذير من الشرك وأسبابه، فتكذيب الرسل أمر خطير كبير شائع بين الأمم.

﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴿٥٢﴾﴾

أي: كما كذبك قومك وقالوا: ساحر أو مجنون، كذلك فعل الذين من قبلهم فقالوا عن رسولهم: ساحر أو مجنون.

ولهذا استنكر سبحانه اجتماعهم على هذا القول ووبخهم عليه قائلاً:

﴿أَتَوْاصُوا بِبَئِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، فالطغيان ومجاوزة الحد هو الذي جمعهم عليه لأنهم لم يتلاقوا في زمن واحد.

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (٥٤).

أي: فأعرض عنهم، ولا تبال بهم، فلا لوم عليك فقد أديت الرسالة وما قصرت في التبليغ.

وليس المراد من الإعراض عنهم التوقف عن تبليغهم وموعظتهم، فالواجب عليه ﷺ وعلى كل داعية أن يستمر في التبليغ والتذكير:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٥).

أي: تنفع من قدر الله إيمانه، وتزيد المؤمنين بصيرة وهداية.

* * *

الحكمة من الخلق

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦٠).

ثم بينت الآيات في آخر السورة حكمته تعالى في الخلق:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦).

أي: إلا لأكلفهم بعبادتي وطاعتي، فما خلقتهم عبثاً ولا لعباً ولا لحاجتي إليهم؛ فأنا الغني عنهم وعن عبادتهم.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ (٥٧).

أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم، وأسند الإطعام إلى نفسه

سبحانه، لأن الخلق كلهم عياله، ومن أطعم أحداً من عياله فكأنما أطعمه ﷺ. وخص سبحانه الإطعام بالذكر لأنه المقصد الأساس الأول من الرزق الذي دارت الآيات في فلكه.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨)

أي: إن الله هو الذي يرزق كل مفتقر إلى الرزق، ذو القدرة والقوة الذي لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء. وإذا أثبت أنه تعالى ما خلق الجن والإنس إلا ليكلفهم بعبادته ويشرفهم بطاعته:

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥٩)

أي: فإن للذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن عبادته تعالى وطاعته، واشتغالهم بغير ما خلَقوا له، نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة، فلا يطلبون مني أن أعجل في الإتيان به، فويل لهم وهلاك إن استعجلوا نصيبهم من الشر.

وأصل الذنوب: الدلو العظيم الممتلئ ماء، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة، وتُستعار للنصيب مطلقاً، شراً كان أو خيراً^(١).

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦٠)



تفسير سورة الطور مُطَارَدَةُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مصير المكذبين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكُنِبِ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعُونُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكَ
إِلَى نَارٍ حَمِيمٍ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُنْصَرُونَ
﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

بدأ تعالى سورة الطور كما بدأ سورة الذاريات قبلها بالأقسام التالية:

﴿وَالطُّورِ ١﴾ .

وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى ﷺ، أو هو الجبل الذي تغطّيه الأشجار، وما لم يكن كذلك لا يسمى طوراً.

والأول أولى، أقسم الله به تكريماً له، وتذكيراً بما أوحى الله إلى موسى

ﷺ عنده، ويقوّيه أنه تعالى أقسم به في سورة التين فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾ .

﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٌ﴾

أي: مكتوب؛ وهو القرآن الكريم المكتوب في اللوح المحفوظ، أو الذي يسر الله كتابته وحفظه في المصاحف. ويمكن أن يكون كتاب الأعمال الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ﴾

أي: مبسوط. والرق: هو الجلد الرقيق الذي يكتب فيه، وصف بأنه منشور، للإشارة إلى صحة ما فيه، فجعل معرضاً لنظر كل ناظر.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾

أي: لكثرة الواردين عليه من الملائكة، ذكره النبي ﷺ في حديث الإسراء والمعراج، فقال: «قُرِفَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جَبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخَرَ مَا عَلَيْهِمْ» [رواه البخاري (٣٢٠٧)].

وأكثر الروايات أنه في السماء السابعة بحيال الكعبة، حُرِّمَتْهُ فِي السَّمَاءِ كَحَرَمَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي الْأَرْضِ.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾

وهو السماء، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾

أي: الموقد ناراً، ويكون ذلك عند قيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾

أي: إن عذاب ربك لواقع بالكافرين ما له من مانع.

ولا يخفى أن الأمور المقسم بها تدل على كمال قدرة الله وحكمته وعلمه، وإحاطته بتفاصيل أعمال العباد وضبطها.

ثم وصفت الآيات هول ما يحدث يوم القيامة عندما تضطرب النظم الكونية، ويختل أحكامها تمهيداً لتبديلها غيرها:

﴿يَوْمَ نَمُورُ السَّمَاءَ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾

أي: يوم تضطرب السماء اضطراباً هائلاً فظيعاً.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾

بنسفها وإزالتها عن أماكنها، قال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠﴾ [طه: ١٠٥].

وتأكيد الفعلين بمصدريهما (موراً، سيراً) يدل على غرابتهما، وخروجهما عن الحدود المعهودة المألوفة، وإذا وقع ذلك وحدث:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: الذين هم منهمكون في الأباطيل والأكاذيب يلهون ويلعبون.

فالحوض: هو الاندفاع في الباطل والكذب دون أناةٍ ونظرٍ في العواقب، ولا شك أنه يؤدي إلى الهلاك والشقاء:

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارٍ جَهَنَّمَ دَعًا ﴿١٣﴾﴾

أي: يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً غليظاً، ويقال لهم عندما يصلون إليها:

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

أي: كنتم تقولون عنه في الدنيا سحر، أفهذا سحر أم أنتم لا تبصرون كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحقائق؟! .

﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴿١٩﴾﴾ أي: ادخلوها وقاسوا حرَّها على أي وجه شتتم من الصبر وعدمه، فإنه لا محيص لكم عنها .
﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ من التكذيب والكفر .

* * *

الفضل والعدل

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٢٠﴾ فَيَكْبَهُنَّ بِمَا ءَاتَاهُم رَّبُّهُنَّ وَيُوقِنُهُنَّ رَحْمَتَ رَبِّهِنَّ عَذَابَ الْحَرِيمِ ﴿٢١﴾﴾
﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَرَوَّحْنَهُمْ بِيْحُورٍ عِينِ ﴿٢٣﴾﴾
﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّ بَيْنَ ذَلِكَ بَيْنَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَمَا ءَاتَاهُم مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيهَا كَهَيِّطٍ وَالْحَرَمِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يَسْتَرْجِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾
﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلُفًا لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مَكْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ قَالُوا
﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٣٠﴾﴾ إِنَّا كُنَّا مِن
﴿قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٣١﴾﴾ فَذَكَرَ فَمَا أَنْتَ بِعَمَّتَ رَبِّكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْذُوبٌ ﴿٣٢﴾﴾

وبعد أن وصفت الآيات مصير المكذبين وأكدته بالأقسام السابقة، وصفت في مقابله مصير المتقين :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ رَبُّهُمْ﴾ أي: ناعمين متلذذين بما أعطاهم ربهم. وقرئ: (فكهِين).

﴿وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: ودفع ربهم عنهم عذاب الجحيم. وإظهار (الرب) في موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتكريم. ويقال لهم زيادة في تكريمهم وتشريفهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: أكلاً وشراباً هنيئاً لا تنغيص فيه، جزاء ما كنتم تعملون.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: مرتبة منسقة على صف بحيث يظل الجالسون عليها متقابلين لا متدابرين.

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ من نساء الجنة.

وحتى يزداد سرورهم يجمع الله بينهم وبين أبنائهم المؤمنين في الجنة فيلحق المقصّرين بالسابقين، ويجمع بينهم على أحسن الوجوه:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّ بَهِيمٍ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَتَتْهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّ بَهِيمٍ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فالله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقرّ بهم عينه.

وقرئ: (ذرياتهم) للمبالغة في الكثرة. كما قرئ أيضاً: (وأتبعناهم ذريتهم) أي: جعلناهم تابعين لهم بالإيمان.

﴿وَمَا أَلْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً، إنما رفعنا أبناءهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان، وقرئ: (ألتناهم، لتناهم، آلتناهم) والكل بمعنى واحد.

ولما أخبر تعالى عن مقام الفضل برفع الدرجة أخبر عن مقام العدل:

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرتهن بعمله، فلا يحمل على أحد ذنب غيره، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَلًا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيكَهْهَ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

أي: وزدناهم على ما هم فيه من النعيم بأنواع شتى من الفاكهة ومما يشتهون من اللحم.

﴿يَنْتَرَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسِيمٌ﴾.

أي: يتعاطون فيها هم وجلساؤهم برغبة واشتياق خمرأ، ولا يتكلمون بلغو الحديث في أثناء شربها، ولا يفعلون الآثام كما هو عادة شاربي الخمر في الدنيا، فخمر الجنة منزهة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها.

وفي قراءة: (لا لغو فيها ولا تأسيم) بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾.

أي: ويطوف عليهم بالكأس مماليك مخصصون بهم، كأنهم في جمالهم اللؤلؤ المصون المخزون، كما في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ (٧) يَا كُوبَ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿[الواقعة].

وعندما تطيب المجالس يحلو الحديث وتبادل الذكريات:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

أي: يتساءلون عن أحوالهم، ويتراجعون ذكرياتهم.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ .

أي: إنا كنا في الدنيا خائفين وجلين من سوء المصير.

﴿فَمَرَّبَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: ففضل سبحانه علينا برحمته وتوفيقه، وأجارنا من عذاب النار النافذة في السام.

وقرئ: (ووقَّنا) بتشديد القاف. والسموم: ريح حارة معروفة.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: إنا كنا نعبد، ونتضرع إليه، ونرجو رحمته، إنه هو الصادق في ما وعد عباده المؤمنين، المتفضل عليهم بالرحمة، استجاب لنا، وأعطانا سُؤلنا. وفي قراءة: (أنه) بفتح الهمزة؛ أي: لأنه.

ثم التفتت الآيات إلى النبي عليه الصلاة والسلام تثبته على طريق الدعوة والتبليغ، وتنفي عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: لست - بحمد الله - كاهناً ولا مجنوناً، فلا تبال بأقوالهم وأكاذيبهم، واستمر على طريق الدعوة. والكاهن: الذي يخبر بالغيب بضرب من الظن.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٣٢).

أي: أأمرهم عقولهم بهذا التناقض في الأقوال، أم هم مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد، محرومون من الرشد والسداد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣).

أي: أخلق القرآن من قبل نفسه؟ بل لا يؤمنون بسبب كفرهم وعنادهم، فيصفون رسول الله ﷺ بهذه الأباطيل والأكاذيب.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤).

أي: فليأتوا بمثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥).

أي: أوجدوا من غير موجد أم هم أوجدوا أنفسهم؟! والعقل والمنطق ينفيان هذا وهذا، ويؤكدان وجود خالق خلقهم وأنشأهم من العدم، ولا بد لمن يسمع هذه الحجج القاطعة أن يستجيب لداعي الإيمان، ويقرَّ بوجود خالق واحد أحد، فعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عَنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصْطَفُونَ (٣٧) كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. [رواه البخاري (٤٨٥٤)].

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٣٦).

أي: أهم خلقوا السماوات والأرض؟! بل لا يتدبرون في الآيات، ولهذا يعرضون عن الإيمان.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمْ الْمُضْطَرُونَ﴾ (٣٧).

أي: أعندهم خزائن رزقه حتى يضعوا النبوة حيث شاؤوا؟! أم هم الأرياب القاهرون الذين لا يخضعون لأمر ولا نهى ويفعلون ما يشاؤون؟!

﴿أَمْ هُمْ سَامِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَعْمُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨).

أي: هل لهم سُلْمٌ يستمعون بواسطته إلى الملائكة الأعلیٰ؟! فلَيَاتِ مستمعهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم عليه من شرك وضلال.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ (٣٩).

وهو من ضلالهم الذي كانوا عليه.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٤٠).

أي: لست تسألهم على ذلك أجراً ولا شيء يثقلهم، ويصدّهم عن الإيمان.

﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْنُيُونَ﴾ (٤١).

أي: ليس الأمر كذلك، فلا يعلم الغيب إلا الله.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢).

أي: أيريدون كيداً برسول الله ﷺ، والله سبحانه عاصمه من كيدهم ومكرهم؟ وكيدهم إنما يرجع عليهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣).

أي: أم لهم إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذابه؟! سبحانه الله عما يشركون.

ثم بعد هذه المطاردة والمحاصرة الشديدة بينت الآيات شدة عنادهم وطغيانهم :

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤﴾ .

أي : لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم ، وقالوا : هذا سحبٌ مجموعٌ بعضه على بعض .

ولا بد للآيات أن تواسي رسول الله ﷺ عما يلقاه من عنادهم وكيدهم :

﴿فَدَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥﴾ .

أي : اتركهم ، ولا تبال بهم ، حتى يلاقوا يومهم الذي يموتون ويهلكون فيه . وفي قراءة : (يصعقون) بفتح الياء .

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦﴾ .

أي : لا ينفعهم كيدهم شيئاً عند الموت ، ولا يمنعهم من العذاب ، بل إن لهم عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة .

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧﴾ .

وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك ، وإنما يصيرون على الكفر عناداً واستكباراً .

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾ .

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمها لهم إلى اليوم الموعود والأجل المسمى .

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي : في حفظنا وحراستنا .

وفائدة الجمع : الدلالة على المبالغة في الحفظ كأن معه من الله تعالى حُفَظًا يكلؤونه بأعينهم ، وهي من الصفات التي نؤمن بها كما جاءت ، مفوضين معناها إلى الله تعالى ، كما سبق معنا في أكثر من موضع .

وقد مرَّ معنا أنه تعالى قال لنبية موسى ﷺ: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] ومن نظر بعين بصيرته علمَ من الآيتين الفرق بين الحبيب والكلیم عليهما أفضل الصلاة وأكمل التسليم^(١).

ويا له من تقدير وتكريم! إنها مرتبة عالية عزيزة خصَّ الله بها نبينا عليه أفضل الصلاة والتسليم، ورفعها إليها، والله يؤتي الفضل من يشاء، فيها إعزاز خاص، وأنس خاص، ومع هذا الإعزاز والأنس والتكريم بيان الصلة الدائمة بالله ﷻ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: سبح بحمد ربك حين تقوم من كل مجلس.
أو: حين تقوم إلى الصلاة في الليل.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ [٤٩].

أي: ومن الليل فسبحه بالذكر والعبادة، وفي وقت إدبار النجوم في آخره. وفي الآية إشارة إلى أهمية الركعتين اللتين قبل صلاة الفجر، وقد ثبت في البخاري [١١٦٩] ومسلم [٧٢٥]: من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر». ورواية مسلم [٧٢٥]: عنها: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» والله أعلم.



تفسير سورة النجم الْوَحْيُ وَالْإِنْدَارُ فِي سُورَةِ النَّجْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
استقامة النبي ﷺ على الحق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا صَلَ صَاحِبُهُ وَمَا عَوَىٰ ۝٢ وَمَا يُطِيقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾

أقسم الله تعالى في أول السورة بالنجم فقال:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ .

﴿وَالنَّجْمِ﴾ والمراد جنس النجوم، أو نجم معين؛ لعله الشُّعْرَى المذكور في آخر السورة: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى﴾ [النجم: ٤٩]؛ وهو نجمٌ وقادٌ كان طائفة من العرب يعبدونه كما سيأتي معنا. وللخالق أن يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق.

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: إذا غاب وأدبر كما سبق معنا في آخر سورة الطور عند قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَيَحُثُّ وَإِدْبَرَ النُّجُومُ﴾ ﴿٤٩﴾ .

ويدل ظهور النجوم وغيابها في وقت معين على أنها مخلوقة مقهورة محكومة لنظام معين، لا تستحق أن تعبد وتعظم.

ومر معنا أن إبراهيم عليه السلام استدلل بظهورها وغيابها على بطلان عبادتها، عندما ناظر عبدتها من قومه، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وقيل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المقدار النازل من القرآن على النبي ﷺ إذا نزل عليه من ملك الوحي جبريل عليه السلام، وسياق الآيات يقوي هذا القول. وجواب القسم:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

أي: ما عدل محمد عن طريق الحق، وما اعتقد باطلاً قط. فالضلال نقيض الهدى، والغى: نقيض الرشد، فهو عليه الصلاة والسلام في غاية الهدى والرشد، وهو شهادة له بأنه راشد تابع للحق ليس بضال. ويكون المعنى على القول الثاني: والقرآن الذي هو علم الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق، ما ضل عنه محمد ﷺ وما غوى.

ووصفه ﷺ بـ (صاحبكم) يدل على وقوف قومه على تفاصيل أحواله الشريفة وأخلاقه العالية، وعلى معرفتهم لمحاسن شؤونه النفسية، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

ففي الآية إخبار عن أحواله الشريفة على التعميم، فقد كان عليه الصلاة والسلام على الحق والاستقامة أبداً.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

أي: وما ينطق بالقرآن عن هواه، إن هو إلا وحي يوحى إليه.

أو: ما يقول قولاً عن هوى وغرض، إنما يقول ما أمَرَ به يبلغه الناس كاملاً

من غير زيادة ولا نقصان، ويقويه الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ، فنهني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ: فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق» [رواه أبو داود (٣٦٤٦) وأحمد (١٦٢/٢) و١٩٢].

* * *

لقاء الأمينين

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَذَلَكُنَّ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾ .

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾﴾ .

وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤﴾ ذِي قُوَةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾﴾ .

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة في العقل والرأي، فبعد أن وصفته الآيات بقوة الفعل وصفته بقوة النظر، أو ذو حكمة، فإن كلام الحكماء متين. والمِرَّة في اللغة: القوة، كما في الحديث: «لا تحل الصدقة لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ» [رواه أبو داود (١٦٣٤)].

﴿فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ أي: فاستوى جبريل وهو بالأفق الأعلى، فقام في صورته التي خلقه الله عليها لما سأل النبي ﷺ أن يريه نفسه على صورته، فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، فأما التي في

الأرض ففي الأفق الأعلى؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى.

﴿ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ﴾ .

ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فنزل على النبي ﷺ بالوحي، ومن جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله ائتمنه على وحيه إلى رسله. وأصل التدلّي: النزول إلى الشيء حتى يقرب منه، يقال: تدلّت الثمرة، وأدلى دلوه. والدوالي: الثمر المعلق.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ .

أي: فكان بين جبريل ﷺ وبين محمد ﷺ لما هبط عليه على الأرض قدر قوسين إذا مُدّا أو أدنى، وهذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عنه، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَهَى كُلَّ حَبَّارَةٍ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله أيضاً: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].
فالقريب الداني هو جبريل ﷺ، وهو قول عائشة وابن مسعود وأبي ذر رضي الله عنهم، كما ذكر ابن كثير في تفسير الآية.

وأما ما ورد في حديث الإسراء كما في البخاري: من حديث شريك بن عبد الله قال: سمعت ابن مالك يقول: «ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة... حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار ربّ العزّة فتدلّي، حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاةً على أمتك كل يوم وليلة» [رواه البخاري (٧٥١٧)].

قال ابن حجر رحمه الله: «وقد أزال العلماء إشكاله؛ فقال القاضي عياض في «الشفاء»^(١): إضافة الدنو والقرب إلى الله تعالى أو من الله، ليس دنو مكان

ولا قرب زمانٍ، وإنما هو بالنسبة إلى النبي ﷺ إبانةٌ لعظيم منزلته، وشريف رتبته، وبالنسبة إلى الله ﷻ تأنيسٌ لنبيه، وإكرام له، ويتأول فيه ما قالوه في حديث: «ينزل ربنا إلى السماء» [رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨)].

وكذا في حديث: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

وقال غيره: الدنو: مجازٌ عن القرب المعنوي لإظهار عظيم منزلته عند ربه تعالى. والتدلي: طلبُ زيادة القرب. وقاب قوسين بالنسبة إلى النبي ﷺ: عبارةٌ عن لطف المحل وإيضاح المعرفة، وبالنسبة إلى الله: إجابة سؤاله ورفع درجته^(١).

* * *

تحقيق الوحي وتأكيده

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۚ﴾ (١٦) ﴿فَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ عَلَىٰ مَا بَرَأَ ۚ﴾ (١٧) ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ﴾ (١٨) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ﴾ (١٩) ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۚ﴾ (٢٠) ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۚ﴾ (٢١) ﴿مَا رَآهُ الصَّبْرُ وَمَا يَمُوتُ ۚ﴾ (٢٢) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۚ﴾ (٢٣).

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۖ﴾ (١٦).

أي: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمدٍ ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبده محمدٍ ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل، وإيهام الموحى به للتفخيم، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ .

أي: ما كذب فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، فقد عرفه بقلبه، كما رآه ببصره.
وفي قراءة: (ما كذب) أي: صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته.
فالآيات تؤكد على تحقيق أمر الوحي، ولهذا استنكرت موقف المنكرين له بقوله تعالى:

﴿أَفْتَمْرُؤُهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ .

أي: أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة، من المراء وهو المجادلة.
وقرئ: (أفتمرونه) بفتح التاء وسكون الميم، مضارع مریت، أي: جحدت.
والمراد بما يرى: ما رآه عليه الصلاة والسلام من صورة جبريل عليه السلام،
وجيء بصيغة المضارع مع أن الرؤية قد مضت؛ إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد،
فقد نزل جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم منجماً.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ .

أي: ولقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته التي خلقه الله عليها مرة أخرى، والمراد من الجملة القسمية نفى الريبة والشك عن المرة الأخيرة التي كانت ليلة الإسراء والمعراج.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ .

أي: وهي شجرة في السماء السابعة، أو في السماء السادسة، إليها ينتهي علم كل عالم من المخلوقات، وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى، ويمكن أن يكون أصلها في السماء السادسة وأعلاها في السماء السابعة.

ووقع بيان سبب تسميتها سدرة المنتهى في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم [١٧٣]، ولفظه: لما أُسريَ برسول الله ﷺ قال: «انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرجُ من الأرض فيقبض منها». وقال النووي: سُميت سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحدٌ إلا رسول الله ﷺ.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥)﴾

أي: عند السدرة جنة المأوى التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة.
أو: الجنة التي تأوي إليها أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦)﴾

إذ يزيد الله في حسنها وزينتها وأنوارها تكريماً لرسول الله ﷺ.
والغشيان: بمعنى التغطية والستر.

وفي إبهام: (ما يغشى) من التفخيم ما لا يخفى، وفي بعض الأخبار تعيينُ هذا الغاشي؛ فعن الحسن: غشيتها نورُ ربِّ العزة جلَّ شأنه فاستنارت، ونحوه ما روي عن أبي هريرة: يغشاها نورُ الخلاق سبحانه^(١).

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧)﴾

أي: ما مال بصرُ رسول الله ﷺ وما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها إلى غيرها، فهو ثناء عظيمٌ من الله ﷻ على نبيه الكريم بأنه ما جاوز ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، فقد كان عليه الصلاة والسلام في غاية التمكن والأدب، وما أحسن قولَ القائل:

رَأَى جَنَّةَ الْمَأْوَى وَمَا فَوْقَهَا وَلَوْ رَأَى غَيْرُهُ مَا قَدَرَاهُ لَتَاهَا

أكده تعالى فقال:

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٨﴾ .

الدالة على قدرته تعالى وعظمته .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: رأى رفرفاً أخضر قد سدَّ الأفق . [رواه البخاري (٤٨٥٨)] .

ويوضح المراد ما أخرجه النسائي والحاكم: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أبصر نبيُّ الله جبريل عليه السلام على رفرِفٍ قد ملأ ما بين السماء والأرض .
والرِفْرِفُ: كلُّ ما فضل من شيء فعطف وثني، ويقال: رفرِف الطائرُ بجناحيه إذا بسطهما، ويحتمل أن يكون جبريل بسط أجنحته فصارت تُشبهُ الرِفْرِفَ ^(١) .

وقد اختلف السلف في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه، فذهبت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما إلى إنكارها، واختلف عن أبي ذر رضي الله عنه، وذهب جماعة إلى إثباتها، وحكى عبد الرزاق: عن مَعْمَرٍ، عن الحسن: أنه حلف أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه . وأخرج ابنُ خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها، وكان يشتدُّ عليه إذا ذكر له إنكارُ عائشة، وبه قال سائرُ أصحاب ابن عباس، وجزم به كعب الأحمار والزهري وصاحبه معمر وآخرون، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه .

ثم اختلفوا: هل رآه بعينه أم بقلبه؟ جاءت عن ابن عباس أخبارٌ مطلقة، وأخرى مقيدة، فيجبُ حمل مطلقها على مقيدها، من هذه الأخبار ما أخرجه مسلم [١٧٦]: من طريق أبي العالية، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ^(١١) أَفْتَمَرْتُهُ عَلَى مَا يَرَى ^(١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ^(١٣) [النجم] قال: رأى ربه بفؤاده مرتين . وله من طريق عطاء، عن ابن عباس قال: رآه بقلبه . وأصرحُ من ذلك ما أخرجه ابن مردويه: من طريق عطاء أيضاً، عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينه، إنما رآه بقلبه .

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يُحْمَلَ نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب.

ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما تخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين، وروى ابن خزيمة بإسناد قوي: عن أنس قال: رأى محمد ربه.

وعند مسلم [١٧٨]: من حديث أبي ذر: أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «نور أتى أراه» وبهذا يتبين مراد أبي ذر من ذكره النور، أي: النور حال بين رؤيته له ببصره^(١).

* * *

صرعى الأوهام والشهوات

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّدَّ وَالْعُرَىٰ ۖ (١٨) وَمَنْزِلَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ۖ (١٩) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۖ (٢٠) تِلْكَ إِذَا قُسِمَتْ ضِرْبٌ (٢١) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۖ (٢٢) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا فَتَنَىٰ (٢٣) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۖ (٢٤) وَكَرِهَ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ ۖ (٢٥) وَرَضَىٰ (٢٦) إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُنَ الْمَلَائِكَةُ نَسِيَةَ الْأُنثَىٰ ۖ (٢٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۖ (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ دِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ (٢٩)﴾

بعد أن أبرزت الآيات حقيقة الوحي، وأكدت تحقق وقوعه للنبي ﷺ في

الأرض وفي السماء، التفتت إلى المشركين تخاطبهم وهي تقبّح أصنامهم، وتزري بعقولهم التي زينت لهم عبادتها:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

اللات: كانت لثقيف في الطائف، وقيل: لقريش بنخلة على طريق الطائف. وعن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلبث سويق الحاج. [رواه البخاري (٤٨٥٩)]. أي: كان يجلس على صخرة يصنع عليها شراباً للحجاج، يخلط معه عدداً من الأشربة، ولما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمت، ولكنه دخل الصخرة. فعبدوها، وبنوا عليها بيتاً، وعمرو بن لحي هو الذي حمل العرب على عبادة الأصنام.

وأما العزى: فكانت شجرة عليها بناءٌ وأستار بنخلة، كان المشركون من قريش يعظمونها، ولهذا قال أبو سفيان يوم أحدٍ مفتخراً بها: لنا العزى ولا عزى لكم. بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وهو يقول:

يا عزى كفرانك لا سبحانك إني رأيتُ الله قد أهانك

وأما مناة: فكانت في جهة البحر مما يلي قديد بالمُشَلَّل بين مكة والمدينة، وكان الأوسُ والخزرجُ في الجاهلية يعظمونها، ويُهَلَّلون منها بالحج إلى الكعبة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمُشَلَّل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون. [رواه البخاري (٤٨٦١)].

أفرد سبحانه هذه الأصنام الثلاثة بالذكر لأنها كانت أشهر من غيرها.

﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾

أي: أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكر.

فلو اقتسمتم فيما بينكم مثل هذه القسمة لكانت قسمة جائرة باطلة، ولهذا قال تعالى عنها:

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۖ﴾

وهو ردُّ لقولهم الباطل: الملائكة بنات الله، كما مرَّ معنا.
وهوَن سبحانه من شأن هذه الأصنام فقال:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى ۖ﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما هي إلا أسماء مجردة، ليس لها مسميات، ما أنزل الله بها أي برهان تعلقون به.
﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي: ما يتبعون في عبادتها إلا الظن بأنها تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضرراً، وما تشتهي أنفسهم الأمانة بالسوء، فهم صرعى الأوهام والشهوات، ومن أجل هذه الأوهام والشهوات أعرضوا عن الهدى الذي جاءهم من ربهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ وهو الرسول المرسل بالحق المنير والحجة القاطعة.
ثم بينت الآيات ضعف الإنسان وأنه مخلوق محدود، لا يستطيع أن يحقق لنفسه كل ما يتمناه وتشتهيه:

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ۖ﴾

أي: بل ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه.
فليس للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الأصنام ونزول القرآن على رجل من القريتين عظيم ونحو ذلك.

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ (٢٥).

فهو المالك الحقيقي للآخرة والأولى، يتصرف فيهما سبحانه كما يشاء، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ﷻ.

﴿وَكَمْ مِنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ (٢٦).

﴿وَكَمْ مِنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ فالملائكة مع علو منزلتهم لا تنفع شفاعتهم شيئاً، وهذا تأكيد لكمال سلطانه تعالى على جميع المخلوقات الظاهرة والخفية، والأرضية والسمائية، فأمرُ الشفاعة منوطٌ بمشيئته وحده وبرضاه. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) [طه].

وعادتِ الآيات مرة ثانية تؤكدُ بطلان معتقدهم في أنَّ الملائكة إناثٌ وأنهم بناتُ الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ﴾ (٢٧).

كأن إنكارهم يوم القيامة هو الذي أوقعهم في هذا الضلال، فإنَّ إنكار الحقَّ يؤدي إلى الضلال.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٢٨).

فهم أسرى الضلالات والأوهام، والحق لا يُعرف إلا بالعلم، لا بالظنون والأوهام، فلا تحرص على هداهم، وأعرض عن الذي أعرض عن الحق:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩).

فإعراضهم عن القرآن الكريم هو الذي أوقعهم في الظنون والأوهام، وجعل

أنظارهم قاصرة على الحياة الدنيا، وهمهم متجهة إليها.

كبائر الذنوب

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنٰى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَحْتَنُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّئِمُ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَعْرِفَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَكَّلَ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٣﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: الدنيا منتهى علمهم، لا علم لهم غيرها، وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» [رواه الترمذي (٣٥٠٢)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ فلا تتعب نفسك في دعوتهم، وسلّم الأمر لله تعالى، فهو العليم بأحوال الفريقين، المصيرين على الضلال، والمتمسكين بالهدى والرشاد، ويوم القيامة يميز بينهم في المصير والجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنٰى ﴿٣١﴾﴾ .

وهي الجنة، فالجزاء من جنس العمل.

ومن صفات المحسنين: أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ولا يصرون على الصغائر:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وكبائر الإثم: هي الشرك وكل ما يؤدي إليه، فهو أكبرُ الآثام، وفي قراءة: (كبير). والفواحش: الزنى، وكل ذنب فيه حد. وأما اللمم: فهي الصغائر، التي لا يسلم منها إلا من عصمه الله وحفظه، والتي تكفرُ بالصلاة وغيرها من الحسنات، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْأَثَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلِيلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وحتى لا يئس أصحاب الكبائر من رحمته ومغفرته قال سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يغفر ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ هو أعلم بأحوالكم منكم من حين ابتداء خلقكم خلقاً إجمالياً ضمن خلق أبيكم آدم، وعندما كنتم في بطون أمهاتكم على أطوار مختلفة.

• التحذير من كبيرة العُجب:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ وإذا كان الأمر كذلك، فلا تشنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصي، وتمدحوها، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته وتوفيقه وهدايته، فهو العليم بمن اتقى جميع المعاصي من قبل أن يخلقكم.

ودلَّت الآية على أنَّ العُجبَ من الكبائر المذمومة، وهو استعظام العبادة، والركونُ إليها، والإعجابُ بها، ويدعو الإنسان إلى نسيان الذنوب وإهمالها، ويتولدُ الكبرُ من العُجبِ، ومنه تتولد الآفات الكثيرة، وقد يؤدي العُجبُ إلى الانقطاع عن العبادة، والفتور عن الطاعة، وهو ما حذرنا سبحانه منه فقال:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾﴾

أي: أعرّض عن اتباع الحق والثبات عليه.

﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾﴾

وأعطى عطاءً قليلاً ثم قطعه، من قولهم: حفر فأكدى، إذا بلغ كدية، وهي صخرة؛ فيقول: أكديت. ويترك العمل.

﴿أَعْنَدُهُ، عَلِمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴿٣٥﴾﴾

أي: أعند هذا الذي أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معرفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده، فهو يرى ذلك عياناً؟!.

والأمر ليس كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة بخلاً وشحاً، متأثراً بوساوس الشيطان، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولهذا كان النبي ﷺ أجود الناس، يعطي عطاءً من لا يخشى الفقر.

الانتفاع بسعي الآخرين

﴿أَمْ لَمْ يَنْتَ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ هِيمَ الَّذِي وَقَّ ﴿٣٧﴾ أَلَّا نَزُرَ وَزِرَةً وَدَّرَ ثَغْرًا ﴿٣٨﴾ وَأَنَّ لِّالنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُخْرَجُهُ الْحَزَاءُ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

﴿أَمْ لَمْ يَنْتَ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ هِيمَ الَّذِي وَقَّ ﴿٣٧﴾﴾

أي: وإبراهيم الذي أتم ما أمر به، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ

أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمْنَ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ١٢٤﴾.

﴿أَلَا نَزَرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ (٣٨).

فلا تحملُ نفسٌ وزرَ نفسٍ أخرى، ولا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره، قال تعالى: ﴿وَلَا نَزَرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وكما لا يؤخذ الإنسان بذنب غيره، كذلك لا يثاب بعمل غيره:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٣٩).

أي: إلا الذي سعى به عمله، وهذا بالعدل، وأما بالفضل فقد ينفعه الله بسعي غيره إذا كان مؤمناً، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلِّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ﴾ [الطور: ٢١].

قال ابن عطية: «والتحرير عندي في هذه الآية أنَّ ملائكة المعنى هو في اللام من قوله تعالى: ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾ فإذا حققت الشيء الذي حق الإنسان أن يقول فيه: لي كذا، لم تجد إلا سعيه، وما تمَّ بعدُ من رحمةٍ بشفاعَةٍ أو رعاية أبٍ صالحٍ أو ابنٍ صالحٍ، أو تضعيفٍ حسناتٍ أو تغمدٍ بفضلٍ ورحمةٍ، دون هذا كله»^(١).

قال في «الدر المختار»: «الأصل أنَّ كلَّ من أتى بعبادة ما، له جعلُ ثوابها لغيره، وإن نواها عند الفعل لنفسه، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فمؤولٌ، كما حققه الكمال، حيث قال: حاصله أنَّ الآية وإن كانت ظاهرة فيما قاله المعتزلة، لكن يُحتمل أنها منسوخة أو مقيدة، وقد ثبت ما يوجبُ المصيرَ إلى ذلك، وهو ما صحَّ عنه عليه السلام أنه ضحَّى بكبشين أملحين؛ أحدهما عنه، والآخر عن أمته، فقد روي هذا عن عدة من الصحابة، وانتشر مخرجه،

فلا يبعد أن يكون مشهوراً يجوزُ تقييدُ الكتاب به، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابنُ آدمَ انقطعَ عمله إلا من ثلاثٍ...» [مسلم (١٦٣١)] فلا يدل على انقطاع عمل غيره، وقوله أيضاً: «لا يصومُ أحدٌ عن أحدٍ، ولا يصلي أحدٌ عن أحدٍ» فهو في حق الخروج عن العهدة لا في حق الثواب^(١).

ومرَّ معنا الأمرُ بالدعاء للوالدين، والإخبارُ باستغفار الملائكة للمؤمنين. قال القرطبي: وكثيرٌ من الأحاديث يدل على أن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ خاصاً في السيئة، بدليل ما في صحيح مسلم [١٢٨]: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال ﷺ: إذا همَّ عبدي بحسنةٍ ولم يعملها، كتبْتُها له حسنةً، فإن عملها كتبْتُها له عشرَ حسناتٍ إلى سبعمئةٍ ضعفٍ، وإذا همَّ بسيئةٍ ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبْتُها سيئةً واحدةً»^(٢).

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾

أي: يعرض عليه، ويكشف له يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى﴾

أي: يُجزى على عمله الجزاء الأتم الأكمل.

(١) انظر: رد المحتار: ٢/٢٣٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١٧/١١٥.

إنذار وسجود

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَىٰ ٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَاحْيَا ٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ
الرَّوْعَى الدَّكْرَ وَالْأُنثَىٰ ٤٥﴾ مِنْ نُّطْمَةٍ إِذَا تُنْثَىٰ ٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْيَىٰ وَأَقْنَىٰ ٤٨﴾
وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَىٰ ٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ٥٠﴾ وَثَمُودًا مَّا أَقْنَىٰ ٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَلْبٍ إِنَّهُمْ
كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ ٥٢﴾ وَالْمُؤَنَّفِكَةَ أَهْوَىٰ ٥٣﴾ فَمَسَّهَا مَا عَشَىٰ ٥٤﴾ وَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكَ نَسْمَايَ ٥٥﴾
هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ٥٦﴾ أَرَفَتِ الْآرْقَةَ ٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨﴾ أَمِنَ هَذَا
الْحَدِيثَ فَعَجَبُونَ ٥٩﴾ وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ٦٢﴾ ﴿

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنَهَىٰ ٤٢﴾ .

إليه منتهى الخلق ورجوعهم يوم القيامة كما في قوله: ﴿وَالِإِلَٰهَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢].

وفي الآية تسليّة للنبي ﷺ فكأنه يقول له: لا تحزن؛ فإنّ إلى ربك المنتهى، فهو منتهى الآمال ومحطّ الرجاء، أو أنّ منتهى الأفكار إلى الله ﷻ، فلا تزال الأفكار تسير في بيداء حقائق الأشياء حتى إذا اتجهت إلى ذات الله وحقائق صفاته وقفت وانتهى سيرها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: مَنْ خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: مَنْ خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله وليتته» [رواه مسلم (١٣٤)].

ومما يدلّ على كمال قدرته تعالى وطلاقة إرادته، خلقه المخلوقات المتضادة ذات الأحوال والصفات المختلفة:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ٤٣﴾ .

أي: قضى أسباب الضحك والبكاء.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ٤٤ .

أي: خلق الموت والحياة.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ٤٥ مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ ٤٦ .

أي: من نطفة واحدة تصب في الرحم، وأشارت الآية إلى حقيقة علمية: أن الذكورة والأنوثة مرتبطة بماء الرجل، وإلى حقيقة ثانية: وهي تعيينها جنسه في أثناء عملية إمناء النطفة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ ٤٧﴾ .

أي: الخلق الثاني وهو البعث بعد الموت، وقرئ: (النشأة) بالمد.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ٤٨﴾ .

أي: أغنى الناس، وأعطاهم القنية، وهو ما يقتنونه ويدّخرونه.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَىٰ ٤٩﴾ .

أي: هو رب معبودهم الذي يعظمونه، وهو نجم كانت خزاعة تعبدّه وتعظمه.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ٥٠﴾ .

وهم قوم هود، وكانوا بالأحقاف.

﴿وَتَمُودًا إِذْ أَبَقَىٰ ٥١﴾ .

فما أبقي منهم أحداً. وقرئ: (وتمود) بتنوين وبغير تنوين. وديار ثمود هي الحجر، منها مدائن صالح حيث آثارهم ما زالت قائمة تدل على ما حلّ بهم.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى﴾ (٥٢).

من عاد واثمود.

﴿وَالْمُؤَنَفَكَةُ أَهْوَى﴾ (٥٣).

وهي قرى قوم لوط التي انتفكت بأهلها؛ أي: انقلبت.

﴿فَعَشْنَهَا مَا عَشَى﴾ (٥٤).

وهو تهويلٌ وتعظيمٌ لما صُبَّ عليها من العذاب.

﴿فَيَأْتِيءَ إِلَّا رَيْكَ تَتَحَارَى﴾ (٥٥).

أيها المخاطبُ تشكك بما أولاك من النعم أو بما كفاك من النقم!

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ (٥٦).

أي: هذا القرآن الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ نذيرٌ من الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم.

﴿أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ﴾ (٥٧).

أي: قربت الموصوفة بالقرب.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٥٨).

أي: إذا وقعت لا يدفعها من دون الله أحدٌ، ولا يطلع على علمها سواه.

﴿أَفَمَن هَذَا الْحَدِيثِ تَعْبُونَ﴾ (٥٩).

أي: أفمن هذا القرآن تعجبون إنكاراً؟

﴿وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾.

﴿وَتَضَحَّكُونَ﴾ استهزاء.

﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ ولا تبكون على ما فرطتم في شأنه.

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان»: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ...﴾ بكى أصحابُ الصُّفَّةِ حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمعَ رسولُ الله ﷺ خنينهم بكى معهم فبكينا ببكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يلجُ النارَ مَنْ بكى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تعالى، ولا يدخلُ الجنةَ مُصِرًّا على معصيته، ولو لم تُذنبُوا لجاءَ الله تعالى بقومٍ يذنبون، فيستغفرون فيُغْفَرُ لهم».

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن أبي شيبَةَ وهناد وغيرهم: عن صالح أبي الخليل قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ ما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسَّم^(١).

﴿وَأَنْتُمْ سَاجِدُونَ﴾.

أي: وأنتم لاهون مستكبرون.

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾.

ويبدو أن المشركين أخذوا بجلال التنزيل وقوة الإنذار، فمرَّت بهم فترةٌ خشوع وخضوع فسجدوا لله، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. [رواه البخاري (٤٨٦٢)].

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم)، فسجد رسول الله ﷺ، وسجد مَنْ خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من ترابٍ، فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتلَ كافراً؛ وهو أُميَّة بن حَلَفٍ. [رواه البخاري (٤٨٦٣)].
وهذه آية سجدة تلاوة عند أكثر العلماء.



تفسير سورة القمر الإنذار بالساعة في سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
انشقاق القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ ۚ﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ
مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۚ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذَارُ ۚ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ
نُكْرٍ ۚ حُسْعًا أَنْصَرُّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ حَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۚ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكُفْرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ﴾ .

بدأ الله سبحانه سورة القمر بقوله :

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ﴾ .

وهو إخبار عن اقتراب يوم القيامة، وإخبار عن انشقاق القمر .

والساعة جزءٌ من أجزاء الزمان عبَّر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها، أو لأنها تقوم في آخر ساعةٍ من ساعات الدنيا، أو لأنها ساعةٌ خفيفة يحدث فيها أمر عظيم .

ووقع انشقاق القمر في زمان رسول الله ﷺ، وورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد مر معنا قول ابن مسعود رضي الله عنه: خمسٌ قد مضين: الروم والدخان والزرأ والبطشة والقمر.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أنَّ انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

فعن أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما. [رواه البخاري (٣٨٦٨)].

والمراد من قوله: (أهل مكة) بعضهم، ولم يعاجل الله المكذبين بالعذاب كما حدث للأمم المكذبة السابقة، لأن إدراكها لم يكن عاماً، وقد بُعث عليه الصلاة والسلام رحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال].

والنبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، بُعث في الزمن القريب من الساعة، ولهذا كان ﷺ يقول: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين» ويشير بأصبعيه فيمدهما. [رواه البخاري (٦٥٠٣)].

ولا يعترض بما مضى من بعثته عليه الصلاة والسلام وما يمضي، فإن ذلك قليل بالنسبة لعمر الكون، ولما مضى منه قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، ودلَّ الحديث الشريف على أن نسبة تقدم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الإصبعين على الأخرى.

ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] ونحو ذلك، لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معيناً^(١).

ثم إنَّ القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعاته السماء، بل بقيتا فيها متباعدين تباعداً ما لحظة ثم اتصلتا.

وقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعد، وهو منتظر، أي: اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وإن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره... قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليلية^(١).

قال ابن الجوزي رحمته الله: روى حديث الانشقاق جماعة؛ منهم: عبد الله بن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعلى هذا جميع المفسرين إلا أن قوماً شذوا فقالوا: سينشق يوم القيامة، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع^(٢).

وأكد وقوع انشقاق القمر وصف الآيات عناد المكذبين وإعراضهم:

﴿وَأِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۖ﴾

أي: إن يروا دليلاً وحجة ومعجزة لا ينقادوا بل يعرضوا ويقولوا: هذا سحر باطل مضمحل ذاهب، من قولهم: مر الشيء واستمر؛ إذا ذهب واضمحل.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۖ﴾

أي: وكل أمر واقع ينتهي إلى غاية يستقر عليها لا محالة، ومن جملتها أمر النبي عليه الصلاة والسلام، فسيصير إلى غاية يتبين عندها صدقه وعلو شأنه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۖ﴾

أي: ولقد جاءهم من أخبار الأمم السابقة الهالكة ما فيه واعظ لهم عن العناد والتمادي في التكذيب والفساد.

(١) تفسير القرطبي: ١٢٦/١٧.

(٢) زاد المسير: ٨٨/٨.

﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْتُذُّرُ﴾.

وفيما جاءهم حكمة بالغة غاية الأحكام والإتقان، ومع ذلك أعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها، فهو استفهام في معنى التوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالْتُذُّرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٌ﴾.

أي: أعرض عنهم، ولا تبال بهم، فإنهم يُدعون يوم القيامة إلى أمر فظيع عظيم. وقرئ: (نكر) بإسكان الكاف.

وتأكيداً لفظاعته، وصفت الآية أحوالهم عند خروجهم من القبور:

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾.

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أي: خُشَعًا أبصارهم عند خروجهم من القبور، وأضاف الخشوع إلى الأبصار، لأنَّ أثر العزِّ والذلَّ يتبين في ناظر الإنسان. ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ أي: يخرجون من القبور بعد أن يسمعوا الداعي فيقصده كالجراد المنتشر، لأنَّ الجراد له جهة يقصدها، وأما عند الخروج من القبور فيخرجون فرعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض كالفراش المبعوث^(١).

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين مادّي أعناقهم إليه. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ أي: هذا يومٌ صعبٌ شديد كما قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

* * *

المنتصر بالله تعالى

﴿كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَقَدَا رَبُّهُ أَنْ مَعْلُوبٌ فَأَنْصَرَ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَدُسِّرَ ﴿١٣﴾ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا حَرَآءَ لِمَنْ كَانَ كَفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ وَنُذِرٍ ﴿١٦﴾﴾ .

ثم شرعت الآيات تذكر بإجمال أحوال بعض الأمم المعاندة التي لم تنزجر بالأنبياء الموجبة تقريراً لفحوى قوله: ﴿فَمَا تَعْنِ النَّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، وبدأت بقوم نوح عليه السلام:

﴿كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ .

أي: كذبوا نوحاً عليه السلام تكذيباً إثر تكذيب، ولم يقتصروا على التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون، وإنه أصرَّ على التبليغ، مع أنه زُجر عنه بأنواع كثيرة من الأذى، أو ازدجرته الجن وتخبطته.

ووصفه عليه السلام بالعبودية مع الإضافة إلى نون العظمة، تفخيماً له، ورفعاً لمحلّه، وتقييحاً لمكذبيه.

واستنصر عليه السلام بالله بعد طول صبر ومعاناة على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً:

﴿فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ مَعْلُوبٌ فَأَنْصَرَ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: مغلوب من جهة قومي، فانتقم لي منهم. وقرئ: (إني) بالكسر.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثَمَرٍ ﴿١١﴾﴾ .

مطر مُنصب، وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها.

ففي الكلام استعارة تمثيلية بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب الأنهار. وفي قراءة: (فَفَتَحْنَا) بالتشديد لكثرة الأبواب.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة. وأصله: فَجَّرْنَا عيون الأرض، فغير إلى التمييز للمبالغة.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمرٍ كائن لا محالة، قُدِّرَهُ الله تعالى، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾.

أي: وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح عريضة، ومسامير شُدَّت بها.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾.

أي: تجري - بمرأى منا، وبحفظنا وكلاءتنا - في ذلك الماء، جزاء لنوح عليه السلام، فإنه كان نعمة أنعم الله بها على قومه فكفروها. أو جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

أي: جعلنا هذه الواقعة أو السفينة عظة وعبرة يُعتبر بها، فهل من متعظ ومعتبر. وأصله: (مذكر) مفتعل من الذكر، فقلبت التاء دالاً تخفيفاً على الألسنة، وأُدغمت الدال فيها.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾.

وهو استفهام تعظيم وتعجيب، ولهذا كرر في المواضع التي تستدعي

التعظيم والتعجيب، والنذر: جمع نذير بمعنى الإنذار.

* * *

تيسر القرآن للذكر

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذَرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَرَى النَّاسَ كَانَتْهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنفَعٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذَرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَشْرَكَ مِنَّا وَاحِدًا نُدْعِيهِ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَبَّعُمُونَ غَدَاً مِّنَ الْكُذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّافَةِ وَنَنَّهُ لَهُمْ فَأَرْقَطَهُمْ وَأَصْطَبِرِ ﴿٢٧﴾ وَنَبْتَنَّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمَةُ يَبْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْضَرٌّ ﴿٢٨﴾ مَادُوا صَاحِبَهُمْ فَنَاعَلَى مَعَرٍ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذَرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحَظِيرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا مَالَ لُوطٍ حَبَتْهُمْ بِسْحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَدَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فطمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَدَايَ وَنَذَرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بَكْرَةٌ عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَدَايَ وَنَذَرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ مَالُ فِرْعَوْنَ النُّذُرِ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الرُّبْرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرِ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾

أي: سهّلنا القرآن للذكر والاتعاظ، فهل من متذكر متعظ؟!.

وفيه حثٌّ على تدبّر القرآن الكريم، والاعتبار بما فيه من عبرٍ ومواعظ وحكم وأحكام، وأن من أراد ذلك فإنه يُعان عليه.

وهو قَسَمٌ أوردته الله في أواخر القصص الأربع المذكورة في السورة، تنبيهاً على أن كل قصة كافيةٌ في الازدجار، ومع ذلك لم ينزجر المشركون، ولم يتعظوا، وأول هذه القصص قصة قوم نوح التي سبق ذكرها، وثانيها قصة قوم عاد:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (١٨).

أي: كذبت نبيها هوداً عليه السلام، فكيف كان عذابي ونذري التي أنزلتها بهم؟! كأنه يقول: فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاراتي لهم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ (١٩).

أي: إنا أرسلنا عليهم ريحاً باردة أو شديدة الصوت في يوم شؤم مستمر عليهم حتى أهلكهم، أو مستمر عليهم نحسه لاتصال عذابهم الدنيوي بالآخروي، ولم يكن يوماً واحداً، وإنما استمر الشؤم عليهم في كل أيام العذاب، كما قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَّحْلٍ خَاوِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَّحْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾ (٢٠).

أي: تنزع الناس من أكنانهم وملاذاتهم كأنهم أصول نخل منقلع عن مغارسه، ساقط على الأرض، ويبدو أن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٢١).

وهو تهويل لهما، وتعجيب من أمرهما، بعد بيانهما، فلا تكرار. ثم ختم تعالى قصة عاد كما ختم قصة نوح بقوله:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾

والقصة الثالثة: قصة ثمود:

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾

فإن تكذيب أحدهم وهو نبيهم صالح ﷺ تكذيب للكل.

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَبِّعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَاحِدًا نَبِّعُهُ﴾ كأن كونه واحداً من جنسهم يمنعهم من اتباعه، وهم أمة كبيرة.

﴿إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: إنا إذا اتبعناه لفي ضلال ونيران تتسعر في قلوبنا، وهذا يدل على شدة عتوهم واستكبارهم.

﴿أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أَلَمْ لَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: ألقى عليه الوحي وفينا من هو أحق منه بذلك؟! فالحسد هو أيضاً من أسباب تمسكهم بالضلال، وجعلهم يصرون على تكذيب رسولهم.

﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، بل هو كذاب، يريد أن يترفع علينا، ويتعظم من غير استحقاق. والأشر: المرح والتجبر والنشاط.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشَرُ ﴿٢٦﴾﴾

أي: سيعلمون عند نزول العذاب بهم من هو الكذاب الأشر.

وفي قراءة: (ستعلمون) بالتاء على أنه من قول صالح ﷺ لهم على الخطاب.

وقوله: (غداً) على التقريب على عادة الناس في تقريب العواقب.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِئْتَهُ لَّهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرُ ۖ﴾

أي: إنا مخرجو الناقة من الصخرة حسبما سألوا امتحاناً لهم، فانتظرهم، وأبصر ما يصنعون، واصبر على أذاهم.

﴿وَبَيَّنَّهْمُ أَنْ الْمَاءَ فَسَمُهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ۖ﴾

أي: وأخبرهم أن الماء مقسوم، لها يوم، ولهم يوم، كل شرب يحضره صاحبه في نوبته، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۖ﴾

فنادوا صاحبهم، وهو أشقاهم، فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، فعقر الناقة. ومعنى تعاطى: تناول الفعل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيَّحَةً وَجِدَّةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُظِيرِ ۖ﴾

أي: فصاروا كالخشيش اليابس، الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته، وقرئ بفتح الظاء.

وعقبت الآيات على القصة بالدعوة إلى الاعتبار والاتعاظ:

﴿وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۖ﴾

والقصة الرابعة: قصة قوم لوط:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَحْنُ لَهُمْ بِسَحَرٍ ۖ﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة.

﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ بَجَيْنَهُمْ إِسْحَر﴾ في آخر الليل .

﴿نِعْمَةٌ مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٣٥) .

أي: جعلنا نجاتهم نعمة منّا عليهم كذلك نجزي من شكر نعمتنا فلا نعذبه عذاب الكافرين .

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (٣٦) .

أي: ولقد أنذرهم لوط بطشتنا وعذابنا ، فشكّوا بالإنذار ولم يصدّقوا وكذّبوا .

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ (٣٧) .

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: ولقد قصدوا الفجور بهم فطمسنا أبصارهم وأعمينا عيونهم .

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ أي: فطمس الأبصار من جملة ما أنذروه من العذاب إذ كان مقدمة العذاب .

﴿وَلَقَدْ صَبَحَهمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (٣٨) .

أي: عذاب ثابت لا يفارقهم أنزل عليهم في أول الصبح .
ويقال لهم توبيخاً :

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ﴾ (٣٩) .

وكذلك عقب الآيات على هذه القصة بالدعوة إلى الانعاز والاعتبار كما فعلت بالقصص التي سبقتها :

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝٤٠﴾

والقصة الخامسة: قصة موسى وفرعون:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذَرُ ۝٤١﴾

أي: والله لقد جاءهم الإنذارات.

وهذا التوكيد القسمي في أول قصتهم لإظهار عِظَم ما في الإنذارات من معجزات، ومع ذلك:

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ۝٤٢﴾

أي: أخذ غالب لا يعجزه شيء، عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ.

ثم أقبلت الآيات على مشركي مكة توبخهم على عنادهم وإعراضهم:

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ۝٤٣ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٤﴾

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ أي: أكفاركم يا مشركي مكة أقوى وأشد من أولائكم الذين أحللت بهم نقمتي وعذابي؟!

وهو استفهام إنكار بمعنى ليسوا بأقوى منهم.

﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم أنزل لكم في الكتب أن من كفر منكم فهو في أمان من العذاب، فلذلك تصرُّون على الكفر والضلال؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۝٤٥﴾

أي: نحن يدٌ واحدة لا نرام ولا نضام، منتصرون على من عادانا.

ورَدَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ٤٥﴾.

أي: سيهزمُ جمعهم، ويولون الأدبار، وحدث ذلك يوم بدرٍ.
وقد نزلت الآية في مكة قبل الهجرة حتى إنَّ عمر رضي الله عنه قال: لما نزلت:
﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ جعلتُ أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يومُ بدرٍ رأيتُ
النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع وهو يقول: «سيُهْزَمُ الجمع» [رواه الطبري (١٠٨/٢٧)].
وقد أخرج مسلم عن ابن عباس: حدثني عمر ببعضه.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ٤٦﴾.

أي: ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد عقابهم الفظيع، والساعة
أشدُّ وأمرُّ مذاقاً من عذاب الدنيا، فهم في عذاب مستمر في الدنيا والآخرة.
وقد نزلت هذه الآية أيضاً في مكة؛ فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد
أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى
وَأَمَرُّ﴾. [رواه البخاري (٤٨٧٦)].

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٤٧﴾.

أي: إنهم في ضلال وهلاك في الدنيا، ونيران مسعرة في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ٤٨﴾.

أي: يوم يجرون في النار على وجوههم، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً: ذوقوا
حرَّ جهنم.

إثبات القدر

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ ۝٥١ وَكُلَّ شَيْءٍ عَلَّمُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُنْتَظِرٍ ۝٥٣ إِنَّ لِلنَّفِثِينَ فِي جَنَّتٍ وَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ۝٥٥﴾ .

ثم قررت الآيات في ختام السورة كمال علمه تعالى وقدرته وحكمته :

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ .

أي: إنا خلقنا كل شيء مقدراً مرتباً كما سبق في علمه تعالى وحكمته، فهو كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] .

فلكل شيء قدر يحدد حقيقته وصفته وزمانه وارتباطه بما حوله .

وقد يكون المعنى المراد: إنا خلقنا كل شيء بتقدير سابق معلوم ومكتوب في لوح المقادير .

قال ابن كثير رحمته الله: يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها .

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون الرسول ﷺ في القدر فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ۝٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ . [رواه مسلم (٢٦٥٦)] .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس» [رواه مسلم (٢٦٥٥)] .

والعجز: ضد الكيس، وهو النشاط والحدق في الأمور .

إن الآية الكريمة تعطينا مسألة من أهم مسائل علم التوحيد، وهي أن كل مقدّر بقدر حادث ممكن، لا بد له في وجوده واختصاصه بقدره الذي هو عليه،

من فاعل موجود واجب الوجود، أعطاه وجوده، وخصصه بالقدر الذي هو عليه، وما من شيء في العالم إلا وهو ذو قدر معين في ذاته ومكانه وزمانه وصفاته، من صَغَرٍ وكَبَرٍ، وطول وقصر، وخفة وثقل، ونور وظلمة، ولطافة وكثافة، وحركة وسكون... وما يستتبع هذا من أشكال وألوان، وطعوم وروائح، وصعود ونزول، وأمكنة وجهات، وقُرب وبعد، إلى سائر خصائص المادة، فكل ذلك تنطق الآية الكريمة بأنه مختص بالمخلوقات، يتعالى عن الانصاف بشيء منه ربها وخالقها. فإن كل ذي قدر مخلوق.

والخلق في اللغة يدور على معنى التقدير والإيجاد على قدر معين، ومراً معنا أن فرعون لما سأل موسى ﷺ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ [طه: ٤٩] أجابه ﷺ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

فذو القدر المخصوص ينادي على نفسه بأنه حادثٌ ممكن مخلوق، وصدق الله العظيم القائل: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ٥٠.

أي: وما أمرنا لشيءٍ نريد تكوينه إلا أن نقول له: كن؛ فيكون على قدر ما يلمح أحدكم ببصره، فأمره تعالى مرة واحدة لا يتكرر، مما يدل على سرعة نفاذ أمره، وتحقيق مراده.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَذْكَرٍ﴾ ٥١.

أي: ولقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر فهل من مذكّر؟!

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ٥٢.

أي: وكل شيء من خير وشر فعلوه مكتوب في كتب الحفظ، وفي لوح القدر، سواء كان صغيراً أم كبيراً.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: مكتوب.

ثم تَوَجَّت السورة خاتمتها ببيان مصير المتقين، في مقابل ما ذكرت من مصير المجرمين:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: في أنهار.

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: في مكان مرضي، أو حق لا لغو فيه ولا تأثيم، عند من تعالى أمره في الملك والاقترار، فلا شيء إلا تحت ملكه وقدرته. وقرئ: (مقاعد).
فأيُّ منزلة أكرم من تلك المنزلة، وأجمع للغبطة كلها، والسعادة بأسرها.
قال جعفر الصادق عليه السلام: وصف الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق^(١). أسأل الله أن يجعلنا منهم.





تفسير سورة الرحمن التَّذَكُّيرُ بِالنَّعْمِ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أعظم النعم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢ ﴿حَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ ٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ ٨ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ ﴿فِيهَا
فَنَكِهَهُ وَالنَّحْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ١٢ وَالزَّيْتَانُ ١٣﴾ .

بدأ الله تعالى السورة باسم من أسمائه الحسنى الدال على كماله ورحمته وإحسانه :

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن فضله ورحمته بخلقه بأنه أنزل عليهم القرآن،
ويسر تلاوته، وتدبر آياته، كما مر معنا في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ١٧﴾ .

فالقرآن الكريم أعظم النعم شأنًا، وأرفعها مكانًا، فهو مدار السعادة الدينية
والدنيوية، وتعلّمه و تعليمه من أعظم النعم، كما في الحديث الشريف: «خيركم
مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» [رواه البخاري (٥٠٢٧)].

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾.

أي: علّمه بيان ما في نفسه، وفهم بيان غيره، وهو الأساس الذي يقوم عليه تعليم القرآن، وفي تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان إشارة إلى أن معنى الإنسان لا يتحقق فيه إلا بتعلم القرآن والعمل به.

ومن نعم الله على الإنسان أن نظم له شأن الزمان:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾.

أي: يجريان بحسبان مقدرٍ محكم دون أدنى خلل، بحيث تنتظم به أمور الكائنات، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

ثم أخبرت الآيات عن كمال تقديره تعالى وتديره وإتقانه وإحكامه:

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾.

أي: والنجم الذي في السماء، والشجر النبات في الأرض، خاضعان لحكمه تعالى وأمره، منقادان لما يريد بهما، فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

وقد يكون المراد بالنجم النبات الذي ينجم ويظهر من الأرض ولا ساق له، وبالشجر النبات الذي له ساق.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خلقها مرفوعة ابتداء.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: وشرع العدل، وأمر به، إذ به يستقيم أمر العالم، وتقوم السماوات والأرض على أبلغ نظام وأتقن إحكام.

فالمراد بالعدل الإحكام والإتقان وإعطاء كل شيء خلقه، ووضعه في موضعه المناسب له في الزمان والمكان.

أو المراد: وَوَضَعَ فِي الْأَرْضِ الشَّرِيعَةَ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الْعَدْلِ، فالميزان على هذا المعنى هو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويقوي هذا المعنى قوله بعد ذلك:

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

أي: لئلا تطغوا فيه. والطغيان: مجاوزة الحد إلى الجور والظلم، فالله وضع الميزان، وأمركم ألا تطغوا فيه.

ولا شك أن ذلك من النعم الجليلة، التي تفضل بها الله على عباده، وأمرهم بها أمر إلزام:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اعدلوا في جميع أقوالكم وأفعالكم، وحذّركم من الإخلال فيه.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: ولا تنقصوه، فإن من حقه أن يسوّى، إذ هو المقصود من وضعه، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتأكيداً للأمر باستعماله والثبات عليه.

وكما نظم تعالى الزمان وشرع العدل وحرّم الظلم، نظم أيضاً المكان، وجعله مناسباً لمخلوقاته:

﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ (١٠).

أي: والأرض خلقها وأوجدها ليعيش عليها الإنس والجن، فهي مُسَخَّرَةٌ وممهدة لهم، جعل فيها كل ما يحتاجون إليه في حياتهم:

﴿فِيهَا فَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ (١١).

أي: فيها أنواع كثيرة من الفاكهة والنخل ذات الأوعية التي يكون فيها الثمر، فثمر النخل يكون في غلاف قبل أن ينشق عنه، وَخُصَّ النخل بالذكر من بين سائر الشجر لأنه أعظمها وأكثرها نفعاً.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ (١٢).

أي: كالحنطة والشعير ونحوها ذات الورق اليابس، وهو التبن علف الأنعام، والريحان الذي يشم أو ثمرته أو الرزق، والأصل: (وذو الريحان) فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أو فيها الريحان، وفي قراءة: (والحبُّ ذا العصف والريحان) أي: وخلق الحب، أو أخص الحب.

* * *

توبيخ وإنكار

﴿فَإَيَّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣).

وبعد أن أجملت الآيات ذكر أعظم النعم وأجلّها، وجهت الخطاب إلى الكفار الجاحدين توبيخهم على كفرهم وتكذيبهم:

﴿فَإَيَّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١٣).

أي: فإذا كان الأمر كما فُصِّلَ وذكر، فبأي فرد من أفراد مالكمما ومريكمما

بتلك النعم تكذبان؟! مع أن كل نعمة منها ناطقة بالحق شاهدة بالصدق.

والآلاء: النعم، واحدها: إلي، وألي، وإلي، وألي، أربع لغات^(١).

والخطاب للأنام، وهما الإنس والجن كما مر معنا، وسيأتي التصريح بهما في قوله: ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

والفاء: لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما ذكر من النعم العظيمة الموجبة للإيمان والشكر حتماً، وأكد النكير، وشدد التوبيخ، إضافة ضميرهم إلى الاسم الكريم (الرب) المنبئ عن كمال سلطانه وترتيبه سبحانه، وتكذيبهم بآلائه كفرهم بها، وإعراضهم عن طاعته وعبادته، وإصرارهم على تكذيب رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا يُندب للمؤمن أن يعلن مخالفته للمشركين الجاحدين ويقول كلما سمع هذه الآية: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد.

ففي «جامع الترمذي» [٣٢٩١]: عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنثُ كلِّما أُتيتُ على قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد».

* * *

تفصيل النعم

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَحَّارِ ۖ وَحَقَّقَ الْجَعَانَ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ۚ فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۚ فَيَأْتِيْءُ الْآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ﴾

ثم شرعت الآيات في تفصيل ما أجملت من النعم تأكيداً لتوبيخ الكافرين الجاحدين لها:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝﴾.

أي: خلق الله آدم من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حمأً مسنوناً، ثم صلصلاً كالْفَخَّارِ، وهو الطين اليابس الذي يصلصل إذا ما نُقِرَ.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ۝﴾.

الجان: أبو الجن، أو هو اسم جنس شامل للجن كلهم، خلقهم الله من لهب خالص لا دخان فيه، أو من اللهب المختلط بسواد أو خضرة أو صفرة، من مَرَجِ الشَّيْءِ إذا اضطرب واختلط.

ففي الحديث: عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» [رواه مسلم (٢٩٩٦)].

﴿فَيَايَا آءَالَءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾.

أي: تكذبان بما أفاض عليكم في تضاعيف خلقكما من النعم، أو بأي قدرة ربكما تكذبان، فَإِنَّ لَهُ فِي كُلِّ خَلْقٍ بَعْدَ خَلْقٍ قُدْرَةٌ بَعْدَ قُدْرَةٍ، فتكرير الآية للتأكيد والمبالغة في التقرير والتذكير، وإقامة الحجة عليهم.

فالله عَدَدٌ في هذه السورة نعماءه، وذَكَرَ خلقه بآلائه، ثم أَتبع كل خَلَّةٍ وصفها، ونعمة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبههم على النعم، ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: أَلَمْ تَكُنْ فَقِيرًا فَأَغْنَيْتُكَ، أَفَتُنْكِرُ هَذَا؟! أَلَمْ تَكُنْ خَامِلًا فَعَزَّزْتُكَ، أَفَتُنْكِرُ هَذَا؟! أَلَمْ تَكُنْ رَاجِلًا فَحَمَلْتُكَ، أَفَتُنْكِرُ هَذَا؟!... والتكرير حسنٌ في مثل هذا.

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة وتأکید للحجة^(١).

وهي طريقة من الفصاحة معروفة موجودة في كتاب الله في مواضع، وفي

حديث النبي ﷺ، كما أنها شائعة في كلام العرب.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (١٧).

أي: هو ربُّ مشرقِي الصيف والشتاء ومغربيهما.
ولا شك أن في ذلك مصالح كثيرة للخلق، ولهذا عَقِبَ عليها بقوله:

﴿فَإِذَا آتَاكُمُ النَّجْمُ فَكُنَّ صَاقِبَاتٍ لِلدِّعَارِ﴾ (١٨).

* * *

حاجز بين البحرين

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٠) ﴿فَإِذَا آتَاكُمُ النَّجْمُ فَكُنَّ صَاقِبَاتٍ لِلدِّعَارِ﴾ (٢١) ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) ﴿فَإِذَا آتَاكُمُ النَّجْمُ فَكُنَّ صَاقِبَاتٍ لِلدِّعَارِ﴾ (٢٣).

ومن نعمه وآثار قدرته:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ (١٩).

أي: أرسلهما وجعلهما يلتقيان، والمراد بهما: البحر المالح والبحر العذب، لقوله في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (٥٣).

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ (٢٠).

أي: بينهما حاجزٌ من قدرته تعالى، لا يبغي أحدهما على الآخر بالتمازجة وإبطال الخاصية.

فأكثر المياه العذبة تذهب في نهاية رحلتها الأرضية إلى البحار، وتلتقي عند مصباتها بالمياه المالحة، ثم تنفصل عنها بتقدير الله تعالى بواسطة الحرارة والتبخر والتكاثف، وتحملها الرياح إلى حيث يشاء سبحانه أن تنزل مرة ثانية، فما أعظم قدرة الله الذي جعل التوازن بين المياه العذبة والمياه المالحة مستمراً، وهو نعمة من نعمه العظمى سبحانه؛ لأنه سبب من أسباب استمرار الحياة على الأرض، ولهذا عقب أيضاً على هذه النعمة بقوله:

﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢١).

ومن نعمه سبحانه في البحار أيضاً:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (٢٢).

كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِتَبْنَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

فاللؤلؤ والمرجان هما الحلية التي تستخرج من سواحل البحار قرب مصبات الأنهار.

﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٣) وَلَهُ الْخَوَارِجُ الْمُنَشَّاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴿٢٤﴾.

وهي السفن الكبيرة اللواتي أنشئت في البحر بسبب ضخامتها فيما يسمى بالأحواض الجافة، فهي بسبب ضخامتها تبدو كالجبال الشاهقة، فهي له عَلَمٌ لا تخرج عن ملكه عَلَمٌ وعن قبضة قدرته.

﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٥).

ففي تركيب السفن وجريها في البحر أسباب كثيرة لنعم عظيمة، أبدعها

وقدَّرها العليم الحكيم ﷻ.

* * *

فناء المخلوقات وضعفها

﴿كُلُّ مِّنْ عَلَيْهَا قَانٍ ﴿٣٦﴾ وَبَعَثَ فِيهِ رَجُلًا ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾ يَسْأَلُهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٣٩﴾ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٠﴾ سَمِعْتُمْ لَكُمْ آيَةَ الْفَقْلِانِ ﴿٤١﴾ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٢﴾ يَمَغْشِرَ الْبَيْنَ وَالْإِيسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٤٣﴾ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنَ نَّارٍ وَنَحَاسٌ فَلَا تَنْصَرُونَ ﴿٤٥﴾ فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿كُلُّ مِّنْ عَلَيْهَا قَانٍ ﴿٣٦﴾﴾

أي: كل من على الأرض هالك زائل، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿وَبَعَثَ فِيهِ رَجُلًا ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾﴾

ويبقى الله ذو الغنى المطلق والفضل التام الذي يجعله المؤمنون عن التشبه بخلقه، والمكرم لأنبيائه وأوليائه بلطفه وإحسانه.

وفي «جامع الترمذي» [٣٥٢٤]: عن أنس رضي الله عنه قال: «الطُّوبَى: يا ذا الجلال والإكرام» أي: الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

﴿فَيَا أَيُّهَا آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

ففي فناء الخلق وبقائه تعالى وحده إيذاناً بأنه تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه، فيكرمهم بالحياة الأبدية، ويشيهم بالنعيم المقيم.

«فَيَصْبِحُ صَبِيحَةً يَسْمَعُهُ مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ» [رواه البخاري (١٣٣٨)]؛ لأنهما كالثقل على وجه الأرض، أو لأنهما مثقلان بالتكليف والمسؤولية.

﴿فَيَأَيَّاءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)﴾.

فالتكليف فيه تشريف وتفضُّل وإحسان.

ويقال لهم يوم الحساب والجزاء:

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣)﴾.

﴿يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، وهذا الأمر لإظهار عجزهم وضعفهم. ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تقدرُونَ على النفوذ إلا بقوة وقهر، وأتى لكم ذلك؟! فأنتم عن ذلك بمعزل.

﴿فَيَأَيَّاءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤)﴾.

فقد نبهكم وحذركم وأندركم.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْصَرَانِ (٣٥)﴾.

أي: يرسل عليكمَا لهبٌ من نار ونحاس، وهو الصِّفَر المذاب، وقيل: الدخان، فلا تمتنعان. وقرئ: (ونحاس) بالجر عطفاً على نار.

﴿فَيَأَيَّاءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾.

فإن التهديد لطف، والتمييز بين المطيع والعاصي من النعم والآلاء.

التذكير بمصير الكافرين ومصير المؤمنين

﴿وَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٣٨﴾ قَبْرُكُمْ لَا يَدْخُلُ عَنْكُمْ فِيهِمْ أَشَدُّ وَلَا خِفَّةٌ ﴿٣٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤٠﴾ تَعْرَفُونَ الْمُنْعِمِينَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ لَكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِمَا رَزَقْتُم مِّن مَّاءٍ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ كَانَ مَقَامُ رَبِّكُمْ عَنَّا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤٧﴾ دُونَ الْغَابِ ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ صُفْحَةٍ مَّرْجَانٌ ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٥٣﴾ تَتَخَبَّحُونَ عَلَىٰ قُرُونٍ مَّا تَدْرِي ﴿٥٤﴾ بِمَنْ يَنْصَرِفُ ﴿٥٥﴾ وَسَيُجَنَّبُكَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٥٧﴾ فِيهَا فُجُورٌ مَّكَرٌ مَّرْمُومٌ ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٥٩﴾ كَانَتْ الْآبَاثُ وَالزَّيْفَانِ ﴿٦٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٦١﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٦٣﴾ وَمَنْ ذُوهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٦٥﴾ تَتَخَفَتَانِ ﴿٦٦﴾ فِيهَا نَكَبٌ مِّقْرَةٌ ﴿٦٧﴾ وَتَعَبُورَةٌ ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٦٩﴾ فِيهَا خِزْيٌ جَسَدٌ ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٧١﴾ خُزٌّ مُّغْشًوَةٌ ﴿٧٢﴾ فِي الْحَيَاةِ ﴿٧٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٧٤﴾ لَمْ يَلْحَقْنَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَشَدُّ عَذَابًا ﴿٧٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٧٦﴾ تَتَخَبَّحُونَ عَلَىٰ قُرُونٍ مَّحْضَرٍ وَقَبْرُهُ جَنَانٌ ﴿٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٧٨﴾ تَذَرُوكُم مِّمَّنْ ذُو الرِّجَالِ وَالْأَعْرَامِ ﴿٧٩﴾

أكدت الآيات هذا المعنى بالتذكير بمصير الكافرين الجاحدين، ومصير المؤمنين يوم القيامة:

﴿وَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧)﴾.

أي: فكانت حمراء مذابة كالدهن، وقُرئت بالرفع على أنَّ (كان) تامة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣٨)

فإن التحذير من هذا المصير من نعم الله تعالى علينا .

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٠)

أي: فيوم تنشق السماء لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، لأنهم كما سيأتي يعرفون بسيماهم، وذلك حين يخرجون من قبورهم، ويساقون إلى أرض المحشر حيث يسألون، فيوم القيامة يوم طويل.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِيمَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٢)

أي: يُعرف المجرمون بسواد وجوههم، وزرقة عيونهم، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] فتجمع نواصيهم إلى أقدامهم.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَمِيعِ آيَاتِ﴾ (٤٤)

فيعدَّبون تارة بالنار، وتارة بالحميم الذي بلغ النهاية في الحرارة.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤٥)

فالتخويف بالعذاب من النعم، كما أنَّ الترهيب برحمته وجنته منها أيضاً . ولهذا أضافت الآيات وصف بعض ما أعد الله للمؤمنين من النعيم في الجنة:

﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ فِيهَا يَأْتِيءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ﴾ (٤٦).

أي: ولمن خاف قيامه بين يدي ربه للحساب والجزاء، أو خاف قيام ربه عليه وإطلاعه على أحواله فأعرض عن المعاصي، وأقبل على عبادته وطاعته بإخلاص، فله يوم القيامة بفضلته تعالى عليه جنتان.

وفي الحديث الشريف: عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» [رواه مسلم (١٨٠)].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ﴾ (٤٧) ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿ذَوَاتَا أَغْصَانٍ ۖ فِيهَا يَأْتِيءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ﴾ (٤٨).

أي: ذواتا أغصان متشعبة؛ واحدها فنن، أو ذواتا ألوان من الأزهار والثمار.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ فِيهَا يَأْتِيءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ﴾ (٤٩).

أي: في كل واحدة من الجنتين عين تجري كما يشاء صاحبها.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ نَضْجَ زَوْجَانِ ۖ فِيهَا يَأْتِيءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ﴾ (٥٠).

أي: صنفان متقابلان رطب ويابس، حلو وحامض... فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ۖ فِيهَا يَأْتِيءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ﴾ (٥١).

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: من ديباج ثخين، فما ظنك بظواهرها

إذا كانت بطائنها من إستبرق؟!.

﴿وَجَنَّ الْجَنَّةِ دَانٍ﴾ أي: وما يجتنى من ثمارهما قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع، فالشجرة تدنو منه حتى يجتنياها.
﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَإِن فَصَّرْتُ اطَّرَفُ لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: فيهما نساء عفيفات، يقصرن نظرهن على أزواجهن، لم يمسسهن قبل أزواجهن أحد من الإنس والجن، أو يقصرن طرف الناظر لحسنهن فلا ينظر إلى غيرهن.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: كأنهن في صفاء البشرة الياقوت والمرجان.. فبأي ربكما تكذبان؟..
ثم أخبرت الآيات أن الله تفضل عليهم بكل هذا النعيم لأنهم أحسنوا في عبادته وطاعته:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾﴾.

فما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

فالإحسان في الثواب من النعم التي أنعم الله بها عليهم.

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: ومن دون هاتين الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين، جنتان أخريان لمن دونهم من أصحاب اليمين.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿مُدْهَامَتَانِ ٦٤ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٥﴾ .

أي: خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ٦٦ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٧﴾ .

أي: عينان فوّارتان بالماء.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا فَكِكُهُ نُخْلٌ وَرُمَانٌ ٦٨ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٩ فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَانٌ ٧٠ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١﴾ .

﴿حَسَانٌ﴾ أي: نساء حسان الخلق والخلق.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبِلَامِ ٧٢ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٣﴾ .

﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾ أي: بيض مخدرات ملازمات لبيوتهن.

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِسْ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٧٤ فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٥﴾ .

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ﴾ أي: لم يمسهن قبل أزواجهن أحد من الإنس ولا من الجن.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حَسَانِ ٧٦﴾ .

أي: يتنعمون متكئين على رفرف خضر، وفرش عجيبة نادرة حسان. والرفرف: ما يطرح فوق الفراش للنوم.

﴿فَيَايَ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٧﴾ .

فإن في هذا الترغيب والتشويق رحمة عظيمة ونعمة كبيرة.

﴿بِذِكْرِ اسْمِ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٧٨) .

أي: تعالى اسمه الجليل المنبئ عن إفاضة الرحمات، وزيادة الخيرات ودوامها، وهو الاسم الذي بُدئت به السورة (الرحمن) ذي الجلال والإكرام، وقرئ: (ذو الجلال والإكرام) على أنه وصف للإله الكريم الرحمن. أسأله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لا من الكافرين الجاحدين، وأن يكرمنا برحمته وجنته يوم الدين.



تفسير سورة الواقعة الأصناف الثلاثة في سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تحقيق القيامة وتأكيده وقوعها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لِمَنْ لَوْقَعْنَهَا كَاذِبَةٌ ۚ (١) حَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ (٢) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۚ (٣) وَبُسَّتِ
الْجِبَالُ بَسًّا ۚ (٤) فَكَانَتْ هَبَاءً مُثْبَتًا ۚ (٥) وَكُنْتُمْ أَرْدًا مُلْتَمِسًا ۚ (٦) فَاصْحَبِ الْمُعْمِنَةَ مَا أَصْحَبِ
الْمُعْمِنَةَ ۚ (٧) وَأَصْحَبِ الْمُشَقَمَةَ مَا أَصْحَبِ الْمُشَقَمَةَ ۚ (٨)﴾ .

بدأ الله تعالى السورة بقوله :

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ﴾ .

أي : إذا حدثت القيامة ، فالواقعة من أسمائها .

وسميت بذلك للإيذان بتحقيق وقوعها لا محالة ، كأنها واقعة في نفسها ،
وحذف الجواب لتهويل أمرها وتفخيمه . فالواقعة : السقطة القوية ، وشاعت في
وقوع الأمر العظيم المؤكد الذي لا يكذب .

﴿لَيْسَ لَوْعَنَهَا كَذِبٌ ۖ﴾

أي: لا يكون عند وقوعها نفس تكذب بها، وتنفي وقوعها، كما هو حال الكافرين بها في الدنيا، فوقعها أمر محقق، أو ليس فيها ارتداد ولا رجعة.

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۖ﴾

تخفض أقواماً إلى أسفل أسفلين، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، فتخفض المتكبرين، وترفع المستضعفين، والخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ﴾

أي: حُرِّكَتْ وزلزلت زلزلاً شديداً، فينهدم كل شيء فوقها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ﴾

أي: وَفُتَّتِ الجبال فتاً، حتى صارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول. أو سِقتْ وسُيِّرَتْ وقُلعت قلعاً من أماكنها.

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ﴾

أي: فكانت غباراً متفرقاً بعد أن كانت راسخة شامخة.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ﴾

أي: وصرتم يوم القيامة أصنافاً ثلاثة.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ﴾

والميمنة: ناحية اليمين، أو اليُمْنُ والبركة.

وهو تعجيبٌ من حالهم يوم القيامة، وتعظيم لشأنهم، ومعناه: أي شيء هم في حالهم وصفتهم؟.

وفي المقابل عَجَّبَت الآياتُ من شأن الصنف الثاني وفَطَّعت حالهم:

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴿٩﴾﴾.

والمشأمة: ناحية الشمال أو الشؤم والشر.

فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، سُمُّوا بذلك لأنهم يُؤْتُونَ كتبهم بأيمانهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْقَ كِتْبُهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق].

وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، وسُمُّوا أيضاً بذلك لأنهم يُؤْتُونَ كتبهم بشمالهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقَ كِتْبُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَأُوْتَ كِتَابَهُ﴾ [الحاقة: ٢٥] فهم المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة.

وفي «صحيح مسلم» [١٦٣]: من حديث الإسراء، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «فلما علونا السماء الدنيا، فإذا رجلٌ عن يمينه أسودة، وعن يساره أسودة؛ فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابن الصالح، قلتُ: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا آدم عليه السلام، وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار».

* * *

مصير المقربين يوم القيامة

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَلَكَهٖ مِمَّا يَتَخَبَّطُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَتَمُنَّ طَيْرُ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴿٢١﴾ وَخُورٌ عَنْهُمْ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ ﴿٢٣﴾ حَرَّاهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

وهو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، أُخِّرَ ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف وأفضلهم ليرد ذكرهم بمحاسن أحوالهم، فهم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت محاسنهم، ويكفي وصفهم بهذا الوصف للدلالة على علو فضلهم، واستغنائهم عن أي وصف آخر، فهم السابقون إلى طاعته ورحمته وجنته .

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: أولئك المقربون عند ربهم، رفع منازلهم، وأعلى مراتبهم .
ولا يخفى ما في الإشارة إليهم بـ (أولئك) وما فيها من معنى البعد مع قرب العهد بذكرهم، من بيان لرفعة منزلتهم بالفضل .

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: هم أمة كثيرة من الأمم السالفة، وقليل من أمة محمد ﷺ .
والظاهر على هذا المعنى أن سابقي الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة، بينما

ويقوِّيه أيضاً الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «عَرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ؛ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْأُمَّةَ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْعَشْرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ مَعَهُ الْخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمْرُ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سِوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سِوَادٌ كَثِيرٌ قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قَدَّامَهُمْ، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلَمْ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله

يجعلني منهم؟ قال: «اللهم اجعله منهم» ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة» [رواه البخاري (٦٥٤١)].

فالجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تنسحب الآية على جميع الأمم، كل أمة بحسبها، وهذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبينا عليه الصلاة والسلام.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾

أي: منسوجة بالذهب، مشبكة بالدرر والياقوت.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ﴿١٦﴾﴾

لا ينظر بعضهم إلى أفقاء بعض، وهو وصف لهم بحسن العشرة وجمال الأخلاق.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾

ويطوف عليهم للخدمة ولدان لا يهرمون، ولا يموتون، باقون على طراوتهم، لا يتحولون عنها.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾﴾

أي: من خمر جارية من العيون.

والأكواب: الآنية التي لا عرى لها ولا خراطيم، والأباريق: ذات عرى وخراطيم، وأفرد الكأس لأنها مملوءة، فلا تسمى كأساً إلا إذا كانت مملوءة.

﴿لَا يَصَدَّقُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: لا يصيبهم صداع بسببها، ولا يسكرون كما هو الحال في خمر الدنيا.

﴿وَفَلَكِهِم مِّمَّا يَخْتَارُونَ﴾ (٢٠).

أي: ويطاف عليهم أيضاً بفاكهة مما يختارون ويشتهون.

﴿وَلَحِمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾.

أي: ولهم حور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون في الصفاء. وهو الذي لم تمسه الأيدي.

وقرئ بالجذر (وحوِر) عطفاً على (جناتٍ) بتقدير مضاف، أي: هم في جنات ومصاحبة حور.

﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤).

أي: فعلنا ذلك بهم جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعتنا. فلا يسمعون في الجنة إلا ما يؤنسهم من الكلام ويسرهم:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾.

فلا يسمعون لغواً باطلاً، ولا كلاماً فيه إثم، كما هو حال أهل الدنيا، ولكن يسلم بعضهم على بعض، وتسلم الملائكة عليهم، قال تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يَمَّا صَبَرْتُمْ فَعِمَّ عَقْبَى الدَّارِ ﴿الرعد﴾.

* * *

أحوال أصحاب اليمين في الجنة

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَشْنَأْنَهُمْ (٣٥) فِجَعَلْنَهُمْ أَتِّكَارًا (٣٦) عُرَىٰ أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠)﴾.

ثم شرعت الآيات تصف أحوال الصنف الثاني، وهم أصحاب اليمين، والنعيم الذي يكرمون به في الجنة:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧)﴾.

وهي جملة استفهامية ذكرت لتفخيم حالهم والتعجيب منه.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨)﴾.

أي: هم في سدر غير ذي شوك كسدر الدنيا، أو ثنيت أغصانه لكثرة ثمره.

﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ (٢٩)﴾.

نضد حمله من أسفله إلى أعلاه، كأنه لا ساق له، وهو شجر الموز.

﴿وَزِلِّ مَّمْدُودٍ (٣٠)﴾.

ممتد منبسط لا يتقلص، وفي الحديث الشريف: عن سهل بن سعد رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِثْلَ مِائَةِ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا» [رواه البخاري (٦٥٥٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ

لشجرة يسيرُ الراكبُ الجوادُ، أو المضمَّرُ السريعُ مئة عام وما يقطعُها» [رواه البخاري (٦٥٥٣)].

﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ ﴿٣١﴾﴾

يسكب لهم أينما شاءوا وكيفما أرادوا، بلا تعب، قال تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]. أو يجري على الأرض في غير أ حدود.

﴿وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾

أي: لا تنقطع في بعض الأوقات كفاكهة الدنيا، ولا تمنع عن تناولها. وفي قراءة: (وفاكهة) بالرفع بتقدير: وهناك فاكهة.

﴿وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿٣٤﴾﴾

رفيعة القدر، أو مرفوعة على الأسرة، ويكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونها على السرير مع زوجها، قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِلُونَ﴾ [يس: ٥٦].

﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾﴾

أي: إنا ابتدأنا خلقهن ابتداءً جديداً، أو أبدعناهن من غير ولادة.

لكن الأخبار دلت على أن المراد بهنَّ المؤمنات من نساء الدنيا، فقد أخرج الترمذي في «السنن» [٣٢٩٦]: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ المنشآت اللاتي كنَّ في الدنيا عجائز عُمُشاً رُمُصاً».

وأخرج أيضاً في «الشمائل» [٢٤٠]: عن الحسن قال: أتت عجوزٌ فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أمَّ فلان، إِنَّ الجنةَ لا تدخلها

عجوزٌ» فولّت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوزٌ، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثًا﴾ (٣٥)». والحديث مرسل.

﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦) عُرِّيَ أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾.

متحبات إلى أزواجهن، في سن واحدة، كأنهن شبّهن في التساوي بالترائب التي هي أضلاع الصدر، أو كأنهن وقعن على تراب الأرض معاً وهنّ يلعبن صغيرات، أو أتراب في الأخلاق ليس بينهن تباعد وتحاسد كما يكون بين الضرائر في الدنيا، فهن العواشق لأزواجهن، المتحابات بينهن.

﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٣٨).

أي: أنشئن لأصحاب اليمين.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾.

وكلهم من هذه الأمة كما مرّ معنا في المقربين، وقد أخرج ابن جرير: عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «هما جميعاً من أمتي». والظاهر أنّ ما ذكر من أصحاب اليمين هو حالهم الذي ينتهون إليه، فلا ينافي أن يكون منهم من يعذب لمعاصي فعلها ومات وهو غير تائب عنها، ثم يدخل الجنة، فإن أصناف أصحاب الشمال الآتية تدل على أنهم كانوا كافرين.

الترف والضلال في أصحاب الشمال

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُورٍ وَحْمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا يَأْرِدُ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَدْ ذَلِكَ مُتْرَكِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَبِثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَعُوْنَا ﴿٤٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَحْمُوعُونَ إِلَىٰ مِقْدَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْبَالُغُونَ الْمُكْدِبُونَ ﴿٥١﴾ لَّا كُفُونَ مِنْ شَحَرٍ مِّنْ رُّعُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْقَوْنَٰنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْحَمِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا رُغْمٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ .

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ .

وهي جملة استفهامية ذكرت لتحويل حالهم وعذابهم.

﴿فِي سُورٍ وَحْمِيمٍ ﴿٤٢﴾ .

أي: في ريح حارة تنفذ في المسام، وماء شديد الحرارة يقطع الأمعاء، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ٥١].

﴿وَظِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ .

أي: ودخان أسود يغطيهم ويظللهم.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ .

لا بارد كغيره من الظلال، ولا نافع لمن يأوي إليه من أذى الحر. ففي الآية تهكم مُرَّ بهم، فهم لا يستحقون الظل الذي فيه برد وإكرام، بل يستظلون بظل وهم مهانون معذبون. ثم بيَّن سبحانه سبب عذابهم:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (٤٥).

أي: كانوا منهمكين في الشهوات، أترفهم النعمة وأبطرتهم، فجحدوا فضل الله عليهم.

﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ﴾ (٤٦).

وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك والكفر.

أو: هو القسم على إنكار البعث، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨] وهو المعنى المشهور للخنث.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا نَلْبَعُوهُنَّ﴾ (٤٧).

يقولون ذلك مكذبين به، مستبعدين وقوعه.

﴿أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ (٤٨).

أي: أبيعث آباؤنا أيضاً فهم أقدم، وبعثهم أبعد وأبطل؟! وفي قراءة: (أو آبائنا) بإسكان الواو.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٤٩).

قل ردّاً لإنكارهم، وتحقيقاً للحق: إن الأولين والآخرين، ومن جملتهم آباؤكم؛ لمجموعون بعد البعث إلى وقت معلوم معين هو يوم القيامة، فإليه الغاية والانتهاء، ولهذا عُدِّي بـ (إلى).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَ الْضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١)﴾ .

ثم إنكم أيها الضالُّون عن الهدى المكذبون بالبعث .

﴿لَا كُفُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ (٥٢)﴾ .

وهو الشجر الذي ينبت في أصل الجحيم ، قال تعالى : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٥٢) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات] .

﴿فَقَاتِلُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)﴾ .

من شدة الجوع .

﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤)﴾ .

أي : فشاربون بعده من الحميم .

﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَلِيمِ (٥٥)﴾ .

الإبل العطاش التي أصيبت بداء يجعلها تشرب فلا ترتوي ، أو شُرب الرمال التي لا تمسك الماء ، وفي قراءة : (شُرْب) بفتح الشين وهما مصدران . وشربهم للحميم المتناهي في حرارته الذي يقطع أمعاءهم أمر عجيب يدل على أنهم ابتلوا بالعطش الشديد الذي حملهم على شرب الحميم .

﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)﴾ .

أي : هذا أول ما أُعِدَّ لهم يوم الدين ، فما ظنك بما بعده من العذاب؟! . وفي قراءة : (نُزْلهم) بتسكين الزاي .

الإيجاد والإمداد

﴿نَحْنُ خَالِقُكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٥﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ﴿٥٦﴾ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٧﴾ نَحْنُ قَادِرٌ بِكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَوْفٍ ﴿٥٨﴾ عَلَيَّ أَنْ يَقُولَ أَنتُمْ كُمْ وَنَحْنُ كُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تُدْعُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦١﴾ أَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّاعُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْ فَتَانَا لَجَحَلْنَاكُمْ حُطَمَاءً فَطَلَعْنَا نَقَارِكُمْ ﴿٦٣﴾ إِنْهَا لَنُغْرِقُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَحْنُ نَحْرُثُونَ ﴿٦٥﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٦﴾ أَنْتُمْ أَرْتَشْتُهُ مِنَ الْغُرَرِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٧﴾ لَوْ فَتَانَا جَعَلْنَاهُ آتِماً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٦٨﴾ أَفَرَأَيْتُمْ أَنَادُ إِلَىٰ قُرُونٍ ﴿٦٩﴾ أَنْتُمْ أُنْتَابُمْ فَخَرُّوا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِقُونَ ﴿٧٠﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَفَتْحًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٢﴾﴾

مهدت الآيات النفوس بهذه الإثارة الوجدانية الشديدة للمحاكمة العقلية الملزمة بالإيمان بيوم الحساب والجزاء، فوجَّهت خطابها إلى الكافرين الجاحدين قائلة لهم:

﴿نَحْنُ خَالِقُكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

فهلا تصدِّقون بالبعث.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

ما تقدفون في الأرحام من النطف.

﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أنتم تخلقونه بشراً سوياً أم نحن الخالقون؟! .
فمن خلق الخلق أول مرة قدِّر عليه مرة ثانية.

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ .

أي: نحن قدرنا الموت، وقسمناه عليكم بوقت معين، وما يسبقنا أحدٌ فيهرب من الموت، أو يغير وقته المحدد له.

﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿عَلَىٰ أَنْ تُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ ونحن قادرون أيضاً على أن نذهبكم، ونخلق مكانكم أشباهكم، فوجودكم منوط بمشيئتنا وقدرتنا، قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿[إبراهيم].

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصفات والأحوال، فنحن قادرون على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم؛ فكيف نعجز عن إعادتكم بعد الموت؟! .
فالآية تدل على كمال قدرته تعالى، وطلاقة مشيئته، فهم دائماً وأبداً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته في الحياة وبعد الممات.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى. وفي قراءة: (النشأة).
ودلت الآية على حجية القياس، وأنه مصدر للأحكام الشرعية.

ثم أضافت الآيات تذكّرهم بأهم أسباب استمرار حياتهم ومعاشهم من طعام وماء ونار، وهي الطاقة الضرورية لذلك، لتؤكد أن إيجادهم وإمدادهم بقدرته ومشيئته سبحانه:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ .

وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها للزراعة.

﴿أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ٦٤ .

أأنتم تبتونه أم نحن المنبتون لا أنتم؟! .

أضافت الآية أسباب الزراعة إليهم بينما أضافت التأثير والخلق والإيجاد إلى الله وحده .

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ٦٥ ﴿إِنَّا لَمُعْرِمُونَ﴾ ٦٦ ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ﴾ ٦٧ .

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي: نحن أنبتناه بقدرتنا ومشيتنا، ولو نشاء لأيسناه وأهلكناه قبل استوائه ونضجه واستحصاده .

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ٦٥ ﴿إِنَّا لَمُعْرِمُونَ﴾ ٦٦ ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ﴾ ٦٧ أي: فصرتم بسبب ذلك تتعجبون من سوء حاله، أو تندمون وتأسفون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا بَنِيَّ لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] .

أو تقولون: إنا لأسفون على ما أنفقنا، أو: إنا لمهلكون بهلاك رزقنا، بل نحن محرومون لا حظ لنا، كأنهم لما قالوا: إنا لمهلكون؛ أضربوا عنه، وقالوا: بل هذا أمر أصبنا به لنحوسة طالعنا وعدم بختنا .

وأصل التفكه: التنقل بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتنقل بالحديث، وقرئ ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بالكسر و ﴿فَظَلْتُمْ﴾ على الأصل^(١) .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ٦٨ .

أي: الماء العذب الذي تشربون .

وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافع الماء، لأن الشرب أكملها .

﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ (٦٩).

﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ وهو السحاب، واحدها مزنة.

﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ له بقدرتنا ومشيتنا.

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٠).

أي: لو نشاء جعلناه شديد الملوحة غير صالح للشرب، فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله عَذْبًا فَرَاتًا.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١).

أي: تقدحون وتوقدون.

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ (٧٢).

أأنتم خلقتم شجرتها، أم نحن الخالقون لها؟!

والظاهر أن المراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، وجمهور المفسرين على أن المراد شجرتان مخصوصتان تسميهما العرب: المرخ والعفار، تقدح منهما النار وهما رطبتان، ومن المعلوم أن الاحتكاك بين أي قطعتين من الخشب يولد حرارة قد تؤدي إلى اشتعال النار.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ (٧٣).

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: جعلناها تذكيراً لنار جهنم، كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «ناركم هذه التي يُوقَدُ ابن آدم جزءاً من سبعين جزءاً من حَرِّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله،

قال: «فإنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسْتِينَ جِزْءاً كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا» [رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)].

﴿وَمَتَّعَا لِلْمُتَّوِينَ﴾ أي: وجعلناها منفعة للمسافرين الذين ينزلون القواء، وهي الأرض المقفرة، فهم أحوج إلى النار من المقيمين.

ولعل في الآية إشارة إلى أهمية الطاقة الحرارية في حياة الإنسان التي ازدادت في العصر الحاضر، فأصبحت الطاقة الأساسية التي يعتمد عليها في دفع مركباته التي يستعملها في أسفاره وتنقلاته.

فالطعام والماء والنار أهم أسباب حياة الإنسان، ولهذا حثَّ النبي عليه الصلاة والسلام على بذلها لمن يحتاج إليها، وفي الحديث الشريف: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكلاء والماء».

وفي رواية: «ثلاثة لا يمنع: الماء والكلاء والنار» [رواه أحمد (٢٢٩٧٧) وقال محقق المسند: إسناده صحيح، وأبو داود (٣٤٧٧)].

قال ابن حجر: «إسناده صحيح، قال الخطابي: معناه الكلاء الذي ينبت في موات الأرض، والماء الذي يجري في المواضع التي لا تختص بأحد، وقيل: المراد بالنار: الحجارة التي توري النار، قال غيره: المراد: النار حقيقة، والمعنى: لا يمنع من يستصبح منها مصباحاً، ويدني منها ما يشعله منها. وقال الخطابي أيضاً: والنهي عند الجمهور للتنزيه، فيحتاج إلى دليل يوجب صرفه عن ظاهره، وظاهر الحديث أيضاً وجوب بذله مجاناً وبه قال الجمهور»^(١).

وبعد أن بينت الآيات بعض البراهين الدالة على كمال قدرته تعالى وفضله وإحسانه، أمرت أمراً قطعياً بتسبيحه وتنزيهه عما يقوله الجاحدون المكذبون ليوم الحساب والجزاء، فإنهم عندما يكذبون بالبعث بعد الموت يصفون الله تعالى بصفات لا تليق بكماله وقدرته وحكمته.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤).

نزه ربك العظيم وسبحه بذكره بهذا الاسم، فهو المربي الذي أوجدكم وأمدكم بأسباب حياتكم، فمنه سبحانه الإيجاد والإمداد، أو قل: سبحان ربي العظيم.

وفي الحديث الشريف: عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» [رواه أحمد (١٧٣٤٥) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧)].

وعن حذيفة رضي الله عنه: أنه ﷺ كان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى» [رواه الترمذي (٢٦٢) وصححه].

* * *

القسم العظيم

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾.

وفي مقابل عناد الضالين المكذبين بيوم القيامة، والذين كانوا يصرون على إنكاره كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخِنِثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦] أقسم الله جل وعلا على تأكيد وقوع الواقعة، وصدق النبي ﷺ في كل ما أخبر به ودعا إليه:

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥).

أي: ليس الأمر كما تقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] أقسم بمواقع النجوم، أو فلأنا أقسم، فحذف المبتدأ، وأشبع فتحة

لام الابتداء، ويعضده قراءة مَنْ قرأ: (فلأقسم). ومواقع النجوم: منازل النجوم وأفلاكها التي تجري عليها.

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم لو تعلمون، عظم مواقع النجوم، فهي أجرام عظيمة كثيرة، لا يعلم عددها إلا الله تعالى، كما مر معنا عند قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

فكلما زادت معرفة الإنسان بضخامة هذه الأجرام وكثرتها وعظم مواقعها والمسافات الهائلة بينها، ازداد علمه بعظمة هذا القسم الذي أقسم الله به، والله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، وليس لنا أن نقسم بغيره تعالى، ويذكرنا هذا القسم ببعض الدلائل الدالة على كمال قدرته ﷻ وكمال حكمته.

وقد يكون المراد من النجوم نجوم القرآن الكريم، فقد كان ينزل منجماً مفرقاً على النبي ﷺ. ومواقع النجوم: أوقات نزولها. وجواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: كريم معظّم عند الله تعالى، لا افتراء فيه، جعله سبحانه دليلاً قاطعاً يدل على صدق النبي ﷺ، ومما يؤكد ذلك أنه كائن:

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾.

مصون محفوظ عن التبديل والتغيير، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٩﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٨٠﴾﴾ [البروج].

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: لا يمسّه إلا الملائكة، وهم السفرة الكرام البررة، الذين ذكرهم

سبحانه في قوله: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كَرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ [عبس].

وقيل: المراد بالكتاب: المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر، وقد روى مالك وغيره: أن في كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله ﷺ: «ألا يمس القرآن إلا طاهر».

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر» [رواه الطبراني].

وقالت أخت عمر لعمر رضي الله عنه عند إسلامه، وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، فقام واغتسل وأسلم. وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس^(١).

وقول قتادة هذا أحد أقوال العلماء في الآية، والذي عليه التعويل - كما قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله - هو قول الأكثرين أن الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، وعليه فالآية هنا تشاكل قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ [البروج].

وهذه الآية وإن قيل: إن المراد لا يمس اللوح المحفوظ إلا الملائكة، لكن ظاهره منع غير الطاهر من مس القرآن، لأنه سيق لمدح القرآن بأنه معظم مُصان عن غير المطهرين، ففهم منه وجوب تعظيمه وصيانته عن مس من ليس بمطهر^(٢).

فالمس بغير طهارة نوع استهانة لا تليق بالمصحف الكريم، وأنه أيضاً:

(١) تفسير القرطبي: ٢٢٥/١٧؛ والفقهاء الحنفي في ثوبه الجديد، للمؤلف: ١٢٠/١، دار القلم بدمشق.

(٢) إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس.

﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٨٠ .

أي: منزل من رب العالمين، وقرئ بالنصب؛ أي: نزل تنزيلاً، وصف بالمصدر لأنه نزل نجوماً من بين سائر الكتب، فكأنه في نفسه تنزيل، ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه، ف قيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل.

توبيخ الضالين المكذبين وتحذيرهم

﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ۖ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ۖ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ۙ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّنْظَرُونَ ۖ وَيَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ۖ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٨١-٨٧ .

والتفتت الآيات بعد هذا التقرير المؤكد بالقسم العظيم إلى الضالين المكذبين توبيخهم وتحذيرهم:

﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ۖ﴾ ٨١ .

أي: أنتم متهاونون به؛ كمن يدهن بالأمر ولا يتصلب فيه تهاوناً به.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ۖ﴾ ٨٢ .

أي: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به، وكان الحسن يقول: بس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب^(١).

وقد يكون المعنى المراد: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، فالمشركون

وضعوا التكذيب موضع الشكر، وينسحب هذا المعنى على كل من يقول: مُطَرْنَا بنوء كذا، ولا يرده إلى فضل الله تعالى ورحمته.

وفي الحديث الشريف: عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب» [رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١)] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت بهذه المناسبة.

ثم ذكّرتهم الآيات بشدة ضعفهم عند الموت، فوجهت خطابها لمن يكون حول المحتضر بأسلوب التحدي:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾﴾

أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم.

﴿وَأَنْتُمْ جِنْدٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أي: تنظرون حالكم، فإن مثل هذا المصير ينتظركم.
أو: تنظرون إلى المحتضر.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُرْهَانٌ لَكُمْ ﴿٨٥﴾﴾

أي: ونحن أقرب إليه علماً وقدرة منكم، ولكن لا تعرفون من حقيقة حاله إلا ما تشاهدون.

أو: نحن أقرب إليه منكم بملائكتنا، ولكن لا ترونهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: فهلا إن كنتم غير محاسبين يوم القيامة.

أو: إن كنتم أقوىاء غير مقهورين أذلاء.

﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: تردّون روح هذا الميت إلى جسده بعد أن بلغت الحلقوم إن كنتم صادقين في إنكار البعث والحساب، وهذا جواب الشرطين الأول والثاني.

أحوال المحتضرين

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَمَرْءٌ مِنْ جَحِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

وأخيراً وصفت الآيات أحوال الأصناف الثلاثة عند احتضارهم ونزول الموت بهم:

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

فأما إن كان المحتضر من المقرّبين عند ربهم، الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلهم روح وريحان.

وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فالرَّوح: الراحة أو الرحمة أو الفرح والسرور. والريحان: الرزق أو الرخاء، وكلها أقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك. روى الإمام أحمد [١٥٧١٦ و ١٥٧١٨]: عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن كعب بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائرٌ يعلّق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «من أحب لقاء الله، أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» قالت: إنا لنكره الموت! قال: «ليس ذلك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضره الموتُ بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شأنٌ أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاء الله، وأحبَّ الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيءٌ أكرهَ إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه» [رواه مسلم (٢٦٨٤)].

ولقاء الله غير الموت، لكن لما كان الموت وسيلة إلى لقاء الله عبَّر عنه بلقاء الله، فكراهة الموت وشدته لا يكاد يخلو عنه أحد، ولكن المذموم من ذلك إثارة الدنيا، والركون إليها، وكراهية أن يصير إلى الله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (٧) أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿يونس﴾.

وقال النووي: معنى الحديث: أنَّ المحبة والكراهة التي تعتبر شرعاً هي التي تقع عند النزاع في الحالة التي لا تقبل فيها التوبة، حيث ينكشف الحال للمحتضر، ويظهر له ما هو صائر إليه.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩٠) ﴿فَسَلِّمْ لَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٩١).

وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، فتبشره الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين، أو تبلغه سلام إخوانه عليه من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢)﴾ .

أي: كان من المكذبين بالبعث، والضالين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال.

﴿فَنَزَّلُ مِنَ حَمِيمٍ (٩٣)﴾ .

فالذي يعد لهم حميم جهنم.

﴿وَنَصْلُهُ جِيمٍ (٩٤)﴾ .

ومقاساة نار عظيمة هي نار جهنم.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)﴾ .

أي: إن ما ذكر من أحوال المحتضرين لهو حق اليقين لا شك فيه يدل دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى وحكمته.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ .

فنزّه ربك العظيم عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله ﷻ.



تفسير سورة الحديد الإنفاق والإنساق في سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تسبيح المخلوقات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَزُلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الحديد بقوله :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

أخبر سبحانه أن كل المخلوقات تنزهه عما لا يليق بكماله وجلاله ، وتسبيح كل مخلوق بحسبه ، قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء : ٤٤] .

واختلاف المخلوقات في الصفات والخصائص يجعلنا لا نفقه تسبيحها؛
 ألا ترى أن اختلاف الناس في الأجناس واللغات يجعلهم لا يفهمون كلام
 بعضهم، ومَرَّ معنا أن الجبال والطير كانت تردد التسبيح مع داود عليه السلام، قال
 تعالى: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ
 صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ولقد كنا نسمع تسبيح
 الطعام وهو يؤكل. [رواه البخاري (٣٥٧٩)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان
 النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبر، فكان عليه،
 فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم، فوضع يده
 عليها فسكنت. [رواه البخاري (٣٥٨٥)].

قال ابن حجر: «وفي الحديث دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها
 إدراكاً كالحيوان بل كأشرف الحيوان. وفيه تأييد لقول من يحمل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ
 إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] على ظاهره»^(١).

واللام في (الله) للتأكيد، كما تقول: نصحتُ له، وشكرتُ له. أو: للتعليل
 أي فعل التسبيح لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم.

ومجيء فعل التسبيح في بعض فواتح السور ماضياً، وفي بعضها الآخر
 مضارعاً، للإيدان بتحقيقه في جميع الأوقات، وفيه تنبيه على أن حقَّ مَنْ شأنه
 التسبيح الاختياري أن يسبِّحه تعالى في جميع الأوقات، كما عليه الملائكة الأُعلى
 الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون^(٢).

فالمكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود وإلى الأبد تسبِّحه

(١) فتح الباري: ٦/٦٠٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ٨/٢٠٣.

مقدسة لذاته جل وعلا قولاً وفعلاً، طوعاً وكرهاً، لأنه العزيز الغالب على كل شيء، الحكيم في جميع أقواله وأفعاله.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢﴾

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: له التصرف الكامل فيهما، فهو الخالق والمبدئ ﷻ، ومن آثار ملكه وسلطانه فيهما: أنه يحيي ويميت. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملتها الإحياء والإماتة.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٣﴾

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ أي: هو السابق على جميع الموجودات، فهو موجود قبل كل شيء حتى الزمان، إذ هو المبدع له، والباقي بعد فنائها كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿٣﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أي: والظاهر وجوده لكثرة دلائله، فكل شيء يدل عليه، والباطن حقيقة ذاته، فلا تدركه العقول فهو الظاهر بالعقل، الباطن بالحس، أو الظاهر على كل شيء، والباطن العالم بكل شيء.

وفي الحديث الشريف: أنه ﷺ كان يقول عند النوم: «اللهم رب السماوات ورب الأرض رب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» [رواه مسلم (٢٧١٣)].

قال ابن كثير: قد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً.

وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. قال ابن حجر: ويحيى هذا هو ابن زياد الفراء النحوي المشهور، ذكر ذلك في كتاب «معاني القرآن» له^(١).

ومهما تعددت أقوال المفسرين وعباراتهم فكلها تدل على كمال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله ﷻ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفي.

وأبرزت الآيات كمال علمه تعالى بمخلوقاته:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ على الوجه اللائق بجلاله وكماله كما مر معنا.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم في برٍّ أو بحر، وفي الليل أو النهار، وفي البيوت أو في القفار، لا تغيبون عن علمه وقدرته بحال من الأحوال.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ٥ .

فإليه وحده لا إلى غيره ترجع الأمور .

ومن دلائل قدرته وبديع حكمته :

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٦ .

أي : وهو عليم بمكنوناتها اللازمة لها ، فلا يغيب عن علمه شيء ، فهو محيط بأعمالهم التي يظهرونها ؛ وبنياتهم التي يضمرونها .

* * *

الإنفاق في سبيل الله

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۖ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَحَدَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ ٨ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ ٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاكُمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا ۚ وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ ١٠﴾

وإذا كان الأمر كذلك :

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ٧ .

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ فإن إنفاق المال في الطرق

المشروعة دليل على صدق الإيمان، فالأموال التي بأيديكم لله تعالى، وأنتم مستخلفون فيها، فالآية تحثهم على الإنفاق وترغبهم فيه.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ونكّر الأجر تعظيماً له وتفخيماً، كما قرنت الآية الإنفاق مع الإيمان إظهاراً لأهميته وضرورته.

ثم وبّخت الآيات المعرضين عن الإيمان والمتناقلين بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ فأى عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول ﷺ يدعوكم إليه بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة؟!

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ﴾ أي: وقد أخذ ربكم ميثاقكم بتمكينكم من النظر.

أو: ميثاق الفطرة الذي أخذ عليكم في عالم الذر، والذي أخبر سبحانه عنه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فأحرى الأوقات للإيمان هي هذه الأوقات، لتوفر دواعي الإيمان، وقيام الحجج وظهورها، فبادروا إلى الإيمان.

وفي قراءة: (أخذ ميثاقكم) على البناء للمفعول.

لقد توفرت ببعثة النبي ﷺ ونزول القرآن دواعي الإيمان:

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَتَّبِعِ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾

حيث بعث إليكم الرسول ﷺ بالآيات البينات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الأدلة العقلية، وما أخذ عليكم من ميثاق الفطرة.

وبعد أن وبختهم الآيات على ترك الإيمان، وبختهم على ترك الإنفاق في سبيل الله بقوله:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرث كل شيء فيهما، فلا يبقى لأحد مال، فالأولى أن تنفقوها في سبيل الله.

ثم بينت فضل السابقين إلى الجهاد والإنفاق في سبيل الله:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ﴾ فالمتفاضلون لا يستوون، فلا يستوي في الفضل من أنفق ماله، وقاتل العدو قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله، وقاتل بعد الفتح، فقد كان الحال قبل فتح مكة شديداً، وأما بعده فقد ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولهذا قال:

﴿أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا﴾، وفي الحديث: أنه كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فقال رسول الله ﷺ لَمَّا بلغته: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم» [رواه أحمد (١٣٧٤٧) ورجاله رجال الصحيح].

﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: وعد الله كلاً من الفريقين الحسنَى، وهي الجنة.

وفي قراءة: (كل) بالرفع على الابتداء.

ودرجات الجنة متفاوتة؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢).

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ترى المؤمنين والمؤمنات يسير نورهم أمامهم وعن أيمانهم.

وخصت الإيمان بالنور دون غيرها لشرفها، ويقال لهم: ﴿بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

وعندها يتوجهون إلى الجنة تسير معهم أنوارهم، ويمتاز المنافقون عنهم:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْبَ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٣).

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: انتظرونا نستضي من نوركم، وهذا يدل على أن الظلمة تغطي الناس يوم القيامة.

وقرى: (انظرونا) بقطع الألف وكسر الظاء؛ أي: أمهلونا.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي: يقال لهم تهكمًا: ارجعوا وراءكم إلى المكان الذي كنتم فيه، أو إلى الدنيا، فاطلبوا النور بتحصيل أسبابه من الإيمان والأعمال الصالحة، ولعلمهم أرادوا بالنور الظلمة الكثيفة التي وراءهم تهكمًا.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَمْ يَأْبَ﴾ أي: فجعل بين الفريقين حائط له باب.

﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: باطن السور أو الباب، وهو الجانب الذي يلي الجنة، فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي النار من جهته العذاب. وقرئ: (فَضُرِبَ) على البناء للفاعل.

وينادي المنافقون والمنافقات المؤمنين بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب:

﴿يَأْذُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرِيضُونَ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿يَأْذُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: ألم نكن في الدنيا معكم؟! والمراد موافقتهم في الظاهر.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرِيضُونَ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قالوا: بلى كنتم معنا بحسب الظاهر، ولكنكم عرّضتم أنفسكم للفتنة والكفر، واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر.

أو: أخرتم التوبة، وشككتهم في الإيمان، وغرّتم الأمانى الباطنة، بانتصار الكافرين، وهلاك المؤمنين، حتى جاءكم الموت، ومن المعلوم: أن من أطال الأمل، نسي العمل، وغفل عن الأجل.

﴿وَعَرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: وغرّكم الشيطان، وأخبركم بأن الله عفو كريم لا يعذبكم. وقرئ: (الغُرور) بالضم.

وواضح أن المؤمنين قالوا ذلك للمنافقين على وجه التقرير والتوبيخ، ولهذا أضافوا قائلين:

﴿قَالُوا لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿قَالُوا لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ لتفندوا بها من عذاب الله. وقرئ: (تؤخذ) بالتاء. ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولا تؤخذ أيضاً من الذين كفروا ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ أي: هي أولى بكم، وساءت مرجعاً ومصيراً.

طول الأمل وقسوة القلوب

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾
 الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَبَدَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

دلَّت الآيات على أن طول الأمل أمر خطير، يؤدي إلى الغفلة عن الله تعالى والفتور في العبادات، فحذرت المؤمنين منه بأسلوب لطيف غير مباشر:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: ألم يجئ وقت أن تخشع قلوب المؤمنين لذكره تعالى، وما نزل من الحق في القرآن، فيسارعون إلى طاعته من غير توانٍ ولا فتور؟!.

و (يَأْنٍ) من أنى الأمر، إذا جاء إناءه، أي: وقته، وقرئ: (أَلَمْ يَيْئُنْ) من أن يئين بمعنى أنى.

ولا يخفى ما في الآية من عتاب للمؤمنين لطيف، ولهذا أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه: عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن.

وهي سنة الهجرة إلى المدينة بلغ فيها المؤمنون ذروة الخشوع والخضوع والمسارة إلى طاعة الله تعالى.

ولعل الأصح ما روى ابن مردويه: عن أنس: أنه بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن.

لكن أخرج مسلم [٣٠٢٧] وابن ماجه [٤١٩٢] وغيرهم : عن ابن مسعود رضي الله عنه : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية إلا أربع سنين .

وهذا يجعلنا نصرفُ المراد من الآية عن ظاهرها الذي هو العتاب، إلى أنه تهيج للمؤمنين على المزيد من طاعته تعالى، ورفع لهمهمهم، وشحذ لغزائمهم، فإنَّ التحديات التي كانوا يواجهونها في ذلك الوقت كبيرة وكثيرة وخطيرة، فهو حضُّ لهم على المسارعة إلى الطاعة في أكمل وجوهاها، أتبعه تعالى بتحذيرهم من الفتور والتراخي فقال :

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم اليهود والنصارى، الذين انهمكوا في الشهوات والمعاصي، وطال ما بينهم وبين أنبيائهم من الزمان، فقسَّت قلوبهم بسبب إدمانهم على المعاصي، حتى صاروا لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا .

فللمعاصي آثار سيئة على القلوب، كما جاء في الحديث الشريف : قال رسولُ الله ﷺ : «تُعَرِّضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكَيْتَ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكَيْتَ فِيهِ نَكْتَةٌ بَيضَاءٌ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ : عَلَى أَبْيَضَ مِثْلَ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرَ أَسْوَدَ مِرْبَادًا كَالْكُوْزِ مُجَحَّيًّا (مائلاً) لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يَنْكِرُ مِنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَا» [رواه مسلم (١٤٤)] .

ففي الآية نهى للمؤمنين عن التشبه بأهل الكتاب في قسوة القلوب، ويؤيده قراءة : (ولا تكونوا) بالناء .

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَسْقُوتُ﴾ أي : خارجون عن طاعة ربهم، بينما قليل منهم مطيعون خاشعون .

فقسوة القلوب مبدأ الشرور، تنشأ من طول الغفلة، لا دواء لها إلا الإكثار من ذكره تعالى القائل : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨]، ولهذا قال تعالى :

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو تمثيل لإحياء القلوب القاسية بذكر الله كما تحيا الأرض اليابسة بالغيث .

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: قد بينا لكم الآيات لكي تعقلوا ما فيها من مواعظ وزواجر، فتقبلوا على الله، وتكثروا من ذكره .

وقد ذكروا أَنَّ هذه الآية كانت سبب توبة عبد الله بن المبارك رحمته الله عندما سمعها، كما كانت أيضاً سبباً لتوبة الفضيل بن عياض، فقد سمعها وهو يرتقي الجدران إلى لقاء جارية يعشقها واعدته ليلاً، فلما سمع القارئ يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ رجع القهقري، وهو يقول: بلى والله، قد آن، وجعلتُ توبتي إليك جوار بيتك الحرام^(١) .

* * *

الصديقون والشهداء

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصْذِقِينَ أَقْرَبُوا اللَّهَ قَرَمًا حَسًّا يُضَعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عَدَدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيمِ ﴿١٩﴾﴾ .

ومن المعلوم أَنَّ طول الأمل وقسوة القلب يؤديان إلى البخل والامتناع عن إنفاق المال في الوجوه المشروعة، ولهذا عادت الآيات تحثُ المؤمنين والمؤمنات على الإكثار من الصدقات :

(١) انظر تفصيل ذلك في: تفسير القرطبي: ١٧/٢٥١ .

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي: إن المتصدقين والمتصدقات، وقد قرئ بها، وقرئ بتخفيف الصاد؛ أي: الذين صدّقوا الله ورسوله.
﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وأقرضوا الله بالصدقة قرضاً حسناً خالصاً له سبحانه.

﴿يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: يضاعف لهم ذلك القرض، ولهم ثواب حسن، وهو الجنة. وقرئ: (يُضَعَّفُ) بتشديد العين، و(يُضَاعَفُ) بالبناء للفاعل، أي: يضاعف الله ﷻ لهم ثواب صدقتهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٩﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: والذين آمنوا بالله ورسله أولئك عند ربهم وفي حكمه وعلمه هم الصديقون والشهداء، فهم في حكم الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء، المشهورين بعلو الرتبة، ورفعة المحل، وهم الذين سبقوا إلى التصديق، ورسخوا فيه، واستشهدوا في سبيل الله، وسمي مَنْ قُتِلَ مجاهداً في سبيله تعالى شهيداً، لأنَّ الله سبحانه وملائكته شهودٌ له بالجنة، أو لأنه حي لم يمِت، كأنه شاهد؛ أي حاضر، أو لأنَّ ملائكة الرحمة تشهده، أو لأنه شهد ما أعدَّ الله تعالى له من الكرامة^(١).

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: أولئك لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ونورهم، وحُذِفَت أداة التشبيه تنبيهاً على قوَّة المماثلة وبلوغها حد الكمال.
أو: أولئك هم المبالغون في الصدق، والقائمون بالشهادة لله بالوحدانية وسائر صفات الكمال، لهم الأجر والنور الموعودان لهم.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ صَدِيقٌ شَهِيدٌ، وَلَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ الْمَخْلُصِ فِي إِيْمَانِهِ، وَبَعِيدُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ الْمُنْهَمَكُ فِي الشَّهَوَاتِ الْغَافِلُ عَنِ الطَّاعَاتِ صَدِيقًا شَهِيدًا.

وقيل: الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿الصَّدِيقُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ ففرَّق بين الصَّدِيقِينَ وبين الشَّهَدَاءِ، فدلَّ على أنهما صنفان.

ولا شك أن الصَّدِيقَ أعلى مقاماً من الشَّهِيد، فقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكُوكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لَتَفَاضُلَ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالكفر والتكذيب أصحاب الجحيم فلا يفارقونها أبداً.

حقيقة الحياة الدنيا

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَبِيسٌ وَهِيَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَالِهٍ ثُمَّ يَهِيْجُ فَرَّتْهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴿١٦﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَعْرِفَةِ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَصْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٧﴾﴾.

وحتى لا تطول آمالهم في الدنيا، وتقسو قلوبهم بسبب التعلق بها والركون

إليها، زهّدتهم الآياتُ بها، وبيّنت لهم سرعة زوالها، فوصفتها بأسلوب التقرير المؤكد بالأوصاف التالية:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسْجُ فَرَّثَهُ مُمْصَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فهي.

- لعبٌ لا ثمره فيها سوى التعب والنصب.

- ولهوٌ يشغل الإنسان عما يفيدُه ويهمُّه.

- وزينةٌ برّاقةٌ خادعةٌ تلهي وتطغي.

- وتفاخُرٌ بينكم، يفخر بعضُكم على بعض بها، وفي «صحيح مسلم»

[٢٨٦٥]: عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ

على أحدٍ، ولا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أحدٍ».

- ومباهاة بكثرة الأموال والأولاد.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسْجُ فَرَّثَهُ مُمْصَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: مثل

الدنيا في سرعة زوالها كمثل غيثٍ أعجب الكفار الجاحدين لنعمة الله ما نبت

بذلك الغيث، أو أعجب الزّراع نباته، وسُمّي الزّراع كفاراً لسترهم البذر

بالأرض، ثم يبس فتراه مصفراً بعد خضرته ونضرتِه، ثم يتحطّم ويتكسر.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن كانت حياته لعباً ولهواً وزينة وتفاخراً وتكاثراً.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: من الله أيضاً؛ وهما لأوليائه وأهل طاعته،

وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله مع وصف المغفرة والرضوان بذلك،

إشارة إلى أنهما هما المقصد الأول.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ فلا تغتروا بها، ولا تطمئنوا إليها.

وما أكثر الآيات التي حذرت الناس من الاغترار بالدنيا، وبيّنت لهم

حقيقتها! منها: قوله تعالى: ﴿بَنَاتُ النَّاسِ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَضُكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقوله أيضاً: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فالدنيا حقيرة زائلة، لا ينبغي المفاخرة والمكاثرة بها والمسابقة إلى تحصيل متاعها، بل ينبغي أن تكون المسابقة والمنافسة للوصول إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٦١).

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سارعوا مسارعة المتسابقين إلى مغفرة من ربكم، وإلى جنة واسعة كبيرة عرضها كعرض السماء والأرض، فالمرادُ بيان سعة الجنة على طريقة التمثيل، فشُبِّهَتْ بأوسع ما علمه الناس من المخلوقات، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فالمسابقة إلى تحصيل متاع الدنيا وحطامها أمر مذموم، وأما المسارعة للوصول إلى مغفرة الله وفضله فأمر محمود مطلوب شرعاً لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله أيضاً: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: هيئت وخلقتم للذين آمنوا بالله ورسوله.

وفي ذلك أعظم رجاء وأقوى أمل، فلم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر. ثم قال:

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله تعالى لا بعمله، وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما من أحدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» فقليل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني ربي برحمة» [رواه مسلم (٢٨١٦)].

* * *

الرضا بالقدر

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

وقد يصاب الإنسان وهو في مضمار المنافسة ببعض البلايا والمصائب، أو يظفر ببعض حظوظ الدنيا ومتاعها، فعليه في كلا الحالين الرضا بقدر الله، فلا يعظم جزؤه على ما فاته من الدنيا عند المصاب، ولا فرحه بما نال من حظوظها ومتاعها:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كجذب ونقص في الزروع والثمار.

﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كالأوجاع والأمراض.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي: إلا مكتوبة مثبتة في علم الله تعالى

من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن علمه تعالى بالأشياء قبل خلقها سهل عليه، فهو يعلم ما كان وما يكون، وسِعَ علمه كل شيء.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابنا للأشياء قبل خلقها، وبتقديرنا للكائنات قبل وجودها، لكي لا تحزنوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا فرح البطر والأشر بما أنعم الله عليكم، فتكبروا، وتفخروا بها على الناس. وفي قراءة: (أناكم) أي: جاءكم.

فالمرادُ نفِي الأسي المانع عن التسليم لأمر الله تعالى، والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك ختم الآية بقوله:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: لا يحب الله كلَّ مختالٍ في نفسه، متكبر فخور على غيره، فإنَّ مَنْ فرح بالخطىء الدنيوية، وعظمت في نفسه، اختال وافتخر بها لا محالة، وغالباً ما يرضنُّ بها، ويبخل، ويأمر غيره بالبخل، وهو الحال الذي حذرتهم الآيات منه.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: لا يحبُّ الله المختالين، الذين يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل، فالله غني عنهم. وقرئ: (بالْبُخْلِ) بفتحيتين. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: ومن يعرض عن الإنفاق فإنَّ الله غني عنه وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره إعراض المعرضين عن شكره، ولا تنفعه عبادة الطائعين، فالأمر بالإنفاق لمصلحة المنفقين. وفي قراءة: (فإن الله الغني).

﴿وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْقَيْبِ﴾ أي: وليعلم الله مَنْ نيته في حمل السلاح الجهاد في سبيله، ونصرة رُسُلِهِ، وهو غائب عنهم، أو ينصرهم بإخلاص.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يحتاج إلى نصرتهم، وإنما كُلُّهُمْ بالجهاد ليشيهم عليه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٦).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فما أرسل الله بعد إبراهيم ﷺ رسولاً ونبيّاً إلا من ذريته.
 ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: فمن المرسل إليهم مهتدٍ إلى الحق، وكثيرٌ منهم خارجون عن الطريق المستقيم، وهذا يبين حكمته تعالى في تشريع الجهاد، وخلق أسباب القوة من سلاح وعتاد.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٧).

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول، حتى انتهت إلى عيسى ابن مريم، وأصل التقفية جعل الشيء خلف القفا.
 ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: وقَفَّناهم للتراحم والتعاطف فيما بينهم.

والرأفة في المشهور: الرحمة، ويراد بها إذا ذكرت مع الرحمة ما فيه ذرء الشر ورأب الصدع، وبالرحمة ما فيه جلب الخير، ولهذا نرى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة، لأنَّ درءَ المفساد أهم من جلب المصالح^(١).

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي: ابتدعوا رهبانية ما فرضناها عليهم، ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. وهي المبالغة في العبادة والانقطاع عن الناس، منسوبة إلى الرهبان.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، فهي كالنذر يجب الوفاء به، وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وهذا يبين لنا ضرورة الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو سبيل السلامة والاستقامة.

﴿فَتَأْتِيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِّنْهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا بالإيمان الصحيح، وثبتوا على الحق.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: كافرون، وهم الذين خالفوا ما جاء به عيسى عليه السلام.

البخل والحسد

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَعْمَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيُعْزِز لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿ثَلَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَصْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩).

وجهت الآيات في ختام السورة نداءها للمؤمنين تدعوهم إلى تقوى الله والالتزام بكتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: ضعفين من رحمته، فمضاعفة الثواب ليس لمن آمن من أهل الكتاب فقط، كما ذكر بعض المفسرين، قال سعيد بن جبیر: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة^(١).

وما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف لا يفيد الحصر، وهو الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وَلِيدَةٌ، فَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ. وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَآمَنَ بِي، فَلَهُ أَجْرَانِ. وَأَيُّمَا مَمْلُوكٍ أَدَّى حَقَّ مَوَالِيهِ، وَحَقَّ رَبِّهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ» [رواه البخاري (٥٠٨٣)].

قال ابن حجر بعد أن ذكر عدداً من الأحاديث في الذين يؤتون أجرهم مرتين: «وقد يحصلُ بمزيدِ التشُّع أكثر من ذلك، وكل هذا دالٌّ على أن لا مفهوم للعدد المذكور في حديث أبي موسى»^(٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: تمشون به على الصراط يوم القيامة كما سبق عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

أو: يجعل لكم نوراً في الدنيا تميزون به بين الحق والباطل كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

(١) انظر: تفسير ابن كثير للآية.

(٢) فتح الباري: ١٢٧/٩.

ولا مانع من الجمع بين المعنيين، فإله سبحانه ينور قلوب المتقين في الدنيا، وينور طريقهم على الصراط يوم القيامة.

﴿وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتفضل سبحانه عليهم بالنور والمغفرة.

ثم ردّ تعالى على أهل الكتاب الذين حملهم البخل على حسد الأمة المسلمة، بسبب ما تفضل الله عليها ببعثة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

فأخبر سبحانه أنهم لا يقدرُونَ على ردّ ما يعطي، ولا إعطاء ما يمنح، فقال:

﴿لَيْسَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿لَيْسَ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: لئلا يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرُونَ على شيء من فضله تعالى، فضلاً أن يتصرفوا فيه.

﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: وأن الفضل في ملكه وتصرفه لله سبحانه، يؤتيه من يشاء.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابِينَ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أَجْرَاءً، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غَدَوَةٍ إِلَى نَصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نَصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطِينَ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ، فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثرُ عملاً وأقلُّ عطاءً؟ قال: هل نقصتكم مِنْ حَقِّكُمْ؟ قالوا: لا، قال: فذلك فَضْلِي أوتيه مَنْ أَسَاءَ» [رواه البخاري (٢٢٦٨)].



تفسير سورة المجادلة الشَّكْوَى والنَّجْوَى فِي سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
السميع البصير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ﴾

بدأ الله تعالى سورة المجادلة بقوله :

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ﴾

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي : قد سمع الله قول
التي تراجعت الكلام في شأن زوجها معها ، وفي ما صدر عنه في حقها ،
وتشتكي إلى الله في شدة حالها وضعفها .

وقد شهدت السيدة عائشة رضي الله عنها سبب نزول هذه الآية فقالت : الحمد لله
الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ في
جانب البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ﷻ : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

زَوْجَهَا... الآية. [أخرج بعضه البخاري في صحيحه (كتاب الطلاق، باب ٢٣) تعليقاً، والنسائي (٣٤٩٠)، وتامه عند أحمد (٢٤٠٧٧) وغيرهم. وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها].

وقد أخرج أبو داود [٢٢١٤] وصححه ابن حبان [٤٢٦٥]: عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة، وفي رواية أبي عبيدة بن معن: أنها كانت تقول: أكل شباي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرث سني، وانقطع ولدي؛ ظاهر مني^(١).
﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: والله يسمع مراجعتكما الكلام، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بِأَقْوَالِكُم، بصيرٌ بأحوالكم.

ودلت الآية على إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، فصَحَّ أن كونه سميعاً بصيراً يفيدُ قدرًا زائداً على كونه عليمًا، وكونه سميعاً بصيراً يتضمَّنُ أنه يسمع بسمع، ويبصر ببصر، كما يتضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً وبين كونه ذا سمع وبصر، وهذا قول أهل السنة قاطبة. وذكر هذا ابن حجر في «فتح الباري» عن ابن بَطَّال، ثم قال بعده: «ولا يراؤ بذلك الجارحة، فإنَّ الله منزَّه عن مشابهة المخلوقات، فالله سبحانه يسمع المسموعات من دون الوسائط، وكذا يرى المرئيات من دون المقابلة وخروج الشعاع، فذات الباري مع كونه حيًّا موجوداً لا تشبه الذوات، فكذلك صفات ذاته لا تشبه الصفات»^(٢).

* * *

(١) فتح الباري: ٣٧٤/١٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

الظهار وحكمه

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاءَهُمْ مَا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ ﴿٦﴾﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٧﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٨﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أُنْزِلَتْ آيَاتُ يَنْبَأُ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاءَهُمْ مَا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ ﴿٦﴾﴾

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاءَهُمْ﴾ أي: الذين يقولون لنسائهم: أنتنَّ كظهور أمهاتنا، ويسميه الفقهاء: الظهار، ويعرفونه بأنه تشبيه الزوجة بقريب محرم عليه على التأييد، أو بعضه منه، يحرم عليه النظر إليه. وقرئ: (يُظَاهِرُونَ) بتشديد الظاء والهاء، و(يُظَاهِرُونَ) مضارع أظاهر.

﴿مَا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: ما نسائهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحت، وقرئ: (أمهاتهم) بالرفع، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم إلا اللائي ولدن المظاهرين، فالوالدات على الحقيقة هنَّ الأمهات، وألحق الشرع بهنَّ في الحرمة أزواج الرسول ﷺ والمرضعات.

﴿وَلَا يَنْهَى لِقَوْلِهِمْ مِنْكَ كَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإنهم ليقولون قولاً أنكره الشرع، وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحقيقة.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ مبالغ في العفو والمغفرة.

ودلت الآيات على أَنَّ الظهار حرام، بل قالوا: إنه كبيرة، لأنَّ فيه إقداماً على إحالة حكم الله تعالى وتبديله من دون إذنه، ومن ثمَّ وجبت فيه الكفارة.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي: ثم يعودون لنقض ما قالوا، أو يعودون لتحليل ما حرّموه على أنفسهم باستباحة الوطء، والملازمة، والنظر إليها بشهوة، أو يعزمون على الوطء.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ أي: فعلية إعتاق رقبة من قبل أن يستمتع المظاهر والمظاهر منها بالآخر، فلا يحلُّ ذلك قبل التكفير، فالتماس كناية عن الجماع، فيحرم قبل التكفير، وكذا دواعيه من التقييل ونحوه.

﴿ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ﴾ أي: ذلكم الحكم توعظون به حتى تتركوا الظهار، ولا تعودوا إليه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية.

وإذا امتنع المظاهر من الكفارة فللمرأة أن ترافعه إلى القاضي ليجبره على الكفارة، وإن مسَّ قبل أن يكفر استغفر الله، ولا يعود حتى يكفر.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ﴾ فمن لم يجد الرقبة فعليه

صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسًا، فإن أفطر بغير عُذرٍ لزمه الاستئناف، وإن أفطر لعذر ففيه خلاف.

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾ فمن لم يستطع الصوم لهرم أو مرضٍ مزمن، أو شهوة مفرطة، فعليه إطعام ستين مسكينًا.

﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: ذلك البيان للأحكام لتصدقوا بالله ورسوله ﷺ في العمل بأحكامه التي شرعها، ورفض ما كنتم عليه في الجاهلية.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: وتلك حدود الله التي لا يجوز تعديها، وللكافرين الذين لا يقبلونها عذاب أليم.

ثم بيّن تعالى حكم الذين يعاندون شرعه ولا يُدْعون لأحكامه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتَبُوا مَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: الذين يعادونهما ويشاققونهما، فإنَّ كلاً من المتعادين يكون في حدٍّ غير حدِّ الآخر، وورود المحادّة في أثناء ذكر الله من حسن الموقع ما لا غاية وراءه^(١).

﴿كِتَبُوا مَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: خذلوا وأذلّوا، أو أهينوا ولعنوا وأخذوا، كما فُعلَ بمن أشبههم ممن كان قبلهم، والمراد: سيكتبون، على طريقة قوله تعالى: ﴿أَفَأَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].

﴿وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: وقد أنزلنا آياتٍ واضحة لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر، وللكافرين بتلك الآيات عذاب يهينهم، ويذهب بعزّهم وكبرهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من القبائح والذنوب على رؤوس الأَشْهَاد تشهيراً بحالهم وتشديداً لعذابهم .

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي : أحاط الله به عدداً فلم يفته منه شيء ، ونسوه لكثرة ، أو لتهاونهم به ، ففيه مزيد توبيخ وتنديم غير التخجيل والتشهير .
﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه أمر من الأمور .

النجوى المحرمة

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَا عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْأَنرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ اللَّهُ الْمَصِيرَ ﴿٨﴾﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنْجَوُا بِالْأَنرِ وَالْعُدُونِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَوُا بِالْبَرِّ وَالْتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَرَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

ومما يؤكد شمول شهادته سبحانه وكمال علمه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي : ألم تعلم علماً يقينياً أن الله

يَعْلَمُ كُلُّ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ .

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي: ما يقع من تناجي ثلاثة يسارر بعضهم بعضاً إلا الله رابعهم، يعلم نجواهم، كأنه سبحانه حاضر معهم، ومشاهدهم. والنجوى: السرار، وهو مصدر، يقال: قوم نجوى، أي: ذوو نجوى، وقيل: النجوى ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئاً، ويتناجون به، والسرار ما كان بين اثنين^(١).

فسمع الله محيط بكل كلام، ومرّ معنا أنه سمع مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها.

﴿وَلَا حَسَمَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ فالله مع كل عددٍ قل أو كثر، يعلم ما يقولون سرّاً وجهراً، ولا تخفى عليه خافية، فالعدد غير مقصود، ولذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض.

﴿أَنْ مَّا كَانُوا﴾ فعلمه سبحانه ليس بقرب مكان، حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة، وقد تعالى عن المكان علواً كبيراً، ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أنّ المراد بهذه الآية معيّه علمه تعالى.

وقرئ: (ولا أكثر) بالرفع عطفاً على محل (من نجوى)، أو محل (لا أدنى) إن جعلت (لا) لنفي الجنس.

﴿ثُمَّ يُنْثَرُ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيجازيهم عليه.

وكما افتتح سبحانه الآية بالعلم ختمها بالعلم أيضاً فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وكان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودة، وكانوا إذا مرّ بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظنّ المؤمن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره، فإذا رأى ذلك خشيتهم، فترك طريقه عليهم، فهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا، وأصروا عليها فأنزل الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْبَجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسُوا الْمَصِيرُ﴾ (٨).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ﴾ والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، والهمزة للتعجيب من حالهم، ودلّت صيغة المضارع على تكرار عودهم إلى النجوى، وإصرارهم عليها.

﴿وَيَنْبَجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: ويتناجون بما هو إثم في نفسه، ووبال عليهم، وعدوان على المؤمنين، وتواص بمخالفة الرسول ﷺ، ولا شك أن مخالفته أمر قبيح وعظيم. وقرئ: (ويَتَجَوْن) مضارع انتجى.

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ وفي الحديث: أن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟! قال رسول الله ﷺ: «فقد قلت: وعليكم» [رواه البخاري (٦٢٥٦)].

والسام: يعنون به الموت بغير همز، وفي رواية مهموزاً ومعناه: تسأمون دينكم.

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: ويقولون في ما بينهم: هلاً يعذبنا الله بسبب ذلك لو كان محمد نبياً، لأنه يعلم ما نسرّه!

وجهلوا أنه تعالى حلیم، لا يعاجل من سبّه، فكيف من سب نبيه، ولا شك أن كشف سرائرهم، وفضح بواطنهم في هذه الآية معجزة لرسول الله ﷺ.

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَيَنْسُوا الْمَصِيرُ﴾ أي: يكفيهم عذاب جهنم يقاسون حرها، فبئس هذا المصير.

ثم قال تعالى يؤدب عباده المؤمنين ويحذرهم من التشبه باليهود والمنافقين:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجُّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجُّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجُّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَنِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: إذا تناجيتم في أنديتكم وفي خلواتكم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما يفعل الكفار المنافقون. وقرئ: (فلا تنتجوا) و(فلا تناجوا).
﴿وَتَنَجُّوْا بِالْبِرِّ وَالنَّقْوَىٰ﴾ أي: وتناجوا بما يتضمن خير المؤمنين، والاتقاء عن معصية الرسول ﷺ.

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم.
وفي الحديث: أن رجلاً سأل ابن عمر رضي الله عنه: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «يدنو أحدكم من ربه، حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، فيقرره ثم يقول: إنني سترت عليك في الدنيا فأنأ غفرها لك اليوم» [رواه البخاري (٦٠٧٠)].
ثم كشفت الآيات مصدر النجوى المحرمة:

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: إنما النجوى بالإثم والعدوان من الشيطان، لا من غيره، فإنه المريد لها، والحامل عليها.
﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: إنما يفعل ذلك ليحزن المؤمنين، وليس بضارهم شيئاً إلا بعلمه تعالى وقدرته أو بمشيئته.
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكثر المؤمنون بتناجي اليهود والمنافقين، وليتوكلوا على الله ﷻ، ويستعينوا به من الشيطان.
فالآية مواساة من الله تعالى للمؤمنين لإزالة حزنهم.

والجدير بالذكر: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهَى عَنِ التَّنَاجِي إِذَا كَانَ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ؛ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى رَجُلَانِ دُونَ الْآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ» [رواه البخاري (٦٢٩٠)].

ومثل التناجي في ذلك الحكم أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان يحزنه ذلك.

* * *

من آداب المجلس

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ اسْكُرُوا فَأَسْكُرُوا يَرْفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَتَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَحْوِكُمْ صَدَقَتْ ذَلِكَ حَبْرٌ لَكُمْ وَأَطَهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٢ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَحْوِكُمْ صَدَقَتْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٣﴾.

ولما نهى سبحانه عن المناجاة المحرمة بين لهم آداب الجلوس مع الآخرين، فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ اسْكُرُوا فَأَسْكُرُوا يَرْفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: توسّعوا في المجالس، وليفسح بعضكم لبعض، فإن الله يفسح لكم فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والقبر وغير ذلك.

وفي قراءة: (الْمَجْلِسِ) والمراد مجلس رسول الله ﷺ، فإنهم كانوا

يتضامون فيه تنافساً على القرب منه، وحرصاً على استماع كلامه، ولا شك أنَّ الآية عامة في كل مجلس من مجالس الخير، فإنَّ كلَّ واحد أحق بمجلسه الذي سبق إليه، وعليه أن يوسَّع لأخيه ما لم يتأذَّ بذلك، فيخرجه الضيق عن مجلسه.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ: أنه نهى أن يُقام الرَّجُلُ مِنْ مجلسِهِ، ويجلس فيه آخر، ولكنَّ تفسَّحوا وتوسَّعوا. وكان ابنُ عمر يكره أن يقوم الرجلُ مِنْ مجلسِهِ، ثم يُجلس مكانه. [رواه البخاري (٦٢٧٠)].

والحكمة من هذا النهي منع انتقاص حق المسلم المقتضي للضغائن، والحثُّ على التواضع المقتضي للمودة، وأيضاً فالناس في المباح كلُّهم سواء، فمن سبق إلى شيء استحقَّه، ومن استحقَّ شيئاً فأخذ منه بغير حق فهو غصب، والغصب حرام^(١).

﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَأَنشُرُوا﴾ أي: وإذا قيل: انهضوا للتوسعة على القادمين، فانهضوا ولا تتشاقلوا.

أو: إذا دُعِيتُم إلى القيام عن مجلس النبي ﷺ فقوموا، وهذا لأنَّه عليه الصلاة والسلام قد يؤثر أحياناً الانفراد لأداء وظائف تخصَّه.

وعمم الحكم ف قيل: إذا قال صاحب المجلس لمن في مجلسه: قوموا؛ ينبغي أن يُجاب. وقرئ: (انشُرُوا، فانشُرُوا) بكسر الشين.

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي: إن تنشُرُوا يرفع الله المؤمنين منكم في الآخرة لطاعتهم لله ورسوله ﷺ، وامتنال أوامره في قيامهم من مجالسهم، وتوسعتهم لإخوانهم، ويرفع الذين أُوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم درجات على من سواهم.

وفي الدرجات قولان:

أحدهما: في الدنيا في المرتبة والشرف.

والآخر: في الآخرة.

ويمكن أن يكون المراد الرفعة في الدنيا والآخرة، فالله سبحانه يرفعُ المؤمنَ بإيمانه أولاً، ثم بعلمه ثانياً.

وفي الحديث: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخَيْتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ» [رواه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حبان (٨٨)].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهو تهديد لمن لم يمثل لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقرئ: (يعملون) بالياء.

ثم حثتهم الآيات على تعظيم الرسول ﷺ وطاعته، وزجرتهم عن الإفراط في توجيه الأسئلة إليه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُؤُنُكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُؤُنُكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: إذا أراد أحدكم أن يناجي رسول الله ﷺ ويحدثه سرّاً، فعليه أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه، وتؤهله لمناجاة الرسول ﷺ.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: تقديم الصدقة خير لكم في دينكم، وأطهر لقلوبكم ونفوسكم، فهي طهرة لكم، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: إلا من عجز عن ذلك لفقره، فلا يكلف بها إلا من قدر عليها، وفي هذا الأمر تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام،

ونفعُ الفقراء، وزجرٌ عن الإفراط في السؤال، وتمييز بين المخلص والمنافق، ومحب الآخرة ومحب الدنيا، ثم رفع تعالى عنهم هذا التكليف بقوله:

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقْتُمْ فَأِذْ لَوْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم؟! فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به، ورخص لكم في المناجاة من غير تقديم صدقة، فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الله ورسوله ﷺ، فإن القيام بذلك يَجْبُرُ ما وقع من التفريط، والله خبيرٌ بما تعملون ظاهراً وباطناً.

وأشعرت الآية بأن إشفاقهم من استمرار الحكم عليهم ذنب تجاوز الله عنه.

* * *

حزب الشيطان

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنَى عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد أن بينت الآيات كمال علمه تعالى، وأنه يسمعُ الشكوى، ويعلم النجوى، عجبت من حال المنافقين، الذين كانوا يوالون اليهود ويناصحونهم، ويطلعونهم على أسرار المؤمنين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ألم تر إلى الذين والوا قوماً غضب الله عليهم، وهم اليهود.

﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: هم منافقون مذبذبون، لا هم من المؤمنين ولا من اليهود.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهؤلاء المنافقون يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم يكذبون، وهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في نار جهنم.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

أعد الله لهم عذاباً شديداً يوم القيامة، إنهم في ما مضى من الزمان قد أدمنوا سوء العمل، وأصرُّوا عليه.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ .

أي: جعلوا أيمانهم الكاذبة دون أموالهم وأنفسهم، فصدوا الناس عن سبيل الله، وظنَّ الذين لا يعرفون حقيقتهم صدقهم، ولهم عذابٌ فيه خزي وإذلال لهم، لأنهم امتنعوا اسمَ الله العظيم في أيمانهم الكاذبة. وفي قراءة: (إيمانهم) بكسر الهمزة، أي: إيمانهم الذي أظهره.

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن تدفع عنهم أموالهم وأولادهم شيئاً من عذاب الله عندما ينزل بهم.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكنون فيها أبداً.

لقد أدمنوا الأيمانَ الكاذبةَ، حتى إنَّهم يحلفون لله تعالى يوم القيامة كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١٨) .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: ويحسبون أنهم يخدعون الله بحلفهم .

﴿أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي: المبالغون في الكذب حتى تجاسروا على الكذب أمام الله علام الغيوب، فما أجهلهم !
ثم بينت الآيات سبب شدة جهلهم بالله تعالى :

﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٩) .

﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي: استولى عليهم الشيطان وملكهم، بحيث غفلوا عن الله، فلم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم، وذلك بما زين لهم من الشهوات .

يقال: حاذَ الإبل يحوذها، ساقها سوقاً عنيفاً، وفي الوزن: استفعل من المبالغة ما ليس في حاذ .

﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي: جنوده وأتباعه .
﴿أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخسران الذي لا غاية وراءه .

حزب الله تعالى

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾.

وكيف لا تكون خسارتهم جسيمة وهم يعادون الله ورسوله؟! :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ٢٠﴾

أي: أولئك معدودون في جملة مَنْ هو أذلُّ خلق الله تعالى من الأولين والآخرين .

ومن المعلوم أنَّ ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر، وعزة الله غير متناهية، فذلة مَنْ حادَّه كذلك .

وهو قدر كتبه الله تبارك تعالى وتعلق به منذ الأزل :

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾ .

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِكَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: كتب الله في لوح القدر، أو قضى الله ذلك قضاءً ثابتاً، فمن كُلف من الرسل بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يُؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة . وقرئ: (ورسلي) بفتح الياء .

﴿إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: إنَّ الله قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالب على أعدائه .

ثم بينت الآيات موالاة المؤمنين لله تعالى في مقابل موالاة المنافقين لليهود، فالإيمان والكفر لا يجتمعان في قلب واحد:

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لن تجد قوماً مؤمنين يوالون الكافرين، فمثل ذلك ممتنع، ولا يوجد بحال من الأحوال، فمن أحب الله ورسوله ﷺ امتنع أن يحبَّ عدوَّ الله ورسوله.

فإن قلت: قد أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاملتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحظورة؟.

قلت: المودة المحظورة هي مناصحتهم، وإرادة الخير لهم ديناً ودنيا على كفرهم، فأمّا ما سوى ذلك فلا حظر فيه^(١).

﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: ولو كان من حادَّ الله ورسوله أقرب الناس إليهم، وأمسَّ رحماً، فليس المراد بمن ذُكر خصوصهم، وإنما المراد الأقارب مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْفِكَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: أثبت الله تعالى فيها، وزينه فيها أيضاً، فهي مؤمنة موقنة مخلصه، والقلوب محل الإيمان وموضعه، كما قال

تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيَّمْنَ وَرَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وفي قراءة: (كتب) بالبناء للمفعول.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من عنده ﷻ، والمراد بالروح: نور يقذفه تعالى في قلب مَنْ يشاء من عباده تحصل به الطمأنينة، أو قواهم بنصر منه، أو بروح من الإيمان، فإنه سبب لحياة القلب، قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

هذا فضله تعالى في الدنيا، وأما فضله عليهم في الآخرة:

﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: أحلَّ عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم بعده أبداً، ورضوا عنه، فابتهجوا بما أنعم تعالى عليهم في الجنة.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ وهو تشریف عظيم لهم ببيان اختصاصهم به تعالى، ذكره في مقابل قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم المختصون بالفلاح في الدنيا والآخرة، أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية عدداً من الأقوال:

فقد أخرج ابن المنذر: عن ابن جريج: أنها نزلت في أبي بكر ﷺ صكَّ أباه قبل أن يسلم، لأنه سبَّ رسولَ الله ﷺ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم والطبراني وأبو نُعيم في «الحلية» والبيهقي في «سننه»: عن عبد الله بن شاذب: أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قال: جعل والدُ أبي عبيدة يتصدَّى له يومَ بدرٍ، وجعل أبو عبيدة يحيدُ عنه، فلمَّا أكثرَ قصدهُ

أبو عبيدة فقتله، قال الواقدي: كذلك يقول أهل الشام، وقد سألت رجلاً من بني فهر، فقالوا: توفي أبوه قبل الإسلام في الجاهلية^(١).
قال ابن حجر: «قُتِلَ أبوه كافراً يوم بدر، ويقال: إنه هو الذي قتله، ورواه الطبراني وغيره من طريق عبد الله بن شاذب مرسلاً»^(٢).
وقيل غير ذلك. والظاهر أنها متصلة في المنافقين الموالين لليهود، فحكمها عام، وإن نزلت في أناس مخصوصين، والله أعلم.



(١) روح المعاني: ٣٧/٢٨.

(٢) فتح الباري: ٩٣/٧.



تفسير سورة الحشر أَخَذَاتْ وَعَبَّرَ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحشر الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَبْعُوثُهُمْ خُصُومُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُجْرُونَ يُؤْتُهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاتَعَبُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْصَارِ ② وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْغُلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَبْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ⑤

بدأ الله تعالى سورة الحشر كما بدأ سورة الحديد فقال :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① .

وكرر الاسم الموصول (ما) هنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين في التسبيح .

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا
وَلَمْ تَكُنْ أَنْتُمْ كَارِهِينَ وَمَا نَعْتَهُمْ خَصْمَتَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَإِنَّهُمْ أُكَلِّمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ۝﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم بنو النضير؛ ففي
«صحيح البخاري» [٤٠٢٩]: عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة
الحشر، قال: قل سورة بني النضير.

وبوّب البخاري في «صحيحه» في المغازي فقال:

[١٤] باب حديث بني النضير، ومخرجُ رسول الله ﷺ في دية الرجلين،
وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ. قال الزهري عن عروة: كانت على رأس
سته أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد، وقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأحد.
وحديث عروة وصله عبد الرزاق في «مصنفه» عن الزهري عن عروة: ثم
كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من غزوة
بدر، وكانت منازلهم ونخلهم في ناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى
نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا
الحلقة، يعني: السلاح^(١).

﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي: في أول حشرهم إلى بلاد الشام، فاللام للتوقيت كالتي
في قولهم: كتبت لعشر خلون. ونبه بالأولية على أنهم أول محشورين من أهل
الكتاب من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، فهذا أول حشرهم، وآخر حشرهم
إجلاء عمر رضي الله عنه إياهم.

أو: أول حشرهم أنهم أخرجوا إلى خير، وآخره إخراجهم من خير.
ولعل في الآية إشارة إلى حشرهم واجتماعهم في أرض فلسطين في العصر

الحاضر وقاتل المسلمين لهم كما في الحديث الشريف: عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقْتُلْهُ» [رواه البخاري (٢٩٢٦)].

﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن يخرجوا لشدة بأسهم وقوة حصونهم.

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: وظنَّ اليهود أن حصونهم تمنعهم من بأس الله.

وفي الآية إشارة إلى تفاوت الظنِّين، فظنَّ اليهود قارب اليقين، ودلَّت الآية على فرط وثوقهم بما هم فيه، وذلك بتقديم الخبر على المبتدأ في ﴿مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾؛ فأفاد التقديم الحصر والاختصاص، فكأنه لا حصن آمن من حصونهم، وأكد هذا المعنى ضمير (هم) فالقوم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة.

﴿فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: أتاهاهم أمره تعالى من داخل أنفسهم لا من داخل حصونهم، فقذف في قلوبهم الرعب، فكانت النتيجة: ﴿يُخْرِجُونَ يَوْمَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما أقلَّت الإبل، كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها، وينزعون ما استحسنوه منها، ضنًّا بها على المسلمين وبُغضاً، وكان المسلمون في أثناء حصارهم يخربون ما يواجههم منها. وقرئ: (يخربون) بالتشديد.

﴿فَاعْتَرِبُوا بَيْنَ أُولَى الْأَبْصَارِ﴾ أي: فاتعظوا يا أصحاب العقول والبصائر، خذوا العبر والمواعظ من هذه الأحداث، واحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم فتعاقبوا بمثل عقوبتهم. ودلَّت الآية على جواز القياس.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدر

عليهم الخروج من البيوت والحصون لعذبهم في الدنيا بقتلهم وسيبهم، كما فعل بغيرهم، ولعل في ذلك إشارة إلى ما حدث لبني قريظة بعدهم. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ النَّارِ﴾ فالعذاب لازم لهم، فإن نجوا منه في الدنيا لم ينجوا منه في الآخرة. والسبب:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: عادوا الله ورسوله بمخالفة أمره تعالى وأمر رسوله ﷺ. ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ولكل من يشاق الله كائناً من كان عقاب شديد.

ولا يخفى ما في الآية من تعظيم لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام فمخالفته مخالفة لله تعالى. واضطر المسلمون في أثناء الحصار إلى قطع بعض نخلهم، فأنزل تعالى في ذلك قوله الكريم:

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ۝﴾

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: أي شيء قطعتم من نخلة أو تركتموها على حالها من غير أن تتعرضوا لها بشيء فقطعها وتركها بأمر الله تعالى ومشيبته. واللين: النخلة الكريمة.

﴿وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ولأجل أن يذلهم ويغيظهم أذن في قطعها، فهي تدل على جواز هدم ديار الكفار، وقطع أشجارهم إذا كان للمسلمين مصلحة في ذلك. وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾. [رواه البخاري (٤٠٣١)].

أموال بني النضير

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

وبعد أن بينت الآيات ما حلَّ بديارهم ومزارعهم من التخريب والقطع بينت ما حلَّ بأموالهم:

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي: وما ردَّ الله على رسوله ﷺ من يهود بني النضير فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً، ولا نالكم مشقة في تحصيله، فقد كانوا على ميلين من المدينة، فمشوا إليهم مشياً، ولم يركب رسول الله ﷺ فإنه ما ركب حماراً أو جملاً، فما حصلوا هذه الأموال بكدٍّ يمينٍ، وعرق جبينٍ.

وأشارت الآية إلى أنَّ الأموال التي تكون في أيدي الكفار لا حقَّ لهم فيها، فالله تعالى ما خلق الخلق إلا لطاعته وعبادته، وخلق لهم المال ليتوصلوا به إلى طاعته، فهو جديرٌ بأن يكون للمطيعين من عباده.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: وسننه تعالى جارية أن يسلِّط رسله على من يشاء من أعدائهم، ولهذا سلَّط الرسول عليه الصلاة والسلام على بني النضير.

﴿يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفعل ما يشاء كما يشاء.

فأموال بني النضير خاصةً لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء، وأمرها

مَفْوَضٌ إِلَيْهِ، فَقَسَمَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَلَمْ يُعِطِ الْأَنْصَارَ مِنْهَا شَيْئاً إِلَّا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ كَانَتْ بِهِمْ حَاجَةٌ، وَهُمْ: أَبُو دَجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرْشَةَ، وَسَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ الصُّمَّةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى حُكْمَ مَا أَفَاءَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ أَمْوَالِ الْكُفَّارِ عَلَى الْعُمُومِ بَعْدَ بَيَانِ حُكْمِ مَا أَفَاءَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِ بَنِي النُّضَيْرِ، وَلِذَا بَيَّنَّهُ دُونَ عَطْفٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فَقَالَ:

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَانَكُمْ الرَّسُولُ فَاخْذُوهُ وَمَا نَهَيْكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وذكره تعالى في افتتاح الكلام للتيمن والتبرك، فإنَّ الله تعالى ما في السماوات والأرض، وفيه تعظيم لشأن الرسول ﷺ، وقيل: سهمُ الله ثابتٌ، يصرفُ إلى بناء الكعبة المشرفة والمساجد، وكان سهمُ الرسول ﷺ له في حياته بالإجماع، وهو خمسُ الخمس، وكان ينفقُ منه على نفسه وعياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين، وسقط بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، والمرادُ بذِي الْقُرْبَى: قرابته؛ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، والباقي سهمُ لليتامى الفقراء، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل.

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ وقرئ: (دولة) بالرفع على أَنَّ (كَانَ) تامةً، أي: كي لا يقع دولة، وقرئ بفتح الدال، والدولة: اسم الشيء الذي يتداوله القوم بينهم، والمراد: حتى لا يكون الفيء الذي حقه أن يُعطى الفقراء ليستعينوا به في معاشهم، يتداوله الأغنياء بينهم ويتكاثرون به كما كان أهل الجاهلية، كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيسُ ربعها لنفسه، وهو المِرباع، ثم يصطفي بعد ما يشاء، فجعله الله لرسوله عليه الصلاة والسلام يقسمه كما أمره تعالى، ولهذا قال:

﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي: وما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه هو حلال لكم.

﴿وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾ وما نهاكم عن أخذه أو عن إتيانه فأنهوا عنه.

والآية وإن كانت في أموال الفيء فهي عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه، فيدخل فيها الفيء وغيره.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» [رواه البخاري (٧٢٨٨)].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: واتقوا الله في مخالفة رسوله، إن الله شديد العقاب.

المستحقون للفيء

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَتَّبِعُونَ فَصَلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
 إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
 أَخْرِجْنَا لِنُجَاهِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ
 رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

ثم بينت الآيات من له الحق في مال الفيء:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿٨﴾.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ﴾ سَمَّاهُم الله فقراء، مع أنه كانت لهم ديار وأموال؛ لأن المشركين في مكة استولوا عليها.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: خرجوا من ديارهم يطلبون الجنة ورضوان الله وينصرون الله ورسوله ﷺ.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وهجرتهم وجهادهم.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحَاجُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٩﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهم الأنصار الذين توطَّنوا المدينة، واتخذوها سكناً، وأخلصوا في الإيمان، وتمكنوا فيه قبل هجرة المهاجرين إليهم. أو: تبوَّءوا دار الهجرة ودار الإيمان، فالمدينة المنورة هي دار الهجرة ودار الإيمان.

﴿يُحَاجُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى إنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم، وأشركوهم في أموالهم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: ولا يجدون في صدورهم غيظاً وحسداً مما أعطى المهاجرون من فيء بني النضير دونهم، حيث خصَّ النبي ﷺ المهاجرين به، ولم يعط الأنصار شيئاً إلا ثلاثة كما ذكرنا، فطابت أنفس الأنصار بذلك مما يدل على شرف أنفسهم وكرمهم.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: ويؤثر الأنصار المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، ولو بهم فاقة وحاجة إلى ما يؤثرون به.

والإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحفظها الدنيوية رغبةً في الحفظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة^(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجلُ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله أصابني الجهدُ. فأرسلَ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنَّ شيئاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا رجلٌ يضيفُهُ الليلةَ يرحمه الله؟».

فقام رجلٌ مِنَ الأنصارِ فقال: أنا يا رسولَ الله، فذهبَ إلى أهله فقال لامرأته: ضيفُ رسولِ الله ﷺ لا تدخره شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوتُ الصبية، قال: فإذا أرادَ الصبيةُ العشاءَ فنؤميهن، وتعالى فأطفئ السراجَ، ونطوي بطوننا الليلةَ، ففعلت. ثم غدا الرجلُ على رسولِ الله ﷺ فقال: «لقد عَجَبَ اللهُ ﷻ - أو ضحك - من فلانٍ وفلانة» فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. [رواه البخاري (٤٨٨٩)].

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالفلاح.

والشُّحُّ: البخلُ مع الحرص. وفرَّق بعض العلماء بين البخل والشح فقال: البخل نفسُ المنع، والشُّحُّ هو الحالة النفسية التي تقتضي ذلك المنع، فهو من صفات النفس، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾.

وقال ابن عمر: ليس الشُّحُّ أن يمنع الرجلُ ما له، إنما الشُّحُّ أن تطمع عينُ الرجلِ في ما ليس له.

فهو الحرصُ الشديدُ الذي يحمل صاحبه على ارتكاب المحارم، كما ورد في الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «اتقوا الظلمَ، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَنْ كانَ قبلَكم، حملَهم على أنْ سَفَكُوا دماءَهم، واستحلَّوا محارِمَهم» [رواه مسلم (٢٥٧٨)].

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد المهاجرين والأنصار، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ يدعون لأنفسهم بالمغفرة وللمهاجرين والأنصار الذين سبقوهم بالإيمان، فالآية تمدحهم لمحبة الصحابة ومراعاتهم لحقوق سبق بالإيمان والأخوة في الإسلام.

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ولا تجعل في قلوبنا حقداً وحسداً للذين آمنوا.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ مبالغ في الرأفة والرحمة، فحقيق أن تجيب دعاءنا. وقد استوعبت هذه الآية جميع المؤمنين، ومدحتهم لمراعاتهم حقوق الأخوة في الدين، والسبق في الإيمان، وما أحسن ما استنبطه الإمام مالك رحمته الله من هذه الآية أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء، وهذه الآية تدل على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول وإبقاء العقار والأرض شملأ بين المسلمين أجمعين، كما فعل عمر رضي الله عنه ^(١).

* * *

كذب وخذلان

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِكَنَّ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنَّهُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَاتَلُوا بِأَنفُسِهِمْ فَلََمَّا كَفَرُوا قَالُوا لَا تَنْصُرُنَا اللَّهُ بَعْدَ مَا كُنَّا عَالَمِينَ ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَاتَلُوا بِأَنفُسِهِمْ فَلََمَّا كَفَرُوا قَالُوا لَا تَنْصُرُنَا اللَّهُ بَعْدَ مَا كُنَّا عَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ۞ .

وبعد أن بينت الآيات أحوال المؤمنين وأقوالهم الحسنة على اختلاف طبقاتهم، عَقَّبْتُ عليه ببيان أحوال الكفار والمنافقين الفاسدة لكي تكون عبرة لغيرهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ۞ وهم يهود بني النضير .

﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ۞ أي: لئن أُجبرتُم على الخروج والجلء لنخرجنَّ معكم، ولا نطيعُ أحداً يمنعنا من الخروج معكم أبداً .

﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ۞ أي: لنصرنكم على عدوكم .

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ في مواعيدهم المؤكدة بالآيمان الفاجرة .

وبعد أن كَذَّبهم الله تعالى جملةً بَيَّنَّ كَذِبَ أقوالهم على التفصيل:

﴿لَيْنَ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنَ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّكَ اللَّهُ الْغَلَبَ وَالْغَلَبُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْهَزِيمِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُصْرُوتُ ۚ﴾.

﴿لَيْنَ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَيْنَ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك، فابن أبي وأصحابه أرسلوا إلى بني النضير يُعلمونهم بذلك سرّاً، ثم أخلفوهم، وخذلوهم، ففي الآية دليل على أن القرآن الكريم هو كلام الله علام الغيوب. ثم أضافت الآيات تبشر المؤمنين:

﴿وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِيَنَّكَ اللَّهُ الْغَلَبَ وَالْغَلَبُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْهَزِيمِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُصْرُوتُ ۚ﴾ أي: ولئن نصرّوهم على الفرض والتقدير ليؤتِيَنَّ الأديار فراراً، ثم لا يُنصر المنافقون بعد ذلك، ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، أو ليهزم من اليهود ولا ينفعهم نصر المنافقين، وهي بشارة للمؤمنين مستقلة بنفسها.

ثم وصفت الآيات شدة جبنهم وخوفهم من المؤمنين:

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۚ﴾.

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فهم يرهبونكم ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله تعالى. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته.

﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۚ﴾.

﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي: لا يقاتلكم اليهود والمنافقون مجتمعين إلا في قرى محصنة، أو من وراء جُدُرٍ، تكون بينكم وبينهم، فلا يبرزون لقتالكم. وفي قراءة: (جدار). ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بأسهم من وراء الحيطان والحصون شديد،

فإذا خرجوا إليكم فهم أجبنُ الناسِ . أو عداوتهم فيما بينهم شديدة .

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي : تحسبهم مجتمعين متفقين وقلوبهم

متفرقة ، لا ألفة بينهم ، لاختلاف مقاصدهم وأهوائهم .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أن تشتت الأهواء يضعف قواهم ، ويذهب

ريحهم .

﴿كَشَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُوا وَيَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

أي : مثلهم كمثل يهود بني قينقاع الذين أجلاهم رسول الله ﷺ قبل يهود

بني النضير ، وكانوا أول يهود نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ .

﴿كَشَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ .

﴿كَشَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ﴾ أي : مثلهم أيضاً كمثل الشيطان إذ

أغرى الإنسان على الكفر إغراء الأمر للمأمر .

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فلما كفر تبرأ منه

مخافة أن يشاركه في العذاب ، لكن ذلك لن ينفعه .

﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ .

والخلود في النار جزاء الظالمين . وفي قراءة : (خالدان فيها) على أنه خبر (أن) .

وهذا مثلٌ ضربه الله ليهود بني النضير والمنافقين ، فبعد أن وعد المنافقون

اليهود بتأييدهم ونصرهم خذلوهم ، وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من الإنسان ،

الذي أغراه ، وزين له الكفر .

وذهب بعضهم إلى أن المراد بالشيطان إبليس ، وبالإسناد أبو جهل قائلاً له

الشيطان يوم بدر : ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ

الْفِتْنَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ [الأنفال: ٤٨].

وأخرج أحمد في «الزهد» والبخاري في «تاريخه» والبيهقي في «الشعب» والحاكم وصححه: عن علي كرم الله تعالى وجهه: أن رجلاً كان يتعبد في صومعته، وأن امرأة كان لها إخوة، فعرض لها شيء فأتوه بها، فزينت له نفسه فوقع عليها، فحملت، فجاءه الشيطان، فقال: اقتلها، فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت، فقتلها ودفنها، فجأوه - أي إخوة المرأة -، فأخذوه فذهبوا به، فبينما هو يمشي إذ جاءه الشيطان، فقال: أنا الذي زينت لك فاسجد لي سجدة أنجلك، فسجد له، ثم تبرأ منه، وقال له ما قال، فذلك قوله تعالى: ﴿كَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَنِ اكْفُرْ﴾^(١).

* * *

التقوى والمحاسبة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْمَايُزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَرْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

وعادت الآيات مرة ثانية تدعو المؤمنين إلى الاعتبار وأخذ الدروس والعبر

من هذه الأحداث، أمره لهم بتقوى الله والنظر في أعمالهم ومحاسبة أنفسهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: ولتنظر نفس أي شيء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة، عبّر عنه بغدٍ لدنوّه، ونكّره تفخيماً له وتهويلاً، وأفاد تنكير (نفس) عموم كل نفس، واستقلالها بالمسؤولية.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنّ الله خبير بما تعملون من المعاصي والآثام، والأمر بالتقوى تأكيدٌ للأمر الأول، وقد يكون الأمر الأول لفعل الواجبات، والثاني المشفوع بالوعيد والتهديد لترك المحرمات.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَأُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَأُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ولا تكونوا كالذين غفلوا عن الله، ولم يؤدوا حقوقه عليهم، فأنساهم العمل الذي يصلح أنفسهم، أو أنساهم العمل لخير أنفسهم، فإنّ الجزاء من جنس العمل.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ العريقون في الفسق الموغلون فيه.

ثم بيّن تعالى عدم تساوي الفريقين بالمصير والأحوال الآخروية:

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

بالنعيم والرضوان، وهذا الفوز ينفي التساوي، ويؤكد عدم وقوعه.

ثم وبّخت الآيات بأسلوب غير مباشر الذين لا ينتفعون بمواعظ القرآن الكريم، ولا يأخذون من قصصه العبر والمواعظ والدروس:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من شأن القرآن وعظمته أنه لو جُعِلَ في الجبل كما جُعِلَ في الإنسان، وأنزل عليه القرآن لخشع وتشقق من خشية الله تعالى .

فما أقبح حال المعرضين عن تعظيم القرآن، المتهاونين بحقوق الله عليهم، الذين لا ينتفعون بمواعظ القرآن وحكمه وأحكامه، ولا يعتبرون بما فيها من عبر ومواعظ! فهو تقبيحٌ لحال المعرضين عن القرآن الكريم بأسلوب التمثيل، ولهذا قال بعده:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بما فيها من مواعظ وعبر ودروس. ولا شك أن عظمة القرآن من عظمة مَنْ أنزله وهو الله ﷻ:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

أي: عالمٌ بما غاب عن الحسِّ، وما حضر فهو مرئي بالأبصار.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزه عن كل نقص والظاهر عن كل عيب.

﴿السَّلَامُ﴾ أي: ذو السلامة من النقائص، والمسلم على عبادته في الجنة.

أو: المسلم لعباده.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدق لرسله بإظهار معجزاته على أيديهم، ومصدق

المؤمنين بما وعدهم من ثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من عقاب.

أو: الذي وَحَّدَ نَفْسَهُ بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].
 أو: الواهب عباده الأمن يوم الفزع الأكبر. أو: ذو الأمن من الزوال.
 ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ أي: الرقيب الحافظ لكل شيء.
 ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب. أو الذي لا مثل له.
 ﴿الْجَبَّارُ﴾ أي: الذي جبر أحوال خلقه وأصلحها.
 أو: المنيع الذي لا ينال ولا ينافس في فعله. أو: العظيم.
 ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة.
 ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٤).

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾ الموجد المخلوقات بريئة من التفاوت بحسب الحكمة.
 أو: المميز بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة.
 ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد.
 ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الدالة على محاسن الصفات والمعاني.
 ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجامع لجميع الكمالات.
 ولهذه الآيات فضلٌ عظيمٌ كما دلت عليه عدَّةُ روايات؛ فقد أخرج الإمام أحمد [٢٠١٨٤] وقال محقق المسند: إسناده حسن، والدارمي [٣٤٢٥] والترمذي [٢٩٢٢] والطبراني في الكبير [٥٣٧/٢٠] وابن الضريس، والبيهقي في «الشعب»: عن معقل بن يسار، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قرأ ثلاثَ آياتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ مَاتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ».

وأخرج الديلمي: عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: أنه قال في هذه الآيات: «هي رقية الصَّداع»^(١).

أسأل الله تعالى أن ينفعنا بهدي القرآن الكريم، وأن يجعل فيه شفاءً لقلوبنا وأبداننا.



(١) انظر: روح المعاني: ٦٤/٢٨.



تفسير سورة الممتحنة البراءة والبيعة في سورة الممتحنة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تحريم موالاة الكافرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَتِيَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوِّ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَفْعَلَهُمْ أَزْهَامُكُمْ وَلَا أُولَدُكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة الممتحنة بنهي المؤمنين عن موالاة الكافرين، فإن ذلك من صفات المنافقين كما مر معنا في السورة السابقة، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَتِيَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ أي: توصلون

إليهم المودة، أو تلقون إليهم أخبار المؤمنين بسبب المودة التي بينكم وبينهم، فكانه تعالى يقول لهم: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: وحالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وهو الإسلام أو القرآن.

وسبب نزول هذه الآية: أنَّ النبي ﷺ لما أراد المسير إلى فتح مكة قال: «اللهم خُذِ الْعِيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قَرِيشٍ حَتَّى نَبْغِثَهَا فِي بِلَادِهَا».

فأرسل إليهم حاطب بن أبي بلتعة كتاباً يخبرهم بذلك، فأطلع الله النبي ﷺ عليه.

ففي الحديث الشريف: عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضةً خاخ، فإنَّ به ظعينةٌ معها كتابٌ فخذوه منها».

فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحنُ بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناسٍ من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟!».

قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله، إني كنتُ امرأً من قريش، ولم أكن من أنفسِهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابةٌ يحُمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببتُ إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرايتي، وما فعلتُ ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني.

فقال النبي ﷺ: «إنَّه قد صدقكم».

فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه.

فقال: «إنه شهد ببراءة، وما يدريك لعلَّ الله ﷻ اطَّلَعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم».

قال عمرو - أحد رجال السند -: ونزلت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾. [رواه البخاري (٤٨٩٠)].

قوله: كنت امرأً من قريش: أي: بالحلف، فهو حليفهم، ولم يكن من أنفسهم، وعذره أنه صنع ذلك متولاً أنه لا ضرر فيه.

﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَيَأْتِكُمْ أَن تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يخرجون الرسول وإياكم من مكة بسبب إيمانكم بالله.

وصيغة المضارع: (يخرجون) لاستحضار الحال الماضية.

﴿إِن كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي: فلا تتخذوهم أولياء والحال أنكم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي وطلب مرضاتي.

فهو تهيج لهم على ترك موالاة الكافرين، فالخطاب للمهاجرين خاصة، لأن القصة صدرت منهم، كما سبق في سبب النزول.

واستأنفت الآية مخاطبتهم على نهج العتاب والتوبيخ:

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾ أي: تسرون إليهم بالمودّة أو الإخبار بسبب المودة، والحال أنني أعلم منكم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومُطْلَعٌ رسولي على ما تسرون، فلا فائدة في الإسرار.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: ومن يفعل موالاتهم منكم فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

ودلّت الآية على أن من فعل ذلك لغرض دنيوي لا يكفر كما فعل حاطب حين قصدَ اتخاذَ اليدِ، ولم ينوِ الردة عن الدين، واختلفوا في الجاسوس الذي يدلُّ الأعداء على أحوال المسلمين، فإن كانت تلك عادته قُتِلَ، وهو صحيح لإضراره بالمسلمين، وسعيه بالفساد في الأرض^(١).

ثم ذكرتهم الآيات بمواقف المشركين القبيحة تنفيراً للمؤمنين عن موالاتهم:

﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ .

أي: إن يظفروا بكم يظهروا عداوتهم لكم، ويسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بما يسوءكم من القتل والشتم، وتمنوا أيضاً لو تكفرون.
ثم بيّن تعالى أن الأقارب والأولاد الذين يوالون المشركين من أجلهم لن ينفعوهم يوم القيامة:

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ .

﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يفرق الله بينكم، فيفر كل واحد من الآخر كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].
وفي قراءة: (يُفْصَلُ) مبنياً للمفعول، (يفصل) بالتشديد، و(نُفْصِلُ) بالنون.
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به.

البراءة

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَكُنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْرِضْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴿٦﴾﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ .

ثم حثهم الآيات على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين ببراءتهم من قومهم الكافرين:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: قد كان لكم خصلة حميدة جدية بأن يؤتسى ويقتدى بها في إبراهيم والذين آمنوا معه، عندما أعلنوا براءتهم من قومهم ومما يعبدون من دون الله.

وقرئ: (براء) على الوصف بالمصدر مبالغة.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: كفرنا بعبودكم، أو كفرنا بكم وبه، فلا نبالي بكم وبآلهتكم. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ أي: وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء حتى تؤمنوا بالله وحده، وحينئذ تنقلب العداوة والبغضاء ألفة ومحبة.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لكم أن تتأسوا بإبراهيم ببراءته من قومه إلا في استغفاره لأبيه، فلا تتأسوا به، فإن إبراهيم قد وعد أباه أن يستغفر له، ويبين له أنه لا يدفع عنه عذاب الله إن عصاه وأشرك به، ولهذا لما تبين لإبراهيم أن أباه أقام على الكفر وأصر عليه تبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۝﴾ [التوبة].

ثم ذكرت الآية تمة قول إبراهيم والمؤمنين معه:

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: ربنا عليك توكلنا لا على غيرك، وإلى طاعتك وأمرك رجعنا، وإليك المصير والمرجع يوم القيامة.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا ويعذبونا.

أو: لا تظهرهم علينا، فيفتنونا بذلك، ويرون أنهم ظهروا علينا لأنهم على الحق.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واغفر لنا ما أسلفنا، إنك أنت العزيز الذي لا يُغلب، ولا يضام من لجأ إليك، الحكيم في ما أمر وقدر. وتكرير النداء: (ربنا) للمبالغة في الدعاء والتضرع.

وعادت الآيات مرة ثانية تحث المؤمنين على الاتساء بإبراهيم ومن معه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ الْكَرِيمُ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فمن يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم، فإن تركه من دلائل عدم الإيمان بهما. وقرئ: (إسوة) بكسر الألف.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفِيُّ الْكَرِيمُ﴾ وهو وعيد يوعد الكفار بمثله.

ولما رأى سبحانه منهم التصلب في الدين، والتشدد له، في معاداة آبائهم وأبنائهم وأقربائهم، أنزل عليهم تطيباً لقلوبهم:

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ بهدايتهم إلى الإيمان، ودخولهم في الإسلام.

وأنجز سبحانه وعده الكريم عند فتح مكة، فأسلموا، وعادت المودة إليهم، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله قدير يقدر على قلب القلوب وتغيير الأحوال، ويسهل أسباب المودة، والله يغفر لمن أسلم من الكفار ويرحمهم.

* * *

بر وعدل

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبُوءُوا وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩).

ثم رخص سبحانه للمؤمنين في صلة أقاربهم الكفار الذين لم يعادوا المسلمين ولم يقاتلوهم، وفي برهم أيضاً، فقال:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبُوءُوا وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨).

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبُوءُوا وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: وتعاملوهم بالعدل في ما بينكم وبينهم.

وفي الحديث الشريف: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك» [رواه البخاري (٢٦٢٠)].

وفي رواية: قال ابن عيينة - أحد رجال السند - : فأنزل الله فيها: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾.

وقولها: (راغبة) أي: في شيء تأخذه وهي على شركها، ولهذا استأذنت أسماء في أن تصلها، ولو كانت راغبة في الإسلام لم تحتج إلى إذن.

وهذا يدل على سمو مبادئ الإسلام وإنسانيتها، حتى إن ابن حجر نقل عن

الخطابي قوله: فيه أنَّ الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويُستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلماً^(١) بشرط أن يكونا من أهل الذمة لا من أهل الحرب.

قال الآلوسي رحمته الله: «وفيه دليل على جواز التصديق على أهل الذمة دون أهل الحرب، وعلى وجوب النفقة للأب الذمي دون الحربي لوجوب قتله»^(٢).
والجدير بالذكر هنا أنَّ جواز التصديق مقيد بغير أموال الزكاة فلا تُصرف إلا للمسلمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكُلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْ» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وعَدَّ النبي ﷺ في الحديث الصحيح الإمامَ العادل من الأصناف السبعة الذين يظْلُهُمُ اللهُ في ظله يوم لا ظل إلا ظله. [انظر: الحديث الذي رواه مسلم (١٠٣١)].

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣).

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: أعانوا على إخراجكم.

﴿أَن تَوَلَّوهُمْ﴾ أي: إنما ينهاكم الله عن أن تتولاهم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية موضع العداوة، أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب.

فمؤالة الكافرين من كبائر الذنوب. ودلَّ استعمالُ أداة الحصر (إنما) على

(١) فتح الباري: ٥/٢٣٤.

(٢) روح المعاني: ٢٨/٧٥.

المبالغة في وعيد المخالفين؛ فهو كقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ذكر بعض المفسرين أنَّ معنى الآية والتي قبلها منسوخٌ بآية السيف، لكنَّ ابن جرير قال: لا وجه لادِّعاء النسخ، واحتجَّ بحديث أسماء وأمها الذي سبق^(١).

* * *

تحريم المؤمنات على الكفار

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَسْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُنْسِكُوا بَعْضُ الْكُفَّارِ وَسَأَلُوا مَّا أَنفَقْتُمْ وَلَيْسَتِلَا مَّا أَنفَقُوا ذَلِكَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ نَفْسٌ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَابْتُمْ فَنَاقُوا الدَّيْبَ دَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

هكذا قسمت الآيات الكُفَّار إلى قسمين، فالمحاربون للمسلمين الذين يمكرون بالإسلام والمسلمين سرّاً وعلناً، ويعادونهم، ويظاهرون عليهم أعداءهم، لا تجوزُ موالاتهم، ولا صلتهم، ولو كانوا أقرباء للمسلمين، أما الكفار غير المحاربين للمسلمين كأهل الذمة، فلا تجوز موالاتهم أيضاً، ولكن رخص الإسلامُ بصلتهم وبرهم، ولا شك أن المصاهرة والزواج من مظاهر الموالاتة، ولهذا أضافت الآيات تبين حكم من يُسلم من نساء الكفار، وتقرر تحريمهن على الكفار:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَنْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُنْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُفَّارِ وَتَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: فاخبروهن بما يغلبُ على ظنكم صدق إيمانهن.

ويبدو أن النبي ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية وبما بعدها في آية بيعة النساء، ففي حديث صلح الحديبية: أن رسول الله ﷺ لما كاتب سهيلَ بن عمرو يومئذٍ كان في ما اشترط سهيلُ بن عمرو على النبي ﷺ ألا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا، وخليتَ بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك، وامتعصوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فردَّ يومئذٍ أبا جندلٍ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأتِهِ أحدٌ من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة وإن كان مسلماً.

وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ - وهي عاتق - فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

قال عروة: فأخبرتني عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ...﴾ قالت عائشة: فمن أقرَّ بهذه الشروط منهم قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتُك» كلاماً يكلِّمها به، والله ما مسَّت يده يد امرأة قط في المبايعة، وما بايعهن إلا بقوله. [رواه البخاري (٢٧١٢ - ٢٧١٣)].

وفي رواية ثانية لكيفية هذه البيعة أخرجها ابن المنذر والطبراني في «الكبير» وجماعة بسند حسن عن ابن عباس: أنه قال في كيفية امتحانهن: كانت المرأة إذا جاءت النبي ﷺ حلفها عمرُ ﷺ بالله ما خرجت رغبةً بأرضٍ عن أرضٍ،

وبالله ما خرجت مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ، وبالله ما خرجت التماسَ دُنْيَا، وبالله ما خرجت إلا حَبًّا لَهِ وَلِرَسُولِهِ^(١).

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَا﴾ أي: هذا الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهم، فهو المَطَّلَع على ما في قلوبهم.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: فإن أقرن بالإيمان، وظهر لكم أمارات صدقهن، فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار، لأنَّ الله لم يُبَيِّحْ مؤمنةً لكافر.

والجملة الأولى: ﴿لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لبيان الفرقة الثابتة، وتحقيق زوال النكاح الأول، والثانية: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لبيان ما يستأنف ويستقبل من النكاح، ويشعر بذلك التعبير بالاسم في الأولى والفعل في الثانية^(٢).

قال ابن كثير في تفسير الآية: هذه الآية هي التي حرَّمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوَّجَ المشركُ المؤمنةَ، ولهذا كان أمرُ أبي العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة، وهو على دين قومه، فلَمَّا وَقَعَ في الأسر يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادةٍ لها كانت لأُمِّها خديجة، فلَمَّا رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقَّةٌ شديدة، وقال للمسلمين: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ تَطْلِقُوهَا لَهَا أُسِيرَهَا فافعلوا» ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث إليه ابنته، فوفى له بذلك، وصدق في ما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر سنة اثنتين، فأقامت في المدينة إلى أن أسلمَ زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردَّها إليه بالنكاح الأول، ولم يُحْدِثْ صداقاً.

وروي: أنه عليه الصلاة والسلام ردَّ ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد.

(١) روح المعاني: ٧٦/٢٨.

(٢) روح المعاني: ٧٦/٢٨.

والذي عليه الأكثرون أنه متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه، وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح، وإن شاءت فسخته وذهبت فتروجت.

لكن هذا القول الثاني يتعارض مع صريح قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ جِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾ ولعله في حال إسلام الزوج.

﴿وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ أي: وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور.

ثم أباح سبحانه للمؤمنين تزوج هؤلاء المهاجرات فقال:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجْرَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، فما دفعتم

لأزواجهن لا يقوم مقام مهورهن، فالإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار، فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وبه قال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك والشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة: تقع الفرقة باختلاف الدارين^(١).

فأبو حنيفة لا يرى العدة على المهاجرة، ويبيح نكاحها من غير عدة، إلا أن تكون حاملاً فحتى تضع حملها.

﴿وَلَا تُمَسِّكُوا بِعَصَمِ الْكَافِرِ﴾ أي: ولا تمسكوا بما يعتصم به الكافرات من

عقد النكاح، فالآية تنهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، والاستمرار معهن، والمراد المشركات عموماً الباقيات في دار الحرب وعابدات الأوثان، فلا يجوز ابتداء نكاحهن، فالآية خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب. وفي قراءة: (ولا تمسكوا) بالتشديد.

﴿وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا﴾ أي: وأسألوا ما أنفقتم من مهور نسائكم

اللاحقات بالكفار، وليسأل المشركون الذين لحقت أزواجهم بكم ما أنفقوا من مهور أزواجهم المهاجرات.

﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بَيْنَكُمْ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذلك المذكور حكم الله جعله

بينكم حاكماً، والله عليم حكيم يشرع ما تقتضيه الحكمة.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۖ وَأَنْتُمْ أَلَدَىٰ اللَّهِ أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾
 أي: إذا فرت إلى الكفار امرأة، ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها مهرها، ويدفع إلى المسلم الذي فاته مهر زوجته.
 فمعنى (عاقبتهم) جاءت عقبتكم؛ أي: نوبتكم في أداء المهر، وقيل: أصبتم من الكفار عقي، وهي الغنيمة، فاتوا بدل الفائت من الغنيمة.
 ﴿وَأَنْتُمْ أَلَدَىٰ اللَّهِ أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان بالله يقتضي تقواه.

البيعة

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَاعِعَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَنٍ بِفَرِيضَةٍ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْيِبَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَاعِعْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُؤُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣).

ثم بينت الآيات بيعة النساء التي كان النبي ﷺ يمتحن بها النساء المهاجرات:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَاعِعَنَّكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَنٍ بِفَرِيضَةٍ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْيِبَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَاعِعْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَاعِعَنَّكَ﴾ أي: مبايعات لك.

﴿عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَرْفُقَ وَلَا يَزْنِيَ وَلَا يَقْتُلَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ بؤاد أو إسقاط حمل بعد ظهور التخلق.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَيْنِ يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ أي: ولا تلحق المرأة بزوجها غير ولده، وذلك أن تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيْهِ وَأَرْجُلَيْهِ﴾ لأن الولد اللقيط يلتقط بيديها، وتدعي أنها ولدته، وسقط بين رجليها، وقيل: المراد بالبهتان السحر، أو المشي بالنميمة والسعي بالفساد. ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: في جميع ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه، ومنه النوح على الموتى.

ففي الحديث: عن أم عطية ؓ قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها فقالت: أسعدتني فلانة فأريد أن أجزيها، فما قال لها النبي ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها. [رواه البخاري (٤٨٩٢)].

والإسعاد: قيام المرأة مع الأخرى في النياحة، ولا يستعمل إلا في البكاء والمساعدة عليه.

وفيه دليل على أنَّ الطاعة الواجبة لا تكون إلا في الأمر المشروع. والجدير بالذكر هنا: أنَّ النبي ﷺ بايع الرجال أيضاً على مثل بيعة النساء، فعن عبادة بن الصامت ؓ قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «أتبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا؟ - وقرأ آية بيعة النساء - فمن وقى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئاً من ذلك فستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له» [رواه البخاري (٤٨٩٤)].

وكان رسول الله ﷺ يأتي النساء بعد صلاة العيد فيذكرهنَّ بأمر هذه البيعة، فعن ابن عباس ؓ قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان ؓ، فكلُّهم يصلِّيها قبل الخطبة ثم يخطبُ بعدُ، فنزل نبي الله ﷺ

فكأنني أنظرُ إليه حينَ يجلسُ الرجال بيده، ثم أقبل يشقُّهم حتى أتى النساءَ مع بلالٍ فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعَنَّكَ...﴾ حتى فرغ من الآية كلها. [رواه البخاري (٤٨٩٥)].

ويبدو أنَّ المبايعة أيضاً حدثت أكثر من مرة، فقد أخرج الإمام أحمد [٢٦٨٨٥] والنسائي [١٥٢/٧] وابن ماجه [٢٨٧٤] والترمذي [١٥٩٧] وصححه: عن أميمة بنت رقية قالت: أتينا النبي ﷺ لنبايعه، فأخذَ علينا ما في القرآن أن لا نشركَ بالله شيئاً حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقال: «في ما استطعنَّ وأطقتنَّ» قلنا: الله ورسوله أرحمُ بنا مِن أنفسنا، يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافحُ النساءَ، إنما قولي لمئة امرأة كقولي لامرأة واحدة». ﴿فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وعادت الآيات في خاتمة السورة تنهى المؤمنين عن موالاة الكافرين كما فعلت في فاتحتها:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، أو هم عامة الكفار، فكيف توالونهم وقد غضب الله عليهم واستحقوا منه الطرد والحرمان؟! . ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أي: قد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها لكفرهم بها كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير. أو: كما يئس الكفار الأحياء أن يرجع إليهم أصحاب القبور. والمراد وصفهم بكمال اليأس من رحمة الله في الآخرة. أسأل الله أن لا يجعلنا منهم وأن يثبتنا على الإيمان.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
المقت الخالص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الَّذِينَ يُفْعَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانْتَهُم بَيْنَهُ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمُ
لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ قُلْ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمَرَ أَنْتُمْ نَاقِلُونَ ﴿٥﴾ أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خٰفِينَ ﴿٦﴾ أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّ اللَّهَ
بِغَيْبِ قُلُوبِهِمْ شَٰعِرٌ ﴿٧﴾ أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُعْلِنُونَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٨﴾

افتتح الله تعالى سورة الصف كما افتتح سورة الحشر فقال:

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾

ثم حثَّهم سبحانه على الثبات في الجهاد بأسلوب فيه عتاب للمتقاعسين عنه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢﴾

أي: لأي شيء تقولون: نفعل، ما لا تفعلون من الخير والمعروف.

و(لِمَ) مركبة من اللام الجارة و(ما) الاستفهامية قد حذفت ألفها تخفيفاً.

ففي الآية إنكار على من يعدّ وعداً ويقول قولاً لا يفي به، ففيها إشارة إلى الذين قال ﷺ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء].

قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله ﷻ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته، الذين خالفوا بالإيمان، ولم يقرؤا به، فلمَّا نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

أي: عظم بُغضاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. والمقت: أشدُّ البُغْضِ، ونصبه على التمييز للدلالة على أن قولهم هذا مقت خالص.

ولعل النبي ﷺ نهى أصحابه عن تمنى لقاء العدو لهذا المعنى، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تمنّوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا» [رواه البخاري (٣٠٢٦)].

وهذه الآية - كما قال القرطبي - توجب على كل من ألزم نفسه عملاً في طاعة الله أن يفي به، قال النخعي: ثلاث آياتٍ منعتني أن أقصّ على الناس:

١ - ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].

٢ - ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]^(٢).

(١) تفسير ابن كثير لسورة الصف.

(٢) تفسير القرطبي: ٨٠/١٨.

ثم بين تعالى ما هو مرضي عنده بعد بيان ما هو ممقوت عنده فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ ۝﴾

أي: إن الله يحب الذين يصفون أنفسهم عند القتال صفًا كأنهم بنيان مرصوص، لاصق بعضه ببعض، ليس فيه فرجة ولا خلل.

والمراد أن الله يحب من يثبت بالجهاد في سبيله، ويلزم مكانه كثوث البناء المرصوص، فالله تعالى يعلم عباده المؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم، فهو كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فلا يجوز للمجاهد أن يترك مكانه في ميدان القتال إلا لضرورة تعرض للإنسان، أو لتنفيذ أمرٍ أمر به ومهمة كلف بها.

ثم حذرتهم الآيات أن يكونوا مثل بني إسرائيل الذين آذوا موسى عليه السلام بمعصيته ومخالفة أمره عندما أمرهم بقتال عدوهم:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي: لم تؤذونني بالمخالفة والعصيان، والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً أنني رسول الله إليكم، فإن علمكم هذا يلزمكم بطاعتي، والمصارعة إلى تنفيذ أمري.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: لما أعرضوا عن الحق، وأصروا على العصيان؛ صرف الله قلوبهم عن الحق والصواب.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة، المصريين على الضلالة.

وأجملت الآية هنا ما فصلته في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿يَنْقُورُ ادْخُلُوا

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْيَارِكُمْ فَتَنَقِلُوا خَسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ عِلْبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافَرَّقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ [المائدة].

* * *

بشرى عيسى عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتٍ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

ثم أضاف الآيات تحذيراً آخر بأسلوب غير مباشر فبينت المكانة الرفيعة للنبي ﷺ بين الأنبياء:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتٍ ﴿١﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ فعيسى عليه السلام قام في الملأ من بني إسرائيل مبشراً بسيدنا محمد ﷺ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وفي الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ» [رواه البخاري (٣٥٣٢)].

وأشهرها: محمد، وقد تكرر في القرآن، وأما أحمد فذكر فيه حكاية عن قول عيسى عليه السلام، فأما محمد فمن باب التفعيل للمبالغة، وأما أحمد فمن باب التفضيل...

قال عياض: كان رسول الله ﷺ أحمد قبل أن يكون محمداً، كما وقع في الوجود، لأن تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة، وتسميته محمداً وقعت في القرآن العظيم، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس، وكذلك في الآخرة يحمد ربه، فيشفّعه فيحمده الناس. وقد خُصَّ بسورة الحمد، وبِلِوَاء الحمد، وبالمقام المحمود^(١).

وروى الإمام أحمد [١٧٠٨٥] والطبري [٢٧/٢٨] والحاكم [٦٠٠/٢]: عن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأيت، وكذلك أمهات النبيين يرين»^(٢).

وقال أبو أمامة: قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأيت أمي أنه خرج منها نوراً أضاءت له قصور الشام» [رواه أحمد في المسند (١٧٠٨٦)].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ [الأعراف: ٥٧].

وذكرنا ثمة أنه رغم التغيير والتحريف اللذين لحقا بالتوراة والإنجيل، وخاصة ما يتصل بالنبي ﷺ والإسلام، بقيت فيهما بعض الكلمات التي لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ ورسالة الإسلام، منها ما ورد في الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة (٧ - ٩): «ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمدا (Himada) لكل الأمم، وسوف أملاً هذا البيت بالمجد».

(١) فتح الباري: ٥٥٥/٦.

(٢) المرجع السابق: ٥٨٣/٦.

قال الدكتور البروفيسور داود بنيامين كلداني قسيس الكنيسة الكاثوليكية الآشورية، والذي أسلمَ بعد ذلك، وسمَّى نفسه عبد الأحد داود: «لقد قمتُ بترجمة هذه الفقرة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنة عمِّ لي، والنسخةُ هذه باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنكليزية للكتاب المقدس، والتي نجد أنها ترجمت الأصل العبري لكلمة (حمدا) إلى الأمنية، وكلمة (شالوم) إلى الإسلام»^(١).

ثم بعد استعراض معنى كلمة (حمدا) باللغة العبرية وجد أنَّ لها معنى آخر وهو الحمد، فقال: «وأيًّا من المعنيين نختارُ، فإن الحقيقة الناصعة بأن كلمة (أحمد) هي الصيغة العبرية لكلمة (حمدا)، وهذا التفسير هو تفسير قاطع لا ريب فيه».

ثم قال: «وفي إنجيل يوحنا الذي كُتب باليونانية استعمل الاسم (باراكليتوس) وهو صيغة وثنية لم تكن معروفة في دنيا الأدب الإغريقي لكلمة (بيراكليتوس) والتي توافق وتطابق اسم (أحمد) في معناه ومغزاه، وفي إشرافه وسموه وتمجيده، وفي مقامه الم محمود الأعلى، لا بد أن تكون ترجمتها باليونانية (حمدا) أو لعلها (حميدة) بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح»^(٢).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي: فلما جاءهم عيسى بالبينات الظاهرة الدالة على صدقه كذبوه وقالوا: هذا سحر مبين.

ثم عقبَت الآيات على إعراضهم وعنادهم بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يُدعى إلى الإسلام، فيعرض عن الدعوة، ويضع التكذيب موضع الإجابة.

(١) محمد في الكتاب المقدس، ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى الحق لسوء كسبهم واختيارهم.

ظهور الإسلام

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم أظهرت الآيات شدة عداوة اليهود والنصارى لدعوة الإسلام، ومحاولتهم طمس نوره:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بكلامهم، وذلك بطعنهم في الإسلام، وافترائهم عليه.

وما أكثر ما يصدر عنهم من محاولات لتشويه الإسلام، وطمس حقيقته الناصعة، وتشويه صورته الجميلة، لكي يصدّوا الناس عنه، ويتولى كِبَر هذه المحاولات المستشرقون وزعماء التنصير والتكفير، يستخرون لهذه الغاية كل ما لديهم من وسائل الإعلام الموجهة إلى بلاد المسلمين آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والله مظهره ومبلّغه غايته بنشره وإعلانه في الآفاق ولو كره الكافرون ذلك إرغاماً لهم.

وقرئ (متّم) بالتونين (نوره) بالنصب على المفعولية لـ (متّم).

فالإسلام لا يزال بحمد الله تعالى قائماً في الساحة، ثابتاً ظاهراً على كل دين، يضيء الدرب للحائرين بنوره وسنائه وجماله وبهائه، والدعوة الإسلامية مستمرة بحمد الله حتى في عقر دورهم وقلب بلادهم، رغم ضعف المسلمين،

وكيف لا يكون ظاهراً غالباً وهو الدين الحق، الذي دعا إليه إمام النبيين وخاتم المرسلين ﷺ المؤيد بالمعجزة القرآنية الخالدة.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٦١﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ليعليه على جميع الأديان، ولعمري لقد فعل، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام^(١).

أو ليظهره بالحجج والبراهين، ومنه الظهور بالقتال عندما يتمسك المسلمون به ويلتزمون بأحكام شريعته.

وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد أن يكون أهل الإسلام عالين غاليين، ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان، قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام^(٢)؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلْسَاعَةِ فَلَا تَمْتَرُكُ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١].

وذكرنا عند تفسير هذه الآية الحديث الشريف: عن أبي هريرة ؓ: أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب - وفي رواية: الجزية - ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» [رواه البخاري (٣٤٤٨)].

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ومن يهود ونصارى وغيرهم، فالإسلام دين التوحيد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُنِيرَ نَوْرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

* * *

(١) تفسير النسفي: ٢٥٤/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ٨٦/١٨.

التجارة والجهاد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَمٍ تُنَجِّمُكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَامَسَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

قدَّر الله تعالى أن يكون ظهور الإسلام وتمكينه في الأرض بتكليف المسلمين بالجهاد، فشرَّعه وأنزل به آيات كثيرة؛ منها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَمٍ تُنَجِّمُكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

وفي قراءة: (تنجِّيككم) بالتشديد، وإنما سماه تجارة لأنهم يربحون بها رضا الله تعالى، ويفوزون بجنته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْسِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْسِلُونَ وَيُقْلِلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِهِ﴾ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبة: ١١١﴾.

﴿تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: تجمعون بين الإيمان والجهاد. وجيء بلفظ الخبر، والمراد به الأمر للإيذان بأن ذلك ممَّا لا يترك، فالواجبُ الثباتُ و الدوامُ على الإيمان والجهاد.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي : إذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم .
 ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
 أي : ومساكن ظاهرة زكية مستلذة حسنة بذاتها، ويزيد في حسناتها أنها في جنات الإقامة الدائمة، ذلك الفوز الذي لا فوز وراءه.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي : ولكم إلى ما ذكر من النعم الآجلة
 نعمة أخرى عاجلة محبوبة، نصر من الله على أعدائكم وفتح عاجل، هو فتح مكة، أو كل فتح فتح الله عليهم .
 ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : وبشِّر يا رسول الله المؤمنين بهذه البشارة وبالريح في التجارة.

وبعد أن بشرهم سبحانه وشدَّ من عزائمهم حصَّهم على أن يكونوا أنصارَ
 الله في جميع أحوالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ﷺ كما استجاب الحواريون
 لعيسى عليه السلام :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
 الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَاثْمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عِدُوِّهِمْ
 فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
 الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ نحمل رسالته، ونبلِّغ دعوته .
 وفي قراءة : (أنصاراً لله) بالتنوين واللام .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول أيام الحج: «مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، فَإِنَّ قَرِيشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي».

حتى قَبِضَ الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه، ووازره، وشارطهم أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ إِنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَّوْا لَهُ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ: (الأنصار) وصار ذلك عَلَمًا عَلَيْهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ^(١).

وَسُمُّوا الْحَوَارِيِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَنْصَارَ عِيسَى ﷺ، وَالْمَخْلَصِينَ فِي مَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنْ حَوَارِيَّ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَامِ» [رواه البخاري (٣٧١٩)].

﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ﴾ أَي: آمَنَت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِدَعْوَةِ عِيسَى ﷺ، وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ بِهِ، فَأَنْكَرُوا رِسَالَتَهُ، وَبَهَتُوا أُمَّه.

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أَي: فَأَظْهَرْنَا مُؤْمِنِيهِمْ عَلَى كُفَرَارِهِمْ.

فانتشرت دعوة عيسى ﷺ، وكان أكثر أتباعه موحددين في القرون الثلاثة الأولى من عهده حتى دخل قسطنطين ملك الروم في النصرانية، فعمل على تحريفها، وعقد لذلك أول مجامعهم المسكونية، وهو مجمع نيقية سنة (٣٢٢م)، الذي قرر ألوهية عيسى ﷺ، ثم تابعت المجامع التي أوصلت النصرانية إلى الشرك والتثليث، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله تعالى أن يشبثنا على الإسلام دين التوحيد.



تفسير سورة الجمعة حَامِلُوا الرِّسَالَةَ فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الفضل الكبير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④ .

بدأ الله تعالى سورة الجمعة بقوله :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ①

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تسيحاً مستمراً متجدداً من غير فتور كما في قوله سبحانه : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : ٢٠] .

﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقرئت الصفات الأربع بالرفع على المدح، ودلت هذه الصفات على كمال ملكه ﷻ ، وأنه الطاهر من كل عيب، المنزه عن كل نقص، والغالب في أمره ومشئته، الحكيم في كل ما يأمر ويشرع .

اختار هذا الإله العظيم المتصف بهذه الصفات لخاتم رسالاته إلى خلقه وأكملها النبي الأمي ﷺ والأمة الأمية.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٢].

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ وهم العرب، فقد كانوا عند بعثة النبي ﷺ أمة أمية، أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ» [رواه البخاري (١٩١٣)].

قال ابن حجر: «وقوله: (أمية) بلفظ النسب إلى الأم؛ أراد أمة العرب، لأنها لا تكتب، أو منسوب إلى الأمهات؛ أي: إنهم على أصل ولادة أمهم، وقوله: (لا نكتب ولا نحسب) تفسير لكونهم كذلك، وقيل للعرب: أميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة»^(١).

﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ وهو سيدنا محمداً ﷺ منته تعالى العظمى على عباده، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦].
ورحمته للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه استجاب لدعوة النبيين الكريمين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿وَرَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فبعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد

اشتدت الحاجة إليه، وذلك أَنَّ العربَ كانوا متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدّلوه وغيروه واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدّلوا كتبهم وحرّفوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشريعة الإسلام الكاملة الشاملة، وجمع الله له جميع المحاسن ممّن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين.

وتخصيصُ العرب بالذكر لا ينفي غيرهم، فرسالته عليه الصلاة والسلام عامةٌ وشاملةٌ، لكن المنة على العرب أبلغ وأكبر، ومسؤوليتهم عن حمل رسالته أعظم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يَسْأَلُوا عَلَيْهِمْ أَنِيجُهُمْ وَإِزْجَاهُمْ﴾ أي: يقرأ عليهم ويبليّغهم ما يوحى إليه من آيات القرآن الكريم، ويظهرهم من دنس الشرك ورذائل الجاهلية وقبائحها.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمهم أحكام القرآن الكريم وشريعته، وأحكام السنّة المطهرة المبيّنة والشارحة للكتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد يكون المراد من الحكمة: الإصابة في الأقوال والأفعال.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: وكانوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام في ضلال ظاهر، لا ترى ضلالاً أعظم منه.

فقد كانوا في أمسّ الحاجة إلى رسالته وإرشاده وتعليمه مع أنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً، والأميّة من صفات كماله، لأنها دلّت على صدقه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَا يُرَبِّبُكَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

فقد نقلهم النبي الأمي من دركات الجهل إلى درجات العلم، وهذا لا شك معجزة من معجزاته، الدالة على صدق رسالته، وصحّة نبوته، ورحم الله البوصيري القائل:

كفاك بالعلم في الأميِّ معجزَةً في الجاهلية، والتأديب في اليُثمِ وفي الآية إشارة إلى عظيم قدرته تعالى، وأن إفاضة العلوم لا تتوقف على الأسباب العادية، فيجوز أن يكون الولي أمياً، بشرط أن يعرف ما يلزمه من الأمور الشرعية.

وأضافت الآية تبين عموم رسالته عليه الصلاة والسلام:

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: ويعلم عليه الصلاة والسلام آخرين لم يلحقوا بهم بعد، وسيلحقون، وهم من غير العرب من الأعاجم، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قُلْتُ: مَنْ هُم يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يَرَا جَعَهُ حَتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثَّرِيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ» [رواه البخاري (٤٨٩٧)].

فالآية تنسحب على كل من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم، والحكيم في اختياره وتعليمه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، وأكد تعالى هذا المعنى بقوله:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

على خلقه؛ حيث أرسل إليهم محمداً ﷺ برسالة الإسلام.

هكذا بينت الآيات حَمَلَةَ الرسالة الإسلامية الذين شرفهم الله بحملها من لدن رسول الله ﷺ، فتمسكوا بها، وقاموا بنشرها، وحافظوا عليها، وجاهدوا من أجلها، فضحوا بأرواحهم وأنفسهم في سبيلها.

المعرضون عن حمل التوراة

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَائِبُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَيْدِيَكُمْ أُولَئِكَ لِلَّهِ مِنَ دُونِ النَّاسِ فَمَتَّسُوا أَلْوَتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمْنُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَلَمْتُ الَّذِي تُفَرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةُ فَيَنْتَعِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

ثم عَقَّبَتِ الآيَاتُ على سبيل المقارنة، فذكرت الذين أَعْرَضُوا عن حمل رسالة الله التي كُلفوا بحملها:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ وهم اليهود الذين كُلفوا بحمل رسالة التوراة والعمل بشريعتها، فلم يحملوها، ولم يعملوا بما فيها.

﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي: كمثل الحمار يحمل كتباً من العلم ولا ينتفع بها.

والأَسْفَار: جمع سِفْر، وهو الكتاب الكبير، لأنه يُسفر عن العلم ويكشفه.

وفي الآية دليل على سوء حال العالم الذي لا يعمل بعلمه.

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، وهو ذمٌ لليهود الذين لم يعملوا بالتوراة، وكذبوا بما فيها من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد ﷺ.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الظالمين أنفسهم بتعريضها للعذاب،

والواضعين التكذيب في موضع التصديق، وفي هذا تنبيه من الله لمن حُمِّل الكتاب أن يتعلَّم معانيه، ويعمل بما فيه.

ويزعم اليهود أنهم شعبُ الله المختار، وأنهم أولياؤه من دون الناس، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، فكذبهم، وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

أي: فتمنوا من الله أن يميتكم إن كنتم صادقين في زعمكم.

﴿وَلَا يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَلَا يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيجازيهم على أعمالهم، فهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة].

﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلَیِّ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ أي: قل: إن الموت الذي تفرون منه ولا تجسرون أن تتمنوه بلسانكم مخافة أن يصيبكم؛ فإنه ملاقيكم لا محالة، فمهما فررتم منه فهو لاحقٌ بكم ولا تفوتونه.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلَیِّ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه.

تكليف وتحذير

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِدَ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمَنِ الْبَحْرَةُ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

ثم عادت الآيات إلى حاملي الرسالة الإسلامية تؤدّبهم ليكونوا أهلاً لحمل الرسالة وحفظ الأمانة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي: إذا نودي لوقت الصلاة من يوم الجمعة.

والجمعة: بضم الميم على المشهور وقد تسكّن، وقرأ بها الأعمش، وهو اليوم الذي خصّ الله به هذه الأمة؛ ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتأسل لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غدٍ» [رواه البخاري (٨٧٦)].

وهو أفضل أيام الأسبوع وأولها شرعاً، ففي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» [رواه مسلم (٨٥٤)].

وفي حديث آخر: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة

فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلي يسأل الله شيئاً، إلا أعطاه إياه» [رواه مسلم (٨٥٢)].

خاطَبَ الله المؤمنين بالجمعة دون الكافرين، تشریفاً لهم وتكريماً، إذ هم حملة الرسالة، خصَّهم بالنداء ليدلَّ على وجوب صلاة الجمعة وتأکید فرضيتها. ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فامضوا إلى ذكر الله، واذهبوا إلى صلاة الجمعة، والمضي والذهاب واحد، وليس المراد به سرعة المشي.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: واتركوا البيع وكل ما يشغل عن ذكر الله من شؤون الدنيا. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ذلكم السعي إلى ذكر الله خيرٌ لكم من البيع والشراء إن كنتم تعلمون مصالح أنفسكم، فإن ثواب الآخرة خير وأبقى. واستدلَّ بالآية على فرضية صلاة الجمعة، وثبتت فرضيتها أيضاً بالسنة والإجماع، وأول جمعة صلاها عليه الصلاة والسلام كانت وهو في طريقه من قُباء إلى المدينة، أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، فخطب وصلى الجمعة.

ولا تجب الجمعة على مسافرٍ ومريضٍ وامرأةٍ وصبيٍّ، ويسقط عنهم فرضُ الظهر بأدائها.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فإذا أدت الصلاة، وفُرع منها فانتشروا في الأرض لإقامة مصالحكم.

﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: واطلبوا الرزق من الله، وهو أمر إباحة. هكذا نظم الإسلام حياة المسلمين، فخصص لهم وقتاً معيناً للصلاة، ووقتاً آخر لتأمين مصالحهم الدنيوية، وأوصاهم بالإكثار من ذكر الله في جميع الأوقات: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولهذا عَرَّضَتِ الآيَاتُ بالذين انصرفوا قبل انتهاء صلاة الجمعة لأجل تأمين بعض مصالحهم الدنيوية بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ
وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ وسبب هذا التعريض والعتاب أن أهل المدينة المنورة أصابهم جوع وغلاء شديداً، فوصلت قافلة في أثناء صلاة الجمعة، فقام أكثرهم إليها، ففي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أقبلت غير يوم الجمعة، ونحن مع النبي ﷺ، فثار الناس إلا اثني عشر رجلاً، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ . [رواه البخاري (٤٨٩٩)] .
﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: وتركوا النبي عليه الصلاة والسلام قائماً على المنبر يخطب .

ويبدو أنه عليه الصلاة والسلام كان في أول الأمر يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة مثل العيدين، كما روى أبو داود في «كتاب المراسيل» [١٦٢] عن مقاتل بن حيان، ودلت الآية على أن الإمام يخطب خطبة الجمعة قائماً .
﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي: قل: ما عند الله من الثواب خير من اللهو ومن التجارة .

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فتوكلوا عليه واطلبوا الرزق منه .





تفسير سورة المنافقون

المُغْرِضُونَ عَنْ حَمْلِ الرِّسَالَةِ فِي سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تكذيب المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ
أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَدَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ
فَأَحْذَرُكُمْ فَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ
يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ .

أعلن الله تعالى في أول سورة المنافقون شهادته بأنَّ المنافقين كاذبون فقال :

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ .

فالمنافقون شأنهم الكذب؛ وإن صدقوا في هذا الخبر، وقد كذبهم الله

تعالى، لأن قلوبهم لا تواطئ ألسنتهم.

﴿اَتَّخِذُوا اٰيٰتِنٰهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ اِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَاوُوا يَعْمَلُوْنَ ﴿٢﴾﴾ .

﴿اَتَّخِذُوا اٰيٰتِنٰهُمْ جُنَّةً﴾ أي: وقاية من عقوبة الردة عن الإسلام، فكلما صدر منهم شيء يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عِصْمَةً لأموالهم ودمائهم، فمن عادتهم الاستئذان بالآيمان الكاذبة، كما استجنوا بالشهادة الكاذبة. واستشهد أبو حنيفة رحمته الله بالآية على أَنَّ (أشهد) يمين.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ﴾ أي: صدُّوا من أراد الدخول في الإسلام أو فعل طاعة، أو أعرضوا عن الإسلام، واستمروا على ما كانوا عليه من الصدود والإعراض. ﴿اِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَاوُوا يَعْمَلُوْنَ﴾ من النفاق والكذب والآيمان الفاجرة.

﴿ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ ءَامَنُوْا ثُمَّ كَفَرُوْا فَطٰعَ عَلَىٰ قُلُوْبِهِمْ فِهْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴿٣﴾﴾ .

﴿ذٰلِكَ بِاَنَّهُمْ ءَامَنُوْا ثُمَّ كَفَرُوْا﴾ وكونهم أسوأ الناس أعمالاً بسبب أنهم نطقوا بكلمة الإيمان، ثم أظهروا ما يدل على كفرهم، أو كفروا سرّاً، ثم أظهروا كفرهم إذا خلوا إلى شياطينهم، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿فَطٰعَ عَلَىٰ قُلُوْبِهِمْ فِهْمٌ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ أي: فختم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان جزاءً على نفاقهم، فهم لا يعرفون حقيقة الإيمان، ولا يفقهونه، ولا يتدبرون القرآن، هذه هي حقيقتهم القبيحة، فلا تغتر بمظاهره الحسنة في أجسامهم وكلامهم:

﴿وَإِذَا رَأٰتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يَّحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿وَإِذَا رَأٰتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ﴾

فهم أجسام بلا أحلام، شبهتهم الآية بالخشب المسندة إلى جدار، ليس في قلوبهم نورٌ ولا خيرٌ، كالخشب اليابس، لا روح فيه ولا رطوبة، أو كالخشب التي نُخر جوفها والتي جمعت بين حُسْنِ المنظر، وقُبْحِ المخبر.

وفي قراءة: (خُشْبٌ) بسكون الشين.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم بسبب جُبْنِهِمْ وسوء دخالهم ونواياهم، فهم على خوفٍ ووجلٍ أن ينزلَ فيهم أمرٌ يهتِكُ أَسْأَرَهُمْ، ويبعُحُ دماءهم.

﴿هُمْ أَعْدُوٌّ فَاحْذَرُهُمْ﴾ أي: هم الموعولون في العداوة فاحذروهم، ولا تأمنهم على أسراركَ، لأنهم عيون لأعدائك.

﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: لعنهم الله كيف يُصرفون عن الحق الواضح. وهو دعاءٌ عليهم، أو إخبارٌ بأنه تعالى لعنهم، ومن آثار هذا الدعاء أو اللعنة إعراضهم عن استغفار رسول الله ﷺ واستكبارهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَ رُءُوسُهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَ رُءُوسُهُمْ﴾ أي: أمالوها إعراضاً عن الاستغفار.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن استغفار رسول الله ﷺ.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ما داموا على النفاق.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الكاملين في الفسق، الخارجين عن دائرة الاستصلاح لسوء استعدادهم، قال تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ

تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨﴾ [التوبة: ٨٠].

وقرئ: (استغفرت) بحذف همزة الاستفهام، و(استغفرت) بإشباع همزة الاستفهام.

* * *

الأعز والأذل

﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَاللَّهُ حَرَامٌ أَلْسِنَتُهُمْ وَالْأَرْضُ وَلَكِنَّ الْمُتَّقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۖ﴾ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُتَّقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

وبين جابر بن عبد الله رضي الله عنه سبب نزول هذه الآيات، فقال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ» فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَقَالَ: «فَعَلَوْهَا؟!» أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عَمْرٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعْنِي؛ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» [رواه البخاري (٤٩٠٥)].

وَالْكُفَّعُ: أَنْ تَضْرِبَ بِيَدِكَ عَلَى شَيْءٍ أَوْ بِرَجْلِكَ، أَوْ أَنْ تَرْمِيَهُ بِشَيْءٍ يَسُوءُهُ. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بَرْزَةَ سَلُولًا يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا، وَقَالَ أَيْضًا: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا

ما قالوا، فصَدَّقَهم رسولُ الله ﷺ وكذَّبَني، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله، فجلستُ في بيتي، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَقِفُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، فأرسل إليَّ رسولُ الله ﷺ فقرأها عليَّ، ثم قال: «إن الله قد صدَّقك» [رواه البخاري (٤٩٠١)].

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٧).

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ أي: هم الذين يقولون للأَنْصَارِ: لا تنفقوا على مَنْ عِنْدَ رسولِ الله حتى ينفقوا عنه.

ومرَّ معنا في سورة الحشر أَنَّ الْأَنْصَارَ أَحْبَبُوا الْمُهَاجِرِينَ، وآثَرُوهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، وَأَنَّ الله أَثْنَى عَلَيْهِم بِقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩).

ورَدَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: والرزق مَنُوطٌ بمشيئته تعالى وقدرته، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

وقد أغناهم سبحانه بعد ذلك بما فتح عليهم تحقيقاً لوعده الكريم: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

وكانت كنوزٌ كسرى وقيصر من المغانم التي أخذوها.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لجهلهم بالله تعالى، وهي المرة الثانية في السورة يصفُ تعالى المنافقين بهذه الصفة، التي تدل على شدة جهلهم وغرورهم.

﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨).

﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ أي: لئن رجعنا من غزوة بني المصطلق إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ - يعنون: رأس المنافقين عبد الله بن أبيي - الأذلُّ - يعنون: رسول الله ﷺ - .

وأُسندت الآية قول ابن أبيي إلى المنافقين لرضاهم به . وردَّ تعالى عليهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والله العزَّة ولمن أعزَّه الله وأيده من رسله ومن المؤمنين لا غيرهم .

وأفاد إعادة الجار تفاوت ثبوت العزة، فإن ثبوتها لله تعالى ذاتي، وللرسول ﷺ بواسطة الرسالة، وللمؤمنين بواسطة الإيمان .

وجاء من عدة طرق: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَلٍّ سَافَهُ عَلَى أَبِيهِ عِنْدَمَا أَشْرَفُوا عَلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ: وَاللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ لَا أَغْمَدُهُ حَتَّى تَقُولَ: مُحَمَّدٌ الْأَعَزُّ وَأَنَا الْأَذَلُّ . فَلَمْ يَبْرُحْ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ^(١) .

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم .

* * *

الاشتغال بالأموال والأولاد

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

ومن المعلوم أنَّ الاشتغال بالأموال والأولاد يفتن الإنسان عن دينه، وقد يحمله على الخيانة والنفاق كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْوَالَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال].

فحدّثت الآيات المؤمنين من ذلك بقوله تعالى :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا يشغلكم الاهتمام بالأموال والأولاد عن الاشتغال بذكر الله ﷻ وطاعته.

فذكره تعالى مجازاً عن مطلق العبادة، لأنها سببٌ لذكره وهو المقصود منها؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني، وفي تعريف الخسران بالإشارة، وتوسط ضمير الفصل (هم) ما لا يخفى من المبالغة.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالإنفاق، ورغبهم فيه في مقابل ما مرّ من نهْي المنافقين المؤمنين عن الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١) ﴿١٠﴾

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أماراته وسكراته .
﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي:
هلاً أمهلتنى إلى أمد قصير فأصدق وأكن من الصالحين .

ونصب (فأصدق) في جواب التمني ، والجزم في (وأكن) بالعطف على موضع (فأصدق) كأنه قال: إن أخرتني أصدق وأكن ؛ وفي قراءة: (وأكون) بالنصب .
فكل مفرط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ، ليستدرك ما فاتته ،
وهيهات ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾
[إبراهيم: ٤٤] .

وقال أيضاً: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩١) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون] .
وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أيُّ الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أَنْ تَصَّدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تَمُهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ» [رواه البخاري (١٤١٩)] .

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١١) ﴿١٠﴾

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ فلا يؤخر الله أحداً بعد حلول أجله .
﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم عليه .
ودلت الآية على وجوب إخراج الزكاة على الفور ، وتحريم تأخيرها .



تفسير سورة التغابن الْخَاسِرُونَ فِي سُورَةِ التَّغَابُنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
توبيخ الكافرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ نَصِيرٌ ۝ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَوَافِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَدَاوُوا بِأَوَّلِ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ۝ وَأَسْتَعَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ ۝﴾ .

أخبر الله تعالى في أول سورة التغابن أن جميع المخلوقات تنزهه عما لا يليق بكماله تنزيهاً مستمراً متجدداً فقال:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ .

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝﴾ .

ثم قرر اختصاص الملك والحمد به ﷻ فقال:

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ فهو المتصرفُ في ملكه كيف يشاء تصرف اختصاص، لا شريك له.
﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ لأن أصول النعم وفروعها كلها منه.

فكلا الأمرين - الملك والحمد - لله تعالى وحده في الحقيقة، ولغيره بحسب الظاهر والصورة، كما أن له الكمال المطلق.
﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفعل ما يشاء كما يشاء بلا مانع ولا مدافع، والدليل على ذلك:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢١).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فمنكم آتٍ بالكفر وفاعل له، ومنكم آتٍ بالإيمان وفاعل له. وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين الله على نعمة الخلق والإيجاد وسائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمكينكم منه، بل تشعبتم شعباً، وتفرقتم فرقاً.
فالآية توبُّخُ الكافرين، ولهذا بادرت إلى تقديم الكفر، لأنه الأغلب والأنسب بمقام التوبيخ.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، فإنه سبحانه ما خلقكم عبثاً ولا باطلاً.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٢).

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحكم البالغة ليعمرها المكلفون بطاعته سبحانه وعبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: وصوركم في أرحام أمهاتكم فأتقن وأحكم صوركم.

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه مرجعكم يوم القيامة لا إلى غيره.

فأقبلوا على عبادته، وتزيين سرائركم بذكره، فإنه سبحانه:

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٤﴾ .

لا يخفى عليه شيء، فحقه أن يتقنى ويحذر، فلا يجترئ أحد على معصيته ومخالفة أمره، فإن تكرير تذكير الإنسان بكمال علمه تعالى في معنى تكرير الوعيد، وهو ما صرح به بعد ذلك بقوله:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥﴾ .

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح.

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: فذاقوا وبال كفرهم في الدنيا، وهو ما نزل بهم من العذاب في الدنيا.

وأصل الوبال: الثقل، ومنه: الويل: لطعام يتقل على المعدة، والوبال: للمطر الثقيل، واستعمل للضرر والعذاب؛ لأنه يثقل على الإنسان. وعبر عن كفرهم بالأمر للإيدان بأنه أمر هائل وجناية عظيمة. ﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في يوم القيامة.

﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ ٦﴾ .

﴿ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: وسبب ما نزل بهم من العذاب في الدنيا وما سيدوقونه في الآخرة بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة الدالة على صدق رسالتهم وبالبراهين الواضحة.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: فقالوا منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر أو متعجبين من ذلك، والبشر يطلق على الواحد والجمع.

﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أي: فكفروا بالرسل، وأعرضوا عن التفكير بالبينات.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ﴾ أي: وأظهر الله غناه عن طاعتهم وعبادتهم، فأهلكهم واستأصلهم، ولولا غناه سبحانه عنهم ما فعل بهم ذلك.

﴿وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾ والله غني عن إيمانهم وطاعتهم مستحق للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد.

* * *

الزعم الباطل

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْفَرَ لَكَ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّهُ ثُمَّ لَنَحْبِئَنَّهُ بِمَا عَمِلْتَمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَالْمُورِ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ حَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْحَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ الْفُتَايِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ. وَيُدْخِلْهُ حَبَّتٍ تَحْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبَشَ الْأَمْصِرُ ﴿١٠﴾﴾.

ومن مزاعمهم الباطلة المصادمة لحكمة خلقهم: إنكارهم البعث بعد الموت:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْفَرَ لَكَ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّهُ ثُمَّ لَنَحْبِئَنَّهُ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْفَرَ لَكَ﴾ والزعم: ادعاء العلم، وهو مطية الكذب، فهو زعم باطل بادرت الآيات إلى رده.

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثَنَّهُ﴾ فما تنكرونيه كائن لا محالة، ولهذا أكده بالقسم وأمر الرسول ﷺ به كما في قوله سبحانه: ﴿وَسَنُنِيعُكَ أَهَقٌ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبا: ٣].

ثم أضاف الآية بيان تحقق أمر آخر متفرع عن البعث:

﴿ثُمَّ لَنَبَيِّنَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: ثم لَنُحَاسِبُنَّ وَنُجْزَوْنَ بأعمالكم، وذلك يسيرٌ على الله تعالى. وإذا كان الأمر كذلك:

﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ وهو القرآن الكريم، فإنه بإعجازه بين نفسه، مبينٌ لغيره، والالتفاتُ إلى نونِ العظمة لإبراز العناية لأمر الإنزال تعظيماً لشأن القرآن الكريم.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فراقبوه وخافوه فإنه سائلكم ومحاسبكم يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ الْيَوْمَ الْجَمْعُ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ الْيَوْمَ الْجَمْعُ﴾ يجمع الله فيه الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة].

﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ وسُمي يوم القيامة بيوم التغابن لأنَّ أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذ أهل النار النار، على طريق المبادلة، فوقع الغُبنُ لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب.

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا يدخلُ أحد الجنةَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لو أسَاء، ليزدادَ شكرًا، ولا يدخلُ النارَ أحدٌ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لو أحسنَ، ليكونَ عليه حَسْرَةٌ» [رواه البخاري (٦٥٦٩)].

ويظهر يومئذ أيضاً غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان، فأهل الجنة بايعوا على الإسلام بالجنة فربحوا، وأهل النار امتنعوا عن الإسلام فخسروا، فشبَّهوا بالمتبايعين يغبن أحدهما الآخر في بيعه، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَحِمَتْ خَلْقَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١).

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: إلا بعلم الله وإرادته وقضائه. ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ بالرضا والصبر والتسليم لقضائه، وقرئ: (يهداً قلبه) بالرفع، و(يهداً) أي: يسكن ويطمئن. فالإيمان يجعل أمر المؤمن في كل أحواله إلى خير، كما في الحديث الشريف: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» [رواه مسلم (٢٩٩٩)]. ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم إيمان المؤمن ويثبت ويهدي قلبه عند المصيبة. ولا ينبغي للمصيبة أن تشغلكم عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُمِينُ﴾ (١٢).

فَمِنْ اللَّهِ الرِّسَالَةُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٣).

وعلىنا أيضاً التوكل على الله وحده، فلا معبود ولا مقصود إلا هو، فلنعتصم به ونتمسك بحبله.

وقد يُبتلى الإنسان بأحِبِّ الناس إليه وأقربهم منه، فعليه في مثل هذه الحالة أن يتمسك بدينه، ويلتزم بأحكامه، مع شيء من المساهلة والمسامحة، فإنَّ تربية الأزواج والأولاد تقتضي ذلك بشرط سلامة الدين، فلا محل للقسوة والغلظة في التعامل مع الأقارب والأحباب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ أي: إن

بعضهم كذلك، فاحذروهم على دينكم، فسلامة الدين هي من أهم المهمات وأعظم الواجبات.

﴿وَلِإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم، ويتفضل عليكم بالمغفرة والرحمة.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنما أموالكم وأولادكم بلاءٌ واختبارٌ وشغلٌ عن طاعة الله تعالى، فلا تباشروا من أجلهم المعاصي، ولا تؤثرهم على ما عند الله من الثواب الجزيل والعظيم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي: ابذلوا في تقواه جهدكم ووسعكم، واسمعوا مواعظه وزواجه، وأطيعوا أمره.
﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أنفقوا في الوجوه التي أمركم بها، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع.

﴿وَمَنْ يُوقْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالفلاح والنجاح.

﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

يقبل القليل، ويعطي الجزيل، ولا يعجل بالعقوبة.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾.

لا يخفى عليه شيء، الغالب على أمره، الحكيم في شرعه وفعله ﷻ.



تفسير سورة الطلاق التَّقْوَى والتَّيَسِيرُ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الطلاق للعدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَبِئَظْهُنَّ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ .

افتتح الله سبحانه سورة الطلاق منادياً النبي ﷺ بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَبِئَظْهُنَّ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي : إذا أردتم أن تطلقوا النساء فطلقوهن لوقت عدتهن ؛ أي : في الزمان الذي يصلح لعدتهن .

أو : مستقبلات عدتهن ، فعدة المطلقة تبدأ بعد الطلاق مباشرة .

وتخصيص النبي ﷺ بالخطاب وتعميم الحكم تكريماً له، وإظهاراً لجلالة منصبه، وعلو مرتبته، فهو إمام أمته، والمتكلم عنهم، فاختر لفظ النبي وقيل له كما يقال لكبير القوم: يا فلان افعلوا كَيْت وكَيْت.

ولعلَّ صرف الكلام عنه إلى أمته لما في الطلاق من الكراهة، فلم يخاطب به تعظيماً له ﷺ، ففي سنن أبي داود [٢١٧٨] وابن ماجه [٢٠١٨]: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ» لَأَنَّهُ يُؤَدِي إِلَى قَطْعِ صِلَةِ الزَّوْجِيَّةِ فَأَبِيحَ لِلْحَاجَةِ، فَالْمَرَادُ التَّنْفِيرُ عَنْهُ.

والطلاق للعدَّة أن يطلقها في طهرٍ لم يجامعها فيه، فتعتد بذلك الطهر، ولا يطول عليها زمانُ العدة، ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى قسمين: طلاق سنة، وطلاق بدعة.

فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرةً من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها. وطلاق البدعة: أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهرٍ قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا. والمراد بالبدعة هنا الحرمة لما فيه من المعصية.

ففي الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «مَرَّةٌ فَلِيرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيَمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهَرَ، ثُمَّ نَحِيضُ، ثُمَّ تَطْهَرُ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمْسَهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تَطْلُقَ لَهَا النِّسَاءُ» [رواه البخاري (٥٢٥١)].

وتجب مراجعتها رفعاً للمعصية، وهي تطويلُ العدة.

فمن طلق امرأته في طهر لم يجامع فيه وقع طلاقه، وأصاب السنة، وإن طلقها حائضاً أو في طهر جامعها فيه وقع طلاقه، وأخطأ السنة، فالحرمة في الطلاق البدعي لا تمنع وقوعه، ولهذا أمر النبي ﷺ ابن عمر بمراجعة زوجته فلو لم يقع الطلاق لم يأمره بالرجعة، وما كان منه من التخليق في الحيض سبب نزول هذه الآية.

قال النووي: شدَّ بعضُ أهل الظاهر فقال: إذا طَلَّقَ الحائضَ لم يقع الطلاقُ، لأنه غيرُ مأذونٍ فيه، فأشبهه طلاق الأجنبية، وحكاه الخطابي عن الخوارج والروافض.

وكان النووي أرادَ ببعض الظاهرية ابنَ حزم، فإنه ممن جَوَّدَ القولَ بذلك، وانتصرَ له وبالغ، ووافقه على ذلك من المتأخرين ابن تيمية^(١).

ويلتحق بالطلاق البدعي الثلاث دفعة واحدة وتقع به الثلاث.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: واضبطوا العدة، وأكملوها ثلاثة قروء، لقوله تعالى: ﴿وَالطَّلَاقُ يُرَبِّصُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَعْلَمْنَ أَحَقُّ رِيحَنَ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وأصل معنى الإحصاء العدُّ بالحصى، ثم صار حقيقة فيما ذكر.

ويبدو أن الخطاب في الآية للأزواج، ويلتحق بهم الزوجات، ويؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: لا تعصوا ربكم في تطويل العدة عليهن، والإضرار بهن، وفي وصفه تعالى بالربوبية تأكيدٌ للأمر ومبالغة في إيجاب الاتقاء.

﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: من مساكنهنَّ ما دُمْنَ في العدة، فليس للزوج أن يخرجها من مسكن الزوجية ما دامت في العدة، والرجعية والمبتوتة في هذا سواء، فإضافة البيوت إليهنَّ إضافةً إسكانٍ لا تملك.

﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ أي: ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن، فبقاؤهن في البيوت حق للشرع، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت، ويجوزُ لها الخروج نهاراً لحاجاتها الضرورية.

ففي الحديث: عن جابر رضي الله عنه قال: طَلَّقْتُ خالتي، فأرادت أن تجدَّ نخلها،

(١) انظر: فتح الباري: ٣٥٢/٩.

فزجرها رجل أن تخرج، فأتى النبي ﷺ فقال: «بلى فجدّي نخلك، فإنك عسى أن تصدّقي أو تفعلي معروفاً» [رواه مسلم (١٤٨٣)].

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحْشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ أي: ظاهرة، وهي نفس الخروج قبل انقضاء العدة، أو الزنى، أو البذاء على الأحماء والزوج، فالمعنى: لا تخرجوهن إلا إذا طالت ألسنتهنّ، وتكلمن بالكلام الفاحش القبيح، وفي قراءة: (مبيّنة) بالفتح. ﴿وَلَكُمْ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: وتلك الأحكام حدود الله التي شرعها سبحانه لعباده، فالتزموا بها.

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: أضّر بها.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي: لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر، لعل الله يحدث في قلبك بعد الذي فعلت من التعدي أمراً يقتضي خلاف ما فعلت، فيبدل ببغضها محبة، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها، ويمكنك تلافيه بالمراجعة أو تجديد عقد النكاح.

فالخطاب للمتعدي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي، لا للنبي ﷺ، فمن يتعدّ حدود الله فقد عرّض نفسه للضرر، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي: وأقيموا الشهادة أيها الشهود طلباً لمرضاة الله،
اشهدوا بالحق، وأدوها على الصحة.

﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ذلكم الذي ذكرت من
الأحكام ينتفع بها المؤمن بالله واليوم الآخر، فأمّا غير المؤمن فلا ينتفع بها.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أي: ومن يتق الله في فعل ما أمره به، وترك
ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً من الغم والضيق الذي يقع فيه، ويفرج
عنه ما يعتريه من الكرب في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يتوقعه،
وهو اعتراض جيء به على نهج الاستطراد تأكيداً لما سبق.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: ومن فوّض أمره إلى الله كفاه ما أهمه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ أي: إن الله يبلغ ما يريد، فهو فعّال لما يريد، لا يفوته
مراد، ولا يعجزه مطلوب، وفي قراءة: (بالغ أمره) بالنصب.

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا وتوقيتًا.

وهذا يؤكد وجوب التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أن
كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقدير الله وتوفيقه لم يبق إلا التسليم
للقدر، والتوكل على الله، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، كما جاء في الحديث
الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام
إنني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تحفظه تجاهك، إذا سألت
فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن
ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن

يَضْرُوكَ بَشِيءٌ لَمْ يَضْرُوكْ إِلَّا بَشِيءٌ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح].

ومن الأمور التي يبين الله تعالى مقاديرها مقدار العدة:

﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ سَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾.

﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ سَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: والنساء اللواتي وصلن إلى سن اليأس وانقطاع الحيض إن شككتم في عدتهن، وجهلتم مقدارها، فعدتهن ثلاثة أشهر، وتكون الرية بسبب استمرار الدم.

﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ أي: والصغيرات اللاتي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر.

﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: وتنتهي عدة الحوامل بوضع الحمل والولادة، ولا فرق في ذلك بين المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن، لما في الحديث الشريف: عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفيني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين، قلت أنا: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي، يعني أبا سلمة، فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها فقالت: قُتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَى، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَخُطِبْتُ، فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِي مَنْ خُطِبَهَا. [رواه البخاري (٤٩٠٩)].

فالآية هنا تخصص عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي: ومن يتق الله فيلتزم أحكام دينه يسهل أمره عليه في الدنيا والآخرة ويوفقه للخير.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَنْقُ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ۝﴾ .

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي : ذلك حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ .

﴿وَمَنْ يَنْقُ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات .

﴿وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا﴾ بمضاعفته . وقرئ : (تُعْظِم) بالنون التفتاتاً من الغيبة إلى التكلم .

ولما حث سبحانه على التزام التقوى في سياق معاملة الْمُعْتَدَاتِ بَيْنَ كَيْفِيَةِ الْعَمَلِ بِالتَّقْوَى فِي شَأْنِهِنَّ فَقَالَ :

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِضَيْقِهِنَّ وَلَئِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ يُبَيِّنُكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرُمْ فَاسْتَرْضِعْ لَهُنَّ أُخْرَى ۝﴾ .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾ أي : أسكنوهن مسكناً مِنْ بَعْضِ مَكَانِ سُكْنَاكُمْ مِنْ وَسْعِكُمْ وَمِمَّا تَطِيقُونَهُ .

﴿وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِضَيْقِهِنَّ﴾ أي : ولا تضاروهن في السكنى لتضييقوا عليهن ، وتلجئوهن إلى الخروج .

﴿وَلَئِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي : وإن كان المطلقات أولات حمل فعليكم أن تنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، ويخرجن من العدة . فلا خلاف في وجوب سُكْنَى المطلقات أولات الحمل ونفقتهن ، واختلاف في المطلقات اللاتي لسن أولات حمل ، وقول أبي حنيفة والثوري : لهن السكنى والنفقة ، لأنهما جزاء الاحتباس ، وهو مشترك بين الحامل والحائل .

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي : فإن أرضعن لكم بعد أن يضعن حملهن فآتوهن أجورهن على الإرضاع .

﴿وَأَنْتُمْ يُبَيِّنُكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي : وتشاوروا بينكم بمعروف جميل في الأجرة والإرضاع ، فلا يكن من الأب مماكسة ، ولا من الأم معاسرة .

﴿وَإِنْ نَعَسْتُمْ فَسَرَضْهُ لَكُمْ أُخْرَى﴾ أي: وإن ضيق بعضكم على الآخر بتقليل الأجرة أو طلب الزيادة، فليطلب له الأب مرضعة أخرى.

وفيه معاتبَةٌ للأب، لأنه كقولك لمن تستفضيه حاجةً فتعذر منه: سيقضيها غيرك، لأنَّ المبدول من جهتها هو لبنها لولدها، وقال بعضهم: إِنَّ الكلام لا يخلو عن معاتبَةِ الأب أيضاً، لأنه إذا ضيقَ على الأم في الأجر فامتنعت من الإرضاع لذلك، فلا بدَّ من إرضاع امرأة أخرى، وهي أيضاً تطلب الأجر في الأغلب، والأم أشفق، فهي به أولى، وهذا إذا قبل الرضيع ثدي أخرى، أما إذا لم يقبل إلا ثدي أمه فتجبر على الإرضاع بأجرة مثلها^(١).

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيِّجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: لينفق الزوج على زوجته وولده الصغير على قدر ما تتسع له قدرته.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي: ومن ضيقَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله وإن كان قليلاً.

﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا﴾ جلَّ أو قل؛ فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها. ففيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكدته تعالى بالوعد بالتيسير فقال:

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ إن اتقى الله كما سبق في السورة:

- ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

- ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

ودلت الآية على أنَّ النفقة تقدَّرُ بقدر حال المنفق، فإن كان موسراً فعليه نفقة الموسرين من غير إسرافٍ، وإن كان مُعسراً فعليه نفقة المعسرين بقدر وسعته.

حساب وعذاب

﴿وَكَايَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَوْا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَبْرُرُ الْأَمْرَ يَبْسُتُ لِنِعْمَتِهِ أَنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾

ثم توعدت الآيات المخالفين لهذه الأحكام بأسلوب غير مباشر:

﴿وَكَايَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثُكْرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَكَايَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ أي: وكثير من أهل قرية أعرضت عن أمر ربها ورسله إعراض العاتي المعاند.

﴿فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا﴾ بالتدقيق والاستقصاء لكل ذنوبهم.

﴿وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا ثُكْرًا﴾ أي: منكرًا فظيعاً.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: عقوبة كفرها ومعاصيها.

﴿وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرَهَا خُسْرًا﴾ أي: خساراً وهلاكاً.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝﴾

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فهو عذاب معدٌ منتظرٌ لا نجاة لكم منه إلا بتقوى الله .
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي : فاتقوا الله يا ذوي العقول الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم القرآن الذي يذكركم بالله وأحكام دينه وشريعته .

﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ۝﴾

﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي : وأرسل إليكم رسولاً يقرأ عليكم ويبلغكم آيات الله المبينات للحلال والأمر والنهي .

﴿لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي : ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، فبادروا إلى الثبات على الإيمان والعمل الصالح .

﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وفي قراءة : (ندخله) بالنون ، وفي هذه الجنات ما فيها من الرزق الحسن العظيم المعجب .

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ فهو رزق من الله حسنٌ وأكرمه لأهل الجنة .

ثم ختم سبحانه السورة ببيان كمال قدرته وعلمه تذكيراً للمكلفين بأنه سبحانه يراقبهم ويعلم أحوالهم وأقوالهم :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي : في العدد أو في التركيب والخصائص ، فلم تذكر الأرض في القرآن إلا موحدة .

أو سبع أرضين منبسطة تفرق بينها البحار. ولعل في الأجرام الكثيرة السابحة في الفضاء أجراماً مثل الأرض في بعض خصائصها وتركيبها.

﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمر الله تعالى وقضاؤه وقدره بينهن.

﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أخبرتكم بذلك لتعلموا كمال قدرته تعالى وعلمه.



تفسير سورة التحريم أزواج الأنبياء في سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصة تحريم العسل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنَعِي مَرْصَاتٍ أَزْوَاجَ اللَّهِ عَفْوَراً رَجِماً﴾ ١
لَكُمْ نَحْلَةٌ أَبْيَمِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢
نَبَأَتْ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ
نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ ٣ .

بدأ الله تعالى سورة التحريم بعتاب لطيف للنبي ﷺ فقال:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنَعِي مَرْصَاتٍ أَزْوَاجَ اللَّهِ عَفْوَراً رَجِماً﴾ ١ .

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ أي: من العسل .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغاير؟ إني أجد منك ريح مغاير، قال: «لا»، ولكني كنت أشرب عسلاً

عند زَيْنَب بنت جَحْشٍ، فلن أعودَ له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً» [رواه البخاري (٤٩١٢) ومسلم (١٤٧٤)].

والمغافير: نباتٌ رائحته كريهة، وكان ﷺ يحبُّ الحَلَوَاءَ والطَّيْبَ، ويكره الرائحةَ الكريهة.

وأخرج النسائي في الكبرى [٨٨٥٧] والحاكم [٤٩٣/٢] وصححه، وابن مردويه: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كانت له امرأة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأَنزَلَ الله تعالى هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ لِمَ تَحَرَّمُ...﴾.

لكنَّ النووي قال في «شرح مسلم»: الصحيح أن الآية نزلت في قصة العسل، لا في قصة مارية المروية في غير «الصحيحين»، ولم تأتِ قصة مارية في طريق صحيح^(١).

﴿تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: تطلب رضاهن بترك ما أحلَّ الله لك وقد غفر لك ذلك.

ففي الآية تعظيمُ شأنه عليه الصلاة والسلام بأن تركَ الأولى بالنسبة لمقامه السامي الكريم يعدُّ كالذنب، وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأنَّ عتابه ليس إلا لمزيد الاعتناء به.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: قد شرع الله لكم تحليل الأيمان وحلَّ ما عقَّدته بالكفارة.

﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: والله متولي أموركم، وهو العليم بما يصلحكم، الحكيم في جميع أفعاله وأحكامه.

واحتجَّ بالآية من يرى أنَّ تحريم الحلال يكون يميناً، فإذا حرَّم طعاماً فقد

حلفَ على عدم أكله، فإذا حنث فيه وأكل الطعام فعليه كفارةٌ يمينٍ. ومن قال لامرأته: أنت عليّ حرامٌ؛ يقع طلاقاً بائناً لتعارُفِ الناس على ذلك، وإن نوى غير ذلك ينصرفُ إلى ما نوى، ويكونُ يميناً.

ثم بيّنت الآيات كيف كان رسول الله ﷺ يعامل أزواجه أمهات المؤمنين عندما تقع الغيرة والمنافسة بينهما، ففي حادثة تحريم العسل أسرَّ النبي ﷺ إلى إحدى أمهات المؤمنين حديثاً، وهو امتناعه عن شرب العسل عند السيدة زينب، واستكتمها ذلك، وأوصاها ألا تخبر به أحداً، وأضافت بعض الروايات أنه أخبرها بخلافة أبي بكر وعمر بعده، ولكنها بدافع الغيرة والسرور أخبرته به:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۝﴾

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ وهي السيدة حفصة ؓ.

﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ أي: أخبرته به السيدة عائشة ؓ.

﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: وأطلعه الله تعالى على إفشائه.

﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي: أعلم حفصةً ببعض ما كان منها وأعرض

عن بعض تكرماً وتسامحاً.

وقرئ: (عَرَفَ) بالتخفيف بمعنى جازى عليه، تقول للمسيء: لأعرفن لك

ذلك.

﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي: نبأني العليم

بالسرائر، الخبير بالضمائر، وإنما قالت ذلك ظناً أن عائشة أخبرته.

عتاب وتأديب

﴿إِنْ نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّا مَسَكُنَ مُسَلِّمَتٍ مُؤْمِنَةٍ قَدْ نَتَّيْتُ عِدَّتِي سَلِّحَتْ نَيْبَتِي وَأَنْكَارًا ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَوْا قَوْمًا أَنْفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُحْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

ثم التفتت الآيات تخاطب السيدتين حفصة وعائشة عليهما السلام خطاب العتاب والتأديب:

﴿إِنْ نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِنْ نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: إن تتوبا إلى الله فهو الواجب عليكما، فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الحق، فقد سرهما ما كره رسول الله ﷺ وهو الامتناع عن شرب العسل.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبه له حتى خرج حاجباً، فخرجت معه، فلما رجعت، وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، فوقف له حتى فرغ، ثم سررت معه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة. [رواه البخاري (٤٩١٣)].

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وإن تعاونا على إيذاء النبي ﷺ بسبب الإفراط بالغيرة فإن الله وليه وناصره، وجبريل وليه أيضاً وناصره، وكل من صلح من المؤمنين.

﴿وَالْمَلَكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: والملائكة بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين أعوان للنبي ﷺ.

فما أعظم هذا النبي! وما أكرمه على الله تعالى! فمكانته عليه الصلاة والسلام رفيعة عالية في الملائكة الأعلى وبين المؤمنين في الأرض.

وأفردت الآية جبريل بالذكر تعظيماً له، وتنبهاً على علو منزلته ومكانته.

وفي قراءة: (تظاهرا) بتشديد الظاء، وأصلها: تظاهرا، فأدغمت التاء بالظاء.

وعن أنس رضي الله عنه: قال عمر رضي الله عنه: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلتُ لهنَّ: عسى ربُّه إن طلقكنَّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية. [رواه البخاري (٤٩١٦)].

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ تَزِينْنَ لَكُمْ فِي مَنَازِلِكُنَّ وَيُخَفِّفْنَ الْوِزْرَ ۖ إِنَّ رَبَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝﴾

﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ أي: واجبٌ من الله إن طلقكنَّ رسولُ الله ﷺ أن يزوجه خيراً منكن، وهذا الواجب أوجبه سبحانه على نفسه تفضلاً كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيراً منهنَّ، ولم يكن على وجه الأرض نساءً خيراً من أمهات المؤمنين؟

قلت: إذا طلقهنَّ رسولُ الله ﷺ لا يذائهنَّ إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهنَّ من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهنَّ^(١).

وفي قراءة (يبدله) بالتشديد.

ثم بينت الآيات أوصافهن:

﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ﴾ أي: مطيعات ومواظبات على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

﴿تَبَتَّ عَيْدَاتٍ سَخَّاتٍ﴾ أي: صائمات أو مهاجرات.

﴿ثَيِّبَاتٍ﴾ جمع ثَيِّب، وهي التي تزوجت وبانت من زوجها.

﴿وَأَبْكَارًا﴾ أي: عذارى، جمع بكر، ووسط حرف العطف بين الثيبات والأبكار دون سائر الصفات لأنهما صفتان متنافيتان بخلاف سائر الصفات.

أخبر الله في الآية عن قدرته فقط، لا عن الوقوع والحدوث، لأنه قال: ﴿إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ وقد علم سبحانه أنه لا يطلقهن، فهو تخويفٌ لأمهات المؤمنين، وتأديب لهن يدل على رفعة مكانتهن، فالله سبحانه تولى تأديبهن، بينما أمر المؤمنين بتأديب أزواجهن، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أي: احفظوا أنفسكم وأزواجكم من النار بالتأديب، وأمرهم بالخير، ونهيههم عن الشر.

فالرجل مسؤول عن نفسه وعن أهل بيته، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا تَحْنُ زَرْقًا وَالْعِقَابَةُ لِلنَّفْقَى﴾ [طه: ١٣٢].

وفي الحديث الشريف: أنه ﷺ قال: «كلُّكم راع، وكلُّكم مسؤول عن رعيته، والأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلُّكم راع، وكلُّكم مسؤول عن رعيته» [رواه البخاري (٥٢٠٠)].

فعلى الرجل أن يحمل نفسه وأهل بيته على طاعة الله تعالى.

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: تتقد نار جهنم بهما كما يتقد غيرها بالحطب.

﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: على

النار ملائكة موكلون عليها، يعذبون أهلها، غلاط الأقوال والأجسام، شداد

الأفعال أقوياء، لا يعصون أمره تعالى، ويفعلون ما يأمرهم به، فهم يبادرون إلى طاعة الله، ولا يتثاقلون عن تنفيذ أمره.

ثم أشعرت الآيات المؤمنين بمسؤوليتهم عن أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، فعظمت شأن هذا اليوم، فهو يوم لا عذر فيه لأحد، ولهذا يقال فيه للكافرين:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

في الدنيا من الكفر والمعاصي.

* * *

التوبة النصوح

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُؤَيَّوْنَ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْمِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَشَّ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتُ نُوحٍ وَأَمْرَاتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَمْرَاتُ إِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِدَدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ رَحْمَتُهَا فَفَتَحْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُقْنِينَ ﴿١٢﴾﴾

ثم أمرتهم بالتوبة النصوح:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ أي: توبة بالغة في النصح، تصلح ما أحدثته المعصية من خلل في الدين، مأخوذة من النصيحة وهي الخياطة.
أو: توبة خالصة، من قولهم: عسلٌ ناصحٌ؛ إذا خلص من الشمع.
أو: تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب.
قال العلماء: التوبة واجبةٌ من كلِّ ذنب على الفور، ولا يجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرةً أو كبيرة^(١).

ولا بدّ أن تستجمع التوبة ثلاثة أمور: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على ألا يعود إلى مثلها أبداً، وإن كانت تتعلق بحق آدمي لزم ردُّ الحق إلى صاحبه أو طلب البراءة منه.

وبعد أن أوجب الله تعالى على المؤمنين التوبة أطعمهم في قبولها تفضلاً وتكرماً بقوله:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ۝﴾ والمراد بالنبي سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، والمراد بنفي الإخزاء: إثبات أنواع الكرامة والعز.

والخزي: الفضيحة، يقال: أخزى الله فلاناً؛ فضحه، أو الانكسار والذلة يقال: خزي الرجل؛ لحقه إنكسار إما من نفسه حياءً، وإما من غيره أو منهما جميعاً^(٢).

وعطف الآية للمؤمنين على النبي ﷺ فيه تشريف كبيرٌ لهم، وتعريض بمن أخزاهم من أهل الكفر والفسوق.

(١) تفسير الخازن: ٦/٣٠٥.

(٢) روح المعاني: ٢٨/١٦١.

﴿تُورْهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ﴾ وهو كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ تُوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَنِهٖمُ بُشْرٰكُمُ الْيَوْمَ جَئْتُ بَعْرٰى مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا تُوْرَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: يقولون ذلك عندما ينطفئ نور المنافقين.

أو يقولون ذلك لتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضلاً. ثم أمرت الآيات النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ومعاملتهم بغلظة وشدة، فإن في التشديد عليهم مصلحة لهم لعلها تسوقهم إلى الإيمان:

﴿يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَاؤْتُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.

إن أصرُّوا على الكفر والنفاق حتَّى الموت، فمعاملة الكفار والمنافقين تختلف عن معاملة المؤمنين والمؤمنات، فإنَّ أساسَ معاملة المؤمنين والمؤمنات قائم على المودة والرحمة، بينما أساس معاملة الكفار والمنافقين قائم على الشدة والخشونة والغلظة.

ثم خوّفت الآيات أزواج النبي ﷺ، لأن كونهن نساءه لا يفيدهن إن أتين بما يحظر عليهن:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ضرب الله مثلاً لحال الذين كفروا في الدنيا والآخرة.

﴿امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِّنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ أي: كانتا في عصمة نبيين كريمين، فالحالة التي كانتا عليها في الدنيا داعية لهما إلى الخير والصلاح.

﴿فَخَاتَمَهُمَا﴾ أي: بالكفر والعصيان، مع تمكنهما من الإيمان والصلاح، فخيانتهم كانت بالكفر والنفاق، وهي مخالفة الحق، ولا تفسر هنا بالفجور، فما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهم في الدين، والزنى من المنفرات لا يقع أبداً من أزواج الأنبياء.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فلم يدفعوا عن امرأتيهما شيئاً من عذاب الله.

﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ أي: وقيل لهما عند الموت أو يوم القيامة: ادخلا النار مع سائر الداخلين من الكفار الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء ﷺ، فلا ينبغي لأحد أن يتكل على صلاح غيره، فالكافر لا ينتفع بطاعة غيره من المؤمنين، وكذلك لا تضره معصية غيره، فإن صلة المؤمن بالكافر لا تضر المؤمن.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ كانت امرأة أعدى أعداء الله تعالى، آمنت بالله، وسأله المنزلة العالية في الجنة.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ في أعلى درجات المقربين، قدّمت ذكر الجار على الدار.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: ونجني من نفس فرعون الخبيثة وكفره وظلمه.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ونجني من قوم فرعون التابعين له في الظلم.

ويبدو أن فرعون لما علم بإيمانها أمر بتعذيبها، فلجأت إلى الله، وسأله النجاة من ظلمهم، وهذا يدل على أن الالتجاء إلى الله عند المحن والنوازل من صفات الصالحين، وقد أثنى النبي ﷺ عليها، وبَيَّنَّ اسمها ومكانتها فقال: «كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ

عمران، وإنَّ فضلَ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائرِ الطعامِ» [رواه البخاري (٣٤١١)].

قال ابن حجر رحمته الله: «استُدِلَّ بهذا الحصر على أنهما نبيتان، لأنَّ أكمل النوع الإنساني الأنبياء، ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة»^(١).

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا الْوَقْتُ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾ (١٢).

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وهي شهادة من الله تعالى بعفتها وحصانتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: من روح خلقناه من دون توسط سبب، فهي إضافة تملك وتشريف كبيت الله وناقة الله، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا الْوَقْتُ﴾ أي: وصدقت بشرائع الله التي شرعها، وكتبه التي أنزلها كالتوراة والإنجيل، فهي شهادة من الله تعالى بصدق إيمانها وإخلاصها وعلمها. وفي قراءة: (بكلمة الله وكتابه) أي: بعيسى والإنجيل.

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾ أي: من المطيعين الخاشعين، وهي شهادة أخرى من الله تعالى بإخلاصها في العبادة، فهي من النساء الكاملات كما مر معنا في الحديث الشريف.

وعن علي عليه السلام قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «خيرُ نسائها مريمُ بنتُ عمران، وخيرُ نسائها خديجة» [رواه البخاري (٣٤٣٢)].

ودلَّ الحديثُ على أنَّ مريمَ أفضلُ من آسية امرأة فرعون، وأنَّ خديجةَ أفضلُ نساء هذه الأمة.

فالواجب على أزواج النبي ﷺ أن يكنَّ مثل هاتين المرأتين المؤمنتين في طاعتهما لربهما، وفي إخلاصهما في العبادة، وألا يتكلنَّ على أنَّهما أزواج رسول الله ﷺ.

والجدير بالذكر هنا: أنَّ الطبراني أخرج عن سعد بن جنادة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ زَوَّجَنِي فِي الْجَنَّةِ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ وَامْرَأَةَ فِرْعَوْنَ وَأَخْتَ مُوسَى» وهو حديث منكر، فيه يونس بن شعيب قال البخاري: منكر الحديث، وعبد النور قال فيه الذهبي: كذاب^(١).



(١) ميزان الاعتدال: ٤/ ٤٨١، برقم (٩٩٠٧).

تفسير سورة الملِك الْخَلْقُ وَالتَّذْيِيرُ فِي سُورَةِ الْمُلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحياة والاختيار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَبْدُؤُ الْمَلَكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَنِ كُنتُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَافًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن
تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝﴾ ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ
حَسِيرٌ ۝﴾

مجدد الله تعالى في أول سورة الملِك نفسه، وأخبر عن كمال قدرته، فقال:

﴿تَبَرَكَ الَّذِي يَبْدُؤُ الْمَلَكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾.

أي: تزايد خير وعطاء الذي بيده الملِك، فأحسانه تعالى لم يزل ولا يزال ثابتاً في ازديادٍ.

ومر معنا أن (تبارك) كلمة تعظيم، لا تستعمل إلا لتعظيم الله ﷻ، والمستعمل منها الماضي فقط، وهي إمَّا من البركة، وهي كثرة الخير وزيادته،

وإِذَا مِنَ الْبِرَّةِ لِدَوَامِ الْمَاءِ فِيهَا وَثْبَاتُهُ، وَلَعَلَّ الْمَعْنَى الثَّانِي أَنْسَبُ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يَدْرِي أَلَمَلِكُ﴾ فَمَلِكُهُ تَعَالَى ثَابِتٌ دَائِمٌ.

ثم شرعت الآيات تبين بعض أحكام الملك وآثار القدرة:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي: الذي خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون في الدنيا.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ليختبركم في ما بين الحياة إلى الموت، ويعاملكم معاملة المختبر، فيجازيكم على عملكم، لا على علمه بكم.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أيكم أصوب عملاً، أو خير عملاً، ولم يقل أكثر عملاً، فالمهم أن يكون العمل موافقاً لشرع الله، خالصاً له.

وصيغة التفضيل للترغيب في الترقى في مدارج الطاعات، فالدنيا دار اختبار وفناء، والآخرة دار جزاء وبقاء.

وقدَّمَ الموت لأنه قبل الحياة، فالإنسان كان في حكم الموتى، ثم طرأت عليه الحياة، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ودلَّت الآية على أنَّ الموتَ صفة وجودية تضاد الحياة لتعلق الخلق به، وذهب بعضهم إلى أنه أمر عديمي، وهو عدم الحياة، وأجابوا عن الاستدلال بالآية بأن الخلق فيها بمعنى التقدير، وهو يتعلّق بالعدمي كما يتعلّق بالوجودي^(١) فالتقدير للموت والحياة معاً.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي: وهو الغالب المنتقم ممّن عصاه، الغفور لمن تاب ورجع إلى طاعته.

(١) روح المعاني: ٤/٢٩.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ﴾

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض .

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ وفي قراءة: (تَفَوُّتٍ) بالتشديد؛ أي: لا ترى فيه من نقص ولا عيب ولا خلل، فخلق الرحمن محكم متقن، ولهذا قال يتحدّى كل متأمل ناظر في خلق الرحمن:

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى خللاً وعباً ونقصاً؟! .

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۚ﴾

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرتين .

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: يرجع إليك البصر ذليلاً وهو كليل منقطع من التعب والإعياء، فإنك مهما كررت النظر فلن ترى نقصاً ولا خللاً في خلق الرحمن، قال تعالى: ﴿أَنلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاهَا وَرَبَّنَّاهَا وَمَا هَا مِن فُورٍ﴾ [ق: ٦] .

الكواكب زينة ورجوم

﴿وَلَقَدْ رَئَا السَّمَاءَ الَّتِي بَصَّيْحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾

وبعد أن وجَّهت الآيات الأنظارَ إلى كمال الخلق وإحكامه وجَّهتها إلى جماله وتناسقه:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ أي: زيننا أقرب السماوات إلى الأرض
بكواكب مضيئة بالليل.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: وجعلناها لها فائدة أخرى، وهي رجم الشياطين
الذين يسترقون السمع، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكَبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وُقُودُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصفات].

فالله خلق هذه النجوم زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى
بها، فالشَّهْبُ التي يُرمى بها تفصل من هذه الكواكب.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: وهياًنا للشياطين عذاب السعير في الآخرة
بعد الإحراق بالشهب في الدنيا.

وهذا العذاب ليس مختصاً بالشياطين وحدهم، فهو مهياً لكل من كفر بالله
من الإنس والجن:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

وقرئ: (عذاب جهنم) بالنصب عطفاً على (عذاب السعير).

* * *

حسرة وندامة

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ حَزَنُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَسَاكِينَهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَلِلَّهِ الشُّكُورُ ﴿١٥﴾﴾.

ووصفت الآيات شدة هول هذا العذاب بقوله تعالى :

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: إذا طرخوا في جهنم سمعوا لها صوتاً منكراً وهي تغلي بهم غليان المرجل بما فيه .

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ حَزَنُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: تكاد تتقطع غضباً عليهم، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم .

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ حَزَنُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يحذركم من هذا العذاب، وهو سؤال توبيخ وتقريع .

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾.

أي: فكذبنا الرسل، وأفرطنا في التكذيب، حتى نفينا الإنزال والإرسال وقلنا للمرسلين: ما أنتم إلا في ضلال كبير .

وأضافوا بعد اعترافهم هذا متحسرين نادمين:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: لو كنا نسمع كلام الرسل ونستجيب له ونعقل حكمه ونعمل به ما كنا في عداد المعدّين في السعير، فمدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وهما حجتان متلازمتان.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

أي: فبعداً لهم عن رحمة الله تعالى وكرامته، فإنّ اعترافهم لا ينفعهم. ثم بينت الآيات بعد هذا الوعيد الشديد فضل الذين يخشون ربهم بالغيب، وما لهم عنده من المغفرة والأجر:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخافون عذابه ولم يعاينوه بعد، أو وهم غائبون عن أعين الناس، أو يخشونه وهم لا يرونه لأنه تعالى يراهم. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وما دام الأمر كذلك فأخلصوا في عبادته، وأقبلوا على طاعته، فإنه عليم بجميع أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: إنه عالم بضمائرها ودخائلها، وكيف لا يعلم ما فيها وهو خالقها؟!.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهو العالم بدقائق الأشياء وحقائقها.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي: مسخرة لكم، وفيها أسباب معاشكم وحياتكم.

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لاكتساب الرزق في الأرض، فالأرض مسخرة للإنسان، وجعل الله فيها كل ما يحتاج الإنسان إليه من أسباب الحياة والعيش، وما عليه إلا أن يسعى في تحصيل ذلك، والسعي والعمل أهم أسباب تحصيل الرزق.

﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: وكلوا من رزقه الذي خلقه لكم، وتفضل به عليكم، واشكروه على ذلك بطاعته وعبادته، فإن مرجعكم بعد الموت إليه في يوم الحساب والجزاء.

* * *

الخسف والحاصب

﴿أَسْمَأُ مِّنَ فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَ بِكُمُ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَسْمَأُ مِّنَ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِلٌ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمِسُّهُمْ إِلَّا الرِّحْمُنُ إِنَّهُ يَكُلُ شَيْءًا بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يُرَفِّقُ إِن هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَمُرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُ إِنْ أَمْسَكَ رِيقَهُ بَلْ لَّحُوا فِي غُرُورٍ وَتُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَمَّنْ يَبْشَى مُكِبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَبْشَى سَوَاءً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

وأنتم دائماً وأبداً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، فاخشوه وعظموه، ولا تأمنوا عذابه.

﴿أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ أي: من هو إله معبود في السماء كما هو إله معبود في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

فالسمااء خلق من خلقه تعالى، وهي في قبضة قدرته ومشيتته كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فله سبحانه صفة العلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود، لأنها صفات الأجسام، وإنما تُرفع الأيدي بالدعاء إلى السماء، لأنَّ السماء مهبط الوحي، وإليها تُرفع أعمالُ العباد، كما يتجه المصلون إلى الكعبة في الصلاة، قرر ذلك القرطبي رحمه الله، ثم قال: «لأنه خلق الأمكنة، وهو غير محتاج إليها، وكان في أزلّه قبل خلق المكان والزمان، ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان»^(١).

وفي قراءة: (أمنتُمْ) بإدخال ما بين الهمزتين ألفاً، (وا أمنتُمْ) بإبدال الأولى واواً لضم ما قبلها وهو راء (النشور).

﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: أمنتُمْ أن يغيبكم في الأرض كما فعل بقارون، فإذا هي تضطرب بكم وتهتز عندما تغيبون في داخلها.

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً تحمل حجارة ترميكم بها.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ أي: فستعلمون حينئذ كيف إنذاري إذا عايتم عذابي.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: ولقد كذب الذين من قبل الكفار المعرضين، فكيف كان إنكاري عليهم عندما أهلكتهم؟! ألم يكن عظيماً شديداً؟!

ومما يدل على قدرته تعالى على الخسف وإرسال الحاصب:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى﴾ أي: باسطات أجنحتهن في أثناء الطيران. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: ويضممن أجنحتهن فيكون القبض تارة بعد تارة كما يفعل السابح في الماء.

﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ أي: ما يمنعهن عن الوقوع عند القبض والبسط إلا الرحمن.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم سبحانه كيفية إبداع المبدعات، وتدبير أمر المخلوقات، فهو الذي قدر أسباب الخلق، ودبر أمرها بمشيئته وقدرته جل وعلا. ثم انتقلت الآيات بأسلوب الإضراب من توبيخهم على ترك التأمل في أحوال الطير التي تدل على كمال قدرته وعموم رحمته، إلى توبيخهم على اعتقادهم بأن لهم ناصراً غير الله يمنعه من بأسه وعذابه، ويرزقهم إن أمسك رزقه عنهم:

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾.

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: من هذا الذي ينصركم من عذاب الرحمن؟!.

ثم قرر بعد هذا التوبيخ أنهم في ضلال عظيم فاحش:

﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ صدَّهم عن الإذعان للحق وحجبهم عنه.

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أي: من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده؟! فلا أحد يُعطي ويمنع ويخلق ويرزق إلا الله.

ومع ذلك فالقوم لا زالوا على عنادهم وإعراضهم:

﴿بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: استمروا في استكبارهم وإعراضهم.

ثم وصفت الآيات بعض ما ينتظرهم يوم القيامة، لعل استكبارهم وعنادهم يزول عنهم:

﴿أَفَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فالكافر يمشي يوم القيامة منحنيًا على وجهه، لا يدري أين يسلك، بل هو تائه حائر؛ قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

بينما المؤمن يمشي سويًا منتصب القامة على طريق واضح بين.

* * *

المصارحة بالحقيقة

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَعَ مَعِيَ أَوْ رَحِمَا فَمَنْ يُحْيِي الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي صُلْبِ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

بعد هذا التوبيخ والوعيد أمرت الآيات النبي ﷺ أن يواجههم بالحقيقة، ويصارحهم بها، لكي يدعنوا لها ويؤمنوا بها:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ومع ذلك لا تشكرون الله شكراً قليلاً على ما أنعم عليكم من النعم العظيمة الجليلة، فأنتم لا تسمعون المواعظ، ولا تنظرون آثار قدرته، ولا تفكرون بآياته.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: هو الذي خلقكم في الأرض وإليه تحشرون للجزاء والحساب لا إلى غيره. وبقي القوم بعد كل هذا الوعيد والتذكير مُصِرِّين على عنادهم وضلالهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

يقولون ذلك استبعاداً لوقوعه.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْهَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْهَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إن العلم بوقت وقوعه لا يعلمه إلا الله، فما أطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا.

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أنذركم بوقوعه، وأبين لكم أحكام الشريعة والدين.

ثم وصفت الآيات أحوالهم عندما تقوم القيامة ويرونها بأسلوب الوقوع والحدوث تأكيداً لوقوعها وحدوثها:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وَجْهُهُ الَّذِي كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وَجْهُهُ الَّذِي كَفَرُوا﴾ أي: فلما رأوا العذاب قريباً منهم ساءهم ذلك، وجاءهم من الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، فعلا وجوههم القتر والذلة، وغشيتها الكآبة.

ويقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ:

﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أي: تستعجلون أو تطلبون عندما كنتم تقولون منكرين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥].

ثم أمر النبي ﷺ بعد هذه المصارحة وما فيها من تهديد وتوبيخ أن يدعوهم بأسلوب المحاكمة العقلية المنطقية:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِیَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأبقانا، وأخر آجالنا، فهو الخالق المدبر يفعل ما يشاء.

﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لا ينجيهم أحد من العذاب، أهلكنا أو أبقانا، فنحن مع إيماننا خائفون؛ فمن يمنعكم من عذابه وأنتم كافرون؟!.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الذي أدعوكم إليه، له وحده الخلق والتدبير، ولهذا:
 ﴿ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فلم نكفر به كما كفرتم، وفوضنا إليه أمورنا.
 ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فستعلمون عند نزول العذاب ومعابنته مَنْ
 هو في ضلال مبين نحن أم أنتم. وقرئ: (فسيعلمون) بالياء.
 وأقرب دليل عملي ملموس على ذلك:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض لا تستطيعون الوصول إليه.
 ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ظاهر تراه العيون، وتناله الأيدي، غير الله الخالق
 المدبر جل وعلا.

والجدير بالذكر أن هذه السورة تسمى: المانعة، والمنجية، والمجادلة،
 لأن الله تعالى يحمي أصحابها من عذاب القبر.
 فقد أخرج الطبراني: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنّا نسميها على عهد
 رسول الله ﷺ المانعة.

وأخرج الترمذي [٢٨٩٠] وغيره: عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ضرب بعض
 أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ
 سورة الملِك حتى ختمها فاتى النبي ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «هي
 المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر».

وكان سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته الله يقرأها مساء كل يوم، ويوصي
 بقراءتها، وجاء في فضلها أخبار كثيرة؛ منها: ما أخرج الإمام أحمد [٧٩٦٢]
 وأبو داود [١٤٠٠] والترمذي [٢٨٩١] والنسائي في الكبرى [١٠٤٧٨] وابن ماجه،

والحاكم وصححه [٣٧٨٦] وابن حبان [٧٨٧]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ سُوْرَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِمَالِكِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾».



تفسير سورة القلم الاستدراج في سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
صاحب الخلق العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَتُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ .

بدأ الله تعالى سورة القلم بالقسم به فقال :

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ .

﴿ت﴾ وهو حرف من حروف الهجاء ، والله أعلم بالمعنى المراد منه ، ويؤيد أنه حرف سكونه وكتابتة بصورة الحروف ، وقرئ بسكون النون وإدغامها في واو (والقلم) .

﴿وَالْقَلَمِ﴾ المراد كل قلم يكتب به ، فهو الوسيلة الأساس للتعليم ، قال تعالى : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (٢) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿العلق﴾ .

نَبَّهَ تَعَالَى بِهَذَا الْقِسْمِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الَّتِي بِهَا تُنَالُ الْعُلُومُ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ:

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكتبون.

وقد يرادُ به القلمُ الذي أجراه الله بالقدر، ففي الحديث: عن الوليد بن عباد بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموتُ فقال: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ» [أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥) وقال: حسن صحيح غريب].

وجواب القسم:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

أي: ما أنت يا محمد برحمة ربك بمجنون.

وهو رد لقولهم الذي حكاه سبحانه عنهم في قوله الكريم: ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

فنعمة الله تعالى ظاهرة على النبي ﷺ، فقد جمع له تعالى كمال الخلق والخلق، وبرّاه من كل عيب، فهم كاذبون في قولهم: (إنك لمجنون)، ثم بشره ربه بالأجر العظيم:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

أي: وإن لك لأجراً على احتمال ذلك الأذى والصبر عليه غير منقوص ولا مقطوع، فلا ينبغي أن تمنعك افتراءاتهم عن الاستمرار على طريق دعوتهم وتبليغهم رسالة ربهم وإقامة الحجة عليهم.

ثم شهد له جل وعلا شهادةً عاليةً تؤكد مضمون قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

فمن كان كذلك لا ينسب إلى الجنون.

فأخلاقه عليه الصلاة والسلام عظيمةٌ كاملةٌ حميدةٌ، بلغت الغاية العالية في الكمال، حتى إنَّ السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت لسعد بن هشام عندما سألها عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ: أَلَسْتُ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قال: بلى، قالت: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ. [رواه مسلم (٧٤٦)]. زاد البيهقي في «دلائله»: يرضى برضاه، ويسخط بسخطه.

ومن المعلوم: أَنَّ الله جمعَ في القرآن الكريم كلَّ مكارم الأخلاق، وكلها اجتمعت في رسول الله ﷺ، وورود هذه الشهادة الربانية في سياق القسم الإلهي بالقلم وما يسطرون دَلَّ على أَنَّ أعظم المقدرات التي كتبها القلم في لوح المقادير: إِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، لقد اجتمع فيه ﷺ ما جبله الله عليه من الخُلُقِ العظيم في أصل فطرته الكريمة، مع امتثاله لما في القرآن الكريم من الأخلاق الكريمة والمثل الإنسانية الرفيعة، وهذا ما جعلَ السيدة عائشة رضي الله عنها وهي أقربُ الناس إليه تقول: إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا. [رواه مسلم (٢٣١٠)].

وقد بعثه الله تعالى ليتمم للبشرية مكارم الأخلاق، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» [رواه أحمد (٨٩٣٢)] وقال مصحح المسند: إسناده صحيح، والبراز (كشف: ٢٧٤٠) ومالك في الموطأ (٩٠٤/٢).

قال القاضي عياض: وكان - في ما ذكره المحققون - مجبولا عليها من أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي وخصوصية ربانية^(١).

(١) الشفا في حقوق المصطفى: ٥٤٥/١.

ثم يبين تعالى أن إمهال المشركين وتأخير العذاب عنهم إنما هو استدراج لهم ومكر بهم:

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ﴾.

أي: فستعلم ويعلمون؛ أو سترى وسيرون؛ حين يميز الله بين الحق والباطل.

﴿يَا أَيُّكُمُ الْمَقْتُولُ﴾.

أي: الذي افتتن عن الحق، وضلَّ عنه، فهو كقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُ﴾ [القمر].

أو أيكم الذي فُتن بالجنون، ودخلت الباء في قوله: ﴿يَا أَيُّكُمُ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ﴾ أو بأي الفريقين منكم المجنون، وفي أيهما يوجد من يستحق هذا الوصف.

ويقوي المعنى الأول قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهم المجانين على الحقيقة.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهم الذين انتفعوا بعقولهم، وساروا في طريق الهدى

والرشاد.

تحقير المكذبين وفضح عيوبهم

﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ نُدِّهْنُ فَيَذْهَبُونَ ۝٩ وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِسِيمٍ ۝١١ مَنَاجٍ لِلْحَيْرِ مُعْتَدٍ أَيْبٍ ۝١٢ عَتَلٌ نَّعَدَ ذَلِكَ رَيْبٍ ۝١٣ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيِّنَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُوبِ ۝١٦﴾ .

ووجهت الآيات النبي ﷺ للثبات على طريق الدعوة واحتمال أذى المشركين:

﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ .

لدعوة الحق وهي دعوة التوحيد، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

﴿وَدُّوا لَوْ نُدِّهْنُ فَيَذْهَبُونَ ۝٩﴾ .

أي: تمنّوا أن تُصانعهم وتترك بعض ما أنت عليه، فتلين لهم ويلينوا لك بترك الطعن والأذى.

وأصل الإدهان: اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام، ويبدو أنهم كانوا يدعون النبي ﷺ ليكشف عن تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، وشتم آبائهم، ليكفوا عن أذاه، فبشّته تعالى وأنزل في ذلك قوله الكريم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وبعد النهي عن طاعة عموم المكذبين خصّت بالذكر بعضهم:

﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ .

أي: كثير الحلف بالباطل، حقير، فالإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه.

﴿هَٰذَا مَثَلٌ مِّمَّا يَنْمِيهِ﴾.

أي: عِيَابِ فِتَانٍ يَسْعَىٰ بِالنَّمِيمَةِ لِيُفْسِدَ بَيْنَ النَّاسِ.

﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ﴾.

﴿مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أي: بخيل بالمال.

أو: يمنع ولده وعشيرته عن الدخول في الإسلام.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: ظلوم يتعدَّى الحق ولا يرضى به، فاجرٌ يتعاطى الآثام.

﴿عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنٌ﴾.

﴿عُتِلَ﴾ أي: غليظ سيئ الخلق.

﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَيْنٌ﴾ أي: وهو مع ما وصفناه من الصفات المذمومة زينم، وهو الدعيُّ المَلصَقُ في القوم، وليس منهم، أو الذي لا أصل له، قال ابن قتيبة: لا نعلم أنَّ الله وصف أحداً، ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة^(١).

ومعظم المفسرين على أنَّ هذه الآيات نزلت فيه، لكن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم، ولفظ الآية: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ﴾ يدل على العموم، فالآيات تنسحب على كل من اجتمعت فيه هذه الصفات التسع.

ثم كشفت الآيات سبب إظهار قبائحه وعيوبه:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ إِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾.

أي: جعل في مقابلة النعم التي أُعطِيها من المال والبنين الكفرَ بآياتنا.

وفي قراءة: (أأن كان) على الاستفهام، وبعضهم حَقَّقَ الهمزتين، وبعضهم سهَّلَ الثانية.

﴿سَسِئْمُهُ عَلَى الْخَرْطُومِ﴾

أي: سنكويه على أنفه، فنجعل له علامة يُعَرَفُ بها يوم القيامة.
أو: سنلحق به ذلة وعاراً لا يفارقه، إذ الأنف مكان العزة والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا في الذليل: رَغِمَ أنفه.
وفي لفظ (الخرطوم) استهانة به، لأنه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير، وقد ألحق الله به بما ذكر في هذه الآيات من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة كالوسم على الخرطوم الذي لا يخفى ولا يُمَحَى.
وهكذا رفعت الآيات النبي ﷺ إلى أعلى عليين، وأنزلت عدوه إلى أسفل سافلين.

* * *

قصة أصحاب الجنة

﴿إِنَّا لَنُؤْتِيهِمْ مَا يَكُونُ لَهُمْ أَحْسَبُ الْحِسَابِ إِذْ أَقْبَمُوا بِصِرْطِهَا مُصْبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ١٨ طَلَّافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ١٩ فَأَصْبَحَتِ كَالضُرُبِ ٢٠ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ٢١ أَيْنَ أَعْدَاؤُنَا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٢ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ٢٣ أَلَا لَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ مُسْكِينٌ ٢٤ وَعَدَاؤُنَا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ٣٠ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٣١ عَسَى رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّمَّا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ٣٢﴾

لقد وضع هذا الرجل الكفر مكان الشكر، فقد كان ذا مال وبين حاله في هذا كحال جميع المكذِّبين من مشركي مكة، إذ كانوا في جوار حَرَمِ الله، يتمتعون

بالأمن والغنى، فكفروا بنعمته تعالى بدل أن يشكروه قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمَاءَ إِمْنًا وَيُحْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. فتوعدّهم الله بأن يتبليهم بالجوع والقحط وهلاك الأموال كما ابتلى قبلهم أصحاب الجنة، فقال:

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: إنا اخترنا أهل مكة كما اخترنا أصحاب الجنة.

ويظهر أن أهل مكة كانوا على علم بقصة أصحاب الجنة؛ وهي بستان باليمن قرب صنعاء - كما ذكر المفسرون - ولعلّها كانت قريبةً من مكة المكرمة في الطائف فهي قريبةٌ من مكة، وفيها كثير من المزارع والبساتين، ورثها أصحابها عن أبيهم الذي كان يُعطي جزءاً من ثمارها للمساكين عند القطاف وجني المحصول، ولما مات أبوهم وصارت لهم:

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا ليقطعن ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يحضر المساكين جرياً على ما عودهم أبوهم.

﴿وَلَا يَسْتَنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

حصّة المساكين كما كان يفعل أبوهم.

أو: حلفوا أيماناً مؤكدة من غير أن يعلقوها على مشيئة الله تعالى، ويضيفوا إلى لفظها: إن شاء الله.

ولما أُنِعت ثمارها وحن وقت قطافها دمرها سبحانه وحرّمهم منها:

﴿قَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: نزل عليها بلاء بمشيئة الله تعالى وتقديره في ليلة قطافها وهم نائمون.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ٢٠﴾

كالبستان الذي صُرِمَتْ ثماره وكالزرع المحصود، فالصريم بمعنى المصروم؛ أي: المقطوع ما فيه.

﴿فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ٢١﴾

أي: فنادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا.

﴿أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ٢٢﴾

أي: اخرجوا إلى بستانكم إن كنتم قاطعين ثماره.

﴿فَانْطَلَفُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ ٢٣﴾

أي: يتحدثون سراً فيما بينهم.

﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ٢٤﴾

أي: يقولون: لا تمكّنوا مسكيناً من الدخول.

﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرِينَ ٢٥﴾

وعدوا قاصدين إلى جنتهم، قادرين عند أنفسهم على صرامها وحرمان المساكين منها، أو قادرين على نكد لا غير.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ٢٦﴾

أي: لمخطئون الطريق، وليست هذه جنتنا.

لكنهم لما تأملوها عرفوا أنها جنتهم.. قالوا:

﴿لَمْ نَحْنُ مُخْرَمُونَ﴾ (٢٧).

قد حُرِّمْنَا خيرها ونفعها.

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨).

قال أعدلهم رأياً: ألم أقل لكم: هَلَّا تستغفرون الله وتتوبون إليه من ذنوبكم وعزمكم على منع المساكين حقهم؟!.

﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩).

نَزَّهُوا الله عن الظلم فيما فعل بجنتهم، وأقروا على أنفسهم بالظلم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمَذُونَ﴾ (٣٠).

يلوم بعضهم بعضاً؛ فإن منهم من أشار به، ومنهم من أنكره ثم رضي به.

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٣١).

متجاوزين حدود الله.

﴿عَسَىٰ رَبَّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ (٣٢).

طالبون منه الخير، راجون عفوهُ.

فأبدلهم الله خيراً منها ببركة إخلاصهم وتوبتهم. وفي قراءة: (يبدِّلنا) بالتحديد.

* * *

التوبيخ والتحدي

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ حَسَنَاتٍ النِّعَمِ ﴿٣٤﴾ أَفَجَعَلُ
الْمُتَّقِينَ كَالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ
﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلَامٌ أُنْزِلَ بِهِ بِذَلِكَ رَعِيبٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ
لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

وعقب الله تعالى على قصتهم بقوله:

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: كذلك العذاب في الدنيا لكل من سلك سبيلهم.
﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولعذاب الآخرة أعظم منه؛ لو
كانوا يعلمون لما فعلوا ما يُفضي إليه.

ثم بيّن تعالى ضرورة الجزاء يوم الحساب للتمييز بين المؤمنين والكافرين،
فليس من الحكمة التسوية بينهما، وقرر في مقابل ما ذكر من عذاب الآخرة
للكافرين ما للمتقين من الثواب العظيم في جنات النعيم:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النِّعَمِ ﴿٣٤﴾﴾ .

ثم رَدَّتْ الآيات مزاعم الكفار الذين كانوا ينكرون يوم القيامة، ويقولوا: إن
صحَّ أننا نبعث كما يزعم محمد والمؤمنون، فسيكون حالنا فيها أحسن من
حالهم، وكما فُضِّلنا عليهم في الدنيا بالمال والجاه سنفضَّل عليهم في الآخرة:

﴿أَفَجَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٥﴾﴾ .

وهو تقرير لما قبله من فوز المتقين بجنات النعيم، وردُّ لمزاعمهم الباطلة
أكدته الآيات بأسلوب الالتفات تعنيفاً وتوبيخاً لقائله.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦).

أي: أي شيء حصل لكم من خلل في العقل وفساد في الرأي؟! فمثل هذا القول لا يصدر من عاقل.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧).

أي: هل لكم كتاب نازل من السماء تقرؤون فيه؟!.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهَا لَمَا تَخِيرُونَ﴾ (٣٨).

أي: لما تشتهون وتريدون، فالأمر مفوض إليكم، والحكم منوط بمشيئتكم. ولا يخفى ما في الآيات الكريمة من تهكُّم مرير بهم. وتابعت الآيات هذا التهكم اللاذع المرير:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ (٣٩).

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أي: ألكم عهود ومواثيق مؤكدة لا تنقطع ولا تبطل حتى تبلغ ذلك اليوم ويحصل لكم المُقسَم عليه؟! وهو:

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله تعالى.

ثم وجهت الآيات الخطاب إلى النبي ﷺ تأمره أن يتحداهم موبخاً لهم:

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (٤٠).

أي: كفيل بذلك الحكم.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٤١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: ألهم شركاء يشاركونهم في هذا القول، أو يشهدون لهم بصدقه وصحته؟!.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فلا أحد يقر لهم بهذا ويساعدهم عليه ويقلدهم فيه .
وبهذا نفت الآيات جميع ما يمكن أن يتشبثوا فيه من عقل أو نقل أو وعد
أو محض تقليد .

* * *

الامر العظيم

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَنْصَرُّهُمْ رَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ
إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ
إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

وأضافت إلى ذلك وصف هول يوم القيامة، وما يصيبهم فيه من ذلة وخوف
وفضيحة :

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ أي : يوم يشتد الأمر ، ويعظم الخطب كقولهم : شمرت
الحرب عن ساقها ؛ أي : اشتدت ، والأصل في أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى
الجد شمر عن ساقه ، ومنه تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب ، فإنهن لا يفعلن
ذلك إلا إذا عظم الخطب ، واشتد الأمر ، فيذهلن عن الستر ومنه قول الشاعر :

أخو الحربِ إنْ عَصَبَتْ به الحربُ عَصَها وإنْ شَمَرَتْ عن ساقِها الحربُ شَمَرَا
أو : يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً ، مستعار من
ساق الشجر وساق الإنسان ، وتنكيره للتهويل أو للتعظيم ^(١) .

ويقويه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وروى ابن كثير في معنى الآية عن ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة، وعن ابن مسعود قال: عن أمر عظيم.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يكشِفُ ربُّنا عن ساقه، فيسجدُ له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى من كان يسجدُ في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهبُ لیسجدَ فيعودُ ظهره طبقاً واحداً» [رواه البخاري (٤٩١٩)].

قال ابن حجر رحمته الله: «أخرجه من طريق حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم بلفظ: (يكشف عن ساق) قال الإسماعيلي: هذه أصح لموافقتها لفظ القرآن، لا يُظَنُّ أَنَّ الله ذو أعضاء وجوارح؛ لما في ذلك من مشابهة المخلوقين، تعالى الله عن ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]»^(١).

﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ويدعى الكفار إلى السجود لا تكليفاً ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا، فلا يستطيعون السجود، ولا يقدرُونَ عليه من شدة ما يعتريهم من رعب وخوف.

﴿خَشَعَةَ أَبْصَارِهِمْ رَهَقَهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ (٤٣).

﴿خَشَعَةَ أَبْصَارِهِمْ رَهَقَهُمْ ذُلٌّ﴾ أي: ذليلة أبصارهم تعلوهم كآبة ومهانة، وتسودُ وجوههم كما في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَرَّةٌ ﴿٤١﴾ رَهَقَهَا قَرَّةٌ ﴿٤٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٣﴾﴾ [عبس].

﴿وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ أي: وقد كانوا في الدنيا يُدْعُونَ بالسنة الرسل إلى السجود لله تعالى وهم متمكنون منه لا يمنعهم منه مانع.

وتابعت الآيات تسلي النبي ﷺ وتواسيه عما يلقي من أذى المكذبين بالقرآن، مع تهديدهم ووعيدهم:

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: فدعني والمكذبين بالقرآن، ولا تشغل قلبك بهم، وكلهم إليّ، فإني أكفيك إياهم.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: سنذنبهم من العذاب درجة درجة، بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة من حيث لا يعلمون أنه استدراج، بل يعتقدون أنه من الله كرامة وهو في الحقيقة إهانة، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ ضَارِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون].

فكلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار والتوبة، وهذا هو الاستدراج، فهو الأخذ من جهة الأمن، يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]. وقوله أيضاً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: وأمهلهم، فلا أعاجلهم بالعقوبة، إن عذابي شديد لا يُدفع ولا يُمنع. سمى سبحانه إحسانه وتمكينه لهم كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً لهلاكهم.

وفي الحديث الشريف: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. [رواه مسلم (٢٥٨٣)].

الصبر لحكم الله

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْوَيْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَحْبَبْنَا رَبَّنَا فَفَعَلْنَا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ .

وعادت الآيات مرة ثانية تنفي كل شبهة يمكن أن يتشبَّث بها الكفار وهي تخاطب النبي ﷺ تمهيداً لشتيته وتصويره:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرِمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

أي: أطلبُ منهم أجراً على تبليغ الرسالة فيثقل عليهم ذلك ويشبطهم عن الإيمان؟! .

والمَغْرِم: الغرامة المالية، وهو استفهامٌ بمعنى النفي، أي: لست تطلبُ أجراً على تبليغ الوحي، ودعوتك منزَّهة عن أي كسب مادي.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: أعندهم لوح المغيبات فهم يكتبون منه ما يحكمون به، ويستغنون به عن علمك؟! .

فلا حجةَ لهم في معارضة دعوتك، والسعي في إيذاك، والله سبحانه يمهلهم ولا يمهلهم، ويستدرجهم. وما دام الأمر كذلك:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْوَيْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ .

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم.

﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْوَيْتِ﴾ هو يونس عليه السلام الذي سبق ذكره في الآيات

الكريمة: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٩) إِذْ أُنْقِيَ إِلَى الْآفَاقِ الْمَسْحُورُونَ ﴿١٣٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٣١﴾ فَالْقَمَمَةُ آخُوتٌ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٣٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٣٤﴾ [الصفات].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» [رواه البخاري (٣٤١٦)].

قال العلماء: ما قال ﷺ ذلك إلا تواضعاً، وخَصَّ يونس بالذكر لما يُخْشَى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيصٌ له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة^(١).

﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: إذ نادى وهو في بطن الحوت وهو مملوء غمّاً أو غيظاً، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ويلاحظ أنه تعالى قال في معرض مدح يونس ﷺ: ﴿وَذَا النُّونِ﴾، بينما قال هنا في معرض النهي عن اتباعه: (صاحب الحوت)؛ لأن كلمة (ذا) أبلغ من (صاحب) لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها^(٢).

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ (٤٩).

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهي توفيقه للتوبة والتسبيح وقبولها منه. ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لنبذ بالأرض الخالية من الأشجار وهو معائب ملوم، لكنه رُجِمَ، فنبت غير مذموم.

﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٥٠).

أي: فاصطفاه ربه فجعله من المستكملين لصفات الصلاح.

(١) فتح الباري: ٤٥٢/٦.

(٢) روح المعاني: ٤٥/٢٩.

العين حق

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَحْنُوءٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

فلا بد للنبي ﷺ أن يصبر عليهم حتى يأتي أمر الله بعذابهم، فعداوتهم له شديدة، دلّ على شدتها قوله تعالى:

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَحْنُوءٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ أي: إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شراً بحيث يكادون أن يزيلوك عن مكانك، أو يهلكوك، من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني.

أو: يكادون يصيبونك بالعين، لولا وقايته تعالى لك وحمايته إياك منهم. ففي الآية دليل على أن إصابة العين وتأثيرها حق بمشيئته تعالى وقدره، وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا» [رواه مسلم (٢١٨٨)].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يأمرها أن تسترقي من العين. [رواه مسلم (٢١٩٥)].

وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة - سواد مع حمرة - فقال: «استرقوا لها، فإن بها النظرة» [رواه البخاري (٥٧٣٩)].

وقد أجرى الله العادة بوجود كثير من القوى والخواص في الأجسام والأرواح كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل، فيرى في وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية من يخافه، وكثير من الناس

يسقُمُ بمجردِ النظرِ إليه، وتضعف قواه، وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات، ولشدة ارتباطها في العين نسب الفعل إلى العين.

وورد في مداواة المعين: ما أخرجه أبو داود من رواية الأسود: عن عائشة رضي الله عنها أيضاً قالت: كان النبي ﷺ يأمرُ العائنَ أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين^(١). وفي قراءة: (ليزلقونك) بفتح الياء.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: وقت سماعهم القرآن الكريم.. وهذا يدل على اشتداد بُغْضِهِمَ للنبي ﷺ وحسدهم له عند سماع تلاوته القرآن الكريم. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: وينسبون النبي ﷺ إلى الجنون؟!.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٥٢)

أي: وما محمد ﷺ إلا شرف للعالمين، فكيف يُنسب إليه الجنون؟! .
أو: ما القرآن إلا ذكر عام للعالمين، لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأياً؛ فكيف يُنسب إلى الجنون؟! .



تفسير سورة الحاقة الْحَقُّ الثَّابِتُ فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تعظيم يوم الحق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ مَا الْخَاقَّةُ ٢﴿ وَمَا أَزْدَرَكَ مَا الْخَاقَّةُ ٣﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الحاقة بتعظيم يوم القيامة وتفخيم شأنه فقال:

﴿الْحَاقَّةُ ١﴾ .

سُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ حَاقَّةً مِنَ الْحَقِّ الثَّابِتِ، فَهِيَ ثَابِتَةُ الْوُقُوعِ لَا رَيْبَ فِيهَا.

أو: واجبة الوقوع، من حَقَّ يَحِقُّ بالكسر، أي: وجب.

أو: لأن الأمور تُحَقَّقُ فيها ويصير كل إنسان حقيقاً بجزاء عمله.

أو: لأنها تحقق كل مخاصم جاحد لها، يقال: حَاقَقْتُهُ فحَقَّقْتُهُ، أي: غالبته

فغلبته. أو: لأنها يوم الحق.

﴿مَا الْخَاقَّةُ ٢﴾ .

مبتدأ وخبر، وهما خبر (الحاقة)، والأصل: الحاقة ما هي؟ أي: أي شيء

هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها، حقها أن يُستفهم عنها لعظمها، فوضع الاسم الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

أي: وأي شيء أعلمك ما هي؟! فإنها أعظم من أن تبلغها دراية أحد، ومهما قدّرت حالها فهي أعظم من ذلك، فهي لا تعلم، ولا تبلغها الأوهام والأفكار.

قوارع وعبر

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿١﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٢﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَقْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَلَيْهِ ﴿٣﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعًا يُبَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْرَاضٌ مُخْلِ حَاوِيَةٌ ﴿٤﴾ مَهَلٌ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٥﴾ وَبِمَاءٍ يَرَوْنَهَا وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِنْ فَتْنَةٍ يُفْتَنُونَ ﴿٦﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَابِيَةً ﴿٧﴾ إِنَّا لَنَّا طَعْنَا أَلَمَاءَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْمَرَايَةِ ﴿٨﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَفَعَلْنَا أذُنًا وَعَيْنَةً ﴿٩﴾﴾.

فهي حقيقة ثابتة يحق إهلاك المكذبين بها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾.

أي: بالقيامة التي تفرع الناس بالأفزع والأهوال، يقال: أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده، وهي تفرع السماء بالانشقاق، والأرض والجبال بالزلزلة والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾.

أي: بالصيحة الطاغية المجاوزة للحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً

وَجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْحَنِظِرِ ﴿٣١﴾ [القمر: ٣١].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾

أي: أهلكوا بريح شديدة الصوت، باردة، فهي شديدة العصف، جاوزت الحد والمقدار، فلم يقدروا على الامتناع منها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ ﴿٧﴾﴾
خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: سلطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة دائمة من غير فتور ولا انقطاع حتى حسمتهم واستأصلتهم، فلم تبق منهم أحداً، بدأت عند طلوع الشمس من أول يوم وانقطعت عند غروب شمس آخر يوم.

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: فترى القوم فيها موتى كأنهم أصول نخل ساقطة بالية ليس لها رؤوس.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾

أي: من نفس باقية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ نَّأْمَلُ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تَدْمِشُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا سَنَكُوتُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾

أي: وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم الماضية وأهل قرى لوط بالفعللة الخاطئة:

وفي قراءة: (ومن قبله) بكسر القاف وفتح الباء، أي: ومن معه وتبعه من

جنوده، وُسِّمَتْ قَرَى لُوطَ: (المؤتفكات) لأنها اتتفتكت؛ أي: انقلبت بهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُم أَخَذَةً رَّابِيَةً﴾.

أي: فعصت كل أمة رسولها فأخذهم الله أخذة زائدة في الشدة كما زادت أعمالهم في القبح.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾.

أي: إنا لما جاوز الماء حده المعتاد في أثناء الطوفان، حملناكم وأنتم في أصلاب آبائكم في سفينة نوح الجارية، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُوسِرَ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر].

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: لنجعلها لكم عبرة ودلالة على كمال قدرتنا ورحمتنا. ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي: وتعملها وتنتفع بها أذن حافظة منتفعة بما سمعت وحفظت، فلا تترك العمل به، ولا شك أن المراد صاحبها، ولا يُنسب للأذن حقيقة إلا السمع.

وفي قراءة: (وتعيها) بإسكان العين، و(أذن) بتسكين الذال للتخفيف.

بين يدي الواقعة

﴿إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ۝١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ ۝١٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَتْرَابِهَا وَسَيُجَلُّ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَظِيرًا ۖ ۝١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مَكَرٌ خَافِيَةٌ ۖ ۝١٨﴾.

ثم شرعت الآيات في وصف بعض أحداث القيامة وما يكون بين يديها إثر بيان عظم شأنها وإهلاك مكذبيها:

﴿إِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ ۝١٣﴾.

وهي النفخة الأولى: نفخة الصعق، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فَيَّامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].
فنفخة واحدة خربت العالم كله؛ فما أعظمها! ووقع الفعل على النفخة لأنه لم يأت قبلها اسم مرفوع، ويجوز نصب (نفخة) على المصدر وقرئ بها، ويقوم (في الصور) مقام نائب الفاعل.

﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ ۝١٤﴾.

أي: رُفعت عن أماكنها بقدرة الله، فضربتا ببعضهما ضربة واحدة.
أو: فبسطتا بسطة واحدة، فصارتا أرضاً مستوية لا عِوَجَ فيها ولا أمتاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَيُلَوِّكُ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلٌّ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ۝١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ ۝١٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۖ [طه].

ولا شك أن ذلك يؤدي إلى حدوث زلزلة عظيمة في الأرض، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًاؤُا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقال أيضاً: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

وفي قراءة: (وَحُمِّلَتْ) بتشديد الميم على التكثير والمبالغة في تهويل الحمل.

﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ .

أي: فحينئذ قامت القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٦ لَبَسَ لَوْفَعُهَا كَازِبَةً﴾ [الواقعة].

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾ .

أي: فهي حينئذ ضعيفة بعدما كانت مُحْكَمَةً قوية.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۝١٧﴾ .

﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي: والملائكة يلجؤون إلى أطراف السماء وجوانبها قبل نزولهم إلى أرض المحشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّعَمِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقد يكون المراد: والملائكة حول أرض المحشر يحيطون بها.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ﴾ أي: ويحمل عرش ربك فوق الملائكة ثمانية أو فوق أهل القيامة، وهل المراد ثمانية صفوف من الملائكة أو ثمانية ملائكة؟ الله أعلم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧].

وروى أبو داود في سننه [٤٧٢٧] بسند جيد: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أنه قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ؛ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِئَةِ عَامٍ».

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ .

أي: تُعرضون على الله تعالى للحساب لا تخفى منكم سريرة ولا حال كنتم تخفونها في الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْرَافُ﴾ [الطارق: ٩].

وفي قراءة: (لا يَخْفَى) بالياء، فالله يظهر أحوال الخلائق في ذلك اليوم، فالمحسنون يسرون بإحسانهم، والمسيئون يحزنون بإساءاتهم.

* * *

أصحاب اليمين

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مَقْرُوءَاتُ كِتَابِي (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءَ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَمْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْغَالِيَةِ (٢٤)﴾.

ثم وصفت الآية أحوال هذا العرض، وبدأت بأصحاب اليمين:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مَقْرُوءَاتُ كِتَابِي (١٩)﴾.

أي: خذوا اقرؤوا كتابي، أو تعالوا اقرؤوا كتابي.
والأصل: (كتابي) والهاء فيه وفي (حسابيه) و(ماليه) و(سلطانيه) للسكت، ولإظهار فتحة الياء، وحقها أن تكتب في الوقف وتسقط في الوصل، كما فعل بعض القراء، وقد استحب الوقف لثبوتها في المصحف.
والمراد: كتاب الأعمال الذي قال تعالى عنه: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءَ (٢٠)﴾.

أي: إني أيقنت وعلمت أنني أبعث وأحاسب يوم القيامة، فلم أنكر البعث، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].
ولعله عبّر عن العلم بالظن إشعاراً بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهجس في النفس من خطرات لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً^(١).

قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقينٌ، ومن الكافر فهو شك. وقال الحسن في هذه الآية: إِنَّ المؤمنَ أَحَسَنَ الظَّنِّ بربه فأحسنَ العمل، وَإِنَّ المنافقَ أَسَاءَ الظَّنِّ بربه فأساءَ العمل^(١).

وَجُوزَ أَنْ يكونَ الظنُّ على حقيقته على أَنْ يكونَ المراد من حسابه ما حصل له من الحساب اليسير، فَإِنَّ ذلكَ ممَّا لا يقينَ له به، وَإِنَّمَا ظَنَّهُ وَرَجَّحَهُ لمزيد وثوقه برحمة الله تعالى، ولعلَّ ذلكَ عند الموت، فقد دَلَّتْ الأخبارُ على أَنَّ اللائقَ بحال المؤمن حينئذٍ غلبة الرجاءِ وحُسْنُ الظنِّ^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأْ خَيْرِ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [رواه البخاري (٧٤٠٥)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ» [رواه مسلم (٢٨٧٧)].
وعنه أيضاً قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» [رواه مسلم (٢٨٧٨)].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١)

أي: مرضية يرضى بها صاحبها، وذلك لأنه لقي الثواب، وأمن من العقاب.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (٢٢)

رفيعة المكان والدرجات.

(١) تفسير القرطبي: ٢٧٠/١٨.

(٢) روح المعاني: ٥٩/٢٩.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ٢٣﴾ .

أي: ثمارها قريبة لمن يتناولها، قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. ويقال لهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٢٤﴾ .

أي: بما قدمتم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية.
هذه أحوال أصحاب اليمين.

* * *

أصحاب الشمال

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كَيْدَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأُوتَ كَيْدِيَّةَ ٢٥ وَلَرَأُدِرَ مَا حِسَابِي ٢٦ يَلَيْتَنِي كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ٢٧ مَا أَعْوَىٰ عَنِّي مَا لِيَ ٢٨ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ٢٩ خَذُوهُ فَعِلُوهُ ٣٠ ثُمَّ لَحْجِمَ صَلْوَهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ دَرْعُهَا سَبْعُونَ دِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَسْكِينِ ٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِلُونَ ٣٧﴾ .

وأما أحوال أصحاب الشمال:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْقِيَ كَيْدَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأُوتَ كَيْدِيَّةَ ٢٥﴾ .

لما يرى من قبح أعماله وكثرة فضائحه.

﴿وَلَرَأُدِرَ مَا حِسَابِي ٢٦﴾ .

أي: يا ليتني لم أعلم ما حسابي.

﴿يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ .

أي: يا ليت الموتة التي مِتُّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، فلم أبعث بعدها. فالحالة التي هو فيها أشنع وأمرٌ من الموت.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّ ۝٢٨﴾ .

أي: لم ينفعني ما جمعته في الدنيا شيئاً.

﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّ ۝٢٩﴾ .

أي: زال عني مُلكي وقوّتي وتسُلْطِي على الناس، وصرت ذليلاً حقيراً. والرّنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة المفتوحة قبلها توحى بعمق الحسرة وشدة الندم، ويقطعها الأمر العلوي الحازم الجازم:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ .

أي: شدُّوه بالأغلال، واجمعوا يديه إلى عنقه.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ .

وهي النار العظيمة الشديدة التّأجج.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ .

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي: طولها سبعون ذراعاً، فهي طويلة لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى.

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي: أدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده.

ودلّ تقديم الجحيم والسلسلة على الفعل على التخصيص، وإبراز أنواع ما يعذب به، و(ثم) لتفاوت ما بينها في الشدة.

ومن المعلوم أنَّ الإثارة الوجدانية في القرآن ليست غايةً في حدِّ ذاتها، بل هي وسيلةٌ لتربية النفوس وصلها وتهيتها لقبول الأحكام، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ولا يحث نفسه على إطعام المسكين، ولا يأمر أهله بذلك. فتارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الفعل! فأقبح العقائد الكفر بالله، وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب، فهو لم يقم حقَّ الله على عباده بتوحيده وعبادته، ولم يؤدِّ حقَّ العباد بعضهم على بعض من الإحسان والتعاون على البر والتقوى. وفي الآية دليلٌ على أنَّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة كما في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ [المدثر].

﴿فَلَيْسَ لَهُ يَوْمَئِذٍ مَوْلَىٰ مِنْهُمْ يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَجِدُهُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ليس له قريب مشفق يحميه من العذاب ويدفعه عنه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

وهو صديد أهل النار، وهو في الأصل ما يجري من الجراح إذا غُسلت. فهذا لون من ألوان العذاب الذي يعذب به أهل النار، فتارة لا طعام لهم إلا من غسلين، وأخرى من الضريع لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الغاشية: ٦]، وثالثة من الزقوم كما مرَّ معنا.

﴿لَا يَأْكُلُهُمْ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: أصحاب الخطايا، من خطئ الرجل إذا تعمَّد الذنب، لا من الخطأ المقابل للصواب.

تنزيل رب العالمين

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا مَعْصُ الْأَفَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَحْذَنَّا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ مَّا يَسْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مَكْرَ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

ثم أضاف تعالى تقرير صدق النبي ﷺ وصحة رسالته بالقسم بجميع المكونات الظاهرة والخفية.

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾

أي: إن القرآن لقول رسول كريم على الله تعالى.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٤١).

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ أي: ليس القرآن بقول شاعر كما تزعمون، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].
﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا تؤمنون إلا إيماناً قليلاً، فالمراد إظهار عنادهم وشدة جحودهم.

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ (٤٢).

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب، ويخبر عما في غدٍ من غير وحى، بل بضربٍ من الظن، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ أي: لا تتذكرون إلا تذكرًا قليلًا، فما أقسى قلوبكم!.

فنظم القرآن الكريم وإعجازه البياني أمر ظاهر ينافي نظم الشعر، ولهذا ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية، وأحواله عليه الصلاة والسلام وكمال أخلاقه تنافي الكاهنية، وهي تتوقف على تذكر أحواله، ولهذا قرن التذكر بنفي الكاهنية. وفي قراءة: (يؤمنون، يذكرون) بالياء.

﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي: هو تنزيل من رب العالمين.

فالقرآن الكريم كلامه تعالى ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله ﷺ الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ليس له فيه إلا التبليغ، أكد ذلك سبحانه بقوله:

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ (٤٤) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥).

أي: لو قال شيئاً من عند نفسه فنسبه إلينا لعاجلناه بالعقوبة، وأخذناه بالقوة والقدرة، فعبر عن القوة باليمين، لأنَّ قوة كل شيء في يمامنه.

أو: لأذلنناه وأهأنّاه، كفعل السلطان لمن يريد أن يهينه يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه، وإنّما خصَّ اليمين بالذكر لأنه أشرف العضوين^(١).

فالمعنى المراد: لأخذنا بيمين المتكفّل علينا.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (٤٦).

وهو العرق الذي يغذي القلب؛ إذا قُطع مات صاحبه، فلو كذب علينا وتكفّل علينا قولاً لم نقله لمنعناه من ذلك بالموت.

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٧).

أي: مانعين يمنعوننا عن عقوبته، وإنما قال: (حاجزين) بلفظ الجمع وهو وصف لأحد، لأنه في معنى الجماعة.
هكذا أظهرت الآيات عزَّ الربوبية بجانب ضعف العبودية، ولا يقرأ أحد هذه الآيات إلا ويستشعر أنها كلام رب العالمين، ولهذا قال معقَّباً:

﴿وَإِنَّهُ لَلْمُنْتَقِنِ﴾ (٤٨).

أي: لموعظة بليغة للمتقين. ومع هذا البيان والوضوح:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ (٤٩).

يكذبون بالقرآن، أو يكذبون محمداً ﷺ، وسيكون تكذيبهم حسرة عليهم يوم القيامة:

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠).

ولهذا قال تعالى في يوم القيامة: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٥١).

أي: الحق الثابت من اليقين، أو إنه لعين اليقين، فالقرآن عين اليقين ومحض اليقين في أعلى مراتب العلم والثبوت.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥٢).

شكراً لله الذي أوحى إليك القرآن الكريم.



تفسير سورة المعارج

تَحْقِيقُ الْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الدِّينِ فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
العذاب الواقع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ دِيَ الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَفْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا حَسِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلْهِلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْهِلِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُونَهُ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحَّتْهُ وَأَجْبَهُ ﴿١٢﴾ وَفَصَّلَتْهُ أَلَى تَوْبِهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُبْعِثُهُ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَى ﴿١٥﴾ تَرَاةٌ لِلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾ .

بدأ الله تعالى سورة المعارج بقوله :

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾ .

أي : دعا داعٍ بعذابٍ نازلٍ وكائنٍ، وذلك على سبيل الاستهزاء والتكذيب .
وقرئ : (سال) بغير همز من السؤال أيضاً ، إلا أنه خُفِّفَ بالتلثين .
(وسائل) مهموز إجماعاً^(١) .

ويبدو أنَّ السائلَ أحدُ كبار المشركين المستهزئين، وذكروا أنه النضر بن الحارث، فقد دعا على نفسه وسأل العذاب، فأُنزل الله به وبأمثاله قوله الكريم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: هو أبو جهل.

والتعبير بالماضي للدلالة على تحقق وقوع العذاب إما في الدنيا وهو عذاب يوم بدر، وقد قتل فيه النضر وأبو جهل، وإما في الآخرة وهو عذاب النار. وذكر بعض المفسرين أنَّ النبي ﷺ دعا بنزول العذاب عليهم، وهو أمرٌ مستبعدٌ، لأنه عليه الصلاة والسلام نبى الرحمة ما دعا بنزول العذاب عليهم. وقد يسأل سائل: لمن ذلك العذاب؟ وعلى من ينزل؟ فقال تعالى مجيباً لذلك السائل:

﴿لَكَفِيرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾.

أي: ليس له رادٌّ يردّه، فالعذاب واقع بهم لا محالة، سواء طلبوه أم لم يطلبوه.

﴿مَنْ أَلَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾.

أي: وهو عذابٌ واقعٌ من الله ذي السماوات. سمّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها، وأصل المعارج: الدرج، من عرج إذا صعد، فالمعارج الطرائق التي يصعد فيها. أو: ذي الدرجات، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

أو: ذي الفواضل والنعم. والمعنى الأول أقوى لقوله تعالى بعد ذلك:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعد الملائكة وجبريلُ إلى الله ﷻ، وخصّه بالذكر لعموم فضله وشرفه. وقرئ: (يعرج) بالياء.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق.

دلَّ على ذلك الحديث الشريف: الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما مِنْ صاحبِ ذَهَبٍ ولا فضةٍ لا يُوَدِّي منها حَقَّها إلا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحَتْ له صفائحٌ من نارٍ، فأحميَ عليها في نار جهنَّمَ، فيكوى به جنبه وجبينه وظهره، كلَّما بردت أُعيدتْ له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار» [رواه مسلم (٩٨٧)].

ولما كان سؤال المشركين عن العذاب تكذيباً لرسول الله ﷺ واستهزاءً به التفتت الآيات إليه تأمره بالصبر والثبات:

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ (٥).

أي: صبراً لا جزع فيه، ولا يشوبه استعجال واضطراب.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ (٦).

أي: إنهم يرون يوم القيامة بعيداً من الإمكان غير كائن.

﴿وَنَرَنَاهُ قَرِيبًا﴾ (٧).

كائناً لا محالة، فكلُّ آتٍ قريبٌ، ولهذا عَظُمَتِ الآياتُ هذا اليوم، وحَقَّرَتِ المكذِّبين به وهَوَّنَتِ من شأنهم.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (٨).

أي: تكونُ ضعيفةً غيرَ متماسكة كالفلزات المذابة على مهل.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ (٩).

أي: كالصوف المنفوش قبل أن تُنسَفَ وتصيرَ هباءً منبثاً.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝﴾

ولا يسأل قريبٌ مشفقٌ قريباً مشفقاً عن حاله، لا ابتلاء كل منهم بما يشغله، مع أن كل واحدٍ يبصر الآخر ويعرفه.
وفي قراءة: (ولا يُسأل) على بناء المفعول.

﴿يُصْرَوْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَلَمْ جِزْمٌ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بَيْنَهُ ۝﴾

﴿يُصْرَوْنَهُمْ﴾ أي: يرونهم، فيرى الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسألهم.
﴿يَوْمَئِذٍ أَلَمْ جِزْمٌ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بَيْنَهُ﴾ أي: يتمنى الكافر لو يفتدي من عذاب يوم القيامة بأولاده.

﴿وَصَلَّجَتْهُ وَأَخِيهِ ۝﴾

وبزوجته وأخيه.

﴿وَفَصَّلَتْهُ الَّتِي تُؤْبَهُ ۝﴾

أي: وبعشيرته التي تضمه ويأوي إليها.

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝﴾

وَيَتَمَنَّى أَيْضًا لَوْ مَلِكٌ كُلٌّ فِي الْأَرْضِ لِيَفْتَدِيَ بِهِمْ جَمِيعًا، ثُمَّ يُنْجِيهِ ذَلِكَ الْفِدَاءُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَ(ثُمَّ) لِلْإِسْتِبْعَادِ.

﴿كَأَنَّهَا لَطْفَى ۝﴾

﴿كَأَنَّهَا﴾ لا ينجيهِ من عذاب الله شيء، وهي كلمة ردع وزجر.
﴿إِنَّمَا لَطْفَى﴾ أي: إنها النار التي تَلْظَى وتلهب، فلا نجاة منها، قال تعالى:
﴿فَانذَرْتُمْ نَارًا تَلْظَى﴾ [الليل: ١٤].

﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى﴾.

أي: إنها تتلظى نزاعة للشوى وهي جلدة الرأس، أو جلدة الوجه، أو الأطراف اليدان والرجلان. وفي قراءة: (نزاعة) بالرفع، أي: هي نزاعة.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾.

أي: تدعو من أدبر عن الإيمان، وأعرض عن الحق، فهي تدعوهم بأسمائهم، وقد تكون دعوتها إياهم تعذيبهم.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

أي: جمع المال في وعاء، ومنع منه حق الله تعالى، فكان جموعاً مَنوعاً، ولهذا كان بعض الصالحين من السلف لا يربط كيس نقوده، ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

* * *

المكرمون يوم القيامة

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١٨﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢١﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُورٍ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ فِي حَسْبِ مُكْرَمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

وفي مقابل تحقير المكذبين وتهوينهم عظم الآيات المصدقين بيوم الدين،

فأبرزت أعمالهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة، وأهمها الصلاة التي تقوم طباعهم، وتهذب نفوسهم:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾

شديد الهلع، فسره تعالى بقوله:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾

أي: مبالغاً في الجزع، وهو أبلغ من الحزن، لأنه يصرف الإنسان عما هو بصده ويقطعه عنه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

أي: مبالغاً في المنع والإمساك.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾

وهو استثناء الجمع من الواحد، لأن الإنسان الواحد في معنى الجمع، فأهل الصلوات الخمس ليسوا كذلك.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يحافظون عليها في أوقاتها، ولا يشغلهم عنها شاغل.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾

كالزكوات والنفقات الموظفة عليهم في أوقات معلومة.

﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٥﴾﴾

للذي يسأل والذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيُحرَم.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ﴿٢٦﴾﴾ .

تصديقاً يجعلهم خائفين من عذابه .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

خائفون وجلون، يعملون عمل مَنْ يرجو الثواب ويخاف العقاب .

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنِ ﴿٢٨﴾﴾ .

فلا ينبغي لأحدٍ مهما بالغ في الاجتهاد والطاعة أن يأمنه، بل ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

ممسكون لها عما تدعو إليه شهواتهم .

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرُ مُلْمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ .

فلا لوم عليهم في قضاء شهواتهم مع أزواجهم، أو ما ملكت أيماهم، ففي الحلال ما يُغني عن الحرام .

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وِرَاءَهُ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاعِلُونَ ﴿٣١﴾﴾ .

المتجاوزون للحدود المشروعة، فالله حرّم قضاء شهوة الجنس من غير طريق الزواج الشرعي الصحيح وملك اليمين المشروع الصحيح .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

حافظون، فالراعي: القائم على الشيء للحفظ والصلاح، فالإسلام يُوجبُ

حَفَظَ الْأَمَانَاتِ وَالْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ. وَفِي قِرَاءَةِ: (لَأَمَانَتِهِمْ).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقومون فيها بالحق ولا يكتُمونها. وفي قراءة: (بشهادتهم).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يراعون شرائطها، ويكملون فرائضها وسننها.
ويدل تكرير ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخرأ على فضلها وأهميتها،
فالدوام عليها خلاف المحافظة، لأنَّ الدوام يرجع إلى الصلاة نفسها، بينما
المحافظة عليها ترجع إلى أحوالها.

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات في جنات مكرمون، فهم يُكرمون
بأعلى درجات الجنان وأفضلها لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون].

أمانتي خادعة

﴿مَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَكَ مُهْطِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَبْطَعَ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ
جَنَّةَ يَوْمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ
نُبَدِّلَ حَبِيراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْئُوفِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرَجُونَ مِنَ
الْأَجْنَادِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ ﴿٤٣﴾ حَشَعَةً أَنْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وكان كبار المشركين في مكة يجتمعون حول النبي ﷺ يستهزئون به

ويكذبونه، فهَوَّنَت الآيات من شأنهم، وحقَّرت أمرهم للنبي ﷺ تثبيتاً له في مواجعتهم ودعوتهم.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُطْعِينَ﴾.

أي: ما بالهم مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم وهم ينظرون إليك؟.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

أي: عن يمين النبي عليه الصلاة والسلام وشماله جماعات متفرقة، فكأن كل فرقة تعتزي وتنتسب إلى غير من تعتزي إليه الأخرى، وكان رسول الله ﷺ ينكر على أصحابه إذا رأهم كذلك، ففي الحديث: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا النبي ﷺ فرأنا حلقاً فقال: «ما لي أراكم عزين؟!» [رواه مسلم (٤٣٠)].

﴿أُطْمِعْ كُلَّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾.

بلا إيمان ولا تصديق بيوم الدين، وهو إنكار لقولهم: لو صحَّ ما يقوله محمد ومن معه لنكونن فيها أفضل حظاً منهم.

﴿كَلَّا إِنَّنا خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن هذا الطمع الكاذب والأمانى الخادعة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من نطفة مهينة حقيرة أبهم ذكرها إشعاراً بأنه يستحيا من ذكرها، فمن أين يشرفون ويدعون التقدم على المؤمنين، فالإنسان يشرف بالإيمان والطاعة ومن لم يكن مؤمناً مطيعاً لا يتبوأ منازل الكاملين يوم القيامة.

ثم أكدت الآيات هوانهم على الله تعالى بهذا القسم:

﴿فَلَا أَقِمْ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ (٤٠) عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ .

﴿فَلَا أَقِمْ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: مشارق النجوم ومغاربها، أو مشرق كل يوم ومغربه، وهو قسم عظيم يشير إلى دقة النظم الكونية وإحكامها وإتقانها.
﴿إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ (٤١) عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: إنا لقادرون على إهلاكهم، وعلى أن نخلق أفضل منهم وأطوع لله، فوجودهم أمرٌ غير لازم إذ هو منوط بمشيئة الله وقدرته.
﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين عن ذلك.

﴿فَذَرَهُمْ يَخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٤٢) .

أي: فذرهم يخوضوا في أباطيلهم، ويلعبوا في دنياهم، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون فيه بالجزاء والحساب.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَانَتْهُمْ إِلَى نَصْبٍ يُوفُضُونَ﴾ (٤٣) .

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ﴾ أي: يخرجون من القبور مسرعين.
وفي قراءة: (يُخْرَجُونَ) بضم الياء.
﴿كَانَتْهُمْ إِلَى نَصْبٍ يُوفُضُونَ﴾ أي: كانتهم إلى عِلْمٍ منصوب على الطريق يُسرعون.
والمراد أنهم يخرجون مسارعين إلى الداعي، والإسراع في السير إلى المعبودات الباطلة كان عادة المشركين.
وفي قراءة: (نَصْبٍ) بفتح النون وسكون الصاد.

﴿خَسِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (٤٤) .

﴿خَسِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم وتعلوهم ذُلَّةٌ شديدة.
﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا وهم يكذبون به.



تفسير سورة نوح دَعْوَةٌ وَدَعَاؤٌ فِي سُورَةِ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الإنذار من العذاب الأليم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أَرِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَعْرِ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَهْلِ مَسْجِدٍ ٤ إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥﴾ .

أخبر تعالى في أول سورة نوح ﷺ أنه أرسله إلى قومه منذراً لهم من عذاب أليم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١﴾ .

أي: خوِّف قومك وحذِّرهم من قبل أن يأتيهم العذاب الأليم، وهو الغرق بالطوفان.

وبادر ﷺ إلى تبليغ الرسالة، والقيام بأعباء الدعوة:

﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾ .

أُبَيِّنْ لَكُمْ رسالة الله، وهي :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ ﴿٣﴾﴾ .

أي: اعبدوا الله وحده، واحذروا عصيانه، وأطيعوني في ما أمركم به وأنهاكم عنه، فطاعة الرسول طاعة الله تعالى .

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَذِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: ما سلف من ذنوبكم .

﴿وَيُخَذِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ويؤخركم إلى منتهى آجالكم، فلا يعاقبكم، وقد يكون المراد أنه تعالى يمدُّ في أعماركم، ويدراً عنكم العذاب .

فقد يستدل بهذه الآية من يقول: إِنَّ الطَّاعَةَ وَالْبِرَّ وَصِلَةَ الرَّحْمِ يَزَادُ بِهَا فِي الْعُمْرِ، كما في الحديث الشريف: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ» [رواه مسلم (٢٥٥٧)] .

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فبادروا إلى الإيمان قبل مجيء وقت العذاب، فإنه إذا جاء لا يؤخر، لو كنتم تعلمون لسارعتن لما أمركم به وأدعوكم إليه .

* * *

استمرار الدعوة

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٧﴾ وَأَسْتَغْشُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُبْنِ وَجَعَلَ لَكُمْ حُنَّتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَعَتَ سَعَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْفَرَجَ فِيهِمْ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنْتَكَبُ مِنَ الْأَرْضِ يَنَاقًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

وبذل ﷺ في الدعوة غاية المجهود، وجاوز في الإنذار كلَّ حَدٍّ معهودٍ، فَلَبِثَ يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

حتى إذا ضاقت عليه الحيل، وقطع منهم الأمل، توجه إلى الله تعالى يشكوهم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾

أي: دعوة دائمة مستمرة من غير فتور ولا توانٍ.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾

أي: نفاراً وإدباراً.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعًا ﴿٧﴾ وَأَسْتَغْشُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٨﴾﴾

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ إذا استجابوا وآمنوا.

﴿جَعَلُوا أَصْيَعُهُمْ فِيْءَاذَانِهِمْ﴾ سَدُّوا أَسْمَاعَهُمْ عَنْ اسْتِمَاعِ دَعْوَتِي .

﴿وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ وَتَغَطُّوا بِثِيَابِهِمْ كِرَاهَةَ النَّظَرِ إِلَيَّ .

﴿وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ وَأَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِي اسْتِكْبَارًا عَظِيمًا .

والجدير بالذكر أنَّ مشركي قريش كانوا يفعلون مثل هذا عندما كان النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يُلْتَوْنَ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥] .

واستعمل نوح ﷺ أساليب كثيرة في دعوتهم حرصاً على هدايتهم:

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ (٨) .

أي: أظهرت لهم الدعوة في المحافل العامة .

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (٩) .

أي: ثم إنني كررت الدعوة معلناً، فلما لم يقبلوا دعوتهم في السر .
وتفنن ﷺ في دعوتهم فرغبهم تارة:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١٠) .

للتائبين .

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (١١) .

أي: مطراً مدراراً كثير الدر والخير .

﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ١٢﴾ .

وعنّفهم تارةً أخرى، ولفت أنظارهم إلى التفكير في بدائع مخلوقات الله المبنوثة حولهم:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٣﴾ .

أي: ما لكم لا تخافون عظمته؟! أو: لا تأملون له توقيراً؛ أي تعظيماً؟
أو: ما لكم لا تعرفون الله حقاً، ولا تشكرون له نعمة؟! أو: أي عذر لكم في ترك الخوف من الله؟! .

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٤﴾ .

أي: تارةً بعد تارةٍ، وحالاً بعد حالٍ، نطفة ثم علقة ثم مضغة، مما يدل على كمال قدرته تعالى وطلاقة مشيئته .

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ١٥﴾ .

بعضها فوق بعض .

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ١٦﴾ .

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: نوراً لأهل الأرض في ظلمة الليل، وهو في فضاء السماء الدنيا، وإذا كان في فضاء السماء فهو فيهنّ .

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: مضيئةً بذاتها، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] .

ومن المعلوم: أن الشمس نيّرة بذاتها، والقمر نيّر بعرض مقابلة الشمس،

فنوره مستمدٌ من ضوء الشمس، قال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَكَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

ثم ذكّرهم بقدرته تعالى عليهم وبفضله ورحمته:

﴿وَاللَّهُ أَلْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾.

أي: والله أنشأكم منها فنبتم نباتاً.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

أي: ثم يعيدكم في الأرض بالدفن بعد الموت، ويخرجكم عند البعث إخراجاً محققاً، لا ريب فيه.

وعطف (يعيدكم) بـ (ثم) لما بين الإنشاء والإعادة من الزمان المترaxي.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾.

تتقلبون عليها كما تتقلبون على البساط والفراش، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

أي: لتتخذوا منها طرقاً واسعة، و(من) لتضمين الفعل معنى الاتخاذ.

* * *

المكر الكبير

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدَّهُ مَالُهُ وَلَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾.

هكذا كانت دعوة نوح ﷺ؛ أخلص في دعوتهم، وتفنن فيها، وصب فيها حصيلة عمره المديد، وعصارة تجاربه الكثيرة، فماذا كانت النتيجة؟.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدَّهُ مَالُهُ وَلَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: لم يجيبوا دعوتي بعد كل هذا الجهاد والعناء، وبعد كل هذا الإنذار والإطعام، وساروا وراء الضالين المضلين.
﴿وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدَّهُ مَالُهُ وَلَوْلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: واتبع العامة الأغنياء والرؤساء الذين لم تزددهم كثرة الأموال والأولاد إلا ضلالاً في الدنيا ونقصاً في الآخرة.

﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

أي: مكرًا كبيراً عظيماً، فهو من صيغ المبالغة، وهم الرؤساء والقادة مكروا بنوح ﷺ، فقد كانوا يحرضون العامة على أذاه، ويصدون الناس عن الإيمان به والاستماع إليه، وجمعوا في مكروهم بين الضلال القولي والعملي:

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تدعن عبادتها.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وفي: قراءة (وُدًّا). وهذه الأسماء المذكورة لخمسة أصنام أفردها بالذكر؛ لأنها كانت أعظمها عندهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمّا وُدٌّ

فكانت لكلبٍ بدومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وهذه الأسماء كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت. [رواه البخاري (٤٩٢٠)].

* * *

الدعاء

﴿وَقَدْ أَصْلَوْا كَثِيرًا وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ٢٥ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِبَابًا ٢٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِراً كَفَّارًا ٢٧ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا ٢٨﴾.

﴿وَقَدْ أَصْلَوْا كَثِيرًا وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ٢٤﴾.

﴿وَقَدْ أَصْلَوْا كَثِيرًا﴾ أي: أضل الرؤساء خلقاً كثيراً، فالضلال استمرّ فيهم عبر الزمن الطويل لعمر دعوة نوح ﷺ.

﴿وَلَا نَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي: ولا تزد المشركين بعبادتهم الأصنام إلا ضلالاً؛ أي: هلاكاً، وهو دعاءٌ عليهم، دلّ على أن نوحاً ﷺ قد امتلأ قلبه غضباً وغيظاً عليهم، فدعا عليهم هذا الدعاء، ولعلّه دعا عليهم بعد أن يش من هدايتهم؛ فقد أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون كما في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

واستجاب الله تعالى له :

﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ أي: من أجل خطيئاتهم أغرقوا بالطوفان فأدخلوا ناراً عظيمة، وفي قراءة: (مما خطاياهم).

وتقديم (مما خطيئاتهم) لبيان أنه لم يكن إغراقهم بالطوفان وإدخالهم في النيران إلا من أجل خطيئاتهم، والفاء في (فأدخلوا) للإيذان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق، فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر^(١).

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ينصرونهم، ويمنعونهم من عذاب الله.

وكان دعاؤه ﷺ شاملاً كل الكفار ليدل على شدة المعاناة التي تحملها منهم:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ ﴿٢٦﴾ .

أي: لا تترك أحداً من الكافرين يدور في الأرض.

وأضاف ﷺ على سبيل التعليل قائلاً:

﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ﴿٢٧﴾ .

قال ذلك لما جرّبهم، واستقرأ أحوالهم، قال ابن عباس وغيره: كان الرجل ينطلقُ بابه إلى نوح فيقول له: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي حذرنيه، فيموتُ الكبيرُ وينشأ الصغيرُ على ذلك.

وخشي ﷺ أن يكون دعاؤه بسبب ما لقيَ منهم، وأنه كالانتقام منهم، وأنَّ نفسه حظاً في ذلك، فأضاف إلى دعائه طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا
نَارًا﴾ (٢٨).

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا﴾ وهذا يدل على أن قومه قاطعوه وهجروه، وصدّوا الناس عن دخول بيته، كما فعل المشركون في مكة عندما قاطعوا النبي ﷺ والمؤمنين في سنوات المقاطعة.

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾ أي: هلاكاً ودماراً.

تنبيه: لا بدّ لي أن أنبه إلى الخطأ الجسيم الذي وقع فيه سيد قطب رحمه الله في ما كتب في «الظلال» في هذه السورة قال: «ولا نملك أن نسأل كيف تلبّست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني»^(١).

وقد سبق ونهتُ إلى مثل ذلك في سورة الحجر، وبينتُ خطورته ومصادمته لحقيقة العقيدة الإسلامية، وقد عاد غفر الله له، فكرّره في سورة نوح، وأضاف قائلاً: «كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - جماعة منهم - معناه اتصال الفناء بالبقاء، والجزء بالكل، والمحدود الناقص بالكامل المطلق»^(٢).

وهذا ليس من الإيمان ولا من معناه، ولا من حقيقته، والإيمان هو التصديق بدعوة التوحيد التي دعا إليها جميع الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.



(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٧٠٨.

(٢) المرجع السابق نفسه.

تفسير سورة الجن الْجِنُّ الْمُؤْمِنُونَ فِي سُورَةِ الْجِنِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
المستمعون للقرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ رَبَّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ حُدُوبَنَا مَا نَحْذَرُ صَاحِبَهُ وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾.

أخبر الله تعالى في أول سورة الجن بأن نفراً منهم استمعوا للنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: قل يا محمد: أعلمت بواسطة الوحي أن نفراً من الجن استمعوا إليّ وأنا أقرأ القرآن. والنفر: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

ودل ظاهر الآية على أن النبي ﷺ ما رأيهم، وهو ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رأيهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر

السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطينُ إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب؛ قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمَرَّ النَّفْرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تَهَامَةٍ وَهُوَ بَنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجباً... فأنزل الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ...﴾ [رواه مسلم (٤٤٩)].

وأثبتها ابن مسعود رضي الله عنه فقال: كنّا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم؟ فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارهم، وأثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «لكم كُلُّ عَظْمٍ ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عليه يَقَعُ في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكلُّ بَعْرَةٍ عَلَفَتْ لدوابكم، فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم» [رواه مسلم (٤٥٠)].

قال ابن حجر: «ويمكن الجمع بالتعدد، فإن الذين جاؤوا أولاً كان سبب مجيئهم ما ذُكر في الحديث من إرسال الشهب، وسبب مجيء الذين في قصة ابن مسعود أنهم جاؤوا بقصد الإسلام وسماع القرآن، والسؤال عن أحكام الدين، ولا يلزم من عدم ذكر اجتماعه بهم حين استمعوا ألا يكون اجتماع بهم بعد ذلك.

وفي الحديث: إثبات وجود الشياطين والجن، وأنهما لمسمي واحد، وإنما صاروا صنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يقال لمن آمن بهم: إنه شيطان. وفيه: أن الصلاة في الجماعة شرعت قبل الهجرة.

وفيه: مشروعيتها في السفر، والجهر في القراءة في صلاة الصبح، وأن

الاعتبار بما قضى الله للعبد من حسن الخاتمة، لا بما يظهر منه من الشر ولو بلغ ما بلغ، لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بمجرد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها، ومع ذلك غلب عليهم ما قضى لهم من السعادة لحسن الخاتمة، ونحو ذلك قصة سحرة فرعون^(١).

﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي: فقالوا لقومهم عند رجوعهم إليهم: إنا سمعنا قرآنًا بديعاً مبيناً لكلام الناس في حسن النظم ودقة المعنى.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي: يدعو إلى الحق والصواب، فآمنا بالقرآن، وصدقنا بالله الواحد الأحد، وأنه رب كل شيء ومليكه.

﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أي: ولن نعود إلى ما كنّا عليه من الشرك، ويبدو أنهم كانوا مشركين.

ففي الآية تبكيّت لمشركي قريش المتثاقلين عن قبول دعوة التوحيد، فإنّ الجنّ مع تمردهم، وهم من غير جنس الرسول عليه الصلاة والسلام، لما سمعوا القرآن الكريم بادروا إلى الإيمان، ودخلوا في الإسلام.

والنبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين، ومصيره إلى الجنة، ومن كفر به، فهو من الشياطين المعذّبين، ومصيره إلى النار، فالجنّ مُتَعَبِّدُونَ بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم^(٢).

وبعد أن أعلنوا إيمانهم بالله تعالى عظموه ونزهوه عن الصاحبة والولد:

(١) فتح الباري: ٦٧٥/٨.

(٢) تفسير الخازن: ٣٧١/٦.

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۖ﴾ (٢)

أي: تعالى جلال ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة وولداً، لأنه تعالى منزّه عن كل نقص.

فالجَد: العظمة، ومنه قول عمر أو أنس: كان الرجلُ إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا، أي: عَظَمَ في عيوننا^(١).

وقيل: الجَد: الغنى، ومنه الحديث: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» [رواه البخاري (٦٣٣٠) ومسلم (٥٩٣)] أي: لا ينفعُ ذا الغنى غناه، وقيل: القدرة والأمر، والآؤه ونعماؤه على خلقه وملكه.

وفي قراءة: (وإنَّه تعالى) بالكسر على أنه من جملة المحكي من أقوالهم، وكذا ما بعده، إلا قوله: ﴿وَالْوِاسْتَقْمُوا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَأَنّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ [الجن: ١٩] فإنها من جملة الموحى به.

سفه وضلال

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۖ﴾ (٤) وَأَنَا طَسْنَا أَن لَّنْ نَقُولُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كِدْبًا ۖ ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ بَعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ ﴿٧﴾﴾

ويعد أن أعلنوا إسلامهم وصفوا بعض ما كانوا عليه من سفه وضلال:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۖ﴾ (٤)

أي: قولاً ذا شطط، وهو البعد ومجاوزة الحد.

أو: هو شطط لفرط ما شَطَّ منه، وهو نسبة صاحبة والولد إلى الله سبحانه.

والمراد من السفیه: الجاهل، أو إبليس، أو كل متمرّد من الجن.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: ما حسبنا أنَّ الإنس والجن يتمالوون الكذب على الله تعالى في نسبة صاحبة والولد إليه، فلمَّا سمعنا القرآن علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله، فقد نَوَّرَ سماع القرآن الكريم بصائرهم، ونبههم من غفلتهم.

وفي قراءة: (أَن لَّن تَقُولَ) بفتح القاف وتشديد الواو، والمعنى: ظنناهم صادقين في قولهم: لله صاحبة وولد، وعلمنا كذبهم حين سمعنا القرآن.

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

أي: وكان الرجل من العرب إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرِّ سفهاء قومه، فزادوا الجن باستعاذتهم بهم كبراً وعتوّاً، أو فزاد الجن الإنس ضلالاً وإثمًا. وأصل الرهق: غشيان المحذور.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

أي: وأنَّ الجن ظنوا كما ظننتم يا أهل مكة أنَّ لَّن يبعث الله أحداً بعد الموت، فقد كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثم اهتمدوا بسماع القرآن الكريم، وأقروا بالبعث، فهلا أقررتم كما أقروا؟!.

هكذا أثر استماع القرآن الكريم بالجن، فطهَّروهم من العقائد الفاسدة، ومن سفه الجاهلية وضلالها.

الحرس والشهب

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ ۝٩ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ۝٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ۝١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقْعَجِرَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَرَّ نَعْجَرُهُ هَرَبًا ۝١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدْيَيْنِ ءَامَنَّا بِهِ ۝١٣ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ تَحَسُّا وَلَا رَهَقًا ۝١٤﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۝١٥ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٦﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٧﴾

ومن لطف الله بعباده ورحمته بخلقه حفظه لوحيه الموحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، فلما بُعث محمد ﷺ حُفِظَتِ السَّمَاءُ، وطُردت الشياطين عن مقارها.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ۝٨﴾

أي: طلبنا بلوغ السماء واستراق السمع، فوجدناها مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا من الملائكة، وشهباً مضيئة محرقة من الكواكب.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ ۝٩﴾ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ۝٩﴾

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ ۝٩﴾ أي: كنا نجد فيها أماكن خالية يمكن استراق السمع منها.

﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ۝٩﴾ أي: يجد شهاباً راصداً له ولأجله، يمنعه عن الاستماع.

وتساءلوا عن سِرِّ حراسة السماء ومنع استراق السمع:

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ﴿١٠﴾.

أي: خيراً وصلاًحاً أو رحمة، ويلاحظ أدبهم مع الله تعالى، فأضافوا الخير إليه، وأضافوا الشر إلى غير فاعل.
ثم وصفوا أحوالهم واختلاف عقائدهم:

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ ﴿١١﴾.

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: وأنا ممَّا الأبرار المتقون، ومنا قوم دون ذلك مقتصدون في الصلاح أو غير صالحين.
﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي: كنا جماعات مختلفين، أو كانت طرائقنا طرائق مختلفة. والقدة: القطعة من الشيء، من قَدَّ إذا قطع.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُنْجِزَهُ هَرَبًا﴾ ﴿١٢﴾.

أي: وأنا علمنا أننا لن نعجز الله أينما كنا في الأرض أو إذا هربنا إلى السماء، فنحن في قبضة قدرته تعالى في أي مكان في الأرض أو في السماء.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ۖ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ ﴿١٣﴾.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ﴾ أي: لما سمعنا القرآن الكريم آمنا به. وهو من نعم الله عليهم فهو فخر لهم وشرف رفيع.

﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: فلا يخاف نقصاً في ثوابه، ولا ذلة ترهقه وتغشاه، لأنه لم يبخل أحداً حقاً، ولم يرهقه ظلماً، فالقرآن الكريم يهذب النفوس ويربيها فلا تعتدي على أحدٍ ولا تظلم أحداً.

﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ ١٤.

﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: وأنا من المستسلمين لله تعالى ولأحكام دينه وشرعه، ومن الجائرون العادلون عن الحق. فالقاسط: الجائر. وأما المُقْسِطُ: فإنه العادل. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: طلبوا طريق الحق وتوَّخَّوه.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ١٥.

أي: وقوداً تُسَعَّرُ بهم.

* * *

الرخاء والأمن

﴿وَالْوِاسِطُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقِيْنَهُمْ مَّاءَ عَذَقًا﴾ ١٦ ﴿لَفَنَنْهَضُ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ١٧ ﴿وَأَنْ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ١٨ ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ ١٩ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ٢٠ ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ صَرًا وَلَا رَشَدًا﴾ ٢١ ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ٢٢ ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ٢٣ ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَعَوْا مِنْ أَصْعَفٍ نَاصِرًا وَقُلْ عَذَابُ﴾ ٢٤.

ثم بيَّن تعالى ما يترتب على الاستسلام لدينه، والتزام أحكام شريعته، من سعة ورخاء في العيش، وأمن ونجاة من العذاب:

﴿وَالْوِاسِطُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقِيْنَهُمْ مَّاءَ عَذَقًا﴾ ١٦.

أي: لو استقام الإنسان والجئ على التمسك بأحكام دينه وشريعته لأسقيناهم

ماء كثيراً. وذكر الماء لأنه سبب سعة الرزق.

﴿لِنَفْنِئَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٧).

﴿لِنَفْنِئَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم كيف يشكرون، ونعاملهم معاملة المختبر.
﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: ومن يعرض عن طاعة ربه وعبادته يدخله عذاباً شديداً شاقاً لا راحة فيه. وفي قراءة: (نسلكه) بالنون.
وأساس الاستقامة عبادة الله وحده.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨).

أي: وأوحى إليّ أنّ البيوت المبنية للصلاة مختصة بالله تعالى وحده، فلا تعبدوا فيها غيره. أو: أنّ السجود لله، فلا تسجدوا لغيره.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا﴾ (١٩).

أي: وأنه لما قام محمد ﷺ يعبدُ الله، ويقرأ القرآن، كاد الجنُّ يركبُ بعضهم بعضاً من الازدحام عليه، حرصاً على استماع القرآن الكريم.
أو: لما قام الرسول ﷺ بالدعوة تلبّدت الإنس والجنُّ، وتظاهروا عليه، ليبتلوا الحقّ الذي جاء به، فأمر عليه الصلاة والسلام بمواجهتهم، وأن يقول لهم بثبات وثقة:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠).

فلم تتعجبون وتزدحمون؟ فليس ذلك بمنكر يوجب مقتي، والإعراض عن دعوتي. وفي قراءة: (قال) بالألف.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.

أي: مضرّة ولا نفعاً، فلا أقدر على أن أدفع عنكم ضرّاً، ولا أجلب إليكم رشداً، فكل ذلك بمشيئته تعالى وقدرته.

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾.

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لن يمنعني من الله أحد إن عصيته. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ ألبأ إليه.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾.

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتٍ﴾ ففي تبليغ الرسالة الجوار والأمين والنجاة، فلا أمن لي إلا إذا أطعته، وأديت ما كلفني به من تبليغ الرسالة. ولهذا قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟». وزاد في رواية: «اللهم اشهد» [رواه البخاري (١٧٣٩)]. ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بعد أن تبلغه الرسالة. ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ فعلى الرسول البلاغ، وعلى المكلفين من الإنس والجن السمع والطاعة، وإلا فإن العذاب ينتظرهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب في الدنيا أو في الآخرة. ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهو أم هم؟ فالكافرون لا ناصر لهم يومئذٍ.

بطلان الكهانة والتنجيم

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيتُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَهُمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيتُ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: لا أدري أقرب ما توعدون من العذاب إن كفرتم وأعرضتم؟! .

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ أي: غاية بعيدة، فإنكم معذبون لا محالة، ولكن لا أدري أهو حالٌ أم مؤجل .

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ .

الله عالم الغيب، فلا يُطلع على غيبه أحداً من خلقه .

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ أي: إلا من يصطفيه لرسالته ونبوته، فيظهره على ما يشاء من الغيب حتى يكون دليلاً على صدق رسالته، وصحة نبوته ومعجزة له .

ويجوز أن يلهم الله بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع في المستقبل، فيخبر به، فتكون كرامة له، والفرق أن المعجزة أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقرونة بالتحدي، بينما الكرامة لا تقر بالتحدي، وتكون من غير دغوى .

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى بَطْلَانِ الْكُهَانَةِ، فَقَدْ انْصَدَتْ بِمَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ وَكَذَلِكَ التَّنْجِيمُ، فَمَنْ ادَّعَى مِنْهُمْ اِطْلَاعاً عَلَى غَيْبٍ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ^(١).
﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أَي: فَإِنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ حَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ حَفِظَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْجَنِّ.
وفي قوله: (يسلك) من الحُسْنِ ما فيه، فهو يَصَوِّرُ الْجِهَاتِ الَّتِي تَأْتِي مِنْهَا الشَّيَاطِينُ بِالثُّغُورِ الضَّيِّقَةِ وَالْمَسَالِكِ الْخَفِيَّةِ.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أَي: لِيَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ كَامِلَةً بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ، وَالْمُرَادُ لِيَعْلَمَهُ مَوْجُوداً حَاصِلاً بِالْفِعْلِ. وفي قراءة: (لِيُعلم) بضم الياء، أَي: لِيَعْلَمَ النَّاسُ.
﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أَي: وَأَحَاطَ بِجَمِيعِ أَحْوَالِ الرُّسُلِ وَبِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، حَتَّى قَطَرَ الْأَمْطَارُ، وَوَرَقَ الْأَشْجَارُ، وَحَبَّ الرَّمَالُ، فَكَيْفَ لَا يَحِيطُ بِمَا عِنْدَ الرُّسُلِ مِنْ وَحْيِهِ وَكَلَامِهِ ﷻ وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ؟! ..



تفسير سورة المزمل قيام الليل في سورة المزمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تأنيس وملاطفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ①﴾ فُرُّ أَلِيلٍ إِلَّا قَلِيلًا ② يَضَعُهُ أَوْ أَتَقُصُّ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَقْلٍ الْقُرْآنَ
تَرْتِيلًا ④﴾

بدأ الله تعالى سورة المزمل ببدء النبي ﷺ فقال:

﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ①﴾.

أي: يا أيها الملتف في ثيابه، وأصله: المتزمل، فأدغمت التاء في الزاي.
ونداؤه عليه الصلاة والسلام بذلك تأنيس له وملاطفة، على عادة العرب في اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها.
وفي الآية تنبيه لكل راقِد في الليل، ليتنبه إلى قيام الليل، وذكر الله تعالى فيه، لأنَّ الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كلُّ مَنْ عمل ذلك العمل واتصف بتلك الصفة^(١).

ولم يخاطب ﷺ بالنبي والرسول في هذه الآية لأنه لم يكن قد قام بالتبليغ بعد، وإنما كان في بدء الوحي، ففي حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه - وهو التَّعبُدُ - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: «اقرأ»، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع. [رواه البخاري (٣)].

ويبدو أن هذه الآيات نزلت على النبي ﷺ في هذه الفترة.

﴿قُرْ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)﴾.

أي: قم للصلاة والعبادة في الليل إلا قليلاً تنام فيه.
ثم بين تعالى قدر القيام فقال:

﴿يَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٢)﴾.

أي: قم نصف الليل، أو انقص منه قليلاً إلى الثلث.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَبِّ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾.

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: أو زد على النصف إلى الثلثين.

جعل الله له سَعَةً في مدة قيامه، فخيرَه بين النصفِ أو أنقص منه إلى الثلث، أو أكثر من النصف إلى الثلثين، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

ودلت الآيات على أن قيام الليل كان فرضاً على النبي ﷺ في بواكير الدعوة، ثم خفف عنه فصار تطوعاً، ففي الحديث الشريف: أن سعد بن هشام عندما دخل على السيدة عائشة رضي الله عنها وسألها قائلاً: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألسْتَ تقرأُ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْئِلُ﴾؟ قلتُ: بلى، قالت: فإنَّ الله ﷻ افترضَ قيامَ الليلِ في أول هذه السورة، فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصارَ قيامُ الليل تطوعاً بعدَ الفريضة. [رواه مسلم (٧٤٦)].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومما يؤكد أن قيام الليل صار تطوعاً في حقه عليه الصلاة والسلام قولُ المغيرة رضي الله عنه: «إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَيَقُومُ - أَوْ لَيُصَلِّي - حَتَّى تَرَمَ قَدَمَاهُ - أَوْ سَاقَاهُ - فَيُقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» [رواه البخاري (١١٣٠)].

﴿وَرَبِّ الْفُزْنَانِ تَرْتِيلاً﴾ أي: اقرأ القرآن على تمهّل، فإنّه يكون عوناً على فهمه وتدبره، وكذلك كان يقرأ عليه الصلاة والسلام، فعن قتادة قال: سئل أنس: كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ فقال: كانت مدّاً. ثم قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يمدُّ بِسْمِ اللَّهِ، ويمدُّ بِالرَّحْمَنِ، ويمدُّ بِالرَّحِيمِ. [رواه البخاري (٥٠٤٦)].

المهمة الثقيلة

﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَالَ قِيلًا ٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَعَةً طَوِيلًا ٧﴾ وَأَذْكُرْ اسمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ٨﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُغْهُمْ هَاجِرًا جَمِيلًا ١٠﴾ وَدَرَنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَكُ قِيلًا ١١﴾

ثم بيّن الله تعالى الحكمة من التكليف بقيام الليل فقال:

﴿إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَالَ قِيلًا ٥﴾.

وهو القرآن الكريم، فقد كُلف النبي ﷺ بالعمل به، ودعوة الناس إليه.

والصلاة تعين المصلي على القيام بأعباء التكليف، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فالصلاة تمدّ المصلي بقوة روحية كبيرة تقويه في مواجهة المصاعب، وتعينه على احتمال الشدائد، ولهذا ندب الله سبحانه السيدة مريم إلى زيادة عبادتها وصلاتها قبل أن تحمل المهمة الثقيلة التي اصطفاها لها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤١﴾ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ [آل عمران].

وفي سنن أبي داود [١٣١٩]: من حديث حذيفة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى.

وتلقّى النبي عليه الصلاة والسلام القرآن من الوحي كان أيضاً ثقيلاً عليه، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني، وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة رضي الله عنها: وقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. [رواه البخاري (٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسولُ الله ﷺ يعالجُ من التنزيلِ شدةً. [رواه البخاري (٥)].

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

أي: إنَّ العبادة التي تنشأ بالليل وتحدث هي أشدَّ خشوعاً وإخلاصاً وأصحَّ قراءةً وأثبت، فمواطأة القلب للسان أكثر في صلاة الليل. وفي قراءة: (وطاء). فالعبادة في الليل أشدَّ نشاطاً، وأكثر إخلاصاً، وأبعد عن الرياء، وأكثر بركة، وأبلغ في الثواب.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

أي: تصرفاً وتقلباً في حوائجك وأشغالك، فاصرف وقتك في الليل للعبادة. وأصل السبح: المر السريع في الماء، فاستعير للذهاب مطلقاً.

﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾.

﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: دم على ذكره بالليل والنهار، أو أكثر من ذكره على أي وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وقراءة قرآن وذكر اسم من أسمائه الحسنى وغير ذلك.

﴿وَتَبْتَئِلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾: وانقطع إليه بالعبادة، وجرّد نفسك عما سواه، واستغرق في مراقبته سبحانه.

فالتبتلُ المأمورُ به الانقطاعُ إلى الله بإخلاص العبادَةِ، بينما التبتلُ المنهيُّ عنه هو سلوكُ مسلكِ النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان «يوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفْرُ بُدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ» [كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (١٩)].

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

أي: هو رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو، فتوكل عليه، وفوض أمرك إليه. أو: اتخذه ولياً وكفياً.

وفي قراءة: (ربُّ المشرق والمغرب) بالجر على البدل من (ربك). وبينت الآيات ثقل المهمة التي كُلف بها عليه الصلاة والسلام، وذلك من خلال أمرها له بالصبر، ووعيدها المعارضين له والمكذابين.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْبِطْهُمْ هَبْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: واصبر على ما يقولون من التكذيب والأذى، واعتزلهم اعتزالاً حسناً بقلبك مع حُسْنِ المحافظة وترك المكافأة.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ﴾ أي: وكل إلي أصحاب النعم والغنى. والمراد: دعني وإياهم، وكل إلي أمرهم، فإني أكفيك شرهم. ﴿وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ إمهالاً قليلاً أو زماناً قليلاً.

بعث النار

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مِهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَحْنَتْنَاهُ أَحْدًا وَبِئْسَ فَكَيْفَ تَنْفَعُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٦﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

وشدّدت الآيات وعيدها بوصف بعض ما أعد الله لهم يوم القيامة:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: إن عندنا في الآخرة قيوداً عظاماً ثقلاً، وناراً محرقة. والنكل: القيد الثقيل.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾.

وطعاماً غير سائغ في الحلق، ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً يصل ألمه إلى القلب، لا يحيط بقدرة إلا الله تعالى.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مِهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: تضطرب وتزلزل.
﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مِهِيلًا﴾ أي: وصارت الجبال رملاً مجتمعاً سائلاً غير متماسك قبل أن تُنسَف، فلا يبقى منها شيء، وتصبح هباءً منثوراً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنا أرسلنا إليكم يا أهل مكة رسولاً

يشهد عليكم يوم القيامة بالكفر والتكذيب .

﴿كَأَازْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُوْلًا﴾ وهو موسى ﷺ .

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُوْلَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيْلًا﴾ .

أي : شديداً ثقيلاً ، يعني : فعاقبناه عقوبة عظيمة غليظة .

فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون . ولكنهم كذبوه ، وأعرضوا عن دعوته ، فوجهت الآيات الخطاب إليهم توبخهم على ذلك :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُوْنَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ .

أي : كيف تتقون العذاب يوم القيامة إن بقيتم على الكفر في الدنيا ، وهو يوم يشيب فيه الولدان من شدة هوله .

أو : كيف يحصل لكم أمان في هذا اليوم إن كفرتم؟! .

وفي الحديث الشريف : عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، يقول : أخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار؟ قال : من كل ألف تسعمئة وتسع وتسعون ، فذاك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد» .

فاشتد ذلك عليهم فقالوا : يا رسول الله أين ذلك الرجل؟ قال : «أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل» - أي : منكم رجل مخرج .

ثم قال : «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فحمدنا الله وكبرنا ، ثم قال : «والذي نفسي بيده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة ، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالرقمة في ذراع الحمار» [رواه البخاري (٦٥٣٠)] .

وقد استشكل بأن ذلك الوقت لا حمل فيه ولا وضع ولا شيب ، ولهذا رأى

بعضهم أنه على الفرض والتمثيل، فمن المعروف أن الهموم والأحزان إذا تعاقبت على الإنسان أسرع فيه الشيب.

قال ابن حجر: «ويَحْتَمَلُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَبِيعُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ، فَتَبِعْتُ الْحَامِلُ حَامِلًا، وَالْمَرْضِعُ مَرْضِعَةً، وَالطِفْلُ طِفْلًا، فَإِذَا وَقَعَتْ زَلْزَلَةُ السَّاعَةِ، وَقِيلَ ذَلِكَ لِآدَمَ، وَرَأَى النَّاسُ آدَمَ، وَسَمِعُوا مَا قِيلَ لَهُ، وَقَعَ بِهِمْ مِنَ الْوَجَلِ مَا يَسْقُطُ مَعَهُ الْحَمْلُ، وَيَشِيبُ لَهُ الطِّفْلُ، وَتَذْهَلُ بِهِ الْمَرْضِعَةُ»^(١).

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ﴾: وتقديره تقدير مشكوك في وجوده، ما ينه على أنه لا ينبغي أن يبقى مع إرسال هذا الرسول لأحد شبهة تبقيه في الكفر فهو النور المبين^(٢)، فهو كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١].

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أي: السماء على عظمها وإحكامها شيء منشق لشدة ذلك اليوم وهوله، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟! أو تنشق بأمره سبحانه. ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي: كان وعده سبحانه كائنًا لا محالة فيه ولا خلف. أو: كان وعد هذا اليوم واقعًا كائنًا لا محيد عنه.

وعقب الآيات على هذا الوعيد الشديد المرعب بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إن هذه الآيات عظة بليغة يتعظ بها أولو الألباب، فيبادرون إلى الإيمان واتباع طريق الإسلام.

(١) فتح الباري: ١١/٣٩٠.

(٢) روح المعاني: ٢٩/١٣٦.

﴿فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾: فهو السبيلُ المؤدي إلى رضوان الله ورحمته، فلإنسان مشيئة وكسب واختيار، وهي أساسُ التكليف والمسؤولية.

* * *

تخفيف قيام الليل

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُقِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم عادت الآيات إلى قيام الليل، فأنزل الله فيها التخفيف، كما سبق معنا في حديث السيدة عائشة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُقِضُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم ذلك المقدار جماعة من أصحابك.

وفي قراءة: (ونصفه وثلثه) بالخفض عطفًا على (ثلاثي).

﴿وَاللَّهُ يُعَذِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: والله يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي يقومون به من الليل.

أو: والله يعطي كلاً من الليل والنهار قدره، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ لَقِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فتارةً يعتدل الليل والنهار، وتارةً يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، وكل ذلك بتقديره تعالى.

﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْا﴾ أي: علم أنه لن تطبقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة فخفف عنكم.

﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾: بالترخيص في ترك القيام المقدّر، ورفع المشقة عنكم كما رفع التبعة عن النائب.

﴿فَأَقْرَأُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: فصلّوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرآناً كما في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذَلِكَ أَلَسْمِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

واستدل أبو حنيفة رحمته الله بالآية لقوله: إِنَّ الْفَرْضَ فِي الصَّلَاةِ مَطْلُقُ الْقِرَاءَةِ، وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ فَوَاجِبٌ مِنْ وَاجِبَاتِهَا.

ثم بيّن سبحانه علّة التخفيف فقال:

﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: علم أنه سيكون منكم مرضى، وآخرون يسافرون طلباً لكسب الرزق، وتحصيل العلم، وآخرون يجاهدون في سبيل الله، وهي أعمال شاقة، يحتاج أصحابها إلى النوم والراحة بالليل.

﴿فَأَقْرَأُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: صلوا ما أمكن.

وكرر الأمر بالتيسير لشدة حرصهم على قيام الليل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أدوا ما أوجب عليكم من صلاة وزكاة.

وهذا يدل على أن الزكاة فُرِضَتْ في مكة قبل الهجرة، لكن مقاديرها لم تبيّن إلا بعد الهجرة في المدينة المنورة.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ : بالنوافل والصدقات غير الواجبة .

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ فما قدَّمتم خير مما أخرتم إلى الوصية عند الموت ، فالذي تقدمونه لأنفسكم خير من الذي أخرتموه ولم تقدموه .

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي : استغفروا الله في جميع أحوالكم ، فإنَّ الإنسان لا يخلو من تقصير ، والله يستر على أهل الذنب والتقصير ، ويرحم أهل الجهد ويخفف عنهم .





تفسير سورة المدثر التَّبْلِغُ وَالتَّذِكْرَةُ فِي سُورَةِ الْمَدْثَرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الإنذار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الْمَدْثَرُ ١﴾ فَرَّ فَاذْرُ ٢ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَبَالِكَ فَطَهِّرْ ٤ وَالرُّجْرَ فَاهْجُرْ ٥ وَلَا تَمَسْ
تَسْكُنُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧ فَإِذَا يُقْرَأُ ٨ فَالْأَنفُورُ ٩ فَالْأَنفُورُ ١٠ فَالْأَنفُورُ ١١ فَالْأَنفُورُ ١٢
يَسِيرُ ١٣﴾

بدأ الله تعالى سورة المدثر كما بدأ سورة المزمل بنداء النبي ﷺ:

﴿يَأْتِيهَا الْمَدْثَرُ ١﴾

أي: المتدثر، أدمغت التاء بالدال، من تدثر، أي: لبس الدثار، وهو ما يلبس فوق القميص.

نودي عليه الصلاة والسلام باسم مشتق من صفته التي كان عليها تأنيساً له وملاطفة، كما مر معنا في ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ [المزمل: ١]، إذ كان ﷺ حديث عهد بالوحي.

وبين الحديث الشريف سبب تدثره: فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه

قال - وهو يحدث عن فترة الوحي - : فقال ﷺ في حديثه : «بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثَرُ ۝ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۝ (٣) وَيَا أَيُّهَا فَطَهِّرْ ۝ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ (٥)﴾» فحمي الوحي وتتابع . [رواه البخاري (٤)].

ودلَّ الحديث على أن نزول سورة المدثر بعد فترة الوحي .

﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ (٢)﴾

أي: قم قيامَ عزمٍ وجِدٍّ، واشتغل بالإنذار الذي كلَّفك الله به، وهو تحذير الكفار من عذاب الله إن لم يؤمنوا .
وقد يكون المراد: يا أيها المدثر بالنبوة دثرت هذا الأمر فقم به .

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۝ (٣)﴾

أي: عَظِّم ربك عن ما يقوله المشركون .
وفي ذكر هذه الجملة بعد الأمر السابق إشارةً إلى مزيدِ الاهتمامِ بأمر التكبير، فالمقصودُ الأوَّلُ من الأمر بالقيام بالإنذار أن يكبِّرَ ربه ﷻ، وينزهه من الشرك، كما أنَّ فيها تشجيعاً للنبي عليه الصلاة والسلام على الإنذار وعدم مبالاته بما سواه، فكل ما سواه مقهورٌ تحت كبريائه تعالى وعظمته، فلا ينبغي أن يُرهَبَ إلا منه، ولا يُرْغَبَ إلا إليه ﷻ .

﴿وَيَا أَيُّهَا فَطَهِّرْ ۝ (٤)﴾

بغسلها وحفظها عن الأقدار والنجاسات .

أو: طهر نفسك عن الأخلاق الذميمة، ففيها إرشادٌ كريم للنبي عليه الصلاة والسلام لكي يطهِّرَ دثارَ النبوة عن ما يدنسه من الحقد والضجر وقلة الصبر .

﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ ⑤﴾ .

أي: اثبت على هجر الأوثان والأصنام، فقد كان عليه الصلاة والسلام بريئاً منها .

وفي قراءة: (والرَّجَز) بالكسر، وأصل معنى الرجز: العذاب، قال: تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْرًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، وَسُمِّيَتِ الأوثانُ رَجْزاً لأنها تؤدي إلى العذاب .

﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ ⑥﴾ .

ولا تمنن على ربك بما تتحمله من أثقال النبوة وأعباء الدعوة وتراه كثيراً، إنما عملك من فضله تعالى عليك، أو لا تعط مستكثراً طالباً الكثير، اجعل عملك وعطاءك خالصاً لله تعالى .

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦﴾ .

أي: اصبر على أذى المشركين والقيام بأعباء الدعوة، واجعل صبرك لله تعالى . هكذا أدب الله تعالى في بواكير النبوة النبي عليه الصلاة والسلام بأعلى الآداب وأشرف الأخلاق، ورفعته إلى أعلى الدرجات، وتوعدت الآيات في المقابل معارضيه ومكذبيه بأهوال يوم القيامة .

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الْنَافُورِ ⑧﴾ .

أي: نفخ في الصور، والمراد: النفخة الثانية .

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑨﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ⑩﴾ .

إذ يلقون فيه عاقبة إعراضهم وتكذيبهم، وتلقى فيه عاقبة صبرك، فهو يومٌ شديدٌ على الكافرين، يسير على المؤمنين .

﴿وَمَهَّدَتْ لَهُ، تَهْيِئَةً (١٤)﴾.

أي: وبسطت له في العيش بسطاً، ويسّرت له أسباب الرخاء، حتى لُقِّبَ ريحانة قريش.

واتفق المفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، قال ابن عباس: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا، فإنّك أتيت محمداً تتعرّض لِمَا قَبْلَهُ، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنّك منكّر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، فوالله ما يشبهها الذي يقول، والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه طلاوة، وإنه لثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتّى أفكر فيه، فقال: هذا سحر يؤثر، يآثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا...﴾. [رواه بهذا اللفظ الواحدي في (أسباب النزول، ص ٧٠٠) ورواه الطبري (١٥٢/٥٩) والحاكم (٥٠٦/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يتعبه الذهبي].

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥)﴾.

أي: ثم يرجو أن أزيده في ماله وولده مع كفره وجحوده.

﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عِنْدًا (١٦)﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع له، وقطع لرجائه، فلن يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم، وما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان حتى هلك. ﴿إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عِنْدًا﴾ معانداً جاحداً، فكفره كفر عناد، فقد عرف الحق بقلبه، وجحد بلسانه، وهو أقبح أنواع الكفر وأفحشه.

﴿سَأُكَلِّفُهُ صَعُودًا ۝١٧﴾

سأكلّفه عذاباً شاقاً لا راحة فيه . والصعود: العقبة الشاقة، وهي جبلٌ من نار يكلفُ أن يصعده .

ثم قال تعالى معللاً هذا الوعيد الشديد:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨﴾

أي: فكّر في الأمر الذي يريده، وقَدَّر في نفسه ما يقول فيه .

﴿فَقُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩﴾

أي: عُدِّب أو لُعِنَ؛ كيف قَدَّر هذا التقدير؟! وهو تعجيبٌ معه توبيخٌ وإنكار .

﴿ثُمَّ قُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾

ثم لعن كيف قدر؟! كرره للتأكيد، و(ثم) للإشعار بأنّ الدعاء الثاني أبلغ من الأول .

ووصفت الآيات أحواله وهو يكذّ ذهنه، ويعصِرُ فكره، بحثاً عن شبهة يحتجُّ بها سترًا لجحوده وعناده:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١﴾

أي: في أمر القرآن الكريم مرة بعد أخرى .

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢﴾

أي: كلع، وقَطَبَ وجهه كالمهتّم المتفكر في شيء يدبره .

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)﴾ .

أي: أدبر عن الحق، واستكبر عن الإذعان له واتباعه.

﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَرٌ (٢٤)﴾ .

أي: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر يُروى ويُحكى عن السحرة.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ (٢٥)﴾ .

وهو تأكيد للجملة الأولى، ولذلك لم يعطف عليها.
وجاء الرد على جحوده وعناده عنيفاً شديداً:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦)﴾ .

أي: سأدخله سقر، وهو اسم من أسماء جهنم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧)﴾ .

وهو تفخيم لشأنها وتهويل لعذابها.

﴿لَا يَبْقَى وَلَا تَذَرُ (٢٨)﴾ .

أي: لا تبقي لحماً ولا تذر عظماً.

﴿لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩)﴾ .

أي: هي لواحة للبشر، مسودة للجلود، ومحرقة لها.

خزنة جهنم

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٢٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّا وَلَا يُزَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢١﴾ كَلَّا وَالْقَبْرِ ﴿٢٢﴾ وَالْقِيلِ إِذْ أَذْبَرَ ﴿٢٣﴾ وَالصَّيْحِ إِذَا أَشْفَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهَا لَإِحدى الْكُتُبِ ﴿٢٥﴾ نَبِيْرٌا لِلْبَشَرِ ﴿٢٦﴾ لَمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٢٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٢٩﴾ فِي جَنَّةٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣٠﴾ عَنِ الْمُعْرِمِينَ ﴿٣١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٣٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٣٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٣٤﴾ وَكُنَّا بِمَحْوُصٍ مَعَ الْفَاحِشِينَ ﴿٣٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٦﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٣٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ سَفْعَةُ الشَّلْعِينَ ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ .

ملَكًا، وهم رؤساء ونقباء الملائكة الموكلين بها .

ففي الحديث : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» [رواه مسلم (٢٨٤٢)] .

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّا وَلَا يُزَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ : فهم خلاف جنس المعذبين ، فلا تأخذهم الرأفة والرفقة ، وهم أشد الخلق بأساً ، قال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ

وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿التحریم : ٦﴾ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : ابتلاء واختباراً للذين كفروا، وافتتانهم استقلالهم لهم واستبعادهم أن يتولّى هذا العدد القليل تعذيب جميع من في النار من الإنس والجن .

﴿لَيْسَتَيْنِ اللَّيْنِ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ : بنبوة محمد ﷺ ، فإنّ هذا العدد مكتوب في التوراة والإنجيل .

﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَيْنَا﴾ بما يشاهدون من صدق أخبار نبیهم عليه الصلاة والسلام .
﴿وَلَا يَرْآبَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بصدق رسالة النبي عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته .

﴿وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي : شك ونفاق ، وهو إخبار عن ما سيحدث من المغيبيات بعد الهجرة ، فالنفاق حدث في المدينة بعد الهجرة ، وآيات السورة مكية .
﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ : المصرون على الكفر والتكذيب .

﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي : ما الذي أَراده الله تعالى بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ؟ .

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي : مثل ذلك الإضلال والهدى يضل الله مَنْ يَشَاءُ من عباده مَمَّنْ علم منه اختيار الضلال ، ويهدي مَنْ يَشَاءُ من عباده مَمَّنْ علم منه اختيار الهدى ، فالهداية والإضلال لله تعالى وحده ، وله الحكمة النامة والحجة البالغة .

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي : وما يعلم عددهم وأنواعهم إلا هو ﷻ .

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ : وما هذه العدة إلا ذكرى للبشر ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى ، وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .

أو : وما سقر وصفتها إلا تذكرة وموعظة للبشر .

أو: وما هذه الآيات إلا موعظةٌ للناس، ليتعظوا بها، ولهذا زجرت الآيات من أنكرها، ولم يتعظ بها:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٣﴾ .

أي: وأقسم بالقمر، فهو آية من آيات الله الدالة على كمال قدرته وعظيم رحمته.

﴿وَاللَّيْلَ إِذَا دَبَّرَ ٣٤﴾ .

أي: ولّى ذاهباً.

وفي قراءة: (إذا دبر) على الماضي بمعنى أدبر، وقيل: دبر بمعنى أقبل، تقول العرب: دبرني فلان؛ أي: جاء خلفي، فالليل يأتي خلف النهار.

﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ٣٥﴾ .

أي: أضاء وظهر. وجواب القسم:

﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُبَرِ ٣٦﴾ .

أي: إن الإنذار بهذه الآيات القرآنية لإحدى الكبر.

والكبر: جمع كبرى مثل الأول والأولى.

ففي الآيات القرآنية تذكيرٌ كبيرٌ، وموعظةٌ بليغة، وما على النبي ﷺ إلا أن يقوم بالإنذار بها:

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٦﴾ .

فهي كبيرة في حال الإنذار والتذكير.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (٣٧).

أي: لمن شاء أن يتقدم إلى الخير والطاعة أو يتأخر إلى الشر والمعصية، فهو وعيد شديد خرج مخرج الخبر كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ (٣٨).

مرتنة بكسبها، مسؤولة عن عملها، إما خلصها وإما أهلكها.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٣٩).

فإنهم لا يرتهنون بذنوبهم، لأن الله يغفرها لهم، ويتجاوز عنها.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ (٤٠).

أي: هم في جنات يسأل بعضهم بعضاً.

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١).

أي: عن أحوال المجرمين، فيقول المسؤولون للسائلين: قلنا للمجرمين:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤٢).

وهو سؤال توبيخ وتقريع.

﴿قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٤٣).

أي: لم نصل لله في الدنيا، فقد أعرضنا عن طاعته وعبادته.

﴿وَلَرَّكَ تَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ (٤٤).

فما كنّا نهتمُّ إلا بأنفسنا وشهواتنا، فما عبدنا ربنا، ولا أحسنّا إلى أحد من خلقه كالضعفاء والمساكين.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ (٤٥).

وكنا نخالط أهل الباطل والضلال، ونشاركهم في باطلهم وضلالهم؛ فكُلّما غوى غاوٍ غوينا معه، وكلّما كذب مكذبٌ كذبتنا معه، حتى كذبتنا بيوم الحساب والجزاء:

﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٤٦).

فمشاركة الضالّين في ضلالهم أمر خطير كبير يؤدي إلى سوء العاقبة والخاتمة.

﴿حَتَّى أَتْنَا الْبَقِيَّةَ﴾ (٤٧).

أي: جاءنا ونزل بنا الموت.

﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (٤٨).

من الملائكة والنبیین والصالحين، لأن الشفاعة للمؤمنين دون الكافرين.

* * *

الحرر النافرة

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَزَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوَفَّقَ صُحُفًا مُنْشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ دَكَّرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

وقام رسول الله ﷺ بإنذارهم، فبلغهم ووعظهم، ومع ذلك ظلوا معرضين عن التذكرة، ولهذا تساءلت الآيات سؤال التعجب من حالهم:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾

أي: نافرة. شهبوا في إعراضهم ونفاههم عن استماع التذكرة من النبي ﷺ بحُمْرٍ نافرة، وفي قراءة: (مستنفرة) بفتح الفاء.

﴿فَزَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾

وهو الأسد، فالْحُمْرُ الوحشية إذا عاينت الأسد هربت منه، وكذلك كان المشركون إذا سمعوا النبي ﷺ هربوا منه، وابتعدوا عنه.

ففي الآية مَذْمَةٌ كبيرة لهم، وتقبيحٌ عظيمٌ لحالهم في إعراضهم عن مواظب القرآن الكريم، كما أن فيها شهادة عليهم بالبله وقلة العقل.

ولم يكتفوا بمجرد الإعراض:

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوَفَّقَ صُحُفًا مُنْشَرَةً ﴿٥٢﴾﴾

أي: قراطيس وكتباً تُقرأ وتُنشر عليهم، يؤمرون بها بتصديق النبي ﷺ واتباعه؛ لهذا زجرتهم الآيات مرة ثانية عن هذه الاقتراحات:

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ٥٣﴾ .

فلذلك أعرضوا عن التذكرة، فاستحقوا أن يزجروا مرة ثالثة:

﴿كَأَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ٥٤﴾ .

فالقرآن الكريم تذكرةٌ بليغةٌ كافيةٌ كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ٥٥﴾ .

أي: فمن شاء اتعظ به، فإنما يعود نفع ذلك عليه.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ٥٦﴾ .

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا وقت مشيئة الله، أو إلا بمشيئة الله، فمشيئته هي الغالبة النافذة.

﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾ أي: هو حقيق بأن يتقيه عباده، ويخافوا عقابه، وهو حقيق أيضاً أن يغفرَ لهم ما سلف من ذنوبهم إن استجابوا للتذكرة وقبلوا الموعظة. أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.



تفسير سورة القيامة النَّفْسُ اللّوَامَةُ فِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يوم القيامة والنفس اللوامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (١) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ (٢) أَحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَدِيرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَكَانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ (٦) فَإِذَا بَرَأَ أَبْصَرُ (٧) وَحَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَعْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَادِيرُهُ (١٥).

بدأ الله تعالى سورة القيامة بالقسم بيوم القيامة تأكيداً لوقوعها :

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (١).

أي: أقسم بيوم القيامة، ودخول (لا) على القسم مستفيض في كلام العرب وأشعارهم، وفائدتها تأكيد القسم، وفي قراءة: (لأقسم).

﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (٢)

وهي النفس التي تلوم صاحبها على التقصير في التقوى.
فَاللَّوَّامَةُ: بمعنى اللائمة، صفةٌ مدح، فهي نفس تحاسبُ صاحبها، وتراقبُ أعماله، قال الحسن البصري: إِنَّ الْمُؤْمِنَ - والله - ما تراه إلا يلومُ نفسه: ما أردتُ بكلمتي؟ ما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟.. وإِنَّ الْفَاجِرَ يمضي قُدماً ما يعاتبُ نفسه^(١).

ويمكن أن تكون لَوَّامة لأنها تلوم غيرها، وتقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمرادُ من القسم مدحٌ مثل هذه النفس، والتنويهُ بها.
وقد تكونُ صفةَ ذمٍّ، فهي نفسُ الكافر الذي يلومُ نفسه، ويتحسّرُ في الآخرة على ما فرطَ في جنبِ الله سبحانه، كما في قوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقد يكونُ المرادُ مطلق النفس، فليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا تلومُ نفسها يومَ القيامة، فالمحسِنُ يلومُ نفسه أنْ لو كان ازداد إحساناً، والمسيءُ يلومُ نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته، ولعلَّ هذا سرُّ الاقترانِ في القسم بين يوم القيامة والنفس اللوامة.

وجواب القسم محذوفٌ دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتَّجَعَ عِظَامُهُ﴾ (٣)

للإحياء والبعث، فالإنسانُ هنا: الكافرُ المكذِبُ بالبعث.

﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٤)

أي: بلى قادرين على جمعها وإعادتها كما كانت حتَّى نسويَ العظامَ

الصغار، فكيف بكبار العظام؟! فالله تعالى قادرٌ على إعادة الجسم البشري وتركيبه كما كان، بحيث لا ينقصُ منه عضوٌ ولا شكلٌ هذا العضو مهما صغر ودق.

وفي الآية إشارةٌ إلى حقيقة علمية اكتشفت في عصور متأخرة عن نزول القرآن الكريم، وهي اختلافُ شكل البصمات في رؤوس الأصابع.

ثم بيّنت الآياتُ كيف يمضي الفاجر قُدماً في طريق الحياة دون أن يعاتب نفسه ويحاسبها ويلومها، كما سبق معنا من كلام الحسن البصري رحمته الله.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾.

أي: بل يريد هذا الإنسان المنكر للبعث أن يدومَ على فجوره ما عاش، لا ينزع عنه ولا يتوب!..

فالإيمانُ بيوم الحساب والجزاء يزكّي نفسَ الإنسان، ويحمله على التوبة والإنابة، ولكنَّ كثيراً من الناس لا يريدون ذلك، ويفضّلون الاستمرار على ما هم عليه من آثام وفجورٍ، لأنَّهم لا يؤمنون بيوم القيامة.

﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

سؤال متعنّت مستبعد له.

وردّت الآياتُ على مثل هذا الإنسان وجوده ليوم القيامة بوصف بعض أحواله في هذا اليوم:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾.

أي: تحيرَ فزعاً ممّا يرى من أهوال يوم القيامة. وقرئ: (برق) بفتح الراء.

﴿وُخْصِفَ الْأَقْمَرُ﴾.

أي: ذهب ضوؤه وأظلم.

﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ٩ .

أي: جمع بينهما في ذهاب الضوء، قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]. وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الشمس والقمر يَكْوَرَانِ يوم القيامة» [رواه البخاري (٣٢٠٠)].
أو: جَمَعَ بين الشمس والقمر في الطلوع من جهة الغرب، إذ تتغير النظم الكونية التي كانت في الدنيا.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَتَيْنَ الْفَرُّ﴾ ١٠ .

أي: أين المهربُ وموضع الفرار؟.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ١١ .

أي: حقاً لا ملجأ لهم يهربون إليه، وكانوا إذا فزعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به، فيقال لهم: لا جبلَ لكم يومئذٍ تحصنون به من عذاب الله تعالى.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ١٢ .

أي: إلى حكمه تعالى وأمره ومشيتته موضع قرارهم، يدخل من يشاء الجنة، ويدخل من يشاء النار، فيعاملهم سبحانه بحسب أعمالهم التي صدرت عنهم.

﴿يُبَيِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ١٣ .

أي: بما قدّم من عمل عمله، وبما أخر منه ولم يعمله.
ثم بيّنت الآيات بأسلوب الإضراب والانتقال دور النفس في مراقبة صاحبها، وفي شهادتها عليه يوم القيامة:

﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: بل الإنسان على نفسه رُقباء يشهدون عليه بعمله .

﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِرُهُ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به، فإن ذلك لا ينفعه، لأن عليه من نفسه ما يكذبُ عذره . أو: ولو أرخى ستوره يريد أن يخفي عمله . وفي الآية دليل على قبول إقرار الإنسان المكلف على نفسه .

* * *

التأني عند نزول الوحي

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأُنْصِتْ لَهُ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ .

وما دام الإنسان مسؤولاً عن عمله، وعليه من نفسه رقيباً وشاهداً، فعليه الأناة وترك الاستعجال حتى في أشرف الأمور، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تحثه على الأناة، وعدم الاستعجال عند تلقي الوحي بالقرآن الكريم:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾ .

أي: لا تحرك بالقرآن لسانك عند تلقي القرآن لتأخذه على عجل مخافة أن ينفلت منك شيء منه، أو لمزيد حبك له وحرصك على تبليغه وأداء رسالته . فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٥] .

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧).

أي: إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ فِي صَدْرِكَ، فَلَا يَذْهَبُ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْهُ، وَإِثْبَاتُ قِرَاءَتِهِ فِي لِسَانِكَ بِحَيْثُ تَقْرُوهُ مَتَى شِئْتَ، فَالْقُرْآنُ هُنَا مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْقِرَاءَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨).

أي: فَإِذَا قَرَأْنَاهُ عَلَيْكَ بِوَسْطَةِ مَلِكِ الْوَحْيِ فَاسْتَمِعْ لَهُ، ثُمَّ اقْرَأْهُ كَمَا أَقْرَأَكَ، فَجَعَلَ قِرَاءَةَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِرَاءَتَهُ تَعَالَى، فَفِيهِ مَا فِيهِ مِنْ تَكْرِيمٍ لَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَعْظِيمٍ لِأَمَانَتِهِ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩).

أي: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَعْدَ قِرَاءَتِهِ أَنْ نُبَيِّنَ لَكَ وَنُوضِّحَهُ، وَنُلْهِمَكَ مَعْنَاهُ، كَمَا أَرَدْنَا وَشَرَعْنَا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ: هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ تَلْقِيهِ الْوَحْيِ مِنَ الْمَلَكِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَبَادِرُ إِلَى أَخْذِهِ، وَيَسَابِقُ الْمَلَكَ فِي قِرَاءَتِهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَسْتَمَعَ لَهُ، وَتَكْفَلَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَجْمَعَهُ فِي صَدْرِهِ، وَأَنْ يَبَيِّنَهُ لَهُ وَيُوضِّحَهُ، فَالْحَالَةُ الْأُولَى: جَمْعُهُ فِي صَدْرِهِ، وَالثَّانِيَّةُ: تَلَاوَتُهُ، وَالثَّلَاثَةُ: تَفْسِيرُهُ وَإِبْضَاحُ مَعْنَاهُ.

وَبَيَّنَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَحِمَهُمَا اللَّهُ سَبَبَ النُّزُولِ فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يَحْرُكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفْتَيْهِ، فَيَسْتَنِدُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَعْرِفُ مِنْهُ، فَانْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ الَّتِي فِي: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾: ﴿لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعْمَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) قَالَ: عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقُرْآنَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨): فَإِذَا أُنْزِلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩) عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ،

قال: فكان إذا أتاه جبريلُ أطرقَ، فإذا ذهبَ قرأه كما وعدهُ اللهُ. [رواه البخاري (٤٩٢٩)].

وعنه أيضاً قال: كان النبي ﷺ إذا نزلَ عليه الوحيُ حرَّك به لسانه - يريد أن يحفظه - فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾. [رواه البخاري (٤٩٢٧)].

قال ابن حجر رحمه الله: «لم يختلف السلفُ أنَّ المخاطبَ بذلك النبي ﷺ في شأن نزول الوحي، كما دلَّ عليه حديثُ الباب.

وحكى الفخر الرازي: أنَّ القفالَ جوَّزَ أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] قال: يعرض عليه كتابه فيقال: اقرأ كتابك، فإذا أخذ في القراءة تلجلج خوفاً، فأسرع في القراءة فيقال: لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه، أي: أن يجمع عملك، وأن يقرأ عليك، فإذا قرأناه عليك، فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت، ثم إنَّ علينا بيانَ أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته. قال: وهذا وجه حسنٌ ليس في العقل ما يدفعه، وإن كانت الآثارُ غيرُ واردةٍ فيه»^(١).

ثم كشفت الآيات سبب الاستعجال عند الإنسان بقوله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾.

أي: حقاً يا بني آدم إنكم تحبون العاجلة، لكونكم جُبلتم وفُطرتُم على الاستعجال، قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وفي مقابل ذلك:

﴿وَنَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

أي: وتتركون الآخرة والعمل لها، وفي قراءة: (يحبون، يذرون) بالياء.

ولا يخفى ما في الآيات من توجيه لطيف للنبي ﷺ إلى التآني وترك الاستعجال، فالإنسان وإن كان مجبولاً على ذلك، فمثله عليه الصلاة والسلام الذي أكرمه الله بأعلى المناصب والدرجات لا ينبغي أن يستفزّه مقتضى الطباع البشرية، فيحمله على العجلة وترك التآني، ولو كانت العجلة في طلب العلم والاستزادة من الهدى.

* * *

رؤية الله يوم القيامة

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرٍ ﴿٢٤﴾ تَطَّرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاغِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾

وفي الآخرة التي تتركونها أعظم اللذات ومنتهى السعادات:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾

أي: وجوه المؤمنين في الآخرة مشرقة حسنة ناعمة، تنظر إلى خالقها ومالكها، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

فرؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ثابتة، دلت عليها الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة، وهي رؤية تليق بذاته المقدسة، بلا تكييف ولا تشبيه.

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال: «إِنَّكُمْ سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته» [رواه البخاري (٧٤٣٤)].

وزاد في رواية ثانية: «فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا» [رواه البخاري (٧٤٣٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ تَضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ» [رواه البخاري (٧٤٣٧)].

قال ابن بطال: «ذَهَبَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَجْمَهُورُ الْأُمَّةِ إِلَى جَوَازِ رُؤْيَا اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْعَ الْخَوَارِجِ وَالْمَعْتَزِلَةَ وَبَعْضُ الْمَرْجئةِ، وَتَمَسَّكُوا بِأَنَّ الرُّؤْيَا تَوْجِبُ كَوْنَ الْمَرْئِي مُحَدَّثًا وَحَالًا فِي مَكَانٍ، وَأَوَّلُوا قَوْلَهُ: (نَازِرَةً) بِمَنْتَظَرَةٍ، وَهُوَ خَطَأٌ، لِأَنَّهُ لَا يَتَعَدَّى بِإِلَى، وَمَا تَمَسَّكُوا بِهِ فَاسِدٌ، لِقِيَامِ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُوجُودٌ، وَالرُّؤْيَا فِي تَعَلُّقِهَا بِالْمَرْئِي بِمَنْزِلَةِ الْعِلْمِ فِي تَعَلُّقِهِ بِالْمَعْلُومِ، فَإِذَا كَانَ تَعَلُّقُ الْعِلْمِ بِالْمَعْلُومِ لَا يُوجِبُ حَدُوثَهُ، فَكَذَلِكَ الْمَرْئِي:

وَتَعَلَّقُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ويقول تَعَالَى لِمُوسَى: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والجوابُ عن الأول: أَنَّهُ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ فِي الدُّنْيَا جَمْعًا بَيْنَ دَلِيلِي الْآيَتَيْنِ، وَبِأَنَّ نَفْيَ الْإِدْرَاكِ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الرُّؤْيَا، لِإِمْكَانِ رُؤْيَا الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ بِحَقِيقَتِهِ.

وعن الثاني: بِأَنَّ الْمُرَادَ: لَنْ تَرَانِي فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ نَفْيَ الشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي اسْتِحَالَتَهُ، مَعَ مَا جَاءَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَلَى وَفْقِ الْآيَةِ، وَقَدْ تَلَقَّاهَا الْمُسْلِمُونَ بِالْقَبُولِ مِنْ لَدُنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ حَتَّى حَدَّثَ مِنْ أَنْكَرِ الرُّؤْيَا، وَخَالَفَ السَّلَفُ^(١).

وفي مقابل نظرة وجوه المؤمنين وصفت الآيات وجوه الكافرين:

﴿وُجُوهٌ يُؤْمِنُ بِآيَاتِهِ﴾

أي: شديدة العبوس.

﴿تَنْظُرُونَ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (٢٥).

داهية عظيمة تقصمُ فقار الظهر.

وأريدَ بالظنِّ اليقين كما مرَّ معنا، وقيل: هو على معناه الحقيقي المشهور، والمرادُ تتوَقَّع ذلك، فما هم فيه - وإن كان في غاية الشر - يتوقع بعده أشد منه، وهكذا أبداً، وذلك لأنَّ المرادَ بالفاقرة ما لا يكتنه من العذاب، وإذا كان ظاناً كان أشدَّ عليه مما إذا كان عالماً به، موطناً نفسه عليه^(١).

الفراق والمساق

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (٢٦) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٢٧) ﴿وَنظَرَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٢٨) ﴿وَالْقَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩) ﴿إِلَىٰ رَيْكَ﴾ (٣٠) ﴿يَوْمَئِذٍ السَّاقُ﴾ (٣١) ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ (٣٢) ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَقَتْلَىٰ﴾ (٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِسَاطِئِ﴾ (٣٤) ﴿أَوَّلِكَ﴾ (٣٥) ﴿ثُمَّ أَوَّلِكَ لَكَ فَأَوَّلًا﴾ (٣٦) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ فُتُورًا مِّن مَّيِّ يَتَّبِعُ﴾ (٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْفَةً فَلَمَّا فُتُوهُ﴾ (٣٩) ﴿فَعَمِلَ مِنَ الرَّوْحَانِيِّ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَن يُخَيَّرَ الْمَوْتَىٰ﴾ (٤١).

وإذا كان الحال كذلك فعليهم أن يرتدعوا، وعلى نفوسهم اللوامة أن تزجرهم عن إيثار العاجلة على الآخرة، وأن تنبههم إلى ما ينتظرهم عند الموت الذي يقطعهم عن العاجلة، ويضعهم على أبواب الآخرة.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ (٢٦).

أي: حقاً إذا بلغتِ النفسُ أو الروحُ التراقي، وهي العظامُ التي في أعلى الصدر، جمع ترقوة، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٢٧)

أي: مَنْ راقٍ يرقى، والمرادُ: يشفي بالرقية.
ويقال ذلك على وجه الاستبعاد واليأس، فمن يقدر أن يرقى من الموت؟!
فالمرادُ ببلوغ التراقي مشارفة الموت، وقربُ خروج الروح من البدن.
وقد يكونُ المراد من يرقى بروحه إلى السماء؟ من رقى يرقى إذا صعد،
والاستفهام على هذا حقيقي.
واستحب عاصمٌ في قراءته الوقفَ، وأظهر النون في: (مَنْ راقٍ)، وأدغم
الآخرون.

﴿وَضَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٢٨)

أي: وضمن الإنسانُ المحتضر أنَّ ما نزل به الفراق من الدنيا وما فيها، أو
فراق الروح الجسد.
ولعلَّه سمَّى اليقين هاهنا بالظنِّ، لأنَّ الإنسانَ ما دامت روحُه متعلِّقةً ببدنه
يطمَعُ في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة، ولا ينقطعُ رجاءُه عنها، أو لعلَّه
سمَّاه بالظنِّ على سبيل التهكم.

﴿وَأَلْفَتِ السَّاقُ السَّاقَ﴾ (٢٩)

أي: التَوَتَّ ساقه بساقه خوفاً من الموت، أو انتهى أمرُهما، ويبسا
بالموت، حتى كأنَّهما ملتقَّتَان، فهما أول ما تفارِقُهما الحياة وتزولُ عنهما تبردانِ
قبلَ سائر الأعضاء وتيبسان.

أو: اتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، قاله ابن
عباس والحسن وغيرهما، وقال مجاهد: بلاء بلاء، أي تابعت عليه الشدائد،

والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن، والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق^(١).

وتأتي بعد شدائد الموت النهاية التي لا مفرّ منها:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

أي: المرجع والمصير والمنتهى.

وأسباب تتابع الشدائد عليه أنه كان في حالة الرخاء معرضاً عن الحق وعن طاعته تعالى وعبادته.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾.

أي: فلا صدّق بما أخبر الله تعالى في القرآن، ولا أدى أهم ما فرض تعالى عليه وهو الصلاة، التي تدل على إذعانه لله تعالى واستسلامه لأحكام دينه وشريعته.

﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

ولكنّه أظهر الجحود والإعراض عن الطاعة.

وإلى جانب ذلك:

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمِطُّ﴾.

أي: يمشي متبختراً افتخاراً واختيالاً، وأصله: يتمطط، وهو التمدد في التكاثر والتثاقل، وهذا يدل على قلة الاكتراث، فنفسه نفس متبلدة لا إحساس فيها، فلا توجه إلى صاحبها أي لوم، قد أثقلتها الشهوات، وأعمتها الأهواء.

وما أكثر الذين تنسحب عليهم هذه الآيات في عصرنا الحاضر!

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٣/١٩.

﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ ۖ ثُمَّ أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوَّلَىٰ﴾ ﴿٣٥﴾ .

وهو تهديدٌ بعد تهديد، ووعيدٌ بعد وعيد.

وروي: أنها نزلت في أبي جهل الجاهل بربه، أي: لا صدقَ رسولَ الله، ولا وقفَ بين يديَّ فصلَّى، ولكن كذبَ رسولي، وتولَّى عن الصلاة بين يدي، فتركَ التصديقَ خصلَّةً، والتكذيبُ خصلَّةً، وتركَ الصلاةَ خصلَّةً، والتولي عن الله خصلَّةً، فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة^(١) .

من المعلوم أنَّ خصوصَ السبب لا يمنع عمومَ الحكم، فالوعيد موجَّهٌ إلى كل متَّصفٍ بهذه الخصال القبيحة المذمومة.

وَرَدَّتْ الآيات في آخر السورة على تساؤل الإنسان المنكر ليوم القيامة بالأسلوب الإنكاري نفسه:

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٣٦﴾ .

أي: يُترك مهملاً بلا تكليف ولا جزاء، ولا بعث ولا حشر.

فهو استفهام إنكاري، يؤكِّد ويتسق مع ما سبق في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ تَجْعَلَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣].

ثم بيَّن تعالى بطلان هذا الحسبان بتذكير هذا الإنسان ببداية خلقه وأصل نشأته وفضل الله تعالى عليه:

﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى﴾ ﴿٣٧﴾ .

أي: يصب في الرحم، وفي قراءة: (تُمْنَى) فالضمير للنطفة على هذه القراءة، أي: يمينها الرجل ويصبُّها في الرحم.

﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨)﴾ .

ثم صار بقدره الله علقته، فقدّر خلقه، فسوّاه تسوية، وعدّله تعديلاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٣٩) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار].

﴿فَعَلَّ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣٩)﴾ .

أي: فجعل من المنى الزوجين الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٤٥) مِنْ نَفْثَةٍ إِذَا تَثْنَى﴾ [النجم].

وتشير الآية إلى حقيقة علمية، وهي أَنَّ الذكورة والأنوثة تتعلق بتقدير الله تعالى ومشيتته بالمنى الذي يُمنى، وهو ماء الرجل، فقد أصبح من المعلوم أَنَّ الرجلَ يحملُ كروموزين جنسيين في كل خلاياه هما (yx)، وَأَنَّ أحدهما فقط يكون لولده، بينما المرأةُ تحمل كروموزين جنسيين في كل خلاياها هما (xx)، وَأَنَّ أحدهما فقط يكون لولدها، والولد إذا كان ذكراً فإنه يحمل كروموزوم (y) الذي أتاه من أبيه^(١).

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلٍّ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)﴾ .

فمن قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة.

روى أبو داود [٨٨٤] والترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إذا قرأ أحدكم هذه الآية فليقل: اللهم بلى».



تفسير سورة الإنسان الشَّاكِرُ وَالكَافِرُ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الأصل الضعيف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّتَّبِعُهُ فِجْعَلَنَّهُ سَمِيعًا نَّصِيرًا ۝٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِرَاجُهَا كَافُورًا ۝٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾

بدأ الله تعالى سورة الإنسان بقوله :

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ .

أي : قد أتى على الإنسان زمانٌ لم يكن شيئاً مذكوراً .

فالآية تذكر الإنسان بأصله الضعيف في بدء خلقه وتكوينه ، وأنه لضعفه وحقارته ما كان شيئاً يستحق أن يذكر ، فهو كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْهُ مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات : ٢٠] ، أكد هذا المعنى قوله سبحانه بعد ذلك :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ .

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي : أخلاط .

والمراد ببيضة المرأة الملقحة بالحيوان المنوي الذي يُمنيه الرجل ، وهذه البيضة أكبر خلية في جسم الإنسان ، إذ يبلغ قطرها خمس ملليمتر ، وليس ذلك عبثاً ، وإنما لأنها تتكفل بغذاء النطفة الأمشاج حتى يحين موعد علوقها بالرحم ، والتصاقها به ، وتغذيتها منه ، لمدة أسبوع كامل^(١) .

ثم بين تعالى الحكمة من خلق الإنسان :

﴿نَبْتَلِيهِ﴾ أي : نختبره بالخير والشر كما قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

وقال ﷻ أيضاً : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك : ٢] .

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ليبصر الدلائل والبراهين في الآفاق وفي نفسه ، ويسمع الأدلة السمعية ، فالسمع والبصر أهم وسائل التمكين والتمييز والمعرفة .

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ .

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي : إنا بينا له سبيل الخير والرشاد بواسطة الأنبياء والمرسلين .

ولا شك أن بيان سبيل الخير يكفي لمعرفة سبيل الشر ، فكل ما يخالفه شر وضلال وفساد ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وبعد هذا البيان :

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ١٩٨ .

﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: إما أن يكون الإنسان شاكرًا لله تعالى بعبادته وطاعته، وإمّا كافرًا لله تعالى بالإعراض عن عبادته وتكذيب رسله.

وفي الحديث الشريف: عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمَعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا» [رواه مسلم (٢٢٣)].

فكل الناس يسعى بنفسه؛ فمنهم من يبيعها لله بطاعته، فيكون شاكرًا، ويعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى، فيكون كافرًا، ويهلكها بتعريضها للعذاب، وهو عذاب شديد بينت الآيات بعضه:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾.

أي: سلاسل يسحبون بها، وأغلالًا في أعناقهم، ونارًا يحرقون بها. وفي قراءة: (سلاسلًا) مُتَوَنِّةٌ عند الوصل، وبألف وبغيرها عند الوقف. ثم شرعت الآيات في المقابل تبيينَ حُسنِ حال الشاكرين بعد بيان سوء حال الكافرين:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

أي: إن الأبرار يشربون خمرًا ممزوجة بالكافور. فالأبرار: صفة مدح للشاكرين، جمع بَرٍّ أو بار، وهو المطيع المسترسل في فعل الخير، وتُطْلَقُ الكَأْسُ حقيقةً على الزجاجة إذا كانت فيها خمر، ومجازاً على الخمر، وذكر الكافور لبرودته وبياضه وطيب رائحته، فهو ليس بكافور الدنيا، ولعلّه التسنيم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ ﴿٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [المطففين]. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي مُزِجَ للأبرار من الكافور هو من عينٍ

يشرب منها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج، ويروون بها. فهو منصوب بإسقاط الخافض أو بدل من كأس.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا من قصورهم ومجالسهم، والتفجير هو الإنباع، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩].

* * *

أعمال الشاكرين

﴿يُؤْفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَبَيْتًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُوشًا فَطَرِيرًا (١٠)﴾.

وتوقفت الآيات فجأة عن بيان ما أعد الله للشاكرين من أنواع النعيم في الجنة لتبيين بأسلوب الاستئناف أبرز أعمالهم التي يعملونها، وفضائلهم التي يتصفون بها، وكأنها تعلل سبب الكرامة التي أكرمهم الله بها:

﴿يُؤْفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (٧)﴾.

﴿يُؤْفُونَ بِالْذِّكْرِ﴾ أي: يؤدون ما أوجبه الله عليهم بعهد الإيمان، وما أوجبه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى.

والأصل في معنى النذر: الالتزام، وهو في الشرع: التزام المكلف شيئاً لم يكن عليه، وشرط صحته أن يكون عبادةً.

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يَطِيعَ اللَّهَ فليطعه، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ» [رواه البخاري (٦٦٩٦)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم،

ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مُرُهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيَتَمَّ صَوْمَهُ» [رواه البخاري (٦٧٠٤)].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: منتشرًا فاشيًا، أو عامًا إلا من رحم الله. والمراد: أنهم يتركون المعاصي والآثام خوفاً من سوء الحساب، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ (٥٦) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد].

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨).

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: وهم يحبون الطعام ويشتهونه ويحتاجون إليه، فيؤثرون غيرهم على أنفسهم، كما قال تعالى في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار من صفات الأبرار كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِبْرَءَانَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

أو: يطعمون الطعام على حب الله تعالى وابتغاء مرضاته. والمعنى الأول أوجه، لأن قوله بعد ذلك: ﴿لَوْجَهُ اللَّهِ﴾ يغني عنه. ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ وهو الذي يؤسر فيحبس، ولو كان كافراً، وهذا يدل على إنسانية الإسلام، ونبيل أخلاق المسلمين.

قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يُحَسَّنَ إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه^(١).

وعن الحسن: أنه ﷺ كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول: «أحسن إليه» فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ١٢٩/١٩.

(٢) روح المعاني: ١٩٦/٢٩.

وفي «السيرة»: عن ابن إسحاق: أَنَّ رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً»، وكان أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى قال: وكنتُ في رهطٍ من الأنصارِ حين أقبلوا بي من بدرٍ، فكانوا إذا قَدَّموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمرَ لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقَعُ في يد رجلٍ منهم كسرةُ خبزٍ إلا نفحني بها، فأستحيي فأردّها على أحدهم فيردها عليّ ما يمّسها^(١).

وخصّه بعضهم بالأسير المسلم في أيدي الكفار أو المسلم المسجون، وسمّي أسيراً مجازاً لمنعه من الخروج. ويبدو أنّ بعض الأسرى كما مرّ معنا في «السيرة» كان يبالغ في شكر أسريه، والثناء عليهم، فيقولون له:

﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾.

أي: إنما نطعمكم رجاء ثواب الله ورضاه لا نريد منكم في مقابله مكافأة في الأعمال، ولا ثناء في الأقوال.

ويمكن أن يكون قولهم هذا بلسان الحال وأنهم ما قالوه فعلاً، ولكن الله تعالى علمه منهم، فأثنى عليهم به، فقد روى ابن كثير في تفسير الآية عن مجاهد: أنه قال: أما والله ما قالوه بالسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب.

فعملهم خالص غير مشوب بأي حظ دنيوي يدل على إخلاصهم، والإخلاص من صفات الشاكرين. وأساس إخلاصهم خوفهم من الله تعالى:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُوبًا فَظَرِيرًا﴾.

أي: إنا نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس

القمطير، وهو يوم القيامة الذي تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته وتنقبض.
فالقمطير: الشديد العصب، أو الطويل، ولا شك أن اليوم العصب يوم
طويل.

بشارة ونعيم

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ۝١١﴾ وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾ وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا نَذِيلًا ۝١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ وَنُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ۝١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ۝١٨﴾ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ خُذْذٌ مِّمَّنْ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُورًا ۝١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ عَيْنًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعًا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمُ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْ حَزَاءً وَكَانَ سَعِيرًا مَّنْشُورًا ۝٢٢﴾.

وبادرت الآيات تبشرهم بفضله تعالى ورحمته تطيباً لقلوبهم الخائفة
ولنفوسهم الوجلة:

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ۝١١﴾.

أي: وأعطاهم بدل عبوس الكفار وحزنهم حسناً في وجوههم، وسروراً في
قلوبهم، فوجوههم مشرقة مستبشرة، وقلوبهم مفعمة بالسرور راضية.

﴿وَجَزَّيْنَهُمَا صَبْرًا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾.

أي: وجزاهم بما صبروا على طاعته وعن معصيته جنة وحريراً، وهو
السندس والإستبرق، كما سيأتي معنا عند قوله: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۝٢٠﴾
[الإنسان: ٢١].

واختلفوا في من نزلت فيه هذه الآيات؛ فذكر بعضهم قولين:

أحدهما: نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، أجر نفسه ليسقي نخلًا بشيء من شعير ليلة حتى أصبح، فلما قبض الشعير طحن ثلثه، وأصلحوا منه شيئاً يأكلونه، فلما استوى أتى مسكين فأخرجوه إليه، وفعل ذلك في بقية الشعير فنزلت هذه الآيات. ذكره الواحدي في أسباب النزول بغير سند، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» من رواية ابن مردويه عن ابن عباس.

والثاني: أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري عليه السلام، صام يوماً، فلما أراد أن يفطر جاء مسكينٌ ويتيمٌ وأسيرٌ فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد. رواه البغوي عن مقاتل من غير سند.

وأضاف القرطبي في «تفسيره» أقوالاً أخرى ثم قال: «والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة، وقد ذكر النقاش والثعلبي والقشيري وغير واحدٍ من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصح ولا يثبت»^(١).

وأضافت الآيات إلى البشارة بيان بعض أنواع النعيم الذي أعد له لهم في الجنة:

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۖ﴾

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: يتنعمون بنعيم الجنة في حال اتكائهم على الأرائك، وهي السرر التي تغطيها الحبال المرفوعة فوقها.

والحبال: جمع حجلة: ساتر من القماش، ترفع فوق السرير، هي للزينة والتنعيم فقط.. فأهل الجنة:

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يرون فيها شدة حر كحر الشمس، ولا برداً مفرطاً يؤذي.

وقيل: الزمهرير: القمر، فالمعنى: لا يرون شمساً كشمس الدنيا، ولا قمراً كقمر الدنيا، فهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار، لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر^(١).

والمعنى الأول أظهر، لما ورد في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير» [رواه مسلم (٦١٧)].

﴿وَدَايَةَ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ ١٤

﴿وَدَايَةَ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾: ويتنعمون أيضاً في ظلال الجنة القريبة منهم. ﴿وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ أي: وسُخِرَتْ ثمارها لمتناولها، وسهل أخذها، فهو يتناولها دون كلفة، سواء كان قائماً أو جالساً أو مضطجعاً.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ ١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: ويطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من فضة، وأكواب الشراب، جمع كوب، وهو قدح لا عروة له، ونبه بذكر الفضة على الذهب لقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّىٰهِ الْأَنْفُسُ وَلَكُلُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ ١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ أي: تلك الأكواب هي قوارير، أو جعلت قوارير ولكنها من فضة، فلها صفاء القوارير وبياض الفضة.

وفي قراءة: (قواريرا * قواريرا) عند الوصل، وبالألف عند الوقف، كما قرئت بغير ألف عند الوصل والوقف.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قَدَّرُوهَا على قدر رِيَّهم، فلا تزيدُ عنه فتثقل الكف، ولا تنقص منه فيطلب الزيادة، وهذا أبلغُ في الكرامة والشرف وألذ للشارب. وفي قراءة: (قُدِّرُوهَا) بضم القاف وتشديد الدال، أي: جُعِلت لهم على قدر حاجتهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (٧).

أي: ممزوجة بالزنجبيل، وهو نبات طيب الرائحة يلذع اللسان، يحبُّه العرب إذا مزج بالشراب ويلتذونه. ولعله ذكر (يُسْقَوْنَ) هنا دون (يشربون) لأنه الأنسب لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾، والظاهر أنهم تارة يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً، وتارة يسقون من كأس كان مزاجها زنجبيلاً^(١).

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ (٨).

أي: هو من عين في الجنة تسمى سلسبيلاً، وهو اسم لما كان في غاية السلاسة، سُمِّيت العين بصفتها. وبعد أن وصفت الآيات شرابهم وصفت خدمهم ودورهم:

﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ (٩).

﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانُ مُخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم عليه من الطراوة والجمال، لا يهرمون ولا يتغيرون، على سن واحدة، وهم أخف في الخدمة. وقيل: مسوَّرون مقرطون؛ أي: محلون، والتخليد: التحلية. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ أي: ظننتهم من حسنهم وصفاء ألوانهم لؤلؤاً

مفرقاً في ساحة المجلس، واللؤلؤ إذا نُثِرَ على بساط كان أحسن منه منظوماً، وقيل: إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبهن باللؤلؤ المكنون، لأنهن لا يُمْتَنَنُ بالخدمة^(١).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعِمَّا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

أي: وإذا رأيت ببصرك الجنة رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عظيماً، فمعنى (ثم) هناك، والمراد الجنة.

وفي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجلٌ يخرجُ من النارِ حبواً، فيقول الله: اذهبْ فادخلِ الجنة، فيأتيها، فيخيّلُ إليه أنها ملأى، فيرجعُ فيقول: يا ربِّ وجدتها ملأى، فيقول: اذهبْ فادخلِ الجنة، فإنَّ لك مثلَ الدنيا وعشرة أمثالها، فيقول: تسخرُ مني، أو تضحكُ مني وأنتَ المَلِكُ» فقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضحكاً، حتى بدت نواجذهُ، وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة. [رواه البخاري (٦٥٧١)].

ودلت كلمة ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ على زيادة في تكريم أهل الجنة، فلا يدخل أحد عليهم إلا بعد أن يستأذن عليهم من حُجَّابهم وخدمهم. ثم وصفت الآيات ملابسهم وزينتهم:

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ والسندس: ما رقّ من الحرير والديباج كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم. والإستبرق: ما غلظ وفيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس. وخضر: نعت للثياب، وفي: قراءة (خضر وإستبرق) بخفضهما.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْأَسَاوِرِ مِنْ نَفْسٍ﴾ أي: ومن ذهب، فهو كقوله: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ﴾
 الْحَرَّ ﴿أَي: والبرد، قال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
 وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

وقيل: هذه صفة الأبرار، وأما المقربون فيحلّون من أساور الذهب
 واللؤلؤ، أو يحلّون على حسب ما يشتهون.

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ وهو نوع آخر يفوق النوعين السابقين يطهر قلوبهم
 وبطونهم، ويفيض عرقاً من جلودهم.

أو: يظهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق الرديئة، قال
 تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقيل: هو عبارة عن التجلي الرباني الذي يشغلهم عما سواه عندما يكرمهم
 الله ﷻ برؤيته، فهو الساقى ﷻ لأنه المتجلي لهم، وهذا منتهى درجاتهم في
 الارتقاء والكمال، لهذا ختمت به الآيات ذكر نعيم الأبرار.
 ويقال لهم تكريماً وإحساناً:

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾.

أي: إن هذا النعيم أكرمكم الله به بمقابلة إيمانكم وطاعتكم، وكان سعيكم
 مرضياً مقبولاً، جزاكم الله على القليل بالكثير.

تثبيت وإرشاد

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعُ مِنْهُمْ مَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ تَذَكَّرُ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْطَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ .

ثم التفتت الآيات إلى النبي ﷺ وهو سيد الشاكرين وأعلامهم مقاماً ورفعة في الدنيا والآخرة؛ تُثَبِّتُهُ على طريق الدعوة، وترشده إلى ما يُعِينُهُ على تحمل أعبائها:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ .

وهي نعمة عظيمة تفضل الله بها عليك وأكرمك بها، فما افتريته، وما جئت به من عندك، كما يدَّعي المشركون.

وفي الآية إشارة إلى تنزيل القرآن مفرقاً منجماً على النبي ﷺ، وهي نعمة أخرى أكرمه سبحانه بها، قال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَّتَهُ لِقْرَاءَةٍ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكِّهِ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعُ مِنْهُمْ مَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: فاصبر على ما تَلَقَّى منهم، وعلى إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُتُوذِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

﴿وَلَا تَطْعُ مِنْهُمْ مَائِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: ولا تطع الفاجر في أفعاله أو الجاحد في كفره وجحوده.

أو: لا تطع هذا وهذا، فَإِنَّ (أو) في الإثبات تفيدُ أحدَ أمرين، وفي النفي تفيدُ نفي كلا الأمرين جميعاً.

أو: لا تطع مرتكبَ الإثم الداعي إليه أو مرتكب الكفر الداعي إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

ويقال: نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة، ففيهما نزلت: ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِنَّمَا آؤُكُمْ كُفُورًا﴾^(١).

﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

أي: داوم على ذكره سبحانه في جميع الأوقات.

أو: صلِّ لله في أول الليل أو النهار وآخره.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

وهو كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ ۖ قُرْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمّل].

وكشفت الآيات للنبي عليه الصلاة والسلام سبب إعراض المشركين عن دعوته:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا﴾.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: يحبون الدنيا العاجلة وشهواتها.

﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا﴾ أي: ويتركون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يؤمنون

بها، ولا يعملون لها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة].

﴿لَخَنَّ خَلْقَنَّهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ (٢٨).

﴿لَخَنَّ خَلْقَنَّهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: وشددنا أعضائهم ومفاصلهم بعضها إلى بعض. فالأسر: الشد والربط، ومنه: الأسير، لأنه يُكْتَف بالأسار، والمراد إظهار كمال قدرته وحكمته سبحانه، وأنه قادر على إعادتهم بعد الموت.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا أهلكناهم، وأتيننا بآخرين غيرهم، فوجودهم منوط بمشيئة الله تعالى، فهو وجودٌ غير واجب كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْحَيَّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ [إبراهيم].

﴿إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (٢٩).

﴿إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إن هذه السورة موعظة تدعو إلى الحق وتبينه. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إلى جنته تعالى ورضوانه، وهو سبيل الشاكرين الذي ذكره سبحانه في أول السورة: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرُوا وَإِنَّمَا كَفُرُوا﴾ [الإنسان: ٣].

وأثبت الآية لهم كسباً ومشية واختياراً، ولكنها مشيئة محدودة مقيدة غير مطلقة:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٢٠).

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا وقت مشيئة الله تعالى لمشيئكم.

أو: لستم تشاءون إلا بمشيئة الله تعالى، فهو بيان لكمال مشيئته تعالى، فلا يقدر أحد أن يهدي نفسه إلا بمشيئة الله تعالى، فدعوى استقلال العبد مكابرة، وكذلك دعوى الجبر مهاترة، والأمر بين الأمرين لإثبات المشيئتين^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فيسرها له، ويقيِّضُ

له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله سبحانه الحكمة البالغة والحجة الدامغة، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣١).

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعة.

﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها.

ونَصَبَ (الظالمين) بفعل مضمَر يفسره ما بعده، أي: أوعَدَ الظالمين.



تفسير سورة المرسلات الإغْدَارُ وَالْإِنْذَارُ فِي سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الوعيد الواقع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصَصَاتِ عَصَا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿٤﴾ فَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿٥﴾
عُدْرًا أَوْ مُدْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَعْدٍ ﴿٧﴾ فَإِذَا الْتُحُمُّ طُحْمًا ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ
سُفِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُفْنَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ
﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ
بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ .

بدأ الله تعالى سورة المرسلات بالأقسام التالية:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ .

أي: والرياح المرسلة يتبع بعضها بعضاً كعُرفِ الفرس.

أو: والرياح التي أرسلت تباعاً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا
بَيِّنَ يَدَي رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وقال أيضاً: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ومر معنا أنه تعالى أقسم بالرياح في قوله في أول سورة الذاريات: ﴿وَالذَّارِيَتِ ذَرَوُا﴾.

﴿فَالْعَصْفَ عَصَفَا﴾.

أي: فالرياح التي تعصف عصفاً، يعني: الرياح الشديدة الهبوب.

﴿وَالنَّشِيرَ نَشَرَا﴾.

أي: والرياح التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

﴿فَالْفَرْقَتِ فَرَقَا﴾.

أي: فالملائكة التي تنزل بآيات الله على الرسل فتفرق بين الحق والباطل.

﴿فَالْمَلَقَتِ ذِكْرًا﴾.

أي: فالملائكة التي تلقي الوحي.

﴿عَذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

أي: للإعذار والإنذار.

أقسم تعالى بالرياح والملائكة وجمع بينهما بسبب لطافتها وسرعة حركتهما، وقد يكون المراد بها كلها آيات القرآن الكريم، فالمرسلات عرفاً آيات القرآن المتتابعة في النزول، والتي تعصف في القلوب، والتي تنشر الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين، والتي تفرق بين الحق والباطل، وتلقي الإيمان

والنور في القلوب، والمنزلة للإعذار والإنذار، ويقوي هذا المعنى قوله في السورة: ﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: بآيات القرآن الكريم، وقوله في آخرها أيضاً: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

وفي قراءة: (عذراً أو نذراً) بضم الذال فيهما.

وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٌ ﴿٧﴾﴾.

أي: إن ما توعدون من مجيء يوم القيامة كائن لا محالة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَفْعٌ ﴿٦﴾﴾ [الذاريات].
ثم بين تعالى بعض أحداث الساعة عند وقوعها:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُوسِتٌ ﴿٨﴾﴾.

أي: مُجِيَّ نورها.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾.

أي: فتحت فكانت أبواباً، أو شُقَّت.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: قُلعت من أماكنها وأزيلت، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿طه﴾﴾.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنَتَ ﴿١١﴾﴾.

أي: جُمعت لميقات يوم معلوم ليشهدوا على الأمم، أو يُبَيَّن للرسول الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة.

وفي قراءة: (وقت) بتخفيف القاف وتشديدها، والمعنى واحد.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ أُحُلَّتْ﴾

أي: أخرت وأمهلت؟.

وفي هذا الاستفهام تعظيم لهذا اليوم، وتعجيب من هوله.

﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾

الذي يفصل الرحمن فيه بين الخلائق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾

أي: وما أعلمك ما يوم الفصل وهوله وشدته؟! فهو تعظيم وتهويل به مرة بعد مرة.

﴿وَلِيَوْمِ يُمَيِّدُ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

أي: المكذبين بآيات القرآن أو بالتوحيد والبعث والجزاء.
(وَيُمَيِّدُ) مصدر منصوب بإضمار فعله، لكنّه عدل به إلى الرفع على الابتداء للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليهم.

﴿أَلَمْ نُهَبِّلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾

أي: الأمم الخالية المكذبة.

﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾

أي: ثم نحن نتبعهم نظراءهم.

وهو وعيد للمشركين في عهد النبي ﷺ، أكدّه سبحانه بقوله:

﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ .

أي: إنما نفعل بهم ذلك لكونهم مجرمين .

﴿وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: عندما نهلكهم، وننزل بهم العذاب، وهذا ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر، فكلما ذكر شيئاً قال: ويل لمن يكذب بهذا .

* * *

الخلق والكفت

﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فِعْمَ الْقَدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَخْلُقِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَلِخَتْ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَبَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ .

ثم ذكّرهم الله تعالى بضعفهم، وكمال قدرته جل وعلا ورحمته:

﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: حقير ضعيف وهو ماء النطفة .

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: حريز حصين، وهو الرحم، فقد جعله سبحانه في أحسن مكان في جسم المرأة .

فالمكين: هو القوي الراسخ الذي يتحمّل ما أُعِدَّ له من الحمل والولادة . ويتمتع الرحم بهذه المكنة أي القوة والشدة، بسبب بنائه الخاص، ومثانة

عضلاته، وطريقة تَوَزُّع أليافها، وبسبب عنق الرحم المغلق بفوهتين وقناة، والذي لا يفتح إلا حين الولادة^(١).

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢﴾

أي: إلى مقدار معلوم من الوقت الذي قدره الله تعالى للولادة.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝٢٣﴾

أي: قدرنا ذلك تقديرًا فنعم المقدرون نحن له.
وفي قراءة: (فقدَرنا) بالتشديد.

﴿وَيَلَّيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾

بنعمة الله ورحمته وحكمته.

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ۝٢٦﴾

أي: ألم نجعل الأرض ضامّة تضمهم أحياء وأمواتاً، الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها.

فكافّة: اسم لما يُكفّت أي يضمُّ ويقبض، وفي الآية إشارة إلى الجاذبية الأرضية، كما أن فيها دليلاً على وجوب موارد الميت ودفنه.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِمْخَاتٍ ۝٢٧﴾ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ۝٢٨﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شِمْخَاتٍ﴾ أي: جبلاً ثابتات عاليات.

﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ عذباً.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٢٨).

أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد ذلك يستمر على تكذيبه وعناده.

* * *

دخان وشرر

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغِي مِنْ
الْهَبِّ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ
لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّ لَهُمْ فِعْلُهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾

ويقال لهؤلاء المكذبين يوم القيامة:

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٢٩).

أي: من العذاب.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ (٣٠).

أي: إلى دخان جهنم الذي إذا ارتفع تشعب ثلاث شعَب، كما هو شأن الدخان العظيم، فكونوا فيه حتى يُفْرَغَ من الحساب، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ (٤١) فِي سَوْمٍ وَحَمِيرٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿الواقعة﴾.

ولعل المراد: ثلاث شعَب تكون على رؤوسهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم. وفي قراءة: (انطلقوا) بفتح اللام.

﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۝٣١﴾ .

وهذا تهكم بهم، ورد لما أُوهم لفظ الظل، فهو لا يدفع عنهم حر جهنم.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢﴾ .

أي: إن جهنم ترمي بشرر عظيم، كل شرارة كالبناء الكبير في عظمها.
وقيل: القصر: جمع قصرة؛ وهي الشجرة الغليظة.

﴿كَأَنَّهُ جُمِلَتْ صُفُرٌ ۝٣٣﴾ .

أي: كأن الشرر حبال السفن الغليظة التي يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الجمال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وصُفُر: جمع أصفر فلونها أصفر.

وفي قراءة: (جماليات صفر) بالجمع، و(جمالة) بضم الجيم.

﴿وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٤﴾ .

بأن هذه صفات شر جهنم.

ويبدو أن رؤية شر جهنم تذهلهم وتمنعهم عن النطق:

﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ۝٣٥﴾ .

أي: لا ينطقون في هذا الموقف من مواقف يوم القيامة فهو يوم طويل، وفي موقف آخر يتكلمون ويختصمون.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ﴾ (٣٦).

أي: لا يكون لهم إذن واعتذار، فقد تقدّم الإعذار والإنذار في الدنيا فلم يبق لهم عذر في الآخرة.

﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٧).

بهذه الأحوال وهذه الأحداث في يوم القيامة.

* * *

الجمع والمصير

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَكَهَهُمْ مِمَّا بَشَرُوا مَتَّكِلِينَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُحْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَزْكُوا لَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٨﴾ وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ يَا أَيُّهَا حَدِيثُ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

ويقال للمكذبين بعد بعثتهم وحشرهم:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ (٣٨).

أي: هذا يوم الفصل بين المصدقين والمكذبين، جمعناكم يا مكذبي محمد والمكذبين قبلكم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ (٣٩).

أي: فإن كان لكم حيلة في دفع العذاب فاحتالوا على تخليص أنفسكم،

فلا حيلة لكم في ذلك ولا قدرة؛ كما قال تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

فلا ينجو من عذاب الله جبار عنيد ولا شيطان مريد.

﴿وَبِلَّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (٤١).

بأن هذا التحدي والتقريع كائن يوم القيامة.

وكما بينت الآيات مصير المكذبين في ظل من يحموم، بينت بالمقابل مصير المصدقين في ظلال وعيون:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٢).

أي: ظلال الجنة الممتدة وعيونها المتفجرة.

﴿وَفَوَكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٤٣).

فمهما طلبوا وجدوا كما في قوله تعالى: ﴿وَوَظِلَّ مِمْدُودٍ﴾ (٢٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَكَهَهُ كَثِيرَةً (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿[الواقعة].

ويقال لهم تكريماً وتفضلاً وإحساناً:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٤).

في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ﴾ (٤٥).

فأحسنوا تُجْزَوْا بهذا الخير العظيم، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل كذبوا:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٤٥﴾.

ولهذا استأنفت الآيات خطاب المكذبين على وجه التهديد:

﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ٤٦﴾.

﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا﴾ فمتاع الدنيا قليل.

﴿إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ بما جنيتم على أنفسكم، فأثرتم المتاع القليل الزائل على

النعيم المقيم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٤٧﴾.

بالجنة ونعيمها المقيم.

وسبب عنادهم استكبارهم عن الحق:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ٤٨﴾.

أي: إذا قيل لهم: اخشعوا وتواضعوا لله بقبول وحيه واتباع رسوله ﷺ؛

لا يخشعون، ولا يقبلون ذلك.

أو: إذا قيل لهم: صلُّوا؛ لا يصلُّون.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٤٩﴾.

أي: بما أنزل الله على رسوله ﷺ في القرآن الكريم.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ٥٠﴾.

إذا لم يؤمنوا به، وهو معجزٌ في ذاته، مشتمل على الحجج البالغة،

والدلائل القاطعة، قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَةٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].
آمنتُ بالله تعالى وبما أنزل.



تفسير سورة النبأ تَهْوِيلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي سُورَةِ النَّبَأِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الخبر العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ (٢) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ تَرَىٰ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

بدأ الله تعالى سورة النبأ بقوله:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١)

عن أي شيء يسأل هؤلاء القوم الرسول ﷺ والمؤمنين؟ أو عن أي شيء يتساءلون في ما بينهم؟.

و(عمّ) أصله: عن ما، حرف جر دخل على (ما) الاستفهامية، وحُذفت الألفُ تخفيفاً، والضمير في (يتساءلون) لمشركي مكة، كانوا يتساءلون في ما بينهم عن البعث إنكاراً واستهزاء، وفي ترك ذكرهم إشعاراً بتحقيقهم وإهانتهم، والمراد من الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه، وبينت الآيات شأنه المفخم:

﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيْمِ﴾ .

أي: الخبر العظيم الشأن.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ .

أي: هم راسخون في الاختلاف فيه، فمنهم من يقطع بإنكاره، ومنهم من يشك ويقول: ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً؟ وقد يكون الضمير للمسلمين والكافرين، واختلافهم فيه بالإقرار والإنكار.

وبعد أن عظمت الآيات أمر يوم القيامة، وأبهمت أمره لتوجه أنظار السامعين نحوه، زجرت منكبيه، وتوعدتهم أشد الوعيد:

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿١﴾ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

أي: سيعلمون عاقبة إنكارهم. أو سيعلمون عياناً أن ما ينكرونه حق. والتكرير للمبالغة في الوعيد والزجر، و(ثم) للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد، وقد يكون المراد: سيعلمون ما يفعل بهم عند الموت أو في القبر، ثم ما يفعل بهم عند البعث.

* * *

إنعام وإحكام

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَا أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَرْسَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ .

ولما كان إنكار البعث والحساب والجزاء يؤدي إلى وصفه تعالى بصفات لا تليق بجلاله وكماله كالعجز والعبث، بين الله سبحانه بعض الدلائل الدالة على كمال قدرته وحكمته بأسلوب الاستفهام التقريري:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ .

أي: م مهددة لكم ومسخرة.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ .

أي: وجعلنا الجبال أوتاداً للأرض تثبت قشرتها لئلا تميد وتضطرب، فيتعذر عيشكم عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَخَلَقْنَا أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ .

أي: أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ .

أي: راحة لأبدانكم، فإن النوم يقطع التعب ويزيله، وأصل السبت: القطع.

﴿وَجَعَلْنَا الْإِلَّهَ لِبَاسًا ۝﴾ .

أي: غطاءً وغشاءً يستركم عن العيون في أحوالٍ تحتاجون فيها إلى الستر والاختفاء .

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝﴾ .

أي: سبباً ووقتاً للمعاش، ولتتمكّنوا فيه من التصرف والاكتساب وقضاء المصالح .

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝﴾ .

أي: سبع سماوات قوية محكمة .

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝﴾ .

متلألئاً وقادراً، جامعاً للنور والحرارة الشديدة، والمراد: الشمس، فهي التي تمد الأرض بما تحتاج إليه من الحرارة .

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝﴾ .

أي: وأنزلنا من السحاب التي شارفت أن تمطر ماء منصّباً بكثرة .
فالمعصرات: جمع معصرة؛ اسم مفعول من أعصر، ومنه: أعصرت الجارية، إذا دنت أن تحيض .

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝﴾ .

أي: لنخرج بذلك الماء حبّاً كالحنطة والشعير، ونباتاً كالخشيش والتبن .

﴿وَجَنَّتِ الْفَاقَا ١٦﴾

وبساتين ملتفة على بعضها لكثرة أشجارها .

* * *

يوم الفصل والحق

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ١٧﴾ يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَاتَتْ أَبْوَابُهَا ١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَاتَتْ سَرَابًا ٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١﴾ لِلطَّالِعِينَ مَكَانًا ٢٢﴾ لِيُشِيرَ فِيهَا الْآخِفَاءُ ٢٣﴾ لَا يَدْرُونَ فِيهَا شَرًّا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾ إِلَّا حَيْمًا وَعَسَاقًا ٢٥﴾ حَرَاءَ وَفَاقًا ٢٦﴾ إِيَّاهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَخَصِيصُهُ كُنُوسًا ٢٩﴾ فَدُوقُوا فَلَسْ نُرِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَعَارًا ٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ٣٥﴾ جَرَاءَ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ٣٦﴾

ولابد لهذا الإنعام والإحكام من غاية ينتهي إليها :

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ١٧﴾

أي : إن يوم فصل الله تعالى بين الخلق كان في علمه ﷻ وقتاً محدوداً لا يتقدم ولا يتأخر، وعبر عن المستقبل بالماضي لتحقيق وقوعه .
وهكذا كشفت الآيات سرَّ النبأ العظيم، الذي كانوا يتساءلون عنه، ثم شرعت تفصّل كيفية وقوعه، وتبيّن بعض ما يحدث فيه :

﴿يَوْمَ يُفْعُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨﴾

أي : أمماً وجماعات وزمراً من القبور إلى المحشر .
وفي صحيح البخاري : باب (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) زمراً، ثم أخرج : [٤٩٣٥] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين

النفختين أربعون» قال: أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قال: «ثم يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْماً وَاحِداً وَهُوَ عُجْبُ الذَّنْبِ، وَمَنْ يَرْكَبُ الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۖ﴾.

أي: وُشِّقَتِ السماء فصارت ذات أبواب. وفي قراءة: (وَفُتِّحَتْ) بالتشديد.

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۖ﴾.

أي: أزيلت عن وجه الأرض، فصارت بعد ذلك مثل السراب، فترى كأنها جبالٌ، وليست بجبال، بل غبار غليظ متفرقٌ، قال تعالى: ﴿وَبُئِتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۖ﴾ [الواقعة].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۖ﴾.

أي: موضع رصد وترقب، يرصد فيه خزنة النار الكفار. أو: إنها طريق عليه ممرُ الخلق كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]. أو: إنها مرصدة معدة.

﴿لِّلطَّغْيَيْنِ مَنَآبَا ۖ﴾.

أي: مرجعاً ومصيراً ومأوى، وهم المتجاوزون الحد في الطغيان.

﴿لَّيْسَ فِيهَا أَحْقَابًا ۖ﴾.

أي: مقيمين في جهنم أزماناً متتابعة، والْحُقْبُ: هو الدهر، ولم يُرَدَّ به عدد محصور، بل الأبد، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية.

وفي قراءة: (البئين) بغير ألف على جعل اسم الفاعل فعلاً وهو أبلغ.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۖ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۖ﴾ (٢٤)

أي: لا يذوقون في جهنم روحاً وراحة، ولا شراباً يدفع عنهم العطش، ولكن يذوقون ماء حاراً يقطع أمعائهم وماء يسيل من صديدهم. وقيل: البرد: النوم.

﴿جَزَاءً وَفَاقًا ۖ﴾ (٢٥)

أي: جُوزوا جزاءً موافقاً لأعمالهم. واستأنفت الآيات تبين أعمالهم وتعلل عذابهم:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۖ﴾ (٢٦)

أي: لم يؤمنوا بالبعث ليرجوا الحساب ويخافوا منه.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ۖ﴾ (٢٧)

أي: كذبوا بأدلة التوحيد والنبوة والبعث تكذيباً مفرطاً. أو: كانوا مبالغين في الكذب مبالغة المغالين فيه. وفي قراءة: (كذاباً) بالتخفيف.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۖ﴾ (٢٨)

أي: وكل شيء من الأعمال بيناه وأثبتناه في كتاب، وهو صحف الحفظة، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ نَوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۖ﴾ (٢٩)

فالعذاب مسبب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات.

ودلّ أسلوب الالتفات إلى خطابهم على المبالغة، فهذه أشدّ آية في القرآن على أهل النار، فهم في مزيد من العذاب أبداً.
ثم بينت الآيات في المقابل بعض ما أعد الله للمتقين من النعيم:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١)﴾.

أي: فوزاً، ويعني: نجاة من كل مكروه، وظفراً بكل محبوب، أو إنّ لهم موضع فوز.

﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢)﴾.

أي: بساتين فيها أنواع الشجر المثمر، وأعناباً، ودل التنكير على عظم ذلك العنب.

﴿وَكَوَاعِبَ أُنْثَىٰ (٣٣)﴾.

أي: وجواري نواهد، قد تكعبت أئداؤهن، مستويات في السن.

﴿وَأَسَاْدِهَاقًا (٣٤)﴾.

مملوءة مترعة، أو متتابعة وصافية.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (٣٥)﴾.

أي: لا يسمعون في الجنة أو في حال شربهم باطلاً من الكلام ولا تكديباً، فلا يكذب بعضهم بعضاً. وفي قراءة: (كِدَابًا) بتخفيف الذال مصدر كذب.

﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا (٣٦)﴾.

أي: جازاهم جزاء بمقتضى وعده، تفضلاً منه، وأعطاهم عطاءً كافياً

وافياً، أو على حسب أعمالهم.

تعظيم وتهويل

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾

ومما يدل على عظمة هذا اليوم وهول ما يحدث فيه :

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: لا يملك أهل السماوات والأرض في هذا اليوم خطابه تعالى والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب، أو لا يقدر أحدٌ على ابتداء مخاطبته تعالى إلا بإذنه، فهو استثناءٌ مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة.

وفي قراءة: (ربُّ السماوات والأرض وما بينهما الرحمن) برفع باء (رب) ونون (الرحمن)، أي: هو رب وهو الرحمن.

ومما يدل على هول هذا اليوم :

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ .

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ أي: يوم يقوم جبريل والملائكة مصطفين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥].

وخصَّ جبريل بالذكر تشريفاً له، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٦﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء].

وذكر بعض المفسرين في الروح أقوالاً أخرى غريبة لا يعول عليها.

﴿لَا يَنْكَلُمُونَ﴾ خوفاً من الله تعالى وإجلالاً له .

﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: إلا مَنْ أذن له الرحمن في الكلام، وقال حقاً في الدنيا وعمل به، أو قال المأذون له قولاً صواباً؛ أي: قولاً حقاً في الشفاعة لمن ارتضى .

وتابعت الآيات تعظيم وتهويل هذا اليوم:

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ۖ﴾ .

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي: الكائن الواقع لا محالة، فهو يوم الفصل والحق .
﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ أي: سبيلاً يرجع إليه، وهو طاعة الله تعالى وما يتقرب به إليه .

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۖ﴾ .

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي: خوفاً منكم في الدنيا عذاباً قريباً في الآخرة، وقربه لتحقيقه، فإن كل ما هو آتٍ قريب، ولأنَّ مبدأه بالموت .
﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير أو شر مثبت في كتاب أعماله، كما سبق معنا في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا: ٢٩] .

وتخصيص الأيدي لأنَّ أكثر الأعمال تقع بها .

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أي: في الدنيا، فلم أخلق ولم أكلف .

أو: يا ليتني كنتُ تراباً في هذا اليوم، فلم أبعث .

وحُصِّنَ هذا القول بالكافر دون المؤمن لدلالة قوله على غاية الخيبة وشدة الحسرة والندم .

أسأله تعالى الثبات على الإيمان وحُسن الخاتمة .



تفسير سورة النازعات الطائفة الكبرى والطغيان في سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
البعث والجزاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ (١) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ (٢) ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ (٣) ﴿فَالسَّيِّدَاتِ سَبَقًا﴾ (٤) ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ (٦) ﴿تَنْبَعُهَا الرِّادَةُ﴾ (٧) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ (٩) ﴿يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْمَكَافِرَةِ﴾ (١٠) ﴿إِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةٌ﴾ (١١) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٢) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤)

بدأ الله تعالى سورة النازعات بالأقسام التالية:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ (١) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ (٢) ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا﴾ (٣) ﴿فَالسَّيِّدَاتِ سَبَقًا﴾ (٤) ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥).

اختلفت أقوال المفسرين في المراد من هذه الكلمات؛ هل هي صفات شيء واحد أم لأشياء مختلفة؟ فأكثرهم أن المراد بها شيء واحد؛ هم ملائكة الموت، فإنهم ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم غرقاً، أي: إغراقاً بالنزع، إذ ينزعونها من أقصى الأبدان، وينشطون أرواح المؤمنين بلطف ورفق، فالنزع: جذبٌ بشدة، والنشط: جذبٌ برفق، ويسبحون في الفضاء مسرعين كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه يقال له: سابح، فيسبقون بأرواح المؤمنين إلى الجنة

وبأرواح الكفار إلى النار، فيدبرون أمر ثوابها وعقابها.

أو: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، تطلع، ثم تغيب، وتنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب وتجري في أفلاكها سابحة، فيسبق بعضها بعضاً في السير، فتدبر أماً نيط بها، كاختلاف الفصول، وتقدير الأزمنة.

أو: هي صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة، فإنها تنزع من الأبدان، فتنشط إلى عالم الملكوت، وتسبح فيه، فتسبق إلى حظائر القدس، فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات.

أو: هي النفوس حال سلوكها، فإنها تنزع عن الشهوات، وتنشط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء، فتسبق إلى الكمالات، فتصير من المكملات، وتصلح أن تكون من المدبرات، ويظهر لها بعد الموت أحوال وآثار، كأن يرى المرء بعد الموت شيخه في المنام، فيرشده إلى ما فيه خيره وصلاحه. وذكروا أن ابن عباس قال: الناشطات: النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج.

وقد يكون المراد بيان صفات أنفس المؤمنين أو خيل المجاهدين، والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتيبهما على ما قبلهما من غير مهلة. وجواب القسم محذوف دل عليه سياق الآيات، تقديره: لتبعثن أو لتحاسبن يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾

وهي النفخة الأولى التي تتزلزل بها الأرض، ويموت بها جميع الخلق.

﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾

وهي النفخة الثانية لأنها تردف الأولى وتتبعها.

وكان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» [رواه أحمد (٢١٢٤١ و ٢١٢٤٢) والترمذي (٢٤٥٧) وحسنه].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾.

أي: شديدة الاضطراب من شدة الخوف والفرع.

﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً ﴿٩﴾﴾.

أي: أبصار أصحابها ذليلة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٩٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج].

﴿يَقُولُونَ أَءَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: أنزُدْ إلى أول الحال وابتداء الأمر، فنرجع إلى الحياة بعد الموت.
فالحافرة: اسمٌ لأول الأمر، والعرب تقول: رجع فلانٌ في حافرته، أي: رجع من حيث جاء، فهي اسمٌ لابتداء الشيء وأوله، أو طريقه الذي جاء منه يحفره بمشيته، والاستفهام للإنكار والاستهزاء.
وقد يكون المراد من الحافرة: القبور، فهم يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة.

﴿أَءَا كُنَّا عِظَمًا نَخْرَةً ﴿١١﴾﴾.

أي: أنزُدْ إلى الحياة بعد أن صرنا عظاماً بالية.
وفي قراءة: (ناخرة) بالأنف.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

أي: إن صَحَّتْ فنحن خاسرون لتكذيبنا بها!
وهو استهزاء منهم، يدل على قسوة قلوبهم، وشدة استكبارهم وطغيانهم، ولهذا جاء الرد عليهم قوياً عنيفاً:

﴿فَالْتَمَأْ هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: فما هي إلا صيحة واحدة وهي النفخة الثانية، فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً في بطنها.

* * *

المعرفة والخشية

﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَحْنُ ﴿١٩﴾ فَأَرْسَلْنَا آيَاتِنَا الْكَرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْرَبْتَنِي ﴿٢٢﴾ فَمَحَشَرَ فَمَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ أَلْنَمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُغْنَهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَكُمُ ﴿٣٣﴾﴾ .

ثم وجهت الآيات خطابها إلى النبي ﷺ توأسيه وتسلييه عن ما يلقي من تكذيبهم وطغيانهم، وتذكّره بقصة موسى وفرعون، الذي كان أشد طغياناً واستكباراً من معارضي دعوته عليه الصلاة والسلام.

﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ .

أي: قد أتاك يا محمد حديث موسى، حين ناداه ربُّه بالوادي المبارك طوى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْنَهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَالْخَلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [طه].

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾﴾ .

أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد.

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾ (١٨)

أي: تتطهر من الشرك وذنس الكفر. وفي قراءة: (تَرْكَبُ) بتشديد الزاي.

﴿وَأَهْدِكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَنَخْشَىٰ﴾ (١٩)

أي: وأرشدك إلى معرفة ربك فتخشاه وتعظمه، فالخشية لا تكون إلا بالمعرفة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال بعض الحكماء: اعرف الله، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفة عين، فهي ملاك الأمر، فمن خشي الله أتى بكل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر^(١).
ومنه الحديث الشريف: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ» [رواه الترمذي (٢٤٥٠)].

وفي الاستفهام (هل لك) ما لا يخفى من التلطّف في الدعوة، كما أمر الله تعالى موسى وهارون ﷺ بقوله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٢٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ [طه].

ودل تقديم التزكية على الهداية على أَنَّ التخلية قبل التحلية، وعلى حاجة الإنسان إلى المرشد الذي يرشده إلى معرفة الله تعالى وطاعته.

﴿فَأَرِنَهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ (٢٠)

أي: المعجزة الكبرى، وهي معجزة العصا.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ (٢١)

أي: فكذب فرعون موسى، وعصى الله تعالى، بعد أن علم صدق موسى وصحة المعجزة.

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ (٢٢).

أي: ثم تولى عن الطاعة يسعى في إبطال أمر موسى، ومعارضة المعجزة.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٢٣) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (٢٤).

أي: فجمع السحرة، فنادى بالناس لما اجتمعوا: أنا ربكم الأعلى.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٢٥).

أي: فعذبه الله بكلمته الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وبالثانية: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٢٦).

أي: إن في عقاب فرعون حين كذب وطغى لعظة لمن يخشى الله تعالى. ثم وجهت الآيات خطابها إلى منكري البعث توبيخهم على طغيانهم واستكبارهم، وتبين لهم كمال قدرته تعالى وباهر حكمته:

﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧).

أي: أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء؟ بل السماء أشد خلقاً منكم. وفي عدم ذكر الفاعل في (بناها) وفي ما عطف عليه من الأفعال تفخيم لشأنه ﷻ.

﴿رَفَعَ سَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ (٢٨).

أي: جعلها عالية البناء، ومستوية الأرجاء، فهي محكمة تامة، لا خلل فيها ولا نقص، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩).

أي: وجعل ليلها مظلماً، ونهارها مضيئاً مشرقاً واضحاً، كما تبدو لعين الناظر إليها.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠).

أي: بسطها ومدّها ومهدّها لسكنى أهلها، وتقلبهم في أقطارها. ويبدو أن الله تعالى دحا الأرض بعد أن خلق السماء، فقد خلقها غير مدحوة كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. وبين دحوها وفسره بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٣١).

أي: بتفجير العيون، وإنبات النبات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا﴾ (٣٢).

أي: أثبتها فيها، وجعلها أوتاداً لها.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (٣٣).

فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم، فهو سبحانه المتفضل عليكم، فإنّ فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى واصله إليهم ولأنعامهم.

الطامة الكبرى

﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَتُرِيتِ الْجَحِيمَ لِمَ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ النَّفْسَ عَلَى الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّنْ يَحْشَنهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرْوَاهَا لَمْ يَلْسَنُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ .

ثم عادت الآيات إلى موضوع السورة الأول، موضوع البعث والحشر للحساب والجزاء، وبيان أثره في تهذيب النفوس ومنعها من الطغيان، فلا يهذب النفوس إلا الإيمان بالطامة الكبرى.

﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤)﴾ .

أي: الداهية التي تعلو على سائر الدواهي، سُميت بذلك، لأنها تطمُّ على كل شيء فتعلو عليه، قال تعالى: ﴿بِالْسَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [القمر: ٤٦].
وكونها طامة، لأنها تغلبُ وتَفُوقُ كل ما عرفوه من دواهي الدنيا، وكونها كبرى، لأنها أعظم من جميع الدواهي مطلقاً، فصارت الطامة الكبرى كالعلم للقيامة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥)﴾ .

أي: يوم يتذكر الإنسان ما عمل من خير أو شر، فيشاهده مدوناً في صحيفته، وقد نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿وَتُرِيتِ الْجَحِيمَ لِمَ يَرَى (٣٦)﴾ .

أي: وأظهرت جهنم لكل راءٍ بحيث لا تخفى على أحد.

وجواب (فإذا جاءت) محذوفٌ دل عليه ما بعده من التفصيل.

﴿وَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾﴾

جاوز الحد حتى كفر.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾

أي: وفضل الحياة الدنيا على الآخرة، فانهمك في الدنيا، ولم يستعد للآخرة.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾﴾

لا مأوى له سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف مقامه بين يدي ربه يوم القيامة للحساب والجزاء، أو عند المعصية فانتهى عنها كما في حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلٌ دعه امرأة ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: زجرها ومنعها عن المعاصي والآثام.

فالهوى: هو الميل إلى ما تهوى النفس من شهوات، وهو سبب الطغيان.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾

كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فترك الهوى مفتاح الجنة، فطوبى لمن تركه وسلم منه.

ثم بيّن تعالى في ختام السورة أنَّ وقت الطامة الكبرى لا يعلمه أحد سواه،

فهو مما أستاثر سبحانه بعلمه، فلم يُطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا، وعلى الإنسان أن يكون دائماً مستعداً لها منتظراً وقوعها.

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ﴾ (٤٢).

أي: متى ظهورها وقيامها، ومرسى السفينة حيث تنتهي.

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۖ﴾ (٤٣).

أي: ما أنت من ذكرها وتبيين وقتها في شيء، أو أنت ذكر من ذكرها، أي: علامة من أشراتها، فهو عليه الصلاة والسلام من علامات الساعة. وفي الحديث: عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام: «بُعْثُ السَّاعَةِ كَهَاتَيْنِ» [رواه البخاري (٤٩٣٦)].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا ۖ﴾ (٤٤).

أي: إلى الله ﷻ انتهاء علمها، ليس لأحد منه شيء، فلماذا يسألونك عنها؟!

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا ۖ﴾ (٤٥).

أي: ما أنت إلا منذر من يخشاها، لا معلم بوقتها ومبين له، فلم تبعث لتعلمهم بوقتها، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدتها، ولا شك أن من نهى النفس عن الهوى فهو ممن يخشاها. وفي قراءة: (منذرٌ) بالتنوين.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوْنَهَا لَوْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۖ﴾ (٤٦).

أي: كأن الكفار يوم يعاينون القيامة لم يلبسوا في الدنيا إلا عشيّة يوم أو ضحاه، استقلوا مدة لبثهم في الدنيا لما شاهدوا هول يوم القيامة.



تفسير سورة عَبَسَ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ فِي سُورَةِ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عتاب وموعظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ فَسْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ﴿٥﴾ فَإِنَّ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَإِنَّ عَنْهُ لُحًى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ ﴿١١﴾ لِمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مُزَوَّجَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾

بدأ الله تعالى سورة عبس بقوله :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾

عبس: أي: كَلَحَ وَقَطَّبَ وجهه وأعرض، وهو النبي ﷺ، لأنَّ الأعمى جاءه.
والأعمى: هو ابن أم مكتوم، واسمه: عمرو، وقيل: عبد الله بن شريح القرشي، وأم مكتوم أم أبيه، وأمه عاتكة بنت عبد الله المخزومية، وهو ابنُ خالة السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، أسلم قديماً بمكة، أتى النبي ﷺ وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام، فقال: يا رسول الله علّمني ممّا علمك الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلمُ تشاغلَ النبي ﷺ بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه

لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعدها ويقول إذا رآه: «مَرْحَباً بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»، واستخلفه على المدينة مرتين، وكان يؤذن لرسول الله ﷺ.

وروى أبو يعلى في مسنده [٣/٢٣] وابن جرير [٥٠/٣٠] وابن أبي حاتم: أن رسول الله ﷺ كان بعد ذلك يكرم ابن أم مكتوم ويسأله: «ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟».

فالنبي ﷺ كان مشغولاً بالدعوة إلى الله، وهي وظيفته الأساس التي كلفه الله تعالى بها، وكان المسلمون في قلة، والدعوة ضعيفة ومطاردة، وكان يرجو إن أسلم هؤلاء خيراً كبيراً للإسلام في عُسرته ومحنته، فقد كانوا يقفون في طريق الدعوة، ويكيدون ضدها كيداً شديداً، ويصدّون الناس عنها، فلو أسلموا لانزاحت العقبات من طريق الدعوة في مكة، وانتشرت بعد ذلك في ما حولها، ولهذا كره الرسول ﷺ قطعه لكلامه، وظهرت الكراهة في وجهه الشريف، فعبس وأعرض عنه، ويبدو أنه عليه الصلاة والسلام طمع في إسلام أحد كبار المشركين، واستشعر في كلامه شيئاً من اللين.

ففي الحديث: عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله ﷺ أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه، ويُقبل على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟» فيقول: لا. ففي هذا أنزل. [رواه مالك (٢٠٣/١) والترمذي (٣٣٣١)].

قال القرطبي: قال علماؤنا: ما فعله ابن أم مكتوم كان من سوء الأدب، لو كان عالماً بأن النبي ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب الفقراء من أصحابه، أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني الكافر.. وقيل: إنما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل ثقة بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان، كما قال ﷺ: «إني لأصل الرجل وغيره أحب إليّ منه مخافة أن يكبّه الله في النار على وجهه».

وهذا الحديث في صحيح البخاري [٣١٤٥] ولفظه: أعطى رسول الله ﷺ قوماً، ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه فقال: «إني أعطي قوماً أخاف ظلمهم وجزعهم، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب».

وفي وصف ابن أم مكتوم بالأعمى إشعارٌ بعذره في الإقدام على قطع كلام النبي ﷺ، ودلالة على أنه أحق بالرافة والرفق. وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلالٌ له، لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره، لأنه لا يصدر عنه ﷺ مثله. ثم وجهت الآيات الخطاب إلى النبي ﷺ.

﴿وَمَا يَذْكُرُكَ لَعَلَّه يَزْكُرُ﴾.

أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى؟! لعله يتطهر من الذنوب بما يسمع منك.

﴿أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرُ﴾.

أو يتعظ فتنفعه الموعظة، فلو دريت ما صدر ذلك منك، فإعراضه عليه الصلاة والسلام عن الأعمى كان لتزكية غيره. وفي قراءة: (فتنفعه) عطفاً على (يزكّي، أو يذكّر).

ولا شك أن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فيه إيناس بعد الإيحاء، وإقبال بعد الإعراض والعتاب، فهو أسلوبٌ فريدٌ متميز دل على أنه سبحانه كره أن يواجه نبيه وحبيبه المصطفى ﷺ بهذا العتاب، ولكنه تعالى أراد أن يظهر حقيقة الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفع مبادئها، وأنها وحي من الله تعالى، ليس للنبي ﷺ فيها شيء إلا التلقي والتبليغ، ودلت أيضاً على أمانته عليه الصلاة والسلام، وأنه بلغ كل ما أوحى الله إليه، فما كتم منه شيئاً.

وارتفعت نبرة العتاب في الآيات، واشتدت لهجته حتى تحوّل إلى التعجيب:

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾﴾

أي: أما من استغنى عن الإيمان وعمّا عندك من العلم، فأنت تتعرض له وتقبل عليه وتصغي إلى كلامه؟! وفي قراءة: (تَصَدَّى) بتشديد الصاد.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزُكِّيَ ﴿٧﴾﴾

أي: وما يضيرك أن يبقى في رجسه وكفره، فأنت لا تُسأل عن ذنبه.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾﴾

أي: يسرع في طلب الخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾﴾

أي: يخشى الله تعالى.

﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾﴾

أي: تتشاغل وتُعرض عنه.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: لا تفعل ذلك، ولا تُعَدِّ لمثله.

ولقد انفعلت نفس الرسول ﷺ لهذا الإرشاد والعتاب حتّى كان يقول لابن أم مكتوم كلّما أتى إليه: «مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»، ويدنيه منه، ويبسط له رداءه كما مرّ معنا.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنها موعظة، يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.

وقد ذكروا أنه ﷺ ما عبسَ في وجه فقيرٍ ولا تصدَّى لغني، وتأدَّبَ الناسَ بذلك أدباً حسناً، وقد رُوِيَ عن سفيان الثوري أنَّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء^(١).

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢)

أي: اتعظ به. وذكر الضمير لأنَّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ، وهي تذكرة عظيمة كريمة رفيعة عزيزة.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ (١٣)

عند الله تعالى.

﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤)

أي: مرفوعة المنزلة والقدر، مطهرة، لا يمسُّها إلا الملائكة المطهرون.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥)

وهم الملائكة الذين يتسخونها من اللوح المحفوظ. وهذا يدل على أنَّ القرآن الكريم أُنْزِلَ أولاً إلى السماء الدنيا دفعة واحدة، ثم نزل على رسول الله ﷺ منجماً بواسطة جبريل عليه السلام أمين الوحي.

﴿كَرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (١٦)

أي: عن المعاصي، أو على الله تعالى، وبررة: جمع بار. وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «المَاهِرُ

بالقرآن مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، والذي يقرأ القرآنَ، ويتتَعَنُّ فيه، وهو عليه شاقٌّ له أَجْرَانِ» [رواه مسلم (٧٩٨)].

* * *

تكفير وتحقير

﴿قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَنَا صَبَا ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبَّأْنَا وَقْصًا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّاهَا وَنَحْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَلَكَهَ وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِأَنْعِيكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلِيِّهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرُ الْفَعْرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

ثم حملت الآيات حملةً شديدةً على الإنسان المعرض عن القرآن الكريم، والذي لا يتأثر بمواعظه، ولعلَّه الإنسان المشرك الذي تصدَّى النبي ﷺ لدعوته.

﴿قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾﴾

أي: لُعِنَ وَطُرِدَ، ما أشدَّ كفره بالله تعالى وآياته! فهو تعجيبٌ من شدة كفره، ودعاءٌ عليه بأشنع الدعوات، وأردفت الدعاء بالتحقير:

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾﴾.

أي: فقدَّره لما يصلح له ويليق به، أو فقدَّره أطواراً إلى أن أتمَّ خلقه.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم سهَّلَ خروجه من بطن أمه.

وهو أمر عجيبٌ محيرٌ، فقد حَيَّرَ الأطباءَ، إذ كيف يمرُّ الجنينُ في ذلك الممر الضيق، وعنق الرحم لا يتسعُ في العادة لأكثر من إبرة لدخوله، فيتسع ذلك العنقُ، ويرتفعُ تدريجياً في مرحلة المخاض، حتى ليسع إصبعاً ثم إصبعين ثم ثلاثة فأربعة، فإذا وصل الاتساع إلى خمسة أصابع فالجنين على وشك الخروج^(١).

وقد يكونُ المرادُ: سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتيسيره له في هبة العقل، وتمكينه من النظر، أو هو سبيل الهدى والضلال أي سهّل له الطريق الذي يريدُ سلوكه من طريق الخير والهدى وطريق الشر والضلال، بأن أقدره ﷻ على كلِّ، ومكّنه منه، والإقْدَارُ على المراد نعمة ظاهرة بغض النظر عن خيريته وشرّيته^(٢).

﴿ثُمَّ أَمَّا لَهُ فَاقْبَرَهُ﴾

أي: جعله ذا قبرٍ تُؤارى فيه جثته وسوءته، ولم يجعله مطرحاً على الأرض، يستقذره من يراه، وتأكله السباع والطيور. ولم يقل: قَبَرَهُ، لأن القابِرَ هو الدافن، يقال: أقبره الله؛ أي صيره بحيث يُقبر، وجعل له قبراً.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾

أي: بعثه بعد الموت، ويوم النشور هو يوم البعث. ثم سجلت الآيات على الإنسان تقصيره في حق شكر ما أنعم الله عليه:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقُضِ مَا أَمَرَهُ﴾

أي: حقاً لم يؤدِّ هذا الإنسان كل ما أمره الله به، فَنِعِمُّ الله عليه عظمة وكبيرة لا تحصى، ولا يستطيع أحد أن يؤدّي حقَّ شكرها، فلا ينبغي لأحد أن

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٤٦٠.

(٢) روح المعاني: ٥٦/٣٠.

يَسْتَكْثِرُ طَاعَتَهُ وَعِبَادَتَهُ، وَمَرَّ مَعَنَا أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ لَنَبِيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَلَا مَمْنُنَ تَسْتَكْثِرُ﴾ ٢٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿[المدثر].

وتأكيداً لهذا المعنى ذُكِرَتِ الْآيَاتُ الْإِنْسَانُ بِبَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَأَمْرَتُهُ أَنْ يَنْظُرَ فِيهَا نَظَرَ الْمُتَفَكِّرِ، لِيَعْلَمَ مَدَى تَقْصِيرِهِ فِي حَقِّ شُكْرِهَا، وَاخْتَارَتْ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ نِعْمَةَ الطَّعَامِ:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٤ .

أي: فلينظر كيف خلق الله تعالى طعامه؟.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٢٥ .

بِإِنْزَالِهِ مِنَ السَّحَابِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: (إِنَّا صَبَبْنَا) بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ٢٦ .

بِالنَّبَاتِ.

﴿فَأَبْتَلْنَا فِيهَا جَبًّا﴾ ٢٧ .

كَالْحَنْظَةِ وَالشَّعِيرِ.

﴿وَعَبْنَا وَقَضَبًا﴾ ٢٨ .

وِثْمَارًا كَالْعَنْبِ، وَمَا يَقْضَبُ مِنَ الْخَضَارِ الَّتِي تَقْطَعُ فَيَنْبِتُ أَصْلُهَا.

﴿وَزَيَّنَّا لَهَا فِي الْآخِرَةِ جَنَّةً﴾ ٢٩ وَحَدَّائِقَ عُظَيًّا ﴿٣٠﴾ .

أي: ذات شجرٍ كبيرٍ عظيمٍ.

﴿وَفَكَهَةً أَبَاً﴾ .

وهو ما تأكله البهائم من العشب .

﴿مَنْعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ﴾ .

أي: هذه الأنواع المذكورة من النعم منفعة لكم ولأنعامكم، فاعرفوا فضل الله عليكم، واذكروا مسؤوليتكم الشخصية أمامه للحساب والجزاء .

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ .

أي: صيحة البعث من القبور، سُميت بذلك لأنها تصخ الآذان بشدتها .
أو: لأنَّ الأسماع تصيخ لها، من قولك: أصاخ إلى كذا، أي: استمع إليه .

﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرَّةُ مِنْ أَخِيهِ﴾ .

لاشغاله بنفسه، أو لعلمه أنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً .

﴿وَأُمَّهُ وَأَبِيهِ﴾ .

أي: ومن أمه وأبيه .

﴿وَصَلَحِيهِ وَبَنِيهِ﴾ .

ومن زوجته وأولاده .

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ .

أي: يشغله شأن نفسه عن شأن غيره .

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ

يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاءَ غُرَاءَ غُرْلًا» قلت: يا رسول الله! النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة! الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» [رواه مسلم (٢٨٥٩)]. غرلاً: غير مختونين.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ﴾ (٣٨)

مضيئة مشرقة.

﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ﴾ (٣٩)

أصحابها ضاحكون مسرورون.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ﴾ (٤٠)

أي: سواد وكآبة.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۖ﴾ (٤١)

أي: تعلوها ويغشاها سواد وكآبة.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۖ﴾ (٤٢)

أي: أولئك الموصوفون بما ذكرهم، الذين جمعوا إلى الكفر الفجور؛ الكفر بحقوق الله تعالى، والفجور بحقوق العباد. ولا شك أن المشرك الذي تصدّى النبي ﷺ له، ومع ذلك أصر على كفره هو من هؤلاء الكفرة الفجرة.



تفسير سورة التَّكْوِيرِ الْوَحْيِ وَالْإِسْتِقَامَةُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اضطراب النظم الكونية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤
وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمُوءَدَّةُ سُيِّلَتْ ۝٨
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الْصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْحَبِيمُ سُعِرَتْ ۝١٢
وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْصَرَتْ ۝١٤﴾ .

بدأ الله تعالى سورة التَّكْوِيرِ بقوله :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ .

أي : لَفَّ ضوءها فذهب ، وزال أثره وانتشاره في الآفاق .

وأصل التَّكْوِيرِ : جمع الشيء بعضه إلى بعض ، ومنه تَكْوِيرُ العمامة ، وجمع الثياب بعضها إلى بعض ، وما يَحْدُثُ للشمس يحدث للقمر ، كما مر معنا عند قوله تعالى : ﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة : ٩] .

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة» [رواه البخاري (٣٢٠٠)].

وهذا يدل على أنَّ النظم الكونية تختلُّ وتضطربُ بين يدي الساعة إيداناً بتبديلها وتغييرها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾.

أي: أظلمت ومُحي نورها، أو: أزيلت من مواقعها وأفلاكها وتناثرت. والأول أوجه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات]، فالانكدار من الكدر ضد الصفو.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾.

عن أماكنها، ونسفت فصارت هباءً منبثاً.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾.

أي: أهملت وتُركت، والعشار: جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها، وهي أنفُسُ مالٍ عند العرب. والمراد بيانُ أنَّ الناسَ في ذلك الوقت يهملون أموالهم ويتركونها من شدة الهول.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾.

أي: جمعت ليقْتَصَ لبعضها من بعض، قال تعالى: ﴿وَمِنْ دَابَّوْا فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلَمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُنْمِمْ أَشْأَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال النبي ﷺ: «لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجَلحاء من الشاة القَرْناء» [رواه مسلم (٢٥٨٢)].

وهذا تصريحٌ بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها كما يُعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعادُ الأطفال والمجانين، ومن لم تبلغه دعوة، والقصاص من القَرْناء والجَلحاء ليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاصٌ مقابلةً، ثم تردُّ تراباً، فالوحوش النافرة إذا كانت هذه حالها في هذا اليوم فكيف ببني آدم؟!.

﴿وَإِذَا أَلْحَاثُ سُحِرَتْ﴾

فاضت وملئت وصارت بحراً واحداً، لعلَّ سبب ذلك أنه يرسل عَذْبُها على مالحها، ومالحها على عذبها، ويرفع الله الحاجز الذي جعله بينهما وأخبر عنه بقوله: ﴿يَتَّبِعُهُمَا بَرَزَجٌ لَا يُعَيَّنُ﴾ [الرحمن: ٢٠].

وقد يكون المراد: أوقدت فصارت تضطرم.

وفي قراءة: (سُحِرَتْ) بتخفيف الجيم.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾

أي: قرنت الأرواح بالأجساد، أو جُمِعَ الصالح مع الصالح، والفاجر مع الفاجر. وأصل الزوج: المقارن، كزوجي النعل، فأطلق على لازمه، وهو المماثل، قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصفات: ٢٢].

أو قرن بين الغاوي ومن أغواه من شيطان أو إنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ عِشْرَ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ .

وهي الأنثى التي دُفنت حيةً في التراب، وكان بعض العرب يثدّون البنات مخافة الإملاق، أو لحوق العار، وسؤالها توبيخٌ لقاتلها كتوبيخ النصراني بقوله تعالى لعيسى يوم القيامة: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. وفي قراءة: (قُتِلَتْ) بالتشديد.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ أطفالَ المشركين لا يعذبون، وعلى أنَّ التعذيب لا يكون بلا ذنب^(١).

ولا شك أنَّ المقصد الأساس لتذكيرهم بهذا الأمر في سياق الأحداث الهائلة التي تكون بين يدي الساعة وفيها، هو تربية نفوسهم، وتقويم اعوجاجهم، وتخليصهم من أدناس الجاهلية وضلالاتها.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرتْ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: صحف الأعمال تُطوى عند الموت وتُنشر لوقت الحساب. وفي قراءة: (نُشِرت) بالتشديد على معنى التذكير.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ .

أي: أزيلت، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: أوقدت إيقاداً شديداً للكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا لَهُمْ تَعْظِيماً وَزَفِيراً﴾ [الفرقان: ١٢].

(١) تفسير النسفي: ٤٦٣/٦؛ وتفسير القرطبي: ٢٣٤/١٩.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ .

أي: قُرِبَتْ مِنَ الْمُتَّقِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُرْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]،
وَفِي ذَلِكَ تَكْرِيمٌ عَظِيمٌ لِلْمُتَّقِينَ .
وَجَوَابُ (إِذَا) الشَّرْطِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .
فكُلُّ هَذِهِ الْمَقْدَمَاتِ وَالْأَحْدَاثِ الْكَبِيرَةِ تَمْهِيدٌ وَتَوَاطُؤٌ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ،
فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَر_اقِبَ نَفْسَهُ، وَيَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ، لِيَسْتَكْثِرَ مِنَ الْخَيْرَاتِ
وَالطَّاعَاتِ، وَيَنْأَى عَنِ الشُّرُورِ وَالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ .

* * *

طريق الاستقامة

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُفِ ﴿١٥﴾ الْمَوَارِ الْكُنُفِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئِ الْيُسْيِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَلِيلٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ ﴿٢٥﴾ فَأَنْتَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

وهذه الوقائع والأحداث المستقبلية غيب عن الناس، لا يعلمها أحد غير الله
جلَّ، ولا سبيلَ إلى العلم بها إلا بواسطة الوحي، فالإنسان مخلوقٌ محدودٌ في

قوته وملكاته، وحتى في كسبه ومشيبته، وتصديقه بهذه الوقائع المستقبلية منوطٌ بتصديقه بظاهرة الوحي، ولهذا اتَّجهت الآيات إلى تأكيدها بالقسم، وتقرير نزول الوحي على النبي ﷺ:

﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَسِ ۝١٥﴾

أي: أقسم بالخنس، وهي النجوم التي تظهر في الليل، وتختفي في النهار، فتختفي بنور الشمس.

﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝١٦﴾

أي: النجوم السيارة في الفضاء، والتي تظهر ليلاً في أماكنها ومواقعها. والكناس: الموضع الذي يأوي إليه الوحش، ولهذا قيل: هي بقر الوحش والظباء، والقول الأول أوجه، فلقد أقسم الله تعالى بالنجوم في عدد من الآيات، كما أنه أكثر انسجماً مع سياق الآيات.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ۝١٧﴾

أي: إذا أقبل بظلامه.

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١٨﴾

أقبل بنوره وأضاء.

ويمكن أن يكون معنى (عسس): أدبر، فهو من ألفاظ الأضداد، لكن الإقبال هاهنا أنسب، وفي إقبال الصبح روحٌ وحياةٌ بعد الهمود والسكون في الليل. ويأتي جوابُ القسمِ متناسباً مع المعاني الشعورية الحية للصبح المتنفس بالنور والحياة:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: إن القرآن الكريم وحي من الله، نزل به رسول ملكي كريم عند الله تعالى هو جبريل عليه السلام .

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي: ذي قدرة على ما كلف به، فلا يعجز عنه، ولا يضعف، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] .
﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله تعالى ومنزلة رفيعة .

﴿مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿مُطَاعٌ ثَمَّ﴾ أي: مطاع في السماوات، تطيعه الملائكة، فهو من سادة الملائكة وأشرافهم، اصطفاه الله تعالى من بينهم لهذه الرسالة العظيمة، قال ﷺ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] .
﴿أَمِينٍ﴾ أي: على وحي الله تعالى إلى أنبيائه، فصدق الوحي منوط بأمانة الرسول .

وكما أثنت الآيات على أمين الوحي الملكي جبريل عليه السلام أثنت أيضاً على أمين الوحي البشري محمد ﷺ، فعطفت على جواب القسم الأول قوله تعالى:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

وهو تكذيبٌ لافتراء المشركين، وفي التعرُّض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم تكذيبٌ لهم بأبلغ وجه، فقد نشأ رسول الله ﷺ بين أظهرهم، فهم أعرف الناس به، وأنه أتم الخلق عقلاً، وأرجحهم قِيلاً، وأكملهم وصفاً، وأصفاهم ذهنًا، فلا يُسندُ إليه الجنون إلا مَنْ هو مرَّكبٌ من الحمق والجنون .

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَيْمَنِ (٢٣)﴾ .

أي: وبالله لقد رأى محمد ﷺ جبريل على صورته التي خلقه الله عليها بالأفق الواضح.

فقد ثبت: أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته الملكية مرتين: الأولى: في الأرض، والثانية: ليلة الإسراء والمعراج في السماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (٢٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (٢٤)﴾ [النجم].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال وهو يحدث عن فترة الوحي: «بينما أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً في السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: زملوني» [رواه البخاري (٤)].

وهذا تأكيد آخر لظاهرة الوحي، فاللقاء بين الأمين الملكي والبشري قد تحقق فعلاً دون لبس أو خفاء.

وكما أدى أمينُ الوحي الملكي الرسالة وبلغها، أداها أيضاً الأمينُ البشري وبلغها، ولم يبخل بها:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينَ (٢٤)﴾ .

أي: وما رسولُ الله ﷺ على ما يخبر به من الوحي ببخيل.

فالضنين: من الضنَّ بكسر الصاد وفتحها بمعنى البخل، فما قصر النبي ﷺ في التبليغ والتعليم، وأخبر ما أوحى الله إليه حتى المغيبات من الأخبار. وفي قراءة: (بِظُنِينَ) أي: بمتهم من الظُّنة بالكسر، بمعنى التهمة، فالله تعالى بهذا المعنى ينفي اتهامَ الكفرة له عليه الصلاة والسلام.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥)﴾ .

أي: ما هو بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع التي تُرجم وتُرمى

بالشهب، وهو نفى لقولهم عن النبي ﷺ: إِنَّهُ كَاهِنٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٦) وَمَا يَبْغَى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (٢٦).

أي: فأين تعدلون عن القرآن، وفيه الهدى والرشاد؟!
أو: أي طريق تسلكون أوضح من هذا الطريق؟! فهو استضلال لهم في إعراضهم عن دعوته عليه الصلاة والسلام، كما يقال لتارك الجادة، الضارب في الأرض على غير هدى وبصيرة: أين تذهب؟!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٢٧).

أي: وما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، فرسالته عليه الصلاة والسلام عامة شاملة، تدل على أنه أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأياً.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨).

أي: لمن شاء منكم أن يسير على طريق الحق والهدى، فيقوم نفسه ويهذبها، ويخلصها من دنس الجاهلية وآثامها.
ومع أن طريق الاستقامة واضح فلا غنى لكم عن هدايته تعالى وتوفيقه:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٩).

أسأله تعالى الهداية والثبات على الصراط المستقيم.



تفسير سورة الانفطار الْعُرُوزُ وَالْفُجُورُ فِي سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انَّتَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا لَلْثَّكُذُوبُونَ بِالَّذِينَ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَبِيرِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَنْزَارَ لَنِي بَعِيرٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَارَ لَنِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِعَائِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩)﴾.

بدأ الله تعالى سورة الانفطار كما بدأ سورة التكوين فقال:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١)﴾.

أي: انشقت، فهو كقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِرَتْ﴾ [المرسلات: ٩].

فالله تعالى يشقها بقدرته ويزيلها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ۝٢﴾

أي: انقضت وتساقطت متناثرة، وزالت عن أفلاكها.
وهذا يدلُّ على حدوث خلل واضطراب في النظم الكونية الدنيوية.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ۝٣﴾

أي: فتح بعضها على بعض، فصارت بحراً واحداً، واختلط العذب بالمالح.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ۝٤﴾

أي: قلب ترابها، وبعث موتاها. وجواب (إذا) الشرطية:

﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

أي: علمت كل نفس ما قدمت من عمل عملته، وما أخرت منه ولم تعمله،
كما في قوله تعالى: ﴿يَبْنُؤُا الْإِنْسَنُ يَوْمِيذٍ مَّآ قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [الواقعة: ١٣].
وبعد أن قررت الآيات بعض ما يقع في يوم الحساب، وجهت خطابها إلى
الإنسان المكذِّب به بأسلوب الاستفهام على الإنكار والتعجيب:

﴿يَتَأَيَّأُ الْإِنْسَنُ مَّا غَرَّكَ رَبُّكَ اَلْكَرِيْمُ ۝٦﴾

أي: أي شيء خدعك وجرأك على إنكار وتكذيب ما أخبر عنه ربك
الكريم، فكرمه يستوجب شكره وطاعته، لا كفره وتكذيبه.

والغرور: سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وسببه الانهماك في شهوات
الدنيا، والاستجابة لوساوس الشيطان، وهو ما حذرنا الله منه بقوله: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ
إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرِزُكُمْ اَلْحَيَوَةُ اَلْذُنُكَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ اَلْغُرُورُ ۝٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذُّبٌ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر].

ومن إنعامه تعالى وإحسانه وكرمه:

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (٧)

أي: الذي أخرجك من العدم إلى الوجود، فجعلك سوياً كامل الأعضاء، وصرفك عن الهيئة والخلقة المكروهة.

فالتسوية: جعل الأعضاء سوية سليمة معدة لمنافعها.

وفي قراءة: (فعدلك) بالتشديد، أي: فجعلك معتدل القامة منتصباً.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٨)

أي: إن شاء صورك في صورة قبيحة كصورة قرد أو خنزير، فهو سبحانه قادر على تصوير الإنسان في أي صورة، فهو الفاعل لما يريد.

فما أعظم فضله على الإنسان! وما أعظم جحود المكذبين بيوم الحساب والجزاء! وهو السبب الأصلي لغرورهم، ولهذا أكدته تعالى بأسلوب الإضراب والانتقال فقال:

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ (٩)

والمراد من التكذيب بالدين التكذيب بيوم الحساب والجزاء، فإنَّ انسلاخ الإنسان عن الشعور بالمسؤولية والجزاء يوقعه بالغرور، ويدفعه إلى الفجور.

وفي قراءة: (يكذبون) بالياء.

وهذا الغرور والفجور مسجل عليهم:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (١٠)

أي: رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ويكتبونها.

﴿كَرَامًا كَثِيرًا ۝١١﴾ .

أي: كراماً على الله تعالى يكتبون جميع أقوالكم وأفعالكم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا نَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ .

فلا يخفى عليهم شيء من أعمالكم.

ولا شك أنَّ في تعظيم الكُتَّاب والثناء عليهم تعظيماً لأمر الحساب والجزاء، فهو يربِّي نفس الإنسان ويهذبها، ويجعلها تستشعر الرقابة الدائمة عليها، فضلاً عن رقابته تعالى، فَثَمَّة مخلوقات كريمة عليه تلازم الإنسان، وتحصي أقواله وأفعاله، وتسجلها عليه، وتظهر نتيجة ذلك يوم الدين.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾

في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ أَقْبَرُوا لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾ .

في جهنم. وفي تنكير النعيم والجحيم ما لا يخفى من التفخيم والتهويل.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ۝١٥﴾ .

أي: يقاسون حرَّها يوم الجزاء الذي كذبوا به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦﴾ .

أي: وما هم بخارجين منها، فهم ماكثون فيها أبداً.

ثم عَظِّمَت الآيات يوم الدين:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ .

وهو تفخيم بعد تفخيم ، وتعظيم بعد تعظيم ، فأمره أمر عظيم هائل .

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴿١٩﴾ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي : لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي : والأمر في هذا اليوم لله وحده ، لا ينازعه فيه أحد ، فلا سلطان لأحد على أحد في يوم الدين كما كان الحال في الدنيا ، فالسلطان كله لله تعالى ، كما في قوله : ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزَوْنُ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] .



تفسير سورة المطففين دِيَوَانُ السَّرِّ وَالْخَيْرِ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
القيام لرب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾.

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ (١)﴾.

الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن، مأخوذ من الطفيف وهو القليل، فلا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)﴾.

أي: الذين إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافية تامة.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾.

أي: وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون الكيل والوزن.

ويبدو أنَّ المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل، لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، لأنَّهم يدَّعون ويحتالون في الملء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين.

وهذا الوعيد يلحق من يأخذ لنفسه زائداً، ويدفع إلى غيره ناقصاً، ويتناول الوعيد القليل والكثير، وهذا إذا لم يتب منه، فإن تاب منه وردَّ الحقوق إلى أهلها قُبِلت توبته، ومن فعل ذلك، وأصرَّ عليه كان مصرّاً على كبيرة من الكبائر^(١).

ولهذا أنكرت الآيات عليهم، وعَجَبت من اجترائهم على التطفيف:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾﴾

هو يوم القيامة، فإنَّ مَنْ ظَنَّ ذلك لم يتجاسر على هذه الكبائر، فكيف بمن يتقنه. وقد اهتمت الآيات بأمر الكيل والوزن، لأنَّ عامة الخلق محتاجون إليه، وأمر تعالى بالوفاء فيهما في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْقَمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

وأهلك الله تعالى أمة هم أمة شُعَيْب بسبب كفرهم وتلاعبهم بالكيل والوزن.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾

أي: يوم يقوم الناس من قبورهم لأمره تعالى وجزائه وحسابه، حُفَاةُ عُرَاة. وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنِهِ [رواه البخاري (٤٩٣٨)].

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُذَنَّى الشمس يومَ القيامةِ من الخلقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى

قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبه، ومنهم من يكون إلى ركبته، ومنهم من يكون إلى حقيقه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. [رواه مسلم (٢٨٦٤)].

* * *

الفجار في سجين

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَلَهُ يَوْمَئِذٍ الْمَكَدِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا ثُلَّى عَلَيْهِ ءِيشُنَا قَالَ أَسْطِغِرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِينَ كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾﴾ .

أي: حقاً إن مصير الفجار ومأواهم لفي سجين، وهو المكان الضيق من السجن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضيقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].
أو: إن صحائف أعمالهم لفي سجين، وهو كتاب جامع، هو ديوان الشر، دون الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس^(١).
وعظم سبحانه أمر هذا الكتاب وهوله بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ .

أي: مكتوب فيه أعمالهم كالرقم في الثوب، فلا ينسى ولا يُمحى.
أو: مكتوب عليهم أن مصيرهم إلى سجين.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾

إذا صاروا يوم القيامة إلى السجن والعذاب الأليم.

﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾﴾

أي: لا يصدّقون بوقوعه، ويكذبون بالحساب والجزاء.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾

أي: إلا كل متجاوز عن نهج الحق، مبالغ في الآثام والمعاصي.

﴿إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءِابْنُنَا قَالَ أَسْطِطُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي: أكاذيب الأولين.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ وهو زجر وردع عن هذا القول.

﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بل غلب على قلوبهم وغطاها ما كانوا

يكسبون من المعاصي والآثام.

فللمعاصي آثار سلبية قبيحة على النفس والقلب، فالذنوب تسود القلب وتقسيه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وفي الحديث: عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةُ سَوْدَاءٍ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكْتَةُ بَيضَاءٍ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصِّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ

مِرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا (منكوساً) لا يعرفُ معروفًا، ولا ينكرُ منكرًا، إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه مسلم (١٤٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةً سَوْدَاءً، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ عَلَى قَلْبِهِ، وَهُوَ الرِّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [رواه الترمذي (٣٣٣٤) وقال: حسن صحيح].
وفي قراءة: (بل ران) بكسر الراء وإمالتها.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾

أي: حقاً إن هؤلاء المكذبين بيوم القيامة عن ربهم لمحجوبون.
ففي الآية دليلٌ على ثبوت رؤية الله يوم القيامة، قال مالك بن أنس في هذه الآية: لَمَّا حَجَبَ أَعْدَاءَهُ فَلَمْ يَرَوْهُ تَجَلَّى لِأَوْلِيَائِهِ حَتَّى رَأَوْهُ.
وقال الشافعي: لَمَّا حَجَبَ قَوْمًا بِالسُّخْطِ دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْمًا يَرُونَهُ بِالرِّضَا^(١).
وقيل: إِنَّهُمْ عَنْ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ لَمَحْجُوبُونَ وَمَمْنُوعُونَ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، لِأَنَّ الرُّؤْيَا أَقْوَى الْكِرَامَاتِ، وَالْحَجْبُ عَنْهَا دَلِيلُ الْحَجْبِ عَنْ غَيْرِهَا^(٢).

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾

أي: داخلون فيها، ويقاسون حرَّها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

أي: ثم يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: هذا الذي كنتم به تكذبون في الدنيا.

(١) تفسير القرطبي: ٢٦١/١٩.

(٢) تفسير النسفي: ٤٦٤/٦.

الأبرار في عليين

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُ الْمَقَرُّونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَرَوْنَهُمْ فِي رُجُوعِهِمْ نَضرةَ الْعَيْمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ ﴿٢٥﴾ خَمْرًا مَسْكُومًا فِي ذَلِكَ فَتَنًا فَيَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرَامُهُمْ شَسِيمٌ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ مِنَ الْمَقَرُّونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الْأَوَّلَ لَنُحْمًا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَصُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَفِيفِينَ ﴿٣٣﴾ قَالِيمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تَرَى الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ ﴿١٨﴾﴾

أي: حقاً إن مصير الأبرار ومأواهم لفي عليين، وهي مراتب عالية محفوظة بالجلالة والشرف.

أو: إن صحائف أعمالهم لفي عليين، وهو علّم لديوان الخير، الذي تدوّن فيه أعمال الصالحين، عظمه الله وأثنى عليه بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾

أي: مكتوب فيه أعمالهم، أو مكتوب عليهم أن مصيرهم إلى هذه المراتب العالية الشريفة.

﴿يَشْهَدُ الْمَقَرُّونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: تحضره الملائكة المقربون أو يحفظونه ويشهدون على ما فيه يوم القيامة، وإذا كان هذا حال كتابهم، فكيف تكون أحوالهم في النعيم؟!.

﴿إِنَّ الْأَثَرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَاكِكَ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

أي: ينظرون إلى ما أعد الله لهم من نعيم الجنة، أو ينظرون إلى ربهم سبحانه.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ .

أي: بهجة التنعم وحسنه وطراوته.

وفي قراءة: (تُعْرِفُ) بضم التاء وفتح الراء، (نضرة) بالرفع نائب فاعل.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ .

أي: يسقون من شراب خالص مختوم لم تمسه الأيدي.

﴿خَتَمُهُمْ مِنْهُ مِسْكٌ ﴿٢٦﴾ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿خَتَمُهُمْ مِنْهُ مِسْكٌ﴾ أي: مختومة أوانيه بالمسك، أو عاقبة شربه مسك.

وفي قراءة: (خاتمه).

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله

واستباق الخيرات، والانتهاز عن السيئات، فالتنافس في الطاعات أمرٌ محمود، بينما هو مذمومٌ في جمع حطام الدنيا.

﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: ومزاجُ الرحيق من تسنيم، مصدر سنمه إذا رفعه، فهي أرفع شراب في

الجنة.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: يشرب منها المقربون صرفاً، وتمزج لغيرهم.

وانتصاب (عيناً) على المدح، أو الحال من (تسليم).
ثم ذكرت الآيات بعض قبائح المشركين كتعليل لوعيدهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: يستهزئون بهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أي: وإذا مرَّ المؤمنون بالذين أجمروا يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم استهزاءً بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾

وإذا رجعوا إلى أهلهم رجعوا ملتذين باستخفافهم بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: إنَّ المؤمنين لضالون، وهذا يدل على وقاحتهم.

﴿وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾

موكّلين بهم يحفظون عليهم أعمالهم، ويشهدون برشدكم وضلالهم.

﴿قَالِیَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

حين يرونهم أذلاء مهانين معذيين.

﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: والمؤمنون في الجنة يتنعمون، وينظرون إلى الكفار وهم يعذبون.

وتساءلت الآيات في آخر السورة بأسلوب الاستفهام التقريري:

﴿هَلْ تُؤْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

أي: هل جُوزي الكُفَّار بسخريتهم من المؤمنين في الدنيا؟! .
لا شك أنهم جُوزوا أوفر الجزاء وأعدله بميزان العدل الإلهي الذي
لا يبخس أحداً شيئاً، والذي لا تطفيف فيه .



تفسير سورة الانشقاق انقياد واستسلام في سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوَفِّي كِتَابَهُ
بِإِيمَانِهِ (٧) فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَقْلُبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوَفِّي كِتَابَهُ وَرَاءَ
ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ
يَحُورَ (١٤) بَلَى إِنْ رَأَيْتَهُ كَانَ بِهِ نَصِيرًا (١٥) فَلَا أَقْسِمُ بِالسَّفْقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقِ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا
اتَّسَقَ (١٨) لَتَرَكِبُنَّ طَبَقًا عَاطِقًا (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ
﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (٢١) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٢) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٣) إِلَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٤﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الانشقاق بقوله :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ .

لهول يوم القيامة .

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾

أي: سمعتُ لربها وانقادت لأمره، وهي حقيقة وجديرة بالانقياد، فقدرته تعالى لا يستعصي عليها أمرٌ من الأمور، فهو العظيم الذي قهر كل شيء، وذلَّ له كلُّ شيء، عَلَّاهُ، فالاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة والاستسلام.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ﴾

أي: بُسطت فأزيلت جبالها، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ ﴿١٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۖ ﴿١٧﴾﴾ [طه].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ﴾

أي: وألقت ما فيها من الأموات حتى صارت خالية غاية الخلو، فلم يبق فيها شيء.

﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾

أي: وسمعت لربها وخضعت لأمره، وهي جديرة بهذا الخضوع والاستسلام. وجوابُ (إذا) محذوف دل عليه سياق الآيات. ثم وجهت الآيات الخطاب للإنسان تبين له حقيقة الحياة وطبيعتها وشدة الأحوال التي يتقلب فيها وأنه ما خُلِقَ فيها عبثًا:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّئْهُ ۖ﴾

أي: يا ابن آدم إنك عامل ناصب تلقى ربَّك بعملك، وهو أمرٌ حتم لا مناص منه، وما دام الأمر كذلك فاجعل عملك في عبادته تعالى وطاعته، فإنَّك مسؤول عنه ومحاسب عليه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ .

أي: لا مناقشة فيه، فإن من نوقش الحساب عُذِبَ كما في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَنَاقِشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عُذِبَ» [رواه البخاري (٦٥٣٧)].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ .

أي: ويرجع إلى أهله في الجنة مسروراً.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: من وراء ظهره.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُثُورًا ﴿١١﴾﴾ .

أي: فسوف يتمنى الهلاك.

﴿وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ .

ويقاسي حرَّ جهنم. وفي قراءة: (وَيُصَلَّى) بضم الياء. ثم بينت الآيات بأسلوب الاستئناف سبب هذا الهلاك والعذاب:

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ .

أي: إنه كان في الدنيا مع أهله بطراً فَرِحاً لا يفكر في أمر الآخرة.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (١٤).

أي: ظَنَّ أنه لن يرجع إلى الله تعالى، ولن يُسأل ويُحاسَب، يقال: حار يحور إذا رجع، ومنه الحديث: «اللهم إني أعوذُ بك من الحَوَرِ بَعْدَ الكَوَرِ» [رواه مسلم (١٣٤٣)] أي: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

﴿بَلَى إِنْ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (١٥).

﴿بَلَى﴾ أي: ليس الأمر كما ظنَّ، بل يحورُ إلينا ويرجع.
﴿إِنْ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ عالمًا به وبأعماله، فلا بدَّ أن يُرجعه ويجازيه عليها.

﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْشفَقِ﴾ (١٦).

أي: أقسم بالشفق، وهو الحمرة التي تُرى بالأفق بعد الغروب، أو البياض الذي يليها، وبغياض الشفق يخرج وقتُ صلاةِ المغرب، ويدخلُ وقتُ العشاء.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧).

أي: وما جَمع وضمَّ، فالليل يجمع ويضم ما كان منتشرًا في النهار، فهو قَسَمٌ بجميع المخلوقات لاشتمال الليل عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ [الحاقة].

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨).

أي: إذا اجتمع وتَمَّ بدرًا. وجواب القسم:

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩).

أي: لتركبنَّ أيها الناس حالاً بعد حال، كما في الحديث الشريف: عن ابن

عباس عليه السلام: «الترْكِبُنَّ طبقاً عن طبق حالاً بعد حال» قال هذا نبيكم ﷺ. [رواه البخاري (٤٩٤٠)].

فكل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول.

وفي قراءة: (الترْكِبُنَّ) بفتح الباء.

ويخوِّزُ أن يكون جمع طبقة، وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقات؛ أي: لتركبن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فهو يكابد شدائد بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأحوالها، وقد يكون المراد أحوال الدنيا والآخرة من النطفة إلى الموت ومنه إلى البعث والحساب والجزاء.

وإذا كانت أحوالهم في تغير دائم مستمر:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

بقدرته على بعثهم وحسابهم.. فالذي جعلهم يركبون طبقاً عن طبق قادرٌ على بعثهم للحساب والجزاء.

وهو استفهام إنكارٍ وتعجيبٍ من عنادهم وإعراضهم، فالمخلوقات كلها تُذعنُ لله تعالى، وتستسلمُ لأمره الشرعي إلا الإنسان الكافر الجاحد المعاند.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾

أي: لا يخضعون لله ولا يذعنون لأحكام دينه وشرعه.

وهي من آيات سجود التلاوة، واحتج بها أبو حنيفة رحمته الله على وجوبه، فمثل هذا الوعيد لا يكون إلا على ترك واجب.

وفي الحديث: عن أبي سلمة قال: رأيتُ أبا هريرة رضي الله عنه قرأ: ﴿إِذَا أَلْمَأَزَّ

أَنْشَقَّتْ ﴿ فَسَجَدَ بِهَا ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا هَرِيرَةَ أَلَمْ أُرْكَ تَسْجُدَ ؟ قَالَ : لَوْ لَمْ أَرَ النَّبِيَّ ﷺ يَسْجُدُ لَمْ أَسْجُد . [رواه البخاري (١٠٧٤)] .

ثم بينت الآيات سبب عنادهم وجحودهم :

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي : يكذبون النبي ﷺ حسداً واستكباراً .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي : بما يُضمرون في صدورهم من الحقد والحسد .

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾

على عنادهم واستكبارهم .

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾

أي : غير مقطوع أو غير منقوص .



تفسير سورة البروج تَأْنِيسٌ وَتَنْبِيْهُ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ الْأُحْدُودِ ٤﴾ النَّارِ
ذَاتِ الْوُقُودِ ٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ
يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَبَعِيدٌ ١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ
١٦﴾ هَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ
مُحِيطٌ ٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ٢٢﴾

بدأ الله تعالى سورة البروج بقوله :

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾ .

وهو قَسَمَ بالسماء ذات النجوم العظام المرتفعة، سُمِّيت بروجاً لارتفاعها وظهورها، قال تعالى : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨].

أو هي منازلُ الشمسِ والقمرِ الاثنا عشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر].

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾

هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

وهما: يوم الجمعة، ويوم عرفة.

أقسم الله بهذه الأيام تنوياً بفضلها، وإظهاراً لشرفها على سائر الأيام. وجواب القسم:

﴿قُلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾

أي: لقد لعن أصحاب الأخدود، وهو الشق المستطيل في الأرض، جمعه أخاديد.

وقد فصل النبي ﷺ خبرهم، ففي الحديث الشريف: عن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«كَانَ مَلِكٌ فِي مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أَعْلَمَهُ السَّحَرَ.

فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه، وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مراً بالراهب، وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟! فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر

الراهبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ. فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيُّ بَنِي أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتَلَيْتَ فَلَا تَدَلَّ عَلَيَّ.

وَكَانَ الْغَلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ، وَيَدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهِدَايَا كَثِيرَةً فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ، فَأَمَّنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ.

فَأَتَى الْمَلِكَ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ. فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَعْذِبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغَلَامِ، فَجِئَءَ بِالْغَلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيُّ بَنِي قَدْ بَلَغَ مِنْ سَحْرِكَ مَا تَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ. فَأَخَذَهُ، فَلَمْ يَزَلْ يَعْذِبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِئَءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى. فَدَعَا بِالْمَنْشَارِ، فَوَضَعَ الْمَنْشَارُ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّه، حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤه. ثُمَّ جِئَءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوَضَعَ الْمَنْشَارُ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّه بِهِ حَتَّى وَقَعَ شَقَاهُ.

ثُمَّ جِئَءَ بِالْغَلَامِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ. فَذْهَبُوا بِهِ، فَصَعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَجَفَّ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قَرْقُورٍ (سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ) فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذْهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَاَنْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ، فَغَرَقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ.

فقال للملك: إِنَّكَ لست بقاتلي حتى تفعلَ ما أمركَ به، قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتصلبُني على جذعٍ، ثم خُذْ سهماً من كنانتِي، ثم ضعِ السهمَ في كبدِ القوسِ، ثم قل: بسم الله رب الغلام. ثم ارمني، فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ قتلتنِي.

فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جذعٍ، ثم أخذَ سهماً من كنانته، ثم وضعِ السهمَ في كبدِ القوسِ، ثم قال: بسم الله ربَّ الغلام، ثم رماه، فوقع السهمُ في صدْغِهِ، فوضَعَ يده في صدغه في موضعِ السهم، فمات. فقال الناس: آمناً برَبِّ الغلام، آمناً برَبِّ الغلام، آمناً برَبِّ الغلام، فأُتي الملكُ فقبل له: أَرَأَيْتَ ما كُنْتَ تحذِرُ؟ قد والله نزلَ بك حذرُكَ، قد آمنَ الناسُ.

فأمر بالأخدودِ في أفواهِ السِّكِّكِ فَحُدَّتْ، وأضرَمَ النيرانَ، وقال: مَنْ لَمْ يرجعْ عن دينه فاحموه فيها (أي: أقمحوه فيها) ففعلوا! حتى جاءتِ امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها فتقاعستُ أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أماء! اصبري، فَإِنَّكَ على الحقِّ [رواه مسلم (٣٠٠٥)].

وعظمت الآياتُ أمرَ تلك النارِ:

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾.

أي: ذاتِ الوقودِ من الحطبِ وأبدانِ الناسِ، وهي بدلِ اشتمالِ من الأخدودِ.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾.

أي: إذ هم قاعدونَ حولها حين أحرَقوا المؤمنينَ بها.

﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾.

أي: وهم شاهدون لما يفعلون بالمؤمنين، وهذا يدل على غِلظتهم وقسوتهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ .

أي: وما أنكروا منهم، وما عابوا عليهم إلا أن يؤمنوا بالله الغالب الذي يخشى عذابه، المحمود في كل حال، الذي يُرجى ثوابه، فالاستثناء يدل على براءتهم عما يُعاب وينكر بالكُلِّيَّة.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ .

فهو الذي يستحق أن يُرجى ثوابه، ويُخشى عذابه .
ففيه وعيدٌ عظيم للكافرين ووعد للمؤمنين .

قال علماؤنا: أعلم الله ﷻ المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه مَنْ وَحَدَّ الله قبلهم من الشدائد، يُؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام، ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق، وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته. وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي: إن الذين عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات، ثم لم يرجعوا عن كفرهم وإجرامهم .
﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي: فلهم عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين، فالجزاء من جنس العمل .
وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

وفي مقابل ما أعدَّ الله تعالى لأعدائه من الحريق بيِّن ما أعد لأوليائه من النعيم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝﴾

وهو النجاة من الشر والظفر بالخير.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝﴾

أي: إن بطشه وانتقامه من الظلمة والجبابة لشديد قوي كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].
خوَّطب النبي ﷺ بهذا الوعيد إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً كبيراً من بطشه وانتقامه، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].
وممَّا يدل على شدة بطشه وانتقامه:

﴿إِنَّهُ هُوَ يُدْئِي وَيُعِيدُ ۝﴾

أي: يُبدئ الخلق ثم يعيده بلا مُمانع ولا مُدافع.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ۝﴾

أي: وهو الساترُ للعيوب، الغفارُ للذنوب، المتودد إلى أوليائه بالمغفرة.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝﴾

أي: العظيم في ذاته ﷻ وصفاته وأفعاله، فمالك العرش وخالقه، وهو أعظم المخلوقات، عظيم في ذاته وصفاته وأفعاله ﷻ.
وفي قراءة: (المجيد) بالكسر صفة للعرش.
وكيف لا يكون عظيماً في ذاته وصفاته وأفعاله وهو:

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٦).

لا يمتنع عليه شيء يريد، ويؤكد ذلك ما فعله في طواغيت الأمم السالفة.

﴿هَلْ أَنتَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (١٧).

أي: خبر الجموع الكافرة الذين كذبوا الأنبياء، وعارضوا دعوتهم، وما أنزل الله بهم من العذاب الذي لم يردّه عنهم أحد.

﴿فِرْعَوْنٌ وَثَمُودَ﴾ (١٨).

وأمثالهم من الطواغيت والظلمة.
ومع ذلك لا يزال الذين كفروا من قومك في تكذيب:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (١٩).

أي: بل هم أشد منهم في الكفر والطغيان، فإنهم مغمورون في تكذيب القرآن الكريم، وهم أولى منهم في استحقاق العذاب، فقد سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٢٠).

فهو عالم بهم، وقادر عليهم، فهم لا يفوتونه، ولا يعجزونه سبحانه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (٢١).

وهو رد لكفرهم، وإبطال لتكذيبهم، فالقرآن كتاب شريف فريد في نظمه ومعانيه، لا يحق تكذيبه والكفر به.

﴿فِي لَوْجٍ مَّحْفُوظٍ﴾

لا تصل إليه الشياطين، أو محفوظ في الملاء الأعلى، فلا تلحقه زيادة أو نقصان، ولا تحريف ولا تبديل. وفي قراءة: (محفوظ) بالرفع نعتاً للقرآن.



تفسير سورة الطارق

الْقَوْلُ الْفَصْلُ فِي سُورَةِ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾ ١
 ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝﴾ ٢
 ﴿فَلْيَنْظُرِ ۝ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝﴾ ٣
 ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝﴾ ٤
 ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝﴾ ٥
 ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّالِعِ ۝﴾ ٦
 ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۝ وَمَا هُوَ بِالْمَهِلِ ۝﴾ ٧
 ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝﴾ ٨
 ﴿فَهِلَ الْكَاذِبِينَ ۝ أَنَّهُمْ رُوِيَ﴾ ٩

بدأ الله تعالى سورة الطارق بقوله :

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾ .

أقسم الله تعالى بالسماء وبالطارق ، وهو نجم بيّنه بقوله :

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝﴾ .

أي : المضيء الذي يثقب الظلام بضوئه ، سُمّي طارقاً لأنه يظهر ليلاً .

وجواب القسم :

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ .

أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ يحفظ عملها، ويحصي ما تكسب من خير أو شر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝٦﴾ كَرَامًا كَثِيرِينَ [الانفطار].
أو: يحفظها من الآفات، وفي قراءة: (لَمَّا) بالتخفيف، فتكون (إن) مخففة من الثقيلة، أي: إن كل نفس لعلها حافظ يحفظها.
ولما بين سبحانه للإنسان أنَّ عليه رقيباً من الله حثه على النظر والتدبر، لكي يعرف أنه مسؤول عن عمله، وأنه تعالى ما خلقه عبثاً ولا سدى:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾

أي: فلينظر الإنسان نظراً تفكراً واعتبار من أي شيء خلقه ربه.

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ .

أي: مدفوق مصبوب في الرحم.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ .

أي: يخرج من بين صُلب الرجل وترائبه، ومن بين صُلب المرأة وترائبها.
والصلب: العمود الفقري في الظهر، والترائب: أضلاع الصدر.
ومن الثابت علمياً: أنَّ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة يتكونا عند التخلُّق في هذه المنطقة، ثم تنزل الخصية تدريجياً حتى تستقرَّ في كيس الصفن خارجَ الجسم في أواخر الشهر السابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة. ومع هذا فإنَّ تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب تبقى من حيث أصلها من بين الصلب والترائب^(١).

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ١١٦.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ .

أي: إِنَّ الله الذي قَدِرَ على خلق الإنسان ابتداءً قَادِرٌ على بعثه بعد الموت .
أو: إن الله قادر على رد الماء إلى مقره الذي خرج منه من بين الصلب والترائب .
والمعنى الأول أظهر؛ لقوله بعد ذلك :

﴿يَوْمَ يُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ .

أي: يوم تكشف وتظهر خفايا القلوب والضمائر وأسرارها، وهو يوم القيامة، وأصل الابتلاء: الاختبار .

﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: فما للإنسان في ذلك اليوم من قوة في نفسه ولا ناصر من غيره .
ثم أقسم الله مرة ثانية :

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ .

أي: ذات المطر، سُمِّيَ به لأنه يجيء ويرجع ويتكرر .
وفيها إشارة إلى ما يسمَّى بدورة المياه في الطبيعة، فمياه الأمطار تعود بواسطة التبخر والرياح إلى السماء لتنزل مرة ثانية على الأرض بمشيئته تعالى وقدرته .

﴿وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّنْعِ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: تتصدع وتنشق عن النبات والشجر . وجواب القسم :

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾﴾ .

أي: إِنَّ القرآن فاصل بين الحق والباطل فهو الفرقان بينهما .

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ (١٤).

أي: باللعب والباطل، فكله جد محض، فمن حقه أن يُهتدى به، وأن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، وإن كل محاولة لإطفاء نوره وإبطاله فاشلة خاسرة.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥).

أي: إن الكافرين يحتالون ويعملون المكائد لإبطال أمره وإطفاء نوره، كما في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَاللَّهُ مُمِيتُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦).

أي: وأبطل كيدهم، وأجازيهم عليه، فلن يستطيع أعداء الإسلام مهما بلغ كيدهم ومكرهم أن يبطلوا رسالة الإسلام.

﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوءِيًا﴾ (١٧).

أي: فمهْل الكافرين المستهزئين، لا تشتغل بالانتقام منهم، ولا تستعجل هلاكهم، أمهلهم إمهالاً يسيراً.

ويُلحظ في التعبير الإيناس الإلهي للرسول ﷺ، كأنه هو صاحب الأمر وصاحب الإذن، وكأنه هو الذي يأذن بإمهالهم... فهو الود العطوف والإيناس اللطيف يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد^(١).



تفسير سورة الأعلى التَّسْبِيحُ وَالتَّذْكِيرُ فِي سُورَةِ الْأَعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيِّسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْتَارُ (١٠) وَبَنَيْنَا الْإِنشِقَى (١١) الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) .

بدأ الله تعالى سورة الأعلى مخاطباً النبي ﷺ بقوله :

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) .

أي : نزهة ربك عما لا يليق بكماله وجلاله وعظمته .

أو : نزهة اسمه تعالى ، وصنؤه عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به ، واذكره على وجه الخشوع والتعظيم ، فكما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته عن النقائص ، يجب تنزيه الألفاظ الموضوعية لذلك عن النقائص أيضاً ، قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[الأعراف: ١٨٠].

ولهذا سَنَّ النبي ﷺ للمصلي وهو في أعلى حالات الخشوع والتعظيم، في ركوعه وسجوده، أن يقول: سبحان ربي العظيم، سبحان ربي الأعلى.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾

أي: الذي خلق كل شيء فأحكمه وأتقنه وبلغه غاية كماله المناسب له.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾

أي: والذي جعل الأشياء على مقادير مخصوصة في أجناسها وأنواعها وأفرادها وصفاتها، فوجه كل واحد منها إلى ما يناسبه في حياته ومعاشه كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُنْمِسُ﴾ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿[طه]. وفي قراءة: (قَدَّرَ) بالتخفيف من القدرة على جميع الأشياء.

وأقرب مثال على كمال قدرته وحكمته:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾

أي: أنبت ما ترعاه الدواب غضاً رطباً.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾

فجعله بعد ذلك يابساً ضارباً إلى السواد، ومع ذلك فهو لا يزال كما خلقه تعالى مرعًى، فهو مرعًى عندما كان غضاً طرياً ندياً، ومرعًى بعد أن أصبح غثاءً أحوى. وبعد أن أمرت الآيات النبي ﷺ بالتسبيح، حملت له بشارتين عظيمتين من الله، تدلان على عنايته تعالى به، ومكانته العالية الرفيعة عنده:

البشارة الأولى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ۚ﴾

أي: سنقرأ عليك آيات القرآن الكريم على لسان جبريل فلا تنسى. وهذا بشارة من الله لنبيه ﷺ أن يحفظ عليه الوحي حتى لا ينفلت منه شيء^(١)، وهو كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) إِذَا قَرَأَهُ فَأَلَّعَ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿ [القيامة].

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۚ﴾

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا ما شاء الله نسيانه بأن تُنسخ تلاوته. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ ومن جملة ما يعلم سبحانه حرصك على حفظ ما يُوحى إليك. والبشارة الثانية:

﴿وَنُنَبِّئُكَ لِلْغَيْبِ﴾

أي: ونشرع لك شريعةً سمحةً ميسرة لا حرج فيها ولا عسر، فالإسلام دين يسر، وشريعته شريعة سمحة لا عسر فيها، وكان ﷺ يقول: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفَةُ السَّمْحَةُ» [رواه أحمد (٢١٠٧) والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) وإسناده صحيح لغيره، كما قال في الفتح (٩٤/١)].

أو: نوفقك توفيقاً حسناً مستمراً للطريقة اليسرى في كل باب من أبواب الدين، ويندرج فيه تيسير تلقي الوحي وتبليغه.

أو: نوفقك للأمور الحسنة في الدنيا والآخرة من النصر وعلو المنزلة في الدنيا، والرفعة في الجنة.

وما دام الأمر كذلك :

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (٩)

أي: فذكر حيث تنفع التذكرة.

قال ابن كثير في تفسير الآية: ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله.

ففي الآية توجية لطيف للنبي ﷺ حتى لا يبالغ في تذكير المعاندين المبالغين في الكفر، الذين لا يرجى منهم خير، فلا يتعب نفسه في دعوتهم، ولا يعرضها للتلف أسفاً عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله أيضاً: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِيدُ إِلَّا الْآلِیَّةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقوله أيضاً: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿سَيَذَكِّرْكَ مَن يَخْشَىٰ﴾ (١٠)

أي: سيتعظ ويقبل التذكرة من يخشى الله تعالى، فخشيته تهذب النفس، وترقق القلب.

وقد يتذكر مَنْ يرجوه إلا أن تذكر الخاشي أبلغ من تذكر الراجي، فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلق بالخشية والرجاء^(١).

﴿وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ (١١)

أي: أشقى الكفرة لشدة عداوته رسول الله ﷺ كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ (١٢).

وهي نار جهنم، أما الصغرى فهي نار الدنيا.
ففي الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يَوْقُدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءًا مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قالوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّهَا قُضِلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسْتِينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا» [رواه مسلم (٢٨٤٣)].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (١٣).

أي: ثم لا يَمُوتُ فيها فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة تنفعه.
(ثم) للتراخي الرتبي، فالَمُوتُ متراخٍ عن صلي النار في مراتب الشدة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّىٰ﴾ (١٤).

أي: من طهر نفسه من دنس الكفر والمعاصي.
أو: من كان عمله زاكياً خالصاً لله تعالى.
أو: من أدى زكاة الفطر.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ (١٥).

أي: صَلَّى صلاة العيد أو الصلوات الخمس، فذكر الله عند الصلاة أمرٌ محمودٌ مشروع، وهي حجة على وجوب تكبيرة الافتتاح، وأنها من شروط الصلاة لا من أركانها، لأن الصلاة عطف عليها.
ولا يفعل أكثرهم ما يؤدي إلى الفلاح في الآخرة:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦).

وهي فانية زائلة كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [القيامة]. وفي قراءة: (يؤثرون) بالياء.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١٧).

والآخرة خيرٌ في نفسها وأدوم من الدنيا.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨).

أي: إنَّ مضمون هذا الكلام لفي الكتب المتقدمة التي أنزلت قبل القرآن.

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١٩).

كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ (٢١) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٢٧) أَلَّا نَزَّلُ لَزْرَةً وَلِزْرَةً أُخْرَى﴾ [النجم].





تفسير سورة الغاشية مَوْعِظَةٌ وَتَذَكُّرَةٌ فِي سُورَةِ الْغَاسِيَةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْشِيِّ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُشْفَى مِنْ عَيٍّْ ءَايَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَعِيَّةٌ ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَارٌ مِصْفُوعَةٌ ۝١٥ وَذَرَابُثٌ مَثْوَوَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝٢٣ فَعَذَابُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ۝٢٤ إِنَّ إِلَهَنَا إِيَّاهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝٢٦﴾ .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْشِيِّ ۝١﴾ .

أي: قد أتاك حديث يوم القيامة التي تغشى الناس وتعمهم بأهوالها وأفزاعها، فأخباراً يوم القيامة من الغيب الذي لم يعلمه النبي ﷺ حتى أعلمه الله به .

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۝٢﴾ .

أي: ذليلة، والمراد أصحاب الوجوه الذين كذبوا بيوم القيامة .

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢﴾ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿٣﴾﴾.

أي: قد عملتُ عملاً كثيراً تعبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية، فعملها في الدنيا لم يدفع عنها عذاب يوم القيامة، لأنه كان لغير الله تعالى أو غير موافق لأحكام دينه، مثل: عمل الرهبان وأصحاب الصوامع من أهل الكتاب.

روي عن الحسن قال: لما قدم عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه الشام أتاه راهبٌ شيخ كبير متقهّل (متشعث) عليه سواد، فلما رآه عمر بكى، فقيل له: يا أمير المؤمنين ما يبكيك؟ قال: هذا المسكينُ طلبُ أمراً فلم يصبه، ورجا رجاء فأخطأه، وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾^(١).

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» [رواه البخاري (٢٦٦٧)].

قال ابن حجر: «وهذا الحديث معدودٌ من أصول الإسلام وقاعدةٌ من قواعده، فإنَّ معناه: مَنْ اخترَعَ في الدين ما لا يشهدُ له أصلٌ من أصوله، فلا يلتفتُ إليه، فقوله: «ردٌّ» أي: باطل غير معتد به»^(٢).

وينسحبُ قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ على الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحنُ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخويصرة، وهو رجلٌ من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل. فقال: «ويلك ومن يعدلُ إذا لمْ أعدلْ، قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكنْ أعدلُ» فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال: «دعه فإنَّ له أصحاباً يحقِّرُ أحدُكمْ صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن، لا يجاوزُ تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرقُ السهمُ من الرميَّة» [رواه البخاري (٣٦١٠)].

(١) تفسير القرطبي: ٢٧/٢٠.

(٢) فتح الباري: ٣٠٣/٥.

وقد يكون المعنى المراد: أنها تعمل في النار عملاً تتعب فيه كجرّ السلاسل وحمل الأغلال والخوض في النار. وفي قراءة: (تُضَلَّى) بضم التاء.

﴿تُشْفَى مِنْ عَيْنٍ عَيْنَةٍ ٥﴾ .

أي: متناهية في الحرارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. فهذا شرابهم، وأما طعامهم:

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ٦﴾ .

وهو نباتٌ وشوكٌ لاطىء بالأرض، وهو أخبث طعام وأبشعه، وهو سم قاتل إذا يبس لا تقربه دابة.

والعذاب ألوان، والمعدَّبون طبقات، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع، فلا تناقض بين الآيات.

﴿لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ جُوعٍ ٧﴾ .

فلا نفع فيه، إذ المقصود من الطعام أحد الأمرين؛ وهما: دفع الجوع، وإفادة السمن، وهما متنافيان عن الضريع.

وانتقلت الآيات في المقابل إلى وصف أحوال المُنعمين يوم القيامة:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ٨﴾ .

أي: متنعمة ذات بهجة وحسن.

﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ٩﴾ .

أي: لسعيها في الدنيا راضية في الآخرة، لما رأت ثوابه، فهي تستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع، شعور الرضا عن عملها حين ترى رضا الله عنها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ﴾

أي: عالية المحل والقدر.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۖ﴾

أي: لغواً أو كلمة ذات لغو، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۖ﴾ [٢٥] إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة].

وفي قراءة: (لا يُسمع) بياء مضمومة على التذكير، و(لا تُسمع) بالتاء المضمومة على التأنيث.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۖ﴾

أي: عيون كثيرة يجري ماؤها ولا ينقطع، والتذكير للتعظيم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۖ﴾

أي: مرفوعة المكان ليشرف المؤمن الجالس عليها على ما حوله من النعيم.

﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۖ﴾

أي: وأقداح موضوعة بين أيديهم.

﴿وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۖ﴾

أي: ووسائد ومرافق مصفوفة بعضها إلى بعض.

﴿وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ ۖ﴾

أي: وبسط فاخرة مبسوطة ومفرقة في المجالس.

هكذا هيأت الآيات بهذه الموعظة وما فيها من ترهيب وترغيب النفوس والقلوب لقبول الحق والإذعان له، فعادت بها من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا المحسوسة المحيطة بها تذكّرها بكمال قدرة الله تعالى الدالة على وحدانيته:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧).

أي: أفلا ينظرون نظر التفكير والاعتبار إلى الإبل كيف خلقت خلقاً دالاً على كمال قدرة خالقها وحكمته وحسن تدبيره.

﴿وَالِى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨).

رفعاً بعيد المدى دالاً أيضاً على كمال قدرة مبدعها ورافعها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَالِى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩).

أي: وإلى الجبال الشامخة العالية كيف نُصبت على الأرض وأُرسيت.

﴿وَالِى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (٢٠).

أي: بُسطت ومُهّدت.

فمَنْ غَيْرُ اللَّهِ يَخْلُقُ مِثْلَ الْإِبِلِ، ويرفع مثل السماء، وينصب مثل الجبال، ويمهد مثل الأرض؟!.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (٢١).

أي: فذكرهم بالأدلة الدالة على كمال قدرة الخالق ليتفكروا فيها، إنما أنت مذكر، ليس عليك إلا التبليغ، ولا مسؤولية عليك إن لم يتذكروا ويتعظوا.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ (٢٢).

أي: بِمُسَلِّطٍ فَتُكْرِهَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ﴾ [ق: ٤٥].

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٣).

ولكن من تولى منهم وكفر بعد التذكير فَإِنَّ اللَّهَ الْوَلَايَةَ عَلَيْهِ وَالْقَهْرَ.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ (٢٤).

فَاللَّهُ يَعْذِِبُهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ، وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، وَإِنَّمَا قَالَ: (الأكبر) لَأَنَّهُمْ عَذِبُوا فِي الدُّنْيَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ، مِثْلُ: الْجُوعِ وَالْقَحْطِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، فَكَانَتْ النَّارُ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥).

أي: رَجُوعُهُمْ. وَأَفَادَ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ التَّشْدِيدَ بِالْوَعِيدِ، فَإِنَّ إِيَابَهُمْ لَيْسَ إِلَّا إِلَى الْجَبَّارِ الْقَهَّارِ الْمُقْتَدِرِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ. وَفِي قِرَاءَةٍ: (إِيَابَهُمْ) بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٦).

فَنَحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَنَجَازِيهِمْ بِهَا جَزَاءً أَمْثَالَهُمْ. وَ(عَلَى) لِتَأْكِيدِ الْوَعِيدِ لَا لِلْوُجُوبِ، إِذْ لَا يَجِبُ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ. وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِـ (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)، وَ(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) فِي الْعِيدِينَ وَفِي الْجُمُعَةِ. [رواه مسلم (٨٧٨)]. وَلَعَلَّ سِرَّ ذَلِكَ مَا فِيهِمَا مِنْ تَسْبِيحٍ وَمَوْعِظَةٍ وَتَذَكُّرَةٍ.



تفسير سورة الفجر إِهْلَاكَ الطَّغَاةِ وَالْجَبَابِرَةِ فِي سُورَةِ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَالْأَيْلِ إِذَا يَسَّرَ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ وَتُمُودَ الَّذِينَ
جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ١٠ الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبِلَادِ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصِدٍ ١٤ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ
وَنَعَمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦ كَلَّا بَلْ
لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ١٨ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا
لَمًّا ١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ
صَفًّا ٢٢ وَجَاءَ يَوْمِيذٍ يَوْمِيذٍ يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ٢٣ يَقُولُ
يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوْمِيذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ٢٥ وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدًا ٢٦ يَتَأَيَّبُهَا النَّفْسُ
الْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُرْضِيَةً ٢٨ فَأَدْخِلْ فِي عِبْدِي ٢٩ وَأَدْخِلْ جَنِّي ٣٠ .

بدأ الله تعالى سورة الفجر بالأقسام التالية:

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ .

وهو انفجارُ النور في الصباح كقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير: ١٨].
والمراد: جنسُ الفجرِ أو فجر يوم مخصوص هو أولُ ذي الحجة أو يوم

عرفة أو يوم النحر أو الجمعة، وقد يكون المراد صلاة الفجر.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

أي: عشر ذي الحجة، وقد ورد في فضلها: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما العملُ في أيام العشر أفضلَ منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهاد، إلا رجلٌ خرجَ يخاطرُ بنفسه وماله فلم يرجعْ بشيءٍ» [رواه البخاري (٩٦٩)].

أو العشر الأواخر من رمضان، فقد وردَ في فضلها: ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا دخلَ العَشرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ، وأحيا ليلَهُ، وأيقظَ أهله. [رواه البخاري (٢٠٢٤)].

﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾

هو في الأصل العدد، منه شفع، ومنه وتر، وفي المعنى المراد أقوالاً: الأشياء كلها شفعها ووترها، أو الخلق، لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجُلَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

والخالق لأنه فرد، أو شفع الليالي العشر ووترها، أو شفع الصلاة ووترها، أو عشر ذي الحجة وأيام منى الثلاثة، وفي الحديث الشريف: عن عمران بن الحصين رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنِ الشَّفَعِ وَالْوَتْرِ، فَقَالَ: «هِيَ الصَّلَاةُ بَعْضُهَا شَفَعٌ، وَبَعْضُهَا وَتْرٌ» [رواه أحمد (٤٣٧/٤) والترمذي (٣٣٤٢) وفي إسناده راوٍ مبهم].

وأخرج النسائي في الكبرى [١١٦٠٨]: من حديث جابر - رفعه - قال: «العَشرُ عَشرٌ الأضحى، والشَّفَعُ يومُ الأضحى، والوترُ يومُ عرفة». وفي قراءة: (والوتر) بكسر الواو.

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ﴾

أي: إذا يمضي، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَذَّكَّرَ﴾ [المدرثر: ٣٣].

أو: يُسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم، وهو قسم بالليل على العموم، أو قسم بليلة معينة هي ليلة مزدلفة التي يُسرى فيها من عرفات. ثم قررت الآيات فخامة الأشياء المقسم بها، وكونها مستحقة لأن تُعظم بالإقسام بها، للدلالة على تعظيم المقسم عليه وتأكيده، بقوله تعالى:

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۖ﴾

أي: هل فيما أقسمتُ به مَقْنَعٌ لذي عقل، سُمِّي بذلك لأنه يحجر صاحبه عن ما لا ينبغي، كما سمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح. وجواب القسم محذوفٌ لكي يذهب الخيال في تقديره كل مذهب، وتقديره: ليهلكنَّ الله الطغاة والجبابرة، دلَّ عليه قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ﴾

وهم قوم هود الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية. زاد في تعريفهم فقال:

﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ﴾

أي: قبيلة إرم ذات البناء الرفيع، أو ذات الخيام والعمد، أو ذات الأجسام الطوال، أو ذات القوة والثبات، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۖ﴾

أي: مثل عاد في قوتهم وشدتهم.

﴿وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ ۖ﴾

أي: وتمود الذين قطعوا الصخر بوادي القرى، وجعلوا منه بيوتاً لأنفسهم.

فجأبوا: قطعوا، ومنه: فلان يجربُ البلاد أي يقطعها، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾.

أي: ذي الجنود والجيوش التي تشدُّ ملكه.
أو: الذي كان يعذب الناس بالأوتاد تجبراً منه وطمعاً.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾.

أي: تجاوزوا الحد بكفرهم وظلمهم.

﴿فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾.

أي: فنشروا فيها الفساد، فالطغيان يؤدي إلى فساد البلاد والعباد، فهو يفسدُ الضمائر والنفوس، ويجعلها مرتعاً خبيثاً لتحقيق رغبات الطغاة والجبابرة، فلا بدَّ من تطهير الأرض منهم.

ففي الحديث الشريف: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَمْلِي لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِيمٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَكْبَرُ سَبْدٍ﴾ [هود: ١٠٢].
[رواه مسلم (٢٥٨٣)].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

أي: أوقع بهم العذاب على أبلغ الوجوه، إذ الصبُّ يشعرُ بالدوام، والسوط يدل على زيادة الإيلام.

وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآية يقول: إِنَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَسْوَاطاً كَثِيرَةً فَأَخَذَهُمْ بِسَوْطِ مِنْهَا^(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ (١٤)

أي: إنه تعالى يرصد أعمال بني آدم، وهو عالم بما يصدر منهم، فيجازيهم عليها؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم بيّن تعالى أن كثرة المال والجاه الذي يعطيه الله للطغاة والجبابرة ليست دليلاً على كرامتهم، فإنّ الكافر الذي لا يؤمن بيوم الحساب والجزاء هو الذي يرى الكرامة بكثرة المال، والإهانة بقلته:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥)

أي: فأما الإنسان الكافر إذا اختبره ربه بالغنى فأكرمه ونعمه بالجاه والمال، فيقول: ربي فضلني بما أعطاني.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ (١٦)

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيق عليه، وقتر رزقه.

وفي قراءة: (فقدّر) بالتشديد.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ أي: أذلني بالفقر.

ونفى الله كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره، لأنّ كل واحد منهما اختباراً للعبد، أشكر أم يكفر، ويصبر أم يجزع؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وقلته، فهما بتقدير الله وحكمته، فقد يوسّع على الكافر لا لكرامته، ويضيّق على المؤمن لا لهوانه، فالله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، لهوانها وحقارتها، قال تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًّا وَهَنُوًّا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولا يُعطي الآخرة إلا من يحب.

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧).

﴿كَلَّا﴾: أي: ليس الأمر كذلك.

﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ أي: بل هناك شرٌّ من هذا القول، وهو أن الله يوسّع عليهم فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم، وهذا دليل على سقوطهم في الابتلاء.

﴿وَلَا تَخْضَوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (١٨).

أي: ولا يحض بعضكم بعضاً على طعام المسكين.

﴿وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ (١٩).

أي: وتأكلون الميراث أكلًا شديداً، والمراد: أنهم يأكلون نصيبهم ونصيب غيرهم.

﴿وَتُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٢٠).

كثيراً شديداً مع حرص وشهوة.

وفي قراءة: (يكرمون، يحاضون، يأكلون، يحبون) بالياء.

وفي يوم القيامة تظهر نتيجة الابتلاء، ويندم الساقطون فيه ندماً شديداً:

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٢١).

أي: حقاً إذا زلزلت الأرض وحركت تحريكاً شديداً، ودُقَّتْ وكُسرت مرة بعد مرة.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢).

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: لفصل القضاء على الوجه اللائق بجلاله وكماله، من غير

تكيف ولا تشييه. أو: جاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء.

﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: والملائكة يصطفون صفًّا بعد صف.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنذَكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقْنُ لَهُ الذِّكْرُ﴾ (٢٣).

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ لعرض ما فيها من أنواع العذاب.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بجَهَنَّمَ يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» [رواه مسلم (٢٨٤٢)].
﴿يَوْمَئِذٍ يَنذَكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقْنُ لَهُ الذِّكْرُ﴾ أي: يومئذٍ يتعظ الإنسان، ومن أين له منفعة الموعظة، فهي توبة وموعظة غير مقبولة في غير وقتها، أو يتذكر أعماله فيندم عليها.

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢٤).

أي: قدمت الخير والعمل الصالح لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها، فهي الحياة الحقيقية.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ (٢٥).

أي: ليس أحدٌ أشدَّ عذاباً من تعذيب الله من عصاه وكفر به.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ (٢٦).

أي: ليس أحدٌ أشدَّ قبضاً ووثقاً من قبض الله ووثقه للمجرمين.

وفي قراءة: (لا يُعَذِّبُ، ولا يوثق) بالفتح على البناء للمفعول، والمعنى: لا يعذب عذاب هذا الكافر أحدٌ ولا يوثق وثاقه أحد.
هذا مصير الجبابرة والطغاة، وأما مصير المؤمنين الصالحين فدللت عليه الآيات بقوله تعالى لما يقال لكل واحد منهم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾

أي: المطمئنة بذكر الله، والمصدقة بوعدده ووعيده، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

أو: التي تؤمن بقاء الله، وترضى بقضائه، وتقنع بعبائه، فقد أخرج الطبراني وابن عساكر: عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ علمه أن يقول: «اللهم إني أسألك نفساً مطمئنة، تؤمن ببقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعبائك». أو: الخاضعة لأمره تعالى والمصدقة برسالة نبيه، فلا يخالجه فيها شك.

﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾﴾

أي: ارجعي إلى جواره وثوابه، وما أعدَّ لعباده في جنته، راضية عن الله، ورضي الله عنها وأرضاها. يقال لها هذا عند الاحتضار أو في يوم القيامة. وقد يكون المراد: ارجعي إلى صاحبك وجسدك، فهو أمرٌ للأرواح أن ترجع إلى الأجساد عندما يبعثها الله يوم القيامة من القبور.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

أي: ادخلي مع عبادي وفي جملتهم، وادخلي جنتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]. أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.



تفسير سورة البلد

اَفْتَحَامُ الْعَقَبَةِ فِي سُورَةِ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي
كَبَدٍ (٤) أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
(٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) بَيْنَمَا ذَا مَقَرَبَةٍ (١٥) أَوْ
مُسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْأَيْمَنِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بَيْنَهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢٠)

أقسم الله تعالى في أول سورة البلد فقال:

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (١).

وهي مكة المكرمة.

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (٢).

أي: وأنت يا محمد مقيم به، نازل فيه، فكأنه عظم حرمة مكة من أجل أنه
مقيم بها، ففيه إظهار لمزيد فضله، وإشعار بأن شرف المكان بشرف أهله^(١).

أو: مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد، يعني مكة، كما يستحل الصيد في غير الحرم؟! فقد كان رسول الله ﷺ في مكة يكابد من أذى المشركين، ففي الآية تثبت لرسول الله ﷺ وبعث له على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيب من حالهم في عدوانهم^(١).

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

أو: وأنت حل مما صنعت في هذا البلد من قتل أو غيره.

أو: أنت حل بهذا البلد غير محرم في دخوله؛ يعني عام فتح مكة.

قال ابن كثير في تفسيرها: وأنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك. وقال الحسن: أحلها الله له ساعة من نهار.

وقد ورد هذا المعنى في الحديث الشريف: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرم الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعَصَّدُ شوْكُهُ، ولا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يُختلى خلاه» قال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر، فإنه لقينهم وليوتهم. قال: «إلا الإذخر» [رواه البخاري (١٨٣٤)].

واعترض على هذا القول بأن السورة مكية، وأن هذا كان عند فتح مكة في السنة الثامنة بعد الهجرة.

وأجابوا عن هذا الاعتراض بأن المراد من قوله: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ﴾ [الزمر] ومثله واسع في كلام العرب، تقول لمن تعده الإكرام والحباء: أنت مكرم محبوب، لأن الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة^(٢).

(١) تفسير النسفي: ٥١٣/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ٦٠/٢٠.

ففي هذا المعنى إشارة إلى أن عاقبة الاحتمال والمكابدة إلى الظفر والفتح، فالغرض تسليته ﷺ عمّا يكابد من أذى قريش وتبشيره بالفتح والنصر.

﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (٢)

أي: وأقسم بوالد وما ولد، والمراد: كل والد وما ولد، أو آدم وذريته، أو إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فهم الذين أقاموا في مكة المكرمة، والله تعالى أقسم بالبلد الحرام وبمن سكن فيه من الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام. وجواب القسم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (١)

أي: في تعب ومشقة، وأصل الكبد: الشدة، ومنه تكبّد اللبن: غلظ وخثر واشتد، ومنه الكبد لأنه دم تغلّظ واشتد، ويقال: كابدتُ هذا الأمر، أي: قاسيْتُ شدته^(١).

فالإنسان يكابد منذ بداية حياته شدائد الدنيا، ثم يكابد ما بعدها من شدائد الآخرة، فحياته سلسلة متواصلة من الشدائد، فهو يعاني من المشقة ألواناً وضروباً كثيرة منذ استهلاله صارخاً إلى أن يكبر ويصير رجلاً، ثم هو بعد ذلك كله يمرضُ ويموتُ، ويلقى في قبره، وفي آخرته ما يلقي من المصاعب والمتاعب، ولو كان الأمرُ له لما اختار هذه الشدائد. ودلّ ذلك على أن له خالقاً خلقه، وقدر عليه هذه الأحوال الشديدة، فكيف يُظنُّ أنه خُلِقَ سُدًى، وأن الله تعالى لن يسأله عن عمله، ولن يجازيه عليه.

ولهذا قال تعالى منكرّاً على أمثال هذا الإنسان ومعجّباً من حاله:

﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ (٥).

أي: أيحسب أن الله تعالى لن يقدر على بعثه بعد موته ومحاسبته.
وهو يستكبر بماله ويستطيل بكثرة نفقاته:

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بُدَّ﴾ (٦).

أي: كثيراً، من تلبد الشيء إذا اجتمع. وفي قراءة: (لبدأ) بتشديد الباء.
ولا شك أن كثرة إنفاقه تبين سبب تكذيبه وطغيانه، فالترف من أكبر أسباب الضلال والطغيان.

وقد يكون مراد الآية تهديد أحد رؤساء المشركين من قريش الذين كان النبي ﷺ يكابد من أذاهم ما يكابد، وكانوا ينفقون أموالهم في عداوته عليه الصلاة والسلام.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ (٧).

حين ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً أو عدواناً على النبي ﷺ.
ولا بد لهذا المستطيل بماله أن يذکر بضعفه وشدة حاجته، وافتقاره إلى ربه، وذلك بتعريفه ببعض نعم الله تعالى عليه:

﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ (٨) ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (٩) ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١٠).

أي: وبيننا له طريقي الخير والشر، والحق والباطل، فالنجد: العلو، وجمعه نجد، ومنه سُميت نجد لارتفاعها، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. وقيل: هديناه الثديين ليتغذى بلبنهما.
وعليه في مقابل هذه النعم أن يشكر الله عليها، ويستعملها في طاعته وعبادته.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١)

أي: أفلا اقتحم العقبة. والاقترحام: الدخول في الأمر الشديد، والمراد من العقبة: سبيل النجاة والفوز يوم القيامة. والمعنى: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير؟.

وقد يكون المراد من العقبة مجاهدة نفسه، وحملها على السير في نجد الخير وطريقه.

وهي عقبة كأداء، صعبة شديدة، ولهذا عظمها، وبَيَّن أهم الأسباب المساعدة على اقتحامها وتجاوزها فقال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكَّ رَقَبَةٍ﴾ (١٢)

أي: عتق رقبة بتحريرها، وتخليصها من الرق والعبودية، فالإسلام دين الحرية، وإعتاقُ المملوك من أعمال البر، ضربه الله تعالى مثلاً لمجاهدة النفس، وحملها على السير في طريق الفلاح.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ» [رواه مسلم (١٥٠٩)].

وفي قراءة: (فكَّ رقبةً) فعل ماضٍ ومفعول به.

﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (١٣)

أي: ذي مجاعة وشدة. والمسغب: الجوع.

﴿بَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١٤)

أي: ذا قرابة، فالصدقة على القريب المحتاج أفضل منها على غير القريب، وفيها أجران: أجرُ القرابة وأجرُ الصدقة.

وفي الحديث الشريف: أَنَّ امرأةَ عبدِ الله بن مسعود سألت النبي ﷺ: أيجزئ عني أن أنفقَ على زوجي وأيتام لي في حِجْري؟ فقال النبي ﷺ: «نعم، ولها أجران: أجرُ القرابة، وأجرُ الصدقة» [رواه البخاري (١٤٦٦)].

وبَيَّن رسول الله ﷺ فضل مَنْ يعولُ يتيماً ويطعمه فقال: «أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنةِ هكذا» وقال بأصبعيه السبابة والوسطى. [رواه البخاري (٦٠٠٥)].

وفي قراءة: (أو أَطْعَمَ) بغير ألف وبفتح الميم.

﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾.

أي: بلغ الغاية في الجوع، حتَّى كأنه وقع على التراب ولصق به.

ولا تنفعه هذه القُرْب وتساعد على اقتحام العقبة والوصول إلى رضوان الله ورحمته، إلَّا إذا فعلها وهو مؤمن بالله تعالى:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر عن المعاصي، وعلى الطاعات والمحن التي يُبتلى بها المؤمن.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ أي: برحمة الناس والشفقة على الضعفاء.

فالإسلام دينُ الإحسان والرحمة، وجاء بحرف العطف (ثم) للدلالة على أهمية الإيمان، وتباعده في الرتبة والفضيلة، لا في الوقت، إذ هو السابق على غيره، ولا يثبتُ عملٌ صالحٌ إلَّا به^(١).

﴿أُولَٰئِكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا﴾.

أي: أولئك المتَّصفون بهذه الصفات أصحابُ اليمين الذين يؤتُون كتابهم بأيمانهم، أو أصحاب اليُمن والخير.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: هم أصحاب الشمال أو الشؤم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: مطبقة عليهم أبوابها، من أوصدت الباب: إذا أطبقته وأغلقته. فلا يخرجون منها، ولا يأتيهم من خارجها روحٌ ونسيمٌ.
وفي قراءة: (موصدة) بغير همز.



تفسير سورة الشمس تَرْكِهُ النَّفْسِ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا ١﴾ وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ٢﴾ وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا ٣﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا يَعَشَّهَا ٤﴾ وَالسَّمَاءَ وَمَا
بَنَاهَا ٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ
زَكَّاهَا ٩﴾ وَقَدْ حَآبَ مَنْ دَسَّاهَا ١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّاهَا ١٤﴾
وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ١٥﴾ .

بين الله تعالى في سورة الشمس ضرورة تركية النفس، وخطورة إهمال ذلك
بالأقسام التالية:

﴿وَالشَّمْسُ وَضَعَهَا ١﴾ .

أي: وضوئها، والضحى: حين ترتفع الشمس ويصفو ضوءها.

﴿وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ٢﴾ .

أي: تَبِعَهَا، ففي أول الشهر يظهر القمر بعد غروب الشمس.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا (٣)﴾ .

أي: جلا ظلمة الليل بضياءه، وكشفها بنوره. وهو كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً.

أو: جلى الشمس وأظهرها، فَإِنَّ الشَّمْسَ تَجَلَّى فِي النَّهَارِ وتظهر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)﴾ .

أي: يغشى الشمس ويسترها وينشر الظلام.
فحاصل هذه الأقسام الأربعة يرجع إلى الشمس في الحقيقة.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥)﴾ .

أي: ومن بناها، وإنَّما أوثرت (ما) على (من) لإرادة معنى الوصفية، كأنَّه قال: والسماء والقادر العظيم الذي بناها.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا (٦)﴾ .

أي: بسطها وسطحها ليتمكن الناس من العيش عليها.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧)﴾ .

أي: وما خلق فيها وجعل فيها من الملكات والمواهب.

﴿فَالْهَمَّهَا جُورَهَا وَتَقَوَّيَهَا (٨)﴾ .

أي: فجعل فيها نوازع للشر وللخير، ففي طبيعة الإنسان استعداداً مزدوجاً للشر والخير، وجعله تعالى قادراً على سلوك سبيل الخير أو الشر كما مرَّ معنا في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البعد: ١٠].

والإلهام ما يحصل في النفس من دون اكتساب، فنوازع الفجور والتقوى كامنة في نفس الإنسان، وهي من أسباب ابتلائه واختباره، وعليه أن ينمي جانب الخير، ويقمع جانب الشر، وذلك بمجاهدة نفسه، وهو الجهاد الأكبر الذي يلزم الإنسان طول حياته.

فتكوين النفس البشرية وما جعل الله فيها من أسرار من الأدلة الظاهرة على كمال قدرته تعالى وحكمته، كالأدلة الظاهرة في خلق الشمس والقمر والأرض والليل والنهار. وجواب هذه الأقسام:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

أي: لقد أفلح من زكى نفسه وطهرها من الشرور والآثام.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

أي: أخفاها بالشرور والآثام، والمراد: أنه أهمل تزكيتها حتى غلبت عليها نوازع الشر وغمرتها.

فتزكية النفس أمر ضروري وهام في حياة الإنسان، دلت على أهميته وضرورته كثرة الأقسام المؤكدة له في صدر السورة، وأهم وسائله المحققة له: أداء العبادات على وجهها الصحيح المشروع كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ومنها: الإكثار من ذكره تعالى، واللجوء إليه بالدعاء والضراعة:

ففي الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتْ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ

مَنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمَنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا» [رواه مسلم (٢٧٢٢)].

ويؤدي إهمال تركية النفس إلى الطغيان والكفر والفجور:

﴿كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَنِهَا﴾.

أي: بطغيانها، فالحامل لهم على تكذيب نبيهم صالح طغيان الشر على نفوسهم، حتى دساها وغمرها وغلب عليها.

﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا﴾.

أي: حين قتل الناقة المعجزة أشقى رجل في ثمود، وأكثرها طغياناً وإجراماً وشرّاً.

وفي الحديث الشريف: أن عبد الله بن زمعة سمع النبي ﷺ يخطبُ وذكر الناقة والذي عقرها فقال: «إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا؛ أَنْبَعَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ، عَارِمٌ، مَنِيعٌ فِي رَهْطِهِ مِثْلَ أَبِي زَمْعَةَ» [رواه البخاري (٤٩٤٢)]. قوله (عارم): كثير الشر.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾.

أي: اتركوا ناقة الله، واتركوا شربها، لا تتعرضوا لها بسوء، ولا تمنعوها عن الماء يوم شربها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: فكذبوا رسول الله صالحاً ﷺ فيما جاءهم به، فقتلوا الناقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَى لَهُمْ قَارِقِيَهُمْ وَأَصْطَرَّ﴾ وَبَنَى أَنَّهُ الْمَاءَ فَسَمَهُ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ﴿١٨﴾ فَادَّارُوا صَاحِبَهُمْ فَنَاطَى فَعَقَرَ ﴿[القمر]﴾.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ أي: أهلكهم ربهم هلاك استئصال

بسبب ذنبهم، فسوى الدمدمة عليهم جميعاً، أو أطبق عليهم العذاب حتى لم ينفلت منه أحد.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ١٥

أي: لا يخاف الله تبعه من أحد في هلاكهم، فهو القوي القاهر جَلَّالٌ. وفي قراءة: (فلا) بقاء العطف.



تفسير سورة الليل تَوْفِيقٌ وَخُذْلَانٌ فِي سُورَةِ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَافًى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝١٣ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦ وَسَيَحْنَبُهَا الْأُتْقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نَعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا أَتْبَعًا رِيبَهُ الْأَعْلَى ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝٢١﴾ .

أدى وجود نوازع الخير والشر في نفوس الناس إلى اختلاف أعمالهم ، وهو ما أكدته تعالى بالقسم في أول سورة الليل .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١﴾ .

أي : يغطي بظلامه المكونات ويسترها ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾

[النبا : ١٠] .

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝٢﴾ .

أي : ظهر ووضح .

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣)

أي: والقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى. أو: وخلق الذكر والأنثى.
وجواب القسم:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (٤)

أي: إن أعمالكم لمختلفة ومتباعدة، فمن فاعل خير، ومن فاعل شر.
ثم فصلت الآيات الاختلاف بين الأعمال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ (٥) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (٦)

أي: فأما من أنفق ماله في سبيل الله، واتقى المعاصي، وصدق بالكلمة الطيبة الحسنى، وهي: لا إله إلا الله، أو صدق بالجنة كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

﴿فَسَيُسِيرُهُ لِلْأَسْرَىٰ﴾ (٧)

أي: فسنوفقه لعمل الخير والصلاح أو للجنة، وهما متلازمان؛ لأنَّ عمل الخير يؤدي إلى الجنة، أو فسنيهيته للخلة التي تؤدي إلى يسر وراحة.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ (٨)

أي: وأما من بخل في النفقة في طاعة الله، واستغنى بشهوات الدنيا عن ثواب الله تعالى، فلم يرغب فيه. أو: واستغنى بماله فطغى وتجبر.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (٩) ﴿فَسَيُسِيرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (١٠)

أي: فسنيسره للشر والعمل الذي يؤدي إلى العسر والعذاب.

فالله سبحانه يجازي مَنْ قصدَ الخيرَ بالتوفيق له، وَمَنْ قصدَ الشرَّ بالخذلان، وكل ذلك مقدرٌ بقدر وعلم سابق.

ففي الحديث الشريف: عن علي عليه السلام قال: كان النبي ﷺ في جنازةٍ، فأخذ شيئاً، فجعلَ ينكتُ به الأرضَ فقال: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وقد كُتِبَ مقعدهُ مِنَ النارِ ومَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ» قالوا: يا رسول الله أفلا نتكلُّ على كتابنا، ونَدْعُ العملَ؟ قال: «اعملوا فكلُّ ميسرٍ لِمَا خُلِقَ له، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ الآية. [رواه البخاري (٤٩٤٩)].

فمصير الإنسان محجوب عنه، وعليه أن يجتهدَ في عمل ما أمر به، واجتناب ما نُهي عنه، فقد منعهم النبي ﷺ من ترك العمل، وأمرهم بما يجبُ على العبد من العبادة والطاعة، ونظير ذلك الرزق المقدر مع الأمر بالكسب، والأجل مع الإذن بالتداوي.

﴿وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾﴾.

أي: وما يغني عنه ماله الذي بخل به وطغى بسببه وتجبر، إذا هلك وسقط في القبر أو في جهنم، فتردَّى: من الردى وهو الهلاك. ولا عذر له حينئذٍ، لأنَّ الله تعالى بيّن له طريق الخير والرشاد، وميزه عن طرق الضلال.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٧﴾﴾.

أي: إن علينا أن نبين طريق الهدى، ونقيم بذلك الحجة على الناس.

واكتفى بذكر طريق الهدى، لأنَّ كل طريق آخر يخالفه لا بدَّ أن يكون من طُرُق الضلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ .

أي: وإن لنا كمال السلطان والملك في الحياة الآخرة والأولى، فلا يضرنا ضلال الضالين، ولا ينفعنا اهتداء المهتدين.

أو: إن لنا ثواب الدنيا والآخرة كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

ثم أوردت الآيات موازنةً بين حالتين متضادتين تأكيداً لما سبق في قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]:

الأولى: لرجل من أغنياء المشركين استغنى بماله وتجبر وتكبر:

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ .

أي: تتلهب.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ .

أي: إلا الشقي المصرُّ على تكذيبه وكفره.

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ .

أي: الذي كذب رسلي، وأعرض عن طاعتي.

وهذه نار موصوفة بعينها، ولأهل النار منازلٌ ودركات، فليس في الآية حجة لمن زعم من أهل الإرجاء أنه لا يدخل النار إلا كافر، فلو كان كل من لا يشرك لا يُعَذَّبُ لم يكن في قوله تعالى: ﴿وَيَعْرِفُ مَا دُونُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فائدة.

والثانية: لرجل من أغنياء المسلمين استعمل ماله في طاعة الله والتقرب إليه:

﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتَقَى﴾ .

أي: التقى الحريص على تقوى الله وطاعته.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٨).

أي: الذي يطلب عند الله أن يكون زاكياً طاهراً، لا رياء في عمله ولا سمعة.

أو: الذي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ (١٩).

أي: وما لأحدٍ عنده من يد يكافئه عليها.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠).

أي: لكنَّ فعله طلباً لرضوان ربه. فهي شهادة رفيعة من الله تعالى بإخلاص هذا الرجل في ما أنفق من مال، وأنه ما أنفقه إلا في سبيل الله تعالى.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (٢١).

أي: ولسوف يعطيه الله العطاء الذي يرضيه، وتقر به عينه، كما قال سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه بإجماع المفسرين، أنفق ماله لتخليص المستضعفين من المسلمين، أعتق قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم؛ وهم: عامر بن فهيرة، والنهدية وابنتها، وجارية بني مؤمل، وأم عبيس، وزنيرة. حتى قال له أبوه: يا بني إني أراك تُعْتِقُ رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذا ما فعلت أعتقت رجالاً جُلُداً يمنعونك، ويقومون دونك! فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت إني إنما أريد الله تعالى. فنزلت هذه الآيات^(١).

قال ابن كثير رحمته الله في ختام تفسيره للسورة: أي ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (٢١) من

اتصف بهذه الصفات . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنَّ هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ حتى إنَّ بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنَّه داخلٌ فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكنه مقدم الأمة، وسابقتهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنَّه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحدٍ من الناس عنده منَّة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيدٌ ثقيفٍ - يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يدُ لك عندي لم أجزكُ بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظَ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ .



تفسير سورة الضحى

إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ فِي سُورَةِ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَالْآخِرَةُ حَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤)
وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَشَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧)
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
فَحَدِّثْ (١١)

أظهر الله تعالى في سورة الضحى المكانة الرفيعة التي أكرم بها النبي ﷺ،
وأكد ذلك بالقسم فقال:

﴿وَالضُّحَى﴾ (١).

أي: وهو وقت الضحى في صدر النهار حين ترتفع الشمس.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ (٢).

أي: إذا سكن، ففيه تسكنُ الأصوات، وتهدأ الحركات.

أو: أقبل ظلامه واشتدَّ.

أو: غطى النهار مثلما يُسجى الرجل بالشوب.

وجواب القسم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾

أي: ما تركك ربك وما أبغضك.

وفي قوله: (ما ودعك) من اللطف والتعظيم ما لا يخفى، فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب، ومن تعزُّ مفارقتة.

وفي حذف المفعول في قوله: (وما قلى) لطف أيضاً به ﷺ، وشفقة عليه، حتى لا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى^(١).

وورد في سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثة، فجاءت امرأة فقالت: يا محمدُ إني لأرجو أن يكونَ شيطانُكَ قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾. [رواه البخاري (٤٩٥٠)].

وبعد أن أخبره تعالى بأنه لا يزالُ يواصله ويكرمه في الدنيا، بشره بأنَّ ما سيعطيه في الآخرة أَجَلٌ وأعظم من ذلك، فقال:

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾

أي: وما أعدَّ الله لك في الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود والخير الموعود خيراً لك وأعظم من الذي أعطاك في الدنيا، فلا يزالُ رسول الله ﷺ يترقَّى بفضل الله تعالى عليه في الرفعة والكمال في الدنيا والآخرة.

قال ابن عباس: أَرَى النبي ﷺ ما يفتح الله على أُمته بعده فُسِّرَ بذلك، فنزل جبريل بقوله: ﴿وَلِالْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾^(١).

فالدار الآخرة خيرٌ للنبي ﷺ من هذه الدار، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام أزهَدَ الناس في الدنيا، وأعظمهم لها أطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولَمَّا خُيِّرَ ﷺ في آخر عمره بين الخُلْد في الدنيا وبين صيرورته إلى الله ﷻ اختار الرفيق الأعلى، وفضله على هذه الدنيا الدنية كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية.

وجاءت بعد البشارة العدة الكريمة:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

أي: ولأنت سوف يُعطيك ربك فترضى بما تُعطى.

فالعطاء كائنٌ لا محالة وإن تأخَّرَ لحكمة، وهو شاملٌ لما أعطاه الله في الدنيا من كمال الخلق والخلق، وظهور الأمر، وإعلاء الدين، ولَمَّا ادخر جل وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من المواهب والمقامات الرفيعة، التي لا يحيط بها إلا الله ﷻ. وعن علي والحسن: هو الشفاعة في أُمته حتَّى يرضى. وفي الحديث الشريف: أَنَّهُ ﷺ قال: «لكلِّ نبيِّ دعوةٍ مستجابة، فتعجَّلْ كُلُّ نبيِّ دَعْوَتِهِ، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله مَنْ ماتَ مِنْ أمتي لا يشركُ بالله شيئاً» [رواه مسلم (١٩٩)].

وكان جعفر بن محمد بن علي يقول: إنكم يا معشرَ أهل العراق تقولون: أَرَجَى آية في القرآن: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وإنا أهل البيت نقول: أَرَجَى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ٩٥/٢٠.

(٢) تفسير الخازن: ٥٢٧/٦.

ثم يَبَيِّنُ تعالى أَنَّ نِعْمَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دَائِمَةٌ لَا تَنْقَطِعُ، فَكَمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ فِيمَا مَضَى يَحْسِنُ إِلَيْهِ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ، فَقَالَ:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ﴾

أي: أَلَمْ يَعْلَمْكَ اللهُ يَتِيمًا حِينَ مَاتَ أَبُوكَ وَلَمْ يَخْلُفْ لَكَ مَالًا وَلَا مَأْوَى، فَجَعَلَ لَكَ مَأْوَى تَأْوِي إِلَيْهِ، فَأَوَّاكَ إِلَى جَدِّكَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، ثُمَّ إِلَى عَمِّكَ أَبِي طَالِبٍ وَكَفَاكَ الْمُؤُونَةَ.

ف (يجدك) من الوجود الذي هو بمعنى العلم، وقيل: هو من قولهم: درة يتيمة، والمعنى: أَلَمْ يَجِدْكَ وَاحِدًا فِي قَرْيَشٍ عَدِيمٍ النَّظِيرِ فَأَوَّاكَ إِلَيْهِ وَأَيْدَكَ وَشَرَّفَكَ بَنِيهِ، وَاصْطَفَاكَ لِرِسَالَتِهِ^(١).

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ﴾

أي: وَوَجَدَكَ ضَالًّا عَنْ مَعَالِمِ النُّبُوَّةِ وَأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، فَهَدَاكَ إِلَيْهَا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ آمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

أو: وَجَدَكَ بَيْنَ أَهْلِ الضَّلَالِ فَعَصَمَكَ مِنْ ذَلِكَ، وَهَدَاكَ إِلَى الْإِيمَانِ، وَعَرَّفَكَ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالرَّشَادِ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَفْهَمَ بِهِ عَدُولٌ عَنْ حَقِّ وَوُقُوعٌ فِي غِيٍّ، فَقَدْ كَانَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَوَّلِ حَالِهِ إِلَى نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ مَعْصُومًا مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَقَاذُورَاتِ أَهْلِ الْفَسْقِ وَالْعَصْيَانِ^(٢).

وقد يكون المعنى: وَجَدَكَ غَافِلًا عَمَّا يَرَادُ بِكَ مِنَ النُّبُوَّةِ فَهَدَاكَ، أَيْ

(١) تفسير الخازن: ٥٢٨/٦.

(٢) تفسير النسفي: ٥٢٨/٦.

أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾

أي: ووجدك فقيراً ذا عيال فأغناك بمال خديجة، أو بغنى النفس.

كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» [رواه البخاري (٦٤٤٦)].

وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب، بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره، فيتحقق أنه المعطي المانع، فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى^(١).

وبعد أن ذكّر ربه بفضل العظيم عليه، وجهه إلى هذه الآداب العالية الرفيعة، ووجه المسلمين من ورائه ﷺ:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْجُرْ﴾

أي: لا تحقر اليتيم ولا تذلّه، ولا تعبس في وجهه، ولا تغلبه على ماله وحقه لضعفه، ولكن أحسن إليه وتلطّف به.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾

أي: لا تزجره، ولا تغلظ له القول، وردّه برفق ولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُرْضِضْ عَنْهُمْ أُمْتًا رَحِيمًا مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيَسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

أو: لا تنهر السائل والمسترشد في العلم.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١١)

أي: بلِّغ ما أرسلتَ به، وحدِّث بالنبوة، وادعُ إليها، وهي أجلُّ النعم.
أو: هي جميع الخيرات، والتحدُّثُ بها شكرُها، وكان علماء المسلمين
يرون أنَّ مَنْ شكرَ النعمة أنْ يحدِّثَ بها ولا يكتُمها.



تفسير سورة الشرح إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ فِي سُورَةِ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ .

ثم ذُكِرَت الآيَاتُ النَّبَوِيَّةُ ﷺ فِي سُورَةِ الشَّرْحِ بِالْأَسْلُوبِ نَفْسَهُ بِنِعْمَةِ خَفِيَّةٍ خَصَّهَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بِهَا كَانَ لَهَا أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي حَيَاتِهِ :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ .

أي: قد شرحنا لك صدرك، فهو استفهامٌ أريدَ به التقرير، أي: نورناهُ، وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً بما أودعنا فيه من الحِكم، وما أزلنا عنه من الضيق والحرَج، حتى وَسِعَ مناجاةَ الحق، ودعوة الخلق كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] .

أو: نورناه بالإيمان كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ، فَوَيْلٌ لِلْفَاسِقِينَ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢] .

أو: يسرنا لك تلقِّي الوحي بعد أن كان يشقُّ عليك .

والمراد من كل ذلك الشرح المعنوي، وثبت أيضاً الشرح الحسي ل صدره الشريف عليه الصلاة والسلام؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قُتِلَ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره. [رواه مسلم (١٦٢)].

كما ثبت أيضاً ليلة الإسراء والمعراج؛ ففي حديث المعراج: عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: «أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم مضطجعا إذ أتاني آت، فقد (فشق) ما بين هذه إلى هذه» فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شِعْرَتِهِ، «فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حُشِي، ثم أُتيت بدابة...» [رواه البخاري (٣٨٨٧)].

قال ابن حجر رحمته الله: «وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل»، ولكل منها حكمة»^(١).

﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾.

أي: حططنا عنك ذنبك الذي تراه ذنباً، وهو شعوره عليه الصلاة والسلام أنه مقصّر في حق شكره تعالى على فضله العظيم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

أو: خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها.

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾.

أي: أثقله، فقد أنزل الله تعالى عليه قولاً ثقیلاً، كان تَلْقِيهِ يَثْقُلُ عليه في ابتداء أمره جدّاً، فیسره الله عليه، وعوده على تَلْقِيهِ، وقواه على تحمله وتبليغه.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾.

بالنبوة وغيرها، مثل: قرّن اسمه عليه الصلاة والسلام باسمه ﷺ في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، وصلى عليه في الملاء الأعلى، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، وخاطبه بالألقاب، ك: يا أيّها النبي، ويا أيّها الرسول، ويا أيّها المدثر، وذكره في كتب الأولين، وأخذ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يؤمنوا به إن أدركوا زمانه.

وقد أشار حسان بن ثابت رضي الله عنه إلى عظيم قدره بقوله:

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِوَةِ خَاتِمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ إِلَهُهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنُ: أَشْهَدُ
وبعد كل هذا الإكرام والإنعام بشره تعالى باليسر بعد العسر:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾.

أي: فإنّ مع العسر الذي أنت فيه يُسْرًا عظيماً، فلا تيأس من فضل الله تعالى. وجيء بلفظ (مع) لغاية مقاربة اليسر العسر. ثم استأنفت الآيات وَعَدَهَا:

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾.

أي: يُسْرًا آخر، هو يسر الفتوح والتمكين في الأرض أو يسر الآخرة.

ولا شكَّ أنَّ النكرة المعادة (يُسْرًا) ظاهرها التغاير، بينما المعرفة (العسر) إذا أعيدت كانت الثانية عين الأولى، فصار المعنى: إنَّ مع العسر يسرين، قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسولُ الله ﷺ: «أبشروا فقد جاءكم اليسرُ، لن يغلبَ عسرُ يسرين» [رواه الطبري (٢٣٦/٣٠)].

وقال ابن مسعود: لو كان العُسْرُ في جُحْرٍ لطلبه اليسرُ حتَّى يدخلَ عليه ويُخرِجه، إنَّه لن يغلبَ عسرُ يسرين^(١). [رواه الحاكم (٢٥٥/٢) والبيهقي في الشعب (٢٠٦/٧)].

ويروى عن الشافعي أنه قال:

صبراً جميلاً ما أقربَ الفَرْجَا مَنْ راقبَ الله في الأمورِ نَجَا
مَنْ صَدَقَ الله لَمْ يَنْلُ أَدَى وَمَنْ رجاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا
وعودَه على تلقيه، وقوَّاه على تحمله وتبليغه، وعليك وأنت تنتظر فرجَ الله
وتيسيره أن تستمرَّ على عبادته وطاعته:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾.

أي: إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الحق، أو إذا فرغت من صلاتك فتوجه إلى الله بالدعاء والاستغفار والتسبيح، واجعل رغبتك إلى الله وحده، أو إذا فرغت من الفرائض فاشرع في النوافل.

ومهما قيل في معنى الآية فكلُّها تبعث النبي ﷺ على الاجتهاد في العبادة، وألا يخلي وقتاً من أوقاته منها؛ فكلُّما فرغ من عبادة أتبعها بأخرى، وهو توجيه أيضاً للمؤمنين من وراء النبي ﷺ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سهلاً (عاطلاً عن أي عمل) لا في عملٍ دنياه، ولا في عملٍ آخرته^(٢).



(١) تفسير الخازن: ٥٣٢/٦.

(٢) المرجع السابق: ٥٣٤/٦.

تفسير سورة التين تَقْوِيمٌ وَتَنْكِيسٌ فِي سُورَةِ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّكْرِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعَزَّ الْخَافِكِينَ (٨)﴾

بدأ الله تعالى سورة التين بالأقسام التالية:

﴿وَالزَّيْتُونَ (١)﴾ .

أقسم الله بالتين، وهو الثمرة المعروفة التي تؤكل، وبالزيتون وهو ثمرة شجرة مباركة، قال الله فيها: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ تَبَّتْ بِالذَّهْنِ وَصَبَغَ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

أقسم الله بهما لما فيهما من المنافع والمصالح الدالة على قدرة خالقهما.

أو: هما جبلان مشهوران بكثرة أشجار التين والزيتون في بلاد الشام، بُعث فيهما كثير من الأنبياء والمرسلين، ويقويه قوله تعالى بعده:

﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾

وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى ﷺ، سمي سينين لحسنه وبركته.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾

أي: الآمن، وهو مكة المكرمة.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه محالٌ ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس، التي بعث فيها عيسى ابن مريم عليه السلام. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء، الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين، الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمد ﷺ. وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير (يعني: بيت المقدس)، واستعلن من جبال فاران (يعني: جبال مكة)».

وجواب القسم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

أي: في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه، فخصّ بانتصاب القامة، وحسن الصورة، وجودة العقل، وغير ذلك من الخصائص والصفات الظاهرة والخفية.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

أي: ثم رددناه إلى النار، لأنّه لم يشكر ربه، ولم يستعمل هذه النعمة في طاعته وعبادته.

ومن المعلوم: أنّ النار دركات بعضها أسفل من بعض، فبعد هذا الحسن والنضارة يكون مصيره إلى النار، لأنه جحد نعمة الله تعالى، وأعرض عن طاعته

وشكره، فالشكر يؤدي إلى دوام النعمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُءُوسُكُمْ وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

بينما يؤدي الجحود والكفران إلى الحرمان منها، ولهذا قال بعضهم في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥): أي: رددناه إلى أرذل العمر، فيضعف بدنه، وينقص عقله كالضعفاء والمرضى والزمنى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ نِعْمَتِهِ نُتَجَسَّسُهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

وقد كان رسول الله ﷺ يأمر بالاستعاذة من أرذل العمر، ففي الحديث الشريف: عن سعد بن أبي وقاص ﷺ كان يأمر بهؤلاء الخمس، ويحدثهن عن النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر» [رواه البخاري (٦٣٧٠)].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهَرَم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات» [رواه مسلم (٢٧٠٦)].

ولا شك أن الاستعاذة من الهرم استعاذة من الرد إلى أرذل العمر، لما يطرأ على الإنسان فيه من الخرف، واختلال العقل، وتشويه بعض المنظر، والعجز عن كثير من الطاعات.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (١).

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يردُّون إلى النار أو إلى أسفل سافلين، ولا تقبح صورهم، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم وحُسنًا إلى حسنهم. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: فلهم ثوابٌ غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة، ومعاناة ما فيها من المشقات.

فالله تعالى يكتب للذين استمروا على العمل الصالح حتى بلغوا سن

الضعف والشيخوخة مثل الثواب الذي كانوا يعملونه قبل ذلك، كان ابن عباس رضي الله عنه يقول: مَنْ قرأ القرآن لم يردَّ إلى أرذل العمر^(١).

ثم التفت الآيات إلى الإنسان المكذب بيوم الحساب والجزاء تسأله موبخة:

﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْذِّينِ﴾ (٧).

أي: فما الذي يحملك على هذا الكذب؟! أو فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع والبرهان الساطع بيوم الدين؟! إِنَّ خَلْقَكَ مِنْ نَظْفَةٍ، وتقويمك، ثم تنكيسك إلى أن تبلغ أرذل العمر أوضح دليل على قدرة الخالق وحكمته، فما الذي يحملك على إنكار قدرته تعالى على بعثك للحساب والجزاء؟!.

وقد يكون الخطاب موجَّهاً إلى النبي ﷺ ويكون المعنى: فمن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل؟! ف (ما) بمعنى (من).

أو: من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، ويحكم بينك وبين مكذبيك، ويتصف للمظلوم في الدنيا ممَّن ظلمه؟!.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨).

أليس الذي فعل ذلك من الخلق والرد بأحكم الحاكمين صنعاً وتديراً، ومَنْ كان كذلك كان قادراً على البعث والجزاء، والحكم بينك وبين مكذبيك، والانتصاف للمظلوم ممَّن ظلمه.

وفي سنن الترمذي [٣٣٤٧]، وأبي داود [٨٨٧]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾، فقرأ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين».



تفسير سورة العلق

سُجُودٌ وَطُغْيَانٌ فِي سُورَةِ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ (٦) أَن زَاهَا اسْتَفْتَى (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطَّعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ .

جمع الله للإنسان الكمال المادي والمعنوي، فكما خلقه في أحسن تقويم خلق فيه قابلية التعليم، فقال مخاطباً أفضل الناس وأكملهم خلقاً وخلقاً:

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ .

أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك الذي خلق كل شيء.

أو: اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك على حمل أعباء النبوة والرسالة.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)﴾ .

أي: جُمع علقه، وجمعها لأن الإنسان في معنى الجمع، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَلَمْ بِكَ تُطْعَمُ مِنْ مَنَىٰ يَمْنَىٰ (٧٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسُوَّىٰ﴾ [القيامة].

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾

أي: الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه تعالى ينعم بلا عوض، فهو الكريم وحده على الحقيقة، ويحلم عن عباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه.

وكرر الأمر بالقراءة للتبليغ، فلا يكفي أن يقرأ القرآن لنفسه، بل عليه أن يقوم بتبليغه.

ومما يدل على كمال كرمه تعالى وإحسانه:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾

أي: الذي علّم الكتابة بالقلم، فالكتابة نعمة عظيمة، استقام بها أمر الإنسان في دينه ودنياه، فالقلم كان ولا يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثراً في حياة الإنسان.

وإبراز هذه الحقيقة بالرسول الأُمِّي ﷺ الذي لم يكن كاتباً يؤكد أن القرآن وحي من الله تعالى ليس للنبي عليه الصلاة والسلام فيه إلا التلقي والتبليغ.

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

فدل على كمال كرمه وفضله، فعلم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

هكذا بين ﷺ بهذه الكلمات مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه، فنقله من أخس المراتب إلى أعلاها، تقريراً لربوبيته، وتحقيقاً لأكرميته، فأول الواجبات التي أوجبها عليه معرفة الله تعالى، وهذه الآيات الكريمات المباركات أول شيء نزل من القرآن الكريم.

ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت

مثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ (وَالْتَحَنَّنُ: التَّعَبَدُ) اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلِكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أُرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أُرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أُرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾» فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَرَجِفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوحُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ: «أَيُّ خَدِيجَةَ، مَا لِي؟ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي» فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، قَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، أَبْشِرْ؛ فَوَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ... [رواه البخاري (٤٩٥٣)].

وَلَا شَكَّ أَنَّ نَزُولَ الْوَحْيِ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي تَفْضَّلُ بِهَا تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَلِهَذَا زَجَرَتْ آيَاتُ وَرَدَعَتْ مِنْ كُفْرِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَطَغَى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ①﴾.

أَيُّ: حَقًّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِيَتَجَاوَزَ الْحَدَّ وَيَسْتَكْبِرَ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ وَطَاعَتِهِ.

﴿أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ②﴾.

أَيُّ: أَن رَأَى نَفْسَهُ غَنِيًّا.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ③﴾.

أَيُّ: إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمَرْجِعَ وَالْمَصِيرَ فِي الْآخِرَةِ.

ففيها تهديد وتحذير لهذا الإنسان ولأمثاله من عاقبة الطغيان.
وذكرت الآيات بأسلوب التعجيب صورة من صور طغيانه:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠)﴾.

وهو رسول الله ﷺ، وفائدة التنكير في قوله: (عبدًا) تدل على أنه كامل العبودية لله ﷻ.

وقد نزلت هذه الآيات في أبي جهل، أشد أعداء النبي ﷺ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذه الملائكة» [رواه البخاري (٤٩٥٨)].
وأخرج النسائي في الكبرى [١١٠٦١]: من طريق أبي حازم، عن أبي هريرة نحو حديث ابن عباس، وزاد في آخره: فلم يفجأهم منه إلا وهو - أي: أبو جهل - ينكص على عقبيه، ويتقي يديه.
وعظه الله تعالى بهذه الآيات أولاً موعظة لطيفة فقال:

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمَذْكَ (١١)﴾.

أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الهدى والحق.

﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢)﴾.

أي: ودعا إلى تقوى الله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣)﴾.

أي: أرايت إن كان ذلك الناهي مكذباً بالحق، ومعرضاً عنه.
وتقدير نظم الآيات: أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى، وهو على الهدى أمراً بالتقوى، بينما الناهي مكذبٌ معرضٌ عن الإيمان، فما أعجب هذا؟!.

وقد يكون المعنى أيضاً: أخبرني عَمَّن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه، أو أمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، أو إنه كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب؟.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾.

أي: بأن الله يرى ذلك الفعل ويجازيه عليه.
ثم زجره تعالى زجراً شديداً وتوعده وعيداً بليغاً فقال:

﴿كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن نهيهِ عن عبادة الله، وأمره بعبادة الأصنام.
﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لمن لم ينته عن ما هو فيه لناخذنً بनावيته، فنطويها مع قدميه، ونطرحه في النار، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ سِجْنَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

والسفع: القبض الشديد، والجذب. والناصية: مُقَدِّم الرأس، وخصَّها بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانتة أخذوا بनावيته.

﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾.

أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها، والمراد أنَّ صاحبها كاذب خاطئ.
وذهب بعض الدارسين المعاصرين إلى أنَّ المراد الناصية نفسها، وهي أعلى الجبهة حيث يستتر القَصُّ الجبهي الأمامي من المخ المسؤول عن شخصية الفرد، والمتحكم في تصرفاته وأفعاله، فالقشرة الأمامية الجبهية هي الموجهة لبعض تصرفات الإنسان التي تدل على شخصيته مثل الصدق والكذب والصواب والخطأ وتحثُّ الإنسان على فعل الخير أو الشر.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧).

أي: فليستنصر بأهل مجلسه وعشيرته.

﴿سَدْعُ الزَّبَانَةِ﴾ (١٨).

أي: سندعو ملائكة العذاب الغلاظ الشداد الذين قال تعالى فيهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (١٩).

﴿كَلَّا﴾ وهو ردع آخر للناهي.

﴿لَا تُطِعْهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ أي: لا تطعه في ترك الصلاة، واسجد لله تعالى،

وتقرب منه.

كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء» [رواه مسلم (٤٨٢)].

وهذه الآية من آيات سجود التلاوة، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال: سجد رسول الله ﷺ في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. [رواه مسلم (٥٧٨)].

ولا شك أن في السجود غاية العبودية والتذلل لله ﻋَﻠَﻴْهِ السَّلَامُ.



تفسير سورة القدر لَيْلَةُ الشَّرَفِ وَالسَّلَامِ فِي سُورَةِ الْقَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③
نَزَّلَ الْمَلَكُ الْوَحْيَ فِيهَا يَذُنُّ رَّبُّهُمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑤ .

عَظَّمَ اللهُ الْوَقْتَ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، فَقَالَ:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ① .

أي: في ليلة تقدير الأمور وقضائها، كما في قوله تعالى: ﴿حَمِّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ③ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ [الدخان].

سُمِّيَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ لِمَا تَكْتُبُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْأَقْدَارِ.

أو: لعظم خطرها، وشرفها على غيرها من الليالي.

أو: لأنَّ العمل الصالح يكون فيها ذا قدر عظيم.

ومرَّ معنا: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَفْرَقاً عَلَى مَدَى عَمْرِ الدَّعْوَةِ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَظَّمَ اللهُ الْقُرْآنَ، فَاسْتَدَّ أَنْزَالَهُ إِلَيْهِ، كَمَا عَظَّمَ الْوَقْتَ الَّذِي أَنْزَلَهُ فِيهِ، وَهُوَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وشَوَّقَ النبي ﷺ إليها فقال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدَرِ﴾.

أي: لم تبلغ درايتك غاية فضلها.
ثم بيّن ذلك بقوله:

﴿لَيْلَةُ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية: إنزال القرآن العظيم فيها، فهي ليلة عظيمة شريفة، يَشْرَفُ مَنْ أتى فيها بالطاعات، ويعظم قدره عند الله تعالى، ولا يعلم مقدار فضلها إلا الله ﷻ، وله سبحانه أن يخص ما شاء بما شاء باعتبار الزمان والمكان وكيفية الأداء، فالصلاة في جماعة تفضل صلاة المنفرد بسبع وعشرين ضعفاً، فلا حَجَرَ على فضله تعالى، ولا اعتراض عليه، فهو الحكيم العليم.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «سننه» [٣٠٦/٤]: عن مجاهد: أَنَّ النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله تعالى ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأنزل الله تعالى السورة.

وذكر الإمام مالك في «الموطأ» [١٥/٢٦٣/١]: أَنَّ النبي ﷺ أُرِيَ أعمار الأمم كافة، فاستقصر أعمار أمته، وخاف ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاها الله تعالى ليلة القدر.

واستأنفت الآيات تبين ما ينزل فيها من الرحمات والبركات والخيرات:

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ﴾.

﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ وهو جبريل ﷺ، خُصَّ بالذكر لزيادة شرفه،

وقيل: ملك عظيم، وقيل: طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة، يتنزلون فيها بالسلام على المؤمنين، وذكروا أن جبريل لا يدع أحداً من المؤمنين إلا سلّم عليه وصافحه، وعلامة ذلك رقة القلب، ودمع العين.

﴿يَاذِنُ رَبِّهِمْ﴾ أي: يتنزلون بإذن ربهم، فأمر تنزلهم أمر عظيم.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرِ﴾ أي: من أجل كل أمر تعلّق به التقدير في تلك الليلة، أو من كل أمر من أمور الخير والبركة والسلام.

﴿سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾.

أي: ما هي إلا سلام إلى وقت طلوع الفجر، فهي ليلة السلام، لا يقدر الله فيها إلا السلام، أنزل الله فيها القرآن الكريم لينشر السلام بين شعوب الأرض، وفي أطراف المعمورة، بينما يقدر في غيرها السلام والبلاء.

وفي قراءة: (مطلع) بكسر اللام.

وقد ورد لليلة القدر علامات أكثرها لا تظهر إلا بعد أن تمضي:

منها: ما في «صحيح مسلم» [٧٦٢]: عن زر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب رضي الله عنه فقلت: إن أذاك ابن مسعود يقول: مَنْ يَثْمِ الحَوْلَ يَصُبُّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فقال: رحمه الله، أراد ألا يتكل الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان، وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين. ثم حلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين. فقلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها.

ولابن خزيمة [٢١٩٠]: من حديث ابن عباس رضي الله عنه مرفوعاً: «ليلة طلقة لا حارة ولا باردة، تصبغ الشمس يومها حمراء ضعيفة».

ولأحمد [٣١٨/٥]: من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً: «إن الشمس في صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر».

وهي في رمضان، وتُلْتَمَس في العَشْرِ الْأَوَاخِرِ في الوتر منه، وفي الحديث الشريف: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» [رواه مسلم (٧٦٠)].



تفسير سورة البينة

دينُ القِيَمَةِ فِي سُورَةِ الْبَيِّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ ^(١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ حَرَّاهُمْ عَنْ رِبِّهِمْ حَنَّتِ غَدْنِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسَى رَبَّهُ ۖ ﴿٨﴾ .

بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَيِّنَةِ عُنَادَ وَجُحُودَ الْكَفَارِ، وَإِصْرَارَهُمْ عَلَى الْكَفْرِ بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَقَالَ:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۖ﴾ ^(١) .

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: من اليهود والنصارى.

﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ومن المشركين، وهم عبدة الأصنام والأوثان.

﴿مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: منتهين عن كفرهم ومنفصلين عنه وإن أتتهم البينة. فقوله: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ﴾ لفظه لفظ المستقبل ومعناه الماضي.

والبينة: رسول الله محمد ﷺ الذي بين لهم الحق وميزه عن الباطل.

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

أي: يتلو القرآن المطهر من الباطل والكذب والزور، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت].

وقوله أيضاً: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿﴾ [عبس].

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾.

أي: في تلك الصحف مكتوباتٌ مستقيمة ناطقة بالحق، قائمة بالحجة، ومع ذلك فإن أكثرهم لم ينتفع بها، وأعرض عنها.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

أي: وما تفرقوا عن الحق، إلا من بعد ما جاءهم الحق وقامت عليهم الحجة، وبلغتهم الدعوة ببعثة النبي ﷺ. فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

فقد كان أهل الكتاب قبل بعثة النبي ﷺ ينتظرونها ويقولون: لا ننفكُ عما نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يُبعثَ النبي الموعود، الذي كتب عندهم في التوراة والإنجيل. فلمَّا بُعث، كفر أكثرهم به، وأعرض عن دعوته، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فكفر الكافرين من أهل الكتاب بدعوة النبي ﷺ أقبح وأشنع من كفر المشركين من عبَاد الأوثان، ولهذا أفردهم سبحانه بالذكر بعد أن جمع بينهم

وبين المشركين، للدلالة على شناعة حالهم، وقُبْح كفرهم، فما أمروا في كتبهم إلا بعبادة الله وحده:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ۝﴾

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير رياء ولا نفاق.
 ﴿خُنَفَاءَ﴾ أي: مائلين عن العقائد الباطلة إلى عقيدة التوحيد.
 ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة عليهم.
 ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ للمستحقين لها.

﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: دين الملة المستقيمة التي شرعها الله تعالى؛ وهي الشريعة الإسلامية، فهي صراط الله المستقيم، وحبله المتين، ودينه القويم، فالتزموا بها، وتمسكوا بأحكامها، فإنَّ الإعراض عنها يؤدي إلى الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝﴾

أي: شر الخليقة التي برأها الله تعالى وذراها، لأنهم أعرضوا عن الشريعة القيِّمة.

وأما الذين تمسكوا بأحكامها وساروا على منهجها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝﴾

وفي قراءة في الموضعين: (البريئة) بالهمزة على الأصل، من برأ الله الخلق؛ أي: خلقهم.

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ﴿٨﴾

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فقبل أعمالهم.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما تفضل عليهم، وأنعم عليهم.

أو: ورضوا عنه فيما شرع لهم وقضى، فهو التسليم والإذعان لأمره الشرعي والقدري.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: ذلك الرضا لمن خاف ربه وعظمه، والتزم أحكام دينه القويم، فإن الخشية ملاك الأمر، والباعث على كل خير.

ولا شك أن منهم أبي بن كعب رضي الله عنه، ففي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأبي: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾» قال: وسَمَّاني؟ قال: «نعم» فبكى. [رواه البخاري (٣٨٠٩)].

وبكاؤه ﷺ إما فرحاً وسروراً بذلك، وإما خشوعاً وخوفاً من التقصير في شكر تلك النعمة.



تفسير سورة الزلزلة إِحْبَارٌ وَحِسَابٌ فِي سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُخْبِثُ أَخْوَارَهَا ۝٤ يَأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ۝٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾

يُنْطِقُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَشْهَدُ بِمَا عَمِلَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾.

أي: إذا حُرِّكَتِ الْأَرْضُ تحريكاً عنيفاً متداركاً، وهو الزلزال الشديد العجيب المخصوص بها الذي ليس بعده زلزال.

ويبدو أن هذا الزلزال يحدث عند النفخة الثانية لقوله تعالى:

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾.

أي: أخرجت الأرض موتاها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾

[الانشقاق: ٤].

ويمكن أن يكونَ هذا الزلزالُ في الدنيا، ويكونُ المرادُ من أثقالها: كنوزها

المدفونة فيها؛ لما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجئ القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجئ القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجئ السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه، فلا يأخذون منه شيئاً» [رواه مسلم (١٠١٣)].

ويستنكر الإنسان أمرها فبعد أن كانت قارة ساكنة ثابتة تغيرت حالها واضطربت:

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ (٣).

أي: ما لها زلزلت هذه الزلزلة الشديدة وأخرجت ما في بطنها؟!.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (٤).

أي: في هذا اليوم ينطقها الله تعالى، فتخبر بما عمل عليها من خير أو شر.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (٥).

أي: وإخبارها بسبب إحياء ربك إليها، وأمره إياها بالتحديث.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (٦).

أي: يصدرون عن قبورهم إلى أرض المحشر متفرقين، ليروا جزاء أعمالهم. أو يصدرون عن موقف الحساب متفرقين ذات اليمين إلى الجنة، وذات الشمال إلى النار، ليروا جزاء أعمالهم.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨).

والذرة: أصغر الأشياء، فليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدنيا إلا أراه الله تعالى إياه يوم القيامة.

وهذا يدل على دِقَّة الحساب وشموله واستقصائه كل الأعمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّيْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فأما المؤمن فيريه حسناته وسيئاته، فيغفر له من سيئاته، ويشبهه بحسناته، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَارَ مَا تُنتَهُونَ عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وأما الكافر فيريه حسناته وسيئاته، فيرد حسناته، ويعذبه بسيئاته، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهذه الآية من جوامع الدين الحاوية لفوائده أصلاً وفرعاً، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: سئل النبي ﷺ عن الحُمْر^(١) فقال: «لم ينزل فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٨)» [رواه البخاري (٤٩٦٣)].

فالآية ترعّب في الخير مهما كان قليلاً، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَرَّ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ» [رواه مسلم (١٠١٦)].

فالله جل وعلا لا يظلم أحداً شيئاً وهو القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].



(١) الحُمْر: جمع حمار، وهي الدابة التي تُركب وتحمل الأثقال.



تفسير سورة العاديات صِرَاعٌ وَحَسَابٌ فِي سُورَةِ الْعَادِيَّاتِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَّاتِ صَبَحًا﴾ ١ ﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَحًا﴾ ٢ ﴿فَالْمُعِيرَتِ صُبْحًا﴾ ٣ ﴿فَأَتَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ ٤ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ ٥ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ٦ ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ ٧ ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ٨ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ ٩ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ ١٠ ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ١١ .

الصراع في نفس الإنسان بين نوازع الخير ونوازع الشر أمر واقع مؤكد،
أكده تعالى بقوله في سورة العاديات:

﴿وَالْعَادِيَّاتِ صَبْحًا﴾ ١ .

أقسم بخيل الغزاة تعدو فتصبح صبحاً، وهو صوت أنفاسها عند العدو.

﴿فَالْمُورِيَّتِ قَدَحًا﴾ ٢ .

أي: فالتى توري النار بحوافرها، وتقذح قدحاً.

﴿فَالْمُعِيرَتِ صُبْحًا﴾ ٣ .

أي: فالتى تغير على العدو في وقت الصبح.

﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقَعًا﴾.

أي: فهيجن بذلك الوقت غباراً.

﴿فَوَسَطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

أي: فتوسطن بذلك الوقت جمعاً من جموع العدو، وهذا يدل على شدة الصراع في نفس الإنسان بين نوازع الخير ونوازع الشر. وجواب القسم:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.

أي: إنه لنعمة ربه لكفور أو لبخيل.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.

أي: وإن الله شاهدٌ على كونه كنوداً، أو إن الإنسان شاهد على نفسه بما صنع.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

أي: وإنه لحب المال لقوي مبالغ فيه، فهو قوي شديد في حب المال وإيثار الدنيا، كما في الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» [رواه البخاري (٦٤٣٦)]. وإن الإيمان بالحساب والجزاء يقوّي في نفس الإنسان نوازع الخير، ويقمع نوازع الشر:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

أي: إذا بُعث الموتى من القبور.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠)﴾ .

أي: ومُيِّز ما في الصدور من خير وشر كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)﴾ .

أي: إِنَّ رَبَّهُمْ لَعَلِيمٌ بما أعلنوا وما أسروا، ومجازيهم على أعمالهم من خير أو شر.





تفسير سورة القارة مَوَازِينِ الْأَعْمَالِ فِي سُورَةِ الْقَارِعَةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴿ وَأَمَّا مَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠﴾ سَاءَ حَامِيَةٌ ١١﴾.

عَظَّمَ اللهُ أَمْرَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ شَأْنُهَا فَقَالَ:

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴿.

وأصل القرع الصوت الشديد، ومنه قوارع الدهر، وسُميت القيامة بذلك لأنها تفرغ القلوب بأحوالها وشدائدها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾.

أي: لا علم لك بكنهها، فكيفما قدرت هولها وشدتها فهي أعظم من ذلك.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤﴾.

أي: المتفرق، وشبه الناس بالفراش لكثرتهم واضطرابهم وضعفهم واختلافهم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْمِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴾ .

أي: كالصوف المندوف المتفرق، وذلك لأنها تتفرق أجزاءها، وتنسف في ذلك اليوم حتى تصير كالصوف المتطاير عند الندف كما في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة].

وبعد أن عظم تعالى أمر القيامة، وهول شأنها بين أحوال الناس فيها:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧﴾ .

أي: فأما من رجحت حسناته على سيئاته فهو في عيشة ذات رضا، يرضاها صاحبها لأنها في الجنة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨﴾ .

أي: وأما من رجحت سيئاته على حسناته.

﴿فَأَمَّهُ هَكَايَةً ٩﴾ .

أي: فمسكنه النار، سُمِّيَ المسكن أمًّا على التشبيه، لأن الأم مأوى الولد ومَفْزَعُه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ ١٠﴾ .

أي: الهاوية، والهاء للسكت.

﴿نَارُ حَامِيَةٍ ١١﴾ .

أي: حارة بلغت النهاية في الحرارة.





تفسير سورة التكاثر تَنْبِيْهُ الْعَاقِلِيْنَ فِي سُوْرَةِ التَّكَاثُرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ
لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧

بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّكَاثُرِ أَنَّ حُبَّ الْمَالِ وَالرَّغْبَةَ فِي كَثْرَتِهِ أَهْمُ أَسْبَابِ
الْغَفْلَةِ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، فَقَالَ:

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ①.

أي: شغلكم التباهي بكثرة المال، والتباري به عن طاعة الله، قال تعالى:
﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوَّلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَخْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَالُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: عن مُطَرَف، عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ:
﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقول ابنُ آدمَ: مالي مالي، وهل لك يا ابنَ آدمَ منْ مالِكَ
إِلا ما أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأَمْضَيْتَ» [رواه مسلم (٢٩٥٨)].

﴿حَقَّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾

أي: وتمادى بكم ذلك حتى حضركم الموت، وزرتم المقابر، ودفنتم فيها. والتعبير بالماضي لتحقيق الوقوع، وأشارت الآية إلى البعث من القبور، فكأنه تعالى قال: حضرتم في المقابر زواراً ترجعون منها بعد البعث والحساب إلى منازلكم من الجنة أو النار كرجوع الزائر إلى منزله.

وفي الحديث الشريف: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى رَجُلٍ يَعُودُهُ فَقَالَ: «لَا بَأْسَ طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فقال: كلا، بل هي حُمَى تفورُ على شيخٍ كبيرٍ حتى تُزِيرُهُ القبورُ. قال النبي ﷺ: «فَنَعَمْ إِذَا» [رواه البخاري (٥٦٦٢)].

وفي تفسير ابن كثير: عن ميمون بن مهران قال: كنتُ جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقراً: ﴿أَلَهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ﴿حَقَّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ﴿فَلَبِثْتُ هُنِيهَةً﴾ ثم قال: يا ميمون؛ ما أرى المقابر إلا زيارةً، وما للزائر بدٌّ من أن يرجع إلى منزله.

قال القرطبي رحمه الله: «لم يأت في التنزيل ذكرُ المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكّرُ بالموت والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبرَ أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال: «أستأذنتُ ربِّي في أن أستغفرَ لها فلم يُؤذَنَ لي، وأستأذنتُ في أن أزورَ قبرَها فأذِنَ لي، فزوروا القبورَ فإنَّها تذكِّرُكم الموتَ» [رواه مسلم (٩٧٦)].

وأخرج ابن ماجه [١٥٧١] بإسناد صحيح: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنَّها تزهِّدُ في الدنيا، وتذكِّرُ الآخرة».

وبعد أن واجهتهم الآيات بهذه الحقيقة توعدهم وأنذرتهم لينتبهوا من غفلتهم:

(١) تفسير القرطبي: ١٧٠/٢٠.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣)﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه، معناه: لا ينبغي أن يكون جميع سعيكم وهمكم للدنيا فقط، وتغفلون عن أمر الآخرة.
 ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت، وصدق من قال: الناس نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)﴾.

وهو إنذار بعد إنذار ليخافوا ويتنبهوا من غفلتهم.
 أو: كلا سوف تعلمون ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ثم كلا سوف تعلمون ما ينزل من العذاب في الآخرة، فتضمنت السورة القول في عذاب القبر. والإيمان به واجب، والتصديق به لازم، كما قال القرطبي رحمته الله، كما تضمنه قوله تعالى أيضاً: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].
 وقوله أيضاً في فرعون وآله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وذكرنا عند تفسيرها أن الإمام البخاري في صحيحه، بؤب كتاب الجنائز فقال: باب ما جاء في عذاب القبر. وذكر هذه الآية وعدداً من الأحاديث الشريفة.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥)﴾.

أي: حقاً لو تعلمون ما ينتظركم بعد الموت كعلمكم ما تستيقنونه الآن في حياتكم الدنيا لشغلكم ذلك عن التفاخر والتكاثر، ونبهكم من غفلتكم.
 وجواب (لو) محذوف، حُذف للتفخيم والتهويل.
 ثم بين سبحانه ما أُنذرههم به وأكده بالقسم فقال:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾

أي: لترون الجحيم يوم القيامة. كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنذَكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّ لَهُ الْذِكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣].
وفي قراءة: (لثرون) بضم التاء.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾

أي: رؤية عين ومشاهدة محسوسة وواقعة، فلعل الأولى لرؤيتها من بعيد، والثانية عند ورودها أو المرور على الصراط فوقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَاْرِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ نَتَجَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٦﴾ [مريم].

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

أي: لتسألن عن النعيم الذي ألهاكم، وجعلكم من الغافلين، أو عن شكر ما أنعم الله به عليكم.

وللمفسرين في المراد بالنعيم أقوال كثيرة، أصحها أنه عام في كل نعيم، لقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة ؓ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا».

فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم

قال: الحمد لله، ما أحدُ اليومَ أكرمَ أضيافاً مِنِّي، فانطلق، فجاءهم بِعِدْقٍ فيه بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ. فقال: كلوا من هذا. وأخذَ المُدِّيَةَ فقال له رسولُ الله ﷺ: «يَاكَ والحلوب» فذبحَ لهم.

فأكلوا من الشاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ، وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُّوا قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ وعمرَ: «والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النِّعَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النِّعَمِ» [رواه مسلم (٢٠٣٨)].

والمرادُ من السؤالِ السؤالُ عن القيامِ بحق شكره.

وفي جامع الترمذي [٢٤١٧]: عن أبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَا عَمِلَ فِيهِ».





تفسير سورة العَصْرِ الْإِنْسَانُ وَالزَّمَانُ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

العمر أهم ما يُسأل عنه الإنسان، فالوقت في الإسلام هو الحياة، وما عرف الحياة حق المعرفة إلا المؤمنون الصالحون، وهو ما أكدته تعالى بقوله:

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ .

وهو قَسَمٌ بالزمان مطلقاً، تنبيهاً على أهميته، فهو خزانة أعمال العباد، ورأس مال حياتهم، وأكثرُ الناس يضيعونه كما جاء في الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ» [رواه البخاري (٦٤١٢)].

فالحياة تجارة، فمن استعملها في طاعة الله فهو الرابع، ومن استعملها في غير ذلك فهو الخاسر المغبون، ورحم الله القائل: مَنْ فاتهُ مزيدُ ربحٍ وهو قادرٌ على دَرْكِهِ فهو مغبونٌ، فاملاً خزائن أوقاتك بكنوز أعمالك، ولا تدعها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب نجاتك.

قال النبي ﷺ: «اغتنم خمساً قبلَ خمسٍ: شبابَكَ قبلَ هرمِكَ، وصحتَكَ قبلَ سقمِكَ، وغناكَ قبلَ فقرِكَ، وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ، وحياتَكَ قبلَ موتِكَ» [رواه الحاكم في «المستدرک» (٤/٣٠٦) وابن المبارك في «الزهد» بسندٍ صحيح] (١).

وقد يكونُ قوله: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ قسماً بعصرٍ معيّن، قالوا: هو عصر الرسول ﷺ، فهو أنصرُ العصورِ وأفضلُها وأشرفُها، أقسم الله تعالى بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ [البلد].

أو هو زمانه و زمان أمته إلى يوم القيامة، ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمعَ رسول الله ﷺ يقول: «إنما بقاؤكم فيما سلفَ قبلكم من الأمم كما بين صلاةِ العصرِ إلى غروبِ الشمسِ، أوتي أهلُ التوراةِ التوراةَ فعملوا، حتّى إذا انتصفَ النهارُ عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعملوا إلى صلاةِ العصرِ، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآنَ، فعملنا إلى غروبِ الشمسِ، فأعطينا قيراطينِ قيراطينِ، فقال أهلُ الكتابينِ: أي ربنا أعطيتَ هؤلاءِ قيراطينِ قيراطينِ، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحنُ كنا أكثرَ عملاً؟ قال الله ﷻ: هل ظلمتُكم من أجرِكُم من شيءٍ؟ قالوا: لا. قال: فهو فضلي أوتيهِ مَنْ أشاء» [رواه البخاري (٥٥٧)].

ويمكن أن يكونَ المرادُ: وقتَ العصرِ من النهارِ، فكما أقسم الله بالضحى من النهارِ أقسم بعصره.

أو: المراد صلاةِ العصرِ، التي هي الصلاة الوسطى التي نوّه الله تعالى بها في قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. وجواب القسم:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لفي خسرانٍ ونقصانٍ، والمراد جنس الإنسان، فهو في خسرانٍ مستمرٍ، وهو تضييع عمره، فكل لحظة تنقص من عمره.

(١) انظر: قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى (ن).

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٢).

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهم ليسوا في خسران، فكل ما مرَّ من عمر الإنسان في طاعة الله وعبادته فهو في خير وصلاح، أولئك الذين اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وفازوا وأفلحوا، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

﴿وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: وأوصى بعضهم بعضاً بالتمسك بالحق والثبات عليه والاستقامة.

والمراد به: الحق في جميع أمور الحياة المقابل للضلال، فهو يشمل الحق في الاعتقاد والعبادة والمعاملة والأخلاق، قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصَرِّفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: وتواصوا بالصبر عن المعاصي التي تميل إليها النفس، وعلى البلايا والمصائب التي يُبتلى بها العباد.

وليس المراد من الصبر حَبْسَ النفس فقط على المكروه، بل هو تلقي ما يأتي من الله ﷻ بالرضا باطناً وظاهراً، فكأنَّ في التواصي بالحق رتبة العبادة التي هي فعل ما أمر، وفي التواصي بالصبر رتبة العبودية التي هي الرضا بما قَدَّرَ.

وكان الصحابة يقرأ بعضهم على بعض هذه السورة كلما التقوا، فقد أخرج الطبراني في «الأوسط» [٢١٥/٥] والبيهقي في «الشَّعْب»: عن عبد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾، ثم يسلم أحدهما على الآخر.

وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: لو تدبَّرَ الناسُ هذه السورة لوسعتهم.





تفسير سورة الهُمزة تَخْطِئُ الْمُسْتَكَبِرِينَ فِي سُورَةِ الْهُمَزَةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ ۖ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. (٣) كَلَّا لَا لِيُبَدَّنَ فِي الْخَطْمَةِ ۖ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ۖ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۖ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ ۖ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۖ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۖ (٩)﴾

توَعَّد الله تعالى في سورة الهُمزة الأغنياء المستكبرين الذين يسخرون من الناس، فقال:

﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٌ ۖ (١)﴾

أي: هلاك لكل طَعَانٍ عَيَّابٍ، اعتاد على الطعن في الناس وانتقاصهم وإظهار عيوبهم.

وأصل الهمز: الكسر والقبض على الشيء بالعنف، والمراد هنا الكسر من أعراض الناس، والغضب منهم، والطعن فيهم، ويدخل فيه مَنْ يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه^(١).

وقد توَعَّدَ الله أمثال هؤلاء الناس بعدد من الآيات؛ منها قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

ومنها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾.

أي: جمع بعضه على بعض، وجعله عِدَّةً للنوازل.
أو: عَدَّه مرةً بعد أخرى حبًّا له، وشغفًا به، فهو من العدد.
وفي قراءة: (جَمَعَ) بالتشديد.

وإنما وصفه بهذا الوصف، لأنه يجري مجرى السبب والعللة في الهمز واللمز، فهو بإعجابه بما جمع من المال يستصغرُ الناس، ويسخرُ منهم، وتكبيرُ (مالاً) للتحقير، فمهما كان ماله كثيراً فهو قليل وحقيق.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾.

أي: يظنُّ أنه يخلد في الدنيا ولا يموت بسبب كثرة ماله.

فالمال طَوَّلَ أمله في الحياة، ومَنَّاه الأمانى البعيدة، فهو يشيد البنيان، ويؤسس المصانع، ويزرع المزارع، ولا يدري أن أجله قريب، فالأجلُ أقربُ إلى الإنسان من أمله.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خطَّ النبي ﷺ خطوطاً فقال: «هذا الأملُ، وهذا أجلُه، فبينما هو كذلك إذا جاءه الخطُّ الأقربُ» [رواه البخاري (٦٤١٨)].

ورواه الترمذي [٢٣٣٤] بلفظ: «هذا ابنُ آدمَ، وهذا أجلُّه» ووضع يده عند قفاه، ثم بسطها وقال: «وتمَّ أمله».

وقال الحسن رضي الله عنه: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقينَ فيه من الموت، ومعناه: أنَّ الناسَ لا يشكُّونَ بالموتِ مع أنَّهم يعملونَ عملَ من يظنُّ أنه يخلدُ في الدنيا ولا يموت^(١).

﴿لَا لِيُبَدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ﴾

﴿لَا﴾ أي: لا يخلده ماله، فهو ردع له عن حسبانِه.
﴿لِيُبَدَنَّ فِي الْخُطْمَةِ﴾ أي: ليُطْرَحَنَّ في النار التي تأكل اللحوم وتكسر العظام.

والمعنى: يا أيها الهمزة اللزمة الذي يأكل لحومَ الناس، ويكسرُ من أعراضهم، إنَّك ستطرح بالحطمة، التي تحرق اللحومَ، وتكسرُ العظام.
وعظمُ سبحانه أمرها وهولُه فقال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ﴾

فهي نارٌ لا كسائر النيران.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْفِدَةُ﴾

أي: هي نارُ الله التي أوقدها سبحانه، فلا يقدر أحد أن يطفئها.

﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ﴾

أي: التي تحرقُ كلَّ شيءٍ، حتى تنتهي إلى القلوب، وتستولي عليها.

أو: التي يبلغ ألمها إلى القلوب التي تكمن فيها الكبرياء وبواعث الهمز واللمز.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۖ﴾ (٨)

أي: مطبقة مغلقة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۖ﴾ (١٩)
عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوَصَّدَةٌ ﴿[البلد].

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۖ﴾ (٩)

أي: أُطبقت عليهم الأبواب، ثم شُدَّتْ بأوتاد من حديد حتى يرجع عليهم غمُّها وحرُّها.

وفي قراءة: (عُمُدٍ) بضمّتين، جمع عمود.





تفسير سورة الفيل نَحْطِمْ أَصْحَابَ الْفِيلِ فِي سُورَةِ الْفِيلِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ① ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ② ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا﴾
﴿أَبَابِيلَ﴾ ③ ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ④ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ ⑤ ﴿

أهلك الله أصحاب الفيل الذين أرادوا هدم بيته الحرام في العام الذي ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ① ﴿

أي: ألم تعلم وتُخبر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟! .
والاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، ويراد به العموم، ومعناه: قد رأيتم ذلك، وعرفتُم موضع مَنّي عليكم.
وقصة أصحاب الفيل كانت إرهاباً وتوطئة لمولده ﷺ، ولما نزلت هذه السورة وتلاها عليهم النبي ﷺ كان في المشركين من أهل مكة عددٌ كبيرٌ ممن أدرك أحداثها.

فالمراد تذكيرهم بما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزته، وتعجيبٌ من كفر المشركين، الذين شاهدوا هذه العظمة من آيات الله

تعالى، كما أنَّ فيها تثبيتاً للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يواجه أذى المشركين وعنادهم، فعنايتهُ تعالى بنبيه عليه الصلاة والسلام أقوى وأتم من عنايته ببيته الحرام، فكأنه تعالى قال: أنا الذي فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل تعظيماً لك وتشريفاً لقدمك، وإذ قد نصرْتُك قبل قدمك فكيف أتركك بعد ظهورك^(١)؟!.

ويؤيد الإرهاصَ قصةُ القرامطة الذين استحلوا حرمة البيت الحرام في موسم حج عام (٣١٧هـ) وقتلوا كثيراً من الحجاج، وألقوا جثثهم في بئر زمزم، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم، وبقي عندهم إلى أن ردَّوه بأمر من الخليفة الفاطمي في مصر بعد اثنين وعشرين عاماً.

وقصة أصحاب الفيل باختصار: أنَّ أبرهةَ الحبشي الذي كان يحكم اليمن في ذلك الوقت بنى كنيسةً بصنعاء، وسَمَّاها القُلَيْس، ليصرفَ إليها الحاجَّ عن بيت الله الحرام، فخرجَ رجلٌ من كنانة، فقعدها فيها ليلاً (أي: تغوَّط فيها) فأغضبَ أبرهةَ ذلك، وحلفَ ليهدمَنَّ الكعبةَ، وخرج بجيش كبير، ومعه فيلٌ قوي، ولَمَّا وصل إلى أرض الحرم تهيأ للدخول، وعَبَّأ جيشه، وقَدَّمَ الفيلَ فبرك، ولم يتزحزح. ثم أرسل الله طيراً تحمل حجارة، فرمتهم بها فهلكوا جميعاً.

ومرَّ معنا في الحديث الشريف في صَلْحِ الحديبية: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لما كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركتُ به راحلته، فقال الناسُ: حَلْ حَلْ، فَالَحَّتْ، فقالوا: خلأتِ القصواءُ (أي: حَرَنْتُ) فقال النبي ﷺ: «ما خلأتِ القصواءُ، وما ذاك لها بِخُلُقٍ، ولكن حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ» ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خِطَةً يعظُمون فيها حرَمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا» ثم زجرها فوثبت. [رواه البخاري (٢٧٣١)].

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة المشرفة في تضليل.

وإبطال، فلم يصلوا إلى ما أرادوا، بل رجع كيدهم عليهم وهلكوا.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾.

أي: جماعات جماعات من هاهنا ومن هاهنا.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: من طين متحجر، فهي كالحجارة التي أنزلها الله على قوم لوط عندما أهلكهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ ﴿٥﴾﴾.

أي: كتبني أكلته الدواب، ثم رائته.
شبه تعالى تقطع أجسادهم وتفرقها بتفرق أجزاء الرّوث.





تفسير سورة قريش الطَّعَامُ وَالْأَنْفُ فِي سُورَةِ قُرَيْشٍ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ① إِلَّا مِثْمُ رَحَلَةٍ أَلْشَّاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④﴾

ولما ردَّ الله الحبشة عن مكة عَظُمَتِ العربُ قريشاً، وقالوا: أهل حرم الله،
قاتل عنهم وكفاهم مؤونةً عدوهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم ذكَّروهم بها
وأمرهم بشكره وعبادته، فقال:

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ①﴾.

أي: أهلك الله أصحابَ الفيلِ نعمةً منه على قريشٍ، فاثتلفوا واجتمعوا في
مكة المكرمة آمنين.

فالإيلاف: مصدرُ ألفَ رباعياً. وإلاف: مصدرُ أَلَفَ ثلاثياً.

ورأى بعضهم أنَّ هذه السورة متصلةٌ بالتي قبلها في المعنى، كأنه تعالى
يقول: أهلكْتُ أصحابَ الفيلِ لتأتلفَ قريشٌ وتجتمعَ.

ثم فَحَّمْ تعالى أمرَ الإيلافِ وعظمه بقوله:

﴿إِلَيْهِمْ رَحَلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (٢)

وكان لهم رحلتان للتجارة: يخرجون إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء، ف (رحلة) منصوبة بإيقاع الفعل عليها.

وقرئت: (لِإِلَافٍ) بغير همز، و(لِإِلَافٍ) دون ياء.

و(لِإِلَافِهِمْ) دون ياء، و(لِإِلَافِهِمْ) بلام ساكنة وليس قبلها ياء.

وبعد أن ذكّرهم تعالى بما خصّهم من النعم، أمرهم بعبادته والقيام بشكره:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣)

وهو الكعبة المشرفة، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (٤)

أي: الذي تفضّل عليهم بنعمة الغنى، ونعمة الأمن، فلا يصيبهم ما يصيب غيرهم من الجوع والخوف، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا أَمِنًا وَيُنَظَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولا شك أنّ نعمه تعالى عليهم كثيرة لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهاتين النعمتين: الأمن والطعام، فدل ذلك على أنهما من نعم الله الجليلة، التي تستوجب شكره، وشكره لا يكون إلا بعبادته سبحانه وحده كما شرع وأمر على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام.





تفسير سورة الماعون عَلَامَاتُ الْمُكَذِّبِينَ بِالذِّينِ فِي سُورَةِ الْمَاعُونِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِ ①﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ② وَلَا يُخْصُ عَلَى طَعَامِ
الْمَسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكِبُونَ
⑥ وَيَسْمَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦﴾ .

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِ ①﴾ .

أي: هل عرفتَ الذي يكذبُ بيوم الجزاء والحساب مَنْ هو؟ .

فهو استفهامٌ يراؤ به المبالغة في التعجيب من حال المكذب بيوم القيامة،
يخاطبُ الله تعالى به كلَّ إنسانٍ عاقلٍ، أو هو تشويق المخاطب إلى معرفة
صفات المكذب بالدين ليحترز منها ويتجنبها .

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ②﴾ .

أي: فذلك الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى، ويردُّه بخشونة فلا
يعطيه حقه ولا يواسيه .

﴿وَلَا يَخُصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۝﴾

أي: لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه، وهذا غاية البخل، فهو يبخل بماله وبمال غيره.

فالإقدام على إيذاء الضعيف، ومنع المعروف، من أبرز علامات المكذب بالحساب والجزاء. فالمنسلخون عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى انسلخوا في الحقيقة عن المشاعر الإنسانية الكريمة، وتغلّبت عليهم الأثرة والأنانية وحب الذات والسمعة والرياء، ولهذا توعدّهم تعالى بقوله:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾

أي: غافلون لاهون غير مباليين بها، فهم ساهون عن فعلها بالكلية.
أو: يؤخرونها عن وقتها، وقد جاء في الحديث الشريف: أن هذا من علامات المنافقين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تلك صلاةُ المنافقِ يجلسُ يرقُبُ الشمسَ، حتى إذا كانت بينَ قرني الشيطانِ قامَ فنقرها أربعاً، لا يذكرُ اللهَ فيها إلا قليلاً» [رواه مسلم (٦٢٢)].

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝﴾

أي: يصلّونها رياءً وسمعةً ليراهم الناس، ويثنوا عليهم، فهم كما قال تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝﴾

أي: ويمنعون ما يتعاور في العادة بين الناس من متاع البيت كالفأس والقدر والدلو.

فهم لم يحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهم لمنع الزكاة وأنواع النفقات الواجبة أولى. فالآية تزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيمة، فإنَّ البخلَ بها غايةُ البخل، قال العلماء: يستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران، فيعيرهم، ويتفضل عليهم، ولا يقتصر على الواجب^(١).





تفسير سورة الكوثر إِعْطَاءٌ وَسُكْرٌ فِي سُورَةِ الْكَوْثَرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَثَرُ ﴿٣﴾﴾

أمر الله تعالى النبي ﷺ بإخلاص العبادة لله، ومساعدة المحتاجين، شكراً على ما أعطاه، وذلك في مقابل الذين لم يحسنوا عبادة الله، ولا أحسنوا إلى خلقه.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾

أي: إنا أعطيناك الخير الكثير من العلم والعمل وشرف الدنيا والآخرة.

فقد حدث أبو بشر: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإنَّ الناس يقولون: هو نهرٌ في الجنة، فقال سعيد: النهرُ الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. [رواه البخاري (٤٩٦٦)].

وأصلُ الكوثر فَوْعَلٌ من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد وكثير في القدر والخطر كوثرًا، فهو الفضائل الكثيرة التي فُضِّلَ بها عليه الصلاة

والسلام على جميع الخلق، فقد أعطي: النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والإسلام، وإظهاره على الأديان كلها، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده. وأولى الأقوال في الكوثر الذي عليه جمهور العلماء: أنه نهر في الجنة كما جاء مبيناً في الحديث:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءً، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت عليّ أنفأ سورة» فقرأ ﴿يَسِّرْ اللَّهُ الرِّجْمَ ۝ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۝ إِنِّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾.

ثم قال: «أندرون ما الكوثر؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي ﷻ، عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حوضٌ تردُّ عليه أمتي يوم القيامة، آتيته عددُ النجوم، فيختلجُ العبدُ منهم (أي: ينتزع ويقتطع) فأقول: ربِّ إنه من أمتي. فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك» [رواه مسلم (٤٠٠)].

وعن أنس رضي الله عنه أيضاً قال: لما عُرجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيتُ على نهرٍ حافتاهُ قبابُ اللؤلؤِ مجوّفاً، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الْكَوْثَرُ» [رواه البخاري (٤٩٦٤)].

ولما سُئِلَت السيدة عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝﴾ قالت: هو نهرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ؛ شاطئاهُ عليه درٌّ مجوّفٌ، آتيته كعددِ النجوم. [رواه البخاري (٤٩٦٥)].

قال ابن حجر رحمته الله: «ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ﷺ فلا معدّل عنه»^(١).

قال الشيخ محيي الدين النووي: «قال القاضي عياض: أحاديثُ الحوضِ

صحيحة، والإيمانُ به فرضٌ، والتصديقُ به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يتأول، ولا يُختلف فيه، وحديثُه متواترُ النقل^(١).

والإعطاء إيتاءٌ على جهة التمليك، وفيه إشارة إلى أن المُعطى وإن كان كثيراً في نفسه، فهو قليل بالنسبة إلى شأنه عليه الصلاة والسلام، بناءً على أن الإيتاء لا يستعمل إلا في الشيء العظيم، والإعطاء يستعمل في القليل والكثير^(٢).

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾

أي: فاعبد ربك الذي أعزك بما أعطاك مراغماً للمشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، وانحُرْ له وباسمه مخالفاً لعبدة الأوثان، وتصدَّق على المحاوِج، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريكَ لله. وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [الأنعام].

ولهذا كان النبي ﷺ يصلي صلاة العيد في يوم الأضحى ثم يذبح أضحيته.

﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

أي: إن عدوك ومبغضك هو المنقطع عن كل خير.

أو: هو الذي لا عقب له.

أو: هو الضعيف الحقير، وأنت الأعزُّ الأشرف، تبقى ذريتك وحسنُ صيتك، وآثارُ فضلك إلى يوم القيامة.

وأصل البتر: القطع، وشاع في قطع الذنب، وقيل لمن لا عقب له: أبتر،

(١) تفسير الخازن: ٥٨٢/٦.

(٢) انظر: روح المعاني: ٣١٥/٣٠.

على الاستعارة، والأبترية معللة بالبغض فتدور معه، والظاهر أنه انقطع نسل كل من كان مبغضاً له عليه الصلاة والسلام حقيقة^(١).

والجملة كالتعليل لمفهوم الكلام؛ فكأنه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم، فصلّ وانحر خالصاً لوجه ربك، ولا تكثر لقول الشانئ الكريه، فإنه هو الأتر لا أنت.

فالله سبحانه يبتز شانئ رسول الله ﷺ من كل خير، وهو يعم جميع من اتصف بذلك.





تفسير سورة الكافرون إِغْلَانُ الْبَرَاءَةِ فِي سُورَةِ الْكَافِرُونَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾

دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنةً، ويعبدون الله سنةً،
فأنزل الله هذه السورة، يأمر النبي ﷺ أن يعلن إخلاصه في عبادة الله واستقامته
على دينه.

﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ ۝﴾

وهم كفرةً مخصوصون، علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝﴾

أي: لستُ عابداً ما تعبدون، فلا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من
عبادة آلهتكم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣).

أي: ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة الله وحده.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ (٤).

أي: ولا أنا عابد في الحال معبودكم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥).

أي: ولا أنتم في الحال بعايدن معبودي.

فكل واحدٍ منهما يصلح أن يكون للحال والاستقبال، ولكن يختص أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال، وقد يكون المراد التكرار ليفيد التوكيد، وكلما كانت الحاجة إلى التوكيد أشد كان التكرار أحسن، ولا موضع أحوج إلى التوكيد والتكرار من هذا الموضع^(١)، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦).

أي: لكم شرككم الذي أنتم عليه، ولي ديني الذي أنا عليه، وهو الإسلام لله تعالى وحده، فهو الدين عند الله.

وسمى دينهم ديناً، لأنهم اعتقدوه، وتولّوه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].





تفسير سورة النّصر نَسِيحٌ وَاسْتِغْفَارٌ فِي سُورَةِ النَّصْرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾.

أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يكثر في آخر حياته من التسبيح والاستغفار:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾.

أي: إذا أظهر الله دينه، وفتحت مكة وسائر بلاد الشرك.

فالمراد من المجيء الحصول، فقد فتحت مكة في العام الثامن من الهجرة. فعن ابن عباس رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي رَمَضَانَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ عَشْرَةُ آلَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِي سِنِينَ وَنِصْفٍ مِنْ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ، فَسَارَ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى مَكَّةَ يَصُومُونَ وَيَصُومُونَ حَتَّى بَلَغَ الْكَدِيدَ (وهو ماء بين عُسْفَانَ وَقُدَيْدٍ) أَفْطَرُوا وَأَفْطَرُوا. [رواه البخاري (٣/٨)].

وعن عروة بن الزبير قال: لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك قُرَيْشًا، خَرَجَ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءٍ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظُّهْرَانَ، فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانَ كَأَنَّهَا

نيران عَرَفَة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكَأَنَّهَا نيرانُ عَرَفَة. فقال بدیل بن ورقاء: نيران بني عمرو. فقال أبو سفيان: عمرو أقلُّ من ذلك. فرأهم ناسٌ من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان. فلمَّا سار قال ﷺ للعباس: «احبس أبا سفيان عند حَظْمِ الجبلِ حتَّى ينظُرَ إلى المسلمين».

فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمرُّ مع النبي ﷺ، تمرُّ كتيبةً كتيبةً على أبي سفيان، فمرَّت كتيبةٌ فقال: يا عباسُ مَنْ هذه؟ فقال: هذه غفارٌ، قال: ما لي ولغفار؟! ثم مرَّت جُهَيْنَةُ، قال مثل ذلك، ثم مرَّت سعد بن هذيم، فقال مثل ذلك، ومرت سليم، فقال مثل ذلك.

حتَّى أقبلت كتيبةٌ لم يُرَ مثلها قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعدُ بنُ عبادة معه الراية، فقال سعدُ بن عبادة: يا أبا سفيان، اليومُ يومُ الملحمة، اليومُ تستحلُّ الكعبةُ. فقال أبو سفيان: يا عباسُ حبِّذا يومُ الذمارِ (أي: تمنى أن يكون له يدٌ فيحمي قومه ويدفع عنهم).

ثم جاءت كتيبةٌ، وهي أقلُّ الكتائب فيهم رسولُ الله ﷺ وأصحابه، ورايةُ النبي ﷺ مع الزبير بن العوام، فلمَّا مرَّ رسولُ الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعدُ بنُ عبادة؟ قال: «ما قال؟» قال: قال كذا وكذا. فقال: «كذبُ سعدٍ، ولكن هذا يومٌ يعظمُ الله فيه الكعبةَ، ويومٌ تكسى فيه الكعبةُ».

قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تركزَ رايتهُ بالحجُونِ. [رواه البخاري (٤٢٨٠)].

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾.

أي: ورأيت الناسَ يدخلون في الإسلامِ جماعاتٍ كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: فقل: سبحان الله حامداً له.

أو: فزفه تعالى حامداً له.

﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ تواضعاً له وشكراً.

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه» قالت: قلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. قال: «خبرني ربِّي أني سأرى علامة في أمتي، فإذا رأيتها أكثرْتُ من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها: إذا جاء نصر الله والفتح، فتح مكة. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً» [رواه مسلم (٤٨٤)].

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ أي: إنه لا يزال كثير القبول للتوبة من المسيئين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم.

وإذا كان رسول الله ﷺ وهو المعصوم يؤمر بالاستغفار فما الظن بغيره؟! وجاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن. [رواه مسلم (٤٨٤)]. أي: يفعل ما أمر به في القرآن. والجدير بالذكر أنه عليه الصلاة والسلام علم من هذه السورة قرب أجله:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمرُ يدخلني مع أشياخ بدرٍ فكان بعضهم وجدَّ في نفسه، فقال: لِمَ تُدْخِلُ هذا معنا، ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتُم. فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيتُ أنه دعاني يومئذٍ إلا ليربِّهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابنَ عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. [رواه البخاري (٤٩٧٠)].



تفسير سورة المسد خُسْرَانٌ وَعَذَابٌ فِي سُورَةِ الْمَسَدِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ۝٥﴾

عادت بنا الآيات في سورة المسد إلى أوّل مراحل الدعوة في مكة المكرمة .
ففي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتّى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه»^(١) فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرايتم إن أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تبّاً لك ما جمعتنا إلاّ لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ . [رواه البخاري (٤٩٧١)].

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾

أي: خاب وخسر صاحبها، وقد هلك وتحقق خسارانه وهلاكه .

(١) يا صباحاه: كلمة اعتادوا قولها عند وقوع أمر عظيم ليجمعوا ويتأهبوا له .

والتبَاب: هو الخسار المُفْضي إلى الهلاك، وفي الآية إخبارٌ بعد دعاء، والتعبير بالماضي لتحقيق وقوعه.

وفي قراءة: (أبي لهب) بسكون الهاء.

والمرادُ من اليد صاحبها، وهو أبو لهب، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وعدل عن الاسم إلى الكنية لما فيه من الشرك، ووافقت كنيته مآله، ومآله إلى النار، والنار ذات لهب. مات بعد وقعة بدر بالعدسة، فاجتنبه أهله مخافة العدوى، وكانت قريشُ تتقيها كالطاعون، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، فحفروا له حفرةً ودفعوه بعود حتى وقع فيها، ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمرُ كما أخبر الله تعالى.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ﴾

أي: ما أغنى عنه ماله وما كسب منه.

أو: ما كسب من أولاد، لأن ولد الإنسان من كسبه.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ﴾

أي: ناراً تلتهب عليه. وهو وعيد كائن لا محالة وإن تراخى وقته.

وفي قراءة: (سَيُصْلَى) بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ﴾

وهي أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان، كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، فهي تحملُ الحطب، فتلقيه على زوجها ليزدادَ عذاباً على ما هو فيه من العذاب. وكانت في غاية العداوة لرسول الله ﷺ، تحملُ الشوكَ والحسكَ فتطرحه بالليل في طريق رسول الله ﷺ لتؤذيه بذلك.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم: عن قتادة ومجاهد: أنها كانت تمشي بالنميمة، فالحطبُ مستعارٌ للنميمة، لأن النميمة توقد الشر بين الناس. وقد يكون المعنى: أنها كالحطب في مصيرها إلى النار، والجزاء من جنس العمل.

وقرأ عاصم: (حَمَّالَةَ الحُطْبِ) نصباً على الذم، أي: أذم حمالة الحطب، وقرأ الآخرون: (حَمَّالَةٌ) بالرفع.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

أي: في عنقها حبل ممّا مُسَدَّ وفُتِلَ من الحبال، وهذا يدل على شدته وغلظته، فالآية تبين حالها في نار جهنم.

وعن قتادة: أنّه كان في جيدها قلادةٌ من ودع، وقال الحسن: من خرز، وقال ابن المسيب: كانت قلادةً فاخرةً من جوهر، وأنها قالت: واللات والعزى لأنفقنّها على عداوة محمد، ولعلّ المراد على هذا أنها تكونُ في نارِ جهنّم ذات قلادة من حديد ممسود بدل قلادتها التي كانت لها في الدنيا، ويؤيّد ذلك أنه سبحانه قال: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ ولم يقل في عنقها، مع أنّ العنق يذكر مع الغل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨] فالجيدُ يذكر مع الحلي، ففي الآية تهكم بها وتحقير لها^(١).

أخرج ابن أبي حاتم: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنتُ حرب ولها ولولة، وفي يدها فهر (حجر) وهي تقول:

مذمّماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا

ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في المسجدِ ومعه أبو بكر، فلمّا رآها أبو بكرٍ قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخافُ عليك أن تراك، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنّها

لَنْ تَرَانِي» وقرأ قرآنًا اعتصم به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إني أخبرتُ أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريشُ أني ابنه سيدها.

أورده ابن كثير في تفسير هذه السورة، ثم قال: قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطنًا ولا ظاهراً، لا سرّاً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة.





تفسير سورة الإخلاص الْأَحَدُ الصَّمَدُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أَنَّ الْمَشْرِكِينَ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ انْصِبْ لَنَا رِبْكَ،
فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ. [أخرجه أحمد (١٣٤/٥) والترمذي (٣٣٦٤) والطبراني في الأوسط
(٣٠٢/٣٠) وأبو يعلى (٢٠٤٤)].

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾.

أي: الشأن هذا، وهو أَنَّ الله واحدٌ لا ثانيَ له، ف (هو) ضميرُ الشأنِ،
ومحلُّه الرفعُ على الابتداء، خبره الجملةُ بعده، والسرُّ في تصديرها به التنبيه على
فخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير ^(١).

أو الذي سألتُموني عنه هو الله الواحد في الألوهية والربوبية، الموصوف
بصفات الكمال والعظمة، المنفرد عن الشَّبه والمِثْلِ والنظير، فلا يوصَفُ أحدٌ

(١) روح المعاني: ٣٤٥/٣٠.

بالأحدية غير الله تعالى، فلا يقال رجلٌ أحدٌ، ودرهمٌ أحدٌ، بل (أحدٌ) صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشاركه فيها أحد.

وفي كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي: قال الحليمي: (الأحد) هو الذي لا شبه له ولا نظير، كما أنَّ (الواحد) هو الذي لا شريك له ولا عديد، ولذلك سَمَّى الله ﷻ نفسه بهذا الاسم لَمَّا وصف نفسه بأنه ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَكِّدْ﴾ (٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿١﴾ فالمراد بالأحدية عدم إمكان الشراكة، وعدم تصورها ولو بوجه من الوجوه.

وقد ابتعد سيد قطب رحمه الله كثيراً عن هذا المعنى، وأخطأ في التعبير عندما قال: إنها أحدية الوجود، فليس هناك حقيقة إلا حقيقته، وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده.

ولا شك أنَّ الله موجودٌ أزلاً وأبداً وجوداً مطلقاً، ووجوده لا ينفي وجود مخلوقاته التي دلت عليه، إلا أنَّ وجودها مقيّد بمكانٍ وزمانٍ وكمية وكيفية، ووجوده تعالى منزّه عن جميع ذلك.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢)

أي: الله السيد المصمود إليه في الحوائج، من صمد إليه إذا قصد، فهو الذي يَصْمُدُ إليه كلُّ مخلوق، ولا يُسْتَغْنَى عنه، وهو الغني عمّا سواه، كما في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْتَمُوا لِقُرْآنِ إِلَهِكُمْ وَأَلَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

فهو السيد المقصود في جميع الحوائج، المرغوب إليه في الرغائب، المستعان به عند المصائب وتفريج الكرب، الكامل في جميع صفاته وأفعاله، المتناهي في السؤدد والشرف والعلو والعظمة والكمال والإحسان، الدائم الباقي بعد فناء خلقه، الذي لا تعثره الآفات ولا تغيره الأوقات.

فكل هذه المعاني يدل عليها لفظ (الصمد)، فعلى هذا يقتضي ألا يكون في

الوجود صمدٌ سوى الله تعالى العظيم القادر على كل شيء، وأنه اسمٌ خاصٌ بالله تعالى انفراداً به، له الأسماء الحسنی والصفات العليا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي «صحيح البخاري»: باب قوله: الله الصمد، قال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤده.

وفي تفسير ابن كثير: ﴿اللَّهُ أَكْثَمُ﴾ قال ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته.

﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

فكل مولود محدث وجسم، وهو قديم لا أول لوجوده، وليس بجسم، لأنَّ الجسم اسم للمتركب الحادث.

فالآية تكذب جميع أصناف المشركين من العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى الذي قالوا: المسيح ابنُ الله، واليهود الذين قالوا: عزيزُ ابن الله. فنفت عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان عنه، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

أي: ولم يكن له من خلقه مثل ولا نظير ولا شبيه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: كذبني ابنُ آدم، ولم يكنْ له ذلك، وشتمني، ولم يكنْ له ذلك، فأما

تكذيبه أي فقلوه: لن يعيدني كما بدأتي، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد» [رواه البخاري (٤٩٧٤)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «أبعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟» فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن» [رواه البخاري (٥٠١٥)].

قال ابن حجر: «ثلث القرآن» حمّله بعض العلماء على ظاهره، فقال: هي ثلث باعتبار معاني القرآن، لأنه أحكام وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت على القسم الثالث فكانت ثلثاً لهذا الاعتبار، ويُسْتَأْنَس لهذا بما أخرجه أبو عبيد: من حديث أبي الدرداء قال: جزأ النبي ﷺ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن.

وقال القرطبي: اشتملت هذه السورة على اسمين من أسماء الله تعالى يتضمنان جميع أصناف الكمال لم يوجد في غيرها من السور، وهما: الأحد الصمد^(١). وورد في فضلها عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فَسَأَلُوهُ فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أَحَبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يَحِبُّهُ» [رواه مسلم (٨١٣)].

لقد انطوت هذه السورة الجليلة مع قصرها على الأسس الكبرى لعقيدة التوحيد.





تفسير سورة الفلق

الاستِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنْ أَسْبَابِ الشَّرِّ فِي سُورَةِ الْفَلَقِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) .

أخرج الترمذي [٢٠٥٨] وحسنه، والنسائي، وابن ماجه [٣٥١١]: من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذات، فأخذ بها، وترك ما سواها.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) .

أي: قل ألتجئ وأعتصم وأحترز برب الفلق.

وهو يعم جميع المخلوقات، فإنه تعالى فلق: أي شق وفرق بنور الإيجاد عنها، سيما ما يخرج من أصل كالعيون من الجبال، والأمطار من السحاب، والنبات من الأرض، والأولاد من الأرحام، وخصَّ عرفاً بالصبح، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْثِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْغَمَى مِنَ الْغَمِيَّتِ وَيُخْرِجُ الْغَمِيَّتِ مِنَ الْغَمَى ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ تُوَفَّكُونَ (٥٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام].

فتعلقُ العياذُ باسمِ الربِّ المضافِ إلى الفلقِ المنبئِ عن النورِ عقبِ الظلمةِ، والسعةِ بعدِ الضيقِ، والفَتْقُ بعدِ الرتقِ، عِدَّةُ كريمةٍ بإعادةِ العائدِ مما يعوذُ منه، وتقويةٌ لرجائه بذكرِ بعضِ نظائره^(١).

والإعادةُ من المضارِ تربيةً وتركيةً، ولهذا أضيفَ الفلقُ إلى الربِّ الذي هو وحده قادرٌ على تغييرِ الأحوالِ، وتقليبِ الأطوارِ، وكذلك المربوبُ لا يستغني في شيءٍ من أحواله عن الربِّ ﷻ.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

أي: من شرِّ ما خلق من الإنسان والجن.

أو: من شرِّ كل مخلوق قام به الشر.

فالشرُّ مسندٌ في الآيةِ إلى المخلوقِ المفعولِ، لا إلى خَلَقِ الربِّ تعالى الذي هو فِعْلُهُ وتكوينه، فإنه لا شرٌّ فيه بوجهٍ ما، فإن الشرَّ لا يدخل في شيءٍ من صفاته وأفعاله، ولو فعل الشرَّ سبحانه لاشتقَّ له منه اسماً، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، تعالى ربنا وتقدَّس عن ذلك.

وما يفعله ﷻ من العدلِ بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خيرٌ محض، إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شرّاً بالنسبة إليه، فالشرُّ وقع في تعلُّقه بهم، وقيامه بهم لا في فِعْلِهِ القائم به تعالى، فإنه خالق الخير والشرِّ، فالسارق إذا قُطعت يده فَقَطَّعَهَا شرٌّ بالنسبة إليه وخيرٌ محضٌ بالنسبة إلى عموم الناس، وخيرٌ بالنسبة إلى متولِّي القطع أمراً وحكماً، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، إذا عرفتَ هذا عرفتَ معنى قوله ﷻ في الحديث الصحيح: «لبيك وسعديك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك» [رواه مسلم (٧٧١)]^(٢).

(١) روح المعاني: ٣٥٨/٣٠.

(٢) انظر: تفسير المعوذتين، لابن قيم الجوزية.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾

أي: ومن شر ليل إذا أظلم، والغسق: الظلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء ٧٨].

ويسمى القمر غاسقاً في حال خسوفه، ويؤيده ما جاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي فنظر إلى القمر فقال: «يا عائشة، استعيني بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» [رواه الترمذي (٣٣٦٦) وقال: حديث حسن صحيح].

والسبب الذي لأجله أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر الليل، وشر القمر إذا وقب، هو أن الليل إذا أقبل محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين.

ففي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ - أَوْ أَمْسَيْتُمْ - فَكُفُّوا صَبِيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ، فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَاباً مَغْلَقاً، وَأَوْكُوا قِرْبَكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرُوا أَنْيَتَكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ أَنَّ تَعْرَضُوا عَلَيْهَا شَيْئاً، وَأَطْفَأُوا مَصَابِيحَكُمْ» [رواه البخاري (٥٦٢٣)].

ورحم الله ابن قيم الجوزية عندما قال: فتأمل الاستعاذة برّب الفلق من شرّ الظلمة، ومن شرّ ما يحدث فيها، ونزول هذا المعنى على الواقع يشهد بأنّ القرآن بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد ﷺ، ومضادة لما جاءت به الشياطين من كل وجه.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

أي: ومن شرّ النفوس السواحر اللاتي يعقدن عُقداً في خيوط، وينفثن عليها، والنفث: النفخ مع ريق.

وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور أثره^(١).

وقد ثبت: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قد تعرَّضَ لمثل هذا الأذى، ففي الحديث الشريف: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سَحَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رجلٌ من بني زُرَيْقٍ يقال له: لبيدُ بنُ الأعصم، حتَّى كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يُخَيِّلُ إليه أنه كان يفعلُ الشيءَ وما فعله، حتَّى إذا كُنْتُ يوماً أو ذاتَ ليلةٍ وهو عندي دعا ودعا، ثم قال: «يا عائشةُ! أشعرتِ أَنَّ اللَّهَ أَفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلانِ فقعدَا أحدهما عندَ رأسي، والآخرُ عندَ رجلَيَّ، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجعُ الرجلِ؟ فقال: مَظبُوبٌ، قال: مَنْ طَبَّهُ؟ قال: لبيدُ بنُ الأعصم، قال: في أيِّ شيءٍ؟ قال: في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ وجُفٍّ طلعَ نخلةً ذكرٍ. قال: وأين هو؟ قال: في بئرِ ذروانَ» فأتاها رسولُ اللَّهِ ﷺ في ناسٍ من أصحابه، فجاء فقال: «يا عائشةُ، كأنَّ ماءَها نقاعةُ الحنَّاءِ، وكأنَّ رؤوسَ نخلها رؤوسُ الشياطينِ» قلت: يا رسولَ اللَّهِ أفلا استخرجته؟ قال: «قد عافاني اللَّهُ فكرهتُ أن أثيرَ على الناسِ فيه شراً» فأمرَ بها فدفنَتْ. [رواه البخاري (٥٧٦٣)].

والسحر الذي أصابه عليه الصلاة والسلام كان مرضاً عارضاً من الأمراض شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما، فإنَّ المرضَ يجوز على الأنبياء، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته، ونيل كرامته، وأشد الناس بلاءً الأنبياء، فليس بدع أن يُبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» [٢١٨٦]: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ جبريلَ أتى النَّبِيَّ ﷺ فقال: يا مُحَمَّدُ أَشْتَكَيْتَ؟ قال: «نعم» قال: باسمِ اللَّهِ أرقيك، مِنْ كُلِّ شيءٍ يؤذيك، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أو عَيْنٍ حاسِدٍ اللَّهُ يشفيك، باسمِ اللَّهِ أرقيك.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه، وذلك بمباشرة أسباب الشر قولاً وفعلاً، كأن ينظر إلى المحسود ويوجّه نفسه الخبيثة نحوه على وجه الغضب، فإنّ نفس الحاسد تتكيّف بكيفية خبيثة، قد تؤثر في المحسود، وتجلب له شراً قد يصل إلى حدّ الإهلاك إذا وافق قدر الله تعالى.

وحقيقة الحسد: تمنّي زوال النعمة عن المحسود، وقد يكون معه سعي، فلذلك أمر الله تعالى بالتعوّذ منه.

وقيّده تعالى بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الإنسان قد يكون عنده حسدٌ لكنه يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه من الوجوه، فللحسد ثلاث مراتب:

أولاهـا: تَمَنّي زوال النعمة عن المحسود، وسواء أردتها لنفسك أم لا، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على الفساد وإيذاء الخلق، فلا يضرّك كراحتك لها، ومحبتك لزوالها من حيث هي آلة الفساد.

وثانيها: تَمَنّي استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة. وكلاهما حسد مذموم.

وثالثها: حسد الغبطة، وهو تمنّي أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن يتمنّي زوال النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعابُ صاحبه، فهو من المنافسة؛ كما في الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن؛ فهو يقومُ به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً؛ فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار» [رواه البخاري (٧٥٢٩) ومسلم (٨١٥)].

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأن شر هؤلاء أشد، وختم بالحسد، ليُعلم أنه شرها، وهو أول ذنب عُصي الله به عندما حسد إبليس آدم، وأبى أن يسجد له.

ومرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

وقول النبي ﷺ: «العينُ حقٌّ، ولو كانَ شيءٌ سابقَ القدرِ سبقته العينُ، وإذا استُغْسِلتم فَاغْتَسِلُوا» [رواه مسلم (٢١٨٨)].

وقد اشتملت هذه السورة على قواعد نافعة هامة لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه، ودلّت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثيرٌ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والتفّث في العقد، أسأله تعالى أن يعيذنا من شرهم.





تفسير سورة الناس

الاستِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنْ سَرِّ الشَّيْطَانِ فِي سُورَةِ النَّاسِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (٣) ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَفَّاسِ﴾ (٤) ﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ (٥) ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (٦).

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١).

أي: قل ألتجئ وأحتمي برب الناس.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢).

أي: مالكهم ومدبر أمورهم.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (٣).

أي: معبودهم.

وأضيف الرب إلى الناس خاصة - وإن كان رب كل مخلوق - تشریفاً لهم،

ولأنَّ الاستعاذة من شرِّ المُوسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شرِّ المُوسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم^(١). وكرر الله تعالى الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمّر موقعه، تحقيقاً لهذا المعنى، وتقوية له، ولم يعطف بالواو لما فيها من معنى المغايرة، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

فالمستعاذ به هو الله ﴿يَرْبِّ النَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾.

فمن كان الله ربَّهم ومَلِكهم وإلههم فهم جديرون ألا يستعينوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجؤوا إلى غير حماه، فهو كافيتهم، وحسبهم وناصرهم ووليَّهم، فكيف لا يلتجئ العبدُ عند النوازل ونزول عدوه إلى ربه ومالكة وإلهه؟!.

وقدَّم الربوبيةَ لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخَّر الإلهية لخصوصها، لأنَّه سبحانه إنما هو إله مَنْ عبده وحده، واتخذهُ دون غيره إلهاً.

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنی:

- فإنَّ الرب: هو القادر، الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، المقدم، المؤخر، الذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

- وأما الملك: فهو الأمر، الناهي، المعزُّ، المذلُّ، الذي له من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنی: كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الرافع، الخافض، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، مالك الملك، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى المَلِك.

- وأما الإله: فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنی.

فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان، بينما تضمنت سورة الفلق الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج الإنسان^(١).

﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَّاسِ الْخَنَاسِ﴾

﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَّاسِ﴾ أي: من شر الشيطان المُوسوس. سُمِّي بفعله مبالغة، لأن الوسوسة شغله الذي هو عاكف عليه، وهي الصوت الخفي.

﴿الْخَنَاسِ﴾ أي: الرجاء الذي يتوارى ويختفي عند ذكر الله تعالى.

وحقيقة اللفظ تفيد الاختفاء بعد الظهور، فليس المراد مجرد الاختفاء، فإنَّ العبد إذا غفل عن ذكر الله جَثَمَ على قلبه الشيطان، وبذر فيه أنواع الوسواس، التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربَّه، واستعاذَ به انخنس وانقبض؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وجيء بلفظ فعال للمبالغة دون الخانس والمنخنس، إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه، وعظم نفوره عند ذكر الله تعالى، وذلك دأبه ودينه.

وتأمل كيف جاء بناء (الوسواس) مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، كما جاء بناء (الخناس) على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل، فكلما ذكر الله تعالى انخنس، ثم إذا غفل عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنيهما^(٢).

وبعد أن بيَّن تعالى وسوسته بيَّن محلَّها فقال:

(١) انظر: تفسير المعوذتين، لابن قَيِّم الجَوْزِيَّة.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾

وهذا يدل على أن الله تعالى جعل للشيطان دخلاً في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وُكِّلَ بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات.

دلَّ على ذلك الحديث الشريف: عن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمتُ لأنقلب، فقام معي ليقبلني - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعَا، فقال النبي ﷺ: «على رسلِكُما، إنها صفية بنتُ حَيٍّ» فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «إنَّ الشَّيْطَانَ يجري من الإنسان مجرى الدم، وإنِّي خشيتُ أن يقدفَ في قلوبكما شراً» أو قال: «شيئاً» [رواه مسلم (٢١٧٥)].

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

أي: إنَّ الوسواسَ الخَنَاسَ يوسوس للجنِّ كما يوسوس للإنس.

وقد يكون المعنى: إنَّ الذي يوسوس نوعان: إنس وجن، فالجن يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضاً يوسوس إلى الإنسي، فشياطين الإنس والجن يشتركون في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام ١١٢].

ففي الآية دليل على الاستعاذة من شرِّ نوعي الشياطين: شياطين الإنس، وشياطين الجن، نسأل الله أن يعيذنا منهم.



الخاتمة

هكذا ختم الله تعالى القرآن العظيم الذي هو حبله المتين، وصراطه المستقيم، مَنْ تَمَسَّكَ به سَلَمَ وَأَمِنَ، ومن زَاغَ عنه خَسِرَ وَندَمَ، وتخطفته شياطينُ الإنس والجن.

أَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنَا لِتِلَاوَتِهِ، وَتَدْبِيرِ آيَاتِهِ، وَالْعَمَلِ بِهِ آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، وَأَنْ يَنْوِّرَ بِهِ قُلُوبَنَا وَقُبُورَنَا، وَيَجْعَلَهُ رَبِيعَ قُلُوبِنَا، وَنُورَ أَبْصَارِنَا وَبَصَائِرِنَا، وَجَلَاءَ هُمُومِنَا وَأَحْزَانِنَا. اللَّهُمَّ آمِينَ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا.

تم إعداد هذا التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم في مكة المكرمة بتاريخ (١٤١٧/٦/٥هـ)، الموافق لـ (١٧/١٠/١٩٩٦م).

وأعيد النظر فيه بمكة المكرمة أيضاً بتاريخ (١٤٣٠/١٢/١هـ)، الموافق (١٨/١١/٢٠٠٩م).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير

إلى عفو ربه ومرضاته

عبد الحميد محمود طهماز

المصادر والمراجع

• أولاً: من كتب السُّنة:

- ١ - بذل المجهود في حل أبي داود، المكتبة الإمدادية، ط ٣.
- ٢ - الترغيب والترهيب، للمنذري، الطبعة القطرية.
- ٣ - تيسير الوصول، للشيباني، طبعة مصطفى البابي الحلبي.
- ٤ - صحيح البخاري مع فتح الباري، الطبعة السلفية.
- ٥ - صحيح مسلم، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٦ - سنن أبي داود، ط: دمشق، عزت دعاس.
- ٧ - سنن النسائي، ط: إحياء التراث العربي.
- ٨ - جامع الترمذي، دار إحياء التراث.
- ٩ - سنن ابن ماجه، تحقيق وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ١٠ - الموطأ، تحقيق وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي.

• ثانياً: من كتب التفسير:

- ١١ - أضواء البيان، للشنقيطي، المطابع الأهلية، الرياض.
- ١٢ - البحر المحیط، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر.
- ١٣ - تفسير الألوسي (روح المعاني)، دار الفكر - بيروت، إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٤ - تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم)، للعمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، دار الفكر.

- ١٥ - تفسير البيضاوي (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث - بيروت.
- ١٦ - تفسير البيضاوي وحاشية الكازروني عليه، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع - بيروت.
- ١٧ - تفسير التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، الدار التونسية.
- ١٨ - التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة، طبعة عيسى البابي الحلبي.
- ١٩ - تفسير الخازن (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث - بيروت.
- ٢٠ - تفسير الطبري (جامع البيان)، دار المعرفة، دار الفكر - بيروت.
- ٢١ - تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير)، دار الفكر، الطبعة الأولى.
- ٢٢ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ط: وزارة الثقافة في مصر.
- ٢٣ - تفسير ابن كثير، طبعة دار الفكر العربي.
- ٢٤ - تفسير ابن كثير (المختصر)، للصابوني، طبعة دار القرآن الكريم - بيروت.
- ٢٥ - تفسير النسفي (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث - بيروت.
- ٢٦ - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، لإسماعيل حقي، اختصار الصابوني، دار القلم.
- ٢٧ - الجواهر في تفسير القرآن الكريم، لطنطاوي جوهري.
- ٢٨ - حاشية الجمل على الجلالين (المسمى بالفتوحات الإلهية).
- ٢٩ - حاشية الشهاب على البيضاوي.
- ٣٠ - حاشية الصاوي على الجلالين، طبعة البابي الحلبي.
- ٣١ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار المعرفة.
- ٣٢ - زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.

٣٣ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري، المطبوع على هامش جامع البيان.

٣٤ - فتح القدير، للشوكاني، دار المعرفة - بيروت، مكتبة المعارف بالرياض.

٣٥ - في ظلال القرآن، لسيد قطب، ط ٩، دار الشروق - بيروت، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٦ - قرة العينين على الجلالين، محمد أحمد كنعان، المكتب الإسلامي.

٣٧ - المحرر الوجيز، لابن عطية، الطبعة القطرية.

٣٨ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ط ١، الهند.

• ثالثاً: مراجع مختلفة:

٣٩ - أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية، لعبد الله الطريقي.

٤٠ - إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس، لعبد الحميد طهماز.

٤١ - إنارة الدجى في مغازي خير الورى، حسين المشاط المكي، ط: دار المنهاج.

٤٢ - الأنساب والأولاد، لعبد الحميد طهماز.

٤٣ - البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة، للشيخ العزامي، ط ١.

٤٤ - التأمين في الشريعة والقانون، لشوكت عليان.

٤٥ - جريدة المسلمون، عدد (١٩٠).

٤٦ - حياة الصحابة، للكاندهلوي، دار القلم - دمشق.

٤٧ - حياتنا والموعود المجهول، لعبد الحميد طهماز، دار القلم - دمشق.

٤٨ - خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار.

- ٤٩ - الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم.
- ٥٠ - دائرة معارف القرن العشرين، لبطرس البستاني، دار المعرفة.
- ٥١ - دراسات تاريخية عن صموئيل الثاني.
- ٥٢ - دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الدكتور محمد بيومي مهران.
- ٥٣ - رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، دار إحياء التراث.
- ٥٤ - ردود على أباطيل، للشيخ محمد الحامد، طبعة قطر.
- ٥٥ - الزواج في الإسلام، لعبد الحميد طهماز، مكتبة البيت.
- ٥٦ - السيدة الأولى خديجة أم المؤمنين، سبّاقة الخلق إلى الإسلام، لعبد الحميد طهماز، دار القلم - دمشق.
- ٥٧ - سيرة نبي الهدى والرحمة.
- ٥٨ - سيرة ابن هشام، نشر مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة.
- ٥٩ - الشفاء، للقاضي عياض، وشرحه، لملا علي القاري، مطبعة المدني - القاهرة.
- ٦٠ - الصراع بين العرب وأوروبا.
- ٦١ - طفل الأنبوب والتلقيح الصناعي، لمحمد علي البار.
- ٦٢ - عائشة أم المؤمنين، لعبد الحميد طهماز.
- ٦٣ - العسل فيه شفاء للناس، لنزار الدقر.
- ٦٤ - العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، لعبد الحميد طهماز.
- ٦٥ - علم الفلك، لمحمد رضا مدور.
- ٦٦ - الغارة على العالم الإسلامي، لشتاتليه.
- ٦٧ - القرار المكين، للطبيب مأمون شقفة، ط ١.
- ٦٨ - قصص الأنبياء.
- ٦٩ - الكنز المرصود في قواعد التلمود، يوسف نصر الله، دار القلم - دمشق.

- ٧٠ - لسان العرب، لابن منظور.
- ٧١ - اللسان العربي والإسلام معاً في معركة المواجهة.
- ٧٢ - مؤتمر تفسير سورة يوسف، للشيخ عبد الله العلمي.
- ٧٣ - مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، دار العلم للملايين - بيروت.
- ٧٤ - مجلة أخبار العالم الإسلامي، العدد (١٠٤٦ - ١١٠٧).
- ٧٥ - مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس.
- ٧٦ - مجلة العلم، العدد (٢١).
- ٧٧ - مجلة المعرفة، المجلد التاسع.
- ٧٨ - محمد في الكتاب المقدس، للأب داود بنيامين كلداني، ترجمة فهمي شما.
- ٧٩ - المسيح إنسان أم إله، لمرجان.
- ٨٠ - معاذ بن جبل، لعبد الحميد طهماز.
- ٨١ - المعجم الوسيط.
- ٨٢ - المغني، لابن قدامة.
- ٨٣ - المغني في الضعفاء، للذهبي.
- ٨٤ - المقدمة لكتاب تفسير الأحلام.
- ٨٥ - نظرات في كتاب الحلال والحرام، لعبد الحميد طهماز.



ترجمة المؤلف

(١٩٣٧ - ٢٠١٠م)

• هو: عبد الحميد بن محمود بن عبد القادر طهماز، وُلد في مدينة حماة عام (١٩٣٧م) من عائلة تمتد فروعها في عدد من المحافظات السورية، ونشأ بها، وتلقّى تعليمه في مدارسها.

وعقب حصوله على شهادة الثانوية العامة، ذهب إلى دمشق بقصد الالتحاق بكلية الطبّ في جامعتها، لكنّ بعضَ زملائه شجّعوه على الالتحاق بكلية الشريعة، والتي كانت قد افتتحت حديثاً، فالتحق بها عام (١٩٥٥م) رغم معارضة كثيرٍ من أهله وأقاربه، وتلقّى فيها العلوم الشرعية على أيدي خيرة أساتذتها، مثل: الدكتور مصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، والدكتور محمد منتصر الكتاني، والدكتور فتحي الدريني وغيرهم، كما كان يختلف إلى بعض علماء دمشق ويحضر حلقاتهم العلمية.

• وعقب تخرّجه من الجامعة وحصوله على إجازتها العلمية عام (١٩٥٩م)، رجع إلى حماة، وتمّ تعيينه من قبل وزارة التربية والتعليم مدرّساً للتربية الإسلامية في مدارسها، وهناك توثّقت صلته بالشيخ محمد الحامد رحمته الله، أحد كبار علماء حماة، ومجدّد نهضتها الدينية، وقد شكّلت هذه الصلة منعطفاً جديداً في حياته، وكان لها أبلغ الأثر في سيرته العلمية والسلوكية، فلازم الشيخ ملازمةً كاملةً، ولم يكد ينقطع عن مجالسه ودروسه العلمية العامة والخاصة، كما كان يصاحبه في أسفاره، وقد أجازته شيخه في العلوم الشرعية، كما أجازته في طريقته في السلوك، وتلقّن منه الذكر على الطريقة النقشبندية.

• وعندما مرض الشيخ محمد الحامد رحمته الله مرضه الذي توفّي به، استلم

بالنيابة عنه مسجد السلطان تدريساً وخطابة، وعقب وفاة شيخه عام (١٩٦٩م) قامت إدارة الأوقاف بتعيينه رسمياً مدرّساً وخطيباً في المسجد خلفاً لشيخه، فسار على منهجه العلمي، والتزم بوصاياه وطريقته، فكان يُلقَى في المسجد درساً يومياً عدا يوم الخميس من كل أسبوع، في علوم شرعية متنوعة، فخصّص يومين للفقه يشرحُ بهما كتاب «الهدية العلالية» في الفقه الحنفي، ويومين للتفسير يعتمد فيه على كتاب «تفسير الخازن» مع الرجوع إلى أمهات كتب التفسير، ويومين للسيرة والحديث، قرأ فيهما «الشفاء» للقاضي عياض و«حياة الصحابة» للكاندهلوي، وشرع بتدريس «صحيح البخاري»، كما كان له درس أسبوعي خاص بعد العصر يقرأ فيه من «إحياء علوم الدين» للغزالي، ودرس آخر في النُحو يقرأ فيه من كتاب «مغني اللبيب» لابن هشام.

وفي عام (١٩٨٠م) غادر سورية إلى المملكة العربية السعودية، على أمل أن يعود في أقرب فرصة ممكنة، فعمل في الرياض مُعيداً في معهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، لمدة ثلاثة أعوام، ثم انتقل إلى المدينة المنورة مدرّساً في معهدها العلمي لمدة عامين، ثم نُقِلَ إلى نجران، فأقام بها عامين وبضعة أشهر.

وفي عام (١٩٨٨م) استقرَّ به المقام في مكة المكرمة، حيث عمل محاضراً في معهد إعداد الأئمة والدعاة التابع لرابطة العالم الإسلامي لحوالي العشرة أعوام.

• وقد أولى التأليف عناية خاصة، وأثرى المكتبة الإسلامية بعددٍ من الكتب القيمة في مواضيع مختلفة، كالتفسير والفقه والسيرة والتراجم، حيث بدأ بالتأليف في حياة شيخه وبتشجيع منه:

- فألّف رسالةً في «أحكام الحيض والنفاس»، والذي يُعدُّ من أصعب أبواب الفقه.

- ومن أهم مؤلفاته في الفقه كتاب «الفقه الحنفي في ثوبه الجديد»، وهو كتاب في خمسة مجلّدات متوسطة الحجم، بيّن فيه الأحكام الشرعية على

مذهب أبي حنيفة بأسلوب سهل وميسر، مع ذكر أدلتها من الكتاب والسنة، حيث خصّص المجلّد الأول لفقه العبادات، والثاني للأحوال الشخصية والالتزامات والتبرّعات، والثالث لنظام الحكم والقضاء والعقوبات، والرابع للمعاملات، والخامس للقضاء وغيره من المباحث، وفي آخره مختصر في الفقه الأكبر (العقيدة).

- ومن مؤلفاته في التفسير «التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم» في ثمانية مجلدات، بدأ بتأليفه إبان إقامته في المدينة المنورة، فكان أول كتاب صدر منه : «النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب»، واستمرّ في إصداره متفرّقاً على حسب ما يفتح الله عليه من موضوعات السور الكريمة، إلى أن اكتمل تفسيراً كاملاً لجميع سور القرآن الكريم، بعد ما يزيد على عشرة أعوام، ويقوم أسلوبه على إبراز الموضوع الأساس لكل سورة من سور القرآن الكريم، والذي ترتبط به وتدور حوله جميع موضوعاتها الفرعية.

- ومن مؤلفاته في السيرة : «سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة»، اعتمد فيه على ما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية الثابتة من سيرته ﷺ، وأعرض عمّا ورد في كثير من كتب السيرة من أخبار ليس لها سند ثابت.

ومن مؤلفاته في التراجم :

- «السيدة عائشة، أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام».
- «عبد الله بن عباس، الإمام الحبر عالم العصر».
- «أنس بن مالك، الخادم الأمين والمحّب العظيم».
- «أبو موسى الأشعري، الصحابي العالم المجاهد».
- «معاذ بن جبل، إمام العلماء ومعلّم الناس الخير».
- «السيدة خديجة، أم المؤمنين وسبّاقة الخلق إلى الإسلام».
- «أبو عبد الرحمن السلمي، شيخ قرّاء الكوفة».

- «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد».

وقد اتبع في التعريف بهؤلاء الأعلام أسلوب المحدثين، والمنهج العلمي الدقيق الذي التزمه لتحقيق الروايات التاريخية، وردّ الروايات الضعيفة والمكذوبة، التي امتلأت بها بعض كتب المؤرخين، وخصوصاً في الأحداث التي حصلت بين الصحابة رضي الله عنهم.

وقد كان رضي الله عنه حريصاً على قول كلمة الحق، وردّ ما يسمعه أو يقرؤه من آراء يراها مخالفة للصواب، لا يخاف في ذلك لومة لائم، وهذا أمر يشهد به كل من عرفه وصحبه، وقد حفلت كثير من مؤلفاته بمثل هذه الردود، وبيان ما يراه من الحق والصواب.

وقد ألّف كتابه عن السيدة عائشة رضي الله عنها ردّاً على تطاول بعض المؤلفين عليها، واتهامها بأنها كانت سبب الفتنة التي حدثت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

كما كانت ترجمته لكل من الصحابين الجليلين: عبد الله بن عباس وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، إتماماً لهذا الموضوع، وتوضيحاً لموقفهما من الأحداث التي حصلت في عهد علي رضي الله عنه.

- وألّف رسالة في الدفاع عن صحيح البخاري بعنوان: «الصحيح أن كل ما في صحيح البخاري صحيح»، للردّ على بعض المشكّكين بصحة بعض الأحاديث المروية فيه.

- وألّف رسالة بعنوان: «نظرات في كتاب الحلال والحرام في الإسلام»، بيّن فيها حكم بعض المسائل الفقهية التي رأى أنّ مؤلفه الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله جانب فيها الصواب.

- وله رسالة بعنوان: «الثور والسراج المنير»، ردّ فيها على من يزعم أنّ ذات الله تعالى إنّما هي نور، كما ردّ فيها على من يقول بأنّ النبي صلى الله عليه وآله مخلوق من نور.

- كما ألّف رسالة بعنوان «أمهات الأنبياء»، ردّ فيها على من يقول بعدم

نجاه والدته النبي ﷺ، وأثبت أن أمهات الأنبياء المذكورات في القرآن الكريم
كُنَّ جميعاً على دين التوحيد.

• توفي الشيخ رحمه الله في الرياض يوم الجمعة ليلة السبت بتاريخ (١٥/٢/

١٤٣١هـ، الموافق ٢٩/١/٢٠١٠م)، عن عمر يناهز (٧٣) عاماً، وصُلِّي عليه
في مسجد الراجحي، ودُفن في مقبرة النسيم.



فهرس الموضوعات

- تفسير سورة الذاريات: العبادَةُ والرِّزْقُ في سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ ٥
- مقسمات الرزق ٥
- القول المضطرب ٧
- المستغفرون بالأسحار ٩
- الأسباب السماوية للرزق ١٠
- ضيف إبراهيم ١٢
- عبر وعظات ١٥
- الفرار إلى الله ١٧
- الحكمة من الخلق ١٩
- تفسير سورة الطور: مُطَارَدَةُ الضَّلَالِ في سُورَةِ الطُّورِ ٢١
- مصير المكذبين ٢١
- الفضل والعدل ٢٤
- المطاردة والحصار ٢٨
- تفسير سورة النجم: الْوَحْيُ وَالْإِنذَارُ في سُورَةِ النَّجْمِ ٣٣
- استقامة النبي ﷺ على الحق ٣٣
- لقاء الأمينين ٣٥
- تحقيق الوحي وتأكيده ٣٧
- صرعى الأوهام والشهوات ٤١
- كبائر الذنوب ٤٥

- ٤٦ - التحذير من كبيرة العُجب
- ٤٧ - الانتفاع بسعي الآخرين
- ٥٠ - إنذار وسجود
- تفسير سورة القمر: الإنذارُ بالسَّاعةِ في سُورَةِ الْقَمَرِ ٥٥
- ٥٥ - انشقاق القمر
- ٥٩ - المنتصر بالله تعالى
- ٦١ - تيسر القرآن للذكر
- ٦٨ - إثبات القدر
- تفسير سورة الرحمن: التَّذْكِيرُ بِالنَّعَمِ في سُورَةِ الرَّحْمَنِ ٧١
- ٧١ - أعظم النعم
- ٧٤ - توبيخ وإنكار
- ٧٥ - تفصيل النعم
- ٧٧ - حاجز بين البحرين
- ٧٩ - فناء المخلوقات وضعفها
- ٨٢ - التذكير بمصير الكافرين ومصير المؤمنين
- تفسير سورة الواقعة: الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ في سُورَةِ الْوَاقِعَةِ ٨٩
- ٨٩ - تحقيق القيامة وتأكيده وقوعها
- ٩٢ - مصير المقربين يوم القيامة
- ٩٦ - أحوال أصحاب اليمين في الجنة
- ٩٩ - الترف والضلال في أصحاب الشمال
- ١٠٢ - الإيجاد والإمداد
- ١٠٧ - القسم العظيم
- ١١٠ - توبيخ الضالين المكذبين وتحذيرهم

- أحوال المحتضرين ١١٢
- تفسير سورة الحديد: الإنفاق والإمساك في سورة الحديد ١١٥
- تسبيح المخلوقات ١١٥
- الإنفاق في سبيل الله ١١٩
- الأجر والنور ١٢٢
- طول الأمل وقسوة القلوب ١٢٥
- الصديقون والشهداء ١٢٧
- حقيقة الحياة الدنيا ١٢٩
- الرضا بالقدر ١٣٢
- الحق والقوة ١٣٤
- البخل والحسد ١٣٦
- تفسير سورة المجادلة: الشكوى والتجوى في سورة المجادلة ١٣٩
- السميع البصير ١٣٩
- الظهار وحكمه ١٤١
- النجوى المحرمة ١٤٤
- من آداب المجلس ١٤٨
- حزب الشيطان ١٥١
- حزب الله تعالى ١٥٤
- تفسير سورة الحشر: أحداثٌ وعبرٌ في سورة الحشر ١٥٩
- الحشر الأول ١٥٩
- أموال بني النضير ١٦٣
- المستحقون للفيء ١٦٥
- كذب وخذلان ١٦٩

- ١٧٢ - التقوى والمحاسبة
- ١٧٧ • تفسير سورة الممتحنة: البراءة والبيع في سورة الممتحنة
- ١٧٧ - تحريم موالاة الكافرين
- ١٨٠ - البراءة
- ١٨٣ - بر وعدل
- ١٨٥ - تحريم المؤمنات على الكفار
- ١٨٩ - البيعة
- ١٩٣ • تفسير سورة الصف: بشارته وتجارة في سورة الصف
- ١٩٣ - المقت الخالص
- ١٩٦ - بشرى عيسى عليه السلام
- ١٩٩ - ظهور الإسلام
- ٢٠١ - التجارة والجهاد
- ٢٠٥ • تفسير سورة الجمعة: حاملي الرسالة في سورة الجمعة
- ٢٠٥ - الفضل الكبير
- ٢٠٩ - المعرضون عن حمل التوراة
- ٢١١ - تكليف وتحذير
- ٢١٥ • تفسير سورة المنافقون: المؤمنون عن حمل الرسالة في سورة المنافقون ...
- ٢١٥ - تكذيب المنافقين
- ٢١٨ - الأعز والأذل
- ٢٢١ - الاشتغال بالأموال والأولاد
- ٢٢٣ • تفسير سورة التغابن: الخاسرون في سورة التغابن
- ٢٢٣ - توبيخ الكافرين

- ٢٢٦ - الزعم الباطل
- ٢٢٨ - التسليم لقضاء الله
- ٢٣١ • تفسير سورة الطلاق: التَّقْوَى والتَّيَسُّرُ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ
- ٢٣١ - الطلاق للعدة
- ٢٣٥ - التقوى في معاملة المطلقات
- ٢٤٠ - حساب وعذاب
- ٢٤٣ • تفسير سورة التحريم: أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ
- ٢٤٣ - قصة تحريم العسل
- ٢٤٦ - عتاب وتأديب
- ٢٤٩ - التوبة النصوح
- ٢٥٥ • تفسير سورة الملك: الْخُلُقُ وَالتَّذْيِيرُ فِي سُورَةِ الْمُلْكِ
- ٢٥٥ - الحياة والاختيار
- ٢٥٧ - الكواكب زينة ورجوم
- ٢٥٩ - حسرة وندامة
- ٢٦١ - الخسف والحاصب
- ٢٦٥ - المصارحة بالحقيقة
- ٢٦٩ • تفسير سورة القلم: الاسْتِدْرَاجُ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ
- ٢٦٩ - صاحب الخلق العظيم
- ٢٧٣ - تحقير المكذِّبين وفضح عيوبهم
- ٢٧٥ - قصة أصحاب الجنة
- ٢٧٩ - التوبيخ والتحدي
- ٢٨١ - الأمر العظيم
- ٢٨٤ - الصبر لحكم الله

- ٢٨٦ - العين حق
- ٢٨٩ • تفسير سورة الحاقة: الحق الثابت في سورة الحاقة
- ٢٨٩ - تعظيم يوم الحق
- ٢٩٠ - قوارع وعبر
- ٢٩٣ - بين يدي الواقعة
- ٢٩٥ - أصحاب اليمين
- ٢٩٧ - أصحاب الشمال
- ٣٠٠ - تنزيل رب العالمين
- ٣٠٣ • تفسير سورة المعارج: تحقير المكذبين يوم الدين في سورة المعارج
- ٣٠٣ - العذاب الواقع
- ٣٠٧ - المكرمون يوم القيامة
- ٣١٠ - أمانتي خادعة
- ٣١٣ • تفسير سورة نوح: دعوة ودعاء في سورة نوح
- ٣١٣ - الإنذار من العذاب الأليم
- ٣١٥ - استمرار الدعوة
- ٣١٩ - المكرب الكبير
- ٣٢٠ - الدعاء
- ٣٢٣ • تفسير سورة الجن: الجن المؤمنون في سورة الجن
- ٣٢٣ - المستمعون للقرآن الكريم
- ٣٢٦ - سفه وضلال
- ٣٢٨ - الحرس والشهب
- ٣٣٠ - الرخاء والأمن
- ٣٣٣ - بطلان الكهانة والتنجيم

- تفسير سورة المؤمن: قِيَامُ اللَّيْلِ فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ ٣٣٥
- تأنيس وملاطفة ٣٣٥
- المهمة الثقيلة ٣٣٨
- بعث النار ٣٤١
- تخفيف قيام الليل ٣٤٤
- تفسير سورة المؤمن: التَّبْلِيغُ وَالتَّذْكِرَةُ فِي سُورَةِ الْمُذْتَرِّ ٣٤٧
- الإنذار ٣٤٧
- المعاند المكذب ٣٥٠
- خزنة جهنم ٣٥٤
- الحمر النافرة ٣٥٩
- تفسير سورة القيامة: النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ فِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ ٣٦١
- يوم القيامة والنفس اللوامة ٣٦١
- التَّائِيَّ عند نزول الوحي ٣٦٥
- رؤية الله يوم القيامة ٣٦٨
- الفراق والمساك ٣٧٠
- تفسير سورة الإنسان: الشَّاكِرُ وَالكَافِرُ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ ٣٧٥
- الأصل الضعيف ٣٧٥
- أعمال الشاكرين ٣٧٨
- بشارة ونعيم ٣٨١
- تثبيت وإرشاد ٣٨٧
- تفسير سورة المرسلات: الإِغْدَارُ وَالْإِنْدَارُ فِي سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ ٣٩١
- الوعيد الواقع ٣٩١
- الخلق والكفت ٣٩٥

- ٣٩٧ دخان وشرر -
- ٣٩٩ الجمع والمصير -
- ٤٠٣ • تفسير سورة النبأ: تَهْوِيلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي سُورَةِ النَّبَأِ
- ٤٠٣ - الخبر العظيم
- ٤٠٥ - إنعام وإحكام
- ٤٠٧ - يوم الفصل والحق
- ٤١١ - تعظيم وتهويل
- ٤١٣ • تفسير سورة النازعات: الطَّامَةُ الْكُبْرَى وَالطُّغْيَانُ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ
- ٤١٣ - البعث والجزاء
- ٤١٦ - المعرفة والخشية
- ٤٢٠ - الطامة الكبرى
- ٤٢٣ • تفسير سورة تبتس: الْكَفَرَةُ الْفَجْرَةُ فِي سُورَةِ عَبَسَ
- ٤٢٣ - عتاب وموعظة
- ٤٢٨ - تكفير وتحقيق
- ٤٣٣ • تفسير سورة التَّكْوِيرِ: الْوَحْيُ وَالْإِسْقَامَةُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ
- ٤٣٣ - اضطراب النظم الكونية
- ٤٣٧ - طريق الاستقامة
- ٤٤٣ • تفسير سورة الانفطار: الْغُرُورُ وَالْفُجُورُ فِي سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ
- ٤٤٩ • تفسير سورة المطلِّفين: دِيْوَانُ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ
- ٤٤٩ - القيام لرب العالمين
- ٤٥١ - الفُجَّار في سجين
- ٤٥٤ - الأبرار في عليين

- تفسير سورة الإنشقاق: انقياد واستسلام في سورة الانشقاق ٤٥٩
- تفسير سورة البروج: تأييس وتثبيت في سورة البروج ٤٦٥
- تفسير سورة الطارق: القول الفصل في سورة الطارق ٤٧٣
- تفسير سورة الأعلى: التسييح والتذكير في سورة الأعلى ٤٧٧
- تفسير سورة الغاشية: مؤعظة وتذكيرة في سورة الغاشية ٤٨٣
- تفسير سورة الفجر: إهلاك الطغاة والجبابرة في سورة الفجر ٤٨٩
- تفسير سورة البلد: افتتاح العقبة في سورة البلد ٤٩٧
- تفسير سورة الشمس: تزكية النفس في سورة الشمس ٥٠٥
- تفسير سورة الليل: توفيق وخذلان في سورة الليل ٥١١
- تفسير سورة النجم: إنعام وإكرام في سورة الضحى ٥١٧
- تفسير سورة الشرح: إنعام وإكرام في سورة الشرح ٥٢٣
- تفسير سورة التين: تقويم وتذكير في سورة التين ٥٢٧
- تفسير سورة العلق: سجود وطغيان في سورة العلق ٥٣١
- تفسير سورة القدر: ليلة الشرف والسلام في سورة القدر ٥٣٧
- تفسير سورة البينة: دين القيمة في سورة البينة ٥٤١
- تفسير سورة الزلزلة: إخبار وحساب في سورة الزلزلة ٥٤٥
- تفسير سورة العاديات: صراع وحساب في سورة العاديات ٥٤٩
- تفسير سورة القارعة: موازين الأعمال في سورة القارعة ٥٥٣
- تفسير سورة التكاثر: تنبيه الغافلين في سورة التكاثر ٥٥٥

- تفسير سورة القصص: الإنسان والزمان في سورة العنبر ٥٦١
- تفسير سورة الهمة: تحطيم المستكبرين في سورة الهمة ٥٦٥
- تفسير سورة الفيل: تحطيم أصحاب الفيل في سورة الفيل ٥٦٩
- تفسير سورة قريش: الطعام والأمن في سورة قريش ٥٧٣
- تفسير سورة الماعون: علامات الكاذبين بالدين في سورة الماعون ٥٧٥
- تفسير سورة الكوثر: إعطاء وشكر في سورة الكوثر ٥٧٩
- تفسير سورة الكافرون: إعلان البراءة في سورة الكافرون ٥٨٣
- تفسير سورة النجر: تسبيح واستغفار في سورة النجر ٥٨٥
- تفسير سورة المسد: حُسران وعذاب في سورة المسد ٥٨٩
- تفسير سورة الإخلاص: الأحذ الصمد في سورة الإخلاص ٥٩٣
- تفسير سورة الفلق: الاستعاذة بالله من أسباب الشر في سورة الفلق ٥٩٧
- تفسير سورة الناس: الاستعاذة بالله من شر الشيطان في سورة الناس ٦٠٣
- خاتمة ٦٠٧
- المصادر والمراجع ٦٠٩
- ترجمة المؤلف ٦١٥
- فهرس الموضوعات ٦٢١

